سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الأول

سلسلة
القصص القرآنى



دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الأول

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ؛ أعطى فأجزل ، وأنعم فأفضل ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ؛ سيدنا محمد ، النبى الأمى ، العربى الهاشمى القرشى ، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أما بعد ..

فإن أجمل ما تميل إليه نفس الإنسان ؛ هو : « القصة » ..

يقبل عليها ، ويصغى إليها ، ويستزيد منها ، ويتلذذ بسماعها وحكايتها ..

ومن أجل ذلك عُنيت بها التربية الحديثة ، وجعلتها وسيلة من وسائلها التعليمية : حكايةً ، وحواراً ، ومسرحاً وتمثيلاً ..

ولقد سبق القرآن الكريم ذلك كله ، فتضمنت آياته الكثير منها ، وورد فى سبب نزول سورة يوسف أن الصحابة - رضوان الله عليهم - قالوا للنبى - ﷺ - : لو قصصت علينا .. فنزل قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (١) .

وجمع القرآن الكريم كثيراً من القصص التي جعلها الله عبرة وذكرى ، وقال - سبحانه وتعالى - فى ذلك : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) من الآية ٣ من سورة يوسف . وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ٤٦٧ (ط. دار الفكر العربى) .

(٢) الآية ١١١ من سورة يوسف .

لقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى الهدف من القصة القرآنية .. فهي مادة سخية للعظة والاعتبار ، وفيها بيان لأحداث تاريخية وحقائق علمية ، وتعريف بأحوال الأمم الماضية والقرون الخالية ، وتصحيح لأخطاء تاريخية ، ووقائع وردت على ألسنة المحرفين ، وفي كتب الماضين ..

إن في القصة القرآنية تثبيتاً للعقيدة ، وتسرية للنبي - ﷺ - والمؤمنين .. قال - تعالى - : ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

كما أن فيها تأكيدًا للدعوة ، وتبليغاً لها ، وبياناً لأن جوهر الدين واحد ، فما جاء الرسل - عليهم السلام - جميعاً إلا لإثبات أن الله واحد ، وللدعوة إلى الإيمان به وبملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ، وللدعوة إلى الأخلاق الكريمة ، والمثل الرفيعة ، وكان خاتمهم في ذلك سيدنا رسول الله محمد - ﷺ - الذي بعثه الله - تبارك وتعالى - ليتمم مكارم الأخلاق ..

وقد جُبِلَ الناس على الإعراض والرفض ، فكان لابد من التكرار في سرد القَصص بأساليب مختلفة ، في مواضع متعددة ..

وقد تتداخل القصة الواحدة مع سواها ، وقد تأتي قائمة بذاتها ؛ كقصة يوسف - عليه السلام - ..

وقد تأتي مجملة .. وقد تأتي مفصلة ..

وقد تأتي منطوية على جزء في موضع ، وتخلو منه في آخر ..

فالقصة لها أثرها في إثارة المشاعر وتحريك العواطف ، وهي وسيلة للتلقين والتوضيح ، والتوجيه والإرشاد ، وقرع الأسماع ، وإخراج العقول من البلادة ، وصرفها إلى التفكير والتأمل ، والإقبال والتدبر ..

---

(٣) الآية ١٢٠ من سورة هود .

ولذلك تكررت ..

ولكنها مع تكرارها لا تتغير فى جوهرها .. حيث إن التغيير يتناول الفرعيات التى تذكر أحياناً ، وتترك أحياناً ؛ تبعاً لسياق السورة الواردة فيها من جهة ، ولحكمة الله فى إحداث المغايرة من جهة أخرى ..

وهذا التغاير فى خدمة الغرض الأسمى من القصة .. ألا وهو الاستعانة بهذه الأنباء والأحاديث فى تأكيد العقيدة وبث الاعتبار ..

والقصة القرآنية فى منتهى البلاغة؛ لأنها جزء من القرآن ، وهو أبلغ بيان .. وقد وصف الله القَصَص القرآنى بأنه « أحسن القَصَص » ..

وقد تناول كثير من العلماء القدامى والمحدثين القِصَص القرآنية بأقلامهم ، وقدموها للقراء فى صور مختلفة من الأساليب ، وألّفت فى ذلك كتب متعددة ، هدفها : خدمة القرآن الكريم ، وشرح بعض ما يدور فيه ، والانتفاع بهذه القصص فى تقديم أحداثها للناس بأسلوب البشر ..

وللإسهام فى هذا الميدان الذى ما زال فسيحاً ، وفى حاجة إلى عشرات الأقلام التى تخدم فيه : رأينا تقديم هذه السلسلة « سلسلة القصص القرآنى » فى أعداد أسبوعية ؛ إن شاء الله – تبارك وتعالى – .

هدفنا منها – فيما نرى – : ربط الناس بكتابهم الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ووقفهم على ما تضمنته هذه القصص من مُثل كريمة ، وإشارات حكيمة ، وإرشادات قويمة ..

وبالإضافة إلى ذلك : عرض بعض القضايا والمشكلات المعاصرة ؛ للنظر فيها بما يتناسب وما جاء فى بعض تلك القصص ..

وعملُنا فيها : ربط أطراف القصص بعضها ببعض ، مع الاستعانة فى عرض هذه القصص بما جاء فى السنة النبوية الشريفة ، وما أشارت به الكتب الرائدة فى هذا الميدان .

لذا ستأتى هذه السلسلة شاملة لكل ما فى القرآن الكريم إن شاء الله من قصص الأنبياء وقصص الجن وقصص الطيور وقصص الحيوان ثم غزوات الرسول ﷺ مرتبة ترتيباً زمنياً .

من هنا سيكون العدد الأول عن قصة سيدنا آدم عليه السلام ثم قصة سيدنا إدريس ونوح فى العدد الثانى وفى العدد الثالث سنتناول فيه قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ثم قصة سيدنا إسماعيل فى العدد الرابع وهكذا ..

والله نرجو أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يحقق به النفع .. وهو - سبحانه - من وراء القصد خير معين ..

﴿ رَبَّنَا .. آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ ..



(آدم)
عليه السلام

- ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ .
- ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .
- ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ .
- ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ .
- ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ .
- ﴿ اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ .
- ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ .
- ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ﴾ .

﴿ خلق السموات والأرض ﴾

قال الله - تعالى - :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١)

وقال - تعالى - :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٢)

قدرة الله لا تُحد .. وإذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ..

وقد أراد الله - جلّت حكمته - خَلْق السموات والأرض .. فخلقهما ..

يقول العلماء : أول ما خلق الله فى الكون الماء .. ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (٣) .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة البقرة .

(٢) الآيات ٩ - ١٢ من سورة فصلت .

(٣) من الآية ٧ من سورة هود .

فلما أراد الله خلق السموات أخرج من الماء دُخانًا ، فارتفع الدخان فوق الماء ، وأخذ يصعد ويصعد ، فسماه : سماء ، لسموه وارتفاعه ..

وهذا قوله - سبحانه - : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ ..

قالوا : ثم أيبس الماء الذى جعله أرضاً واحدة فتقها إلى سبع أرضين .. وتم خلق الأرض فى يومين : الأحد والاثنين .

وحين مادت الأرض واضطربت خلق فيها الجبال .. وهذا قوله - تعالى - : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾(٤).

وأنبت فى الأرض الأشجار ، وشق الأنهار ، وأجرى البحار ، وقدر الأقوات فى يومين : الثلاثاء والأربعاء ..

وخلقُ السموات في يومين .. وقيل : إنها كانت سماء واحدة ففتقها سبع سموات ، وذلك فى يومى الخميس والجمعة ..

وفى آخر ساعة من يوم الجمعة خلق (آدم) (٥) .

---

(٤) من الآية ١٥ من سورة النحل ، ١٠ من سورة لقمان .

(٥) أخرج الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ، والإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق (آدم) بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق ، فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » ..

وانظر : الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ؛ للسيوطى جـ ٢ ص ٥ (ط ٤ دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان) .

هذا ، ومما يجدر التنبيه إليه أن (آدم) - عليه السلام - ورد ذكره فى القرآن الكريم فى خمسة وعشرين موضعاً .. وذلك فى تسع سور ؛ هى : (البقرة) ، و (آل عمران) ، و (المائدة) ، و (الأعراف) ، و (الإسراء) ، و (الكهف) ، و (مريم) ، و (طه) ، و (يس) ..

انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . وضع : محمد فؤاد عبد الباقى ص ٢٤ - ٢٥ (مؤسسة جمال للنشر - بيروت - لبنان) .

وفى هذا اليوم – وهو عيد المسلمين الأسبوعى – تقوم الساعة [٦] ..

وأوحى الله فى كل سماء أمرها ..

أى : جعل لها خلقها الخاص بها من الملائكة وغيرهم من المخلوقات ..

خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها وملائكتها .. وقال ابن عباس : « ولله فى كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به من الملائكة بحذاء الأرض »[٧]..

وقال المسعودى :

« إنّ السماء الدنيا زمرّدة خضراء .
والسماء الثانية من فضة بيضاء .
والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء .
والسماء الرابعة من درة بيضاء .
والسماء الخامسة من ذهب أحمر .
والسماء السادسة من ياقوتة صفراء .
والسماء السابعة من نور .. » [٨] .

وعمرت السموات بالملائكة الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ .. عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [٩] ، وبقوله : ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [١٠] ..

---

(٦) أخرج الإمام أحمد والإمام مسلم والترمذى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة » ..

(٧) انظر : الجامع لأحكام القرآن ؛ للقرطبى ، تفسير سورة فصلت .

(٨) مروج الذهب ، الجزء الأول .

(٩) الآيتان ٢٦ – ٢٧ من سورة الأنبياء .

(١٠) من الآية ٦ من سورة التحريم .

إنها قدرة الله الخارقة التي لا يعجزها أمر ، ولا يحيط بها عقل ، ولا يقف في طريقها مستحيل ، ولا يحتاج إثباتها إلى دليل ..

وإذن ؛ فقد خلق الله الأرض في يومين .. وقدر فيها أقواتها في يومين ..

فهذه أربعة أيام يشير إليها الحق – سبحانه وتعالى – بقوله : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ .

وخلق السموات في يومين ..

فهذه ستة أيام ..

لقد خلق الله الأرض قبل السماء ، وخلق كل شيء على غير مثال سابق ، بل ابتدعه بحكمته ، واخترعه بقدرته .. ﴿ بديع السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١١) ..

ومن احتج على أن السماء خُلقت قبل الأرض بقوله – تعالى – : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ (١٢) ؛ أي : بعد أن قال : ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (١٣) ..

فإنه يُردّ عليه بأن الدُّحوّ غير الخلق ، فقد خلق الله الأرض ، ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض ؛ أي : بسطها ومدها (١٤) .

ولم يكن خلق الأرض والسموات وما فيهن في ستة أيام ، إلا ليتعلم الإنسان من ذلك الأناة والصبر ، وعدم التعجل في الأمور .

وإلا فالله – جلت قدرته – إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ..

---

(١١) الآية ١١٧ من سورة البقرة .
(١٢) الآية ٣٠ من سورة النازعات .
(١٣) من الآية ٢٧ من سورة النازعات .
(١٤) انظر : تفسير القرطبي : سورة البقرة ، والنازعات .

وكما عمرت السماء بالملائكة زيّنت السماء الدنيا بمصابيح هى النجوم التى تضىء الكون بنورها ، وتهدى الناس بضوئها .. قال - تعالى - : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١٥) ..

ثم أراد الله - تبارك وتعالى - أن يعمر الأرض بالخلق .. ولكنه برحمته - التى وسعت كل شىء - عمّرها أولاً بوجوه المنافع المختلفة التى يحتاج إليها هذا الخلق من طعام وشراب ومتاع وزينة .. ولنترك الآيات الكريمة التى تدل على ذلك تتحدث ، فهى أبلغ من كل كلام :

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦) ﴾

---

(١٥) الآية ١٦ من سورة النحل .

(١٦) الآيات ٤ - ١٨ من سورة النحل .

خلق الجن :

وقبل أن يخلق الله الإنس على الأرض خلق الجنّ من مارج من نار ، ومنهم : إبليس .

وأمر الجن أن يطيعوا ربهم الذى خلقهم ، ويعبدوه حق عبادته ، ونهاهم عن أن يسفكوا الدماء وأن يعيثوا فى الأرض فساداً ، وعن إظهار المعصية فيما بينهم .

ولكنهم لم يستجيبوا لأمر الله ، ولم ينتهوا عما نهى عنه ، فأفسدوا وبغى بعضهم على بعض .

فأرسل الله إليهم قبيلاً من الملائكة طردوا الجن إلى جزائر البحار وأطراف الجبال ، وقتلوا من شاء الله منهم .

قال العلماء : وكان إبليس طائعاً فى أول أمره ، فلم يلحقه الأذى الذى أصاب قومه ، وكان قد طلب من ربه أن يرفعه من بين هؤلاء العصاة الذين لم يستجيبُوا لنصح ، ولم يسترشدوا برشد ، فرفعه الله إلى السماء ، وصار مع الملائكة يعبد الله وحده ويقدسه ، ونزل مع الملائكة الذين حاربوا المفسدين .

وحكى الطبرى فى تفسيره أن إبليس كان من حى من أحياء الملائكة يقال لهم : « الحن » - بالحاء - خُلِقوا من نار السموم من بين الملائكة ، وكان اسمه « الحارث » - كما كان اسمه « عزازيل » أيضاً - وكان خازناً من خزان الجنة ، وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى .

وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار ، وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا ألهبت .

فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها ، وسفكوا الدماء ، وقتل بعضهم بعضاً .

فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة ، وهم هذا الحى الذين يقال لهم : الحن - بالحاء - فقتلهم إبليس ومن معه .. أ هـ

ويعتمد كثير من العلماء على أن إبليس من الجن - بالجيم - على قوله - تعالى - ﴿ وإذْ قُلْنا للملائكة اسْجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليسَ كان مِنَ الجن فَفَسَقَ عن أمرِ رَبِّه ﴾ (١٧) .. ففى هذه الآية ردٌ على ما أورده الطبرى من حكايته السابقة ..

وأيًّا ما كان الأمر فقد أصاب إبليس الغرورُ والزهوُ بنفسه ، فقد ارتفع عن طائفته ، وصار مع الملائكة الذين خلقهم الله من نور ، واصطفاهم لعبادته ، واعتقد أنه أفضل من غيره ؛ حيث إنه صنع شيئاً لم يصنعه أحد من جنسه ..

ولكن الله قد اطلع على خفايا نفسه ، فهو - سبحانه - يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ..

وطهرت الأرض من شر الجن المفسدين .. وأصبحت مهيأة لاستقبال خليفة الله فى الأرض ..

* * *

---

(١٧) من الآية ٥٠ من سورة الكهف .

﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾

قال - تعالى - :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٨)﴾

أية أرض هذه ؟

يذكر القرطبى - فى تفسيره - عن الرواة أن المقصود بالأرض : « مكة » .. وقد دُحيت الأرض من « مكة » ، ولذلك سميت : أم القرى . وقال : إن قبر نوح وهود وصالح وشعيب - عليهم السلام - بها بين زمزم والركن والمقام ..

ولا مانع أن يكون المقصود : مطلق الأرض .. و « مكة » كالحاضرة لها .

ولذلك قال الطبرى - فيما يرويه - : دُحيت الأرض من « مكة » ، وكانت الملائكة تطوف بالبيت ، فهى أول من طاف به ، وهى الأرض التى قال الله عنها : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .. وكان النبى إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه أتوها فعبدوا الله بها حتى يموتوا ..

الحوار :

حين أراد الله خلق آدم قال لملائكته : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ..

---

(١٨) الآية ٣٠ من سورة البقرة.

وكان الملائكة قد رأوا ما حدث فى الأرض من فساد الجن وطغيانهم وسفكهم الدماء فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؟ ﴾ .

وكأنهم استشرفوا للخلافة ، فقالوا : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ..

ولكن الحق أجابهم بقوله : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ..

ذلك أن الله – سبحانه – كان قد اطلع على قلب إبليس وما فيه من غرور وزهو ، فأراد أن يعلمه بأن الله سوف يخلق خلقاً أفضل منه وأهدى سبيلا ..

وقال بعض العلماء : إن الله حين قال للملائكة : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ؛ قالوا : ربنا ؛ وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا . قالوا : ربنا ، أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك .. قال : ﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ ..

وكأن الملائكة كانوا يتطلعون لأن يعمروا الأرض كما عمروا السماء ، وأشفقوا أن يوجد خلق يعصون الله ويجحدون نعمته ، فقالوا ما قالوا ؛ وهم الدائبون على حمد الله واستغفاره والتسبيح له وتمجيده ..

قبضة الطين :

وأرسل الله جبريل – عليه السلام – ليقبض قبضة من طين الأرض ، وكان الله قد أوحى إلى الأرض – فيما يحكيه الثعلبى – : إنى خالق من أديمك خلقاً ، فمنهم من يطيعنى ومنهم من يعصينى ، فمن أطاعنى أدخلته الجنة ، ومن عصانى أدخلته النار (١٩) ..

---

(١٩) انظر : قصص الأنبياء للثعلبى ..

فقالت الأرض لجبريل : إني أعوذ بالله منك أن تنقصني .. فرجع ولم يأخذ شيئاً .. وقال : يارب ؛ لقد استعاذت بك .

فأرسل الله ميكائيل ، فقالت له الأرض مثل ما قالت لجبريل .. فرجع ولم يأخذ شيئاً .

فأرسل الله ملك الموت فقالت له الأرض مثل قولها السابق .. فقال لها : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أطعه ..

فقبض قبضة من الأرض جمعت بين ألوانها المختلفة .. فخصصه الله من أجل ذلك لقبض أرواح العباد ..

قال الثعلبي : ورجع بهذه القبضة إلى ربه عز وجل .. وقد سمع الله بكاء الأرض ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : أبكي على ما نقص مني .. فقال لها : سأرد عليك ما أخذ منك ..

فهذا قوله – تعالى – : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٢٠) ..

ووضعت هذه القبضة على باب الجنة ، وأمر رضوان أن يعجنها بماء التسنيم حتى صارت طيناً لازباً ؛ أي : متماسكاً .. قال – تعالى – : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (٢١) ..

وتركت الطينة معجونة فترة طويلة – قدرها بعضهم بأربعين سنة – حتى صارت كالحمأ المسنون .. وهذا معنى قوله – تعالى – : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾(٢٢)..

ثم صُوّر آدم من هذه الطينة ، وتُرك بلا روح من صلصال كالفخار ، وهذا معنى قوله – تعالى – ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ (٢٣) ..

---

(٢٠) الآية ٥٥ من سورة طه .
(٢١) من الآية ١١ من سورة الصافات .
(٢٢) الآية ٢٦ من سورة الحجر .
(٢٣) الآية ١٤ من سورة الرحمن .

ولكرامة آدم خلقه الله بيده ، وسواه بحكمته وصوره بقدرته على هيئته التي خُلق عليها ، وتركه دون أن تنفخ فيه الروح أربعين سنة ، وهذا قوله - تعالى - : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾(٢٤).

وكانت الملائكة تمر بهذه الصورة العجيبة ، فيتعجبون منها ، ولكنهم يقولون : مهما خلق الله من خلق فلن يكون أكرم عليه منا ، ولا أعلم منا .

وكان إبليس أشدهم فزعاً من هذه الصورة ..

ووقف أمامها متحيراً مذهولاً ..

وإذا مر بهذا الخَلْق ضربه برجله فيظهر له صوت كالفخار حين يُضْرب ، وله صلصلة ..

وكان يدخل مِن فيه ، ويخرج من دبره ، ويقول : لأمرٍ مّا خُلِقْت .

نفخ الروح فيه :

وحين نفخ المولى - جل جلاله - من روحه فى آدم دَبَّت فيه الروح شيئا فشيئا ..

نفخ فيه من رأسه فاستيقظت حواسه ..

نظر بعينيه .. وسمع بأذنيه ..

وحين وصلت الروح إلى منخره عطس فنزلت الروح إلى فمه فألهمه الله قوله : « الحمد لله رب العالمين » ..

فرد عليه بقوله : يرحمك الله يا آدم ..

فأصبح تشميت العاطس سُنة (٢٥) ..

---

(٢٤) الآية الأولى من سورة الإنسان.

(٢٥) أخرج الإمام أحمد بن حنبل، والإمام البخارى والإمام مسلم عن أبى موسى -رضى الله عنه- قال: قال -ﷺ-: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه، وإذا لم يحمد فلا تشمتوه».. وانظر: الجامع الصغير جـ١ ص ٣١.

ثم نزلت الروح إلى صدره ، فبطنه .. فلما وصلت إلى ركبتيه هم بالجلوس فلم يقدر .. فهذا قوله – تعالى – : ﴿ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ (٢٦) .

فلما تغلغلت الروح فى جسده نهض ومشى ..

وكساه الله من نور جلاله وجماله ، وجعله بشراً سويا ، وحق لربنا أن يقسم قائلاً : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢٧) .

وظهر نور الكرامة على وجهه ، وألبسه الله من حلل الجنة ما شاء ، وعلمه من لدنه علما ..

قال – تعالى – : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٨) .

وظهر فضله على الملائكة ؛ حين أدركوا أنهم أمام امتحان دقيق ، فقد عجزوا عن الإنباء ، وعرفوا أن الله يعلم ما لا يعلمون ، وأن الذى خلقه ليس كسائر الخلق الذين عمرت بهم الأرض قبل ذلك ، بل هو طراز خاص ونشء ممتاز .. اختصه الله بما ليس فى طوقهم أن يعرفوه ..

قال الطبرى – فيما يرويه عن الحسن وقتادة – : علمه الله اسم كل شىء : هذه الجبال ، وهذه البغال ، والإبل والجن ، والوحش ، وجعل يسمى كل شىء باسمه ، وعرضت عليه كل أمة ..

لقد علمه الله كل ذلك فعلم ..

وأنى يعلم الملائكة علماً لم يعلمهم الله إياه ؟ !

---

(٢٦) من الآية ١١ من سورة الإسراء .
(٢٧) الآية ٤ من سورة التين .
(٢٨) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لقد أقر الملائكة بالعجز ، وأدركوا أنهم غير قادرين على ما أمرهم به الله ، وسلموا فيه الأمر له سبحانه .. قائلين : ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٩) ..

فقال لهم بعد أن أنبأهم آدم بالأسماء التى جهلوها : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(٣٠)..

وكان الذى أبدوه هو ما قالوه : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ !

وكان الذى أخفوه هو : لن يخلق الله خلقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم على الله ..

لقد أدرك الملائكة أن الله فضل عليهم آدم فى العلم والتكريم ..



فضل العلم :

علم الله آدم أسماء كل شيء ..

وأورث آدم ذريته العلمَ من بعده ..

وبهذا العلم عمرت الكائنات ، ونشأت المجتمعات ، وتطورت الحياة ، وظهرت المخترعات ..

ومن هنا تظهر فضيلة العلم الذى اختص الله به الانسان ، وكرّمه به ، وعلمه إياه ، ودعا إلى الأخذ بأسبابه والضرب فى الأرض ف سبيل اكتسابه ، قال – تعالى – : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون ﴾(٣١).

---

(٢٩) من الآية ٣٢ من سورة البقرة .
(٣٠) من الآية ٣٣ من سورة البقرة .
(٣١) من الآية ١٢٢ من سورة التوبة .

وتظهر فضيلة العلم أيضاً فى أن أول سورة من القرآن نزلت تدعو إليه وتحث عليه ، وهى سورة العلق .. قال – تعالى – : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[٣٢]..

الأمر بالسجود لآدم :

قال – تعالى – :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[٣٣]



أمر الله الملائكة بالسجود لآدم .

إنه التكريم فى أعلى صوره ..

إن الملائكة الذين حكموا على الإنسان قبل أن يُخلق بأنه سيفسد فى الأرض ويسفك الدماء .. أُمِروا بالسجود له .

واستجاب الملائكة لأمر الله طائعين .. وسجدوا كلهم أجمعون ..

ذلك أنهم – كما قدمنا – من خصائصهم أنهم ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٣٤]..

ولكن إبليس اللعين – وهو من طبقة غير طبقة الملائكة ، وكان قد امتلأ غروراً وكبراً – أبى أن يسجد ..

---

(٣٢) الآيات ١ – ٥ من سورة العلق .

(٣٣) الآيات ٧١ – ٧٤ من سورة ص .

(٣٤) من الآية ٩ من سورة التحريم .

كان من الجن ، ورفعته عبادته إلى درجة الملائكة .

وقيل في سبب رفعه ما حدث به الطبرى : إنه كان من الجن الذى طردتهم الملائكة ، فأسره بعض الملائكة ، وذهب به إلى السماء ، وظل يتعبد معهم كما يتعبدون فحين أمر الملائكة بالسجود رفض إبليس أن يسجد ..

وكان الواجب أن يمتثل لهذا الأمر الإلهى ؛ لأن الأمر إذا صدر إلى الأعلى ؛ فالواجب على الأدنى أن يمتثل له تبعاً ..

ولكنه أبى واستكبر ..

لقد عاد إليه أصله ، أو عاد هو إلى أصله ..

وحين عصى الأمر الإلهى طرده الله من رحمته .. قال – تعالى – : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[٣٥].

العداوة بين إبليس وآدم :

طُرِدَ إبليس من رحمة ربه .. فهل ينسى إبليس ذلك ؟

هل يترك آدم ينعم برضا الله ومغفرته ، ويستكين هو لذلك المصير السيىء المشئوم ؟

أين علمه الذى تعلمه ؟ ومكره الذى أتقنه ؟

ثم أين طبيعته النارية وخططه الجهنمية ؟

أين ما عرفه عن ذلك المخلوق حين كان صلصالاً أجوف يدخل من فمه ويخرج من دبره ؟ !

---

(٣٥) الآيتان ١٢ – ١٣ من سورة الأعراف .

لقد عرف خباياه الداخلية ، ودخل فى كل جزء من أجزاء جسمه ما عدا قلبه ؛ وكيف يتركه يعيش فى نعيم ؟ ولماذا لا يجره معه إلى نار الجحيم ؟ !

وقد عرف إبليس ضعف آدم ؛ فكيف يتركه دون أن ينفث سمومه فى داخل هذا المخلوق الذى يرى أنه ضعيف ؟ !

ذكر ابن كثير – فى كتابه « قصص الأنبياء » – ما توهمه إبليس فى آدم ؛ فقال :

خلق الله آدم بيده ؛ لئلا يتكبر عليه إبليس ، فخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت الملائكة ففزعوا منه لما رأوه .

وكان أشدهم فزعاً منه إبليس ، فكان يمر به فيضربه ، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة .. ويقول : لأمر ما خُلِقت ، ودخل من فيه وخرج من دبره ، وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا ، فإن ربكم صمد وهذا أجوف ، لئن سُلِّطْتُ عليه لأهلكنه ، ولئن سلِّط علىّ لأعصينه ..

إن ذلك الإنسان فى نظر إبليس خلق من طين ، فأين هذا الذى خلق من طين مهين من ذلك الذى خلق من نار السموم ؟ !

إن الطين تحرقه النار وتؤثر فيه ، ولكن الطين لا يستطيع التأثير فى النار ..

والنار من شأنها العلو والارتفاع ، أما الطين فشأنه الدنو والهبوط ..

وهكذا ظل إبليس يحدث نفسه ، ويتوعد آدم الذى أذل كبرياءه ، وحطم غروره ، وكان سبباً فى هبوطه إلى الأرض بعد أن كان ينعم بسعادة أهل السماء ..

ولقد سوّل له كبرياؤه المزعوم أن يجادل ربه ويناظره .. فيقول : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٣٦) .

---

(٣٦) من الآية ١٢ من سورة الأعراف ، ٧٦ من سورة ص .

وهو يظن أنه بهذا المنطق العجيب يغير ما صدر من أمر بخصوص طرده ، ولكن حاشا لله ؛ فقد سبقت كلمته - سبحانه - وحق وعده ، ونفذت مشيئته فى إعمار الأرض بخليفة خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله سيد هذه المعمورة ، وسخر له كل ما فى السموات والأرض .. وصدق الله - تعالى - إذ يقول : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٣٧) .

ولجّ إبليس فى العناد ، ولم يرد أن يتراجع عما صمم عليه من عصيان ، وكأنه أراد أن يفتح صفحة للتحدى بينه وبين هذا المخلوق الذى فضله الله عليه ، وقال مُخاطِبا ربه ؛ متوعداً آدم :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣٨)

منزلة أخرى لآدم :

وأراد الله أن يرفع من قدر آدم ، ويزيده فخراً وفضلاً ، فأسكنه الجنة ؛ قال - تعالى - :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَة فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٩).

---

(٣٧) الآية ١٣ من سورة الجاثية .
(٣٨) الآيات ١٤ - ١٨ من سورة الأعراف .
(٣٩) الآية ٣٥ من سورة البقرة .

ما هذه الجنة ؟

الجنة فى اللغة : البستان .

فأى جنة تلك التى أُسكن فيها آدم ؟

إنها – كما يقول أهل التحقيق من المفسرين – جنّة الخُلْد ..

وقد قال بعض العلماء : إنها لو كانت جنة الخلد لما دخلها إبليس ؛ لأن الله يقول فى حقها : ﴿ لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ [٤٠] ، ويقول : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا ﴾ [٤١] .. ولو دخلها ما خرج منها ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [٤٢] ..

وهذه الجنة – أى : جنة الخلد – قدست عن الخطايا والمعاصى ، وهذا إبليس قد لغا فيها وعصى وكذب .. وخرج منها آدم وحواء ؛ لمعصيتهما ..

وإذا كانت هذه الجنة جنة الخلد ؛ فلماذا حرص آدم على أن يطلب شجرة الخلد – كما قال له إبليس – مع كمال عقل آدم وعلو مكانته ؟

قال هؤلاء : إنها ليست جنة الخلد ، بل هى جنة أخرى فى جهة « عدن » ، أو هى الأرض المقدسة بـ « الشام » التى أمر بنو إسرائيل أن يدخلوها – بعدُ – فى عهد موسى – عليه السلام – ..

وقد رد المحققون على هذه الاعتراضات ، وأكدوا أن الجنة التى دخلها آدم هى جنة الخلد فعلاً ..

ذلك لأن تعريفها بالألف واللام يعنى تخصيصها ..

ولأنه لا مانع عقلاً من دخول إبليس الجنة ؛ لتتم حكمة الله فى هبوط آدم إلى الأرض .

ودخول الجنة والخروج منها واقع بالنسبة للملائكة ، فمن الممكن أن يقع لغيرهم .

---

(٤٠) من الآية ٢٣ من سورة الطور .

(٤١) الآيتان ٢٥ – ٢٦ من سورة الواقعة

(٤٢) من الآية ٤٨ من سورة الحجر .

بل قالوا : وقد كانت مفاتيح الجنة بيد إبليس قبل معصيته ، ثم نزعت منه بعد المعصية .

وقد دخل النبى – ﷺ – ليلة الإسراء الجنة وخرج منها وأخبر بما فيها .. وأنها هى دار الخلد ..

خلق حوّاء :

وخلَق الله لآدم حوّاء ..

وتوجه الأمر لهما معاً بدخول الجنة : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ ﴾ (٤٣).

خلقها له من ضلعه الأيسر ..

وظاهر هذا الأمر يقضى أن حوّاء كانت قد خلقت قبل دخول الجنة .

وقال بعض العلماء :

لما أسكن الله – تعالى – آدم الجنة كان يمشى فيها وحده ، لا يجد من يجالسه أو يحادثه أو يؤانسه ..

فألقى الله – تعالى – عليه النوم فنام ، فأخذ الله ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ، فخلق منه حواء ، دون أن يحسّ آدم بذلك أو يجد له ألماً . قالوا : ولو تألّم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة أبدًا ..

ثم ألبسها الله من لباس الجنة ..

ويشير إلى خلق حواء من آدم قوله – تعالى – : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾(٤٤)..

---

(٤٣) من الآية ٣٥ من سورة البقرة، ١٩ من سورة الأعراف .

(٤٤) من الآية ١٨٩ من سورة الأعراف.

كما تشير إليه السنة في قوله - ﷺ - : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ أَعْوَجَ ، وأَعْوَجُ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ إِن ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ »(٤٥).

واستيقظ آدم من نومه فرأى حواء جالسة عند رأسه ..

وقالت له الملائكة يمتحنون علمه :

ما هذه يا آدم ؟ فقال : امرأة .

قالوا : ولم سُميت امرأة ؟ قال : لأنها من المرء أُخِذَت .

قالوا : وما اسمها ؟ قال : حواء .

قالوا : صدقت . ولم سُميت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من حي .

قالوا : ولماذا خلقها الله - تعالى - ؟ قال : لتسكن إليّ وأسكن إليها .

قالت الملائكة : أتحبها يا آدم ؟ قال : نعم .

وقالوا لحوّاء : أتحبينه يا حواء ؟ فقالت : لا ؛ وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من حبها .

هذا ما ذكره القرطبي .. وقال : فلو صدقت امرأة في حبها لزوجها لصدقت حواء .

وهذا ما يشير إليه قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤٦) ..

---

(٤٥) أخرجه النووي في رياض الصالحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - برقم ٢٧١ ، ولفظه : « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلاَهُ ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ ..

(٤٦) الآية ٢١ من سورة الروم .

وتاق الجنس إلى جنسه ..

ولكن سنّة الله جرت أن يكون لكل زواج صداق ..

فكان على آدم - إذن - أن يؤدى صداق حواء .. ولكل بيئة معاملاتها الخاصة بها . فأهل الأرض يتعاملون بالدرهم وبالدينار وبالقيراط وبالقنطار ..

أما الجنة فمعاملاتها تسبيح وتحميد ، وثناء على الرب وتمجيد .. فلا غرابة أن يكون صداق حواء تسبيحاً وتحميداً ، وذكراً لله وتمجيداً ..

روى الثعلبى فى كتابه ، قال : ذهب بعض العلماء إلى أن مهر حواء كان صلوات على النبى محمد - ﷺ - . أخبره بذلك الملائكة . فقال آدم : ومن محمد ؟

قالت الملائكة له : إن محمدًا هو آخر الأنبياء من ولدك .. يقول الله - تعالى - : ولولا محمد ما خلقتك ..

واستقر آدم وحواء فى الجنة زمناً .. ينعمان بخيراتها ، ويتلذذان بثمراتها ، ويتنزهان فى روضاتها ..

ولكن الله - جلت حكمته - لابد أن تتحقق كلمته ، ولابد أن تعمر الأرض التى أخبر ملائكته أنه جاعل فيها خليفة .

وإذن ؛ فلابد أن يهبط آدم إلى الأرض .. ولا محيص من أن يغادر هو وزوجه الجنة ، ليكدح أبناؤهما فى الأرض : يزرعون ويحصدون ، ويبنون ويشيدون ، ويبحثون وينقبون ، ويستخرجون من باطن الأرض كنوزها وخيراتها ، وتزدهر بأعمالهم الحياة حتى يأتى وعد الله الذى تشير إليه هذه الآية الكريمة :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ ﴾

﴿عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٧)﴾

حكمة الزواج :

لا يكون النسل المشروع الذى يباركه الله إلا من زوجين سلكا الطريق الصحيح فى التزاوج ..

هذا ما جرت عليه طبيعة الحياة التي خلقها الله ، إلا أن تكون هناك آية يلفت الله بها النظر ، ويُشهد بها على قدرته ، وأنه فوق الأسباب ، بل هو مسبِّب الأسباب ..

فآدم خلَقه من طين لا أب ولا أم ..

وعيسى خلقه من أم وليس له أب ..

وقال فى حقهما :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤٨) ..

وقد تعجبت مريم أن يكون لها ولد من غير أب .. فقالت : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤٩) ..

لقد جعل الله عيسى وأمه آية ..

---

(٤٧) الآية ٢٤ من سورة يونس .

(٤٨) الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

(٤٩) من الآية ٤٧ من سورة آل عمران .

والآية في عيسى أنه خُلِق بدون أب .. والآية في مريم أنها حملت بدون زواج .. وقال الله – تعالى – في ذلك :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (٥٠) ..

فكان لابد من التزاوج بين آدم وحواء ؛ لأن حفظ النوع طريقه المشروع هو الزواج .. وهو من سنن الفطرة التى دعت إليها الأديان جميعاً ، وأصبح الأمر به من شريعة الإسلام .. وقد حث النبى – ﷺ – على الزواج .. فقال – فيما يرويه الثقات – : « تَنَاكَحُوا تَكْثُرُوا فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٥١) .. وقال : « مَنِ اسْتَطَاعَ مِنكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » (٥٢) ..

وهكذا .. تم الزواج بين آدم وحواء ..

وتمَّ لقاؤهما فى الجنة إلى حين ..

الخروج من الجنة :

وجد إبليس نفسه فى معزل عن آدم ، فأكل الغيظ قلبه ، وتأجج الحقد فى صدره ..

كيف يصل إلى الجنة التى يقيم فيها آدم مع زوجه وقد حرمت عليه ؟

لقد طُرد إبليس من رحمة الله ، وحق عليه أن يعيش مذءوماً محروماً ، طريداً ملعوناً فى كل مكان يحل فيه ..

---

(٥٠) الآية ٥٠ من سورة المؤمنون .

(٥١) رواه سعيد بن أبى هلال .. وانظر : الجامع الصغير جـ ١ ص ١٣٣ .

(٥٢) رواه عبد الله بن مسعود .. وانظر : صحيح البخارى جـ ٣ ص ٣٤ (ط الشعب) .

فأنى له أن يقترب من آدم ليغويه ويضله ويجره معه إلى الأرض ؛ حيث يمارس معه ومع ذريته ضروب الإغواء والإضلال ؟ !

وأخذ إبليس يقلب وجوه الرأى فى داخله ، وينقب فى أخاديعه عن وسيلة يتمكن بها من الوصول إلى آدم .

إن المشكلة الأولى التى تصادفه ، والعقبة الوحيدة التى تقف فى طريقه هى : عدم تمكنه من لقاء آدم ..

وهو إن لقيه هان كل شيء فى نظره بعد ذلك ..

إن إبليس كان قد علم أن الله أباح لآدم كل شيء فى الجنة ليتنعم به ، ما عدا شجرة واحدة حذره من الاقتراب منها فضلاً عن تذوقها .. وقد قال اللهِ – تعالى – فى ذلك :

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(٥٣) ..

فعليه أن يلقى آدم أوّلاً .. وبعد ذلك يعرف الطريق إلى إغرائه بعصيان أمر ربه ، وإقناعه بالاقتراب من الشجرة وتذوق ثمارها ..

وتوجه إبليس صوب الجنة التى يعيش فيها آدم .. إنه يعرف الطريق إليها .. وقد كان بوّاباً عليها قبل ذلك ؛ كما قدمنا ..

ووقف على بابها يترقب اللحظة المواتية ليدلف إلى داخلها ..

وطال انتظاره ، حتى وجد طاووساً من طواويس الجنة خرج ؛ وكأنه يستعرض نفسه ويباهى بجماله ..

وانتهز إبليس هذه الفرصة الذهبية ..

وأسرع إلى هذا الطائر الجميل ..

---

(٥٣) الآية ١٩ من سورة الأعراف .

ولا يبعد أن يكون قد أطرى جماله وتغزل فى مفاتنه ومحاسنه .. ولعله لمس فى الطاووس جانب ضعفه ، وضرب له على الوتر الحساس فى داخل نفسه قائلاً له :

أيها الطاووس ؛ ما أبهاك وأجملك ! وما أعظمك وأحسنك ! .. إن حسنك لفتان ، وريشك أجمل ما أبدعته يد الفيض والإنعام ، وسحرك يسبى العقول ، ونورك يعشى العيون ..

لعله قال ذلك .. وأكثر منه ؛ حتى استماله إليه .. فقال له : أيها الطائر المبارك ؛ من أين جئت ؟

فقال الطاووس : من بساتين آدم ..

قال إبليس : إن له عندى نصيحة ، وأريد أن تدخلنى معك إلى الجنة لأسرها إليه ..

فقال له : ولم لا تدخل بنفسك ؟

قال إبليس : إنما أريد أن أدخل سراً ..

قال الطاووس : لا سبيل إلى ذلك ، ولكنى آتيك بمن يُدخلك سراً ..

وذهب الطاووس إلى الحيّة – ولم يكن فى الجنة أحسن منها خلقاً – وأخبرها قائلاً : إن على باب الجنة ملكاً من المكرمين ، ومعه نصيحة .

فأسرعت الحية إليه ..

وما زال بها هذا الخبيث ، ينفث لها السحر فى الحديث ، ويغريها بمعسول الكلام ، حتى استجابت لما نسج لها من أوهام ، وفتحت فاها ، فانساب فيه ، ودخلت به الجنة ، وأخرجته عند الشجرة ..

ما هذه الشجرة ؟

قال المفسرون : إنها شجرة الحنطة ، وكانت الحبّة من سنبلتها أحلى من العسل ، وألّين من الزبد .. ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه ..

وقال بعضهم : هى الكرمة .. ولذلك حرمت الخمر ، لأنها تعصر منها ..

وقال بعضهم : هى الكافور ..

وذهب بعضهم إلى أنها شجرة التين ..

وليس فى هذا التعيين خبر يعضده .. فالصواب أن يعتقد أن الله - تعالى - نهى آدم عن شجرة بعينها ، فخالف هو إليها بإغواء إبليس له ، وعصى بالأكل منها ..

والأولى أن تسمى هذه الشجرة : شجرة المحنة ؛ لأنها امتحنت آدم .. وحق قول الله - تعالى - فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (٥٤) ..

ولم يأت فى القرآن الكريم تحديدٌ لنوع هذه الشجرة ؛ لأن تحديد نوعها لا يزيد شيئاً فى حكمة حظرها ..

إنها لحكمة التربية ؛ تربية الإرادة ، وترويض النفس على الصبر ، والوقوف عند الأمر والتزامه ..

ووقف إبليس عند هذه الشجرة .. واقتطف من ثمرها ، وقدمه لكل من آدم وحواء ؛ قائلاً لهما :

انظرا إلى ثمار هذه الشجرة . ما أطيب ريحها ! وما ألذ طعمها ! وما أحسن لونها !

هذه هى شجرة الخلد التى مَنْ ذاق ثمارها لا يفنى ولا يبلى .. إنه يبقى فى هذه الجنة الوارفة الظلال ، الطيبة المقام ، لا يخرج منها أبداً .. وقال لهما - ما حكاه رب العزة - :

﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (٥٥).

---

(٥٤) الآية ١١٥ من سورة طه.

(٥٥) من الآية ٢٠ من سورة الأعراف.

وأقسم لهما - وهما يظنان أنه لا يقسم أحد كذباً - على أنه ناصح أمين .. وهذا ما ذكره القرآن عنه فى قوله - تعالى - :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٥٦) .

وما زال إبليس بهما حتى لانا وتناولا منه هذه الثمار .. فأكلاها ..

وسرعان ما نزع عنهما لباسهما ، وظهرا عاريين فتواريا خجلا ..

قال - تعالى - :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٥٧) ﴾

ومنذ ذلك الحين اشتدت العداوة بين الإنسان والشيطان ..

وبين الإنسان والحية ..

لقد ذكر المفسرون أن الحية كانت خادماً لآدم فى الجنة تمتثل أمره ، فلما هبطوا من الجنة إلى الأرض تأصلت العداوة بينها وبين آدم . وتوارث الأبناء هذا العداء .

ولذلك أمر رسول الله - ﷺ - بقتلها فى الحل والحرم ، فقال - فيما رواه القرطبى فى تفسيره عن ابن عمر - : « خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ الْمُحْرِمُ .. فَذَكَرَ فِيهِنَّ الْحَيَّةَ » (٥٨) .

---

(٥٦) الآية ٢١ من سورة الأعراف .

(٥٧) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة الأعراف .

(٥٨) وانظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٦ .

وروى أن إبليس قال للحية : أدخليني الجنة وأنت فى ذمتي .. فكان ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول : اخفروا ذمة إبليس ؛ أى : بقتل الحية .

آدم وحواء فى الأرض :

وهبط الجميع إلى الأرض متفرقين ..

فقط هبط آدم بـ « سرنديب » فى « الهند » على جبل ؛ يقال له : الراهون ، كما ذكر المسعودى .. ويقول القرطبى : إن اسم الجبل : بوذ ..

وعليه الورق - أى : ورق الجنة - الذى خصفه على جسمه ليوارى سوءته ..

وييس الورق وتناثر وذرته الريح ، فانتشر فى أماكن متفرقة ؛ فيقال : إن علة كون الطيب فى أرض « الهند » من ذلك الورق .

ويقال : لقد خصت أرض « الهند » . بالعود والقرنفل والأفاويه والمسك وسائر الطيب .

وجبالها نالها من ذلك الجمال نصيب ، فقد لمعت عليها اليواقيت ، وكثر فيها الماس ، وفى جزائرها الأحجار الكريمة ، وفى بحارها مغاصات اللؤلؤ .

وحكى المسعودى كذلك أن آدم حين هبط من الجنة خرج ومعه صرة من الحنطة ، وثلاثون قضيباً من شجرات الجنة فيها أصناف الثمار ..

منها عشرة مما له قشر ؛ وهى : الجوز ، واللوز ، والجلوز - وهو : البندق - والفستق ، والخشخاش ، والشاهبلوط ، والرانج ، والرمان ، والموز ، والبلوط .

ومنها عشرة من ذوات النوى ؛ وهى : الخوخ ، والمشمش ، والأجاص ، والرطب ، والغبيراء ، والنبق ، والزعرور ، والعناب ، والمقل ، والشاهلوج (وهذا اسم فارسى وتفسيره ملك الأجاص) .

ومنها عشرة مما لا قشر لها ولا حجاب دون مطعمها ؛ وهى : التفاح ، والسفرجل ، والعنب ، والكمثرى ، والتين ، والتوت ، والأترج ، والقثاء ، والخيار ، والخرنوب ..

وكان آدم طويلاً فائق الطول ، وربما مسح السحاب رأسه فاصلع ، وأورث أبناءه الصلع ، روى البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً » .. وأخرجه مسلم (٥٩) ..

وهبطت حواء بـ « جدة » ، قرب « مكة » ..

وهبط إبليس بـ « الأُبُلَّة » ، وهى بلدة على شاطىء دجلة ..

وهبطت الحية بـ « بيسان » ، وهى بلدة جرز بـ « الشام » ، وقيل : بـ « سجستان » وهى من مدن « خراسان » .. ولذلك يقال : إن « سجستان » أكثر البلاد حيات .. ولولا (العربد) – بسكون الراء وتشديد الدال – وهى حية تنفخ ولا تؤذى ، تأكل الحيات وتفنى كثيراً منها لهُجرت « سجستان » من كثرة ما فيها من الحيات .

وطالت الفرقة بين آدم وحواء ، وظل كل منهما يبحث عن الآخر ، فى أرض فسيحة لا دار فيها ولا ديّار ، ولا أنيس ولا جليس .

حتى أراد الله أن يلتقيا ، فالتقيا فى « عرفة » .. ومن أجل ذلك سمى هذا الموضع الذى يقف فيه الحجاج : عرفات .

حكمة الهبوط :

لقد تحققت بالهبوط حكمة الاستخلاف فى الأرض ، فقد أخبر الله ملائكته قبل خلق آدم بقوله – عز شأنه – : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ .

وخُلق آدم ليكون خليفة الله فى أرضه ، عليها يحيا ، وفيها يكدح ، ويسعى ويموت ، ومنها يبعث بعد ذلك .

---

(٥٩) وانظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٥ .

ولقد كانت سكناه فى الجنة فترة تكريم له ، ونكاية فى إبليس الذى حاول الغضَّ من شأنه ، والحط من قدره .

ولم يكن إخراجه من الجنة - كما يقول العلماء - عقوبة له ؛ لأنه أهبطه الله بعد أن تاب عليه وقبل توبته .

لقد ندم آدم على زلته ، وكان ندمه هو طريق توبته .. وقد ورد عن النبى - ﷺ - قوله : « النَّدَمُ تَوْبَةٌ »[60] ..

وفيما يرويه ابن كثير عن أبيّ بن كعب قوله : قال رسول الله - ﷺ - : قال آدم - عليه السلام - : أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعائدى إلي الجنة ؟ قال : نعم . فذلك قوله - تعالي - : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[61].

محاجّة آدم لموسى :

روى البخارى قال : حدثنا قتيبة ، حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « حاج موسى آدم - عليهما السلام - فقال : أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم .

قال آدم : يا موسى ، أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه ؛ أتلومنى على أمر قد كتبه الله علىَّ قبل أن يخلقنى ، أو : قدره علىَّ قبل أن يخلقنى ؟

---

(٦٠) انظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٨٩ . والحديث رواه : ابن مسعود ، وأنس رضى الله عنهما .

(٦١) الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة البقرة .

قال رسول الله – ﷺ – : فحج آدم موسى » ..

وذكر القرطبى أن الليث بن سعد قال : إنما صحت الحجة فى هذه القصة لآدم على موسى – عليهما السلام – من أجل أن الله – تعالى – قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله – تعالى – له ، ولذلك قال آدم لموسى : أنت الذى آتاك الله التوراة وفيها علم كل شيء ، فوجدت فيها أن الله قد قدّر علىّ المعصية ، وقدر علىّ التوبة منها ، وأسقط بذلك اللوم عنى ، أفتلومنى أنت والله لا يلومنى ؟ !

وقد قيل : إن آدم أب ، وليس تعييره من برّه .. فإن الله – تبارك وتعالى – يقول فى الأبوين الكافرين : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [٦٢] .. ولهذا قال إبراهيم – عليه السلام – لأبيه بعد أن قال له : لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [٦٣] .

فكيف بأب هو نبىٌّ قد اجتباه ربه ، وتاب عليه وهدى ؟ !

هل يجوز للعصاة الاحتجاج بحجة آدم ؟

لقد أخطأ أبونا آدم وتاب ، وقبل الله توبته ، وأهبطه إلى الأرض لحكمة عالية أشار إليها الحق قبل إسكان آدم الجنة ، بل قبل خلقه .. وهى استخلافه فى الأرض . وقد سُجّل ذلك فى الصحف الأولى وعرفه الملائكة .

ولا يجوز لمن يجيء بعد ذلك فيعصى أن يحتج بهذه الحجة ويقول : إن الله قد كتب علىّ المعصية فعصيت . وقد ردّ الله حجة من زعموا ذلك

---

(٦٢) من الآية ١٥ من سورة لقمان .

(٦٣) من الآية ٤٧ من سورة مريم .

حين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ [٦٤] .. وحين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [٦٥] .

لقد ردّ الله على هؤلاء مزاعمهم الباطلة بعد أن أرسل إليهم الرسل ، ورزقهم العقل ، وهداهم النجدين ، وأمرهم بالطاعة ، وحذرهم من المعصية ، ولذلك كانت حجة الله عليهم بالغة . وقد قال – تعالى – : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [٦٦] .

الكلمات التى تلقاها آدم :

ولأهل العلم فى الكلمات التى تلقاها آدم أقوال متعددة ..

قال بعضهم : هى قوله – تعالى – : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٦٧] .

ويحكى الطبرى فى ذلك من قول بعضهم ما روى عن مجاهد ؛ هى : « اللهم لا إله إلا الله ، أنت سبحانك وبحمدك ، ربّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ، إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فتب علىّ ؛ إنك أنت التواب الرحيم » ..

قال ابن كثير : وروى الحاكم فى مستدركه ؛ قال آدم : يارب ؛ ألم تخلقنى ؟ قيل له : بلى . قال : ونفخت فىّ من روحك ؟ قيل له : بلى . قال : وعطست : فقلت لى : يرحمك الله ؟ وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له : بلى . قال : وكتبت علىّ أن أعمل هذا ؟ قيل له : بلى . قال : أفرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ قال : نعم .

---

(٦٤) من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .
(٦٥) من الآية ٣٥ من سورة النحل .
(٦٦) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٦٧) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف .

وروى الحاكم أيضاً والبيهقى فيما هو مسند إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب ؛ أسألك بحق محمد إلا غفرت لى . فقال الله : فكيف عرفت محمدا ولم أخلقه بعد ؟ فقال : يارب ، إنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك رفعتُ رأسى ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلىّ ، وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك .

وذكر الشيخ محمد علوى المالكى الحسنى [٦٨] قصة توسّل آدم بالنبى - ﷺ - وذكر الحديث المشار إليه ، وأثبت أن الإمام ابن تيمية استشهد به فى الفتاوى [٦٩] على صحة التوسل بالنبى - ﷺ - .

قال : روى ابن تيمية حديثين فى هذا الموضوع وأوردهما مستشهداً بهما ، فقال : روى أبو الفرج ابن الجوزى بسنده إلى ميسرة قال : قلت : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش : محمد رسول الله خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء ، فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام ، وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله - تعالى - نظر إلى العرش فرأى اسمى ، فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه .

ثم ذكر الحديث الآخر الذى ذكرناه آنفاً ..

ثم قال : فهذا الحديث يؤيد الذى قبله ، وهما كالتفسير للأحاديث الصحيحة . وهذا يدل على أن الحديث عند ابن تيمية صالح للاستشهاد

---

(٦٨) انظر : ص ٤٧ من كتابه : مفاهيم يجب ان تصحح .
(٦٩) جـ ٢ ص ١٥٠ .

والاعتبار ؛ لأن الحديث الموضوع أو الباطل لا يستشهد به عند المحدثين ، وأنت ترى أن الشيخ استشهد به هنا ..

وأيًا ما كانت الكلمات فقد تاب الله على آدم ..

وهبط إلى الأرض لتتم حكمة الله من خلقه ، وهي نشر نسله فيها ؛ ليكلفهم ويمتحنهم . ويترتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروى ..

إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف ، فكانت تلك الأُكلة سبباً فى إهباطه إلى دار العمل .. والله – سبحانه – يفعل ما يشاء .

ولاشك أن هذه منقبة عظيمة ومنزلة كريمة لآدم ، حيث اختاره الله ليكون خليفته فى إمضاء أحكامه وأوامره .. فهو أول رسول إلى الأرض .. سأل أبو ذر الرسول – ﷺ – فيما يذكره القرطبى ، عن آدم : هل هو نبى مرسل ؟ قال : نعم .



الكدح فى الأرض :

شمر آدم عن ساق الجد كادحاً فى الأرض ..

فقد أصبح مسئولاً عن قوته بعد أن كان – فى الجنة – يجد كل شىء لديه حاضرًا ، قبل أن يفكر فيه .

وقد أخبر الله – سبحانه – عن الجنة بقوله ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ (٧٠) .

ويقال : إن الخاطر الذى يجرى فى الذهن دون أن يتلفظ به صاحبه يجده مشهودًا لديه ، ماثلاً بين يديه ، لا تعب فيها ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا كد ولا سعى .. أخْبَرَ أهلُها عنها بقولهم فيما يحكيه القرآن عنهم :

---

(٧٠) من الآية ٧١ من سورة الزخرف .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾(٧١) .

نعيمها مقيم ، وخيرها عميم ، وظلها دائم ، وساكنها غانم ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ..

ولقد وصف الله الجنة فى القرآن الكريم بما لا يترك مزيدًا لواصف فقال فى مثل محسوس ملموس يتمثله الذهن ويدركه العقل :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾(٧٢) .

وقال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ . فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ . فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾(٧٣) .

وقال : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً . وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرا . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً . عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا . وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا . عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾(٧٤) .

---

(٧١) الآيتان ٣٤ - ٣٥ من سورة فاطر .

(٧٢) من الآية ١٥ من سورة محمد .

(٧٣) الآيات ٤١ - ٤٧ من سورة الصافات .

(٧٤) الآيات ١٢ - ٢٣ من سورة الإنسان .

شتان ما بين هذا وبين ما أصبح فيه آدم الآن بعد هبوطه إلى الأرض .

لقد ودع تلك الحياة الناعمة ، واستقبل حياة أخرى كادحة ناصبة .

ولقد حذره الله – تعالى – من الشيطان وكيده حين قال له : ﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى . وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُ فِيهَا ولاَ تَضْحَى ﴾(٧٥).

كان في عصيانه شقاؤه وفساد حياته ..

قال العلماء – في تفسير قوله – تعالى – : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ – : إن معنى « غوى » : فسد عيشه بخروجه من الجنة ، وليس معناها : ضل .

لقد شقى آدم وحده ، فلم يعد مسئولاً عن نفسه فقط ، بل أصبح مسئولاً عن زوجه أيضاً .

فعليه منذ الآن أن يسعى لتحصيل رزقها مع رزقه ، وقوتها مع قوته ، وحاجتها مع حاجته . وهذه هي القوامة التي جعلها الله للرجل على المرأة في قوله – تعالى – : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾(٧٦).

معنى الشقاء :

لقد كان الأمر بالإخراج واقعاً عليهما(٧٧) معاً ، ولكن الشقاوة وقعت على آدم وحده .

أما الشقاوة فهي شقاوة البدن لا شقاوة المصير .

---

(٧٥) الآيات ١١٧ – ١١٩ من سورة طه .
(٧٦) من الآية ٣٤ من سورة النساء .
(٧٧) أي : آدم وحواء .

لقد أخبره الله بأنه فى الجنة ستكون حالته كما وصفها الحق : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى . وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾(٧٨) .

أما الآن بعد هبوطه من الجنة فقد تعرض للجوع والعرى والظمأ والحر والبرد وغير ذلك من أعراض الحياة .

بعد أن كان فى الجنة مكفولاً له الكسوة والطعام والشراب والسكن واللذة الدائمة والراحة التامة .

يا له من امتحان صعب تعرض له آدم – عليه السلام – !!

إنها استجابة واحدة للإغراء جَنَتْ عليه ذلك كله ، فكيف يكون أمر الذى يستجيب دائماً للإغراء ، ويظل طول عمره سادراً فى اللهو ومضطرباً فى حبال الشهوات ؟ !

لقد نسى آدم مرة واحدة ؛ فما بال الذى يظل طول عمره ناسياً ؟ !

إنه دَرْس .. وأَىُّ درس !!

ضرب الله مثلاً فى أبينا آدم ؛ ليكون عبرة لأبنائه من بعده .

إن إبليس عدو لهم جميعاً وليس لآدم وحده ، ولن ينسى العداوة أبدًا ، وقد أقسم بعزة ربه قائلاً :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾(٧٩).

وإذا كان آدم – عليه السلام – لحكمة عالية أنساه الله وصيته فأكل من الشجرة المحرمة فأُخرج بسبب ذلك النسيان من لذة الجنة الخالدة إلى حين ؛ فما شأن الذى يغرق نفسه فى المعصية عامداً متعمداً ؟

إنه بذلك يكون قد حرم نفسه من ريح الجنة أبدًا ، وحق عليه قول الله – عز وجل – :

---

(٧٨) الآيتان ١١٨ – ١١٩ من سورة طه .
(٧٩) الآيتان ٨٢ – ٨٣ من سورة ص .

﴿ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا . وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾(٨٠) .

خرج آدم من الجنة ليشقى بجسده كادحاً ضارباً فى الأرض ، حاملاً هم النفقة والرزق له ولزوجه ولمن يأتى من ولده ..

فهؤلاء جميعاً فى ذمته ، بعد أن كان فارغاً مِنْ هَمِّ ذلك كله ..

أصبح ملتزماً - كما حددت الشريعة - بطعام زوجه وشرابها وكسوتها ومسكنها ، وإذا وفر لها هذه الأشياء الأربعة فقد وفَّى بشرطه ، وإن زاد على ذلك فهو مأجور .

والمراد بقوله - تعالى - « فتشقى » : شقاء الدنيا فحسب ، ولهذا الشقاء أجره وثوابه عند الله .. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ..

بل إنه قد يكون من أسباب تكفير الذنوب أحياناً السعى فى طلب الرزق ، ويقول العلماء العارفون : إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الهم بالعيال ؛ أى : السعى فى طلب رزقهم .

كما أنه قد يكون ذلك سبباً من أسباب رفع الدرجات ؛ لأنه جهاد فى سبيل الله . وقد روى أن السعى فى سبيل الوالدين جهاد فى سبيل الله ، والسعى فى سبيل عفة النفس عن السؤال جهاد فى سبيل الله ..

الدعوة إلى العمل :

وهذه حكمة عالية تدفع الإنسان إلى العمل ، وتحثه على السعى ، وتحفزه إلى تحصيل المنافع فى الحياة وتطويرها إلى ما هو أفضل ..

---

(٨٠) الآيتان ٦٣ - ٦٤ من سورة الإسراء .

وقد وعد الله المجتهدين فى أعمالهم بحسن الثواب ؛ فقال : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾(٨١) .

ويستوى فى ذلك عمل الدنيا وعمل الآخرة .. ولكل مجتهد نصيب ..

فكلمة « فتشقى » تشير إلى الكدح والجد فى الحياة .

وقد قام آدم – عليه السلام – بذلك خير قيام ..

قال العلماء : أعطاه الله ثوراً أحمر يحرث عليه ، وكان يمسح العرق من جبينه من شدة التعب والإرهاق .

وأتاه جبريل بحبات من الجنة ، وعلمه كيف يزرع .. وقد مرَّ بنا – ما رواه المسعودى فى مروج الذهب – من أنه حمل معه ألواناً من النبات والزرع ..

فحرث ، وزرع ، ثم حصد ودرس ..

ثم نقى الحنطة وطحنها ..

ثم عجن وخبز .. كل ذلك علمه له جبريل ..

قال ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور » : لما زرع آدم نبت فى الحال وأسبل وأدرك القمح من يومه ، فعلمه جبريل كيف يحصد ، فحصد ، ودرس ، وذرّى فى الهواء .. فقال آدم لجبريل : آكل ؟ قال : اصبر ، ثم قطع من الجبل حجرين فطحن بهما ، فلما صار دقيقاً قال آدم : آكل ؟ فقال له : اصبر ..

علمه كيف يخبز فخبز ، فقال لجبريل : آكل ؟ فقال له : اصبر حتى تغرب الشمس ، فيتم لك صوم يوم كامل ..

فكان آدم أول من صام على وجه الأرض ..

---

(٨١) من الآية ٣٠ من سورة الكهف.

قالوا : ثم جلس ليأكل بعد هذا التعب الشديد ، فتدحرج رغيفه من يده حتى صار أسفل الجبل ..

وجرى آدم وراءه حتى تعب وعرق جبينه .. قال له جبريل : لو صبرت لأتاك رزقك من غير أن تقوم إليه .. وخوطب آدم : يا آدم فكذلك رزقك يكون بالتعب والشقاء ، ورزق ولدك من بعدك فى الدنيا ..

ويروى أن آدم لما أكل من الرغيف ادخر منه إلى الليلة القابلة ، فقال له جبريل : لولا أنك فعلت ذلك لما كان أحد من أولادك يدخر ، وصار الادخار عادة لبنيه من بعده ..

البحث عن حواء :

وحكى الثعلبى فى كتابه قصص الأنبياء :

حين هبط آدم من الجنة ومست قدماه الأرض ، وكان عارياً إلا من تلك الأوراق التى سرعان ما ذبلت وجفت وتطايرت فى الهواء - كما قدمنا - شعر بالبرد وآذته الشمس بحرها .

لقد أصبح جو الأرض غريباً عليه - وكان قد اعتاد هواء الجنة الجميل الذى لا يمس من يستنشقه أذى ولا نصب ..

وسرت رعدة البرد فى جسده ، فشكا ذلك إلى جبريل ، فقال له : إنك تشكو العرى ..

فما الوسيلة التى يلجأ إليها آدم لتغطية جسده ؟

إن العناية الإلهية ما زالت ترعاه ..

أنزل الله ثمانية أزواج أخبر عنها القرآن الكريم ؛ وذلك قوله - تعالى - : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾[82] .. وقوله - تعالى - ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾[83] .

---

(٨٢) من الآية ١٤٣ من سورة الأنعام .

(٨٣) من الآية ١٤٤ من سورة الأنعام .

وأخذ جبريل صوف الكبش وأعطاه حواء فغزلته ، ونسجه آدم ، ثم حاكه ، واتخذ آدم منه كساء ، واتخذت حواء منه درعاً وخماراً .

لقد غزلت حواء ، والمغزل يناسب طبيعة المرأة ، وهو من خصائص عملها في بيتها .. وقد ورد : « نِعْمَ الْعَمَلُ لِنِسَاءِ أُمَّتِى الْغَزْلُ »(٨٤) ..

ونسج آدم ، والنسيج من أعمال الرجال التى تحتاج إلى قوة بدنية ، وحاكه آدم .. وهو أول من خاط الثياب .. روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، ما تقول فى حرفتى ؟ فقال : وما حرفتك ؟ فقال : أنا رجل حائك ، قال رسول الله - ﷺ - : حرفة أبينا آدم ..

وجاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد :

حين نزل آدم من الجنة ، وكان طوله ستين ذراعاً ، ولم يجمع حُسن آدم لأحد من ولده إلا ليوسف . وأنشأ آدم ، يقول : رب كنت جارك فى دارك ، ليس لى رب غيرك ولا رقيب دونك ، آكل فيها رغداً ، وأسكن حيث أحببت ، فأهبطتنى إلى هذا الجبل المقدس فكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك ، فأجد ريح الجنة وطيبها ، ثم أهبطتنى إلى الأرض وحططتنى إلى ستين ذراعاً فقد انقطع عنى الصوت والنظر ، وذهب عنى ريح الجنة ، فأجابه الله - تبارك وتعالى - : لمعصيتك يا آدم ، فعلت ذلك بك .. فلما رأى عرى آدم وحواء أمره أن يذبح كبشاً من الضأن ..

لقد كان ذلك بعد أن اجتمع آدم وحواء ..

فكيف اجتمعا ؟

لقد نزل آدم - كما عرفنا - بأرض « الهند » ، ونزلت حواء بـ « جدة » ..

---

(٨٤) انظر : كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق للإمام المناوى جـ ٢ ص ١٣٠ (ط ٤ دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان).

ومن الطريف أن بعض الناس يقولون : إن « جدة » سُميت بهذا الاسم ؛ لأن جدتنا حواء نزلت بها ..

والحقيقة أنه لا علاقة لتسمية هذا المكان بجدتنا حواء ؛ لأن اللغة تقول : جِدَّةُ النهر وجُدَّتُهُ – بكسر الجيم وضمها – : ما قرب من الأرض . ولذلك قيل لهذا المكان المعروف : جدة . وأصل هذه الكلمة : (كده) بالكاف ، فعربت بالجيم(٨٥) ..

ونعود للإجابة عن السؤال السابق : كيف اجتمع آدم وحواء ؟

ذكر ابن إياس فى بدائع الزهور وفى وقائع الدهور أن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كان آدم إذا جاع نسى حواء ، وإذا شبع ذكرها . فقال يوماً لجبريل : هل حواء على قيد الحياة أو ماتت ؟

فقال له : بل على قيد الحياة ، وإنها لأصلح حالاً منك ؛ لأنها على ساحل البحر تصطاد الأسماك وتأكل منها .

فقال آدم : إنى رأيتها فى منامى هذه الليلة .

فقال جبريل : أبشر فما أراك الله إياها إلا لقرب الاجتماع .

قال الثعلبى : وأوحى الله إلى آدم : يا آدم إن لى حرماً بحيال عرشى ، فَأْتِهِ وطف به كما يطاف حول العرش ، وصل عنده كما يصلى عند عرشى ..

وكان الله – سبحانه – قد أنزل ياقوتة من يواقيت الجنة ، ووضعها موضع البيت على قدر الكعبة ، لها بابان ، باب شرقى وباب غربى ، وفيها قناديل من نور .

فانطلق آدم من أرض « الهند » إلى أرض « مكة » لزيارة البيت ، وقيض له ملكاً يرشده ..

---

(٨٥) ذكر ذلك ابن منظور فى لسان العرب ..

فكان كل موضع يضع فيه قدمه يعمر ، وما يتعداه يكون قفرًا ..

وصل إلى « عرفات » .. وكانت حواء قد اتجهت إلى هذا المكان ، وهناك تعارفا ، وسُمى المكان « عرفة » لذلك . وهذا أحد التعليلات التى ذكرها ابن منظور(٨٦) . قال : وذهبا معاً إلى « منى » ، فقيل لآدم : تمنَّ ، فقال : أتمنى المغفرة والرحمة ، فسمى ذلك الموضع : « منى » ، وغفر الله ذنبهما ، وقبل توبتهما ..

ثم انصرفا معاً إلى أرض « الهند » ..

بناء الكعبة :

ويدفعنا ذلك إلى الحديث عن بناء الكعبة ، ومتى كان ذلك ؟

يقول الله – تعالى – : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾(٨٧) .

جاء فى الطبقات الكبرى : أوحى الله إلى آدم إن لى حرماً بحيال عرشى ، فانطلق ، فابن لى فيه بيتاً ، ثم حف به كما رأيت ملائكتى يحفون بعرشى ، فهنالك أستجيب لك ولولدك ، من كان منهم فى طاعتى ، فقال آدم : أى رب ، وكيف لى بذلك ؟ لست أقوى عليه ولا أهتدى له ، فقيض الله له ملكاً فانطلق به نحو « مكة » .

فكان آدم إذا مر بروضة ومكان يعجبه قال للملك : انزل بنا ههنا ، فيقول له الملك : مكانك ، حتى قدم « مكة » .

فكان كل مكان نزل به عمرانًا وكل مكان تعداه مفاوز وقفارًا ..

---

(٨٦) انظر : لسان العرب .

(٨٧) الآيتان ٩٦ – ٩٧ من سورة آل عمران .

فبنى البيت من خمسة أجبل ، من طور سيناء ، وطور زيتون ، ولبنان ، والجودى ، وبنى قواعده من حراء ..

فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التى يفعلها الناس اليوم .

ثم قدم به إلى « مكة » فطاف بالبيت أسبوعاً ، ثم رجع إلى أرض الهند فمات هناك(٨٨) ..

وفى تفسير القرطبى : ذكر الماوردى عن عطاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض ؛ قال له : يا آدم ؛ اذهب فابن لى بيتاً وطف به واذكرنى عنده(٨٩) .

وذكر عن على بن أبى طالب : أمر الله - تعالى - الملائكة ببناء بيت فى الأرض وأن يطوفوا به قبل خلق آدم ، ثم إن آدم بنى منه ما بنى وطاف به ثم الأنبياء بعده(٩٠) ..

وذكرت الكاتبة أمينة الصاوى أن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : بُعث جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتاً ، فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل التراب حتى أجابه الماء ، ونودى من تحته : حسبك يا آدم .. فلما بنيا أوحى الله - سبحانه وتعالى - إليه أن يطوف به ، وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت .. ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد(٩١) .

من ألوان السعى فى الحياة :

ولم تكن حياة آدم فى الأرض خالية من المشقة والجهد ، فقد خرج من الجنة ليشقى كما قال القرآن الكريم ..

---

(٨٨) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٥ .
(٨٩) التفسير جـ ٢ ص ١٢٠ .
(٩٠) التفسير جـ ٤ ص ١٣٨ .
(٩١) الكعبة على مر العصور لأمينة الصاوى ص ١٨ .

وقد قام بكثير من ألوان الكفاح ؛ لأنه كان وحيدًا فى أول أمره ، وعليه أن يقوم بكل ما يعينه على الحياة بدون مساعد ..

ولأنه قدوة لولده الذين بدءوا يأخذون طريقهم إلى الحياة ، يتعلمون منه ضروب الكفاح والسعى لتعمر الدنيا ، وتأخذ بهجتها ، وتتعدد صور المنافع فيها .

وقد بينا - من قبل - كيف تعلم الزراعة والحصاد والدرس والطحن والعجن والخبز .

وكيف تعلم الذبح والسلخ وجز الصوف وغزله ونسجه وحياكته .

ثم تعلم كيف يحفر الأرض ويستنبط منها الماء ليشرب ثم ليسقى زرعه .

وأنزل الله الحديد فتعلم كيف يحميه ويطرقه ويتخذ منه ما يصلح به شأنه .. ويقال : إن أول شيء صنعه من الحديد : المدية ، فكان يعمل بها ، ثم ضرب التنور الذى ورثه نوح من بعده ..

ويقال : إنه حمل معه من الجنة قطعة من الذهب ، وهو : المعدن الذى لا يصدأ ولا يبلى ولا تنقصه الأرض ولا تأكله النار ؛ لأنه من الجنة حُمل ..

وزرع آدم فى الأرض .. زرع الحبوب التى حملها معه من الجنة ..

وقيل : إنه حمل من الجنة سيد الرياحين ؛ وهو : الآس ، وسيد الطعام ؛ وهو : الحنطة ، وسيد الثمار ؛ وهو : العجوة .

وقيل : حمل معه آنية فيها عريشة عنب فغرسها وأثمرت ، فجاء إبليس وسرق من ثمارها ..

فقال له آدم : ويلك أخرجتني من الجنة ، وتريد أن تسرق رزقى .

فقال له : إن لى فيها حقًا .. قال : وما حقُّك ؟ قال : لى نشوتها ولكم سائرها[٩٢] ..

ولعل هذا هو سر تسمية الخمر بأم الكبائر ، فمن شربها غيبت عقله فارتكب ما شاء من المعاصى بعد ذلك ..

إبليس :

عرفنا – فيما سبق – أن إبليس هبط بـ « الأُبُلَّة » .

وهى – بضم الهمزة والباء وتشديد اللام – بلد معروف قرب « البصرة » من جانبها البحرى[٩٣] .

وقد عرفنا سر عداوته لآدم وتوعده إياه ، وأعطاه الله من السلطان ما يستطيع أن يقهر به من أبناء آدم من يبتعد عن الطريق ويغفل عن ذكر الله ..

وقد صرح القرآن ببعض قوة إبليس التى يستظهر بها على بنى آدم ..

ذلك أن الله قد أنظره إلى يوم البعث :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾[٩٤] .

وهو قادر على رؤية الإنسان ، والإنسان غير قادر على رؤيته . قال – تعالى – : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[٩٥] .

وقد سوغ الله له مداخلة بنى آدم ومعايشتهم ومشاركتهم فى أمورهم .. فقد قال – تعالى – له :

---

(٩٢) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٣٧ .

(٩٣) انظر : لسان العرب ، الصحاح .

(٩٤) الآيتان ١٤ – ١٥ من سورة الأعراف .

(٩٥) من الآية ٢٧ من سورة الأعراف .

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾[٩٦] .

وخلقه من نار لا ينطفىء أوارها فى داخل نفسه ، وأعطاه القدرة على التشكل والظهور فى أى صورة يشاء ..

وغير ذلك من الوسائل التى يتمكن بها من ممارسة مهمته العدوانية ضد الإنسان .

والتقط الثعلبى هذه المعانى ، وصاغ منها حواراً ، أسنده إلى عبد الله ابن عبيد بن عمير ، قال :

إن إبليس قال : يارب ، إنك أخرجتنى من الجنة من أجل آدم ، وإنى لا أستطيع القدرة عليه إلا بسلطانك . قال : فإنك مسلط عليه .

قال : يارب ، زدنى . قال : لا يولد له ولد إلا ولد لك مثلاه .

قال : يارب ، زدنى . قال : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ﴾ .

ولكن آدم استغاث بالله ، وقال : يارب ، سلطته علىّ ، وأنا لا أمتنع منه إلا بك . قال : لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء ..

قال : يارب ؛ زدنى . قال : الحسنة بعشرة أمثالها وأزيدها ، والسيئة بمثلها واحدة ، وأمحوها .

قال : يارب ؛ زدنى ، قال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾[٩٧] .

---

(٩٦) الآية ٦٤ من سورة الإسراء .
(٩٧) من الآية ٥٣ من سورة الزمر .

قال : يارب ؛ زدنى . قال : التوبة لا أنزعها من ولدك ما كانت الروح فيهم .

قال : يارب ؛ زدنى . قال : أغفر ولا أبالى ..

قال آدم : حسبى[٩٨] ..

لقد هبط إبليس وضرام الشر في قلبه ، وضراوة الحقد في نفسه ، وقد تسلح بسلاح الإنظار والبقاء ، واستعان على الغواية بأولاده وذريته ، ولكن ذلك لا يكفيه .. إنه يريد من بنى آدم أنفسهم من يعينه على مهمته ويساعده على إذاعة كيده ونقمته ..

فقال – فيما يذكر الثعلبى أيضاً – :

يارب لعنتنى وأخرجتنى من الجنة وجعلتنى شيطاناً رجيماً مذموماً مدحوراً ، وبعثت في بنى آدم الرسل ، وأنزلت عليهم الكتب ، فما رسلى ؟ قال : الكهنة .

قال : فما كتبى ؟ قال : الوشم .

قال : فما حديثى ؟ قال : الكذب .

قال : فما قراءتي ؟ قال : الشعر .

قال : فما مؤذني ؟ قال : المزمار .

قال : فما مسجدى ؟ قال : السوق .

قال : فما طعامي ؟ قال : ما لم يذكر اسم الله عليه .

قال : فما شرابى ؟ قال : كل مُسْكِر .

قال : فما شباكى ومصايدى ؟ قال : النساء ..

---

(٩٨) الثعلبى ص ٣٩ .

وقد يعوز هذا الخبرَ الإسنادُ .. ولكنك إذا أدرته مع العقل فإنه لا ينكره ..

فإن الكهنة يسخرون الجن أو الجن يسخرونهم ، ويصدون بذلك عن سبيل الله ، ويبثون الفتن والأضاليل بين الناس .. وقد نهى النبى – ﷺ – عن ذلك ؛ حيث قال : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزِل على محمد »[٩٩] .

والوشم محاولة لتغيير ما خلق الله ، وهو ما تجعله المرأة على وجهها أو ذراعها أو ثغرها بالإبرة ثم تحشوه بدخان الشحم .. وقد ورد أن النبى – ﷺ – لعن الواشمة والمستوشمة[١٠٠] .

والكذب ما من أحد إلا ويعرف قبحه ..

أما الشعر فإن الله يقول فيه : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[١٠١]

والمزمار لهو عن ذكر الله ، والسوق تجرى فيها المظالم والأيمان الكاذبة ، ويكثر فيها الكذب والزور .. وقد ورد أن خير الأماكن المساجد ، وشرها الأسواق[١٠٢] ..

وما لم يُذْكر اسم الله فقد نهى الله عنه .. وذلك قوله – سبحانه – :
﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[١٠٣] .

---

(٩٩) مسند ابن حنبل جـ ٢ ص ٤٢٩ ، جمع الجوامع جـ ٣ ص ٣٣٤٤ .
(١٠٠) الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٢٤ .
(١٠١) الآيات ٢٢٤ – ٢٢٧ من سورة الشعراء .
(١٠٢) انظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٨ .
(١٠٣) الآية ١٢١ من سورة الأنعام .

والمُنكِر نهى الله عنه فى قوله – تعالى – :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾(١٠٤) .

وفى الحديث : « كل مسكر حرام »(١٠٥) .

أما النساء فمن المعروف أنهن حبائل الشيطان .. وما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما ..

وفى الواقع أنه لا يوجد أصلح من المرأة إذا صلحت ولا أفسد منها إذا فسدت .

وبهذه الأسلحة التى تسلح بها إبليس سار فى طرق بنى آدم ينفث فيها سمومه ، ويبث شكوكه ، وينصب حبائله فيقع فيها من يقع وينجو من ينجو .. والمعصوم من عصم الله ، ويتوب الله على من تاب ..

رسالة آدم :

جاء فى الأخبار أن حواء حملت من آدم عشرين بطناً ، فى كل بطن ذكر وأنثى .

وتناسل أولاده من بعده عن طريق أن ذكر كل بطن يتزوج من أنثى البطن الذى قبله .. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا قابيل الذى ستأتى قصته ..

فكان ثمرة هذا التزاوج : التناسل الذى أصبح أمة فى حياة آدم . وقد طال عمره حتى شهد أحفاد أحفاده .. حيث تفرقوا فى أماكن كثيرة ، وعمروا مناطق مختلفة من الأرض ..

---

(١٠٤) الآيتان ٩٠ – ٩١ من سورة المائدة .

(١٠٥) انظر : الجامع الصغير جـ ٢ ص ٩٤ .

وكان لابد لهؤلاء من رسالة ترشدهم وتوجههم وتنير لهم الطريق ، وتبين لهم الحلال والحرام ، وتهديهم إلى عبادة الواحد الأحد .. فقد قال الحق : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[١٠٦] ..

وبخاصة أنه لا يوجد قبل آدم رسل سابقون تركوا تعاليم يمكن الاستنارة بها والاهتداء بهديها ..

روى ابن سعد فى طبقاته عن أبى ذر قال : قلت للنبى – ﷺ – : أى الأنبياء أول ؟ قال : آدم . قلت : أونبيًا كان ؟ قال : نعم نبى مكلَّم . قلت : كم المرسلون ؟ قال : ثلثمائة وخمسة عشر ، جماً غفيراً[١٠٧] .

ومتى كان رسولاً فلا عجب أن تنزل عليه صحائف تحل الحلال وتحرم الحرام ، وقد قدّرها بعضهم بإحدى وعشرين صحيفة . وقال بعضهم : أكثر من ذلك . قالوا : إن فيها تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك ..

وبمقتضى هذه الرسالة عصمه الله من الشيطان بعد هبوطه .. ولذلك فإن القصة التى يذكرها بعض الرواة عن أن إبليس جاء لحواء وهى حبلى .. فأخبرها بأن فى بطنها بهيمة من البهائم ، وطلب منها إن هى أعينت على الحمل ووضعت بسلام أن تسمى مولودها باسمه – وكان إبليس قد جاءها فى غير صورته الحقيقية – وأخبرت حواء آدم بذلك فاهتم له .

فلما وضعت بسلام جاءها إبليس وطلب منها أن تسمى وليدها باسمه ، فقالت له : ما اسمك ؟ قال : الحارث ، فأسمته : عبد الحارث .. وهذا معنى قوله – تعالى – : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ

---

(١٠٦) الآية ٥٦ من سورة الذاريات .

(١٠٧) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٦ .

دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[١٠٨] ..

نقول : إن هذه القصة من الإسرائيليات ؛ لأنها لا تناسب مقام نبوة آدم ورسالته .. وقد أشار إلى ذلك القرطبي في تفسيره ..

وقد وردت هذه القصة في عدة مصادر ، ولكن التوثيق يعوزها .

ونظم آدم لأولاده حياتهم ، ووكل إلى كل منهم عملاً يقوم به ..

فقد وكل إلى ابنه قابيل أمر الزرع ..

ووكل إلى ابنه الآخر هابيل أمر الضرع ..

واستمر آدم في أداء رسالته ، ورأى من أولاده ما رأى من وفاق تارة ومن خلاف تارة أخرى .. ومن استقامة مرة ومن عصيان مرة أخرى ، فكان يرشد ما وسعه الجهد ، ويأمر بالصلاح ، ويسير بالإصلاح .. ولكن الذى أذاقه الهم وأقض مضجعه ما رآه من صراع عنيف بين ولديه : قابيل وهابيل .. نقص قصته فيما يأتي .

---

(١٠٨) الآيتان ١٨٩ - ١٩٠ من سورة الأعراف .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾

قال – تعالى – :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ
لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ
إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ
أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ
يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (١٠٩) ﴾

أمر الله آدم أن يزوج كل ذكر من أولاده من أنثى البطن التى ولدت قبله .

وذلك أن حواء كانت تحمل فتلد فى كل حمل ذكراً وأنثى .

فولدت فى أول حملٍ : قابيل وأخته إقليمياء .. وكانت جميلة جداً .

وولدت فى الحمل الثانى : هابيل وأخته ليوذا .. ولكنها لم تكن فى جمال إقليمياء ..

وطلب آدم من قابيل أن يتزوج ليوذا .. كما طلب من هابيل أن يتزوج إقليمياء ..

ولم يستجب قابيل لهذا الطلب ورفض ؛ لأن إقليمياء كانت جميلة ، وكان يحبها .. وقال : أنا أحق بأختى من هابيل .

---

(١٠٩) الآيات ٢٧ – ٣١ من سورة المائدة .

ولكن آدم أفهمه أن ذلك أمر الله ، ولا يحق لأحد أن يعصى أمر الله .
غير أن قابيل أصر على موقفه ..
إنه الحب أولاً .. « وَحبك الشيء يعمى ويصم » ..
والغواية ثانياً .. ذلك أن قابيل لم يكن يهتم بالتعاليم الدينية والمحافظة عليها ، كأن الشر قد ركب فى طبعه ..

وذلك بعكس هابيل الذى كانت السماحة فى طبعه ، والدماثة فى خلقه ، والسخاء فى نفسه ..

ورفض قابيل رفضاً باتاً أن ينصاع لأمر والده فى الوقت الذى استجاب فيه هابيل للأمر .

ولا يقال إن هابيل استجاب سريعاً لجمال إقليمياء وقبح أخته .. ولكنه استجاب ؛ لأنه يعلم أن ذلك هو أمر الله .

قال آدم لقابيل : إن إقليمياء لا تحل لك ، فالشريعة تقضى ألا يتزوج الأخ من توءمته ، وكانت تحل الزواج من أخت أخرى ليست توءمة له .
وظن قابيل أن الله لم يأمر بذلك ، وإنما هو رأى رآه أبوه ..
فقال آدم : فليقرب كل منكما قرباناً فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بإقليمياء ..
ولم يكن ذلك إلا بعد أن احتدم النزاع واشتد الخصام بين الأخوين ..
وكانت علامة قبول القربان : أن تنزل نار من السماء تلتهم هذا القربان ..
وجرت العادة أن يقدم المتقرب القربان من أجود ما يملك ؛ لأن الله - تعالى - طيب ولا يقبل إلا طيباً ..

فعمد هابيل - وهو صاحب الضرع - إلى كبش سمين من خيار ماشيته كان يحبه ، وأخذ لبناً وزبداً ، وأضمر فى نفسه الرضا بما يصنع والتسليم لأمر الله فيما يقضى .. وتضرع إليه مخلصاً أن يتقبل قربانه .. وهذه علامة التقوى والإيمان ..

وتقدم قابيل بحزمة من سنبل - فقد كان صاحب زرع - اختارها من أردأ زرعه ، ثم إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها .. وهذه علامة الإعراض والخذلان ..

فتقبل الله قربان هابيل ..

ورُفع كبشه إلى السماء .. ويقال : إنه الكبش الذى أنزله الله فداءً لإسماعيل - بعد ذلك - حين صدق رؤيا والده التى أمر فيها بذبحه ..

غضب قابيل لعدم قبول قربانه ، وامتلأ قلبه غيظاً وحقداً .. وفاضت نفسه بالحسد والشر ، وتوعد أخاه بالقتل ..

ولقبح الحسد نهى الله عنه ، واستعاذ رسول الله - ﷺ - منه ، وحذر المسلمين من شره .

روى عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . أو قال : العشب » رواه أبو داود عن أبى هريرة(١١٠) .

ولم يلق هابيل أخاه بالسيئة .. ولكن قابله بالحسنى واللين ..

قال له : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » ..

لقد عصمه الخوف من الله من مجازاة الشر بالشر ، وكان عند أمر الله للمؤمنين فى كل زمان ومكان : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾(١١١) ..

هذا مع قوة هابيل - كما يقول الرواة - وإمكانه البطش بأخيه لو أراد ..

وكان آدم قد توجه إلى « مكة » لزيارة البيت ..

---

(١١٠) رياض الصالحين ، الحديث رقم ١٥٦٧ .

(١١١) من الآية ٩٦ من سورة المؤمنون ، ٣٤ من سورة فصلت .

ووجد قابيل الفرصة سانحة لتنفيذ وعيده . فقد قال لهابيل : « لأقتلنك » ..

قال له هابيل : ولم ؟

قال قابيل : لأن الله تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني .

فقال هابيل : « إنما يتقبل الله من المتقين » ..

قال قابيل : ولأنك تريد أن تنكح أختي الحسناء ، وتترك لي أختك الدميمة .. فماذا يقال عني ؟ إنهم يقولون : إنك خير مني وأفضل ، ويرث أولادك الفخر على أولادي .. لن أترك لك هذه الفرصة أبدًا ..

وربما كان هذا القول من وسوسة الشيطان التي زرعها في نفس قابيل .. إنها أوهام إبليس التي ألبسها ثوب الحقائق ..

فقال هابيل في مودة ورحمة – وهو يأمل أن يستل سخائم الحقد والموجدة من نفس أخيه – : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين » ..

إنها التقوى التي أنطقت هابيل بهذا الكلام السماوي الرائع ، وإنها مراقبة الله التي تورث الخشية والورع ..

ولكن قابيل لم يكن لديه شيء من ذلك ، كان قاسي القلب .. وقد تمكن الشر منه ، وبلغ أقصى غايته ، وغذاه الشيطان الذي أخرج أبويه من الجنة .. وما زال يوسوس في صدره ، وينفخ من سحره في قلبه حتى استل منه كل إحساس بالرحمة والمودة وصلة الرحم والخوف من الله ..

لقد هان في نظر قابيل كل شيء ماعدا الظفر بإقليمياء .. إنها في نظره كل شيء .. ومن أجلها يهون كل شيء ..

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله » ..

وقهقه الشيطان عالياً .. لقد نجح في زرع بذرة الشر والبغي بين بني آدم ..

أما كيف قتله ، فهذه مهمة إبليس ..

لقد شحن نفس قابيل أولاً بالرغبة في الانتقام ، حتى إذا أصبح مستعداً لتنفيذ ذلك جاءه وقد تمثل له وأخذ طيراً فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر ..

وتعلم قابيل من هذه الواقعة كيف يقتل أخاه هابيل ..

فأتاه يوماً وهو نائم فرفع صخرة عظيمة ، وضرب بها رأسه فمات ..

« فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض » :

ورأى قابيل دم أخيه يسيل ..

ورآه وقد أصبح جثة هامدة . ويبدو أن هذا قد حرك فى نفسه مشاعر الخوف ، فهو أول ميت على ظهر الأرض .. ولاشك أن منظر الموت يثير الرعب ..

وربما أيقظ قتله أخاه فى نفسه عاطفة الأخوّة ، وتحركت عوامل الرحمة ، كما يحدث للغاضب حين يبطش بمن أغضبه ، ثم تنفثىء[١١٢] حدة غضبه ، فيستيقظ ضميره ويعود إليه رشده ويلوم نفسه على ما فعل ..

إن الغاضب يتقمصه شيطان فيفعل ما لا يكون فى الحسبان .. ولله در من قال :

مَالِى غَضِبْتُ فَضَاعَ أَمْرِى مِنْ يَدِى
وَالأَمْرُ يَخْرُجُ مِنْ يَدِ الْغَضْبَانِ

---

(١١٢) أى : تسكن .. انظر : القاموس المحيط (فثا).

وقد روى البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - جاءه رجل فقال : أوصنى ، قال : « لا تغضب » ، فردد مراراً ، قال : « لا تغضب »[113].

وفى ذلك دلالة على خطورة الغضب ووجوب علاجه بالحسنى ، إلا أن يكون غضباً لمحارم الله .

وتحير قابيل ماذا يفعل بهذه الجثة ؟

حملها وسار بها من مكان إلى مكان ، والسباع تطوف من حوله تنتظر أن يلقيها لتأكلها .

ويقال : إنه ظل يحملها حتى أروحت ..

فأرسل الله غرابين اقتتلا ، وقتل أحدهما صاحبه ، فبحث القاتل فى الأرض بمنقاره ، ودفن القتيل وسوى التراب فوقه .

ذكر الدميرى - فى حياة الحيوان عن أبى الهيثم - الحكمة فى أن الله تعالى بعث إلى قابيل الغراب ولم يبعث غيره من الطير أو الوحش : أن القتل كان مستغرباً جداً ؛ إذ لم يكن معهوداً من قبل ، فناسب بعث الغراب .

قال قابيل - وقد تعلم من الغراب حكمة كانت غائبة عنه - :

« يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين » ..

لقد ندم أن فاته كيف يتصرف ، ولم يندم أن قتل أخاه ..

يا لها من قسوة احتلت زوايا نفسه إذن ..

وقد يكون ندمه على قتل أخيه .. وربما كان ذلك لفترة قصيرة ، فإن الأحداث بعد ذلك تدل على أن نفسه كانت مفعمة بالشر .

---

(١١٣) انظر : رياض الصالحين للنووى حديث رقم ٦٣٧ .

وأصبح قابيل من جنود إبليس بعد أن استولى على قلبه ، فقاده إلى ارتكاب أول جريمة بشعة على وجه الأرض ..

وقد باء بإثمها وإثم كل جريمة قتل بعد ذلك إلى أن تطوى صفحة الحياة على الأرض ، فقد جاء في الحديث الصحيح الذى رواه مسلم وغيره :

« لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سَنَّ القتل » ..

ويشاركه إبليس فى هذا الإثم ؛ لأنه زيَّنه ، وما زال به حتى أغواه وأرداه ..

وحكى الدميرى - فى كتابه - أن قابيل أول من يساق إلى النار من ولد آدم .. قال الله - تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾[١١٤].

وهما قابيل وإبليس ..

وذكر حديثاً رواه عن أنس - رضى الله عنه - قال : سُئل النبى - ﷺ - عن يوم الثلاثاء ، فقال : « يوم الدم ، فيه حاضت حواء ، وفيه قتل ابن آدم أخاه »[١١٥]..

وساءت نفس قابيل وأخذ القلق والضيق بمجامعه ..

وأخذ الهم يساور نفسه بعد أن أصبح هابيل - فى وداعته وسماحته - يتمثل له في غدوه ورواحه ، فى كل مكان كانا يلتقيان فيه ويكدحان .. إنه لم يعد يطيق البقاء فى مكان ترمقه فيه نظرات الكُرْه والاستنكار ..

ولم يجد بدًّا من أن يهجر هذا المكان الذى شهد جريمته .

---

(١١٤) من الآية ٢٩ من سورة فصلت .

(١١٥) حياة الحيوان الكبرى للدميرى جـ ٢ ص ٣١٢ (ط التحرير) .

فهاجر - كما يقول بعض الرواة - إلى « عدن » هارباً ..

وبقيت فى قوس إبليس منازع ..

كيف يتركه يهرب ؟ وربما تاب في هروبه ، وبذلك يكون إبليس قد فشل فى مهمته ..

إن الفريسة قد وقعت ، ولابد من الاستيلاء عليها تماماً ..

فكان أن تبعه إلى « عدن » ، أو بالأحرى ما زال ملازماً له فى رحلته إلى « عدن » .. وإن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم في عروقه ..

وقال له : لقد أكلت النار قربان أخيك ؛ لأنه كان يعبد النار ، فانصب أيضاً أنت ناراً تكون لك ولعقبك ..

فبنى قابيل بَيْتًا للنار . فهو أول مَنْ عبد النار[116] ..

ولاشك فى أن زادت قهقهة الشيطان ارتفاعاً ..

قال العلماء : لقد تغيرت الطبيعة بعد هذا الحادث ..

كان الشجر لاشوك له ، فظهر فيه الشوك ليدافع عن نفسه ضد اعتداء الإنسان ..

وتغيرت الأطعمة ، وحمضت الفاكهة ، وملحت المياه ، واغبرت الأرض ، وهربت السباع إلى الكهوف والغابات ، وفرت الطيور إلى أعالى الجبال ، وكانت تأنس قبل ذلك بالإنسان[117] ..

لقد ارتاع الكون كله لحدوث هذه الجريمة النكراء ، وحزناً على قتل هابيل مثال الوداعة والوفاء ..

---

(١١٦) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٤٥ .

(١١٧) حياة الحيوان الكبرى جـ ٢ ص ٣١٢ .

وليس ذلك غريباً ، فالله يقول فى حق فرعون وآله بعد هلاكهم : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾(١١٨) .

هذه أعراض حادثة لم تكن قبل ذلك ..

ورأى آدم ما أصاب الطبيعة وهو فى « مكة » ، فقال : قد حدث فى الأرض حدث ..

وعاد إلى « الهند » ليجد ابنه قابيل قد قتل أخاه هابيل ..

وقد لا يكون قابيل قد غادر « الهند » بعد ... ؛ إذْ حدَّث بعض الرواة أن آدم قد أقبل على قابيل ، يقول له : أين هابيل ؟

فقال له قابيل : لا أدرى ؛ كأنك وكلتنى بحفظه ..

ما أجفى هذه الإجابة !! .. ولكنها تنم عن مدى ما يعتمل فى نفس قابيل من شر ..

ولقد أوصى الله بحسن معاملة الأبوين وحسن مخاطبتهما ، فقال : ﴿ فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾(١١٩) ..

وفهم آدم ما فعله قابيل .. فقال له : أفعلتها ؟ والله إن دمه ليناديني .. اللهم العن أرضاً شربت دم هابيل ..

وكانت الأرض تشرب الدماء كما تشرب الماء ، فيقال : إنه منذ هذه الدعوة لم تعد الأرض تشرب الدماء ، تبقى على الأرض إلى أن تجف دون أن تشربها ..

وحزن آدم واشتد حزنه .. وهذا أمر طبعى ..

---

(١١٨) الآية ٢٩ من سورة الدخان .

(١١٩) الآيتان ٢٣ - ٢٤ من سورة الإسراء .

وقيل : إنه بقى حتى آخر عمره لا يضحك ، حتى جاءه ملك الموت فقال له : حياك الله وبيّاك .. فقال له : وما بيّاك ؟ قال : أضحك الله سنك .. فضحك ..

ولا صحة للشعر الذى ينسبه بعض الرواة إلى آدم حين زعموا أن آدم أنشد بعد قتل ولده وتغير طبيعة الأرض :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغيّر كل ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه المليح

ذلك أن هذا الشعر عربى .. ولم يكن لسان آدم عربياً ..

وهو ظاهر الصنعة ، وفيه إقواء ، والتماس صحة إعرابه فيه تكلف ..

وآدم نبى .. والأنبياء سواء فى عدم قول الشعر ..

وأقرب من هذا أن يقال : إن آدم تحدث بهذه المعانى بلغته فجاء بعد ذلك من ترجمها شعراً ..



نهاية قابيل :

أما نهاية قابيل ؛ فقد مر أن الشيطان قد زيّن له عبادة النار ، وكانت عاقبته الكفر والضلال .

وقيل : إنه استوحش بعد قتل أخيه ، ولزم البرية ، وكان لا يقدر على ما يأكله إلا من الوحش ، فكان إذا ظفر به وَقَذَهُ حتى يموت فيأكله .. ولذلك حرمت الموقوذة .

وقيل : إنه كان على ذروة جبل فنطحه ثور فوقع إلى السفح ، وقد تفرقت عروقه ..

وقيل : إن آدم دعا عليه فانخسفت به الأرض .

وجاء فى الطبقات الكبرى أن آدم قال لقابيل : اذهب فلا تزال مرعوباً أبدًا لا تأمن من تراه ، فكان لا يمر به أحد من ولده إلا رماه .. فأقبل ابن

لقابيل أعمى ومعه ابن له ، فقال الابن لأبيه : هذا أبوك قابيل ، فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله .

فقال ابن الأعمى : يا أبت ؛ قتلت أباك ..

فرفع الأعمى يده فلطم ابنه فمات ..

فقال الأعمى : ويل لى .. قتلت أبى برميتى ، وقتلت ابنى بلطمتى ..

عظات وعبر :

روى أبو داود فى سننه عن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - أنه قال : يا رسول الله ، إن دخَلَ علىّ إنسان فى الفتنة وبسط يده إلىّ ؟ فقال : كن كخير ابنَىْ آدم : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين » .

وهذه عظة قدمتها لنا تلك القصة .. إلى جانب ما نجده فيها من عظات وعبر . ولعل من أروع ما فيها عجز الإنسان وضعفه على الرغم من بطشه وعنفه .

فهذا القاتل الذى استهان بكافة القيم ، وانتهك أسمى الروابط والعلاقات يقف عاجزًا عن الحركة والتفكير أمام جثة أخيه ، حتى يبعث الله له غراباً يعلمه الحكمة ..

ومنها نتعلم أن العنف لن يحل المشكلات .. فإن مشكلة قابيل لم يحلها قتله أخاه ، فهو وإن ظفر بإقليمياء وتزوجها فَقَدْ فَقَدَ الأمن وراحة البال والاطمئنان .. وكان أخوف ما يخاف منه هى تلك الأخت التى استهان بدم أخيه فى سبيلها .

إنه لم تهنأ له حياة ، ولم تتم له سعادة ، وحاق به سوء المصير ..

ومنها نتعلم أن الشيطان لا يستسلم أبدًا فى معركته مع الإنسان ، وهو قد أعد أعتى الأسلحة فى حربه ، وما زال عند وعيده حين قال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(١٢٠) .

إننا نراه يوسوس للإنسان فى كل وقت حتى فى أعمال الخير ، وقد يدخل عليه فى الصلاة حتى لا يكاد يعقل منها شيئاً .. وقد يزيّن له الطاعة حتى يغرّه بها فيحبط عمله ..

ومنها نتعلم أنه لا يكاد ينجو من براثن الشيطان إلا من عصمه الله ، فقابيل ابن نبى ، بل هو أول ابن لخليفة الله فى الأرض . ولعل آدم كان يعقد عليه الآمال كما جرت عادة الناس . ومع ذلك لم تحمه هذه المكانة من استهواء الشيطان له ، بل وجد فيه مطية ذلولاً ، وقاده معه إلى الهاوية .

إنه لا نجاة من هذا العدو اللعين إلا بالاعتصام بحبل الله المتين ، والإخلاص فى طاعته ، والتطوع له بأفضل ما يملك . وقد رأينا كيف قدم هابيل أفضل ما عنده ، وقدم قابيل أردأ ما عنده ، وظفر هابيل بمرتبة الشهداء ، وهى أفضل منزلة ، وانزلق قابيل إلى درك الأشقياء وهى أسوأ عاقبة ..

لقد طلب الله منا أن نقدم له الطيب ؛ لأنه طيب ، وحذّر من تقديم الخبيث فى القربات ، وقال فى ذلك :

﴿ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(١٢١) .

ومنها نتعلم أن الاعتداء على النفس بغير حق أمره عظيم ، وخطره جسيم ، وأن النفس الإنسانية قيمتها أعظم من الكعبة عند الله ، ولا يحل انتهاكها إلا بحق .. وقد جعل الله قتل نفس واحدة بغير نفس يساوى قتل الناس جميعاً .. قال – تعالى – :

---

(١٢٠) من الآية ١٦ من سورة الأعراف .

(١٢١) من الآية ٢٦٧ من سورة البقرة .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(١٢٢) ..

ومنها نتعلم أن التنافس بين الناس يجب أن يكون فيما يعود بالخير والمثوبة وحسن الأحدوثة وطيب الجزاء .. لا فيما عدا ذلك من تفاهات الحياة ومادياتها .. وقد بَيَّنَ القرآن الكريم حق المنافسة المحمودة بعد أن عرض لجزاء أصحاب الأعمال الصالحة ، وذلك فى قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾(١٢٣) ..

إلى غير ذلك من العبر والعظات(١٢٤) ..



* * *

---

(١٢٢) من الآية ٣٢ من سورة المائدة.

(١٢٣) الآيات ٢٢ - ٢٦ من سورة المطففين.

(١٢٤) من الجدير بالذكر أنه قد شاع فى هذه الأيام ما اسموه من محاكمة أول قاتل فى التاريخ الإنسانى ، يعنون بذلك : قابيل ، حيث اجتمع بعض القضاة فى مدينة « البندقية » ب « إيطاليا » وحكموا ببراءته بفارق صوت واحد .. فقد أيد خمسة منهم براءته ، وادانه أربعة .. وبذلك يتحلل قابيل من ذنبه العظيم .. ويغسل يديه الملوثتين بدم أخيه هابيل .. ومن العجيب أنهم أطلقوا على تلك المحاكمة بأنها : « محاكمة القرن العشرين » ..

نقول : مَنْ هُمْ حتى يصدروا حكمهم فى قضية حسمها الله - سبحانه وتعالى - فى كتابه العزيز ؛ كما بينا ؟!

إن قابيل مذنب بحق الله ، ومذنب فى حق البشر .. فماذا يفيد فتح ملف قضية قديمة هى من عمر البشرية ؟ وكيف يعيدون محاكمته وقد قرر الحق - سبحانه - أنه مذنب وقاتل ؟! « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » ..

ألا يكفى هذا الحكم الإلهى فى تلك القضية ؟!! ..

انظر : تحقيقات الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٨ / ١ / ١٩٨٩ م.

حكم المحكمة باطل ... باطل

من الجدير بالذكر أنه قد شاع فى هذه الأيام ما أسموه من محاكمة أول قاتل فى التاريخ الانسانى (قابيل) حيث اجتمع بعض القضاه فى مدينة البندقية بإيطاليا ، وحكموا ببراءته بفارق صوت واحد ، حيث قرر خمسة منهم أنه برىء ، وأدانه أربعة ، وبذلك يتحلل (قابيل) من ذنبه العظيم ، ويغسل يديه الملوثتين بدم أخيه (هابيل) .. وأطلقوا على ذلك : « محاكمة القرن العشرين » .

نقول : من هم حتى يصدروا حكمهم فى قضية حسمها المولى – عز وجل – فى كتابه العزيز كما بينا .. إن (قابيل) مذنب بحق الله ، ومذنب فى حق البشر .. فماذا يفيد فتح ملف قضية قديمة هى من عمر البشرية ، وكيف يعيدون محاكمته .. وقد قرر الله تعالى أنه مذنب وقاتل .. « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » .

ألا يكفى هذا الحكم الإلهى فى تلك القضية ؟ !! (*)

(*) انظر تحقيقات الأهرام بتاريخ ٢٨ / ١ / ١٩٨٩م

وفاة آدم (عليه السلام)

روى ابن سعد - في الطبقات الكبرى - حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ -:

« لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم جعل بين عينىْ كل إنسان منهم وميضاً من نور ، ثم عرضهم على آدم ؛ فقال : أىْ رب ؛ مَنْ هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً منهم أعجبه نور ما بين عينيه .. فقال : أىْ رب ؛ من هذا ؟ قال : هذا رجل من ذريتك فى آخر الأمم يقال له : داود . قال : أىْ رب ؛ كم عمره ؟ قال : ستون سنة . قال : فزده من عمرى أربعين سنة . قال : إذن تكتب وتختم ولا تبدل .

قال : فلما انقضى عمر آدم ، جاءه ملك الموت .. قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ ! قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ ! » ..

قال رسول الله - ﷺ -: « فجحد فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته »[١٢٥] .

قال ابن سعد : وأكمل الله عمر آدم ألف سنة ، وأكمل داود مائة سنة .

وكان آدم قد خلق يوم الجمعة ، وكانت وفاته أيضاً يوم الجمعة .

وهو يوم عيد المسلمين ..

وجاء فى كتاب ابن كثير : إنه حين حضرته الوفاة قال لبنيه : اطلبوا لى من ثمرة الجنة فإنى قد اشتهيتها . فذهب بنوه يطلبون له ثمر الجنة ، فإذا هم بملائكة الله . قالوا لهم : يا بنى آدم ؛ ما تطلبون ؟ قالوا : إن أبانا اشتاق إلى ثمرة الجنة ، فنحن نطلبها . قالوا : ارجعوا فقد قضى الأمر ، فرجعوا فإذا أبوهم قد قبض ..

---

(١٢٥) وانظر - أيضاً -: الجامع الصغير جـ ٢ ص ٥ ، تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٣ .

فأخذت الملائكة آدم ، فغسلوه وحنطوه وكفنوه ، وحفروا له قبراً ، وجعلوا له لحداً .. ثم إن ملكاً من الملائكة تقدم فصلى عليه وخلفه الملائكة ، وبنو آدم خلفهم ، ثم وضعوه في حفرته ، وسووا عليه .. فقالوا : يا بنى آدم هذه سبيلكم ، وهذه سنتكم .

وقيل - كما جاء في الطبقات - : لما مات آدم قال شيث لجبريل : صلِّ على آدم . فقال جبريل : تقدم أنت فصلِّ على أبيك .. وكبّر عليه ..

وكانت حواء قد حملت بشيث وحده في بطن .

وحين ولدته جاءها جبريل فقال لها : هذه هبة الله ، ومعناها بالعبرانية : شيث . هو لك بدل هابيل ..

وأوصى آدم - صلوات الله عليه - إليه ..

وقيل : لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً .

وماتت حواء بعده بسنة واحدة .

ودُفن آدم في المكان الذى هبط فيه بـ « الهند » . وقيل : دفن في « مكة » في جبل أبي قبيس . وقال الثعلبى : روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه مات بـ « الهند » ، وحمله نوح - عليه السلام - في تابوت ووضعه في السفينة أيام الطوفان ، ودفنه بـ « بيت المقدس » ..

وبعـد ..

فلقد خص الله آدم - عليه السلام - بصفات ..

ويكفى في ذلك أنه - سبحانه وتعالى - خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وصوره في أحسن صورة .. وقال في ذلك : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[١٢٦] ..

---

(١٢٦) الآية ٤ من سورة التين .

وألهمه الله الحمد حين عطس ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، وقال له : يرحمك الله يا آدم .. فكانت رحمة الله سابقة إليه .

وعلّمه الأسماء كلها .. وأباح له الجنة ونعيمها فى الدنيا قبل الآخرة قبل أن يؤمر بالهبوط منها ..

وجعله خليفة فى الأرض هو وذريته إلى أن تقوم الساعة ..

وأمر الملائكة بالسجود له ..

وعرف الملائكة فضله عليهم حين أنبأهم بأسمائهم ..

ولُعِنَ إبليس وطُرِدَ من رحمة الله بسببه ..

إن قصة آدم تذكر الإنسان بأصله الطيب وعنصره الكريم وفضله الذى أشار إليه المولى – سبحانه – بقوله :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(١٢٧) .

ومقتضى ذلك أن يحفظ الإنسان هذه النعمة ، ويقدرها حق قدرها ..

وأن يشكر الله الذى وضعه فى هذه المنزلة .. فيعبده ولا يشرك به شيئاً ..

وأن يتبع أوامره وينتهى عن نواهيه ، ويذكره آناء الليل وأطراف النهار ؛ مصداقاً لقوله – تعالى – :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا . تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾(١٢٨).

---

(١٢٧) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .

(١٢٨) الآيات ٤١ – ٤٤ من سورة الأحزاب .

وأن يحذر الشيطان الذى حذرنا الله منه ؛ حيث يقول :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾(١٢٩) ..



★ ★ ★

(١٢٩) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قصة

إدريس عليه السلام

« وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا »

- نسبه ..
- وراثته النبوة ..
- النبي المصري ..
- معنى « وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا »



تمهيد :

قال الله – تعالى – :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[1]..

اقتضت حكمة الله – تعالى – أن يبعث فى كل أمة رسولاً ينذرها ويُحَذِّرها عاقبة أمرها ، وبذلك يلزمها الحجة ، فلا تتذرع بالاستنكار إن استحقت الوعيد .. قال – تعالى – : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[2]، وقال – تعالى – ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[3].

وكان أول نبى هو : آدم – عليه السلام – ، وآخر نبى هو رسول الله سيدنا محمد بن عبد الله – ﷺ – ، قال – تعالى – : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[4].. وكان بينهما أنبياء كثيرون لا يعلمهم إلا الله ..

وأورث آدم علمه وحكمته ابنه « شيثا » الذى أورث ابنه من بعده الحكمة ..

وظلت هذه الحكمة تتوارث حتى ورثها النبى محمد – ﷺ – وقال العلماء فى معنى قوله – سبحانه – : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾[5] :

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة فاطر .
(٢) من الآية ١٥ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٤) من الآية ٤٠ من سورة الأحزاب .
(٥) الآية ٢١٩ من سورة الشعراء .

إن الله - سبحانه وتعالى - رأى تقلب نبيه - ﷺ - في أصلاب الآباء الصالحين من لدن آدم - عليه السلام - حتى أبيه عبد الله(٦).

إذن ، فقد كانت هناك سلسلة من الأنبياء أولها آدم ، وبعده « شيث » ، وبعده ابنه « أنوس » ، وبعده ابنه « قينان » ، وبعده ابنه « إدريس » ، وإن لم يكن هؤلاء - قبل إدريس - أنبياء فأوصياء(٧)..

والله - جلت حكمته - لم يذكر جملة الأنبياء والمرسلين ، فقال العلماء : إن عددهم لا يعلمه إلا الله .. وقد اكتفى القرآن الكريم بالإشارة إلى ذلك بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. ﴾(٨)..

ولكنه ورد فى أخبار النبى - ﷺ - ما يشير إلى عدد الأنبياء والرسل .. ومن ذلك ما ذكره ابن كثير فى تفسيره من حديث أبى ذر المشهور .. وها نحن أولاء نسوق بعضه للعظة والاعتبار ، ولما فيه من المعانى التى يجدر بكل مسلم أن يعيها ..

قال ابن كثير : عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : دخلت المسجد فإذا رسول الله - ﷺ - جالس وحده ، فجلست إليه ، فقلت : يا رسول الله ؛ إنك أمرتنى بالصلاة ، قال : « الصلاة خير موضوع فاستكثر أو استقل » .

قلت : يا رسول الله ؛ فأى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله وجهاد فى سبيله » .

قلت : يا رسول الله ؛ فأى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » .

---

(٦) انظر : تفسير القرطبى .
(٧) انظر : تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٦٢ .
(٨) من الآية ٧٨ من سورة غافر .

قلت : يا رسول الله ؛ فأى المسلمين أفضل ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » ..

قلت : يا رسول الله ؛ فأى الهجرة أفضل ؟ قال : « مَنْ هجر السيئات » ..

قلت : يا رسول الله ؛ فأى الصلاة أفضل ؟ قال : « طول القنوت » ..

إلى أن قال : قلت : يا رسول الله ؛ كم الأنبياء ؟ قال : « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » ..

قلت : يا رسول الله ؛ كم الرسل ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، جم غفير كثير طيب » .

قلت : فمن كان أولهم ؟ قال : « آدم » .

قلتُ : أنبى مرسل ؟ قال : « نعم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسواه قبيلاً » .

ثم قال : « يا أبا ذر ، أربعة سريانيون : آدم وشيث وخنوخ — وهو : إدريس — وهو أول من خط بقلم ، ونوح . وأربعة من العرب : هود ، وشعيب ، وصالح ، ونبيك يا أبا ذر .. »[9]..

« شيث »

أما « شيث » ؛ فقد ذكر ابن إياس — فى كتابه : قصص الأنبياء — أن أباه آدم قد أوصى إليه ، وأقام يقضى بين الناس بالحق .. وقال : أنزل الله عليه خمسين صحيفة . وهو أول من نطق بالحكمة ، وأول من أخرج المعاملة بالذهب والفضة ، وأول من أظهر البيع والشراء ، واتخذ الموازين والكيل ، وهو أول من استخرج المعادن من الأرض .

وذكر العلماء أن « شيثا » كان وصى أبيه آدم — عليه السلام — فى مخلَّفيه وما أنزل الله عليه من الصحف ، وجمع إلى الصحف التى أنزلت

---

(٩) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢٤ (ط الشعب) .

عليه صحف أبيه آدم وعمل بما فيها .. ويقال : إنه بنى الكعبة بالحجارة والطين ، ولم يزل معتمراً بمكة يحج ويعتمر للبناء إلى أن مات[١٠]..

وقد مر فى قصة آدم – عليه السلام – أنه بنى الكعبة ، وربما كان بناء « شيث » لها إعادة للبناء أو تقوية لها .

وقيل : إن « شيثا » حين مات آدم كان عمره أربعمائة سنة . وعاش بعد ذلك خمسة قرون[١١].

ولادة « شيث » :

حين قتل قابيلُ هابيلَ حزنَ آدم وحواء لذلك حزنًا شديدًا ، فعوضهما الله عن هابيل بـ « شيث » .

ويقال : إن حواء حين حملت به أشرق جبينها ، وتلألأ النور فى مخايلها ، حتى إذا انتهى حملها وضعت نسمة كأسرّ ما يكون من الذكران ، وأتمهم وقاراً ، وأحسنهم صورة ، وأكملهم هيئة ، وأعدلهم خلقاً ، مجللاً بالنور والهيبة ، موشحاً بالجلالة ، وانتقل النور من حواء إليه ، حتى لمع فى أسارير جبهته ، وبسق فى غرة طلعته ، فسماه آدمُ : « شيثا » . ومعناه : هبة الله[١٢].

وقيل : إن مولد شيث كان لمُضِىّ مائتى سنة وخمس وثلاثين سنة من عمر آدم . ومات وقد أتت عليه تسعمائة سنة واثنتا عشرة سنة[١٣].

حتى إذا ترعرع وأيفع واستبصر أو عز إليه آدم بوصيته ، وأعلمه أنه حجة الله على خلقه وخليفته فى أرضه ، والمؤدى حق الله فى أوصيائه[١٤].

---

(١٠) تاريخ الرسل والملوك للطبرى جـ ١ ص ١٦٢ .
(١١) تاريخ ابن إياس ص ٥٠ .
(١٢) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٢٨ .
(١٣) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٦٣ .
(١٤) مروج الذهب للمسعودى .

قالوا : ومات آدم - عليه السلام - وأولاده وأحفاده أربعون ألفاً هم قوم شيث الذين خلفه أبوه فيهم .

ولاشك أنهم ظلوا يتناسلون ويكثرون حتى بلغوا عدداً يستعصى حصره ..

وإلى جانب ما عهده إليه من تعليمه مما علمه الله ؛ فقد علمه ساعات الليل والنهار ، وعلمه عبادات تلك الساعات ، وأعلمه بوقوع الطوفان .

ويقال : إن أنساب بنى آدم اليوم كلها تنتهى إلى « شيث » ، فإن أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا .

والحديث الذى رواه أبو ذر - رضى الله عنه -[١٥] يوضح لنا أن « شيثا » كان نبياً .

خلفاء « شيث » :

وجاء بعد « شيث » ابنه : « أنوس »[١٦]، فقام بالأمر ، ثم من بعده ابنه : « قينان »[١٧]، ثم ابنه : « مهلائيل » ، وهو أول من قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون الكبار .. وأول من بنى مدينة « بابل » ومدينة « السوس الأقصى » .

وخلفه من بعده ابنه : « يَرْد »[١٨]، ثم من بعده : « إدريس » .

أحداث يذكرها المؤرخون لهذا العصر :

ولأن هذا التاريخ معرق فى القدم ؛ فأغلب ما روى عنه مُستقى من الكتابيين ، وقد ذكروا أحداثاً مازالت فى حاجة إلى التوثيق .. ولكننا نذكر

---

(١٥) وقد سبق ان ذكرنا طرفاً منه .

(١٦) « انوس » - ك (صبور) - ، ويقال : إنُوس - بالكسر - ومعناها : إنسان .. تاج العروس .

(١٧) بفتح القاف وسكون الياء ومد النون . ويقال له : قينين .. انظر : تاريخ الطبرى .

(١٨) وقيل : يَرْد ، بالزاى المعجمة . وهو : اليارد ، وإليه الوصية .. انظر : الطبرى .

بعضها مما لا ينكر العقل حدوثه ، ويتفق مع المنطق إذا قسناه بما يجرى فى الحياة من تصرفات ..

فهم يقولون : إن أولاد قابيل كانوا جبابرة ، وأُعطوا بسطة فى الخَلْق ، وانقرضوا ولم يتركوا عقباً إلا قليلاً . وهم الذين اتخذوا الملاهى ، وأول من اتخذها رجل يقال له : « توبال » فى زمن « مهلائيل » .. اتخذ المزامير والطبول والعيدان والطنابير والمعازف ، وانهمكوا جميعاً فى اللهو .

وتناهى خبرهم إلى أولاد « شيث » ، فهَمَّ مائة رجل منهم - وكانوا يقيمون أعلى الجبل - بالنزول إليهم ومخالفة وصايا آبائهم .

بلغ ذلك « يارد » فوعظهم ونهاهم ، فأبوا . إلا تمادياً ، ونزلوا إلى ولد قابيل ، فأعجبوا بما رأوا ، فلما أرادوا الرجوع حيل بينهم وبين ذلك ؛ لدعوة سبقت من آبائهم(١٩).

ثم تبعهم مَنْ كان فى نفسه زَيْغ .. وفشت فيهم الفاحشة والخمر ، وكان ذلك سبب هلاكهم فيما بعد ..

ويقولون : إن « مهلائيل » ملك أربعين سنة . وهو الذى استنبط الحديد فى ملكه ، واتخذ منه الأدوات للصناعات ، وقدر المياه فى مواضع المنافع ، وحضَّ الناس على الحرث والزرع والحصاد ومختلف الأعمال ، وأمر بقتل السباع الضارية واتخاذ الملابس من جلودها والمفارش ، وبذبح البقر والغنم والوحش والأكل من لحومها ..

وهو الذى بنى مدينة « الرى » .. فهى من أوائل المدن التى بُنيت(٢٠)..

وإن صح ذلك فهى نشأة مبكرة للحضارة .

ويقولون : إن « يارد » كان وصىَّ أبيه « مهلائيل » ، وأُعطِى النبوة ، وخط بالقلم ، وعاش بعدما ولد له « إدريس » ثمانمائة سنة ..

---

(١٩) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٦٧ .

(٢٠) المرجع السابق.

إدريس (عليه السلام)

ورد ذكر « إدريس » – عليه السلام – في القرآن الكريم مرتين :

أولاهما في سورة مريم ؛ حيث يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾(٢١).

والثانية في سورة الأنبياء ؛ حيث يقول الله – عز وجل – : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٢٢).

وقد عرفنا سلسلة نسبه فيما مر ، فهو الحفيد الخامس لآدم – عليه السلام – .

وإذا أدركنا أن الناس كانوا في الزمن الخالي معمَّرين تبين لنا أنه قد يكون بين آدم وهذا الحفيد عشرات القرون .

ولعل السر في طول أعمار الأمم الماضية قلة الناس مع اتساع المعمورة وكثرة الخيرات . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن الله قد أطال أعمار الناس ليكثر النسل وتعمر الأرض .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – فيما يذكر ابن إياس في كتابه :

بعث الله إدريس إلى بني قابيل ، وكانوا يعبدون الأصنام ، وحادوا عن توحيد الله – تعالى – واتخذوا لهم خمسة أصنام يعبدونها من دون الله ؛ وهي : « ود » و « سواع » و « يغوث » و « يعوق » و « نسر » التي ذكرها الله في القرآن العظيم(٢٣)، فلما تزايد أمرهم بعث الله إليهم إدريس – عليه السلام – فكان يدعوهم في الجمعة ثلاثة أيام(٢٤).

---

(٢١) الآيتان ٥٦ – ٥٧ من سورة مريم.
(٢٢) الآيتان ٨٥ – ٨٦ من سورة الأنبياء .
(٢٣) وذلك في سورة نوح – الآية ٢٣ .
(٢٤) تاريخ الطبرى.

والمعروف أن هذه الأسماء لمعبودات قوم نوح ، فإن صح هذا الخبر فإن قوم نوح قد أحيوا سنة أبناء قابيل فى اختيار هذه الأسماء التى ما أنزل الله بها من سلطان . ولا يبعد أن يكون إبليس هو الذى وسوس لهم بها ؛ ليحيوا بها ما درس بعد هلاك أبناء قابيل .

خصائص « إدريس » :

ذكر العلماء من خصائص « إدريس » – عليه السلام – الكثير .

فإلى جانب كونه عابدًا كثير العبادة لا يفتر عن ذكر الله – حتى إنه – كما يقولون – كان خياطاً ، إذا غفل عن الذكر فى أثناء عمله فتق ما خاطه وأعاده مع الذكر من جديد – كان أول من خط بالقلم ، وكتب الصحف ، وأول مَن نظر فى علم النجوم والحساب ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وكان الناس يلبسون الأردية بغير خياطة ، فاستحسنوا ما صنعه « إدريس » فصنعوا مثله(٢٥).

وهو أول من صنع المكيال ، وأول مَنْ برع فى الطب .

وهو أول من امتطى الفرس للجهاد فى سبيل الله .

وهو أول من نزل عليه جبريل بالوحى(٢٦).

نزلت عليه ثلاثون صحيفة كان لا يفتر عن قراءتها ليلاً أو نهاراً .

وأول من اتخذ السَّبى .. سبَى من ولد قابيل فاسترقَّ منهم .

وكان وصىَّ والده « يارد » فيما كان آباؤه وصَّوْا به ، وفيما أوصى به بعضهم بعضاً .

---

(٢٥) تاريخ ابن إياس ص ٥١ .

(٢٦) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٢ مادة (إدريس) .

ودعا « إدريس » قومه ووعظهم وأمرهم بطاعة الله ومعصية الشيطان ، وألا يلابسوا ولد قابيل ، فلم يقبلوا منه[٢٧]..

وقال الطبرى - فيما يحكيه عن « إدريس » - : إن الله بعثه إلى جميع أهل الأرض فى زمانه ، وجمع له الصحف الماضية ، وزاده على ذلك ثلاثين صحيفة ، فذلك قول الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[٢٨].

يقول : يعني بالصحف الأولى : الصحف التي نزلت على ابن آدم : هبة الله ، وإدريس - عليهما السلام - .

ولم يكن الفساد فى عهد « إدريس » مقصوراً على عبادة الأصنام والإقبال على اللهو والمعاصى ، ولكنه زاد عليه فساد من نوع آخر . ذلك - فيما يزعمون - أن ملكاً اسمه « بيوراسب » كان قد وقع له كلام من كلام آدم فاتخذه سحراً ، وكان يعمل به ، وكان إذا أراد شيئاً من جميع مملكته أو أعجبته دابة أو امرأة نفخ فى قصبة كانت له من ذهب ، فكان يتحقق له ما يريد[٢٩].

اسم « إدريس » :

واسم « إدريس » الحقيقى : « أخنوخ » ، كما ورد فى الحديث المروى عن أبى ذر .

وتعليل اسمه « إدريس » - كما يقولون - : من كثرة دراسته العلم ، ولكن علماء العربية ينكرون هذا الاشتقاق .

ويطلق عليه فى اليونانية : « هرمز » . وقد تبدل الزاى سينا ، فيقولون : هرمس ، أو هرمس الهرامسة .

---

(٢٧) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٦٨ .
(٢٨) الآيتان ١٨ - ١٩ من سورة الأعلى .
(٢٩) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٧٠ .

« إدريس » فى « مصر » :

يذكر السيوطي – فى كتابه : حسن المحاضرة – أن « إدريس » أحد الأنبياء الذين كانوا فى « مصر » ، واسمه « هرمس » .

كما يذكر أن « إدريس » ورث النبوة عن سلسلة آبائه الذين كانوا فى « مصر » . ذلك أن « شيثا » جاء إلى « مصر » ، وكانت تدعى « باب لون » ، فنزلها هو وأولاد أخيه قابيل .

فسكن « شيث » فوق الجبل ، وسكن أولاد قابيل فى أسفل الوادى .

قال : وكان الملك فى عهد « إدريس » هو : « محويل بن أخنوخ بن قابيل » . وتنبأ « إدريس » فى عهده . ومكث نبياً أربعين سنة .

وأراد هذا الملكُ « إدريسَ » بسوء ، فعصمه الله ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ، ودفع إليه أبوه ما كان عنده من صحائف ووصايا وعلوم .

وولد « إدريس » بـ « مصر » . وكان رحالة فطاف الأرض كلها .

وكانت ملته توحيد الله – تعالى – والطهارة والصلاة والصيام وغير ذلك .. وأطاعه فى رحلته إلى المشرق جميع الملوك ، وابتنى مائة وأربعين مدينة أصغرها : « الرها » .

ثم عاد إلى « مصر » فأطاعه ملكها وآمن به .

فنظر فى تدبير أمر « مصر » . ومن ذلك أن النيل كان يأتى سيحاً فينحاز الناس إلى أعالى الجبال والأراضى العالية حتى ينقص النيل ، فينزلون ويزرعون حيثما وجدوا الأرض ندية .

وصعد « إدريس » إلى أول مسيل النيل ودبر وزن الأرض ووزن الماء على الأرض ، وأمرهم بإصلاح ما أراد من خفض المرتفع ورفع المنخفض وغير ذلك مما رآه فى علم النجوم والهندسة والهيئة . وكان أول من تكلم فى هذه العلوم ، وأخرجها من النظر إلى الفعل ، ووضع فيها الكتب .. ثم سار إلى بلاد « الحبشة » و « النوبة » وغيرهما .. وجمع أهلها ، وزاد فى

مسافة النيل ونقص بحسب بطئه وسرعته فى طريقه ، حتى عمل حساب جريه ووصوله إلى أرض « مصر » فى زمن الزراعة على ما هو عليه الآن .

فهو أول من دبّر جرى النيل إلى أرض « مصر » .

ومات « إدريس » بـ « مصر » .

والصابئة تزعم أن الهرمين أحدهما قبر « شيث » ، والآخر قبر « إدريس » . قال السيوطى : والأصح أنه ليس كذلك .. وهو ليس كذلك فعلاً ، فالكشوف التاريخية الحديثة صححت هذه الوقائع .

ويطلقون على « إدريس » : « هرمس المثلث » ؛ أى : الذى جمع بين ثلاث خصائص. وهى: الملك، والحكمة، والنبوة(٣٠). ومن حكمته أنه استطاع أن يحول الرصاص ذهباً .

ويقولون : إن الهرامسة ثلاثة : هرمس امثلث ؛ وهو : إدريس . وهرمس الثانى ؛ وهو من أهل « بابل » ، وهرمس الثالث ، سكن بـ « مصر » وكان بعد الطوفان(٣١).

وأفاض صاحب هذا القول فى وصف « إدريس » .

وعلى افتراض صحة ما ذكر عن « إدريس » من أنه كان بـ « مصر » ، فإنه كان فى عصر ما قبل الأسرات ..

القرآن لم يشر إلى هذه الأخبار :

وهذه الأخبار الواردة عن « إدريس » – عليه السلام – لم يشر القرآن الكريم إلى شىء منها ، وإنما هى اجتهادات من المؤرخين .. وقد يكون بعضهم رجع فيها إلى ما جاء فى أخبار أهل الكتاب الأول ..

---

(٣٠) ذكر ذلك الكندى ، ونقله عنه السيوطى فى كتابه : حسن المحاضرة .

(٣١) المسالك والممالك لابن فضل الله العمرى .

والمسلم لا يهمه أن يعرف من أمر إدريس – عليه السلام – أكثر من أنه كان صدّيقاً نبياً ، وأن الله رفعه مكاناً علياً ، وأنه كان من الصابرين الصادقين .

فأما ما رواه المفسرون من أنه كان سبط « شيث » وجد أبى « نوح » وما ذكره المستشرقون من أن « إدريس » كان هو : « أندرياس » الذى كان طاهياً للإسكندر ، أو هو : « أندرياس » المذكور فى التوراة ، وأنه عمر أكثر من ثلثمائة سنة ؛ فكل ذلك لا يلزم القرآن الكريم منه شيء .. وإذا قاله مفسر فإنما يقوله باسم التاريخ ، لا باسم القرآن ولا باسم الدين . وقد فسر البيضاوى – رحمه الله – قوله – تعالى – : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[٣٢] بقوله : يعنى بذلك شرف النبوة والزلفى عند الله ، وقيل : الجنة . وقيل : السماء السادسة أو الرابعة . وهذا التفسير هو الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة[٣٣] .

هذا ، وفى تفسيره للقرآن الكريم أورد القرطبى ما ذكره المفسرون والمؤرخون من بيان سبب رفع « إدريس » – عليه السلام – .

قال عند تفسير قوله – تعالى – : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[٣٤] .

كان سبب رفعه – على ما قال ابن عباس وغيرهما – أنه سار يوماً فى حاجة ، فأصابه وهج الشمس ، فقال : يارب ؛ أنا مشيت يوماً ، فكيف بمن حملها خمسمائة عام فى يوم واحد ! اللهم خفّف عنه من ثقلها – يعنى : الملَك الموكل بفلك الشمس .

فلما أصبح الملَك وجد من خفة الشمس والظل ما لم يعرف ، فقال : يارب ؛ خلقتنى لحمل الشمس ؛ فما الذى قضيت فيه ؟

---

(٣٢) الآية ٥٧ من سورة مريم .

(٣٣) محمد فريد وجدى : تعليق على مادة (إدريس) فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٣٤) الآيتان ٥٦ – ٥٧ من سورة مريم .

فقال الله – تعالى – : أما إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته . فقال : يارب اجمع بينى وبينه ، واجعل بينى وبينه خلة .

فأذن الله له فى ذلك حتى أتى إدريس .

وكان إدريس – عليه السلام – يسأله ، فقال : أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت ، فاشفع لى إليه ليؤخر أجَلى ، فأزداد شكراً وعبادة .

فقال الملَك : لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ..

فقال إدريس : قد علمت ذلك ، ولكنه أطيب لنفسى .

قال : نعم . ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ... الخ .

وذكر القرطبى رواية أخرى عن السدى ، كما نقل قصة عن وهب بن منبه مفادها أن « إدريس » – عليه السلام – طلب من ملك الموت حينما التقى به أن يقبض روحه ، فقبضها وردها إليه بعد ساعة ؛ كما طلب منه أن يرفعه إلى السماء لينظر إلى الجنة والنار ، فرأى النار فصعق ، فلما أفاق دخل الجنة وأبى أن يخرج منها ... الخ .

وواضح أن مثل هذه القصص والروايات من الإسرائيليات ؛ كما ذكر ابن كثير فى تفسيره .

والأشبه بحال الأنبياء أن يقال : إن المكان العلى هو شرف النبوة والقربى عند الله ، وكفى بذلك رفعة وعلواً ..

ومما يتعلق بـ « إدريس » ما ورد فى قصة الإسراء والمعراج ، وذكره المفسرون في كتبهم . ومن ذلك : ما رواه أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابورى عن أبى سعيد الخدرى ؛ قال : لما مر النبى – ﷺ – بإدريس فى السماء الرابعة ، قال – أى : إدريس – : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح الذى وعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة(٣٥).

---

(٣٥) تفسير القرطبى . سورة مريم .

وروى بعضهم : السماء السادسة ، بدل الرابعة .

وربما يُفْهم من قول إدريس « مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح » : أن « إدريس » ليس فى سلسلة نسب النبى - ﷺ - . فهل معنى ذلك أنه لم يعقب ؟ أو هل لم يتزوج ؟ !

أما بالنسبة لزواجه ؛ فقد روى ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن ابن اسحاق قال : نكح أخنوخ (إدريس) بن يرد هدَّانة - ويقال : إدّانة - ابنة با ويل بن محويل بن خنوخ بن قاين بن آدم ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، فولدت له متوشلخ بن أخنوخ .

وقد استخلف « إدريس » ابنه « متوشلخ » وأوصاه بأهل بيته قبل أن يرفع ، وأعلمهم أن الله سيعذب ولد قاين - وهو : قابيل - ومن خالطهم ومال إليهم . ونهاهم عن مخالطتهم(٣٦).

ولعل « إدريس » - عليه السلام - لم يذكر البنوّة - كما كان يذكرها الأنبياء الآخرون حين يحيون النبى - ﷺ - بقولهم : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح - لاعتداده بمقام الأخوة واحتفاله بها أيما احتفال ، وقد رأينا مظهر ذلك فى مصاحبته للملائكة ..

والمحفوظ فى سلسلة نسب النبى - ﷺ - يقيناً وصولها إلى « عدنان » ، وقد تصل إلى « إسماعيل » - عليه السلام - . أما وصولها فوق ذلك ؛ ففيه اختلافات ليست من الدين فى شىء .

وما زلنا مع الرأى الذى يقول : إن المكان العلى لإدريس هو القرب من الله . وقد يكون دخوله الجنة استئناساً بقول النابغة الجعدى :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا

وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

---

(٣٦) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٧٠ وما بعدها .

فقال النبى - ﷺ - للنابغة : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » ، قال : إلى الجنة إن شاء الله - تعالى - . فقال له الرسول - ﷺ - : « لا يفضض الله فاك » .. فقيل : إنه عُمِّرَ مائة سنة أو أكثر لم يسقط له شىء من أسنانه(٣٧).

هاروت وماروت :

قال - تعالى - :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾(٣٨)..

أشار بعض المفسرين لهذه الآية إلى الفساد الذى انتشر بسبب أولاد قابيل ، وما ابتكروه من آلات اللهو والطرب حتى أغروا بذلك أولاد « شيث » ، فنزلوا إليهم واختلطوا بهم وأكثروا من الفساد .

وكان « يارد » - والد « إدريس » - قد وعظهم وحذرهم ، ولكنهم لم يزدادوا إلا تمادياً وسفها ، حتى ضجت الملائكة فى السماء من أفعال بنى آدم فى الأرض .

قالت الملائكة : يارب ؛ هذا العالم الذى إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك ، وقد وقعوا فيما وقعوا فيه ، وركبوا الكفر ، وقتلوا النفس ، وأكلوا المال الحرام ، واقترفوا الزنا والسرقة ، وشربوا الخمر ... فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم ..

يقولون : فقال الله - تعالى - لهم : اختاروا منكم من أفضلكم ملكين آمرهما وأنهاهما ، ثم أنظر نتيجة عملهما ..

---

(٣٧) انظر : مهذب الأغانى جـ ٢ ص ٧٤ .

(٣٨) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة .

فاختاروا « هاروت » و « ماروت » ، وكانا من أعبد الملائكة ، فجعل لهما شهوات بنى آدم ، وأمرهما أن يعبداه ولا يشركا به شيئا ، ونهاهما عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام وعن السرقة والزنا وشرب الخمر ..

فنزلا إلى الأرض ، ومكثا فيها زمانًا يحكمان بين الناس بالحق ، وكان ذلك فى زمن « إدريس » - عليه السلام - .

وكان فى ذلك الزمان امرأة حسناء ، حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب .

وجاء الملكان لهذ المرأة نخضعا لها فى القول ، وأراداها على نفسها ، فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها ، فسألاها عن دينها ، فأخرجت لهما صنماً تعبده ، وقالت : هذا إلهى .

فقالا : لا حاجة لنا فى عبادة هذا ، فذهبا ؟ فغبرا ما شاء الله ، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ، ففعلت مثل ذلك ، فذهبا .

ثم أتيا إليها بعد ذلك - وكان عندها إنسان - فراوداها عن نفسها ، فلما رأت أنهما أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما : اختارا إحدى الخلال الثلاث : إما أن تعبدا هذا الصنم ، وإما أن تقتلا هذه النفس ، وإما أن تشربا الخمر .

فقالا : كل هذا لا ينبغى .. وأهون شيء شرب الخمر .. فشرباها ، فأخذت فيهما ، فواقعا المرأة ، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه ..

فلما ذهب عنهما السُكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء ، فلم يستطيعا ، وحيل بينهما وبين أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه فعجبوا كل العجب ، وعرفوا أنه من كان فى غَيْبٍ فهو أقل خشية ..

عند ذلك أخذوا يستغفرون لمن فى الأرض(٣٩) .. ولمثل هذا نزل قوله - تعالى - : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾(٤٠) ..

---

(٣٩) انظر : تفسير ابن كثير ، وتاريخ الطبرى .

(٤٠) من الآية ٥ من سورة الشورى .

وقد أوردنا هذه القصة ؛ لأن مِنَ العلماء من يذكر أنها حدثت في عهد « إدريس » – عليه السلام – وأن الملكين ذهبا إليه وسألاه أن يدعو الله لهما[٤١]..

والمنطق يقرر أنها بهذه الصورة من وضع الكتابيين ؛ لأنها تنافي ما هو معروف عن الملائكة من الطهارة والنقاء والتفرغ للعبادة التي خلقوا من أجلها .. قال – تعالى – : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾[٤٢]. وقال – سبحانه – : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[٤٣]. وقال – جل وعلا – : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾[٤٤]. وقال – عز من قائل – : ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[٤٥].

وربما كانت قراءة « الملِكَين » – بكسر اللام ، مثنى « مِلك » – أنسب لهذه القصة ، و « الملِك » بشر ، وتعرضه للخطأ كثير الاحتمال ، بل هو واقع شائع لا يحتاج إلى استدلال..

ومن العجب أن هناك إضافة لهذه القصة تعرض لها من وضعها وهي : أنه قيل لهذين الملكين : اختارا بين عذاب الآخرة وعذاب الدنيا ، فقالا : أما عذاب الدنيا فهو منقطع ، ولكن عذاب الآخرة لا ينقطع ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجُعلا بـ « بابل » ، فهناك يعذبان ..

---

(٤١) تفسير القرطبي.

(٤٢) الآيتان ١٩ – ٢٠ من سورة الأنبياء.

(٤٣) الآيتان ٢٦ – ٢٧ من سورة الأنبياء.

(٤٤) من الآية ٣٨ من سورة فصلت.

(٤٥) من الآية ٦ من سورة التحريم.

هذا ، وإن كان ابن كثير فى تفسيره قد أورد هذا الخبر بإسناد قال عنه : إنه صحيح .. فإن القرطبى - رحمه الله - ضعفه ووهاه ؛ لأنه لا يناسب كرامة الأنبياء ..

السحر :

ذكر المفسرون للآية السابقة ما ورد عن السحر ومدلوله ، وخطر العمل به ، والسعى إليه وتعلمه ..

والسحر أصله التمويه بالحيل والتخايل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى يتخيل للمسحور أنها بخلاف ما هى عليه ، كالذى يرى السراب من بعيد فيحسبه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .. وكراكب السفينة المسرعة يخيل إليه أن الأشجار والجبال تسير معه ؛ وهى ثابتة فى مواقعها .. قال - تعالى - حكاية عن سحرة فرعون : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾(٤٦) .. وقال - سبحانه - : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾(٤٧) ..

ومن السحر ما يكون كفراً من فاعله إن ترتب عليه فتنة أو أضر بالمسحور إضرارًا بالغاً ؛ كتغيير هيئته أو إذهاب عقله وإضلاله ..

وقد يفعل الساحر أشياء تُحلّ قتله ، كما حدث فى أيام الوليد بن عقبة وهو وال على « الكوفة » من قبل الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فقد كان عنده يهودى من قرى « الكوفة » يعمل أنواعاً من الشعبذة والسحر ، فأظهر أمامه فيلاً عظيماً على فرس يركض فى صحن المسجد .. ثم صير نفسه ناقة ، ثم أظهر صورة حمار دخل من فيه وخرج من دبره .. ثم ضرب عنق رجل ففرق بين جسده ورأسه .. ثم أمرَّ السيف عليه فقام الرجل ..

---

(٤٦) من الآية ١١٦ من سورة الأعراف .

(٤٧) من الآية ٦٦ من سورة طه .

وكان جماعة من أهل « الكوفة » حُضورًا ، منهم : جندب بن كعب الأزدى ، فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان ومن عمل يبعد عن الرحمن ، وعلم أن ذلك ضرب من التخييل والسحر ، واخترط سيفه وضرب به اليهودى فقتله .. وقال : إن كنت صادقاً فأحْيِ نفسك(٤٨)..

و « جندب » هذا هو الذى قال فى حقه النبى - ﷺ - : « يكون فى أمتى رجل يقال له : جندب . يضرب ضربة بالسيف يفرق بها بين الحق والباطل(٤٩)..

وهذه الضربة هى قتله لهذا الساحر .. وحد الساحر قتله كما ورد فى الأثر ..

والإسلام فى تحذيره من السحر يغلق أمام الناس أبواباً كثيرة من الضرر .. وأقل ذلك الدجل والشعوذة وأكل أموال النّاس بالباطل .. وكم من ضالّين مضلين استهووا الناس بهذه الأفعال ، وأوقعوا فى براثنهم كثيراً من البسطاء والسذّج والأبرياء ..

* * *

---

(٤٨) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٥٤٨ ، أسد الغابة لابن الأثير جـ ١ ص ٣٦١

(٤٩) تفسير القرطبي .



قصة
نوح
عليه السلام

- نسب «نوح» وبعثته ..
- قسوة قومه ..
- القرآن يعرض لقصة «نوح»
- الأذى الذى تحمله «نوح»
- صنع السفينة ..
- الحواريون يسألون «عيسى» عن السفينة .
- ركوب السفينة ..
- «نوح» ينادى ابنه .
- غضب الرب الرحيم .
- السفينة فى الماء ..
- «نوح» ينادى ربه .
- السفينة على الشاطئ
- حركة الحياة تمضى من جديد .
- خصائص خص الله بها «نوحًا» .
- عظة وعبرة ..
- وصية «نوح» لابنه .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نسب « نوح » وبعثته :

هو : نوح بن لَمْك بن متوشلخ بن أخنوخ ..

و « أخنوخ » هو : إدريس – عليه السلام – كما علمنا .. فهو جد أبيه ..

وأمه هي : تبنوس ابنة براكيل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم[1] ..

فهو – إذن – من سلالة الأنبياء .

وكان قوم « نوح » قد أجمعوا على العمل بما يكرهه الله من ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن .. وشرب الخمر .. والاشتغال بالملاهي عن الطاعة ..

وقد ذكر القرآن الكريم أنهم كانوا أهل أوثان . جاء ذلك في قوله – تعالى – :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا . وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا . وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾[2] .

وقد ورد ذكر « نوح » – عليه السلام – في القرآن الكريم ثلاثاً وأربعين مرة في ثمان وعشرين سورة[3] وأُفرِدت لقصته سورة خاصة به ؛ هي سورة « نوح » .

---

(١) تاريخ الطبري جـ ١ ص ١٧٩ .

(٢) الآيات ٢١ – ٢٤ من سورة نوح .

(٣) هي : (آل عمران) و (النساء) و (الأنعام) و (الأعراف) و (التوبة) و (يونس) و (هود) و (إبراهيم) و (الإسراء) و (مريم) و (الأنبياء) و (الحج) و (المؤمنون) و (الفرقان) و (الشعراء) و (العنكبوت) و (الأحزاب) و (الصافات) و (ص) و (غافر) و (الشورى) و (ق) و (الذاريات) و (النجم) و (القمر) و (الحديد) و (التحريم) و (نوح) . انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٧٢٢ – ٧٢٣ .

ويدل ذلك على أهمية قصته ؛ لوجود مشابهة كبيرة بين قوم « نوح » - عليه السلام - وقوم نبينا محمد - ﷺ - فى الإشراك بالله ، وعبادة الأصنام .

وقد ذكرنا فى قصة « إدريس » - عليه السلام - كيف ظهرت الفاحشة وانتشرت مما حدا « إدريس » إلى مقاومتهم وموعظتهم ..

وازداد الفساد بعده حتى أرسل الله « نوحاً » لهداية الناس إلى الطريق المستقيم ، وحثهم على عبادة الله وحده ، وتخويفهم بأس الله ، وتحذيرهم سطوته ، ودعوتهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الحق ، والعمل بما أمر الله به رسله وأنزله فى صحف « آدم » و « شيث » و « أخنوخ » والصحف التى أنزلت إليه ..

قالوا : وكان عمر « نوح » - عليه السلام - حين أرسل ثلثمائة وخمسين سنة ، ولبث فى قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .. وعاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة(٤).

وذكر بعض العلماء غير ذلك ، فقد روى ابن عباس أن الله بعث نوحاً وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة ، ثم دعاهم فى نبوته مائة وعشرين سنة ، وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة ، ثم مكث بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة(٥).. فهذه ألف سنة إلا خمسين عاماً ورد ذكرها فى القرآن الكريم(٦).

قسوة قومه :

وقد قُدَّت قلوب قومه من الصخر ، فلم يستجيبوا لدعوته ..

وهو لم يفتر فى دعوتهم إلى الخير .. وكان كما سجل القرآن الكريم :

---

(٤) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٨٠ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) فى الآية ١٤ من سورة العنكبوت .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾(٧) ..

وحاول « نوح » – عليه السلام – إغراءهم بكل صنوف الإغراء ..

أغراهم بمغفرة الله ورضوانه ، وطول أعمارهم .. ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٨).

وأغراهم بإكثار نعيمهم وزيادة خيراتهم وأولادهم .. ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِّدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾(٩).

ولكن .. بدون جدوى .. !!

وحاول « نوح » – عليه السلام – لفت أنظار قومه إلى قدرة الله الخارقة فى أنفسهم وفيما حولهم ، ونعمته الظاهرة والباطنة عليهم .. ﴿ مَّالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾(١٠).

وذكَّرهم بهذه النعمة التى يتقلبون فيها ليشكروا الله عليها ويعبدوه حق عبادته من أجلها .. ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾(١١).

---

(٧) الآيات ٥ – ٩ من سورة نوح .
(٨) الآيات ٢ – ٤ من سورة نوح .
(٩) الآيات ١٠ – ١٢ من سورة نوح .
(١٠) الآيات ١٣ – ١٨ من سورة نوح .
(١١) الآيات ١٩ – ٢٠ من سورة نوح .

ولكنهم لم يزدادوا إزاء ذلك إلا ضلالاً ، وبعداً عن الحق ، ومُضيًا فى الباطل ، وسخرية منه ومن دعوته ..

وحاول تخويفهم بالجزاء والحساب والعقاب ، فقال لهم : ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[١٢].

ولكن عنادهم له يستمر ؛ فيقولون :

﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾[١٣].

لقد كبُر عليهم أن يؤمن به الضعفاء الأذلاء ، واستنكفوا أن يكون هؤلاء مثلهم ، أو يكونوا مثل هؤلاء فيؤمنوا بـ « نوح » بعد أن آمن به هؤلاء الأراذل ..

ولكن جرت سنة الله فى خلقه أن يكون أول من يؤمن بالأنبياء هم الضعفاء من الناس ؛ لأن الرسول إنما يجىء ليأخذ بيد المظلوم ، ويرفع شأن المهضوم .. ولقد قالها « هرقل » ملك الروم لـ « أبى سفيان » حين سأله عن النبى – ﷺ – : ومن يتّبعه من الناس ؟ فقال : يتبعه ضعفاء الناس . فقال « هرقل » : هكذا الأنبياء يتبعهم الضعفاء[١٤].

القرآن يعرض لقصة « نوح » :

لقد عرض القرآن الكريم لقصة « نوح » – عليه السلام – فى مواضع كثيرة متفرقة ، وهى فى مجموعها تتناول تفصيلات دقيقة لدعوته ، ومحاولات « نوح » المخلصة فى تبليغها ، وما بذله من مجهودات ، وما دار من مناقشات ومجادلات تدل على قوة حجته وسفه رأى قومه ..

---

(١٢) الآيتان ٢٥ – ٢٦ من سورة هود .
(١٣) من الآية ٢٧ من سورة هود .
(١٤) بشائر النبوة الخاتمة – د / رءوف شلبى ص ٣٩٩ .

لم يترك « نوح » – عليه السلام – وسيلة هداية قومه إلا وسلكها .. حاول إثارة عقولهم ، وناقشهم بالمنطق ، وجادلهم بالحسنى .. ولكن من غير فائدة .. قال – تعالى – :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ(١٥) ﴾

إنه يقول لهم : إنه سينتصر بالله فاستنصروا أنتم بمن شئتم ..

ويقول : ما سألتكم من أجر على هدايتكم وإنجائكم من المصير المشئوم الذى ينتظركم .. وكان يكفى لمن لديه عقل أن يفكر فيما يقول ، ويقلب فيه وجه الرأى .. ولكن الله طمس على عقولهم وبصائرهم ..

ويتحدَّوْنَهُ قائلين كما حكى القرآن :

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(١٦) ﴾

إنها إثارة يحاولون بها أن يستفرغوا صبره الذى طال ، ويستفزوه حتى يُلجئوه إلى الشطط ، ولكنه كان قمة فى الحلم والهدوء وسعة الصدر ، فيرد عليهم بقوله :

---

(١٥) الآيتان ٧١ – ٧٢ من سورة يونس .

(١٦) الآيات ٣٢ – ٣٤ من سورة هود .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (١٧) ﴾

أجل .. كيف يلزمهم بدعوة يكرهونها ولا يقبلونها ؟ !

وأى دعوة هذه ؟ إنها الرحمة .. والهداية .. والنجاة لهم فى الدنيا والآخرة .. فهل هناك ضلال أبعد من ذلك ؟ !

الأذى الذى تحمله « نوح » – عليه السلام – :

ولقى « نوح » – عليه السلام – فى سبيل الدعوة من الأذى ما لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الرسل .. وكان « نوح » فى مقدمتهم[١٨] ..

وماذا يُطْلب من رسول قضى فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يحاول إقناعهم بدعوته دون جدوى ؟ ! ماذا يطلب منه أكثر مما فعل ؟!

وقد أمد الله لهم فى الحبل ، وأطال عليهم المدى حتى لم يبق فى قوس الصبر منزع ؛ فدعا عليهم بعد أن جاوز الأمر حده ..

قال الضحاك – فيما يرويه عن ابن عباس – : إن « نوحاً » كان يُضْرب ، ثم يلف فى لبد ، ثم يلقى فى بيته ، فيرون أنه قد مات .. ثم يخرج فيدعوهم حتى أيس من إيمان قومه[١٩] ..

فكان أن دعا ربه قائلاً : ربّ ، قد ترى ما يصنع فىّ عبادُك ، فإن يكن لك فى عبادك حاجة فاهدهم ، وإن يكن غير ذلك فصبّرنى إلى أن تحكم بينى وبينهم ، وأنت خير الحاكمين ..

---

(١٧) من الآية ٢٨ من سورة هود .

(١٨) وذلك من حيث الترتيب الزمنى .. وإلا فأولهم وأعظمهم سيدنا محمد – ﷺ – .

(١٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٥٣ .

فأوحى الله إليه :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٢٠) ﴾

فآيسه الله منهم وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن ، عند ذاك دعا عليهم ؛ قائلاً :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢١) ﴾

وروى ابن إسحاق أن « نوحاً » كان قومه يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه . فإذا أفاق قال : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . حتى تمادوا فى المعصية ، وعظمت فى الأرض منهم الخطيئة ، وتطاول عليهم الشأن واشتد عليه منهم البلاء ، وانتظر النجل منهم بعد النجل ، فلا يأتى قرن إلا كان أخبث من القرن الذى قبله ، حتى كان الأخير منهم ليقول : قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً ، لا يقبلون منه شيئاً ، حتى شكا ذلك من أمرهم إلى الله[٢٢]، فكان كما قص الله علينا فى كتابه الحكيم : « رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً » ..

ومن صور الإيذاء ما يرويه العلماء من أن « نوحاً » — عليه السلام — كان يخرج كل يوم فينادى : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . فيخرج إليه القوم من بيوتهم فيضربونه بالعصى والنعال فيغشى عليه .. فيجردونه

---

(٢٠) من الآية ٣٦ من سورة هود .

(٢١) الآيتان ٢٦ — ٢٧ من سورة نوح .

(٢٢) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ١٨٠ .

ويلقونه على المزابل .. وعندما يفيق يمسح الدماء عن وجهه ويصلى ويدعو لهم بالمغفرة . وأقام على ذلك نحوًا من سنة .

وكان « نوح » – فيما يروون – قد عاصر من الملوك ملكاً متجبراً طاغياً اسمه : « درمشيل » اشتد في أذى « نوح » . فلما هلك خلفه ابنه : « توبين » فكان أطغى من أبيه . وصار « نوح » يدعوه كما كان يدعو أباه .. ومات « توبين » وجاء بعده ابنه « طفردوس » فكان أشد طغياناً من أبيه وجده[٢٣]..

صنع السفينة :

وكان لابد لهذا الصبر الطويل أن ينفد ..

وماذا ينتظر نبى الله « نوح » – عليه السلام – من قوم طالت دعوته فيهم قرابة ألف عام دون أن يظهر لها ثمر يذكر ؟ !

ماذا تكون عاقبة قوم وصفوا من جاء ليهديهم بالضلال ؟ !

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾

فيرد عليهم بمنتهى الحلم والتعقل قائلاً :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٥) ﴾

---

(٢٣) ابن إياس في بدائع الزهور ص ٥٦ .

(٢٤) الآية ٦٠ من سورة الأعراف .

(٢٥) الآيات ٦١ – ٦٣ من سورة الأعراف .

حينذاك حقت كلمة الله وجرت سنته ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ..

كان لابد من إهلاكهم .. وسيكون هلاكهم عبرةً لمن يجيء بعدهم ..

سيمحو الله أثرهم من الوجود ، ويهلكهم بطريقة لم تكن تخطر لهم على بال .. سيكون هلاكهم بالإغراق .. في بلاد لا توجد فيها بحار ولا أنهار ..

وأمره الله أن يغرس شجرة ..

غرس الشجرة.. وعظمت هذه الشجرة وامتدت فروعها حتى ذهبت في الفضاء كل مذهب.

يقال: إنها مكثت أربعين سنة ، وبلغ طولها ثلثمائة ذراع ..

وكانت هذه الشجرة من أشجار الساج.. وهو يمتاز بالقوة والصلابة وعدم التأثر بالماء.

ثم أمره الله بقطع تلك الشجرة، فقطعها، وتركها تجف وقتاً طويلاً.

قالوا: وكان « نوح » نجاراً.. فأمره الله بصنع سفينة..

ولكن.. أنى له أن يعرف ولم ير سفينة قبل ذلك ؟

قال العلماء: جاء جبريل - عليه السلام - يعلّم « نوحاً » كيف يصنع السفينة..

علّمه كيف يشق الخشب ويجعله ألواحاً .. وعلمه كيف يلصق بعضها ببعض بالمسامير.. وهذا معنى قوله - تعالى -:

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾(٢٦).. و « الدسر »: هي: المسامير..

---

(٢٦) الآية ١٣ من سورة القمر.

وطال الوقت في صنع السفينة.. قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: اتخذ « نوح » السفينة في سنتين. وكان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ذراعاً وكانت من خشب الساج..

وقال كعب الأحبار : مكث « نوح » يعمل في السفينة ثلاثين سنة ، وقيل : غرس الشجر أربعين سنة وجففه أربعين سنة ..

وجاء في التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج ، وأن يصنعه أزور (مائلاً) ، وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه ، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً ، وطوله في السماء ثلاثين ذراعا - والذراع إلى المنكب - وأن يجعله ثلاث طبقات : سفلى ووسطى وعليا ، وأن يجعل فيه كوى .. فصنعه « نوح » ؛ كما أمره الله - تعالى -[٢٧].

الحواريون يسألون « عيسى » عن السفينة :

ذكر الرواة[٢٨] مسنداً إلى ابن عباس - رضي الله عنه - قال :

قال الحواريون لعيسى بن مريم : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها . فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب ، فأخذ كفاً من ذلك التراب ، فقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا قبر حام بن نوح .

قال : فضرب الكثيب بعصاه ، وقال : قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب .

فقال له « عيسى » : هكذا هلكت ؟ قال : لا . قدمْتُ وأنا شاب ، ولكني ظننت أنها الساعة ، فمن ثَمَّ شبت .

---

(٢٧) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٣٥٢ (باب الفأر).

(٢٨) تاريخ الطبرى .

قال : حدثنا عن سفينة « نوح ».

قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع . وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير.

فقال « عيسى » : كيف علم « نوح » أن البلاد غرقت ؟

قال : بعث الغراب ليأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت . قال : ثم بعث الحمامة ، فجاءت بورق الزيتون بمنقارها ، وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت . قال : فطوقها بالخضرة التي في عنقها ، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان ، فمن ثم تألف البيوت ..

قال : فقال الحواريون : يا رسول الله ؛ ألا نتطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ !

قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟

فقال له : عُدْ بإذن الله . فعاد تراباً.

رواه الطبرى عن القاسم . قال : حدثنا الحسين . قال : حدثني حجاج ، عن مفضل بن فضالة ، عن على بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس - رضى الله عنهما -.

والعقل لا يستبعد هذا الخبر إلا في طول السفينة وعرضها..

ولا مخرج من هذا إلا بأن يكون الذراع تقديرياً يختلف من زمان إلى زمان.

ركوب السفينة :

وقد جعل الله لـ « نوح » علامة ، وهى : ما أشار إليه الحق - سبحانه وتعالى - فى قوله :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٢٩) ﴾

وحين جاء الوقت المعلوم دخل « نوح » بيت ابنه « سام » ، وله زوج اسمها : رحمة . وهى تخبز فى تنور[٣٠] مصنوع من حجر أسود ، فلما كان آخر رغيف فار الماء من التنور ، فصاحت قائلة : الله أكبر ، جاء ما وعد الله به من العذاب . وصدق نبى الله « نوح »[٣١].

وهذه علامة بيّنة . وهى من قبيل الإعجاز : أن يجىء الماء من قِبَل النار وهما متضادان .. !! سبحان الله !!

وكان « نوح » قد جهز كل ما يحتاج إليه فى السفينة من ماء وغذاء للناس والحيوان ووضعه فى السفينة .

ودعا الحيوان والطير والوحش والهوام فحشرت إليه ، واختار من كل منها زوجين اثنين ، وأركب ذلك كله السفينة .

وجعل الوحوش فى الطابق الأسفل ، والطيور فى الطابق الأعلى ..

ثم نادى فى قومه : النجاة النجاة .. فتبعه من آمن به .

وكان عدتهم – كما يقول ابن عباس – أربعين رجلاً وأربعين امرأة .

---

(٢٩) الآية ٤٠ من سورة هود .

(٣٠) التنور : نوع من الكوانين . تفعول من النار . ولم يعرف هذا الوزن إلا فى هذا الحرف . وقيل : التنور وجه الأرض . وهو فارسى معرب . وقيل : كل مفجَّر ماء تنور .. انظر لسان العرب (تنر) جـ ٥ ص ١٦٢ .

(٣١) ابن إياس فى بدائع الزهور .

وقال الطبرى : حمل فى السفينة من كل زوجين اثنين مما فيه الروح والشجر ذكر وأنثى .. وحمل بنيه الثلاثة : سام وحام ويافث ونساءهم وستة أشخاص آمنوا معه[٣٢].

يا سبحان الله !! أبعد هذا العمر المديد والجهاد المميت لم يستجب لـ « نوح » إلا بضعة نفر ؟ !

ألم يكن من عدل الله أن تطهر الأرض من الوثنية ، وتغسل بالطوفان حتى لا يبقى أثر للكفر والرجس .. ؟

وقال الثعلبى : كانوا سبعين ، و « نوح » وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم ، فجميعهم ثمانية وسبعون[٣٣].. وهو قريب من قول ابن عباس السابق ..

وقيل : إنه نقل معه جسد « آدم » ، وجعله معرضاً حاجزاً بين الرجال والنساء ..

وهذا يعنى أن قوم « نوح » كانوا بـ « الهند » ؛ حيث هبط « آدم » ومات ..

إبليس فى السفينة :

ومن القصص الطريفة فى ذلك ما يرويه الثعلبى والطبرى أن « نوحاً » - عليه السلام - حمل معه من الوحوش والحيوانات ، فكان أول شىء دخل السفينة الذَّرة - وهى : النملة - وقيل : الإوزة . وآخر حيوان دخل ؛ هو : الحمار . فتعلق إبليس بذيله ، فلم يقدر الحمار على الدخول ، فجعل « نوح » يقول له : ادخل ، فلا يستطيع ، حتى قال له : ادخل وإن كان

---

(٣٢) نقله الطبرى عن الأعمش .. انظر : تاريخ الطبرى .
(٣٣) نقله عن مقاتل ..

الشيطان معك .. فلما قال ذلك خلى إبليس سبيل الحمار ، فدخل ودخل إبليس معه ..

فلما رآه « نوح » قال له : ما أدخلك يا عدو الله ؟ قال : ألم تقل : ادخل ولو كان الشيطان معك ؟

قال له « نوح » : اخرج يا عدو الله . قال له : ما لك بد من أن تحملنى .. فكان - كما يزعمون - على ظهر الفلك(٣٤).

والعجيب هنا أن يكون إبليس على ظهر السفينة ، وابن « نوح » الذى ناداه فلم يستجب ليس على ظهرها ..

« نوح » ينادى ابنه :

وكان « نوح » - عليه السلام - قد نادى ابنه قائلاً :

﴿ يا بُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾(٣٥).

ولكن ابنه - وهو : يام ، أو : كنعان - رفض الاستجابة لهذا النداء ، وقال :

﴿ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ﴾(٣٦).

فقال له « نوح » :

﴿ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إلا مَنْ رَّحِمَ ﴾(٣٧).

ولجّ الأب فى النداء ، ولجّ الابن فى العناد .. حتى جاء أمر الله ، ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾(٣٨).

---

(٣٤) الثعلبى ص ٥٥ ، الطبرى ص ١٨٤ .
(٣٥) من الآية ٤٢ من سورة هود .
(٣٦) من الآية ٤٣ من سورة هود .
(٣٧) من الآية ٤٣ من سورة هود .
(٣٨) من الآية ٤٣ من سورة هود .

لقد كان الابن مع الكافرين ، وحقت لعنة الله عليه وعليهم ، وانقبضت رحمته الواسعة عنهم ؛ لأنهم لم يتركوا لهذه الرحمة منفذًا إليهم ..

غضب الرب الرحيم :

تقول السيدة عائشة[٣٩] - رضى الله عنها - قال رسول الله - ﷺ - : لو رحم الله أحداً من قوم « نوح » لرحم أم الصبى .

قال رسول الله - ﷺ - : كان « نوح » قد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله - عز وجل - حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ، ثم جعل يعمل سفينة ، فيمرون فيسألونه فيقول : أعملها سفينة ، فيسخرون منه ، ويقولون ، تعمل سفينة فى البر فكيف تجرى ؟ فيقول : سوف تعلمون .

فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء فى السكك خشيت أم الصبى عليه . وكانت تحبه حباً شديدًا ، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثى الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب به الماء : فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أم الصبى ..

السفينة فى الماء :

وأمر الله السماء أن تفتح أبوابها ، وأمر الأرض أن تفيض عيونها ، وظلت السماء تمطر بدون سحاب ، والعيون تفيض أربعين يوماً بدون انقطاع ، حتى غطى الماء قمة أعلى جبل على وجه الأرض .

وانطلقت سفينة « نوح » بمن عليها تمشى باسم الله مجراها ومرساها . وقد امتن الله على « نوح » ومن معه بقوله - تعالى - :

---

(٣٩) تاريخ الطبرى .

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾(٤٠).

« نوح » يناجي ربه :

وتذكر « نوح » – عليه السلام – ابنه فى هذه اللجج الطاغية ، فأخذ يناجي ربه .. وقد حكى القرآن الكريم ذلك ؛ قائلاً :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ(٤١) ﴾

لقد تفجرت عاطفة الأبوة فى « نوح » ، ولكنها استكانت أمام قوة الإيمان .. فالنسب الحقيقى فى منطق الدين هو الدين نفسه ، وأمامه تتلاشى كافة العلاقات الأخرى .

فحين خاطب الحق « نوحًا » – عليه السلام – بقوله – تعالى – : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ أدرك « نوح » أنه كان متسرعًا فى طلب النجاة لابنه ؛ إذ كيف يدعو على الكفار بالهلاك ، ثم يستثنى منهم ابنه ؟ ! ولذلك أسرع بالاعتذار ؛ قائلاً :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٤٢).

---

(٤٠) الآيتان ١١ – ١٢ من سورة الحاقة .
(٤١) الآيتان ٤٥ – ٤٦ من سورة هود .
(٤٢) من الآية ٤٧ من سورة هود .

لا مجاملة فى الدين :

إن الدين ينهى أن يجامل المسئول أحدًا مهما كانت صلته وقرابته به على حساب المصلحة العامة .. فالكل أمام القانون سواء .. وإذا كان الدين قد نهى عن تفضيل القريب المسلم لقرابته على غيره من ذوى الكفاءة ، فمن باب أولى ينهى عن تفضيل القريب غير المسلم وغير الكفء على المسلم الكفء فى تولى الأعمال ..

وما زالت صيحة النبى - ﷺ - التى أعلنها فى « مكة » حين أرادوا الاستشفاع فى حد من حدود الله - تعالى - فقال : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقَطَعْت يدها » .. ما زالت هذه الصيحة تدوى لتشهد العالم أجمع على أن العدالة الحقيقية هى من صنع الأديان ، وأن هذه العدالة هى ميزان حفظ الدول وسر تقدمها وأساس نهضتها .

وصدق الله - تعالى - إذ يقول : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾(٤٣).

والرسول - ﷺ - حيث يقول : « مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »(٤٤).

هذا ، وقد رويت أقوال متعددة فى معنى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ . وأشبهها بمقام النبوة الكريم هو : أنه ليس من أهل دينك الذين وُعِدت بنجاتهم .. وقد أضربنا عن ذكر الأقوال التى لا تليق بمقام النبوة .

السفينة على الشاطىء :

ظلت السفينة تجوب الأمواج المتلاطمة التى تحيط بها من جميع الجوانب .. ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾(٤٥). وما زالت المياه تفيض من

---

(٤٣) الآية ١٠١ من سورة المؤمنون .
(٤٤) انظر : كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق جـ ٢ ص ٩٢ - ٩٣ .
(٤٥) من الآية ٤٢ من سورة هود .

أعلى ومن أسفل ، ولا منظر لليابسة أمام الراكبين ..

وقد حدثت طرائف أشار إليها بعض المفسرين والإخباريين ، نستروح بذكرها ، استشهادًا على أن السفينة قد أصبحت مجتمعًا متكاملاً يحدث فيه ما يمكن أن يحدث فى أى مجتمع آخر من جِدٍّ وغيره .

وقد قضى أفراد السفينة فيها فترة طويلة قدرها بعض العلماء بسنة ، وقدرها آخرون بستة أشهر .

وكان « نوح » – عليه السلام – قد أصدر أمره ألا يلتقى ذكر بأنثى على ظهر السفينة . ووضع تابوت « آدم » حداً فاصلاً بين الرجال والنساء .

فيقال : إن حام بن نوح التقى بزوجه ..

فدعا أبوه عليه فاسودّ وجهه ووجه كل من كان من نسله ..

وذكر القرطبى فى تفسيره والطبرى فى تاريخه والدميرى فى حياة الحيوان وغيرهم أن الأرواث حين كثرت فى السفينة أوحى الله إلى « نوح » أن اغمز ذَنَب الفيل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فأفنياه .. ونظفت السفينة .

وقال « نوح » : لو غمزت ذنب الخنزير ، ففعل ، فخرج منه فأر وفأرة ، فلما وقعا أقبلا على السفينة وحبالها يقرضانها ويقرضان الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة ، فأوحى الله إلى « نوح » أن امسح جبهة الأسد فمسحها ، فخرج منها سنّوران فأكلا الفِئَرة ..

ولما حُمِل الأسد على السفينة قال « نوح » : يارب ؛ من أين أطعمه ؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحمى ، فهو الدهرَ محموم .

وحين أراد الله للسفينة أن ترسو وقد هلك جميع الكافرين غرقًا بعد أن غطى الماء الأرض وغمر الجبال وارتفع فوقها .. ولم يعد مكان ينجو إليه أىّ إنسان .

وكانت السفينة فى خلال ذلك تجوب الماء ، وظلت كذلك فترة طويلة ، أشرنا إليها فيما سبق .

قيل : إنهم ركبوها لعشر خلون من رجب ، واستوت على الجودى لعشر خلون من المحرم ، فهذه ستة أشهر . ولذلك سُنَّ صيام يوم عاشوراء كما يقول بعض الفقهاء .

وذكر ابن إسحاق(٤٦) ما يقتضى أنه أقام على الماء سنة كاملة ، ومرت السفينة بالبيت – أى : بمكانه ، فقد غمرته الماء بعد أن رُفع البيت – فطافت به سبعاً ، ثم مضت إلى جهة « اليمن » ، ثم عادت إلى الجودىّ لترسو .

والجودى : جبل بقرب « الموصل »(٤٧).

ولما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء ، وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقص ويغيض ويُدْبر حتى رئيت رءوس الجبال ..

فلما مضى – بعد ذلك – أربعون يومًا فتح « نوح » كوة الفلك ؛ لينظر ما صنع الماء ، ثم أرسل الغراب يستطلع الخبر فلم يعد ، فأرسل الحمامة فعادت تحلق وفى منقارها غصن زيتون ، وفى رجليها أثر الطين ، فقلدها الغصن(٤٨).. وأصبحت منذ ذلك الحين يطلق عليها : المطوقة ..

وأصبح غصن الزيتون رمزًا للسلام ..

ثم أرسلها بعد فترة أخرى ، فلم تعد إليه ، فعلم أنها وجدت لها مستقراً ..

---

(٤٦) تاريخ الطبرى .

(٤٧) تفسير القرطبى .

(٤٨) قصص الأنبياء لابن كثير .

وقال العلماء : وأوحى الله إلى الجبال : إنى مُهبط سفينة « نوح » على إحداكن ، فتطاولت الجبال كلها ماعدا الجودىّ لم يتطاول تواضعاً لله ، فاستوت السفينة عليه .

وقيل : إن الجبال تشامخت حتى لا يصيبها الغرق ماعدا الجودى فقد تطامن وخضع ، فعلا الماء فوق كل جبل خمسة عشر ذراعاً ماعدا الجودى الذى أكرمه الله .. وقال العلماء : إن الله أكرم ثلاثة جبال بثلاثة نفر .. أكرم الجودىّ بـ « نوح » ، وأكرم جبل طور سيناء بـ « موسى » ، وأكرم حراء بـ « محمد » - ﷺ -(٤٩).

وربما علّمنا تطامُنُ الجبل وخضوعه درسًا فى وجوب التواضع لله ، وقد ورد فى الأثر : من تواضع لله رفعه ، ومن تكبر عليه خفضه ..

وروى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : « ... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »(٥٠).

وأخرج البخارى قوله - ﷺ - : « إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد »(٥١).

ورست السفينة .. وقد حكى القرآن الكريم ذلك قائلاً بأسلوبه المعجز :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(٥٢).

وأوحى الله إلى « نوح » أن يهبط ..

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٥٣).

---

(٤٩) تفسير القرطبى .
(٥٠) رياض الصالحين حديث رقم ٦٠١ .
(٥١) ذكره القرطبى فى تفسيره . وانظر : رياض الصالحين حديث رقم ٦٠٠ .
(٥٢) الآية ٤٤ من سورة هود .
(٥٣) الآية ٤٨ من سورة هود .

وهذه الآية تشهد بأن البركة قد شملت كل المؤمنين إلى يوم القيامة ، كما أن العذاب حق على الكفار إلى يوم القيامة ..

حركة الحياة تمضى من جديد :

هبط « نوح » – عليه السلام – ومَنْ معه ، وذبح من الطيور والحيوانات ما يصلح أن يكون قرباناً لله .. وبدأت حركة الحياة تمضى كما كانت .. مع فارق واحد ؛ هو : أن الأرض يعمرها الآن أطهار ..

لقد طهرت الأرض من الشرك والكفر .. ولكنْ إلى حين ؛ فإن إبليس لم تنته مهمته بعدُ ..

وبدأ « نوح » الذى يطلقون عليه (آدم الصغير) يقدم نسلاً طاهراً مؤمناً .. يعرف الله ويوحده . فقد قال الله – تعالى – فى حقه :

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الآخِرِينَ . سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ ﴾(٥٤).

يقول المفسرون : إن « نوحاً » كان له ثلاثة أولاد ..

سام ؛ وهو : أبو العرب وفارس والروم واليهود والنصارى .

وحام ؛ وهو : أبو السودان من المشرق إلى المغرب والسند والهند والنوب والزنج والحبشة والقبط والبربر وغيرهم .

ويافث ؛ وهو : أبو اللان والصقالبة والترك والخزر ويأجوج ومأجوج(٥٥).

وقال بعض المفسرين : كان لغير « نوح » ممن آمنوا معه نسل أيضاً ؛ بدليل قوله – تعالى – : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا

---

(٥٤) الآيات ٧٧ – ٧٩ من سورة الصافات .

(٥٥) تفسير القرطبى عن سعيد بن المسيب .

شَكُورًا ﴾[٥٦]، وقوله – تعالى – : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾[٥٧].

وعلى هذا فمعنى قوله – تعالى – : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُم الباقِينَ ﴾ ؛ أى : دون ذرية من كفر فقد أغرقناهم ..

خصائص خص الله بها « نوحاً » :

لقد ترك الله الثناء الحسن على « نوح » فى كل أمة تأتى بعده ، والسلام عليه إلى الآبدين . وهذا ما يُفهم من قوله – تعالى – : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ ﴾ .. وقد قرئت كلمة « سلام » بالنصب فى بعض القراءات لملاحظة هذا المعنى ؛ أى : تركنا عليه سلاماً وثناء حسناً .

ولم يبعث بعده نبىٌّ إلا وأمر بالاقتداء به .. قال – تعالى – : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾[٥٨].

وكان « نوح » فى مقدمة أولى العزم من الرسل[٥٩]؛ وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد – عليهم الصلاة والسلام – .

وأثنى الله عليه حين قال فى حقه : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾[٦٠].

وذكر سعيد بن المسيب – رضى الله عنه – أنه من قال حين يُمسى : « سلام على نوح فى العالمين » لم تلدغه عقرب .. وذكروا أن لذلك أصلاً ؛ هو : أنه حين حمل « نوح » فى سفينته الوحوش والطيور وغيرها طمعت

---

(٥٦) الآية ٣ من سورة الإسراء .
(٥٧) من الآية ٤٨ من سورة هود .
(٥٨) من الآية ١٣ من سورة الشورى .
(٥٩) من حيث الترتيب الزمنى ، كما بينا من قبل .
(٦٠) الأيتان ٨٠ – ٨١ من سورة الصافات .

العقرب والحية فى الدخول ، فرفض « نوح » وقال لهما : إنكما سبب الضر والبلايا . قالا : احملنا ونحن نضمن ألا نضر أحداً ذكرك .. فمن قرأ حين يخاف مضرتهما : « سلام على نوح فى العالمين » نجا من ضررهما[٦١].

وجعل الله إبراهيم أبا الأنبياء من شيعته ، فقال – تعالى – : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾[٦٢].. ومعنى « شيعته » : أهل دينه ومنهجه وسنته ..

وهو أول نبى من أنبياء الشريعة ، وأول نذير لأهل الشرك .. ولقد أهلك الله أهل الأرض كلهم بدعائه[٦٣].. وقد شبه النبى – ﷺ – به عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فى شدته فى الحق ..

وجعله الله ثانى المصطفى – ﷺ – وتاليه فى الميثاق الذى أخذه من الأنبياء – عليهم السلام – فقال – تعالى – : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾[٦٤]، وقال – سبحانه – : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[٦٥]..

وهو أول نبى تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد نبينا محمد – ﷺ – .

وأعطاه الله الفلك ، وعلمه صنعتها ، وحفظه بما فيها ، وأجراها بقدرته .. ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾[٦٦]..

وسماه : شكوراً .. ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[٦٧].

---

(٦١) ذكره الثعلبى عن مالك بن سليمان الهروى .

(٦٢) الآية ٨٣ من سورة الصافات .

(٦٣) المقصود بمن أهلكهم الله : الكافرون .. بدليل قوله – تعالى – على لسان « نوح » – عليه السلام – : «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » . من الآية ٢٦ من سورة نوح .

(٦٤) من الآية ٧ من سورة الأحزاب .

(٦٥) من الآية ١٦٣ من سورة النساء .

(٦٦) الآية ١٤ من سورة القمر .

(٦٧) من الآية ٣ من سورة الإسراء .

وأكرمه بالسلامة والبركة ..

عظة وعبرة :

ولاشك أن فى قصة نجاة « نوح » - عليه السلام - ومن معه فى السفينة عبرة وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .. وصدق الله - تعالى - إذ يقول :

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾(٦٨).

وقد قال المفسرون : إن المقصود من قصص الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب زجرٌ لهذه الأمة عن الاقتداء بهم فى معصية الرسول ، ثم منَّ عليهم بأن جعلهم ذريّة من نجا من الغرق ..

و « الأذن الواعية » ؛ هى : التى تعقل عن الله ، وتنتفع بما تسمع من كتابه وسنة رسوله ..

روى مكحول أن النبى - ﷺ - حين نزلت هذه الآية قال لعلى - كرم الله وجهه - : سألت ربّى أن يجعلها أذنك يا على .. قال مكحول : فكان على - رضى الله عنه - يقول : ما سمعت من رسول الله - ﷺ - شيئًا قط فنسيته(٦٩).

وفى هذه الآية توبيخ لمن لا يتعظ ولا يتذكر ولا يعى(٧٠).. ونحن نسأل الله أن يجعلنا من الواعين الذاكرين الحافظين ..

وصية « نوح » لابنه :

ولا حاجة إلى القول بأن « نوحاً » - عليه السلام - قسم الأرض بين أولاده وهدفه من ذلك تعميرها .. فإن ذلك معروف .

---

(٦٨) الآيتان ١١ - ١٢ من سورة الحاقة .

(٦٩) ذكره القرطبى عند تفسير هذه الآية .

(٧٠) الزمخشرى فى الكشاف .

وقد أوصى « نوح » ابنه الذى توسم فيه الخلافة .. ونترك لهذا الحديث بيان تلك الوصية :

عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله – ﷺ – فجاء رجل من أهل البادية وعليه جبة سيحان مزرورة بالديباج ، فقال : ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس ، ورفع كل راع ابن راع . قال : فأخذ النبىّ – ﷺ – بمجامع جبته ، فقال : ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ؟ ! ثم قال : إن نبى الله نوحا – عليه السلام – لما حضرته الوفاة قال لابنه : إنى قاصّ عليك وصية .. آمرك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين آمرك بـ « لا إله إلا الله » ؛ فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة ، ووضعت « لا إله إلا الله » فى كفة رجحت « لا إله إلا الله » ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كانت حلقة مبهمة ضمتهن « لا إله إلا الله » ، وبـ « سبحان الله وبحمده » ، فإن بها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق .. وأنهاك عن الشرك والكبر .

قال : قلت : يا رسول الله ؛ هذا الشرك قد عرفناه ؛ فما الكبر ؟

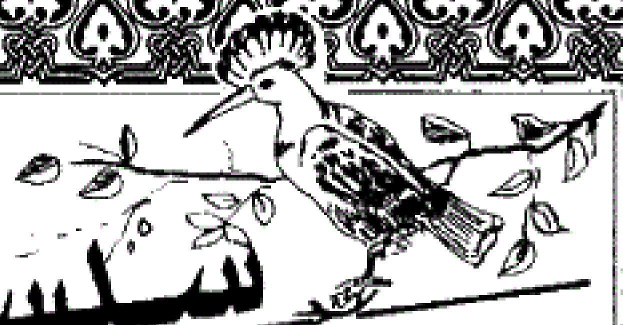
قال : الكبر سفه الحق وغمط الناس[٧١] .

والله أعلم ..

* * *

(٧١) ذكره ابن كثير فى قصص الأنبياء . ورواه مسلم ١ / ٦٥ ، وأبو داود : اللباس ٢٦ ، وأحمد ١ / ٣٨٥ ، ٤٢٧ .





٣
سلسلة القصص القرآني

هود وصالح
عليهما السلام

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

قصة
هود
عليه السلام

- تمهيد ..
- نسب «هود» وقومه ..
- أين كانوا يقيمون ؟..
- طغيانهم ..
- رسالة «هود» عليه السلام ..
- نزول الآيات ..
- العذاب الشديد ..
- اللجوء إلى «مكة» ..
- «هود» يعتزل قومه ..
- نجاة «هود» والمؤمنين برسالته..
- موضع العبرة فى القصة ..

بين يدى القصة :

قال الله – تعالى – :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(١).

تتضمن هذه الآيات الكريمة قصة « هود » – عليه السلام – مع قومه (عاد) ..

وقد ورد ذكر « هود » فى القرآن الكريم سبع مرات فى ثلاث سور ؛ هى : « الأعراف » و « هود » و « الشعراء »(٢).

---

(١) الآيات ٦٥ – ٧٢ من سورة الأعراف.

(٢) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٧٣٩ .

وسُمِّيت سورة « هود » باسمه خاصة ؛ مع تضمنها أنبياء آخرين ، ويبدو أن ذلك لدلالة معينة فى قصته ..

ولعل هذه الدلالة أن قوم « هود » هم أول من بدّلوا بعد أن طهر الله الأرض من الرجس والشرك ، فأعادوا بذلك بدعة الكفر من جديد .. ولذلك تبعتهم اللعنة ؛ مصداقًا لقوله – تعالى – : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾[٣].

نسب « هود » – عليه السلام – وقومه :

ذكر بعض العلماء أنه : هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .. وقالوا : إن « هودا » له اسم آخر ؛ هو : عابر[٤].

وقيل : إن نسبه هو : هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح[٥].

أما « عاد » – اسم قومه – فهو : عاد بن عوص المذكور فى النسب السابق ..

وقال صاحب تفسير المنار : أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن طريق عطاء عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال : كان « هود » أول من تكلم العربية .

وولد لـ « هود » أربعة ، وهم : قحطان ، ومقحط ، وقاحط ، وفالغ ؛ وهو أبو مضر .

وأخرج من طرق أخرى أن « عادا » كانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله ، واتخذوا أصناماً على مثال « ود » و « سُوَاع » و « يغوث » و « يعوق » و « نسر » ..

---

(٣) الآية ٦٠ من سورة هود .
(٤) قصص الأنبياء لابن كثير .
(٥) تاريخ الطبرى .

فاتخذوا صنماً يقال له : « صَمُود » ، وصنماً آخر يقال له : « الهتّار » .

و « الصمود » من الصمد ؛ الذى يتوجه إليه فى الحاجة .. و « الهتّار » مبالغة من الهتر ؛ يقال : هتره ؛ أى : أخذ بعقله . ويعنون بذلك أن الذى لا يعبده يسلب عقله ورشده .

أين كانوا يقيمون ؟

فبعث الله « هودا » إلى هؤلاء القوم ، وهو من أوسطهم نسباً وحسباً ، وأصبحهم وجهاً . وكان فى مثل هيئاتهم أبيض الوجه ، ظاهر الوضاءة ، طويل اللحية ..

وكانوا يسكنون الأحقاف ، وهى : الرمل ما بين « عمان » إلى « حضرموت » ، مطلة على البحر ، يقال لها : الشَّحَر . واسم واديهم : « مغيث » .

وكانوا يقطنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام .. وقد وصفها الله - تعالى - بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ ﴾(٦).

أى : عادُ إرم ، وهى : عادٌ الأولى .

وقيل : إن « إرم ذات العماد » هى : عادٌ الأخرى . وهى : عاد شدّاد ولقمان(٧).

و « هود » نبى عربى .. وقد ورد عن النبى - ﷺ - فى حديث أبى ذر الذى أخرجه ابن حبان فى صحيحه وذكر فيه الأنبياء والمرسلين ، قال :

---

(٦) الآيات ٦ - ٨ من سورة الفجر .
(٧) تفسير القرطبى .

« ... منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيُّك يا أبا ذر .. » ..

طغيانهم :

وكان قوم « هود » إلى جانب إشراكهم بالله واتخاذهم الأصنام قد أفسدوا فى الأرض وطغوا وتجبروا ، كما أخبر بذلك القرآن الكريم : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾(٨)، وقهروا الأرض كلها بقوتهم التى خولها الله لهم ، وهى نعمة استعملوها فى الكفر به سبحانه ..

ذلك أن الله أعطاهم بسطة فى الجسم .. كان طول الرجل منهم مائة ذراع ، وأقصرهم طوله ستون ذراعاً(٩).

ومنحهم أعماراً مديدة .. وكان حق هذه النعمة الشكر وإفراد الله وحده بالعبادة ، واستعمال القوة فيما وضعت له ، ودفع الظلم ، وردّ الشر ، وتعمير الأرض ، ونشر العدل ..

ولكنهم استعملوا هذه النعم فى الشرك والظلم والبطش .. فكان أن أرسل الله إليهم « هودا » يُنْذرهم ويُحَذرهم ..

رسالة « هود » – عليه السلام – :

نزل جبريل – عليه السلام – إلى « هود » . وقال له : إن الله قد بعثك إلى قوم « عاد » فأنذرهم وأعلمهم أنى قد أمهلتهم دهراً طويلاً ، وأعطيتهم من القوة ما لم أعطه لأحد من قبلهم ، وجعلتهم ملوكًا على أسرّة من الذهب ، وجعلتهم من أطول الناس أعمارًا . فامض إليْهم وادعهم إلى التوحيد ؛ ليرجعوا عن عبادة الأوثان ..

---

(٨) الآيتان ١١ – ١٢ من سورة الفجر .

(٩) بدائع الزهور لابن إياس عن وهب بن منبه .

فجاء إليهم « هود » .. وينقل القرآن الكريم إلينا تبليغه لرسالة الله إليهم ، حيث يقول :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(١٠)

لقد ذكرهم بما هم فيه من نعيم يتمثل فيما أقاموه من مبانى عالية فى كل مكان (ريع)(١١) وقصور شاهقة ، وحذرهم عاقبة بغيهم وعدوانهم ، وخوّفهم عذاب الآخرة ، ودعاهم إلى المحافظة على النعمة التى أنعم الله بها عليهم.

ولكنهم قابلوه بكل سوء ، وأغلظوا له فى الجواب .. حيث خاطبوه بقولهم : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾(١٢)

كيف يتركون ما وجدوا آباءهم عليه ؟ وكيف يصدقون أن هناك عذابًا ينتظرهم؟!

وأنّى يسمعون وعظًا وقد صموا آذانهم واستكبروا وعتوا عن أمر ربهم؟!

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾(١٣).

---

(١٠) الآيات ١٢٤ - ١٣٥ من سورة الشعراء.

(١١) الريع : الطريق المنفرج والسبيل سلك أم لم يسلك . والمكان المرتفع .

(١٢) الآيات ١٣٦ - ١٣٨ من سورة الشعراء.

(١٣) الآية ١٥ من سورة فصلت.

وكيف يستجيبون لنبيهم « هود » - عليه السلام - وقد أصروا على أن يسيروا سيرة آبائهم فيما ورثوه من عقائد وعادات ؟ !

وحاول تذكيرهم بما حدث لقوم « نوح » - عليه السلام - دون جدوى ..

سخروا منه لأنه رجل مثلهم يزعم أنه رسول من رب العالمين .. فالرسول في نظرهم لا ينبغي أن يكون بشرًا ، بل يجب أن يكون ملكًا .. وهذا هو منطق الكفار في كل زمان ومكان .. ولذلك قال لهم :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ ﴾ ؟ !

ولماذا تعجبون ؟ ! إن العجب - كل العجب - أن يكون الرسول ملكًا .. ،

وهل هناك ملائكة تمشي بين الناس يرونها ويحادثونها .. ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾[١٤] ..

وقد ناقش القرآن الكريم هذه القضية ، وبدد ما حولها من شبهة ، حيث يقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[١٥] .

ثم ذكرهم « هود » مصير مَنْ كان قبلهم من المكذبين ..

إنهم خلفاء قوم « نوح » .. وماذا حدث لقوم « نوح » ؟

إن حديثهم عبرة لمن يعتبر ، ونهايتهم مُزْدَجَر لمن يزدجر ..

---

(١٤) الآية ٩٥ من سورة الإسراء .

(١٥) الآيتان ٨ - ٩ من سورة الأنعام .

ولكنهم كانوا فى صمم ، بل عادوه وامتهنوه ، وسخروا منه وآذوه .. وقالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾[16].

واتهموه بأنه أصيب بمسّ من الجنون .. لقد استلبت الآلهة عقله .. أليس من يعادى « هتّارا » يهتره ؟ ![17].

وتحدّوه قائلين – بعد أن أنذرهم بعذاب الله – : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » ..

نزول الآيات :

وحين يئس «هود» – عليه السلام – من قومه دعا الله عليهم أن يعقم نساءهم ، فلم تحمل امرأة منهن فى هذه السنة .

فشكوا « هودا » إلى ملكهم ، وقالوا : إن « هودا » أعقم نساءنا ، ونخشى أن يكون صادقاً فيما يوعدنا به من عذاب[18].

فقال لهم « هود » : هذا إنذار من الله ، وغضب منه عليكم ، فانتبهوا من نومكم ، وتيقظوا لمصيركم ، واتركوا الجدال والخصام فى أصنام اتخذتموها آلهة من دون الله وأطلقتم عليها أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ..

ولكنهم لم يزدادوا إلا إعراضًا وعنادًا ، واشتدوا فى إيذائه ، وأمعنوا فى السخرية منه ..

فلما يئس منهم دعا الله عليهم وبرىء من ذنبهم وقال لهم :

﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾[19].

---

(١٦) من الآية ٥٣ من سورة هود.

(١٧) أى يأخذ بعقله. و «هتار» هذا أحد معبوداتهم من دون الله ؛ كما قدمناه.

(١٨) بدائع الزهور لابن إياس.

(١٩) من الآية ٥٧ من سورة هود.

العذاب الشديد :

فأمسك الله عنهم القطر سبع سنوات حتى أجدبت الأرض ، وجف الزرع ، وهلك الضرع ، وعزّت الأقوات ..

ولو كان فى عقولهم رُشْدٌ لتابوا إلى الله ، وذهبوا إلى « هود » يؤمنون بدعوته ، ويرجون أن يستغفر لهم الله فيغفر لهم ويرسل السماء عليهم مدرارًا ..

ولكنهم لجأوا إلى آلهتهم ، وانصرفوا إلى ما اعتادوا عليه من ضلال .

اللجوء إلى « مكة » :

وكان من عادتهم إذا انتابهم القحط أن يرسلوا وفدًا منهم إلى « مكة » يدعون الله عند مكان البيت الحرام ، فيسقون فى شهرهم .

فاختاروا منهم سبعين رجلاً تحت إمرة واحد منهم يقال له : « قيل بن عنز بن لقيم » .

وكانت « مكة » - فى ذلك الوقت - يتزعمها رجل يقال له : « معاوية ابن بكر » ، أمُّهُ من قوم « عاد » .

فمر الوفد القادم من « عاد » على معاوية ، فنزلوا عنده ، فأكرمهم وأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر . وله مغنيتان يطلق عليهما الجرادتان ، فكانتا تغنيانهم ..

وكان معاوية قد عرف سبب مجيئهم من أنهم جاءوا يستقون لقومهم ، والأمر يقتضى السرعة ، ولكنهم جاءوا فى شهر ، وأقاموا عنده شهرًا .. وها هم أولاء قد انصرفوا عما جاءوا لأجله إلى اللهو واللذة .. وأخذته الشفقة على قوم أمِّهِ .. واستحيا أن يأمرهم بالانصراف إلى الكعبة طلبًا للسقيا .. فصنع شعرًا وأمر جاريتيه أن تغنيا به .. قال :

ألاَ يا « قَيْلُ » وَيْحَكَ قم فَهَيْنِم لعل اللّه يُصْبِحُنَا غَمَامَا
فيسقى أرض «عادٍ» ؛ إن «عادًا» قد امسَوْا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد ، فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهُمُ بخيرٍ فقد أمست نساؤهُمُ أيامى
وإن الوحشَ يأتيهم جِهَارًا ولا يخشى لـ « عادىًّ » سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم نهاركُمُ وليلكُمُ تماما
فقُبِّح وفدكُمْ من وفد قوم ولا لُقُّوا التحية والسلاما[٢٠]

حين غنّت الجاريتان ذلك انتبهوا لما جاءوا من أجله ، وتوجهوا إلى مكان الكعبة ، وطافوا ودعوا ..

وأرسل الله ثلاث سحابات : بيضاء ، وحمراء ، وسوداء ..

ونادى منادٍ من السماء : اختاروا لأنفسكم ..

فاختار كبيرهم السحابة السوداء ، وهو يظن أنها أملأ السحابات الثلاثة ماء ..

فنودى : اخترت رمادًا رِمْدَدا ، لا تبقى من « عاد » أحدًا ، لا والدًا ولا ولدًا ، إلا جعلته هَمَدًا ، إلا بنى اللوذية الهُمدا .. وهم بطن من « عاد » كانوا مقيمين بـ « مكة » ..

وسبقت السحابة السوداء تجرى نحو الأحقاف ..

فلما رآها قوم « هود » فرحوا بها واستبشروا قائلين : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾[٢١].. فنودوا من قبل الحق – سبحانه – : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾[٢٢]..

---

(٢٠) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٦١ .
(٢١) من الآية ٢٤ من سورة الأحقاف .
(٢٢) الآيتان ٢٤ – ٢٥ من سورة الأحقاف .

حديث يشير إلى هذه القصة :

ذكر الرواة أن الحارث بن يزيد البكرى قال للنبى - ﷺ - : أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد . فقال النبى - ﷺ - : هيه وما وافد عاد ؟ - وهو أعلم بالحديث - .

قال الحارث : قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له : « قيل » ، فمر بـ « معاوية بن بكر » ، فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما : الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال « تهامة » ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه .

فمرت به سحابات سود ، فنودى منها : اختر ، فأوما إلى سحابة سوداء ، فنودى منها : خذها رمادًا رمددًا ، لا تبقى من عاد أحدًا .

قال : فما بلغنى أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا من الريح حتى هلكوا(٢٣) .

« هود » يعتزل قومه :

وأول من أبصر ما فى السحاب وعرف أنها ريح وليست سحابا . امرأة من « عاد » يقال لها : « مهد » . فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قيل لها : ما رأيت يا « مهد » ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها شبه النار ، أمامها رجال يقودونها .

وكان « هود » - عليه السلام - ومن آمن معه قد اعتزل فى حظيرة بعيدًا عن القوم .

---

(٢٣) ورد هذا الخبر فى حديث صحيح ذكره الطبرى وابن كثير . ورواه الترمذى ، وأحمد فى مسنده .

وأقبلت هذه الريح مدمدمة مزمجرة ، تقتلع فى طريقها الأشجار والخيام وتقوض البيوت، وتقذف الأحجار والصخور[٢٤].

وجعلت -كما يقول القرطبى- تحمل الفساطيط[٢٥]، وتحمل الظعينة فترفعها كأنها جرادة ثم تضرب بها الصخور.

وحاول العاديُّون أن يعتصموا ببيوتهم، فدخلوها وأغلقوا أبوابها عليهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم..

وقال ابن عباس -رضى الله عنهما-: وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ولهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال وحملت جثثهم فألقتهم فى البحر .

وقد وصف الله الريح بقوله - سبحانه - : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[٢٦].

ووصف ما فعلته بهم فى قوله - تعالى - :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾[٢٧].

ومعنى «حسوما»: متتابعة لا تفتر ولا تنقطع، فحسمتهم وقطعتهم.

وقد ظهر تتابعها فى أنها بدأت مع طلوع الشمس من أول يوم وانقطعت مع غروب الشمس من آخر يوم .

ويقال: إن هذه الأيام سميت بأيام العجوز.. وسبب ذلك أن عجوزًا من قوم «عاد» دخلت سربًا تعتصم به فتبعتها الريح، فقتلتها فى اليوم

---

(٢٤) قصص الأنبياء لابن كثير .

(٢٥) جمع (فسطاط): وهو: البيت من الشَّعر. انظر: لسان العرب (فسط) جـ ٩ ص ٢٤٦.

(٢٦) الآية ٢٥ من سورة الأحقاف .

(٢٧) الآيات ٦ - ٨ من سورة الحاقة .

الثامن.. وقيل: سميت بذلك؛ لأنها وقعت في عجز الشتاء في « آذار »[٢٨].

ووصف القرآن الكريم هذه الأيام بأنها نحسات في قوله - تعالى - :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[٢٩].

و «الريح الصرصر»: الباردة الشديدة الصوت والهبوب .. و «الصرة»: الصيحة، فقد وصف الأيام بأنها نحسات؛ أي: مشئومات.

بدأت من يوم الأربعاء إلى الأربعاء ..

وقال ابن عباس : ما عُذّب قوم إلا في يوم الأربعاء ..

وقيل في وصفها بأنها متتابعات ، وقيل : باردات ..

ومن الملاحظ أن هذا الوصف نفسه قد جاء في موضع آخر من القرآن الكريم ؛ حيث يقول الله - سبحانه - :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ . تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[٣٠].

نجاة « هود » والمؤمنين برسالته :

لقد أهلكت الريح عادًا .. ونجا « هود » - عليه السلام » ومن معه من المؤمنين ..

ولم تُبق الريح من قوم «عاد» إلا من كانوا يستسقون بـ «مكة» لقومهم.. وقد كانوا يقيمون -كما عرفنا- عند معاوية بن بكر..

---

(٢٨) تفسير القرطبي عن وهب بن منبه.

(٢٩) الآية ١٦ من سورة فصلت.

(٣٠) الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة القمر.

فأقبل وافد إليهم ، فسألوه عن « عاد » فأخبرهم بهلاكهم جميعًا ..

قالوا له : فأين خلفت « هودا » ؟

قال : خلفته وأصحابه بساحل البحر ..

فشكّوا فيما أخبرهم به .. فقالت هرملة بنت بكر : صدق ورب الكعبة ، ومنور ابن أخى معاوية معهم ..

وقيل لمرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيْل بن عنز ، وهم رؤساء الوفد الذى كان قد ذهب ليستقى لـ « عاد » ، قيل لهم : اختاروا لأنفسكم ..

فقال مرثد : اللهم أعطنى برًا وصدقًا .. فأعطاه الله ذلك .

وقال قيل : أختار ما أصاب قومى .. فهلك كما هلكوا .

وقال لقمان : اللهم أعطنى عمرًا . فأعطاه الله عمر سبعة نسور ، يخلف أحدها الآخر ، وسمى آخر نسر منها « لبدًا » ، فكان أشد محافظة عليه ، وأكثر مخافة عليه من الهلاك . وهلك « لُبَد » ، وهلك لقمان .. وفى ذلك يقول الشاعر :

أضحت قفارًا وأضحى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذى أخنى على لُبَد

وبقى « هود » – عليه السلام – ما شاء الله له أن يبقى ، ثم مات وعمره مائة وخمسون عامًا ، ودفن بـ « مكة » – فيما يروى – . وقيل : دفن بـ « حضرموت »(٣١).

موضع العبرة فى قصة « عاد » :

وموضع العبرة فى قصة « عاد » أنهم اغتروا بقوتهم ، وغفلوا عن ذكر ربهم ، فبغوا وعصوا ، واستكبروا وجحدوا أمر ربهم ، واتخذوا آلهة من دونه ..

---

(٣١) قصص الأنبياء للثعلبى .

فكانَ هذا جزاءهم ..

ثم إنهم حاولوا الاستسقاء كعادة أهل البادية حين يبطىء عليهم المطر ، ولكنه كان استسقاء على غير إيمان .. فضاع الدعاء هباء .. والله لا يتقبل إلا من المتقين .. وهو – سبحانه – يقول : ﴿ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾(٣٢).

والذى بعثوه ليستسقى لهم هو الذى اختار العذاب لهم ، فقد نودى ليختار إحدى السحب ، فاختار ما يظنه نجاة لقومه ، ولكنه كان الهلاك لهم ، فقد أعمى الله بصيرته .. إنه اختار دون أن يفوض الأمر لله ، فوكله الله لنفسه .. ومَنْ وُكِلَ لنفسه فقد خسر وهلك .. وقديمًا قال الحكماء :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهادُهُ

ومن الأدعية المأثورة : « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك » ..

وكان النبى – ﷺ – يستعيذ من الريح ويستبشر بالرياح .. وما جاءت الريح فى القرآن الكريم إلا للعذاب .. وما جاءت الرياح إلا للخير ..

والله أعلم ..

* * *

(٣٢) من الآية ٥٠ من سورة غافر.

قصة صالح عليه السلام

- تمهيد ..
- من هم « ثمود » ..
- نسب صالح ..
- استخلاف « ثمود » بعد « عاد » ..
- رسالة صالح إليهم ..
- الآية التي طلبوها من صالح ..
- استجابة الله لدعوته ..
- صراع بين الحق والباطل ..
- الناقة ..
- عقرها ..
- عدوان ثمود ..
- وَحَقَّ وَعيد الله ..
- مرور النبي - صلى الله عليه وسلم - بـ « الحجر » ..


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تمهيد :

قال الله - تعالى - :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾(١)

قصت هذه الآيات الكريمة بأسلوبها المعجز قصة نبى الله « صالح » - عليه السلام - مع قومه « ثمود » .

وإليك - أيها القارىء الكريم - ما قاله العلماء ورواة الأخبار حول تفصيل هذه القصة ..

---

(١) الآيات ٧٣ - ٧٩ من سورة الأعراف .

مَن هم « ثمود » ؟

« ثمود » قبيلة من العرب ، سميت باسم جدهم : ثمود بن عامر بن إرم ابن سام بن نوح .. ويرى بعض أهل اللغة أنهم سموا بذلك ؛ لقلة مائهم ، فـ « الثمد » ؛ هو : الماء القليل .

وكانت مساكنهم « الحِجْر » ، مكان بين « الحجاز » و « الشام » إلى وادى القرى . وهي معروفة إلى الآن . وقد سميت سورة فى القرآن الكريم بهذا الاسم .

وورد ذكر « ثمود » فى القرآن الكريم ستًا وعشرين مرة[٢].

نسب « صالح » :

أما نبيهم « صالح » – عليه السلام – فهو : صالح بن عبيد بن أسيف ابن ماشخ بن عبيد بن حازر بن ثمود .. ذكر ذلك الحافظ البغوى .

وزاد فى فتح البارى بعد « ثمود » : ابن عابر بن آدم بن سام بن نوح[٣].

وورد ذكر « صالح » فى القرآن الكريم تسع مرات[٤].

استخلاف « ثمود » بعد « عاد » :

ذكر رواة الأخبار والمفسرون أن « عادًا » بعد أن هلكت جاءت بعدهم « ثمود » وعمرت مساكنهم وأقامت فيها . وازداد أهل « ثمود » فى العمران ،

---

(٢) وذلك فى سور : (الأعراف) و (التوبة) و (هود) و (إبراهيم) و (الإسراء) و (الحج) و (الفرقان) و (الشعراء) و (النمل) و (العنكبوت) و (ص) و (غافر) و (فصلت) و (ق) و (الذاريات) و (النجم) و (القمر) و (الحاقة) و (البروج) و (الفجر) و (الشمس) .. انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ١٦٠ .

(٣) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٤٦ .

(٤) وذلك فى اربع سور ؛ هى : (الأعراف) و (هود) و (الشعراء) و (النمل) .. انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤١٠ – ٤١١ .

وشيدوا ما لم يشيد من قبل ؛ واتخذوا من الجبال بيوتًا ، فكانوا ينحتون الصخور ويجوفونها ويجعلونها مساكن ، إلى جانب ما أقاموه فى السهول من قصور شامخة وصروح عالية .

رسالة « صالح » إليهم :

وكان « صالح » من أوسط قومه حسبًا وأشرفهم نسبًا ..

فلما رأى الله ما عليه « ثمود » من البغى والطغيان والشرك اختار « صالحًا » رسولاً إلى قومه ، يدعوهم إلى التوحيد ، ويحثهم على الفضائل ..

لقد قلّد أهل « ثمود » من كان قبلهم فى عبادة الأصنام .

وكان لهم عيد يحتفلون فيه بأصنامهم ؛ يخرجون إليها ، ويقدمون لها القرابين ..



الآية التى طلبوها من « صالح » :

فلما دعاهم « صالح » — عليه السلام — إلى الله ، وحثهم على ترك عبادة الأصنام قالوا له : يا « صالح » ، لا نؤمن لك بدون آية تثبت صدقك وتؤيد دعوتك .

فقال لهم : أية آية تريدون ؟

قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا فندعو آلهتنا ، وتدعو إلهك . فإن استجاب لك إلهك صدقناك وآمنا بك .. وإن استجابت لنا آلهتنا تركناك وكذبناك ..

فأجابهم « صالح » لذلك وخرج معهم ..

فطافوا بأوثانهم ، وتقربوا إليها ، وصلوا لها ، ودعوا عندها ألا يستجاب لـ « صالح » فيما يدعو به ..

وبعد أن فرغوا من دعائهم لآلهتهم قالوا له فى تحدّ واضح : هيا يا « صالح » فادع ربك ..

اطلب من ربك أن يخرج لنا من هذه الصخرة – وأشاروا إلى صخرة منفردة عن الجبال فى ناحية « الحجر » – ناقة مخترجة جوفاء وَبْراء عشراء[٥]. فإن فعلت ذلك – يا « صالح » – وجاءت الناقة آمنا بك وصدقناك .

فأخذ عليهم « صالح » – عليه السلام – العهد والميثاق بذلك .

استجابة الله لدعوته :

وأقبل « صالح » على ربه يدعوه ويبتهل إليه ، فإذا بالصخرة المشار إليها تتمخَّضُ عن ناقة جمعت تلك الأوصاف التى طلبوها ..

ثم تنجب فصيلاً يشبهها فى العِظَم ..

حين رأى القوم هذه الآية ماثلة أمامهم أخذهم العجب واستولى على ألبابهم الدهش ، وأصاب كثيرًا منهم الذهول .. ولكنهم لم يحيروا جوابًا أمام هذه المعجزة الخارقة .

فآمن بعض القوم ..

وأراد الباقون أن يؤمنوا .. ولكن حال دونهم كبراؤهم الذين جرت العادة أن يصدوا الناس عن الحق ، ويقفوا فى طريق الهداة والمصلحين .. لأن فى الدعوة الجديدة خطرًا يهدد مصالحهم ، أو يقضى على نفوذهم ، أو يحول بينهم وبين ما يجنون من منافع واستغلال ..

لقد كان هؤلاء الكبراء يتولون أمر الأوثان والأنصاب وهى طريق الثراء الذى يتقلبون فيه ، والنفوذ الذى يتمتعون به ، ويتحكمون من خلاله فى رقاب العباد .

---

(٥) المخترجة : ما شاكلت البخت من الإبل . والجوفاء : العظيمة . والوبراء : كثيرة الوبر . والعشراء : التى مضى على حملها عشرة أشهر .

وهكذا فى كل زمان ومكان نرى هذه الطائفة المستغلة المتسلطة تزيّف الباطل وتزينه ، وتسفه الحق وتوهنه ، وتضع العراقيل فى طريق الصواب ، وتملأ الأرض أمام المصلحين بالأشواك والحراب ..

حاول هؤلاء الكبراء صرف الذين آمنوا بـ « صالح » عن إيمانهم ، فأقبلوا عليهم يجادلونهم ويهددونهم بدون جدوى .

صراع بين الحق والباطل :

بدأ الصراع بين الحق والباطل بالجدال ..

قال الذين استكبروا للمؤمنين :

« أتعلمون أن صالحًا مُرْسَل من ربّه ؟ » ..

وهم يريدون بذلك أن يزرعوا الشك فى نفوسهم ، وأن يزعزعوا إيمانهم ..

ولكن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب تمكن واستحكم ، فلا يستطيع أحد أن ينتزعه ، ولا يقوى باطل على زعزعته ..

فأجاب هؤلاء المؤمنون بكل ثقة :

إنا بالذى جاء به « صالح » مؤمنون ومصدقون ..

عند ذلك لم يجد هؤلاء المستكبرون بُدًّا أمام هذا الإصرار من جانب المؤمنين إلا أن يُصروا هم على كفرهم وعنادهم .. فقالوا :

« إنا بالذى آمنتم به كافرون » ..

وحين يئس هؤلاء المعاندون من المؤمنين بـ « صالح » اتجهوا صوب « صالح » نفسه ، يجادلونه ويناقشونه ؛ علهم يستطيعون حمله على أن يترك دعواه ، أو يعدل عن موقفه ..

واستعملوا معه أسلوب الإغراء يستميلونه به ..

قالوا له : إنا ندّخرك لملماتنا ، ونلجأ إليك فى شدائدنا ، ونُعِدُّك لأن تكون السيد المطاع والقائد الشجاع ، فإذا بك تخرج علينا بأمر غريب ، ودعوة لا تلتقى معها آراؤنا ولا تستقيم عليها أفكارنا ، ولا تتفق مع ما ورثناه من آبائنا وأجدادنا ، فكيف نقلدك السيادة فينا بعد ذلك ؟ !

وهذا ما حكاه القرآن الكريم فى قوله - تعالى - :

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[6].

ولكنه يرد عليهم فى ثقة بالغة ويقين صادق فيقول :

﴿ .. يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾[7].

لا يا قوم .. ليس الأمر كما تظنون ، ولم آتكم بشىء غريب ، بل هو الحق الذى أدعوكم إليه ، وإنى لعلى ثقة مما أقول ، يؤيدنى فيه منطق سليم ، ويأمرنى به رب حكيم ، هو خالق كل شىء ، وبيده ملكوت كل شىء ، وقد آتانى النبوة والرسالة ، وذلك تفويض منه - سبحانه - بأن أخاطبكم بما أدعوكم إليه ، ولا ناصر لى دونه إن أنا فرطت فيما كلفنى إياه وأمرنى به ، ولن أكتسب بهذا التفريط غير الخسران والخذلان ..

ثم انظروا - يا قوم - إلى هذه الآية التى جئتكم بها ، وهى ما طلبتموه منى .. لقد أيد الله قولى باستجابته لما دعوت .

أفلا تصلح هذه الآية دليلاً على صدق قولى وشاهدًا على حقيقة ما أدعوكم إليه ؟ !

---

(٦) الآية ٦٢ من سورة هود .
(٧) من الآية ٦٣ من سورة هود .

واشتد غيظ هؤلاء المعاندين ، وأدركوا أن تلك الآية التى جاء بها « صالح » - وهى الناقة - مَثَل محسوس شاهدٌ على صدقه ، ودليل ملموس على دعواه ..

فكيف يُبطلون هذه الدعوة ؟ وكيف يطمسون هذا المثل ؟

الناقة :

سبق أن أشرنا إلى أن الناقة كانت معجزة لـ « صالح » - عليه السلام - تحداه قومه أن يأتى بها ، فجاء بها كما طلبوا ، وبالأوصاف التى وصفوا ..

اشترط « صالح » عليهم أن يتركوا للناقة بئرًا كانوا يستقون منها فيما يستقون من آبار ، يتركونها يومًا للناقة ويومًا لهم .. فى يومها تشرب منها وحدها هى وفصيلها ، ويأخذون نصيبهم من الماء فى يوم آخر ..

﴿ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[8].

فإذا كان يومها تغدو إلى البئر وتضع رأسها فيها .. وكان الماء يرتفع إليها ، فما تترك البئر حتى يفرغ الماء ، وكانت هذه البئر يطلق عليها بئر الناقة ، ثم تروح إليهم فيحلبون من لبنها ما شاءوا ، فيشربون ويملئون أوانيهم ويدخرون ..

وكانت حين تعود من البئر تعود من طريق آخر غير الذى وردت منه ؛ لأن طريق الورود ضيق لا يتسع لها بعد صدورها وقد امتلأ بطنها من الماء[9].

فكانت عادة قوم « صالح » أن يشربوا فى يومهم الماء ، وفى يوم الناقة اللبن الذى يأخذونه منها ..

---

(٨) من الآية ١٥٥ من سورة الشعراء .

(٩) الثعلبى .

وكان فى إمكانهم أن يستغنوا بذلك عن الماء ، فلا شىء أروى من اللبن ولا أطيب ..

وقد ورد أن النبى – ﷺ – كان إذا تناول طعامًا أو ذاق ذواقًا ؛ قال : الحمد لله ، اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيرًا منه .. ما عدا اللبن فإنه كان يقول بعد تناوله : الحمد لله ، اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ..

وفى ذلك إشارة إلى فضله وغنائه ، فهو يغنى عن غيره ، ولا يغنى غيره عنه ..

لقد تفضل الله عليهم بذلك ، وكان من واجبهم الشكر على هذه النعمة ، ولكنهم جحدوها وملّوها .

وإذا ملّ الإنسان النعمة جحدها ، ومتى جحدها فقد عرّضها للزوال وقد قال الحكماء : من شكر النعمة فقد قيدها بعقالها ، ومن جحدها فقد عرضها لزوالها ..



عقرها :

أصبحت هذه الناقة شجًا فى حلوق المعاندين ، وأجمعوا على التخلص منها ، وأخذوا يتلمسون الأسباب لذلك ..

من هذه الأسباب – فى زعمهم – : أن الناقة تنفرد وحدها يومًا بالبئر ، فلا يستطيع أحد أن يقترب من البئر فى يومها ..

وأنها إذا كان الحر خرجت إلى ظهر الوادى فتهرب منها أغنامهم وأبقارهم وإبلهم نظرًا لعظم خلقها ..

وإذا نزلت إلى بطن الوادى نفرت كذلك الماشية منها ..

ولكن هذه الأسباب ليست وحدها كافية فى التعرض لهذه الناقة التى أصبح لها شأن بينهم ..

ولا شك أن الناقة قد أحاطت بها هالة من التوجس تحول دون الاقتراب منها ..

إن عقر الناقة يحتاج إلى بواعث يهون معها تخطى الصعاب واقتحام العقبات ..

وتهيأت هذه البواعث حين تدخلت المرأة فى هذا الشأن ..

كانت هناك عجوز اسمها « عنيزة » لها بنات حسان ومال وماشية كثيرة .

وكانت امرأة أخرى اسمها « صدوق » جمعت بين الجمال والغنى ..

وكانت هاتان المرأتان من أشد أعداء « صالح » – عليه السلام – .

فالأولى عادَتْه ؛ لأن الناقة ضايقت ماشيتها .. والثانية عادته لذلك ؛ ولسبب آخر ؛ هو : أن زوجها كان من المؤمنين بـ « صالح » وفوضته فى مالها ، فأنفقه فى الدعوة لدين « صالح » ..

وإذا كرهت المرأة استعملت سلاحها فى المكر والخديعة .. وهو أمضى سلاح ..

فدعت « عنيزة » رجلاً يقال له : « قدار بن سالف » ، وهو من سفهاء قومه ، وأغرته ببناتها إن هو عقر الناقة .

ودعت « صدوق » رجلاً من بنى عمها اسمه : « مصدع بن مهرج » ، وهو شاب مسرف مستهتر ، وعرضت عليه مالها ونفسها إن هو عقر الناقة ..

وفعل الإغراء فعله فى نفس الشابين .. وصادف هوى منهما حيث إنهما لم يكونا ممن يقبل دعوة « صالح » ..

واستعان الرجلان بمن استعانا ، فوافقهما على ذلك سبعة نفر ، فهذا هو قوله – تعالى – :

﴿ وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾(١٠).

---

(١٠) الآية ٤٨ من سورة النمل.

واتفق هؤلاء جميعًا ، وتعاهدوا على عقر الناقة ..

وثَمَّ دافع آخر تعرض له بعض المفسرين ..

قالوا : أوحى الله إلى « صالح » أن قومه سوف يعقرون الناقة ، فأخبر قومه بذلك .. فقالوا : ما كان لنا أن نفعل ذلك ..

فقال لهم : إنه سيولد في شهركم هذا غلام يكون هو الذى يعقر الناقة ويكون هلاككم على يديه ..

فخافوا أن يكون ذلك واقعًا فعلاً .. وقالوا : لا يولد فى هذا الشهر ولد إلا قتلناه .. فولد لتسعة منهم فى ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم .. ثم ولد العاشر فأبى أبوه أن يذبحه .. وكان لا يولد له .

وكان هذا العاشر أزرق أحمر ، فنبت نباتًا سريعًا ، فكان إذا مر بالتسعة قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا ..

فحنقوا على « صالح » ؛ لأنه كان سببًا فى قتلهم أولادهم ، فتقاسموا أن يقتلوا « صالحًا » .. وقالوا : « لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ » ..

وكان « صالح » – عليه السلام – إذا أمسى يلجأ إلى مكان للعبادة كان قد بناه خارج القرية يتعبد فيه ويبيت فيه .. فاتفقوا على أن يظهروا أنهم خارجون إلى سفر ثم يكمنوا لـ « صالح » فى هذا المكان فيقتلوه .. ثم يقولون لوليه : ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾[11]..

ودخلوا غارًا يكمنون فيه فسقط عليهم الغار فقتلهم ..

فرأى ذلك ناس ممن اطلع على أمرهم فصاحوا فى القرية : مارضى « صالح » بقتل أولادهم حتى قتلهم[12].

عند ذلك أجمع أهل القرية على قتل الناقة ..

---

(١١) من الآية ٤٩ من سورة النمل.

(١٢) تفسير القرطبى.

وانطلق « قدار » و « مصدع » ومن معهما ، فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء ، فكمن لها « قدار » فى أصل شجرة على الطريق ، وكمن « مصدع » فى أصل شجرة أخرى .. فلما مرت على « مصدع » رماها بسهم فانتظم عضلة ساقيها .

ورغت الناقة فسمعتها « عنيزة » ، فخرجت فرأتها مصابة ولم تُعْقر .. فأمرت ابنتها أن تتراءى فى زينتها لـ « قدار » وحرضته على عقرها فشد عليها بالسيف ، فكشف عرقوبها ، فأرداها ، وطعن فى لبتها فنحرها ..

وحين سمع فصيلها رغاءها ورأى ما أصابها انطلق حتى أتى جبلاً منيعًا فارتقى فيه قبل أن يدركوه ..

وربما لو كانوا أدركوه ولم يعقروه لما وقع عليهم العذاب .. كما ورد ذلك فى حديث رواه شهر بن حوشب عن عمر بن خارجة ؛ قال : .. فأتى « صالح » – عليه السلام – فقيل له : أدرك ناقتك فقد عقرت ، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون له :

يا نبى الله ؛ إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا ، فقال لهم « صالح » : انظروا هل تدركون فصيلها ؟ فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب ، فخرجوا يطلبونه ، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله إلى الجبل ، فتطاول فى السماء حتى ما تناله الطير ..

وجاء « صالح » – عليه السلام – فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ، ثم رغا ثلاثًا وانفجرت الصخرة فدخلها .. فقال « صالح » – عليه السلام – : لكل أمة أجل .. ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[١٣].

عدوان « ثمود » :

لقد اعتدى أهل « ثمود » على الناقة التى أرسلها الله لهم آية ونعمة ..

---

(١٣) من الآية ٦٥ من سورة هود. وانظر هذا الخبر فى قصص الأنبياء للثعلبى.

وتعللوا فى عقرها بعلل كاذبة لا ظل لها من الحقيقة ، فدعواهم أنها كانت تحتكر الماء يومًا فلا يشربون ولا يسقون زرعهم وماشيتهم منقوضة بأنه كانت لهم مياه غير هذه البئر .. بدليل قوله - تعالى - : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَٰهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾[14].

ففى ذلك دلالة واضحة على أنه كانت لهم أكثر من عين ..

وأن التخصيص للناقة كان فى بئر بعينها لا فى كل الآبار ..

ودعواهم بأن الناقة كانت تُضيق عليهم فى زراعاتهم ، وقد تعتدى على ثمارهم منقوضة ، فإن الناقة كانت ترعى فى أرض الله ، بدليل قوله - تعالى - : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾[15].

فإضافة الأرض إلى الله يفهم منها أنها كانت ترعى فى الأماكن التى يرعى فيها عادة دون ما يزرعه الناس ويحمونه لأنفسهم .

وحق وعيد الله :

كان « صالح » قد أنذرهم بأنه سيجيء أول يوم ووجوههم مصفرة ، وثانى يوم ووجوههم محمرة ، وثالث يوم ووجوههم مسودة .

وصدق « صالح » - عليه السلام - .

وظهرت هذه العلامات .. وهموا أن يبطشوا به ، ولكن الله أنجاه ..

وأخذتهم الرجفة المصحوبة بالصيحة ، وهى الصاعقة ..

لقد كان العذاب بالنسبة لهم شديدًا جمع صنوفًا من التنكيل ..

---

(١٤) الآيات ١٤٦ - ١٤٨ من سورة الشعراء .

(١٥) من الآية ٦٤ من سورة هود .

صاح بهم جبريل صيحة شديدة رجفت منها قلوبهم ، أو رجفت بهم الأرض وزلزلت زلزالاً شديدًا .. وأصابتهم صاعقة العذاب الهون .. وهم ينظرون بعيونهم هذا المصير المشئوم الذى صاروا إليه ..

وانطوت صفحة قوم آخرين .. أراد الله أن يعزهم فأذلوا أنفسهم ..

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[١٦]..

أورثهم ديار قوم سابقين ليعتبروا بمصيرهم ، فكانوا سواء فى الإعراض والجحود والنكران .. وحاق بهم ما حاق بسلفهم من قوم « عاد » ..

أما « صالح » – عليه السلام – فقد تولى عنهم ، وقال : ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾[١٧].

قيل : إن « صالحًا » بعد أن حاق العذاب بقومه خرج هو ومن آمن معه حتى أتوا رملة « فلسطين » وأقاموا فيها ..

وقيل : إنه توفى بـ « مكة » وهو ابن ثمان وخمسين سنة بعد انتقاله من « الشام » إليها .. وظل يعبد الله بها حتى مات .. وكان قد أقام فى قومه عشرين سنة ..

وقيل : إنه ذهب إلى « حضر موت » ؛ لأن أصلهم من تلك الناحية ، وهو الأقرب إلى الصواب[١٨].

مرور النبى – صلى الله عليه وسلم – : بـ « الحجر » :

روى الإمام أحمد فى مسنده قال : لما نزل النبى – ﷺ – بالناس من « تبوك » نزل بهم « الحِجْر » عند بيوت « ثمود » ، فاستقى الناس من الآبار

---

(١٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(١٧) من الآية ٧٩ من سورة الأعراف .

(١٨) الثعلبى ص ٧١ .

التى كانت تشرب منها « ثمود » ، فعجنوا منها ، ونصبوا القدور ، فأمرهم رسول الله - ﷺ - فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، فنهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذّبوا ، فقال : إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم .

وفى رواية : لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

وهذا موطن للعبرة والعظة فى القصة ..

أى : الاعتبار بحال ما أصاب المشركين من عذاب حتى يتحاشى الناس ما فعلوه ، ويقبلوا على الله بيقين وإخلاص ، ويعبدوه حق عبادته .. ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[١٩].



(١٩) من الآية ١١٠ من سورة الكهف .

ابـراهيم عليه السلام

- نسـبه ومولـده .
- بطـش النمـروذ .
- ارهاصات النبوة فى نفسه .
- فى طريقه لهداية قومه .
- تبييت ابراهيم الشر للأصنام .
- ابراهيم يكسر الأصنام .
- محـاكمة ابراهيم .
- القاءه فى النـار .
- هـلاك النمـروذ .
- ابراهيم فى حـران


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مقدمـة :

أراد الله لمنطقتنا العربية أن تكون أرض خير وبركة ، وقد حباها الله - تعالى - بمآثر عظيمة ، ومزايا جسيمة ، وقال فى حق الأمة التى نشأت عليها : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(١).

ومن أعظم مزايا هذه المنطقة أنها مهد الرسالات السماوية ، ومبعث الديانات الصحيحة ، اختار الله من أبنائها الأنبياء والمرسلين الذين ساروا على أرضها المباركة يبشرون بدين الله ، وينشرون الهدى والنور ، ويرفعون لواء العدل والتوحيد والمساواة بين الناس ، ويحضون على مكارم الأخلاق ..

وهذه المنطقة تشمل الحجاز والشام والعراق واليمن ومصر وغيرها ، وهى تمتد - بلغة العصر الحاضر - من المحيط إلى الخليج .

وحدودها من الشمال : البحر المتوسط وجبال طوروس .
ومن الجنوب : البحر العربى والمحيط الهندى والصحراء الكبرى .
ومن الشرق : جبال زاجروس وكردستان .
ومن الغرب : المحيط الأطلنطى .

فى هذه المنطقة بعث نوح ، ومن بعده هود وصالح وغيرهما من الأنبياء والمرسلين ، الذين أرسلوا إلى أقوامهم ليهدوهم إلى سواء السبيل .

فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، فنجى الله المؤمنين من العذاب الذى أهلك به الكافرين .

---

(١) البقرة ١٤٣ .

وقد أشار الحق – سبحانه وتعالى – إلى ذلك بقوله : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا . وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾[٢].

وفي هذه المنطقة بعث الله إبراهيم – عليه السلام – .

وتنقل بدعوته بين أقطار متعددة . بين العراق والشام ومصر ، وأسكن الحجاز من أولاده من يبلغ دعوته إلى أهلها وإلى من جاورهم في اليمن .

وكأن الله قد أراد أن يهيىء لعمومية رسالة نبينا محمد – ﷺ – برسالة أبيه إبراهيم – عليه السلام – ، فقد كان الرسل يبعثون في خاصة قومهم ، فآدم قد بعث لأهله الذين تناسلوا منه ، وتبعه ابنه « شيث » فإدريس ، وجاء بعده نوح الذى مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فلما لم يستجيبوا أغرق الله الأرض بالطوفان ، ولم ينج من الغرق إلا من قد آمن .

ونشأت ذرية صالحة إلى حين ، سارت على الجادة حتى غيرت وبدلت ، فجاء إليهم هود ، فلما لم يؤمنوا به هلكوا .

وبقي المؤمنون الذين تناسلت منهم طائفة سارت على الطريق حتى فسد من جاء بعدها ، فأرسل الله إليهم صالحًا ، فلما كذبوا به أهلكهم الله .

ومرت بعد ذلك قرون كثيرة قدرها العلماء بعد الطوفان بألف ومائتين وثلاث وستين سنة حتى جاء إبراهيم[٣].

بعث الله إبراهيم لتتسع رسالته أكثر فتشمل أقوامًا عدة ، وتنخرق قاعدة الخصوصية في الرسالة بعض الشيء . ثم تعود فيمن جاء بعده من الرسل من أبنائه وأحفاده . ثم تتسع على مصاريعها بمحمد – ﷺ – خاتم الأنبياء

---

(٢) الفرقان ٣٧ ، ٣٨ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة إبراهيم .

والمرسلين الذى أرسله الله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا ، ونزل فى حقه ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[٤].

نسبه ومولده :

وإبراهيم – عليه السلام – هو إبراهام المذكور فى التوراة .

وأبوه تارح – بالحاء المهملة أو المعجمة – بن ناحور بن ساروغ بن أرغو ابن فالغ بن عابر بن شالح بن قيثان بن أرفخشذ بن سام بن نوح – عليه السلام – .

هى سلالة أنبياء وصديقين .

وأمه اسمها « ليوثا »[٥]، وقيل : اسمها « أميلة » ، وقيل : « بونا » بنت كربتا بن كرثى من بنى أرفخشذ بن سام بن نوح[٦].

فهناك قرابة بين الأبوين .

وكنيته : أبو الضيفان ، ولقبه الخليل .

وقد ولد ولأبيه من العمر خمس وسبعون سنة ، ولإبراهيم أخوان هما : ناحور ، وهاران ، وإبراهيم هو الأوسط بين أخويه .

وقد ورد ذكر اسم أبيه فى القرآن الكريم على أنه « آزر » فى قوله – تعالى – : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾[٧].

وحاول بعض المستشرقين تعليل التناقض الظاهر بين الاسم الوارد فى التوراة والاسم الوارد فى القرآن بأن آزر هو تحريف لكلمة « اليعازر » وهو خادمه .

---

(٤) الأعراف ١٥٨ .

(٥) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ص ٧٧ .

(٦) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣٠ .

(٧) الأنعام ٧٤ .

ولكن فات هؤلاء أن الأب عند العرب قد يطلق على الجد وعلى العم فلا يبعد أن يكون آزر هذا عمًا لإبراهيم .

وربما كان هذا الاسم ورد فى معرض الذم ، وهو وصف جرى مجرى العلم ومعناه بالعبرية : المخطىء أو المعوج أو الخرف .

ويقرب من هذا - ولعله الصحيح - جعله اسمًا للخادم وسمى به أبوه لأنه كان خادمًا للأصنام(٨).

وذكر الثعلبي وغيره أن اسمه الحقيقى تارخ ، وكان يعمل مع النمروذ قيِّمًا على خزائن آلهته ، فسماه آزر على اسم صنم كان لهم .

وذكر الإمام البيضاوى أن تارخ هو الاسم العلم لوالد إبراهيم وأن آزر وصف له(٩).

وإذا صح ذلك فإن آزر يكون معناه القوى أو الناصر أو المعين .. لأن لفظ آزر من الأزر أى القوة والعون ومنه الوزير أى المعين(١٠).. وربما كان هذا التعليل هو الأنسب ، لأن إبراهيم - عليه السلام - كان حريصًا على ألا يواجه أباه بكلمات فيها تحقيرٌ أو عَيْبٌ أو زجر كأعوج أو مخطىء أو خرف . وكان مؤدبًا جدًا مع أبيه بارًا به على الرغم من كفره وغلظته مع إبراهيم.

ولماذا لا يكون آزر اسمًا آخر لتارح ، كما سمى يعقوب بإسرائيل ؟

وقد ولد إبراهيم فى عصر النمروذ ملك بابل .

واختلف فى مكان ولادته ، فقيل ولد فى « حران » وقيل ولد فى غوطة دمشق فى بلدة يقال لها برزة فى جبل قاسيون ثم انتقل به أبوه إلى بابل .

وقيل وهو الأصح : ولد فى بابل ..

---

(٨) تعليق على مادة إبراهيم فى دائرة المعارف الإسلامية للشيخ يوسف الدجوى .

(٩) تفسير البيضاوى (تفسير الأنعام) .

(١٠) تاج العروس للزبيدى .

وبابل هذه مدينة على شاطىء الفرات ، ولها تاريخ عريق منذ القدم حتى لقد قيل فى بعض الآراء : إن آدم سكن بها بعد هبوطه من الجنة . ولكن الأشهر على ما مر فى قصة آدم أنه نزل بالهند .

ويقال : إن بابل هى ثانى مدينة فى العالم بنيت بعد حران .

وهناك تعليل طريف فى تسميتها بهذا الاسم ، وهو أن أبناء نوح تفرقوا فى الأرض بعد الطوفان بعد أن اجتمعوا فى هذه المدينة وقد تبلبلت ألسنتهم فيها[11].

وقد دمرت هذه المدينة بطول العهد ، وأطلالها على بعد ٥٤ ميلاً جنوبى بغداد ، وحل محلها قرية صغيرة تحمل نفس الاسم .

أما النمروذ الذى ولد إبراهيم فى عصره فقد كان ملكًا جبارًا ، وصل ملكه إلى غاية ما يسكن من المعمورة . وقد ورد فى ذلك أثر :

« ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران ، فأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين - عليهما السلام - وأما الكافران فنمروذ وبختنصر »[12].

قال عنه الرواة : إنه أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الأرض ودعا الناس إلى عبادته .

وكان له كهان ومنجمون .

وقد صاغت الأخبار حوله بعض الأساطير .

قالوا : إن النمروذ أبوه كنعان بن سنحاريب بن نوش بن حام . وكان كنعان قوى البطش جبارًا مولعًا بالصيد ، بلغ من قوته أنه إذا صاح بالسباع والوحش انشقت مرائرها من شدة صيحته .

---

(١١) دائرة المعارف الاسلامية .

(١٢) قصص الأنبياء لابن كثير عن مجاهد ص ١٤٤ .

وتزوج امرأة فحملت بالنمروذ . فلما استوفت حملها ولدته . فنظر إليه أبوه فقال : هذا ولد مشئوم فاقتليه أو اطرحيه فى الفلاة ليموت . ولم تملك المرأة أمام جبروت زوجها رأيًا .

فأخذته أمه وطرحته فى الفلاة بين بقر ترعى ، فنفر كل البقر عنه ، وكلما أبصره وحش فر منه .

فجاءت إليه أمه بعد ذلك فحملته ورمته فى نهر ، وظنت أنه قد غرق ، فأخرجه الماء إلى البر سالمًا .

وائتلفت به نمرة أخذت ترضعه فرآها أهل قرية فحملوه وربوه وسموه « النمروذ » - وهذا تكلف فى التسمية - .

فلما شب جعل يقطع الطريق ، واجتمع حوله خلق كثير .

فبلغ خبره إلى أبيه كنعان - وهو لا يعرفه - فجمع عليه الجيوش ، وسار كنعان بمن معه حتى أدرك النمروذ .

فلما أبصر النمروذ الجيوش القادمة حمل عليها بمن معه فهزمها ، وقتل أباه واستولى على ملكه .

وسار يغزو الملوك ويظفر بهم حتى ملك شرق الأرض وغربها[13].

وهذه مبالغة تصور قوة النمروذ ، وتصور وصوله إلى الملك بطريقة بطولية . مع أن الملك كان سيصل إليه عن طريق الوراثة الطبيعية ، ولكن خيال القصاص له شأن آخر .

بطش النمروذ :

وكان النمروذ يعبد الأصنام ، ثم دعا إلى عبادة نفسه ..

وأخبره كهانه أنه سيولد غلام يكون تقويض ملكه على يده .

---

(١٣) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ص ٧٧ .

فهاله ذلك وأزعجه .

وقيل : إنه رأى فى منامه كأن كوكبًا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر ، حتى لم يبق لهما ضوء ، ففزع من ذلك فزعًا شديدًا ، ودعا السحرة والكهنة وكل من لديه خبرة بتأويل الأحلام ، وسألهم عن ذلك فقالوا له : هو مولود يولد فى ناحيتك من هذه السنة ، يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على يديه .

عند ذلك أمر النمروذ بذبح كل غلام يولد فى تلك الناحية فى تلك السنة .

وأمر كذلك بعزل الرجال عن النساء .

وجعل على كل عشرة رقيبًا أمينًا يحصى على الناس تحركاتهم ويراقب أفعالهم . فإذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها إذا أمن المواقعة . وإذا طهرت عزل زوجها عنها .

وقد أصاب الناس عنت شديد بسبب ذلك .

ورجع أبو إبراهيم يومًا - وكان غير مراقب - فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها فى طهرها فحملت بإبراهيم - عليه السلام - .

وهكذا إذا أراد الله شيئًا قضاه . لا يحول دون ذلك مانع أو مراقب .

وقالوا : بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عن زوجها إلا ما كان من أم إبراهيم ، فإنه لم يعلم بحبلها ، وذلك أنها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحبل ، ولم يظهر الحمل فى بطنها بقدرة الله جلت حكمته .

وحين ظهر الحمل خشى عليها آزر من الذبح ، فانطلق بها إلى أرض بين موقع الكوفة والبصرة يقال لها « وركاء » فأنزلها فى سرب من الأرض ، ووضع عندها ما يصلحها .

وأخذ الزوج يتعهدها بين الحين والحين ، وكتم خبرها عن الناس أجمعين ، حتى وضعت إبراهيم .

وتعهد الله إبراهيم ، فجعل يشب بسرعة غريبة ، حتى أصبح بعد سنة كأنه ابن ثلاث سنين ، وكان هذا سببًا فى أن الأعين لم تتنبه له ، ولم تسترب به ، فلم يخش أبوه أن يظهره أمام الناس(١٤).

حين خرج إبراهيم من السرب توهمه الناس أنه ولد منذ سنين ، وخاطب أمه خطاب أهل العلم المتفكرين .

قال لأمه : من ربى ؟ قالت له : أنا .

قال لها : ومن ربك ؟ قالت : أبوك .

قال : ومن رب أبى ؟ قالت : النمروذ .

قال : ومن رب النمروذ ؟ فلطمته .

وأدركت أن هذا الولد هو الذى سوف يكون ذهاب ملك النمروذ على يديه .

وكان إبراهيم حين ولد قد ظهرت عليه الكرامة ، وكان أحسن الناس وجهًا ، يلمع النور من جبهته . وقيل : خرت الأصنام منكسة على وجهها حين ولد ، وطارت التيجان التى كانت فوق رءوسها .

وكان حين مقامه فى السرب تتركه أمه وتعود إليه لترضعه فتجده يمص إبهامه ، وقد تفجر منه آونة لبنًا وآونة عسلاً وآونة ماء .

وتوسمت أمه فيه أنه سيكون ذا شأن .

ويبدو أنها كانت على بصيرة وهدى من الله ، ولكنها كانت تكتم إيمانها(١٥).

---

(١٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٧٤ والقرطبى ص ٢٤٦٠ .
(١٥) بدائع الزهور لابن إياس ص ٧٧ .

ومن ثم فقد أكرمها الله فى أثناء حملها فلم يظهر عليها أثره حتى نجت من أعين الرقباء . بل قال بعضهم : إن العيون التى كان يبثها النمروذ لمراقبة الحوامل تعرضوا لأم إبراهيم وهي به حامل ، فجسوا جنبها الأيمن فاختفى الجنين فى الجانب الأيسر ، وجسوا جنبها الأيسر فاختفى الجنين فى الجانب الأيمن ، فانصرفوا دون أن يظفروا بطائل[16].

وظلت أم إبراهيم على ذلك مستورًا حالها حتى أقربت ، فوضعت طفلها سرًا كما قدمنا .

ولم يُجْدِ النمروذَ حرصُه شيئًا ، فإن هذا المولود الذى حذره الكهنة منه ولد رغمًا عنه ، وشاءت الأقدار أن يكون ذهاب ملكه على يديه فعلاً - كما فسر المفسرون رؤياه .

ولكن سبقت ذلك أحداث وأحداث .

إرهاصات النبوة فى نفسه :

كانت لدى إبراهيم - عليه السلام - تطلعات إلى الهداية ، وكانت نفسه تتوق إلى معرفة خالق هذا الكون العظيم الذى يعيش فيه .

إن مظاهر الإبداع فى الكون كثيرة تشهد بعظمة المبدع ، وتدل على أن وراءها خالقًا قادرًا عظيمًا ، فمن هذا الخالق ؟

وقد دل حواره مع أمه فى سنه المبكرة على أن بصيرته قد تفتحت قبل الأوان ، وأن الله قد منحه عقلاً واسعًا لا يقتنع بما يملى عليه من أفكار وما يُلَقَّنُه من معارف .

وكان قومه أهل أوثان ، وكان أبوه نجارًا ينحت الأصنام ويبيعها لمن يطلبها .

---

(١٦) دائرة المعارف الإسلامية نقلاً عن قصص الأنبياء للكسائى ص ١١٥ .

ولا شك أنه كان يتأمل ذلك فيعجب ، كيف يسوى الإنسان صنمًا بيديه ثم يسجد له ؟

وربما سخر ممن يفعل ذلك . وقد روى الرواة أن أباه كان يطلب منه أن يبيع الأصنام التي يصنعها ، فكان ينادى عليها : من يشترى ما يضر ولا ينفع ؟

ولا غرابة أن يغضب منه أبوه لذلك ، فهو عقبة فى طريق تجارته . وكيف يرضى عنه وهو يبصر الناس بعيوب السلعة وهم عنها غافلون ؟

لقد أنار الله بصيرة إبراهيم منذ صغره وهداه إلى الرشد وقد حكى القرآن الكريم ذلك بقوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(١٧).



فى طريقه لهداية قومه :

ونظر إبراهيم إلى قومه فى عقائدهم ، فحزن لما وصلوا إليه من ضلال وغفلة ، إنهم يسجدون لأصنام جامدة لا تسمع ولا تبصر ولا تحس ولا ترد . وهى عنهم غافلة تمامًا ، بل هى لا تحس بغفلتها أيضًا ، وهل يحس الجماد ؟

وهو قد نشأ بينهم ، ورأى أن أباه هو الذى يُرَوِّج لهذه الآلهة ، وعليها يقوم رزقه ، فقد عينه النمروذ سادنًا لها ، وإليها تقدم القرابين والنذور فهى حصيلة سخية مستمرة لا تنقطع ، وهو الطريق إلى رضا هذه الآلهة ، وكل يتنافس فى شراء رضاه لترضى عنه الآلهة ..

وهو لا يكتفى بذلك السيل المدرار من الهدايا والقرابين ، ولكنه كان بدوره يصنعها ويبيعها .

---

(١٧) الأنبياء ٥١ .

لقد استهجن إبراهيم - عليه السلام - كل ذلك . كان الله في ضميره منذ صغره ، منّ عليه بمعرفته وهداه إلى طريقه ، وأتاه رشده ..

وقبل أن يوحى إليه فطَّنه وعلمه وبصره ، حتى استطاع بنور العقل أن يهتدى إلى الله - تعالى - .

وانتظر آزر من ابنه أن يعينه في عمله ، وأن يساعده في مهمته ، وأن يدرج على نهجه في صناعته جريًا على عادة الناس ، في أن يرث الأبناء ما يصنعه الآباء ، ولكنه خيَّب ظن أبيه في ذلك .

فكان يقول له : خذ هذه الأصنام وبعها ، الكبير بكذا والصغير بكذا ، فكان إبراهيم لا يصغي لقول أبيه ويقول له كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ولاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾[18].

وكان إبراهيم أحيانًا يأخذ هذه الأصنام من أبيه ، ويذهب بها ويشد الحبل بأرجلها ويجرها خلفه احتقارًا لها واستهزاء بها وينادى في الناس : من يشترى ما يضره ولا ينفعه ؟

وكان الناس ينظرون إليه ويعجبون من جرأته ، ولا يجرءون على كفه عما يفعل لمكانة أبيه عندهم وعند ملكهم وعند آلهتهم ، أليس سادن الآلهة وبيده رضاها وسخطها ؟

ولا شك أن أباه كان ينهره على ما يفعل .

حتى إذا ما استمر إبراهيم في دعوته إلى الغض من شأن هذه الأصنام وتحقيرها ، أغلظ له أبوه القول وهدده وتوعده على النحو الذى سيأتى بعد .

تبييت إبراهيم الشر للأصنام :

لما سأل إبراهيم - عليه السلام - قومه عن سبب عبادتهم لهذه الأصنام التي يصنعونها بأيديهم أجابوه بقولهم : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا

---

(18) مريم ٤٢ .

لَهَا عَابِدِينَ ﴾[١٩].. فتعجب من هذا الرد وقال لهم : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَو يَضُرُّونَ ﴾[٢٠].. فلم يجيبوه بالإيجاب ، فرثى لهم .. ثم أضمر الشر فى نفسه لهذه الآلهة التى أصروا على عبادتها من دون الله الواحد الأحد الخالق الرازق النافع الضار .

إن هؤلاء القوم لم تؤثر فيهم موعظة ولم يجد معهم إرشاد فلا بد من اتخاذ خطوة عملية فى إقناعهم وتبيين ضلالهم وفساد رأيهم وتفاهة عقولهم .

كان للقوم عيد يجتمعون إليه كل عام ، يحتفلون فيه بآلهتهم التى صنعوها بأيديهم . وكان لهذه الآلهة بيت كبير مبنى بالرخام الأبيض المنقوش بشتى الألوان ، وينتظم فى هذا البيت ثلاثة وسبعون صنمًا يستوى كل منها على كرسى من الذهب ، وموشى بالحرير ، وكبير هذه الأصنام يتوسطها وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر الفاخرة ، وله عينان من الياقوت الأحمر البديع الصنع ، وبقية الآلهة عن يمينه وشماله .

وكان القوم يتنافسون فى تقديم الطعام الشهى لهذه الأصنام ، ويضعونه أمامها لتباركه لهم ، ثم يعودون بعد انتهاء احتفالهم لأخذه وقد باركته الآلهة فيبتهجون لذلك .

وربما امتدت أيدى الشياطين لهذا الطعام فالتهمته ، فيعتقدون أن الآلهة أكلته ، فيزداد فرحهم واعتقادهم فى آلهتهم ويجنون بعبادتها جنونًا . لأنها رضيت عنهم فأكلت طعامهم[٢١].

كانوا ينتظرون هذا العيد كل عام بفارغ الصبر ، ويعدون له المواكب والاحتفالات ، ويتفننون فى تقديم القرابين التى يضعونها بين يدى هذه الآلهة ، ثم يغلقون البيت عليها ، ويخرجون إلى عيدهم حيث يسمرون

---

(١٩) الأنبياء ٥٣ .

(٢٠) الشعراء ٧٢ ، ٧٣ .

(٢١) بدائع الزهور لابن إياس ص ٧٩ .

ويلهون ويلعبون ، ثم يعودون إليها طائفين راكعين ساجدين قبل أن يعودوا إلى بيوتهم ..

وكان النمروذ قد بلغه نبأ إبراهيم .. وربما أراد أن يستميله إليه ، فأرسل إليه قائلاً : يا إبراهيمُ إن غدًا عيدنا فاخرج معنا[٢٢].

ولكن كيف يشاركهم فى كفرهم ؟ وفى الوقت نفسه كيف يخلو عنهم لينفذ ما فكر فيه ؟ لابد من حيلة يلجأ إليها .

واحتال إبراهيم .. نظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا النجم يطلع مع سقمى .

وكان علم النجم مستعملاً عندهم منظورًا فيه ، وما كان بإبراهيم مرض جسمى ، ولكنه ضيق نفسى بسبب إعراض قومه عن الحق وانصرافهم إلى الباطل .

والضيق النفسى مر ض من الأمراض التى لا تقل خطورة عن الأمراض الجسدية ، وربما ترتب عليه ما يسمى بالاكتئاب النفسى الذى قد يكون سببًا فى قتل صاحبه .

لقد نظر إبراهيم إلى النجم استدلالاً به ، لأنهم كانوا يعتمدون عليها فى سقيهم وحرثهم وهم أهل فلاحة وزراعة ورعى ، ومن كانت صناعته كذلك ارتبط بالنجوم .

فما أخبرهم إبراهيم بأنه مريض حتى أسرعوا فى الابتعاد عنه ، وفروا من طريقه هاربين ، لقد خشوا على أنفسهم من العدوى ، فلربما كان المرض الذى أخبر عنه معديًا ، وربما كان هو الطاعون الذى إذا أصاب واحدًا تفشى بسرعة البرق فى الباقين .

---

(٢٢) تفسير القرطبى .

لم يتنبهوا إلى ما أراده من إخبارهم بمرضه . ولم تكن هناك أعراض ظاهرة عليه ، ولذلك لجأ إلى النجم مبينًا لهم أن طالعه هو الذى أخبره بسقمه الذى سيجىء ..

تركه القوم وانصرفوا ، ولم يفكروا فى الإلحاح عليه أو السؤال عنه وعن حاله ، أو تدبير أمر شفائه ، أو غير ذلك مما يتخذ مع المريض عادة . وما لهم وذلك ؟ إنهم عنه فى شغل ، إنهم ينتظرون عيدهم منذ عام فلماذا يضيعون فرحتهم مع مريض ؟

ولكن هل كذب إبراهيم فى ادعائه المرض ؟

كلا ، إنه ليس كذبًا بالمعنى المفهوم ، إنه من معاريض الكلام التى ورد فى حقها : إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب . وهو من قبيل قولهم : كفى بالسلامة داء ، وقولهم : أصحيح مَن الموتُ فى عنقه ؟

فإبراهيم – عليه السلام – صادق فى حقيقة الأمر . وإن كان قوله فى ظاهره يوحى بالكذب فهو معتذر عنه . وقد أخبر النبى – ﷺ – عن ذلك بقوله – فيما رواه القرطبى فى تفسيره – : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، ثنتان ما حل بهما عن دين الله وهما قوله : إنى سقيم ، وقوله : بلْ فَعَلَه كبيرُهُمْ هَذَا . والثالثة قوله عن زوجه إنها أخته .

لقد تركه القوم وانصرفوا .

وهذه فرصته التى ينتظرها ..

إبراهيم يكسر الأصنام :

وعاد إبراهيم مسرعًا إلى بيت الأصنام بعد أن تحقق أنه لم يبق أحد قريبًا منها .

ودخل البيت ، ونظر إلى الأصنام ، ورأى الطعام ممدودًا أمامها من مختلف الأصناف والألوان .

لقد تكلف القوم فى صنع هذه الألوان فوق ما يطيقون ، وقدموها هدية لأصنام لا تأكل ولا تشرب ، ولا تنفع ولا تشفع .

فأى حماقة أكثر من ذلك ؟

ووجه إبراهيم خطابه لهذه الأصنام فى سخرية وتبكيت :

ألا تأكلون ؟ خاطبها خطاب من يعقل ، فلم يسمع ردا .

فعاد يقول لها : مَالَكُم لا تنطِقُون ؟ فلم تحر جوابًا .

عند ذلك أقبل بفأسه عليها يحطمها ، لقد صب عليها جام غضبه ونقمته ، لأنها أضلت عقلاء قومه ..

يا للعجب كيف يغوى فاقد العقل من له عقل ؟

وكيف يتملك ما لا يحس من له حس ؟

كيف يتمكن الجماد من السيطرة على من يتصرف فى الجماد ؟

كيف ينحته بيده من حجر ثم يخر على ذقنه ساجدًا له ؟

يا لحماقة هؤلاء القوم !

وأخذ يهوى عليها بفأسه حتى أصبحت قطعًا متناثرة ، وشظايا مبعثرة . ثم علق الفأس فى عنق كبيرهم الذى أعفاه من التحطيم لحاجة فى نفسه .

ما لها لم تمنع عن نفسها التحطيم ولم تدفع ضربات المعول التى تهاوت فوق رءوسها كالجحيم ؟

ألا ما أغبى هؤلاء القوم وما أشد غفلتهم وضلالهم وأبعدهم عن الصواب !

وشفى إبراهيم غيظه من هذه الأصنام أولاً ، ومهد الطريق لمحاجتهم وكشف الغطاء عن عيونهم ثانيًا ..

وعاد إبراهيم هادىء النفس قرير العين إلى بيته ، استعدادًا للجولة القادمة .

ورجع القوم من حفلهم كعادتهم إلى بيت أصنامهم يطوفون ويتبركون ، وهنا كانت المفاجأة .

لقد رأوا ويا لهول ما رأوا . رأوا جذاذًا من الحجارة المتناثرة تملأ ساحات المعبد .

لا يوجد إلا صنم واحد لم يصبه التكسير . هو الصنم الأكبر .

وتساءلوا أولاً ، لماذا لم يصبه التكسير كما أصاب غيره ؟

ثم عادوا يتساءلون : مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

ولو كان هناك عقل يفكر لكان السؤال المتبادر هو :

لماذا لم ترد هذه الآلهة عن نفسها غائلة التحطيم والتكسير ؟

ولماذا لم تحطم من سولت له نفسه فعل ذلك قبل أن يحطمها ؟

إنهم لو سألوا ذلك لتسلل بريق النور إلى نفوسهم ، فوجدوا الجواب : إنها لا تستطيع أن ترد ولا تستطيع أن تمنع وما دامت لا تستطيع فهى إذن عاجزة ، وما دامت عاجزة عن أن تدفع عن نفسها فهى عن الدفع عن غيرها عاجزة .

ولكن الله قد طمس على قلوبهم وأبصارهم ، فهم صُمٌّ بكم عُمْىٌ لا يعقلون .

محاكمة إبراهيم :

حين ادعى إبراهيم المرض وقال : إنى سقيم ، وتركه القوم وانصرفوا مسرعين إلى لهوهم ولعبهم قال : ﴿ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾[٢٣].

---

(٢٣) الأنبياء ٥٧ .

وسمعه آخر واحد فيهم ، ولكنه لم يلق بالاً لهذه الكلمة ، على اعتبار أنها كلمة عابرة قالها رجل حانق أو مريض أو عاجز عن تنفيذ قوله .

فلما عادوا إلى الأصنام ووجدوها على تلك الحال تساءلوا عمن فعل بها ذلك قال ذلك الرجل الذى سمعه : إنه إبراهيم ، وربما قال ذلك همسًا ، وسرى هذا الهمس حتى استعلن ، وجهروا به جميعًا قائلين : لقد ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾(٢٤).

ورفع الأمر إلى الملك ، فأرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، ونادى : فليأت هذا الفتى إلىّ .

وأسْرَعُوا إِلَيْهِ يَزِفُّون ، وانطلقوا به إلى النمروذ ..

ومثلُ إبراهيم – عليه السلام – بين يديه ثابت الجنان مستقر الوجدان .

ونظر إليه النمروذ مستنكرًا ، ولعله استعاد فى ذهنه محاورة سابقة كانت قد جرت بينهما منذ حين ، فقد قال الرواة :

إن النمروذ كان قد استدعى إبراهيم يومًا ، فنظر إبراهيم حوله فإذا بالأصنام منصوبة فى مجلس الملك ، وبين يديه أبوه والناس جالسون . فقال إبراهيم : يا قوم ، ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ؟ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ؟ ﴾(٢٥).

وربما أراد النمروذ أن يتألفه فقال له : يا إبراهيم ، تذكر أنى أنا الذى خلقتك ورزقتك .

فأجابه إبراهيم فى ثبات ويقين : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ . وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾(٢٦).

---

(٢٤) الأنبياء ٦٠ .
(٢٥) الصافات ٨٥ ، ٨٦ .
(٢٦) الشعراء ٧٨ : ٨٠ .

فبهت النمروذ وبهت الناس معه ، وهم بأن يبطش به ولكنه تريث ونظر إلى آزر وقال له : يا آزر إن ابنك صغير لا يدرى مايقول ولا يجوز لمثلى فى قدرى وعظم ملكى أن أعجل به ، فخذه وأحسن إليه وحذره بأسى وسطوتى وانتقامى[٢٧].

تذكر النمروذ ذلك ، وأدرك أن الأمر أخطر مما كان يتوقع .

إنه إن تهاون الآن فلن تقوم له ولا لمملكته قائمة بعد ذلك .

فقال النمروذ لإبراهيم – عليه السلام – :

أأنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبْرَاهِيمُ ؟

فلاحت الفرصة أمام إبراهيم ، فأجاب فى سرعة باغتة :

﴿ بَلْ فَعلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذا ﴾ ..

إنها قوة التحدى فى الإجابة السديدة ، وفيها سخرية وتهكم أيضًا ، وكأنه أراد أن يقول لهم : لقد غار كبيرهم على نفسه وغضب أن عبدتم غيره معه ، فأقبل على تلك الأصنام الصغيرة يحطمها ، وهذا الفأس فى عنقه دليل على ذلك . ثم أراد أن يفتح الطريق أمام عقولهم للتفكير فقال لهم :

﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ..

وما أسرع الأثر الذى تركته هذه الكلمة فى نفوسهم ! وأدركوا صدق إبراهيم فى قوله ، فرجعوا إلى أنفسهم موبخين لها على عبادتهم أصنامًا ضعيفة عاجزة لا تضر ولا تنفع ، واعترفوا بالحق قائلين : ﴿ إنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

إنه بصيص من النور تسلل إلى العقول ، وكأنه أشار إليهم أن يقولوا لأنفسهم : كيف يرد عنا البأس من لا يدفع عن نفسه الفأس ؟

---

٢٧) بدائع الزهور لابن إياس ص ٧٨ .

ولكنها كانت بارقة هداية سرعان ما انتكست . ولحظة نور سرعان ما تقشعت ، وعاد الباطل بقوته يزحف زحفًا .

ونكسوا على رءوسهم وارتدوا على أدبارهم ، وأخذوا بتلابيب إبراهيم يوبخونه بدلاً من أن يشكروه ، ويؤاخذونه بدلاً من أن يحمدوه ، وقالوا له : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ ..

يا سبحان الله .. تسلمون بعدم نطقهم ومع ذلك تعبدونهم . ما أعجب شأنكم ؟ .

وعاد إبراهيم يجادلهم . قائلاً لهم فى ضيق وألم : أتعبدون من دون الله ما لا ينطق ؟ وتقدسون ما لا يضر ولا ينفع ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله .

إلقاؤه فى النار :

وخشى النمروذ على نفسه من هذه الدعوة الطارئة التى تزلزل ملكه وتقوض سلطانه .

إن فى نبذ عبادة الأصنام نبذًا له أيضًا . أليس هو صنمًا حيًا يعبده قومه ؟ ، فإن هجرت الأصنام اليوم فسوف يهجر هو غدًا ، ولئن ثار الناس على الأوثان الآن فستدور عليه الدائرة بعد ذلك .

وإذن فلابد من عقاب إبراهيم عقابًا صارمًا يناسب جريمته التى اقترفها فى حق آلهتهم .

لقد اعتدى إبراهيم على حرمة الآلهة باليد واللسان .

فما عقاب من يعتدى على الآلهة ؟

لن يكون هذا العقاب أقل من إحراقه حيًا ..

أيقعدون عن نصرة آلهتهم ؟ إنهم إذن جاحدون لها ، مقصرون فى نصرتها ، إن حطامها يستصرخهم بالثأر ممن فعل بها ذلك ، لابد أن ينصروا

آلهتهم بالتخلص ممن حطمها واعتدى عليها ، ويا عجبًا من إله يستنصر عابديه ليأخذوا له حقه ..

وثارت ثائرة المجانين وصعد هتاف المسعورين : ليحرق إبراهيم .. لابد من صنع جحيم له ..

لقد أراد النمروذ أن يرهب الناس مع إبراهيم ، حتى لا يفكر أحد فيما فكر فيه إبراهيم .

وأمر بجمع الأحطاب من كل مكان بعد أن أمر بصنع بنيان من حجارة طول كل جدار منه ثلاثون ذراعًا تلقى فيه هذه الأحطاب .

وجمعت الأحطاب وجذوع الأشجار على البغال من الجبال والأودية ومن كل مكان .

قيل : إنهم مكثوا ثلاثة أشهر يجمعونها ، حتى إن الناس كانوا ينذرون متقربين لآلهتهم بمد هذه النار بما يقدرون عليه من وقود .

وغذى الشيطان هذه الفتنة بكيده وسلط جنوده يعبئون النفوس ضد إبراهيم ، حتى امتلأت غيظًا وحقدًا ..

وأشعلوا فيما جمعوا النار التي تأججت وارتفعت ألسنتها إلى عنان السماء واخترق لهيبها أجواز الفضاء ، حتى لقد كان الطائر يشوى إذا حلق فوقها ، ووصل لفحها إلى مسافات طويلة حولها ، فلم يتحمل الناس الإقامة قريبًا منها فهربوا من شدة هولها .

وتحيروا . كيف يلقون إبراهيم فى هذا الجحيم ؟

فقيل : إن الشيطان جاءهم على صورة رجل فصنع لهم المنجنيق ، وقذفوا به إبراهيم بعد أن أوثقوه بالحبال .

لقد كان الشيطان وفيًا لمبادئه الخبيثة . وما زال يقف للخير بالمرصاد يحاول أن يقضى على كل محاولة تأخذ بيد الإنسان إلى طريق الهدى والرشاد .

وها هو ذا يدل الكفار على وسيلة التخلص من إبراهيم ، وهو يظن بذلك أنه انتصر على الحق .

وضجت السموات والأرض ، وهتفت الملائكة ضارعة إلى الله : ربنا ، ليس فى الأرض أحد يعبدك غير إبراهيم ، وإنه الآن يُحرق ، فأذن لنا يارب فى نصرته .

فقال الله - جل وعلا - وعينه ليست غافلة عن خليله وصفيه : إن استغاث بأحد منكم فليغثه ، وإن لم يدع غيرى فأنا وليه وناصره .

وجاء خزان الماء من الملائكة فقالوا : يا إبراهيم إن أردت أخمدنا لك النار . فقال إبراهيم - وهو واثق فى كلأ مولاه ورعايته : لا حاجة لى إليكم .

وقال له ملك الرياح : لو شئت طيّرت النار . ولكنه وكل أمره إلى مولاه .

ثم رفع رأسه إلى السماء فقال - فيما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم - : لا إله إلا أنت سبحانك أنت رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك .

واستقبله جبريل قبل أن يقذف فى النار ، فقال له : ألك حاجة ؟

قال إبراهيم - عليه السلام - أما إليك فلا .

قال جبريل : فاسأل ربك .

فقال إبراهيم : حسبه من سؤالى علمه بحالى .

إنها قمة التوكل والتفويض إلى الله - تعالى - إنه الوفاء الذى وصف به حيث عاهد نفسه أن يرضى بقضاء الله وقدره .

وكان لطف الله فى قضائه أقرب إليه من كل شىء ، ورحمته بخليله أوسع من كل شىء .

وقال الله للنار : كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ .

فكانت بردًا وسلامًا ، ولم تحرق من إبراهيم إلا وثاقه ..

وأصبح إبراهيم فى قلب هذا الجحيم الذى صنعه هؤلاء الجاحدون وكأنه فى روضة من رياض الجنة .

وبقى فى النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقترب منها ، ثم جاءوا إليه بعد أن هدأت حدتها وخفت شدتها ، واطلعوا وهم يحسبون ألا يجدوا لإبراهيم أثرًا ، إذ كيف يبقى أثر لحى يلقى فى هذا السعير المتلظى ؟ فإذا بهم يرونه قائمًا يصلى .

واعتراهم الذهول واستولى عليهم العجب ..

وتطوع بعضهم لسؤاله عن حاله بعد أن خرج من النار سليمًا معافى . فقال إبراهيم فى إيمان ويقين :

ما كنت أيامًا قط أنعم منى فى الأيام التى كنت فيها فى النار . إنها عناية الله بأحبابه ورعايته لأوليائه ، وصدق الشاعر الذى يقول :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

ولقد قص الله علينا هذه القصة المباركة فى قوله تعالى :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ
ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ
أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ

كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾
ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿ (٢٨)

محاورة بينه وبين النمروذ :

خرج إبراهيم – عليه السلام – من النار سليمًا معافى ..

وكان لابد أن تتكشف بصيرة كثيرٍ من الناس فيعرفوا أن الله هو الحق وأن الذى يدعون من دونه هو الباطل .

ولابد أن يثير إعجاب بعضهم فيعرفوا له فضله وصدقه ويؤمنوا به .

ولكن إعجاب النمروذ به – فيما يرويه البعض – يقف دونه العقل السليم والمنطق الصحيح . لأنه لو أعجب به لآمن ..

يقول بعض الرواة : إن النمروذ اطلع من صرح له عالٍ فرأى إبراهيم فى النار وكأنه فى روضة . فقال له : يا إبراهيم كبيرٌ إلهك الذى بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك ، وسأله عن الرجل الذى كان بجواره ، فأخبره بأنه ملك الظل أرسل إليه ربه يؤنسه . فقال النمروذ : إنى مقرب إلى إلهك قربانًا لما رأيت من قدرته ، إنى ذابح له أربعة آلاف بقرة .

فقال له إبراهيم : لا يقبل الله منك شيئًا ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى دينى .

---

(٢٨) الأنبياء ٥١ : ٧٠ .

فقال له : يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها ، فذبحها وقربها ، ومنع العذاب عن إبراهيم ، ثم قال له : نعم الرب ربك يا إبراهيم(٢٩).

هذه القصة تتنافى مع المحاجة الكبرى التي حدثت بين إبراهيم - عليه السلام - وبين هذا الطاغية الجبار الذى ادعى الألوهية .

والواقع أن النمروذ اشتد خوفه من إبراهيم وقرر إبعاده عن بلدته حتى لا يفسد عليه الناس .

واستدعاه ليحاوره ..

فقال النمروذ لإبراهيم : من ربك ؟

قال إبراهيم : ربى الله .

ولعل النمروذ قال له : ما الدليل على ألوهيته ؟

فقال إبراهيم : الدليل على ذلك أنه يحيى ويميت ، أى أنه يحدث الأشياء بعد عدمها ، ويفنيها بعد وجودها ، وهذا ملاحظ بالمشاهدة ، وما نراه من أشياء لا تحدث بنفسها ، ولابد من موجد يوجدها .

ولكن النمروذ كان له فهم آخر فى ذلك إذ قال : أنا أيضًا أحيى وأميت . وأتى برجلين قد حكم عليهما بالقتل فعفا عن أحدهما ، ونفذ الحكم فى الآخر . ثم قال لإبراهيم : ألست قد أمت هذا وأحييت هذا ؟

وهذا ليس دليلاً بالمعنى الصحيح ، وإنما هو جهل ومكابرة .

فقال إبراهيم : ربى يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب .

فبهت النمروذ ولم يحر جوابًا ..

---

(٢٩) ذكرها الثعلبي في قصصه عن ابن اسحاق وغيره ص ٧٨ .

ولجأ إلى التهديد كعادة المكابرين ..

وقيل : إن هذه المحاورة تمت بعد هجرة إبراهيم ، ووفوده إلى النمروذ يطلب الميرة لأهله – وكان يحتكر الطعام – .

وكان الذى يمتار من النمروذ يسجد له ، فأبى إبراهيم السجود .

فقال له النمروذ : لم لا تسجد لى ؟

قال : أنا لا أسجد إلا لله – سبحانه وتعالى – وهو الذى خلقنى .

فقال له : ما صفة إلهك ؟

وجرت المحاورة السابقة ..

قالوا : ورفض النمروذ أن يعطيه شيئًا ، فعاد إبراهيم ، وأكياس الطعام فارغة ، وفى الطريق رأى رملاً ناعمًا يشبه الدقيق ، فملأ أكياسه منه ليشغل به أهله ريثما يدبر لهم ما يقتاتون به .

ووضعها ونام بجوارها . فجاءت امرأته سارة وفتحت الأكياس فوجدت ما فيها دقيقًا صافيًا ، فصنعت منه طعامًا .

ولما استيقظ إبراهيم سأل : من أين لكم هذا الطعام ؟

فقالت سارة : من الدقيق الذى جئت به ؟

فعرف أن الله قد رزقهموه[٣٠].

وعلى كل فإن مواقف الحوار بين إبراهيم والمعاندين متعددة ، وقد وقف نفسه على الدعوة إلى الله ، وهذه رسالته ، ولا يبعد أن يكون هناك أكثر من طاغية حاوره إبراهيم ودعاه إلى الله ..

وهذه المحاورة التى تمت بين إبراهيم – عليه السلام – والنمروذ تشير إليها هذه الآية الكريمة :

---

(٣٠) تفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبى .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣١).

هلاك النمروذ :

لقد أفحم إبراهيم – عليه السلام – النمروذ ، والمكابر حين يُفحم يلجأ إلى التحدى الكاذب . لقد زين له وهمه أنه يستطيع أن يصعد إلى السماء فيقضى على رب إبراهيم .

وهذا هو الجهل ، فقد عمى عن أن الله بكل شيء محيط ، وعن أنه فى السماء إله وفى الأرض إله ، وعن أنه معنا أينما كنا ..

فأمرُ ببناء صرح عالٍ جدًا ، وارتفع فيه فتقوض الصرح عليهم فهلكوا وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾(٣٢).

وقيل : إن النمروذ جمع جموعًا كثيفة من الجند بدعوى أنه يحارب بها جند الله . فسلط الله عليهم أضعف خلقه وهو البعوض فأهلك الجند ، ودخلت بعوضة إلى أنف النمروذ وسكنت دماغه ، فكانت لا تسكن إلا إذا ضُرِبَتْ دماغه . فهل هناك ذل أكثر من هذا ؟

وظل على هذه الحال حتى مات – لعنه الله – .

لقد أذله الله فى الدنيا وهو فى الآخرة أذل وأشقى .

---

(٣١) البقرة ٢٥٨ .
(٣٢) النحل ٢٦ .

آية البعث :

لما رأى إبراهيم – عليه السلام – أن الكفر قد اشتد فى بابل ، وأنه لا جدوى من الإقامة بين قوم أظلهم النمروذ بجبروته وفرض عليهم عبادته ، وأحصى عليهم أنفاسهم واحتكر أقواتهم ، لقد أصبح المقام بين هؤلاء القوم ذلاً لا يطاق ، فقال إبراهيم – عليه السلام – : إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ .

فخرج هو ومن آمن معه ، وممن آمن معه لوط – عليه السلام – قال تعالى ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾[٣٣].

خرج لعله يجد قومًا آخرين يجيبون دعوته ويقبلون كلمته ، وربما استطاع أن يجمع منهم من يجاهد بهم فى سبيل الله .

خرج قاصدًا أرض حران .. وهى بلاد الشام التى بارك الله فيها ..

وكان إبراهيم لا يكف عن التأمل والتفكر ..

وفى يوم وهو غارق فى تأملاته فى خلق السموات والأرض رأى جيفة نصفها فى البر تتنازعها السباع ، ونصفها فى البحر تتنازعها دواب البحر . فلما رأى تفرقها أحب أن يرى اجتماعها ، فسأل ربه ليطمئن قلبه : كيف يكون الجمع بعد التفريق . فناجى ربه قائلاً : رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى ؟

فقال له الحق – سبحانه – : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟

فأجاب إبراهيم : بلى يارب ، لقد آمنت ، ولكنى أردت أن يطمئن قلبى .

فقال الله سبحانه : خذ أربعة من الطير ، ثم اذبحها ، وقطعها أجزاء واخلط بعضها ببعض حتى يشتبه عليك أمرها ، وضع على كل جبل من الجبال المحيطة بك جزءًا من هذه اللحوم المختلطة .

---

(٣٣) الأنبياء ٧١ .

ثم ناد هذه الطيور .. وانظر ماذا ترى ..

وفعل إبراهيم ما أمر به ، جاء بأربعة طيور قيل : هي الديك والطاووس والحمام والغراب . وذبحها وخلطها وفرق أجزاءها فوق الجبال ، وأمسك الرءوس عنده .

ونادى هذه الطيور قائلاً : تعالين بإذن الله .

فتطايرت تلك الأجزاء ، طار الدم إلى الدم والريش إلى الريش واللحم إلى اللحم ، حتى التأم كل شكل إلى شكله ، وأقبلت الطيور إليه تسعى حتى التصق كل جسم برأسه .

فلما رأى إبراهيم ذلك ازداد يقينه ، لقد عاين بنفسه فعل القدرة ، لقد كان في مقام اليقين فأصبح فى مقام حق اليقين .

ولم يكن إبراهيم شاكًا فى قدرة الله – تعالى – بسؤاله ذاك ، ولكنه – كما يقول العلماء – كان شاكًا فى إجابة الله دعوته حين يطلب ذلك ، وقد اطمأن قلبه بإجابة دعوته ، ويجدر بالذكر هنا الإشارة إلى الحديث الذى رواه البخارى قال : حدثنا أحمد بن صالح : حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يونس عن ابن شهاب عن أبى سلمة وسعيد عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى » ..

لم يكن النبى – ﷺ – فى هذا القول شاكًا ، ولا كان إبراهيم شاكًا ، ولكن هذا الحديث ينفي الشك عنهما ، فكأن النبى – ﷺ – يقول : إذا لم أشك أنا فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بألا يشك .

وقد قال النبي – ﷺ – ذلك على سبيل التواضع وهضم النفس . وفي الحديث إعلام بأن المسألة من إبراهيم – عليه السلام – لم تعرض من جهة

الشك ، ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان ؛ فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال .

لقد أحب إبراهيم – عليه السلام – أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين[٣٤] .

فهم أهل الذوق فى هذه القصة :

قال العارفون : إن حصر العدد بأربعة من الطير فيه إشارة إلى أن الطبائع أربعة ، والغالب على كل واحد من هذه الطيور طبع منها ، فالشهوة فى الطاووس ، والصولة فى الديك ، والخسة فى الغراب ، والمسارعة إلى الهوى فى الحمام . وخص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان .

وفى قتل هذه الطيور إشارة إلى أن قتل هذه الطبائع فيها حياة للنفس حياة أبدية . وهذا هو معنى جهاد النفس الذى تشير إليه الشريعة .

وفى الجمع بين هذه الطيور جمع بين مأكولى اللحم وضدهما ، فالديك والحمام مأكولان والطاووس والغراب متروكان . وجمع بين الممقوت والمحبوب منها ، فالطاووس ممقوت لكبره ، والغراب ممقوت لشؤمه ، والديك محبوب لحسن صوته ويقظته وطعمه ، والحمام محبوب لألفته وخفته وأنسه[٣٥] .

إبراهيم فى حران ؟؟

ودخل إبراهيم حران ، وهى مدينة قديمة قرب منابع نهر البليخ ، بين الرها ورأس عين[٣٦] .

---

(٣٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٣٥) راجع حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ١٧١ باب الطير .

(٣٦) دائرة المعارف الإسلامية .

ولم يكن أهل حران خيرًا من أهل بابل . فقد كانوا فى الشرك سواء . كان أهل حران يعبدون الكواكب . كل منهم يتخذ إلهًا من بين هذه النجوم والكواكب التى تطلع ثم تغيب .

وشمر إبراهيم عن ساقه فى الدعوة إلى الله .

ولكنه أراد مع هؤلاء أن يسلك طريقًا آخر فى البحث والاستهداء .

انتظر حتى طلع نجم مضىء فى السماء ، فقال : هذا ربى ..

لقد أراد بذلك أن يلفت نظر القوم إلى قوله ، ليبرهن لهم بالطريق العملى فساد ما يذهبون إليه ، ويقنعهم بأن الرب الحقيقى لا يغيب عن عابديه .

وغاب النجم فى آخر الليل .

فصاح قائلاً : لا أحب الآفلين ..

كيف يستحق هذا النجم العبادة مع أنه اختفى فى الأفق حين بدا ضوء النهار ؟

لقد ظهر ما أخفاه ، فهناك إذن ما هو أقوى منه . ومن خصائص الإله أن يكون أقوى من غيره ..

ثم خطا خطوة أفسح ..

انتظر حتى بدا القمر بنوره الوضاح ، إن نور القمر أكبر وأوضح وشعاعه أشمل وأفسح .

فقال : هذا هو الذى يستحق أن يكون ربًا ، وقال : هذا ربى .

ولعل من سمعه وافقه على ذلك .

ولكن القمر أيضًا غاب . جاء الصبح فمحاه وبدد ضوءه ، فصاح قائلاً : وأنت أيضًا أيها القمر أفلت ؟ فأنت إذن لا تستحق العبادة . لقد خطا بسامعيه خطوة أخرى فى طريق الحق ، وأثار فى عقولهم دوافع الشك فيما

كانوا يعبدون من نجوم وكواكب ، إن ما يعتريه الأفول لا يستحق أن يكون ربًا معبودًا ، لأن الإله غالب لا مغلوب ، وحاجب لا محجوب ، ودعا الله ليقتدى به من يسمعه فقال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من الضالين .

أى لئن لم يثبتنى على الهداية ، فقد منحه الله الهداية .

وطلعت الشمس بنورها الوضاء الواسع ، ودفئها اللافح القوى ، فصاح فيمن حوله لينبه عقولهم ويثير أذهانهم : هذا ربى ، هذا أكبر . فقد محا هذا الكوكب آية الليل وبدد الظلام وأشاع الدفء فى الكون ، وأمد الأجسام بالحرارة ، وأيقظ النائمين ..

ولكن سرعان ما انتهى النهار فغابت الشمس .

فقال : وأنت أيضًا يا من ظنناك أقوى من غيرك يعتريك الأفول ؟

وأنت أيضًا يا من اتخذناك إلهًا جاء من يقهرك ويخفيك ؟

فأنت إذن أيها الكوكب الساطع لا تستحق العبادة .

ولابد من وجود إله خلق كل هذه الأشياء جميعًا .

هو الذى خلق النجم والقمر والشمس ، وخلق أيضًا الإنسان والحيوان والنبات والماء والهواء والظلمة والضياء .

هذا الإله هو الذى يستحق العبادة ..

هو الإله الواحد الأحد ..

ثم أعلن ذلك فى صراحة ووضوح قائلاً : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٣٧) .

ولكن القوم الذين كان قد أثار أذهانهم وحثهم على التفكير وجذب انتباههم رفضوا الاستجابة لدعوته .

---

(٣٧) الأنعام ٧٨ - ٧٩ .

إن العقيدة لا يسهل اقتلاعها سريعًا من نفوس معتنقيها . إنها تحتاج إلى زمن ، وليس من السهل أن يغير المرء دينه ..

إلا أن حجة إبراهيم القوية وطريقته في النقاش لاشك أنها حركت في عقولهم التفكير ، وبعثت في نفوسهم الشك في عبادتهم ..

ومال بعض الناس إليه ، ودار حوار حول ما أثاره إبراهيم من قضايا .

ولكن دهاقنة الشر وتجار الأديان وخزنة الأوثان لا يمكن أن يستسلموا لهذا الفتى الذى جاءهم بفكر جديد ودين جديد .

إنها قصة كل نبى في كل زمان ومكان ..

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾(٣٨) .

وإذ يقول : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾(٣٩) .

هؤلاء الشياطين أقبلوا على إبراهيم يحاجونه فيما جاء به ، ويجادلونه في دعوته ، ظنًا منهم أنهم يستطيعون التأثير عليه ، أو التغلب على فكره ورأيه .

ولكن نصاعة الحجة لا يمكن أن يثبت أمامها زيف الباطل وزخرف القول . وجلال الحق لا يقف معه زور الكذابين ودجل الدجالين .

لقد أجابهم إبراهيم – عليه السلام – في بساطة :

أتحاجّونى في الله وقد هدانى ؟

---

(٣٨) الأنعام ١١٢ ، ١١٣ .

(٣٩) الأنعام ١٢٣ .

والمكابر إذا غُلب لجأ إلى التهديد والوعيد - كما قلنا - .

لقد هددوه بانتقام الآلهة وحذروه عاقبة مهاجمتها والحط من شأنها . وقالوا : حذار أيها الرجل أن تغضب الآلهة ، إنها تسحق من يكفر بها سحقًا وتصعقه صعقًا ، وظلوا يخترعون له من الأكاذيب ما عساه يدخل الروع إلى قلبه ، أو يجعل الفزع يتسلل إلى داخل نفسه ، ولكنه أجابهم في تهكم بالغ : أَنَا لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ..

إن هذه الأصنام لا تعلم مما تقولونه عنها شيئًا ، إنها صماء لا تسمع بكماء لا تتكلم ، إنها مجرد نجوم لامعة لا تزيد على أنها من خلق الله ، تؤدى دورًا معينًا في الحياة . أما علمتم أن كل شيء مسخر للإنسان ليتفرغ لعبادة ربه ؟ وهذه النجوم والكواكب مسخرة لنا وحقًا ذلك ، وهو لسان إبراهيم عليه السلام ، وهو ما جاء به بعد ذلك القرآن الكريم ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤٠).

هذه المخلوقات التي تعبدونها لا تعلم عنا شيئًا .

أما ربي الذي أعبده فقد وسع كل شيء علمًا .

إنه يحصى كل دقائق حياتنا ويعلم ما نخفي وما نعلن وإليه النشور .

ثم نظر إليهم في رثاء ، وقد أدرك أن حياتهم مليئة بالقلق والخوف ، وأن الإرهاب يحيط بهم من كل جانب ، لقد فقدوا الاطمئنان في الحياة ،فلا أمن في طريقهم ، ولا أمل يراود نفوسهم ، وقد أرهقهم العسف والجور ، وخلت قلوبهم من الفرحة ، في عيونهم دموع مكبوتة ، لا تعرف البسمة طريقها إلى شفاههم ، ذلك أنهم علقوا مصايرهم بمخلوق لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً .

---

(٤٠) الجاثية ١٣ .

ولو أنهم علقوا آمالهم بالله ورفعوا أكف الضراعة إليه ، واتجهت ضمائرهم نحو حماه ، وأشرق نوره فى قلوبهم لعرفوا كيف يكون الأمن ، ولأدركوا سر السعادة ، ولذاقوا طعم الراحة ، ولأحسوا بنعمة الحرية ..

إن الإيمان هو صمام الأمن الوحيد فى هذه الحياة .

وبدون الإيمان لا يشعر الإنسان بالأمان ، مهما أحاط نفسه بسياج من الحراس والحفظة . وأحاط بقصره الجنود المدججون بالسلاح .

وهذه قاعدة عامة تصلح لكل زمان ومكان .

فالمؤمن فى حمى الله ، والذين فى حمى الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

لقد ألقى المؤمن حمله على ربه فكفاه همه وكفل له رزقه ، وأفرغ الرضا فى نفسه ، وثبت باليقين خطاه ، فأصبح يهتف مع الهاتفين : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾(٤١).

لقد أذهل إبراهيم - عليه السلام - القوم بحجته التى ألهمها الله إياه ، واستطاع أن يقهر بهذه الحجة خصومه ، وأن يثير بها الشك فى نفوسهم نحو ما كانوا يعبدونه من كواكب أو أصنام .

ولنقرأ هذه القصة كما صورها كتاب الله الخالد :

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾

---

(٤١) إبراهيم ١٢ .

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾
وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ
أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(42)



طريقة إبراهيم فى الهداية :

لقد كانت طريقة إبراهيم فى هداية قومه هى الحوار الهادىء .

وقد اتبع هذه الطريقة مع كل الأطراف التى يقوم بإبلاغها دعوته ، إن الله رزقه الجنان الثابت والعقل الثاقب واللسان الصادق والحجة القاطعة والبرهان الناصع . وبهذا كله سار إبراهيم فى طريقه يدعو إلى الله .

وكان إبراهيم – عليه السلام – قبل أن يدعو الناس إلى الله دعا أباه .

وهذا أمر منطقي فالأقربون أولى بالمعروف ، وقد قال الله – تعالى – لنبيه – ﷺ – : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾(43) فبدأ بهم فى دعوته .

---

(٤٢) الأنعام ٧٥ : ٨٢ .

(٤٣) الشعراء ٢١٤ .

وكان والد إبراهيم – كما علمنا – من دهاقنة الكفر وسدنة الأصنام ، يروج لها ليل نهار ، يصنعها بيده ثم يبيعها للناس ، وهو مع ذلك يدعو الناس إلى عبادتها وتقديسها والتقرب إليها بشتى القرابين ، وهو المستفيد من ذلك على أى حال .

وقد بلغ آزر بذلك منزلة كبرى فى نفوس الناس ، فهو صاحب كلمة نافذة فى بلاط أصحاب الجلالة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ..

ولكن مع ضلال العقول يتوهم الواهمون ما لا يكون ..

حواره مع والده :

وأقبل إبراهيم على أبيه يقول له :

يا أبت لم تعبد هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنك شيئًا يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟

وقد استنكر آزر هذه اللهجة من ولده ، ودهش منه أن يوجه هذا السؤال إليه ، ولعله سأله عن سبب ذلك .

فقال له إبراهيم – عليه السلام – :

إن الله أعلمنى بما لم يعلم به أحدًا ، وخصنى برسالة أبلغها لعباده ، فأنا عبده ورسوله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون .

إن هذه الرسالة تقتضي الاتباع ، وأنت يا أبت أقرب الناس إلىّ ، وأحق من يسرع إلى إجابة ما أدعو إليه ، إن فيه الهداية والرشد . فاتبعنى يا أبت أهدك صراطًا سويًا .

ولاشك أن آزر اشتد إنكاره على ولده ، وانتهز الشيطان هذه الفرصة فأوغر صدره عليه ، وزين له أن ما يدعو إليه ولده باطل لا ظل له من الحقيقة ، وقد تنبه إبراهيم لذلك فأراد أن يبين لأبيه أن ما يدعو إليه حق من الله ، وأن هذه الأصنام من تزين الشيطان للناس لأنه يريد أن يصدهم عن السبيل القويم والطريق المستقيم فقال لأبيه :

يا أبت لا تتبع الشيطان ولا تغتر بباطله ، إن الشيطان عدو للحق وهو عاص لله ، وقد أقسم بعزة الرحمن أن يغوى آدم وذريته قائلاً : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴾ .

ومن البديهى أن يزداد استنكار الأب لابنه الذى جاء ليقوض نفوذه ويقضى على أطماعه ، ويقتلع ببساطة تلك المكانة التى تربع بها الأب على عرش قلوب الناس ، ويبدد فى لحظة ثروة سخية مستمرة تنصب كل يوم فى خزائنه ..

إن العذاب الذى يلوح به إبراهيم لأبيه شىء خيالى لا ظل له من الحقيقة . وجهنم التى يتحدث عنها فى الآخرة شىء لا يخطر على بال إنسان . لقد خلق الناس للدنيا فحسب ، وليس هناك ما يسمى بعثًا ونشورًا أو ثوابًا وعقابًا . لقد جن إبراهيم فى نظر أبيه .

لقد حذر إبراهيم أباه عاقبة كفره .

وهذه العاقبة هى النار التى أعدها الله لأولياء الشيطان ..

وإبراهيم حريص على أن ينجى أباه من هذا المصير السيىء والعاقبة الوخيمة .

ولكن الحجاب الكثيف الذى صنعته المادة على قلب هذا الأب حال دون نفاذ الكلام الطيب والدعوة الحسنة إلى عقله وحسه .

ولقد كان إبراهيم فى منتهى التعقل والهدوء واللين وهو يدعو أباه .

إنه لم ينس لحظة أنه أبوه . وهو يعرف له حقه .

وهو يحفظ حق التربية جيدًا ، ويعرف – كما أوصى الله دائمًا – أن الوالدين لهما احترامهما ، وإن جاهدا الابن على أن يشرك بالله شيئًا فعلى الابن ألا يضيعهما ، بل يصاحبهما فى الدنيا معروفًا ..

وقد أوصى القرآن الكريم بذلك فى قوله – تعالى – : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٤٤].

وأبو الأنبياء وأحق أن يعرف بذلك . ولذلك لم يكن جافيًا قط فى مخاطبة أبيه – على الرغم من كفره وعناده – .

وهذا هو أدب النبوة العالى .

وكان الأب على عكس الابن تمامًا .

فقد قابل إبراهيم بكل عنف ونكران ، وتهدده بكل أنواع التهديد . بل حاول أن يحمل ابنه على عبادة ما يعبده من أصنام ، ولما رأى عزوف إبراهيم عن ذلك هدده فى أسلوب استفهامى تهديدى قائلاً له :

أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ؟

وهو استفهام له معناه .

ثم خطا خطوة أخرى فى التهديد . لقد هدده بالرجم .

ولم يكتف بذلك بل هدده بالطرد .

فهو لم يقف عند حدود الإعراض عن دعوة إبراهيم والرفض لها ، ولكنه تعدى ذلك إلى التلويح بأشد أنواع القتل ، وهل هناك أفظع من القتل رجمًا ..

وربما كان المقصود بالرجم الشتم والسب كما يقول بعض المفسرين . ولكنه إعراض عن الدعوة على أى حال ..

---

(٤٤) لقمان ١٤ ، ١٥ .

وهو تصرف من والد إبراهيم يدل على شدة الكفر ، الذى يطغى على كل عاطفة ولو كانت عاطفة الأبوة الرحيمة التى تغفر للابن كل شيء .

لقد نسى آزر فى حمأة الكفر الرحمة بالابن والعطف عليه وهدد ابنه برجمه ولوح له بطرده .

الكفر ملة واحدة :

ولقد حدث مثل هذا الموقف من كفار قريش حين جاء الإسلام ، فقد آذى المشركون أولادهم الذين أسلموا ، وتحجرت عاطفة الرحمة فى نفوسهم نحو أبنائهم ، ولقد تصدى والد أبى عبيدة بن الجراح لابنه فى موقعة بدر فى كوكبة من فرسان المشركين ، وترصده فى كل طريق حتى سد أمامه منافذ النجاة وكان حريصًا على أن يقتله ، فلم يكن بد أمام أبى عبيدة من قتال هؤلاء ليخلص من شرهم حتى قتلهم جميعًا .

لقد كان الأب حريصًا على قتل ابنه ، وهذا من أعجب ما يفعله الكفر فى النفوس ، إنه يقطع أواصر القربة ويقضى على وشائج الرحم ، ويضيق الصدر فلا يصبح فيه منفذ للرحمة والمودة .

وبعكس ذلك الإيمان . إنه يسكب الرحمة فى القلوب ، ويفيض المودة فى النفوس .

فماذا كان موقف إبراهيم أمام تهديد أبيه السافر ؟

قال لأبيه : سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًا .

لم يكتف إبراهيم بتوجيه السلام لوالده ، ولكنه شفع ذلك بالاستغفار له .

ولكن ماذا يجدى الاستغفار للكافر ؟

إنه لا يجدى شيئًا .

ولكنها الرحمة التى تلازم الإيمان ، والطهارة التى يفيض بها قلب المؤمن الذى عرف طريقه إلى ربه ، فزال منه الحقد والشر .

وظل إبراهيم يستغفر لأبيه فترة طويلة حتى نُهى عن ذلك ، وتيقن إبراهيم أن أباه مات مشركًا . وفى ذلك يقول الحق – تعالى – : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾(٤٥).

ويعلمنا ذلك عدم جواز الاستغفار للمشركين ولو كانت تربطنا بهم صلة القرابة أو المودة ، فالقرابة الحقيقية هى ما بين المؤمنين ، والمودة المثلى لا ينبغى أن تكون إلا بين المتقين ..

وقد نهانا الله عن أن نتخذ المشركين وأصفياء ماداموا مصرين على حربنا معدين العدة لقتالنا قائلاً فى صراحة واضحة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُم أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ﴾(٤٦)..

وقد حاول النبى – ﷺ – مع عمه أبى طالب أن ينطق بالشهادتين ليستحق بذلك شفاعة الرسول – ﷺ – دون جدوى . ولكنه على الرغم من منافحته عن النبى ومناصرته له أبى أن ينطق بالشهادتين ..

وحث الله – تعالى – المؤمنين على الاقتداء بإبراهيم – عليه السلام – فى ترك الاستغفار للمشركين ، وقال فى ذلك :

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٤٧)

(٤٥) التوبة ١١٤ .
(٤٦) الممتحنة ١ .
(٤٧) الممتحنة ٤ .

وحين أدرك إبراهيم – عليه السلام – أن أباه مصر على عبادة الأوثان اعتزله وهجره ، واكتفى بذلك . ولكن بقى فى قلبه تطلع إلى أن يسلم ، ورجاء فى الله أن يهديه .

وربما لم ينقطع رجاء إبراهيم فى قبول استغفاره لأبيه حتى يوم القيامة ، فقد روى البخارى : يلقى إبراهيم أباه يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ بقوائمه فيلقى فى النار(٤٨).

ولنقرأ قصة إبراهيم فى حواره مع والده كما وردت فى القرآن الكريم :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ

---

(٤٨) البخارى جـ ٥ ص ٢٠٢ كتاب التفسير حديث ٢٦٢ ، وقصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣٤ .

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾(٤٩)

وكما كان إبراهيم لبقًا لطيفًا هادئًا فى دعوة أبيه كان كذلك فى دعوته لقومه ، لا يلجأ إلى العنف ، ولا يميل إلى الحدة ، كان متبعًا لذلك المنهج الذى أوصى به الله – تعالى – نبيه محمدًا – ﷺ – بقوله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(٥٠).

إبراهيم فى مصر :

مكث إبراهيم فى حران ما شاء الله له أن يمكث ، وبدا له أن يرحل إلى مصر .

واختلف الرواة فى سبب رحلته ..

فمنهم من يرجعها إلى قحط البلاد حتى ضاقت سبل العيش فى الشام . فرحل إبراهيم – عليه السلام – إلى مصر ، ومعه سارة ، وكان قد تزوجها بعد أن آمنت به(٥١).

ومنهم من يقول : إنه حين كان فى حران عمل بالتجارة حتى أثرى ، فرحل إلى مصر متاجرًا(٥٢)..

كانت مصر حين دخلها فى يد الهكسوس(٥٣) الذين استولوا عليها بعد معارك ضارية ، وظلوا محتلين لها فترة طويلة من الزمن .

---

(٤٩) مريم ٤١ : ٤٨ .
(٥٠) النحل ١٢٥ .
(٥١) قصص القرآن لجاد المولى ص ٤٦ ، وقصص الأنبياء لابن كثير ص ١٤٨ .
(٥٢) بدائع الزهور لابن إياس ص ٨١ .
(٥٣) الكعبة لأمينة الصاوى ص ٣٣ .

كانت سارة ذات جمال باهر ، وهى ابنة عم إبراهيم ، وكانت ممن آمن معه فى بابل وهاجرت معه إلى حران .

ورأت بطانة السوء سارة ، وبطانة السوء فى كل مكان وزمان يحيطون بالسلطة ولا همّ لهم إلا تزيين الشر للملوك والأمراء ، فأخبروا الملك بجمالها وأغروه بها .

فاستدعى الملك إبراهيم وسارة .

وخشى إبراهيم أن يقول إنها زوجتى فيقتله الملك لتخلص إليه . ولكنه رجا من قوله إنها أختى أن يبقى لأن الملك لن يجد سببًا لقتله ، وتكون هناك فرصة أمام إبراهيم يدبر أمر تخليصها من براثن هذا الشرير .

فقال للملك حين سأله عن سارة : إنها أختى .

وهى إجابة تتسم بالمرونة والذكاء .

وقال لها : إن سألك عنى فأنا أخوك ، وأنت أختى فى دين الله قبل أن تكونى زوجتى .

إن هذه القولة ذريعة لتخليص سارة من هذه الورطة .

وحين عرف الملك بأنها ليس لها زوج أمر بإدخالها قصره ، وضمها إلى حريمه ، وزينت بأفخر الثياب وأجمل الحلى ، وهى جميلة بطبعها ليست فى حاجة إلى زينة إضافية .

ورآها الملك فخطفت عقله ، وجن بها جنونًا .

وحاول الاقتراب منها ، ولكن الله عصمها منه ونجاها من شره ، لقد شلت يده . وأدرك أن فى هذه المرأة سرًّا لا يفهمه ، فطلب العفو منها فعفت عنه ، فأطلقت يده .

ووسوس إليه الشيطان ، وزين له أنها لا شأن لها بقبض يده وشلها ، فعاود الكرة ، فيبست يده .

فاضطرب وخاف ، وعرف أن هذه المرأة ليست كسائر النساء ، والدليل على ذلك أنها ليست متهافتة عليه كما تتهافت النساء على الملوك . لقد رأى نساء كثيرات غيرها كن يتطلعن فى شوق إلى هذه اللحظة المرتقبة معه .

أما هذه فمعتصمة بوقار الإيمان ، مستمسكة بحبال اليقين ، متذرعة بحمى الصبر ، تتمتم شفتاها بصلاة خافتة لا يعرفها ، ولكنها تدعو الله فيها أن ينجيها من شر ذلك الشيطان ويحفظها من رجسه ، ويحجبها بحوله وقوته من بطشه .

لقد أحس الملك برهبة منها ، وبدلاً من أن ينظر إليها نظرة المفتون نظر إليها نظرة التائب المستغفر .

أجاب الله دعاءها ، وحماها من صولة هذا المعتدى .

وجعلَ هذا الملك الذى يتهالك الناس على الارتماء تحت أقدامه يعتذر إليها ويطلب منها أن تعفو عنه .

ثم أمر بردها إلى أخيها مصحوبة بالعناية الفائقة والرعاية الكريمة والهدايا الكثيرة الثمينة ، ولم يكتف بذلك ، بل وهبها جارية نضرة كانت يومًا ملكة فى هذا القصر قبل أن ينتزعه الهكسوس من زوجها الذى مات دفاعاً عن بلده .

وأصبحت هذه السيدة المتوجة جارية فى هذا القصر ، بعد أن استولى هذا الملك عليه .. هذه الجارية هى هاجر التى أصبحت فيما بعد أم إسماعيل وأم العرب .

وعادت سارة ومعها هاجر إلى إبراهيم ، وأنست كل منهما إلى الأخرى .. وارتفعت العلاقة بينهما من مستوى سيدة وجاريتها إلى مستوى صديقة وصديقتها .

ولعل سارة بصرت هاجر بما تدين به فاستجابت لها ، ووجدت هاجر فى ظل العقيدة الصحيحة والإله الواحد مطمحًا كانت ترنو له وتتطلع إليه حتى وجدته بين هذين الرفيقين الصالحين إبراهيم وسارة .

وأقام إبراهيم في مصر فترة من الزمن ، كان موضع رعاية وعناية وحب ، ولم ينس في هذه الفترة دعوته إلى ربه ، فكان يبشر بها بأسلوبه الرفيق وكلامه الرقيق .

ولكن بطانة الشر لا تنأى عن الشر ولا تكف عن البغي .

لقد حسدوا إبراهيم على مكانته ، وحقدوا عليه ، وكادوا له على ما وصل إليه من منزلة رفيعة في قلوب الناس . فرفعوا تقاريرهم المشبوهة الملفقة التي اصطنعوها وتوارثوها عبر الأجيال ثم وَرَّثوها ..

ولعلهم ضمَّنوا هذه التقارير أن إبراهيم ليس تاجرًا ، وليس طالب عطاء ، ولكنه طامع في السلطة ، مغامر يبحث عن سبب الوصول إلى هدف . متخذين مُن التفاف الناس حوله وحبهم له أسبابًا لما يزيِّفون ومبررات لما يفترون .

وربما أوغرت دعوة إبراهيم إلى الله صدور الكهنة الذين يروجون لعبادة الآلهة المتعددة في مصر فخشوا على نفوذهم ، فبيت كل من هؤلاء وهؤلاء الشر لإبراهيم .. فعرف أن مصر ليست بدار أمان له ، فتركها وعاد إلى الشام ..

إبراهيم في فلسطين :

وفي أرض فلسطين حط إبراهيم رحاله بعد خروجه من مصر ..

وكان قد خرج من مصر وله مال ، ما زال ينميه حتى كثر وزاد ، وبارك الله فيه فتضاعف مرات ومرات .

وأقام مع قوم في واد يقال له وادي سبع ، وهو الذي يسمى بئر سبع الآن ، وهو مكان يقع جنوبي فلسطين ، وبه عدة عيون يقال إن إبراهيم هو الذي حفرها بيده(٥٤).

---

(٥٤) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٨ ص ٥٥٥ .

ومازال إبراهيم يثمر أمواله ، حتى ضاقت الأرض بما فيها من أنعام وماشية على المقيمين بها ، فطلب القوم الذين أقام إبراهيم بينهم منه أن يرحل عنهم .

واستاق إبراهيم - عليه السلام - ماشيته وأنعامه ، وأخذ أهله وسار متجهًا إلى الشمال ، وكأنه أخذ البركة معه ، فما أن ارتحل حتى جفت الآبار ، وكاد القوم الذين طلبوا إليه أن يرحل أن يهلكوا عطشًا .

فأسرعوا خلفه يرجونه العودة إليهم ، ولكنه نبى ومن مقدمة أولى العزم منهم فكيف يغير عزمه ؟ ، لقد رسم له الله طريقًا فهو يسير فيه ، وما يحدث من الناس حين يطلبون منه الرحيل ما هو إلا مجرد أسباب لتنفذ المقادير ..

فأبى إبراهيم - عليه السلام - العودة إليهم ، فشكوا إليه العطش ، فأعطاهم سبع نعاج وقال لهم : أوقفوا على كل بئر من الآبار السبع نعجة يأتكم الماء . ففعلوا فعاد الماء ، وهذا هو سر تسمية المكان باسم وادى سبع .

وأوحى الله إلى إبراهيم أن يمد بصره جهة الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وبشره أن كل ما تقع عليه عينه سيجعله الله له ولذريته بعده إلى آخر الدهر .

يا لها من بشرى عظيمة ، بل بشريات ..

بشرى بالاستقرار وبشرى بالبركة وبشرى بخلود الأثر ، والأهم من ذلك بشرى الولد الذى تجىء منه الذرية التى وعد الله بها ، فإلى هذا الوقت لم يكن لإبراهيم ولد ، فقد كانت سارة عقيمًا لا تلد .

وها هى ذى تتحقق البشرى ، ويجىء الولد ، وتصبح لإبراهيم ذرية مباركة عظيمة ، ثمارها هذه الأمة العربية التى تعمر هذه الديار المباركة ، التى بارك الله فيها ، وبعث منها الرسل والأنبياء ، وفى هذا المكان نشأت مدينة الخليل التى سميت باسم خليل الرحمن ، ونشأت مدينة القدس قريبًا منها ، وفيها بنى بيت المقدس ثانى مسجد بنى بعد بيت الله الحرام ..

وقريبًا من مدينة الخليل أيضًا أقام نبى الله لوط ، ابن أخى إبراهيم الذى هاجر معه من بابل ، أقام فى أرض الغور فى الأردن ونزل فى مدينة سدوم على شاطىء البحر الميت من فلسطين .

إبراهيم يتسرَّى بهاجر :

ونظرت سارة إلى زوجها الخليل – عليه السلام – وقد عزَّ عليها ألا يكون له عقب منها ، وكانت تحبه كثيرًا ، ومن حولهما الخير الكثير الذى فاض وعم وملأ الوديان ، وهذا المال فى حاجة إلى من يرعاه بعد إبراهيم . وإبراهيم فى حاجة إلى من يحمل اسمه من بعده ، وهى عقيم لا تلد ، وقد كبرتْ فى السن إلى درجة الإياس .

لقد فكرت سارة فى ذلك كله . وانتهت إلى قرار نفذته راضية بدافع حبها لزوجها . وكان هذا القرار هو أن وهبته هاجر جاريتها . وتحت إلحاح شديد قبل إبراهيم الهبة ، وتسرَّى بهاجر ، وكان منها إسماعيل الذبيح ، وهبه الله لإبراهيم قرة عين ورضاء نفس ، ومثار أنس .

وسعدت الأسرة بالمولود الجديد الذى ملأ البيت أنسًا وبهجة ، ولكن عوامل الغيرة الطبيعية تحركت فى نفس سارة . وطلبت من إبراهيم أن يُغيِّبَ هاجر وإسماعيل عنها حتى لا تراهما . فكانت رحلته بهما إلى مكة المكرمة ..

ونزل بهما هناك بجوار ربوة حمراء بنى فوقها بيت الله الحرام فيما بعد ..

وسيأتى تفصيل ذلك – إن شاء الله تعالى – فى قصة خاصة بإسماعيل الذبيح .

وعاد إبراهيم – عليه السلام – إلى فلسطين ، وأخذ يمارس حياته ويدعو من حوله إلى الله .

ولكنه مع ذلك يشعر بالوحدة ، وليس له ولد يأنس ليه ، وقد تقدمت بزوجه السن ، وابنه الذى أنعم الله به عليه أودعه مع أمه فى مكان قاحل لا نبات فيه ولا ماء ، فى أرض « فاران » حيث ظهرت مكة بعد .

حقًا إنه تركهما فى رعاية الله الذى لا تضيع عنده الودائع ، ولكن قلبه ظل معلقًا بهما ، إنه قلب بشر على أى حال ولو أنه نبى ، ومن قال إن

النبى لا يعتريه الشوق إلى ابنه وبخاصة إذا كان بعيدًا عنه ، وأرق الناس عاطفة هم الأنبياء .

وقد سئل أحد الحكماء : من أحب أبنائك إليك ؟ فقال :

صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يشفى ، وغائبهم حتى يعود .

وهذا حق . فما بالك إذا كان صغيرًا غائبًا ضعيفًا ؟

لاشك أنه يستأثر بالحب كله والعطف كله والشوق كله .

لا تتعجب إذا كان إبراهيم - عليه السلام - مقيمًا بالشام ، وقلبه يخفق بالوليد الذى تركه مع أمه وحيدًا بجبال فاران ..

البشارة بإسحاق :

وكان لإبراهيم بيت للضيافة ، يستقبل فيه الغرباء ويكرمهم ، ويبحث عن الضيوف إن أبطأوا عنه ، ويستبشر بقدومهم ، ويقربهم ويقدم لهم أشهى الأطعمة ويقوم نحوهم بالواجب على أتم ما يكون .

وفى يوم جاء إليه ثلاثة ضيوف غرباء ، لم ير أجمل منهم شكلاً ولا أحسن سمتًا ولا أنضر منظرًا .

ففرح بقدومهم ، ورحب بهم ترحيبًا شديدًا ، وأنزلهم فى بيت ضيافته ، وأسرع إلى بيته يطلب أن يُشوى لهؤلاء الضيوف الشرفاء عجل سمين .

وجلس إبراهيم - على عادة الكرماء - يسامر ضيوفه حتى نضج الطعام . ومدت المائدة ، وقدم العجل المشوى تسبقه رائحته الشهية ويسيل منظره اللعاب .

ومن عادة الضيف أن يكرم مضيفه بتناول طعامه .

وعزم إبراهيم على هؤلاء الضيوف أن يتقدموا للطعام ، ولكنهم أبوا .

فاستراب فى أمرهم ، وأوجس فى نفسه خيفة منهم .

إن الضيف إذا أكل من طعام مضيفه دل ذلك على الأمان ؛ وأصبح بينه وبيه ذمام ، لأن حرمة العيش والملح – كما يقال – لها أثر فى تقوية الصحبة وتثمير المودة ، ولكنه إذا رفض طعامه فكأنه رفض صحبته وأباح حرمته ..

وسألهم إبراهيم : مالكم لا تأكلون ؟

عند ذلك كشف الملائكة له عن أنفسهم ليطمئن ، وعرفوه بأنهم ليسوا بشرًا ، ولكنهم رسل ربهم إلى قوم لوط الذين عاشوا فى الأرض فسادًا ، وأبوا مع نبيهم إلا عنادًا ، فهم لم يصيخوا السمع إلى دعوة لوط ، ولم يقبلوا منه قولاً ، ولم يستجيبوا له نصحًا ، واستمروا فى فجورهم وعبثهم ، فأرسلهم الله لعقاب هؤلاء العصاة الفجرة .

لقد طمأن الملائكة إبراهيم ، وشكروه على إكرامه لهم ، وكافأوه على ذلك بأن بشروهُ بأن الله سيرزقه من زوجه البارة سارة غلامًا عليمًا ، يؤنس وحدتهما ، ويبدد وحشتهما ، ويملأ الحياة من حولهما بهجة وسرورًا ، وسيمتد بهما العمر ليريا له ذرية طيبة مباركة ..

وكانت سارة واقفة تسمع هذا الكلام فضحكت .

ولعلها ضحكت عجبًا ، ولعلها ضحكت استبشارًا .

ولئن عجبت فإنه يحق لها أن تعجب ، ولعل إبراهيم عجب معها أيضًا .

كيف تلد من أشرفت على الثمانين ولعلها فاقتها ؟

وكيف يكون لابن المائة والعشرين أو تزيد ولدٌ ؟

ولكن الله إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون .

ولقد حكى القرآن الكريم ذلك كله ، متحدثًا عن مختلف الأحاسيس النفسية التى راودت كلا منهما فى أسلوبه المعجز قائلاً :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ

إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ
إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ
عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ
حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾(٥٥)

وفي موضع آخر يقول :

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ
قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾
فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ
فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾(٥٦)

وفي سورة أخرى يقول :

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾
قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾(٥٧)

وتحققت البشرى ، وحملت سارة على الرغم من كبر سنها .

وعاشت حتى رأت اسحاق يولد له ، وقد ولد له يعقوب ، وسيأتي تفصيل لذلك إن شاء الله تعالى .

---

(٥٥) هود ٦٩ : ٧٣ .
(٥٦) الذاريات ٢٤ : ٣٢ .
(٥٧) الحجر ٥١ : ٥٦ .

لوط - عليه السلام - :

ويستدعي ذلك الحديث عن لوط - عليه السلام - لارتباط قصته بإبراهيم - عليه السلام - .

ولوط هو ابن أخي إبراهيم ، فهو ابن هاران بن تارح .

وتعليل اسمه عربيًا فيه تكلف ، حيث يقول الثعلبى : سمى لوطًا لأن حبه لاط بقلب إبراهيم - عليه السلام - أى تعلق به ولصق .

والمعروف أن هذا ليس علمًا عربيًا ولكنه أعجمى ، وصُرِف لأنه ساكن الوسط كنوح وهود .

وكان لوط فى بابل مع أسرة إبراهيم كلها .

وآمن لوط مع إبراهيم عليهما السلام . قال - تعالى - : ﴿ فآمن له لُوطٌ ﴾[58].

وهاجر مع إبراهيم إلى الشام حين رفض النمروذ الاستجابة لدعوة إبراهيم وضيق عليه الخناق وعلى المؤمنين به .

قالوا : وهاجر أيضًا مع إبراهيم أبوه « تارح » وهو آزر ، ولكنه ظل مقيمًا على كفره[59].

وربما هاجر - لو صح ذلك - لأن النمروذ لم يطق أن يرى أحدًا يمت إلى إبراهيم الذى عارضه بصلة ، وقد تكون المحاورة التى تمت بين إبراهيم وأبيه حدثت بعد هجرته معه ، فقد طمع إبراهيم حينئذ فى أن يترك أبوه ما هو عليه من وثنية .

---

(٥٨) العنكبوت ٢٦ .

(٥٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٠٤ .

ورحل لوط أيضًا مع عمه إبراهيم إلى مصر ، وعاد معه من مصر إلى فلسطين . ولكن لوطًا نزل في وادى الأردن في مدينة سدوم ، وبعثه الله إلى أهل هذه القرية التى كانت تعمل الخبائث .

كان قوم لوط أهل كفر وفاحشة ، وقد افتتنوا فى ارتكاب المنكر الذى زينه الشيطان لهم ، فكانوا يأتون الرجال ويقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر .

لقد كان هؤلاء القوم أفجر الناس وأشدهم كفرًا وضلالاً ، وأسوأهم طوية وأردأهم سيرة وأخبثهم سريرة ، وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ويكفى أنهم ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم أحد إليها وهى أنهم كانوا يأتون الذكران من العالمين .

وعمت الفاحشة فى الذكور والإناث ، وشاع الشذوذ الجنسى منهم شيوعًا خطيرًا ، ففى الذكور اللواط ، وفى النساء السحاق الذى هو نتيجة طبيعية للواط .

وقام لوط بتكليف من ربه - تعالى - بدعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وترك الفاحشة ، والابتعاد عن ذلك المنكر الذى ابتدعوه .

ولكنهم لم يعيروا لوطًا التفاتًا ، ولم يصيخوا إلى نصحه ، ولم يستمعوا إلى قوله ، بل استهزءوا به وسخروا منه .

وهموا بطرده من بينهم قائلين بعضهم لبعض : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾(٦٠).

إنه غريب عنهم ، وافد عليهم ، ولا وصاية له عليهم ، فكيف يقبلوه قوله ؟

بل العجب كل العجب أنه ينتقد سلوكهم ويستهجن فعلهم بدلاً من أن يجاريهم ..

---

(٦٠) النمل ٥٧ .

أما طلبهم إخراجه من بينهم لأنه وأهله يتطهرون فهو فى منتهى الدلالة على حقهم وعته عقولهم ، لأنهم حولوا ما يتمدح به الناس من طهارة إلى رجس مذموم .

ولم يكتف هؤلاء القوم الذين خلعوا برقع الحياة ، وجاهروا بالمعاصى ، وارتكبوا الفحشاء على قارعة الطريق وفى المنتديات ، وبلغوا الغاية فى السفه ، لم يكتفوا بمحاولة إخراج لوط وآله من القرية ، ولكنهم تحدوه سافرين قائلين له : ﴿ إئْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[61].

ومن الغريب أن يتمالأ القوم جميعًا على الفحشاء ، كبيرهم وصغيرهم ، شيبهم وشبانهم ، رجالهم ونساؤهم ، ويتعاونوا فيما بينهم على الإثم والعدوان ، لا يوجد بينهم أديب ، ولا يظهر منهم أريب ، كأن الشيطان قد طبعهم كلهم بطابعه ، فلم يشذ واحد منهم عما فرضه عليهم من بغى وفساد .

وما زال لوط على الرغم من ذلك يواصل فيهم دعوته ، وينشر بينهم كلمته ، ويحثهم على الصلاح ، ويحذرهم من الفساد ، ويخوفهم شدة العقاب وسوء المصير ولكن دون جدوى .

ولم يجد لوط بدًا بعد أن استفرغ فيهم صبره وبذل قصارى جهده من أن يستنصر الله عليهم ، فقد اشتد إيذاؤهم له وازدادت سخريتهم به وبأهله ، فسأل الله قائلاً : رب انصرنى على القوم المفسدين ..

لقد ضجت السموات والأرض من ظلمهم ، وأنفت الملائكة من شرهم وبغيهم ، وللملائكة غيرة على حرم الله ، وقديمًا قالوا للحق - تعالى - حين أخبرهم أنه جاعل فى الأرض خليفة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[62] فأمّنوا على دعوة

---

(٦١) العنكبوت ٢٩ .

(٦٢) البقرة ٣١ .

لوط ، ورجوا نصرة الله له ، واستجاب الله دعوته ، فكان عقابه لهؤلاء القوم عبرة لمن يعتبر .

لقد أرسل الله ملائكته : جبريل وميكائيل وإسرافيل لعقاب هؤلاء المردة ، ومروا أولاً بإبراهيم في صورة إنسية ، فحسبهم ضيوفًا وذبح لهم عجلاً سمينًا ، ولكنهم عرفوه بأنهم ملائكة الله جاءوا ليعاقبوا قوم لوط .. وبشروا إبراهيم بإسحاق - كما قدمنا - .

محاورة إبراهيم للملائكة :

ولكن إبراهيم الذى أتاه الله رحمة فى قلبه وحلمًا فى عقله ، أشفق على ابن أخيه، وأسرته ، وأراد أن يستشفع لهؤلاء القوم عسى أن يكون فيهم رجاء .. إن إبراهيم كان يخشى عذاب هؤلاء وفيهم لوط ، لأن النقمة إذا جاءت عمت ، مصداقًا لقول الحق : ﴿ واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾(٦٣).

أخذ إبراهيم يجادل الملائكة فى أمر قوم لوط فى محاولة أخرى للإصلاح .

ولكن الله كان قد علم أن هؤلاء القوم لا ينتظر منهم نجاح ولا يظهر فيما بينهم فلاح ، ولا يرجى لهم صلاح .

لقد عميت قلوبهم عن كل خير ، وضلت عقولهم عن كل رشاد ، وركب الشيطان رءوسهم ، وعشش الشر فى نفوسهم فلابد من هلاكهم .

قال إبراهيم - عليه السلام - : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟

قالوا : لا ..

قال : أتهلكونها وفيها مائتا مؤمن ؟

قالوا : لا ..

---

(٦٣) الأنفال ٢٥ .

قال : أتهلكونها وفيها أربعون مؤمنًا ؟

قالوا : لا ..

قال : أتهلكونها وفيها أربعة عشر مؤمنًا ؟

قالوا : لا ..

قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ إن فيها لوطًا ..

قالوا : نحن أعلم بمن فيها(٦٤) ..

لقد علم الله أنه لا يوجد فى هذه القرية صالح إلا لوطًا .. ولابد أن ينجيه الله قبل أن ينزل العذاب بأهل هذه القرية .

الملائكة فى قرية لوط :

وشاء الله أن يمد لهؤلاء المفسدين فى الغى حتى آخر لحظة لهم حتى لا تكون لهم حجة يحتجون بها عند ربهم .

وسار الملائكة فى صورتهم الإنسية الجميلة ، وطرقوا باب لوط عند غروب شمس .

ورآهم لوط فرحب بهم على وجل وخوف أن يحس بهم قومه فيأتوا للاعتداء عليهم . وكان لوط يحسبهم ضيوفًا .

ولم يكن لوط بخيلاً ، فإن الكرم فى طبعه ، وهكذا يكون الأنبياء .

ولكن استقبال هذه الصور الجميلة سوف يجر عليه من المتاعب ما لا قبل له به .

إنه وحيد بين قوم لئام ، فكيف يحمى ضيوفه من وحشيتهم ؟

---

(٦٤) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٩٧ .

لقد أصبح مغلوبًا على أمره ، وخشى إن ردهم عن بابه أن يستضيفهم هؤلاء الذئاب ، ويحدث ما يخشاه .

وفتح لهم الباب حفاظًا عليهم ، وسيحاول أن يدفع عنهم جهده ، ورجا الله نصرته .

وكان قومه قد اشترطوا عليه ألاَّ يستضيف أحدًا إلا بعلمهم ، ولكن كيف يعلمهم وهو يدرك ما سوف يحدث لضيوفه ؟

وهكذا صور القرآن الكريم حيرة لوط – عليه السلام – قائلاً : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾(٦٥).

وحكى بعض الرواة : أن الملائكة حين جاءوا للوط كان فى أرض يعمل فيها فتضيفوا له ، فاستحيا منهم وانطلق أمامهم ، وجعل يُعرِّض لهم فى الكلام بخبث القوم الذين يعيش بينهم ، على أمل أن يتركوه وينصرفوا ، لقد قال لهم : إن صفة أهل هذه القرية كذا وكذا ، وكرر هذا القول عدة مرات ، ولكن الضيوف مع ذلك مضوا معه ولم يلتفتوا إلى كلامه .

وقال بعضهم : إنهم التقوا أولاً بابنته عند نهر سدوم ، وللوط بنتان ، إحداهما « ريثا » وهى الكبرى ، والثانية « زغرتا » .

فقالوا لها : يا جارية هل من منزل ؟

فقالت : نعم ، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم – شفقة عليهم من قومها – وانطلقت إلى أبيها ، فقالت : يا أبت أتاك فتيان على باب المدينة لم أر وجوه قوم أجمل منهم ، فاحذر عليهم من قومك .

فجاء بهم لوط ، وأدخلهم إلى بيته ، دون أن يعرف بهم أحدًا من أهل القرية . لم يعرف بهم إلا أهله .

---

(٦٥) هود ٧٧ .

ولكن زوجته - بكل أسف - كانت من هؤلاء القوم الكافرين .

قال الله في حقها هي وامرأة نوح : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾(٦٦).

فأسرعت هذه الزوجة إلى قومها قائلة لهم : إن مع لوط رجالاً ما رأيت أجمل من وجوههم قط .

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾(٦٧).

وأحدق هؤلاء القوم بالبيت ، والبيت مغلق ، فتسوروا الجدر .

وحاول لوط أن يدفع عن ضيفه بما أمكنه من جهد ونصح .

قال لهم : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾(٦٨).

وقال لهم حين يئس منهم : ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي أَزَوِجُهُنَ لَكُمْ فَانْكِحُوهُن وَهُنَ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ، ولكنهم رفضوا قائلين : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾(٦٩).

وتحسر لوط على أنه غريب بين هؤلاء اللئام ، وتمنى أن لو كانت له عشيرة تناصره ضدهم ، وتدفع عنه كيدهم ، فقال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾(٧٠).

وظل لوط يدافع عن ضيفه ، ويمنع القوم من دخولهم داره ، حتى اشتد به الضيق وبلغ منه أقصاه ، ودعا الله أن ينصره على القوم المفسدين .

---

(٦٦) التحريم ١٠ .
(٦٧) هود ٧٨ .
(٦٨) هود ٧٨ .
(٦٩) هود ٧٩ .
(٧٠) هود ٨٠ .

لقد نصره الركن الشديد ، وهل هناك ركن أشد من ركن الله – عز وجل – .

وصبر الملائكة الكرام طوال هذه الفترة حتى عرفوا أن لوطًا قد فرغ صبره واستفرغ جهده ، وأنه لن يستشفع لهم إن نزل بهم العذاب .

عند ذلك قالوا له مطمئنين إياه : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾(٧١).

وخرج جبريل إليهم فضربهم بجناحه فطمس عيونهم فعموا ، فانصرفوا وهم يتوعدون لوطًا بأنهم سيحضرون فى الصباح لينالوا مأربهم . وقد أخبر القرآن عن فعل جبريل بهم بقوله :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾(٧٢).

قال الملائكة للوط : لا تخش وعيدهم ، إن الله قد فرغ منهم ، إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب .

وطلبوا من لوط أن يسرى بأهله آخر الليل ، لا يلتفت أحد منهم إلى الوراء ، إن الله قد كتب لهم النجاة مما سيصيب هؤلاء القوم من عذاب شديد . إن التى سيصيبها العذاب منهم هى امرأته التى أخبرت قومها بشأن الضيوف ودلت عليهم ، فلابد أن تشرب من نفس الكأس التى سيشربون منها ..

وكان اسم هذه المرأة « والهة » أو « والغة » ..

قال الملائكة : لن يجىء الصبح يالوط حتى تخسف القرية بمن عليها وما عليها .

---

(٧١) هود ٨١ .
(٧٢) القمر ٣٧ ، ٣٨ .

وأسرى لوط بأهله كما أُمر ، ووصل إلى قرية « صوعر » التي يقال إنها : « غور زغر » .

وما أشرقت الشمس حتى حمل جبريل القرية على جناحيه وارتفع بها حتى بلغ عنان السماء ، وسمعت الملائكة تصايح الديكة ونباح الكلاب ، ثم قلبها رأسًا على عقب . فأصبح عاليها سافلها ، وأتبع ذلك بإمطارها بحجارة من سجيل منضود ، أى متتابع ، كل حجر مكتوب عليه اسم صاحبه ، حتى لقد انتظر الحجر صاحبه الغائب حتى عاد فوقع عليه وأهلكه ، وهذه هى المؤتفكات التى ورد فى حقها قوله تعالى : ﴿ والمؤْتَفِكَةَ أهوى . فغشاها ما غشى ﴾(٧٣).

ولحقت امرأة لوط بأهلها فى العذاب فعلاً .

وأصبحت مدينة سدوم عبرة لمن يعتبر ، وبقيت أطلالها قائمة تشهد بمدى مالحق أصحابها من عذاب أليم ، وجعل الله مكانها بحرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من المناطق المتاخمة لها .

وقد جعلها الله فى طريق يمر عليه الناس فى رحلاتهم ، فيرون تلك الآثار من المدينة التى دمرتها القدرة ، لتكون شاهدًا حيًا على أن الله لا يطلب إلا كرامة عباده ، فإذا ما رفضوا هذه الكرامة خسف بهم وألقاهم فى الهوان المقيم والعذاب الأليم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(٧٤).

لقد كان العذاب شديدًا على قدر الجرم الذى ارتكبه هؤلاء القوم ، وفى ذلك دليل على أن تلك الجريمة تستحق من المشرع أقسى عقاب ، وقد ذهب الفقهاء إلى وجوب الرجم لمقترف هذه الفاحشة ، وبعضهم أوجب إلقاءه من شاهق ثم يتبع بالحجارة بعد ذلك .

---

(٧٣) النجم ٥٣ ، ٥٤ .
(٧٤) ق ٣٧ .

لقد خلق الله الإنسان وميزه بالعقل ، وأحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث ، فإذا ما نفر من الطيبات وجرى وراء الخبائث فقد استهان بشرف خلقته وارتد عن رفعة منزلته ، وانتكس إلى أحط مكانة واستحق بذلك أقصى عقاب وأشد عذاب .

عود إلى ذكر إبراهيم :

وكرم الله إبراهيم - عليه السلام - فعهد إليه ببناء الكعبة المشرفة ، فقام بذلك على أكمل وجه وأرضاه ، وساعده فى ذلك ابنه إسماعيل الذى تعرض لمحنة الذبح فخاض التجربة هو وأبوه وخرجا منها ظافرين مرضيًا عنهما من الله .. وسيأتى تفصيل ذلك كله فى قصة خاصة بإسماعيل ، وقصة خاصة بالكعبة المشرفة - إن شاء الله تعالى - .

وفى شأن بناء الكعبة يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾[75].

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾[76].

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[77].

---

(٧٥) البقرة ١٢٥ .

(٧٦) البقرة ١٢٧ .

(٧٧) الحج ٢٦ ، ٢٧ .

فضائل إبراهيم - عليه السلام - :

لقد خص الله إبراهيم - عليه السلام - بصفات ، وأثنى عليه فى كتابه الكريم فى مواضع كثيرة متفرقة . فقد ذكره الله - سبحانه وتعالى - فى القرآن الكريم تسعًا وستين مرة فى خمس وعشرين سورة ، ووردت سورة خاصة باسمه .

ومن الخصائص التى خص الله بها إبراهيم - عليه السلام - أن الله جعله أبًا للأنبياء ، فمن ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وغيرهم ، وخاتم الأنبياء جميعًا رسولنا الأمين محمد - ﷺ - وهو من ذرية إسماعيل عليه السلام .

وقد أخبر الله عن ذلك بقوله ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٧٨).

وطلب الله من النبى - ﷺ - أن يتبع ملة إبراهيم حنيفا ، وكان - ﷺ - قبل البعثة يتعبد فى غار حراء على ملته .

وقد ابتلى الله إبراهيم بكلمات فأتمهن ، وجعله إمامًا . أخبر الله عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾(٧٩). والكلمات هى التكاليف وقد وفى بها إبراهيم فاستحق الإمامة لذلك .

ومن فضل إبراهيم أن أهل الأديان يتنازعون نسبته إليهم ، ويزعمون أنه منهم ، حتى حاجهم القرآن الكريم فى ذلك وأبطل مزاعمهم ، وصحح مفهوماتهم ، قال تعالى :

---

(٧٨) العنكبوت ٢٧ .

(٧٩) البقرة ١٢٤ .

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٨٠]

وكما جعل الله إبراهيم إمامًا لمن جاء بعده ، جعله أمة وحده ، وقال تعالى فى ذلك :

﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ ﴾[٨١].

ومعنى كونه أمة أى يعدل أمة ، والأمة الرجل الجامع للخير ، أو الذى يعلم الناس الخير ، ومعنى قانتًا أى مطيعًا .

ووصفه الله بالفتوة فقال فى حقه : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾[٨٢].

والفتوة من صفات الشرف والكمال .. قال أهل اللغة : ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال ، قال الشاعر :

إن الفتى حمّال كل ملمة ليس الفتى بمنعم الشبان[٨٣]

---

(٨٠) آل عمران ٦٥ : ٦٨ .

(٨١) النحل ١٢٠ : ١٢١ .

(٨٢) الأنبياء ٦٠ .

(٨٣) لسان العرب لابن منظور .

وقد وصف القرآن الكريم أهل الكهف بقوله ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾[٨٤]. وورد فى الأثر الكريم : « لا فتى إلا على » .

واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾[٨٥].

وسمى الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته ، وكان إبراهيم محبوبًا من الله محبًا له .

أو هو الذى ليس فى محبته خلل أى نقص ، أو هو الذى فى فقر دائم إلى الله من الخلة وهى الحاجة .

وقيل فى اتخاذ الله إبراهيم خليلاً أسباب .

منها أنه مضى إلى صاحب له ليمتار من عنده طعامًا ، فلم يجده فملأ غرائره رملاً وراح به إلى أهله ، فحطه ثم نام ، ففتح أهله الغرائر فوجدوه دقيقًا فصنعوا له منه ، فلما قدموه إليه قال : من أين لكم هذا ؟ قالوا : من الذى جئت به من عند خليلك .

فقال : هو من عند خليلى ، يعنى الله - سبحانه وتعالى - فسمى خليل الله لذلك .

وقيل : إنه أضاف رؤساء الكفار وأكرمهم وأحسن إليهم ، فقالوا له : ما حاجتك ؟

قال : حاجتى أن تسجدوا لله سجدة ، فسجدوا ، فدعا الله - تعالى - وقال : اللهم إنى قد فعلت ما أمكننى فافعل يا الله ما أنت له أهل . فوفقهم الله للإسلام ، فاتخذه الله خليلاً لذلك[٨٦].

---

(٨٤) الكهف ١٣ .

(٨٥) النساء ١٢٥ .

(٨٦) تفسير القرطبى .

وقيل إنه سأل ملك الموت : بم اتخذني الله خليلاً ؟ قال : بأنك تعطي الناس ولا تسألهم[87].

وقيل : إن الله أوحى إلى إبراهيم : يا إبراهيم إنك لما سلمت مالك إلى الضيفان ، وابنك إلى القربان ، ونفسك إلى النيران وقلبك إلى الرحمن اتخذناك خليلاً[88].

وقيل : إنه لما دخلت عليه الملائكة وهم يشبهون الناس ، وقرب إليهم العجل السمين فلم يأكلوا ، وقالوا : إنا لا نأكل شيئًا بغير ثمن ، فقال لهم : أعطوا ثمنه وكلوا .

قالوا : وما ثمنه ؟ قال : أن تقولوا في أوله باسم الله وفي آخره الحمد لله .

فقالوا فيما بينهم : حق على الله أن يتخذه خليلاً ، فاتخذه خليلاً[89].

وقد ورد في ذلك أثر عن النبي – ﷺ – رواه جابر بن عبد الله قال : اتخذ الله إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام وإفشائه السلام وصلاته بالليل والناس نيام[89].

وقد سار النبي – ﷺ – على قدم الخليل في ذلك ، فكان أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان ، وقد اتخذه الله خليلاً أيضًا وقال في ذلك : لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن .

وكرم الله إبراهيم بأن جعل مقامه مصلى إلى يوم الدين .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾[90].

---

(٨٧) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٨٢ .

(٨٨) قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٠١ .

(٨٩) تفسير القرطبي .

(٩٠) البقرة ١٢٥ .

وجعله أسوة حسنة للنبى - ﷺ - والمؤمنين فقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾(٩١).

ووصفه الله بأنه حليم أواه منيب .

والحليم الذى يملك نفسه عند الغضب .

والأواه الذى يكثر التأوه عند ذكر الذنوب .

والمنيب الذى يقبل بقلبه على ربه .

وهو في مقدمة أولي العزم من الأنبياء . وقد أُمرنا بالصلاة عليه مع رسول الله - ﷺ - وتسمى الصلاة الواردة في ذلك بالصلاة الإبراهيمية وهى التى تقرأ فى التشهد الأخير : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد »(٩٢) وقد علم النبى - ﷺ - هذه الصلاة لأصحابه .

وقد وصفه الله بالوفاء فى قوله - تعالى - ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾(٩٣).

لقد وفى بعهده مع الله بأنه لا يسأل سواه ، وأن يرضى بقضاه ، وحين ألقى في النار لم يزد على أن قال : علمه بحالي يغنى عن سؤالى .

ووفى بجميع مستلزمات الإيمان ولم يقصر فى أى منها ، ولم يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر اليسير(٩٤).

((٩١) الممتحنة ٤ .

(٩٢) البخارى ٣ / ٣١٥ - مسلم ٢ / ١٦ .

(٩٣) النجم ٣٧ .

(٩٤) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٨٦ .

وابتلاه الله بكلمات فأتمها ، وهذه الكلمات فسرها ابن عباس - رضى الله عنهما - بقوله : « ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ وقال عكرمة : قلت لابن عباس - رضى الله عنهما - وما الكلمات التى ابتلى إبراهيم بهن فأتمهن ؟

قال : الإسلام ثلاثون سهمًا منها عشر آيات في براءة : التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين(٩٥).

وعشر آيات في سورة : قد أفلح المؤمنون(٩٦) وسأل سائل(٩٧).

وعشر آيات فى الأحزاب : إن المسلمين والمسلمات(٩٨).

فأتمهن كلهن فكتبت له براءة من النار . قال الله - تعالى - : وإبراهيم الذى وفى(٩٩).

وقيل إنه وفى لأنه كان يقول حين يصبح وحين يمسى : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون .

وإبراهيم صاحب سنن الفطرة وهى كما أخبر العلماء عشر :

ست فى الإنسان وهى : حلق العانة ، ونتف الإبط ، والختان ، وتقليم الأظافر ، وقص الشارب ، وغسل يوم الجمعة - وزاد بعضهم السواك - .

وأربع فى المشاعر وهى : الطواف ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، والإفاضة(١٠٠).

---

(٩٥) التوبة ١١٢ .
(٩٦) الآيات من ١ : ٩ .
(٩٧) الآيات من ٢٢ : ٣٠ .
(٩٨) الآية رقم ٣٥ .
(٩٩) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٨ .
(١٠٠) المرجع السابق .

روى سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة أن إبراهيم هو أول من اختتن ، وأول من استحد ، وأول من تسرول ، وأول من فَرَق ، وأول من قرى الضيف ، وأول من شاب ، وأول من قص شاربه[١٠١].

وفاة إبراهيم – عليه السلام – :

ظل إبراهيم – عليه السلام – مقيمًا فى أرض الشام فى إيليا حيث بنى بيت المقدس بعد ذلك – وسيأتى حديث عن ذلك إن شاء الله تعالى – .

ونشأ فى كنفه إسحاق الذى ولد له بعد زواجه يعقوب .

وتحققت البشارة التى أخبر بها الحق على لسان ملائكته – عليهم السلام – .

لقد رأى حفيده كما رأته سارة أيضًا .

وقد اطمأن على إسماعيل الذى شاركه فى بناء الكعبة المشرفة ، وقد أصبح إسماعيل فى أمة من الناس وأصبح له نسل مبارك طيب .

وماتت سارة فحزن إبراهيم – عليه السلام – حزنًا شديدًا ، لقد كانت له عضدًا ووزير صدق .

ماتت فى قرية « جبرون » ولها من العمر مائة وسبعة وعشرون عامًا .

ولم يطق إبراهيم الوحدة بعد وفاة زوجته .

فتزوج من امرأة اسمها « قنطورا بنت يقطن » الكنعانية وولدت له أولادًا كثيرين هم : زمران ، ويقشان ، ماداان ، مدين ، شياق ، شوح .

وكل من هؤلاء أصبح له عقب .

وتزوج بعدها امرأة أخرى اسمها « حجون بنت أمين » فولدت له خمسة هم : كيسان ، سورج ، أميم ، لوطان ، نافس[١٠٢].

---

(١٠١) المرجع السابق .

(١٠٢) قصص الأنبياء لابن كثير .

وقبيل وفاته بقليل زاره ابنه إسماعيل - عليه السلام - وبقى عنده حتى حانت وفاته وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة ، وقيل مائتى سنة ودفن فى المغارة التى دفنت فيها زوجته سارة وهى فى البلدة المعروفة باسم الخليل .

صحف إبراهيم :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾[١٠٣].

ذكر الثعلبى ما روى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى قال : قلت يا رسول الله : كم كتابًا أنزل الله تعالى ؟ قال : مائة صحيفة وأربعة كتب . أنزل الله على آدم عشر صحائف ، وعلى شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

فقلت يا رسول الله : فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالاً كلها ..

أيها الملك المبتلى ، المسلط المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها ولو من كافر .

وكان فيها : على العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله تعالى ، وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم وأخر ، وساعة يخلو فيها لحاجته .

وعلى العاقل ألا يكون ظاعنًا إلا فى ثلاث : تزود لمعاده ، ومئونة لمعاشه ، ولذة فى غير محرم .

---

(١٠٣) الأعلى ١٨ ، ١٩ .

العبرة من القصة :

قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى لألباب ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[١٠٤].

وحياة الأنبياء تجمع صور الكمال التى يجب أن يتأسى بها المؤمنون ويسير على نهجها الصالحون .

ومن سيرة إبراهيم – عليه السلام – نتعلم الصبر على الشدائد والوفاء بالعهد والوعد ، والصدق فى الجهاد ، والإخلاص فى العبادة ، وإسلام الوجه لله ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات .

ولقد وضع الله معالم تذكرنا بإبراهيم – عليه السلام – لنسير على نهجه ، فشعائر الحج كلها التى نقوم بها متوارثة عن خليل الرحمن الذى علمه جبريل المناسك ، وأعاد سنتها صحيحة نبينا – ﷺ – الذى يقول : خذوا عنى مناسككم .

لقد شوه الجاهلون صورة إبراهيم – عليه السلام – حتى زعم اليهود أنه منهم وزعم النصارى أنه منهم ، وزعم الجاهليون أنه منهم حتى صوروه على جدران الكعبة يستقسم بالأزلام . وحين فتح النبى – ﷺ – مكة ودخل الكعبة محا تلك الصور . أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي – ﷺ – لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله ، والله ما استقسما بالأزلام قط[١٠٥].

وصدق الله العظيم إذ يقول :

---

(١٠٤) يوسف ١١١ .

(١٠٥) البخارى كتاب المغازى جـ ٥ ص ٨٧ .

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ
إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ
ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾(١٠٦)



★ ★ ★

---

(١٠٦) الحج ٧٨.

قصة

إسماعيل

عليه السلام

- إسماعيل فى القرآن .
- ولادة إسماعيل .
- الغيرة تتحرك فى نفس " هاجر " .
- هاجر وإسماعيل فى مكة .
- محنة هاجر .
- السعى بين الصفا والمروة .
- انفراج الأزمة بانفجار زمزم .
- قبيلة « جرهم » تستوطن المكان .
- محنة جديدة .
- أمر إبراهيم بذبح إسماعيل .
- الفداء .
- حياة إبراهيم سلسلة من المحن .
- من الذبيح .
- إسماعيل يواصل الحياة .
- زواج إسماعيل .
- اشتراك إسماعيل فى بناء البيت .
- رسالة إسماعيل .
- صدق وعده .
- من صور وفاء النبى صلى الله عليه وسلم .
- الأمر بالصلاة والزكاة .
- شريعة إسماعيل .
- وفاة إسماعيل .

- إسماعيل أبو العرب .
- إسماعيل واللغة العربية .



تمهيد :

بين رياض الشام الفيحاء وحيث بنى بيت المقدس فيما بعد كان مسقط رأس إسماعيل الذبيح – عليه السلام – حيث كان يقيم إبراهيم – عليه السلام – وقد سميت مدينة باسمه هى مدينة الخليل .

وفوق ربوات الوادى المقدس الذى أصبح مكة فيما بعد ، وبنيت الكعبة على ربوة حمراء بين هذه الربوات كانت نشأة إسماعيل – عليه السلام – .

ولدته هاجر ، أميرة مصر السابقة ، والتى امتحنت بالأسر حين هاجم الهكسوس مصر فى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، وقتلوا زوجها الملك ، ومنذ ذلك الحين أصبحت جارية من جوارى القصر بعد أن كانت السيدة الأولى فيه[1].

وكان إبراهيم – عليه السلام – قد جاء إلى مصر مهاجرًا بدينه إلى ربه ، ومعه زوجته « سارة » وحاول ملك الهكسوس – الذى أصبح ملك مصر وفرعونها – الاعتداء على سارة زوجة إبراهيم ، ولكن الله حفظها ، ورأى الملك من الآيات ما ملأ قلبه فزعًا ورعبًا ..

فأطلقها ، ووهبها « هاجر » جارية تخدمها ..

وعاد إبراهيم بزوجته وجاريتها إلى أرض الشام ..

وكانت سارة عقيمًا لا تلد ، ورأت زوجها إبراهيم قد كبرت سنه وهو فى حاجة إلى ولد يكون عضدًا له ، يؤازره فى دعوته إلى الله ، ويناصره فى كفاحه فى الحياة ، ويعينه فى شئونه ودنياه .

---

(١) الكعبة المشرفة لأمينة الصاوى ص ٣٣ .

فماذا تفعل وهى عاجزة عن الإنجاب ؟

لقد وهبته جاريتها هاجر ، فعسى أن يكون له منها الولد الذى يتمناه وتتمناه .

وكانت المودة قد ربطت بين قلبي سارة وهاجر ، ولم تكن سارة تنظر إلى هاجر على أنها جارية لها وهبها لها الملك لتخدمها ، ولكنها كانت تنظر إليها على أنها صديقة حميمة وأخت كريمة .

وأنجب إبراهيم من هاجر إسماعيل .

ولدته فى أرض كنعان فى الشام التى بنى فيها بيت المقدس . بناه سليمان بن داود - عليهما السلام - بعد ذلك بقرون .

وهكذا نشأ إسماعيل فى مهد طيب .. ومكان مبارك ..

ومن سلالة طاهرة .. فأبوه أبو الأنبياء ..

وأمه سليلة الأمجاد المصرية العريقة أميرة مصر - وأصلها من مدينة « الفرما » على شط بحيرة تنيس ، وكانت مدينة خصبة وبها قبر جالينوس الحكيم(٢).

وموطنه المكان المبارك أولاً وأخرًا ..

فالشام حيث ولد بارك الله حوله . ومكة حيث درج ونشأ وعاش وأرسل ومات هى التى أشاد الله بذكرها ، وجعل فيها أول بيت وضع للناس وعلى يدى هذا المبارك وأبيه رفع وطهر وأصبح هدى للعالمين وقبلة للمسلمين ..

إسماعيل فى القرآن :

وقد نوه القرآن الكريم بذكر إسماعيل ووصفه بصفات مُثلى ، وناط به وبأبيه عملاً جليلاً يعد مفخرة لهما مدى الأيام وتعاقب الدهور ..

---

(٢) خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٩٦ .

من ذلك قوله - تعالى - :

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾[٣]..

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[٤]..

﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ﴾[٥]..

﴿ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾[٦]..

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيًا ﴾[٧]..

وغير ذلك من الآيات الكريمة المباركة التى تشير إلى منزلة إسماعيل وفضله ونبوته ..

لقد ذكر القرآن الكريم إسماعيل فى اثنتى عشرة آية تناولتها سور (البقرة) و (آل عمران) و (النساء) و (الأنعام) و (إبراهيم) و (مريم) و (الأنبياء) و (ص) .

كما أشارت سورة (الصافات) إلى قصة ذبحه دون ذكر اسمه .

---

(٣) سورة البقرة ١٢٥ .

(٤) سورة البقرة ١٢٧ .

(٥) سورة النساء ١٦٣ .

(٦) سورة الأنعام ٨٦ .

(٧) سورة مريم ٥٤ .

ولادة إسماعيل :

قدمنا أن سارة زوجة إبراهيم – عليه السلام – وهى ابنة عمه فى أشهر الأقوال – كانت عاقرًا لا تلد – وحين كانت فى مصر وهبها الملك جارية مصرية تقوم على خدمتها ورعاية شئونها ..

وتقدمت السن بها وبزوجها .. وكانت تنظر إلى زوجها الذى لم تستطع أن تقدم له ولدًا فتتألم وتشعر بالمرارة ..

إن الرغد الذى تتقلب فيه ، والحدائق التى تحيط بها ، والمال الذى تغله الأرض التى تزرع والماشية التى ترعى لا قيمة له بدون وارث .. يحمل اسم إبراهيم ..

وتنظر إلى نفسها وقد شاب مفرقها ، وكاد الإعياء بتقدم السن يحطمها فترتد عينها كسيرة حزينة ، لقد فقدت الأمل فى الإنجاب على حسب ما جرت به عادة الأنثى فى أنها من الممكن أن تحمل ما دامت لم تتخط سن اليأس ، وهى الآن قد تجاوزت هذه السن بكثير ..

إنها تعدت السبعين من عمرها .. وأنى لبنت السبعين أن تحمل ؟

وتعود فتنظر إلى زوجها الذى تحبه وتقول فى نفسها : ما ذنبه هو أن يحرم من الولد ، والرجل لا يشيخ على الإنجاب كما تشيخ المرأة ؟

أيتحمل جريرة الحرمان لأنه يحبنى ؟ وأين التضحية إذن ؟

وأخذت تفكر فى هذا الأمر كثيرًا ، حتى وصلت إلى قرار ..

لابد أن تفكر فى سعادة زوجها وتضحى من أجل ذلك ..

وكان القرار الذى اتخذته هو أن تهب جاريتها التى ائتلفت بها .أحبتها وأنست إليها .. تهبها لزوجها ليكون له منها الولد إن شاء الله تعالى ..

لقد أحست بذلك إحساسًا غرزيًا .. وإحساس المرأة-فيما يختص بشئون المرأة كثيرًا ما يصدق ..

إن هاجر ما تزال شابة فتية ، وهي من عنصر طيب فلابد أن يكون نسلها مباركًا طيبًا ..

وعارض إبراهيم – عليه السلام – فى أول الأمر إشفاقًا على زوجه الحبيبة ومراعاة لشعورها .. ولكنها ألحت وأصرت على ما قررت ..

فوافق إبراهيم ..

وتسرَّى إبراهيم بهاجر ، وشاء الله ألا يخيب أمل إبراهيم وسارة .. وهاجر أيضًا ..

فحملت هاجر .. وتكاملت شهور حملها .. ووضعت غلامًا وضيئًا مشرقًا أخذ محاسن أبويه وجمع مجد عنصريه ..

لقد استجاب الله ضراعة إبراهيم حين كان يقول ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٨).

كما استجاب لـ « هاجر » حين كانت تتضرع إلى الله أن يهبها ولدًا لتقر به عين والده ، وتسعد به هذه الأسرة الصالحة الطيبة التى أنقذها الله بها من وهدة الشرك والوثنية والعبودية التى كانت تحيط بها فى مصر ..

لقد أراها الله – قبل أن تحمل – فى منامها بشرى هذا المولود الذى سعدت بطلعته .. وجاءها من يخبرها :

« يا هاجر قد سمع الله ضراعتك وسوف يهب لك ولدًا ذكرًا فسميه إسماعيل – أى المسموع من الله – لأن الله سمع صلاتك ودعاءك ، وسوف يباركه ويكثر نسله تكثيرًا »(٩).

لقد كانت هاجر وفية أمينة ، وكريمة مطيعة ، وزادها وجودها فى بيت إبراهيم – عليه السلام – نبلاً وجمال خلق ..

---

(٨) سورة الصافات ١٠٠ .

(٩) الكعبة المشرفة ص ٣٩ .

ولم لا ؟ وهى تعيش فى بيت النبوة والرسالة ..

وكانت سارة تتمنى على الله أن يرزق إبراهيم من هاجر الولد حتى تقر به عينه وتكتمل به سعادته ، ويملأ البيت أنسًا ونورًا ..

وها هو ذا قد تحقق الأمل ، وأشرقت الفرحة ، وصعد صراخ الطفل المولود لتتصاعد معه ضحكات من الأعماق تعبر عن سرور هذه الأسرة التى كانت تنتظر هذه اللحظة بصبر فارغ وشوق بالغ .

وأخيرًا يا إبراهيم أصبح لك ولد .. تنظر إليه فترى صورتك .. يأخذ مخايلك ، ويكتسب صفاتك ، ويرث علمك ، وينتفع بأدبك ، ولعله يصبح نبيًا مثلك ..

وفرح إبراهيم بولده .. وأطلق عليه الاسم الذى لُقِّنَتْه هاجر فى منامها .. إسماعيل ..

وأولاه إبراهيم من بره وعطفه وحنانه الكثير ..

وفرحت به سارة أيضًا فرحًا شديدًا ، ويزداد فرحها حين ترى الفرحة فى عينى إبراهيم بولده ..

ولكن لكل شىء حد .. وغريزة المرأة لابد أن تظهر ، وطبيعتها لابد أن تعبر عن نفسها ..

الغيرة تتحرك فى نفس سارة :

لقد فرحت سارة بالغلام الصغير ، وتحركت غريزة الأمومة فى نفسها ، وأقبلت على الطفل بشوق فى أول الأمر .. ولكنها بمرور الأيام أخذت تتمنى لو كان هذا الطفل ابنها .. ثم أخذت عوامل الضيق تظهر وبخاصة حين كان إبراهيم يقبل على ابنه بشغف ويرمق أمه بحنان أكثر ..

إنها قدرت على ما لم تقدر عليه سارة ..

هذا ما أخذت سارة تحدث به نفسها .. وصار هذا الحديث يكبر شيئًا فشيئًا ، حتى تحول إلى غيرة طاحنة ، صحبها حزن شديد ..

إن الغيرة بين الزوجات معروفة وطبيعة مألوفة ، فالعاطفة عندهن قوية ، وتأثرهن بالأحداث سريع .. ومن أجل ذلك أوصانا رسول الله - ﷺ - بحسن معاملتهن ، فقال : « اتقوا الله فى النساء فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، إن أردت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج » ..

وقد كانت زوجات النبى - ﷺ - يغرن من زوجه الأولى خديجة - رضى الله عنها - وبخاصة حينما يسمعنه يثنى عليها ويذكر فضلها وكرمها .. مع أنها كانت قد لقيت ربها ، ولم تعاشرهن مع الرسول - ﷺ - .

وكان النبى - ﷺ - يثنى على خديجة كثيرًا ، ويكرم صديقاتها ، لأنها أحسنت مؤازرته فى دعوته لربه ، وواسته بمالها ، وكانت له وزير صدق .. والنبى - ﷺ - من أخلاقه الوفاء ..

وقال للسيدة عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - حينما قالت له مرة : لقد عوضك الله خيرًا منها : والله ما عوضنى الله خيرًا منها ؛ آمنت بى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، ووقفت بجانبى إذ انفض عنى الناس .

فليس غريبًا أن تغار سارة إذن ..

ولكن غيرتها كانت عاصفة ..

لقد حولت البيت الذى كانت تملؤه البهجة والفرحة والهدوء إلى بيت تبدو عليه مظاهر البؤس والحزن ، وتعلوه الكآبة والأسى .

وربما وجدت « سارة » مبررًا لهذه الغيرة الجامحة غير إقبال إبراهيم الشديد على الطفل ..

ربما وجدت فى هاجر ازورارًا عنها ، وإدلالاً عليها .. وهى التى كانت تعدها خادمًا لها ..

إنها هى التى رفعتها إلى هذا المستوى الذى أصبحت فيه .. فكيف ترفع عنها ؟

وقد لا يكون ذلك حقيقة ، ولكن الإفراط فى الغيرة يصور ما لا يكون فى صورة الذى يكون .. إنه يجسم الأوهام ويحولها إلى حقائق تتحرك وتعيش ..

وأيا مّا كان ، فقد أصبحت سارة لا تطيق أن ترى الغلام .. وبخاصة حين ترى اهتمام إبراهيم – عليه السلام – به وإقباله عليه ..

وسبحان مقلب القلوب ..

لقد نسيت سارة تمنياتها لإبراهيم ..

ونسيت إيثارها الذى قدمته راضية ، وإلحاحها على إبراهيم أن يتسرى بهاجر ..

ونسيت أشواقها إلى طفل من هاجر يملأ جو هذا البيت أملاً وفرحًا وسرورًا ..

نسيت ذلك كله ، وتحول حبها لهاجر كرهًا .. وإقبالها على الغلام ضيقًا .. وفرحها به تبرمًا وحزنًا ..

وأخذت تفكر ماذا تفعل لتزيل عن نفسها هذا الهم المقيم الذى سيطر عليها نتيجة لتلك الغيرة السوداء ؟

وربما أفرطت إلى جانب ذلك فى تأنيب نفسها ، لأنها هى التى سمحت بحدوث ما حدث ..

وعلى الرغم من إيمانها العميق بالله ، ذلك الإيمان الذى تلقته على يد إبراهيم – عليه السلام – إلا أن الإيمان قد يغيب مع القلق النفسى الذى يتغلب على سكينة الإيمان أحيانًا لحكمة يعلمها الله ..

أليست هي التي أهدت هاجر إلى إبراهيم ؟

أليست هي التي ألحت عليه بقبولها سرِّية له ؟ بل وصنعتها له كما تصنع العروس ؟

فما بالها تجزع الآن مما حدث وهو نتيجة متوقعة لما قدمته ؟

ولكنها عادت واتخذت قرارًا حاسمًا بينها وبين نفسها ..

ما دامت هي التي صنعت المشكلة فعليها هي أن تحلها ..

ولم يكن إبراهيم – عليه السلام – بطبيعة الحال سعيدًا وهو يرى الحزن في وجه زوجه الأولى ؛ والقلق يعصف بنفسها .

وكان له ولهاجر من هذا الحزن نصيب كبير ..

ولكن ماذا يفعلان والأمر خارج عن أيديهم جميعًا .

هو لا يستطيع إلا أن يحب الغلام ويسعد به ويحنو عليه .. وهاجر كذلك لا تستطيع إلا أن تحب ابنها وتلاطفه وتداعبه .

وفي الوقت نفسه يعز عليهما أن تكون سارة حزينة أو متألمة فما الحل إذن ؟

لابد من حل لتلك الأزمة حتى تهدأ الخواطر وترتاح النفوس ..

أما إبراهيم – عليه السلام – فلا يملك إلا الدعاء والتضرع إلى الله ..

ولكن الله – جلت حكمته – يريد أن تندفع سارة في غيرتها لينفذ قدرٌ أراده ، ويتحقق أمرٌ شاءه منذ الأزل .

واهتدت سارة إلى الحل الذي رأته علاجًا للمشكلة وصممت على تنفيذه .

هذا الحل الذي رأته هو إبعاد هاجر وولدها عن هذا البيت إلى مكان سحيق .. لا تراهما ولا تسمع عنهما شيئًا على الإطلاق ..

ما أقسى هذا الحل على نفس إبراهيم ؟، بل ما أقساه أيضًا على هاجر وابنها ؟..

إنها تفرقة بين الأب وابنه وبين الزوج وزوجه ..

ولكنها أصدرت الأمر ، وعلى الجارية أن تنصاع لأمر السيد ..

وحين أفضت سارة بهذا الأمر لإبراهيم لا يبعد أن يكون قد حاول إثناءها عنه ..

ولكن نور النبوة وكشف البصيرة ألهماه بأن هذا هو أمر السماء ، ولم تكن غيرة سارة سوى سبب ساقته الأقدار لتجرى الأحكام فى مجراها الذى أراده الله ..

لقد استجاب إبراهيم لطلب سارة ..

وليس من شك فى أنه استخار الله – تعالى – فى ذلك فوجد الضوء الأخضر ينير له الطريق ..

وليس غريبًا مع ذلك – أن يهبه الله البراق – كما تقول بعض الروايات لينتقل عليه إبراهيم وهاجر وولدهما إلى مكة من الشام ..

فى الطريق إلى مكة :

ولكن بعض الرواة يذكرون أن إبراهيم – عليه السلام – ركب دابة عادية ، واصطحب الغلام وأمه ، وسار بهما ترعاهم جميعًا رعاية الله وعنايته .

وكانت هذه الرحلة قبل ولادة إسحاق ، بل قبل أن يبشر به .. على الرغم من أن هناك رواية تذكر أن الرحلة تمت بعد مولد إسحاق ، وبسبب مشاجرة حدثت بين الطفلين « إسماعيل وإسحاق» كما يحدث عادة بين الأطفال ، غضبت على أثرها سارة ..

لم يكن إسحاق قد ولد بعد .. ومن أجل ذلك أشفق إبراهيم على سارة من الحزن الذى كان يعتصر قلبها حين ترى غلامًا لإبراهيم من غيرها وهى عقيم لا تلد .

ولو أن إبراهيم كان قد بشر بإسحاق من سارة قبل إبعاد إسماعيل وهاجر لكان الأمر غير الأمر .. ولكنها إرادة الله ..

وما ذكر فى بعض المصادر من أن سارة طلبت من إبراهيم - عليه السلام - أن يبعد إسماعيل وهاجر ، حتى لا يرث إسماعيل مع ابنها إسحاق فى ملك إبراهيم يناقض الحقيقة ويجافى المنطق ..

طال المسير بإبراهيم - عليه السلام - وامتد أمامه الطريق حتى وصل إلى المكان الذى قدر الله نزوله فيه ، والذى اقتضت حكمة الله الخفية أن يترك فيه إسماعيل وهاجر ..

ولم يكن أحد يستطيع أن يدرك فى ذلك الوقت ما سيكون عليه ذلك المكان من شأن عظيم بعد ذلك ..

نزلت هاجر وإسماعيل فى هذا المكان الصحراوى القاحل ، الذى لا ماء فيه ولا نباتٌ ، ولا أنيس ولا سمير ..

لقد تركهما إبراهيم وحيدين ضعيفين ، لا يملكان شيئًا سوى ما تركه لهما من زاد وماء قليلين ، لا يكادان يكفيان سوى أيام قليلة معدودة ..

ولعل إبراهيم فكر فى ذلك .. فكر فى الصعوبة التى سوف تواجهها هاجر وابنها ، ولكنه كان قد عود نفسه ألا يراجع الله فى شيء أمره به .. وهذا هو معنى الوفاء الذى هو من أخص صفاته .. لقد وصفه القرآن به حين قال : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ﴾(١٠).

---

(١٠) سورة النجم ٣٧.

لقد وكل إبراهيم وحيده وأمه لله .. والله لن يضيع وديعة إبراهيم عنده .. لا ولا وديعة غير إبراهيم ..

إن إبراهيم رسول الله وخليله ، وهو يعرف تمامًا أن الله سبحانه وتعالى سيتكفل بهما وسيهيىء لهما رزقهما ..

إن الإيمان القوى الذى يعمر قلب إبراهيم وثقته الكاملة فى الخالق هما اللذان جعلاه يترك فلذة كبده وأمه فى هذا المكان المقفر ..

وهذا الإيمان القوى هو الذى جعله يتجه إلى الله مناجيًا إياه فى ضراعة وخشوع ..

﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(١١).

وبالرغم من ثقة هاجر التى لا حدود لها فى فضل الله وقدرته وحيطته ورحمته فإنها بدافع البشرية والطبيعة تعلقت بإبراهيم وأمسكت به ، ورجته ألا يتركهما فى هذا المكان الموحش ، يحيط بهما الخطر من كل جانب ..

إنها امرأة ضعيفة لا حول لها ولا قوة ..

وولدها رضيع فى حاجة إلى الرعاية والغذاء ..

فمن أين تطعمه ؟ ومن أين تسقيه ؟ وكيف تحميه ؟ ..

كيف تعيش بين حيوانات الصحراء ووحوش الجبال وهوام الأرض ؟

إنها إن نجت من الموت جوعًا فلن تنجو من تلك الحيوانات الضارية ، والوحوش المفترسة ؟ والهوام المفزعة القاتلة ..

---

(١١) سورة إبراهيم ٣٧ .

وهى إن نجت من تلك فلن تنجو من لفح الصحراء ونارها القاسية ولظاها المستعر ورياحها العاتية .

كيف تعيش دون بيت أو مأوى يقيها تقلبات الجو ويرد عنها الغوائل ؟

لاشك أن هذه الهواجس قد أحاطت بها وراودت نفسها وجالت بخاطرها وهى تتمسك بأثواب إبراهيم متوسلة إليه ألا يتركها ووحيدها فى هذا المكان ..

ولكن إبراهيم – عليه السلام – يمضى دون أن يلتفت إليهما ..

إنه خشى من لحظة ضعف قد تنتابه حين ينظر إلى عينى الطفل الوديعتين ، وحين يرى دموع هاجر المتدفقة ووجهها الحزين ..

إنه بشر قبل أن يكون نبيًا ، والنبوة لا تمنع العواطف النبيلة والمشاعر الحميدة ..

ولكن الثقة بالله تعصمه واليقين يأخذ بيده ، ويقول لهاجر بعد أن تسأله : آلله أمرك بذلك ؟

يقول لها : نعم ..

عندئذ تستكين هاجر لأمر الله ، وتستسلم لقضائه ، وتقول فى إيمان تحسد عليه ..

إذن ، لن يضيعنا .

ما أعظم الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب !

وما أروع اليقين يلقي المؤمن بنفسه فى حماه ؟

هنا تجد الأم السكينة وقد أثلجت صدرها ، وردت العافية إلى قلبها وعقلها ، وترى النور وقد قوض معاقل الخوف فى نفسها ، وقضى على وساوس الشك والقلق ، وتشعر بأن الكون كله من حولها حافل بكل معانى الأنس والرحمة والعطف والحنان ..

هاجر وحدها :

رحل إبراهيم وترك هاجر وحيدة مع ولدها الرضيع ، بجوار الربوة الحمراء التى أقيم فوقها البيت الحرام بعد ذلك بسنوات .. فى مكة المكرمة ، وليس بمكة يومئذ أحد ..

وآنسها الإيمان الصادق واليقين بالله والرضا بحكمه وقضائه . لقد أدركت أن هناك حكمة خافية عليها من وجودها وولدها فى هذا المكان ..

لقد رأت فى منامها يومًا أنها ستحمل طفلاً سيكون له شأن وسيكون أبًا لأمة ذات شأن عظيم ..

ولكن كيف يتحقق ذلك ، وهى فى مكان لا أنيس به ولا جليس ؟

حين تغلبها هذه التساؤلات ترد نفسها إلى حمى اليقين تعتصم به وتسلم الأمر لله .. فتستريح .. ومن هذا يجب أن نتعلم ..

محنة هاجر :

وشاء الله أن تتعرض هاجر لمحنة قاسية أنجاها الله منها بفيض رحمته وكرمه ..

انصرفت هاجر إلى وليدها ترضعه ، وكانت تنظر إليه فى شفقة وعطف شديدين ..

وتقتات بما تركه لها إبراهيم من زاد قليل ، حتى نفد ..

وظمئت فالتفتت إلى السقاء فوجدته قد نضب ماؤه ..

وسمعت صراخ ابنها فأسرعت إليه تلقمه ثديها ، ولكن اللبن كان قد جف بسبب الجوع والعطش ..

واشتد صراخ الطفل ففزعت .. إنها تصبر على تحمل لذعات الجوع والعطش ، ولكنها لا تتحمل ذلك حين يكون الأمر متعلقًا بابنها ..

إنها لا تريد الطعام والشراب لنفسها بل تريدهما من أجل ذلك الرضيع الذى تريد له الحياة ..

لقد خوى الجراب من التمر ونضب السقاء من الماء .. ومن أين يجىء الطعام والشراب فى هذه الصحراء ؟

ما أفظع هذا الموقف وما أقساه ! أم ترى وليدها يبكى ويتلوى من شدة العطش وهى فى تيه مجهول لا تستطيع أن تقدم له عونًا أو تخفف عنه ألمًا ..

وتحسست صدرها بيديها ، وعبثًا تفعل ، فلم يعد فى الثديين نقطة لبن واحدة يمكن أن ترطب بها حلق ابنها الذى يوشك على الموت جوعًا وعطشًا .

ولم تستطع الأم الوقوف أمام هذا المنظر المؤلم ..

وخارت قواها وأفزعها التفكير فى المصير المتوقع ..

أيموت إسماعيل بين يديها هكذا بصورة قاسية لا تقدر على فعل شىء أمامها ؟

إنها الآن فى واد بين جبلين .. ودفعتها الحيرة والقلق إلى أن تستجمع ما بقى لها من قوة وتصعد إلى أحد الجبلين وتنظر من قمته ، لعلها تجد ما ينقذ وليدها ، ونظرت فلم تجد شيئًا ..

فهبطت إلى الوادى مسرعة وانطلقت إلى الجبل الآخر وصعدت إليه ونظرت إلى الأفق فلم تجد شيئًا ..

وهكذا أم تعدو مذعورة بين الجبلين تصعدهما وتحدق من فوقهما فى الأفق البعيد ، ولكنها لا تجد أحدًا ولا ترى شيئًا ..

سبع مرات تفعل ذلك ، تصعد وتهبط ، وصراخ الطفل فى أذنيها يقطع نياط قلبها ..

هذان الجبلان هما الصفا والمروة ، وهذا السعى الذى سعته هاجر بينهما باحثة عن الماء هو الذى أصبح فيما بعد من مشاعر الحج والعمرة . قال

ابن عباس – رضى الله عنهما – راويًا عن النبى – ﷺ – قوله : « ذلك هو السعى بين الصفا والمروة » الذى هو فرض من فرائض الحج فى الإسلام يتعبد به المسلمون ، ويتقربون به إلى الله ، ويحيون به ذكرى أسلافهم . والله – سبحانه وتعالى – يقول فى ذلك : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾(١٢).

فنحن الآن حين نسعى بين الصفا والمروة نستعيد فى أذهاننا هذه الذكريات والأحداث التى وقعت لهاجر وولدها إسماعيل .. وفى ذلك ربط بين قديم المؤمنين وجديدهم ، وإعلان بأن دين الله فى الأولين هو دينه فى الآخرين ، يجدد اللاحق من عباده سنة السابق منهم ..

أما قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ فقد فهم البعض منه أن السعى بين الصفا والمروة ليس بفرض ولا واجب فى أعمال الحج ، وقد أخطأوا فى هذا الفهم . لأن القول الكريم لا يفيد أكثر من نفى الإثم عمن يسعى بينهما ، والقصد منه إزالة ما كان يتوقع من تحرج المؤمنين من السعى بينهما مع وجود الأصنام عليهما ، ونفى الإثم لا ينافى أن السعى مشروع ومطلوب خصوصًا بعد بيان أنه من شعائر الله .

حكم السعى :

وقد اختلف الفقهاء فى حكم السعى هل هو ركن أو واجب ؟ وحكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول : إنه واجب وليس بركن ، وعلى تاركه دم .

وذهب الجمهور إلى أن السعى واجب ونسك من جملة المناسك ، وهذا خلاف لا يؤثر فى وجوب الالتزام به كما أمر الله – سبحانه وتعالى – ، وكما فعل رسوله – ﷺ – وأصحابه من بعده ..

---

(١٢) سورة البقرة ١٥٨ .

وقد جرت محاورة لطيفة بين السيدة عائشة - رضى الله عنها - وبين ابن أختها عروة بن الزبير - رضى الله عنهما - :

قال لها : أرأيت قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ؟ فما أرى على أحد جناحًا ألا يطوف بهما .

فقالت عائشة - رضى الله عنها - : بئس ما قلت يا بن أختى ، إنها لو كانت على ما أوّلتها لقال : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما .

ثم قالت : إن الرسول - ﷺ - قد بين الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما .

وأخرج الإمام مسلم وغيره عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : لعمرى ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته ، لأن الله تعالى قال : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ..

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : سئل رسول الله - ﷺ - فقال : إن الله كتب عليكم السعى فاسعَوْا .

فالسعى إذن واجب لا ينبغى تركه ، وقد دعا النبى - ﷺ - إليه وفعله ، وهو الذى يقول : « خذوا عني مناسككم » وأعمال الحج كلها استعادة لذكريات جليلة أراد الله أن تكون ماثلة فى أذهان العباد حتى يتذكروا نعمة الله عليهم وعلى سلفهم ، فيدوم الشكر والحمد ، وتزداد النعمة وتكثر . مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[١٣].

---

(١٣) إبراهيم ٧ .

انفراج الأزمة بانفجار زمزم :

تعبت هاجر وخارت قواها بعد الأشواط السبعة التى قطعتها تباعًا دون أن تستريح ، باحثة عن فرجة أمل تنقذ بها وليدها دون جدوى ..

ولما لم تجد شيئًا ، استسلمت فى يأس ، ووقفت تنظر إلى وليدها وهو يكاد يسلم الروح إلى خالقهما . ولكنها - مع ذلك - لم تفقد إيمانها . نظرت إلى السماء نظرة استعطاف . وكأنها كانت تقول : إن فقدت الأسباب فهناك مسبب الأسباب ..

وعندما تصل الأزمة إلى أقصى مدى لها ، وتوصد فى وجه الإنسان جميع الأبواب ، ينفتح باب الرحمن الرحيم . وأشد الساعات حلكة أقربها إلى طلوع الفجر كما يقول الحكماء .. وقد قال الحق فى حق رسله - وهم أقوى الناس إيمانًا - ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾(١٤).

وكذلك كان الأمر بالنسبة لهاجر .. يئست من أسباب الأرض فى النجاة بابنها وبنفسها من براثن الهلكة .. فلم تعد أمامها إلا أسباب السماء .. وجاءها الفرج من السماء . وانفرجت الأزمة بعد أن وصلت إلى نهايتها وصدق الشاعر الحكيم إذ يقول :

كم شدة فى الأرض ضاق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

لقد فجر الله لهذه المسكينة وطفلها عينًا عذبة فيها رواء وفيها غذاء وفيها شفاء ..

قال بعض العلماء : إن جبريل جاءها وهمز الأرض بجناحه فتفجرت العين ..

وقال بعضهم : إن الطفل من شدة البكاء ضرب برجله الأرض فتفجرت العين ..

وأيًا كان السبب فهو معجزة على أى حال ..

---

(١٤) يوسف ١١٠

إن تفجر الماء فى صحراء قاحلة بدون ضربة معول ، أو حفر حفرة ، أو اتخاذ سبب من أسباب استنباط الماء معجزة لاشك فيها ..

إنها رحمة الله القريب من المحسنين ..

ونظرت هاجر إلى الماء يتدفق وينساب فى الصحراء أمامها فلم تصدق عينيها ، ولعلها أخذت تمسح عينيها وتدقق النظر وتختبر نفسها أهى مستيقظة أم نائمة ، حتى تتحقق أن ذلك الذى يجرى أمام عينيها ماء حقيقى ، وليس وهمًا أو سرابًا أو خيالاً ..

لقد تأكدت أنه الماء . الماء الحقيقى ، سر الحياة ، الحمد لله ، لقد عاش إسماعيل .. وتنظر إليه .. بعد أن ذاق قطرة من هذا الماء ، فإذا بالحياة تدب فيه من جديد .

سبحانك ربى ، لقد قلت وقولك الحق ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾(١٥).

ومن أين نبع الماء ؟ لقد نبع من الصخر .. وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾(١٦)

وخشيت هاجر أن ينفد الماء قبل أن تأخذ حاجتها منه ، فأخذت تغرف منه فى سقائها وآنيتها ، ولكن الماء أخذ يفور ويشتد فورانه ، فحوطت حوله ، وجعلت تقول له : زم زم . أى اجتمع ولا تتفرق ومن هنا أطلق على هذه العين : « زمزم » ..

ولقد روى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه أخبر عن ذلك « بقوله يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم .. أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا »(١٧).

---

(١٥) الأنبياء ٣٠ .

(١٦) البقرة ٧٤ .

(١٧) قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٥٧ .

لقد تبدلت حالة هاجر فى لحظة من هاوية اليأس إلى قمة الأمل .. من الهلاك إلى النجاة ، من الموت إلى الحياة ..

وازدادت ثقتها فى الله ، وأصبح ما أخبرت به فى نومها ذات يوم قبل أن تحمل بإسماعيل حقيقة ماثلة أمامها كأنها تشهد مستقبل الأيام فى هذه البقعة أجسامًا تتحرك وصورًا قائمة تمشى وتتكلم ..

أجل ، فلا ينبع ماء فى هذه الصحراء المهلكة إلا لحكمة عظمى أرادها ربُّ السماء .. ورنَّ فى أذنها دعاء إبراهيم وهو يودعهما فى هذا المكان : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(١٨).

فإذا هى تجد صدى الاستجابة لهذا الدعاء ..

فما دام هناك ماء فهناك إذن حياة ، وهناك إذن أمن ، وهناك إذن أنس وعمران ..

وهكذا بدأت الحياة تسرى فى هذا الوادى ..

فبعد أن نبع الماء حلقت الطيور فوق المكان فرحة مسرورة ..

إنه الخير من الله ، إنه الرزق الإلهى .. إنه سبب الحياة وأساس السعادة وسر النماء والبقاء ..

وبدأت رحلة التعمير تزحف على المكان .. ويد العمران تمتد إلى الوادى المقفر ..

قبيلة جرهم تستوطن المكان :

وكان قوم من جرهم يسيرون قرب هذا المكان ، فلفت أنظارهم تحليق الطيور ..

---

(١٨) ابراهيم ٣٧ .

لقد رأوا الطيور تحوم غادية رائحة ، تحط وتطير ، وعهدهم بهذا المكان لا طيور فيه ..

وقد علمتهم الفراسة والخبرة أن الطيور لا تقع إلا على ماء ، ومعرفتهم بهذا المكان أنه لا ماء فيه ..

إنهم فى أشد الحاجة إلى الماء ، وصاحب الحاجة دائمًا أبصر الناس بحاجته ..

ولأنهم يعرفون هذا المكان جيدًا ، فهو طريقهم فى رحلاتهم بين الشمال والجنوب .. ويعرفون خلوه من الماء .. فقد تحيروا فى أمر الطيور المحلقة .. وتريثوا فى استبانة الخبر ، ولم يذهبوا جميعًا إلى هذا المكان ، بل فضلوا أن يرسلوا بعض الأفراد لاستطلاع الأمر والعودة إليهم بالخبر اليقين ، وفى ضوء ذلك يتخذون القرار ..

وأرسلوا واردهم أو وُرَّادهم ..

وعرف الواردون ما لم يكن يعرفون من قبل ..

هذه عين ماء فوارة ، ما أعذب ماءها ؟، وما أجمل رواءها ؟..

وبجوارها هذه المرأة الوحيدة تحنو على طفلها فى حب وإشفاق ..

فاستأذنوا فى الشرب ، فشربوا وارتووا ..

وأخبروا هاجر بأن وراءهم قومًا أرسلوهم فى طلب الماء فهل تسمح لهم بالورود ؟

واستبشرت هاجر خيرًا ولم تمانع ..

وملأ الوراد أسقيتهم وعادوا إلى قومهم مستبشرين ..

عادوا إليهم بأعظم مفاجأة سارة لا يمكن أن تخطر على البال .. ولم تكن الفرحة بوجود الماء عند هؤلاء بأقل من فرحتهم حين أخبرهم الوراد بأن صاحبة الماء قد سمحت لهم بالنزول عند الماء ..

وعمت الفرحة الجميع ، وانطلقوا إلى هذا المكان ..

وعندما وصلوا إليه وجدوا إسماعيل وهاجر ..

ولابد أنهم سمعوا منها قصتها وقصة نبع الماء من تحت قدم طفلها .

ولابد أنهم صدقوها فيما قالت ، فهم يعرفون أن هذا المكان لا يوجد فيه ماء ..

ولابد أيضًا أنهم قد هابوها فقد استأذنوها فى النزول ، وكان فى الإمكان أن ينزلوا على الرغم منها ، فهم كثرة وهى وحدها .. فلولا أنهم أنسوا فيها هيبة غير معهودة ما استأذنوها ..

لقد أذنت لهم بالنزول بشرط ألا يكون لهم ملك فى الماء ..

فوافقوا ، وأقاموا ، وأرسلوا إلى أهليهم وأقاربهم فتوافدوا أو توافد كثير منهم ..

وأنست بهم هاجر ، واطمأنت إلى جوارهم ، وتحققت دعوة إبراهيم – عليه السلام – كاملة ..

وقد عمل هؤلاء القوم بجد فى عمارة هذا المكان . وساعدهم وجود الماء على الزرع وتربية الأغنام ، فكثر الخير وفاض .

وظلت هاجر وولدها موضع تكريم وتقدير منهم ..

بين هؤلاء القوم عاش إسماعيل ، وتربى ، وتعلم منهم العربية ..

وقد فرحوا به كثيرًا ، وسعدوا بوجوده ، وشعروا أن فى هذا الغلام سرًا مباركًا جعلهم يحبونه ويقبلون عليه ويتحاشون إغضابه ..

محنة جديدة :

وكان إبراهيم – عليه السلام – يلم بين الحين بولده وأمه ، يستطلع أخبارهما ويعرف أحوالهما ويطمئن عليهما ..

وسره أن الله قد أكرمه بالحفاظ على ولده ، وبإحاطة هؤلاء القوم الذين كفل الله بهم له الأمن والسعادة ..

ولكن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ، وقد أراد الله أن يختبر إبراهيم اختبارًا آخر .. ولا عجب فهو أبو الأنبياء ، وعلى نهجه سيسير أنبياء كثيرون ، فيكون قدوة لهم فى التأسى والصبر والاحتساب ..

ولكن هذا الاختبار الجديد أقسى مما مر ..

لقد كان الاختبار الأول هو إلقاء ابنه فى صحراء موحشة لا حياة فيها ، ولكن أمه كانت معه .. فهو ليس وحده على أى حال ..

أما هذا الاختبار الجديد فهو ذبح ابنه ..

لقد رأى إبراهيم فى نومه - ورؤى الأنبياء حق - أنه مأمور بذبح إسماعيل قربانًا لله ..

وتذكر بعض الروايات أن إبراهيم - عليه السلام - قام من نومه مرتاعًا خائفًا ، ويحق له ذلك ، أليس بشرًا ؟ وقد جبل الله الناس على حب الأبناء ؟

وفى الليلة الثانية رأى نفس الرؤيا .. فتروى فى الأمر وتريث ..

وجاءت الليلة الثالثة فرأى الرؤيا نفسها ، فعرف أنه حق ..

قال مقاتل : رأى إبراهيم - عليه السلام - ذلك ثلاث ليال متتابعات ، فعلم أن الأمر من ربه ..

ولم يكن إبراهيم بالرجل الذى يعرض عن أمر ربه ..

فاستجاب لأمر الله ، ولبى نداءه طائعًا مختارًا ..

وذهب إلى ابنه وقص عليه الأمر ، فلم يكن الابن أقل استجابة ولا طاعة لله من أبيه ، بل تقبل أمر الله بالرضا والتسليم ، دون تردد أو تأخير ..

وقد قص الله علينا ذلك - قائلا : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى .. قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾[١٩].

---

(١٩) الصافات ١٠٢ .

فهل هناك طاعة لله أعظم من تلك الطاعة ؟

وهل هناك رضا بقضاء الله أتم من هذا الرضا ؟

لقد نجح كلاهما فى الامتحان ..

وصحب إبراهيم ولده إلى المكان الذى اختاره لتنفيذ أمر الله فيه ..

الفـــداء :

ولنستمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا قصة هذا الاستسلام العجيب لأمر الله والرضوخ لقضائه وقدره :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾(٢٠).

حقًا إنه البلاء المبين . وهل هناك أعظم من الابتلاء بذبح الابن ؟

ومع ذلك فالأب وهو الذابح يسرع فى تنفيذ أمر الله ولا يتوانى عنه .. والابن وهو المذبوح يرضخ لأمر الله ولا يتهرب ولا يرفض ..

لقد أسلم كلاهما الوجه لله ..

وألقى إبراهيم ابنه على وجهه حتى لا تأخذه الرحمة الفطرية حين ينظر إلى وجه ابنه وهو يهم بذبحه ..

وإن كان بعض المفسرين يرى أن معنى - تله للجبين - إلقاؤه على جانبه . لأن الجبين أحد جانبى الجبهة ، وللوجه جبينان والجبهة بينهما .

وكان إبراهيم قد شحذ سكينه جيدًا ، حتى تسرع فى القطع ، ولا يتألم الولد .

---

(٢٠) الصافات ١٠٣ ، ١٠٧ .

وهمَّ الوالد بتنفيذ أمر الله ، وبينما هو يهوى بالمدية على رقبة ولده تدخلت القدرة الإلهية لإنقاذ الذبيح ..

بل إن بعض الرواة يقولون : إن إبراهيم – عليه السلام – نزل فعلاً بالسكين على رقبة ولده ، وأخذ يحز بها فى رقبته ، ولكن السكين انقلبت فى يده ، ولم تقطع السكين شيئاً ..

وتعجب إبراهيم من ذلك ، إنه قد شحذ السكين جيدًا فما بالها لا تقطع ؟

ونظر إلى السماء ، وهنا كانت البشرى التى لم تخطر له على بال ..

هذه البشرى التى زفها الله إلى قلب إبراهيم وولده إسماعيل ..
لقد فدى الله ولدك يا إبراهيم ..

ونزل الملك من السماء ومعه كبش عظيم فداء لإسماعيل ..

وقيل : إنه لم يكد يضع السكين على عنق ولده حتى نودى من السماء بالكف . يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .. إنا كذلك نجزى المحسنين ..

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

هذا هو الكبش يا إبراهيم الذى تقبله الله من هابيل منذ القدم قد تقبلته منه وادخرته لولدك .. فخذه واذبحه فداء له ، وسنة متبعة كل عام فى مثل هذا اليوم ، يتقرب المؤمنون إلى الله بأضحياتهم ، ويطعمون منها الفقراء والمساكين ..

لقد نجى الله إبراهيم وإسماعيل من هذه المحنة القاسية ، وقد نجوا بتلك العزيمة الصادقة ، والإيمان العميق ، والصدق العظيم ..

وقد لا يكون هذا الكبش كبش هابيل ، فالله جلت قدرته غنّى عن كبش يدخره لفداء نبى من أنبيائه .

وقال بعض المفسرين فى ذلك : إن الله فدى إسماعيل بكبش عظيم القدر رعى فى الجنة أربعين خريفًا ..

وأيًا مّا كان فقد فدى الله إسماعيل من الذبح ، ونجاه الله ليكون أبا عظيمًا لشعب عظيم كما أخبرت بذلك أمه منذ سنين ..

حياة إبراهيم سلسلة من المحن :

ما أعظم نبى الله إبراهيم ! لقد وفى بعهده مع الله ألا يجزع من قضاء .. وقد كانت حياته سلسلة متواصلة من المحن والتجارب ، خاضها جميعًا فى إيمان عميق وصبر شديد وعزم قوى ..

وفى كل تجربة من تجاربه تمتد يد القدرة لتنقذه فى اللحظة الحاسمة . والوقت المناسب . ويكون إنقاذه معجزة تدهش العقول وتحير الألباب ، وتدفع المتشككين إلى الإيمان ..

فقد تمكن الكفار منه قديمًا ، وأوثقوه بالحبال ، وأججوا له نارًا وقذفوه فيها .. فأوحى الله إلى النار : ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إبْرَاهِيمَ ﴾(٢١)..

وكان فى مقدور الحق سبحانه أن لا يمكن الكفار منه ، وكان فى مقدوره أن يأمر السماء فتمطر فتنطفىء النار قبل أن يلقى فيها إبراهيم .. ولكن الله ترك المحنة تصل إلى غايتها لتكون المعجزة أعظم وأقهر ، وتكون الفرحة أكثر والسعادة أغمر .. وحتى لا يقول الكفار لولا أن السماء أمطرت لاحترق إبراهيم .. وهذا هو التحدى العظيم للكفار .. والعناية الفائقة بإبراهيم .

وفى محنة إسماعيل وهاجر حين تركهما فى المكان الموحش ، أنجاهما الله من الهلاك المحتوم ، فى لحظة اليأس الخانقة التى تبلغ القلوب فيها الحناجر ويظن المؤمنون فيها بالله الظنون ، أنقذهما بتفجير زمزم تحت قدم إسماعيل .

وهى معجزة حية محسوسة باقية إلى الآن وإلى ما شاء الله تشهد بقدرة الله الخارقة وعنايته الفائقة .

---

(٢١) الأنبياء ٦٩.

وفي محنة إبراهيم في مصر أنجى الله زوجته سارة من براثن الذئب البشرى ملك مصر حينئذ ، بمعجزة خارقة أيبست يد الملك وأدخلت الرعب في قلبه ، فجعل يتضرع لسارة أن تطلق سراحه ، فدعت الله ففك وثاقه وأعاد الحركة إلى يده التي شُلَّت ..

وفي هذه المحنة القاسية ، محنة ذبح إسماعيل ، نجى الله إسماعيل من الذبح ، ولم يبق بينه وبين الذبح إلا ثوان معدودة لو أن الله أعطى السكين القوة ولم يجردها من عملها الذى صنعت من أجله .. وفداه بذبح عظيم ..

وكأن الله أراد أن يكون البلاء شديدًا حتى تكون الفرحة بالنجاة منه أشد ، والثواب عليه أعظم ، فعلى قدر المحنة والاختبار يكون الثواب والجزاء، وتكون الفرحة باجتيازه .

وحق لإبراهيم أن يستبشر بنجاة ابنه . وحق للإنسانية جمعاء أن تفرح بذلك ، لأن إسماعيل هذا الذى فداه الله سيكون من نسله المطهر نبى الإنسانية الأعظم الذى سوف يرسله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ..

وذبح إبراهيم الكبش ، وسط فرحة عظيمة شملت الأب والابن والأم على السواء ، وسجدوا لله شكرًا على هذه النعمة العظيمة والمنة الكبيرة .
وأنعم الله على إبراهيم بنعمة أخرى نجد مصداقها فى القرآن العظيم حيث يقول :

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾(٢٢).

---

(٢٢) الصافات ١٠٨ : ١١٣ .

من الذبيح ؟

وملاحظة هذه الآيات الكريمة يدلنا سياقها دلالة قاطعة على أن الذبيح هو إسماعيل ، وهو وإن كان اسمه لم يذكر صريحًا فى الآيات الكريمة إلا أن السياق يفيد ذلك .

ذلك أن البشرى بإسحاق ذكرت صراحة بعد ذكر قصة الذبح ، مما يدل على أن إسحاق غير الغلام الذى ابتلى إبراهيم بذبحه .

وعود الضمير على الغلام الذبيح وذكر اسم إسحاق صريحًا فى قوله تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ يقتضى التغاير بين الذبيح وإسحاق .

أما اليهود فيزعمون أن الذبيح هو إسحاق ، ويحرفون نصوص التوراة حتى تتلاءم مع زعمهم وهدفهم الذى يقصدونه ، كما يزعمون أن أحداث هذه القصة دارت فى أرض الشام ، على أحد جبال القدس ، وأن الله – سبحانه وتعالى – أمر إبراهيم أن يذبح ابنه إسحاق ويقدمه قربانًا لله ويحرقه كما تحرق القرابين ، ويجب أن نعلم أن كون الذبيح هو إسحاق لا يطل لنا نحن المسلمين حجة ، ولا يقدح لنا فى دليل ، ولا يتعارض مع شرعنا وعقيدتنا .

ولكننا إحقاقًا للحق ووضعًا للأمور فى نصابها وحقيقتها نقول : إن أكثر المفسرين والمحققين على أن الذبيح هو إسماعيل ، وأن قصة الذبح هذه كانت قبل ولادة إسحاق ، وأن أحداثها وقعت فى مكة المكرمة ، فى المقام أو فى المنحر بمنى ، أو فى جبل من جبال مكة .

والنص الذى استشهد به اليهود من التوراة يدل على كذب ادعائهم ، ويدل على تحريفهم لكتبهم .

ذلك أنهم يقولون ، إن نص التوراة يقول : قال الرب لإبراهيم : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق ، واذهب به إلى أرض الموريا – أى القدس – وأصعده محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك ..

فهذا النص الذى يستشهدون به يقول : خذ ابنك وحيدك إسحاق . وإسحاق لم يكن فى يوم من الأيام وحيدًا لإبراهيم - عليهما السلام - لأن إسماعيل - عليه السلام - أكبر منه سنًا . وقد ولد إسحاق بعد إسماعيل بنحو أربع عشرة سنة . فالذى كان وحيدًا لإبراهيم هو إسماعيل لا إسحاق .

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبتلى إبراهيم بذبح ابنه الوحيد ليكون ذلك أدل على نهاية الطاعة والامتثال لأمر الله(٢٣).

ومما يدل على رد قول أهل الكتاب ويؤكد أن الذبيح هو إسماعيل أن الله - سبحانه وتعالى - وصفه بالصبر فى قوله تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾(٢٤).

قال المفسرون بالنسبة لإسماعيل هو صبره على الذبح .

كما وصفه بصدق الوعد فى قوله - تعالى - : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾(٢٥).

وذلك أنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

ومما يدل على رد قولهم أيضًا قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين ﴾ فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيًا ؟ ويدل على ذلك أيضًا قوله - تعالى - : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ فكيف يأمره بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد بولادة يعقوب ؟

فهذه كلها أدلة صريحة قاطعة فى أن الذبيح هو إسماعيل ..

أما ما يزعمه اليهود فلا يبعد أن يكون من تحريفاتهم ..

---

(٢٣) قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢٤) الأنبياء ٨٥ .

(٢٥) مريم ٥٤ .

وتحريف اليهود لكتبهم شائع ومعروف تحدث عنه القرآن فى أكثر من موضع . قال تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٢٦).

وقد حذرهم الحق سبحانه وتعالى مغبة ذلك فى قوله : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢٧).

فالادعاءات الباطلة والزعم الفاسد ليس غريبًا على طباعهم ..

قال محمد بن كعب القرطى : سأل عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - رجلاً من علماء يهود وكان قد أسلم وحسن إسلامه : أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه ؟

فقال : إسماعيل . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن يهود لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم يا معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه ، ويزعمون أنه إسحاق أبوهم ، ومن الدليل عليه أن قرنى الكبش كانا منوطين بالكعبة فى أيدى بنى إسماعيل إلى أن احترق البيت ، واحترق القرنان فى أيام ابن الزبير والحجاج(٢٨).

سُنة الذبح :

نجى الله إسماعيل - عليه السلام - من الذبح ، وفداه بذبح عظيم ، وأصبح الذبح سُنة من سُنن المسلمين فى عيد الأضحى من كل عام ، وواجبًا على كل حاج فاته نسك من مناسك الحج ، أو قصر فى واجب من واجباته ،

---

(٢٦) النساء ٤٦ .

(٢٧) البقرة ٤٢ .

(٢٨) حياة الحيوان للدميرى - مادة كبش - جـ ٢ ص ٤٧٥ .

أو قرن بين الحج والعمرة ، أو تمتع بالعمرة ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾[٢٩].

وفي الذبح قربة إلى الله بإطعام الفقراء والمساكين .. قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾[٣٠].

وقال تعالى :

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾[٣١].

وفي الذبح أيضًا إحياء لسُنَّة إبراهيم – عليه السلام – وتذكير بنعمة الله عليه وعلى الناس عامة والمسلمين خاصة ..

وكما فدى الله إسماعيل – عليه السلام – بذبح عظيم ، فقد اشترط الإسلام على المسلم أن يكون الهدى خاليًا من العيوب سليمًا من المرض ، فإن الله طيب ولا يقبل إلا طيبًا .. وهو الذى يقول : ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ واعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[٣٢]..

إسماعيل يواصل حياته :

بعد فداء إسماعيل – عليه السلام – واصل حياته كما كانت بين بطون قبيلة جرهم ، وقد عرفنا أنه تعلم منهم اللغة العربية ، وأحبهم وأحبوه ، وأعجبوا به سلوكًا وأخلاقًا وذكاءً ونشاطًا ونباهةَ شأن ..

وكانت أمه قد لقيت ربها راضية مرضية مطمئنة على ولدها بين هؤلاء القوم .

---

(٢٩) البقرة ١٩٦ .
(٣٠) الحج ٢٨ .
(٣١) الحج ٣٦ .
(٣٢) البقرة ٢٦٧ .

وتزوج إسماعيل امرأة من قبيلة جرهم – عند بعض الرواة – فأصبح واحدًا منهم واندمج فيهم اندماجًا تامًا وتوثقت صلته بهم أكثر وأكثر ..

ومضت مدة من الزمن واشتاق إبراهيم لزيارة ولده ، فشد الرحال إليه ..

وحين وصل إليه لم يجده ، كان قد خرج ساعيًا في طلب الرزق . ووجد امرأته ، فأخذ يسأل عنه وعن أحواله وأحوالها معه وأحوال حياتهم ، فشكت إليه سوء الحال وقلة الرزق وضيق العيش وخشونة الحياة ..

لقد رأى إبراهيم فيها امرأة متمردة على القدر ، لا ترضى بما قسم الله لها ، غير شاكرة لله أنعمه ، غير قانعة بالرزق .. وليس هكذا تكون زوجة المؤمن فضلاً عن النبى ..

إن المؤمن يحتاج إلى امرأة تعينه بالرضا والقناعة على المضي فى طريقه إلى الله بسلام وثبات ..

والمرأة واحة يجد الزوج فى ظلها الأمن والراحة من مشقة الحياة والكفاح والجهاد .. فمتى لا يجد فيها غير الشكوى والصخب ضاق ذرعه ووهن عزمه وضعف عن مواجهة الحياة .

من أجل ذلك قال إبراهيم لهذه الزوجة : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له : إن عليه أن يغير عتبة داره ..

إنها كناية لطيفة عن المرأة ..

والعتبة تعنى طريق الدخول إلى الدار ، وبدونها لا يستقيم الباب ثم لا تستقيم الدار كلها ..

وقد شاء إبراهيم ألا يفهم هذه الكناية إلا ابنه المرشح للنبوة والذى أعطاه الله الذكاء وسرعة الفهم .

وعاد إبراهيم لتوه دون أن يلقى ابنه .

ولما عاد إسماعيل من رحلته ودخل بيته آنس شيئًا غريبًا . لقد أحس بريح أبيه . أدرك ذلك بقلبه وروحه . فسأل زوجته : هل حضر إلينا من أحد ؟

فقالت : نعم ، حضر شيخ كبير صفته كذا وكذا ، ووصفته ..

فقال لها : هل سألك عن شيء ؟

فقالت : نعم ، سألني عنك وعن أحوالنا ، فشكوت له ما نحن فيه من ضيق فى الرزق ، وخشونة فى العيش ، ومصاعب فى الحياة .

فقال لها : وهل أوصاك بشيء ؟

قالت : نعم ، أوصانى أن أقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تغير عتبة الدار ..

فقال لها : ذاك أبى خليل الرحمن ، وقد أمرنى بأن أفارقك فالحقى بأهلك ..

وما أظهرته زوجة إسماعيل من الشكوى قد لا يكون فى ظن البعض سببًا كافيًا لأمر إبراهيم ابنه بفراقها ، فالمعروف من طبع المرأة الشكوى والتبرم السريع بضوائق الحياة ، والتطلع إلى حياة الترف وزخارف الدنيا . ولو طبقت قاعدة إسماعيل هذه على نساء عصرنا لطلقن جميعًا إلا القليل منهن .. فمن منهن لا تشتكى ؟ ومن منهن لا تندب حظها صباح مساء ؟ ومن منهن لا تزعم أن نصيبها فى الحياة أقل كثيرًا مما تستحقه ؟

لكن بيوت الناس شيء وبيوت النبوة شيء آخر ، فما يتجاوز عنه فى بيوت عامة الناس لا يتجاوز عنه فى بيت من بيوت النبوة ، فلكل بيت مكانته ، ولكل زمان طبيعته . وما يقبل من زوجات عامة الناس لا يقبل من زوجة نبى ابن نبى ، وقد كشف لنا القرآن جانبًا من هذا بالنسبة لزوجات النبى - ﷺ - حين تطلعن إلى ما تتطلع إليه النساء عادة من زينة الحياة الدنيا ، وطمعن فى أن يكون لهن مثل ما لغيرهن من متاع وزخرف وترف فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ

﴿ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [٣٣] .

وقد كانت زوجة إسماعيل – عليه السلام – من المحبات للدنيا وزينتها ، تؤثر متعها على متع الآخرة ، لهذا فارقها إسماعيل كما أوصاه والده . وربما كان هناك سبب آخر يضاف إلى ذلك ، وإن كان هذا السبب وحده وهو حب الدنيا والرغبة الشديدة فيها يكفى للفراق ، فقد ورد أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ..

هذا السبب الآخر أشارت إليه بعض المصادر وهو أن هذه الزوجة قد أساءت استقبال إبراهيم – عليه السلام – وحين سلم عليها لم ترد عايه السلام ، وطلب إليها النزول من فوق دابته لحين حضور ولده قائلاً لها : هل من منزل ؟ فرفضت وقالت : لا ها الله[٣٤] ..

فإذا صح ذلك فهو سوء خلق ، فهذا شيخ غريب وقور وافد من بلاد بعيدة تبدو عليه مشقة السفر ..

وكان هذا الشيخ يطمع فى أن يجد فى بيت ابنه الذى هو بيته حقيقةً وفرضًا راحته . فإذا بربة هذا البيت تتجهم فى وجهه وترفض أن ترد عليه السلام وتأبى أن تستقبله بعبارات مجاملة تتناسب وحالته ، بل ترد عليه فى جفاء : لا والله لا تنزل . وهو الذى طبيعته الأولى الكرم والوفاء .. فأى جحود أكبر من ذلك ؟ وأى جفاء أشد من هذا الجفاء ؟ وكيف يبقى الجحود والجفاء وسوء الخلق فى بيت من بيوت النبوة ؟؟ .

---

(٣٣) الأحزاب ٢٨ : ٣٢ .

(٣٤) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٢٠ .

الزوجة الثانية :

طلق إسماعيل زوجته ، ثم تزوج من امرأة أخرى طيبة طيعة صالحة ، ليست فيها تلك الصفات التي كانت فى الزوجة الأولى .

ويقول بعض الرواة إن الزوجة الأولى لم تكن من جرهم بل كانت من العماليق ، ويستندون فى ذلك إلى أن الذين نزلوا فى جوار هاجر أولاً لم يكونوا الجراهمة بل كانوا العماليق ، وقائدهم « السميدع بن هُوبر بن لاوى » وقد رحبت بهم هاجر . وكانت زوجة إسماعيل الأولى هى « الجداء بنت سعد العملاق » وهى التى طلقها إسماعيل .

وحدث أن الجراهمة سمعوا بخبر الماء فى هذا المكان فتوافدوا ونزلوا بجوار الماء ، ومن هؤلاء كانت زوجة إسماعيل الثانية . وهى « سامة بنت مهلهل ابن سعد بن عوف »[٣٥]..

واستأذن إبراهيم سارة أن يزور ولده ، فاستحلفته غيرةً عليه أنه إذا أتى الموضع لا ينزل عن ركابه .

ويشاء القدر أن يكون إسماعيل أيضًا فى تلك المرة ، مرتحلاً فى طلب الرزق . فلم يجده أبوه ، ووجد زوجته ، فسلمت عليه ورحبت به ، وتلقته بأحسن لقاء .

وسألها عن أحوالهما وأحوال معيشتهما ، فقالت : نحن بخير والحمد لله ، وفى سعة من الرزق ، وفى نعمة عظيمة ، وفاض لسانها بحمد الله والثناء عليه ، كما أثنت على زوجها وعلى أخلاقه العظيمة وحسن معاملته لها ، وسعيه الدءوب على توفير الحياة الكريمة لها .

وألحت هذه المرأة على إبراهيم فى أن ينزل عن دابته ، ولكنه كان قد أقسم ألا ينزل ، وهو وفى لما يقول . تلك طبيعته وصفته .

---

(٣٥) المرجع السابق .

فلما أبى أن ينزل ، قدمت له لبنًا وشرائح من لحم الصيد ، وهو جالس فوق راحلته ، فدعا لها بالبركة ..

ثم جاءت بحجر كان في البيت فمال عن ركابه ، وجعلت الحجر تحت قدمه اليمنى ، ثم رجّلت شعره ودهنته ، ثم حولت الحجر إلى شماله فوضع رجله اليسرى عليه ، ومال برأسه فرجلته ودهنته ، فأثرت قدماه في الحجر .

فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته ، وهذا الحجر هو مقام إبراهيم . فقال لها إبراهيم : ارفعيه فسيكون لهذا الحجر شأن ونبأ بعد حين .

ثم قال لها : إذا جاءك إسماعيل فقولي له : إن إبراهيم يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : احتفظ بعتبة بيتك ، فنعمت العتبة هي .

وقفل إبراهيم راجعًا نحو الشام[٣٦] ..

وعاد إسماعيل إلى داره وأحس بالريح الطيب الذى أحس به قبل ذلك . فسأل زوجته عن حالها ، وعما إذا كان قد جاءهم أحد ، فقالت : نعم ، حضر شيخ جليل حسن الهيئة ، بهى الطلعة ، يجلله الوقار وتكسوه الهيبة ، فسأل عنك وعن أحوال معيشتنا .

فقال لها : ألم يوصك بشيء ؟

فقالت : بلى ، أوصانى أن أقرئك السلام ، وأقول لك : ثبت عتبة بابك .

فقال لها إسماعيل - عليه السلام - : هذا أبى وقد أمرنى أن أحتفظ بك ولا أفارقك[٣٧] ..

---

(٣٦) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٢٠ .

(٣٧) قصص الأنبياء ص ١٠٥ .

بناء البيت :

وتمر الأيام ، ويبلغ إسماعيل من العمر ثلاثين سنة ، وقد أصبح له بنون ..

وجاء إبراهيم إلى مكة ..

وفى هذه المرة لم يكن مجيئه للزيارة والاطمئنان كما جاء فى المرتين السابقتين ..

وإنما كان مجيئه لأمر عظيم وهدف جليل ، فقد أمره الله - تعالى - بإعادة بناء البيت الحرام ورفع قواعده ..

وما أعظمها من مهمة ، وما أنبله من هدف ، وما أجله من شرف !

هذا البيت الذى وجد منذ آدم أو قبل آدم فى بعض الروايات ، وغمره الطوفان فى عهد نوح - عليه السلام - وهو البيت الذى كان أول بيت وضع للناس مباركًا وهدى للعالمين ، وجعله الله مثابة للناس وأمنًا .. يتقربون إلى الله بزيارته ، ويتبركون بالطواف حوله ، ويجدون فى حماه الأمن والسلام ويعودون منه وقد غفر الله ذنوبهم وتجاوز عن سيئاتهم وامتلأت قلوبهم هدى ورحمة وسكينة ، إنهم يعودون كيوم ولدتهم أمهاتهم طهارة ونقاء ..

هذا البيت العتيق أُمر إبراهيمُ بإعادته وأُمر إسماعيل بمساعدة أبيه فى هذه المهمة الجليلة : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ والْعَاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(٣٨) ..

وجاء إبراهيم إلى مكة .. وبحث عن إسماعيل والتقى به وكان قد مضى زمن طويل دون أن يلتقيا .. فقد مرت بعد حادثة الذبح سنون كثيرة .. فما أن رأى كل منهما الآخر حتى اعتنقه . وصنع كل منهما ما يصنع فى هذه المناسبة الجليلة ..

وفرح إسماعيل بلقاء والده ، وتهلل وجهه بالبشر والسرور لرؤيته ، وأفضى إبراهيم لابنه بالمهمة التى جاء من أجلها فتضاعف فرح إسماعيل حين

---

(٣٨) البقرة ١٢٥ .

علم أن الله وكل إليه مهمة مساعدة والده فى بناء البيت الحرام ، فأى شرف أعظم من مشاركته فى بناء بيت الله فى الأرض حيث يواجه البيت المعمور فى السماء ؟

وسأل إسماعيل أباه عن المكان الذى سيبنى فيه البيت ، فأشار إبراهيم إلى مكان مرتفع عما حوله ، وأخبره أن هذا هو مكان البيت .

ولم تكن المهمة سهلة ، ولكن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لم يفكرا فى ذلك على الإطلاق ، لأنهما يعلمان علم اليقين أن الذى أمرهما ببناء البيت لن يتركهما وحدهما ، ويدركان أن القدرة الإلهية ستعاونهما فى هذا العمل ..

إن العناية الإلهية كانت مصاحبة لهما فى مسيرتهما عبر الحياة ، فهل تتخلى عنهما الآن ؟ كلا ..

لقد تعهدت هذه العناية إسماعيل وهو رضيع لا حول له ولا قوة فى تلك الصحراء القاحلة ففجرت له الماء تحت قدمه ..

وتعهدت هذه العناية إبراهيم فجعلت النار بردًا وسلامًا له حين ألقاه قومه فيها ..

وتعهدتهما العناية معًا حين هَمَّ إبراهيم بذبح ولده استجابة لأمر الله ففدى الذبيح بكبش هبط به جبريل من السماء .. وقال الله فى ذلك ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾(٣٩) .

فكيف تتخلى عنهما هذه العناية فى هذه المهمة ؟؟

إنهما ينفذان ما أمرهما الله به ، ويقومان ببناء بيت الله الذى سيحجه الناس من كل حدب وصوب . ومن أجل ذلك أقبلا على العمل بهمة ونشاط وهما يستعينان بالله القادر على أن يسهل أمامهما كل صعب وييسر لهما كل عسير.

---

(٣٩) الصافات ١٠٧ .

كشف إبراهيم عن مكان البيت ، وأخذ في رفع القواعد ، وإسماعيل يعاونه في ذلك كما قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٤٠).

والقواعد هى الأساس ، والمعنى أن إبراهيم - عليه السلام - أخذ يبنى فوقها فترتفع ، لأن البيت كان مؤسسًا قبل ذلك .

وسيأتى تفصيل ذلك - إن شاء الله تعالى - فى عدد خاص عن الكعبة المشرفة .

الحجر الأسود :

أخذ إبراهيم يبنى وإسماعيل يعاونه .. كان يناوله الحجارة كما يقول الرواة - حتى ارتفع البناء وطالت الجدران ، ولم تعد يد إبراهيم تستطيع الوصول إلى أكثر من ذلك ..

وكان لابد من البحث عن حجر كبير ليقف عليه إبراهيم حتى تستمر عملية البناء ، فبحثا عن حجر يصلح لتلك المهمة ، فهداهما الله إلى حجر « مقام إبراهيم » ، قام عليه إبراهيم ، وأخذ يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وكلما فرغا من جدار انتقلا إلى جدار آخر حتى تم البناء .

وذكر بعض المفسرين أن الحجر الأسود جاء به جبريل من السماء ، وأن إبراهيم وضعه فى مكانه الموضوع به الآن .

وقد تحدث الرواة كثيرًا عن هذا الحجر ، وعن أهميته وعن المكان الذى جاء منه ، أمن الأرض أم من الجنة ؟ وعن لونه وعن التبرك به وقيمته ..

فإذا صح أنه كان نتيجة بحث إبراهيم وإسماعيل فهو حجر عادى إذن .. أما إذا كان قد هبط به جبريل فهو ذو منزلة خاصة .

---

(٤٠) البقرة ١٢٧ .

وتظهر هذه المنزلة فى أنه مبتدأ الطواف فى جميع المذاهب ، وتقبيله ولمسه ووضع الجبهة عليه من السنن ما أمكن ذلك ، فإن اشتد الزحام أشار الحاج إليه بيده ، يفعل ذلك عند كل طوفة. وإذا تعذر عليه لمسه بيده لمسه بما فى يده كعود مثلاً ، ثم يقبل يده أو العود الذى لمسه[٤١]..

لقد قبل النبى - ﷺ - الحجر الأسود ، وورد ذلك فى آثار عدة منها:

ذكر البزار عن جعفر بن عبد الله بن عثمان المخزومى قال: « رأيت محمد ابن عباد بن جعفر قبل الحجر ثم سجد عليه ، وقال : رأيت عمر قبله وسجد عليه » وقال: رأيت رسول الله - ﷺ - قبله وسجد عليه.

ونزول الحجر الأسود من السماء ورد به أثر صحيح رواه الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح..

وفى استلام الحجر معنى تعبدى دقيق ، إذا لاحظنا أن مناسك الحج كلها رموز وإشارات إلى معان روحية عميقة ، ترتفع بالإنسان إلى حالة من الصفاء والنقاء ، وتخلصه من أدران المادة التى يتقلب فيها صباح مساء.. ابتداء من تجرده عن المخيط وإحرامه بالحج بعد اغتساله ، وجهره بالتلبية ، وطوافه حول البيت ، واستلامه الحجر وتقبيله إياه ، وسعيه بين الصفا والمروة ، ووقوفه بعرفة ، ورميه الجمار ، وغير ذلك من مختلف المناسك التى يقوم بها الحاج..

وما ورد عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين قال : « والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله - ﷺ - يقبلك ما قبلتك » يفهم منه أنه يريد أن يلاحظ الحاج فى تقبيله الحجر رب الحجر لا الحجر نفسه..

---

(٤١) الفقه على المذاهب الأربعة..

وقد ذكر الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - قال فى الحجر : « والله ليبعثنه الله يوم القيامة وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه » ..

ومعنى يشهد على من استلمه أنه يشهد لمن استلمه ، فعلى بمعنى اللام ، قياسًا على قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾[42] أى ما ذبح للنصب .

ويؤيد ذلك أن هناك رواية أخرى للحديث وردت باللام وهى :

« ليبعثن الله الحجر يوم القيامة وله عينان ينظر بهما ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق »[43].

قال السيوطى فى جمع الجوامع : رواه أحمد ، وابن حبان ، والطبرانى ، والبيهقى فى السنن ، عن ابن عباس .

ومعنى ذلك أنه يضر وينفع بإذن الله ..

فشهادته لمن يحج فيها نفع له من غير شك ، وإنطاق الجمادات ليس بمعجز إذا أراد الله ..

وقد ورد فى بعض الأخبار - رَدٌّ بهذا الحديث على عمر - رضى الله عنه - حين قال قولته تلك ..

إن للحجر الأسود قدسية خاصة عند الناس جميعًا ، حتى قبل الإسلام .. الإسلام ..

---

(42) المائدة ٣ .

(43) هذا الحديث رواه أحمد فى مسنده - مسند ابن عباس - جـ ١ ص ٣٧١ قال: حدثنا عبد الله ، حدثنى أبى ، ثنا روح ، ثنا حماد ، عن عبد الله بن عثمان بن خشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى - ﷺ - قال : ليبعثن الله تبارك وتعالى الحجر يوم القيامة وله .. الحديث .. جمع الجوامع جـ ٣ ص ١٤٤٠ الحديث رقم ١٧١ ١٧٩٧٣

ويدل على ذلك ما ورد عند تجديد الكعبة فى عهد الجاهلية ، وقبل بعثة النبى - ﷺ - بخمس سنوات .. حرصت كل قبيلة أن يكون لها شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه .. وتنافسوا تنافسًا شديدًا أدى إلى صراع أوشك أن يشعل الحرب الدامية بينهم ، وقد حسم هذا الخلاف النبى - ﷺ - إذ حكموه بينهم.

فأتى النبى - ﷺ - برداء وضع الحجر الأسود بيده الشريفة عليه ، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء ، فاختارت كل قبيلة منها فردًا أمسك بطرف من الأطراف ونقلوا الرداء وفوقه الحجر إلى جوار الكعبة ، فتناوله النبى - ﷺ - بيده الشريفة ووضعه فى مكانه.

ورضى القرشيون جميعًا بهذا الحل الذى أطفأ الحرب التى أوشكت أن تشتعل فيما بينهم.

لقد توارث الناس عبر الأجيال توقير هذا الحجر وتعظيمه ، وما ذلك إلا لخصوصية أودعها الله فيه ..

وقد حدثنا الرواة أن هناك حربًا اشتعلت قديمًا بين إياد ومضر بسبب الولاية على البيت ، وانهزم الإياديون فقلعوا الحجر الأسود وأخفوه ، فرأت مكانه امرأة من خزاعة، فأخبرت قومها بهذا المكان، فذهب الخزاعيون لمضر وقالوا لهم: نحن نعرف مكان الحجر ولنا عليكم إن رددناه أن نتولى البيت . فوافقوا على ذلك ، فعادوا به وردوه إلى مكانه وتولوا أمر البيت(٤٤).

والله جلت قدرته يخص بعض مخلوقاته بأسراره التى يكون لها تأثير فى القلوب والأرواح ، وهناك أماكن فضلت على أماكن ، وأيام فضلت على أيام ، وناس فضلوا على ناس ، بل هناك رسل فضلهم الله على رسل ، أخبر بذلك الحق سبحانه حيث يقول: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ

---

(٤٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٢٦ .

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾[٤٥].

وقد فهم البعض من استلام الحجر وتقبيله معنى مبايعة الله على الاستقامة على النهج السليم والطريق المستقيم ، وكأن فى ذلك عزمًا على الإقلاع عن المعصية والإقبال على الطاعة ، وبذلك يعود الحاج مغفورًا ذنبه ، مستورًا عيبه ، مستجيبًا له ربه.. مصداقًا لما رواه مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ».

وفى ذلك إشارة إلى أنه بالحج خرج من الضيق إلى السعة ومن الظلمة إلى النور، ومن ذل المعصية إلى عز الطاعة..

فما أعظم معانى الحج وما أجمل ما تشير إليه مناسكه من دلائل وإشارات!.

فهم بعض العلماء لأسرار الحج:

لقد فهم بعض العلماء أسرار الحج ، فتأدبوا بالآداب المطلوبة التى استنبطوها من واقع جهادهم لأنفسهم ، ومن تذوقهم لجمال العبادة والإقبال على الله حتى إنهم إذا قالوا: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك. ألزموا أنفسهم ألا يجيبوا بعد ذلك دواعى النفس والشيطان بعد ما أجابوا الحق بالتلبية وأقروا أنه لا شريك له فى ملكه .

فإذا نظروا إلى البيت بأعين رءوسهم نظروا بأعين قلوبهم إلى من دعاهم إلى البيت .

فإذا طافوا حول البيت بأبدانهم فمن آدابهم أن يذكروا قول الله - عز وجل - ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[٤٦] فكأن الملائكة تنظر إلى طوافهم

---

(٤٥) البقرة ٢٥٣ .

(٤٦) الزمر ٧٥ .

فإذا صلوا خلف المقام يعلمون أنه مقام عبد قد وفى لله - تعالى - بعهده ، فندب الأولين والآخرين إلى متابعة قدمه .

فإذا استلموا الحجر وقبلوه علموا أنهم يبايعون الله بأيمانهم ، فمن الأدب ألا يمدوا بعد ذلك أيمانهم إلى شهوة(٤٧) ..

وهناك محاورة طريفة جرت بين أبى القاسم الجنيد ورجل عاد من الحج ، نذكرها لندرك منها كيف فهم العلماء بالله أسرار العبادة وتذوقوا لذاتها .

قال الجنيد للرجل : أرحلت من جميع ذنبك حين رحلت عن دارك ؟

قال الرجل : لا ..

قال الجنيد : فأنت لم ترحل .. ثم قال الجنيد : وبعد كل مرحلة نزلت حيث تلبث بالليل ، هل قطعت مرحلة إلى الله ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم تقطع الطريق مرحلة مرحلة .

ثم قال الجنيد : وحين لبست ثياب الإحرام فى موضعه . هل خلعت صفات البشرية عنك وأنت تخلع ثوبك ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم تحرم .

ثم قال الجنيد : وحين وقفت بعرفة ، هل تأملت فى الله لحظة ؟

فقال الرجل : لا ..

فقال الجنيد : فأنت لم تقف بعرفة . ثم قال : وحين أفضت إلى المزدلفة ، وقضيت مناسكك ، هل رفضت جميع الأغراض الجسدية ؟

قال الرجل : لا ..

قال الجنيد : فأنت لم تفض إلى المزدلفة .

---

(٤٧) اللمع للطوسى ص ٢٢٨ .

ثم قال الجنيد : وحين طفت بالبيت ، هل أدركت الجمال الإلهى فى بيت الطهر ؟

قال الرجل : لا .. قال الجنيد : فأنت لم تطف بالبيت .

ثم قال الجنيد : وحين سعيت بين الصفا والمروة ، هل أدركت معنى الصفاء والمروءة ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم تسع .

ثم قال الجنيد : فلما وصلت إلى المنحر ونحرت القربان ، هل نحرت أسباب متاع الدنيا ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم تنحر .

ثم قال الجنيد : فلما رميت الجمار هل رميت ما صحبك من أفكار جسدانية ؟

قال الرجل : لا .. فقال الجنيد : فأنت لم ترم الجمار ، بل لم تؤد على ذلك حجًا .

ويعقب الدكتور أحمد الشرباصى بعد أن ساق هذه القصة بقوله : هذه القصة إن صحت تصور لنا المثالية الروحية العبادية التى يتطلع إليها الأئمة العارفون ، مع ما فى هذه القصة من توسع فى الطموح إلى بلوغ الدرجة العليا التى تعز على كثير من الناس[٤٨].

إن كثيرًا من الناس ، بل عامة الناس ، يكفيهم أن يسقطوا الفريضة عنهم بأدائها على أى صورة كانت ، دون التفطن لما تهدف إليه من أسرار ، ودون أن يتكلفوا فى سبيل أدائها مشقة . وهم يبحثون من أجل ذلك عن أقرب الطرق وأيسرها ، وعن أجمل الأماكن وأكثرها راحة فى الإقامة ،

(٤٨) التصوف عند المستشرقين ص ٤٩ د . أحمد الشرباصى .

ويجعلون من موسم الحج موسم متعة وسياحة واقتناء سلع وتحصيل منافع مادية ، ثم الأهم مع ذلك الحصول على لقب « حاج » وما من أجل ذلك أقيمت الكعبة وشرع الحج .

جبريل يعلم إبراهيم وإسماعيل المناسك :

بعد أن فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت طلبا من الله – سبحانه وتعالى – أن يعلمهما المناسك ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك فى قوله – تعالى – :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[٤٩]..

لقد طلبا من الله أن يثبتهما على الإسلام ، فقد كانا مسلمين لله مخلصين له ..

وهذا يدل على أن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده منذ الأزل ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾[٥٠]..

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[٥١]..

لقد كان إبراهيم مسلمًا – إذن – وقد ورد ذلك فى نص صريح فى القرآن الكريم ..

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[٥٢] .

---

(٤٩) البقرة ١٢٨ .
(٥٠) آل عمران ١٩ .
(٥١) آل عمران ٨٥ .
(٥٢) الحج ٧٨ .

وقد استجاب الله - تعالى - دعاء إبراهيم وإسماعيل .

أرسل إليهما جبريل - عليه السلام - فعلمهما المناسك ..

رمي الجمار :

روى أنه أخذ بيد إبراهيم وانطلق به نحو منى ، فلما كان عند العقبة إذا إبليس قائم عند الجمرة ، فقال لإبراهيم : كبر وارمه ..

فكبر إبراهيم ورماه ..

فذهب إبليس حتى أتى الجمرة الوسطى ، ففعل به إبراهيم كما فعل فى الأولى ..

ثم فعل مثل ذلك فى الجمرة الثالثة ..

لقد رمى إبراهيم الشيطان فعلاً ..

وأصبح الرمى بعد ذلك شعيرة تمارس فى الحج .. وأصبح رمزًا لرفض وساوس الشيطان ورجمه وعدم الاستجابة لهمزاته ..

وهناك قصة أخرى رواها أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجال تدور حول سبب الرمى ..

قالوا : لما رأى إبراهيم فى المنام أن يذبح ابنه قال الشيطان : والله لئن لم أفتن عند هذا آل ابراهيم وإلا لم أفتن أحدًا منهم أبدًا ..

فتمثل لهم الشيطان رجلاً ، فأتى أم الغلام فقال لها : أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟

قالت : ذهب به ليحتطب من هذا الشعب .

فقال : لا ، والله ما ذهب إلا ليذبحه .

قالت : كلا هو أرحم به منى وأشد حبًا له من ذلك .

فقال لها : إنه يزعم أن الله أمره بذلك .

فقالت له : إن كان أمره بذلك فقد أحسن فى امتثال طاعة ربه ، وفى استسلامه لأمر الله تعالى .

فخرج الشيطان من عندها هاربا ، حتى أدرك الابن وهو يمشى على أثر أبيه .

فقال الشيطان للابن : يا غلام ، هل تدرى أين يذهب بك أبوك ؟

قال : نحتطب لأهلنا من هذا الشعب .

قال : لا ، والله مايريد إلا ذبحك .

قال : ولم؟

قال : يزعم أن الله أمره بذلك .

قال إسماعيل : فليفعل ما أمره الله به ، فسمعا وطاعة لأمر الله - تعالى ..

فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم ، فقال له :
أين تريد أيها الشيخ؟

قال : أريد هذا الشعب لحاجة لى .

فقال إبليس : والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك يأمرك بذبح ابنك هذا .

فعرفه إبراهيم فقال له : إليك عنى يا ملعون ، فو الله لأمضين لأمر ربى .

فرجع إبليس - لعنه الله - بغيظه لم يصب من إبراهيم وأهله شيئا مما أراد وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده .

ولعله أتبع بالرجم من كل منهم حين عرض لهم .

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن إبراهيم - عليه السلام - لما أمر بذبح ابنه عرض له إبليس عند المشعر الحرام فسابقه فسبقه إبراهيم - عليه السلام - .

ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب .

ثم عرض عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، حتى ذهب .

ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات . حتى ذهب ثم مضى إبراهيم عليه السلام لأمر الله(٥٣) .

وذكر ابن إياس فى كتابه عن السُّدى : أن إبليس تعرض لإسماعيل فى صورة شيخ فقال له :

إلى أين تمضى يا إسماعيل؟

قال : مع أبى يقرب قربانا إلى الله تعالى .

فقال إبليس : أتدرى ما القربان الذى يقربه أبوك؟

قال : لا .

قال : إنه يريد أن يذبحك وقد جئتك ناصحا .

فعرفه إسماعيل : فقال له : ياإبليس أيفعل هذا أبى من قبل نفسه أم بأمر ربه؟

فقال إبليس : بل بأمر ربه .

فقال إسماعيل : إذا كان الذبح بأمر ربى فكيف أعصى ذلك ؟ فرجع إبليس خائبا ، فكان كلما اتبع إسماعيل يرميه بالحصى . فصار من يومئذ رمى الجمار سنة(٥٤) .

بقية المناسك :

ثم أخذ جبريل بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام .

ثم ذهب حتى أتى به عرفات .

---

(٥٣) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٩٥ .

(٥٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ص ٨٥ .

ثم قال له : هل عرفت ما أريتك ؟ – قالها ثلاثا –

قال إبراهيم : نعم . ولعل ذلك سبب في تسمية هذا المكان عرفة .. وهناك تعليلات أخرى لهذا الاسم ، قد سبق في قصة آدم تعليل منها .

قال جبريل : فأذن في الناس بالحج .

قال : كيف أأذن ؟

قال : قل يأيها الناس أجيبوا ربكم ثلاث مرات :

ففعل إبراهيم ذلك . فأجاب العباد : لبيك اللهم لبيك ، فمن أجاب ابراهيم يومئذ من الخلق فهو حاج .

وقد ذكر الله – تعالى – ذلك في كتابه الكريم حيث قال :

«وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (٥٥) .

الأمر بتطهير البيت :

وأمر الله – سبحانه وتعالى – إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – بتطهير البيت من الرجس والأوثان ..

وفي الواقع إن هذا الأمر منصرف إلى من جاء بعدهما ، فالبيت حين بنياه قام على الإسلام والتوحيد ، وظل كذلك في عهدهما .. ولكن الأوثان نصبت حول الكعبة بعد ذلك بكثير بعد وفاة إسماعيل وخروج الولاية إلى غير بنيه ..

والأمر بتطهير البيت من الرجس ينصرف أيضا إلى من يطوف به من الناس ، فإنه يجب عليه أن يكون طاهر الثوب والجسد والقلب .

---

(٥٥) الحج ٢٧ : ٢٩ .

وفى الأمر بتطهير البيت قال تعالى :

﴿ وإذْ جَعَلْنا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(٥٦).

دعاء إبراهيم لمكة :

وقد دعا إبراهيم – عليه السلام – لمكة التى بوركت بهذا البيت فقال كما حكى القرآن الكريم :–

﴿ وإذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(٥٧).

وقد استجاب الله هذا الدعاء .

فعمرت مكة وبوركت ، وأصبحت يجبى إليها ثمرات كل شيء ..

وفى عصرنا هذا أصبحت مكة من أرق الحواضر فى العالم عمارة ونظاما ونظافة وتنسيقا .. حتى إنها لتنافس فى ذلك أعظم المدن فى العالم ..

وزادها جلالاً وروعة وجود هذا البيت العتيق الذى تهفو إليه قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وإليه يولون وجوههم فى صلاتهم صباح مساء يعبدون الله وحده ، يقدسون اسمه ويسبحون بحمده آناء الليل وأطراف النهار .

إسماعيل فى مكة :

ورحل إبراهيم – عليه السلام – بعد إنجاز المهمة التى وكلت إليه من الحق سبحانه ..

---

(٥٦) البقرة ١٢٥ .
(٥٧) البقرة ١٢٦ .

وبقى إسماعيل فى مكة ..

وكانت أمه قد ماتت منذ حين ودفنت فى حمى الكعبة فى الحِجْر ، ولها من العمر تسعون سنة[٥٨] ماتت قبل أن تبنى الكعبة .

وقيل : كان لها من العمر حين ماتت نحو ستين سنة ولإسماعيل من العمر عشرون سنة .

والمشهور أنها ماتت قبل زيارة إبراهيم لابنه إسماعيل بعد زواجه فى المرة الأولى . وإن كان بعض الرواة يذكر أنها كانت فى الزيارة الأولى على قيد الحياة ، ولم يلتق إبراهيم بها لأنها كانت مع ابنها فى رحلته لارتياد الرزق .

وأنجب إسماعيل من زوجته الثانية اثنى عشر ذكرًا ..

هم : بنايوت أو نابت ، وقيدار ، وأدبيل أو أدئيل ، ومبسم أو مبسام ، ومشمع أو مشمشاع ، ودوما أو دومة ، ومسّا ، وحداد أو حدار ، وتيما أو ثيما ، ويطور ، ونافش أو نافيش ، ودوام – كما يقول المسعودى[٥٩]، أو قدمه كما يقول غيره . وكل هؤلاء قد أنسل ، وأصبح رئيس قبيلة .

ومن قيدار هذا كان النبى – ﷺ – فيما يذكره ابن سعد فى نسب النبى – ﷺ –[٦٠] وهو الأشهر . وإن كان بعضهم ينسبه إلى نابت بن إسماعيل .

وكان النبى – ﷺ – إذا انتسب انتهى بنسبه عند معد بن عدنان بن أدد ، ويقول : كذب النسابون ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾[٦١].

ويذكر ابن سعد أسماء أبناء إسماعيل على النحو الآتى :

---

(٥٨) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٢٠ ، الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٥ .

(٥٩) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٨٣ .

(٦٠) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٨ .

(٦١) الفرقان ٣٨ .

قال : أخبرنا هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قالا : ولد لإسماعيل بن إبراهيم - صلى الله عليهما - اثنا عشر رجلاً ، وهم : بناوذ وهو نبت وهو نابت ، وهو كُثِر ولده ، وقيذر ، وأذبل ، ومنسى وهو منشى ، ومسمع وهو مشماعة ، ودما وهو دوما وبه سميت دومة الجندل ، وماشي ، وأذر وهو أذور ، وطيما ، ويطور ، وبنش ، وقيذما .

وأمهم - فى رواية محمد ابن إسحاق - رِعْلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى ، وفى رواية الكلبى : رعلة بنت يشجب بن يعرب .

وقد مرت بنا رواية المسعودى التى تذكر أن زوجته هى « سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف » ..

قال الكلبى : وكانت لإسماعيل امرأة من العماليق قبل الجرهمية ، وهى التى كان قد جاءها إبراهيم فجفته فى القول ففارقها إسماعيل و لم تلد له شيئًا .

وقيدار هو الذى تناسل منه أجداد النبى ، ومن نسله كانت قريش التى حفظت الكعبة بعد انتزاعها من قبضة الجراهمة والخزاعيين ..

وقد ورد فى التوراة ما يفيد ذلك وإن كانوا يلتوون فى فهمه .

فمما ترجمه السريانيون من كتاب أشعيا - عليه السلام - إخبارًا عن الله - سبحانه وتعالى - أنه قال :

« قد أقسمت بنفسى كقسمى أيام نوح لأغرقن الأرض بالطوفان ، فإنى كذلك أقسمت أنى لا أسخط عليك ، ولأرفعنك ، فإن الجبال تزول والقلاع تنحط ، ورحمتى عليك لا تزول .

« يا مسكينة يا مضطهدة ، هأنذا بانٍ بالجص حجارتك ومزينك بالجوهر ، ومكلل باللؤلؤ سقفك ، وبالزبرجد أبوابك ، وتبعدين من الظلم ، ولا تخافين .

« وكل سلاح يصنعه صانع لا يعمل فيك ، وكل لسان يقوم معك بالخصومة ، ويسميك الله اسمًا جديدًا .

« فقومي وأشرقي فإنه قدمنا نورك ، ووقار الله عليك ، انظري بعينيك حولك ، فإنهم يجتمعون ، يأتيك بنوك وبناتك عدْوًا ، فحينئذ تشرقين وتزهرين ، ويخاف عدوك ، ويشبع قلبك .

«وكل غنم «قيدار» تجتمع إليك ، وسادات «بناوت» يخدمونك ، وتفتح أبوابك دائما الليل والنهار ، ويتخذونك قبلة ، وتدعين بعد ذلك مدينة الرب» .

وقد علق ابن ظفر الحموى فى كتابه خير البشر بخير البشر على هذا النص بقوله :-

« فهذا - أيدكم الله - تصريح البشرى بنبوة محمد - ﷺ - لأنه خطاب يجب صرفه إلى الكعبة . ألا تسمعون إلى ذكر «قيدار» و«بناوت» ؟

« فقيدار . هو ابن إسماعيل - عليه السلام - و «بناوت» هى بنت قيدار بن إسماعيل ، والاسم الجديد الذى سميت به الكعبة هو البيت الحرام ، وقوله : تدعين مدينة الرب هو قولنا : حرم الله . وقوله : كل سلاح يصنعه صانع لا يعمل فيك إشارة إلى الأمن الذى خصصت به من دون الأرض . وقوله : غنم قيدار تصريح بذكر الهدايا المجلوبة إليها فى الحج والعمرة . وقوله : سادات «بناوت» يخدمونك إشارة إلى سدنة الكعبة وهم من أولاد بنت قيدار بن إسماعيل - عليه السلام - ثم غاية التصريح ونهايته قوله : ويتخذونك قبلة»[٦٢] .

فقد كثر نسل إسماعيل - إذن - وعمروا مكة فيما بعد ولكن بعد خطوب مرت ..

والذى تولى أمر الكعبة بعد وفاة إسماعيل - عليه السلام - هو بكره «نابت» .

---

(٦٢) خير البشر بخير البشر لابن ظفر - مخطوطة تحت الطبع ان شاء الله ص ٢٦ .

ثم قام من بعده أخواله الجراهمة لكثرتهم وغلبتهم ، وفى عهدهم حدث تغيير وتبديل لدين الله .

ويقولون : إن أول من ملك بمكة من الجراهمة رجل اسمه مضاصن بن عمرو بن سعد . وورث الأمر من بعده أبناء وأحفاد ظلوا كذلك حتى بادوا وزالت آثارهم .

وفى عهد الجراهمة حدثت قصة أساف ونائلة ، اللذين بغيا فى حرم الله فمسخهما الله حجرين صيرهما الجهل بعد ذلك وثنين يعبدان من دون الله وتنحر لهما القرابين فى حرم الكعبة .

وبمرور الأيام كثر ولد إسماعيل ، وصاروا ذوى قوة ومنعة ، فغلبوا على أخوالهم الجراهمة ، وأخرجوهم من مكة ثم عفت آثارهم بعد ذلك .

وبذلك انتقلت ولاية البيت إلى أهلها وعاد الأمر إلى نصابه من جديد .. وظلت كذلك حتى جاء الإسلام ، وسنعرض لذلك بشيء من التفصيل فى العدد الخاص عن الكعبة – إن شاء الله تعالى – .

رسالة إسماعيل :

من المسلم به أن إسماعيل – عليه السلام – كان رسولاً نبيًا – ، مصداقًا لكلام الله – تعالى – :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَ الزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًا﴾(٦٣) .

أما قومه فهم الجراهمة أخواله ، ومن كان يقيم معهم فى مكة . وقيل : أرسل إلى العماليق وقبائل اليمن(٦٤) .

وقد جاء ذكر إسماعيل فى أعقاب قصة إبراهيم قبل هاتين الآيتين بقليل مما يدل دلالة قاطعة أن المقصود بإسماعيل هو ابن إبراهيم الخليل – عليهما السلام – .

---

(٦٣) مريم ٥٤ ، ٥٥ .

(٦٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٠٦ .

ولكن بعض العلماء فى رأى ضعيف ذكره القرطبى أن إسماعيل هو إسماعيل ين حزقيل ، بعثه الله فى قوم فسلخوا جلدة رأسه ، فخيره الله - تعالى - فيما شاء من عذابهم ، فاستعفاه ورضى بثوابه ، وفوض أمرهم إليه فى عفوه وعقوبته .

ولكن الجمهور يرون أنه إسماعيل الذبيح أبو العرب ابن إبراهيم ..

ولم يرد ذكر إسماعيل بن حزقيل هذا فى سلسلة الأنبياء الذين ذكرهم القرآن .. وقد يكون هذا من تأويل الكتابيين الذين ينفسون على العرب كل مكرمة ..

وقد علمنا مما سبق أن الجراهمة الذين أرسل إليهم إسماعيل هم الوافدون إلى مكة بعد أن علموا بقصة زمزم التى تفجرت فى الصحراء ..

وكان العماليق قد سبقوهم إلى الإقامة هناك بعد أن أجهدهم الجدب واشتد بهم الظمأ حتى كاد يستأصلهم ، وفى ذلك يقول لهم زعيمهم يشجعهم على الانتجاع واستيراد الماء :

سيروا بنى الكركر فى البلاد ... إنى أرى ذا الدهر فى فساد
قد سار من قحطان ذى الرشاد ... جرهم لما هدها التعادى

فلما علمت جرهم بنزول بنى الكركر على ماء ، وعرفت ماهم فيه من خصب وسعة رزق بادرت إلى مكة تحت زعامة الحارث بن مضاصن بن عمرو .

وأصهر إليهم إسماعيل وتزوج منهم زوجته الثانية التى أنجب منها .. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

وبمرور الأيام كثر النازلون من القبيلتين ، وحدث ما يحدث بين الناس من صراع أدى إلى حروب ، وقد انتصر العماليق فى بادىء الأمر وصارت

لهم ولاية البيت ، ثم عادت كرة الحرب فانتصرت جرهم فأصبحت لها ولاية البيت ..[٦٥] .

ومما لاشك فيه أن رسالة النبي في مكان تتوجه إلى المقيمين فيه . ولما كان المقيمون عمالقة وجراهمة فقد توجهت رسالة إسماعيل - إذن - لهم جميعًا . وربما شملت رسالته البلاد التي وفدوا منها وهي اليمن . كما ذكر ذلك بعض الرواة .

ومضمون رسالة إسماعيل لايخرج على مضمون رسالة إبراهيم - عليه السلام - ومن سبقه من الأنبياء والمرسلين .

كان يدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له .
وكان يدعو إلى الإيمان باليوم الآخر .
وكان يحض على مكارم الأخلاق .

صدق وعد إسماعيل :

وقد وصف الله سبحانهُ وتعالى إسماعيل بصدق الوعد ، مع أن جميع الأنبياء كذلك .

ولكنه كان مشهورا بهذه الصفة مبالغا فيها ..

ومن صدقه في وعده أنه كان قد وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك .

وهذه قمة الوفاء والصدق ، فقد التزم بالوفاء بروحه وبذل دمه ، ولم ينكص عن ذلك ، ولم يتردد ، بل مضى ثابت الخطا قوى العزم .. والجود بالنفس أقصى غاية الجود ..

بل إن صبره على الذبح وعدم تردده في الاستجابة لأبيه أصبح مضرب الأمثال ، وحاك الرواة حول ذلك أقاصيص طريفة منها :

---

(٦٥) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص .

إنه حين قال له أبوه إني أرى في المنام أني أذبحك . قال له : يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب ، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتفح عليها دمي دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن ، واشحذ شفرتك وأسرع بمر السكين على حلقي ، ليكون أهون للموت عليَّ ، فإن الموت شديد ، فإذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام ، فإن رأيت أن ترد قميصي إليها فافعل ، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني .

فقال له إبراهيم : نعم العون يابني أنت على مأمر الله به .

ففعل إبراهيم مأمره ابنه ، ثم إنه أقبل يقبله وقد ربطه وهو يبكي والابن يبكي[٦٦] .

ومنها : أن إبراهيم حين قال لولده «إني أرى في المنام أني أذبحك» وقال له إسماعيل : «ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين» جلس إبليس على الجبل ليرى مايكون من أمرهما .

ثم إن إبراهيم أضجع ابنه على جنبه الأيمن ، وشد يديه ورجليه بحبل ، فقال إسماعيل : يا أبت لا تشدد رجلي ويدي بالحبل لئلا تقول الملائكة قد جزع من أمر ربه ، فحله ، واستمر إسماعيل مضجعا على جنبه الأيمن من غير وثاق[٦٧] .

فهذه القصص تدل على صدق وعده ، وشدة وفائه ، وعظيم بره : حتى استحق أن يخصص من بين الأنبياء بهذه الصفة النبيلة التي جرى على سننها النبي - ﷺ - وهو حفيده المصطفى .

من صور وفاء النبي - ﷺ -

قال القرطبي : خص الله إسماعيل بصدق الوعد وإن كان موجودًا في غيره من الأنبياء تشريفًا له وإكرامًا ، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصديق ، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله .

---

(٦٦) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٩٤ .

(٦٧) بدائع الزهور في وقائع الدهور ٨٥ .

قيل : إنه وعد رجلا أن يلقاه في موضع ، فجاء إسماعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان فى اليوم الآخر جاء .

فقال له : مازلت هنا فى انتظارك منذ أمس .

وقيل : انتظره ثلاثة أيام .

وقد فعل مثله نبينا - ﷺ - قبل بعثه ، ذكره النقاش وخرجه الترمذى وغيره عن عبدالله بن أبى الحمساء ، قال : بايعت النبى - ﷺ - ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكان فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام ، فجئت فإذا هو فى مكانه ، فقال : يافتى لقد شققت على ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك(٦٨) .

إن الوفاء بالوعد صفة نبيلة ، والمداومة عليها من أخلاق الصديقين . ومن علامات النفاق خلف الوعد ، كما جاء فى الحديث الصحيح : «آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان» .

وكان العرب قديما يتمدحون بصفة الوفاء ، واشتهر من بينهم أشخاص عرفوا بالوفاء وأصبحوا مضرب الأمثال ، ولكنهم على الرغم من ذلك لم يبلغوا مبلغ إسماعيل أبيهم عليه السلام ..

الأمر بالصلاة :

ومن صفات إسماعيل - عليه السلام - التى ذكرتها الآيتان السابقتان أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وأنه كان عند ربه مرضيًا ..

أما الأمر بالصلاة فكان يأمر أمته ، وهذا من صلب شريعته وشريعة الأنبياء قبله وبعده . فلا دين بغير صلاة .

والصلاة صلة بين العبد وربه ، ولأهميتها بالنسبة للمسلمين فرضت فى ليلة الإسراء والمعراج من فوق سبع سموات ..

---

(٦٨) لفظ أبى داود - كما ذكر القرطبى - وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة فى الترجمة رقم ٢٩٠٣ جـ ٣ ص ٢١٧ .

وأمره بالصلاة فيه استجابة لدعوة أبيه حين قال : « رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي » ..

وهي عماد الدين ومن تركها فقد هدم الدين ..

وأهله الذين كان يأمرهم إسماعيل هم أمته عامة وولده خاصة ..

والأمر بالزكاة ضرورة لتقويض دعائم الشح في النفوس ، واستلال دوافع الأثرة والأنانية من القلوب . وهو من مقومات الشريعة في أي دين . ودين الله كله واحد -

أما الصفة التي وصف بها بعد ذلك فهي أنه مرضي عنه من الله .. ورضاء الله غاية مايتمناه العبد من مولاه . ولايتم رضاء الله عن عبد إلا إذا بلغ الغاية العظمى في الكمال الخلقي ، ورضا الله عن العبد شرط في رضاء العبد عن ربه ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[69].



شريعة اسماعيل :

يقول المفسرون : إن إسماعيل لم يكن صاحب شريعة مستقلة ، وإنما كان على شريعة أبيه إبراهيم - عليه السلام - وقد أرسل إلى قبيلة جرهم الذين عاش بينهم ، ولهذا وصفه الله بأنه رسول[70] .

والمراد بأهله - كما قدمنا - أمته ، وقيل : عشيرته كما في قوله - تعالى - : «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»[71] .

والمراد بالصلاة والزكاة اللتين كان يأمر أهله بهما العبادتان الشرعيتان المعروفتان ، وإن كنا لانعرف بالتحديد الوجه الذى كانتا تؤديان به .

وقد يكون المراد بهما المعنى اللغوى ، أى الدعاء والتطهير .

---

(٦٩) سورة البينة ٨ .

(٧٠) فتح القدير جـ ٣ ص ٣٣٨ .

(٧١) الشعراء ٢١٤ .

قال العلماء : ومما يدل على أن إسماعيل - عليه السلام - كان على شريعة إبراهيم قول الحق - سبحانه وتعالى - مخاطبا المسلمين:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[٧٢]

فعدم تكرير الفعل « أنزل » مع إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط دل على أن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته ، فالصحف نزلت على إبراهيم - عليه السلام - ولما كان أبناؤه من بعده متعبدين بتفاصيلها ، داخلين تحت أحكامها فقد جعلت منزلة إليهم كما جعل القرآن منزلاً إلينا[٧٣].

وفاة إسماعيل .

ولابد من نهاية للحياة مهما عاش الإنسان ..

ولما حضرت إسماعيل الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق أن يزوج ابنته من عيص بن إسحاق ..

وعاش إسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة ودفن بالحجر عند قبر أمه هاجر[٧٤] .

وروىٰ عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكا إسماعيل إلى ربه - تعالى - حر مكة فأوحى الله - تعالى - إليه : إني فاتح لك بابًا من الجنة يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة ، وفى ذلك المكان دفن[٧٥].

قال ابن إسحاق : تزوج عيص ابن إسحاق بنت عمه « نسيمة بنت إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - فولدت له الروم بن عيص ، فكل بنى الأصفر من ولده[٧٦].

---

(٧٢) البقره ١٣٦ .

(٧٣) تفسير ابى السعود مجلدا ص ١٦٦ .

(٧٤) قصص الأنبياء للنجار ص ١٠٩ وللثعلبى ص ١٠٢ ، ولابن إياس ص ٨٦ .

(٧٥) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٠٢ .

(٧٦) المرجع السابق ص ١٠٣ .

إسماعيل أبو العرب

سبق أن قلنا : إن نزول إسماعيل – عليه السلام – وأمه هاجر فى مكان الحرم كان سببًا فى إيجاد أمة من أعظم الأمم هى أمة العرب التى اختار الله منها سيد خلقه محمدًا – ﷺ – .

وقد سمي العرب بهذا الاسم – كما أشار اللغويون – نسبة إلى بلدهم « الْعَرَبَات » ، و « عَرَبة باحة » هى دار أبى الفصاحة إسماعيل – عليه السلام – وفيها يقول القائل :

ورُجَّتْ « باحة العربات » رجًّا ترقرق فى مناكبها الدماء(٧٧)

ولتوضيح هذا المعنى يقول ابن منظور :

اختلف الناس فى العرب : لم سموا عربًا ؟

فقال بعضهم : أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب هو « يعرب بن قحطان » وهو أبو اليمن كلهم ، وهم العرب العاربة ، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم – عليهما السلام – بينهم – وذلك بعد أن نزحوا إلى مكة – فتكلم بلسانهم ، فهو وأولاده العرب المستعربة .

وقيل : إن أولاد إسماعيل نشأوا بعَرَبة ، وهى من تهامة ، فنسبوا إلى بلدهم ، وروى عن النبى – ﷺ – أنه قال : « خمسة أنبياء من العرب وهم محمد وإسماعيل وشعيب وصالح وهود – صلوات الله عليهم –(٧٨).

---

(٧٧) راجع الأدب العربى وتاريخه . محمد هاشم عطية .. هامش ص ٢٢ .

(٧٨) لسان العرب – مادة عرب ص ٢٨٦٤ ط دار المعارف .

وتجدر الإشارة هنا إلى أقسام العرب لنعرف مكان هود وصالح من العرب ، لأنهما سبقا إسماعيل بقرون .

وقد جرت عادة العلماء على تقسيم العرب إلى طبقات ثلاثة :

العرب البائدة :

أما العرب البائدة ، فهم الذين يضربون فى أعماق التاريخ ، وقد انقرضت قبائلهم ، وضاعت أخبارهم ، وذهبت معالمهم ، ولم يبق لنا عنهم إلا ما جاء فى الأخبار القديمة ، وما قصته علينا الكتب السماوية ومن هؤلاء « عاد » الذين كانوا يسكنون الأحقاف ، الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، ونبيهم « هود » - عليه السلام - ، وقد مرت بنا قصتهم .

ومنهم قبيلة « ثمود » وكانوا يقيمون بالحِجْر - ناحية الشام عند وادى القرى[٧٩]. وفيهم نزل قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[٨٠]، وتسمى قراهم مدائن صالح ، وهى شمالى خيبر[٨١]، ونبيهم صالح - عليه السلام - وقد مرت أيضًا قصتهم .

ومن هؤلاء أيضًا العماليق الذين يقول فيهم الشاعر :

مضى آل عملاق فلم يبق منهم خطير ولا ذو نخْوة مُتشاوسُ
عَتَوْا فأدال الله منهم ، وحكمه على الناس هذا وعده وهو سائس[٨٢]

وكان العماليق يسكنون أولاً بلاد اليمن ثم انحدروا إلى الشام والعراق ويثرب وغيرها ، ومنهم « الشاسو » أو الهكسوس الذين غزوا مصر ويطلق عليهم ملوك الرعاة أو فراعنة الرعاة[٨٣].

---

(٧٩) لسان العرب ج ٢ ص ٧٨٤ .

(٨٠) آية ٨٠ من سورة الحجر .

(٨١) تاريخ ادب اللغة العربية حامد مصطفى وعبد الجواد رمضان ص ١٦ ط الأزهر .

(٨٢) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٢٣ . ومتشاوس : فيه تخد وكبر . وأدال منهم : غلبهم .

(٨٣) الأدب العربى وتاريخه محمد هاشم عطية ص ٢٣ .

ومنهم – أي العرب البائدة – قبيلتا «طسم وجديس» وقد تفانى أفرادهما في نحو من سبعين سنة في البرارى والقفار ، بسبب الشحناء التى دبت بينهم فاندثروا ، وبهم يضرب المثل في سرعة الفناء .

وكانوا يسكنون اليمامة ، قريبًا من عهد ملوك الطوائف من الفرس[٨٤].

العرب العاربة :

وأما العرب العاربة فهم القحطانيون ، وكانوا يسكنون اليمن ، وهم أبناء «يعرب بن قحطان» الذى يزعم بعض الإخباريين أنه هو أول من نطق العربية ، وفى ذلك يقول الشاعر حسان بن ثابت مفتخرًا على الحجازيين :

تعلمتمو من منطق الشيخ يعرب أبينا فكنتم معربين ذوى نَفْر[٨٥]

والمشهور من القحطانيين دولتان هما «سبأ وحمير» جاءتا متعاقبتين .

فأما سبأ فقد ظهرت دولتهم قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون ، ولهم قصة فى القرآن الكريم سميت بها سورة ، وفيها يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَّرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[٨٦]. وأشارت سورة النمل إلى طرف من قصة ملكة سبأ[٨٧].

وسيأتى تفصيل ذلك – إن شاء الله تعالى – فى موضعه .

وجاء بعد سبأ الحميريون فى القرن الثانى قبل الميلاد، والغموض يحيط بتاريخهم ، ومن أشهر بطونهم : حمير ، وكهلان ، وقضاعة[٨٨].

---

(٨٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٢٣ .

(٨٥) تاريخ ادب اللغة العربية ص ١٧ .

(٨٦) الآية ١٥ من سورة سبأ .

(٨٧) الآيات ٢٠ : ٤٤ من سورة النمل .

(٨٨) الأدب العربى وتاريخه ص ٢٤ .

العرب المستعربة :

وأما العرب المستعربة – ويسمون العدنانيين ، والنزاريين ، والحجازيين ، والإسماعيليين – فهؤلاء هم الذين ينتهي نسبهم إلى إسماعيل – عليه السلام – .

والمنطقة التي يسكنها هؤلاء هي ما تعرف بجزيرة العرب ، في الطرف الغربي من آسيا ، في الجزء الواقع جنوب الشام .

وتحيط بها البحار من جهات ثلاث :

ففي الغرب بحر القُلْزُم – البحر الأحمر – .

وفي الجنوب بحر الهند ، أو بحر العرب ، والمحيط الهندي .

وفي الشرق بحر عمان – الخليج العربي –(89).

فهي في الواقع شبه جزيرة . وتنقسم إلى خمسة أقسام قديمة هي : تهامة ، والحجاز ، واليمن ، ونجد ، والعروض .

وهذا التقسيم يكاد يكون طبيعيًا .

وأصل العرب العام بأقسامهم المختلفة يتصل بسام بن نوح ، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن المهد الأول لهذه الشعوب السامية هو وادي الفرات ، أو ما بين النهرين .

وإنهم لما كثروا ، وضاقت عليهم الرقعة التي يقيمون فيها تشعبوا إلى البقاع المجاورة ..

وكانت العرب المستعربة التي تتصل بإسماعيل – عليه السلام – تقيم في شمال بلاد اليمن ، في تهامة ونجد والحجاز إلى مشارف الشام والعراق .

وتسميتهم بالإسماعيليين نسبة إلى إسماعيل .

---

(89) راجع الأطلس العربي .

وتسميتهم بالعدنانيين نسبة إلى عدنان الجد الأعلى لقريش .

وتسميتهم بالحجازيين نسبة إلى إقامة أكثرهم بالحجاز .

وتسميتهم بالنزاريين نسبة إلى نزار بن عدنان .

والعدنانيون هم أولاد معد بن عدنان ، وقد أعقب معد نزارًا ، وولَد نزارٌ أنمارا وإيادا وربيعة ومضر .

فأما ربيعة فأشهر بطونها بكر وتغلب .

وأما مضر ، فأعقب إلياس ، ومن أولاده : قيس عيلان ، وطابخة ومدركة ..

ومضر هي التى يفتخر بها الشاعر فى قوله :

إذا مضر الحمراء كانت أرومتى   وقام بنصرى خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت   يداى الثريا قاعدا غير قائم

ومن قيس عيلان : هوازن وسُلَيم وغطفان .

ومن غطفان عبس وذبيان .

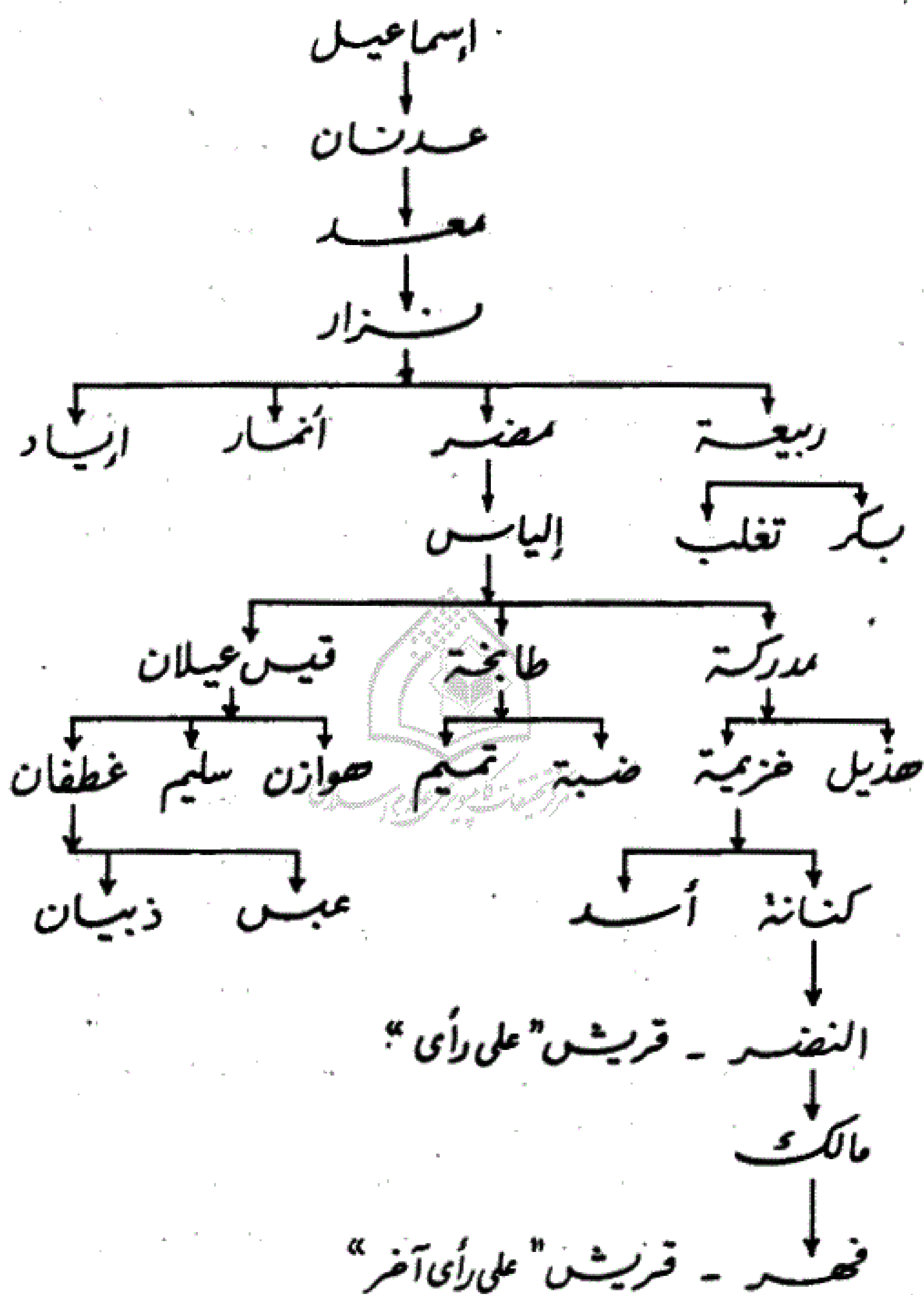
ومن طابخة ضبَّة وتميم .

ومن مدركة هُذَيل وخُزَيمة .

ومن خُزَيْمة أسد وكنانة .

ومن كنانة قريش .

ولتقريب هذه الأنساب نضع أمامك الجدول الآتى ، مع ملاحظة أن بين عدنان وإسماعيل سلسلة من الآباء اختلف فيها الرواة ، ولذلك أضربنا عن ذكرها .



فها أنت ذا ترى أن العرب ينتهى نسبهم إلى إسماعيل — عليه السلام — الذى أنزله الله ذات يوم فى واد غير ذى زرع — واستجاب الله

دعوة أبيه إبراهيم حين قال : ﴿ واجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِم ﴾(٩٠).

إسماعيل واللغة العربية :

وقال ابن منظور : « وكان إسماعيل - عليه السلام - من سكان الحرم ، وكل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب ، يمنهم ومعدهم .

وقد أقامت قريش بعربة فاستقرت بها ، ثم انتشروا فى الجزيرة فنسبوا إلى عربة ، لأن أباهم إسماعيل - عليه السلام - بها نشأ ، ونشأ أولاده فيها ، فكثروا ، فلما لم تحتملهم البلاد انتشروا وأقامت قريش فى مكانها » .

وينتسب اللسان العربى فى فصاحته وذروة بلاغته إلى قريش التى نزل القرآن الكريم بلغتها .

وقد ورث عدنان جد قريش - والذى ينتهى إليه عمود النسب العربى الصحيح - اللغة العربية عن آبائه الذين تلقوها عن إسماعيل - عليه السلام - وهو أبو العرب المستعربة .

وإسماعيل كان قد أخذها من الجراهمة الذين نزلوا فى جواره فى الحرم بعد أن تفجرت زمزم .

وقد تفتحت عينا إسماعيل على هؤلاء الوافدين الذين صافحت لغتهم سمعه بعد أن شب وترعرع ، وإن كانت هناك لغة أخرى سمعها من أمه ، وهى خليط من القبطية القديمة لغتها الأصلية ، والعبرية التى تعلمتها من إبراهيم وسارة ، ولكن ظلت الغلبة على لسان إسماعيل للغة العربية ، التى أراد الله له أن تكون لغته ولغة أبنائه وأحفاده فهى اللغة التى سينزل بها القرآن المعجز

---

(٩٠) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم.

الذى نزل فى شأنه قوله تعالى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(٩١).

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾(٩٢) .

ولا ينكر أن يكون بين اللغات السامية وشائج وصلات ، وأن تكون اللغة العدنانية مزيجًا موروثًا من لهجات العرب المختلفة ، وفيها من اللغات السابقة .

إلا أنها أصبحت لغة خالصة مصفاة فى لسان ذريته بعده . وبخاصة فى ألسنة القرشيين منهم .

ذلك أن قريشًا حين امتدت نهضتها ، واتسعت سطوتها فشملت أكثر بقاع الجزيرة العربية ، أخذت تصطفى من لهجات العرب أصفى لهجة ، وتنتقى أسلس لغة ، حتى اجتمعت لها البلاغة والفصاحة وروعة البيان وجمال الأسلوب .

لقد انتهت اللغة العربية على لسان قريش « إلى وحدة لسانية عامة لا يشوبها إلا قليل من الخلاف المنطقى ، الذى لم يتعد صورة النطق بالكلام ، اصطلح العلماء على تسميته باختلاف اللهجات . وقليل من الأشباح المتخلفة من الحميرية القديمة فى بعض قاصية القبائل اليمنية التى لم تتأثر بهذه النهضة اللغوية انتهت برجة عنيفة اهتزت لها أقطار الجزيرة العربية وهى ظهور الإسلام »(٩٣).

وتوج الله اللغة العربية – لغة قريش – التى ورثتها من إسماعيل أبى العرب بالقرآن الكريم الذي نزل على أفصح العرب محمد – ﷺ – وكان

---

(٩١) الزمر ٢٨ .

(٩٢) الشعراء ١٩٢ : ١٩٥ .

(٩٣) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ٣١ .

معجزة الإسلام الخالدة الباقية التى تحدت العرب فوقفوا أمامها عاجزين مشدوهين .

وقد ذكر الجاحظ أن إسماعيل - عليه السلام - هو أول من انفتق لسانه بالفصحى[٩٤]، وبيان ذلك بالطبع أنه أول من تكلم بها بعد نشأتها الجديدة ، وليس المراد أنه أول من تكلم بالنهج القرآنى الفصيح ، لأن بين إسماعيل وبين نزول القرآن تسعة عشر قرنًا - أو ما يقرب من ذلك - لا يتصور أن تظل اللغة العربية فيها جامدة على ما كانت عليه لا تتغير ولا تتبدل[٩٥].

وكانت لغة قريش أفصح لغة لأنها ابتعدت عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة بكر ، وغمغمة قضاعة ، وطمطمانية حمير[٩٦].

وقد وصف أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - قريشًا بأنهم أفصح العرب لأنهم أوسط العرب دارًا ، وأحسنهم جوارًا ، وأعربهم لسانًا .

قال قتادة : كانت قريش تجتنى أفضل لغات العرب ، فنزل بها القرآن ، وجعل الله القرآن عربيًا لأنه نسبه إلى العرب الذين أنزله بلسانهم ، وجعل النبى - ﷺ - عربيًا لأنه من صريح العرب[٩٧].

ويؤيد هذا المعنى ما ذكره الآلوسى :

« ولما كانت العرب فى قوة الفهم وحدة الذهن إلى غاية الغايات كانت معجزتهم القرآن ، فإن المعجز من كل قوم بحسب أفهامهم ، وعلى قدر

---

(٩٤) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ ص ١٧٨ .

(٩٥) تاريخ أدب اللغة العربية فى العصر الجاهلى ص ٩٠ .

(٩٦) تاريخ الآداب للحصرى جـ ٣ ص ٤٨ . والعنعنة ابدال الهمزة عينًا ، والكشكشة : إبدال الكاف شينًا ، والكسكسة : إبدالها سينًا ، والتلتلة والغمغمة والطمطانية : عجمة فى اللفظ عند الكلام لا تجعله بينًا .

(٩٧) لسان العرب لابن منظور - مادة عرب - .

عقولهم وأذهانهم ، والعرب أصح الناس أفهامًا وأحدهم أذهانًا ، قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ومن المعانى أغربها ، ومن الآداب أحسنها ، فخصوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم وتصل إليه أذهانهم ، فيدركونه بالفطرة دون البديهة ، وبالروية دون البادرة ، لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ويوافق فهمها »(٩٨).

وقد وصف عتبة بن أبى سفيان كلام العرب بأنه أرق من الهواء وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها ، بكلمات مؤلفات ، إن فسرت بغيرها عطلت ، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت ، هم اللطيف فهمهم ، النافع علمهم ، بلغتهم نزل القرآن ، وبها يدرك البيان وكل نوع من معناه مباين لسواه ، والناس إلى قولهم يصيرون وبهديهم يأتمون(٩٩).

كل ذلك يرجع الفضل فيه إلى إسماعيل - عليه السلام - فهو أبو العرب الباقين إلى اليوم ، وكان لسانه العربى هو لسانهم الذى به يتحدثون ، ولغته هى لغتهم التى امتدت اليوم واتسعت ، وخرجت من حدود الجزيرة العربية وانساحت مع الفتوح الإسلامية إلى مختلف البلاد التى رفعت لواء الإسلام واستظلت براية القرآن ، كتاب الله الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وما أجمل أن نختم هذا الفصل بحوار بين عن فضل العرب ذكره ابن عبد ربه فى كتابه « العقد الفريد » قال :

رُوى عن شبيب بن شبة قال :

---

(٩٨) المختار من كتاب بلوغ الأرب فى أحوال العرب - لمحمود شكرى الآلوسى ص ١٤ دار المعرفة .

(٩٩) زهر الآداب جـ ٢ ص ٤٨ .

كنا وقوفًا بالمربد ، وكان المربد[١٠٠] مألف الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفع ، فبششنا به وبدأناه بالسلام ، فرد علينا السلام ، ثم قال :

لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذى تطلبونه لم تُفاتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه .

فقبلنا ، وملنا . فلما استقر بنا المكان قال لنا :

أى الأمم أعقل ؟

فنظر بعضنا إلى بعض ، فقلنا : لعله أراد أصله من فارس ، فقلنا : فارس .

فقال : ليسوا بذلك ، إنهم ملكوا كثيرًا من الأرض ، ووجدوا عظيمًا من المُلك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الأمر فما استنبطوا شيئًا بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقي حكم فى نفوسهم .

قلنا : فالروم .

قال : أصحاب صنعة .

قلنا : فالصين .

قال : أصحاب طُرفة .

قلنا : فالهند .

قال : أصحاب فلسفة .

قلنا : فقل أنت . قال : العرب . فضحكنا .

---

(١٠٠) المربد : المراد سوق بالبصرة كان مجتمع الناس للمنافع المادية والأدبية .

قال : أما والله ما أردت موافقتكم ، ولكن إذا فاتنى حظى من النسبة ، فلا يفوتنى حظى من المعرفة ؛ إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويُحَسّن ما شاء فَيَحْسُن ، ويُقَبّح ما شاء فيَقْبُح ، أدبتهم نفوسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم فى أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر . علا الخير فيهم ولهم ، فقال : ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ العَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[101] فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خُصِم ، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان[102].

هذه هى أمة العرب التى ازدانت فى أولها بإسماعيل - عليه السلام - وفى شرفها بمحمد - ﷺ - وفى لغتها بالقرآن الكريم ..



* * *

(١٠١) الأعراف ١٢٨ .

(١٠٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٢ ص ٤٢ .

قصة

إسحاق

عليه السلام

- البشارة بإسحاق .
- لم سمي بإسحاق ؟
- لماذا ضحكت سارة ؟
- البشرى وما ورد فى التوراة بخصوصها .
- أثر البشارة فى نفس سارة .
- رأى الكتابيين فى الذبيح .
- متى ولد إسحاق ؟
- إسحاق فى كنف والده .
- العبرة من القصة .

إسحاق - عليه السلام

هو بشرى الملائكة لإبراهيم الخليل - عليه السلام - كان مجيئه معجزة خارقة تتحدى سنن الحياة العادية ، وتثبت قدرة الله التى تقول للشىء كن فيكون .

وقد ورد ذكر اسحاق فى القرآن الكريم سبع عشرة مرة فى اثنتى عشرة سورة[1] .

وهو فى هذه المواضع كلها محل ثناء من الله - سبحانه وتعالى - ومبعث قدوة طيبة وأسوة حسنة .

واسمه كما ورد فى التوراة « إبساك » ومولده فى عيد الفصح[2] .

وهذه التسمية ليست دقيقة ، بل هى ترجمة محرفة للكلمة العبرية « يصحق ».

وتعليل هذا التحريف - كما ورد فى تعليق كتب على هذه المادة[3] - أن الأوربيين ليس فى لغتهم الحرف « ض ».

فهم يبدلون الضاد المعجمة صادا مهملة ، فيقولون فى أرض : أرص . ويصحق أصلها العربى « يضحك »، ومن الواضح قرب العلاقة بين القاف والكاف .

واختيار هذا الاسم مرجعه إلى قوله - تعالى - حين بشرتها الملائكة بأنها ستلد غلامًا عليمًا ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[4]

قالت سارة حين سمعت بشارة الملائكة كما وردت عبارتها فى التوراة : قد صنع الله لى ضحكا . كل من يسمع يضحك لى[5] .

---

(١) هى البقرة - آل عمران ، النساء ، الانعام ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، مريم ، الأنبياء ، العنكبوت، الصافات ، ص.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٣ مادة إسحاق .

(٣) كتبه الشيخ عبد الوهاب النجار على مادة إسحاق فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٤) آية ٧١ - هود .(٥) دائرة المعارف - والعبارة من سفر التكوين ف ٧ - ٢١.

وذكر الكتابيون ان إسحاق – عليه السلام – ولد فى عيد افصح، ويذكر بعض علماء المسلمين أنه ولد فى ليلة عاشوراء .

وكان قد وعد إبراهيم به قبل ولادته بعام[٦].

أما تحديد زمن الولادة فلم يرد به نص قاطع يؤكده أو يرجحه ، والقول بأحدهما لا يقدم فى مغزى القصة ولا يؤخر ، والذى يمكن أن يقال فى اختلاف الزمنين الظاهر ، أنه لا تعارض بينهما إذا اعتبرنا إمكان ورود اليومين – عيد الفصح ، وعاشوراء – فى وقت واحد ، هذا على فرض صحة ولادته فى ذلك الوقت . وخاصة إذا أدركنا أن عيد الفصح خاضع للشهور القبطية ، وعاشوراء واقعة فى الشهور العربية[٧].

لماذا ضحكت سارة ؟

والآية السابقة تشير إلى أن ضحك سارة كان سابقا على البشارة ... فلماذا ضحكت إذن ؟

يعلل المفسرون ضحك سارة تعليلات مختلفة

فمنهم من يقول : إن الضحك هو الحيض ..

ولا ينكر بعض علماء اللغة هذا التفسير، وهم يقولون : ضحكت الأرنب إذا حاضت . قال الزمخشرى : وتزعم العرب أن الجن تمتطى الوحش وتجتنب الأرنب لأنها تحيض[٨] .

وقد أنكر هذا التفسير بعضهم وقالوا : إنه ليس بمستقيم إلا أن يكون كناية .

والأقرب من ذلك أن يكون ضحكها تعجبًا ، وهذا ما يتبادر إلى الذهن ويساير المنطق .. فما مثار عجبها ؟

---

(٦) دائرة المعارف .

(٧) يأتى عيد الفصح يوم الجمعة الحزينة التى تسبق يوم الأحد وهو عيد القيامة عند المسيحيين اما عشوراء فهى اليوم العاشر من المحرم .

(٨) اساس البلاغة للزمخشرى . مادة ضحك .

إنها رأت أن إبراهيم حين زاره الملائكة ، وامتنعوا عن تناول طعامه ، أوجس في نفسه خيفة منهم . فتعجبت سارة، كيف يفزع إبراهيم وهو بين حشمه وخدمه مع قوته التي يتحدثون عنها ويقدرونها أنها تقوم بمائة رجل[9]. كيف يفزع - إذن - من ثلاثة ؟

وقد يكون مبعث الضحك السرور بالضيافة ، وكان إبراهيم - عليه السلام مضيافا يكنى أبا الضيفان - وقد مر ذلك - وكان أهله في خدمة الأضياف وكانت « سارة » تُسر إذا طرقتهم ضيوف .

والذى يشهد أنها في خدمة الأضياف قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة ﴾ فقيامها في خدمتهم ، اهتمامًا بأمرهم .

وقد استنبط العلماء من قيام زوجة إبراهيم جواز أن تكون الزوجة معينة لزوجها في إكرام الضيوف ، بل استحباب ذلك[10].

ومما يشهد لذلك ما رواه مسلم عن سهل بن سعد قال : دعا أبو أسيد الساعدى رسول الله - ﷺ - في عرسه ، فكانت امرأته يومئذ خادمهم .

وذكروا أن الملائكة حين قالوا لإبراهيم لا تخف وأخبروه بأنهم رسل ربه فرح بذلك ، ففرحت زوجته لفرحه - والزوجة الصالحة تفرح لفرح زوجها وتغتم لغمه - فضحكت لذلك .

وقد يكون ضحكها استبشارا بمقدم هؤلاء الذين ترى البشر في منظرهم واليمن في مطلعهم والبركة في مقدمهم والنور في موكبهم.. فهؤلاء وإن كانوا بشرا في مظهرهم إلا أن الإحساس الروحى الذى يداخل نفوس المؤمنين والمؤمنات يُشعر بأنهم ليسوا بشرا عاديين ... فلماذا لا تبتهج وتسر ؟ والضحك هنا كناية عن السرور . كما يقال : ضحك وجهه استبشارا ..

---

(٩) تفسير القرطبي - هود - ص ٣٢٩٥.

(١٠)الإكليل في استباط التنزيل للسيوطي ص ١٥١.

البشرى :

وتتحدث الآيات الكريمة عن تبشير سارة بالولد فتقول :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[11] .

ووردت هذه القصة أيضا فى سورة الحجر[12] وفى سورة الذاريات[13] باتفاق فى المعنى والمضمون مع تغاير فى اللفظ يقتضيه إعجاز البيان القرآنى الحكيم .

وقد تقدم فى قصة إبراهيم - عليه السلام - أن الملائكة الثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل - عليهم السلام - وردوا على إبراهيم .

وعلى عادته فى كرمه وحسن استقباله لضيوفه وتقديم القرى لهم . أمر بذبح عجل سمين لهم ..

وحين قدم لهم الطعام رفضوا التقدم إليه ..

وأنكر إبراهيم منهم ذلك ، وأوجس فى نفسه خيفة منهم .. ولكنهم طمأنوه بأنهم ليسوا بشرا ، ولكنهم ملائكة والملائكة لا تأكل ولا تشرب. وأخبروه بأنهم فى طريقهم لتنفيذ وعيد الله فى قوم لوط الذين بغوا وطغوا وعاثوا فى الأرض فسادا ... وبشروه بأن الله - جل وعلا - سيرزقه من زوجته سارة غلاما عليما وسيكون نبيًا صالحًا .

---

(١١) الآيات ٦٩ : ٧٣ - هود

(١٢) آيات ٥١ : ٥٦ - الحجر .

(١٣) آيات ٢٤ : ٣٠ الذاريات .

وسمعت سارة هذه البشارة فعجبت ... عجبت من أنها تلد وهى طاعنة فى السن ، وهى عاقر من الأصل فقد فاقت الثمانين، بل إنها قد بلغت التسعين فى بعض الروايات. وقد صرحت بالإنكار فى أسلوب استفهامى قائلة :

أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا ؟

وكان إبراهيم قد بلغ من العمر مائة وعشرين عاما .

وهى تعنى أنها إن كان فى إمكانها أن تلد فكيف بإبراهيم وقد بلغ الغاية فى السن التى يعجز فيها مثله عن الإنجاب .

فكيف إذا اجتمع العاملان : إياسها وعقمها مع كبر سن زوجها ؟

إنه أمر يثير العجب حقا، ويستدعى الإنكار ممن يسمعه ولكن الملائكة الذين يرون بعين غير التى ينظر بها البشر ردوا عليها تساؤلها وأفهموها أن قدرة الله لا يعجزها شيء .

وقالوا لها : أتعجبين من أمر الله ؟

وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ..

إنه وحدهُ القادر على خرق حجاب الأسباب، وإذا آمن الإنسان بذلك فلا عجب ولا ارتياب ..

ثم أتبع الملائكة بشراهم وحديثهم بقولهم .

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

وهو دعاء بالرحمة والبركة لهم جزاء ما يقومون به من أعمال صالحة مبرورة، تستحق من الله حسن الجزاء وطيب الثناء..

ما ورد فى التوراة بخصوص البشرى :

وقد ذكر كتاب العهد القديم الذى بأيدى الكتابيين العبارة التى تشهد بتبشير إبراهيم بإسحاق ، ليس عن طريق الملائكة ، ولكن عن طريق الخطاب المباشر من الله لإبراهيم :

« وقال الله لإبراهيم : أما « سَرَّى » امرأتك فلا تدع اسمها « سرى » وليكن اسمها « سارة » وأبرك عليها وأعطيك منها ابنًا وأبركه ، ويكون منه ملوك الشعوب ، فخر إبراهيم على وجهه وضحك ، وقال فى قلبه : بعد مائة سنة يولد لى غلام ، و « سرى » تلد وقد أتى عليها تسعون سنة ؟

وقال إبراهيم : ليت إسماعيل يعيش قدامك .

فقال الله : بحق لتلدن « سرى » امرأتك غلاما ، وتدعو اسمه إسحاق، وأوثقه ميثاقا هو خلفه من بعده إلى الدهر . وفى إسماعيل قد سمعتك وبركته وكثرته جدا جدا وسيلد اثنى عشر عظيما ، وأعطيه شعبا جليلا ...»[١٤] .

والخلاف واضح بين النص القرآنى وهذا النص ..

فالبشرى فى القرآن جاءت على لسان الملائكة ، وفى هذا النص كانت البشرى من الله مباشرة .

وفى القرآن ليس فيه تصريح باسم الزوجة. وفى هذا النص تصريح باسمها. وأمر بتغيير هذا الاسم من « سرَّى » إلى « سارة ».

وفى النص القرآنى أن سارة هى التى ضحكت – أما فى هذا النص فإن إبراهيم هو الذى ضحك. وهو الذى تعجب من الإنجاب بعد كبرهما فى السن .

وفى نص التوراة بشارة أخرى هى أن إسماعيل سيكون أباً لاثنى عشر عظيما، وأبا لشعب جليل ...

ولكنه مع هذا الاختلاف فإن جوهر البشارة بإسحاق بعد اليأس من الولادة واقع .

على أن هناك رواية أخرى تشير إلى أن إسحاق قد ولد وإسماعيل لم يرحل بعد عن الشام .

تقول الرواية :

---

(١٤) الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين – العهد القديم – ط دار الكتاب المقدس.

ورأت « سُرّى » ابن هاجر المصرية التى ولدت لإبراهيم يستهزىء بإسحاق ، فقالت لإبراهيم : أخرج عنى هاجر وابنها ، إن ابن الأمة لا يرث مع ابنى إسحاق شيئًا .

فساء إبراهيم ما قالت .

فقال الله لإبراهيم : لا يهمك ولا يحزنك أمر الغلام ، وامتثل ما قد أمرتك « سرى » به فأطعها من أجل أنه بإسحاق يدعى لك الخلف .

وسأجعل لابن الأمة شعبا عظيما من أجل أنه خلفك .

وغدا إبراهيم فأخذ الغلام ، وأخذ خبزًا وسقاء ، ودفعه إليها وحمله عليها وقال لها : اذهبى[١٥].

ومفهوم هذا النص يشير إلى أن إسحاق كان قد ولد قبل أن يهاجر إبراهيم بابنه إسماعيل إلى مكة .

وأن مبعث الهجرة هو تخوف سارة من أن يرث إسماعيل وهو ابن الأمة مع ابنها إسحاق – وهو ابن الحرة – شيئا .

وربما انساق بعض الإخباريين وراء هذا الخبر، فقد ذكر الثعلبى فى كتابه[١٦] أن حمل سارة بإسحاق كان متواكبًا مع حمل هاجر بإسماعيل ، فوضعتا معًا ، فشب الغلامان معًا ، فبينما هما يتناضلان ذات يوم – وقد كان إبراهيم – عليه السلام – سابقا بينهما – فسبق إسماعيل ، فأخذه إبراهيم وأجلسه في حجره ، وأجلس إسحاق إلى جانبه ، وسارة تنظر إليه ، فغضبت وقالت : عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك وعمدت إلى ابنى فأجلسته إلى جنبك وقد حلفت ألا تضرني ولا تسوءنى ؟

وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة .

فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقها .

---

(١٥) الإصحاح الحادى والعشرون من سفر التكوين .

(١٦) قصص الأنبياء ص ٨١.

ثم ثاب إليها عقلها ، فبقيت متحيرة فى ذلك - فقال لها إبراهيم : اخفضيها[١٧] واثقبى أذنيها ، ففعلت ذلك فصارت سنة فى النساء

ثم إن إسماعيل وإسحاق اقتتلا، فغضبت سارة على هاجر وقالت لها : لا تساكنينى فى بلد واحد[١٨] .

أما تواكب الحمل فمردود بقوله - تعالى - بعد أن ذكر قصة الرؤيا بالذبح وتصديق الرؤيا : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ »[١٩] .

لأن الآيات الواردة قبل هاتين الآيتين تقص علينا كيف أن إبراهيم أخبر ابنه بأن الله أمره بذبحه، فصدقه، واستسلم كلاهما لأمر الله ، ثم فدى الله الابن بذبح عظيم. ثم جاءت البشارة بإسحاق بعد ذلك. فليس من المعقول أن يكون الابنان فى سن واحدة،بل المنطق يقضى بأن يكون إسماعيل قد سبق إسحاق فى الولادة بسنوات.

وكان إسماعيل قد بلغ من السن ما يمكنه من تفهم الأمور والحكم على الأشياء والتصديق بأحكام السماء، كما فهم من حواره مع أبيه .

والغيرة ليست أمرا غريبا - وعلى النساء خاصة - ولكن بواعثها التى تؤدى إلى الغضب الشديد الذى يترتب عليه القسم بالاعتداء ينبغى أن يكون لها مايبررها .

ووضع إبراهيم إسماعيل فى حجره وإسماعيل إلى جانبه ليس مبررا كافيا لهذه الغيرة الشديدة التى أدت إلى الاندفاع فى الغضب والقسم على أن تقتطع من هاجر جزءا.

إن المبرر الذى يدفع إلى ذلك هو الحرمان - وهو الذى يفعل فعله فى النفوس ، وقد اندفعت سارة فى غيرتها بدافع رؤيتها هاجر -وهى أمتها- تحمل وتلد ويصبح لها ولد يفرح به أبوه وتقربه عينه - وهى عاجزة عن ذلك، وقد تقدمت بها السن وتشعر بأن هاجر أمتها قد تربعت على عرش قلب زوجها.. وقد قدمنا تفصيل ذلك فى قصة إسماعيل .

---

(١٧) الخفض : الختان .

(١٨) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٨٢.

(١٩) الآيتان ١١٢ ، ١١٣ - الصافات .

فرح سارة بالبشارة :

وينقلنا النص القرآني في البشارة بإسحاق إلى أثر هذه البشارة في نفس سارة .

ولا شك أن هذا الخبر بالنسبة لها كان مفرحا ، وان كان غير ما يتوقع لقد كان بالنسبة لها الماء البارد الذي ينقع غلة الظمآن في صحراء مجدبة. وكان رد الفعل السريع لهذا الخبر السار كلمة ترد على ألسنة النساء عادة فقد قالت :

يا ويلتا أألد وأنا عجوز ؟

وهي لا تريد أن تدعو على نفسها بالويل، والويل هو الهلاك. والموقف موقف فرح وسرور. ولكن هذه الكلمة درجت النساء على ترديدها كثيرا في مختلف المواقف السارة والمحزنة على حد سواء. أليست المرأة هي القائلة على لسان الأعشى :

قالتْ هريرة لما جئت زائرها ... ويلي عليك وويلي منك يا رجل ؟

وهي كلمة تعجب بمعنى ويح[٢٠].

وقد ردت الملائكة عليها تعجبها، وأفهموها أنه لا ينبغي التعجب من أمر يريده الله، بل العجب من ورود الأمر الذي يعسر حدوثه من البشر ولذلك قالوا لها : أتعجبين من أمر الله ؟

ثم وجهوا إليها تحية طيبة مباركة تتضمن الرحمة والبركة - على النحو الذي قدمناه - ما أعظم ذلك حين تسمعه سارة - وكأنها تحية خاصة بها فهي أهل البيت - وأهل بيت الرجل زوجه .

ولا شك أنها بهذه التحية يطمئن قلبها وتقر عينها ويسعد وجدانها وتشعر بأن الله معها يرعاها برحمته، ويكلؤها بعنايته، فهي - إذن - لا خشية عليها من آلام الحمل والولادة التي تنتاب من يحملن بعد فوات الأوان .

وسيكون حملها وذريته محفوفا بالبركة مشمولا بالهداية والتوفيق.

وحملت سارة، ومر الحمل خفيفا هينا لا ثقل له .

---

(٢٠) لسان العرب - مادة ويل - جـ ٦ .

ثم وضعت هذا الغلام الذى بُشِّرت بأنه سيكون نبيًا من الصالحين . ولاشك أن قدوم هذا الولد قد أسعد إبراهيم وأسعد سارة . وقد وعدهما الله بأن عمرهما سيمتد ليريا ذريته الطيبة المباركة ممثلة فى نبى الله يعقوب . وقد كان ..

رأى الكتابيين فى الذبيح :

ويعتقد أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق. قالوا : «لما بلغ إسحاق السابعة من عمره ذهب إلى السعى، وأمر إبراهيم فى منامه بأن يقدم قربانا إلى الله، فلما أصبح ذبح عجلا وفرق لحمه على الفقراء. وسمع فى الليل صوتا يقول : إن الله يريد أن تذبح ابنك فانتبه من نومه مذعورا»[٢١] .

وقد أسندت دائرة المعارف هذا النص إلى سفر التكوين ٥٦ وفى الواقع لا يوجد هذا النص فى المصدر المذكور بهذه الصيغة، بل النص المذكور فى التوراة هو « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق ».

وكلمة إسحاق مقحمة فى النص إقحامًا ، لأن إسحاق لم يكن وحيدًا فى يوم ما لإبراهيم، بل كان إسماعيل مولودا قبله بسنين . وإذن فكلمة وحيدك تنطبق على إسماعيل لا على إسحاق – عليهما السلام – وقد قدمنا مناقشة ذلك فى قصة إسماعيل – عليه السلام .

متى ولد إسحاق ؟

ويصعب تقدير المدة بين ولادة إسماعيل وإسحاق بالدقة ، **ولكن يمكن استخلاص ذلك على وجه التقريب** من سلسلة الأحداث التى دارت .

فقد تمت البشارة بعد الامتحان بالذبح بناء على قوله تعالى فى « أعقابها » «وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين»[٢٢] .

وكانت سن إسماعيل فى ذلك الوقت منبئة بتفهمه للأمور، وتمكنه من الاستقلال بالرأى لأن أباه قال له : فانظر ماذا ترى ؟

---

(٢١) دائرة المعارف – مادة إسحاق .

(٢٢) الصافات ١١٢ .

وقد قدر البعض أن سن إسماعيل كانت ثلاثة عشر عاما[٢٣] وبعضهم قدرها بأربعة عشر عاما ..

فتكون المدة بينهما نحو ذلك ..

وقدر ابن إياس أن ولادة إسحاق كانت بعد إسماعيل بثلاثين سنة[٢٤] .

إسحاق فى كنف والده :

وشب إسحاق فى كنف النبوة ، ومن أبيه ورث الحكمة وذكروا فى أوصافه أنه كان يشبه أباه تماما ما عدا الشيب الذى كان يكلل رأس إبراهيم- عليه السلام.

وعلل بعض الكتابيين هذا الشبه بأنه كان قد شاع بين الناس أن إسحاق ليس ابنا لإبراهيم، فإنه قد التقطه وتبناه ، فخلق الله إسحاق على شبه إبراهيم ليرد هذا الزعم ويُقضى على تلك الشائعة[٢٥] .

ولكن القرآن الكريم أجل إبراهيم وابنه عن مثل هذه الشائعات وكرمهما بما هو أهله وأثنى عليهما ثناء جميلا .

وقد نظم الله إسحاق فى سلك الأنبياء الذين تناسلوا من ابراهيم فقد قال تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٢٦] .

---

(٢٣) القرطبى عن الفراء - تفسير سورة الصافات .

(٢٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٨٥ .

(٢٥) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٣ ص ٢٦٢ عن سفر التكوين ٥٣ وقصص الأنبياء للكسائى ص١٥٢.

(٢٦) البقرة ١٣٠ : ١٣٣ .

وقال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[٢٧]

لقد تنبأ إسحاق في حياة والده بين أهل الشام الذين نشأ فيهم، ونبوته ثابتة بنص القرآن الكريم «وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ..».

وتزوج إسحاق في حياة والديه .

قيل إنه تزوج من امرأة من حران اسمها «رفقا بنت بتويل» وحملت بتوأمين هما عيصو ويعقوب .

وسيرد ذكر ذلك في قصة يعقوب إن شاء الله تعالى .

وعاش إسحاق - كما يقول الرواة مائة وستين سنة[٢٨] أو مائة وسبعين سنة[٢٩] وكانت سنه حين ولد له ستين سنة أو سبعين .

ودفنه أولاده عند أبيه في مزرعة جبرون[٣٠].

ومن دعاء إسحاق الذى أخبر به النبى - ﷺ -:

« اللهم من لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئا فاغفر له »[٣١] .

---

(٢٧) الأنعام ٨٣ ، ٨٤ .

(٢٨ ، ٢٩) بدائع الزهو ص ٩٠ .

(٣٠) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٠٣ .

(٣١) الدميرى فى حياة الحيوان جـ ٢ ص ٤٧٥ نقلا عن البيهقى فى البعث والنشور عن أبى هريرة .

العبرة من القصة :

فى هذه القصة دلائل وعظات وعبر نقتطف منها ما يأتى :

● لفت الأنظار إلى قدرة الله الخارقة التى لا يعجزها شىء وأنه فوق الأسباب وأنه إذا أراد شيئا قال له كن فيكون .

● التنبيه إلى عدم اليأس وقطع الأمل، فرحمة الله واسعة وقد حذر الملائكة إبراهيم من القنوط واليأس وقد حكى ذلك القرآن الكريم .

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾(٣٣) .

● التيقن بأن الله يرقب أحبابه بعين وداده ، وهو معهم برحمته ، يمدهم بعونه ويحضهم برعايته وعطفه، يستجيب دعاءهم، ويقبل رجاءهم. وقد استجاب دعاء إبراهيم حين قال : ربِّ هَبْ لى من الصالحين . فوهبه إسماعيل . ثم وهبه إسحاق بعد ذلك .

● مؤازرة الزوجة لزوجها فى مهام الأمور، فقد كانت سارة معينة لإبراهيم فى دعوته وفى مكارم أخلاقه، ومسارعة فى تلبية أمره بإكرام ضيوفه بل تقوم فى خدمتهم إكراما له ولهم .

● ارتباط البشارة بتنفيذ وعيد الله فى قوم لوط . دليل على أن الحياة مزيج من الخير والشر والمحبوب والمكروه، وأن الله كما يتوعد أهل الكفر وينزل بهم نقمته، يكرم أهل طاعته ويسعدهم برحمته .

● إمكان رؤية الملائكة لغير الأنبياء فسارة رأت الملائكة وحادثتهم، والملائكة قد يأتون فى صورة بشرية .

وقد حدث أن رأى أصحاب رسول الله ﷺ جبريل وغيره من الملائكة وكتب السيرة والسنة غاصة بذلك .

والله أعلم

---

(٣٣) الحجر ٥٤ : ٥٦ .

تنبيه

نرجو القارىء الكريم تصويب الأخطاء الواردة فيما يأتي :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	الثاني من أسفل	مُكرمون	مُّكرمون
٣٧	٩	منْ رَبِّه	من رّبّه
٥٨	الثاني من أسفل	خلقكمْ مِنْ	خلقكم مّن
٧٧	٢	أبويكمْ مَن	أبويكم مّن
٨١	٦	زما	وما
٨٧	٦	إنهمْ	إنهم
٩٢	١٥	نَبيًا	نّبيًّا
٩٧	٨	بلد	بل
١٠٤	١٧	أنبتكمْ	أنبتكم
١١٦	١٦	منْ	من
١٢٢	١٩	مّمْنْ	مّمّن
١٢٥	١١	ومنْ	ومن
١٣٥	١٣	نحنُ	نحن
١٣٦	٧	منْ	من
١٩٦	١٠	أن	ألاّ
٢٠٠	٣	جاهاداك	جاهداك
٢٠٤	٦	سبيلُ	سبيلِ
٢١٥	٧	ائتينا	إئتنا
٢١٥	الأخير	للكَ	للكَ
٢١٦	١١	لا تصيبَن	لا تصيبنّ
٢١٩	٩	عصيبٌ	عصيبٌ
٢٢٥	٤	محسنُ	محسنٌ
٢٢٨	٣	وإذا ابْتُلَى	وإذ ابْتَلَى
٢٥٠	٥	أنْ	أن

فهرس المجلد الأول

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
١٦١	إبراهيم – عليه السلام – : مقدمة – نسب إبراهيم ومولده – بطش النمروذ ارهاصات النبوة فى نفس إبراهيم – إبراهيم فى طريقه لهداية قومه – تبييت إبراهيم الشر للأصنام – تكسيره الأصنام – محاكمة إبراهيم – إلقاؤه فى النار ونجاته محاورة بينه وبين النمروذ – هلاك النمروذ – آية البعث – فهم أهل الذوق فى القصة – إبراهيم فى حران – طريقة إبراهيم فى الهداية – حواره مع والده – الكفر ملة واحدة – إبراهيم فى مصر تسريه بهاجر – البشارة باسحاق .
٢١٣	لوط – عليه السلام –: محاورة إبراهيم الملائكة فى شأن قوم لوط – الملائكة فى قرية لوط – هلاك قوم لوط – عظة من القصة .
٢٢٢	عود إلى ذكر إبراهيم : فضائل إبراهيم عليه السلام – وفاة إبراهيم – صحف إبراهيم – العبرة من القصة .
٢٣٣	إسماعيل – عليه السلام –: إسماعيل فى القرآن – ولادة إسماعيل – هاجر وإسماعيل فى مكة – محنة هاجر – انفراج الأزمة بانفجار زمزم – قبيلة جرهم تستوطن المكان – محنة جديدة – قصة الذبح والفداء – حق الذبيح ؟ إسماعيل يواصل الحياة زواج إسماعيل – اشتراك إسماعيل فى بناء البيت – رسالة إسماعيل – إسماعيل أبو العرب – إسماعيل واللغة العربية .
٣٠٨	اسحاق – عليه السلام – : البشارة باسحاق – لم سمى اسحاق ؟ – لماذا ضحكت سارة ؟ – البشرى وماورد بخصوصها فى التوراة – أثر البشارة فى نفس سارة – رأى الكتابيين فى الذبح – متى ولد إسحاق ؟ – إسحاق فى كنف والده – العبرة من القصة .

سلسلة القصص القرآني

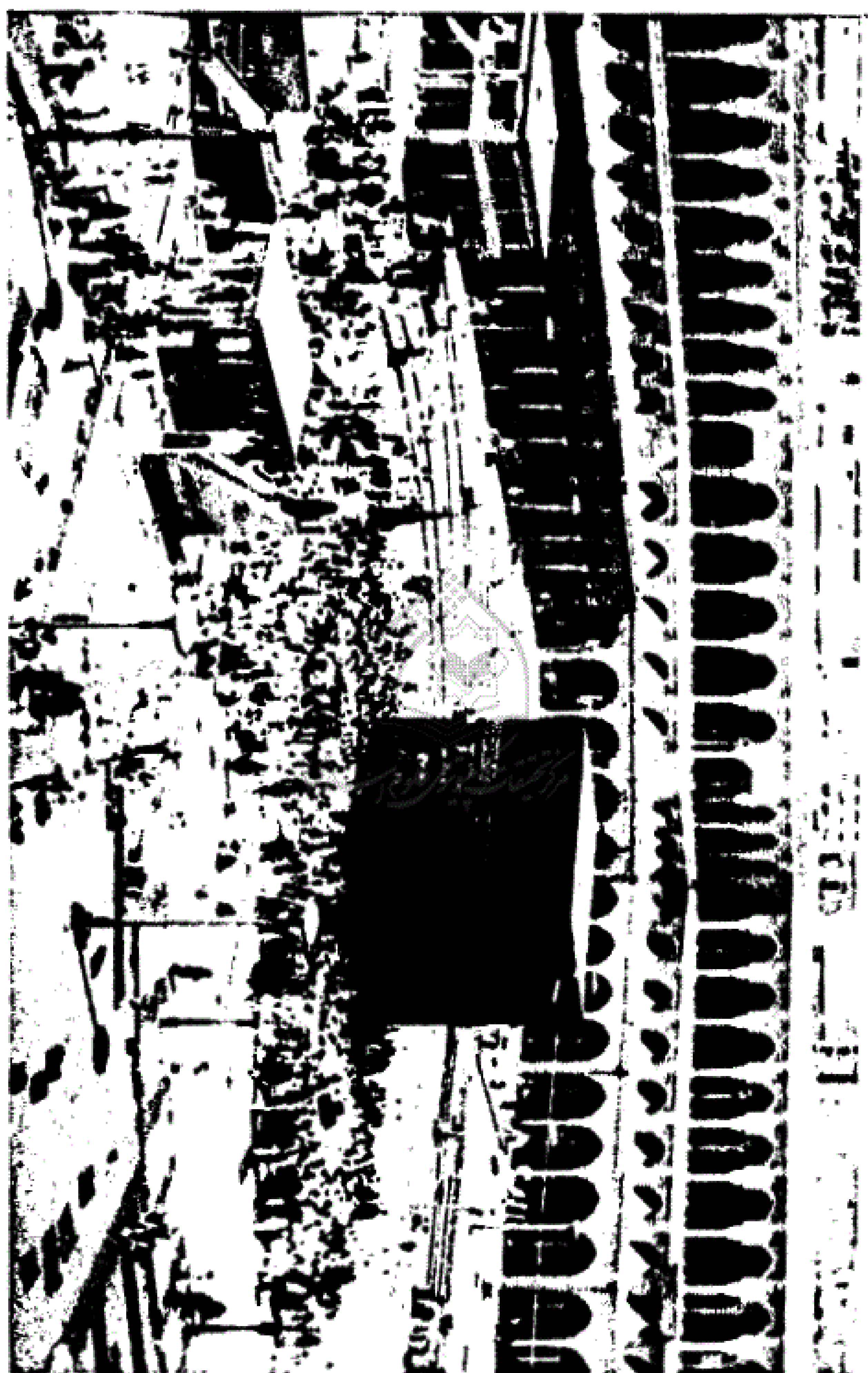
دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الثاني

سلسلة
القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى د عبد الحميد مصطفى د محمد شعلان

المجلد الثانى



الكعبة المشرّفة

- مقدمة .
- الكعبة "مفهوم لغوى واصطلاحى".
- متى بنى البيت ؟
- بناء ابراهيم .
- الحجر الأسود .
- دعوة ابراهيم للحج .
- ولاة البيت .
- وفود العرب للبيت .
- جلال الكعبة .
- أبرهة والكعبة .
- احترام الأشهر الحرم .
- الولاية تعود إلى أهلها .
- مآثر عبد المطلب .
- قريش تبنى الكعبة .
- الكعبة فى الاسلام .
- تحويل القبلة إلى الكعبة .
- الفتح الأعظم وتطهير الكعبة .
- كيف حج رسول الله ؟
- كسوة الكعبة .
- بناء ابن الزبير للكعبة .
- الكعبة والحجاج .
- اعتداءات على الحجر الأسود .
- تعميرات أخرى للكعبة .
- الكعبة فى عهدها الجديد .
- زمزم .
- فريضة الحج ... والحرم الآمن .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

لبيك اللهم لبيك

نداء روحي، ما تكاد الحناجر تنطلق به حتى تلتهب له المشاعر وتتجاوب معه العواطف والخواطر ، وتضطرب له القلوب وتهتز أمامه الجوانح . إنه استجابة لنداء الرحمن، وصدى لدعوة الله عباده لزيارة بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمنا.

إنه يصدر من قلوب الملايين الذين جاءوا شعثا غبرا من كل مكان ، لا هدف لهم إلا أن يوفوا نذورهم وأن يطوّفوا بالبيت العتيق، وأن يتمسحوا بأركانه، ويهتفوا بالدعاء فى أحضانه .

تفيض عيونهم بالدموع ، وتمتلىء قلوبهم بالرجاء ، وتلهج ألسنتهم بالدعاء . ويلقون بأحمالهم على أعتاب بيت الله ، ويعودون وقد تطهرت أرواحهم . وغُفرت ذنوبهم ، وأصبحوا كيوم ولدتهم أمهاتهم طاهرين مطهرين .

إنه اللقاء الكبير فى هذا البيت الكبير الذى يفتح ذراعيه الحانيتين ليحتضن هؤلاء الضارعين المستجيبين لأمر الله الراجين عفو الله ..

ومن هؤلاء ؟ إنهم ضيوف الرحمن الذين سعَوْا من أقصى الأرض يُلبُّون دعوته التى هتف بها خليله منذ عهد سحيق ، حين قال له :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾[1]

---

(١) الحج ٢٧ ، ٢٨.

ومنذ أن هتف إبراهيم - عليه السلام - بدعوة الناس لحج بيت الله الحرام ، ومكة تشهد كل عام وفوداً من كل مكان تجتمع فى صعيد واحد ، فى ألوان شتى ، وألسنة مختلفة ، وأجناس متعددة، ولكن هدفهم واحد .. فاللقاء الوحيد الذى يشد هذه الوفود جميعا هو لقاء الله في بيته، والنداء الوحيد الذى يجمعها هو : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ..

والهدف الوحيد الذى تسعى إليه هو الفوز برضاء الله ورحمته ومغفرته.

إن الحنين إلى البيت يراود قلوب المؤمنين فى كل مكان ، سواء فى ذلك من ينطق العربية ومن لا ينطق بها ، ومن يقيم فى الحاضرة ومن يقيم فى قلب الصحراء ، وما يكاد أى حاج فى أى مكان يعلن عن عزمه على أداء الفريضة أو العمرة حتى يُهْرَعَ الناس اليه مهنئين ومودعين، وتتواكب المواكب معه هاتفة ضارعة أن يرزقه الله حجا مبرورا وذنبا مغفورا ويتمنى كل واحد من هؤلاء المهنئين والمودعين أن يكتب الله له زيارة هذا البيت الذى تغسل زيارته الذنوب ، ويقبل الله فى رحابه توبة من يتوب ، فيعود كيوم ولدته أمه طاهرا مطهرا تعلوه البهجة ويحفه النور ويكسوه الجلال والوقار .

إن معاينة هذا البيت الكريم تشيع الأمن فى النفوس، وتسكب الرضا فى القلوب ، وإن الحجاج ليعودون وقد تجددت فى حياتهم الآمال ، وازدادت ثقتهم فى نفوسهم بعد أن التقوا بإخوانهم فى الإسلام ، وتصافحت قلوبهم وأكفهم على عهد جديد أن يكونوا جميعا يداً واحدة وقلبا واحدا فى نصرة هذا الدين الذى ناداهم منذ خمسة عشر قرنا ﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانًا ﴾[٢]

---

(٢) آل عمران ١٠٣.

إنه ليس من المصادفة أن تأتي هذه الآية الكريمة من كتاب الله بعد آيات من قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ... ﴾[3] بل هو كلام الله الخالد الذى جعل الحج الى بيته من وسائل الاعتصام وتأليف القلوب ، وذلك من أهم أهداف الحج..

إن الحج هو المؤتمر الإسلامي الكبير في هذه الربوع الطاهرة، في حمى البيت الكبير، وفي ضيافة الرب الكريم الذي يظل الحجاج برحمته، ويشملهم بعنايته ويحفهم برعايته، ويباهي بهم ملائكته قائلا : هؤلاء عبادى جاءوني شعثا غبرا من كل مكان، فاشهدوا أني قد غفرت لهم...[4] .

هذا البيت الحرام مهوى الأفئدة وقبلة المسلمين، يسعدنا أن نتحدث عنه في تلك الصفحات القادمة .

الكعبة

تطلق الكعبة على بيت الله الحرام، ذلك البناء الذى يقع فى سرة الأرض تماما، وفى وسطها بالرسم الدقيق، فى ذلك الموضع الذى دُحيت منه الأرض فكان أول ما كان منها مكة .. وإلى هذا البناء يتجه المسلمون فى صلواتهم، وهم يلتفون حوله فى الحرم حلقات تمتد خارج الحرم إلى ما شاء الله، فلو قدر لإنسان كشف الله عنه الحجاب أن يرى لرأى حلقات على اتساع الأرض، لا يحدها البصر ولا يحيط بها النظر... كلها تتجه إلى الكعبة المشرفة، تكبر الله وتسبح بحمده..

وأصل كلمة الكعبة فى لغة العرب : البيت المربع المرتفع .

وسمى بيت الله بالكعبة لتربعه وارتفاعه ، وكل بيت مربع هو عند العرب كعبة، وقد تطلق الكعبة على الغرفة لتربعها... وقد بنيت الكعبة حينما بنيت مربعة مرتفعة .

---

(٣) آل عمران ٩٦.

(٤) اخرج مسلم عن عائشة رضى الله عنها – ان رسول الله ﷺ قال: ما من يوم اكثر من ان يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة فيقول: ما اراد هؤلاء ؟ حتى يقولوا مغفرتك ورضاك عنهم

ولكن هذا اللفظ غلب على بيت الله، فإذا أطلق لفظ الكعبة انصرف الذهن إلى ذلك البيت العتيق فى مكة المكرمة .

ولم يرد ذكر الكعبة فى القرآن الكريم إلا مرتين فى آيتين متجاورتين فى سورة المائدة هما :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ... ﴾[٥]

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ... ﴾[٦]

ولكن البيت الحرام ورد فى القرآن الكريم فى ثلاثة عشر موضعا ، بعضها بدون وصف ، وبعضها موصوف بقوله الحرام ، وواحد منها موصوف بقوله المحرم .

والوصف بالحرام لتعظيم شأن هذا البيت ورفع قدره، فمن دخله كان آمنا، ومن أجله أصبحت مكة كلها حرماً آمنا ، قال – تعالى :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ... ﴾[٧]

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ... ﴾[٨]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٩]

---

(٥) من الآية رقم ٩٥ – المائدة.
(٦) من الآية رقم ٩٧ – المائدة
(٧) من الآية رقم ٥٧ – القصص.
(٨) من الآية رقم ٦٧ العنكبوت
(٩) آية رقم ٩١– النمل

وقد اختار الله مكان بيته ولم يتركه لأحد من خلقه .. قال – تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(١٠)

قال المفسرون : معنى بوأنا، أريناه أصله ليبنيه ، وكان قد درس بالطوفان وغيره ، فلما كان عهد إبراهيم – عليه السلام – أمره الله ببنائه ، فجاء إلى موضعه ، وجعل يطلب أثراً – يهتدى به – فبعث الله ريحا فكشفت عن أساس آدم – عليه السلام – فرئيت قواعده(١١). ولعل الله قد أطلع إبراهيم على مكان البيت قبل بنائه .

وهذا هو الذى يفهم من دعاء إبراهيم – عليه السلام – حين أنزل ابنه وأمه هاجر فى المكان الذى أصبح فيما بعد حرما آمنا استجابة لدعوته حين قال : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ..﴾(١٢) .

لقد كان إسماعيل رضيعا فى ذلك الوقت، ولم تكن البقعة إلا رمالا شاسعة وجبالا ووديانا لا أنيس بها ولا حياة فيها ..

فكيف يقول إبراهيم – عليه السلام – عند بيتك المحرم وهو غير موجود ؟ إلا إذا كان يعلم أن هذا موضعه الذى كان فيه، وأنه سوف يعهد إليه بإعادة بنيانه وتشييد أركانه.

ولم يقل الله سبحانه : وإذ بنى إبراهيم القواعد من البيت، ولكنه قال : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ...﴾(١٣). فدل بذلك على أن تلك القواعد كانت موجودة .

---

(١٠) آية رقم ٢٦ – الحج.
(١١) تفسير القرطبى – سورة الحج – ص ٢٨ ٤٤ ط دار الشعب.
(١٢) من الآية رقم ٣٧ – ابراهيم.   (١٣) من الآية رقم ١٢٠ – البقرة.

متى بنى البيت ؟

يقول العلماء : إن بناء الكعبة قديم ، حتى إن بعضهم ليرجع ذلك إلى ما قبل آدم – عليه السلام – ويستندون فى ذلك إلى بعض الآثار التى وردت فى ذلك، ومنها ما روى عن جعفر بن محمد – رضى الله عنه – قال :

سئل أبى وأنا حاضر عن بدء خلق البيت فقال : إن الله – عز وجل – لما قال : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ قالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فيهَا مَن يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ فغضب عليهم، فعاذوا بعرشه ، وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم، حتى رضي عنهم، وقال لهم : ابنوا لى بيتا فى الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بني آدم ، ويطوف حوله كما طفتم حول عرشي، وأرضى عنه كما رضيت عنكم، فبنوا هذا البيت .[١٤]

فهذا الخبر يشير إلى أن البيت بنى قبل آدم وأن الذى بناه هم الملائكة.. وقد سخر الله الملائكة لعبادته ، وجعلهم يستغفرون لمن فى الأرض .

وهناك خبر آخر يشير إلى أن آدم – عليه السلام – هو الذى بنى البيت بأمر ربه بعد أن هبط إلى الأرض.

فقد ذكر عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وابن المسيب وغيرهما أن الله – عز وجل – أوحى إلى آدم : إذا هبطت فابن لى بيتا ، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بعرشى الذى فى السماء .

قال عطاء : فزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل : من حراء ، ومن طور سيناء ، ومن لبنان ، ومن الجودى ، ومن طور زيتا، وكان ربضه[١٥] من حراء[١٦] .

---

(١٤) تفسير القرطبى جـ١ ص ١٢٠ ط دار الكتب.

(١٥) قال الخليل : الربض الأساس المستدير بالبيت من الصخر، ومنه ما يقال لما حول المدينة ربض – اللسان.

(١٦) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٢١

ولعل السر فى اختيار هذه الجبال أنها مباركة .

فجبل حراء هو الذى كان يتعبد فيه النبى - ﷺ - قبل البعثة . وهو بمكة على ثلاثة أميال منها ، وفيه هبط جبريل على النبى - ﷺ - بأول آيات نزلت من القرآن الكريم- قال القزوينى:وهو موضع مبارك يزوره الناس.

وطور سيناء هو الذى كان عليه الخطاب لموسى - عليه السلام - فى أثناء عودته من مدين فى طريقه إلى مصر ، وهو الذى أقسم الحق به فى قوله- تعالى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾[١٧].

وقيل هو الذى تجلى عليه الرب - سبحانه - حين طلب موسى رؤيته وفى ذلك يقول الله - تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾[١٨].

ويقال : إن حجارته كيف كسرت خرج منها صورة شجر العليق[١٩]، ولا يخلو من الصلحاء.

وجبل لبنان مطل على حمص ، فيه من الفواكه والزروع من غير أن يزرعها أحد، ويأوى إليه الأبدال لما فيه من القوت الحلال[٢٠] .

وجبل الجودى هو الذى هبطت عليه سفينة نوح - فيما بعد - قيل : وقد بنى عليه نوح - عليه السلام - مسجدا. يقول القزوينى : وهو باق إلى الآن يزوره الناس[٢١] .

وطور زيتا لعله الجبل المشرف على بيت المقدس ، ويطلق عليه طور هارون لأنه دفن فيه . والطور فى كلام العرب الجبل - كما يقول صاحب اللسان - ونسبة الزيت إليه لانتشار أشجار الزيتون التى يستشفى بزيتها، وهى كثيرة فى جبال الشام .

---

(١٧) التين ١، ٢. (١٨) الأعراف ١٤٣

(١٩) عجائب المخلوقات للقزوينى ص ١٣٤ ط. التحرير (٢٠) عجائب المخلوقات للقزوينى ص ١٣٦. (٢١) المرجع السابق ص ١٢٨

ويؤكد ما يقول العلماء من أن آدم – عليه السلام – هو الذى بنى البيت ما يروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال الله له : يا آدم، اذهب فابن لى بيتا ، وطف به ، واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ، فأقبل آدم يتخطى، وطويت له الأرض، وقُبضت له المفاوز ، فلا يقع قدمه على شىء من الأرض إلا صار عمرانا ، حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام ، وإن جبريل – عليه السلام – ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أُسٍّ ثابت على الأرض السابعة السفلى، وقذفت إليه الملائكة بالصخر، فما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا .[٢٢] .

فقد بناه آدم وأعانته الملائكة فى البناء – وفى ذلك تفسير لبناء البيت من جبال متفرقة .

على أن من العلماء من يذكر أنه لم يكن ثمَّ بناء . ولكن الله أهبط لآدم – عليه السلام – خيمة من خيام الجنة فضربت فى موضع البيت ليسكن إليها ، ويطوف حولها ، فلم تزل باقية حتى قبض الله آدم فرفعت[٢٣] .

وذكر الثعلبى فى قصص الأنبياء أن الله أوحى إلى آدم أن ارحل من أرض الهند إلى مكة وطف حول مكان البيت ، واسألنى المغفرة فأغفر لك خطيئتك .

فقوله «حول مكان البيت» يشير إلى أن البيت لم يكن قد بنى بعد ، ولكنه سيكون فى هذا الموضع الذى أشير إليه .

وقيل: إن الله – تعالى – أنزل يا قوتة حمراء من يواقيت الجنة على قدر الكعبة – وذلك مكان الرغوة البيضاء التى امتدت منها الأرض ، وجعل من داخلها قناديل من ذهب تضىء بالنور ، ثم أرسل الله لآدم ملكا يقوده ويرشده إلى طريق مكة ، وأنزل عليه عصا من شجر الآس طولها عشرون ذراعا ، وهى من أشجار الجنة ، فكان آدم يمشى فتطوى له الأرض، فصار

---

(٢٢) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٢١.   (٢٣) القرطبى عن طريق وهب بن منبه

كل مكان وضع قدمه عليه يصير قرية. فلما دخل آدم مكة أوحى الله - تعالى - إليه أن يطوف بذلك البيت فطاف به سبعا.[٢٤].

بل إن من العلماء من يقول : إن البيت برمته من السماء. فقد روى عن قتادة أن الله أهبط مع آدم - عليه السلام - بيتا كان يطوف به هو والمؤمنون من ولده ، وظل كذلك حتى جاء الطوفان، فرفع إلى السماء ، وهو الذى يدعى البيت المعمور[٢٥] .

وربما كان تفسير هذا الخبر - على فرض صحته - أن الذى أهبط هو مقداره طولا وعرضا وسمكا ، ثم قيل له ابن بقدره أو بحياله ، بحيث يكون البيت الحرام فى الأرض بحيال البيت المعمور فى السماء .

والواقع أن جمهور العلماء يرى أن آدم - عليه السلام - هو الذى بنى البيت وهذا ما ذهب إليه ابن سعد فى طبقاته . قال :

« لقد أوحى الله إلى آدم أن لى حرما بحيال عرشى، فانطلق فابن لى بيتا فيه، ثم حف به كما رأيت ملائكتى يحفون بعرشى، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم فى طاعتي .

فقال آدم : أى رب، وكيف لى بذلك ؟ لست أقوى عليه ولا أهتدى له . فقيض الله ملكا فانطلق به نحو مكة، فكان آدم إذا مر بروضة ومكان يعجبه، قال للملك : انزل بنا هاهنا ، فيقول له الملك : مكانك . حتى قدم مكة ... فبنى البيت من خمسة أجبل : من طور سيناء وطور زيتون ، ولبنان ، والجودى ، وبنى قواعده من حراء .

فلما فرغ خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التى يفعلها الناس اليوم، ثم قدم به مكة فطاف بالبيت أسبوعا. ثم رجع إلى أرض الهند[٢٦]. فمات هناك.

---

(٢٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٤٥ لابن إياس.
(٢٥) تفسير القرطبى جـ٢ ص ١٢١. (٢٦) الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٥.

وفي ثناء الله على بيته يقول وهب بن منبه :

إن آدم - عليه السلام - لما أهبط إلى الأرض ورأى سعتها ، ولم ير فيها أحدا غيره قال : يارب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى ؟

فأوحى الله إليه : إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى، وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ، ويسبح فيها خلقى، ويذكر فيها اسمى، وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتى وأوثره باسمى وأسميه بيتى ، فينطق بعظمتى ، وعليه وضعت جلالى، ثم أجعل ذلك البيت حرما آمنا، يحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه، فمن حرمه بحرمتى استحق بذلك كرامتى ، ومن أخاف أهله فقد ضيع دينى وخفر ذمتى وأباح حرمتى، أجعله أول بيت وضع للناس يأتونه شعثا غبرا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، يضجون بالتلبية ضجيجا، ويلجون بالبكاء أجيجا ، ويعجون بالتكبير عجيجا ، فمن آثره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى وضافنى، وحق على الكريم أن يكرم وافده وأضيافه ، وأن ينعم ويتفضل ويسعف كلا بحاجته ، تعمره يا آدم ما كنت حيا ، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن[٢٧] .

وليس من شك فى أن البيت الحرام هو أول بيت لله وضع للناس فى الأرض سواء كان ذلك فى عهد آدم أو بعده أو قبله ، يؤيد ذلك القرآن الكريم والحديث الشريف .

فالقرآن الكريم يقول : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ... ﴾[٢٨]

---

(٢٧) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٨٧.
(٢٨) آل عمران ٩٦ ، ٩٧.

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : « سألت النبى – ﷺ – عن أول مسجد وضع فى الأرض . قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى. قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاما، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل »[29] .

وإن لم يكن البيت قد بنى فى عهد آدم فقد عرف موضعه على الأقل .

قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا فى الأرض بألفى سنة ، وإن قواعده لفى الأرض السفلى[30] .

ولا غرابة فى ذلك، فالتكليف بالعبادة قديم، ومنذ أن كان فى الأرض بشر كان لهم رسل ودين يتعبدون به، ولا دين بغير عبادة ..

والشعائر فى الأديان تكاد تكون واحدة وإن اختلفت فى طريقة الأداء، ففى كل دين صلاة وزكاة وصوم وحج. بل إن دين الله واحد وهو الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾[31] .

وقد ورد فى معنى قوله – تعالى – ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[32] قول الشعبى وقتادة وغيرهما أن الله كتب على قوم موسى وعيسى صوم رمضان فغيروا .

وذكر العلماء فى حج الأنبياء السابقين أقوالاً تفيد أنهم كانوا يذهبون إلى مكة فيطوفون بالبيت ويؤدون المناسك ويعودون ..

وذكروا أن سفينة نوح – عليه السلام – طافت بموضع البيت سبعا .. ولتوحيد قلوب الناس فى العبادة لا بد أن تكون هناك قبلة تجمعهم ، وتوحد صفوفهم، وتقوى وحدتهم ، ولو تنافر الاتجاه تنافرت القلوب ..

وهكذا كانت قبلة المسلمين الكعبة .. وهى قبلة إبراهيم – عليه السلام – والمسلمون هم الأمة الوسط كما قال – تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[33] .

---

(٢٩) مسلم كتاب المساجد ٢/٦٣ ، ومسند أحمد ٥/١٥٠ ، ١٦٦ ، وتفسير القرطبى جـ ٤ صـ ١٣٧ .

(٣٠) تفسير القرطبى جـ ٤ صـ ١٣٧ .

(٣١) من آية ١٩ – آل عمران.

(٣٢) الآية رقم ١٨٣ – البقرة.

(٣٣) من الآية رقم ١٤٣ – البقرة.

هاجر وإسماعيل فى مكة :

حين يريد الله - سبحانه وتعالى - نفاذ أمر يهيىء أسبابه .

وقد أراد إعادة بناء البيت والتعمير حوله ليصبح حرما آمنا. وليكون صالحا لاستقبال أسعد مخلوق وأشرف مولود، يولد فى رحابه، ويدرج على أعتابه . وهو محمد ﷺ.

فحين أراد الله ذلك أوحى إلى خليله إبراهيم - عليه السلام - أن يتوجه إلى مصر، فهاجر إليها ومعه زوجته سارة .

وحدث ما عرفناه فى قصة إبراهيم من أن ملك مصر أراد سارة بسوء فعصمها الله ونجاها من شره، فهابها ، وأطلقها ، ووهب لها ولإبراهيم هدايا جمة، وأعطى سارة جارية مصرية هى هاجر ..

وكانت هاجر فى أول أمرها أميرة مصرية يطلق عليها سيدة القطرين[٣٤] وأميرة منف ، ولكنها وقعت فى قبضة الهكسوس وهم ملوك الرعاة[٣٥] . حين استولوا على مصر وقتلوا زوجها ملك مصر .

وأنست هاجر إلى سارة حين رأتها تكثر من العبادة والصلاة .

وحين عاد إبراهيم وزوجته سارة إلى أرض كنعان كانت هاجر بصحبتهما . ووهبت سارة لزوجها إبراهيم أمَتها «هاجر» حين رأت حنينه للولد، وعجزها عن أن تنجب له ذلك.

وتسرى إبراهيم بهاجر ، وحملت منه بإسماعيل.

ودبت الغيرة فى قلب سارة، والغيرة طبع غالب فى الناس عامة ، وفى النساء خاصة .

---

(٣٤) الكعبة المشرفة لأمينة الصاوى ص ٣٣ .

(٣٥) قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار ص ١٠٨ .

واشتدت غيرة سارة حين رأت إسماعيل ينمو ويشتد، وقلب إبراهيم يزداد به تعلقا. فألحت على إبراهيم أن يبعد هاجر ووليدها عن مجاورتها، ويغيبهما عن نظرها .

وحمل إبراهيم وليده وأمه مرتحلا صوب مكة .. وهناك فى حرم الله عند الربوة الحمراء التى بنيت فوقها الكعبة بعد حين ألقى رحاله ... وبنى لزوجته وابنها عريشا .

وبين الرمال القاسية والقفار الموحشة ترك الطفل وأمه ، وولى راجعا. بعد أن ترك لهما جرابا من تمر وسقاء فيه ماء ..

وتعلقت هاجر بإبراهيم بعد أن أدار ظهره لهما .. وهى تقول فى استعطاف حزين : إلى من تتركنا ؟

ولا شك أن إبراهيم بشر... ولكنه فوق ذلك نبى ..

وصنعت العاطفة صنعها فى قلب إبراهيم البشر، ولكن يقين النبوة غلبها ، ولعل دموعه قد فاضت فى سكون ، ولعل هذه الدموع حالت بينه وبين الرد على ذلك التساؤل الذى ألقته هاجر .. فتركها وانصرف ..

وأدركت هاجر بإلهامها الصادق، وإيمانها الذى تعلمته من صحبة الأنبياء أن إبراهيم – عليه السلام – لم يتصرف من تلقاء نفسه ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟

وكأنها قد لقنته الجواب الذى أشفق أن يجيبها به بادىء ذى بدء، فقال لها : نعم.

فقالت هاجر فى ثقة المؤمن ويقين الواثق : إذن فالله لن يضيعنا[٣٦].

وصدقت، فكيف يضيع الله أهله ؟

---

(٣٦) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٥٢.

إنهم سيكونون أهل الله . وسيكون ابنها إسماعيل أبا العرب، وجد خير مبعوث إلى البشر .

وانطلق إبراهيم - عليه السلام - حتى إذا كان عند الثنية حيث لا تراه هاجر ، استقبل بوجهه مكان البيت الذى سوف يبنيه بعد قليل ، ثم دعا بهذه الدعوات :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ... ﴾(٣٧)

وتمضى الأيام ، وينفد منها الزاد والماء ، ويجف ثدى هاجر من الجوع .

ويلتقم الطفل ثديها فلا يجد فيه ما يسد جوعته أو ينقع غلته، ولا حيلة للطفل إلا البكاء، ولا حيلة لأمه إلا النظر إلى السماء وتشتد حيرة هاجر دون أن تفقد الرجاء .

ويزداد بكاء الطفل، ويزداد مع ذلك هلعها ، ولكنها مع ذلك لم تفقد الثقة فى الله، وفى كلئه ورعايته .

لقد مضت عليها أيام فى هذا الفراغ الموحش ولكنها لم تتوجس فيه خيفة، ولم تشعر فيه بفزع، لقد كانت تحس الأنس والأمن والدعة ولكن بكاء الطفل من الجوع والعطش هو الذى أرقها وأثار الفزع فى نفسها، وتصرفت كما يتصرف الغريق الذى يبحث عن قشة يتعلق بها .

فأسرعت إلى الصفا تصعده وتنظر إلى الأفق، علها تجد أحدا، فلما لم تجد هبطت مسرعة لتصعد إلى المروة، وتنظر من فوقها هل ترى من أحد ؟

---

(٣٧) آية رقم ٣٧ ابراهيم.

ولما لم تجد عادت إلى الصفا، ثم إلى المروة هكذا سبع مرات . وهنا آذن الله بالفرج.

سمعت حسا فانتبهت إليه ، وأخذت تتسمعه، ثم قالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث.

وإذا بجبريل - عليه السلام - يغمز الأرض بجناحه تحت قدم الطفل فينبع الماء.

ويقال : إن جبريل - عليه السلام - جاء إلى هاجر ، وهى تسعى بين الصفا والمروة باحثة عن الماء. فقال لها : من أنت ؟

قالت : أنا هاجر زوجة إبراهيم خليل الرحمن، وقد تركنى ها هنا .

فقال جبريل : إلى من ترككما ؟

قالت : إلى الله تعالى .

فقال : لقد ترككما إلى كاف، ثم أتى إلى مكان زمزم، وركضها برجله ففاض الماء. ولذلك يقال لزمزم : ركضة جبريل .

فلما رأت هاجر الماء خشيت أن يتبدد أو أن ينضب، فأسرعت إلى سقائها تملؤه، وإلى إناء تدخر فيه الماء . فقال جبريل - عليه السلام :

لا تخشى نضوب الماء، ولا تخافى الظمأ، فإنها عين يشرب منها ضيفان الله - تعالى - إن أبا هذا الغلام سيجىء يوما ويبنى هو والغلام بيتا لله هذا موضعه .(٣٨)

وأخذ الماء ينساب يمينا ويسارا، فحوضت حوله هاجر ، وجعلت تقول : زم زم، فسميت العين لذلك زمزم.

---

(٣٨) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٨٢.

وفي ذلك يقول النبي - ﷺ - : «رحم الله أم إسماعيل لو لم تقل زم زم يا مبارك لكانت زمزم عينا جارية»(٣٩).

وشرب الطفل وأمه من الماء حتى رويا.

وقد وضع الله في هذا الماء سرا وبركة حتى إنه ليصبح غذاء من جوع، وريا من ظمأ، وشفاء من سقم . وقد صح في الأحاديث قول رسول الله ﷺ : ماء زمزم لما شرب له..(٤٠) .

المكان يعمر :

وحلقت الطيور فوق الماء كما هي العادة .

ولحظت القوافل التي تجوب الصحراء ذلك، فقالوا : عهدنا بهذا المكان لا ماء فيه، فمن أين هذا الماء هنا ؟

وكان القحط في بلاد الشحر واليمن قد انتشر، وأقبل أهل هذه البلاد يرتادون مساقط المياه .

وكانت قبيلة من العماليق عليهم السميدع بن هوبر تمر في ذلك المكان، فرأت الطيور تحلق، ثم نظرت إلى العريش فوق الربوة الحمراء وبجوارها الماء يتلألأ كالفضة المذابة .

فتقدم السميدع إلى هاجر وسلم هو ومن معه عليها، واستأذنوها في النزول والشرب من الماء، فأذنت لهم على شرط ألا يكون لهم حق التملك فيه. فرضوا .

ونزلوا، وأنست إليهم، وأرسلوا إلى من وراءهم ..

---

(٣٩) رواه السيوطي في جمع الجوامع برقم ١٤٣٧٦/١٩١ بلفظ: رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم كانت عينا معينا قال ورواه البخاري في كتاب البيوع وفي كتاب بدء الخلق.

(٤٠) رواه الدارقطني من حديث جابر .

ثم جاء الجراهمة، ونزلوا أيضا.

وعاش الجميع مطمئنين، مستبشرين بالماء، وبما أضاء الوادى من نور النبوة وموضع البيت العتيق.. إنه شيء يحسه الناس وتستشعره القلوب وتلمسه الأرواح وتتشوق إليه قبل أن تبدو ملامحه للعيون ..

وشب إسماعيل – عليه السلام – بين هؤلاء القوم، ومنهم أخذ لسانه العربى المبين .

زواج إسماعيل :

وحين كبر إسماعيل تزوج من الجداء بنت سعد العملاق .

ويبدو أنه كان فى طبعها شيء من الغلظة والجفاء، وكان إبراهيم – عليه السلام – يلم بين الحين بهاجر وإسماعيل، يتفقد أحوالهما ويطمئن عليهما .

فجاء يوما، وسأل عن إسماعيل وعرف أنه قد تزوج .

وذهب إلى بيته ولم يجده، ووجد زوجته الجداء بنت سعد.

وسألها عن أحوالهما فكانت إجابتها تتجافى مع ما يجب أن يكون عليه أهل بيت النبوة، من رضا بقدر الله، وحمد لله على نعمائه، وصبر على لأواء الحياة وشدتها .

وسلم عليها فلم ترد السلام ، وقال لها : هل من منزل ؟

فقالت : لا هاالله .

فقال لها : فما يفعل رب البيت ؟

قالت : هو غائب .

فقال لها : إذا جاء فأخبريه أن إبراهيم يقول لك بعد مسألته عنك وعن أمك : استبدل بعتبة بيتك غيرها .

ورجع إبراهيم إلى الشام من فوره .

وجاء إسماعيل وأمه - فنظرا إلى الوادى فإذا به قد أشرق وأنار، والأغنام تتنسم نسيم الآثار .

فعرف إسماعيل أن نسمة مباركة قد خطرت على الوادى، وليس ثمَّ إلا أبوه .

فأسرع إلى زوجته يقول لها : هل كان لك بعدى من خبر ؟

قالت : لقد جاء شيخ من صفته كذا وكذا . وأخبرته برسالته .

فقال لها : أتدرين من هذا ؟ إنه أبي خليل الرحمن، وقد أمرنى بفراقك - فالحقي بأهلك فلا خير فيك[٤١] .

الزوجة الثانية

وكانت الزوجة الثانية لإسماعيل جرهمية .

ذلك أن جرهم حين سمعت أن العمالقة نزلوا فى وادى مكة، وأنهم أصبحوا فى أمن ودعة بجوار زمزم أقبلوا بقيادة الحارث بن مضاض بن عمرو بن سعد، واستوطنوا مكة مع إسماعيل والعماليق الذين سبقوهم . وأصهر إسماعيل إليهم، فتزوج «سامة بنت مهلهل» الجرهمية[٤٢] .

وجاء إبراهيم وطرق الباب ، فأحسنت الزوجة الثانية استقباله، وحمدت الله على ما هما فيه من نعمة وخير، فسر إبراهيم - عليه السلام - بذلك .

ونترك المسعودى يقص علينا المحاورة التى جرت بين إبراهيم - عليه السلام - وسامة بنت مهلهل زوجة إسماعيل.

قال : لما أتى إبراهيم الوادى سلم على زوجة إسماعيل ، فردت عليه السلام، ورحبت به وتلقته بأحسن لقاء.

---

(٤١) مروج الذهب للمسعودى جـ١ ص ٣٢٠.

(٤٢) مروج الذهب للمسعودى.

ثم سألها عن إسماعيل وهاجر، فأخبرته بخبرهما وأنهما فى رعيهما، وعرضت عليه النزول فأبى .

– وقيل : إن هاجر كانت قد ماتت –

وألحت الجرهمية على إبراهيم فى النزول فأبى. فقدمت إليه لبنا وشرائح من لحم الصيد، فدعا فيه بالبركة .

ثم جاءت بحجر كان فى البيت فمال عن ركابه، وجعلته تحت قدمه اليمنى، ثم رجلت شعره ودهنته ، ثم حولت الحجر إلى شماله فوضع رجله اليسرى عليه ومال برأسه فرجلت بقية شعره ودهنته.

فأثرت قدماه فى الحجر.

فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته.

قالوا : وهذا الحجر هو مقام إبراهيم، فقال لها إبراهيم : ارفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين.

ثم قال لها : إذا جاءك إسماعيل فقولى له : إن إبراهيم يقرأ عليك السلام، ويقول لك : احتفظ بعتبة بيتك فنعمت العتبة .

وعاد راجعا إلى الشام.

فلما جاء إسماعيل أحس بريح أبيه. فقال لزوجته : هل من أحد جاء ؟

فوصفت له شيخا وضيئا تعلوه المهابة والكرامة، وقصت عليه ما حدث. فقال لها : أنت العتبة ، وقد أمرنى أبى أن أبقيك .

تجديد البناء :

لقد كانت الكعبة – كما عرفنا – أول بيت لله فى الأرض ، وإليه تتجه الأنظار، من كل مكان، وإليه تهفو القلوب فى أى زمان .

وقد عرفنا أنه بنى فى عهد آدم أو قبل آدم فى بعض الأقوال، فقد ذكر

بعض العلماء أن آدم حين حج من الهند، لقيته الملائكة فقالت له : بر حجك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام .

فقال : ما كنتم تقولون حوله ؟

فقالوا: كنا نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

فكان آدم إذا طاف بالبيت يقول هذه الكلمات .

وكان آدم يطوف بالبيت سبعة أسابيع، خمسة بالليل واثنين بالنهار. فقال آدم : يا رب اجعل لهذا البيت عمارا .

فأوحى الله إليه : إنى معمره بنبى من ذريتك اسمه إبراهيم أتخذه خليلا ، أقضى على يديه عمارته ، وأنيط له سقايته، أورثه حله وحرمه ومواقفه ، وأعلمه مشاعره ومناسكه[٤٣] .

وقال النبى – ﷺ : إن آدم – عليه السلام – سأل ربه – عز وجل – فقال : يا رب أسألك لمن مات فى هذا البيت من ذريتى لا يشرك بك شيئا أن تلحقه بى فى الجنة . فقال الله – تعالى : يا آدم من مات فى الحرم لا يشرك بى شيئا بعثته يوم القيامة آمنا[٤٤] .

ظل البيت كما بناه آدم – عليه السلام – فترة طويلة من الزمن ،وربما يكون «شيث»[٤٥] من بعده زاده توطيدا بالطين والحجارة .. حتى جاء طوفان نوح الذى عم الأرض كلها، ولم يبق مكان فيها لم تغمره المياه .

قيل: إن الله رفع البيت صيانة له من الغرق، وخبأ جبريل الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس[٤٦] وذكر الزركشى نقلا عن ابن هشام : أن الماء لم يصل إلى البيت المعظم ولكنه قام حولها وبقيت هى فى هواء السماء، وقال نوح لمن معه إنكم فى حرم الله وحول بيته فأحرموا لله[٤٧] .

---

(٤٣) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٨٦.
(٤٤) المرجع السابق.
(٤٥) ذكر الزركشى فى كتابه اعلام الساجد بأحكام المساجد أن أول من بنى البيت شيث عليه السلام، وكان قبل أن يبنيه خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم ويأنس بها لأنها انزلت من الجنة ص ٤٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
(٤٦) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٥٦
(٤٧) اعلام المساجد ص ١٩٧.

وقد ادخر الله خليله إبراهيم لإعادة تشييد هذا البيت، وأشار جبريل – عليه السلام – لهاجر بهذا المعنى حين فجر لها زمزم .

ولكن هاجر مضت للقاء ربها فلم تشهد هذا الحدث الجليل .

وجاء إبراهيم الخليل يوما ولقى إسماعيل فوجده يبرى نبلا تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه مرحبا . واعتنقا. ثم قال إبراهيم لابنه :

يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر .

قال إسماعيل : اصنع ما أمرك الله به .

قال : وتعيننى ؟

قال : وأعينك .

قال: إن الله قد أمرنى أن أبنى له بيتا،وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

قصة الذبح :

لقد تعود إسماعيل ألا يعصى لوالده أمرا ، وتعود أن يعين أباه على تنفيذ ما يأمره به ربه ولو كلفه ذلك حياته .

وليس هناك دليل أصدق من رؤيا إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل. فقد رأى إبراهيم فى منامه أن الله يأمره بذبح إسماعيل، وتكررت الرؤيا عدة مرات. وقص إبراهيم رؤياه على ابنه .

واستجاب الابن لأمر ربه سريعا، وقال لأبيه : يا أبت افعل ما تؤمر. وقد قص القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[٤٨]

---

(٤٨) آيات ١٠٢ : ١٠٧ – الصافات.

لقد كانت تجربة قاسية اجتازها الوالد وابنه بنجاح .

وفدى الله إسماعيل من الذبح بكبش نزل به جبريل – عليه السلام – من السماء، ويقال: إنه الكبش الذى كان هابيل قد تقرب به إلى الله فتقبل منه .

وكان إسماعيل الذبيح هو الجد الأعلى لعبد الله الذبيح والد المصطفى – ﷺ – وسيأتى حديث عن ذلك بعد إن شاء الله .

كيف وصل إبراهيم من الشام ؟

لقد كانت المهمة التى وفد إليها إبراهيم إلى مكة مهمة سامية ، ولا بد أن يكون وصوله إلى مكان البيت بصورة مشرفة تليق بجلال العمل وصاحبه.

قال العلماء : إن الله أرسل معه ريحا اسمها السكينة، سهلة الممر لينة الهبوب، وأنطقها الله القادر له ، فهى تدله ، يغدو معها إذا غدت ويروح معها إذا راحت، فصاحبها أو صاحبته إلى مكة. وحين حط رحاله قالت له السكينة : ابن على موضعى الأساس. ويقال : إنها تطوقت على موضع البيت .

وقيل : ليست ريحا بل هى سحابة سيرها الله معه ، وأمره بمتابعتها، فما زال يسير فى ظلها حتى وصل إلى مكة ، فوقفت فى موضع الكعبة ، ونودى : يا إبراهيم ابن على قدر ظلها لا تزيد ولا تنقص.

ولعل أقرب من ذلك كله ما روى من أن الذى خرج معه من الشام مصاحبها هو جبريل – عليه السلام – حتى وصل معه إلى مكة ، فكشف له عن مكان البيت ..

وإذا كان البناء لبيت الله ، فالله ليس بعاجز أن يصحب خليله الريح أو السحاب أو الملائكة، وهى كلها من جند الله يسخرها لمن يشاء من عباده .

وقد ورد ذكر السكينة فى القرآن الكريم فى قوله – تعالى – ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٤٩) .

---

(٤٩) البقرة من آية ٢٤٨.

وفسر العلماء السكينة بتفسيرات عدة منها : أنها ريح هفافة ، ومنها أنها روح من الله تتكلم ومنها غير ذلك(٥٠) .

إبراهيم يشرع فى العمل :

وتهيأ إبراهيم – عليه السلام – للعمل ، ومعه ابنه إسماعيل . وأعطاهما الله القوةالتى تعينهما عليه .

فكان إسماعيل يأتى بالأحجار من عدة جبال فيما يذكره الرواة .

وليس غريبا أن ينقل إسماعيل أحجاراً من جبال عدة بينها مسافات متطاولة، فالله – سبحانه وتعالى – يمد الأنبياء بجنود من عنده لا يراها أحد ويسخر لهم مايعينهم على إنهاء ما يقومون به من مهام ، لاسيما إذا كان مايقومون به أمرا يتعلق به سبحانه وتعالى وببيته الكريم الذى جعله قبلة للناس جميعا ، وكتب عليهم حجه ، وجعله هدى للناس وبينات .

لا غرابة أن تطوى الأرض والمسافات ، وتخف الأحمال والأثقال ، ويسهل قطع الأحجار من الجبال، وتهون المتاعب والأهوال .

وما زال إبراهيم يرفع البناء ، وإسماعيل يناوله الأحجار حتى ارتفع البناء عن قامة إبراهيم . فقال لابنه : ابغنى حجرا أقف عليه . فأتى له بحجر صعد إبراهيم فوقه ، وجعل يقيم القواعد، وربما قام هذا الحجر مقام المصْعد(٥١) بقدرة الله – تعالى – الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وربما كان هذا الحجر هو الذى سبق ووضع إبراهيم عليه قدميه فى أثناء زيارته السابقة لإسماعيل وقال لزوجة إسماعيل : احتفظى به فإنه سيكون له شأن. لقد ظهر فى الحجر أثر قدميه . قال أنس بن مالك – رضى الله عنه –: رأيت أثر قدم إبراهيم فى هذا الحجر ، وقد أثر فيه كعبه وأخماص أصابع رجليه، غير أنه اختفى رسمه من كثرة لمس الناس له بأيديهم، فمحى ذلك من كثرة الأيام والليالى(٥٢) .

---

(٥٠) راجع تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤٤٤، وأولى تفسير للسكينة هو الوقار والرحمة وآيات الله التى تسكن اليها النفس. وهى التى صحبت ابراهيم فى رحلته فلم يضجر ولم يتبرم ولم يشك تعبا ولا الما .

(٥١) أشار إلى ذلك ابن إياس فى كتابه – برائع الزهور ص ٨٤.

(٥٢) حكى ذلك القرطبى فى تفسيره عن القشيرى جـ٢ ص ١١٢.

ويطلق على هذا الحجر مقام إبراهيم، وكان ملصقا بالبيت، بعد أن بناه إبراهيم، ولكنه نقل إلى موضعه الحالى فيما بعد فى عهد عمر[٥٣] آخره إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الحجاج من الطواف، ولا يشوشون على المصلين بعد الطواف، لأن الله أمرنا بالصلاة عنده حيث قال :

﴿ واتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾[٥٤] .

وفى تأثير قدمى إبراهيم فى الحجر يقول أبو طالب :

أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوءٍ أو ملح بباطل
وبالحجر المسود إذ يمسحونه إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل[٥٥]

وسيأتى حديث خاص عن مقام إبراهيم - إن شاء الله تعالى :

وضع الحجر الأسود :

وحين بلغ إبراهيم فى بنائه مكان الركن قال لابنه : يا بنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه هاهنا .

فقال إسماعيل : يا أبت إنى كسلان - لقد ظهر عليه التعب لحكمة يعلمها الله .

ولما ألح عليه فى الطلب انطلق يطلب الحجر، فجاءه بحجر لم يرضه. وقال : ائتنى بأفضل منه، فانطلق يطلب غيره .

وإذا بجبريل يأتيه بالحجر الأسود - وكان أبيض من ياقوتة بيضاء مثل الثغاقة وهى نبت أبيض الزهر والثمر .

قالوا : وكان آدم قد هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس[٥٦].

---

(٥٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٦٥ وإعلام الساجد للزركشي ص ٢٠٧.
(٥٤) سورة البقرة. (٥٥) إعلام الساجد ص ٢٠٧
(٥٦) إعلام الساجد ص ٤٤.

فأخذه إبراهيم - عليه السلام - ووضعه مكانه من الركن .

وعندما عاد إسماعيل بحجر وجد أباه قد وضع ذلك الحجر الذى أعطاه إياه جبريل. فقال : يا أبت، من جاءك بهذا ؟

فقال : جاءنى به من هو أنشط منك(٥٧) .

ولا داعى لمبالغة البعض فى أن جبل أبى قبيس نادى إبراهيم - عليه السلام - قائلا : يا إبراهيم إن لك عندى وديعة فخذها .

فلما دنا منه انشق الجبل وخرج منه الحجر الأسود .

وكان نوح - عليه السلام - قد أودع الحجر الأسود هذا المكان(٥٨) .

لقد هيأ الله الأسباب الكفيلة بإتمام البناء على الصورة التى أرادها الله لبيته الكريم ، وسخر لذلك نبيين كريمين، يؤيدهما جبريل وغيره من الملائكة المكرمين .

وكان إبراهيم وإسماعيل فى أثناء بنائهما البيت يدعوان الله ويبتهلان إليه بما حكاه القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٥٩)

---

(٥٧) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٥٩.
(٥٨) نقل ذلك ابن اياس فى كتابه بدائع الزهور ص ٨٤.
(٥٩) الآيات من ١٢٧ : ١٢٩ البقرة.

إنه الإخلاص الذى يحدو هذا العمل الصالح .

لقد نفذ إبراهيم أمر ربه ، ورفع القواعد من البيت ، ومع ذلك يخشى ألا يُقبل له عمل ، فقرن عمله بالدعاء وختمه بالدعاء ... والدعاء مخ العبادة كما ورد فى الآثار .

وفى هذا سنة للمسلم أن ينتهز فرصة العبادة فيدعو الله عسى أن يقبل عمله ويثيبه على ما قدم.

روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكى عن وهيب بن الورد أنه قرأ «وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت ..» ثم بكى وقال : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك ؟[٦٠]. وهذا ما حكاه الله عن الصالحين في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ..»[٦١] .

إبراهيم يدعو الناس إلى الحج:

وبعد أن انتهى إبراهيم من بناء البيت أمره الله أن يدعو الناس إلى حج بيته. قال له : «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ»[٦٢] .

فقال إبراهيم : يارب، وما يبلغ صوتى ؟

قال له الحق : أذن يا إبراهيم، وعلىَّ الإبلاغ .

فصعد إبراهيم – عليه السلام – فوق جبل أبى قبيس ، وقيل : فوق الكعبة ، وقيل : فوق الصفا، وقيل : فوق عرفات – وصاح بأعلى صوته : أيها الناس، إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا.

---

(٦٠) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٢٥٤.
(٦١) الآية ٦٠ من سورة «المؤمنون».
(٦٢) من آية ٢٧ – الحج.

أجل ، وما يبلغ صوت إبراهيم ؟

هل يتوقع أن يصل صوته إلى أبعد من مكة على أكثر تقدير، فى وقت لم تكن هناك مكبرات للصوت أو أجهزة إعلام تنشر الصوت فى كل مكان فور انطلاقه ؟

ولكن الله - جلت قدرته - نقل صوت إبراهيم الشيخ الواهن إلى ما لا يخطر على بال أكثر الناس تفاؤلا .

لقد نقله إلى ما وراء الحجب وإلى عالم الغيب حتى لباه من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، وإلى الأرواح التى لم تسكن بعد فى أجساد أصحابها ..

إنها قدرة الله الخارقة التى أرادت أن يعمر هذا البيت بالوفود عبر الزمان من كل مكان .

أجاب كل من سمع قائلا : لبيك اللهم لبيك .

فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة .

إن أجاب مرة حج مرة، وإن أجاب مرتين حج مرتين ... وهكذا .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - لأبى الطفيل : أتدرى ما كان أصل التلبية ؟ قال أبو الطفيل : لا.

قال ابن عباس : لما أمر الله إبراهيم - عليه السلام - أن يؤذن بالحج خفضت الجبال رءوسها، ورفعت له القرى، فنادى فى الناس بالحج فأجابه كل شيء : لبيك اللهم لبيك(٦٣) .

واستجاب كل من لبى على نحو ما وصف الله تعالى بقوله : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنَ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(٦٤) .

ومعنى رجالا : راجلين، سائرين على أقدامهم، والضامر : الراحلة التى ضمرت من كثرة المشى وطول الطريق.

---

(٦٣) تفسير القرطبى - سورة الحج ص ٤٤٣٠ ط دار الشعب.

(٦٤) من الآية ٢٧ من سورة الحج.

والمقابلة بين الراجلين والراكبين تفيد تصوير حالة الحجاج فى كل زمان ومكان ، فهم - فى تحقيق الإتيان - إما سائرون على أقدامهم أو متخذون وسائل للمواصلات.

وقد تطورت وسائل المواصلات - مصداقا لقوله - تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾(٦٥) حتى وصلت إلى ما وصلت إليه فى عصرنا الحاضر.

وكان الناس فى الزمن القديم يتطوعون لله بالذهاب إلى بيت الله الحرام سيرا على الأقدام ، حتى ولو كانوا يملكون ما يركبون أو يقدرون عليه ، ويجدون لذتهم فى ذلك ، وروى عن الحسن بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - أنه حج ماشيا أكثر من مرة وبين يديه الجنائب تحمل الزاد(٦٦)، وكان يقول : استحى أن أذهب إلى بيت الله راكبا .

وقد اعتبر بعض العلماء أن تقديم «رجالا» فى الآية يفيد تفضيل الحج مشيا لمن قدر عليه .

ولكن النبى - ﷺ - مع قدرته على المشى حج راكبا، فهذه سنته، وهى التى تتمشى مع قوله - تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾(٦٧).

وقد انعدم الآن الحج مشيا - تقريبا - لأنه لا يناسب ظروف الحياة وتطورها مع ابتكار وسائل حديثة للمواصلات تختصر أيام الحج إلى أيام معدودة لمن يريد، ولكن ذلك كله لا يطغى على مفهوم الأثر الخالد « الأجر على قدر المشقة».

جبريل يعلم المناسك :

بعد أن فرغ إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - من بناء البيت رفعا أكف الضراعة إلى الله قائلين : أرنا مناسكنا .

---

(٦٥) من الآية ٨ النحل. (٦٦) اسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ ٢.
(٦٧) من آية ٣٢ - الأعراف.

لقد أرادا أن يعرفا كيف يؤدى الحاج حجه - وماذا يفعل حين يقدم إلى هذا المكان الطاهر ؟ وما الآداب التى يتأدب بها فى حرم الله ؟

فبعث الله جبريل - عليه السلام - فحج بهما .

عرفهما كيف يطوف الحاج بالبيت مبتدئا من الركن عند الحجر الأسود جاعلا البيت عن يساره ، ثم يطوف سبع مرات حول الكعبة ، ثم كيف يسعى بين الصفا والمروة .. ثم ذهب به إلى عرفة ، فعرض إبليس فى الطريق عند العقبة فأمر جبريل إبراهيم أن يرميه بسبع حصيات جمعها له جبريل ووضعها فى كفه، وقال له : ارم وكبر . وكذلك رمى جبريل وكبر حتى أفل الشيطان، ثم أتيا الجمرة القصوى فعرض الشيطان مرة أخرى ، فرُمى بسبع حصيات أخرى مع كل رمية تكبيرة حتى أفل. ثم أتى بها جُمَعاً وهى المزدلفة، فقال جبريل : ها هنا يجمع الناس الصلوات - ثم انتهوا إلى عرفات - فقال جبريل لإبراهيم : عرفت ؟ قال : نعم ، فمن ثم سمى المكان عرفات.

وقيل : إنه سمي عرفات لأن آدم وحواء تعارفا عليه بعد فراقهما الذى طال إثر هبوطهما من الجنة - وقد مر ذكر ذلك فى قصة آدم - عليه السلام - وعاد إبراهيم إلى الشام، وترك ابنه إسماعيل ليقوم بشأن هذا البيت، وظل قائما عليه طول حياته، حتى مات ودفن بالحِجْر بعد أن عاش مائة وسبعا وثلاثين سنة .

وورث أمر الكعبة من بعده ابنه نابت وأمه من جرهم - كما قدمنا - وكان إبراهيم يحج البيت حتى مات . كان يحمله البراق فيما يقال، وهو دابة الأنبياء .

وجاء إسحاق، وجاءت سارة أمه ، وقاما بالمناسك كلها التى علمها جبريل إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام.

وكان الأنبياء يحجون البيت ، بل إن «النبى من الأنبياء كان إذا هلكت

أمته لحق بمكة فتعبد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا بها ، فمات بها نوح وهود وصالح – في بعض الأقوال – وقبورهم بين زمزم والحجر »[٦٨] .

وقيل : إن شعيبا – عليه السلام – مات بمكة هو ومن معه من المؤمنين وقبورهم في غربي مكة بين دار الندوة وبين بني سهم.

والمعروف أن قبر إسماعيل في الحجر. ويقال : إنه بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيا جاءوا حجاجا فماتوا فقبروا هنالك[٦٩] صلوات الله عليهم أجمعين .

ولاة البيت :

ظلت المناسك على ما علمه جبريل إبراهيم وإسماعيل – عليهم السلام – وكان الذين تولوا أمر الكعبة يعلمونها الحجاج جيلا بعد جيل ، حتى تغيرت العقائد والنفوس ، وغير الناس وبدلوا، فجاء الإسلام فأنار الطريق وصحح المسار. تولى البيت بعد إسماعيل ابنه نابت .

ثم وليه بعده الجراهمة أخواله وأخوال أبنائه وقد غلبوا أبناء إسماعيل على البيت، وتولى الملك من الجراهمة واحد منهم اسمه «الحارث بن مضاض» وتولى أمر البيت مع الملك.

وكان الجراهمة ينزلون في الموضع المعروف بقيقعان في أعلى مكة وكان العماليق ما يزالون بمكة ويملكهم السميدع بن هوبر، وينزلون في «أجياد» في أسفل مكة .

ولهذه التسمية أصل نذكره استطرافا .

قالوا : إنه دارت حرب بين الجراهمة والعماليق.

---

(٦٨) ذكر ذلك القرطبي مسندا إلى محمد بن ساباط عن النبي ﷺ تفسير القرطبي جـ ٢ ص ١٣٠.

(٦٩) المرجع السابق.

فخرج الحارث بن مضاض ملك جرهم تتقعقع معه الرماح والدرق، فسمى الموضع الذى نزل فيه « قيقعان».

وخرج ملك العماليق بالجياد من الخيل وعسكر فى الموقع الذى سمى بأجياد لتأهبه بالجياد فيه .

ودارت الحرب بين الفريقين، فانهزم الجراهمة فى موضع أطلق عليه اسم «فاضح» لافتضاح المنهزمين فيه.

ثم سعى الناس بين الفريقين بالصلح، فنحروا وطبخوا ، فسمى موضع الوليمة بـ «طابخ»(٧٠) .

وبهزيمة الجراهمة تولى أمر البيت العماليق .

ثم دارت حرب أخرى بعد ذلك بفترة انتصر فيها الجراهمة، واستعادوا الولاية على البيت .

فزادوا فى بنائه على ما كان عليه فى عهد إبراهيم - عليه السلام .

ذكر الزركشي : أنه بنى فى أيام جرهم مرة أو مرتين، لأن السيل كان قد صدع حائطه، وقيل لم يكن بنيانا بل كان إصلاحا لما وهى منه، وجداراً أسس بينه وبين السيل، بناه رجل اسمه عامر بن الجادر، وسمى بالجادر لأنه جدر الكعبة »(٧١) .

ولم يحفظ الجراهمة حرمة البيت ورعاية آدابه التى اؤتمنوا عليها ، فغيروا وبدلوا وأسرفوا .

ويقال إن رجلا منهم أسمه «إساف» فجر فى الحرم بامرأة كان يحبها اسمها «نائلة» فمسخهما الله حجرين . وقد صيرهما الجهل بعد ذلك صنمين يعبدهما المشركون من دون الله .

---

(٧٠) مروج الذهب للمسعودى جـ١ ص ٣٢١.
(٧١) إعلام المساجد ص ٤٦.

وعاقب الله جرهما بأن سلط عليها الرعاف والنمل والآفات حتى هلك كثير منهم .

وكان من أسباب انهيار ملك الجراهمة وذهاب ولايتهم على البيت أنهم بغوا على حجاج بيت الله وأسرفوا فى فرض الضرائب والمكوس عليهم(٧٢).

ظهور أولاد إسماعيل :

وأراد الله كرامة بيته من جديد، فظهر أولاد إسماعيل وأحفاده وتولوا أمر البيت.

كان إسماعيل قد أعقب اثنى عشر ولدا ذكرًا - هم :

نابت، وقيدار ، وأدبيل ، ومبسم، ومشمع، ودما، ودوام، ومسّا، وحداد، وثيما، وبطور، ونافش.

ولكل من هؤلاء عقب...

ولم يتول أمر البيت من هؤلاء إلا نابت، ثم تولى بعده أخواله - كما ذكرنا - وتقلبت الأيام حتى بغى الجراهمة وضعفوا ..

وأصبح بنو إسماعيل ذوى قوة ، فنحَّوْا أخوالهم عن ولاية البيت بعد أن أصبحوا غير جديرين بولايته بعد فسادهم .

ويقال : إن الله سلط عليهم سيلا جرفهم وذهب بهم ..

ولذلك يقول واحد منهم وهو الحارث بن مضاض الأصغر الجرهمى يرثى أهله وأيام عزهم ومجدهم ويتحسر عليهم :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر
وكنا لإسماعيل صهرا ووصلة ولما تدر فيها علينا الدوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبدلنا ربى بها دار غربة بها الذئب يعوى والعدو المحاصر(٧٣)

---

(٧٢) فى ظلال الحرمين لمجد كامل حته ص ١١٤.
(٧٣) مروج الذهب جـ١ ص ٣٢٢.

الخزاعيون يتولون البيت :

وظلت ولاية البيت فى بنى إسماعيل حتى وصلت إلى إياد بن نزار بن معد بن عدنان الجد الأعلى للنبى - ﷺ - .

ثم توالت الأحداث ، وحدث أن أهل مأرب فى اليمن تفرقوا فى البلاد تخوفًا من انهيار سد مأرب المشهور . وكان سيد مأرب فى ذلك الوقت هو عمرو بن عامر ، فأمر أولاده بالتفرق ، و (انخزع) أى انفصل عنهم قوم أطلق عليهم اسم (خزاعة) .

وجاء هؤلاء الخزاعيون ونزلوا وادى تهامة ، ووادى تهامة يمتد من اليمن حتى يشمل مكة .

وحدث خلاف بين أبناء نزار بن معد أثار حربًا بين إياد الذى كان يتولى أمر الكعبة وبين مضر أخيه ، وانتصر فيها المضريون ، فقلعوا الحجر الأسود ودفنوه فى بعض المواضع .

ورأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها بما رأته ودلتهم على مكان الحجر ، فتحفظوا عليه .

وانتهز الخزاعيون هذه الفرصة واشترطوا إن ردوا الحجر أن يتولوا أمر البيت ، ووفى الإياديون لهم بذلك .

وأعاد الخزاعيون الحجر إلى مكانه وأصبحت ولاية البيت لهم .

عبادة الأصنام :

وكان سيد خزاعة رجلاً اسمه « عمرو بن لحى » فغير دين إبراهيم - عليه السلام - ونصب الأوثان حول الكعبة ، ودعا إلى عبادة الأصنام ، ويقال فى سبب ذلك : إنه ذهب إلى الشام ، فوجد قومًا يعكفون على أصنام لهم ، فقال لهم : ما هذه ؟

فقالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فأعجبه ذلك منهم وقال لهم :

ألا تعطونى واحدًا منها فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟

فأعطوه صنمًا يقال له « هُبَل » .

فقدم به مكة ، فنصبه للناس وأمرهم أن يعبدوه ، فعبدوه وعظموه[٧٥] ومع هذا الإشراك بقيت أثارةٌ من دين إبراهيم - عليه السلام - تتمثل فى تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، مع إدخالهم فى ذلك ما ليس منه .

فكانوا إذا حجوا ولبَّوْا يقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . فيوحدون بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - .

وازداد ظلم عمرو بن لحى فى الحرم فقال له شاعر ما زال على دين الحنيفية :

يا عمرو لا تظلم بمكة ... إنها بلـــد حـــرام
سائل بعاد أين هـم ... وكـذاك تخترم الأنــام
وبنى العماليق الذيـن ... لهم بها كان السوام

وقال له شاعر آخر - حين فشت الأصنام وكثرت - :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبدا ... فقد جعلت له فى الناس أربابا
لتعرفن بأن الله فى مهـل ... سيصطفى دونكم للبيت حجابا[٧٦]

وهكذا تتقلب الأيام ، ويظهر حول بيت الله الحرام أصنام تعبد من دون الله ، وهو الذى جعله الله مثابة للناس وأمنًا ، إليه يلجأون ليتخلصوا من آثامهم ، ويتطهروا من أوزارهم ، ويعودوا إلى ديارهم كيوم ولدتهم

(٧٥) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٨١ .
(٧٦) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٢٦ .

أمهاتهم .. فإذا بهم الآن – ببدعة عمرو بن لحي – يعودون وقد تضاعفت أوزارهم ، يحملون أوثانًا اشتروها من باعة الأوثان حول الكعبة ليعبدوها فى ديارهم بعد عودتهم ، وقد امتلأت نفوسهم سرورًا بذلك كأنهم قد عادوا بكل ذخائر الدنيا معهم .. ولم لا يكونون كذلك وقد أمكنهم أن يشتروا إلهًا بمالهم ؟ . فهل هناك غباء أكثر من ذلك ؟

ومن العجيب الغريب أن ذلك التمثال المصنوع الذى ساوم مشتريه فى اقتنائه – وربما حط من ثمنه درهمًا أو درهمين – يزعم هذا المشترى أن ذلك التمثال رب يتحكم فى مربوبه الذى دفع الثمن فيه .

ألا ما أجهل هؤلاء القوم وأسفه آراءهم!

بل العجيب الغريب أيضًا أن هناك أصنامًا كانت تصنع من العجوة، ويظل هذا الصنم فى حوزة عابده حتى يقرصه الجوع ولا يجد ما يأكله فيقبل على إلهه يأكله ويسد به جوعته ، فما أتعس حظ هذا الإله مع عابديه ، وفى ذلك يقول شاعر يتهكم بهؤلاء :

أكلت حنيفة ربها   عام التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم   سوء العواقب والتباعة[77]

ولاية البيت تعود لأهلها :

وكان قصى بن كلاب جد النبى – ﷺ – قد تزوج من « حُبَّى » بنت حُلَيْل الخزاعى الذى كان بيده أمر البيت فى وقته .

وأوصى حليل لابنته بالولاية على البيت بعد وفاته ، فقيل له : إنها امرأة ولا تقوى على فتح الباب وإغلاقه ، فجعل ولاية البيت إليها ، والفتح والإغلاق إلى رجل من خزاعة اسمه « أبو غبشان » .

فلما مات حُليل ، باع أبو غبشان ما عهد إليه من أمر الفتح والإغلاق لقصى بن كلاب زوج « حُبَّى » باعه بزق من خمر وبعير .

---

(٧٧) تاريخ الأدب العربى – عبد الجواد رمضان ص ٣٣ .

فأرسلت العرب فى ذلك مثلاً ، قالوا : « أخسر من صفقة أبى غبشان » .

وفى ذلك يقول شاعر يهجو خزاعة :

إذا افتخرت خزاعة من قديم ... وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهرًا ... بزق بئس مفتخر الفخور

وبذلك صار أمر الكعبة كله إلى قصى ، وعاد الحق إلى نصابه .

واستقر أمر قصى ، ونظر إلى مكة نظرة إجلال ، وبنى الكعبة ، ورتب قريشًا على منازلها فى النسب بمكة .. بعد أن وحد صفوفهم وجمع كلمتهم .

وورث الأمر من بعده أبناؤه وأحفاده ، فقاموا على أمر الكعبة خير قيام ، و ما زال ذلك فيهم ..



سدانة الكعبة فى الإسلام :

السادن هو خادم الكعبة ، وهو غير الحاجب ..

فالحاجب يحجب وإذنه لغيره ، والسادن يحجب وإذنه لنفسه ..

وكانت سدانة البيت فى الجاهلية لعثمان بن طلحة ، وهناك خبر طريف يدخل فى نطاق الإعجاز النبوى نذكره للانتفاع به ..

روى ابن سعد فى طبقاته عن عثمان بن طلحة قال :

كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل النبى - ﷺ - يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له ، ونلت منه ، فحلم عنى ، ثم قال : يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت . فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت . قال : بل عمرت وعزت يومئذ .

ودخل الكعبة ، فوقعت كلمته منى موقعًا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال .

فلما كان يوم الفتح قال : يا عثمان ائتنى بالمفتاح ، فأتيته ، فأخذه منى ، ثم دفعه إلَىّ وقال : خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم .

يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

قال : فلما وليت نادانى فرجعت إليه . فقال : ألم يكن الذى قلت لك ؟

قال : فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة .. فقلت : بلى أشهد أنك رسول الله ..

وظلت سدانة البيت فى هذه الأسرة ، فقد ورث السدانة عن عثمان بن أبى طلحة ابنه شيبة .

وعثمان بن أبى طلحة ابن عم عثمان بن طلحة الذى لم يعقب ..

وإلى شيبة بن عثمان هذا ينتمى الشيبيون القائمون بهذا الأمر حتى الآن(٧٨)، وهم محل تجلة واحترام من جميع المسلمين فى مختلف الأقطار ..

وفود العرب إلى البيت :

طبع الله حب البيت فى قلوب العرب جميعًا ، حتى إذا أشرقت شمس الإسلام تعلقت قلوب المسلمين جميعًا فى مشارق الأرض ومغاربها بهذا البيت الذى هو قبلتهم ومهوى أفئدتهم .

كان العرب – قبل الاسلام – يحجون البيت ويعظمونه ، يفدون إليه كل عام فى موسم الحج ، يؤدون المناسك ، ويقيمون حول مكة الأسواق ، وكانت هذه الأسواق موسمًا للتجارة ، ومنتدى للمباريات الأدبية والثقافية ،

(٧٨) تاريخ الكعبة المعظمة ص ٣١٩ .

فيها تلقى الخطب وتنشد الأشعار ، ويفاضل الحكام بين الشعراء ، وأيما قصيدة فازت بالإعجاب تكتب وتعلق على جدران الكعبة وتصبح من المعلقات .

ولمكانة هذا البيت في النفوس حُسِد القائمون على أمره ، حتى أصبحت القبائل تنفس عليهم وتغار منهم ، وأقام بعضها بيتًا يحاكون به الكعبة ويعظمونه ..

قال ابن إسحاق : كان لأهل اليمن بيت يقال له « رئام » يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه إذ كانوا على شركهم – كان الشيطان يكلمهم من داخله – .

ورئام على وزن كتاب مأخوذ من رأمت الأنثى ولدها ترأمه رئامًا ، إذا عطفت عليه ، فاشتقوا لهذا البيت اسمًا لموضع الرحمة والعطف الذى كانوا يلتمسونه فى عبادته .

وكان لتُبّع ملك اليمن حبران صالحان يحيطان به فقالا له : خلِّ بيننا وبين هذا البيت فإنما به شيطان يفتن الناس .

فقال لهما : شأنكما به .

فاستخرجا منه كلبًا أسود ، فذبحاه ، ثم هدما ذلك البيت ، فبقاياه بها آثار الدماء التى كانت تراق عليه(٧٩).

وأقام أهل الطائف بيتًا لِلاّت يعظمونه نحو تعظيم الناس للكعبة ، وحين سار أبرهة إلى الكعبة بجيشه محاولاً هدمها ، استقبله الثقفيون عند الطائف وقالوا له : نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، وليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد – يعنون بيت اللات – إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم(٨٠). وستأتى قصة أبرهة مع الكعبة بعد إن شاء الله تعالى .

---

(٧٩) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤ . (٨٠) المرجع السابق ص ٤٨ .

جلال الكعبة :

إن جلال الكعبة ينبعث من أن الله - جلت قدرته - هو الذى أمر ببنائها ووضع فيها آيات بينات أشار إليها بقوله تعالى :

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾(٨١) .

فهو ببكة أولاً ، وهو مبارك ، وهو هدى للعالمين ، وفيه آيات بينات ، وفيه مقام إبراهيم ، وفيه الأمن لمن دخله والتجأ إليه ..

وأما هداه فلأنه يجمع قلوب الناس على قبلة واحدة يعرفون بها ربهم تباكّ القوم أى ازدحموا ، والبكُّ أيضًا دقُّ العنق سميت بذلك لأنها تدق أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم ، فما قصدها جبار إلا كسره الله وأذله .

وبركة الكعبة تظهر فى مضاعفة الثواب فيها للعالمين أضعافًا حتى إن الركعة فيها بمائة ألف ركعة فى غيرها .

وأما هداه فلأنه يجمع قلوب الناس على قبلة واحدة يعرفون بها ربهم ويفردونه بالعبادة ويهتدون به إلى سواء السبيل .

وأما الآيات البينات فلما فيه من دلائل ومناسك ..

فالصفا والمروة والركن والمقام من آياته البينات ..

والطائر لا يعلو البيت صحيحًا ..

والحاج يطلب الصيد فإذا دخل الحرم تركه .

والغيث إذا كان ناحية الركن اليمانى كان الخصب باليمن ، وإذا كان بناحية الشام كان الخصب بالشام ، وإذا عم الغيث كان الخصب فى جميع البلدان .

والجمار إذا رميت بالملايين كانت على قدر واحد لا تزيد .

---

(٨١) آل عمران ٩٦ ، ٩٧ .

وزمزم من آياته ، فيها رى وغذاء وشفاء واستجابة دعاء .

أما المقام فهو مقام إبراهيم ، أى موضع رجليه – حين غسل رأسه في بيت ابنه إسماعيل وأثرت قدماه في الحجر الصلد – وهذه معجزة .

أو حين كان يقف عند بناء الكعبة وكان الحجر يرتفع ويهبط به كم يحدث من المصعد الكهربى الآن . وقد يطلق المقام على الحرم كله

أما من دخله كان آمنًا ، فلأن من عاذ بالبيت أعاذه الله ، وقد حرم ال مكة كلها بالبيت ، فيحرم الصيد فيها كما يحرم تنفير الصيد أيضًا ، و يحل قطع شجرها وقلع حشيشها – إلا الإذْخِرُ –[٨٢] والتقاط لقطتها إ لمُعَرِّف .. قال النبى – ﷺ – : إن مكة حرمها الله ولم يحرمها النا فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ، ولا يعض بها شجرة . فإن أحد ترخص بقتال رسول الله – ﷺ – فقولوا له : إ الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن الله لى فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس[٨٣].

والبلغاء يعرفون أن القرآن معجز في أسلوبه . ويعرفون أن قوله تعالى ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ خبر يقصد به الإنشاء .. أى أمِّنوا أيها النا من يدخله ولا تروعوه ، ومن روَّع حاجًا أو لاجئًا إلى الحرم فقد أثم

والفقهاء أيضًا يعرفون أن الحرم لا يعيذ عاصيًا ولا فارًا بدم ولا فا بخزية ، ولو صح ذلك لأصبح الحرم مأوى للمجرمين وقطاع الطر وسفاكى الدماء .

فإن لجأ واحد من هؤلاء لم يكلم ولم يبايع حتى يخرج من الحر فيقام عليه الحد[٨٤].

---

(٨٢) حشيش طيب الريح أطول من الثيل .

(٨٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٦ ، صحيح مسلم كتاب الحج ٤ / ١١٠ .

(٨٤) تفسير القرطبي جـ ٢ ص ١٤١ .

من أرادها بسوء قصمه الله :

وحكى ابن هشام فى سيرته قائلاً :

كان تبّع – وهو ملك اليمن – وقومه أصحاب أوثان يعبدونها قد توجه إلى مكة ، وهى فى طريقه إلى اليمن ، فاعترضه نفر من هذيل أرادوا به سوءًا ، وقالوا له :

ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال : بلى .

قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده .

– قال الهذليون له ذلك لأنهم أرادوا هلاكه ، لما عرفوا من هلاك من أراد هذا البيت من الملوك بسوء – .

فاقتنع الملك بكلام الهذليين ، وأجمع أمره أن يتجه إلى هذا البيت .

ثم أرسل إلى الحبرين اللذين كانا يلازمانه فسألهما عن ذلك فقالا :

ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتًا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دلوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعًا .

قال تبع : فماذا تأمرانى أن أصنع إذا قدمت عليه ؟

قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله ، تطوف به وتعظمه وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يمنعكما أنتما أن تصنعا ذلك ؟

قالا : أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله ، وبالدماء التى يهريقون عنده ، وهم يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك .

فعرف الملك أنهما نصحا له ، فصدقهما .

وأتى بالنفر من هذيل الذين زينوا له الاعتداء على البيت ، فقطع أيديهم وأرجلهم .

وانطلق نحو مكة ، فطاف بالبيت ، ونحر عنده ، وحلق رأسه وأقام بمكة ينحر للناس ويطعمهم ويسقيهم العسل .

وأراه الله فى المنام أن يكسو البيت ، فكساه الخُصْف(٨٥).
ثم أراه أن يكسوه أفضل من ذلك فكساه المُعَافر(٨٦).
ثم أراه أن يكسوه أفضل من ذلك فكساه المُلاء والوصائل(٨٧).

وكان تبَّع هذا هو أول من كسا الكعبة ، وأوصى بذلك ولاته من جرهم وقال تُبَّع فى ذلك شعرًا يذكر فيه كساءه الكعبة :

وكسونا البيت الذى حرَّمَ الله مُلاءً مُنَضَّدًا وبُرودا
وأقمنا به من الشهور عشرا وجعلنا لبابه إقليدا
وخرجنا منه نؤم سهيلا ورفعنا لواءنا المعقودا(٨٨)

وأمر تبَّع ولاة البيت بتطهيره ، وألا يقربوا منه دمًا ولا ميتة ولا قذرًا ، وجعل له بابًا ومفتاحًا ، وهو ما أشار إليه فى أبياته المتقدمة .

وقد ضمنت هذه القصة إحدى شاعرات مكة قصيدة فيها ابنها :

أَبُنَىَّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بُنَىَّ ولا يغُرَّنْكَ الغرور

---

(٨٥) الخصف والخصاف جمع خصفة ، كساء غليظ من خوص أو ليف .
(٨٦) نوع من الثياب .
(٨٧) الملاء جمع ملاءة ، والوصائل جمع وصيلة ثياب يمنية مخططة .
(٨٨) راجع سيرة ابن هشام ، والكعبة المشرفة لأمينة الصاوى ص ٢٤١ .

ولقد غزاها تُبَّعٌ فكسا بنيتها الحبير
وأذل ربى ملكه فيها فأوفى بالنذور
يمشى إليها حافيا بفنائها ألفا بعير
ويظل يطعم أهلها لحم المهارى والجزور
يسقيهم العسل المصفى والرحيض من الشعير(٨٩)

أبرهة والكعبة :

وحين غلب أبرهة على اليمن ، وكان يدين بالنصرانية رأى أهل اليمن يتوجهون كل عام إلى مكة فى موسم الحج ، فسأل عن ذلك فأخبروه بأن لهم بيتًا فى مكة يعظمه العرب جميعًا فهم إليه يحجون ، ويطوفون حوله ويتقربون بذلك إلى الله .

فأراد أبرهة أن يصرفهم عن ذلك .

فبنى كنيسة بصنعاء ، افتنَّ فى صنعتها ، وسماها « القُلَّيس » .

سماها بذلك لارتفاع بنائها وعلوها ، وبذلك سميت القلنسوة التى تعلو الرأس .

واستذل أبرهة أهل اليمن فى بنائها وجشمهم فيها أنواعًا من المشقة والتسخير ، وكان ينقل إليها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان – عليه السلام – وهو على فراسخ من هذه الكنيسة ، وقد استعان بذلك لتكون على ما أراده فى هذه الكنيسة من بهجة وجمال وبهاء .

ثم نصب فيها صلبانًا من ذهب وفضة ومنابر من العاج والأبنوس .

وكان يريد أن يرفع من بنائها ليشرف منها على عدن .

(٨٩) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١ والمهارى : الإبل العراب النجيبة ، والرحيض : المغسول .

وأرسل إلى النجاشى فى الحبشة يخبره أنه بنى له كنيسة لم يبن مثلها لملك قبله ، وقال له : لست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب .

ثم دعا أبرهة الناس فى مملكته أن يحجوا إلى القليس ويتركوا الكعبة ، فأبى الناس ذلك .

فلما رأى امتناعهم عليه أقسم أن يهدم الكعبة .

وأمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، وسار وخرج معها بالفيل .

وتعاظم العرب ذلك ، وأجمعوا على مقاومته وحربه ، واعترضوا طريقه ، ولكن الحظ حالفه فانتصر عليهم لغاية يعلمها الله ..

وكان معه من وسائل حربه الفيلة التى لا عهد للعرب بملاقاتها .

وظل يسير بجيشه حتى قدم مكة فأغار على أطرافها ، واستاق ماشية أهلها التى ترعى خارجها ، وأصاب مائتى بعير كانت لعبد المطلب ، يقال إنه كان قد نذرها للحرم .

وهمَّ أهل الحرم بقتال أبرهة ، ولكنهم أدركوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ، فتركوا أمره إلى الله رب الحرم ومانعه .

وأرسل أبرهة يقول لهم – جريًا على عادة الغزاة فى كل زمان – : إنى لم آت لحربكم ، وإنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تتعرضـ حرب فلا حاجة لى بدمائكم .

وكأن هذا القول منه كان إيذانًا بالفرج لأهل مكة . فإن الحرب لم يعلنها أبرهة ضدهم ، بل أعلنها بسوء أدبه على الله – جلت قدرته – ومن ذا يقدر على حرب الله ؟ لقد حفر أبرهة قبره بنفسه . وكان كالساعى إلى حتفه بظلفه ..

وأرسل أبرهة يستدعى سيد مكة . فجاء عبد المطلب ، وكان جسيمًا وسيمًا ذا هيبة ووقار ، ما رآه أحد إلا امتلأت نفسه منه إعجابًا وحبًا

وهيبة .. وقيل لأبرهة : هذا سيد قريش الذى يطعم الناس فى السهل ويطعم الوحش والطير على رءوس الجبال .

فلما رآه أكبره وأعظمه ، وأجلسه معه على سريره ، ثم قال لترجمانه : قل له : سل حاجتك .

فقال عبد المطلب : حاجتى أن يرد الملك مائتى بعير أصابها لى .

فلما قال ذلك ، قال له أبرهة : قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير هى لك ، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه ، فلم تكلمنى فيه ؟

فقال عبد المطلب فى ثقة وإيمان : إنى أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب سيمنعه منك .

قال أبرهة : ما كان أحد ليمنع البيت منى .

فقال عبد المطلب فى تحد بالغ : أنت وذاك .

فرد أبرهة على عبد المطلب إبله .

وانصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة إلى الجبال ، يهتف بالدعاء إلى الله ، يستصرخه ضد هذا المعتدى الذى جاء يعتدى على حرمة هذا البيت ويهدمه ، وقال فى دعائه وهو ممسك بحلقة الباب :

لا هم إن العبد يمنع حله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدًا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك

ثم أرسل حلقة الباب ، وهو واثق من أن الله حافظ بيته .

وانطلق هو ومن معه من أهل مكة إلى الجبال المحيطة بالكعبة ينتظرون ماذا يفعل أبرهة . وما الله فاعل به .

ها هي ذي مكة قد خلت من أهلها ، ولم يبق أحد من الناس يعترض أبرهة في طريقه إلى بيت الله الذي يزعم أنه لن يمنعه أحد من هدمه .

وانتفخت أوداج أبرهة كبرًا وعجبًا بنفسه ، وزين له الشيطان أنه وحده صاحب الحول والطول ، وأنه وحده صاحب السيادة في الجزيرة العربية كلها ، فإنه لم يجرؤ حتى الآن أن يقف في طريقه أحد ، ومن تجرأ ووقف كانت الهزيمة من نصيبه . إنه الآن بكلمة واحدة من فيه يستطيع أن يحول هذا البناء الذي يملأ النفوس حبًا وإجلالاً إلى أنقاض .

وأطلق هذه الكلمة : لتنطلق الأفيال إلى داخل مكة – وكان أبرهة يعسكر في وادي محسر .

وأسرع السائسون ينفذون أمر الملك ، ويأخذون بزمام الفيلة يقودونها للأمام . ولكن الفيلة تأبى الانقياد ، وتستعصي على الأمر . وقد كانت ذلولاً لسائسيها مطيعة لهم .

فأقبلوا يضربونها ويزجرونها دون جدوى .

ولوَوْا زمامها نحو اليمن فاستسلمت وسارت .

ووجهوها نحو الشام فانقادت وأسرعت .

ولكنهم إذا وجهوها ناحية مكة استعصت وأبت ..

فأخذهم العجب ، وأبلغوا الأمر لأبرهة فثار وصخب ، وأرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، وأصدر أوامره بأن يضربوها ويعذبوها ففعلوا ، فما ازدادت الفيلة إلا إباء وعصيانًا .

ولم يطل الأمر أكثر من ذلك ، فقد أرسل الله على أبرهة وجيشه طيرًا أبابيلَ ترميهم بحجارة من سجيل ، فتساقطوا بكل طريق ، وهلكوا على كل منهل ، وأصيب أبرهة حتى تساقط أنملة أنملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع قلبه عن صدره .

وانفلت وزيره وطائر فوق رأسه يحلق ، حتى بلغ النجاشي في الحبشة فقص عليه ما حدث ، فلما أتم قصته أسقط الطائر فوق رأسه الحجر ، فخر ميتًا بين يدى النجاشي .

لقد أراد الله أن ينقل هذا المشهد حيًا أمام النجاشي ليعلم أن الله مانع بيته وحافظ حرمه ، وأراد أن يعلمه بأن أبرهة إن كان قد اعتصم بالفيل الذى هو أضخم حيوان ، فإن الله أهلكه بطائر صغير لم يخطر له على بال ، وحطمه بحجر صغير لا يتعدى حجمه حبة البُرّ يلقيه الطائر فوق الرأس فيخرج من الدبر ، وهو في طريقه يهرىء الأمعاء ويقطع الأوصال فما يترك صاحبه إلا وقد أصبح أجزاء متناثرة .

وقد وكل الله بقدرته كل طائر بجندى من الجنود ، وعرف كل طائر صاحبه فهو فوق رأسه تمامًا لا يتخطاه .

ولو أن كل أجهزة القتال الحديثة حاولت ضبط ذلك بكل ما أوتيته من تقدم « تكنولوجى » دقيق لعجزت عن أن تقوم بما قامت به هذه الطيور الغريبة الشكل والهيئة والسلاح .

إن قدرة الله الخارقة هى التى جعلت أحد هذه الطيور محلقًا فوق رأس صاحبه يتبعه كظله في طريقه من مكة إلى الحبشة عابرًا معه البحر ، حتى يصل إلى بلاط النجاشي فيبلغه رسالته . ثم يلقى الطائر حجره فوق رأسه بعد إبلاغ الرسالة ، حتى يشهد النجاشي بعينه رهبة الحادث(٨٩) .

ولكن لا عجب ، فهى قدرة الله .. وحق لأهل الحرم أن يقولوا :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وانطوت صفحة طاغ من الطغاة .

---

(٨٩) راجع سيرة ابن هشام ، وتفسير القرطبى ، وحياة الحيوان للدميرى – مادة الفيل – .

وذهب أبرهة ومن معه عبرة لمن يعتبر وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾(٩٠).

وسجل القرآن الكريم قصة أصحاب الفيل أصدق تسجيل ، فى سورة تحمل هذا الاسم :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(٩٠)

ماذا حدث للكنيسة ؟

أما الكنيسة التى شيدها أبرهة فى صنعاء ، والتى أراد أن يصرف بها الناس عن حج بيت الله الحرام ، وكان قد بالغ فى رفعها وتشييدها وتزيينها ، واستذل أهل اليمن فى بنائها ، حتى كان حكمه فى العامل فيها إذا طلعت عليه الشمس قبل أن يعمل قطع يده ، ونفذ هذا الحكم فى عمال كثيرين .

وفى يوم نام رجل من العمال حتى طلعت الشمس ، فجاءت أمه وهى عجوز تستشفع له ، وتضرعت أمام الملك ألا يقطع يد ابنها ، ولكنه أبى إلا أن يقطع يده . فقالت : اضرب بمعولك اليوم ، فاليوم لك وغدًا لغيرك .

وكأن هذه الكلمة قد أيقظت فيه نائمًا ونبهت منه غافلاً .

فقال لها : ويحك ماذا قلت ؟

فقالت : أجل ، كما صار هذا المُلك من غيرك إليك فهو خارج من يدك إلى غيرك .

---

(٩٠) الآية ٣٢ من سورة التوبة .

ويقال : إن هذه الموعظة أثرت فيه فعفا عن ولدها ، وأعفى الناس من السخرة ، ولكن ذلك كان بعد أن أوشكت الكنيسة على الانتهاء .

أما ما حدث لهذه الكنيسة بعد هلاك أبرهة ، فقد أُغفِل أمرها ، وأقفر ما حولها ، وكثرت حولها السباع والحيات ، وحاك الناس حولها الأساطير والخرافات ، فأشاعوا أن كل من أراد أن يأخذ منها شيئًا أصابته الجن .

فتخوفها الناس ، وبقيت مهجورة بما فيها من عدد وخشب مرصع بالذهب والآلات المفضضة التى تساوى قناطير مقنطرة من الأموال إلى زمن أبى العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية .

فذكروا له أمرها وما يتهيبه الناس من أمر الجن الذى يصيب من يقترب منها ، فلم يرعه ذلك ولم يكترث له ، وبعث إليها عامله على اليمن « أبا العباس ابن الربيع » ومعه رجال من أهل الحزم والشجاعة فأتوا عليها .

واندثر هذا البنيان وانقطع خبره وضاع أثره[٩١].

احترام الأشهر الحرم :

وها نحن أولاء نرى أن الكعبة حين بنيت بادىء ذى بدء كانت بأيد طاهرة مطهرة ، فقد بنتها الملائكة أو بناها آدم – عليه السلام – .

ثم جاء إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – فرفعا قواعدها بأمر من الله بعد أن كان الطوفان قد أغرق الأرض وغطى كل جزء فيها .

وتظل الكعبة بيت الله فى الأرض يقصدها الناس حاجين ومعتمرين من كل مكان .

ومن أجل الحج والعمرة كانت الأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال ، وهى الأشهر التى كان الناس – وما زالوا – يتوافدون فيها إلى الكعبة .

---

(٩١) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٤٠٧ .

كانوا يذهبون فى رجب معتمرين .

وكانوا يذهبون فى ذى القعدة وذى الحجة والمحرم إلى الكعبة حاجين ..

وفى الأشهر الحرم يقول الحق - تعالى - :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ... ﴾(٩٢)

وكان العرب يحترمون هذه الشهور ، فإذا لقى الواحد منهم قاتل أخيه أو أبيه لا يعتدى عليه ولا يثأر منه .

ولكنهم كانوا يحتالون أحيانًا فينسأون .

ذلك .. لأنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها ، ويقولون : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئًا من عدونا لنهلكن .

فكانوا إذا صدروا من منى يقدم رجل من بنى كنانة فيقول : أنا الذى لا يُرَدُّ لى قضاء ، فيقولون له : أنسئنا شهرًا ، أى أخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر ، فيحل لهم المحرم ويُحرِّم عليهم صفر .

فمازالوا يفعلون ذلك شهرًا فشهرًا حتى استدار التحريم على السنة كلها .

فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه وهذا معنى قوله - ﷺ - فى حجة الوداع : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض »(٩٣).

---

(٩٢) من الآية ٣٦ من سورة التوبة .

(٩٣) تفسير القرطبى - سورة التوبة ص ٢٩٧٦ ط دار الشعب - سيرة ابن هشام ٢ / ٦٠٤ ط الحلبى .

وللنسيء تعليل آخر أشار إليه بعض العلماء ، وهو أن نظام الحج كان يقوم على أساس التقويم القمرى ، ولكن الذين كانوا يتولون شئون الكعبة أرادوا أن يحددوا أيام الحج وفق التقويم الشمسى ، لتقع أيامه فى موسم واحد دائمًا لأن ذلك مفيد لتجارتهم ، فاستعارت قريش مبدأ النسيء أو ما يسمى « الكبيسة » من الشعوب الأخرى وأجرتها فيما يتعلق بالحج . وتتكون السنة الشمسية من ٣٦٥ يومًا بينما السنة القمرية ٣٥٤ يومًا فهناك فارق يقدر بأحد عشر يومًا بين السنتين ، ويصل هذا الفارق إلى ثلاثة أشهر كل ثمانى سنوات . فكانت قريش تضيف إلى الشهور القمرية أيامًا بقدر هذا الفارق لكى يمشى الشهران القمرى والشمسى معًا ، وكان هذا الدوران يتم فى ثلاث وثلاثين سنة ، وهكذا استمرت قريش تقيم الحج لمدة ثلاث وثلاثين سنة متواصلة فى غير أيامه الأصلية ، وعاد إلى موضعه الطبيعى – فى ذى الحجة – فى العام العاشر الهجرى وهو العام الذى حج فيه النبى – ﷺ –(٩٤) وهذا يفسر قول النبى – ﷺ – السابق .

وقد أشرنا بتفسير النسيء الأول إلى احترام العرب للكعبة وحجاجها ، واحتيالهم بالإنساء على تحليل شهر مكان تحريمه ليأمن الحاج ، ولأنهم يتخوفون من نقض ما التزموا به من احترام هذه الشهور التى جعلها الله موسمًا لزيارة بيته .

وظل الناس على هيبتهم للكعبة واحترام زائريها ، حتى ألزموا أنفسهم أمر الرعاية والسقاية والإطعام لهؤلاء الذين يأتون زائرين البيت من شتى بقاع الأرض .

وكان الخزاعيون حين تولوا أمر الكعبة – كما سبق أن عرفنا – قد غيروا وبدلوا وأدخلوا الأصنام إلى حرم الكعبة ، فأشركوا بالله عند الإهلال له بالتلبية . وحاول من بقى من سلالة إسماعيل رد الناس إلى الحق دون جدوى .

---

(٩٤) حقيقة الحج – وحيد الدين خان – ص ١٠٠. رابطة الجامعات الإسلامية.

لقد قال إبراهيم - عليه السلام - فى دعائه ﴿واجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[٩٥] وصدق الله وعده ، فجنّبه وبنيه عبادة الأصنام .

وكانت عبادة الأصنام على يد الوافدين إلى الكعبة الذين استطاعوا فى غفلة من الزمن - لأمر أراده الله - أن يتولوا أمر الكعبة .

وبقصى بن كلاب بدأت المسيرة تتحرك بأمر الكعبة إلى الطريق الصحيح . وتحددت التبعات والمسئوليات . فقد وزع قصى الاختصاصات بين قومه ..

فهناك من يتولى الرفادة والسقاية .

وهناك من يتولى الحجابة .

وبنى دار الندوة ، وجعلها مقرًا للحكم ، ثم صارت بعد ذلك مكانًا للتشاور ، وعقد الألوية ، وفض المنازعات وإبرام مهام الأمور .

وهى أول دار بنيت بمكة ، وبنى الناس حولها بعد ذلك[٩٦].

وقصى هو الذى جمع أمر قريش بعد أن كان متفرقًا فسموه مجمعًا ، بل يقولون : إنه به سميت قريش قريشًا ، لأن التجمع هو التقرش .

وكان قصى يجلس فى دار الندوة للحكم وإدارة الشئون وتدبير الأمور ، يعاونه فى ذلك ابنه عبد مناف الذى بلغ بسبب ذلك شأنًا كبيراً .

قصى يفرض السقاية والرفادة :

لقد فرض قصى على قريش الرفادة والسقاية ، وخطب فيهم قائلاً :

يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيفان الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم .

---

(٩٥) إبراهيم

(٩٦) بلوغ الأرب للآلوسى ص ٤٨ .

ففعلوا ، فكانوا يخرجون كل عام من أموالهم خرجًا ، يترافدون ذلك ، فيدفعونه إليه ، فيصنع الطعام للناس أيام منى وبمكة ، ويصنع حياضًا للماء من أدم فيسقى فيها بمكة ومنى وعرفة .

وجرى على ذلك أمره وتوارثه أبناؤه من بعده ، حتى جاء الإسلام .

وكان قصي حين رأى ما اكتسبه ابنه عبد مناف من منزلة بين العرب أراد أن يخص ابنه عبد الدار بشيء يعلى شأنه ، فأعطاه أمر دار الندوة والحجابة وغيرهما .. ولكن الأمر ظل على ما هو عليه بين الإخوة يقومون به على خير وجه لا يختص أحد بشيء دون آخر . حتى نشأ الأحفاد ، وحدث بينهم صراع أوشك أن يشعل حربًا ضروساً ، حتى استطاع عبد المطلب بن هاشم جد النبى - ﷺ - أن يطفىء هذه الحرب ويقضى على أسباب النزاع .

جمع قومه وعشيرته وقال لهم :

سيكون لبنى عبد الدار الحجابة واللواء والندوة .

ويكون لبنى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة .

وارتضى القوم ذلك وما كادوا يرتضون .

هاشم بن عبد مناف :

ومما يدل على تعاون أبناء قصي على أمر الكعبة ورعاية الحجيج ما كان يفعله هاشم بن عبد مناف ..

وهاشم كان اسمه « عمْرًا » وهو صاحب إيلاف قريش ، وهو الذى سنّ الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف اللتين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم فى سورة قريش :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ .

وإنما سمى هاشمًا ، لأن قريشًا أصابتها سنوات عجاف ذهبت بالأموال وأصاب الناس جهد شديد ، فخرج هاشم إلى الشام ، وعاد بخبز كثير كان قد أمر بخبزه وحمله في الغرائر على ظهور الإبل ، فهشم ذلك الخبز وجعله ثريدًا ، ونحر تلك الإبل وأمر الطهاة أن يطبخوا، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة ، فكان ذلك أول الحيا من تلك المجاعة التى أصابتهم .

فسمى بذلك هاشمًا ، وفى ذلك يقول الشاعر « عبد الله بن الزبعرى » :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف[٩٧]

وكان هاشم على يسار ، واجتمعت له الرفادة مع السقاية ، وكان يحض القرشيين على إكرام الحجيج ، وإذا حضر الموسم قام فى قريش خطيبًا وقال لهم :

يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره .

عبد المطلب بن هاشم :

وبعد وفاة هاشم تولى أمر الكعبة ابنه عبد المطلب ..

وعبد المطلب اسمه « شيبة » ، ولتسميته بعبد المطلب قصة طريفة – ذلك أن أباه هاشم بن عبد مناف – وكان رجلاً شريفًا ذا مروءة فى قومه ، وفد على قيصر ، وأخذ منه الحلف لقريش على أن تسافر فى تجارتها آمنة ، وفى رجوعه مر على المدينة ، وتزوج منها بامرأة من بنى النجار اسمها « سلمى بنت عمرو بن زيد » وكانت من شريفات قومها ، وحين وُصف لها هاشم عرفت له شرفه ونسبه وفضله فقبلت الزواج منه .

---

(٩٧) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٣ .

وأولم هاشم بالمدينة وأطعم قومه وأهل المدينة .

وأقام بأصحابه بالمدينة أيامًا دخل فيها بزوجته .

وعلقت سلمى من زوجها بغلام ، وحين ولدته كانت فى رأسه شيبة فسمى « شيبة » .

ثم خرج هاشم فى أصحابه إلى الشام فمات بها ، ودفن بغزة ، وله قبر بها باق إلى اليوم .

ودرج شيبة بالمدينة حتى كبر ، ولا تكاد أخباره تعرف عند إخوته وأعمامه بمكة .

وقدم ثابت بن المنذر – وهو والد حسان بن ثابت – شاعر الإسلام إلى مكة معتمرًا ، وكان صديقًا للمطلب بن عبد مناف ، أخى هاشم .

فقال له : لو رأيت شيبة ابن أخيك لرأيت جمالاً وشرفًا وهيبة ، لقد نظرت إليه وهو يناضل فتيانًا من أخواله ، فيدخل مِرْمَاتَيْه جميعًا فى مثل راحتى هذه ويقول كلما خسق – أى أصاب – أنا ابن عمرو العلى .

فقال المطلب : لا أمسى حتى أخرج إليه فأقدم به .

فقال له ثابت : ما أرى سلمى أمه تدفعه إليك ولا أخواله ، وهم أضنُّ به من ذلك . وما عليك أن تدعه فى أخواله حتى يكون هو الذى يقدم عليك إلى ها هنا راغبًا فيك ؟

فقال المطلب : يا أبا أوس ، ما كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه ، ونسبه وشرفه فى قومه ما قد علمت .

فخرج المطلب ، فورد المدينة . فنزل فى ناحية ، وما زال يسأل عن شيبة حتى وجد يرمى فى فتيان من أخواله .

فلما رآه عرف شبه أبيه فيه ، ففاضت عيناه ، وضمه إليه وكساه حلة يمانية .

وعلمت سلمى بمكانه فأرسلت إليه تدعوه إلى النزول عليها .

فقال : شأني أخف من ذلك . ما أريد أن أحل عقدة حتى أقبض ابن أخي ، وأعود به إلى قومه وبلده .

فقالت سلمى : لست بمرسلته معك ، وغلظت عليه .

فقال لها المطلب : لا تفعلي فإني غير منصرف حتى أخرج به معي ، إن ابن أخي قد بلغ وهو غريب في غير قومه ، ونحن أهل بيت لنا شرف في قومنا ، ومقامه في بلده خير من مقامه هنا ، وهو ابنك حيث كان .

فلما رأت عزمه على ذلك أمهلته ثلاثة أيام ، وتحول المطلب إليهم فنزل عندهم ، فأقام ثلاثًا ، ثم احتمله وانطلق به عائدًا إلى مكة وقد أردفه خلفه .

ودخل المطلب مكة ظهرًا ، فلما رآه الناس ورأوا خلفه شيبة ابن أخيه ، ظنوه عبده فقالوا : هذا عبد المطلب .

فقال لهم : ويحكم ، إنما هو شيبة ابن أخي عمرو .

فلما أمعن القوم النظر فيه قالوا : إنه ابن عمرو حقًا ! . وعمرو هو هاشم – كما عرفنا – .

فغلب على شيبة اسم عبد المطلب ، كما غلب على عمرو اسم هاشم .

مآثر عبد المطلب :

ويكبر عبد المطلب ، ويتولى زعامة قريش ، وتصبح له الولاية على البيت ، ويهتم اهتمامًا كبيرًا بشئونه ، وتولى بعد عمه المطلب الرفادة والسقاية .

وكان يقدم الطعام للحجاج ، ويسقيهم الماء فى حياض صنعها من الأدم وكان يجد فى ذلك مشقة وجهدًا ، ولكنه كان يحتمل ذلك إكرامًا للبيت وصاحبه .

وشغله أمر الماء ، وجعل يسترجع بذاكرته أمر إسماعيل الذى فجر الله تحت قدميه بئرًا كانت تسقى الناس فى مكة ..

أين هذه البئر الآن ؟

أين زمزم التى كان لها ذات يوم شأن وأى شأن ؟

ألم تكن هى سبب تعمير هذه الديار وقد كانت بلاقع لا يحيا بها إنسان أو حيوان ؟

أين هى وقد طمتها جرهم التى غُلبت على أمرها وطردت من مكة ، وغيبت أثرها قبل أن تخرج ، بعد أن دفنت فيها غزالتين من ذهب ، وسيوفًا ودروعًا .. ؟

لقد شغلت زمزم تفكير عبد المطلب .

وشغل عبد المطلب معه ابنه الكبير « الحارث » فى هذا الأمر ..

إنه لم يعد فى مقدور أحد أن يعرف مكان هذه البئر التى يتناقل الناس خبرها ، تريد أن يعرفوا مكانها ..

لقد مر على ردم هذه البئر مئات السنين ، وليست هناك دلائل أو معالم معروفة تيسر الاهتداء إلى مكانها .

إنه يجب على من يريد العثور عليها أن يقلب كل شبر حول الحرم بحثًا عنها ومن ذا الذى يطيق ذلك ؟

وكاد اليأس يستولى على عبد المطلب ، ولكنه يجاهد نفسه مستمسكًا بأشعة من أمل تقوده إلى مكان هذه البئر ، التى تعينه لو اكتشفت على تقديم الماء لضيفان بيت الله .

إن غايته سامية ، ولابد أن شرف الغاية يعين بفضل الله على نيل المطلوب وتحقيق المرغوب .

وهنا تتدخل السماء مرة أخرى كما تدخلت من قبل أيام إسماعيل .

رأى عبد المطلب فى المنام من يقول له : احفر طيبة . فقال : وما طيبة؟ ولكنه لم يسمع إجابة .

وأصبح عبد المطلب فى يومه متحيرًا من أمر هذه الرؤيا ، التى لم يعرف لها تأويلا .

ثم جاءه فى الليلة الثانية نفس الصوت يقول له : احفر برَّة .. فيقول عبد المطلب : وما برة ؟

ولا يسمع جوابًا لسؤاله ، ويستيقظ ، وقد ازدادت حيرته ..

ثم يأتيه الآتى فى الليلة الثالثة فيقول له : احفر المَضنونة ، فيقول عبد المطلب : وما المضنونة ؟ أبِنْ لى وأفصح . ولكن الآتى لا يزيد على ذلك حرفًا واحدًا ، وينصرف .

وتزداد حيرة عبد المطلب ، وتصبح نفسه مهيأة لأمر لا يدرى عنه شيئًا ، ولكن تباشير الأمل تستيقظ فى داخله وتفعل فعلها فى قلبه .

إنه يخاطب من قوة مجهولة لديه ، ولابد أن هذه القوة ستفصح له عما تريد . وقد أفصحت فعلاً .

ففى الليلة الرابعة جاءه الذى يأتيه فيقول له :

احفر زمزم . فقال عبد المطلب : وما زمزم ؟

قال له الصوت : لا تُنزح ولا تُزم . تسقى الحجيج الأعظم . وهى بين الفرث والدم . عند نقرة الغراب الأعصم ، وهى شرب لك ولولدك من بعدك .

الله أكبر لقد برح الخفاء وانكشف الغطاء .

وكان غراب أعصم لا يبرح مكان الذبائح التى تنحر حول الكعبة ، يعكف على الفرث والدم الذى تخلفه هذه الذبائح .

يا لقدرة الله ، وما أشبه هذا الماء باللبن الذى يسيل من بين الفرث والدم . يقول الحق - سبحانه وتعالى - ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً

نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾(٩٨).

وقام عبد المطلب من نومه متهللاً ، وغدا بابنه الحارث إلى موضع العلامة .

ولم يكن له ولد فى ذلك الوقت سواه .

وأقبل عبد المطلب على الحفر بهمة لا تعرف الكلل ، أخذ يحفر بالمعول ، ويغرف بالمسحاة فى المكتل ، ويحمل الحارث المكتل على عاتقه فيلقيه بعيدًا ..

ومكثا دائبين على العمل ثلاثة أيام ، حتى بدا لعبد المطلب طوِىُّ البئر فكبر فرحًا ، وقال : هذا طوى إسماعيل .

وتسامعت قريش بالخبر ، وعرفت أن عبد المطلب قد أدرك الماء .

وأقبل القوم سراعًا ينازعونه فيه .. وهم الذين كانوا بالأمس يسخرون منه .

قالوا له : أشركنا يا عبد المطلب معك فى الماء .

فقال عبد المطلب – فى حزم – : ما أنا بفاعلٍ ، هذا أمر قد خصنى الله به دونكم . واحتدم النزاع بينه وبينهم ، وهو يومئذ قليل الولد ليس معه إلا الحارث . فنذر إن رزقه الله من الولد عشرة ذكور ليذبحن أحدهم قربانًا لله .

وحين اشتد الصراع اقترحوا عليه أن يتحاكموا إلى كاهنة بنى سعد هذيم ، وكانت بمعان من أشراف الشام ، وكان الناس يتحاكمون إليها فيما يهمهم من أمور ويلم بهم من خطوب .

ووافق عبد المطلب على الاقتراح .

---

(٩٨) الآية ٦٦ من سورة النحل .

وخرج ومعه عشرون رجلاً من بنى عبد مناف ، وخرجت قريش بعشرين رجلاً من قبائلها ..

آية فى الطريق :

ذكر بعض الرواة أنهم ساروا يغدون السير فى طريقهم إلى الشام ، ونفد ما معهم من ماء وأشرفوا على الهلاك ، وهم فى مفازة حارقة لا ماء فيها .

فقالوا : ما العمل ؟

وأقبلوا على عبد المطلب يطلبون رأيه ، وكانوا يعرفون فيه الحزم والأناة وحسن الرأى .

فقال : والله ما أرى إلا أنه الموت ، فليحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه ، فكلما مات رجل دفنه أصحابه ، حتى يكون آخرهم رجلاً واحدًا فيموت ضيعة ، وهذا أيسر من أن تموتوا جميعًا ضيعة .

فحفروا ، ثم قعدوا ينتظرون الموت .

ثم قال عبد المطلب : والله إن بقاءنا هكذا وإلقاءنا ما بأيدينا لعجز . ألا نضرب فى الأرض فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض الأماكن ؟

فارتحلوا ، وقام عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب .

فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، وشربوا جميعًا .

ودعا من كان قد ابتعد من الرفقاء قائلاً : هلموا إلى الماء الرواء فقد سقانا الله ، فعادوا وشربوا واستقوا .. وقالوا :

قد قضى الله لك علينا يا عبد المطلب .

إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة الموحشة ، وقد كدنا نهلك عطشًا ، هو الذى سقاك زمزم ، فو الله لا نخاصمك فيها أبدًا .

فرجعوا دون أن يصلوا إلى الكاهنة ..

وعاد عبد المطلب إلى زمزم يكمل عمله فيها .. واستخرج منها الكنوز التى دفنتها جرهم .

فضرب الغزالتين صفائح فى وجه الكعبة وكانتا من ذهب .

وعلق الأسياف على البابين ، وجعل مفتاح الكعبة وقفلها من ذهب .. لم يكن هم عبد المطلب المال .. ولكن همه كان الماء يسقى به الحجيج . وقد كفاه الله هذا الهم ، وأصبحت زمزم شربًا عامًا للحجيج ، ويسر عبد المطلب أمر نقله إلى منى وعرفات[٩٩] .

وعظم أمر عبد المطلب ، وقد حباه الله وسامة وجمالاً وحلمًا وكرمًا .

وكان يفرش له بساط فى فناء الكعبة يجلس عليه ، ولا يجرؤ أحد أن يجلس على البساط بجواره ، حتى ولد محمد - ﷺ - وكبر فكان يأتى ويجلس بجوار جده ، فيحاول أعمامه أن يحولوا بينه وبين ذلك ، فيقول جده عبد المطلب : دعوه فسيكون لابنى هذا شأن .

وسيأتى مزيد من الحديث عن زمزم بعد إن شاء الله تعالى .

قريش تبنى الكعبة :

وتولى زمام البيت بعد عبد المطلب ابنه أبو طالب ، وهو الذى كفل النبى - ﷺ - بعد وفاة جده ، وبذلك أوصاه والده .

وشاء القدر أن يشب حريق أمسك بثياب الكعبة فأحرقها وهدم بنيانها .

ونظرت قريش فرأت ذلك البيت العتيق الذى عجز أبرهة بأفياله أن يهدمه ، ووقف قبله «تبع» أمامه ذليلاً خاشعاً .. رأته محطمًا متداعيًا .. وجاء سيل اجتاح مكة وأحاط بالبيت فصدعه .

---

(٩٩) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٩ .

واجتمع القرشيون في دار الندوة يتشاورون في أمر الكعبة ، وبعد نقاش طويل وتردد كبير أجمعوا على إعادة البناء .

ولكن البناء لابد أن يسبقه هدم ليقوم على أساس متين وقد ذكر بعض الرواة أنه كانت هناك حية عظيمة تسكن بين الردم الذى حمله السيل الجارف حول الكعبة ، وجعلت تهدد كل من يحاول الاقتراب منها .

وأصبح القرشيون بين وجلين ، وجل التعرض بالهدم للكعبة التى بناها إبراهيم ، فقد يكون فى ذلك إغضاب لله .

ووجل التعرض لهذه الحية المخيفة التي ما يحاول أحد الاقتراب من البنيان إلا تهيأت فاتحة فاها ، وأصدرت فحيحًا مزعجًا ، وحاولت ابتلاعه .

ولكن الله إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه ، ويسر على الطالبين طلابه .

لقد كفى الله القرشيين شر هذه الحية ، فقد انقضت عليها عقاب من السماء فحملتها بين مخالبها إلى حيث لا يدرى أحد ..

وكان هذا إيذانًا برضا الله عن العمل الذى توشك قريش أن تقوم به . والشعر ترجمان صادق للأحداث التى تحدث ، ولا تفوته مناسبة طريفة كهذه يسجلها ، ولذلك قال الزبير بن عبد المطلب - فيما يذكره ابن إسحاق فى سيرته - فى شأن هذه الحية التى اختطفتها العقاب :

عجبت لما تصوبت العقاب ... إلى الثعبان وهى لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش ... وأحيانًا يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت ... فهبنا للبناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الزجر جاءت ... عقاب حلقت ولها انصباب
فضمتها إليها ثم خلت ... لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعد والتراب
فبوأنا المليك بذاك عزا ... وعند الله يلتمس الثواب(١٠٠)

---

(١٠٠) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٢٣١ ، باب عقاب ، وسيرة ابن هشام ، وتفسير ابن كثير .

وكانت سفينة لبعض تجار الروم قد جنحت فى البحر ، ورمت بها الأمواج على الساحل قرب جدة ، فأقبل القرشيون إليها واشتروا خشبها ليستعينوا به فى سقف الكعبة ، وتصادف أن كان مع أصحاب السفينة بنَّاء اسمه « ياقوم » فعرضوا عليه أن يقوم بالبناء فوافق . واصطحبوه معهم إلى مكة .

لقد أصبحت الأسباب مهيأة للبناء .

فما عليهم إلا أن يرفعوا الأنقاض ، ويهدموا الجدر المتداعية ، ثم يشرعوا فى العمل .

وقام رجل اسمه « أبو وهب بن عمرو بن عائذ » من بنى مخزوم فتناول من الكعبة حجرًا ، وإذا بالحجر يثب من يده ويرجع إلى موضعه من الكعبة .

فنادى قائلاً : يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنيان الكعبة من كسبكم إلا طيبًا ، لا ينبغى أن يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

لقد فهم أبو وهب من رمز وثوب الحجر من يده أمرًا عجيبًا ..

لقد أدرك بفطرته أن الله يريد منهم ألا يشرعوا فى البناء إلا بشروط صالحة ونية حسنة وإجماع تام .

وقسم القرشيون تكاليف العمل فيما بينهم ، وجزءوا البناء أجزاء .

فوقع لعبد مناف وزهرة ما بين الركن الأسود إلى ركن الحجر – وجه البيت –

ووقع لبنى أسد بن عبد العزى وبنى عبد الدار ما بين ركن الحجر إلى ركن الحجر الآخر .

ووقع لتيم ومخزوم ما بين ركن الحجر الآخر إلى الركن اليمانى .

ووقع لسهم وجمح وعدى وعامر بن لؤى ما بين الركن اليمانى إلى الركن الأسود .

وجاء دور الهدم ليقيموا البنيان ، فتوجسوا ، وبخاصة بعد أن ارتد الحجر الذى أخذه أبو وهب إلى موضعه .

ولما رأى الوليد بن المغيرة ترددهم وتوجسهم أخذ المعول ، ثم اعتلى جدار الكعبة ، وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم لا نريد إلا الخير .

وهى كلمة يقصد بها إظهار نية البر فى عمله ، ولا يقصد بها إظهار الله - جل وعلا - فى صورة المرتاع .

ثم هدم من ناحية الركنين .

فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا : ننظر فإن أصيب لا نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله ما صنعنا .

فأصبح الوليد من ليلته غاديًا إلى عمله ، فهدم وهدم الناس معه .

حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - انتهوا إلى حجارة خضر تشبه أسنة الرماح آخذ بعضها ببعض .

وحاول أحدهم أن يدخل عتلة بين حجرين ليقلع أحدهما ، فلما تحرك الحجر اهتزت مكة كلها ، فأمسكوا عند هذا الحد .

وبنوا على ذلك الأساس الذى انتهوا إليه .

وكانت كل قبيلة تجمع من الحجارة ما تقيم به الجزء الذى تعاهدت عليه .

وبدأ البناء وأخذ يعلو ويرتفع ، وكان النبى - ﷺ - وسنه إذ ذاك خمس وثلاثون سنة ، يعمل مع قومه فى البناء ونقل الأحجار ، وحين أثرت الأحجار على عاتقه تناول إزاره ورفعه على عاتقه، وإذا به يسمع صوتًا من السماء يأمره بأن يأتزر ، فغشى عليه حين سمع الصوت ، ولما أفاق أخبر عمه العباس وكان فى مثل سنه بما سمع ، وقال : لقد نهيت أن أمشى عريانًا .

النبى يضع الحجر الأسود فى مكانه :

وجاء دور الحجر الأسود ليوضع فى مكانه ، فكل قبيلة أرادت أن يكون لها شرف وضعه ، وتنازعوا فى ذلك تنازعًا شديدًا ، أوشك أن يؤدى إلى نشوب حرب ، بل إن بنى عبد الدار قربوا جفنة من الدماء وغمسوا أيديهم فيها ، كناية عن التحالف على الحرب والفناء فى سبيل ذلك .

ومكثت قريش على ذلك النزاع أربع ليال أو خمسًا .

واجتمعوا للتشاور ، وأشار عليهم أبو أمية بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان أسنَّ قريش فى ذلك الوقت بأن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة ، وارتضوا جميعًا هذا الرأى .

وتعلقت عيونهم بالباب فإذا بأول من يدخل هو النبى - ﷺ - .

ففرحوا جميعًا وهتفوا قائلين : هذا الأمين وكلنا نرضاه .

وشرحوا أمامه ما أرادوا ، فقال : هَلُمَّ ثوبًا .

وفرش الثوب ، وتناول الحجر بيده الشريفة ، ووضعه فوق الثوب ، ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل .

وجاء من كل ربع رجل ، فقال النبى - ﷺ - : ليأخذ كل منكم بطرف من أطراف الثوب ، ثم ارفعوه جميعًا ، فرفعوه ، وساروا به حتى حاذوا به الركن ، فتناوله الرسول - ﷺ - بيده الشريفة ووضعه فى مكانه من الركن .

فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبى - ﷺ - حجرًا يشد به الركن . فقال العباس بن عبد المطلب : لا ، ونحّاه ، وناول العباس رسول الله - ﷺ - حجرًا فشد به الركن .

فغضب النجدى - حيث نُحّى - ، فقال النبى - ﷺ - : إنه ليس يبنى معنا فى البيت إلا منا .

فقال النجدى : يا عجبا لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سنًا ، وأقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له ، أما والله ليفوتنهم سبقًا وليقسمن بينهم حظوظًا وجدودًا ..

ويقال : إنه إبليس – لعنه الله – تمثل فى صورة هذا النجدى . فقال أبو طالب :

إن لنا أوله وآخره ... فى الحكم والعدل الذى لا ننكره
وقد جهدنا جهده لنعمره ... وقد عمرنا خيره وأكبره
فإن يكن حقًا ففينا أوفره[101]

وقد سجل قضية التحكيم هذه هبيرة بن وهب المخزومى بشعر قال فيه :

فلما رأينا الأمر قد جد جده ... ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا : العدل أول طالع ... يجىء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا : رضينا بالأمين محمد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله ... أعم وأرضى فى العواقب والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا ... له حصة من رفعها قبضة اليد
فقال : ارفعوا حتى إذا ما علت به ... أكفهم واف به غير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعه ... فأعظم به من رأى هادٍ ومهتد
وتلك يد منه علينا عظيمة ... يروح لها هذا الزمان ويغتدى[102]

وبذلك يكون النبى – ﷺ – قد وضع الحجر الأسود بيده الشريفة ، وهو أهم ركن فى الكعبة ، وهو الذى ينبغى للمسلم أن يستلمه أو يقبله أو يشير إليه بالتحية فى حجه واعتماره .

فضل الحجر الأسود :

وقد ورد فى فضل الحجر الأسود آثار عدة تشيد بفضله .

---

(101) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٩٤ .

(102) هامش سيرة ابن هشام – محيى الدين عبد الحميد – جـ ١ ص ٢١٤ ط دار التحرير .

منها : « الحجر الأسود من الجنة »[١٠٣].

وروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – : « الحجر الأسود من الجنة ، وكان أشد بياضًا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك[١٠٤].

وروى أن : الحجر والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ، ولولا أن الله طمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب[١٠٥]. رواه الترمذى من حديث عبد الله بن عمر مرفوعًا : أن الركن الأسود والركن اليمانى ياقوتتان من الجنة ، ولولا ما طمس من نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب . وفى رواية : ولأبرءا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص .

ونحن نرى فى هذا الحجر ما ارتآه خليفة المسلمين الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قوله : والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله – ﷺ – يقبلك ما قبلتك .

ومن الآثار الواردة فى فضائل الحجر الأسود ما ذكره السيوطى عن النبى – ﷺ – : الحجر يمين الله فى الأرض فمن مسح يده على الحجر فقد بايع الله ألا يعصيه[١٠٦].

وكانت مزية الحجر الأسود معروفة متواترة ، فمن ثم حرص الناس منذ القدم على استلامه وتقبيله والتشرف بالحفاظ عليه .

وها قد رأينا كيف أوشك القرشيون على خوض حرب دامية من أجل شرف وضعه فى مكانه ، حتى وفق الله نبيه – ﷺ – إلى حل هذه المعضلة ، واختصه بأن يكون هو الذى يضعه بيمينه فى الركن ، وفى ذلك دلالة كافية على قدسية هذا الحجر ورفعته .

---

(١٠٣) رواه السيوطى فى الجامع الصغير برقم ٣٧٩٩ وفى جمع الجوامع برقم ٥١ / ١٠٤٢٦ .

(١٠٤) الجامع الصغير برقم ٣٨٠١ وفى جمع الجوامع برقم ٥٤/١٠٤٢٩ .

(١٠٥) جمع الجوامع ٥٥ / ١٠٤٣٠ .

(١٠٦) الحديث فى جمع الجوامع ط مجمع البحوث برقم ٥٩ / ١٠٤٣٤ .

القرشيون يواصلون البناء :

واستمر القرشيون بعد أن هدأت الخواطر فى البناء ، حتى انتهوا إلى موضع الخشب ، ثم جعلوا لها سقفًا ، وجعلوا لها ميزابًا ، وجعلوا فى داخلها رسومًا تفنن الرومى « باقوم » فى رسمها ، فقد رسم إبراهيم – عليه السلام – كما تخيله ، وصور بعض الملائكة ، وصورة مريم وابنها – كل ذلك من خياله – وقد بقيت هذه الصور حتى جاء الإسلام فمحا النبى – ﷺ – تلك الصور .

مساحة الكعبة :

وجعل القرشيون ارتفاع الكعبة من الخارج – من أعلاها إلى الأرض – ثمانية عشر ذراعًا ، منها تسعة أذرع زائدة على طولها حين عمرها الخليل عليه السلام، واختصروا من عرضها أذرعًا جعلوها فى الحجر لقصر النفقة الحلال التى أعدوها لعمارة الكعبة عن إدخال ذلك فيها ، ورفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ، وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين ، ثلاثًا فى كل صف من الشق الذى يلى الحجر إلى الشق اليمانى .. أما السقف فهو من خشب الدوم وجريد النخل(١٠٧) .

وفى إخراج الحجر من الكعبة يقول النبى – ﷺ – لعائشة : إن قومك استقصروا من بنيان الكعبة ، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت فيه ما تركوا منه ، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلم أريك ما تركوه منه ، فأراها قريبًا من سبع أذرع فى الحجر ، قالت عائشة : وقال رسول الله – ﷺ – فى حديثه : ولجعلت له بابين موضوعين فى الأرض شرقيًا وغربيًا ، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها ؟ قالت : لا أدرى . قال : تعززا ألا يدخلها إلا من أرادوا(١٠٨).

---

(١٠٧) مجلة الوعى الإسلامى (استطلاعات) أعداد ذى الحجة ١٣٩٦ ، ١٣٩٨ ، ١٤٠٦ .

(١٠٨) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٩٥ ، وتفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٦٥ .

الكعبة فى الإسلام :

وبعث النبى - ﷺ - فزاد من تعظيم الكعبة وجلالها ..

وكان قبل الهجرة يذهب للطواف حولها والصلاة فيها ، وينتظر مواسم الحج والعمرة ليدعو الوافدين إلى الكعبة لدين الله ..

وكم أوذى النبى - ﷺ - فيها ..

وكان يرى ما نصبه المشركون من أصنام حول الكعبة فيأسى لذلك ، ويرجو الله أن يكشف العمى عن قلوب قومه فيؤمنوا بالله واليوم الآخر ، ويتركوا عبادة هذه الأصنام التى لا تنفع ولا تضر .

واستجاب الأنصار لدعوة النبى - ﷺ - فبايعوه على نصرته عند العقبة ، ورحبوا بأصحابه مهاجرين إلى المدينة حيث العزة والمنعة ، فهاجروا فرادى وجماعات .

ثم أمر النبى - ﷺ - بالهجرة فهاجر ومعه رفيقه أبو بكر - رضى الله عنه - .

تحويل القبلة إلى الكعبة :

وكانت الصلاة قد فرضت قبل الهجرة ، ولكن القبلة كانت تجاه بيت المقدس . فكان النبى - ﷺ - يقف خلف الكعبة بين الركنين ويتجه إلى بيت المقدس فى صلاته ، وبذلك تكون الكعبة بينه وبين بيت المقدس .

فلما هاجر لم يستطع أن يفعل ذلك ، واستمر فى اتجاهه إلى بيت المقدس بضعة عشر شهرًا ، وكان يبتهل إلى الله أن يحول المسلمين إلى الكعبة فى صلاتهم حتى نزل الأمر بذلك فى قوله - تعالى - :

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(١٠٩)

واستراحت نفس النبى - ﷺ - واطمأن قلبه ، وفرح فرحًا شديدًا باستقبال الكعبة فى صلاته ، أول بيت وضع للناس .

وقد اشتد حنق اليهود وضيقهم حين رأوا المسلمين يهجرون بيت المقدس إلى الكعبة فى صلاتهم ، وإنهم ليعرفون أن هذا التحويل هو الحق - كما أخبر بذلك القرآن الكريم .

كما أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام ليس غضًا من شأن بيت المقدس أو تهوينًا لقدره . ولكنه إرجاع للأمر إلى أصوله . حيث إن الذى رفع البيت الحرام إبراهيم - عليه السلام - الذى ينتسب إليه موسى وعيسى ومحمد - ﷺ - ومن الحق اتباع الأصل لا الفرع .

وربما كانت علة اتجاه المسلمين أولاً إلى بيت المقدس أن الصلاة فرضت فى مكة ، فأمر المسلمون بالتوجه إلى بيت المقدس ليتميزوا عن المشركين الذين كانوا يتجهون إلى الكعبة . وقد أسرى بالنبى - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصلى فيه بالأنبياء ، ففى التوجه إليه إشعار بجلاله وصدق الأنبياء الذين كانوا قبله ، وفيه امتحان أيضًا لصدق إيمان من آمن ، مصداقًا لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾(١١٠) .

الكعبة قبلة الأنبياء جميعًا :

بما أن البيت الحرام فى الواقع هو قبلة الأنبياء جميعًا ، وإليه كانوا يحجون كما علمنا سابقًا ، وهو البيت الذى أضافه الله إلى نفسه من بين بيوت العبادة كلها .

---

(١٠٩) الآية ١٤٤ من سورة البقرة (١١٠) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

وفي ذلك يقول الإمام الرازى : « إن الله خص الكعبة بإضافتها إليه في قوله : بيتى ، وخص المؤمنين بإضافتهم بصفة العبودية ، وكلتا الأضافتين للتخصيص والتكريم ، فكأنه - تعالى - قال : يا مؤمن أنت عبدى والكعبة بيتى والصلاة خدمتى ، فأقبل بوجهك في خدمتك إلى بيتى وبقلبك إلَّى »[١١١]..

وأسند إلى بعض الأئمة أن اليهود استقبلوا قبلتهم لأن النداء لموسى عليه السلام جاء منه وذلك قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إلى موسى الأَمْرَ﴾[١١٢] .

والنصارى استقبلوا المشرق لأن جبريل - عليه السلام - إنما ذهب إلى مريم - عليها السلام - من جانب المشرق لقوله - تعالى - : ﴿ واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًا ﴾[١١٣].

ومعنى ذلك أن القبلة الأساسية هي الكعبة ، وإنما غير اليهود والنصارى باجتهاد منهم لا بتكليف لهم .

ومن الطرائف التي حدثت أثناء تحويل القبلة ما يرويه الرواة ، من أن النبى - ﷺ - حين نزل الأمر بالتحويل ، صلى صلاة العصر إلى الكعبة ، فخرج رجل ممن كان يصلى معه ، فمر على أهل مسجد يصلون إلى جهة بيت المقدس ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى - ﷺ - قِبَلَ مكة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت . فسمى هذا المسجد مسجد القبلتين[١١٤]، وهذا المسجد أحد المشاهد التي يحرص زوار المدينة المنورة على رؤيتها .

---

(١١١) من مقال للأستاذ صلاح الدين عبد الحميد الهادى - مجلة منار الاسلام - صفر ١٤٠٥ .

(١١٢) من الآية رقم ٤٤ من سورة القصص .

(١١٣) الآية ١٦ من سورة مريم .

(١١٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٦ .

تطهير الكعبة :

وجاء العام السادس للهجرة ، وأراد النبي – ﷺ – أن يعتمر ، فنادى فى الناس بذلك فاستجاب له ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ، وساق الهدى وأحرم ليعلم الناس أنه لم يخرج لحرب .

ولكن الكفار وقفوا دونه عند الحديبية ، وحالوا بينه وبين دخول مكة ..

وجرت السفراء بين النبى – ﷺ – وبين كفار قريش ، وانتهى الأمر بإبرام صلح الحديبية الذى يقضى بين شروطه أن يعود النبى – ﷺ – هذا العام فإذا كان من قابل أتى معتمرًا ودخل هو وأصحابه مكة بغير سلاح عدا السيوف فى قُرُبها ، ويقيم بمكة ثلاثة أيام ..

وبمقتضى هذا الصلح تحلل النبى – ﷺ – من عمرته دون أن يدخل مكة ، وحلق ونحر هديه الذى كان قد صحبه ، وكان يقدر بمائة بدنة فى بعض الأقوال ، ثم عاد فى العام التالى معتمرًا عمرة القضاء ..

وطاف النبى – ﷺ – بالبيت مشوقًا إليه معظمًا إياه ، وسعى بين الصفا والمروة . والتزم – ﷺ – بالصلح فلم يقم بمكة أكثر من ثلاثة أيام .

ولكن هذا الصلح كان تمهيدًا للفتح الأعظم . فتح مكة . فى العام الثامن فقد نقضت قريش عهدها الذى أبرمته مع النبى – ﷺ – وناصرت بكرا حليفتها على خزاعة حليفة المسلمين .

وبذلك تركت قريش الفرصة مهيأة أمام النبى – ﷺ – لفتح مكة وحاول أبو سفيان – بعد أن أحس بخطورة ما حدث من قريش فى نقضها العهد – أن يجدد الصلح ، وأن يعتذر عما حدث ، ولكنه فشل فى محاولته وعاد من رحلته إلى مكة خائبًا .

وفى رمضان من العام الثامن للهجرة دخل النبي – ﷺ – مكة فاتحًا منتصرًا . وأمكنه الله من هذه البلدة التى كذبته وآذته وطردته .

وكان أول شيء فعله النبى - ﷺ - فى مكة أنه طاف بالبيت على راحلته ، وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا مشدودة بالرصاص .

فكان كلما مر بصنم يشير إليه بقضيب فى يده وهو يقول : ﴿جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(١١٥) .

فكان الصنم يخر على وجهه ، وكان أعظم هذه الأصنام هبل ، وهو تجاه الكعبة .

وهكذا فى لحظة واحدة ذهبت الأصنام إلى غير رجعة ، وطهرت الكعبة من الأرجاس التى صنعتها الوثنية ، وأصبحت خالصة لله كما أرادها بيتًا للطهر وقبلة للإيمان ومركزًا للهدى ومأمنًا للناس ..

وهذه هى غاية الإسلام ودعوته التى بعث من أجلها محمد - ﷺ - ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَة ﴾(١١٦) .

ثم جاء النبى - ﷺ - إلى مقام إبراهيم - عليه السلام - وكان ملصقًا بالكعبة ، فصلى ركعتين .. ثم أصبحت هاتان الركعتان من مناسك الحج والعمرة ، إحياء لذكرى خليل الرحمن الذى رفع قواعد هذا البيت وأذن فى الناس بحجه .

وجلس النبى - ﷺ - فى ناحية من المسجد ، وأرسل بلالاً إلى عثمان ابن طلحة ، وطلب منه أن يأتى بمفتاح الكعبة ، فجاء به عثمان ، فأخذه النبى - ﷺ - وفتح باب الكعبة ، ثم دخل وصلى ركعتين بين العمودين من السطر المقدم وجعل الباب خلف ظهره .

وقد ذكر الرواة كيفية دخول النبى - ﷺ - الكعبة وصلاته فى داخلها ، « روى البخارى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه كان إذا

---

(١١٥) من الآية ٨١ من سورة الإسراء .

(١١٦) الآية ٥ من سورة البينة .

دخل الكعبة مشى قِبَلَ وجهه حين يدخل ، ويجعل الباب قِبَلَ الظهر ، يمشى حتى يكون بينه وبين الجدار الذى قِبَلَ وجهه قريبًا من ثلاثة أذرع ، فيصلى يتوخى المكان الذى أخبره بلال أن رسول الله - ﷺ - صلى فيه »[١١٧]. قال : وليس على أحد بأس في أن يصلي فى أى نواحي البيت .

وخرج النبى - ﷺ - بعد أن محا الرسوم التى بداخل الكعبة ومعه مفتاحها وكان الناس مجتمعين حول الكعبة فخطب فيهم خطبته المشهورة - التى عفا فيها عن أهل مكة - وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم دعا بعثمان بن طلحة ، ودفع إليه المفتاح وقال : خذوها يا بنى طلحة تالدة خالدة لا ينتزعها منكم إلا ظالم .

ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب ، وقال : أعطيتكم ما ترزؤكم ولا ترزءونها ، ويلقب العباس بساقى الحرمين ، لأنه كان يسقى الحجيج بمكة ، أما فى المدينة فقد استسقى به عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فسقى الله الناس . قال عمر حين استسقى به : اللهم إنا كنا نستسقى برسول الله - ﷺ - واليوم نستسقى بعم رسولك فاسقنا ..

ثم حانت صلاة الظهر فاعتلى بلال ظهر الكعبة فأذن ..

وقال رسول الله - ﷺ - لا تُغْزَى قريش بعد هذا اليوم أبدًا إلى يوم القيامة .

يعنى أنها اكتسبت بالإسلام عزًّا يعصمها من الغزو .

ثم بعث النبى - ﷺ - السرايا لكسر الأصنام التى كانت تعبد فى مكة وحولها ، فكسرت العُزَّى ومناة وسواع وبوانة وذو الكفين .

ونادى منادى النبى - ﷺ - فى مكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنمًا إلا كسره .

---

(١١٧) إعلام المساجد ص ١١٤ نقلاً عن عمدة القارى جـ ٩ ص ٢٤٥ .

ولما كان من الغد بعد الظهر خطب النبي - ﷺ - قائلاً :

إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام إلى يوم القيامة ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ شاهدكم غائبكم ، ولا يحل لنا من غنائمها شيء .

وطهرت مكة وما حولها ، وطهر البيت من الشرك والرجس .

وباءت الأصنام بالخذلان ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾(١١٨).

ولم يبق في الكعبة مما كان فيها قبل الإسلام إلا قرنا الكبش الذى فدى الله به إسماعيل الذبيح - عليه السلام - .

وفي وجودهما دلالة على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق كما يزعم اليهود. قال محمد بن كعب القرظي: سأل عمر بن عبد العزيز- رضى الله عنه - رجلاً من علماء اليهود - وكان قد أسلم وحسن إسلامه - : أي بني إبراهيم أمر بذبحه ؟

فقال : إسماعيل .

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن يهودًا لتعلم ذلك ولكنهم يحسدونكم يا معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله - تعالى - بذبحه ، ويزعمون أنه إسحاق أبوهم ، ومن الدليل عليه أن قرني الكبش كانا منوطين بالكعبة في أيدي بني إسماعيل ، إلى أن احترق البيت واحترق القرنان في أيام الزبير والحجاج .

قال الشعبي - رحمه الله - : رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما -: والذى نفسي بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة وقد يبس .

---

(١١٨) الآية ١٨ من سورة الأنبياء.

وقال الأصمعي : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، إسحاق كان أم إسماعيل ؟ فقال : يا أصمعي ، أين ذهب عقلك ؟ متى كان اسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه(١١٩).

الكعبة فى عهد النبى والخلفاء :

لقد عزت الكعبة بعز الإسلام ، ولم تعد تشهد فى ساحتها تلك الأصنام التى كانت تعبد من دون الله .

ولقد كان مولد النبى – ﷺ – إيذانًا بذهاب دولتها ، فقد روى الرواة أنه عند ولادته نكست الأصنام . وذكروا أن نفرًا من قريش فيهم ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، كانوا عند صنم يجتمعون إليه ، فدخلوا عليه ليلة فرأوه مكبوبًا على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه على حاله ، فلم يلبث أن انقلب انقلابًا عنيفًا ، فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة . فقال عثمان بن الحويرث : إن هذا لأمر قد حدث . وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله – ﷺ – .

وذكر بعض الرواة أنهم سمعوا هاتفًا يقول :

تردَّى لمولود أنارت بنوره ... جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب
وخرت له الأوثان طرا وأرعدت ... قلوب ملوك الأرض طرا من الرعب(١٢٠)

وأمن الناس جميعًا فى الجزيرة العربية ، حتى إن الراكب كان يأتى من أقصاها إلى الكعبة لا يخشى أحدًا إلا الله .

والتقى المسلمون على الحب بعد أن دخل الناس جميعًا فى دين الله أفواجا .

---

(١١٩) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٤٧٥ .

(١٢٠) أخرجه ابن عساكر ، وذكره السيوطى فى الخصائص ونقله النبهانى فى حجة الله على العالمين ص ١٥٧ .

وأول حج رسمى فى الإسلام كان بعد نزول الأمر بفرضه ، وكان أبو بكر أمير الحج فيه ، وذلك فى السنة التاسعة .

والحج هو سيد العبادات ففيه نقلة بالمسلم من عالم المادة إلى عالم الروح ، وفيه تجرد عن كل أثقال الحياة وتكاليفها العادية إلى حياة إلهية ربانية كل ما فيها يربطه بالله سبحانه وتعالى .. أليس مرتحلاً إلى بيت الله ؟ إنه مسيرة نحو الله ولقاء بأحباب الله وإحساس بقرب الله .

وفى العام العاشر حج النبى - ﷺ - حجة الوداع التى أرسى فيها للناس معالم دينهم وقواعده ، وعلمهم كيف يؤدون هذه الفريضة الخامسة قائلاً لهم : خذوا عنى مناسككم ، كما قال حين فرضت الصلاة : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

كيف حج رسول الله ؟

خرج النبى - ﷺ - من المدينة ومعه مائة ألف من المسلمين الذين توافدوا إلى المدينة تشرفًا بمصاحبة النبى - ﷺ - وتبركًا ، وما وصلوا مكة حتى كان عددهم قد بلغ مائة وخمسة وعشرين ألفًا .

وكان النبى - ﷺ - يركب ناقته القصواء . ولم يكن معه من الزاد شيء يذكر ..

وأهَلَّ النبى - ﷺ - بالتلبية بعد أن أحرم بنية الحج والعمرة . وكانت تلبيته هى ما يلبى به المسلمون اليوم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وقطع المسافة بين المدينة ومكة فى تسعة أيام من الخامس والعشرين من ذى القعدة حتى الرابع من ذى الحجة . وحين وقع بصره على البيت هتف قائلاً : اللهم زد بيتك هذا تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة .

وبدأ بالطواف ، لأن تحية المسجد الحرام الطواف .

ودنا من الحجر الأسود فاستلمه وهو يقول : باسم الله .. الله أكبر .

ثم طاف حول البيت سبع مرات بادئًا من يمينه جاعلاً البيت على يساره ، وهرول فى الأشواط الثلاثة الأولى، ثم تمهل فى الأشواط الأربعة الباقية جاعلا رداء الإحرام على كتفه الأيسر ، وكاشفًا الكتف الأيمن .

وكان كلما مر أمام الحجر الأسود الذى بدأ الطواف منه بعد أن استلمه يشير إليه ويستلمه بعصاه .

وكان يردد قوله تعالى - بين الحجر الأسود والركن اليمانى - : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[١٢١].

وبعد أن انتهى من الطواف تقدم إلى مقام إبراهيم وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾[١٢٢] ثم صلى ركعتين .

ثم عاد إلى الحجر الأسود فقبله .

ثم توجه إلى الصفا والمروة وقال : « إن الصفا والمروة من شعائر الإسلام . أبدأ بما بدأ الله به » .

وصعد الصفا ، ونظر إلى الكعبة قائلاً : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ونزل من الصفا واتجه إلى المروة ساعيًا بينهما، وكان يهرول بين العلامتين المعروفتين بالميلين الأخضرين الآن ، ويمشى بالسرعة العادية فى غيرهما . وعندما وصل إلى المروة اعتلاها ونظر إلى الكعبة وهلل وكبر ودعا ثم عاد إلى الصفا ، وهكذا سبعة أشواط . وانتهى الشوط السابق عند المروة .

ثم توجه إلى الأبطح حيث كان يقيم حتى جاء اليوم الثامن من ذى القعدة فتوجه إلى منى . وبات بها ، ثم انطلق إلى عرفات فى اليوم التاسع قبل طلوع الشمس ، ونزل بخيمة نمرة بوادى عرفة .

---

(١٢١) الآية ٢٠١ من سورة البقرة. (١٢٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

وكان اليوم يوم جمعة ، وحين زالت الشمس خطب خطبة الوداع الجامعة وأمر بلالاً أن يؤذن للصلاة فأذن . فصلى رسول الله - ﷺ - صلاتى الظهر والعصر قصرًا وجمعًا ، بأذان واحد وإقامتين .

وبعد انتهاء الصلاة توجه إلى الموضع المعروف بالموقف وأخذ يدعو ربه وهو على ناقته ومن بين هذا الدعاء الخالص قوله :

« اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، لا يخفى عليك شيء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنوبى ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذل جسده ، ورغم أنفه لك . اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفًا رحيما ، يا خير المسئولين ويا خير المعطين » .

وبعد خطبة الوداع نزل قوله - تعالى - : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا(١٢٣) ﴾ .

وبعد غروب الشمس توجه النبى - ﷺ - إلى المزدلفة ، وأردف خلفه أسامة بن زيد على راحلته ، وظل يكبر طول الطريق إلى المزدلفة .

وفى المزدلفة أمر بلالاً أن يؤذن، ثم صلى المغرب- ثلاث ركعات- والعشاء- ركعتين جمع تأخير بأذان واحد وإقامتين، ولم يصل غير الفرض .

ثم استراح ونام ليلته حتى الفجر ، وصلى الفجر مبكرًا فى صبيحة يوم العاشر من ذى الحجة ، ثم ركب راحلته إلى المشعر الحرام ، واتجه إلى القبلة وظل يدعو إلى أن تبدد الظلام وأسفر الصبح ، وظل يكبر دون انقطاع .

وأمر الفضل بن عباس وكان رديفه أن ينتقى له سبع جمرات ، وسار متجهًا إلى منى . وعند وصوله إلى وادى محسر أمر الناس بمجاوزته بسرعة ،

---

(١٢٣) الآية ٣ من سورة المائدة.

وحث ناقته على الإسراع ، لأن ذلك المكان هو الذى نزل فيه العذاب على أصحاب الفيل .

وجاء إلى جمرة العقبة ، وجعل مكة على يساره ومنى على يمينه ، ورمى – وهو على راحلته – سبع جمار ، جمرة بعد جمرة وهو يكبر .

وأوقف التلبية بعد رمي الجمرات .

وعاد إلى منى ، ثم جمع للناس خلاصة الدين فى كلمات قلائل من جوامع كلمه حيث قال : « اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، واطيعوا إذا أمرتكم تدخلوا جنة ربكم »(١٢٤).

وخطب الناس بمنى ، ثم توجه إلى مقام النحر حيث نحر بيده الشريفة ثلاثًا وستين بدنة ، وأمر عليًا أن يكمل المائة .

وحلق شعره وقلم أظفاره .

وامتطى راحلته متوجهًا إلى مكة ، وأدى طواف الإفاضة قبل الظهر .

وبعد الطواف شرب من ماء زمزم وهو واقف ، ثم عاد إلى منى فبات بها ليلته .

وفى اليوم الحادى عشر عند زوال الشمس توجه لرمي الجمار ، فرمى الجمرة الأولى بسبع حصيات ، ثم الجمرة الوسطى بسبع حصيات ، ثم جمرة العقبة بسبع حصيات وكان يكبر عند كل جمرة ..

وأقام بمنى يومى الثانى عشر والثالث عشر وهو يقصر الصلوات دون جمع ثم خرج إلى مكة بعد زوال الثالث عشر من ذى الحجة وأقام بالأبطح يومًا وليلة ، وقبل فجر اليوم الرابع عشر ذهب إلى الحرم ، وطاف طواف الوداع وأدى صلاة الفجر بالكعبة .

وعاد – ﷺ – بالمهاجرين والأنصار إلى المدينة .

---

(١٢٤) أخرجه أحمد عن أبى نضرة .

وكانت مدة إقامته فى مكة منذ وصوله إليها حتى خروجه منها عشرة أيام(١٢٥).

لقد عظم النبى - ﷺ - الكعبة بيت الله الحرام ، وحياها أعظم تحية ، وكساها الحبرات ، وعظمها خلفاؤه من بعده .

وأصبحت ملجأ يلجأ إليه المظلومون يحتمون بحماها ويأمنون فى جوارها .

وبمناسبة كسوة النبى - ﷺ - الكعبة نتحدث عن :

كسوة الكعبة :

عرفنا مما سبق أن أول من كسا الكعبة بعد إسماعيل - عليه السلام - هو تُبَّع ملك اليمن حين زار الكعبة وعظم البيت ، وأُرِىَ فى المنام أن يكسو الكعبة فكساها بالخصف ، ثم كساها المعافير ، ثم كساها الملاء ، وقد أنشد فى ذلك شعرًا :

وكسونا البيت الذى حرَّم الله مُلاءً منضدًا وبُرودًا

وأوصى خلفاءه من بعده بملازمة كسوتها وتعظيمها ، فكانوا يكسونها الوصايل والعصب والمسوح والأنطاع(١٢٦)..

وظل الناس يداومون على كسوة الكعبة تقربًا إلى الله فيهدون إليها ما يستجيدونه من أنواع الثياب ..

وأوجب قصى بن كلاب حين آل إليه أمر البيت على قريش القيام بكسوة الكعبة ، فكانت تكسى كل عام ، يتعاونون فى ذلك ، حتى جاء أبو ربيعة

---

(١٢٥) راجع فى ذلك الطبقات الكبرى - سيرة ابن هشام - كتب السنن باب الحج - حقيقة الحج لوحيد الدين جان ص ٨٩ .

(١٢٦) الوصايل : أثواب حمر مخططة ، والعصب : أثواب يمنية يشد المصبوغ منه مع غير المصبوغ فيظهر مُوَشّى ، والمسوح : أثواب من الشعر ، والأنطاع : أثواب من الجلد والخصف : ثياب غليظة ، والمعافير : ثياب تنسب إلى معافر وهو حى من همدان .

المخزومى الملقب بالعدل . فقال : أنا أكسو الكعبة عامًا ، وقريش كلها تكسوها عامًا ، ولقب العدل لذلك .. والتزم بذلك طول حياته ..

وفقدت أم العباس بن عبد المطلب ابنها « ضرارا » يومًا ، فنذرت لئن رد الله عليها ابنها لتكسون الكعبة ، فُردَّ ابنها إليها .. فكستها الحرير والديباج .

وكانت الكسوة الجديدة تطرح فوق الكسوة القديمة لا تخلع عنها ..

وحين جاء الإسلام وفتحت مكة ، كسا النبى - ﷺ - الكعبة ثيابًا يمنية ، وسار على هذه السنة خلفاؤه من بعده ، وقد كساها كل من عمر وعثمان ثيابًا رقيقة من مصر يطلق عليها « القباطى المصرية » .

وفى خلافة معاوية جعل الكسوة مرتين فى العام بدلاً من مرة واحدة ، كان فى عاشوراء يكسوها الديباج ، وفى آخر رمضان يكسوها القباطى ..

وظل الجديد يطرح على القديم حتى خشى على البناء من الهدم ، ورفع هذا الأمر للمهدى العباسى حين حج ، فأمر بأن تجرد من كسوتها القديمة ولا يبقى عليها إلا الكساء الجديد . وهكذا يفعل كل عام ، وارتضى المسلمون ذلك . وظل الأمر على هذا الحال حتى وقتنا هذا .

وزاد المأمون كسوة ثالثة فى العام ..

كان يكسوها القباطى فى أول رجب ، والديباج الأبيض فى ليلة القدر ، والديباج الأحمر فى يوم التروية .

لقد راعى مناسبات جليلة فى الكسوة ..

والواقع أن العباسيين بذلوا عناية كبيرة فى كسوة الكعبة وتطريزها واختيار ألوانها ونقشها وحياكتها ، وفتحوا الباب لمن جاء بعدهم فى هذا الميدان ..

وخلعوا شعارهم « اللون الأسود » على كساء الكعبة الذى ظل ملتزمًا حتى الآن ..

وظل العباسيون يعتنون بأمر الكسوة حتى سقطت الخلافة العباسية ، فانتقلت العناية بها إلى مصر. حيث قامت بهذا الأمر بالتناوب بينها وبين اليمن حينا .

كان الملك الظاهر بيبرس فى مصر هو أول حاكم اهتم بكسوة الكعبة المشرفة بعد انقضاء دولة العباسيين وكان ذلك فى سنة ٦٥٨ هـ وقام بعده فى العام الذى يليه الملك المظفر ملك اليمن بكسوتها عام ٦٥٩ هـ .. وظل الأمر كذلك حتى استقر الأمر نهائيًا فى مصر ..

ففى عام ٧٥١ هـ خصص الملك الصالح إسماعيل بن قلاوون ملك مصر وقفًا لكسوة الكعبة الخارجية وجعلها سوداء ، ولكسوة الكعبة الداخلية وجعلها حمراء ، ولكسوة الحجرة النبوية الشريفة وجعلها خضراء . على أن تكون كسوة الكعبة الخارجية مرة كل سنة ، وكسوتها الداخلية وكسوة الحجرة النبوية مرة كل خمس سنوات ..

لقد كان الملك الصالح يكسوها على نفقته - فقد خصص لذلك - وقفًا ظل يستغل فى هذا الأمر الطيب من بعده ، حتى جاء محمد على بعد ذلك بقرون فحل هذا الوقف ، وجعل نفقة الكسوة الخارجية على عاتق الحكومة المصرية .

وتولت تركيا أمر الكسوة الداخلية وكسوة الحجرة النبوية الشريفة..

وكانت مصر تحتفل بإرسال الكسوة كل عام فى منتصف شهر ذى القعدة ، ويخرج الناس فى ذلك اليوم الذى تعطل فيه الأعمال الرسمية يشاهدون ركب «المحمل» - وقد ابتدعت فكرته - شجرة الدر - وقد استعرضت فوقه قطع الكسوة ، ويصبح يومًا مشهودًا تكثر فيه الدعوات والابتهالات إلى الله ويهنىء الناس بعضهم بعضًا .

وكانت الكسوة تصنع فى مدينة « تنيس » المصرية شمال دمياط ، وكانت تشتهر بالمنسوجات الثمينة . ثم أقيمت لها دار فى القاهرة خاصة بها . لها إدارة تشرف عليها وموظفون وعمال مخصصون لهذا العمل .. كانوا يقومون

بمصنع : ثماني ستائر من الحرير الأسود المكتوب بالنسيج فيه : لا إله إلا الله . محمد رسول الله . وستارة لباب الكعبة ، وستارة لباب التوبة ، وكسوة لمقام إبراهيم ، وستارة للمنبر الشريف ، وكيس لمفتاح بيت الله الحرام .

وظلت مصر حريصة على إرسال هذه الكسوة كل عام حتى عام ١٣٨٣ هـ .

وأنشأت الحكومة السعودية مصنعًا خاصًا بذلك ، ومنذ ذلك الوقت ، أصبحت كسوة الكعبة الشريفة التزامًا سعوديًا ..

تقوم الحكومة السعودية بإلباسها الكعبة فى التاسع من شهر ذى الحجة من كل عام وهو يوم عرفة .. ويطوف الحجاج طواف الإفاضة فيرون الكعبة فى حلتها الجديدة وكسائها الرشيق البهيج[١٢٧].

لقد دخلت كسوة الكعبة فى ميدان الفقه الإسلامى حتى ذكر الفقهاء أنه من نذر أن يكسو الكعبة فعليه الوفاء بذلك لأنه يندرج تحت قوله - ﷺ - : من نذر أن يطيع الله فليطعه[١٢٨].

كما أن الشافعى أفتى بقطع يد سارق ستارة الكعبة ، لأنها تعتبر فى حرز .

وإن كان أبو حنيفة قال : لا قطع عليه لأنها ليست ملكًا لأحد .

إنها زينة للكعبة وجمال لها ، ومتعلق من متعلقاتها ينبغى احترامه والحفاظ عليه والتعدى عليه - مهما كانت نية صاحبه - امتهان للكعبة وحرمتها نعوذ بالله منه .

حصار حول الكعبة :

رشح معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية ابنه يزيد للخلافة من بعده ، وأخذ البيعة له .

---

(١٢٧) أعتمدنا فى معلومات هذا الفصل على ما كتبه الأستاذ عبد الستار فيض فى مجلة الوعى الإسلامى عدد ٢٨٧ ذو القعدة ١٤٠٨ هـ.

(١٢٨) اعلام الساجد ص ٢١٠ .

ولكن بعض المسلمين أبطأوا عن ذلك .

وكان ممن أبطأوا عبد الله بن الزبير الذى اعتصم بالكعبة ممتنعًا بها .

وأرسل إليه « يزيد بن معاوية » « مسلم بن عقبة » والى المدينة فى جيش كثيف ، ولكنه ماتَ فى الطريق ..

وكان عندما أحس بالموت قد اختار أحد جنوده الذين يثق بهم وهو «الحصين بن نمير الكندى» ، لينفذ ما أوصى به يزيد ، وأوصاه أن يشتد فى قتال عبد الله بن الزبير .

ومضى الحصين بن نمير إلى مكة .

وحاصر عبد الله بن الزبير الذى كان محتميًا بالبيت الحرام .. ولما لم يلن عبد الله أمام الحصار . نصب « الحصين بن نمير » المنجنيق على جبل أبى قبيس وعلى الجبل الأحمر ، وهما يحيطان بالكعبة المشرفة ..

ولم يرع حرمة هذا المكان ، ولم يتذكر أنه أول بيت وضع للناس ، وكأنه لم يقرأ قوله – تعالى – : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ .

وأخذ يقذف عبد الله بن الزبير بحمم من نار ، فأصابت قذائفه الكعبة فأحرقتها وهدمتها .

ويقال : إنه سُمع للكعبة أنين حين أصابتها قذائف المنجنيق الملتهبة .

وأصابت القذائف الحجر الأسود ، وتصدع ثلاث قطع ، وتمكن عبد الله بن الزبير من ضم هذه القطع بعضها ببعض وشدها بالفضة ، وثبَّتها فى مكانها إلا شظية منه انفصلت ولم يعثر لها على أثر .

وتألم الناس فى كل مكان لما أصاب الكعبة من تهدم وحزن كثير من المسلمين لهذا الشقاق الذى أصاب المسلمين وتألموا بسبب تلك الفتنة التى أصابتهم جميعا بكثير من البلاء .

وبعد موت يزيد فك الحصينَ بن نمير الحصار عن الكعبة .

وأراد عبد الله بن الزبير أن يعيد بناء الكعبة من جديد ، فاستشار وجوه المسلمين ، فوافقوا جميعًا على بنائها ، فقد أصبحت فى حال يرثى لها ، بعد أن انهارت جدرانها ، واحترق سقفها ، وتبعثرت أحجارها .

وكان من رأى ابن عباس -- رضى الله عنهما - أن ترمم فقط ، وتترك على ما كان رسول الله - ﷺ -- قد اشترك فى بنائها ، وخشية أن يجيىء بعد ابن الزبير من يهدمها ويعيدها إلى ما كانت عليه .

لكن ابن الزبير استشهد بالحديث الذى ذكرته خالته عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وفيه يقول النبى - ﷺ - لعائشة : لولا حداثة عهد قومك بالكفر لأعدت فى البيت ما تركوا منه ..

ولما رأى ابن عباس تصميم ابن الزبير على بنائها -- ولا بناء إلا بعد إزالة الأنقاض وهدم ما تداعى من جدران - قال لابن الزبير : أحذرك أن تترك المسلمين بغير قبلة يتجهون إليها فى صلاتهم ، انصب لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليه الستور حتى يطوف الناس من ورائها ، وبعد الفراغ من البناء أزل ما نصبته من خشب .

ففعل ابن الزبير ذلك ، وأحاط الكعبة بسياج من أخشاب كان الناس يتجهون إليها ويطوفون حولها ، والعمل من داخل هذه الأخشاب قائم على قدم وساق فى تعمير الكعبة .

وحين هم ابن الزبير بالبناء نقل ما كان بداخل الكعبة من كنوز إلى دار شيبة بن عثمان ، وأعد الحجارة وآلات البناء .

ولما تقدم للهدم ليقيم البناء رفض الناس معاونته خوفاً ، بل إن كثيراً منهم هرب من مكة ، أو فر إلى رءوس الجبال .

فأخذ عبد الله المعول بيده ، وأقبل يهدم ويرمى بالحجارة ، فلما رأى الناس أنه لم يُصب بسوء تقدم كثير منهم فساعدوه ، ومنهم بعض الأحباش الذين استأجرهم لهذا العمل ، وكانوا بين المتلكئين فى الاستجابة له فى بادىء الأمر .

وأخذ ابن الزبير الحجر الأسود ولفه بديباجة ووضعه فى صندوق أغلقه ، واحتفظ به فى دار الندوة .

واستمر الناس فى الهدم وكشف الأساس حتى وصلوا إلى القواعد التى بنى عليها إبراهيم – عليه السلام – .

وحين حاولوا التعمق فى الحفر أكثر من ذلك لفحتهم نار حامية فابتعدوا مسرعين .

لقد ظهرت قواعد إبراهيم – عليه السلام – قوية متماسكة عجيبة الشكل واللون ..

إن هذا يدل على أن الله أرسى قواعد البيت بحكمته ، فلا دخل لبشر فيها ولا يحق لأحد أن يتدخل فى تغييرها وتبديلها وتعميقها..

وقد عرفنا – سابقًا – أن مكة زلزلت حين أراد أحد القرشيين نزع حجر من أحجار القواعد من مكانه ، وها هى ذى الآن نجد نارا حامية توشك أن تلفح رجال ابن الزبير حين حاولوا تجاوز هذه القواعد .. فما أرفع شأن هذا البيت وما أعظم مكانته ..

إن على الناس – عند الضرورة – أن يرفعوا الجدران فوق القواعد ، أو أن يجددوا البناء ، أو يزينوه ويجملوه ويكسوه .. دون مساس بهذه القواعد التى أرستها حكمة الله .

وعلى هذه القواعد بنى عبد الله بن الزبير الكعبة .

والتزم فى بنائه ما أشار به النبى – ﷺ – ذات يوم حين قال لعائشة «لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وبنيتها على قواعد إبراهيم » ..

فأدخل فيها الحِجْر .. وزاد فى طولها تسعة أذرع . فصار طولها سبعة وعشرين ذراعًا . وجعل لها بابين متصلين بالأرض ، وجعل فيها ثلاث دعائم فى صف واحد ، وجعل لها درجة فى ركنها الشامى يصعد منها إلى سطحها ، وجعل لها ميزابًا يصب فى الحجر ، وجعل فيها نوافذ للضوء .

حيلته فى وضع الحجر الأسود مكانه :

وخشى ابن الزبير الفتنة التى حدثت أيام بناء القرشيين للكعبة عند وضع الحجر الأسود. فقد ذكر الأزرق فى « أخبار مكة » أن ابن الزبير أوعز إلى ابنه عباد وإلى جبير بن شيبة بن عثمان أن يحملا الحجر الأسود فى ثوب ويخرجاه وهو يصلى الظهر – وكان يومًا شديد الحر – ويضعاه فى مكانه من الركن. وقال لهما : سأطيل الصلاة حتى تفرغا. فإذا فرغتما فكبرا لأخفف الصلاة.

ونفذ الرجلان ما أراده ابن الزبير– وكان الذى وضعه بيده هو عبّاد وأعانه جبير – وقيل : وضعه بيده حمزة بن عبد الله بن الزبير بأمر أبيه(١٢٩) ولما انتهيا كبرا، فخفف ابن الزبير من صلاته وسلم. وتسامع الناس بالخبر فغضبوا وثارت ثائرتهم.

ولكن ابن الزبير هدأ من ثائرتهم، وأخبرهم أنه أراد بذلك قطع الخلاف بينهم .. فسكتوا.

وبعد أن انتهى من البناء مسح جوفها بالعنبر والمسك، ودهن جدرانها من الخارج بالمسك والعنبر، ثم كساها كسوة حسنة من الديباج والقباطى، وجعل لها قفلاً ومفتاحًا من الذهب وحلاها بالذهب، وأعاد إليها ما كان قد أودعه بيت شيبة بن عثمان من كنوز وحلى وثياب، ولم يهمل الساحة حول الكعبة، فسواها ونظفها وجعلها ناعمة الملمس جميلة المنظر.

لقد بذل ابن الزبير فى بناء الكعبة غاية جهده، وقد وضع نصب عينيه حديث رسول الله – ﷺ – الذى سمعه من خالته أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – وعبد الله هو ابن أسماء بنت أبى بكر، وأبوه هو الزبير بن العوام حوارى رسول الله – ﷺ – وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

---

(١٢٩) نقل ذلك السهيلى عن الزبير بن بكار. وراجع الخبر فى مكة المشرفة لأمينة الصاوى وفي مجلة الوعى الإسلامي عدد ذى الحجة ١٣٩٨ هـ.

وبعد أن فرغ من البناء والتزيين والتحسين خطب فى الناس قائلاً لهم : أيها الناس من كانت عليه طاعة فليعتمر من التنعيم . - وهو أقرب حل إلى الحرم اعتمرت منه عائشة - رضى الله عنها - وبه مسجد يقال له مسجد عائشة - ثم دعاهم إلى التقرب إلى الله بالنحر والتصدق بما يستطيعون ، اعترافًا بالنعمة وحمدًا لله على توفيقهم أن أعادوا للكعبة هيئتها وبهجتها وجمالها .

وخرج راجلاً هو وبعض التابعين ، فأحرم بالعمرة من ذلك المكان الذى دعا إليه ، وأقبل إلى البيت طائعًا خاشعًا شاكرًا أنعم ربه ، وأهدى للبيت مائة بدنة ، نحرت جميعا جهة التنعيم ، ولم يبق أحد من أشراف مكة لم يقدم لله هديا ، وكان يومًا مشهودًا كثرت فيه الصدقات والهبات وعتق الرقاب والبكاء والدعاء .

الكعبة والحجاج :

لقد تحرى ابن الزبير جهده أن تكون الكعبة المشرفة عند تجديدها على الصورة التى أشار إليها النبى - ﷺ - .

ولكن الأحداث السياسية التى جرت بعد ذلك لم تترك الأمر على ما هو عليه .

فقد تولى عبد الملك بن مروان الخلافة ، وولى الحجاج بن يوسف الثقفى إمارة الجيش المتوجه لحصار ابن الزبير فى مكة المكرمة ولجأ ابن الزبير إلى الكعبة فحاصرها الحجاج ودارت المعارك حول الكعبة وانهالت عليها القذائف وانتهت المعركة بقتل ابن الزبير بعد تهدم الكثير من جدران الكعبة ، واحترقت ستائرها حتى أصبحت رمادًا .

وأراد الحجاج أن يمحو كل أثر لابن الزبير .

فكتب لعبد الملك بن مروان يستأذنه فى هدم الكعبة ، وإعادة بنائها على ما كانت عليه قبل ذلك ، واتهم الحجاج ابن الزبير فى رسالته أنه بناها على

أساس نُظِرَ إليه بعين الغضب من أهل مكة ، وابتعد به كثيرًا عن البناء الذى كانت قريش قد أقامته ، واشترك فيه رسول الله - ﷺ - بنفسه ، فقد زاد فى البيت ما ليس فيه ، وأحدث فيه بابًا آخر ، ونزل بالبابين اللذين جعلهما إلى الأرض ..

فكتب عبد الملك إلى الحجاج يقول : إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شيء . أما ما زاده فى طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه ، وسُد الباب الذى فتحه ..

وكان الحجاج ينتظر هذا الخطاب بفارغ الصبر ، فأقبل على البناء فهدم منه ستَّة أذرع وشبرًا - هى ما أضافه ابن الزبير إلى الكعبة من حجر إسماعيل- وأعاد بناءها على أساس قريش التى قد أقتصرت عليه بسبب الإنفاق وعجزت عن إقامتها كما كانت، وكبس أرضها بما هدم منها وسد الباب الغربى الذى فتحه ابن الزبير . وكان ذلك فى سنة ٧٣ هـ .

ثم كتب إلى عبد الملك بما فعل ..



عبد الملك يندم :

وجاء عبد الملك معتمرًا ، وجعل يطوف حول الكعبة وقال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين . وكان الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى حاضرًا . فقال له : يا أمير المؤمنين ، أنا سمعت منها ما سمعه ابن الزبير .

فقال عبد الملك : وما سمعت ؟

قال : سمعت منها أن النبى - ﷺ - قال لها : يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت البيت حتى أزيد فيه من الحجر ، فإن قومك قصروا فى البناء ، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه ، فأراها قريبًا من سبعة أذرع - ولجعلت لها بابين موضوعين فى الأرض شرقيًا وغربيًا - هل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها ؟ قالت : قلت لا ، قال :

تعززًا أن لا يدخلها إلا من أرادوا ، فكان الرجل إذا أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقى ، حتى إذا كاد أن يدخل دفعُوه فسقط .

فقال عبد الملك للحارث : أنت سمعتها تقول هذا ؟

قال : نعم .

قال : وددت أنى تركت ابن الزبير وما تحمل[١٣٠].

ويبدو أن عبد الملك ندم وحزن ، وتمنى أن لو كان لم يأمر الحجاج بنقض ما بناه ابن الزبير الذى تحرى فيه رغبة رسول الله - ﷺ - .

وعاد إلى دمشق مهمومًا حزينًا ، وقيل : إنه ظل يردد : لعنة الله على الحَجاج ، لعنة الله على الحَجاج .

واستشار العلماء وأصحاب الرأى أن يعيد البناء كما بناه ابن الزبير ولكنهم قالوا له : ليست الكعبة ملعبَة للملوك والأمراء .

فسكت عبد الملك وهو حزين ..

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان يحب أن يرد الكعبة إلى ما بناه ابن الزبير . حين أخبره عمر بن عبد العزيز لما سأله عن ذلك . وما منعه من ذلك إلا أن الحجاج فعل ما فعل بأمر أبيه ، أو لأن العلماء حذروه من ذلك .

وقد بدا لهارون الرشيد الخليفة العباسى أن يحقق رغبة رسول الله - ﷺ - واستشار الإمام مالكًا - رضى الله عنه - فى ذلك . فقال له :

ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ألا تجعل بيت الله ملعبة ، فتذهب هيبته من صدور الناس ، ويهون أمره عليهم .

فأمسك هارون عن عزمه .

---

(١٣٠) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٦٥ ، وقد روى مسلم حديث عائشة .

لقد نظر مالك إلى قضية أصولية وهى : درء المفاسد أولى من جلب المصالح . لقد أفتى الفقهاء بعدم تعرض الملوك لبناء الكعبة احترامًا لها وحفاظًا على قدسيتها ، أما من شاء منهم أن يكسوها ويحسنها ويجملها فليفعل ، ومن شاء أن يعمر الحرم فلا بأس بذلك .

ولذلك حين جاء الوليد بن عبد الملك خليفة للمسلمين أرسل بستة وثلاثين ألف دينار ، فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب ، وعلى ميزابها ، وعلى الأساطين والأركان فى جوفها .

فكان الوليد هو أول من ذَهَّبَ الكعبة فى الإسلام .

وفى عهد الأمين العباسى جُدد الذهب وأعيدت صياغته وأضيف إليه بما تقدر قيمته بثمانية عشر ألف دينار ..

القرامطة والحجر الأسود :

فى سنة مائتين واحدى وتسعين ظهرت فتنة القرامطة بقيادة زعيمهم أبى طاهر القرمطى ، وكان طاغية زنديقًا ، وهاجم هؤلاء القرامطة الكعبة فى جيش كثيف وقتلوا الحُجاج ، ووقف زعيمهم فوق الكعبة يقول :

أنـا بالله وبالله أنـا يخلق الخلق وأفنيهم أنـا(١٣١)

لقد بلغ من جرأة هؤلاء المارقين أن سفكوا دماء المسلمين فى الأشهر الحرم ، وقتلوا الحُجاج ، واقتحموا الحرم المكى والمسجد الحرام ، وملأوه بالجثث وردموا بئر زمزم ، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه ، وأخذ شيطانهم يقول :

ولو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهلية محللة لم تبق شرقًا ولا غربًا

أى دخلوا البيت الحرام بملابس الحل فى أشهر الحج ، ودون أن يحرموا .

---

(١٣١) دول الإسلام للذهبى جـ ١ ص ١٧٥ ، ١٧٨ .

وقال مخاطبًا الحجاج : يا حمير إنكم تقولون : من دخله كان آمنًا . ثم قلع الحجر الأسود وحمله معه إلى هجر[١٣٢].

لقد روع هذا الطاغيةُ الأحمقُ الآمنين ، وانتهك حرمة البيت الحرام ، وقتل كما جاء فى بعض الأقوال ألفًا وسبعمائة محرم ، وفى بعض الأقوال الأخرى : قتل ثلاثة عشر ألفًا من الرجال والنساء ، ونهب ما فى الكعبة من حلى ، وجردها مما هو عليها من ذهب .

ويقول الذهبي : إن القتلى بمكة قاربوا ثلاثين ألفًا ، وسبَوْا الحريم والصغار ، وأقاموا بمكة جمعة ، ولم يحج أحد ولا وقف بالناس إمام ، وكان من القتلى كثير من العلماء .

ولم يعتبر القرامطة بما أصاب بعض أصحابه من سهام القدر . فقد انقض سهم من جبل أبى قبيس على رجل منهم كان أبو طاهر قد أمره بنزع ميزاب الكعبة فأرداه قبل أن ينزعه .. واستمروا فى تخريبهم .

وأصدر أبو طاهر الأمر إلى رجل آخر فرفض ورفضوا جميعًا ..

وخرج إلى هجر ومعه الحجر الأسود . وقيل : إن أربعين جملاً قد حملته بالتوالى فهلكت جميعًا على الرغم من صغر حجمه ..

لقد صور له وهمه أن يقيم كعبة أخرى فى هجر يصرف الناس إليها ..

وما يدرى أن أبرهة سبقه بهذا الخيال المريض ، وراح ضحية خياله .

لقد زعم هذا القرمطى اللعين أنه يرضى بذلك عبيد الله المهدى إمام الشيعة فى أفريقيا ..

ولكن المهدى تبرأ منه ، وأرسل إليه يؤنبه ويوبخه ، ويقول له : عجبت من أنك تمتن علينا بما ارتكبت واقترفت باسمنا من جرائم فى حرم الله وجيرانه ، بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم الدماء فيها وإهانة أهلها ..

---

(١٣٢) قطر الولى فى معرفة الولى للشوكانى ص ٢٩٩ .

ثم تعديت ذلك إلى أن قلعت الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته إلى أرضك ، ورجوت أن نشكرك على ذلك ، فلعنك الله . ثم لعنك والسلام على من يسلم المسلمون من لسانه ويده[١٣٣].

وقد فشل القرامطة فى صرف الناس عن قبلتهم المشرفة المباركة ، إلى تلك القبلة المزعومة التى أقاموها فى هجر . واضطروا فيما بعد راغمين إلى إعادة الحجر الأسود إلى مكانه فى البيت العتيق . وظل هذا البيت كما كان من عهد إبراهيم – عليه السلام – مثابة للناس وقبلة للطائفين والعاكفين والركع السجود[١٣٤].

لقد ظل الحجر غريبًا ما يقرب من ربع قرن ، ثم استوى فى مكانه جالسًا معززًا مكرمًا ، وجعل له طوق من الفضة ليشد به ، حتى لا يسهل انتزاعه من موضعه .

ولسائل أن يسأل : لماذا لم يهلك الله القرامطة كما أهلك أصحاب الفيل بالطير الأبابيل ؟

وقد تكون الإجابة على ذلك بأن القرامطة دخلوا الحرم مستظلين براية الإسلام وإن كانوا قد انحرفوا بدعوته ، وقد أجاب الإمام الزركشى بنحو ذلك فقال : إنهم لم يُمنعوا كما منع أصحاب الفيل لأن دعوة الإسلام قد تمت والكلمة قد بلغت والجماعة قد ثبتت ، وقد أخبر النبى – ﷺ – بوقوع الفتن بعده وأن الكعبة ستهدم وأن المدينة ستغزى ..

وقد حدث ذلك فعلاً بأيدى مسلمة – بكل أسف – هدم الحجاج الكعبة وغزا يزيد المدينة[١٣٥]، وأخيرًا جاء هذا القرمطى الخبيث فاقتلع الحجر الأسود ..

---

(١٣٣) الكعبة المشرفة ص ٢١٩ .

(١٣٤) فى ظلال الحرمين لمحمد كامل حتة ص ١٢٢ .

(١٣٥) إعلام الساجد ص ١٧١ .

وقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾[١٣٦] .

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى اعتدى فيها على الحجر الأسود .

فقد سبق أن الجراهمة سرقوه .

وأن طائفة من أولاد مضر حين انتصروا على الإياديين قلعوا الحجر الأسود وخبأوه ، وأعاده الخزاعيون ، وكان ثمن رده توليهم أمر البيت .

ولكن القرامطة كانوا فى اغتصابهم الحجر الأسود غاية فى الوحشية والفظاعة . حتى طهر الله البلاد الإسلامية من شرهم وبغيهم سنة ٣٤٠ هـ حين سار إليهم الوزير الحسن بن محمد المهلبى بجيش كثيف من بغداد ، فالتقى بهم وهزمهم شر هزيمة واستباح عسكرهم[١٣٧] .

وحاول رجل رومى بعد ذلك تحطيم الحجر الأسود ، بعد أن اقترب منه كأنه يريد استلامه ، فضربه بدبوس فتطايرت بعض شظايا منه . وقد قتل هذا الرجل ، قبل أن يتمكن من تنفيذ جريمته .

وفى القرن السابق حاول أفغانى مأجور أن يعتدى على الحجر ، فقبض عليه قبل أن ينفذ جريمته ، وحوكم ، وصدر الحكم بإعدامه ، إن مثل هؤلاء يجب أن يطبق عليهم حد الحرابة لأنهم يفسدون فى الأرض ويحاربون الله ورسوله ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١٣٨] .

وفى أول المحرم فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى رُوِّع الحرم بمن زعم أنه المهدى المنتظر ، وأغلق أبواب الحرم ، وحاصر المصلين والطائفين ومنعهم من الخروج ، ولكن مؤامرته باءت بالفشل ، وكان مصيره مصير السابقين من أمثاله الذين اعتدوا على حرمات المسلمين والأماكن المقدسة . ولم يحترموا قدسية هذا البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمنًا ومن دخله كان آمنًا .

---

(١٣٦) من الآية ٤ من سورة محمد .
(١٣٧) دول الإسلام جـ ١ ص ٢١١ .
(١٣٨) الآية رقم ٣٣ من سورة المائدة .

مكة باعتبارها واديا تحيط به جبال عرضة للسيول الجارفة بين الحين والحين ، وربما تعرض الحرم ذاته لهذه السيول التى قد تؤثر فيه وقد ذكر كتاب دول الإسلام بعض أنباء هذه السيول ومن بينها ما ذكره فى أحداث سنة ٢٩٧ هـ قال : ورد الخبر إلى بغداد أن أركان البيت الحرام الأربعة غرقت، حتى عم الغرق الطواف، وفاضت بئر زمزم وأن ذلك لم يعهد فيما سلف .

ولكن ذلك السيل لم يصب الكعبة بسوء والحمد لله .

وفى سنة ٩٧٠ هـ قام السلطان سليمان العثمانى بإصلاحات هامة فى الكعبة المشرفة .. وشملت الإصلاحات المطاف والأبواب ، وصبغ باب الكعبة ، وأصلح الميزاب ، وصفحه بالفضة المموهة .

أما فى سنة ١٠١٩ فقد جاء سيل اجتاح مكة ونزلت أمطار غزيرة تصدع بسببها الجدار الشمالى من الكعبة. وكان ذلك فى أيام السلطان العثمانى مراد، فلما انتهى اليه الخبر فكر فى هدم الجدار واعادة بنائه ولكن العلماء اقترحوا عليه أن تحزم الكعبة بحزام قوى من النحاس داخل غشاء من الذهب الخالص، كانت تكاليف ذلك حوالى ثمانية ألف دينار.

لقد كان فى عزم السلطان مراد أن يبنى الكعبة بحجارة موشاة بالذهب والفضة ولكن العلماء رفضوا ذلك(١٣٩) .

وبعد ذلك بعشرين عاما فى سنة ١٠٣٩ هـ فى منتصف شعبان تعرضت مكة لأمطار غزيرة مصحوبة بسيل جارف ما زال حتى غمر المسجد الحرام ، ووصلت المياه إلى منتصف الجدران داخل الكعبة نفسها، وقد انهار من جراء ذلك الجداران الشامى والشرق ومعظم الجدار الغربى. ولم يبق بمكة مكان لم يغمره السيل، وراح ضحية ذلك عدد كبير من الناس .

---

(١٣٩) مجلة الوعى الإسلامى ذو الحجة ١٣٩٨ هـ.

وكان ماء السيل مرا مالحا يضرب لونه إلى السواد .

فرعب الناس وخشوا أن يكون هناك غضب من الله، فلجأوا إليه يُصلون ويتضرعون ويكثرون من الدعاء والاستغفار .

وفتحت سراديب باب إبراهيم التى اندفع منها الماء إلى أسفل مكة.

ومكث المطر ثلاثة أيام من الأربعاء إلى الجمعة بدون انقطاع .

ونادى شريف مكة فى الناس أن يهرعوا إلى تنظيف الحرم، فأسرع الناس متسابقين إلى ذلك بتقدمهم الشريف نفسه ، وأزالوا الطين الواقع بالمطاف وساحة الحرم الشريف ..

إنه عمل يتقرب الإنسان به إلى ربه ، ويأنف من القيام به أمير أو سلطان، وهل هناك أشرف من أن يكون الإنسان خادما فى بيت مولاه وحرمه؟ إنه البيت الذى اختار الله لبنائه الملائكة الأبرار والأنبياء الأطهار .

وإن اللقب الذى يحلو لملك السعودية الآن هو لقب خادم الحرمين وما أجله من لقب وأشرفه من وصف.

ونترك الشيخ طه الولى يقص علينا كيف عمر الحرم بعد ذلك :

« فى يوم السبت الثانى والعشرين من شعبان من السنة المذكورة. اجتمع الشريف مسعود بعلماء مكة واستفتاهم بما يجب عمله، فاتفق الجميع على هدم ما تقتضى الضرورة هدمه من جدرانها وإعادة بنائها من جديد، وتغطية نفقات هذا العمل من الأموال التى كانت محفوظة بداخلها، وأن يكتبوا بذلك إلى السلطان فى «استانبول» لكى تمدهم الدولة بالمساعدة اللازمة، كما اتفق المجتمعون على ستر الكعبة المعظمة بأخشاب مكسوة بالحرير إلى أن يتم البناء ويكتمل .

وفى الخامس والعشرين من رمضان أحضرت الاخشاب المطلوبة من ميناء جدة، فقام مهندس من أهالى مكة بإقامة الأخشاب حول الكعبة واسدال الستائر الخضراء عليها .

ولما شاع الخبر فى أنحاء العالم الإسلامى بما أصاب الكعبة المعظمة من تصدع وانهيار، حدث هياج شديد فى أوساط المسلمين، فبادر السلطان مراد بإرسال سفينة محملة بالمؤن والأخشاب وسائر الأدوات اللازمة للبناء ..

وكانت الحجارة التى استعملت فى البناء تقطع من جبل معروف بمحلة الشبيكة اشتهر فيما بعد باسم «جبل الكعبة».

ولم يسلم العمل من معارضة بعض الأوساط الدينية التى حاولت منع إزالة الجدران المتصدعة من أساسها والاكتفاء بدعمها فقط، ولكن المهندسين المختصين لم يبالوا بهذه المعارضة. وتابعوا الهدم والبناء حسب ما تقتضيه المصلحة والقواعد الفنية والمعمارية .

وقد رفع بعض الشيوخ أصواتهم بالاحتجاج والاستنكار وألف أحدهم رسالة ضمنها الاحتجاج بعنوان «إيضاح تلخيص المعانى فى بيان هدم الركن اليمانى» ووزع هذه الرسالة على القائمين بالعمل فى تعمير الكعبة .

وقد ذكر الشيخ عبد الله غازى فى كتابه «إفادة الأنام عن تاريخ البيت الحرام» أن المهندسين الذين تعهدوا بناء الكعبة إذ ذاك كانوا مكيين أضيف اليهم أربعة من المهندسين والبنائين المصريين وهؤلاء المصريون – كما وردت أسماؤهم فى كتاب تاريخ الكعبة المعظمة – هم :

سالم القرشى، والمعلم سليمان بن محمد البجع، وابن حاتم، ونور الدين .

وفى الواقع أن مصر نهضت بمسئوليتها الكبرى تجاه بناء الكعبة إثر ذلك التصدع الذى انتابها بسبب السيل الجارف. وبخاصة أن الموسم قد قرب. فرأى والى مصر «محمد باشا الألبانى» الا ينتظر ورود الأمر السلطانى من القسطنطينية، خوفا من ازدياد التصدع فى الكعبة المشرفة فارسل رضوان «أغا» مندوبا من قبله الى مكة المكرمة . وخوله صلاحية تامة لاتخاذ التدابير كما ارسل سفينة محملة بآلات العمارة اللازمة .

ثم وصل مندوب السلطان العثمانى إلى مكة، وباشر العمل مع رضوان أغا مندوب والى مصر(١٤٠) .

وقد تناول البناء والتغيير جميع جدران الكعبة المعظمة وأركانها ما عدا الحجر الأسود. وظل العمل قرابة عام كامل، إلى نهاية شعبان سنة أربعين والف. وفى العاشر من رمضان البست الكعبة المشرفة كسوتها المباركة فى احتفال مهيب حضره الحكام والأمراء والأعيان.

وفى اثناء العمل انفلق الحجر الأسود إلى اربع شظايا فارتاع المهندسون والبناءون لهذا الأمر ، وجمعوا الشظايا بمركب عجنوه بالعنبر واللادن فتماسك إلى أمد طويل ، ثم عاد فتفكك، فعالجوه فتماسك فترة ، وعاد إلى التفكك فأصلحه خبير اتخذ له مركبا خاصا تماسكت به قطعه بصورة متينة دائمة ..

وعلى عادة تسجيل الأحداث الهامة شعرا كتب بعضهم متحدثا عن مراحل بناء الكعبة عبر العصور :

بنى الكعبة الغراء عشر ذكرتهم ورتبتهم حسب الذى أخبر الثقة
ملائكة الرحمن ، آدم ، ابنه كذا خليل الرحمن، ثم العمالقة
وجرهم. يتلوهم قصى، قريشهم كذا ابن الزبير ثم حجاج لاحقه

وزاد بعضهم :

وخاتمهم من آل عثمان بدرهم مراد المعالى،أسعد الله شارقه(١٤١)

الكعبة فى عهدها الجديد

على الرغم من أن التجديد الأخير بلغ الغاية فى الروعة والإتقان، وتسابق الناس جميعا فى الإسهام فيه، كل بما يقدر عليه من جهد. إلا أنه لم يكن آخر إصلاح وتعمير .

---

(١٤٠) تاريخ الكعبة المعظمة – حسين عبد الله باسلامة ص١٠٠.

(١٤١) مجلة الوعى الإسلامى ذو الحجة ١٣٩٨ هـ العدد رقم ١٦٨.

فقد تمت بعده عدة إصلاحات وتجديدات حتى ظهرت الكعبة الآن في أبهى صورة من الرُّواء والاتقان .

وفي ظل الأسرة السعودية – حظيت البلاد بالأمان والخير ونالت الكعبة من الاهتمام والتنظيم الشيء الكثير فجرت توسعات هائلة في الحرم والمسجد، وإصلاحات في الكعبة ذاتها .

أما الإصلاحات التي جرت في الكعبة نفسها فقد تمت سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وألف في عهد الملك سعود على النحو الآتي :

ظهر في أثناء عمارة المسجد خلل في سقف الكعبة وتصدع في بعض الجدران فشكلت لجنة لمعاينة ذلك وتقرير ما يجب عمله، وتم بناءً على ذلك :

- إزالة السقف الأعلى وتغييره بسقف جديد.
- ترميم السقف الأسفل وتغيير الأعواد والأخشاب التالفة.
- اقامة «ميدة» على الجدارين المتصدعين، على أن تحيط الميدة بجدران الكعبة كلها .
- ترميم الجدران الأخرى.
- ترميم الكسوة الرخامية بباطن الجدران وتثبيتها من جديد في أماكنها كما كانت .

وبدأ العمل فعلا في رجب سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وألف. باحتفال رسمي حضره الملك فيصل باعتباره وليا للعهد في ذلك الوقت، وباشر المنوطون بالعمل أعمالهم في بيت الله متوخين رضاه، وقد التزموا ألا يزيدوا في البناء ما لم يكن من قبل، مستعملين المواد الوطنية في الترميم والإصلاح .

وقام الملك سعود في شعبان من العام المذكور بوضع آخر حجر في الكسوة الرخامية التي غطيت بها جدران الكعبة من الداخل، وانتهى بذلك العمل الجليل في آخر ترميم وإصلاح للكعبة حتى الآن .

على أن يد الإصلاح والتعمير ما زالت جارية فى الحرم حتى الآن، وقد شهد توسعات هائلة ما كانت اقصى الأحلام تطمح اليه.

التوسعات فى الحرم :

ويمكن استعراض الزيادات التى تمت فى حرم الكعبة على النحو الآتى :

● أول زيادة تمت فى الحرم المكى كانت فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه سنة ١٧ هـ .

وكان قد بلغه نبأ سيل انحدر من وادى مكة إلى ساحة المسجد الحرام ، فركب من فوره معتمرا، وأصلح ما أعطبه السيل، ثم رأى كثرة الناس وازدحام المصلين بالمسجد الحرام، ولم يكن يزيد فى ذلك الوقت عن مدار الطواف ، فاشترى الدور الملاصقة للمسجد ، وهدمها وأدخل أرضها إلى المطاف ، وبنى حائطا حوله بارتفاع القامة إلا قليلا ، وضعت فوقها المصابيح لإنارة المسجد، وجعل له أبوابا كما كانت بين الدور قبل أن تهدم، وحول مجرى السيل الذى اعتاد دخول الحرم ببناء سد امام المجرى الذى يأتى منه .

● وجاء عهد الخليفة الثالث عثمان - رضى الله عنه - فاشترى مزيدا من الدور التى حول المسجد وهدمها وأضافها اليه وكان ذلك فى ٢٦ هـ، وجعل للمسجد أروقة، وكان قبل ذلك متسعا لا سقف له يظل المصلين وهذه هى الزيادة الثانية.

● وكانت الزيادة الثالثة فى عهد ابن الزبير، فإنه أعاد بناء البيت - كما علمنا - ولم يكتف بذلك بل زاد من توسعة الحرم حوله حتى بلغت مساحته ٣٢٤٠٠ ذراع مربع، وسقفه وجعل فيه أعمدة من الرخام، وكان ذلك فى سنة ٦٥ هـ .

● وعندما هدمت الكعبة وأعيد بناؤها فى عهد عبد الملك بن مروان بيد الحجاج بن يوسف الثقفى. لم يُضف شيء إلى مساحتها، ولكن عبد الملك

أمر برفع الجدر وسقف المسجد بالساج، وجعل على رأس كل عمود من أعمدته خمسين مثقالا من الذهب وتم ذلك بعد تعمير ابن الزبير للبيت بعشر سنوات أى فى سنة ٧٥ هـ .

● وفى خلافة الوليد بن عبد الملك تم توسيع المسجد مرة أخرى ، وإقامة أعمدة رخامية أتى بها من مصر والشام بدلا من الأعمدة السابقة جعلت على رءوسها صفائح الذهب ، وجعل لساحة المسجد سرادقات تظل الناس من الحر فى الظهيرة ، وأنشأ رواقا واحدا يدور حول المسجد الحرام والكعبة المشرفة . وكان ذلك فى سنة ٩١ هـ .

● وفى عهد الخلافة العباسية تمت زيادة أخرى أمر بها المنصور ، فقد اشترى الدور الواقعة فى الجهتين الشمالية والغربية وأضيفت إلى المسجد ، وأمر ببناء منارة فى نهاية الزيادة من الجهة الغربية ، وأصبحت مساحة المسجد ضعف ما كانت عليه ، وزاد من تزيينه ، وزخرفته بالذهب والفسيفساء ، وألبس حجر إسماعيل الرخام ، وظلت أعمال الإصلاح ثلاث سنوات من سنة ١٣٧ هـ - إلى سنة ١٤٠ هـ .

● وفى عهد ابنه المهدى كانت زيادة أخرى تعادل كل الزيادات السابقة ، على مرحلتين، المرحلة سنة ١٦٠ هـ ، اشترى فى خلالها الدور الواقعة بين المسجد الحرام والمسعى من الجانب الشرقى، والدور الواقعة فى الجهة الغربية . وأضاف ذلك كله إلى المسجد.

ثم لما حج فى سنة ١٦٤ هـ وجد أن الكعبة غير متوسطة حرمها لأن الزيادة لم تشمل جميع النواحى. فأمر بتربيع المسجد وتوسيعه من الجهة الجنوبية مهما تكلف ذلك، وباشر الفنيون العمل ، ومات المهدى قبل أن تتم التوسعة التى تمت فى عهد ابنه الهادى .

● وفى عهد المقتدر العباسى تمت زيادتان أخريان احداهما من الجهة الشمالية والثانية من الجهة الغربية .

● وبقى الأمر على ذلك حتى العصر الحاضر. عهد السعوديين حيث تمت توسعة المسجد توسعة هائلة يشهدها كل من تشرف بزيارة بيت الله . فقد بلغت مساحة الحرام ١٦٠١٦٨ مترا مربعا ، يتسع لنصف مليون مصل فى وقت واحد . وتحيط بالحرم ساحات خارجية تتسع لأربعة آلاف سيارة .

وجعلت له أدوار علوية تضاعف عدد المصلين، وجُعل للمسعى دور علوى أيضا، ورصفت أرض الحرم كلها بالرخام وشيدت عدة منارات رائعة، وزينت جدرانه وأسقفه بأبهى أنواع الزينة، وفرشت أرضه بأرق أنواع الفرش ، وصنعت الكهرباء صنعها فى تكييف الجو حتى يشعر المصلون والعاكفون بأنهم فى جو ربيعى بديع ، وامتد التكييف إلى ساحة الطواف فلا يشعر الطائف وهو يطوف بحر الشمس ولفح النار تحت قدميه[١٤٢] .

لقد بذل القائمون بالأمر فى السعودية خصوصا خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز جهودا كبيرة مشكورة فى النهوض بالحرمين الشريفين يشهد بها القاصى والدانى، وتقابل من كل حاج ومعتمر بالثناء الطيب والدعاء المخلص لتلك الأيادى التى شكرت نعمة الله فبذلت ما أفاء الله عليها فى تعمير حرمه وإراحة ضيفه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ..

أبواب المسجد الحرام:

لقد بدا المسجد الحرام الآن فى أبهى صورة وأجمل منظر، وفى وسطه الكعبة تشرق بنور الله تزدان بكسوتها الشريفة فينعكس سناها على الطائفين والقائمين والركع السجود..

وأصبح للمسجد الحرام الآن ثلاثة وعشرون بابا.

---

(١٤٢) استعنا فى عرض هذه الحقائق بما ورد فى استطلاع مجلة الوعى الإسلامى حول زيادات المسجد الحرام بقلم الاستاذ عبد الستار محمد فيض. عدد ٢٦٤ ذو الحجة ١٤٠٦.

منها ثمانية فى الشمال هى :

باب الدريبة
باب المحكمة
باب الزيادة
باب القطبى
باب الباسطية
باب الزمامية
باب عمرو بن العاص
باب سعود – وهو باب رئيسى

ومن الجهة الجنوبية سبعة أبواب هى :

باب أم هانئ
باب العجلة
باب الرحمة
باب أجياد
باب الصفا
باب مخزوم
باب بازان.



ومن الجهة الشرقية أربعة أبواب هى :

باب على
باب عباس
باب النبى – ﷺ –
باب السلام وهو باب رئيسى، وأول باب يدخل الحجاج منه إلى الحرم عند طواف القدوم .

ومن الجهة الغربية ثلاثة أبواب هى :

باب ابراهيم
باب الحزورة
باب العمرة ، وهو باب رئيسى .

فريضة الحج

لقد فرض الله الحج على الناس، وجعله ركنا من اركان الإسلام، وهو الركن الخامس ..

وكان الحج فريضة منذ بنى هذا البيت.

وقد مر بنا أن الأنبياء قديما كانوا يحجون.

جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما قال - قال رسول الله - ﷺ -: صلى فى مسجد الخيف سبعون نبيا منهم موسى- عليه السلام - كأنى أنظر اليه وعليه عباءتان قطوانيتان وهو محرم على بعير من إبل شنوءة مخطوم بخطام ليف له ضفيرتان[١٤٣].

وذكر أن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال لرجل: إذا أتيت إلى منى، وانتهيت إلى موضع كذا وكذا، فإن هناك شجرة لم تغيل ولم تجرد، ولم تسرف ولم تسرح قد نزل تحتها سبعون نبيا فانزل تحتها[١٤٤].

وقد ذكر بعض الرواة طرفا من أخبار حج سليمان بن داود عليهما السلام. قالوا: إن سليمان - عليه السلام - لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم، فتجهز واستصحب من الجن والانس والشياطين والطير والوحش أعدادا كثيرة، وحملتهم الرياح.

فلما وافى الحرم أقام به ما شاء أن يقيم، وكان ينحر كل يوم من النياق والثيران والشياه عددا وفيرا.

قالوا: وإنه قال لمن حضره من أشراف قومه:

هذا مكان يخرج منه نبى عربى من صفته كذا وكذا، يعطى النصر على من ناوأه، وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده فى الحق سواء، لا تأخذه فى الله لومة لائم.

---

(١٤٣) رواه الطبرانى فى الأوسط واسناده حسن.

(١٤٤) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٣٤ ومعنى لم تغيل: لم يسقط ورقها - لم تجرد: لم يصبها الجراد. لم تسرف: لم تصبها السرفة. لم تسرح: لم يصبها السرح أى الابل.

قالوا : فبأى دين يدين يا نبى الله؟ .

قال : يدين بالحنيفية – وطوبى لمن أدركه وآمن به .

قالوا : فكم بيننا وبين خروجه يا نبى الله ؟

قال : بمقدار ألف عام، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل.

وأقام سليمان – عليه السلام – بمكة حتى قضى نسكه، ثم خرج من مكة صباحا، وسار نحو اليمن.[١٤٥]

وقد ذكر الزركشى فى كتابه أنه روى : ما من نبى خرج بعد عذاب قومه إلا إلى مكة ودفن بها، وأن بها مئين أو ألوفا من الأنبياء[١٤٦].

كما ذكر عن بعض السلف أن الملك إذا نزل إلى الأرض فى بعض أمور الله – تعالى – فأول ما يأمره الله – تعالى – به زيارة البيت، فينقض من تحت العرش محرما ملبيا حتى يستلم الحجر، ثم يطوف بالبيت سبعا ويركع ركعتين ثم يغدو لحاجته[١٤٧] .

الحرم الآمن

لقد رفع الله شأن هذا البيت وجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء ، ولقد صح أنه يعوذ به كل خائف فيأمن .

ومن أمان الله للخائف فى البيت أن الله يعاقب كل من يروعه فى الدنيا قبل الآخرة.

وقد روى الرواة أن سعيد بن جبير حين أخذه الحجاج وقتله قال : وشى بى واش وأنا فى بلد الله الحرام. أكله إلى الله – وهو يعنى خالدا القسرى.

---

(١٤٥) حياة الحيوان جـ٢ ص ٦٦٢ باب الهدهد.

(١٤٦) اعلام المساجد ص ١٩٤.

(١٤٧) رواه الأزرقى فى تاريخ مكة عن وهب بن منبه أنه قرأه فى الكتب الأولى وفى شفاء الغرام ص ١٨٢ ج وانظر اعلام الساجد ص ١٩٥ .

وكان خالد القسري واليا على مكة من قبل عبد الملك، ثم أصبح واليا على العراق بعد الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان متهما في دينه، وأمه كانت نصرانية وبنى لها كنيسة تتعبد فيها ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

ألا قبح الرحمن ظهر مطية اتتنا تهادى من دمشق بخالد
وكيف يؤم الناس من كان أمه تدين بأن الله ليس بواحد
بنى بيعة فيها الصليب لأمه ويهدم من بعض منار المساجد

وقد عزل في عهد هشام، وتولى بعده يوسف بن عمر الثقفي فقتل خالدا شر قتلة[148]. وكان ذلك استجابة لدعوة سعيد بن جبير.

الطير والحيوان يأمنان فى الحرم

ولقد عرف الحيوان الأعجم أن من دخل الحرم فهو آمن . وأدرك أن الحج فريضة مكتوبة على الخلق. ورأى بعض الناس فى بعض الأزمنة طيورا تحج.

ومن العجائب في ذلك. ان طائرا أصغر من البلبل، لونه لون الحبرة، ريشة حمراء وريشة سوداء، دقيق الساقين طويلهما، له عنق طويل دقيق المنقار طويلة، كأنه من طير البحر أقبل يوم السبت السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ست وعشرين ومائتين حين طلعت الشمس ، والناس فى الطواف كثيرون من الحاج وغيرهم، وعبر من ناحية أجياد حتى وقع فى المسجد الحرام قريبا من زمزم مقابل الحجر الأسود. وهو إلى الحجر الأسود أقرب، ثم وقع على منكب رجل فى الطواف عند الحجر الأسود من حجاج أهل خراسان . فلبى وهو على منكبه الأيمن ، فطاف الرجل به ، والناس يدنون وينظرون اليه وهو ساكن غير مستوحش منهم، والرجل الذى هو عليه يمشى فى الطواف وهم ينظرون اليه وعينا الرجل تدمعان على خديه ولحيته.

قال عبد الله بن ربيعة : رأيته على منكبه الأيمن والناس يدنون منه وينظرون اليه فلا ينفر منهم ولا يطير ، وكنت أخرج من الطواف فأركع خلف المقام ، ثم أعود وهو على منكب الرجل .

---

(١٤٨) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١ ص ٣٠١.

ثم جاء إنسان من أهل الطواف فوضع يده عليه فلم يطر، وطاف به بعد ذلك، ثم طار من قبل نفسه، حتى وقع على يمين المقام، ومكث ساعة طويلة وهو يمد عنقه ويقبضها إلى جناحه. والناس ينظرون اليه.

فأقبل فتى من الحجبة فضرب بيده فيه فأخذه ليريه رجلا منهم كان يركع خلف المقام فصاح الطير فى يده أشد صياح بصوت لا يشبه أصوات الطيور، ففزع منه وأرسله من يده.

فطار حتى أتى بين يدى دار الندوة خارجا من الظلال قريبا من الأسطوانة الحمراء.

واجتمع الناس ينظرون اليه وهو مستأنس فى ذلك كله غير مستوحش منهم، ثم طار من قِبَل نفسه فخرج من باب المسجد الذى بين دار الندوة ودار العجلة نحو قيقعان(١٤٩) .

فهذا الخبر يدل على أن الطيور تأنس إلى الكعبة، ويقبل عليها من يقبل أحيانا فى الموسم كما يقبل الناس... وليس ذلك عجيبا فكل ما فى الوجود من مخلوقات عاقلة وغير عاقلة تعرف الله وتسبح بحمده طائعة أو كارهة .

قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾(١٥٠)

وقال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩﴾(١٥١) .

---

(١٤٩) حياة الحيوان للدميرى جـ٢ ص ٤٨٧ نقله عن تاريخ مكة للأزرقى.

(١٥٠) آية ١٥ – الرعد. (١٥١) آية ١٨ – الحج

وقال تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[١٥٢]

بل ان الطير والوحش والحيوان فى ذكر لا ينقطع ، وهى محفوظة بهذا الذكر حتى تتركه فتقع فريسة الصياد. ذكر الدميرى قال : روينا عن ابن طبرزد بإسناده إلى الحكم بن عبد الله بن حطان عن الزهرى عن أبى واقد عن روح بن حبيب قال : بينما أنا عند أبي بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - إذ أُتِيَ بغراب - فلما رآه بجناحين حمد الله - تعالى - ثم قال : قال رسول الله - ﷺ - : ما صيد قط صيد إلا بنقص من تسبيح، ولا أنبت الله - تعالى - نابتة إلا وكل بها ملكا يحصي عليها تسبيحها حتى يأتى به يوم القيامة ، ولا عضدت شجرة ولا قطعت إلا بنقص من تسبيح، ولا دخل على امرىء مكروه إلا بذنب، وما عفا الله عنه أكثر.

يا غراب، اعبد الله، ثم خلى سبيله[١٥٣].

وفى حج الوحش والحيوان وائتناسه بالكعبة روى طلق بن حبيب قال : كنا جلوسا مع عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله تعالى عنه - فى الحِجْر ، إذ قلص الظل وقامت المجالس، وإذا نحن ببريق «أيمْ» طالع من باب بنى شيبة، فاشرأبت له أعين الناس فطاف بالبيت سبعا وصلى ركعتين وراء المقام ، فقمنا اليه وقلنا له : أيها المعتمر قد قضى الله نسكك ، وإن بأرضنا عبيدا وسفهاء وإنا نخشى عليك منهم فمر ذاهبا نحو السماء فلم نره[١٥٤].

ولقد ورد فى امثال العرب قولهم : آمن من حمام الحرم، وآمن من ظباء الحرم.

---

(١٥٢) من آية ٤٤ - الاسراء. (١٥٣) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٣١١ مادة غراب وروى مثله عن عمر بن الخطاب فى مادة قسورة.

(١٥٤) الأيم: الحية الذكر. حياة الحيوان جـ ١ ص ١٧٦ باب الأيم - رواه عن الأزرقى فى تاريخ مكة.

روى عن مجاهد قال : دخل مكة قوم تجار من الشام فى الجاهلية، بعد قصى بن كلاب، فنزلوا بوادى طوى تحت سمرات يستظلون بها، فاختبزوا على ملة لهم . ولم يكن معهم أدم . فقام رجل منهم فأخذ سهما ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى ، فقاموا اليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها .

فبينما هم كذلك وقدرهم على النار تغلي بها وبعضهم يشوى، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعا، ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التى كانوا تحتها[١٥٥] .

الاكثار من زيارة الكعبة

لقد دعا النبى ﷺ المسلمين إلى الاكثار من زيارة الكعبة والطواف بها. ومن الآثار الواردة فى ذلك. «استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة».

وقد أخرج مسلم فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» .

وروى عنه ﷺ أنه قال : «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة»[١٥٦] .

وإن الكعبة لتشتاق إلى زوارها كما يشتاقون اليها.

فقد روى جابر – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : شكت الكعبة إلى الله تعالى – قلة زوارها فأوحى الله إليها لأبعثن اليك أقواما يحنون اليك كما تحن الحمامة إلى فراخها .[١٥٧] .

---

(١٥٥) حياة الحيوان جـ٢ ص ١٩٠.

(١٥٦) رواه النسائى عن عبد الله بن مسعود.

(١٥٧) كامل ابن عدى فى ترجمة سهل بن قرير عن محمد بن المنكدر. وفى حياة الحيوان ١/٤٤٨.

وممن كان يكثر من الحج ويأخذ من علم الناس وأخبارهم ما رواه الامام أحمد قال : حدثنا إسماعيل. قال : حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو هذا البيت قالا : أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوى : أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله عز وجل، فكان من كلامه : انك لا تدع شيئا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيرا منه .

وقد كان الحرم وما زال مأوى للمجاورين حوله يطلبون العلم ويستكثرون منه ويتقربون إلى الله فالثواب فى ظله بمائة الف ثواب..

وقد التقى فى ظله كثير من العلماء عبر العصور وتركوا من خلفهم ثروات علمية هائلة تشهد بما رزقهم الله من علم غزير وفضل كبير..

وقد كانت المجاورة فى ظلال الحرمين همُّ كثير من العلماء السابقين واللاحقين ، وما زالت أروقتهما - ولله الحمد - عامرة بذوى الفضل الذين يقصدونهما من كافة بقاع الديار الاسلامية .

مناسك أبطلها الاسلام

أرسل الله جبريل لآدم وابراهيم يعلمهما مناسك الحج.

وألهم الله نبيه - ﷺ - هذه المناسك . فعلمها للناس فى حجته الأخيرة - حجة الوداع - وقد مر بنا بيان هذا الحج .

وقد كان الجاهليون قد أدخلوا فى مناسك الحج ما ليس منها ، وفعلت الوثنية فعلها فيهم ..

وعرفنا أنهم كانوا حين يهلون بالتلبية يشركون مع الله آلهتهم - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فكانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.

وقد ألغى الإسلام ذلك. وأفرد الله بالوحدانية والتلبية..

وكانوا يطوفون بالبيت عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، فنهى النبى - ﷺ - عن ذلك .

وكانت صلاتهم عند البيت كما يقول القرآن الكريم ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾(١٥٨) .

قال ابن عطية : الذى مربى من أمر العرب فى أكثر من ديوان أن المكاء والتصدية كانا من فعل العرب قديما قبل الإسلام على جهة التقرب والتضرع قال : ورأيت عن بعض أقوياء العرب أنه كان يمكو على الصفا فيسمع من حراء وبينهما أربعة أميال، وكذلك كان مخزمة بين قيس بن عبد مناف يصفر عندالبيت فيسمع من حراء ، وكان قبل مولد النبى - ﷺ - عام الفيل .

وذكر القرطبى فى معنى المكاء والتصدية قال : المكاء إدخالهم أصابعهم فى أفواههم ، والتصدية الصفير يريدون أن يشغلوا بذلك النبى - ﷺ - عن الصلاة .

ولكن المعروف فى اللغة أن المكاء هو الصفير ، والتصدية هى التصفيق . كل ذلك أبطله الاسلام .

كما أبطل المكوس التى كان يجبيها الجاهليون من الحجاج . وقيل انه من أسباب انهيار ملك الجراهمة بغيهم على الحجاج واسرافهم فى فرض الضرائب والمكوس عليهم(١٥٩) .

لقد علم الإسلام الناس الخشوع والرحمة والتعاطف ، وأرسى فى نفوسهم قواعد الإنسانية العامة والمواساة الكريمة ، ولذلك أصبح من آداب الحج

---

(١٥٨) الأنفال ٣٥ والمكاء الصفير والتصدية التصفيق .
(١٥٩) فى ظلال الحرمين ص ١١٤ .

الإقبال على الله بالسكينة والوقار وترك المراء والجدال قال - تعالى :

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

● وكان الموسم فرصة لتذكير الخلفاء والأمراء بواجبهم .

ذكر الغزالى فى إحيائه أن أبا جعفر المنصور حج ونزل فى دار الندوة، وكان يخرج سحرا فيطوف بالبيت، فخرج ذات ليلة فسمع قائلا يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله .

فاستدعاه، وقال له : ما الذى سمعتك آنفا تقول ؟

فقال له : يا أمير المؤمنين، إن الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله ، وامتلأت بلاد الله بذلك بغيا وفسادا أنت .

قال المنصور : ويحك ، كيف يدخلنى الطمع ، والصفراء والبيضاء ببابى ، وملك الأرض فى قبضتى ؟

قال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، استرعاك الله أمور المؤمنين وأموالهم فأهملت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، واتخذت بينك وبينهم حجابا وحجبة ، وأمرت ألا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الجائع ولا العارى .

ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق .

فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم لنفسك تجمع الأموال ولا تقسمها قالوا : هذا خان الله ورسوله فمالنا لا نخونه .

فأجمعوا على ألا يصل اليك من أمور الناس إلا ما أرادوا، فصار هؤلاء شركاءك فى سلطانك وأنت غافل عنهم .

وما زال به يعظه ويذكره حتى بكى المنصور : وقال : كيف أعمل والعلماء قد فرّت منى والعُبّاد لم تقرب منى، والصالحون لم يدخلوا على ؟

فقال : يا أمير المؤمنين. افتح الباب، وسهل الحجاب ، وانتصر للمظلوم وخذ المال مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن أنَّ من هرب منك يعود اليك .

وكان الرشيد يقول : والله إنى أريد الحج كل سنة ما يمنعنى من ذلك إلا رجل من ولد عمر رضى الله عنه يسمعنى ما أكره - يعنى به عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر العمرى المدنى الزاهد(١٦٠) .

حمام الحرم

من المناظر المألوفة فى الحرم ذلك الحمام الذى يرفرف فى ساحة الحرم الشريف ، ويطير آمنا فوق رءوس الطائفين والمصلين. ومن العجيب أنك لا ترى له مخلفات على الإطلاق ..

قيل إن نوحا عليه السلام حين أرسل الحمامة تكتشف له الأرض وهو فى السفينة عادت إليه وفى منقارها غصن زيتون ، فاستبشر بها ، ودعا لها ، فسكناها الحرم من بركة دعوته لها .

وروى البزار فى مسنده أن الله - تعالى - أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على فم الغار وأن ذلك صد المشركين عنه - ﷺ - وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين ..

ويرشدنا هذا الخبر إلى ان صلاح الآباء قد يكون سببا فى نجاية الذرية ونجاتها وتوفيقها إلى الخير.. والله جل وعلا يقول : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾(١٦١) .

---

(١٦٠) حياة الحيوان جـ٢ ص ٥٧٠.
(١٦١) الكهف من آية ٨٢.

وليس الحمام وحده الذى يعشش آمنا فى الحرم، فالدميرى يذكر فى كتابه أن هناك نوعا من الخطاطيف يسكن الحرم ، ويعشش فى سقفه وفى باب ابراهيم وباب بنى شيبة . وبعض الناس يزعم أنه من الطير الأبابيل الذى عذب الله به أصحاب الفيل .

الكعبة من الداخل

وليكن مسك الختام وصف للكعبة من الداخل يقصه علينا من أكرمه الله بدخولها، راجين أن يكتب الله لنا هذه الرؤية المباركة، فيكون حديثنا عن معاينة ومشاهدة، بعد أن كان عن محادثة ومطالعة ..

« هى عبارة عن بهو مربع الأضلاع، مشطور الزاوية الشمالية إلى يمين الداخل، وبهذه الشطرة باب صغير يؤدى إلى سلم يصل إلى السطح، ويعتمد السقف على أعمدة ثلاثة من خشب العود، امتنعت على البلى من عهد عبد الله بن الزبير حتى الآن . وتكسو جدرانها أستار من الحرير مطرزة بالآيات القرآنية وهى مزينة بالقناديل الذهبية والستائر الثمينة »[١٦٣] .

هذا وصف تدركه ملاحظة الحس .

ولكن دخول الكعبة يشعر الداخل - قطعا - برهبة مشوبة بالحب والرضا والسكينة .. وإن ذلك ليحدث لمُشاهِدها من الخارج. فما بالك لو ارتقى السلم إلى بابها الذهبى ، وفُتح الباب أمامه ليلتقى فى داخلها بكل نفحات الوجود، وسعادة الدنيا والأمل بثواب الآخرة .

إن الدنيا على رحابتها لتضيق أمام هذه المساحة المحدودة فى هذه الأمتار المربعة، وإنها على صغر حجمها لرحبة جدا لا يكاد يحصر فكر أو يحدها بصر، وعظيمة جدا لا يستطيع أن يعبر عن عظمتها لسان. ومرتفعة جدا لا يحول دون سموها سقف أو بنيان ..

---

(١٦٣) فى ظلال الحرمين لمحمد كامل حتة .

وقد عبرت إحدى المحظوظات عن تجربتها السعيدة تلك بقولها :

« وعندما من الله علي بالدخول إليها أخذت أرتقى الدرج بأقصى ما أستطيع من السرعة، وكأننى أخشى أن يحول بينى وبين الدخول حائل ، وعندما وجدتنى أقف على عتبة الباب أعلى الدرج شعرت بأن ماضى كله قد انفصل عن حاضرى تماما، وأننى فى لحظة ليست كباقى لحظات العمر التى عرفتها من قبل. لحظة وجود جديد... ميلاد روحى يتم وسط أنوار تتلألأ وتكبيرات وتهليلات ...»(١٦٤) .

إن لدخول الكعبة مذاقا خاصا وثوابا خاصا كذلك ».

فقد روى الثقاب بأسانيد مختلفة عن النبى - ﷺ - : « من دخل البيت فصلى فيه دخل فى حسنة ، وخرج من سيئة مغفورا له . وفى لفظ : من دخل البيت خرج مغفورا له »(١٦٥) .

وروى عن الحسن البصرى : «من دخل الكعبة دخل فى رحمة الله - عز وجل - وفى حمى الله تعالى وفى أمنه ومن خرج خرج مغفورا له .

(١٦٤) الكعبة المشرفة لأمينة الصاوى .

(١٦٥) تاريخ الكعبة المعظمة ص ٣٥٩ أخرجه الطبرانى عن عطاء عن ابن عباس .

بئر زمزم

* خير ماءٍ على وجه الأرض
* فيه شفاءٌ من السَّقم
* ماؤها لما شُرب له

زمزم

علاقة زمزم بسلسلة القصص القرآني . أن زمزم جزء من الكعبة المشرفة .. وهي استجابة لدعوة ابراهيم – عليه السلام – حين قال : ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١٦٦)

ولا عمران يدون مياه ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (١٦٧)

وقد عرفنا من أحاديثنا السابقة أن زمزم منة الله على نبيه اسماعيل – عليه السلام – فجرها تحت قدميه ، حين اشتد به العطش هو وأمه ، وجعلها شِرْباً له وللحجاج بيت الله فى المستقبل .

لقد أرسل الله جبريل – عليه السلام – فهمز الأرض بعقبه أو بجناحه فظهر الماء . وكانت أمه تجرى بين الصفا والمروة بحثا عن مخرج تنقذ به وليدها من العطش .. وبينما هى كذلك إذ سمعت أصوات السباع فخافتها على ابنها ، فجاءت تشتد نحو ، فوجدته يفحص بيده عن الماء من تحت خده ويشرب .(١٦٨) .

وقد جعل الله – جلت قدرته – هذه العين طيبة مباركة ،على الرغم من صغر حجمها ، فهى تقوم مقام الأنهار الكبيرة ، مما يدل على أنها من فيض رحمة الله التى وسعت كل شىء .

لقد بارك الله فيها حتى إنها لتفى بحاجة الحجيج الأعظم مهما بلغ عددهم ، وإنها لتمدهم بالرى والغذاء معا .

---

(١٦٦) ابراهيم ٣٧ . (١٦٧) الأنبياء ٣٠ .

(١٦٨) سيرة ابن هشام حـ١ صـ١٢٢ ، ويفحص : يكشف الماء ويوسع له ، والحسى : الحفرة الصغيرة .

وقد وردت فى ذلك آثار شريفة طيبة . فقد قال - ﷺ - : « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » .

وقد رواه الحاكم فى المستدرك من حديث أبى ذر :

قال أبو ذر - رضى الله عنه - : .. وأقبلت حتى جئت إلى رسول الله - ﷺ - فقال : من أنت ؟ ومن أين أنت ؟ ومن أين جئت ؟ وما جاء بك ؟

فأنشأت أعلمه الخبر .
فقال : من أين كنت تأكل وتشرب ؟
فقلت : من ماء زمزم .
فقال : أما إنه لطعام طعم .. (١٦٩)

قيل : إن أبا ذر مكث ثلاثين يوما يتقوت منه فسمن حتى تكسرت عكن بطنه .

وروى عن النبى - ﷺ - قوله : « خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم ، فيه طعام من الطعم ، وشفاء من السقم - وشر ماء على الأرض ماء بوادى برهوت بحضرموت وعليه رِجْل الجراد من الهواء - وفيه آيات بينات » منها أنه يقتات به ، ولهذا لا يجوز الاستنجاء به . (١٧٠)

وقال بعض الرواة : إن الخليل - عليه السلام - بعد أن نبعت العين حفرها (١٧١) ، وكان إبراهيم يلم بابنه وأمّه راكبا البراق كل يوم - على ظهر البراق - وهو مركب الأنبياء .

---

(١٦٩) أخرجه الطبرانى فى الصغير ، وفى جمع الجوامع للسيوطى جـ ٢ صـ ٢٢٢٥ برقم ٧١ / ١٤٤٨٣ .

(١٧٠) إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى صـ ٢٠٥ والحديث أخرجه الطبرانى فى معجمه من طريق موسى بن هارون مسندا إلى ابن عباس - رضى الله عنهما - .

(١٧١) ذكر ذلك يحيى حمزة كوشك فى كتابه « زمزم » منسوبا إلى الفاكهى فى شفاء الغرام .

ولولا حفر إبراهيم الذى وسع زمزم وعمَّقها ما عمرت مكة ..

وكان ظهور زمزم قبل الميلاد بحوالى تسعة عشر قرنا ، وذلك على حسب التاريخ الذى أورده أهل الكتاب حين قالوا : إن إسماعيل ولد سنة ١٩١٠ قبل الميلاد ..

وهذا التاريخ مقارب لما سبق أن ذكرناه في رحلة إبراهيم إلى مصر حيث كان الهكسوس « ملوك الرعاة » يحكمونها .

أما تسميتها « زمزم » فقد أشرنا – فيما سبق – إلى أن هاجر أم إسماعيل – عليهما السلام – حين رأت الماء يتدفق ويسيح خشيت عليه من التبدد والضياع في الوادى ، فجعلت تُحَوِّط حوله ، وتقول بلسانها : زم ، زم يا مبارك ، أى اجتمع ولا تتفرق ...

وقيل فى تعليل ذلك أقوال أخرى :

منها أن الزمزمة عند العرب معناها الكثرة والاجتماع . فسميت بذلك لكثرة الماء واجتماعه ..

ومنها أنها زُمَّت بالتراب حتى لا يتفرق الماء يمنة ويسرة .

ومنها أنها أخذت من الزمزمة وهى صوت الماء ..

ومنها أن الفُرس زمزموا عليها حين حجوا إليها ، ولهم صوت يخرجونه من خياشيمهم عند شرب الماء يسمى زمومة ، وقد نهاهم «عمر» – رضى الله عنه – عن ذلك .. (١٧٢) . أو لزمزمة جبريل عليه السلام وكلامه عنها .

ولزمزم تسميات أخرى .

وقد ذكر العلماء أن زمزم لها أسماء أخرى لها تعليلات .

فهى زَمْزَم – بفتح وسكون وفتح – كما قدمنا ..

---

(١٧٢) لسان العرب لابن منظور .

وزمّم – بميم مشددة – بعد الزاى .
وهى الشبّاعة أى التى تشبع من يشرب منها من الجوع .
وهى الرّواء والمُرْوِيَة : لأنها تروى من العطش .
وهى ركضة جبريل ، والركضة ضرب الأرض بالرجل .
وهى هزمة جبريل ، والهزمة كالهمزة أى غمزة جبريل الأرض .
وهى النافعة ، لما فيها من نفع كثير لاحصر له .
وهى العافية ، لما تذهب به من العلل والأمراض .
وهى الميمونة ، لما فيها من يمن وبركة .
وهى بَرّة ، لما فيها من البر وهو الخير .
وهى المضنونة ، من الضَنّ وهو المنع ، أى الحرص عليه لنفاسته ، فالضنين هو النفيس .

ولها أسماء غير ذلك أشار إليها صاحب كتاب «زمزم طعام طعم وشفاء سقم» . أما طعام وشفاء سقم فقد ورد فى ذلك حديث شريف سبقت الاشارة إليه .

وعلى الرغم من أن ماء زمزم رِواء فإن فيه أثر ملوحة تعقب حلاوة . يعرف ذلك من ذاقه .

وعلل الزركشى هذه الملوحة تعليلا ذوقيا فقد قال : إن الله خصها بذلك حتى يغلب على شاربها الملح الإيمانى ، ولو جعله عذبا لغلب الطبع البشرى ، وفى ذلك رد على أبى العلاء المعرى فى قوله :

لك الحمد أمواه البلاد بأسرها عِذابٌ ، وخصت بالملوحة زمزم (١٧٣)

خصائص زمزم

ومن خصائص زمزم أن ماءها يعظم ، ويكثر فى الموسم كثرة خارقة ، ويحلو ، وروى أن مياه الأرض العذبة ، ترفع قبل يوم القيامة ما عدا زمزم ..

ولهذا الماء فضل كبير يعرفه المسلمون ويحرصون عليه ، حتى إنهم ليتهادونه حين عودتهم من رحلتى الحج والعمرة .

---

(١٧٣) إعلام الساجد صـ ٢٦٥ .

قال الامام بدر الدين ابن الصاحب المصرى : وازنت ماء زمزم بماء مكة فوجدت زمزم أثقل من العين بنحو الربع ، ثم اعتبرتها بميزان الطب فوجدتها تفضل مياه الأرض كلها طبا وشرعا .(١٧٤)

ويرى العارفون أنه نافع لكل شيء بدليل الحديث الشريف : « ماء زمزم لما شرب له» - بشرط حسن النية وصدق الاعتقاد ..

وقد قال الأطباء : ان هذا الماء نافع للكلى والأمعاء والمعدة والكبد .(١٧٥)

وترجع أسباب هذه الخصائص التى منحها الله هذا الماء إلى ما يأتى :

● أنه ليس ماء عاديا ، ولكنه فجره الله فى مناسبة خاصة بمعجزة .. فقد كان نتيجة ركضة جبريل عليه السلام - لنبى الله اسماعيل - عليه السلام - وذلك منذ ما يقرب أو يزيد على أربعة آلاف سنة . فى مكان لا يتوقع وجود الماء فيه بحال من الأحوال ..

● انه نابع من تحت أقدس مكان فى الأرض .. من تحت الكعبة المشرفة - أول بيت لله وضع للناس فى الأرض . ومن جهة الصفا والمروة وهما من شعائر الله ..

● ان هناك أحاديث كثيرة تحدثت عن فضائل هذا الماء ، وحثت على شربه والاستكثار منه والاستشفاء به فمن ذلك قوله - ﷺ - : « ماء زمزم لما شرب له »(١٧٦)

---

(١٧٤) زمزم صـ ٣٠ .

(١٧٥) زمزم طعام طعم صـ ٣٠ .

(١٧٦) الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى حـ ٥ صـ١٤٨ فى كتاب الحج . باب سقاية الحاج - وفى مسند الامام أحمد حـ ٣ صـ ٣٧٢ - مرويا عن جابر وفى جمع الجوامع حـ ٣ صـ ١٨٢٩ برقم ٤ / ١٨٣٥٦ .

وقوله – ﷺ – « ماء زمزم لما شرب له ، فإن شربته لتشفى به شفاك الله ، وإن شربته مستعيذا أعاذك الله ، وإن شربته ليقطع ظمأك قطعه » .[177]

وفى رواية بزيادة : وهى هزمة جبريل وسقيا الله لإسماعيل .

وقوله – ﷺ – « ماء زمزم شفاء من كل داء » .[178]

● وكان النبى – ﷺ – يحث على التضلع منه .[179]

ومعنى التضلع ملء الأضلاع منه أى الاكثار من الشرب حتى تمتلىء الأضلاع شبعا وريا .[180]

● وقد غسل صدر النبى حين شقه الملكان بماء زمزم ، وما ذلك إلا لخصيصة فى ذلك الماء لا توجد فى غيره .

● ومن غير شك أن هذا الماء منذ نبع أقبل على شربه الأطهار والأخيار ، فإنه فى مكان مقدس لا يقصده إلا كل طاهر يحج الكعبة . ومن ثم فقد شرب منه الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام وهم ذريته فهو أبو الأنبياء ..

ومازال يحج هذا البيت من استجاب لدعاء إبراهيم أزلا .. ومن اختاره الله فوفقه للتلبية .. فيشرب من هذا الماء ويستكثر فلا يجد إلا الرى والشبع والبركة والنفع ..

---

(١٧٧) الحديث فى المستدرك للحاكم حـ ١ صـ ٣٧٢ – مرويا عن جابر وفى جمع الجوامع صـ ١٣٨٠ برقم ٥/ ١٨٣٥٧ .

(١٧٨) الحديث فى الجامع الصغير برقم ٧٧٦٢ وفى جمع الجوامع برقم ١٨٣٥٩/٧ – وفيه كلام – .

(١٧٩) زمزم صـ ٣١ .

(١٨٠) لسان العرب لابن منظور .

لقد أصبح الشرب من زمزم سنة . فإنه بعد أن ينتهى الحاج أو المعتمر من الطواف يصلى ركعتين فى مقام إبراهيم - عليه السلام - ثم يتوجه إلى زمزم فيشرب من مائها ، ويدعو الله عند شربه بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة ، فيحقق الله مطلوبه ..

تحقق صدق ذلك ..

وقد تحقق صدق هذا الأثر الوارد عن النبى - ﷺ «ماء زمزم لما شرب له » .

وكان النبى - ﷺ - يدعو عند شربه ، وكان الصحابة يدعون ، ومن دعاء ابن عباس - رضى الله عنهما - اللهم إنى أسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل سقم برحمتك يا أرحم الراحمين ..

وروى عبد الرحمن بن أبى بكر قال : كنت عند ابن عباس جالسا فجاءه رجل فقال : جئت زمزم فشربت منها كما ينبغى ؟
قال : وكيف ؟
قال : إذا شربت منها فاستقبل القبلة ، واذكر اسم الله ، وتنفس ثلاثا وتضلع منها ، فإذا فرغت فاحمد الله - عز وجل - فإن رسول الله - ﷺ - قال : « إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم » . (١٨١)

هناك كثير والحمد لله - من قديم العصور كانوا يشربون - ومازال المسلمون يشربون بنية الشفاء من المرض - وبخاصة المستعصى - أو بنية التوبة ، أو نية العلم ، أو نية التوفيق فى أمر من الأمور ، أو نية التوفيق فى أمر

---

(١٨١) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ٢ صـ ١٠١٧ برقم ٣٠٦١ باب الشرب من زمزم وقال فى الزوائد إسناده صحيح ورجاله موثوقون .

من الأمور ، أو نية نجابة الأولاد ، أو نية ذهاب الهم والغم أو غير ذلك من مقاصد الخير ويحصل كل منهم على مقصوده ..

حكى الإمام السيوطي في ترجمته الذاتية لنفسه قال : لما حججت شربت من ماء زمزم لأمور ، منها أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر .

فأجابه الله إلى طلبه وحقق أمله. فيقول : رزقت التبحر في سبعة علوم، هي: التفسير، والحديث، والفقه والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة(١٨٢).

أما الشفاء من المرض ببركة الشرب من هذا الماء فهو حاصل مجرب ، وقد حدث ذلك مراراً وتكراراً مما لا يحتاج إلى دليل .

فكم من أناس داهمهم المرض حتى يئسوا من الشفاء ، وحجوا واستقوا من زمزم على نية الشفاء ، فعادوا وقد لبسوا ثوب الصحة والعافية وكم من شيخ كاد الهرم يقعدهم عادوا من حجهم أو اعتمارهم كأنهم في سن الفتوة والشباب ...

وقد حدث أحد الأصدقاء عن قريب له كان مبتلى بالإدمان ، وحج وشرب من زمزم على نية شفائه من إدمانه، وقال في دعائه : اللهم إنه قد صح عن نبيك - ﷺ - أنه قال : ماء زمزم لما شرب له . وأنا أشرب يارب على نية أن تخلصني من هذا الداء اللعين الذي استولى علي ، وأهلك أموالي وخرَّب صحتي .. وأخذ يشرب حتى تضلع وما أن انتهى من شربه حتى أخذ يقيء حتى أفرغ ما في جوفه ..

وكأن هذا القيء قد طهر أمعاءه وغسل جسمه وشفي من الإدمان تماما ، حتى أصبح يتقزز من منظر المدمنين وسماع أخبارهم، وعادت إليه صحته

---

(١٨٢) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي جـ ١ ص ١٤٨ .

وشبابه، بعد أن كانت علامات الهرم قد ظهرت عليه وهو فى شرخ الشباب. فسبحان القادر الوهاب ..

لقد صح عن النبى - ﷺ - أن ماء زمزم يبرد الحمى ويذهب الصداع . وأن النظر فى زمزم عبادة وهى تحط الخطايا ، قالوا : ومن فضائلها أن من حثا على رأسه ثلاث حثيات منها لم تصبه زلة .

وقد ذكر المناوى تعليلا لذلك السر الذى جعله الله فى هذا الماء المبارك قال : إن ماء زمزم جعله الله سقيا وغياثا لولد خليله ، فبقى غياثا لمن بعده ، فمن شربه بإخلاص وجد ذلك الغوث ، قال الحكيم الترمذى : هذا جار للعباد على مقاصدهم وصدقهم فى تلك المقاصد والنيات ، لأن الموحد إذا رابه أمر فشأنه الفزع إلى ربه، فإذا فزع إليه واستغاث به وجده غياثا ، وإنما يناله العبد على قدر نيته فإن النية تبلغ بالعبد عناصر الأشياء، والنيات على قدر طهارة القلوب وسعيها إلى ربها ، وعلى قدر العقل والمعرفة بقدر القلب على الطيران إلى الله - تعالى - فالشارب لزمزم على ذلك(١٨٣)

إعادة حفر زمزم بعد طمرها

عرفنا أن زمزم فجرها الله لإسماعيل - عليه السلام .

وجاء الجراهمة فنزلوا حول البئر بعد استئذان هاجر . وأقاموا فترة من الزمن ، ثم غلبوا على ولاية البيت بعد أبناء إسماعيل .

وتطاول الزمن وبغى الجراهمة فى الحرم فنحاهم الله عن مكة ..

ويقال : إن هناك حربا دارت بين الجراهمة وأعدائهم، هزم فيها الجراهمة ، فطاردهم أعداؤهم إلى خارج مكة ، فعمد الجراهمة إلى بئر زمزم فطمروها، ودفنوا فيها بعض النفائس والأسلحة .. انتقاما من هؤلاء الذين انتصروا عليهم ، حتى يحرموهم من المورد الرئيسى للحياة .. وهو الماء وذهب مكان البئر بمرور الزمن ، وحفر أهل مكة آبارا جديدة أخذوا يستقون منها ونسوا أمر زمزم تماما .

---

(١٨٣) «زمزم طعام طعم» ص ٢٩ من كلام المناوى فى شرح الجامع الصغير عند قوله ﷺ : «ماء زمزم لما شرب له..»

وقد ذكر ابن هشام في سيرته أسماء بعض هذه الآبار التي كان يستقى منها أهل مكة قبل أن يعاد حفر زمزم ..

● فمن هذه الآبار «الطوىً» وهي بئر حفرها عبد شمس بن عبد مناف . كانت بأعلى مكة عند البيضاء .

● وحفر هاشم بن عبد مناف بئرا اسمها «بَذَّر»

قال ياقوت : بذر من التبذير ، وهو التفريق، وسميت بذلك لأن ماءها كان يخرج متفرقا من غير مكان .

وكانت عند خطم الخندمة على فم شِعب أبى طالب وقال حين حفرها :

أنبطت بذَّراً بماء قَلاَّس جعلت ماءها بلاغاً للناس

● وحفر المطعم بن عدى بئرا وسماها « سَجْلة ».

ويقال : إن الذى حفرها هو هاشم بن عبد مناف ، فوهبها ابنه أسد بن هاشم. لعدى بن نوفل، وورثها ابنه المطعم بن عدى.. وفي هذه الهبة تقول خالدة بنت هاشم :

نحن وهبنا لعدى سَجْلة تروى الحجيج زُغْلَةً فَزُغْلة

وقيل : إن الذى حفرها هو قُصَىّ.

● وحفر أمية بن عبد شمس بئرا أسماها «الحَفْر» حفرها لنفسه وقيل : إنها كانت لبنى تيم بن مرة .

● وحفر بنو أسد بن عبد العُزّى «سُقَيَّة»

● وحفر بنو عبد الدار «أم أحراد» .

● وحفر بنو جمح «السُّنْبِلة».

● وحفر بنو سهم « الغَمْر ».

وكانت هناك آبار قبلها منها : «رُمّ» ، و «خُم» وغيرهما ..

حتى أعاد عبد المطلب حفر « زمزم» فعفَت على غيرها من الآبار ، لقربها من المسجد الحرام ، ولفضلها على ماسواها من المياه ، ولتاريخها العبق فهي منسوبة لإسماعيل - عليه السلام - أبى العرب[١٨٤] .

وقد سبق حديثنا عن حفر عبد المطلب بن هاشم لزمزم .

(١٨٤) راجع سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٩ وما بعدها .

ولكن نخص بالتسجيل هنا ما سبق أن وعدنا بذكره ، وهو قصة «عبد الله الذبيح أبي النبي – ﷺ – فقد كاد عبد الله يذهب ضحية هذه البئر ..

واليكم هذه القصة .. قصة الذبيح

حين كاثرت قريش عبد المطلب، وطمعوا أن يشاركوه زمزم بعد أن حفرها هو وولده الحارث بمفردهما .. وعيروه قلة الولد ، نذر : لئن رزقه الله عشرة من البنين ليقربن واحدا منهم لله ..

لقد هاله أن يتعب هو وولده وحدهما فى الحفر حتى إذا ما لاح الماء أقبل هؤلاء الذين كانوا يسخرون منه يشاركونه فيه .

ولقد كان يهتف من أعماقه وهو يحفر بهذا الرجز الذى ينبىء عن إخلاصه لله ، وصدقه فى سعيه له ..

لا هم قد لبيت من دعانى وجئت سعى المسرع العجلان
ثبت اليقين صادق الإيمان يتبعنى الحارث غير وان
جذلان لم يحفل بما يعانى لا هم فلتصدق لنا الأمانى
مالى بما لم ترضه يدان(١٨٥)

مالقريش وماله ؟ ولماذا هذا الحسد على ما أفاءه الله عليه من نعمة ؟ وآثره به من قرب ؟

وتمر الأيام ، ويرزق عبد المطلب بعشرة ذكور ، وبلغوا مبلغ الرجال، وكان آخرهم عبد الله ..

وعزم عبد المطلب – غير متردد – على الوفاء بنذره

ولكن أيهم يختار وكلهم عزيز عنده أثير لديه ؟

أقرع بينهم ، جمعهم ذات يوم وأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء فلم ينكص واحد منهم ، وأجابوه جميعا .. وقالوا : كيف نصنع ؟

---

(١٨٥) على هامش السيرة لطه حسين جـ ١ ص ١٢

قال : ليأخذ كل منكم سهما يكتب عليه اسمه . وأقرع بين السهام . فخرج سهم عبد الله .. وهو آخرهم ولادة فى ذلك الوقت، وأحب الأولاد آخرهم وأصغرهم - كما يقول العرب -

وأعاد القرعة مرتين فخرجت على عبد الله فأقبل ليذبحه ، وامتثل عبد الله لأمر أبيه كما امتثل جده إسماعيل - عليه السلام - منذ قرون لأمر أبيه حين أخبره بأن الله أمره بذبحه ..

وشق على قريش ما عزم عليه عبد المطلب ، فقامت تمنعه ، إنه إن فعل تصبح سنة فى العرب ، ولا قبل لهم بذلك .

وحاكمته قريش إلى كاهنة مشهورة اسمها «قطبة بنت سجاح» كان العرب يلجأون اليها فى شدائدهم.

وتفرست هذه الكاهنة فى عبد الله، وأخبرتهم بأنه سيكون لولد منه شأن وأى شأن...

إذن فقد فتحت باب الأمل فى إنقاذه .. بقولها .. سيكون له ولد .. وإذن فسيحيا ، ويتزوج ، ويولد له .. ومعنى ذلك أنه لن يذبح .

ولكن كيف يكون الطريق لإنقاذه وعبد المطلب مصر على الوفاء بنذره ؟ وإن عبد المطلب ليس بالضعيف الواهن فى إيمانه، ولكنه ذو عزيمة قوية ووفاء نادر .

وحلت لهم الكاهنة هذه المشكلة ..

قالت لهم : كم دية الرجل فيكم ؟

قالوا لها : عشرة من الإبل .

قالت : اقرعوا بين ابنكم وبين عشرة من الإبل، فإن خرجت القرعة عليه تزيدوا عشرة من الابل ثم تقترعوا ..

وافعلوا ذلك حتى تخرج القرعة على الإبل .

وارتضى عبد المطلب هذا الحل .

وعاد وأقرع بين ابنه وبين عشرة من الابل ، فخرجت القرعة على عبد الله ، فزاد عشرة أخرى وأقرع ، فخرجت على عبد الله ، وما زال عبد المطلب يزيد ويقرع حتى خرجت القرعة على مائة من الابل وأعاد عبد المطلب القرعة ثلاث مرات ليرضى ضميره فخرجت على الابل.

عند ذلك أشرق وجه عبد المطلب وتهلل، وقال : الحمد لله .. إنه لفداء يسير، ما أهون ذلك أمام أن يبقى له عبد الله .. ونحر الإبل ، وأباح لحمها للناس والوحوش والطيور(١٨٦) .

ومن ذلك الوقت أصبحت دية الرجل فى العرب مائة من الابل ، وجاء الإسلام فأقر ذلك فيما أقر من صالح شرائع الجاهلية ومن ذلك الوقت ازداد شأن عبد الله ارتفاعا .. كما ارتفع شأن زمزم التى من أجلها كان نذر عبد المطلب.

قريش تفتخر بزمزم

لقد كان استنباط زمزم بهذه الصورة مفخرة لعبد المطلب ، ثم لبنى هاشم ، ثم لقريش كلها .. بعد أن أقرت لعبد المطلب بالسبق والتفرد ، واعترفت له بالفضل فى إظهارها .

وأصبحت السقاية شرفا يحوزه بنو هاشم ، وقد توارثوه منذ عهد قصى، وقد استعاده قصى بعد أن اختلسه الخزاعيون فترة من الزمن ..

وفى ذلك الشرف يقول بعض شعراء قريش مفتخرا بالسقاية والرفادة :

ورثنا المجد من آبائنا فنما بنا صُعُدا
ألم نسق الحجيج وننحر الدّلاّفة الرُّفدا
ونُلقى عند تصريف المنايا شُدَّداً رُفُدا
وزمزم فى أرومتنا ونفقأ عين من حسدا(١٨٧)

(١٨٦) سيرة ابن هشام - على هامش السيرة .
(١٨٧) هذا الشاعر مسافر بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف =

وامتدح الشعراء الهاشميين لأنهم يسروا أمر السقى للحجيج ، وقاموا بهذا الأمر خير قيام باحتفارهم زمزم على يد عبد المطلب .. فقال أحدهم :

وساقى الحجيج ثم للخير هاشم   وعبد مناف ذلك السيد الفهرى
طوى زمزما عند المقام فأصبحت   سقايته فخرا على كل ذى فخر

أما سقاية عبد المطلب الحجيج فكان أمرها عجبا وأى عجب!

يقولون: كانت له ابل كثيرة– فحين يجىء الموسم يخلط لبنها بالعسل ويجعله فى حوض من أدم عند زمزم ، ويشترى الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحجاج يفعل ذلك لكسر غلظ ماء زمزم ، وكان ماؤها إذ ذاك غليظا ..

وورث السقاية منه ابنه العباس .. وأقره النبى – ﷺ – عليها ، والعباس يلقب بساقى الحرمين .

سقاية زمزم

السِّقَاية : الإناء يسقى به ، ومنه قوله – تعالى – ﴿ جَعَل السِّقَاية فى رَحْلِ أخيه ﴾[١٨٨] .

والسقاية : الموضع الذى يتخذ فيه الشراب فى المواسم وغيرها ، ويقال للبيت الذى يتخذ مجمعا للماء ويسقى منه الناس السقاية ..

وسقاية الحاج سقيهم الشراب . وجاء فى القرآن الكريم : ﴿ أجَعَلْتُم سِقَايَةَ الْحَاجِّ وعِمَارَةَ الْمَسْجد الْحَرَام كمن آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وجَاهَدَ فى سَبيل الله لايَسْتَوُون عِنْدَ الله﴾[١٨٩] .

وكانت السقاية من مآثر قريش فى الجاهلية وظلت لهم فى الإسلام، فقد قال النبى – ﷺ – فى الفتح : كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمى هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة البيت ..

= والدلافة : الإبل تمشى متمهلة لسمنها – الرُّفد : جمع رفود وهى التى تملأ الرفد وهو القدح الذى يحلب فيه– رفدا– فى البيت الثالث– من الرفد وهو العضاء– الأرومة الأصل– سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٣ .

(١٨٨) يوسف ٧٠

(١٨٩) التوبة ١٩

قال صاحب اللسان : هي ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء[١٩٠] .

وفى عام الفتح تطلع العباس بن عبد المطلب إلى مفتاح الكعبة ، ورغب أن تجتمع له السدانة والسقاية، وكانت فى يده السقاية فقط، أما السدانة فكانت في يد عثمان بن طلحة. وأمسك النبى - ﷺ - بمفتاح الكعبة في يده . ثم دفعه إلى عثمان وتلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[١٩١] قيل إن هذه الآية نزلت يوم ذاك .

وحين حج النبى - ﷺ - حجة الوداع، مضى إلى بئر زمزم ، وكانت السقاية - كما قدمنا - فى يد العباس. ودعا بدلو فتوضأ وشرب ، ولم ينزع - ﷺ - الماء بيده لأنه أراد أن يترك الحق لأهله .

وقال فى ذلك : انزعوا يا بنى عبد المطلب فلولا أن تغلبوا عليها لنزعت معكم[١٩٢] وأنه ﷺ لصاحب حق فى ذلك فهو ابن عبد الله بن عبد المطلب ، وأثر عنه أنه قال يوم حنين على سبيل إثارة حماس قومه .

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب[١٩٣] .

ولكنه أراد ألا يأتي واحد بعد ذلك، فيغتصب هذا الحق من أصحابه وينزع بيده ، قائلا : لقد فعل النبى - ﷺ - ذلك

إن انتزاع الماء وإعطاءه الحجاج شرف يقوم به أهله - فإن العمل فى الكعبة - بيت الله - من قبيل الأوسمة على صدور أصحابها ، يتوارثه أهله كابرا عن كابر ..

حتى إن تعسير هذه البئر وتطهيرها وتطويرها كان بيد من إليه السقاية ، لقد كان الناس جميعا يتمنون أن تتاح لهم فرصة الاشتراك فى هذا العمل

---

(١٩٠) لسان العرب - مادة سقى (١٩١) النساء ٥٨.

(١٩٢) [illegible] ص ٢٢ (١٩٣) تفسير القرطبي سورة يس عند قوله تعالى ﴿وما علمناه الشعر﴾

الجليل . ولكنهم كانوا ينظرون دائما إلى أنه لا ينبغى أن ينازع الحق أهله ... فإن ذلك شرف خاص بأصحابه ، ونعمة أنعم بها على قوم تقابل بالغبطة لا بالحسد ، وبالشكر لا بالحقد ..

ومن الطرائف التى حدثت قديما ويرويها ابن جبير فى رحلته ما يلى :

« ومن الأمور المحظورة بهذا الحرم الشريف – زاده الله تعظيما وتكريما – ان النفقة فيه ممنوعة – أى على غير القائمين بأمره – لا يجد الموسر إليها سبيلا ، فى تجديد بناء أو إقامة حطيم أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك، ولو كان الأمر مباحا في ذلك لجعل الراغبون في نفقات البر من أهل الجدة حيطانه عَسْجَدًا[١٩٤] وتربه عنبرا ، لكنهم لا يجدون السبيل إلى ذلك .

قال : ومن أغرب ما اتفق لواحد من ذوى اليسار أنه وصل إلى الحرم ، فرأى تنور[١٩٥] بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها ، فاجتمع بالقائم بالأمر، وقال: أريد أن أتأنق فى بناء تنور زمزم وطيّه وتجديد قبته، وأبلغ فى ذلك الغاية الممكنة، وأنفق فيه من صميم مالى ، وذلك على شرط فى ذلك التزم به ، وهو أن تجعل من قِبَلك رجلا ثقة يقيد مبلغ النفقة فى ذلك فإذا استوفى البناء التمام ، وانتهت النفقة منتهاها بذلت لك مثلها جزاء على إباحتك لى ذلك .

فوافق القائم بالأمر ، وعلم أن النفقة فى ذلك ستكون طائلة وسيكون له مثلها .

وألزمه شخصا يقيد قليل الإنفاق وكثيره .

وشرع الرجل فى البناء ، واحتفل بذلك احتفالا كبيرا ، واستفرغ غاية جهده ، لا يقصد من وراء ذلك إلا رضاء الله – سبحانه وتعالى – وخدمة حجاج بيته .

---

(١٩٤) العسجد : الذهب .
(١٩٥) التنور : المكان الذى ينفجر فيه الماء أو هو موضع إجتماعه .

حتى فرغ البناء على الصفة المطلوبة ، وقد تجددت زمزم ونظفت صرفها ووسائلها وأوانيها ، وبذل الرجل فى ذلك نفقات واسعة ، وهو جذلان فرح .

وأصبح القائم بالأمر وهو متهيىء لقبض مثل ما أنفق الرجل وفاء للشرط . ولكنه فوجىء بأن الرجل قد أصبح فى ذمة مولاه وفاز بثواب الله[196] .

لم تكن الأموال قديما ميسورة ، وكانت الموارد محدودة فتيإ. القائ ون بالأمر زمزم على الصورة التى وصفها ابن جبير .

أما الآن - والحمد لله - فموارد المملكة واسعة - زادها الله سعة على سعة - ولذلك فقد توسع أولو الأمر فى تعمير المكان وتطويره بصورة ينشرح لها صدر كل مسلم ولا يسعه إلا الدعاء لهؤلاء الذين وفقهم الله لخدمة ضيوف الله ..

ونعود إلى السقاية . كيف كان يقوم بها أربابها قديما ؟

عرفنا أن عبد المطلب كان يسقى الناس اللبن بالعسل ، ويخلط الزبيب بماء زمزم .. وتبعه ابنه العباس فى ذلك . فقد كان للعباس كَرْم بالطائف ، وكان يحمل زبيبه إلى زمزم كل عام فى الموسم ..

وكانت هناك أحواض يصب فيها ماء زمزم .. ستة أحواض . فى كل حوض منها حوض من آدم ينبذ فيه النبيذ للحاج . وقد وصف بعضهم سقاية العباس بعد أن تطورت بعده بفترة طويلة بقوله :

هى بناء مربع أعلاه قبة كبيرة ساترة لجميعه ، وفى أسفل جدرانها ، ما عدا الجنوبى منها - شبابيك من حديد ، وفى جانبها الشمالى من خارجها حوضان من رخام مفردان ، وباب السقاية بينهما ...

---

(196) رحلة ابن جبير ص ۱۰۱ ط دار التحرير .

وفي هذا البناء بركة كبيرة تملأ من بئر زمزم ، ويسكب الماء من البئر في خشبة طويلة على صفة الميزاب متصلة بالجدار الشرقي من حجرة زمزم ...

ولكن هذا المكان ما زال يتطور تعميرا وتجديدا وتزيينا حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن من رونق وبهاء وجمال ونظافة .

إن إقبال الناس على زمزم لما يعرفون من فضلها وبركتها، وفي ذلك لاينافسها أي ماء مهما عذب طعمه أو لذ ذوقه ..

آداب حول استعمال ماء زمزم

كيف شرب النبي ﷺ من زمزم ؟

روى الرواة أن النبي - ﷺ - في حجة الوداع أمر أن يُفيض الناس نهارا ، ثم أفاض هو بنسائه ليلا فجاء فطاف بالبيت على ناقته ، ثم جاء إلى زمزم ، فطلب سَجْلا من ماء ، فشرب منه ثم تمضمض ومجَّ في الدلو ، وأمر فأفرغ في البئر ..

وقال قولته التي أشرنا إليها آنفا : يا بني عبد المطلب انزعوا فلولا ان تغلبوا عليها لنزعت معكم ..

ثم مشى النبي - ﷺ - إلى سقاية النبيذ .. وهي وضع الزبيب في ماء زمزم ليحلو - ليشرب ، فقال له العباس رضي الله عنه : ان هذا قد ساطته الأيدي وقد أُثقل، وفي البيت شراب صاف، فأبى النبي - ﷺ - أن يشرب إلا منه، فأعاد عليه العباس ثلاثا فأبى(١٩٧) .

لقد أراد النبي - ﷺ - أن يشرب مما يشرب منه الناس ، ولا يكون له تميز عنهم .. وهو سيد المتواضعين وقدوة المتقين ..

وقد ذكر العلماء آدابا للشرب من زمزم .. نجملها فيما يلي :

- أن يستقبل الشارب القبلة وهو يشرب ، يعني لا يعطي ظهره للكعبة أو جنبه ..

---

(١٩٧) زمزم ص ٣٢ وقد نقله الكاتب عن الأزرقي في اخبار مكة .

● أن يذكر الله – تعالى – أول شربة.

● أن يتنفس ثلاثا فى أثناء شربه ويسمى الله عقب كل نفس .

● أن يتضلع من الماء .

● أن يحمد الله – تعالى – عقب شربه .

● أن يدعو الله – تعالى – بما يشاء من خيرى الدنيا والآخرة ، ويستحب دعاء ابن عباس – رضى الله عنهما – وكان يقول فى دعائه :

« اللهم إنى أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء ».

ولا يقتصر على هذا الدعاء بل يزيد عليه بما يحب من الخير ، ويتجنب أى دعاء يكون فيه مأثم أو قطيعة رحم أو ضرر يحيق بأحد .

● وعليه أن يتناول السقاء بيده اليمنى ، ويذكر الحديث المروى عن النبى – ﷺ – قائلا :

اللهم إنه قد بلغنى عن نبيك – ﷺ – أنه قال : «ماء زمزم لما شرب له » اللهم إنى أشرب هذا الماء على نية كذا وكذا . ويتنفس فى أثناء شربه ثلاثا مع ذكر اسم الله فى كل مرة .

وقد مر الأثر الوارد عن ابن عباس – رضى الله عنهما – فى ذلك.

اغراض استعمال ماء زمزم :

لقد من الله على الناس بزمزم لتكون لهم خيرا وبركة .. وأهم ما فى ذلك أن تكون سببا فى إمساك الحياة المادية والمعنوية .. فهى للشرب لإمساك الحياة المادية إذ فيها صيانة للشارب من الموت عطشا .. وفى الوقت نفسه طعام طعم وشفاء سقم .. وهى للوضوء لإقامة الصلاة والصلاة عماد الحياة المعنوية. فهى روح الإسلام وأساس الدين .

وقد مر أن النبى – ﷺ – فى حجة الوداع ، حين أفاض دعا بسجل من الماء فشرب منه وتوضأ ..

وقد كره الامام أحمد الوضوء والغسل بماء زمزم

ولكن المشهور عند جمهور الفقهاء جواز الوضوء بلا كراهة لفعل النبى – ﷺ .

ويستند الحنابلة فى عدم جواز الوضوء أو الغسل إلى قول العباس وهو من بيده السقاية : لا أحلها لمغتسل وهى لشارب حل وبل[(١٩٨)] والكراهة للوضوء والغسل مبنية على سببين :

أحدهما أن فى ذلك مخالفة لشرط الواقف .

والثانى أن فيه منافاة لتكريم هذا الماء وتعظيمه ..

وكره بعض الأئمة الغسل دون الوضوء وسندهم فى ذلك أن النبى – ﷺ – توضأ، وأن العباس قال لا أحلها لمغتسل ، فكأنه أحلها ضمنا للمتوضىء .

أما إزالة النجاسة بمائها فيحرم . أو يكره على الأقل .

ويرجع سر الكراهة فى إزالة النجاسة به ، لما فيه من الخصوصية التى لا تتوافر فى غيره . ذلك أنه يقوم مقام القوت ، فقد ورد فى الأثر الشريف : إنها طعام طعم وشفاء سقم[(١٩٩)] .

فينسحب على ماء زمزم حكم المطعومات ..

روى سفيان بن عيينة عن عبد الله بن أبى زيد عن ابن عباس ، رضى الله عنهما – أن رجلا من بنى مخزوم اغتسل من ذلك فوجد من ذلك وجدا شديدا – فقال : لا أحلها لمغتسل ، وهى لشارب ومتوضىء حل وبل[(٢٠٠)] .

---

(١٩٨) الحل : الحلال ، والبل اتباع لكلمة الحل.
(١٩٩) اعلام الساجد في أحكام المساجد ص ١٣٥.
(٢٠٠) زمزم ص ٣٥

وقد ورد أن الاستنجاء بماء زمزم يورث مرض البواسير[٢٠١] .

وقد ورد عن الشافعي أنه جوز الغسل بل أفتى باستحباب ذلك .

أما غسل الميت بماء زمزم .. فقد أفتى بعض العلماء بمنعه إلا إذا كان بعد الغسل بقصد تطييبه والتبرك به .

وقد ذكر الفاكهي أن أهل مكة يغسلون موتاهم بماء زمزم بعد الفراغ من غسل الميت وتنظيفه تبركا به - وذكر أن أسماء بنت أبي بكر الصديق غسلت ابنها عبد الله بن الزبير بماء زمزم .

فخلاصة القول في ذلك أن الغرض الأساسي من ماء زمزم الشرب ..

ويجوز الوضوء به على مذهب الجمهور.

ويجوز الغسل منه عند الشافعي .

أما إزالة النجاسة به فممنوعة ..

أما غسل الميت به فجائز بعد الفراغ من غسله بقصد التطييب والتطهر.

نقل ماء زمزم

أما نقل ماء زمزم فجائز على خلاف متعلقات الكعبة الأخرى .. فقد أفتى العلماء - على اختلاف مذاهبهم - بجواز نقل مياه زمزم وغيرها من مياه الحرم إلى جميع البلدان .

وكانت عائشة - رضى الله عنها - تحمل منه ، وتخبر أن رسول الله - ﷺ - كان يحمله[٢٠٢] .

---

(٢٠١) ذكر ذلك الزركشي في اعلام الساجد ص ١١٦ ، وزمزم ص ٣٥ .

(٢٠٢) رواه الترمذي وقال : حسن ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وجاء في شرح المهدي : يستحب نقله للتبرك .

والفرق بين الماء وغيره . أن الماء يتجدد بخلاف الحجارة والتراب مثلا مما يحرم نقله من متعلقات الحرم .

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - استهدى سهيل بن عمرو من ماء زمزم[٢٠٣] ، واستعجله فى ذلك ، فبعث إلى النبي - ﷺ - براوتين :

وكان النبى ﷺ يصب على المرضى ويسقيهم من الماء الذى كان يحمله معه من زمزم حكى ذلك البيهقى ، فى شعب الايمان والسنن[٢٠٤] .

استمدادات زمزم

من الملاحظات أن زمزم - وهى عين وليست نهرا جاريا - تقوم مقام الأنهار الكبيرة فى كفايتها وإمداداتها ..

وما ذلك إلا لبركة وضعها الله فيها .

وقد ذكرنا آنفا أن الله أخبر عنها على لسان أصفيائه بأنها تسقى الحجيج الأعظم..

وعلى الرغم من كثرة الحجيج عاما بعد عام حتى بلغوا الملايين فإن واحدا منهم لم يشك التقصير ، أو عدم الحصول على حاجته من ماء زمزم فى أى وقت شاء .

وقد فجر الله هذه العين فى مكان لم يعهد فيه ماء من قبل وبين جبال محيطة وصخور متراكمة وفى أرض قاحلة وصفها إبراهيم - عليه السلام - بقوله «وادٍ غير ذى زَرْعٍ». فكان تفجيرها معجزة .. وبقاؤها نابعة فوارة بالماء إلى ذلك الوقت منذ ما يقرب من أربعين قرنا استمرار لهذه المعجزة ...

---

(٢٠٣) أخرجه الطبراني في مسند رجال ثقات .

(٢٠٤) زمزم طعام طعم ص٣٦ .

وقد كفل الله الأسباب المهيئة لتغذية هذه البئر لتظل كعهدها جارية بالخير وافرة بالعطاء وافية بالغرض الذى فجرها الله من أجله .

وممدّات الآبار عادة تغذى من المياه المتواجدة فى باطن الأرض من الأودية ، أو من الشقوق الصخرية نتيجة لعوامل مختلفة .

وهذه المياه تختزن فى باطن الأرض نتيجة أمطار أو سيول والأمطار فى مكة عادة قليلة ، ولكن السيول كثيراً ماتجتاح مكة بين الحين والحين ، وقد تعرض الحرم الشريف لأضرار مختلفة نتيجة هذه السيول. وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن تعميرات الحرم .

وتشير الدلائل إلى أن هناك علاقة ما بين الأمطار والسيول التى تجتاح مكة من حين لآخر وبين بئر زمزم .

فقد أشار الأزرقى فى تاريخ مكة أن زمزم فى سنتى ٢٢٣ هـ - ٢٢٤ هـ قل ماؤها جدا حتى جاء المطر والسيل سنة ٢٢٥ هـ فكثر ماؤها جدا .

وأشار أيضا فى موضع آخر إلى أن زمزم يأتى عليها زمان يكون ماؤها أعذب من النيل والفرات، وقد حدث ذلك سنة ٢٨١ هـ حين أصاب مكة سنة ٢٧٩ هـ أمطار كثيرة حتى سال واديها فكثر ماء زمزم وارتفع حتى قارب رأسها ، فلم يكن بينه وبين شفتها العليا إلا سبعة أذرع تقريبا، وعذب ماؤها جدا حتى صار أعذب مياه مكة(٢٠٥) .

فقد تأثرت زمزم بالزيادة فى الخبر الأول ، كما تأثرت بالزيادة والعذوبة فى الخبر الثانى .

إلا أن اللافت للنظر أن زمزم مهما بلغ ارتفاع الماء فيها لا تجاوز مجراها ، على الرغم من ارتفاعها فى مقرها وارتفاع الحرم عن بقية مكة ، ويقولون : إنه لو أنها كانت فى بطن الوادى لسال ماؤها على وجه الأرض. وما ذلك إلا لحفظ إلهى لها ، وتقدير ربانى بأن يظل ماء زمزم فى داخل الحرم لا يجاوزه ..

(٢٠٥) زمزم ص ٧٠ ، ص ٧٢.

على أن الأمطار والسيول ليستا هما المصدر الرئيسى لإمداد زمزم بالمياه ..

إن هناك سرا أعظم من ذلك . تدل عليه مشاهدات الخبراء الذين يذكرون أن بئر زمزم تعمل كبئر ارتوازى عندما تهطل الأمطار فقد لاحظ صاحب كتاب «زمزم» سنة ١٣٨٨ هـ حين هطلت أمطار غزيرة وجرت سيول كثيرة اقتحمت الحرم ، أن بئر زمزم كانت تتدفق منها المياه إلى أعلى منطلقة إلى الخارج ، ولم تستقبل شيئا من السيول والأمطار المقتحمة ، حتى كان البسطاء يقولون : إن البئر ينظف نفسه .. والتقط المهندس خرطوما ووضعه وسط البئر فوجد الماء يتدفق من الطرف الآخر مما يدل على أن هناك قوة ضاغطة من أسفل إلى أعلى .. واستخلص من ذلك أن هناك مصدرا مستقلا لإمداد بئر زمزم بالماء يحفظ عليها بقاءها ونظافتها واستمرارها .

لقد أثبت الخبراء أن زمزم تستمد ماءها من صخور قاعية تكونت فى العصور القديمة عبر ثلاث تصدعات صخرية ، تمتد من الكعبة المشرفة والصفا والمروة وتلتقي فى البئر. ويصل الضغط الرأسى للمياه المتدفقة إلى حوالى عشرة أمتار .

ويعلو طبقة الصخر الموجودة طبقة من الرمل الناعم يصل سمكها إلى ١٦ مترا .

علما بأن للمياه الجوفية المتدفقة عبر المواد الغرينية خواص طبيعية وكيمائية تختلف عن مثيلاتها فى زمزم .

مكونات ماء زمزم

نظرا لأهمية ماء زمزم بالنسبة للمسلمين ، وكثرة الأحاديث الواردة فى فضله ، اعتنى كثير من الباحثين بتحليل هذا الماء لمعرفة مكوناته ..

وقد جرت أبحاث مبكرة فى ذلك قبل العصر الحاضر فقد ذكر الاستاذ صالح محمد جمال فى مقدمة كتاب أخبار مكة للأزرقى :

أن ماء زمزم قلوى تكثر فيه الصودا والكلور والجير وحامض الكبريتيك

وحامض الأزوتيك والبوتاس مما يجعله أشبه بالمياه المعدنية » أما فى العهد السعودى فقد ازداد الاهتمام بذلك . وكثرت الأبحاث المستفيضة حول زمزم .

وقد شكلت لجنة مصرية زارت الحجاز عام ١٩٥٣ لتحليل عينات من ماء زمزم وأظهرت نتيجة التحليلات ما يأتى :

التحليل الكيميائى الأيونى لمياه زمزم	جزء فى المليون
قلويات (فى صورة كاك أ ٣)	٢٦٣ر٠٠
كلوريدات كل٣	٧٨٦ر٠٠
العسر الدائم (كاك أ ٣)	١٢٤٠ر٠٠
سلفات (كب أ ٤)	٥٢٨ر٢
كالسيوم (كا)	٤٤٤ر٥
مغنسيوم (م)	١٣٠ر٧
صوديوم (ص)	٥٠١ر٦
بوتاسيوم (بو)	٣٠١ر٠٠
نشادر (ن يد ٣)	١٠ر٠٠
النوشادر العضوى (ن يد ٣)	٠ر٦٦
أوزوتيت (ن أ ٢)	٠ر٥
أوزتات (ن أ ٣)	١٤٤٨ر٠٠
الأوكسجين الممتص من البرمنجات الحمضية فى أربع ساعات	٥ر٠٠
ألومنيوم (فى صورة الومنيوم)	لا يوجد
حديد	٠ر١٥
معادن ثقيلة (نحاس — رصاص - زنك - صفيح)	لا يوجد
فلوريدات (فل)	١ر٥
منجنيز	لا يوجد
سليكا (س أ ٢)	٤٠
تركيز ايون الهيدروجين	٧ر٠٥
مجموع المواد الصلبة الذاتية	٤٥٠٠

لقد كانت خلاصة التقرير بالنسبة للخواص الطبيعة مايأتى :

«الماء بوجه عام نقى الا فى بعض المواد العالقة ، وليس له رائحة ، ولكن مذاقه ملحى قليلا ، بسبب احتوائه على بعض الأملاح[٢٠٦]» .

وقد أجريت تحليلات أخرى بواسطة لجان مختلفة من جهات متعددة وبتكليف من المسئولين بالمملكة السعودية تدل على اهتمام المختصين بأمر هذه البئر التى تمثل موقعا ممتازا فى قلب كل مسلم .

وقد أثبتت التحليلات المختلفة صلاحية هذا الماء صلاحية كاملة للشرب ، وتوافقه مع المعايير التى يجب توافرها فى مياه الشرب ..

وهذه المعايير التى يجب توافرها فى مياه الشرب تتلخص فيما يأتى :-

- من جهة الخواص الطبيعية

يجب توافر عنصر النقاء فى اللون ، مع الخلو من العكارة ، مع ضرورة ان يكون الطعم مقبولا . والرائحة كذلك ..

- من جهة الخواص الكيمائية :

فإنه يجب أن يكون الماء خاليا من المواد السامة القاتلة أو المؤثرة على الصحة ، أو المؤثرة على طعم الماء كزيادة الأملاح ووجود الحديد والمنجيز وإن وجد شيء من ذلك يجب الا يزيد على الحد المقرر الذى يمنع تناوله ..

وقد أثبتت التحليلات التى نعتمد فى إثباتها على كتاب الأستاذ يحيى حمزة كوشك مايأتى :

أ - المواد السامة   ب - المواد الكيمائية ذات التأثير على الصحة

المادة	الحد الأقصى	المادة	الحد الأقصى
الرصاص	١٠٠ر٠ مليجرام فى اللتر	الفلوريدات(فل)	٥ر١ مليجرام فى اللتر
الزرنيخ	لا يوجد		
الكروم (سداسى التكافؤ)	٠٥ر٠ مليجرام فى اللتر	النترات (ن)	٠ر١٠ مليجرام فى اللتر
الليثيوم	٠٥ر٠ مليجرام فى اللتر		
السيانيد	٠١ر٠ مليجرام فى اللتر		

(٢٠٦) زمزم ص ١٠٩

ج – المواد الكيماوية التى تؤثر على طعم المياه

المادة	المسموح به	الحد الأقصى
مجموع الأملاح	١٠٠٠	١٢٠٠ ملليجرام فى اللتر
الحديد	٠ر٣	١ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
المنجنيز	٠ر٣	١ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
بشرط ألا تزيد نسبة الحديد والمنجنيز معا عن ١ر٥		
النحاس	١ر٠٠	١ر٥ ملليجرام فى اللتر
الزنك	٠ر٠٥	١٥ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
المغنيسيوم	١٠٠ر٠٠	١٥٠ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
الكالسيوم	١٥٠ر٠٠	١٥٠ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
الكبريتات (كب أ)	٢٥٠ر٠٠	٥٠٠ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
الكلوريدات (كل)	٣٠٠ر٠٠	٦٠٠ر٠٠ ملليجرام فى اللتر
الفينول	ر٠٠١	٠ر٠٠٢ ملليجرام فى اللتر
الاسر الايدروجينى	٧ : ٨,٨	٦,٥ : ٩ ملليجرام فى اللتر

● **من جهة المواد المشعة**

المادة	الحد الأقصى
المشعات من فصيلة (الفا) المشعات من فصيلة (بيتا)	١٠ : ٩ ميكروكيرى فى الملليمتر ١٠ : ٨ ميكروكيرى فى الملليمتر

● من جهة المعايير البكتريولوجية

أ – المياه المعالجة – يجب ألا يزيد العدد الاجمالى للمجموعة القولونية عن واحد فى ١٠٠ ملليمتر .

ب –المياه الجوفية غير المعالجة . يجب ألا يزيد العدد الإجمالى للمجموعة القولونية عن واحد فى ١٠٠ ملليمتر .

وإذا تجاوزت النسبة الحد الأقصى فى جميع الأحوال وجب عرض الأمر على المختصين قبل التصريح باستعمال المياه ..

وبناء على التحليل الذى أجرته اللجنة المصرية والمثبت قبل ذلك يلاحظ الصلاحية الكاملة لمياه زمزم لجميع المواصفات الموافقة للمعايير الواجب توافرها لمياه الشرب .

زمزم عبر الزمان

أعاد عبد المطلب حفر زمزم – كما عرفنا – وكان يسقى الحجيج من مائها منقوعا فيه الزبيب . فى أحواض نصبها حولها ..

وعلى هذا السنن جرى ابنه العباس – رضى الله عنه –
وفى عهد ابنه عبدالله كان لزمزم حوضان .
حوض بينها وبين الركن يشرب منه الناس
وحوض من ورائها للوضوء يخرج منه سرب إلى باب الصفا ..

وكان موضع سقايته التى ينبذ فيها الزبيب بالماء بين الركن وزمزم مما يلى الصفا .

وكان له مجلس فى زاوية زمزم يجلس فيه ، واحتُفظ به بعد حتى أقيمت فوقه قبة ، أقامها سليمان بن عبدالله بن عباس ، وكان الوالى على مكة يومئذ من قبل الأمويين خالدين عبدالله القسرى ..

جدد هذه القبة بعد ذلك المنصور فى خلافته وعمل على زمزم شباكا ، وفرش أرضها بالرخام ..

وكانت البئر مكشوفة إلا من قبة صغيرة فوقها

فلما جاء المعتصم العباسي سقف زمزم كلها بالساج المذهب ، وزينها بالقناديل التي تضاء طول العام ، وكانت قبل ذلك تزين فى الموسم ..

وأقيم حوض كبير ، ذرعه اثنا عشر ذراعا مربعا وفرش بالرخام فى أرضه وحوائطه ..

ويخرج الماء من البئر عبر قناة من الرصاص ..

ومازالت يد التطوير تعمل عملها فى زمزم وغرفتها وأحواضها حتى جاء ابن عبدربه صاحب العقد الفريد فوصفها بقوله :

«زمزم بشرق الركن الأسود بينهما مثل الثلاثين ذراعا ، وهى بئر واسعة تنورها من حجر مطوق أعلاه بالخشب ، وسقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان ...»[٢٠٧] .

وحتى جاء ابن جبير بعد ذلك فوصفها فى رحلته بقوله :

«وقبة زمزم تقابل الركن الأسود ، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة ، ومن ركنها الى مقام ابراهيم عشر خطوات ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع البياض ، وتنور البئر فى وسطها مائل عن الوسط إلى جهة الجدار الذى يقابل البيت المكرم ... وباب القبة ناظر إلى الشرق .. وتنور البئر من الرخام وقد ألصق بعضه ببعض وأفرغ فى أثنائه الرصاص ... الخ[٢٠٨] .

أما التقى الفاسى فى كتابه «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام»

فيصف زمزم بأنها بيت مربع وفى جدرانه تسعة أحواض للماء يملآن من بئر زمزم فيتوضأ الناس منها إلا واحدا منها معطلاً ، وفى الحائط الذى يلى الكعبة شبابيك . وهذا البيت مسقوف بالساج . ماخلا الموضع الذى يحاذى بئر زمزم فعليه شباك خشب[٢٠٩] .

---

(٢٠٧) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٨١ .

(٢٠٨) رحلة ابن جبير ص ٧٦

(٢٠٩) زمزم ص ٣٩

وفى أوائل القرن التاسع الهجرى أقيم سبيل برسم السلطان الملك المؤيد يشرب منه الناس .

وفى أوائل القرن العاشر أقام السلطان سليم العثمانى دائرا لبيت زمزم مطرزا بالذهب كتب فوقه اسمه ..

ثم جدد بيت زمزم في منتصف القرن العاشر فرخمت أرضه وجعل فوقه سقف بالخشب المزخرف .

وقد تجدد ذلك الدائر فى عهد السلطان سليمان العثماني وأعيد تجديده في عهد السلطان عبد الحميد ..

وأقيم فوق البئر شباك من حديد يحول بين الناس والغرق فى البئر ، وعلقت به سلاسل . كان لها تأثير فى طعم الماء ، فقلعت بعد ذلك وأبعدت .

وظل الحكام والخلفاء يتناوبون التعمير والتزيين لزمزم وغرفتها وقبتها وشبابيكها .

حتى جاء الملك عبد العزيز آل سعود. فأنشأ سبيلين أحدهما بالجهة الشرقية ممايلى قبة زمزم ، والثانى من الجهة الجنوبية لبيت زمزم ، وجدد عمارة السبيل القديم الذى أقيم فى عهد العثمانيين .. وتم ذلك فى سنة ١٣٤٥ هـ وسنة ١٣٤٦هـ .

وظل ذلك قائما حتى صدر الأمر الملكى السعودى بتوسعة المطاف وعمارة المسجد الحرام فتم تجديد غرفة زمزم وهدم البناء الذى فوق البئر ، وخفضت فوهتها إلى أسفل المطاف ووسعت الغرفة وأقيمت بها صنابير للشرب ، وأصبحت مساحة مكان الشرب ١٠٠ر٧٤ مترا مربعا خصص منها ٢٧ر٥٤ مترا للرجال والباقى للنساء . ومازالت يد التطوير والتنظيم والتحسين قائمة مستمرة على النحو الذى سنراه بعد .

تطوير زمزم

لقد كانت زمزم بئرا يستخرج الماء منها بواسطة الدلاء ، وتصب فى حوض يستقى منه الناس – على نحو ماعرفنا .

وكان استخراج الماء من البئر خاصا بمن بيده السقاية، وكان سقَي الحجيج من الحياض التى يفرغ فيها الماء قُربة يتنافس فيها الناس . ولكن يد التنظيم الحديثة لعبت دوراً هاما فى استخراج الماء وتوزيعه عبر مضخات وأنابيب كفلت للحجاج الحصول عليه بيسر وسهولة وأمان .

ونحن نشاهد الآن هذه الأوانى البرتقالية اللون المتراصة فى صفوف منسقة بين أيدى المصلين تحفظ ماء زمزم المثلج وتقدمه سائغاً للشاربين دون أدنى مشقة .

إن وراء هذا التيسير والتقريب مجهودات رائعة يقوم بها فنيون متخصصون ، ويشرف عليهم مسئولون يقظون

فقد قامت الآلات الحديثة بدورها الرائع فى استخراج الماء ورفعه وتوزيعه وتبريده

وقد ركبت على فوهة البئر مضختان تعملان بقوة الكهرباء ..
إحداهما كبرى قوتها خمسون حصانا وطاقتها الانتاجية ثلاثون مترا مكعبا فى الساعة .
والثانية صغرى وطاقتها الإنتاجية ٢١,٦ مترا مكعبا فى الساعة .. وتضخ الآلتان الماء إلى شتى أنحاء الحرم ..

وأقيمت آلات للتبريد من نفس المياه حتى لايكون الثلج الذى يبرد المياه فى الحرم من ماء غير زمزم

ولقد كان لضخ الماء عن طريق الآلات أثر فى تعذيب ماء زمزم وتحليته . وإنا لنترك لقلم أحد المسئولين عن هذه العملية التعبير عن ذلك بأسلوبه الشيق وهو المهندس يحيى حمزة كوشك الذى قال – فى كتابه « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » :
« كنت فى العاشرة من عمرى حين كلف والدى من قبل وزارة الأوقاف بعملية إنشاء مظلة على بئر زمزم »

وكان والدى دائم التفكير فى كيفية توصيل مياه زمزم إلى الشاربين بطريقة أكثر نظافة ، فانتهز هذه الفرصة واقترح على وزارة الأوقاف استخراج ماء زمزم من البئر بواسطة المضخات .

ووافقت الوزارة على هذا الاقتراح بشرط ألا تدفع قيمة الآلات إلا بعد تشغيلها ونجاحها .

ووافق الوالد واشترى مضخات غاطسة ، وبدأ فى تركيب إحداها ، وصادف فى ذلك الكثير من العقبات والاعتراضات من الزمازمة وغيرهم ، فقد كان بعض العامة يعتقدون أنه لايمكن استخراج الماء من البئر إلا بواسطة الدلو .

واعترض البعض على أساس أن هذه المضخات سوف تصدر أصواتا مزعجة تقلق المصلين والطائفين حول الكعبة ..

ومع ذلك استمر الوالد فى عملية تركيب المضخة إلى أن تم تركيبها وتشغيلها بنجاح . واستخرج الماء بواسطتها من البئر .. ..

عندئذ كلف الوالد بتركيب مضخة أخرى فى البئر كمضخة احتياطية .

وكان من نتائج تركيب هذه المضخة أن تحسن طعم الماء ، لأن الدلاء كانت تأخذ من المياه الطافية على وجه البئر . بينما كانت المضخات ترفع الماء من عمق أربعة أو خمسة أمتار تحت سطح الماء

.. ..

« ومرت الأيام والسنون ..

ثم تقدمتُ باقتراح تعقيم مياه زمزم بحيث لا تفقد خواصها وطعمها المميز ، مع دراسة تشمل توسعة المطاف ونقل مدخل بئر زمزم إلى خارج محيط دائرة المطاف الجديدة ، وتوزيع مياه زمزم داخل غرفة البئر . وفى أنحاء الحرم بواسطة النوافير الخاصة بالشرب لمنع استخدام هذه المياه فى الاستحمام أو الوضوء بداخل الحرم على أن يتم تعقيم هذه المياه بالأشعة فوق البنفسجية ، وكذلك تبريدها كهربائيا بواسطة التبريد المركزى ، أو وحدات التبريد المستقلة .

كما تم دراسة موضوع توزيع مياه زمزم بالدوارق ، وقدم اقتراح بمنع هذه الدوارق لتجنب التلوث الناتج عن استخدامها ، وعدم رؤية مابداخلها ، وتعبئة مياه زمزم المبردة فى زجاجات من البلاستيك وتوزيعها داخل الحرم باردة نقية سائغة للشاربين .

وقد أوقف استعمال الدلاء فى البئر تماماً ..

وفى عام ١٣٩٩ هـ عندما بدأ العمل فى توسعة المطاف ، كان لابد من نقل مداخل بئر زمزم إلى مكان جديد بعيد عن المطاف ، حتى يتسنى توسعته بالشكل الذى هو عليه الآن ..

« هذا وقد أشرفت على إعداد الدراسات التى قدمها المهندسون الاستشاريون وقمت بمناقشة مشروع تعقيم مياه زمزم بالأشعة فوق البنفسجية وتبريدها وعمل شبكة تعقيم مياه زمزم ومياه الصرف وكذلك أعمال التوسعة للمطاف مع وزارة المالية

ووفق عليه ، وبدىء فى تنفيذه ..

وجرى العمل فى التشطيبات النهائية بما فيها تركيب أجهزة التعقيم والتبريد .. »[(٢٠٩)]

وقد تم ذلك فعلا .. ولايسع الحجاج من كل مكان إلا أن يشكروا تلك الأيدى والعقول التى أسهمت بنجاح فى إتمام ذلك العمل الجليل .

تعقيم مياه زمزم

لم يكتف المسئولون — كما أشار التقرير السابق — بتيسير تداول المياه المستخرجة من زمزم داخل الحرم ، بل اهتموا بتعقيمها بالأشعة فوق البنفسجية .

ذلك أن كثرة استخدام الدلاء ، واستحمام الحجاج بجوار البئر سابقا ، ثم التحسب من تسرب المياه الجوفية ألزم ضرورة تعقيم المياه للمحافظة على صحة الحجاج ..

---

(٢٠٩) زمزم طعام طعم (المقدمة)

والأشعة فوق البنفسجية طاقة مشعة تنتج من استخدام المياه الزئبقية المنخفضة الضغط والمحمية بأنواع خاصة من الزجاج الذى يسمح للأشعة بالمرور بقوة ٢٥٣٧ A لوحدة الأنجستروم

وهذه الأشعة أثبتت فعاليتها فى القضاء على الكائنات الحية الدقيقة وفى عمليات التعقيم الميكروبيولوجى للغازات والسوائل .

وقد اختار المسئولون الأشعة البنفسجية فى تعقيم زمزم لأسباب منها :

● رغبة المسئولين فى عدم إضافة أى كيماويات إلى الماء كما يحدث فى التعقيم الكيماوى

● انخفاض التكاليف بالنسبة لهذه الوسيلة وسهولة استعمالها ، وعدم وجود تأثير لها فى طعم الماء أو لونه أو رائحته . إلى غير ذلك من الأسباب .

وقد قامت المملكة بالفعل باستخدام هذه الأشعة لتعقيم زمزم ومازالت الآلات التى استخدمت لذلك تقوم بهذه المهمة .

عمليات التنظيف

وكان القائمون على أمر زمزم يقومون بتنظيف زمزم بين الحين والحين .. وكانت عمليات التنظيف تتم بواسطة « الجم » فى العصور الأولى .. والجم تكثير المياه بواسطة التعميق والحفر .. فإنه إذا كثر الماء نظف وقد يتم التنظيف بواسطة النزح – ويترتب على ذلك وقف استعمالها وهذا من الصعوبة بمكان .. لأن زمزم ليست كغيرها من الآبار التى يمكن الاستغناء عنها فترة من الزمن . ولكنها ضرورة من ضرورات الحاج ، وقد يشعر كثير من الحجاج بالحرج حين يعودون من رحلتهم دون أن يتذوقوا ماء زمزم ..

أما فى العصر الحاضر فيتم التنظيف بواسطة استعمال الغواصين الماهرين القادرين على استعمال الأجهزة الحديثة . وقد استعانت المملكة بغواصين أحدهما مصرى والآخر باكستانى وقد بذل هذان الغواصان جهوداً جبارة تفوق الخيال فى القيام بمهمتهما . واستخرجا من البئر مخلفات مختلفة . مابين

قطع معدنية وأوان فخارية وجلدية ونحاسية وحبال وأخشاب وأقمشة وأحجار .. وغير ذلك مما يسقط فى الآبار بسبب الزحام أو الإهمال أو السهو .

لقد ظلت عملية التنظيف قائمة يتناوب خلالها الغواصان المصرى والباكستانى عملية الغوص لمدة شهرين تقريباً .

من يوم الأربعاء الموافق ١٩٧٩/٤/١٥ م – ١٣٩٩/٥/٢٨ هـ حتى يوم الأربعاء الموافق ١٩٧٩/٦/٢٠ م – ١٣٩٩/٧/٢٥ هـ

والغواصان هما محمد يونس المصرى ، ومحمد لطيف الباكستانى .. وكان الغوص يتم أربع مرات فى اليوم لكل غواص نوبتان

وقد أصبحت زمزم بعد هذه العملية من التنظيف خالية تماما – وإلى ما شاء الله – من أى أشياء غريبة فى داخلها ..

وقد اكتشف الغواصان فى أثناء نزولهما إلى قاع البئر أن هناك فتحات فى قاع البئر ينساب فيها الماء إلى زمزم تتجه إحداها إلى الكعبة وتتجه الأخرى إلى أجياد وجبل أبى قبيس ..

مما يثبت أن منابع زمزم هبة مباركة من الله – سبحانه وتعالى –

لقد أثبت التاريخ أن هذا البيت بنى على قواعد اختارها الله – سبحانه وتعالى – لمن بناه ، وليست عملية اجتهادية تركت لمخلوق فاختار المكان .. بدليل أن قريشاً حين أرادت أن تجدد البناء لم تستطع هدم القواعد التى بنى عليها ، وكذلك عبدالله بن الزبير لم يستطع أن يزحزح حجراً من مكانه من هذه القواعد . فالبيت بيت الله ، والبناء تم بتوفيق الله ، والأمر بالحج فرض فرضه الله ، والحجاج هم ضيفان الله .. أراد أن يكرمهم بسقى من عنده ، ففجر لهم عيناً من فيض رحمته تجرى منابعها من تحت بيته الكريم وحرمه الآمن فحق لهذه العين أن تكون مهوى الأفئدة ومحط الآمال .. ومحل عناية المسئولين عنها فى كل زمان ..

ولقد ظهر حرص المسئولين على تحقيق آمال الوفود التى لا تنقطع عن

الحج والزيارة ، والتى تصل رحلتها إلى مكة المكرمة برحلة أخرى إلى المدينة المنورة ، تزور مسجد النبى -ﷺ- وتشرف بالسلام عليه والصلاة فى روضته الشريفة ... فكان أن يسرت الحكومة السعودية أمر الحصول على ماء زمزم فى الحرم النبوى ، كما يسرته فى الحرم المكى تماماً ،. وأصبحت الأوانى الجميلة النظيفة التى تمتلىء بمياه زمزم الشهية أمام الزائرين والمصلين والغادين والرائحين فى أبهاء الحرم الشريف النبوى ، قدمته زمزم هدية سائغة للشاربين ، فى تحية متبادلة بين الحرمين ، وشهادة بصلة الرحم الوثيقة بين المقامين .. مقام إبراهيم الخليل ومقام حفيده النبى الوفى الكريم -ﷺ-

وبعد ..

فقد طفنا بعقولنا وقلوبنا حول الكعبة وزمزم فى رحلة قلمية .. لا نزعم أننا وفيناها حقها كما يجب ..

ولقد تجولنا معاً فى رحاب الحرم الآمن .. أول بيت وضع للناس فى الأرض .. حجه فرض ، وتقديسه أمر ، وحبه عبادة ، والنظر إليه تحليق فى ملكوت الله ، والطواف حوله تخلص من قيود المادة وسباحة فى فضاء الروح . لا نزعم - مرة أخرى - أننا وفينا الموضوع حقه ..

بل نشعر أننا مازلنا عاجزين أمام وصف هذا الرحاب الطاهر الكبير الزاخر بالأنس والأمن والسكينة .. والعجز على أى حال سمة الإنسان .. والتقصير دأب المخلوق .. والعى صفة الضعفاء .. ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه

ونرجو الله .. أن يغفر الخطأ ، ويتجاوز عن التقصير ، ويجبر العجز والعى .. ويجعل ما كتبناه فى ميزان الحسنات .. وهو نعم المولى ونعم النصير .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

يعقوب عليه السلام

* مولد يعقوب
* رحلته إلى العراق
* زواجه من ابنتي خاله
* عودته إلى الشام
* نذره بناء بيت الله
* لقاؤه بأخيه
* أبناؤه
* رسالته
* يعقوب والمحنة الكبرى

مولده :

كانت البشرى بمولد يعقوب مبكرة جدًا ، فقد كانت قبل أن يولد أبوه ..

جاءت الملائكة إلى جده إبراهيم – عليه السلام – فى صورة بشر ، فأمر بذبح عجل لهم ليقريهم به على عادته فى إكرام ضيوفه ، وقرَّبه إليهم ، فامتنعوا ، فأوجس منهم خيفة فطمأنوه وبشروه بولد يولد له اسمه إسحاق ، ويولد لهذا الولد غلام اسمه يعقوب .. وهذا ما حكاه القرآن الكريم بقوله :

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[1]

وكانت البشارة والتسمية من الله .. وهذا يردُّ على ما ذكر من أنه سمى يعقوب لأنه ولد عقب توأم له اسمه عيصو ..

وهذا الاسم ليس عربيا[2].

وليعقوب اسم آخر هو « إسرائيل » وإليه ينسب بنو إسرائيل . وقد ورد هذا الاسم فى قوله – تعالى – :

---

(١) الآيات من ٦٩ : ٧١ من سورة هود .

(٢) من الطريف أن هناك طائرًا اسمه يعقوب ، وهو ذكر الحجل ، وهو عربى صحيح يوصف بشدة العدو ، قال الشاعر : « عادى فقصر دونه اليعقوب » وتجمع على : اليعاقيب ، حياة الحيوان جـ ٢ ص ٧١٠ .

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3]

كما ورد في موضع آخر من سورة مريم[4] وإليه ينسب بنو إسرائيل الذين ورد ذكرهم في مواضع كثيرة جدًا في القرآن الكريم .

وكان إسحاق والد يعقوب قد تزوج من ابنة عمه « رفقة بنت بتوئيل أخي إبراهيم » .

وحملت بتوأمين هما عيسو - بالسين أو بالصاد - ويعقوب .. وتذكر دائرة المعارف : أنه حين جاءها المخاض اقتتل التوأمان في بطنها أيهما ينزل قبل الآخر ؟ فقال عيصو ليعقوب : لئن نزلت قبلي لأعترضن في بطن أمي فأقتلها . فتأخر يعقوب ، ونزل عيصو أولاً[5].

ومن العجيب أن تنسب دائرة المعارف هذا الخبر إلى الأساطير الإسلامية .

مع أنه لا يوجد ما يسمى أساطير إسلامية أولاً .. وتاريخ الأنبياء في الإسلام مصدره القرآن الكريم ..

وما ذكره بعض رواة الأخبار في ذلك مستمد من أهل الكتاب وكتبهم ورواتهم ثانيًا ..

بل إن بعضهم يتزيد فيضيف بأن أمهما كانت تسمع تحاورهما وأخبرت أباهما بذلك ، فقال لها : أنبئيني حين تسمعينهما . فأنبأته ، فوضع أذنه

---

(٣) الآية ٩٣ من سورة آل عمران .

(٤) في الآية ٥٨ من سورة مريم .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٢٩٢ مادة إسرائيل .

عند بطنها فسمع تهديد عيصو السابق . فقال له إسحاق : يا مبارك ارع حق أمك(٦).

وواضح ما فى هذا الكلام من الغلو فى الخيال .

وقد ناقضت دائرة المعارف نفسها بذلك بعد قليل بقولها : ونجد هذه القصة أيضًا فى كتب اليهود .

أما تسميته « إسرائيل » فقد جاءت متأخرة عن اسمه يعقوب ، وكانت لها مناسبة . ذلك أنه حين خرج من الشام قاصدًا العراق ، كان يسرى فى الليل ويكمن فى النهار فسمى « إسرائيل » لذلك(٧).

ونشأ الولدان فى كنف أبيهما يرعاهما . وأنشأت المصادر الكتابية قصصًا حول علاقة الولدين بأبويهما فقالت : وكان عيصو أثيرًا لدى أبيه ، ويعقوب أثيرًا عند أمه ..

وكبر الولدان معًا ، وشبَّا ، وكانا يسعيان فى الحياة .. وتقدمت السن بإسحاق أبيهما ، وكُفَّ بصره ..

وفى يوم قال لابنه عيصو : إئتنى بكبش لأذبحه وأقدمه قربانًا لله وأدعو لك عسى أن تنفعك دعوتى ..

وسمعت الأم ذلك ، فقالت ليعقوب : أسرع وقدم الكبش قبل أن يأتى أخوك ..

وجاء يعقوب لأبيه بالكبش وقد وضع على منكبه ما يشبه الشعر لأن عيصو كان ذا شعر كثيف على منكبيه .

فدعا له إسحاق وهو يظنه عيصو : قائلاً : اللهم اجعل من ذريته الأنبياء والملوك .

---

(٦) بدائع الزهور لابن إياس ص ٨٩ .

(٧) دائرة المعارف الإسلامية .

ولما جاء عيصو بعده ومعه الكبش الذى طلبه . قال له : ألم أدع لك قبل ذلك ؟ فقال عيصو : لا ، ولكنك دعوت لأخى يعقوب .

وغضب عيصو من سبق أخيه يعقوب إلى أبيه وفوزه بالدعوة ، وأخذ يهدده ويتوعده ..

• لكن اباه طمأنه ودعا له بتكثير الولد حتى تكون ذريته عدد الرمل والحصى ولا يملكهم أحد غيرهم .. فكان من نسله بنو الأصفر وهم ملوك الفرنجة .

وبقيت في نفس عيصو غصة من يعقوب .. وهان فى نظره وأخذ يتهدده . وخشيت أمه أن ينفذ عيصو وعيده فى يعقوب ، وهو ولدها الذى تحبه . وأ برت زوجها إسحاق بمخاوفها .. فطلب من يعقوب أو طلبت هى منه أن يرحل إلى « فدان آرام » فى العراق ، حيث يقيم خاله لابان .. ويمكث عنده فترة من الوقت حتى تنجلى غمرة الغضب بينه وبين أخيه ، ويعود الصفاء بينهما كما كان .. وقالت له أمه : ولعله يزوجك من إحدى بناته .

ونفذ يعقوب وصية والده فى الحال ..

ويمم وجهه شطر العراق . يخترق الصحراء ويطوى البيداء ..

يسرى بالليل ويستريح بالنهار .. وطالت به شقة السفر حتى خامره اليأس ، وهو وحده فى هذه الفيافى الواسعة التى لا أنيس فيها ولا سمير ..

وفى يوم اشتد به الضيق وانتابته الوساوس ، وغلب عليه التعب ، وهم بأن يكر راجعًا من حيث أتى ، وجلس تحت صخرة يستريح وهو يقاوم هذه الأحاسيس ، وغلبه النوم فنام ، فرأى فى نومه ما يفتح أمامه طريق الأمل ، ويبشره بأن الله يدخر له فى مستقبله أيامًا سعيدة ، وثروة سخية من الأولاد فيهم النبوة والكتاب ..

فقام من نومه فرحًا مسرورًا ، وتبدد ما فى نفسه من بأس ، وتبخر ما كان يحس به من تعب .. وسار فى طريقه لا يلوى على شىء .. حتى وصل إلى العراق .

وسأل عن المكان الذى يقيم فيه خاله « لابان بن بتويل » فدلوه عليه ، ورأى فتاة تسوق أمامها أغنامًا ، قالوا له : إنها ابنته ، فتقدم إليها وعرفها بنفسه ، فأحسنت لقاءه واصطحبته إلى أبيها الذى تلقاه أحسن لقاء ، ورحب به ترحيبًا بالغًا .. وأفسح له مكانًا فى قلبه وبيته .. وزجد يعقوب فى ظل هذا البيت الكريم أمنًا وسلامة .. وأملاً ..

لقد أعجب بـ « راحيل » تلك الفتاة التى اصطحبته إلى الدار وأنس إليها وتمنى لو كان خاله يقبله زوجًا لها ..

وفاتح خاله فى هذا الأمر ، وخطبها إليه ..

فرحب به خاله .. وقال له : مرحبًا بك يا بن الأخت ، ولكن لابد لكل زواج من مهر ، وأنت فقير لا مال لك ..

فليكن مهر زواجك أن تعمل عندى سبع سنوات .. ترعى لى الأغنام ..

فوافق يعقوب على الفور .. وشمر عن ساعد الجد .. وأقبل على عمله فى الرعى فى نشاط .. حتى انطوت صفحة السنوات السبع ، وانتظر من خاله الوفاء بالوعد .

ولم يخل خاله بالوعد ولكنه قال ليعقوب إنه سيزف إليه ابنته الكبرى « ليًا » ورفض أن يزف إليه « راحيل » التى علقها قلبه واستأنسها فؤاده .

فقال لخاله : يا خالى أنا لم أخطب إليك « ليًا » بل خطبت إليك « راحيل » .

فرد عليه « لابان » قائلاً :

أجل يا ابن أختى ، ولكن شريعتنا وتقاليدنا تأبى أن تُزَوَّجَ الصغرى قبل الكبرى .. وأنا على وعدى لك بالنسبة لراحيل بشرط أن تخدمنى سبع سنين أخرى ..

فوافق يعقوب على ذلك ، واستمر يعمل عند خاله سبع سنوات ، انتهت بزفافه أيضًا إلى « راحيل » .

وبذلك تزوج الأختين معًا . وكان ذلك جائزًا فى الشرائع الأولى . ولم تبطله إلا شريعة موسى فى التوراة التى أنزلت عليه بعد ذلك بقرون .

وكان لابان قد أهدى لكل بنت جارية ..

وهب « ليًا » جارية اسمها « زلفا » ..
ووهب « راحيل » جارية اسمها « بَلْها » ..

فأهدت كلتا الزوجتين جاريتها ليعقوب ..

فأصبح ليعقوب زوجتان وجاريتان .. وكل منهن أنجبت .. وهؤلاء الأبناء هم الذين يطلق عليهم الأسباط وهم :

روبين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون وهؤلاء من « ليًا » .

ويوسف ، وبنيامين وهذان من « راحيل » .

ودان ، ونفتالى ، وهذان من « بلها » جارية « راحيل » .

وجاد ، وأشير ، وهذان من « زلفا » جارية « ليًا » .

وقد وُلد هؤلاء جميعًا فى « فدان آرام » بالعراق .. ما عدا بنيامين ، فقد ولد فى الشام عقب عودة يعقوب[8].

ولا اعتراض على رحلة يعقوب إلى العراق .. فهى حقيقة تاريخية . وربما كانت لازمة من لوازم النبوة ، فمن دأب الأنبياء الهجرة .. وجد يعقوب « إبراهيم » – عليه السلام – هو الذى يقول – فيما يحكيه القرآن الكريم – : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[9] وقال : ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[10].

---

(٨) قصص القرآن لمحمد جاد المولى ص ٧١ نقلاً عن البداية والنهاية لابن الأثير .
(٩) الآية ٩٩ من سورة الصافات . (١٠) الآية ٢٦ من سورة العنكبوت .

إن الرحلات توسع المدارك ، وتعود الصبر ، وتعين على التفكر والتأمل ، وتربى القدرة على تحمل الأعباء والصعاب . إنها مدرسة أخرى يتلقى فيها الإنسان كثيرًا من دروس الحياة الضرورية والعملية ..

وقد قام النبي - ﷺ - بكثير من الرحلات قبل البعثة ثم كانت رحلته الكبرى بالهجرة من مكة إلى المدينة بعد ذلك ..

ولكن الاعتراض على الطريقة الانتهازية التى تصور يعقوب فى صورة المختلس للنبوة ..

فقد صورته هذه الأسطورة فى أنه تزيّى بزى أخيه وانتحل شخصيته ، حتى جعل إسحاق يقول : الجسم جسم عيصو والريح ريح يعقوب .. وما هكذا تكون أخلاق الأنبياء ..

ثم إن النبوة ليست سلعة يوزعها الناس كما يشاءون ويتنازعونها فيما بينهم ، ولكنها هبة إلهية يضعها الله حيث شاء والله أعلم حيث يجعل رسالته ..

لقد رفع القرآن الكريم منزلة يعقوب ، وأعطاه حقه الذى ينبغي له . وذكره فى مواضع متفرقة فيها ذكر جميل وثناء عاطر .. وتبين أن النبوة والرسالة التى بدأت بإبراهيم - عليه السلام - قد حفظها الله فى اسحاق ويعقوب ..

وإن أعلم الناس بذلك إسحاق ، وهو نبي يوحى إليه ، فليس من المعقول أن يختار على الله ، ويخص عيصو بالنبوة دون يعقوب . حتى يلجئه إلى هذه الحيلة التى انتزع بها دعوته لتكون النبوة فيه .

ما أروع القرآن فى قصصه ، وما أصدقه من بيان يُنزل الأنبياء منازلهم ، ويرفع من شأنهم وينزه أقدارهم عن النقائص التى تكون فى أراذل الناس ..

لقد ورد اسم يعقوب فى القرآن الكريم فى ستة عشر موضعًا ، موزعة على عشر سور(١١)، كما ورد اسم « إسرائيل » مرتين واحدة فى سورة

---

(١١) هى سور : البقرة ، آل عمران ، النساء ، الأنعام ، هود ، يوسف ، مريم ، الأنبياء ، العنكبوت ، ص .

آل عمران ، فى الآية التى ذكرناها آنفًا .. ومرة في سورة مريم(١٢).. أما بنو إسرائيل فقد ورد ذكرهم فى مواضع كثيرة ..

لقد بشر الله إبراهيم – عليه السلام – بنبوة يعقوب قبل أن يولد أبوه إسحاق . ومعنى ذلك أن يعقوب مكتوب فى الأنبياء أزلاً ، فليس لإسحاق أن يغير ما كتبه الله .. وليس هو بالجاهل الذى يفعل ذلك ، ولكنه نبى يوحى إليه .. فما أقبح الافتراء على مقام الأنبياء – عليهم السلام – .

يعقوب وتحريم الطعام :

ذكر الرواة أن يعقوب – عليه السلام – كان قد أصيب بمرض – عرق النّسا – فنذر إن شفاه الله من هذا المرض ألا يأكل كل ما فيه عرق ، فشُفى فحرم لحوم الإبل وألبانها ..

فلما رآه قومه لا يأكلها حرموها على أنفسهم .. وفى ذلك يقول الله – تعالى – :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(١٣)

لقد كان تحريم يعقوب الطعام على نفسه باجتهادٍ منه – كما يقول القرطبى –(١٤) وليس تحريمًا من الله . وذلك ما يقوله ابن عباس – رضى الله عنهما – :

---

(١٢) هى قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ﴾ الآية ٥٨ من سورة مريم .
(١٣) الآية ٩٣ من سورة آل عمران .
(١٤) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٣٥ ط دار الكتب .

لما أصاب يعقوب – عليه السلام – عرق النَّسا[١٥] وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل ، فحرمها على نفسه ، فقالت اليهود – بعد ذلك – : إنما نحرم على أنفسنا لحوم الإبل لأن يعقوب حرمها وأنزل تحريمها فى التوراة ، فأنزل الله هذه الآية يكذبهم ويرد عليهم : قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فلم يأتوا بذلك .. فقال الله عز وجل : ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[١٦].

وربما نزل تحريم ذلك بعدُ ، بسبب ظلمهم وبغيهم مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[١٧] ولقوله تعالى :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[١٨]

ويبدو أن هاتين الآيتين نزلتا أولاً ، فحين ذاع خبرهما بين اليهود ، وعرفوا أن تحريم ما حرم عليهم كان بسبب ظلمهم وبغيهم تغيظوا وزعموا أن ما حرم عليهم كان محرمًا عليهم فى القديم ، على نوح ومن بعده من الأنبياء إلى أن انتهى التحريم إليهم ، هادفين من وراء ذلك إلى تكذيب النبى – ﷺ – فيما أخبر به وأنزل عليه ، فبين الله لهم أن كل الأطعمة كانت حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرمه إسرائيل على نفسه . ونزلت الآية التى توضح ذلك . وحين تحداهم بقراءة التوراة لبيان ما فيها من أحكام التحريم عجزوا عن ذلك[١٩] ..

---

(١٥) النَّسا – بفتح النون – والقصر: عرق يخرج من الورك يستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر . يسبب العرج ويعوق المشى .

(١٦) آل عمران ٩٤ . (١٧) النساء ١٦٠ . (١٨) الأنعام ١٤٧ .

(١٩) راجع تعليق على مادة إسرائيل – دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٢٩٣ لمحمد عرفة .

أما الظلم الذى استدعى تحريم ما حرم على اليهود فهو ما أشار إليه الحق - سبحانه - فى قوله - تعالى - :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[٢٠]

كل هذه ألوان من الظلم يضاف إليها الصد عن سبيل الله وأكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، وهو ما أشارت إليه الآيتان التاليتان :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٢١]

قصة فى سبب مرض يعقوب :

ويقص الإخباريون قصة فى سبب مرض يعقوب - عليه السلام - بمرض « عرق النَّسا » ويسندونها إلى ابن عباس - رضى الله عنهما - وبعض الأئمة ، فيقولون :

---

(٢٠) الآيات من ١٥٥ : ١٥٩ من سورة النساء .

(٢١) الآيتان ١٦٠ ، ١٦١ من سورة النساء .

أقبل يعقوب - عليه السلام - من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو ، وكان رجلاً بطِشًا قويًا ، فلقيه ملك ، فظن يعقوب أنه لص ، فعاجله أن يصرعه ، فغمز المَلَك فخذ يعقوب - عليه السلام - ثم صعد الملك إلى السماء ، ويعقوب ينظر إليه ، فهاج عليه عرق النسا ، ولقى من ذلك بلاء شديدًا ، فكان لا ينام الليل من الوجع ، ويبيت وله صياح ، فحلف يعقوب - عليه السلام - إن شفاه الله - عز وجل - ألاّ يأكل عرقًا ولا يأكل طعامًا فيه عرق ، فحرمها على نفسه .. وكان سبب غمز الملك فخذه أنه كان قد نذر إن وهب الله له اثنى عشر ولدً ، وأتى بيت المقدس صحيحًا أن يذبح آخرهم ، فكان ذلك للخروج من نذره[٢٢].

وهو خبر من الأخبار الإسرائيلية تعوزه المنطقية . فإن بيت المقدس لم يكن قد بنى بعد ، والذى بناه هو يعقوب نفسه بعد أن أثرى ، وفاء لنذر كان قد نذره لله ، وبناه بعد عودته من « فدان آرام » وقد انتعشت حالته الاقتصادية ، وأصبح له ولد كثير . ثم إن ولده الثانى عشر لم يولد إلا بعد رجوعه إلى الشام .

والمَلَك وإن صح أن يظهر فى صورة رجل أحيانًا إلا أنه لا يكون فى صورة منفرة تثير الخوف منه والتصارع معه . إنه يكون مبعث رحمة واطمئنان لمن يراه ..

إنه خبر يدعو للالتفات ويستوقف الذهن ويستحق المناقشة ..

عودة مظفرة :

أقام يعقوب عند خاله لابان عشرين سنة كاملة .. ثم استأذن خاله فى العودة إلى موطنه ..

فقال له خاله : لقد بارك الله فى مالى بسببك فخذ منه ما شئت ، وزوّده بشاء وأبقار وإبل ..

---

(٢٢) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ١٣٤ ط دار الكتب.

وهنا تتدخل الأساطير مرة أخرى فتصور يعقوب النبى – عليه السلام – في صورة المحتال المستغل الطامع فيما ليس له ..

قالوا : إنه طلب من خاله أن يعطيه من كل حمل يولد في هذه السنة كل ما هو أبقع من الغنم ، وكل ما هو أجلح أبيض من المعز ، وكل ما هو أملح ببياض .. ووافق خاله على ذلك .

فعمد بنو خاله فغيَّبوا من ذكور الماشية ما كان على هذه الصفة حتى لا يأتى نتاجٌ يشبهها .

ولكن يعقوب أتى بقضبان رطبة بيض من لوز ولُب فقشرها بُلَقًا ونصبها فى المساقى لتنظر الغنم إليها فيأتى نتاجها مشابهًا لها ..

فكان النتاج أغلبه فى هذا العام وفق ما اشترطه على خاله ، فاحتمله يعقوب وسار به قبل أن يستأذن خاله(٣)..

فهل يتناسب هذا مع أخلاق الأنبياء ؟

لقد شوَّه هؤلاء القوم سيرة من جعلهم الله قدوة للبشر ، وخلعوا عليهم صفاتهم التي جاء هؤلاء الرسل ليقوموها ..

فهذه إضافات مكذوبة على نبى الله يعقوب .. والأشبه بمقامه – عليه السلام – أن يكون رحيله من عند خاله طبيعيًا ، ومن المحتمل أن يكون خاله زوده ببعض الهدايا التى تعينه على مواجهة الحياة فى رحلته وفى موطنه الجديد ، وليس ببعيد أن يكون قد زوده أيضًا بهدايا أخرى لأخيه عيصو ، تأليفًا لقلبه وتأنيسًا لخاطره ..

فهذا ما يقبله العقل ويطمئن إليه القلب ..

واستقبله أخوه عيصو استقبالاً حسنًا .. لقد كانت هذه السنون كافية لغسل أوضار القلوب ، وتصفية أحقاد النفوس .

---

(٢٣) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٢٥ ط الأنوار المحمدية . والأبقع : ما خالط لونه لون آخر . والأملح : ما خالط بياضه سواد . والأجلح : الحيوان الذى لا قرن له .

وعكف يعقوب على تبليغ دعوة أبيه وجده ، فرسالته استمرار لرسالتهما ، وقد قرر ذلك القرآن الكريم فى قوله :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٢٤)

يعقوب يبني بيت المقدس :

سئل النبى - ﷺ - عن أول بيت وضع للناس فقال : البيت الحرام ، ثم قيل له : وأى بيت بعد ذلك ؟ فقال : المسجد الأقصى بينهما أربعون سنة(٢٥).

ومفهوم ذلك أن إبرهيم - عليه السلام - أعاد بناء البيت الحرام بمكة ، وجاء بعده حفيده يعقوب - عليه السلام - فبنى بيت المقدس بإيليا .

وكان يعقوب فى أثناء رحلته إلى خاله لابان ، قد استراح فى الطريق فى ظل صخرة فغلبه النوم ، فرأى فى نومه بشرى بنبوته التى تشرق هذه الأرض بها .. فلما استيقظ استبشر وابتهج ، وتبدد اليأس الذى خامره ، وذهب من نفسه الضيق الذى ألم به . ونذر أن يبنى لله فى هذا المكان مسجدًا يعبد الله فيه ..

---

(٢٤) الآيات ١٣٠ : ١٣٢ من سورة البقرة .

(٢٥) روى في الصحيحين عن أبي ذر ولفظه : سألت رسول الله - ﷺ - عن أول مسجد وضع على الأرض فقال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : وكم بينهما ؟ قال : أربعون عامًا . أعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٢٩ .

فلما أكرمه الله فى العراق ، وعاد من عند خاله بعد غياب استمر عشرين عامًا ، وقد تبدلت حاله ، وكثر ماله ، ذهب إلى أورشليم حيث يوجد المكان الذى نام فيه ورأى رؤياه ، وكان قد وضع عليه علامة ظلت قائمة ، وبنى مذبحًا وأطلق عليه « بيت إيل » أى إله إسرائيل .

وهذا البيت هو الذى جدده وعمره بعد ذلك بقرون سليمان بن داود - عليهما السلام - .

وبيت المقدس هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ومسرى رسول الله - ﷺ - النازل فى حقه قوله - تعالى - :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(٢٦)

وهو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال .

والصلاة فيه كألف صلاة فى غيره ما عدا المسجد الحرام والمسجد النبوى .. وفى حديث مروى عن أنس أن الصلاة فيه تعدل خمسين ألف صلاة(٢٧).

أهل الكتاب يتنازعون نسبة يعقوب إليهم :

لقد كانت شريعة يعقوب - عليه السلام - امتدادًا لشريعة أبيه وجده - عليهما السلام - وهى الحنيفية السمحاء ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وما كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾(٢٨).

وهذه الشريعة هى التى بُعث النبى - ﷺ - لإحيائها ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾(٢٩).

---

(٢٦) الآية رقم ١ من سورة الإسراء .

(٢٧) رواه ابن ماجه فى سننه ٤٥٣ / ١ - أعلام الساجد ص ٢٨٧ .

(٢٨) الآية ٦٧ من سورة آل عمران . (٢٩) الآية ١٢٣ من سورة النحل .

ولكن اليهود والنصارى يزعمون أن كلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب يدينون بدياناتهم التى يدينون بها اليوم على مافيها من تغيير وتبديل .. وكانوا يقولون للمسلمين - فيما يحكيه القرآن الكريم - : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ .

ولكن القرآن يرد عليهم بقوله :

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(٣٠)

إن الدين الحق هو الإسلام وهو الذى جاء به الأنبياء والمرسلون من لدن آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء محمد - ﷺ - والدين الحق براء مما أدخله أتباع الرسل من إضافات وتغييرات هم يحاسبون عليها يوم القيامة .. وهذا الدين الحق الذى هو الإسلام شريعة الله الأزلية والأبدية هو الذى أوصى يعقوب - عليه السلام - أبناءه باتباعه .

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(٣١)

---

(٣٠) الآيتان ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة البقرة .
(٣١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

يوسف عليه السلام

* مولد يوسف
* رؤيا يوسف
* يوسف في الجبّ
* في بيت العزيز
* في السجن
* على عرش مصر
* يوسف واخوته
* يعقوب في مصر
* وفاة يعقوب في مصر
* وفاة يوسف

يوسف عليه السلام

كان مولد يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم – عليهم السلام – منحة لأبيه ومحنة فى الوقت نفسه ..

أما كونه منحة ، فهو نبى ، وقد وهبه الله شطر الحسن ، ورزقه من الحكمة وحسن التدبير وبعد النظر والاستقامة والسداد فى الأمر ما أنزل فى شأنه سورة كاملة وصفها الله – جل شأنه – بأنها من أحسن القصص ..

وقد وصفه النبى – ﷺ – بأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم .. إنه نبى من سلالة أنبياء فلم لا يكون كذلك ؟

وأما كونه محنة لأبيه ، فقد ابتلى أبوه بحبه وابتلى بفقده ..

كان أحب أبنائه إليه وأقربهم إلى قلبه ، لا يكاد يصبر على فراقه لحظة ، حتى أثار ذلك دوافع الحسد والحقد عند إخوته فأتمروا عليه ، وغيبوه عن والده الذى ظل يبكى على فراقه حتى فقد من كثرة البكاء نور عينيه .. وتواصلت أحزان يعقوب على ابنه حتى اجتمع الشمل بعد كروب وخطوب ، وعادت الفرحة مرة أخرى إلى النفوس والقلوب .. أما كيف حدث ذلك ؟ فهو ما ستعرضه التفاصيل ..

مولد يوسف :

ولد يوسف فى « فدان آرام » حيث كان يعقوب يقيم فى ظل خاله لابان .. ويوسف هو ثمرة زواجه من راحيل ، تلك الفتاة التى علق بقلبه

حبها حين رآها أول ما رآها فى قرية خاله ، واقتادته إلى أبيها ، وقد شعر بالأنس كله فى صحبتها ، ونسى كل آلام رحلته المضنية من حران إلى العراق وحيدًا طريدًا يقاسى هجير الصحراء وظمأ البيداء .. وخطبها إلى أبيها ، وصبر أربعة عشر عامًا حتى زفت إليه .. لقد كانت صغرى بنتى خاله .. ولم ينسه زواجه من الكبرى حبه وتشوقه إلى الصغرى ..

ولم تنجب راحيل فور زواجها من يعقوب ، فقد شكت العقم فترة ، حتى ابتهلت إلى الله أن يهبها من زوجها ولدًا تسعد به ، كما أنجبت أختها منه .. فمن الله عليها بغلام جميل الطلعة مشرق الجبين .. سمته يوسف ..

ثم أنجبت راحيل – بعد عودتها – إلى الشام ولدًا آخر اسمه بنيامين ماتت إثر وضعه ..

وتركت بعد موتها لزوجها ذكراها فى هذين الولدين اللذين أحبهما حبًا شديدًا.

وامتاز يوسف – عليه السلام – منذ نشأته بحسن الخلق وهدوء الطبع ، إلى جانب جمال الصورة وبهاء الطلعة ، فآثره أبوه بمزيد حبه ، وخصه بكثير من عطفه وإقباله ..

والحب قدر من الأقدار لا يملك له الإنسان دفعًا ولا يستطيع أحد مغالبته .

والأب مفطور على حب أبنائه جميعًا ، ولكن الحب قد يتفاوت لسبب يعلمه الله ، وقد يكون مرده إلى النجابة ، وقد يكون مرده إلى اليتم ، إلا أن التفاوت فى الحب لا يقتضى – عند من عصمه الله – الجور فى العطاء أو التفرقة فى أمور الحياة ..

وقد ورد عن النبى – ﷺ – قوله : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »(٣٢).

---

(٣٢) روته عائشة – رضى الله عنها – قالت : كان رسول الله – ﷺ – يقسم فيعدل ويقول : اللهم هذا قسمى .. الخ . والحديث فى صحيح الترمذى جـ ١ ص ٢١٣ ، وفى سنن =

لقد علمنا النبى - ﷺ - أن القلوب بيد الله وكان من دعائه : « اللهم إن قلوبنا وجوارحنا بيدك لم تملكنا منها شيئاً فإذا فعلت ذلك بها فكن أنت وليها »[٣٣].

يوسف يقص رؤياه على أبيه :

ولقد ظهرت إرهاصات النبوة عند يوسف مبكرة ..

ظهرت فى صورة الرؤى التى كان يراها فتصدقها الوقائع والأيام .. وربما كان هذا من أسباب حسد إخوته له إلى جانب إيثار أبيه إياه ..

وقد ورد فى حق الرؤيا أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، كما ورد فيها أنها من علامات الوحى ..

وقد رأى يوسف رؤيا عجيبة قصها على أبيه . وذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٣٤]

لقد رأى يوسف هذه الرؤيا قبل أن يحتلم ، وقد قصها على أبيه كما حكى القرآن .. وقد فهم أبوه تأويلها ، وعرف أن الكواكب رمز إلى إخوته وهم أحد عشر ولدًا ، سبق أن ذكرنا أسماءهم ، وأن الشمس رمز لأبيه ، والقمر

= النسائى بلفظ : كان رسول الله - ﷺ - يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : اللهم هذا فعلى فيما أملك .. الخ . راجع جمع الجوامع جـ ١ ص ٣٧٢١ حديث رقم ٩٩٤١/٦٩٠ .

(٣٣) الحديث فى الجامع الصغير برقم ١٥١٢ . وفى جمع الجوامع برقم ٩٩٧٤/٧٢١ ط مجمع البحوث .

(٣٤) الآيات من ٤ : ٦ من سورة يوسف .

رمز لأمه .. والأم هنا هى خالته التى كفلته بعد وفاة أمه ، وهى أم بعض إخوته ..

وقد عرف الأب أن هذه الرؤيا ستكون سببًا لمتاعب يوسف ، فطلب منه كتمانها وألا يخبر إخوته بها .

ولكن خالته سمعت الرؤيا ، فأفضت بها إلى بعض أبنائها ، فأخبروا بها الباقين ..

وكان الحسد كامنًا فى نفوسهم ، فأوجدت الرؤيا الفرصة لاستعلان هذا الحسد .. والحسد داء قديم قدم الانسان ..

ظهر أولاً فى إبليس لآدم .. وظهر بعد ذلك عند قابيل لهابيل ..

ثم توارثه أبناء آدم كابرًا عن كابر .. فلم ينج منه أبناء الأنبياء ..

فهؤلاء ورثة النبوة يحقدون على يوسف أن أحبه أبوه أكثر منهم ، وحسدوه أن وهبه الله رؤيا حسنة يفضى تأويلها إلى أنه سيكون مميزًا عنهم ..

وما زالت هذه الوساوس تعتمل فى نفوسهم ، وتشتعل فى صدورهم حتى أجمعوا على تبييت الشر له والتخلص منه ..

اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا :

اجتمع الإخوة الأحد عشر .. وتشاوروا فيما بينهم .. كيف يتخلصون من يوسف ؟ إنه عقبة فى طريق حب أبيهم لهم .. لقد زعموا أن يوسف قد استولى على قلب أبيهم تمامًا فلم يعد فيه مكان خال لهم ..

إنه الحسد الذى صور لهم هذه الأوهام ، وحجب عن عيونهم رؤية أبيهم على حقيقته ، نسوا أن أباهم نبى يوحى إليه ، وأن من خصائص الأنبياء العصمة ، فلا ظلم منه واقع عليهم .. ولكنه الحسد .. ذلك الداء الدفين

الذى طلب الله من البشر أن يستعيذوا من شره وشر صاحبه .. ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾(٣٥).

وكان محور نقاشهم هو ما قصه القرآن الكريم علينا بقوله :

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾(٣٦)

لقد ألقت الآيات الضوء على سبب الحقد على يوسف – إنه الإيثار بالحب الزائد .. ومع ذلك فلم ينف الإخوة حب أبيهم لهم .. فقد قالوا : يوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا .. وأفعل التفضيل يقتضى المشاركة .

إنه الحقد المتأجج إذن ، فهم يريدون أن يبقى وجه أبيهم لصالحهم فقط ، وأن يكون حبه مقصورًا عليهم لا يشاركهم فيه يوسف وأخوه ..

أما تفكيرهم فى التخلص من يوسف وحده ، فمرجعه إلى صغر بنيامين .. وربما يريدون أن يكون التخلص على مراحل يبدأون أولاً بيوسف ، ثم يأتى دور بنيامين بعد ..

وربما لم يكن بنيامين فى نباهة شأن يوسف ، أو لم تكن له منزلة يوسف عند أبيه ..

وعلى كل فليس ذلك تفكير الأسوياء من الناس ولو كانوا من سلالة أنبياء .

ولذلك فنحن نستبعد أن يكون هؤلاء أنبياء كما رأى البعض استنادًا إلى أنهم الأسباط الوارد ذكرهم فى القرآن الكريم ..

---

(٣٥) سورة الفلق.

(٣٦) الآيات ٨ : ١٠ من سورة يوسف.

وليس أدل على ذلك من وصفهم أباهم بأنه فى ضلال مبين .. وبأنهم فكروا فى ارتكاب جريمة بشعة هى القتل . ومن الذى سيقتل ؟ إنه أخوهم ..

لقد أجمعوا رأيهم على التخلص من يوسف .. ولكن اختلف رأيهم فى الطريقة للتخلص ..

فمنهم من رأى أن يكون التخلص بالقتل ..

ومنهم من رأى طرحه فى فلاة واسعة تفترسه الذئاب أو الوحوش ..

ولكن غلب رأى واحد منهم على أن يلقوه فى غيابة الجب .. وهو بئر عميقة يستقى منها الورَّاد فى طريق القوافل ، وهو ببيت المقدس يلتقى عليه الغادى والرائح ، وربما التقطه أحد المسافرين فيريحهم منه إلى الأبد ، وبذلك يحققون هدفهم فى إبعاد يوسف عن أبيه ، دون إراقة دمه ..

وكان صاحب هذا الرأى هو يهوذا[٣٧]، أو هو روبيل أو شمعون[٣٨] على اختلاف عند الرواة .



وشروه بثمن بخس :

اتفق رأى الإخوة على هذا الأمر ، وبقيت الخطة لتنفيذه ..

كيف يستخلصونه من تحت عيني والده ، وهو لا يصبر على فراقه ؟ وإذا غاب عنه ولو فترة قصيرة سأل عنه ..

وهداهم الشيطان الذى زين لهم ارتكاب الشر ، ومنَّاهم بعد ارتكابه بالتوبة منه فيصبحون قومًا صالحين ..

هداهم إلى طريقة يستدرجون بها يوسف بعيدًا عن أبيه برغبة منه فذهبوا إليه قائلين :

---

(٣٧) قصص القرآن محمد جاد المولى ص ٧٣ – الثعلبى ص ١١٣ .

(٣٨) ابن كثير فى قصص الأنبياء ص ٢٣٣ عن بعض الرواة .

﴿ يَا أَبَانَا مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وإنَّا لَهُ لَنَاصِحُون . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وإنَّا لهُ لَحَافِظُون ﴾[٣٩].

جاءوا لأبيهم من طريق الحب ليوسف .. فقالوا له : أرسله معنا يشاركنا فى لعبنا ومرحنا ونشاطنا ، فإن ذلك يكون أجَمَّ وأصْلَحَ له ..

وإن من اللعب ما هو مباح يدعو العقل والتربية له ، فقد يكون من أهداف اللعب التقوية والتنشيط والتدرب على السلاح وفنون الحرب ، ولهذا لم ينكر يعقوب النبى - عليه السلام - عليهم ذلك ..

ولكنه أحس بما يدبرونه بفطرته الصافية وإلهامه الصادق وتجربته السابقة . ولم يشأ أن يخبرهم بما راود نفسه من أحاسيس ، بل أراد أن يمنع يوسف من الخروج معهم بدافع الخوف عليه من افتراس الذئاب له فى غفلة منهم . وربما لم يكونوا متنبهين لهذه الناحية من الخطر ، فطمأنوه بأنهم لن يغفلوا عنه ، وفى الوقت نفسه اغتنموها فرصة فى الدفاع عن أنفسهم عند إخبار أبيهم بفقده ..

وقد صور القرآن الكريم الحوار الذى دار بين يعقوب - عليه السلام - وأولاده بأسلوبه المعجز الرائع ، الذى لم يُغفل مختلف الأحاسيس النفسية التى تعتمل فى نفس الشيخ وبنيه ..

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ . قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾[٤٠].

لقد كان يعقوب - عليه السلام - يحس أن الخطر على ابنه هم إخوته لا الذئب ، ولكنه خشى أن يصرح بذلك فيوغر صدورهم عليه ، وربما كنى بالذئب عنهم .. فقد ذكر الرواة فيما يروون عن ابن عباس - رضى

---

(٣٩) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة يوسف .

(٤٠) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة يوسف .

الله عنهما - أن يعقوب - عليه السلام - رأى في منامه كأن يوسف على رأس جبل ، وكأن عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليأكلوه ، وإذا ذئب منها يحمي عنه ، وكأن الأرض قد انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام . فلما رأى هذه الرؤيا قال : أخاف أن يأكله الذئب(٤١).

وتحت إلحاحهم الشديد - وربما لمح رغبة من يوسف في مشاركة إخوته لعبهم - فوافق على أن يخرج يوسف معهم .. ولكنه لم ينس أن يزودهم بنصائحه في المحافظة عليه ..

وانطلق به الإخوة ، واصطحبوا يوسف بحفاوة بالغة أمام أنظار أبيهم، حتى إذا ما تواروا عنه قلبوا له ظهر المجن .. وأظهروا كوامن نفوسهم ، وصبوا عليه جام غضبهم .. وقرروا أن ينفذوا فيه وعيدهم ، وما أجمعوا عليه أمرهم ..

وربما هَم بعضهم بالبطش به ولكن « يهوذا » نصب من نفسه مدافعًا عنه ، مذكرًا لهم ما اتفقوا عليه من وضعه في غيابة الجب ، محذرًا لهم من أن القتل لا يليق بهم وهم أبناء يعقوب وأحفاد إسحاق وإبراهيم ، وأنه يجافي ما تلقوه من شرائع ، وهو أمر يأباه العقل والمنطق والأخلاق .. لعله قال ذلك وأكثر منه ، ليقنعهم بوجهة نظره ، ويبعدهم عما أرادوا فعله ..

وقد أوحى الله - سبحانه - إلى يوسف بأنه سيخبرهم بذلك كله في حينه وهم لا يشعرون ..

وقد يكون الوحي ليوسف في هذه السن المبكرة أمرًا مستغربًا .. ولكنه حين يكون إلهامًا لا يستغرب .. إنه من قبيل قوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾(٤٢).

---

(٤١) قصص الأنبياء للثعلبي ص ١١٣ . (٤٢) من الآية ٦٨ من سورة النحل .

إن يوسف لم يكن قد نبيء بعد ، فما زال صغيرًا .. ولكنه حين يكبر ويُنبأ يخبرهم بما فعلوه معه كله ..

وألقاه الإخوة في الجب ، لم يرحموا طفولته ، ولم يذكروا أُخُوَّته ، ولم يرعوا يتمه بفقد أمه ، ولم يحفظوا بر أبيهم بسماع نصحه في المحافظة عليه .. لقد أعرضوا عن كل ذلك ، ولم يذكروا إلا الاستجابة لدوافع الحقد والأثرة التي سيطرت على نفوسهم ، واستلت كل نوازع الخير من ضمائرهم ..

لقد جردوه من قيمصه الذى كان عليه ، وربطوه بحبل وألقوا به في الجب ، وأسرع أحدهم فقطع الحبل فهوى إلى القاع ..

وحاول يوسف قبل إلقائه أن يستعطفهم ليردوا قميصه ليستر به عورته إن حيى أو ليكون كفنه إن مات . ولكنهم قابلوه بكل غلظة وأسمعوه قوارص الكلم ، وسخروا منه قائلين : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا فتكسوك وتؤنسك ..

وأوحى الله إلى جبريل : أدرك عبدى .. فأسرع وتلقى يوسف على يديه قبل أن يصل إلى القاع .. وفي الجب صخرة أراحه عليها ، وكساه قميصًا .

وكان الجب مأوى للهوام فهمت به ولكن الله وقاه شرها ..

وقعد يوسف على الصخرة يبكي ، وهو في جب مظلم .. فألهمه الله الصبر .

دعاء الفرج :

وجاءه جبريل يعلمه دعاءً كان هو دعاء الفرج .. قال له : يا يوسف ، كف عن البكاء واشتغل بالدعاء .. فإن الدعاء عند الله بمكان .. ثم قال له : قل :

« اللهم يا مؤنس كل غريب ، ويا صاحب كل وحيد ، ويا ملجأً كل خائف ، ويا كاشف كل كربة ، ويا عالم كل نجوى ، ويا منتهى كل

شكوى ، ويا حاضر كل ملأ ، يا حي يا قيوم ، أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي ، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك ، وأن تجعل لي من أمرى فرجًا ومخرجًا إنك على كل شيء قدير »[٤٣].

وقيل : إن الدعاء الذى علمه جبريل ليوسف هو :

« اللهم إنى أسألك باسمك المكنون ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام أن تغفر لى وترحمنى ، وأن تجعل لى من أمرى فرجًا ومخرجًا ، وأن ترزقنى من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب »[٤٤]. وكان النبى يقول : هذا دعاء المصطفين .

وقيل : إن هذا الدعاء الذى تعلمه هو :

« يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا حاضر كل ملأ ، ويا مفرج كل كرب ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، إئتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحدًا سواك[٤٥].

فردد يوسف الدعاء فأخرجه الله من الجب بعد أن قضى فيه ثلاثة أيام .

كان الجب كما قلنا على طريق القوافل ..

وهناك قافلة من الإسماعيليين كانت قادمة من مكة فى اتجاهها إلى مصر تحمل تجارة ، وقافلة أخرى من أهل مدين[٤٦].

وحطت قافلة أهل مدين بجوار الجب ، وأرسلت أحد أفرادها يطلب الماء من الجب ..

وألقى هذا الرجل بدلوه فى الماء فتعلق به يوسف - عليه السلام - .

---

(٤٣) تفسير القرطبى ص ٣٢٧٣ ط دار الشعب ..
(٤٤) يوسف الصديق لابن الخطيب ص ٤٤ .
(٤٥) تفسير القرطبى . (٤٦) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ١٥٧ .

ورفع الرجل دلوه وهو يظن أنه قد امتلأ بالماء - ولكنه أحس بثقله - على غير المعتاد ، وإذا به أمام صورة من أحسن الصور التى صاغها الله جمالاً وبهاء ..

فلم يملك إلا أن صاح قائلاً : يا بشراى هذا غلام ..

وأقبل أفراد القافلة على صوت صاحبهم ، ونظروا إلى يوسف فى حسنه وبهائه فلم يملكوا إلا أن قالوا : تبارك الله أحسن الخالقين ..

وكان في إمكانهم أن يحتفظوا به معهم ، ولكن فضلوا أن يبيعوه للتجار المتوجهين إلى مصر ..

وهكذا أصبح يوسف فى قبضة الإسماعيليين بعد أن اشتروه بدراهم معدودة من أهل مدين ..

قال الرواة : إن يوسف قد قد نظر فى المرآة ذات يوم فقال : آه يا يوسف ، لو أنت مملوك لعجزت عن دفع ثمنك الملوك ..

وكان عاقبة افتتانه بنفسه أن بيع بثمن بخس دراهم معدودة ..

وقيل : إن الذين باعوه هم إخوته أنفسهم ، لأنهم ظلوا بجوار البئر وقتًا يتفقدون أحواله .. حتى جاءت القافلة التى أدلت بدلوها إلى الماء فاستخرجته ، فأسرع الإخوة إليهم قائلين : هذا عبدنا قد أبق منا وأخفى نفسه هنا .. فسألهم التجار أن يبيعوه فباعوه بعشرين درهمًا اقتسمها الإخوة بينهم كل منهم أخذ درهمين وهذا رأى بعيد جدًا .

وعاد الإخوة إلى أبيهم باكين . وفي جيوبهم ثمنه ، وعلى وجناتهم دموع تكذب

وقد ادعوا أن الذئب عدا على يوسف فأكله .. وأروه قميصه الذى كانوا قد ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص .. فلما نظر يعقوب إلى القميص وما عليه من دم كاذب ، ولا يوجد به أثر لناب ذئب أو مخلبه قال : ما أحكم

هذا الذئب وأعقله ، حيث إنه أكل ابنى دون أن يمزق ملابسه .. وهو يقصد بهذا التهكم بهم والسخرية منهم ..

ثم أعلنها لهم صريحة واضحة لا التواء فيها : بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ..

إن هذه الأحداث التى ذكرناها على طولها ، ولم نقف بتفاصيلها ، حكاها القرآن الكريم فى إيجاز معجز وإحكام دقيق يعيا أبلغ البلغاء عن الإحاطة به حيث قال :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[47]

ما أشد محنتك أيها الشيخ فى أبنائك ..

هؤلاء الذين كان ينتظر منهم أن يكونوا أقرب الناس استجابة لتعاليمك ومبادئك ، وأسرعهم تطبيقًا لشريعتك لأنهم أبناؤك . هم الذين كانوا أبعد الناس عن ذلك ..

---

(٤٧) الآيات ١٥ : ٢٠ من سورة يوسف

ولو أن يوسف قد أسلمه أبوه لأبعد الناس عنه ما فعل هذه الفعلة التى فعلها أقرب الناس إليه ..

ولكنه البلاء الموكل بالأنبياء ..

وقد روى عن النبى - ﷺ - : « أشد الناس بلاء هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »(٤٨).

لقد كان ابتلاء يعقوب بقسوة أبنائه وجفوتهم لأخيهم واعتدائهم عليه وعدم انصياعهم لأمره أشد من ابتلائه بموت يوسف لو كان قد مات حقًا .. ولكن لا حيلة له إلا الصبر يتذرع به ، ولا ملجأ له إلا الله يلجأ إليه ، ولذلك قال : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ..

وهكذا أسلم يعقوب أمره إلى الله ..

أكرمى مثواه :

وأخذت القافلة طريقها إلى مصر ..

وفى الطريق ، وقع نظر يوسف على قبر أمه « راحيل » فتسلل إليه ، وألقى بنفسه فوق القبر يلتزمه ويبكى . ولعله أشهدها على ما آلت إليه حاله ، وما صار إليه أمره ، وكيف أُبدِل بالعز ذلاً ، وبالأمن خوفًا ، وبالحب بغضًا ..

وأحس حافظه بفقده ، فبحث عنه فوجده فوق القبر يبكى .. فانتهره ، ولم يقبل عذره(٤٩).

وحملوه مقيدًا حتى وصلوا مصر ..

---

(٤٨) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن فاطمة بنت اليمان أخت حذيفة بن اليمان وأخرجه أحمد فى مسنده بإسناد جيد - الجامع الأزهر فى حديث النبى الأنور جـ ١ ص ٥٦ .

(٤٩) أشار إلى هذه القصة الثعلبى ص ١١٩ وابن إياس ص ٩٥ .

وهناك فى سوق الرقيق عرضوه للبيع .. ورآه عزيز مصر ووزيره « قطفير » وكانوا قد ألبسوه ثوبًا حسنًا - وهو ليس فى حاجة إلى تزيين وتحسين - ولكنها عادة التجار فى تحسين بضاعتهم .. فاشتراه الوزير ..

وكانت مصر فى ذلك الوقت ما تزال تحت حكم العمالقة الذين يطلق عليهم « الهكسوس » الذين احتلوا مصر سنة ١٧١٠ ق . م . وجعلوا عاصمتهم « أواريس » - صان الحجر الحالية - فى شمال شرق الدلتا .. بينها وبين مدينة طيبة ٨٠٠ كيلو متر[٥٠].

لقد تفرس الوزير فى يوسف بأنه سيكون له شأن .. ولذلك أوصى زوجته بأن تكرمه وتحسن معاملته .. وقال لها : عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ..

وكانت فراسته صادقة ، فإن نفع يوسف لم يقتصر على الوزير وبيته ؛ بل عم حتى شمل مصر كلها وما جاورها من بقاع ..

ولذلك قالوا فيما روى من أخبار : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف وقال لامرأته : أكرمى مثواه ، والمرأة التى أتت موسى فقالت لأبيها : يا أبت استجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، وأبو بكر حين استخلف عمر ..

ولم تكن امرأة العزيز فى حاجة إلى وصاة زوجها .. فقد أقبلت على يوسف من تلقاء نفسها إقبال أم على ابنها لا إقبال سيدة على عبدها .. وأحلته من قلبها وبيتها محلاً كريمًا .. وما زال هذا المحل يرتفع ويسمو .. حتى تحول عندها إلى عاطفة مشبوبة مع نمو يوسف واكتمال شبابه ..

لقد بدل الله حياة يوسف تبديلاً كاملاً .. فقد دخل مصر عبدًا ذليلاً يعرض فى الأسواق ، ويتزايد الراغبون فى الثمن لشرائه ، فإذا به يصبح فى بيت الذى اشتراه سيدًا مطاع الكلمة ، تخضع سيدة القصر لمشيئته ، وتذعن لإشارته .

---

(٥٠) كفاحنا ضد الغزاة ص ٣٠ - وزارة الارشاد القومى .

عجبًا لذلك ، لقد اختلطت الأمور فى نظرها ، فإذا بها وهى السيدة المالكة ترى أنها هى المملوكة لمن اشترته ، وذليلة لعبد بذلت فى ثمنه دراهم معدودة .

كانت امرأة العزيز ترقب يوسف فى كل شيء ، فى حسن تصرفه ، ووضعه للأمور فى نصابها ، وبعد نظره ، ودماثة أخلاقه .. ولكنها كانت ترقب على وجه الخصوص ما تراه من جمال مفرط ، وخُلق بديع ، وفتنة طاغية .. ترى كل ذلك صباح مساء ..

فأخذت تحاول الاقتراب منه ، وتستدعيه لمختلف الحاجات وأتفه الأمور ، وشيئًا فشيئًا أخذ حب يوسف يتسلل إلى قلبها ، وكلما تكررت رؤيتها له ازداد هذا الحب ، وهى وإن كانت سيدة هذا القصر الذى تخضع جباه كثيرة له محرومة مما يتمتع به عامة النساء ، حتى الفقيرات منهن ، فزوجها عاجز حصور ، وهى امرأة على أى حال ، وقد أعطاها الله حسنًا ونعمة وشبابًا واقتدارًا .

لقد نضعت رغم أنفها إلى يوسف ، ولكن مكانتها ومقامها فى القصر حالا بينها وبين إظهار هذا الحب ليوسف – عليه السلام – بعض الوقت .. إلا أن وجوده بجانبها ورؤيتها المستمرة له كان يشعل نار الحب فى قلبها والرغبة فى نفسها ..

وقد فطن يوسف – عليه السلام – إلى ميل سيدة القصر إليه ، ومحاولاتها الدائبة للتقرب منه ، وتلميحاتها المتكررة ، ونظراتها التى لم تعد تخفى عليه . ولكنه تغاضى عن كل ذلك ، وتجاهل ما ترمى إليه ، وحاول ألا يظهر أمامها أو تنفرد به بقدر الإمكان ..

إن له إيمانًا بالله يملأ قلبه ويفرض عليه النقاء والطهارة والابتعاد عن كل رذيلة ، لقد نشأ نشأة طاهرة ، وتربى أولاً فى بيت النبوة ، ورضع لبان الشرف والفضيلة والعفة ..

ثم كيف يخون سيده الذى أعزه وائتمنه على بيته وأسرته ؟

إن ذنبًا – إن صح – لا يصدر إلا من اللئام والخونة وضعاف النفوس . ويوسف – عليه السلام – بعيد عن ذلك كل البعد ..

لا يمكن أن يقابل نعمة سيده بالجحود والنكران ، ويدنس عرضه وشرفه ، مهما كانت الإغراءات ، ومهما زادت الضغوط التى تمارسها تلك الزوجة عليه ..

حقًا إنه يعيش فى بيتها ، ويأتمر بأمرها ، لكن لا يمكن أن يصل إلى الحد الذى يطيعها فى معصية الله ، وكفران نعمة من أنعم الله ..

وقد كان – عليه السلام – قادرًا بذكائه على الإفلات من حصار سيدته له ، فكما كانت تختلق الأسباب لتقربه منها كان هو أيضًا يختلق الأسباب ليبتعد عن نظراتها وتطلعاتها ..

وفهمت المرأة بذكائها أن يوسف يحاول تجنبها والابتعاد عنها ما وسعه ذلك ، فزادها ذلك رغبة فيه وإقبالاً عليه .. حتى فاض بها الكيل ، واستولى الشيطان عليها ..

إلى أن جاء يوم .. وكان يومًا عصيبًا ..

إن التلميح لم يأت بنتيجة ، فليكن التصريح ..

واستدعته يومًا إلى مخدعها – وهى لم تعدم اختلاق السبب لذلك – ثم أغلقت الأبواب المفضية إليه ..

ولبست أجمل ما عندها ودعته إلى ما تريد ..

ولكنه استعصم بالعفة ، وأجابها بمنطق الإيمان والعقل : معاذ الله ؛ كيف أخون سيدى الذى أحسن مثواى ؟ كيف أعض اليد التى امتدت إلىّ بالإحسان ؟

ولم تفقد الأمل بعد ، فأقبلت تغازله – لعله يلين – ..

قالت له : يا يوسف ، ما أحسن صورة وجهك . قال : فى الرحم صوَّرنى ربى .

قالت : يا يوسف ، ما أحسن شعرك ، قال : هو أول شيء يبلى منى فى قبرى .

قالت : يا يوسف ، ما أجمل عينيك . قال : بهما أنظر إلى ربى ..

قالت : يا يوسف ، ارفع بصرك فانظر فى وجهى . قال : إنى أخاف العمى فى آخرتى .

قالت : يا يوسف ، أدنو منك فتتباعد عنى ؟ قال : أريد بذلك القرب من ربى(٥١).

وما زالت تسمعه من ذلك الكلام الذى كان فى إمكانه أن يذيب صلادة القلوب ، ويصرع أعتى الأقوياء ، ولكنه لم يزدد إلا استمساكًا بالعصمة والعفة .. كانت تدعوه إلى الشهوة واقتناص اللذة ، وهو يذكرها بالله ونعيم الآخرة .. ويحذرها عذاب الله ونقمته ..

ولكن أنى يقع منها هذا الكلام ولا دين لها يعصمها ولا إيمان بالله يردها ؟



قوة إرادة يوسف :

وعلينا أن نتأمل قوة الإرادة والعزيمة عند يوسف - عليه السلام - شاب فى ريعان الشباب ، وفى تمام الصحة والقوة ، تتهيأ له امرأة فاتنة ذات منصب وجمال وقوة نفوذ وسلطان ، وتهيىء له جميع الأسباب التى تؤمن خوفه ، وتيسر حاجته ، وتعده بكل ما يتمناه إن هو استجاب لرغبتها ، وهو يعلم أنها قادرة على تنفيذ وعدها ، وهى فى الوقت نفسه سيدته التى يأتمر بأمرها ، ويفترض عليه تلبية طلباتها ، ولها عليه السيطرة والهيمنة والسلطان ..

وعلى الرغم من كل ذلك يرفض كل ذلك .. ويأبى أن يقع فى تلك الخطيئة المنكرة .. إن هذا الإباء لا يقوى عليه إلا الأتقياء المخلصون ، هؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ..

---

(٥١) تفسير القرطبى .

الهم :

رفض يوسف الاستجابة للمرأة وقد تهيأت له بكامل فتنتها وأنوثتها تستصرخه أن يفعل بها ما تريد ، وأعرض عنها إعراضًا تامًا مستهينًا بها وبجمالها وبفتنتها ..

وهالها ذلك . بل غاظها أشد الغيظ ، أنه عبدها وقد عرضت عليه نفسها ، ولكنه أذل كبرياءها واحتقر أنوثتها .. فلم يبق أمامها بدٌّ من الانتقام منه واندفعت نحوه فى ثورة عنيفة وهمت به جذبًا إليها وهم بها همَّ دفاع عن نفسه وتخلص من شرها ..

ولنقرأ الآيات الكريمة الواردة فى ذلك ، لندرك من خلالها جمال البيان القرآنى ، وجلاله وروعته فى تصوير هذه العفة المتناهية التى منَّ الله بها على صفيه يوسف - عليه السلام - ..

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[٥٢]

تفسير الهم :

لقد أخطأ كثير من المفسرين فى تأويل همّ يوسف بامرأة العزيز ، حتى صوروه فى صورة الإنسان العادى الذى يمكن أن يقع فى براثن الشهوة ..

(٥٢) الآيات ٢١ : ٢٤ من سورة يوسف .

وإذا صح ذلك فأين عصمة الأنبياء التي يشير إليها قوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده أتيناه حكمًا وعلمًا ﴾ ؟ فالحكم هو النبوة ، والعلم هو العلم بتكاليفها ..

وأين أيضًا تربية الله له واستخلاصه له الذى يشير إليه قوله تعالى : ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ؟

إن الهم ينبغي تفسيره على أنه من قبيل المشاكلة اللفظية لا المماثلة المعنوية كقوله – تعالى – : ﴿ ومَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ ﴾ وقوله – تعالى : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ وتعالى الله عن المكر المذموم والخداع المكروه(٥٣).

أو أنه جواب للشرط .. كأنه قيل : لولا أن رأى برهان ربه لهم بها .. فالصحيح أنه عليه السلام لم يقع منه هَمٌّ البتة بل هو منفى لوجود رؤية البرهان كما تقول : ارتكبت الذنب لولا أن عصمك الله تعالى . وقيل : جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والعرب تقول : أنت ظالم إن فعلت كذا فيقدرونه . إن فعلت فأنت ظالم ، ولا يدل قولهم : أنت ظالم على ثبوت الظلم بل مثبت على تقدير وجود الفعل .

وهكذا يكون التقدير هنا : لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، فكان يوجد الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم .

والمراد بالبرهان ما عنده عليه السلام من العلم الدال على تحريم ما همت به .

وقيل المعنى أنها همت به عليه السلام لتقهره على ما أرادته منه ، وهم هو بها ليقهرها فى الدفع عما أرادته منه ، فالاشتراك فى طلب القهر منه ومنها والحكم مختلف ، ولهذا قالت : أنا راودته عن نفسه .

إنه من الواجب تعظيم مقام النبوة ومراعاة جانبها .. وهو الواقع ..

---

(٥٣) يوسف الصديق ص ٥٣ .

فتربية الله لأنبيائه واصطفائه لهم تحول دون ترديهم فيما يقع فيه عامة الناس من سوء ، وإلا فكيف يكون الفرق بين النبي وغيره ؟؟

أما البرهان الذى رآه يوسف فهو العصمة التي حالت بينه وبين الاستجابة لما طلبت زليخا . هو ذلك التأبى منه والإصرار عليه رغم دواقع الإغراء الشديدة التي يعجز عنها عامة البشر ..

هو أنه لم ير فى موقعه هذا إلا صولة الحق وهيبة المولى ، ولم يشهد إلا جمال ربه الذى غطى على كل جمال ، وحسن رضاه الذى يهون فى جانبه أى رضا لمخلوق مهما بلغ من قوة السلطان ..

إن البرهان الذى رآه هو قيمة الإيمان التي امتلأت بها نفسه واطمأن بها فؤاده ، وخالطت لحمه ودمه ، حتى عاين عرش ربه بارزًا ورأى نعيم أهل الجنة فى الجنة وعذاب أهل النار فى النار ..

وأى برهان أعظم من ذلك ؟

إنه برهان يرى بعين البصيرة لا البصر – كما يقول ابن الخطيب – ومتى رآه صاحبه ارتفع على مستوى بشريته حتى يصبح كأنه ملك كريم ، وبهذا وصفته النسوة اللاتى قطعن أيديهن – كما سيأتى بعد – .

ما أعظمك يا يوسف . حين احتقرت هذه الشهوة البهيمية التي يتصارع المفتونون فى اقتناصها ويتباهون باغتنامها ..

لقد ألقيت على هؤلاء المتهالكين على اللذات درسًا يتعلمون منه كيف تكون مقاومة الشهوة سبيلاً إلى العظمة الحقة ، والسمو الكامل ..

وقد وصفه الله بالإحسان حيث قال : ﴿وكذلك نجزى المحسنين﴾ .. والإحسان أعلى مراتب الدين .. وصفه النبى – ﷺ – بقوله : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ..

وهذه هى المراقبة الحقيقية لجلال الحق .. وأى برهان أعظم من ذلك ؟ .

ذلك ؟ .

وشهد شاهد من أهلها :

لقد امتنع يوسف على الإغراء وانتصر عليه .. ولما همت بيدها تريد إجباره على ما تريد انفلت منها هاربًا نحو الباب ، فأسرعت خلفه فى محاولة أخيرة لإيقاعه .. ولكنه ما زال فى طريقه غير ملتفت إليها ..

فماذا تصنع غير التشبث بقميصه حتى لا يصل إلى الباب ويفتحه ؟

وتشبثت بكل قوتها بقميصه من الخلف ، ولكنه جاذبها القميص وجرى نحو الباب وفتحه .. وقد تمزق القميص فى يدها .. ووجد الزوج واقفًا أمام الباب ..

وهنا كانت المفاجأة .. ولعل هذه المفاجأة قد ألجمت يوسف فلم يتكلم .. فكانت هى البادئة بالكلام ..

إنها فى موقف مريب بدون شك ..

فيوسف متجهم منفعل ، وقميصه منشق من الخلف . وهى فى حالة غير طبيعية أشبه بالجنون . ولكنها مع ذلك لم تخنها غريزة الأنثى أمام زوجها .. فأسرعت قائلة :

ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يُسجن أو عذاب أليم .. ؟

لقد تحركت فى نفسها غريزة الانتقام من ذلك الرجل الذى أهانها وأذلها .. فصورته فى صورة الرجل الذى حاول الاعتداء عليها ..

ولكنها فى الوقت نفسه اقترحت العقاب الذى يعاقب به خوفًا من أن يكون هناك عقاب أشد وهو القتل يوقعه الزوج – المخدوع – بيوسف ..

إن المنطق يقضى بأن يسرع الوزير بإصدار أمره بقتل ذلك العبد الذى لم يحفظ النعمة التى يتقلب فيها ، وامتهن شرف السيد الذى أكرم مثواه . خشيت من ذلك المنطق . فاقترحت العقاب .. قائلة : يسجن أو يعذب .. وما ذلك إلا بدافع الحب ليوسف ذلك الحب الذى يسيطر عليها ..

فما زال هناك أمل يراودها فى أن يستجيب لها يومًا ما ..

ولئن أفلت منها هذه المرة فقد لا يفلت منها مرة أخرى ..

ولكن يوسف لم يسكت على هذا الاتهام الظالم .. دفع عن نفسه التهمة . وقال : هى التى راودتنى ، أنا ما حدثت نفسى بذلك فضلاً عن مراودتها ..

وأصبح الأمر قضية تحتاج إلى شاهد يرجح دعوى أحد الخصمين ..

وشهد الشاهد : إن كان قميصه قُدَّ من قبل فصدقت ، وإن كان قُدَّ من دُبُر فهى كاذبة ..

وعاين الزوج القميص ، فرآه مقدودًا من الخلف ، فأدرك أنها كاذبة فى دعواها ، ومفترية على يوسف ..

فاتجه إلى زوجته قائلاً : إنه كيد منك ، وما أعظم كيد المرأة حين تكيد ..

ورجا يوسف أن يطوى كشحًا عن هذا الأمر ، وأن يعرض عن الخوض فيه ، وألا يقصه على أحد ، كما طلب منها أن تستغفر من هذا الذنب الذى تورطت فيه ..

ولو كانت لديه شهامة ونخوة لأدبها بما هى أهل له .. ولكنه اكتفى بتوجيه النصح لها بأن تستغفر من ذنبها .. وكأنه بذلك يعتبر نفسه مسئولاً عن ترديها فى ذلك بعجزه عن مباشرتها ..

من الشاهد ؟؟

وقد روى الرواة أقاويل متعددة حول الشاهد فى هذه القضية . فمنهم من يقول : إنه ابن عم لها فهو من أهلها .. ومن يقول : إنه رجل حكيم كان الزوج يستشيره وهو من أهل الزوجة أيضًا ، ومن يقول : إنه طفل فى المهد وهو ابن خالها ..

وذهب بعضهم إلى توهين القول الثالث ، ولكن ذلك قد ثبت بحديث صحيح . رواه أبو هريرة :

« لم يتكلم فى المهد إلا عيسى وشاهد يوسف وصاحب جُرَيج وابن ماشطة فرعون »[٥٤].

والمهم أن براءة يوسف ثبتت بالمنطق . فتمزيق القميص من الخلف دلالة تشير إلى أن المرأة جرت خلفه لتجذبه لا لتدفعه ..

فإذا اجتمع مع هذه الدلالة المنطقية من جانب طفل فى المهد ينطق كان ذلك أدل على براءته ، وإثباتًا لقوة خطر هذا الرجل الذى تؤيده السماء فلا ينبغى أن يستريب فى شأنه أحد ..

والمعجزات ليست غريبة على الأنبياء ، ويوسف نبى آتاه الله الحكم والعلم .. وحفظه فى الجب الذى تلقاه فيه جبريل وكساه قميصًا بدلاً من الذى انتزعه منه اخوته .. فهو محروس بالعناية ، مؤيد بالرعاية ..

ولنقرأ الآيات التى تصور ذلك :

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾[٥٥]

---

(٥٤) الحديث فى الجامع الصغير برقم ٧٣٥٩ جـ ٥ ص ٢٩٤ ورمز له المصنف بالصحة ، وفى كنز العمال جـ ١١ ص ٥٠١ برقم ٣٢٣٤٤ ، وفى جمع الجوامع برقم ٥٥٦ / ١٧٤٥٨ ، وفى المستدرك . كتاب التاريخ جـ ٢ ص ٥٩٥ .

(٥٥) الآيات ٢٥ : ٢٩ من سورة يوسف .

ولئن كان الذى حكم فى هذه القضية ليس الطفل فى مهده بل القريب الذى شاهد الموقف فقد حكم بفراسة صادقة ودقة نظر وعقل راجح .. وبما شاهد من إمارات الصدق على وجه يوسف وإمارات الكذب على وجه امرأة العزيز .

وإلا فإن الدليل الذى ساقه لبيان الحقيقة فى هذه القضية ، وهو الجهة التى قُدَّ منها القميص - لا يقوم وحده دليلاً قاطعًا على إبانة الحق ، ولكنه إمارة فقط وتقوية لما استنبطه بفراسته من علامات الصدق فى وجه يوسف ، وعلامات الكذب والافتراء فى وجه امرأة العزيز وهيئتها ..

ذاك أنه من الجائز أن تجذبه وهو مقبل عليها فينقد القميص من دبر ، أو تجذبه وهو مدبر عنها فينقد القميص من قبل ..

إن للحق علامات تظهر على وجه صاحبه ، وللكذب علامات كذلك ، والذى يدرك ذلك ذو الفطنة والفراسة ..



فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن :

شاع خبر يوسف وامرأة العزيز فى أوساط المدينة كلها ..

وكانت المدينة عاصمة مصر فى ذلك الوقت ، العاصمة التى اختارها الهكسوس مقرًا لحكمهم ، ولعلها مدينة « صان » ببلاد الشرقية قرب بحيرة المنزلة(٥٦).

وكثر الكلام فى هذا الأمر ، ولا شك أن الخبر تضاعف مرات ومرات ، شأن الشائعات فى كل زمان ومكان .. وانتقل من لسان إلى لسان ، وثرثرة النساء وجدت مادة سخية تدور حولها ، وتتفنن فى نسج أخبارها ..

وتحدثت صديقات امرأة العزيز لائمات أو شامتات أو متعجبات ..

---

(٥٦) قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ص ١٥٧ .

فلائماتها يرين أنه لا يليق منها هذا العمل الذى يهين كرامتها ، إذا كيف تُفتن بخادمها إلى هذا الحد تتنازل فيه عن كل كبريائها وعظمتها ، وهى امرأة مرموقة فى المجتمع ، يُنظر إليها على أنها من السيدات ذات الوضع الاجتماعى الممتاز ؟

كيف تعرض نفسها على مملوكها وتتدنى أمامه ، وتحطم بيدها عزتها وكبرياءها ، وتصل إلى درجة الخضوع والتذلل أمامه ؟

وبالرغم من ذلك فإن هذا الخادم يعزف عنها ، ويزهد فيها ويرفض النزول إلى رغبتها ، فخيب بذلك آمالها ، وطعنها طعنة نافذة هوت بكل ما لها من سلطان ، وحطمت كل ما تملكه من شموخ ..

والشامتات بها هن أولئك النسوة اللاتى يظهرن فى صورة الصديقات فى العلن ، المتلمسات العيوب فى الخفاء .. وما أكثر هذا الصنف فى أوساط النساء .. إنها صداقة على دخن ، ومودة ظاهرة تبطن عداوة ..

فما أن رأين امرأة العزيز سقطت هذه السقطة حتى شمتن بها وإن كن قد دارين الشماتة فى أسلوب النصح والرثاء ..

وأكثر ما يكون هذا النوع من الصداقة بين زوجات طلاب المنفعة والمتنافسين فى اقتناص المغانم والمناصب .. يفرحن بالكوارث التى تصيب الأخريات والفشل الذى يحدث لهن ، لعل ذلك يفتح أمام أزواجهن فرصة للتسلق والوصول إلى تحقيق الأغراض ..

أما المتعجبات فهن غالبًا من مستويات أدنى ، هن زوجات الصف الثانى اللاتى يسرهن صداقة من هن أرفع درجة وأعلى مستوى ..

ويعجبهن ظهور من يرينها قدوة على حقيقتها ، فقد زال التصنع للطهارة والتكلف للنقاء ..

لقد طالما رأين هذه المرأة على مثالية وترفع وإباء ، وإذا بها بين عشية وضحاها يزول هذا القناع وتظهر على حقيقتها امرأة كغيرها من النساء لا .. بل ربما أدنى من كثير من النساء ..

وربما كان من دونها فى المنصب والجاه لا يزل هذه الزلة ولا يسقط هذا السقوط ..

لقد أصبح هذا الحادث حديث المدينة ..

وعادة الناس فى كل عصر يتشوقون إلى سماع الأخبار المثيرة ، خصوصًا فيما يتعلق بكبار القوم .. ولم يكن فى ذلك الوقت صحافة أو وسائل إعلام .. إذن لأسرع محررو الصحف وهواة التصوير إلى مسرح الواقعة ، يحررون ويصورون ويغطون الحادث – كما يقول أهل الخبرة بذلك الفن – .

وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت القصة تشيع وتنتشر فى كل مكان ، لأن للشائعة سلطانًا نافذًا تتأبى عليه السدود والقيود وبعد المسافات .

وأخذ كل من يسمع بقصة امرأة العزيز وفتاها ينقلها بطريقة جديدة فيزيد فيها أو ينقص ، ويجدد ويبتكر ، ويجد الناس فى ذلك – خصوصًا النساء – متعة ومجالاً للتندر .

ولم يكن المجتمع دينيًا ينهى عن مثل ذلك ، ولكنه كان يشيع فيه الفساد السياسى والاجتماعى . لقد كانت الدولة تحت الاحتلال .. والناس فى ظل الاحتلال البغيض يحاولون التنفيس عن أنفسهم بأى طريق ، ويلتمسون فرصة سقوط تلك الطواغيت المستعمرة ومن يدور فى فلكهم فيسلقونهم بألسنة حداد ..

وكانت تلك الأخبار والأقاصيص تنتهى إلى امرأة العزيز أولاً بأول .. وفى ذلك دلالة على أنها لم تكن تقصر نشاطها على بيتها ، ولكنها كانت ذات نشاط اجتماعى واسع ، ولها من الأعوان من ينهى إليها الأخبار ..

وغاظها ما سمعت ، وبخاصة حين علمت أن هناك من النسوة من وصفنها بأنها ذات ضلال وسفه .. وظللن يسلقنها بألسنة حداد ..

وقد ذكر الرواة أن من بين هؤلاء النسوة من كانت تعتبرهن من الصديقات الحميمات ..

وقيل : إن هؤلاء النسوة قد تعمدن أن يصل كلامهن إلى امرأة العزيز ، ليتوصلن بذلك إلى رؤية هذا الفتى الذى فتن هذه المرأة ..

ولا يستبعد ذلك ، وبخاصة حين ندرك أن النفس البشرية شغوف برؤية ما غاب عنها ، وما زال حب الاستطلاع غريزة كامنة فى النفوس ، وعن طريقه يمكن توجيه المربين لأبنائهم وتلاميذهم إلى خير ما يحبون ، ولو ترك بدون توجيه لقاد صاحبه إلى مراتع وخيمة ومزالق سيئة ..

لقد رغبت هؤلاء النسوة فى رؤية يوسف من غير شك ، ولكن كيف يحقق هذه الرغبة ؟ لعل اللوم الذى وجهنه إلى امرأة العزيز يحقق لهن الرغبة ..

وحقًا كان ذلك . فقد تحقق لهن ما أردنه ..

وفكرت امرأة العزيز فى الرد على هؤلاء النسوة ردًا عمليًا .

وقررت ألا تقف مكتوفة اليدين عاجزة الحيلة أمام مكرهن وكيدهن .. مكرهن بالقول وكيدهن باللسان .. لقد خُنَّها فى صداقتها ، وتحدثن عنها بما يسوء فى غيبتها . فكيف يكون المكر والكيد إن لم يكن كذلك ؟

وهداها تفكيرها أن ترد على هذا المكر والكيد بما يماثله ، وهى بلا شك بارعة فى ذلك .

فأرسلت إلى هؤلاء النسوة تدعوهن إلى مأدبة تقيمها لهن ..

وأعدت لهن مكانًا خاصًا يجلس فيه ، وهيأت لهن متكآت مريحة تساعد أجسادهن على الاسترخاء .

فحضرن ، واحتفلت بهن احتفالاً عظيمًا .. وقدمت لكل منهن سكينًا حادة تقطع بها الأترج – التفاح – والطعام الذى أمامهن .

وبينما أقبلت النسوة على ما أمامهن من طعام شهى وفاكهة لذيذة ، وهن فى مجالس مريحة ومناظر حسنة تحرك لواعج القلوب ، وتهيج الشوق للمحبوب .. إذا بيوسف يمثل أمامهن فى صورته الحسنة ومنظره الفاتن وطلعته البهية ..

لقد أمرته سيدته بالخروج عليهن فخرج .. فارتعن لمنظره ، وأعجبن بحسنه ، وذهلن عن أنفسهن ، وانشغلن به عما فى أيديهن ، وتعلقت أنظارهن به ، وتسمرت أعينهن عليه .. فلم يرين أمامهن إلا وجهًا مشرقًا وقمرًا مضيئًا وفتنة طاغية وسحرًا قائمًا .. وغبن عن وعيهن فى لحظة وَجْد بهذه الصورة الفريدة التى تستلب عقل الحكيم وتستهوى قلب الحليم .. وبلغ بهن الوجْد والذهول إلى درجة أن أخذن يقطعن أيديهن بالسكاكين . وهن يحسبن أنهن يقطعن ما فى أيديهن من طعام . ثم قلن جميعًا – فى شغف وإعجاب عظيم – : ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم ..

لقد ربحت زليخا الجولة عليهن .. وأخرست ألسنتهن .. واستطاعت أن ترد على مكرهن بمكر أبلغ منه .. لقد نصبتهن جميعًا محاميات عنها فى قضيتها .. فبدلاً من أن يوجهن اللوم لها ويعذلنها عذرنها .. وأقبلن على الفتى يتوسلن إليه أن يرحم ضعف سيدته ، التى ما تزال مصرة على موقفها منه .. ولقد أقسمت على تأديبه بالسجن والتعذيب إن لم يفعل ما تأمره به .. فليجارها فيما تريد حتى لا يحق عليه الوعيد ..

بل وصل الحد إلى ما هو أكبر من ذلك .. لقد أوصلتهن جميعًا إلى الوقوع فى حبائل حبه .. وتمنت كل واحدة منها أن يَخْلُص لها ..

حتى صاح يوسف متضرعًا إلى ربه أن ينجيه من شرهن ويخلصه من كيدهن ، بل لقد فضل الحياة فى السجن على الحياة فى ظل هذه الحياة المبتذلة والفتنة الجارفة ..

إن قلبه متعلق بالله ، وحياته خالصة له .. فما له وهؤلاء النسوة اللاتى لا هم لهن إلا اقتناص اللذة واغتنام الشهوة ..

وحين رأى العزيز أن الأمر قد جاوز الحد ، وأن الحديث لن ينقطع ، فكر فى وسيلة يقضى بها على الشائعات ويخرس بها الألسن .. ووجد باستشارة مستشاريه أن أفضل وسيلة هى أن يزج بيوسف فى السجن ، فلا يراه أحد ، وينسى الناس ما حدث .

وهكذا وجد يوسف نفسه فى محنة أخرى لم تكن تخطر له على بال .. ولكن قلبه كان مطمئنًا لأنه فضل السجن على الخطيئة ..

فما أعظم قلب هذا الإنسان وأنبل خلقه ، وما أجدره برسالة ربه واصطفاء الله إياه . والله أعلم حيث يجعل رسالته ..

وقد حكى القرآن الكريم لنا هذه الوقائع فى بيان رائع .. حيث يقول :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾(٥٧)

يا عجبًا لهؤلاء القوم ، لقد ظهر الدليل تلو الدليل على براءة يوسف عليه السلام وطهارته ..

فقد شهد ببراءته شاهد من أهلها حين رأى قميصه قد من دبر .

وشهد العزيز ببراءته حين طلب من زوجته أن تستغفر لذنبها .

---

(٥٧) الآيات ٣٠ : ٣٥ من سورة يوسف .

وشهدت امرأة العزيز ببراءته حين قالت للنسوة : لقد راودته عن نفسى فاستعصم .

وشهدت النساء بطهارته حين قلن جميعًا : ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم .

فأى أدلة أخرى بعد ذلك يطلبون ؟

وأى آيات يريدون لإثبات براءته أكثر مما رأوا ؟

وهل يحتاج أى قاض إلى أكثر من تلك الأدلة التى رأوها ليحكم بالبراءة ؟

وهل هناك أكبر من اعتراف الجانى نفسه بجنايته ؟

والاعتراف سيد الأدلة كما يقول رجال القانون فى كل زمان ومكان .

ولكن القضاء الظالم لا يحتاج إلى أدلة ، بل يصدر حكمه دون تفكير .

ويبطش بالبرىء ويكرم المذنب ..

ويعاقب المظلوم ويبرىء ساحة الظالم ..

إنه يقلب الباطل حقًا والحق باطلاً ..

وهكذا وجد يوسف نفسه بين عشية وضحاها ، يعيش بين جدران السجن .. بين اللصوص والقتلة وقطاع الطريق ..

وأصبح أمام ابتلاء آخر ومحنة جديدة يمحصه الله بها ، ويختبر بها قدرته على مقاومة الشدائد ، واجتياز المصاعب ..

وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ..

ودخل معه السجن فتيان :

دخل يوسف – عليه السلام – السجن دون جريرة أو ذنب ، فسلم أمره لله ، ورضى بقضاء الله – عز وجل – وفى يقينه أن الله – سبحانه وتعالى –

قد أراد له الخير بإبعاده عن قصر العزيز وزوجته التى توعدته ونفذت وعيدها ، لأنه لم ينفذ لها رغبتها ونزواتها غير عابئة بالقيم الخلقية ، والأنماط السلوكية الحسنة التى تربى عليها يوسف ..

إن إبعاده عن هذا القصر – ولو إلى السجن – خير له من الحياة فى ظله ، تحت وطأة هذه المرأة العابثة ، وقد رضى يوسف بذلك وصبر عليه ، فكان خيرًا له .

قال وهب بن منبه : حمل يوسف إلى السجن مقيدًا على حمار ، وطيف به ، وجعل مناد يقول : هذا جزاء من يعصى سيدته ..

وهو يقول : هذا أيسر من مقطعات النيران(٥٨) وسرابيل القطران وشرب الحميم ، وأكل الزقوم .

فلما انتهى إلى السجن وجد فيه قومًا قد انقطع رجاؤهم ، واشتد بلاؤهم ، فجعل يقول لهم : اصبروا وأبشروا تؤجروا .

فقالوا له : يا فتى ، ما أحسن حديثك ، لقد بورك لنا فى جوارك ، من أنت يا فتى ؟

قال : أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب ابن نبى الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم(٥٩).

مكان سجن يوسف :

حكى المقريزى عن القضاعى قال : سجن يوسف – عليه السلام – بيوصير من أعمال الجيزة . أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين ، **أحدهما** يوسف ، سجن به المدة التى ذكر أن مبلغها سبع سنين ، وكان الوحى ينزل عليه فيه .

---

(٥٨) يقصد بمقطعات النيران : الثياب التى ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿قطعت لهم ثياب من نار﴾ – الحج ١٩ – .

(٥٩) تفسير القرطبى .

وسطح السجن موضع معروف بإجابة الدعاء يذكر أن كافور الإخشيدى سأل أبا بكر الحداد عن موضع معروف بإجابة الدعاء ليدعو فيه فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن .

والنبى الآخر.. موسى - عليه السلام - وقد بنى على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى .

وأخبر أبو الحسن على بن إبراهيم الشرفى ، قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن الورد قال : حدثنى يحيى بن أيوب عن يحيى بن بكير عن زيد ابن أسلم بن يسار عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إن جبريل أتى إلى يوسف فى هذا السجن فى هذا البيت المظلم ، فقال له يوسف : من أنت ؟ مذ دخلت السجن ما رأيت أحسن وجهًا منك ؟

فقال له : أنا جبريل .

فبكى يوسف فقال : ما يبكيك يا نبى الله ؟

فقال : ما يعمل جبريل فى مقام المذنبين ؟

فقال : أما علمت أن الله تعالى يطهر البقاع بالأنبياء ، والله لقد طهر الله بك السجن وما حوله .

فما أقام إلى آخر النهار حتى أخرج من السجن .

وقال الفقيه أبو محمد أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى - وذكر سجن يوسف - : لو سافر رجل من العراق ليصلى فيه وينظر إليه لما عنَّفته فى سفره(٦٠).

وكان الناس يذهبون إلى هذا المكان فرادى وجماعات لمشاهدته والدعاء حوله .. تبركًا بإقامة يوسف - عليه السلام - فيه ، وهبوط جبريل - عليه السلام - .

---

(٦٠) خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٨٧ .

لقد كان دخول يوسف السجن خيرًا وبركة على من فيه ..

قال ابن عباس : كان يعزى فيه الحزين ، ويعود فيه المريض ، ويداوى فبه الجريح ، ويصلى الليل كله ، ويبكى حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ، واستأنس به أهله ، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس فى السجن مع يوسف .

وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه ، ثم قال له : يا يوسف لقد أحببتك حبًا لم أحب شيئًا مثل حبك .

فقال له يوسف : أعوذ بالله من حبك ، قال له : ولم ذلك ؟

قال : لقد أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه ، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى(٦١).

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن هناك قصة يذكرها بعض الرواة حول سبب بلاء يوسف بفراق أبيه ..

قال الدميرى : جاء فى الشفا للقاضى عياض أن سبب ابتلاء يعقوب بيوسف – عليهما السلام – أنه اجتمع يومًا هو وابنه يوسف على أكل حمل مشوى وهما يضحكان ، وكان لهما جار يتيم فشم رائحته واشتهاه وبكى ، وبكت جدة عجوز لبكائه ، وبينهما جدار ، ولا علم عند يعقوب وابنه بذلك ، فعوقب يعقوب بالبكاء أسفًا على يوسف .. وعوقب يوسف بالمحنة التى صار إليها .

فلما علم بذلك كان بقية حياته يأمر مناديًا ينادى على سطحه : ألا من كان مضطرًا فليتغذ عند آل يعقوب .

وقد عقب الدميرى على هذه القصة بقوله : وهذا الكلام لا أعتقد صحته ، وقد عجبت من القاضى رحمه الله كيف ذكره فى كتابه ..

---

(٦١) تفسير القرطبي .. وقد روى الزمخشري فى الكشاف ان الذى قال ذلك هما الفتيان .

مع أن الطبراني ذكر ذلك في معجمه الأوسط والصغير[٦١].

والدميرى – رحمه الله – مصيب في رد هذا الخبر ، لأن أقل ما فيه مجافاته للعدل الإلهي .. إذ كيف يعاقبهما الله على بكاء طفل لم يعلما بخبره ولم يسمعا بكاءه .. اللهم إلا إذا كان هذا من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين» والنبي مكلف برعاية جيرانه كرعاية بيته ، وفي الحديث المشهور : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » فما بالك إذا كان الجار يتيمًا ؟

عجبًا ، لقد خرج يوسف من ضيق القصر إلى سعة السجن ..

ولكن ، ليس ذلك عجبًا ، فلك أن تتصور ذلك الضيق النفسي الذى كان يعيش فيه يوسف في ذلك القصر ، ومع الضيق النفسي يضيق الفضاء الرحب ، كما أنه مع الراحة النفسية يتحول الضيق إلى رحابة واتساع .. وقد قال الحكماء :

سمُّ الخياط مع الأحباب ميدان

وعلى ذلك فقد آثر يوسف – عليه السلام – السجن – على ضيقه – على القصر – على سعته – .

وفي داخل السجن خصص وقته كله لله ومن أجل الله ..

كان يدعو إلى ربه ، ويبلغ رسالته للناس ، ويبشر بدينه بين هؤلاء القوم الذين هم في حاجة ليبصرهم بطريق الخير والصلاح ..

وقد ورد في آثار الكتابيين أن اليهود لاموا عيسى على جلوسه مع العصاة والمذنبين . فقال لهم : ما حاجة الأصحاء إلى طبيب ؟ بل الزمنى والمرضى هم الذين في حاجة إلى طبيب ..

---

(٦٢) حياة الحيوان جـ ١ ص ٤٦١ باب الحمل .

وهذه حكمة الله العليا فى ابتلاء يوسف بالسجن .. لقد أراد به أن ينقذ قومًا من الضلالة إلى الهدى ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

أخذ يوسف يعلم نزلاء السجن القيم الحسنة ، ويبث فيهم حب الخير ، ويحاول أن ينزع من نفوسهم الشر ، ويقلم أظفار البغى ، ويحبب إليهم الفضائل ويعرفهم بالله وأنه هو الواحد القهار الذى لا شريك له ..

كان يحاول التعرف على الأسباب التى دفعت بهؤلاء النزلاء إلى السجن ويعالجها ، ويعظهم وينصحهم بالحسنى ، ويهون عليهم ما يلاقونه من متاعب السجن .

وبذلك حول يوسف – عليه السلام – حياة السجن إلى مكان للدرس والتعليم ، فأثمر تعليمه فى كثير من المسجونين ، وأحبوه واقتدوا به ، وأقبلوا عليه راغبين فى العلم ، وفرحوا بوجوده بينهم ، وعرفوا الفضيلة وأحبوا الخير ، والتفوا حوله مطمئنين إليه مقبلين عليه واثقين فيه .

لقد أكرم الله – تعالى – نبيه يوسف برسالته ، وعلمه من تأويل الأحاديث ، ووهبه القدرة على تفسير الرؤى ..

وكان فى السجن فتيان من حاشية الملك ..

والملك فى ذلك الوقت من العمالقة ذكر بعض الرواة أن اسمه الريان ابن الوليد(٦٣).

وكان أحد الفتيين رئيس الخبازين عند الملك .

وكان الثانى هو كبير سقاته ..

وحكوا أن سبب دخولهما السجن هو أنهما وقعا تحت تأثير متآمرين على الملك زينوا لهما وضع السم للملك لقتله .. وأغروهما بمكافأة ضخمة إذا تمكنا من قتل الملك بوضع السم له .. الخباز يضعه فى الطعام ، والساقى يضعه فى الخمر أو الماء .

---

(٦٣) الكشاف للزمخشرى والقرطبى وابن كثير ..

إلا أن الساقى تراجع فى اللحظة الأخيرة ، ولم يضع السم فى الشراب الذى سيسقيه للملك ، أما الخباز فقد وضعه .

وأخبر الساقى الملك بالمؤامرة ، وقال له : إن الطعام مسموم فلا تتناوله .

فلما عرف الخباز أن الأمر انكشف قال للملك : لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم .

فأمر الملك الساقى بأن يشرب مما قدمه ، فشرب فلم يضره .

وأمر الخباز بأن يأكل من الخبز الذى قدمه فأبى أن يأكل ، فألقى الطعام لحيوان فأكله فمات .

فأمر الملك بحبسهما حتى ينظر فى أمرهما ..

ولعل هذين الفتيين قد سيما العذاب الشديد فى السجن ، فهما متهمان فى جريمة كبرى تهدد حياة الملك ، وأخذا يقارنان بين حياتيهما قبل السجن وبعده ، وأدركا أنهما قد جنيا على نفسيهما جناية عظيمة حين استجابا لسلطان المال ووقعا تحت الإغراء ووافقا على أن يقوما بالاغتيال ، مما أسلمهما إلى هذا المصير السيىء والمكان الموحش ..

ولكن الساقى كان يشعر فى داخله بالاطمئنان ، فإن دوره لن يتعدى أن يكون شاهد إثبات فى هذه القضية .. إلا أن إجراءات المحكمة تحتاج إلى وقت ..

وفى السجن تقرب الفتيان إلى يوسف ،وأنسا به كما أنس جميع النزلاء إليه ..

ووجدا فى كلامه برد راحة تسرى إلى قلبيهما ، فلزماه ..

وفى يوم استيقظ كلاهما على رؤية رآها فى نومه .. ففزع كل منهما إلى يوسف – عليه السلام – يقص عليه رؤياه – طالبًا منه تأويلها ..

قال الساقى : لقد رأيت فى نومى أنى أعصر الخمر فى كأس الملك من ثلاثة عناقيد ، أتناول عنقود العنب من البستان ثم أقوم بعصره فى كأسه ..

وقال الخباز : وأنا رأيت كأنى اختبزت فى ثلاثة تنانير ، وجعلت الخبز فى ثلاث سلال ، فوضعته على رأسى ، فجاء الطير فأكل منه ..

وقالا له : نبئنا عن تأويل ذلك إنا نراك من المحسنين ..

لقد وصفاه بالإحسان ، وهى صفة مثلى ، تدل على الكمال الخلقى ..

ووصفاه بذلك لأن الرجل من أهل السجن كان إذا مرض قام به ، وإذا ضاق وسع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له(٦٤).

ولم يسرع يوسف إلى تأوي ما رأيا ، ولكنه تأنى .. على الرغم من معرفته بالتأويل ..

لقد وجد فى لجوئهما إليه فرصة لكى يعلن أمامهما - وليسمع الجميع - أنه نبى ورسول من قِبَل الله - تعالى - .

إنه ليس مجرد مفسر للأحلام ، فتلك مهمة يمكن أن يقوم بها كاهن من الكهان أو عراف من العرافين .. وما أكثر هؤلاء فى ربوع المدينة ..

ولكنه ذو دين يؤمن به ، وهو دين آبائه وأجداده من قبله ، بل هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ..

وهذا الدين يقوم على عبادة الله وحده لا شريك له ونبذ عبادة الأصنام التى تتناثر فى كل مكان .

ثم إنه مؤيد من الله - تعالى - بالمعجزات ، وما تأويل الرؤيا إلا جزء مما علمه الله ، ومن معجزاته أنه لا يأتيهما طعام يرزقانه إلا أخبرهما به قبل أن يأتيهما ..

---

(٦٤) تفسير القرطبى .

وقد أبلغ كل من معه فى السجن أنه برىء من دين هؤلاء القوم الذين يحيطون به ، فهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولكن دينه الذى هو دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب هو الدين الخالص الذى ينزه الله عن الشريك ، ويقدسه عن المثيل ،.ولا يصفه إلا بكل جميل .

ثم دعاهم جميعًا إلى دينه وإلى عبادة ذلك الإله العظيم ، وترك هذه المعبودات التى لا تستطيع ضرًا ولا نفعًا ، وإن عبادتها لتجافى المنطق ، وتتأبى على الفطرة السوية السليمة .. ولا يوجد برهان صحيح أو منطق سليم أو دليل واضح على صحة عبادتها ..

لقد أعلن يوسف دعوته ، وأبلغ رسالته ، وأصاخ إليها أهل السجن جميعًا .. ثم قدم تأويل الرؤيا ليقوم صدق تأويله شاهدًا على صدقه فيما أبلغهم به من دعوته .. فعسى أن يقلعوا عند ذلك عن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد العلام ..

لقد قال للساقى : إن رؤياك تدل على أنك سيفرج عنك ، وتخرج من السجن إلى عملك الذى كنت تقوم به ساقيًا للملك ..

وقال للخباز : أما أنت فإنك ستصلب وتأكل الطير من رأسك ..

والواقع أن يوسف عليه السلام ، لم يخاطبهما صراحة بالتأويل .. ولم يعين أيهما الناجى وأيهما المقتول .. بل قال : أما أحدكما فيسقى ربه خمرًا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ..

وقد ترك التعيين فى الخطاب كراهة المجابهة للمصلوب بمصيره ..

لقد ترك إلى فطنتهما وفطنة السامعين معرفة من سينجو ومن سيصلب ..

وكانت هذه لباقة منه .. والأنبياء لا تفوتهم اللباقة والحكمة فى الخطاب .

وانتهز يوسف فرصة خلوه بالساقى وطلب منه أن يذكر أمره عند الملك ، ويعرفه بأنه وُضع فى السجن ظلمًا وعدوانًا .

ولكن الساقى الذى أفرج عنه بعد أيام معدودة من تأويل رؤياه أنسته الفرحة خبر يوسف ، فلم يخبر الملك بشأنه .

فمكث يوسف فى السجن بضع سنين .

قيل إنه مكث بعدد حروف « اذكرنى » أى ست سنوات . والبضع كما فسره اللغويون العدد الواقع بين الثلاثة والتسعة ..

ولنقرأ الآيات الكريمة التى دلت على هذه المعانى :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي
أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ
لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي
إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ
رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (٦٥)

---

(٦٥) الآيات ٣٦ : ٤٢ من سورة يوسف .

قال بعض الرواة : إن الخباز حين سمع التأويل صاح قائلاً : أنا لم أر شيئًا . فقال يوسف : قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ..

وقد استنبط العلماء من ذلك حكمًا شرعيًا فقالوا : من كذب في رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها ؟ وأجابوا عن ذلك بأنه لا يلزمه .. وإنما لزمه في هذه القصة لأن يوسف كان نبيًا ، وتعبير النبى حكم .. فقد أخبره الله – تعالى – بما سيئول إليه أمر الرجلين ..

وعلى نمط النبىّ يكونُ المُحدَّث ، وعمر – رضى الله عنه – كان مُحَدَّثًا – مصداقًا لقول النبى – ﷺ – : إن فى أمتى محدثين منهم عمر ..

فقد جاء رجل إلى عمر – رضى الله عنه – فقال : إنى رأيت أنى أعشبت ثم أجدبت ثم أعشبت ثم أجدبت – فقال له عمر : أنت رجل تؤمن ثم تكفر ثم تؤمن ثم تكفر ثم تموت كافرًا . فقال الرجل : ما رأيت شيئًا . فقال له عمر : قد قضى لك ما قضى لصاحب يوسف(٦٦).

وقد أمرنا النبى – ﷺ – بخصوص ما يراه الرائى فى نومه ألا نخبر بها إلا عالمًا ناصحًا ، وقال فى ذلك : « إن الرؤيا تقع على ما تعبر ومثل ذلك مثل رجل رفع رجله فهو ينتظر متى يضعها ، فإذا رأى أحدكم رؤيا فلا يحدث بها إلا ناصحًا أو عالمًا » .

هل نسى يوسف ربه ؟

حاشا ليوسف أن ينسى ربه – كما زعم بعض المفسرين – حين قالوا : « إن الضمير فى قوله فأنساه الشيطان ذكر ربه » يعود على يوسف ..

إن يوسف نبى ، وما كان له أن ينسى ذكر ربه وهو الذى ظل يبشر بعبادته طول أيامه فى سجنه .. وإنما الضمير يعود على الساق ..

---

(٦٦) رواه عبد الرازق عن معمر عن قتادة وذكره القرطبي في تفسيره .

(٦٧) أخرجه الحاكم عن طريق عبد الرزاق عن أنس (٤ / ٣٩١) وقال : صحيح الاسناد – تفسير الأحلام ص ٦ .

إن الساق هو الذى نسى أمر يوسف ، بفعل الشيطان الذى لا يريد الخير لأحد من الناس فضلاً عن الأنبياء والصديقين ..

إن يوسف لم ينس ربه فى أشد الأوقات دفعًا إلى الغفلة حين دعته زليخا إلى نفسها .. فكيف ينساه فى أشد الأوقات دفعًا إلى التذكير وهو فى السجن .. ؟؟

وقد ذكر بعض المفسرين أن نسيان الساق أمر يوسف ، لأن يوسف – عليه السلام – قال له : اذكرنى عند ربك .. فكأنه استعان بغير الله – سبحانه وتعالى – فكانت النتيجة أن بقى فى السجن بضع سنين .

وربما كانت هذه العبارة صدرت منه عفوًا ، كما تخرج الكلمات من فم الإنسان عند الضيق .. وقد يكون فى ذلك لفت للتمسك بالأسباب التى قد أمرنا بالتمسك بها ..

وقد أثر عن ابن عباس قوله . النبى – ﷺ –: لو لم يقل يوسف الكلمة التى قالها ما لبث فى السجن طول ما لبث حيث ابتغى الفرج من غير الله ..

إن يوسف ليس كجده إبراهيم – عليه السلام – الذى جاء إليه جبريل وهو ملقى فى النار ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ..

قال : أبلغها ربى . قال : علمه بحالى يغنى عن سؤالى .

فقال الله للنار : كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم ..

وعلى كل فهو إن لم يكن كإبراهيم – عليه السلام – فهو على دينه ويسير على هديه .. ويكفى أن يكون الله قد جعله من المخلَصين ..

روى عن أنس – رضى الله عنه – قال : أوحى الله إلى يوسف : من أنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يارب .

قال : فمن أنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال : أنت يارب .

قال : فمن أنقذك من المرأة إذ همت بك ؟ قال : أنت يارب .

قال : فما لك تستغنى عنى وتذكر آدميا ؟

قال : جزعًا وكلمة تكلم بها لسانى . قال : فوعزتى وجلالى لتبقين فى السجن بضع سنين .

يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى :

وقد آن أن يأتى الفرج ليوسف – ويخرج من ضيق السجن إلى فضاء الحرية وسعة الحياة . وقد اقتضت حكمة الله أن يجعل لذلك سببًا .. وسبحان مهيىء الأسباب ..

لقد رأى الملك « الريان بن الوليد » رؤيا هالته واهتم بها .

رأى كأنه على حافة نهر ، وكأنه قد خرج منه سبع بقرات سمان ، فجعلن يرتعن فى روضة هناك ، فخرجت سبع بقرات هزال ضعاف من ذلك النهر ، فرتعن معهن ، ثم ملن عليهن فأكلنهن . فاستيقظ مذعورًا .

ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر فى قصبة واحدة ، وإذا سبع أخر دقاق يابسات أقبلن إليهن فأكلنهن . فاستيقظ مذعورًا(٦٨).

استدعى الملك حاشيته ، وفيهم الكهنة والسحرة ومن يدعون العلم والمعرفة .. وأخبرهم بما رأى ثم قال : يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون ..

لقد كانت رؤيا غريبة يستعصى تأويلها على ذوى الألباب .. وتأويل الرؤيا ليس فى إمكان كل إنسان ، ولكنه هبة من الله يمنحها من يشاء . إنها لون من الفراسة الصادقة والإلهام النورى يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده ..

---

(٦٨) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٤٧ .

والفراسة الصادقة والإلهام النورى من صفات المؤمن المخلص الذى يجتهد فى عبادة ربه فتصفو لذلك مرآة قلبه ، فيطبع الله فيها من العلوم ما شاء . مصداقًا لقول الحق - تعالى - : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾(٦٩) ولقول النبى - ﷺ - : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ولقول الحكماء : إذا اعتادت النفوس ترك المعاصى جالت فى ملكوت الله فحصلت العلوم من غير أن يؤدى لها عالم علمًا ..

ولقد قال النبى - ﷺ - عن فراسة المؤمن : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله ..

وأين ذلك المؤمن الذى يرى بنور الله فى بلاط ذلك الملك الوثنى الكافر ؟؟

إن محصلات هؤلاء الكهنة المحيطين بالملك من العلم لا تعدو أن تكون مجموعة طلاسم وتمتمات واستعانة بالسحر والتنجيم .. وكل ذلك لا يغنى ولا يفيد فى تأويل هذه الرؤيا الغريبة التى رآها الملك ..

لقد نظر الكهنة والسحرة ومن فى البلاط جميعهم بعضهم إلى بعض ، وقلبوا الأكف ظهرًا البطن .. ثم قالوا : أيها الملك . إن ما رأيت أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ..

هنا تنبه الساقى ، وتذكر ما كان قد نسيه من أمر يوسف فأسرع إلى الملك متهللاً .. أيها الملك إن لدى من يستطيع تفسيرها .. إنى أعرف فتى حكيمًا فى السجن صدق فى تأويل رؤيا كنت قد رأيتها .. وهو على علم وبصيرة من أمره ..

وقص الساقى على الملك قصته وقصة زميله فى السجن حين عبر لهما يوسف ما رأياه ..

---

(٦٩) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

وأرسل الملك ساقيه إلى يوسف يستفتيه فى هذه الرؤيا التى رآها .. عله يجد عنده تفسيرًا لما رآه وينقذه مما هو فيه من حيرة وقلق ..

وما أسرع أن انطلق الساق إلى السجن .. وأفضى إلى يوسف برؤيا الملك طالبًا منه تعبيرها ..

وأحس يوسف - عليه السلام - أن الله - سبحانه وتعالى - قد آذن بالإفراج عنه .. وقد أصبح خروجه من السجن وشيكًا .. وأن هذه الرؤيا سبب هيأه الله لذلك ..

وأخبر يوسف الساق بتأويل رؤيا الملك العجيبة ، لم يبذل فى التأويل جهدًا ، ولم يستشر فى ذلك نجمًا ، ولم يبهمهم بعبارات غامضة يستدعى بها جنًا كما يفعل كثير من الأفاكين والمنجمين ..

لقد فسر الرؤيا من بحر العلم الذى وهبه الله إياه ، ومن فيض النبوة والحكمة الذى أفاضه الله عليه ..

وقال للساق : ارجع إلى الملك ومن حوله بهذا التأويل لعلهم يهتدون إلى الله ، ويتبصرون أمرهم ، ويدركون مدى الظلم الذى أذاقونى إياه ، ووضعونى به فى هذا السجن المظلم طوال هذه السنين الماضية ..

أما التأويل الذى أوله يوسف لرؤيا الملك فهو :

سيأتى على مصر سبع سنين خصبة ، يكثر فيها الخير ، تجود فيها الأرض بالغلات ، وتكثر الثمرات ، وتزدهر الحياة الاقتصادية ، ويسعد الناس ..

ثم تأتى بعد ذلك سبع سنين شداد مجدبة ، ليس فيها نبت ولا حصاد ، تستنفد كل ما كان من نتاج فى السنوات السابقة ، ويصيب الناس جهدٌ شديد وعناء كبير ..

ثم يأتى بعد ذلك عام خصيب يغيث الله فيه العباد والبلاد ..

لقد جمع يوسف - عليه السلام - بين تأويله للرؤيا ووضع خطة عمل للملك ينقذ بها البلاد مما سيواجهها من قحط وجدب ..

بل وأضاف إلى ذلك بشرى لم تكن قد تضمنتها الرؤيا ، وهى أنه بعد سنوات الجدب سيأتى عام يغاث فيه الناس وفيه يعصرون ..

أما الخطة التى اقترحها على الملك ، فهى أنهم حين يحصدون القمح يتركونه فى سنبله - حتى لا يتعرض للسوس - ويخزنونه فى مخازن حصينة ، ولا يأخذون منه إلا مقدار ما يأكلون .. مع مراعاة الاقتصاد التام فى سنوات الخصب ليستطيعوا بعد ذلك مواجهة سنوات الجدب .. ويبقى لهم من البذر ما يمكنهم من الزراعة فى العام الثامن الذى يأتى بالخير .. عقب السنوات السبع المجدبة ..

إن ذلك علم ربانى ألهمه الله يوسف - عليه السلام - .

فقد قال الرواة : إنه لما دنا فرج الله ليوسف - عليه السلام - نزل جبريل - عليه السلام - فسلم على يوسف وبشره بالفرج ، وقال له : إن الله مخرجك من سجنك وممَكِّن لك فى الأرض ، يذل لك ملوكها ، ويطيعك جبابرتها ، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك ، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك وهى كيت وكيت .. وتأويلها كذا وكذا ، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج . فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدة وجعلها آخرا بشرى ورحمة (٧٠) .

وعاد الساقى مسرعًا متهللاً إلى الملك يخبره بذلك التأويل .. الذى كشف الغمة عن صدر الملك ، وأزال ما كان يعتمل فى صدره من ضيق وحيرة ، وزاد من سرور الملك ما صحب التأويل من خطة فيها نجاة وأمن وسلام . وقد حكى القرآن الكريم لنا ذلك بقوله :

---

(٧٠) تفسير القرطبى .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤) وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾(٧١)

ولنا أن نعجب من كرم يوسف – عليه السلام – وقوة صبره حيث أخبر الساقى بتأويل الرؤيا دون أن يشترط عليه الخروج من السجن أولاً .. وهو كرم أخلاق ومثالية نادرة تأبى المساومة ، وترفض الانتهازية ..

ولكن لا عجب فى ذلك حين ندرك أن هذه تربية الأنبياء ، الذين أدبهم الله . ولم يعلق همتهم إلا به ، وكلهم إليه ولم يكلهم إلى نفوسهم .. إنهم بالله يحيون وإليه يسعون .. بجلاله يسبحون وعليه يتوكلون ..

وقال الملك ائتونى به :

سر الملك من إخبار الساق له بتأويل يوسف لرؤياه ..

وكان من الطبيعى أن تهفو نفسه لرؤية هذا الحبر الجليل الذى فاق ف علمه كل من يحيطون به من كهان وأحبار ..

---

(٧١) الآيات ٤٣ : ٤٩ من سورة يوسف .

وأمر باحضاره إليه ، وتطلع إلى أن يكون من أصفيائه لأنه أدرك أن وراءه عقلاً نافذًا ورأيًا حصيفًا ومعرفة واسعة ، وبمثله تزدان دواوين الملوك وأبهاء السلاطين .

ولقد استنبط الملك بعقله صدق هذا التأويل لأنه رآه يتفق مع مجريات الرؤى ودلالاتها التى تشير إليها ..

وعاد الساقى بأمر الملك يطلب يوسف للمثول فى الحضرة الملكية ..

وربما ظن الساقى أن يوسف سوف يطير فرحًا بهذا الخبر ، وأنه سوف يلبى الدعوة فورًا .. لأنه سيفرج عنه أولاً ، وسيشرف بمقابلة الملك ثانيًا ..

ووجد الساقى فى سفارته ليوسف فرصة لرد جميله إليه ، فقد سبق وبشره بالنجاة من التهمة الموجهة إليه وعودته إلى عمله فى معية الملك ..

ولإعتذاره إليه عن تأخره فى ذكره عند الملك حينما قال له : اذكرنى عند ربك ..

كانت هذه الأفكار تجول فى خاطر الساقى حين طرق باب السجن ، ودخله ليقابل يوسف ، ويبلغه رسالة الملك بدعوته إليه ..

ولكن يوسف كان يشغله أمر آخر ..

لم يلتفت لكلام الساقى له : إن الملك اقتنع بتأويلك وأعجب بحصافة رأيك ورجاحة عقلك وحسن تدبيرك ..

كان يشغله حديث الناس عن سجنه . وأنه وضع فيه نتيجة لمؤامرة دبرت ضده ، وأنه متهم فى نظر الناس ، وأن هذه المرأة العابثة الماجنة جعلت الألسن تلوك سيرته .. فإنه لا يصدق أحد أن يوسف وضع فى السجن وهو برىء مما حيك له ..

وإذن فلابد من أن تطهر ساحته أولاً ، وأن يُبَرَّأ من تلك التهمة التى وضع من أجلها فى السجن ..

إنه زج به في السجن بدون محاكمة فلماذا ؟

وألقى به دون أن تحدد مدة لعقوبته فكيف ؟

إنه إن كان قد دخل السجن بدون تحقيق فلن يخرج منه إلا بتحقيق ..

ومن يملك ذلك ؟ إن الذى يملكه هو الملك ، الحاكم الأعلى للدولة ..

ومن يدرى ؟ فربما هناك كثير غير يوسف قد وضعوا فى السجن بدون تهم كيوسف .. ومتى غفل الحاكم الأعلى عن أمور رعيته .. تصرفت حاشيته كما يحلو لها باسم الملك ..

لقد أراد يوسف أن يصحح كثيرًا من الأوضاع التى رآها ..

أراد أن يكشف الزيف أمام الملك ، ويرفع الغشاوة عن عينه ، فيبصر كيف تحكم دولته باسمه دون أن يدرى عن ذلك شيئًا ..

أراد أن يلقنه درسًا فى أن يتابع معتقلاته بنفسه لعله يرى فيها مظلومًا رُكِّبت له تهمة ، وصيغت للتهمة قرائن ودلائل ، وزيِّف لها شهود ..

ألا ما أصدق نبينا الكريم فى حديثه المشهور : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالحاكم راع ومسئول عن رعيته »..

وما معنى الرعاية ؟ إنها تعنى اليقظة الكاملة لكل ما يحدث فى المملكة ، لا يكفى أن يكل الملك أمر الحكم إلى وزير مسئول ثم ينصرف بعد ذلك إلى شئونه الخاصة وملذاته وأهوائه ..

كلا ، بل هو المسئول الأول فعليه أن يتابع من ولاَّه ويراقبه فى أحكامه بعين فاحصة وعقل مفكر ورأى ثاقب ..

انظروا إلى أحد المثل العليا فى تاريخ الإسلام وهو يقرر نظام الحكم المثالى .. هذا هو عمر بن الخطاب يقول يومًا لمن حوله : « أرأيتم إذا

استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما علىّ ؟ قالوا : نعم . قال : لا حتى أنظر فى عمله أعمل بما أمرته أم لا ؟[٧٢].

إنه لم يُنه مسئوليته بحسن اختيار واليه أو وزيره أو رئيس وزرائه .. ولكنه اعتبر أنه مسئول عن حسن رعايته لما تولاه ، وحسن تنفيذه لما سمع من أحكام وعرف من دساتير ..

هكذا أراد يوسف أن ينبه الملك إلى واجبه ومسئوليته عن طريق هذه الفرصة الذهبية التى لاحت له ..

ولذلك لم يستخفه الفرح حين طلب إليه الساق مصاحبته إلى الملك .. ولم يسرع إلى تلبية الأمر . شاكرًا للساق حسن سعيه وللملك حسن تقديره .. ولكنه قال للساق :

أنا لن أبرح مكانى فى السجن قبل أن يُسأل من سجننى لماذا سجننى ؟

ارجع أيها الرسول مشكورًا إلى مليكك واطلب إليه أن يسأل هؤلاء النسوة اللاتى قطعن أيديهن : لماذا قطعن أيديهن ؟ ويسأل امرأة العزيز عن القصة الكاملة التى جرت وانتهت بما انتهت إليه من إدخالى السجن وإلقائى فى غياهبه .

لقد كان يوسف حصيفًا فى ذلك ، فلو خرج فور صدور الأمر إليه ، لاعتبر أنه سجين صدر الأمر بالعفو عنه .. وبقيت التهمة التى حيكت له لاصقة به إلى ما لا نهاية ، تلاحقه النظرات حيثما كان : هذا هو الذى عوقب بالسجن جزاء ما اقترفت يداه من كذا وكذا .. ثم تلطف به الملك فعفا عنه .

لقد كان تصرف يوسف عزيمة من غير شك ، تنبىء عن شخصية قوية وحسن إدراك للأمور .. إنه التوفيق من الله الذى قاده إلى هذا التصرف الحسن .

ولقد حمد النبى - ﷺ - موقفه هذا حتى قال عنه : « لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » ..

يعنى لأسرعت إلى الخروج من السجن فور دعوة الداعى لى ..

ولقد قال النبى - ﷺ - هذا على سبيل التواضع والهضم من النفس .. وإلا فهو - ﷺ - قدوة فى كل خُلق حسن وتصرف سليم ..

إنه يريد أن يكرم إخوانه من الأنبياء والرسل ، ويرفع من أقدارهم ويبرز جوانب عظمتهم وقدرتهم على تحمل الشدائد .

وعاد الرسول إلى الملك يخبره بما طلبه يوسف ..

وكأن الرسول قد نبه من الملك غافلاً .. فسرعان ما استدعى امرأة العزيز والنسوة اللاتى قطعن أيديهن ..

وسألهن الملك عن القصة فأقررن بالحقيقة كاملة .. وأثبتن براءة يوسف مما نسب إليه ، ونزاهته وعفته ..

فقد قلن جميعًا : حاشا لله ما علمنا عليه من سوء ..

وكانت إجابتهن هذه - وهن شهود الواقعة ، وهن قد قطعن أيديهن حين رأينه - دافعًا لامرأة العزيز بالاعتراف الكامل أمام الملك ، فقد رأت أن الحقيقة قد أصبحت واضحة ، وأنه لا مجال للشك فى يوسف ، فقالت : أنا راودته عن نفسه فلم يستجب ، وأنا التى دبرت أمر دخوله السجن . وإن يوسف برىء من كل ما نسب إليه ..

قالت ذلك صراحة فالآن قد حصحص الحق .. أى ظهر واضحًا ..

ولقد أقرت بذلك أمام الجميع ، وكان يوسف ما زال فى السجن لم يخرج بعد .. ولذلك قالت : ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى لم أنتهز فرصة غيابه وأتهمه كذبًا وظلمًا ، فالله لا يهدى الخائن ولا يوفقه . ثم اعترفت بأن ذلك كان منها زلة نفس ، والنفس أمارة بالسوء ، ولا ينجو من وسوستها إلا من رحمه الله ، ووفقه للتنبه لها والتغلب عليها .

والأنسب أن يكون هذا القول الذى حكاه القرآن من كلام امرأة العزيز ، فهى التى اعترفت بالحقيقة فى غيبة يوسف فى السجن .. وكان فى إمكانها أن تدفع عن نفسها وتلقى الشبهة على غيرها .

لقد رأت أن فى الاعتراف راحة لضميرها ، وتبرئة لساحة من تحبه . وهذه هى التضحية التى يفرضها الإخلاص فى الحب والتفانى فى المحبوب .

ثم إنها لم تجد مفرًا من الاعتراف بعد أن رأت النسوة قررن طهارة يوسف . فإذا كان من لم يحببنه حبها شهدن فى صالحه فهى من باب أولى تسرع إلى الاعتراف بأنها هى التى حاولت إيقاعه وإغراءه مهما كلفها ذلك الاعتراف من تبعات .. مبررة ذلك بأن النفس الإنسانية معرضة للشهوات مستعدة للنزوات إلا من عصم الله ..

وهذا هو ما يتمشى مع سياق الآيات ومفهوم القصة ..

أما أن يكون هذا القول واردًا على لسان يوسف ففيه قطع للسياق ، وفيه وهم بأن يوسف – عليه السلام – وهو – النبى المعصوم – قد خطر بقلبه ميل إلى الهوى . وهذا ما يجل عنه قدر الأنبياء عليهم السلام ..

أما نسبة هذا القول إلى العزيز على اعتبار أنه لم يخن يوسف بالغيب لأنه توسم فيه الخير وائتمنه على بيته . وإن كان لا يبرىء نفسه من سوء الظن به لحظة وقوع الحادث لشدة مفاجأته ووقعه على نفسه فهو بعيد أيضًا .

وأما كون النفس أمارة بالسوء فتلك حقيقة واقعة لا يكاد ينجو منها أحد .. والنفس الأمارة أولى مراتب النفس عند أهل الذوق والمعرفة الذين يقولون : إن مراتب النفس سبعٌ ، تبدأ بالأمارة ، فالنفس اللوامة ، فالنفس الملهمة فالنفس المطمئنة فالنفس الراضية ، فالنفس المرضية ، فالنفس الكاملة ..

وإذا لم تكن نفوس الأنبياء فى المرتبة العليا من الكمال فأى نفوس تكون فيها ؟

وفى التحذير من النفس الأمارة يقول النبى – ﷺ – : ما تقولون فى صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية ، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية ؟ قالوا :

يا رسول الله هذا شر صاحب فى الأرض . قال : فو الذى نفسى بيده إنها لنفوسكم التى بين جنوبكم[٧٣]. وهذا يعنى وجوب جهادها .

ولقد حكى القرآن بأسلوبه المعجز هذا الحوار فى قوله - تعالى - :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٧٤]

قال اجعلنى على خزائن الأرض :

خرج يوسف من السجن مرفوع الرأس ، وضاح الجبين ، طاهر الذيل ، برىء الساحة ..

لقد ظهرت براءته ظهور الشمس فى رابعة النهار ، واتضح أنه كان ضحية كيد دبرته امرأة العزيز ، وما أعظم كيد النساء .. قيل إن الله خلق الشيطان واستضعف كيده فقال فى حقه : ﴿ إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفًا ﴾[٧٥]. وخلق المرأة واستعظم كيدها فقال : ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾[٧٦]..

ووصل يوسف إلى بلاط الملك ..

---

(٧٣) تفسير القرطبى .

(٧٤) الآيات ٥٠ : ٥٣ من سورة يوسف .

(٧٥) الآية ٧٦ من سورة النساء .

(٧٦) الآية ٢٨ من سورة يوسف .

ورآه الملك فأعجب بمرآه ، وأدرك أن ما وصل إليه من أخبار كانت دون ما رآه ..

لقد رأى وضاءة ظاهرة ، وصورة باهرة ، ورجلا تملأ هيبته أقطار النفس ، وتهز بهجته أوتار القلب ، ويأخذ حسنه بمجامع العقول .. فلما تحدث معه وجد عقلاً راجحًا ، وبيانًا شافيًا ، وحكمة بالغة ، وحجة قاطعة .

قيل : إن يوسف حين دخل على الملك . دعا قائلاً : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بك من شره وشر غيره ..

ثم سلم على الملك بالعربية .. فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟

قال : لسان عمي إسماعيل ..

ثم دعا بالعبرانية فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟

قال : لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وقالوا : إن الملك كان على علم بلغات عدة .. فكان كلما كلم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان ..

فأعجب به الملك أيما إعجاب(٧٧).

ولما كان المظهر ينبيء عن المخبر في كثير من الأحوال فقد كان وراء ذلك كله خلق رفيع ، وأدب جم ، ووفاء كريم ، ومروءة منقطعة النظير .. وكيف لا يكون كذلك وقد اختُبر فظهر معدنه الشريف وبان فضله العظيم ؟ .. ألم يعف عن أجمل نساء عصرها وقد عرضت نفسها عليه ؟ ألم يعرض عنها وقد خرت راكعة بين يديه ؟ ألم يعزف عنها في إباء وترفع وهي متهالكة في أبهى زينتها تحت قدميه ؟

---

(٧٧) تفسير القرطبي .

إن التفريط في استعمال هذا الرجل في شئون الدولة حمق .. هكذا قال الملك في نفسه .. ثم أتبع هذا الحديث النفسي بالفعل ..

أقبل يا يوسف فإن مثلك لا يظل واقفًا بعيدًا .. واجلس إلى جانبي ، فإن من حقك أن تشاركني هذا المنصب الذى أنا فيه ..

وأجلسه معه على سريره .. وأحب أن يشنِّف آذانه بحديثه فقال له : أحب أن أسمع منك تأويل رؤياى ..

فعبرها يوسف له بأكمل بيان وأتم عبارة .

فلما سمع الملك منه ذلك قال له : إنك اليوم لدينا مكين أمين .

يا يوسف ، اختر العمل الذى يناسبك أُولك إياه .. أنا لا أريد أن أفرض عليك أمرًا قد لا تقبله نفسك أو لا يرتاح إليه قلبك .. فاختر ما تشاء ..

فقال يوسف : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ..

لقد اختار يوسف أشق عمل فى الدولة وبخاصة فى أيام الحرج المقبلة والتى كشفت عنها رؤيا الملك ..

هذا العمل هو الإشراف على خزائن الأرض وما تحتوى عليه من غلات صادرة وواردة ، وعلى توزيعها على الناس بميزان العدل الحكيم ، حتى لا تتعرض البلادُ لمجاعة جائحة تهلك الحرث والنسل .. إنه عمل تقوم به وزارتان - بلغة العصر الحاضر - وهما وزارتا التموين والاقتصاد ..

لقد اختار عملاً شاقًا فى ظروف حرجة .. ولكنه واثق من إعانة الله له عليه .. فهو يعلم أن الله أرسله فى هذا البلد الطيب ليؤدى فيها رسالة دينية وإصلاحية فى الوقت نفسه ..

والعلماء يقولون فى ذلك : «إنه لا حرج إطلاقًا أن يذكر إنسان نفسه بما هو عليه من صدق وعلم ، بشرط أن يكون على تمام الوثوق من صدقه وعلمه ، وألا يكون قد ذكر ذلك استكبارًا وعلوًا ورياء»[٧٨].

---

(٧٨) يوسف الصديق ص ٧٩ .

لقد قال يوسف ما قال وطلب ما طلب « ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله - تعالى - وإقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا »[٧٩].

وكان قطفير زوج زليخا هو الذى يتولى أمر الوزارتين .. فعزل ، وتولى يوسف مكانه ..

وقيل : إنه لم يعزل ولكنه كان قد مات ، فخلا المنصب فتولاه يوسف ..

وقالوا : إن الملك لم يول يوسف العمل فورًا ، ولكن كان ذلك بعد عام من لقائه معه .. وأوردوا فى ذلك حديثًا رووه عن ابن عباس - رضى الله عنه - : « رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، ولكن أخر ذلك عنه سنة » .

وقد تكلم النقاد فى هذا الحديث[٨٠] بما يوهنه ..

فإن يوسف لم يقل قولته تلك تهافتًا على المنصب أو رغبة فيه ، بل استجابة للدواعى والظروف التى ستمر بها البلاد ، والتى تتطلب سرعة التدبير لمواجهة ما سوف يجىء من محن .

ولذلك لا يستبعد أن يكون الملك قد ولَّى يوسف منصبه فورًا ، خصوصًا وأن الآيات الكريمة لم تشر إلى تأخر تسلم منصبه ، بل جاء عقب طلب يوسف ما يدل على أن الله مكنه فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ..

وكان يوسف - عليه السلام - عند حسن ظن الملك ، واستطاع أن يدبر أمر الأمة خير تدبير ، وأن يحافظ على أقواتها ، وأن يعبر بها الأزمة

---

(٧٩) تفسير الكشاف للزمخشرى .
(٨٠) راجع تعليق محقق الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٢ .

التى كانت تنتظرها ، واستطاع إلى جانب ذلك أن ينشر العدل فى ربوع البلاد وأن يرفع الظلم عن كاهل العباد ، وأن يعيد إلى الناس أمنهم واطمئنانهم الذى كانوا فقدوه فترة طويلة من الزمان .

ولم ينس يوسف - عليه السلام - فى خلال ذلك أمر الرسالة التى كلف بها من ربه ، فقد تمكن من موقعه أن يدعو إلى الإيمان بالله ونبذ عبادة الأوثان ..

وهكذا أصبح يوسف بين عشية وضحاها صاحب الكلمة النافذة فى مصر ، والوزير المطلق اليد ، يطيعه الجميع ويأتمرون بأمره ..

لقد كان إيوانه الذى يحكم منه قريبًا من إيوان الملك ..

قالوا إن الملك قلده سيفه ووضع له سريرًا مُذَهَّبًا ، مُحَلًّى بأنواع الزينة ، وتُوِّجه بتاج ثمين ، وأطلق يده فى عسكره ، فدان له الجميع بالطاعة والولاء .. لم يكن هناك فرق بين الملك ويوسف إلا الكرسى ..

وشمر يوسف عن ساعد الجد فى الاستعداد للمرحلة القادمة . فأخذ يتفقد أحوال الأرض ، وأمر المحاصيل الزراعية ويعمل على المحافظة عليها .

وأخذ فى بناء المخازن والصوامع التى تحفظ فيها الغلال من التلف والسوس ، استعدادًا لسنوات القحط القادمة ، فنعمت البلاد بالخير فى عهده ، وعم الرخاء جميع الناس ، وشهد بكفاءته الكبير والصغير ، وأصبح محط أنظار جميع الناس ، يتحدثون عنه بكل جميل ، ويشيدون بحكمته ، ويثنون على حسن تصرفه .

هل تزوج يوسف زليخا؟؟

يحكى الرواة أن الملك زوَّج يوسف . وكانت سنه إذ ذاك ثلاثين عامًا .

قالوا : زوَّجه ابنة أحد الكهان واسمها« أسنات بنت فوطى »(٨١)..

---

(٨١) قصص الأنبياء للنجار ص ١٦٧ .

وقال بعضهم : إنه تزوج من زليخا نفسها .. ولهم في ذلك أقاصيص .. منها أن « قطفير » زوجها قد هلك ، فتزوجها ، فلما دخل عليها قال لها : أليس هذا خير مما كنت تريدين ؟

فقالت : أيها الصديق لا تلمني ، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن ، فغلبتني نفسي . فوجدها يوسف عذراء ، فولدت له ابنين هما : إفرائيم ومنشا(٨٢).

وقالوا : إن زوجها كان قد مات ويوسف في السجن ، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف ، وكان يوسف يركب كل أسبوع مرة في موكب منيف ، فتعرضت له يومًا ، حتى إذا أقبل في موكبه نادت بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيتهم ، وجعل العبيد ملوكًا بطاعتهم .

فاستدعاها وقال لها : من أنت ؟

فقالت : أنا التي كنت أُرجّل جُمّتك بيدي ، وتربيت في بيتي ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهلي وعُتوي ، فذقت وبال أمري ، فذهب مالي ، وتضعضع ركني ، وطال ذلي ، وعمي بصري ، وبعدما كنت مغبوطة أهل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفف الناس ، فمنهم من يرحمني ومنهم من لا يرحمني ، وهذا جزاء المفسدين ..

فبكى يوسف بكاءً شديدًا ..

ثم قال لها : هل تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئًا ؟

فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إليّ من الدنيا بحذافيرها ..

---

(٨٢) القرطبي ، والكشاف .

ولما مضى إلى منزله أرسل إليها من يقول : إن كنت أيِّمًا تزوجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنيناك ..

فقالت للرسول : أعوذ بالله أن يستهزىء بي الملك ، لم يردني أيام شبابي وغناى ومالي وعزى ، أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟

فأعلمه الرسول بمقالتها ..

فأمر بها فأصلح من شأنها وهيئت ، ثم زفت إليه .

فقام يوسف يصلى ويدعو الله ، وقامت وراءه ، فسأل الله أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها . فرد الله عليها ذلك إكرامًا ليوسف - عليه السلام - ..

فعاشا في خفض عيش ، كل يوم يجدد الله لهما فيه خيرًا .. وولدت له ولدين[٨٣] ..

ولكن هذه القصة تتعارض مع قوله - تعالى - : ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ﴾ وذلك في مجلس التحقيق الذى انعقد لإثبات براءة يوسف .. فلو أنها كانت عمياء فقيرة تتكفف الناس كما تذكر هذه القصة لما جاءت إلى المجلس واعترفت ..

وأغلب الظن أنها قصة موضوعة للعظة والاعتبار ، وبيان أن الأيام دول ، وأن الحياة لا تدوم على حالة واحدة ..

وما أشبه هذه القصة بقصة « خرقاء بنت النعمان بن المنذر » قيل : كانت أحسن نساء زمانها جمالاً وأفصحهن مقالاً ، وأكملهن عقلاً وأدبًا .. جاءت إلى سعد بن أبى وقاص بعد فتح الحيرة وقد تبدلت حالها ، وأصبحت في حالة يرثى لها ، وهى تطلب صلته .. ثم أنشدته بين يديه :

---

(٨٣) تفسير القرطبى..

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتكفف
فأفٍ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلبُ تارات بنا وتصرف

فأكرمها سعد وأحسن صلتها . فدعت له قائلة : لا نزع الله من عبد صالح نعمة إلا جعلك الله سببًا لردها عليه(٨٤).

وعلى كل فزواج يوسف من زليخا ليس أمرًا عجيبًا ، وبخاصة أنها لم تسقط ، وأن ما حدث منها كان بسبب شدة حبها ليوسف ، وأن ذلك العرض منها لم يكن لغيره ، بدليل أنه وجدها عذراء ..

وقد تابت وحسنت توبتها . فما المانع الذى يمنع زواج يوسف منها ؟ وإن كان العلاَّمة ابن الخطيب ينفى ذلك الزواج نفيًا تامًا ويقول فى ذلك : « أما ما قيل من أن يوسف قد تزوج بعد ذلك امرأة العزيز وأنجب منها فهو من أقاصيص القصاص وأباطيلهم ، فما كان ليوسف أن يتزوج بغيًا ، أرادت إكراهه على الإثم والفسوق ، وشاع فى الأمة إثمها وفجورها »(٨٥)..

وربما دفع ابن الخطيب – رحمه الله – إلى هذا القول رغبتُهُ فى رفع مقام الأنبياء عن مكان الاتهام ، وتجنيبهم سوء الظن بهم .. وهى رغبة إيمانية محمودة .. ولكن زليخا – لم تكن بغيًا – فالبغى الزانية التى تتاجر بعرضها .. وهى ليست كذلك .. إن حسن يوسف فتنها وغلبها على عقلها وهى وإن دعته إلى نفسها بدافع العشق والوله إلا أنه لم يفعل .. فما زالت حرة على الرغم مما حدث .. وما ذنبها أن عشقت أجمل خلق الله يومئذ ؟ والهوى قدر لا يملك المرء له دفعًا .. والشاعر العربى يقول :

يا لائمى فى هواه والهوى قدر ... لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

---

(٨٤) الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب بنت على بن حسين ص ١٨٣ .
(٨٥) يوسف الصديق ص ١٠٦ .

وعلى الرغم من كل ذلك فنحن نقف مع الرأى القائل بأن يوسف عليه السلام لم يتزوج امرأة العزيز لأن هذا الرأى هو الأليق بمكانة يوسف عليه السلام وفيه درء للشبهات .

ثم لنقرأ الآيات الكريمة التى تحدثت عن تمكن يوسف فى الأرض، وخضوع الرقاب له :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[٨٦]

لقد مكن الله ليوسف فى الأرض، وكان تمكينه وسيلة لإعلان الدعوة إلى الله .. وه ، مسئولية كل من خوله الله سلطة فى الدنيا مصداقًا لقوله – تعالى – : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[٨٧].

قال العلماء : هو شرط شرطه الله – عز وجل – على من آتاه الملك ، ومن وهبه السلطة والقيادة والإمارة[٨٨]، ومن جعله رئيسًا فى موقع من المواقع . والأنبياء هم القدوة العليا فى ذلك . فحين تمكن يوسف فى الأرض قام بما يجب عليه نحو الله . حتى أسلم على يديه الملك وكثير من الناس ، وكان يزداد تأثيره فى قلوبهم بما يقوم به من إصلاح وحسن تدبير . فقد أقام العدل حتى أحبه الرجال والنساء جميعًا .

---

(٨٦) الآيات ٥٤ : ٥٧ من سورة يوسف .

(٨٧) الآية ٤١ من سورة الحج .

(٨٨) القرطبي – تفسير سورة الحج جـ ١٦ ص ٤٤٦٥ ط دار الشعب .

وكان فى سنى القحط يجيع نفسه ولا يشبعها ، فسئل عن ذلك فقال : إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع .

وأمر طباخ الملك أن يضع له طعامه نصف النهار ، حتى يذيقه لذع الجوع ، فلا ينسى الجائعين(٨٩).

وهذه هى السياسة القويمة التى يجب أن يضعها الحكام أمام أعينهم . أن يتذكروا ضعاف الناس فى رعيتهم ، وأن يتفقدوا أحوالهم ، وأن يسدوا جوعة الجائع وخلة المحتاج ولوعة المظلوم وحيرة المهضوم .

وجاء إخوة يوسف :

ومرت السنوات السبع الأولى التى كانت مليئة بالخير ، حافلة بالدُّر ، مباركة الثمر ، وافرة المحصول ..

وكان قد ادخر فى خلالها ما زاد عن حاجة الناس فى خزائن حصينة ، وكان يوزع الطعام بالقسطاس ، حتى لا يأخذ أحد أكثر من حاجته ، أو يحتكر من طعام الناس ما هم فى حاجة إليه ..

ثم أقبلت سنوات القحط بوجهها الكالح وحرها اللافح ..

أمسك النيل عن الفيضان ، وبخلت السماء بالأمطار ، وأجدبت الأرض ، وهلك الحرث والنسل ..

وهرع الناس إلى يوسف يطلبون الغوث فكان عند حسن ظنهم ..

كان قد أعد عدته لتلك الأيام العصيبة .. فكان يعطيهم بقدر حاجتهم ، ويعلمهم كيف يقتصدون ويواسون . فإن الاقتصاد نصف المعيشة . وفى المواساة رحمة وبركة ، ومع القناعة يصبح القليل كثيرًا ..

---

(٨٩) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٣٤٨ .

كان يعطى ، ويعظ ، ويرشد .. واكتسب الناس منه أنماطًا من السلوك الحميد كانوا فى غفلة عنها .. وتعودوا أن يحمدوا الله فى الضراء كما حمدوه فى السراء ..

ولذلك مرت سنوات القحط ولم يشعر المصريون بمذاقها ، بل ربما نعموا فى خلالها بنفحات روحية بدلت الشقاء نعمة وجعلت البؤس رحمة ..

وكان لا يعطيهم بدون ثمن ، حتى لا يعودهم الدعة ، ولا يشعرهم بالتواكل ، فما زال يأخذ منهم أثمان ما يقدم لهم حتى بذلوا فى ذلك الكثير من الأموال . وعندما انتهت السنوات العجاف بسلام أعاد إليهم كل ما أخذ منهم .. فما أعظم هذه السياسة وما أقوم ذلك التدبير ..

وحين جاء القحط كان عامًا ، تعدّى مصر إلى ما جاورها من البلاد فشمل فلسطين التى كان يقيم بها أبوه وإخوته ، وجاع أهلها كما جاع غيرهم ..

وتسامع الناس هناك بأن فى مصر وزيرًا عادلاً حكيمًا ، أعد لهذا الأمر عدته ، واحتاط لهذه السنين العجاف ، وعرفوا أن الناس فى مصر فى مأمن من العالة والجوع ، لا يعانون مما يعانى منه غيرهم فى البلاد الأخرى ، ووصلهم من الأخبار أن الطعام فى مصر موفور يزيد على حاجة المصريين . وأن القوافل تقصدها من مختلف البلاد يمتارون ويبيعون ويشترون ..

وقد أصاب يعقوب – عليه السلام – وأولاده ما أصاب الناس ، فطلب إليهم أبوهم أن يرحلوا إلى مصر كما رحل غيرهم لشراء ما يلزمهم ويفى بحاجتهم من الطعام ..

وساروا – وهم عشرة إخوة – فى قافلة من الخيل والجمال ، يحملون معهم من البضائع ما يستبدلون به الطعام . كانت هذه البضائع النعال والأدم ، وهو ما يتجر فيه أهل تلك البلاد ..

ووصلوا إلى مصر ، وسألوا عن وزيرها الذى يبيع للقادمين الأقوات . فدلهم الناس عليه ..

وحين نظر إليهم عرفهم ، ولكنهم لم يعرفوه ..

لقد مرت سنون طويلة حين ألقوه فى غيابة الجب وانصرفوا عنه بعد أن باعوه بدراهم معدودة ..

ولم يصيخوا يومئذ لتوسلاته الباكية ، ولا لوداعه الحار لهم ..

وها هو ذا الآن فى أبهة الملك وجلال السلطان ..

كبرت سنه ، وتغيرت ملامحه ، كان طفلاً وأصبح رجلاً ، وكان بدويًا فأصبح حضريًا ، وللمصريين زى خاص أصبح يرتديه ، وهو مخالف لزيهم .. واللغة مختلفة ، فلسانهم عبرانى ، ولسانه الآن قبطى .. حقًا إنه يعرف لغتهم ، ولكنه الآن يتحدث بلغة مصر ، وهى اللغة القبطية القديمة ..

هم لم يعرفوه يقينًا – ولا داعى لقول من يقول : إنه حين رآهم وضع فوق وجهه قناعًا حتى لا يعرفوه – .

ولكنه بنور الله عرفهم ، وهم كما هم تقريبًا لم يتغيروا كما تغير هو ، فقد كانوا رجالاً ، وملامح الرجال لا تتغير كما تتغير ملامح الصغار حين يكبرون ..

ودار حوار بينه وبينهم كما يدور فى مثل هذه الحالة ..

فقد وجدهم عشرة رجال غرباء ، ليسوا من أهل تلك البلاد ، فلابد أن يكون السؤال حول ذلك .. قال لهم :

من أنتم ؟ وما شأنكم ؟ فإنى أنكركم ..

قالوا : نحن قوم من أهل الشام ، رعاة ، أصابنا الجهد فجئنا نمتار .

قال : لعلكم جئتم عيونًا تنظرون عورة بلادى ؟

قالوا : معاذ الله نحن إخوة ، بنو أب واحد ، وهو شيخ صِدِّيق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب .

قال : كم أنتم ؟

قالوا : كنا اثنى عشر ، فهلك منا واحد .

قال : فكم أنتم ها هنا ؟

قالوا : عشرة .

قال : فأين الأخ الحادى عشر ؟

قالوا : هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك .

قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون ، وأن الذى تقولونه حق ؟

قالوا : إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا .

قال : فدعوا بعضكم رهينة عندى ، وائتونى بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم ..

فاقترعوا فأصابت القرعة « شمعون » وكان أحسنهم رأيًا فى يوسف ، فخلفوه عنده[٩٠].

لقد تظاهر يوسف بعدم معرفتهم لحاجة فى نفسه ، وهى أن يستقدم أخاه إليه فى مقدمة لإحضار أبيه بعد ذلك ..

فكان أن دار ذلك الحوار الذى دار ..

ويقول بعض الرواة : إن يوسف جاء بصواع الملك الذى يشرب فيه ، فوضعه على يده ونقره فطنَّ الصواع . فقال يوسف : إن هذا الصواع يخبرنى عنكم خبرًا .. وأخبرهم بما تحدث منهم ليوسف .

---

(٩٠) تفسير الكشاف .

فقام أحدهم إليه وقال : أناشدك بالله ألا تكشف لنا عورة .. ثم قالوا : نحن قد جئنا لشراء القمح والقوت من عندكم لما سمعناه عن كرمكم وفضلكم ، ونحن مسالمون لم نحضر لأذى ولا لأى شيء آخر سوى حمل الطعام لأهلنا ، وإنقاذهم من الجّوع والقحط الذى حل بأرضنا ..

فقال لهم يوسف - عليه السلام -: هل يوجد من يشهد لكم بصحة ما تقولون ؟

قالوا : نحن لا نعرف أحداً فى تلك البلاد لأننا غرباء عنها .

فقال لهم يوسف : سأعطيكم ما تريدون من القوت والقمح هذه المرة . ولكن إذا حضرتم مرة أخرى بدون أخيكم الذى خلفتموه وراءكم فلا كيل لكم عندى .. فليكن هو الشاهد الذى يشهد بصحة ما ذكرتموه ..

لقد كان الأخ الذى تركوه مع أبيهم هو «بنيامين» وهو شقيقه ، فأمهما هى «راحيل» وقد أراد يوسف أن يطمئن عليه ويراه . وربما كان يخشى أن يتكرر معه ما حدث له ..

وحين طلب منهم إحضار أخيه قالوا له : إن أباه يخاف عليه ، وقد لا يوافق على إرساله معهم ، ولكنهم وعدوه أنهم سيبذلون معه جهدهم ، لعله يوافق على ذلك ..

وأنهى يوسف مقابلته معهم ..

وأمر القائمين على شأن الحبوب أن يوفوا لهم الكيل ، وأن يجعلوا بضاعتهم التى حملوها معهم ثمنًا للطعام فى رحالهم - دون أن يشعروا - وكانت الأثمان قديمًا معارضة فى أغلب الأحيان ..

وقد روى بعض رواة الأخبار أن يوسف حين وصل إخوته وعرفهم أمر بإنزالهم دار الضيافة ، فمكثوا بها ثلاثة أيام دون أن يقابلهم ، أو يأذن فى قضاء حاجتهم حتى ضجوا من ذلك . وشكوا إلى الحاجب الذى حمل

شكواهم إلى الملك ، فقال له : قل لهم يأتونى بأخ لهم من أبيهم وإلا فلا كيل لهم(٩١).

وهذه الرواية تناقض ما جاء فى النص القرآنى وما فيه من حوار دار بينه وبينهم ..

وهذا هو النص القرآنى الذى يصور هذه الأحداث :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٩٢)

وإنا لنرى يوسف – عليه السلام – قد تألفهم وتوعدهم فى الوقت نفسه ..

أما تألفه لهم فهو تذكيرهم بأنه خير من يوفى الكيل ، وخير من يكرم الضيوف ، وهو بذلك لا خوف على أخيهم حين يأتون به ..

أما توعدهم فقد لوح لهم بعدم إعطائهم حبوبًا بعد ذلك ما لم يأتوه بأخيهم ..

وهو يعلم تمامًا أن ذلك التهديد سوف يحزن أباه .. فلماذا ارتضى ذلك ؟

لعله ارتضى ذلك ليعظم فرحة أبيه بلقاء ابنيه معًا بعد أن كان قد حرم من رؤيته فترة طويلة من الزمن .. أو ليكثر من مضاعفة الثواب لوالده بصبره على مضاعفة الابتلاء ، أو لعل ذلك كان بوحى من الله سبحانه وتعالى ..

---

(٩١) بدائع الزهور ص ١٠٢ .

(٩٢) الآيات ٥٨ : ٦٢ من سورة يوسف .

يا بني لا تدخلوا من باب واحد :

وربما تعجب القائمون على أمر الطعام من يوسف حين أمرهم بوضع بضاعة الإخوة فى رحالهم .. وقد يكون بعضهم قد راجعه فى ذلك . وربما كانت هيبته تحول دون المراجعة ، فقد أذل الله له الرقاب ومكن له فى نفوس الجميع ، وأصبحت كلمته نافذة وإشارته أمرًا وأمره مطاعًا ..

وقد يكون أزال الشك من نفوس مَنْ تَعَجَّبَ – إن كان هناك من تعجب – فقال له : إنه فعل ذلك لأنه واثق من عودتهم إليه ، فيتقاضى منه المقدم والمؤخر ، أو أنه فعل ذلك إغراء لهم بالعودة لأنه يعرف عنهم أنهم لن يقبلوا الطعام إلا بثمنه ..

وعلى أى فقد رحل الإخوة دون أن يعرفوا أن بضاعتهم ردت إليهم مع ما اشتروه .

وعادوا إلى بلادهم وهم محملون بالميرة التى تعينهم على مواجهة الجدب ومقاومة الجائحة .

وفرح أبوهم بمقدمهم وبعودتهم سالمين ..

وأخبروه برحلتهم وقصوا عليه أمرهم .. وأسهبوا فى الحديث عن ذلك الوزير الذى أكرمهم وأعطاهم كل ما يريدون ، وأنزلهم فى بيت ضيافته . وأحسن إليهم إحسانًا كبيرًا ..

كما حدثوه عن حب المصريين له وتفانيهم فى خدمته ، وعن منزلته السامية بينهم ، وعن حسن تقديره للأمور ، ودقة ضبطه لها ، وحكمته الفائقة وذكائه وحسن فراسته ..

لقد شوقوا أباهم إلى ذلك الوزير – ولعل ذلك الحديث – أثار شجونه ، وحرك كوامن الشوق عنده لولده ، التى كانت مخايله المبكرة توحى بأنه لو قدر له البقاء أن يكون فى مثل ذلك الذى يصفونه له .. ولعله جعل

يستزيدهم من الحديث عنه ، ولعلهم كانوا يلبون دعوته فى ذلك .. حتى تطرقوا من وراء ذلك إلى ما طلبه الوزير منهم ..

وأخبروه بالعهد الذى أخذه عليهم ، وهو أن يحضروا أخاهم معهم فى المرة القادمة ، وإلا فلا كيل لهم عنده ذهبوا بدونه ..

وفوجىء الأب بهذا الخبر ..

لقد ضيعوا بذلك الخبر فرحته بلقائهم وعودتهم وسماعه خبر ذلك الوزير الناجح ..

واضطرب قلب يعقوب ، وأحس بشىء من الوجل ، وتواردت على خاطره الذكريات القديمة . وتذكر يوسف الحبيب الغائب ..

واستحضر فى مخيلته يوم أن ذهبوا إليه يطلبون يوسف ليشاركهم فى لعبهم ومرحهم ، ثم عادوا إليه فى آخر النهار يبكون وينتحبون ويقولون : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ..

ويحك يا يعقوب .. هل التاريخ يعيد نفسه ؟

وهل وراء إخبار الأب بقصة الوزير وطلبه مؤامرة أخرى للتخلص من بنيامين كما تخلصوا من يوسف ؟

ولم يستطع الأب أن يكتم ما يعتمل فى نفسه وما يجول فى خاطره ، وصارحهم به قائلاً : لقد أمنتكم على أخيه من قبل فكان ما كان . فهل تنتظرون منى أن آمنكم على بنيامين الآن ؟

كلا ، إن المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين .. فما بالك إذا كان هذا المؤمن نبيًا ؟

وأقبل على ابنه الذى يحبه يعوّذه من الشر ، ويدعو الله أن يحفظه وينجيه من السوء ، قائلاً بلسان الصدق واليقين : فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين ..

وسكت الإخوة مؤقتًا ، وانصرفوا إلى رحالهم يستخرجون منها الطعام ، وكانت المفاجأة المذهلة ..

لقد وجدوا بضاعتهم التى اصطحبوها ثمنًا للطعام الذى جلبوه مع الطعام فى الرحال .. فماذا يعنى ذلك ؟

وهتفوا بأبيهم قائلين : أى شيء نطلب وراء ذلك ؟ لقد وفى لنا ذلك الوزير الصالح الكيل ، وأحسن ضيافتنا ، ثم رد علينا مع ذلك الثمن ؟

فهل هناك ريبة وراء ذلك ؟

وهل يستحق من أحسن إلينا هذا الإحسان أن نخونه فى عهده وننكث فى وعده ؟

إننا لو اصطحبنا أخانا معنا فى المرة القادمة فسوف نعود وقد ازددنا كيل بعير ، فقد عدنا هذه المرة بعشرة أحمال ستكون فى المرة القادمة أحد عشر حملاً ..

وما زالوا به يقسمون على المحافظة على أخيهم ، ويبثون الاطمئنان فى قلب أبيهم ، قائلين له : لن يحدث مطلقًا ما تفكر فيه ، وإننا نبذل أرواحنا فى المحافظة عليه ، ولن يتكرر ما حدث لأخيه ..

ولان قلب الشيخ تحت استعطاف أبنائه له ، والأب أب على أى حال .. إن قلبه نسَّاء للأحقاد ، غفار للهفوات ، صفوح عن الزلات ، حتى قال الحكماء : يكاد الأب يغفر هفوة الابن قبل أن يرتكبها بل ويعتذر له عنها ..

وقال الأب لأبنائه : أعطونى عهد الله وميثاقه أن تحافظوا عليه . وألا تسلموه إلى خطر كما أسلمتم أخاه من قبل ، وأن تعودوا به إلَىَّ سالمًا إلا أن يحاط بكم فتهلكوا أو تموتوا دونه أو تغلبوا عليه ..

فأعطوه الميثاق .. وألزموا أنفسهم به ..

لقد رأى الأب حاجة أولاده إلى الطعام ، وأن الجوع سوف يهلكهم إن لم يعودوا للامتيار وطلب الطعام . إن وطأة القحط شديدة ، وها هى ذى

أخبار المجاعة التى تفنى الناس تتوارد مع حركة القوافل الذاهبة والآتية . فما للشيخ لا يفزع منها ويحتاط لها ؟

لقد أحس أن رحلة أبنائه إلى مصر لابد أن تتكرر حتى تزول الحاجة الدافعة إلى ذلك . ولا معنى لذهابهم دون حصولهم على القوت ، وقد اشترط الوزير لإعطائهم القوت أن يعودوا ومعهم أخوهم .. فليجربهم أيضًا هذه المرة ، ولعلهم إن كذبوا بالأمس أن يصدقوا غدًا ..

وسلم الشيخ أمره لله .. وأخذ على أبنائه العهد ، وسمح لهم باصطحاب أخيهم معهم .

وكان إخوة يوسف صادقين هذه المرة فى عهدهم ، فقد تقدمت بهم السن ، وفارقهم طيش الشباب ، وليس هناك من شك فى أنهم ندموا على ما فعلوه بيوسف ، ورجعوا على أنفسهم باللائمة ، ولكن بعد فوات الأوان ..

فهم فى هذه المرة كانوا صادقين ..

وللصدق دلائل تظهر فى أسارير الوجه ولمحات العيون ..

ومن الضرورى أن الأب قد لمح الصدق فى نبرات أصواتهم وقسمات وجوههم ولمحات عيونهم ..

وتجهز الإخوة للسفر ، ومعهم « بنيامين » وقبل أن يخرجوا تقدموا لوداع أبيهم وتحيته ، فزودهم بنصائحه ودعواته ..

أما النصائح ، فقد أوصاهم بأخيهم خيرًا ، وأنهم إذا جاءوا إلى حدود مصر لا يدخلوا من باب واحد .. بل يدخلون من أبواب متفرقة .. ولذلك أسباب ..

قد تكون هذه الأسباب دفع الشك عنهم ، فهم إخوة أبناء رجل واحد يلفتون بمنظرهم الناس ، فربما ظنهم البعض أعداء وقد يكون الحسد ، والحسد داء وبيل يدخل الرجل القبر والجمل القدر ، وقد أمرنا الله بالاستعاذة منه ..

وربما أنكر بعض الناس تأثير الحسد ، ولكن الشواهد تؤيده .

وهذا هو القرآن الكريم يقول فى حق النبى - ﷺ - : ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾[93] .

فقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية أن المشركين قصدوا أن يصيبوا النبى - ﷺ - بالعين ، فنظر إليه قوم من قريش وقالوا : ما رأينا مثله ولا مثل حججه ..

وقيل : كانت العين فى بنى أسد حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم ، فيعاينها ، ثم يقول : يا جارية خذى المكتل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة ، فما يبرح حتى تقع للموت فتنحر .

وكان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئًا يومين أو ثلاثة ، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنمًا أحسن من هذه . فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة . فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب النبى - ﷺ - بالعين فأجابهم ، فلما مر النبى - ﷺ - أنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيدًا   وإخال أنك سيد معيون

فعصم الله نبيه - ﷺ -[94].

والحسد هو تمني الحاسد زوال النعمة عن المحسود . وهو من قبيل التأثيرات النفسية - كما يقول العلامة ابن خلدون :

« وقد أنكر الماديون الحسد وقالوا بعدم وجوده ، على الرغم من قيام الدليل الملموس على وجوده ، ولو أنصفوا لما رأوا لهم حجة فى دحضه ، كيف وقد قال القرآن الكريم : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ » .

---

(٩٣) الآية ٥١ من سورة القلم.

(٩٤) تفسير القرطبي جـ ٢٩ ص ٦٧٣٤ . ط دار الشعب.

وعلى كل فقد أوصى يعقوب أولاده .. عملاً باتخاذ الأسباب ، وهو يعلم أن الحذر لا يغنى ولا يفيد عند وقوع القدر ..

وقد اعترف يعقوب - عليه السلام - بذلك حين قال : وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله ..

ورد الحكم إلى الله تأدبًا معه ، وتفويضًا إليه ، وتوكلاً عليه .

ولذلك قال كعب الأحبار : لما قال يعقوب فالله خير حافظًا . قال الله - تعالى - : وعزتى وجلالى لأردن عليك ابنيك كليهما بعد أن توكلت على[(95)].

وقد قص القرآن الكريم هذه الأحداث بقوله - تعالى - :

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[(96)]

---

(٩٥) تفسير القرطبي .

(٩٦) الآيات ٦٣ : ٦٨ من سورة يوسف .

وكان للمدينة التي يقيم بها الملك والوزير أبواب عدة ، وذلك على عادة بناء المدن قديمًا .. تحاط بأسوار وقلاع ، ولا ينفذ إلى داخل المدينة إلا بواسطة أبواب تحيط بها الحراس ..

ونفذ الإخوة وصاة والدهم ، فتفرقوا عند الدخول إلى المدينة ، ولم يدخلوا من باب واحد .. وبذلك حققوا الحاجة التي قصدها والدهم ..

ولكن ما هذه الحاجة التي قضاها من تفرقهم في الدخول إلى المدينة ؟

لعل هذه الحاجة خاطر خطر بقلبه وهو وصيته التي أوصاهم بها .

ولعلها : ألا يراهم الملك وهم مجتمعون فيبطش بهم حسدًا أو حذرًا .. وقد كان منظرهم حسنًا وعددهم كثيرًا ..

وقد يكون الحسد الذي حذرهم منه ..

أنا أخوك فلا تبتئس :

ووصل إخوة يوسف إلى مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » شقيق يوسف ..

ودخلوا على يوسف - عليه السلام - .

وأغلب الظن أنه لم يحجبهم كما حجبهم في المرة السابقة ، فقد كان على شوق شديد لرؤية أخيه .

وحين رأى يوسف أخاه فرح به فرحًا شديدًا ، ولكنه غالب عواطفه وكتم أحاسيسه ، فلم يظهر عليه أثر من ذلك ..

وأقبل على إخوته قائلاً لهم : إنكم في ضيافتي مدة وجودكم في مصر . وأمر الخدم أن ينزلوهم في دار ضيافته ، وأن يعدوا لهم الطعام ، ويهيئوا لهم المكان .

وتذكر بعض الروايات أن يعقوب - عليه السلام - حمَّل أولاده رسالة إلى يوسف - رسالة شفوية - فقد قال لهم : بلغوا ملك مصر سلامي ،

وقولوا له : إن أبانا يصلى ويدعو لك ويشكر صنيعك معنا .

فلما سمع يوسف – عليه السلام – منهم ذلك غلبه البكاء ثم أكرمهم ، وأحسن نزلهم ، ثم أضافهم(٩٧).

وقال بعض الرواة : إن يوسف حضر لإخوته وقت الغداء ، فلما رأوه قدموا له هدايا كانوا أحضروها له معهم . فنظر يوسف إلى بنيامين وقال لهم : أهذا أخوكم الصغير الذى أخبرتمونى عنه ؟ قالوا : نعم .

ثم سألهم عن أبيهم ، وأخبروه أنه بخير ..

ولا يبعد أن يكونوا أبلغوه الرسالة الشفوية التي حمَّلها لهم أبوهم فى ذلك الوقت .. فإن ذلك مما تستدعيه المناسبة .

ثم أجلسهم إلى مائدة الطعام بحسب ترتيبهم فى السن ، وقد تعجبوا لذلك ، لأن عمله وافق الواقع .

وكان يربت على كتف بنيامين ، ويغدق عليه الكثير من الإقبال والعطف ، ويخصه ببعض ألوان الطعام ..

وقيل : إن يوسف – عليه السلام – لم يجلس معهم على الطعام -حتى لا يلفت إليه أنظار العاملين من الفتيان والخدم .

وقد ذكر بعض الرواة أن يوسف أجلسهم اثنين اثنين ، وبقى بنيامين وحده ، فبكى ، وقال فى نفسه : لو أن أخى يوسف كان حيًا لجلس معى ..

فأحس يوسف بما يجول فى نفسه ، فقال لهم : بقى أخوكم وحده ، فقالوا : كان له أخ فهلك .

فقال يوسف – عليه السلام – : فأنا أجلسه معى .

فأخذه وأجلسه إلى مائدته ، وجعل يؤاكله .

---

٩٧) يوسف الصديق ص ٨٨ .

وحين أقبل الليل أمر بأن ينزل كل اثنين منهم فى حجرة ، فبقى بنيامين أيضًا وحده ، فأنزله معه في حجرته ..

وهكذا خلا لهما الجو .. وأصبح بمقدور يوسف أن يحدث أخاه على انفراد دون أن يسمع إخوته ما يدور بينهما من حديث ..

وبدأ حديثهما بأن أخذ يوسف يسأل بنيامين عن أحواله وأحوال أبيه .. وتطرق الحديث عن الإخوة ثم إلى الأخ الغائب الذى فقده أبوه صغيرًا ..

وثارت شجون بنيامين عند ذلك ، وأحس بلوعة الأسى لغياب ذلك الأخ الذى كان يحبه .

فأقبل عليه يوسف مواسيًا ، يخفف عنه أحزانه ثم قال له : ألا تحب أن أكون أخًا لك بدلا من ذلك الأخ الذى فقدته ؟

قال بنيامين : بلى ، إنك بعطفك وكرمك وحسن خلقك تشبه أخى الذى فقدناه تمامًا ..

فتأثر يوسف أشد التأثر ، وغلبه البكاء والوجد ، ثم ضم أخاه بنيامين إلى صدره قائلاً : أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ..

وكانت مفاجأة سارة لبنيامين ..

ثم سأل يوسف بنيامين : هل تزوج ؟ وهل له من ولد ؟ فقال : نعم ، ولى عشرة بنين اشتققت أسمائهم جميعًا من اسم أخ لى قد هلك . فقال له يوسف : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : ومن يجد أخًا مثلك أيها الملك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ، ولا حملتك راحيل - يعنى أمه - .

فبكى يوسف ، وقام إلى أخيه فعانقه ، وأفضى إليه بالحقيقة(٩٨).

---

(٩٨) يوسف الصديق ص ٨٨ . وقد أشار الثعلبى إلى أسماء أولاد بنيامين العشرة وهم : بالعا ، وأخير ، واشكل ، واحيا ، وخير ، ونعمان ، وورد ، ورأس ، وحثيم ، وعتيم . - الثعلبى ص ١٣٢ - .

وهذا كله مما يشير إليه النص القرآنى الكريم الذى عرض هذه الأحداث .

وأوصى يوسف أخاه أن يكتم عن إخوتِهِ خبرَه ، وأعلمه أنه سيحتال لإبقائه معه .

وفرح بنيامين بلقاء يوسف فرحًا شديدًا ، وتمنى أن لو بقى معه لينعم بصحبته التى حرم منها فترة طويلة من الزمن ..

وزاد من سروره أن وجد أخاه فى هذه النعمة السابغة ، وذلك المنصب الرفيع الذى تتطامن له الجباه وتخضع له الوجوه ..

إن يوسف الذى حسده إخوته وكادوا له وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة ها هو ذا قد أصبح عزيز مصر ، يقصده الناس من كل حدب وصوب يطلبون الميرة متوسلين إليه ألا يردهم خائبين ..

لقد حمد بنيامين ربه وسجد له شكرًا أن مَنَّ عليه بلقاء أخيه بعد طول غياب ، وبعد أن كان يظنه فى عداد الأموات ..

ولذلك ابتهج ابتهاجًا شديدًا حين قال له أخوه : إنه سيحتال لإبقائه معه .

وربما أخبره بالخطة التى وضعها لذلك .

فقد حكى الثعلبى قائلاً :

قال يوسف لأخيه : إنى قد علمت باغتمام الوالد لسفرك ، فإن حبستك زاد غمه ، ولا يمكننى حبسك إلا بعد إتهامك بأمر فظيع .

فقال بنيامين : لا أبالى افعل ما تريد(٩٩).

وأزفت عودة الإخوة إلى أرض فلسطين ، فأمر يوسف فتيانه أن يجهزوا لهم ما يريدون من القوت ، وأن تملأ رحالهم من الحنطة ، وأخفى صاعه الذهبية فى رحل بنيامين دون أن يرى ذلك أحد ..

---

(٩٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٣٢ .

واستأذنوا يوسف فى الرحيل فأذن لهم .

وما أن أوشكت قافلتهم أن تغادر المدينة ، حتى سمعوا صوت مناد ينادى بأعلى صوته : قفوا أيها المسافرون .. إن هناك شيئًا ثمينًا فقده الملك ويظن أنكم أخذتموه ..

فعاد الإخوة يسألون : أى شيء فقدتموه ؟

فقال المنادى : لقد فُقد صواع الملك الثمين .

فقال الإخوة : وما شأننا نحن به ؟

فقال المنادى : إن إصبع الاتهام تشير إليكم .. وهل هناك أحد غيركم كان موجودًا أثناء فقده ؟

فقال الإخوة : تا لله ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ..

فقال المنادى : دعكم من كل ذلك . أخرجوه بالحسنى ، ولكم عندنا مكافأة سخية .. إن أتيتم به .. هذه المكافأة هى حمل بعير من الحبوب .. وأنا كفيل بذلك ..

عند ذلك قال الإخوة ثائرين : دعك من ذلك كله فلسنا لصوصًا ، وما كان لنا أن نتدنى إلى هذا الأسلوب المهين .. نحن من سلالة أنبياء فكيف نتهم بالسرقة ؟

إن مفهوم الآيات الواردة يؤيد فعلاً أن هذه الأحاسيس دارت فى نفوسهم ..

وربما أدرك يوسف أيضًا ما يعتمل فى نفوسهم . ولكنه التدبير الذى دبره ، ولابد أن يصل إلى نهايته ..

عند ذلك قال المنادى :

لابد من تفتيش أمتعتكم . ولكن قبل أن نفتشها نريد أن تحكموا بأنفسكم على من يوجد الصواع فى رحله إن وجد .

انطقوا أنتم بألسنتكم وقولوا : ما جزاء من يوجد الصواع فى رحله ؟

فقال الإخوة : جزاؤه أن يُسْتَرَقَّ ، أن يأخذه العزيز عبدًا مملوكًا له ..

إن هذا الحكم هو ما تقضى به شريعتنا ..

وارتضى المنادى ذلك .. وكان هذا ما يريده يوسف ..

وأمر حرسه بتفتيش أمتعتهم ، بادئًا بمتاع الأكبر فالذى يليه ..

وكلما بحث فى متاع ولا يجد شيئًا كانت أسارير صاحبه تتهلل وأسارير إخوته أيضًا .. فهم واثقون بأنهم براء من هذه التهمة ..

ثم جاء الدور على رحل بنيامين .. ودس الباحثون أيديهم فى داخله فإذا بهم يستخرجون الصواع ..

وبهت الإخوة .. ووقفوا مشدوهين ..

ها هى ذى التهمة قد ثبتت ضدهم ، وها هم أصبحوا سارقين فى نظر المصريين ..

إنها لفضيحة كبرى حاقت بهم فكيف يتخلصون منها ..

ونظروا إلى أخيهم فى غضب ، فقد كان سببًا فى هذا الموقف الشائن ..

وأخذوا يوبخونه قائلين : ويلك يا بنيامين ، لماذا فعلت هذه الفعلة الشائنة ؟ كيف تخون الأمانة ؟ كيف تقدم على عمل كهذا وتسىء إلينا بهذه الصورة ؟

وظلوا يوجهون إليه قارص الكلم ، وهو يحاول أن ينفى عن نفسه التهمة بكل وسيلة ..

وقد أقسم بالله أنه ما سرق ، ولكن الدليل قائم ضده .. وما يجدى ألف يمين ، وهذا هو الصواع قد استخرج من رحله أمامهم ..

إنها ليست تهمة ملفقة ، ولكنها جريمة ثابتة وفضيحة دامغة ..

وحين شعر الإخوة بحرج الموقف ، ألقوا بالاتهام كله ضد أخيهم الصغير .. قائلين :

ويلك يا بنيامين ، ما رأينا كاليوم قط ، لقد ولدت أمك راحيل لصين . أما أحدهما فيوسف ، وأما الآخر فهو أنت ..

ولقد ارتاع يوسف لهذه الكلمة .. ولكنه كتم فى نفسه ، وقال : أنتم شر مكانًا ..

إن الله يعلم أن راحيل لم تلد لصوصًا .. ولكنها ولدت أطهارًا ..

وإن الله يعلم أن ولدى راحيل مجنى عليهما .. من هؤلاء الإخوة الذين كالوا لهما التهم ..

لقد وصفوا الأخوين بالسرقة .. وهل السرقة أشد جرمًا من ذلك الكيد الذى كادوه ليوسف ، حين احتالوا على أبيه وأخذوه من بين يديه ، ثم عادوا إليه عشاء يبكون زاعمين أن الذئب أكله ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ؟

وهل السرقة أفحش من أن يلقوا أخاهم فى غيابة الجب ليكون عرضة لهوام الأرض وسباعها .

إنهم شر مكانًا حقًا .. لقد رمتنى بدائها وانسلت كما يقول المثل العربى القديم ..

ولكن ، إذا وصفوا بنيامين بالسرقة فقد حق لهم ذلك بناء على الظاهر .. أما وصفهم يوسف بالسرقة فما مستنده ؟

قال العلماء : إن عمة يوسف ، كانت أكبر من أبيه يعقوب ، وقد صارت إليها منطقة إسحاق التى ورثها من إبراهيم لكبر سنها ، فقد كانوا يتوارثون بالسن ، وهو شرع قد نُسخ .

وحين ماتت راحيل حضنت هذه العمة يوسف ، وأحبته وتعلقت به ، فلما ترعرع وشب أراد يعقوب أن يستعيده منها ، ولكنها أشفقت من فراقه وارتاعت له ، فأرادت أن تحتال لاستبقائه عندها ..

فماذا صنعت ؟ عمدت إلى المنطقة التى ورثتها من أبيها ، وأخفتها بين ثياب يوسف .

وأذاعت أنها فقدت منطقتها ، ودعت إلى البحث عنها ، ففتشوا عن المنطقة فوجدوها بين ثياب يوسف .

وكانت شريعتهم تقضى باسترقاق السارق ..

وبذلك أصبح يوسف ملكًا لها ، وظل عندها حتى ماتت فأعاده أبوه إليه ..

فأشار إخوته إلى هذه القصة ..

وعلى أية حال فقد احتال يوسف حيلته تلك ليستبقى أخاه عنده .. فبشريعة آل يعقوب وحدها هى التى تمكنه من استرقاق أخيه ..

أما شريعة المصريين فلا تعطيه هذا الحق .. ولذلك اشترط عليهم قبل التفتيش ، وانتزع منهم الإقرار بقبول الحكم المترتب على التهمة إذا ثبتت .

ولقد كان ذلك التدبير بإلهام الله له وتمكينه إياه ..

ولنقرأ الآيات التى دارت حولها هذه الأحداث ، لنرى أى بلاغة وبيان وإعجاز يحتوى عليه كلام الله الحكيم ..

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا
وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا
تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾
قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ
ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾(١٠٠)

ولابد أن يوسف – عليه السلام – قد ضايقه اتهام إخوته إياه بالسرقة بعد طول هذه السنين الماضية ، مع أنه فى نظرهم فى ذمة الله .. وكأنهم لم يكتفوا بظلمه حيًا بل أصروا على ظلمه ميتًا كذلك ..

وإذا لم يكونوا قد راعوا حرمة الأحياء فما بالهم لا يراعون حرمة الأموات ؟

ثم ما ذنب راحيل فى كل ذلك ؟

ولماذا يظلمونها هذا الظلم البين فينسبون إليها بأنها تخصصت فى ولادة اللصوص ؟

ألم يقولوا : إن راحيل ولدت لصين ؟

وهب أنه سرق ، فقد سرق صغيرًا دون سن التمييز .. وهى حادثة ينبغى للأيام أن تقضى عليها تمامًا ، فأى عقل يقضى بأن يُعَيَّر الرجل بشىء أخذه فى طفولته ؟

وهل يفرق الطفل بين ما يملكه ، وما لا يملكه ، حتى إذا أخذ شيئًا لا يملكه عد سارقًا ؟

وما بالك – إذن – إذا كان كل ذلك لم يفعله ، بل هو ضحية فيه ؟
ومع ذلك فقد طوى يوسف كشحًا عن مقالتهم تلك ، وغض الأذن عنها ، ولم يتذكرها بعد ذلك ..

وهكذا تكون أخلاق الصديقين والأنبياء ..

---

(١٠٠) الآيات ٦٩ : ٧٧ من سورة يوسف.

قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا :

وأصبح بنيامين بحكم قانون الإخوة وشريعتهم ملكًا ليوسف ..

فأمر يوسف بالتحفظ عليه ..

ونظر الإخوة إلى أنفسهم فإذا بهم يشعرون بأنهم قد فرطوا فى العهد الذى قطعوه على أنفسهم مع أبيهم ، أن يعودوا إليه ببنيامين وأن يحافظوا عليه محافظتهم على أنفسهم أو أكثر ..

وها هم أدلاء سوف يعودون وهو ليس معهم فماذا يقولون لأبيهم ؟

فأقبلوا على يوسف يستعطفونه أن يستبدل ببنيامين واحدًا منهم ..

قائلين له : أيها العزيز خذ واحدًا منا مكانه . فإن له أبًا شيخًا كبيرًا يجد فى هذا الأخ سلوة عن أخيه الذى فقده قبل ذلك ..

ولكن يوسف - عليه السلام - استنكر ذلك منهم . وقال : كيف تقولون ذلك ؟ معاذ الله أن أكون ظالمًا ، فأسترق البرىء وأترك المذنب .

« معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن لظالمون »..

ولم يقل يوسف - عليه السلام - : أن نأخذ إلا من وجدناه سارقًا .. تعففًا عن هذه اللفظة ، وتنزيهًا لقدر أخيه عن هذه التهمة .. وهنا يظهر الفرق الكبير بين يوسف وإخوته ..

ولقد حاول الإخوة أن يتألفوا يوسف بقولهم : إنا نراك من المحسنين ..

ولكن تألفهم هذا لم يجد إلا آذانًا صماء ..

إنه يريد – بما صنع من حيلة – أن يصل إلى غاية رسمها ، فكيف يصيخ لتوسلاتهم ؟

« إن الله قد أمره وأوحى إليه بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها فى ذلك ، فلو أخذ غير من أمر بأخذه كان ظالمًا وعاملاً بغير الوحى »(١٠١) ولذلك استعاذ الله من الظلم ..

ويئس الإخوة من إقناع يوسف – عليه السلام – باستبدال واحد منهم به ، واضطربوا فى أمرهم وتحيروا ماذا يفعلون ؟ ..

فاختلوا فيما بينهم يتشاورون فى الأمر ..

قال كبيرهم – ولعله « روبين » فى رأى ، أو « شمعون » فى رأى آخر أو « يهوذا » فى رأى ثالث – :

تذكروا أن أباكم قد أخذ عليكم عهدًا وميثاقًا من الله أن تعودوا بأخيكم سالمًا . ولا يغيب عن أذهانكم أنكم قد فرطتم من قبل فى أخيه يوسف ، وما زال أبوكم يُعانى ويتألم بسبب فقده ، فما الذى سيحدث له إذا ذهبنا الآن وأخبرناه أن ابنه الثانى الذى كان سلوته عن يوسف قد فُقِد أيضًا ؟

ثم قال : أما أنا فقد عزمت علي ألا أبرح مصر إطلاقًا حتى يأذن لى أبى فى الرجوع ، أو يحكم الله لى وآخذ أخى بالقوة أو بالحيلة(١٠٢).

وقد بنى قوله هذا على قول أبيه لهم : « لتأتننى به إلا أن يحاط بكم » ..

قال العلماء عن ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يرد وجهه الجم الغفير من الناس . وكان شعره يقوم فى صدره مثل المسال فتنفذ من ثيابه ..

---

(١٠١) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٤٩٣ .

(١٠٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٤٧١ .

وجاء في الأخبار : أن يهوذا قال أيضًا لإخوته : إما أن تكفوني الملك ومن معه أكفكم أهل مصر ، وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم الملك ومن معه ..

قالوا : بل اكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر . فبعث واحدًا من إخوته ، فعد أسواق مصر ، فوجدها تسعة أسواق ، فأخذ كل واحد منهم سوقًا ..

ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ، لئن لم تخل معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تبقى في مدينتك حاملاً إلا أسقطت ما في بطنها .

فلم يعجب يوسف كلامه ، وأسمعه كلمة أغضبته ، فغضب يهوذا واشتد غضبه ، وانتفجت شعراته .. وكان إذا حدث ذلك لا يسكن غضبه إلا إذا مسته يد من نسل يعقوب ..

فلما علم يوسف أن غضب يهوذا قد اشتد وكمل ، أمر ولدًا صغيرًا له بالقبطية أن يضع يده بين كتفي يهوذا من حيث لا يراه .

ففعل فسكن غضبه ، وألقى السيف ، والتفت يمينًا وشمالاً لعله يرى أحدًا من إخوته ، فلم ير أحدًا .

فخرج مسرعًا إلى إخوته وقال : هل حضرني أحد منكم ؟

قالوا : لا ..

قال : فأين ذهب شمعون ؟

قالوا : ذهب إلى الجبل ..

فخرج فلقيه ، فإذا به يحتمل صخرة عظيمة . فقال له : ما تصنع بهذه ؟

قال : أذهب بها إلى السوق فألقيها على من فيه ..

فقال له : ارجع فردها أو ألقها في البحر ، ولا تحدثن حدثًا ، فو الذي اتخذ إبراهيم خليلاً ، لقد مسني كف من نسل يعقوب .

ثم أقبل الإخوة فدخلوا على يوسف ، فتلقاهم بما هو أشد غضبًا وبطشًا ..

وقال لهم : يا معشر العبرانيين ، أتظنون أنه ليس أحد أشد منكم قوة .. ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحون فركله برجله ، فدحا به من خلف الجدار ، ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه ، ونادى يطلب الحدادين أن يقطعوا أيديهم وأرجلهم وأعناقهم ..

وجلس فوق سرير حكمه ، وأمر بالصواع فوضع بين يديه ، ثم نقره نقرة فطنّ . فالتفت إليهم قائلاً : أتدرون ماذا يقول ؟

قالوا : لا ..

قال : إنه يقول : إنه ليس على قلب أبى هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم .. ثم نقر نقرة أخرى وقال : أتدرون ما يقول .

قالوا : لا .

قال : إنه يقول : إن هؤلاء كان لهم أخ صغير فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه .

فاستكانوا عندئذ وقالوا : يأيها العزيز استر علينا ستر الله عليك ، امنن علينا منّ الله عليك ..

فنقره نقرة ثالثة . وقال : إنه يقول : إن هؤلاء طرحوا صغيرهم فى الجب ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس ، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله .

ونقره نقرة رابعة وقال : إنه يخبرنى أنكم أذنبتم ذنبًا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه ولم تتوبوا إليه .

ثم نقره نقرة خامسة ، وقال : إنه يقول : إن أخاهم الذى زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا .

ثم نقر نقرة سادسة ، وقال : إنه يقول : لو كنتم أنبياء أو بنى أنبياء ما كذبتم ولا عققتم أباكم ، ولأجعلنكم نكالاً للعالمين ..

فتضرعوا وبكوا ، وأظهروا التوبة وقالوا : لو أصبنا أخانا يوسف لنكونن طوع يده ، وترابًا يطأ عليه برجله ..

فرحمهم يوسف ، وقال : اذهبوا فقد تركتكم إكرامًا لأبيكم ، ولولا هو لجعلتكم نكالاً(١٠٣).

وواضح أن هذا الحوار كله مصدره أهل الكتاب ، إذ لم يرد فى القرآن الكريم شيء منه .. وفيه ما فيه مما يستبعده العقل .

وعلى كل لا يبعد حدوثه .. فالإخوة قد غلبهم الضيق أن يرجعوا إلى أبيهم بدون أخيهم .. وربما فكروا فعلاً أن يحدثوا حدثًا فى مصر يضطرون به يوسف أن يسلمهم أخاهم . ولكن يوسف بما أتاه الله من حكمة ومعجزة قد أفسد تدبيرهم وأبطل كيدهم ..

وقال كبيرهم : عودوا أنتم إلى أبيكم فأخبروه بما حدث ، وقولوا له : إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا نعلم الغيب ، حتى نعرف أن ذلك سوف يحدث ..

وسوف يكذِّب الأب ما سوف تقولون ، فقولوا له : هذه العير التى أقبلنا فيها تشهد بصدق ما نقول ، وهذه القرية التى كنا فيها أهلها جميعًا يعرفون ما حدث .

لقد توقع الابن أن الأب لن يصدق الإخوة فيما يخبرونه عن أخيهم .. لأن هناك سوابق تُجوِّز له الشك فى أخبارهم .. إنهم عند أبيهم ليسوا فوق مستوى الشبهات .. ولذلك رسم لهم الأخ طريق الخلاص من الارتياب فى أقوالهم ..

وعاد الإخوة إلى أبيهم تسعة بعد أن كانوا أحد عشر رجلاً ..

---

(١٠٣) تفسير القرطبى ..

وقصوا على أبيهم الخبر ..

وصح ما توقعه الأخ الباق فى مصر .. بأن يعقوب - عليه السلام - لم يصدقهم ..

وقال فى حزن وأسى : بل سولت لكم أنفسكم أمرًا ..

لقد أردتم التخلص منه كما تخلصتم من أخيه من قبل ..

كانت مؤامرتكم الأولى على يوسف ، وزعمتم أن الذئب أكله .. والذئب من ذلك برىء ..

وهذه مؤامرتكم الثانية على بنيامين ، تزعمون أنه سرق ..

وما أكل الذئب يوسف ، وما سرق بنيامين .. كلاهما ضحية بريئة ..

وأعرض يعقوب عن أبنائه ، ورجعت إليه أحزانه .. ولكنه لم ينس أن يعتصم مع ذلك بالصبر والأمل معًا ..

فهتف قائلاً : « فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعًا » ..

من أفهام أهل الذوق :

وانظر إلى الأسلوب القرآنى الجميل .. الذى جعل الضمير « بهم » يعود على جمع ، مع أن الذى يرد فى الخاطر اثنان وهما يوسف وبنيامين ..

وقد قال أهل الذوق فى ذلك : إن يعقوب لم ينس وهو فى غمرة حزنه على هذين الولدين العزيزين أن لهما أخًا ثالثًا هو الذى رفض مغادرة مصر حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله له ..

إن هذه لفتة دقيقة من اللفتات التى تشهد بدقة البيان القرآنى وروعته ..

لقد حاول يعقوب - عليه السلام - أن يتذرع بالصبر ..

وقد وصف صبره بأنه جميل قال « فصبر جميل » ..

والصبر الجميل كما فسره أهل العلم هو : أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يُدْرَى من هو(١٠٤).. فهو حزين فى داخله دون أن يظهر أثر ذلك على وجهه ..

ولجوء يعقوب إلى الصبر لجوء إلى ركن شديد وهو الإيمان ، لأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وقد سئل النبى – ﷺ – عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة(١٠٥).

ولكن يعقوب – عليه السلام – غلبه وَجْدُه على ولديه ، وبخاصة يوسف ، فكان شأنه شأن الشاعر الذى يقول :

الصبر يجمل فى المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يجمل

ولذلك قال بعض العارفين : أصبح يعقوب – عليه السلام – وقد وعد الصبر من نفسه ، فقال : فصبر جميل ، أى فشأنى صبر جميل ، ثم لم يمس حتى قال : يا أسفا على يوسف ..

أما لماذا خص يوسف بالأسف عليه .. فإن الرزء الجديد ذكره بالرزء القديم ..

ولم يكن فقد بنيامين إلا حلقة فى سلسلة من المآسى بدأت بفقد يوسف .. فما كانت آخر الحلقات لتنسى أولى الحلقات ..

وفَقْد يوسف ما زال حيًّا غضًا فى نفس يعقوب وإن تطاول عليه الزمن ، فهو قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا فى ولده(١٠٦)، هو كما قال الشاعر :

ولم تنسنى أوفى المصيبات بعده   ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

---

(١٠٤) الرسالة القشيرية ص ٩٤ .

(١٠٥) أخرجه البخارى عن طريق عمير عن ابيه عن جده ..

(١٠٦) الزمخشرى فى الكشاف جـ ٢ ص ٤٥٧ .

لقد كان حزن يعقوب على يوسف آية فى الحزن ، وصفها الحق بقوله - تعالى - ﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ ، أذهب البكاء سواد عينيه ، فقد قيل : إن عينيه لم تجفا من الدمع منذ فراقه حتى لقائه ..

وقد أخبر الرواة أن رسول الله - ﷺ - سأل جبريل - عليه السلام - : ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف ؟

قال : وجد سبعين ثكلى . قال : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة قط .

ولكن كيف يبلغ الجزع بنبى هذا الجزع ، وهو القدوة فى الصبر ، والأسوة فى التحمل ؟

وللإجابة عن ذلك قال العلماء : إن الإنسان بطبيعته البشرية مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن . والحزن - على أى حال - محله القلب . والذى ينافى مقام النبوة هو الخروج بالحزن إلى ما لا يجمل من تصرفات ، ككثرة الشكوى والصراخ والعويل وإظهار الجزع وغير ذلك مما نهى عنه النبى - ﷺ - ..

ولقد بكى النبى - ﷺ - على ولده إبراهيم ، وقال : إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول ما يسخط الرب وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ..

لقد كان حزن يعقوب فى قلبه ، يكظمه فى داخله ، وبكاؤه فى عينيه بدون صوت أو ولولة ..

وهذه صفات أولى الرحمة من الناس ..

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد من أولاده من يلومه ..

فقالوا له : إنك ما تزال تذكر يوسف حتى توشك على الهلاك أو تهلك بالفعل ..

يقال : إنه دخل عليه جار له ، فقال : يا يعقوب ، قد تهشمت وفنيت وبلغت من السن ما بلغ أبوك .

فقال : هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف ..

فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكوني إلى خلقي ؟

فقال : يارب خطيئة أخطأتها فاغفر لي . فغفر له ..

فكان بعد ذلك إذا سئل قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ..

وهذه هي الآيات الكريمة التي صورت هذه الأحداث :

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١٠٧)

لقد حاول الإخوة أن يستثيروا عاطفة الرحمة في يوسف ، فقالوا له : إن له أبا شيخا كبيرا ..

---

(١٠٧) الآيات ٧٩ : ٨٦ من سورة يوسف .

وعاطفة الإيثار فقالوا له : فخذ أحدنا مكانه ..

وعاطفة الإحسان فقالوا له : إنا نراك من المحسنين ..

ولو كان الأمر خاليًا من التدبير لا يبعد أن يكون يوسف - عليه السلام - قد استجاب لهم .. بل إنه كان لا يلجئهم إلى هذا الاستعطاف الذى بلغ مداه ..

فقد جبل الأنبياء على الرحمة والإيثار والمواساة ..

ولكنه كيد كاده الله له ليستبقى به أخاه ثم ليجلب به أباه ..

ولأهل الذوق فى نسق هذه الآيات الكريمة أقوال واستنباطات .. منها على سبيل المثال ..

أن قوله - تعالى - : ﴿ فلما استيأسوا منها خلصوا نجيًا ﴾ غاية فى الإيجاز البلاغى الجميل ..

فقد أبانت الآية عن اعتزالهم للناس وتقليبهم الآراء ، وأخذهم فى التفكير فيما يلقون به أباهم عند عودتهم ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث ، أما قوله « استيأسوا » فإن السين والتاء للمبالغة ، يعنى كأن اليأس قد بلغ منتهاه منهم ، و « خلصوا نجيًا » يفيد أنهم انفردوا بأنفسهم وابتعدوا عن المخالطين لهم حتى يقبلوا وجوه الرأى فى عزلة ، والتناجى لا يكون إلا فى منجاة من المستمع والرقيب ..

أما قوله « سولت لكم أنفسكم أمرًا » فيفيد بأن أولاده وإن كان ليس لهم يد فى استبقاء بنيامين فى مصر إلا أنهم ما زالوا متهمين فى نظره بالنسبة لسابقتهم الأولى مع يوسف .. وكأن شأنهم شأن الكاذب الذى تلصق به كذبات غيره .. مصداقًا لقول الشاعر :

فـإذا سمـعت بكذبـة من غيره نسبت إليـه

وربما وجد يعقوب قرينة تدينهم فى هذا الأمر حين أفتوا يوسف بأنه من حقه أن يسترق من يجد الصواع فى رحله ، فهم بذلك أعطوه السلاح

بيدهم الذى به يسترق أخاهم .. وقد كان فى إمكانهم أن يطلبوا التحرى عمن وضع الصواع بدلاً من الاستسلام لمن وجه الاتهام دون مطالبة بالتحقيق فى هذا الأمر ..

سر العداء بين الإخوة :

ولقد أرجع بعض الباحثين عداء إخوة يوسف له ولأخيه إلى تعدد الزوجات .. وأن الأولاد ليسوا أشقاء ..

ولكن هذا السبب ليس من الوجاهة بمكان ، وهناك ما ينقضه .

فإن بنيامين ويوسف ابنا راحيل ، أما بقية الإخوة فأمهاتهم ليًا ، وبلها ، وزلفى ..

فهم ليسوا من أم واحدة حتى يمكن التسليم برأى من يقول إن التعدد سبب الخلاف ..

فها نحن نرى أن أمهاتهم متعددة .. ومع ذلك لا خلاف بينهم ..

إن الخلاف كان بين أبناء الأمهات الثلاثة العشرة والاثنين ابنى راحيل ..

فالتعدد ليس سببًا للخلاف والشقاق بين الأبناء ..

إن الخلاف له سبب آخر بعيد كل البعد عن التعدد ، والدليل على ذلك أننا كثيرًا ما نرى أخوين غير شقيقين أو إخوة غير أشقاء وبينهم من الوفاق ما يتحدث عنه الرفاق ، وما يكون له ذكر فى الآفاق ..

وكثيرًا ما نرى أخوين شقيقين أو إخوة أشقاء وبينهم من الخلاف ما يقطع حبال الائتلاف ويبتعد بصاحبه عن طريق الإنصاف ..

إن مرد التوافق بين الأبناء إلى التقوى والتمسك بآداب الدين والخوف من الله والمحافظة على صلة الرحم ..

ومرد الاختلاف إلى البعد عن روح الدين وتنكب منهجه وعدم الخوف من الله ..

وفى حياة يعقوب – عليه السلام – وأخيه عيصو مثل لذلك ، فقد كانا توأمين ، ومع ذلك حدث بينهما خلاف شديد أدى إلى قطع المودة ، وهروب يعقوب إلى حران فارًا بنفسه من بطش أخيه ..

وهذا قابيل قتل أخاه هابيل وهما شقيقان من أب واحد وأم واحدة ..

إن تعدد الزوجات وإن كان الدين قد قيده بقيود ثقيلة تكاد تجعله ممنوعًا لا ينبغي أن نجعله سببًا فيما حدث بين أبناء يعقوب .. وإلا لماذا كان هناك وفاق بين بقية الإخوة مع أنهم غير أشقاء جميعًا ؟؟

اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى :

واستمر الأب الحزين فى حزنه ، ولم تنسه الأيام فقد أولاده ، بل زادته جوًى وحسرة .. وربما كان يجدد الحزن إحساسه بوجود يوسف على قيد الحياة دون أن يعرف له مكانًا يؤويه .. فلو كان متيقنًا من هلاكه لتأسى كما يتأسى الناس على موتاهم .. وتلك سنة الحياة ..

والحكماء يقولون : كل شيء يولد صغيرًا ثم يكبر إلا المصائب فإنها تولد كبيرة ثم تصغر .. ولكن مصيبة يعقوب فى أولاده ما صغرت قط ، بل ضاعفتها الأيام حدة وزادتها شدة ..

ولعل السبب فى ذلك أن صانعى المصيبة أولاده ، وهم أمامه ، فهو يتذكر ما صنعوه صباح مساء .. وكأنه كان يقول كما قال غيره : لو غير يدى رمت ؟

وكأن الشاعر العربى كان يعنيه حين قال :

قومى همو قتلوا أميم أخى   فإذا رميت يصيبنى سهمى

منهج الاسلام فى التعزية :

وقد جاء الإسلام فيما بعد يعلم الناس الصبر على المصائب ، ويضع لهم المنهج السليم فى ذلك فقال :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[١٠٨]

وقد ورد عن النبى - ﷺ - أنه قال : لم تعط أمة من الأمم « إنا لله وإنا إليه راجعون » عند المصيبة إلا أمة محمد - ﷺ - ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع ، وإنما قال : يا أسفا على يوسف[١٠٩].

إنه من المفروض على الإنسان الاستسلام لقضاء الله ، وتلقى ما يجريه الله عليه بالصبر والرضا ، فإن فى ذلك تسكينا للنفس مما تشعر به من مرارة الهم ولوعة الحزن .

لقد كان يعقوب - يحس فى داخله بوجود يوسف على قيد الحياة .. وهذا ما يعنيه قوله « واعلم من الله ما لا تعلمون » ..

قالوا : إنه كان قد سأل ملك الموت : هل قبضت روح ابنى يوسف ؟

قال : لا .. فأكد هذا رجاءه .

وربما استشف يعقوب من حديث أولاده عن وزير مصر العادل أنه ولده .. إن الحاسة السادسة التى يتحدث عنها العلماء لا تكذب ، ولا سيما مع الأنبياء ، الذين ميزهم الله بالوحى والإلهام الصادق والفراسة الصائبة ..

---

(١٠٨) الآيات ١٥٥ : ١٥٧ من سورة البقرة .

(١٠٩) أخرجه الثعلبى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا ، وأخرجه الطبرانى فى الصغير ، وأورده الزمخشرى فى الكشاف .

ومن أجل ذلك قال يعقوب لأولاده : يا بنى إذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه وهو لم يتحدث عن الأخ الثالث .. لأنه يعلم يقينًا أنه فى عافية ، وأنه بقى فى مصر باختياره ، ولم يحبس عن العودة كما حبس بنيامين .. وليس فى حكم المفقودين كيوسف ..

طلب إليهم أن يستعملوا حواسهم فى معرفة أخبار إخوتهم .. والتحسس طلب الشيء بالحواس ، وهذا يتطلب أن تكون الحواس يقظة ، تعمل فى خفة وهدوء .. لتصل إلى نتيجة مرضية ..

وهو بخلاف التجسس الذى قد يصحبه العنف ، وهو مشتق من الجس ..

وألقى عليهم بنصيحة بالغة ، فقال لهم : لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ..

لقد أحيا فى نفوسهم الأمل ، والأمل من جنود الله القوية ..

وحذرهم من القنوط الذى هو من أسلحة الشيطان الفتاكة ..

وقد نهانا الله – سبحانه وتعالى عن القنوط فقال : ﴿ لا تَقْنَطُوا من رحمَةِ الله ﴾ (١١٠) . وقال : ﴿ ومَنْ يَقْنَطُ من رحمة رَبِّه إلا الضَّالون ﴾ (١١١) .

وأذكى يعقوب فى نفوس أولاده روح الأمل ، ولعلهم استشعروا فى أنفسهم مدى الجناية التى ارتكبوها فى حق هذا الشيخ فأرادوا أن يكفروا عن سيئاتهم معه .. وخفوا سراعًا لإجابة مطلبه ، وتهيئوا للسفر نحو مصر ، فهى الجهة التى أحس يعقوب أن فيها الفرج ، وفيها اثنان من أولاده على وجه اليقين ..

---

(١١٠) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

(١١١) الآية ٥٧ من سورة الحجر.

وإن أكثر الناس يقينًا بوجود يوسف على قيد الحياة هم هؤلاء الإخوة ، لأنهم يعرفون أنهم لم يقتلوه ، وأنهم اختلقوا قصة الذئب اختلاقًا ، ولكن الذى لا يعرفونه هو مكانه ، ومصيره ..

ويقال : إن يعقوب حمَّل أولاده رسالة إلى عزيز مصر .. هى :

من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله ..

أما بعد ، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ..

أما جدى فقد شدت يداه ورجلاه وألقى فى النار ، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا .

وأما عمى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ليذبح ففداه الله .

وأما أنا فكان لى ابن ، وكان أحب أولادى إلَىَّ ، فذهب به إخوته إلى البرية ، ثم أتونى بقميصه ملطخًا بالدم ، فقالوا : أكله الذئب ، فذهبت عيناى من بكائى عليه . ثم كان لى ابن وكان أخًا شقيقًا له ، وكنت أتسلى به ، فذهبوا به ، ثم رجعوا ، وقالوا : إنه سرق ، وإنك حبسته لذلك .

وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا ، فإن رددته إلَىَّ ، وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك(١١٢) ..

ووصل الإخوة إلى مصر ، وطرقوا باب العزيز ، وأوصلوه رسالة والدهم فقرأها . فلم يتمالك البكاء ، وعيل صبره ..

وقد تكون هذه الرسالة من أخبار الكتابيين ..

ولم يرد بشأنها شىء فى القرآن الكريم ..

---

(١١٢) تفسير الوسيط جـ ٢ ص ١٦٤ ، والكشاف جـ ٢ ص ٥٧ .

وفي أسلوبها دليل على وضعها ، حيث قال : وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا ..

فبماذا يفسر فعل أولاده مع أخيهم يوسف ؟ هل هو دون السرقة أو فوق السرقة ؟

ثم إن التهديد الذى ورد فى آخر الرسالة لا يناسب أسلوب الاستعطاف الذى يحقق الحاجة وقد يؤدى إلى الهدف ..

ولكن ما أجمل حوار القرآن بين الإخوة ويوسف ، وفيه بلاغة ألف رسالة ورسالة ..

قالوا له : يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ..

فهل هناك شكاة أبلغ من هذه ؟

إنها تتضمن كل ما هم فيه من آلام حسية ومعنوية ..

أما الآلام الحسية فهى الهزال والجوع ، وذلك القحط الذى أهلك الحرث والنسل وقضى على الزرع والضرع وأكل الأخضر واليابس ..

ومع الجدب والجوع يأتى المرض والخراب ..

وأما الآلام المعنوية ، فتلك الأمراض النفسية المترتبة على الفقر والجوع والقحط ، وذلك الحزن الشديد الذى ترتب على فقدان الأب ابنه الثانى بعد فقدان ابنه الأول ، وما هم فيه من معاناة قاسية بسبب ذلك ..

وكأنهم قالوا له : يأيها العزيز لقد أتعبتنا شدائد الزمن ، وحاقت بنا ضوائق الأيام ونكبات الحياة ، ونحن من أسرة كريمة ، وسلالة آباء أعزاء ، وفى حاجة إلى أن تنظر إلينا نظرة خاصة فيها مزيد من العطف والرحمة ..

وقد مهدوا بكل ذلك ليقدموا ما معهم من بضاعة زهيدة ثمنًا لما هم فى حاجة إليه من طعام فقالوا :

وجئنا ببضاعة مزجاة، والبضاعة المزجاة هى القليلة التى لا يقبلها كل أحد.

لقد كانت هذه البضاعة من متاع الأعراب صوفًا وسمنًا ، وقيل : هى من السويق والأقط ، وقيل : كانت قديدًا ، وقيل : هى من الصنوبر والحبة الخضراء التى تعصر زيتًا فيعمل منه الصابون ، وقيل : كانت نعالاً وأدمًا ..

ورجا الإخوة العزيز أن يقبل هذه البضاعة ثمنًا لما يقدمه لهم من طعام ، وأن يتصدق عليهم نظرًا لحالتهم التى وصفوها ..

لقد أظهروا من حالهم وشكواهم ما يعطف عليهم النفوس ويرقق عليهم القلوب ..

وليس فى ذلك من بأس عند الضرورة ..

إن الإنسان يخاف فيفزع إلى من يؤمنه ، ويمرض فيلجأ إلى الطبيب ليعالجه ، وليس فى ذلك قدح فى التوكل ..

إن الشكوى عند الضرورة جائزة – بل واجبة عند الفقهاء – ما لم يكن مبعثها التسخط لقضاء الله ..

ولكن الصبر والتجلد وبخاصة فى النوائب أفضل ، والتعفف عن المسألة أجمل ، وأحسن الكلام فى الشكوى سؤال المولى – عز وجل – كما جاء على لسان يعقوب – عليه السلام – وحكاه الله – تعالى – « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله »[١١٣].

وتلطف الإخوة فى طلبهم ، وقدموا وصف حالتهم بين يدى مسألتهم ..

ثم طلبوا من العزيز شيئين فى نظير البضاعة المزجاة التى جاءوا بها ..

طلبوا كيلاً وافيًا ، وصدقة ..

لقد طلبوا من يوسف ضمنًا أن يغض النظر تمامًا عن رداءة البضاعة التى قدموا بها .. وأن يكيل لهم كيلاً وافيًا بها ، وفى ذلك صدقة مخفية .. والصدقة المخفية هى التى تكون فى البيع والشراء ..

---

(١١٣) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٣٤٨٢ .

ليس المقصود بقولهم « تصدق علينا » مفهوم الصدقة العادية ، لأن هذه الصدقة تحرم على الأنبياء ، وقد ورد فى أوصاف النبى - ﷺ - أنه يقبل الهدية لا الصدقة ، وكانت الصدقة محرمة على أهل بيته ..

وإذن فمقصود الصدقة فى قولهم هى أن يزيد لهم فى العطاء وأن يتفضل عليهم بما هو أكثر من حقهم ..

ولبعض العلماء فهم دقيق في قولهم : تصدق علينا .. هو أن يتصدق عليهم برد أخيهم إليهم وهذا أقرب إلى القبول .

ولو أن هناك قلبًا مقدودًا من صخر استمع إلى كلام هؤلاء الإخوة بين يدى العزيز وهم يصفون حالهم ويعرضون مسألتهم ويستعطفون قلبه لتقطر رحمة بهم وشفقة عليهم ..

فما بالك بقلب نبى ابن نبى ، وهو منهم وهم منه ؟ إنه أخوهم ..

إن قلبه قد لان قبل أن يعرضوا مسألتهم ، وهو بعد أن عرضوها أصبح أشد لينًا ، لقد نسى ما حدث منهم تمامًا ، وكأنه لم يكن لقد آن الأوان أن يكشف لهم عن نفسه ، وأن يضع حدًا لهذا الأمر وأن ينهى هذه المأساة ويجعل لها خاتمة سعيدة ..

ولقد نظر إلى والده الشيخ الذى عذبته الأحداث ، وصهرته المحن ، وأرهقته الآلام فلم يشأ أن يعذبه أكثر من ذلك ..

فقال لهم فى أسلوب استفهامي لين ، يثير به أذهانهم ويستلفت به عقولهم ، ويستثير به ضمائرهم : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟

ومع ذلك فما أحلمه فى مخاطبتهم وما أرقه فى الاعتذار عنهم ..

ذكرهم بفعلهم واعتذر عنهم بجهلهم لمغبة ما فعلوا .. لأن الذى يصنع القبيح على جهل بمقدار قبحه خير من الذى يصنعه وهو عالم بقبحه .. وقد اعتذر موسى - عليه السلام - عن فعلته التى فعلها بقتله الغلام

المصرى قائلاً : « فعلتها إذًا وأنا من الضالين »[114]. وكأنه قال لهم : لقد زين لكم الشيطان وأنتم فى حداثة الشباب أن تكيدوا ليوسف وأخيه ، ودبرتم مؤامرة شيطانية استللتم بها يوسف من بين يدى والده ، وجردتموه فى غلظة من ثيابه ، وألقيتم به فى قعر جب مظلم موحش ، وفرقتم بينه وبين والده ..

فهل تذكرون ذلك ؟

ووقع هذا الكلام على إخوته وقوع الصاعقة.. وانتابتهم حالة من الذهول والحيرة..

إنه يذكر الأحداث كما وقعت تمامًا .. ويعرف من الأسرار ما لا يعرفه أحد سواهم .. فمن أعلمه بذلك ؟

لقد أخذ يوسف يقص عليهم تفاصيل ما حدث منهم فى ذلك اليوم ، ويذكرهم به ..

إن أحدًا لا يعرف هذه التفاصيل إطلاقًا إلا هو وهم ..

فمن يا ترى ذلك الذى يحادثهم بهذه التفاصيل الدقيقة ، ويعيدها أمامهم كأنها قد حدثت اليوم ؟

لقد أخذوا يعودون بذاكرتهم إلى الوراء ، وحاولوا أن يتذكروا ملامح يوسف الصبى باكيًا متضرعًا مودعًا ، ويقارنون بين هذه الملامح وملامح ذلك الرجل الذى يخاطبهم الآن ..

كما أخذوا يفكرون فى قول أبيهم الذى طلب منهم أن يتحسسوا عن يوسف وأخيه ، فإذا بهم يخلصون من كل ذلك بنتيجة لا ريب فيها ، هى أن ذلك الذى يخاطبهم هو يوسف نفسه ..

ولكنهم لم يريدوا أن يلقوا بهذه النتيجة فى أسلوب تقريرى مؤكد ..

بل ساقوها فى أسلوب استفهامى يحفظون به خط الرجعة إن كانوا قد أخطأوا فى الحسبان ..

قالوا له : أئنك لأنت يوسف ؟ ..

أخيرًا أدركوا ..

أبعد هذه الرحلات المتكررة ، واللقاءات المتعددة أحسستم ؟

أين الفطنة التى ما ينبغى أن تغيب عن أولاد الأنبياء ؟

---

(١١٤) تعليق على تفسير الزمخشرى فى الكشاف جـ ٢ ص ٥٠٠ .

أين الذكاء الذى يدل صاحبه على حقائق تفوت على غيره من الناس ..

هل فكروا فى رحلاتهم السابقة فى الحفاوة الزائدة التى كان يستقبلهم بها يوسف ؟

هل استعملوا عقولهم فى الإلحاح منه على معرفة أحوالهم وأحوال أبيهم ؟

هل نظروا لماذا أصر على أن يحملوا معهم فى المرة الثانية أخاهم ؟

وحين حملوه معهم لماذا فاتهم أن يتدبروا اختصاص يوسف بهذا الأخ وإنزاله معه فى خاصة بيته دونهم ؟

أكل هذه التصرفات تمر دون أن تسترعى انتباههم ؟

فعلى أى شىء يدل ذلك ؟ إنه يدل - إن لم نسىء الظن بفطنتهم - على أن الله أراد أن يضع حجابًا من الغفلة بينهم حتى يحين الوقت المعلوم لانكشاف السر ومعرفة الأمر ..

وإلا فقد كان هناك من الدلائل فى هذه اللقاءات المتعددة ما عسى أن يكشف لهم المستور ، ويظهر لهم المخبوء ..

لقد فاتتهم الألمعية .. والألمعية هى سرعة اللمح والإدراك بالظن مصداقًا لقول الشاعر :

الألمعى الذى يظن بك الظن   كأن قد رأى وقد سمعا

وأخيرًا قال لهم يوسف : بلغتهم ليتأكدوا ..

أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا ..

انظروا يا إخوتى .. إلى عاقبة التقوى والصبر ..

وقارنوا بين من يكيد ويبغى وبين من يتقى ويصبر ..

ماذا فعلتم بتدبيركم السيىء ؟ وماذا صنعتم بكيدكم الشيطانى ؟ ها أنتم أولاء فى حالة بائسة .. وها نحن الآن فى هذه الحالة التى تروننا عليها من الملك والسلطان ..

هذه عاقبة التقوى والصبر والإحسان يا من له عينان تبصران وأذنان تسمعان ..

نعم ، أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا .. إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .. .

لقد أصبح المشهد غريبًا .. تغيرت فيه الأشكال والألوان ، واختلطت فيه الانفعالات ، ما بين فرح وخجل ، وخوف واطمئنان ، وصمت وكلام ..

ولم يكن أحد ليستطيع أن يعيد تلك النفوس إلى وضعها الطبيعى ، وأن يهدىء من تلك المشاعر والانفعالات المضطربة المتناقضة إلا يوسف عليه السلام - بحكمته وذكائه وفطنته - ..

فلم يعد فى مقدور إخوته ولا فى استطاعتهم أن يقولوا شيئًا سوى الاعتراف بخطئهم الجسيم ، وطلب العفو والصفح ، واستعطافه حتى يطلب العفو لهم من الله ..

لقد اعترفوا فى قرارة نفوسهم ببغيهم ، وعاقبة البغى وخيمة ..

وليست نتيجة الباغى إلا الخسران ، ونتيجة المبغى عليه إلا النجاح والفوز ..

وها هو أمامهم يرونه وقد فضله الله عليهم ، وبوأه من المنزلة العليا والسلطة ما جعل الجباه تخضع له والوجوه تخشع بين يديه .. وما عند الله خير وأبقى ..

لقد أعطاه الله الملك والنبوة .. فأى إيثار أعظم من ذلك ؟ وأى فوز أكبر من ذلك الفوز ؟

أى شمس حاولوا أن يطمسوها ؟ وأى نور أرادوا أن يطفئوه ؟

قالوا له : بلسان الاعتراف والاستعطاف :

تا لله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ..

وكان يوسف - عليه السلام - كريمًا كعادته ، رحيمًا كالعهد به ، فعفا عنهم ، ولم يوجه إليهم حتى مجرد اللوم ، ورَجا لهم المغفرة من الله فهو أرحم الراحمين ..

وأتبع ذلك بطلبه منهم أن يعودوا إلى كنعان ويأتوا بأهلهم أجمعين ليقيموا معه في مصر ، وينعموا في ظله بالرخاء والأمن ، بعيدًا عن الجدب والقحط .

وأعطاهم قميصه ليلقوه على وجه أبيهم ، فإن ريحه سوف تعيد إلى عينيه الإبصار وإلى جسده القوة وإلى روحه الانتعاش وإلى قلبه السرور والفرح ..

وهذه هي الآيات الكريمة التي تصور هذه الأحداث أصدق تصوير وأبلغه :

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾(١١٥)

لقد تضمنت الآيات من روائع الحكمة والمثل ما يفوق الحصر ..

ويكفي من ذلك ما تشير إليه من وجوب تسلح المؤمن بالرجاء والأمل ، وللعارفين في تفسير الرجاء أقوال جليلة ..

فمن ذلك : الرجاء ثقة الجود من الكريم الودود ..

---

(١١٥) الآيات ٨٧ : ٩٣ من سورة يوسف .

ومن ذلك : الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال ..

ومن ذلك : الرجاء قرب القلب من ملاطفة الرب ..

ومن ذلك : الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى[116] ..

إلا أنهم اشترطوا ألا يركن المؤمن إلى الرجاء وحده فيسلمه هذا إلى التقصير فى حق الله تعالى . كما اشترطوا ألا يركن إلى الخوف وحده فيسلمه هذا إلى القنوط واليأس وهذا يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله ..

والعاقل هو الذى يراوح بين الرجاء والخوف مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وادعُوه خوفاً وَطَمعاً إن رحْمةَ الله قريبٌ من المحْسِنين ﴾[117]

ويرى بعض المفسرين أن إخوة يوسف عرفوه حين تبسم ..

وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، وقالوا : إنهم عرفوه حين وضع التاج على رأسه ، فقد كان فى قرنه علامة تشبه علامة فى قرن يعقوب . وهو دليل من دلائل الحسن فى يوسف الذى استوفى المحاسن واستجمع من ألوان الجمال أقصاها ..

وقد استشهد النبى - ﷺ - عام الفتح بكلام يوسف لإخوته .. وقصة ذلك أنه بعد أن دخل مكة فاتحًا سنة ثمان من الهجرة . أقبل حتى أخذ بعضادتى الباب ، والناس قد لاذوا جميعًا بالبيت ، لأن مناديه قد نادى قائلاً : من دخل البيت الحرم فهو آمن ..

ثم قال : الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ..

وأقبل على قريش - وقد آذته وحاربته وطردته - قائلاً : يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟

---

(116) الرسالة القشيرية ص ٦٧ .

(117) الأعراف .

قالوا : خيرًا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت ..

قال - ﷺ - : وأنا أقول كما قال أخي يوسف « لا تثريب عليكم اليوم » يغفر الله لكم .. اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

ما أعظم هذا الحلم ، وما أروع هذا الكرم ، وما أجمل هذا العفو ..

ولكن لا عجب فهذه هي أخلاق الأنبياء - عليهم السلام - .

القميص :

لقد شفى الله يعقوب بقميص يوسف .. فما قصة هذا القميص ؟

قال الرواة : إنه القميص الذى أتى به جبريل - عليه السلام - لإبراهيم وهو ملقى فى النار فألبسه إياه ، وهو قميص من حرير الجنة ..

وكسا إبراهيم إسحاق هذا القميص .. وكساه إسحاق يعقوب ، وأدرج يعقوب هذا القميص فى قصبة من فضة وعلقه فى عنق يوسف لما كان يخاف عليه من العين .. وظل هذا القميص مع يوسف يحتفظ به ..

وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة ، وريح الجنة لا يقع على سليم ولا مبتلى إلا عوفى .

وكان الذى حمل هذا القميص يهوذا . قال : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته وأنا الذى أحمله الآن لأسره ، وليعود إليه بصره .

ولا عجب أن يعود ليعقوب بصره بعد أن فقده ، فتلك معجزة من الله ، وقد ذكر بعض أطباء العيون وأساتذتهم أنه إذا كان العمى سببه الحزن الطويل والبكاء لا تستبعد عودة البصر لصاحبه(١١٨)..

---

(١١٨) يوسف الصديق ص ٩٧ . المنتخب من التفسير . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

دعاء علمه عزرائيل ليعقوب :

قال بعض الرواة : إن يعقوب طلب من عزرائيل ملك الموت أن يخبره إن كان قد قبض روح يوسف . فعدل عزرائيل عن الإجابة على هذا السؤال وقال له : ألا أعلمك كلمات ؟

قال يعقوب : بلى ..

فقال له : قل يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبدًا ولا يحصيه غيرك ..

فقالها يعقوب فى ليلته ، فما أصبح الصباح إلا وقميص يوسف على وجهه فارتد بصيرًا ..

ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين :

وكان يعقوب – عليه السلام – ينتظر عودة أبنائه بقلب الأب ، وأحاسيس النبوة والرسالة ..

لقد كان يتنسم أخبارهم ، ويولى وجهه شطر الغرب لعله يستقبل ريحًا منهم ..

وبمجرد أن خرجت عيرهم من أرض مصر متجهة إلى الشرق ، شعر بسعادة غامرة ، وأشرقت نفسه بنور من عند الله ، وأحس بانشراح عظيم فى صدره .. وأدرك أن الحزن الذى كان جاثمًا على قلبه قد بدأ ينزاح شيئًا فشيئًا ..

لقد ظهرت نضارة البشر على وجهه بعد أن كانت الجهامة تغطيه سنين طويلة ..

وغزا الأمل قلبه فلم يعد لليأس مكان فيه ..

إنها الحاسة التى لا تكذب ، بل هو اليقين الإيمانى ، وهو إلهام النبوة الصادق ، وفراسة المؤمن التى لا تخون ..

هى إمكانية النظر على البعد التى يمنحها الله لمن يشاء من عباده ..

ثم لماذا هذا كله ؟ أليس هو نبيًا من الأنبياء ؟

والأنبياء يرون ما لا يراه غيرهم ، ويسخر لهم ما لا يسخر لغيرهم .

قالوا : إن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتى يعقوب بريح يوسف ، قبل أن يأتيه البشير بالقميص، فأذن لها فأتته بها ..

وقالوا : إن يعقوب وجد ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال ..

وقالوا : هبت ريح فلابست القميص فاحتملت الصبا ريح القميص إلى يعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس فى الأرض من رياح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فمن ثم قال : « إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » فقال أحفاده : « تالله إنك لفى ضلالك القديم »(١١٩)..

لقد خطأ هؤلاء قوله ، وسفهوا رأيه .. واتهموه بأنه يعيش فى وهم خاطىء ، وأمل كاذب ، وخيال لا ظل له من الحقيقة .

ولم يطل بهم الانتظار ، حتى تأكدت لهم رؤية يعقوب الصادقة وإحساسه الصائب ..

لقد جاء يهوذا يزف البشرى بلقاء يوسف ، ويخبر بصدق يعقوب - عليه السلام - وينادى بأن يوسف حى يرزق ، وهذا قميصه ..

وألقى القميص على وجه يعقوب فارتد بصيرًا ..

فحمد الله وشكره على هذه النعمة الغامرة والمنة الوافرة ..

ونظر إلى أولاده نظرة فيها عتاب صامت . ثم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ ..

فأسرع الأولاد إلى أبيهم - وقد شعروا بخطئهم - يستعطفونه ، ويطلبون منه أن يستغفر لهم ربه ..

---

(١١٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٣٩ .

فوعدهم بذلك قائلاً : سأستغفر لكم ربى ..

لم يستغفر لهم فور طلبهم . كما فعل يوسف حين قال لهم لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ..

ولكنه وعدهم بالاستغفار ..

وما ذلك لهوانهم عليه .. ولكنه أراد أن يتحرى وقت إجابة الدعاء ..

لقد أراد أن يعلمهم أن للدعاء أوقاتا معلومة يستجاب فيها ..

ومن تلك الأوقات .. وقت السحر . لقوله تعالى : وبالأسحار هم يستغفرون ..

وفجر يوم الجمعة ، وبعد صلاة العصر ..

واستغفر يعقوب لأولاده .. قام إلى الصلاة وقت السحر ، وبعد أن أتم صلاته رفع يديه قائلاً : اللهم اغفر لى جزعى على يوسف ، وقلة صبرى عليه ، واغفر لولدى ما فعلوا بأخيهم ..

فأوحى الله إليه أن الله قد غفر لك ولهم أجمعين ..

لقد أدرك الأولاد أن تسامح الوالد معهم وعفوه عنهم لا يجديان ما لم يغفر الله لهم ، ولذلك أصروا على أن يستغفر أبوهم لهم ربهم .. قائلين :

ما يفيدنا عفوك وعفو يوسف ما لم يعف عنا ربنا ، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرت لنا عين أبدًا ..

عند ذلك قام يستغفر لهم ويؤمن يوسف على دعائه(١٢٠)..

وهذا الخبر إن صح فإنما يدل على أن الاستغفار تم عقب مجيء الشيخ إلى مصر ..

---

(١٢٠) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ٢ ص ٥٠٤

ولكن طلب الإخوة استغفار أبيهم لهم كان قبل ذلك . كان عقب عودتهم إلى كنعان وتبشيره بحياة يوسف ، وإلقاء القميص على وجهه فارتد بصيرًا .. ولذلك فإن هذا الخبر يحتاج إلى تمحيص ..

أو أن طلب طلب الاستغفار منهم كان مكررًا ، مرة قبل لقاء يوسف بأبيه ، ومرة بعد لقائه به .. ومن آداب الاستغفار أنه لا يقتصر على مرة واحدة ..

وحين جاء البشير ليعقوب لم يجد يعقوب شيئًا يثيبه به .. فدعا له دعوة صالحة ، قال له : هون الله عليك سكرات الموت ..

ولم يقبل البشارة منه إلا بعد أن سأله : على أى دين تركت يوسف ؟ قال : على دين الإسلام ..

فقال يعقوب : الآن تمت النعمة(١٢١)..

دعاء السحر :

إن أفضل الأوقات فى الدعاء هو وقت السحر . وقد وردت فى ذلك آثار مشهورة : منها ما ذكره الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينما نحن عند رسول الله - ﷺ - إذ جاءه على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقال : بأبى أنت وأمى ، تفلت القرآن من صدرى ، فما أجدنى أقدر عليه . فقال رسول الله - ﷺ - : أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، وينفع بهن من علمته ، ويثبت ما تعلمت فى صدرك ؟

قال : أجل يا رسول الله . علمنى ..

قال : إذا كان ليلة الجمعة ، فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الأخير ، فإنها ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب ، وقد قال أخى يعقوب لبنيه : « سوف أستغفر لكم ربى » يقول حتى تأتى ليلة الجمعة(١٢٢)..

---

(١٢١) تفسير القرطبى.

(١٢٢) المرجع السابق.

ومما يرويه ابن جرير الطبرى قال :

« كان عمر يأتى المسجد فسمع إنسانًا يقول : اللهم دعوتنى فأجبت ، وأمرتنى فأطعت ، وهذا السحرَ فاغفر لى .

قال : فاستمع إلى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخّر بنيه إلى السحر بقوله : « سوف أستغفر لكم ربى » وقد قال - تعالى - : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾[١٢٣].

والحديث الذى رواه الشيخان واضح الدلالة على أن لوقت السحر خصوصية فى استجابة الدعاء ، وهو : « يتنزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى سماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ »[١٢٤].



دخول مصر :

وشد الجميع رحالهم إلى مصر وسط مشاعر الفرحة والابتهاج .

وكأن الساعات كانت تمضى وئيدة بطيئة يستحثها الشيخ على الإسراع لينعم برؤية ولده الذى طال شوقه إليه .. وحالت الأيام بينه وبينه سنين طويلة ، اختلف الرواة فى تقديرها ..

ولكنه يمكن بقياس التفكر بيانها ..

فقد ألقى فى الجب صغيرًا دون البلوغ ، وبلغ أشده فى بيت العزيز ، ويمكن أن تكون سنه فى بيت العزيز حين المراودة سبع عشرة سنة ، ألقى

---

(١٢٣) تاريخ الطبرى جـ ١ ص ٢٥٢ . وتفسير الطبرى جـ ١٣ ص ٤١ وقصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٦١ .

(١٢٤) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ، وأخرجه مسلم كذلك - راجع الأحاديث القدسية حديث رقم ٦٢ جـ ١ ص ٧٢ .

ألقى بعدها فى السجن سبع سنين ، ثم خرج فجاءت السنون الخصبة وعددها سبع وبعدها السنون الشداد وعددها سبع كذلك ورحل إخوته إليه ثلاث رحلات فى ثلاث سنوات فتكون المدة تقريبًا فى حدود الأربعين أو فوقها أو دونها بقليل ..

وهذا ما يتفق مع المنطق والسياق ..

أما تقدير هذه المدة بثمانين سنة كما زعم البعض أو ثمانى عشرة سنة كما زعم البعض الآخر ففيه تجاوز ، ومجافاة للحقيقة ..

ووصل الركب إلى حدود مصر حيث كان يوسف فى استقبالهم عند « بلبيس » بالشرقية حاليًا ، وكان يطلق عليها أرض جاشر ..

ولا يبعد أن يكون ملك مصر قد خرج مع يوسف لتلقى هذا الموكب القادم الذى سبقه يهوذا مبشرًا بقدومه ..

فقد كان ليوسف منزلة سامية أطلقت يده فى البلاد ، وأخضعت الملك نفسه له ، وقد تبوأ هذه المنزلة باستحقاق ، لما قام به من تدبير حسن أنقذ به البلاد من الخراب والهلاك ، وأنقذ به العباد من الجوع والعناء .. وبما أعطاه الله من هبة النبوة وسناء الحكمة وجمال المنظر الذى يأسر وحده القلوب ..

ولقى الموكب كل الترحيب من المستقبلين ..

ولا تسل كيف كان لقاء الأب بابنه ولقاء الابن بأبيه .. فإن ذلك أمر يعز على الوصف ويجل عن البيان ..

وما بالك بلقاء أب لابنه وقد ظل يبكى على فراقه طوال أربعين عامًا أو تزيد حتى ابيضت عيناه من الحزن ؟

إنها الفرحة الطاغية والسرور البالغ والبهجة التى لا تدانيها بهجة أو تعادلها فرحة ..

وأوى يوسف إليه أبويه ، وضمهما شوقًا وحبًا ..

وقال لهما ولإخوته ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ..

وحين وصلوا إلى مقر الحكم .. أجلس يوسف أبويه على العرش ولم يملك الجمع حين رأوا هذا الجلال ليوسف .. إلا أن يخروا بين يديه ساجدين وكانت هذه هي التحية التي يُحَيَّا بها الملوك في تلك الآونة .. لقد سجد الأبوان والإخوة الأحد عشر .. وتحققت الرؤيا التي سبق أن رآها يوسف ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ ..

وحين رأى يوسف سجود أبويه وإخوته .. قال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقًا ..

وأخذ يقص عليهم ما لقيه بعد فراقهم تذكيرًا بحق النعمة التي أنعم الله بها عليه وعليهم حتى يشكروا الله حق شكره ..

لقد لقي من المصاعب ما يعجز كثير عن احتماله .. فقد دخل السجن وخرج منه معززًا مكرمًا مرتفعًا فوق عرش مصر .. مذكورًا على كل لسان مشارًا إليه بكل بنان مطوى حبه في كل جنان ..

واجتمع شمله بمن يحب ، فقد جاء أبوه وإخوته من البدو وعاد الوئام بعد تلك الجفوة التي كان الشيطان سببًا فيها ..

والآن ها هو يوسف عزيز مصر ، وها هو يعقوب يجلس على عرش ابنه وسرير حكمه .. وهي نعمة جديدة بأن تقابل بالعرفان ، ويظل أصحابها أبد الدهر مدينين لها بالشكران ..

ولنقرأ الآيات التي أشارت إلى هذه الأحداث :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا
قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا

كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ
يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ
لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي
مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ
لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾(١٢٥)

ولعلنا نتذكر أن إخوة يوسف وصفوا أباهم في أول القصة بالضلال حيث قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا إن أبانا لفي ضلال مبين ..

وهاهم أولاده في آخر القصة يقولون له : تا الله إنك لفي ضلالك القديم ..

ولم يقصد الإخوة ولا أبناؤهم بالضلال هنا ضلال الدين ، وإلا لخرجوا عن ربقة الإسلام إلى ربقة الكفر والطغيان ..

وإنما قصدوا بالضلال عدم تبين وجه الصواب والرشاد ، بغلبة حبه لولديه على الباقين ، وإيثار يوسف وبنيامين بالتفضيل دونهم ، وهذان اثنان وهم عشرة ..

لقد رأوا أن أباهم لم يتحر وجه العدل في المعاملة بينهم .. وذلك أمر يقتضي الالتفات إليه والتنبه له حتى لا يترتب على ذلك شقاق بين الأبناء .

وإذا كان بيت النبوة قد تعرض لهذه الهزة العنيفة من جراء عدم العدل في المعاملة والتسوية بين الأبناء في الحب والإقبال ، فصنع إخوة يوسف ما صنعوا معه .. فمن باب أولى يمكن أن تتعرض بقية البيوت لما هو أكثر من ذلك ..

---

(١٢٥) الآيات ٩٥ : ١٠٠ من سورة يوسف .

ودارت الأيام بعد ذلك ، وحملت ريح الصبا إلى يعقوب ريح يوسف فقال في محضر أحفاده إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون .. فقال له هؤلاء الأحفاد - فقد كان أباؤهم غائبين في مصر - : تا لله إنك لفي ضلالك القديم .. إنك لفي خطئك الماضي من غلبة حب يوسف على قلبك حتى أنساك بقية إخوته ..

وعلى هذا ينبغي أن يفهم معنى الضلال في الموضعين ..

أما قوله - تعالى - ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ ..

فالأبوان هما يعقوب وليًا ..

وليًا هي خالة يوسف - عليه السلام - التي حضنته بعد وفاة أمه « راحيل » ، وكان يعقوب قد تزوج من ليًا وراحيل وهما أختان تزوج ليًا أولاً ، ثم راحيل بعدها ..

وقامت ليًا مقام أمه .. بحقين ، حق أنها زوجة أبيه فهي كأمه .. وحق أنها خالته والخالة بمنزلة الأم ..

وهذا هو التأويل المنطقي الذي يتمشى مع أحداث القصة ..

أما قول من يقول : إن الله أحيا راحيل له حتى سجدت له مع الساجدين تحقيقًا للرؤيا ففيه تجوز كبير ..

حقًا إن الله لا يعجز عن إحياء الميت ، ومن معجزات الأنبياء ذلك ، ولكن أي ضرورة لذلك والعرف السائد في الشعوب جميعها قديمها وحديثها يقضي بأن زوجة الأب تقوم مقام الأم ولا سيما إذا كانت ذات رحم قوية من الأم المتوفاة ؟

وأخيرًا صدقت رؤيا يوسف ، وتحققت بعد مضي سنين طويلة ، تقدر بالمدة التي سبق أن بيناها وهي في حدود أربعين سنة ..

قال العلماء : إن آخر ما تبطىء به الرؤيا أربعون سنة[١٢٦] .

دعاء يوسف :

لم ينس يوسف – عليه السلام – نعمة ربه ..

وظل يذكرها مفصلة قائلاً :

رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث .

وهاتان نعمتان جليلتان ، ما اجتمعا لعبد إلا تم له الكمال ..

ولا سيما إذا كان الملك ملك مصر ، وقد قال الإخباريون : إن ملك مصر أعرق ملك وأعظمه .. ولم لا يكون كذلك وقد افتخر به فرعون بعد ذلك فى قوله : أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ ..

ولم يكن ملك فى تلك السنين الغابرة إلا فى مصر .. يدل على ذلك حضارتها الزاهية الضاربة فى أعماق التاريخ ..

وتأويل الأحاديث منحة إلهية لا تعطى لكل إنسان ..

تذكر يوسف أن الله أتم عليه نعمته ..

وأدرك يوسف أن النعمة – ربما تغيره وتفتنه – فطلب من الله العصمة من الغرور حتى يوافيه أجله المحتوم وهو على بينة من أمره ومكنة من دينه ، فإذا توفاه الله توفاه على الإسلام ..

وهى أعظم منة يمن الله بها على عباده ..

ولذلك قال يوسف مناجيًا ربه .. وما أعظمها مناجاة .. ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا والآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴾[١٢٧] ..

---

(١٢٦) تفسير القرطبى . (١٢٧) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

لم يكن ذلك تمنيًا للموت كما يقول بعض المفسرين ..

وإنما هو التجاء إلى الله أن يعصمه فى دينه ، وأن يسدده فى شكر نعمته حتى تكون وفاته على دين الله الذى شرعه للبشر ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾[١٢٨] .. ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[١٢٩] ..

لقد كان يوسف – عليه السلام – متأدبًا بآداب ربه ، فلم يطلب الموت ولم يتمنه . والدين ينهى عن ذلك إلا فى الفتن والخوف من عاقبتها . وقد روى أنس – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : لا يتمنين أحدكم الموت لاضر نزل به ، إما محسنًا فلعله يزداد ، وإما مسيئًا فلعله يستعتب ، ولكن ليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى ﴾[١٣٠] ..

تعليقات وتعقيبات على القصة :

١ – وقعت أحداث هذه القصة كما رأينا بين كنعان ومصر ..

فقد وُلد يوسف فى فدان آرام بالعراق ، وكانت نشأته الأولى فى كنعان بالشام ، ثم انتقل إلى مصر حيث بيع بها ، وكانت فيها نشأته الثانية ، وظل بها حتى وفاته ..

وكان بيعه بمصر فى عهد الغزاة الأجانب الذين يسمون بالهكسوس .. وهم ساميون قدموا إلى مصر من بلاد الشام ، واحتلوا دلتا النيل حوالى عام ١٧٣٠ قبل الميلاد ، قبل نهاية الأسرة الثالثة عشرة ، وحكموا مصر حوالى قرن ونصف من الزمان ، حيث طردوا – حوالى عام ١٥٨٠ قبل الميلاد ،

---

(١٢٨) الآية ١٩ من سورة آل عمران . (١٢٩) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(١٣٠) أخرجه البخارى ومسلم .. ذكره النووى فى رياض الصالحين حديث رقم ٥٨٣ ص ٢٠٣ .

على يد أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة - إلى ما وراء الحدود المصرية[١٣١].

٢ - وصف القرآن الكريم هذه القصة بأنها من أحسن القصص ..

وقد وصفت بهذا الوصف لتناولها أحداثًا كثيرة متنوعة ، وجاءت كاملة في سورة واحدة ، ولم تتوزع هذه الأحداث في سور متعددة كما توزع غيرها من القصص .. ولأن هذه الأحداث حافلة بالمفاجآت التي تنتهي بعواقب حميدة على الرغم من عنفها . فالإلقاء في الجب مثلاً كان يتوقع من ورائه التلف وإذا به يفضي إلى أن يصبح يوسف في قصر عزيز مصر ..

وبيع يوسف كان يتوقع من ورائه الإذلال فإذا به يفضي إلى السيادة .

والمراودة كان يتوقع من ورائها السقوط في الفتنة فإذا بها تؤدي إلى العصمة ..

والسجن كان يتوقع من ورائه الذل وإذا به يفضي إلى التربع فوق عرش الوزارة ..

ولقاء الإخوة كان يتوقع من ورائه الانتقام منهم جزاء ما فعلوا معه فإذا به يفضي إلى التجاوز والصفح والإحسان ..

وكل المضايقات التي حاقت بيوسف آل أمرها إلى خير ، يحقق مضمون الأثر الكريم :

« لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع »..

قال ابن الخطيب :

« إخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقي في الجب ..

« ولو لم يلقوه في الجب لما وصل إلى عزيز مصر ..

---

(١٣١) المنتخب من التفسير - سورة يوسف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

« ولو لم يتفرس فيه عزيز مصر الأمانة والصدق لما أمنه على بيته وأهله ..
« ولو لم تراوده امرأة العزيز لما ظهرت عفته ونزاهته ..
« ولو لم تفشل فى إغرائه لما ألقى فى السجن ..
« ولو لم يسجن لما التقى به صاحباه فى السجن .. ولما كان ذلك سبيلاً إلى تأويل رؤيا الملك ، ولما وصل إلى خزائن مصر أمينًا عليها ..
« فالقصة من أحسن القصص إذ أن ظاهرها محرق وباطنها مشرق وبدايتها مؤلمة ونهايته مفرحة »(١٣٢)..

٣ – وفى القصة عظات وعبر تستخلص من أحداثها ..

فهى تدلنا على وجوب العدل فى المعاملة بين الأولاد ، وعدم التفرقة بينهم ، فلا ينبغى أن يخص بعض الأولاد بمزيد من الحب والعطف والعطاء دون الآخرين ، فإنّ ذلك يؤدى إلى التنافر بينهم ، وقد يؤدى إلى القطيعة ، فالعداء ، فالانتقام كما حدث من إخوة يوسف ..

وقد أورد ابن الأثير فى ترجمة النعمان بن بشير أنه أتى النبى – ﷺ – فقال : إنى نحلت ابنى هذا غلامًا ، فقال رسول الله – ﷺ – : « أكلّ ولدك نحلت مثل هذا ؟ فقال : لا .. فقال رسول الله – ﷺ – : فارجعه »(١٣٣)..

وفى رواية قال رسول الله – ﷺ – : لا أشهد على جور ..

وفى القصة نهى عن الحسد الذى يؤدى إلى البغى ، والبغى مرتعه وخيم ..

وقد أدى حسد الإخوة أخاهم إلى ما رأينا من خداع للأب حتى أسلمهم يوسف ، ثم بطشوا به وبغوا عليه ، وألقوه فى غيابة الجب حتى مرت به السيارة الذين اشتروه وباعوه . وهو طفل صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه ..

---

(١٣٢) يوسف الصديق – بتصرف – ص ٣٧ .
(١٣٣) اسد الغابة جـ ٥ ص ٣٢٧ ط دار الشعب ..

وقد اضطرهم تصرفهم إلى الكذب والافتراء ..

كذبوا على أبيهم أولاً وآخرًا .. فقد ادعوا أولاً أنهم يريدون يوسف للترويح عنه ، ومشاركته إياهم فى مرحهم .. ثم ادعوا آخرًا أن الذئب أكله وهم فى غفلة عنه ..

وافتروا على الذئب زورًا ، والذئب منه براء ..

وحكى بعض الرواة أنهم اصطادوا ذئبًا وادعوا أنه هو الذى أكله ..

فأنطقه الله ليعقوب – عليه السلام – وأنكر ما نسب إليه ..

وإن صح هذا الخبر فهو من طريق المعجزة لنبى الله يعقوب – عليه السلام – وقد ذكر الرواة أن الذئب تكلم فى عهد النبى – ﷺ – .

ذكر الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان » :

قال : عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : بينما راع يرعى بالحرة ، إذ عدا الذئبُ على شاة فحال الراعى بينه وبينها ، فأقعى الذئب على ذنبه ، وقال : يا عبد الله ، تحول بينى وبين رزق ساقه الله إلىَّ ؟

فقال الرجل : واعجبا ذئب يكلمنى ؟

فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب منى ؟ هذا رسول الله – ﷺ – بين الحرتين يخبر الناس بأنباء ما قد سبق .

فزوى الراعى شياهه إلى زاوية من زوايا المدينة ، ثم أتى النبى – ﷺ – فأخبره ، فخرج رسول الله – ﷺ – فقال : صدق والذى نفسى بيده(١٣٤).

---

(١٣٤) حياة الحيوان الكبرى جـ ١ ص ٦٣٧ . قال : ورواه الحاكم فى المستدرك باسناد على شروط مسلم .

وقال : كلم الذئب من الصحابة ثلاثة : رافع بن عميرة ، وسلمة بن الأكوع ، وأهيان بن أوس الأسلمي - رضى الله عنهم - .

وقصة أهيان هى المتقدمة .. وبه يضرب المثل فيقال : هو كذئب أهيان .. ويقولون : أهيان مكلم الذئب ..

وروى البخارى : قال : أنبأنا شعيب عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة - رضى الله تعالى عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : بينما راع فى غنمه إذ عدا عليها الذئب فأخذ منها شاة فطلبه الراعى فالتفت إليه الذئب وقال : من لها يوم السبع يوم لا راعى لها غيرى ؟[١٣٥].

والمقصود بيوم السبع يوم الفتن حين يترك الناس أغنامهم هملاً لا راعى لها فينفرد بها الذئب ، وهذه الأخبار وإن كانت العقول تتوقف فى مدى صحتها لكننا نقول : إذا تعلق الأمر بمعجزة إلهية فلا مجال لأحكام العقول وتصوراتها .

وفى القصة امتداح للعفة وبيان لفضل أثرها ..

وقد عصم الله يوسف - عليه السلام - من شر الإغواء ، ونجاه من فتنة المرأة ..

ويضرب بيوسف - عليه السلام - المثل فى ذلك .. بل المثل فى أكثر من ذلك ..

فقد عف عن المرأة وهى متهيئة له فى أبهى زينتها وكامل أنوثتها ورقة استعطافها وشدة تهالكها عليه .. وهو فى كامل شبابه وقوة رجولته ، وكان فى إمكانه أن يفعل بها ما تريد ، ولكنه عزف عنها ابتغاء رضوان الله ..

---

(١٣٥) المرجع السابق .

وأتاه الله المال وأصبح أمينًا على خزائن مصر ، ومصر إذ ذاك أغنى دول العالم وإليها يقصد الناس من كل مكان طلبًا للرفد والقوت والمعونة ، ومع ذلك كان أزهد الناس في ذلك المال ، ولم يتمتع بطيباته ، بل أثر عنه أنه كان يطوى بطنه جوعًا فى أغلب أحواله ، ولما سئل فى ذلك قال : أخاف أن أشبع فأنسى جوع الفقير ..

وأتاه الله الملك وأبهة السلطان فبلغ قمة التواضع والزهد ، وكان بين الشعب كفرد منهم ، إلا أنهم كانوا أهيب له من الملك نفسه ، لأن التواضع فى ذاته رفعة ، والنبى - ﷺ - يقول : من تواضع لله رفعه ..

وهذه الفتن الثلاث : المرأة والمال والحكم .. هى التى تضل الناس وتشعل الصراع بينهم وتغرى بالعداوة والأحقاد ، ومع ذلك فقد ترفع عن كل ذلك ونأى بجانبه عنها حتى أصبح مثلاً أعلى فى ذلك ..

وبحسبنا أن نتأمل سلوكه الطيب فنقتدى به فننجو من كثير من الشرور والآثام والمتاعب ..

ولقد بلغ يوسف - عليه السلام - القمة في الحسن ، حتى افتتنت بحسنه النساء ، وحتى ذهلن عن أنفسهن فقطعن أيديهن .. ولكن أجمل من حسنه الحسى ، ترفعه ، وصيانته هذا الحسن بالعفة والمروءة .

فإن الجمال الحقيقى هو جمال النفس لا جمال الحس ، هو جمال المخبر لا جمال المظهر ، وقد تنبه لذلك الحكماء جميعًا ، وهذا هو الشاعر العربى يقول :

ليس الجمال بمئزر ... فاعلم وإن رُدِّيتَ بُرْدا
إن الجمال معادن ... ومناقب أورثن حمدا

فإذا اجتمع الجمال الحسى والجمال المعنوى فقد جمع صاحبه الكمال من أغصانه ، وحاز الجلال فى أردانه ..

وفى القصة بيان لفضيلة التقوى ..

والتقوى هى التى جعلت يوسف يقول : معاذ الله .. إنه ربى أحسن مثواى ..

فقد استعاذ بالله ليقيه شر خيانة من ائتمنه ..

وما أفظع الخيانة وما أقبح مرتكبها .. والشريف لا يخون اليد التى امتدت له بالإحسان ، والتقى لا ينظر بعين الغدر إلى من أعطاه الأمان ..

ولابد من أن يمد الله رعايته على المتقى فينقذه من مأزقه ، مصداقًا لقوله - تعالى - : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ﴾[١٣٦]..

وعلى سنن يوسف سار الأتقياء الذين يخافون سوء الحساب .. وقد حدثوا أن رجلاً صالحًا وقع فى شراك امرأة راودته عن نفسه وغلقت دونه الأبواب ، فانزوى فى ركن من البيت وقال : لقد قلت يارب وقولك الحق ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ﴾ وهأنذا قد اتقيتك فأين المخرج ؟

قالوا : ففتحت له طاقة إلى الخارج انسل منها دون أن يراه أحد .. ونجا .. ومثل هذا لا يجافى الواقع أو تكذبه الوقائع .. فما من لاجىء إلى الله بصدق النية وقوة اليقين إلا كان الله معه ونجاه من كيد الكائدين ..

وفى القصة من حسن العواقب للصابرين ما يعلّم الناس التخلق بخلق الصبر والحرص عليه ..

ولقد صبر يوسف على ما أصابه فنال جزيل الثواب وظفر بأحسن العواقب ..

ولئن كان الصبر مر المذاق فى أوله إلا أنه جميل الطعم فى آخره ..

---

(١٣٦) من الآية ٢ من سورة الطلاق.

وما صبر إنسان على ابتلاء الله إلا نجاه الله وأجزل مكافأته .. وفى قصة يوسف شواهد متعددة لذلك ..

فقد صبر على كيد إخوته ، وصبر على البقاء في قاع البئر ، وصبر على كيد المرأة وصبر على مرارة السجن ، وصبر على ألسنة السوء ، وصبر على البعد عن أبيه ووطنه ..

كما صبر على مكابدة الطاعة والمثابرة عليها ، وعلى مشاق الدعوة إلى الله وعدم التردد فيها ، وانتهاز كافة الفرص الممكنة للإعلان عنها .. حتى في داخل السجن الذى يكون الناس فيه مشغولين بأنفسهم عن أى شىء آخر ..

التعمير واستصلاح الأراضى أفضل وسيلة لمواجهة الأزمات :

وفى القصة طرف من آداب الملوك وما ينبغى أن يكونوا عليه من حسن سياسة رعاياهم ، وقوة التدبير لهم فى معاشهم وسائر أحوالهم .. والبحث لهم عمن يصلح ليأخذ بأيديهم فى أزماتهم ويضع لهم الخطط الناجحة فى النهوض بأحوالهم ورفعة شأنهم ..

وقد أحسن الملك فى اختيار يوسف وزيرًا للاقتصاد والتموين ، كما أحسن يوسف فى وضع الخطة التى اجتازت بها البلاد الأزمة وعبرت بها المحنة ..

ولم يدع يوسف – عليه السلام – الشعب إلى تحديد النسل ليتغلبوا على جائحة الجوع ، ولكنه دعا إلى الاستكثار من الزرع وإدخار المحصول . فقد قال له الملك : وما التدبير لسنوات الجدب ؟ قال يوسف : ازرعوا زرعًا كثيرًا فى السنين المخصبة ، ثم احصدوه وذروه فى سنبله وقصبه ، وكذلك جميع الحبوب ، وابنوا لها مخازن ، فيكون القصب علفًا للدواب والحب قوتًا للناس(١٣٧).

---

(١٣٧) بدائع الزهور ص ١٠٠ .

إنه لا ينبغى للملك أن يختار للوزارة إلا من شهد الناس له بالكفاءة والمقدرة ، ولا ينبغى أن يختار بالوجاهة أو المنظر أو القرابة أو المحاباة ..

وفى القصة من دروس العفو عند المقدرة ما يجعلنا نقف عند هذه الصفة مشدوهين ، معجبين بجانب الرحمة فى نفس يوسف وقد رفعته عن مقام الانتقام أو التشفى - أو التقريع على الأقل - .

لقد قابلهم مقابلة كريمة فى كل مرة ، ورفض أن يأخذ منهم ثمن ما قدمه لهم من قوت .. وكان يحسن ضيافتهم فى كل مرة ..

وحين كشف لهم عن نفسه لم يقرعهم أو يوبخهم على ما فرط منهم .. بل قال لهم : لا تثريب عليكم يغفر الله لكم ..

وقد أخذ النبى - ﷺ - عن يوسف هذه الكلمة فقال لأهل مكة الذين حاربوه وكذبوه وآذوه هو ومن معه ودبروا قتله حتى اضطروه إلى الهجرة .. « لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء » ..

ولولا ما تشير إليه هذه العبارة من نهاية الرحمة والتجاوز عن المسىء ما أخذها النبى - ﷺ - .

ولقد كان لهذه القولة أثرها الطيب فى استلال سخائم النفوس وانتزاع دوافع الكراهية والحقد سواء من إخوة يوسف . أو من أهل مكة ..

والقصة تعلمنا كيف نشكر الله على نعمته ونحمده على منته ، نعترف بفضله ونسبح بآلائه ، ونذكره دائمًا ولا نغفل عنه ونثنى عليه بما هو أهل له وندعوه فى السراء والضراء ..

فهذا يوسف – عليه السلام – وقد أتم الله عليه نعمته ، فنجاه من كل كيد ومكنه في الأرض وبوأه عرش مصر ، وجمع بينه وبين أبويه وإخوته ، وأعطاه النبوة . لم ينس في لحظة من اللحظات فضل الله عليه وها هو ذا في لحظة القمة والشعور بالسعادة يتجه إلى الله ضارعًا إليه مناجيًا مثنيًا عليه بكل جميل ، فيقول بلسان الذل والانكسار « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » ..

ذلك لأنه يعلم أن مفاتيح الخير كلها بيد الله ، جلت قدرته ..

وأن السعادة الحقيقية لا تكون في المال أو الجاه أو السلطان .. ولكنها في الإيمان بالله تعالى ..

ولو أوتي الإنسان مهما أوتى من خير في الدنيا وسلب اليقين فكأنه لم يؤت شيئًا .. إنه يكون كمن قيل في حقه : ماذا يفيد الإنسان إذا ملك كل شيء وفقد نفسه ؟

أجل ماذا يكسب الإنسان إذا خسر الإيمان ؟

أكل كنوز الدنيا تعوض ما خسره أو تعدل ما فقده ؟

كلا ، إن العقلاء من الناس أدركوا أن متاع الدنيا زائل ونعيمها فان ، وزينتها غرور ..

ولقد ضرب الله للحياة الدنيا مثلاً فقال :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ

﴿شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾(١٣٨)

ونعى على عمى القلوب الذين وقفوا عند حدود زينة الحياة الدنيا وحسبوا أنها هى كل شىء فقال لهم :

الآيات ١٥ ، ١٦ من سورة هود (١٣٩).

لقد أدرك يوسف – عليه السلام – ذلك فطلب من الله حسن الختام .. لأن أهم ما يحرص عليه المؤمن أن يكون لقاؤه بالله لقاء رضا ومغفرة وسلام .. ولا يكون ذلك إلا إذا توفاه الله على الإسلام وختم له بالإيمان وألحقه بالصالحين من عباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ..

وفى ذلك توجيه لنا حتى لا يجرفنا تيار الدنيا فننسى فى غمرتها العمل للآخرة ، والادخار من طيبات الأعمال لها ..

هذا درس وما أعظمه من درس ..

لقد كان يوسف قمة فى الصبر ، وكان كذلك قمة فى الشكر فهنيئًا له جاز الفضيلتين ، وجمع بين المزيتين .. وكان صادقًا فى هذا وذاك فتوجه الله بلقب الصِّدِّيق وما أعظمه من وسام وأشرفه من لقب ..

يوسف فى القرآن الكريم :

لقد ذكر الله اسم يوسف فى القرآن الكريم سبعًا وعشرين مرة فى ست وعشرين آية ..

منها أربع وعشرون آية فى سورة يوسف وحدها ..

وآية فى سورة الأنعام ، وآية فى سورة غافر ..

---

(١٣٨) الآية ٢٠ من سورة الحديد . (١٣٩) الآيتين ١٥ ، ١٦ من سورة هود .

أما آية الأنعام فهى قوله – تعالى – :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[١٤٠]

والضمير فى قوله « له » يعود على إبراهيم – عليه السلام – وهذا يشير إلى أن يوسف من ذرية إبراهيم – عليهما السلام – وقد مر بنا الأثر الذى يقول : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم .. فيوسف – عليه السلام – كريم من ذرية كرماء . فهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم وكلهم نبى كريم . وإبراهيم هو أبو الأنبياء عليهم السلام .

وقد مرت بنا فى أثناء القصة الآيات التى وردت فى سورة يوسف ، وفيها ذكر يوسف – عليه السلام – .

أما آية سورة غافر فهى :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[١٤١] .

وهذه الآية الكريمة تشير إلى رسالة يوسف – عليه السلام – .

رسالة يوسف :

ورسالة يوسف امتداد لرسالة آبائه من قبله ، وكل الرسالات لا تخرج فى مضمونها عن الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإيمان باليوم الآخر والحث على مكارم الأخلاق ..

---

(١٤٠) الآية ٨٤ من سورة الأنعام. (١٤١) الآية ٣٤ من سورة غافر.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(١٤٢).

وهذه هي رسالة الإسلام التي جاء بها خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

وأبلغ يوسف – عليه – رسالة ربه لم يتوان فيها، ولم يقصر فيها حتى أثناء وجوده في السجن..

وكان أهل مصر الذين أرسل فيهم يوسف – عليه السلام – أهل أوثان يعبدون آلهة شتى. فقد عبدوا الشمس، وعبدوا العجل، وعبدوا النهر وعبدوا الجعران، وعبدوا فرعون..

ومكث يوسف – عليه السلام – يبصرهم بالصواب ويرشدهم إلى الحق ولكنه لم يؤثر فيهم قليلاً..

قال ابن كثير في تفسيره: كان يوسف – عليه السلام – وهو عزيز مصر يدعو أهلها إلى الله بالقسط، فما أطاعوه إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى، ولهذا قال لهم مؤمن آل فرعون: فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً..

هل هناك يوسف آخر؟

وقال بعض المفسرين: إن هناك يوسف آخر هو المشار إليه فى هذه الآية وهو يوسف بن إبراهيم « أفرائيم » بن يوسف بن يعقوب وهو حفيد يوسف الصديق.

بعثه الله فى أهل مصر فأقام فيهم عشرين عامًا يدعوهم إلى الله(١٤٣).

وحكى ذلك القرطبى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وروى بعضهم أن يوسف المشار إليه فى الآية كان نبيًا من الجن أرسله الله إلى أهل مصر(١٤٤).

---

(١٤٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء. (١٤٣) الزمخشرى فى الكشاف جـ ٤ ص ١٦٦.
(١٤٤) تفسير القرطبى – تفسير سورة غافر ص ٥٧٥٦ حكاه عن النقاش عن الضحاك.

وهو كلام غريب ، فما سمعنا عن نبى من الجن أرسل إلى الإنس ..

ولو صح أن يكون هناك أنبياء من الجن لصح أن يكون هناك أنبياء من الملائكة .. وهذا ما نفاه القرآن ..

يعقوب فى مصر :

أقام يعقوب وأبناؤه وأحفاده فى مصر .. وخصص لهم ملك مصر أراضى زراعية فى شمال بلبيس يقيمون بها . وهى أنسب لهم لأنهم رعاة ماشية وهى قوام حياتهم ، يقال إنها أرض جاسان أو جاشان ..

وقد صادفت هذه الإقامة هوى من نفوسهم ، لأنهم ابتعدوا عن مخالطة المصريين الذين كانوا يعبدون الأوثان ..

وكفاهم يوسف مئونتهم – كما ذكرت التوراة –[١٤٥] ورتب لهم الطعام على حسب الأولاد ..

وكان إخوة يوسف قد تابوا وأنابوا وأدركوا خطأهم ، وعرفوا لأبيهم حقه ، وليوسف مكانته ، فنعموا برعايته ورضاه عنهم واستغفاره لهم ..

الأسباط :

ويطلق على أولاد يعقوب اسم الأسباط . والأسباط جمع سبط وهو الحفيد .. وهؤلاء هم أحفاد اسحاق – عليه السلام – وقد ورد ذكر الأسباط فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة ، فى خمسة مواضع[١٤٦]، تشهد بقربهم من الله . ومنها قوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا

---

(١٤٥) الإصحاح ٤٧ من سفر التكوين ، ونص العبارة : فأسكن يوسف اباه وإخوته واعطاهم ملكًا فى ارض مصر فى افضل الأرض فى ارض عميس كما أمر فرعون ، وعال يوسف اباه وإخوته وكل بيت ابيه بطعام ..

(١٤٦) البقرة الآيتين ١٣٦ ، ١٤٠ ، وآل عمران الآية ٨٤ ، والنساء الآية ١٦٣ ، والأعراف ١٦٠ .

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ﴾(١٤٧).

وفى ضوء هذه الآيات رأى بعض المفسرين أن هؤلاء الأسباط كانوا أنبياء لأن ذكرهم ورد فى معرض من يوحى إليهم ، والذين يوحى إليهم أنبياء ..

ولكن ابن الخطيب نفى كونهم أنبياء وقال : « هو وهم شنيع ، فقد جرت عادة المولى – سبحانه وتعالى – أن يرسل رسله وأنبياءه من خاصة الخاصة ، فكيف ينبىء الله – تعالى – هؤلاء الإخوة ، وقد عقوا أباهم ، وقطعوا أرحامهم ، وكذبوا كذبًا بينًا ، وحاولوا قتل أخيهم وتسببوا فى استرقاقه ، وبيعه فى بلاد الكفر بيع العبيد ، لولا أن تداركه المولى جل شأنه بلطفه وعنايته »(١٤٨).

إنه يرى أن الأنبياء معصومون بالفطرة من صدور مثل ما صدر من هؤلاء سواء كان قبل النبوة أم بعدها ..

وهى وجهة نظر سديدة ، لكنها تتعارض مع ما ذكره القرآن الكريم عن هؤلاء الأسباط قد أوحى إليهم كما ورد فى قوله – تعالى – : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ﴾(١٤٩).

اللهم إلا أن نفسر الأسباط على أنهم الأنبياء الذين تناسلوا من أولاد يعقوب حيث أن السبط هو ابن الابن ويكون المراد أنهم أحفاد يعقوب .

ولكن أكثر المفسرين على أن الأسباط هم أولاد يعقوب وأحفاد إسحق عليهما السلام وقد أوحى إليهم بنص القرآن الكريم وذكروا ضمن أنبياء أوحى الله إليهم وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ

---

(١٤٧) الآية ١٣٦ من سورة البقرة. (١٤٨) يوسف الصديق ص ٩٥.

(١٤٩) الآية ١٦٣ من سورة النساء.

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(١٥٠).

وعلى ذلك فنحن نرى أنهم نبئوا بعد أن تابوا من فعلتهم واستغفر لهم يعقوب عليه السلام فقبل الله توبتهم وغفر لهم.

وفاة يعقوب :

أقام يعقوب فى مصر سبع عشرة سنة ..

كانت سنه حين قدم مصر مائة وثلاثين سنة ..

وآذنه الله بالموت شأن كل حى ، فجمع أولاده وأوصاهم ..

لقد حمله على وصاتهم ما رآه من أهل مصر وما كانوا يعبدون من أوثان ونيران وبقر ، فجمع ولده وخاف عليهم وقال لهم ما تعبدون من بعدى ؟(١٥١).

وهذا ما ذكره القرآن الكريم فى قوله – تعالى – :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾(١٥٢)

حكى أنه حين خير كما تخير الأنبياء اختار الموت ، وقال : أمهلونى حتى أوصى بنِىَّ وأهلى ، فجمعهم وقال لهم : ما تعبدون من بعدى ، قالوا : نعبد إلهك .. الخ ..

---

(١٥٠) الآية ١٣٦ من سورة البقرة. (١٥١) القرطبى جـ ٢ ص ١٣٦ ط دار الكتب.

(١٥٢) الآيتين ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة.

فسُرَّ بذلك فأوصاهم بالاستمساك بما هم عليه وعدم التفريط فيه .

كما أوصاهم بأن يدفن فى فلسطين عند أبويه اسحاق وإبراهيم ..

فلما مات أمر يوسف الأطباء أن يحنطوه - وفن التحنيط فى مصر قديم يشهد لبراعة الأطباء فيه التاريخ - .

فحنطوه ، وحملوه إلى فلسطين ودفن حيث أشار .

وخشى إخوة يوسف أن يتنكر لهم يوسف بعد وفاة أبيهم ، ولكنه كان كعهدهم به صفوحًا كريمًا . فعادوا إلى مصر بعد أن دفنوا أباهم يقيمون بها فى بر وعافية وخير وطمأنينة .

قال المسعودى : قبور إبراهيم واسحاق ويعقوب فى فلسطين مشهورة على ثمانية عشر ميلاً من بيت المقدس فى مسجد هناك يعرف بمسجد إبراهيم[١٥٣].

وللمسعودى رأى فى نبُوة أولاد يعقوب فقد قال : كان اسحاق أمر ولده يعقوب بالمسير إلى أرض الشام وبشره بالنبوة ونبوة أولاده الاثنى عشر وهم : لاوى ، ويهوذا ، ويسافر ، وزبولون ، ويوسف ، وبنيامين ، ودان ، ونفتالى ، وكان ، وأشار ، وشمعون ، وروبيل . هؤلاء هم الأسباط الاثنا عشر .

قال : والنبوة والملك فى عقب أربعة منهم هم : لاوى ، ويهوذا ، ويوسف ، وبنيامين ..

وذكر المسعودى أيضًا سببًا لمخالفة أولاد يعقوب له .. قال :

كثر جزع يعقوب من أخيه العيص - وهو عيصو - فأمنه الله من ذلك ، وكان ليعقوب خمسة آلاف وخمسمائة من الغنم ، فوعد يعقوب أخاه

---

(١٥٣) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٤ .

العيص بالعشر من غنمه استكفاء للشر وخوفًا من سطوته – من بعد أن أمنه الله عز وجل من خوفه . وأخبره ألا سبيل له عليه – فعاقبه الله فى ولده بعدم وثوقه فى وعد ربه .

فأوحى الله إليه : ألم تطمئن إلى قولى ؟ فلأجعلن ولد العيص يملكون ولدك خمسمائة وخمسين عامًا . بعدد عُشر الأغنام التى وعد أخاه بها .

قال : وهى المدة عندما ضربت الروم بيت المقدس واستعبدت بنى إسرائيل إلى أن فتحه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ظل الإسلام(١٥٤).

ويفهم من هذا أن الروم من نسل عيصو . وما ذكره المسعودى يتعارض مع ما ذكره كثير من المؤرخين من أن الخلاف بين يعقوب وأخيه عيصو كان قد انتهى تمامًا بعد عودة يعقوب عليه السلام بأولاده من بلاد العراق حيث كان يعمل عند خاله الذى زوجه بنتيه ، وقد استقبله عيصو عند عودته استقبالاً حسنًا أزال ما كان بينهما من شقاق .

يوسف المصلح :

كانت إقامة يوسف فى مصر خيرًا وبركة عليها ، فقد دبر أمرها أحسن تدبير ونشر فيها الإصلاح ، واستصلح أراضى للزراعة لم تكن موجودة ومد قنوات للماء ، ومن ذلك مدينة الفيوم التى عمرها . فهى منسوبة إلى يوسف – عليه السلام – .

وذكر الرواة فى قصة إقامتها ما يأتى :

إن أهل مصر كانوا قد وشَوْا بِه إلى الملك ، وقالوا : قد كبر ونقص نفعه فاختبره .

---

(١٥٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٤ .

فقال له : إنى وهبت هذه الناحية لابنتى - وكانت مغايض للماء - فدبرها لها . فأنشأها يوسف على أحسن نظام وأكمله فى مدة وجيزة ..

فعجبوا من حكمته . ويقال : إنه أول عمل هندسى بمصر ..

لقد مد يوسف ثلاثة خلجان إلى هذا الإقليم .. خليج المنهى من أعلى أشمون إلى اللاهون ، وخليج الفيوم وهو الخليج الشرق ، وحفر خليجًا آخر يطلق عليه الخليج الغربى .

فكان الذى أحياه يوسف من الفيوم لا يعلمون له مثلاً ولا نظيرًا .

وبعد أن فرغ من بنائها أشار إلى تعميرها ، وقال للملك : أنزل الفيوم من كل كورة من كور مصر أهل بيت ، وامر أهل كل بيت أن يبنوا لأنفسهم قرية . فكانت قرى الفيوم بعدد كور مصر(١٥٥)..

ثم صير إلى كل قرية من الماء ما هم فى حاجة إليه لشربهم وسقى زروعهم ومواشيهم .. وإليه ينسب الخليج المشهور الذى يسقى الفيوم بأسرها ويسمى ببحر يوسف .

وما زالت مقاطعة الفيوم حتى يومنا هذا من أخصب بلاد مصر وأغناها بالخضر والفاكهة ..

وهكذا كانت حياة يوسف - عليه السلام - فى مصر كلها رخاء وتعمير ..

نهاية لابد منها :

عاش يوسف فى مصر فى ظل ملكين من ملوك العمالقة الأول منهما الريان ابن الوليد ، وكان يكبر يوسف ويعظمه ، بعد أن فسر له الرؤيا التى رآها ، وجعله على خزائن مصر وأطلق يده فى كل شىء فأحسن التدبير وتصريف الأمور ..

---

(١٥٥) خطط المقريزى جـ ١ ص ٤٥٩ .

ومات الريان وجاء بعده ابنه دارم بن الريان .. ولم يكن مثل أبيه في معرفته لحق يوسف وفضله ..

وفي زمان دارم هذا كانت وفاة يوسف - عليه السلام - وكان ليوسف عقب كما سبق أن أشرنا .. فقد ذكروا أن له ولدين هما افرائيم وميشا وهو فى التوراة « مِنَسًا » ..

وكانت مدة إقامة يوسف في مصر بعد وفاة أبيه يعقوب ثلاثًا وعشرين سنة ، وحين دنا أجله جاءه ملك الموت وهو يريد أن يركب على فرسه فلما وضع رجله فى الركاب قال له ملك الموت : أخرج رجلك من الركاب فهذا وقت الانقلاب .

فلما أيقن يوسف بالموت جمع إخوته وقال لهم : لا تقيموا بعدى فى مصر ، وأوصاهم حين يخرجون من مصر أن يأخذوا معهم جثته ..

ومات يوسف - عليه السلام - ووضعوه فى حوض من رخام وجعلوه في أحد جانبى النيل فأخصب دون الآخر ، فوضعوه فى الجانب الثانى فأخصب دون الآخر . فوضعوه فى وسط النيل .. فلما فعلوا ذلك أخصب الجانبان(١٥٦) ..

وكانت وفاته قبل زليخا .. مات وقد جاوز المائة سنة ، وذكرت التوراة أن سنه حين مات كانت مائة وعشر سنين(١٥٧).

ودارت الأيام ، ونسي ملوك مصر فضل يوسف وما صنعه ، وجحدوا ما كان لبنى إسرائيل من أعمال طيبة ، فأقبلوا عليهم يعذبونهم على نحو ما وصف القرآن الكريم .. وعلى ما سيأتى - إن شاء الله تعالى - بعد ذلك فى قصة موسى - عليه السلام - .

---

(١٥٦) بدائع الزهور ص ١٠٧ .

(١٥٧) الاصحاح الخمسون من سفر التكوين .

وأرسل الله موسى – عليه السلام – وخرج ببني إسرائيل من مصر عابرًا البحر الأحمر بمعجزة عظيمة ، ضرب البحر بعصاه فانفلق اثنا عشر طريقا لكل سبط من الأسباط طريق عبروا عليه إلى الجانب الشرقي ، ثم ارتد كما كان فأغرق فرعون وجنوده ..

وكان موسى قد بلغته وصاة يوسف حين طلب من إخوته أن يحملوا جثمانه معهم في أثناء خروجهم .. ولكن الإخوة كانوا قد ماتوا وجاء من بعدهم أجيال وأجيال تعاقبت فيها على حكم مصر أربع أسر ..

فسأل موسى عند مكان تابوت يوسف ومكان قبره ..

وما زال يبحث حتى دلته عليه عجوز كانت قد عميت وشاخت . قالت له : لا أدلك عليه حتى تدعو الله أن يرد إليّ بصري وصحتي وأن يجعلني معك في الجنة .. فدعا لها فرد الله عليها بصرها وقوتها .. فدلته على مكان القبر ، فاستخرجه من قاع النهر ..

وحمله معه موسى حيث دفن إلى جوار آبائه إبراهيم واسحاق ويعقوب – عليهم السلام – ..

وقد ورد في ذلك أثر عن ابي موسى الأشعري – رضي الله تعالى عنه – قال : إن النبي – ﷺ – نزل بأعرابي فأكرمه . فقال له النبي – ﷺ – : يا أعرابي سل حاجتك ، فقال : يا نبي الله ناقة نرحلها وأعز بحلبها أهلي ..

فقال – ﷺ – : أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بني إسرائيل ؟

قالوا : يا رسول الله ، وما عجوز بني إسرائيل ؟

قال – ﷺ – : إن بني إسرائيل خرجوا من مصر فضلوا الطريق وأظلم عليهم ، فقالوا : ما هذا ؟ قال علماؤهم : إن يوسف – عليه السلام – لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقًا من الله ألا نخرج حتى ننقل عظامه معنا .

فقال موسى : ومن يعلم موضع قبره ؟ قالوا : عجوز بنى إسرائيل ، فبعث إليها فأتته . فقال : دلينى على قبر يوسف . قالت : وتعطينى ما أسألك ؟ قال : وما سؤالك ؟ قالت : « أكون معك فى الجنة »[١٥٨]..
الجنة »[١٥٨]..

★ ★ ★



(١٥٨) ذكره الحاكم فى المستدرك بروايتين ، ورواه الطبرانى وأبو يعلى الموصلى بنحو هذه الرواية ، وذكره الدميرى فى حياة الحيوان جـ ٢ ص ٥٩٣ باب الناقة .

تنبيه

نرجو القارىء الكريم تصويب الأخطاء الواردة فيما يأتي :-

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	الثالث من أسفل	رقم ٢٠	رقم ١٢٧
٢٦	الأخير	رَبّكُم	رَبُّكُمْ
٧٤	١٨	يَتّبّع	يَتَّبع
١٦٠	السطر الأخير من الهامش	الآية ٦٩ الى ٧١	٧٠ الى ٧١
١٧٣	السطر الأخير من الهامش	الآية ١٣٣ من سورة النحل	١٢٣

فهرس المجلد الثانى

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٧	الكعبة « مفهوم لغوى وأصطلاحى » - متى بنى البيت ؟ - بناء ابراهيم - الحجر الأسود - دعوة ابراهيم للحج - ولاة البيت - وفود العرب للبيت - جلال الكعبة - أبرهة والكعبة - إحترام الأشهر الحرم - الولاية تعود إلى أهلها - مآثر عبد المطلب - قريش تبنى الكعبة - الكعبة فى الأسلام - تحويل القبلة إلى الكعبة - الفتح الأعظم وتطهير الكعبة - كيف حج رسول الله ؟ - كسوة الكعبة - بناء ابن الزبير للكعبة - الكعبة والحجاج - اعتداءات على الحجر الأسود - تعميرات أخرى للكعبة - الكعبة فى عهدها الجديد - زمزم - فريضة الحج - الحرم الأمن - الطير والحيوان يأمنان فى الحرم - الأكثار من زيارة الكعبة - مناسك أبطلها الأسلام - الكعبة من الداخل .
١٢١	بئر زمزم علاقة زمزم بسلسلة القصص القرآنى - خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم - اسماء زمزم - خصائص زمزم - اعادة حفر زمزم بعد طمرها - قصة الزبيح - قريش تفتخر بزمزم - سقايه زمزم - آداب حول استعمال ماء زمزم - اغراض استعمال ماء زمزم - نقل ماء زمزم - استمدادات زمزم - مكونات ماء زمزم - زمزم عبر الزمان - تطوير زمزم - تعقيم مياه زمزم .
١٥٩	يعقوب - عليه السلام مولده - قصة فى سبب مرض يعقوب - رحلته إلى العراق -

الصفحة	الموضوع
	زواجه من ابنتي خاله - عودته إلى الشام - نذره بناء بيت الله - لقاؤه بأخيه - ابناؤه - رسالته - يعقوب والمحنة الكبرى .
١٧٥	يوسف - عليه السلام مولد يوسف - رؤيا يوسف - أقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا وشرده بثمن بخس - دعاء الفرج - أكرمى مثواه - قوة ارادة يوسف - الحلم . تفسير الحلم - وشهد شاهد من أهلها .
٢٠٦	مكان سجن يوسف - هى نسى يوسف ربه ؟ يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى - وقال الملك ائتونى - قال اجعلنى على خزائن الأرض .
٢٣٦	وجاء إخوة يوسف ، يابنى لاتدخلوا من باب واحد .
٢٥٧	قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا - من أفهام أهل الذوق سر العداء بين الأخوة .
٢٦٨	اذهبوا بتفحيص هذا فألقوه على وجه أبى - القميص .
٢٨١	دعاء علمه عزرائيل ليعقوب .
٢٨٤	دعاء السحر .
٢٨٥	دخوله مصر .
٢٩٠	دعاء يوسف .
٢٩١	تعليقات وتعقيبات على القصة .
٢٩٨	التعمير واستصلاح الأراضى أفضل وسيلة لمواجهة الأزمات .
٣٠١	يوسف فى القرآن الكريم .



سلسلة القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د.عبد الحميد مصطفى د.محمد شعلان

المجلد الثالث

سلسلة
القصص القرآنى



دكتور
حمزة النشرتى

عبد الحفيظ فرغلى
د عبد الحميد مصطفى

المجلد الثالث

قصة شعيب
عليه السلام

- نسبه وقومه ومبعثه .
- عروبة شعيب .
- شعيب فى القرآن .
- مآثم قومه .
- موقف قومه من دعوته .
- صور من فسادهم .
- شعيب يذكر قومه .
- شعيب خطيب الأنبياء .
- جزاء الظالمين .
- شعيب بين أهل مدين وأصحاب الأيكة .
- شعيب ختن موسى - عليه السلام .

نسبه وقومه ومبعثه :

بعث الله نبيه شعيبًا – عليه السلام – فى مدين ..

و «مَدْيَن» اسم مدينة أو إقليم فى أطراف الشام مما يلى الحجاز ويطلق عليها اسم «معان» أيضًا ..

و «مدين» اسم قبيلة أيضًا كانت تقطن هذا المكان(١)

وأهل «مدين» عرب، ونبيهم «شعيب» عربى. وقد ورد فى ذلك حديث شريف رواه أبو ذر – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – حين سأله عن الأنبياء وعددهم. فقال – فيما نكره – : منهم أربعة عرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر .. وقد تقدم هذا الحديث ..

وهذا الاسم عربى مرتجل، وقيل : هو تصغير «شعب» بفتح الشين أو كسرها ..

واسمه فى التوراة – كما ذكر صاحب تفسير المنار – «ميكائيل» ..

واسم بالسريانية «خبرى» بن يشخر بن لاوى بن يعقوب – عليهم السلام – وقد يكون «يشخر» هذا تصحيفًا للاسم «يشجر» كما صحف خبرى إلى «جزى» أو العكس.

ونكر بعضهم أن اسمه بالعبرانية «يثروب» وبالعربية شعيب، وهو ابن عيفا بن بَوْبَب – بزنة جعفر – بن إبراهيم – عليه السلام –(٢).

وقال المسعودى : هو شعيب بن نويت بن راعوايل بن مر بن عنقاء بن مدين بن إبراهيم – عليه السلام –(٣).

---

(١) فى رحاب الأنبياء والرسل د. عبد الحليم محمود ص ١١٤.
(٢) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٦٦.
(٣) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٥.

قال : وكان لسانه عربيًا ، ويلقب بخطيب الأنبياء .

أما القرطبي فيقول : هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم وهو حمو موسى . والد زوجته .. فقد ورد في التوراة في سفر الخروج – الاصحاح الثالث – : أن اسمه « يثرون » والعبارة نصها : وأما موسى فكان يرعى غنم « يثرون » حميه كاهن « مديان » ..

ويثرون هو يثروب – السابق بتصحيف بين الباء والنون – .

وله اسم آخر أيضًا – ولعله لقب – هو « روعئيل » ومعناه الصديق أو الصادق في عبادته ..

وعلى ذلك فلا حجة لمن يقول : إن شعيبًا كان متقدمًا على زمن موسى – عليه السلام – .

قد يكون متقدمًا في الرسالة ، وذلك حق ، لأن موسى – عليه السلام – نبيء بعد عودته من مدين وهو في طريقه إلى مصر مصطحبًا أهله ..

وكان شعيب – عليه السلام – في ذلك الوقت قد شاخ وكبرت سنه ، وكان قد أدى رسالته ، وأهلك الله من كفروا به ، ونجا هو ومن آمن به وأقاموا في مدين .

وقد ورد من الأخبار الصحيحة ما يفيد أن شعيبًا هو صهر موسى – عليهما السلام – أخرج الطبراني : نعم الحي عنزة مبغيٌّ عليهم منصورون رهط شعيب وأختان موسى(٤).

لقد اختلف الرواة في اسمه ونسبه كثيرًا . ولكن ذلك لا يقدح في وجوده بعد أن ذكره القرآن ، وأورد قصته في مواضع متفرقة .

---

(٤) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٦٧ ، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ، وفي ترجمة سلمة بن سعيد .

أما «مدين» باعتباره علمًا لرجل . فهو واحد من ستة ولدتهم «قطورة» العملاقية زوجة إبراهيم - عليه السلام - بعد وفاة «سارة» .

وهؤلاء الإخوة هم : زمران ، ونقشان ، ومدان ، ومديان وهو مدين ، وبشباق ، وشوحا .

والمدينيون عرب ، والعرب يفتحون ميم الكلمة ، وأهل الكتاب يكسرونها .

وأرضهم كانت تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سيناء ، وبعضهم يقول : إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سيناء إلى الفرات . ويقول : إن الإسماعيليين كانوا من سكان مدين[٥] .

أما لقبه خطيب الأنبياء فلحسن بيانه وقدرته على مراجعة قومه وإقامة الحجة عليهم .

شعيب فى القرآن الكريم :

وقد ورد اسم شعيب فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة فى أربع سور هى : الأعراف وهود والشعراء والعنكبوت .

والسور الثلاث الأولى تعرضت بالتفصيل لقصته ، وأوردت مجادلته لقومه ومحاجته لهم . سواء كانوا فى مدين أو الأيكة .

وقال القرآن الكريم عن قوم شعيب مرة بأنهم أهل مدين ، ووصفهم فى سورتى الحجر والشعراء بأنهم أصحاب الأيكة .

والأيكة هى واحدة الأيك وهى الشجرة العظيمة ، وكانوا يعبدونها من دون الله . قال - تعالى - : ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[٦] .

---

(٥) تفسير المنار .
(٦) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ من سورة الحجر .

وقال - تعالى - :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾
أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ
أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟
إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا
كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ
عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾(٧)

ولا تعارض في الواقع .. فقد كان أصحاب الأيكة - كما يقول ابن عباس رضى الله عنهما - فيما أخرجه اسحاق بن بشر وابن عساكر عنه : أصحاب غيضة بين ساحل البحر إلى مدين .. وهذا يفيد أن « شعيبًا » أرسل إلى هذه المنطقة التي يقيمُ فيها هؤلاء جميعًا . وكانت حال أهل مدين وأصحاب الأيكة في الكفر والفساد واحدة . وكان يتنقل بينهم منذرًا ومصلحًا .

رسالة شعيب :

وتتضمن رسالة شعيب - عليه السلام - ما تضمنته رسالة الأنبياء السابقين وهي :

الدعوة إلى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله ، والإيمان باليوم الآخر ، وهذا ما دعا إليه شعيب قومه فيما

---

(٧) الآيات ١٧٦ : ١٩١ من سورة الشعراء .

أخبر عنه الله – تعالى – بقوله : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[8].

الحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات التى بها قوام سلامة المجتمع وتماسكه ونهضته وتقدمه . وقد تختلف العادات المرذولة المنهى عنها من قوم إلى قوم ومن جيل إلى جيل ولكنها كلها في السوء سواء .

وقد كان قوم شعيب أصحاب أوثان يعبدونها ، مع ما أفاء الله عليهم من نعمة ، فهم يقيمون في واد خصيب مثمر ، يدعوهم إلى التأمل والتدبر والاهتداء إلى الله المنعم ، الذى أفاء عليهم هذه النعم الوفيرة والخيرات الكثيرة ، ولكنهم تركوا ذلك واتجهوا إلى أصنام لا تنفع ولا تضر .

واختار أصحاب الأيكة من بين أيكهم واحدة جعلوها إلهًا[9].

لقد ابتعدوا عن الطريق المستقيم ، وأخطأوا الفطرة السوية ، وألغوا عقولهم ، وأقبلوا على مخلوقات من خلق الله يشركونها مع الله – جلت قدرته – في العبادة . فأرسل الله إليهم « شعيبًا » – عليه السلام – يردهم إلى الطريق المستقيم ، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده قائلاً لهم : ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ﴾[10].

وكأن شعيبًا بذلك قد أشار إلى معجزة أيده الله بها ، ولكل نبى معجزة تثبت رسالته ، وتصدق دعوته . ولم يأت فى القرآن الكريم ما يوضح بينة شعيب . ولكن العلماء أشاروا إلى ذلك .

فمنهم من قال : إن بينة شعيب هى ما لفت به أنظار قومه إلى مصائر الأمم السابقة الذين كذبوا أنبياءهم ، وهى الحجة القاطعة التى كان يدلى بها أمام قومه ليبين لهم الرشد من الغى ، وقد أتاه الله فصاحة وبلاغة ومنطقًا قويًا وبرهانًا ساطعًا ..

---

(٨) الآية ٨٥ من سورة الأعراف .

(٩) فى رحاب الأنبياء ص ١١٥ .

(١٠) الآية ٨٥ من سورة الأعراف .

وهل هناك أقوى من الحجة الصادقة يفصح بها الرجل أمام خصمه فيفحمه بها، والحق سلطان أبلج وقوة قاهرة؟

ولكن جرت عادة الأمم أنهم لا يؤمنون إلا إذا قرعتهم الحجة الحسية والمعجزة المادية التي لا تترك مجالاً لقائل أو شبهة لحائر. ولذلك ألمح بعض الرواة إلى أن هناك معجزة مادية صاحبت شعيبًا – عليه السلام – وهي البينة التي أشار إليها في قوله.

قال هؤلاء الرواة: حين دعا شعيب – عليه السلام – قومه إلى الله قالوا له:

إن نطقت الأصنام بصدق ما تقول صدقناك. لا نقبل لك حجة غير ذلك.

لقد قالوا له ذلك على سبيل التحدي والتعجيز، فهم يعلمون أن الأصنام لا تنطق. ولئن نطقت فلن تنطق مصدقة لشعيب.

ولكن شعيبًا – عليه السلام – قبل التحدي. وتقدم إلى الأصنام، وقال لها: من ربكم؟ ومن أنا؟

فأنطق الله الأصنام بقدرته فقالت: ربنا الله ورب كل شيء وخالق كل شيء. وأنت شعيب نبي الله. ثم نكست الأصنام على رءوسها عن أسرتها[١١].

ولكنهم مع ذلك لم يصدقوه. وهم في ذلك ليسوا بدعًا بين أقوام الرسل. فكثير من هؤلاء الأقوام كذبوا فحقت كلمة العذاب على الكاذبين.

دعوته الإصلاحية:

وقد ضمن شعيب – عليه السلام – دعوته إلى إفراد الله – تعالى – بالألوهية والعبادة دعوة أخرى إلى مكارم الأخلاق والبعد عن الرذائل التي يرتكبها هؤلاء القوم. وكانت هذه الرذائل تتمثل في مظاهر عدة.. منها..

تطفيف الكيل والميزان:

كان هؤلاء القوم إذا اشتروا يستوفون، وإذا باعوا يخسرون..

---

(١١) بدائع الزهور في بدائع الدهور ص ١١٥.

وقد توعد الله أمثال هؤلاء بقوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾[١٢]

وكان قوم شعيب كذلك .

كان لهم مكيالان وميزانان . أحدهما واف يشترون به ، والآخر ناقص يبيعون به .

حذرهم شعيب قائلاً لهم : ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[١٣] .

لقد ذكرهم نعمة الله عليهم ، وأن ما هم فيه من الغنى والخير إنما هو فيض من رزق الله لهم ، فقد هيأ لهم سبل العمل ويسر لهم طرق الرزق ، وأصلح لهم الأرض فساروا فيها وانتفعوا بخيراتها ، فإذا جحدوا النعمة غضب الله عليهم ، والويل كل الويل لمن غضب الله عليه ..

وبخس الحقوق :

وحذرهم شعيب – عليه السلام – من بخس الناس حقوقهم .. وهو تحذير مترتب على ما سبق . قال لهم « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » ..

لقد حذرهم من إخسار الميزان لما يترتب على ذلك من مخاطر كثيرة ، ولأن الميزان أساس التعامل بين الناس ، والوفاء به من آيات الصدق والمروءة .

---

(١٢) الآيات ١ : ٦ من سورة المطففين .

(١٣) الآية ٨٤ من سورة هود .

ولذلك قال –تعالى– مخاطبًا الناس في معرض المنة عليهم في سورة الرحمن التي استقصت كل أنواع النعمة التي أنعم بها على الثقلين ﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ﴾[١٤].

يشير بذلك إلى وجوب العدل، والعدل أساس الملك، وفى الوصاة بإيفاء الميزان وصاة بإيفاء المكيال ضمنًا. وكان ابن عباس –رضى الله عنه– يقول: يا معشر الموالى، وَلِّيتم امرين بهما هلك الناس: المكيال والميزان. وقال قتادة: فى هذه الآية اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل لك، وأوف كما تحب أن يوف لك فإن العدل صلاح الناس[١٥].

وإذا بخس الناس الحقوق أشاعوا الفوضى والاضطراب، ونشروا الظلم والفساد، وأصبح المجتمع كله لا أمان فيه..

لقد دلت عبارة «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» على أنهم كانوا يتواصون على هضم الغريب وبخسه، وإن كانت تشمل بخس أنفسهم كذلك. فقد روى أنهم كانوا إذا دخل الغريب يأخذون دراهمه، ويقولون: هذه دراهم زائفة، فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخس والنقصان.

وربما فشا ذلك إلى غيره من المعانى كهضم الناس حقوقهم وعدم الاعتراف بأقدارهم وأفضالهم، واغتيال حقوقهم المشروعة، وتفضيل غيرهم ممن هم دونهم عليهم، وتخطيهم فى المناصب، وغض النظر عن مزاياهم.

لقد حاول شعيب –عليه السلام– أن يفتح عيونهم على الحق ويبصرهم بأن ما يفعلونه من الأمور الخطيرة التى تقضى على الأمم وتقوض بنيان الشعوب..

---

(١٤) الآيات ٧ : ٩ من سورة الرحمن.

(١٥) تفسير القرطبى جـ ٢٧ ص ٦٣٢٥ ط دار الشعب.

إفسادهم في الأرض :

لقد كانت هناك رذائل أخرى فى هؤلاء القوم ، فهم لم يكتفوا بالشرك واغتيال الحقوق ، ولكنهم أضافوا إلى ذلك الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها .

والشرك إفساد فى حد ذاته لأنه أقصى أنواع الظلم . والظلم مؤذن بخراب العمران - كما يقول ابن خلدون - وقد حذر لقمان ابنه منه فى قوله ﴿وإذ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَىَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١٦).

وكان الشرك ظلمًا لأنه أعطى حق الخالق للمخلوق ، وجحد صفات الخالق العظيم وخلعها على غيره .

إلا أنه كانت لقوم شعيب وسائل أخرى فى الإفساد . تشمل إفساد النظام فى المجتمع البشرى بذلك الظلم الذى أشاعوه ، من أكل أموال الناس بالباطل ، وبالبغى والعدوان على الأنفس والأعراض ، وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة ، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام .

كل هذه ألوان من الفساد أشاعوها فى الأرض بعد أن أنشأها الله على نظام صالح وأساس سليم .

يضاف إلى ذلك إفسادهم العقل الذى جعله الله للإنسان وسيلة هداية وطريق إصلاح لنفسه ومجتمعه ، فإذا بهم يغفلونه ويلغونه ويتبعون وساوس الشيطان التى تضلهم وترديهم ، فيمارسون من الأفعال ما يحط من شأنهم ويشقيهم .

---

(١٦) الآية ١٣ من سورة لقمان .

قطع الطريق :

ومن إفسادهم ما كانوا يقومون به من إشاعة الفوضى وقطع الطريق على المارة ونهبهم وأخذ أموالهم . ويفهم ذلك من قوله لهم : «ولا تقعدوا بكل صراط توعدون» ..

وقد أشار إلى هذا المعنى القرطبي في تفسيره ، وروى فى ذلك قول النبى - ﷺ - : رأيت ليلة أسرى بى خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلا خرقته . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل لقوم من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَلَاتَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾(١٧) .

وقد يكون المقصود بذلك ما كانوا يقومون به - وهو من لوازم حرفتهم فى التطفيف - من تعشير للتجار ، فقد كانوا عشارين مكّاسين ، يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعًا عن طريق القهر والجبر . وهذا ظلم وعسف تأباه الأديان وينفر منه الذوق السليم ، ويتعارض مع دواعى الأمن العام فى المجتمع .

صدهم عن سبيل الله :

ولم يكتف قوم شعيب بالإفساد بعد الإصلاح ، ولكنهم كانوا يترصدون الطريق أمام الناس الذين يريدون الهداية ، فيصدونهم عن سبيل الله ، ويزينون لهم طرق الشر والإغواء ، ويمنعون الناس من التوجه إلى بيت شعيب حتى لا يتأثروا بدعوته .

لقد كان قوم شعيب - عليه السلام - يفعلون الفعل الذى قلدهم فيه بعدهم كفار قريش فى عهد النبى - ﷺ - حين كانوا ينتظرون المواسم فيقولون للقبائل الوافدة إلى مكة : إياكم أن تسمعوا لمحمد أو تستجيبوا لدعوته ، يحذرونهم منه .

---

(١٧) تفسير القرطبى - سورة الأعراف - الآية ٨٦ .

وفيما يرويه ابن هشام في ذلك قوله : وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرون الناس ومن قدم عليهم من العرب ، وكان الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة ، فمشى إليه رجال من قريش ، وكان الطفيل رجلاً شريفًا شاعرًا لبيبًا ، فقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين اظهرنا - يقصدون محمدًا - قد أعضل بنا وفرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنا نخشى عليك فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئًا .. قال الطفيل : فما زالوا بي حتى أجمعت أمرى على اني لا اسمع منه شيئًا ولا اكلمه ، حتى حشوت أذني كرسفا - قطنًا - خوفًا من أن يبلغني شيء من قوله ، وانا لا أريد أن اسمعه(١٨).

ولكن الله أراد بالطفيل خيرًا ، فسمع فأسلم وحسن إسلامه .

وجاء الأعشى الشاعر يقصد النبي - ﷺ - بالمدينة ، واعد قصيدة يمدحه فيها . ومنها :

فآليت لا ارثى لها من كَلاَلَةٍ ... ولا من حَفىً حتى تلاقى محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... تراحي وتَلْقَىْ من فواضله ندى
نبى يرى ما لا ترون وذكره ... أغار -لعمرى- في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل ... وليس عطاء اليوم يمنعه غدا(١٩)

ولكن قريشًا أحست به فاعترضت طريقه وأغرته بالمال ، وطلبت منه أن يؤجل لقاءه بمحمد عامه هذا ، فإن كان العام القادم أقبل عليه ، ولكن شقاءه حاق به فعاد ، ومات في عامه هذا وخسر نفسه .

هذا الذى كان يفعله القرشيون مع النبي - ﷺ - صورة لما كان يفعله قوم شعيب معه .

---

(١٨) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٠٧ .
(١٩) المرجع السابق ص ٤١٢ .

روى ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كانوا يجلسون فى الطريق فيقولون لمن أتى عليهم : إن شعيبًا كذاب فلا يفتننكم عن دينكم .

وكانوا يتوعدون الناس ويخوفونهم أن يأتوا شعيبًا ، ويهددونهم بالقتل إن آمنوا به[٢٠].

فنهاهم شعيب - عليه السلام - عن القعود على الطرقات التي توصل إليه ، وعن الصد عن سبيل الله ، وعن جعل طريق الله المستقيمة ذات عوج بما يلقونه من شبهات كاذبة حولها ، وما يزيفونه من أضاليل وشكوك كقولهم مثلاً : ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَايَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَو ان نَّفعَلَ فِي أَموَالِنَا مَا نَشَاء﴾[٢١] .

موقف قومه منه :

لقد لقى شعيب - عليه السلام - من قومه عنتًا شديدًا ، فقد حاربوه بوسائل متعددة ، ووقفوا فى طريق دعوته بالمرصاد .

لم يغفلوا الحرب النفسية التى يبثها العدو فى نفوس الناس ، وإثارة الشكوك والوساوس ، حتى لا يكون لكلامه تأثير فيهم . وهذا سلاح من أخطر الأسلحة ، تعد الحكومات الحديثة له أجهزة إعلامية متطورة ، وترصد لها من الآلات والدعاة وذوى الخبرة ما يقلب الباطل حقًا والحق باطلاً .

ولم يتوان شعيب فى دعوته إلى الله ، ولم يتأثر بأساليبهم المختلفة ، ولكنه اقبل عليهم إقبال الناصح المرشد ، وظل يذكرهم بنعمة الله عليهم قائلاً لهم :

اتنسون انكم كنتم عددًا قليلاً فاكثر الله نسلكم حتى أصبحتم عددًا كبيرًا ؟

أتنسون انكم كنتم فقراء فأغناكم الله ؟

---

(٢٠) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٧٧ .

(٢١) الآية ٨٧ من سورة هود .

فهذه نعم ينبغى عليكم أن تشكروها ولا تجحدوها، ومقتضى شكر النعمة إفراد المنعم بالعبادة وعدم الإشراك به.

ثم وجه أنظارهم إلى مصائر الأمم التى كذبت برسلها، وهى أمم بعضها بعيد عنهم فى الزمن ولكن ما زال ذكرها باقيًا فى الأذهان، وبعضها قريب منهم ترى آثار النقمة عليه بالمشاهدة والعيان.

ذكرهم بمصير قوم نوح وصالح وهود وقوم لوط. قال لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[٢٢].

لقد أشار بعبارته الأخيرة إلى آثار لوط الباقية وهى قريبة منهم، وما تزال آثار التخريب بادية لمن يشاهدها منهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[٢٣] ولقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٤].

وكان شعيب – عليه السلام – يلوح بالتهديد، ولكنه فى الوقت نفسه يحاول إغراءهم واستمالتهم، ويغريهم برحمة الله ومغفرته إن هم تابوا وأنابوا.

كان يقول لهم: ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[٢٥].. ولكنهم كانوا يردودون عليه فى عجرفة واستكبار: «مَا نَفْقَه كثيرًا مما تقول»..

إنه التغابى الذى يتصنعه المستكبرون عن دعوة الحق.. وإلا فإن كلامه فى منتهى الوضوح والصدق. وهل هناك التواء فى منطقه أو تعقيد فى دعوته؟

وأغلظوا القول وتوعدوه، وهددوه بالرجم تارة والنفى مع من آمن معه تارة أخرى.

---

(٢٢) الآية ٨٩ من سورة هود.　　(٢٣) الآية ٣٧ من سورة الذاريات.
(٢٤) الآيتان ٧٦، ٧٧ من سورة الحجر.　　(٢٥) الآية ٩٠ من سورة هود.

فقد قالوا له: «وإنا لنراك فينا ضعيفًا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز» وهو منطق منقوض من تلقاء نفسه.. فقد وصفوه بالضعف ونفوا عنه العزة، التي أثبتوها لرهطه. والإنسان عزيز - عادة - بقومه، قوى برهطه.

ولكن شعيبًا - عليه السلام - كان يرد عليهم قولهم فى ثقة وإيمان: أرهطى أعز عليكم من الله؟ إن كنتم تخافون بَشَرًا قوتهم مستمدة من غيرهم فلم لا تخافون مَنْ قوته من ذاته وهو الله الذى لا حول ولا قوة لأحد إلا به؟ إن تهديدكم لا يهمنى فإن الذى يكلؤنى هو رب البشر الذى جعلتموه وراءكم ظهريًا، ونبذتم دعوته وأعرضتم عن عبادته.

كان يخاطبهم بالمنطق، وماذا يفعل المنطق مع من أغواه الشيطان وركب عقله؟

إن أعظم فتنة فتن بها الناس هى المال، وشعيب فى نظر هؤلاء القوم يقف فى طريق تثمير المال وتكثيره فى أيديهم.

وإنصافًا لشعيب - عليه السلام - فإنه لم يفعل ذلك، ولكنه وقف فى طريق الاستغلال السيىء، واكتساب المال من طريق حرام. منعهم من تثمير أموالهم عن طريق الغش والتضليل، ودعاهم إلى سلوك الطريق الشريف فى اكتسابه. حذرهم من الغش التجارى والتطفيف فى الكيل والميزان. وهذا لا يعنى محاربتهم فى أرزاقهم..

لقد فهموه خطأ حتى قال: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾[٢٦].

وهذا هو المنطق المنكوس والفهم الضال..

---

(٢٦) الآية ٨٧ من سورة هود.

ولما لم يجد شعيب جدوى في وصولهم للحق قال لهم : نحن نحتكم إلى الله فى هذه القضية ، قضية الإيمان والكفر ، قضية الصلاح والفساد .. فالله جلت حكمته هو الذى يحكم بيننا بعدله .. فكفوا عن إيذاء من آمن بى وانتظروا حتى يحكم الله والله لا معقب لحكمه ..

كان شعيب – عليه السلام – لطيفًا فى مخاطبتهم ، لم يغلظ لهم القول ، وكان يرجو أن يبلغ منهم بفصاحته وحسن تأنيه معهم إلى ما يريد . ولذلك قال لهم : ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾(٢٧) .

ولجأ إلى الله قائلاً : ﴿ على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾(٢٨).

حوار بين المؤمنين والكافرين :

وكان فى قوم شعيب رؤساء يلجأ الناس إليهم ، ويولونهم أمرهم ، وكان هؤلاء الكبراء هم الذين يتولون جدال شعيب ومن آمن معه .

قال هؤلاء الكبراء للمؤمنين : لنخرجنكم من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا .

إن القرية لا تحتمل دينين ، فإما أنتم وإما نحن .. وما دمنا نحن الأقوياء فلتخرجوا أنتم أيها الضعفاء .. هذا هو مفهوم كلامهم ..

وكان ذلك جوابًا لقول شعيب لهم : فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ..

إنهم لا يؤمنون بما يقول ، وهم لا يعرفون إلا ما يقع تحت دائرة الحس ، أما المعانى والمعقولات فلا شأن لهم بها ولا يؤمنون بها .

وكانت إجابة شعيب على هذا التهديد الصريح منهم إجابة تحمل معنى التعجب من منطقهم والإنكار لقولهم . قال لهم : أو لو كنا كارهين ؟

---

(٢٧) الآية ٨٧ من سورة الأعراف

(٢٨) الآية ٨٩ من سورة الأعراف

ومؤدى ذلك : عجبًا لكم ، أتطلبون منا أن نعود إلى ملتكم مع كراهتنا لها ؟

وإذا كان فى الإمكان العودة إليها فعلام تركناها إذن ؟

هل تظنون أننا نتاجر بالأديان فنقبل على ما نريد حين نريد ونعرض عنه حين نريد ؟

كلا ، إن الدين شرف ، وهو روح يتغلغل فى الأعماق فإذا بالنفوس تحيا به ولا تحيا بدونه ، وإنه ليهون مع العقيدة كل شيء ، يهون المال والأهل والولد والنفس والوطن .

وإن المؤمن ليضحى بكل مرتخص وغال ، بل ويحارب في سبيل عقيدته أعتى الجبارين وأقوى الأقوياء .

ولقد شرع الله الهجرة للمؤمن حين يجد الطريق غير مأمون على عقيدته ، وتوعد المستجيب للفتنة بأشد العقاب ، وقال فى ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾(٢٩)

كما وعد المهاجر بالأجر الجزيل وتكفل بحسن مصيره إن أصابه مكروه فى هجرته فقال :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾(٣٠)

---

(٢٩) الآيات ٩٧ : ٩٩ من سورة النساء .

(٣٠) الآية ١٠٠ من سورة النساء .

فكيف يقبل شعيب ومن آمن معه دعوة قومه إلى الارتداد ؟

وذلك كان رده عليهم عليهم صريحًا قاطعًا : ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا﴾(٣١).

هل يرغب الحر فى الارتداد إلى الذل بعد أن تخلص منه ؟ وهؤلاء قد تخلصوا من سجن الكفر إلى فضاء الإيمان .

وهل يقبل العاقل أن يخرج من الجنة بعد أن دخلها ؟ وهؤلاء قد تخلصوا من شقاء المادة ونعموا بجنة الأنس بالله والإقبال عليه ، وشعروا بلذة الطاعة وحلاوة الإيمان .

إنه أعظم افتراء على الله ونعمته ، وكفر به وبمنته إن استجبنا لما تقولون . وأصخنا لما به تنادون ..

لقد نجونا فما بالنا نعود إلى ذل الأسر ؟ وقد ظفرنا فما بالنا نرتد إلى الهزيمة ؟ ما أعجب منطقكم أيها القوم ، وما أكثر ضلالكم وأسفه آراءكم !

لقد بذل شعيب مع قومه قصارى جهده ، واستخدم أقصى ما يمكنه استخدامه من منطق قوى وفصاحة وقوة حجة فى إقناعهم . ولم يفقد أعصابه فى مواجهتهم وهم يتحدونه ويسخرون منه .

ولقد كان قولهم له : « إنك لأنت الحليم الرشيد » تهكمًا به وسخرية منه ، فهم لا يقصدون امتداحه بذلك بل هو من قبيل التعريض به كأنه فقد الحلم والرشد . والعرب يستعملون هذا الأسلوب ، يأتون بالذم فى صورة المدح ومن أمثلته فى القرآن الكريم ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾(٣٢). ومن أمثلته فى أشعار العرب قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فشعيب فى نظرهم لو كان حليمًا رشيدًا ما دعاهم إلى ما دعاهم إليه .

---

(٣١) الآية ٨٩ من سورة الأعراف .
(٣٢) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

كان يريد منهم أن يقنعوا بما رزقهم الله من حلال ولا يلجأوا إلى الحرام ، وكان يتمنى لو أنهم أصاخوا السمع له وقبلوا نصحه وإرشاده واستجابوا إلى مافيه صلاحهم ونجاحهم . ولكنهم ضربوا بقوله عرض الحائط ، وأصموا آذانهم واستكبروا استكبارًا .

ومع ذلك فقد بين لهم أنهم مهما بلغوا من قوة فهم ضعفاء ، ومهما زعموا من عزة فهم أذلاء .. ولذلك قال لهم مهددًا لعلهم يثوبون إلى رشدهم :

﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[٣٣] .

وحين ذلك لجأ إلى الله يائسًا منهم تاركهم ومصيرهم بعد أن ألزمهم الحجة . قائلاً لهم : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣٤] .

إنه موفَّق ، أما هم فقد جانبهم التوفيق ، ولو حالفهم لآمنوا مع من آمن . وأهل الذوق يقولون : التوفيق نادر ولندرته لم يذكر فى القرآن الكريم بهذا المعنى -وهو الرشد وتيسير الأمور وإصابة وجه الحق- إلا فى هذا الموضع .

اختلاف المقاييس :

وأقبل هؤلاء الذين استكبروا من قوم شعيب على من آمن بشعيب يهددونهم ويتوعدونهم قائلين لهم : لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون .

وما الخسران فى نظرهم ؟

إنه الخسران المادى الذى يرتفع عندهم فوق كل قيمة ويزيد على كل شرف .

---

(٣٣) الآية ٩٣ من سورة هود .
(٣٤) الآية ٨٨ من سورة هود .

إن النفع عندهم مقياسه ما يضاف إلى الرصيد الحسابى من ثروة ومال وجاه ومنصب وسلطان. وما يصب في الخزائن آخر كل صفقة من ربح ..

أما القيم الرفيعة من شرف وطهر وعفاف ومروءة وصدق وأمانة ووفاء وغيرها فلا قيمة لها فى نظرهم ..

ولذلك حاول شعيب – عليه السلام – لفت نظرهم إلى هذه القيم الروحية فقال لهم : «بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين» ..

ولكنهم كانوا في شغل عن هذه المعاني الرفيعة .. وكان المؤمنون بشعيب فى نظرهم خاسرين ..

خسروا صفقات تجاراتهم ، وخسروا ما كانوا يجنونه من تطفيف الكيل والميزان من أرباح، وخسروا ما كانوا يكتسبونه من وراء الوساطة والسمسرة والتعشير والتمكيس وغير ذلك من وسائل تعرفها الأسواق التجارية جيدًا .. والتجارة لا قلب لها أبدًا ، هى لا تعرف العواطف ، ولا شأن لها بالمعانى الروحية والعلاقة الإنسانية أبدًا فى منطق هؤلاء القوم.

ولعل هذا ما كان يقصده شعيب بقوله «بقية الله خير لكم» كأنه أراد أن يقول لهم : راعوا جانب الله . لا تنسوه فى بيعكم وشرائكم ، استحضروا هيبته ومحاسبته لكم عند عقد صفقاتكم وجنى أرباحكم ..

ولكنهم لم يفهموا ذلك .. فهموا الخسارة بمعيارهم هم ..

ولذلك كان أتباع شعيب خاسرين بهذا المقياس. وخسروا إلى جانب ذلك عطف كبرائهم عليهم ، وخسروا مبادئهم الزائفة التى كانوا يستظلون بظلها بتركهم لها إلى مبادىء أخرى ، غريبة عنهم وافدة عليهم ، جاء بها شعيب لهم.

هذا هو الحساب فى نظرهم. وما عرفوا أن الخسار الحق هو ترك ما دعا إليه شعيب – عليه السلام –.

فالغنم المادى مهما كثر لا يعد شيئًا بجانب الغنم الروحى والكسب المعنوى.

وماذا يفيد الإنسان لو كسب العالم كله وخسر نفسه ؟؟

وخسر قوم شعيب أنفسهم بعد أن خسروا أيضًا كل ما جمعوه من حطام الدنيا.

إن الدنيا متاعها زائل وحطامها حائل، إن أقبلت بلت، وإن أدبرت برت، وإن اركبت كبت، وإن أضعفت عفت -كما يقول الحكماء-.

نهاية الطغاة:

وهكذا كان فى إقبالها على أهل مدين بلاء وكان فى إدبارها عنهم شقاء.

فقد أهلكهم الله بالرجفة. وهى الصيحة الشديدة. التى خلعت قلوبهم وأزهقت أرواحهم. ولم تغن عنهم أموالهم التى جمعوها شيئًا، ولم تدفع عنهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله العذاب.

وقيل: إن الله أهلكهم بعذاب شديد، أرسل عليهم لفحًا من نار جهنم حوَّل الأرض حولهم إلى سعير، أخذ بأنفاسهم، فدخلوا -كما يقول ابن عباس رضى الله عنهما- فى أجواف البيوت فلم ينفعهم ذلك، فأنضجهم الحر، فخرجوا هربًا إلى البرية، فبعث الله سحابة حسبوا أن تحتها بردًا، فأسرعوا يستظلون بها، وحين توافدوا إليها واجتمعوا كلهم تحتها، ألهبها الله عليهم نارًا، ثم رجفت الأرض بهم فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقلى، فصاروا رمادًا، وذلك قوله -تعالى-: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾[٣٥].

أهل مدين وأصحاب الأيكة:

يرى بعض المفسرين أن شعيبًا كان رسولاً لأهل مدين، ولأصحاب الأيكة، وأصحاب الأيكة -كما سبقت الاشارة- أصحاب غيضة بين

---

(٣٥) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٦٨.

ساحل البحر إلى مدين وكان شعيب يتردد بين الفريقين ، وقد كذب به كل من هؤلاء وهؤلاء ، أو أنه بعد أن فرغ من أهل مدين أرسل إلى أصحاب الأيكة .

وقد أخذ الله الفريقين أهل مدين بالرجفة وأصحاب الأيكة بالظلة ..

وقال أصحاب هذا الرأى : إنه ما بعث الله نبيًا مرتين إلا شعيبًا - عليه السلام - بعثه مرة إلى أهل مدين فأخذتهم الرجفة ، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم عذاب يوم الظلة .. ونقلوا ذلك عن عكرمة والسدى .

وقد انتقد ابن كثير هذا الرأى ورده ، وهو محق فى رده . لأنه لا يمنع أن يكون أهل مدين هم انفسهم أصحاب الأيكة ، ونسبوا إلى مدين نسب مكان أو قبيلة ، ونسبوا إلى الأيكة نسب عبادة ، لأن الأيكة كانت من معبوداتهم .

وذكر ابن إياس فى كتابه تعليلاً طريفًا قال - فيما نسبه إلى كعب الأحبار - : إن مدين بن إبراهيم - عليه السلام - عاش عمرًا طويلاً ، وكان له امرأة من العمالقة ، ولدت له أربعة بنين تزوجوا وتوالدوا .

فجمع مدين كبراء نسله وقال لهم : الرأى عندى أن تبنوا لكم مدينة كبيرة حصينة تمنعكم من العمالقة . فبنوا مدينة وسموها باسمه ، ونزلوا بالأيكة وهى قرية قريبة منها .

وكان أهل مدين يعبدون الله ، وأهل الأيكة يعبدون الأصنام ، ولا يغير بعضهم على بعض .

حتى جاء والد شعيب ، وزوجته من العمالقة ، فولدت له ولدًا سماه « يثرون » وكان يدعو له أبوه قائلاً : اللهم بارك فى شعيبى أى - ولدى بلغته - فغلب عليه اسم شعيب .

وتوفى والد شعيب ، ونشأ شعيب على ما كان عليه أبوه من زهد وعبادة .

وكان أهل مدين أصحاب تجارات ، وكانوا يحتكرون ، وكان لهم مكيالان وميزانان ، يشترون بالوافي منهما ويبيعون بالناقص .

وكان شعيب لا يعاشرهم ولا يداخلهم حتى أقبل عليه غريب ذات يوم ، فقال له : يا شعيب ، أنت رجل صالح وإني اشتريت من رجل منهم مائة كيل من الطعام بمائة دينار ، فأخذتها واكتلتها فنقصت عشرين كيلاً . والتمس الرجل من شعيب أن يساعده في استرداد حقه .

فمضى معه شعيب إلى القوم وسألهم عن قضية المشترى . فقالوا له : ألم تعلم يا شعيب أن هذه سنتنا ، نأخذ بالوافر ونعطي بالناقص .

فقال شعيب : ليس هذا من سنة الله فاتقوا الله وأعطوا الرجل حقه ، فأبوا ..

وكان هذا سبب مبعث رسالته في أهل مدين وأصحاب الأيكة(٣٦).

وقد تقدمت الآيات التي تحدثت عن أصحاب الأيكة ، وإليك الآيات التي تتحدث عن أهل مدين :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

(٣٦) بدائع الزهور في وقائع الدهور ص ١١٣ .

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ
شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ
يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[٣٧]

وانطوت صفحة قوم كفروا بالله وكذبوا رسله ، وتركوا من بعدهم قصة يعتبر بها من رزقه الله ووفقه للاعتبار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣٨] .

وبقي شعيب فترة يعيش في مدين وعاش معه من آمن به ، لقد نجاهم الله من العذاب الذي أصاب قومه . كما نجّى نوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا .. وغيرهم من الأنبياء الذين هلكت أممهم بعذاب الله .

وجاء موسى إليه فزوجه من إحدى بناته ..

وكان شعيب حين جاءه موسى شيخًا كبيرًا وهنت قواه وضعف بصره روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري انهم قالوا : كان شعيب ضرير البصر .

وروى في حديث مرفوع أنه بكى من حبه لله حتى عمي ، فرد الله عليه بصره وقال : يا شعيب .. اتبكي خوفًا من النار ؟ أو من شوقك إلى الجنة ؟

فقال : بل من محبتك ، فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يصنع بي .

---

(٣٧) الآيات ٨٥ : ٩٣ من سورة الأعراف .

(٣٨) الآية ٣٧ من سورة ق .

فأوحى الله إليه : ﴿هنيئًا لك يا شعيب لقائي فلذلك أخذ منك موسى بن عمران كليمي[39].

وذكر ابن عساكر في تاريخه أن شعيبًا – عليه السلام – مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم[40].

ولا يمنع ذلك عقلاً .. فقد يكون شعيب في آخر حياته انتقل بمن رآه صالحًا من قومه إلى مكة حاجًا وهناك مات ..

وقد ذكرت التوراة أن «يثرون» حما موسى صحب زوجة موسى وولديه منها إليه بعد اجتيازه البحر ببني إسرائيل.. فماذا يمنع أن يكون بعد أن تخفف من هذه الأمانة وردها إلى صاحبها قد انتقل إلى مكة ؟



(٣٩) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢١٢ قالوا : رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد ابن علي الكوفي في سند متصل بشداد بن أوس عن النبي – ﷺ – قالوا : وضعفه الخطيب البغدادي .

(٤٠) المرجع السابق ص ٢١٨ .

قصة أيوب

عليه السلام

- نسب أيوب .
- أقوال في سبب ابتلائه .
- إبليس يتربص بأيوب .
- ابتلاء أيوب .
- أيوب مثل أعلى في الصبر .
- زوجته مثل أعلى في الوفاء .
- نجاح أيوب في امتحانه .
- ماذا نتعلم من أيوب ؟

قصة أيـوب

مقدمـة :

أورد كتاب العهد القديم قصة أيوب كاملة في سفر خاص باسمه ، يحتوى على اثنين وأربعين إصحاحًا ، وكانت هذه القصة بالصورة التى عرضت فى هذا الكتاب مادة سخية للقصاصين ورواة الأخبار والأساطير ونسَّاج الخيال .

ويتفق العهد القديم مع القرآن الكريم فى وصف أيوب بأنه كان عبدًا للرب وكان من الصالحين .

وقد ذكر القرآن الكريم اسم « أيوب » أربع مرات ، وأشار إلى قصته فى موضعين : فى سورة الأنبياء حيث يقول الله - تبارك وتعالى - :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[1]

وحيث يقول فى سورة ص :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى

---

(١) الآيتان ٨٣ ، ٨٤ من سورة الأنبياء .

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ
أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[٢]

وكان صبر ايوب - عليه السلام - على المحن الشداد التى ابتلِىَ بها مثلاً اعلى ، كما اصبح مادة اسطورية دخلها كثيرٌ من الإغراق فى الخيال .

نسبه :

هو أيوبُ بن أُموص بن تارخ بن روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام -[٣].

وأمه من ولد لوط - عليه السلام -[٤].

وذكر فى الرواة أن زوجته هى رحمة بنت إفرايم بن يوسف الصديق . وهو المشهور ، وقد ذكر البيضاوى - رحمه الله - فى تفسيره أن زوجته هى ليًا بنت يعقوب . وربما كان هذا غريبًا . فإن بين أيوب ويعقوب ثلاثة آباء . ولكن بينه وبين إفرايم أب واحد .. فكون رحمة وهى زوجته أقرب إلى الصواب ..

وقد وهب الله أيوب - عليه السلام - جمالاً ومالاً وهيئة ، وأولادًا نجباء وصلاحًا وتقوى ، فقد جمع بذلك بين سائر النعم الحسية والمعنوية ، وبلغ من الكمال الدينى والدنيوى مبلغًا عظيمًا ..

والرواة يصفونه بأنه كان رجلاً طويلاً عظيم الرأس ، جعد الشعر ، حسن العينين والوجه ، قصير العنق ، غليظ الساقين والساعدين[٥].

---

(٢) الآيات ٤١ : ٤٤ من سورة ص .
(٣) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٥٥ .
(٤) المرجع السابق ودائرة المعارف الإسلامية ٥ / ٤٣٥ .
(٥) دائرة المعارف الإسلامية .

ووهبه الله اثنى عشر ابنًا واثنتى عشرة ابنة ، وكانت له أملاك واسعة وضياع كثيرة وأموال طائلة .

وكان عظيم التقوى رحيمًا بالمساكين عطوفًا عليهم ، يكفل الأرامل والأيتام ويقرى الضيف ، ويعظم الحق .

وأتاه الله إلى جانب ذلك النبوة والرسالة . فأى نعمة أعظم من ذلك ؟

اين كان يقيم ؟

وكانت حوران مهد دعوته ..

وقال الثعلبى : كانت له « البَثَنِيَّة » من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وما كان عليها من أصناف المال .

و « بَثَنِيَّة » كورة فى سوريا قصبتها « أذرعات » ، وحدُها من الشرق جبل الدروز ، ومن الشمال سهل اللحاء ، ومن الغرب الجولان ، ومن الجنوب تلال الجمل ، وهى إقليم خصب ، كما يدل اسمها على ذلك فهو مشتق من « بثنة » ومعناها الأرض السهلة التى لا حجر فيها[٦] .

وكان الذين آمنوا بأيوب يلتقون حوله كل مساء فى المسجد ، ويصلون معه .

حسد إبليس لأيوب :

ونظر إبليس اللعين فإذا أيوب فى نعمة سابغة وحياة ناعمة ، وعيش رأبع وقلب من هم الدنيا فارغ .

وحدثت نفسه بما حدثته به يوم رأى آدم – عليه السلام – فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، وفى عيشة راضية ، وسعادة غامرة .

---

(٦) دائرة المعارف الإسلامية .. مادة « بثنة » ..

فأكل الحسد قلبه فوسوس له حتى أخرجه من تلك الجنة وهبط به إلى الأرض حيث الكدح والشقاء والشدة والعناء .

وقد نجح إبليس في تجربته الأولى مع آدم ، فلماذا لا يمارس هذه التجربة ذاتها مع أيوب حتى يلحقه بأبيه آدم؟ وحتى يخرجه من ذلك النعيم الذى يعيش فيه إلى شقاء لا أول له ولا آخر؟

والأمر سهل أمامه ، فإن أيوب فى الأرض وليس فى السماء ، فالمهمة إليه ميسورة ووسائل الإفساد ممهدة .

إن أيوب وإن لم يكن فى جنة عالية كتلك التى كان فيها آدم – عليه السلام – إلا أنه فى جنة فى أرضه ، عريضة واسعة ، فيها ما تشتهيه النفس وتلذ به العين ، وله فيها جمال وله عليها سلطان ، وهؤلاء الناس من حوله يقبلون عليه ويدينون له بالطاعة ، بل هم أطوع له من بنانه .

وقد استطاع أيوب بهذه النعمة الواسعة والجمال الظاهر والسلطان الكبير والمال الوفير أن يؤثر فى نفوس الناس ، فالتفوا حوله ، فهم وإن لم يقبلوا عليه كنبى له دعوة أقبلوا عليه كغنى له ثروة ، وللمال منذ قديم الزمان سحره وسلطانه ، وكم استطاع أن يستولى به صاحبه على القلوب ، ويهيمن به على النفوس ، والناس عبيد الإحسان فى كل زمان ومكان ، والشاعر العربى يقول :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

بهذه الأحاسيس حدث إبليس نفسه ، وسول له كيده وحقده وحسده لأيوب أن يجعل هذا السامر من حوله ينفض ، وهذا الصرح العالى من جاهه ومنصبه ينقض .

وقد زاد من حقد إبليس وحسده ما رآه من ثناء على أيوب ، ليس فى الأرض فقط ، بل فى السماء ، فهاهم الملائكة الأطهار – فيما يبلغه عنهم – يُصلُّون على أيوب ، ويستغفرون له ولمن آمن معه ، وقد ورد فى

بعض الآثار ما يفيد أن الله - سبحانه وتعالى - إذا أحب عبدًا أثنى عليه، فتثني عليه الملائكة في عليين، وينادى مناد في الأرض : أيها الناس إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل الأرض كما أحبه أهل السماء[(٧)].

وكل ثناء على أيوب يقابله سخط على إبليس . ويظهر لذلك صدى في نفسه يتفجر منه غيظًا وحقدًا ..

وعداوة إبليس للبشر قديمة وهي درجات .

فأشد ع اوة منه تكون للأنبياء، ثم لمن يلونهم، وما تزال تتدرج إلى أدنى حتى تصبح عداوة تقليدية لعامة البشر، وقد لا يحركون عنده ساكنًا لأن قيادهم سهل وإغواءهم ميسور، وقد انساق كثير منهم إلى الشر بحكم العادة والتقليد وعدم المبالاة والاستجابة للطبيعة، وهؤلاء قد فرغ إبليس منهم .

ولكنه إذا رأى أحدًا قد سلك الجادة، وانتهج الصواب، شمر عن ساقه في إغوائه، ونصب حبائله لإضلاله .

ويؤرّق إبليس جدًا من يراه من بني آدم ناعم البال قرير العين في أسرته راضيًا بما قسم الله له غير متكالب على حطام الدنيا .

حدث أحد الأنباء قائلاً :

إن إبليس غاظه أمر رجل قروى يعيش في كوخ صغير سعيدًا مع زوجته وولده، وله بقرة يحلبها ويشرب من لبنها، ويربطها أمام الكوخ .

---

(٧) أخرجه البخارى في كتاب بدء الخلق جـ ٤ ص ١١١ ولفظه : «إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادى جبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» عن أبي هريرة . وأخرجه مسلم من كتاب البر والصلة جـ ١٠ ص ٦٣ .

الأحاديث القدسية جـ ١ ص ٧٨ .

وكان هذا القروى لا يكف عن ذكر الله وحمده، ويرى أنه فى كوخه المتواضع مع أسرته الصغيرة ملك فوق عرش، ولديه نعيم الدنيا بأسرها.

غاظه أن يعيش هذا الرجل ناعم البال لا يهمه ما يهم غيره من الناس، من تنافس على متاع الدنيا، وطمع فى ثروتها، فعزم على أن ينغص عليه حياته، واستدعى تلاميذه وأغراهم به.

فأقبل هؤلاء التلاميذ على الرجل يزرعون الشكوك فى نفسه حول امرأته فلم يفلحوا، فأقبلوا على المرأة يثيرون فى نفسها الغيرة على زوجها فلم يستطيعوا. لقد كان كل منهما يضرب بما يوسوس الشيطان فى نفسه عرض الحائط. وإذا ما عرض فى داخله وهم استعاذ بالله من الشيطان فيولى الشيطان هاربًا، وهذا هو ما يقوله القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ﴾(٨).

وعاد جنود إبليس إلى أستاذهم الأول بائسين..

فقال لهم: تعالوا معى وانظروا كيدى وسحرى..

وانطلقوا خلفه، ولم يفعل إبليس الكبير شيئًا أكثر من أن حرك الوتد الذى تشد إليه البقرة أمام الباب.

فجذبت البقرة الحبل فانخلع الوتد، وضربت باب الكوخ برأسها، فانفتح الباب بعنف، وخلف الباب موقد فوقه إناء فيه ماء يغلى، فقذف الباب بالإناء فوق الطفل الصغير الذى يرقد فى جانب وراء الباب فى هدوء. فاحترق الطفل، وأقبلت المرأة على صوت صراخه فى الوقت الذى اقتحمت فيه البقرة الباب وداست فى طريقها كل شىء وأشعلت النار فى الكوخ.

وجاء الرجل من الخارج فرأى كل شىء محطمًا أمامه فنسب الإهمال إلى الأم. وألقى عليها يمين الطلاق فى سرعة..

---

(٨) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

وتقوض البيت السعيد فى لحظة ..

وقهقه الشيطان وتلاميذه فى سرور ..

لم يبذل إبليس الكبير عناءً كبيرًا فى تقويض هذا البيت . لا شىء إلا أنه حرك الوتد .

ونظر إلى تلاميذه فى صمت يقول لهم : تعلموا ..

هذه قصة رمزية توحى بمعان كثيرة ، وتدل على أن الشيطان للإنسان عدو مبين ، كما يقول لنا القرآن الكريم فى أكثر من موضع .

وهذا فعل إبليس مع رجل من سواد الناس .

فكيف يكون فعله مع نبى من الأنبياء ؟

إبليس يتربص بأيوب :

وقد ذكر العلماء أسبابًا فى البلاء الذى حاق بأيوب ..

ولا سبب فى الواقع أصدق من تطبيق الحديث الشريف : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » ..

ولكن الناس عادة مولعون بالأخبار وتتبعها ومحاولة تلمس الافتراضات لها .

فقال بعضهم : دخل أيوب مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه فى أمر ، فجعل أيوب يلين له فى القول من أجل زرع كان له ، فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله وبالضر فى جسمه(٩).

وقال بعضهم : إنه استضاف يومًا الناس فمنع فقيرًا من الدخول فابتلى بذلك .

---

(٩) القرطبى جـ ١٧ ص ٤٣٦٣ ط. دار الشعب .

وقيل : استعان به مظلوم فلم ينصره[١٠].

ولكن مقام النبي يرتفع عن ذلك، فما كان لنبى أن يمالىء سلطانًا أو يخشى جبارًا وهو مع الله –جل جلاله– .

وما كان له أن يبخل أو يحتقر الفقير ويطرد المسكين أو يقعد عن نصرة المظلوم .

لقد شغلت قصة أيوب الأذهان حتى جعلت بعض الرواة يتوهم أن إبليس خاطب ربه قائلاً :

يا إلهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبدًا أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ثم لم تختبره بشدة ولا ببلاء، وأنا لك زعيم لئن خبرته ببلاء ليكفرن بك ولينسينك .

فقال الله –تعالى– له : انطلق إليه فقد سلطتك عليه..

فأمر الشيطان تلاميذه بإهلاك مال أيوب فأهلكوه، فلم يبال أيوب بما حدث .

ثم قال الشيطان : سلطنى يارب على جسده، فسلطه على جسده . ما عدا قلبه وعقله ولسانه، فأمرضه وحطمه، ولم يتغير أيوب وظل على ذكره لربه .

وفشل إبليس فى مهمته، وباء بالخزى والخذلان أمام هذه التجربة التى خاضها أيوب بكل قوته[١١].

وهذه القصة لا تلتقى مع المنطق السليم ولا مع التعاليم الدينية الصحيحة .

---

(١٠) المرجع السابق ص ٥٦٥٣ .

(١١) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٥٦ باختصار .

ذلك أن الله – تعالى – قال لإبليس بعد أن ظهرت عداوته لآدم وتوعد ذريته بالإغواء وطلب من ربه أن ينظره إلى يوم الدين، قال له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(١٢).

وأقر إبليس نفسه بذلك حين قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(١٣).

ومن يكون مخلصًا إن لم يكن النبي أيوب مخلصًا؟

إنها قصة ظاهرة الوضع، فما كان لإبليس أن يجرؤ على محاورة الله – تعالى – بهذه الصورة التي جرت طالبًا منه الإذن في إضلال نبيه – عليه السلام –.

قد يكون إبليس شارك بكل قوته في إيذاء أيوب – عليه السلام – ولكن بدون ذلك الإذن الذي تزعم هذه الرواية أن إبليس حصل عليه من رب العزة الذي وعد بحفظ أوليائه وأحبائه.

إن صنع الشر هي مهمة إبليس منذ القدم، وهي مهمة مارسها قديمًا وسيظل يمارسها إلى أن تقوم الساعة، وهي مهمة هيأ نفسه لها، ولهوانه على الله مكنه منها، ولكن الله نجى أولياءه وأحباءه من عواقبها مهما اشتط إبليس في فعل الشر معهم.

إن مقام النبوة عال، وليس اختيار الأنبياء أمرًا عشوائيًا يحتاج إلى تجربة، ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وقد اختار الله أنبياءه وأصفياءه منذ الأزل، وقال في ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١٤).

وقال – جل ثناؤه –: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾(١٥).

---

(١٢) الآية ٤٢ من سورة الحجر. (١٣) الآية ص ٨٢، ٨٣ من سورة ص.
(١٤) الآيتان ٣٣، ٣٤ من سورة آل عمران.
(١٥) الآية ٢٦ من سورة الحديد.

وأيوب - عليه السلام - نبى من سلالة أنبياء ..

فهو لا يحتاج أن يُجَرَّب. وهل إذا جُرِّب يُجَرِّبْ من إبليس وبناء على اقتراحه ؟

ومتى كان إبليس يجرؤ على مخاطبة الله -تعالى- بعد أن طرده من رحمته، وقال له: ﴿اخْرُجْ مِنهَا مَذءُومًا مَدحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنهُم لأَملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُم أَجمَعِينَ﴾(١٦).

وربما احتج صاحب هذا الرأى بأن إبليس سبق وأن وسوس لآدم بعد الأمر بطرده. ولكن يجاب عن ذلك بأن وسوسته لآدم كانت لحكمة إلهية لتعمير هذه الأرض التى وعد الله أزلاً بأن يجعل فيها خليفة، وكان هذا الخليفة هو آدم وذريته.

بل لقد زعم أصحاب هذا الرأى بأن إبليس كان له مكان فى السماء يومًا فى العام، وفى هذا اليوم طلب من ربه أن يجرب أيوب.

وقد رد ابن العربى على هذا القول بأنه باطل، لأنه أهبط منها بلعنة وسخط، فكيف يرقى إلى محل الرضا، ويجول فى مقامات الأنبياء، ويخترق السموات العلا ويعلو إلى منازل الصديقين من الأنبياء ويقف فى موقف الخليل ؟

قال: وأما قولهم إن الله تعالى قال لإبليس: هل قدرت من عبدى أيوب على شىء ؟ فباطل قطعًا، لأن الله لا يكلم الكفار الذين هم جند إبليس الملعون فكيف يكلم من تولى إضلالهم ؟

وأما قولهم إن الله قال له: قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن فى القدرة ولكنه بعيد فى القصة ..

---

(١٦) الآية ١٨ من سورة الأعراف.

أما قولهم إنه نفخ فى جسده فهو أبعد ، لأن الله قادر على أن يبتلى عبده بما ابتلاه به دون أن يكون للشيطان كسب فيه(١٧).

حقًا ، إن ابتلاء أيوب بهذه الصورة العنيفة كان بتقدير إلهى ، ليضرب الله به المثل أمام عباده بأن هناك من امتحن بأقسى أنواع الامتحان فصبر وشكر ونجح فى الامتحان .. وكان حقًا أن يصفه الله بالصبر ويقول فى حقه «إنا وجدناه صابرًا» ويمتدحه بقوله «نعم العبد إنه أواب» ..

مبالغة فى تصوير البلاء :

وقد بالغ الرواة في وصف البلاء الذى حاق بأيوب ، وبخاصة فيما يتعلق بمرضه .

لقد وصفوا مرضه أوصافًا تتقزز منها النفس ، وتشمئز منها العين . ومن صفات الرسل أنهم يمرضون ، ولكن لا يمرضون بهذه الأمراض المنفرة التى تحول بينهم وبين أداء رسالة ربهم ، وتمنعهم من مخالطة غيرهم .

وقد تحدث الشيخ محمد عبده عن خصائص الرسل فقال : «ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم فى أقوالهم وأمانتهم فى تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضاد شيئًا من الصفات المتقدمة ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية ، أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده ، يأكلون ، ويشربون ، وينامون ، ويسهون ، وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون ، وتمتد إليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الأنبياء»(١٨).

---

(١٧) تفسير القرطبى –سورة ص– ص ٥٦٥٢ ط دار الشعب ..
(١٨) رسالة التوحيد ص ٨٤ .

لقد ابتلى أيوب – عليه السلام – بغير شك ، ومرض ، ولكن مرضه لم يكن منفرًا بالصورة التى تحدث عنها الإخباريون ، وهم وإن نزعوا فى وصفهم عن أهل الكتاب فلذلك تأويله كما يقول الشيخ عبد الوهاب النجار –رحمه الله – .

قال : إن هذه الأوصاف التى وردت فى سفر أيوب حسبها الرواة أنها من قبيل الوصف الحقيقى ، ولو تدبروا لعلموا أن سفر أيوب يشبه قصائد شعرية قيلت فى وصف ضره وصبره ، والشعر فى كل لغة ميدان للمبالغة . انظر إلى قول عمر بن الفارض :

فطوفان نوح عند نوحي كأدمعي وإيقاد نيران الخليل كلوعتى

والمتنبى يقول :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقال : ولو أن الابتلاء الذى أشاروا إليه ووصفوه بهذه الصفة من المبالغة كان حقيقة ، فربما كان قبل النبوة ، وكانت النبوة مكافأة له على صبره ورضاه[١٩].

ربما وردت شبهة ان الابتلاء كان فى منتهى القسوة وأن الشيطان كانت له يد فيه من قوله – تعالى – : ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ ومن قوله – تعالى – : ﴿رب إني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ ..

ولكن الإجابة عن ذلك : أن المؤمن عادة لا ينسب الشر إلى الله بل ينسبه إلى الشيطان ، وينسب الخير إلى الله ولا ينسبه إلى نفسه ، وقد قال إبراهيم عليه السلام : ﴿وإذَا مَرِضتُ فَهُوَ يَشفِينِ﴾[٢٠] ، نسب المرض لنفسه ، والشفاء لله . وقال فتى موسى : ﴿وَمَا أنسَانِيهُ إلاَّ الشَيطَانُ أنْ أذكُرَهُ﴾[٢١] . وكان فتى موسى نبيًا هو يوشع بن نون وقال موسى نفسه عقب قتل القبطى : ﴿هَذَا مِن عَمَلِ الشَيطَانِ﴾[٢٢] .

---

(١٩) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٤١٧ . (٢٠) الآية ٨٠ من سورة الشعراء .
(٢١) الآية ٦٣ من سورة الكهف . (٢٢) الآية ١٥ من سورة القصص .

والنبى - ﷺ - فى ذكره يقول : « والخير فى يديك والشر ليس إليك » ..

وقوله - تعالى - : ﴿اركض برجلك﴾ لا يعنى أنه كان به مرض بهذا الوصف الذى بالغوا فيه وجعلوا الناس يتحاشونه ويأنفون من لقائه ومخاطبته خشية العدوى . وأنه أصبح كالشن البالى الذى يعجز تمامًا عن الحركة ..

وقد يكون ما به من مرض اقعده عن الحركة فعلاً لكن دون أن يصحبه ما يقزز النفس منه أو ينفر الناس عنه من تلك القروح التى يتناثر منها الدود على النحو الذى حكاه هؤلاء الرواة ..

شفاء أيوب :

فقد أيوب كل ماله وكل أولاده ، وأصبح فقيرًا لا يملك شيئًا ، ثم أصابه المرض الذى أذهب صحته ، وحال بينه وبين السعى فى سبيل الرزق ، فاضطرت زوجته « رحمة بنت افرائيم بن يوسف بن يعقوب » إلى الخدمة فى سبيل تحصيل الرزق لها ولزوجها ..

لم تقصر فى حقه ، ولم تتخل عنه فى محنته ، ولكنها كانت صورة صادقة للوفاء والمروءة ..

وفى يوم أبطأت عليه بسبب انشغالها فى عمل ضوعف عليها وهى تسعى فى سبيل الرزق ، فأقسم ابوب ليضربنها مائة جلدة إن شفاه الله .

وحكى الرواة أسبابًا أخرى فى ذلك القسم .

فقالوا : إن إبليس لقيها فى صورة طبيب ، فدعته لمداواة زوجها ، فقال : أداويه بشرط أن يقول لى : أنت شفيتنى .

فأخبرت زوجها - وهى لا تحسب أن هذه الكلمة شيئًا ، ولكنها كانت عند أيوب كبيرة من الكبائر - فأقسم ليضربنها ، وقال لها : ويحك هذا هو الشيطان وقد غرك . كأنه أنكر عليها أن يغرها الشيطان .

وقالوا : إنها جاءت بخبز زائد على ما كانت تأتى به - فساورته ظنون - فحلف ليضربنها .

وقالوا : إنها باعت ذؤابتها دون أن تخبره ، لتشترى قوتًا ، فحلف ليضربنها .

وعلى كل فقد كان لأيوب عذره حين يضيق صدره لمرضه ، وقد ورد فى بعض الآثار : ثلاثة يعذرون بسوء الخلق : المريض والمسافر والصائم[٢٣]. والحق أن ضيق الصدر لا يمنع الصبر ، وعلى أى شىء يكون الصبر إن لم يكن هناك ضيق ؟

ورفع أيوب صوته إلى الله قائلاً :

« رب إني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » ..

ولم يكن دعاؤه شكوى ، ولكنه وقوف عند أدب الافتقار إلى الله ، والله - سبحانة وتعالى - يقول : ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾[٢٤] .

ويقول : ﴿قُلْ مَايَعْبَؤُاْ بِكُم رَبِّى لولاَ دُعَآؤُكُم﴾[٢٥] .

وقول أيوب : مسنى الضر إخبار عن حاله لا شكوى لبلائه ، وهو إقرار بالعجز . قال أهل الذوق : إن الله أجرى هذا القول على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده فى الإفصاح عما ينزل بهم .

وكانت استجابة الله له أسرع مما كان يتوقع ، ورحمته به أقرب إليه مما كان ينتظر . قال له : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب .

وجاء الأمر بالركض عقب الدعاء مباشرة دون أن يتخلل كلام بينهما وفى ذلك إشارة إلى سرعة الاستجابة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٢٦] .

لم يقل : فقل لهم إنى قريب ، إشارة إلى سرعة الاستجابة ..

---

(٢٣) رواه ابن الأثير فى أسد الغابة جـ ٥ ص ٢٨١ فى ترجمة مهدى الجزرى .
(٢٤) الآية ٤٣ من سورة الأنعام . (٢٥) الآية ٧٧ من سورة الفرقان .
(٢٦) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

وركض أيوب برجله، وتفجرت عين ماء، فاغتسل به، فذهب الداء من ظاهره، وشرب منه فذهب الداء من باطنه.

وذهب داؤه فورًا، وكان قد مر عليه في البلاء سنوات طويلة قدرها بعضهم بسبع سنوات، وقدرها بعضهم بأكثر من ذلك.

روى ابن أبي حاتم قول النبي - ﷺ -: إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخلص إخوانه له، كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من الصالحين.

فقال له صاحبه: ولم تقول ذاك؟

قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به فلم يكون كل ذاك؟

فلما راحا إليه لم يصبر الرجل على ذكر ذلك له.

فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله - عز وجل - يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأُكفِر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق[٢٧].

ولم يقف الأمر عند حد الشفاء.

ولكن رحمة الله كانت مضاعفة جزاء لما سبق من صبره على ما أصابه من ضر.

لقد رد الله عليه أولاده ومثلهم معهم.

ورد الله عليه شباب زوجته فأنجبت مثل ما فقدت من أولاد.

وأفاض الله عليه من نعمته فوهبه مالاً جزيلاً أضعاف ما كان عنده.

ولطف الله به فيما أقسم عليه من ضرب زوجته، فقال له: وخذ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحنث.

فأخذ حزمة بها مائة عود من حشيش فضربها بها ضربة واحدة.

---

(٢٧) في رحاب الأنبياء ص ١٢٠.

وهذه رخصة خص الله بها هذه الزوجة الوفية الصابرة المؤمنة، التى أحسنت رعاية زوجها، وثابرت معه حتى اجتاز محنته بنجاح.

دروس وعبر:

لقد حفلت قصة أيوب بكثير من العبر والعظات التى يجد فيها المؤمن ما يبحث عنه من عزاء وصبر على ما يصيبه فى حياته من محن وشدائد.

والصبر على الشدائد من علامات الإيمان. قال – تعالى –: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(٢٨).

وقد ورد فى فضل الصبر من الآثار الكريمة ما لا يعد ولا يحصى، ويكفى فى إثبات شرف الصبر قوله – تعالى –: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢٩) وجعل الله الصبر من عزائم الأمور فقال – تعالى –: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٣٠).

ومن بشريات النبى – ﷺ – للصابر قوله: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(٣١).

وفيما ورد من إخبار النبى – ﷺ – عن رب العزة قوله: «إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه ملكين، فقال: انظروا ماذا يقول لعواده؟ فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله – عز وجل – وهو أعلم فيقول: لعبدى علىّ إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدل له لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه وأن أكفر عنه سيئاته»(٣٢).

وقد جمع أيوب – عليه السلام – بين فضيلتى الشكر والصبر..

---

(٢٨) الآيتان ٢، ٣ من سورة العنكبوت. (٢٩) الآية ١٠ من سورة الزمر.
(٣٠) الآية ٤٣ من سورة الشورى.
(٣١) رواه مسلم، وذكره النووى فى رياض الصالحين برقم ٢٧ عن صهيب بن سنان.
(٣٢) أخرجه مالك فى الموطا، باب فضل المريض جـ ٢ ص ٢٠٦، وفى كتاب الأحاديث القدسية جـ ١ ص ٢١٦ حديث رقم ٢٠٦.

أنعم الله عليه فشكر، وابتلاه فصبر ..

بل لا نعجب إذا قلنا: ابتلاه فشكر .. فقد تكون المحنة نعمة تستوجب الثناء، وقد تكون النعمة محنة تستوجب الصبر ..

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت   ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

ومن لطائف ذلك ما روى من أن رجلاً دخل على سهل بن عبد الله -وهو من كبار الصالحين- فقال: إن اللص دخل داري وأخذ متاعي. فقال له: اشكر الله تعالى، لو دخل اللص قلبك -وهو الشيطان- وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟[٣٣] ولعل هذا هو معنى قولهم: لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

ولم يغب ذلك يقينًا عن أيوب -عليه السلام-.

ولقد تعرض في محنته لضروب شتى من المعاناة القاسية فلم تهن عزيمته ولم تلن قناته ولم يتزعزع إيمانه، ولم يرد على لسانه إلا لفظ الحمد لله ..

فقد ماله فصبر واحتسب ..
وفقد ولده فصبر واحتسب ..
وفقد صحته فصبر واحتسب ..
وهجره إخوانه فصبر واحتسب ..
وسمع قوارص الكلم فصبر واحتسب ..

قيل: إنه لم يتأثر قط لما أصابه إلا حين سمع لفظًا أحس فيه شماتة عدو فقال: «رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين» ..

وحق له ذلك، فالشماتة مما لا يصبر عليها أحد إلا من وفقه الله ولذلك قال الشاعر:

كل المصائب قد تمر على الفتى   وتهون غير شماتة الحساد

وقد ورد أن النبي -ﷺ- استعاذ من شماتة الأعداء ..

---

(٣٣) الرسالة القشيرية ص ٨٩.

وطلب هارون من أخيه موسى – عليهما السلام – أن يهون عليه فى لومه حتى لا يشمت به الأعداء ..

وفى قصة أيوب – عليه السلام – مثل للمرأة المؤمنة الصابرة المكافحة الوفية. فهذه «رحمة» زوجة أيوب، أصابها ما أصاب زوجها .. فَفَقْدُ مال زوجها عرضها هى أيضًا للعدم والإملاق، وحرمها النعمة التى كانت تتقلب فيها، وصارت بعد أن كانت سيدة فى قصرها تخدمها الوصائف والولائد خادمة تعمل بأجر فى البيوت، وربما بيوت من كانت تستخدمهن. وذلك لقاء طعامها وطعام زوجها.

ثم تعود بعد ذلك إلى زوجها وقد أتعبها العمل فى البيوت لتمرضه وتسهر على رعايته دون أن تتبرم وتضيق .. وقد قال الحكماء: المريض من عنده مريض ..

وهى كذلك قد اختبرت بفقد أولادها كما اختبر أيوب تمامًا، وعاطفة المرأة عادة أرق وحبها لأولادها أشد، ومع ذلك فقد ظلت على إيمانها لم يتحول قلبها عن باب سيدها ومولاها ..

وهى وإن لم تختبر بالمرض كما اختبر زوجها، فإن معاناة زوجها لمرضه معاناة لها ..

وكانت رحمة الله أكبر من أن يمرض الإثنان معًا .. فمرض هو وكان مرضه اختبارًا لها، وكثير من النساء ينصرفن عن أزواجهن حين تضيق ذات يدهم وحين يتعرضون للإملاق وحين يمرضون ..

وفى القصص المأثور ما يفيد ذلك، فقد حدث الرواة أن صخرًا أخا الخنساء مرض وطال مرضه. فمر على زوجته يومًا من سألها عنه فقالت: لا هو حى فيرجى ولا ميت فينعى. فشق على صخر ما سمعه، وهم بأن يضربها فلم يستطع، وقال فى ذلك أبياتًا يرويها الناس تدل على صدق عاطفة الأمهات، وكذب عاطفة الزوجات. منها:

أرى أم صخر لا تمل زيارتى ... وملت سليمى مضجعى ومكانى
وأى امرىء ساوى بأمٍّ حليلة ... فلا عاش إلا فى شقا وهوان[٣٤]

---

(٣٤) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٢٩٦.

ولكن رحمة كانت أمًا لأيوب وزوجة له، كانت من معدن الأنبياء ومن سلالة الأطهار ومثلها لا تتخلى عن زوجها فى محنته..

وعلى الرغم مما راته من شدته، وربما جفائه فى قوله حين أقسم أن يضربها مائة جلده. فإنها لم تنفر منه، ولم تتأب عليه، ولم تمُنّ بما فعلت معه كما تفعل النساء غيرها ولم تنتهزها فرصة لتفر إلى الفضاء الواسع حيث تجد عيشة أمنا وحياة أسعد وأرغد، وقد كانت ذات جمال.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل باعت فى سبيل زوجها غدائرها الجميلة، وهى أهم ما تحرص عليه المرأة لأنه عنوان جمالها ومظهر حسنها.

ولئن كانت نساء عصرنا هذا يؤثرن التخلص من شعورهن واستبداله بالغدائر المصطنعة. فإن النساء قديمًا كن يتباهين بالشعر الجميل، ويتغنين به ويتغنى شعراء الغزل معهن بسواد هذا الشعر ونعومته وطوله.

وفى القصة دلائل على أن الصبر على الابتلاء يضاعف الأجر، وقد يوفى الصابرون أجرهم فى الدنيا قبل الآخرة.

والصبر وإن كان مر المذاق إلا أن عاقبته جميلة وآخرته حميدة.

وقد كافأ الله أيوب على صبره مكافأة سخية تدل على ما أعده الله للصابرين من وافر الجزاء وجميل العطاء.

قال الرواة: لقد أرسل الله سحابتين صبت احداهما ذهبًا، وصبت الأخرى فضة.. في وادى أيوب.

وقيل: لقد أمطرت عليه السماء قطعًا من الذهب، فأقبل عليه يجمعه فخاطبه الحق – تعالى –: ألم يكفك ما أعطيتك؟

فقال: بلى، ولكن هل يشبع أحد من رحمتك؟.. وفى تلك الروايات مافيها مما لا يطمئن إليه العقل..

يروى أن عمر أيوب كان ثلاثا وتسعين سنة..

وقيل: إنه عاش بعد شفائه مثل عمره قبل بلائه.

قال المسعودى: ما زال مسجد أيوب والعين التى اغتسل منها إلى وقتنا هذا وقد مات المسعودى سنة ست وأربعين وثلاثمائة وقد ذكر أنهما مشهوران ببلاد «نوى» و «الجولان» فيما بين دمشق وطبرية من بلاد الشام.

وهذا المسجد والعين على ثلاثة أميال من مدينة «نوى» أو نحو ذلك. والحجر الذى كان يأوى إليه فى حال بلائه هو وزوجته فى ذلك المسجد[٣٥].

وفى العهد القديم: بارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه، وعاش بعد هذا – أى بعد بلائه – مائة وأربعين سنة ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال. ثم مات[٣٦].

قصة ذى الكفل عليه السلام

- قصة الثعلبى.
- ذو الكفل عند أهل اللغة.
- قصة أخرى عن ذى الكفل
- عظات وعبر.

ارم ذات العماد

- مدلول كلمة "إرم".
- رواية أخرى عن هذه المدينة.
- مكان "إرم".
- إعجاب شداد بمكان الاسكندرية.
- أسطورة المدينة
- ما ورد حول رؤية هذه المدينة.
- تأويلات المفسرين

(٣٥) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٥
(٣٦) سفر أيوب الاصحاح ٤٢

قصة ذى الكفل

ورد ذكر «ذى الكفل» فى القرآن الكريم مرتين:

فى قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(1).

وقوله- تعالى:- ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾(2).

وقد اختلف الرواة حول شخصية ذى الكفل..

فمنهم من يجعله نبيًا، ومنهم من يجعله رجلاً صالحًا..

ولكن ذكره فى الآيتين السابقتين مع الأنبياء يشير إلى أنه نبى..

وقد وردت قصة «ذى الكفل» فى كتب الرواة بأساليب مختلفة، وبعضهم يجعله من أبناء أيوب - عليه السلام - ولذلك اتبعناه به - .

قال ابن إياس:

لما قبض الله -تعالى- أيوب - عليه السلام - تغلب عل أولاده ملك من الملوك اسمه لام بن دعام.

وكان لأيوب ابنة جميلة(3). فأرسل الملك لأولاد أيوب يخطبها، فقالوا: ليس فى ديننا أن نزوجك، وأنت على الكفر، فإن أحببت الزواج منها فادخل فى ديننا.

ولكن الملك رفض أن يستجيب لرغبتهم. إنهم من رعيته وكيف يستجيب ملك لرعيته؟ إنه يأمر فيطاع، ولا يؤمر هو فيطيع.

لقد كبر عليه ردهم، وصمم على الانتقام منهم، وأرسل إليهم يهددهم ويتوعدهم بالقتل.

---

(1) الآية 85 من سورة الأنبياء. (2) الآية 48 من سورة ص.

(3) ذكر العهد القديم: أن أيوب ترك ثلاث بنات «يميمة، وقصيعة، وقرن هفوك، ولم توجد نساء جميلات كبنات أيوب، وكان لهن ميراث كبير -سفر أيوب- إصحاح 42.

وبلغ أولاد أيوب عزم الملك على قتالهم، فاجتمعوا للتشاور، فمنهم من أشار بقتاله، ومنهم من أشار بمداراته بالمواعيد..

ولكن «حواميل بن أيوب» صمم على قتاله وحربه، وجمع من معه من قومه.

وسار إليهم الملك فهزمهم واستولى على أملاكهم وأسر منهم عددًا، وكان من الأسرى ولد لأيوب اسمه: بشير بن أيوب.

وهم الملك بقتله وصلبه. ولكنه تريث فى أمره، وحبسه، وطلب الفدية ليطلق سراحه.

ورأى «حواميل» فى منامه رؤيا. رأى من يقول له: يا حواميل لا تخف على أخيك من هذا الملك. فإنه سيؤمن وستكون عاقبته إلى خير.

وقص الرؤيا على من عنده علم بتأويل الرؤى. فبشره بصدق وقائعها. فاستبشر بها، ولذلك عدل عن تقديم الفدية التى أعدها للملك.

ولكن الملك حين علم بعدول «حواميل» عن تقديم الفدية غضب غضبًا شديدًا، وأقسم أن يجعل من «بشير» نكالاً وعبرة.

وأمر بحفر خندق، وأشعله نارًا. وأمر بإلقاء بشير فيه.

وحمل الجنود «بشيرًا» وقذفوه فى الخندق المؤجج بالنار، ولكن النار كانت عليه بردًا وسلامًا.

فلما رأى الملك ذلك. قال: إن هذا لسحر عظيم.

ولكن «بشيرًا» رد عليه قائلاً: أيها الملك ليس هذا سحرًا، وما نحن بساحرين. ولكنا من ذرية خليل الرحمن إبراهيم الذى ألقاه النمروذ فى النار، فقال الله للنار: كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم.

وكذلك يفعل الله بأولاد إبراهيم وأحفاده من بعده.

فوقع الإيمان فى قلب الملك وآمن.

وزوجه الإخوة أختهم..

وسمى الملك بشيرًا «ذا الكفل» لأنه حين طلب الملك الفدية بعد أن أسره تكفل له بها.

وكان «حواميل» قد ورث النبوة عن أبيه أيوب - عليه السلام - فأرسل أخاه بشيرًا إلى أهل الشام. بإذن من الله تعالى، يدعو إلى دين الله.

فسار إليها، وسخر الله له الملك «لام» زوج أخته يقاتل بين يديه. ولم يزالوا كذلك حتى لقوا الله عز وجل(٤).

وهي قصة على كل حال لا ينبغي أن تكذب، ففيها التقاء مع الوقائع التي حدثت في الزمان الأول، وهي لا تعارض نصًا صريحًا قاطعًا ورد في كتاب الله أو كلام المعصوم - ﷺ -.

وقد تكون هذه القصة مستقاة من أخبار أهل الكتاب، وما دامت لا تنافي العقل ولا تخالف الدين فلا بأس بقبولها.

قصة الثعلبي:

ويقص الثعلبي قصة «ذي الكفل» بطريقة أخرى قائلاً:

إن نبيًا من الأنبياء -وهو «اليسع» كبرت سنه، فأراد أن يستخلف من ينوب عنه قبل موته. فجمع الناس وقال:

من يكفل لي أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب؟

فقام شاب، فقال: أنا..

فقال له: اجلس، فجلس.

ثم إنه أعاد في اليوم الثاني القول، فقام ذلك الشاب نفسه، فقال: أنا، فقال له: اجلس، فجلس.

وفي اليوم الثالث أعاد قوله، فقام ذلك الشاب، وقال: أنا.

فقال له النبي: تقوم الليل، وتصوم النهار، ولا تغضب؟

قال: نعم. فاستخلفه.

---

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور ص ١١٢.

ومات ذلك النبى، فجلس الشاب مكانه يقضى بين الناس، فكان لا يغضب..

وأراد الشيطان أن يغويه فيحمله على نقض عهده.

فجاءه فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم. جاءه فى وقت القيلولة. فضرب عليه الباب ضربًا شديدًا، -وهو متهيىء ليقيل- وكان لا ينام إلا فى هذا الوقت.

فقال: من هذا؟

فقال: رجل له حاجة، مظلوم، جحده خصومه.

فأرسل ذو الكفل إليه رجلاً، فقال: لا أرضى بهذا الرجل، فأرسل إليه آخر، فقال: لا أرضى.

فخرج إليه ذو الكفل، فأخذ بيده، وانطلق معه، حتى إذا كان فى السوق خلأه وانصرف..

وكرر ذلك الفعل معه عدة مرات فى عدة أيام.. كل ذلك وذو الكفل لا يغضب منه فسمى «ذا الكفل»..

ولم يذكر ماذا كان اسمه قبل أن يطلق عليه هذا الاسم[٥].

وذكر الثعلبى قصة أخرى يوافق فيها ما جاء فى قصة ابن إياس فى بعض تفاصيلها، قال:

إن ذا الكفل هو بشير بن أيوب أو بشر بن أيوب، بعثه الله نبيًا بعد أبيه، وأرسله إلى أرض الروم، فآمنوا به وصدقوه.

ثم إن الله أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا، وقالوا لبشر:

نحن نحب الحياة ونكره الموت، ومع ذلك نكره أن نعصى أمر الله، فاسأل الله أن يطيل أعمارنا ولا يميتنا إلا إذا شئنا.

---

(٥) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٦٤.

فقال لهم : لقد سألتموني عظيمًا وكلفتموني شططًا .

ثم إنه قام وصلى ودعا ، وقال : يا إلهي ، أمرتني بتبليغ الرسالة فبلغتها ، وأمرتني أن أجاهد أعداءك وأنت تعلم أني لا أملك إلا نفسي ، وأن قومي سألوني في ذلك ما أنت أعلم به مني فلا تؤاخذني بجريرة غيري ، فأنا أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك .

فأوحي الله – تعالى – إليه : يا بشر إني سمعت مقالة قومك ، وإني قد أعطيتهم ما سألوني ، طولت أعمارهم فلا يموتون إلا إذا شاءوا ، فكن كفيلاً لهم مني بذلك ، فبلغهم بشر رسالة الله ، وأخبرهم بما أوحي إليه ، وتكفل لهم بذلك الأمر ، فسمي ذا الكفل .

ثم إنهم توالدوا وكثروا وطالت أعمارهم وضاقت عليهم الأرض ، حتى سئموا الحياة وكرهوا العيش ، وتأذوا بسبب ماهم فيه .

فسألوا بشر أن يدعوا الله أن يردهم إلى آجالهم .

فأوحى الله تعالى إليه : أما علم قومك أن اختياري لهم خير من اختيارهم لأنفسهم؟ وفي هذه القصة ما فيها لأن الحق سبحانه يقول : ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فكيف تجعل آجال هؤلاء بمشيئتهم ؟

وعاد ذو الكفل إلى الشام وأقام بها حتى مات عن خمس وتسعين سنة(٦).

وذكر ابن كثير في قصصه وتفسيره قصة ذي الكفل بما يوافق قصته الأولى مع شيء من التفصيل حين أراد الشيطان إغواءه ليحمله على نقض ما تكفل به لبنيه .

فذكر كيف كان يحتال عليه ليحمله على التبرم به والضيق منه في وقت راحته ، فينغص عليه منامه ، ويحرمه من طعم الراحة ، فلا يُمكّنه ذلك من مواصلة قضائه على خير وجه .. حتى حمل ذلك ذا الكفل على أن يوكل ببابه من يحفظه من ذلك الثقيل الذي اعتاد أن يطرق بابه في وقت القيلولة بالذات .

---

(٦) المرجع السابق ص ١٦٦ .

ومع ذلك فقد كان الشيطان يأتى ، فإذا طرد من الباب جاء من الطاق ، وينادى ذا الكفل حتى يقلقه ويؤرقه ..

وعرف ذو الكفل أن ذلك الثقيل هو الشيطان فلعنه ..

فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به[٧].

ونكرر القول بأن هذه القصص لم ترد بها أخبار نقطع بصحتها يقينًا .

ولكن المقطوع به أن ذا الكفل ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سياق الأنبياء ، فهو إن لم يكن نبيًا فهو من الصالحين الأخيار بشهادة القرآن .

وقد شهد الله له بالصبر .. فإن كان ابن أيوب فقد سبقه أبوه بالمثالية فى ذلك ، وإن لم يكن ابنه فهو ثناء عاطر يعد وسامًا على صدر صاحبه .. والشهادة بالصبر قد تجعل قصة صبره على العبادة ووفائه بما تعهد به غير مردودة عقلاً ..

وقد أشار الطبرى فى تفسيره[٨] إلى هذه القصة التى ذكرناها .

وذكر بعض الرواة أن ذا الكفل لم يكن نبيًا ولكنه كان صالحًا ، وقد ذكر ابن كثير ذلك فى خبر مروى عن أبى موسى الأشعرى –رضى الله عنه– .

وذكر القرطبى فى تفسيره قصة عن ذى كفل تشهد لصاحبها بأن صدق التوبة يرفع صاحبه إلى درجات الصديقين .

قال : روى ابن عمر –رضى الله عنهما– عن النبى – ﷺ – قال : كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل ، لا يتورع عن ذنب عمله ، فاتبع امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت .

فقال لها : ما يبكيك ؟

قالت : من هذا العمل ، والله ما عملته قط .

---

(٧) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٧٦ .   (٨) جـ ١٧ ص ٥٩ .

قال : اكرهتك ؟

قالت : لا ، ولكن حملنى عليه الحاجة .

قال : اذهبى ، وما أعطيتك فهو لك ، والله لا أعصى الله بعدها أبدًا .

ثم مات من ليلته ، فوجدوا مكتوبًا على باب داره : إن الله قد غفر لذى الكفل .

وقد ذكر السيوطى فى جمع الجوامع هذا الحديث بلفظ « الكفل » بدون ذى[9].

وقد علق الساعاتى على هذا الحديث فى جمع الجوامع قائلاً : الكفل رجل آخر غير ذى الكفل الذى ذكره الله فى القرآن الكريم . وذلك أن الكفل كان رجلاً مسرفًا على نفسه ثم تاب ، ورجع إلى الله عز وجل ، فقبل توبته وغفر له[10].

أما كون التوبة عن الذنب ترفع صاحبها فذلك حق ، وقد ورد ذلك فى أخبار صحيحة مشهورة .

فمن بين السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين .

ومن بين الثلاثة الذين توسلوا إلى الله بصالح الأعمال ففرج الله عنهم ما هم فيه من ضيق ، وكشف عنهم الصخرة التى سدت عليهم فم الغار الذى كانوا فيه . رجل حكى قصة كقصة ذى الكفل الذى تورع عن فعل الخنا مع ابنة عمه وقد استسلمت له تحت وطأة الحاجة ، فتركها اتقاء الله وخوف عقابه .

قصة أخرى عن ذى الكفل :

روى القرطبى فى قصة ذى الكفل عن كعب الأحبار ، قوله :

---

(9) الحديث فى الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد جـ ٢٠ ص ١٥٤ ، وأورده الحاكم فى المستدرك وقال : صحيح الإسناد جـ ٤ ص ٢٥٣ .

(10) راجع جمع الجوامع جـ ٣ ص ٥٠ ط. مجمع البحوث الاسلامية .

كان فى بنى إسرائيل ملك كافر ، فمر ببلاده رجل صالح فقال : والله لن أخرج من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام ، فعرض عليه فقال الملك : ما جزائى ؟ قال الرجل : الجنة ، ووصفها له .

فقال الملك : ومن يتكفل لى بذلك : قال الرجل : أنا .

فأسلم الملك ، وتخلى عن المملكة ، وأقبل على طاعة ربه ، حتى مات .

فدفن ، فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر ، وفيها رقعة خضراء مكتوبًا فيها بنور أبيض : إن الله قد غفر لى وأدخلنى الجنة ووفى عنى كفالة فلان .

فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الأيْمان ويتكفل لهم بما تكفل به للملك .

ففعل ذلك فآمنوا كلهم ، فسمي ذا الكفل(١١).

وهى قصة أيضًا لا تجافى العقل ، فإن كان ذو الكفل نبيًا ، فظهور اليد وما هو مكتوب عليها معجزة له .

وإن كان رجلاً صالحًا فهى كرامة أكرمه الله بها .

ذو الكفل عند أهل اللغة :

وتحدث اللغويون عن الكفل فقالوا : الكِفْل كساء يجعل تحت الرحل ، وهو أيضاً ما يحفظ الراكب من خلفه ، وهو النصيب ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾(١٢) ، وهو الحظ والضعف من الأجر ، ومنه ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾(١٣) .

والكافل : الضامن والعائل ، وهو الذى لا يأكل ، وهو الذى يواصل الصوم .

وهى معان تلتقى فى معظمها مع تعليل تسمية ذى الكفل بذلك الاسم .

---

(١١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٤٣٦٧ (سورة الأنبياء) وذكر ابن قتيبة فى كتابه « المعارف » أن هذا الملك اسمه كنعان ص ١٩ .

(١٢) الآية ٨٥ من سورة النساء .   (١٣) الآية ٢٨ من سورة الحديد .

ولذلك قال ابن منظور فى لسان العرب : وذو الكفل اسم نبى من الأنبياء -صلوات الله عليهم أجمعين- وهو من الكفالة . سمى ذا الكفل لأنه كفل بمائة ركعة كل يوم فوفى بما كفل ، وقيل : لأنه كان يلبس كساء كالكفل ، وقال الزجاج : إن ذا الكفل سمى بهذا الاسم لأنه تكفل بأمر نبى أمته فقام بما يجب عليه ، وقيل : تكفل بعمل رجل صالح فقام به[١٤].

عظات وعبر :

وأيًا ما كان ففى قصة ذى الكفل عظات وعبر ، ودلائل تشير إلى أن الصفات الحسنة من صدق وصبر ووفاء وجهاد وتوبة صادقة تؤدى إلى حسن الأحدوثة وطيب الذكر وبقاء الأثر .

ويكفى أن الله أثنى على ذى الكفل بثناءين .

أما الأول فإنه ذكره في سياق سلسلة من الأنبياء الصادقين هم موسى وهارون وإبراهيم واسحاق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وأثنى عليه معهم بالصبر[١٥]. وقال عنهم : ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١٦].

والثانى أنه وصفه بأنه من الأخيار فى قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[١٧].

وهذا ما يرجح أنه نبى من الأنبياء بذكره فى زمرة هؤلاء ، فإن لم يكن منهم فهو فى معيتهم ..

وذلك يدعونا إلى الاقتداء بالصالحين ، والسير على نهجهم ، والاقتداء بهم فى أفعالهم ، وعدم التفريط فيما ورد عنهم من سنن صالحة وآثار طيبة وقيم وفضائل « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ..

---

(١٤) لسان العرب جـ ٥ ص ٣٩٠٥ -مادة كفل- .
(١٥) سورة الأنبياء من الآيات رقم ٤٨ حتى ٨٦ .
(١٦) الآية ٨٦ من سورة الأنبياء .
(١٧) الآية ٤٨ من سورة ص .

إرم ذات العماد

قال – تعالى – :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾[1].

سبق أن عرضنا قصة عاد التي يقول الحقُّ فيها : ﴿وإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾[2].

مع آيات أخرى في سور متعددة .

ولكنا نشير هنا إلى ما أورده بعض الإخباريين من أقاصيص حول الأبنية ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد . ووصفها بذلك يدل على أنها أبنية متميزة ، لم يستطع أحد من الخلق أن يصنع مثلها ، وسيظل الخلق عاجزين عن ذلك حتى تقوم الساعة ، ما دام القرآن يتلى وهو صادق فيما يخبر عنه .. ولو حدث مع التقدم المعمارى والتكنولوجى أن يتقدم الناس فى معمارهم ويشيدوا ما لم يشيد من قبل فإنهم على الرغم من ذلك لن يستطيعوا أن ينشئوا مثلما أنشأ ذلك الذى وصف الله مدينته بأنها لم يخلق مثلها فى البلاد

مدلول كلمة إرم :

وقد اختلف العلماء حول مدلول كلمة « إرم » ..

يقول ابن منظور فى لسان العرب فى هذه المادة :

« إرم » ولد عاد الأول ، ومن ترك صرف « إرم » جعله اسمًا للقبيلة . وقيل : « إرم » هى عاد الأخيرة . وقيل : هى اسم للبلدة التى كانوا فيها .

وبعضهم يقول : إن « إرم » هو اسم لعاد إذا لم تضف إرم إلى عاد ، فإذا أضفته فقد جعلت « إرم » اسمًا للأم أو للبلد التى كانوا يقيمون فيها .

---

(١) الآيات ٦ : ٨ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٦٥ من سورة الأعراف .

وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية ما يأتى :

يمكن اعتبار « إرم » اسمًا لقوم من الناس هم عاد .

أما العماد فهى قوائم خيامهم التى كانوا يقيمون فيها .

ويمكن تفسير العماد على أنه كناية عن العلو والرفعة .

وهناك من يفهم أن « إرم » يشير إلى مكان الاستيطان الذى كان يقيم فيه قوم عاد[٣].

مكان إرم :

وإذا كان الأمر كذلك . فأين ذلك المكان ؟

يرى ياقوت الحموى فى معجم البلدان : أن الرأى الغالب هو أن ذات العماد صفة لمدينة دمشق ويقول : إن جيرون بن سعد بن عاد نزل بها وابتنى مدينة بها عمد من الرخام .

ولكن كثيرًا من المسلمين يرون أن « إرم » تشير إلى جنوب بلاد العرب حيث كان يقيم قوم عاد .

وبعضهم يقولون : إنها كانت قرب « عدن » أو بين صنعاء وحضرموت ، أو بين حضرموت وعمان .

ويلاحظ أن كلمة « إرم » من لغة أهل اليمن ، فهناك جبل وبئر يعرفان بهذا الاسم فى جنوب بلاد العرب[٤].

أسطورة المدينة :

قال الإخباريون : كان لعاد ابنان : أحدهما شداد والآخر شديد . ومات شديد ، فخلص الأمر لشداد ، وملك المعمورة ودانت له ملوكها .

وكان شداد يسمع بأخبار الجنة التى ورد ذكرها على ألسنة من تقدم من الأنبياء والمرسلين ، فأراد أن يبنى مدينة على مثالها فى بعض صحارى عدن .

---

(٣) دائرة المعارف الاسلامية – مادة إرم – جـ ٣ ص ٦٦ . (٤) المرجع السابق .

وحشد لذلك أهل الفن والعمارة ، وهيأ لهم كل ما يلزمهم من أدوات ومواد .

وبنى المدينة ، وجعل حجارتها من الذهب والفضة ، وحلّى أسوارها بالحجارة الكريمة .

فلما تمادوا في كفرهم أهلكهم الله بصيحة قضت عليهم ، وابتلعت الأرض مدينتهم وغارت في جوف الرمل .

رواية أخرى حول هذه المدينة :

وذكر المسعودي : أن إرم ذات العماد هذه كانت آية في الإبداع ، وحين أعجب بها شداد أراد أن يقيم واحدة مثلها في مكان مدينة الإسكندرية ، ويقول في ذلك :

ذكر جماعة من أهل العلم أن الإسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده ، سار يختار أرضًا صحيحة الهواء والتربة والماء ، حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية ، فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم ، وعمد كثيرة الرخام ، وفي وسطها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المسند ، –وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد– :

« أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد ، شيدت بساعديي البلاد ، وقطعت عظيم العماد ، من الجبال والأطواد ، وأنا بنيت إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وأردت أن أبني هنا كارم ، وأنقل إليها كل ذي إقدام وكرم ، من جميع العشائر والأمم ، وذلك إذ لا خوف ولا هرم ، ولا اهتمام ولا سقم ، فأصابني ما منعني وعما أردت قطعني ، مع وقوع ما أطال همي وشجني ، وأقل نومي وسكني ، فارتحلت بالأمس عن داري ، لا بقهر ملك جبار ، ولا لخوف جيش جرار ، ولا عن رهبة ولا صغار ، ولكن لتمام المقدار ، وانقطاع الآثار ، وسلطان العزيز الجبار .

« فمن رأى أثري ، وعرف خبري ، وطول عمري ، وإنفاذ صبري ، وشدة حذري ، فلا يغتر بالدنيا بعدي ، فإنها غرارة ، تأخذ منك ما تعطي وتسترجع ما تُوَلّي »(٥).

---

(٥) مروج الذهب للمسعودي جـ ١ ص ٢٧٧ .

ويرى المسعودى أن شدادًا هذا ملك تسعمائة سنة ، وكان قد استولى على سائر ممالك العالم . وأمته هى عاد الثانية .

وعبارة المسعودى التي ساقها تفيد أنّ شدادًا هذا لم يكن كافرًا . كما أنه لم يكن ابن عاد الأول ولكنه حفيده ..

وإن صحت هذه الرواية فلعله اعتبر بمصير أجداده الذين هلكوا بكفرهم وعنادهم .

إعجاب شداد بمكان الاسكندرية :

وتشير بعض الروايات إلى أن شدادًا كان قد أعجب بالإسكندرية ، فأراد أن يشيد فيها ما شيده في صحراء عدن - ومنها هذه الرواية السابقة عن المسعودي - .

وأورد القرطبي في تفسيره ما رواه معن عن مالك ، أن كتابًا وجد بالاسكندرية فلم يدر ما هو ، فلما عرف بعد ذلك وجد فيه : أنا شداد بن عاد الذى رفع العماد ، بنيتها حيث لا شيب ولا موت .

قال مالك : كانت تمر عليهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة .

وذكر عن ثور بن زيد أنه قال : وجد ما هو مكتوب : أنا شداد بن عاد ، وأنا رفعت العماد ، وأنا الذى شددت بذراعى بطن الواد ، وأنا الذى كنزت كنزًا على سبعة أذرع لا يخرجه إلا أمة محمد - ﷺ -[٦].

إن هذا الخبر يشير إلى إيمان شداد بن عاد ، فإذا كان صحيحًا فكيف يهلك بالصيحة التى هلك بها ؟

ما ورد حول رؤية هذه المدينة :

ذكر الثعلبى فى كتابه : وابن إياس وبعض المفسرين فى كتبهم ، أن رجلاً اسمه عبد الله بن قلابة فى عهد معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - خرج فى طلب إبل له قد ضلت ، فبينما هو يبحث عنها فى صحارى عدن ،

---

(٦) تفسير القرطبى - سورة الفجر - .

وقع على مدينة حولها حصن، فدخلها فإذا بها قصور ذات غرف مبنية بالذهب والفضة، وقد فرشت أرضها بالزبرجد والياقوت والمسك والكافور، فأخذ من ذلك ما قدر عليه..

ثم نما خبره إلى معاوية، فاستدعاه فأخبره بما رأى، ووصف المدينة وصفًا دقيقًا يثير العجب والدهش. وأراه ما أخذه من معادنها.

واستدعى معاوية كعب الأحبار وسأله عما رأى عبد الله بن قلابة، فصدَّق ما أخبر به[٧].

ولكن العقل والمنطق يقفان لهذا الخبر بالمرصاد..

فخبر عبد الله بن قلابة يعوزه الإسناد الصحيح، ولا يبعد إنْ صح أن يكون من خياله، أو هو من قبيل السراب الذي يحسبه الظمآن ماء..

والمعادن التى كانت معه لا يبعد أن تكون مما يجده المار فى الصحراء مصادفة.

وقد أرسل معه معاوية – فيما يقولون – نفرًا ليشاهدوا المكان الذى وصفه فلم يجدوا شيئًا..

وتصديق كعب الأحبار لحكاية عبد الله ينقصه الدليل على صحته.

وقد ناقش ابن كثير – رحمه الله – فى تفسيره هذه القصة، وفند الأقوال التى دارت حول وجود مدينة بهذه الصفة التى ذكرها الرواة لها. وقال فى ذلك:

إن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس.

ونضيف إلى ذلك أن المهتمين بالتنقيب عن الآثار فى العصر الحديث لا يمكن أن يغفلوا أمرًا كهذا. ولو ثبت وجود مدينة ذهبية بهذا الوصف الذى وصفه عبد الله بن قلابة، لقتل المنقبون أنفسهم بحثًا عنها، أو على الأقل لاستطاعوا أن يقدموا إشارات أو دلائل تدل على وجود هذه المدينة.

---

(٧) قصص الأنبياء للثعلبى ص ١٤٥ – بدائع الزهور لابن إياس ص ٧٠ – تفسير القرطبى.

ولا يمكن أن نغفل التضارب حول المكان الذى بنى فيه شداد مدينته ، فبينما هى فى دمشق عند بعضهم إذ بها فى جنوب اليمن أو أطراف العراق عند غيرهم ..

ولكنا مع ذلك نعود فنقول : إن القرآن وصف هذه المدينة وصفًا يثبت وجودها .. وهذا الوصف يدل على أنها عجيبة حقًا .. وقد أخفى الله أثرها لحكمة يعلمها هو ..

إن الذى نشك فيه هو خبر عبد الله بن قلابة الذى يحكى أنه رآها . فلو كان قد رآها لرآها غيره .. وخبر شخص واحد لا تثبت به الحقائق ..

ولكن وجود هذه المدينة فى الأرض ودمارها وهلاك أهلها أمر لاشك فيه لأن القرآن الكريم ذكر ذلك .

ومن يدرى ؟ فقد يوفق الاثريون يومًا فى العثور عليها .. وها هى ذى الأيام تؤيد ذلك إن ما يعثر عليه بين الحين والحين من آثار قديمة يدل على أن ما جهل من التاريخ أكثر مما عرف عنه .. وما تزال الكشوف حتى الآن تظهر وتحكى ما لم يكن معروفًا من قبل ..



تأويلات المفسرين :

إن بعض المفسرين يرى أن وصف الله هذه المدينة بأنها ذات العماد وأنه لم يخلق مثلها فى البلاد ، ينصرف إلى ما بناه العاديُون وقوم ثمود ، من مساكن راقية ، وشادوه من خيام عالية ، أو إلى ما تميز به هؤلاء القوم من فراهة فى أجسادهم وقوة فى أبدانهم ، لم يؤت أحد من الخلق مثلها .

حدث معاوية بن صالح عمن حدثه عن المقدام أن النبى – ﷺ – ذكر إرم ذات العماد فقال : كان الرجل منهم يأتى على الصخرة فيحملها على الحى فيهلكهم[٨].

ولكن إذا أمكن تأويل هذه الآيات بذلك . فبماذا يؤول «قصر مشيد» فى قوله – تعالى :– ﴿فَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَهلَكْنَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصرٍ مَشِيدٍ﴾ ؟[٩] .

---

(٨) تفسير ابن كثير – سورة الفجر جـ ٨ ص ٤١٧ . (٩) الآية ٤٥ من سورة الحج .

اما البئر المعطلة فهى بئر أصحاب الرس ، وسيأتى الحديث عنها – إن شاء الله تعالى – .

وأما القصر المشيد . فقد قال السهيلى : هو قصر بناه شداد بن عاد بن ارم لم يبن فى الأرض مثله . إن حاله الإيحاش بعد الأُنس ، والإقفار بعد العمران ، وإن احدًا لا يستطيع أن يدنو منه على أميال لما يسمع فيه من عزيف الجن والأصوات المنكرة(١٠).

هذا بعض ما ذكره العلماء بشأن هذه المدينة .



(١٠) تفسير القرطبى – سورة الحج – ص ٤٤٦٨ ط دار الشعب .

أصحاب الرَّس

ورود ذكر أصحاب الرس في سياق قوم عاد وثمود استدعى الحديث عنهم . وقد ورد ذكر أصحاب الرس في موضعين في القرآن الكريم ..

الموضع الأول في قوله –تعالى– : ﴿وعادًا وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا﴾[1].

وفي قوله –تعالى– : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾[2].

والرس معناها لغة : البئر غير المطوية[3].

وقصة أصحابها كما تحدث عنها العلماء في أكثر من موضع ما يأتي :

كان أصحاب الرس في قرية «حضور» أو «حضوراء» باليمن وهي حضرموت .

وكانت لهم بئر ترويهم وتكفيهم ، ويحكمهم ملك عادل حسن السيرة نقي السريرة ، وظل فيهم دهرًا يحكمهم بأفضل سيرة .

ومات ، فحزنوا عليه حزنًا شديدًا . وانتهزها الشيطان فرصة لإضلالهم ، فجاءهم على صورته ، وقال لهم : أنا لم أمت ، ولكني تغيبت عنكم فترة لأرى كيف تصنعون في غيبتي .

---

(1) الآية ٣٨ من سورة الفرقان . (2) الآية ١٢ من سورة ق .

(3) وجاء في لسان العرب : الرس : البئر القديمة أو المعدن ، والجمع رساس ، ورسست رسًا أي حفرت بئرًا ، قال : والرس بئر لثمود ، وفي الصحاح : بئر لبقية من ثمود ، ويروى في قوله تعالى : ﴿وأصحاب الرس﴾ أن الرس ديار لطائفة من ثمود . قال : ويروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها «فلج» ويروى أنهم كبوا نبيهم ورسوه في بئر أي دسوه فيها حتى مات .

وكأنه بهذه الكلمات قد ردَّ روحهم عليهم، ففرحوا بذلك الخَبر فرحًا شديدًا، ثم أمرهم بأن يضربوا حجابًا بينه وبينهم، وأنه لن يموت أبدًا.

ففعلوا مثلما أراد..

وقال لهم بعد ذلك: أنا ربكم فاعبدون. فعبدوه..

فلما وصلوا إلى هذه الدرجة من الضلال أرسل الله إليهم نبيًا منهم اسمه «حنظلة بن صفوان»..

وأراد حنظلة أن يزيل الغشاوة عن عيون قومه، وأن يبصرهم بأن الذى يخاطبهم إنما هو الشيطان، وأنه ما من حى إلا ويعتريه الموت، وما من مخلوق إلا ويهلك، وأن ذلك أمر محسوس مشاهد لا ينكره عاقل ولا يغفل عنه غافل ولا يغض الطرف عنه جاهل.

ولكن تزييف الشيطان كان عندهم أقوى من منطق هذا الحكيم، وباطله اكبر من الحق الذى يقوله لهم هذا الناصح الأمين.

وكان حنظلة يوحى إليه فى نومه.

وما زال يدعوهم إلى الهدى ويحثهم على الرشاد، حتى ضاقوا به ذرعًا، وزين لهم الشيطان أن يقتلوه، فقتلوه، وألقوه فى هذه البئر التى يشربون منها، وعليها عماد حياتهم.

فانتقم الله منهم شر انتقام..

غار ماء هذه البئر، فجف زرعهم وهلك ضرعهم وهاموا على وجوههم عطشًا يطلبون الماء في الصحراء فلا يجدون، فتفرقوا بددًا وضاعوا سدى، وحقت كلمة العذاب على الكافرين.

رواية في قصة أصحاب الرس:

ويروى الرواة خبرًا عن رسول الله - ﷺ - فى هذه القصة، رواه محمد بن كعب القرظي عن ابن اسحاق قال:

إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود، وذلك أن الله بعث نبيًا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود، ثم إن أهل

القرية عدوا على هذا النبى ليقتلوه ، فحفروا له بئرًا فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم .

قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ، ويشترى به طعامًا وشرابًا ، ثم يأتى به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ، ويدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت .

قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون .

ثم إنه ذهب يومًا يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته ، وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها شعر ببعض التعب فاضطجع فنام ، فضرب الله على أذنه سبع سنوات نائمًا .

ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنوات أخرى .

ثم إنه هب واحتمل حزمته ، ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار . فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعامًا وشرابًا كما كان يصنع ، ثم إنه ذهب إلى البئر ، فى موضعها الذى كانت فيه ، يلتمسه فلم يجد صاحبه ، وقد كان بَدَا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه . وحدث ذلك كله فى المدة التى ضرب الله فيها على أذن ذلك العبد فنام .

قال : فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ؟

فيقولون له : ما ندرى . حتى قبض الله هذا النبى ، وهب الأسود من نومته بعد ذلك .

فقال رسول الله - ﷺ - إنّ ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة[٤].

وفى مثل هذا الخبر نظر ..

فقد أخبر الله عن أصحاب الرس بأنهم هلكوا . وهذا الخبر يفيد نجاتهم . اللهم إلا إذا كان هؤلاء القوم غيروا وبدلوا بعد ذلك فأهلكهم الله .

---

(٤) تفسير الطبرى جـ ١٩ ص ١١ ، القرطبى جـ ١٨ ص ٤٧٤٩ ، قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨١ .

أسباب أخرى لهلاك أصحاب الرس :

وذكر العلماء أسبابًا أخرى لهلاك أهل الرس غير ذلك السبب الذى بيناه ..

ومن هذه الأسباب شيوع الفاحشة فيهم ذكورًا وإناثًا .

فقد اكتفى الذكور بالذكور -كما كان يفعل قوم لوط- .

واكتفت النساء بالنساء ، فشت فيهن عادة السحاق والعياذ بالله ، والفاحشة إذا فشت فى قوم كانت سببًا لهلاكهم وحلول النقمة عليهم . مصداقًا لقوله - تعالى - : ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[٥].

وذكر الدميرى فى كتابه حياة الحيوان بعض أخبار حنظلة وقومه فقال : كان أهل الرس بأرضهم جبل يقال له « فح » أو « فتح » وكان هذا الجبل صاعدًا مرتفعًا تأوى إليه الطيور ، ومن بينها العنقاء .

وكانت العنقاء تخطف الأطفال والجوارى ، فشكوا ذلك إلى نبيهم حنظلة فدعا عليها فأصابتها صاعقة فاحترقت . -ولم تر العنقاء بعد ذلك- وفى عدم ظهور العنقاء واستحالة وجودها قال الشاعر :

آمنت أن المستحيل ثلاثة ... الغول والعنقاء والخل الوفى

قال الدميرى : وذكر السهيلى -فى قوله تعالى- : ﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ أن البئر هى الرس . وكانت بعدن لأمة من بقايا ثمود .. وكان لهم ملك عادل اسمه « العلس » ..

وكانت البئر تسقى المدينة كلها وباديتها وجميع ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغير ذلك .

وكان لها بركات كثيرة عليهم ، وكان لها رجال موكلون بها ، وأوان من رخام شبه الحياض ، يستقون منها فى الليل والنهار ويتداولون ذلك ، ولم يكن لهم ماء غيرها[٦]..

---

(٥) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٦) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٢٨٤ .

وذكر القرطبى فى تفسير هذه الآية ﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ : أن البئر والقصر بحضرموت . القصر مشرف على قمة جبل لا يرتقى إليه بحال ، والبئر فى سفحه .

وأصحاب القصور ملوك الحضر ، وأصحاب الآبار ملوك البوادى .

قال : والبئر هى الرس ، كانت بعدن –بحضرموت– فى بلد يقال له «حضور» نزل بها أربعة آلاف ممن آمن بصالح ونجوا من العذاب ومعهم صالح ، فمات صالح فى هذا المكان فقيل له : حضرموت .

ولما مات صالح بنوا هذه المدينة وقعدوا على هذه البئر ، وأمّروا عليهم العلس بن جلاس بن سويد . وقيل : جلهس بن جلاس . وكان حسن السيرة فيهم ، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة .

رواية المسعودى :

أما المسعودى فيذكر أن حنظلة بن صفوان كان من ولد إسماعيل بن إبراهيم –عليهما السلام– .

وقد أرسل إلى أصحاب الرس وهم من ولد إسماعيل ، وكانوا قبيلتين يقال لإحداهما «أدمان» وللأخرى «يامن» .

وكانت القبيلتان باليمن ..

وحين قتل حنظلة أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل من سبط يهوذا أن يأمر بختنصر بأن يسير إليهم ، فسار إليهم فأتى عليهم . فذلك قوله –تعالى– : ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[7].

وقد أشار القرطبى فى تفسير هذه الآية إلى هلاك مدائن كانت باليمن ، وذكر فى قوله –تعالى– : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾[8] أنه أراد بالقرية أهل حضور قتلوا نبيًا لهم اسمه «شعيب بن ذى مهدم» وهو غير شعيب مدين صاحب موسى عليهما السلام .

---

(٧) الآية ١٢ من سورة الأنبياء .

(٨) الآية ١١ من سورة الأنبياء .

قال : وفي ذلك الوقت قتل أصحاب الرس نبيهم حنظلة بن صفوان .. وكانت حضور التى حدثت فيها الحادثتان بأرض الحجاز من ناحية الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن إيت بختنصر فأعلمه أنى سلطته على هؤلاء وانى منتقم به منهم ..

قال : وأوحى الله إلى أرميا أن احمل معد بن عدنان « جد النبى » – ﷺ – على البراق إلى أرض العراق كى لا تصيبه النقمة والبلاء معهم[٩]..

قالوا : فجاء بختنصر وشن الغارات على حضور وانتقم منهم شر انتقام .

وعلى هذا فيكون هؤلاء القوم من أهل الفترة الذين كانوا فيما بين عيسى – عليه السلام – ومحمد – ﷺ – .

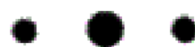
قال المسعودى : وقال بعضهم إن أهل الرس كانوا من حمير ، ولما هلكوا رثاهم بعض الشعراء بقوله :

بكت عينى لأهل الرس ... رعويل وقدمان
وأسلم من بنى زرع ... نكال الحى قحطان[١٠]

إن مصير المكذبين بالأنبياء والرسل واحد وهو هلاكهم . وقد تختلف وسيلة الإهلاك من أمة إلى أخرى ..

نرجو الله أن ينجينا من سوء المصير ..

وقد ورد ذكر حنظلة بن صفوان فى دائرة المعارف الإسلامية بما لا يضيف جديدًا إلى ما ذكرناه ..



(٩) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٤٣١٣ – تفسير سورة الأنبياء – .

(١٠) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٤٧ .

قوم تُبَّع

والشيء بالشيء يذكر ، فما دمنا باليمن فلنتحدث عن قوم تُبَّع ..

وقد ورد ذكرهم فى القرآن فى موضعين :

قال – تعالى – : ﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾(١).

وقال – تعالى – : ﴿وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد﴾(٢).

قال أهل اللغة : تبع ملك اليمن ، كما يقولون : فرعون ملك مصر ، وقيصر ملك الروم ، وكسرى ملك الفرس .

والخطاب فى الآية الأولى موجه إلى أهل مكة . بطريق الأسلوب الاستفهامى الإنكارى ..

وقد زعم أهل مكة أنه لا حياة بعد البعث ، وإن هى إلا الموتة الأولى ، وما هى إلا الحياة الدنيا وما يهلكهم إلا الدهر ..

وهم فى هذا القول مستحقون للعذاب كغيرهم من الأمم السابقة المكذبة ، ومن بين هذه الأمم قوم تبع .

والآية الثانية أصرح فى الدلالة على تكذيب قوم تبع للرسل ، وإهلاكهم بسبب ذلك .

وقال العلماء : إن الإنكار واقع على قوم تبع لا على تبع . لأن المشهور من ملوك التتابعة واحد بعينه ، فإذا قيل : تبَّع انصرف إليه ، وهو « أبو كرب »

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الدخان .

(٢) الآية ١٤ من سورة ق .

الذى كسا الكعبة، والذى ورد عنه قوله - ﷺ - : لا تسبوا تبَّعًا فإنه كان مؤمنًا[٣].

وقد نسب إليه الرواة شعرًا يدل على توحيده منه:

شهدت على أحمد أنه رسول من الله بارى النسم
فلو مد عمرى إلى عمره لكنت وزيرًا له وابن عم

قال القرطبى فى تفسيره: وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا والزمخشرى وغيرهم أنهم حفروا قبرًا بصنعاء، ويقال بناحية حمير وذلك بعد ظهور الإسلام، فوجدت فيه امرأتان صحيحتان، وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: هذا قبر «حُبَّى ولميس» ابنتا تبع، وهما يشهدان أن لا إله إلا الله، ولا يشركان به شيئًا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

ما قيل عن تبع فى كتب السيرة:

روى ابن اسحاق وغيره أن تبَّعًا هذا كان قد أراد غزو مكة ونهب البيت الحرام - وقد أشرنا إلى هذه القصة فى قصة الكعبة - ولكنه عدل عن ذلك حين عرف أنه بيت الله المعظم، وحج البيت، وخر عنده ساجدًا، وعظمه وكساه.

قالوا: ثم كتب كتابًا يذكر فيه أنه مؤمن بالنبى الذى سوف يبعث فى مكة ويهاجر إلى يثرب. وكان قد أخبره بذلك أهل الكتاب من الأحبار المطلعين على حقيقة الكتاب الأول وما جاء فيه من أخبار تبشر بنبى آخر الزمان، وأن يثرب هى هجرته..

وظل هذا الكتاب محفوظًا عند أهل يثرب حتى وصل إلى أبى أيوب الأنصارى - خالد بن يزيد - وفى هذا الكتاب:

أما بعد فإنى آمنت بك وبكتابك الذى أنزل عليك وأنا على دينك وسنتك، وآمنت بربك ورب كل شىء، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام، فإن أدركتك فبها ونعمت، وإن لم أدركك فاشفع لى ولا تنسنى يوم القيامة فإنى من أمتك الأولين، وتابعك قبل مجيئك، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم - عليه السلام -.

---

(٣) تفسير القرطبى - سورة الدخان -.

وهذا الخبر الذى ذكره القرطبى يرفع من شأن تبع هذا .

وفعله فى مكة ، ورؤيته فى المنام عدة مرات أنه يكسو الكعبة ، وكساها فعلاً ، يدل على إيمانه .

وقد ذكر ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه كان نبيًا ..

فإذا صح ذلك فهو من أنبياء أهل الفترة ، وليس ذلك ببعيد فإن الأنبياء لا يحصى عددهم إلا الله -جل وعلا- .

وقد ذكر ابن هشام فى سيرته أن تُبَّعًا -بعد عودته إلى اليمن من رحلته التى حج فيها البيت وطاف به وكساه- دعا أهل اليمن إلى ما دخل فيه من دين ، ولكنهم أبوا عليه ذلك ، وحاكموه إلى نار كانوا يتحاكمون إليها .

وقيل : إنهم رفضوا أن يمكنوه من الدخول إلى اليمن بعد أن فارق دينهم ودين آبائهم ..

وكانوا يزعمون أن هذه النار التى يتحاكمون إليها تأكل الظالم ، ولا تضر المظلوم ..

وقبل تبع التحاكم ..

وخرج أهل اليمن بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ..

وخرج تبع ومعه حبران من أهل الكتاب -على حق- كان ينصحان له ويبينان له وجه الرشد ، وهما اللذان أشارا عليه بتعظيم الكعبة .. وقد خرج هذان الحبران ومعهما مصاحفهما فى أعناقهما .

وخرجت النار إليهم فأهلكت الوثنيين ، وخرج منها تبع والحبران سالمين .

عند ذلك اتبع أهل حمير ما دعا إليه تبع ، وقبلوا ما جاء به وتركوا ما كانوا يعبدونه من أوثان ، واتبعوا ما كان يدعو إليه الحبران مما جاء فى الكتب التى لم تحرف فى أيديهما[٤].

---

(٤) راجع ما جاء فى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤ .

وبذلك دخلت اليهودية اليمن .. وقال ابن قتيبة إن تُبَّعًا الذى حدث معه ذلك هو تبع بن حسان بن تبع بن ابى كرب ..

وابو كرب هو الذى آمن بالنبى - ﷺ - قبل مبعثه، وكتب البيتين السابقين : شهدت على أحمد أنه ..

أما تبع بن حسان هذا فقد جاء بعده بمدة طويلة وهو الذى يقال له : تبع الأصغر، وهو آخر التتابعة، وكان مهيبًا، وهو الذى غزا يثرب وأراد تخريبها، فقال له رجل من اليهود، قد أتت عليه مائتا وخمسون سنة : أيها الملك لا تقم على الغضب ولا تقبل قول الزور .. وإنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية، لأنها مهاجر نبى من ولد إسماعيل، يخرج من عند البيت الحرام فكف تبع عن ذلك(٥).

أما البشارة بمحمد - ﷺ - فقد أشارت إليها جميع الكتب السابقة، وعرف ذلك العلماء والأحبار، وكان اليهود فى المدينة يستنصرون باسمه فى حروبهم فينصرهم الله. قال - تعالى - : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾(٦).

وسنصدر كتابًا خاصًا بهذه البشارات إن شاء الله - تعالى - .

كيف هلك قوم تبع ؟

والآيتان اللتان صدرنا بها هذا الحديث تشيران إلى هلاك قوم تبع.

ومن الطريف أن أهل اليمن افتخروا على أهل مكة بقوله تعالى : ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ فإن الاستفهام يوحى بأفضليتهم. وإن كانوا سواء فى الهلاك.

ولكن هلاك القوم لا يدل على هلاك تبع إذا كان مؤمنًا، وقد سبق أن رأينا أممًا هلكت وبقى الصالحون منها ونجوا مع أنبيائهم.

---

(٥) المعارف لابن قتيبة ص ٢١٣.

(٦) الآية ٨٩ من سورة البقرة.

وقد عرفنا أن تبعًا كان صالحًا ، وقال ابن عباس : كان نبيًا ، ونهى النبى - ﷺ - عن سبه[٧] فإنه كان مؤمنًا .

ولا يبعد أن يكون - بعد تبع هذا الذى آمن وآمن قومه معه - جاء تتابعة آخرون كذبوا وكذب أقوامهم ، وغيروا وبدلوا ، فاستحقوا المصير الذى أخبر الله به عنهم .

وتحدثت مصادر التاريخ عن التتابعة ، فذكرت ملوكهم ، وكان أشهرهم تبع الأول .

قيل : إنه ملك أربعمائة سنة . وقالوا : إن بلقيس ملكة سبأ قتلته[٨].

وربما كان هذا العمر مبالغًا فيه .

وقد ذكر ابن قتيبة أن تبَعًا الأول هو تبع بن الأقرن بن شمر ، وهو الذى غزا الترك وهزمهم ، وغزا الصين ، وخلف بالتبت جيشًا عظيمًا للمرابطة ، ويقال إنه قائل هذه الأبيات المشهورة :

منع البقاء تقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها بيضاء صافية ... وغروبها صفراء كالورس
تجرى على كبد السماء كما ... يجرى حمام الموت فى النفس
اليوم نعلم ما يجىء به ... ومضى بفصل قضائه أمس[٩]

وكان قبل تبع هذا يقرون أفريقش بن أبرهة وهو الذى فتح افريقيا وإلى اسمه تنسب ، وكان ملكه مائة وأربعًا وستين سنة .

وجاء بعد تبع الأكبر تتابعة كان أشهرهم حسان بن تبع الذى قتله أخوه عمرو بن تبع .

وكان سبب قتله أن حسانًا سار بأهل اليمن غازيًا فى أرض العرب والعجم .

---

(٧) أخرج الطبرانى فى الأوسط عن سهل بن سعد عن النبى - ﷺ - قال : « لا تسبوا تبعًا فإنه قد أسلم » . قال المنادى : وفيه أحمد بن محمد بن أبى بزة لا يعرف وبقية رجاله ثقات - الجامع الأزهر من حديث النبى الأنور جـ ٣ ص ٩٦ .

(٨) مروج الذهب للمسعودى .

(٩) المعارف لابن قتيبة ص ٢١١ .

فلما كانوا بالعراق كره أهل اليمن الاستمرار في السير معه، وأرادوا الرجوع إلى بلادهم، فأغروا أخاه عمرًا - وكان معه - وقالوا له: اقتل أخاك حسان، ونحن نملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا، فأجابهم إلى ذلك، إلا رجلاً واحدًا اسمه ذو رعين الحميرى. نهاه عن ذلك، فلم يقبل منه.

فعمد ذو رعين إلى بيتين من الشعر أنشأهما وكتبهما، وضمنهما رقعة أودعها عند عمرو بعد أن ختمها، وطلب منه أن يحتفظ بها. وهذان البيتان هما:

ألا من يشترى سهرًا بنوم   سعيد من يبيت قرير عين
فأما حمير غدرت وخانت   فمعذرة الإله لذى رعين

ومرت الأيام بعد أن قتل عمرو حسانًا، وضاقت عليه نفسه، وامتنع النوم عليه، واستشار الأطباء والمنجمين، فقالوا له: ما قتل أخ أخاه بغيًا إلا أصابه ما أصابك.

فأقبل عمرو على كل من أشار عليه بقتل أخيه يقتله.

حتى جاء دور ذى رعين فهم بقتله، فقال له ذو رعين: إن لى عندك براءة.

قال عمرو: وما هى؟

قال: الكتاب الذى دفعته إليك.

فأخرجه عمرو فقرأه، فعلم أنه قد نصحه. فتركه(١٠).

ولكن قتل عمرو من أشاروا عليه بقتل أخيه لم يفده شيئًا، فقد ظل ضيق الصدر مهمومًا حتى هلك..

وجاء بعده تبع ابنه، قال ابن قتيبة: وهو الذى كسا الكعبة وقال فى ذلك:

وكسونا البيت الذى حرم الله ملاء معضدًا وبرودًا.

وهو الذى أدخل اليهودية اليمن. ودام ملكه ثمانية وسبعين عامًا.

---

(١٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦، والمعارف لابن قتيبة ص ٢١٢.

وتعاقب بعده ملوك، كان منهم ملك ليس من أبناء الملوك، اسمه «ذو شناتر» وكان سيئ السيرة سيئ الأخلاق.

فوثب عليه «ذو نواس» وهو من أبناء التتابعة الأول.. فقتله شر قتلة، وجلس مكان آبائه..

وهو صاحب الأخدود.. ولعل حادث الأخدود هو السبب المشار إليه فى هلاك قوم تبع..

قصة الأخدود:

وقد ورد ذكر هذه القصة فى قوله -تعالى-:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾(١١).

كان ذو نواس هذا مقيمًا على اليهودية، وكانت المسيحية قد بدأت تظهر فى اليمن وتتفشى. وكانت اليهودية تغيرت وتبدلت، وجاءت المسيحية فى أعقابها.

وآمن بهذا الدين غلام اسمه عبد الله بن تامر، وأراد الملك أن يفتنه عن دينه فلم يستطع، وتبع هذا الغلام خلق كثير.

فشق ذو نواس لهم أخدودًا فى الأرض، وجمع فيه حطبًا كثيرًا، أشعلت فيه النار، وعرض أهل مملكته على النار فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على دينه قذفه فيها.

ويقال: إنه قتل بالنار وغيرها عددًا كبيرًا، قدره بعضهم بعشرين ألفًا بين قتيل بالسيف وحريق بالنار. وقال وهب بن منبه: كانوا اثنى عشر ألفًا. وقال غيره: هم أكثر من ذلك بكثير بلغوا سبعين ألفًا..

---

(١١) الآيات ٤ : ١٠ من سورة البروج.

وقد انتقم الله لهؤلاء القوم الذين استشهدوا من الذين فتنوهم عن دينهم وكذبوا دعوة الرسل ..

لقد بغي ذو نواس في فعله هذا ، ويقال إنه لم يقتصر علي ما كان عليه من دين ورثه عن آبائه ، بل ادعى الألوهية حتى أجبر قومه على عبادته فكان بذلك فرعون اليمن ..

وكان هلاك ذى نواس ومن أعانه على فعله على يد الأحباش الذين اجتاحوا اليمن واستعمروها وأذلوا أهلها ..

وبذلك هلك قوم تبع بتكذيبهم دعوة الحق . كما هلك من كذب قبلهم من الأمم والقرون .

قال ابن قتيبة : كان هلاك ذى نواس بالغرق ، فقد اجتاحته ومن معه جحافل الحبشة حتى الجئوه إلى البحر فقذف بنفسه فيه فغرق ..

وكانت عاقبته كعاقبة فرعون الذى سبقه فى ادعاء الألوهية ..



قصة موسى
عليه السلام

- بنو إسرائيل فى مصر .
- طغيان فرعون وتسخيره لبنى إسرائيل وقتل أولادهم .
- ولادة موسى وخوف أمه عليه .
- إلقاؤه فى اليم .
- موسى الرضيع فى بيت فرعون .
- قتل القبطى وفراره إلى مدين .
- موسى فى بيت شعيب .
- عودته إلى مصر وتكليم الله إياه .
- إبلاغه دعوة الله إلى فرعون وتحدى فرعون له .
- إيمان السحرة .
- آيات أيد الله بها موسى .
- خروج موسى ببنى إسرائيل وهلاك فرعون غرقا .
- موسى وقومه فى سيناء .
- موسى يواجه المتاعب من قومه .
- رفضهم دخول الأرض المقدسة .
- فرض التيه عليهم .
- مناجاة موسى لربه وطلبه الرؤية .
- قومه يعبدون العجل .
- نتق الجبل فوقهم .
- موسى والخضر .
- قصة قارون .
- قصة هارون .
- وفاة موسى .

بنو إسرائيل فى مصر :

بعد وفاة يعقوب – عليه السلام – رجع أولاده إلى مصر يعيشون فيها وينعمون بخيراتها ..

وكانوا فى حياة يوسف – عليه السلام – موضع رعاية وعناية ..

وهم – كما علمنا – اثنا عشر ولدًا ، وكانوا قد جاءوا إلى مصر بأولادهم ، وقد أصبح لكل من هؤلاء ذرية ، وما زالوا يتكاثرون حتى أصبحوا شعبًا كبيرًا .

وبمرور الوقت أصبح المصريون ينظرون إليهم على أنهم غرباء عنهم ، أقبلوا من بلاد أخرى يزاحمونهم فى أرزاقهم ويقاسمونهم فى معايشهم .

ولم يعترف هؤلاء الإسرائيليون بتلك الحقيقة ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم من طينة أخرى ، ومن سلالة مميزة ، يفترض على الآخرين احترامها وتقديرها ، فلم يكونوا يسمحون لأنفسهم بممارسة النشاط الذى يقوم به المصريون ، وعزلوا أنفسهم فى إقليم يعيشون فيه بعيدًا عن مخالطة المصريين ، هو إقليم جاسان – بالسين أو بالشين – فى شمال بلبيس ، ومن بلاده سفط الحنة الآن ونواحى الصالحية[1] .

وقد نسى المصريون فى حياة يوسف ذلك نظرًا لما كانوا يرونه من حسن معاملته وسمو أخلاقه ، ولكن حين مات تذكروا هذه الوقائع ، ونظروا إلى الإسرائيليين الذين كانت تقدم لهم الميرة مجانًا دون أن يدفعوا لها ثمنًا وهم دفعوا فى سبيلها الكثير من التعب والمال .. نسى المصريون فضل يوسف ونظروا إلى أهله وذريتهم نظرة غضب وحقد ..

ولم يكن الإسرائيليون فى إقامتهم فوق مستوى الشبهات ، ولكن حدث منهم بعد موت آبائهم وأجدادهم من التصرفات السيئة والسلوكيات العوجاء ما أثار الغيظ والموجدة .

---

(١) قصص الأنبياء للنجار ص ١٨٥ .

قال ابن عباس -رضى الله عنه-: إن بنى إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وفعلوا المعاصى، فسلط الله عليهم القبط وساموهم سوء العذاب[٢].

كان رد الفعل مضاعفًا .. أساء الإسرائيليون أولاً فرد عليهم المصريون ثانيًا ..

لم يحفظوا فى أنفسهم شرف نسبهم، ولم يرتفعوا إلى مستوى الانتساب إلى شجرة النبوة التى تفرض عليهم القدوة الطيبة والأسوة الحسنة، بل كانوا مثالاً سيئًا تنفر منه النفوس الشريفة والأذواق السليمة ..

فأقبل المصريون على الإسرائيليين يسخروتهم. ويفرضون عليهم القيام بأعمال شاقة بعد أن رأوا منهم السلبية والامتناع عن المشاركة فيما يهم البلاد من أمور ..

وقد بالغ الفراعنة فى هذا التسخير، وضاعف منه ما سمعوه من الكهنة من أن الإسرائيليين ينتج من بينهم غلام يكون سببًا فى هلاكهم وهلاك قومهم.

وقد ذكر القرآن الكريم طرفًا من التعذيب الذى تعرض له بنو إسرائيل على يد آل فرعون لعلهم يتذكرون نعمة الله بتخليصهم من ذلك العذاب قال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾[٣].

لقد كان تعذيب بنى إسرائيل فى مصر نتيجة عوامل متعددة يمكن تلخيصها فى: تعاليهم الشديد على المصريين، وبغيهم وطغيانهم، وطباعهم الشاذة، ونسيانهم المعروف الذى يسدى إليهم، وجحودهم النعمة التى من الله بها عليهم بالإضافة إلى ظلم فراعنة مصر وقسوتهم عليهم.

---

(٢) تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٤٩٦٧ -سورة القصص- ط. دار الشعب.

(٣) الآية ٦ من سورة إبراهيم.

وقد لازمتهم هذه الطباع حتى بعد خروجهم من مصر .. وكان موسى – عليه السلام – لا يكف عن تقريعهم، ولا يتوانى عن تذكيرهم بوجوب شكر النعم التي كانوا يجحدونها فور تلقيهم لها.

وسيأتى فى أثناء القصة تفصيل لذلك إن شاء الله – تعالى – .

ولادة موسى :

يعد موسى – عليه السلام – من أكثر الأنبياء ذكرًا فى القرآن الكريم . فقد ذكر مائة وستًا وثلاثين مرة ، فى سور كثيرة .

ووردت قصته بأساليب متعددة مفصلة وموجزة فى سور متعددة ، فى البقرة والمائدة والأعراف ويونس وإبراهيم والكهف وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر وغيرها من السور .

وسبب ذلك الإكثار – كما يقول العلماء – : « أن قصته أشبه قصص الرسل – عليهم السلام – بقصة سيدنا محمد – ﷺ – من حيث انه أوتي شريعة دينية دنيوية ، وكوَّن الله به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية »[٤].

ومعنى « موسى » المنقَذ من الماء . روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال : إنما سمى موسى لأنه ألقى بين الماء والشجر ، فالماء بالقبطية « مو » والشجر « سي ».

وأبوه هو « عمران » وبلغة أهل الكتاب « عَمرام » بفتح العين ، وهو ابن قاهت بن لاوى بن يعقوب – عليه السلام – .

وكان أبوه عمران قد تزوج من عمته « يوكابد » بنت لاوى ، وكان ذلك جائزًا عندهم ، حتى أبطله موسى بعد ذلك .

وولدت له موسى وأخاه هارون[٥].

---

(٤) تفسير المنار جـ ٩ ص ٣٤ .

(٥) قصص الأنبياء للنجار . وفى سفر الخروج الإصحاح الثانى من العهد القديم آية ٢٠ ما يفيد ذلك .

وقال القرطبي - رحمه الله - : اسم أم موسى «لوحا بنت هاند بن لاوى ابن يعقوب» وعلى ذلك فهي ابنة عم والده[٦].

وقد وُلد موسى في ظروف عصيبة فقد كان الكهنة المصريون تكهنوا لفرعون بأنه سيولد للعبرانيين غلام يكون سببًا فى هلاكه وهلاك قومه، فأصدر أمره بقتل كل ذكر يولد للعبرانيين.

قال الرواة : - عن وهب بن منبه - : بلغني أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد، ويقال : تسعين ألفًا[٧].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع متعددة. نذكر منها على سبيل المثال قوله - تعالى - :

﴿إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾[٨].

لقد غالى فرعون فى عدائه لبنى إسرائيل، وربما تحولت عداوته لهم إلى عداوة شخصية، بعد أن كانت عداوة قومية فى بادىء الأمر. والعداوة الشخصية يصحبها بطش وقهر وإذلال. وكأنه قد عزَّ عليه أن يوجد فى مملكته من لا يدين به كرب أو يعبده كإله.. كان الإسرائيليون على الرغم من خروجهم على تعاليم آبائهم لا يقر كثير منهم الوثنية، وإن كانت قد سرت إليهم من مجاورتهم للمصريين روح منها، ظهرت فى طلبهم من موسى فور عبورهم البحر أن يجعل لهم إلهًا كهذا الإله الذى يعبده القوم الذين يعكفون على أصنام لهم. وسيأتى حديث عن ذلك إن شاء الله - تعالى - .

وفى أثناء هذه الظروف العصيبة التى مر بها بنو إسرائيل، والتى كانت فيها عيون فرعون تجوس خلال ديارهم تتبع الحوامل والمرضعات، لتعرف من وُلد وتراقب من سَتلِد، كانت «يوكابد» قد وضعت وليدها «موسى» وخبأته عن العيون، وعفَّى الله على خبره، فلم يلحظه أحد من المراقبين، ولم يسمع به أحد من المتتبعين.

---

(٦) تفسير سورة القصص للقرطبي ص ٤٩٦٦ ط. دار الشعب.

(٧) تفسير القرطبي ص ٤٩٦٧.

(٨) الآية ٤ من سورة القصص.

ويروى انه حين جاءها المخاض، وكانت بعض القوابل الموكلات بالحوامل من الإسرائيليات مصافية لأم موسى. فقالت لها: لينفعني حبك اليوم، فعالجتها، فلما وقع الوليد على الأرض هالها نورٌ بين عينيه، وارتعش كل مفصل منها، ودخل حبُه في قلبها، فقالت لأم موسى:

ما جئتك إلا لأقتل طفلك، وأخبر فرعون، ولكني وجدت لابنك هذا حبًا ما وجدته لأحد قبله. فاحفظيه.

فلما خرجت من عندها جاء عيون فرعون، فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور، لأن عقلها كان قد ذهل من خوفها عليه فلم تدر ما صنعت. فتطلعوا فلم يجدوا شيئًا فخرجوا، وهي لا تدري مكانه حتى سمعت بكاءه من التنور، وقد جعل الله عليه النار بردًا وسلامًا[9].

وظلت أم موسى ترضع طفلها لمدة ثلاثة أشهر.

ولم تستطع أن تخفيه أكثر من ذلك. فخافت عليه، وتحيرت ماذا تصنع لتحفظ ابنها من القتل.

وكان الله قد أوحى إليها قبل ذلك، وحى إلهام أو وحي منام، أو عن طريق الإخبار بأي واسطة شاءتها القدرة الإلهية، ولو عن طريق ملك من الملائكة، والملائكة قد يكلمون البشر من غير الأنبياء إذا أراد الله، وليس مقتضى ذلك أن يكون المكلَّم نبيًا، فقد كلم الملائكة كثيرًا من صحابة رسول الله - ﷺ - دون أن يكونوا أنبياء.

أوحى الله إلى أم موسى بما أخبر به القرآن الكريم:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾[10].

---

(٩) تفسير القرطبي ص ٤٩٦٧.

(١٠) الآيات ٧ : ٩ من سورة القصص.

ولنا أن نتأمل الآية الأولى التى استرعت بلاغتها إحدى فصيحات العرب فقالت : ما أفصح هذا الكلام ، لقد جمعت آية واحدة بين خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين . فبلغت بذلك الغاية فى الدقة والايجاز .

وقد روى ذلك الأصمعى حين سمع تلك الفتاة تنشد أبياتًا من الشعر فأعجبته فصاحتها فقال لها : ما أفصحك . فقالت : أو بعد فصاحة الله فصاحة ؟ وذكرت العبارة المتقدمة(١١).

وصنعت أم موسى ما أُخبِرت به وما طُلِب منها .

صنعت تابوتًا من ورق البردى ، وقيَّرته بالقار من داخله .

ووضعت ولدها فى التابوت ، وألقته فى النهر ..

وحملت الأمواج التابوت وسارت به ، وقلب أم موسى يتبعه فى خوف وهلع .

ولا يبعد أن تكون الهواجس قد فعلت فعلها فى نفسها ، وجعلتها تتوهم أنها أخطأت التصرف ، فلو أنها أبقته أمام عينها فقتل أمامها لأمكنها أن تعرف مصيره .

أما الآن فمصيره مجهول لا تدرى عنه شيئًا .

إن هذه الهواجس التى راودتها وغالبتها فى يقين وقوة ، عبر عنها القرآن أجمل تعبير حين قال فى شأنها : ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها﴾ .

التابوت فى بيت فرعون :

وسار التابوت فى طريقه إلى حيث لا تعلم أم موسى ، حتى ألقته الأمواج أمام قصر فرعون ..

ولا يبعد أن تكون زوجة فرعون وهى « أسيا بنت مزاحم » تتطلع من شرفة قصرها على شاطىء النهر ، فاسترعى انتباهها هذا الصندوق الذى يتأرجح

---

(١١) تفسير القرطبى – سورة القصص – .

من الأمواج على صفحة النهر ، فأمرت من يسوقه إلى الشاطيء ويحمله إلى القصر .

وفتحت آسيا الصندوق ، وهى امرأة مؤمنة ، أخبر الله عنها بأنها من أهل الجنة حين قال : ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتًا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين﴾[١٢].

فرأت فى الصندوق صبيًا جميل الطلعة ، يعلوه البهاء والنور ، يبتسم لها فى براءة وطهر ، فانطبع حبه فى قلبها فورًا ..

وأخرجته من الصندوق ، وضمته فى حنان إلى صدرها ، وقبلته فى عطف وشغف ..

إنها مؤمنة ، ومن خصائص الإيمان الرحمة ، وأحق الناس بالرحمة هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين لم يرتكبوا إثمًا ولم يصنعوا جرمًا .

والإيمان يؤلف بين قلوب المؤمنين ، فليس من المستحيل أن تعقد صلة مبهمة قوية بينها وبين هذا الطفل ، قد يفسرها البعض بالأمومة أو الانسانية وقد يفسرها البعض بعاطفة الإيمان التى تلتقى فى ظلها الأرواح المجندة التى ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

ولابد أن يكون الخبر قد وصل إلى مسامع فرعون ، فأقبل على عجل ، ورأى الطفل بين يدى زوجته ، فأمر بقتله .

فأسرعت الزوجة قائلة لفرعون : قرة عين لى ولك . لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ..

لقد أحسنت فى تقديمها بعبارة قرة عين لى ولك .. وكأنها استأنست بها فى نهيها عن قتله .. إذ كيف يقتل الإنسان ما يتوقع أن يجد فى رؤيته قرة عينه ؟ وهذا من بلاغة القرآن .

---

(١٢) الآية ١١ من سورة التحريم .

ورق فرعون لكلام زوجته، ووجد فيه منطقًا سليمًا .. فهي محرومة من الولد. وهو له ابنة – أشارت إليها التوراة – وهي من أم غير آسيا. وقد يكون له ولد ذكر من غيرها أيضًا. فليس هناك ولد مشترك بينهما.

وقبل رجاء زوجته، وكان يحبها، ولأن الله أراد أن تتم كلمته فقد جعله يستجيب لها، ويمسك عن قتل الطفل.

وبقى الطفل فى قلب القصر الذى جند قوته كلها لقتله. فهل هناك قدرة أعظم من هذه القدرة؟ وهل هناك معجزة أكبر من هذه المعجزة؟.

وهكذا أراد الله أن ينشأ موسى على الرغم من فرعون تحت سمعه وبصره، ليعلم كل جبار فى الأرض أن الله إذا أراد شيئًا قال له كُن فيكون. وأن قدرته لا يعجزها شيء، وحكمته لا يحيط بها علم.

لقد وضع الله فى قلب فرعون – رغمًا عنه – حب هذا الطفل الذى رصد جنوده للتخلص منه، وهو لا يعلم أن هذا الطفل الذى أوصلته الأقدار إلى شاطىء قصره هو ذلك الطفل الذى أخبره المنجمون عنه بأنه سيكون سببًا فى هلاكه وذهاب ملكه.

وهذا هو ما يشير إليه قوله – تعالى –: ﴿وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى﴾(١٣).

أخت موسى تتقصى خبره:

ولم يهدأ لأم موسى بال، وأخذت الخواطر المتعارضة تراودها، ما بين استئناس بالخبر الذى قال لها: لا تخافى ولا تحزنى .. وبين ما صنعته بيديها حين ألقت طفلها في اليم. وأنى تعرف أن التيار لم يجرفه، والأمواج لم تغرقه؟

لم يعد فى قلبها – كما أخبر القرآن الكريم – شغل إلا موسى، حتى لقد همت أكثر من مرة أن تصيح عليه، ولو صاحت لافتضح أمرها، وعُرِف طريق

---

(١٣) الآية ٣٩ من سورة طه.

ابنها ، ولأدرك فرعون أن هذا الطفل الذى فى بيته عبرانى ، فلا يتردد حينئذ فى قتله ولا يصيخ إلى التوسلات فى رحمته .

إنه الآن على شك من أمره ، فقد يكون من أبناء القبط ، أو من أرض أخرى غير أرض بني إسرائيل .

وطلبت أم موسى من ابنتها ، وكان اسمها مريم أو كلثوم . أن تتبع أثره وتتقصى خبره ، فما زالت الفتاة تتطلب ذلك حتى دخلت قصر فرعون ، ورأت الطفل ، ولكنها لم تصرح بأنها تعرفه .

وكان الطفل قد أعرض عن المراضع ، فلم يقبل ثدى أى امرأة استدعتها زوجة فرعون لإرضاعه .

وظل الطفل يصرخ من الجوع حتى أثار الإشفاق ، فتدخلت أخته قائلة : أنا أدلكم على امرأة مرضع لعله يقبل ثديها .

فقالوا لها : من هذه المرضع ؟

قالت : أمي .

فقالوا لها : ألها لبن ؟

قالت : نعم ، لبن أخي هارون .

وكان هارون أكبر من موسى بسنة أو أكثر . ولد قبل أن يصدر فرعون أوامره بقتل أولاد بني إسرائيل الذكور الذين يولدون قبل العام الذى أخبره المنجموه أن الطفل الموعود سيولد فيه .

وجاءت أم موسى إلى قصر فرعون لتعيش فيه ، وتكفل ابنها ، وتربيه فى حجرها ، وتنعم معه في ظل هذا القصر الوارف الظلال .

وما زال موسى يتقلب فى النعمة حتى أيفع ، وأورثه الله الحكمة وعلمه من لدنه علمًا وحكمة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأحداث بقوله – تعالى – :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ
مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ
ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤ ﴾[١٤].

ولم يتعرض العهد القديم إلى ذكر زوجة فرعون. ولكنه يذكر أن التي عثرت على صندوق موسى هي ابنة فرعون وليست زوجته، وأنها هي التي رقت له وطلبت استبقاءه[١٥].

موسى ربيب فرعون:

وتربى موسى - عليه السلام - في بيت فرعون على الرغم منه.

وكان فرعون يداعبه كثيرًا. وفي يوم وضعه في حجره فأقبل موسى على لحية فرعون فجذبه منها في عنف. فاغتاظ فرعون وهم بقتله.

فأقبلت امرأة فرعون تدفع عن الطفل وتقول له: إنه لا يعقل. وجاءت أمام الطفل بطبق فيه درة وجمرة، وقالت لفرعون: إنه لا يفرق بينهما.

ومد الطفل يده ليلتقط الدرة، فحولها جبريل إلى الجمرة.

فالتقطها ودفعها فورًا إلى فمه - جريًا على عادة الأطفال حين يضعون كل شيء يلتقطونه بأيديهم في أفواههم - فاحترقت يده، واحترق لسانه..

فحين مد الطفل يده إلى الجمرة، ضحك فرعون وسكت.

وعولج الطفل، ولكنه ظل يعاني بعد شفائه من لثغة لازمته طول حياته حتى استجاب الله لدعائه حين قال مخاطبًا ربه في أثناء تلقي الرسالة: ﴿واحلل عقدة من لساني. يفقهوا قولي﴾[١٦]. فحلت تلك العقدة.

ولعل احتراق يد الطفل ولسانه كان من الأسباب التي زادت من عطف فرعون على موسى وإقباله عليه.

---

(١٤) الآيات ١٠ : ١٤ من سورة القصص.

(١٥) سفر الخروج - الاصحاح الثاني -.

(١٦) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة طه.

ونشأ موسى، وقد عرف الجميع أنه ينتمي إلى فرعون لا نسبًا ولكن تربية. فأصبح له ما للأمراء من منزلة.. ولا يبعد أن يكون قد عرف أصله، ولكن فرعون غض النظر عنه بعد أن أمن إليه.

واستعمل موسى نفوذه في الدفاع عن العبرانيين وكف الأذى عنهم.

ولكنه بما آتاه الله من حكمة وعلم أخذ يعيب ما يراه من وثنية. وينتقد علنًا إقبال المصريين على تأليه فرعون..

ونما علم ذلك إلى فرعون فغضب عليه وطلب منه الابتعاد عن قصره. فرحل عنه وأقام مع العبرانيين الذين هو منهم.

وأقبل يومًا إلى مدينة فرعون «منف» على حين غفلة من أهلها.. فوجد فيها رجلين يتنازعان أحدهما عبراني والآخر قبطي..

كان القبطي يحاول تسخير العبرى في أمر فرفض، وأراد أن يجبره في الوقت الذى رأى فيه موسى. فاستنجد به، فذهب موسى إلى القبطي يمنعه من البطش بالعبراني، ودفعه بعيدًا عنه دفعة قوية أودت بحياته.

فلما رأى موسى ذلك أنكر من نفسه ما حدث. وقال: هذا من عمل الشيطان. ثم أقبل على ربه مستغفرًا إياه قائلاً: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي.

وقبل الله توبته على الفور وغفر له ذنبه.

لقد ندم موسى على فعلته ونسب ذلك إلى الشيطان. والندم توبة.. وما أحسن أن يستغفر الإنسان ربه فور شعوره بارتكاب ذنب من الذنوب.

ولا شك في أن ذلك كان قبل نبوة موسى. بل لقد قدر بعضهم سنه في ذلك الوقت بأنها كانت اثنتى عشرة سنة.

وعقد موسى مع توبته عزمًا على ألا يظاهر بقوته مجرمًا، بل ينبغي أن تكون قوته في خدمة الحق ونصرة المظلوم.

والعزم الصادق من شرائط التوبة النصوح..

وجوب الابتعاد عن مناصرة الظلمة :

إن عزم موسى هذا يضع أمام أنظارنا منهجًا يجب اتباعه، وهو عدم مساعدة الظلمة أو المشى فى ركابهم، امتثالاً لأمر النبى - ﷺ - : «ينادى مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة ؟ حتى من أحضر لهم دواة أو برى لهم قلمًا، فيجمعون فى تابوت من حديد فيرمى به فى جهنم»(١٧).

وعلم القبط بأمر القتل، وأخبروا فرعون بأنه لابد أن يكون قاتله عبرانيًا، فطلب منهم أن يبحثوا عن قاتله ليقتصوا منه دون جدوى.

وفي اليوم التالى، جاء موسى إلى المدينة، وهو يخشى أن يكون أمره قد افتضح، وأن المصريين شعروا بأنه القاتل. فكان يسير في خوف وترقب.

وبينما هو كذلك إذا بالإسرائيلى الذى استنصر به بالأمس يستغيث به مرة أخرى لينصره على مصرى آخر..

واستحضر موسى نفسه حادث الأمس وأدرك أن هذا الإسرائيلى سبب بلائه وارتكاب جريمته التى ارتكبها..

قال بعض المفسرين : إن المصرى الذى أراد تسخير الإسرائيلى كان طباخ فرعون، وقد أراد أن يحمل له الإسرائيلى حطبًا إلى مطبخه فأبى.

ويدلنا ذلك على أن الإسرائيليين كانوا قد ضاقوا ذرعًا بالسخرة التى فرضها الفراعنة عليهم، والتى بلغت حدًا لا ينبغى السكوت عليه.

وقد يدلنا ذلك على أن هذا الإسرائيلى كان متمردًا بطبعه. فقد حدثت منه معارضة لما طلب منه فى يومين متتاليين، واستغاث بموسى فى اليوم التالى على غريمه وهو يعرف قوة موسى وبطشه بخصومه..

ولذلك قال له موسى : ما أشد إغواءك وأكثر إيذاءك..

ولوح موسى بيده نحو المصرى مهددًا فاتجهت نحو الإسرائيلى، فظن الإسرائيلى أنه سيقتله. فصاح قائلاً : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس؟

---

(١٧) تفسير القرطبى - القصص - ص ٤٩٧٩.

وانكشف المستور، وادرك المصرى أن موسى هو صاحب قتيل الأمس، فأسرع يخبر فرعون بذلك.

وينكر العهد القديم أن الرجلين اللذين اقتتلا فى اليوم التالى كانا عبرانيين، وليس أحدهما قبطيًا والآخر عبرانيًا. وأن موسى قال للمذنب منهما: لماذا تضرب صاحبك؟ فقال له: من جعلك رئيسًا وقاضيًا علينا؟ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ فخاف موسى حقًا، فقد عرف الأمر، وسمع فرعون بذلك فطلب أن يقتل موسى[18]. وقيل: إن القائل لموسى أتريد أن تقتلني هو القبطي وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي وهذا هو الظاهر.

أصدر فرعون أمره بقتل موسى.

وجاء رجل من أقصى المدينة مسرعًا إلى موسى يحذره من القوم، ويأمره بمغادرة المدينة على الفور، بل بمغادرة مصر بأسرها إذا أمكن، لأن يد فرعون في كل مكان فيها، ومهما اختبأ فلابد أن تراه العيون.

فاستمع موسى إلى نصيحته، وخرج على خوف ووجل أن يدركه أحد أو يعرفه فيخبر فرعون بأمره، وأعجله ذلك عن أن يتخذ أهبته للسفر من زاد وراحلة..

وقد قصت الآيات التالية علينا هذه الأحداث:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ
ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ
فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ
بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ

---

(١٨) العهد القديم، الإصحاح الثاني من سفر الخروج.

﴿ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[19].

وكانت هذه الحادثة إحدى الفتن التى تعرض لها موسى ونجاه الله منها، وذكرها الحق – سبحانه – فى معرض المنة على موسى حين قال له: ﴿فنجيناك من الغم وفتناك فتونا﴾[20] والتى كان لها أثر فى إنضاجه وإصلاحه للرسالة، حيث عدلت من سلوكه وغيرت من اتجاهه، وجعلته لا يتسرع فى استعمال قوته، ولا يندفع فى البطش بمن يراه ظالمًا، وأن يقدم له النصح، ويحاول أن يعدل من سلوكه بدلاً من أن يتخلص منه.

موسى فى مدين:

خرج موسى من مصر متجهًا إلى الشرق، مخترقًا شبه جزيرة سيناء فى طريقه للذهاب إلى مدين. وقد عرفنا مكانها فى قصة شعيب – وذلك بعد أن حذره رجل جاء إليه يسعى من أقصى المدينة.

ولعل هذا الرجل هو الذى أخبر عنه القرآن فيما بعد بأنه مؤمن آل فرعون. وقد اختلف العلماء فى اسمه، فقال كثير منهم: إنه «حزقيل بن صبورا» آمن بموسى بعد أن أرسل.

لقد كانت فى نفسه بوادر الإيمان، فإن الله يهدى لنوره من يشاء، وكثير من العقلاء يهولهم البغى ويحملهم شيوع الباطل على التدبير والتفكر حتى يفطنوا إلى الحق. وهذا شائع فى كل زمان ومكان.

وقد كان قبل بعثة النبى – ﷺ – متحنفون نأوا بأنفسهم عن عبادة الأصنام، وأدركوا ضلال قومهم وسفه آرائهم.

فهذا الرجل من آل فرعون من أولئك النفر الذين يمن الله عليهم بنعمة الهداية ويجعلهم من أتباع الرسل بعد بعثتهم.

---

(19) الآيات ١٥ : ٢١ من سورة القصص.

(20) الآية ٤٠ من سورة طه.

وقد عز عليه أن يقتل رجل يستنكر ما يستنكره، وتثور فى نفسه الفضيلة التى يعز وجودها فى زمانه..

وأسرع هذا الرجل - كما عرفنا - يحذر موسى من التآمر عليه..

وكان تحذيره هذا سببًا فى نجاة موسى..

لماذا اختار مدين؟

ولعل موسى اختار مدين بالذات لأنه عرف بُعدها عن يد فرعون..

ولعله لحظ القرابة التى تربطه بأهل مدين، وقد عرفنا أن مدين هو ابن إبراهيم، فأولاده من سلالته يعيشون فى هذه المنطقة، وهم أبناء عمومة مع موسى.

وخرج موسى بدون زاد أو راحلة، وكان عقده التوكل على الله..

التجأ إليه وهو يقول: عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل.

ومن كان عقده التوكل على الله كفاه الله همه، وأذهب حزنه وغمه، وييسر له أمره وشرح له صدره ورزقه من حيث لا يحتسب.

والتوكل ديدن الأنبياء، وعلى لسانهم قال - الله تعالى -: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾(٢١).

وقال تعالى داعيًا إلى التوكل: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرًا﴾(٢٢).

قال العلماء: إن الله بعث لموسى ملكًا هداه إلى الطريق، وقال بعضهم: إن هذا الملك هو جبريل - عليه السلام -.

وقطع المسافة بين مصر ومدين فى ثمانية أيام..

كانت رحلة شاقة لموسى، ولكنها النبوة وتكاليفها الشديدة، إن الإعداد لها يتطلب الصبر والمشقة.

---

(٢١) الآية ١٢ من سورة إبراهيم.

(٢٢) الآية ٣ من سورة الطلاق.

وألقى موسى عصا التسيار عند مشارف المدينة .. وهناك بئر يزدحم حوله الورّاد .

ورأى من بين الجموع فتاتين تقفان بمنأى عن الناس ، تذودان عن غنم لهما ، وتنتظران فراغ القوم من سقى أغنامهم .

وأقبل موسى على الفتاتين يسألهما : ما شأنكما ؟

فأجابت إحدى الفتاتين والثانية تصدقها : نحن لا نستطيع أن نسقى أغنامنا حتى ينتهى القوم من سقى أغنامهم ، فالغلبة هنا للأقوى ، وأبونا شيخ كبير لا يستطيع مغالبة هؤلاء القوم .

فى كلمات قليلة أجابت الفتاتان ، ولكنها كانت كلمات كافية أمام فطنة موسى ليدرك من ورائها حال هذا البيت الذى تعيش فيه هاتان الفتاتان .

وتحركت فى نفسه نخوة أولى العزم ومروءة أهل التقوى ، وتذكر ما عاهد الله عليه أن يجعل قوته فى نصرة المظلوم ونجدة الضعيف المهضوم .

وكأن مشقة الطريق وشدة الجوع من طول السفر قد ذهبت أدراج الرياح ، فلم يشعر بما عاناه فى رحلته ، نسيه فى لحظة واحدة . واستعاد ما أعطاه الله من قوة ، وأقبل على البئر ليرفع من فوقها حجرًا ضخمًا يعجز الأشداء عن حمله ، ويخلى وجه البئر أمام الواردين ، ويتناول الدلو بذراع فتية وينزع من الماء إلى الحوض لترتوى أغنام الفتاتين .. حتى فرغ من شأنهما .

ثم تركهما لحالهما ، واتجه إلى ظل شجرة يستريح ، ويرفع أكف الضراعة إلى الله ، يطلب معونته ويستغيث برحمته قائلاً : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير .

وسرعان ما استجاب الله له ، قبل دعاءه وحقق رجاءه .

وأقبلت إحدى الفتاتين مسرعة تسير على استحياء ، تدعوه للقاء والدها ، فقد أبلغت الفتاتان أباهما بما حدث ، وكأنه قد تعجب من عودتهما مبكرين على غير العادة ..

وقام موسى على أثر الفتاة التى مضت أمامه لتعرفه طريق البيت .

وجد الريح تضرب ثوبها فتظهر ساقها، فقال لها : سيرى ورائى وأرشديني بقولك إلى الطريق. قولى لى : اتجه يمينًا أو يسارًا، أو امض أمامك.

وهكذا .. فعلت الفتاة وسار بإرشادها حتى وصل إلى البيت..

وقَدَّم الشيخ أبو الفتاة وهو شعيب النبى - عليه السلام - لموسى طعامًا.

وكره موسى أن يتناول الطعام خشية أن يكون ذلك مكافأة له على صنعه مع فتاتيه، وهو لا يبتغى على المعروف أجرًا..

ولكن الشيخ طمأنه إلى أن هذه عادته مع ضيفه.

وتناول موسى الطعام الذى قدم إليه شاكرًا الله على نعمته.

ثم قص موسى على الشيخ خبره.. فطمأنه الشيخ قائلاً : لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

بين سليمان بن عبد الملك وأبى حازم الزاهد :

وهنا قصة ذكرها القرطبى فى تفسيره نذكرها للعبرة والعظة والذكرى تنفع المؤمنين.

قال : روى الدارمى بسنده قال : مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة، فأقام بها أيامًا. فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدًا من أصحاب النبى - ﷺ - ؟

قالوا له : أبو حازم، فأرسل إليه.

ثم دار بينهما حوار جاء فيه :

قال سليمان : ما لنا نكره الموت ؟

قال أبو حازم : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

قال سليمان : أصبت، فكيف القدوم على الله تعالي ؟

قال أبو حازم : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه .

فبكى سليمان ، وقال : ليت شعرى ، مالنا عند الله ؟

قال : اعرض عملك على كتاب الله .

قال سليمان : فى أى مكان أجده ؟

قال : فى قوله - تعالى - : إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفى جحيم .

قال سليمان : فأين رحمة الله ؟

قال أبو حازم : قريب من المحسنين .

ثم بعد كلام قال سليمان : عظنى .

فقال أبو حازم : سأوصيك وأوجز . عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار ، وكتب إليه : انفقها ولك عندى مثلها كثير .

فردها أبو حازم وكتب إليه :

يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياى هزلاً ، أو ردى عليك بذلاً - أى راجيًا عطاءك وبذلك - وما أرضاها لك ، فكيف أرضاها لنفسي ؟

إن موسى بن عمران - عليه السلام - لما ورد ماء مدين وجد عليه رعاء يسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان ، فسألهما فقالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير .

فسقي لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير .

وذلك أنه كان جائعًا خائفًا لا يأمن ، فسأل ربه ولم يسأل الناس ، فلم يفطن الرعاء وفطنت الجاريتان ، فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة ، وبقوله .

فقال أبوهما وهو شعيب - عليه السلام - : هذا رجل جائع ، وقال لإحداهما : اذهبي فاستدعيه .

فلما أتته عظمته وغطت وجهها، وقالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فشق ذلك على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيت لنا».

ولم يجد بدًا من أن يتبعها، لأنه كان بين الجبال جائعًا مستوحشًا، فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها فتصف عجيزتها . وجعل موسى يعرض مرة ويغض أخرى، فلما عيل صبره ناداها : يا أمة الله كونى خلفى، وأرينى الطريق بقولك .

فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهيأ، فقال له شعيب : اجلس أيها الشاب فتعش .

فقال موسى – عليه السلام – : أعوذ بالله .

فقال له شعيب : لم؟ أما أنت جائع؟

قال : بلى، ولكنى أخاف أن يكون هذا عوضًا لما سقيت لهما، وإنًا أهل بيت لا نبيع شيئًا من ديننا بملء الأرض ذهبًا .

فقال له شعيب : لا يا شاب، ولكنها عادتى وعادة آبائى، نقرى الضيف ونطعم الطعام .

فجلس موسى فأكل .. هذه القصة ذكرها أبو حازم لسليمان بن عبد الملك .. ثم قال له :

فإن كانت هذه المائة دينار عوضًا لما حدثت به . فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الإضطرار أحل من هذه . وإن كانت لحق لى فى بيت المال فلى فيه نظراء، فإن ساويت بيننا، وإلا فليس لى فيها حاجة[٢٣].

قال القرطبى : وهكذا يكون الاقتداء بالأنبياء والعلماء ..

زواج موسى :

وقالت إحدى الفتاتين لأبيها – وقد علمت أنه فى حاجة إلى من يقف بجواره ليشد من أزره ويعينه فى شيخوخته، وهى وأختها فتاتان ضعيفتان لا تغنيان فى كل الأحوال – : يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوى الأمين .

---

(٢٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٣٧ ط . دار الكتب .

لقد حكمت على قوته برفعه الحجر من فوق البئر ، وهو حجر ثقيل لا يرفعه الجم الغفير من الناس .

وحكمت على أمانته بقوله : سيرى ورائى وصفى لى الطريق .

ومثل هذا الرجل القوى الأمين هو الذى يحتاج إليه الشيخ ليساعده فى أموره ويعينه فى حياته .

واستجاب الأب سريعًا لنداء ابنته فقال لموسى :

إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىَّ هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرًا فمن عندك .

لم يقل الشيخ لموسى : إنى أريد أن أستأجرك .. لأنه قد توسم فيه شرف النفس وعلو الهمة ، ووجد فيه الأهلية الكاملة لمصاهرته ، ولتكون العلاقة بينهما قوية متينة راقية ، وليست علاقة مادية واهية .

ولم ينظر الشيخ فى مصاهرته إلى الغنى والثروة وعرض الدنيا ، ولكنه نظر إلى الدين والأخلاق .. وهذه هى الكفاءة الحقيقية فى نظر أهل الله ..

وقد دلت التجارب على أن الكفاءة القائمة على الدين والخلق هى التى تضمن للحياة الزوجية السعادة والاستقرار ، لأنها كفاءة ثابتة لا تتغير . أما النظر إلى أعراض الدنيا وحدها من مال وثروة وجمال ومنصب وجاه فهى نظرة زائلة متغيرة ، ولذلك تعرض الحياة الزوجية للشقاق والنزاع والضياع .

واستجاب موسى ، وتم الإيجاب والقبول . وأصبحت « صفورة بنت شعيب » زوجًا لموسى - عليه السلام - .

وصدقت فراسة الفتاة فى موسى ، وصدق الأثر الذى يقول : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين قال عن يوسف لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ، وصاحبة موسى حين قالت لأبيها : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - .

وقال شعيب لموسى : ادخل هذا البيت . وأشار له إلى بيت معين وخذ منه عصا من العصى التى بداخله . فدخله وأخذ عصا . هى أول ما وقعت عليها يده .

وخرج بها ، وكانت هى العصا التى هبط بها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء من بعده حتى وصلت إلى شعيب .

وكان شعيب يطلب من موسى تغيير هذه العصا ويأخذ غيرها ، فكان يدخل فأخذ شعيب العصا التى اختارها موسى وردها إلى البيت ثم طلب من موسى أن يذهب لإحضار عصا أخرى . فكان يدخل إلى البيت ويخرج بها ذاتها ، فعل ذلك عدة مرات .

فأدرك شعيب أن موسى سوف يكون له شأن ..

وكانت هذه العصا هى رفيقة موسى فى رعيه ، ثم فى رحلته ، ثم أصبحت معجزة له فى رسالته بعد ذلك .

وبقى موسى فى صحبة شعيب عشر سنين ، وهى المدة التى أخبر بها النبى - ﷺ - حين سئل عن ذلك فقال : قضى موسى أبر الأجلين وأوفاهما .

وهذه الأحداث تقصها علينا الآيات الآتية :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾(٢٤).

وأهل الكتاب يقولون : إن الذى قابله موسى فى مدين هو كاهنها واسمه يثرون - ويثرون - هو شعيب على ما قدمنا فى قصته ، ويقولون : إنه كان له سبع بنات ، فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن ، فجاء الرعاة وطردوهن ، فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن ، فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن - ورعوئيل أيضًا هو يثرون - ..

---

(٢٤) الآيات ٢٣ : ٢٨ من سورة القصص .

ويمضي النص فيقول : فاستدعاه ، وتزوج موسى صفورة ، وولدت له ابنًا اسمه «جرشوم» .

ومات ملك مصر ، وصرخ بنو إسرائيل إلى الله من أجل العبودية . فسمع الله صراخهم(٢٥).

لا خلاف في المضمون ، وإن كان هناك خلاف في التفاصيل ..

ولكن سياق أسلوب القرآن وجمال الترتيب وبلاغته كل ذلك يأخذ بمجامع القلوب ، ويلفت النظر إلى ما في القصة من ملامح تستدعي العظة والعبرة وتأخذ بالنفوس إلى مواطن القدوة الصالحة والأسوة الحسنة والأدب الراقي الرفيع والسلوك الإنساني المهذب .

موسى في طريقه إلى مصر وتلقيه الرسالة :

انقضت السنوات العشر ، وانطلق موسى راجعًا بأهله في إحدى ليالي الشتاء الباردة . في طريقه إلى مصر ..

وفي صحبتهما أغنام أعطاها الشيخ لموسى وزوجته تعينهما على الحياة .. ويقول الرواة : إن المخاض جاء إلى زوجته في الطريق .. فانتحى بها جانبًا ، وأعد لها خباء ، وقعد بها حتى تلد ..

وأخذ يلتمس لها نارًا تستدفيء بها .. وضرب بقداحته فلم تخرج نارًا ، وحارَ في أمره ماذا يصنع ؟ وهو وحيد في بيداء لا أول لها ولا آخر :

ولاحت له نار من بعيد ، ففرح بها ، وأيقن بالفرج .

فقال لأهله : امكثوا هنا إني رأيت نارًا ، سوف أذهب وآتي منها بقبس تصطلون به ، ولعلي أعثر على من يدلني على الطريق ..

كان موسى قد ضل عن الطريق الموصلة إلى مصر ..

وتوجه صوب النار ، فإذا بالنار تشتعل في شجرة ..

---

(٢٥) سفر الخروج – الإصحاح الثالث – .

فوقف متعجبًا من حسن ضوئها ، وصفاء نارها ، مع شدة خضرة الشجرة التي لم تغير النار لونها . ولم يجد للنار المشتعلة لفحًا ولا حرارة .. ولكنه وجدها نورًا رقيقًا رفيقًا يستولي سحره على القلوب ..

ووقف موسى – عليه السلام – لحظات يتأمل جمال هذه النار التي لم ير مثلها من قبل ، ثم أقبل نحوها يلتمس منها جمرات يحملها إلى زوجته ، ولكنه فوجىء بأن النار تتأخر عنه ، فداخله شيء من الخوف . وقال في نفسه : هل تمشي النار ؟ ثم قال : وما لها لا تنبعث منها تلك الحرارة التي تلفح وجه من يقترب منها ؟ وما لها لا يتصاعد منها دخان كما يتصاعد من غيرها من النيران ؟ وما لها تشتعل في شجرة خضراء ومع ذلك لا تأكل من الشجرة شيئًا ، ولا يطفىء ماء الشجرة من النار شيئًا ؟ إن النار من عادتها أن تشتعل في الأشجار الجافة اليابسة وهذه شجرة خضراء وارفة ؟ ..

لعلها تساؤلات دارت في نفس موسى – عليه السلام – وأحاسيس تجاوبت في صدره حاول أن يبحث لها عن تعليل ..

ولم يلبث موسى – عليه السلام – أن سمع نداء من قبل تلك النار ، وأحاط به ذلك الصوت من جميع الأقطار ..

وأقبل عليه الصوت يناديه في رفق حبيب أخذ بمجامع نفسه وملك عليه قلبه وشد إليه عقله .

يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك، إنك بالواد المقدس طوى ..

إنها دعوة لموسى أن يتخلص من أثقال المادة التي تشده إليها ، إن عليه أن ينطلق إلى فضاء الروح ، وعليه أن يتجرد لله فلا يعلق همه إلا به .. إنه منذ الآن أصبح نبيًا ، والأنبياء موكولون إلى الله ، والله كفيل بهم يتولى أمرهم ، وهم يتولون تبليغ الرسالة التي أمروا بها .

إنه نداء حقيقي عليه أن يستجيب له .. فبادر موسى فخلع نعليه ..

روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– عن النبي – ﷺ – قال : كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجبة صوف وسراويل صوف ، وكانت نعلاه من جلد حمار ميت ..

فأمر بخلع هاتين النعلين لأنهما نجستان إذ هما من جلد غير مزكى .

ولتنال قدماه بركة هذا الوادى المقدس حين تمسان ترابه ، وليكون أقرب إلى الخشوع لله والتواضع له حين يخاطبه ويناجيه .

وهكذا يفعل الناس حين يطوفون حول بيت الله .

وهكذا يفعل القراء حين يتلون كتاب الله ..

وقد كان الإمام مالك - رضى الله عنه - لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برًا بتربتها وتكريمًا لساكنها - ﷺ -[٢٦].

لقد بسط الله لموسى بساط النور ، فلا ينبغى له أن يطأ هذا البساط بنعليه .

وقد فهم أهل الذوق من هذا الأمر أن الإنسان يجب أن يتخلص من أحواله الردية ويرفع نفسه إلى المقامات السنية إن كان يطمع فى الوصول إلى الدرجات العلا .

والوادى المقدس هو بجوار الطور ، لأن الله - تعالى - يقول : آنس من جانب الطور نارًا ..

وطوى : مصدر للفعل طوى . تقول : طوى الشىء بمعنى ثناه ، وقد طوى موسى المكان مرتين ذهابًا وإيابًا . أو طواه طيًا بتجاوزه إياه .

واختار الله موسى لرسالته ، وألقى عليه تكاليفها فى ذلك المكان المقدس .

لقد طلب الله إليه أن يصيخ سمعه جيدًا لما يلقى إليه من تعاليم ..

فألقى موسى سمعه ، وأسكن جوارحه ، وتابع ما يلقى إليه بذهنه وقلبه .

وكانت التكاليف مجتمعة فى إفراد الله بالوحدانية وعبادته وذكره : ﴿إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾[٢٧].

وأولى الناس بالقيام بهذه التكاليف هو النبى أولاً .. ولذلك وجه إليه الأمر بذلك . وعليه أن يبلغ ذلك لأمته فيقتدون به ويفعلون مثله .

---

(٢٦) تفسير القرطبى - سورة طه - ص ٤٢١٣ .

(٢٧) الآية ١٤ من سورة طه .

والصلاة أساس الدين فى أى شرع ، ولا دين بدونها ، ولذلك بدأت التكاليف بها .

ويلى الأمر بعبادة الله وحده الإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، ولذلك صدر الأمر لموسى بذلك لتبليغ أمته بوجوب الإيمان بها .

وقد جاء هذا الأمر عن طريق الإخبار :

﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى﴾[٢٨].

ثم طلب من موسى التشمير لهذا اليوم والاستعداد له ، وعدم الانشغال عن ذلك بأى أمر آخر ، وعدم الاستجابة لمن يصرفه عن الإيمان به .

لقد فوجئ موسى بهذه التكاليف ، وأدرك أنه أصبح منذ الآن مكلفًا بمهمة شاقة بين قوم لا يقدرون خطورة مسئوليته ودقة موقفه .

إنه رجل أعزل ضعيف لا حول له ولا قوة ، ثم إنه مطارد ومطالب بدم ، وقد كان عازمًا على العودة سرًا ليعيش بين أمه وأخويه فقد اشتاق إليهم ، دون أن يحدث ضوضاء أو جلبة .

فكيف يصنع الآن وهو مأمور بأن يعلن عن نفسه أولاً ، ثم يجهر بدعوة غريبة على الأذهان من شأنها أن تثير العداء وتشعل الهيجاء ؟

واطلع الله على ما يدور فى نفسه من أحاسيس ، فأراد أن يبث الثقة فى نفسه ، وأن يعطيه ما يقويه ويشد أزره . فقال له :

﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾[٢٩].

إنها عصاه ، والإجابة عن هذا السؤال ميسورة .

لقد أراد الله أن يؤنسه بسؤاله . وشعر موسى بالأنس فعلاً .. فكان يكفى أن يقول فى إجابته عن السؤال : عصا ..

ولكنه لم يكتف بذلك ، بل أسهب فى الإجابة وأطال فى وصف هذه العصا دون أن يطلب منه ذلك .

---

(٢٨) الآية ١٥ من سورة طه.

(٢٩) الآية ١٧ من سورة طه.

﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾[٣٠].

لقد جذبه جمال الخطاب الإلهي، وآنسه هذا الصوت الحبيب القريب، فأحب أن يطيل أمد التخاطب بينه وبين ربه.

وكم تمنى أن تطول هذه اللحظة الفريدة التي نعم فيها بلذة الأنس والقرب والخطاب من الله.

وقال الله لموسى: ألق عصاك يا موسى.

وصدع موسى بالأمر، وألقى عصاه، وما كان أشد هلعه وخوفه حين رأى أمامه ثعبانًا يتلوى على الأرض.

فأطلق موسى ساقيه للريح، وولى مدبرًا فزعًا من أن يلتهمه هذا الثعبان.

ولكن الله ناداه يا موسى أقبل ولا تخف، إنه لا يخاف لدى المرسلون.

يا موسى هذه آية لك، وسلاح معك، ومعجزة تؤيدك في رسالتك.

وعاد موسى يرجف فؤاده.

وناداه الحق قائلاً: خذها ولا تخف.

والتقط موسى ذنب هذه الحية التي تتلوى بيده في وجل. فإذا بها تعود عصا كما كانت.. هي عصاه التي كانت معه..

ومنذ ذلك الوقت وتحولت العصا إلى صديق ورفيق..

لم تصبح مجرد آلة صماء، بل كانت بعد ذلك معجزته التي تسير معه، ويعلق عليها أحماله، وتضيء له شعبتاها بالليل كالشمع، وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشعبتان كالدلو. وإذا اشتهى ثمرة ركزها في الأرض فأثمرت تلك الثمرة..

لقد كانت هذه العصا من أشجار الجنة هبط بها آدم -عليه السلام- وورثها الأنبياء من بعده، حتى وصلت إلى شعيب ثم أخذها موسى[٣١].

---

(٣٠) الآية ١٨ من سورة طه.

(٣١) تفسير القرطبي -طه- ص ٤٢٣٠.

وأراد الله أن يؤيد موسى بمعجزة أخرى تزيده قوة ووثوقًا . فقال له : أدخل يدك في جيبك ثم أخرجها .. ففعل فإذا بيده تخرج بيضاء ناصعة منيرة ساطعة . تبعث أمام من يراها نورا كضوء الشمس والقمر .

ثم أمره أن يدخلها في جيبه مرة أخرى . فأدخلها فعادت كما كانت ..

واطمأن قلب موسى أكثر وأكثر ..

فلا خوف إذن ولا قلق . فعليه أن ينصرف توًا إلى تبليغ رسالة ربه إلى فرعون . وها هي ذي المعجزة التي تثبت نبوته حاضرة لديه ، ترد على كل تكذيب ، وتقضي على أي شك أو ترهيب .

وصدر الأمر الإلهي يحدد له مهمته ..

يا موسى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، ادعه إلى عبادة الله وحده ، واطلب منه أن يكف عن إيذاء بني إسرائيل وتسخيرهم ، وأن يعتقهم مما هم فيه من عبودية وإذلال ، وأن يتركهم أحرارًا في الانطلاق إلى بلادهم التي كانوا فيها قبل أن يجيئوا إلى مصر ..

ولكن موسى – عليه السلام – لم يرد أن يضيع هذه الفرصة الذهبية دون أن يستثمرها استثمارًا صالحًا .. إنها فرصة يطلب فيها من الله العلي الذي شرفه بالمخاطبة وأنعم عليه بالمكالمة أن يشرح له صدره حتى لا يضيق بتكاليف الرسالة ، وأن ييسر له أمره حتى لا تتعقد أمامه السبل ، وأن يحل له هذه العقدة التي لاثت لسانه منذ أن لسعته النار فلا يكاد يبين ، حتى يصبح لسانه منطلقًا في الكلام ، فيقوى على أداء ما يريد من بيان ، ويفهم الناس ما يلقيه عليهم من أحكام ، وطلب أيضًا أن يؤيده الله بأخيه هارون فهو أفصح منه لسانًا وأقوى بيانًا .

واستجاب الله لما طلبه موسى ، وأعطاه ما سأل ، ولم يبق إلا أن ينطلق موسى في ثبات ويقين في طريق أداء هذه المهمة .. ويالها من مهمة ..

وقد وردت هذه المحاورة في القرآن الكريم بأساليب مختلفة وفي سور متعددة ، ولكنها متفقة في مضمونها ..

وردت في سورة طه، وفي سورة القصص[٣٢] وفي سورة الشعراء[٣٣] ولكنا نكتفي هنا بآيات سورة طه:

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ
إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾
فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ
عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾
فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ
إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾
ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ
عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾
ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ
كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾[٣٤].

انظر إلى هذا النسق القرآني الجميل المعجز.
هل ترى فيه كلمة نابية وردت على لسان موسى؟

هل تلمح فيه اعتراضًا على مقام الربوبية، او تأبيًا على الرسالة التي شرف الله بها موسى؟

هل تدرك أن هناك ضيقًا راود نفس موسى وترددًا منه بشأن هذه الرسالة؟

أما الكتابيون فيمضون في نصوصهم واصفين موسى باللجاج والاعتراض والامتعاض، وأنه رد الرسالة ثلاث مرات.

(٣٢) الآيات ٢٩ : ٣٥ من سورة القصص. (٣٣) الآيات ١٠ : ١٥ من سورة الشعراء.
(٣٤) الآيات ٩ : ٣٦ من سورة طه.

فمرة يقول : من أنا حتى أذهب إلى فرعون ؟

ومرة يقول : إنهم لا يصدقونني ولا يسمعون قولى .

ومرة يقول : لست فصيحًا ولا أقدر على إبانة الكلام والجدال .

لقد رفع القرآن الكريم من شأن موسى - عليه السلام - وهكذا يكون مقام الأنبياء ، إنهم يعرفون مقام الربوبية جيدًا ، وهم أولى الناس بمراعاة هذا المقام ، وأحق الناس بمعرفة أدب الخطاب فى حضرة ذى الجلال والإكرام .

موسى يبلغ الرسالة :

والآيات القرآنية الكريمة التى قرأناها تدل دلالة واضحة على أن موسى - عليه السلام - تلقى الرسالة فى أثناء خروجه إلى مصر مع أهله ..

ولكن النص الوارد فى العهد القديم يفيد أن الأمر بالرسالة جاءه فى أثناء رعيه الغنم عند صهره فعاد يستأذنه للخروج إلى مصر بعد ذلك .

والنص القرآنى هو الأنسب لدلالة الحال ..

وانطلق موسى - عليه السلام - من توه إلى مصر ، وقد تغير هدفه تمامًا من رحلته إليها ..

نسى أهله ، وشغلته تكاليف الرسالة ومهامها عن زوجه وولده . وكانت زوجته قد وضعت فى تلك الليلة المباركة .

لقد ارتفع هم موسى عن زوجه وولده . وتفرغ لِهَمِّ شعبٍ بأسره يريد أن ينقذه من الضلال ويرده إلى الحق ..

وإن شئت فقل : أذهلته لذة خطاب الحق والأنس به عن كل لذة أخرى مهما كانت .

وصرفه أمر الله والتفرغ له عن أن يضيع وقتًا فى البقاء بجانب أهله ، وقد وثق أن الله لن تضيع عنده الودائع . لقد استودع أهله عند ربه ومضى ..

وقيض الله لهم من أهل مدين راعيًا مر بهم فعرفهم فاحتملهم وعاد بهم إلى شعيب . وظلوا عنده حتى خرج موسى بقومه من مصر .

وأخذ موسى طريقه وحده إلى مصر يهديه الله فى رحلته .

وأوحى الله إلى هارون يبشره بعودة أخيه ويشركه معه في رسالته إلى فرعون وانه جعله وزيرًا لأخيه.

واستقبل هارون أخاه موسى في شوق شديد.

وانهى موسى إلى هارون مهمته التي جاء من أجلها، وعرفه هارون بأن الله – تعالى – أخبره بذلك. ودعاه إلى موازرته في رسالته.

وسمعت أمهما طرفًا من الحوار الذي دار بينهما بشأن هذه الرسالة، فجزعت وناشدتهما الله – خوفًا عليهما – بألا يذهبا إلى فرعون..

ولكن كيف يجبن الرسل؟

وما زال موسى وهارون يتلسمان الفرصة التي يلتقيان فيها بفرعون ليبلغاه الرسالة.

وقد أفاض الإخباريون في شرح ذلك والتهويل منه.

ولكن القرآن الكريم لم يتعرض لهذه التفاصيل التي لا تقدم ولا تؤخر في موضوع القصة.

ولاحت الفرصة أخيرًا، وتمكن موسى وأخوه هارون من أن يلتقيا بفرعون.

فتقدم موسى إليه في ثقة وإيمان وهو يردد هذا الدعاء:

لا إله إلا الله الحكيم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم. سبحان رب السموات السبع والأرضين السبع، وما فيهن، وما بينهن، ورب العرش العظيم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

اللهم إني أدرأ بك في نحره وأعوذ بك من شره، وأستعين بك عليه فاكفنيه بما شئت[٣٥].

---

(٣٥) قصص الأنبياء للثعلبي ص ١٨٦.

ثم قال له: أنا وأخي رسولا الله إليك..

وقد علم الله موسى أن يكون لينًا في خطابه لفرعون، لأن للكلام رهبته في النفوس وموقعه من القلوب.

والنفوس تضيق بالشدة في الكلام إذا ووجهت بها أول مرة، ولكنها قد تصغى إلى ما يلقى إليها من كلام حسن رقيق.

وقد حدث الرواة عن هارون الرشيد أن واعظًا قال له: سأسمعك كلامًا قاسيًا شديدًا، فأجابه هارون بقوله: لقد بعث الله من هو أفضل منك إلى من هو شر مني، وطلب منه أن يلين له في القول.

أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون، وقال لهما: فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى.

فكان وعظ هارون الرشيد للواعظ أوقع وأوعظ.

إن الكلام اللين من أسباب نجاح الداعية، والله جل علاه يخاطب سيد الخلق بقوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[٣٦].

ووصفه بقوله ﴿ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[٣٧].

ألقي موسى كلمته إلى فرعون في هدوء: إنا رسولا رب العالمين.

وأخذت هذه الكلمة على قصرها بمجامع عقل فرعون وزلزلت كيانه وأخرجته عن شعوره..

لقد زلزلت نفسه زلزالاً عنيفًا. هل هناك رب غيره؟

إنه منذ وجد على هذا العرش لا يعرف الناس إلهًا غيره، هو يقوت الناس ويرزقهم، وبيده حياتهم وموتهم وسعادتهم وشقاؤهم، وما زال وزراؤه وحاشيته والمحيطون به ينفخون فيه حتى وقر في نفسه أنه إله حقًا.. أو على الأقل أنه ظل الإله أو ابن الإله رع..

---

(٣٦) الآية ١٢٥ من سورة النحل. (٣٧) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

إنه صنم متحرك يأكل ويشرب ويعقل ويتكلم ويأمر وينهى، وهو بذلك أفضل من الآلهة الأخرى التى يعبدها الناس، ينحتونها بأيديهم من أحجار وأخشاب يسجدون لها..

وهو كذلك أفضل من تلك الكواكب من شمس وقمر ونجوم، وأفضل من الأبقار وغيرها. فهذه لا تسمع ولا تنطق ولا تجيب.

أما هو فيسمع ويجيب..

فإذا قال له واحد من رعيته: يا فرعون أعطنى. يعطيه..

يا فرعون: اكسنى يكسوه. يا فرعون: انصرني. ينصره..

يا فرعون: ادفع عنى يدفع عنه..

فما بال هذا الرجل الذى أمامه يزعم أن هناك إلهًا غيره ينبغي أن يُعبد؟

عجبًا لك يا موسى: هل تريد أن تجعلنى عابدًا بعد أن أصبحت معبودًا؟

وتصيرنى تابعًا بعد أن صرت متبوعًا؟ وتريد من أن أكون طالبًا بعد أن كنت مطلوبًا؟

لقد تضمنت عبارة موسى «إنى رسول رب العالمين» كل معالم الرسالة وأصول الإيمان والعقيدة المتمثلة فى توحيد الله وإفراده بالعبادة وفى وجوب الإيمان بالبعث والجزاء..

وكان من المتوقع لدى موسى أن ينكر فرعون قوله، فقال له:

﴿حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل﴾[٣٨].

لقد كان هدف موسى أن يعتق رقاب أهله من رق فرعون الذى قهرهم وأذلهم، وأن يتركهم أحرارًا يذهبون إلى أرض غير هذه الأرض وديار غير هذه الديار يعبدون الله بعيدًا عن هذه الوثنية التى يحيا فى ظلها هؤلاء الضالون.

---

(٣٨) الآية ١٠٥ من سورة الأعراف.

حوار بين موسى وفرعون :

وفتح موسى بكلمته تلك الطريق أمام فرعون للحوار . فقد ذكر فرعون موسى بذنبه القديم ..

ثم سأله عن رب العالمين .. من هو ؟ وما حقيقته ؟ وأين هو ؟

وقد تولت الآيات الكريمة الآتية توضيح ذلك : —

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ
فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ
فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾
قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ
وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [39]

وقد أحسن موسى الدفاع عن نفسه ..

وأحسن في تأدية رسالة ربه .

قال في الدفاع عن التهمة التي وجهت إليه : لقد حدث مني ما حدث وأنا من الجاهلين . لقد جهلت مقدار قوتي وما كنت أعلم أن وكزتي ستودي بحياة الرجل الذي وكزته . وكان فراري خوفًا من القصاص . ولكن الله انعم علىّ بالتوبة فالنبوة .

ثم إنك تمن علىّ بالتربية ، ولكنك نسيت أنك استعبدت بني إسرائيل كافة ..

حقًا لقد أعتقت رقبة واحدة ، ولكنك استرققت رقاب اكثر من ستمائة الف عبراني ..

قال العلماء : لقد كان عدد بني إسرائيل في ذلك الوقت ستمائة الف وثلاثين الفًا .

---

(٣٩) الآيات ١٦ : ٢٩ من سورة الشعراء .

وماذا يكون الإحسان إلى واحد بجانب الإساءة إلى هذه الآلاف المؤلفة ؟

ولقد أساء فرعون فى سؤاله عن الله تعالى بقوله : وما رب العالمين ؟

لقد حسب أن إله موسى الذى يدعو إليه من جنس الآلهة التى يعبدها الفراعنة . فكان السؤال بما ، وهى الاستفهام عما لا يعقل .

وكانت إجابة موسى موفقة سديدة ..

أجاب فرعون بذكر الصفات التى ينبغى أن تكون للخالق العظيم الذى يستحق العبادة ويتفرد بالألوهية .

إنه رب السموات والأرض وما بينهما ..

وهو ربكم ورب آبائكم الأولين ..

وهو رب المشرق والمغرب وما بينهما ..

إنه رب كل شىء ، ولا يحق لأحد أن يشرك فى عبادته شيئًا آخر .

وغاظت هذه الإجابة على وضوحها وصدقها فرعون ، وأثارت نقمته ، وأفحمته .

والعاجز حين يفحم يلجأ إلى التهديد ، ويلوح بالانتقام ، إنه لم يجرؤ على المناقشة ، ولم يستطع أن يستمر فى الحوار المنطقى الهادف ، الذى يسعى إلى بيان وجه الحق ، والوصول إلى غاية المعرفة ، ولكنه أطلق تهديده لموسى وتوعده بالسجن ..

آية بينة :

ولم يهتم موسى - عليه السلام - بتهديدات فرعون ، ولكنه لجأ إلى تحديه بالمعجزة التى أعطاها الله إياه .

فقال له : إن معي ما يثبت صدقى ويؤيد نبوّتى ، إن الله زودنى بآية . فهل تؤمن لو أريتك إياها ؟

قال فرعون : فأت بها إن كنت من الصادقين .

وألقى موسى عصاه ، فتحولت العصا إلى ثعبان مبين فاغرٍ فاه ليلتقم كل من يقف أمامه ..

وجرى الناس مذعورين ، وأقبل فرعون الذى تكلف الثبات فوق عرشه . ولكن ما إن رأى الثعبان متجهًا نحوه حتى أخذ الخوف منه كل مأخذ ، ووثب عن سريره ، وقد وضع يده على بطنه ..

واستغاث فرعون بموسى أن يكف أذى الثعبان عنه . واعدًا إياه أن يجيبه إلى طلبه إن كفه عنه .

فأخذ موسى بذنب الثعبان فعاد عصا كما كانت من قبل فى يد موسى .

ثم قال موسى : وإليك أيضًا آية أخرى ، لعلك تؤمن ويرتد إليك صوابك ..

وأدخل موسى يده فى جيبه ، وأخرجها فإذا هى بيضاء للناظرين .. ورأى الناس لها نورًا ساطعًا يعشى الأبصار ويخجل الأقمار ..

ثم ردها موسى إلى جيبه فعادت كما كانت إلى لونها الطبيعى ..

وداخل نفس فرعون روع لم يكن له به عهد ، وأحس فى داخله بأن موسى قد يكون على حق .

إنه لم يجابه من أحد بما جوبه به من موسى ، ولم يأت أحد بمثل ما جاء به ..

وهنا يأتى دور هامان وغيره من بطانة السوء التى تحيط عادة بالملوك وتحف بالرؤساء .

إنهم يزينون لهم الشر ويشيعون الفساد ، وكم قوضوا بسوء مشورتهم للحكام من دول ، وأشعلوا من حروب ، وأشاعوا من فساد ، وضيعوا من حقوق .

وصدق رسول الله – ﷺ – حيث يقول : « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه والمعصوم من عصمه الله » ..

فأقبل هامان هو والملأ من قومه يقولون له : لا يهولنك من أمر موسى شىء ، إنما هو عبد من عبيدك . أما ما رأيته من آياته فلا يعدو أن يكون سحرًا يبطله سحر مثله . فابعث جنودك فى طلب السحرة من كل مكان ، وستعرف أن موسى لن يثبت أمامهم فى الميدان .

واستراح فرعون لهذا القول . وألقى إليه أذنيه .

وبعث فى طلب السحرة البارعين، حتى احتشد له جمع هائل منهم.

السحر فى قوم فرعون:

وكان السحر رائجًا فى قوم فرعون. وهو فن من فنون المصريين القدماء له منهج كمناهج العلوم يدرس فى مدارسهم العالية، مع غيره من العلوم الأخرى.

والمعنى الجامع للسحر هو: أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها، فمتى عرف سبب شيء منها بطل إطلاق اسم السحر عليه(٤٠).

قال العلماء:

منها ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للساحر، المجهولة عند غيره، كاستعمال الزئبق فى العصى والحبال فيخايل لمن رآها أنها تسعى. وهكذا فعل سحرة فرعون مع موسى.

ومنها الشعوذة، وهى خفة اليدين، وهو ما نراه من فعل الحواة الذين يعرضون أعمالهم فى المسارح وأمام أنظار التلاميذ فى المدارس.

ومنها ما يقوم على تأثير الأنفس ذات الخواص القوية فى أصحاب النفوس الضعيفة، وقد يلجأ هؤلاء إلى الاستعانة بالجن والشياطين مصداقًا لقوله -تعالى-: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا﴾(٤١).

وقوله -تعالى-: ﴿ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم﴾(٤٢).

ومن هذا النوع ما يطلق عليه التنويم المغناطيسى..

---

(٤٠) تفسير المنار جـ ٩ ص ٤١.
(٤١) الآية ٦ من سورة الجن.
(٤٢) الآية ١٢٨ من سورة الأنعام.

والذى يهمنا هنا أن نعرف أن السحر صنعة تتلقى بالتعليم والتمرين، فيمكن لأى أحد متى وجد الاستعداد لديه، وتهيأت فرص التعلم أمامه أن يكون ساحرًا، فهو ليس خارقًا للعادة.

وهذا هو الفرق بين السحر والمعجزة. فالمعجزة أمر خارق للعادة حقيقة، وليس فى مقدور اى واحد أن يقوم بها، ولكنها منحة إلهية لمن اصطفاه الله من الأنبياء، يؤيد الله بها نبوته ويصدقه بها فى دعوته ورسالته.

فرعون يستدعى السحرة:

تناجى فرعون مع كبار قومه فى أمر موسى وما جاء به من آيات.

وخرجوا جميعًا بنتيجة لم يختلفوا عليها، وهى أن موسى ساحر، والساحر يجابه بساحر مثله.

والرأى الذى توصلوا إليه بعد المناجاة والتشاور هو أن يرجئوا موسى وأخاه فترة من الزمن تمكنهم من دعوة السحرة من أنحاء القطر.

ووافق موسى. فهو واثق من أمره.

وجاء السحرة من كل مكان، واشترطوا على فرعون شروطهم. لقد أدركوا أن مصير فرعون الآن فى كف القدر، فهو إما أن يصعد أو يهبط، إما أن يبقى أو لا يبقى. فما بالهم لا يساومون؟ وما لهم لا يملون شروطهم كما يريدون؟

قالوا له: ائن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين؟

لقد اشترطوا الأجر لأنهم تعودوا منه السخرة. كان يأمر فيطاع ويتم ما يريده بدون أجر يقدمه أو عوض يدفعه.

فأجاب فرعون على الفور بالموافقة على ما طلبوا، بل وبأكثر مما طلبوا.

قال لهم: نعم وستكونون أيضًا من المقربين.

واتفق السحرة مع موسى على يوم المناظرة..

واختار موسى يوم الزينة ، يوم عيدهم الذى يحتشدون فيه ، وفيه يمرحون ويلعبون .

وحدد ساعة اللقاء ، فى ضحى ذلك اليوم المشهود . وأن يحشر الناس إلى هذا اللقاء ليشهده أكبر عدد ممكن من الناس .. من العاصمة وغيرها من البلاد فى أنحاء القطر .

لقد كان تحدى موسى لهم أكبر ..

ولعل فرعون كان يفضل أن يتم كل شىء فى هدوء وخفاء ودون ضوضاء ، وهو بذلك يخفىَ قلقًا فى أعماقه وأحساسًا بالفشل فى داخله .

ولكن موسى أصر على الإعلان ، وأصر أيضًا على الدعاية لهذا اليوم فهو على بصيرة من ربه ، ويقين بأن الله سيظهر كلمته ويعلى دينه .

حوار بين موسى والسحرة :

وجاء اليوم المشهود ، واجتمع السحرة بقضهم وقضيضهم ، حاملين معهم حبالهم وعصيهم ، والتقوا فى ميدان واسع ..

إنها مظاهرة كبيرة من السحرة .. وأمامها موسى وهارون وحدهما ..

وليس في يد موسى إلا عصاه ..

واقبل موسى على السحرة يعظهم ، ويذكرهم قدرة الله وحوله وقوته ويحذرهم من الافتراء عليه قائلاً لهم : ويلكم لا تفتروا على الله الكذب .

ويبدو أن هذا الكلام كان له أثر فى نفوسهم ، فقد أخذوا يتشاورون فيما بينهم ويتدبرون معنى كلامه .

إنه ليس كلام ساحر ، ولكنه رجل قوى مؤيد بما لا قبل لهم به ، إنه كلام نبى ..

ولكن بريق المادة خطف أبصارهم ، والقرب من فرعون الذى وعدهم به أعمى قلوبهم ، فقالوا : « إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » .

وحذر بعضهم بعضًا من التخاذل والاختلاف ، وأوصوا بعضهم بالائتلاف والاتحاد .. إن الذى سيغلب فى هذه المباراة هو الذى يستحق العلو والفلاح .

لقد ظنوا واهمين أنهم الأعلون ..

ولكن كيف يعلو الباطل مهما جمع له من حشود ، وحشد له من جنود ؟

وقال السحرة لموسى : إما أن تلقى أولاً ، وإما أن نلقى نحن .

فقال لهم موسي : بل ألقوا أنتم أولاً ..

فألقي السحرة ما بأيديهم من حبال وعصى قائلين فى غرور باطل : بعزة فرعون إنا غالبون ..

ومن يكون فرعون ؟ إنه لا يعدو أن يكون عبدًا حقيرًا يدعى ما ليس له .

وتحركت الحبال والعصى التي ألقاها السحرة وسحروا أعين الناس فظنوا أنها تمشي حقيقة .. وتخيل موسى أيضًا أنها تمشى وتتحرك ، فأقلقه ذلك ..

وذهل الناس من منظر هذه الآلاف من الحيات الوهمية التى أخذت تزحف هنا وهناك . لقد سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

وأوحى الله إلي موسى : لا تخف إنك أنت الأعلى .

ومست موسى نفحة هذه الكلمات الربانية ، فاستعاد ثقته بالله كاملة ، وأيقن بالنصر والظفر ..

ولئن كانوا هم قد أقسموا بعزة فرعون الموهومة على أنهم غالبون . فإن موسى قد استعان بحول الله وقوته على إبطال هذا الوهم الذى صنعوه ، وإزهاق هذا الباطل الذى زيفوه .

﴿ قال موسى : ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾(٤٣).

وألقي موسى عصاه مستعينًا بالله .. فإذا بالعصا تتحول إلى ثعبان مبين ، أقبل على هذه الحيات التى صنعها السحرة بإفكهم يلتقمها ، واحدة تلو

---

(٤٣) الآيتان ٨١ ، ٨٢ من سورة يونس.

الأخرى فى سرعة خاطفة، ويبتلعها فى قوة بالغة، وما هى إلا لحظة حتى خلا الميدان أمام هذا الثعبان، ولم يبق أثر لسحر السحرة.

فذهل الناس.. وكان أول من آمن منهم هؤلاء السحرة أنفسهم..

لقد أدركوا أن ما فعله موسى ليس سحرًا.. بل هو معجزة حقيقية أيده بها الله الذى أرسله.. فهو إذن نبى حقًا.. وخروا ساجدين لله تعالى قائلين: آمنا برب العالمين.

لقد افتضح السحر وذهب الباطل وظهرت صولة الحق، وأصيب فرعون وملؤه بخيبة أمل عظيمة.. خصوصًا بعد أن قال السحرة على ملأ الناس: آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون.

وعلى عادة صغار النفوس من الجبابرة فى أنهم يصبون نقمتهم على الضعاف من الناس، لا على أصحاب الشوكة والقوة، أقبل فرعون على هؤلاء السحرة يصب عليهم جمام غضبه ويمطرهم بوابل من التهديد والتنكيل.

«وكذلك يفعل كل متسلط وكل رئيس مستبد فى شعب يخاف أن ينتقض عليه باجتماع كلمته على زعيم آخر بدعوة دينية أو سياسية، وما من شعب عرف نفسه وحقوقه، وتعارف بعض أفراده وتعاونوا علي صدق هذه الحقوق إلا وتعذر استبداد الأفراد فيهم وإن كانوا ملوكًا جبارين»(٤٤).

لقد اتهم فرعون السحرة بالفشل، ثم عاد واتهمهم بالممالأة لموسى، ثم عاد يهددهم ولم ينس نعرته الكاذبة وعنجهيته الظالمة فقال لهم:

أتؤمنون به قبل أن آذن لكم؟

عجبًا، وهل يحتاج الإيمان إلى استئذان؟

هل يحتاج الإيمان بالله رب العالمين إلى إذن من مخلوق ضعيف ثبت عجزه على أعين الملأ؟

ولكنه يحاول الاستنجاد بعنف كاذب.. وجبروت ذاهب.

---

(٤٤) تفسير المنار جـ ٩ ص ٦٣.

إنه يريد أن يحافظ على بقية من كبرياء موهومة لن تلبث أن تذهب أدراج الرياح.

ثم أتبع هذا التوبيخ بتهمة أسندها إلى هؤلاء السحرة:

إن هو إلا مكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها.. إن موسى كبيركم الذى علمكم السحر..

هذه تهم ألقاها جزافًا يحاول بها أن يستبقي هيبته الجريحة الضائعة..

ثم أرغى وأزبد وهدد وتوعد:

لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم فى جذوع النخل..

لقد كان هذا التهديد مظهر خوف قابع فى نفس فرعون. ومم يخاف؟ إنه يخاف من صولة الإيمان بالله. لقد استيقظ الشعب على حقيقة واقعة سوف تذهب بفرعون إلى الأبد.

إن إيمان الشعب بالله سوف ينزله عن عرش ربوبيته الزائف، ويجعله فردًا عاديًا يدين بما يدين به الناس.

وهذا هو ما سبق أن قاله لموسى وهارون ذات يوم: أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون.

ولكن هذا التهديد لم يجد شيئًا أمام قوة الإيمان التى تغلغلت فى نفوس السحرة، والإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب هان في نظر أصحابه كل شيء، لا تفرحهم الدنيا بحذافيرها، ولا ترهبهم أى قوة مهما بلغت واشتدت..

قال السحرة لفرعون: ﴿لا ضير. إنا إلى ربنا منقلبون. إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾[٤٥].

---

(٤٥) الآيتان: ٥٠ : ٥١ من سورة الشعراء.

لن نبالي بتهديدك ووعيدك . ولن نؤثر التقرب إليك على التقرب إلى الله . ولن نفضل جوارك على جوار الله و « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا » ..

إننا لن نبالي بما تقول ، فافعل ما شئت واحكم بما تريد .. فلن يتعدى ما تتوعدنا به الحياة الدنيا ، وأمرها قصير . ومتاعها قليل .. أما وعد الله – تعالى – فخالد ، ووعيده كذلك .

انظر إلى الإيمان كيف يبدل أطوار النفوس في لمحة عين .. ؟

فبينما كان هؤلاء السحرة قمة فى الكفر والضلال إذا بهم قمة فى الإيمان واليقين .. لقد كانوا بالأمس عدة للكافر ونصرة للظالم فإذا بهم اليوم عدة للمؤمن ونصرة للحق .

لقد أمسى هؤلاء السحرة كفرة وأصبحوا مؤمنين ..

وأراد فرعون أن يجعل من هؤلاء السحرة نكالاً لغيرهم فاستعمل معهم أقصى أنواع العقاب .

قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ولم يقتلهم بادىء ذى بدء ، فالقتل فيه راحة للمقتول . ولم يكتف بذلك ، بل أتبع القطع بالصلب ..

ولم يكن صلبًا عاديًا ولكنه صلب عنيف بالغ فيه بإيثاق المصلوب فى جذوع النخل حتى جعله كأنه قطعة منها لا ينفصل عنها .

وكل ذلك لم يجد فرعون شيئًا أمام إيمان السحرة ويقينهم ، ولم يثن السحرة عن إيمانهم الذى ضربوا به المثل الأعلى فى الاستسلام لقضاء الله ، والثقة بما وعدهم به من نعيم مقيم فى جنة عرضها السموات والأرض .

إنهم لم يزيدوا على أن قالوا هذه العبارة التى تشهد بقوة الإيمان وعمق اليقين : ربنا افرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين .

وهى عبارة ما قالها أحد فى شدة إلا هون الله عليه شدته ، وأعانه على اجتياز المحنة بنجاح وظفر ، حتى تصبح المحنة منحة والنقمة نعمة . ولنقرأ الآيات الكريمة الواردة فى هذا المعنى :

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ

مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا
أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ
قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا
يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ
السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ
قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾
وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ »(٤٦)

فرعون ينكل بالإسرائيليين :

لقد هز إيمان السحرة أركان المملكة ، وزلزل عرش فرعون ، وأذهل هيئة المنتفعين حول فرعون ، وخشوا عاقبة الأمر . إن سلطانهم يتهاوى الآن ، وهذه السلطة التى يقبضون عليها بأيديهم توشك أن تتلاشى وتضيع ..

لقد هان سلطان فرعون فى نفوس الرعية ، ولسلطان الأعوان أهون وأذل .

فماذا يصنع هؤلاء الأعوان ليحتفظوا بما فى أيديهم من منافع ؟

اقبلوا على فرعون يزينون له النقمة من موسى وقومه ..

قالوا له : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ؟

كيف يصبح هؤلاء القوم المفسدون أحرارًا آمنين يتمكنون من إضلال الشعب وإغوائه فيترك عبادتك وعبادة آلهتك ؟

لقد كان الشعب يعبد فرعون ، وفرعون ظل لإله آخر هو الشمس التى كانوا يطلقون عليها «رع» وفرعون نفسه يقول إنه سليل «رع» وابنها المعبود باسمها .

---

(٤٦) الآيات ١٠٧ : ١٢٦ من سورة الأعراف .

كيف يزلزل موسى هذه العقيدة فيتهاوى الحكم بهذه الصورة المزرية ؟

وأثارت هذه الأقوال حنق فرعونِ على موسى ، فعزم على البطش به وبقومه .

قال فرعون : لابد من عقاب هؤلاء القوم عقابًا شديدًا ، لابد من قتل أولادهم الذكور دون الإناث فإنهم بذلك يظلون مقهورين حتى ينقرض نسلهم تمامًا ، فإن بنى إسرائيل لا يزوجون غير الإسرائيلى .

ولم يكتف بذلك بل لوح بقتل موسى نفسه قائلاً :

﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾[٤٧].

ولجأ موسى إلى ربه يستنصره على هؤلاء الجبابرة الذين لا يستجيبون لدعوة الحق ، ولا يقبلون الانقياد للصواب .

والمظلوم المؤمن لا يجد له نصيرًا إلا الله ، فهو وحده القادر على رد كيد الكائدين إلى نحورهم ، وإبطال عسفهم وجورهم ﴿وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾[٤٨].

من فرعون ؟

يذكر صاحب تفسير المنار أن المرجع عند المتأخرين من المؤرخين الواقفين على حقائق التاريخ أن فرعون موسى هو الملك «منفتاح» ، وكان يلقب بسليل الإله «رع» وقد جاء فى آخر الأثر المصرى الوحيد الذى ذكر فيه بنو إسرائيل (وهو معروف برقم ٣٤٠٢٥ المحفوظ فى متحف مصر) أن مصر هى السليلة الوحيدة للمعبود «رع» منذ وجود الآلهة ، وأن «منفتاح» سليله أيضًا ، وهو الجالس على سدة المعبود «شو» ، وأن الإله «رع» التفت إلى مصر ، فولد «منفتاح» ملك مصر .. فخضع له العبرانيون والحيثيون والكنعانيون وعسقلان وجزال وينعمام»..

---

(٤٧) الآية ٢٦ من سورة غافر . (٤٨) الآية ٢٧ من سورة غافر .

وفيه: «وانفك الإسرائيليون فلا بزر لهم، واصبحت خلية مصر، والأراضي كلها مضمومة فى حفظه، وكل اسم وعفه (أى أضعفه وأذله) الصيدن (وهو لقب منفتاح) سليل الشمس معطى المعيشة كل نهار مثل الشمس»[٤٩].

وهذا النص المترجم من النصوص القديمة الفرعونية يشير إلى ما كان يدعيه منفتاح ويزعمه من أنه واهب الحياة ومعطى المعيشة، وهذا هو الذى مهد له فيما بعد ادعاء الربوبية.

كما يشير إلى ما فعله مع بنى إسرائيل من قطع نسلهم، وهو المعنى الذى يفهم من قولهم (لا بزر لهم) وهو بمعنى القول: قطع دابرهم.

ويؤيد هذا الرأى الشيخ عبد الوهاب النجار، ولكنه يضيف شيئًا آخر تطمئن إليه النفس. وهو:

أن منفتاح هذا هو فرعون الخروج، أى الذى أرسل إليه موسى، أما فرعون الذى ولد موسى فى عصره وربى فى قصره فهو أبو منفتاح .. وهو «رعمسيس»..

وكان منفتاح هو ولى العهد لأبيه حين التقط موسى، وربى في القصر ولذلك قال له: «ألم نربك فينا وليدًا ولثبت فينا من عمرك سنين».

وكان موت رعمسيس هو الذى أثار فى نفس موسى الرجوع من مدين لأنه هو ولى الدم للقتيل الذى قتل، فلم يعد فى مصر من يطالبه بالدم حين يعود، وهذا ما يفهم من التوراة حين قالت: وفى هذه الأثناء - أى أثناء إقامة موسى بمدين - كان الملك الفرعون قد مات.

وكان رعمسيس ومنفتاح فى الأسرة التاسعة عشرة[٥٠].

موسى يطمئن قومه ويبصرهم:

وحاول موسى أن يطمئن الإسرائيليين ويبث فى نفوسهم الثقة بوعد الله، ولكن إيمانهم بموسى لم يكن على المستوى المطلوب الذى يريده موسى منهم،

---

(٤٩) تفسير المنار جـ ٩ ص ٧٠.

(٥٠) قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص ٢٣٩.

لقد كان إيمان السحرة قويًا جعلهم لا يرهبون تهديد فرعون وقهره. ولكن بني إسرائيل –وقد أرسل موسى من أجل إنقاذهم– كانوا مترددين في الإيمان به والوقوف معه.

وأحسب أن انضمامهم له لم يكن إلا بدافع العصبية فقط، لا بدافع الإيمان الذي يهون بجانبه كل شيء.

﴿قال موسى لقومه: استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾[٥١].

ولكن هذا الكلام يصلح لقوم اشتروا آخرتهم بدنياهم، واشتروا جنة عرضها السموات والأرض بأنفسهم.

أما هؤلاء فكان ردهم على موسى ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾[٥٢].

ومعنى ذلك أنهم لم يستفيدوا من رسالته شيئًا. إن منطق النفعية ماثل في أذهانهم، وكانوا يطلبون ثمنًا سريعًا للإيمان برب موسى، أو على الأقل كانوا ينتظرون أن يرتفع الظلم عنهم.

لقد غاب عن أذهانهم أن الإيمان امتحان، ومن آمن بالله فكأنه قال له: امتحني.

والحق –سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[٥٣].

واشتد الأذى بقوم موسى.

وارتفعت مع الأذى أصواتهم بالشكوى لموسى.

---

(٥١) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف. (٥٢) الآية ١٢٩ من سورة الأعراف.

(٥٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

ولم يملك موسى إلا أن يهدىء من روعهم ويبث الاطمئنان فى نفوسهم ، ولكن بدون جدوى .

قال لهم : ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون﴾[٥٤].

إنه يبعث فيهم روح الأمل ، ويزرع فى قلوبهم الثقة ، ويدفع فى نفوسهم التفاؤل بالمستقبل ، فما بعد الضيق إلا الفرج ، وما بعد العسر إلا اليسر ، ولكن لا سميع ولا مجيب .

والعهد القديم يصور موسى بأنه يئس من قومه ، ولجأ إلى ربه ساخطًا عليهم .

فهو يقول مثلاً : «رجع موسى إلى الرب وقال : يارب لماذا ابتليتنى بهذا الشعب ؟ لماذا بعثتنى ؟ .. فإنى منذ دخلت على فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هؤلاء الشعب وأنت لم تنقذ شعبك »[٥٥].

وأيًا ما كان فقد اشتد ضيق بنى إسرائيل لوقوع الأذى عليهم ، ولم ينج موسى مع ذلك من الكيد له والضيق به ، وتهديده بالقتل .

مؤمن آل فرعون :

وعندما يشتد الظلام يظهر بصيص ضوء يبعث أشعة أمل . ويذكر بأن الله - جلت قدرته - لا يتخلى عن عباده المخلصين .

فقد أصبح أمر موسى شغل فرعون الشاغل هو والمحيطين به من قومه والمقربين إليه من أعوانه .

وما زال فرعون يحاول الاستنجاد بكبريائه المزعومة ، يباهى بها بين المحيطين به ، فمن آن لآخر يذكرهم بقوته وسلطانه .

كأن يقول لهم ما ذكره القرآن الكريم عنه : ﴿أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى﴾ ؟[٥٦].

---

(٥٥) سفر الخروج . الإصحاح الخامس . (٥٦) الآية ٥١ من سورة الزخرف .

والبلغاء يعرفون أن هذا أسلوب استفهامى الغرض منه التقرير . فكأنه يريد أن يقررهم بهذه الحقيقة .

وهو لم يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب إلا لأنه أحس أن هناك شكًا يراود نفوسهم حول هذه الحقيقة .

أو لعله من منطق الاستعلاء استكثر أن يدعوه هذا الشخص الحقير – فى نظره – إلى دين غير ما يدين به ، وهو صاحب هذا الملك العريض والجاه الواسع والثروة الطائلة .

إن مصر فى ذلك الوقت قصبة الدنيا وحاضرة العالم ورمز الحضارة ومركزها الحضارى . فنيلها يفيض بالخير وأرضها تجود بالعطاء ، وجوها عطر ، وثمارها خير ثمار الدنيا ، ورزقها وفير وخيرها كثير ، وعيشها نضير ، وماؤها نمير ..

فمن حق ملكها أن يكون سيد ملوك العالم . فكيف يكون تابعًا لصعلوك من صعاليك بنى إسرائيل ، يلفت نظره إلى أن هناك إلهًا غيره ؟ وهل يملك الإله أكثر مما يملكه هو ؟

وأتبع فرعون ذلك بالسخرية من موسى الذى يزعم أنه رسول واصفًا إياه بما يعده من خلال وجهة نظره عيبًا ، ويدخل نفسه فى مقارنة بينه وبين موسى .. فيقول : ألست أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين .

لقد وصف موسى بصفتين إحداهما أنه من عامة الناس المضطهدين . أى من الطبقة السفلى التى يستعبدها فرعون وقومه ، وأنه لا يستطيع الإبانة عما فى نفسه .

لقد قاس فرعون الناس بمنظاره هو ، منظار التفاخر الكاذب والإدعاء الباطل والتعالى والغرور .

فمقياس العظمة عند هؤلاء الانتساب إلى الأسر العريقة ، والمغالاة فى الزينة والرياش وارتداء أفخر الثياب .. وقد كان موسى لا يولى أهمية لكل ذلك .

إن ملابسه متواضعة جدًا ، رداء من صوف ، وقلنسوة من صوف ، وسراويل من صوف ، لباس العامة والقانعين الراضين الذين يرتفعون بأنفسهم عن

زخارف هذه الدنيا طمعًا في المتاع الباقي عند الله، إنهم يؤثرون الآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

أما فرعون فقومه يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.. والآخرة خير وأبقى.

وكيف يُذهب موسى نصيبه عند الله وما ادخره له من طيبات لقاء زخرف زائل وعرض فان؟

ولقد أتبع فرعون سخريته من موسى بقوله بقوله الذي يظهر به مقياسه فى التعالى على الناس: ﴿فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين﴾(٥٧)، ليظاهروه في دعوته ويؤيدوه فيما يقوله، ويكونوا من حوله حشمًا وحرسًا، حتى يكون مناظرًا لي في حشمي وحرسي؟؟

وكان موسى من بني إسرائيل، ونسبه عند الله عريق، فهو من سلالة أنبياء، ولكن هذا النسب عند فرعون لا يساوى شيئًا، لأن الإسرائيليين أصبحوا أذلاء محتقرين مسخرين.

ولو فقه فرعون التاريخ، ونظر إلى الوراء قليلاً، لأدرك أن جد هذا الذى يسخر منه هو الذى أنجب يوسف الصديق الذى أنقذ مصر من كارثة محققة، وكان يعتلى فيها عرشًا عظيمًا، وأتت إليه الناس من شتى الأقطار خاضعة تطلب الميرة والقوت، فيكرمها ويردها غانمة سالمة شاكرة.

ولم يكن فرعون يهدف من وراء سخريته بموسى إلا مزيدًا من التنكيل بالإسرائيليين والبطش بهم.

وود لو أن يده الآن فى عنق موسى تطبق عليه فيعصرها عصرًا، ويخلص مصر من دعوته..

ووسط هذا الجو القاتم يظهر شعاع النور ويقوم رجل من آل فرعون أنفسهم يصحح الأوضاع فى نظر هؤلاء القوم المعاندين، ويطلق صيحة يحاول أن يرد بها العقول إلى الرءوس.

---

(٥٧) الآية ٥٣ من سورة الزخرف.

كان هذا الرجل هو «حزقيل» في رواية بعض العلماء، أو «شمعان» في رواية أخرى[٥٨].

ويقال: إنه هو الذي حذر موسى سابقًا حين قتل القبطي. ونصحه بالخروج من مصر خوفًا من القتل فخرج إلى مدين.

وهو صِدِّيق، بناء على الأثر الذي ذكره القرطبي وقال فيه: الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل يسن، ومؤمن آل فرعون الذي قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم[٥٩].

ويصدقه ما حدث من أبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة أبي طالب حين تظاهر القرشيون ضد النبي - ﷺ - وآذوه فدافع عنه أبو بكر دفاعًا مجيدًا، وهو يقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وأصيب أبو بكر إصابات بالغة وهو يدافع عن النبي - ﷺ -.

لقد هيأ الله مؤمن آل فرعون ليقول كلمة حق عند سلطان جائر، وهذا هو أفضل الجهاد، ونافح هذا الرجل عن موسى - عليه السلام - وناقش قومه بالمنطق.

قال لهم: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ بهذا الأسلوب الانكاري التعجبي.

وهذا قول حق. فما ذنب موسى؟ هل ذنبه أنه جاء ليقول: إن ربي الله وليس فرعون؟

إنه لم يرفع في وجهكم سيفًا .. ولم يقوض لكم حكما، ولم يعلن ضدكم ثورة.

إنه لم يزد على أن قال كلامًا حقًا. فهل تقابلون القول بالقتل؟

---

(٥٨) تفسير القرطبي - سورة غافر - ص ٥٧٥٠.

(٥٩) الحديث ذكره السيوطي في جمع الجوامع برقم ٣٥ / ١١٠٨٣ بلفظ: «الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يسن، وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلى بن ابي طالب وهو افضلهم» وقال: اخرجه ابو نعيم في المعرفة عن ابي ليلى، وفيه عمرو بن جميع متهم بالوضع، واخرجه ابن النجار عن ابن عباس، وفيه محفوظ بن ابي توبة ضعيف، ولكن ابن عساكر رمز لحسنه راجع جمع الجوامع جـ ٢ ص ٢٧٣ ط. مجمع البحوث.

ثم إنه جاءكم بأدلة تثبت صدقه ، وهذه الأدلة ظهرت في العصا التى لقفت ما أتى به السحرة ، وفى اليد التى أعشى نورها الأبصار ..

وصاحبت مجيئه آيات وخوارق كادت تهلككم لولا أن ردها الله عنكم ببركة دعائه .. وهذه الآيات تظهر فيما يأتى :

الآيات التسع :

حين اشتد العسف ببني إسرائيل لجأ موسى إلى الله –سبحانه وتعالى– شاكيًا ما لقيه قومه من أذى ، وما لقيه من قومه من اعتراض . فأيده الله بآيات بينات سوى الآيتين الأوليين وهما العصا واليد .

فقد أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات وألوان أخرى من العذاب منها :

الطوفان . فقد أرسل الله على قوم فرعون أمطارًا مغرقة وسيولاً جارفة ، وفاض النيل زيادة عالية ، فأتلفت الزروع وأهلكت الثمار ..

وقال بعضهم : إن المقصود بالطوفان هنا كثرة الموت في آل فرعون بالطاعون الجارف ..

ولعل التفسير المتبادر إلى الذهن وهو الماء الكثير الذى جاء من مصادر متعددة وترتب عليه هلاك الزرع والضرع هو الأولى بالمعنى والأقرب إلى الفهم .

ولجأ فرعون إلى موسى طالبًا منه أن يدعو ربه ليكشف عنهم هذا العذاب ، ودعا موسى ربه ، وانكشف العذاب . ولم يؤمن فرعون كما وعد .

فابتلاهم الله بالجراد الذى قضى على البقية الباقية من الزرع الذى لم يلحقه الدمار بالطوفان ..

ولجأ فرعون أيضًا إلى موسى ، ودعا موسى ربه عز وجل . فانكشف الجراء وهلك ، ومع ذلك لم يؤمن فرعون أيضًا

فأرسل الله عليهم القُمَّل ، وهو غير القمْل المعروف ..

قيل : هو السوس ، وقيل هو الجراد الصغير ، الذى لا أجنحة له ، وقيل : هو القراد ، وقيل : هو البعوض والذُّبَّان .

روى الدميرى أن موسى – عليه السلام – مشى بعصاه إلى كثيب أعفر مهيل بقرية من قرى مصر تدعى «عين شمس» فضربه بعصاه، فانتشر كله قملاً فى مصر، فتتبع ما بقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض..

فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم منه، أخذ بشعورهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزم عيونهم كأنه الجدرى..

فصاحوا إلى موسى: إنا نتوب فادع ربك يكشف عنا العذاب، فدعا ربه فكشفه عنهم بعد ما أقام سبعة أيام من السبت إلى السبت(٦٠). ومع ذلك لم يؤمنوا.

ثم بعث الله عليهم الضفادع التى ملأت بيوتهم وأفنيتهم، وخالطتهم فى حياتهم، وشاركتهم فى فرشهم وأطعمتهم وآنيتهم.

ولقوا منها أذى شديدًا ولم يجدوا مكانًا يستريحون فيه، ولا طعامًا يأكلونه ولا شرابًا يتذوقونه خاليًا من الضفادع.

وصرخوا إلى موسى، ولجأ موسى إلى ربه ودعاه فكشف عنهم هذا البلاء بعد ما أقام عليهم أسبوعًا.. ومع ذلك لم يؤمنوا.

ومكثوا شهرًا فى عافية ثم أرسل الله عليهم الدم، قيل: هو الرعاف، وقيل: هو الدم العادى سلطه الله على القبط خاصة، فلا يغرفون ماء من نهر أو بئر إلا وجدوه دمًا عبيطًا أحمر..

وكان فرعون يجمع القبطى والإسرائيلى على الإناء الواحد فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء، وما يلى القبطى دمًا..

ولجأوا إلى موسى، ودعا موسى ربه فكشف عنهم ما هم فيه، ومع ذلك لم يؤمنوا.

آيات متوالية من العذاب، والعذاب هو الرجز الذى أشار الله – سبحانه – إليه بقوله: ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾(٦١).

---

(٦٠) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٤٥٨. (٦١) الآيتان ١٣٤، ١٣٥ من سورة الأعراف.

كانت الآية تأتيهم فتظل أسبوعًا ، ثم تنكشف بدعوة موسى ، ثم يمكثون شهرًا في عافية ، وتأتيهم آية أخرى ..

ومع ذلك فما آمنوا وما صدقوا .. وزعموا أن موسى ساحر .. وقالوا له على ما أخبر به القرآن الكريم : ﴿وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾(٦٢).

ولقد أخبر الله عن ذلك كله .. ولو علم الله فيهم خيرًا لهداهم ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ..

ومن العجيب أنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة وجاءهم الرخاء بعد البلاء ظنوا أن ذلك حق مكتسب لهم ، وأنهم نالوا ذلك الخير بجدارة . فإذا ما أصابهم البلاء بعد ذلك قالوا : ما أصابنا ذلك إلا بسبب موسى ، وتشاءموا منه وأصروا على كفرهم وعنادهم .. فلا النعمة أرشدتهم ولا النقمة نبهتهم .. وكانوا مع ذلك يضطرون إلى الالتجاء إلى موسى كي يدعو ربه ليدفع عنهم ، فانظر إلى حال هؤلاء القوم ، وتذبذبهم بين الإيمان لحظة حاجتهم إلى موسى وبين الكفر لحظة استغنائهم عنه . وهذه هي الحماقة الكبرى .

عودة إلى مؤمن آل فرعون :

ذكّرهم مؤمن آل فرعون بهذه الآيات التي جاء بها موسى – عليه السلام – وقال لهم في منطق معقول :

ماذا تنقمون من موسى بعد أن جاءكم بهذه البينات من ربكم ؟

إن كان كاذبًا فلن يضيركم شيئًا ، فكذبه على نفسه ويحيق به وحده . ولكنه إن كان صادقًا عاد ذلك عليكم بالخير إن آمنتم به . وإلا حلت بكم النقمة التي توعدكم بها .. وقد رأيتم بأعينكم مدى العذاب الذي سلط عليكم ..

وقال لهم :

---

(٦٢) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الزخرف .

أنتم الآن ملوك ، ولكم الملك ظاهرًا فى الأرض ، وقد اتسعت مملكتكم شرقًا وغربًا . ولكن ذلك لن يغنى عنكم شيئًا إذا جاء بأس الله ..

ولكن هذا الكلام لم يعجب فرعون . وكيف يعجبه ؟ إن هذا الرجل يريد منه أن يتنازل عن كبريائه فيؤمن بموسى ؟؟

والتفت إلى « حزقيل » فى جبروت ظاهر واستبداد بالرأى ، وخاطب الجميع ولكنه عنى حزقيل فى المقام الأول : ليس هناك رأى صائب إلا ما أراه ، وليست هناك دعوة راشدة إلا ما أدعو إليه ..

فاتركوا ما يزعمه حزقيل وما يريده من مهادنة موسى والتفكير فيما يدعو إليه . ولكن الرجل المؤمن استمر فى نصحه قائلاً :

ليست هناك أمة تكبر على عذاب الله ، وهناك أمم كبيرة بادت وحق عليها القول فدمرت تدميرًا .. وأنا أنكركم ما أصاب المكذبين بالأنبياء من قبلكم .

ولعله ألمح إلى ما أصاب قوم نوح الذين أغرقهم الطوفان ، وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب ، هؤلاء الذين خرجوا على أنبيائهم ولم يؤمنوا بدعوتهم فكانت عاقبتهم الهلاك والضياع .

وأخذ يحذرهم أيضًا من يوم القيامة ، والفراعنة يؤمنون بالبعث ، كما يحكى عنهم وما بنوا الأهرامات إلا استعدادًا لذلك اليوم ، لقد أرادوا أن يحفظوا أجسادهم حتى ترد سليمة يوم القيامة ..

وأتى لهم بشاهد من بنى وطنهم فقال لهم : ألم يأت يوسف من قبل إلى آبائكم وأجدادكم ؟ وقد شكّوا فيما جاء به مع أنه عين الصواب ومعدن الحق ، وكذبوا به فضلوا .. قال تعالى :

﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾(٦٣).

فماذا كان رد فرعون على هذا النصح الكريم والمنطق السليم ؟

---

(٦٣) الآية ٣٤ من سورة غافر .

كان رده ردًا يملؤه الجفاء والكفر ، لم يلتفت إلى هذا الناصح الحكيم ، ولكنه أعرض عنه جملة وتفصيلاً ، وازدراه . ونظر إلى هامان قائلاً له : ليس هناك إله غيرى .. يا هامان ابن لى صرحًا لعلى أطلع إلى إله موسى .. وما أظن أن هناك إلهًا سواى . لقد كذب موسى علينا . وما أظنه صادقًا فيما يزعمه ..

ولم يتوان هامان فى تنفيذ أمر سيده ومولاه ..

فشيد قصرًا مهولاً عاليًا ، لم ير مكان أعلى منه . اتخذه من الآجرّ المحمى كما أخبر الله بذلك ﴿فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحًا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين﴾(٦٤).

وقال أهل الكتاب : لقد سخّر فرعون بنى إسرائيل فى بناء هذا الصرح تسخيرًا شديدًا ، وأذاقهم العذاب فى جمع ترابه وتبنه ومائه ، وكان الذى يتوانى فى عمله يضرب ويؤذى(٦٥).

ولم ييأس الرجل بعد من هداية قومه .. فقال لفرعون ومن حوله من الملأ : يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد .. إن هذه الدنيا لا تغنى عنكم شيئًا . بل هناك حياة أفضل وأبقى ، يجزى فيها المحسن أضعاف ما قدم ، وإننى أنصحكم إلى مافيه نجاتكم وسعادتكم ، وما يدعو إليه فرعون ضلال عاقبته الدمار والبوار ..

وكأنه أحس منهم تآمرًا عليه وتحفزًا للبطش به ، ففوض فيهم أمره إلى الله فأنجاه من كيدهم ومكرهم ..

وفى الآيات التالية عرض بليغ لهذا الحوار الدائر بين مؤمن آل فرعون وقومه :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ

(٦٤) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٦٥) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٣٣٩ .

ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ
ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ
تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ
يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ
مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ
إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ
عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾
وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ
لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ
وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ
سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾) (٦٦)

لقد أظهر الحوار إيمان هذا الرجل وانحيازه الكامل إلى موسى ، وأعلنها صريحة بأن ما يدعو إليه موسى هو الحق ، وأن ما يدعو إليه فرعون هو الضلال .. فتآمر عليه قومه ، وكادوا له ، وعزموا على التخلص منه .. ولكن الله نجاه من كيدهم ومكرهم ..

(٦٦) الآيات ٢٨ : ٤٦ من سورة غافر.

قال بعض الصالحين: عجبت لمن يمكر به ولم يقل: وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد.. والله يقول فى عقبها: «فوقاه الله سيئات ما مكروا» وعجبت لمن وقع فى غم وهم ولم يقل: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. والله يقول فى عقبها: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾[٦٧].

وعجبت لمن جمع الناس له جموعهم ولم يقل: حسبنا الله ونعم الوكيل والله يقول في عقبها: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾[٦٨]..

لقد جعل الله في القرآن دواء لكل داء.. ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا﴾[٦٩].

نهاية طاغية:

واشتد إلحاح موسى على فرعون - بعد أن يئس من إيمانه - أن يترك بنى إسرائيل يرحلون عن هذه الأرض التى كثر إيذاؤهم فيها.

ولم يجد فرعون بدًا من الموافقة على ذلك بعد أن ضاق ذرعًا به، وبآيات العذاب التى جاءت تترى إليه وإلى قومه..

ونادى موسى فى قومه بالرحيل..

واجتمع الملأ من بنى إسرائيل سراعًا وكانوا قد ضاقوا ذرعًا بحياة السخرة والعذاب. وساروا خلف موسى فى اتجاه الشرق..

ولكن فرعون الذى كان قد أذن لموسى فى أن يأخذ بنى إسرائيل ويخرج، لم يلبث أن ندم على ذلك، فتبعهم بجنوده..

ولماذا تبعهم؟ قد يكون تبعهم كبرًا وعلوًا، لقد أقسم - قبل ذلك - أن يجعلهم عبرة ونكالاً، وخروجهم بهذه الصورة يوحى بأنه نكث فى يمينه،

---

(٦٧) الآية ٨٨ من سورة الأنبياء. (٦٨) الآية ١٧٤ من سورة آل عمران.
(٦٩) الآية ٨٢ من سورة الإسراء.

ولم يكن بارًا فى قسمه ، وهذا لا يتفق مع دعواه بأنه الرب الأعلى الذى إذا قال فعل .

أو تبعهم لأنه خشى أن يعودوا بعد خروجهم وقد ازدادوا قوة واكتسبوا فى الحروب خبرة فيقضون على ملكه وينتقمون منه شر انتقام . فهو يريد باتباعه لهم أن يقضى عليهم الآن قبل أن يقضوا عليه غدًا .

أو تبعهم لأنه كبر عليه أن يخرجوا دون أن يحصلوا منه على إذن خاص . لقد أذن لموسى إذنًا عامًا ، ولم يحدد له وقت الخروج ، فخروجهم بهذه الصورة فيه مجافاة لطاعة فرعون ينبغى أن يؤاخذوا عليها ويعاقبوا بسببها .

أو تبعهم لأنه أراد أن يأخذ ما معهم من حلى وغير ذلك مما خف حمله وغلا ثمنه وكان يرى أن هذه الأشياء هى ملك للمصريين وليس لبنى إسرائيل حق فيها .

إن كل ذلك جائز . ولكن الله جلت حكمته كان قد سبق فى علمه أن يهلك فرعون وقومه بصورة تكون عبرة لمن تسول له نفسه أن يتجرأ على مقام الألوهية .

لقد استكبر فرعون فى الأرض استكبارًا شديدًا ، وعتا عتوًا كبيرًا ، ولم يقف عند ذلك الحد ، بل فعل ما هو أكثر من ذلك كما قال عز وجل : ﴿فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى﴾(٧٠) .

تبًا لك يا فرعون ، أبلغت بك الجرأة أن تكابر فتدعى لنفسك هذا المقام ؟ والمولى – عز وجل – يقول فى حديث قدسى : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى من نازعنى واحدًا منهما قذفته فى النار ولا أبالى »(٧١) .

وما زال موسى وقومه جادين فى السير حتى وصلوا مع شروق الشمس إلى ساحل بحر القلزم – البحر الأحمر – .

---

(٧٠) الآيات ٢٢ : ٢٤ من سورة النازعات .

(٧١) أخرجه أبو داود فى سننه – باب ما جاء فى الكبر جـ ٤ ص ٥٠ . وفى كتاب الأحاديث القدسية حديث رقم ٢٧١ ص ٢٧٠ . ط . دار الفكر العربى .

ونظر الإسرائيليون فإذا البحر أمامهم وفرعون فى جنود لا قبل لهم بها وراءهم . فقالوا لموسى : إنا لمدركون .

ومعنى هذه العبارة بلغة الواقع : إنا لهالكون ..

ولك أن تتصور مدى الجزع الذى أصاب الإسرائيليين ، ولكن موسى على العكس منهم كان رابط الجأش مطمئن الفؤاد واثقًا فى معونة الله له ..

لقد وعده الله بالنجاة ، وعلمه طريق الخلاص ..

ولذلك رد على قومه فى إيمان : كلا إن معى ربى سيهدين ..

وكان معه ربه حقًا ..

أمره أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه ، فانفلق البحر اثنى عشر طريقًا بعدد أسباط بنى إسرائيل . كل سبط عبر من طريق ..

وجاء فرعون ومن معه .. ووجدوا الطرق أمامهم فى البحر ممهدة فقال فرعون –فيما يحكيه الدميرى – : انظروا إلى البحر كيف انفلق من هيبتى حتى أدرك عبيدى الذين أبقوا ؟

وأمر جنوده بالعبور خلفهم قائلاً : ادخلوا وراءهم البحر ..

فهاب قومه أن يدخلوا . وقالوا له : إن كنت ربًا حقًا فادخل البحر أمامنا كما دخل موسى أمام قومه ..

وتردد فرعون فى اقتحام البحر .. كان يريد أن يعبر الجنود ويرقب عبورهم وهو على الشاطئ ..

وكان فرعون على حصان أدهم ، ولم يكن فى خيل جنوده فرس أنثى . فجاء جبريل – عليه السلام – على فرس أنثى وديق – تشتهى الفحل – فتقدم وخاض البحر ، فلما شم حصان فرعون ريح الفرس اقتحم البحر فى أثرها ، ولم يملك فرعون من أمره شيئًا ، وهو لايرى فرس جبريل ، فاقتحمت الخيول كلها خلفه البحر .

وجاء ميكائيل – عليه السلام – على فرس خلف القوم يسوقهم ، حتى لم يبق رجل منهم على الشاطئ ، وهو يقول لهم : الحقوا بأصحابكم .

حتى إذا خاضوا البحر وتوسطوه، وخرج موسى – عليه السلام – ومن معه من البحر إلى الشاطىء، أمر الله البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم فأغرقهم أجمعين.

كان بين طرفى البحر أربعة فراسخ..

وغرق آل فرعون بمرأى من بنى إسرائيل، وذلك قوله – تعالى –: ﴿وأنتم تنظرون﴾ أى إلى مصارعهم[(٧٢)].

وهتف فرعون بأعلى صوته وقد أيقن بالهلاك. وكأنه قد عاين ما أعد له من عذاب وانتقام فأراد أن ينجو منه مستغيثًا بموسى.. كما استغاث به من قبل فى كشف الآيات التى سلطها الله عليهم فى الدنيا. وظن أن النطق بالشهادة يشفع له..

فهتف قائلاً: لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين..

قاتله الله.. لقد استنكف أيضًا أن ينطق باسم الله.. فلم يقل لا إله إلا الله.. وكأن الله أراد ألا يتشرف لسان فرعون بنطق اسمه جل وعلا..

ولكنه يتلقى الرد على ذلك بقول الله تعالى: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾[(٧٣)].

لقد طمع فرعون بهذه الكلمة أن ينجو من عذاب الله. ولكن هيهات.

إن الله جعل مصيره عبرة لمن يعتبر..

ولقد طوى البحر أجساد أصحابه جميعًا ولفظ جسده هو وحده، وقذفه على الشاطىء، لأن كثيرًا من الناس ومنهم عبرانيون كانوا لا يعتقدون أن فرعون يغرق، فأظهر الله جسده ليكون آية لهم وعبرة، وليوقنوا بأنه ليس أكثر من بشر، يتعرض لما يتعرض له غيره من الهلاك والدمار وعوارض الحياة.

---

(٧٢) انظر حياة الحيوان جـ ١ ص ٤٠٦.   (٧٣) الآيتان ٩١، ٩٢ من سورة يونس.

فرعون مات كافرًا :

ولا عبرة لقول من يقول إن فرعون بهذه الكلمة التى قالها أعلن إسلامه واصبح مسلمًا . فالإسلام له شواهد ، وقد ظل فرعون مصرًا على كبره وكفره حتي آخر لحظة من حياته .. ولم يتفوه بهذه اللفظة التي قالها إلا بعد أن عاين مصيره .. والإسلام ساعة الغرغرة لا يجدى . إن حال فرعون هو حال من ورد فى حقه :

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾)(٧٤)

ولقد جاءت هذه الآيات فى آخر سورة غافر التى قصت قصة فرعون بتفصيل دقيق ..

ثم إن موت فرعون على الكفر ثابت بنصوص القرآن الكريم نفسه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾)(٧٥)

وهناك آيات أخرى غير هذه ..

فليس لمكابر أن يزعم أن فرعون بكلمة «آمنت» قد نجا ، بعد أن دمغه القرآن الكريم بالكفر الصريح ، وأوضح عاقبته أمام الأبصار ، وحتى لا يطمع طامع فى أن يظل الإنسان سادرًا فى كفره حتى إذا أيقن أن الموت قد أحاط به تبرأ من كفره .. قال تعالى :

---

(٧٤) الآيات ٨٣ : ٨٥ من سورة غافر .

(٧٥) الآيات ٩٦ : ٩٩ من سورة هود .

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٧٦)

إن عدل الله أحق بالتطبيق فى جانب هؤلاء.

أما رحمة الله التى وسعت كل شىء فهى قريبة من المحسنين ويكتبها للمتقين.

لقد وردت قصة هلاك فرعون وقومه، فى مواضع متفرقة مفصلة وموجزة..

فى سورة الأعراف(٧٧)، وسورة يونس(٧٨)، وسورة الإسراء(٧٩)، وسورة طه(٨٠)، وسورة الشعراء(٨١)، وسورة القصص(٨٢)، وسورة الزخرف(٨٣)، وسورة الذاريات(٨٤)، وفى سورة الدخان، وهذه آيات من سورة الدخان:

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٨٥)

---

(٧٦) الآيتان ١٧، ١٨ من سورة النساء. (٧٧) الآيتان ١٣٦، ١٣٧.
(٧٨) الآيات ٩٠ : ٩٢. (٧٩) الآيات ١٠٣ : ١٠٥.
(٨٠) الآيتان ٧٨، ٧٩. (٨١) الآيات ٥٢ : ٦٨.
(٨٢) الآيتان ٣٩، ٤٠. (٨٣) الآيتان ٥٥، ٥٦.
(٨٤) الآية ٤٠. (٨٥) الآيات ١٧ : ٣١.

لقد كان هلاك فرعون استجابة لدعوة موسى وهارون - عليهما السلام - حين اشتد أذاه لهما ولقومهما فقالا فيما يحكيه القرآن الكريم :

(وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟
عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾
قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾)[٨٦]

وبهلاك فرعون انطوت صفحة أخرى من صفحات الكفر والشقاق .

وبقيت قصته علامة على الطريق تذكر الناس بما يجب عليهم ، نحو خالق الوجود الملك المعبود ، الذى لا يغلبه غالب ، ولا يقدر على مطاولته محارب ..

قال عز وجل مبرزًا قدرته القادرة :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾
وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾
فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾)[٨٧]



★ ★ ★

(٨٦) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة يونس .   (٨٧) الآيات ٦ : ١٤ من سورة الفجر .

موسى وبنو إسرائيل

صفحة جديدة في الجهاد :

وكانت نجاة موسى وقومه يوم عاشوراء .. وأصبح هذا اليوم ذكرى طيبة يصومونها كل عام ..

ولما دخل النبي - ﷺ - المدينة بعد الهجرة، وجد اليهود فيها يصومون يوم عاشوراء فسألهم عن سبب صيامه، فقالوا : هذا يوم نجى الله فيه موسى . فقال : نحن أحق بموسى منكم(٨٨) . وصامه النبي - ﷺ - .

ولم تنته مهمة موسى - عليه السلام - بعبوره البحر إلى سيناء ، وتوجهه بقومه إلى ديار أجدادهم في كنعان ، حيث كان يقيم الجد الأعلى يعقوب - عليه السلام - ومن قبله أبوه اسحاق وإبراهيم - عليهما السلام - .

لقد كان جهاد موسى - عليه السلام - مع قومه أشق من جهاده مع فرعون .. وتعرض موسى معهم لسلسلة من المتاعب القاسية التي تعصف بلب الحكيم ، وتذهب بحلم الحليم .

ولولا مؤازرة الله له لما أطاق تصرفاتهم ، ولما أمكنه الصبر على شقاقهم ونفاقهم .

لقد جبل الله هؤلاء القوم على العناد ، والقرآن الكريم يصور لنا جوانب متعددة من ذلك سوف نعرض لها بتوفيق الله تعالى ومشيئته .

وكتابهم الذي بأيديهم يشهد بذلك . وهذه بعض نصوصه :

---

(٨٨) أخرجه البخاري ومسلم ، وذكره القرطبي جـ ٦ ص ٣٩١ .

«فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهارون فى البرية، وقالوا لهما: ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزًا للشبع، فإنكما أخرجتمونا إلى هذا القفر لتميتا كل هذا الجمهور بالجوع»(٨٩).

«ونزلوا فى رفيديم ولم يكن ماء ليشرب الشعب، فخاصم الشعب موسى، وقالوا: أعطونا ماء لنشرب، فقال لهم موسى: لماذا تخاصموننى؟ لماذا تجربون الرب؟ وعطش هناك الشعب إلى الماء، وتذمر الشعب على موسى، وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر؟ لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش؟»(٩٠).

«فقال الرب لموسى: اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعًا عن الطريق الذى أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلاً مسبوكًا وسجدوا له وذبحوا له»(٩١).

«وقال الرب لموسى: رأيت هذا الشعب، وإذا هو شعب صلب الرقبة فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم»(٩٢).

لقد ضاقوا سريعًا بالحرية وتمردوا عليها.. وكأنهم كانوا يريدون استمرار الحياة فى ذل وتسخير فى ظل الفراعنة ويفضلونها على الحرية والعزة والكرامة.

وغلبت الوثنية عليهم، ونسوا أنهم نسلوا من أصلاب الموحدين..

وربما سرت إليهم هذه الوثنية من مجاورتهم للمصريين تلك القرون الطويلة وكان المصريون يعبدون آلهة شتى، ووصل بهم الأمر إلى أن اتخذوا فرعون إلهًا يسجدون له من دون الله.

لم تكن إقامة بنى إسرائيل فى مصر قصيرة، ولكنها استطالت حتى تجاوزت القرون الأربعة نما فيها شعبهم نموًا كبيرًا. جاءوا إلى مصر سبعين، وخرجوا فى حدود السبعمائة ألف.

---

(٨٩) سفر الخروج. الإصحاح السادس عشر.

(٩٠) سفر الخروج. الإصحاح السابع عشر.

(٩١) سفر الخروج. الإصحاح الحادى والثلاثون.

(٩٢) المرجع السابق.

وأربعة قرون ليست بالزمن القصير، لقد نشأت فى ظلها أجيال متتابعة قلدت غيرها في عبادتها وتقاليدها الاجتماعية والدينية. هذا على الرغم من أن هؤلاء كانوا انعزاليين بطبعهم لا يميلون إلى الخلطة مع غيرهم، ولا يرغبون فى التزاوج من غير جنسهم. ولكنه الزمن وفعله.

وكانت رسالة موسى موجهة إلى قومه بالدرجة الأولى.

وهكذا كانت رسالات الأنبياء قديمًا. إنها رسالات خاصة بذويهم، ولم تكن هناك رسالة عامة بالمعنى المفهوم لعمومية الرسالة إلا لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد - ﷺ - الذى يقول الله فى حقه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(٩٣). ويقول له: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾(٩٤).

هل عاد بنو إسرائيل إلى مصر بعد فرعون؟

إن المتأمل لبعض الآيات الكريمة الواردة فى شأن بني إسرائيل يفهم أن بني إسرائيل ورثوا فرعون وقومه بعد هلاكهم.

انظر إلى قوله - تعالى -:

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (٩٥)

وإلى قوله تعالى:

﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (٩٦)

---

(٩٣) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء. (٩٤) الآية ٢٨ من سورة سبأ.
(٩٥) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف. (٩٦) الآيات ١٠٢ : ١٠٤ من سورة الإسراء.

وإلى قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وعُيُون . وكُنُوزٍ ومَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[٩٧].

تجد فيها ما يشير إلى أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر ليرثوا فرعون وقومه. وقد فهم ذلك بعض المفسرين ، واعتمدوا في فهمهم على ماجاء في بعض التواريخ التي تقول : إن موسى استولى على مصر ، وتمتع هو وقومه بالسيادة فيها طائفة من الزمن تقدر بثلاثة عشر عامًا ، ثم أُخرج منها بعد ذلك[٩٨].

ولا يمتنع عقلاً بعد أن هلك فرعون وجنوده غرقًا في البحر أن يعود بنو إسرائيل إلى مصر ، فلا يوجد من يصدهم عن ذلك .. ولكن المتعارف في التاريخ المشهور هو أن انشغال الإسرائيليين بأنفسهم ، ومحاولة موسى معهم أن يسوقهم إلى الأرض المقدسة التي وعدهم بها صرفهم عن العودة إلى مصر ..

وجمهور المفسرين يرون أن الأرض التي ورثها بنو إسرائيل من فرعون ، والتي تشير إليها الآيات السابقة وغيرها ، هي أرض الشام ذات الجنات الكثيرة والخيرات الوفيرة ، وقد كانت هذه البلاد واقعة فعلاً تحت سيطرة فرعون في ذلك الوقت. فبغرق فرعون خرج المصريون منها وورثها بنو إسرائيل.

وبركة هذه الأرض معروفة بنص القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى :
﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا ﴾[٩٩].

وقال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾[١٠٠].
والضمير في نجيناه يعود على إبراهيم – عليه السلام – .

---

(٩٧) الآيات ٥٧ : ٥٩ من سورة الشعراء. (٩٨) تفسير المنار جـ ٩ ص ٨٦.
(٩٩) الآية الأولى من سورة الإسراء. (١٠٠) الآية ٧١ من سورة الأنبياء.

وقال : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ﴾[١٠١] .

وهذا هو التفسير الذى يطمئن إليه القلب ويؤيده المشهور من وقائع التاريخ .

جهود موسى مع قومه :

قلنا إن رسالة موسى – عليه السلام – كانت قاصرة على قومه بنى إسرائيل ، ولذلك كانت مهمته تكاد تكون مقصورة على إخراجهم من مصر أولاً ، ليتولى بعد ذلك تربيتهم على دستور الرسالة التى أرسل بها .

وكانت دعوته التى أرسل بها هو وأخوه هارون إلى فرعون مهتمة أولاً بإخراج بنى إسرائيل . وهذا ما يبدو فى قوله – تعالى – : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَونَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِين . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾[١٠٢] .

وفي قوله – تعالى – : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾[١٠٣].

وعلى الرغم من طول المسافة التى قضاها موسى وهارون بين بنى إسرائيل فى مصر قبل الخروج إلا أنهما لم يجدا استجابة تذكر لما يدعوان إليه بينهم . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك بقوله : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُم وإِنَّ فِرْعَونَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِين ﴾[١٠٤].

وبدأ شقاق قوم موسى عليه فور خروجهم من البحر وانسياحهم فى الأرض التى هبطوا فيها .

---

(١٠١) الآية ٨١ من سورة الأنبياء .

(١٠٢) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الشعراء .

(١٠٣) الآية ٤٧ من طه .

(١٠٤) الآية ٨٣ من سورة يونس .

طلبهم اتخاذ الأصنام :

اتجه موسى بقومه بعد أن تجاوزوا البحر إلى حيث الأرض المقدسة ، وكان يقيم في الأرض التي مروا بها قوم من العرب . قيل : إنهم من لخم وجذام .

وكانوا يعكفون على أصنام لهم يعبدونها من دون الله .. كانت تماثيل من نحاس للبقر .

فما أن رأى الإسرائيليون هذه الأبقار النحاسية حتى أعجبوا بها .

فقالوا لموسى : اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ..

فوصفهم موسى بالجهل .. وانحى عليهم باللائمة .. قال لهم : إنكم قوم تجهلون . فلو كانوا على علم لما قالوا ذلك الكلام . وهذا هو الفرق بين الجاهل والعالم .

إن العالم يستعمل عقله ، أما الجاهل فهو يلغى عقله ..

وقد استعمل السحرة عقولهم فاهتدوا ، وضحوا بأنفسهم في سبيل عقيدتهم ، وأما غيرهم فران الجهل على عقولهم وأفئدتهم ، فضلوا ولم يهتدوا ، وحق عليهم هذا الوصف ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال لهم موسى : إن هؤلاء القوم هالكون ، وباطل ماهم فيه ، وما أرسلت إليكم إلا لتقيموا الدين الصحيح ، ولتعبدوا الله وحده لا شريك له ، وتبتعدوا عن الوثنية والشرك .

إن السعادة كلها لن يجدها الإنسان إلا فى حمى الله وحده ، وفى عبادته حق عبادته ، وفى عدم الإشراك به ، وفى إسلام الوجه له .

وكيف أبغيكم إلهًا غير الإله الذى تفضل عليكم بنعمته ، وفضلكم على هؤلاء الخلق الذين ترونهم أمامكم ؟ وهذه الأفضلية لم يستحقها بنو إسرائيل إلا لأنهم انفردوا عن كافة الخلق فى زمنهم بالاقرار لله بالوحدانية . فأى فضل يكون لهم لو اشركوا بالله شيئًا ؟

إن أى شعب يؤمن بالله وحده يفضل غيره .. فهذا هو مقياس الأفضلية فى كل زمان ومكان .. وليست الأفضلية بالعِرْق أو النسب .. وقد أخبر الله

- تعالى - عن هذا المقياس فى قرآنه الكريم بقوله: ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(١٠٥).

وحين جاء الإسلام تفرد المسلمون فى العالم أجمع بعبادة الله وحده وأخلصوا الدين له، وطبقوا التعاليم التى جاء بها رسول الله - ﷺ - فاستحقوا الأفضلية التى أخبر الله عنها فى كتابه الكريم:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ (١٠٦)

أى لو آمن أهل الكتاب كما آمنتم لشاركوكم هذه الخيرية، واستحقوا معكم الأفضلية.. وهذا سلمان الفارسى رفعه إسلامه إلى منزلة سامية، قال عنه النبى - ﷺ -: «سلمان منا أهل البيت»، وهذا صهيب بن سنان الرومى رفعه إسلامه إلى منزلة رفيعة وعُدَّ من أهل الفضل والرفعة. وهذا بلال الحبشى استحق بإسلامه أن يكون من أفضل الصحابة - رضوان الله عليهم -.

حاول موسى عليه السلام أن يذكر قومه بنعمة الله عليهم، فقد أنجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، ويسخرونهم فى معايشهم، ويقتلون أبناءهم ويبقرون بطون نسائهم، وأى بلاء أشد من هذا؟

وكان المنطق يقضى بأن يشكر هؤلاء هذه النعمة العظيمة، نعمة النجاة من ذلك القهر والبطش، وشكرُ الله هو إفراده بالعبادة وعدم الاشراك به. فإذا بهم يطلبون من موسى أن يتخذ لهم عجلاً يعبدونه..

لقد خيبوا ظن موسى - عليه السلام - فيهم حتى أخذ ينحى عليهم باللائمة ويوجه إليهم قوارع الكلم.

---

(١٠٥) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(١٠٦) الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

وقد عبر الله –تعالى– عن هذه المعاني وغيرها بقوله:

(وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾) (١٠٧)

إن أفضلية بني إسرائيل التي أشارت إليها الآيات كانت –كما قلنا– بالنسبة لزمانهم حيث كانوا من سلالة أنبياء.

ولكنهم لم يحفظوا هذه النعمة، بل جحدوها، وجحودهم لها أوردهم مورد التهلكة وردهم إلى أحط منزلة، واستحق كثير منهم سخط الله، حتى إن بعضهم تحولوا إلى قردة وخنازير. ونزل في حق الكافرين منهم قوله –تعالى–:

(لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾) (١٠٨)

لقد شاهد هؤلاء الإسرائيليون بأنفسهم كفاح موسى وأخيه –عليهما السلام– وجهادهما في سبيل إنقاذهم من بطش فرعون وكيده. وجرت أمامهم آيات تحول ذوي القلوب الصلبة المتحجرة إلى أناس رحماء أوفياء أسخياء بررة. ولكن هذه الآيات لم تؤثر في هؤلاء وكانوا على عكس ذلك تمامًا.

---

(١٠٧) الآيات ١٣٨ : ١٤١ من سورة الأعراف.

(١٠٨) الآيات ٧٨ : ٨٠ من سورة المائدة.

في الطريق إلى الأرض المقدسة :

وكانت الأرض المقدسة التي أمروا بالتوجه إليها في أيدي قوم من الجبارين طوال الأجسام عراض المناكب أقوياء . قيل : إنهم كانوا من بقايا عاد ، وقيل : هم من أولاد عيصو بن اسحاق ..

وكانوا يسكنون أريحاء من أرض فلسطين .. وهي الأرض التي أمروا بدخولها ..

وطلب موسى من قومه أن يتوجهوا لدخول هذه المدينة على هؤلاء القوم ، ويسكنونها .. ولكن بني إسرائيل خشوا هؤلاء القوم ، وامتلأت قلوبهم رعبًا . وقالوا لموسى :

كيف ندخل المدينة وفيها هؤلاء القوم ؟

وحاول موسى أن يذكرهم بنعمة الله عليهم الذي أنجاهم ممن هم اشد من هؤلاء بطشا ، وكيف ان الله نكل بأعدائهم وجعل أجسادهم طعمة لحيتان البحر وتناثرت أشلاؤهم على الشواطىء .. فهو قادر على أن يكفيكم شر هؤلاء الآخرين كما كفاكم شر الأولين ..

وقال لهم أيضًا : اذكروا نعمة الله فقد جعل فيك أنبياء ، فجدكم إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة ، فولد إسماعيل واسحاق ، وكلاهما نبي ، وولد اسحاق يعقوب ، وهو نبي ، وولد يعقوب يوسف وهو نبي .. وجاء بعد ذلك سلسلة من الأنبياء آخرهم انا وأخي ..

وكما جعل فيكم أنبياء جعلكم ملوكًا .. تملكون أنفسكم ، فبعد أن كان الفراعنة يستذلونكم ويملكون رقابكم ويتحكمون فيكم ، أصبحتم سادة أنفسكم .. والرجل متى أصبح قادرًا على أن يملك زمام نفسه فهو ملك . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : إن الرجل إذا لم يدخل أحد بيته إلا بإذنه فهو ملك .

وروى يزيد بن أسلم - فيما ينقله القرطبي - عن النبي - ﷺ - : من كان له بيت يأوي إليه وزوجة وخادم يخدمه فهو ملك[١٠٩] ..

---

(١٠٩) تفسير القرطبي جـ ٦ ص ٢١٢١ ط . دار الشعب .

ومقتضى ذلك أن تمتلىء قلوبهم إيمانًا وأن لا ينكصوا على أعقابهم حين يؤمرون بما فيه مصلحتهم، وأن يثقوا بنصر الله لهم وتأييده إياهم بالمعجزات..

عليهم أن يرتفعوا إلى مستوى السادة ليتخصلوا نهائيًا من حياة الذل التى كانوا يعيشون فيها، والتى مازالت فى نفوسهم بقية منها.

ولكنهم رفضوا التقدم، وأصروا على عدم دخول المدينة حتى يخرج منها هؤلاء الجبابرة.

إلا أن رجلين منهم قيل: إنهما «يوشع بن نون» و «كالب بن يوقنا» وهما مؤمنان من صالحى بنى إسرائيل ونقيبان من النقباء الذين اختارهم موسى قالا لقومهما:

لا يدخلكم الرعب من هؤلاء القوم، واقتحموا عليهم باب المدينة، فإنهم لن يثبتوا أمامكم، سيفرون حينما يرونكم، لا تغتروا أيها القوم بطول أجسامهم أو ضخامة أبدانهم، فإن قلوبهم ضعيفة وأبدانهم واهنة.

توكلوا على الله، والمتوكل يمده الله بعونه ويؤيده بنصره.

ولكن بنى إسرائيل أصروا على عدم الدخول ما دام هؤلاء القوم فى هذه المدينة، وقالوا لموسى فى عجرفة وسوء أدب: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون.

وهذا الكلام يدل على كفر صريح منهم، لأنهم شكُّوا فى رسالة موسى - عليه السلام - وقعدوا عن نصرته..

ولم يجد موسى بُدًا من أن يتجه إلى السماء مفوضًا أمره إلى الله متبرئًا من فعل هؤلاء القوم الذين آذوه باعتراضهم وصدوفهم عن الحق وتوليهم عن الجهاد. قائلاً: إنه لا يملك إلا نفسه وأخاه. أما هؤلاء فلم يعد يملك من أمرهم شيئًا، وطلب من الله أن يحكم بينه وبينهم.

واستجاب الله دعاءه، فكتب عليهم التشرد فى الصحراء.. وحرم عليهم دخول الأرض المقدسة المباركة التى لو دخلوها لقرت عيونهم وسعدت أرواحهم. ولكنهم أصبحوا مشردين فى الصحراء تائهين لمدة أربعين سنة..

ومع ذلك فلم يتخل موسى عنهم، ولم يتركهم وشأنهم. بل تاهوا وبقى موسى معهم لم يتخل عنهم. فربما يثوبوا يومًا إلى رشدهم ويعودوا إلى ربهم فيهديهم الله عز وجل. وفى هذه القصة يقول الله - تعالى -:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١١٠)

ولم تفتح هذه المدينة إلا بعد وفاة هارون وموسى .. فتحها يوشع بن نون وسيأتى خبر ذلك إن شاء الله تعالى.

شكواهم الشمس والجوع والعطش - فى التيه -:

كان بنو إسرائيل لا يكفون عن الشكوى والصراخ والضجيج، فشكوا إلى موسى حرارة الشمس، فرفع شكواهم إلى الله، فأرسل الغمام يظلهم..

وكانوا فى أثناء التيه يمشون نهارهم كله، ثم ينزلون للمبيت. فيصبحون فإذا هم فى المكان الذى كانوا فيه بالأمس.

حيرة لا نهاية لها، أوقعوا أنفسهم بأنفسهم فيها .. لقد عمّى الله عليهم الأرض فلم يعرفوا أين يقصدون ولا أين يسيرون، وهى فراسخ معدودة ولكن التخبط صنع صنعه فأصبحت أمامهم متاهات لا أول لها ولا آخر.

---

(١١٠) الآيات ٢٠ : ٢٦ من سورة المائدة.

ويمكن تحديد المنطقة التي تاه فيها بنو إسرائيل بأنها الطرف الجنوبي الأقصى لفلسطين وكان طولها أربعين فرسخًا في مثلها تقريبًا ، وهي تمتد من منطقة الفرما العريش إلى طور سيناء ، ويحدها من الغرب مصر ومن الشرق بيت المقدس . ويطلق على هذه المنطقة صحراء التيه .

إنهم لم يبرحوا شبه جزيرة سيناء في تيههم لمدة أربعين سنة .

شكوا لموسى الجوع ، وقالوا له : من أين نأكل وكان لنا قبل خروجنا معك طعام ، -وقد مرت بنا العبارة المقتطفة من العهد القديم في ذلك- .

واتجه موسى إلي ربه رافعًا شكوى قومه إليه ..

فأنزل الله عليهم المن والسلوى ..

والمن : شراب حلو لذيذ كالعسل . وقيل : هي الكمأة ، وهي ثمرة تخرج تلقائيًا ، بدون بذر أو حرث أو سقي أو تعب ، وفيها يقول النبي - ﷺ - : « الكمأة من المن الذى أنزل الله على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين »(١١١).

والسلوى هي طير السُمَاني ، وقال الدميرى نقلاً عن ابن سيده : هو طائر أبيض مثل السماني واحدة سلوة .

وقيل : السلوى اللحم ، وسمي سلوى لأنه يسلي الإنسان عن سائر الإدام ..

وكان بنو إسرائيل يدخرون المن والسلوى ، وقد نهوا عن اختزانهما ، لأن الله كان يرسل لهم رزقهم تباعًا يومًا بيوم . فكان الذى يختزنونه يتعرض للفساد ، وقد روى البخارى في أحاديث الأنبياء ، ومسلم في باب النكاح حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي - ﷺ - : « لولا بنو إسرائيل لم يختزن اللحم »(١١٢).

لقد كفل الله لهم الرزق ، وكان مقتضى ذلك الشكر والاستجابة السريعة لأمر الله والاستقامة على منهج نبيهم - عليه السلام - .

---

(١١١) رواه مسلم من حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل جـ ١٤ ص ٤ شرح النووى كتاب الأطعمة .

(١١٢) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٤٤ ، ومعنى يختزن : يتغير وينتن .

ولكن الشقاق كان فى طبعهم ، واللجاج كان ديدنهم ، فكانوا لا يكفون عن الضجيج والصراخ والشكوى ، وكلما استجيبوا إلى أمر طلبوا غيره حتى ضج بهم نبيهم موسى - عليه السلام - .

لقد طلبوا منه الماء ، مع أن الله أغناهم عنه بالمن ، فقد كان المن شرابهم والسلوى طعامهم .

ومع ذلك فقد أجابهم الله إلى طلبهم بمعجزة منه جعلها لنبيهم .

أمره الله أن يضرب حجرًا بعصاه .. فضربه . فتفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، لكل سبط من أسباطهم عين يشرب منها .. حتى لا يطغى بعضهم على بعض .

كان الحجر الذى ضربه موسى - عليه السلام - مربعًا .. اطردت من كل جهة من جهاته ثلاث عيون .. كانوا يشربون منها مدة إقامتهم فى المكان الذين توجد فيه هذه العيون فإذا ارتحلوا جفت هذه العيون ..

وهذه معجزة آتاها الله موسى - عليه السلام - ليقر بها عين قومه ، ولتتألف قلوبهم على الإيمان برسالته ..

وقد أعطى نبينا - ﷺ - مثل تلك المعجزة : فقد تفجر الماء من بين أصابعه - ﷺ - ..

قال القرطبى : روى الأئمة الثقات والفقهاء الإثبات عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبى - ﷺ - فلم نجد ماء بتوْر - إناء يُشْرَبُ فيه - فأدخل - ﷺ - يده فيه ، فقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ويقول : حى على الطهور . قال الأعمش : فحدثنى سالم بن أبى الجعد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفًا وخمسمائة(١١٣) .

ولم يقنع كل ذلك بنى إسرائيل ولم يؤمنوا بكل هذه المعجزات التى أتى بها نبيهم واستمروا فى ضلالهم ومطالبهم التى لا تنتهى . فطلبوا من موسى عليه السلام أنْ يطلب من ربه أن يعطيهم أنواعًا أخرى من الأطعمة غير تلك التى منَّ عليهم بها ..

---

(١١٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٤٢١ .

فقالوا لن نصبر على طعام واحد وهو السلوى .. إنا نريد ما يخرج من الأرض من بقولها وقثائها ، وعدسها وبصلها وثومها ..

فقال لهم موسى : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟

لقد كفل الله لكم حياة رغدة ورزقكم العسل شرابًا والسلوى طعامًا ، فإذا بنفوسكم تشتهى هذه الأطعمة الدنيا .. إن طباعكم طباع من لا يعقل ، حيث يفضلون الأدنى على الأعلى ، لقد أراد الله أن يرفعكم إلى مقام المتوكلين الذين يُرزقون بغير حساب ، فإذا بكم تريدون أن تكدوا أجسامكم بالحرث والبذر والسقى والجنى والحصاد وغير ذلك مما يقوم به الحرَّاث ..

ثم إن ما تاقت إليه نفوسكم – ولو أنه نعمة من نعم الله – إلا أنه ليس بشىء ذى بال تشتهيه النفوس الرفيعة ..

فقيل لهم : إن أردتم ما تتوقون إليه ، فاهبطوا أى مصر من الأمصار . أو عودوا إلى مصر التى خرجتم منها وسوف تجدون ما تريدون وتنالونه بذل وصغار . ذلك بما قدمت أيديكم وما كنتم تصنعون .

وقد أشارت الآيات الآتية إلى هذه الأحداث فى قوله تعالى :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١١٤)

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١١٥)

---

(١١٤) الآية ٥٧ من سورة البقرة . (١١٥) الآيتان ٦٠ ، ٦١ من سورة البقرة .

مواعدة موسى :

لقد جرت في التيه أحداث كثيرة، منها أن الله أراد أن يكرم موسى بمناجاته، فضرب له موعدًا.

أمره بصيام شهر ثم يناجيه الله بعده. فصام موسى - عليه السلام - شهر ذى القعدة كله - ثلاثين يومًا - وأنكر رائحة فمه من طول الصيام فاستاك.

فقالت له الملائكة: يا موسى، إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك، فلماذا أفسدت هذه الرائحة؟

فقال: لقد أنكرت رائحة فمي وأنا ماض لمناجاة ربي، فاستكت. فقالت له الملائكة: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك؟(١١٦)..

وأمره الله أن يصوم عشرة أيام أخرى، فصام عشرًا من ذى الحجة.

ومضى موسى على أثرها وقد تم له أربعون يومًا صائمًا. مضى لمناجاة ربه، وكان ذلك غداة يوم النحر.

وسمع موسى كلام ربه، واستغرق فيه، وطمع بعد هذه المنة العظمى بتكليم الله إياه أن يتم نعمته عليه برؤيته. فقال: رب أرنى أنظر إليك.

ولكن الله قال له: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسيمكنك أن تراني..

وتجلى الله على الجبل بعظمته، فدك الجبل..

وصعق موسى من هول ما رأى..

وأدرك موسى أنه أخطأ في طلب ما ليس من حقه.. فتاب إلى الله وأناب، واستغفر ربه فتاب عليه.. واصطفاه لرسالته وكلامه، وأعطاه الألواح مكتوبًا

---

(١١٦) أورد مسلم في صحيحه عن أبى هريرة قال رسول الله - ﷺ -: قال الله - عز وجل -: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزى به. والصيام جنة. فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يفسق فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم. والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك» الأحاديث القدسية جـ ١ ص ١٧٣ حديث رقم ١٦٢.

فيها كل ما يحتاج إليه قومه من مواعظ وآداب واحكام ، وطلب منه أن يأمر قومه باتباع ما فيها ، وعدم الخروج على تعاليمها .

وكان موسى قبل ذهابه لمناجاة ربه قد استخلف أخاه هارون على قومه ، واوصاه بالأناة معهم ، واللين لهم ، والإصلاح بينهم ، وعدم الاستماع للمفسدين منهم ..

عبادة بنى إسرائيل للعجل :

كان الموعد المضروب لموسى ثلاثين يومًا .. فلما زيد عشرة لم يرجع . فاستبطأه قومه وهم لا يعلمون أن الله زاده عشرة أيام أخرى ، لقد قال إنه سيغيب عنهم ثلاثين يومًا ، فإذا به يتخطاها إلى الأربعين .. فساورتهم الظنون .. ولم يحسنوا الظن بموسى فى غيابه .. وقالوا : لابد أن يكون قد ضل طريقه ، أو نسى الرجوع إلينا ..

واجمعوا أمرهم على أن يتخذوا إلهًا آخر يعبدونه غير الإله الذى دعاهم موسى إلى عبادته ..

يا ويلهم ، ما أضلهم وما أشقاهم .. لقد دل ذلك فعلاً على أنهم أهل شقاق وكفر وفساد ، وليسوا أهلاً لهذه الإكرامات المتتالية والانعامات المتواصلة التى أفاء الله عليهم بها ..

وفكروا كيف يكون الإله الذى يعبدونه .. وكأن الوثنية التى سرت إلى أرواحهم ما زالت عالقة بها ، فأقبلوا على حليهم يجمعونها ثم سلموها لرجل منهم اسمه موسى السامرى(١١٧) ليصنع لهم منها عجلاً يعبدونه .

تسلم السامرى هذه الحلى فصهرها ، وصور منها عجلاً ..

---

(١١٧) هو موسى بن ظفر ، ينتسب إلى قرية أو قبيلة « سامرة » أو شامرة بالشين ، ولد عام قتل الأبناء بمصر ، فأخفته امه فى كهف ، فغذاه جبريل – عليه السلام – وتعهده حتى كبر ، ولذلك عرف جبريل حين رآه يمضى بفرسه امام فرعون إلى البحر . ولما كبر هذا الرجل كان من الضالين الذين يكثرون من الاعتراض على نبى الله موسى – عليه السلام – . وهذا من المفارقات التى لفتت نظر الشاعر فقال :

فموسى الذى رباه فرعون مؤمن ... وموسى الذى رباه جبريل كافر

وكان السامرى قد شاهد جبريل على فرسه حين تراءى لفرعون في أثناء عبوره البحر ، فأخذ السامرى قبضة من التراب الذى وطئته فرس جبريل فاحتفظ بها .

فلما أشعل النار ليصهر الحلى ، قذف بقبضة التراب التى التقطها من أثر جبريل في النار مع الحلى . فلما صور من هذا الذهب المصهور عجلاً إذا بهذا العجل يخور كأنه عجل حقيقى .

وقيل إنه جعل العجل مجوفًا فكانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فمه فيسمع لها صوت كأنه خوار .

وقال لبنى إسرائيل : هذا إلهكم وإله موسى الذى نسبه هنا ..

وجن الإسرائيليون بهذا الإله جنونًا ، وفرحوا به فرحًا عظيمًا .

كانوا يجتمعون حوله يرقصون ويتسامرون ، وكلما خار سجدوا له . وعكفوا على عبادته ، وأحبوه حبًا شديدًا . وهذا قوله تعالى : ﴿و أشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم﴾(١١٨) .

لقد استطاع السامرى أن يضلهم ويصرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام .

وحاول هارون – عليه السلام – أن يثيبهم إلى رشدهم ، وينبههم إلى خطئهم فلم يجد كلامه معهم شيئًا ، وتكاثروا عليه واستضعفوه ، وكادوا يقتلونه ، وانصرفوا عنه إلى عجلهم يلهون حوله ويرقصون ويصفقون .

وأخبر الله موسى – عليه السلام – بما فعله قومه فى غيبته .

فعاد مسرعًا ، وقد ملأه الغضب واشتد به الضيق .

وألقى ما فى يده من الواح فتحطمت . وكان إذا غضب وقف شعره ، ولا يكاد يقف فى وجهه أحد من شدة غضبه .

وأخذ يوجه إلى قومه قوارص الكلم ويوبخهم على ضلالهم وما قاموا به من عمل مشين .

---

(١١٨) الآية ٩٣ من سورة البقرة .

ثم انصرف إلى أخيه يأخذ بتلابيبه، فقد اعتبره مسئولاً عما حدث، وأخذ بلحيته وجره من رأسه في غضب صارخ. غضب لله ومن أجله جعله يعنف أخاه الأكبر لرفقه ولينه مع بني إسرائيل..

وأقبل على أخيه يلومه على ما حدث..

فقال له أخوه: على رسلك يا موسى.. ولا تعجل عليَّ في غضبك فما قصرت في أمرهم، وما توانيت في إرشادهم، وقد هممت أن أتركهم، ولكنك أوصيتني بملازمتهم، وخشيت أن تقول إنك فرقت بين بني إسرائيل..

إن العبء كله يقع على عاتق هذا السامري الذي أضلهم وفتنهم.

إن هؤلاء القوم يا أخي قد استضعفوني وكادوا يقتلونني، فلا تشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين بظلمك إياي..

وهدأ موسى وسكت غضبه، واتجه إلى ربه يعتذر إليه ويطلب منه المغفرة له ولأخيه..

ثم أقبل على السامري - يستجليه حقيقة هذا الخبر المؤسف، ويستجوبه فيما حدث من أمر هذا الخطب الجليل الذي أضل به بني إسرائيل..

فأقر السامري بما حدث، وأخبر موسى - عليه السلام - بأنه رأى جبريل يقود آل فرعون إلى البحر، فأخذ قبضة من أثر تراب فرسه، فما ألقى شيء من هذا التراب على شيء إلا استحال حيًا..

وكان السامري قد تأثر بمنظر الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم بعد اجتيازهم البحر، فأسر ذلك في نفسه نفاقًا وكفرًا حتى أظهره بعد غياب موسى لمناجاة ربه.

وقيل: إن السامري كان من قوم يعبدون البقر، وكان قد أظهر الإيمان بموسى، ولكن حب عبادة البقر ما زال في قلبه[(١١٩)].

فدعا موسى على السامري دعوة غضب، فعاقبه الله بمرض أفقده عقله، فأصبح لا يطمئن إلى أحد ولا يطمئن إليه أحد.

---

(١١٩) حياة الحيوان للدميري جـ ٢ ص ١٦٨.

وقد أصابه مرض يتأذى بسببه من أى شىء يقع على جسمه، وهو مرض النقرس. فكان ينادى بألا يمسه أحد. وصاحب النقرس يتأذى حتى من الذباب لو وقع عليه.

وقد يكون موسى – عليه السلام – نفاه حتى لا يخالطه أحد، وفى هذا جواز الحكم على أهل البدع والأهواء والفتن بالنفى حتى لا يتأثر أحد بما يدعون إليه.

هذا عقاب الدنيا .. أما عقاب الآخرة فما أشده وأهوله!

ثم أقبل موسى على هذا العجل الذهبى فجعله طعمة للنار أولاً، ثم ألقاه فى قاع البحر.

وقد عرضت الآيات الكريمة الآتية لهذه الأحداث من القصة:

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (١٢٠)

وقال تعالى:

﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ

---

(١٢٠) الآيات ١٤٢ : ١٤٥ من سورة الأعراف.

فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ
مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ
لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾
قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ
بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ
لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾) (١٢١)

رؤية الله :

تتضمن آيات سورة الأعراف طلب موسى - عليه السلام - رؤية ربه ، وأن الله - سبحانه وتعالى - قال له : لن تراني ..

وهذا يدل على أن رؤية الله فى هذه الدار الدنيا غير ممكنة لعدم صلاحية الأجساد البشرية الفانية لذلك وعدم قدرتها على إدراك الجلال والجمال الإلهيين .. والله يقول : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ (١٢٢).

أما فى الآخرة فإن الله يعطى أحباءه والمقربين إليه القدرات الخاصة والصلاحيات الممكنة لرؤيته تعالى مصداقًا لقوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ (١٢٣) ولقوله تعالى : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (١٢٤) فقد قال العلماء : الحسنى هى الجنة ، والزيادة هى رؤية الله جل جلاله .

وهذا ما اصطلح عليه جمهور المفسرين ..

(١٢١) الآيات ٨٣ : ٩٨ من سورة طه .

(١٢٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

(١٢٣) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(١٢٤) الآية ٢٦ من سورة يونس .

ماذا كتب في الألواح؟

قال تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾..

لقد جمعت الألواح خلاصة التعاليم التي تسير على هداها الأمة إلى مافيه صلاحها دنيا وآخرة..

هذا وقد أوصى الله تعالى موسى بوصايا عشر خلاصتها:

- أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ولا تشرك بي شيئًا.
- اشكر لي ولوالديك إلي المصير.
- لا تقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.
- لا تحلف باسمي كاذبًا.
- لا تشهد بما لا يعي سمعك، ولا تنظر عينك، ولا يقف عليه قلبك.
- لا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي ورزقي.
- لا تزن ولا تسرق.
- لا تفجرن بحليلة جارك.
- احبب للناس ما تحب لنفسك.
- لا تعد في السبت[١٢٥]

وقد جاء في القرآن الكريم الذي جعله الله مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ما يصدق هذه الوصايا، ويأمر بالعمل بها. قال تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[١٢٦]

---

(١٢٥) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٠٨. (١٢٦) الآيات ١٥١ : ١٥٣ من سورة الأنعام.

وجاء بعقب هذه الآيات قوله تعالى :

(ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾)(١٢٧)

وفى ذلك دلالة على أن وصايا الله لأنبيائه لا تتغير ، وهى فى جملتها خصال الخير التى تجمع أسباب الصلاح فى الدنيا وتهدى إلى طريق النجاة فى الآخرة ..

جاء في تفسير القرطبى أن يهوديًا قال لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى – يعنى رسول الله ﷺ – فقال له صاحبه : لا تقل نبى لو سمعك فإن له أربعة أعين .

فأتيا رسول الله – ﷺ – وسألاه عن تسع آيات بينات . فقال لهم : لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا المحصنة ، ولا تولوا يوم الزحف ، وعليكم خاصة معشر يهود ألا تعدوا فى السبت .

فقبلا يديه ورجليه . وقالا : نشهد أنك نبى .

قال : فما يمنعكم أن تتبعونى ؟ قالوا : إنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود(١٢٨).

رأى أهل الكتاب فيمن صنع العجل :

ويزعم أهل الكتاب أن الذى صنع العجل لبنى إسرائيل هو هارون نفسه . قالوا فى سفر الخروج : ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون ، وقالوا له : قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ؟ فقال

---

(١٢٧) الآيتان ١٥٤ ، ١٥٥ من سورة الأنعام .

(١٢٨) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . والقرطبى جـ ١ ص ٤٣٩ .

لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى كانت فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكًا . فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بني مذبحًا أمامه ، ونادى هارون وقال : غدًا عيد للرب فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح(١٢٩).

وهذا من الافتراءات علي أنبياء الله . وهل يعقل أحد أن يفعل هارون عليه السلام وهو نبي من أنبياء الله هذا الفعل ، لقد أرسله الله ليهدى الناس لا ليضلهم أو يساعدهم على الضلال . ولكن ليس بكثير على قوم كانوا يقتلون أنبياءهم أن يصفوهم بصفات لا تتفق مع العقل أو المنطق .

الميثاق ورفع الجبل :

أدرك بنو إسرائيل أنهم ارتكبوا ذنبًا كبيرًا باتخاذهم العجل ، ولجأوا إلى موسى راجين أن يستغفر لهم ربهم . ولكن موسى أفهمهم بأنهم ظلموا أنفسهم ظلمًا كبيرًا ، وأنه لا توبة لهم إلا بأن يقتلوا أنفسهم ..

ومن هنا ندرك رحمة الله بالأمة الإسلامية حيث جعل الاستغفار سبيلاً إلى الغفران وتكفير الذنوب .. قال تعالى : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا﴾(١٣٠).

أما هؤلاء فقد قال لهم موسى : لا تطهر نفوسكم إلا بقتل أنفسكم ..

فقام البعض منهم صفين وقتل بعضهم بعضًا ، حتى قيل لهم : كُفُّوا . فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للحى .

وقال بعض العلماء : وقف الذين عبدوا العجل صفًا ، وأقبل عليهم الذين لم يعبدوه فقتلوهم ..

وقد عوقبوا جميعًا بهذا العقاب وهو قتلهم أنفسهم ، لأن الذين لم يعبدوا لم ينكروا على الذين عبدوا . فعمهم العقاب جميعًا ، وقد أخرج ابن ماجه فى

---

(١٢٩) سفر الخروج – الإصحاح الثاني . (١٣٠) الآية ٦٤ من سورة النساء .

سننه : «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي قوم هم أعز منهم وأمنع لا يُغيِّرون عليهم إلا عمهم الله بالعقاب».

يقال : إن القتل استحر فيهم حتى بلغ عدد القتلى سبعين ألفًا . ثم عفا الله عنهم بعد ذلك .

والعقاب بالقتل هو ما يشير إليه قوله – تعالى – : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾(١٣١).

ثم قدم لهم موسى – بعد ذلك – الألواح التي كتبها عن الله حين ناجاه، وقال لهم : هذه وصايا الله فالتزموها واعملوا بتعاليمها ، ولكنهم بعد كل ذلك رفضوا الالتزام بما جاء في هذه الألواح قائلين :

لا ، إلا أن يكلمنا الله كما كلمك ، بل قالوا : إلا أن نرى الله جهرة ..

فأخذتهم صاعقة ، فماتوا .. وظلوا أمواتًا يومًا وليلة . ثم بعثهم الله مرة أخرى ..

فقال لهم موسى : اقبلوا ما آتاكم الله . فرفضوا أيضًا ..

فأمر الله ملائكته فاقتلعت الجبل ، فجعله عليهم مثل الظلة ، وأتاهم ببحر من خلفهم ونار من قبَل وجوههم . ثم قيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها ، وإلا سقط فوقكم الجبل .

فسجدوا توبة لله ، وأخذ عليهم الميثاق . وكان سجودهم على شق لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفًا من سقوطه عليهم ..

وارتفاع الجبل فوقهم يشير إليه قوله تعالى :

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾(١٣٢).

---

(١٣١) الآية ٥٤ من سورة البقرة.

(١٣٢) الآية ١٧١ من سورة الأعراف.

والميثاق الذى أخذ عليهم هى الوصايا التى سبقت الإشارة إليها . وجاء مضمونها فى قوله – تعالى – :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾(١٣٣)

ولكنهم على الرغم مما مر بهم من آيات ، وما تلقوه من وعيد لم يوفوا بالعهد ولم يحافظوا على الميثاق .. وقد أظهر الله مكنون ما فى صدورهم بقوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾(١٣٤)

موسى ينتخب من قومه لمناجاة الله :

واصطحب موسى – عليه السلام – أخاه هارون وابنيه فى رحلة تعبدية ، فانتهوا إلى جبل ارتقوه ، واستراح هارون فى كهف من كهوفه ففاضت روحه ولقى ربه ..

فعاد موسى إلى قومه فاتهموه بقتله ..

قالوا له : أنت قتلته حسدًا وبغيًا ، لقد كان ألين منك جانبًا وأحب إلينا منك فقتلته من أجل ذلك .

فقال لهم : كيف أقتله ومعى ابناه ، ثم أراد أن يشهدهم على أنه لم يقتله . فقال لهم : اختاروا من بينكم سبعين رجلاً .. فاختاروا ، وسار بهم .

---

(١٣٣) الآيتان ٨٣ ، ٨٤ من سورة البقرة .

(١٣٤) الآية ٩٣ من سورة البقرة .

حتى إذا انتهوا إلى الجبل الذى مات فيه هارون ، وإلى المكان الذى دفن فيه . ناداه موسى : يا هارون .. فرد عليه هارون ..

فقال له موسى : من قتلك يا هارون ؟

فقال هارون : ما قتلنى أحد ولكن الله توفانى ..

فبهت القوم ولاموا أنفسهم . فأخذتهم الرجفة ، فجعلوا يميلون يمينًا وشمالاً .

ولجأ موسى إلى ربه مناجيًا إياه أن يرحمهم .. فرحمهم .. وفى ذلك يقول - تعالى - :

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين (١٥٥) عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون (١٥٦) ﴾[١٣٥]

البشارة بمحمد - ﷺ - :

طمأن الله موسى على المؤمنين من قومه ، وأخبره وبشره بنبى آخر الزمان ، وأن من أوصاف الذين تشملهم رحمة الله أنهم يؤمنون به .

ومن أوصاف هذا النبى الذى ورد ذكره فى التوراة والإنجيل أنه أمى ، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، وأنه يضع الإصر والأغلال عن كاهل أهل الكتاب ، فإنه سيأتى لإنقاذهم مما سيكونون فيه من اضطهاد ، أو يخلصهم من القيود التى يثقل بها الأحبار والرهبان كاهلهم ، بما يضيفونه على الناس من تبعات ليست فى الكتاب .

---

(١٣٥) الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة الأعراف .

فمن آمن به وصدقه ونصره كان من المفلحين الناجين ..

وهذه هي الآيات الدالة على ذلك :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (١٣٦)

إن من خصائص هذا النبي أن الله أرسله إلى البشر جميعًا ، فرسالته عامة شاملة ، وليست رسالة خاصة كرسالة موسى وعيسى .

ولذلك خوطب الناس جميعًا بوجوب اتباعه والإيمان به .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١٣٧)

وكان التبشير بالنبى - ﷺ - فى الكتب السابقة إلزامًا لأصحاب هذه الشرائع بوجوب اتباعه والإيمان به فور العلم بظهوره وبعثته .

وقد أخذ الله ميثاق النبيين السابقين على ذلك .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١٣٨)

---

(١٣٦) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(١٣٧) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .

(١٣٨) الآية ٨١ من سورة آل عمران .

إيذاء موسى :

تضاعف الأذى على موسى من قومه، وتعددت وجوهه..

فبينما هم يتهمونه بالغلظة عليهم ويصفون هارون بأنه أحلم منه وأعطف وأرق.. إذا بهم يتهمونه بأنه حمَّلهم ما لا يطيقون، أخرجهم من أرض الخضرة والنعمة وزج بهم في هذا التيه الذي لا أول له ولا آخر، في صحراء جافة غليظة تحرقهم الشمس ويكدهم ويقتلهم العطش..

ثم إذا بهم يتهمونه بالكذب حينًا، والسحر حينًا والجنون حينًا..

ثم يلصقون به تهمة قتل أخيه هارون، حينما رجع بدونه فقالوا له أنت قتلت أخاك..

ثم إنهم اتهموه إلى جانب ذلك بعيب خِلْقي فوصفوه بأنه «آدر»[١٣٩] وأنه أبرص، إلى غير ذلك من ألوان الأذى..

وربما كان الإيذاء الذي برأه الله منه ينطبق على الإيذاء بالكلام الذي كانوا يوجهونه إليه مما جرت عادة المكذبين بالأنبياء أن يوجهوه إليهم..

وقد حدث مثل ذلك لنبينا - ﷺ - فما من اتهام وجه إلى نبي سابق إلا وَوُجِّه مثله إلى النبي - ﷺ -.

وقد حدث أن النبي - ﷺ - كان يقسم بعض الغنائم بين أصحابه فقام رجل: وقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله.. فَذُكِر ذلك للنبي - ﷺ - فغضب ثم قال: رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر..

ومع ذلك فإنه لا يبعد الإيذاء عن طريق وصفه بعيب خلقي أشاعوه عنه حين رأوه يحتشم ويستر عورته عند اغتساله. وكانوا حين يستحمون يستحمون عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم، أما هو فكان يتوارى عنهم. فأشاعوا عنه بأنه آدر، أو أبرص..

وقد برَّأ الله نبيه موسى من كل ما وصفوه به فقد ذكر أنه في أحد الأيام خلع ملابسه وألقاها على حجر، وأخذ يغتسل..

---

(١٣٩) الأدرة: انتفاخ الخصية.

فطار الحجر بملابسه فخرج وراءه يجري وهو يقول : ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر ، حتى رآه بنو إسرائيل جميعًا ، وعرفوا أنه لا يوجد به عيب خِلْقي ..

وهذا هو قوله -تعالى- : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا﴾[١٤٠]وقد ذكر المفسرون أسبابًا أخرى لنزول تلك الآية سيأتي بعضها .

إن جري الحجر بثياب موسى هو معجزة بالنسبة له .. وليس أمرًا غريبًا ، فَعَصَاهُ - عليه السلام - فعلت ما هو أكثر من ذلك ..

وقد أورد البخاري في ذلك حديثًا عن أبي هريرة . قال : كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة -ينظر بعضهم إلى بعض- وكان موسى - عليه السلام - يغتسل وحده ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه ، فجرى موسى في أثره يقول : ثوبي يا حجر ، حتى نظر بنو إسرائيل إلى موسى ، فقالوا : والله ما بموسى من بأس ، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربًا[١٤١].

ولكن رميهم موسى بذلك الداء ليس هو الأذى الذي برأه الله منه ، ويستدعي توبيخهم عليه بقوله :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (١٤٢)

إن عَجُز الآية يوحي بأن إيذاءه يتعلق بزيغهم عن الطريق المستقيم برميه بما لا يتناسب خُلُقيًا لا خِلْقيًا . من قبيل عدم العدل الذي وصف به ذلك الرجل نبي الرحمة والعدل - ﷺ - فقال - ﷺ - : رحم الله موسى أوذي بأكثر

---

(١٤٠) الآية ٦٩ من سورة الأحزاب .

(١٤١) البخاري - باب الغسل - جـ ١ ص ٧٨ . مسلم كتاب الحيض جـ ١ ص ٢٦٧ رقم ٣٣٨ ، كتاب الفضائل جـ ٢ ص ١٨٤١ . وجمع الجوامع جـ ٣ ص ٨٦ حديث رقم ٨٨ / ١٦٤٧١ .

(١٤٢) الآية ٥ من سورة الصف .

من ذلك فصبر .. وقد فعل بنو إسرائيل ما هو أكثر من اتهام نبيهم – عليه السلام – بالظلم. وذاك هو اتهام موسى – عليه السلام – بالزنا ..

وقصة ذلك أن موسى – عليه السلام – طالب قارون بالزكاة، ولم تسمح نفس قارون بذلك، فألح عليه موسى، فأراد قارون أن يكيد له، فاتفق مع امرأة فاجرة أن تدعى على موسى كذبًا أنه زنى بها ..

ولما أصبح قال قارون لموسى: أليس من وصايا الله عدم الزنا، وأن عقوبة الزانى الرجم؟ قال موسى: بلى ..

فقال له قارون: فإنك اقترفت جريمة الزنا مع فلانة. فهيا لنرجمك.

ولكن الله أراد أن يبرىء ساحة نبيه – عليه السلام – ويفضح ذلك الظالم الكاذب البخيل. فجاءت المرأة وأقرت بأن قارون هو الذى أمرها أن تقول هذا الكلام الذى لم يحدث ولا أساس له من الصحة(١٤٣).

وبرئت بذلك ساحة هذا النبى الشريف العفيف.

أما اتهامه بقتل أخيه فلا يقل شناعة عن رميه بالتهمة السابقة، لأن جرائم القتل لا يرتكبها إلا من خلت من قلوبهم الرحمة وجفت من نفوسهم دوافع الخير والسلام، وما هكذا الأنبياء ..

ولم يتهم موسى – عليه السلام – بقتل رجل عادى، ولكنه اتهم بقتل أمَسّ الناس صلة به، وأقربهم رحمًا منه. وهو أخوه .. وهو فوق ذلك نبى ..

وبرأه الله أيضًا من هذه التهمة التى أوذى بسببها كثيرًا .. فأنطق الله هارون على ملأ من الناس .. قائلاً: أنا لم يقتلنى أحد، ولكن الله توفانى إلى رحمته، واختارنى إلى جواره ..

وثبتت وجاهة موسى بذلك، والوجاهة هى شرف النفس وطهارة الذيل وحسن الأحدوثة وطيب الذكر ..

قصة قارون:

كان قارون من بنى إسرائيل من قوم موسى .. بل إن هناك علاقة نسب وثيقة بينهما فهو على أحد الأقوال ابن عمه وعلى بعض الأقوال عمه ..

---

(١٤٣) قصص الأنبياء للنجار ص ٣٤١.

وكان أعلم الناس بالتوراة بعد موسى وهارون وأقرأهم لها .. وله صوت جميل حين يتلوها . حتى كان يلقب بالمنوَّر ..

واختبره الله بالمال . والمال فتنة قلما ينجو منها إلا من عصمه الله .. وكان قارون وسيمًا جسيمًا ، وحين كانَ بمصر ولاه فرعون أمر بنى إسرائيل ، ولكنه بغى عليهم .. وتكبر وتجبر . ومن علامة تكبره أنه كان يطيل ثيابه على سبيل الخيلاء والتكبر لينفرد بذلك عن الناس .

ويبدو أنه تعلم صناعة الكيمياء فأثرى عن طريق ذلك ثراءٍ فاحشًا ، حتى كثرت خزائن أمواله ، وعجزت الرجال أولو القوة عن حمل مفاتيح هذه الخزائن . فما بالك بالخزائن نفسها ؟

وازداد طغيان قارون بماله واشتد حسده لموسى وهارون على ما آتاهما الله من نبوة . وكأنه أراد أن تجتمع له النبوة مع المال . ولكن ذلك ليس إليه إنما هو لله الذى هو أعلم حيث يجعل رسالته ..

واجتمع له مع كثرة ماله شحه وبخله .. فكان بطرًا شديد البغى ..

والنعمة تحب أن تحدث عن نفسها بالشكر ، وشكرها أن ينال منها الفقير والمحتاج ، فإذا حرما منها أصبحت وبالاً على صاحبها وفسادًا فى المجتمع . فكان على موسى - عليه السلام - حق نصحه وإرشاده . فأقبل عليه ينبهه على ما يجب عليه نحو نفسه وقومه ودينه .

وأقبل عليه الحكماء من قومه يوجهونه إلى الخير ..

قال له قومه : لا تأشر ولا تبطر ، ولا تكفر النعمة .. إن من شكر النعمة فقد قيدها بعقالها ، ومن كفرها فقد عرضها لزوالها .. والله يحب من عبده أن يكون شكورًا لنعمته ، ويكره منه أن يكون معجبًا بنفسه مغترًا بماله ضنينًا به على أهله ومستحقيه .

وقال له قومه : يا قارون إن هذا المال تستطيع أن تبنى به لنفسك مجدًا باقيًا فى الآخرة ، بما تنفقه فى سبيل الله . وبما تساعد به الفقراء والمساكين ، وبما تدخره عند الله ، فالله يضاعف ذلك أضعافًا مضاعفة ..

وليس معنى ذلك أن تنسى الحياة الطيبة ، ولكن خذ منها نصيبك من حلال دون إسراف يمنعك عن حق الله فى عبادته والتقرب إليه فما أصدق قول

الحكيم الذى يقول : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا ..

إن العبادة الحقة لا تحرم صاحبها من التمتع بزينة الحياة الدنيا التى أحلها الله تعالى ..

وحقًا ذلك ، فقد جاء القرآن الكريم بعد ذلك مصدقًا لهذا المعنى حيث يقول : ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾(١٤٤).

وهذا يعنى أنك يا قارون يجب أن تراقب الله فى تصرفك ، وتلحظه فى تقلبك ومثواك ، فإن دوام مراقبة الله يعصمك من الانحراف ويصونك من الخطأ ويوجهك للصواب . وهذه المراقبة هى الإحسان الذى يعبد الإنسان فى ظله ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فليعلم أن الله يراه .

هذه نصيحة خالصة قدمها علماء بنى إسرائيل لقارون .. لقد كان ذا منزلة فيهم ، وعز عليهم أن ينحرف عن الجادة ، ويطغى هذا الطغيان فيفخر بماله ، ويعجب بثرائه ، ويجحد حق الفقير والمسكين ، وهو الذى كان بالأمس يعظهم ويقرأ عليهم التوراة بصوته الجميل وترتيله المؤثر .

ولكن الشيطان قد أعمى قلبه وطمس على بصيرته ، وأضله فأورده موارد التهلكة ..

نسى قارون أن الدنيا عارية مستردة ، وأن المال هبة من الله ، يبسط الرزق لمن يشاء ويطويه عمن يشاء لحكمة يعلمها هو ..

وما المال إلا فتنة يختبر بها الله الناس ليعرف من يصون النعمة ممن لا يصونها ، ولم يتأثر قارون بما سمع من نصائح ، وقال فى تكبر واستعلاء :

إن هذا المال لم يعطه لى أحد ، وإنما أوتيته على علم عندى .

لا تذكرونى بمواعظكم ولا تسمعونى قوارص كلمكم ، فلست فى حاجة إلى نصحكم ولا بمؤمن بما تقولون .. وما الأمر إلا مواهب تُحسن استثمار القدرات والأوقات ، وخبرات تعرف كيف تقلب الصفقات والتجارات ، وذكاء يحسن التنبؤ بأحوال السوق وما فيه من توقعات ..

---

(١٤٤) الآية ٣٢ من سورة الأعراف .

لا تقولوا لى : إنه حظ . وإنه قَدَر .. بل هو فن وخبرة وعبقرية . وهذه مناقب عندى أحسنت استثمارها فكانت نتيجتها ما ترون ..

فماذا تريدون منى بعد ذلك ؟

انصرفوا عنى ، ووفروا نصائحكم لأنفسكم ..

وكأنه أراد أن يظهر أمام الجميع قدرته ، ويظهر ثروته ، ويباهى بما لديه من جاه وسلطان . فخرج فى موكب عظيم تحتشد فيه المركبات الفاخرة ويحيط به الخدم والحشم ، ويتقدم أمامه من يفسح الطريق ، ويتأخر عنه من يحرسه من الخلف ..

وكان هذا مفاجأة لم ير الناس مثلها ..

وقف الناس منها موقفين متضاربين . أما طلاب الدنيا ، فقد تمنوا أن يكون لهم مثل الذى لقارون من جاه ومال ومنصب وسلطان ..

وحسبوا أن الحياة نعيم ومال ، وخدم وحشم ، وزخرفة وبهرجة . وطعام شهى ، ولباس فاخر ، وزينة ظاهرة .. ونسوا ما وراء ذلك من حساب وجزاء ونعيم وشقاء ..

وأما العلماء فقد تنبهوا إلى ما وراء ذلك من محنة خلقية ، وسفه وحمق ، وعمى عن الحق ، وتغاض عن الحكمة .. فأرادوا أن ينبهوا الناس إلى عدم الاغترار بما يرونه فقالوا لهم : ويلكم إن ثواب الله فى الجنة خير من ذلك كله . ولو أنصفتم أنفسكم لرثيتم لحال هذا البائس بدلاً من أن تتمنوا أن تكونوا مثله ..

ومر الموكب على موسى - عليه السلام - فى مجلسه وهو يذكر قومه ويعظهم ، فقال له موسى : ما حملك يا قارون على ما فعلت ؟ لماذا أردت أن تكسر قلوب الفقراء ؟

فقال له : يا موسى ، لئن كنت فضلت علىَّ بالنبوة فقد فضلت عليك بالمال ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون علىَّ أو لأدعون عليك .

ويلك يا قارون ، لقد أضلك الشيطان وأعمى بصيرتك .. وأنساك أن الذى تخاطبه هو كليم الله وصفيه ..

ولقد خاب مقياسك حين وضعت المال فى كفة مع النبوة ..

واين يقع المال من النبوة ؟ بل اين تقع الدنيا بأسرها من النبوة ؟ إن الدنيا لو وزنت عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ..

وقبل موسى – عليه السلام – التجدى ..

وخرج موسى ، وخرج قارون . فقال له موسى : أتدعو أم أدعو ؟ فقال قارون استعلاءً وكبرًا : ادعو انا ..

وظل يدعو ويدعو فلم يجد لدعائه صدى ..

واقبل موسى يدعو قائلاً : اللهم مر الأرض فلتطعنى اليوم .

فأوحى الله إليه : إني قد فعلت .

فقال موسى : يا أرض خذى قارون ومن معه .

فأخذتهم الأرض إلى اقدامهم .

ثم قال : خذيهم .

فأخذتهم إلى رُكبهم ، ثم إلى مناكبهم .

ثم قال : اقبلى بكنوزهم وأموالهم .

فاقبلت بها حتى نظروا إليها .

ثم اشار موسى – عليه السلام – بيده فقال : اذهبى بكل ذلك فاستوت بهم الأرض(١٤٥).

وذهب قارون إلى غير رجعة ، ولم يجد له نصيرًا ينصره من هذا المصير المشئوم .

ونظر الذين تمنوا أن يكونوا مثله إلى هذه العاقبة السيئة ، فحمدوا الله كثيرًا على انه لم يحقق لهم ما تمنوه .

---

(١٤٥) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤١٩ .

وأدركوا أن الله قد من عليهم فلم يخسف بهم كما خسف بقارون .. هذه القصة وردت فى القرآن الكريم فى قوله - تعالى - :

(إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾)(١٤٦)

وقد اختلف المفسرون حول زمان هذه القصة .. هل كانت قبل خروج بنى إسرائيل من مصر . أم كانت فى التيه ؟

وربما كان قوله تعالى : ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ يشير إلى أنها كانت قبل الخروج . ففى مصر كانت لبنى إسرائيل دور ..

أما بعد خروجهم فقد كانوا فى تيه وصحارى .. وكانوا يقيمون فى خيام .. ولكن لا يبعد أن يكون قارون بغناه وثروته قد اتخذ له دارًا مشيدة أو قصرًا منيفًا ..

إن هذه القصة تلفت أنظارنا إلى عاقبة التعالى بالباطل والكبرياء الكاذبة . ووجوب التواضع ، وحمد الله على نعمه ، وعدم الاغترار بالمال فإنما هو

(١٤٦) الآيات ٧٦ : ٨٣ من سورة القصص .

عارية مستردة، وهو محنة قبل أن يكون منحة، والله جل وعلا يقول فى حق قوم أمدهم بالمال فلم يرعوا جانب الله فيه: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون﴾(١٤٧).

إن أساس الفساد فى الأمم غالبًا ما يكون من المترفين الذين يجرون وراءهم السُّذَّج من الناس.. ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا﴾(١٤٨).

بقرة بنى إسرائيل:

ومن العجائب التي حدثت في قوم موسى قصة البقرة التى أحياها الله بقدرته لتنطق باسم قاتل قتل قريبًا له ليرثه أو ليتزوج ابنته..

قال العلماء:

كان فى بني إسرائيل رجل غنى اسمه عاميل أصبح القوم فوجدوه قتيلاً، ولم يعرفوا من قتله..

واختلف فى سبب قتله ومكانه..

فقال بعضهم إنه كان ذا غنى وثروة، وكان له ابن عم فقير ينتظر موته ليرثه، فلما طال الأمد دون أن يموت قتله، ونقل جثته إلى مكان بعيد.. وأصبح الناس فوجدوه قتيلاً..

وقال بعضهم: إنه كانت له ابنة جميلة، وطمع ابن عم له في زواجها ولكن أباها رفض ذلك بسبب فقره، فقتله، وحمله إلى حيث لا يعرفه أحد..

وقال بعضهم: إن بنى إسرائيل كان لهم مسجد له اثنا عشر بابًا، لكل باب قوم يدخلون منه، فوجدوا قتيلاً في سبط من الأسباط، فادعى هؤلاء على هؤلاء، فاختصموا إلى موسى..

ورفع موسى الأمر إلى ربه.. فقال له: مرهم بأن يذبحوا بقرة.

وجمع موسى قومه وأخبرهم بما أمره الله..

---

(١٤٧) الآيتان ٥٥، ٥٦ من سورة المؤمنون. (١٤٨) الآية ١٦ من سورة الإسراء.

وتعجب القوم من ذلك .. فما العلاقة بين قضيتهم الغامضة وبين ذبح بقرة ؟

ولذلك قالوا له : اتتخذنا هزوا ؟ هل تسخر منا يا موسى ؟ هل ذبح البقرة هو الذى يخبرنا بقاتل « عاميل » ؟

فأجابهم موسى بقوله : معاذ الله أن أسخر منكم ، وأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، لأن السخرية من صفات الجاهلين الذين يبتعدون عن جواب السائل بما يرشده ، إلى طريق آخر يضلله ، وهذا هو الجهل الذى يرتفع عنه مقام النبوة .

فلما رأوا منه الجد سألوه عن حقيقة هذه البقرة التى يذبحونها .. طالبين منه أن يدعو ربه ليبين لهم ذلك .

فقال موسى : إن الله يقول لكم : هذه البقرة وسط بين البكر والمسنة فهى ليست فارضًا – والفارض المسنة – وليست بكرًا أوْ صغيرة لم تحمل بعد بل هى عوان بينهما – والعوان : الوسط – .

فلا تترددوا فى الاستجابة لهذا الأمر .

ولكنهم على عادتهم فى اللجاج والتردد عادوا يسألونه قائلين له :

بالله عليك ادع لنا ربك يوضح لنا لون هذه البقرة ..

فسأل موسى ربه ، وأجابهم بقوله :

إنه يقول لكم : إن البقرة المطلوب ذبحها يجب أن تكون صفراء لونها فاقع ، منظرها يسر النفس ويعجب العين .

وهذه أوصاف يمكن توافرها فى أبقار كثيرة ، وكان من الممكن الاجتزاء بواحدة منها ليكفيهم الله همهم ويذهب غمهم .

ولكنهم عادوا إلى موسى مرة أخرى طالبين زيادة فى العلم عن أمر هذه البقرة قائلين له : يا موسى ادع لنا ربك يبين لنا المزيد من صفات هذه البقرة ، فإن البقر كثير ، وهو متشابه ، وربما لو ذبحنا أى بقرة لم تجزئنا .. وسوف نستجيب إن شاء الله فى هذه المرة لما يأمر به الله .

فعاد موسى وسأل ربه وأجابهم :

إن الله يقول لكم : إن هذه البقرة المطلوبة من صفاتها أنها لم يذللها العمل . لم تقم بحرث الأرض ولا سقى الزرع قبل ذلك ، وهي خالية من العيوب سالمة من الآفات . لا توجد بها علامة مميزة في جلدها تخالف لونها الأصفر الفاقع ..

لقد تحددت – إذن – أوصاف البقرة المطلوبة ..

وأخذوا يبحثون عن بقرة اجتمعت فيها هذه الصفات حتى وجدوها عند يتيم في بني إسرائيل ..

ولا بأس من ذكر قصة هذا اليتيم التي أوردتها بعض الكتب لما فيها من العظة والاعتبار .

قالوا : إنه كان في بني إسرائيل رجل صالح ، وله عجلة ، وله طفل . فأتى بهذه العجلة إلى غيضة من الغياض وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لابني حتى يكبر .

ومات الرجل ، فصارت العجلة في الغيضة عوانًا ، وكانت تهرب من كل من رآها .

فلما كبر الابن ، وكان بارًا بأمه . فكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث . يصلي ثلثًا ، وينام ثلثًا ، ويجلس عند رأس أمه ثلثًا .

وكان إذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره ، وأتى السوق فباع ما احتطبه بما شاء الله ، ثم يتصدق بثلثه ، ويأكل بثلثه ، ويعطي أمه ثلثه .

فقالت له أمه يومًا : إن أباك ورّثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا وكذا . فانطلق وادع الله أن يردها عليك ، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها .

وكانت تسمى المذهبّة لحسنها وصفرتها .

فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى ، فصاح بها : وقال :

أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب أن تأتي .

فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه ، فقبض على عنقها وأقبل يقودها . حتى وصل بها إلى أمه ..

وقالت له أمه : إنك فقير لا مال لك ، ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل ، فانطلق فبع هذه البقرة .

فقال لها : بكم أبيعها ؟

قالت : بثلاثة دنانير ، ولا تبع بغير مشورتي .

وكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثة دنانير .

فانطلق الفتى إلى السوق ، فبعث الله إليه ملكًا ليُرِى خلْقَه قُدرته وليختبر الفتى في مدى برّه بأمه وطاعته لها فقد اشترطت عليه أن لا يبيع البقرة إلا بعد مشورتها ، وكان الله عليمًا خبيرًا . فقال له الملَك :

بكم تبيع هذه البقرة ؟

قال الفتى : بثلاثة دنانير ، وأشترط عليك رضا والدتي .

قال له الملَك : فإني أعطيك ستة دنانير ، ولا تستأمر والدتك .

فقال الفتى : لو أعطيتني وزنها ذهبًا لم آخذه إلا برضا والدتي .

ثم إن الفتى رجع إلى أمه وأخبرها بالثمن فقالت له : ارجع واطلب فيها ستة دنانير . ولا تبع إلا بعد مشورتي .

فانطلق بها إلى السوق فأتاه الملك فقال له :

استأمرت أمك ؟

فقال له الفتى : إنها أمرتني أن أبيعها بستة دنانير على أن أستأمرها .

فقال الملك : فإني أعطيك اثني عشر دينارًا على ألا تستأمرها .

فأبى الفتى ، ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك ، فقالت له : إن الذي يأتيك ملك في صورة آدمي ليجربك ، فإذا أتاك فقل له : أتأمرنا أن نبيع أم لا ؟

فجاء الفتى إلى السوق ، وجاءه الملَك . فأخبره بما قالت أمه ، فقال الملَك : اذهب إلى أمك وقل لها :

أمسكي هذه البقرة ، فإن موسى يشتريها منك لقتيل من بني إسرائيل ، فلا تبيعيها إلا بملء جلدها ذهبًا .

وقدر الله على بنى إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة لهذا الفتى على برّه بأمه[149].

وقص الثعلبى هذه القصة مع اختلاف يسير هو أن الذى جاء ليشترى البقرة من الفتى ليس ملَكًا، ولكنه كان إبليس يريد أن يغويه. وقصها أيضًا متفقة مع القصة السابقة.

وبحث بنو إسرائيل عن بقرة تجمع الأوصاف التى ذكرها لهم موسى - عليه السلام - فلم يجدوها مجتمعة إلا فى بقرة هذا اليتيم..

فاشتروها منه بملء جلدها ذهبًا..

وذبح بنو إسرائيل البقرة.. وجاء موسى وأخذ جزءًا منها فضرب به القتيل، فحيِىَ القتيل بإذن الله.

قيل: إنه ضربه بلسانها لأنه آلة الكلام.

وقيل: إنه ضربه بعجب الذنب، وهو الجزء الذى يعاد منه تكوين الإنسان يوم البعث والنشور.

وقيل: إنه ضربه بعظم من عظامها.

فقام القتيل وأوداجه تشخب دمًا، واستنطقه موسى فنطق وقال: قتلنى فلان بن فلان، ثم مات مكانه.

فحرم قاتله الميراث. وفى التشريع الإسلامى: لا ميراث لقاتل.. وهو مما بقى فى الإسلام من الشرائع الأولى.

وقد سميت سورة البقرة باسم البقرة التى ورد ذكرها فى هذه القصة. وفيها من العبر والعظات الكثير.

فهى تلفت أنظارنا إلى عناد بنى إسرائيل وتشددهم فى أمور لا تستحق أى تشدد، فتكون مغبة ذلك راجعة عليهم هم، فلو أنهم استجابوا إلى أمر موسى - عليه السلام - بادئ ذى بدء لما حملوا أنفسهم عناء كبيرًا ومالاً كثيرًا..

---

(١٤٩) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٢٠٠. قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٣٦.

وهى تشير كذلك إلى فساد قلوبهم وقسوتها .. فهذه معجزة كبرى أمامهم ..

حياة قتيل بضربه بجزء من بقرة ذبيح - هل هناك إعجاز أكثر من ذلك ؟ كان يكفى ذلك لكى تستقيم نفوسهم على النهج ويسيروا على الطريق المستقيم ولكنهم لم يلبثوا فور رؤيتهم هذه المعجزة أن عادوا إلى طبيعتهم التى وصفها الله بقوله : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾ .

إن هذه القصة تضع أمامنا صورة لهؤلاء فنحذرهم ، ونعلم أى لون من الناس هؤلاء الذين أصبحوا يختلطون بالمسلمين فى مجتمعاتهم المختلفة . فلنكن على حذر دائم فى تعاملنا مع ذرية هؤلاء القوم .

ولابد من الإشارة إلى ما ترمز به قصة اليتيم من أثر البر بالوالدين وما كان له من أجر معجل فى الدنيا ناهيك عن أجر الآخرة .

وفى إحياء الميت دليل ملموس على قدرة الله ، ولفت للأذهان إلى الحياة الآخرة وحتميتها ، وأن البعث والنشور ليس أمرًا مستحيلاً كما يتوهم الكفرة .

ثم انظر إلى عبرة أخرى تكمن فى عبادة بنى إسرائيل العجل فقد لفت الله أنظارهم : كيف يستحق أن يكون إلهًا ما لا يستطيع أن يدفع عن رقبته سكين الجزار ؟

إن هذه القصة كفيلة أن تحطم أسطورة عبادة الأوثان ، وتعدل سلوك المنحرفين فى عبادة الأبقار لدى أصحاب العقول النيرة التى تفقه وتعى ..

إن قصة هذه البقرة والحوار الذى دار بين موسى وقومه حولها تقصه علينا هذه الآيات الكريمة :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ
أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا
بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ
تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا

تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ
نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ
أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ
وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾) (١٥٠)

فقد أراهم الحق سبحانه وتعالى من الآيات والمعجزات ما يدفعهم إلى التصديق والطاعة والانقياد لو كان فى قلوبهم شيء من لين أو ذرة من حس ، ولكنها قلوب اتصفت بالصلابة والقساوة ، فصارت أشد قسوة من الحجارة ، لأن من الحجارة ما يتأثر وينفعل ، وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل أصلاً ، ولذا فإن للحجارة مزايا فضلت بها على قلوب هؤلاء . فلها منافع ينتفع بها ، فى حين تعطلت قلوب هؤلاء من كل نفع ومنفعة والحجارة تخشى الله ، وقلوب هؤلاء تعصى الله فيما كلفها به .

موسى والخضر :

أورد البخارى في صحيحه أنه قيل لابن عباس – رضى الله عنهما – إن فلانًا – وذكر اسمه – يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل وأنه موسى آخر . فقال : كذب عدو الله . حدثنا أبىّ بن كعب عن النبى – ﷺ – أن موسى – عليه السلام – قام خطيبًا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يَرُد العلم إلى الله . فقال له الحق سبحانه وتعالى : لى عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال : أى رب ومن لى به ، قال : تأخذ حوتًا فتجعله فى مكتل ، حيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ . وأخذ حوتًا فى مكتل ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة[١٥١]..

---

(١٥٠) الآيات ٦٧ : ٧٤ من سورة البقرة .

(١٥١) أخرجه البخارى مرتين فى جـ ٤ ، ص ١٥٤ ، وفى سورة الكهف جـ ٦ ص ٨٨ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .

وروى أيضًا أن موسى – عليه السلام – سأل ربه فقال : يارب أيُ عبادك أحب إليك ؟ فقال : الذى يذكرنى ولا ينسانى .

فقال : أيُ عبادك أقضى ؟

قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى .

فقال : يارب فأيُ عبادك أعلم ؟

قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه ، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى .

قال : فهل فى الأرض أحد أعلم منى ؟

قال : نعم .

قال : يارب من هو ؟

قال : الخضر .

قال : فأين أطلبه ؟

قال : على الساحل عند الصخرة التى يفلت عندها الحوت .

وجعل الحوت علمًا له ودليلاً ، وقال : إذا حيى هذا الحوت فإن صاحبك هناك[١٥٢] .

وهناك رواية أخرى تكاد تحدد زمن المحاورة . رواها القرطبى قال :

قال ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر ، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن يذكرهم بأيام الله . فخطب قومه فذكرهم ما أتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون ، وأهلك عدوهم ، واستخلفهم فى الأرض ، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليمًا واصطفاه لنفسه ، وألقى عليه محبة منه ، وأتاكم من كل ما سألتموه فجعلكم أفضل أهل الأرض ، ورزقكم العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والتوراة بعد أن كنتم جهالاً .

---

(١٥٢) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٢٢ .

فقال له رجل من بنى إسرائيل : عرفنا الذى تقول ، فهل على وجه الأرض أحدًا أعلم منك يا نبى الله ؟

قال : لا . فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه .

فبعث الله جبريل : أن يا موسى ، وما يدريك أين أضع علمى ؟ إن لى عبدًا بمجمع البحرين أعلم منك(١٥٣)..

فقد كانت هذه المحاورة إذن فى مصر بعد هلاك فرعون ، وهى تتفق مع رأى من يقول : إن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر واستقروا بها فترة تصديقًا لما ورد من آيات مثل :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (١٥٤)

أما مجمع البحرين فقد وردت بشأنه أقوال عدة ..

فبعضهم يقول : هو ملتقى بحر فارس والروم .

وبعضهم يقول : ملتقى بحر الأردن وبحر القلزم .

وبعضهم يقول : هو عند طنجة ..

القصة :

واصطحب موسى فتاه يوشع بن نون ، وحمل مكتلاً فيه الغذاء ومن بينه حوت مشوى أو مملح .

ومن شدة حرص موسى على لقاء العبد الصالح لم يستخلف على قومه ومضى لوجهه . وسار موسى وصاحبه فى طريق غير ممهد وخاضا ماء ووحلاً حتى لقيا تعبًا وجهدًا شديدين .

---

(١٥٣) تفسير القرطبى سورة الكهف ص ٤٠٤٩ .

(١٥٤) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .

وأخيرًا انتهيا إلى صخرة نائية فى البحر فأتياها . فانطلق موسى ليتوضأ . فاقتحم مكانًا فوجد فيه عينًا أعجبه ماؤها فتوضأ منها ، وانصرف ولحيته تقطر ماء . وكان حسن اللحية ، فنفض لحيته فأصاب الماء المكتل الذى فيه الطعام ، وابتل الحوت بالماء ، فحيى بإذن الله - لتتم بذلك العلامة التى أخبر الله بها . وانسلَّ الحوت من المكتل إلى الماء ، وأخذ طريقه إلى البحر فما أصاب فى سيره مكانًا مبتلاً إلا أصبح يابسًا بقدرة الله ..

واستأنفا سيرهما . ونسى يوشع أمر الحوت ..

فلما جهدهما السير وأدركهما الجوع قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا .

فتذكر يوشع الحوت فأخبر موسى بأمره ، فقال موسى : هذا ما كنا نبغى .. وعادا أدراجهما يسلكان الطريق الذى درجا عليه وهما يتبعان أثر أقدامهما ..

حتى وصلا إلى المكان الذى كانا فيه ، ورأيا أثر الحوت فى انطلاقه إلى البحر ..

ويقال إن الحوت تراءى لهما ليدلهما على الطريق .. وسارا فى طريق ألهمهما الله إياه حتى وجدا صخرة يجلس فوقها العبد الصالح .

فألقى موسى عليه السلام فرد عليه الخضر قائلاً : وعليك السلام يا موسى . يا نبى بنى إسرائيل .

فقال له موسى : ومن أخبرك باسمى ؟

قال : الذى دلَّك علىَّ .

وحدثت محاورة بينهما . طلب موسى من الخضر أن يعلمه مما علمه الله :

فقال له الخضر : إنك لا تصبر على مصاحبتى ..

ولكن موسى وعده بالصبر . فاشترط عليه الخضر ألا يسأله عن شىء يَحْدُث حتى يخبره به هو .. وطلب موسى من يوشع أن يعود أدراجه لقومه . ومضى موسى مع الخضر .

وسارا معًا ، حتى وجدا سفينة ، ركباها ليجتازا بها البحر مع الراكبين فيها .

ونزل طائر من الجو إلى الماء فحسا حسوة بمنقاره . فقال الخضر لموسى : أتدى ماذا أراد الله أن يعلمنا إياه بالتقاط هذا الطائر الماء ؟

قال موسى : لا . قال الخضر : أراد أن يعلمنا أن علمى وعلمك وعلم الأولين والآخرين بجانب علم الله لا يجاوز القطرة التى التقطها الطائر بمنقاره من هذا البحر الخضم .

ثم قال له : يا موسى إن الله أعطى كل أحد من علمه بمقدار ، وأنت على علم علمك الله إياه لا أعلمه ، وأنا على علم علمنيه الله لا تعلمه . وكأنه أراد أن يعرفه أن تلاقى العلماء يولد فنونًا من العلم ، وينشر المعرفة بين الناس .

وما أن توسطت السفينة البحر حتى عمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه ..

فاعترض موسى على ذلك الفعل ، قائلاً : اتخرق السفينة لتغرق أهلها ؟

فقال له الخضر : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرًا ؟

فتذكر موسى الشرط الذى اشترطه عليه العبد الصالح .. فوعد بأنه لن يتكلم مرة أخرى ..

وكانا قد وصلا إلى الشاطىء الآخر فنزلا وسارا فى الطريق ، فإذا بهما بغلمان يلعبون . فنظر الخضر إلى غلام حسن الصورة من بينهم واستدعاه إليه ، فقتله .

وهنا لم يطق موسى صبرًا على هذا الفعل المخالف لما يعرفه من وصايا الله . فصاح بالخضر قائلاً :

أتقتل نفسًا بغير جرم ارتكبته ؟

فنظر إليه الخضر قائلاً فى عتاب .. لقد اشترطت عليك ألا تعترض علىّ فى تصرفاتى ، وها أنت نقضت الميثاق مرتين ..

فأسرع موسى إلى الإعتذار قائلاً : لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولك أن تفارقنى إذا عدت للمخالفة مرة ثالثة ..

ورضي الخضر بذلك، وسارا في طريقهما ..

وكانا قد وصلا إلى قرية – يقال لها أنطاكية عند بعض الرواة – وقيل هي أيلة. وقيل غير ذلك.

وكان قد بلغ منهما الجوع أقصاه، وطلبا من أهل هذه القرية أن يضيفوهما. فأبى أهل القرية ذلك.. لقد كانوا من اللؤم والبخل بمكان.. والبخل من الصفات المذمومة التي حذرت منها الشرائع أجمع.

وأسلمهما التعب والجوع إلى جدار مُتداع في آخر القرية، واستندا إليه، وإذا بالخضر ينظر إليه فيجده يوشك أن ينقض فطلب من موسى أن يساعده على هدم الجدار وإقامته من جديد.

وهنا ثار موسى – وكان سريع الانفعال – وقال: أهكذا تفعل بدون أجر مع أهل هذه القرية الجاحدة اللئيمة؟

فقال له الخضر: يا صاحبي لقد أخبرتك منذ البداية أنك لن تصبر على صحبتي، وها أنت ذا نقضت عهدك ثلاث مرات، فالآن حلت لي مفارقتك.

ولكن قبل أن أفارقك أخبرك بتأويل ما حدث، حتى لا تظن أنني تصرفت من عندي دون أمر ربي.

أما السفينة يا موسى. فهي ملك لمساكين يقتاتون من أجرتها، وقد أردت أن أعيب هذه السفينة لأن هناك ملكًا ظالمًا إذا رأى سفينة صالحة يغتصبها من أصحابها..

وأما الغلام فقد كان أبواه مؤمنين، وقد علم الله أنه لو كبر لكان سببًا في هلاك والديه وردهما إلى الكفر. فأمرني ربي بقتله تخليصًا لهما من شؤمه، وسيبدلهما خيرًا منه وأفضل وأكثر إيمانًا وصلاحًا.

وأما الجدار فهو لغلامين يتيمين في هذه المدينة، وقد أودع أبوهما الصالح تحته كنزًا لهما، فإن سقط الجدار ذهبت معالم الكنز، أو جاء أهل هذه القرية ليقيموه وربما يعثرون على الكنز ويجحدون حق اليتمين فيه..

وقال بعض العلماء: لقد كان تحت هذا الجدار علمًا مفيدًا.. من بينه لوح مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. عجبًا لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن.

وعجبًا لمن يوقن بالموت كيف يفرح . وعجبًا لمن يؤمن بالحساب كيف يجمع ، وعجبًا لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها[١٥٥].

وقد استنبط العلماء من حفظ كنز اليتيمين أن الله سبحانه وتعالى قد ينفع الأبناء بصلاح الآباء .. وحقًا ذلك ، فالله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدًا﴾[١٥٦].

وهناك قصص في عالم الواقع تؤيد هذه الحقيقة .. فقد يترك الأب الفقير الصالح لابنه تقواه ، فيقيض له الله من يأخذ بيده ويقيمه على قدميه ، ويساعده على المضي في حياته إلى أعلى الدرجات ..

وقد يترك الغني لأولاده مالاً وعقارًا وجاهًا وسلطانًا على غير أساس من التقوى والصلاح ، فلا يلبث أن يذهب كل ذلك أدراج الرياح ..

وفي قصة عمر بن عبد العزيز الذي لم يترك لأولاده سوى تقواه وورعه ولم يترك لهم من حطام الدنيا شيئًا .. فإذا بأولاده جميعًا راشدون نافعون حتى لقد رُئي واحد منهم يجهز وحده مائة غاز في سبيل الله من ماله .. في الوقت الذي نرى فيه بعض أبناء أصحاب الجاه والسلطان ممن ترك لهم آباؤهم ما لا يعد ولا يحصى من المال والعقار يتكففون الناس في الطرقات .. إنها عبرة لمن يعتبر ، وذكرى لمن يتذكر .

وهذه القصة بين موسى والعبد الصالح . تحكيها لنا هذه الآيات الكريمة ..

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا
نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن
سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ
أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ

---

(١٥٥) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٣٣ .

(١٥٦) الآية ٩ من سورة النساء .

أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ
خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن
شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا
تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ
نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ
إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ
أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ
لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن
يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ
وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾[١٥٧].

من العبد الصالح ؟

وقد اختلف العلماء في اسم هذا العبد الصالح الذى يطلق عليه الخضر . إن الخضر لقب له وليس اسمًا .. ولقب بذلك لأنه ما جلس في مكان إلا اخضر من تحته .

قيل : إن اسمه هو «بليا بن ملكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشد بن سام ابن نوح[١٥٨] وقيل : هو «إيليا بن عاميل بن شمالخين بن إرما بن علقما بن عيصو بن إسحاق» ..

(١٥٧) الآيات ٦٠ : ٨٢ من سورة الكهف .

(١٥٨) المعارف لابن قتيبة وتاريخ الطبرى جـ ١ ص ٢٥٦ .

وقيل: هو «أرميا بن حلقيا من سبط هارون»[١٥٩].

والأصح ما تواتر عن أهل السير وهو «بليان بن ملكان»..

وقالوا عنه: إنه من بني إسرائيل، من أبناء الملوك..

وتحدث أصحاب الأخبار بأنه حي، ولكن لا سند يؤيد ذلك، ولا حديث يوثق بقاءه كما يشيع بين الناس.

إلا أن هناك بعض الأخبار التي يتناقلها الناس تشير إلى حياته - وحياته لا تعجز قدرة الله على أي حال، وقد يكون ذلك - إذا ثبتت صحته - لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى.

وقد نقل الدميري ما جاء في التمهيد لابن عبد البر إمام أهل الحديث في وقته - رحمه الله - أن النبي - ﷺ - حين غسل وكفن سمعوا قائلاً يقول: السلام عليكم أهل البيت، إن في الله خلفًا من كل هالك، وعوضًا من كل تالف، وعزاء من كل مصيبة، فعليكم بالصبر واحتسبوا.

ثم دعا لهم، وهم لا يرون شخصه. فكانوا يرون أنه الخضر - عليه السلام - (يعني أصحاب النبي - ﷺ - وأهل بيته رضى الله عنهم)[١٦٠].
وهي أقوال رائجة بين الناس، ولكن ليس لها من قوة السند ما يؤكد صحتها، وعلينا أن نرجع علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى.

ولنا في قصة لقاء موسى بالخضر - عليهما السلام - عظات وعبر.

فهي ترشدنا إلى ضرورة طلب العلم، والحرص عليه، والجد في طلبه، وتحمل المشاق في تحصيله، وقد أُمِر النبي - ﷺ - بطلب الازدياد من العلم. أمره ربه قائلاً: ﴿وقل رب زدني علمًا﴾[١٦١].

كما ترشدنا إلى أن العلم بحر لا ساحل له، وصدق الله حين يقول ﴿وفوق كل ذي عليم عليم﴾[١٦٢].

---

(١٥٩) حياة الحيوان للدميري.
(١٦٠) حياة الحيوان جـ ١ ص ٤٧١.
(١٦١) الآية ١١٤ من سورة طه. (١٦٢) الآية ٧٦ من سورة يوسف.

وذلك يرشدنا إلى ضرورة التواضع فى طلب العلم ، وقد ورد أن العلم يضيع بين خلتين : الكبر والحياء .. يعنى يتكبر فلا يتعلم ، ويستحيى فلا يسأل ولا يتعلم .

وقد تواضع موسى - عليه السلام - للخضر ، مع التيقن بأن موسى نبىّ والخضر مختلف فى شأنه . قيل : إنه نبى لقوله ﴿وما فعلته عن أمرى﴾ ، وقيل : إنه ولىّ .

لقد شرف الله أهل العلم بالتواضع وبذلك أصبح التواضع زينة العلماء وحليتهم ، وليس هناك أجل قدرًا من العالم الذى يعرف المنة لله أولاً فيقول : الله أعلم ، ويعرف لغيره من العلماء قدرهم فيجلهم ويحترمهم .

وعلى العلماء أن يعترفوا أن فوق هذه العلوم التى حصلوها بالبحث والدراسة والنظر علومًا كثيرة تفوق ما اكتسبوه من معارف وعلوم . لقد نسب الله هذه العلوم إليه فقال فى حق الخضر : ﴿وعلمناه من لدنا علمًا﴾(١٦٣)

وسبيل تحصيل هذه العلوم التقوى والعمل بالعلم والتحلى بثمرته قال تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾(١٦٤). وقال : ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا﴾(١٦٥). والأثر الشريف يقول : «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» .

ومن أهم ما ترشدنا إليه القصة عدم الإغترار بالعلم ، فليس لأحد أن يباهي بعلمه مهما كثر . والعلم شرف لصاحبه حقًا ، ويكفى أن يكون العلماء ورثة الأنبياء ، ولكن على العالم أن يحرس هذا الميراث بالأخلاق الفاضلة والعمل بما يعلم حتى لا يكون العلم عليه حجة يوم القيامة .

وصايا نافعة :

وهذه بعض الوصايا النافعة التى يجب على طالب العلم والعالم أن يلتزم بها ويجعلها نصب عينيه ..

---

(١٦٣) الآية ٦٥ من سورة الكهف . (١٦٤) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .
(١٦٥) الآية ٢٩ من سورة الأنفال .

يا طالب العلم، إن القائل أقل ملالة من المستمع، فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم.

واعلم أن قلبك وعاء فانظر ما تحشو به وعاءك.

واعزف عن الدنيا وانبذها وراءك فإنها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار..

تفرغ للعلم إن كنت تريده فإنما العلم لمن تفرغ له..

تعلم ما تعلمت لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث به أو لتفخر به فيكون عليك بواره ولغيرك نوره..

اجعل الزهد والتقوى لباسك والعلم والذكر كلامك واستكثر من الحسنات فإنها تذهب السيئات..

وزعزع بالخوف قلبك فإن ذلك يرضى ربك..

واعمل خيرًا فإنك لابد عامل سوءًا..



وفاة موسى:

مات هارون قبل موسى كما عرفنا..

وكان هارون محبوبًا في بني إسرائيل ومقربًا إليهم وأثيرًا عندهم. كان متصفًا بالحلم والأناة. وكان يتولى أمر القربان فيهم..

واصطحب موسى هارون في رحلة إلى الجبل.

وقبض الله هارون في هذه الرحلة. فلما عاد موسى وحده اتهمه بنو إسرائيل بأنه قتل أخاه..

فشكا موسى إلى ربه قومه فأمره باختيار بعضهم، فاختار وفدًا منهم وانطلق بهم إلى حيث دفن.. قيل: إن الله بعثه لهم، فناداه موسى قائلاً: يا هارون من قتلك؟

فقال هارون: لم يقتلني أحد ولكن الله توفاني.

فآمنوا وصدقوا بأن موسى لم يقتل أخاه بغيًا وحسدًا كما اتهموه بذلك.

قال العلماء : وهذا تفسير قوله – تعالى – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا ﴾(١٦٦).

وعاش موسى بعد هارون سبعة أشهر .. وقيل ثلاث سنين وقد ذكر بعض العلماء أنه لما حانت وفاة موسى عليه السلام جاءه ملك الموت ، وعرف منه موسى أن أجله قد حان فقال له :

ادنني من الأرض المقدسة رمية حجر .. فأدناه إليها فمات قريبًا منها ..

قال النبي – ﷺ – : لو كنت عنده لأريتكم قبره(١٦٧).

مات هارون وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة .

ومات موسى وهو ابن مائة وعشرين سنة .

ومات كلاهما في التيه ولم يدخل بعد أحد من بني إسرائيل الأرض المقدسة التي خرجوا من مصر لأجل دخولها ..

قال المسعودي : أنزل الله على موسى عشر صحف ثم أنزل الله عليه التوراة بالعبرانية وفيها الأمر والنهي والتحليل والتحريم والسنن والأحكام وذلك في خمسة أسفار ، والسفر يريدون به الصحيفة .

قال : وكانت الألواح التي أنزلها الله على موسى بن عمران على جبل طور سيناء من زمرد أخضر فيها كتابة بالذهب(١٦٨)..

قالت الملائكة بعد أن مات موسى – عليه السلام – : مات صفيُّ الله موسى ابن عمران فمن الذي يطمع في البقاء ؟

ثناء الله على موسى :

وقد أثنى القرآن الكريم على موسى عليه السلام ثناء مستطابًا .. وثناء القرآن هو ثناء الله تعالى . فالقرآن كلامه ..

فقد اصطفاه الله ، وكلمه تكليمًا ..

---

(١٦٧) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٥٠ وقصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٣١ .

(١٦٨) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٦ .

قال : ﴿يا موسى إنى أصطفيتك على الناس برسالتى وبكلامى﴾[١٦٩].

وقال : ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾[١٧٠].

ووصفه بالوجاهة فقال : ﴿وكان عند الله وجيها﴾[١٧١].

وجعل منزلته فى السماء السادسة . ففى ليلة الإسراء والمعراج لقى سيدنا محمد - ﷺ - موسى فى السماء السادسة .

وروى البخارى ومسلم فى ذلك عن أنس عن مالك بن صعصعة قال : مر النبى - ﷺ - ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة ، فقال له جبريل : هذا موسى . فسلم عليه . قال : فسلمت عليه . فقال : مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح .

ولموسى - عليه السلام - فضل يذكره النبى - ﷺ - له . ذلك أنه طلب منه حين فرضت الصلاة خمسين ، أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف لأمته ، قائلاً له : لقد بلوت الخلق قبلك وأعرف أنهم لا يطيقون ذلك .. وما زال يطلب منه المراجعة حتى أصبحت الصلوات خمسًا فى الأداء وخمسين فى الأجر ..

وأعطى الله موسى التوراة ووصفها أوصافًا سنية وجعل القرآن مصدقًا لها .. وجاء فى حقهما قوله تعالى :

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[١٧٢]. وقال :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[١٧٣]

---

(١٦٩) الأعراف الآية ١٤٤ . (١٧٠) النساء الآية ١٦٤ . (١٧١) الأحزاب الآية ٦٩ .
(١٧٢) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة الأنعام . (١٧٣) الآيات ٤٨ : ٥٠ من سورة الأحزاب .

ولقد وصف النبى - ﷺ - موسى كما وصف غيره من الأنبياء ..

فقال فى حديث الإسراء : مررت على موسى فوجدته قائمًا يصلى فى قبره[١٧٤].

وقال : رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعد الشعر كأنه من رجال شنوءة .

وروى عنه أنه قال : أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم - يعنى نفسه - ﷺ .

وقد حج موسى عليه السلام البيت الحرام كما حج إليه غيره من الأنبياء . وقد أوردنا فى قصة الكعبة المشرفة الآثار التى وردت فى ذلك .

إن فى قصة موسى - عليه السلام - كثيرًا من العظات والعبر التى ينبغى للأمة أن تتدبرها . وفى مقدمة ذلك :

وجوب السير على منهاج الرسول واقتفاء أثره واتباع سنته وعدم الخروج على تعاليمه .. وقد أشار النبى - ﷺ - إلى ذلك كثيرًا فى أحاديثه .. وقال : «تركت فيكم ما إن تمسكتم بعدى لا تضلوا كتاب الله وسنتى» ..

وأشار إلى أن هلاك الأمم كان فى التغيير والتبديل والتحريف .. وقال فى ذلك «إنما هلك بنو إسرائيل بأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ..

وذكر القرآن الكريم تغيير بنى إسرائيل لما عهد إليهم من كتاب فزادوا ونقصوا وحرفوا وبدلوا ، وإن الله حذرهم من ذلك قائلاً : ﴿ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً﴾[١٧٦]..

ووصف تحريفاتهم المتعددة وقال :

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[١٧٧]

---

(١٧٤) رواه مسلم عن أنس. (١٧٥) مسند أحمد جـ ١ ص ٢٢ .

(١٧٦) الآية ٤١ من سورة البقرة. (١٧٧) الآية ٤٦ من سورة النساء.

وقال فى حقهم : ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾(١٧٨).

إن سعادة المسلمين ونصرهم فى التمسك بكتاب ربهم وسنة رسولهم، وهذا هو المنهج السليم والصراط المستقيم..

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل..

بنو إسرائيل بعد موسى

دخول الأرض المقدسة

لم يكتب لبنى إسرائيل دخول الأرض المقدسة فى حياة موسى - عليه السلام - فقد اعترضوا عليه كما علمنا. وقالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون.

وكانت النتيجة أن شردهم الله فى التيه أربعين عامًا..

وصحبهم من آمن بموسى حق الإيمان فى تيههم.. وهكذا أصبحوا مشاركين لهم فى جريرتهم التى ارتكبوها.. وبذلك يصدق قوله - تعالى - : ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾(١٧٩).

وربما كان إكرامهم فى تيههم الذى سبق أن أشرنا إليه كان بسبب وجود موسى وهارون - عليهما السلام - وبعض الصالحين من القوم معهم.

ومن هؤلاء من نبئوا بعد هارون وموسى ومنهم يوشع بن نون.. وهو فتى موسى الذى أشار إليه الحق - سبحانه وتعالى - بقوله : ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبًا﴾(١٨٠).

ويوشع بن نون هو الذى قاد بنى إسرائيل بعد ذلك إلى الأرض المقدسة، وفتحها الله عليه ومكنه منها..

---

(١٧٨) البقرة ٧٩. (١٧٩) الأنفال ٢٥. (١٨٠) الكهف ٦٠.

يوشع بن نون :

و «يوشع» هو ابن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم – عليهم السلام – .

وكان أحد المؤمنيْن اللذين أشارا على بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة حين طلب موسى منهم ذلك وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾(١٨١).

أما الآخر فيقول العلماء إنه كالب بن يوقنا .

وقد قبض الله موسى وكان في صحبته يوشع .. كان يمشيان إذ أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظنها الساعة ، وقال : إني ملتزم بموسى نبي الله .. والتزمه . فلما هدأت الريح لم يجد يوشع موسى فعرف أن الله قد قبضه لأنه وجد بعض ما كان معه من أشياء ومنها قميصه ..

فلما جاء يوشع بالقميص أخذوا منه القميص وقالوا : قتلت نبي الله ؟

فقال : ما قتلته ولكنه انسل مني فلم يصدقوه .. ولكن الله برأه من هذا الاتهام(١٨٢)، كما سبق وبرأ موسى من اتهامه بقتل هارون ..

ونبأ الله يوشع بعد موسى ، وأمره بالتوجه إلى قتال الجبارين من العمالقة الذين يسكنون الأرض المقدسة .

وأخبر بني إسرائيل بذلك فصدقوه وبايعوه ..

وتوجه بهم يوشع إلى أريحاء ، ومعه التابوت أي الصندوق الذي كان موسى – عليه السلام – يضع فيه التوراة والصحف والألواح ، وكانت فيه أيضًا أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم ، وهو سبب سكون قلوبهم في كل أمر يختلفون فيه ..

وحاصر يوشع المدينة ستة أشهر ..

---

(١٨١) الآية ٢٣ من سورة المائدة .

(١٨٢) راجع قصص الأنبياء للثعلبي ص ٢٥١ .

وفى الشهر السابع تمكن من تحطيم السور واقتحام المدينة، وظلوا يقاتلون أهلها، وكان القتال في يوم الجمعة. وظل القتال دائرًا حتى قاربت الشمس المغيب.

فأمر الله الشمس بالبقاء حتى يفرغ القوم من قتالهم. فظلت الشمس حتى انتهى القتال وانتصر يوشع على أعدائه.. ثم غربت بعد ذلك.

وقد ذكر القرطبي في ذلك حديثًا.. قال:

أخرج مسلم عن النبي - ﷺ - قال: غزا نبي من الأنبياء، فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليَّ شيئًا، فحبسها، حتى فتح الله عليه. قال: فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار تأكله فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول: فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه، فلصقت يده بيد رجلين أو ثلاثة. فقال: فيكم الغلول[١٨٣].

وكانت الغنائم لا تحل قديمًا للأنبياء، وإنما حلت للنبى - ﷺ -.

قال ابن كثير: وزعم ابن إسحاق أن الذى فتح الأرض المقدسة وهى بيت المقدس هو موسى وإنما كان يوشع على مقدمته..

ومعنى ذلك أن فتحها تم فى حياة موسى[١٨٤].

وربما عارض هذا الخبر ما ورد في شأن وفاة موسى. حين طلب من ملك الموت أن يقربه من الأرض المقدسة ليكون على مرمى حجر..

والعلة فى حبس الشمس على يوشع أن القتال كان فى يوم جمعة، فلو غربت الشمس كفوا عن القتال حتى صباح الأحد، لأن السبت يحرم فيه القتال عندهم، وكان يمكن للعدو أن يحاربهم فيه فيجتاحهم.

وبعد فتح المدينة أمرهم الله بدخولها خاشعين خاضعين، وكان لها سبعة أبواب..

---

(١٨٣) تفسير القرطبي جـ ٥ ص ٢١٢٧ ط. دار الشعب.

(١٨٤) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٣٩.

وأمرهم بالاستغفار وأن يطلبوا من الله أن يحط عنهم ذنوبهم السالفة التى أودت بهم إلى التيه وشردتهم كل هذه السنين . أمرهم بأن يقولوا : حِطَّة . أى حط يا ربنا عنا أوزارنا وذنوبنا ..

ولكنهم أبوا أيضًا الاستجابة كعادتهم ..

فبدلاً من أن يدخلوا خاضعين كما أمروا .. دخلوا زاحفين على إستهم هزوًا وسخرية ..

روى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله - ﷺ - : قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم فبدلوا وغيروا ورفضوا ما أمروا به ودخلوا القرية يزحفون على أستاههم وقالوا حنطة فى شعيرة .

وكان نتيجة ذلك أن عاقبهم الله بالرجز وهو العذاب الشديد . قيل إن الله سلط عليهم الطاعون فأهلك منهم عددًا كبيرًا ثم رفعه عنهم ورحمهم .

عن رسول الله - ﷺ - : « إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب الله به أناس من قبلكم فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها وإذ بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها » .

لقد عاقبهم الله لظلمهم وفسقهم ولمخالفتهم أمر الله بالقول والفعل . وأنزل الله فى هذه الوقائع قرآنًا يتلى قال - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾(١٨٥)

وذكر المسعودى أن نبى الله يوشع خاض معارك متعددة فى بلاد الشام فافتتح بلاد أريحا ، وزغر من أرض الغور التى غلب عليها العماليق . وكان ملك العماليق هو السميدع بن هوبر بن مالك ، وتمكن يوشع من الغلبة عليه وقتله . وفى قتله يقول عوف بن سعد الجرهمى :

---

(١٨٥) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة البقرة .

ألم تر أن العملقى ابن هوبر بأيلة أضحى لحمه قد تمزعا
تداعت عليه من يهود جحافل ثمانين ألفًا حاسرين ودُرَّعا
فأمست عدادًا للعماليق بعده على الأرض مِشيًا مصعدين وفُرَّعا
كأن لم يكونوا بين أجبال مكة ولم ير راء قبل ذاك السميدعا(١٨٦)

ولعل هذه الأبيات تشير إلى تفرق العماليق بعد خروجهم من مكة وغلبة الجراهمة عليهم، وتشتتهم فى البلاد حتى ذهب بعضهم إلى الشام، وهم الذين طغوا وتجبروا وخشيتهم بنو إسرائيل حتى حاربهم يوشع وانتصر عليهم.

وتفرق العماليق فى البلاد بعد هزيمتهم وخضعوا لملوك الروم بعد ذلك(١٨٧).

بلعم بن باعوراء:

ولم يكن انتصار يوشع على أعدائه خالصًا بدون عقبات أو مشكلات. وربما كان من أهم العقبات قومه أنفسهم الذين كان يسوقهم سوقًا إلى القتال.

ومن هذه العقبات ما حدث عنه الرواة ووردت به الأخبار حول «بلعم بن باعوراء» وكان يقيم بقرية من قرى البلقاء من بلاد الشام، وكان من الصالحين الذين أعطاهم الله استجابة الدعوة.. فكان لا يدعو إلا أستجيب دعاؤه..

فلما جاء «يوشع بن نون» نظر بلعم بن باعوراء فرأى أنه نبى ولابد من ظهوره..

وطلب قوم بلعم منه أن يدعو على يوشع فأخبرهم بأنه نبى وأن الله ناصره، وأن دعاءه لن يستجاب فيه.

فلما ألحوا عليه عدل عن الدعاء إلى النصيحة قال للملك العملاقى: عليك بالنساء. فأبرز الملك الحسان من النساء نحو عسكر يوشع، ففشت الفاحشة فيهم فظهر الطاعون فى عسكر يوشع(١٨٨).

---

(١٨٦) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧. (١٨٧) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٨٦.
(١٨٨) مروج الذهب جـ ١ ٣٧.

وقد ذكر بعض المفسرين أن بلعم بن باعوراء هذا هو الذى نزل فيه قوله - تعالى - :

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ (١٨٩)

ولكن بعض العلماء اختلفوا حول ذلك التشخيص ومع من كان وفيمن نزلت تلك الآيات .

فمنهم من قال إنه كان فى زمن موسى عليه السلام فلما أقبل موسى فى بنى إسرائيل لقتال الجبارين ، سأل الجبارون بلعم أن يدعو على موسى فقام ليدعو عليه فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه فقيل له فى ذلك فقال : لا أقدر على اكثر مما تسمعون واندلع لسانه على صدره فقال:قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة وسأمكر لكم ، وإنى أرى أن تخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنا فإن وقعوا فيه هلكوا فوقع بنو إسرائيل فى الزنا فأرسل الله إليهم الطاعون .

ومنهم من قال : إنه رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ، وكانت له امرأة له منها ولد ، فقالت : اجعل لى منها واحدة . قال : فلك واحدة، فما الذى تريدين ؟ قالت : ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل .

فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئًا آخر . فدعا الله أن يجعلها كلبة ، فصارت كلبة . فذهبت دعوتان .

فجاء بنوها فقالوا : ليس بنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها ، فادع الله أن يردها إلى الحال التى كانت عليه . فدعا الله فعادت كما كانت ، فذهبت الدعوات الثلاث فيها(١٩٠).

---

(١٨٩) الآيات ١٧٥ : ١٧٧ من سورة الأعراف .

(١٩٠) تفسير المنار جـ ٩ ص ٣٤٤ .

ومنهم من قال : إن الآيات نزلت فى أمية بنى أبى الصلت .

وكان أمية فى زمن النبى - ﷺ - وكان على علم بالكتاب الأول ، ونظر فى التوراة والإنجيل ، وعلم أن الله سيبعث نبيًا فى آخر الزمن من بلاد العرب ، وظل يخبر قومه بذلك ، واستعد لأن يكون هو النبى المنتظر . فلما بعث الله سيدنا محمدًا - ﷺ - حسده وكفر به .

وكان أمية يقول شعرًا يحذر قومه وينكرهم ، ويدعوهم إلى الإيمان بالبعث والنشور ، ومن شعره فى ذلك :

الحمد لله لا شريك لـه ... من لم يقلها فنفسه ظلمًا

وفى وصف الجنة يقول :

فلا لغو ولا تأثيم فيهـا ... وما فاهوا به لهم مقيم

وفى الحساب يقول :

إن يوم الحساب يوم عظيم ... شاب فيه الصغير يومًا طويلاً
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى ... فى رءوس الجبال أرعى الوعولا
كل عيش وإن تطاول حينًا ... فـقصارى أيامـه أن يـزولا

وحين بلغه ظهور النبى - ﷺ - اغتاظ وتأسف ، وراودته نفسه أن يذهب إلى المدينة ليسلم ، ولكن الحسد رده . ولما حدثت موقعة بدر أخذ يرثى قتلى بدر من المشركين .. ومات كافرًا(١٩١).

قال الرواة : حين سمع القرآن . وتلى عليه قوله تعالى : ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ .. قيل له : ما تقول يا أمية ؟ قال : أشهد أن - محمداً - على الحق . قالوا : فهل تتبعه ؟ قال : حتى أنظر فى أمره . ثم خرج إلى الشام ، وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم ، فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام ورجع إلى الطائف فمات بها . ففيه نزل قوله تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه فانسلخ منها﴾(١٩٢).

---

(١٩١) راجع مروج الذهب جـ ١ ص ٥١ .
(١٩٢) أخرج هذا الخبر النسائى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وغيرهم ، وانظر تفسير جـ ٩ ص ١٤٤ .

وعلى كل فالآيات مثل يضرب لكل من يرى الحق فيعمى عنه، ويسمع الصواب فيتغافل عنه.

وقد أشار العهد القديم إلى قصة بلعام هذه في سفر العدد[١٩٣].. وذكر أنها وقعت في أرض مدين وقال: إن بالاق بن صِفُور ملك الموآبين طلب من بلعام أن يدعو على بني إسرائيل ويلعنهم حتى يتمكن من النصر عليهم، وحاول رشوته، وكان بلعام نبيًا فلم يقبل لأن الله نهاه عن ذلك. فلم يزالوا به حتى دعا فانسلخ مما كان فيه.

وما زال الرواة يترددون في المقصود بقوله تعالى: ﴿ الذى آتيناه آياتنا ﴾ وقد استبعد كثير منهم أن يكون المقصود به نبيًا من الأنبياء. فالمعروف أن النبي يمنحه الله العصمة، ويبعده عن الغواية، فكيف يقع تحت طائلة الإغواء فيقبل الرشوة أو يدعو إلى الإفساد بإشارته على الملك باستعمال النساء وتسليطهن على جيش يوشع؟

ومن أجل ذلك قال الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب»: إن بلعم هذا لم يكن سوى رجل آتاه الله علمًا وهداه إلى دينه ثم انسلخ إلى الكفر[١٩٤].

وهذا هو الأقرب إلى الصواب، ومن العلماء الذين لم يتقيدوا بتحديد المقصود بذلك الوصف ابن جرير الطبري -رحمه الله- قال:

إن الآيات الواردة في هذا الشأن صالحة لتطبيقها على كل من سولت له نفسه أن يعطيه الله علمًا نافعًا فيستعمله في الإفساد، أو يدله الله على خير فيتركه إلى الشر، أو ينصبه الله علمًا للهداية والإصلاح والتقدم فيتقاعس عن هذه المهمة ولا يعنى إلا بشئون نفسه..

وفي تمثيله بالكلب تحقير من شأنه وتنفير من الاقتداء به..

وفاة يوشع:

استقرت بنو إسرائيل بالشام، بعد فتح أريحا ورحل بهم يوشع إلى كنعان فقتل من ملوكها وفتح من حصونها..

---

(١٩٣) الإصحاح ٢٢ : ٢٤.   (١٩٤) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٥٨٤.

ومكث يوشع فى بنى إسرائيل بعد وفاة موسى - عليه السلام - سبعًا وعشرين سنة. ثم توفى وله من العمر مائة وعشرون سنة(١٩٥).

وقيل توفى وهو ابن مائة وسبع وعشرين سنة(١٩٦).

النقبـاء :

لما قاد موسى قومه إلى الخروج من مصر وعبر بهم البحر كان عددهم كثيرًا، فلم يكن ليستطيع أن يجتمع بهم جميعًا ليبلغهم ما يريد من أوامر ربه.. فاختار منهم اثنى عشر نقيبًا من كل سبط نقيب، فكان يجمع النقباء ويبلغهم ما يريد، وكل نقيب يبلغ قومه.

والنقيب هو كبير القوم القائم بأمورهم الذى ينقب عنها وعن مصالحهم فيها. والنقيب هو الذى يعرف دخائل أمر القوم ومناقبهم..

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٧)

وكان موسى قد أرسل هؤلاء النقباء للإطلاع على أحوال الجبارين الذين يسيطرون على الأرض المقدسة، والتعرف على أحوالهم ومدى قوتهم.

فساروا حتى وصلوا إلى مدينة أريحا، وعرفوا أن من فى داخلها قوم جبارون لا يقدر أحد على ضربهم، وظنوا أنهم لا قبل لهم بهم، فتعاقدوا

---

(١٩٥) بدائع الزهور لابن اياس ص ١٣٢، قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٥٢.

(١٩٦) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٤٥.

(١٩٧) الآيتان ١٢، ١٣ من سورة المائدة.

فيما بينهم على أن يخفوا ذلك عن بنى إسرائيل ويعلموا به موسى - عليه السلام - فقط، وتعاقدوا على ذلك.

ولكن عشرة من بين هؤلاء خالفوا هذا العقد، فأطلعوا قراباتهم حتى وقع الخوف فى قلوبهم وما زال الخبر يسرى وينتشر حتى امتنع بنو إسرائيل جميعًا عن الانصياع لأمر موسى حين أصدر إليهم أمره بدخول الأرض المقدسة فكان أن حرمها الله عليهم أربعين سنة قضوها فى التيه، ولم يصدق من هؤلاء النقباء ويتمسك بما تعاهدوا عليه سوى اثنين هما يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وقد تحدثنا سابقاً عن يوشع بن نون، وسوف نعرض بعد قليل لـ «كالب بن يوقنا»..

وقد توارث بنو إسرائيل عن أجدادهم هذه النقابة، كما كان لنقضهم الميثاق أثر فى استحقاقهم اللعنة التى باءوا بها أبدًا..

واستبدلوا بالرحمة التى هى من صفات المؤمنين قسوة وغلظة ظهرت فى تصرفاتهم عبر الدهور.. وقد أشارت الآيات الكريمة السابقة إلى ذلك.

لقد وضح من الآيتين السابقتين أن الميثاق الذى أخذ على بنى إسرائيل هو الإيمان بالرسل ونصرتهم فى أداء رسالتهم والجهاد تحت لوائهم فى سبيل تبليغ الدعوة ونشر الرسالة والتضحية بالمال فى سبيل العقيدة..

وكان القعود عن نصرة موسى - عليه السلام - وعصيان أمره فى دخول الأرض المقدسة، والتخاذل فى قتال الجبارين أعداء الدين سببًا فى لعنتهم وابتلائهم بالتيه الذى قاسوا مرارته أربعين عامًا..

أما إتخاذ النقباء فهو أمر يدعو إليه التنظيم الدينى لإبلاغ الدعوة إلى كل مكان.. وقد فعله النبى - ﷺ - مع الأنصار الذين بايعوه فى العقبة. فاختار منهم اثنى عشر نقيبًا هم:

أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو بن خنيس، وأسيد بن حضير،

وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبدالمنذر .. والتسعة الأوائل من الخزرج والثلاثة الباقين من الأوس[١٩٨] ..

وأخذ النبي - ﷺ - العهد على أن يمنعوه مما يمنعون منه أهلهم . وأنهم نقباء عن قومهم .

وقال النبي - ﷺ - للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلا ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي . يعني المسلمين .

قال الأنصار : نعم .

ولكن نقباء النبي - ﷺ - وفوا وأحسنوا الوفاء ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وباعوا أنفسهم لله ابتغاء رضوان الله . وحين هاجر إليهم المسلمون استقبلوهم في دورهم أحسن استقبال ، وواسوهم بأموالهم وديارهم ، حتى آثروهم على أنفسهم .. وفي شأنهم نزل قوله - تعالى - :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[١٩٩].

لقد كان اختيار النقباء من موسى - عليه السلام - استجابة لأمر الله - تعالى - يشير إليه قوله ﴿ وبعثنا منهم ﴾ ..

ولكن العهد القديم يذكر أن موسى - عليه السلام - استجاب في اختيارهم إلى حميه يثرون أي شعيب - عليه السلام - حين جاء إليه ومعه زوجة موسى وولديه ، بعد عبورهم البحر وإقامتهم في سيناء .

لقد أرشده يثرون إلى أن يختار من قومه «ذوي قدرة خائفين لله أمناء مبغضين للرشوة ويقيمهم رؤساء على أقوامهم»[٢٠٠].

---

(١٩٨) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٥١٠ .
(١٩٩) الآية ٩ من سورة الحشر .
(٢٠٠) سفر الخروج . الإصحاح الثامن عشر .

كالب بن يوقنا

كالب بن يوقنا .. هو الرجل الثاني المؤمن الذي قال لبني إسرائيل – مع يوشع بن نون – قاتلوا الجبارين وادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين.

وبعد وفاة يوشع تولى أمر بني إسرائيل كالب بن يوقنا ..

وظل فيهم يدبر أمرهم حتى توفى .. فجاء بعده «فنحاص بن العازر بن هارون» ومكث فيهم فنحاص ثلاثين سنة وهو الذي عمد إلى مصاحف موسى فجعلها في خابية نحاس وغيبها في صخرة بيت المقدس قبل بنائه على يدي داود ثم سليمان بعد ذلك ..

وأخذ شأن بني إسرائيل يضمحل، وتفرقت كلمتهم، حتى أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم موتوا ثم أحياهم[٢٠١].

وستأتي قصة ذلك إن شاء الله تعالى ..



---

(٢٠١) مروج الذهب للمسعودي جـ ١ ص ٣٨.

أصحاب السبت

روى العلماء أن عكرمة دخل يومًا على ابن عباس –رضى الله عنهما– قبل أن يذهب بصره فوجده يقرأ فى المصحف ويبكى. فسأله: ما يبكيك –جعلنى الله فداءك–؟

فقال ابن عباس: تبكينى هذه الآية: ﴿واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾[1]..

ثم قال ابن عباس –رضى الله عنهما– لعكرمة:

أتعرف أيلة؟

قال عكرمة: وما أيلة[2]؟

قال: قرية كان بها أناس من اليهود حرم الله عليهم صيد الحيتان يوم السبت فكانت الحيتان تأتيهم فى يوم سبتهم شرعًا بيضًا سمانًا، فإذا كان غير يوم السبت لا يجدونها ولا يدركونها إلا بمشقة ومئونة.

ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتًا يوم السبت فربطه إلى وتد بالساحل وتركه فى الماء حتى إذا كان الغد أخذه فأكله..

فلما رأى جيرانه أنه لم يصبه شيئًا من السوء، فعلوا مثله من السبت الذى تلاه، فأخذوا واشتووا..

---

(١) الآية ١٦٣ من سورة الأعراف.

(٢) أيْلَة: –بفتح فسكون ففتح– ميناء فى الركن الشمالى الشرقى لخليج العقبة –الآن–. وقد يبدل بعض الناس همزتها واوًا، فيقولون: وَيْلَة. وهى فى اللغة العبرية: إيل وإيليم وإيلات وإيلوت. وباللغة الآرامية إيلون. وباليونانية أيلات وأيلون وإيلاس وإيليا.. دائرة المعارف الإسلامية جـ ٥ ص ٣٥٤.

ولما وجد جيرانهم رائحة الشواء تصاعدت من بيتهم فعلوا مثلهم فى السبت الذى يليه، وسرى الأمر فى القرية كلها ..

ولكن أهل القرية افترقوا حول هذا الأمر ثلاث فرق ..

الفرقة الأولى انساقت وراء طبيعتها، واستمرت فى عملها، فأخذت تتحايل على الاصطياد فى يوم السبت بربط الحيتان أو بفتح مسارب صغيرة تدخلها الحيتان ثم تغلقها بعد دخولها فلا تستطيع الحيتان الرجوع إلى البحر .. أو غير ذلك من الوسائل ..

والفرقة الثانية وقفت موقف المعارض، وأخذت تنصح هؤلاء المجترئين فى السبت، قائلة لهم : إنا نحذركم غضب الله وعقابه أن يصيبكم بخسف من عنده أو يهلككم بعذاب شديد ..

ولما رأت هذه الفرقة عدم انصياعهم للنصيحة أقسمت ألا تساكنهم فى قريتهم، وخرجت من سور القرية ..

والفرقة الثالثة أنكرت الفعل وقالت للناصحين : لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا ؟

وكأن هذه الفرقة وجدت أن النصح مع هؤلاء المجترئين على حدود الله لا يجدى وأن اليأس من نصيحتهم إحدى الراحتين .

وجاء اليوم الموعود للعقاب ..

وأقبل الذين كانوا ينهون أصحابهم عن الاعتداء فى السبت يطرقون الجدر عليهم من وراء السور .. فلم يجبهم أحد ..

فتسور واحد منهم السور ونظر، فإذا به لا يجد فى هذه البيوت إلا قردة لها أذناب تتعاوى ..

فنزل من فوق السور، ودخل القرية، وفتح الباب . فإذا بالقردة تعرف أنسابها من الإنس، ولكن الإنس لا تعرف أنسابها من القردة .

قال ابن عباس – رضى الله عنهما – فيأتى القرد إلى نسيبه وقريبه فيحتك به ويلصق إليه، فيقول الإنسى : أأنت فلان ؟ فيشير القرد برأسه : أى نعم، ويبكى ..

وتأتي القردة إلى نسيبها وقريبها الإنسي . فيقول لها : أنت فلانة ؟ فتشير برأسها : أي نعم وتبكي ..

ثم قال ابن عباس :

فاسمع الله - تعالى - يقول : ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾ فلا أدري ما فعلت الفرقة الثالثة . فكم رأينا من منكر ولم ننه عنه .

لقد هال ابن عباس مصير هؤلاء النفر ، وخشي أن يكون الرجل الذي يرى المنكر ولا يعجبه ولا ينهى عنه مصيره كمصير هؤلاء الممسوخين ..

فمن أجل ذلك بكى واشتد بكاؤه . لأنه - كما قال - رأى كثيرًا من المنكر ولم ينه عنه ..

وابن عباس - رضي الله عنهما - كان قمة في الشجاعة والورع والعلم ولكنه رأى شحًا مطاعًا وهوى متبعًا . فعزل نفسه في مكة بعيدًا عن الفتن والأهواء ، ولكنه خشي مع ذلك سوء المصير فبكى .

حين رأى عكرمة ضيق صدر ابن عباس ، وجزعه من المصير الذي تعرض له المعتدون في السبت . قال لابن عباس :

أما ترى - جعلني الله فداءك - أنهم أي الفرقة الثالثة الذين أنكروا وكرهوا حين قالوا : لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا ؟ فإن لم يقل الله أنجيتهم فلم يقل أهلكتهم .

فقد فهم عكرمة أن في إنكارهم وكراهتهم لما فعلت الفرقة الأولى نجاة لهم .

قال عكرمة : فأعجبه قولي ذلك ، وأمر لي ببردين غليظين فكسانيهما وظل ابن عباس يقول : نجت الساكتة(٣) ..

---

(٣) روى الحاكم في مستدركه الحديث الوارد في ذلك عن ابن عباس .. رواه عن الأصم عن الربيع عن الشافعي عن يحيى بن سليم عن ابن جريج عن عكرمة . وذكره الدميري في حياة الحيوان - باب القرد - جـ ٢ ص ٤٣٠ .

إن هذه القصة المروية عن ابن عباس تذكرنا بالحديث الشريف الذى يقول: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[٤]..

فتغيير المنكر ضرورة ملزمة .. وهى لصاحب السلطان باليد وللعلماء باللسان . وعند غلبة الهوى وعدم الإصاخة لما يسمع وشيوع الفتنة يكون الإنكار بالقلب .. والذى يسكت ينطبق عليه قول القائل: الساكت عن الحق شيطان أخرس ..

قال العلماء: ولم يبق هؤلاء القوم الذين مسخهم الله أكثر من ثلاثة أيام ثم أهلكهم الله . أرسل الله عليهم ريحًا ومطرًا فقذفهم فى البحر، حتى إذا كانوا يوم القيامة أعادهم الله -تعالى- إلى صورهم البشرية فيدخلهم النار[٥].

وقد عوقب هؤلاء القوم، لأن من الوصايا العشر التى أوصى الله بها بنى إسرائيل على لسان موسى -عليه السلام- عدم الاعتداء فى السبت .

ومعنى ذلك أن العمل فى يوم السبت ممنوع .. لقد جعله الله راحة لهم ومن أجل ذلك كفل لهم رزقهم فى التيه من المن والسلوى .. كان يأتيهم رزقهم كل يوم على قدر كفاية يومهم . ما عدا يوم الجمعة كان يأتيهم رزقهم مضاعفًا على قدر يومى الجمعة والسبت . ولا يأتيهم شىء يوم السبت .

ويبدو أن هذه القصة من القصص التى حذفت من الكتب التى بين أيدى الإسرائيليين، لأنها تنص على عقوبتهم .. وهذا يشهد بتحريفهم ..

قال صاحب تفسير المنار: ولا أعلم للقصة ذكرًا فى كتب اليهود المقدسة، ولكنها كانت معروفة عندهم، ولولا ذلك لبهتوا النبى -ﷺ- فى المدينة وكذبوه فيما نزل عليه من قوله -تعالى-: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾[٦].. لكنهم لم يكذبوه فى ذلك فثبت صدق القرآن وتحريفهم لكتبهم .. لقد وردت هذه القصة فى القرآن الكريم فى سورتى البقرة والأعراف .

---

(٤) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى . وذكره النووى فى رياض الصالحين حديث رقم ١٨٤ ص ٧٧ .

(٥) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٩٢ .

(٦) انظر تفسير المنار جـ ٩ ص ٣١٦ . والآية المذكورة من سورة البقرة ٦٥ .

وفى الأعراف بتفصيل أكثر . وهذه آياتها :

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾(٧)

متى حدثت هذه القصة ؟

من اليقين أنها حدثت بعد موسى ، بعد خروج بنى إسرائيل من التيه وسكناهم المدن .

وقال بعضهم : إنها حدثت فى أيام داود ، واستأنسوا لذلك بخبر ورد عن الحسين بن الفضل قيل له : هل تجد فى كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتًا والحرام يأتيك جَزْفًا جَزْفًا ؟

قال : نعم فى قصة داود وأيلة «إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم» ..

وأورد القرطبى فى سبب إغوائهم أن إبليس أوعز إليهم فقال لهم : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد(٨).

إن هذا الخبر يدل على أن التحايل فى تأويل النصوص يعدل مخالفتها تمامًا . وعقاب المتحايل لا يقل عن عقاب المخالف بحال من الأحوال .

وهذا يرشدنا إلى وجوب احترام الدستور الإلهي والعمل بمقتضاه ، ولا يحملنا ضعف الإيمان وغلبة الهوى والجرى وراء الشهوات على اصطياد الفتاوى والتأويلات لنحل بها الحرام أو نحرم بها الحلال .. فالله أعلم بالسرائر ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾ ..

(٧) الآيات ١٦٣ : ١٦٦ من سورة الأعراف .

(٨) تفسير القرطبى – سورة الأعراف – ص ٢٧٤٢ ط . دار الشعب .

طالوت وجالوت

بت الأيام والدول على بنى إسرائيل بعد أن حكمهم يوشع وكالب بن يوقنا . حتى قهرهم ملوك فلسطين ، ثم البابليون الذين غنموا التابوت الذى أودعت فيه السكينة ، وكانوا إذا حملوه معهم فى حرب غنموا ...

وأخرج البابليون بنى إسرائيل من ديارهم - واستكان هؤلاء للخروج خوفا من الموت .

فلما هربوا من الموت قتلا فى ساحات الحروب ، وهو شرف واستشهاد سلط الله عليهم الطاعون فأهلك منهم عددا كبيرا ...

وبقى منهم ثلاثة أسباط ، لحقت فرقة منهم بالرمل ، وأخرى بشواهق الجبال ، والثالثة لاذت بإحدى جزر البحر ..

وظلوا متفرقين على خوف فترة طويلة قبل أن يعودوا إلى ديارهم الأولى ..

وبعد عودتهم قالوا لنبى لهم اسمه «حزقيل» : هل رأيت قوماً أصابهم ما أصابنا ؟

قال لهم : ولا سمعت بقوم فروا من الله كفراركم .

ثم تولى أمرهم بعد ذلك «شمويل» النبى فمكث فيهم عشرين سنة ، وأخذ شمويل ينبههم إلى ما ارتكبوه من أخطاء متكررة ، وأهمها الجبن والفرار والخوف من القتل . وأعلمهم أن الآجال محدودة والأعمار موقوته ، ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها .

وربما أثر فيهم وعظ نبيهم فترة فقالوا له ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله تحت رايته يجمع أمرنا ويعصمنا من الاختلاف على عدونا .

ونبيهم شمويل هو ابن بال بن علقمة ، ويعرف بابن العجوز ، ويقال له شمعون .

وإنما سمي بابن العجوز لأن أمه كانتَ عجوزا يئست من الحمل ، فسألت الله الولد وقد كبرت وعقمت فوهبه الله لها . ويقال له سمعون ، لأنها دعت الله أن يرزقها فسمع دعاءها – والعبرانيون يبدلون السين شيئا .

وهو من ولد يعقوب من نسل هارون[1] .

فقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ..

وطالوت هو ابن ساود بن بشر بن إينال بن طرون بن بحرون من نسل بنيامين بن يعقوب .

وكان قد مضى على خروج بني إسرائيل من مصر إلى تمليك طالوت عليهم اثنتان وسبعون وخمسمائة سنة .

واختلف في حرفة طالوت فقال بعضهم : كان يعمل سقاء ، وقيل كان دباغا ، وقال بعضهم: كان عالما ، ولذلك رفعه الله بعلمه .

وثار بنو اسرائيل على هذا الاختيار ..

كانوا يقيسون الناس بمقياس الغنى والثروة .. فمن كان أكثر مالا كان أحق بالملك .. وهي نظرة قصيرة لا تنم عن حكمة عالية أو منطق سليم ..

فكم من غنيٍّ لا يعرف في تدبير الملك شيئا ولا يحسن سياسة الرعية ، ولا تسيير دفة الحكم..

ولكن الله – سبحانه وتعالى – له حكمته العليا . يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ..

فقال لهم نبيهم : إن الله قد اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم .

وكان طالوت جسيما طويلا . يقال إن الله جعل علامة للنبي شمويل يعرف بها وصف من سيؤتيه الله الملك . فأمره أن ينظر إلى القرن – وهو الوعاء الذي يوضع فيه الدهن – فالرجل الذي يدخل فيصوت الدهن الذي في القرن

---

١) القرطبي جـ٣ ص ٢٤٤ ط دار الكتب .

فهو ملك بنى إسرائيل .

وكان طالوت قد ضلت له دابة فخرج يلتمسها . فذهب إلى شمويل النبى يسأله عنها أو لعله يدعو له دعوة فيعثر عليها ، فلما دخل عليه إذا بالدهن يصوت .

فقام شمويل ، وأخذ من الدهن، ومسح له رأسه، وقال له أنت ملك بنى إسرائيل فعليك أن تتولى أمرهم وتقودهم إلى حرب عدوهم .

ولم تجد ثورة بنى إسرائيل على طالوت واختيار نبيهم له ملكا عليهم شيئا .

قال لهم : إن الله قد اختاره ... وما دام الله قد اختاره فعليكم ألا تعصوا أمره. عليكم أن تسمعوا وتطيعوا .

سألوه عن آية يدركون بها ان الله قد اختاره ملكا عليهم .

فقال لهم : إن آية ذلك أن الله سيعيد لكم به التابوت فيه سكينة من ربكم .

ما هذا التابوت ؟

قال أهل التفسير : إن التابوت صندوق كان موسى عليه السلام قد وضع فيه التوراة والألواح والصحف وقد أودع فيه من العلوم ما تستقر بها النفوس وتسكن بها الأرواح، وتطمئن إليها القلوب. وظل أنبياء بنى إسرائيل يتوارثونه حتى غلب أهل بابل الاسرائيليين عليه فأخذوه منهم .

وكان بنو إسرائيل يتفاءلون بوجود هذا التابوت بينهم ، ويستفتحون به فى حروبهم . فلما غُلبوا عليه تطيروا وتشاءموا وأيقنوا بالهزيمة ..

فكان تبشير نبيهم لهم بأن علامة ملك طالوت عودة التابوت إليهم مبعث سرور لهم واطمئنان فى نفوسهم .

قالوا : وكان أهل بابل حين أخذوا التابوت من بنى إسرائيل أصيبوا بالأوجاع والكوارث والمصائب .

فقد وضعوه فى بيت أصنام فنكست الأصنام .

فوضعوه فى قرية فأصيب أهلها بأوجاع فى أعناقهم

فقالوا : ما هذا إلا من التابوت . فوضعوه على عجلة بين ثورين وأرسلوهما نحو بلاد بنى إسرائيل ، فأقبلا يجريان ، حتى دخلا وبنو إسرائيل يتنازعون فى أمر طالوت .

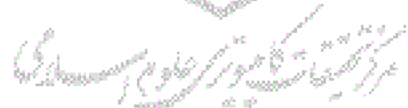
فلما رأوا التابوت قد جاء أدركوا العلامة التى أخبرهم بها نبيهم فآمنوا وصدقوا ورضوا بطالوت ملكا عليهم .

وسكنت قلوب بنى إسرائيل بوجود التابوت، وهذه هى السكينة التى تشير اليها الآية الكريمة «فيه سكينة من ربكم» وكان قد أودع فى هذا التابوت بعض آثار أنبياء بنى إسرائيل كعصا موسى ، وبعض بقايا الألواح التى ألقاها موسى فتكسرت وبعض ثياب موسى وهارون ..

النبى شمويل يأمر طالوت بالقتال :

وأصدر النبى شمعون . وهو شمويل - كما علمنا - أمره إلى الملك طالوت أن يتوجه ومن معه من بنى إسرائيل إلى بيت المقدس لإخراج البابليين وملكهم جالوت منها .

وكان جالوت قد اشتد سلطانه وكثرت عساكره وقواده وأعوانه، وغلب على بيت المقدس .



ويقال فى نسبه :

هو جالوت بن بابول بن ريال بن حطان بن فارس .. كان رأس العمالقة ومن أشد الناس وأقواهم ، وبلغ من قوته أنه كان يهزم الجيش وحده ..

وبلغ جالوت سير بنى إسرائيل بقيادة طالوت اليه .

فسارع جالوت من فلسطين بأجناس من البربر ..

مشى كل من الجيشين إلى صاحبه ، وكان مع طالوت من الجنود ما قدّره الرواة بثمانين الفا، لأنه لم يتخلف من بنى إسرائيل عن القتال إلا ذو العذر القاهر .

وقد اجتمع هؤلاء الثمانون الفا على ما اشترطه عليهم طالوت، فإنه قد قال لهم : لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة ينشغل بها،ولا رجل عليه دين،ولا رجل تزوج من امراة وهو يريد أن يبنى بها.

لا أريد إلا كل شاب جلد نشيط فارغ من شواغل الدنيل ، مفرغ قلبه لله ...

سار طالوت بجنوده، وكان الحر شديدا.. وسلط الله عليهم العطش.. وطلبوا من ملكهم الماء .. بنهر بين الأردن وفلسطين .. وكأن الله – سبحانه – قد أرد أن يلقن هؤلاء الجنود درساً فى الانضباط ، ومدى الطاعة للقائد ، فأصدر الملك أوامره قائلا لهم : إن الله يبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ..

ما أقسى هذا الابتلاء عليهم..

لقد بلغ منهم العطش أقصاه. والحر شديد .. والماء عذب . فكيف يصبرون على العطش والماء أمامهم أيكون مثلهم مع ملكهم مثل الذى يقال له :

القاه فى اليم مكتوفا وقال له ؛ إياك إياك أن تبتل بالماء ؟

أو يصبح مثلهم كمثل الذى قيل فيه :

ظمآن والماء فى فمه .

ياله من اختبار لهؤلاء الذين لم يصمدوا قط أمام أى اختبار ...

ولم يصبر كثير من الجنود على إغراء الماء ، وهان أمامهم تحذير الملك .

فلما وصلوا إلى حافة النهر انكب المخالفون على النهر يعبون منه عبا وولغ أهل الريبة منهم ولوغ الكلاب فقتلهم طالوت بيده[1] .

أما الصالحون منهم فقد اكتفوا بالغرفة التى أشار بها طالوت، وبارك الله لهم فى هذه الغرفة فأذهبت عنهم حرقة العطش .

وكان عدد هؤلاء الصالحين الذين استقاموا على الأمر ثلاثمائة وثلاث عشرة رجلا . أما الباقون فلم ينجحوا فى الاختبار . وأعادهم طالوت من حيث أتوا ..

واجتاز طالوت بهؤلاء الصالحين النهر ..

---

(١) مروج الذهب جـ١ ص ٤٠ .

المواجهة :

وجانب ساعة اللقاء بالعدو . وندب طالوت جنوده الذين بقوا معه للجهاد وحثهم على الصبر والمصابرة أمام جيش جالوت الكثيف ومنظره المخيف . وقال طالوت : من يخرج لجالوت فله ثلث ملكي وأزوجه ابنتي ..

فخرج داود له ..

وكان داود أحد ثلاث عشرة أخاً وهو أصغرهم. قال لأبيه يوما :

يا أبت ، إني لم أرم قط بقدحي شيئا إلا صرعته في الحال . فقال له أبوه : أبشر يا بني فإن الله – تعالى – جعل رزقك في قدحك .

ثم قال لأبيه مرة أخرى : يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فرأيت أسدا عظيما فلم آبه له ، فخضع لي حتي ركبته، ثم قبضت بيدي على منكبيه، فتركته هناك ميتا .

فقال له أبوه : أبشر يا بني فإن سعدك أقبل .

ثم قال لأبيه يوما : يا أبت إني إذا سبّحْتُ بالليل سمعت الجبال تسبح معي .

فقال له أبوه : ابشر يا بني ، فهذا دليل نبوتك ..

فهذا داود الذى خرج لقتال جالوت ..

واصطف الجيشان إيذانا ببدء المعركة . فقال المؤمنون : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ..

والمؤمنون – عادة – لا ينتصرون بعددهم ، ولكنهم ينتصرون بيقينهم وثقتهم في الله ..

كان عدد المسلمين في غزوة بدر بعدد جنود طالوت ، ومع ذلك فقد نصرهم الله على عدوهم الذى يتضاعف عنهم في العدد ثلاث مرات ..

ودعا المؤمنون ربهم قائلين : ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين واستعانوا بالله .

وأخرج داود مقلاعه ، ووضع فيه حجرا من أحجار كانت معه وقال : باسم

الله رب إبراهيم واسحاق ويعقوب وموسى ، ورمى جالوت بمقلاعه فانطلق الحجر كالسهم ففلق هامة جالوت .

وقتل جالوت، وبقتله انهارت صفوف جنوده واستولي عليهم الرعب وولوا هاربين .

وركب بنو اسرائيل اكتافهم ، وما زالوا بهم حتى أجلوهم عن بيت المقدس ...

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه القصة بقوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن
بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا
وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ
أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً
فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ
إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ
وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا
فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ
يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ

هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)

إن في هذه القصة عظات وعبرا ..

فهي تدلنا على أنه ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا .. وما فرط قوم في الاستجابة لأمر دينهم إلا كتبت الذلة والمسكنة عليهم ..

وقد حثنا الدين على الجهاد في سبيل الله ، وهناك أثر يقول:الجهاد ماض إلى يوم القيامة .

ذلك أن الدنيا مبنية على الغلبة والتدافع، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

وهي تدلنا على الاستعانة بالله في الحرب ، وعدم الاتكال على حول الجنود وقوتهم وعدتهم ، فإن الله - سبحانه - ينصر من يشاء برحمته ومن الحكمة الأخذ بالأسباب في الحرب مع ضرورة الاستعانة بحول الله وقوته مصداقا لقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ..﴾[1] .

وعدم الاستهانة بأمر أي جندي في القتال مهما صغر، فقد يكون ذلك الصغير لديه من سعة الحيلة - وحسن التصرف ما ليس عند غيره، وقد قالوا في تفسير هذه الآيات أن طالوت استحقر شأن داود في أول أمره وازدراه لصغر سنه وقصره فرده ولكن حين نادى طالوت أكثر من مرة لم يجد من يلبيه إلا داود ، فاختبره فوجده صلبا قويا فأعطاه فرسه وسلاحه . فرفض داود ذلك وقال: لا أقاتل إلا على عادتي . وعادته أن يقاتل راجلا بمقلاعه ..

---

(١) الأنفال ٦٠

وكان أرمى الناس بالمقلاع..

وكما استهان طالوت بداود استهان به جالوت..

لأنه حين دعا للمبارزة. خرج له داود، وليس معه سيف أو درع بل معه مخلاة بها حجارة ومقلاع.

وأسمع داود جالوت كلاما قاسيا مما جعل جالوت يقبل عليه محاولا أن يجعل لحمه طعمة للطير والسباع كما قال له..

ولكن داود كان أسرع اليه من نفسه فقد لوح نحوه بمخلاته وقذفه بما فيها من حجر فلق به هامته والقاه صريعا.

ومن الآيات ندرك سعة فضل الله. وأن ملكه لا يؤتيه إلا على علمه وحكمته، وليس الملك باختيار الإنسان أو بمجهوده يصل اليه.. وهذا طالوت لم يكن فى زعمه يوما أن يكون ملكا. ولم يكن فى ذهنه أو فى آماله يوما أن يتملك على شيء.. وكان يقوم بأعمال متواضعة، ومع ذلك فقد اختاره الله ليكون ملكا على بني إسرائيل وفيهم النبوة، وجعل يخوض بهم أشرف المعارك لاسترداد بيت المقدس من الجبارين الذين استولوا عليه.

وكذلك داود عليه السلام، لم يكن فى ذهنه أن يكون نبيا، ولكن الله اعطاه الملك والنبوة - وسنعرض لقصته بالتفصيل إن شاء الله -

وفى الآيات الكريمة السابقة دعوة الى الانفاق في سبيل الله، وقد وعد الله المنفق بالثواب الجزيل والعطاء الوفير. ومن كرم الله - تعالى - أن وهبنا المال واستقرضه منا ووعدنا بالمضاعفة في ثوابه.. ليس ذلك لحاجة منه إليه، بل لتعويدنا كيف تسخو نفوسنا بالعطاء، وحتى لا يكون المال وسيلة من وسائل التقاعس عن الحق والتأخر عن الواجب. وكم من أغنياء أتلفتهم الثروة وأوردتهم موارد التهلكة لأنهم أحبوا المال أكثر من الحق والواجب، وباعوا شرف الآخرة بدراهم معدودة..

وفى القصة دلائل على وجوب طاعة القائد والانصياع لأمره وعدم التفريط فيما يدعو إليه. لأن في ذلك صلاح الأمر ونيل النصر، وبخاصة إذا كان القائد متبعا لمنهج الدين مسترشدا بكتاب الله وسنة رسوله...

قصة طالوت فى العهد القديم :

ذكر العهد القديم قصة طالوت فى سفر صموئيل الأول .

ولكن لم يذكر باسمه طالوت كما ورد فى القرآن الكريم ، بل ذكر باسم شاول ولكن أحداث القصة التى ذكرها تشير إلى بعض الأحداث التى ذكرها القرآن الكريم مفصلة .

فقد لجأ بنو اسرائيل الى شيخهم صموئيل يضجون إليه بالشكوى ويطلبون منه أن يختار لهم ملكا يقاتلون تحت رايته فساء الأمر فى عينى صموئيل إذ قالوا «أعطنا ملكا يقضى لنا .. وصلى صموئيل إلى الرب . فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم، حسب كل أعمالهم التى عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلي هذا اليوم وتركوني وعبدوا آلهة أخرى هكذا هم عاملون بك أيضا . فالآن اسمع لصوتهم . ولكن أشهد عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم...»[1] .

ويمضى الحديث حول شاول الذى يذهب الى بيت صموئيل باحثا عن الأتن التى ضلت له ، فيملكه صموئيل على بنى إسرائيل، ويرفضه بنو اسرائيل، ولكن الأوصاف تنطبق عليه ، وتأتى الآيات مصدقة بأنه هو المطلوب إلى آخر ذلك مما ذكرناه ..

ولكن القرآن الكريم يسوق القصة بأسلوبه المعجز الذى يقدم تمجيد الله – تعالى – لأنبيائه والصالحين من عباده . ويرفعهم إلى مكانتهم العليا التى جعلتهم جديرين بما منحهم الله اياه من منزلة عليا وشرف رفيع ...

---

(١) العهد القديم – سفر صموئيل الأول الاصحاح الثامن.

يونس
- عليه السلام -

نسبه ..



قريته وقومه ..

مغاضبته ..

يونس في الماء ..

استغاثته بالله ..

نجاته ..

نسبه :

لم يذكر العلماء في نسب يونس – عليه السلام – إلا أباه فقالوا : يونس بن متى .. وأهل الكتاب يقولون عنه : إنه «يونان بن أمتاى» ..

وكانت قريته التى بعث إليها هى «نينوى» وهى مقابلة الموصل وبينهما دجلة .

قال المسعودى عنها : وهى في وقتنا هذا أى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مدينة خراب كان فيها قرى ومزارع لأهلها .. وإلى أهلها أرسل الله يونس بن متى وآثار الصور فيها بينة واضحة وفيها أصنام من حجارة مكبوبة على وجوهها ، وفى ظاهر المدينة تل عليه مسجد ، وهناك عين تعرف بعين يونس – عليه السلام – ويأوى إلى هذا المسجد النساك والعباد والزهاد[1].

وقد وردت قصة يونس فى القرآن الكريم فى سورتى الأنبياء والصافات .. بشىء من التفصيل وأشار إليها الحق سبحانه وتعالى فى موضعين .. في قوله تعالى :

﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لمَّا آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾[2].

وفى قوله تعالى : ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه وجعله من الصالحين﴾[3].

---

(١) مروج الذهب جـ ١ ص ١٦١ .
(٢) الآية ٩٨ من سورة يونس .
(٣) الآيات ٤٨ : ٥٠ من سورة القلم .

وآية يونس المذكورة .. سميت بها السورة ..

وإفراد السورة بهذا الاسم له دلالة على أهمية هذه القصة وما فيها من عظات وعبر مهمة، تنبه العقول إلى ما يجب أن يكون عليه الناس من استعداد للتوبة الصادقة التي بمقتضاها يرفع الله العذاب ويمحو العقاب ..

القصة :

أرسل الله إلى أهل نينوى يونس - عليه السلام - ..

وكان رجلاً صالحاً اعتزل قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام، وأقبلوا عليها يسجدون لها، ويطوفون حولها، ويقربون إليها القرابين، ويجعلون لها عيدًا كل عام يجتمعون إليه ويرقصون ويلعبون .. وقيل: إن صنمهم اسمه «بعل»، وهو موافق لصنم قوم إلياس - عليه السلام -(٤).

رأى يونس منهم ذلك فاعتزلهم، وأقام بعيدًا عنهم في كهف يعبد الله ويوحده .. فاختاره الله نبيًا وأوحى إليه أن يذهب إلى هؤلاء القوم منذرًا لهم وداعيًا إلى عبادة الله وحده، وترك ما هم فيه من عبادة الأصنام ..

وكانت سن يونس حين نُبِّىءَ - ثمانية وعشرين عامًا -(٥).

كذا قال الألوسي، وجاء في البحر المحيط أن يونس كان في زمن ملوك الطوائف من الفرس وكان ملكهم حوالي خمسمائة سنة من بعد الاسكندر الأكبر ..

وتوجه يونس إلى قومه - وكانت فيه حدة وشدة أملتها فورة الشباب - ولكنه لم يجد إلا آذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، وعيونًا عميًا ..

---

(٤) تفسير الألوسي جـ ٥ ص ٤١٣ .
(٥) تفسير الألوسي جـ ٢٣ ص ١٣٠ .

ومكث يدعوهم فترة ليست بالقصيرة قدَّرها بعضهم بثلاث وثلاثين سنة وهى فترة أكثر من عمره حين نبىء .. ولم يؤمن به – فيما أسنده الثعلبى إلى على بن أبى طالب – سوى رجلين أحدهما (روبيل) وكان عالمًا حكيمًا .. والآخر (تنوخا) وكان عابدًا زاهدًا[٦]..

وضاق صدره بكفرهم وعنادهم، فدعا عليهم ..

فخوطب : يا يونس ما أسرع ما دعوت على قومك . ارجع إليهم فادعهم أربعين يومًا أخرى، فإن أجابوك وإلا فاننى مرسل عليهم العذاب ..

وانصاع يونس للأمر، فعاد إلى قومه قائلاً لهم : أمامكم أربعون يومًا ويأتيكم سخط الله إن لم تثوبوا إلى رشدكم وتعودوا إلى صوابكم، وإنى أنذرتكم . وقد أعذر من أنذر ..

وكلما مر يوم يذكرهم بذلك .. قائلاً لهم مضى كذا وبقى كذا من الأيام . حتى بقى من الأجل المضروب ثلاثة أيام .. فصاح فيهم قائلاً : يا قوم لقد نبهتكم وأديت ما وجب علىَّ نحوكم ولم يبق بينكم وبين عذاب ربكم إلا ثلاثة أيام .. ذلك وعد غير مكذوب ..

إن آية ذلك العذاب الذى يقع عليكم هو أن تتغير ألوانكم فتصفر، ثم تحمر، ثم تسود .. وتركهم لتوه وانصرف بعيدًا عنهم .. خشى أن يصيبه العذاب معهم ..

وحل يوم العذاب الذى توعدهم به يونس، ونظر بعضهم إلى بعض فإذا وجوههم متغيرة .. لم تكن كما كانت بالأمس .. وبحثوا عن يونس فلم يجدوه .. فقال بعضهم لبعض : انظروا فوالله ما جربنا على يونس كذبًا، وإنه لصادق وها هى علامة إنذاره قد بدت على وجوهنا .. ولا يلبث أن ينزل بنا ما توعدنا به فهيا تداركوا أمركم قبل ألا تستطيعوا ..

وفزعوا إلى ملكهم ففزع معهم ..

---

(٦) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٤١٧ .

وخرجوا نادمين على ما كان منهم .. حطموا أصنامهم ، ولبسوا مسوحهم وبرزوا إلى الخلاء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا فرحمهم الله وكشف عنهم ، وكان يوم عاشوراء يوم جمعة .. وعن ابن مسعود : بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم بينهم ، حتى ان الرجل منهم كان يعمد إلى الحجر قد جعله أساسًا فى بيته فيرفعه ويعيده إلى مكانه ، وفرقوا بين كل والدة وولدها ، وبين كل فصيل وأمه وضجوا إلى الله بالدعاء وصرخوا إليه بصدق الالتجاء ، وارتفعت مع صراخهم صيحات الدواب في كل مكان إلى عنان السماء ، ونزلت الدموع من العيون مدرارًا وجرت على الخدود أنهارًا .. قائلين بلسان الصدق والرجاء ، يارب يا معبود ، ولا معبود سواه ، يا قابل التوب ويا سامع الصوت ممن دعاه .. تجاوز عن المذنبين ولا تأخذهم بذنوبهم وأحسن إليهم بالعفو عنهم والمغفرة لهم وعلَّمَهُم عالِمٌ من علمائهم القدامى كيف يقولون .. فقالوا : يا حىُّ حين لا حَىّ ، ويا حىُّ محيى الموتى ويا حىُّ لا إله إلا أنت[٧].

ولله أدعية يضع الله فيها أسراره يقبل بها الدعاء .. وفى القرآن الكريم ألوان سخية منها ..

فأيوب قال لربه : ﴿رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ ..

ومؤمن فرعون قال لربه : ﴿وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾ ..

وذو النون قال لربه على ما سيأتى : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ ..

وزكريا قال لربه : ﴿رب لا تذرنى فردًا وأنت خير الوارثين﴾ ..

---

(٧) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٧٢ .

كل هذه الأدعية دعا بها هؤلاء الأنبياء فتقبل الله دعاءهم وحقق رجاءهم، كما دعا غيرهم بأدعية أخرى ذكرها القرآن..

والأدعية ملجأ يلجأ بها المؤمن إلى ربه فيجد في ظلها برد الرجاء وحلاوة الرضا وسرعة الاستجابة إن شاء الله..

ولما رأى الله صدق إقبالهم، وعلم منهم حسن استغفارهم.. قبل توبتهم وعفا عنهم، فكشف العذاب وآمنهم من العقاب..

قال بعض العلماء: كانت قد أظلتهم سحابة سوداء فيها العذاب، وإذا بها تتقطع أربع قطع ثم تتفرق[٨].. وهذا قوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾..

ولولا هنا تحضيضية تحمل معنى النفي.. أي فما كانت قرية آمنت فنفعها الإيمان إلا قوم يونس.. ليحذو الناس حذوهم، ويفعلوا مثلهم فيقبلون على الله بحال الافتقار ويلهجون إليه بألسنة الاستغفار فيتجلى عليهم سبحانه باسمه الغفار.. ويتوب عليهم إنه هو التواب الرحيم..

يونس يرقب عذاب قومه:

وجلس يونس بعيدًا يرقب ما سيحل بقومه من العذاب وهو مغاضب لهم، حزين على مصيرهم، آسف لما سيقع عليهم.. ولكنه لم ير شيئًا.. لم ينزل ما أخبر به من أن الأرض ستخسف بهم، أو أن الجبال ستدك عليهم، أو أن الصواعق سترسل إليهم.. لم يجد شيئًا من ذلك..

فحار في أمره.. وأخذ يفكر.. وكأن الله لحكمة يعلمها لم يخبره بإيمانهم وقبول توبتهم..

وراودته الأحاسيس المختلفة.. لماذا لم يصدّقه ربه في الوعيد الذى أنذر به قومه؟ وكيف يكون حاله بينهم لو رجع إليهم وهم يشتدون في

---

(٨) بدائع الزهور ص ١٧٧.

عقاب الكاذب .. وكيف ينهاهم عن الكذب وقد كذب ؟ وكيف يحذرهم سطوة ربه ولم يتحقق من ذلك شيء ؟ لقد أصبح موقفه حرجاً .. والأولى به أن يترك هذا المكان بسرعة حتى لا يشير إليه أحد ببنانه قائلاً : هذا الذى توعدنا ولم يصدق فى وعيده ، هذا الذى أنذرنا بالعذاب فى أجل مسمى ولم يأت العذاب فى أجله .. إنه لا يجرؤ على مواجهة قومه بعد ذلك أبدًا ..

وانصرف على وجهه هائمًا .. حتى وصل إلى شاطىء دجلة ..

يونس فى السفينة :

ووجد سفينة على وشك الإقلاع ، فركبها مع الراكبين .. وحبست الأمواج السفينة عن التقدم ، وأحاطت بها من كل جانب وأخذت تلعب بأقدار الراكبين ..

وكان يونس فى قاع السفينة نائمًا لا يحس بما فيه الراكبون من وجل ، ولا بما يحيط بالسفينة من خطر حتى أيقظه بعضهم قائلاً له : أيها العبد الصالح – وكانوا قد توسموا فيه الصلاح – قم فانظر ، وادع الله معنا أن ينجينا من هذا المصير .. وكانوا قد أجمعوا على أن يتخففوا من بعض أثقالهم عسى السفينة أن تنطلق ..

ورأى يونس ما أحاط بالقوم ، وأدرك بفطنة الأنبياء أن ذلك لم يقع إلا بسببه ، فاقترح عليهم أن يقترعوا فيمن يلقونه من السفينة عسى أن ينجوا من هذا المصير .. وأخذوا أسهمًا كتب كل واحد منهم اسمه على سهم وألقوها فى البحر ، فطفا سهم يونس(٩) فألقى يونس بنفسه فى البحر ووجد حوتًا فاغرًا فاه فتلقفه وخاطب الله الحوت قائلاً له : إنى لم أجعل يونس لك رزقًا ، فلا تخدش له جلدًا ولا تقصم له عظمًا وأخذه الحوت وهوى به إلى القاع ..

---

(٩) تفسير الألوسى جـ ٢٣ ص ١٣٠ .

وأسمعه الله تسبيح هوام البحر ودوابه ..

فأقبل على الله يهتف بالتسبيح .. قائلاً : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ..

وقالت الملائكة لرب العزة : يارب إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة .. قال : هذا عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت ..

قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم ، فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت أن يقذفه بالساحل[١٠] ألقاه الحوت على الشاطىء وهو سقيم ضعيف .

واختلف فى مدة بقائه فى بطن الحوت ..

فقيل : التقمه ضحًا ولفظه عشية ، وقيل : مكث فى بطنه ثلاثة أيام ، وقيل : سبعة أيام ، وقيل : عشرين يومًا ، وقيل : أربعين[١١]..

والمعجزة ثابتة ليونس على أية حال ولو ببقائه لحظة .. فما يمكن لانسان يبتلعه حوت أن يبقى سالمًا فى جوفه . فإن سلم من الافتراس لم يسلم من الاختناق ولكن يونس عليه السلام سلم .. وسار الحوت بيونس وقطع به مسافات طويلة .. حتى ألقاه فى (نِصِّبين) من ناحية الموصل .. فنبذه فى أرض عراء لا شجر فيها ولا معلم .

لغز فى حوت يونس :

وفى سير الحوت بيونس وهو فى جوفه أورد العلماء لغزًا حكاه الدميرى قال :

روى الدينورى فى المجالسة ، وأبو عمر بن عبد البر فى التمهيد عن أبى العباس محمد بن اسحاق السراج قال : حدثنا هشيم عن على بن زيد

---

(١٠) تفسير القرطبى سورة الصافات ص ٥٥٦٨ .

(١١) تفسير الألوسى .

عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كتب صاحب الروم إلى معاوية -رضى الله عنه- يسأله عن أفضل الكلام ما هو ؟ وعن الثانى والثالث والرابع والخامس ، وكتب إليه يسأله : عن أكرم الخلق على الله وعن أكرم الأماء على الله ، وعن أربعة من الخلق فيهم الروح لم يرتكضوا فى رحم ، ويسأله : عن قبر مشى بصاحبه وعن المجرة ، وعن القوس ، وعن مكان طلعت فيه الشمس لم تطلع عليه قبل ذلك ولن تطلع عليه بعد ..

فلما قرأ معاوية الكتاب قال : عجبًا لهذا الرجل ، وما علمى بتلك الأمور ؟ فقيل له اكتب إلى ابن عباس .

فكتب إليه بذلك فرد عليه :

إن أفضل الكلام لا إله إلا الله . كلمة الإخلاص لا يقبل عمل إلا بها والتى تليها سبحان الله وبحمده .. صلاة الحق ..

والتى تليها : الحمد لله .. كلمة الشكر ..

والتى تليها : الله أكبر ، والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله ..

وأما أكرم الخلق على الله فآدم - عليه السلام - خلقه بيده وعلمه الأسماء كلها ..

وأما أكرم إمائة عليه فهى مريم التى أحصنت فرجها فنفخ فيها من روحه ..

وأما الأربعة الذين لم يرتكضوا فى رحم فآدم وحواء وناقة صالح والكبش الذى فدى الله به إسماعيل وقيل : عصا موسى حين ألقاها فصارت ثعبانًا ..

وأما القبر الذى سار بصاحبه فهو الحوت حين التقم يونس - عليه السلام - وأما المجرة فباب السماء وأما القوس فهو أمان لأهل الأرض من الغرق بعد قوم نوح .

وأما المكان الذى طلعت فيه الشمس ولم تطلع عليه قبله ولا بعده فهو المكان الذى انفلق فى البحر لبنى إسرائيل ..

فلما قدم الكتاب قال ملك الروم ما أصاب هذا إلا رجل من بيت النبوة[١٢].

شجرة اليقطين :

تمت المعجزة ليونس عليه السلام بعد أن نبذه الحوت فى العراء بأن أنبت الله عليه شجرة من يقطين .

وهى الدباء «القرع» ومن خصائصها اللين والنعومة وعظم الورق وأنها شفاء للقروح ولا يقترب منها ذباب .. ويونس كان فى حاجة إلى الظل ، وجسمه كان متسلخًا من حرارة جوف الحوت وعاريًا تؤذيه حرارة الشمس واجتماع الذباب ، فكان فى هذه الشجرة ظله وشفاؤه وطعامه . وقيض الله له أُرْوِيَّةً تسقيه بلبنها تغاديه وتراوحه .. وقيل : كان يتغذى من اليقطينة يجد فيها كل ألوان الطعام والأُروية -بضم الهمزة واسكان الراء وكسر الواو وتشديد الياء- هى الأنثى من الوعول .

رحمة الله قريب من المحسنين :

لقد أدركت يونس رحمة الله ، إذ نادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .. قال العلماء الظلمات هى : ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة بطن الحوت .. فاستجاب الله له سريعًا فنجاه من الغم .. وقد وعد الله بأن يكون فى هذا الدعاء وسيلة لنجاة من يهتف به إذ قال الله تعالى ﴿وكذلك ننجى المؤمنين﴾ ..

---

(١٢) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٦٥٢ .

روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص أن النبي - ﷺ - قال: «دعاء يونس في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له»..

وقال العلماء إن هذه الآية شرط الله لمن يجيب دعاءه لأن الله قال: ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ وهذا يدل على سعة رحمة الله تعالى وسرعة استجابته.. وأنه لا تخفى على الله خافية في الأرض وفي السماء..

ذكر الزمخشري في الكشاف قائلاً: قال ابن العربي أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين الجويني -رحمه الله- أنه سئل عن الباري - سبحانه - في أي جهة؟ فقال: هو يتعالى عن ذلك. قيل له: ما الدليل على ذلك؟ قال الدليل على ذلك قول النبي - ﷺ -: لا تفضلوني على يونس بن متى. فقيل له: ما وجه الدلالة في هذا الخبر؟ قال: لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا الف دينار يقضي بها دينا. فقام رجلان فقالا: هي علينا وقام رجل فقال: هي علي.

فقال: إن يونس بن متى رمى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت، فصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث، ونادى: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. كما أخبر الله عنه. ولم يكن محمد - ﷺ - حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعدا، حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام، وناجاه ربه بما ناجاه به وأوحى إليه بما أوحى بأقرب إلى الله تعالى من يونس في بطن الحوت في ظلمة البحر..

فائدة التسبيح:

ومن هنا تظهر فضيلة التسبيح. والتسبيح تنزيه الحق وتقديسه، ووصفه بما يليق به من صفات الكمال..

والتسبيح ينجي صاحبه من الهلاك ويأخذ بيده إلى طريق الرشاد، فقد قال تعالى في حق يونس ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾[١٣].

---

(١٣) الآيتان ١٤٣، ١٤٤ من سورة الصافات.

لقد نجى الله يونس ببركة تسبيحه لله ..

وقد أخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك بن قيس قال : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة فإن يونس – عليه السلام – كان عبدًا صالحًا ذاكرًا الله تعالى ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى عنه : فلولا أنه كان من المسبحين للبث في طنه إلى يوم يبعثون » .. وان فرعون كان عبدًا طاغيًا ناسيًا لذكر الله تعالى فلما ادركه الغرق قال : « آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » .. فقيل له : « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين »[14]..

يونس في طريقه لقومه :

بقي يونس في ظل اليقطينة حتى شفيت جروحه ، وكانت إقامة اليقطينة إقامة زائل لا إقامة راسخ .. فبينما هو كذلك إذ رأى اليقطينة تجف من فوقه . ويمسه حر الشمس .. فجزع لذلك فأوحى الله إليه قائلاً : يا يونس ، جزعت ليقطينة يبست ، ولم تنبتها بيدك ، ولم تتعب في غرسها وسقيها ، وهي مقدر عليها الجفاف والهلاك ، ولم تجزع لهلاك قوم آمنوا بي واستغفروني فغفرت لهم وأبدلت سيئاتهم حسنات ؟ عند ذلك أدرك يونس علة رفع العذاب عن قومه وسبب التقام الحوت له وعلم أن ذلك كان عقابًا له من السماء لأنه لم ينتظر الوحي ، ولم يسأل ربه في أمر قومه .. وكأنه كان مُصِرًا على أن يأتيهم العذاب ..

ومن ذلك تبرز منزلة سيدنا محمد – ﷺ – الذي كان لا يكف عن طلب الهداية لقومه على الرغم من تكرار الأذى منهم له ولمن آمن به .. وكانت دعوته المفضلة لهم : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ..

ولذلك وصفه الله – تعالى – بقوله : ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾[15]..

---

(١٤) تفسير الألوسي جـ ١٣ ص ١٣٠ .
(١٥) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

وحين آذاه قومه من أهل الطائف، وأساءوا استقباله، وأغروا سفهاءهم به فقذفوه بالحجارة، دعا الله وناجاه .. فكلمه جبريل فى شأن عقابهم فقال ﷺ : دعهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله ..

فقال له جبريل : صدق من سماك الرءوف الرحيم .

وأمر الله يونس أن يتوجه إلى قومه فقد آمنوا وحسن إيمانهم ..

قال له يونس : هل فيهم خير ؟ قال : نعم .

فمضى إليهم وأقام معهم . وكان عددهم كما ذكر الله فى كتابه مائة ألف أو يزيدون .

والزيادة قدرها بعض العلماء بعشرين ألفا وقدرها بعضهم بغير ذلك ..

لقد آمن قوم يونس بيونس فأمنهم الله من العذاب فى الدنيا والآخرة ..

كشف عنهم عذاب الخزى الذى توعدهم به فى الدنيا، بعد أن رأوا نذره وهم فى الآخرة فى جنة الخلد، لاشك فى ذلك ..

وأبقاهم الله فى نعمة الإيمان إلى آجالهم المقدرة لهم .. وهذا ما يفيده قوله تعالى : (فآمنوا فمتعناهم إلى حين)

القصة فى القرآن

لقد وردت قصة يونس فى القرآن فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾
فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ
مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(١٦)

وإن فى قصة يونس لآيات لمن يعتبر ..

منها أن الله جلت قدرته لايعجزه شيء، وهو يتولى عباده الصالحين، يرقبهم برحمته ويشملهم برعايته،

---

(١٦) الصافات ١٣٩ : ١٤٨

وقد كان يونس ــ عليه السلام ــ وهو فى بطن الحوت محل نظر الله ولطفه حتى قال للحوت : أنا ما جعلته لك رزقا ، فلا تخدش له جلدا ولا تقطع له لحما ولا تكسر له عظما ..

ومنها أن التوبة الصادقة تكشف العذاب ، وترفع العقاب .. وقد سجل ذلك القرآن الكريم . فى قوله تعالى (فلو كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى)[١٧]

وللتوبة الصادقة علامات من أهمها الندم والفرار إلى الله والهتاف إليه بالاستغفار ، واستشعار الحزن على ما حدث من معصية ، والعزم الصادق على هجران الذنوب ، والاقبال بالشوق على الله وتجديد العهد معه على مداومة الطاعة ..

وقد دعا الله إلى التوبة كل الناس .. لم يستثن منهم أحداً .. فقال للكفار على لسان النبى ــ ﷺ ــ : (وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى)[١٨]

وقال للمؤمنين : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)[١٩]

المغاضبة

تحدث المفسرون فى معنى (مغاضبا) من قوله تعالى ــ (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه)[٢٠]

فقال قوم : إنه كان مغاضبا لقومه .. أى غضب منهم لأنهم لم يطيعوه فى الاستجابة له .. وهذا هو الأنسب لمقام النبوة ..

وروى أنه لم يكن مغاضبا لقومه ، ولكنه كان غاضبا على الملك

---

(١٧) يونس ٩٨

(١٨) هود ٣

(١٩) التحريم ٨

(٢٠) الأنبياء ٨٧

حزقيل الذى كان معاصرا له مع أشعيا النبى فى عصره ، .. وقصة ذلك فيما رواه بعضهم عن ابن عباس : أن يونس وقومه كانوا يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصف سبط، فأوحى الله إلى أشعيا النبى : اذهب إلى حزقيل الملك وقل له يوجه خمسة من الأنبياء لقتال هذا الملك الذى سبى الأسباط فذهب فأبلغه الرسالة .

فقال حزقيل أوجه يونس بن متى فانه قوى ..

فدعاه الملك وأمره أن يخرج . فقال له يونس : هل أمرك الله تعالى بإخراجى ؟ قال : لا .

قال : هل سمانى لك ؟ قال : لا .

فقال يونس : فههنا أنبياء غيرى .

فألحوا عليه فخرج مغاضبا . فأتى بحر الروم ..

وحدث ما حدث من أمر السفية والاقتراع .(٢١)

وروى بعضهم فى المغاضبة قصة أخرى : أسندوها إلى الحسن البصرى :

قالوا : إنه خرج مغاضبا لربه وذلك أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه ، فسأل ربه ان ينظره ليتأهب للشخوص إليهم ، فقال له الأمر أسرع من ذلك ولم ينظره ، حتى سأله أن ينظره إلى أن يأخذ نعله ليلبسها فقيل له نحو القول الأول ، فظهر عليه بعض الضيق . وقال : اعجلنى ربى أن آخذ نعلى فألبسها فذهب مغاضبا .. وفى هذا القول ما ترى مما هو بعيد عن العقل وعن أوصاف الأنبياء .

وأسند بعضهم إلى ابن عباس أن الله أمره أن ينطلق إلى أهل نينوى لينذرهم أن العذاب آتيهم إن لم يتوبوا . فقال:التمس دابة فقال : الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة فكان من أمره ما كان ..

---

(٢١) تفسير الألوسى جـ١٧ صـ٥٦ ، قصص الأنبياء للثعلبى صـ٤١٦ .

ولكن هذه الأخبار فى حاجة إلى تمحيص لأنها لا تتفق ومقام النبوة وأولى الأمور فى ذلك أن تكون مغاضبته لقومه لأنهم عصوه ولم يستجيبوا لما فيه نجاتهم وفلاحهم . وكان غضبه عليهم من أجل الله . فخرج إلى البحر .. وفراره إلى البحر كان بسبب عدم رؤية العذاب فلما لم ينزل العذاب خشى أن يتهم بالكذب وَعزَّ عليه ذلك ..

وإذا كان هذا هو المعنى فما المقصود بمؤاخذته ونهى النبى - ﷺ - عن التشبه به حين قال له ربه :

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٥٠﴾

المؤاخذة كانت - والله أعلم - لعدم صبره على مطاولة قومه ومهاجرته لهم قبل أن ينتظر الإذن من ربه .. ومهمة الرسول هى الحلم والعفو والدعاء لقومه بالهداية وحسن الاستجابة ..

أما قوله تعالى : (فظن أن لن نقدر عليه) فهو من التقدير والتضييق مثل قوله تعالى : (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) .

وفيما يروى فى ذلك .. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه دخل على معاوية فقال له : لقد ضربتنى لجج القرآن البارحة فغرقت فيها : فلم أجد لنفسى خلاصا إلاّ بك . قال : وما هى يا معاوية ؟ فقرأ قوله « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه » .

وقال : أويظن نبى أن الله لن يقدر عليه ؟ قال ابن عباس : هذا من القدْر لا من القدرة (٢٣)

قصة يونس عند أهل الكتاب

ذكر الألوسى فى تفسيره قصة يونس عند أهل الكتاب وهذه هى فى إيجاز :

---

(٢٢) القلم ٤٨ : ٥٠

(٢٣) تفسير الكشاف جـ ٣ صـ ١٣٢

أمر الله يونس بالذهاب إلى أهل نينوى - وكانت إذ ذاك عظيمة لا تقطع إلا في نحو ثلاثة أيام ، وكانوا قد عظم شرهم وكثر فسادهم ، فاستعظم الأمر وأراد الهرب إلى (ترسيس) فجاء (يافا) فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى (ترسيس) فاستأجر وأعطى الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة وكثرت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق ، ففزع الملاحون ورموا في البحر بعض الأمتعة لتخف السفينة ، وعند ذلك نزل يونس إلي بطن السفينة ونام . فتقدم إليه الرئيس فقال ما بالك نائما ؟ قم وادع الهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا .

وقال بعضهم لبعض : تعالوا نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسببه ؟ فتقارعوا فوقعت القرعة على يونس . فقالوا له أخبرنا ماذا عملت ومن أين أتيت ؟ وإلى أين تمضي ومن أى كور أنت ومن أى شعب أنت ؟

فقال لهم : أنا عبد الرب إله السماء خالق البر والبحر .

ثم أخبرهم خبره ، فخافوا خوفا عظيما .

وقالوا له : لم صنعت ما صنعت ؟ يلومونه على ذلك ثم قالوا : له ما نصنع الآن بك ليسكن البحر عنا .

قال : القوني في البحر يسكن ، فانه من أجلي صار هذا الموج العظيم . فجهد الرجال أن يردوها إلى البر فلم يستطيعوا فأخذوا يونس والقوه في البحر لنجاة جميع من في السفينة .

فسكن البحر وأمر الله تعالى حوتاً عظيما فابتلعه وبقي في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال فصلى في بطنه إلى ربه واستغاث به ، فأمر سبحانه وتعالى الحوت فألقاه إلى اليابس ثم قال عز وجل : قم وامض إلى نينوى وناد في أهلها كما أمرتك من قبل فمضى ونادى وقال : تخسف نينوى بعد ثلاثة أيام فآمن أهل نينوى ونادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعا ووصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه ونزع حلته ولبس مسحا وجلس على الرماد . ونودى الا يذوق أحد من الناس والبهائم

طعاماً ولا شراباً وجأروا إلى الله ورجعوا عن الشر والظلم فرحمهم الله فلم ينزل بهم العذاب .

فحزن يونس وقال : إلهي من هذا هربت فاني أعلم انك الرحيم الرءوف الصبور التواب ، يارب خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة .

فقال الرب : يا يونس حزنت من هذا جدا ؟ فقال : نعم . وخرج يونس وجلس مقابل المدينة وصنع له هناك مظلة وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة فأمر الله تعالى يقطينا فصعد على رأسه ليكون ظلاله من كربه ففرح باليقطين فرحا شديدا وأمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجف ، ثم هبت ريح سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس فعظم الأمر عليه واستطيب الموت فقال له الرب : يا يونس حزنت جدا على اليقطين . فقال : نعم يارب . فقال له : حزنت عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك من ليلته فأنا أشفق على نينوى المدينة العظيمة التي فيها كثير من الناس قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم وبهائمهم كثيرة ؟

قال الآلوسي : وفيه من المخالفة مافيه ، نقلته لك لتطلع على حاله . وكم لأهل الكتاب من باطل .

فضل يونس

مما ورد في فضل يونس عليه السلام ما رواه البخاري عن النبي – ﷺ – لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) (٢٤)

والنبي – ﷺ – سيد المتواضعين ..

وفي هذا الحديث تزكية ليونس – عليه السلام – وبيان لفضله ،

لقد ذكر الله يونس في القرآن الكريم في سلسلة الأنبياء الكرام ولذلك يجب وضعه في منزلته ، التي وضعه الله فيها

---

(٢٤) أخرجه البخاري عن شعبة عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس . باب الأنبياء ٢٤ : ٣٥ وفي كتاب الأحاديث القدسية جـ١ صـ٢٤٣

وقد اجتباه ربه وجعله من الصالحين ، ورد إليه الوحى ، وشفعه فى نفسه وفى قومه وقبل توبته وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون (٢٥) .

وأما ما حدث له فهو من قبيل المحنة والابتلاء الذى يبتلى به الله الصالحين من عباده ، وأشد الناس بلاء هم الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

وقد ذكره النبى - ﷺ - فى موضع اشتد فيه عليه البلاء ، وذلك عند انصرافه من الطائف ، وقد آذاه أهلها من ثقيف إيذاءً شديداً ، واستقبلوه أسوأ استقبال ، فجلس تحت جدار حائط ورفع شكواه إلى ربه قائلا : اللهم انى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح على أمر الدُنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل علىَّ سخطك لك العقبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك .

ورآه أصحاب الحائط فأرسلوا له قطفاً من عنب فى طبق مع غلام اسمه عداس . فلما جاءه به ووضعه بين يديه سمى قائلاً باسم الله ..

فنظر عداس فى وجهه ثم قال له : هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد .

فقال له الرسول : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال عداس : أنا نصرانى من نينوى .

فقال : الرسول : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال الرسول : ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى فاكب على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه .

فلما عاد عداس إلى صاحبيه . قال : ما فى الأرض خير من هذا . لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى .. (٢٦)

---

(٢٥) القرطبى جـ٢ صـ٦٧٣٣

(٢٦) سيرة ابن هشام جـ٢ صـ٢٩

وفاته

نكر ابن إياس أن يونس أقام بنينوى . يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ثم توجه إلى الكوفة فمات بها ودفن هناك . وقيل دفن بالقرب من مدينة صيدا من أعمال الشام على شاطىء البحر الملح ، وبنى عليه مسجد يزار ويتبرك به وهو باق إلى الآن وهو المشهور .[٢٧]



(٢٧) بدائع الزهور جـ ١٨٠

إلياس عليه السلام

نسبه ..

قومه ..

ذكره في القرآن الكريم ..

قصته ..

إلياس والخضر ..

ما روي عن قصة لقائه بالنبي ﷺ

نسبه :

قال الطبراى : هو إلياس بن ياسين بن فنخاص بن العيوار بن هارون أخي موسى - عليه السلام فهو إسرائيلي من سبط هارون [1] .

وحكى ابن قتيبة انه من سبط يوشع بن نون[2] .

ويذكر أهل الكتاب أنه هو النبى (يليا) المذكور فى التوراة[3] .

وقد ورد ذكر إلياس فى القرآن الكريم مرتين .

مرة فى سورة الأنعام فى سلسلة الأنبياء المذكورين فى آية .. وتلك حجتنا[4] ..

ومرة فى سورة الصافات حيث ذكر الله قصته .

قوم الياس :

وقوم إلياس هم سبط من بنى اسرائيل أسكنهم يوشع المدينة المعروفة اليوم ببعلبك .. وقال بعضهم : إنها كانت تسمى (بك) ، ثم سميت بما عرف على التركيب المزجي (بعلبك) وبعلبك معناها مدينة البعل ، او مدينة الرب وهى مدينة مشهورة فى الجهة الشمالية من سهل البقاع ، ويقال : إن بها قبر إلياس النبى ويقال : إن سليمان عليه السلام هو الذى بناها ، وانه بنى بها قصره المشهور الذى أهداه الى بلقيس ملكة سبأ وجعله مهرا لها[5] -

---

(١) تفسير الالوسى جـ ٢ صـ ٣٢٦ .
(٢) المعارف لابن قتيبة صـ ١٧ .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ صـ ٢٨٣ .
(٤) الأنعام ٨٥ .
(٥) دائرة معارف البستانى .

وهى الآن بلدة فى داخل لبنان على ارتفاع ٣٧٠٠ قدم تقريبا فوق هضبة البقاع وتحيط بها واحة من البساتين يرويها ينبوع راس العين الكبير الذى ينبثق عند سطح سلسلة جبال لبنان الشرقية ، وقد نالت اعجاب الكتاب العرب بجوها الطيب وجمال نباتها -[٦].

بعل :

أما بعل الذى ركبت معه الكلمة فهو - كما تقول دائرة معارف البساتي - صنم عبده الفينيقيون والكنعانيون ، ويراد به الشمس أو المشترى .

وقد يأتى بمعنى حاكم أو صاحب أو مالك ويأتى اسما للمعبود وهو كثير فى اللغة العبرانية ..

وكانت عبادة البعل عبادة الاسباط العشرة وحكومتهم فى أيام « آخاب » ملك اسرائيل ، ومع أن هذه العبادة الوثنية كانت أحيانا تبطل إلا أنها لم تتلاش قط من تلك المملكة .

وامتدت فى مملكة يهوذا . وكانت لبعل مذابح كثيرة تذبح فيها الذبائح تقربا إليه ، وأقيمت هياكل جعلت فيها تماثيله ، وكان له كثير من الكهنة من رتب مختلفة ، وعبدته يلبسون حللا مخصوصة يوقدون له البخور ويقدمون له المحرقات - القرابين - وكان من جملتها أحيانا ذبائح بشرية .

وكان الكهنة عند اقامة الخدمة يرقصون حول المذبوح ويصيحون بأصوات عالية ، ويجرحون أنفسهم بالسكاكين ارضاء للمعبود .

وقد ورد ذكر بعل « فى القرآن الكريم فى قوله ﴿ أتدْعُون بَعْلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾[٧]

وهو البعل الذى عبده اليهود ايام اليا النبى ، وقتل النبى من كهنته عدداً كبيراً[٨] وماقالته دائرة المعارف هذه يحتاج الى مناقشة .. من

---

(٦) دائرة المعارف الاسلامية ٣٦/٧ .
(٧) سورة الصافات ١٢٥ .
(٨) دائرة البستانى .

ان كلمة بعل ليست علما على صنم بعينه ولكنها تأتى بمعنى رب وبمعنى معبود . كما تأتى بمعنى زوج ، والزوج له القوامة كما هو معروف .

وقد قال الطبرى فى تفسيره – وهو شيخ المفسرين –: وللبعل فى كلام العرب أوجه ، يقولون لرب الشيء هو بعله ، يقال : هذا بعل هذه يعني ربها ، ويقولون لزوج المرأة بعلها ، ويقولون لما كان الغروس والزروع مستغنيا بماء السماء ولم يكن سقيا : هو بعل وهو (العزى) .

ولذلك ينصرف معنى «بعلا» فى الآية (اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين) إلى مطلق المعبود .... وكأن الياس قال لقومه : أتدعون معبودا مخلوقا ضعيفا ، وتتركون الله الواحد الخالق القادر ؟..

وهذا ما ذكره البخارى فى باب التفسير وما أشار به ابن حجر فى فتح البارى ..

وعلى ذلك فكلمة بعل عربية فصيحة وليست من الكلمات الدخيلة على العرب[9] .



رسالة إلياس :

أرسل الله إلياس إلى قومه من بنى إسرائيل ، بعد أن استشرت فيهم عبادة الأصنام .

وقد كثر الأنبياء فى بنى إسرائيل كثرة فائقة حتى لقد كانوا يتعاصرون بالعشرات ..

وقد كان مع موسى اخوه هارون وفتاه يوشع ومعه كالب بن يوقنا ، ولكى يبقى أحدهم مميزا عن الآخرين .

وسبب هذه الكثرة الفساد الزائد عن الحد .. وعدم الانتهاء عن المنكر والتعالى بالباطل ، والغرور بالأصل والنسب والتباهى بالمال والنشب ..

---

(٩) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٧ صـ ٣٤٨ .

ولم يكن الأنبياء والرسل يأتون بشريعة جديدة ، بل يبعثون ليحييوا ما درس من الشريعة وما نسى الناس من تعاليم ..

بعد أن فتح يوشع بن نون الشام وبوأها بنى إسرائيل أقام سبطا من أسباطهم في مدينة بعلبك وهم الذين ازداد ضلالهم واتخذوا الأصنام وجعلوا لها هياكل ومعابد ، ويقال إنهم اختاروا صنما خاصا منها مصنوعا من ذهب ، طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه ، وخصوه بالعبادة وقالوا : إن هذا هو المعبود ..

فجاء اليهم إلياس منذرا ، ينذرهم من سخط الله وعقابه ، ويذكرهم مصير من سبقهم من المشركين والمعاندين .

ولكنهم لم يؤمنوا به وكذبوه وآذوه .. فهرب منهم .

ويقول القصاص : انهم حاولوا ان يتبعوه ليتخلصوا منه .. فلما أجهده ذلك . دعا ربه أن يخلصه منهم . فقيل له : اخرج يوم كذا الى موضع كذا ، فما استقبلك من شيء فاركبه ولا تهبه .

فخرج ومعه اليسع – وكان اليسع مؤمنا به ، وقال بعضهم : انه كان ابن اخيه او ابن عمه[١٠] وقيل انه وجد فرسا من نار أو نور فامتطاه ..

فقال اليسع لإلياس : بم تأمرني ؟

فقذف اليه بكسائه من الجو الأعلى فكان ذلك علامة على استخلافه على بني إسرائيل . وكان هذا آخر عهده به ..

قالوا : وقطع الله عن الياس لذة المطعم والمشرب ، وكساه الريش والبسه النور فصار مع الملائكة .

قال ابن قتيبة : قال الله لالياس : سلنى أعطك فقال الياس : ترفعني اليك وتؤخر عنى مذاقة الموت . فرفعه الله اليه بعد أن كساه الريش وجعله أرضيا سماويا ملكيا يطير مع الملائكة –[١١] .

---

(١٠) تفسير القرطبي صـ ٥٥٥٩ .

(١١) المعارف صـ ١٧ .

ونكر بعض الرواة في هذه القصة رواية أخرى .

قالوا : إن الياس مرض واحس الموت فبكى ، فاوحى اليه الله ما يبكيك ؟ حرصا على الدنيا أو جزعا من الموت أو خوفا من النار ؟ قال : لا . لاشيء من هذا وعزتك . إنما جزعي كيف يحمدك الحامدون بعدى ولا أحمدك ويذكرك الذاكرون ولا أذكرك ، ويصوم لك الصائمون ولا أصوم ، ويصلي لك المصلون ولا أصلى ؟ فقيل له : يا إلياس وعزتي لقد أخرتك الي وقت نهاية الذكر في هذه الدنيا - يعني يوم القيامة -(١٢) .

خبر لقائه بالنبى ﷺ

اما تأخير موته فذلك غير مستحيل والله يفعل بقدرته ما يشاء .

واما ماورد بخصوص لقائه بالنبي - ﷺ - فهو خبر لم توثقه الأخبار الصحيحة ..

وقد ذكره بعض الرواة عن طريق مكحول عن أنس قال :

غزونا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بفج الناقة عند الحِجْر ، اذا نحن بصوت يقول : اللهم اجعلني من أمة محمد المرحومة المغفور لها المتوب عليها المستجاب لها . فقال رسول الله - ﷺ - : ياأنس انظر ماهذا الصوت قال : فدخلت الجبل فاذا انا برجل ابيض اللحية والرأس عليه ثياب بيض طوله اكثر من ستمائة ذراع . فلما نظر إليّ قال : انت رسول النبى؟ قلت : نعم - قال ارجع اليه فأقرئه مني السلام وقل له : هذا أخوك الياس يريد لقاءك .

فجاء النبي - ﷺ - وانا معه حتى اذا كنا قريبا منه تقدم النبى - ﷺ - وتأخرت فتحدثا طويلا ، فنزل عليهما شيء من السماء شبه المائدة فدعواني فأكلت معهما . فاذا فيها كمأة ورمان وكرفس . فلما أكلت قمت فتنحيت ، وجاءت سحابة فاحتملته وانا انظر الى بياض ثيابه فيها وهي تهوى به .

---

(١٢) تفسير القرطبي صـ ٥٥٦٥ .

فقلت للنبى - ﷺ - بأبى أنت وأمى يا رسول الله هذا الطعام الذى أكلناه امن السماء نزل ؟ فقال النبى - ﷺ -: سألته فقال : يأتيني به جبريل كل أربعين يوما أكلة وفى كل حول شربة من ماء زمزم[١٣]

وقد ذكر الحاكم هذا الحديث فى المستدرك وحسنه .. كما ذكره ابن عساكر فى تهذيبه .

ولكن البيهقى قال إن هذا الحديث ضعيف .

وهو مخالف لما فى الأحاديث الصحاح من ان طول آدم ستون ذراعا ولم يزل الخلق فى نقص بعد ذلك . الا اذا كان هناك تحريف فى النطق او الكتابة من الستين الى الستمائة التى وردت فى هذا الحديث .

قال الدميرى فى تعقيبه على هذا الحديث : قال شيخ الاسلام العلامة شمس الدين الذهبى رحمه الله فى الميزان : اما استحى الحاكم من الله تعالى فى تصحيح مثل هذا ؟

وقال فى تلخيص المستدرك بعد قول الحكم : هذا صحيح . قلت : بل هو موضوع قبح الله من وضعه[١٤] .

وقد تعقب ابن كثير فى قصصه هذا الحديث بما يثبت ضعفه ووضعه[١٥] .

هل رأى أحد إلياس :

ذكر القرطبى فى تفسيره فى اول سورة غافر فيما يروى عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة فدخلت حائطا اصلى فيه ركعتين فافتتحت «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ذى الطول» فاذا رجل من خلفى على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية فقال لى : آذا قلت «غافر الذنب» فقل : ياغافر

---

(١٣) القرطبى صـ ٥٥٦٠ .

(١٤) حياة الحيوان جـ ١ ص ٤٦٦ .

(١٥) قصص الانبياء لابن كثير صـ ٤٦٧ .

الذنب اغفرلى ذنبى ، واذا قلت قابل التوب فقل : ياقابل التوب تقبل توبتى ، واذا قلت : شديد العقاب فقل : ياشديد العقاب لاتعاقبنى ، واذا قلت : ذى الطول فقل : ياذا الطول تطول علىَّ برحمتك .. فالتفت فاذا لا أحد وزاد ابن كثير قوله : وخرجت فسألت : أمر بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنيه؟ ، فقالوا : مامر بنا احد . فكانوا لا يرون إلا انه إلياس ..

مايروى حول التقاء الخضر والياس :

وعلى كل حال فان بقاء إلياس حتى يومنا هذا على قيد الحياة لم ترد بها أخبار تقطع بصحتها ، وان كانت غير مستحيلة بالنسبة لقدرة الله تعالى .. وقد أعطى الله كل نبى معجزة فقد تكون هذه معجزته .. وحياة عيسى عليه السلام يقول بها بعض من العلماء .

وهى من الأمور التى لايترتب على التصديق بها او عدم التصديق بها إيمان أو كفر .. ومثل ذلك مايقال حول التقاء الياس والخضر كل عام فى الموسم .



وقد روى ذلك القرطبى

قال : إن إلياس والخضر – عليهما السلام – يصومان شهر رمضان فى كل عام ببيت المقدس ويوافيان الموسم فى كل عام .

وذكر إبن أبى الدنيا : انهما يقولان عند افتراقهما عن الموسم :

ماشاء الله لايسوق الخير الا الله ، ماشاء الله ماشاء الله لايصرف السوء إلا الله ، ما شاء الله ما شاء الله ما يكون من نعمة فمن الله ، ما شاء الله ما شاء الله توكلت على الله حسبنا الله ونعم الوكيل (١٦) . تلك هى أقوال بعض العلماء والرواة ... ونحن نرى أن القرآن الكريم قد حسم هذه القضية – بقوله تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ .

(١٦) تفسير القرطبى سورة الكهف صـ ٤٠٨٢ وسورة الصافات صـ ٥٥٦٠ .

قصة الياس فى القرآن :

وردت قصة الياس فى القرآن فى قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

وهذه الآيات الكريمة تشير الى قصة الياس – عليه السلام – من انه ارسله الله الى قومه الذين يعبدون الأصنام .. وكان لهم صنم أطلقوا عليه اسم (بعل) فتنوا به وعظموه وجعلوا له اربعمائة سادن ، واتخذوهم انبياء ، فكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظون هذه الضلالات ويعلمونها الناس ..[18] فلما أبلغهم الياس الرسالة كذبوه فأهلكهم الله ونجى إلياس – عليه السلام – وأثنى عليه ثناء مستطابا ..

فقد أبقى ذكره ، وسلم عليه ، ووصفه بالاحسان ، وجعله من عباده الصالحين .. وناهيك بذلك من جزاء حسن وثناء طيب ..

ولئن كان إلياس ليس حيا – كما تقول اكثر الروايات بذلك .. فيكفيه هذا الثناء الباقى ، وحسن الذكر كما يقول الحكماء حياة ثانية ابقى واخلد من الحياة المادية . فان الحياة المادية تتخللها الاسقام والعلل . اما هذه الحياة المعنوية فهى خالصة لاشية فيها تبعث على صاحبها تحيات مباركات وترفعه درجات عاليات ، وتضيف إلى أعماله الصالحة أعمالا اخرى صالحات ..

---

(١٧) سورة الصافات ١٢٣ : ١٣٢ .

(١٨) الكشاف جـ ٤ صـ ٦٠ .

روايات فى قصة إلياس :

رويت قصة الياس فى بعض الكتب المعنية بذلك متأثرة بما رواه أهل الكتاب ، ووصفوا صراعه مع ملك عصره أوصافا فيها صور من المبالغة ، حتى قالوا إن الله خوله رزق قومه وحياتهم فأمسك عنهم المطر حتى كادوا يهلكون من شدة العطش والجوع . فلم يجدوا ما يقوتهم او يسقيهم ، وقيض الله له هو غربانا تحمل له رزقه كل يوم فنجا مما هلك به قومه وحين ضجوا اليه مستصرخين أن يدعو لهم . عفا عنهم فامر ملك السحاب ان يرسل عليهم المطر .. ولكنهم كفروا بما جاء به مرة أخرى ، فيئس منهم ودعا عليهم ، وتركهم ومضى ..

وبعضهم يربط بين الياس ويونس ، ويقولون : إن الياس فر الى الجبل فرارا من بطش الملك «لاجب» الذى دعاه الياس الى الايمان فأبى .. ثم نزل من الجبل لاجئا الى بيت ام يونس . فآوته واكرمته ثم فارقها ، فلحقت به حين مرض ولدها يونس ومات ، وطلبت منه أن يدعو الله ليحييه ، فدعا فقام يونس حيا باذن الله ..

وقد وردت هذه القصص مفصلة فى كتب الثعلبي وابن اياس والطبرى ∴

ولكن لاتؤيدها الأخبار الصحيحة الموثوق بها ..

ولذلك كان الاعتماد على الفطرة الصادقة فى فهم الآيات الكريمة الواردة فى قصة الياس أولى من التخبط فى أحداث الروايات المتضاربة فى هذا الشأن . والله أعلم .

اليسـع

- إسـمه ونسـبه .
- قصـته عنـد أهـل الأخبـار .
- لماذا لم تفصل قصته في القرآن .
- ترتيب الأنبيـاء .
- أيـن كان اليسـع ومـتى ؟

«()»

اسمــه ونسبه :

اما اليسع .. فهو ابن أخطوب وورد اسمه في العهد القديم : اليشع بالشين .

وقد جاء ذكره في القرآن الكريم مرتين : الأولى في سورة الأنعام في آية «وتلك حجتنا»[1] . والثانية في سورة ص في قوله تعالى «وَاذكر إِسْمَاعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ ٱلْأَخْيَارِ»[2] .

قال ابن جرير : هو ابن أخطوب ابن العجوز .

وقد استخلفه الياس على بني اسرائيل ثم استنبيء .

أما اسمه فهو أعجمي ، ألحقت به « أل » وهي زائدة لازمة ولا ينافى أنه غير عربى أن «أل» تلزمه . فقد لزمت فى بعض الأعلام الأعجمية مثل الاسكندر . ولحن من قال اسكندر .

وقيل بل هو اسم عربى منقول من يسع مضارع وسع – حكى ذلك جلال الدين السيوطى فى كتاب الاتقان .

وفي القاموس : يسع كيضع اسم أعجمى أدخل عليه أل ، ولا تدخل على نظائرة كيزيد .

واحترس صاحب لسان العرب فقال فى مادة وسع : اليسع اسم نبى ، هذا إذا كان عربيا .

وأضاف قول الجوهرى : يسع اسم من أسماء العجم وقد أدخل عليه الألف واللام ، وهما لايدخلان على نظائره نحو يعمر ويزيد ويشكر الا فى ضرورة الشعر[3] .

---

(١) الانعام ٨٦ .

(٢) ص ٤٨ .

(٣) لسان العرب جـ ٦ صـ ٤٨٣٦ .

وقرأ حمزة الكسائي : اللَّيْسَع – بوزن فيعل ..

قصته عند أهل الاخبار

ووردت قصة اليسع في المصادر المختلفة على أنه كان ابنا وحيدا لامرأة فقيرة في بني اسرائيل توفي عنها زوجها ، ونزل عندها إلياس فآوته ، ولم يكن لديها إلا قليل من دقيق وزيت .. وبارك الله في هذا القليل فلم ينفذ ببركة هذا النبي – وكانت أيام قحط اصاب بني اسرائيل بسبب عنادهم لنبيهم إلياس .

وأصاب هذا الابن وهو اليسع مرض شديد أوشك أن يودى بحياته فدعا الياس ربه ان يشفيه ، فشفاه الله ..

ولزم اليسع إلياس ، وتولى زمام بني اسرائيل بعده ..

ويطلق بعضهم على اليسع أنه ابن العجوز .. لأن أمه رزقت به وهى عجوز .. او لأنها لم يكن لها سواه عائلا لها وقد طعنت في السن ..

ولكن بعض الرواه يذكر أن المعروف بابن العجوز هو شمعون لااليسع .

وشمعون هذا هو الذى طلب منه قومه ان يبعث لهم ملكا يقاتلون تحت صفوفه[٤] – وقد مضت قصة ذلك .

وذكر محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أن ابن العجوز هو حزقيل بن بوذى[٥] –

وروى ابن كثير نقلا عن أبى القاسم بن عساكر أن اليسع هو من أسباط بني إسرائيل وينتهي نسبة إلى بن يوسف بن يعقوب وهو ابن عم إلياس .. وكان مستخفيا في جبل قاسيون من ملك بعلبك[٦] .

---

(٤) بدائع الزهور صـ ١٣٤ .

(٥) قصص الانبياء لابن كثير صـ ٤٦٩ .

(٦) قصص ابن كثير صـ ٤٧٣ .

ويذكر العهد القديم قصة اليسع .. على ان اسمه هو اليشع بن شافاط ..

وقد عهد الله الى الياس – وهو ايليا – أن يجعل اليسع نبيا خلفا عنه ، ويأمره بقتال الكفرة الذين يعبدون «البعل» .

فمضى إلياس يبحث عن اليسع فوجده فى حقل يحرث وأمامه البقر فألقى الياس رداءه عليه . فترك اليسع البقر وركض وراء الياس ، وقال له اتركنى أقبل أبى وأمى وأسير وراءك ..

ومعنى هذا أن أباه كان على قيد الحياة ، ولم يكن قد مات كما تقول الروايات الأخرى ..

فأذن له إلياس ، فمضى اليسع وودع أباه وأمه وعاد يتبع إلياس ..[7] .

وهذه الرواية سبقتها رواية أخرى تقول : «إن إيليا – وهو الياس – أوحى الله اليه أن يذهب الى امرأة عجوز تقيم فى «صيدون» ويقيم عندها وهى تعوله .. وهى التى بارك الله فى دقيقها وزيتها حتى كفاها ما عندها اياما كثيرة على الرغم من قلته .. وكان لايزيد على كف من دقيق وقليل من زيت فى كوز .. ثم مرض ابنها «اليشع» فتضرع إلياس إلى الله أن يرده إليها معافى فعوفى فآمنت به وصدقت..[8] .

وقد يكون إلياس – على صحة هذه الرواية – قد ذهب ثم عاد بعد ذلك ليأخذ اليسع ويوصى اليه بالنبوة . ولكننا نلاحظ ان اليسع فى الرواية وحيد أمة العجوز ، وفى الثانية له أبوان طلب من إلياس ان يودعهما قبل رحيله .

---

(٧) سفر الملوك الاول – الاصحاح ١٩ – العهد القديم .

(٨) المرجع السابق . الاصحاح ١٧ .

والمهم أن اليسع أصبح وصي إلياس في حياته وخليفته بعد موته .

وكان في حوزة اليسع تابوت العهد الذى كان ينتقل من نبى الى آخر وهو الذى رده الله على طالوت وقال الله في حقه «ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة» .

وظل اليسع يدعو بنى اسرائيل الي ماكان يدعوهم اليه الياس حتى يئس من قومه فدعا الله ان يقبضه ليكون في جوار إلياس .. واستجاب الله له فتوفاه وخلفه ذو الكفل -[9] . وقد مضت قصة ذى الكفل .

لماذا لم تفصَّلْ قصته في القرآن؟

إن القرآن الكريم في ذكره اليسع مرتين لم يشر إلا إلى أنه نبى من الانبياء المكرمين ولم يتحدث عن قصته مع قومه كما تحدث عن غيره من الأنبياء عليهم السلام . وكذلك فعل في قصة ذى الكفل .

ولا غضاضة في أنه لم يذكر قصتهما بالتفصيل لأن النبوة في بني اسرائيل كانت متكررة ، وكل نبي لايزيد في نبوته شيئا على ماكان في عهد سلفه .. إنهم بعثوا مذكرين فحسب ، اما الشريعة فكانت في التوراة والألواح التى جاء بها موسى .. ومن ثم فلا حاجة الي سرد ما تعرضت له حياتهم من أحداث ..

ولكنه حفظ لنا اسماءهم تخليدا لذكرهم ، وابقاء لأثرهم ، وتنبيها لخطرهم ، واعلاء لقدرهم ، وتوجيها لأنظار الناس الى موضع القدوة في حياتهم ..

---

(٩) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ صـ ٣٨٧ .

ترتيب الانبياء :

ويحسن بهذه المناسبة أن نشير الى مانكره الله سبحانه وتعالى من سلسلة الأنبياء فى قوله تعالى :

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠)

من أن الانبياء – عليهم السلام – درجات .. وان لكل منهم منزلة معينة وضعه الله فيها . وهو مايفهم من قوله تعالى «نرفع درجات من نشاء» ومن قوله تعالى : «تلك الرُسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَّن كَلَّمَ الله وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وآتَيْنا عيسَى بنَ مَرْيَمَ ٱلبينات وأَيَّدْنَاهُ بِروحِ ٱلقُدُسِ»(١١) .

وفى آيات «وتلك حجتنا ..» ذكر الله أربعة عشر نبيا منهم ابراهيم وإسحاق ويعقوب ، ولم يرتبهم القرآن على حسب التاريخ والزمن ، لأن الكتاب الحكيم ليس كتاب مناقب ومدائح بل هو للموعظة والحكمة . وانما نكرهم على حسب معنى جامع لكل طائفة منهم .. وننكر ما قاله صاحب تفسير المنار فى ذلك لما فيه من فائدة .. قال :

ففى القسم الاول نكر : داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون . والمعنى الجامع بين هؤلاء ان الله تعالى أتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة ، وقد قدم نكر داود وسليمان وكانا ملكين غنيين منعمين ، ونكر بعدهما أيوب ويوسف وكان الأول أميرا غنيا

---

(١٠) الانعام ٨٣ : ٨٧ .

(١١) البقرة ٢٥٣

عظيما محسنا والثانى وزيرا عظيما وحاكما متصرفا ، ولكن كلا منهما قد ابتلى بالضراء فصبر كما ابتلى بالسراء فشكر . وأما موسى وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا ملكين ، فكل نبيين من هؤلاء الانبياء يمتازان بميزة ، والترتيب بين الأزواج على طريق القلة والكثرة فى نعم الدنيا ، وقد يكون على طريق الترقى فى الدين .

فداود وسليمان كانا اكثر تمتعا بنعم الدنيا . ودونهما أيوب ويوسف ودونهما موسى وهارون . والظاهر أن موسى وهارون افضل فى هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف .

وأن هذين أفضل من دواد وسليمان بجمعهما بين الشكر فى السراء والصبر فى الضراء والله أعلم .

وقد قال تعالى بعد ذكر هؤلاء (وكذلك نجزى المحسنين) أى بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق وهداية الدين وإرشاد الخلق .

القسم الثانى : زكريا ويحيى وعيسى وإلياس .

وهؤلاء قد امتازوا فى الأنبياء عليهم السلام بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها . ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم ، وإن كان كل نبى صالحا ومحسنا على الإطلاق .

القسم الثالث : إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً .

وأخر ذكرهم لعدم الخصوصية . إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا أو سلطانها ماكان للقسم الأول ولا من المبالغة فى الاعراض عن الدنيا ماكان للقسم الثانى .

ولقد قفَّى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذى جعله الله تعالى لكل نبى على عالم زمانه فمن كان من النبيين منهم منفرداً فى عالم أو قوم كان أفضلهم على الاطلاق .

وما وجد من نبيين أو أكثر فى عالم أو قوم فقد يكونون مع تفضيلهم على غيرهم، متفاضلين فى أنفسهم فلا شك أن إبراهيم أفضل من لوط المعاصر له، وان موسى أفضل من أخيه هارون الذى كان وزيره، وأن عيسى أفضل من ابن خالته يحيى. صلوات الله عليهم أجمعين (١٢).

اين كان اليسع؟ ومتى؟

وليس هناك تحديد دقيق لأزمنة هؤلاء الأنبياء، ولكنا نستشهد بعبارة ذكرها ابن إياس لعلها تنير الطريق إلى ذلك. قال:

قال الواقدى: إن فى أيام اليسع بنيت مدينة «طرسوس وملطية»، واستمر اليسع يقضي بين الناس بالحق حتى توفى ودفن بفلسطين. فلما مات اليسع استمر بنو إسرائيل عشر سنين بغير نبى.
فعند ذلك قام فيهم كاهن يقال له عالى بن أسباط بن هارون وكان رجلا صالحا يدير أمور بنى إسرائيل بأحسن ما يكون واستمر على ذلك نحو أربعين سنة وفي أيامه ولد شمعون من أنبياء بنى إسرائيل وولد أيضا داود أبو سليمان عليهما السلام - وكان بين وفاة «عالى» الكاهن ووفاة موسى أربعمائة وثمانون سنة».
وعلى ذلك فان نبوة اليسع كانت بعد وفاة موسى بأربعة قرون تقريبا أو تزيد (١٣).

وذكرت دائرة المعارف رأى من يقول إن اليسع كان موجودا قبل الملك شاول ومعنى ذلك أنه كان قبل داود وهو يؤكد الكلام السابق.

وذكر ابن كثير فى قصصه نقلا عن ابن اسحاق أن طالوت حين اختلف مع داود ذهب إلى القبور وظل يبكى، وقيض الله له امرأة صالحة ظلت تدعو حتى أحيا الله له «اليسع» فسأله عن هل من توبة بعد

---

(١٢) انظر تفسير المنار جـ ٧ ص ٤٨٩.
(١٣) دائع الزهور صـ ١٣٤.

مافعله فى بنى اسرائيل ؟ فأجابه بأن توبته في جهاده فى سبيل الله هو وأولاده حتى يقتلوا .. ففعل طالوت ذلك ..

وهذا الخبر - ان صح - يشير إلى أسبقية اليسع على زمان داود - عليه السلام -

وقد ذكر العهد القديم أن الذى قام من قبره هو صمويل، هو (شمويل) النبى الذى فزع إليه بنو إسرائيل وطلبوا منه أن يختار لهم ملكا يقاتلون تحت رايته فاختار لهم طالوت ..

وهذا أنسب لسياق القصة.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

داود عليه السلام

نسبه :

هو داود بن إيشا – بكسر الهمزة – ويقال : داود بن زكريا بشوى ، وقيل : هو داود بن يسى بن عوبيد وكان من سبط يهوذا بن يعقوب . وكان من أهل بيت المقدس .

جمع له بين النبوة والملك – بعد أن كان راعيا وكان أصغر إخوته[1] .

وذكر الشيخ عبد الوهاب النجار : أنه داود بني يسى إستنادا إلى ما جاء في العهد القديم[2] ووصف داود بأنه أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر . وكان يحسن الضرب على العود ، وإذا ضرب يستريح طالوت ويتبدد ما عنده من غم .

وكان داود أحد أبناء ثمانية لأبيهم – يسى – وقيل كان أحد ثلاث عشرة أخا وهو من بيت لحم وكان أصغرهم ويرعى غنمهم .

وذكر ابن كثير فى قصصه أنه داود بن ايشا بن عويد بن جابر بن سلمون ينتهى نسبه إلى يهوذا بن يعقوب[3] .

داود فى القرآن الكريم :

وقد ذكر داود فى القرآن الكريم فى ستة عشر موضعا فى تسع سور[4] وقد تضمنت بعض الآيات إشارة إلى أحداث جرت نحاول بتوفيق الله توضيحها والحديث عنها :

---

(١) القرطبى جـ٣ ص ٢٥٧ .

(٢) سفر صموئيل الأول – الاصحاح السادس عشر .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٨٠ .

(٤) البقرة ٢٥٠ النساء ١٦٣ ، المائدة ٧٨ ، الانعام ٨٤ ، الاسراء ٥٥ ، الأنبياء ٧٨ ، ٧٩ ، النمل ١٥ ، ١٦ ، سبأ ١٠ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠ .

داود وحرب جالوت :

أشرنا فى الأعداد الماضية إلى قصة الملأ من بنى إسرائيل الذين قالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ..

وكان هؤلاء القوم بعد موت يوشع بن نون واستيلاء البابليين على ملك بنى إسرائيل .

وأخذهم التابوت الذى به السكينة وبقية آل موسى وهارون ..

وكان ذلك بعد أن خرج موسى ببنى إسرائيل من مصر بما يقرب من ستة قرون ..

وقد حدد المسعودى المدة بخمسمائة واثنتين وسبعين سنة وثلاثة أشهر(٥) .

وكان مما سبق أن أشرنا اليه .

أن بنى إسرائيل فزعوا إلى نبيهم شمويل بن بروجان بن ناحورا ..

وقد أقام فيهم نبيا عشرين سنة .. وهذا النبى يسمى فى العهد القديم : صمويل وقالوا له : اختر لنا ملكا نقاتل عدونا تحت لوائه.

فأوحى الله اليه أن يختار لهم طالوت ملكا .. ووضع له علامات تبينها شمويل فيه ..

وحين أخبرهم بذلك طعنوا فيه بأنه فقير .. ذلك أن مقياسهم الذى يقيسون به الرجال هو الغنى والثروة .

ولكن نبيهم أخبرهم بأن الله زاده بسطة فى العلم والجسم . وأن الله جعل آيته أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم .

وكانوا يحملون التابوت فى مقدمة مسيرهم لعدوهم فيغنمون .

---

(٥) مروج الذهب جـ١ ص ٢٩ .

وتجهز طالوت لعدوه .. وخرج جالوت للقائه فى جيش كثيف وقد نظر إلى جنود طالوت بازدراء.. وندب طالوت من جنوده من يخرج للقاء هذا الطاغية، فكلهم أحجموا عن لقائه خوفا ورعبا ..

وحاول طالوت أن يستثير همم جنوده فقال لهم: من يبرز اليه ليقتله فأنا أزوجه أبنتى وأشركه فى ملكى وأحكمه فى مالى ..

ولكن من يجيب ؟ ومن يسمع ؟

إن كلام طالوت أوهام وآمال، أما منظر جالوت في سلاحه وسيفه فى يده يهزه أمامهم... فهو حقيقة ماثلة... وكيف يثبت الوهم أمام الحقيقة ؟؟

ولكن داود لبى دعوة الملك وقال: أنا أخرج للقائه.

داود فى لقاء جالوت:

وأخذ جالوت يستعرض قوته أمام انظار بنى إسرائيل - كان طوله ستة أذرع، وعلى رأسه خوذة من نحاس وكان لابسا درعا حرشفيا .. أى محبوكا وجرموقا من نحاس على رجليه ومزراق نحاس بين كتفيه، وقناة رمحه كنول النساجين، وحامل الترس كان يمشى قدامه(٦).

فأى قوة تلك التى يدل بها ؟ وأى استعداد قد أعده لمن يبارزه ؟

لقد كان منظره يثير الرعب، وصوته يَصُبُّ الفزع فى أسماع من يرونه ويسمعونه.

وتوارى الاسرائيليون خوفا ورعبا. وما زال جالوت ينادى فيهم: هل من مبارز؟ هل من مقاتل ؟ وأحس منهم الضعف.

فقال لهم: لماذا تخرجون إذن لمحاربتى ما دمتم تحجمون عن لقائى ؟

---

(٦) العهد القديم - صموئيل الأول - الأصحاح ١٧.، الجرموق - الخف.

ولما سمع شاول – وهو طالوت – وسمع بنو إسرائيل كلام جالوت ارتاعوا وخافوا جدا ...[٧].

ولم يطق داود هذا التحدى الصارخ.. وغاظه أن يعيرهم هذا الفلسطينى بالجبن.. فقال : أنا أخرج للقائه ...

نظر اليه طالوت نظرة استخفاف أيضا ..

إنه قصير القامة .. راعى غنم ، ليس فى يده سلاح يقاتل به . ولا على جسده درع يقيه السهام . ليس معه الا مقلاع به أحجار .

يحكى أن هذه الأحجار نادته وهو فى طريقه إلى الحرب أن يأخذها لتكون عدته فى قتال عدوه .. كانت ثلاثة أحجار فأخذها ووضعها فى مقلاعه ..

قال له طالوت : هل يقاتل الجنود بهذه الصورة ؟ أين السيف والرمح ! وأين الدرع والترس ؟ وأين الخوذة والسهام ؟ وأين الفرس ؟ أين كل ذلك من أدوات القتال التى يستعد بها الرجال فى ساحة الحرب والنضال ؟

وحاول أن يرده .. ولكن داود أصر على موقفه ، وقال : لا بد لى من لقاء هذا المفتون بنفسه المدل بقوته .. لن يقتل الا بيدى .

فقال له طالوت : هل جربت نفسك فى قتال قبل ذلك ؟

قال داود : أجل .

قال له طالوت : كيف ؟

قال داود : لقد وقع ذئب فى غنمي فقتلته وفصلت رأسه عن جسده .

قال له طالوت : ليست هذه علامة قوة ... وأين يقع الذئب الضعيف من ذلك الذى تراه أمامك وقد أطل الشرر من عينيه وظهر الشر فى يديه ؟

قال داود : لقد دخل الأسد فى غنمى فأخذت بلحييه – جانبى فمه – فشققتهما ، فهل ترى هذا الرجل أشد من الأسد؟

---

(٧) المرجع السابق .

فقال طالوت : لا ، وظهر الاطمئنان على وجهه .. وقال لداود : ما دمت مصرا على موقفك فألبس درعي واحمل سيفي واركب فرسي وخذ سلاحي ..

فأبى داود وقال : لن أقتله إلا بطريقتي التي لا تليق إلا بمثله .

وانطلق داود في طريقه إلى جالوت لا يلوي على شيء .. وخاطبه قائلا :

أيها المدل بنفسه المعجب بقوته ، الذي لا يعرف قدره ، ولا يدرك أن هناك إلها قوته فوق قوة البشر ، وسلطانه نافذ وقضاؤه عاجل .. إليّ إليّ فأنا قرن لك وَمنازِل إياك ، وستعلم أن في بني إسرائيل ليوثَ غاب وأسْد عرين ..

فألقى جالوت عليه نظرة اعتورته من مفرقه إلى أخمص قدميه .. وقال : أهذا الراعي الجلف الذي لا خبرة له بالحرب ولا معرفة له بالقتال يبارزني أنا أنا الذي أصرع بيميني الأبطال واجندل الفرسان وأقهر العتاة وأفرق الصفوف .

انصرف أيها الفتى لحالك ، فأنا في حاجة إلى من يماثلني في الشجاعة ويكافئني في اللقاء .

فقال داود : لا تحاول أيها المستهتر الهرب من لقائي ، فقد أعددت نفسي اليوم لقتلك ولا بد من ذلك .

قال جالوت : وكيف تقتلني ، ولا سلاح معك ؟، أين سيفك ورمحك ؟ وأين درعك وترسك ؟

فقال داود ، وقد أظهر قذافته – مقلاعه – في يده : معي سلاحي الذي لا يقهر ..

فقال جالوت : أهكذا تخرج إليّ كما تخرج إلى الكلب .

فقال له داود : ذلك لأنك مثله وأهون ..

فثار الغضب فى نفس جالوت، وغلى الدم فى عروقه، وقال له: لأطعمن لحمك اليوم للطير والسباع..

وانطلق جالوت إلى داود كما ينطلق الوحش الكاسر، محاولا أن يقبض عليه بيده.. ولكن داود كان أخف وأسرع فراغ من طريقه..

ثم أخذ مقلاعه ووضع فيه الأحجار الثلاثة التى التأمت بقدرة الله تعالى وصارت حجرا واحدا..

وسمى الله وطوح بالمقلاع صوب جالوت، فانطلقت الحجارة منه كالسهم إلى رأسه فقتلته..

وخر جالوت على الأرض صريعا.. لم تغنه دروعه وتروسه، ولم تنفعه سيوفه ورماحه، ولم تنجده فرسانه وأعوانه.. وأقبل داود فى ثبات وقوة.. وأخذ سيف جالوت وحزَّ به رأسه واحتمله فى مخلاته ومضى.

وحين رأى أصحاب جالوت ما حدث لقائدهم ولَّوا الأدبار، وركب جنود طالوت أكتافهم، وهزموهم شر هزيمة..

وذكر ابن عساكر أن داود قتل جالوت عد قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر[٨].

لقد كان حجر داود قوة من عند الله... إنه معجزة له. وللانبياء معجزات لا تحيط بها العقول.. إنها رمية بيد داود فى ظاهر الأمر، ولكنها فى حقيقته رمية بيد الله الذى قال فى حق رمية النبى - ﷺ - يوم بدر حين أخذ بكفه الشريفة حفنة من الحصا ورمى بها فى وجه قريش... ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[٩].

وهكذا يكون تسديد الله لأحبائه وأنبيائه.. وهو القائل - جل فى علاه - ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[١٠].

---

(٨) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٩٠.

(٩) الأنفال ١٧

(١٠) المجادلة ٢١

وآتاه الله الملك والحكمة :

استراح بنو إسرائيل من عدوهم ، واستقروا في بيت المقدس الذى كان البابليون قد أجلوهم عنه .. ولكن مرحلة جديدة من الصراع بدأت بين داود وطالوت ..

فقد أحب الاسرائيليون داود وأقبلوا عليه .. ذلك أنه كانت لديه ميزات خصه الله بها .. ومن بينها ظفره بجالوت وانتصاره عليه .. ومنها حسن قراءته للتوراة وترنمه بها حتى إن الطيور لتخشع لصوته ، والمياه تقف عند تلاوته، والريح تسكن لقراءته ..

لقد اختاره الله نبيا وعلمه الحكمة وأورثه الكتاب .. فأحبه الاسرائيليون ... فغاظ ذلك طالوت وحسده وخشي على ملكه منه ..

ولكن لم يجد بدا من أن يفي بوعده له فيزوجه ابنته .. وعلى الرغم من ذلك فقد كان يحصي عليه سكناته ويتحين الفرص للتخلص منه ..

وقد حاول عدة مرات اغتياله ولكنه لم يستطع .. كان في كل مرة يظن فيها أنه أوشك أن يقضي على داود يجد أن الله قد نجى داود من مكيدته ..

وظل الصراع قائما بين داود وطالوت فترة طويلة .. وكان « يوناثان » ابن طالوت في صف داود يدافع عنه ضد اتهامات أبيه الظالمة، ولكن طالوت مضى في عناده .

وكان داود شريفا في خصومته لطالوت ، فكم مرة ظفر فيها بطالوت وكان في إمكانه يقتله جزاء ما اقترفت يداه في حقه ، ولكنه كان يعرض عن ذلك ، ويضع علامة أمام طالوت يفهم منها أن داود تمكن منه وعفا عنه .

وكان طالوت يعترف بأن داود أعف منه وأشرف ، ولكنه في قرارة نفسه لا يستطيع أن ينسى تخوفه على ملكه أن يضيع ويرثه داود ...

وكان طالوت يغضب على ولده «يوناثان» إلى درجة محاولته قتله لأنه يدافع عن داود ..

وتحولت حياة طالوت إلى جحيم لا يطاق .. حتى تمنى الموت ، وحتى هام على وجهه فى المقابر يطلب الراحة مما هو فيه .. وقيض الله له امرأة صالحة دعت له فأحيا الله له شمويل النبى من قبره ، وخاطبه قائلا : إنه لا توبة لك بعد الذى فعلته فى بنى إسرائيل ، وترصدك لداود الا بالجهاد فى سبيل الله أنت وأولادك .. حتى تموتوا شهداء ..

داود يرث الملك :

وقدم طالوت أولاده للجهاد وهو معهم حتى قتلوا .. ولم يبق منهم سوى واحد فقط ورث الملك عن أبيه هو «ايشوبشت بن شاول» وأقيم ملكا على بنى إسرائيل عامين . ثم مات وخلص الأمر عند ذلك لداود .. وجمع بين الملك والنبوة ...

لقد ورث الملك عن طالوت – وهو شاول – كما ورد اسمه فى العهد القديم – وورث النبوة عن شمويل الذى هو صمويل كما ورد اسمه فى العهد القديم – أو بعد «جاد» الذى ورث بعد صمويل ثم مات ايضا . لقد أورد العهد القديم قصة الصراع بين داود وطالوت مطولة وسرد تفاصيلها كما أورد قصة الصراع بين طالوت والبابليين الذين جددوا القتال له بعد جالوت محاولين السيطرة على بلادهم ..

ولم يستقم أمر بنى اسرائيل الا على يد داود . الذى آتاه الله الملك والنبوة فساسهم بالعدل وقادهم على الطريق الحق ، وجاهد بهم أعداءهم فنصره الله . وإن كان بعضهم جريا على طبيعتهم قد حاد عن الطريق فلعنهم داود . واتسعت دولة بنى إسرائيل فى عهد داود – عليه السلام – حتى شملت مناطق كثيرة .

ولقد آتينا داود منا فضلا :

كانت النبوة فى بنى إسرائيل فى سبط والملك فى سبط آخر ..

فجمع الله لداود النبوة والملك .. وهذه ميزة لم تتوفر لغيره ممن سبقه من أنبياء بنى إسرائيل . كان الملك منهم يعينه الله بنبى يرشده ويسدده .. فمنهم من كان يسير على هداه ومنهم من يتخطاه ..

واستقام بنو إسرائيل لداود – عليه السلام – إلا من شذ منهم فلعنوا كما ذكر القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾(١١) .

وأيد الله داود بما ذكره في كتابه العزيز ﴿ولقدْ آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير﴾(١٢) .

وبما قاله تعالى: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوسٍ لكم لتحصنكم من بأسِكم فهل أنتم شاكرون﴾(١٣) .

وبما قاله تعالى : ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾(١٤) .

ماذا يقصد بالفضل الذى آتاه الله داود ؟

لقد أشارت الآيات الكريمة إلى أن الله أعطى داود فضلا .

والمتبادر الى الذهن أن الفضل هو النبوة .. ولكنها قدر مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء – عليهم السلام – ..

ولذلك تحدث العلماء في بيان ذلك الفضل واختلفوا فيه ..

فقالوا : إنه الزبور .. وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله ﴿وآتينا داود زبورا﴾(١٥) . والزبور هو الصحف المنزلة على داود .

---

(١١) المائدة ٧٨ ، ٧٩

(١٢) سبأ ١٠ ، ١١

(١٣) الأنبياء ٧٩ ، ٨٠

(١٤) ص ١٧ : ٢٠

(١٥) الاسراء ٥٥ .

وقالوا : إنه العلم .. وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله : ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾[١٦] .

وقالوا : إنه تسخير الجبال والطير معه تسبح بتسبيحه وتحمد بتحميده وتكبر بتكبيره .

أما تسبيح الجبال والطير، فما من شيء إلا ويسبح بحمد الله، ولكنا نغفل عن هذا التسبيح ولا ننتبه له . والذى يفطن لذلك هو من آتاه الله العلم والحكمة .

وقد أدرك كثير من العلماء الملهمين ان كل شيء فى الوجود حى يدرك حتى الجمادات، وقالوا إنها تعرف ربها كسائر الحيوانات، وأنها خاشعة وهذه وجهتها إلى ربها . أما وجهتها الينا فهى أنها لا تعلم ولا تعقل . والدليل على معرفتها وتوجهها إلى الله قوله تعالى : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[١٧] .

فالعوالم كلها متحركة دائمة لا سكون لها .. وإذا كانت متحركة فهى أيضا مسبحة .. ومشاركة لداود النبى – عليه السلام – فى تسبيحه[١٨] .

وأورد بعض العلماء ألوانا من تسبيح الطيور والحيوانات، فقالوا :

مر سليمان – عليه السلام – على طيور فقال لأصحابه : أما تدرون ما يقول هذا الهدهد ؟ قالوا : لا. قال : يقول : من لا يرحم لا يرحم .

والفاختة تقول : يا ليت هذا الخلق ما خلقوا، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا وليتهم إذا علموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ..

والصرد يقول : سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه .

والسرطان يقول : استغفروا الله يا مذنبين .

---

(١٦) النمل ١٥

(١٧) الإسراء ٤٤ .

(١٨) التصوف والحياة العصرية لعبد الحفيظ فرغلى ص ١٢٩

وصاحت - طيطوى - عنده فأخبر أنها تقول : كل حى ميت وكل جديد بال .

والخطاف يقول : قدموا خيرا تجدوه عند الله

والورشان تقول : أعدوا للموت وابنوا للخراب .

والطاووس يقول : كما تدين تدان .

والحمامة تقول : سبحان ربىَ المذكور بكل لسان .

والدراج يقول : الرحمن على العرش استوى .

والبازى يقول : سبحان ربى العظيم وبحمده .

والفرس يقول : سبحان ربى الأعلى .

والحدأة تقول : كل شيء هالك إلا الله .

والببغاء تقول : ويل لمن كانت الدنيا أكبر همه .

والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين .

والقبرة تقول : اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد .

والفرس يقول إذا التقى الجمعان : سبوح قدوس رب الملائكة والروح[19] .

وليس ذلك عجيبا بعد أن علَّم الله سليمان منطق الطير ..

تسبيح الجمادات للنبى - ﷺ -:

ولا يستغرب أحد ذلك فقد سبح الحصى فى كف النبى - ﷺ -

روى علقمة عن ابن مسعود قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفى هذه الرواية كنا نأكل مع رسول الله - ﷺ - الطعام ونحن نسمع تسبيحه، وقال أنس أخذ النبى - ﷺ - كفا من حصى فسبحن فى يده

---

(١٩) حياة الحيوان للدميرى جـ٢ ص ١٧٩ .

حتى سمعنا التسبيح. ثم صبهنَّ فى يد أبى بكر رضى الله عنه فسبحن، ثم فى أيدينا فما سبحن .

وروى مثله أبو ذر وذكر أنهن سبحن فى كف عمر وعثمان رضى الله عنهما[20] .

من معانى الفضل :

وقيل : إن ذلك الفضل الذى آتاه الله داود هو التوبة التى تابها الله على داود بعد ذلك . وسيأتى بيانها .

وقالوا : إن ذلك الفضل هو الحكم بالعدل .. وهذه منحة الهية تذكر له بكل فخر ، فلا يصبر على الحكم بالعدل إلا أهل الفضل من الناس .

وقالوا : إن الفضل الذى أعطاه الله اياه هو المعجزات المادية من إلانة الحديد الذى صار فى يده كالعجين يصنع منه ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ..

وفضل ذلك أن الله أتاح له العمل الذى يقتات منه فلا يكون كَلاً على أحد ... وقد روى الرواة عن النبى – ﷺ – فى ذلك : ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده ..

وقالوا : إن الفضل الذى وهبه داود هو حسن صوته وجمال صورته .

وحسن الصوت هبة الهية لا يمنحها الا قلة محدودة .

هذا وجمال الصوت يعتبر منحة حقا إذا استعمل فى تسبيح الله وتمجيده، وذكره، والدعوة اليه ، وجذب انتباه السامعين بما يلقى من أناشيد تقدس الله وتوحده ..

أما إذا استعمل فى الصد عن ذكر الله ، وإذاعة أحاديث الهوى ولواعج الغرام ووصف المحاسن والمفاتن التى تضل الناس وتثير فيهم الشهوات فهو إذن محنة على صاحبه ونقمة عليه ..

إن جمال الصوت نعمة شأنها شأن سائر النعم، التى إذا أحْسِن استعمالُها وشكِرَ اللهُ عليها رفعت صاحبها إلى أعلى منزلة، وتضاعفت له ثمارها، أما إذا عصى الله بها ولم يُقَدَّم له الشكر عليها كانت وزرا على صاحبها.

تسبيح داود:

كان داود – عليه السلام – لا ينقطع عن التسبيح بحمد الله.. شكرا له على ما أنعم عليه..

وذكر العلماء أنَّ من حرصه على استدامة التسبيح أنه قال: لأُسبحن الله الليلة تسبيحا ما سبحه به أحد من خلقه. فنادته ضفدعة من ساقية فى داره: يا داود تفتخر على الله بتسبيحك وإن لى لسبعين سنة ما جف لسانى من ذكر الله تعالى، وإن لى لعشر ليال ما طعمت خضِراً ولا شربت ماء اشتغالا بكلمتين. فقال: ما هما؟ قالت يا مُسبَّحا بكل لسان ومذكورا بكل مكان.

فقال داود فى نفسه: وما عسى أن أقول أبلغ من هذا؟[٢١].

وروى البيهقى فى شعبه عن أنس بن مالك أنه قال: إن نبى الله داود ظن فى نفسه أن أحدا لم يمدح خالقه بأفضل مما مدحه به فأنزل الله عليه ملكا وهو قاعد فى محرابه، والبركة الى جنبه، فقال: يا داود افهم ما تصوت به هذه الضفدعة، فأنصت اليها فإذا هى تقول: سبحانك الله وبحمده منتهى علمك. فقال له الملك: كيف ترى؟ فقال: والذى جعلنى نبيا إنى لم أمدحه بهذا – يقصد بأبلغ من هذا.

ومن ذلك ندرك أن الحمد والشكر ليس بكثرة الكلام، وإنما بعمق معانيه واخلاص النية فيه..

وذكر الدميرى قال: روى البيهقى فى الشعب عن ابن يسار أنه قال:

---

(٢١) حياة الحيوان جـ٢ ص ١٥٠ نقلا عن كتاب الزهد لأبى عبد الله القرطبى.

دخل داود - عليه السلام - في محرابه فأبصر دودة صغيرة في خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه الدودة ؟، فأنطقها الله فقالت : يا داود أتعجبك نفسك ؟ لأنا على قدر ما آتاني الله أذكر الله وأشكر له أكثر منك على ما آتاك الله .

قال الله تعالى ﴿وان من شيء الا يسبح بحمده﴾[٢٢] .

وقد وردت أخبار متعددة في أدعية داود ومناجاته وتسبيحاته ففي المجالسة للدينوري في أول الجزء العاشر عن الأحوص بن حكيم قال : كان دعاء داود - عليه السلام - : يا رازق النعَّاب في عشه[٢٣] قال : والسر في ذلك أن الغراب إذا فقس عن فراخه خرجت بيضا فإذا رآها كذلك نفر عنها فتفتح أفواهها فيرسل الله تبارك وتعالى لها ذبابا يدخل في أجوافها فيكون ذلك غذاء لها حتى تسود ، فإذا اسودت عاد الغراب فغذاها ، ويرفع الله الذباب عنها[٢٤] فسبحان الرزاق العليم .

وللطافة هذا الدعاء نظمه الحريري شعرا وزاد عليه فقال :

يا رازق النعاب في عشه ... وجابر العظم الكسير المهيض
أتح لنا اللهم مَنْ عِرضه ... من دنس اللوم نقيٌّ رحيض

وروى أبو الدرداء : كان من دعاء داود عليه السلام اللهم أني أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذي يبلغني حبك ، اللهم اجعل حبك احب إليَّ من نفسي ومن أهلي ومن الماء البارد ..

قال : وكان رسول الله - ﷺ - إذا ذكر داود - عليه السلام - يقول : كان أعبد البشر[٢٥] .

---

(٢٢) حياة الحيوان جـ١ ص ٦٠١ .
(٢٣) النعاب طائر يطلق عليه اللقلق ، وقد يطلق على الغراب لأنه ينعب .
(٢٤) حياة الحيوان جـ٢ ص ٦٢٢ .
(٢٥) الترمذي - وقال هذا حديث حسن غريب أبواب الدعوات وفي تحفة الأحوذي ٤٦٢/٩ ، وفي جمع الجوامع ٤٣/٣ .

يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض

وهبَ الله داود – عليه السلام – الملك ، واستحق لما وهبه الله من علم وحكمة خلافة الله فى الأرض وكما ورد فى حق آدم عليه السلام أن الله جعله خليفة وأخبر الملائكة بذلك فى قوله تعالى .. وِإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ كذلك نادى الله داود بذلك مباشرة فقال له : ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرض﴾.

شرائط الخلافة

وقد وضع العلماء شروطا فيمن يستحق هذه الخلافة ، وملخصها :

– ان يكون ممن يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين مجتهدا ، لا يحتاج إلى غيره فى الاستفتاء فى الحوادث والمسائل .

– أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسد الثغور وحماية جماعة المسلمين وردع المذنبين والانتقام من الظالم والأخذ للمظلوم .

– ان يكون ممن لا تلحقه رقة فى إقامة الحدود ، ولا فزع من ضرب الرقاب .

– أن يكون حرا مسلما ذكرا سليم الاعضاء بالغا عاقلا عدلا .

– أن يكون من أفضل الناس علما وخلقا . لقوله – ﷺ – :

« أئمتكم شفعاؤكم فانظروا بمن تستشفعون ».

وليس من شروط الخلافة أن يكون معصوما من الزلل والخطأ ولا من أفرس الأمة ولا من أشجعهم ، لأنه يجوز خلافة المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وعدم استقامة الأمة .

ذلك لأن الامام إنما نصب لدفع العدو ، وحماية الحوزة وسد الخلل ، واستخراج الحقوق واقامة الحدود ، وجباية الأموال التى فرضها الله لبيت المال ، وقسمتها على أهلها المحتاجين اليها بالعدل ، فإذا تم ذلك

من خليفة فقد تم الأمر ، وإذا خيف من إقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل الى المفضول(٢٦).

وقد اجتمعت هذه الشروط جميعها فى داود – عليه السلام – :

فاستحق بذلك خلافة الله فى الأرض ..

ولكن والحق يقال إن الخلافة لم تأت لداود من خلال طريق مفروش بالورود ، ولكنها جاءته بعد خطوب دامية ، وأهوال قاسية ، خاضها بجسارة واقتحمها بنجاح ..

وذلك أنه بعد أن انتصر علي جالوت وخلص بني إسرائيل من شره ، كان لزاما على الملك طالوت أن يكافئه علي ذلك ، ولكنه بدلا من أن يقربه أبعده ، وقلب له ظهر المجن ، وبيت له الشر حتي اضطر داود إلى تركه واللحوق بالجبال ينتقل بينها من شاهق إلى شاهق ، ومن كهف إلى كهف، وهو فى خلال ذلك يشغل نفسه بقتال أعداء الله ويظفر بهم ، ثم يعود بعد ذلك إلى مكانه الذى اختاره بين الجبال وكان هذا المكان بالنسبة اليه معسكرا جذب كل المعجبين بداود وببطولته ، الخارجين على طالوت والناقمين عليه لسوء معاملته لداود وغيره من العلماء وأهل الصلاح .

وكثر حول داود كل فار بدينه ، مؤمن بربه راغب في الجهاد في سبيل الله ، وزاد ذلك من نقمة طالوت عليه ، وكان الله مع داود يظله برعايته، ويحرسه بعنايته وينجيه من غدر طالوت ...

وكم مرة ظفر داود بطالوت ولكنه كان يعفو عنه ، ويتركه على أمل أن يصلح ما أفسد، ويتدارك ما أخطأ ولكن ما زاده ذلك الا زيادة فى العداء ومضيا فى العناد..

---

(٢٦) تفسير القرطبي جـ١ ص ٢٧٠ .

وفي يوم تمكن داود من طالوت وهو نائم بين جنوده، واستطاع أن ينتزع سلاحه ويمضي به..

واستيقظ طالوت ولم يجد سلاحه، وعرف أن الذى أخذ سلاحه هو داود، وكان في إمكانه أن يقتله ولكنه عفا عنه..

عند ذلك أرقه الندم، وهام على وجهه، وعرف بناء على ما أخبره شمويل الذى بعثه الله حيًا أنه لا خلاص له مما هو فيه، ولا تكفير له عن ذنبه الا بالاستشهاد..

وظل يقاتل حتى قتل..

واجتمع بنو إسرائيل بعد ذلك بفترة حول داود، واختاروه ملكا عليهم..

وأيد الله ملكه بالنبوة، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب..

وكانت سنه حين تولى الملك ثلاثين سنة. وكانت عاصمة ملكه فى أول الأمر (حبرون) ثم انتقل الى (أورشليم) بعد ذلك.

العدل أساس الملك:

ويبدو أن القضاء العادل الذى هو الشرط الأول فى الخلافة الرشيدة، هو الذى يقيم نظام الحكم ويديم استقرار الملك.

ولذلك كانت وصية الله لداود الخليفة أن قال له: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وهذه الوصية ليست خاصة بداود – عليه السلام – ولكنها وصية عامة.. أوصى الله بها النبى – ﷺ – فى قوله تعالى: ﴿وأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ولاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ واحذَرْهُمْ أن يفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ الَيْكَ﴾[٢٧].

كما أوصى بها المؤمنين جميعا بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ

---

(٢٧) المائدة ٤٩.

وَالأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِياً او فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا وإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فإنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[٢٨].

لقد أراد الله أن ينبه العقول إلى أن العدل هو الأساس الذى يجب أن يبنى عليه الحاكم أمره فهو وحده الذى يحرس البلاد ويشيع الأمن ويطمئن الناس ويسعد النفوس..

وما زالت الدول فى أمن واستقرار ما دام سلطان العدل قائما، وكلمته نافذة.. فإذا ما تعرض هذا الشعار للاهتزاز فقل على الدولة السلام.

وهناك قصة ذكرها القرطبى فى تفسيره نذكرها للعظة والاعتبار أوردها فى تفسير هذه الآية قال:

قال عبد العزيز بن أبى داود: بلغنى أن قاضيا كان فى زمن بنى إسرائيل، بلغ من اجتهاده أن طلب إلى ربه أن يجعل بينه وبينه علامة إذا هو قضى بالحق عرف ذلك، وإذا هو قصر عرف ذلك.

فقيل له: ادخل منزلك، ثم مد يدك على أحد جدرانه، ثم انظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فأخطط عندها خطاً، فإذا انت قمت من مجلس القضاء فارجع إلى ذلك الخط فأمدد يدك اليه، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه، وأن قصرت عن الحق قصر بك، فكان يغدو الى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضى إلا بحق، وإذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاما ولا شرابا، ولم يفض الى أهله بشىء من الأمور حتى يأتى ذلك الخط، فإذا بلغه حمد الله وأفضى الى كل ما أحل الله له من أهل أو مطعم أو مشرب.

فلما كان ذات يوم وهو فى مجلس القضاء أقبل اليه رجلان يريدانه، فوقع فى نفسه أنهما يريدان أن يختصما اليه، وكان أحدهما له صديق. فتحرك فى قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضى له.

فلما تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه.

---

(٢٨) النساء ١٣٥.

فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم ، فمد يده الى الخط فإذا الخط قد ذهب وارتفع الى السقف ، وإذا هو لا يبلغه .

فخر ساجدا وهو يقول : يارب شيئا لم أتعمده ولم أره فبينه لى .

فقيل له : اتحسبن أن الله – تعالى – لم يطلع على خيانة قلبك ، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضى له به ؟ بلى، قد أردته وأحببته ولكن الله قد رد الحق إلى أهله وأنت كاره(٢٩) .

وهكذا يجب أن يكون القضاء . نزاهة. وعدل –.. ومن الحكمة إذا رأى القاضى فى نفسه ميلا لأحد الخصمين أن يتنحى عن نظر القضية وهذا هو أدب الاسلام :

روى الليث بن سعد أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – تقدم له خصمان فأمهلهما ، ثم عادا فأمهلهما ، ثم عادا ففصل بينهما .

فقيل له في ذلك فقال : تقدما إلىَّ فوجدت لأحدهما فى نفسى ما لم أجد لصاحبه ، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فوجدت بعض ذلك، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما ..

هذا ورسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى قانون القضاء مشهورة يتحرى العمل بها من وفقهم الله للعدل فى القضاء ، ومن أهم نصوصها «آس بين الناس في وجهك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك».

فطنة داود في قضائه :

وقد امتدح الله داود – عليه السلام – بحسن القضاء . فقال فى حقه ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

قال العلماء أما الحكمة فهى النبوة ، وأما فصل الخطاب فهو الفصل فى القضاء .

---

(٢٩) تفسير القرطبى – سورة ص – ص ٥٦٣٣ – جـ١ دار الشعب .

والفصل فى القضاء هبة الهية لا يتمكن منها إلا من وهبه الله الفطنة والفراسة ، وهو بذلك يستطيع استلهام الصدق من مناقشة الشهود والخصوم ومقارنة الأدلة واستقراء القرائن .. فليست نصوص القانون قواعد صماء يطبقها القاضى دون مراعاة للقرائن والأحوال .

وهناك قضاة مشهورون فى التاريخ ، ولا تعود شهرتهم الى علمهم بمواد القانون بل بقدرتهم على النفاذ بفراستهم الصادقة ونكائهم النادر الى بواطن الأمور .

جاء فى وفيات الأعيان فى ترجمة ابن ابى ليلى – وكان قاضيا بالكوفة – أنه جلد امرأة مجنونة وهى واقفة فى المسجد لأنها قالت لرجل : يا ابن الزانيين وأقام عليها حدين – فلما بلغ نلك أبا حنيفة – رضى الله عنه – قال : أخطأ ابن أبى ليلى فى قضائه من ستة وجوه ..

وحين سئل عن ذلك الخطأ قال :

أولا : المجنون لا حد عليه .

ثانيا : لأنه أقام عليها حدين بقذف واحد على اعتبار أن لكل اب حداً .

ثالثا : أنه حكم بدون مطالبة من المقذوف ، ولا يجوز اقامة الحد بدون مطالبة من صاحب الحق .

رابعا : أنه والى بين الحدَّين ولم يفصل بينهما .

خامسا : أنه حدها وهى قائمة ، والمرأة لا تضرب قائمة سترا لها .

سادسا : أنه أقام الحد فى المسجد ، والمسجد لا تقام فيه الحدود .

وفى هذه القصة بيان للفرق بين القاضى الذى يحكم النصَّ دون فقه وبين القاضى الذى يتفهم روح القانون ويقضى به ..

ومما أيد الله به داود – عليه السلام – فى قضائه ما أعطاه إياه من نور النبوة التى يفصل بها بين الحق والباطل ..

وحين كثر الفساد والجحود فى بنى إسرائيل أمده الله بسلسلة لفصل القضاء ، فكانت ممدودة من السماء الى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر اثنان فى حق ، فأيهما كان على حق مد يده فنال السلسلة، وإذا كان على باطل لا تصل يده اليها .

ولم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلا لؤلؤة وحين طلبها منه جحدها - فحاكمه الى داود . فعمد من عنده اللؤلؤة الى عكاز مجوف وضع فيه اللؤلؤة ، ولما وصلا الى مكان السلسلة. أعطى العكاز الى صاحب اللؤلؤة.. ومد يده وهو يقول : اللهم إنك تعلم أنى أعطيته اللؤلؤة . فنال السلسلة .. فأصبحوا وقد رفعت السلسلة[٣٠] .

من قضاء داود :

وقد أشار القرآن الكريم إلى قضية حكم فيها داود - عليه السلام - وناقضه فيها ابنه سليمان - عليه السلام - هذه القضية هى قضية الغنم التى نفشت فى حرث القوم .. وجاء ذكرها فى قوله تعالى : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وعِلْماً﴾[٣١] .

وقصة ذلك .

أنه كان لقوم غنم يرعونها ، فناموا عنها فى ليلة ، فإذا بها دخلت إلى زرع قوم فأكلته وأتلفته . فأقبل أصحاب الزرع على داود يحكمونه فى قضيتهم .

فحكم بأن تدفع الغنم إلى أصحاب الزرع تعويضا لهم عن زرعهم ، لأنه رأى أن الغلة التى فسدت تعادل مقدار الغنم .

وسمع سليمان بحكم أبيه فى هذه القضية - فقال لأصحاب الغنم : لو حُكِّمت فى هذه القضية لحَكَمت بغير ذلك .

---

(٣٠) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٨٥.

(٣١) الأنبياء ٧٧ ، ٧٨.

فلما سمع داود بذلك استحضره وقال له: كيف كنت تقضى؟ قال أقضى بما هو أرفق لكليهما.

قال له: فاقض بينهما.

قال: يأخذ أصحاب الحرث الغنم ينتفعون بألبانها وأصوافها، ويأخذ أصحاب الغنم الحرث فيرزعونه حتى يبلغ مقدار ما بلغ يوم أفسدته الغنم. ثم يترادان. فتعود الغنم إلى أصحابها ويعود الزرع إلى أصحابه.

فقال داود: وفقت يا بنى لا يقطع الله فهمك، وأمضى داود حكم سليمان.

ولم يكن حكم داود خاطئا: فقد اجتهد ووجد أن ما تلف من زرع القوم يعادل قيمة الغنم... ولذلك قال الله تعالى ﴿وَكلاً آتيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾.

وكان عمر سليمان حين حكم فى هذه القضية إحدى عشرة سنة..!

وهذا من علم النبوة المبكر.. ليقر الله تعالى بذلك عين أبيه ويسعده به فى حياته ويطمئنه عليه قبل مماته.

فلا ينبغى فى هذه المسألة أن يتجرأ أحد على مقام النبوة فيقول فى حق داود - عليه السلام - إنه أخطأ وأن ابنه سليمان استدرك عليه خطأه فأصلحه له، وسوف نعرض لتلك القضية مرة أخرى فى قصة سليمان إن شاء الله.

براعة استشهاد:

يذكر الرواة ان الوليد بن عبد الملك حين هدم كنيسة دمشق كتب اليه ملك الروم يقول له: انك هدمت الكنيسة التى راى ابوك أن يتركها، فإن كنت مصيبا فقد اخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيبا فقد اخطأت أنت.

فكتب اليه الوليد بقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً.﴾.

وفى هذا الرد ذكاء لأنه أصاب وجه الشبه تماما فى اختلاف الحكم بين الوالد وابنه فى قضية واحدة ... وفى أن هذا الاختلاف لم ينقص من قدر واحد منهما ، فكلاهما آتاه الله الحكم والعلم .. وفى أنه أتى فيه بدليل لا يمكن أن يعارضه ملك الروم لأنه من تاريخ أنبيائهم الذين يعتزون بهم ويقدرونهم حق التقدير .

بناء بيت المقدس :

وحين أتم الله نعمته على داود . أقام بيت المقدس ..

وقيل : إن أول من بناه يعقوب عليه السلام – وقد سئل النبى – ﷺ – عن أول بيت وضع للناس فى الأرض . فقال : البيت الحرام . ثم قيل له : وماذا بعده ؟ فقال : بيت المقدس بينهما أربعون عاما .

وقد مر فى قصة يعقوب – عليه السلام – ما يشير الى ذلك .

وجاء داود عليه السلام . فبناه من جديد ، ولكنه لم يتمه .

فأتمه بعده ابنه سليمان – عليه السلام – وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى :

لعنة داود للمخالفين من قومه (أصحاب السبت) :

على الرغم من حب بنى إسرائيل لداود ، والتفافهم حوله ، إلا انه كان يجد شذوذا من بعضهم الذين يخالفون أمره ، ويخرجون على تعاليمه ، ويحتالون على ما يجدونه من نصوص لا تجرى مع هواهم . ومن هؤلاء أصحاب السبت الذين وردت قصتهم فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى :

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ (٣٢)

---

(٣٢) الاعراف ١٦٣ : ١٦٦ .

ذكر العلماء أن هؤلاء المعتدين في السبت كانوا في زمن داود - عليه السلام - وان داود لعنهم. فعاقبهم الله بالمسخ، وحولهم قردة خاسئين .. وهذه اللعنة يشير اليها الحق - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿لُعِنَ الذين كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرائِيل عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بن مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانوا يَعْتَدُون﴾[٣٣].

وذكر القرطبي عند تفسير هذه الآية قول ابن عباس - رضى الله عنهما -: الذين لعنوا على لسان داود أصحاب السبت. والذين لعنوا على لسان عيسى بن مريم هم الذين كفروا بالمائدة بعد نزولها.

وقصة أصحاب السبت تدور حول قوم من بني اسرائيل كانوا يسكنون قرية «ايلة» على شاطيء البحر الأحمر.

وكانت الحيتان يوم السبت تخرج الى الشاطيء كثيرة يراها اليهود ويعجبون بها، ولكنهم لا يجرؤون على صيدها لأن الله حرم عليهم العمل في يوم السبت وفي غير يوم السبت تختفي هذه الحيتان. وهذا الهام غرزى الهمه الله لهذه الحيتان.

فاحتال قوم من هؤلاء بدافع الطمع والجشع ونسيان العهد المقطوع عليهم - فكانوا يحفرون أسرابا من البحر الى بيوتهم، فإذا دخلتها الحيتان اغلقوا عليها المنافذ الى البحر، فإذا ارادت الحيتان الرجوع لا تستطيع، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها بأيديهم، فاشتووا واكلوا ..

وأصبح جيرانهم يشمون رائحة الشواء واستطلعوا الخبر. فلما عرفوا ما صنع هؤلاء فعلوا مثلهم ولكن قوم منهم انكروا عليهم ونهوهم وقاطعوهم وبعضهم سكت وهو كاره لما فعلوا ..

ولما لم يصيخوا الى نصح الناصحين ولم يستجيبوا إلى تذكير المؤمنين، انتقم الله من هؤلاء المخالفين انتقاما شديدا.

فاصبحوا في ديارهم وقد مسخوا قردة ثم لم يلبثوا أن هلكوا. وحقت لعنة الله على الكافرين.

---

(٣٣) المائدة ٧٨.

فتنة داود :

قال تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا
لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ
الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي
فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا
فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾

تشير هذه الآيات الكريمة التي بدأت بأسلوب استفهام للتشويق واثارة الاهتمام الى قصة حدثت بين نبي الله داود - عليه السلام -، وملكين تسورا عليه جدار المحراب الذى يحكم فيه ويتعبد فيه ..

أما القضية التي تنازع فيها الخصمان فهي أن أحدهما كان يملك تسعا وتسعين نعجة والآخر لا يملك الا نعجة واحدة ..

وقد طمع صاحب النعاج التسع والتسعين فى نعجة الآخر التى لا يملك سواها ، وأراد أن يضمها إلى قطيعه بل ضمها فعلا ..

وهى قضية واضحة الدلالة على البغي والظلم والطمع ، ولا تكاد تحتاج الى بينة فى الحكم فيها ..

ولذلك سرعان ما أدلى داود - عليه السلام - بحكمه فيها دون أن يسمع قول الخصم الآخر .. فقال لصاحب النعجة الواحدة وهو الخصم الذى تكلم : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه . وبين أن هذا شأن الخلطاء الذين لا يرعون الحق ، وكثيرا ما يجانبون الصواب ..

وما ان أتم داود كلامه حتى وجد الخصمين قد غابا من أمامه فأدرك أنهما ملكان وليسا بشرين ..

---

(٣٤) ص ٢١ : ٢٥.

لقد دخل هذان الملكان عليه المحراب دون إذن من الحراس الذين كانوا يحيطون به وما اكثرهم ..

وادرك داود أن هناك درسا يجب أن يعيه، وأن الله أراد أن ينبهه اليه .. فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ..

وقد ذكر بعض المفسرين فى هذا الصدد كلاما كثيرا مرجعه إلى قصص أهل الكتاب، وقالوا إن هذه القصة ترمز إلى شيء حدث من داود - عليه السلام - بالنسبة لزوجة جار له اسمه «أوريا» رآها من فوق سطح منزله فأعجب بها، وأرسل زوجها الى الحرب وقدمه، فقتل فخلصت له ..

وقد وردت هذه القصة فى العهد القديم.[٣٥] وعرضت بصورة تذكر داود النبى بأوصاف لا تتفق ولا تليق بعصمة الأنبياء الذين طهرهم الله.

وقد ذهب أكثر المفسرين مذهب الاعتدال فى عرض تلك القصة، مراعين حق النبوة فى العصمة والطهر ..

ومن ذلك ما ذكره بعضهم من أن داود خطبها واوريا خطبها ففضل أهلها داود لغناه وملكه على أوريا الفقير .. والمؤاخذة التى لحقت بداود أنه خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه. ومعنى ذلك أن أوريا كان قد خطبها قبل داود . فداود لم يتبع المرأة فى حرام، ولم يجتمع معها على حرام، كما ذكر اصحاب الاسرائيليات.

ومن حدث بذلك فقد اعظم الفرية على الأنبياء، روى سعيد بن المسيب عن الحارث الأعور أن على بن أبى طالب قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء...

وقد روى أن عمر بن العزيز قد كذب من حدثه بتلك القصة على ما رواها أهل الكتاب وقال رجل من أهل الحق كان جالسا فى مجلسه :

---

(٣٥) سفر صموئيل الثاني - الاصحاح الحادى عشر والاصحاح الثانى عشر.

إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فما ينبغى أن يلتمس خلافها ، وأعْظِمْ بأن يقال غير ذلك وان كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترا على نبيه فما ينبغى اظهارها . فقال عمر : لسماعى هذا الكلام أحب الى مما طلعت عليه الشمس.[٣٦] .

ونستطيع أن نقول : إن هذه القصة كما ذكرها أهل الكتاب لا تليق بعصمة داود عليه السلام ونبوته . وأن أكثر ما يمكن أن يقال فى ذلك أن داود عليه السلام رأى زوجة جاره مصادفة دون عمد . وكان زوجها يجاهد فنوى فى نفسه إن مات زوجها أن يتزوجها .

والأولى من ذلك أن يقال : إن هذه المرأة لم تكن قد تزوجت أوريا بعد وإنما كانت مخطوبة له ورآها داود عليه السلام فلما مات اوريا لم يجزع عليه داود كما كان يجزع على غيره من الجنود إذا مات لأنه كان قد تمنى فى نفسه أن تكون تلك المرأة زوجا له فعاتبه الله على ذلك عتابا شديدا لأن ذنوب الأنبياء مهما صغرت فى عظيمة .. هذا إذا كان هناك أساس لما ذكره أهل الكتاب فى ذلك .

أما الرأى الذى نرى أنه الأقرب للصواب فهو أن الله سبحانه وتعالى عاتب داود لانه تسرع فى الحكم وحكم لأحد الطرفين قبل أن يسمع من الطرف الآخر . وكان ذلك تسرعا منه، واعجابا منه بسرعة فهمه وقوة فطنته فلامه الله على ذلك وعاتبه ليعرفه أنه بفعله هذا قد غفل عن أصول القضاء وأعجب بنفسه .

وانك لتقرأ ما قصه القرآن الكريم حول ذلك ، فلا تشعر إلا بأنك أمام حادثة تظهر كثيرا فى المجتمعات ، فكم من غنى يبطره غناه فيعمى عن حق جاره الفقير ، بل يطمع فيما يملكه من متاع قليل .. وهؤلاء أصحاب الضياع يضيقون ذرعا حين يرون ما يتخلل ضياعهم الواسعة من أمتار قليلة وقراريط يسيرة يملكها رجل كادح فقير ، فما يزالون به حتى يجبرونه على البيع أو التنازل وإلا كان الاغتصاب ، فضلا عن التعذيب

---

(٣٦) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨١ .

والتشريد ، وهذا صاحب قصر مشيد يأبى إلا أن يضم إلى قصره كوخ جاره المتواضع ، وبدلا من أن يبسط عليه جناح رعايته يقصيه من جواره وينفيه من قربه ..

ولقد كان دخول الملكين بطريقة غير عادية تنبيها لداود – عليه السلام – ان القاضي في محل حكمه لا ينبغي أن يحيط مجلسه بالجنود الذين يعوقون المتخاصمين عن الوصول اليه في أي وقت يشاءون ومتى أحاط الحاكم قصره بالحراس ، ووضع دون بابه الحجاب كان ذلك من علامات الظلم الذي يحول بين الحق وصاحبه .

فليس معنى الظلم قاصرا على أن يبغى الخصم على خصمه ويتغاضى القاضي أو الحاكم عن ذلك . بل إن الظلم من الحاكم يكون حين لا يمكّن المظلوم من الوصول اليه بسهولة .. وظلم الحاكم في حكمه أشد من بغي المتخاصمين فيما بينهم ..

فإن الظلم بين المتخاصمين يرده إنصاف القاضي .. فإذا غفل القاضي أو تغافل فهذه هي الطامة الكبرى ..

لقد جاء التنبيه في قالب رمزي،لأن الكناية أبلغ في الوعظ من التصريح والأنبياء اذكياء بفطرتهم،ومن أدق صفاتهم الفطنة. وقد جاء في الأمثال العربية:الحر تكفيه الاشارة. كما جاء : وكل لبيب بالاشارة يفهم.

وقد أفاض الزمخشري في بيان ذلك وكان مما قاله : ان التمثيل في هذه القصة أبلغ لأنه يؤدي إلى التأمل والتفكير في الأمر المعرَّض به ، والشيء إذا جاء بعد تفكير وتأمل كان أوقع في النفس ، واشد تمكنا من القلب واعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشام الانسان وحيائه .. مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . الا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا وجدت منه هنة منكرة ، أن يعرض له بانكارها عليه ولا يصرح ، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استنكر حال صاحب الحكاية فاستنكر حال نفسه وذلك أزجر له، لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ومقياسا لشأنه، فيتصور قبح ما وجد منه(٣٧) .

---

(٣٧) تفسير الزمخشري للكشاف جـ ٤ ص ٨٢.

وقد جاء المثل فى قصة داود فى صورة تحاكم بين خصمين ، ليكون داود- عليه السلام- محجوجا بحكمه الذى حكم به.

لقد فهم داود - عليه السلام - ذلك كله ، وأدرك أنه تذكير من الله لشيء غفل عنه.

وعرف أن ذلك ماجاءه ذلك الا من قبل أنه وكل الىَ نفسه لحظة. فالانسان محفوظ بحفظ الله له ، ولو أنه ترك الى نفسه لما استطاع أن يحفظها كما يحفظها له الله جل وعلا .. ولذلك كان من دعاء الصالحين : اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وليس هناك طريق للمغفرة إلا التوبة الصادقة.

وهذا ما فعله داود - عليه السلام - لقد استغفر ربه وخر راكعا وأناب.

والركوع هنا هو السجود ، والانابة هى التوبة الصادقة التى يصحبها التبرؤ من الذنب والرجوع الى الله بصدق الاعتذار .

وبالغ داود فى استغفاره حتى قالوا : لقد بقى ساجدا أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه الا لصلاة مكتوبة أو ما لابد منه .

بل قالوا : إنه انشغل بذنبه عن كل شيء ، وزهد عن ملكه حتى وثب ابن له يقال « ايشا » على ملك ابيه ودعا الى نفسه.

واجتمع حول هذا الابن أهل الزيغ والفساد فعانوه على ذلك، ولكن الله غفر لداود ، وقبل توبته، فتنبه لأمره وحارب ابنه حتى هزمه وأنقذ ملكه.

وظل متذكرا لذلك الذنب لا ينساه ، حتى أخبر بعض العلماء أنه نقش هذا الذنب فى كفه ليكون على ذكر دائم له.

التوبة على داود :

لقد قبل الله توبة داود- عليه السلام- لأنه أقبل على الله بصدق النية واخلاص القلب.وفزع من ذنبه فزعا عظيما.وهكذا يجب أن يكون الراغب فى التوبة.

ولا شك فى أن داود ندم واستغفر ، وقد يكون سجد فطال سجوده كما أخبرنا.. ولكن المولعين بالقصص حاكوا حول هذا السجود قصصا غريبة.

فمنهم من يقول: إنه ظل يبكي في سجوده ولا يرقأ الدمع من عينيه حتي نبت العشب حول رأسه.

ومنهم من يقول : إن الحق خاطبه قائلا ارفع رأسك يا داود ، فذهب ليرفع رأسه فإذا به قد لصق بالأرض فأتاه جبريل واقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها.

حقا لقد بكى داود فأكثر من البكاء ، وأقبل على الله بصدق واخلاص، وأرقه شعوره بالذنب وحرمه من طول المنام، وهكذا يكون شأن الصادقين المخلصين.

روى الوليد بن مسلم عن الأوزاعى أن رسول الله – ﷺ – قال : انما مثل عينى داود مثل القربتين تنظفان ولقد خدد الدمع فى وجه داود خديد الماء فى الأرض.

قال الوليد : وحدثنا عثمان بن أبى العاتكة أنه كان فى قول داود إذ هو خلو من الخطيئة شدة فى الخاطئين إذ كان يقول : اللهم لا تغفر للخاطئين .. ثم صار إلى أن يقول: اللهم اغفر للخاطئين لكى تغفر لداود معهم . سبحان خالق النور. الهى خرجت أسأل اطباء عبادك أن يداووا خطيئتى فكلهم يدلنى عليك. الهى أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها عذابك يوم القيامة ان لم تغفرها ، سبحان خالق النور..(٣٨).

لقد غفر الله لداود ، وقال فى حقه : ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وإنَّ لَهُ عِنْدنا لَزُلْفَى وَحُسنَ مَاب﴾.

سجدة سورة ص

يرى كثير من الفقهاء أن قوله تعالى : ﴿وَخَرَّ راكِعاً وَأَنَابَ﴾ موضع سجدة من سجدات التلاوة.

---

(٣٨) تفسير القرطبى – سورة ص ٥٦٣ .

وروى القرطبى فى ذلك خبرا عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : ان النبى – ﷺ – قرأ على المنبر ﴿ص والقرآن ذى الذكر﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه.

فلما كان يوم آخر قرأ بها فتهيأ الناس للسجود فقال – عليه الصلاة والسلام – انها توبة نبى ولكنى رأيتكم تهيأتم للسجود ونزل وسجد.

وروى الترمذى وغيره أن رجلا من الأنصار على عهد رسول الله – ﷺ – كان يصلى من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ ﴿ص والقرآن ذى الذكر﴾ فلما بلغ السجدة سجد وسجدت الشجرة فسمعها وهى تقول : اللهم أعظم لى بهذه السجدة أجرا وارزقنى بها شكرا.

انها سجدة شكر واستغفار وتوبة – يذكر بها المؤمن فضل الله على نبيه داود فيذكره ذلك بفضله عليه.

ثناء الله على داود

أثنى الله على داود – عليه السلام ثناء جميلا .. وذكره فى سلسلة الأنبياء الذى ورثوا النبوة عن ابراهيم – عليه السلام – فقد قال – تعالى – ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾[٣٩] وجاء فى اعقاب هذه الآيات قوله – تعالى – ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾[٤٠].

فقد أمر الله بالاهتداء به.

ووصفه بصفات جليلة، واختصه بالفضل، فقال فى حقه ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[٤١].

والزبور كتاب انزله الله على داود، اختصه به، ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود وإنما هو دعاء وتمجيد وتحميد وأخبار .

ذكر المسعودى : أن الزبور خمسون ومائة سورة، ومقسم إلى ثلاثه أقسام : قسم لما يلقون من بختنصر وما سيكون من امره فى المستقبل .

---

(٣٩) الانعام ٨٤ (٤٠) الانعام ٩٠ (٤١) الاسراء ٥٥

وقـم لما يلقون من أهل ﴿آشور ».

والقسم الثالث موعظة وترغيب وتمجيد وترهيب[٤٢].

واكرمه الله بأن الجبال كانت تردد معه تسبيحه وكذلك الطير تحشر له، فتسبح بتسبيحه وتحمد بتحميده.

وكان حسن الصوت ، يسترعى بذلك الطير والوحش فتعكف حوله حتى تنسى العطش والجوع وحتى ان الانهار لتقف عن الجريان تأثرا بحسن صوت داود . وقد شبه النبي – ﷺ – صوت ابى موسى الأشعرى فى قراءة القرآن بصوت داود – عليه السلام – وقال فى ذلك : لقد أوتى أبو موسى من مزامير داود[٤٣].

وكان داود دائم التسبيح كما قدمنا ، وقد خص الله بالذكر فى العشى والاشراق فى قوله تعالى :

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ معه يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ والإِشْرَاقِ . والطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أوَّابٌ﴾[٤٤] .

ذلك أن هذين الوقتين يشملان بقية الأوقات ضمنا كقوله تعالى : ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصِيلاً﴾[٤٥] وقوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾[٤٦] .

وقد فسر بعض العلماء صلاة الاشراق بأنها صلاة الضحى ، وتسمى صلاة الأوابين ، وورد فى فضلها كثير من الآثار ..

روى الترمذى عن ابى هريرة ان النبى – ﷺ – قال : من حافظ على شفعة الضحى غفر الله له ذنوبه وان كانت مثل زبد البحر ..

---

(٤٢) مروج الذهب للمسعودى جـ١ ص ٤٠

(٤٣) اخرجه البخارى فى فضائل القرآن

(٤٤) ص ١٨ ، ١٩.

(٤٥) الاحزاب ٤٢

(٤٦) هود ١١٤.

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أيضا قال : أوصانى خليلى بثلاث لا أدعهن حتى أموت : صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وصلاة الضحى ، ونوم على وتر .

ووصفه الله بالقوة فقال : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٤٧) والأيد - القوة .. والأواب : أى كثير الأوبة الى الله والرجوع إليه وكان داود عليه السلام دائم التوبة والاستغفار لا سيما بعد ذنبه الذى اعتبره من أعظم الذنوب ففزع منه الى ربه ، حتى تاب عليه ..

واعطاه الله العلم ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وقالا الحمد لله الذى فضَّلْنَاهُمَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٨) .

والان الله له الحديد ... جعل ذلك معجزة له ... فكان الحديد فى يده كالعجين يصنع منه ما يشاء واستغل ذلك فى صناعة الدروع ، وقال الله فى ذلك ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾(٤٩) .

وكان ذلك نعمة على الناس جميعا ، ولذلك أعقب الله ذكرها بوجوب الشكر عليها .

وقال العلماء فى سبب تعليم داود هذه الصنعة إنه حين أصبح ملكا كان يسير متنكرا ليعرف أحاديث الناس عنه ، فلقيه ملك فى زى إنسان فسأله عن سيرة داود ، فقال له : نعم الرجل لولا أنه يأكل من بيت المال ..

فسأل الله أن يجعل رزقه من عمل يده ، فعلمه الله هذه الصناعة وَيسَّرها عليه بأن ألان له الحديد .

وقد امتدحه النبى - ﷺ - بذلك ، فقال فى حديث مشهور : ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده ..

---

(٤٧) ص ١٧ (٤٨) النمل ١٥ (٤٩) الأنبياء ٨٠

وفى هذا حفز للناس على أن يتخذوا الأسباب فى كسبهم ، والا يركنوا الى الكسل فيكونوا عالة على غيرهم ، والعمل مظهر من مظاهر شكر الله تعالى ، أمر الله به داود وأهله . فقال فى حقهم ﴿اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ﴾(٥٠) .

ولم يكتف داود – عليه السلام – بعمل الدروع التى أخبر عنها الحق – سبحانه وتعالى – ولكنهم قالوا : إنه كان يصنع الخوص ، وقد أثر عن بعض الأنبياء أنهم كانوا يمارسون أعمالا يتعيشون منها . فآدم – عليه السلام – كان حراثا ، ونوح – عليه السلام – كان نجارا ، ولقمان – عليه السلام – كان خياطا ، وطالوت الذى ملكه الله على بنى إسرائيل كان دباغا ، وقال بعضهم : كان سقاء(٥١) .

وجعل الله داود خليفة فى أرضه ولم يذكر القرآن هذه المنقبة لأحد بعد آدم إلا داود – عليه السلام – بل إنها جاءت فى حق آدم على سبيل الاخبار .. وجاءت فى حق داود على سبيل المخاطبة .

ومن فضائل داود أنه كان يحرص على تقسيم وقته .

ومما أثِر عنه فى ذلك قوله : حق على العاقل الا يغفل عن أربع ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على هذه الطاعات واجمام للقلوب ..

وحق على العاقل أن يصرف زمانه ويحفظ لسانه ويقبل على شأنه ، وحق على العاقل الا يظعن الا فى إحدى ثلاث : زاد لمعاده ومرمة لمعاشه ولذة فى غير محرم(٥٢) .

---

(٥٠) سبأ ١٣

(٥١) تفسير القرطبي – سورة الأنبياء ص ٤٣٦١ .

(٥٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٤٨٩ نقلا عن عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد .

عظات وعبر :

إن قصة داود حافلة بالعبر والعظات التي تهدى المؤمن في طريقه الى الله ، وتنير له سبيل الحياة .

ومن هذه العبر أن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ..

فهذا داود - عليه السلام - كان راعيا يرعى على أبيه واخوته اغنامهم لا يكاد يأبه به أحد ..

ولكن الله اصطفاه وعلمه من فضله ، واختاره دون اخوته الذين كانوا أكبر منه سنا وأجمل منظرا .. ووهبه الله قوة قهرت خصمه ، ثم ما زالت به الأيام حتى ولاه الله ملك بنى إسرائيل ...

وقد جمع الله له بين الملك والنبوة ، ولم يجمع ذلك لنبى قبله .

ومن هذه العبر ألا يستكبر أحد على الاستغفار ، كما لا يعظم أحد على الذنب ..

وحين شعر داود بزلته بكى حتى نبت العشب من دموعه ..

وما زال ذاكرا ذنبه حتى آخر حياته ، ولذلك وصفه الله بأنه أواب ..

وكان النبى - ﷺ - يوصى بالتوبة ومداومة الاستغفار وكان عليه الصلاة والسلام يكثر من التوبة والاستغفار .

وليس معنى ذلك أنه - ﷺ - كان يذنب ، ولكنه من قبيل استشعار عظمة الرب ، والتواضع له ، والشعور بالتقصير في حقه - تعالى - فإن حق الله على الانسان عظيم ..

وهذا يشعرنا أيضا بالتفاوت بين أقدار الناس ، وما يعد حسنة فى حق انسان قد يعد سيئة فى حق من هو أفضل منه ، ولذلك قالوا : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ..

وذنب داود - على فرض حدوثه بالصورة التى حكاها بعض الرواة - كان مستساغا لدى بنى إسرائيل ولكنه بالنسبة لداود اعتبر ذنبا عظيما ..

والانسان السوى لا يعتد بفضله مهما أوتى ، ولكنه يستشعر التقصير دائما ، ويطمح الى الكمال ابدا ..

ومن الدروس التي نستفيدها من قصة داود ، وجوب الجهاد في سبيل الله ، بل انه اتخذ الملك ذريعة الى مواصلة الجهاد .. وكانت الصنعة التى علمه الله إياها معينة له على ذلك ، فقد علمه صناعة الدروع وهي لباس الحرب .. وأوصاه بتوسيعها لتكون سابغة تقي الجسم من طعان العدو ..

ومن الدروس وجوب العمل وعدم الركون الى الكسل ، وفي الأثر : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ..

وقد امتدح النبي – ﷺ – داود لأنه كان يأكل من عمل يده ..

وقد ورد في بعض الآثار أن الله يحب المؤمن المحترف .. أى الذى يتعلم حرفة يأكل منها .

وقد كان لداود مندوحة في ترك العمل بانشغاله بالملك وتدبير شئون الرعية والحرب ولكن الله جعله في موضع القدوة لقوم يرون أن التباهى يكون بالمال والمناصب .. فحسب

وقد زكى النبي – ﷺ – سلوك داود في عمله وعبادته وهذه التزكية مضيٌّ على النهج الذى دعا الله نبيه الى انتهاجه فقال له : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَده ﴾

وكان النبى – ﷺ – فى نشأته وشبابه يأكل من عمل يده عن طريق رعى الاغنام والتجارة ، فلما نُبِّىء وهاجر جعل الله رزقه فى ظل سيفه حيث أحل الله له الغنائم ، وكانت لا تحل لأحد قبله ..

ومن العظات ما نفهمه من أن الله يربى أنبياءه على عينه ، ويوفقهم فى نشأتهم الأولى الى رعى الأغنام لما فى ذلك من تدريب على سياسة الرعية وادارة شئونها ، وقيل فى ذلك : ما من نبى الا ورعى الغنم .. وكان النبى – ﷺ – يرعاها ببطحاء مكة لقاء أجر يأكل منه .، وداود – عليه السلام – كان راعيا فى صباه ..

ومما يعتبر به في قصة داود أن الحكم تبعة وهو وظيفة تكليف لا تشريف ..

فمن ولاه الله الحكم وجب عليه الا يغفل عن رعيته وعليه أن يتحرى ما فيه مصلحتها وسعادتها وتقدمها ، وعليه ألا يشعر بأنه افضل من غيره حيث اختصه الله بذلك . فقد يكون هناك من هو أفضل منه إلا أن الله أراد أن يختبره بالملك ويفتنه بالحكم لينظر كيف تكون سيرته في العباد ..

وعليه أن يعلم أن كل إنسان يوم القيامة محاسب على خاصة نفسه ما عدا الحاكم فهو محاسب عن كل فرد من أفراد رعيته .. ويكفي في ذلك قوله – ﷺ – «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . الامام راع ومسئول عن رعيته ....».

ومما يمكن استفادته من قصة داود – عليه السلام – أن الطيبات من الرزق والتنعم بالحلال لا يحول بين المؤمن وربه ..

ولكن الذي يحول بين المؤمن وربه هو التهالك على هذه الطيبات حتى تلهيه عن واجبه ، وحتى تتحول الى شهوات تصده عن ذكر الله ..

وقد قال الله – تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(٥٣).

وقد كان لداود – عليه السلام – مائة امرأة ، وما شغلته واحدة منهن عن ذكر الله . ولكن الذي اثار شجنه وحزنه وابكاه وأفزعه شعوره بأنه أخطأ في حق «أوريا» وأنه خطب على خطبته ..

وعلى كل فما اعظم الاعتدال ، واجمل الاقتصاد وأحسن الكفاف الذي تمناه النبي – ﷺ – بقوله : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا ..

---

(٥٣) الاعراف ٣٢ .

وقد خيِّر - ﷺ - بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا ، فاختار جانب العبودية ، وقال : أجوع يوما وأشبع يوما ، فإذا جعت صبرت وإذا شبعت شكرت ...

ويروى الرواة ان داود - عليه السلام - على الرغم من الملك الذى آتاه الله كان لا يستبيحه لنفسه ، بل كان يأكل من عمل يده كما قدمنا . كما كان يكثر من الصوم ... وقد ورد فى ذلك قوله - ﷺ - فى النهى عن صوم الدهر : إن خير الصوم صوم أخى داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ..

إن قصص الأنبياء وردت للذكرى والعبرة ، وما أكثر ما فى قصة داود - عليه السلام - من عبر وعظات ...

خروج ابنه عليه :

واستقامت الأمور لداود ، وأرهب أعداءه وأذلهم ، حتى لحق الكفار بأطراف البلاد لهيبته .

ولكنه فى أثناء انشغاله بالبكاء والتضرع الى الله لقبول توبته ، انتهز اصحاب الفساد الذين لا تخلو منهم دولة هذه الفرصة ، والتفوا حول ابن لداود وزينوا له الوثوب على الملك ، فوثب عليه ، واعلن نفسه ملكا على بنى إسرائيل ، وظل ملكا لمدة عامين - فيما يحكيه بعض الرواة .

ولكن داود استرد ملكه من ابنه إثر حروب بين أنصاره وأنصار أبنه ، وقتل قائد جيش داود هذا الأبن وحزن داود على ابنه . فهو وان خرج عليه فإنه ابنه على أية حال . وهو يتوقع أن يكون ملكا من بعده . وكان فى أثناء حربه مع ابنه قد أوصى قائده بألا يقتله . ولكن القائد لم يجد بداً من قتله حرصا على داود . وكان فى إمكان داود أن يقتل القائد، ولكنه لم يقلته لأنه كان شجاعا فى مجاهدة اعداء بنى إسرائيل(٥٤) وكان هذا اختبارا عنيفا لداود-فما أقسى أن يختبر الرجل بعداء ابنه له وخروجه عليه.

---

(٥٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٩١ .

وفاته :

وكان داود - عليه السلام - كما مر بنا يحسن تنظيم وقته - وكان يخصص أياما لنفسه يجدد فيها توبته - ويذكر فيها ذنبه ، ويعلن فيها بكاءه ..

وكان يعلم الناس بهذه الأيام فيجتمعون ، وفى ذلك تذكير لهم .

قال القرطبى : كان إذا جاء يوم نَوْحِ داود - عليه السلام - نادى منادٍ فى الطرق والاسواق والأودية والشعاب وعلى رؤوس الجبال وافواه النيران : ألا إن هذا يوم نوح داود ، فمن أراد أن يبكى على ذنبه فليأت داود فيسعده ..

فيأتى إليه الناس من كل مكان وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطيور عُكّف ، وبنو إسرائيل حول منبره ..

فإذا أخذ فى البكاء والاستغفار وأثارت الحسرات منابع دموعه صارت الجماعة ضجة واحدة استغفارا وبكاء حتى يموت حول منبره بشر كثير فى مثل ذلك اليوم ...

وحين حانت وفاته جاءه ملك الموت وهو يصعد فى محرابه وينزل فقال : جئت لأقبض روحك .. فقال : دعني حتى أنزل وارتقي . فقال له : مالى إلى ذلك من سبيل ، تقدمت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق ، فما أنت بمؤثر بعدها أثراً ...

فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض على هذه الحال(٥٥) .

وروى فى وفاته خبر عن النبى - ﷺ - قال : فيما رواه أبو هريرة : كان داود فيه غيرة شديدة ، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب ، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، فخرج ذات يوم وغلقت الأبواب ، فأقبلت امرأة تطلع الى الدار ، وإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ؟ والدار مغلقة ، والله ليفتضحن بداود ...

---

(٥٥) تفسير القرطبى - سورة ص ص ٥٦٣٠ - ط دار الشعب .

فجاء داود واذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟

قال : الذى لا أهاب الملوك ولا يمتنع منى الحجاب :

قال داود : أنت اذن والله ملك الموت . مرحبا بأمر الله .

فرمل داود مكانه حيث قبضت نفسه ، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس .

فقال سليمان للطير : ظلى على داود فأظلت عليه ، حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال لها سليمان : اقبضى جناحا ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية[56] .

ومعنى رمل : دفن ، والمضرحية : الصقور طويلة الأجنحة .

وذكر الضحاك والكلبى أن داود ملك بعد أن قتل جالوت سبعين سنة ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد الا على داود - عليه السلام .

وجمع له بين الملك والنبوة كما قال تعالى : ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[57] .

فالحكمة هى النبوة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ...

وقيل : الحكمة هى العلم مع العمل ..

وكان داود - عليه السلام - أشد ملوك الأرض سلطانا ، وكان يحرس محرابه كل ليلة عدد كبير من الجنود، فذلك قوله تعالى : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ .

وتوفى داود - عليه السلام - وهو ابن مائة سنة .

وأوصى لابنه سليمان . وكانت سنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة[58] .

وجزع عليه بنو إسرائيل جزعا شديدا .

---

(٥٦) الحديث فى الفتح الربانى بترتيب مسند الامام أحمد عن ابى هريرة . وفى جمع الجوامع جـ٣ ص ٣٠ .

(٥٧) البقرة ٢٥١

(٥٨) حياة الحيوان جـ٢ ص ١١٤

وشيع جنازته أربعون الف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس - ولم يمت في بني اسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعا عليه منهم على داود - عليه السلام - كان بين موسى - عليه السلام - وبين داود - عليه السلام - خمسمائة وتسع وتسعون سنة وقيل : تسع وسبعون سنة ..[٥٩].



(٥٩) تفسير القرطبي سورة ص ٥٦٣١ .

فهرس المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة
قصة أصحاب الرس	٦٥
أسباب هلاك أصحاب الرس	٦٨
قوم تبع	٧١
ماقيل عن تبع في كتب السيرة	٧٢
هلاك قوم تبع	٧٤
قصة أصحاب الأخدود	٧٧
قصة موسى عليه السلام	٧٩
بنو إسرائيل فى مصر	٨٠
ولادة موسى	٨٢
إلقاؤه فى اليم	٨٤
موسى فى بيت فرعون	٨٦
أخت موسى تراقبه	٨٧
أم موسى ترضعه في قصر فرعون	٨٨
موسى يبلغ أشده ويناصر الحق	٩٠
قتل رجل من أهل مصر بيد موسى	٩١
محاولة فرعون الثأر من موسى	٩٢
موسى يترك مصر إلى مدين	٩٣
قصة موسى مع بنتى شعيب	٩٥
موسى فى بيت شعيب	٩٨
زواج موسى من ابنة شعيب	١٠٠
عودة موسى إلى مصر	١٠١
تلقيه الوحى من الله بالوادى المقدس	١٠٣
موسى يؤمر بالذهاب إلى فرعون	١٠٤
تأييده بالمعجزات	١٠٥

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٨	صرط	صراط
٢٠	٣	نجبانا	نجانا
٣٧	٤	لأغوينك	لأغوينهم
٤٢	١٠	٢٥	٢٤
١١٨	٢٠	قال موسى :	قال موسى



سلسلة
القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الرابع

سلسلة القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتى

عبد الحفيظ فرغلى

د. عبد الحميد مصطفى

المجلد الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

سليمان عليه السلام

في بيت النبوة والملك.
سليمان في القرآن الكريم.
نجابة المولود........
قضاء داود وسليمان...
الاجتهاد في الأحكام..
سليمان يرث داود..
ثورة في بيت النبوة..
سليمان على كرسي الملك..
وصية داود لسليمان..
تسخير الريح له...
تسخير الجن له..
إسالة عين القطر..
سليمان والنملة...
سليمان والهدهد..
سليمان وبلقيس..
سليمان والصافنات الجياد.
كرسي سليمان...
فتنة سليمان...
فضائل سليمان...
وفاة سليمان...
عبر وعظات من القصة.

سليمان ـ عليه السلام ـ

نشأته

ولد سليمان عليه السلام فى بيت نبوة وملك فجمع بين طرفى السعادة التى يتوق اليها البشر ، سعادة الدنيا والآخرة . .

أما سعادة الدنيا فكانت ممثلة فى أبهة الملك ورفعة الجاه وسعة المال ورغد العيش . .

وسعادة الآخرة ممثلة فى معرفة الله وحسن العلاقة به والعمل من أجل رضاه ، وبذل متاع الدنيا المتاح فى سبيل متاع الآخرة الباقى الذى لا يحول ولا يزول . .

لقد ولد سليمان وفى فمه ملعقة من ذهب ـ كما يقول المثل السائر ـ ولكن هذه الملعقة الذهبية لم تعم عينيه عن طريق الحق ، ولم تصرف همته عن طلب الآخرة ، ولم تضع على قلبه غشاوة تحجبه عن اليقين والصدق ، وتصده عن معرفة ما يجب عليه نحو واهب النعم ومفيض الخير ورب الأرباب .

وقد أبدع أحد الأدباء فى تصوير فتنة المال حين صور الانسان الذى يعيش فى كفاف بأنه ينظر إلى غيره من خلال زجاج صاف فيرى الناس ويعرف أحوالهم ويشاركهم فى سرائهم وضرائهم ، فإذا ما كثر ماله وضع هذا المال غشاء زئبقياً فوق الزجاج فحوله إلى مرآة فأصبح الناظر فيها لا يرى إلا نفسه . . لقد غفل عن الآخرين وتحول إلى إنسان أنانى أطغته النعمة وغرته الثروة . .

ولكن سليمان ـ عليه السلام ـ لم يكن كذلك ، فما زادته النعمة إلا قرباً من الله ، وماأعطاه الثراء إلا قوة فى العقيدة . . هذه هى تربية النبوة . .

استمع إليه يقول فى تسابيحه لله عز وجل :

« توكل على الله بكل قوتك ، وعلى فهمك لا تعتمد ، فى كل طرقك اعرفه وهو يُقَوِّم سبلك .

.. طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة ، وللرجل الذى ينال الفهم ، لأن تجارتها خير من تجارة الفضة ، وربحها خير من الذهب الخالص ، هى أثمن من اللآلىء ، وكل جواهرك لا تساويها .. فى يمينها الخير وفى يسارها الغنى والمجد ، طرقها طرق نعم وكل مسالكها سلام ، هى شجرة الحياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط ..

.. الله بالحكمة أسس الأرض وأثبت السموات ، بعلمه انشقت اللجج وتقطر السحاب ندى ..

.. الحكماء يرثون مجداً ، والحمقى يحملون هواناً .. »[1]
هذا هو سليمان الحكيم وهذه شذرات من حكمته ..
وهذه هى قصته ..

نسبه

هو سليمان بن داود بن زكريا بن بشوى من سبط يهوذا بن يعقوب ـ عليه السلام ـ

وقال وهب بن منبه : هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون[2]

وابن جرير الطبرى يقول : هو سليمان بن داود بن عويد بن باعز بن سلمون بن نحشون بن رام بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب[3]

---

(١) العهد القديم ـ أمثال ـ الاصحاح الثالث
(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص ١٨
(٣) تاريخ الأمم والملوك جـ١ ص ٢٤٧

أما أمه فهى تشايع بنت صورى . . (١)

سليمان فى القرآن الكريم

وقد ورد ذكر سليمان فى القرآن الكريم فى سبعة عشر موضعاً موزعة على ست سور هى : البقرة ، والأنعام ، والأنبياء ، والنمل ، وسبأ ، وص .

وسترد هذه الآيات فى خلال عرض القصة .

نجابة المولود

وقد كانت ولادة سليمان - عليه السلام - هبة من الله - عز وجل - لداود - عليه السلام - وقد أخبر الله عن ذلك بقوله : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ (٢)

وقد شاع وصف سليمان بالحكيم حتى صار لقباً لازماً له ، وقد أشارت الآية المتقدمة إلى أن سليمان كان منحة عظيمة لوالده ، ومكافأة سخية له ، فقد وصف الله داود عقب هذه الهبة بأنه نعم العبد لأنه يثوب الى الله دائماً ، ويرجع اليه فى كل أموره ،وقد يكون هذا الوصف لسليمان أيضاً .

وفى ذلك تكريم لكليهما ، فنجابة الابن من أعظم النعم التى يمنحها الله للعبد ، وما أصدق قول الشاعر الحكيم :

نعم الاله على العباد عظيمة وأجلهن نجابة الأولاد

ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا من ابتلى بفقدها . . أو من فَطَّنه الله بقدرها فشكره عليها . .

وداود - عليه السلام - أدرك نعمة الولد - وابتلى بعقوق بعضهم - كما سنعرف فيما بعد - وَأُكْرِمَ بفطانة بعضهم وحكمتهم ، وفى مقدمة هؤلاء من أبنائه سليمان - عليه السلام - .

---

(١) روى ذلك ابن جرير عن قتادة . . تاريخ الطبرى حـ ١ صـ ٢٥٠ ، وبدائع الزهور لابن اياس ص ١٤٢٠

(٢) سورة ص آية ٣٠

لقد كان سليمان على حظ وافر من الفطنة وقدر كبير من الذكاء ، منحه الله إصابة الحكم وبعد النظر وحسن التقدير ..

وأعطاه الحكمة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً» ..

مثل من حكمته

ويدل على حكمته قصة الحرث الذى نفشت فيه الغنم ، وقد قصها القرآن الكريم فى قوله :

«وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ (١)

وقصة ذلك كما رواها المفسرون : أن زرعاً أكلته غنم لأناس غير أصحابه على غفلة منهم ، فتنازعوا ، واحتكموا إلى داود ـ عليه السلام ـ ورفعوا إليه قضيتهم ، فنظر داود فى الأمر ، ثم قضى بأن يأخذ أصحاب الزرع الغنم عوضاً لهم عن زرعهم الذى أتلفته الغنم التى رعته ليلاً .

ونظر سليمان فى الحكم فرأى فيه رأياً آخر .. فقال : لو حُكِّمْتُ لحَكَمْت بما هو أرفق بالطرفين ..

وسمع داود ما قاله سليمان ، فناداه ، وقال له : بماذا كنت تقضى ؟

فقال : أقضى بأن تسلم الأرض لأصحاب الغنم يصلحونها ويزرعونها ويأخذ أصحاب الأرض الغنم ينتفعون بألبانها وأصوافها حتى يعود الزرع الى ما كان عليه يوم رعته الغنم ، ثم يترادان ، فيأخذ أصحاب الغنم غنمهم ، ويأخذ أصحاب الحرث أرضهم .

فوافق داود على هذا الحكم ، وقال لسليمان : القضاء ما قضيت .. وأمضى حكم سليمان ..

---

(١) الأنبياء ٧٩

لقد سر داود بفهم ولده وقال له : وفقك الله يابنى لايقطع الله فهمك . . وكان عمر سليمان حين حكم فى القضية إحدى عشرة سنة ، وكان أبوه يدربه وهو فى هذه السن المبكرة على مجلس الحكم والقضاء . .

وكان فهم سليمان من علم النبوة المبكر الذى آتاه الله سليمان ليقر به عين أبيه ، ويسعده به فى حياته ويطمئنه عليه قبل مماته . .

ولا ينبغى لأحد أن يتجرأ فى هذه المسألة فيقول : لقد أصاب سليمان وأخطأ داود ، لأن الله ـ تعالى ـ يقول : « وكلا آتينا حكماً وعلماً »

لقد اجتهد كلاهما . . فنظر داود إلى أن قيمة الغنم وما تلف من الزرع سواء . . فحكم بما رأى . .

ونظر سليمان إلى المستقبل فحكم بما رأى . . وأدرك بفطنته أن ماسيأخذه أصحاب الزرع من نتاج الغنم فى مدة إصلاح الحرث تساوى قيمة ما تلف !. وكان ذلك إلهاماً من الله . . يظهر من قوله ـ تعالى ـ « ففهمناها سليمان » . .

تعليق العلماء على اختلاف الحكم

وقد ذكر بعض العلماء أن داود ـ عليه السلام ـ حكم بوحى ،وأن سليمان ـ عليه السلام ـ حكم بوحى نسخ الله به حكم داود ، وعليه فيكون التفهيم تفهيماً بطريق الوحى . .

وجمهور العلماء يرون أن كلا منهما قد حكم باجتهاد .

واجتهاد الأنبياء فى الأحكام التى لا نص فيها كثير ومعروف .

وقد اختلف أهل العلم فى حكم المجتهدين ، وهل يعتبر كل مجتهد مصيباً ؟ أو الحق مع واحد منهم فقط ؟

وقد استدل بعضهم بقوله ـ تعالى ـ « وكلا آتينا حكماً وعلماً » على أن كل مجتهد مصيب . .

والصواب أن من اجتهد فأخطأ فلا إثم عليه ، أما إعتباره مصيباً فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها وفى الحديث الشريف : « **اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر** » فسماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخطئاً

فكيف يقال : إنه مصيب لحكم الله موافق له ؟

إن حكم الله ـ تعالى ـ واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين ، وإلا لزم توقف حكمه ـ تعالى ـ على اجتهادات المجتهدين ، واللازم باطل فالملزوم مثله .

كما يستلزم ذلك أن يكون الأمر الذى اختلف اجتهاد المجتهدين فيه بالحل والحرمة حلالاً وحراماً فى حكم الله ـ عز وجل ـ وهذا باطل بالاجماع .

وأيضاً يلزم عليه أن حكم الله ـ تعالى ـ لايزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد فى تلك الحادثة ، ولا ينقطع مايريده الله ـ تعالى ـ إلا بانقطاع المجتهدين ، واللازم باطل فالملزوم مثله(١)

حكم الاسلام فى مثل هذه القضية

أما حكم هذه القضية فى الشريعة الاسلامية فقد ثبت عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه شرع لأمته أن أهل الماشية عليهم حفظها بالليل ، وعلى أهل الزرع حفظها بالنهار ، وأن ما أفسدت المواشى بالليل مضمون على أهلها ، وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عينا أو قيمة .

وقد اتفق الأئمة الثلاثة « مالك والشافعى وأحمد » على أنه لا ضمان على أرباب البهائم فيما أتلفته نهاراً ، اذا لم يكن معها صاحبها ، أما ما أتلفته ليلاً فضمانه عليهم .

وقال الامام أبو حنيفة : لا يضمن إلا أن يكون معها راكباً أو قائداً أو سائقاً ، أو يكون قد أرسلها إلى الشىء ، سواء أكان ليلاً أو نهاراً .

متى يكون الاجتهاد ؟

ومن المعروف أن الاجتهاد فى الاسلام محصور فى الأمور التى لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة أو إجماع من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى استنباط الأحكام من تلك النصوص الواردة فى الكتاب والسنة .

هل يجوز للمجتهد أن يرجع عن رأيه ؟

---

(١) أنظر فتح القدير للشوكانى جـ٣ ص ٤١٨

إذا تبدل اجتهاد المرء فى مسألة أو حكم وتبين له وجه الصواب فعليه أن يرجع عن رأيه الأول ، ويلتزم الحكم الذى وصل إليه أخيراً ، دون أن يؤثر ذلك على ما اتصل بالحكم الأول من حقوق .

وهذا ما انتهى إليه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قولاً وعملاً .

فأما قولاً ففى رسالته إلى أبى موسى الأشعرى التى قال فيها : « لا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك ، فهديت فيه لرشدك أن ترجع فيه لأن الحق قديم لا يبطله شىء ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .

وأما عملاً فقد رجع عن قضاء قضاه فى ميراث بعد أن تبين له أن الصواب فى غيره .

الاجتهاد فى حياة الرسول

وقد تعددت وقائع اجتهاد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فى حضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

من ذلك أن جماعة من أصحابه كانوا فى سفر ، وفيهم عمر ومعاذ ـ رضى الله عنهما ـ فأصبح كلاهما فى حاجة إلى الغسل ولا ماء معهما ، فاجتهد كلاهما . فأما معاذ فقاس الطهارة الترابية على الطهارة المائية وتمرغ فى التراب وصلى .

وأما عمر فقد أخر الصلاة حتى وجد الماء . .

فلما رجعا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين لهما وجه الصواب .

وأشار إلى أن قياس معاذ فاسد ، لأنه فى مقابلة النص قال تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ (١)

---

(١) آية ٤٣ سورة النساء

ولذا قال له الرسول ﷺ : يكفيك أن تفعل هكذا ، مشيراً إلى كيفية التيمم .

وأفهم عمر أن التيمم كما يرفع الحدث الأصغر يرفع الحدث الأكبر . .

وهكذا كانت اجتهادات الصحابة ترجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقرهم على ما أصابوا فيه ويعرفهم وجه الصواب فيما أخطأوا فيه .

وكان اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإذنه لأصحابه فى الاجتهاد لكى يعلمهم طريقة الاستنباط وكيفية أخذ الأحكام من الأدلة والنصوص .

وكثيراً ما كانت تعرض عليه الخصومة فيطلب من بعض أصحابه أن يفصل فيها أمامه .

وقد روى أنه قال يوماً لعمرو بن العاص : احكم فى هذه القضية . قال عمرو : أجتهد وأنت حاضر يارسول الله ؟

قال : نعم ، إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر .

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن اجتهاد داود ـ عليه السلام ـ قد رجع إلى الوحى فى النهاية ، وأبان لهما الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن حكم سليمان هو الأصوب فى هذه القضية .

وقد استطردنا بعض الشيء فى هذا الموقف من القصة لحاجة المسلمين فى حاضرهم إلى الاجتهاد الذى يوضح لهم رأى الدين فى كثير من القضايا والمشكلات التى جدت فى حياتهم . والتى يجب على علمائنا الأجلاء توضيح وجه الصواب فيها حتى لا يختلف الناس ويضطرب فهمهم ،ويأخذون العلم من غير أهله .

سليمان يرث داود

قال ـ تعالى ـ ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

---

(١) النمل ١٦

وقد قال سليمان ـ عليه السلام ـ ذلك تحدثاً بما أنعم الله عليه ، وشكراً للنعمة التى اختصه الله بها . .

وقدَّم فى حديثه عن النعم نعمة معرفة لغة الطير ، لأنها نعمة خاصة به ، لا يشاركه فيها غيره .

وقد ذكر المفسرون أن سيلمان ـ عليه السلام ـ تعلم منطق جميع الحيوانات والطيور ، وفهم ما تقوله من ذكر وتسبيح وحديث عام أو خاص .

وخص الطير بالذكر لأنها جند من جنوده تسير معه حيثما يسير ، تظلله من الشمس وتخفف عنه برفرفتها حرارة الجو . .

ومن الطرائف الواردة فى ذلك ما يقصه الثعلبى :

باضت قبرة فى طريق سليمان ـ عليه السلام ـ فقال الذكر للأنثى : ألم أنهك عن أن تبيضى فى طريق سليمان الملك ؟ لو ركب إلينا لحطم بيضنا .

فقالت الأنثى : ويحك ، إن نبى الله أرحم بنا من ذلك . .

فسمع سليمان قولها ، فبعث جنياً حين أراد أن يركب وقال له : اجعل بيضها بين رجليك وإياك أن تصيبه بأذى .

فلما مر سليمان فى موكبه ، وجاوزهما ، قالت الأنثى : ألم أقل لك : إن نبى الله أرحم بنا من ذلك ؟

فقال الذكر للأنثى : عندى للملك هدية . .

قالت : وما عندك ؟

قال : عندى جرادة ادخرتها لولدى

فقالت الأنثى : عندى تمرة ادخرتها لولدى

قال : فأخذا التمرة والجرادة ، ثم طارا حتى وقفا بين يدى سليمان وهو على سريره فى مجلسه . فوضعاهما بين يديه ثم سجدا له ، فدعا لهما ومسح بيده على رأسيهما ، فيرى أن هذه القشرة التى على رأس القبر من مسح سليمان ـ عليه السلام ـ

قال : ومر سليمان بموكبه على نملة فقالت : سبحان الله العظيم ، ما أعظم ما أوتى آل داود .

فتبسم سليمان من قولها ، وفسر قولها لجنوده ، ثم قال : ألا أنبئكم بخبر هو أعجب من قولها هذا ؟

قالوا : بلى

قال : إنها تقول : اتقوا الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الغضب والرضا .[1]

نبينا صلى الله عليه وسلم علمه الله لغة الطير

ما من معجزة آتاها الله نبياً من الأنبياء السابقين إلا وأعطاها الله نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرف لغة الطير والحيوان ، وقد وردت أخبار صحيحة تؤيد ذلك .

ذكر القاضي عياض فى كتاب الشفا : أن اعرابياً جاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له : لا أومن بك حتى يؤمن هذا الضب ، وطرحه بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال النبى للضب : ياضب ، من تعبد ؟

قال : أعبد الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته وفى النار عقابه .

قال : فمن أنا ؟

قال : رسول رب العالمين وخاتم النبيين ،وقد أفلح من صدقك وخاب من كذبك .

قال : الضب ذلك بلسان عربى فصيح سمعه وفهمه كل من كان موجوداً

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٩٩

فأسلم الاعرابى [1]

قال : وعن أم سلمة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - نادته فى أثناء سيره ظبية ، وقالت له : صادنى هذا الاعرابى ، ولى ولدان فى ذلك الجبل ، فأطلقنى لأرضعهما وأرجع .

فأطلقها فذهبت ورجعت ، فقال النبى للأعرابى : أطلق هذه الظبية ولا تحبسها . فأطلقها [2]

وروى الثعلبى قال : إن حمامة اشتكت إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فَقْدَ فرخيها . فقال : من فجع هذه الحمامة بفرخيها ؟

فقال بعضهم : نحن يا رسول الله . فقال : ردوهما الى موضعهما [3]

ليس غريباً أن يتعلم الأنبياء لغة الطير . . والمعروف أنها أمم تتخاطب فيما بينها بلغة ألهمها الله إياها ، وأفهمها الله لمن شاء من عباده . . قال تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [4]

ومما يروى فى فهم سليمان لغة الطير أنه مر ببلبل يصوت ويترقص . فقال سليمان : إنه يقول : إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء .

وصاحت فاختة ، فقال : إنها تقول • ليت الخلق لم يخلقوا

فلعل صوت البلبل كان عن شبع وفراغ بال ، وصياح الفاختة كان عن مقاساة وشدة ألم .

والذين يعايشون الحيوانات والطيور ويراقبون أفعالها وحركاتها وأصواتها يرون أن تلك الأصوات تتكيف بتكيفات مختلفة حسب حاجة تلك الحيوانات ، ومطالب تلك الطيور .

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى جـ ١ ص ٢٠٤

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٧

(٣) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٩٩

(٤) الأنعام ٣٨

فصوت الهرة المحبوسة يختلف عن صوتها اذا كانت فى حاجة إلى الطعام أو الماء ، وعن صوتها حين ترى صاحبها فتهش له .

فلكل صوت نبرات وكيفيات ليست فى الصوت الآخر .

والطيور تنادى بعضها اذا عثرت على الطعام ، وهى تحذر بعضها اذا أحست بخطر .

وعلى كل فإدراك كل صوت من الطير وما يقصد به هو هبة من الله ، اختص الله بها سليمان ـ عليه السلام ـ بالإضافة الى غيرها من الهبات الأخرى . .

المقصود بالوراثة

المقصود بالوراثة فى قوله تعالى « وورث سليمان داود » وراثة العلم والنبوة ، وهذا أشرف شيء يرثه الانسان . .

المال عند الأنبياء لا يورث . . وقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة** »

وقال : العلماء ورثة الأنبياء . . والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكنهم ورثوا الحكمة والعلم . .

فكان ميراث سليمان من أبيه العلم والحكمة . .

وقد قال العلماء : كان لداود ـ عليه السلام ـ تسعة عشر ولداً ذكراً . . ورث سليمان من بينهم جميعاً النبوة والحكمة .

ولو كان المراد وراثة المال لما خص الله سليمان بالذكر ، لأن جميع أولاده فى ذلك سواء . .

كما وورث الحكم أيضاً . . ووراثة الحكم لا تعنى التسلط . .

فقد أغنى الله الأنبياء عن ذلك ، لقد أعطاهم الملك الى جانب النبوة ليضعوا القدوة الطيبة فى الحكم أمام السلاطين والملوك ، وليقيموا الحجة عليهم اذا مالوا عن الحق أو حكموا بين الناس بالهوى .

ولذلك كان الله يحاسب كلا من داود وسليمان أولاً بأول إذا ما حدث منهما

أى ميل عن الخط الذى رسمته الشريعة الغراء لها .

لقد كانت وراثة النبوة شائعة فى بنى اسرائيل لأن الله قد جعل فى ذرية إبراهيم النبوة بقوله ـ تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (١) كما جعلها فى ذرية نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٢)

أما قول سليمان « وأوتينا من كل شىء » فهو إشارة الى كثرة ماأفاء الله من نعم عليهم ، وفى ذلك اعتراف بفضل الله . وهذا الاعتراف بفضل الله هو الشكر بعينه . . والشكر هو مفتاح الاحتفاظ بالنعمة وكان سليمان ـ عليه السلام ـ يدعو الله قائلاً : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٣)

ولكن وراثة سليمان للملك لم تكن سهلة بين أخوة هو أصغرهم سناً . .

وهؤلاء الأخوة وإن كانوا أبناء نبى إلا أن ذلك لم يخل نفوسهم مما يعتورها من عوامل الرغبة والأثرة والطمع والتطلع ، والمُلْك له سحره وإن كانت له تبعاته .

ولم يكن اختيار سليمان لوراثة الملك من قبل داود ، ولكنه تكليف إلهى أشارت إليه بعض المصادر ، وذكروا فى ذلك خبراً تنسبوه إلى أبى هريرة ـ رضى الله

(١) العنكبوت ٢٧

(٢) الحديد ٢٦

(٣) ١٩ سورة النمل

عنه ـ قال : نزل كتاب من السماء إلى داود ـ عليه السلام ـ مختوماً بخاتم من ذهب فيه ثلاث عشرة مسألة ، فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه أن سل عنها ابنك سليمان ، فإن هو أجاب عنها فهو الخليفة بعدك .

فدعا داود الأحبار والعلماء وأجلس سليمان بين أيديهم وطرح عليه الأسئلة التى نزلت فى الكتاب وهى :

ماآنس الأشياء وما أوحشها ؟ وما أحسن الأشياء وما أقبحها ؟ وما أقرب الأشياء وماأبعدها ؟ وما أقل الأشياء وما أكثرها ؟ وما القائمان ؟ وما الساعيان ؟ وما المشتركان ؟ وما المتباغضان ؟ وما الأمر الذى اذا ركبه الرجل حمد آخره ؟ وما الأمر الذى اذا ركبه الرجل ذم آخره ؟

فقال سليمان :

أما أقرب الأشياء فالآخرة . . وأما أبعد الأشياء فما فاتك من الدنيا . . وأما آنس الأشياء فجسد فيه روح . . وأما أوحش الأشياء فجسد لا روح فيه . . وأما أحسن الأشياء فالإيمان بعد الكفر . . وأما أقبح الأشياء فالكفر بعد الإيمان . . وأما أقل الأشياء فاليقين . . وأما أكثر الأشياء فالشك . . وأما القائمان فالسماء والأرض . . وأما الساعيان فالشمس والقمر . . وأما المشتركان فالليل والنهار . . وأما المتباغضان فالموت والحياة . . وأما الأمر الذى اذا ركبه المرء حمد آخره فالحلم عند الغضب . . وأما الذى اذا ركبه المرء ذم آخره فالحدة عند الغضب . .

ففكوا الخاتم فإذا جواب المسائل متفق مع ما نزل من السماء . .

قال العلماء والأحبار : ونحن لا نرضى أن يكون خليفتك من بعدك إلا إذا سألناه .

قال سليمان : سلوا وما توفيقى إلا بالله . .

قالوا : ما الشيء الذى اذا صلح صلح كل شيء من الانسان ، وإذا فسد فسد كل شيء منه ؟

قال : هو القلب .

فأعلن داود خلافة سليمان ، فلم يرض ذلك كثير من بنى إسرائيل ، وقالوا : غلام حدث يستخلف علينا ، وفينا من هو أفضل منه ؟

فعلم ذلك داود منهم فجمع رؤساء الأسباط ، وقال : قد بلغنى مقالتكم ، فهاتوا عصيكم أضعها فى بيت وأغلقه عليها ، فأى عصا تثمر يكون له الأمر من بعدى .

فجاء كل منهم بعصاه وكتب عليها اسمه ، وجاء سليمان بعصاه وكتب عليها اسمه ، وأدخل داود هذه العصى فى بيت وأغلق عليها الباب وسده بالأقفال ، وحرسه رؤساء الأسباط بأنفسهم .

فلما أصبحوا ، وصلوا الغداة مع داود ، قام ففتح الباب وأخرج العصى ، فإذا بالعصا التى كتب سليمان اسمه عليها قد أورقت وأثمرت . .

فأيقنوا أن اختيار سليمان ليس أمراً من عند داود ، ولكنه أمر مقضى به من السماء ، فسلموا له الأمر .



ثورة فى بيت النبوة

على الرغم من أن سليمان قد اختارته السماء لتولى الحكم فإن ذلك لم يعجب بعض إخوته الذين كانوا يوطنون أنفسهم لوراثة هذا الملك العريض . .

وذكر العلماء أن « أبشالوم » بن داود غضب من أبيه غضباً شديداً ، واعتبر أن اختيار سليمان دونه ظلم ومجافاة لطبيعة الأشياء .

وكان أبشالوم يتميز بالقوة والعناد ، وقد مر بتجارب كثيرة أكسبته حنكة ودراية بالأمور وسياسة وحسن تقدير ، وهذه كلها من مؤهلات الحكم ومرشحات الخلافة . . فلم لا يكون هو الوارث لعرش إسرائيل ؟ ولم يفتات أبوه عليه فى هذا الحق ؟

إنها الأطماع تحركت فى نفسه ، وغذاها الشيطان ، ولعب فيها قرناؤه دوراً ليس بالهين ، فقد زينوا له أن يشق عصا الطاعة على أبيه وأخيه ، وسوف يجد منهم عوناً له على بلوغ هدفه وتحقيق مآربه . .

لقد أعماه الطمع فى الملك عن إدراك أن اختيار سليمان للعرش ليس من صنع

داود بل هو وحى من السماء ولكن ماله هو واختيار السماء ؟ وما شأن السماء بقضية هى من أهم اختصاصات البشر ؟

أما النبوة فنعم ، فإنه لا إحتيال لأحد فى اكتسابها . ولكن الملك تقدير وتدبير وسياسة وتخطيط .. متى أتقن الانسان هذه الأمور استطاع أن يصل إلى العرش اذا أراد .. هذا ما كان يحدث به أبشالوم نفسه ..

إلا أنه غفل عن أن مالك الملك هو الله . يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ..

وأخذ أبشالوم يخطط لبلوغ هدفه .. ويبدو أن ملازمته لمجلس الحكم ، واقترابه من حاشية الملك أعطته خبرة بالرجال وسياستهم ، ومعرفة بالمسالك التى يدخل منها إلى قلوبهم ويسيطر بها على مشاعرهم .

وأخذ يتودد إلى قومه وإلى رؤساء الأسباط من اليهود ، ويغدق عليهم من عطفه وحبه ، ويسخو لهم بما فى يده ، ويتقرب إليهم ، ويوحد بينهم ويصلح من شئونهم ويقضى بينهم ، ومازال بهم حتى تمكن من قلوبهم فأصبحوا أقرب إليه من بنانه ..

وفى الوقت نفسه حاول صرف الناس عن أبيه ، فكان يقف بباب الحكم يستقبل أصحاب الحاجات والقضايا ، فيقضى لهم حاجاتهم قبل أن يصلوا إلى داود ، وشيئاً فشيئاً نسى بعض الناس داود وتردد اسم أبشالوم على ألسنتهم ، وأصبح قريباً من قلوبهم .

لقد اصطنع له يداً عند كل منهم وأصبح ذا فضل لدى الكثير من أبناء إسرائيل .. ولو كان ذلك لوجه الله لكان أمراً عظيماً ،ولكن الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ..

لقد كان يريد أن يكون هؤلاء جميعاً طوع إشارته عند الضرورة ، وقد اتفق مع

من أبرم أمره معهم من خاصته على خطته التى حدد لها أجلاً وضرب لها موعداً ..

واستأذن أباه فى أن يخرج إلى بلدة (حبرون) وفاء لنذر كان قد نذره هناك ، وكان قد أرسل جواسيسه من بنى إسرائيل إلى كثير من البلاد المجاورة ليجمعوا له من الأنصار من يستطيعون .. واتفق معهم على أن إشارة الوثوب الى الحكم هى صوت بوق يعلن لهم ، فمتى سمعوه نفروا إليه جميعاً واجتمعوا حوله وأعلنوه ملكاً عليهم ..

وسارت الخطة فى طريقها المرسوم .. ودوى صوت البوق فأسرع الأنصار الذين أغرتهم الوعود وغرتهم النقود وأجلسوا أبشالوم فوق كرسى الحكم ، وقالوا : لا خليفة لداود إلا أبشالوم ..

ووصلت الأخبار إلى داود ، وعلم أن أبشالوم قد نصب نفسه ملكاً على بنى إسرائيل فى حبرون ، وكان عليه أن يتصرف بحكمة ورباطة جأش حتى يحتفظ بوحدة بنى إسرائيل وحتى لا يتبدد شملهم وتتفرق وحدتهم .

إنه نبى وملك أيضاً ، فعنده الوحى والسياسة معاً ..

وسياسته مستمدة من نور النبوة والهامها .. وقد جعله ذلك مطمئن البال واثقاً من أن الحق سوف ينتصر . وأن ما حدث زوبعة لا تلبث أن تزول ، ولن تغير مما أراده الله شيئاً .

وماذا يجدى تخطيط المملوك أمام ما قضاه ملك الملوك ؟

لقد أحكم أبشالوم خطته ودبرها تدبيراً دقيقاً ، واستطاع أن يجعل كثيراً من الناس ينساقون وراءه ، وقد ركبوا رءوسهم واتبعوا هواهم وغرتهم الدنيا وغفلوا عن الآخرة ..

انخدعوا ببريق زائف ووعود كاذبة وعدهم بها أبشالوم ، وغفلوا عن حكمة داود ونبوته . .

ووازنوا بين شيخ فان كثير البكاء وبين شاب قوى نشيط مقبل على الدنيا وهى مقبلة عليه . . وأين ضعف الشيخوخة من قوة الشباب ؟ وأين نغمة التزهيد فى الدنيا من دعوة الاستمتاع بها والاقبال عليها ؟

لقد رجحت كفة أبشالوم فى نظرهم على كفة داود . .

وآثروا بالالتفاف حوله الدنيا على الآخرة . .

رأى داود ـ عليه السلام ذلك ، وأدرك بإلهام النبوة الصادقة خطورة الموقف ، وعرف أن الصدام بين أنصاره وأنصار ابنه ستكون عاقبته وخيمة ، فرأى أن يتفادى ذلك بحكمته . .

فجمع حوله الذى بقوا على ولائهم له ، وأخبرهم أن الخير فى الانسحاب من وجه أبشالوم ومن معه . . ففى الصدام قتل وتدمير وتخريب للعمران وإغراق للبلاد بالدماء . .

وليس الانسحاب فى هذه الحالة جبناً ـ حاشا لله ـ أن يكون داود جباناً وهو الذى كابد الحروب من قبل ، وهو الذى قتل أعتى جبار فى وقته وتحداه بمفرده ، وأرداه بحجر من مقلاعه . . لقد قتل جالوت . . وهو من هو فى قوته . . فلم يكن هروبه من وجه إبنه جبناً ، ولكنه تفاد لحرب أهلية يقتل فيها الاسرائيليون أنفسهم ، ويردى بعضهم بعضاً بأيديهم . . لقد أراد أن يسترد ملكه بأقل خسائر ممكنة ، ولن يكون ذلك إلا إذا هدأت النفوس وذهبت حدة الغليان . . وكان واثقاً أن الله سوف يجعل له مخرجاً من هذه الأزمة الحالكة . .

وأن الله لابد أن يهدى الناس إلى رشدهم ، فتبصر العيون طريقها الصحيح ، وتنفض الجموع من حول أبشالوم لأنها سوف تدرك أنها قبضت على ريح ، وستفتح يدها فلن تجد فيها شيئاً سوى الوعود البراقة التى لا تجدى شيئاً .

فلم يكن انسحاب داود إذن استسلاماً نهائياً . . كلا ولكنه أراد أن ينظم صفوف من بقى معه ، ويعيد النظر فى الأمور ، ويدرس جميع الطرق الممكنة للقضاء على الفتنة ، وهذه كلها أمور تحتاج الى الروية والتأنى ، لا إلى التهور وشدة الانفعال والدخول فى معركة لا تعرف نتائجها .

هذه هى الظروف والملابسات التى جعلت داود ينسحب بمن معه من وجه ابنه أبشالوم . . إن الانسحاب أحياناً يكون انتصاراً . .

وعبر داود ورجاله وأهل بيته نهر الأردن ، وصعد إلى جبل الزيتون حافياً باكياً . . وأخذ يدعو الله ويطلب منه العون والتوفيق . .

ولم يسلم داود ـ عليه السلام ـ بطبيعة الحال من شماتة بعض أتباعه ، فتألب عليه نفر منهم ، وأخذوا يوجهون إليه اللوم ويقرعونه بقوارص الكلام . . وحاول المخلصون من أتباعه أن يشتبكوا مع هؤلاء فى معركة للدفاع عن داود ، ولكن داود ـ عليه السلام ـ حال بينهم وبين ذلك ، وقال فى حسرة وألم : اذا كان ابنى قد خرج علىّ واستولى على ما ائتمننى الله عليه من سلطان ، وربما لو تمكن من قتلى لقتلنى فلماذا لا تلتمسون العذر لهؤلاء الذين يلوموننى ؟

إنه تقدير للموقف من غير شك . . ثم اتجه داود متضرعاً إلى الله أن ينقذه مما هو فيه ، وأن يكشف عنه الكرب وأن ينجيه من براثن هذه الأزمة الطاحنة ، ويأخذ بيده حتى يخرج منها سالماً . .

وانتهز أبشالوم فرصة خروج أبيه من عاصمة البلاد ، فاستولى عليها ، وأصبح

يسيطر على مقاليد الأمور ، وتمكن من ناصية الحكم ، ودان له الجميع بالطاعة والولاء . .

ولكن داود كان قد أخذ يجمع شمل أتباعه وينفخ فيهم من روحه ، ويعيد الثقة إلى قواده وجنوده وتدارس مع المخلصين الأمر فى هدوء وروية ، وأعدوا العدة لمواجهة أبشالوم الذى أسكره النصر وتوهم أن الأمر كله قد أصبح فى قبضة يده . .

وقسم داود جنوده الى فرق ، وجعل على رأس كل فرقة قائداً محنكاً يثق فيه وفى حكمته وقدرته . . وأوصاهم جميعاً أن يعالجوا الأمور بالحكمة والهدوء وإن يعملوا على حقن الدماء ما أمكن ، وألا يسدوا ثغرة للسلام مادامت مفتوحة ، وألا يلجأوا للقتال إلا دفاعاً عن النفس وعند الضرورة الملحة .

ووصل جنود داود الى العاصمة . . ولم يجدوا الأمر يحتاج إلى القتال ، لقد كفاهم الله شره . . . ذلك أن نفراً من الناس قد وثبوا على أبشالوم فقتلوه ، وبقتله انفض أتباعه وتفرقوا ، لأنه لم يكن هناك هدف يجمعهم ، كان الهدف هو أبشالوم وقد ذهب أبشالوم فماذا بقى ؟

ومن هنا نعلم أن القيمة الحقيقية فى المبادىء لا فى الأشخاص لأن الأشخاص تفنى أما المبادىء فهى باقية حية فى نفوس المحافظين عليها . .

واذا حييت المبادىء حفظت للحياة بهجتها وجمالها . .

وبموت أبشالوم خلص الأمر لسليمان . .

وأصبح سليمان ملكاً على عرش داود . .

وصية داود لسليمان

وأوصى داود ابنه سليمان بوصايا سجلها كتاب العهد القديم[1] ولخصها وهب

بن منبه فى قوله :

يا بنى إياك والهزل فإن نفعه قليل ويهيج العداوة بين الاخوان . . وإياك والغضب فإن الغضب يستخف بصاحبه . . وعليك بتقوى الله وطاعته فإنها يغلبان كل شيء

وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس وإن كانوا برآء . اقطع طمعك عن الناس فإن ذلك هو الغنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر . وإياك وما يعتذر منه من القول والفعل ، وعود نفسك ولسانك الصدق ، والزم الاحسان فإن استطعت أن يكون يومك خيراً من أمسك فافعل .

وصل صلاة مودع ، ولا تجالس السفهاء ، ولا ترد على عالم ، ولا تماره فى الدين .

وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض ، وتحول من مكانك ، وارج رحمة الله فإنها وسعت كل شيء[1] .

وهى وصايا حكيمة فيها عصمة للحاكم والمحكوم معاً ، وإنها لتلتقى مع ما أوصى به الله فى كتابه الحكيم ، وجاءت به السنة المشرفة على لسان سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم . .

ملك سليمان

ورث سليمان داود فى نبوته وملكه ـ كما عرفنا ـ وآتاه الله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فقد طلب ـ عليه السلام من ربه ذلك : ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٢)

---

(١) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٩٥

(٢) آية ٣٥ سورة ص

قال المفسرون : لا ينبغي لأحد من بعدى أى لا يكون لأحد من بعدى ، ولا يصح لأحد من بعدى لعظمته . .

وقيل : لا ينبغي لأحد أن يسلبه منى كما سلب منه قبل ذلك على يد أخيه أبشالوم . .

ولم يكن هذا الطلب مبعثه الفخر والاستعلاء وحب الدنيا وزينتها ، بل الهدف منه تنفيذ أحكام الله واعلاء كلمته ونشر دينه . فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، واذا اجتمع السلطان مع القرآن فقد اكتمل للدولة رونقها وارتفع شأنها وعز جانبها وعلت كلمتها .

وقد استجاب الله لسليمان ، فوهبه ملكاً عظيماً ، وأيده بكل مظاهر القوة المادية والمعنوية ، وسخر له من الجنود المرئية وغير المرئية ما يشتد بهم ساعده وتنفذ كلمته ويعلو شأنه ،وبشره مع ذلك بالجنة وحسن المآب ، وقال الله ـ تعالى ـ فى ذلك :

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ
كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا

﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ (١)

تسخير الرياح لسليمان

لقد أعطى الله سليمان من مظاهر القوة الشيء الكثير..

جعل الرياح طوع أمره، وأخضع الجن والشياطين له، وعلمه منطق الطير والحيوان، ومكنه فى الأرض تمكينا كبيرا، وأعطاه فوق ذلك النبوة والكتاب.

ويقول المفسرون فى شأن تسخير الريح لسليمان : إن الله ـ تعالى ـ ذلل الريح لسليمان، وجعلها منقادة لأوامره، يصرفها كيفما يشاء كما يصرف السيد تابعة والمخدوم خادمه.. لقد اصبحت الريح له كالدابة الذلول المتمكن صاحبها من زمامها، فيوجهها ناحية اليمين أو الشمال كما يريد.. وبيده أن يجعلها عاصفا أو رخاء أو صبا أو دبورا، أو نسيما عليلا..

وتحدث كثير من المؤرخين عن وصف تسخير الريح لسليمان ـ عليه السلام ـ، فذكر بعضهم أن سليمان كان له بساط من خشب له ألف ركن فى كل ركن ألف باب يكون فيها جند سليمان، وتحت كل ركن ألف جنى يحملون ذلك البساط حتى يرتفع فى الجو، وحينئذ تسير به الرياح، وكان يخرج من القدس فيقيل فى «اصطخر» ثم يبيت فى «خراسان».

ورووا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوله : كان سليمان يوضع له ستمائة الف كرسى، ثم يجيء اشراف الانس فيجلسون مما يليه، ثم يجيء اشراف الجن فيجلسون مما يلى الانس، ثم يدعو الطير فتظلهم ثم يدعو الريح فتحملهم، تسير مسيرة شهر فى الغداة الواحدة..

---

(١) ص ٣٦ : ٤٠

قال - تعالى - ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (١)

اى تسيربالغداة مسيرة شهر ، وتسير بالعشى مسيرة شهر ، وكأنها بذلك تسير فى اليوم الواحد مسيرة شهرين . .

وهى سرعة قياسية . . الطاقة المستغلة فيها طاقة الريح ، وهى طاقة لم يستطع الانسان على تقدمه العلمى فى عصرنا الحالى أن يستغلها بالصورة التى وهبها الله لسليمان - عليه السلام .

ولئن أمكن للانسان اليوم أن يستغل الريح فى بعض منافعه فإنه يستغلها فى اتجاهها ، ولايمكنه أن يوجهها إلى وجهة أخرى مضادة لاتجاهها . . أما الريح لسليمان فهى طوع أمره يتحكم أولا فى هبوبها ثم فى توجيهها ثم فى قوتها . . وهذا من جملة الملك الذى لاينبغى لأحد من بعده .

إنها معجزة له . والمعجزات من خصائص الأنبياء .

والواقع أن سليمان أمكنه الله من زمام الريح بصورة تستعصى على الوصف ، ولايمكن الوصول اليها بحال لأنها معجزة من الله عز وجل . . وماجاء حول البساط وطوله وعرضه وأركانه كثير وهى أوصاف بالرغم من عظمها قد تحد من قدرته ، وتفاصيل لاغناء فيها ولافائده منها ، فالله سبحانه له قدرة خارقة مقتدرة ، واذا أراد لسليمان ماهو أعظم مما أعطاه لأعطاه ، وَتَدَخُّل العقول فى هذه القدرة لامجال له .

---

(١) سبأ ١٢

ولو أننا التزمنا بما ذكره القرآن الكريم من أخبار تلك القصص بحيث تفسر الآيات الكريمة التى أشارت إلى ذلك تفسيرا يتفق ومدلول اللفظ وسياق الأحداث ، ولانحمّل الآيات القرآنية مالاتحتمله من معان ، مع التسليم فى النهاية بأن قدرة الله لاحدود لها وبأن فوق كل ذى علم عليم . أقول لو التزمنا بذلك لنجونا من كثير من المآزق والمزالق . .

ومن أجل ذلك نقول : إن الله - سبحانه وتعالى - قد جعل الريح مسخرة لسليمان تجرى بأمره رخاء ، فيأمرها بأن تهب فى هذه الناحية أو تلك حسب حاجة الناس للانتفاع بها فى زرعهم ومعايشهم أو فى إزجاء السفن حتى تصل إلى مرافقها سالمة ، أو يأمرها بحمله ومن معه إلى أى مكان بحيث يستطيع التنقل هو وجنوده بواسطتها . . دون الدخول فى تفاصيل حجم البساط الذى كان يحملهم ومدى سعته وعدد جنوده الذين كانوا يركبون فوقه وعدد الذين يرفعونه . فان التعرض لهذه الأمور ضرب من الظن ، ومن الأفضل أن نكل ذلك إلى علم الله - تعالى .

هذا وقوله - تعالى - : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (١) لايعارض قوله تعالى - : ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ (٢)

فالله سبحانه وتعالى - قد سخر الريح لسليمان تارة رخاء وتارة عاصفة على

---

(١) سورة ص ٣٦

(٢) الأنبياء ٨١

حسب مايريد ، فإن أرادها لينة جاءت لينة ، وان أرادها سريعة شديدة الهبوب جاءت كذلك . .

وإذا كان سليمان ـ عليه السلام ـ نفسه مسخرا فى تنفيذ إرادة الله ومشيئته ونشر دينه وإقرار أحكامه فأنه بلا شك سوف يستخدم تلك الريح فى تحقيق الهدف الذى من أجله جعلها الله مسخرة له . .

وقد تكون كلمة « عاصفة » جاءت فى سياق الاتجاه إلى الأرض المقدسة التى بارك الله فيها ، للاشعار بشدة شوق سليمان إليها وهذا الشوق يستدعى السرعة فى الوصول إليها ، وهذه السرعة تحققها الريح العاصفة لا الرخاء .

تسخير الجن لسليمان

أخبرنا الله ـ تعالى ـ فى كتابه الكريم بأنه سخر الجن لسليمان ، وجعلهم جنودا له . قال ـ تعالى ـ : وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١)

وقال : وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ (٢)

وقال : وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (٣)

---

(١) سورة النمل آية ١٧
(٢) سبأ ١٢ ـ ١٣
(٣) ص ٣٧

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن الجن كانت مسخرة لسليمان ـ عليه السلام ـ تعمل بين يديه بإذن ربه ، فلم تكن الجن لتعصى له أمرا ، ومن عصاه منهم ورفض أذاقه الله عذاب السعير .

ذكر الرواة أن الله وكل بالجن ملكا بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة محرقة .

وكانت الجن تعمل كل مايطلبه سليمان ـ عليه السلام ـ منها :

فكانت تبنى له المبانى الضخمة ، والقصور العالية .

وكانت تصور له التماثيل من النحاس والزجاج والرخام ، وكان صنع التماثيل جائزا فى عهد سليمان .

وقد قيل : إن هذه التماثيل كانت صورا للأنبياء والملائكة والعلماء والصالحين ، وكانت توضع فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا .

وقيل : إنها تماثيل أشياء ليست من الحيوان ، وقد استدل البعض بذلك على أن التصوير كان مباحا فى شرع سليمان ـ عليه السلام ـ وقد نسخ ذلك بشرع سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانما حرم الاسلام ذلك للوثنية التى كانت منتشرة ، ولأن الناس كانوا يصنعون الأصنام ـ وهى تماثيل ـ بأيديهم ثم يسجدون لها من دون الله .

وكان الجن يصنعون لسليمان الجفان الكبيرة كالجوابى .

والجفان جمع جفنة وهى القصعة التى تعد للطعام ، والجوابى جمع جابية وهى الحوض الكبير . وفى ذلك تشبيه لاتساع الجفان بالأحواض . وفيه دلالة على اليسر والسعة ، ورغد العيش ودلالة على الكرم الفائق ، الذى يحمل سليمان على إعداد الجفان الواسعة التى تكفى الضيوف الكثيرين .

قيل : كانت القصعة الواحدة يجتمع اليها ألف رجل يأكلون منها . . وكان الجن يصنعون القدور العظيمة من النحاس ، وكانت لعظمتها لاتنتقل من مكانها . ولهذا وصفت بأنها « راسيات » أى لاتتحرك .

وصنعت الجن المحاريب ، جمع محراب . وهو مكان العبادة . . أى المسجد ، وقد بنت الجن بيت المقدس ، ولذلك حديث خاص إن شاء الله ـ تعالى .

وبنت الجن لسليمان بيت الملك ، وسور أورشليم ، ومدينة تدمر ، وكثيرا من القصور العظيمة ، وغير ذلك من المخازن والمدن ، ومازالت بعض آثار تدمر باقية إلى اليوم . .

مدينـــة تدمر

تدمر مدينة فى الشمال الشرقى من دمشق بواحة فى الصحراء الكبرى ، واسمها الحالى « تدمر » ـ بضم التاء وسكون الدال وضم الميم ـ وكانت تنطق قديما بفتح التاء . وهى فى العهد القديم (تمر) بدون دال . [١] .

ويقال إن الملكة بلقيس زارت مدينة تدمر مع سليمان وأعجبت بها اعجابا شديدا [١] .

وتعرضت هذه المدينة لعدوان الفرس ثم الرومان ، ومازالت آثار رومانية وكتابات رومانية قائمة بها حتى اليوم . .

ولتدمر تاريخ مثير ، ولملكتها « زنوبيا » أخبار عجيبة تشهد بجمالها وذكائها وقوة تأثيرها على معاصريها . .

ويعتبر البعض أن « زنوبيا » هذه هى « الزباء » التى دارت حولها قصة عربية شعبية ، ورد فى خلالها كثير من الأمثال العربية المشهورة من أمثال : لأمر ماجدع قصير أنفه ـ لايطاع لقصير أمر ـ بيدى لابيد عمرو » .

وحول الرومان بعض أبنية هذه المدينة إلى هياكل لعبادة الكواكب وكتبوا عليها ماكتبوا .

وقد ذكر النابغة الذبياني تسخير الجن لسليمان في شعره إذ يقول في قصيدة يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر ويشير إلى مدينة تدمر :

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه .·. ولا أحاشي من الأقوام من أحد
الا سليمان اذ قال الاله له .·. قم في البرية فاحددها عن الفند
وخبر الجن انى قد أذنت لهم .·. يبنون تدمر بالصفاح والعمد

ولقد حملت رغبة النابغة في عفو النعمان بن المنذر وعطائه على أن شبهه بسليمان عليه السلام ومن يكون النعمان في جانب سليمان ؟ .

وأين صولة عبد كالنعمان كان كسرى فوقه ، بل عزله وسجنه ، من صولة نبي أتاه الله الملك والحكمة ودان له كل من في الأرض من انس ووحش وطير وجان ؟ ؟ .

ولكنه كذب الشعر وإفكه ، والشعراء يتبعهم الغاوون إلا من آمن منهم وعمل صالحا . .

وكانت الشياطين تغوص لسليمان البحار لتستخرج منها المعادن النفيسة والجواهر الثمينة .

قال تعالى : وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ (١)

---

(١) الأنبياء ٨١

والغوص هو النزول تحت الماء ، والغواص هو الذى يغوص فى أعماق البحار بحثا عن اللؤلؤ وغيره .

أما قوله : « وكنا لهم حافظين » فمعناه حافظين لهم من أن يهربوا أو يمتنعوا ، أو حافظين لهم من أن يفسدوا ماعملوا .

وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ماصنعته أيديهم بالنهار .

وكان بعضهم مقيدا بالأغلال ، شدهم سليمان بوثاق شدا محكما ، وهؤلاء هم مردة الشياطين المفسدون الذين تكرر بغيهم واضلالهم وفسادهم فى الأرض .
وسيأتى حديث خاص عن الجن ان شاء الله تعالى .

إسالة عين القطر

القطر ـ بكسر القاف وسكون الطاء ـ هو النحاس الذائب .

وقد تعددت نعم الله على سليمان ـ عليه السلام ـ كما علمنا ـ ومن بين تلك النعم العظيمة أن الله ـ تعالى ـ أسال له عين القطر كما قال ـ تعالى :

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ﴾ (١)

قال المفسرون : أجرى الله له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليها كجرى الماء ـ وانما يعمل الناس اليوم مما اعطى الله سليمان .

واذا كان الله قد ألان لداود الحديد يصنع منه مايشاء بقدرة الله . فقد أعطى ابنه هذه المنحة وهى سيلان النحاس له يستعمله فيما يشاء .

وكان سليمان ـ عليه السلام ـ رجل عمارة وبناء وتشييد ، وفى عهده الزاهر

---

(١) سبأ ١٢

أقيمت البنايات الضخمة والهياكل العظيمة ، وقد كان ذلك فى حاجة إلى النحاس لتوثيق المبانى وشدها وتزيينها ، فأسال الله له النحاس وكان مختلطا بصخور الأرض ، يصهر بقدرة الله تعالى ـ ويقذف من فوهة تلك العين سائلا ، فيأتى عمال سليمان ويأخذون منه مايحتاجون إليه فى عملهم وصناعتهم ..

ويقال) إن سليمان أول من صهر النحاس وأذابه ..

ولكن ذلك لايكون معجزة بالنسبة له .. بل المعجزة تتمثل فى أن يسيل له النحاس من مناجمه كالماء ..

ويصبح العثور عليه ميسورا لايحتاج الى تنقيب ، كما يصبح استعماله ميسورا لايحتاج إلى صهر ..

سليمان والنملة

ذكر أن سليمان ـ عليه السلام ـ ركب يوما فى حشد عظيم من الأنس والجن والطير ، حتى نزل أرضا براحا ، فأتى على وادى النمل . (١) ، فبصرت به نملة على بعد . فارتاعت لذلك الحشد ، وخافت على قومها أن تدوسهم جنود سليمان فتحطمهم .

فنادت النملة فى بنى جنسها : أن ادخلوا مساكنكم حتى لاتفتك بكم الجنود وخيولهم التى يقودها سليمان وتحطمكم تحطيما دون أن يشعروا بكم .

وقد سمع سليمان ـ عليه السلام ـ هذه النملة التى تحذر قومها ، وابتسم ضاحكا من قولها .. كان ضحكه تعجبا من ذكائها وحرصها على حياة قومها وبنى جنسها .. وكان ضحكه سرورا وفرحا بعظيم نعمة الله عليه الذى أسمعه صوت هذه النملة الواهن الضعيف ، وهى لاتكاد ترى .

---

(١) قال الدميرى : وادى النمل بالشام كثير النمل

وأفهمه كلامها وتحذيرها قومها ، وبمعرفة هذه النملة نبوة سليمان وملكه ، وفطنتها إلى أنه لو حطم الجنود قومها لحطموهم دون شعور أو قصد منهم .

وقد قصت آيات القرآن الكريم علينا هذه القصة فى أسلوبها المعجز فقال عز وجل : وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١)

هل كان سليمان يعرف لغة الحشرات ؟

قال بعض العلماء : إن سليمان ـ عليه السلام ـ أعطاه الله علم لغات الطير والوحش والحشرات والجن والإنس . ولذلك عرف لغة النملة وفهم حديثها .

ولكن بعض العلماء يرى أن منطوق الآيات الكريمة ﴿ وعلمنا منطق الطير ﴾ يفيد أنه لا علم له إلا بلغة الطير خاصة ، وإن الاحتجاج بالنملة غير وارد ، لأن النملة من الطير وكثيرا ماتكون لها أجنحة تطير بها .

---

(١) سورة النمل ١٧ : ١٩

فقد تبسم سليمان ضاحكا لسروره من أمر يتعلق بالدين وليس متعلقا بالدنيا .

وقد اطمأن إلى أن النملة اعتذرت عنه بقولها . ﴿ وهم لايشعرون ﴾ .

وهذا يدل على أن موكب سليمان لم يكن موكب فخرٍ أو خيلا ، بل هو سير يحرص فيه على إظهار الخشوع والتواضع لله . . والمتواضع فى سيره لايتعمد الأذى . أما المختال المزهو بقوته فإنه لايهمه مايدوس فى طريقه ، بل ربما تعمد الأذى احتقارا لشأن الذى يلقاه .

ولقد كان فى تحذير النملة لقومها مايرشدنا إلى مايجب علينا نحو أبناء ديننا من حرص على مصلحتهم وسعى فى رفعة شأنهم ودرء الأذى عنهم . . وإذا كانت النملة حريصة على أبناء جنسها وحمايتهم فأولى بنا أن نكون أكثر حرصا على قومنا وأهل ديننا ، وإن لنا فى حياة النمل بصفة خاصة مايدفعنا إلى العمل والدأب والنشاط والسعى فى سبيل الرزق والتعاون البناء والنظافة ، وانه ليروعك حين تشاهد قرية من قرى النمل ماتراه فيها من نظام تام وتوزيع للعمل على أسس صالحة سليمة فيما بين الأفراد وسرعة فى تنفيذ الأوامر ، واستجابة كاملة لحسن سير العمل .

وان رعايته لمرضاه لأمر يدعو إلى الدهشة والإعجاب والإيمان بقدرة الله الذى ألهم هذه الحشرة الصغيرة هذا الفهم العجيب والتصرف السديد .

ويضرب بالنمل المثل فى القوة ، وهذا من المفارقات العجيبة . فإن النملة على ماتراها من ضعف ظاهر فى بنيتها تقدر على حمل أضعاف جسمها ، وحكى أن

رجلا قال لبعض الملوك : جعل الله قوتك مثل قوة النمل ، فإنكر عليه قوله .

فقال الرجل : ليس من الحيوان مايحمل ماهو أكبر منه إلا النملة .

وقد ذكر أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل ملائكة فى صورة النمل يوم حنين .

جاء فى سيرة ابن هشام عن جبير بن مطعم ـ رضى الله عنه : **لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود نزل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فاذا هو نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى فلم أشك أنها الملائكة ، ولم تكن إلا هزيمة القوم .**[1] .

وقد ذكر الرواة قصة أخرى لسليمان ـ عليه السلام ـ مع النملة فقالوا :

خرج سليمان بن داود يستسقى بالناس ، فمر على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها الى السماء وهى تقول :

اللهم إنا خلق من خلقك ، ليس بنا غنى عن فضلك ، اللهم لاتؤاخذنا بذنوب عبادك الخاطئين واسقنا مطرا ، تنبت لنا به شجرا ، وتطعمنا به ثمرا .

فقال سليمان : للناس : ارجعوا فقد كفيتم وسقيتم بدعوة غيركم[1] .

فلم تلبث السماء أن أمطرت مدرارا .

إن تسمية السورة التى وردت فيها هذه القصة باسم النمل ليدل على ماتبطنه هذه القصة من دلائل وعظات يجدر بالمسلمين تأملها ، والاهتداء بما فيها إلى مايفيدهم فى أمور دينهم ودنياهم . .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤

قال الدميرى : رأيت فى بعض الكتب أن تلك النملة التى خاطبت سليمان إنما أمرت رعيتها بالدخول فى مساكنها لئلا ترى النعم التى أوتيها سليمان وجنوده فتقع فى كفران نعمة الله عليها .

ويروى أن سليمان قال لها : لم قلت للنمل ادخلوا مساكنكم أخفت عليها منى ظلما ؟ .

قالت : لا ، ولكنى خشيت أن يفتنوا بما يرون من جمالك وزينتك فيشغلهم ذلك عن طاعة الله (١).

وقد تكون هذه المحادثة رمزية ، ولكنها ذات دلالة على الرضا بما فيه الانسان من حال ، والنهى عن التطلع الى مايشغل الذهن عن عبادة الله ، ولايخفى مافى القناعة من خير وما فى الزهد من فائدة ، وقد قال الحكماء :

حب الدنيا رأس كل خطيئة .

ويقال إن سليمان قال للنملة : عظينى

فقالت له : أما علمت لم سمى أبوك داود ؟ قال : لا

قالت : لأنه داوى جراحة الفؤاد ، وهل علمت لم سميت سليمان ؟

قال : لا . قالت : لأنك سليم النية على ما أوتيته بسلامة صدرك . وحق لك أن تلحق بأبيك ثم قالت : أتدرى لم سخر الله لك الريح ؟ .

قال : لا . قالت : لتعلم أن الدنيا كلها ريح . فتبسم ضاحكا من قولها (٢)

---

(١) حياة الحيوان جـ٢ ص ٦٤٤

(٢) تفسير القرطبى ، سورة النمل ص ٤٨٨٧

سليمان وبلقيس

ذكر بعض العلماء أن سليمان ـ عليه السلام ـ بعد أن فرغ من بناء بيت المقدس اتجهت همته إلى زيارة البيت الحرام ، وكان الأنبياء قديما يحجون إليه . فأعد موكبه الذى يسير فيه ، وذهب إلى مكة .

فأقام ماشاء الله له أن يقيم ، ونحر حول الحرم وأطعم الناس ، ويروى أنه قال لمن حضره من أشراف قومه : هذا مكان يخرج منه نبى عربى من صفته كذا

وكذا ، يعطى النصر على من ناوأه وتبلغ هيبته مسيرة شهر ، القريب والبعيد عنده فى الحق سواء ، لاتأخذه فى الله لومة لائم .

فقيل له : بأى دين يدين يانبى الله ؟

قال : يدين بالحنيفية ، وطوبى لمن أدركه وآمن به . .

قالوا : فكم بيننا وبين خروجه يانبى الله ؟

قال : مقدار ألف عام ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب فانه سيد الأنبياء وخاتم الرسل . (١)

ورحل سليمان فى طريقه إلى اليمن . .

خرج من مكة صباحا . . فوافى صنعاء وقت الزوال . فرأى أرضا حسناء تزهو خضرتها ، فأحب النزول فيها . .

فلما نزل قال الهدهد : إن سليمان قد انشغل بالتزول ، فارتفع نحو السماء ، فنظر فاذا بقصر بلقيس حوله حديقة نضرة فمال إليها .

واستطلع أخبار القصر فرأى مالم يره ، وعلم مالم يعلمه . .

ولعل الله ساق إليه هدهدا من بني جنسه أنس إليه فأطلعه على أخبار هذا القصر ، وربما دارت بينهما محاورة طريفة وقف كل منهما على ماعند صاحبه من الأخبار .

ولايهمنا البادىء منهما بالحوار الذى يهدينا إلى تتبع قصة سليمان وبلقيس . ولكنا نفترض أن هدهد اليمن ـ هو الذى بدأ الحديث ـ فهذا مايقتضيه العرف .

قال الهدهد اليمنى : من أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ .

قال هدهد سليمان : أقبلت من الشام مع صاحبى سليمان بن داود عليهما السلام ـ فقال الهدهد اليمنى : ومن سليمان ؟ .

فقال : إنه نبى الله ومالك الجن والانس والطير والوحش والريح . وظل يتحدث عن عظمة سليمان واتساع ملكه . حتى أذهل ذلك الحديث الهدهد اليمنى .

والتقط الهدهد اليمنى الحديث فأخذ يتحدث عن بلقيس وملْكها ، وأنها ملكة ذكية قوية يدين لها قومها بالطاعة ، ويأتمرون بأمرها وأن تحت يدها قوادا مخلصين وتحت كل قائد جنودا أقوياء ، فهلم معى لتنظر إلى مُلْكِها .

فقال هدهد سليمان : إن حديثك شائق ولكنى أخاف أن يتفقدنى سليمان فلا يجدنى فيعاقبنى .

فقال الهدهد اليمنى : إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة .

واستجاب هدهد سليمان لاغراء الهدهد اليمنى ، وسار معه وشاهد من ملك بلقيس ما أطلع عليه سليمان عنده عودته . .

وكان سليمان فى نزوله حول صنعاء قد نزل على غير ماء ، فسأل من له خبرة بمكان الماء فلم يجد أحدا ، فقال : أين الهدهد ؟ ومن خصائص الهدهد أنه يبصر مكان الماء تحت الأرض . .

فلم يعرف أحد مكان الهدهد . .

فغضب سليمان وتهدد الهدهد قائلا : لأعذبنه عذابا شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين .

وجاء الهدهد ، وأخبره الطير أن سليمان قد توعده ، فقال : أو ما استثنى نبى الله ؟

قالوا : بلى إنه قال أو ليأتينى بسلطان مبين .

فقال الهدهد : لقد نجوت إذن .

وتقدم الهدهد فى خضوع إلى مجلس سليمان ـ عليه السلام ـ أرخى ذنبه وجناحيه وأخذ يجرهما على الأرض تواضعا .

وقبض عليه سليمان وجره اليه . فقال الهدهد : يانبى الله ، اذكر وقوفك بين يدى الله ـ عز وجل ـ فارتعد سليمان خوفا وعفا عنه . ثم سأله عن سبب غيبته فقال له :

لقد جئتك من سبأ بنبأ يقين . . وقص عليه مارآه من شأن هذه الملكة التى يأتمر بأمرها هؤلاء القواد وكيف أنها تتحكم فيهم كما تشاء ، وأن الذى هاله من أمرها

أنها كافرة تعبد الشمس ولاتعبد الله . . وهذا الجزء من القصة تعرضه علينا هذه الآيات :

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ
بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى
يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ سجدة ث (١)

أهمية الهدهد لسليمان

كان الهدهد ـ فيما يحكى الرواة ـ يعرف مكان المياه فى عمق الأرض ، وإذا احتاج سليمان إلى الماء فى سفره . كان الهدهد يدله على مكان الماء وهذا لاتعرفه الجن ، وكانت الجن تستخرجه بعد أن يخبر الهدهد بمكانه .

روى أن نافع الأزرق سمع ابن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له : قف

(١) النمل ١٧

ياوقاف . كيف يرى الهدهد الماء فى باطن الأرض وهو لايرى الفخ حين يقع فيه ؟ .

فقال له ابن عباس : أما تعلم أنه اذا جاء القدر عمى البصر ؟

أما التهديد بتعذيب الهدهد الذى ورد على لسان سليمان ، فقد سئل عنه . .
قيل له : ما العذاب الشديد الذى أعددته للهدهد ؟ .

فأجاب ـ على رواية بعضهم ـ : أجعله بين أضداده ـ وهذا أشد العذاب ـ وماتعذب أحد عذاب من وضع بين قوم لايعرفون قدره .

وروى بعضهم أنه قال : ألزمه خدمة أقرانه .
وفى ذلك حط من شأنه وضياع لقدره .

وروى بعضهم أنه قال : أفرق بينه وبين إلفه ، وهذا أقصى أنواع العذاب .

أما قول الهدهد : أحطت بما لم تحط به . ففيه إشارة إلى عدم احتقار الضعيف ، فقد يقدر على مالايقدر عليه القوى .

وقوله : إنى وجدت امرأة تملكهم . . فيه إخبار عن أمارات دهشة الهدهد وتعجبه . فإنه لم ير قبل ذلك امرأة يُملِّكُهَا قوم عليهم .

وكأن الهدهد قد تعجب لذلك ، فقدم المرأة على الفعل ونكرها ، ولم يذكر اسمها ولم يتحدث عن مميزاتها ، ولكنه نظر إلى أنها امرأة من جنس النساء ، وهذا فى نظره سبب كاف لأن يأنف قومها من تمليكها عليهم .

ومن الطرائف فى ذلك أن محاورة جرت بين يمنى وقرشى ـ فقال القرشى لليمنى :

ما أحمق قومك إذ ملكوا عليهم امرأة .

فقال اليمنى : أحمق من قومى من جاءهم نبى يهديهم فقالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

هلا قالوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه ؟

فحج اليمنى القرشى .

والمُلك قرين القضاء والمرأة لاتصلح للقضاء ، لغلبة عاطفتها وجيشان شعورها وعدم قدرتها على التحكم فى مشاعرها . .

ولكن هناك أعمالا جليلة لاتقل أهمية عن القضاء والحكم برزت فيها المرأة وأثبتت كفاءة عالية فى توليها ، فحسْبها ذلك .

ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سمع أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة . .

وقد اعتبر الفقهاء هذا النص أصلا فى عدم تولى المرأة الحكم .

لأن الغرض من الحكم حفظ الثغور ، وتدبير الأمور ، وحماية البيضة والحفاظ على أرض الوطن ، وقبض الخراج ورده على مستحقيه ، وذلك لايتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل .

واستشهد القرطبى فى عدم جواز ذلك بكلام ابن العربى : ان المرأة لايتأتى منها أن تبرز الى المجلس ولاتخالط الرجال ، ولاتفاوضهم مفاوضة النظير للنظير ،

إنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها ، وإن كانت برزة [1] لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم ، وتكون مناظرة لهم .

بلقيس فى حضرة سليمان

وأثار حديث الهدهد اهتمام سليمان . ولكنه لحكمته لم يتسرع فى إصدار أوامره بتقويض هذا الملك القائم على الشرك . .

ولكنه أراد أن يتثبت من حقيقة ماسمع . وهذا هو أدب النبوة العالى ونور الحكمة وحسن سياسة الملك ، فقال للهدهد : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . .

وكلفه حمل رسالة إلى هذه الملكة . . بدأها بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم . . وفى هذا البدء تنبيه للأذهان إلى حقيقة الاله الذى يجب أن يفرده الناس بالعبادة دون غيره ، وبيان لأخص صفاته وهى الرحمة . .

ثم دعاهم فى رسالته إلى الاسلام والاستسلام . .

وكانت بلقيس امرأة ذكية عاقلة حكيمة . .

قيل إن أحد أبويها كان جنيا . وروى وهيب بن جرير بن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم بلقيس من الجن يقال لها بلقمة بنت شيصان . وقيل : غير ذلك فى اسمها وقد اختلفت الأقاويل حول بلقيس وأصلها ونسبها . .

ومن ذلك ما أوردته صاحبة كتاب الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور ، التى قالت : هى بلقمة بنت يشرع بن الحارث بن قيس بين صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وقيل إن اسمها بلقيس وهى ابنة السرح بن الهدهد بن شراحيل بن أدد وينتهى نسبها إلى يعرب بن قحطان

وأمها جنية ابنة ملك الجن واسمها رواحة أو ريحانة بنت السكن .

وقيل : بلقمة بنت عمرو بن عمير الجنى . .

أما كيف اتصل أبوها بالجن فلذلك قصة . .

كان أبوها ملكا عظيم الشأن ، لم ير بين ملوك الأرض فى عصره نظيرا له ليصاهره ، فأضرب عن الزواج .

وكان يخرج إلى الصيد ، وكانت الجن تتعرض له فى صورة ظباء فيصطادها ثم يخلى سبيلها . فظهر له ملك الجن ، وشكره لصنيعه ، فاغتنمها فرصة وخطب إليه ابنته فأجابه . .



وهناك قصة أخرى فى سبب ذلك :

قيل : إنه خرج مرة فوجد حيتين تقتتلان إحداهما سوداء والأخرى بيضاء

فظفرت السوداء بالبيضاء ، فأمر بقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها ماء حتى أفاقت ، فأطلقها ، وعاد إلى داره فجلس منفردا ، واذا بجانبه رجل جميل فذعر منه .

فقال له الرجل : لاتخف أنا الحية التى أنقذتها ، وإنى مكافئك بالمال أو علم الطب .

فقال الملك : أما المال فلا حاجة لى به ، وأما الطب فقبيح بالملوك ، ولكنى أقترح عليك إن كان لك ابنة أن تزوجنى إياها .

فأجابه الرجل بأنه موافق بشرط ألا يغير عليها شيئا تعمله ، فاذا غير عليها شيئا فارقته . .

ثم تزوج من الجنية ، فولدت غلاما فألقته فى النار ، فجزع لذلك جزعا شديدا ، ولكنه سكت وفاء للشرط الذي اشترطه على نفسه .

ثم ولدت جارية فألقتها إلى كلبه .

فعظم على الملك ذلك أيضا ، ولكنه صبر مرغما وفاء للشرط .

وحدث أن ثار عليه بعض أتباعه فجمع عسكره وسار ليقاتلهم وكانت زوجته الجنية معاه ، فلما صاروا فى مفازة رأى الجنود الذين معه أنَّ زادهم قد خلط بالتراب ، وأن ماءهم انصب من أفواه القرب . فأيقنوا بالهلاك . وعلم الملك أن ذلك من فعل الجن بأمر زوجته .

وهنا نفد صبره ، وثار عليها ، وعلم أنها تريد إذلاله .

فقال لها : صبرت على إحْراق ابنى ، وإطعام ابنتى للكلب . ثم الآن فجعتنا بالزاد والماء حتى أشرفنا على الهلاك .

فقالت له : لو صبرت لكان خيرا لك . فإن عدوك قد خدع وزيرك واتفقوا معه على خيانتك فجعل السم فى الزاد والماء ، وتحقق ذلك أنك إذا أمرته بالشرب من الماء أو الأكل من الطعام فإنه سوف يمتنع .

فأمر الملك وزيره بالشرب من الماء فرفض ، فقتله .

ثم دلته على نبع ماء صاف ، وميرة يمتارها . وقالت له : أما ابنك الذى

ظننت أنى ألقيته فى النار فقد سلمته إلى حاضنته تربيه ، وقد مات ، وأما ابنتك التى رأيتنى أُلقِيها للكلب فهى حية باقية ، وجاءت إليه بها فاذا هى فتاة جميلة .. وهى بلقيس ..

وتركته هذه الزوجة ولم تعد اليه ..

ثم سار الملك إلى عدوه فظفر به .. ثم فوض إلى ابنته بلقيس أمر المُلك ، فملكت بعده ..

وقيل : إن الملك مات بلا وصية فاختلف الناس بعد موته ، وافترقوا فرقتين ، بايعت إحدهما بلقيس وبايعت الأخرى ابن عم لها ، فأساء السيرة فى الرعية ،

وكان فاحشا خبيثا فاجرا يظلم الناس ، فاحتالت عليه بلقيس وخطبته إلى نفسها ، وفى ليلة الزفاف سقته الخمر حتى سكر ، فحزت رأسه بالسيف وعلقته على باب القصر .

فأعجب الناس بحليتها وارتضاها الجميع ملكة عليهم .

وعظم أمرها واتسع ملكها ، وبالغوا فى وصف ذلك مبالغة شديدة .. ولكن القرآن أشار إلى ذلك الملك فى إيجاز حين قال : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾

وفى شرح هذا الايجاز يمكن تصديق أى قول يفيض فيه الرواة ..

وصف العرش

قيل : إنه كان سريرا ضخما من ذهب وفضة ، مرصعا بالجواهر النفيسة ..

---

(١) سورة النمل آيه ٢٣

ولعظمه كانت تحرص على المحافظة عليه حرصا شديداً فقد جعلته فى جوف سبعة بيوت عليها سبعة أبواب .. وهو فى آخرها .. وفى مواجهته كوة تدخل منها الشمس أول ماتشرق فتسجد لها .

وقيل : إنها أنفقت فى صنعها ثلاثمائة ألف أوقية من الذهب ..

المبالغة فى هذه الأوصاف

وقد جرت عادة أهل الاخبار أن يبالغوا فى وصف مالم يرد فيه نص صريح ، ويلعب خيالهم دورا كبيرا فى الاضافة والابتكار ، حتى قال ابن الأثير : لقد تواطئوا على الكذب والتلاعب بعقول الجهال حتى يصدقوا المحال ، لأن أوصاف عرشها وعدد جيوشها الذى ذكره الرواة من الأمور التى لايمكن تصديقها [1] .



ذكاء بلقيس

كانت بلقيس ذات فطنة ودهاء وحكمة .. ومن حكمتها أنها كانت لاتستبد برأيها ، فحين ألقى الهدهد كتاب سليمان من الكوة التى تدخل منها الشمس ، وتوارى حتى لاتراه .. نظرت إلى الكتاب فوجدته مختوما ، فحكمت عليه بأنه كتاب كريم ، فقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم : ﴿ كرم الكتاب ختمه ﴾

ثم جمعت قوادها لتخبرهم بهذا الأمر العجيب الغريب .

ثم أخبرتهم بأنها تلقت كتابا كريما لاتعرف مصدره وإنما ألقى اليها دون أن ترى حامله وقد وصل اليها الكتاب فى أعمق مجلس من مجالسها . حيث لا يجرؤ أحد أن يدخل إليها إلا بأذن ..

قال الزمخشرى : وجدها الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب ، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها ، فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية . .

وقيل : نقرها فانتبهت فزعة . .

وقيل : أتاها والقادة والجنود حولها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها .

وكانت قارئة عربية من نسل تبع

وقرأت الكتاب على قومها فاذا فيه ـ على ماذكره الزمخشرى ـ عن ابن عباس ـ

رضى الله عنهما : بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ ، السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلو علىَّ وائتونى مسلمين .

وكانت كتب الأنبياء جملا موجزة لايطيلون ولايكثرون

وطلبت بلقيس رأى قوادها ، ففوضوا الأمر إليها مع إخبارها بأنهم أهل قوة ، وهم رهن إشارتها . .

ولكنها حين أحست ميلهم إلى الحرب ، رأت أن الميل إلى المسالمة أصلح ، وأرادت اختبار قدرة صاحب الرسالة ومدى إمكانياته وحقيقة حاله فقد يكون من

الاقتدار ـ وهذا مايفهم من أسلوب رسالته وطريقة إرسالها بحيث اذا دخل مملكتهم حطمها وأذلها . .

ولاسبيل إلى سبر قوته إلا بالهدايا فالهدية هى التى تفتح المغاليق وتكشف الأسرار . .

واجتمع الرأى على ذلك ، فبعثت بغلمان فى زى الجوارى ، وجوار فى زى غلمان ? وألف لبنة من ذهب وتاج مكلل بالدر والياقوت ، وحق فيه درة عذراء - غير مثقوبة وجزعة - خرزة - معوجة الثقب وبعثت برجلين من أشراف قومها بهذه الهدية . . إحدهما المنذر بن عمرو ، والآخر رجل ذو رأى وعقل . . وقالت لهما :

إن كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى ، وثقب الدرة ثقبا متساويا ، ونظم فى الخرزة ذات الثقب المعوج خيطا .

ثم قالت للمنذر : إن نظر اليك نظر غضبان فهو ملك ، فلا يهولنك وإن رأيته بشا لطيفا فهو نبى . .



الهدهد يخبر سليمان

وعاد الهدهد إلى سليمان وقد شهد ما رآة وأجمعوا عليه ، فأخبره ، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة ، وفرشوا اللبن فى ميدان واسع ، وجعلوا حول الميدان حائطا له شرفة من ذهب وشرفة من فضة . وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن .

وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار .

وجلس سليمان على كرسيه وبين يديه الإنس والجن والوحش والسباع والطيور تظلهم .

فلما دنا الركب اليمنى من ميدان سليمان ، وجدوا اللبن من الذهب والفضة تروث عليه الحيوانات ، فاحتقروا مامعهم وألقوه .

ولما وقفا بين يديه نظر اليهم بوجه طلق مبتسم ، وهش لهم ورحب بهم .. فازدادوا له هيبة .. ثم قال لهم : ماوراءكم ؟ .

فألجمتهم المفاجأة وجلال المنظر عن الجواب ,

ثم قال : أين الحُقُّ الذي معكم ؟ ـ وكان جبريل ـ عليه السلام ـ قد أخبره بما فيه ـ وفتح الحق ، وتناول الدرةغير المثقوبة ، وأمر الأرضة أن تثقبها فأخذت شعرة ونفذت فيها .

وأمر دودة أن تأخذ بفيها خيطا لتنظم فيه الجزعة ذات الثقب المعوج .

ودعا بماء ، ووضعه أمام الجوارى والغلمان . فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الأخرى ثم تضرب به وجهها .

وكان الغلام يأخذ الماء فيضرب به وجهه مباشرة .

وبذلك فرق بين الغلمان والجوارى .

ثم رد الهدية وقال لرسل بلقيس : لاحاجة لنا بهديتكم ثم لوح لهم بالحرب التى لن يستطيعوا أن يواجهوها .. وهذه الأحداث التى ذكرناها أشارت إليها الآيات الكريمة الاتية :

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم
بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ
أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا
وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ (١)

لقد ظهر ملك سليمان رائعا فى هذا الاستقبال الذى أعده لرسل بلقيس ، وقد أذهلهم هذا المنظر الرائع للغنى والقوة ، وحكموا بأنه ملك لايغلب وذو سلطان لايقهر ، وصاحب ثروة لاتنافس . وفوق ذلك فهو نبى من أنبياء الله .

ومن ذا الذى يستطيع أن يطاول نبيا ملكا خضعت له الإنس والجن والطير والوحش ودانت له الريح ، وأعلمه الله الغيب ؟ .

---

(١) سورة النمل ٢٧ : ٣٧

عرش بلقيس فى حضرة سليمان

وعاد الرسل إلى ملكتهم مرتاعين مشدوهين ، وأخبروها بجلال ما رأوا وجمال ماشاهدوا . . وحين سمعت مقالتهم قالت : إن هذا نبى أعطاه الله ملكا ، فلا قبل لنا بمحاربته . وصممت على إجابة دعوته والمثول بين يديه .

فشخصت إليه فى موكب مهيب وجيش كثيف .

قال العلماء : وكانت الجن تعلم أن بلقيس متى جاءت إلى سليمان أسلمت بين

يديه ، وراقت فى نظره فتزوجها ، وهى قد تربت عندهم وعرفت أسرارهم ولاشك فى أنها ستخبر سليمان بذلك فيضاعف من تسخيره لهم وإحكام قبضته عليهم . .

. . فأرادوا أن يشوهوا من منظرها ويحقروا من شأنها حتى تهون فى نظره ويزهد فيها ، فقالوا له : إن هذه المرأة التى ستفد إليك ليست عاقلة ، وإن رجليها كحافر الفرس . .

فأراد سليمان أن يختبر ذكاءها فأمر بنقل عرشها قبل أن تجىء ، ونكره . .

قال لمن حوله : أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ .

فأجاب عفريت اسمه ذكوان ، أو كوذا ، أو صخر ـ على اختلاف فى الروايات ـ قائلا :

أنا آتيك به قبل أن ينفض مجلسك ، وإنى لقادر على ذلك ، وأمين محافظ عليه . .

ولكن رجلا من أهل العلم ـ اسمه آصف بن برخيا ـ قال : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

لقد كان هذا أقدر من العفريت وأقوى . أعطاه الله من القوة والقدرة بحيث يتمكن من فعل الأعاجيب وذلك لأنه كان حسن الاستجابة لله سريع الانقياد له ، فاذا أطاع العبد ربه حق طاعته وهبه من القدرة مايجعله قادرا على فعل المعجزات .

ونظر سليمان فاذا بالعرش أمامه . .

فسجد لله شاكرا ، وقال : هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم .

وقال سليمان لمن حوله : نكروا لها العرش لنعرف قدر ذكائها وهل تستطيع أن تميز بين عرشها وبين غيره أم لا ؟ .

فغيروا منه بعض الشيء . .

وجاءت بلقيس فى موكبها ، وأحسن سليمان استقبالها . . وصحبها فى جولة فى أبهاء قصورة ، حتى اطلعها على القاعة التى وضع فيها عرشها . . وقال لها : انظرى إلى هذا العرش أهو عرشك ؟قالت : كأنه هو . .

ولو كانت امرأة ساذجة غير حكيمة لأسرعت على الفور قائلة : إنه ليس عرشها . .

فأين عرشها الذى أغلقت خلفه الحصون والأبواب من هذا المكان ؟ .

ثم إن به تغييرات زادت منه ونقصت منه مما أذهب التطابق التام بين هذا

العرش وعرشها . فلو قالت : هو كذبت ، ولو قالت ليس هو كذبت أيضا . .
ولذا قالت : كأنه هو . .

إنها إجابة ذكية تدل على حنكة سياسية وبعد نظر . .

وأدرك سليمان على الفور كذب ما أخبره به الجن بشأن عقلها ونقص تفكيرها ، وحمقها .

وبقى الأمر الآخر الذى يريد أن يتثبت منه ، وهو رؤية ساقيها .
كان قد أمر الجن ببناء صرح من قوارير ، وأجرى تحته الماء ، وجعل فى الماء حيوانات البحر التى أخذت تسبح فيه ، وجلس هو فى صدر هذا القصر . .

وأقبلت بلقيس فى فتنتها الطاغية وجمالها الأخاذ تحيط بها هالة من جلال الملك وروعة السلطان . .

ونظرت أمامها فاذا بماء يجرى ، وأسماك تسبح فيه ذات منظر بديع ، وسليمان يشير إليها أن تتقدم إلى الأمام . .

فانقادت لأمره طائعة ، ورفعت ثوبها لتخوض الماء ، فظهر لها ساقان كأنهما منحوتان من عاج ، لاعيب فيهما سوى شعر أهملته فبدا وظهر .

ونظر سليمان إلى الجن نظرة تأنيب وتوبيخ . .
ثم ارتد نظره إلى بلقيس فطمأنها بأن ما أمامها ليس ماء ولكنه صرح ممرد من زجاج صاف . .

وأدركت بدهاء المرأة والذكاء اللماح الذى وهبته السر من وراء تكلف سليمان ذلك . . وعرفت أن قوة سليمان ليست قوة مَلِك أتاه الله سلطانا يخضع البشر

فحسب ، ولكنها قوة نبى أتاه الله الحكمة وألهمه الصواب فأقرت بعجزها أمامه ، وقالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين . .

واختلف العلماء حول تزوج سليمان من بلقيس ، فقال بعضهم إنه تزوجها وأولدها غلاما سماه داود مات صغيرا وقال بعضهم إنه زوجها رجلا من أهلها . .

أما الذين قالوا إنه تزوجها فقد أضافوا إلى ذلك أنه احتال لازالة ماعلى ساقيها من شعر ، فصنعت له الجن دواء مركبا يزال به الشعر ، فاستعملته فأصبحت ساقاها كالفضة البيضاء وأما الذين قالوا إنه لم يتزوجها فقد أضافوا إلى ذلك أن سليمان قال لها : مادمت قد أسلمت فلابد أن تتزوجى لأن هذا من سنة الاسلام .

فأختارت ملكا من أحفاد تُبّع فزوجه منها ، وأمر الجن أن تكون فى طاعته ، فاستعان بهم فى بناء عدة قصور فى اليمن مازالت آثار بعضها باقية إلى الآن مثل قصر غمدان .

وربما كانت الرواية التى تقول إن سليمان قد تزوجها أرجح . فقد ذكر الرواة أن سليمان بنى مدينة تدمر ، وبها قصر كان لبلقيس ملكة سبأ ، وأنها ماتت قبل سليمان ، ودفنها فى تدمر ولكنه أخفى قبرها . .

وفى نقل العرش وإتيان الملكة وبناء الصرح يقول القرآن الكريم :

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ

---

(١) سورة النمل ـ ٣٨

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا
عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن
شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ
﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا
ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن
دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي
ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ
صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ
مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ . (١)

---

(١) سورة النمل آية ٣٨ ـ ٤٤

لقد أدرك سليمان بفطنته وإلهام النبوة الصادق أن بلقيس ستأتى مسلمة ، فقد كان للأحداث الماضية من إلقاء الهدهد الخطاب بالصورة التى ألقى بها ، ومن قوة أسلوب الخطاب وحكمته وختمه ، ومن رد الرسل بهداياهم بعد أن أذهلهم بمعرفته وكشف عن قوته وسلطته أدرك أنه سيكون لكل ذلك أثره فى نفس بلقيس فاستأنست للإسلام وجاءت مقرة به . .

ولذلك يرى بعض العلماء أن قوله تعالى ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (١) وردت على لسان بلقيس . .

فكأنها قالت حين رأت العرش منكرا ثم أدركت أنه عرشها ونقله سليمان بحكمته : قد أوتينا العلم بنبوتك من قبل هذه العلامة وأسلمنا .

ولكن بعض العلماء يقول إن هذه العبارة وردت على لسان سليمان ـ عليه السلام ـ وأراد أن يقول : أوتينا العلم باسلامك ومجيئك طائعة قبل أن تحضرى(١) .

أما الإتيان بالعرش فلم يكن له هدف عند سليمان إلا أن يريها القدرة التى هى من عند الله وعظم سلطانه فى معجزة يأتى بها فى عرشها (٢) .

وهو ماتطمئن اليه النفس من بين الأقوال التى يرويها الرواة من أن سليمان أعجبه وصف الهدهد للعرش فأراد الاستيلاء عليه قبل أن تعلن إسلامها ، لأنها لو أسلمت حرم عليه مالها . .

نقول إن ذلك يعد طعنا فى مقام النبوة السامى ، وما كان عليه سليمان من ملك عظيم لاينبغى لأحد من بعده ، وكان له من القوة التى سخرها الله له

---

(١) النمل ٤٢ .

مايجعله قادرا على أن يبنى مثل هذا العرش الذى صنعته أيد بشرية . . بل إن فى مقدوره تسخير الجن فى صنع ماهو أفضل منه ، وقد صنع فعلا ماهو أعظم منه .

أما نسبة الاتيان بالعرش إلى الذى عنده علم من الكتاب ففيها إعلاء من شأن العلم وقدرته وقيمته ، والحث على طلبه وتعلمه والتخصص فيه والغوص لمعرفة أسراره ومراميه . فقد ظهر من سياق الآيات أن قدرة العلم فاقت قدرة الجن ، وأن سرعة (آصف بن برخيا) كانت أعظم بكثير من سرعة العفريت الذى تطوع للاتيان بالعرش وأيا ما كان نوع العلم الذى أوتيه (آصف) أو غيره - على اختلاف الأقوال فى ذلك - فإن الدلالة باقية على أهمية البحث العلمى والتعمق فيه وبلوغ ماخفى منه ، وهذا يفتح الطريق أمام العلماء للنبوغ والتخصص والابتكار وعدم القناعة بما وصلوا اليه من مخترعات ، وربما أشارت قدرة العلم على نقل العرش - وهو شيء مادى نقل من مكان الى مكان فى سرعة خاطفة إلى أن العلم عند البشر قد يتجاوز كل مايتخيله العقل وذلك اذا أراد الله ذلك وقدره . وقد دلت الآثار الباقية من العصور الغابرة على أن الاقدمين كانوا على حظ وافر من العلم الذى وهبه الله لهم ماتزال عبقرية العصور الحاضرة عاجزة عنها .

سلميان والجياد

ذكر القرآن الكريم قصة سليمان - عليه السلام - مع الصافنات الجياد فى قوله - تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١)

---

(١) سورة ص آيه ٣١ : ٣٣

وقد جاءت هذه الآيات بعد قوله ـ : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١)

ومعنى أواب أى كثير الرجوع الى الله بالتوبة والاستغفار والتسبيح . وهو وصف ينطبق على سليمان كما ينطبق على داود . . فالمدح هنا محتمل لكليهما . .

وفى صرف المدح لسليمان ـ وهو جدير به ـ جاءت قصة الجياد تأكيدا له . . أما هذه القصة فهى كما أشارت إليها كتب أهل التفسير قالوا :

غزا سليمان ـ عليه السلام ـ وكان كثير الغزو فى سبيل الله ـ أهل دمشق وأهل نصيبين ، وأصاب فى غزوه ألف فرس .

وقيل : بل أصابها أبوه داود وقد ورثها سليمان .

وقيل : بل هى خيول عجيبة ذات أجنحة خرجت من البحر لسليمان .

واسترعت هذه الخيول ـ على ماقيل فيها ـ اهتمامه ، فجلس يوما على كرسيه بعد صلاة الظهر يستعرضها وشغل بها حتى غربت الشمس ، وفاتته صلاة العصر .

وحين رأى الشمس قد غربت وأدرك أن صلاة العصر قد فاتته داخله غم شديد لذلك ، وأمر برد الخيول وعقرها تقربا لله تعالى .

ولم يبق منها سوى مائة فرس هى التى حفظت النتاج المتبقى فى أيدى الناس إلى اليوم .

---

(١) سورة ص آية ٣

وقيل : إنه حين عقرها فى مرضاة الله أبدله الله خيرا منها وهى الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . .

إن انصراف النفس عن الشيء ابتغاء وجه الله يقابله من الله تعويض سخى وعطاء سنى . روى الأمام أحمد قال : حدثنا إسماعيل ، قال : حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال البدوى : أخذ بيدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعل يعلمنى مما علمه الله ـ عز وجل ـ فكان من كلامه : إنك لاتدع شيئا اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيرا منه

وفى تعليل نحر الجياد غير أنها شغلته عن ذكر الله قال الثعلبى : إنه كانت بالناس مجاعة ولحوم الخيل لهم حلال ، فقد عقرها لتؤكل على وجه القربة لله بها كالهدى عندنا

فكأن سليمان انتهز الفرصة لفعل مزيد من الخير . . شغلته الخيل عن الصلاة فأباح لحومها لله . .

ولذلك نظير فى الاسلام . جاء فى الموطأ عن عبدالله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ كان يصلى فى حائط بستان له فطار دبسي ـ نوع من الطيور يشبه الحمام ـ فأعجبه ، وهو طائر فى الشجر يلتمس مخرجا ، فأتبعه بصره ساعة وهو فى صلاته فلم يدر كم صلى ، فذكر ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ندم على ما أصابه من الفتنة . ثم قال : يارسول الله ، هو أى البستان صدقة فضعه حيث شئت .

وحدث نظير ذلك فى زمن عثمان من رجل أنصارى ، فجاء لعثمان وقال له : لقد أصابتنى فى مالى هذا فتنة فهو صدقة فاجعله فى سبيل الخير . فباعه عثمان بخمسين ألفا . .

وكان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ لايعجبه شيء من ماله إلا خرج عنه لله تعالى . .

قال حجة الاسلام الغزالى : كانوا يفعلون ذلك قطعا لمادة الفكر ، وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء القاطع ولايغنى غيره [1] .

وعلى هذا التفسير فإن الضمير فى (ردوها على) يعود على الخيل . أمر سائسيها بذلك . والمسح المقصود به الذبح بالسيف .

والضمير فى توارث يعود على الشمس ـ ومعنى توارت بالحجاب أى غابت .

وقال بعضهم : يعود على الخيل ، أى توارت الخيل ، وحين أمر بردها فردت أخذ يمسح أعناقها وسوقها بيده تكريما لها ، لأنها معدة للجهاد فى سبيل الله وخص هذين العضوين بالمسح لأن سبق الجياد يتم بالساق والعنق .

ويرى بعض المفسرين أن الضمير فى قوله « ردوها » يعود على الشمس . أى ردوا الشمس على لأصلى العصر . . فردها الله له تكريما له ، كما ردها من قبل ليوشع بن نون .

والذى يقول : إنه مسح سوقها وأعناقها بسيفه أى عرقبها ، يحتج لذلك بقوله تعالى على لسانه فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ (١)

والخير هى الخيل استئناسا بقوله ـ صلى الله عليه وسلم : (الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة) .

ويرى بعض العلماء أن مجىء هذه القصة بعد قوله ـ تعالى : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب » يدل على أن سليمان ـ عليه السلام ـ قد أتى أعمالا فاضلة استحق بها تزكية الله له ومدحه إياه ، ولو كان الذى قام به فيه مايشبه الذنب لم يكن ذكر القصة لائقا بهذا الموضع .

ويرى هؤلاء العلماء أن التفسير المناسب لتلك الايات هو أن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دين سليمان ، كما أنه مندوب اليه فى ديننا بنص قوله ـ تعالى وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ

---

(١) سورة ص آية ٢

تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » (١)

وقد احتاج سليمان للغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وإجرائها أمامه ، وذكر أنه لايحبها للدنيا ولكنه يحبها لله تعالى وللجهاد فى سبيله وتقوية دينه . وهو المراد من قوله عَن ذِكْرِ رَبِّى

ثم إنه ـ عليه السلام ـ أمر باعدادها وتسييرها حتى توارت بالحجاب ، أى غابت عن نظره ، ثم أمر الراكضين أن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها ، وهو يهدف من ذلك إلى أمور منها :

ـ تشريف هذه الخيول وإظهار نفعها من دفع العدو وغير ذلك .

ـ إظهار ضبط السياسة والملك ، ويقتضى ذلك أن يباشر الملك بنفسه أمور الحرب والقتال وإعداد العدة له .

ـ علمه بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يتفحصها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يتبين اذا كان فيها مرض فيعالجه أم لا[٢] .

إن هذا التأويل هو الذى يناسب مقام النبوة ، وهو الذى يلتقى مع سياق القصة دون تكلف أو تعسف . ولنا أن نأخذ من اعتزاز سليمان بالخيل التى ارتبطها للجهاد فى سبيل الله عبرة تدفعنا الى مداومة الجهاد ، الذى دعا اليه الله سبحانه وتعالى فى قرآنه الحكيم وعلى لسان نبيه الكريم .

ذكر القرطبى خبرا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فيه : من لم يعرف حرمة الفرس الغازى ففيه شعبة من شعب النفاق .

ولولا أهمية الخيول فى الجهاد وإقامة الدين ما أقسم الله بها فى قوله تعالى

وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا

---

(١) الأنفال ٦٠

(٢) العاديات ١ : ٥

ويتميز الخيول من بين أنواع الحيوان بصفات تكاد تكون من أخص صفات الانسان ، ففيه ذكاء وعزم واباء ، ويكاد يفهم عن الانسان حديثة ويحفظ سره ، ويفى له وفاء غرزيا فى الوقت الذى يعز فيه الوفاء عند الانسان .

وقد حفظ الصحابة الأجلاء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الاعتزاز بالفرس والحفاظ عليه ، لأنه عدتهم فى إعلاء كلمة الله ونشر دينه فى الآفاق ، روى عن عمرو بن العاص فى احدى خطب الجمعة فى مسجده بمصر أنه قال : يا معشر الناس ، أريحو خيلكم وسمنوها وصونوها وأكرموها ، فإنها جنتكم من عدوكم وبها مفاتحكم ونصركم . .

كفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضو ابصاركم ، ولأ أعلمن رجلا قد أسمن جسده وأهزل فرسه . . واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته عن فريضته قدر ذلك . .

معنى الصافنات

===================

والصافنات جمع صافن ، والصافن الذى يرفع احدى يديه ويقف على طرف سنبكه ، وقد يفعل ذلك برجله وهى علامة الفراسة كما قال فى حقه العجاج الشاعر :

ألف الصفون فلا يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسير

وسمى الفرس جوادا لأنه يجيد العَدْو ، ولأنه يجود بجريه ، ويجمع الجواد على جود وجياد .

كرسى سليمان

===================

وقد أفاض فى وصف كرسى سليمان ، وذكروا فى ذلك خبرا أسندوه الى ابن عباس رضى الله عنهما ـ

جاء فيه :

كان يوضع لسليمان ستمائة كرسي ، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ثم يجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس ، ثم يدعو الطير فتظلهم ، ثم يدعو الريح فتقلهم وتسير مسيرة شهر غدواً ورواحاً .

أما صفة الكرسي فقد ذكروا :

أن سليمان ـ عليه السلام ـ لما ملك بعد أبيه أمر بإتخاذ كرسي يجلس عليه للقضاء ، ثم عمل عملاً بديعاً مهولاً بحيث اذا رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وبهت . .

فأمر بأن يجعل الكرسي من أنياب الفيلة ، وأن يرصع بالدر والياقوت والزبرجد وأن يُحَف بأربع نخلات من ذهب شماريخها الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ، على رأس نخلتين منها طاووسان من ذهب ، وعلى رأس النخلتين الأخريين نسران من ذهب يقابل بعضها بعضاً . .

وجعل بجانب الكرسي أسدين من ذهب على رأس كل واحد منهما عمود من الزبرجد ، وقد عقد على النخلات عروش أشجار الكروم من الذهب الأحمر ، وعناقيدها من الياقوت الأحمر بحيث تظلل عروش الكروم النخل والكرسي . .

وكان سليمان إذا أراد الصعود الى الكرسي وضع قدمه على الدرجة السفلى فيستدير الكرسي بما فيه دوران الرحا المسرعة ، وتنشر تلك الطيور والنسور أجنحتها ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما .

فإذا استوى على أعلاه أخذ النسران اللذان فى النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه ، ثم يستدير الكرسي بما فيه فيدور معه النسران والطاووسان والأسدان ، مائلات برءوسها إلى سليمان ، وينفخن عليه من أجوافهن المسك والعنبر .

ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسى التوراة ، فيفتحها سليمان ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء .

ويتقدم الناس للفصل فى الخصومات فإذا تقدم الشهود للإدلاء بالشهادات هالهم المنظر فلا يشهدون إلا بالحق .

قالوا : ولما توفى سليمان ـ عليه السلام ـ وغزا بختنصر بيت المقدس حمل الكرسى معه ، فلما أراد أن يصعد عليه لم يقدر وضرب الأسدان رجله فكسراها .

ثم لما هلك بختنصر حمل الكرسى إلى بيت المقدس فلم يستطع ملك قط أن يجلس عليه . ولم يدر أحد ماآل إليه عاقبة أمره بعد ذلك . .

وربما ظن بعض الناس المبالغة فى وصف الكرسى . . ولكنا إذا أمعنا فى النظر إلى قوله ـ تعالى ـ

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

وإلى أن سليمان قد سخر الله له الجن تصنع بين يديه ما يشاء وتبتكر له ما يشاء وفى أن هناك تقدماً علمياً قد منحه الله للعلماء فى عصر سليمان ، بدليل قدرة العلم على نقل عرش بلقيس فى سرعة قياسية عجز عنها الجن .

لو أمعنا النظر فى ذلك وجدنا أن صفة الكرسى بالصورة التى وصفها العلماء ليست شيئاً غريباً بل ربما كانت الصفة دون ما كان عليه الكرسى .

وعلى كل فقد ذكرنا ذلك من باب استقصاء الأحداث التى تناولتها قصة سليمان ، وإن كانت صفة الكرسى فى حد ذاتها لا تقدم ولا تؤخر فى مضمون القصة .

صور من قضاء سليمان :

كان سليمان ذكياً وقد آتاه الله الحكمة مبكراً ، وقد مرت بنا قصة فصله فى قضية الحرث والغنم ، وقد أشار إليها القرآن الكريم . .

ومن شواهد فصله فى القضاء ، ماروى من أنه تقدمت إليه امرأتان تتنازعان طفلاً بينهما ، كل منهما تدعى أنه ابنها . .

وأدلت كل منهما بحجة تثبت فيها بنوة الطفل لها . .

ولما طالت الخصومة بينهما قال سليمان : لا تنزعجا ، ودعا بسكين ليشطر بها الطفل المتنازع عليه نصفين لكل منهما نصفه . .

فصاحت إحداهما منزعجة وقالت : يانبى الله ، إنه ابنها أعطه لها ، ولا تشطر الطفل .

فقال سليمان الحكيم : الآن علمت أن الطفل ابنك وليس ابنها فخذى طفلك وانصرفى .

لقد أدرك سليمان بفطنته أن الأم تضن بابنها أن يدمى له إصبع ، وتفديه بروحها إن استطاعت من أى شر يصيبه ، فكيف تراه أمام عينيها يشطر نصفين ؟

وقد جاءت هذه القصة فى العهد القديم[1] بعرض آخر دون اختلاف فى الفحوى ، وذكرها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض أحاديثه .

ومن القصص التى تتردد كثيراً بين الناس أن إمرأة كان على رأسها صوف مغزول ذهبت لتبيعه فى السوق لتقوت صبية لها ، فهبت ريح شديدة ذهبت بهذا الصوف الى حيث لا تدرى .

فتوجهت إلى داود لتشكو له ، فأمر لها بدراهم . .

فقابلها سليمان ، وعرف قصتها ، فقال لها : عودى إلى داود وارفعى شكواك إليه مرة أخرى ، وقولى له : أنا ما جئتك أطلب صدقة ولكن جئت أشكو الريح إليك فاحكم لى .

---

(١) عهد الملوك الأولى ـ الاصحاح الثالث

فعادت إلى داود ، وأخبرته بما قاله سليمان ، فاستدعاه ، وقال : ما حملك على هذا ؟

فقال : حملنى على هذا أن الصدقة مندوبة والحكم واجب ، فلا يقدم المندوب على الفرض ، ثم إنها إمرأة فقيرة قوتها من صوفها ، وقد ذهبت الريح برأس مالها ، فاقتص لها من الريح . .

واستدعى ملك الريح إلى مجلس الحكم ،

وسأله داود : ما حملك على إثارة الريح حتى ذهبت بصوف هذه المرأة ؟

فأجاب : لم أفعل ذلك من تلقاء نفسى . ولكن هناك سفينة فى البحر أوشكت على الغرق ، لخرق أصابها ، وقد ضمن الله لمن فيها النجاة ، فأمرنى أن أجعل الريح تحمل صوف هذه المرأة إلى أصحاب السفينة فحملته الريح إليهم ، وسدوا الخرق ، ونجت السفينة ، وهى الآن على الشاطىء . .

فاستدعى داود أصحاب السفينة ، وشرط عليهم أن يجعلوا جزءا ثابتاً للمرأة من دخل السفينة . .

ثم سألها داود : ماذا صنعت فى يومك ؟

قالت : تصدقت اليوم برغيفين . .

فقال لها : هذا جزاء الصدقة والله يضاعف لمن يشاء . .

وقد تكون هذه قصة رمزية ، ولكن فيها دلالات عظيمة على ذكاء سليمان وفطنته ، وعلى حرصه على مصلحة الرعية قبل أن يتولى أمرها فكيف به بعد أن تولى أمرها ؟

وفيها دليل على ثواب الصدقة المضاعف ، وعلى استحباب أن يكون قوت المرء من عمل يده . . وعلى غير ذلك من المعانى الجليلة والعظات الكثيرة . .

فتنة سليمان :

ذكر القرآن الكريم أن سليمان ـ عليه السلام ـ تعرض لفتنة وابتلاء من الله تعالى ، وجاء ذلك فيما يقصه القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾[2]

وقد تحدث المفسرون كثيراً حول معنى هذه الآية ونعرض بعض أقوالهم فيها :

قيل : ان سليمان لما ذبح الخيل بغير ذنب جنته عاقبه الله بسلب ملكه ، وتمثل شيطان فى صورته فجلس على كرسيه . . وقيل : اختصم فريقان أمام سليمان أحدهما من قوم جرادة زوجته التى يحبها والآخر من غيرهم ، فتمنى أن يقع القضاء لأهل زوجته ثم قضى بينهما بالحق ولكنه عوقب لهواه مع أهل زوجته وإن كان لم يقض لهم لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين . .

وقيل : إنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضى بين أحد ولا ينصف مظلوماً ، فأوحى الله إليه إنى لم استخلفك لتحتجب عن عبادى ولكن لتقضى بينهم وتنصف مظلومهم . ثم عوقب . .

وقيل : إن سليمان غزا مدينة صيدون ، فقتل ملكها وأصاب بنتا له اسمها « جرادة » وكانت من أجمل نساء عصرها فاصطفاها لنفسه ، ولكنها كانت تعرض عنه حزناً على أبيها ، ولاتنظر إليه إلا شذراً ، ولا تكلمه إلا نزراً وكان لايرقأ لها دمع . .

ثم إنها سألته أن يصنع لها تمثالاً على صورة أبيها حتى تنظر إليه ، فأمر بصنعه ، فعظمته وسجدت له وسجدت معها جواريها ، حتى صار صنماً معبوداً

---

(٢) سورة ص ٣٤

فى دار سليمان وهو لا يعلم .

ونما ذلك إلى علم وزيره « آصف بن برخيا » فاصطنع مجلساً للوعظ والتذكير ، وأخذ يعدد مناقب الملوك والأنبياء السابقين من بنى إسرائيل ويثنى عليهم ويدعو إلى الاقتداء بهم . .

ولم يتحدث عن سليمان بشىء على الاطلاق . .

فلامه سليمان وقال له : تحدثت عن كل الأنبياء السابقين ، ولم تتحدث عنى فلم ذلك ؟

فقال : وكيف أتحدث عنك وفى بيتك تُعْبَدُ الأصنام وأنت لا تدرى ؟

ثم أخبره بقصة جرادة مع تمثال أبيها وسجودها له هى وجواريها غدوة وعشية . .

فذهب سليمان وكسر الصنم وحرقه وذراه فى البحر وعاقب جرادة عقاباً شديداً . وخرج تائباً إلى الله مستغفراً ، باكياً متضرعاً . .

وكان سليمان إذا دخل للطهارة يخلع خاتمه من يده ، ويسلمه لأم ولد له اسمها (أمينة) حتى يخرج فيتسلمه منها ويلبسه .

فدخل يوماً ، وسلم خاتمه لأمينة ، وجاء الشيطان فتمثل لها فى صورة سليمان ، وقال لها : أعطنى الخاتم ، فأعطته له ، فلبسه وجلس على كرسى سليمان ، واجتمع عليه الخلق من الإنس والجن والطير وخرج سليمان وطلب الخاتم من أمينة فأنكرته ، وقالت له : لقد أعطيتك إياه . .

فعرف سليمان أن الخطيئة قد أدركته ، وأنه قدفقد ملكه . . وساءت حاله ، حتى صار يشقى ليأكل ، واذا قال لأحد أنا سليمان حثوا على رأسه التراب ورجموه وطاردوه . .

ثم عمد إلى السماكين على شاطىء البحر يحمل لهم السمك إلى السوق نظير ما يشبع به بطنه ، ومكث على هذه الحال أربعين يوماً ، عدد الأيام التى عبد فيها الصنم فى بيته .

وقد أنكر (آصف بن برخيا) وعلماء بنى إسرائيل حكم الشيطان وثاروا عليه ، فهرب منهم ، وألقى خاتم سليمان فى البحر ، فابتلعته سمكة . .

وذهب سليمان إلى الشاطىء كعادته ليحمل السمك وأعطاه صياد سمكتين أجراً له . . فشق بطن إحداهما فإذا به يجد خاتمه فى جوفها ، فلبسه ، فعاد إليه

جماله الذى فقده ، وارتد إليه سلطانه . . وخر ساجداً لله شكراً على ما أنعم به عليه من عودة ملكه إليه .

وأحضر ذلك الشيطان فحبسه فى صخرة وقذفه فى البحر .

ولكن هذه القصة وما فيها من إغراق فى الخيال ، وما فيها من طعن على مقام النبوة السامى ، تتعارض مع ماأعطاه الله للأنبياء من عصمة ، وماوهبه لهم من حفظ . .

لقد رأى كثير من العلماء أن هذه القصة من أباطيل اليهود ، لأن الشياطين لا يستطيعون أن يتمكنوا من صالحى الإنس بهذه الصورة فضلاً عن الأنبياء ، وقد

قال الله لإبليس « **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** »

وكيف يسلط الله الشيطان على نبى من أنبيائه حتى يمكنه من مجلسه وملكه ؟! وإذا لم يُحْفَظ الأنبياء من هذا العبث الشيطانى فمن الذى يحفظ بعد ذلك ؟

واذا كان إبليس نفسه لا يقدر على المؤمنين من العباد فكيف يقدر أبناؤه وذريته على الأنبياء ؟

إننا نؤيد رأى الذين يرفضون هذه القصة التى افتعلها وانساق وراءها بكل أسف بعض المفسرين .

قال أبو حيان فى تفسيره : ذكر المفسرون فى هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها وقد ذكرت فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها ، وهى إما من وضع اليهود أو الزنادقة ، ولم يبين الله الفتنة ماهى ، ولا الجسد الذى ألقاه على كرسي سليمان ، ولكن بعض المفسرين ذكروا فى ذلك أقوالاً ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكروه ، كتمثل الشيطان فى صورة نبى ، حتى يلتبس أمره عند الناس ، ويُعْتَقَد أن ذلك المتصور هو النبى ، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبى ، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية ، نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها . .

وقد ضعف القرطبى فى تفسيره هذه القصة التى ذكرناها بعد أن أوردها وقال : إنه من المحال أن يتصور الشيطان فى صورة الأنبياء ، ومن المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم فى حق ، وهم مع الشيطان فى باطل . .

واذا كانت هذه القصة باطلة ولا أساس لها من الصحة ، فما المقصود بالفتنة إذن ؟ وماذا يقصد بالجسد الذى ألقى على الكرسي ؟ فى قوله تعالى « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب »

قال العلماء المحققون : إن سليمان قال : لأطوفن الليلة على نسائى فتأتى كل امرأة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله ـ تعالى ـ ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن ، فلم تحمل إلا واحدة منهن بغلام مشوه ، جاء شق ذكر ، فجىء به فألقى إلى جانبه على الكرسى ، فذلك هو الجسد .

وربما كان لهذه الرواية سند من السنة ..

فقد جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين إمرأة ، كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن جميعاً ، فلم تحمل منهن إلا إمرأة واحدة جاءت بشق رجل ..

والذى نفس محمد بيده ، لو قال : إن شاء الله لجاهدوا جميعاً فى سبيل الله فرساناً (٣)

وقال بعضهم : إنه ولد لسليمان ولد فأجمعت الشياطين على قتله ، لأنهم اعتقدوا أنه سيخلف أباه فى تعذيبهم ، فعلم سليمان ذلك منهم ، فأمر الريح حتى حملته الى السحاب ، وغدا إبنه فى السحاب خوفاً عليه من مضرة الشياطين ، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين ، فلم يشعر إلا وقد وقع الطفل على كرسيه ميتاً ..

وهناك من يقول : إن هذا الجسد هو آصف بن برخيا حين رأى أن سليمان قد فتن وسقط الخاتم من يده ، وكان ملكه فى خاتمه ، قال لسليمان : إنك مفتون ولذلك لن يتماسك الخاتم فى يدك ، ففر إلى الله تعالى تائباً من ذلك ، وأنا أقوم مقامك حتى يتوب الله عليك .

ففر سليمان إلى الله ، وجلس آصف مكانه يسير بسيره ويعمل بعمله ، حتى عاد سليمان إلى مجلسه وقد تاب الله عليه ، ورد إليه ملكه .. (٤)

---

(٣) صحيح البخارى جـ ٨ ق٦٢٢ باب الايمان ، وفى صحيح مسلم ـ باب الاستثناء وفى سنن النسائى كتاب الايمان . وفى جمع الجوامع جـ ٢ برقم ١٦١٢٧/١٨٤

(٤) تفسير القرطبي ـ سورة ص ٥٦٤٦

وهذا قول لا يبعد عن الصواب ، وفيه تنزيه لمقام النبوة .

ومن أفضل ما ذكر فى فتنة سليمان : ما أورده الفخر الرازى فى تفسيره قال : إن سليمان ابتلى بمرض شديد تعب منه تعباً شديداً ، حتى صار لشدة مرضه كأنه جسد بلا روح ، ثم بعد ذلك أناب ، أى رجع إلى حالة الصحة التى كان عليها قبل مرضه . .

وقد ذكر القرطبى أيضاً هذا الرأى بين الآراء التى ذكرها . .

وهو تفسير لا بأس به . . .

وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار رأياً وجيهاً فى فتنة سليمان ، لم يتنبه له أحد من العلماء قبله ـ كما يقول ـ نجمله فيما يلى :

قال : إن كرسى داود هنا هو كرسى سليمان ، وكان داود قد رشح سليمان للخلافة من بعده ، فناوأه أخوه أبشالوم ، وشق عليه وعلى والده عصا الطاعة ، وانضم إليه كثير من زعماء بنى اسرائيل ، واستطاع أبشالوم أن يستولى على الكرسى ويجلس عليه ، وهرب داود إلى شرقى الأردن حتى يدير أمره . . وما زال حتى استرد ملكه واستقر الأمر أخيراً لسليمان بعد هلاك أبشالوم . .

وكان سليمان فى الفترة التى انتزع فيها أبشالوم الكرسى يعتقد أن الحكم قد أفلت منه ، ولن يرد إليه إلا بإرادة الله تعالى . . فاستغفر ربه وأناب اليه من الغرور الذى داخل نفسه ، والزهو الذى لابسه بعد أن اختاره داود للخلافة من بين إخوته وهو أصغرهم ، وبعد أن وفق فى الحكم فى قضية الغنم التى نفشت فى الحرث . .

كان لهذا الزهو عقابه ، وهو اختباره بمن اغتصب ملكه منه فترة ، حتى يتغلب على ما ينتابه بعد ذلك من زهو وغرور(٥)

فضائل سليمان

عرفنا أن الله ذكر سليمان فى القرآن الكريم فى مواضع متفرقة وأثنى عليه بماهو أهله . .

وقد نفى الله عنه الكفر فى قوله تعالى :

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾(٦)

والمقابلة فى الآية جاءت بين قمة الإيمان ممثلة فى سليمان وقمة الكفر ممثلة فى الشياطين . .

والمقصود بالكفر هنا السحر ، وقد نزلت هذه الآية لمناسبة ذكرها القرطبى عن ابن إسحاق : قال : لما ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سليمان فى المرسلين قال بعض أحبار اليهود : يزعم محمد أن ابن داود كان نبياً ، والله ما كان إلا ساحراً . . فأنزل الله عز وجل طهر سليمان وأظهر براءته مما رمى به فقال عز وجل

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾(٧)

وسيأتى حديث مفصل عن السحر وفيه بيان ذلك إن شاء الله تعالى . .

وحكى الرواة عن سليمان ـ عليه السلام ـ أنه على الرغم من الملك الواسع الذى أوتيه والغنى المفرط الذى كان له ، إلا أنه كان زاهداً فى متاع الدنيا ، عازفاً

---

(٥) راجع قصص الانبياء للنجار ص ٣٣١

(٦) سورة البقرة ١٠٢

(٧) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٤١ دار الكتاب

عنها ، وكان يديم الجوع ، وأثر عنه أنه سئل عن سبب جوعه فقال : أخاف أن أشبع فأنسى جوع الفقير .

وقد وصفه الله بأنه نعم العبد ، ووصفه بأنه أواب ، والأواب هو كثير الرجوع إلى الله ـ تعالى ـ ومن أوبته إلى الله أنه كان يديم الاستغفار وبخاصة عقب ذكره النعم التي كان يذكرها على سبيل التحدث بالنعمة حمداً لله لا زهواً وفخراً . .

فبعد أن سمع حديث النملة قال :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (٨)

وعقب مجيء عرش بلقيس أمامه لم ينس فضل ربه عليه فقال :

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٩)

وبعد الفتنة قال : (١٠)

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾

وقد فوضه الله في الإعطاء والمنع فقال له :

﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١١)

---

(٨) النمل ١٩

(٩) النمل ٤٠

(١٠) ص ٣٥

(١١) ص ٣٩

وعقب على ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ (١٢)

ومعنى ذلك أن ما آتاه الله لسليمان فى الدنيا لا ينقصه أجره فى الآخرة ، فهذه منحة خاصة لسليمان ـ عليه السلام ـ

وقد مر بنا القول أن طلب سليمان المُلْك ليس استعلاء أو زهواً ولكنه تمكين لكلمة الله فى الأرض وإعلاء لشأن الإسلام . .

ذلك أن بنى إسرائيل كان لهم أنبياء ، وكان لهم ملوك تحكمهم وكان الملك يحكم والنبى يسدده فى أمره .

فجمع الله الملك والنبوة فى داود وسليمان . .

ولا شك أن المَلِكَ إذا كان نبياً تمكن من تنفيذ شريعة الله بقوة سلطانه وتأييد السماء له . .

وللمُلْك مظهر أخاذ وله أعباؤه ومسئولياته ، وقد يستفرغ هذا المظهر كثيراً من جهد النبى فى القيام بتكاليف المُلْك وتبعاته وشكلياته واستقبالاته وغير ذلك مما

يستدعيه الأمر . . بالإضافة إلى ما يحيط بهذا المظهر من هالة ربما أدخلت على النفس البشرية لوناً من ألوان الاعتداد بالنفس أو الغرور .

وربما كان لهذه الدواعي وغيرها نأى نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فقد خير بين أن يكون عبداً رسولاً أوملكاً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً

وقال : أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فإن جعت دعوت الله وإن شبعت شكرت الله . .

---

(١٢) ص ٤٠

والفضل الذى يذكر لسليمان ـ عليه السلام ـ بناؤه بيت المقدس ، أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكان داود ـ عليه السلام ـ قد شرع فى بناؤه ولكنه لم يتمه ، وقد ورد فى ذلك أثر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقد روى الطبرانى فى الكبير عن رافع بن عمير ، أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « قال الله ـ عزوجل ـ لداود : ابن لى بيتاً فى الأرض ، فبنى داود بيتاً لنفسه قبل أن يبنى البيت الذى أمِر به ، فأوحى الله إليه : ياداود ، نصبت بيتك قبل بيتى ؟ قال : أى رب هكذا قلت فيما قضيت : (من ملك استأثر) ثم أخذ فى بناء المسجد ، فلما تم السور سقط ثلثاه ، فشكا ذلك الى الله تعالى ، فأوحى الله إليه : إنه لا يصلح أن تبنى بيتاً . قال : أى رب ، ولم ؟ قال : لما جرى على يديك من الدماء . .

قال : أى رب ، أو لم يكن ذلك فى طاعتك ومحبتك ؟

قال : بلى ولكنهم عبادى وأنا أرحمهم .

فشق ذلك عليه ، فأوحى الله إليه : لا تحزن فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان .

فلما مات داود أخذ سليمان فى بنائه ، فلما تم قرب القرابين وذبح الذبائح ، وجمع بنى إسرائيل . فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه : قد أرى سرورك ببنيان بيتى فاسألنى أعطك .

قال : أسألك ثلاث خصال : حكماً يصادف حكمك ، وملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما اثنتان فقد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة(١٢)

وسيأتى حديث خاص عن بيت المقدس إن شاء الله تعالى ..

وفاة سليمان

تولى سليمان ـ عليه السلام ـ الملك فى سن مبكرة ،وكان صبياً فى الثانية عشرة من عمره ، ولذلك حسده اخوته ، وثار من ثار عليه منهم ، وبقى سليمان ملكاً أربعين عاماً .

وتوفى وسنه اثنتان وخمسون سنة ..

روى ذلك إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره(١٤)

وروى عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة

أما ابن جرير الطبرى فيذكر أن جميع عمر سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ كان نيفاً وخمسين سنة(١٥) وهو ما يلتقى مع القول الأول .

وذكر القرطبى فى تفسيره أنه تولى الملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وعمرٌ ثلاثاً وخمسين سنة ومدة ملكه أربعون سنة(١٦) وهو يقارب ما سبق أيضاً .

وقال ـ كما قال غيره ـ إنه ابتدأ فى بناء بيت المقدس بعد أربع سنين من ملكه ، وكانت سنه سبع عشرة سنة ..

---

(١٢) الحديث فى الطبرانى فى الكبير ، وفى مجمع الزوائد ـ كتاب جـ ٤ ص ٧ وفى أسد الغابة ترجمة رافع عمير رقم ١٥٩٢

(١٤) قصص الانبياء لابن كثير ص ٥١٦

(١٥) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ١ ص ٣٥٧

(١٦) تفسير القرطبى

وهناك أقوال أخرى فى ذلك تشير إلى أنه كان من المعمرين ، ولكن الصحيح ما ذكرناه والله أعلم ولم يخل موت سليمان عليه السلام من عبرة وفائدة دينية أخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى وهى أن الغيب لا يعلمه إلا الله . . وقد كانت الجن يظنون أنهم يعرفون الغيب وكان بعض الناس ومازال يعتقد فى ذلك فأظهر الله سبحانه وتعالى كذب هذا الظن وفساد هذا الإعتقاد بما ذكره لنا القرآن الكريم فى قصة موت سليمان . قال تعالى

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٧)

فقد قضى الله على سليمان ان يموت وهو متكىء على عصاه واستمر متكئاً على عصاه وهو ميت حولاً كاملاً كما يذكر بعض المفسرين وظلت الجبن طوال هذه المدة مستمرين فى العمل الشاق الذى كلفهم به وهم لايعلمون أنهقد مات حتى أكلت الأرضة عصاه فخر على الأرض فعلمت الجن بموته ، وعلم الناس أن الجن لا تعلم الغيب وقد ذكر أن سليمان عليه السلام قال : اللهم عم عن الجن موتى حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ، فهيأ عصا فتوكأ عليها وقبضه الله وهو متكىء عليها فمكث حولاً ميتاً والجن تعمل ، حتى أكلت الأرضة العصا فسقطت وخر سليمان فعملوا عند ذلك بموته فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين تلك المدة وقد شكرت الجن للأرضة صنيعها فأينما كانت يأتونها بالماء ، واختلفوا فى مكان قبره فقيل : دفن فى طبرية ، وقيل : ببيت لحم ، وقيل : عند أبيه ببيت المقدس فى المسجد(١٨)

---

(١٧) سورة سبأ ١٤

(١٨) بدائع الزهور لابن إياس ص ١٥٣

العبرة من القصة :

وقصة سليمان حافلة بالعبر والعظات ..

ولعل أهم ذلك عدم الإغترار بالملك . فقد تهيأ لسليمان مالم يتهيأ للملوك السابقين واللاحقين ومع ذلك ما زاده الملك إلا قرباً من ربه ، وما وثق بملكه ولابما أوتيه لحظة ، بل كانت ثقته بالله وتوكله عليه ومرجعه إليه ..

وكان مع كثرة جنوده وأمرائه وقواده لا يغفل عن رعيته ، يتفقد أحوالهم ويرعى شئونهم حتى انه تفقد الهدهد فى سفره فسأل عنه .

ولايقال انه احتاج إليه فسأل عنه ، فهذا ما لايهدى إليه الفعل (تفقد)

لأن « تفقد » تشير إلى متابعة أحوال الرعية ومعرفة أخبارها وهو لم يتفقد الهدهد وحده ، بل تفقد الطير ، فرأى الهدهد غائباً ، فسأل عن سر غيابه ..
قال العلماء فى هذه الواقعة : تفقد سليمان الطير دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم ، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يَخْفَ على سليمان حاله ، فكيف بعظام المُلْك ..
وقد سار على هذا الهَدْى نبينا صلى الله عليه وسلم وخلفه ـ أئمة الهدى من الخلفاء الراشدين والأمراء الناصحين ، فكانوا لا يغفلون عمن استرعاهم الله من الرعية .
وهذا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول : لو أن شاة على شاطىء الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر وفى قول آخر لو عثرت بغلة بالعراق لسئل عنها عمر لِمَ لَمْ تمهد لها الطريق فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان وتضيع الرعية ويضيع الرعيان ؟(١٩)

وتعلمنا القصة أن الكبير لا يحق له أن يتعالى على الصغير .

وقد أدركنا أن سليمان خاطبته نلمة فاعتبر بما عندها من علم ، وأخبره الهدهد بأنه أحاط بما لم يحط به من العلم ..

إن الحيوانات وإن كانت عجماوات ولكن لها عقول تدرك وتفهم ، ومن النمل

---

(١٩) تفسير القرطبي ـ سورة النمل ـ ص ٤٨٩٤ ط دار الشعب .

يتعلم الناس النظام والاقتصاد والسعى والدأب والنشاط ..

وقد حذرت النملة قومها من خطر داهم ، فكانت بذلك فى خدمة بنى جنسها ، مما يجب علينا أن نفطن إليه ونتنبه له فيكون كل منا فى خدمة الآخرين ، دون أن يكلفنا مسئول بذلك ، فهذا هو التعاون الحق ، والتفانى فى سبيل البقاء للمجموع .

وفى القصة بيان لقدر العلم واعلاء لشأنه ، فقد أثبت الذى أوتى علم الكتاب أنه أقوى من الجن والشياطين بسلاح العلم الذى أعطاه الله إياه .

ولا يقال إن هذا العلم الذى تعلمه آصف بن برخيا علم روحانى أو علم يتعلق بالطلاسم والمحجبات . فليس فى الآية مايشير إلى ذلك . إنه علم فحسب ..

إن ذلك يدعونا إلى التفانى فى تحصيله والتعمق فى كشف أسراره حتى نصل فيه إلى أبعد الغايات .

وقد وصل التقدم العلمى أقصاه فى عصرنا ، ولكن ما زال المسلمون فى مؤخرة الصفوف من ذلك ، مع أن كتابهم الحكيم يدعوهم إلى العلم ويحثهم عليه ويحذرهم من التهاون فى تحصيله ، ولا يوجد دين شجع على العلم واحتفل به كالإسلام ، وقد جاء القرآن الكريم مبشراً بالعلم آمراً بالتعلم منذ أول آية نزلت فيه ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ ﴾ (٢٠)

وهناك عظات وعبر كثيرة فى القصة يفطن إليها القارىء حين يتابع أحداثها ، ويتأمل فى وقائعها وحسبنا ما قدمنا له من ذلك ..

والله أعلم

---

(٢٠) العلق : ١ : ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المسجد الأقصى

بسم الله الرحمن الرحيم

" سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " - الإسراء ١ -

- ثانى مسجد بعد الكعبة...
- أسماء المسجد......
- متى أنشئت القدس؟.....
- فضائل القدس.....
- إسراء النبى إليه.......
- لماذا كان الإسراء إلى بيت المقدس؟
- بناء المسجد:
  فى عهد داود.
  فى عهد سليمان
- سليمان يستعين بالجن
- الإسلام يشيد بهذا البيت
- المسجد الأقصى مركز الديانات الثلاث
- المسجد الأقصى يتعرض للتخريب
- بيت المقدس فى ظل الإسلام
- قبة الصخرة.....
- أحكام حول المسجد الأقصى



المسجد الأقصى

المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى رحمة الله للعالمين محمد صلى الله عليه وسلم . . . له منزلة عظمى فى نفس كل مسلم ومسلمة . . وإليه تهفو قلوب المؤمنين فى كل مكان . وهو رمز يربط محبى السلام والحب والوفاء برباط روحى وثيق ، ويشدهم إلى مُثلٍ ضارية فى أعماق التاريخ ، حيث الخليل إبراهيم وابنه اسحاق وحفيده يعقوب ومن جاء بعدهم من الأنبياء والمرسلين ، وحيث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رحلته المقدسة المباركة التى تشرفت بها الأرض والسماوات . . وحيث اصطف خَلْفه الأنبياء جميعاً فى صلاة تجدد العهد بالإيمان به ، وتذكرهم بالميثاق الذى أُخذ عليهم ، وسجله القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[٢١]

هذا المسجد الكبير الذى يُعَدُّ ثانى مسجد أُسس بعد البيت الحرام والذى يعد الآن بعيداً عن أهله أسيراً بين قوم لا يقدرونه حق قدره ، وإن زعموا أنهم أولى بالقوامة عليه . . إنه يتوق لأن يتخلص من الأغلال التى أحاطت به ، ويتحرر من القيود التى فرضت عليه ، فيعود ليرى الأفواج تترى إليه من أقطار العالم تستنشق فى رحابه عبير النبوة الخالص ، ونسيم الإيمان الصادق ، الذى ينفر من

---

(٢١) آل عمران ٨١

الكيد والمكر ويبرأ من الحقد والغل ، ويندد بالظلم والعسف ، ويهاجم الشر والعدوان ، ويدفع الباطل والطغيان .

لقد شهد هذا المسجد فى ظل الإسلام السماحة والعدل والإنسانية والوفاء والحرية والإخاء . . وتعانق الناس فى رحابه على اختلاف مللهم ودياناتهم على روح ديانة خالصة جاء بها إبراهيم الخليل ، وسار على دربها أنبياء بررة ، حتى بعث الله بها محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم رسله وأنبيائه فبشر بها ودعا إليها ، وسار الناس جميعاً تحت لوائه سعداء إلا من التوت نفسه على الحقد والحسد ، فتثاقلت خطاه وتعثرت قدماه .

إن هذا المسجد الكريم ينادى اليوم المسلمين أن يحرروه ، كما يذكر عاشقى السلام بمسئوليتهم نحوه ، ويدعو أصحاب الرسالات المقدسة ألا ينسوا مبادىء هذه الرسالات ، وأن يذكروا أن المساجد وضعت ليرتفع فيها ذكر الله ، وأن تفسح الطريق إليها ليقصدها الناس من كل فج كى يؤدوا شعائر الله ويذكروا اسم الله .

هذا المسجد الأقصى جدير أن نتحدث عن تاريخه وقصته فى هذه الصفحات . .

أول مسجد :

قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢٢)

(٢٢) آل عمران ٩٦

وهذه الآية الكريمة نص قاطع على أن البيت الحرام هو أول مسجد بنى على وجه الأرض . .

وقد تحدثنا فى قصة الكعبة المشرفة حول هذا الموضوع بما فيه الكفاية . .

وقد سئل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فأجاب بأن المسجد الحرام هو أول مسجد وجد على الأرض . فقيل له : ثم أى ؟ فقال : المسجد الأقصى . . فقيل له : كم بينهما ؟ فقال : أربعون عاماً(٢٣)

وهذا الأثر الشريف يحتمل أكثر من معنى . .

فإن كان الذى بنى البيت الحرام آدم . فقد بنى المسجد الأقصى آدم كذلك بعد بنائه الكعبة بأربعين سنة .

وإن كان الذى بنى البيت الحرام إبراهيم ، فقد بنى المسجد الأقصى يعقوب بعد بناء إبراهيم بأربعين سنة .

وجميع هذه الآراء قد نقلت عن العلماء الذين قالوا : إن من الأقوال فى بناء المسجد الأقصى القول الذى يرى أن بناء المسجد الأقصى كان على يد أبى البشر آدم - عليه السلام - .

ومنهم من يرى أن سام بن نوح هو الذى بناه ، ومنهم من يقول : إن أول من بناه وأرِىَ موضعه هو يعقوب - عليه السلام - ذلك أنه فى أثناء توجهه إلى خاله فراراً من أخيه عيصو ، بناء على نصيحة أبويه - اضطجع تحت صخرة فى طريقه ، فرأى رؤيا بشره الله فيها بالنبوة ، فسر بهذه الرؤيا ، ونذر إن تحقق له ذلك أن يبنى فى هذا المكان بيتاً لله ، ووضع علامة عليه . .

---

(٢٣) روى هذا الحديث فى الصحيحين عن ابى ذر رضى الله عنه

وحين عاد بعد سنين من رحلته ، وكان قد تزوج وأنجب وحسنت حالته ، وفى بنذره . .(٢٤)

وظل هذا المكان الذى أنشأه يعقوب ـ عليه السلام ـ يعرف ببيت الرب ، حتى جاء داود ـ عليه السلام ـ ومكن الله له فى الأرض فعزم على إقامة هذا البيت بما يليق به أن يكون بيتاً لله تعالى وبذل فى سبيل ذلك الأموال الطائلة . .

أسماء هذا المسجد :

يطلق على هذا المسجد اسم المسجد الأقصى ، وقد ذكر البعض أنه سمى بذلك لبعده عن المسجد الحرام ، وكان الناس يعظمونه بالزيارة قديماً . .

وقد بارك الله حوله ، ومظهر البركة يبدو فى خصوبة هذا المكان الذى يوجد فيه المسجد وفى ثرائه بالثمار وخيرات الأرض ، من زروع ناضرة ورياض وافرة وطبيعة زاهرة وأنهار جارية وقرى عامرة . .

وفى أن كثيراً من الأنبياء والصالحين دفنوا حوله ، ومن هنا كان مقدساً . .

ويطلق عليه أيضاً اسم « مسجد إيلياء »

ومعنى هذا الاسم « إيلياء » بيت الله

ويطلق عليه « بيت المقدس » ـ بفتح الميم واسكان القاف وكسر الدال ـ ومعناه : البيت الذى يطهر فيه داخله من الذنوب .

وهو مشتق من القَدَس ـ بفتحتين ـ السطل الذى يستقى به الماء وهو مصدر ميمى كمرجع بمعنى رجوع من رَجَع .

---

(٢٤) وربما زكى هذا الرأى ماجاء فى العهد القديم ـ سفر التكوين الاصحاح ٢٨

ويطلق عليه أيضاً : البيت المقدس ـ بضم الميم وفتح القاف وتشديد الدال ـ ومعناه المطهر من الأصنام .

والأرض المقدسة فى تلك الأماكن هى المواضع التى وقع عليها نظر إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حين رفع على الجبل وقيل له : انظر فما أدرك بصرك فهى أماكن مقدسة لك ولولدك من بعدك(٢٥)

ويطلق عليه أيضاً سلام

والعبريون ينطقون السين شيناً فسلام عندهم شلام .

ومعنى بيت المقدس على ذلك : بيت السلام . . وروى الزركشي فى ذلك خبراً عن كعب الأحبار قال فيه : إن الجنة فى السماء السابعة بميزان بيت المقدس والصخرة . . ولو وقع حجر منها لوقع على الصخرة(٢٦)

ومن شلم ، وشلام ، جاءت كلمة « أورشليم » بنفس المعنى السابق وهو بيت السلام أو دار السلام .

ويطلق عليه « بيت إيل » أى بيت الرب . والرب فى اللغة العبرية يقال له إيل . . ويضيفون اليه مايشاءون من أسماء . .

وهناك أسماء أخرى ذكرها الزركشي فى إعلام الساجد مثل : كورة إليا ، وبابوش ، وأزيل وغيرها . .

متى أنشئت مدينة القدس ؟

لم تكن أرض الشام غريبة على العرب ، ولكنها كانت منذ فجر التاريخ متنفساً للعرب ، يرتحلون إليها فى تجارتهم ويرتبطون معها بروابط متعددة ، وقد أقامت

---

(٢٥) اعلام الساجد باحكام المساجد ص ٢٧٨

(٢٦) المرجع السابق

فيها قبائل عربية كثيرة .

وقد ذكر الله فى القرآن الكريم نبأ رحلتين إحداهما فى الشتاء وكانت إلى اليمن ، والأخرى فى الصيف وكانت إلى الشام . .

وكان يطلق على العرب القدامى الذين انطلقوا الى الشام فراراً من جدب البلاد العربية اسم « اليبوسيين » وهم قوم من العرب نزلوا الشام وابتنوا أول مدينة لهم أطلقوا عليها اسم « يبوس » .

وهذا أول اسم عربى لهذه المدينة التى عرفت فيها بعد باسم القدس

وعاش مع اليبوسيين الكنعانيون وهم من العرب المهاجرين الذين ساحوا فى

البلاد واستقروا فى الشام وهم الذين سموا المدينة « يوروشالم » ومنه كان الاسم « أورشليم » الذى عاش وتشبث به اليهود بعد ذلك .

وكان وجود « اليبوسيين » فى القدس قبل الميلاد بألف وثمانمائة سنة تقريباً ، وهو زمن ضارب فى أعماق التاريخ .

أما الكنعانيون العرب فهم الذين كانوا يقيمون فى القدس حين طلب موسى ـ عليه السلام ـ من بنى اسرائيل أن يدخلوها ، ولكنهم رفضوا وقالوا : إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها .

وتغير اسم أورشليم إلى إيليا فى عهد الرومان الذين حكموا القدس وكان اسمها إيليا عند الفتح الاسلامى ، وذكر هذا الاسم فى وثيقة الصلح التى حررها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مع سكانها فقد جاء فى هذه الوثيقة : هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان . .

لقد اختار الله هذا المكان لإقامة المسجد الأقصى كما اختار مكة لإقامة البيت الحرام . وأكرم كلا المكانين بمجاورته لهذا الحرم الذى جعله حرماً له ، وكما

اختص مكة والبيت الحرام بفضائل اختص القدس الشريف كذلك بفضائل نشير إليها فيما يلي :

فضائل القدس :

أكرم الله القدس بأن جعله محط رحال خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد أقام في رحابه ومنه كان ينتقل جيئة وذهاباً إلى ما يشاء من أماكن . . وبالقرب من مسجده المبارك يوجد مثواه الشريف وقريته المسماه باسمه . .

وفيها نشأ ابنه اسحاق . ثم يعقوب ابنه اللذان بشر بهما القرآن الكريم .

ويعقوب ـ عليه السلام ـ هو الذي يقال في أكثر الروايات انه هو الذي بني بيت المقدس ـ بعد أن بني جده إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعمه إسماعيل البيت الحرام . .

وكأن الله ـ جل وعلا ـ أراد أن تكون عمارة بيتيه الشريفين على يد خليله إبراهيم وابنه اسماعيل وحفيده يعقوب .

ومن فضائل القدس أن داود ـ عليه السلام ـ اتخذها عاصمة ملكه الواسع بعد أن استقر له الملك . وإليها انتقل من حبرون التي جعلها مقراً لحكمه في أول الأمر .

وحين انتقل الى القدس أراد أن يبني بيت المقدس من جديد ، فوضع أساسه ولكن لما بنى حائطاً سقط معظمه ، لأن الله أراد أن يدخر بناءه لإبنه سليمان . . الذي بناه على صورة مكتملة من الحسن . .

ويقال إن هذا المسجد أكبر مساجد الإسلام حتى قال العلماء : انه في كثير من الأحيان لا يكتمل فيه صف واحد خلف الامام . .[٢٧]

---

(٢٧) اعلام الساجد ص ٢٩٧

وفى ذلك دلالة على اتساعه لدرجة تعسر اكتمال الصف الواحد خلف الامام ..

وأصبح منذ ذلك الوقت مقراً للأنبياء والأولياء والصديقين .. يهب إليه الصالحون أبناءهم للخدمة فيه ..

وقد وهبت امرأة عمران مافى بطنها لخدمته .. كما أخبر بذلك القرآن الكريم فى قوله

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢٨)

(٢٨) ال عمران ٣٥ : ٣٧

وفى بيت المقدس دعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية صالحة فاستجاب الله دعاءه ، وقد أخبر القرآن الكريم بذلك قال تعالى :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) ﴾ (٢٩)

وفى هذا المكان أو قريباً منه نفخ الله من روحه فى مريم ، فحملت بعيسى روح الله وكلمته . الذى أرسله الله إلى بنى إسرائيل ليصحح لليهود مسيرتهم ، ولكنهم كفروا به وكذبوه وهموا بأن يقتلوه ويصلبوه.، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، ورفعه الله إليه لينزل فى وقت معلوم .

وإلى هذا المسجد كان إسراء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل الهجرة ، ونزل فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١) ﴾ (٣٠)

قال العلماء : ومن صخرة بيت المقدس ينادى المنادى يوم القيامة قائلاً : أيتها العظام البالية والأوصال الممزقة والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن .

---

(٢٩) آل عمران : ٣٨ : ٣٩

(٣٠) الاسراء ١

وهذا ما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٣١)

قال القرطبي : المنادى إسرافيل وقيل جبريل ، وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى ، والمكان القريب هو صخرة بيت المقدس ، ويقال إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء .

وزادت السُّنَّةُ هذه الآية بياناً ، فروى الترمذى عن معاوية بن حيدة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديث ذكره : وأشار إلى الشام بيده فقال : من هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركباناً ومشاة توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله (٣٢)

وقوله : وسط الأرض لا ينافى أن مكة فى وسطها أيضاً . . فالمنطقة العربية كلها فى وسط العالم أما مكة فهى سرة هذا الوسط . .

ومن فضائل بيت المقدس أن جعله الله أولى القبلتين ، فإليه كان المسلمون يتوجهون فى صلاتهم فى أول فرض الصلاة . .

وظلوا يصلون إليه وهم فى مكة ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتوجه إلى بيت المقدس جاعلاً الكعبة بينه وبين بيت المقدس . . فلما هاجر إلى المدينة تاقت نفسه أن تكون قبلة المسلمين هى الكعبة أول بيت وضع للناس .

---

(٣١) ق ٤١ : ٤٤

(٣٢) تفسير القرطب ـ سورة ق ص ٦١٩٧ ط دار الشعب

فاستجاب الله له وحول القبلة إليها بعد شهور اختلف الرواة فى تحديدها ، فبعضهم يقول : إنها تسعة ، وبعضهم يقول : إنها عشرة ، وبعضهم يقول : إنها سبعة عشر شهراً .

والمهم فى ذلك أن القبلة أولاً كانت إلى بيت المقدس ،وفى ذلك دلالة على أن هذا البيت شرفه الله وكرمه ، فوجه أنظار المسلمين إليه . . فترة من الزمن . .

وقد يكون فى ذلك دلالة على عموم رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنها لم تكن رسالة خاصة كالرسالات السابقة .

وليس تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة غَضًا من شأنه أو حطاً من مكانته بل لأن الكعبة فى سرة الأرض تماماً وهى مركز دائرتها ففى توجه المسلمين إليها فى شتى الأقطار جمع لكلمتهم وتحقيق لوحدتهم وإكمال لنظامهم ، وكما كان البيت الحرام أول بيت وضع للناس كانت الرسالة الخاتمة أحرى بالتوجه له والإلتجاء اليه . . وليس من المعقول أن يفرض على المسلمين حج البيت ثم لا يكون قبلتهم التى يتوجهون إليها فى صلاتهم .

ومما ورد فى فضل بيت المقدس ما روى عن عطاء الخراسانى قال : بيت المقدس بنته الأنبياء وعمرته الأنبياء ووالله مافيه موضع شبر إلا وقد سجد فيه نبى(٣٣)

وقد أورد الزركشى عن ابن عباس قوله : من حج وصلًى فى مسجد المدينة والمسجد الأقصى فى عام واحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . .(٣٤)

---

(٣٣) ذكره الزركشى فى كتابه اعلام الساجد ص ٢٨٣ وقال محققه : ذكريا قوت عن ابن عباس : البيت المقدس بنته الانبياء وسكنته الانبياء ، مافيه موضع شبر الا وقد صلى فيه نبى أوقام فيه ملك ـ معجم ياقوت ١/١١٢ وانظر الانس الجليل ١/٢٠٦

(٣٤) اعلام الساجد ص ٢٩٦

إسراء النبي ﷺ إليه :

أراد الله أن يكرم نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويسرى عنه ، ويريه من آياته الكبرى ، فأسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به من هناك إلى السماوات العلا . .

وهيأ الله نبيه لهذه الرحلة ، فأرسل جبريل ـ عليه السلام ـ فشق صدره الشريف وغسله بماء زمزم وملأه حكمة وإيماناً . .

ثم أتى بالبراق ، فامتطاه وسار به إلى بيت المقدس . .

ودخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه جبريل بيت المقدس ، فصلى كل واحد منهما ركعتين . . ويقال : إنه حشدت له الأنبياء فصلى بهم(٣٥)

ويقال : إن الملائكة صلت معه ، فلما قضيت الصلاة قالوا : يا جبريل من هذا الذى معك ؟ قال : محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا : أوقد أرسل محمد ؟ قال : نعم . قالوا : حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء . .

وحين لقى الأنبياء أثنوا على ربهم ، فكل منهم تحدث بنعمة الله عليه حتى جاء الدور على نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين وللناس كافة بشيراً ونذيراً ، وأنزل عليّ الفرقان فيه بيان لكل شيء ،

وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس ، وجعل أمتى أمة وسطاً وجعل أمتى هم الأولين وهم الآخرين ، وشرح لى صدرى ، ووضع عنى وزرى ، ورفع لى ذكرى ، وجعلنى فاتحاً وخاتماً ، فقال إبراهيم : بهذا فضلكم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ(٣٦)

---

(٣٥) سيرة بن هشام جـ ٢ ص ٣

(٣٦) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٢ ـ تفسير سورة الاسراء .

وفى قصة الإسراء نبه ابن كثير إلى فائدة حسنة جليلة ـ فقال : روى الحافظ أبو نعيم الأصفهانى بسنده إلى محمد بن كعب القرظى قال :

بعث رسول الله ـ صلى الله عليه ةوسلم ـ دحية بن خليفة إلى هرقل قيصر الروم فذكر وروده وقدومه عليه ـ وفى السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ـ

ثم استدعى من فى الشام من التجار ، فجىء بأبى سفيان صخر بن حرب وأصحابه وكانوا فى أثناء ذلك فى تجارة لهم بالشام فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التى رواها البخارى ومسلم .

وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمر النبى ويصغره عند هرقل .

فقال فى هذا السياق عن أبى سفيان : والله ما يمنعنى أن أقول عليه قولاً

أسقطه من عينه إلا أنى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على . ولا يصدقنى بشىء ـ حتى ذكرت قوله : ليلة أسرى بى . .

قال أبو سفيان : فقلت أيها الملك ، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب ، يعنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال هرقل : وماهو ؟

قال أبو سفيان : إنه يزعم أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة ، فجاء مسجدكم هذا ، مسجد إيلياء ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح .

وكان بَطْرِيق إيلياء جالساً عند رأس قيصر . . فقال : قد علمت هذه الليلة

فنظر إليه قيصر مستطلعاً ، وقال : وما علمك بهذا ؟

فقال البطريق : إنى كنت لا أنام حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى ، فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم ، فعالجناه فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كنا كأنما نزاول به جبلاً ،

فدعوت النجاجرة ، فنظروا إليه ، فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف ـ العتبة العليا ـ والبنيان ، ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى .

قال البطريق : فرجعت وتركت البابين مفتوحين .

فلما أصبحت غدوت عليهما ، فإذا بالحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مربط دابة ، فقلت لأصحابى : ماحبس هذا الباب الليلة إلا على نبى ، وقد صلى الليلة فى مسجدنا (٣٧)

أما ثقب الحجر فقد أشار اليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديث قال : فلما أتينا المسجد غمز جبريل بإصبعه الحجر فثقبه فربط فيه البراق (٣٨)

وينبغى الإشارة هنا إلى أن بيت المقدس بصورته الراهنة لم يبن إلا فى عهد الخلافة الأموية ، وأن النصارى لم يكن لهم مساجد وإنما كانت لهم كنائس لها بطاريقها القائمون على خدمتها .

لقد هدم المسجد الأقصى الذى بناه سليمان . . وقامت مقامه كنائس كان يحج إليها النصارى منذ عهد الرومان وهذا لا يمنع أن أثر المسجد الأقصى الذى باركه الله كان موجوداً وفى إسراء النبى إليه اشارة إلى إحياء أثره وإعادة بنائه بعد ذلك كما كان .

وحين قال له من قال : صفه لنا . . استحضر الله أمامه ما كان موجوداً من مشاهد يراها التجار والرحالة فى هذه المدينة المقدسة فوضعها أمامه فوصفها صلى الله عليه وسلم .

(٣٧) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤١

(٣٨) روى ذلك ابن كثير فى تفسيره جـ ٥ ص ١٨ مسندا الى عبدالله بن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما كان ليلة اسرى بى اتى جبريل الى صخرة بيت المقدس فوضع اصبعه فيها فخرقها فشد فيها البراق .

أما ما قاله البطريق فى القصة التى ذكرها ابن كثير ـ فعلى فرض صحتها ـ أنه تحدث عن كنيسته باسم المسجد على اعتبار أنها مكان للعبادة والسجود .

وأى مكان يعبد فيه الله فهو مسجد وكأن استعصاء إغلاق الباب كان إشارة نبهت البطريق إلى موضع ربط البراق فى الثقب الذى استحدثه جبريل بالصخرة ولم يكن موجوداً من قبل ولولا استعصاء الباب لما تنبه لذلك . .

وقد يكون لدى البطريق علم بالأخبار التى وردت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . فى كتبهم القديمة ومن بينها حادث الإسراء الذى رأى علامته فى الصخرة . .

على أنه لاينبغى أن نغفل أن الأكاسرة كانوا قد غلبوا على بيت المقدس .

فى أوائل البعثة النبوية ، وحطموا ماوجدوا فيه وكسروا الصلبان وأقاموا فى المدينة المُقدسة بيتا للنار ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ ﴾ (٣٩)

فان كان هناك أثر لبيت المقدس القديم فقد هدم فى هذه الموقعة ودرس أثره حتى أحياه المسلمون فى عهد الخلافة الأموية . .

وكان لحادث الاسراء أثره بين المسلمين وغيرهم . .

أما المسلمون فقد ازداد أقوياء الايمان منهم إيمانا . . وهذا أبوبكر يلقب بالصديق لموقفه من هذا الحادث . لأنه قال حين أخبره القرشيون بما أخبر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مسراه ولم يكن قد سمعه منه بعد : لئن كان قال هذا فقد صدق . .

---

(٣٩) سورة الروم من ١ ـ ٤

وأما ضعاف الاسلام فقد شكوا وبعضهم ارتد .

ولغرابة هذا الحادث أشفق أهل النبى - صلى الله عليه وسلم - عليه وأشاروا عليه بعدم تحديث الناس عما رآه . ولكنه لم يكتم ما أمره الله بتبليغه .

جاء فى كتاب الروض الأنف نقلا عن محمد بن إسحاق قال : وكان فيما بلغنى عن أم هانىء بنت أبى طالب - رضى الله عنه - واسمها هند - فى مسرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تقول : ما أسرى برسول الله - صلى الله عليه وسلم إلا وهو فى بيتى فقد صلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا . فلما كان قبيل الفجر أَهَبَّنَا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : ياأم هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى .

ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه . ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين . ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه ، فقلت له : يانبى الله ، لاتحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك . قال : والله لأحدثنهم به . .

قالت : فقلت لجارية لى حبشية : ويحك اتبعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى تسمعى مايقوله للناس ومايقولون له .

فلما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس أخبرهم فعجبوا وقالوا : ما آية ذلك يامحمد ؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قط .

قال : آية هذا أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فأنفرهم حس الدابة ، فَنَدَّلهم بعير فدللتهم عليه ، وأنا موجه للشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان - اسم مكان - مررت بعير بنى فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشىء فكشفت غطاءه وشربت مافيه ، ثم غطيت عليه كما

كان . وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء ، يقدمها جمل أورق [٤٠] عليه غرارتان ، إحداهما سوداء والأخرى برقاء .

قالت : فابتدر القوم الثنية فكان أول مالقيهم الجمَل كما وصف لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألوهم عن الاناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا بالماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ولم يجدوا فيه الماء .

وسألوا الآخرين وهم بمكة . . فقالوا : صدق والله لقد أنفرنا فى الوادى الذى ذكر ، وند لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعُونا إليه حتى أخذناه .

وأما الكفار فقد اشتد تكذيبهم للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أقبلوا يسألونه عن أوصاف بيت المقدس ، فجعل يخبرهم ولايستطيعون أن يردوا عليه شيئاً .

لماذا كان الاسراء إلى بيت المقدس ؟

قد علمنا أن بيت المقدس هو ثانى بيت وضعه الله للناس فى الأرض فأراد الله أن يربط بين هاتين البقعتين فى رحلة الإسراء والمعراج . .

فإلى المسجد الأقصى كان الاسراء ، ومن المسجد الأقصى كان المنطلق إلى السماء .

لقد أراد الله أن يعلمنا درسا فى السياسة الإسلامية فان طريق الربط الصحيح بين الأماكن والبلدان هو عبادة الله والتوجه إليه والقرب منه ، وللاشارة إلى أن

هذين المكانين سيكونان على امتداد التاريخ مبعث انتشار هذا الدين ، وعلى المسلمين وجوب تطهيرهما من كل رجس وتحريرهما من كل غاصب وصيانتهما بالروح والمال والولد من كل معتد أو آثم .

---

(٤٠) الاورق من الابل الذى فى لونه بياض الى سواد

بناء المسجد قديما :

روى البيهقى فى سننه فى حديث مسند إلى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة . قال : لما أراد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه أن يزيد فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقعت زيادته على دار العباس فأراد عمر أن يدخلها فى المسجد ويعوضه عنها فأبى ، وقال : قطيعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى هبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لى .

فاختلفا فجعلا بينهما أُبىّ بن كعب ، فأتياه فى منزله ، وكان يسمى سيد المسلمين ، فأمر لهما بوسادة فألقيت إليهما ، فجلسا عليها بين يديه ، فذكر عمر ماأراد ، وذكر العباس قطيعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

فقال أُبىّ : إن الله عز وجل أمر عبده ونبيه داود أن يبنى له بيتا ، فقال : أى رب ، وأين هذا البيت ؟

فقال : حيث ترى المَلَكَ شاهرا سيفه . فرآه على الصخرة .

وإذا ما هناك أَنْدَر ـ مكان خال ـ لغلام من بنى اسرائيل ، فأتاه داود فقال : إنى قد أمرت أن أبنى فى هذا المكان بيتا لله عز وجل .

فقال الفتى : آلله أمرك أن تأخذها بغير رضاى ؟ قال : لا

فأوحى الله إلى داود ـ عليه السلام ـ : انى قد جعلت فى يديك خزائن الأرض فأرضه . . فأتاه داود فقال له : إنى قد أمرت بإرضائك ولك بها قنطار من ذهب .

فقال : قد قبلت ياداود وهى خير أم القنطار ؟

قال : بل هى خير

قال : فأرضنى .

قال : فلك بها ثلاثة قناطير .

قال : فلم يزل يشدد على داود حتى رضى منه بتسعة قناطير .

قال العباس : اللهم لا آخذ لها ثوابا ، وقد تصدقت بها على جماعة المسلمين . فقبلها عمر منه فأدخلها فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم [٤١] .

وهذا الخبر يشير إلى عزم داود على بناء بيت المقدس ، وإلى أن الله طلب منه ذلك ، وأنه لم يدخر وسعا فى تنفيذ أمر الله ، وأنه بذل فى سبيل الأرض التى أقيم عليها مالا جزيلا ، ولم يغتصبها . . فإنه لاينبغى أن يقام بيت لله على أرض مغصوبة .

وقد أفتى العلماء بعدم قبول الصلاة التى تقام فى أرض مغصوبة .

كما يشير الخبر إلى أريحية العباس ـ رضى الله عنه ـ حيث انه وهب بيته لله ، ولم يتنازل عنه لقاء عوض مادى ، فما عند الله خير وأبقى .

وما كان تمسكه بادىء ذى بدء الا لحرصه على الأثر الذى وهبه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياه .

ويذكر الثعلبى فى ذلك خبرا آخر . قال :

إن داود ـ عليه السلام ـ طلب من قومه أن يبنوا لله بيتا شكرا له على نعمه وعلى رفعه العذاب عنهم واختار لهم مكانا عند الصخرة المقدسة .

ذلك أنه رأى الملائكة عندها يصعدون إلى السماء فى سلم من ذهب . .

فأجابه قومه إلى ذلك . فلما هموا بالبناء جاء رجل صالح فقير يختبرهم . وقال لهم : إن لى فى هذا المكان موضعا أنا محتاج إليه ، ولايحل لكم ان تحجبونى عن حقى .

---

(٤١) اعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى

فقالوا له : ياهذا ما من أحد من بنى إسرائيل إلا وله فى هذا الصعيد حق مثل حقك ، فلا تكن أبخل الناس ، ولاتضايقنا فيه .

فقال : أنا أعرف حقى وأنتم لاتعرفون حقكم .
ورفع الأمر الى داود فقال : أرضوه .

فعرضوا عليه أن يشتروه بحائط مثله قد زرع زيتونا ونخلا وعنبا ، فقال الرجل : لداود : أنت تشتريه لله ـ عز وجل ـ فلا تبخل فقال له داود : سل ماشئت .

قال الرجل : أنت اكرم على الله منى . ولكن ابن لى جداراً واملأه ذهبا أو فضة ـ فقال داود : هذا هين .

فقال الرجل : والتفت لبنى اسرائيل : هذا هو التائب المخلص ـ يقصد داود ـ ثم قال : لأن يغفر الله لى ذنبا واحدا أحب إلىّ من كل شىء وُهِبَ لى. أنا ماجئت طالبا مالا ولكنى جئت لأختبركم . .

فجدوا فى بناء بيت المقدس . .
وكان ذلك لأحدى عشرة سنة مضت من ملك داود .

وكان داود فيما يقال يحمل الحجار على ظهره ومعه أحبار بنى اسرائيل حتى رفعوه قدر قامة وعجزوا فتوقفوا ، وظلوا يصلون فيه على حالته حتى توفى داود ـ عليه السلام (٤٢) .

وهذه الرواية وغيرها من الروايات تشهد بأن بيت المقدس لم يتم فى عهد داود .

---

(٤٢) قصص الانبياء للثعلبى ص ٣١٢

ويدل على ذلك ما أورده الطبرانى فى معجمه الكبير مسندا إلى رافع بن عمير قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : قال الله عز وجل ـ لداود : ابن لى بيتا فى الأرض . فبنى داود بيتا لنفسه قبل البيت الذى أمر به .

فأوحى الله إليه : ياداود ، نصبت بيتك قبل بيتى .
قال : أى رب هكذا قلت فيما قضيت . من مَلَك استأثر .
ثم أخذ فى بناء البيت فلما تم السور سقط ثلثاه .

فشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فأوحى الله عز وجل إليه :
انه لايصلح أن تبنى لى بيتا .
قال : أى رب ، ولم ؟ .

قال : لما جرى على يديك من الدماء .

قال : أى رب ، أولم يكن ذلك فى هداك ومحبتك .

قال : بلى ، ولكنهم عبادى وأنا أرحمهم .

فشق عليه ذلك . فأوحى الله إليه : لاتحزن ، إنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان . (٤٣) .

وقال بعض العلماء : إن داود بنى منه موضع قامة ومات . فأتمة سليمان .

سليمان يبنى البيت

لما تولى سليمان المُلك ، وكان الله قد أمده بعونه ، ومكن له فى الأرض ووهب له ملكا لاينبغى لأحد من بعده .. وسخر له الجن والشياطين يعملون بين يديه ..

---

(٤٣) المرجع السابق

شمر عن ساعد الجد فى بناء بيت المقدس . .

قال الطبرانى : لما مات داود أخذ سليمان فى بناء بيت المقدس فلما تم قرب القرابين وذبح الذبائح وجمع بنى اسرائيل ، فأوحى الله إليه : إنى أرى سرورك ببناء بيتى فسلنى أعطك .

قال : أسألك ثلاث خصال ، حكما يصادف حكمك ، وملكا لاينبغى لأحد من بعدى ، ومن أتى هذا البيت لايريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أما اثنتين فقد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة (٤٤) .

وروى عن كعب الأحبار أن سليمان بن داود ـ عليه السلام بنى بيت المقدس على أساس كان قد أسسه سام بن نوح ، وذكر أبوبكر محمد بن احمد الواسطى فى كتاب فضائل القدس : أن سليمان اشترى أرضه بسبعة قناطير من ذهب . .

سليمان يستعين بالجن فى بنائه :

وذكر الدميرى فى كتابه قال :

كان الذى ابتدأ فى بناء بيت المقدس دواد ـ عليه السلام ـ فرفعه قامة رجل ثم مات .

فلما استخلف ابنه سليمان ـ عليه السلام ـ أحب إتمامه ، فجمع الجن والشياطين ، وقسم عليهم الأعمال فخص كل طائفة منهم بعمل ، وبدأ أولا فى

---

(٤٤) رواه احمد والنسائى وابن خزيمة وابن حيان والحاكم ورواه الطبرانى فى الكبير ، وفى اعلام الساجد ص ٢٨٢

بناء المدينة .

فأرسل الجن والشياطين فى تحصيل الرخام والمها الأبيض .

وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح ، وجعلها اثنى عشر ربضا وأنزل فى كل ربض منها سبطا .

فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ فى عمارة المسجد .

فوجه الشياطين فرقا فرقا يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنها ، والدر الصافى من البحر .

وفرقا يحضرون الجواهر والرخام من أماكنها .

وفرقا يأتونه بالمسك والعنبر وسائر أنواع الطيب .

فأتى من ذلك بشىء لايحصيه الا الله ـ تعالى ـ .

ثم أحضر الصناع ، فأمرهم بنحت تلك الحجارة المرتفعة وتصييرها ألواحا ، وثقب اليواقيت واللآلىء ، وإصلاح الجواهر .

فبنى المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر .

وعمده بأساطين المها الصافى (٤٥) وسقفه بأواح الجواهر الثمينة ، ونضد سقفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر .

فلم يكن يومئذ فى الأرض بيت أبهى ولاأنور من ذلك المسجد ، كان يضىء فى الظلماء كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بنى إسرائيل ، فأعلمهم أنه

---

(٤٥) أى الحجارة البيض التى تبرق وهو البلور

قد بناه لله عز وجل خالصا . واتخذ ذلك اليوم عيدا .(٤٦)

مارواه القصاص عن الجنى صخر :

والقصاص عادة مولعون بالأخبار الغريبة ، وقد ذكروا قصة عن جنى استدعاه سليمان ليستعين به في بناء البيت ،ونحن نذكرها لما فيها من طرافة وعبرة فى الوقت نفسه .

قال الرواة : إن العمال حين كانوا يقطعون الحجارة تصدر عنها أصوات شديدة أزعجت سليمان ، فسأل الجن عن حيلة تقطع الحجارة بدون أصوات .

فأخبروه بأنه لايعلم هذه الحيلة إلا صخر الجنى . فأرسل فى طلبه . وأمر رسوله أن يخبره بكل مايصدر من صخر فى الطريق .

فلما جاء الرسول ومعه صخر . سأل سليمان الرسول عما رآه من صخر فقال له :

إنه كان يضحك من الناس ويسخر منهم .

فسأله سليمان عن ذلك فقال :

يانبى الله ليس ضحكى سخرية منهم ولكن لما رأيت منهم من حالهم .

فقد مررت برجل معه بغلة يريد أن يسقيها وجرة يريد أن يشرب بها ، فسقى البغلة وملأ الجرة ثم أراد أن يقضى حاجته ، فربط البغلة إلى الجرة ، فنفرت البغلة فكسرت الجرة . فضحكت من حمقه حيث توهم أن الجرة تحبس البغلة .

---

(٤٦) حياة الحيوان ـ ١ ص ٥٦٥

ثم مررت برجل يشترط على إسكافى يستعمله فى إصلاح خف له . يشترط عليه أن يصلحه بحيث يبقى معه أربع سنين . ونسى أن نزول ملك الموت إليه قد يأتى قبل ذلك فضحكت من قلة عقله وجهله .

ومررت بعجوز تتكهن وتخبر الناس بما لايعلمون من أمور السماء ، وكنت قد عهدت رجلا دفن فى موضع فراشها ذهبا كثيرا فى الازمان الخالية . فرأيتها تموت جوعا وتحت رأسها ذهب كثير لاتعلم عنه شيئا .

ثم تخبر الناس بأمر السماء فضحكت منها .

ومررت فى بعض الأسواق فرأيت الثوم وهو دواء يكال كيلا ، ورأيت الفلفل وهو داء يوزن وزنا فضحكت من جهلهم .

ومررت بقوم يبتهلون إلى الله ويسألونه الرحمة والمغفرة ، فمل منهم قوم وقاموا وجاء آخرون فجلسوا ثم جاءت الرحمة فنزلت فأخطأت الذين قاموا وأصابت الذين جاءوا فضحكت تعجبا للقضاء والقدر .

ثم سأله سليمان عن حيلة لقطع الحجر بدون صوت ، فأخبره بما يريد

الإسلام يشيد بهذا البيت

وقد مر بنا الحديث عن فضل هذا البيت ، وعرفنا أن الاسلام اعتز به اعتزازا شديدا فجعله مسرى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأولى القبلتين للمسلمين فى صلاتهم . .

وضاعف ثواب الطاعة فيه . .

روى ابن ماجه عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم ـ : صلاة الرجل فى المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة ـ وصلاة فى مسجدى بخمسين ألف صلاة وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة .

ويطلق المسجد الأقصى على المسجد والساحة المقدسة حوله وهى تبلغ أربعة وثلاثين فدانا . .

وجعل الاسلام هذا المسجد أحد ثلاثة مساجد تشد إليها الرحال ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » . .

المسجد الأقصى مركز الديانات الثلاث: •

لقد شاء الله أن يكون المسجد الأقصى مطمح أنظار أصحاب الديانات الثلاث . .

فالمسلمون ينظرون إليه على أنه مسرى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأولى قبلتى المسلمين فى الصلاة وأن الله أشاد بذكره فى القرآن وأعرب عن فضله وجعله مباركا . . فقال :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١ ﴾ (٤٧)

هذا بالنسبة للمسلمين .

أما بالنسبة لليهود فإن نبيهم وملكهم سليمان ـ عليه السلام ـ هو الذى شيد هذا البيت ، وجعله خالصا لوجه الله ، ودعا قومه إلى عباد الله فيه . .

---

(٤٧) الاسراء آية ١

وبالنسبة للنصارى فإن المسيح ـ عليه السلام ـ ولد فى جواره ودعا فيه إلى ربه ، وقارع اليهود وحاجهم فيه ، وبجواره كنيسة القيامة التى لها اعتزاز خاص فى نفوسهم .

ابن بطوطة يصفه :

وقد وصفه ابن بطوطة فى رحلته الشائقة وقال فيه :

« وهو من المساجد العجيبة الرائقة ، الفائقة الحسن ، يقال : إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه ، وإن طوله من الشرق إلى الغرب سبعمائة واثنان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية ـ الزراع المالكية طولها ٣٢ إصبعا ـ وعرضه من القبلة الى الجوف اربعمائة وخمس وثلاثون ذراعا ، وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث ، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا بابا واحدا ، وهو الذى يدخل منه الامام »(٤٨)

كما وصف الصخرة ، وذكر أنها من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا ، قد توافر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف ، وهى وسط المسجد .

بيت المقدس يتعرض للتخريب :

هذا البيت الكريم الذى أراد الله أن تعلو فيه كلمته ، ولايذكر فيه إلا اسمه .. تعرض لألوان من العدوان البربرى .

ولكن هذا العدوان تم بناء على نسيان من فيه تعاليم ربهم فعاقبهم الله بأن سلط عليهم عدوهم ..

---

(٤٨) رحلة ابن بطوطة ص ٤٥

وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ
وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ
أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا
لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ
نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ
وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ
عُدتُّمْ عُدْنَا ۚ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ (٤٩)

وهذه الآيات الكريمة تشير إلى أنه لاعقاب إلا بجرم . وبذلك جرى عدل الله ، ويعفو عن كثير . . وقد أفاء الله على بنى إسرائيل نعما كثيرة ، وأمد لهم فى حبل العطاء إلى أبعد الآماد ، ولكن ذلك لم يزدهم إلا غرورا . .

وزين لهم ذلك الغرور أنهم أفضل خلق الله وأنهم شعب الله المختار ، فأى ذنب يرتكبونه مغفور ، وأى جرم يفعلونه متجاوز عنه . .

ولكن الله ـ جلت قدرته ـ يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

والناس عند الله سواء ، ولافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .

---

(٤٩) الاسراء ٤ : ٨

وهذا هو المقياس الذى وضعه الله منذ الأزل ، وبه يفاضل بين الناس .

أما ماورد فى القرآن بشأن تفضيل بنى إسرائيل على العالمين فان ذلك كان فى زمن موسى حين بعث إليهم ، فلم يكن أحد يعبد الله غيرهم . وكانت الوثنية منتشرة فى العالم . . فكانوا أفضل أهل زمانهم لذلك . .

ولكنهم بمرور الأيام غيروا وبدلوا ، وجاءت رسل وأنبياء اهتدى على أيديهم ناس فاقوا غيرهم ، حتى بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكانت أمته خير الأمم وديانته خاتمة الديانات .

وشاءت رحمته ـ تعالى ـ أن يكرر الانذار لبنى إسرائيل حتى لاتكون لهم حجة ، فكانت تأتيهم أنبياؤهم محذرين من نقمة الله وعقوبته ، وتوالى هؤلاء الأنبياء وكثروا ولم يكن يخلو منهم زمان ، بل كان فى الزمن الواحد أكثر من نبى . ليكون مذكره لهم على الدوام ، ومحذرا لهم من التمادى فى الخطأ والعصيان .

واذا كان الخطأ ممقوتا فى أى مكان فهو أشد مقتا فى حرم الله الذى جعله الله مأمنا للخائف وملجأ للملهوف ومثابة للناس .

إنه مكان عبادة وإنابة لله . . فلا ينبغى أن يروع فيه الخائف أو يظلم فيه اللاجىء أو تنتهك فيه حرمات الله . . ولكن ماحدث من بنى إسرائيل فى حرم الله عكس ذلك .

وحتى لا يكون إطلاق الكلام على عواهنه ، فإننا نستشهد بما جاء على لسان نبى من أنبياء بنى إسرائيل يحذر قومه سوء مافعلوه فى بيت المقدس وينذرهم بما سيحدث لهم جزاء ذلك :

قال الرب على لسان أشعياء النبى : « لاتعودوا تأتون بتقدمة باطلة ، رءوس شهوركم ، وأعيادكم بغضتها نفسى صارت على ثقلا ، فحين تبسطون أيديكم أستر عينى عنكم ، لا أسمع أيديكم وهى ملآنة بالدماء ، اغتسلوا ، تنقوا ، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عينى ، كفوا عن فعل الشر ، تعلموا فعل الخير .. وان أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف .

كيف صارت القرية الأمينة زانية كان العدل يبيت فيها ، وأما الآن فالقاتلون . رؤساؤك متمردون ولصوص ، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا ، لايقضون لليتيم ، ودعوى الأرملة لاتصل إليهم .. »(٥٠) .

ومما يدل على استشراء الفساد فيهم ماجاء بعد ذلك فى الاصحاح الثالث :

« قد انتصب الرب للمخاصمة ، وهو قائم لدينونة الشعوب .. أنتم قد أكلتم الكرم ، سلب البائس فى بيوتكم ، مالكم تسحقون شعبى وتطحنون وجوه البائسين .. » .

ويزداد استشراء الفساد بالنساء اللاتى وصفهن النص بأنهن :

« يتشامخن ، ويمشين ممدودات الأعناق ، وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ، ويخشخشن بأرجلهن »(٥١) .

فمن أجل ذلك .. « يصلع السيد هامتهن ويعرى عورتهن وينزع زينة الخلاخل .. ويجعل عوض . الطيب عفونة ، وعوض المناطق حبلا ، وعوض

---

(٥٠) العهد القديم سفر أشعياء الاصحاح الأول . وراجع بقية الاصحاحات تجد النذر التى أنذر بها أشعياء قومه . وحذرهم سخط الله .

(٥١) الخشخشة : حركة لها صوت كصوت السلاح

الجداثل قراعا ، وعوض الديباج زنارا .. سوف يسقط الرجال بالسيف ويهزم الأبطال فى الحرب .. » .

إنه العقاب الالهى لهؤلاء الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، ونسوا تعاليم الرب الذى أحسن إليهم .. استنقذهم أولا من ذل فرعون ، وأخرجهم من مصر بعد أن أغرق الجبار الذى أذلهم فى البحر .. ثم مكن لهم فى الأرض ، وجعل لهم مملكة زاهرة .. يحكمها ملوك أنبياء ..

ومازال نبيهم أشعياء ينصحهم ويذكرهم .. حتى ضاقوا به ذرعا فقتلوه .(٥٢) .

فجاء بعده « أرمياء » الذى واصل نصحهم وإرشادهم وتذكيرهم دون جدوى .

تحقق الوعيد :

وتحقق ذلك الوعيد الذى توعد الله به هؤلاء الجاحدين لنعمة الله فأرسل عليهم « بختنصر » وبختنصر ملك بابل ..

وقصة ذلك على مايرويها أهل الأخبار :

قال محمد بن إسحاق : بعث الله ارمياء وهو نبى من أنبياء بنى إسرائيل إلى ناشية بن أنوص ملك بنى اسرائيل ليسدده ويأتيه بالخبر من الله .

وكان قوام أمر نبى اسرائيل بالاجتماع على الملوك وعلى الملوك طاعة أنبياءهم ، فكان الملك هو الذى يسير بالجموع ، والنبى يقيم له أمره ويشير عليه يرشده

(٥٢) تفسير القرطبى ـ سورة الاسراء ص ٣٨٢١ ط دار الشعب .

ويأتيه بالخبر من ربه ـ عز وجل ـ .

فعظمت الأحداث فى بنى اسرائيل وركبوا المعاصى . فأوحى الله إلى أرمياء ان ذكر قومك النعمى وعرفهم أحداثهم . .

فقام أرمياء فيهم ، ولم يدر مايقول . فألهمه الله فى الوقت خطبة طويلة بليغة ، بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية .

وقال فى آخرها عن الله عز وجل : ـ وانى أحلف بعزتى لآتينكم بفتنة يتحير فيها الحكيم ، ولأسلطن عليكم جبارا قاسيا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرحمة ، يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم .

ثم أوحى الله إلى أرمياء : إنى مهلك إسرائيل بيافث . .
ويافث هم أهل بابل ، وهم من ولد يافث بن نوح . .

فلما سمع أرمياء ذلك . صاح وبكى ومزق ثيابه ، ونبذ التراب على رأسه .
فأوحى الله إليه : يا أرمياء ، أشقَّ عليك ما أوحيت إليك ؟

قال : نعم يارب ، أهلكنى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل مالا أُسَرُّ به . .
فأوحى الله إليه : وعزتى لاأهلك بنى إسرائيل حتى يكون ذلك من جهتك .

ففرح بذلك أرمياء وقال : لا ، والذى بعث موسى بالحق ، لاأرضى بهلاك بنى إسرائيل أبدا .

ثم جاء إلى الملِك فأخبره بذلك . وكان ملِكا صالحا ، فاستبشر وفرح ، وقال : إنْ يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة ، وإن يعف عنا فبرحمته .

ولبث بنو إسرائيل بعد هذا الوحى ثلاث سنين . وكان مقتضى هذا الانذار أن يصلحوا من أمرهم وأن يزدجروا عن غيِّهم ، ولكنهم لم يزدادوا إلا عتوا وفسادا وتماديا فى الشر . وإمعانا فى البغى .. فحق عليهم العذاب والهلاك ..

وكان لهذا العذاب نُذُر ظهرت فى قلة الوحى إلى نبيهم .. وإعراضهم عن نصح ملكهم ووعظ علمائهم حين دعوهم إلى التوبة فأبوا ..

فسلط الله عليهم بختنصر ..

فخرج إليهم فى ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس ..

فلما قصد سائرا أتى الخبر إلى الملك ، فقال لأرمياء : أين مازعمت أن الله ـ عز وجل ـ أوحى اليك فقال أرمياء : إن الله لايخلف الميعاد ، وأنا به واثق .

فلما قرب الأجل بعث الله إلى أرمياء ملَكا متمثلا فى صورة رجل من بنى إسرائيل . فقال له أرمياء : من أنت .

فقال : أنا رجل من بنى إسرائيل أتيتك أستفتيك فى أهلى ورحمى . وصلت أرحامهم ، ولم أفعل بهم إلا حسنا ، ولم أقدم لهم إلا كل جميل ، فلم يزدهم إكرامى لهم إلا سخطا وإعراضا عنى ..

فأفتنى فيهم ..

فقال له أرمياء : أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم ، وأبشر خيرا فانصرف الملك ..

واحتجب أياما عديدة عن أرمياء . ثم جاءه بعد ذلك فى نفس صورة الرجل الذى جاءه فى المرة الأولى . . فقال له أرمياء : من أنت .

قال الملَك : أنا ذلك الرجل الذى جئتك قبل ذلك أستفتيك فى أهلى وذوى قرابتى . .

فقال له : أرمياء : أما تحسنت أخلاقهم عن ذى قبل

فقال الملَك : يانبىَّ الله ، ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى رحِمه إلا أتيتها إليهم ، وأفضل .

قال أرمياء : ارجع فأحسن إليهم ، وأنا أسأل الله الذى يصلح عباده أن يصلحهم لك .

فانصرف الملَك ، ومكث أياما . . وكان بختنصر قد أصبح قريبا من بيت المقدس ، وانتشرت جنوده حوله كالجراد . .

ففزع بنو اسرائيل فزعا شديدا . .

وقال الملِكُ لأرمياء : أين ماوعدك به ربك ؟ .

فقال أرمياء : إن ماوعدنى ربى حقا ، وأنا واثق به .

ثم جاء الملَك إلى أرمياء ، وهو جالس على جدار بيت المقدس وهو يضحك ويستبشر بوعد ربه ونصره إياه .

فجلس الملَك بين يديه . . فقال له أرمياء : من أنت ؟ .

قال الملك • أنا الذى أتيتك مرتين قبل ذلك أستفتيك فى شأن أهلى ورحمى .

فقال أرمياء : ألم يأن لأهلك أن يفيقوا مما هم فيه

فقال الملَك : يانبى الله . كل شيء كان يصيبنى قبل ذلك كنت أصبر عليه . ولكنى اليوم رأيتهم فى عمل لايرضى الله تعالى . .

فقال أرمياء : على أى عمل رأيتهم .

قال رأيتهم على عمل عظيم من سخط الله ـ عز وجل ـ ، فغضبت لله ـ تعالى ـ وأتيتك . وأنا أسألك بالله الذى بعثك بالحق أن تدعو الله عليهم أن يهلكهم .

فقال أرمياء وقد رفع يديه إلى السماء : اللهم يامالك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم وإن كانوا على عمل لاترضاه فأهلكهم . .

وقد كان هؤلاء القوم على عمل لايرضاه الله فعلا . . كانوا على الصورة التى وصّفتها نصوص العهد القديم والتى اقتبسنا بعضها فيما سبق . .

وما أن خرجت هذه الكلمة من فم أرمياء حتى أرسل الله صاعقة من السماء فالتهب مكان القربان من بيت المقدس وخسف بسبعة أبواب من أبوابه . .

فلما رأى ذلك أرمياء صاح وشق ثيابه . .

وقال : يامالك السموات والأرض أين ميعادك الذى وعدتنى ؟

فنودى : إنه لم يصبهم ما أصابهم إلا بفتياك ودعائك عليهم . .

فعلم حينئذ أن ذلك الرجل الذى جاءه فى المرات السابقة لم يكن سوى مَلَكٍ أرسله الله إليه . . فطار أرمياء هائما على وجهه فى البرارى والقفار حتى خالط الوحوش .

ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس . . ووطىء الشام ، وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم ، وخرب بيت المقدس .

ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا فيقذفه فى بيت المقدس . ففعلوا حتى امتلأ .

ثم أمرهم أن يجمعوا من كان فى بلدان بيت المقدس من بنى إسرائيل ، فاجتمع عنده كبيرهم وصغيرهم فاختار منهم سبعين ألف صبى فقسمهم بين الملوك والقواد وكبار الجند الذى كانوا معه . فأصاب كل واحد منهم أربعة غلمان وكان من هؤلاء دانيال وحنانيا . .

وقسم من بقى من بنى إسرائيل ثلاث فرق . فقتل ثلثا ، وسبا ثلثا ، وأقر بالشام ثلثا .

وكانت هذه هى الواقعة الأولى التى توعد الله فيها بنى إسرائيل بإهلاكهم . . وهى التى يعنيها الله ـ تعالى ـ بقوله :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ (٥٣)

من هو بختنصر :

تحدث الرواة كثيرا فى شأن بختنصر واختلفوا فى أحاديثهم عنه .. قال بعضهم : إنه لم يكن من أبناء ملوك فارس الذين حكموا بابل ولكنه كان من أبناء السوقة الذين ساقت إليهم المقادير الملك ، لأن الله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

---

(٥٣) فى تعليق على تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٦٤٩ ـ سورة الاسراء

وقيل : إنه كان ضمن طليعة جيش وجهه ملك بابل إلى الشام لاكتشاف أحوالها قبل غزوها .. وكان لايؤبه له ، وليس من الفرسان أو أصحاب السيوف ، ولكنه كان من العاملين فى خدمة الجيش وعمال المطبخ إلا أنه استطاع أن يداخل الاسرائيليين ويعرف أخبارهم وأسرارهم أكثر من الذين عهد إليهم ذلك من الجنود ، فلما عادت الطليعة إلى بابل أخبر الملِك بما رآه فقدمه وأكرمه ، ومازال يُقَدَّم حتي ولى أمر الجيش الذى أعده ملك بابل لقتال بنى إسرائيل ..

وكلمة « بختنصر » مركب مزجي كحضرموت وبعلبك ، وتركيبه من « بخت » معرب بوخت بمعني ابن و « نصر » اسم صنم وجد عنده هذا الرجل لقيطا أول ولادته فنسب إليه إذ لم يعرف له أب ..

وهو بضم الباء وسكون الخاء وفتح التاء والنون ، والصاد المشددة . وذكر بعضهم أن بختنصر كان حفيد الملك « سنحاريب » الذى غزا بيت المقدس أولا ، ولكن الله هزمه باستجابة دعوة نبى من أنبياء بنى إسرائيل ، وكان من كتَّابه أيضا (٥٤) .

وذكر المسعودى أنه كان مرزبان العراق والمغرب من قبل الملك « لهراسب » ملك الفرس (٥٥) .

وذكر انه تزوج من سبية من سبايا بنى إسرائيل اسمها « دينارد » وهى التي كانت سببا فيما بعد فى رد بنى إسرائيل إلى بيت المقدس .

---

(٥٤) مروج الذهب جـ ١ ص ١٧٢ والمرزبان هو الفارس الشجاع المقدم على القوم

(٥٥) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٦ ص ٣٧٧ .

ويذكر كاتب مادة (بختنصر) دائرة المعارف الاسلامية أن هذا العَلَم مختلط بين شخصين أحدهما (نابونصر) شُلاحةشسسشف وهو ملك الكلدانيين الذى ولى عرش بابل من عام ٧٤٤ إلى عام ٧٣٣ قبل الميلاد وبين (بنوشادنزر)

قُلاهلأاشةقختششف الذى ولى عرش بابل عام ٦٠٥ الى عام ٥٦٢ قبل الميلاد وهو الذى نشبت بينه وبين فرعون مصر « أمازيس » عدة حروب ، وهذا هو الذى فتح بيت المقدس فعلا أما إغارته على مصر والمغرب فكانت لتتبعه الاسرائيليين الذين هربوا من بيت المقدس . .

تعمير البيت

قال ابن جرير الطبرى : إن ملك بابل بعد زمن بختنصر وكان اسمه (كيرش) دخل دير اليهود وفهم عن دانيال النبى ومن كان معه من أنبياء بنى إسرائيل وحكامهم ، فسألوه أن يأذن لهم فى الخروج إلى بيت المقدس ، فضن بهم على ذلك ، وأبى أن يفارقوه ، وولّى دانيال القضاء وجعل إليه جميع أمره ، فتمكن دانيال من أن يرد بيت المقدس ، وأن يشرع فى بنائه من جديد ، فبناه وعمره [٥٦] .

وذكر ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية أنه بعد هلاك بختنصر ومن بعده جاء ملك اسمه (جستاسب بن لهراسب) فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب ، وأن السباع قد كثرت فى أرض فلسطين ، فلم يبق بها من الانس أحد ، فنادى فى أرض بابل فى بنى إسرائيل أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع ، وملك عليهم

---

(٥٦) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ١ ص ٢٨٤

رجلاً من آل داود ،وأمره أن يعمر بيت القمدس ويبنى مسجدها ، فرجعوا فعمروها . .

وكان أرميا النبى قد أوحى الله إليه أن يعود إلى بيت المقدس لأنه سيعمره ، ـ وكان أرميا بعد خراب البيت قد هام على وجهه كما ذكرنا . .

وفى أثناء عودته نظر متعجبا إلى المدينة الخراب وقال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه » .

فلما بعث وفتح عينيه نظر فاذا بالمدينة التى كانت بالأمس خرابا قد أصبحت عامرة ، وعاد بيت المقدس مبنيا كما كان . . (٥٧) .

فقال : أعلم أن الله على كل شيء قدير . ولكن هناك رأى آخر يقول إن هذا النبى الذى نام مائة عام لم يكن أرميا ولكنه عزير . وستأتى قصته إن شاء الله ـ تعالى ـ .



التخريب الثانى

٤١آ يقول أكثر الرواة إن تخريب بختنصر لبيت المقدس كان هو التخريب الأول . الذى أشار إليه الحق بقوله

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ﴾ (٥٨)

وعاد بنو إسرائيل ، ووعوا الدرس جيدا ، ولكنه كان وعيا مؤقتا على أى حال . .

---

(٥٧) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٤٢

(٥٨) سورة الإسراء آية ٥

وعاد بنو إسرائيل إلى بيت المقدس مرة أخرى ، ولكنهم لم يستمروا طويلا على الاستقامة . . ذلك أنهم أفسدوا فعاقبهم الله بأن سلط عليهم من انتقم منهم انتقاما شديدا .

فقد قتلوا نبى الله يحيى ـ عليه السلام ـ .

قال القرطبى : فسلط الله عليهم ملك بابل (حردوس) الذى دخل بيت المقدس فوجد فيه دماء تغلى ، فسأل عن ذلك ، فقيل له : إن هذا دم نبى من أنبياء الله قتل ظلما . . فمازال يقتل عليه منهم حتى هدأ الدم . . ويقال إن هذا الملك آمن بالله .

ويقول بعض الرواة : إن الذى زحف على بيت المقدس هو الاسكندرية الأكبر الذى استولى على كثير من الأمم .

وربما فهم ذلك من كلام د . سعاد ماهر ، وهى تقول : وزحف إليها الاسكندرية المقدونى سنة ٣٢٢ ق . م وتعرضت المدينة لغارات أخرى بعد ذلك . فقد حكمها البطالمة والسلوقيون . .

وحكمها الرومان الذين ولد فى عهدهم المسيح ـ عليه السلام ـ وفى ظل الرومان تعرضت القدس لتخريب شديدأزال كل الآثار اليهودية بها .

فقد أحرق الرومان هيكلها وهدموا منازلها ، وأسروا من أهلها خلقا كثيرا .

وعندما جاء الأمبراطور « دريانوس » سنة ١٣٥ م إلى القدس لاخماد ثورة يهودية بها أزال كل ماكان باقيا من معالم اليهود والمسيحيين على السواء ثم أعاد بناء المدينة على نمط وثنى وأطلق عليها اسم (إيلياكابتولينا) وأنشأ هيكلين وثنيين نصب فوقهما تماثيل المشترى

والزهرة . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد لليهود فى القدس اسم ولاأثر يذكر (٥٧) .

ولكن هناك من يقول : إن ذلك التخريب الثانى كان على يد قيصر الروم . .

وقد أشار الى ذلك القرطبى فى كتابه (التذكرة) حيث ذكر فى ذلك حديثا أسنده إلى حذيفة يتحدث فيه عن علامات الساعة ، ومن بينها استرداد بيت المقدس وعودته إلى حوزة الاسلام . جاء فيه : ـ فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا الى المعاصى ، فسلط الله عليهم ملك الروم قيصر ، وهو قوله

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾ (٥٩)

فغزاهم فى البر والبحر ، فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم ، وأخذ حلى جميع بيت المقدس ، واحتمله معه حتى أودعه فى كنيسة الذهب ، فهو فيها الآن ، حتى يأخذه المهدى فيرده إلى بيت المقدس.

ومؤدى ماقاله العلماء وأشارت به الأخبار أن المرتين اللتين ذكرتهما الآيات فى تخريب بيت المقدس قد حدثتا . .

إلا أن بعض العلماء ذكر فهماً آخر فى موعد التخريب الثانى . ورأى أنه لم يأت بعد . . وأنه آت لامحالة ، لتصديق الآية الكريمة . . ولمجيئه دلائل وعلامات تفهم من سياق الآيات . .

---

(٥٩) سورة الإسراء آية ٧

هذه الدلائل تظهر فى العلو الذى يصل إليه بنو إسرائيل . . وقد بلغ الاسرائيليون فى أيامهم الأخيرة من أمارات العلو والتقدم مايعلمه القاصى والدانى ، وقد زين لهم غرورهم الآن أنهم ارباب العلوم والصناعات والفكر والفن وقد أطلقوا على أنفسهم أنهم الجيش الذى لايقهر . . وقد أحاطوا أنفسهم بسياج من القوة والمنعة والاستعداد الفكرى المتطور ماحسبوا أنهم ارتفعوا به فوق هام البشر . .

وهم مع هذا التقدم العلمى والاقتصادى والعسكرى والفنى لم يرعوا لله حرمة ، ولم يحفظوا للانسانية عهدا ، ولم يذكروا لأحد إلاً ولاذمة . .

وقد بسطوا سلطانهم فوق بيت المقدس معطلين فيه شريعة الله . .

وجمعوا أنفسهم من كل مكان فى أرض الميعاد التى حادوا عنها قديما وعصوا رسل ربهم فى الدخول إليها فحرمها الله عليهم فترة من الزمن .

ولذلك فقد آن الآوان لوعد الآخرة . . الذى اشارت إليه سورة الاسراء فى آخرها

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (٦٠)

فالعلو والتجمع والبغى والفساد ونسيان العهود أمارات ظاهرة وأسباب قوية لأن يبطش الله بهم جزاء بغيهم ومكرهم ولن يحيق المكر السيىء إلا بأهله ، وعلى الباغى تدور الدوائر ، وقد خاب من افترى . .

كيف استولى الاسرائيليون على بيت المقدس ؟

يجب أن نعرف كما يقول العلامة أبوالأعلى المودودى (٦١) : تاريخ فلسطين والقدس .

---

(٦٠) سورة الإسراء

(٦١) من مقال بمجلة الأزهر رمضان ١٣٩٧ هـ .

إن الاسرائيليون دخلوا هذه المناطق حوالى سنة ١٣٠٠ ق . م ، بعد كفاح دام قرنين كاملين ، وهم لم يكونوا أبناء هذه الأرض الأصليين بل كان أبناؤها الأصليون تلك القبائل والشعوب التى ورد ذكرها فى التوراة ، ومن نصوص التوراة نفسها يظهر أن بنى إسرائيل سيطروا على أرض فلسطين بعد قتل هؤلاء القبائل والشعوب بنفس الطريقة التى احتل الافرنج بها بلاد أمريكا بعد أبادة الهنود الحمر . والحجة التى تذرعوا بها هى أن الرب أورثهم هذه الأرض ، فمن حقهم أن يطردوا أهلها الأصليين ، بل أن يبيدوهم عن بكرة أبيهم اذا اقتضى الأمر . .

ولم يدم سلطان بنى إسرائيل فى فلسطين ، فقد غلب الآشوريون على شمال فلسطين فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وأبادوا الاسرائيليين بأسرهم ومزقوهم كل ممزق ، وأسكنوا مكانهم القبائل التى كانت معظمها عربية الأصل .

كما غلب ملك بابل بختنصر على جنوب فلسطين فى القرن السادس قبل الميلاد ، وأجلى اليهود ودمر القدس وهدم هيكل سليمان ، ولم يبق منه حجر على حجر .

وقد أتيحت لليهود مرة أخرى فرصة دخول جنوب فلسطين واتخاذه مقرا لهم فى عصر الحكم الفارسى بعد أن عاشوا مدة طويلة منفيين ، فأعادوا الهيكل من جديد فى أورشليم . بيد أن هذه المرة أيضا لم تدم أكثر من ثلاثة أو أربعة قرون ، لأنهم ثاروا على الامبراطورية فى عام ٧٠ الميلادى ، فكان من جراء ذلك أن دمر الهيكل وأورشليم مرة ثانية ، وقضى الرومان على ثوراتهم الأخرى سنة ١٣٥ م وأبعدوا اليهود نهائيا عن جميع أنحاء فلسطين ، وشتتوا شملهم . وفى هذا الجلاء الثانى سكنت فى جنوب فلسطين بعض القبائل العربية ، كما أن العرب كانوا قد سكنوا شمال فلسطين قبل ذلك بثمانية قرون . .

وحينما دخل الإسلام هذه الأرض كانت جميع أنحائها مأهولة بشعوب عربية ، لأن الرومان كانوا قد منعوا اليهود من دخول القدس ، وكان اسمها (إيليا) بموجب القانون ، حتى كادت السلالات اليهودية فى فلسطين تنعدم .

ومن هذه التفاصيل التاريخية يتضح مايأتى :

ـ إن اليهود دخلوا أرض فلسطين بعد حروب مع الشعوب الأصلية التى كانت فى تلك الأرض .

ـ ولم يسكنوا فى شمال فلسطين أكثر من أربعة أو خمسة قرون .

ـ لم تدم إقامتهم فى جنوب فلسطين أكثر من ثمانية أو تسعة قرون .

ـ الشعوب العربية كانت تسكن شمال فلسطين منذ أكثر من ألفين وخمسين عاما ، وفى جنوب فلسطين من نحو ألفى عام .

ـ من الثابت تاريخيا أن هيكل سليمان كان قد دمر نهائيا سنة ٧٠ م .

وحينما فتح المسلمون القدس لم يكن فى هذا المكان أى معبد ، بل كانت المنطقة عبارة عن قمامة وانقاض . ولذلك فإن أى يهودى لايستطيع أن يتهم المسلمين بأنهم أقاموا المسجد الأقصى وقبة الصخرة بعد هدمهم أى معبد لهم .

ـ ومن الثابت أيضا أن فلسطين أخليت من اليهود فى عهد الرومان الذين حرموا عليهم دخولها ، وأن المسلمين الذين سمحوا لهم بالدخول والاقامة فيها بعد ذلك ، ويشهد التاريخ بأن اليهود لم يقرّ لهم قرار فى أى مكان فى العالم إلا فى ظل الاسلام وفى وطن الاسلام ..

وقد أطمعهم هذا التسامح الاسلامى فى الاستيلاء نهائيا على فلسطين ..

واستطاعوا أن يوظفوا السياسات الاستعمارية لصالحهم ، حتى ظفروا بوعد بلفور المشئوم ، وعلى أساسه تمكنوا بالغدر والحيلة والارهاب من إعلان دولتهم عام ١٩٤٨ ..

ومازالوا يكيدون للعرب أصحاب البلاد ، ويمدهم الاستعمار بعونه المادى والعسكرى حتى استولوا على الضفة الغربية ، والقدس ..

ثم أحرقوا المسجد الأقصى فى آب ١٩٦٩م ..

حريق المسجد بأيدى بنى اسرائيل

حين استولى اليهود على القدس فى أيامهم الأخيرة ، أرادوا أن يعيدوا هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى . . وأرادوا أن يلتمسوا لذلك الأعذار . أمام الرأى العام ، فدبروا مؤامرة حرق المسجد الأقصى ، ليجدوا من وراء ذلك مبررا لهدمه واعادته من جديد ويحققون مايريدون . . ولكن هذه الحيلة لم تقنع أحداً ، وتنبه لها الناس جميعا على اختلاف عقائدهم فى مشارق الأرض ومغاربها وأعلنت إسرائيل عقب قيامها بهذا الفعل الشائن أن الحريق نشب بسبب وقوع خلل فى الاسلاك الكهربية فجأة . .

ولكنهم تنبهوا إلى أن هذه الأكذوبة لن ينخدع بها أحد ، اذ كيف تلتهب النار بهذه الصورة الضارية لمجرد وجود نقص فى الأسلاك الكهربية ؟ .

فاختلقوا بكل وقاحة أكذوبة أعظم ، وهى أن المسلمين أنفسهم هم الذين أشعلوا النار فى مسجدهم ولكنهم أدركوا على الفور أن هذا الافتراء لن يصدقه أحد ، فقبضوا على شاب استرالى ليقنعوا الدنيا بأن هذا المعتوه هو الذى ارتكب هذه الجريمة فى حالة من الجنون وفقدان الوعى . .

إن شغل اسرائيل الشاغل الآن هو إعادة هيكل سليمان . . ولكن هذا الهيكل لن يقام إلا إذا هدم المسجد الأقصى . . وهم من أجل ذلك احتفظوا بما يطلقون عليه حائط المبكى . وهو بقية من جدار متداع يزعمون أنه متبق من هيكل سليمان ، ويظلون ينوحون حوله صباح مساء .

وهم من أجل ذلك أيضا مازالوا يتلون طقوسهم الدينية أربع مرات فى الأسبوع لاستعادة الهيكل ، ويشاهدون تمثيلية تذكرهم كيف خرجوا من مصر وسكنوا فلسطين وكيف أبعدهم أهل بابل من فلسطين فتفرقوا أيدى سبأ . .

ومازالت إعلاناتهم المتكررة تناديهم وتلح عليهم فى اعتبار كل فرد منهم مسئولا ومدعوا إلى بناء هيكل سليمان . .

لقد ظلموا سليمان ـ عليه السلام ـ وليس إحياء ذكرى سليمان فى إقامة هيكله . بل فى تنفيذ تعاليمه ومبادئه ورسالته السماوية التى جاء بها من عند الله

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم العدل والمحبة بين الناس ..

بيت المقدس فى ظل الإسلام

كان الرومان مازالوا مسيطرين على بيت المقدس حين جاء الاسلام ، وحين تولى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ الخلافة فتحت الشام وتم فتح بيت المقدس وكان أهلها قد تحصنوا بها فحاصرهم المسلمون أربعة اشهر ، ثم طلبوا الصلح . فرضى قائد المسلمين وأرسل إلى الخليفة عمر فجاء ، وأبرم بنفسه الصلح مع أهلها احتراما لهذا المكان المقدس وكان ذلك فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة النبوية الشريفة وكتب معهم عهدا مشهورا جاء فيه :

هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان .

أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، انه لاتسكن كنائسهم ولاتهدم ولاينتقص منها ولا من حيِّزها ولا من صلبانها ولامن شىء من أمْوالهم ، ولايكرهون على دينهم ولايضار أحد منهم ، ولايسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .. إلى آخر العهد الذى يطلق عليه العهدة العمرية ..

وقد وقَّع على هذا العهد مع أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ خالدُ بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبدُالرحمن بن عوف ، ومعاويةُ بن أبى سفيان .

وكان هذا العهد أمانا لأهل بيت المقدس ، الذين رأوا فى ظلاله حياة الأمن ، ولمسوا على اختلاف دياناتهم سماحة الإسلام ..

ومنذ ذلك التاريخ ، وأهل بيت المقدس يعيشون مع المسلمين حياة أخوة وتسامح ودعة واستقرار ..

الحروب الصليبية

ثم نشبت الحروب الصليبية التى تركت آثارها السيئة فى المنطقة واستولى الصليبيون على بيت المقدس . وارتكبوا فظائع شديدة فى حق المسلمين ..

وفى الواقع لم يفرق الصليبيون فى اعتدائهم بين مسلم ومسيحى ، لقد كان هدفهم الإستيلاء على الموقع فحسب ، ولكن المسلمين والمسيحيين الذين كانوا يعيشون فى القدس أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن بيت المقدس ، وسالت دماؤهم

غريزة تسجل همجية الصليبيين ووحشيتهم وعدم مراعاتهم لعهد أو مروءة أو إنسانية .

ثم استرد القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من الصليبيين ، فكان آية فى التسامح والمروءة وحسن الخلق ، وبهذا عاد الحرم الثالث إلى أهله الذين يعبدون فى ظله الإله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وأشهد العالم أجمع على الفرق الهائل بين ديانة التوحيد وأخلاق أهلها وبين هؤلاء الذين يزعمون زورا وكذبا أنهم جنود المسيح . .

لقد تحركت جيوش صلاح الدين الإسلامية فى طريقها إلى بيت المقدس فى رجب ٥٨٣ ولم يلبث أن افتتحها فى يوم الجمعة السابع والعشرين منه ، وهو يوم يوافق ذكرى الإسراء والمعراج ـ فكان ذلك فألا حسنا يذكر بالفخر والثناء . وقد سجل الشعراء هذا الحدث العظيم بأقلامهم . فمن ذلك قول حسن الجوينى :

جند السماء لهذا الملك أعوان   من شك فيه فهذا الفتح برهان

هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما   لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

تسعون عاما بلاد الله تصرخ   والاسلام أنصاره صم وعميان

للناصر ادخرت هذى الفتوح وما   سمت لها همم الأملاك مذ كانوا

لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد   تنزلت فيه آيات وقرآن

المؤامرة البريطانية

وفى القرن الحالى دبرت بريطانيا مؤامرتها المشهورة حيث سلمت فلسطين لليهود وأعطتهم وعد بلفور المشهور الذى بمقتضاه يكون لهم الحق فى إقامة وطن قومى فى بلاد ليست لهم ، وصدقت الكلمة المشهورة التى قالها أحد الزعماء العرب يوما : لقد أعطى من لايملك وعداً لمن لايستحق . .

ومنذ ذلك التاريخ مازال النزاع قائما بين العرب وبين الجماعات اليهودية الوافدة من كل مكان حول القدس الشريف .

الوجود الإسرائيلى فى القدس لاحق لهم فيه

ولكى تتضح الصورة تماما يمكن وضع الحقائق الآتية أمام الأنظار . .

كان اليبوسيون ـ وهم قبائل عربية نشأوا فى الجزيرة العربية ـ أول من هاجروا إلى الأرض المقدسة فأقاموا فيها ، وأنشأوا مدينة القدس وسموها « يبوس » كان ذلك قبل الميلاد بثلاثين قرنا . .

ـ جاء بعدهم الكنعانيون وهم عرب أيضا ـ وهم الذين كانوا يقيمون فيها حين طلب موسى ـ عليه السلام ـ من قومه أن يدخلوها ، فأبوا فكتب الله عليهم التيه .

ـ دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة مع يوشع بن نون ، ولم يقيموا فيها طويلا . ولكنهم خرجوا منها ، وغلبهم العمالقة أصحاب البلاد الأصليين عليها ، وتفرق الاسرائيليون فى البلاد .

ـ جاء داود ـ عليه السلام ـ بعد ذلك بقرون مديدة فقتل جالوت الملك العملاقى ، وكون ملكا لبنى اسرائيل وورثه من بعده ابنه سليمان وتولى الملك بعده ابنه « رحبعام » فقاتله أخوه « بريعام » فانقسمت المملكة قسمين : يهوذا وعاصمتها القدس وإسرائيل وعاصمتها نابلس .

وأصبح يطلق على القدس « أورشليم » .

ـ ومحيت إسرائيل واندمجت فى دولة الأشوريين . أما مملكة يهوذا فقد محاها بختنصر ملك بابل سنة ٥٨٥ ق . م .

ـ منذ ذلك التاريخ لم يعد لبنى إسرائيل ملك ، فقد احتل أرضهم الفرس ، ثم البطالمة من حلفاء الإسكندر الأكبر ثم الرومان ، الذين احتلوها سنة ٧٠ م . وأحرقوا هيكل سليمان ، ومحوا كل أثر لليهود وظلوا بها حتى سنة ٦٣٦ م حين فتحها العرب وأقاموا بها دولة إسلامية زاهرة . .

ـ لو قيست فترة وجود بنى إسرائيل فى القدس لوجدت فترة قصيرة جدا بالنسبة للوجود العربى الضارب فى أعماق التاريخ ، فأين هذا العهد القصير المزيل الذى عاشته القدس فى ظل بنى اسرائيل ، أمام العهد الطويل الذى عاشت فيه القدس فى ظل العرب قبل الميلاد وبعده ؟ .

ـ شهدت القدس فى ظل العرب الأوائل قبل الميلاد ـ وكان اسمها (يبوس) ـ فترة

حضارة وتقدم فى الصناعة والتجارة ، حتى اقتبس العبرانيون منهم تلك الحضارة ، ومن بينها الثياب المنسوجة من الصوف وقد كان العبرانيون يلبسون الجلود .

إن الوجود الاسرائيلى الآن فى القدس لامبرر له فى منطق الأعراف الدولية ، ولو صح ماتذرعوا به من أن أجدادهم ملكوا هذه المناطق يوما لأصبح للعرب حق فى أسبانيا وللهنود الحمر حق فى أمريكا . .

ولكنه منطق القوة الغاشمة التى داست بأقدامها كل المقدسات وانتهكت كافة الحرمات وضربت بكل القرارات الدولية عرض الحائط ، ونظرت إلى كل دول العالم نظرة احتقار واستهتار . .

ولكن ذلك كله إلى حين . . وعلى الباغى تدور الدوائر . .

التجديدات الإسلامية فى القدس

حين فتح المسلمون بيت المقدس . لم يكن للمسجد أثر . .

ذلك أن الرومان كانوا قد طمسوا معالم كل شىء ، وأقاموا بالقدس كنائس تعلو فوقها الصلبان ، وتدق فيها النواقيس .

كما أنه لم يكن لليهود وجود فقد كان يحرم عليهم دخولها بنص القانون . .

وقد سار البطريق « صفرنيوس » مع الخليفة عمر بن الخطاب يريه معالم المدينة وآثارها . .

فأراه محراب داود وصخرة يعقوب ، وهى الصخرة التى صلى بجوارها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ليلة الاسراء والمعراج ، وإليها شد جبريل - عليه السلام البراق . . ومنها عرج إلى السماء . .

وظل عمر يتفقد آثار مدينة القدس وبرفقته « صفرنيوس » حتى وصلا إلى كنيسة القيامة . . التى انشأتها الملكة هيلانة أم الأمبراطور قسطنطين عندما زارت القدس سنة ٣٢٥ م .

وعندما حان وقت الصلاة طلب البطريق إلى أمير المؤمنين عمر أن يصلى بها ، ولكنه اعتذر ، لأنه إن فعل ذلك تبعه المسلمون على تعاقب القرون ، إذ يرون

عمله سنة مستحبة ، ثم لايلبثون أن يحولوها إلى مسجد ويقولون : هنا صلى عمر .

وكذلك اعتذر للسبب نفسه عن الصلاة فى كنيسة « قسطنطين » المجاورة لكنيسة القيامة ، وكانوا قد مدوا له عند بابها بساطا يصلى عليه . ولكنه صلى فى مكان قريب من الصخرة المقدسة المباركة عندنا معشر المسلمين ، لأنها موضع الإسراء والمعراج للنبى ـ صلى الله عليه وسلم .

وبلغ من احترام عمر لهذا المكان المقدس أنه وجد به كناسة كان الروم يلقونها فوقه ، فقال لأصحابه : اصنعوا كما أنصنع ، ثم جثا فى أصلها ، وجعل يحمل ماعليها بنفسه فيلقيه بعيدا عنها وصنع أصحابه صنيعه ، ومازالوا بالصخرة حتى زال كل ماعليها .

وتعهدها المسلمون بالتنظيف والتطهير والرعاية طيلة حكمهم .

انظروا : هذا هو فعل المسلمين بالأماكن المقدسة ، يحترمونها ولولم يوجد فيها مشهد يدل على تقديسها ويحاولون صيانتها من العبث والافساد ، ولايأنفون من تطهيرها بأنفسهم وبواسطة خلفائهم . .

هذا عمر ـ رضى الله عنه ـ وهو صاحب الكلمة النافذة على سلاطين الأرض وملوكها ، لم يأنف أن يجمع القمامة الملقاة حول الصخرة المقدسة فى ثوبه ، ويحملها بيده . . حتى طهر المكان مما كان فيه . .

أما غيرهم الذين أعمى الكفر قلوبهم ، فيعمدون إلى المساجد العامرة والمشاهد القائمة فيخربونها ويحرقونها ويهدمونها .

إنه نور الإيمان الذى يقذفه الله فى القلوب التقية فتعظم شعائر الله . وصدق الله اذ يقول ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٦١)

وتولى الخلافة عبدالملك بن مروان فأنشأ المسجدين المعروفين بالمسجد الأقصى

---

(٦١) الحج ٣٢

ومسجد الصخرة ويعني ذلك أنه لم يكن في ذلك المكان حين أسرى بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بناء معروف بالمسجد الأقصى . وإنما سُمِّي في الآية الكريمة

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ۝١ ﴾

بالمسجد لأنه مكان للعبادة والسجود لله (٦٢) .

وتعتبر قبة الصخرة درة الفن المعماري الأموي وأبدع آثاره . .

أنشئت على الطراز الذي أنشيء عليه الجامع الأموي في دمشق . والذي شيده أيضا عبدالملك بن مروان .

ويقع المسجد الأقصى في الجهة الجنوبية من رقعة الحرم الشريف ويقوم على ثلاثة وخمسين عمودا من الرخام وتسع وأربعين دعامة مربعة الشكل . .

وكانت أبوابه في العصر العباسي مغلفة بصفائح الذهب والفضة ، ولكن الخليفة أباجعفر المنصور أمر بقلعها ، وسكها دنانير تصرف على المسجد الأقصى ، لأنه خشي على بيوت الله من الزخرف الزائد .

وفي القرن الحادي عشر الميلادي عبثت أيدي الصليبيين بالحرم الشريف ، فجعلوا قسما منه كنيسة ، واتخذوا القسم الآخر مسكنا لفرسان الهيكل ومستودعا لذخائرهم ولكن سرعان ما أمر صلاح الدين بترميم وتجديد ماتخرب منه . فجدد محرابه ، وكسا قبته ـ التي أحرقت بيد الصهاينة مؤخرا ـ بالفسيفساء وأحضر له منبر الإمام الحسين ـ رضي الله عنه ـ من عسقلان ، ويعتبر هذا المنبر تحفة فنية رائعة . فهو مصنوع من الخشب الساج المندى ، ومطعم بخشب الأبانوس والصدف والعاج ومزخرف بطريقة الحشوات المجمعة . .

وتوالت يد التجديد والترميم على المسجد الأقصى منذ ذلك التاريخ فزينت جوانبه ، وفرشت أرضه بالطنافس والبسط الرائعة التي كانت ماتزال موجودة حتى

أحرق الصهاينة المسجد عام ١٩٦٩م .

وفى سنة ١٩٢٧ م طرأ على المسجد خلل فهبت الشعوب الإسلامية وساهمت فى جمع مبلغ مائة ألف دينار عمر بها المسجد .

وفى سنة ١٩٣٦ م تصدعت أروقته اثر زلزال فقامت وزارة الأوقاف المصرية بتعميره وإعادة بناء الجانب الشرقى منه .

آثار فى داخل المسجد

يوجد فى داخل المسجد الأقصى جامع مستطيل يطلق عليه جامع عمر . وإيوان كبير يسمونه مقام عزير وإيوان آخر صغير به محراب وبه زخارف فنية رائعة يطلق عليه محراب زكريا .

وأمام المسجد الأقصى من جهته الشمالية إيوان كبير من سبع مقاصير أنشأه الملك عيسى الأيوبى سنة ١٢١٧ م .

وهذه المبانى الملحقة بالمسجد أو الموجودة بداخله تمثل فترات تاريخية منذ وضع حجر الزاوية فيه الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .

وصف المسجد

يتكون المسجد من مستطيل طوله ثمانون متراً وعرضه خمسة وخمسون متراً .

ويضم خمسة عشر رواقا ويقسم المسجد قسمين متساويين .

ورواق المجاز أكثر اتساعا من الأروقة الجانبية ، كما أن سقفه يعلو السقوف الجانبية أيضا . .

وسقف المسجد مغطى بخشب على هيئة (الجملون) وشكل جملون المجاز العريض مع سقوف الأروقة الجانبية يكون شكلا يشبه الطائر الى حد كبير ، جسمه المجاز الأوسط ، وأجنحته الأروقة الجانبية ، ورأسه القبة التى ينتهى بها المجاز والتى تعلو المحراب .

وفى حرم بيت المقدس توجد قبة الصخرة إلى جوار المسجد الأقصى . .

ونخصها بحديث لأهميتها الروحية فى حياة المسلمين (٦٣) .

قبة الصخرة

يعظم المسلمون قبة الصخرة فمن هذه الصخرة المقدسة كان معراج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الملأ الأعلى ، ودنا من ربه مقاما لم يبلغه بشر ولاوصل إليه ملك مقرب ولانبى كريم .

وقد أنشأ القبة عبدالملك بن مروان ٧٣/٧٢ هـ التى توافق ٦٩٢/٦٩١ م .

تجديدات القبة

جددت القبة على يد الخليفة العباسى الظاهر سنة ٤١٣ هـ .

وعلى يد السلطان الناصر محمد سنة ١٣١٨ م .

ثم على يد العثمانيين سنة ١٥٥٣ م .

وقد قام بالتجديدات فنيون مسلمون من أشهرهم رجاء بن حياة الكندى ويزيد بن سلام ، وكلاهما من الشام .

وجدير بالذكر أن عبدالملك بن مروان أنفق خراج مصر لمدة سبع سنوات على إنشاء هذا المبنى .

وكان قد أمر بصنع نموذج للمبنى قبل إنشائه فصنع ، فلما رآه أعجب به فأمر بتنفيذه .

ومما يسجل بالثناء والتقدير لمصممى المبنى . أن الخليفة عبدالملك بن مروان كان قد أمر لهم بمائة ألف دينار وقيل عشرة آلاف دينار ، ولكنهم رفضوا قبول ذلك واعتبروا عملهم حسنة لوجه الله .

فرد عبدالملك المال على القبة ، فأمر بسبك الدنانير وزينت القبة والأبواب (٦٤) .

أحكام تتعلق بالمسجد الأقصى

روى مكحول عن أنس بن مالك قال : إن الجنة تحن شوقا إلى بيت المقدس ،

---

(٦٣) من مقال للدكتور سعاد ماهر ـ منبر الاسلام رجب ١٣٩٠ .
(٦٤) راجع مجلة الوعى الاسلامى عدد رجب ١٣٩٦ هـ العدد رقم ١٣٩ .

وصخرة بيت المقدس من جنة الفردوس, وهى صرة الأرض .

وروى أن أم الدرداء كانت تزور بيت المقدس من الشام ، وتنزل عند باب أريحا ، فقيل لها : لو تقدمت قالت : أحب أن أجعل المدينة أمامى .

ولما قدم الأوزاعى إلى بيت المقدس توضأ ، ثم جعل الصخرة وراء ظهره وصلى ثمانى ركعات ، وصلى الخمس صلوات . ثم قال : هكذا فعل عمر بن عبدالعزيز [٦٥] .

ومن الصحابة الذين دخلوا بيت المقدس أبوعبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وبلال بن رباح .

- ولم يؤذن بلال بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم . سوى مرة واحدة . أمره عمر بالأذان بعد فتح بيت المقدس .

وخالد بن الوليد ، وأبوذر الغفارى ، وأبوالدرداء ، وعبادة بن الصامت وهو أول من ولى قضاء فلسطين ، وقيل : دفن ببيت المقدس وقيل : دفن بالرملة . وكثير غيرهم .

وقد أفرد ابن سعد فى طبقاته ثبتا كاملا بأسماء الصحابة وتابعيهم ممن سكن بيت المقدس وقد ذكر الزركشى فى كتابه كثيرا من الأحكام التى تتعلق بالمسجد الأقصى نجملها فيما يلى :

- إن الصلاة مضاعفة فيه ، وقد وردت فى ذلك أحاديث مختلفة . فهناك أحاديث تجعل الصلاة فيه بخمسمائة ، وأحاديث تجعلها بألف صلاة ، وأحاديث تجعلها بخمسين ألف صلاة ، وأحاديث تجعلها بمائتين وخمسين صلاة . وأحاديث تجعل الصلاة فى بيت المقدس كفارة لصاحبها وعتقا له من النار .

- والمسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة التى يُستحب شد الرحال إليها والحديث المشهور فى ذلك : « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » .

---

(٦٥) اعلام الساجد ص ٢٨٦ .

ـ ويستحب لزائر المسجد الأقصى أن يختم القرآن الكريم فيه ، شأنه فى ذلك شأن المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوى فى المدينة المنورة ويستحب المجاورة فيه كما تستحب فى الحرمين الآخرين .

ـ ومايقال عن الصلاة فيه من مضاعفة الأجر ينسحب على بقية الطاعات فيه كالصوم والصدقة . .

كما يستحب الاحرام بالحج والعمرة منه . روت أم سلمة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أَهَلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غفر له ماتقدم من ذنبه (٦٦) .

وروى عن كعب أنه كان يأتى من حمص للصلاة فيه ، فإذا كان منه على قدر ميل اشتغل بالذكر والتلاوة حتى يخرج منه على قدر ميل أيضا ويقول : السيئات تضاعف فيه كما تضاعف فيه الحسنات .

وكما حرمت مكة والمدينة على الدجال فقد حرم أيضا بيت المقدس عليه .

ـ وذكر أن الصخرة فى المسجد الأقصى كالحجر الأسعد (الأسود) فى المسجد الحرام .

ـ وقد ذكرنا أن جبريل ليلة أسرى بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرق الصخرة بيده فشد إليها البراق .

ـ وكما يكره استقبال القبلة واستدبارها بالبول والغائط يكره كذلك للمسجد الأقصى .

ـ وكما أكرم الله موتى مكة والمدينة بالنجاة من فتنة القبر وسؤال الملكين أكرم كذلك من يتوفى ببيت المقدس ويدفن فيه ، روى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : من مات فى بيت المقدس كأنما مات فى السماء .

---

(٦٦) اخرجه البيهقى فى سننه ٣٠٠/٥

- والعلماء يحذرون من اليمين الفاجرة فى بيت المقدس كما يحذرون أيضا من ذلك فى مكة والمدينة .

- وبيت المقدس به طائفة ماتزال ظاهرة على الحق تجاهد فى سبيل الله .

فما زال المجاهدون يرفعون لواء الجهاد ضد سلطات الاحتلال الإسرائيلى فى هذه الأماكن المقدسة ، وعلى الرغم من كل الجبروت الذى يمارسه المحتل ، فإن الصمود الباسل يزداد قوة على الأيام ، ويشهد العالم أجمع قوة الحق وان ضعف المنادون به . . وضَعْفَ الباطل وان تدجج أصحابه بأقوى سلاح .

- وكما يستحب فى المدينة المنورة لزائرها أن يزور مشاهدها التى تذكر بجلال الماضى الإسلامى الرائع كشهداء أحد ، ومسجد قباء وغيرهما ، فإنه يستحب كذلك لزائر القدس أن يزور قبر إبراهيم - عليه السلام - وغيره من المشاهد .

المسجد الأقصى الآن

المسجد الأقصى الآن فى قبضة اليهود . وهو قائم فى مدينة القدس التى يحاولون أن يجعلوها عاصمة لدولتهم .

ولو تم ذلك لأصبح فى إمكانهم أن يهدموا هذا المسجد ليعيدوا ماهو مرسوم فى خيالاتهم من هيكل سليمان .

وان هذه المدينة التى شرفها النبى - صلى الله عليه وسلم - بزيارته فى ليلة الاسراء ، وصلى فيها بالأنبياء تنادى المسلمين فى جميع أنحاء العالم أن ينقذوها مما هى فيه من أسر ويحولوا بينها وبين مايضمره العدو الاسرائيلى لها من غدر . .

ولن يكون ذلك إلا إذا اتحدت كلمتهم وقويت إرادتهم واستمسكوا بدينهم واعتصموا بالله فى كفاحهم ومن يعتصم بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الجن

في القرآن الكريم

- المفهوم اللغوي لكلمة الجن.
- الجن في القرآن ...
- أصل الجن ...
- أنواع الجن ...
- الفرق بين الجن والشياطين.
- إبليس إمام الشياطين.
- بم يقهر المؤمن الشياطين.
- الإيمان بوجود الجن.
- بعثة النبي إلى الجن.
- نزول سورة الجن.
- هل يرى أحد الجن؟
- التزاوج بين الجن والإنس.
- استهواء الجن للإنس.
- العمار ...
- القرين ...
- الإستعانة بالجن ...
- تبشير الجن بالنبي ...
- الجن وإستراق السمع ...
- الجن وعلم الغيب ...
- من عادة الجن الكذب ...
- النبي يقهر الشيطان ...


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الجــن

قال :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(٦٧) .

وقال - تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾(٦٨) .

تشير هذه الآيات الكريمة إلى ما آتاه الله سليمان من قدرة على تسخير الجن .

وإن هذا من آيات الملك الذى لاينبغى لأحد من بعده .

وقد استدعت هذه المعجزة الخارقة التى أيّد الله بها نبيه سليمان - عليه السلام - الحديث عن الجن . .

المفهوم اللغوى لكلمة الجن

الجن . مأخوذة من جن الشيء يجنه جنا إذا ستره ، وكل شيء ستر عنك فقد جن عنك وجن عليه الليل أى ستره بظلامه .

واستجن فلان إذا استتر بشيء ، وجن الميت إذا ستره .

والجنين الطفل فى بطن أمه لأنه مستور عن الرؤية .

والجنان هو القلب الذى يستتر فلا يراه أحد .

---

(٦٧) النمل ١٧

(٦٨) سبأ ١٢ ، ١٣

والمِجن هو الترس أو الدرع الذى يستر الجسم ويقيه الطعن .
والجُنَّة أيضا السلاح الذى يسترك وهو السترة أيضا التى تستر جسمك . .
والجنون ستر العقل ، وقد جن أى ذهب عقله واختفى .
فالمادة متقلبة بين معانى الستر والإختفاء .

ومنها كلمة (الجن) الذى هو نوع من العوالم ، سموا بذلك لاجتنانهم واختفائهم عن الأبصار (٦٩) .

فالمعنى الاصطلاحى لكلمة الجن يهدى إليه المفهوم اللغوى .

قال القزوينى : زعموا أن الجن حيوان نارى من شأنه أن يتشكل بأشكال مختلفة . . (٧٠) .

وقال الدميرى : الجن أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة لها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة ، وهم خلاف الانس ، الواحد جنى . . (٧١) .

أما قوله لها عقول فيشهد له أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أبلغهم رسالة ربه وأن بعضهم قد آمن به ، قال - تعالى -

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٧٢) .

---

(٦٩) لسان العرب حـ ١ ص ٧٠١ .
(٧٠) عجائب المخلوقات للقزوينى ص ٢٥٥ .
(٧١) حياة الحيوان حـ ١ ص ٣٤٤ .
(٧٢) الاحقاف ٢٩ : ٣٢ .

ويطلق الدميرى على نوع من الحيات اسم الجان .

فيقول : ان الجان حية بيضاء ، وقيل الحية الصغيرة قال الله ـ تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴿٣١﴾ ﴾(٧٣) .

الجن فى القرآن

وقد وردت كلمة الجن فى القرآن الكريم اثنتين وعشرين مرة ، ووردت كلمة الجان فى سبعة مواضع أما كلمة « عفريت » فلم ترد سوى مرة واحدة فى قوله تعالى ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾(٧٤)

كما نزلت سورة كاملة باسم الجن .

أما كلمة شيطان وشياطين فقد وردت فى ثمانية وثمانين موضعا . .

معنى العفريت

والعفريت هو القوى المارد من الشياطين ، والتاء فيه زائدة ، فقد يقال فيه (عفرى) بدون تاء .

وتطلق الكلمة على سبيل المجاز على الرجل الخبيث المداهن وقد تتبع بكلمة تؤكدها فيقال : عفريت نفريت ، كما يقال شيطان ليطان .

وفى الحديث : « إن الله يبغض العفرية النفرية » .

ويجمع عفريت على عفاريت . كما يجمع على عفار بدون تاء كما تقول : طواغ فى طاغوت ، وقد تعوض عنها الياء فتقول عفارى .

أصل الجن

روى بعض العلماء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن الله ـ تعالى ـ حين خلق الأرض وأرسى فيها الأنهار وأنبت الأشجار ، لم يكن هناك من ينتفع بما فى ذلك من خير ، فكانت الثمار تجف وتقع على الأرض ويتولد العشب ويركب

---

(٧٣) القصص ٣١

(٧٤) النمل (٣٩) .

بعضه بعضا ، فشكت الأرض إلى ربها ، فخلق فيها أمما كثيرة على صور مختلفة ، يقال لهم الجن ، فانتشروا كالذر حتى امتلأ منهم السهل والوعر ، فأقاموا على وجه الأرض ماشاء الله من الزمان ، ولما ضاقت بهم الأرض وبغوا وفسدوا وأفسدوا أرسل الله عليهم ريحا عاصفة فأهلكتهم ولم يبق منهم إلا القليل ..

وهؤلاء القليل هم أول من ابتدع عمارة البيوت وقطع الصخور وصيد الطيور والوحوش ، واستمروا على ذلك دهرا طويلا حتى بغى بعضهم على بعض فتقاتلوا ، وأفنوا بعضهم بالمحاصرة . كانوا يحاصرون بعضهم حتى يهلك المحاصرون جوعا وعطشا ..

قيل : ولما تزايد أمرهم في الفساد أخرج الله لهم طوائف من البحر يطلق عليها « البن » بالباء فحاربوهم ، فهلكت الجن ولم يبق منهم أحد ..

وكانت مدة إقامتهم على الأرض خمسمائة عام ، وملك الأرض بعدهم « البن » الذين بغوا كما بغى سابقوهم ، وأفنوا الوحوش والطيور والأسماك .. فضجت هذه المخلوقات بالشكوى إلى الله ، فخلق الجان من مارج من نار حاربوا البن وتغلبوا عليهم وأهلكوهم عن آخرهم ..

وبقى الجان في الأرض فتناسلوا وتكاثروا وبغوا ، فشكت الأرض إلى ربها ، فبعث الله إليهم جنودا من الملائكة ، فطردوا الجان إلى شعب الجبال ..[75] .

وقد خلق الله الجن قبل آدم ـ عليه السلام ـ وكان قبلهم في الأرض الحن ـ بالحاء ـ والبن ـ بالباء ـ فسلط الله عليهم الجن فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم .

ويذكر ابن منظور في لسان العرب أن الحن ـ بالحاء ـ هم سفلة الجن وضعفاؤهم وقيل : إن الحن خلق بعد الجن والإنس .

وذكرهم الفراء فقال : الحن كلاب الجن استنادا إلى حديث علي ـ كرم الله وجهه : إن هذه الكلاب التي لها أربع أعين من الجن ، وهذا يفسر هذا

---

(٧٥) بدائع الزهور لابن اياس ص ٣٦ .

الحديث : « الحن حى من الجن » .

ومن كلام العباس : الكلاب من الحن وهم ضعفة الجن ، فإذا غشيتكم عند طعامكم فألقوا لهن فإن لهن أنفسا ، ـ جمع نفس أى أنها تصيب بأعينها [٧٦] .

ويبدو أن الجن كانوا من جنس آخر غير الجان .

كانوا من جنس من الملائكة .

وسموا بالجن لأنهم خزان الجنة . وكان إبليس منهم وأعجبته نفسه ووقع الغرور فى قلبه . وكان اسمه « عزازيل » [٧٧] .

فلما أمر بالسجود لآدم عصى . . وقد مضى ذكر ذلك فى قصة آدم ـ عليه السلام ـ

فقد خلق الجان من النار وهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون . .

وتحدث ابن جرير الطبرى عن ذلك راويا مختلف الأحاديث الواردة فى أصل نشأة إبليس عدو الله وعدو أوليائه . ومما قاله فى ذلك :

كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقا لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ، وكان اسمه الحارث ، وكان خازنا من خزان الجنة ، وخلقت الملائكة كلهم فيما عدا هذا الحى من نور ، وخلقت الجن الذين وردوا فى القرآن الكريم من مارج من نار ، وهو لسان من النار الذى يكون فى طرفها إذا الهبت . .

وحين قاتل إبليس مع الملائكة وظهر على طوائف الجن التى بغت . . داخله الغرور فى نفسه وقال : لقد صنعت شيئا لم يصنعه أحد والله عالم بدخيله نفسه ، ولكن الملائكة لاتعلمها . فلما خلق الله آدم ، وجعله خليفة فى الأرض وأمر إبليس بالسجود له ، أبى واستكبر وكان من الكافرين [٧٨] .

ويروى القزوينى أن الجن كانوا سكان الأرض قبل آدم وكانوا قد طبقوا الأرض

---

(٧٦) لسان العرب جـ ٢ ص ١٠٣١ .
(٧٧) البداية والنهاية جـ ١ ص ٥٥ .
(٧٨) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ١ ص ٤٢ .

برا وبحرا وسهلا وجبلا ، وكثرت نعم الله ـ تعالى ـ عليهم فكان فيهم الملك والنبوة والدين والشريعة ، فطغت وبغت وتركت وصية أنبيائها وأكثرت فى الأرض الفساد .

فأرسل الله تعالى ـ اليهم جندا من الملائكة فسكنت الأرض وطردت الجن إلى اطراف الجزر وأسرت منها الكثير ، وكان ممن أسر عزازيل .

وكان عزازيل إذ ذاك صبيا نشأ مع الملائكة وتعلم من علمهم وأخذ يسوسهم ، وطالت أيامه حتى صار رئيسا فيهم .(٧٩)

أنواع الجن

ويذكر العلماء أن الجن أصناف ثلاثة :

صنف لهم أجنحة يطيرون بها فى الهواء

وصنف حيات

وصنف يحلون ويظعنون (٨٠) .

أما الإنس فهم كذلك أصناف ثلاثة :

صنف كالبهائم وهم الذين ورد فى حقهم قوله ـ تعالى : ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ وهؤلاء هم الذين لايستجيبون لدعوة الحق ، لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها .

وصنف أجسادهم كأجساد بنى آدم وأرواحهم كأرواح الشياطين .

وصنف فى ظل الله ، وهم الذين استجابوا لله وللرسول حين دعاهم لما يحييهم .

وذكر الدميرى حديثا رواه ابن أبي الدنيا فى مكايد الشيطان مسندا إلى أبي الدرداء قال : خلق الله الجن على ثلاثة أصناف ، صنف حيات وعقارب

---

(٧٩) عجائب المخلوقات ص ٥٥ .

(٨٠) ذكر ذلك فى اثر رواه الحاكم وصححه ورواه الطبرانى باسناد حسن .

وخشاش الأرض ، وصنف كالريح فى الهواء ، وصنف عليه الحساب والعقاب .

وخلق الله الإنس على ثلاثة أصناف ، صنف كالبهائم ، لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها .

وصنف أجسادهم أجساد بنى آدم وأرواحهم أوراح شياطين .

وصنف كالملائكة فهم فى ظل الله يوم لاظل إلا ظله (٨١) .

والخشاش ـ بفتح الخاء وضمها وكسرها ـ هى هوام الأرض وحشراتها .

الفرق بين الجن والشياطين

والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر . ولكن الشياطين كفرة أبدا . .

بل ومن الجن من يكون مقربا من الله ويرتفع عنده درجات كالإنس تماما . .

وذكر القزوينى ما يختلف فيه الناس فى شأن الجن ، فقال : منهم من ذهب إلى أن الجن والشياطين هم مردة الإنس ـ وهم قوم من المعتزلة .

ومنهم من ذهب إلى أن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار ، وخلق الجن من لهبها ، والشياطين من دخانها . وأن هذه الأنواع لايراها الناظر ، وأنها تتشكل بما شاءت من أشكال فإذا تكاثفت صورتها يراها الناظر .

وروى الدميرى خبرا أسنده إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما قال فيه : « الخلق كلهم أربعة أصناف : خلق فى الجنة كلهم وهم الملائكة ، وخلق كلهم فى النار وهم الشياطين ، وخلق فى الجنة والنار وهم الجن والانسان لهم الثواب والعقاب . . (٨٢) .

وكونه جعل الشياطين قسما برأسه وهو فى النار دلالة على اختصاصهم بالشر .

قال ابن منظور : الشيطان كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب .

وقال الشيطان حية له عرف . .

---

(٨١) حياة الحيوان جـ ١ ص ٥١١ .
(٨٢) المرجع السابق ، ولعل الصنف الرابع هى الحيوانات التى لاتكليف لها .

وهو من شاط اذا هلك واحترق ، وقيل : من شطن إذا بعد والتوى واعوج .

والشيطان لايرى ولكنه يستشعر أنه أقبح شيء يكون بين الأشياء ، ولو رئى يرى فى أقبح صورة ولذلك شبه به طلع الزقوم ، قال ـ تعالى :

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (٨٣) .

ولتمكن الشيطان من الوسوسة والإغراء للإنسان قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى عروقه » (٨٤) . بمعنى أنه يتسلط عليه فيوسوس له لأنه يدخل فى جوفه .

ولنشاط الشيطان ودأبه على الإغواء والإفساد وبكوره فى ذلك ورد الأثر الكريم الذى يقول : (إن الشمس تطلع بين قرنى الشيطان) .

فقد قال الحربى : هذا مثل يضرب لتحرك الشيطان وتسلطه . فإنه مع بروز الشمس يتحرك الشيطان ويتسلط .

قال القرطبى : واختلف العلماء فى أصل الجن ، فمن قائل : إن الجن ولد إبليس كما أن الانس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون وكافرون ، فالمؤمن ولى الله والكافر شيطان . (٥٨)

وقيل : إن الجن ولد الجان وليسوا بشياطين وهم يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر أما الشياطين فهم ولد إبليس لايموتون إلا مع إبليس .

إبليس إمام الشياطين

علمنا مما سبق أن إبليس كان اسمه « عزازيل » .

وذكر ابن جرير الطبرى أنه كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة . كان من قبيلة من الملائكة يقال لها الجن وكان خازنا على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا وكان له سلطان على الأرض . (٨٦) .

---

(٨٣) الصافات ٦٥ .
(٨٤) لسان العرب لابن المنظور حـ ٤ ص ٢٢٦٥ .
(٨٥) تسفير القرطبى ـ سورة الجن ٦٧٩٨ .
(٨٦) تاريخ الأمم والملوك ص ٤٤ .

وقال المسعودى :

لقد أسكن الله الجن الأرض قبل خلق آدم ، وفيهم ابليس ونهاهم عن أن يسفكوا دم البهائم أو يظهروا المعصية بينهم فسفكوا ، وعدا بعضهم على بعض . فلما رآهم ابليس لايقلعون عن ذلك سأل الله تعالى أن يرفعه إلى السماء فصار مع الملائكة يعبد الله أشد عبادة . .

وحارب إبليس الجن مع الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحار وقتلوا منهم الكثير ، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازنا فوقع فى صدره كبر . (٨٧) ، واشتد حقده وحسده حين خلق الله آدم وجعله خليفة فى الأرض .

وحين صدر الأمر للملائكة بالسجود لآدم أبى واستكبر وقال : خلقتنى من نار وخلقته من طين . . فطرده الله من رحمته ولكنه أقسم بعزة الله ليغوين آدم وذريته أجمعين . .

ولكن الله سبحانه وتعالى أنجى من براثنه كل مخلص من عباده . وقال لإبليس اللعين : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وظل إبليس يلقن العداوة لأبنائه ضد ذرية آدم ويحملهم على إغوائهم وإيذائهم . .

روى القزوينى عن مجاهد : أن لإبليس خمسة من الأولاد ، وقد جعل كل واحد منهم على شىء من أمره . أما أسماؤهم فهى : بيرة ، والأعور ، ومسوط ، وداسم وزلنبور .

أما بيرة فصاحب المصائب يأمر بالثبور وشق الجيوب .

وأما الأعور فانه صاحب الزنا ، يأمر به ويزينه فى أعين الناس .

وأما مسوط فصاحب الكذب . .

---

(٨٧) مروج الذهب حـ ١ ص ٢٢ .
(٨٨) الحجر ٤٢ .

وأما داسم فيدخل بين الزوجين ويوقع بينهما البغضاء .

وأما زلنبور فهو صاحب السوق ، فبسببه لايزال أهل السوق متخاصمين .

ويذكر الدميرى لابليس أولادا أكثر من ذلك . .

منهم (لاقيس) ومنهم (ولهان) وهو صاحب الطهارة والصلاة .

أى الذى يفسد على الناس صلاتهم وطهارتهم .

والهفهاف ، وهو صاحب الصحارى .

وَمِرَّة ، وبه يكنى

وبثر ، وهو صاحب المصائب .

والأبيض ، وهو الذى يوسوس للأنبياء ـ عليهم السلام .

والأعور ، وهو صاحب الزنا ينفخ فى إحليل الرجل وعجز المرأة .

وداسم ، وهو الذى إذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر اسم الله تعالى ، دخل معه ووسوس له فالقى الشر بينه وبين أهله ، وإن أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه .

ومطوس ، وهو صاحب الأخبار يأتى بها فيلقيها فى أفواه الناس ولايكون لها أصل ولاحقيقة .

وأمهم (طرطبة) وقيل : بل هى حاضنتهم . (٨٩) .

وذكر القزوينى ما رواه أبو أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

« أن إبليس لما نزل إلى الأرض قال : يارب أنزلتنى وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا . قال : الحمام

---

(٨٩) حياة الحيوان حـ ١ ص ٣٥٤ .

قال : اجعل لى مجلسا . قال : الأسواق ومجامع الطرق .

قال : فاجعل لى طعاما . قال : مالم يذكر اسم الله عليه .

قال : فاجعل لى شرابا . قال : كل مسكر .

قال : فاجعل لى مؤذنا . قال : المزامير .

قال : فاجعل لى قرآنا . قال : الشعر .

قال : فاجعل لى حديثا . قال : الكذب .

قال : فاجعل لى مصائد . قال : النساء (٩٠) .

قال الدميرى : إن جميع الجن من ذرية إبليس . وبذلك يستدل على أنه ليس من الملائكة لأن الملائكة لايتناسلون ، لأنهم ليس فيهم إناث . .

وقيل : إن الجن جنس وإبليس واحد منهم ، ولاشك أن كفرة الجن ذريته بنص القرآن ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (٩١) .

ومن كفر من الجن يقال له : شيطان .

وذكر الحديث « لما أراد الله أن يخلق لابليس نسلا وزوجة ألقى عليه الغضب فطارت منه شظية من نار فخلق منها امرأته » .

وسأل سائل الشعبى : أخبرنى هل لابليس زوجة ؟ .

فقال الشعبى ـ وكان مزّاحا ـ : إن ذلك العرس ماشهدته .

ثم تفكر قليلا وذكر قوله تعالى : « أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى » فقال : إنه لاتكون ذرية إلا من زوجة .

وقال الدميرى : روى أن الله ـ تعالى ـ قال لابليس : لا أخلق لآدم ذرية إلا ذرأت لك مثلها ، فليس من ولد آدم أحد إلا وله شيطان قد قرن به .

---

(٩٠) أخرجه الطبرانى فى الكبير ، وذكره المناوى فى الجامع الأزهر من حديث النبى الأنور ١٢٣٠١ قال وفيه على بن يزيد الالحانى ضعيف .

(٩١) الكهف ٥٠ .

بم يقهر المؤمن الشيطان ؟

وقد علمنا أن عدواة الشيطان للإنسان قديمة ، وأنه لايهدأ للشيطان بال حتى يؤذيه أو يغويه وحتى يحول حياته إلى جحيم وشقاء ولذا يجب على الإنسان ان يعرف السلاح الذى يقهر به الشيطان وقد وضعه الله أمامه ، وجعله ميسورا لديه ، وهو الاستعاذة من شره . مصداقا لقوله ـ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (٩٣) .

ولذلك أمرنا الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند الشروع فى كل أمر من الأمور التعبدية حتى تكون خالصة لوجه الله تعالى ، وحتى لايدخل الشيطان بوسوسته فى نفس الإنسان فيفسدها قال ـ تعالى :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٩٤) .

وقال تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٩٥) .

ولايسأم المؤمنون من تكرار الاستعاذة كما لايسأم المريض من تكرار الدواء الذى فيه علاجه . فأطباء القلوب يقولون : إن الشيطان يفر إذا سمع الاستعاذة بالله منه ، لأن لله جنودا وكَّلهم بعبده المؤمن ينصرونه إذا طلب النصر من الله واستعاذ به من كل شر . .

---

(٩٣) الأعراف ٢٠١ .
(٩٤) النحل ٩٨ : ١٠٠ .
(٩٥) المؤمنون ٩٧ ، ٩٨ .

وإذا استمر الخاطر السيء فى نفس الإنسان رغم استعاذته بالله من الشيطان فليعلم أنه خاطر نفسي وليس خاطرا شيطانيا . فعليه أن يستعمل علاجا آخر هو عصيان نوازع النفس وقهر شهواتها .

فالنفس أمارة بالسوء كما أخبر بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٩٦) .

وأشد مايكون الشيطان للإنسان عداوة حين يراه فى عبادة ..

وقد أعلن هو بنفسه ذلك حين قال ـ فيما أخبر به الله تعالى ـ بقوله :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٩٧)

وقد روى أنس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : أول مايحاسب العبد عليه يوم القيامة صلاته فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله .

قال : وكان يقول : حاذوا المناكب فى الصلاة فإن الشيطان يتخلل الصفوف كما يتخلل الحجل (٩٨) .

وذُكر أن عيسى ـ عليه السلام ـ لقى إبليس وهو يسوق خمسة أحمرة عليها أحمال ، فسأله عن الأحمال فقال : تجارة أطلب لها مشترين .

قال عيسى : وما التجارة ؟

قال : أحدها الجور .

قال : ومن يشتريه ؟ قال : السلاطين ..... والثانى الكبر .

---

(٩٦) يوسف ٥٣ .

(٩٧) الأعراف ١٦ .

(٩٨) حياة الحيوان جـ ١ ص ٣٩١ ، والحجل طائر على قدر الحمام كالقطا أحمر المنقار والرجلين .

قال : ومن يشتريه ؟ قال كثير من مختلف الناس ..... والرابع الخيانة .

قال : ومن يشتريها ؟ قال : عمال التجار ..... والخامس الكيد .

قال : ومن يشتريه ؟ قال : النساء (٩٩) .

ولعلها قصة رمزية ترمز إلى الصفات الغالبة على كل من ذكروا .

الإيمان بوجود الجن

بعض الناس لايصدقون بوجود الجن ، بل إن هناك من يؤكدون عدم وجود الجن ، وهؤلاء هم الذين يحكمون المادة فى كل شيء ، ولايؤمنون إلا بما هو محسوس ..

وأصحاب هذا المذهب ينقضون أساسا من أسس الدين وهو الإيمان بالغيب .. وقد أخبر الله بوجود الجن ، وتحدث عنهم ، وذكرهم فى مواضع متفرقة من كتابه الكريم ، وأرسل رسوله إليهم .

وقد ذكر الشيخ أحمد بن تيمية أن الإيمان بوجود الجن وبعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم كبعثته إلى الإنس أصل متفق عليه من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين أهل السنة والجماعة وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين (١٠٠) .

وقال القاضى أبو بكر الباقلانى : وكثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديما وينفون وجودهم الآن ، ومنه من يقر بوجودهم ويزعم أنهم لايرون لدقة أجسامهم ونفوذ الشعاع فيها ، ومنهم من قال : إنما لايرون لأنهم لا ألوان لهم .. وقد أجمع كافة العلماء فى عصر الصحابة والتابعين على وجود الجن والشياطين ، والاستعاذة بالله تعالى من شرورهم ولايدفع مثل هذا الاتفاق متدين متشبث بشيء من الدين ..

وقال إمام الحرمين فى كتابه الشامل : اعلموا ـ رحمكم الله ـ أن كثيراً من الفلاسفة وجماهير القدرية وكافة الزنادقة أنكروا الشياطين والجن رأسا ، ولايبعد

---

(٩٩) المرجع السابق ص ٤٢٧ .

(١٠٠) الجن لابن تيمية ٣ .

لو أنكر ذلك من لا يتدبر ولا يتشبث بالشريعة ، وإنما العجب من إنكار القدرية مع نصوص القرآن وتواتر الأخبار واستفاضة الآثار .

وقال أبوالقاسم الأنصارى فى شرح الإرشاد : وقد أنكرهم بعض المعتزلة ودل إنكارهم على قلة مبالاتهم وركاكة دينهم ، فليس فى إثباتهم مستحيل عقلى ، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم ، وحق على اللبيب المعتصم بحبل الدين أن يثبت ماقضى العقل بجوازه ونص الشرع على ثبوته .

النبى - صلى الله عليه وسلم - والجن :

توجه النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف يدعو أهلها إلى الله ، ويستنصر بهم على قومه الذين اشتد أذاهم له بعد وفاة عمه أبي طالب ، فاستقبلوه أسوأ استقبال .

قال واحد منهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟

وقال آخر : والله لا أكلمك كلمة أبداً ، إن كان الله قد أرسلك كما تقول فأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، وإن كنت تكذب فما ينبغى لى أن أكلمك .

ثم أغروا به سفهاءهم وغلمانهم يشتمونه ويقذفونه بالحجارة حتى أدموه .

فلجأ إلى حائط بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وناجى ربه قائلاً :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، لمن تكلنى ؟

إلى عبد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بى غضبك أو يحل علىَّ سخطك ، ولا حول ولا قوة إلا بك » . .

ورآه ابنا ربيعة ، فرحماه ، وأرسلا إليه قطفا من عنب مع غلام لهما نصراني .. فأكل منه النبي - صلى الله عليه وسلم - وحمد الله ..

وانصرف يائساً من ثقيف .. حتى إذا كان ببطن نخلة قام من الليل يصلي .. فمر به نفر من جن نصيبين ..

وكان الجن قبل ذلك يسترقون السمع فلما حرست السماء بالشهب انقطعت عنهم أخبار السماء ، فأرسل إبليس جنوده يستطلعون الأخبار لعله يعرف سبب ذلك ..

فمر هؤلاء النفر فاسترعى أسماعهم هذا القرآن الذي يتلوه النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي . فوقفوا منصتين يستمعون له ..

فلما فرغ من قراءته عادوا إلى قومهم منذرين .

وهذا ماتقصه علينا الآيات التالية :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا
أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ
طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[١٠١]

وهذه القصة التي رواها ابن هشام في سيرته ، وذكرها القرطبي في تفسيره احدى أسباب نزول هذه الآيات ..

---

(١٠١) الأحقاف ٢٩ : ٣٢ .

وهناك قصة أخرى فى سبب نزولها ذكرها القرطبى أيضاً ..

قال العلماء : أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتبليغ دعوته إلى الجن وقراءة القرآن عليهم ، فصرف الله إليه نفراً من الجن من نينوى وجمعهم له .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : إنى أريد أن أقرأ القرآن على الجن الليلة فأيكم يتبعنى ؟ فأطرقوا ، ثم قال الثانية ، فأطرقوا ، ثم قال الثالثة ، فأطرقوا ..

فقال ابن مسعود : أنا يارسول الله ..

قال ابن مسعود : ولم يحضر معه أحد غيرى ، فانطلقنا ، حتى إذا كنا بأعلى مكة دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شعباً يقال له شعب « الحجون » وخط لى خطاً ، وأمرنى أن اجلس فيه ، وقال : لاتخرج منه حتى أعود اليك .

ثم انطلق حتى قام ، فافتتح القرآن ، فجعلت أرى أمثال النسور تهوى وتمشى فى رفرفها وسمعت لغطاً وهمهمة ، حتى خفت على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغشيته جماعات كثيرة حالت بينى وبينه ، حتى ما أسمع صوته .

ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين .

ففرغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الفجر .. فقال : أنمت ؟

قلت : لا ، والله لقد هممت مراراً أن أستغيث بالناس ، حتى سمعتك تقرعهم بعصاك تقول : اجلسوا

فقال : لو خرجت لم آمن عليك أن يخطفك بعضهم .

ثم قال : هل رأيت شيئاً ؟

قلت : نعم ، يارسول الله ، رأيت رجالاً سودا مستنفرى(١٠٢) ثياباً بيضاً .

فقال : هؤلاء جن « نصيبين » سألونى المتاع والزاد فمتعتهم بكل عظم حائل وروثة وبعرة .

---

(١٠٢) الاستنفار : أن يدخل الانسان ازاره بين فخذيه ملويا ثم يخرجه .

فقالوا : يا رسول الله يقذرها الناس علينا .

فنهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يُسْتَنجى بالعظم والروث .

قلت : يانبى الله ، وما يغنى ذلك عنهم ؟

قال : إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل ، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت .

فقلت : يارسول الله ، لقد سمعت لغطاً شديداً .

فقال : إن الجن تدارأت فى قتيل بينهم فتحاكموا إلىَّ فقضيت بينهم بالحق(١٠٣)

نزول سورة الجن :

ذكر القرطبى فيما ذكر من أسباب نزول سورة الجن أنهم كانوا يصعدون إلى السماء يستمعون الوحى ، فإذا سمعوا كلمة زادوا فيها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقاً وأما ما زادوا فيكون باطلاً .

فلما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُنِعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم تهوى قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا إلا من أمر قد حدث فى الأرض فبعث جنوده ، فوجدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائماً يصلى بين جبلين ـ أراه قال مكة ـ فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الذى حدث فى الأرض . .

وجاء فى رواية أخرى : أنهم لما أتوا إبليس بعد أن منعوا قال لهم : إيتونى من كل أرض بقبضة تراب أشمها ، فأتوه ، فشم ، فقال : صاحبكم بمكة ، فبعث نفراً من الجن كانوا سبعة أو تسعة منهم زوبعة .

ولما قدم الرهط على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم من أقوى الجن شوكة وأشدهم قوة وسمعوا القرآن من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ آمنوا . .

---

(١٠٣) تفسير القرطبى ـ سورة الأحقاف ـ ص ٦٠٣١ .

فنزل قوله تعالى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ ﴾(١٠٤)

هل يرى أحد الجن ؟ :

قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧ ﴾(١٠٥)

مفهوم هذه الآية الكريمة يوحى أن الجن والشياطين لا يراهم الإنس ، ولكنهم هم الذين يرون الإنس .

وهذا من رحمة الله بالناس ..

لأن الله خلقهم على صور بشعة يفزع الناس من رؤيتها ، أما الناس فقد سواهم الله على صور بديعة وأشكال حسنة قال تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾(١٠٦)

ولكن هذه الرؤية اذا امتنعت بالنسبة لعموم البشر فهى ممكنة لمن يختصه الله بذلك كالأنبياء والأولياء .

وطريق رؤيتهم أن يروا فى صورة محسوسة ، كصورة قط أوكلب أو حية أو شخص أو غير ذلك فيرون .. لقد أعطاهم الله القدرة على التشكل ..

وقد رآهم بعض الناس فى هذه الصورة التى تشكلوا فيها ..

وهذه بعض الأمثلة :

---

(١٠٤) سورة الجن ١ ، ٢ .
(١٠٥) الأعراف ٢٧ .
(١٠٦) التين آية ٤ .

ـ جاء الشيطان فى صورة شخص نجدى وأوحى إلى الكفار فى مكة أن يختاروا من كل قبيلة شاباً جلداً ليضربوا النبى ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل ولا يقدر الهاشميون على المطالبة بدمه .

قال الإمام ابن تيميه[١٠٨] : والجن يتصورون فى صور الإنس والبهائم ، ويتصورون فى صور الحيات والعقارب وغيرها وفى صور الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، وفى صور الطير وفى صور بنى آدم ، كما أتى الشيطان قريشاً فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، لما أرادوا الخروج إلى بدر قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[١٠٩]

ـ وذكر ابن الأثير فى أسد الغابة قوله : أقبل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيخ من نجد متكىء على عكازه فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مشية جنى ونغمته . قال الشيخ : أجل . قال له : من أى الجن أنت ؟ قال : أنا هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس .

قال : لا أرى بينك وبينه إلا أبوين .

قال : أجل

قال : كم أتى عليك ؟

قال : أكلت عمر الدنيا إلا أقلها ، كنت يوم قتل قابيل هابيل غلاماً ابن أعوام .

وذكر أنه تاب على يد نوح ـ عليه السلام ـ وآمن معه ، وأنه لقى شعيباً وابراهيم الخليل وعيسى ـ عليهم السلام ـ وقد آمنت بك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جميع الرسل السلام ، وعليك

---

(١٠٨) اكتاب الجن لابن تيمية ص ٥٢ .
(١٠٩) الأنفال ٤٨ .

باهامة ، وعلمه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عشر سور من القرآن .

قال عمر بن الخطاب : فمات النبى - صلى الله عليه وسلم - ولم ينعه لنا ، وما أراه إلا حياً(١١٠)

- روى البيهقى فى دلائل النبوة عن الحسن أن عمار بن ياسر - رضى الله عنه - قال : قاتلت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الجن والإنس فسئل عن قتال الجن فقال : أرسلنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بئرٍ أستقى منها ، فرأيت الشيطان فى صورته ، فصارعنى فصرعته ثم جعلت أدمى أنفه بحجر كان معى .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : إن عماراً لقى الشيطان عند البئر فقاتله .

فلما رجعت سألنى فأخبرته الخبر . فكان أبو هريرة يقول : إن عمار بن ياسر أجاره الله من الشيطان على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم -(١١١)

وفى مسند الدرامى عن الشعبى قال :

قال عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - : لقى رجل من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من الجن صارعه فصرعه الإنسى ، فقال له الإنسى : إنى أراك ضئيلاً هزيلاً و كأن ذراعيك ذراع كلب ، فكذلك أنتم معشر الجن أم أنت من بينهم كذلك ؟

قال : لا والله ، إنى من بينهم لضليع ، ولكن عاودنى الثانية ، فإن صرعتنى علمتك شيئاً ينفعك .

قال : نعم ، فعاوده فصرعه الإنسى ، فقال له : أتقرأ « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . . » ؟

قال : نعم .

---

(١١٠) أسد الغابة فى معرفة الصحابة حـ ٥ ص ٢٧٩ .

(١١١) حياة الحيوان للدميرى حـ ١ ص ٣٧١ .

قال : فإنك لا تقرؤها فى بيت إلا خرج منه الشيطان ، سريعاً لا يلوى على شىء ، ثم لا يدخله حتى يصبح .

وعلى كل فإمكان رؤية الجن مسألة خلافية ، وقد عقد عليها بعض الفقهاء أحكاماً فقهية ، حتى قال بعض الفقهاء : يصح انعقاد الجمعة بأربعين مكلفاً سواء كانوا من الجن أم من الإنس أم منهما .

ولكن الشافعى ـ رحمه الله ـ حكى عنه بعض تلاميذه قال : سمعت الشافعى ـ رضى الله عنه ـ قال : من زعم من أهل العدالة أنه يرى الجن ردت شهادته وعزر لمخالفته قوله ـ تعالى ـ « إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم » إلا أن يكون هذا الزاعم نبياً . .

ولكن بعض الفقهاء حمل قول الشافعى على رؤيتهم على ما خلقوا عليه ، ويحمل كلام غيره على ما إذا تصوروا فى صورة بنى آدم أو غيره من المخلوقات التى تراها .



وللإمام الشعرانى كتاب اسمه « كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان » ذكر فيه أن أحد الجان تقدم إليه بأسئلة عددها ثمانون سؤالاً تدور حول أحكام فقهية وشرعية ، وقد أجابهم عنها ، والكتاب محقق ومطبوع بمطبعة حجازى بالقاهرة ومسجل بمحكمة مصر المختلطة .

هل هناك تزاوج بين الجن والإنس ؟

ذكر بعض الفقهاء الحكم فى ذلك فقال :

من موانع النكاح اختلاف الجنس ، فلا يجوز للإنسى أن يتزوج جنية لقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾[112]

---

(١١٢) سورة النحل ٧٢ .

وقوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴿٢١﴾ ﴾ (١١٣)

والمودة والرحمة لا يكونان إلا عند اتحاد الجنس .

ونص على منع النكاح بين الجن والإنس جماعة من أئمة الحنابلة وفى الفتاوى السراجية : لا يجوز ذلك لاختلاف الجنس .

ونقل بعضهم عن الحسن البصرى قوله : يجوز بحضرة شاهدين . .

وروى بعضهم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن نكاح الجن .

وكان بعض الناس يقول فى دعائه : اللهم ارزقنى جنية أتزوج بها تصاحبنى حيثما كنت .

ولكن المحققين من الفقهاء يأنفون من ذلك ، وربما أسقطوا من نظرهم من يعتد بذلك ، فقد ورد فى الكامل فى ترجمة نعيم بن سالم بن قنبر مولى على بن أبى طالب ـ رضي الله عنه ـ عن الطحاوى قال • حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال : قدم علينا نعيم بن سالم مصر فسمعته يقول : تزوجت امرأة من الجن . فلم أرجع اليه .

هذا من ناحية الحكم الفقهى .

ولكن هل يمكن تحقق هذا الزواج فعلاً ؟

يقول بعض العلماء : إن ذلك ممكن وهناك زيجات حدثت بالفعل وترتب عليها نسل وذرية . وهذا النسل والذرية يتحدث بلغتين لغة الجن ولغة الإنس . . واللغة الرسمية للجن هى السريانية . ومن الطرائف فى ذلك ما قصه أبو عبد الرحمن الهروى فى كتاب العجائب :

حدثنا أبو بشر عبد الرحمن بن كعب بن البداح بن سهل بن محمد بن عبد الرحمن بن كعب الانصارى ، وعقبة بن الزبير بن خارجة بن عبد الله بن

---

(١١٣) سورة الروم آية ٢١ .

كعب بن مالك الأنصارى عن بعض أشياخه ممن يثق بهم ، أنه رأى رجلاً معه ابن له ، فنهره ذات يوم وذكر والدته بما لا يجب ، فقال له الشيخ : لا تفعل ، فأجاب والد الصبى سأخبرك بالسبب :

قال : ركبت البحر فحدثت عاصفة أغرقت المركب ولكنى سلمت بعد أن ركبت لوحاً من الخشب أوصلنى إلى جزيرة أقمت بها ، وكان يحلو لى أن آوى إلى شجرة من أشجارها ، وذات ليلة رأيت منظراً لم أشاهد مثله ، إذ خرجت من البحر جوار - فتيات من الجن - مع كل واحدة كرة مضيئة ترمى بها ، ثم تعدو خلفها على هدى ضوئها لتأخذها ، وهكذا ..

ومكثت أراقبهن لأعرف خبرهن فأعجبنى هذا المنظر وشاقتنى أمورهن ، وذلك بأن أجلس كل ليلة فى أصل شجرة بحيث لا يبصروننى .

وذات ليلة عدوت فى اثرهن فتعلقت بشعر واحدة منهن وكان يجللها فجئت أقودها حتى شددتها بأصل الشجرة ..

وتزوجتها فحملت منى بهذا الغلام ، ولكنها امتنعت عن إرضاعه فما زلت أعذبها لترضعه حتى أرضعته سنة .

وفكرت فى حلها ولكنى خشيت على الطفل .. فلم أفعل حتى بلغ الفطام .

وماأن حللتها حتى خرجت تعدو وألقت بنفسها فى البحر وبقى الصبى بين يدى .. ومر بالجزيرة مركب فلوحت له فحملنى إلى بلدى .

فهذه قصة هذا الغلام ..(١١٤)

والتاريخ يحدثنا أن بلقيس ملكة سبأ كان أحد أبويها جنياً .. جاء فى الكامل لابن عدى فى ترجمة سعيد بن بشير أنه روى عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : أحد أبوى بلقيس كان جنياً .

---

(١١٤) حقيقة تحضير الأرواح لمحمد أنور القوى ص ٣٢ .

وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره ذلك ..

وفى زواج الجنى من إنسية ورد هذا الخبر :

حدثنا محمد بن حميد الرازى وأبو الأزهر والأعمش عن شيخ من نجيل .

قال :

أحب أحد أفراد الجن جارية لنا ، ثم خطبها إلينا ، وقال : إنى كرهت أن أنال منها محرماً فزوجناه منها .

فظهر لنا الجن يحدثنا فقلنا له : ما أنتم ؟

فقال : أمم أمثالكم ، وفينا قبائل كقبائلكم

قلنا : فهل فيكم هذه الأهواء ؟

قال : نعم فينا كل الأهواء .

وقد سئل مالك بن أنس ـ رضى الله عنه ـ فقيل له : إن ههنا رجلاً من الجن يخطب إلينا جارية يزعم أنه يريد الحلال .

فقال : ما أرى بذلك بأساً فى الدين ، ولكن أكره اذا حملت منه وسئلت : من زوجك ؟

قالت : من الجن كثر الفساد فى الإسلام(١١٥)

وربما كان منع هذا الزواج أفضل لما فيه من سد الذرائع التى تفتح باب الفتنة والشر .

ربنا استمتع بعضنا ببعض :

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ (١١٦)

---

(١١٥) المرجع السابق .

(١١٦) سورة الأنعام ١٢٨ .

يرى جمهور المفسرين أن الاستكثار معناه الإضلال ، يعنى أنكم أضللتم من الإنس كثيراً . .

وقد استساغ أولياؤهم من الإنس هذا الإضلال ورأوا فيه متعتهم ولذتهم ، وبهذا تمتع كل من الإنس والجن بالآخر . .

لقد وجد الجن لذة فى إغواء الإنس ، ووجد الإنس لذة فى هذا الإغواء . . إنه تلذذ بالغواية مشترك بين الشياطين وأوليائهم .

وإن هذه الأرواح الخبيثة تتعشق أجساد أوليائها من البشر ، وتلابسها بقدر استعدادها للباطل والشر ، ويجد كل منهما لذته فى ذلك حتى يبلغ الكتاب أجله .

فالتعبير بالفعل « استمتع » يدل على ما يشعر به كل منهما من متعة ولذة حين يتلبس الجنى بالإنسان ، ولكنها متعة مبنية على أساس باطل من الضلال والإضلال .

والإستمتاع - كما يقول صاحب تفسير المنار - : طلب الشىء لجعله متاعاً أو جعله متاعاً بالفعل والمتاع ما ينتفع به انتفاعاً طويلاً ممتداً وإن كان قليلاً(١١٧)

يقول بعض العلماء : إن الجنى بطبيعته النارية يتبرد فى جسم الإنسان ؛ وقد يصعب تصور ذلك علمياً ، ولكنه إذا قيس بالميكروب الدقيق الذى يتخلل جسم الانسان وينتشر فى داخله أمكن تصور ذلك .

وإذا كان من المعقول أن يجد الجنى لذته فى تبرده بجسم الإنسان فكيف يجد الإنسان لذته فى سقمه وحرارته ؟

وربما أجيب على ذلك بالمدمن الذى يجد لذته فى تناول جرعته التى تهلكه وتودى بحياته ، والأجرب يجد لذة متناهية فى حك جلده مع ما فى ذلك من تمزق

---

(١١٧) تفسر المنار حـ ٨ ص ٥٦ .

جسده وسيلان دمه . .

إن ملامسة الجنى للإنسان يترتب عليها هياج دمه الذى يؤدى إلى صرعه ويصبح حاله كحال المصروعين الذين تغص بهم العيادات النفسية وغيرها من الأماكن التى يشتهر أصحابها بعلاج هذه الحالات . .

واستيلاء الجنى على الإنسان بكثرة وسوسته له يفقده سيطرته على نفسه وتحكمه فى إرادته فلا يعرف التمييز بين ما يضره وما ينفعه .

استهواء الجن للإنس :

ويلتحق بهذا الباب ما يروج بين الناس من استهواء الجن للإنس وقد ذكر بعضهم أن ابنة له اختطفت من سطح داره وهى بكر ، فشكا ذلك إلى رجل صالح مشهور فأمكنه بقدرة الله أن يردها عليه وقال : إنه قد اختطفها مارد من مردة الجن .

إن الجمال قد يستهوى الجن كما يستهوى الإنس تماماً .
وفى الجن شهوة كشهوة الإنس . .

وفى الأخبار التى رواها ابن ظفر فى كتابه ـ خير البشر بخير البشر ـ أن فاطمة بنت النعمان قالت : كان لى تابع من الجن فكان إذا جاء اقتحم البيت الذى أنا فيه اقتحاماً فجاءنى يوماً فوقف على الجدار ، ولم يصنع كما كان يصنع ، فقلت له : ما بالك لم تصنع ما كنت تصنع قبل ؟

فقال : انه قد بعث اليوم نبى يحرم الزنا . . وكثير من أمثال هذه القصص يتردد فى الكتب وبين الناس ولكن ليس لها ما يوثقها أو يجزم بصحتها أو يقطع بصدقها .

والحق أن استهواء الجن للإنس هو تزيين الهوى والشر لهم ، بحيث يصبح المستهوى فى قبضته يصرفه كيف يشاء . .

وقد وردت الإشارة إلى ذلك فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (١١٨)

ويدخل فى هذا الباب ما يطلق عليه اسم (المس) وهو إصابة الإنسى بمرض نتيجة مس الجنى له . . وهذا ما يشير اليه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ (١١٩)

ويظهر لهذا المس عوارض فى الممسوس تختلف من شخص لآخر .

فقد تكون هذه العوارض صرعاً أو غيبوبة أو مرضاً أو غير ذلك .

قال محمد رشيد رضا فى تفسيره :

« وفعل جنة الشياطين فى أنفس البشر كفعل هذه الجنة التى يسميها الأطباء (الميكروبات) فى أجسادهم وفى غيرها من أجسام الأحياء تؤثر فيها من حيث لا ترى فتتقى »

والعاقل عادة يلجأ إلى اتقاء الميكروبات بوسائل الوقاية المعروفة فعليه أن يلجأ إلى اتقاء إصابات الجن بوسائل الشرع ، وهى اللجوء إلى الله والاستعاذة به من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس .

• وكما أن هناك أطباء يعالجون الأمراض الجسمية فإن هناك أطباء يعالجون الأمراض الروحية . .

---

(١١٨) الأنعام ٧١ .

(١١٩) البقرة ٢٧٥ .

وقد ذكر صاحب تفسير المنار وقائع حدثت منه مع بعض المرضى بإصابات من الجن وتمكن من شفائهم بقدرة الله ـ تعالى ـ[١٢٠]

وليس ذلك عجباً ، فإن الصالحين لهم عند الله منزلة ، وقد منحهم قوة فى أرواحهم يقهرون بها قوى الجن وأسلحتهم .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشفى المصروع بنظره إليه ، أو بمسح جسمه بيده الشريفة . .

حدَّث الحكم بن عبد الله الثقفى قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض أسفاره فتعرضت امرأة بصبى فقالت : يا رسول الله إن ابنى عرض له ـ تعنى ما يعتريه من الصرع ـ فدعا له فشفى[١٢١]

وروى مرة العامرى قال : سافرت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سفراً فرأيت منه عجباً أتت امرأة بابن لها به لمم ، فقال له رسول الله : اخرج ياعدو الله أنا رسول الله فبرأ[١٢٢]

ووفد زارع بن عامر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الأشج العصرى ومعه ابن له مجنون أو ابن أخت له فلما قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : يا رسول الله إن معى ابنا لى أو ابن أخت لى مجنوناً أتيتك به لتدعو الله له ، فقال : ائتنى به ، فأتاه به ، فدعا له فبرأ ، ولم يكن فى الوفد من يفضل عليه[١٢٣]

وروى عطاء بن رباح قال : قال لى ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ قلت : بلى قال : هذه المرأة السوداء : أتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله ـ عز وجل ـ تعنى أن يشفينى .

قال : إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك .

---

(١٢٠) راجع تفسير المنار حـ ٨ ص ٣٢٤ ومابعدها .
(١٢١) أسد الغابة حـ ٢ ص ٣٩ .
(١٢٢) أسد الغابة حـ ٥ ص ١٤٨ .
(١٢٣) أسد الغابة حـ ٢ ص ٢٤٥ ، حـ ٥ ص ١٨٧ وذكر الخبر ابن تيمية فى كتاب الجن ص ٦٩ .

فقالت : أصبر . ثم قالت : فإنى أتكشف فادع الله أن لا أتكشف . فدعا لها(١٢٤)

وذكر أحمد فى مسنده قال : حدثنا عبد الله بن نمير عن عثمان بن حكيم ، عن عبد الرحمن بن عبد العزيزعن يعلى بن مرة ، قال : لقد رأيت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثاً مارآها أحد قبلى ولا يراها أحد بعدى :
لقدْ خرجت معه فى سفر ، حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبى لها ، فقالت : يا رسول الله هذا صبى أصابه بلاء ، وأصابنا منه بلاء ، يؤخذ فى اليوم ما أدرى كم مرة ، قال : أحضريه فرفعته اليه ، ثم فغر فاه ، فنفث فيه ثلاثاً ، وقال : باسم الله ، أنا عبد الله اخسأ عدو الله ، ثم ناولها إياه . وقال لها : أقبلى إلينا فى الرجعة فى هذا المكان فأخبرينا مافعل .
قال : فذهبنا ورجعنا ، فوجدناها فى ذلك المكان معها ثلاث شياه ، فقال : ما فعل صبيك ؟
فقالت : والذى بعثك بالحق ماأحسسنا منه شيئاً حتى الساعة ، فاجتزر هذه الغنم
قال : انزل خذ منها واحدة ورد البقية(١٢٥)
وعلى هذا الطريق من علاج المصابين من الجن مضى الصالحون ومن أعطاهم الله طاقات روحية قوية يتمكنون بها من قهر الجن والشياطين .
قال العلامة ابن القيم فى الهدى النبوى : وشاهدت شيخنا يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التى فيه ويقول : قال لك الشيخ : اخرجى فهذا لا يحل لك ، فيفيق المصروع ،وربما خاطبها بنفسه وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب فيفيق المصروع ولا يحس بألم .
وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً ،وكان كثيراً ما يقرأ فى أذن المصروع ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾(١٢٦)

---

(١٢٤) الاصابة لابن حجر حـ ٤ ص ٤٣٤ وأسد الغابة حـ ٧ ص ٣٣٣ ، وورد مثل هذا الخبر فى ترجمة سعيرة الاسدية . أسد الغابة ٧ ١٤٢° .
(١٢٥) الجن لابن تيمية ص ٧٠ .
(١٢٦) سورة المؤمنون ١١٥ .

وحدثنى أنه قرأها فى أذن المصروع فقالت الروح : نعم ؟ ومد بها صوته .
قال : فأخذت له عصا وضربته بها فى عروق عنقه حتى تخلت يداى من الضرب ، ولم يشك الحاضرون بأنه يموت لهذا الضرب ففى أثناء الضرب قالت : أنا أحبه . . فقلت لها : هو لا يحبك . قالت : أنا أريد أن أحج به . .

فقلت لها : هو لا يريد أن يحج معك . .

فقالت : أنا أدعه كرامة لك

قال : لا ، ولكن طاعة لله ولرسوله

قالت : فأنا أخرج منه . .

فقعد المصروع يلتفت يمنياً وشمالاً . وقال : ما جاء بى إلى حضرة الشيخ ؟

قالوا له : وهذا الضرب كله ـ يعنى كأنك لم تحس بهذا الضرب كله ـ ؟

فقال : وعلى أى شيء يضربنى الشيخ ولم أذنب ؟ ولم يشعر بأنه وقع عليه ضرب البتة .

وكان الشيخ ـ أى ابن تيميه ـ يعالج بآية الكرسى ، وكان يأمر بكثرة قراءة المصروع ومن يعالجه لها ، وقراءة المعوذتين .

قال ابن القيم : فهذا النوع من الصرع وعلاجه لا ينكره إلا قليل الحظ من العلم والعقل والمعرفة ، وأكثر تسلط الأرواح الخبيثة على من تسلط عليهم يجيء من جهة قلة دينهم وخراب قلوبهم وألسنتهم من الذكر والتعاويذ والتحصنات النبوية والإيمانية ، فتلقى الأرواح الرجل الأعزل ـ أو المرأة العزلاء ـ لا سلاح معه أو معها فيؤثر فيه أو فيها .

ولو كشف الغطاء لرأيت النفوس البشرية صرعى مع هذه الأرواح الخبيثة وهى فى أسرها وقبضتها تسوقها حيث شاءت(١٢٧)

عمار المكان :

نسمع فى الأخبار أن العرب كانوا اذا رحلوا وحلوا فى مكان نادى مناديهم قائلاً : نعوذ بعامر هذا المكان ، أو نعوذ بسيد هذا المكان .

---

(١٢٧) هامش كتاب الجن لابن تيمية ص ٧٤ .

قال القرطبى : وكان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ، ثم من بنى حنيفة ، ثم فشا ذلك فى العرب ، فلما جاء الاسلام عاذوا بالله وتركوهم ، قال ابن أبى السائب : خرجت مع أبى إلى المدينة أول ما ذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فآوانا المبيت إلى راعى غنم ، فلما انتصف الليل جاء الذئب فحمل حَمَلاً من الغنم ، فقال الراعى : يا عامر الوادى أنا جارك ، فنادى مناد : يا سِرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد ، وأنزل الله على رسوله بمكة :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (٦) [١٢٨]

أى زاد الجنُّ الإنسَ رهقاً أى خطيئة وإثماً وتعباً[١٢٩]

والعمار جمع عامر ، وهم فئة من الجن قريبة من الإنس دائماً وتلازم الناس فى مساكنهم وديارهم ومحال أعمالهم . .

وكل عامر مكان يلازمه ولاينتقل منه إلا بتكليف ممن هم فوقه من رؤسائه .

وربما كان عمار المساجد ودور العبادة أرقى من عمار المنازل وهؤلاء أرقى من عمار الأماكن المهجورة[١٣٠]

ومما رد فى ذلك ما ذكره الإمام مالك فى الموطأ أن رجلاً حديث عهد بعرس استأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى انتصاف النهار أن يرجع إلى أهله فأذن له ، فقال له : خذ عليك سلاحك فانى أخشى عليك بنى قريظة ، فأخذ الفتى سلاحه ومضى ، فرجع إلى أهله، فوجد امرأته قائمة بين البابين فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به وقد أصابته الغيرة ، فقالت : اكفف عليك رمحك وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى منه .

فدخل ، فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى عليها بالرمح فطعنها ، فاضطربت عليه فنهشته فماتا معاً . .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن هذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئاً

---

(١٢٨) سورة الجن آية ٦ .
(١٢٩) تفسير القرطبى سورة الجن ص ٦٨٠ .
(١٣٠) حقيقة تحضير الأرواح ص ٢٥ .

فحرِّجوا عليها ثلاثاً فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر ، وقال : اذهبوا فادفنوا صاحبكم(١٣١)

واختلف العلماء فى التحريج والانذار

فقيل : ثلاثة أيام ، وقيل ثلاث مرات

يقول فيه : أنشدكن بالعهد الذى أخذه عليكم نوح وسليمان ـ عليهما الصلاة والسلام ـ ألا تؤذونا .

ومما يروى فى أخبار العمّار والعياذ بهم ، ماروى حول إسلام نصر بن حجاج .

قيل : إنه قدم مكة فى ركب ، فأجنهم الليل بواد مخيف ، موحش فقال له : أهل الركب : قم فخذ لنفسك أماناً ولأصحابك ، فجعل يطوف بالركب ويقول :

أعيذ نفسى وأعيذ صحبى   من كل جنى بهذا النقب
حتى أعود سالماً وركبى

فسمع قائلاً يقول :

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ ﴾(١٣٢)

فلما قدم مكة أخبر كفار قريش بما سمع ، فقالوا : صبأت يا أبا كلاب ، إن هذا الذى قلته يزعم محمد أنه أنزل عليه .

فقال : والله لقد سمعته وسمعه هؤلاء معى .

ثم أسلم وحسن إسلامه ، وهاجر إلى المدينة وابتنى بها مسجداً يعرف به .

القرين :

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ ﴾(١٣٣)

---

(١٣١) القرطبى تفسير سورة الجن ص ٦٧٩٩ ـ والتحريج التضييق .
(١٣٢) الرحمن ٣٣ .
(١٣٣) الزخرف ٣٦ .

وقال ـ تعالى ـ :

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [١٣٤]

القرين والملازم والمصاحب ..

ولكل إنسان قرين من الجن يصاحبه ويلازمه والمؤمن يعينه الله على قرينه فيستسلم له طائعاً ، ويكون مع حفظته من الملائكة ..

روى مسلم : ما منكم من أحد إلا وكل الله به قرينا من الجن ..

قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال : وإياى .. ولكن الله قد أعانني عليه فأسلم ..

وفي رواية أخرى :

ان عائشة ـ رضى الله عنها ـ حدثت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج من عندها ليلاً ..

قالت : فغرت عليه .

فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : مالك ياعائشة ، أغرت ؟

فقالت : ومالى لايغار مثلى على مثلك ..

فقال : أوقد جاءك شيطانك ؟

فقالت : يارسول الله ، أو معى شيطان ؟

قال : نعم ، ومع كل انسان .

قالت : ومعك يا رسول الله ؟

قال : نعم ولكن ربى عز وجل أعانني عليه حتى أسلم ، فما يأمرنى ألا بخير وحق [١٣٥]

قال العلماء :

إن القرين يلازم صاحبه ، ويغار عليه ، وإذا أسلم هذا القرين ، يحافظ على صاحبه ، مع الملائكة ، أما إذا ظل على شركه وكفره فكثيراً ما يعنت صاحبه

(١٣٤) ق ٢٧ .

(١٣٥) حقيقة تحضير الأرواح ص ٢١ .

وربما أغواه وأضله ..

ولكنه على الرغم من عقيدته يحب جسد صاحبه ويود ألا يفارقه ويكره أن يموت وبخاصة اذا كان الموت غيلة بسبب قتل أو حرق أو غير ذلك ..

ويذكر صاحب كتاب « حقيقة تحضير الأرواح » كلاماً غريباً فى ذلك ، مؤداه أنه اذا حدث لصاحب القرين قتل أو حرق لازم قبره ثم يعود ليتعقب القاتل فينتقم منه .. وينقل قصة نشرتها إحدى الصحف اليومية ، تقول : إن غراباً طارد إسرائيليا فى كل مكان يسير فيه بعد خروجه من منزله ، حتى انهار الاسرائيلى عصبياً وأوشك أن يصاب بالجنون ..

وفسر الكاتب هذه الظاهرة بأن الغراب هو قرين لرجل آذاه هذا الاسرائيلى بصورة ما ، فقرر الانتقام منه بعد أن تشكل فى صورة غراب .. وربما تشكل فى هذه الصورة لأن الغراب يثير التشاؤم وصوته فيه ازعاج .

وقال فى تفسير معنى القرين : القرين يولد من قرينة أم الطفل المتزوجة هى الأخرى من قرين والده .. ويولد مع صاحبه ، وينخس صاحبه عند ولادته فيبكى وهذا هو سر بكاء الطفل عندما ينزل من بطن أمه واستشهد على ذلك بحديث رواه الإمام مسلم قال : ما من مولود إلا نخسه الشيطان بأصبعه فيستهل صارخاً من نخسه ..

والشيطان هو قرينه الذى ولد معه..

ولم يسلم من النخس إلا عيسى ووالدته مريم ـ عليهما السلام ـ لأن أم مريم قالت معوذة لابنتها وذريتها

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾[١٣٦]

وقال : إن القرين يطابق قرينه وهو ظل ظليل له ..

---

(١٣٦) آل عمران ٣٦ .

ولكنه لا يطابقه فى العمر غالباً ، لأن الجن معروفون بطول العمر . .

كما لا يطابقه أحياناً فى العقيدة فقد يكون الإنسان مسلما وقرينه ليس كذلك .

وهوالذى يوسوس له بترك العبادة وركوب المعاصى واقتراف الشر(١٣٧)

الاستعانة بالجن :

من معجزات سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ أن الله سخر له الجن .

قال تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾(١٣٨)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾(١٣٩)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾(١٤٠)

وتسخير الجن معجزة لسليمان عليه السلام أعطاها الله له ومكنه منها ، فكانت الجن تأتمر بأمره ، وتسرع لتنفيذ ما يريد ، وهذا من جملة الملك الذى طلب من الله أن يؤتيه له ولا ينبغى لأحد من بعده . .

وذكر القزوينى فى كتابه ـ عجائب المخلوقات ـ ما روى حول تسخير الله الجن

---

(١٣٧) راجع : حقيقة تحضير الأرواح ص ٢١ .
(١٣٨) سبأ ١٢ ، ١٣ .
(١٣٩) الأنبياء ٨٢
(١٤٠) صورة ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

لسليمان قال :

حكى أن الله تعالى لما سخر الجن لسليمان ـ عليه السلام ـ نادى جبريل ـ عليه السلام ـ أيتها الجن والشياطين أجيبوا بإذن الله ـ تعالى ـ لنبيه سليمان بن داود ، فخرجت الجن والشياطين من المغارات ومن الجبال والآكام ، والأودية والفلوات والآجام ، وهى تقول : لبيك لبيك ، تسوقها الملائكة سوق الراعى لغنمه ، حتى حشرت لسليمان طائعة ذليلة ، وهى يومئذ أربعمائة وعشرون فرقة ، فوقفوا بين يدى سليمان فجعل ينظر إلى خلقها وعجائب صورها ، وهم بيض وسود وصفر وشقر وبلق ، على صور الخيل والبغال والسباع ، ولها خراطيم وأذناب وحوافر وقرون .

فسجد سليمان لله تعالى وقال : اللهم ألبسنى من القوة والهيبة ما أستطيع النظر إليهم . فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ وقال : إن الله تعالى قواك عليهم ، قم من مكانك ، فقام والخاتم فى اصبعه فخرت الجن والشياطين ساجدة ،ثم رفعت رؤوسها وقالت : يابن داود ، إنَّا قد حشرنا إليك وأُمِرنا بالطاعة لك . فجعل سليمان ـ عليه السلام ـ يسألهم عن أديانهم وقبائلهم ومساكنهم وطعامهم وشرابهم ، وهم يجيبونه ، فقال لهم : مالكم صوركم مختلفة وأبوكم الجان واحد ، فقالوا : إن اختلاف صورنا لاختلاف معاصينا وذنوبنا وتزاوجنا .

فنظر سليمان ـ عليه السلام ـ فرأى المردة يهمون بالفساد ، والملائكة يحولون بينهم وبين ذلك بالأعمدة ، فصفد المردَة وفرقهم فى الأعمال المختلفة من عمل الحديد والنحاس ، وقطع الأحجار والصخور والأشجار ، وأبنية الحصون ، وأمر نسائهم بغزل القز والإبريسم والقطن ، ونسج البسط والنمارق ، وأمر بعضهم بعمل المحاريب والتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات فاتخذوا له قدوراً من الحجارة ، كل قدر يأكل منها ألف نسمة ، وأشغل طائفة منهم بالطحن ، وطائفة بالخبز ، وأخرى بالذبح والسلخ ، وطائفة بالغوص فى البحار لاستخراج الجواهر واللآلىء ، وطائفة لحفر الآبار والقنوات وشق الأنهار ، وطائفة لاستخراج الكنوز من تحت الأرض ، وطائفة بالمعادن واستخراجها وطائفة برياضة الخيل الصعاب .

فأشغل كل طائفة منهم بأمر صعب ليقل فسادهم ، ويقوى ملكه .

قال وهب بن منبه : كان سليمان ـ عليه السلام ـ إذا شرب الماء كلحت الشياطين فى وجهه ،وهو لا يراهم ، لأن الكوز كان يمنعه ، فكره ذلك منهم ، فاتخذ له صخر الجنى الأوانى من القوارير ، كان يشرب منها ولا يمنعه ذلك من رؤية الشياطين ، ثم أمره أن يتخذ له مدينة من القوارير لا تحجب سقوفها وحيطانها شيئاً ، فبنى مدينة على طول عسكر سليمان عليه السلام ـ وعرضه وجعل لكل سبط من الأسباط فيها قصراً فى طول ألف ذراع وعرض مثله ، وفى كل قصر دور ومجالس وبيوت ، وغرف للرجال والنساء ، ثم بنى مجلساً فى طول ألف ذراع وعرض مثله ، ليجلس فيه العلماء والقضاة ، ثم بنى لسليمان ـ عليه السلام ـ قصراً رفيعاً عجيباً فى طول خمسة آلاف ذراع وعرضه مثله وزخرفه بأنواع القوارير ، ورصعه بأنواع الجواهر .

وكان سليمان ـ عليه السلام ـ اذا ركب الريح على بساطه فى هذه المدينة يرى كل شىء فيها لصفاء القوارير ، حتى الطباخين والخبازين ، وجميع من ركب بساطه من الجن والإنس والخيل والخدم والحشم ، وكان الكل بمرأى من سليمان ـ عليه السلام ـ على صور عجيبة : منهم من كانت وجوههم إلى أقفيتهم ، ويخرج النار من فيه ، ومنهم من كان يمشى على أربع ، ومنهم من كانت رؤوسهم رؤوس الأسد وأبدانهم أبدان الفيلة .

فرأى سليمان ـ عليه السلام ـ شيطاناً نصفه صورة كلب ونصفه صورة السنور وله خرطوم طويل ، فقال له : من أنت ؟ فقال . أنا مهر بن هفان بن فيلان : فقال سليمان : ما عندك من الأعمال ؟ فقال : عندى عمل الغناء وعصر الخمر وشربه ، وأزين الشرب والغناء لبنى آدم فأمر بتصفيده . .

ثم مر به شيطان آخر قبيح الشكل أسود ، له سمج الكلاب ، والدم يقطر من كل شعرة على بدنه ، وهو قبيح الشكل جداً ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا الهلهال بن الفحول . فقال له : ما عملك ؟ فقال : سفك الدماء ، فأمر بتصفيده ، فقال : يانبى الله لا تقيدنى . فإنى أحشر إليك الجبابرة من الأرض وأعطيك العهد والميثاق أن لا أفسد فى مملكتك ، فأخذ عليه الميثاق وختم على عنقه وأطلقه .

ومر به آخر فى صورة قرد له أظفار كالمناجل ، وهو قابض على بربط ، فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا مرة بن الحارث ، فقال له : ما عملك ؟ فقال : أنا أول من وضع هذا البربط وحركه فلا يجد أحد لذة الملاهى إلا بى . فأمر بتصفيده(١٤١)

الناس والاستعانة بالجن :

ليس هناك ما يمنع من أن يعطى الله القدرة لمن يشاء على تسخير الجن . . إلا أن هذا باب قد يدخل منه الصادق والكاذب ، والدجالون فى هذا الميدان كثيرون . .

ومن أعطاه الله القدرة على تسخير الجان يجب عليه أن يمتاز بالصلاح والتقوى ولا يستغل هذه القدرة فى استنزاف موارد الناس المالية كما يحدث من مدعى القدرة على ذلك . .

والصادق لا يسخر الجن إلا فى الخير . وهذا سيدنا سليمان لم يستعمل الجن إلا فى تنفيذ أعمال خيرية تعميرية وفى مقدمتها بناء بيت المقدس .

وقد استجاب له عفريت ـ والعفريت هو المارد القوى ذو الدهاء والمكر ـ حين طلب عرش بلقيس فعرض عليه نقله إليه فى فترة وجيزة ، وحكى القرآن ذلك بقوله :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾(١٤٢)

ولكن سليمان أعرض عنه ، ونقل العرش إليه بواسطة من عنده علم من الكتاب ، فكان أسرع فى نقله من العفريت . .

وقد حكى رواة الأخبار كثيراً من قصص الاستعانة بالجن ، فى تحقيق الأغراض ، كما تحدثوا عن السحر ـ الذى سنتحدث عنه حديثاً خاصاً إن شاء الله ـ وعن قدرة السحر على تسخير الجن والشياطين . .

---

(١٤١) القوزينى ـ كتاب عجائب المخلوقات ص ٢٦٠ والبربط : العود فارسى معرب وهو من آلات الملاهى .

(١٤٢) النمل ٣٩

وفى العهد القديم إشارات إلى إمكانية تسخير الجن والشياطين لدى بعض الناس .

جاء فى الاصحاح الثامن والعشرين : « قال شاول لعبيده : فتشوا لى عن امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسألها . فقال له عبيده : هوذا امرأة صاحبة جان فى عين دور . فتنكر شاول ولبس ثياباً أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلاً وقال لها : اعرفى لى بالجن وأصعدى لى من أقول لك . فقالت له المرأة : أنت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب الجن والتوابع من الأرض ، فلماذا تضع شركاً لنفسى لتميتها . فحلف لها شاول بالرب قائلاً : إنه لا يلحقك إثم فى هذا الأمر ، فقالت المرأة : من أصعد لك ؟

فقال لها : أصعدى لى صموئيل . فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت شاول قائلة : لماذا خدعتنى وأنت شاول . فقال لها الملك : لا تخافى . . »(١٤٣)

فهذا النص يشهدنا أن هناك من كان يستعين بالجن ، وأن هناك امرأة كانت لها القدرة على ذلك . .

وقد تتابع ذلك فى العصور ، حتى جاء العصر الجاهلى وكثرت فيه الكهانة ، وحفظت لنا الروايات أخباراً فى ذلك ، منها على سبيل المثال ما جاء فى شأن عبد المطلب حين هم بذبح ابنه عبد الله وفاء بنذره الذى كان قد نذره : لئن رزقه الله بعشرة ذكور ليذبحن أحدهم . .

فقالت له قريش : لاتفعل ، وانطلق به إلى الحجاز فإن به عرافة لها تابع فَسَلْهاَ ، وأنت على رأس أمرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته ، فانطلقوا حتى قدموا المدينة ، فوجدوها ـ فيما يزعمون ـ بخيبر ، فركبوا حتى جاءوها ، فسألوها ، وقص عليهاعبد المطلب خبره وخبر ابنه ، وما أراد به ونذره فيه ، فقالت لهم : ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم غدوا إليها ، فقالت لهم : قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم ؟ . .(١٤٤) إلى آخر القصة

(١٤٣) العهد القديم ـ سفر صموئيل الأول ـ الاصحاح السابع والعشرون .
(١٤٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٦

وقد مر ذكرها فى العدد الخاص عن زمزم .

كانت الكهانة فاشية فى العرب ، ومثلها العرافة ، وقيل : هما شيء واحد وهو الإخبار بالمغيبات ماضية أو مستقبلية أو حالية ، اعتماداً على القرائن أو على النجوم أو الجن .. أو بقياس المستقبل على الماضى ..

وكان العرب يفزعون إلى كهانهم فى تعرف الحوادث أو الفصل فى الخصومات أو علاج المرضى أو معرفة المستقبل أو تعبير الرؤى ، كما كان الحال عند غيرهم من الأمم القديمة كمصر وبابل وغيرهما .

حتى جاءت الشريعة الإسلامية فأبطلت ذلك ، ونهى النبى - صلى الله عليه وسلم - عن تصديق الكهنة أو إتيانهم ، وقال فى ذلك : (من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)

وذلك لكثرة الكذب فيما يخبر به هؤلاء ، ولما يقع من وراء ذلك من استغلال سيء للسذج من الناس الذين يصدقون ما يقال لهم ، ولما فى ذلك من إضلال للعقول وتزييف للوقائع وإثارة للشكوك والأكاذيب .

ويظن بعض الناس أن الكهانة نقلت إلى العرب على يد الصابئة مع المعارف بالنجوم مستدلين بأن العرب يسمون الكاهن (حازياً) وهذا اللفظ كلدانى معناه الناظر أو البصير ، ويدل عندهم على الحكيم والنبى .

فكان الكهنة ببلاد العرب من الصابئة أولاً ، ثم اليهود ، وبعد ذلك ظهرت فى العرب ، وادعاها منهم رجال ونساء كثيرون .

ومن أشهر هؤلاء عراف اليمامة الذى كان اسمه : رباح بن عجلة ، وعراف نجد واسمه : الأبلق الأسدى ، وفيهما يقول الشاعر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفيانى

فقالا : شفاك الله ، والله مالنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

وقد اشتهر فى الجاهلية كاهنان متعاصران أما أحدهما فشق وأما الآخر فسطيح ، وقد ولدا فى يوم واحد ، وهو اليوم الذى توفيت فيه كاهنة مشهورة أيضاً اسمها (طريفة) كانت من حمير ، وهى التى تنبأت بتهدم سد مأرب ، ويقال : إنها قبل أن تموت دعت بكل من شق وسطيح فتفلت فى فميهما ، وقد

عمرا طويلاً .

وكان شق ـ واسمه : شق بن صعب بن يشكر بن رهم ينتهي نسبه إلى نزار ـ نصف إنسان . له يد واحدة ورجل واحدة ، وعين واحدة وأذن واحدة . . هو شق إنسان . . وكان سطيح ـ واسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن ينتهي نسبه إلى غسان ـ ولقب بسطيح لأنه لم يكن فى جسمه عظم ، وكان منسطحاً على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود وكان وجهه فى صدره ، وليس له رأس ولا عنق .

وعجائب المخلوقات ـ كما يقول الشيخ عبد الجواد رمضان ـ كثيرة ، ولكن يظهر أن مانسب الى هذين الكاهنين مبالغ فيه . .

ومازالت العامة تتأثر بعجيبى الخلقة وتثق بأخبارهم وتظن أنهم مستودع الأسرار ومحل عطف الخالق القهار . .(١٤٥)

ومن الأخبار الشائعة حول هذين الكاهنين تلك الرؤيا التى أشار اليها ابن هشام فى السيرة وغيره من الرواة . قال :

« رأى مالك بن نصر اللخمى رؤيا هالته ، فبعث إلى جميع الكهان ، فقال لهم : إنى رأيت رؤيا فظعت بها ، فقالوا : قصها علينا نخبرك بتأويلها ، فقال : لا أصدق فى تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها ، فقالوا : لا يقدر على ذلك إلا شق وسطيح .

فأحضر سطيح ، فسأله : فقال : رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة ، وأكلت منها كل ذات جمجمة .

فقال مالك : صدقت ، فما تأويلها ؟

فقال سطيح : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليملكن ما بين أبين إلى جرش .

فقال مالك : إن هذا لنا لغائظ ، فهل هو فى زمنى أو بعده ؟

فقال : بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين .

---

(١٤٥) الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى لعبدالجواد رمضان وحامد مصطفى ص ١٣١ .

قال : أفيدوم لهم ملكها أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع بعد بضع وسبعين من السنين .. ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين .

قال : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم بن ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن ؟

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع ..

قال : ومن يقطعه ؟

قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي من العلي ..

ثم سأل شقا ، كما سأل سطيحاً . فقال له :

رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نسمة .

قال : أصبت ، فما عندك من تأويلها ؟

فقال : أحلف بما بين الحرتين من انسان ، لينزلن أرضكم السودان وليملكن ما بين أبين إلى نجران .

فقال : إن هذا لنا لغائظ ، فهل يكون في زماني أو بعده ؟

قال : بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ، ويذيقهم أشد الهوان .

قال : ومن هذا عظيم الشأن ؟

قال : غلام ليس بدني ولا مدن ، يخرج عليهم من بيت ذي يزن .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل ..(١٤٦)

(١٤٦) سيرة ابن هشام ص ١١

والحممة : القطعة من النار ، والتهمة : لغة في تهامة وهي الأرض المتصوبة إلى البحر ـ والحرة : الأرض ذات الحجارة السوداء ـ والحنش : الحية . جرش : على وزن عمر : مخلاف باليمن جهة مكة .

التبشير بالنبى

وهذا الخبر يشير إلى تبشير كل من الكاهنين ببعثة النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد تواترذلك على ألسنة الكهان يتلقونه عن تابعيهم من الجن ، وقد أخبر بذلك كثير من الرواة ، وأورد من ذلك ابن ظفر فى كتابه « خير البشر بخير البشر » جملة صالحة من الأخبار ، ومن ذلك :

قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يوماً لابن عباس - رضى الله عنهما - : حدثنى بحديث تُعَجِّبنى به .

قال : حدثنى أبو خزيم بن فاتك الأسدى أنه خرج يوماً فى الجاهلية فى طلب إبل قد ضلت . فأصابها فى « أبرق العزاف » - هو اسم مكان سمى بذلك لأنه يسمع فيه عزيف الجن -

قال فعقلتها وتوسدت ذراع بكر منها . ثم قلت : أعوذ بعظيم هذا المكان - وفى رواية بكبير هذا الوادى -

قال : واذا بهاتف يهتف بى ويقول :

ويحك عذ بالله ذى الجلال منزل الحرام والحلال
ووحد الله ولا تبال ماهول ذا الجنى من الأهوال

فقلت :

يا أيها الداعى فما تخيل أرشد عندك أم تضليل

فقال :

هذا رسول الله ذو الخيرات جاء بياسين وحاميمات
وسور بعد مفصلات يدعو إلى الجنة والنجاة
يأمر بالصوم وبالصلاة ويزجر الناس عن الهنات

قال : فقلت من أنت أيها الهاتف يرحمك الله ؟

قال : أنا مالك بن مالك ، بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جن أهل نجد .

قال : فقلت لو كان لى من يلى إبلى هذه لأتيته حتى أومن به .

فقال : إن أردت الإسلام فأنا أكفيكها حتى أردها إلى أهلك سالمة إن شاء الله تعالى .

قال : فامتطيت راحلتى ، وقصدت المدينة ، فقدمتها فى يوم جمعة ، فأتيت المسجد فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب ، فأنخت راحلتى بباب المسجد وقلت : ألبث حتى يفرغ من خطبته .

فإذا أبو ذر قد خرج فقال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أرسلنى إليك ، وهو يقول لك : مرحباً بك ، قد بلغنى إسلامك ، فادخل فَصَلِّ مع الناس .

قال : فتطهرت ودخلت فصليت ، ثم دعانى وقال : ما فعل الشيخ الذى ضمن أن يرد إبلك إلى أهلك ؟ أما إنه قد ردها إلى أهلك سالمة .

فقلت : جزاه الله خيراً ورحمه الله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أجل رحمه الله فأسلم وحسن إسلامه(١٤٧)

وهذا الخبر يدلنا على بشارة الجن بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كانت الجن تعلم ببعثته من لدن انقطاع خبر السماء عنها ورجمها بالشهب .

وقد جاء على لسانهم فى القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾(١٤٨)

وقد وردت فى حراسة السماء ورجم الشيطان أخبار . قال القرطبى نقلاً عن عبد الله بن عمر : لما كان اليوم الذى نبىء فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منعت الشياطين ورموا بالشهب(١٤٩)

ونقل عن عبد الملك بن سابور قوله : لم تكن السماء تحرس فى الفترة بين عيسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فلما بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرست السماء ورميت الشياطين بالشهب ومنعت من الدنو من السماء .

---

(١٤٧) خير البشر بخير البشر لابن ظفر ـ مخطوط ـ ص ١١٩ .
(١٤٨) الجن ٨ ، ٩ .
(١٤٩) تفسير القرطبى ـ سورة الجن ـ ص ٦٨٠٥ .

وقال نافع بن جبير : كانت الشياطين فى أيام الفترة تسمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رميت بالشهب . .

الجن واستراق السمع ، وعلم الغيب :

كانت الجن تسترق السمع ، تصعد إلى السماء ، وتتلقف الأخبار فربما وصل إلى سمعها حديث الملائكة ، وربما كان فى أثناء هذا الحديث إخبار بالنبى الموعود .

فلما بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ منعت من الاستراق ، وكان ذلك من علامات النبوة وإشارات البعث . .

ويتطرق الحديث هنا إلى علم الجن بالغيب . .

فهل كانت الجن تعلم الغيب ؟

الحقيقة التى لا شك فيها أن الجن لا يعلمون الغيب مصداقاً لقوله تعالى فى حق سليمان :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ (١٥٠)

فهذا نص صريح على أنهم لا يعلمون الغيب . . ولو كانوا يعلمون الغيب لعرفوا أن سليمان قد لقى ربه منذ عام . .

وقصة ذلك كما وردت فى كتب التفسير :

أمر سليمان الجن ببناء بيت المقدس ، فلما دنت وفاته قال لأهله : لاتخبروهم بموتى حتى يتموا بناء المسجد ، وكان قد بقى لاتمامه سنة .

وكان ملك الموت قد وضع له علامة دنو وفاته ، وهى أن تخرج فى موضع سجوده شجرة يقال لها « الخروبة » .

فظهرت هذه الشجرة يوما فسألها : ماسمك ؟ وكانت تلك عادته حين تظهر نبتة جديدة ، يسألها عن اسمها ومنافعها ثم يغرسها فى بستان له ـ

فقالت له : اسمى الخروبة . . فعلم سليمان أن أجله قد حان .

---

(١٥٠) سبأ : ١٤ .

فقال : اللهم غم عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . .

•كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء . . وأنهم يعلمون مافى غد . .

وقام سليمان يصلى واتكأ على عصاه فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد . .

وكانت الأرضة قد رعت العصا وأكلتها ، فسقطت ، وسقط سليمان فتنبهت الجن لموته حينذاك . .

ولكن يبدو أن الجن لم تكن مسخرة فى ذلك الوقت فى بناء المسجد ، ولكنها كانت مسخرة فى بناء شىء آخر سوى المسجد ، لأن المشهور عند العلماء أن بناء المسجد تم فى حياة سليمان لا بعد موته . .

وأنه بعد أن أتمه جعل هذا اليوم عيداً ، وقام على الصخرة المقدسة ودعا بهذا الدعاء :

اللهم أنت وهبت لى هذا السلطان وقويتنى على بناء هذا المسجد ، اللهم فأوزعنى شكرك على ما أنعمت على وتوفنى على ملتك ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، اللهم إنى أسألك لمن دخل هذا البيت خمس خصال : لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه ، ولا خائف إلا أمنته ، ولا سقيم إلا شفيته ، ولا فقير إلا أغنيته ، وأن لا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه إلا من أراد الحاداً أو ظلماً يارب العالمين(١٥١)

أما ما توهمه الناس من علم الجن بالغيب فقد كان من قبيل اختطافهم الأخبار من السماء ، وهذا ما أخبر به الله تعالى بقوله :

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾(١٥٢)

---

(١٥١) تفسير القرطبى - سورة سبأ - ص ٥٣٦٣ .

(١٥٢) الصافات ٦ : ١٠ .

روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : بينما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس فى نفر من أصحابه إذ هوى نجم فقال : ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية ؟ قالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ إذا قضى أمراً فى السماء سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل كل سماء حتى ينتهى التسبيح إلى هذه السماء ، يستخبر أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه فتتخطفه الجن فيرمون بالشهب ، فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه(١٥٣)

وروى فى ذلك أن الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد للسمع واحداً فوق واحد ، فيتقدم الأجسر نحو السماء ثم الذى يليه ثم الذى يليه ، فيقضى الله تعالى لأمر من أمر الأرض فيتحدث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى فيلقيه الى الذى تحته فربما أحرقه شهاب وقد ألقى الكلام .وربما لم يحرقه فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة ، وتَصْدُق تلك الكلمة ، فيصدِّق الجاهلون الجميع . .

وعلى هذا فلا علم للجن بالغيب والله ـ تعالى ـ يقول :

(١٥٤)

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ٢٧﴾

وما يزعمه الكهان قديماً من معرفتهم بالغيب فإنما هو من قبيل ما كان يتخطفه الجن من أخبار السماء فيلقونه اليهم ، فلما بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انقطع ذلك تماماً

وأما ما يزعمه الزاعمون الآن من معرفة بالغيب فذلك افتراء وباطل فإن الجن والشياطين لا يستطيعون استراق السمع أو الاقتراب من السماء . .

على أن الغيب أنواع منه معرفة ما يدور فى المستقبل وهذا يستحيل معرفته على جن أو غيره . .

ومنه معرفة ما كان فى الماضى أو الحاضر مما لا علم لنا به . . وهذا ليس غيبا على من يعرفه ، بل هو غيب بالنسبة لمن لا يعرفه . .

(١٥٣) القرطبى تفسير سورة الجن .
(١٥٤) الجن ٢٦ ، ٢٧ .

فعلماء الآثار مثلاً ـ يعلمون عن أخبار الماضين ما لايعرفه غيرهم ..

وأهل الخبرة والعلم يعرفون من الأسرار ما لايعرفه غيرهم ..

وما يحدث فى هذا المكان الآن غيب بالنسبة لمن لا يقيمون فيه ، كما أن ما يحدث فى أى قطر آخر هو غيب بالنسبة لنا ..

وهذا الغيب النسبى ليس مستحيلاً معرفته ، فقد يتمكن الذى لديه القدرة على تسخير الجان أن يسألهم عما يريد من اخبار مضت أو حدثت فى التوفيجيبون إما بالانتقال إلى مكان الحادث أو بسؤال إخوانهم من عمار المكان الذين يقيمون فيه عما أرادوا من أحداث فيخبرونهم فيلقونها الى متبوعيهم .. ومن هذا ندرك كذب من يخبر عما يحدث فى المستقبل .. وقد جاء فى الأثر كذب المنجمون ولو صدقوا .. والمنجمون هم الذين يستنطقون النجوم ويخبرون الناس بما يحدث لهم فى مستقبل أيامهم ..

وقد بطلت الكهانة برسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك : ليس منا من تكهن ..

ومن يزعم أن له صلة بالجن وأنها تأتيه بالأخبار فذلك أفاك أثيم بنص القرآن

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ (١٥٥)

من عادة الجن الكذب

جاء فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة : قال : وكلنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إنى محتاج ولى عيال ولى حاجة شديدة ، فخليت عنه ، فأصبحت ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ؟

قلت : يارسول الله شكا الحاجة الشديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله ..

قال : أما إنه قد كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ـ صلى

---

(١٥٥) الشعراء ٢٢١ : ٢٢٣ .

الله عليه وسلم ـ فرصدته فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : دعني فإني محتاج ولي عيال ولن أعود ، فرحمته فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبا هريرة ما فعل أسيرك ؟

قلت : يا رسول الله شكا حاجة وعيالاً فرحمته ، وخليت سبيله . .

قال : إما إنه كذبك وسيعود

فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام فأخذته ، فقلت : لأرفعنك الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا آخر ثلاث مرات ، إنك تزعم لا تعود ثم تعود .

قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها .

قلت : ماهن ؟

قال : اذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي . . الله لاإله إلا هو الحي القيوم ، حتى تختم الآية فإنك لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مافعل أسيرك البارحة ؟

قلت : يارسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها ، فخليت سبيله . .

قال : ماهي ؟

قلت : قال لي : إذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية : الله لاإله إلا هو الحي القيوم . .

وقال لي : لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ـ وكانوا أحرص الناس على الخير ـ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما إنه صدقك وهو كذوب . .

تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟

قلت : لا

قال : ذاك شيطان(١٥٦)

(١٥٦) الجن لابن تيمية ص ٦٦ ط مكتبة الايمان .

فقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكذب الجن فيما يخبرون به وقد كذب الشيطان على أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ فى هذه القصة مرتين .. ولولا خوفه من عقاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاستمر فى الكذب ..

وهم أشد كذباً بالنسبة لأوليائهم من الإنس ..

هذا وليس ببعيد أن يكون قصد الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله هذا شيطان . إنه شيطان من الإنس .... ولانجاة للإنسان من شرهم إلا بالإستعاذة بالله منهم ..

ولاتجدى الاستعاذة باللسان ، مالم يصحبها الاخلاص وحسن النية ، وقوة العقيدة ورسوخ الإيمان وأنه بعمق الإيمان وصدق العقيدة وقوة الالتجاء الى الله يتمكن المسلم من التغلب على الشيطان والسيطرة عليه بل والتحكم فيه ..

النبى يقهر الشيطان

وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن الشيطان عرض لى فشدَّ علىَّ ليقطع الصلاة علىَّ ، فأمكننى الله منه ، فذعته ـ أى خنقته أو دفعته ـ ولقد هممت أن أوثقه الى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه ، فذكرت أخى سليمان « رب هب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى » وقد رد الله الشيطان عنى خاسئاً .

وإن الشيطان عدو الله ، وعدو أوليائه وأصفيائه وربما زين له غروره التصدى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يتصدى لغيره .. ولكن الله أمكن النبى منه فارتد على أعقابه خاسئاً .

وقد أعطى الله للمؤمن سلاحاً قوياً يقهر به كيد الشيطان ومكره ..

وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق ونذكر المؤمن بقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(ــ) الأعراف ٢٠٠ : ٢٠١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

السِّحْرُ والسَّحَرة
في القرآن الكريم

- مزاعم يهودية عن ملك سليمان.
- مفهوم السحر...
- كلمة السحر في القرآن الكريم...
- قصص السحر في القرآن...
- هاروت وماروت...
- سحرة فرعون...
- النفاثات في العقد....
- قول المشركين عن القرآن بأنه سحر.
- من متعلقات السحر:
  - تحضير الأرواح
  - التنجيم
  - قراءة الكف والفنجان
  - الزار
  - الرقى والتمائم
- دعاء يبطل السحر..

مزاعم اليهود عن ملك سليمان:

جاء فى كتاب « أسباب النزول للسيوطى » فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1]

أخرج ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : قالت اليهود : انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء ، أفما كان ساحراً يركب الريح ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وأخرج ابن حاتم عن أبى العالية أن اليهود سألوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شىء من ذلك إلا أنزل الله ما سألوا عنه فلما رأوا ذلك قالوا :

هذا أعلم بما أنزل إلينا منا ، ثم أنهم سألوه عن السحر ، فأنزل الله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين . . »[2]

---

(١) البقرة ١٠٢
(٢) أنظر لباب النقول فى أسباب النزول ص ١٤ ط دار التحرير

فمن هذه الأخبار ندرك أن اليهود زعموا أن ملك سليمان قد قام على السحر ، وشبهتهم فى ذلك ما كان يقوم به من أعمال خصه الله بها ، ولم يقم بها أحد غيره ممن تقدمه من الأنبياء كتسخير الريح ، وتسخير الجن والشياطين التى كانت تقوم له بمختلف الأعمال التى سبق أن أشرنا اليها فيما سبق . .

والآية التى سقناها فى بداية هذا الحديث تبطل مزاعم اليهود ، وتثبت أن سليمان ـ عليه السلام ـ لم يكن ساحراً ، ولكنه كان نبياً مؤيداً بالمعجزات ، أما الذين اتبعوا السحر فهم هؤلاء الذين أخطأوا الحق فى شريعة موسى ، واتبعوا ما تتلو الشياطين . .

وكثير من اليهود ينكرون نبوة سليمان ـ عليه السلام ـ وينظرون إليه على أنه ملك من ملوك الدنيا ، أقام ملكه على السحر وتسخير الشياطين .

وقد جاء الاسلام لينزه أقدار الأنبياء ، ويؤكد قوة اتصالهم بالله وأن الله أمدهم بمعجزات من عنده تثبت نبوتهم وتصدق أقوالهم فيما أخبروا به عن ربهم . .

ولقد جاءت هذه الآية المتقدمة بعد آية أخرى تتحدث عن اليهود بأنهم نبذوا التوراة وراء ظهورهم ، وكذبوا بالقرآن الذى جاء مصدقاً للتوراة . . وهذه الآية هى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (٣)

---

(٣) سورة البقرة ١٠١

وكلا الكتابين يثبت العصمة للأنبياء والتبرأ من باطل الشياطين ولغوهم .

وان من باطل الشياطين السحر الذى أغتر به كثير من الناس ، وأقبلوا عليه يتعلمونه ويعلمونه وقد ضل بسبب ذلك كثير منهم ، ولحقهم الضر والأذى مما حدا بنا إلى إفراد السحر بحديث خاص بعد حديثنا عن الجن .

مفهوم السحر :

قال الأزهرى : أصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره ، فكأن الساحر لما صور الباطل فى صورة الحق وخيل الشيء على غير حقيقته قد سحر الشيء عن وجهه أى صرفه . وقوله تعالى فى القرآن الكريم :

﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[٤] معناه : فأنى تصرفون ، ومثله قوله تعالى:

﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[٥]

فالإفك والسحر سواء ، والعرب يقولون : ما سحرك عن وجه كذا وكذا ؟ أى ما صرفك ؟[٦] .

وقال القرطبى : السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعانى ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هى عليه ، كالذى يرى السراب من بعيد فيظن أن ما يراه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيراً حقيقياً يخيل إليه أن ما يراه من الأشجار والجبال سائرة ، وهو مشتق من سحرت الصبى إذا خدعته كما قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

وسحرت الصبى إذا غذيته أو خدعته

---

(٤) المؤمنون ٨٩ .
(٥) الأنعام ٩٥ ، ويونس ، ٣٤ ، وغافر ٦٢
(٦) لسان العرب لابن منظور جـ٣ صـ١٩٥٢

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾ (٧)

أى من الذين يغذون بالطعام والشراب أو من المخدوعين

ومن ذلك قول الشاعر :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

أى نغذى أو نخدع .

ومن معانى السحر الفساد ، وطعام مسحور إذا فسد ، وأرض مسحورة إذا أصابها المطر أكثر مما ينبغى فأفسدها ، ومن معانى المادة أنها تدل على الخفاء .

فالسحر ـ بسكون الحاء وفتحها ـ والسحر بضم السين وسكون الحاء .

ما لصق بالحلقوم والمرىء من أعلى البطن وهو الرئة ، ويقال للجبان : انتفخ سحره أى ملأ الخوف جوفه ، حتى رفع القلب إلى الرئة وهو ما ينطبق عليه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠ ﴾ (٨)

ومن السحر بمعنى الرئة قول عائشة ـ رضى الله عنها ـ « توفى النبى ـ صلى الله عليه سلم ـ بين سحرى ونحرى » أى توفى مستنداً إلى صدرها .

ومن معانى السحر الأخذة ـ يقال فلان مأخوذ أى مشدوه حين يرى أو يسمع ما يذهله أو يؤثر فيه .

والسحر يطلق على البيان المؤثر فى النفس فى فطنة وذكاء ، ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن من البيان لسحراً » وقد أورد الحصرى فى زهر الآداب هذا المثل النبوى الكريم غير المسبوق .

---

(٧) الشعراء ١٥٣

(٨) الأحزاب ١٠

وقصة ذلك كما جاءت فى كتب السنن والرواة : أن قيس بن عاصم المنقرى والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم قدموا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر . . فقال عمرو : « مانع لحوزته مطاع فى أدنيه » فقال الزبرقان : يارسول الله إنه يعلم من شرف أكثر مما قال ولكنه حسدنى شرفى . . فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال فو الله ما علمته إلا ضيق الصدر زَمِر المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى » .

فلما رأى أن قوله الآخر خالف قوله الأول ، ورأى الإنكار فى عينى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « يارسول الله رضيت فقلت : أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الآخرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحراً » (٩) .

وقد تناول أهل اللغة هذا الحديث بالتعليق فقال أبو عبيد :

كأن المعنى ـ والله أعلم ـ أنه يبلغ من ثنائه أنه يمدح الانسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله ، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر ، فكأنه قد سحر السامعين بذلك .

ومما يروى فى تأثير الكلام حتى يوصف بأنه سحر حلال ما ذكره الحصرى أيضاً من أن غلاماً دخل مع وفد الحجاز يهنىء عمر بن عبد العزيز بالخلافة ، فأراد أن يتكلم ، فقال له عمر : يا غلام ليتكلم من هو أسن منك . . فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغرية قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبده لساناً طلقاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الاختيار ، ولو أن الأمر بالسن لكان هاهنا من هو أحق منك بمجلسك ، فقال عمر : صدقت . . تكلم فهذا هو السحر الحلال .

(٩) البيان والتبيين حـ١ ص٥٣ . . زَمِر المروءة : قليلها

وقد أخذ أبو تمام عبارة السحر الحلال فضمنها قوله معاتباً صديقاً :

فأين قصائد لى فيك تأبى وتأنف أن أهان وأن أذللا
هى السحر الحلال لمجتليه ولم أر قبلها سحراً حلالاً (١٠)

أما قول النبى - صلى الله عليه وسلم - إن من البيان لسحراً . فقد خرجه بعضهم مخرج الذم ، حيث ان صاحب البيان صوّب الباطل حتى توهمه السامع أنه حق . .

وخرجه آخرون مخرج المدح حيث ان صاحب البلاغة والبيان قادر على استمالة القلوب وإرضاء الساخط واستنزال الصعب .

وعلى كل فالبلاغة فى الكلام تكون محمودة إذا كانت فى أداء الحق وتأكيده وتقويته فى النفوس ، وهى مذمومة اذا ألبست الباطل ثوب الحق وموهت على الناس وزيفت الحقائق .

كلمة السحر فى القرآن :

وقد وردت كلمة السحر ومشتقاتها فى القرآن الكريم فى ثلاثة وستين موضعاً .

تتناول فى كثير منها وصف الكافرين للقرآن وما جاء به الأنبياء من آيات بالسحر ، ووصف الأنبياء بالسحرة .

فمما جاء فى وصف الكفار للقرآن بأنه سحر قوله - تعالى -

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا

---

(١٠) زهر الآداب جـ ١ ص ٤٠

جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [11]

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [12]

وقوله تعالى حكاية عن الوليد بن المغيرة :

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [13]

ومما جاء فى وصف ما جاء به الأنبياء من آيات بالسحر قول الكفار فى حق موسى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [14]

وما قالوه فى حق عيسى :

﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [15]

وذلك فى اثر ما رأوه من إبرائه الأبرص والأعمى وإحيائه الموتى وجعله من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

ومما جاء فى وصف الأنبياء بأنهم سحرة قوله ـ تعالى ـ على لسان آل فرعون فى حق موسى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [16]

---

(١١) سبأ ٤٣
(١٢) الزخرف ٣٠
(١٣) المدثر ٢٣ـ : ٢٥
(١٤) القصص ٣٦
(١٥) المائدة ١١٠
(١٦) الأعراف ١٠٩

وما جاء على لسان الكفار فى كل زمان فى حق أى نبى مبعوث

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١٧)

لقد كثر فى القرآن الكريم ما جاء فى وصف موسى بالسحر ، لأن معجزته كانت فى تحدى السحر الذى كان رائجاً فى قوم فرعون ، ومن ثم ألقى عصاه التى تلقفت عصى السحرة الذين حشرهم فرعون لتحدى موسى . وسوف نعرض لذلك بالتفصيل بعد قليل .

وقد كان وصف الأنبياء بالسحرة ووصف آياتهم بالسحر سنة متبعة لدى الكفار ، لأن دعوة الأنبياء غريبة على الأذهان ، وهى تحاول صرف العقول عن عقيدة إلى عقيدة وعن رأى إلى رأى آخر ، ومنطق الحق قوى وحجته واضحة وبرهانه ساطع يأخذ بمجامع القلوب ويستولى على مشاعر أصحاب الفطر السليمة من الناس . .

إلا أن هناك قصصاً فى القرآن الكريم عرضت أحداثاً أو أشارت إلى أحداث حول السحر وأثره فى النفوس . . فمن القصص التى وردت فى القرآن :

قصة هاروت وماروت

قصة موسى مع السحرة

قصة النفاثات فى العقد

قصة الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن الكريم

وسنعرض لكل من هذه القصص بالتفصيل . .

---

(١٧) الذاريات ٥٢ : ٥٣

أولا : حول قصة « هاروت وماروت » :

اختلف العلماء حول حقيقة كل من هاروت وماروت فقال بعضهم : إن هاروت وماروت من الملائكة .. ولما كثر الفساد من الناس فى عهد ادريس انتقدتهم الملائكة وعيرتهم وقالت لهم : لو كنا مكانكم ما ضللنا كما ضللتم .

فقال الله ـ تعالى ـ : أما لو كنتم مكانهم وركِّبت فيكم ما رُكِّب فيهم من طبائع وغرائز وشهوات لفعلتم ما فعلوا ولضللتم كما ضلوا .

وكأنهم استكثروا على أنفسهم أن يفعلوا ذلك وقالوا : حاشا وكلاَّ ما ينبغى أن نشرك بربنا أحداً ، أو نجور عن القصد الذى رسمته الشريعة لنا ..

فقال الحق لهم : فاختاروا ملكين من خياركم أبتليهم بما ابتلى به بنو آدم من طباع وشهوات ، ثم انظروا ما يحدث منهم ..

فاختاروا ملكين اسمهما هاروت وماروت .

فأنزلهما الله إلى الأرض ، فركب الله فيهما الشهوة ، فلما مرت بهما فترة فى الأرض ، جاءتهما امرأة جميلة تختصم إليهما ، وكانا قاضيين ..

ولعل الله اختارهما للقضاء لما فيه من الفتنة والابتلاء ..

ورأى هاروت وماروت المرأة ففتنا بجمالها ، فراوداها عن نفسها ، فقالت لهما : أنا لا أجيبكما إلى ما تطلبان إلا إذا دخلتما فى دينى ..

وكانت ذات وثن تعبده ..

فرفضا الاستجابة لها ..

وترددت عليهما مرة أخرى وهى أكثر فتنة من ذى قبل ، فعرضا عليها ما عرضاه فى المرة السابقة ، فرفضت أيضاً ، وقالت لهما : أنا أجيبكما إلى

ما تطلبان إذا فعلتما واحدة من ثلاث : إما أن تشربا الخمر ، أو تقتلا هذا الرجل ، أو تعبدا هذا الوثن .

ففكرا قليلاً ، ثم قالا الخمر أهون الثلاثة شراً ..

فشربا الخمر ، فغابا عن وعيهما .. فقتلا الرجل ، وفجرا بالمرأة ..
ولذلك سميت الخمر أم الخبائث

فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، لأنه ينقضى أما عذاب الآخرة فهو دائم ..

أما المرأة فيقال إن اسمها هو الزهرة وكانت قد عرفت أنهما ملكان ، وسألتهما عن الاسم الذى يصعدان به إلى السماء فعلّماها إياه ..

فبعد أن ارتكبا الخطيئة ، قرأت هذا الاسم فى محاولة للصعود الى السماء ، فصعدت ولكن الله مسخها كوكباً ، هو كوكب الزهرة .

وهذان الملكان ، مازالا فى سرب تحت الأرض يعذبان فى بابل .. ويقومان بتعليم الناس السحر .

وذكر القزوينى فى كتابه « عجائب المخلوقات » عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما خرج آدم من الجنة عرياناً نظرت إليه الملائكة وقالت : ربنا هذا آدم بديع فطرتك ، أقله ولا تخذله ، فمر بملأ من الملائكة فوبخوه على نقضه عهد ربه ، وكان ممن وبخه يومئذ هاروت وماروت .

فقال آدم : يا ملائكة ربى ، ارحموا ولا توبخوا فذلك الذى جرى علىّ كان قضاء ربى ..

فابتلى الله ـ تعالى ـ هاروت وماروت حتى عصيا الله ومنعا من الصعود الى السماء ..

فلما كان أيام إدريس ـ عليه السلام ـ صارا إليه وذكرا له قصتهما ، ثم قالا له : هل لك أن تدعو لنا حتى يتجاوز عنا ربنا ؟

فقال إدريس ـ عليه السلام ـ : كيف لى العلم بالتجاوز عنكما ؟
قالا : ادع لنا ، فإن رأيتنا فهى الاستجابة ، وإن لم ترنا هلكنا . .

فتوضأ إدريس وصلى ودعا الله تعالى ثم التفت فلم يرهما فعلم أن العقوبة حلت بهما ، وذهبا إلى أرض بابل ثم خُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما مسلسلان معذبات فى بئر بأرض بابل إلى يوم القيامة [١٨]

ومثل هذه القصص مردودة ، وقد ضعفها المحققون من العلماء لأسباب لا تجهل . .

أهمها أن ذلك ينافى عصمة الملائكة الذين ورد فى حقهم قوله ـ تعالى ـ

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [١٩]

وقوله تعالى :

﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [٢٠]

وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [٢١]

وقد تعقب القرطبى هذه الرواية بالمناقشة حتى ردها .

---

(١٨) عجائب المخلوقات للقزوينى ص ٦١
(١٩) الأنبياء ٢٦ : ٢٨
(٢٠) التحريم ٦
(٢١) سورة الأنبياء ٢٠

ومما يدل على عدم صحتها أن الله تعالى خلق النجوم والكواكب حين خلق السماء ففي الخبر : « أن السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوراة ـ زحل والمشترى وبهرام وعطارد والزهرة والشمس والقمر » وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠ ﴾(٢٢)

فثبت بهذا أن الزهرة قد كان قبل خلق آدم .

وقال الفخر الرازى فى كتابه « مفاتيح الغيب » : واعلم أن هذه الرواية مردودة غير مقبولة ، لأنه ليس فى كتاب الله ما يدل على ذلك ، بل فيه مايبطلها من وجوه :

الأول ، ما تقدم من الدلائل الدالة على عصمة الملائكة عن كل المعاصى .

وثانيها : أن قولهم : إنهما خُيِّرا بين عذاب الدنياوعذاب الآخرة فاسد ، بل كان الأولى أن يُخيرا بين التوبة والعذاب لأن الله تعالى خير بينهما من أشرك به طول عمره ، فكيف يبخل عليهما بذلك

وثالثها : أن من أعجب الأمور قولهم : إنهما يعلمان السحر فى حال كونهما معذبين ، ويدعوان اليه وهما يعاقبان .

إذا علمنا أن هاروت وماروت ليسا ملكين من الملائكة ، فمن يكونان إذن ؟

قال بعض العلماء : إنهما مَلِكان ـ بكسر اللام ـ مثنى مَلِك

قال الحسن : كانا ملكين ببابل

وقيل : كانا رجلين صالحين .

---

(٢٢) يس ٤٠

وقد قرأ بكسر اللام بعض القراء المشهورين ، وممن قرأ هذه القراءة ابن عباس وابن الرازى والضحاك والحسن ، ولكن مع ذلك ، ما تزال قراءة الملكين بفتح اللام هى المشهورة .

قد تكون القراءة بكسر اللام أنسب وأقرب لتنزيه مقام الملائكة عما يشين . .

ولكن تبقى قراءة الفتح محتاجة إلى توضيح . . لهذا حاول العلماء استنباط فهم آخر يتفق مع القراءة بالفتح ولا يقدح فى مقام الملائكة . .

فقالوا :

إن هاروت وماروت من الملائكة أنزلهما الله ، ولكن لم تحدث منهما معصية كما يقول من زعم ذلك ، وأنزلهما لأسباب أشار إليها الفخر الرازى ـ رحمه الله ـ[٢٣]

من هذه الأسباب أن السحرة كثروا ، واستنبطوا أبواباً غريبة فى السحر ادعوا بها النبوة وتحدوا الناس فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة هؤلاء الذين يدعون النبوة كذباً ، ولا شك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد .

ومنها أن العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة وبماهية السحر . .

والناس كانوا جاهلين بحقيقة السحر فتعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة ، واختلط الأمر عليهم ، فبعث الله الملكين ليعرفا الناس حقيقة السحر ليدركوا حقيقة المعجزة .

ومنها أن السحر الذى يوقع الفرقة بين أعداء الله والألفة بين أولياء الله كان مباحاً أو مندوباً ، وقد بعث الله الملكين لتعليم السحر لهذا الغرض ، إلا أن

---

(٢٣) مفاتيح الغيب

القوم تعلموا ذلك منها واستعملوه فى الشر وإيقاع الفرقة بين أولياء الله والألفة بين أعداء الله .

ومنها أن الجن كانت لديهم أنواع من السحر لم يقدر البشر على الإتيان بمثلها ، فبعث الله الملكين ليعلموا البشر أمور يقدرون بها على معارضة الجن .

ومنها أنه يجوز أن يكون ذلك تشديداً فى التكليف من حيث انه إذا علَّمه ما يمكنه أن يتوصل به إلى اللذات العاجلة ثم منعه من استعمالها كان ذلك فى غاية المشقة ، فيستوجب به الثواب الزائد ، كما ابتلى قوم طالوت بالنهر فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ (٢٤)

والذى يدل على أن هذين الملكين أنزلها الله لتعليم الناس السحر ليعرفوه ويحترسوا من شره هو قوله تعالى : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » . .

أى إن الذى نصفه لك وإن كان الغرض منه أن يتميز به الفرق بين السحر وبين المعجزة فإنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفاسد والمعاصى ، فإياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه أو تتوصل به إلى شيء من الأغراض العاجلة (٢٥)

وفى ذلك يقول الزمخشرى فى الكشاف : أنزل الله على الملكين علم السحر ابتلاء من الله للناس ، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً ، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه بحيث لا يغتر به كان مؤمنا على نحو قول الشاعر :

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه (٢٦)

---

(٢٤) البقرة ٢٤٩

(٢٥) السحر والسحرة فى القرآن الكريم ص ١٨٤

(٢٦) تفسير الكشاف للزمخشرى حـ ١ ص ١٧٢ ، والبيتان لأبى نواس

حكم الدين فى السحر :

وفى ضوء هذه القصة نستخلص الأحكام الآتية :

أولاً : السـحر :

السحر ـ كما عرفناه ـ هو كل أمر خَفِيَ سببه وتخيله الإنسان على غير حقيقته وهو يجرى مجرى التمويه والخداع .. وهو عند المعتزلة خداع لا أصل له ، وعند الشافعى وسوسة وأمراض .. وعند كثير من العلماء طلاسم تبنى على تأثير خصائص الكواكب والمواد كتأثير الشمس فى زئبق عصا فرعون . أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ماعسر .. وهذا معناه أن وله حقيقة .

وقال أهل السنة : ان السحر حقيقة ، وجوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير فى الهواء ، ويقلب الانسان حماراً والحمار انساناً . إلا أن الله هو الخالق لهذه الأشياء وذلك عندما يقرأ الساحر رقى مخصوصة وكلمات معينة . أما أن يكون المؤثر فى ذلك الفلك والنجوع أو الساحر فلا .

لقوله تعالى : « وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » .

وكثير من الكفرة كانوا يزعمون أن النجوم هى المدبرة لهذا العالم ، وكانوا يعبدونها ، وقد أبطل إبراهيم ـ عليه السلام ـ مقالتهم ..

وقد كان السحر فناً من الفنون القديمة ، وكان له عند قدماء المصريين ، مدارس تعلمه وتلقنه ، وينتظم فيها التلاميذ على مستويات مختلفة .

وكما كان عند قدماء المصريين كان كذلك عند الكلدانيين فى بلاد ما بين النهرين ، وعند البابليين ، وعند الهنود وغيرهم ..

وقد أثر عن الوثنيين أعمال سحرية غريبة اهتدى بعض العلماء فى العصور المتأخرة إلى تعليل بعضها وكشف حقيقتها ، ومازال بعضها غامضاً حتى الآن ..

وقد ذكر صاحب تفسير المنار أن المعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على الناس لجهلهم بأسبابها . . فإذا عرف سبب شيء منها بطل إطلاق اسم السحر عليه (٢٧)

ولعل هذا هو السبب الذى جعل الكفار يطلقون على معجزات الرسل أنها سحر ، لعدم إمكانهم تعليل حدوثها .

ثانيا : السحر أنواع :

من السحر ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للساحر المجهولة عند من يسحرهم بها . . وقد لجأ سحرة فرعون إلى هذه الطريقة ، فوضعوا الزئبق فى حبالهم وعصيهم ، فلما حميت تحركت ، فتخيل الناس أنها تسعى . .



ـ وسيأتى حديث عن ذلك ـ

وقد يلجأ إلى ذلك بعض المتخصصين فى العلم فى مواجهة الجهلة من الناس فيعرضون أمامهم من خواص المادة ما يذهل ألبابهم . وقد وضع أحد السياح قطعة من الجليد على شكل عدسى بقدر ما يرى من قرص الشمس وقال للناس فى بعض البلاد الأفريقية التى يكثر فيها من يدعون السحر : إننى أستطيع أن أجعل فى يدى شمسا كشمس السماء .

ووجه عدسيته الى الشمس عند بزوغها واكتمال ضوئها ، فصارت الثلجة بإنعكاس الشمس عليها كالشمس ولم يستطع أدعياء السحر فى هذا البلد أن يثبتوا أعينهم فيها ، فخضعوا له .

---

(٢٧) تفسير المنار جـ ٩ ص ٤١

ومن السحر ما يسمى بالشعودة التى تقوم على خفة اليد ، وهذا النوع مشاهد فى المسارح ويعرض على أنظار الجمهور ، ويقوم أحياناً عارضوه بشرحه للمشاهدين .

وقد يلطف ما يقومون به جداً حتى يخفى على أولى الألباب ، ولا يعرف سره إلا بقوة الفطنة ، ومن ذلك ما رواه الكلبي من أن رجلاً خرج يتصيد ومعه كلبه وغلام ، فرأى ثعلباً ، فأغرى به كلبه ، فدخل الثعلب جحراً فدخل الكلب خلفه فلم يخرج ، فأمر الغلام أن يدخل وراءهما فدخل فلم يخرج ، فوقف الرجل وقد تهيأ للدخول ، واذا برجل يمر عليه فأخبره بشأن الثعلب والكلب والغلام .

فأخذ الرجل بيده فأدخله إلى هناك ، فمضيا إلى سرب طويل حتى أفضى بهما إلى بيت قد فتح له ضوء فى موضع ينزل إليه بمرقاتين ـ أى درجتين . .

فوقف به على المرقاة الأولى حتى أضاء البيت حيناً ، فقال له : انظر فنظر فإذا الكلب والغلام والثعلب قتلى واذا فى صدر البيت رجل واقف مقنع فى الحديد ، وفى يده سيف فقال له الرجل :أترى هذا ؟ لو دخل إليه هذا المدخل ألف رجل لقتلهم جميعاً ؟

فقال : وكيف ؟

قال : لأنه قد رتب وهندم على هيئته متى وضع الإنسان رجله على المرقاة الثانية للنزول ، تقدم الرجل فضربه بالسيف الذى بيده ، فإياك أن تنزل .

فقال : فكيف الحيلة ؟

فقال : ينبغى أن تحفر من خلفه سرداباً يفضى بك إليه ، فإذا وصلت إليه من تلك الناحية لم يتحرك . .

فاستأجر الرجل أجراء حفروا له سرداباً من خلف التل ، فأفضوا إليه فلم يتحرك ، واذا رجل معمول من صفر ـ نحاس ـ قد ألبس السلاح وأعطى السيف . فقلعه من مكانه .

ورأى بابا آخر ففتحه ، فإذا هو قبر لبعض الملوك ميت على سريره وهذا ما يسميه العامة بالرصد (٢٨)

ومن ضروب السحر مايدعيه البعض من حديث الجن والشياطين وطاعتهم ، يتمكنون من ذلك بالرقى والعزائم ، والأدخنة والأدوية .

جاء فى مفاتيح الغيب للرازى : إن من النفوس البشرية ما يستعين بالأرواح الأرضية ، وان اتصال النفس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية ، وإن كانت القوة الحاصلة للنفس بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوة الحاصلة لها بسبب اتصالها بتلك الأرواح السماوية (٢٩)

ولكن بعض العلماء يرى أن ذلك زعم وادعاء على نحو ماكان عليه أمر الكهان فى الجاهلية ، وقد اغتر بحال هؤلاء المدعين كثير من الناس ، ومنهم من وصل إلى منزلة اجتماعية كبيرة ، ذكروا أن المنتصر بالله الخليفة العباسى مع وفور عقله اغتر بقول هؤلاء .

وذلك أنه كان يظهر فى داره شخص فى يده سيف فى أوقات مختلفة ، وأكثر ما يكون فى وقت الظهر ، فإذا طلب لم يوجد ولم يقدر عليه وقد رآه بعينيه مراراً ،

---

(٢٨) تفسير المنار جـ ٩ ص ٤٧
(٢٩) نقلاً عن كتاب الروح ص ١٠٨

فاهتم لذلك ودعا بالمعزمين وانكشف الأمر عن أن أحد خدم القصر هو الذى كان يصنع ذلك (٣٠)

ومن ضروب السحر السعى بالنميمة والرماية ، وقد ورد فى ذلك المثل العامى المشهور : الالحاح على الأذن أقوى من السحر .

فما يزال الواشى ينمق لمن يريد الكلام حتى يتأثر به ويحدث منه ما يحدث للمسحور له .

ومما ورد فى ذلك أن امرأة أرادت الإفساد بين زوجين فذهبت إلى الزوجة تنم لها بأن زوجها معرض عنها وسوف يتزوج من غيرها وأن فى إمكانها أن تسحره لها حتى لا يحب سواها ، وطلبت منها أن تصنع ما تمليه عليها ..

قالت : خذى من شعر حلقه ثلاث شعرات بالموسى إذا نام دون أن يشعر ، وأنا أقوم بعمل له .

فصدقت الزوجة التى وقعت تحت تأثير الغيرة الشديدة .
وفى الوقت نفسه كانت المرأة قد ذهبت إلى الزوج ، محذرة تقول له : إن امرأتك لا تريدك وقد همت بقتلك ، وآية ذلك أنها ستذبحك حين تنام ..

وتناوم الرجل وإذا بزوجته جاءت بالموسى لتنتزع الشعرات الثلاث من حلقه . فلم يشك فى أنها جاءت لتذبحه فقتلها .. وأمثال هذه القصص كثيرة يقوم بها شياطين الإنس ليفسدوا المودة بين الناس ويقطعوا روابط الألفة والمحبة بين الإخوان ..

---

(٣٠) تفسير المنار حـ ٩ ص ٤٨

ومن السحر ما يقوم على قوة تأثير أصحاب النفوس القوية فى أصحاب النفوس الضعيفة ذات الأمزجة العصبية القابلة للأوهام والانفعالات .. ومن ذلك التنويم المغناطيسى .

وهذا النوع هو الذى يقال فى أصحابه إنهم يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم الذين يكتبون الأحجبة والطلاسم .

ثالثاً : سحر أهل بابل :

كان أهل بابل قوماً صابئين يعبدون الكواكب السبعة ، ويعتقدون أن حوادث العالم كله من أفعالها وقد أرسل الله إليهم سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذى حاجهم ، وقصة المحاجة أوردها القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى :

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ
٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى
لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى
هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ
وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ
بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ
٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ

تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ
وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٣١)

وقد مرت بنا هذه المحاجة فى قصة إبراهيم - عليه السلام -

كان أهل بابل وأقاليم العراق ومصر والشام والروم يدينون بذلك وتفرع على هذه الديانة أقاويل وحكايات تحدث عنها الجصاص فى كتابه أحكام القرآن ، ولخص بعضها رشيد رضا فى تفسيره . .

ومن ذلك أن « بيوراسب » ملك بابل كان ساحرا وأنه ملك الأقاليم السبعة ، واستطاع أفريدون الذى ملك بعده أن يجيش ضده الجيوش وأن يحبسه فى جبل « دبناوند » بين الرى وطبر ستان ، ويعتقد الناس أنه حى مقيد وأن السحرة يأتونه هناك فيأخذون السحر عنه ، وأنه سيخرج فيغلب على الأرض وأنه هو الدجال الذى يأتى فى آخر الزمان .

ويلقب « بيوراسب » بالضحاك الذى قال فيه أحد الشعراء العرب اليمنيين مفتخراً به :

وكان منا الضحاك تعبده الجامل والوحش فى مساربها (٣٢)

وظل السحر شائعاً فى هذا الاقليم ، حتى ظهر الفرس على بابل وملكوها ، فأبطلوا السحر حتى أصبح الناس يتعبدون بقتل السحرة (٣٣)

---

(٣١) سورة الأنعام من ٧٦ - ٨٢
(٣٢) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ، ص ٤٤ ومعنى الجامل الجمال جمع جمل
(٣٣) تفسير المنار جـ ٩ ص ٤٤

خواص سحر أهل بابل :

وكان يغلب على سحر البابليين الحيل وأحكام النجوم ولهم أوثان يعبدونها أقاموها على أسماء الكواكبَ السبعة ، وجعلوا لكل واحد منها صنماً يتقربون اليه ويقدمون له الذبائح والقرابين . .

ولكل صنم باسم كوكب عمل خاص به
فالمشترى خاص بالخير والصلاح
وزحل له الشر والموت والحرب
والمريخ خاص بالبرق والحرق والطاعون وهكذا . .

وكان السحرة يستعملون رقىً يزعمون بها القدرة على استجلاب رضا هذه الآلهة ،أو تحريك غضبها ضد من يريدون . . وقد وصل السحرة بذلك إلى منزلة عظمى لدى الناس عامة وعند الملوك خاصة .

وعلى هذا النحو كان الأمر فى الممالك الأخرى ، وقد بلغ السحرة فى مصر مبلغاً عظيماً ورأينا كيف استعان بهم فرعون فى مواجهة موسى ـ عليه السلام ـ

وظل الأمر على ذلك فى بابل وغيرها حتى غلب على الممالك الوثنية من دانوا بالتوحيد ، أو دانوا بعقيدة أخرى ، فاضطهدوا السحرة وقتلوهم تقرباً إلى الله . .

لماذا اختار الله بابل لنزول الملكين ؟

بلغ السحر فى بابل مبلغاً كبيراً إلى درجة اعتقاد الناس أن السحرة لديهم

القدرة على فعل أى شىء وأنهم هم أو النجوم أو الألهة المصورة باسمها قادرون على كل شىء .

والمصدق بذلك كافر من وجوه عدة ، لأنه صدق بوجوب تعظيم الكواكب وعبادتها من دون الله ، ولأنه اعتقد فى الكواكب القدرة على النفع والضر ، ولأنه اعتقد أن السحرة قادرون على خوارق العادات كالأنبياء . .

ومن أجل ذلك بعث الله الملكين فى هذا المكان يبينان للناس الحقيقة فى مزاعم هؤلاء السحرة ويكشفان للناس حقيقة السحر ، ويحذران المتعلم من الأضرار المترتبة على تعلمه ، هذه الأضرار التى قد تصل إلى درجة الكفر والعياذ بالله . .

أين بابل ؟

تقع بابل جنوبى بغداد على بعد أربعة وخمسين ميلاً منها ، على طريق بغداد - الحِلة ، وقيل إنها كانت تشمل مساحة مترامية الأطراف .

وهى على شاطىء الفرات وكان لها شأن عظيم ، فى القدم . .

ومن الأقوال التى وردت فى سر عظمتها أن آدم نفسه بعد خروجه من الجنة وكذلك قابيل وهابيل كان مقامهم فى بابل ، وكذلك سكنها نوح وأبناؤه .

وقيل إنها ثانى مدينة بنيت فى العالم بعد حران ، وإلى بابل ينسب برج بابل المشهور الذى بناه النمروذ ويسمى (المجدل) .

وقالوا : إن الله فرق أبناء نوح فى الأرض من بابل وفيها تبلبلت الألسن (٣٤)

وكانت بابل مقر النمروذ بن كنعان أول من ملك الأرض ، وهو الذى أُرسل إليه إبراهيم - عليه السلام - وكانت بعدذلك بقرون مقر (بختنصر) الذى دمر

---

(٣٤) سفر التكوين الاصحاح الحادى عشر - العهد القديم

بيت المقدس الذى بناه سليمان الحكيم (٣٥)

لقد رويت أساطير كثيرة حول بابل ـ ولا عجب فى ذلك ـ فهى مهد السحر والسحرة ، ومما رود فى ذلك ـ ماقاله الأعمش : كان مجاهد يحب أن يسمع من الأعاجيب ، وكان لا يسمع بشىء إلا صار إليه وعاينه ، فأتى بابل فلقيه الحَجَّاج ، فقال : ما تصنع هاهنا ؟ قال : لى حاجة أن تسير بى إلى رأس الجالوت لتريني هاروت وماروت .

فأرسل إلى رجل ، وقال له : اذهب بهذا فأدخله على هاروت وماروت لينظر إليهما . .

فانطلق به حتى أتيا موضعاً ، وكان هناك يهودى عارف بذلك الموضع ، فسألاه أن يريهما ، فرفع صخرة فإذا شبه سرداب ، فقال له اليهودى : انزل معى وانظر إليهما ولا تذكر اسم الله ـ تعالى ـ . .

قال مجاهد : فنزل اليهودى ونزلت معه فلم يزل يمشى بى حتى نظرت إليهما مثل الجبلين العظيمين منكسين على رءوسهما وعليهما الحديد من أعقابهما إلى ركبهما .

فلما رآهما مجاهد لم يملك نفسه أن ذكر الله ـ تعالى ـ فاضطربا اضطراباً شديداً حتى كادا يُقَطِّعان ما عليهما من الحديد .

ففر اليهودى وتعلق به مجاهد حتى خرجا .

---

(٣٥) دائرة المعارف الاسلامية حـ ٥ ص ٥٥٠

فقال اليهودى : أما قلت لك لا تفعل ؟ كدنا والله نهلك [٣٦]

رابعا : حكم السحر :

يرى بعض الفقهاء أن الساحر كافر وبخاصة إذا كان سحره متضمناً شركاً ومستلزماً رَيْباً فى معجزات الأنبياء والرسل ..
وحكمه القتل ..

قال القرطبى : من السحر ما يكون كفراً من فاعله مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم فى هيئة بهيمة وقطع مسافة شهر فى ليلة ، والطيران فى الهواء ، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق فذلك كفر منه .. ويقتل ..

وأما من زعم أن السحر خدع ومخاريق وتمويهات وتخييلات فلا يجب قتله إلا أن يقتل بفعله أحداً فيقتل به وعلى هذا فالساحر المسلم الذى يسحر بنفسه بكلام يكون كفراً يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته ، لأنه أمر يبطن فى داخل النفس البشرية ويستر به كالزندقة والزنا ، وقد سمى الله السحر كفراً فى قوله ـ تعالى ـ **« ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر »**

وهذا قول جمهرة من الفقهاء كالشافعى وابن حنبل وأبى ثور وأبى حنيفة ، وقد استدلوا بما روى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن **« حد الساحر ضربه بالسيف »** .

أما إذا كان سحره بكلام ليس فيه كفر فلا يقتل
فإن جاء الساحر تائباً قبل أن يشهد عليه بالسحر قبلت توبته .
والساحر الذمى..قيل يقتل ، وقال مالك لا يقتل إلا أن يقتل بسحره ، ويضمن

---

(٣٦) عجائب المخلوقات ص ١٤٩

ما جنى ، ويقتل إن جاء منه ما لم يعاهد عليه .

وقال بعضهم : يستتاب وتوبته الإسلام ..
ولايرث الساحر ورثته لأنه كافر ، إلا أن يكون سحره لا يسمى كفراً ..
والمرأة إذا عقدت زوجها عن نفسها لا تقتل ، ولكنها تعاقب ـ هذا ما قاله مالك ـ رضى الله عنه

خامسا : الفرق بين المعجزة والسحر :

المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد النبى لتأييد دعوته وهى على حقيقتها باطنها كظاهرها وكلما تأملتها ازددت بصيرة فى صحتها ، ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بمثلها لعجزوا .

أما مخاريق السحرة فهى تخييلات وحيل وتلطف فى إظهار أمور لا حقيقة لها ، وما يظهر منها على غير حقيقتها يُعْرَفُ ذلك بالتأمل والبحث . فعصا موسى مثلاً أصبحت ثعباناً حقيقياً ابتلع كل ما أمامه من عصى السحرة وأما عِصىّ السحرة فقد خيل للناس أنها ثعابين ، ولكنها لم تكن كذلك « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » .

هذا مع أن السحر فى مقدور الإنسان أن يتعلمه ، وهو يوجد من الساحر وغيره ، وقد يكون معروفاً لأكثر من شخص ويمكنهم الإتيان به فى وقت واحد كما حدث من سحرة فرعون فقد امتلأ الميدان بهم ، وقاموا بعمل جماعى كل منهم ألقى عصاه أو حبله .. أما المعجزة فإن الله لا يمكّن منها إلا نبيه ورسوله ، ولا يتأتى لاحد ان يأتى بمثلها أو يعارضها .

سادسا : علاقة الجن بالسحر :

ليس من شك فى أن هناك علاقة ما بين الجن والسحر ، وقد جاء فى الآية الكريمة :

« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر . . »

قال العلماء : إن الشياطين كتبوا السحر والنيرجات - التى هى أخْذ كالسحر وليست به ، وإنما هى تشبيه وتلبيس - كتبوا ذلك على لسان آصف بن برخيا ، ودفنوه تحت مصلاه حين انتزع الله ملك سليمان ، ولم يشعر بذلك سليمان ، فلما مات استخرجوه وزينوا للناس أن سليمان ملك الناس بهذا السحر ، وأوحوا إليهم أن يتعلموه فأما العقلاء فقالوا : معاذ الله أن يكون ملك سليمان قام على السحر ، وأما سفلة الناس فأقبلوا عليه يتعلمونه من الجن والشياطين ويرفضون كتب أنبيائهم حتى بعث الله سيدنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله عز وجل عليه حقيقة شأن سليمان وأظهر براءته مما رمى به ظلماً وكذباً .

والشياطين لهم قدرة من غير شك ، ولديهم النية المتوفرة على إغواء الآدميين وصرفهم عن الحق ، وقد ورد أن الشياطين تجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق . وهم يوحون إلى أوليائهم بما يريدون .

والعقل لا يُحيل دخول الجن والشياطين فى جسم ابن آدم لأن أجسامهم رقيقة بسيطة ، حتى ولو كانت أجسامهم كثيفة يصح ذلك أيضاً كما يصح دخول الطعام والشراب فى الجسم ، وكما تتخلل الميكروبات الأجسام . .

ولا يبعد على من تستهويه الشياطين أن تسخره فيما تريد وهى فى سبيل ذلك تنفذ له بعض ما يريد .

ولا يبعد أن يكون لبعض الناس قدرة خاصة بما يتلونه من رقى وعزائم خاصة

على استحضار بعض هذه الأرواح اللطيفة التى بواسطتها يؤثرون على نحو ما التأثير الذى يريدون . .

وقد أشارت الآية المذكورة إلى أن هاروت وماروت يعلمان الناس السحر ، ولكنهما لا يعلمان حتى يحذرا المتعلم من سوء عاقبة ما يتعلمه ، فما يعلمان من أحد حتى يقولا : « إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضاربين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » . .

ماورد فى شأن هذا التعليم :

ذكر ابن كثير فى تفسيره عن ابن جرير الطبرى فى خبر مسند إلى عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ أن امرأة من أهل دومة الجندل جاءت

تريد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد موته قالت عائشة لعروة : يابن أختى فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى رحمتها

وهى تقول : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ـ قالت عائشة : ولم ؟ قالت : كان لى زوج فغاب عنى فدخلت على عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت : إن فعلت ما آمرك به سأجعله يأتيك .

فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين ، فركبت أحدهما وركبت الآخر ، فلم يكن كشىء حتى وقفنا ببابل ، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما ، فقالا ماجاء بك ؟ فقلت : أتعلم السحر . .

فقالا لى : إنما نحن فتنة فلا تكفرى ، يا أمة الله لا تختارى عذاب الآخرة بأمر الدنيا . فأَبَيْتُ .

فقالا لى : اذهبى إلى ذلك التنور فبولى على ذلك الرماد

فذهبت لأبول عليه ففكرت فى نفسى فقلت : لا فعلت

وجئت إليهما فقلت : قد فعلت

فقالا لى : ما رأيت ؟ فقلت : ما رأيت شيئاً .

فقالا لى : ما فعلت . اذهبى وافعلى

فذهبت وفعلت ، فرأيت كأن فارساً قد خرج منى مقنعاً بالحديد حتى صعد إلى السماء فجئتهما فأخبرتهما فقالا : ذلك إيمانك قد خرج عنك ، وقد أحسنت السحر ، فقلت : وماهو ؟

فقالا : لا تريدين شيئاً فتصورينه فى وهمك إلا كان .

فصورت فى نفسى حَبًّا من حنطة ، فإذا أنا بالحب

فقلت له : انزرع ، فانزرع ، وخرج من ساعته سنبلاً .

فقلت له : أنطحن ، فانطحن

فقلت له : انخبز ، فانخبز ، وصار خبزاً .

وانتهى الأمر إلى أنى لا أصور فى نفسى شيئاً إلا كان . .

قالت : فلما رأيت أنى لا أريد شيئاً إلا كان سقط فى يدى وندمت والله ـ ياأم المؤمنين ـ والله ما فعلت بعد ذلك شيئاً قط ولا أفعل أبداً . .

قال ابن كثير : ورواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن سليمان مطولاً وزاد بعد قولها « ولا أفعله أبداً » . .

فسألت أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حداثة وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم يومئذ متوافرون ، فما دروا ما يقولون لها ، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه ، إلا أنه قد قال لها ابن عباس ـ أو بعض من

كان عنده ـ : لو كان أبواك حيين لو أحدهما ؟ (٣٧)

ويعنى بذلك التمنى أنه لو كان أحدهما حياً لشفع لهابرها به وكَفَّر عنها خطيئتها بعد أن حسنت توبتها .

وفى بعض الروايات :

فقالت لها عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ليست لك توبة . . (٣٨)

وربما شكك بعضهم فى مثل هذا الخبر ، وزعم أن ذلك لا يمكن أن يكون . .

وعلى الرغم من الشك فى هذا الخبر فإن الحقيقة التى لا مجال للشك فيها أنه كان هناك تعليم للسحر وأن هاروت وماروت كانا يعلمان الناس السحر ويقولان لمن يعلمانه : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزجه .

ومعنى هذا أن هناك تعليماً ، وأن هناك أثراً لهذا التعليم فى المتعلم ، وأن هناك قدرة أصبحت لهذا التعليم لدى المتعلم ، يؤثر بها فيمن يريد ، ومن هنا يأتى الخطر . .

ذكر العلماء عن الحسن البصرى أنه قال فى شأن قصة هاروت وماروت : نعم أنزل الملكان بالسحر ، ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله أن يبتلى به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، رواه ابن أبى حاتم عنه ـ

---

(٣٧) تفسير ابن كثير حـ ١ ص ٢٠٤

(٣٨) ورد ذلك فى أحكام القرآن للجصاص حـ ١ ص ٤١ وفى مفاتيح الغيب للفخر الرازى

سابعا : هل يجوز تعلم السحر ؟

جاء فى الأخبار الصحيحة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أنه من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقهما بقول فقد كفر بما أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ » وإذا كان هذا قد ورد فى شأن من جاء اليهما معتقداً فى صدق مايزعمون فهو من باب أولى وارد فى حق من جاء ليتعلم ما عندهم من علم . .

إلا أن بعض العلماء أجاز تعلم السحر للتوقى من شره ولمعرفة الفرق بين السحر والمعجزة ، وهذه الصلة تؤدى إلى أن تعلم السحر قد يكون واجباً فى بعض الأحيان . .

ولكن المنهى عنه هو استعماله بعد تعلمه فى الإضرار . .
والذى يتعلم السحر لا يستعمله غالباً إلا فى الإضرار بالناس .
وهذا هو معنى قوله ـ تعالى ـ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم » .

روى مسلم فى صحيحه : من حديث الأعمش عن أبى سفيان طلحة بن نافع عن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «إن الشيطان يضع عرشه ثم يبعث سراياه فى الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجىء أحدهم فيقول : مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا . فيقول إبليس لا والله ما صنعت شيئاً ويجىء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله . . قال : فيقربه ويدنيه ويلزمه ويقول : نعم أنت » (٣٩)

---

(٣٩) صحيح مسلم ـ كتاب صفة القيامة ٨ ° ١٣٨

وإنما تجىء التفرقة بواسطة السحر الذى يخيل لكلا الزوجين سوء منظر الآخر فيقبح فى نظره فينفر منه ..

وغالباً لا يكون السحر إلا فى الضرر .. لأن الله يقول « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

قال ابن خلدون فى مقدمته :

« علوم السحر علوم تقتدر النفوس المستعدة بها على التأثير فى عالم العناصر ، ولما كانت هذه العلوم مهجورة عند الشرائع لما فيها من الضرر ولما يشترط فيها من الوجهة إلى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقودة بين الناس إلا ما وجد فى كتب الأقدمين فيما قبل نبوة موسى - عليه السلام - مثل النبط والكلدانيين وغيرهما .. » ..



كيف يكتسب الساحر قدرته ؟

قال ابن خلدون :

النفوس الساحرة على مراتب ثلاث

أولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولامعين ، وهذا هو الذى يسمونه السحر .

والثانية المؤثرة بمعين من مزاج الافلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ، ويسمونه الطلسمات ، وهو أضعف مرتبة من الأول .

والثالثة ، تأثيرها فى القوى المتخيلة ، وذلك بأن يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ، ويلقى فيها أنواعا من الخيالات

والمحاكاة ، وصورا مما يقصده من ذلك ، ثم ينزلها إلى حس الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه ، فينظر الراءون كأنها فى الخارج وليس هناك شيء من ذلك ، وهذا ما يسمى الشعبذة أو الشعوذة .

ثم إن هذه الخاصية تكون فى الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها ، وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة .

ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل ، فهى لذلك وجهة إلى غير الله وكفر ، فلهذا كان السحر كفرا ، والكفر من مواده وأسبابه . .

ولهذا اختلف فى قتل الساحر هل لكفره السابق على فعله ؟ .

أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد فى الأكوان ؟

ثامنا : عقاب بعض السحرة فى الإسلام . .

يشير قول الله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٤٠)

إلى وصم السحرة بالكفر . وقد ورد فى حد الساحر ضربه بالسيف وقد نفذ هذا الحكم فيمن ثبت أنه ساحر .

جاء فى تفسير ابن كثير أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كتب إلى ولاته أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال راوى الخبر : فقتلنا ثلاث سواحر .

وصح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت .

وروى من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه ،

---

(٤٠) سورة البقرة ١٠٣

فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه .

فقال الناس : سبحان الله يحيى الموتى ، ورآه رجل من صالحى المهاجرين ، وهو جندب بن كعب الأزدى ، فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه ، وذهب الساحر يلعب لعبه .

فاخترط جندب سيفه فضرب عنق الساحر ، وقال : إن كان صادقا فليحى نفسه ، وتلا قوله ـ تعالى :

﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾ [٤١]

فغضب الوليد إذ لم يستأذنه فى ذلك . فسجنه ثم أطلقه [٤٢] .

تاسعا : شبهة اليهود فى رمى سليمان بالسحر

والذى حمل اليهود على اتهام سليمان بالسحر انه كان يسخر الجن والشياطين .

وتسخير الجن والشياطين لسليمان كان معجزة له خصه الله بها ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

وكعادة اليهود فى إنتهاز الفرص أقبلوا على تعلم السحر زاعمين أن ذلك سنة لهم عن نبى من أنبيائهم . .

وهناك خبر رواه الواحدى قال : أخبرنا سعيد بن العياش كتابة أن الفضل بن زكريا حدثهم عن أحمد بن نجدة عن سعيد بن منصور عن عثمان بن بشير قال : كان سليمان إذا نبتت شجرة قال : لأى داء أنت ؟ فتقول : لكذا وكذا . فكان يعرف لكل داء علاجه . فلما توفى جعل الناس يقولون عند مرضهم . لو كان مثل سليمان . أى هل يوجد شخص مثل سليمان يعرف المرض وطريقة علاجه .

« ٤١ » سورة الانبياء آية ٣

(٤٢) انظر هذه القصة فى اسد الغابة جـ ١ ص ٢٦١

فأقبلت الشياطين فكتبوا كتابا وجعلوه فى مصلى سليمان ، ، وقالوا : نحن ندلكم على ماكان سليمان يداوى به ، فانطلقوا فاستخرجوا ذلك ، فاذا فيه سحر ورقى . فأنزل ـ تعالى ـ ﴿ واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ .

وقيل : إنه فى زمن سليمان كتبوا السحر فانشغلوا بتعلمه فأخذ سليمان تلك الكتب فدفنها تحت كرسيه ، ونهاهم عن ذلك ، ولما مات سليمان كان الشياطين يعرفون مكان دفن الكتب ، فتمثل شيطان على صورة إنسان فأتى نفرا من بنى إسرائيل وقال لهم : هل أدلكم على كنز لاتأكلونه أبدا ؟ قالوا : نعم . قال : فاحفروا تحت الكرسى فحفروا فوجدوا تلك الكتب .

فلما أخرجوها قال الشيطان : إن سليمان ضبط الجن والإنس والشياطين والطيور بهذا . فأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السحر فى اليهود . فبرأ الله عز وجل سليمان من ذلك (٤٣) .

إن دعوى اليهود أن سليمان كان ساحرا هو من قبيل المثل العربى المشهور : رمتنى بدائها وانسلت . .

وأين تلبيس السحرة وافترائهم من معجزة ظاهرة لالبس فيها ولاتشبيه ولا افتراء ؟ ؟ .

إن سليمان ـ عليه السلام ـ كانت لديه القدرة أن ينادى أى عفريت باسمه فيأمره فيطيع دون لجوء إلى تلاوة اسماء أو قراءة أو غير ذلك مما يلجأ إليه عادة هؤلاء الذين يتمتمون بكلمات غير مفهومة وعبارات غريبة يزعمون فيها أنها أسماء ملوك الجان أو من بيدهم الأمر فى هذا الكون . . وقد يجيبهم شيطان إلى

(٤٣) أسباب النزول للواحدى ، ص ٢١

مايريدون لأن هدفه من وراء إجابته الإضرار ، وهذا غاية مايبتغيه ، بل يشتهيه ..

عصمنا الله من شر هؤلاء وهؤلاء وهو حسبنا ونعم الوكيل ..

ثانيا : سحرة فرعون

وردت قصة موسى ومعجزته وتحدى فرعون وسحرته له فى عدة مواضع فى القرآن الكريم :

وردت فى سورة الأعراف ، وفى سورة يونس ، وفى سورة طه ، وفى سورة الشعراء ، وفى سورة النمل ، وفى سورة القصص ، وفى سورة غافر ، وفى سورة الزخرف .. وفى غيرها ، بعضها مفصل وبعضها موجز .

وقد ذكرنا فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ التقاء موسى بالسحرة وعجزهم عن مواجهة موسى ثم إيمانهم فى النهاية وتعذيب فرعون لهم .

ونتحدث هنا بما يتفق وأهداف هذا الحديث الخاص عن السحر فى القرآن الكريم .. ونعرض أولا بعضا مما ورد حول ذلك فى كتاب الله الكريم : قال تعالى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾
فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ
ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ
﴿٢٤﴾ ﴾(٤٤)

---

(٤٤) طه ١٧ : ٢٤

ثم قال :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا
بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا
لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن
يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ
ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ
لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ
ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾
قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُ
هُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ
﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا
صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ
ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾(٤٥)

---

(٤٥) من ٥٦ - ٧١ سورة طه

هذه قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع السحرة التي وردت في سورة طه، وورد مثلها بإيجاز أو غيره في سور أخرى . .

وهي تشير إلى الدلائل الآتية :

أولا : تدريب موسى على مواجهة السحرة . .

كان موسى قد تلقى الوحي في طريق عودته من مدين إلى مصر ، وفاجأ زوجته المخاض فأقبل يلتمس لها نارا تدفئها . . فرأى من جانب الطور نارا فاقترب يتطلب جذوة منها . . فإذا به يسمع النداء الإلهي الذي يكلفه بالرسالة ويحمله تبعاتها ويأمره بالذهاب إلى فرعون الذي يدعى الربوبية من دون الله ، ويطلب منه إنقاذ بني إسرائيل من براثن هذا المتجبر . .

وعلم موسى أن هذه المهمة ليست سهلة ، وأنها قد تكلفه حياته ، وهي من أجل ذلك في حاجة إلى سلاح يقهر به خصمه . . وسلاح الأنبياء عادة هو المعجزات . .

وجرت العادة أن تحدث المعجزة وقت الحاجة إليها . . ولم يكن موسى في حاجة إليها في ذلك الوقت . . إذ مازال أمامه وقت حتى يصل إلى فرعون فهو في غير حاجة إلى معجزة الآن . . إلا أن الله أراد أن يدربه على استعمال المعجزة التي سيواجه بها فرعون منذ الآن . . حتى لايهوله الموقف يوم الحاجة إليها ، فمعجزته من نوع آخر غير الذي جاء به الرسل قبله . . إن معجزته عصاه التي سوف تتحول إلى ثعبان مهول يفزع من منظره كل من يراه فكيف يكون حال موسى حين يفاجيء فرعون بهذه المعجزة انه سيفاجأ بها أيضا وفزعه في هذه الحالة لن يكون أقل من فزع فرعون ، لأن موسى لم يكن قدر رأى تحول العصا إلى ثعبان قبل ذلك ؟ .

إذن كان إعداد موسى لهذه المعجزة وتدريبه عليها أمرا ضروريا .

وتم إعداد موسى للمعجزة بوسائل كثيرة منها .

ـ انه آنسه بسؤاله عما فى يده . قال له : وماتلك بيمينك ياموسى ؟ فأجاب بأنها عصاه التى يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه ، وله فيها مآرب أخرى .

لقد نظر موسى إلى منافع العصا القريبة ، فأراد الله أن يلفت نظره إلى أن هناك منافع أعظم وأكثر . . وأن هذه المنافع يمكن أن تكون قهر سحر السحرة وردع البغاة المعاندين . . وهذا ماتم معرفته بعد ذلك . .

ـ قال الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى ألقها ياموسى . .

وفى طلب الالقاء إعداد وتهيئة . .

فألقاها ، فإذا هى حية تسعى .

وفوجىء موسى بها تنقلب حية . . وفزع من هول المنظر ، وجرى خائفا منها . . ولكن الله ناداه مطمئنا « إنى لايخاف لدى المرسلون » .
ـ قال له خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الأولى . .

فالتقطها فعادت عصا كما كانت . .

وامتلأ قلب موسى بالاطمئنان ، وأدرك الأمان . .

وقد أجاب (الرازى) فى كتابه مفاتيح الغيب عن السؤال التالى : « ماالحكمة فى قلب العصا حية فى ذلك الوقت » ؟ .

وهو سؤال يتعلق بما نحن بصدده من هذا الحديث . . ثم ذكر أن فى الإجابة وجوه منها . . أنه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى ـ عليه السلام ـ يعرف بها

نبوة نفسه . وذلك لأنه إلى هذا الوقت ماسمع إلا النداء ، والنداء وان كان مخالفا للعادات إلا أنه ليس معجزاً لاحتمال أن يكون ذلك من نداءات الملائكة أو الجن . ومن أجل ذلك قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا .

أنه عرض عليه ذلك ليشاهده أولا فإذا شاهده عند فرعون لايخافه .

أنه كان راعيا فقيرا ، ثم نصب لهذا العمل العظيم ، فلعله بقى فى قلبه تعجب من ذلك ، فقلب العصا حية تنبيهاً له على أن الله لما قدر على ذلك فإنه قادر على نصرة مثله فى إظهار الدين ؟(٤٧) .

ثانيا : وصف العصا بعد تحولها . .

ورد فى القرآن الكريم أن العصا حين ألقاها موسى . . تحولت إلى حية تسعى - وفى موضع آخر : تحولت إلى ثعبان مبين . وفى موضع ثالث : كأنها جان . .

ففى سورة طه ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾(٤٨) .

وفى سورة الأعراف والشعراء

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾(٤٩) .

وفى سورة القصص ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾(٥٠)

---

(٤٧) قصة السحر والسحرة فى القرآ ص ٨٢

(٤٨) سورة طه ٢٠

(٤٩) الأعراف ١٠٧ ، والشعراء ٣٢

(٥٠) القصص ٣١

وليس هناك تعارض فى هذا الوصف . لأنها حين ألقيت فى أول أمرها كانت حية دقيقة صغيرة ، والحية الصغيرة يطلق عليها الجان ثم تضخمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانا . فالحية والجان فى أول أمرها والثعبان فى نهايته .

وقد يراد بالجان تصوير هيئتها فى أثناء تحولها وسرعة حركتها . .

ثالثا : موسى فى مواجهة فرعون والسحرة

الآن وقد امتلأ قلب موسى بالاطمئنان ، واكتسبت العصا فى يده مزية جديدة . أقبل فى ثقة متزايدة ومعه أخوه هارون على فرعون ليبلغاه رسالة الله عز وجل .

وأراه الآية الكبرى . .

فكان الظن المتردد فى نفس فرعون أنه ساحر . . قال فرعون لموسى :

﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ (٥١)

لماذا قال فرعون ذلك ؟

لأنه رأى شيئا غريبا ، لم يستطع تفسيره إلا بما كان يشاهده فى سحرة عصره .

ذلك أن الفراعنة كانوا قد بلغوا فى مصر القديمة مبلغا فى السحر لم يبلغ شأوه أحد ، وكانت للسحر مدارسه وجامعاته يقوم عليها متخصصون ، وكان السحرة فى القمة عند الناس والملوك ، وكانوا يتعالون على الناس بالعلم والسحر والخيال والمخاريق .

والمسحور بمعنى الساحر . مثل حجاب مستور بمعنى ساتر . .

وقد يكون المعنى بأنه مسحور أى مخبول وقع عليه السحر من غيره فهو لايدرى مايقول . .

---

(٥١) الاسراء ١٠١

وقد يكون المعنى بأنه أعطى علم السحر فهو يأتى بالعجائب . .

وكان رد موسى عليه بأن هذه الآيات التى أعطيها إنما هى من رب السموات والأرض . وأنك يافرعون مثبور بمعنى محبوس عن الخير . . ولم يكن إلا التحدى بالسحرة . . فقد قال فرعون لموسى كما حكى القرآن الكريم .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ ﴾(٥٢)

وقبل موسى التحدى . .

وكان الموعد يوم زينتهم الذى يتزينون فيه ، وهو يوم العيد . قيل : هو يوم النيروز وقيل غير ذلك .

واشترط موسى أن يجتمع الناس فى ضحوة النهار .

وإنما وعدهم ذلك لتعلو كلمة الله على رءوس الأشهاد ، ويظهر دينه بين كل العباد ، ويكبت السحرة فى كل واد ، ويقهر الكفر إلى يوم التناد .

وتولى فرعون جمع كيده ، وحشر السحرة ، وحشد نفوسهم بالأمانى ، واستجاب لمطالبهم وقيل إن السحرة اجتمعوا من كل مكان ، فمن لم يأت تلبية لدعوة فرعون جاء تلبية لدعوة نفسه وإظهار علمه . .

وحذرهم موسى عاقبة كفرهم وبغيهم . قال لهم : ويلكم لاتفتروا على الله

---

(٥٢) سورة طه ٥٧ : ٥٨

كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ..

ويبدو أن كلامه كان له صولة فى نفوسهم ، لذلك أقبلوا يتنازعون فيما بينهم ويتناجون ..

أما التنازع فهو الاختلاف الذى أحدثه كلام موسى بينهم ، بعضهم مال إليه وبعضهم أصر على مواجهته ..

أما التناجى فقد كان بين السحرة حول ماقاله موسى وأن هذا الكلام الذى يقوله ليس كلام ساحر بل هو منطق نبى تؤيده قوة لايدركونها .. فقال بعضهم لبعض : إن غلب موسى اتبعناه .

وقد حاول فرعون أن يثير عصبية السحرة ضد موسى وأخيه فقال لهم : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ..

وكان فى إثارته لهم يضرب على وتر حساس .. فقد أثار فيهم مشاعر الوطنية ونفرهم من هذين الرجلين اللذين جاءا لاخراجهم من وطنهم واحتلال ديارهم وتشريدهم من بلادهم . وقد نجح فرعون فى تحريك هذا الدافع الوطنى فى نفوسهم وهو حده كفيل بأن يجعل هؤلاء السحرة يقدمون كل مايقدرون عليه من كيد لقهر هذين اللذين جاءا لاذلال العباد وامتلاك البلاد ..

كما أثار فرعون فى نفوس السحرة دافعا آخر هو دافع المحافظة على المهنة والمنصب . والغيرة على العمل والشرف .

ولذلك حذرهم من أن موسى وهارون سيذهبان بطريقتهم المثلى .

والطريقة المثلى كما فسرها العلماء هى مايدينون به ويعتقدونه ، أو هى خاصة

بمهنة هؤلاء السحرة ، وهى العلم بالسحر وكانوا ينظرون إليه على أنه أعلى مراتب الرفعة والسمو .

وكأن فرعون أراد بقوله هذا أن يثير غريزة التنافس والحفاظ على مكانتهم حتى لايغلبهم أحد عليها .

وكما أغراهم بذلك حذرهم من الفرقة ، ودفعهم إلى اجتماع الكلمة فقال لهم : فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى .

ثالثا: السحرة فى مواجهة موسى:

وجاء يوم اللقاء المرتقب .

فقال السحرة لموسى : إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . .

فأجابهم موسى بقوله : بل ألقوا أنتم . .

وموسى ـ عليه السلام ـ يعلم أن مايقوم به هؤلاء السحرة سحر والسحر كفر ، وهو لم يأمرهم بذلك إلا لإظهار عجزهم بسحرهم وكيدهم عن مواجهته ، وقد أراد بذلك هزيمتهم التى سوف تؤدى إلى إيمانهم . وهزيمة الباطل ظهور للحق ونصر للدين . .

وكأنه قد أراد أن يجابه تحديهم بمثله . . كما أمر الله الكفار أن يأتوا بمثل سورة من القرآن الكريم إن كانوا صادقين . .

لقد أراد موسى التوسل إلى اظهار بطلان السحر لا إثباته ، وصرح بذلك فيما جاء على لسانه فى سورة يونس)

﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ

عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ (٥٣)

هى مجاراة لاظهار الحق وليست مجاراة لإثبات الباطل ، وعلى هذا النحو جاءت محاجة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه حين أظهر أمامهم أنه يجاريهم فى عبادتهم ليتوصل بذلك إلى بطلان مايعبدونه قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٥٤)

وألقى السحرة عصيهم فخيل لموسى وغيره أن هذه العصى ثعابين تسعى .

وهنا توجس موسى وشعر بالخوف . . قال تعالى :

﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ (٥٥)

وجاء فى سورة طه ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾ .

وكان السحر الذى قام به هؤلاء السحرة هو مارواه العلماء عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا . فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . .

---

(٥٣) يونس ٨١ : ٨٢

(٥٤) الأنعام ٧٦ : ٧٩

(٥٥) سورة الأعراف ١١٦

وكانوا فيما روى عن ابن إسحاق خمسة عشر ألف ساحر ، وأن الحيات التى أظهروها بخيال سحرهم كانت كأمثال الجبال قد ملأت الوادى .

وهذه مبالغات أريد بها تصوير مدى الهول الذى أصاب الناس وعظم السحر الذى حدث مع أن هذا يمكنَ أن يتم بدون هذا العدد الضخم من السحرة والخشب والحبال .

إن هؤلاء السحرة لجأوا إلى عصى مجوفة قد ملئت زئبقا ، وإلى حبال مصنوعة من أدم - جلد - حشيت بالزئبق . وحفروا قَبْلَ ذلك تحت أرض المكان أسرابا أجُجُوا فيها النار ، فلما ألقيت هذه العصى والحبال ، وحمى الموضع حمى الزئبق كذلك فتحرك ، لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار تمدد ، فخيل للناس أن هذه العصى والحبال تتحرك ، ولكن هذا هو سر تحركها إنها حيلة صناعية لجأ إليها هؤلاء السحرة .

كما يمكن أن يكونوا قد لجأوا إلى حيل أخرى كاطلاق أبخرة أثرت فى أعين الرائين، فجعلتها تبصر ذلك . أو بجعل العصى والحبال على صورة الحيات وتحريكها بمحركات خفية سريعة لاتدركها أبصار الناظرين وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمى السيمياء (٥٦)

ولسائل أن يسأل : كيف شعر موسى بالخوف وهو نبى ؟

والإجابة عن ذلك كما ذكرها الفخر الرازى فى كتابه مفاتيح الغيب قال :

الجواب عنه من وجوه .

أحدها أن ذلك الخوف إنما هو طبع الآدمى الذى طبع على ضعف القلب وان كان قد علم أنهم لايصلون إليه وأن الله ناصره .

ثانيها : أنه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا أنهم قد ساووا موسى ، ويشتبه ذلك عليهم ، وهذا التأويل يؤكده قوله - تعالى - **﴿ قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى ﴾**

---

(٥٦) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥٨ .

ثالثها : أنه خاف حيث بدأوا وتأخر هو أن ينصرف بعض القوم قبل أن يشاهدوا مايلقيه ، فيظلوا على اعتقاد الباطل .

رابعها : لعله كان مأموراً بأن لايفعل شيئا إلا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف ألا ينزل عليه الوحى فيتعرض للخجل .

خامسها : لعله خاف من إبطال سحر هؤلاء أن يُحْشَد له غيرهم فيضطر إلى مواجهتهم كذلك وهكذا ..[٥٧] .

ولكنه عليه السلام مالبث أن استرد رباطة جأشه ، وطمأنه الحق سبحانه وتعالى بقوله : **قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى ..**

ألق ياموسى عصاك .. إن الذى تراه إنما هو كيد ساحر .. والساحر لايفلح أبدا ..

وعادت إلى موسى بعد خطاب الحق له رباطة جأشه ، واسترد يقينه ، وألقى عصاه ، فإذا بها تلقف ماصنعوا ، أخذت هذه العصا بعد أن تحولت إلى حية تكبر وتكبر وهى تبتلع كل ماف طريقها من حيات القوم المصنوعة المتخيلة . حتى أدرك السحرة جميعا أن ماقام به موسى ليس سحرا ، وإنما هو قدرة خارقة ليست فى طوق البشر ..

ويرى بعض المفسرين أن عصا موسى لم تبتلع عصى السحرة أو حبالهم على اعتبار أن تلقف « ليس معناها تبتلع كما فسرها بذلك بعض اللغويين .. وإنما معناها « تصرف » .

فمعنى قوله تعالى ﴿ تلقف مايأفكون ﴾ أى تصرف الناس عن إفك السحرة وكذبهم .

---

(٥٧) قصة السحر والسحرة ص ١٣٣

وكأن ذلك الصرف وابطال سحر السحرة بفعل من حية موسى . بحيث انها أخرجت الزئبق الذى فى عصى السحرة وحبالهم فظهر أمام الناس افتراء السحرة .

أو أنه ترتب على إلقاء موسى العصا أن رأى الناس الحبال والعصى على أصلها . ولو إبتلعتها لبقى الأمر ملتبسا على الناس إذ قصاراه أن كلا من السحرة وموسى قد أظهر أمرا غريبا ولكن أحد الأمرين كان أقوى من الآخر فأخفاه على وجه غير معلوم ولامفهوم ، وهذا لاينافى كونهما من جنس واحد . ولكن زوال غشاوة السحر وتخييله حتى رأى الناس أن الحبال والعصى التى ألقاها السحرة ليست إلا حبالا وعصيا لاتسعى ولاتتحرك ، وأن عصا موسى لم تزل حية تسعى هو الذى فرق بين الحق والباطل ، وعرف به الفرق بين الآية الإلهية ، والحيلة الصناعية ، وكل مافى الأمر أن عصا موسى أزالت هذا التخييل بسرعة وهو معنى اللقف ، وكان لها هذا التأثير لأنها آية إلهية حقيقية وليست أمرا صناعيا (٥٨) .

إيمان السحرة ..

لقد وقع الحق وبطل ماكان يعمل السحرة ..

رأوا حجة الله البالغة ، وقدرته القاهرة . وكان السحرة قد تناجوا فيما بينهم على أنه إذا ظهر موسى عليهم يؤمنون به . فلما ظهر موسى على الملأ من قوم فرعون وانقلبوا صاغرين ، ألقى السحرة ساجدين ..

أى خروا على وجوههم سجدا كأنما ألقاهم ملق ، وانتزع الله من قلوبهم كل خوف من فرعون وهيبة له ..

وفى ايمان السحرة وردت تلك الآيات الكريمة قال تعالى :

﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٨﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١١٩﴾ ... ﴿١٢٠﴾ ﴾ (٥٩)

---

(٥٨) تفسير المنار حـ ٩ ص ٦٠ وهذا الرأى نقله صاحب تفسير عن محى الدين بن عربى

(٥٩) الأعراف ١١٩ ، ١٢٠

وقال :

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٦٠)

وقال : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٦١)

انتقام فروعون من السحرة :

لم يطق فرعون صبرا على إيمان السحرة بموسى ، وسجودهم لله ـ جلت قدرته ـ الذى أظهر هذه المعجزة الخارقة على يد موسى ـ عليه السلام ـ وفضح بها زيف السحرة وإفكهم ، وصدق ماقال الشاعر .

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

وقد خاب أمل فرعون تماما باستسلام السحرة ، وهم عدته التى كان يعدها للانتقام من موسى والتشهير به ، أما وقد آمن السحرة فلم يعد لفرعون مكانة فى نفوس قومه وأصبحت ربوبيته التى كان يزعمها سرابا . .

وحاول أن يستنجد ببقية كاذبة من كبريائه المزعومة ، فألقى على السحرة تهمة المكر الخداع والكيد للمصريين لقد اتهمهم بالتواطؤ مع موسى للتمكين لبنى اسرائيل فى مصر ، ولم يكن هذا الاتهام قائما على أساس ولكنه كان تمويها من فرعون على قومه حتى لايتبعوا السحرة فى الإيمان بموسى . إنه يعلم أن السحرة لهم مكانتهم الروحية وسلطتهم الدينية فمتى آمن هؤلاء فقد استسلم بقية الشعب معهم . وربما بطشوا بفرعون وبطانته .

---

(٦٠) طه ٦٩ ، ٧٠

(٦١) الشعراء ٤٥ ، ٤٦

ولذلك جاء اتهامه للسحرة من قبيل مايزيفه الحكام من اتهامات ضد من يخشون بأسهم . قال صاحب تفسير المنار : « كان اتهام فرعون للسحرة تمويها على قومه المصريين لئلا يتبعوا السحرة فى الإيمان ، ويقع ماخافه وقدره . . ففرعون على عتوة على الخلق وعلوه فى الأرض قد خاف عاقبة إيمان الشعب ، ولهذا حاول أن يوهم الناس بأنه لاينتقم من السحرة إلا حبا فيهم ودفاعا عنهم واستبقاء لاستقلالهم فى وطنهم ومحافظتهم على دينهم ، وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد فى شعب يخاف أن ينتفض عليه بإجتماع كلمته على زعيم آخر بدعوة دينية أو سياسية ، وما من شعب عرف نفسه وحقوقه وتعارف بعض أفراده ـ وتعاونوا على صون هذه الحقوق إلا وتعذر استبداد الأفراد فيهم وإن كانوا ملوكا جبارين »[٦٢] .

حوار بين فرعون والسحرة:

قال فرعون للسحرة : آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟ .

وكأن الإيمان فى زعم فرعون يحتاج إلى استئذان من ينازع الله فى سلطانه . .

لقد وهم فرعون فى قوله . وماحمله على ذلك إلا الخوف والقلق والحيرة والاضطراب . ثم محاولة الاستمساك بسلطان ذاهب لامحالة .

ثم أطلق تهديده : فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل . . وبكل إيمان وثقة واطمئنان أجاب السحرة قائلين . .

إنّا إلى ربنا منقلبون . وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا .

ثم لجأوا إلى الله ليكون معهم فيما هم مقبلون عليه من تعرض للعذاب قائلين : ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين .

---

(٦٢) تفسير المنار حـ ٩ ص ٦٣

وقالوا له : إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر .

لقد علم السحرة أن الله هو الذى يغفر الخطايا ، أما فرعون فهو الذى يدفع رعيته إلى ارتكاب الخطايا . . ومن ألوان ذلك تزيين السحر للسحرة وإكراههم على إتيانه وممارسته . .

لقد كان السحرة فى قمة الإيمان والشجاعة وهم يواجهون طغيان هذا الطاغية المتجبر . وليس ذلك عجيبا فالمؤمن يستمد طاقة روحية قوية من إيمانه وهو يشعر بأن وراءه قوة قادرة تؤيده وتحميه وتنصره ، وهذا يحمله على مواجهة المخاطر بشجاعة ، واستقبال الموت براحة عجيبة . انظر إلى المؤمنين مع قلة عددهم كيف استطاعوا أن يواجهوا أضعاف عددهم فى بدر ، وينتصروا عليهم وعادت الكثرة المدلة بنفسها إلى مكة كسيرة مهزومة . .



نكتة بلاغية :

قال السحرة حين بهرتهم معجزة موسى :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٦٣)

وفى موضع آخر يقول الحق على لسانهم :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٦٤)

إن قيمة قولهم آمنا برب موسى وهارون ، تظهر فى الرد على مزاعم فرعون

---

(٦٣) الشعراء ٤٧ ، ٤٨

(٦٤) طه ٧٠

الذى كان يزعم لقومه أنه لا إله غيره فقد قال ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾(٦٥) وقال :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴿٣٨﴾ ﴾(٦٦)

فلو أنهم قالوا : آمنا برب العالمين وسكتوا. لربما فهم المشاهدون أنهم آمنوا بفرعون الذى يدعى الألوهية فلقطع هذا الإيهام قالوا هذه العبارة .

أما تقديم موسى على هارون فى سورة الشعراء ، وتقديم هارون على موسى فى صورة طه فلرعاية الفاصلة ورعاية الفاصلة لها سر بلاغى جميل حيث يؤدى إلى حسن النغم وتناسق الصوت .

وقال الفخر الرازى فى كتابه مفاتيح الغيب : إنهم قدموا ذكر هارون على موسى لأن فرعون كان يدعى ويتوهم ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه فى قوله كما حكى القران الكريم

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾(٦٧)

فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون لاجرم قدموا ذكر هارون على موسى قطعا لهذا التوهم .

ولكن هذا التعليل يرده تقديم موسى على هارون فى الآية الأخرى .

التعذيب :

والتعذيب الذى أعده فرعون للسحرة كان قاسيا فقد أقسم على أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأن يصلبهم فى جذوع النخل . .

---

(٦٥) النازعات ٢٤

(٦٦) القصص ٣٨

(٦٧) الشعراء ١٨

والعجيب أنه وجه تهديده للسحرة ، ولم يوجه لموسى تهديدا فى هذا الوقت ، وإن كان فيما بعد قد قال لقومه :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ (٦٨)

مع أن السحرة لم يعلنوا عصيانهم لفرعون وإيمانهم بالله إلا بعد يقينهم بمعجزة موسى فكان الأولى بالتهديد موسى أولا ثم السحرة ثانيا .

وربما كان السبب فى ذلك أنه كان مازال واقعا تحت سيطرة الخوف من ثعبان موسى الذى حاول الانقضاض على كرسى فرعون فوجه التهديد إلى من لايخشى منهم الأذى .

وقد أورد الرازى اعتراضا وأجاب عليه . قال :

فان قيل : إن فرعون مع قرب عهد مشاهدة انقلاب العصا حية ورؤيته لتلك العظمة والقوة التى جعلته يستغيث بموسى من شرها كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم إلى هذا الحد ، ويستهزىء بموسى ـ عليه السلام ـ فى قوله

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ ﴾ (٦٩)

قلنا : لم لايقال : إنه كان فى أشد حالات الخوف فى باطنه إلا أنه كان يظهر التجلد والوقاحة تمشيا مع ناموسه وترويجيا لأمره ، ومن استقرى أحوال الناس علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه الأشياء ، ومما يدل على صحة ذلك أن كل عاقل يعلم بالضرورة أن عذاب الله أشد من عذاب البشر ومع ذلك نجد كثيرا منهم يعصون الله ...كان فرعون عالما بأنه كاذب فى قوله « إنه لكبيرهم الذى علمكم السحر » لأنه كان يعلم ان موسى ـ عليه السلام ـ ماخالطهم قط ،

---

(٦٨) غافر ٢٦

(٦٩) سورة طه ٧١

ومالقيهم وكان يعرف أستاذ كل ساحر من هؤلاء ؟ وكيف حصّل ذلك العلم ؟ ثم انه مع ذلك كان يقول هذه الأشياء .

فثبت أن سبيله فى كل ذلك هو المكابرة والعناد . لقد أراد فرعون أن يجعل من السحرة عبرة ونكالا . . وقد نفذ تهديده القاسى فيهم فعلا ، وإن كان لم يرد فى القرآن مايبين تنفيذ التهديد . . ولكنه ملك يريد أن يثبت وجوده ويبين للشعب أن كلمته نافذة ، فلا بد أن يكون تهديده قد تم . ولو أن التهديد لم يتم لأشار القرآن إلى ذلك . . قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : **(كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخره شهداء)** .

وقد أشار الشيخ الشعراوى فى عرض خواطره حول القرآن إلى قيمة استخدام « فى » بدلا من « على » فى قوله تعالى ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴿٧١﴾ ﴾(٧٠) إلى أن فى تدل على مبالغة فرعون فى تشديد وثاق السحرة فى الجذوع ، وإحكام ربطهم فيها حتى لكأنهم من شدة الربط دخلوا فى الجذوع .

ثامنا : عظات وعبر :

تدلنا قصة إيمان السحرة بموسى على مواضع من العبرة نذكر منها مايأتى :

١ ـ وهَنُ السحر وضعفه ، لأنه باطل ، فهو لم يستطع الوقوف والثبات أمام قوة الحق وصولة المعجزة التى أيد الله بها نبيه موسى ـ عليه السلام .

٢ ـ السحر خطيئة وذنب ، ولذلك لجأ السحرة إلى الله ليغفر لهم هذه الخطايا ، قائلين ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ ﴾(٧١)

---

(٧٠) سورة طه ٧١

(٧١) صورة طه ٧٣

وكان لذلك الاكراه وجوه أشار إليها المفسرون منها :

- ان الملوك قديما كانوا يأخذون بعض رعيتهم ويحملونهم على تعلم السحر ، فإذا شاخ أحدهم بعثوا إليه بعض الأحداث ليعلمهم فيكون فى كل وقت من يحسن هذا العلم . فلذلك اعتبر السحرة أنفسهم مكرهين على تعلم السحر . وهذا القول محكى عن ابن عباس - رضى الله عنهما .

- كان رؤساء السحرة اثنين وسبعين منهم اثنان من القبط والباقون من بنى إسرائيل . فقالوا لفرعون :

أرنا موسى نائما ، فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه ، فقالوا : ماهذا بساحر ، الساحر اذا نام بطل سحره ، فأبى فرعون إلا أن يعارضوه .

- نسب إلى الحسن قوله : إن هؤلاء السحرة حشروا من مختلف المدن لمعارضة موسى ، وأكرهوا على الحضور لمواجهته ، وأكرهوا أيضا على إظهار السحر .

- ونسب إلى عمرو بن عبيد قوله : إن دعوة السلطان فى حد ذاتها إكراه ، ولكن هذا القول - كما يقول الرازى ضعيف - لأن دعوة السلطان مالم يكن معها خوف أو تهديد ليست إكراها .

٣ - الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب يبدل أطوار النفس وينقلها من حالة الى حالة أخرى فى أسرع من لمح البصر .

فهؤلاء السحرة كانوا أشد الناس كفرا ، ولكن الله حين نظر إليهم بعين الرعاية والرحمة تبدل حالهم من الكفر إلى الإيمان ، وأصبح فرعون فى نظرهم أتفه من ذبابه ، ولذلك خاطبوه قائلين اثر تهديده لهم بالتقطيع والصلب :

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ ﴾ (٧٢)

---

(٧٢) سورة طه ٧٢

٤ ـ إن علامة الإيمان الصادق هى التضحية بالنفس فى سبيل الله ، وليس الإيمان بالتمتمة والتظاهر بالعبادة . . ولذلك سرعان ما أقبل هؤلاء السحرة على الاستشهاد فى سبيل الله دون خوف أو فزع ، على الرغم من تيقنهم صدق فرعون فى تنفيذ وعيده ، ولذلك قال الحسن البصرى ـ رضى الله عنه : « سبحان الله ،

القوم كفار وهم أشد الكافرين كفراً ، ثبت فى قلوبهم الإيمان فى طرفة عين ، فلم يتعاظم عندهم أن قالوا « فاقض ماأنت قاض » .

والله إن أحدكم ليصحب القرآن ستين عاما ، ثم إنه يبيع دينه بثمن حقير .

٥ ـ الإيمان تصحبه الخشية من الله ، والفزع من يوم العرض ، والاشفاق من عذاب الاخرة . . وإن المؤمن ليكاد يعاين ذلك معاينة حقيقية ، كما ورد عن حارثة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : أصبحت مؤمنا حقا ، فقيل له : وماحقيقة إيمانك ؟ .

فقال : رأيت كأن عرش ربى بارزا ، وكأن أهل النار يتعاوون فيها ، وكأن أهل الجنة يتزاورون فيها . فقيل له : قد عرفت فالزم . (٧٣) .

وهؤلاء السحرة لم يملكوا إلا أن قالوا لفرعون :

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾

ثم قالوا له :

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٧٤)

٦ ـ والإيمان لابد معه من العمل الصالح ، كما ترشدنا إليه هذه الآية :

﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾

---

(٧٣) هذا الخبر بطوله فى أسد الغابة ترجمة حارثة بن سراقة جـ ١ ص ٤٢٥

(٧٤) طه ٧٤-٧٥

ولو تتبعنا آيات الإيمان فى القرآن الكريم لوجدنا الإيمان فيها يقترب بالعمل الصالح . .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾(75)

وقوله:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾(76)

وقوله :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾(77)

وقوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾(78)

وقوله:

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾(79)

---

(75) النساء ١٢٢
(76) النحل ٩٧
(77) طه ١١٢
(78) الكهف ١٠٧ ، ١٠٨
(79) سورة العصر

وغير ذلك من الآيات الكريمة .

٧ ـ ان العمل الصالح يمحو آثار السيئات ويكفر الخطايا قال تعالى

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾(٨٠)

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية ما رواه الواحدى . قال : أخبرنا الشيخ أبومنصور البغدادى قال : أخبرنا أبوعمرو بن مطر قال : جاء رجل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها دون أن آتيها . وأنا ذا فاقض فِيَّ ماشئت .

قال : فقال عمر : لقد سترك الله ، لو سترت نفسك ؟ .

فلم يرد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانطلق الرجل ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه وقرأ عليه قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة طرف النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

فقال رجل : يارسول الله هذا له خاصة ؟] .

قال : لا ، بل للناس كافة(٨١) .

وهناك روايات أخرى لهذا الحديث تدور حول هذا المضمون . .

٨ ـ السحر إفساد ، ومهما طال أمده يبطل . ولذلك قال موسى ـ عليه السلام ـ

﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾(٨٢)

---

(٨٠) هود ١١٤

(٨١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٠٠ ، ورواه مسلم والبخارى

(٨٢) يونس ٨١ ، ٨٢

وقد ظهر زيف سحرة فرعون ـ كما ظهر زيف غيرهم قبلهم وبعدهم إلى أن تقوم الساعة .

٩ ـ ومن أجل أن السحر إفساد فقد أنكر الإسلام على مدعيه ومروجيه ومتبعيه .

ومن ذلك ماورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

من أتى كاهنا أو عرافا فصدقهما بقول فقد كفر بما أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم .

وصف الوليد بن المغيرة للقرآن بأنه سحر

قال ـ تعالى ـ :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾
وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾
سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾
ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾
إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٨٣)

لهذه الآيات الكريمة قصة ذكرها المفسرون فى كتبهم ، وهى تدور حول الوليد بن المغيرة وموقفه من القرآن الكريم وقوله عنه إنه سحر .

وقبل أن نتحدث عن هذه القصة نشير إلى الحقائق الآتية :

أولا : القرآن الكريم

هو ذلك الكتاب الذى لاريب فيه هدى للمتقين ، أنزله الله نورا على قلب رسوله ـ سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون معجزة خالدة له ، باقية إلى الأبد ، ودليلا على صدق رسالته ونبوته ، وقد أنزل الله هذا الكتاب ليكون قوام الدين والدنيا معاً ، وضمن به السعادة لمن اتبعه وسار على نهجه واستضاء بنوره .

---

(٨٣) المدثر ١١ : ٢٦

وقد تضمن هذا القرآن الكريم حِكَماً بالغة ، وأمثالا تأخذ بمجامع القلوب ، وحججا تخرس الألسنة وتقطع على الباطل الطريق ، وقد تحدى الله بهذا القرآن العرب البلغاء الفصحاء ، وجعل منهم أمه قوية متماسكة مَنَّ الله عليها بقوله

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾(٨٤)

لقد عبد الناس بالقرآن ربهم فى كل مكان ، وذل له كل سلطان ، وثلت به العروش ، وهو القرآن الذى يتغير كل شيء وهو محفوظ لايتغير ولايتبدل .

لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد (٨٥) .

وقد نزل هذا القرآن على قلب سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون حجة الله على العالمين .. تحدى به العرب فى فصاحتهم وبلاغتهم وكانوا قد بلغوا المنزلة القصوى فى البلاغة والفصاحة ، وقد جرت العادة أن تكون معجزة كل نبى من جنس مابرع فيه قومه ..

وأثبت القرآن عجز الناس عن الإتيان بمثله فقال :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾(٨٦)

فقد تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فلم يستطيعوا وقال الله تعالى فى ذلك :

---

(٨٤) آل عمران ١٠٣

(٨٥) الأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى جـ٢ ص ١١

(٨٦) الاسراء ٨٨

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾(٨٧)

ثم تحداهم أن يأتور بسورة فلم يستطيعوا وقال فى ذلك :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٨٨)

ثانيا : العرب يقرون بفصاحة القرآن :

وقد أجمع أهل العلم على أن القرآن لايدانيه فى بلاغته كلام عربى مهما ارتقت درجته وعلت ذروته .

وقد أقر العرب أنفسهم بذلك وأخذوا بجماله وجلاله .

سمع أعرابى قارئا يقرأ قوله تعالى ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾(٨٩) . فسجد فسئل عن سبب سجوده ، فقال : سجدت لفصاحته .

وسمع أعرابى آخر قوله الله ـ تعالى ـ

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾(٩٠)

فقال : أشهد أن مخلوقا لايقدر على مثل هذا الكلام .

وقد كانت بلاغة القرآن سببا فى إسلام عمر بن الخطاب على ماعرف عنه من بطش وشدة وعداء للمسلمين ، فقد سمع فى بيت أخته قرآنا يتلى ، فلم يملك نفسه أن اعترف بجمال هذا الكلام وجلاله ، وأنه لم يقله بشر ، بل هو من عند الله ، وذهب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فوره وأعلن إسلامه .

---

(٨٧) هود ١٣-١٤
(٨٨) البقرة ٢٣ : ٢٤
(٨٩) الحجر ٩٤
(٩٠) يوسف ٨٠

لقد استنبط العلماء من القران الكريم علوما كثيرة وألفوا فى ذلك مؤلفات شتى ، وكانت هذه العلوم لخدمة القرآن أولا ، ثم لخدمة العقل والحضارة والإسلام ووجوه الحياة المختلفة التى يحتاج إليها الناس فى آجلهم عاجلهم ثانيا .

ثالثا : سر إعجاز القرآن :

تحدث العلماء عن سر إعجاز القرآن وذكروا فى ذلك وجوها متعددة .

منها مانطوى عليه من الاخبار بالمغيبات ، مما لم يكن قبل القرآن عِلْم به لاحد من الناس فوقع كما أخبر ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾(٩١)

إخباره بأخبار القرون السالفة والأمم الماضية والشرائع القديمة التى لايعلم عنها أحد شيئا إلا الواحد أو الاثنين من أهل الكتاب ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمى لايقرأ ولايكتب ولم يتلق علما من أحد ، ولاالتقى بأحد من أهل الكتاب يعرف منه أخبار ماتضمنه القرآن من قصص .

ـ حسن تأليفه والتئام كلمه وتخير ألفاظه وجمال مقاطعه وحسن مطابقة نظامه لمقتضيات الأحوال ، هذا مع جلال الغرض وسمو المعانى وصفاء الحكمة وصدق المثل .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى :

قصة الوليد مع القرآن الكريم :

كان الوليد بن المغيرة المخزومى من رجالات قريش المعدودين ، وكان ذا مال وفير وعيش نضير ، وجاه كبير ، وعدد كثير من الأولاد يشهدون معه كل مجلس ويحضرون معه فى كل ناد . .

وكان ماله ممدودا بين مكة والطائف يتنوع بين الإبل والغنم والجنان والعبيد

(٩١) الروم من ١ ـ ٥

والجوارى ، وتغل بساتينه مالاً لايحصى ، ولاتنقطع ثمار حدائقه طوال العام . .

وكان مقتضى هذه النعم الوفيرة من مال وولد أن يشكر ربه الذى أنعم بها عليه وخوله إياها . . ولكنه كذب وعصى واستكبر ونأى بجانبه عن ربه وتزعم بطانة الكفر والشقاق فى مكة . .

ومع كفره بالنعم وكفره بالله وتكذيبه بالنبى المبعوث كان يطمع فى الزيادة من هذه النعم . . وبلغ من اعتداده بنفسه وتكبره أنه كان يقول : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى .

وذكر الرواة أن الوليد ذهب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما ولعله كان يريد أن يصده عن دعوته ولكن النبى أسمعه شيئا من القرآن . قيل إنه أسمعه قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

فرق الوليد لهذا القول . .

وانصرف إلى بيته مفكرا فيما سمع . .

وكأن الكفار كانوا ينتظرون أوبة الوليد إليهم ، فلما لم يعد ، واعتكف فى بيته مفكرا فيما سمع ، قالوا فيما بينهم : لقد صبأ الوليد ، واغتموا لذلك لأنهم كانوا يعدونه من صناديدهم ، فإذا إنضم إلى صفوف محمد خسروا بذلك مناوئنا كبيرا وخصما عنيدا لمحمد . .

فقال أبوجهل بن هشام : أنا أكفيكم شأنه .

فانطلق إليه حتى دخل عليه بيته وقال له : ترى قومك قد جمعوا لك مالا .

فقال الوليد : وقد إرتاع لهذه الكلمة : ولم ؟ ألست أكثرهم مالا وولدا ؟ .

فأجابه أبوجهل : إنهم يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة ـ يعنون أبابكر ـ لتصيب من طعامه .

---

(١) سورة النحل آية ٩٠

وكان الوليد يلقى أبابكر ليسمع منه القرآن الذى رق له قلبه .

فقال الوليد : أو قد تحدث به عشيرتى فلا والله لاأقرب ابن أبى قحافة ولاعُمَر ولا ابن أبى كبشة ـ يعنى بذلك محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبوكبشة هو زوج حليمة السعدية مرضعة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو أبوه من الرضاعة .

وماقول محمد إلا سحر يؤثر . هذا ماذكره القرطبى . .

وذكر ابن هشام فى سيرته قال : اجتمع إلى الوليد بن المغيرة مع نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم وأخذ الحجاج يفدون إلى مكة من كل فج .

فقال الوليد : يامعشر قريش ، إنه قد حضر الموسم ، وإن العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ـ يعنى محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا . .

قالوا : فأنت ياأبا عبدشمس فقل وأقم لنا رأيا نجمع عليه .

قال : بل أنتم قولوا أسمع .

قالوا : نقول إنه كاهن .

قال : لا والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة(٢) الكاهن ولاسجعه .

قالوا : نقول مجنون .

---

(٢) الزمزمة : الكلام الخفى الذى لا يفهم

قال : ماهو بمجنون ،لقد رأنا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولاتخالجه [٣] ولا وسوسته .

قالوا : نقول إنه شاعر .

قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه [٤] فما هو بالشعر .

قالوا : فماذا نقول ياأبا عبدشمس .

قال : والله ان لقوله لحلاوة ـ وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولايعلى عليه[٥]

ولكن أقرب القول فيه أن نقول : هوساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه فرحين بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لايمر بهم أحد الا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره . فأنزل الله تعالى ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا . . الآيات ﴾ .

فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الوسم وقد علموا بأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها[٦] .

---

(٣) التخالج : اضطراب الأعضاء ، والوسوسة ما يلقيه الشيطان فى النفس

(٤) هذه كلها أنواع من الشعر

(٥) الغدق : الكثير الشعب والأطراف ، وقيل غدق بمعنى كثير الماء

(٦) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٢٨٤

وهكذا صدقت الحكمة القائلة : رب ضارة نافعة . . فما أراده القرشيون من الاضرار بدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان سببا فى انتشارها .

وذكر الواحدى فى أسباب النزول ، والسيوطى فى لباب النقول فى أسباب النزول ، والقرطبى فى تفسيره ، وابن كثير فى تفسيره قصة الوليد بن المغيرة ، وهى لاتخرج عن مضمون ماذكرناه . ونذكر العبارة التى وردت فى لباب النقول للسيوطى على لسان الوليد لأنها تدل على تأثر قوى بجلال القرآن وروعته وقوته وأنه ليس من قول بشر وأنه ماصده عن الإيمان به إلا العناد .

قال أبوجهل للوليد : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، وأنك كاره له :

قال : وماذا أقول فو الله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً .

من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ومايعلى عليه وإنه ليحطم ماتحته .

قال : لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه شيئا يرضيهم .

قال : فدعنى حتى أفكر ـ فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر بنقل عن غيره فنزلت الآيات (٧) .

لم وصف الوليد القرآن بالسحر :

لقد وصف الوليد القرآن بأنه سحر ، لما يعرف الناس من أثر السحر فى النفوس .

وقد مر فى معانى السحر : أنه اظهار الباطل فى صورة الحق . وهذا مايعنيه الوليد . كأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نظره ونظر المشركين يلبس الباطل

---

(٧) لباب النقول للسيوطى ص ١٧٦

ثوب الحق . . وهذا نظر قاصر وزعم باطل فما جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الا بالحق الصراح والخير الخالص . وماجاء إلا لينير الطريق ويكشف الزيف .

ومعنى ـ يؤثر ـ أى ينقله عن غيره ، والحديث المأثور هو الذى ينقله الخلف عن السلف . .

ولم يكتف المشركون باختراع هذا الوصف للقرآن بل اخترعوا من نقل عنه هذا السحر ، فزعموا كذبا وزورا أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ هذا الكلام الخادع عن سيّار وهو عبد لبنى الحضرمى ، كان يجالس النبى ـ صلى الله عليه وسلم فزعموا أنه تعلم منه ذلك .

وقالوا ايضا إنه تلقنه عن مسيلمة الكذاب .

وقالوا أيضا إنه تلقنه من أهل بابل .

وقالوا : إنه أخذه عن عدى الحضرمى الكاهن

وقالوا : إنما عرفه ممن ادعى النبوة قبله فنسج على منوالهم . . وقالوا غير ذلك .

لقد أدرك الكفار أن هذا القرآن له أثره القوى فى نفوس الناس ، وأنهم لم يلبثوا أن يخضعوا له حين يسمعونه ، ولذلك حاولوا إيهام الناس بأنه لن يزيد على ذلك السحر الذى يلقنه الكهنة للناس ، وأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تلقاه

عن بشر مثله ، ولقد زين لهم ضلالهم أن يزعموا أن الذى كان يلقن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حداد أعجمى بمكة اسمه بلعام ، وقد فضحهم الله بذلك

فقال

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٨)

ذكر الواحدى أسباب نزول هذه الآية قال :

أخبرنا أبونصر أحمد بن إبراهيم قال : أخبرنا أبوعبدالله محمد بن حمدان الزاهد ، قال : أخبرنا عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز قال : حدثنا أبوهاشم الرفاعى ، قال : حدثنا أبو فضيل قال : حدثنا حصين عن عبيد الله بن مسلم قال : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر ، اسم أحدهما يسار ، والآخر جبر وكانا يقرآن كتبا لهم بلسانهم فزعم المشركون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يتعلم منهما ، فأنزل الله ـ تعالى ـ دليل كذبهم بقوله ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ (٩) .

وقال السيوطى : أخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُعَلِّم قينا بمكة اسمه بلعام وكان أعجمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يعلمه فقلبوا الأمر وقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ﴾ (١٠).

---

(٨) النحل ١٠٣
(٩) أسباب النزول للواحدى ص ٢١٢
(١٠) لباب النقول ص ١٠٧

لقد اضطربت أقوال القرشيين حول الذى يزعمون انه علَّم النبى - صلى الله عليه وسلم - وإنهم ليعلمون يقينا كذب أقوالهم ، فشتان بين هذا القول الرصين والكلام المبين ، وبين رطانة هؤلاء

وماجلس النبى - صلى الله عليه وسلم - قط إلى أحد يتعلم منه ، ولكنه كان يجلس ليُعَلِّم ويأخذ بيد من يعلمه إلى الخير ويهديه إلى الطريق الصحيح .

ذكر القرطبى قول ابن إسحاق : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى - كثيرا مايجلس عند المروة يعلم غلاما نصرانيا اسمه جبر . عبدبنى الحضرمى ، وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون : والله ما يُعَلِّم محمدا مايأتى به إلا هذا النصرانى . وقال النقاش : إن مولى جبر كان يضربه ويقوله له : أنت تُعَلِّم محمدا ، فيقول : لا والله بل هو يعلمنى ويهدينى [11]. إن العاقل يدرك تماما أن المعلم لابد أن يكون أقوى من المتعلم فى مادته التى يلقنها له . فكيف يتأتى لمن لايستطيع أن يقيم لسانه كلمة عربية فصيحة أن يلقن أفصح العرب هذا القرآن الذى نزل بلسان عربى مبين .

انبهار العرب بالقرآن :

لقد انبهر العرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة بهذا النسج المتين والبيان الرائع ، والمنطق العظيم ، الذى أنزله الله على قلب نبيه - صلى الله عليه وسلم - فكانوا يصيخون له السمع ، وربما تلطفوا فى سماعه حتى لايشعر بهم أحد ، فقد

---

(١١) القرطبى تفسير النحل ص ٣٧٩٣

روى عن عمر بن الخطاب أنه كان يختبىء وراء أستار الكعبة فى جوف الليل ليستمع إلى قراءة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن .

وروى ابن هشام فى سيرته قال :

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب

الثقفى حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لايعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ،

فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لاتعودوا فلو رآكم سفهاؤكم لأوقعتم فى نفوسهم شيئا ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل منهم مجلسه فباتوا يستمعون ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق

أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى ياأبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . .

فقال : ياأبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ومايراد منها .

قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم مارأيك فيما سمعت من محمد فقال : ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه والله لانؤمن به أبدا ولانصدقه . .[١٢] .

إنه الحسد إذن . والحسد يزين لصاحبه مايشاء ويحجبه عن الحق ويدفعه إلى الكذب .

والحسد يصيب صاحبه بالكبر فيجعله يتجافى عن قول الحق وسماعه . وقد دفع ذلك بعضهم إلى أنهم يتصامون عن سماع القرآن ، أو يسخرون مما يسمعون . . ولذلك جاء قوله ـ تعالى ـ إخبارا عن حالهم :

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾[١٣] .

---

(١٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٨ وبعض الروايات تذكر أن الثلاثة هم الوليد بن المغيرة ، والأخنس ، وأبو جهل .

(١٣) الاسراء ٤٦ ، ٤٧

انظر . لقد وصفوه بأنه مسحور ، ومسحور بمعنى ساحر كما سبق أن قدمنا ، أو مسحور بمعنى من فَعَل فيه السحر فعله ، أو مسحور بمعني لقنه غيره السحر .

عدم إصاخة العقلاء لدعوى السحر التي يزعمها الكفار:

وكان كثير من العرب لاتغره دعوى هؤلاء عن القرآن بأنه سحر ، وعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه ساحر . وربما كان هذا القول مغريا لهم بسماع القرآن بدلا من الإعراض عنه . فقد حدث الرواة أن الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة ، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له : ياطفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ـ أي اشتد أمره وأعيانا ـ وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ماقد دخل علينا ، فلا تكلمه ولاتسمعن منه شيئا .

قال : فوالله مازالوا بي حتى صممت ألا أسمع منه شيئا ولا أكلمه وحتى حشوت في أذني كرسفا ـ قطنا ـ قال : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم عند الكعبة ، فصرت منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله .

قال : فسمعت كلاما حسنا ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب شاعر مايخفى عليّ الحسن من القبيح . فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل مايقوله فان كان حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

قال : فلما انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيته ، تبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يامحمد إن قومك قالوا لى كذا وكذا والله مابرحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف . ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعت قولا حسنا ، فاعرض علىّ أمرك . .

فعرض علىّ الإسلام وتلا علىّ القرآن ، فلا والله ماسمعت قط قولا أحسن منه ولا أمرا أعدل منه . قال فأسلمت وشهدت شهادة الحق (١٤) .

من عبر هذه القصة :

وتدلنا قصة الوليد بن المغيرة على عظات وعبر منها :

أن الكفر حين يغلب على القلب يزين لصاحبه الشر ، ويجعله يصف الحق بأنه باطل وقد غلب الكفر على قلب الوليد حتى اخترع فى القرآن ما اخترعه . .

ـ والباطل مهما أوتى من قوة فإنه لايستطيع مجابهة الحق أو الصمود أمامه ، وهؤلاء الكفار بقوتهم التى حشدوها ودعاواهم التى زيفوها لم يستطيعوا أن يصدوا الناس عن سماع القرآن .

ـ صاحب الخلق السيىء والعنصر الردىء يقابل النعمة بالجحود ، والجميل بالنكران . وقد أنعم الله على الوليد بنعم شتى ، من المال والولد والجاه ، ولكنه لم يرع حقا من هذه الحقوق ، وتزعم عصابة الباطل ، واخترع مقالة السوء فى القرآن وهو يعلم أنه كلام ليس فى مقدور بشر أن يقول مثله . .

---

(١٤) سيرة ابن هشام جـ١ ص٤٠٨

ـ وصف القرآن الوليد بأنه وحيد ، واختلف المفسرون حول مضمون هذا الوصف فقال بعضهم : لقد خلقه الله وحيدا لا ماله له ولا ولد ثم أعطاه ذلك ،

وقد خص هو من دون الناس بهذا الوصف مع أنهم يشاركونه ذلك لاختصاصه من بينهم بكفر النعمة وإيذاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم : إنه كان يلقب بالوحيد وكان يقول عن نفسه : أنا الوحيد بن الوحيد ليس لى فى العرب نظير لأبي المغيرة نظير .

وقال بعضهم : الوحيد الذى لايعرف أبوه ، وكان الوليد معروفا بأنه دعىٌّ ، كما ذكر فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ ﴾(١٥) .

فمن معانى الزنيم : اللصيق فى القوم . وكان الوليد دعيًّا فى قريش ليس من أصلهم ، ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده وقال شاعرهم فى ذلك :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغى الأم ذو حسب لئيم

وقال آخر :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع (١٦) .

واذا صح هذا التفسير لكلمة وحيد فقد دل ذلك على أن كل إناء ينضح بما فيه

---

(١٥) القلم ١٣

(١٦) تفسير القرطبى ـ سورة القلم ص ٦٧١٢

ـ حق المال أن يبذل فى الدفاع عن الحق لاف الصد عنه ، وفى طلب الهداية لاطلب الكفر . وقد ورد فى وصف المؤمنين قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (١٧) .

أما هذا المدعو الوليد فقد استعمل جاهه ونفوذه فى الصد عن سبيل الله . وكان له ثلاثة عشر ولدا لم يؤمن منهم إلا ثلاثة : خالد وهشام والوليد .

وبعد نزول هذه الآيات فى شأنه ، مازال فى نقصان فى ماله وولده حتى هلك .

وعيد الله للكافرين حق ، وقد توعد الله الوليد بسوء الخاتمة وشدة العذاب فى جهنم ، وكان هذا جزاء وفاقا لما قدمت يداه .

لقد قال الله فى حقه : سأرهقه صعودا ، والصعود جبل فى جهنم من نار يتصعد فيه حتى لايجد له نهاية ، وكلما صعد هوى ، كذلك أبدا . .

وقيل : المعنى ، سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه . .

وقيل المعنى ان نفسه تصّاعد للنزع وان لم يتعقبه موت ليعذب من داخل جسده كما يعذب من خارجه . وهذه نهاية سيئة وعاقبة وخيمة فيها عبرة لمن يعتبر وعظة لمن يزدجر . .

---

(١٧) الحج ٤١

رابعا : قصة النفاثات فى العقد

قال ـ تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾[18] .

ذكر العلماء فى مناسبة نزول هذه السورة أسبابا ..

منها ماورد من أن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء للنبى صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : إن عفريتا من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ قل أعوذ برب الفلق .. وقل أعوذ برب الناس .

ومنها أن الله أنزل هذه السورة والتى بعدها لتكونا رقية من العين .

فقد روى أن قريشا سلطت على الرسول رجلا كان معروفا عندهم بالعين . فأتاه فقاله له : ما أشد عضدك ، وأقوى ظهرك وأنضر وجهك ، فأنزل الله المعوذتين وقاية له من شر العين ..

ومنها ماذكره جمهور المفسرين وثبت فى الصحيحين من حديث عائشة ـ رضى الله عنها قالت : إن النبى صلى الله عليه وسلم ـ سحره يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى يخيل له أنه يفعل الشىء ولايفعله . فمكث

---

(١٨) سورة الفلق

كذلك ماشاء الله أن يمكث . ثم قال : ياعائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيت فيه ، أتانى ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى . .

فقال الذى عن رأسى للذى عند رجلى ماشأن الرجل

قال : مطبوب

قال : فمن طبه ؟

قال : لبيد بن الأعصم .

قال : فبماذا ؟

قال : فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة فى بئر ذى أروان فجاء البئر واستخرجه . .(١٩) .

وفى رواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث عليا والزبير وعمار بن ياسر فنزحوا الماء من تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة وهى الراعوفة ـ أى الصخرة تترك فى أسفل البئر يقف عليها المائح ـ الذى يستقى بالدلو . وأخرجوا الجف ، فإذا مشاطة ، وأسنان من مشط وإذا وتر معقود فيه احدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر .

فأنزل الله تعالى هاتين السورتين « المعوذتين » وهما احدى عشرة آية على عدد تلك العقد ،وأمره الله أن يتعوذ بهما ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة فكأنما نشط من عقال ، وقام ليس عليه بأس .

---

(١٩) فى رواية مشاقة ـ بالقاف ـ وهى ما يستخرج من الكتان وجف الطلعة غشاؤها. والراعوفة : الحجر الناتىء على رأس البئر وذى أروان اسم بئر

وجعل جبريل يرقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من شر حاسد وعين ، والله يشفيك .

فقالوا : يارسول الله ، ألا نقتله .

فقال : أما أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس شرا .

قال القرطبي ـ بعد أن ذكر هذه الرواية ـ : ذكر القشيرى فى تفسيره أنه ورد فى الصحاح أن غلاما من اليهود كان يخدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدنت إليه اليهود ، ولم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمشاطة مايسقط من الشعر عند المشط ، وأخذ عدة من أسنان مشطه ، فأعطاها اليهود فسحروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان الذى تولى ذلك لبيد بن الأعصم اليهودى[٢٠] .

وذكر الواحدى والسيوطى فى أسباب النزول ذلك .

وتشير هذه القصة إلى بعض حقائق :

منها أن السحر حقيقة يتمكن منه بعض الناس ويستعملونه ، ولاينجومنه أحد حتى الأنبياء . .

وأن ذلك لاينافى عصمتهم . وأن ماحدث بالنسبة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يزد على كونه مرضا أصابه فى بدنه ، والمرض جائز على الأنبياء . .

---

(٢٠) تفسير القرطبي ـ للمعوذتين

وقد أنكر المعتزلة هذه الواقعة لأنها تنافى العصمة التى أثبتها الله للنبى - صلى الله عليه وسلم - فى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۝٦٧ ﴾[21]

ولأن تجويز ذلك يستلزم القدح فى النبوة .

وإذا صح ذلك من السحرة أمكنهم إلحاق الضرر بكل من يريدون ، وأمكنهم تحصيل كل شيء لأنفسهم بما فى ذلك الملك والسلطان . .

وقد ادعى الكفار على النبى صلى الله عليه وسلم - بأنه مسحور فقالوا كما حكى القرآن .

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧ ﴾[22] .

ولو كان سحر النبى حقا للزم صدق الكفار فى وصفهم إياه . .

واعتدوا بقوله - تعالى - فى حق السحرة :

﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ ﴾[23] .

وقد رد العلماء على هذا القول بعدة وجوه منها .

- أنه قد ثبت هذا الخبر فى الصحاح .

- أنه لاينافى عصمة النبى - صلى الله عليه وسلم - كما قلنا .

- أما قول الكفار عن النبى - صلى الله عليه وسلم - بأنه مسحور فإنهم كانوا يقصدون به الجنون ، وقد وقع هذا القول فى مكة ، والسحر الذى حدث حدث فى المدينة بعد الهجرة .

---

(٢١) المائدة ٦٧

(٢٢) الاسراء ٤٧

(٢٣) طه ٦٩

وأن هذا السحر لم يصبه إلا بأذى فى بدنه وهو مرض ، والمرض ليس غريبا على الأنبياء إلا إذا أصاب العقل أو كان منفرا يمنع من المخالطة .

- ولايترتب على تأثير السحر فى النبى أن يشتبه ذلك بالمعجزة التى يعطاها الرسول ، فالفرق واضح جدا بين المعجزة والسحر . وقد سبق بيان ذلك .

- أما تذرعهم بالآية الكريمة ﴿ ولايفلح الساحر حيث أتى ﴾ فذلك حق . لأن عدم الفلاح ملازم للساحر لاستعمال السحر فى الضرر ، والمقصود بعدم الفلاح أن الله عز وجل سيبطله ، وسوف يعاقب السحرة ، ولن ينتفع ساحر بسحره ولن يفلح به لأن الفلاح الحقيقى للمؤمنين كما قال سبحانه : « قد أفلح المؤمنون »[٢٤] .

ومن الحقائق التى تشير إليها هذه السورة أن السحر شر ، وممارسته كفر ، ومن أنواعه النفث ، والنفث هو النفخ . كانت الساحرات يعقدن العقد ثم ينفثن أى ينفخن فيها حين يرقين عليها .

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم - عن ذلك .

روى أبوهريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئا وكل إليه[٢٥] .

وكما نهت هذه السورة فى مضمونها عن السحر فقد نهت عن الحسد ، وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم : « إياكم والحسد فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » [٢٦]

---

(٢٤) المؤمنون ١

(٢٥) رواه النسائى

(٢٦) رواه أبو داود عن أبى هريرة وفى رياض الصالحين برقم ١٥٦٧

ـ ومن الحقائق التى لاجدال فيها أن الله وحده هو القادر على دفع الضر الكائن من اى جهة سواء كان من حاسد أو ساحر أو شيطان ، ولذا أمرنا بالاستعاذة به من كل سوء . .

خامسا : متعلقات بالسحر :

أما وقد عرضنا القصص الواردة فى القرآن الكريم حول السحر ، فقد بقى بعض متعلقات تتصل به نشير اليها فيما يأتى :

١ ـ التنجيم . .

جاء فى لسان العرب : المنجم والمتنجم الذى ينظر فى النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ، ولكل نجم منزل وموقع . . ونظر فى النجوم : فكر فى أمر ينظر كيف يدبره ، ومنه قوله ـ تعالى ـ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٣٧) .

وكان من عادة قومه أن ينظروا فى النجوم ، وكانوا يعتقدون قدرتها على النفع والضر . .

وقد أقسم الله بمواقع النجوم فقال :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٢٨)

أما النظر فى النجوم ومعرفة مواقعها والنظر فى الحساب المتعلق بذلك فهو علم صحيح يسمى علم الفلك يندب إليه ، وهو من العلوم الشرعية .

---

(٢٧) الصافات ٨٨ ، ٨٩

(٢٨) الواقعة ٧٥ ، ٧٦

وكان العرب القدماء أصحاب معرفة بأسماء وأوقات طلوعها وغروبها ، دعاهم إلى ذلك اعتمادهم عليها فى سيرهم برا وبحرا ، وساعدهم فى ذلك صفاء جوهم واختلاطهم بغيرهم من الكلدانيين الذين عاش بعضهم ببلاد العرب . .

وقد عرف العرب السيارات السبع التى جمعها بعضهم فى قوله :

زحل شرى مريخه من شمسه   فتزاهرت لعطارد الأقمار

وعرفوا كذلك البروج التى جمعها الشاعر فى قوله

حمل الثور جوزة السرطان   ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى   نزح الدلو بركة الحيتان

ومعنى ذلك أن العرب قسموا الفلك وهو مدار الشمس إلى اثنى عشر قسما ، كل قسم منها يسمى برجا ، وهو منطقة يجتمع فيها عدد من الكواكب الثابتة ، تضمها خطوط موهومة ، تعطى صورة معينة لشىء من الأشياء التى ذكرت فى البيتين .

وقد ربط العرب حياتهم بهذه النجوم ، حتى ضل بعضهم فى ذلك فأشركوا واعتقدوا أن النجوم تضر وتنفع فكانوا يقولون : أمطرنا بنوء كذا . .

ومن هنا جاء النهى عن صناعة التنجيم .

وصناعة التنجيم ادعاء القدرة على استنطاق النجوم وادعاء أنها تدلى بمعلومات حول ماتسأل عنه .

يزعم هؤلاء أن كل انسان له نجم يتعلق به ، ومنه يعرف كل ماخط له وقدر له ، وقد راج هذا الأمر حتى اننا نرى فى صفحات الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية بابا تحت عنوان : أنت والنجوم . .

ويكتب تحت كل برج من الأبراج كلمات مصنوعة يصدقها البعض فيتطيرون أو يتفاءلون ، وقد يترتب عليها توقف أمور وتعطيل مصالح . .

روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : **« من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد »**[٢٩] .

وجاء فى أسد الغابة فى ترجمة أبى محجن الثقفى أن أباسعيد البقال .

روى عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يقول : **« أخوف ما أخاف على أمتى ثلاث إيمان بالنجوم ، وتكذيب بالقدر ، وجور الأئمة »**[٣٠] .

ويلتحق بذلك مايزعمه الزاعمون حول قراءة الكف بزعم أنها تحمل خطوطا تمثل حظ الإنسان وقدره وعمره وشقائه وسعادته ، وأن ذلك يعرفه من أوتى علم ذلك . . وكل هذا محض افتراء ولا أساس له من الصحة . .

ومثله مايقاله حول قراءة الفنجان . . ولسنا نعرف حتى الآن جدوى ارتباط قدر الانسان بما تتركه متبقيات البن فى فنجان شاربه ولماذا كان البن بالذات ء ولماذا لاينطبق ذلك على مخلفات القرفة أو الكاكاو أو غيرهما مما تكون له آثار باقية

---

(٢٩) رواه أبو داود باسناد صحيح ، وذكره رياض الصالحين برقم ١٦٦٩

(٣٠) أسد الغابة لابن الأثير حـ ٦ ص ٢٧٦

فى الإناء وكيف كان الناس يعرفون أقدارهم قبل ظهور شراب القهوة ولم تظهر إلا منذ قرون قليلة .

هذا لعب بعقول السذج من الناس ..

تحضير الأرواح :

أما تحضير الأرواح فإنه يقوم أولا وأخيرا على الاتصال بالجن أو القرين .

أما روح الانسان الميت فهى بعيدة كل البعد عن الحضور إلى تلك الجلسات التى يزعم الزاعمون أنهم يستحضرون فيها أرواح الموتى ..

ذلك أن الميت اذا كان من أهل الجنة فهو فى شغل بنعيمه عن هذه الدنيا الفانية وأهلها ..

وإذا كان ـ والعياذ بالله من أهل الشقاء فهو فى شغل بشقائه عن الاستجابه لمن يدعوه .. وقد ورد أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ..

والروح المؤمنة المنعمة كيف تنزل عن درجة سعادتها للمشاركةفى عبث هؤلاء الذين يلعبون بعقول الناس

والروح الشقيةأنّى لها أن تستجيب لمن يدعوها وهى فى حيرة وشقاء واضطراب .

إذن فاستحضار الأرواح اذا ما أمكن حدوثه ، إنما هو استحضار للجن أو للقرين . . وذلك ممكن ولا استحاله فيه إذ توافرت الشروط المتاحة لذلك . .

وقد ذكر فى ذلك خبر ذكره صاحب كتاب (حقيقة تحضير الأرواح) . عن العلامة القاضى بدر الدين بن عبدالله الشبلى قال :

قال أبوبكر القرشى حدثنا عبدالله بدر عن يحيى بن يمان عن سفيان عن عمر بن محمد عن سالم بن عبدالله قال : كان أبوموسى الأشعرى ـ رضى الله عنه أميرا

للبصرة ، وقد أبطأ عليه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فاستدعى امرأة فى جنبها شيطان يتكلم ، فقال لها : مرى صاحبك فليخبرنى عن أمير المؤمنين فقالت : إن صاحبى باليمن يوشك أن يأتى .

وبعد حضوره طلبت منه المرأة ما طلبه أبوموسى , قالت له : اذهب فأخبرنا عن أمير المؤمنين حيث أبطأ خبره عنه .

فرد الشيطان قائلا : ماخلق الله شيطانا يسمع صوت عمر إلا خر لوجهه .

وذكر أيضا أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أرسل جيشا ، وبعدها حضر شخص إلى المدينة وأخبر بانتصار الجيش على العدو . .

ولما شاع الخبر قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : هذا أبوالهيثم بريد المسلمين من الجن وسيأتى بريد الإنس .

وماهى إلا أيام حتى تأيد الخبر ..[٣١] .

هذه الأخبار التى ذكرها صاحب الكتاب إن صحت فهى تدل على حقيقتين هامتين .

أولاهما أن الجن لاتخبر الا عن الأمور الماضية ، أما الأمور المستقبلية فلا تعلم عنها شيئا ..

والأخرى أن الشيطان يفر من عمر بن الخطاب تصديقا للحديث الشريف « ان الشيطان ليفر منك ياعمر » وفى رواية « لوسلك عمر طريقا لسلك الشيطان طريقا آخر » .

ويفهم من الخبرين السابقين أن هناك اتصالا يمكن أن يتم بين الإنس والجن ، وقد ذكرنا فى حديثنا عن الجن مايشير إلى ذلك ..

وإمكانية الاتصال بالجن واستخبارهم ليست مستحيلة .

وذكر صاحب الكتاب المذكور فيما يدل على أن الجن يعرفون الماضى ولايعرفون المستقبل ، وأنهم يعرفون من الماضى الأمور الدقيقة التى لاتخطر على بال وذلك عن طريق استخبار القرين أو الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .

قال : أخبر ابن أبى داود قال : حدثنا يونس بن حبيب وأبو داود عن أبى الجوزاء قال : طلقت امرأتى يوم الجمعة ، وقلت فى نفسى سأراجعها يوم الجمعة

---

(٣١) حقيقة تحضير الأرواح ص ٤٦

القادمة ، ولم أخبر بذلك أحدا .. فقابلتني امرأتي وقالت : أنت تريد أن تراجعني فقلت لها : إن هذا شيء ماحدثت به أحدا قط .

ولكنه تذكر قول ابن عباس : إن وسواس الرجل يخبر بما يتحدث به ، وبهذا يفشو الحديث .

وأخبر ابن أبي داود أيضا كذلك قال : حدثني أبي باسناد ذكره أن الحجاج بن يوسف الثقفي أتى برجل رماه الناس بالسحر .

فقال له : أساحر أنت ؟

فرد الرجل قائلا : لا

فأخذ الحجاج كفا من الحصى وعدها دون أن يراها الرجل ، ثم قال له : في يدي كم من الحصيات فأجاب الرجل : كذا .

ولما وجد العدد صحيحا ، تناول الحجاج كفا أخرى من الحصيات ولم يعدها ، ثم قال له : كم في يدي من الحصيات .

فأجاب الرجل : لا أدري .

فسأله الحجاج : كيف عرفت عدد الحصيات الأولى ولم تعرف الثانية .

فأجاب الرجل : عرف وسواسك عدد الحصيات الأولى فأخبر وسواسي الذي نقل لي العدد ، أما الثانية فلم يعرفها وسواسك لأنك لم تعدها ، فلم يستطع وسواسي إخباري بها (٣٢) .

---

(٣٢) المرجع السابق ص ٤٧

فلا يبعد أن تكون عملية تحضير الأرواح التى تتم فى بعض الأوساط إنما تتم بطريقة الاستعانة بالقرناء أو الخناسين الذين أشارت إليهم القصص المذكورة .

ونقول : إن هذا ميدان يكثر فيه الدجل ، وربما وقع فيه البسطاء والسذج تحت سيطرة من يستغلونهم استغلالا سيئا ، ولذلك فمن الأحسن والأفضل الابتعاد عن مثل هذه الأمور ، وصرف النفس عن الاشتغال بها وتحريك الهمة إلى ماهو أجدى للنفس وأقوى على جهادها ، وتعمير الوقت بصالح الأعمال بدلا من الاشتغال بسفاسف الأمور وحبائل الشيطان . .

الرقى :

الرقى جمع رقية : وهو العوذة التى يرقى بها المريض أو المصاب . قال الشاعر :

فما تركا من عوذة يعرفانها ... ولارقية الا بها رقيانى

وتجمع على رقى - بضم الراء .

وقد جاء فى بعض الأحاديث جوازها ، وفى بعضها النهى عنها .

قال ابن منظور : فمن الأحاديث التى أجازتها قوله - صلى الله عليه وسلم - (استرقوا لها فان بها النظرة) اى اطلبوا لها من يرقيها . .

ومن الأحاديث التى نهت عنها قوله : لايسترقون ولايكتوون .

والاحاديث فى القسمين كثيرة ، ووجه الجمع بينها أن الرقى يكره منها ماكان بغير اللسان العربى وبغير أسماء الله تعالى ـ وصفاته وكلامه فى كتبه المنزلة ، وبأن يعتقد أن الرقيا نافعة لامحالة فيتكل عليها ، وإياها أراد بقوله : ﴿ **ماتوكل من استرقى** ﴾ .

ولايكره منها ماكان بخلاف ذلك كالتعوذ بالقرآن وأسماء الله ـ تعالى ـ والرقى المروية عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه . .

وقد اعتمد من جوز الرقية على أن جبريل ـ عليه السلام ـ رقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقول : (**باسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك والله يشفيك**) .

وبأنه روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعلمنا من الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء :

(**باسم الله الكريم ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ـ فوار بالدم ـ من شر حر النار**) .

وبأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال من دخل على مريض لم يحضره أجله فقال : أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك ، سبع مرات شفى بإذن الله وإرادته . .

وبأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان اذا زار مريضا قال : (**أذهب الباس رب الناس إشف أنت الشافى لاشافى إلا أنت** .

وقد رقى الحسن والحسين بقوله : (أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ، وقال : كان أبي إبراهيم يُعَوذ بذلك ابنيه إسماعيل وإسحاق .

فمن هذه الأحاديث وغيرها جوَّز العلماء الرقى ، ولكنهم حذروا من الرقى المجهولة التي لاتعرف حقائقها كما مر . .

وما الرأى فى التعاليق ؟

وهى التمائم التى تعلق على المريض .

لقد منعها بعض العلماء اعتمادا على قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (من علق شيئا وكل إليه) .

وقد تكون التميمة خرزة أو شبهها تعلق على الصبى ، فقد جاء فى القاموس : هى خرزة رقطاء تنظم فى سير ثم تعلق فى العنق ، وكان الأعراب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين ودفع الأرواح . وفيها يقول الشاعر :

وإذا المنية أنشبت أظافرها   ألفيت كل تميمة لاتنفع

وهذا عبث لاقيمة له .

أما إذا كانت التميمة تعويذة من كتاب الله أو أسماء الله الحسنى ، فقد سئل الباقر ـ عليه السلام ـ عن التعويذ يعلق على الصبيان فرخص فيه[٣٣] .

---

(٣٣) قصة السحر والسحرة ص ٢٠٥

مايبطل السحر :

يزعم بعض الجهلة أن اللجوء إلى الدجالين هو الذى يبطل السحر وكثيرا مايقع هؤلاء بين براثينهم فيستغلونهم أسوأ استغلال ، ويستنزفون مواردهم ، ويزينون لهم فعل أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن ذلك مايسمونه (الزار .

وتقام بسبب ذلك حفلات تنفق فيها أموال طائلة وتذبح فيها طيور أو حيوانات ذات ألوان خاصة ، وكل ذلك لاعلاقة له إلا بمصلحة من يزين ذلك . .

وفى هذا الحفل تدق الطبول ويتراقص حولها من يزعمون بأنهم مصابون من الجن أو السحر حتى انهم يتساقطون إعياء من الرقص . .

كل هذه معتقدات باطلة وأوهام شائعة ودجل يحاربه الدين أشد المحاربة ويأباه أشد الإباء .

ومإينطبق على الزار ينطبق أيضا على هؤلاء الذين يزعمون أن بإمكانهم فك السحر وإبطال أثره عن طريق تكليف المصاب بأشياء ترهقه ، كارتداء ملابس خاصة أو تقديم أشياء عينية لها علامات مميزة لمن يزعم أن بإمكانه القدرة على فك « العمل » وإبطال السحر ، أو دفع مبالغ من المال فى نظير ذلك .

أما الذى يبطل السحر حقا فهو اللجوء إلى الله والاعتصام به ، والتحصن من شياطين الإنس والجن بالمداومة على قراءة القرآن والأدعية الواردة فى ذلك . . وقراءة المعوذتين حصن حصين ينجى من براثن السحر وأذى الجن .

وإذا داوم المؤمن على قراءة قل هو الله أحد ، والمعوذتين نجا بإذن الله من الأذى .

ومن الآيات التى يقرؤها الإنسان فى ذلك أيضا آية الكرسى . .

وقد ورد فى ذلك أثر عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« من قرأة آية الكرسى فى ليله لم يزل عليه من الله حافظ ولايقربه شيطان حتى يصبح » .

وصح عنه أنه قال :

« من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » .

ومن الأدعية الواردة فى ذلك ماقاله النبى ـ صلى إلله عليه وسلم :

« من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق ـ لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله ذلك » . ومن الأدعية التى يحسن أن يقولها المسلم فى أول النهار وأول الليل ثلاث مرات :

« باسم الله الذى لايضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم » [٣٤] .

« اللهم إنك قد أقدرت بعض خلقك على السحر والشر ولكنك احتفظت لذاتك بإذن الضر ، فأعوذ بك مما أقدرت عليه بعض خلقك بحق قولك : وماهم بضارين به من أحد بإذن الله » [٣٥] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه وسلم .

---

(٣٤) هذه الأدعية مقتبسة من كتاب السحر والسحرة فى القرآن الكريم تحقيق محمد ابراهيم سليم

(٣٥) الأدلة المادية على وجود الله ـ الشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٤

بين السحر والحسد :

من الأمور المتعلقة بالسحر الحسد . من حيث ان كلا منهما له أثره الضار فى الغير ، وقد شملت سورة الفلق الاستعاذة من كليهما :

وقد وردت مادة الحسد فى القرآ الكريم فى أربعة مواضع .

فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ (٣٦) .

وفى صورة النساء فى قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (٣٧) .

وفى سورة الفتح فى قوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٣٨) .

---

(٣٦) البقرة ١٠٩

(٣٧) النساء ٥٤

(٣٨) الفتح

وفى سورة الفلق ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾[٣٩] .

وقد ورد الحسد بمعناه أو قريب منه فى قوله تعالى :

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ ﴾[٤٠]

مفهـــــوم الحســد :

وفسر العلماء الحسد بأنه تمنى زوال النعمة عن صاحبها الذى يستحقها . وقد ظهر ذلك واضحا فى الكفار ، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المشركين .

وحسد أهل الكتاب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بسبب ما آتاه الله من نبوة وحكمة ، وقد كانوا يعتقدون أن ذلك خاص بهم ولايستحقه غيرهم ، فلما أعطيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ليس من بنى اسرائيل حسدوه على ذلك ، وتمنوا لوارتد المسلمون كفارا حتى لاينعموا بنعمة الإيمان التى منحوها بسبب هذا القرآن والنبى الذى أنزل عليه .

لقد كَبُرَ عليهم أن تسبقهم العرب إلى الإيمان وهم أهل بداوة وأمية . ولكن الله يمن بفضله على من يشاء.. ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وروى العلماء فى سبب نزول هذه الآيات مايأتى :

---

(٣٩) الفلق ٥

(٤٠) القلم ٥١

ذكر صاحب تفسير المنار قال : إن بعض اليهود ككعب بن الأشرف وغيره لم يجدوا مطعنا يقولونه فى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الا تعدد أزواجه وحسدوه على ذلك ، فنزلت آية النساء ترد هذه الشبهة لأن بعض أنبيائهم كداود وسليمان ـ عليهما السلام كانت لهم كثرة من الأزواج ، كما رد على استبعادهم أن يكون الملك فى غير بنى اسرائيل بانه تعالى أعطى آل إبراهيم من ذرية إسحاق الكتاب والحكمة والنبوة فضلا منه من غير أن يكون لهم حق عليه تعالى ، فكذلك يعطى لآله من ذرية إسماعيل ولاحجر على فضله ، فإن كان ذلك الفضل الإلهى لايناله إلا من سلف من آل إبراهيم فللعرب هذا السلف .

فإيتاء الله ـ تعالى ـ بعض البشر الفضل إما أن يكون بمحض الاختصاص والاختيار وذلك موكول الى مشيئة الله عز وجل ، وإما أن يكون لمزايا وفضائل فيمن يعطيه ذلك ، وحينئذ يكون كل من يكتسب تلك المزايا مستحقا لهذا الفضل ، والنبوة ومقدماتها بمحض الاختصاص .

أما كثرة النساء لداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ فهى ثابتة فقد نقل بعض المفسرين أنه كان لداود مائة امرأة ، وأنه كان لسليمان عليه السلام أكثر من ذلك ، فكيف يستنكر اتباعهما أن يكون للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسع نسوة ، وقد تزوج أكثرهن لحكم وأسباب عامة أو خاصة .

وقد أقرت كتبهم التى بأيديهم بكثرة نساء سليمان . .

هذا سر حسد أهل الكتاب للنبى صلى الله عليه وسلم . . أما حسد المشركين

العرب فكان على ماوهبه الله للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذا الفضل العظيم والمنزلة الكبيرة التى اكتسبها فى نفوس من آمن به ، والتأثير القوى لبيانه وخصائصه ولهذا القرآن العظيم الذى اختصه الله بنزوله عليه حتى قال قائلهم :

فيما يحكيه القرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤١) .

وتشير إليه أيضا آية سورة القلم (٤٢)

﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾

ومن شدة حسدهم زعموا كذبا وزورا أنه مجنون وقالوا عنه إنه ساحر .

ذم الحسد :

والحسد صفة مذمومة لاشك فى ذلك ، لأن تمنى زوال النعمة عن الغير جحود وحقد ، وربما جمع الحسود بين صفات مذمومة متعددة لاسبيل إلى مقاومتها إلا بالصبر كما يقول الشاعر :

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ماتأكله

---

(٤١) الزخرف ٣١ ، ٣٢

(٤٢) سورة القلم آية ٥١

قال الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ : الحاسد مغتاظ على من لاذنب له ، وقيل : الحسود غضبان على القدر وربما وصف الحسود بالكفر ومرد ذلك إلى

احتجاجه على القدر ، واتهامه الخالق ـ جل وعلا ـ بالجور والظلم وعدم الإنصاف لأنه لم يرض بما أنعم الله على عباده من خير وماوهبهم من فضل ، وقد ترجم بعضهم ذلك شعرا فقال :

ألا قل لمن بات لى حاسدا أتدرى على من أسأت الأدب
فظنك فى خالقى سيىء لأنك لم ترض لى ماوهب
فكان جزاؤك أن زادنى وسد عليك بباب الطلب

إن الحاسد فى غم مقيم ويزداد غمه كلما زادت نعم الله على المحسود ، وقد يقتل هذا الغم صاحبه ، ولذلك يقول بعض الحكماء : الحسد داء منصف يفعل فى الحاسد أكثر من فعله فى المحسود ، وهذا مأخوذ من الأثر الكريم : قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله .

ونقل عن أبى الليث السمرقندى فى هذا المعنى قوله : يصل الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده الى المحسود .

أولاها غم لاينقطع ، الثانية مصيبة لايؤجر عليها ، الثالثة مذمة لايحمد عليها ، الرابعة سخط الرب ، الخامسة يغلق عنه باب التوفيق (٤٣).

هل هناك حسد محمود :

الحسد المحمود هو مايسمى بالغبطة ، وهو الذى ورد فيه الأثر الشريف : (لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها) (٤٤) .

---

(٤٣) المستطرف من كل فن مستظرف جـ ١ ص ٢١٣

(٤٤) فتح البارى جـ ١ ص ١٩٩ ـ كتاب العلم حديث رقم ٧٣

قال العلامة ابن حجر فى شرح هذا الحديث ، الحسد فى هذا الحديث هو الغبطة وأطلق عليها لفظ الحسد مجازا ، ومعنى الغبطة أن تتمنى أن يكون لك مثل مالغيرك من غير أن يزول عنه ، والحرص على هذا يسمى منافسه فان كان فى الطاعة فهو محمود ومنه قوله ـ تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٤٥]

وإن كان فى المعصية فهو مذموم ومنه « ولاتنافسوا » وان كان فى الجائزات فهو مباح ، فكأنه قال فى الحديث لاغبطة أعظم أو أفضل من الغبطة فى هذين الأمرين ، ووجه الحصر أن الطاعات إما بدنية أو مالية أو كائنة عنهما وقد أشار إلى وقد أشار إلى البدنية بإتيان الحكمة والقضاء بها وتعليمها . .

ففى القيام بذلك تسخير للبدن فى أمر حسن يستوجب الثواب من الله ، وقد جاء هذا صريحا فى رواية أخرى للحديث أخرجه أحمد : « رجل آتاه الله القرآن فهويقوم به آناء الليل وآناء النهار » .

والطاعة المالية واضحة فى بذل المال فى سبيل الله ـ تعالى ـ واذهابه فى مرضاته ـ سبحانه ـ إن مثل هذين الرجلين يستحقان أن يغبطا وأن يقول المؤمن عنهما : ليتنى كنت مثلهما فأعمل بمثل مايعملان . .

الاصابة بالعين :

ويتصل بهذا الأمر الإصابة بالعين ، وهى مشاهدة ملموسة ، وقد ورد فى ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « العين حق »[٤٦] .

وقال ابن حجر فى شرحه : الإصابة بالعين شيء ثابت موجود أو هو من جملة ماتحقق كونه ، وإن كان طوائف المبتدعة قد أنكروه لغير معنى لأن كل شيء ليس محالا فى نفسه ولايؤدى إلى قلب الحقيقة ولا إفساد دليل فهو جائز عقلا ، فإذا أخذ الشرع بوقوعه لم يكن لإنكاره معنى .

---

(٤٥) سورة المطففين ٢٦

(٤٦) فتح البارى حـ ١٠ ص ٢١٣ ـ كتاب الطب حديث رقم ٥٧٤٠

ومن القصص الواردة فى ذلك ما رواه أحمد والنسائى وصححه ابن حبان من طريق الزهرى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أن أباه حدثه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج وساروا معه نحو ماء ، حتى إذا كانوا بشعب الخرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف ـ وكان أبيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال : مارأيت كاليوم ولاجلد مخبأة ، فَلُبِط ـ أى صُرِع ـ سهل ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال : هل تتهمون به من أحد قالوا : عامر بن ربيعة ، فدعا عامراً فتغيظ عليه فقال : علام يقتل أحدكم أخاه هلا إذا رأيت مايعجبك بَرَّكت أى قلت : تبارك الخلاق العظيم ، ثم قال : اغتسل له ، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره فى قدح ، ثم يصب ذلك الماء على رجل من خلفه على رأسه وظهره ثم يكفأ القدح ، ففعل به ذلك ، فراح سهل مع الناس ليس به من بأس (٤٧) .

وسبب تأثير العين أن صاحب العين ينبعث من عينيه قوة سُمِّية تتصل بالمحسود فيهلك أو يفسد ، وهو كاصابة السم من نظر الأفاعى .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمر بالاسترقاء من العين ، وحديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى ذلك : أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسترقى من العين (٤٨) .

وقد ذكرنا فى صدر هذا الحديث آية القلم ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾ .

---

(٤٧) فتح البارى ١٠ ٢١٤
(٤٨) المرجع السابق الحديث رقم ٥٧٣٨

وأشرنا إلى حسد الكفار للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاختصاصه بالقرآن العظيم الذى نزل عليه ، ونضيف هنا ماذكره المفسرون حول سبب نزول هذه الآية .

ذكر القرطبى : كاد الكافرون لشدة عداوتهم للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصيبوه بالعين ، فنظر إليه قوم من قريش وقالوا : مارأينا مثله ولامثل حججه .

وقيل : كانت العين فى بنى أسد حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ، ثم يقول ياجارية خذى المكتل والدرهم فاتنا بلحم هذه الناقة ، فما تبرح حتى تقع للموت فتنحر .

وقال الكلبى : كان رجل من العرب يمكث لايأكل شيئا يومين أو ثلاثة ، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول : لم أر كاليوم إبلا ولاغنما أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلا حتى تسقط منها طائفة هالكة فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعين فأجابهم ، فلما مر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيدا وأخاك أنك سيد معيون

فعصم الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية ..

والله اعلم .....

بسم الله الرحمن الرحيم

عُزَيْر

١٤١٠هـ

عليه السلام

- اسمه ونسبه..
- ذِكرُه في القرآن..
- هل هو الذي مرّ على القرية؟
- إحياء التوراة...
- ضلال اليهود فيه...

بعد أن غزا بختنصر بيت المقدس وخربه ، واستولى على المدينة ، أسر أهلها ، وفيهم أشراف بنى إسرائيل وأنبياؤهم ، وكان منهم دانيال وعزير وغيرهما . .

وظل هؤلاء فى الأسر حتى مَنَّ الله على بنى إسرائيل ، فأُطلقوا من الأسر وعادوا إلى بيت المقدس مرة أخرى . وفى خلال ذلك جرت بعض الأحداث التى تناولها المؤرخون والرواة والمفسرون بأقلامهم ، ونعرض من ذلك مايتعلق بعزير الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم .

اسمه ونسبه :

ذكر ابن كثير فيما يرويه عن الحافظ ابن عساكر نسب عزير فقال :

هو عزير بن جروة ، ويقال : ابن سوريق بن عديار بن أيوب بن عرى بن تقى بن أسرع من سبط هارون بن عمران ـ عليه السلام .

ويقال : عزير بن سروخا وقال القرطبى : عزير بن شرخيا وكان من علماء بنى إسرائيل .

وقد عاصر عزير أحداث التخريب التى حدثت فى بيت المقدس ، وساءه ذلك كما ساء غيره من أنبياء بنى إسرائيل . . وكان أبوه من حفاظ التوراة وورث ذلك عنه .

وكان خراب بين المقدس بسبب بغى بنى إسرائيل وعدوانهم ، فسلط الله عليه عدوهم الذى استلب ملكهم وسباهم وعاقبهم الله إلى جانب ذلك باستلاب التوراة منهم ومَحْوِها من صدورهم ، حتى انه لم يظل على حفظها إلا نفر قليل جدا

كان من بينهم أبوعزير . . ويقال إنهم حين خشوا عليها من عدوان البابليين عمدوا إليها فدفنوها فى أماكن خفية .

ذكره فى القرآن :

لم يذكر عزير باسمه فى القرآن إلا مرة واحدة فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤٩) .

وقد جاء ذلك فى صدد الجهاد للكفار الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ولايدينون دين الحق . . وذكر العلماء أن القرآن الكريم أشار إلى عزير دون ذكر اسمه فى آية أخرى هى قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ (٥٠) .

---

(٤٩) التوبة ٣٠

(٥٠) البقرة ٢٥٩

هل عزيز هو الذى مر على القرية ؟

وقد اختلف العلماء حول ذلك الذى مر على هذه القرية .

فقال بعضهم : إنه أرمياء النبى .

وقال بعضهم : إنه عزير .

وقال بعضهم : إنه أرمياء وهو الخضر ، وقال بعضهم : إنه رجل من بنى إسرائيل غير مسمى .

كما اختلفوا فى اسم القرية فقال بعضهم : إنها إيلياء ـ بيت المقدس ـ .

وقال بعضهم : إنها دير هرقل .

وقال بعضهم : إنها القرية التى خرج منها الألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم .

ومادام القرآن لم يسمها فلنكتف بالقول بأنها قرية من تلك القرى التى تتعرض للتخريب والتدمير مع طول العهد وتقادم الزمن ، أو باجتياح الأعداء أو جوائح القدر .

قصـــة ذلك :

ذكر الرواة قصة تلك القرية فقالوا :

بعد أن غزا بختنصر بيت المقدس وخربه ، وقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ،

كان فيمن قتلهم أبوعزير وكان من أحفظ الناس للتوراة . .

ومَنَّ الله على من بقى فى الأسر من بنى إسرائيل ففك أسرهم ، بعد أن قضوا فى ذل الإسار سنين طوالا وانطلقوا إلى بيت المقدس فأقاموا هناك ماشاء الله لهم أن يقيموا قبل أن تخرب مدينتهم مرة أخرى .

كان عزير قد بلغ أربعين عاما فى ذلك الوقت .

وامتطى عزير يوما حماره ، وحمل غذاءه الذى يتكون من الفاكهة وعصير العنب أو اللبن وسار فى طريقه ، يتأمل فى نفسه أحوال الدنيا ، ويستعرض مامر به

وبقومه من أحداث ، حتى ظهرت له فى طريقه قرية دارسة ، كانت فى سابق عهدها ذات مجد وعمران ، وأهل وسكان . . إنها الآن خالية من أهلها وقد تداعت منازلها ، ودرست معاهدها ، وذهبت جدتها ، وقفرت طرقاتها ، وأتربت عرصاتها ، وفارقتها بهجتها . .

واستقر به المقام تحت شجرة على شاطىء نهر ، والقرية الدارسة أمام عينيه ، وأخذ يستحضر فى ذهنه جمالها القديم ويستعيد أنسها الذاهب . .

ونزل عن حماره ، ومهد لنفسه مكانا وجلس ، وأخرج طعامه وشرابه ووضعه بجانبه ،وقد ربط حماره قريبا منه . . وتناول من ثمار الفاكهة بعضها ، وشرب قليلا من العصير الذى معه ، وأسند ظهره إلى الجدار الذى وراءه وقال يخاطب نفسه متعجبا : أنَّى يحيى الله هذه القرية بعد موتها .

وذكر ابن كثير فى خبر رواه إسحاق بن بشر باسناد إلى وهب بن منبه أن عزيراً كان عبدا صالحا حكيما ، خرج ذات يوم الى ضيعة له يتعهدها ، فلما انصرف أتى إلى قرية خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ، ودخل القرية وهو على حماره ، فنزل ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب ، وجلس فى ظل جدار وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة ثم أخرج خبزا يابسا معه ألقاه فى تلك القصعة فى العصير ليبتل فيأكله ، ثم استلقى على قفاه وأسند رجله إلى الحائط فنظر إلى سقف تلك البيوت ورأى مافيها وهى خاوية على عروشها وقد باد أهلها ، ورأى عظاما بالية فقال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها [٥١].

إنه ليس منكرا لقدرة الله ولكنها كلمة يقولها المتحسر على حال البلاد التى كانت عامرة فخربت .. والديار التى كانت آنسة فدرست .

وكأنه يسأل عن الوسيلة التى تعود بها القرية إلى حالتها الأولى ..
فكان سؤاله تعجبا لاإنكارا .. واستخبارا لا إلحادا ..

إن التعمير يحتاج إلى آماد طويلة ، وأسباب كثيرة ، وأيد عاملة ، وعقول مفكرة ، وأموال طائله ، وقد أقفرت القرية من ذلك كله .. فما الطريق إلى تعمير هذه القرية وكيف تعود إلى سابق عهدها وقديم مجدها .

إنه تحسر على ماآلت إليه وتلهف إلى رؤيتها كما يشتهى ..
ثم غلبه النوم فنام .

---

(٥١) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٥٣٢

وضرب الله على أذنه حتى بلغ مائة عام فى نومته ..
وأعمى الله عنه كواسر الطير فى الفضاء ، وضوارى الوحش فى الأرض .

كان الوقت حين غلبه النوم ضحا ، ثم حين أذن الله له باليقظة كانت الشمس على وشك الغروب ..

وتمطى من نومته الطويلة ، ووجد بجواره مَلِكا يسأله : كم لبثت فى نومتك هذه .

فقال : لبثت يوما أو بعض يوم ..

وقدأجاب بما يظنه الصدق . ألم يكن الوقت ضحاً حين نام ثم هاهو ذا يستيقظ قبل الغروب .. فهو إذن بعض يوم لايوم كامل .. ولكن المَلَك أخبره بأنه نام مائة عام ..

وكان إخبار المَلَك له بذلك عجيبا يثير التساؤل والدهشة ، فنظر إلى المَلَك نظر منكر لما يسمع . ووقع بصره على طعامه وشرابه ممدودا أمامه فوجده على حاله .

فقال لمخاطبه : كيف تقول إنى نمت مائة عام ، وهاهوذا طعامى وشرابى بحاله لم يتغير هذه الفاكهة ماتزال غضة ،وهذا العصير مازال على حاله لم يتغير . إن هذه الفاكهة لو مر عليها أكثر من يوم لظهر فيها العطب ، وإذا مر عليها أكثر من ذلك أنفت منها النفس وألقاها صاحبها بعيدا . وعصير الفاكهة لايتناوله صاحبه إلا إذا كان طازَجا ، أما إذا مر عليه وقت طويل فإن رائحته تتغير ، وتمجه النفس وتعافه وتنصرف عنه .

وحين رأى الملَك تعجبه ودهشته قال له :

هذه قدرة الله التى صنعت ذلك ، حفظت لك طعامك وشرابك طوال هذه السنين المائة فلم يفسد ولكى تعلم قدرة الله حقا ، انظر إلى حمارك .

وتذكر عزير حماره ، ونظر إلى المكان الذى ربطه فيه فلم يجده وربما ساوره وَهْم أن حماره قطع حبله ومضى بعيدا .

ولكنه دقق النظر فوجد مكان الحمار عظاما بالية لم تكن موجودة حين نزل فى هذا المكان .

وأراد الله أن يريه نموذجا من قدرته الخارقة فبعث ريحا جاءت بما تناثر من عظام الحمار من كل مكان ذهبت فيه .

فاجتمعت تلك العظام وركبت القدرة بعضها فى بعض ، وعزير ينظر إلى ذلك وهو مشدوه .. فصارت حمارا من عظم ليس عليه لحم وليس فيه دم .

ثم أمر الله العظام أن تكتسى لحما فاكتست ، وأن تسرى فى عروقها الدماء فسرت ..

ثم أمر الله ملكا أن ينفخ فى منخر الحمار فنفخ فقام الحمار ينفض أذنيه وينهق ..

وهنا خاطبه الله على لسان الملَك قائلا له : انظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ..

أدرك عزير حينئذ أن الله أراد أن يطلعه على مظاهر قدرته الفائقة وأن يجعله يزداد يقينا واعتقادا وأن يشهده تمام رحمته وفضله فيوقن بذلك حق اليقين .

إنه كان يوقن بذلك إيقانا عن علم ، فأصبح يوقن بذلك عن معاينة ومشاهدة وهذه أعلى مراتب الإيمان . . وامتطى عزير حماره ، وسار فى طريقه ، وأدرك أن هذه القرية التى رثى لحالها وتحسر على مآلها لابد أنها ستصبح يوما ما كما كانت عليه غانية بالناس ، حافلة بالجَمال والأنس . .

عزير فى بيت المقدس :

وانطلق عزير فى طريقه إلى بيت المقدس ، ونفسه تجيش بالمشاعر ، لقد تبدلت فى داخله أمور كثيرة ، وانتابته خواطر مثيرة . . لقد نام مائة عام دون أن يحس ، وهاهو ذا قد تخطى رقاب الزمن ينظر بعيون شاب لم يتجاوز الأربعين إلى عالم تغيرت فيه معالم كثيرة فى حين إن عمره الحقيقى يتجاوز ثلاثة أضعاف هذا العمر الذى هو فيه ، وكيف يلقى أنداده فى السن وهل هم على قيد الحياة الآن أو طوتهم يد المنون،وأبناؤه هل هم باقون على مارآهم عليه قبل أن يغادرهم أو تغيرت أحوالهم وأشكالهم .

ودخل المدينة ، وسار فى طرقات المحلة التى كان يقيم فيها . . ووقف بحماره أمام بيته ، ووجد عجوزا مقعدة عمياء . . فقال لها :

أهذا منزل عزير ؟

فقالت نعم ، ولكنى أراك تسأل عن عزير ، وعزير لايسأل عنه أحد الآن .

فقال لها : ولم ؟

قالت : إن عزيرا قد مضى منذ مائة عام ولم يعد ، نسيه الناس ولم يعد أحد يذكره .

وتعجب عزير ، أهكذا شأن الدنيا ، ينسى الناس بعضهم بعضا ، ولايسأل أحد عن أحد فقال لها : أنا عزير :

قالت له : أتسخر منى أن رأيتنى عجوزا عمياء مقعدة .

فقال لها : بل أنا عزير حقا . .

وتذكرت المرأة صوته وقالت فى نفسها : إن هذا الصوت ليس غريبا عنى إنه صوت سيدى عزير ، ولكن أنَّى لى أن استوثق من ذلك وأنا عمياء مقعدة .

فقالت له : ياهذا ، إن عزيرا كان مستجاب الدعوة ، يدعو للمريض فيبرأ بإذن الله ، فادع الله أن يرد على عافيتى إن كنت عزيرا حقا . .

واتجه عزير إلى الله بالدعاء أن يعفو عن هذه المرأة ويشفيها ويرد عليها صحتها .

وما أن انتهى عزير من دعائه ، حتى وجدت العجوز نفسها مبصرة ودبت العافية فى بدنها ، فاستوت قائمة على قدميها ، وذهبت التجاعيد من وجهها ، وارتدت شابة كما كانت يوم فارقها عزير .

وتأملته جيدا وقالت : أجل أنت سيدى عزير حقا . .

وأسرعت المرأة إلى نادى قومها تبشر بقدوم عزير ، قائلة : لقد جاء سيدى عزير ، لقد جاء سيدى عزير فقال لها الناس ولم يروها قبل ذلك :

من أنت ؟ قالت أنا جاريتكم فلانة ، وقد دعا عزير لى ربه فأعادنى شابة صحيحة مبصرة كما ترون . . وكان الخبر غريبا عليهم ، أين عزير الذى خرج من مدينتهم منذ مائة عام من ذلك افذب تزعمه هذه المرأة هل يعود الميت إلى الحياة بهذه الصورة ؟ .

حقا إن هناك بعثا وآخرة ، ولكن البعث لايخص واحدا بعينه إن البعث يشمل كل الأموات الذين ماتوا من لدن آدم حتى الآن . فما بال عزير يبعث وحده كما تزعم هذه المرأة .

ما أحمق هذه المرأة ، بل ربما تكون قد مسها شيطان فهو يهذى على لسانها بما تدعى .

ومع ذلك فلغرابة الخبر والحاحها ساروا معها حيث يوجد عزير كما تزعم .

ورأى الناس رجلا لم يجلل الشيب فوديه . . إنه فى سن الأربعين من عمره تلك السن التى غادر فيها عزير مدينته يوم خرج منها فى رحلته ذات المائة عام . .

وزاد ذلك من عجبهم . . إنه لو كان عزير حقا لكان شيخا فانيا أكلته السنون فتساقطت أشفار عينيه ، وأبيض شعره ، وانحنى ظهره ، واعتمد على عصا تساعده على الحركة .

واجتمع حوله الناس ، ومن بينهم أبناؤه وأحفاده وقد شاخوا وهرموا . .

قال ابن من أبنائه قارب المائة والعشرين عاما :

أأنت عزير حقا ؟

قال له : نعم .

قال : إن أبي عزيرا بين كتفيه شامة سوداء على هيئة هلال فدعنى انظر إليها ، لأتثبت إن كنت هو حقا .

وألقى عزير رداءه ، وأدار ظهره ، ونظر الابن فإذا بالشامة السوداء التى كان يراها فى ظهر أبيه . .

فقال فى فرحة غامرة يمازجها العجب : أجل أنت أبي عزير . .

عزير يجدد التوراة :

وأقبل عليه الناس ، وهم مازالوا فى شك . .

وقال أحدهم إن عزيرا كان يحفظ التوراة ، فاذكر لنا ماتحفظه منها .

وأقبل عزير يسمعهم التوراة من حفظه . . كان ـ كما يقول ـ الزمخشرى فى الكشاف يهذها هذًا .(٥٢)

وجاء رجل منهم معه التوراة ونشرها فإذا بعزير لم يخرم منها حرفا واحدا .

فلما رأوا ذلك منه اعتبروا أن ذلك معجزة لاينبغى أن تكون إلا لنبى . .

كيف يموت إنسان مائة عام ثم يبعث وكيف يتمكن إنسان من حفظ التوراة بهذه الصورة الفريدة التى لايطيقها بشر .

فقالوا : إن الله ما أعطاه هذه المعجزلا إلا لأنه ابنه .

وهذا قول الله تعالى « وقالت اليهود عزير ابن الله » تعالى الله عن كفرهم هذا

---

(٥٢) يهذها هذا : يسرع فى تلاوتها إسراعاً

علوا كبيرا .. وأصبح عزير آية فى الناس ..

فهو شاب فى الأربعين وأبناؤه وأحفاده شيوخ يتساقطون كبرا وهرما .

قال الأعمش فيما يذكره القرطبى .

موضع كونه آية هو أنه جاء شابا على حاله يوم مات فوجد الأبناء والحفدة شيوخا ، وذكر القرطبي قول على : إن عزيراً خرج من أهله وخلّف امرأته حاملا وله خمسون سنة فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، فرجع إلى أهله وهو ابن خمسين سنة وأصغر أولاده له مائة سنة ، فكان ابنه الأصغر أكبر منه بخمسين سنة (٥٢) .

ولكن أكثر المفسرين على أن سنه كانت يوم حدث له ماحدث أربعين سنة ..

وهو مثل حى على قدرة الله الخارقة على إحياء الموتى بعد هلاكهم ..

لقد حيى عزير بعد موته مائة سنة ، فلماذا يكذّب الناس بالبعث بعد ذلك وكأن الأعشى يعنى ذلك حين قال :

حتى يقول الناس مما رأوا ياعجبا للميت الناشر

وهو مثل أيضا على قدرته الفائقة على حفظ التوراة عن ظهر قلب ، وليس فى مقدور أحد منهم أن يفعل ذلك ..

قصة الثعلبى فى إحياء التوراة :

وذكر الثعلبى قصة إحياء عزير للتوراة قال :

روى عطية العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال :

---

(٥٢) تفسير القرطبى حـ٣ ص ٢٩٥

حين أضاع أهل الكتاب العمل بالتوراة وعملوا بغيرها ، أنساهم الله التوراة ونسخها من صدورهم .. وطال عليهم ذلك ..

وكان فيهم عزير ، فأمر علماءهم أن يبتهلوا إلى الله أن يرد عليهم مانسخ من صدورهم وابتهل معهم .

فبينما كان عزير يصلى إذ نزل نور من السماء فدخل فى جوفه فعاد إليه الذى كان قد ذهب من صدره من التوراة .

فأذّن فى قومه وقال : ياقوم قد آتانى الله التوراة .. وأخذ يعلمهم إياها .. وذكر رواية أخرى فى ذلك أيضا قال :

ظهرت العمالقة على بنى إسرائيل وأخذت التوراة منهم ، وهرب العلماء الذين بقوا ، ودفنوا التوراة فى الجبال ..

ولحق عزير بالجبال والوحوش وجعل يتعبد ولا يخالط الناس ، وأخذ يبكى ويقول يارب تركت بنى إسرائيل بغير عالم .. وظل يبكى حتى تساقطت أشفار عينيه ..

ونزل مرة يوم عيد ، فإذا بامرأة تمثلت له عند قبر تبكى وتقول : يامطعماه ، يامسقياه .

فقال لها عزير : ياهذه اتقى الله واصبرى واحتسبى ، أما علمت أن الموت سبيل الناس .

ثم قال لها : ويحك ، من كان يطعمك ويسقيك ويكسوك قبل هذا الرجل - يعنى زوجها الذى تندبه - فقالت : الله تعالى .

قال : فان الله - تعالى - حى لايموت أبدا .

فقالت له المرأة : ياعزير ، فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل .

قال : الله - تعالى .

قالت : فلم تبكى وقد علمت أن الموت حق وأن الله حى لايموت .

فلما علم عزير أنه قد خُصِم ولّى مدبرا . .

فنادته المرأة وقالت له : ياعزير ، إنى لست امرأة ولكنى الدنيا .

أما إنه سينبع لك فى مصلاك عين ، وتنبت لك شجرة ، فكل من تلك الشجرة ، واشرب من العين ، واغتسل ، وصل ركعتين ، فإنه سيأتيك شيخ ويعطيك شيئا ، فخذ منه مايعطيك .

فلما أصبح نبعت العين ونبتت الشجرة ، فأكل وشرب واغتسل وصلى .

فجاءه شيخ ، وقال له : افتح فاك ، ففتح فاه وألقى فيه شيئا كهيئة القوارير ثلاث مرات . ثم قال له : ادخل هذه العين فامش فيها حتى تبلغ أملك .

فدخل العين وجعل لايرفع قدمه إلا زيد فى علمه ، حتى أصبح أعلم الناس بالتوراة .

وخرج إلى قومه ، وقال : ياقوم قد جئتكم بالتوراة .

فقالوا : ماعهدناك كذابا .

فربط على أصابعه أقلاما وظل يكتب حتى كتب التوراة كلها . فأحيا لهم التوراة والسنة .

فلما رجع العلماء إلى كتبهم التى دفنوها وقابلوها بتوراة عزير وجدوها مثلها . فقالوا : ما اعطى الله عزيراً ذلك إلا لأنه ابنه .

وقد أخذ على هذه القصة أن التى خاطبت عزيرا هى الدنيا ، والدنيا عادة لاتتكلم بلسان النصح .

ولو تمثلت لتمثلت فى ثوب فاتك طاغ ..
فلو أن الذى تمثل له كان ملكا لكان أبلغ فى الوعظ ..

وقد تمثل أحد الشعراء الدنيا تخاطب الناس فقال :

هى الدنيا تقول بملء فيها   حذار حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرركم منى ابتسام   فقولى مضحك والفعل مبكى

فيم اتفق العلماء وفيم اختلفوا :

لم يختلف العلماء فى شأن الذى أحيا التوراة .. فقد اتفقوا جميعا على أنه عزير ..

ولكنهم اختلفوا فى شأن الذى مر على القرية كما ذكرنا ..
وقد ذكرنا قصة عزير فى ذلك لأن كثيرا من الرواة قالوا إنه عزير .

أما ماورد بشأن أرمياء ، وأنه تحسر على حال مدينة بيت المقدس ، وعجب من كيفية إحيائها وعودتها إلى ماكانت عليه فهذه رواية بعض العلماء ، وقد ذكروا أن الله أماته مائة عام ، وسخر قبل إحيائه بثلاثين عاما لبيت المقدس من يجدد بناءه فجدده فى ثلاثين عاما ، وبُعِث أرمياء من رقدته فوجد المدينة قد عادت إلى ماكانت عليه .

هذا ولايبعد أن يكون أرمياء هو الذى أماته الله ثم بعثه فقد كان متعلقا بالمدينة المقدسة ، حريصا عليها فلما حدث ماحدث فيها حزن عليها حزنا شديدا حتى قيل : إنه خالط الوحوش وهام على وجهه ..

فلا يبعد أن يكون فى احدى جولاته رآها وعاينها وتحسر عليها وتعجب كيف تعود إلى حالتها الأولى كما أُخْبِر بذلك فى رؤيا له ..

أما الذى أحيا التوراة فهو عزير .

وبذلك تكون آية البقرة نزلت فى شأن أرمياء وتكون آية التوراة نزلت فى شأن عزير ، وهى صريحة فى ذلك ..

هل عزير نبى :

لقد اختلف العلماء أيضا فى نبوة عزير ..

فقال بعضهم إنه نبى ، وقال بعضهم : إنه عالم من علماء بنى إسرائيل ، وقال بعضهم : إنه نبى حجبت عنه النبوة لأنه تكلم فى القدر ..

نقل ذلك ابن كثير فى كتابه « قصص الأنبياء » عن بعض الرواة . قال :

كان عزير قد سباه بختنصر وهو غلام حدث ، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة ، قال : ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه ، قال : وكان يذكر مع الأنبياء حتى محا الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر ولكن ابن كثير ينكر ذلك ، ويصف هذا الخبر بالضعف .

أما الخبر الوارد فى ذلك فهومروى عن نوف البكالى . وهو : قال عزير فيما يناجى به ربه : يارب تخلق خلقا فتضل من تشاء وتهدى من تشاء فقيل له : أعرض عن هذا . فعاد وكرر هذا القول . . فقيل له : لتعرضن عن هذا أو ليمحون اسمك من الأنبياء ، إنى لاأسأل عما أفعل وهم يسألون . .

وهذا الخبر لايفيد محو اسمه ولكنه توعد بالمحو فقط .

والمشهور أن عزيرا نبى من أنبياء بنى اسرائيل . .

العبرة من القصة :

ما من قصة وردت فى القرآن الكريم إلا وفيها آيات وعبر كما قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾(٥٤) .

و فى هذه القصة دلائل ومواعظ عظيمة : أهمها :

- التذكير بقدرة الله تعالى ، وأن الله لايعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .
- الإيمان بقضية البعث والنشور ، وأن الله يبعث من فى القبور . والإيمان بذلك

---

(٥٤) سورة يوسف آية ١١١

يقتضى الاستعداد له ، بالإيمان والعمل الصالح وطاعة الله تعالى .

- تنزيه الله عن الشريك والولد ، والاعتقاد الجازم بأن الله واحد لاشريك له فى ملكه ولاصاحبة له ، ولا ولد يرثه ، وهذه سورة الاخلاص تشهد بذلك :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ .

- الكفر كله ملة واحدة ، يتساوى فى ذلك من عبدوا الأوثان ، ومن جعلوا لله ولدا - تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا .

- الكفر مهزوم لامحالة ، والباطل لايقوى على الصمود أمام الحق مهما كانت له من سلطة . .

- الدعوة إلى التأمل والتفكر فى خلق السموات والأرض ، وأن ذلك مما يكون سببا فى الاهتداء إلى الله وعبادته حق العبادة . .

ولعل من أفضل مايذكر فى ذلك ما أنشده أبوحاتم السجستانى ، وذكره ابن كثير فى قصصه ، يتحدث عما يثير التعجب من شأن عزير فى صغر سنه وشأن أبنائه من حوله فى كبر سنهم ، قال :

اسود رأس شاب من قبله ابنه ... ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى ابنه شيخا يدب على العصا ... ولحيته سوداء والرأس أشقر
وما لابنه حول ولافضل قوة ... يقوم كما يمشى الصبى فيعثر
يعد ابنه فى الناس تسعين حجة ... وعشرين لايجرى ولايتبختر
وعمر أبيه أربعون أمرها ... ولابن ابنه تسعون فى الناس غُبَّر
فما هو فى المعقول إن كنت داريا ... وان كنت لاتدرى فبالجهل تعذر

والله أعلم

فهرس المجلد الرابع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	١٢	يثوب	يتوب
٢٨	١٥	اعملوٰءَ	اعملوْا
٢٨	١٦	ال داود	ءَاَل داود
١٢٠	١١	فَجَا	فَجَاسُواْ
١٢٠	١٢	سواْ	
١٢٣	١٥	فَجَا	فَجَاسُواْ
١٢٣	١٦	سواْ	
١٣٢	١٢	فقالته	فقاتله
١٣٤	٨	أنصنع	أصنع
١٥٧	١٩	عبد	بعيد
١٦٥	٨	نكاج	نكاح
١٦٦	٢	يجب	يحب
٢١١	الأول	بالشعودة	بالشعوذة
٢٣١	١٠	جِبَا	جِبَالهُم
٢٣١	١١	لهُم	
٢٣٩	١٣	وجاءَه	وجآءُو
٢٣٩	١٤	و	

سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الخامس

المجلد الخامس

دكتور

حمزة النشرتي

عبد الحفيظ فرغلي   د. عبد الحميد مصطفى

بسم الله الرحمن الرحيم

لقمان الحكيم

عليه السلام

- اسمه ونسبه.
- لقمان في القرآن.
- سيرته.
- نماذج من حكمته.

لم يقصر الله ـ جلت حكمته ـ الحكمة أو النبوة أو الملك على جنس دون جنس ، أو شعب دون شعب ، أو قطر دون قطر ، كما يزعم بنو اسرائيل ، فقد ادعوا أن الله ميزهم على غيرهم من الشعوب والأجناس بالنبوة والكتاب وخصهم دون غيرهم بالحكمة والعقل ، وأنهم شعب الله المختار من بين الناس .

ولكن الله قد نقض دعواهم قبلهم وبعدهم . . فمن قبل اسرائيل كان نوح وهود وصالح وإبراهيم ـ عليهم السلام ـ

ومن ذرية اسماعيل كان النبى العربى الذى اصطفاه الله من بين خلقه وجعله خاتم رسله وأنبيائه ، وأرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وجعل البشارة به على لسان كل رسول قبله ، وأخذ الميثاق على من تقدمه من الأنبياء أن يؤمنوا به ويوصوا أممهم بالإيمان به عند بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولم يقصر الله النبوة على قوم بأعيانهم أو على جنس بذاته أو على منطقة معينة . . فقد كان إدريس نبياً مصرياً كما سبق أن أشرنا الى ذلك فى قصته ـ عليه السلام ـ

وجعل مصر مهداً لرسالة بعض الأنبياء . فقد بعث فيها يوسف ـ عليه السلام ـ كما بعث فيها موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ
واختار لقمان حكيماً ـ وقيل نبياً ـ وكان عبداً نوبياً أو حبشياً أو من سودان مصر فى بعض الأقوال . .

وأمر بنى اسرائيل أنفسهم بأن يتلقوا الحكمة على يديه ، بل ان نبيهم داود ـ عليه السلام ـ كان يتتلمذ عليه ويجلس إليه .

إن اختيار لقمان للحكمة يلجم كل من يدعى اقتصار النبوة والحكمة على جنس بعينه .

ويعطى المثل بأن الله ـ جلت حكمته ـ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . .

اسمه ونسبه :

ذكر العلماء أقوالاً عدة فى نسب لقمان . .

فقيل هو : لقمان بن باعوراء، ابن اخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته .[١]

وقيل : كان من أولاد آزر عاش ألف سنة وأدركه داود ـ عليه السلام ـ وأخذ عنه العلم ، وكان يفتى قبل مبعث داود فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له فى ذلك . فقال : « ألا أكتفى إذا كفيت ؟ »[٢]

وقال ابن كثير : «هو لقمان بن عنقاء بن سدود ، ويقال : لقمان بن ثاران . . حكاه السهيلى عن ابن جرير والقتيبى[٣]

وذكر المسعودى أنه لقمان بن عنقاء بن مريد بن صارون

وكان نوبياً مولى للقين بن جسر وكان عبداً صالحاً ، فمّن الله عليه بالحكمة ولم يزل باقياً فى الأرض مظهراً للحكمة فى هذا العالم إلى أيام يونس بن متى ـ عليه السلام ـ حين أرسل إلى أرض نينوى من بلاد الموصل[٤]

وذكر كتاب المنتخب من التفسير :

أن العرب عرفوا بهذا الاسم « لقمان » شخصين ـ أحدهما لقمان بن عاد ، وكانوا يعظمون قدره فى النباهة والرياسة والعلم والفصاحة والدهاء ، وكثيراً ما ذكروه وضربوا به الأمثال . .

---

(١) تفسير الكشاف حـ٣ ص ٤٩٢

(٢) القرطبى ، تفسير لقمان ص ٥١٤١

(٣) البداية والنهاية لإبن كثير حـ٢ ص ١٢٣

(٤) مروج الذهب للمسعودى حـ١ ص ٤١

أما الآخر فهو لقمان الحكيم الذى اشتهر بحكمه وأمثاله وسميت سورة فى القرآن الكريم باسمه . .

لقمان فى القرآن الكريم :

ذكر اسم لقمان مرتين فى القرآن الكريم فى آيتين متتاليتين هما :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٥)

وقد سميت السورة باسمه . وفى هذا دلالة على الاهتمام بهذا الاسم وتنبيه على ما له من معان وعبر وعظات .

ولا يخفى على ذى فطنة ما تدل عليه وصايا لقمان لابنه من إرشادات طيبة تؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة . .

حكمة لقمان :

أما حكمة لقمان فلا شك فيها لأن القرآن الكريم قطع بها . . ولكن الاختلاف حول نبوته ـ وأكثر الأقوال على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ

لم يكن لقمان نبياً ولا ملكاً ، ولكنه كان راعياً أسود فَمَنَّ الله عليه بالعتق ، ورضى قوله فقص أمره فى القرآن لتتمسكوا بوصيته . .

والذى أورد نبوته عكرمة والشعبى ، فهما اللذان قالا إنه نبى
وقيل : إنه خيرٌ بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة .

---

(٥) لقمان ١٢ ، ١٣

وروى القرطبى فى تفسيره خبراً فى ذلك قال :

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « لم يكن لقمان نبياً ولكن عبداً كثير التفكر ، حسن اليقين ، أحب الله ـ تعالى ـ فأحبه ، فمنّ عليه بالحكمة ، وخيره فى أن يجعله خليفة يحكم بالحق ، فقال : يارب إن خيرتنى قبلت العافية وتركت البلاء ، وإن عزمت علىّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمنى »(٦)

وزاد الثعلبى : فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟

قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه المظلوم من كل مكان يطلب أن يعينه فبالحرى (٧) أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن فى الدنيا ذليلاً فذلك خير من أن يكون فيها شريفاً ، ومن يختر الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة .

فعجبت الملائكة من حسن منطقه .

فنام نومة فأعطى الحكمة فأصبح يتكلم بها .

ثم نودى داود بعدها بالخلافة فقبلها ، ولم يشترط ما اشترطه لقمان فوقع فى بعض الأخطاء وكل ذلك يعفو الله عنه .

وكان لقمان يؤازره بحكمته .

فقال له داود : طوبى لك يا لقمان ، أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء ، واعطى داود الخلافة ، وابتلى بالبلاء والفتنة .

وقال قتادة : خير الله ـ تعالى ـ لقمان بين النبوة والحكمة ، فاختار الحكمة على النبوة ، فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة ، فأصبح وهو ينطق بها ، فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟

---

(٦) تفسير القرطبى ، سورة لقمان ص ٥١٤١

(٧) بالحرىّ أى فجدير أن ينجو

فقال : إنه لو أرسل إلىَّ بالنبوة عزمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلىَّ .(٨)

جاء فى كتاب المنتخب من التفسير :

« والآراء مضطربة فى حقيقة لقمان الحكيم • فهو نوبى من أهل أُيلة أو حبشى أو أسود من سودان مصر ، أو عبرى ، وجمهور الذين ذكروه مجمعون على أنه لم يكن نبياً ، وقليل منهم ذهبوا إلى أنه نبى ، والذى نستطيع استنباطه مما ذكروه أنه لم يكن عربياً لأنهم متفقون على هذا ، وأنه كان رجلاً حكيماً ولم يكن نبياً ، وأنه أدخل على العرب حكمة جديدة تداولوها فيما بعد كما تبين من كثير من المراجع »(٩)

صفة لقمان ومهنته :

وتناول العلماء أوصاف لقمان الحكيم فقالوا : كان عبداً أسود غليظ الشفتين متشقق القدمين وفى رواية : مصفح القدمين .

وعن ابن المسيب : كان أسود من سودان مصر ، وكان خياطاً

وقيل : كان نجاراً ، وقيل : كان راعياً ، وكان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة .

وقال ابن إياس : كان عبداً لرجل من بنى اسرائيل من مدينة أيلة اشتراه بثلاثين ديناراً ، فأقام عنده مدة ثم أعتقه .

وقال : كان مقيماً بمدينة الرملة ـ قريباً من بيت المقدس ـ وكان بنو اسرائيل يأتون إليه ليسمعوا منه الحكمة ، وكان داود يأتى إليه يسمع منه الحكمة ، ومازال بمدينة الرملة حتى مات (١٠)

---

(٨) تفسير القرطبى
(٩) المنتخب من التفسير ـ سورة لقمان ص ٦١٣
(١٠) بدائع الزهور ص ١٥٨

وقف رجل فى مجلسه فقال له : ألست الذى كنت معى فى مكان كذا ؟

قال : بلى

قال : ما بلغ بك ما أرى ؟

قال : صِدْق الحديث والصمت عما لا يعنينى . .

وفى رواية ذكرها ابن كثير : قال : قدر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك ما لا يعنينى .

وذكر قصة فى ذلك بأسلوب آخر قال :

وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان عبد بنى فلان ؟

قال : نعم

قال : فأنت راعى الغنم الأسود ؟

قال : أما سوادى فظاهر فما الذى يعجبك من أمرى ؟

قال : وطء الناس بساطك وغشيانهم بابك ورضاهم بقولك .

قال لقمان : يابن أخى إن صنعت ما صنعته كنت كذلك .

قال : ما هو ؟

قال : غضى بصرى ، وكفى لسانى ، وعفة مطعمى ، وحفظى فرجى ، وقيامى بعدتى ، ووفائى بعهدى ، وإكرامى لضيفى ، وحفظى جارى ، وتركى ما لا يعنينى ، فذاك الذى صيرنى كما ترى [١١]

وقال قتادة : عن عبد الله بن الزبير قال : قلت لجابر بن عبد الله : ما الذى انتهى إليكم فى شأن لقمان ؟

قال : كان قصيراً أسود حكيماً من النوبة . .

وقد تحدث لقمان عن أخلاقه فى العبارات التى سبق أن ذكرناها . . وأثنى عليه العلماء بما وصلت إليهم من أخبار عنه .

---

(١١) البداية والنهاية جـ ٢ ص ١٢٤

فقد روى العلماء أن أبا الدرداء ذكر يوماً لقمان فقال عنه : ما أوتى عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ولكنه كان رجلاً ضمضامة (١٢) سكيتاً ، طويل التفكر ، عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبصق ولا يتبول ولا يتغوط ولا يغتسل ، ولا يعبث ،ولا يضحك ، ولا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتى الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتى ما أوتى (١٣)

أما انه لم يره أحد يبصق ولا يتغوط فليس المراد أنه معصوم من هذه الأشياء ولكن المقصود أن الله أعطاه قدرة خاصة على ضبط نفسه عن الحاجة إليها فى مجلس العلم حتى يكون متفرغاً للحكمة ، وله فى غير مجلس العلم أن يقضى حاجته كما يريد .

فشل من حاول تقليد لقمان فى ذلك :

وقد حاول بعض الناس أن يحذو حذو لقمان فى ذلك فلم يستطع ،ذلك أن الله قد خص لقمان بهذه المزية فجرى طبعه على ذلك دون تكلف منه ، أما غيره فقد حاول ذلك تكلفاً ليشتهر به ويبدو فى نظر الناس على طبع غير طبعهم .

حدث الرواة قالوا :

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً قط ، ولا وقوراً ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك ، وكان يصلى الغداة فى منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه فيحتبى ولا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يحرك رجلاً عن

---

(١٢) ضمضامة : يضم ما يجمعه من علم ولا يفرط فيه ـ والسكيت : قليل الكلام

(١٣) البداية والنهاية حـ٢ ص ١٢٤ . والصفات التى ذكرت من عدم البول والتغوط والاغتسال أى أنه كان لا يفعلها إلا فى أثناء الليل حتى يكون مجلسه خالصاً للناس لا تقطعه حاجة من هذه الحاجات . .

رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة العصر ، ثم يرجع إلى مجلسه كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه بل كثيراً ما يكون ذلك إذا بقى عليه من قراءة العهد والشروط والوثائق ، ثم يصلى العشاء وينصرف - لم يقم فى طول تلك الولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، وكذلك كان شأنه فى طوال الأيام وقصارها وصيفها وشتائها .

وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة .

فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حوله إذ سقط على أنفه ذباب ، فأطال الوقوف والمكث ، ثم تحول إلى موق عينه وأطال الوقوف أيضاً .

فرام الصبر على ذلك كما رام الصبر على سقوطه إلى أنفه ، حتى أوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل عنه ، وحاول الصبر حتى لا يخرج عن عادته فى الاحتمال ، فلما لم يستطع حاول ذبه عن وجهه بطرف كمه فكان يطير بمقدار ما يعيد طرف كمه ثم يعود ، حتى ألجاه أن تابع بين ذلك .

وعلم أن ذلك كان بعين من حضر من جلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله تعالى أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً وقد علمت أنى كنت عند الناس من أرصن الناس ، وقد غلبنى وفضحنى أضعف خلق الله ثم تلا قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾(١٤)

---

(١٤) آية ٧٣ سورة الحج - وانظر القصة فى أمالى السيد المرتضى جـ ٤ ص ٢٢ والقصة نقلها المرتضى عن الجاحظ

فانظر كيف تكلف هذا القاضي وقار لقمان ليشتهر بذلك ، فلم يستطع وهزمه الذباب .

حكمته :

وقد قص القرآن الكريم علينا طرفاً من حكمة لقمان ، تمثلت في وصاياه لإبنه :

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ
وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن
جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا
فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن
فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ
(١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا
أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي
الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾

- سورة لقمان من ١٣ - ١٩

وفيها ذكره القرآن الكريم جماع كل شيء يحتاج إليه المسلم فى حياته من عقيدة خالصة ، وآداب سلوك ومحاسن أخلاق .

فالعقيدة الخالصة تبدو فى وصيته لإبنه بعدم الشرك بالله ، وعلل ذلك بأن الشرك ظلم عظيم ،وكان الشرك ظلماً لأن المشرك تعدى الحدود ، فخلع على المخلوق الذى يعبده أو يعظمه أو يخشاه صفة الخالق جل وعلا .

وآداب السلوك والأخلاق تظهر فى وصية القرآن الكريم للإنسان بحسن معاملة والديه والبر بهما وطاعتهما إلا إذا أمراه بشرك أو كفر فيجب عصيانهما فى هذه الحالة ولا يمنع ذلك من حسن معاملتهما . . وقد اعترض بتلك الوصية بين وصايا لقمان لابنه للتأكيد عليها لما فيها من نهى عن الشرك بالله . . كما يظهر فى وصية لقمان وجوب مراقبة الله الذى لا تخفى عليه خافية ويحاسب على كل شيء صغر أو كبر .

ووجوب اتباع آثار الصالحين ووصاياهم . .

والمحافظة على الصلاة وإقامتها فى أوقاتها وهى أساس الدين وعصمة للإنسان من السقوط فى الرذيلة . . ويظهر فيها أيضاً وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر ، والتواضع وخفض الصوت ، ولا شك فى أن هذه الوصايا تفيد الإنسان فى حياته العاجلة كما أنها توصله إلى النجاة فى حياته الآجلة .

نماذج من حكمه الأخرى :

ذاعت حكم لقمان فى الآفاق واعتنى الناس بجمعها منذ القدم ، وعرفها العرب قبل الاسلام .

حدث ابن هشام فى سيرته قال :

قدم سويد بن صامت أخو بنى عمرو بن عوف مكة حاجاً أو معتمراً ، وكان يسميه قومه الكامل لحسنه وشرفه ونسبه ـ فتصدى له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام .

فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وما الذى معك ؟

قال سويد : حكمة لقمان

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اعرضها علىَّ ـ فعرضها عليه . . فقال له : إن هذا لكلام حسن والذى معى أفضل من هذا ، إنه قرآن أنزله الله ـ تعالى ـ علىَّ هو هدى ونور .

فتلا عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه . .

وقال : إن هذا لقول حسن ، ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه .

فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه قد قتل مسلماً ، وكان قتله يوم بعاث (١٥)

وقد ذكر ابن الأثير فى أسد الغابة هذا الخبر بعينه (١٦)

وهذا الخبر يعنى أن حِكَم لقمان كانت مجموعة فى صحف عند العرب ، وأن منهم من كان يعنى بها ويقرؤها ويتداولها . .

وذكر الإمام مالك فى الموطأ كثيراً من حكم لقمان ، وتناولت كتب التفسير والأخبار والآثار طرائف من هذه الحكم . .

---

(١٥) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٣٥

(١٦) أسد الغابة لابن الأثير حـ ٢ ص ٤٩٧

قال ابن قتيبة فى كتابه « المعارف » قال وهب : قرأت فى حكمة لقمان نحو عشرة آلاف باب ، ولم يسمع الناس كلاماً من بشر أحسن منه ، واستعانوا به فى خطبهم ورسائلهم ، ووصلوا به بلاغاتهم (١٧)

ومن ذلك قوله لابنه واسمه « ثاران » :

يابنى كن على حذر من اللئيم إذا أكرمته ، ومن الكريم إذا أهنته ، ومن العاقل إذا هجوته ، ومن الأحمق إذا مازحته ، ومن الجاهل إذا صاحبته ، ومن الفاجر إذا خاصمته ، وتمام المعروف تعجيله . .

يابنى ثلاثة أشياء تحسن بالإنسان : حسن المحضر ، واحتمال الإخوان ، وقلة الملل للصديق ، وأول الغضب جنون وآخره ندم .

يابنى ثلاثة فيهم الرشد : مشاورة الناصح ، ومداراة العدو الحاسد ، والتحبب لكل أحد .

يابنى المغرور من وثق بثلاثة أشياء : الذى يصدق ما لايراه ، ويركن إلى من لا يثق به ، ويطمع فيما لا يناله . .

يابنى احذر الحاسد فإنه يفسد الدين ويضعف النفس ويعقب الندم . .

وهذه وصايا تتعلق بحسن المعاشرة بين الناس ، وكيفية معاملتهم أصدقاء كانوا أو أعداء . .

أما الحاكم فيضع لقمان لإبنه قواعد تضبط العلاقة به والسياسة معه قال له :

يابنى : إذا خدمت والياً ، فلا تنم إليه بأحد فإنه لا يزيده ذلك منك إلا نفوراً ، اذا سمع منك فى غيرك فإنه لابد أن يسمع من غيرك فيك ، ويكون قلبه خائفاً منك أن تنم عليه كما نممت إليه بغيره ،ولا يزال محترساً منك .

---

(١٧) المعارف لإبن قتيبة ص ١٩

وكن يابنى أقرب الناس إليه عند فرحه ، وأبعدهم منه عند غضبه وان ائتمنك فلا تخنه ، وإن أنالك يسيراً فخذه واقبله فتبلغ به أن تنال كثيراً ، وأكرم خدمه ، والطف بأصحابه ، وغض طرفك عن محارمه ، واقصر لسانك عن حديثه ، واكتم فى المجالس سره ، وانصح فى خدمته ، واجمع عقلك فى مخاطبته ، ولا تأمن الدهر من غضبه ، فإنه ليس بينك وبينه نسب ، والغضب يسرع إليه فى كل وقت ، ووثبته كوثبة الأسد . .

وحذر ابنه من النساء وكيدهن ومسايرتهن فقال له •

يابنى ، إن أردت أن تقوى على الحكمة فلا تملِّك نفسك للنساء ، فإن المرأة إذا ملكت سيطرت وتحكمت وقست ، وهى إن أحبتك أكلتك ، وإن أبغضتك أهلكتك .

وفى الدعوة إلى العلم قال ـ فيما يرويه ـ الأبشيهى فى المستطرف :

جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض بماء السماء(١٨)

ويغلب على حِكَم لقمان طابع التعليل ، فهو ينطق بالحكمة ويعلل لها ، حتى تكون أوقع فى النفس وأعلق بالقلب وأقرب للعقل . .

ويبدو أنه اتخذ ابنه رمزاً للناس أجمعين . . فأغلب حكمه ووصاياه مصدرة بكلمة . . يابنى . . وهذه الحكمة التى يسوقها صالحة لهم جميعاً ، ومن سار عليها غنم غنماً كبيراً وصلح أمره فى الدنيا والآخرة . .

وأينما وجهت نفسك فى مناحى الحياة المختلفة وجدت للقمان قولاً نافذاً فيها . . ونصيحة نافعة لها . . فعن الجار السيء يقول :

---

(١٨) المستطرف من كل فن مستظرف حـ١ ص ٢١

يابني ، حملت الجندل والحديد وكل حمل ثقيل ، فلم أجد شيئاً أثقل من الجار السوء ،وذقت المرار كله فلم أذق شيئاً أمر من الفقر .

وعن إرسال الرسول واختياره لقضاء الحاجة يقول :
يابني ، لا ترسل رسولاً جاهلاً ، فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك . .
وعن المجاملات الاجتماعية بين الناس يقول :

يابني ، احضر الجنائز ولا تحضر العرس ، فإن الجنائز تذكر بالآخرة ، والعرس يشهيك الدنيا . .

وعن الأكل والشرب يقول :
يابني ، لا تأكل على شبع ، فإنك إن تلقه إلى الكلب خير لك من أن تأكله .
وعن علاقة الإنسان بأصحابه يقول :

يابني ، اعلم أنه لا يطأ بساطك إلا راغب فيك أو راهب منك ، فأما الراهب منك الخائف فأدن مجلسه ، وتهلل في وجهه ، وإياك والغمز من ورائه .
وأما الراغب فيك ، فأظهر له البشاشة مع صفاء الباطن له ، وابدأه بالنوال قبل السؤال ، فإنك إن تلجئه إلى السؤال منك تأخذ من حر وجهه ضعف ما تعطيه [١٩]

وهذه كلها حكم قولية . . التجارب تصدقها ، والوقائع توثقها . .
وله أيضا حكم عملية منها . .

ذكر أن سيده طلب منه أن يذبح له شاة ويأتيه بأطيب مضغتين منها ، فأتاه

---

(١٩) حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ ص ٧٤ ، ص ٢١٠

باللسان والقلب ، فقال له : أما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟
قال لا

فسكت عنه ما سكت ، ثم قال له : اذبح لى شاة وارم أخبثها مضغتين ، فرمى باللسان والقلب .

فقال له : أمرتك أن تأتيني بأطيبها ، فجئت باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقى بأخبثها ، فألقيت باللسان والقلب ؟
فقال لقمان : إنه ليس شيء أطيب منهما اذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا (٢٠)

ويقال إن سيده دخل الخلاء يوماً فأطال الجلوس ، فناداه : لا تطل الجلوس فى الخلاء ، فإنه ينخع الكبد ويورث البواسير ويميت القلب .

وحين ألان الله الحديد لداود أخذ يعمل درعاً ، فأراد لقمان أن يسأله عما يعمل فغلبته الحكمة فسكت ، فلم ينطق حتى أنهى داود عمله ، وفرغ من الدرع ، ولبسها ، وقال : نعم لباس الحرب أنت . .

فقال لقمان : الصمت حِكَم وقليل فاعله . . فقال داود : بحق ما سميت حكيماً (٢١)

ثناء الله على لقمان :

ليس هناك أجل من ثناء الله على لقمان حين قال عنه « **ولقد آتينا لقمان الحكمة** » والحكمة أجل تاج على رءوس الحكماء . .
وحكمة لقمان هبة من الله وفضـل منه . . لا يَعْدِلُهَا ما يكتسبه المجربون فى

---

(٢٠) البداية والنهاية حـ ٢ ص ١٢٦
(٢١) تفسير القرطبى ص ٥١٤٣

حياتهم من خبرة يضمنونها أقوالاً صائبة وأمثالاً سائرة . . كتلك الحكم المأثورة عن العرب وغيرهم ، حقاً إنه يطلق عليها لفظ الحكمة . ولكنها لا تصل إلى ذلك النور الذى قذفه الله فى قلب لقمان فأصبحت الحكمة جماع حياته وملاك أمره .

إن حِكَم لقمان كلها صائبة لا تحتمل الخطأ اطلاقاً . .
أما حِكَم الحكماء الآخرين فهى وإن كانت صائبة فى أغلبها فإنها تحتمل الخطأ فى بعضها ، لأنها تكون متعلقة بأحوالهم الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم وهذه ليست خالية من الخطأ . . وكان العرب يعتبرون زهير بن أبى سلمى حكيم الشعراء . . ولكن قوله المشهور : « ومن لا يَظلم الناس يُظلم » بعيد عن صائب القول والحكمة . .

لقد صَدَّقَت حكم لقمان ما رواه الرواة من أحاديث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنبى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . . فقد جاء الكثير من معانى حكم لقمان فى أحاديث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك شهادة للقمان ، بأن ما أوتيه كان منحة عليا من السماء وفضلاً ونوراً من الله .

لقمان العرب

وما دمنا قد تحدثنا عن لقمان الحكيم ، فلابد من إشارة إلى لقمان بن عاد الذى أشادت الكتب العربية بحكمته . .

كان لقمان بن عاد من قوم هود ـ عليه السلام ـ وأوفده قومه مع الوفد الذى ذهب الى الحرم لطلب السقيا حين حبست السماء عنهم المطر ، ونزلوا هناك على

معاوية بن بكر فأكرمهم ، وغنت لهم جاريتاه « الجرادتان » فنسوا ماجاءوا من أجله حتى ذكرتهم إحداهما بما جاءوا من أجله بقصيدة غنتها لهم ، فذهبوا إلى الحرم واستسقوا ودعوا .. وأخذ كل واحد منهم يدعو بما شاء ..

وكان لقمان سيدهم حتى إذا فرغوا من دعائهم قال : اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى فأعطنى سؤالى ، أعطنى عُمْراً ، فنودى : اختر لنفسك إلا أنه لا سبيل

إلى الخلد .. بقاء أبعار ضأن عُفْر فى جبل وعر لا يلقى به إلا القطر ، أو عمر سبعة أنسر كلما مضى نسر خلوت إلى نسر ؟

فاختار لقمان لنفسه عمر النسور فعمرٌ عمر سبعة نسور ، كان يأخذ الفرخ منها فيربيه حين يخرج من بيضته ، حتى إذا مات أخذ غيره ، فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع ، وكان كل نسر ـ فيما زعموا ـ يعيش ثمانين سنة ، فلما لم يبق غير السابع ، قال ابن أخ له : أى عم ما بقى من عمرك إلا عمر هذا النسر ، فقال له : هذا لُبَد ـ ولُبَد بلسانهم هو الدهر ـ وهو يعنى بذلك أن هذا النسر الذى سماه لبد سيعمر طويلاً ..

ولكن لبد لم يلبث أن مات ، ومات معه لقمان [٢٢] وفى ذلك يقول الشاعر :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وكان للقمان هذا ـ وقد عمر طويلاً ـ آثار من الحكمة التى حصلها من تجاربه الكثيرة وحياته الطويلة ، وذكر له الرواة أمثالاً من بينها :

« ويل للشجى من الخلى »

---

(٢٢) الفاخر للمفضل بن سلمة ص ٢٥٠

وقصة ذلك أن امرأة فى زمن لقمان بن عاد كان لها زوج يقال له : الشجى ، وخليل يقال له : الخلى . . ونزل لقمان بهذا المكان فرأى هذه المرأة ذات يوم وقد انتبذت من بيوت الحى ، فارتاب لقمان بأمرها ، فرأى رجلاً عرض لها ومضيا معاً . ثم إن المرأة قالت للرجل : إنى أتماوت ـ أى أدعى الموت ـ فإذا أسندونى فى قبرى فأتنى ليلاً فأخرجنى ، ثم نذهب إلى مكان لا يعرفنا أهله ، فلما سمع لقمان ذلك قال : ويل للشجى من الخلى . فأرسلها مثلاً (٢٣)

وذكر أبو على القالى فى الأمالى ، والجاحظ فى البيان والتبيين أمثالاً أخرى منسوبة إلى لقمان . .

عبر وعظات فى قصة لقمان الحكيم :

ـ حكم لقمان كلها نصائح غالية وعظات بالغة ، يكفى أن أشاد بها القرآن الكريم وذكر بها المسلمين ليتعظوا بها .

ـ وقصة لقمان تذكرنا بأن الإنسان ليس بمظهره بل بمخبره ، فرب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره . .

ـ ولقمان لم يكن ذا منظر جميل وهيئة حسنة ولكنه كان عبداً أسود ، ومع ذلك فقد أفاض الله عليه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً . .

ـ طريق الحكمة الصحيح كما عرفنا من قصة لقمان خشية الله وتقواه ، وحسن العلاقة به ، والاخلاص فى عبادته فى السر والعلانية .

وقصة لقمان تحثنا مع ذلك على محاسن الاخلاق وجميل الصفات وما أوتى إنسان خيراً من أن يؤتى حسن الخلق ففيه سعادة الدنيا والآخرة وصلاح العاجلة والآجلة .

والله أعلم

(٢٣) انظر مجمع الأمثال للميدانى حـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ وقيل : إن قائل هذا المثل هو أكثم بن صيفى . .

بسم الله الرحمن الرحيم

زكريا ويحيى

عليهما السلام

- نسب زكريا.
- زكريا في القرآن.
- قصة زكريا.
- تبشيره بيحيى.
- صفات يحيى كما جاء في القرآن.
- نشأة يحيى.
- استجابة يحيى لأمر ربه.
- خلاصة دعوة يحيى.
- قصة استشهاد يحيى.
- استشهاد زكريا.
- زكريا العهد القديم.
- فضائل زكريا ويحيى.
- عظات وعبر.

عاد بنو اسرائيل إلى بيت المقدس ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ وأقاموا فى ظله ، وأرسل الله إليهم أنبياء يذكرونهم بأيام الله ، ويعظونهم فى أنفسهم ، ويحذرونهم الخروج على تعاليم السماء . . ولكنهم كانوا يقبلون تارة ويصدون تارات . .

ومن الأنبياء الذين بعثهم الله إلى بنى إسرائيل زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ وكانت حياتهما واستشهادهما عبرة لمن يعتبر . .

نسب زكريا

هو زكريا بن يوحنا بن آذن بن مسلم بن صدوق يحسان ينتهى نسبه إلى سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ .

بينه وبين سليمان بن داود أربعة عشر أبا . . هذا ما ذكره الثعلبى (٢٤) وقال الزمخشرى فى الكشاف إنه زكريا بن آذن (٢٥) ، وكذلك قال ابن قتيبة (٢٦)

وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية سلسلة نسب زكريا على أنه ابن برخيا ، وقيل ابن دان ، وقيل ابن لدن .

ويبدو أن « يوحنا » تصحيف « برخيا » و« دانْ » و « لدن » تصحيف « آذن » كما أن « يحسان » الذى أورده الثعلبى ذكره ابن كثير « حشبان » فأحدهما تصحيف للآخر .

وربما كان اسم زكريا بن آذن كما ذكر الزمخشرى صاحب الكشاف وابن قتيبة هو الأقرب للصواب للتفرقة بين زكريا الوارد فى العهد القديم ، وزكريا الذى ذكرت قصته فى القرآن الكريم . .

---

(٢٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٢٧٨

(٢٥) تفسير الكشاف حـ ١ ص ٣٥٥

(٢٦) المعارف آلابن قتيبة ص ١٨

زكريا فى القرآن الكريم :

ذكر اسم زكريا فى القرآن الكريم ثمانى مرات فى سور آل عمران ، والأنعام ومريم والأنبياء .

وأشار القرآن الكريم إلى قصته فى سورة آل عمران وسورة مريم وسورة الأنبياء . .

وهذه هى الآيات التى وردت فى سورة مريم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ
نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ
أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ
وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ
نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ
هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل
لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ
خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ
وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ
وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ (٢٧)

---

(٢٧) مريم ١ : ١٥

قصة زكريا :

وبتدبر هذه الآيات الكريمة تستبين لنا قصة زكريا ـ عليه السلام ـ الذى ناجى ربه فى تضرع وخفاء واستكانة ورجاء ، أن يهبه من لدنه ولداً يرثه فى علمه وحكمته ، ويذكر اسمه من بعده ، ويحفظ النبوة فى ذريته ، فاستجاب الله دعوته ووهبه يحيى الذى أتاه الله الحكمة صبياً ، ورزقه الفطنة والتقوى فأسعد الله به قلب الوالدين ، وجعله لهما قرة عين . .

ولكن هذا الدعاء من زكريا كانت له مقدمات وأسباب ، أشار إليها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فيما ذكره من آيات أخرى تتضمن قصة زكريا ـ عليه السلام ـ ونتحدث عنها فيما يأتى :

أسرة زكريا :

كان زكريا يعيش فى ظل أسرة اختصها الله بمزيد من الفضل والعناية ، واصطفاها الله من بين خلقه ، وبارك فيها ـ وقد تزوج من إيشاع بنت فاقوذ ، وهى أخت حنة بنت فاقوذ ، التى تزوجها عمران بن ساهم بن أمور من نسل داود ـ عليه السلام ـ

وقيل كان متزوجاً من أخت مريم ابنة عمران ، وكلتاهما ينتهى نسبها إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ وهما من بسط يهوذا بن يعقوب .

وزكريا ينتهى نسبه كذلك إلى يعقوب ـ ولكن من سبط لاوى بن يعقوب ، لأنه من ولد هارون أخى موسى .

وقال بعضهم : إنه كان ابن عم لزوجته ، فهو ينتهى إلى يعقوب بن ماثان أخى عمران بن ماثان أبى مريم البتول وعمران هذا هو الذى ذكره الله مكرماً إياه فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢٨)

---

(٢٨) آل عمران ٣٣ : ٣٤

وكان زكريا فى بيت المقدس ،يقوم عليه ، ويعنى بشأنه ، وهو من الأنبياء الذين بعثهم الله فى بنى اسرائيل يقوّمون خطاهم ويهدونهم سواء السبيل . .

وكان معه أحبار من بنى اسرائيل منهم عمران زوج حنة ووالد مريم البتول . وكانوا جميعاً يجتهدون فى العبادة ويخلصون فى التقرب الى الله .

زكريا يتمنى ولداً :

وقد كان زكريا يقوم على كفالة مريم ابنة عمران حين نذرتها أمها لله ، وسلمتها إلى بيت المقدس بناء على نذرها الذى نذرته لله ، وكان أبوها قد مات قبل أن تولد ، فتنازع الأحبار مع زكريا الولاية عليها ، كل منهم يريد أن يكون هو المختص بذلك ، ولم ينته النزاع بينهم حتى اتفقوا على أن يستهموا فى ذلك ، فكان السهم من نصيب زكريا ـ عليه السلام ـ فتولى شأنها وبنى لها غرفة فى أعلى بيت المقدس ، حتى تتفرغ للعبادة ولا يشغلها أحد عن ذكر الله .

وكان يدخل عليها الحين بعد الحين يتفقد أحوالها ويقدم لها طعامها وشرابها ،فيرى عندها فاكهة غريبة فى غير أوانها ، قيل انه كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف . .

فسألها عن ذلك : أنى لك هذا يا مريم ؟

فكانت تجيبه : هو من عند الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب . .

تفكر زكريا فى حال مريم ، وعرف قدرة الله الخارقة التى تقدر على كل شىء ولا تتوقف على أسباب معلومة لأنها فوق الأسباب .

ونظر إلى نفسه وقد بلغه الكبر وأدركه المشيب وأوشك على فراق هذه الدنيا دون أن يكون له عقب يحفظه أو ولد يبقى ذكره ، وهذه امرأته عاقر وقد كبرت مثله فى السن . . فلماذا لا يطلب من الله الذى رأى آثار قدرته فى رزق مريم أن

يرزقه ولداً كما رزق مريم الفاكهة فى غير أوانها ؟

ولعل زوجته كانت متطلعة للولد كذلك . . بل لعلها كانت تدعو ربها بلسان حالها ولسان مقالها أن يسعدها بغلام يملأ حياتها أنساً وأملاً ، فالأمومة فى داخل المرأة تأنف أن تعطل ، وهى تريد أن تعلن عن نفسها دائماً حقيقة أو مجازاً . .

فوافقت دعوة زكريا دعوة زوجته ، وتفتحت أبواب السماء للدعوتين ، وأجاب الله رجاء الشيخين ومنَّ عليهما بما أرادا ، وأمر الله ملكاً أن يهبط إلى زكريا مبشراً له بإجابة دعوته وتحقيق أمنيته .

ماذا يقصد زكريا بالوراثة ؟

لقد هتف زكريا بدعائه إلى الله قائلاً : هب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب ، فماذا يقصد زكريا بالوراثة ؟

إنه يقصد وراثة الحكمة والنبوة ، وهذا ما يحرص عليه الأنبياء ، وليس وراثة الدنيا فذلك أمر يترفعون عنه وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة . . أى ما تركناه من مال ، صدقة لا تورث . .

كان زكريا حريصاً على أن يكون له ولد يتولى ما كان يتولاه من قوامة على أمر هذا البيت المقدس ، ويستمر فى حمل أعباء النبوة التى جعلها الله ميراثاً فى آل يعقوب مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾(٢٩)

ولم يكن زكريا ذا مال يورث فيشغله أمر ميراثه ـ ولو كان له ما شغله أيضاً ـ فقد ذكر الرواة أنه كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من عرق جبينه ، وقد طبع الله الأنبياء على الجود بما فى أيديهم والتصدق بما يفضل عن حاجتهم فما كانت لديهم

---

(٢٩) العنكبوت ٢٧

مدخرات يدخرونها سوى العمل الصالح والحكمة يورثونها لأبنائهم .

وأما قول زكريا « وإنى خفت الموالى من ورائى » فلا يعنى أنه خشى الكلالة كما يقول البعض أو خشى أن أقرباءه سوف يرثونه مادام لم يعقب ولدا .. وإنما كان هؤلاء الموالى ـ وهم أقرباؤه ـ مهملين للدين فخاف انقطاع الدين من بعده لأن ورثته هؤلاء لا يهمهم أمر الدين فى شىء ..

تعجب زكريا :

وعلى الرغم من رؤية زكريا آية القدرة فى رزق مريم ، ومطالعته آثار النبوة فى قلبه إلا أن الطبع البشرى غلبه فقال حين بشر بالولد :

« أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ »

هذان سببان مانعان للإنجاب : كبر سنه فقد وهن منه العظم الذى جعل حاجته إلى النساء ضعيفة واشتعل رأسه بالشيب وهذه علامة الكبر الظاهرة ودليل الشيخوخة الغالبة ..

إلا أن الشيخ أحياناً ينجب ، وإنجابه ليس مستحيلاً ، وكم من شيوخ بلغوا من الكبر عتياً أنجبوا وهم فى هذه السن المتقدمة .

ولذا جاء بالسبب الذى يستحيل معه الانجاب وهو عقر الزوجة فهو وإن كانت سنه تسمح فرضاً بالإنجاب فإن زوجته لا يتأتى منها الإنجاب . لقد قاس زكريا الأمور بمقياس الحياة البشرية فى العادة وذكر الأثر والمؤثر والسبب وما يترتب عليه . فالمعروف أن العاقر لا تلد ، ونسى فى غمرة الفرحة الحافز الذى حفزه إلى الدعاء وهو مشاهدة آثار القدرة التى هو فوق الأسباب والمسببات ..

فكان لابد من تنبيهه إلى ترك دائرة المحسوسات ، والتحليق فى دائرة الروحانيات ، التى يجب أن يلغى فيها الانسان قدرته وامكانياته ولا يذكر إلا الله تعالى بقدرته الفياضة ورحمته السابغة وعظمته التى تقول للشىء كن فيكون .. فنبهه الملك قائلاً : كذلك الله يخلق ما يشاء ..

وكأن زكريا لم يزل فى عجب من أمره فسأل عن علامة يعرف بها تمام هذه البشرى ويدرك أن زوجته قد حملت ، إن زوجته ليست فى حاجة إلى علامة لأنها تستطيع أن تشعر بالحمل عند حدوثه ، فقال له الملك : إن آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً .

حين يعجز لسانك عن النطق ، وتضطر إلى التحدث مع الناس عن طريق الإشارة تعلم أن زوجتك قد حملت بذلك الغلام الذى بشرناك به . .

صفات هذا الغلام :

ولم تكن البشرى بغلام عادى ، ولكنها كانت بشرى بولد له خصائص مميزة ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ ﴾ (٣٠)

إنه مصدق بكلمة الله

وإنه سيد

وإنه حصور

وإنه نبى من الصالحين . .

هذه صفات يستحق أن يغبط عليها صاحبها . وهى جديرة بأن تقر عين الموهوب له بهذه الهبة الالهية السنية .

لقد طلب زكريا من ربه مجرد غلام يرث حكمته ومعرفته ، فتفضل الله عليه بأن وهبه ما طلبه وزيادة . .

---

(٣٠) آل عمران ٣٩

أما التصديق بكلمة الله فتتضمن بشارة أخرى ، هى ميلاد عيسى ، لأن عيسى ـ عليه السلام ـ هو كلمة الله قال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣١)

وقد سمى عيسى بكلمة الله لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها .. وسوف يكون يحيى أول من يصدق به ..

وقال بعض العلماء : إن المراد بكلمة الله : كتاب الله ، والعرب قد تطلق على الكلام كلمة ، وعلى الكتاب كلمة وعلى القصيدة كلمة .

وقد شهد يحيى لعيسى وهو فى المهد وكان بينهما مقدار ثلاثة أو خمسة أشهر .

وصفه بالسيادة :

اما وصفه بالسيد ففيه دلالة على أنه سيسود قومه ويفوقهم فى الشرف .. وقد تم ليحيى ذلك فعلاً ، فقد بلغ فى بنى إسرائيل منزلة عظيمة ، وتربع على عرش قلوبهم ودانوا له بالطاعة وصدع بكلمة الحق بينهم حتى غاظ بذلك قلوب أهل الجحود والنكران ، وكان ذلك سبباً فى استشهاده كما سيأتى .

وفى وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ يحيى بذلك دلالة على جواز تسمية الانسان بالسيد وفيه رد على من يزعمون أنه لا يجوز تسمية المخلوق بذلك .

أجل إن السيد الحقيقى هو الله ، ولاشك فى ذلك على الاطلاق .. ولكن تسمية الانسان بالسيد لا تعنى هذا المفهوم الذى هو للحق ـ تعالت قدرته ـ وإنما تعنى أن هذا الشخص قد بلغ فى قومه منزلة جعلته جديراً بأن يقودهم ويفوقهم ويشرف عليهم ـ وقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حق سعد بن معاذ : قوموا لسيدكم ..

---

(٣١) آل عمران ٤٥

كما قال فى حق الحسن بن على - رضى الله عنهما - إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . .

وقال فى حق نفسه - صلى الله عليه وسلم - : أنا سيد ولد آدم ولا فخر . .

وقد تطلق كلمة السيد على معنى غير الترفع والسيادة ، فقد تعنى التفوق فى العلم والعبادة وقد تعنى منتهى الحلم والتواضع ، وقد تعنى التفوق بين الأقران فى كل شىء من صفات البر والخير . .

وعلى هذا المعنى أَجَلَّ المسلمون نبيهم - صلى الله عليه وسلم - فنعتوه بالسيادة وهو جدير بها ، وجعلوا هذه الصفة سابقة على اسمه الكريم الذى سماه به ربه فصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مفهوم الحصور

وقد فسر اللغويون « الحصور » بمعان متعددة ، فقالوا - على ما جاء فى لسان العرب : الحصور الهيوب المحجم عن الشىء ، والحصور الذى يكتم السر فى نفسه ، والحصور الممسك بالشىء . .

ومن معانيها كما ذكر الزمخشرى فى الكشاف الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر قال الأخطل :

وشارب مربح بالكأس نادمنى لا بالحصور ولا فيها بسآر (٣٢)

فاستعير اللفظ لمن لا يدخل مع القوم فى اللعب واللهو . .

وكان يحيى - عليه السلام - ينأى بطبيعته التى فطره الله عليها عن اللعب واللهو ، وقد نشأ منذ صغره جاداً . وقد روى أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون فدعوه لمشاركتهم فقال : ما للعب خلقت .

---

(٣٢) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٤٢٨

ومن معانى الحصور أيضاً الذى لا يشتهى النساء ولا يقربهن .

وعلى هذا المعنى سار بعض المفسرين ، وأقرب ما ينطبق على يحيى ـ عليه السلام ـ أن يكون قد زهد فى النساء تنزهاً لا عجزاً ، لأن العجز نقص فى الذكورة وهو لا يليق بمقام الأنبياء .

لقد كانت لديه القدرة ولكنه نأى بجانبه عن زينة الدنيا ونعيمها ، فقد وجد نعيم الآخرة خيراً وأبقى .

وعلى ذلك فتكون هذه الصفة التى ذكر بها يحيى فى القرآن الكريم صفة مدح وثناء من الله عليه ، وليست صفة عجز فيه .

وما جاء فى سياق المدح ينبغى أن يكون مدحاً ، فقد سبق هذه الصفة مدحه بالسيادة ، وأعقب هذه الصفة مدحه بالنبوة ، فكيف يكون وصفه بأنه حصور ذماً أو عجزاً .

وقد يكون وصفه بأنه حصور بمعنى أنه عصم نفسه عن الشهوات مطلقاً وهذه كانت حال يحيى ـ عليه السلام ـ أما زهده فى النساء والتزوج منهن فقد كان هذا مستساغاً فى شريعة الأنبياء السابقين على رسالة خاتم الأنبياء سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت سنة فرضها البعض منهم على أنفسهم ، ولم تنزل من السماء ولم يرعها بعضهم حق رعايتها كما قال ـ سبحانه وتعالى ـ فى ذلك

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (٣٣)

ولذلك كانت سنة الإسلام الزواج ، وقد خاطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض أصحابه الذين حدثتهم أنفسهم بالعزوف عن الزواج قائلاً : من رغب عن سنتى فليس منى . .

---

(٣٣) الحديد ٢٧

النبـــوة :

وأصبح زكريا ذات يوم فإذا لسانه محبوس عن الكلام ، وأقبل الناس إليه كعادتهم ، يسألونه عما يريدون ، فإذا به يشير إليهم ولا يستطيع النطق .

ومن العجيب أنه كان حين يهم بمخاطبتهم يعجز عن الكلام ، فإذا ما خلا وحرك لسانه بالذكر انطلق لسانه به .

وكأن الله تعالى أراد أن يحبس لسانه عن مخاطبة الناس فى تلك المدة ، ليخلص لسانه بالذكر شكراً لله على نعمته الكبرى التى مَنَّ الله عليه بها . . وهى استجابته لدعوته وهبة يحيى له . . وهذه نعمة تقتضى الشكر دائماً والحمد الجزيل وليس أوفى لتحقيق الحمد من الذكر الخالص لله تعالى والثناء عليه . .

قال الزمخشرى : حبس الله لسان زكريا عن الكلام ليخلص فى هذه المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره توفراً منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة ، وشكرها الذى طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر . .

نشأة يحـــيى :

ونشأ يحيى ـ عليه السلام ـ فى كنف والديه ، اللذين رزقا به على كبر ، وانتظراه بشوق بالغ وتطلع كبير . ولم يدخرا وسعاً فى أن يكفلا له كل وسائل السعادة والراحة والتأديب والتعليم . . إنهما يعدانه لميراث النبوة والحكمة فلابد أن يبذلا فى ذلك كل جهد .

ولكن الطفل المرتقب كانت عناية الله أسرع فى تأديبه وتثقيفه منهما فقد وهبه الله الحكمة صغيراً ، وعصمه من كثير مما يقع فيه الصبيان من شغف باللعب وانصراف عن الدروس والتعلم .

وقد قال الله ـ تعالى ـ فى ذلك : « وآتينا الحكم صبياً » .

وانشغل يحيى بالعبادة منذ نعومة أظفاره ، وكان لا يكف عن التفكر فى خلق السموات والأرض ، والاقبال على الله بعزم قوى وهمة لا تعرف الكلل . . حتى فاق كبار الأحبار فى عبادتهم . .

وأصبح بين والديه كأنه غريب عنهما . . دموعه على خديه لا تجف ، وذكر الله على لسانه لا يفتر ، حتى قال والداه : يارب لقد طلبنا الولد لننتفع به ولكنه مشتغل بالبكاء والدعاء .

فأوحى الله إلى زكريا قائلاً : لقد قلت فى دعائك : رب هب لى من لدنك ولياً ، والولى لا يكون إلا كذلك .

والولى هو الذى توالت لله حركاته وسكناته كما يقول أهل الذوق ، وقال أهل اللغة : تولاه الله. اتخذه ولياً والوَلْى القرب والدنو .

والولىُّ الصديق والقريب والحبيب ، والموالاة ضد المعاداة ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (٣٤) اى يتولى أمرهم . .

يحيى يستجيب لأمر ربه :

وقد شمر يحيى ـ فى الدعوة إلى الله ـ عن ساعد الجد ، ولم يدخرجهداً فى الاستجابة لأمر الله فى ذلك حين قال له : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » فأقبل على الله بهمة لا تعرف الكلل ، واتجه بكل عزم إلى النصح والإرشاد ، فكان لا يمر على جماعة إلا ألقى عليهم مواعظه ، ولا يحضر مجلساً إلا وذكر فيه بالله ، وكان لا يُرى إلا باكياً أو ذاكراً أو مستغفراً ، مع أنه نشأ فى عبادة ربه ولم يحدث منه ذنب على الاطلاق ، حتى قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم » فى ذلك : « كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا » (٣٥)

---

(٣٤) البقرة ٢٥٧

(٣٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك ـ كتاب التفسير ـ حـ ٢ ص ٣٧٣ وفى جمع الجوامع حديثان بهذا المعنى حـ ٣ ص ٢٢٤

لقد زهد يحيى فى الدنيا زهداً شديداً ، وكان قوته بعض ثمار الأشجار القليلة فى غالب أحواله يتبلغ بها اذا عضه الجوع ، ويحمد ربه على هذه النعمة الوافرة السابغة ، وقد أثر الدمع فى وجنتيه حتى حفر أخاديد فيهما ، ولذلك كان وعظه مؤثراً فى سامعيه ، لأنه خرج من قلب ذائق ووجدان صادق .

كان يأنس إلى القفار أكثر من أنسه بالناس ، ويفر من مواطن الزحام ويأوى إلى الأرض الفضاء وشواطىء الأنهار وكثيراً ما كان يفتقده أبواه فيخرجان للبحث عنه فيجدانه قد ألف الوحوش وجلس بعيداً عن العمران ، فإذا ما أرادا العودة به إلى المدينة أبكاهما بكلامه ووعظه المؤثر .

دخل مرة بيت المقدس فنظر إلى من نذروا أنفسهم لله من الأحبار والمجتهدين فى العبادة ، وكان كثير منهم قد بالغوا فى الزهد وشددوا على أنفسهم فى المجاهدة ، فأراد أن يحذو حذوهم ـ وكان مازال صغيراً ـ فقال له أبوه : يابنى ما يدعوك إلى هذا وإنما أنت صبى صغير ؟

فقال له : يا أبت ، أما رأيت من هو أصغر منى ذاق الموت ؟

قال : بلى ، وكانت هذه كلمة سديدة حكيمة تدل على حكمة مبكرة ، وكأنه أراد أن يقول لأبيه : فلماذا لا تجعلنى استعد للموت الذى لا يترك صغيراً ولا كبيراً ؟

ولماذا تحاول أن تمنعنى من أن أتشبه بهؤلاء الذين نذروا أنفسهم لله ، واشتروا الآخرة بالدنيا ، وأقبلوا على الله بهمة ونشاط ؟

ونسجت له أمه مدرعة من شعر ، وصنعت له برنساً من صوف ، وانزوى فى بيت المقدس مع الرهبان والأحبار يعبد الله ، حتى أثرت المدرعة فى لحمه .

ونظر إليه أبوه ذات يوم ورحمه . . وجده قد نحل عوده وذهبت نضرته واشتد هلعه ، فقال له • ما حملك على هذا يا يحيى ؟ وكيف تقر عينى برؤيتك هكذا

وإنما وهبك الله لى لتكون قرة عينى ؟

فقال له يحيى : أنت فعلت هذا بى يا أبى ؟

قال زكريا : وكيف ؟

قال : ألست القائل ان بين الجنة والنار عقبة كئوداً لا يتخطاها إلا الباكون من خشية الله ؟

فسكت زكريا ، وحمد ربه أن رزقه ولداً يفهم ما يقوله أبوه ويطبقه عملياً . .

وذكر ابن كثير هذا الخبر بعد أن قال :

إن زكريا افتقد ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه فى البرية .

فوجده قد حفر قبراً وأقام فيه يبكى على نفسه ، فقال له : يا بنى ، أنا أطلبك منذ ثلاثة أيام وأنت فى قبر قائم تبكى فيه ؟

فقال له : يا أبت ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين .

فقال له : ابك يابنى . .

وجلسا يبكيان معاً . . (٣٦)

لقد قسا يحيى على نفسه فى الدنيا لأنه أراد أن يريحها فى الآخرة .

وزهد فى طيبات الدنيا لأن الله قال فى حق قوم حرمهم نعيم الجنة :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) ﴾ (٣٧)

---

(٣٦) قصص الأنبياء لإبن كثير ص ٥٤٨

(٣٧) الاحقاف ٢٠

وظل يحيى فى بيت المقدس نموذجاً كاملاً للتقوى والورع ، وصورة مثالية للزهد والصلاح وكانت كلماته تدوى كالرعد فى أسماع الخارجين على تعاليم

السماء ، وكان إنكاره على المذنبين والمتلاعبين بالدين والمرائين غصة فى حلوق هؤلاء ، حتى أجمعوا على التخلص منه ، لأنه يقف فى طريق أطماعهم ، وينغص عليهم لذائذهم وشهواتهم بسلوكه القويم . .

خلاصة دعوته :

وقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن خلاصة تعاليم يحيى فيما رواه الرواة .

أخرج الإمام أحمد فى مسنده أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات يجب أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وكاد أن يبطىء ، فقال له عيسى بن مريم : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن .

فقال له يحيى : يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أُعَذَّب أو يُخْسَفَ بى .
قال : فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف [٣٨] ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الله ـ عز وجل ـ أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن :

آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مَثَلَ ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟

---

(٣٨) الشرف هو المكان المرتفع .

وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . .

وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قِبَلَ عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وآمركم بالصيام ، فإن الله مَثَّل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإنَّ خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة ، فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فشدوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وآمركم بذكر الله ـ عز وجل ـ كثيراً فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله ـ عز وجل ـ

قال الإمام أحمد : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا آمركم بخمس ، الله أمرنى بها : بالجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد فى سبيل الله .

فإن من خرج من الجماعة قَيدَ شبر فقد خلع ربقة (٣٩) الإسلام من عنقه إلا أن يرجع .

ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حَثَا (٤٠) جهنم ـ قال راوى الحديث : وإن صام وصلى ؟ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

---

(٣٩) المقصود بربقة الإسلام عهده وميثاقه

(٤٠) المقصود بحثا جهنم وقودها

ادعوا المسلمين بأسمائهم ، بما سماهم الله عز وجل - المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل [41] .

لقد قامت دعوة يحيى كما رأينا من هذا الخبر على ما قامت عليه دعوة الاسلام ، ودعوات الأنبياء جميعاً واحدة لا تخرج من عبادة الله وحده وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذكر الله تعالى ، والتحلى بمكارم الأخلاق .

استشهاد يحيى - عليه السلام -

ذهب يحيى - عليه السلام - ضحية أطماع الغادرين وجشع أرباب المال وشهوة الطامعين فى السلطة والتسلق إلى مراكز النفوذ . .

لقد كان يحيى صرخة مدوية فى أسماع الطغاة ، وعلامة احتجاج كبرى على الفساد المستشرى فى ربوع أورشليم وكان يحيى بارعاً - كما يقول - الشيخ النجار فى الديانة الموسوية ، ومرجعاً لأهلها فى كل شيء . . ولا يبعد أن يكون للحسد نصيب فى مصرعه من قوم كانوا لا يعملون بما يعلمون . .

وقد ذكر الرواة فى استشهاده روايات منها ماذكره الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قال :

كان « هيرودوس » أحد حكام فلسطين له بنت أخ اسمها « هيروديا » بلغت حدا أوفى فى الجمال ، فخطفت بجمالها نظر عمها الحاكم ، واستولت على لبه فعشقها ، وأراد أن يتزوج منها . .

وبلغ ذلك أسماع الناس ، وسرى خبره إلى علماء بنى إسرائيل وأحبارهم ، ولكنهم لم يقدروا أن يغيروا عليه أو يحذروه عاقبة ما يفعل . .

وبلغ ذلك يحيى بن زكريا فثار ضد هذا الإثم ،وأفتى بتحريم هذا الزواج الذى لا تقره شريعة الله . .

---

(٤١) مسند الإمام أحمد حـ ٥ ص ٣٤٤ ، وأخرجه الترمذى - كتاب الآداب رقم ٨٨

وأغضبت هذه الفتوى الفتاة التى أعدت نفسها للاستيلاء على عرش البلاد . وصور لها خيالها أنها ستصبح بزواجها من عمها سيدة نساء أورشليم بل فلسطين بأسرها .

وأخذت هذه الفتاة ومعها أمها التى شاركت فى صنع هذه المؤامرة يكيدان ليحيى . .

وزينت الأم ابنتها فى أسنية حالة ، وأدخلتها على عمها ، فلما رآها وقد أخذت زينتها كاملة افتتن بها ودعاها إلى نفسه ، فامتنعت عليه .

وقالت : إن كنت تريدنى حقاً فاصنع ما أريد .
فقال لها : وماذا تريدين ؟
قالت : أريد رأس يحيى بن زكريا فى طبق أمامى . .
لقد لقنتها أمها ذلك . .

وكانت الرغبة قد استولت على قلب هذا المفتون فلم يتوان عن تنفيذ ما أرادت . .

وسرعان ما أرسل جنوده لاغتيال النبى يحيى ، وجىء برأسه ليقدم فى طبق أمام هذه الغانية الفاجرة .

وهكذا ذهب يحيى ضحية الجهر بكلمة الله ، فى مجتمع لم يرع لله حرمة ، ولم يحترم تعاليم الدين ، ولم يجد من هؤلاء الأحبار والكهان الذين كانوا يملئون ساحة بيت المقدس من يستنكر هذا العمل الاجرامى ، ويثور ضد هذا الحاكم الذى داس بقدمه استجابة لشهواته كل المقدسات والقيم ورعاية الحرمات .

ولعل هذه القصة أصح ما ذكر فى استشهاد يحيى ـ عليه السلام ـ
وقد ذكر ابن كثير قصتين أخريين فى استشهاد يحيى ـ عليه السلام ـ

إحداهما مارواه بعضهم عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال :

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة أسرى به رأى زكريا فسلم عليه وسأله عن قتله فأجاب قائلاً :

كان يحيى خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً ، وكان لا يحتاج إلى النساء فهويته امرأة ملك بنى اسرائيل ، وراودته عن نفسه ، فامتنع عليها فأجمعت على قتله .

وكان لهم عيد يجتمعون فيه كل عام ، وكانت سنة الملك أنه إذا وعد لا يخلف . .

فخرج الملك إلى العيد فخرجت زوجته وراءه تشيعه ـ على غير عادتها ـ وكان معجباً بها ، فقال لها الملك : سليني فما سألت شيئاً إلا أعطيتك . فقالت : أريد دم يحيى بن زكريا .



فقال لها : سليني غيره

قالت : لا أسألك غير ذلك

فقال لها : هو لك . .

فبعثت حرسها إلى يحيى وهو فى محرابه يصلى ، وزكريا إلى جانبه ، فذبح فى طست ، وحمل رأسه ودمه إليها . .

كل ذلك ، ولم يلتفت زكريا من صلاته . .

فلما كان المساء خسف بالملك وأهل بيته . .

فاجتمع بنو اسرائيل وقالوا : غضب إله زكريا لزكريا ، فتعالوا نغضب لملكنا فنقتل زكريا . .

فخرجوا فى طلبه ليقتلوه ، وجاء نذيرُهُ لينذره فهرب منهم ، وإبليس أمامهم يدلهم عليه

وتخوف زكريا أن يدركوه وقد اعترضته شجرة فى الطريق ، فانصدعت له فدخل فيها ثم التأمت عليه .

وأخذ إبليس بطرف ردائه فبقى خارجاً عن الشجرة بعد أن التأمت ونادى الناس : انظروا ، إن زكريا بسحره استطاع أن يأمر الشجرة أن تكون له مخبئاً ، وهاهو ذا طرف ردائه يظهر منها .

وتشاوروا فيما يفعلون به ، فقال قوم : نحرق الشجرة ، ولكن إبليس أشار عليهم أن يشقوا الشجرة شقاً ، فأتوا بالمنشار فشقوها وانشطر زكريا معها شطرين .

ولكن هذه القصة لا تتفق مع ما ورد فى الصحاح حول حديث الاسراء والمعراج ، من أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التقى فى إحدى السماوات بعيسى وزكريا ، ولم يرد فى هذا الحديث حوار بهذا المعنى بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزكريا .

أما القصة الأخرى فى مقتله فتروى كالآتى :

كان ملك دمشق قد زوج ابنه من ابنة أخية ، وحدث بينهما جفاء طلقها على أثره ، ثم أراد مراجعتها فاستفتى فى ذلك يحيى بن زكريا ، فأفتى بأنها لا تحل له ولعل ذلك كان الحكم فى شريعتهم ، فحقدت عليه ، وسألت الملك أن يجيئها برأس يحيى بن زكريا ، وكان ذلك بإشارة من أمها .

ونفذ الأمر ، وقتل يحيى ، وجيء برأسه فى طبق ، فجعل الرأس فى الطبق يصيح قائلاً : لا تحل لك ، لا تحل لك . .

وعاقب الله المرأة وأمها فخسف بهما . . ومازال دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل فى ثأر يحيى مالا يحصى كثرة حتى سكن الدم .

وبعضهم يقول : إن أرميا صاح بالدم قائلاً : أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل فاسكن بإذن الله ، فسكن . ووقع بنو إسرائيل فى الذل والإسار .

ولكن هذه القصة تدل على أن غزو بختنصر لبيت المقدس كان فى عهد يحيى مع أن المعروف أن هذا الغزو كان فى عهد أرميا قبل ذلك بقرون . .

ويشير بقية الخبر إلى أن أرميا كان بعد يحيى أو معاصراً له ، ولكن المعروف أن أرميا كان قبل يحيى ـ كما ذكرنا سابقاً ـ

وقد سبق أن أشرنا فى حديثنا عن المسجد الأقصى إلى أن الملك « حردوس » ملك بابل دخل بيت المقدس فوجد فيها دماء تغلى ، فسأل عن ذلك فقيل له : إن هذا دم نبى من الأنبياء قتل ظلماً ، فمازال يقتل عليه منهم حتى هدأ الدم ، وقد نقلنا ذلك عن القرطبى فى تفسيره . .

والذى عليه أغلب المفسرين أن بختنصر كان على يديه تخريب بيت المقدس فى المرة الأولى وكان معاصراً للنبى أرميا .

أما الاعتداء الذى جاء عقاباً لاعتداء بنى اسرائيل وعدوانهم على الأنبياء وقتلهم نبى الله يحيى وأباه زكريا ـ عليهما السلام ـ فكان على يد ملوك آخرين .

وقال بعض العلماء : إن يحيى قتل وله من العمر خمس وتسعون سنة .
أما أبوه فقد قتل وله من العمر نحو ثلثمائة سنة .
وقد روى ذلك ابن إياس عن الثعلبى . .

وربما كان عمر زكريا مبالغاً فيه ، فعلى فرض أن يحيى مات وعمره خمس وتسعون سنة فقد رزق زكريا بيحيى وسنه تقارب المائة ، أو تزيد عليها بقليل (٤٢) وقد ماتا معاً فى وقت واحد تقريباً ، وعلى ذلك فسنه كانت فى حدود المائتين ، وربما لم تصل إلى ذلك .

---

(٤٢) ذكر إبن إياس أن زكريا كانت سنه مائة وعشرين عاماً حين رزق يحيى .

أين قتل يحيى وزكريا ؟

وكما اختُلِفَ فى قصة استشهاد يحيى اختلف فى المدينة التى استشهد فيها فمن قائل : انها دمشق ومن قائل : إنها بيت المقدس .

روى الأعمش عن شملة بن عطية أنه قال : قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا . .

وروى يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن يحيى قتل بدمشق (٤٣)

وروى ابن إياس قول السدى : أن الشجرة التى نشر فيها زكريا كانت بنابلس ودفن هناك ، ثم نقل إلى حلب وقبره بها مشهور الآن ، وأن يحيى ذبح بفلسطين ودفنت جثته بها ، ورأسه حمل إلى الشام ودفن ، وذراعه دفن فى بيروت ، ورجله فى صيدا (٤٤)

ومفهوم هذا الخبر يوحى بأنه قد مثل بجثته ، وأن أعداءه كانوا على غيظ شديد منه ، فإنه لا يدفع الى التمثيل بالمقتول إلا شدة الحقد . .

دليل على وجود يحيى بدمشق :

روى بعض الرواة عن زيد بن واقد قال : لما بنى الوليد بن عبد الملك بن مروان مسجده بدمشق ، كلفنى بالإشراف على البنائين ، فبينما أنا واقف عليهم ، إذ لاحت لنا منارة بابها مسدود بالحجارة ، فأخبرنا الوليد بذلك فلما دخل الليل أتى الوليد المسجد وبين يديه الشموع ، فوقف على تلك المغارة .

وأمر بفتحها ، ففتحت بحضرته ، فرأى بها مكاناً مربعاً نحو ثلاثة أذرع فى مثلها ، ووجد بها صندوقاً مقفلاً بقفل من حديد ، ففتحه ، فرأى فيها رأس

---

(٤٣) قصص الأنبياء لإبن كثير ص ٥٥٠

(٤٤) بدائع الزهور فى وقائع الدهور لإبن إياس ص ١٨٢

انسان ووجد فى ذلك الصندوق لوحاً من رخام أبيض كتب فيه : هذا رأس يحيى بن زكريا .

فلما رأى الوليد ذلك قبل الرأس ، وأمر برده إلى الصندوق تحت العمود الذى فى شرقى الجامع المعروف بعمود « الكاسك » وهو فى الصف الثانى بالقرب من المقصورة التى بها محراب المسجد[٤٥] .

زكريا فى العهد القديم :

أورد العهد القديم سفراً خاصاً بزكريا يتكون من أربعة عشر إصحاحاً . . وذكر نسبه أنه : زكريا ابن برخيا بن عدو

وقد تضمنت إصحاحات السفر وصايا وتذكيراً لبنى إسرائيل وتحذيراً لهم من المخالفات التى ارتكبها آباؤهم ومن الواضح أنه غير زكريا أبى يحيى الذى جاء ذكره فى القرآن والذى نتحدث عنه . . فزكريا أبو يحيى ذكره انجيل لوقا فى الاصحاح الأول وذكر قصته كما وردت فى القرآن الكريم بفارق بسيط هو أنه ذكر اسم امرأته بأنها « اليصابات » من بنات هارون .

أما يحيى فقد ورد اسمه فى العهد الجديد على أنه يوحنا المعمدان ، وكان يعمد الناس على نهر الأردن ، وقد ذهب اليه المسيح ليتعمد عليه[٤٦] .

فضائل زكريا ويحيى :

أثنى الله على زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ ووصفهما بأوصاف سنية فقد أدرجهما فى آيات الأنعام فى سلسلة الأنبياء المنحدرين من ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووصفهما بأنهما من الصالحين قال تعالى : « وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين »

---

(٤٥) المرجع السابق

(٤٦) انجيل متى ـ الاصحاح الثالث ـ إنجيل مرقس ـ الاصحاح الأول ـ إنجيل لوقا ـ الاصحاح الثالث ـ انجيل يوحنا ـ الاصحاح الأول ـ

وكل من هؤلاء تعرض للابتلاء الشديد فصبر ، ووصف الله إياهم بالصلاح له دلالته العظيمة على مكانة هؤلاء عند ربهم وصلاحيتهم لأن يتشرفوا بمقام القرب منه .

وأثنى على زكريا وأهله فى سورة الأنبياء ووصفهم بالمسارعة الى الخيرات واللجوء إلى الله حباً وخشية ، وبأنهم كانوا جديرين باستجابة الله لهم حيث قال الله تعالى :

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٤٧) .

ويذكر الرواة أن زكريا كان صلباً فى الدين مجتهداً فى العبادة صابراً ، وفيا . . وليس أدل على صبره من أنه حُرِم الولد حتى بلغ من الكبر عتياً ، فلم يشك ولم يتضجر ولم يضق صدره . .

ودعاؤه الله وقد كبرت سنه أن يرزقه ولداً لا يعنى أنه كان ضيق الصدر ضجراً ، بل يعنى حرصه على ميراث العلم والحكمة أن يتبدد سدى ، ويذهب إلى غيره ممن لا يحسن القوامة عليه ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ (٤٨)

وقد سبق أن تحدثنا عما تعنيه الوراثة .

أما يحيى فقد أفاض العلماء فى شرح ما أفاءه الله عليه من أفضال ، ويكفى فى ذلك أن اسمه كان منحة من الله ، وأنه لم يشركه أحد من قبله فى هذا الاسم الذى مُنِحه .

---

(٤٧) الأنبياء ٨٩ ، ٩٠

(٤٨) سورة مريم ٥ ، ٦

وكل مولود جرت عادة الأبوين أن يسمياه ، بل ربما فكرا فى اسمه قبل أن يولد ، أما يحيى فقد أوحى الله إلى أبيه بأن ابنه المرتقب سيكون اسمه يحيى ، وأن أحداً لم يسم قبله بهذا الاسم ،وكفى بذلك تكريماً وتعظيماً ، ووصفه الله بالصلابة فى الدين والقوة فى الحق والجد فى الطاعة والتعظيم لأمر الله .

كما منحه النبوة صغيراً وهذه خصيصة لم تمنح لكثير من الأنبياء قبله ، فقد عُرِف أن الأنبياء يوحى إليهم فى سن الأربعين إلا أن هناك استثناءات خاصة لمن يشاء الله أن يخصهم بفضله . .

وأثنى الله على يحيى بأنه كان باراً بوالديه ، وهى صفة تدل على مزية خاصة وعلى أهمية البر بالوالدين ، وقد قرن الله هذه الصفة بعبادته وعدم الإشراك به فقال سبحانه :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ (٤٩)

وحسبك بهذا دليلاً على شرف البر بالوالدين وطاعتهما .

كما وصفه بالتواضع والطاعة والحنو والعطف والتقوى وغير ذلك من صفات البر والفضل التى تؤهل صاحبها لنيل أعلى درجات القرب من الله .

وسلّم الله عليه يوم ولادته ويوم وفاته ويوم بعثه .

وخصت هذه الأوقات بالتسليم لأنها أعسر المواطن فى حياة الانسان ، فليس أشق على الطفل من خروجه من الرحم إلى الدنيا ، وهو يستهل حياته على الأرض بالبكاء للدلالة على أنه خرج من السعة الى الضيق - ولم يخرج كما يظن الكثير من الضيق إلى السعة .

وقد صدق ابن الرومى فى تصوير ذلك حين قال :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأرحب مما كان فيه وأرغد ؟

---

(٤٩) الإسراء ٢٣

وما أشق ساعة انتقال المرء إلى الآخرة لأنه لا يعرف مصيره الذى سوف يكون عليه ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ساعة البعث وهو لا يدرك أإلى الجنة يساق أم إلى النار ـ والعياذ بالله ـ ؟

فتسليم الله على يحيى فى هذه المواطن فيه دلالة على ارتفاع منزلته وعظم مكانته عند الله ، وأنه معه يؤمنه من الخوف ويقيه ويحفظه من العطب . .

روى بعضهم عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا ، فقال عيسى : استغفر لى أنت خير منى فقال يحيى لعيسى : بل استغفر لى فأنت خير منى . فقال عيسى له : أنت خير منى . لأنى سلمت على نفسى أما أنت فسلم الله عليك (٥٠) . قال تعالى :

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥ ﴾ (٥١) .

ويكفى كذلك أن الله سبحانه وتعالى وصفه بأنه سيد فقال فى حقه

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ ﴾ (٥٢)

عظات وعبر

وفى قصة زكريا ويحيى عظات وعبر كثيرة نذكر منها :

ـ الدلالة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه فوق الأسباب إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . .

ذلك أنه من المشاهد المحسوس أن الفاكهة عادة لا تخالف ابان ظهورها فلا تظهر فاكهة الشتاء فى الصيف ولا فاكهة الصيف فى الشتاء . .

---

(٥٠) قصص الأنبياء لإبن كثير
(٥١) سورة مريم ١٥
(٥٢) آل عمران ٣٩

ولكن زكريا حين لاحظ أن مريم قد رزقها الله ذلك ، وجاء لها بالفاكهة فى غير أوانها تذكر أنه من الممكن كذلك أن يرزقه الله بالولد ـ وإن فاته سن الانجاب ـ حتى وإن كانت إمرأته عاقراً ويائساً فى الوقت نفسه .. فمن الممكن أن تحمل وتلد ، طالما أن الأمر يخرج عن نطاق الأسباب إلى مسبب الأسباب .. فلجأ إلى الله فرد الله عليه بالإجابة ومنَّ عليه بقبول دعائه ..

وهذا الأمر يدعونا أيضاً إلى التوكل على الله والاعتماد عليه مع الأخذ بالأسباب التى يسرها أمامنا وطالبنا بالأخذ بها .

فهو فى أمر الرزق قال لنا :

﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (٥٣) .

ومعنى ذلك أنه ليس لنا أن نتواكل ونكف عن السعى ، وفى الوقت نفسه يجب علينا الاعتقاد بأن كل شىء ميسر بفضل الله وقدرته ، فإن تحصَّل شىء فبتيسيره ، وإن تعسر شىء فبتقديره .

وفى أمر العلاج علينا أن نتوجه الى الطبيب مع الاعتقاد بأن الشفاء بيد الله قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٥٤) .

وما الطبيب إلا سبب من أسباب الشفاء التى يسرها الله أمام المريض .

وفى طلب العلم كذلك علينا أن نتوجه إلى المدارس ، ونقرأ الكتب ونجلس إلى العلماء ونستفيد منهم ولا نقول إن الله اذا شاء وهبنا العلم بدون طلب ..

أجل إنه إذا شاء وهب بسبب وبدون سبب فهو قادر أن يخرق الأسباب ويكشف الحجاب ويرزق من يشاء بغير حساب ويهب الشفاء لمن يريد إنه المنعم الوهاب ، وهو فى ذلك لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ..

---

(٥٣) الملك ١٥

(٥٤) الشعراء ٨٠

علينا أن نتأدب بأدب القرآن ، وإذا رزقنا الله الأدب كان ذلك أقوى سبب فى تيسير العسير وتحصيل المنافع وتحقيق المارب .

- يشترط فى الدعاء التفويض إلى الله ، ويقتضى هذا التفويض أن يكون الداعى على يقين وثقة فى قدرة الله وعظمته ، بمعنى أنه إذا حرم الإجابة لا يغضب ولا يتأفف ولا يضيق صدره . .

بل عليه أن يدعو وهو واثق بأن الله يختار له الأصلح ، وقد يكون الصلاح فى غير ما يطلبه الداعى ، ولذلك وردت الآثار مخبرة بأن الله قد ضمن الإجابة للداعى ولكن حسبما يريد الله ، فإن شاء عجل بالإجابة وإن شاء أرجأها وإن شاء عوضه عن الإجابة بما هو أفضل مما يطلبه العبد .

وقد كان زكرياً فى دعائه لله مفوضاً الأمر إلى الله بدليل قوله : « ولم أكن بدعائك رب شقياً »

ومن أدب الدعاء الخفاء لأن الله يعلم السر وأخفى ، ولذلك وصف القرآن دعاء زكريا بقوله « إذ نادى ربه نداء خفياً »

- وتشير القصة إلى وجوب الامتثال لأمر الله والسير على طاعته ، وعدم الركون إلى الدنيا والاستجابة إلى تحقيق شهوة السلطان أو المسارعة إلى هوى الحاكم وبخاصة العلماء الذين أعطاهم الله نور العلم والمعرفة ، ولو كان فى ذلك الحتف والهلاك .

- الترفع عن الصغائر والبعد عن سفاسف الأمور ، ووجوب شغل الأوقات فى الطاعة والعبادة ، ولكل مجتهد نصيب والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . .

- وتشير القصة إلى ضرورة الصبر على قضاء الله ، والصمود أمام التجارب والامتحانات التى يمتحن الله بها عباده الصالحين . .

فهذا زكريا شق بالمنشار فلم يجزع ولم يتأوه ، وذبح ابنه بجواره فلم ينفتل من الصلاة ، وهذا يحيى قد ذبح وقطعت أوصاله ، ولكنه احتسب ذلك فى جنب الله ، ولم يجزع من قضاء الله وقدره . . إن الصبر على البلاء من أقوى الدلائل على قوة الإيمان ، وقد ورد فى الآثار الكريمة : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

- التأمل فى أحوال الدنيا وتفاهتها ، والتعجب من قوم استهانوا بدماء الأنبياء فى سبيل قضاء مأرب رخيص أو شهوة عاجلة ، فإن دم يحيى بن زكريا - عليه السلام - ودم أبيه ذهبا هدراً بمشورة امرأة فاجرة ، أسكرتها زهرة الدنيا الفانية فأذهلتها عن نعيم الله الخالد ، وبانصياع حاكم تافه ساقته الشهوة العمياء إلى اقتراف خطيئة ضجت من هولها الملائكة فى السماء . .

- ولقد أثبتت التجارب أن الله يمهل ولا يهمل ، وأن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ومهما ظن الظالمون أنهم فى عصمة من أمرهم وعلى يقين من نجاتهم فسوف يأتى اليوم الذى يعلمون فيه أى منقلب ينقلبون .

إن حكام الدول وملوكها لا يحرسون أنفسهم بالحديد والنار ولا بالجند والأعوان ، ولكن يحرسونها بالعدل وإقامة الشريعة والاحتكام إلى كتاب الله وسنة الأنبياء - عليهم السلام -

ولقد كان عقاب بنى اسرائيل قاسياً حين أعمى الباطل عيون حكامهم فعاثوا فى الأرض فساداً ، وداسوا على مقدسات الدين بأقدامهم ، وانتهكوا حرمات أنبيائهم فصب الله عليهم العذاب صباً ، وخسف بهم الأرض من تحتهم وأذهب ملكهم وسلطانهم ، وجعل سيرتهم عبرة لمن يعتبر .

بسم الله الرحمن الرحيم

المسيح عليه السلام

- البيئة التى نشأ فيها المسيح .
- قصة مريم العذراء .
- قصة الحمل فى القرآن .
- ولادة عيسى .
- مريم فى مواجهة المحنة .
- تسمية عيسى وختانه .
- سياحته فى الأرض :
- تلقيه النبوة .
- التقاء عيسى ويحيى .
- عيسى يمضى فى الدعوة .
- شريعة عيسى .
- معجزات عيسى .
- حديث المائدة .
- المؤامرة .
- جزع مريم على ابنها .
- فضائل عيسى - عليه السلام .
- محاورة بين النبى - صلى الله عليه وسلم - ونصارى نجران فى شأن عيسى
- آيات وعبر .
- المسيح والتبشير بمحمد - صلى الله عليه وسلم -
- المسيح والدعوة إلى السلام .

رسول من الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، أرسله الله ـ كما جاء على لسان المسيح ـ ليعود ببنى اسرائيل من الضلال إلى الهدى

وكان ضلال هؤلاء يتمثل فى مظاهر مختلفة منها .

ـ الخروج على تعاليم السماء الممثلة فى التوراة التى جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ

ـ غلبة المادية التى استشرت فى بعض الأوساط حتى بين من يدعون أنهم متمسكون بالدين محافظون عليه .

ـ التزاحم على المناصب الدينية التى غلبت عليها الناحية الشكلية ، والتى أصبح الهدف منها الكسب المادى ، وإقامة الطقوس رغبة فى جمع المال لا ارضاء للرب أو حماية للعقيدة .

ـ كثرة الخلافات الضاربة بين أصحاب المناصب الدينية ومذاهبهم المتعددة ما بين صدوقيين وفريسيين وآسين وغلاة وسامريين وغيرها ، وقد احتدمت الخلافات بينهم حتى حسبت كل طائفة أنها وحدها على الحق وأنها صاحبة الحق فى إقامة الشريعة والمحاسبة عليها والاستفادة منها .

ـ كثرة الأدعياء للمعرفة ، حتى أصبحت أمور النبوة والحكمة نهباً يتنافس فيها من يريد ويدعيها من يشاء . .

ولقد كان تعدد الأنبياء مألوفاً بين بنى إسرائيل حتى كان فى عصر واحد منهم مايقرب من مائة نبى استشارهم أحد ملوك بنى إسرائيل جميعاً فى الذهاب إلى رامة جلعاد للقتال كما أخبر بذلك كتاب العهد القديم (٥٥)

---

(٥٥) العهد القديم ـ سفر الملوك الأول ـ الاصحاح الثانى والعشرون

وإذا كان هذا جائزاً فى حق الأنبياء الحقيقيين فقد فتح الطريق واسعاً أمام المدعين والكاذبين ، ومن هنا ظهر الاختلاف البين بين هؤلاء وقد أخبر بذلك العهد القديم نفسه - كما يقول المرحوم العقاد - حتى هاجم بعضهم بعضاً ولم يعد أحد يعرف الصادق من الكاذب ، والنبى الحقيقى من النبى المدعى ، ولهذا قال أرمياء النبى : « إن كثيراً ممن يزعمون أنهم أنبياء يتكلمون برؤيا قلوبهم لا عن فم الرب » (٥٦)

ولئن كان هذا قد حدث فى عهد أرمياء وهو سابق على عصر المسيح بفترة طويلة فإن العصر الذى جاء بعد ذلك كان أكثر فساداً من سابقه لأن المعروف أن الزمان ينحدر إلى أسفل ، والقرون السابقة أفضل من القرون اللاحقة .

هذه بعض مظاهر الضلال التى جاء المسيح - عليه السلام - ليقومها بعد مرور أربعة آلاف عام من بدء الخليقة فى وقت كان الناس يتطلعون إلى مخلص يخلصهم مما هم فيه ، وبعضهم كانوا يعدون أبناءهم للقيام بهذا الدور حتى نشأت طائفة فى المسجد الأقصى كان يطلق عليها طائفة النذريين ، أى الذين يُنْذَرون لخدمة الهيكل ، ويُعَدُّون لعبادة الله ، ويُقَدَّمون هدية خالصة لبيت الله يقومون فيه بمهمة التبشير والتقديس لله .

ومن بين هؤلاء النذريين كانت مريم البتول - أم عيسى - عليه السلام -

قصة مريم العذراء :

أما قصة مريم العذراء فقد ذكرها القرآن الكريم فى مواضع متعددة . . تحدثت سورة آل عمران عن قصة نذرها لله وكفالة زكريا لها فقالت :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى

(٥٦) العهد القديم - سفر أرمياء - الاصحاح الثالث والعشرون

نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا
قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي
سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا
رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا
ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ
يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ (٥٧)

قصة النذر :

انحدرت مريم ابنة عمران من سلالة طيبة طاهرة اصطفاها الله على العالمين ، ونشأت فى حمى الله حيث استقرت فى رحاب المسجد الأقصى نذيرة لله ، كما وعدت بذلك أمها وأوفت بوعدها .

وقصة ذلك كما أخبر المفسرون أن عمران بن ماثان الذى ينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ كان قد تزوج من حنة بنت فاقوذ إحدى عابدات بنى إسرائيل .

وكان عمران من الأحبار المقدمين فى بيت المقدس ، بل كان إمامهم ـ كما يقول ابن إياس ـ

وكانت حنة لا تحمل ، وتطلعت يوماً إلى وكر طائر فى شجرة فوجدت عصفوراً يزق ولده فاشتهت الولد ودعت الله بذلك ، ونذرت إن رزقها الله ولداً أن تجعله محرراً لخدمة المتعبدين بالمسجد الأقصى ، وكان بعض الناس ينذرون أولادهم لذلك .

---

(٥٧) آل عمران ٣٣ ، ٣٧

ومعنى قولها « محرراً » أى حبيساً لله عتيقاً من الدنيا وأشغالها مفرغاً للعبادة .
واستجاب الله دعاءها فحملت ، ومات زوجها قبل أن تضع . .

وانتهت شهور الحمل ، وولدت حنة بنتاً جميلة الطلعة وكان ذلك مفاجأة لها ، لأنها أعدت ما فى بطنها لله ، فكيف تفى بنذرها والمولود أنثى ؟

وتحيرت حنة فى أمرها ، ولم تجد خلاصاً لها من حيرتها إلا اللجوء إلى الله ، فاتجهت إليه قائلة : رب إنى وضعتها أنثى ، وكأنها بهذه الكلمة تعتذر إلى ربها عن نذرها ، لأن الله أعلم بما وضعت ، وهى تريد أن تقول : ليست الأنثى فى خدمة البيت كالذكر ، فالذكر لديه القدرة على الخدمة ، وليس هناك ما يمنعه من الاختلاط بالناس ، وليست هناك حوائل تحول بينه وبين دخول المسجد على الدوام .

ولكنها صممت على المضى فى عزمها ، ولم تتراجع عن نيتها فى إهداء هذه الإبنة التى ولدت يتيمة الأب لبيت المقدس ، فقالت مخاطبة ربها ـ عز وجل ـ لقد سميتها مريم ـ ولهذا الاسم دلالته على الخدمة والعبادة بلغتهم ـ وعوذتها بالله ـ سبحانه وتعالى ـ هى وذريتها من الشيطان الرجيم . .

وأخبرنا الله ـ تعالى ـ أنه تقبلها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ، وقبل استعاذتها به من الشيطان ، فحفظها بحوله وقوته منه وأنجاها من فتنته حتى أخبر بذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً : « **مامن مولود إلا ونخسه الشيطان فيستهل صارخاً إلا ابن مريم وأمه** » (٥٨)

وروى أيضاً : « **ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى بن مريم ومريم** » (٥٩)

---

(٥٨) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ١ ص ٢٣٣ عن أبى هريرة
(٥٩) أخرجه إبن كثير فى تفسيره وفى جمع الجوامع حـ ٣ ص ٢٩١٢ برقم ١١٢٦/١٩٤٩٨

وشبت مريم قليلاً حتى ترعرعت فأرسلتها أمها إلى المسجد وفاء بنذرها . .

وكأنها بذلك قد أسلمتها لله وتركت تعلقها بها تأكيداً لعزمها وتحريراً لنيتها .

ذكر القرطبى فى تفسيره قال : إن شاباً قال لأمه يا أمه ذرينى لله أتعبد له وأتعلم العلم .

فقالت : نعم

فسار حتى تَبَصَّرَ ، ثم عاد فدق عليها الباب فقالت : من بالباب ؟

فقال : ابنك فلان . .

فقالت : قد تركناك لله فلا نعود فيك . .

وهكذا فعلت حنة مع مريم ، تركت ابنتها لله ، ودرجت مريم فى المسجد يتنازع الأحبار فى كفالتها كل منهم يود أن يقوم بأمرها ، حتى قال زكريا وهو زوج خالتها أو زوج أختها ـ على خلاف بين العلماء ـ : أنا أحق الناس بكفالتها . .

ولكنهم لم يسلموا له ذلك وأبوا إلا الاقتراع .

فكتبوا أسماؤهم فى سهام ألقوها فى النهر ، فطفا السهم الذى عليه اسم زكريا ، وكانت هذه علامة من تصيبه القرعة .

وقد أخبر الله عن هذا الاقتراع الذى جرى بين أحبار بين إسرائيل بسبب تنازعهم على كفالة مريم فقال :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٦٠)

والأقلام هى السهام التى عليها أسماؤهم . .

ويقول الطبرى : إن المقادير ساعدت زكريا فى الفوز بالقرعة ، فقد أجريت

---

(٦٠) آل عمران ٤٤

القرعة ثلاث مرات وفى كل مرة كان يفوز قلم زكريا . .

ففى المرة الأولى كتبوا أسماءهم على الأقلام ، وغيبوها فى موضع وطلبوا من غلام حدث أن يختار قلماً منها ، فخرج قلم زكريا ، فلم يرتضوا القرعة وطلبوا إعادتها أيضاً واتفقوا على إلقاء أقلامهم فى النهر فأى الأقلام جرى على خلاف جرية الماء فهو الغالب فكان قلم زكريا هو المخالف فلم يرضوا القرعة وطلبوا إعادتها أيضاً واتفقوا على إلقاء أقلامهم فى النهر مرة أخرى فأى الأقلام جرى مع الماء وخالف بقية الأقلام يكون هو الغالب فكان قلم زكريا هو الذى خالف جميع الأقلام فسلموا له الكفالة .

واعتنى زكريا بأمرها ، وجعل لها مكاناً خاصاً بها لا يدخله سواها ، كانت تتعبد فيه ، ومنه تقوم بما يطلب منها من خدمة البيت وتنظيفه والعناية بشأن المنقطعين فيه من حمل الماء إليهم وسقيهم .

ونشطت مريم فى العبادة نشاطاً عجيباً ، وكان زكريا يدخل إليها بين الحين والحين يتفقد أمرها ويحمل إليها طعامها ، فكان يجد عندها رزقاً ، كان يجد عندها فاكهة فى غير موسمها ، وهى ليست من فاكهة البلاد التى يعيش فيها .

فكان يسألها : يامريم أنى لك هذا ؟

فكانت تجيب : هو من عند الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب . .

ولادة عيسى أمر خارق للعادة :

لقد كانت ولادة عيسى أمراً خارقاً للعادة بمعنى الكلمة . .

فقد حملت به أمه من غير زوج

وولدته من غير أب . .

وكانت ولادة عيسى بهذه الصورة الخارقة لتشهد العالم الغارق فى الجهل المتهالك فى المادة أن هناك قدرة تقول للشىء كن فيكون . .

لقد شهد المجاورون جميعاً فى بيت المقدس لمريم بالطهر والعفاف ، وحكوا عنها فى عبادتها أموراً عجيبة أشهدتهم بأنها تبذل قصارى جهدها فى الإخلاص لله . . فلم ينظروا إليها إلا بعين كلها ثقة واطمئنان . .

وادخرت لها السماء مفاجأة لم تخطر لها على بال ، مفاجأة كسرت قوانين الأسباب وحطمت نواميس الماديات لأن الدعوة التى سوف يحملها هذا المولود دعوة روحية بحتة ، جاءت لتواجه شعباً أسَفَّ فى عبادته ، وانتكس بدينه الذى جاء به موسى ليقيم شريعة التوحيد إلى حمأة الشرك والوثنية فأقاموا فى قلب هيكل سليمان مذابح « للبعل » ونصبوا الأوثان فى بيوتهم وأطلقوا عليها اسم (الطرافين)[٦١] ، ومن بقى منهم على دينه أغرق نفسه فى طقوس ومراسم ما أنزل الله بها من سلطان ، طقوس خلت من الروح ، وافتقدت الإخلاص ، وافتقرت إلى الشعور بالحب والمناجاة الخالصة لله .. لقد كانت أذهانهم ومشاعرهم معلقة بالحس والمشاهد الملموسة والإيمان بالأثر والمؤثر ، ونسوا ماوراء الأسباب وغفلوا عن مسبب الأسباب .. فجاء حمل مريم وولادة عيسى خرقاً لكل هذه القوانين وتحدياً لهذه النواميس ، ودليلاً صادقاً على أن وراء الكون وأسبابه قدرة خارقة تقول للشىء كن فيكون ..

أما الشهادة لمريم بالطهر والعفاف فقد شهد بها القرآن الكريم والحديث الشريف فالقرآن الكريم يقول :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[٦٢]

وضرب بها المثل للمؤمنات فقال :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[٦٣]

---

(٦١) محمد الرسالة والرسول لنظمى لوقا ص ٣٥
(٦٢) آل عمران ٤٢
(٦٣) التحريم ١١ ، ١٢

والنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول فى حقها : كمل من الرجل كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام (٦٤)

وفى حديث آخر : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام »(٦٥)

وفى حديث آخر : يذكر فيه فاطمة معهن قال : حسبك منهن أربع .. سيدات نساء العالمين : فاطمة بنت محمد وخديجة بنت خويلد وآسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران (٦٦)

قصة الحمل فى القرآن الكريم :

وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - قصة الحمل بعيسى وولادته فى مواضع منها ماهو تفصيل وماهو إشارة - وقد وردت قصته بالتفصيل فى سورة نزلت باسم مريم خاصة . وسميت بها لما فيها من أمر عجيب غريب أراد الله أن يلفت إليه الأذهان ويثير به الوجدان قال - تعالى -

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ
مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ
غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ
بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ
وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا
قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾﴾(٦٧)

---

(٦٤) رواه البخارى حـ ٣ ص ٣١٨ كتاب الأنبياء
(٦٥) البخارى حـ ٤ ص ٢١٤
(٦٦) رواه ابن عساكر وذكره بن كثير فى قصص الأنبياء ص ٥٦٠
(٦٧) سورة مريم من ١٦ : ٢٢

وحول هذه الآيات الكريمة قال أهل التفسير والأخبار:

استقرت مريم فى بيت المقدس عابدة متبتلة خادمة ، وكان لها ابن عم نذره أبوه أيضاً لبيت المقدس اسمه يوسف النجار ، وكان رجلاً عفيفا صادقاً يعمل بيده ويتصدق .

وفى يوم نفدَ ماء مريم ، فقالت ليوسف : لقد نفدَ الماء فهيا بنا نستقى ، وكانت هناك مغارة بها عين ماء يستقون منها ، فقال لها : مازال عندى ماء فاذهبى أنتِ .

فذهبت مريم وحدها ومعها سقاؤها .

وقيل إنها أرادت الاغتسال فخرجت إلى عين الماء بعيداً عن الأنظار لتغتسل .

وعند الماء وجدت جبريل ـ عليه السلام ـ فى صورة رجل سوى الخلقة .

ففوجئت برؤيته ـ فاستعاذت بالله خوفاً من أن يكون قد أراد بها سوءاً .

قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ..

تعنى إن كنت تقياً فلا تؤذنى .

فقال لها جبريل ـ عليه السلام ـ لا تخافى ، وأبشرى .. فإنى لست ممن يستعاذ منه ، ولكنى رسول الله إليك ، جئتك بما فيه سعادة الأبد لك ، لقد أرسلنى ربى لأهب لك غلاماً زكيا ..

فارتاعت مريم من هول المفاجاة ، وأخذها العجب كله ، كيف يكون لها ولد ولم يمسسها بشر ؟

ولكن جبريل أسرع يبث الاطمئنان فى نفسها ، ويرد اليقين إلى قلبها قائلاً : كذلك قال ربك هو على هين .

أجل ما أهون ذلك على الله ، إن الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، وماذا تكون الأسباب أمام قدرة الله الوهاب ؟ لقد خلق الله آدم من تراب ، وسواه بيده ونفخ فيه من روحه ، وخلق حواء من ضلع آدم قال لكل منهما كن فكان ، وما خَلْق عيسى بأعجب من خلق آدم وحواء ، وليس كل ذلك بأعجب من خلق السموات والأرض . قال تعالى

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٦٨)

ومس جبريل طرف كمها ونفخ فيه فإذا بها قد حملت . .

واستسلمت مريم لقضاء الله ، وعادت بعد أن ملأت سقاءها بالماء إلى المسجد . .

وفعلت كلمات جبريل فعلها فى نفس مريم ، وشعرت بأنها مقدمة على تجربة عظيمة فاستعانت عليها بالله ، وهى على يقين من أن الله سيكون معها وهى تواجه محنتها .

ومضت الأيام ورأى يوسف ابن عمها مظاهر الحمل فاستنكر ذلك فى نفسه ، ولم يشأ مواجهتها بما ساوره من ظنون ، فقد كان يعلم من اجتهادها فى العبادة ما يجعلها فوق أى ظن أو شبهة .

---

(٦٨) سورة غافر آية ٥٧

وكلما حاول كظم ما يساوره تأبى مظاهر الحمل التي يشاهدها إلا أن تغلبه . . وفي يوم قال لها :

يا مريم : أخبريني هل نبت زرع من غير بذر ؟
قالت : نعم

قال : فهل تنبت شجرة بدون غيث ؟
قالت : نعم

قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟
قالت : ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر إنما يكون من الزرع الذي أنبته من غير بذر ؟

ألم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر ؟

قال يوسف : بلى ، أعلم أن الله على كل شيء قدير . .

وأدرك يوسف أن مريم قد أعدها الله لأمر عظيم ، فقرر أن يكون منافحاً عنها ومعيناً لها حتى تجتاز المحنة التي ستتعرض لها بنجاح .

وتحولت مريم من المسجد إلى بيت خالتها أو أختها وهي على القولين زوج زكريا الذي يكفلها . .

فقالت لها أختها : أشعرت يا مريم أني حامل ؟
فقالت لها مريم : وهل شعرت أيضاً أني حامل ؟

ولم تعترض خالتها امرأة زكريا على حمل مريم ، لأنها أدركت كما أدرك يوسف أن الله قد هيأ مريم لأمر عظيم وحدث جليل .

وأنست مريم بحملها فقد رأت في أثناء الحمل علامات أدركت منها أنها محفوفة بعناية الله ، وأن الله لن يفضحها أو يتخلى عنها . .

قالت مريم : فيما يرويه مجاهد : كنت إذا خلوت حدثني وكلمني وإذا كنت بين الناس سبَّح في بطني [69] ولكن لغرابة الحدث طالت الألسنة بالكلام ولم يكن الجو نقياً حتى يُحسن الناس الظن ويلتمسون العذر فلئن كانت أسرة زكريا قد اصطفاها الله فنجت من عدوى الغيبة وسوء الظن فهناك بيوت كثيرة محيطة بها لم تنج من ذلك ، بل هناك من يظهرون الورع ويبطنون الخبث ، ألسنتهم تقطر حلاوة وقلوبهم تنتزر بالحقد والعداوة .

ويقال إن الله تعالى أوحى إليها إنك إن ولدت بين أظهر قومك عيروك وقتلوك وولدك فارحلي بعيداً عنهم واصطحبت يوسف ابن عمها وارتحلت ، حتى إذا أبعدا في الطريق ، لم ينج من وسواس النفس فَهَمَّ بقتلها فظهر له جبريل ـ عليه السلام ـ قائلاً له : إنه من روح القدس فلا تقتلها [70] .
فاطمأن قلبه وازداد يقينه . .

ولادة عيسى :

وتظاهرت أكثر روايات العلماء على أن عيسى تم له في بطن أمه ثمانية أشهر ، ثم جاءها المخاض إلى جذع النخلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من شهر كيهك من الشهور القبطية وفيه يشتد البرد [71].

كان ذلك بعد أربعة آلاف سنة تقريباً منذ بدء الخليقة [72] .

وكانت النخلة التي التجأت إليها يابسة فأثمرت ، وأدركت مريم رحمة الله

---

(٦٩) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٥٦٨
(٧٠) قصص الأنبياء للثعلبي ص ٣٩٠
(٧١) بدائع الزهور لابن إياس ص ١٨٣
(٧٢) عبقرية المسيح للعقاد ص ٧٦

وعنايته فأرسل إليها ملائكة يأخذون بيدها فى هذه اللحظة القاسية حتى وضعت وليدها بسلام .

وتذكرت مريم قالة السوء وألسنتهم الظالمة فقالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . .

ولكن وليدها خاطبها بلسان فصيح : لا تحزنى . . وكان فى هذه الكلمة الرقيقة الصغيرة من ذلك الوليد الذى لم يمر من عمره سوى لحظات قصيرة كل العزاء لها فى محنتها .

وأتبع ذلك بقوله « قد جعل ربك تحتك سرياً » أى نهراً صغيراً عذباً تفجر بقدرة الله تحت قدمى مريم . .

ثم قال لها : وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . .

وفى لحظة تحولت هذه النخلة الجافة اليابسة إلى شجرة خضراء ذات جذع لين مرن تتدلى منه عناقيد البلح الرطب تتجاوب مع يدها الرقيقة الواهنة فتسقط لها رطباً جنياً لذيذ الطعم .

وقد ثبت طبياً أن البلح الرطب يحتوى على المواد الغذائية الرئيسية فى صورة مركزة سهلة الهضم وأنه بذلك يناسب النفساء . فما ألطف الله بعباده عامة وبمريم فى هذه اللحظة خاصة . .

وقد كان فى الإمكان أن ينزل الرطب لها بدون هز طالما أن الشجرة اخضرت بعد يبسها وأثمرت فى غير أوانها كرامة لها . . ولكن الله أراد أن يذكرها بالسبب حتى لا تنسى فى غمرة الأحداث التى تمت لها بدون أسباب ظاهرة التمسك بالأسباب الظاهرة . .

لقدكان الرزق الذى هيأه الله لها فى غير أوانه وبدون سبب منها فى الحصول عليه مقدمة لأن تقتنع بأنه فى الإمكان أن تحمل بدون زواج ، وجاء إثمار الشجرة

اليابسة العجفاء فور نزولها تحتها تأكيداً لإمكانية تخطى الأسباب . . فجاءها الأمر بالهز رداً لها لتعاطى الأسباب بعد تخطيها ، جرياً على سنة الكون ولذلك قال أحد الشعراء منبهاً لهذا المعنى :

ألم تر أن الله قال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أدنى الجذع من غير هزها جنته ولكن كل شيء له سبب

ومن فهم أهل التذوق فى ذلك قول القرطبى : لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن النصب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه واشتغل سرها بحديثه وأمره ، وجهها إلى كسبها ، وردها إلى العادة بالعمل بالأسباب التى أجراها فى عباده (٧٣) .

وقد قص القرآن الكريم علينا هذه الأحداث بقوله :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٧٤) .

---

(٧٣) تفسير القرطبى ـ سورة مريم ـ ص ٤١٣٥
(٧٤) مريم ٢٢ : ٢٦

حكى الطبرى فى تعليقه على هذه الآيات قول ابن زيد : إن عيسى ـ قال لأمه : لا تحزنى فقالت له : وكيف لا أحزن وأنت معى ؟ لا ذات زوج ولا مملوكة ، أى شىء عذرى عند الناس ؟ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام .

فى مواجهة المحنة :

واطمأنت مريم إلى وعد ربها وأنه سيظهر عذرها وينصرها فى مواجهة قومها .

فحملت وليدها وعادت إليهم ، فلما رأوها ومعها طفل ، وجهوا إليها اللوم وعنفوها وقالوا لها : لقد جئت أمراً عظيماً واقترنت إثماً كبيراً ، لقد كان أبوك رجلاً عفاً طاهراً كريماً ، ولم يكن من أولئك الرجال الذين يقترفون المنكر ويعيثون فى الأرض فساداً فيظهر أثر ذلك فى ولده .

وهموا بإيذائها ولكن الله دافع عنها ، فقد رفعت إمرأة يدها لتضربها فيبست ورماها رجل بالزنا فخرس فتحامى الناس ضربها وقذفها ، وأقبلوا عليها بكلام لين فقالوا لها : يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً .

وقيل كان رجل من بنى إسرائيل يضرب به المثل فى التقوى والصلاح اسمه هارون فنسبوها إليه إذ كانت على طريقته فى التقوى والصلاح .

فأشارت مريم إلى عيسى فقد كانت ممنوعة من الكلام ـ فتعجبوا منها ، أيمكن أن يرد عنها طفل فى مهده ؟

فقالوا : كيف نكلم صبياً فى المهد ؟

ولكن المعجزة تمت ونطق الطفل بأفصح كلام وأقوى حجة يبرىء ساحة أمه من القذف ويطهرها من الرجس .

قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . .

أول كلمة نطق بها العبودية لله ، وكأنه يريد بذلك أن يرد على من يزعمون ألوهيته فى المستقبل أو يدَّعون أنه ابن الرب .

لقد قال إنه عبد الله لا أكثر ولا أقل ، غير أن الله آتاه الكتاب كما آتاه لغيره من الأنبياء . .

وأعطاه النبوة كما أعطاها لغيره ، ومنحه البركة ، وأوصاه بالصلاة والزكاة والبر بوالدته ووهبه الرفق والحلم وعصمه من أن يكون جباراً فى الأرض بعيداً عن الخير مدفوعاً إلى الشر . . إنه جدير بالسلام عليه من الله يوم ولادته ، وسوف يصحبه السلام فى حياته ويوم وفاته ويوم بعثه .

هذه كلمات تفوه بها وليد فى مهده لم تمض على ولادته أيام ، وهى تتضمن منهج حياة عيسى ـ عليه السلام ـ وخلاصة دعوته فى المستقبل .

وهى إلى جانب ذلك معجزة له وكرامة لأمه . فقد برأ ساحتها بمنطق واضح مبين لا يقبل الشك ولا يتيح الجدل بل أخرس ألسنة السوء وقطع دابر الباطل . . وبعد أن نطق بهذه الكلمات صمت عيسى ولم يتكلم بعدها حتى بلغ مبلغ الصبيان الناطقين ، وهذا تمام المعجزة .

وقد تضمنت الآيات الكريمة التالية هذه الأحداث . قال تعالى :

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ
هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍۢ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّۭا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟
كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّۭا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلَنِى نَبِيًّۭا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ
مَا دُمْتُ حَيًّۭا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًۭا شَقِيًّۭا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ
يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّۭا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ
ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ
أَمْرًۭا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌۭ
مُّسْتَقِيمٌۭ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌۭ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٧٥)

تسميته وختانه :

ويذكر الإنجيل المنسوب إلى لوقا أنه حين تمت للطفل ثمانية أيام ذهبت به أمه إلى بيت المقدس ليختنوه وأطلقوا عليه اسم « يسوع » وهو تخفيف لإسم

---

(٧٥) مريم ٢٧ : ٣٧

« يهوشع » وهو اسم مركب من كلمتين : يهو ومعناه الرب ، وشع ومعناه الهبة أو النجدة ، فهذا الاسم معناه هبة الرب أو نجدة الرب أو منحة الرب .

وهى تسمية لها مدلولها الذى استوحته أمه من حديث الملك لها حين جاءها ليبشرها بابنها كلمة الله .

السياحة فى الأرض :

وذاع أمر الصبى ، وخشيت اليهود أمره ، وبيتوا الشر له ، وأوغروا عليه صدر الملك « هيرودوس » فأرى الله يوسف النجار رؤيا يؤمر فيها أن يخرج بالصبى وأمه إلى مصر حتى لا يبطش به الملك - فاصطحبها ، وخرجوا جميعاً متوجهين إلى مصر ونزلوا فى المنطقة التى تسمى بعين شمس المجاورة للمطرية الآن ، وهناك بئر شربوا منها واغتسلوا وغسلت مريم ثياب عيسى من تلك البئر ورشت الماء حول البئر فأنبت الله نباتاً اسمه « البيلسان » لم يكن يوجد إلا فى هذا المكان ويعصر هذا النبات فيخرج منه زيت ينتفع به النصارى ويتهادونه.ثم استأنفوا رحلتهم بعد ذلك فى ربوع مصر حتى وصلوا إلى الأشمونين وهى قرية من قرى ملوى التابعة الآن لمحافظة المنيا ، ثم إلى قرية كان اسمها « قسقام » وهى الآن اسمها « القوصية » وبها دير المحرق المشهور الذى يقام به عيد كل عام يفد إليه نصارى مصر من مختلف الجهات ثم بعد ذلك عادوا إلى الشام بعد أن هدأت الأحوال (٧٦)

---

(٧٦) تفسير القرطبى - سورة مريم - ص ٤١٤٥

وقد ذكر بعض المفسرين فى قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ ﴾ (٧٧)

أن هذه الربوة هى مصـــر ، ذكر ذلك السيوطى فى حسن المحاضرة (٧٨) وأشار إليه القرطبى فى تفسيره نقلاً عن ابن زيد .

والمدة التى قضاها السيد المسيح فى مصر لا تتعدى أربع سنوات إن لم تكن أقل من ذلك عند بعض المؤرخين استناداً إلى أن الملك « هيرودوس » الذى خرج الركب فاراً منه توفى سنة ٤ ميلادية ، وحينما بدأت الرحلة إلى مصر كان هذا الملك يأمر بقتل الأطفال الذين يقلون عن عامين ، لأن المنجمين كانوا قد تنبأوا له بأن طفلاً طلع نجمه سيكون ملكاً على اليهود ، فطلب من هؤلاء المنجمين أن يبحثوا عنه ، فلما فشلوا فى العثور عليه أمر بقتل كل طفل يقل عمره عن سنتين ،وكان الله قد أمر يوسف النجار فى رؤياه أن يرحل بالطفل إلى مصر بعيداً عن سيطرة هيرودوس .

ولكن الثعلبى وغيره من العلماء يرون أنه أقام فى مصر اثنتى عشرة سنة كانت مريم فى خلالها تغزل الكتان وتلتقط السنابل خلف الحصادين لتعول ولدها .

وحكى قصة تدور حول عبقرية عيسى فى صباه ، وأن نور الله قذف فى قلبه مبكراً فهو يرى بنور الله .

---

(٧٧) المؤمنون ٥٠

(٧٨) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠

قال : أوى عيسى وأمه ويوسف إلى أحد الدهاقين ـ أى التجار ـ الذين يحسنون إلى الفقراء وقد حدث أن سرق بعض الناس مال الدهقان فلم يهتم به أحداً ، وحزنت مريم لذلك ، فقال لها عيسى : أتحبين أن أدلك على من سرق المال ؟

قالت : نعم

قال لها : مرى الدهقان يجمع المساكين ، فجمعهم ، فعمد عيسى إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد ، فأمر الأعمى أن يحمل المُقْعَد على عاتقه ويسير به ، فقال : أنا أضعف من ذلك ، فقال : فكيف حملته البارحة وسرت به وأخذت المال ؟

ومازالوا بالأعمى حتى أقر بما فعل .. لقد استعان اللصان أحدهما بالآخر ، الأعمى بقوته والمقعد برؤيته (٧٩)

العودة إلى الشام وتلقين النبوة :

وعاد عيسى بن مريم إلى الشام بعد هلاك هيرودوس ، وأقام فى قرية اسمها الناصرة وإليها ينسب النصارى .

وكان عيسى ـ عليه السلام ـ يقبل على التعليم كعادة أترابه فى ذلك الزمان ، ولكن الله آتاه فطنة وذكاء وفهماً وألهمه الحكمة والعلم ..

حتى إذا مابلغ ثلاثين سنة أوحى الله إليه بالنبوة وأمره بالإبلاغ ..

فخرج إلى بنى إسرائيل ينادى فيهم بما أمره الله ومعه معجزته التى تثبت نبوته

---

(٧٩) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٣٩٥

وتؤكد رسالته وقد أخبرنا بذلك القرآن الكريم فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٨٠)

دعا عيسى بنى إسرائيل ، وبث دعوته التى كلف بها ، ولكن المجتمع المتناقض الذى كان يعيش فيه أبى أن يستجيب له اللهم إلا القليل منهم . .

وقد كان معاصراً له يحيى بن زكريا . . وهما ابنا خالة كما عرفنا من قصة زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ وحدث لقاء بين يحيى وعيسى ينبغى أن نشير إليه . .

لقاء عيسى ويحيى :

نشأ يحيى فى ظل أبوين كبيرين ، استجاب الله دعوتها ، وأوحى الى زكريا قائلاً :

« إن الله قد أجاب سؤالك وستلد امرأتك ولداً وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون لأنه يولد من بطن أمه ممتلئاً بالروح القدس ويرد بنى اسرائيل إلى ربهم ويتقدم بروح يليا « إلياس » وقوته »(٨١)

---

(٨٠) آل عمران ٤٨ : ٥٠

(٨١) انجيل لوقا

وقد سبق حديثنا عما جاء فى القرآن الكريم بشأن ذلك ، وماجاء فى الإنجيل لا يبعد عنه .

وظهر يحيى بدعوته ، ورآه الناس فى ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام ، ويقتات من الجراد والعسل البرى ، ويهيب بالناس فى صوت قوى صارم : توبوا واستعدوا . .

واستنكر كما عرفنا ما فعله هيرودوس ودفع يحيى حياته ثمناً لهذا الاستنكار . ولم يستنكر الأحبار والرهبان ما فعله الملك بيحيى ، وكأن الملك شفى غيظهم منه لأنهم لم يسلموا من نقده لهم على سوء تصرفاتهم ، ولهذا قابلوا مقتل يحيى بشىء من الارتياح ، ولم لا ؟ وطالما كان يقول لهم :

« ياأولاد الأفاعى ، لا يهجس بأخلادكم أنكم تنتسبون إلى ابراهيم . . إنى أقول لكم إن الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم(٨٢)

وقد التقى يحيى بعيسى على شاطىء نهر الأردن . . وكان يحيى يبشر تلاميذه بقدوم عيسى ، وكأنه كان ينتظره ليقوم بعده بما قام به . . وكان يقول عنه إنه كلمة الله .

وقد سبق أن أشرنا إلى أنهما حين التقيا طلب كل منهما إلى الآخر أن يستغفر له . . لقد عرف كل منهما فضل الآخر . .

قال العقاد : ولا يبعد أن يكون الصبى المبارك ، وكان فى الثانية عشرة من عمره قد وعى جميع الدروس التى يتعلمها الصغار فى مدارس القرى . . ويغلب على الظن أنه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان ، وأن يوحنا قد رآه وعرفه

---

(٨٢) عبقرية المسيح صـ ١١٥

وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه فى الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهى بطبيعتها رسالة إعداد وتمهيد .

ومن البديهى أن كلمات يوحنا للفتى لم تذهب بغير صدى فى نفسه الواعية ، فمن أهم آثارها فى مثل تلك النفس أن غرزت فيها الأمل ودعمت فيها اليقين وبعثتها على التأمل فيما خلقت له وفيما ترجوه ويرجى منها بين البشائر والنذر التى ترددت يومئذ فى كل مكان وعلى كل لسان (٨٣)

لقد كانت حياة المسيح قبل لقائه يوحنا على نهر الأردن تأهباً واستعداداً ، أما بعد لقائه فكانت رياضة وامتحاناً .

وما أن سمع عيسى بن مريم بأن يوحنا قد قتل حتى انصرف إلى الجليل ، وترك الناصرة وسكن كفر ناحوم وبدأ رسالته داعياً إلى التوبة والرجوع إلى الله .

عيسى يمضى فى الدعوة :

ومضى عيسى ـ عليه السلام ـ فى دعوته ، وكما كان لكل نبى أنصار ينصرونه فى دعوته كان لعيسى حواريون ذكرهم القرآن الكريم بقوله :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٨٤)

---

(٨٣) عبقرية المسيح صـ٢٠٣
(٨٤) آل عمران ٥٢ ، ٥٣

وأثنى عليهم بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٨٥)

وقيل إن الحواريين قد سموا بذلك لبياض ثيابهم وكانوا يعملون بالصيد وقد آمنوا بعيسى واتبعوا تعاليمه . .

وقيل : كانوا قصارين يبيضون الثياب ، وذكر العلماء فى ذلك قصة ، قالوا : إن مريم دفعت ابنها الى قصارين وصباغين يعمل معهم ، فأراد معلمه السفر ، فقال له : هذه ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصباغة فاصبغها على حسب اللون المثبت عليها .

فوضعها عيسى فى حوض واحد وأدخل فيه جميع الثياب ، وقال : كونى بإذن الله على حسب ما أريد منك .

فقدم المعلم والثياب فى الجب ، فلما رآها ، قال له : قد أفسدتها . فأخرج له عيسى ثوباً أحمر ، وثوباً أصفر ، وثوباً أخضر إلى غير ذلك من الألوان التى كانت مثبتة على الثياب .

فعجب المعلم من ذلك ، وعلم أن ذلك من الله ، ودعا الناس اليه فآمنوا به (٨٦)

---

(٨٥) الصف ١٤

(٨٦) تفسير القرطبى حـ ٤ صـ ٥٧

وقيل إن لفظ الحواريين مأخوذ من بياض القلوب وصفائها فهي لا تحمل ضغناً ولا حقداً لأحد ، وفي ذلك كفاية عن شدة الإخلاص ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : لكل نبي حواري والزبير حواري من أمتي وابن عمتي (٨٧)

لقد استقبل اليهود دعوة عيسى أسوأ استقبال ، على الرغم من أنه كان يتسم بالرفق واللين ومقابلة السيئة بالحسنة ، لم يكن عنيفاً في مقابلة الكفر كما كان يفعل يحيى - عليه السلام -

ولم يكن نافراً عنهم كما نفر يحيى ، وقد عرفنا أنه كان يأنس إلى القفار ويعتزل بعيداً عن الناس في البراري ، ولكن عيسى كان يخالطهم ويشهد ولائمهم وأعراسهم ، ويجلس مع صالحيهم وضعفائهم - كان طبيباً يداوي المرضى ويأسو الجراح ويذيب بكلماته الرقيقة جلامد القلوب .

ومع ذلك فلم تلق دعوته القبول لأن القلوب كانت قاسية ، والمطامع كانت طاغية ، والشهوات كانت لاهية والثورة ضده كانت عاتية .

وتلقاه صناديد الشر بكل مكر ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . . وأجمعوا أمرهم على التخلص منه حتى لا يعكر صفوهم بكلماته ، ولا يقرع أسماعهم بعظاته . .

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . .

---

(٨٧) مسند أحمد حـ ٥ صـ ٤ والطبراني في الكبير حـ ٢ صـ ١٢ وجمع الجوامع للسيوطي حـ ٣ صـ ٨٩٧

شريعة عيسى :

لقد قامت شريعة عيسى على الحب الخالص وإحياء الروح ، لأنها جاءت فى مجابهة قانون مادى عنيف تغالى فى قسوته وعنفه . . إن دعوته لم تدع إلى التوحيد فحسب ولا إلى تنزيه الله فقط ، بل كانت تدعو إلى أن يكون الله هو المحبوب الأسمى الذى يتجه إليه وجدان كل انسان ، فيتلاشى من قلبه حب كل معشوق

سواه ، ولا يبقى للحس سلطان على قلب ذلك المحب ، ولا للطقوس قيمة لأنه إذا حضر المحبوب لم يكن لتملى رسمه على الورق أو مناجاة طيفه معنى ، فكانت ديانة عيسى هى ديانة القلب الإنسانى الخالية من المراسم والطقوس كما خلت من تشريع المعاملات [٨٨]

إن المعاملات الانسانية تقوم عادة على المال والقصاص والأخلاق ، وقد اعتنى عيسى ـ عليه السلام ـ بالأخلاق ونأى بجانبه عن المال والقصاص . . بمعنى أنه دعا الى الزهد التام فى الدنيا ، ودعا إلى التسامح الأقصى بين الناس . .

انظر إليه يقول : « يعوزك شيء واحد ، اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء »

« ماأعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله . . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غنى الى ملكوت الله [٨٩]

---

(٨٨) محمد الرسالة والرسول ٣٧

(٨٩) انجيل مرقس ـ الاصحاح العاشر ـ

وليس الزهد فى المال فحسب بل الزهد فى كل شىء من مظاهر الدنيا حتى التعلق بالأهل والولد . .

قال له أحد تلاميذه : أريد أن أتبعك ولكن ذرنى أياماً أودع من فى المنزل فقال له : ليس لأحد يقبض على دفة المحراث ثم ينظر إلى الوراء يستقيم خطه . .

وقال له رجل : أريد أن أتبعك ولكن أنظرنى حتى أدفن أبى لأنه يحتضر وعلى وشك الموت فقال له : دع الموتى يدفنون موتاهم . .

فهل هناك زهد فى الدنيا أوفى من هذا ؟
أما التسامح فقد بلغ أقصاه فى كلماته الآتية :

« أيها السامعون ، أحبوا أعداءكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، ادعوا لمن يسيئون إليكم من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، وكل من سألك فأعطه ، ومن أخذ مافى يدك فلا تطالبه وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم . . »(٩٠)

لقد أراد عيسى ـ عليه السلام ـ أن يستنقذ الخراف الضالة من وهدة المادة التى ألهتهم عن جمال الروح وصرفتهم عن التفكير فى أمر السعادة الأبدية فى الآخرة . فقامت دعوته على التزهيد الكامل لهم فى المتاع الفانى والاقبال الكامل على المتاع الباقى وضرب الأمثلة المتعددة لذلك حتى يقتنعوا بدعوته ويقبلوا على كلمته .

---

(٩٠) عبقرية المسيح صـ ١٠٩

معجــــزاته :

وكانت معجزاته طريقاً له إلى قلوب الناس ، فكم أبرأ من مرضى ، ووهب الأبصار للعميان المكفوفين . .

قيل إنه مر بدير فيه عميان فقال : ما هؤلاء ؟ فقالوا : هؤلاء قوم طلبوا للقضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم

فقال لهم : ما حملكم على ذلك ؟

فقالوا : خفنا عاقبة القضاء فصنعنا بأنفسنا ما ترى

فقال لهم : أنتم العلماء والحكماء ، امسحوا أعينكم بأيديكم وقولوا باسم الله ، ففعلوا ذلك فاذا هم جميعاً ينظرون[٩١]

وكان العاذر صديقاً له ، فأرسلت أخته إلى عيسى تقول له : إن أخاك العاذر يموت فاحضر إليه ، فلما جاءه كان قد مات ودفن منذ ثلاث . فجاء إلى قبره ودعاه فقام العاذر من قبره ، وعاش وولد له .

وصنع من الطين خفاشاً ، فطار ، ولكنه كان يطير حين يراه الناس ، ويسقط حين لا يرونه . .

وكان يخبر بني إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم . .

وهذه معجزات أيد الله بها عيسى ـ عليه السلام ـ بين قومه ، وقد كان قومه بارعين فى الطب ، فكانت معجزته من جنس ما برعوا فيه . .

---

(٩١) قصص الأنبياء للثعلبى صـ ٤٠٠

وكانت له معجزات أخرى غير هذه ذكرها العلماء فى كتبهم كالمشى على الماء وقلب الأعيان كتحويل التراب إلى ذهب وقطع المسافات الطويلة فى فترة وجيزة وتكثير القليل وغير ذلك .

وقد كانت لنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزات مادية شبيهة بمعجزة عيسى ـ عليه السلام ـ إلى جانب المعجزة المعنوية الخالدة الباقية وهى القرآن الكريم . .

وقد اعتنت كتب السيرة بتدوين هذه المعجزات النبوية الخارقة وهى معروفة مشهورة تناقلها الناس خلفاً عن سلف .

قصة المائدة :

قص القرآن الكريم ـ علينا قصة مائدة بنى إسرائيل وسمى سورة كاملة باسمها لما فيها من عبر وعظات .

وقصة ذلك كما رواها أهل التفسير : أن عيسى ـ عليه السلام ـ أمر الحواريين أن يصوموا ثلاثين يوماً ، فلما أتموها طلبوا من عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء لا ينفد طعامها ، ويدركون منها أن الله قبل صومهم .

فقال لهم عيسى : اتقوا الله وأقبلوا عليه بصدق وإخلاص ، فالمؤمن لا يجرب ربه .

ولكنهم ألحوا عليه ، فدعا عيسى ربه ، قائلاً : اللهم أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ،

واستجاب الله لدعاء عيسى ، فأنزل المائدة ، ولكنه حذرهم من الكفران بعد الاستجابة ،فإن عقاب المرتد أليم ، وعذابه لا يعذبه أحد من العالمين .

قال العلماء : ونزلت المائدة من السماء بين غمامتين إحداهما أعلاها والأخرى أسفلها ، والناس ينظرون إليها ، فلما دنت قال عيسى ـ عليه السلام ـ : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها فتنة . .

وهبطت المائدة بين يدى عيسى ـ عليه السلام ـ عليها غطاء ، فخر عيسى ساجداً شكراً لله ـ تعالى ـ على نعمته وسجد الحواريون معه . .

وانبعثت رائحة طيبة من المائدة شوقت الحواريين إلى رؤية ما عليها من الطعام . .

فقال عيسى : أيكم أعبد لله وأجرأ على الله وأوثق بالله فليكشف عن هذه المائدة الغطاء ، حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمد الله عليها .
فقال الحواريون : ياروح الله أنت أحق بذلك . .

فقام عيسى وتوضأ فأحسن الوضوء ، وجدد لله الصلاة ، ودعا الله بمحامد كثيرة وأحسن الثناء عليه ، ثم جلس إلى المائدة فكشف عنها الغطاء فإذا عليها سمكة مشوية ليس فيها شوك ، يسيل منها الدسم ، وقد نضد حولها من مختلف البقول ما عدا الكراث ، وعند رأسها ملح وخل ، وعند ذنبها خمسة أرغفة على واحد منها خمس رمانات ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الباقى زيتون .

ويلغ خبر المائدة اليهود فأقبلوا غماً وكيداً ينظرون فرأوا عجباً . .
قال شمعون ـ وهو رأس الحواريين ـ : ياروح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الجنة ؟

فقال عيسى : عليه السلام - أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون وتنتهوا عن المسائل ؟

فقال شمعون : وإله بنى إسرائيل ماأردت بذلك سوءاً
ثم قال بعضهم : لو كان مع هذه الآية آية أخرى ؟
فقال عيسى عليه السلام : ياسمكة احيى بإذن الله - فاضطربت السمكة طرية تلمع عيناها ففزع الحواريون .

فقال عيسى - عليه السلام - : مالى أراكم تسألون عن الشيء فإذا أعطيتموه كرهتموه ؟ ماأخوفنى أن تعذبوا .

ثم قال عيسى : ياسمكة عودى كما كنت . . فعادت .
قال الحواريون : ياروح الله كن أول من يأكل منها .
فقال عيسى - عليه السلام - : معاذ الله إنما يأكل منها من طلبها وسألها .
فأبى الحواريون أن يأكلوا منها خشية أن تكون فتنة وعقوبة .

فلما رأى عيسى امتناعهم دعا الفقراء والمساكين والمرضى والزمنى والمقعدين وغيرهم وقال لهم : كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله عليها .

فأكلوا منها وهم سبعة آلاف وثلثمائة نفس ، فبرىء كل سقيم ، واستغنى كل فقير . .

ورأى الناس بركة هذه المائدة وأثرها الطيب الملموس ، فتزاحموا عليها تزاحماً شديداً ، فما بقى صغير ولا كبير ولا غنى ولا فقير ، ولا شيخ ولا شاب إلا اقبلوا إليها يأكلون ، وجعل يضغط بعضهم بعضاً . .

فجعلها عيسى - عليه السلام - نوباً بينهم ، وكانت تنزل يوماً بعد يوم ، وظلت كذلك أربعين يوماً ، تنزل فى الضحا ، وتظل يتوافد إليها الناس يأكلون حتى

يفيء الفيء ، فإذا فرغ الناس من الطعام طارت محلقة إلى السماء والناس ينظرون إليها حتى تتوارى . .

ثم أوحى الله إلى عيسى : أن اجعل مائدتي للفقراء دون الأغنياء . . فتمارى الأغنياء في ذلك وحقدوا على الفقراء وشككوا الناس ، فعذبهم الله عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين وذلك بأن مسخهم خنازير يأكلون القذر من القمامات بعدما كانوا يأكلون الطعام الطيب الهابط من السماء ومكثوا كذلك أياماً حتى أهلكهم الله [٩٢] . .

وحول هذه القصة نزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) ﴾ [٩٣]

---

(٩٢) تفسير القرطبي ـ سورة المائدة ـ
(٩٣) المائدة ١١٢ ، ١١٥

لقد قال الله - تعالى - إنى منزلها عليكم ، ومؤدى ذلك الخبر أنها نزلت فعلاً ، وأنه قد جرى من بعض من شاهدوها التكذيب والتغيير والتبديل فاستحقوا العذاب الذى أوعد الله به الكافرين . .

ونزول المائدة أمر حقيقى ، وليس كناية عن تكثير الطعام بين يدى عيسى - عليه السلام - فالمائدة النازلة من السماء شىء والبركة الحادثة فى الطعام شىء آخر . . وتأويل الشيخ النجار فى كتابه قصص الأنبياء حديث المائدة بذلك بعيد غاية البعد ، فقد ذكر فى كتابه أن قصة المائدة هى التى وردت فى انجيل متّى من أن تلاميذ المسيح - عليه السلام - وكانوا كثيرين طلبوا منه أن يسمح لهم بالنزول إلى القرى لابتياع الطعام ، فطلب ما معهم من الطعام ، وكان خمسة أرغفة وسمكتين ودعا عليه بالبركة ، فأكل منه الجميع وشبعوا . .

إنها محاولة منه واجتهاد فى التوفيق بين ما جاء فى القرآن الكريم وما جاء فى الانجيل . .

ولكن ليس كل ما ورد فى القرآن الكريم ورد نظيره فى الأناجيل أو العهد القديم ، وقد جاء نص القرآن الكريم صريحاً فى قوله :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ

ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ (٩٤)

لقد كان طلب الحواريين من عيسى ـ عليه السلام ـ نزول المائدة صراحة كما ذكر القرآن : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟

وفى إجابة الله دَعْوَةَ عيسى بقوله : « إنى منزلها عليكم » دليل لا شك فيه على نزول المائدة من السماء . .

وقد تم فعلاً وهو رأى جمهور المفسرين ، وليس فى ذلك غرابة ، فقد كان يحدث مثله لمريم حين كان زكريا يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقاً ، وكان يسألها عن مصدر ذلك فتقول : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

قال ابن جرير الطبرى فيما أسنده إلى عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لرجل من بنى عجل : هل تدرى كيف كان شأن مائدة بنى إسرائيل ؟
قال : لا

قال : إنهم سألوا عيسى بن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد . فقيل لهم : فإنها مقيمة لكم مالم تخبئوا أو تخونوا أو ترفعوا ، فإن فعلتم فإنى معذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين .

---

(٩٤) المائدة ١٥ ، ١٦

قال : فما مضى يومهم حتى خبأوا ورفعوا وخانوا فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين . . . وانكم معشر العرب كنتم تتبعون أذناب الابل والشاء ، فبعث الله فيكم رسولاً من أنفسكم ، تعرفون حسبه ونسبه ، وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم ونهاكم أن تكتنزوا الذهب والفضة ، وأيم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكنزوها ويعذبكم الله عذاباً أليما (٩٥) . .

المؤامـــرة :

لقد كانت دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ خطراً جسيماً على نفوذ الكهنة والفريسيين لأنه فضح نفاقهم المكشوف وورعهم الكاذب ، وعلى الرغم من أن دعوته كانت إلى المسالمة إلا أنها كانت أقوى فى مدلولها من سيوف المحاربين ورماح المجندين ، لأنه خاطب بها الضمائر الحية والقلوب النقية التى استجابت له بسرعة وتفتحت على مصاريعها أمام كلماته الصادقة الخالصة . .

كانت دعوته تسير فى خفاء ، فلم يخش هؤلاء الكهنة منها شراً ، ولكنها بدأت تعلن عن نفسها تلقائياً ، وازداد عدد المؤمنين به ، وكان لابد أن يرحلوا معه إلى بيت المقدس فى عيد الفصح جرياً على العادة . .

وتظاهر تلاميذه وهم داخلون بيت المقدس على نحو أحفظ الكهنة والأحبار ، ولكن المسيح ـ عليه السلام ـ كان قد أوصى تلاميذه باحترام هؤلاء الكهنة وعدم الإساءة إليهم ، قال لهم : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ماقالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ما لايفعلون »

---

(٩٥) تفسير الطبرى ـ الأثر ١٣٠١١ ـ ١١ °٢٢٨ ـ تفسير ابن كثير جـ٣ صـ ٢٢١

لقد حاول أن يلتزم السلام الذى جاء باسمه ، وعندما حاولوا أن يحرجوه مع السلطة قال لهم : أعطوا مالقيصر لقيصر ومالله لله ، إجابة ذكية وفيها لباقة وحياد .

وحاول المسيح ـ عليه السلام ـ أن يتشبث بالهدوء الذى التزم به والسلام الذى دعا إليه ، ولكن المؤامرة ضده من هيئة المنتفعين كانت تمضى فى طريقها محبوكة قوية .

لقد رسمت المؤامرة خطتها على أساس إحراجه بالأسئلة التى توغر إجابتها صدر السلطان ضده وتجر السلطان إلى إلقاء تهمة العصيان والتمرد على عيسى وتلاميذه . .

وتحولت الأسئلة إلى مناظرة حامية لم تلبث أن تطورت إلى معركة كلامية ثم وصلت إلى التشابك بالأيدى ، يقول العقاد : « ثم حدث مالابد أن يحدث ، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة ، يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها ، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل فى معركة أدبية لم تلبث أن

انقلبت إلى معركة يدوية بينهم وبين أنصاره ، وصاح السيد المسيح بسماسرة الهيكل يذكرهم أنهم فى بيت الله ، وأنهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص »[٩٦] . .

ورفع المتآمرون أمر المسيح إلى الحاكم ، بتهمة الرغبة فى الاستيلاء على الحكم . .

---

(٩٦) عبقرية المسيح صـ٢١٣

ويالها من تهمة . . إنها التهمة التى لا يقبل الحاكم التثبت منها ، فهى ثابتة بدون أدلة سلفاً .

زينوا للحاكم أن عيسى يسعى لأن يكون ملكاً على اليهود وهم لا يقرون له بذلك . .

وسرعان ما أرسل الوالى جنداً للقبض على عيسى ، وكان الله قد أوحى إليه بما ائتمروا به ، ولعله قد رمز فى كلامه لتلاميذه بما يراد به . . وقد اهتم بذلك الأمر واستعد له . . وحين أحدق الجنود بالبيت الذى هو فيه تجلت عناية الله لإنقاذه فى اللحظة المناسبة .

لقد ألقى الله شبههُ على أحد الخونة الذين كانوا يندسون بين تلاميذه ويدعون الإخلاص له . وهو الذى قبض عليه الجنود وحاكموه وصلبوه .

أما عيسى فقد أنجاه الله ورفعه اليه . .

قيل : إن الذى ألقى عليه هذا الشبه هو يهوذا الأسخربوطى الذى تواطأ مع الكهنة ودل على المسيح نظير أجر دفعوه اليه . فوقع فى الحفرة التى حفرها بيده ، وتجرع الكأس التى أراد أن يذيقها لغيره .

جاء فى انجيل لوقا : « وقرب عيد الفطير الذى يقال له الفصح ، وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه لأنهم خافوا الشعب ، فدخل الشيطان فى يهوذا الأسخربوطى فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند كيف يسلمه إليهم خلوا من جمع »[٩٧] . .

---

(٩٧) الاصحاح الثالث والعشرون

وقد قص القرآن الكريم علينا قصة رفع المسيح ـ عليه السلام ـ فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) ﴾[٩٨]

وفى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾[٩٩]

جاء فى تفسير القرطبى فى قصة الرفع مايلى :

قال الضحاك : لما أرادوا قتل المسيح اجتمع الحواريون فى غرفة ، وهم اثنا عشر رجلاً ، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة ، فأخبر إبليس جمع اليهود ، فركب منهم عدد كبير حتى وصلوا إلى مكانه ، فقال المسيح للحواريين ، أيكم يخرج ويقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يانبى الله ، فألقى إليه مدرعة (ثوب من كتان) وعمامة من صوف وناوله عكازه ، وألقى عليه شبه عيسى فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه ..[١٠٠] ..

---

(٩٨) آل عمران ٥٥

(٩٩) النساء ١٥٧ ، ١٥٨

(١٠٠) تفسير القرطبى صـ ٩٩ والطبرى حـ ٦ صـ ١٠

ومؤدى هذه القصة أن هذا الشبيه شهيد ، لأنه فدى بنفسه عيسى ـ عليه السلام ـ وهذه فدائية واستبسال أما القصة السابقة فإن الشبيه فيها ليس بشهيد ولكنه خائن عوقب بنفس عمله ، وشرب الكأس التى أراد أن يسقيها لسيده ومعلمه . .

وحدث ابن جرير الطبرى فقال بعد أن ذكر الحوار الذى دار بين عيسى وأصحابه من الحواريين ليلة الحادث : فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً ، فأخذها ودلهم عليه ، فألقى الله شبه عيسى على ذلك المنافق فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى ، ثم اختلفوا فقال بعضهم إنه إله لايصح قتله ، وقال بعضهم إنه قتل وصلب وقال بعضهم : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ وقال بعضهم رفع إلى السماء ، وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا[١٠١] . .

جزع مريم عليه :

وأقبلت مريم فى جزع شديد لترى ذلك المصلوب وهى تحسبه ابنها لما ألقى من شبهه عليه وسألت الموكلين به أن ينزلوه فاستجابوا لها فانزلوه ودفنوه . .

ثم إنها اصطحبت أختها أم يحيى لزيارة قبره ، فرأت رجلاً عند القبر ، ولم تره أختها ، فقالت مريم : ألا تستترين ؟ فقالت : وممن استتر ؟

قالت مريم : من ذلك الرجل الواقف عند القبر .

فقالت لها أختها : إنى لاأرى أحداً . .

---

(١٠١) انظر الكشاف جـ١ ص ٥٨٠

فعلمت مريم أنه ملَك ، وتقدمت إليه ، فإذا به جبريل ـ عليه السلام ـ فقال لها جبريل : يا مريم ، أين تريدين ؟

فقالت : أزور قبر المسيح ، وأسلم عليه ، وأجدد عهداً به .
فقال لها : إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين

كفروا وإنما هذا فتى ألقى الله شبه المسيح عليه فقتل وصلب بدلاً منه ، وعلامة ذلك أن أهله فقدوه فلا يدرون مافعل به فهم يبكون عليه .

ثم قال لها : إذا كان يوم كذا فأت فإنك تلقين المسيح . .
وجاءت فى اليوم الذى حدده لها ، فوجدت ابنها ، فأسرع إليها وقبل رأسها وأكب عليها كما كان يفعل ، وجعل يدعو لها . .

وقال لها : أمه إن القوم لم يقتلونى ولكن رفعنى الله إليه وأذن لى فى لقائك والموت يأتيك قريباً فاصبرى واذكرى الله كثيراً .
وصعد عيسى ـ عليه السلام ـ ولم تلقه إلا تلك المرة

وماتت بعده بخمس سنين ولها من العمر ثلاث وخمسون سنة (١٠٢) . .
وكان عمر عيسى يوم رفع ثلاثاً وثلاثين سنة . . وهو أصح الأقوال فى سنه . .

فضائل عيسى ـ عليه السلام ـ :

أثنى الله على نبيه عيسى ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم ثناءً مستطاباً ، وذكر اسمه فى مواضع متفرقة بلغت خمسة وعشرين موضعاً .

---

(١٠٢) قصص الأنبياء لابن كثير صـ ٦١٦

وذكره بلقبه « المسيح » إحدى عشرة مرة
وذكر اسم أمه مريم أربعاً وثلاثين مرة .

وتحدث عن الحواريين خمس مرات ، وذكر الحواريين له علاقة بعيسى بن مريم فهم الذين ناصروه ونشروا رسالته من بعده وظلوا على عهده إلا من غير منهم . .

وقد لقبه الله بالمسيح لأنه كان يمسح الأرض بسياحته الكثيرة ، فقد كان ينتقل فاراً بدينه من مكان إلى مكان قبل أن يستقر به الأمر فى الجليل تبليغاً للرسالة وهو فى سن الثلاثين من عمره .

وقيل لقب بالمسيح لأنه كان ممسوح القدمين . .
وقيل لأنه كان يمسح بيده على المريض فيشفى بقدرة الله بعد أن يغمسها فى الزيت الطيب زيت الزيتون . .

ووصف القرآن الكريم مريم بأنها صدِّيقة وكرمها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين وزكاها أعظم تزكية حين قال فى حقها

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١٠٣)

وعصم مريم وابنها من الشيطان استجابة لدعوة أمها حين قالت : وإنى أعيذها

---

(١٠٣) التحريم ١٢

بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فاستجاب لها « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا » .

وتكريم الأم تكريم للولد . .

وقد أثنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ أحسن الثناء واختصه بالذكر فى حديث ـ من له أجران فى الجنة ـ قال أبو موسى الأشعرى : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران ، وإذا آمن بعيسى بن مريم ثم آمن بى فله أجران ، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران »(١٠٤) . .

واعتبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه أولى الناس بعيسى بن مريم فقال فى ذلك : « الأنبياء أخوة ودينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى »

وقد اختصه الله بالرفع بنص القرآن الكريم حين قال : « بل رفعه الله إليه » وبقوله : « إنى متوفيك ورافعك إلى »

ولا خلاف بين العلماء بخصوص ذلك كما اختلفوا فى شأن رفع إدريس والياس ـ عليهما السلام ـ واختصه بمزية أخرى هى مزية النزول إلى الأرض بعد ذلك فى آخر الزمان فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية . .

---

(١٠٤) أخرجه البخارى فى الجهاد برقم ١٤٥ وفى باب العلم برقم ٣١ وفى باب العتق برقم ١٦ وأخرجه مسلم فى باب الايمان والترمذى فى باب النكاح . .

وقد ذكر بعض العلماء أن القرآن الكريم قد أشار إلى هذا النزول فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦١﴾ (١٠٥)

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة : إنه خروج عيسى ـ عليه السلام ـ وذلك من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة (١٠٦) . .

ومما يشير إلى نزوله أيضاً قوله ـ تعالى ـ :

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ (١٠٧)

فإن كلامه فى المهد معجزة ، فكيف يكون كلامه كهلاً معجزة ؟ لا يكون ذلك إلا عند نزوله مرة أخرى بعد رفعه إلى السماء ، فإن كلامه فى هذا الحين أمر خارق للعادة يثير العجب ، حيث يقول الناس : هذا هو عيسى بن مريم الذى رفعه الله إلى السماء عاد إلى الأرض مرة أخرى يكلم الناس . .

وهذا من خصائصه التى خصه الله بها . .

لقد كان عيسى معجزة فى خلقه ومعجزة فى ولادته ومعجزة فى تعلمه ومعجزة فى رفعه ومعجزة فى كثير من مراحل حياته . .

---

(١٠٥) الزخرف ٦١
(١٠٦) تفسير القرطبى ـ سورة الزخرف ـ
(١٠٧) آل عمران ٤٦

كانت مدة رسالته لا تزيد على ثلاث سنين ولكنها أثمرت ثماراً بالغة ملأت الأرض بنورها وتركت علامات واضحة على الطريق . وغيرت مسار كثير من التائهين ووضعت أقدامهم على الطريق الصحيح فترة من الزمن قبل أن يغير الناس ويبدلوا ويضلوا عن سواء السبيل . .

أما أخلاق عيسى ـ عليه السلام ـ فهى أخلاق الأنبياء الذين عصمهم الله من الرجس ، وطهرهم من الرذائل وحفظهم من الكذب والخيانة وقول الزور ، وكان عيسى آية فى الوداعة والعفو عند المقدرة والسماحة ولين الجانب والاستسلام لقضاء الله . . إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق ومحاسن الصفات ـ فصلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليماً كثيراً . .

محاورة بين النبى - ﷺ - ونصارى نجران :

وقد قص الله علينا فى القرآن الكريم قصة المحاجة التى تمت بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصارى نجران فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١٠٨)

---

(١٠٨) آل عمران ٥٩ ـ ٦٣

وسرد أصحاب السنن والسيرة قصة لقاء هذا الوفد بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمحاورة التى دارت ونلخصها فيما يلى :

جاء وفد نجران إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى رأسهم شرحبيل بن وداعة الهمدانى ، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحى ، وجبار بن فيض الحارثى .

وسألوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلين : من أبو عيسى ؟ يريدون بذلك تعجيز النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله عليه قوله ـ تعالى ـ :
« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »
فقرأ ذلك عليهم ـ ثم قال لهم :

ألستم تعلمون أن الله حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟
قالوا : بلى
قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟
قالوا : بلى
قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟
قالوا : لا

قال : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟
قالوا : بلى .
قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علِّم ؟
قالوا : لا يعلم شيئاً إلا ما علم

قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟
قالوا : بلى

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟

قالوا : بلى

قال : فكيف يكون كما زعمتم ؟[١٠٩] ..

فقطعهم بذلك ، ولكنهم أصروا على كفرهم ـ فلما أصبح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقبل مشتملاً على الحسن والحسين وفاطمة أمهما .. ودعاهم للملاعنة ..

فقال شرحبيل لصاحبيه : قد علمتما أن الوادى إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيى ، وإنى والله أرى أمراً ثقيلاً ..

لئن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك .

وإنا لأدنى العرب منه ومن أصحابه جواراً ..

فقال له صاحباه : يا أبا مريم ، فما الرأى ؟

قال : أرى أن أحكمه ، فإنى أراه رجلا لا يحكم شططاً أبداً .

فقالا له : أنت وذاك ..

فلقى شرحبيل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : إنى قد رأيت خيراً من ملاعنتك

فقال : وماهو ؟

قال : حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح ، فمهما حكمت فينا فهو جائز .

---

(١٠٩) الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسعيد حوا جـ ١ صـ ١٢٥

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : لعل وراءك أحداً يُثَرِّبُ عليك - أى يخطئك ويلومك ؟

فقال شرحبيل : سل صاحبى ، فسألها فاقرا بما قال .

فلما كان الغد قبل منهم النبى - صلى الله عليه وسلم - الجزية وتركهم ومايدينون (١١٠) . .

آيات وعبر :

أما قصة عيسى - عليه السلام - فمليئة بالعبر وحافلة بالآيات ، ويكفى من ذلك دلالتها الوافية على تمام قدرة الله - تعالى - الذى يقول للشىء كن فيكون . .

وقد ظهرت دلائل القدرة فى مواضع متعددة منها :

- الرزق المكفول لمريم بدون أسباب
- حمل مريم بدون نكاح وولادة عيسى من غير أب
- حديث عيسى فى المهد
- رفعه إلى السماء والقاء شبهه على من أرشد عليه .

وفى القصة من مواضع العبرة أيضاً ما يدفع إلى التضحية والفداء فى سبيل الحق ، وأن الاستشهاد فى سبيل الله حياة وبقاء ، وأن الباطل مهما اشتد فلابد له من نهاية . .

لقد حاول أعداء عيسى أن يقهروه فقهروا أنفسهم ،ونفذت دعوته بالرغم من الحصار الذى ضربوه حوله وحول تلاميذه فملأت الآفاق .

ومن دلائل العبرة الباقية ما تكشف عنه القصة من مؤامرات اليهود ضد الحق .

---

(١١٠) دلائل النبوة للبيهقى . وتفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٤٣

ومحاولاتهم المستمرة فى إطفاء شعلة النور الوهاجة بما يرسمونه من خطط ومكائد وحيلولتهم دون الحق وأهله ، ولكن ذلك كله مصيره الفشل مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١١١)

وآية الآيات فى قصة عيسى التى أوردها القرآن الكريم أنها تخلو من الوثنية والشرك ، وأنها توضح عبودية عيسى لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتثبت قدرة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن كفواً أحد .

وقد أقر عيسى أنه برىء من كل الذين اتخذوه إلها من دون الله ، كما أقر بعبوديته لله وأنه لا يزيد على أنه عبد الله ورسوله ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١١٢)

وقد وجه القرآن الكريم نظر أهل الكتاب إلى العقيدة الصحيحة وبين لهم ما يجب أن يعرفوه من فرق بين الخالق والمخلوق ، حتى لا يخلطوا بين صفات كل منهما ، وكمال الله يقتضى تنزيهه عن الشبيه والصاحبة والولد ، وكل مشابهة لله بالخلق تقتضى النقص فى حق الخالق وقد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . .

---

(١١١) آل عمران ٥٤

(١١٢) المائدة ١١٦ ، ١١٧

قال تعالى :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾ (١١٣)

ويضع القرآن الكريم عيسى وأمه فى موضعهما الصحيح فما هما إلا بشران كغيرهما من البشر يأكلان ويشربان وينامان إلا أن الله ميزهما بصفات الكمال كما ميز الرسل والأطهار قال تعالى :

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾ (١١٤)

ونفى عن المسيح تسلط اليهود عليه ودعواهم أنهم قتلوه وصلبوه فقال القرآن الكريم فى ذلك :

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)﴾ (١١٥)

وهذا منتهى التكريم لرسول اعتنت به القدرة الإلهية فردت على مكر الأعداء بمثله بل بما هو أكبر منه

---

(١١٣) النساء ١٧١ ، ١٧٢

(١١٤) المائدة ٧٥

(١١٥) النساء ١٥٧ ، ١٥٨

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١١٦)

المسيح والتبشير بمحمد :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١١٧)

وهذه الآية تشير صراحة إلى أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد بشر برسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم كما بشر به الأنبياء الذين سبقوه ، وقد ورد فى الأناجيل المتعددة كما ورد فى أسفار العهد القديم عبارات كثيرة تشير إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسالته الخاتمة ، ولكن أسيء فهمها وترجمتها أو حُرِّفَ لفظها ومع ذلك فقد بقيت عبارات لايخفى مرماها تدل على التبشير بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ، وأنه خاتم المرسلين ، ودينه الاسلام خاتم الأديان وأنه أرسل إلى الخلق جميعاً .

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قال : رضيت بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولا وجبت له الجنة » (١١٨) .

المسيح والسلام :

من المفارقات اللافتة للنظر مايزعمه الذين ينسبون أنفسهم إلى ديانة المسيح من

---

(١١٦) آل عمران ٥٤

(١١٧) الصف ٦

(١١٨) أخرجه ابوداود . وانظر فى ذلك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ص ٢٨٧ لسعيد

أن الإسلام تتناق دعوته مع السلام ، وأن ديانة السلام حقا هى ديانة المسيح - عليه السلام .

وقد استندوا فى ذلك إلى ماجاء على لسان المسيح - عليه السلام - من دعوة إلى السلام ودعوة إلى المحبة ودعوة إلى العفو والرحمة . .

ونحن لانشك فيما قاله المسيح ولكن الذى يدعو إلى التساؤل هو سلوك بعض من يزعمون أنهم يتبعون المسيح وهم إلى الوحشية أقرب منهم إلى الآدمية . .

ونظرة إلى أفاعيل هؤلاء الذين ينتسبون زورا إلى المسيح - عليه السلام - نجد أنهم دعاة حرب وإبادة ، وتاريخهم منذ أقدم العصور يشهد بذلك ، وهذه هى الحروب الصليبية كان السبب فى إشعالها هؤلاء الذين يزعمون زورا أنهم يدافعون عن المسيح وقد استمرت بضعة قرون وقوضت فى طريقها معالم حضارية وقيما روحية وآثارا علمية وأزهقت الآلاف المؤلفة من الأرواح البريئة بصورة وحشية ، تدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء لايعرفون عن المسيح شيئا ، وأن دعوته التى جاء بها تتبرأ منهم ومن أفعالهم التى قاموا بها ضد الاسلام والمسلمين . .

لقد ضرب الصليبيون خلال الحرب الصليبية الأمثلة للتعصب وأتوا من الفظائع والمذابح والكبائر ماتقشعر منه الأبدان ، وقد اعترف بذلك معظم الكتاب والمؤرخين الأوروبيين ، ومن هؤلاء المؤرخين (ميشو) فى كتابه (الحروب الصليبية) الذى ذكر أن الصليبيين حين فتحوا « معرة النعمان » قد قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع والمختبئين فى السراديب ، فأهلكوا عشرات الآلاف من النفوس البشرية ودمروا كل مظاهر الحياة ، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام ، وفتح الصليبيون القدس بعد أن أفحشوا القتل فى المسلمين حتى هلك منهم عشرات الألوف ، فيهم جماعة من الأئمة والعلماء والعباد

والزهاد ، وارتكب الصليبيون كل محرم فى دينهم مع المسلمين واليهود وحتى مع المسيحيين الذين يقيمون فى تلك المدن . .

وقال : « كان تعصب الصليبيين فى القدس تعصبا أعمى لم يسبق له نظير ، حتى شكا من ذلك المنصفون من المؤرخين ، فقد كانوا يكرهون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاما للنيران ، ودام الذبح فى المسلمين أسبوعا حتى بلغ عدد القتلى على حسب ماذكرت بعض الروايات سبعين ألف نسمة ، ولم ينج اليهود كما لم ينج العرب من الذبح .

« وقال المؤرخ روبرت : كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا ، وكانوا لايستبقون إنسانا ، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بُغية السرعة . . وكانت الدماء تسيل أنهارا فى طرق المدينة المغطاة بالجثث ، ويبحثون عن الذهب فى كل مكان بل كانوا يقطعون أصابع وأيادى القتلى من النساء طلباً له (١١٩)

ومن العجيب أن يفعل ذلك باسم المسيح ـ المسيح الذى جاء بدعوة السلام . . والحب . . والتسامح . . ومازال هؤلاء حتى الآن يمارسون هذه الجرائم بصور وأساليب مختلفة ، ومازالت فظائع الصليبيين تقوم بمسميات أخرى هى التبشير والاحتلال وحرمان الناس من حقوقهم . فى كثير من بقاع الدول الإسلامية .

وقد فعل بعض رجال الدين المسيحى المتعصبين فعلهم فى نفوس أتباعهم حتى أوهموهم أن قتل المخالفين لهم هو الطريق إلى الجنة ، وأن سفك دماء الأبرياء .

---

(١١٩) الاسلام وخرافة السيف د . عبدالودود شلبى ص ١٦٤ .

هو جواز المرور إلى الفردوس الأعلى واقرأ هذا النشيد الذى يردده جندى إيطالى فى أثناء هجوم الطليان على طرابلس الغرب :

« صلى ياأماه ولاتبكى .. بل اضحكى وتأملى

« ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب الى طرابلسْ فرحا مسرورا ..

« لابذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الاسلامية .. « سأحارب بكل قوتى لمحو القرآن ... »(١٢٠) .

ومازال التبشير قائما من هؤلاء المتعصبين على قدم وساق فى مختلف الديار الإسلامية .

والذى يدعو إلى التساؤل حقا : إلام تدعو المسيحية ؟ أليست فى حقيقتها ـ كما جاء بها المسيح ـ عليه السلام ـ تدعو إلى عبادة إله واحد لاشريك له ؟ .

وهل ابتعدت دعوة الإسلام عن هذا الخط ؟ أو هل انحرفت عن هذه الدعوة ؟ .

فلماذا يحاول بعض من يدعون أنهم اتباع المسيح ـ الذى يدعو إلى السلام ـ ارتكاب الفظائع ضد بعض المسلمين ليجبروهم على تغيير دينهم واعتناق المسيحية ؟

لقد انحرف هؤلاء عن دعوة المسيح ..

لقد نسى هؤلاء قول المسيح : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الايسر .. من نازعك الثوب فأعطه الرداء أيضا .. أحبوا مبغضيكم ، اغفروا للمسيئين إليكم .. إلى غير ذلك من نصوص تشهد بحسن المعاملة وجميل العفو وعظمة المغفرة .

---

(١٢٠) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

حقا لقد كان المسيح داعية سلام . .

ولكن بعض من يزعمون أنهم أتباعه ـ بكل اسف ـ أبعد الناس عن السلام .

إنهم دعاة حرب وصنّاع دمار ومصاصو دماء وأصحاب شر . .

لقد ابتعد هؤلاء عن ديانة المسيح ، وكما حرفوا ماجاء به المسيح ـ عليه السلام ـ من كلمات ، حرفوا المنهج الذى سار عليه وابتعدوا عن تعاليمه ، وزينوا للناس الباطل وأوهموا الأبرياء أنهم لن يكونوا قريبين من الملكوت إلا إذا صبغوا أيديهم بدماء الأبرياء الذين يشهدون أن لا اله إلا الله وان محمدا وعيسى وموسى رسل الله .

أما دعوة الإسلام إلى السلام فهى حقيقة لايمكن أن يغيرها الزيف ولايستطيع البهتان ،مهما أوتى من قوة أن يتطاول عليها . .

أصحاب القرية

وصية عيسى لرسله :

أرسل عيسى ـ عليه السلام ـ تلاميذه وحوارييه يبشرون بدعوته فى الآفاق ، وكان له اثنا عشر حواريا منهم من أخلص فى دعوته وتفانى فى خدمته ، ومنهم من نافق وتخلى عنه ووشى به لقاء دراهم معدودات ، وقد ذكرهم متّى فى إنجيله فى الإصحاح العاشر ، كما ذكر وصيته لهم التى تدور حول الإخلاص فى المهمة التى أرسلوا من أجلها ، وهى التبشير بالدعوة وهداية الناس إلى الطريق الحق ، وأعلمهم أن الله أمدهم بما أمده به من القدرة على شفاء المرضى وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وإبعاد الشياطين ، وأمرهم بألا يأخذوا أجرا على ذلك وحذرهم من الاكتناز واقتناء الذهب والفضة والنحاس وعليهم أن يأخذوا الأهبة للسفر دائما ، وأن يتخففوا من الأحمال فى رحلاتهم ، إنهم منقطعون لله ، فالله يتكفل بهم . . فليس لهم أن يكثروا من الزاد أو الثياب . . إنهم خرجوا فى سبيل الله فهم فى كفالته وحفظه .

وأمرهم أن يلقوا السلام على أهل القرية أو المدينة التى يدخلونها ، وإن قبلوا كلامهم أقاموا معهم وإلا فعليهم أن يغادروا القرية وينفضوا غبار أرجلهم الذى علق بها . . إنهم غنم وسط ذئاب فعليهم أن يكونوا حكماء . . وأخبرهم أن الله سيلهمهم الجواب الذى يجيبون به على من يحاورهم ويجادلهم . .

هذه بعض وصايا عيسى ـ عليه السلام ـ لتلاميذه ، وكانوا يسيرون عليها وينفذونها ، وكانوا لايبالون بما يعترضهم فى طريقهم من عقبات ، وبعضهم كانوا يستشهدون فى سبيل الدعوة إلى الله ، وقد قص القرآن الكريم علينا طرفا من ذلك ، لأن الطريق إلى الله واحدة ، وكلمته واحدة على لسان أنبيائه ورسله ، ولاتفرقة فى منطق الإسلام بين رسول ورسول . . . ومن الأسس التى بنيت عليها عقيدة المسلم عدم التفرقة بين الرسل . .

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ (١٢١)

الرسل فى أنطاكية :

وأرسل عيسى فيمن أرسل من رسله رسولين إلى أنطاكية . .

وأنطاكية مدينة فى شمالى سوريا ، وسط سهل خصب جميل فى الحوض الأدنى لنهر العاصى وكان اسمها « أنطوخيا » عند القدماء .

يقال إن الذى بناها هو سلوق الأول سنة ٣٠٠ قبل الميلاد مكان مستعمرتين قليلتى الشأن لليونان ، وكانت مقرا لحكام يحبون الفن ومركزا هاما للتجارة ثم لم تلبث أن أصبحت حاضرة لسوريا ، وصارت بعد ذلك أهم مدن الأمبراطورية الرومانية بأسرها وأكثرها سكانا بعد رومية والإسكندرية ، كما كانت تعد حاضرة الولايات الآسيوية قاطبة .

---

(١٢١) البقرة ٢٨٥ .

وتقع أنطاكية الحديثة وسط سهل على الشاطىء الجنوبي لنهر العاصي وتمتد إلى سفح جبل حبيب النجار على ارتفاع ١٥٢٥ قدما عن سطح البحر .(١٢٢) .

ويذكر القرطبي أن الذى بناها « أنطبيس » وقد عربت إلى أنطاكية وقد تبدل بالطاء التاء . .

وكان ملكها على ماحكاه القرطبي اسمه « أنطخيس » وكان يعبد الأصنام وهو ماذكره ابن جرير الطبري أيضا فى « تاريخ الأمم والملوك »(١٢٣) .

وقد ورد فى قصة أصحاب القرية روايتان :

أما الأولى فهى أن عيسى ـ عليه السلام ـ أرسل رسولين من حوارييه إلى أهل أنطاكية ، وحين اقتربا من المدينة لقيهما شيخ يرعى غنيمات له يقال له حبيب النجار ، فسألهما عن قصدهما .

فأجاباه بقولهما : نحن رسولا عيسى بن مريم إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به .

فقاله لهما : وهل معكما من آية ؟

قالا : نعم ، نبرىء الأكمة والأبرص ونحيى الموتى بإذن الله .

وكان لهذا الرجل ابن مريض مقعد ، فطلب إليهما أن يشفياه إن كان مايقولانه حقا . .

فأقبلا على الغلام ، ودعوا الله ربهما ومسحاه بأيديهما ، فقام يسعى بين أيدى القوم كأن لم يكن به ضر فآمن بهما حبيب ، وفشا الخبر فى القرية ، فآمن بهما خلق كثير . .

---

(١٢٢) دائرة المعارف الاسلامية ص ٨٧

(١٢٣) تاريخ الأمم والملوك ح ٢ ص ٤٧ .

ووصل الخبر إلى الملك ، وخشى أمرهما - كما تخشى الملوك على عروشها - فدعاهما إليه ، وسألهما عن أمرهما وعما يدعوان إليه .

فقالا : نحن ندعو إلى إله واحد لاشريك له . .

فقال لهما : ألكما إله غير آلهتنا ؟ .

قالا : نعم ، هو الذى أوجدك وأوجد آلهتك . .

فقال : اذهبا حتى أنظر فى أمركما . .

ولكنه أغرى بهما من اعتدى عليهما ، فقد قيل - كما يروى الزمخشرى فى تفسيره : ان الناس تبعوهما وضربوهما . . (١٢٤) .

وقيل إن الملك حبسهما . .

فلم يلبث عيسى - عليه السلام - حين أبطأ عليه رجوعهما أن أرسل بثالث يعززهما فى دعوتهما . .

كان هذا الثالث رجل حكمة وسياسة فلم يفاجىء الناس بدعوته ، ولكنه تلطف حتى وصل إلى حاشية الملك وخالطهم ، وكان اسمه « شمعون » .

ورأوا من فضائلة ماجعلهم يرفعون أمره إلى الملك ، فقربه إليه ، وأنس به حتى صار لايصبر عنه

وفى يوم قال للملك : بلغنى أنك حبست رجلين عندك فهل سمعت مايقولانه ؟ .

قال الملك : لقد حال الغضب بينى وبين ذلك .

فقال شمعون : فهلا دعوتهما إليك لنسمع مايدعوان إليه ؟ .

فأرسل الملك فى طلبهما ، فلما حضرا ، قال لهما شمعون : من أنتما ؟ وماشأنكما ؟ ومن أرسلكما ؟ وماآيتكما ؟ .

فقال الرسولان : نحن قوم آمنا بالله ودعونا إليه ، والذى أرسلنا رسول الله

---

(١٢٤) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٧

عيسى بن مريم لنبشر بدين الواحد الأحد الفرد الصمد . . أما آيتنا فإنا نبرىء الأكمة والأبرص ونحيي الموق بإذن الله .

فدعا الملك بغلام أكمه مطموس العينين ، فدعوا الله فشق له عينين ، فأتيا ببندقتين وضعاهما فى حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما . .

فعجب الملك ومن معه مما رأوا . . ومالوا إلى الرجلين . .

فأراد شمعون أن يزيد فى يقينهم فالتفت إلى الملك وقال له :

أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف ؟ .

فقال الملك : ليس لى عنك سر : إن إلهنا لايبصر ولايسمع ، ولايضر ولاينفع . .

وكان شمعون يدخل مع الملك وحاشيته بيت أصنامهم ، وكان ينظر إليهم وهم يتضرعون إلى هذه الأصنام الصماء ويعجب من غفلتهم ، وكان هو يناجى ربه فى سره ، ويدعوه فى صمت ، وكانوا يرون شفتيه تتحركان فيظنون أنه يناجى آلهتهم ، فلم يشكوا أنه منهم . . ومن أجل ذلك قال له الملك ماقال :

ثم التفت شمعون إلى الرسولين وقال لهما : إن قدر إلهكما على إحياء الميت آمنا به جميعا . وأمَّنَ الملك على كلامه . . ثم ذهبوا إلى مكان غلام قد مات منذ سبعة أيام وقد تغيرت رائحته ، ووضعوه أمام الرسولين ، فدعوا الله فقام الغلام مستويا على قدميه . . وقال : إنى دخلت سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه ، فآمنوُا ، وقال : فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة .

فقال الملك : ومن هؤلاء الثلاثة ؟ .

قال : هذا وأشار إلى شمعون ، وهذان وأشار إلى الرسولين . .

فتعجب الملك مما سمع .

ولما رأى شمعون أن قوله قد أثر فى الملك نصحه ودعاه إلى الإيمان فآمن ، وآمن قوم معه ومن لم يؤمن أرسل الله عليهم صيحة فهلكوا .

أما الرواية الأخرى : فتذكر أن الرسولين حين جاءا إلى أنطاكية ولقيا ملكها أنكر قولهما إنكارا شديدا وعذبهما عذابا نكرا ، فعززهما الله برجلٍ ثالث يؤازرهما فى دعوتهما . . والتقى الثلاثة بأهل القرية ، ودعوهم إلى الله . . ولكن أهل القرية لقوهم بالإعراض ، وصدوا عنهم ، وقالوا لهم ، إنا تطيرنا بكم ، أى تشاءمنا منكم ، وهددوهم بالرجم والقتل . .

فرد عليهم الرسل قائلين : إن شؤمكم منكم وليس منا ، فإن الكفر والشرك هو الذى يثير الشؤم على صاحبه ، أما الإيمان فهو يبعث الطمأنينة فى القلب ويرسل الأمان إلى النفس . . لقد أسرفتم على أنفسكم حين صددتم عن دعوة الله ، وأغلقتم قلوبكم دونها . .

ومازال الرسل يذكِّرون الناس بالله ويدعونهم إلى الإيمان به حتى ضاق الناس ذرعا بهم وهموا بقتلهم .

فأقبل حبيب النجار وكان قد آمن بهم من قبل ، وكان يقطن فى أقصى المدينة . أقبل على قومه يذكرهم بالله ويدعوهم إلى اتباع هؤلاء المرسلين الذى لايسألونهم أجرا على هدايتهم . .

ولكن قومه تغيظوا عليه فأقبلوا عليه فقتلوه شر قتلة ، قيل : إنهم داسوه بأرجلهم حتى أخرجوا أمعاءه . .

ولكن الله سبحانه وتعالى ـ أكرمه بالشهادة ، وأدخله الجنة ينعم بها ، وحين عاين مافيها من نعيم مقيم وخير عميم اتجه إلى قومه بلسان حاله يخاطبهم : ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين . .

لقد شق على هؤلاء القوم أن ينصحهم هذا الرجل الفقير الضعيف الذى لايأبه به أحد .. ومايدرون أن منزلته عند الله أرفع شأنا وأعلى مقاما من أولئك الملوك الذين لايساوون عند الله جناح بعوضة ..

ونزلت نقمة الله على هؤلاء القوم فورا ودون استبطاء ، فقد أخذتهم الصيحة من السماء فأصبحوا خامدين ..

يقول بعض العلماء : إن هذا الرجل نطق بعد أن مات قائلا : ياليت قومى يعلمون .. بصوت سمعه كل من شارك فى قتله ، فكان ذلك كرامة له .

قال الدميرى : (١٢٥) ومن الذين تكلموا بعد الموت أيضا : يحيى بن زكريا حين ذبح ، وحبيب النجار حين قال : « ياليت قومى يعلمون » وجعفر الطيار حين تلا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (١٢٦)

ونُطق حبيب النجار بعد موته كرامة له من غير شك ، ولكن لاينبغى المبالغة فى تصوير هذه الكرامة إلى درجة مايقوله بعضهم فى رواية رواها كاتب مادة حبيب النجار فى دائرة المعارف الإسلامية : إن حبيبا بعد أن قتل أخذ رأسه المقطوع بشماله ووضعه على يمينه ومشى ثلاثة أيام بلياليها على هذا الوضع ولسانه يرتل الآيات التى نزلت فى قصته بصوت مرتفع (١٢٧) .

وقد اعترف كاتب هذه المادة بأن هذه القصة من نسج الخيال ، وماكان أغناه عن ذكرها ..

وقد قص الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا هذه القصة بقوله : ـ

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ

---

(١٢٥) انظر حياة الحيوان جـ ١ ص ١٠٤

(١٢٦) آل عمران ١٦٩ .

(١٢٧) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١٣ صـ ٣١٨ .

ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا
بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ
إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ
لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ
أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ
قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم
مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ
ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ
﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ
ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا
مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ (١٢٨)

وظاهر الآيات أن الذى قتل هو حبيب النجار فقط ، ولكن بعض العلماء يقولون : إن القتل شمل الرسل الثلاثة أيضا . .

ولعل هذا هو الأنسب بحال هؤلاء الجاحدين الذين أخذتهم صيحة السماء فلم تُبق منهم أحدا . .

ولقد استحق حبيب النجار كرامة ربه ، لأنه صدق فى إيمانه ، ولم يتزحزح عن

---

(١٢٨) يس ١٣ : ٢٩

يقينه ، وقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسالم ـ عنه قائلا : **﴿ سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين ، حزقيل مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار مؤمن آل يس وعلى بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو أفضلهم ﴾** (١٢٩) .

وفى حديث مرفوع ذكره الزمخشرى فى تفسيره يبين فيه منزلة حبيب النجار قال : قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه : « نصح أهله حيا وميتا » .

وورد ذلك فى قصة عروة بن مسعود الثقفى الذى قتله قومه وهو يدعوهم إلى الإيمان بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن كان سيدا مطاعا فيهم فكان يقول وهو فى النزع : يامعشر ثقيف اذهبوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاطلبوا منه الأمان ، قبل أن يبلغه موق فيكم فيغزوكم ، فلم يزل كذلك حتى مات ، فبلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : لقد نصح قومه حيا وميتا وإن مثله فى قومه كمثل صاحب آل يسن .

وقد خلد ذكر حبيب النجار ، وذكره الناس بالتقدير والتبجيل ، فهو شهيد بذل روحه فى سبيل الله وإعلاء كلمته .

وقد سمى العرب باسمه جبل « سلبيوس » لأن به قبره حيث دفن ، وهذا القبر يزار كثيرا ـ كما تقول دائرة المعارف الإسلامية (١٣١) .

وقد ذكر السُّهيلى نسب حبيب النجار بأنه حبيب بن حرى بن حريق وذكر أنه كان نجارا وأنه كان مجذوما شفاه الله بدعوة الرسل . . (١٣٢) .

أما الرسل فهم يحيى وبولس وشمعون وقد أرسلهم عيسى بن مريم بإذن من الله ـ تعالى ـ ولذلك نسبهم الله إليه فى قوله تعالى : **﴿ إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾** .

والله أعلم .

---

(١٢٩) قصص الأنبياء للثعلبى جـ ٤١٥

(١٣٠) تفسير الكشاف واسد الغابة جـ ٥ ص ٣٣ وأخرجه ابن مردويه من حديث المغيرة بن شعبة .

(١٣١) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١٣ ص ٣١٨ .

(١٣٢) التعريف والاعلام للسهيلى صـ ١٨ .

أهل الكهف

سبب نزول هذه القصة فى القرآن :

نزلت سورة الكهف تحمل هذا الاسم ، الذى يشير إلى ذلك الكهف الذى أوى إليه فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى . . وقص الله قصتهم فى القرآن الكريم لتكون عبرة للمؤمنين وموعظة للمتذكرين . . وقد أشار الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى صدر هذه القصة إلى الهدف من ذكرها ، وهو إثبات البعث والتذكير بالحساب والإيمان باليوم الآخر الذى لن ينجو فيه إلا من آمن بالله كهؤلاء الفتية . .

وقد ذكر العلماء فى أسباب نزول هذه القصة مايلى.:

أخرج ابن جرير من طريق ابن اسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله . فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله . . فقال لهم أحبار اليهود : سلوه عن ثلاثة فإن أخبركم بها فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان أمرهم ؟ فانه كان لهم أمر عجيب .

وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان أمره .

وسلوه عن الروح ماهو ؟ .

فأقبلا حتى قدما على قريش فقالا لهم : قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد . فجاءوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألوه ، فقال : أخبركم غدا

بما سألتم عنه ، ولم يستثن [١] فانصرفوا ، ومكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمس عشرة ليلة لاينزل عليه الوحى ، ولايأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة ، وحتى حزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتأخر الوحى عنه ، وشق عليه مايتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبريل من الله بسورة الكهف فيها معاتبته إياه ، وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف كما أنزل عليه قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ [٢] .

متى حدثت هذه القصة ؟ :

وقد اختلف العلماء فى زمن حدوث هذه القصة ، وهل كانت قبل مولد المسيح أو بعده ؟ كما اختلفوا فى مكان الكهف . .

وحاول بعضهم إلقاء الضوء حول الزمان والمكان بذكر بعض القرائن التى تشير إلى ذلك .

وقد أورد كتاب المنتخب من التفسير الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بعض هذه الاجتهادات فقال :

لما كان القرآن الكريم قد نص على أنهم فتية آمنوا بربهم فلابد أنهم قد تعرضوا لاضطهاد دينى رأى معه هؤلاء الفتية الاعتصام بالكهف .

والتاريخ القديم يشير إلى وقوع اضطهادات دينية فى الشرق القديم حدثت فى أوقات مختلفة . . نذكر منها اضطهادين قد يكون أحدهما مناسبا للمقام .

---

(١) اى نسى ان يقول : ان شاء الله .

(٢) اسباب النزول للسيوطى صـ ١١٥

أما أولها فقد حدث فى عهد الملك السلوقى « أنيثوخوس » الرابع الملقب « بنابيقانيس » حوالى سنة ١٧٦ ـ ٨٤ قبل الميلاد . كان هذا الملك مولعا بالثقافة الإغريقية وحين أحكم قبضته على سوريا أشاع الوثنية ، ووضع تمثال « زوس » معبود الإغريق الأعظم على المذبح ، وقدم الخنازير قربانا له ، وأحرق التوراة .

وربما كان هؤلاء الفتية يهودا وكان مقرهم فلسطين أو أورشليم ففروا بدينهم من اضطهاد هذا الملك ، وآواهم الكهف حتى بعثوا حوالى سنة ١٢٦ م إبان حكم الروم للشرق أى قبل مولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحوالى ٤٤٥ سنة تقريبا .

أما الاضطهاد الثانى فقد حدث فى عهد الأمبراطور الرومانى « هادريانوس » سنة ١١٧ ـ ١٣٨ م فقد فعل هذا الأمبراطور باليهود مثلما فعل الملك السلوقى السابق ، فقد أعلن اليهود فى عهده العصيان على الامبراطورية الرومانية حتى قمع ثورتهم هذا الإمبراطور وأخضعهم تماما ، وقضى على قوميتهم وباعهم فى سوق النخاسة . . فربما يكون فى هذا العهد قد فر هؤلاء الفتية بدينهم من وجه هذا الامبراطور وأووا إلى الكهف وظلوا به حتى بعثوا حوالى سنة ٤٣٥ م أى قبل مولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمائة وثلاثين سنة تقريبا .

ويبدو أن الاضطهاد الأول أكثر تلاؤما مع أصحاب الكهف لأنه كان أشد قوة [٣] .

ومعنى ذلك أن هؤلاء الفتية يهود فروا بدينهم من وجه البطش والطغيان ، ولكن كثيرا من المفسرين يرون أن هؤلاء كانوا على دين المسيح ـ عليه السلام ـ وقد ذكر ابن جرير الطبرى فى كتابه « تاريخ الملوك » [٤] . قال : كان الفتية على دين عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وكان ملكهم كافرا .

---

(٣) المنتخب من التفسير ـ سورة الكهف .

(٤) تاريخ الملوك حـ ٢ صـ ٤٠ .

قال : ولكن البعض يزعم أن أمرهم ومصيرهم إلى الكهف كان قبل المسيح وأن المسيح أخبر قومه خبرهم ، وأن الله عز وجل ـ ابتعثهم من رقدتهم بعدما رفع المسيح فى الفترة بينه وبين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما الذى عليه علماء أهل الإسلام فهو أن أمرهم كان بعد المسيح ، فاما أنه كان فى أيام ملوك الطوائف فان ذلك مما لايدفعه دافع من أهل العلم بأخبار الناس القديمة .

ويذكر المسعودى أن أهل الكهف فروا بدينهم من « دقيوس » ملك الروم الوثنى ، وكان ملكه قد طال وظل يعبد الأوثان ستين عاما وأمعن فى قتل النصارى وطلبهم ، ولكنه أشار إلى أن هناك من يرى أن أهل الكهف غير أهل الرقيم . . وان كان كلاهما فى بلاد الروم (٥) .

قصة أصحاب الرقيم :

أما قصة أصحاب الرقيم فقد ذكرها الدميرى نقلا عن وهب الذى رواها عن النعمان بن بشير عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

قال : إن ثلاثة نفر خرجوا مرتادين لأهلهم ، فبينما هم يمشون أصابتهم السماء فأووا الى كهف فانحطت صخرة من الجبل ، فانطبقت على باب الكهف فأوصد عليهم ، فقال قائل منهم : اذكروا أيكم عمل عملا حسنا لعل الله برحمته أن يرحمنا .

فقال رجل منهم : كان لى أجراء يعملون لى عملا بأجرة معلومة ، فجاءنى رجل منهم ذات يوم وسط النهار ، فاستأجرته بشطر أجرة أصحابه ، فعمل فى بقية نهاره كما عمل رجل منهم فى نهاره كله ، فرأيت لما علىَّ من الذمام ألا أنقصه عن أصحابه .

فقال رجل منهم : أتعطى هذا مثلما أعطيتنى ولم يعمل إلا وسط النهار ؟ .

فقلت له : ياعبد الله ، لم أبخسك شيئا من شرطك ، وإنما هو مالى أحكم فيه بما شئت .

---

(٥) راجع مروج الذهب للسعودى حـ ١ صـ ٢٣٧ .

فغضب وترك أجره ، فوضعت حقه فى جانب ، وثمرته له ، فبلغ ماشاء الله أن يبلغ ، حتى جاءنى بعد حين وهو شيخ كبير فقال لى : إن لى عندك حقا ، فذكرنيه حتى عرفته .

فقلت له : إياك أبغى ، وهذا حقك ..

فقال لى : ياعبد الله لاتسخر بى ، فقلت : والله ما أسخر بك . وإنما هو حقك .. فدفعته إليه ثم دعا الله قائلا : اللهم إن كنت تعلم أن هذا شيء يرضيك ففرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة قليلا ..

ثم قال الآخر كان لى فضل وأصابت الناس شدة ، فجاءتنى امرأة تطلب منى معروفا ، فقلت لها : ماهو دون نفسك ، فأبت علىّ وذهبَتْ ، ثم رجعت فذكرتنى بالله تعالى ، فأبيت عليها وقلت : ماهو دون نفسك ، فأبت على وذهبت . ثم رجعت مرة ثالثة مستسلمة ، فلما دنوت منها ارتعدت . فقلت لها : ماشأنك قالت : إنى أخاف الله رب العالمين .

فقلت : خفت الله فى الشدة ولم أخفه فى الرخاء ؟ .

وتركتها وأعطيتها ماشاءت .

ودعا الله قائلا : اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك ففرج عنا مانحن فيه فانفرجت الصخرة قليلا . ولكنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا .

فقال الثالث : كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكان لى غنم فكنت أحلب لهما واسقيهما قبل أن يناما .. فأصابنى يوما غيث حبسنى حتى أمسيت ، فأتيت أهلى وأخذت محلبى ثم حلبت غنمى وتركتها قائمة ومضيت إلى أبوى فوجدتهما نائمين ، فشق علىّ أن أوقظهما وشق على أن أترك غنمى ، فما برحت قائما ومحلبى على يدى مترددا ماذا أفعل حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما .

اللهم إن كنت تعلم أن فعلت هذا لوجهك ففرج عنا ما نحن فيه ففرج الله عنهم فخرجوا . . (٦) .

وهذه القصة مشهورة فى كتب الحديث وهى معروفة بحديث أصحاب الغار .

ولكن جمهور المفسرين يرى أن قصة أصحاب الكهف والرقيم قصة واحدة . . والرقيم إما أن يكون لوحا من حجارة أو رصاص كتبت فيه أسماؤهم أو قصتهم ، أو هو اسم الكهف الذى آووا إليه . .

قصة أهل الكهف :

قال الرواة عن ابن إسحاق : انحرف أهل الإنجيل وكثرت فيهم الخطايا وعظمت الذنوب وطغت فيهم الملوك ، حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيث ، وفيهم بقايا على دين المسيح عيسى بن مريم متمسكين بعبادة الله وتوحيده .

وكان من طغاة ملوكهم « دقيانوس » الذى اضطهد المؤمنين وعذبهم ، وكان ينزل قرى الروم فلا يرى مؤمنا إلا فتنه عن دينه لايتركه إلا إذا عبد الأصنام وذبح لها . . ومازال كذلك حتى نزل مدينة « أفسوس » ذات يوم وهى المدينة التى كان يقيم فيها أهل الكهف ، وهى التى تسمى « طرطوس » على ساحل البحر الأبيض فى سوريا .

وحين نزل بها اختبأوا منه وهربوا فى كل جهة . . فأخذت شرطته وهم على دينه تتبع المؤمنين فى كل مكان ويأتون بهم إليه ، فيخيرهم بين القتل أو عبادة الأصنام . . فمنهم من يثبت على دينه ومنهم من يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة .

وكان هناك فتية يتصافون فيما بينهم ، جمعت بينهم خلة الدين ، وألَّفَتْ بين قلوبهم وشيجة الإيمان وكانوا من أشراف الروم ، وهم ثمانية . . رأى هؤلاء

---

(٦) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٥٠٦ .

الفتية ماحل بأهلهم فحزنوا حزنا شديدا ، وأقبلوا على الله بالتضرع والدعاء وكان فيما قالوه : « ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا . اللهم اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة ، وادفع البلاء والغم عن عبادك الذين آمنوا بك حتى يعلنوا عبادتهم إياك » .

ورفع الشرطة أمر هؤلاء إلى الملك ، فاستدعاهم . . وعرض عليهم أن يفعلوا مثلما يفعل الناس من عبادة الأصنام وذبح القرابين لها .

ولكنهم أبوا . . وهمَّ الملك بقتلهم ولكنه نظر إلى شرفهم فى قومهم فالتفت إليهم قائلا : مايمنعنى أن أعجل عليكم بالعقوبة إلا أنى أراكم شبابا صغار السن ، فلا أحب أن أهلككم حتى أجعل لكم أجلا تتذكرون فيه عقولكم وتراجعون أمركم .

وترك دقيانوس المدينة إلى مدينة أخرى يواصل فيها فتنته وأمهلهم حتى يعود . .

فلما علم الفتية بخروجه فكروا فى أمرهم ، وخافوا اذا عاد أن يقتلهم فاجتمع رأيهم على أن يفروا بدينهم من وجهه ، وأخذ كل منهم بعض الزاد وانطلقوا فى طريقهم يبحثون عن مكان يأوون إليه ويعبدون الله فيه دون أن يغير عليهم أحد .

وفى طريقهم مروا براع تبعهم على دينهم ومعه كلبه .
وحل بهم المساء ، فأووا إلى كهف فى جبل . .
وضرب الله على آذانهم فى الكهف فناموا . .
ومرت أيام ، وعاد « دقيانوس » إلى مدينة أفسوس ، ولاهمَّ له إلا هؤلاء الفتية ، فلما علم بفرارهم جن جنونه ، وأمر بالبحث عنهم فى كل مكان . . فجد جنوده فى البحث عنهم وتتبع آثارهم حتى عثروا عليهم نائمين فى الكهف .

وكأنما عثر هؤلاء على كل كنوز الدنيا ، فأسرعوا يبلغون « دقيانوس » بنبأ العثور على هؤلاء « المارقين » وخرج « دقيانوس » بنفسه وراءهم ، واطلع عليهم فى كهفهم ، فقال : ماكنت معاقبهم بشيء أكبر مما عاقبوا أنفسهم به ، سدوا عليهم باب الغار بالحجارة حتى يموتوا جوعا وعطشا وخنقا . . وحتى يكون كهفهم قبرا لهم . لقد ظن أنهم أحياء يشعرون به ولم يدرك أن الله قد ضرب على آذانهم ، وأنه ادخر يقظتهم لأجل معلوم وحكمة بالغة .

وكان فى هذا الكهف فتحة متجهة الى الشمال يجيئهم منها النسيم العليل ، وإذا طلعت الشمس من الشرق عن يمينهم مالت أشعتها عنهم ، واذا غربت عن يسارهم تجاوزتهم ولم تدخل أشعتها فى كهفهم ، فحرارة الشمس لاتؤذيهم ونسيم الهواء يأتيهم ، وذلك كله من دلائل قدرة الله ورحمته الواسعة .

لقد كان من ينظر إليهم لأول وهلة يظن أنهم متيقظون ولكنهم فى واقع الأمر نائمون نوما عميقا ، وكانوا يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال حتى تسلم أجسامهم من تأثير الأرض .

أما الكلب الذى تبعهم فقد مد ذراعيه على عتبة الغار ، وظهرت عليه علامات اليقظة وهو نائم أيضا . . وألقى الله الهيبة فى قلوب الناظر إليهم . .

وألهم الله رجلين مؤمنين كانا فى بيت الملك قيل : إن أحدهما اسمه « مندروس » والآخر اسمه « دوماس » أن يدونا قصة هؤلاء الفتية فاتفقا على أن يكتبا أسماءهم وأنسابهم وخبرهم فى لوح وجعلاه فى البناء الذى وضع أمام الكهف ، وقالا : لعل الله يهيء لهؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة ، فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا الكتاب .

ومرت الأيام وهلك « دقيانوس » فيمن هلك ومضت بعده قرون ، وبدل الله الأرض خيرا ممن كانوا فيها وأراد الله إظهار أمر هؤلاء الفتية ، فهيأ الأسباب لذلك . .

فقد كان هناك راع يرعى غنمة حول الكهف ، فحدثته نفسه أن يبنى حظيرة تأوى إليها غنمه ويلجأ إليها إذا أخذتهم السماء فاستأجر لذلك عمالا جعلوا ينزعون الأحجار التى سد بها باب الغار ويبنون بها الحظيرة .

وكان الملك الذى يتولى أمر هذه البلاد فى ذلك الوقت صالحا اسمه « باودوسيوس » وملك ثمانية وثمانين عاما وتحزب الناس فى عصره أحزابا ، وحدث بينهم مراء فى أمر الساعة بين مصدق ومكذب .

وكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع إلى الله أن يهدى الناس إلى الحق وأن يحفظهم من تشكيك أهل الباطل الذين يقولون ماهى إلا حياتنا الدنيا ومايهلكنا إلا الدهر . .

وقبل الله ضراعه هذا الملك الصالح .

وكان الراعى قد نجح فى إزالة الأحجار التى تسد فم الغار بواسطة من استأجرهم لذلك . .

وأذن الله لهؤلاء الفتية أن يستيقظوا من سباتهم العميق ، وأن يهبوا من نومهم جالسين ، وقد كانت وجوههم مستبشرة وقلوبهم مطمئنة لم يشعروا بأنهم قد قضوا فى رقدتهم هذه أكثر من يوم أو بعض يوم . . فقد استيقظوا فى الوقت الذى كانوا قد تعودوا القيام فيه . .

كانوا كهيئتهم يوم ناموا ، لم تطل أظفارهم ولاشعورهم ، ولم تتغير ملامحهم ولا ألوانهم . . لئن كان حدث شىء من ذلك لأدركوا أنهم قضوا فى نومهم وقتا طويلا ، ولكنهم أدركوا أن فترة النوم قد طالت أكثر من المعتاد قليلا فأقبلوا فيما بينهم يتساءلون كم لبثتم ؟ قالوا لبعضهم البعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . . ولكنهم كدأب المؤمنين فوضوا الأمر فى ذلك لله قائلين ربكم أعلم بما لبثتم . .

ودب الجوع فى أمعائهم .. وشعروا بحاجتهم إلى الطعام ..

وتلفتوا حولهم فلم يجدوا شيئا يؤكل .. لقد فنى مامعهم من طعام قبل أن يناموا نومتهم الأخيرة ، وكانوا قد عزموا على أن يبعثوا واحدا منهم فى الصباح ليمتار لهم .

واستعادوا معا حديثهم الذى قطعه النوم منذ قرون وكأنه لم ينقطع إلا منذ ساعات فتذاكروا أمر الهروب من « دقيانوس » واستشعروا الطلب الذى لايمكن أن يسكت عنهم ، وأن القبض عليهم وشيك وسوف يعقب القبض عليهم القتل بدون محاكمة أو رحمة .. « فدقيانوس » رجل لاتعرف الرحمة سبيلا إلى قلبه .. وكيف والرحمة قرينة الايمان ؟ فمتى فُقِدَ الإيمان فقدت الرحمة ..

ولكنهم لم يلبثوا أن فوضوا الأمر لله ، ووثقوا بحفظه ورعايته ..

وطلبوا من « تمليخا » وهو صاحب نفقتهم أن ينطلق إلى المدينة ، فيأتى لهم بطعام كثير طيب ويتسمع لهم الأخبار .. وأمروه أن يتلطف فى دخوله ويترفق فى سؤاله حتى لايشعر به أحد ..

وفعل « تمليخا » كما كان يفعل ، وخرج ووضع ثيابه ، وأخذ الثياب التى كان يتنكر فيها ، وحمل معه ورقا - فضة - من التى كانت معهم للنفقة ..

وسار فى طريقه نحو المدينة فى حذر ورفق ..

هذه الأحداث ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ
أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ
بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم
بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ

قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ
عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ
ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن
رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن
كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ
ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا
مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ
ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ
قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا
﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن
تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ۞ (٧)

ذيوع أمرهم :

وخرج تمليخا من باب الكهف فوجد حجارة مبعثرة هنا وهناك ، إنها لم تكن موجودة بالأمس ، فعجب من ذلك ، ومشى فى طريقه إلى المدينة ، ولاشك فى أنه وجد تغيرا ماقد طرأ على الطريق ، ولكنه لم يلق لذلك بالا . أما الذى استرعى انتباهه حقا فهو باب المدينة .

---

(٧) الكهف ٩ : ٢٠ .

لقد وجد على باب المدينة علامات تدل على أن هناك إيمانا يعمرها . . فقد اختفت علامات الوثنية التى كانت تعلو الباب بالأمس . . وحاور نفسه : أهكذا تنقلب المدينة من الكفر إلى الايمان بين عشية وضحاها ؟

ومع ذلك لم يصدق عينيه ، وسار متخفيا فى طرقات المدينة ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، تخوفا من أن يراه أحد فيشى به إلى « دقيانوس » الذى يتوعده ويتوعد رفاقه . .

ولو كان الأمر متعلقا به لهان الأمر ، ولكنه متعلق به وباخوانه الذين تركهم فى الكهف ينتظرون عودته وهم يتضورون جوعا .

بل وربما كان فى هلاكهم ضياع لهذا الدين الذى فروا به حفاظا عليه ، وهم يعلمون أنه لايوجد على عقيدتهم أحد سواهم . . فلو كان معهم أحد لشاركهم الفرار من الكفر وخرج معهم مهاجرا بدينه إلى الله . .

لقد راودته هذه الأحاسيس وهو يجوس طرقات المدينة . . وهاله أنه لم ير أحدا يعرفه من الناس . . لقد تغيرت الأشكال والشارات والملابس ، وتغيرت هيئات البيوت ونظام الأبنية . .

قفز إلى ذهنه خاطر : إن هذه المدينة ليست « أفسوس » ، أجل ، ليست هى ، فلو كانت هى لتعرف على أى أحد فيها ، ولرأى المنازل والأبنية والطرقات التى يعرفها . .

وغلبته الحيرة ، وترك الباب الذى دخل منه إلى باب آخر ، فلم يضف إلى

دائرة تعرفه على المدينة شيئا ، فعاد إلى الباب الأول الذى دخله بادىء ذى بدء ، وأخذ يتفرس فى واجهات المنازل فاذا به يقرأ عبارات تشير إلى التوحيد . . وازداد عجبه ، لقد كان بالأمس يُقْتل كل من تصدر من لسانه لفظة تشير إلى الايمان . . فاذا بهذه الكلمات الايمانية تكتب بلغة واضحة فوق الجدران .

وقال فى نفسه : لعلى فى حلم . فجعل يختبر نفسه فاذا به فى منتهى اليقظة ، وليس نائما . . ودخل السوق ، فرأى ناسا يذكرون اسم عيسى بن مريم ويحلفون به ، فازداد عجبه ولعل التعب قد أدركه ، فجلس وأسند ظهره إلى جدار وقال فى نفسه : والله ما أدرى ماهذا . عشية أمس لم يكن على وجه هذه الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل ، أما الآن فيذكر الناس اسم عيسى ولايخافون .

وربما خالجه الشك مرة أخرى فى أمر هذه المدينة ، وغلب الظن على نفسه أنها ليست « أفوس » ولكنه عاد يقول لنفسه : والله ما أعلم مدينة أقرب إلى الكهف الذى كنت فيه من مدينتنا وماخلفتها إلا بالأمس . . فهل يخفى عليَّ أمر هذه المدينة أو أضل الطريق إليها فى ساعات معدودة ؟

وقام كالحيران ، فلقى فتى من أهل المدينة فسأله قائلا : ماسم هذه المدينة ؟ فقال له الفتى : إنها أفسوس . .

فقال فى نفسه : لعل بى مسا ، أو أمرا أذهب عقلى . وإنه لجدير بى أن أخرج سريعا قبل أن يصيبنى سوء فأهلك . .

ولعله حدث نفسه قائلا : لئن خرجت قبل أن يفطن لى أحد لكان أكيس . .
ودنا من تاجر يبيع الطعام ، فأخرج مامعه من الورق ـ الفضة ـ فأعطاها إياه وقال : بعنى بهذه الدراهم طعاما . .

وتناول صاحب الطعام الدراهم ، ونظر إليها فى دهش . . إن نقشها وضربها يخالف دراهم اليوم . . لقد مر على هذه العملة الفضية مئات السنين . .

وأعطى الدراهم إلى رجل من أصحابه فنظر إليها فعجب كما عجب صاحب الطعام وظل الناس القريبون يتطارحون الدراهم وينظرون اليها . . وقال واحد منهم : ان هذه الدراهم من كنز عثر عليه هذا الرجل . .

ونظر « تمليخا » إليهم وهم يتطارحون الدراهم ويتهامسون فيما بينهم فأصابه ذعر شديد . وأدرك أنهم فطنوا إليه وعرفوه ، فهم بالفرار ولكنه تماسك وفوض أمره إلى الله . .

ونظر إلى صاحب الطعام قائلا : أعطنى ما أريد فقد أخذت دراهمى ، وإلا فرد إلىّ الدراهم فلاحاجة بى إلى طعامك . .

فقال رجل منهم من أنت يافتى ؟ وماشأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين وأنت تريد أن تخفيه عنا ، فانطلق معنا وشاركنا فيه وإلا رفعنا أمرك إلى السلطان ليقضى فى أمرك بما يريد . .

فلما سمع « تمليخا » قولهم قال فى نفسه : لقد وقع ماكنت أحذر منه وسكت ، فلما رأوا سكوته ازداد ريبة فيه ، فقال رجل آخر : والله إنك لاتستطيع أن تكتم شيئا مما وجدته ولاتظن فى نفسك أنك تنجو منا . .

وتملكت « تمليخا » الحيرة وأسقط فى يده فما استطاع أن يحير جواباً أو ينطق بكلمة .

فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطوقوه به فى عنقه وجعلوا يقودونه فى سكك المدينة فى طريقهم إلى الحاكم . .

وتسامع الناس فى كل مكان فى سرعة البرق ، فأقبلوا ينظرون إلى رجل عثر على كنز دفين وهو يضن به على السلطان . .

وأخذوا يتفرسون فيه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل المدينة ، وما رأيناه قط ولا نعرفه .

ولما اجتمع الناس حوله ازداد حيرة وخوفاً ، وازداد سكوته فلم ينطق ببنت شفة ، ولو قال إنه من أهل هذه المدينة لم يصدقه أحد بعد ما سمعه من إنكارهم معرفته . .

وكان مستيقناً أن أباه وإخوته وهم من أهل هذه المدينة لابد أن يحضروا ويروه ويعرفوه وربما دفعوا عنه بعض الشر الذى يحيط به .

ولكن أحداً من هؤلاء الذين كان ينتظر حضورهم لم يحضر . .

وسيق « تمليخا » إلى السلطان . .

وكان يظن أنه يقاد إلى « دقيانوس » فأعد نفسه للاستشهاد ، وأخذ يرفع رأسه تضرعاً إلى الله فى رجاء واشفاق . . والناس يسخرون به من حوله ولا يعرفون من حقيقة أمره شيئاً .

وخاطب « تمليخا » ربه بلسان الذل والانكسار قائلاً : « اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ علىّ اليوم صبراً ، وأولج معى روحاً منك تؤيدنى عند هذا الملك الجبار »

وجعل يبكى ويقول فى نفسه : فُرِّقَ بينى وبين اخوتى ، ياليتهم يعلمون مالقيت وأين يُذْهَب بى ، فلو أنهم علموا ما أصابنى لأتوا إلىّ فوقفنا معاً بين يدى هذا الجبار الذى أساق الآن إليه ، لأننا اتفقنا أن نكون معاً على الإيمان لا نكفر بالله ولا نشرك به شيئاً . . ولكنى الآن وحدى وهم لا يعلمون من أمرى شيئاً . .

واخيراً وصلوا به إلى قصر الحكم . . ولكنه لم ير « دقيانوس » . .
بل رأى وجوهاً يعلوها الإيمان وتكسوها الرحمة ورأى من بين هذه الوجوه وجهى رجلين صالحين قيل إنهما هما اللذان يحكمان المدينة نيابة عن الملك ، وهما « آرموس » و« آصطفوس » .

ونظر إليه أحدهما وقال له : أين الكنز الذى وجدته يا فتى ، فإن هذه الدراهم التى معك تشهد أنك أصبت كنزاً . ؟

فقال تمليخا وقد ذهب روعه واستعاد هدوءه . . ماوجدت كنزاً ، ولكن هذه الورق نقود آبائى وهى نقش هذه المدينة وضربها ، ولكنى ما أدرى والله ما شأنى ، وما أدرى ما أقوله لكم . .

فقال له الآخر : من أنت أيها الفتى ؟

فقال : كل ما أعرفه أنى كنت من أهل هذه المدينة حتى أمس . .
فقالوا له : من أبوك ؟ ومن يعرفك هنا ؟

فأخبرهم باسم أبيه وجده ، فلم يعرفه أحد منهم . .
فقال رجل فى أقصى المجلس : أنت رجل كذاب لا تخبر بالحق . .
فنكس « تمليخا » رأسه فى الأرض وبكى . .
فقال أحدهم : إنه رجل مجنون . .

وقال آخر : إنه ليس بمجنون ولكنه يتصنع الجنون ليفلت بالغنيمة التى عثر عليها . .

وقال أحد الحاكمين : وقد نظر إلى تمليخا بامعان : أتظن أنا نتركك ونصدقك أن هذا مال أبيك . . إن نقش هذا الورق وضربها يخبر بأن لها أكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب ؟ أتظن أنك تأفكنا وتسخر منا وحولك سراة المدينة وولاة أمرها ؟ وأن خزائن هذه البلدة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ؟

قل الحق وإلا سآمر بك فتضرب وتعذب عذاباً شديداً ، ثم أوثقك حتى تُقِر بهذا الكنز الذى وجدت . .

فلما قال ذلك أجاب تمليخا . .

أنبئونى عن شىء أسألكم عنه ، فإن فعلتم صدقتكم ما عندى .

قالوا : سل فإنا لا نكتمك شيئاً .

قال : فما فعل الملك « دقيانوس » ؟

فقالوا : لسنا نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً يسمى « دقيانوس » ولم يكن بهذا الإسم إلا ملك هلك من زمن طويل ، وقد هلكت بعده قرون كثيرة . .

فقال لهم تمليخا : فوالله ما يصدقنى أحد من الناس فيما أقول ، لقد كنا فتية عشنا فى عهد هذا الملك وإنه أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيث ، فهربنا منه عشية أمس فنمنا ، فلما انتبهنا خرجت لأشترى لأصحابى طعاماً وأتحسس لهم الأخبار ، فإذا أنا كما ترون ، فانطلقوا معى إلى الكهف الذى فى جبل « منحلوس » أريكم أصحابى . .

الفتية فى انتظار صاحبهم :

وانطلقوا جميعاً وأمامهم « تمليخا » فى طريقهم إلى الغار . .

أما الفتية فى الكهف فقد كانوا ينتظرون « تمليخا » وبطونهم خاوية من الجوع ، فلما طال انتظارهم ظنوا أنه قد ذهب به إلى « دقيانوس » وتوجسوا خيفة وتوقعوا أن يحيط بهم الجند وشيكا .

وبينما هم يظنون ذلك ويتوجسونه إذ سمعوا أصواتاً وجلبة فى الجبل مصعدة نحوهم ، فتيقنوا أنهم رسل « دقيانوس » إليهم ، ففزعُوا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض ، واستعدوا للاستشهاد . .

ووقف القوم على الفتية ، وكان قد سبقهم « تمليخا » إليهم ، ودخل عليهم وهو يبكى ، فلما رأوه يبكى بكوا معه ، ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم بخبره وقص عليهم المسألة ، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بإذن الله تعالى ذلك الزمان كله ، وإنما أيقظهم الله ليكونوا آية للناس وتصديقاً للبعث ، وقطعاً لدابر الشك الذى ساور الناس فى أمره ، واستجابة لدعوة الملك الحالى الذى تضرع إلى الله أن يهدى الناس إلى الحق ، وينصرهم على باطل الذين يزعمون أنه لا حياة إلا هذه الدنيا ، وأنه لا بعث فى الآخرة ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب . .

فى انتظار الملك :

ودخل القوم على الفتية فى أثر « تمليخا » ووجدوا قريباً منهم على باب الكهف لوحاً مكتوباً فيه مايلى :

« إن مكسمينا ، وأمليخا ـ أو تمليخا ـ ، ومرطوكش ، ونوالس ، وسانيوس ، وبطنيوس ، وكشفوط ، كانوا فتية هربوا من ملكهم « دقيانوس » الجبار مخافة أن

يفتنهم عن دينهم ، فدخلوا هذا الكهف فسد عليهم بالحجارة ، وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم أمرهم إذا عثر عليهم »

فلما قرأ القوم هذا اللوح عجبوا وحمدوا الله ـ عز وجل ـ أن أراهم آية البعث فيهم ، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه .

ودخلوا على الفتية فوجدوهم جالسين وقد أشرقت أساريرهم فى ثياب لم تبل وشعور لم تَشِب ، إنهم شباب لم يتخطوا الحلقة الثالثة من العمر ، فى مقتبل الحياة ، نوَّرَ الإيمان قلوبهم وجَمَّلَ نوره وجوههم ..

فخر القوم على وجوههم ساجدين شكراً لله ..

وحدَّث الفتية عما لقوا من « دقيانوس » ..

وأرسل القوم إلى ملكهم أن يعجل بالحضور ليرى آية الله التى استجاب بها دعوته وجعلها نوراً وضياءً وتصديقاً بالبعث ، حيث بعث فتية آمنوا بربهم بعد أن أماتهم أكثر من ثلثمائة سنة .

وجاء الملك سريعاً وقال : حمداً لله رب العالمين رب السموات والأرض وأعبدك يارب وأسبح لك ، أنعمت على ورحمتنى برحمتك ، فلم تطفىء النور الذى كنت جعلته لآبائى .

وخاطب الفتية الملك وخاطبهم ..

ثم قالوا له : نستودعك الله ونقرأ عليك السلام حفظك الله ومد فى ملكك وعمرك .

ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله إلى رحمته ..

فأمر الملك أن يجعل لكل واحد منهم تابوت من ذهب ، فلما أمسى ونام رأى

فى النوم الفتية يقولون له : إنا لم نخلق من ذهب ولا فضة ، ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نعود فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله .

وأمر الملك بأن يبنى على باب الكهف مسجد يعبد الله فيه ..

قال العلماء فيما روى عن عبدالله بن عمر (٨) : إن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثر أهل الكهف وحجبهم عنهم ، فدعا ذلك إلى رأى من قال ابنوا عليهم بنياناً ليكون مَعْلَماً لهم ـ ولكن الذين غلبوا على أمرهم وهم من كانوا على دين الفتية هم الذين اختاروا بناء المسجد ..

عددهم ومدة مكثهم فى نومهم :

وقد تمارى الناس كثيراً حول عدتهم وحول السنوات التى قضوها فى نومهم قبل إيقاظهم واطلاع الناس على قصتهم .

فمن الناس من يقول إنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم ..
ومنهم من يقول إنهم خمسة وسادسهم كلبهم ..
ومنهم من يقول إنهم سبعة وثامنهم كلبهم ..
ثم تماروا فى عدد السنين التى قضوها نياماً قبل يقظتهم ..

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بضرورة التفويض فى ذلك إلى علم الله ..

وللمحقق الشيخ عبد الوهاب النجار ـ رحمه الله ـ كلمة قيمة فى ذلك ، قال : أكثر المفسرين أن قوله ـ تعالى ـ « ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً » خبر عن مدة مكث أهل الكهف فى كهفهم منذ دخلوه إلى أن استيقظوا .

---

(٨) راجع تفسير القرطبى ـ سورة الكهف ـ ص ٣٩٩٦ ط دار الشعب

ولكنى أفهم غير ذلك وأقول : إن قوله ـ تعالى ـ « ولبثوا فى كهفهم » من مقول القائلين فى قوله تعالى « سيقولون ثلاثة » .. الخ وليس خبراً من الله تعالى ، ولذا اتبع ذلك القول بقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا .. » .

وعلى ذلك فالقرآن الكريم لم ينص على عدد أهل الكهف ولا على المدة التى مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم بل أمر رسوله أن يقول عن عددهم : ربى أعلم بعدتهم ، وأن يرد عليهم حين يقولون : ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً بقوله : الله أعلم بما لبثوا ، وقد ورد هذا القول عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما (٩) .

وقد قص الله علينا هذه الأحداث فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ
فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ
بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾
سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم
مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ
أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا

---

(٩) دائرة المعارف الاسلامية حـ٣ ص ٤٥٦

﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ
مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (١٠)

لقد علم الله أن قوم هذا الملك الذى يحكم الآن لن يؤمنوا بالبعث إلا بآية محسوسة وخبر ملموس ، فأحيا أمامهم هؤلاء الفتية الذين كانوا قد ضرب الله على آذانهم أكثر من ثلاثة قرون ليدركوا قدرة الله الخارقة وأنه إذا أراد قضاء أمر قال له كن فيكون .

هل رآهم أحد بعد ذلك ؟:

لقد قال اللهَ فى حق هؤلاء : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ، وهذا معناه أنه لن يستطيع أحد أن ينظر إليهم . . لما ألبسهم الله من الهيبة .

وقد روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم ، فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله فى القرآن الكريم ، فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ؟

فقلت له : ليس لك ذلك فقد منع الله من هو خير منك ، قال تعالى :

« لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً »

فقال معاوية : لا انتهى حتى أعلم علمهم ، ثم بعث ناسا لينظروا ، وقال لهم : اذهبوا فادخلوا الكهف .

---

(١٠) الكهف ٢١ : ٢٦

فذهبوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم [11]

وأما ماورد من أن النبى - صلى الله عليه وسلم - سأل ربه أن يريه إياهم فقال له : إنك لن تراهم ولكن ابعث إليهم أربعة من أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويطلبوا منهم الإيمان بك فأرسل إليهم أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ..

فهو خبر تعوزه الصحة وينقصه التوثيق ، وقد ذكره الدميرى فى كتابه نقلاً عن الثعلبى .

آيات وعبر :

وقصة أهل الكهف حافلة بالعبر والعظات ..

- فهى تعلمنا الثبات على الإيمان والاستمساك بالعروة الوثقى والاعتصام بالحق وعدم التفريط فيه مهما مد الباطل فى أسبابه ، واشتد الطاغوت فى إرهابه .

- والقصة تدعو إلى إيثار الأخرة على الأولى والتضحية بزهرة الحياة الدنيا فى سبيل الإيمان الحق والعقيدة الصحيحة ، فقد كان هؤلاء الفتية من سلالة الملوك ولو شاءوا لبقوا فى رفاهة عيشهم وأبهة ملكهم ، ولكنهم أحبوا الحق فهان فى جواره كل زخرف ، وعرفوا الله فنأوا بجانبهم عن غيره ..

- وتدعو القصة المؤمنين إلى الهجرة من دار الكفر إذا لم يستطيعوا مواجهة الباطل وتقويمه وجهاده ، وهذا مايشير إليه القرآن الكريم فى قوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ

---

(11) حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ ص ٥٠٣

فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ (١٢)

وفى القصة بيان لقدرة الله ـ تعالى ـ على حفظ أجساد من يريد من عباده بعد موتهم فهؤلاء الفتية مكثوا فى كهفهم ما يزيد على ثلاثمائة سنة لم تبل أجسادهم ولم تتغير هيئاتهم وبعثوا من رقدتهم كهيئتهم التى ناموا عليها ،وقد استثنى الله من تحلل أجساد العباد أجساد الأنبياء تكريماً لهم وقد ورد فى ذلك أثر : إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء . .

ـ وفى القصة اشارة إلى وجوب تقديم مشيئة الله عند العزم على فعل شىء استجابة لقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » . .

ـ وفيها وجوب المداومة على الله وعدم نسيانه ، فالله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربى لأقرب من هذا رشداً »

ومعنى النسيان هنا نسيان الاستثناء ، لأن تفويض الأمر لمشيئة الله ذكر لله وقال عكرمة : إن « نسيت » هنا معناها غضبت ـ يعنى إذا غضبت فاذكر الله .

---

(١٢) النساء ٩٧ : ٩٨

وقد روى عن وهب بن منبه : قال مكتوب فى الانجيل : يابن ادم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب ، وإلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظُلِمْتَ فلا تنتصر ، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك (١٣)

ـ لقد جاءت قصة أهل الكهف فى القرآن الكريم استجابة لسؤال جاء على وجه العناد من اليهود والمشركين وفى ذلك دليل على هيمنة القرآن على ما سبقه من الكتب ، وقد قال الله تعالى فى ذلك :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١٤)

فقد أخبرهم الله بقصة هؤلاء على حقيقتها ، وكانوا يشكون فيها ، وكانوا يظنون أنهم أعجزوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسؤالهم عما لا يعرفه مما سبق لهم علم به من أحبارهم فكان الله من ورائهم محيطاً ـ والقصة مع ذلك تعلى من مقام الفتية ، فقد وصفهم القرآن بأنهم فتية آمنوا بربهم ـ والفتوة صفة جامعة لكثير من خصال الخير والشهامة والنبل ، ومن أهم معالمها الفدائية والاستبسال والتطلع إلى الكمال ، وقد وصف الله بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين قال :

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠ ﴾ (١٥)

كما وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها على بن أبى طالب فقال :

لا فتى إلا علىّ . .

---

(١٣) حياة الحيوان حـ ٢ ص ٥٢٤

(١٤) المائدة ٤٨

(١٥) الأنبياء ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ذو القرنين

- سؤال أهل الكتاب للنبى - صلى الله عليه وسلم - عن ذى القرنين.
- قصة ذى القرنين فى القرآن.
- إسمه ونسبه ولقبه.
- هل كان ذو القرنين نبيا؟
- هل كان هو الإسكندر المقدونى؟
- أحداث قصة ذى القرنين.
- هل عثر ذى القرنين على المدينة الفاضلة؟
- ذى القرنين ويأجوج ومأجوج.

ذو القرنين

روى الإمام محمد بن الربيع فى مسند من دخل مصر من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ عن عقبة بن عامر الجهنى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال :

كنت عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخدمه فإذا أنا برجال من أهل الكتاب معهم مصاحف أو كتب فقالوا : استأذن لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فانصرفت إليه فأخبرته بطلبهم ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مالى ولهم يسألوننى عما لا أدرى . . إنما أنا عبد لا علم لى إلا ما علمنى ربى ـ عز وجل ـ

ثم طلب ـ صلى الله عليه وسلم ـ : الماء للوضوء فتوضأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قام إلى مسجد فى بيته فركع ركعتين ، فلم ينصرف حتى عرفْتُ السرور فى وجهه والبشر .

ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اذهب فأدخلهم ، ومن وجدت من أصحابى بالباب فأدخله معهم . .

قال : فأدخلتهم ، فلما رفعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تتكلموا ـ وإن شئتم تكلموا به وأخبركم .

فقالوا : بل أخبرنا قبل أن نتكلم .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ جئتم تسألوننى عن ذى القرنين ، وسأخبركم عما

تجدونه مكتوباً عندكم . . إن أول أمره أنه غلام من الروم أعطى مُلْكاً فسار حتى بلغ ساحل أرض مصر فابتنى عنده مدينة يقال لها الإسكندرية .

فلما فرغ من بنيانها أتاه ملك فعرج به حتى استقله ، فرفعه ثم قال له : انظر ماذا ترى تحتك

قال أرى مدينتى وأرى مدائن معها

ثم عرج به وقال : انظر ماذا تحتك ؟

قال : اختلطت مدينتى مع المدائن فلا أعرفها

ثم زاد فقال : انظر ماذا ترى ؟

فقال : أرى مدينتى وحدها لا أرى معها غيرها .

فقال له الملك : إنما تلك الأرض كلها ، والذى ترى محيطاً بها هو البحر ، وانما أراد ربك أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطاناً سوف يعلم الجاهل ويثبت العالم [1]

قصة ذى القرنين فى القرآن :

وردت قصة ذى القرنين فى القرآن الكريم فى سورة الكهف فى الآيات من قوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [2]

حتى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ [3]

---

(١) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٣٢١

(٢) آية رقم ٨٣

(٣) آية رقم ٩٨

وسيأتى ذكر الآيات فى أثناء عرض القصة .

وقد سبق أن أشرنا إلى القصة التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات حين تحدثنا عن قصة أهل الكهف فقد كان نزولها بناء على تحد من قبل اليهود للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرادوا أن يحرجوه فطلبوا منه أن يخبرهم عن أهل الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح .

والحديث الذى ذكرناه فى مقدمة هذا الكلام يدل على محاولات الكتابيين المتكررة فى البحث عن حقيقة دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومدى علمه بأخبار من سبق ، ومنهم من كان يؤمن ومنهم من كان يُعرض .

اسمه ونسبه :

اختلف فى اسم ذى القرنين ونسبه

فمنهم من جعله مصرياً ومنهم من جعله رومياً ومنهم من جعله يونانياً . .

فقد ورد عن ابن اسحاق ـ فيما ذكره القرطبى ـ أنه قال : حدثنى من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذى القرنين أنه كان من أهل مصر ، واسمه مرزبان بن مردبة اليونانى ، وأنه من ولد يونان بن يافث بن نوح . .

وقال ابن هشام فيما ذكره الدميرى إنه الصعب بن ذى مرثد الحميرى من ولد وائل بن حمير ، وقيل إن الملك تُبّع اليمنى افتخر به فى شعره ، فقال :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً ... ملكاً علا فى الأرض غير مفند

بلغ المغارب والمشارق يبتغى ... أسباب أمر من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند مآبها ... فى عين ذى خُلُب وثأط حرمد [4]

---

(٤) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٧٤٤ والمفند : المكذب ـ والمآب : المرجع ـ وخلب ـ بضمتين : الحمأة وهى الطين ، والثأط : الحمأة المختلطة بالماء ـ والحرمد : الطين الأسود .

وذكر المسعودى فى تعليل يمنيته أن بعض التابعة غزا مدينة رومية وأسكنها قوماً من اليمن ، وأن ذا القرنين من أولئك العرب الذين سكنوها (٥)

وروى أيضاً عن ابن هشام أن اسمه الإسكندر وهو الذى بنى الاسكندرية .
وقيل : إن اسمه هرمس وقيل : هرديس . .

أما السهيلى فيقول : هما اثنان ، أحدهما قضى لإبراهيم - عليه السلام - حين تحاكموا إليه فى بئر السبع بالشام ، والآخر كان قريباً من عهد عيسى - عليه السلام - وقد قيل : إنه « أفريدون » الذى قتل « بيوراسب » الملك الطاغى على عهد إبراهيم أو قبله بزمن (٦)

ويذكر الدميرى خبراً عن صاحب كتاب « ابتلاء الأخيار » يفيد بأن ذا القرنين اسمه الاسكندر وكان أبوه من أعلم أهل الأرض بالنجوم ومد الله له فى الأجل ، وكان متزوجاً من شقيقه أم الخضر ، وقد علقت كلتاهما بولدها فى ليلة واحدة . . فالخضر وذو القرنين ابنا خالة أحدهما عمر فى الأرض والآخر ملك من فيها (٧)

أما لقبه - ذو القرنين - فذكروا له أسباباً عدة . .
منها أنه بلغ الشرق والغرب ، ومنها أنه كان له قرنان تحت عمامته ، أى عظمتان ناتئتان كأنهما قرنان ومنها أنه كانت له ضفيرتان ، ويطلق على الضفيرة قرن كما قال الشاعر :

فلثمت فاها آخذا بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

---

(٥) مروج الذهب للمسعودى حـ ١ ص ٢١٧
(٦) التعريف والاعلام للسهيلى ص ٧٨
(٧) حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ ص ٣٦

وقيل : إنه لقب بذلك لأنه رأى فى أول ملكه أنه قابض على قرنى الشمس . .
وقيل غير ذلك ، وحسبنا أن القرآن ذكره بلقبه هذا

زمانه :

واختلف فى زمانه فقيل إنه كان بعد موسى ـ عليه السلام ـ
وقيل إنه كان قبل ذلك ، كان فى وقت إبراهيم ـ عليه السلام ـ
وقيل : إنه كان فى الفترة بعد عيسى . . وبناء على هذا الرأى عرضنا قصته فى هذا المكان . .

وقد ذكره المسعودى مع أهل الفترة قائلاً : وقد حكى عن وهب بن منبه أن ذا القرنين ـ وهو الاسكندر كان بعد المسيح ـ عليه السلام ـ فى الفترة ، وأنه كان قد رأى فى منامه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها فى شرقها وغربها ، فقص رؤياه على قومه فسموه بذى القرنين [٨]

هل كان ذو القرنين نبياً ؟ :

ذكر بعضهم أنه ملك ـ بفتح اللام ـ وقد روى خالد بن معمدان خبراً عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان ملكاً مسح الأرض من تحتها بالأسباب . .

وقيل إنه مَلِك ـ بكسر اللام ـ كان صالحاً نصح لله فأيده . .
وقيل : هو نبى مبعوث فتح الله على يديه الأرض ـ وكان ينزل عليه مَلك اسمه « رفائيل »[٩]

---

(٨) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٤٧
(٩) تفسير القرطبى ـ سورة الكهف ـ ص ٤٠٨٥ ط دار الشعب

وربما رجح كونه نبياً خطاب الله له بقوله : قلنا ياذا القرنين » واطلاق يده فى التعذيب والإثابة وتأييده بالمعجزات . .

هل هو الاسكندر المقدونى ؟ :

ليس الاسكندر المقدونى ـ عند المحققين ـ هو ذا القرنين .

فإن الاسكندر المقدونى له تاريخ محفوظ ـ وكان معاصراً « لدارا » ملك الفرس . .

وأبوه كان ملكاً اسمه فيليب خضع للفرس حينا ودفع لهم إتاوة ، رفضها الإسكندر حين تولى الملك . .

والرواة يذكرون فى ذلك قصة طريفة ـ هى أن الاتاوة التى كان يدفعها « فيليب » أبو الاسكندر لدارا ملك الفرس كانت عبارة عن بيض من الذهب ، فلما تولى الاسكندر امتنع عن دفع الإتاوة وقال لدارا : إنه قد ذبح الدجاجة التى كانت تبيض الذهب وأكل لحمها . .

وتحاربا فظهر الاسكندر عليه ، واغتال « دارا » رجلان من حاشيته فقتلهما الاسكندر قصاصاً له وعقاباً لهما على قتل ملكهما ، وتزوج من ابنة دارا بوصية منه وهو يحتضر ، وكان اسمها « روشنك » .

وقام الاسكندر بغزوات كثيرة وفتح مشارق الأرض ومغاربها . . ومات شابا فى الحلقة الرابعة من عمره [١٠] ورثاه فلاسفة عصره . .

---

(١٠) دائرة المعارف الاسلامية حـ ٢ ص ٣١٨

لقد كان الإسكندر المقدونى تلميذاً للفيلسوف أرسطو ، وفلسفة أرسطو لم تكن خالصة من الشوائب ، ومن غير شك لابد أن يتأثر التلميذ بأستاذه .

أما ذو القرنين فقد كان مؤمناً حقاً بدليل ما ورد فى قصته التى أوردها القرآن الكريم وماجاء فيها من دلائل تشير إلى العقيدة الصحيحة التى فيها النجاة كل النجاة لمن يعتقدها .

إذن فاسكندر أرسطو ، غير ذى القرنين الذى ذهبنا فى زمنه مذهب من يرى أنه من أهل الفترة التى أعقبت المسيح ـ عليه السلام ـ

أما الاسكندر المقدونى فقد كان زمنه سابقاً على الميلاد ..

قصة ذى القرنين :

اختار الله ذا القرنين ملكاً يعمر الأرض ويزرعها شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، ومكنه فيها بالعلم ، وأيده بالأسباب ، وأمده بالخوارق والكرامات ، وأعطاه سلطاناً واسعاً وحكماً نافذاً ، وقال له : سر فى الأرض فَعَلِّمْ الجاهل وثَبِّتْ العالم ..

فقال ذو القرنين : وقد هاله الأمر :

رب قد ندبتنى لأمر عظيم لا يقدره إلا أنت ، فأخبرنى عن هذه الأمم بأى قوة أكاثرهم ؟ وبأى صبر أقاسيهم وبأى لسان أناطقهم ، وكيف لى بأن أفقه لغتهم وليس عندى قوة ؟

فأجابه الحق ـ تعالى ـ : سأظفرك بما حملتك ، أشرح لك صدرك ، فيسع كل شىء ، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شىء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شىء ،

وأسخِّرُ لك النور والظلمة فيكونان جنداً من جنودك يهديك النور من أمامك ، وتحفظك الظلمة من ورائك .

وصدع ذو القرنين بالأمر ، فسار متجهاً إلى المغرب وقد بلغ نهاية ما يمكن أن ينتهي إليه من عمارة فى الأرض من جهة الغرب ، ونظر إلى الشمس وهى تغرب فوجدها فى رأى العين تغرب فى مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود ، ووجد بالقرب من هذه العين قوماً كافرين .

فدعاهم إلى الإيمان ،وأنذر من كفر منهم بالعذاب الشديد على يديه فى الدنيا وبنار جهنم فى الآخرة وبشر من آمن بالجنة ، وحسن المثوبة فى الدنيا والآخرة معاً ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

فسلط على الذين كفروا الظلمة فغشيتهم من كل مكان حتى عجوا إلى الله بالدعاء وقالوا : ربنا آمنا فاكشف عنا العذاب ، فكشفه الله عنهم . .

وجند ذو القرنين جنداً سار بهم نحو مطلع الشمس ، فوجد عند نهاية العمران قوماً لا يكاد يستر أجسادهم شىء . . فدعاهم إلى الإيمان كما دعا أهل المغرب .

واتجه شمالاً وجنوباً حتى جاء إلى مكان سحيق بين جبلين شاهقين هما جبلا « أذربيجان وأرمينية » وقيل : هما جبلان فى أواخر الشمال عند منقطع أرض التركستان (١١)

---

(١١) المنتخب من التفسير ص ٤٤٠

ووجد فى هذا المكان قوماً صالحين ولكنهم يتكلمون بصعوبة لا يكاد أحد يفهم لهم قولاً .

ورأى هؤلاء القوم ما عليه ذو القرنين من قوة فأرادوا أن يستعينوا به على قوم مفسدين هم يأجوج ومأجوج . . وكانوا أشبه بالبهائم منهم بالانسان ، يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحش كما تفترسها السباع ، لا يتركون زرعاً إلا أكلوه ولا ضرعاً إلا التهموه ولا ماء إلا شربوه ، ولم تنج منهم هوام الأرض وحشراتها . . يكثر عددهم ويسرع نموهم . .

طلب القوم الصالحون من ذى القرنين أن يقيم سداً بينهم وبين يأجوج ومأجوج وعرضوا عليه أن يؤدوا ضريبة فى نظير حمايتهم من هؤلاء القوم . .

ولكن ذا القرنين قال لهم : لقد مكننى ربى وأعطانى من الملك والقدرة والسعة ما يغنينى عن خراجكم الذى تؤدونه . . ولكنى أطلب منكم أن تعينونى بقوة الأبدان والآلات التى يمكن أن تستخدم فى إقامة البنيان . .

ولا تقفوا مكتوفى الأيدى وأنا أعمل فيما يحميكم من عدوكم ، ولكن لابد أن تبذلوا الجهد معى ، ولاشك فى أن يد الله مع الجماعة . .

لقد طلب أحد الصحابة من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو له ليكون فى الجنة وأن يشفع له يوم القيامة فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أعنى على ذلك بكثرة سجودك . .

ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يتكل الطالب على غيره فى تحقيق ما يريد ، بل لابد من بذل الجهد مع من يطلب إليه قضاء حاجته . .

ثم أوضح لهم ذو القرنين ما يمكن أن يقدموه له لينجز لهم ما يطلبون ، طلب منهم تقطيع الحديد وجمعه . . فكان يأخذ منهم هذه القطع ويضع بعضها فوق بعض بنظام وترتيب حتى يحاذى الحديد جانبى الجبلين ، ثم يأمرهم بإشعال النيران فيها حتى يضطرم الحديد فيصب عليه سائل النحاس المذاب فيصبح الحديد سداً منيعاً ، وكلما انتهى من طاقة وضع فوقها طاقة أخرى حتى انتهى من بناء السد بأكمله .

وقد وصف صحابى هذا السد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : رأيته كالبرد المحبر طريقة صفراء وطريقة حمراء وطريقة سوداء فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد رأيته (١٢)

والبرد نوع من الثياب ، والمحبر : المحسن أو المخطط . . والطريقة : الخط . . . لقد أتقن ذو القرنين بناء السد إتقاناً حسناً حتى أصبح لا يستطيع قوم يأجوج ومأجوج نقبه أو الصعود فوقه لعلوه وملاسته . .

وقد نص القرآن الكريم علينا قصة ذى القرنين فى الآيات التالية :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ

قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ

سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ

وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

---

(١٢) تفسير القرطبى

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ
ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا
﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا
﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ
وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ
وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾
قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ
ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ
عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ
هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ (١٣)

هل عثر ذو القرنين على المدينة الفاضلة ؟

يقول بعض العلماء : إن ذا القرنين بعد أن بنى السد وأحكمه ، انطلق يسير حتى وقع على أمة صالحة مثالية كتلك التى يرسمها الفلاسفة والمفكرون فى خيالهم ويتمنون وجودها فى عالم الواقع . .

قالوا : إن ذا القرنين وجد هذه الأمة . . . ومن أوصافها أن أهلها يهدون بالحق وبه يعدلون ، وهم مقسطون مقتصدون ، يقسمون بالسوية ويحكمون

---

(١٣) الكهف ٨٣ : ٩٨

بالعدل ويتراحمون فيما بينهم .. حالهم واحدة ، وكلمتهم واحدة وأخلاقهم مستقيمة ، ورأى قبورهم على أبواب بيوتهم ، وليس لبيوتهم أغلاق ، وليس عليهم أمراء ولا يوجد بينهم قضاة .. لايختلفون ولا يتفاضلون ولا يتنازعون ولا يتسابون ولا يتقاتلون ، ولا يضحكون ، ولا يحزنون ، ولا تصيبهم الآفات التي تصيب الناس ، وهم أطول الناس أعماراً .

فلما رأى ذلك ذو القرنين عجب من أمرهم .. فقال لهم :

أخبروني أيها القوم خبركم وأعلموني أمركم ، فإني قد أحصيت الدنيا كلها برها وبحرها وشرقها وغربها فلم أر أحداً مثلكم ..

قالوا له : سل ماتريد

فقال : مابال قبوركم على أبواب بيوتكم ؟

قالوا : فعلنا ذلك عمداً حتى لا ننسى الموت ولا يخرج ذكره من قلوبنا .

قال : فما بال بيوتكم ليس عليها أغلاق ؟

قالوا : لأنه ليس فينا مُتّهم .. وكل منا أمين حفيظ على حاجة غيره ..

قال : فما بالكم ليس عليكم أمراء ؟

قالوا : لا حاجة لنا بذلك فكل منا يعرف حقه ومايجب عليه ..

قال : ولماذا لا يوجد حكام أو قضاة بينكم ؟

قالوا : لانا لا نختصم .

قال : فما بالكم لا يوجد بينكم أغنياء ؟

قالوا : لانا لا نتكاثر بالأموال .

قال : فما بالكم لايوجد بينكم ملك ؟

قالوا : لأنا لا نرغب فى ملك الدنيا .

قال : فما بالكم لا يوجد بينكم أشراف ؟

قالوا : لأنا لا نتفاخر .

قال : فلماذا لا تتنازعون ولا تختلفون ؟

قالوا : من صلاح ذات بيننا ، ومن أجل أننا أسسنا أنفسنا بالحلم .

قال : فما بال كلمتكم واحدة وطريقتكم مستقيمة ؟

قالوا : لأننا لا نتكاذب ولا نتخادع ، ولا يغتاب بعضنا بعضاً .

قال : لماذا تشابهت قلوبكم واعتدلت سرائركم ؟

قالوا : لأنه قد صحت نياتنا فنزع بذلك الغل من صدورنا والحسد من قلوبنا .

قال : ولماذا لا يوجد بينكم فقير ولا مسكين ؟

قالوا : لأننا نعطى بعضنا بعضاً ، ولا يبخل أحدنا على أخيه . .

قال : فلماذا لا تضحكون ؟

قالوا : حتى لا نغفل عن الاستغفار

قال : ومابالكم لا تحزنون ؟

قالوا : لأنا وطنا أنفسنا على البلاء منذ أن كنا أطفالاً .

قال : ولماذا لا تصيبكم الآفات كما تصيب الناس ؟

قالوا : لأنا توكلنا على الله ، ولا نعمل بالأنواء والنجوم .

قال : حدثونى ، هكذا وجدتم آباءكم ؟

قالوا : نعم ، كان آباؤنا كذلك يرحمون مساكينهم ، ويواسون فقراءهم ويحرمون الظلم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، ويحلمون على من جهل عليهم ، ويصلون أرحامهم ، ويؤدون أماناتهم ، ويحفظون وقت صلواتهم ،

ويوفون بعهودهم ، ويصدقون فى مواعيدهم ، فأصلح الله بذلك أمرهم ، وحفظهم ماداموا أحياء وكان حقاً عليه أن يخلفهم بذلك ى عقبهم .

فقال ذو القرنين : لو كنت مقيماً عند أحد لأقمت عندكم ، ولكنى لم أومر بالاقامة (١٤)

وهى قصة رمزية على أية حال ، تشير إلى ما يجب أن تكون عليه الأمم . ولايجاد مثل هذه الأمة كانت رسالة الأنبياء والمصلحين والمفكرين ، وقد كانت حلم الفلاسفة والشعراء وقد تمنى كثير من الشعراء وجود مثل تلك المدينة . .

وفى مثلها قال جبران خليل جبران :

يا بلاد الفكر يامهد الألى عبدوا الحق وصلوا للكمال
ما طلبناك بركب أو على متن سفن أو بخيل ورحال
لست فى الشرق ولا فى الغرب ولا فى جنوب الأرض أو نحوالشمال
لست فى الجو ولا تحت البحار لست فى السهل ولا الوعر الحرج
أنت فى الأرواح أنوار ونار أنت فى صدرى فؤاد يختلج

إن هذه المدينة المثالية لا يتأتى وجودها فى عالم الواقع الذى نعيشه والذى تغذيه

---

(١٤) حياة الحيوان جـ ٢ ص ٣٢٢

الصراعات ، وتضطرم فيه الخلافات . ويفعل إبليس فيه أفاعليه التى توعد بها البشر منذ وجدوا على ظهر البسيطة ، وليس فى ذلك افتئات على قدرة الله جل وعلا ، ولكنه مسايرة للقدرة التى شاءت أن تجعل فى الحياة الخير والشر ، وأن تجعل من الناس الصالح والطالح ، وقد جرت حكمة الله أن تتمايز الأشياء بضدها ،ولولا الكذب ما عرفت قيمة الصدق ، ولولا قبح الخيانة ماأدرك الناس جمال الوفاء وحلاوة الأمانة ، ولولا المرض ما عرف الناس لذة الصحة .

لقد وضع القصاص أمامنا هذه القصة التى جعلوا ذا القرنين بطلها لتصوير إمكانية السير فى الحياة وفق التعاليم السماوية التى جاء بها الرسل ، وفرضتها الشرائع الالهية المتعاقبة التى نزلت بها الكتب المقدسة على الأنبياء والمرسلين .

وربما اختاروا ذا القرنين بالذات لأنه مسح الأرض وكان يهدف إلى اقامة أمة تسير على أساس سليم من الأخلاق الفاضلة والتعاليم السماوية الراقية ، وهذا هو هدفه من حروبه التى خاضها فى مشارق الأرض ومغاربها . . لقد أنعم الله عليه بالقوة ،ومكنه فى الأرض ومد له فى الأسباب فأراد أن يجعل من كل ذلك وسيلة لإقامة العدل وذيوع الحق ونشر السلام وبسط المحبة بين الناس .

ولو سار الناس على نهج أنبيائهم لسعدوا وأسعدوا ، وحولوا الحياة من حولهم جنة وارفة الظلال ، يتلاقى الناس فيها بالحب والوفاء بدلاً من هذه الغابة التى ترتع فيها الوحوش ويفتك فيها القوى بالضعيف دون خجل أو حياء .

يأجوج ومأجوج

الكلمتان فى اللغة هما كلمتان أعجميتان ولذلك منعتا من الصرف للعلمية والعجمة مثل طالوت وجالوت وقد تخفف همزتهما فيقال فيهما ياجوج وماجوج ، وقد استعمل الشاعر رؤبة ذلك فى قوله :﴿ لو أن ياجوج وماجوج معا ﴾ .

وقال بعض أهل اللغة : هما معربان من أج وأجج ، وعلة منعهما من الصرف إذن هى العلمية والتأنيث ومن رأى تعريبهما قال : ان يأجوج عل مثال يربوع ، وإن مأجوج اسم مفعول من أج عل وزن مفعول والكلمتان من أصل واحد . ولايخفى أن « أج » من الأجيج وهو تلهب النار ، تقول : أجَّت النار تؤج أجيجا .

وقال الأخفش : يأجوج من يجَّ ومأجوج من مجَّ - ويجَّ هنا مخفف أجَّ . وقال قطرب : يجوز أن يكونا من الأجة وهى الاختلاط كما قال الله تعالى :

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ (١٥)

وقيل : لفهظما مشتق من الأجاج ، وهو الماء الشديد الملوحة .

أصلهم

قيل : هم من ولد يافث بن نوح - عليه السلام .

وقيل : بل هم من الترك . وقيل : إن الترك منهم ، وسموا تركا لأنهم تركوا

---

(١٥) الكهف ٩٩

خلف السد حينما بناه ذو القرنين .

وروى الطبراني من حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم قال : يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذلك مأجوج ، لايموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده ، صنف منهم كالأرز [١٦] طولهم مائة وعشرون زراعا ، وصنف منهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى ، لايمرون بفيل ولاخنزير إلا أكلوه ، ويأكلون من مات منهم ، حين يخرجون تكون مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان ، يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية ، ويمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس .

وروى أبوهريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ولدلنوح سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب والفرس والروم والخير فيهم ، وولد ليافث يأجوج مأجوج والترك والصقالبة ولاخير فيهم ، وولد لحام القبط والبربر والسودان .

وقال القرطبي فيما يرويه عن أبي سعيد : هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لايموت الرجل من هؤلاء حتى يخرج من صلبه ألف رجل . .

وروى كذلك عن عبدالله بن مسعود أنه قال : سألت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن يأجوج ومأجوج فقال : يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة كل أمة لايعلم عددها إلا الله . .

---

(١٦) الأرز : شجر معتدل مرتفع

قيل يارسول الله : صفهم لنا ، قال : هم ثلاثة أصناف .

صنف منهم مثل الأرز ـ أى الشجر المرتفع ـ وصنف عرضه وطوله سواء ، وصنف يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى .

قال على : رضى الله عنه ـ وصنف منهم فى طول شبر . .

فســـادهم

لقد وصف القرآن يأجوج ومأجوج بأنهم مفسدون فى الأرض ، وقد ضج من فسادهم هؤلاء القوم الذين شكوا أمرهم إلى ذى القرنين وطلبوا منه أن يبنى لهم سداً يحول بينهم وبين هؤلاء القوم المفسدين . . ووجه فسادهم التوحش ، فقد كانوا ياكلون بنى آدم ويهلكون الزرع والضرع .

قال وهب بن منبه : يأجوج ومأجوج يأكلون الحشيش والشجر والخشب ، وماظفروا به من الناس . .

أما فسادهم الأكبر فهو يوم ينفتح السد الذى بناه ذو القرنين ، فهم حينئذ لايقف فى طريقهم شيء ولا ينقع غلتهم ماء ولا يسد جوعتهم حيوان أو طير أو وحش أو إنسان أو زرع . .

لقد جاءت الأخبار بأن خروجهم من علامات الساعة وهذا مايعنيه قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١٧)

---

(١٧) الأنبياء ٩٦

قال ابن كثير فى تفسيره .

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، عن ابن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : يفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله ـ تعالى : ﴿ من كل حدب ينسلون ﴾ فيغشون الناس ، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم . . إنهم يشربون مياه الأرض حتى ان بعضهم ليمر بالنهر فيشربون مافيه حتى يتركوه يبسا ، حتى ان من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان هنا ماء حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا من كان فى حصن أو مدينة قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ، بقى أهل السماء ـ قال : ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمى بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة بالدماء للابتلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دُوداً فى أعناقهم كنغف (١٨) . الجراد الذى يخرج فى أعناقه ، فيصبحون موتى لايسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشرى ـ يبيع ـ نفسه فينظر مافعل هذا العدو ؟ فيتجرد رجل منهم محتسبا نفسه قد وطنها على أنه مقتول فيخرج فيجدهم موتى بعضهم على بعض .

فينادى : يامعشر المسلمين ، ألا أبشروا ، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم ، فما يكون لها

---

(١٨) النغف : دود يكون فى أنوف الابل والغنم جمع نغفة

رعى إلا لحومهم ، فتشكر عنه كأحسن ماشكرت عن [19] . شيء من النبات أصابته قط [20]

حرمان يأجوج ومأجوج من الإيمان

وواضح من أوصاف هؤلاء القوم أنهم لايعرفون شيئا عن الإسلام ، ولم يدخل قلوبهم بصيص من نور الإيمان ـ وقد نقل عن الحافظ ابن عبدالبر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن يأجوج ومأجوج هل بلغتهم دعوتك ؟ .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم : جزت عليهم ليلة أسرى بى فدعوتهم فلم يجيبوا ومما يشير إلى ذلك طريقة هلاكهم . . لقد أهلكهم الله كما أشار الحديث السابق بنقمة من الله كما أهلك أصحاب الفيل . .

وقد روى الشيخان والنسائى من حديث أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « يقول الله ـ تعالى : يوم القيامة ياآدم ، فيقول لبيك وسعديك والخير فى يديك ، فيقول ـ عز وجل : أخرج بعث النار ، قال : ومابعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة .

---

(١٩) الشكر : امتلاء الضرع

(٢٠) أخرجه ابن ماجة من حديث يونس بن بكير وأخرجه أحمد حـ ٣ ص ٧٧ وفى تفسير بن كثير حـ ٥ ص ٣٦٧

قال : فذلك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

قال : فاشتد ذلك على أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يارسول الله أينا ذلك الرجل ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : ابشروا فان من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم رجل ..» (٢١) .

هل رأى أحد السد ؟

روى البوار من حديث يوسف بن مريم الحنفى قال : بينما أنا قاعد مع أبي أبي بكرة إذ جاءه رجل فسلم عليه ، ثم قال : أما تعرفنى ؟

فقال أبوبكرة : ومن أنت ؟ .

قال : تعلم رجلا أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره أنه رأى الروم ؟ .

فقال له أبوبكرة : أنت هو؟

قال : نعم

فقال : اجلس فحدثنا .

فقال ـ الرجل : انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه ، فدخلت بيتا فاستلقيت فيه على ظهرى ، وجعلت رجلى على جداره . فلما كان عند غروب الشمس سمعت صوتا لم أسمع مثله فرعبت فقال لى رب البيت : لاتذعرن ، فإن هذا لايضرك : هذا صوت قوم ينصرفون هذه الساعة من عند هذا السد ، أفيسرك أن تراه ؟ .

قلت : نعم .

---

(٢١) حياة الحيوان حـ ٢ ص ٧٠٤

فغدوت اليه فاذا لبنه من حديد ، كل واحدة مثل الصخرة ، وإذا كأنه البرد المحبرة وإذا المسامير مثل الجذوع .

فأتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته ، فقال : صفه لى ، فقلت : كأنه البرد المحبرة فقال ـ صلى الله عليه وسلم : من سره أن ينظر إلى رجل قد أتى الروم فلينظر إلى هذا .

فقال : أبو بكرة : صدق (٢٢)

تحذير النبي أمته منهم

روى ابن كثير فى تفسيره قال : حدثنا سفيان عن الزهرى عن عروة عن زينب بنت أبى سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة عن أمها عن زينب بنت جحش زوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : استيقظ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نومه ، وهو محمر الوجه ـ فقال :

لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق بإصبعيه الابهام والتى تليها ، قالت : قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ .

قال : نعم ، اذا كثر الخبث (٢٣) .
ويقصد بالخبث الفساد ..

ولولا أن يأجوج ومأجوج مثار خوف للناس ماحذر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته منهم ..

---

(٢٢) حياة الحيوان حـ٢ ص ٧٠٤
(٢٣) الحديث فى مسند أحمد ٤٢٨/٦ وفى البخارى ومسلم ـ باب الفتن ـ وابن كثير حـ ٥ ص ١٩٤

الثعلبى يقص قصة قوم رأوا السد

وقد قص الثعلبى قصة فى كتابه يخبر فيها أن الواثق بالله الخليفة العباسى رأى فى نومه رؤيا تفيد أن السد مفتوح ، فوجه إلى مكانه رجالا اقتحموا كثيرا من المخاطر حتى وصلوا إليه وقد وصفوه له فإذا به بين جبلين أحدهما أملس ليس عليه خضرة والآخر مقطوع بواد .. وعرض السد مائة وخمسون ذراعا وعضادتاه مبنيتان قبالة الجبلين عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعا مبنية بلبن من حديد مركبة فى نحاس فى سمك خمسين ذراعا ، وارتفاع السد مد البصر وفيه باب له مصراعان من حديد عرض كل مصراع خمسين ذراعا فى ارتفاع خمسين ذراعا وعليه قفل طوله سبعة أذرع وحوله فرسان يحرسونه ويطوقون القفل بمطارق من حديد بين آن وآخر ليعلم من خلف السد أن هناك حفظة تحفظه ، وهم بالمرصاد لمن ينقب السد ..

إلى آخر هذه الأوصاف (٢٤) .

وربما غلب الخيال على هذه القصة ـ فأثر الوضع فيها ظاهر ، والقرآن الكريم لم يشر إلى شيء مما ورد فى تلك القصة .. ومن المعلوم أن السد محفوظ بقدرة الله حتى يجيء الأجل المحدود فى علم الله ..

متى ينقب السد ؟

أوردت الأخبار أن من علامات الساعة فتح سد يأجوج ومأجوج ..

وللساعة علامات أخبر بها الصادق الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بينها

---

(٢٤) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٣٧٣

خروج يأجوج ومأجوج وهذا مايشير إلى قوله - تعالى

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ (٢٥)

أخرج ابن ماجه فى سننه قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا ، فيعيده ، كما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله - تعالى - أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال : ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى ، فيعودون اليه فيجدونه كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء - أى ينزحونه - ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفا فى أقفائهم فيقتلهم به » (٢٦) .

قال القرطبى : وقد رآهم ذو القرنين - حين بنى السد - طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا لهم مخالب فى مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع وأحناك كأحناك الإبل ، وعليهم من الشعر مايواريهم ، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان . .

---

(٢٥) الأنبياء ٩٦ : ٩٧

(٢٦) تفسير القرطبى - سورة الكهف - ص ٤٠٩٦ ط دار الشعب

وهى أوصاف تنطبق على الحيوان أكثر من انطباقها على الإنسان ، مما يدل على أنهم صنف من خلق الله لايعلمهم إلا الله . .

ولعل هؤلاء من علامات الفساد الذى يظهر فى آخر الزمان حيث يكثر الشر ويستشرى الضلال ويزداد الزيف ويبتعد الناس عن الدين والتمسك بأسبابه ، ويستظهرون بالباطل على أهل الحق ، حينئذ يرسل الله جنودا لايعلمها إلا هو . . وقد يكون هؤلاء الأصناف من الخلق الذين حجبهم الله فى مكان سحيق

فى ملكه الواسع الذى لايعلم مداه إلا هو ـ سبحانه ـ وقد خلق الله سبع سموات ومن الأرض مثلهن . . ومازال ملكه الواسع محجوباً عن العقول ، ومازالت هناك أماكن لم تصل إليها الكشوفات ولم تدركها بصائر العلماء ومجاهر أهل البحث والتنقيب . .

هل اكتشفت مجاهل الأرض جميعها ؟

يقول كثير من العلماء : إن يأجوج ومأجوج فى موضع من الأرض لانعلمه ، وكم فى الأرض من أماكن مجهولة ، ولعله قد حال بيننا وبين موضعهم مياه عظيمة ، ودعوى استقراء سائر البرارى والبحار غير مسلمة ، ويُجَوِّز العقل أن

يكون فى البحر أرض لم يظفر بها الى الان ، وعدم الوجدان لايستلزم عدم الوجود ، وبعد اخبار الصادق بوجود السدين ومايتبعهما يلزمنا الايمان بذلك كسائر ما أخبر به من الممكنات ، والالتفات الى كلام المفكرين ناشىء من قلة الدين (٢٧) .

---

(٢٧) يأجوج ومأجوج ـ عكاشة عبد المنان الطيبى ص ١٧ ـ مكتبة التراث الاسلامى

هذا ومازال الأخبار تحمل الينا كل يوم جديدا عما كان مجهولا ، واقرأ ماكتبه أحد المهتمين بالاكتشافات الحديثة ومتابعة أخبارها يقول :

انطلقت سفينة الفضاء الرحالة (٢) من قاعدة الانطلاق فى « كاليفورنيا » منذ ١٣ سنة وهى مازالت منطلقة فى الفضاء بسرعة ١٢ كيلو مترا فى الثانية الواحدة ، وطوال الاثنى عشر عاما من رحلتها وهى ترسل الى الجالسين فى المحطة الأرضية فى « كاليفورنيا » صورا ومعلومات بلا انقطاع عن كل الكواكب والأقمار والأجرام السماوية التى تمر بها أو تدور حولها مسافات لاتصدق ولاتخطر على قلب بشر ، وأعماق الفضاء ماكان يتصور أحد أو يفكر مجرد التفكير فى ارتيادها بذلك العمق الذى يقدر بـ ٧٢٠٠ مليون كيلو متر تقريبا ، والسفينة ترسل الصور والبيانات ، وتتلقى من المحطة الأرضية تعليمات متواصلة وبالتدريج ، إذ لم يكن من الممكن تزويدها يوم سفرها منذ اثنى عشر عاما بكل التعليمات . . وقد حدثت فى خلال هذه الفترة ثورة فى أجهزة « الكمبيوتر » وغيرها من الأجهزة « الالكترونية » ولم يكن ممكنا ان تملأ ذاكرة الأجهزة التى وضعت فى السفينة بكل التعليمات عند ارسالها ، فكان لابد من ارسالها جرعة جرعة طوال ١٢ سنة ، وهى على بعد سبعة بلايين كيلو متر (٢٨) .

فهذا الخبر يشهد بأن هناك أسراراً فى الكون مازالت محجبة ، ومازال العلم يكشف لنا كل يوم عن جديد . فإذا غاب عن حسنا الآن مكان السد فليس معنى ذلك عدم وجوده . . واذا حان الوقت الذى حدده الله لكشفه ظهر للعيان .

---

(٢٨) من مقال للأستاذ أحمد بهاء الدين - صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٨٩/٨/٢٧ م

رأى جديد فى يأجوج ومأجوج وسدهم

يرى الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه « الجواهر والدرر فى التفسير » أن السد موجود فعلا ، وقال : لقد كتب بعض العلماء أنه شرقى البحر الأسود وأن سكان هذه المنطقة من الصقالبة (السلاف) وهناك مدينة اسمها باب الأبواب حولها سد منيع ، وقد علم الروس° أن مدينة (دربت) بجبل قوقاف هى نفسها مدينة باب الأبواب ،واكتشفوا فى القرن الماضى سورا منيعا ممتدا على مقربة منها كأنه خط انفصال . ولكن كثيرا من الناس خلطوا بين سد مدينة باب الأبواب وبين السد الشهير المذكور فى القرآن ، ولم ينج من ذلك الخلط بعض العلماء الكبار كأبى الفداء .

لكن الادريس أبان موقع كل منهما بوضوح ، وأثبت أن السد الشهير وراء (جيحون) فى عمالة (بلخ) واسمه سد باب الحديد بمقربة من مدينة (ترمذ) .

وقد اجتازه « تيمورلنك » بجيشه ، ومر به أيضا « شاه روح » وكان فى خدمته عالم الماني اسمه (سيلدبرجر) وذكر السد فى كتاب ألفه وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر .

كما ذكره أيضا الرحالة الأسبانى « كلافيجو » فى رحلته سنة ١٤٠٣ م وكان رسولا من ملك قشتالة بالأندلس إلى تيمورلنك ، وقال إن سد مدينة باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند . . ويرى بعض المؤرخين أن يأجوج ومأجوج أصلهم رجل واحد يقال له ترك ، والمغول والتترهم المقصودون بيأجوج ومأجوج وقد كانوا يشغلون الجزء الشمالى من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا مما يلى بلاد التركستان . .

وذكر المؤرخون ومنهم الافرنج أن هذه الأمم كانت تغير قديما فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكم أفسدوا وقلبوا الأمم قلبا قبل زمن النبوة ، ودمروا العالم تدميرا وجعلوا عاليه أسفله ، فهم مفسدون فى الأرض بنص القرآن وشهادة التاريخ . .

وكم أغاروا على بلاد الصين وأمم آسيا الغربية ، ولكنهم لم يزالوا فى حدود بلادهم لا يتجاوزونها إلى أن ظهرت الداهية الدهياء بظهور « تموجين » الذى لقب نفسه « جينكيزخان » ومعنى اللقب بلغتهم « ملك العالم » خرج هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وحدث ماحدث منه من تخريب وتدمير فى ربوع العالم حتى لم يكد ينجو من بطشه وتنكيله وتدميره مكان .

واستولت ذريته على آسيا كلها وأوروبا الشرقية وأنشأوا أربع ممالك منفصلة ، فاختصت أسرة « كيلاى » بالصين والمغول ، ومَلَك « جافاتاى » تركستان .

وملكت ذرية « باطرخان » البلاد على شواطىء نهر فلجا وصارت روسيا تدفع الجزية اليها زمنا طويلا وانضمت بلاد الفرس الى « هولاكو » الذى دمر بغداد .

لقد فتحت يأجوج ومأجوج ـ على هذا التفسير ـ فى أوائل القرن السابع الهجرى ولعل ذلك هو مايشير إليه الحديث الشريف : « اتركوا الترك ماتركوكم فان اول من يسلب أمتى ملكهم بنوقنطورا » وهم الترك ـ وقد علمنا أن المغول أصلهم الترك .

وهناك حديث يشير إلى أن يأجوج ومأجوج مقدمتهم تكون فى الشام وساقهم بخراسان . فذلك يوضح سيرهم واتجاههم وطريق منتهى ملكهم .

فهم لم يتجاوزوا الشام إلى مصر ولا إلى أفريقيا . ولم يدخلوا مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس . كما أشار إلى ذلك حديث آخر .

أما أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة . فان تفسير يأجوج ومأجوج بجنكيز خان وجنوده لاينقض ذلك . لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى . .
والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ (٢٩) .

وليس معنى ظهور يأجوج ومأجوج نهاية العالم . فقد روى أبوسعيد الخدرى عن النبى ـ صلى اله عليه وسلم ـ قوله : « ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج » .

وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون الله عز وجل .

وأما صفاتهم المشهورة فى القصص وبعض الاثار فجميعها لا أصل لها ـ وربما كانت على سبيل التهويل من أمرهم .

لقد أصبحت دولة يأجوج ومأجوج الآن فى قبضة الصين ، بل هم الجزء الأعظم منها وهاهى « منشوريا » تتجاذبها الروسيا والصين . وقد كانت هذه البلاد معروفة قديما للمسلمين الأوائل .

---

(٢٩) القمر ١

واستطاع أحد العلماء أن يرسم خريطة توضح موقع هذه البلاد وموقع السد فيها . وهو ليس سدا واحدا بل سدين . . أحدهما الذى بناه ذو القرنين وجاء ذكره فى القرآن ، وبذلك أصبح يأجوج ومأجوج محصورين بين سدين خيفة بطشهم .

قال : وربما كان لهذه القبائل خروج آخر لم يحن وقته بعد ، وقد تنبأ به « غليوم » ملك الالمان السابق بقوله : ويل لأوروبا من الصين . وسماه الخطر الأصفر (٣٠) .

هذا ملخص ماذكره الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه وفيه مافيه . .

لا علاقة لسور الصين بهذا السد :

يرى البعض أن المقصود بسد يأجوج ومأجوج هو سور الصين المشهور وقد أقامه ملك من ملوكهم قبل التاريخ بنحو ٣٣٠ سنة ، ليرد به عن بلاده هجمات القبائل الشمالية ، وأول هذا السد عند البحر ، ويلتقى بالنهر الأصفر ، وطوله ألف ميل ، ويعد من غرائب البلاد ، بل من عجائب الدنيا ، وهو فاصل بين الصين الأصلية ومنغوليا . .

وهو مبنى من الحجارة والآجر ، وبعضه بالطين فقط ، وسمكه عند اسفله نحو ٣٥ قدما ، وفى أعلاه ١٥ قدما ، وارتفاعه بين ١٥ و ٣٠ قدما ، وعليه أبراج مبنية بالآجر ارتفاع بعضها ٤٠ قدما .

---

(٣٠) راجع تفسير الجواهر والدرر حـ ٩ الشيخ طنطاوى جوهرى سورة الكهف

وقد كان هذا السور حاجزاً حصينا لدفع القبائل الرحل ، ولكنه لم يغن شيئا فى صد جحافلهم الذين تغلبوا على الصين واستولوا عليها ، وهو الان ليس شيئا (٣١) .

ان الفرق واضح بين سور الصين وسد يأجوج ومأجوج ، فسور الصين مبنى من الحجارة والآجر . أما السد فهو من الحديد الذى أفرغ فوقه النحاس المذاب . وسور الصين ممتد بين بحرين ، أما سد ذى القرنين فممتد بين جبلين .

من الأخبار الواردة فى خروج يأجوج ومأجوج

روت كتب السنن والأخبار . . أحاديث متعددة حول انفتاح السد وانسياب يأجوج ومأجوج فى الأرض يعيثون فيها فسادا حتى يهلكهم الله بآية من عنده . ومن هذه الأخبار ما روى عن النواس بن سمعان قال :

ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة ، فخفّض فيه ورفّع حتى ظنناه فى طائفة النخل .

فانصرفنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ثم رحنا إليه . فعرف ذلك فينا ، فقال : ماشأنكم ؟ .

فقلنا : يارسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل .

---

(٣١) دائرة معارف البستانى حـ ٩

فقال : غير الدجال أخاف عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجهُ دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل واحد حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم .. فمن

ادركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة بين الشام والعراق ، يعيث يمينا وشمالا ، ياعباد الله فاثبتوا .

قلنا : يارسول الله ومالبثه فى الأرض ؟

قال أربعون يوما ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعه ،وسائر أيامه كأيامكم .

قلنا : يارسول الله فذلك الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟

قال : لا اقدروا له قدره .

قلنا : يارسول الله وما إسراعه فى الأرض ؟ .

قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ماكانت ذُرى ، وأسبغه ضروعا ، وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شىء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعا سيب النحل ، ويتهلل وجهه ويضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطّر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فيطلبه حتى يدركه فيقتله .

ثم يأتى عيسى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى - عليه السلام - أنى قد أخرجت عبادا من خلقى لا يد لأحد بقتالهم ، فحرز عبادى إلى الطور .

ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل جدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه ماء .

ويحصر نبى الله عيسى - عليه السلام - وأصحابه ، فيرغب نبى الله عيسى - عليه السلام - وأصحابه إلى الله - تعالى - فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم ، فيصبحون موتى كموت نفس واحدة .

ثم يخرج نبى الله عيسى - عليه السلام - وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم . فيرغب نبى الله عيسى - عليه السلام - وأصحابه الى الله فيرسل الله طيراً ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

ثم يرسل الله مطرا لايكن منه بيت مدر ولاوبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة .

ثم يقال للأرض : انبتى ثمرك وردى بركتك .

فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك الله فى الرِّسْل ، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس . واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس .

فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحمر . فعليهم تقوم الساعة (٣٢)

آيات وعبر

لقد قص الله علينا قصة ذى القرنين لتكون عبرة وعظة لأولى الألباب . .

وهى علامة بارزة على وجود عنصرى الخير والشر فى الأرض . . فذو القرنين يمثل قمة الخير والاصلاح ويأجوج ومأجوج يمثلون هوة الشر والفساد .

- وتشير القصة الى وجود قابلية الاستجابة لنداء الخير فى النفس ، فقد استجاب لذى القرنين قوم حين دعاهم للفلاح والرشد . . وأوضح لهم أن الأمور لاتترك عبثا بدون ثواب أو عقاب . . فمن أطاع أثيب ومن عصى وأفسد عوقب وأبيد .

- ولم تخل القصة من تأمل فى عواقب الأمور ، ووجوب الإيمان بالبعث والثواب والعقاب . .

- كما تشير القصة إلى أن آيات الله لاحدود لها ، ومايعلم جنود ربك إلا هو . . وقد يعين الله عباده بما لايخطر لهم على بال ، كما أعان ذا القرنين بالنور والظلمة .

وقد يعاقب العصاة بما لا قبل لهم به من خلق يصغرون فى المنظر ولكنهم ذو خطر كبير . .

---

(٣٢) أخرجه مسلم ٦٣/١٨ - أبو داود ١١٧/٤ - الترمذى ٩٧٩ - ابن ماجة ١٣٥٦/٢ - أحمد ١٨١/٤ - الحاكم ٤٩٢/٤ - كتاب يأجوج ومأجوج ص ١٩

صاحب الجنتين

وردت قصة صاحب الجنتين فى سورة الكهف ، كما وردت الاشارة إليها فى سورة الصافات . . وسنذكر الآيات التى وردت فى ذلك فى أثناء القصة . .

أما القصة فإلى جانب حدوثها ـ كما تشير إلى ذلك مصادر متعددة ـ فإنها تعد مثلاً ضربه الله لكل مؤمن وكافر ، ومنفق فى سبيل الله ومقتر ، وشاكر لأنعم الله وجاحد ، وموقن بنعيم الجنة ومكذب . . وقد اختلف فى اسمى بطليها .

ذكر القرطبى فى تفسيره عن الكلبى والثعلبى والقشيرى أنها نزلت فى أخوين من أهل مكة من بنى مخزوم ، والمؤمن منهما هو أبو سلمة عبد الله بن عبدالأسد ، زوج أم سلمة قبل أن يتزوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

والكافر منهما أخوه الأسود بن عبدالأسد .

وقد اشتركا فى ميراث ورثاه . . أما أبو سلمة فأنفقه فى سبيل الله حتى نفد ، ثم أقبل على أخيه يقترض منه فأبى ، وجرى بينهما من الحوار ماجرى . .

وذكر أيضا أنه مثل ضربه الله لعيينة بن حصن وأصحابه مع سلمان الفارسى وصهيب وأصحابها . . شبه الله حال هؤلاء المؤمنين والكافرين بحال رجلين أحدهما مؤمن والآخر كافر .

أما المؤمن فهو تمليخا أو يهوذا .

وأما الكافر فهو قرطوش . .

إن مسرح هذه القصة ـ كما ذكره إبراهيم بن القاسم فى كتابه عجائب البلاد ـ هو بحيرة تنيس . . وذكر السهيلى فى كتابه « التعريف والاعلام » ان المؤمن اسمه تمليخا والكافر اسمه فوطيس .

القصــــة

كان لرجل من بنى اسرائيل ثروة واسعة . فلما حضرته الوفاة ، وله ولدان جمعهما وقسم ماله بينهما بالسوية ، وفاضت روحه وهو يعتقد أنه قد أراح نفسه وأرضى ولديه ، وسوف يقوم كل منهما على نصيبه من الثروة بالتنمية والتثمير ، حتى يصبح كل منهما ذا جاه عريض ومنصب خطير . .

وقد اختلف مشرب كل من الأخوين عن الآخر . . وهذه حكمة الله وعلامة قدرته .

فالثمار تتشابه شكلا وتختلف ذوقا . ألم يقل الحق سبحانه فى ذلك

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٣٣)

كان يهوذا مؤمنا بالله واليوم الآخر ، يرى أن الدنيا عرض زائل ومتاع فان ، وأن ماعند الله خير وأبقى وأن رضا الله لاينال إلا بالبذل والتضحية فى سبيله ، فأقبل على ماورثه من أبيه يقدمه قربانا لله . .

أما الآخر وهو « قرطوش » فكان همه الدنيا ، والأقبال عليها والتمتع بها ، والتفنن فى جمعها والاستكثار منها ، وكانت لديه موهبة فى ذلك ، يعرف طرق الاستثمار جيدا ، ولديه حاسة يدرك بها منافذ الربح والكسب . .

---

(٣٣) الرعد ٤

لذلك كان ماورثه من مال وسيلة له لمضاعفة المال ، فأقبل على التجارة يشترى ويبيع ، حتى اصبح لديه من الأموال الشيء الوفير ، واشترى حديقتين جميلتين يتخللهما نهر جار يسقيهما ، ويحيط بكل منهما سور من نخل مرتفع القامة يزيد من جمال الجنيتين ، ويضاعف من حسنهما . .

وكان يهوذا حين يرى قرطوش يبالغ فى جمع المال يزداد هو فى انفاق المال فى سبيل الله . .

فحين رأى أخاه يشترى أرضا بألف دينار ، أخذ هو ألف دينار فتصدق بها . وقال : اللهم ان قرطوش قد اشترى أرضا فى الدنيا الفانية بألف دينار ، وانى اشتريت منك أرضا فى الجنة بألف دينار . .

لقد أنفق فى هذه الصفقة ربع ماورثه . .

وحين رأى أخاه يبنى دارا له بألف دينار اقبل هو على ألف دينار أخرى فتصدق بها وأنفقها فى سبيل الله وقال : اللهم إن أخى قرطوش قد بنى فى الدنيا دارا بألف دينار ، وإنى اشترى منك دارا فى الجنة بألف دينار . .

وأنفق فى هذه الصفقة ربعا آخر مما ورثه .

وتزوج أخوه وأنفق فى زواجه وعرسه ألف دينار ، فأخذ تمليخا أو يهوذا ألف دينار فوضعها للفقراء والمساكين وقال : اللهم إن أخى قرطوش قد تزوج امرأة من أهل الدنيا وأنفق عليها ألف دينار ، وإنى أخطب اليك حوراء من نساء الجنة بألف دينار .

وذهب الربع الثالث من الثروة التى ورثها .

ورأى أخاه يشترى خدما ومتاعا بألف دينار ، فأخذ هو ألف دينار وبذلها فى

سبيل الله وقال : اللهم إن أخى اشترى متاعا فى الدنيا بألف دينار وإنى اشترى منك متاعا فى الجنة بألف دينار ..

وفرغ بذلك « تمليخا » من ثروته التى ورثها من أبيه ..

لقد كانت هذه الثروة أربعة آلاف .. أنفقها كلها فى سبيل الله ..

المحاورة بين الأخوين

لقد كان « قرطوش » مولعا بالدنيا مفتونا بزهرتها ، خبيرا بدروبها ومسالك الكسب فيها ولذلك سرعان ما ثمر ماله فأثمر ، وتاجر فيه فأضعف ، فكان ماأنفقه من مال فى العقار والزواج والمتاع من حصيلة ما اكتسب وبقى له أصل ماله ، الذى مازال يدر عليه الربح ويفيض عليه الكسب ..

أما « تمليخا » فلم يكن همه ذلك ، لقد كان زاهدا تماما فى الدنيا ، وواثقا وثوقا كاملا فى ثواب الله وتعويضه فى الجنة أضعاف ماينفقه فى الدنيا ..

لقد أدرك بفكره الثاقب أنه مهما استمتع فى الدنيا فإنه لن يستمتع الا سنين معدودة ، تعقب بعدها حسرة دائمة فى الآخرة وشقاء مقيما فى جهنم ..

وعرف أن الله يقتطع من المنعمين بعض ثوابهم فى الآخرة فى نظير مامتعهم به فى الدنيا ان كانوا مؤمنين ، فما بالهم إذا كانوا كافرين ؟

لقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله :

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ (٣٤)

---

(٣٤) الأحقاف ٢٠

وفى قوله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣٥)

وقد تنبه لذلك كثير من الصحابة الأجلاء ، ومنهم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الذى ضرب المثل الأعلى فى الزهد بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - فحين كان يسأل عن سبب زهده وتقشفه يجيب بهذه الآية الكريمة ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ .

فرغ « تمليخا » من ميراثه وأنفقه كله فى سبيل الله .. ولم يأس على ذلك بل قدمه بنفس راضية وقلب مطمئن ..

وفعل مثل ذلك أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - وأتى بكل مايملك وقدمه للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليضعه فيما يريد من تجهيز المجاهدين ومساعدة الفقراء والمساكين فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - ماذا تركت لأولادك ياأبابكر ؟ فقال له : تركت لهم الله ورسوله .

إن قصص الزهد فى الحياة كثيرة فى حياة الصحابة الأجلاء ومن سار على نهجهم من الصالحين والأولياء . وانفاق ما يملكه الانسان فى سبيل الله ليس من السرف فى شىء كما يظن البعض . ولكنه نهاية الثقة فى الله واليقين بما عنده ، وقمة التوكل

---

(٣٥) هود ١٥ ، ١٦

على الله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .. ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ..

وجمع المجلس يوما بين الأخوين .. أو لعل « تمليخا » أراد أن يعظ أخاه حين رأى افراطه فى حب الدنيا ، وانهماكه فى لذاتها ، واعجابه بنفسه وزهوه بماله وولده فقصد إليه ..

ورأى قرطوش أخاه فى ثيابه البالية وفقره الظاهر .. فأنكره ..

فأقبل عليه « تمليخا » يذكره بالله ، ويحذره عذابه ، ويدعوه إلى عبادة الله وحده ..

ولكن قرطوش أسرع إليه يوبخه على ما آل إليه أمره ، وعلى مابدده من ماله ، وأضاعه من ثروته ، وقال له : ماأراك إلا سفيها كان ينبغى الحجرُ عليك .. أتقبل على هذه الثورة التى ورثتها عن أبيك فتضيعها بددا .

أنظر إلىّ كيف فعلت بمالى حتى أصبح على ماتراه من الكثرة والاتساع وحسن الحال .. لقد أصبحت أكثر منك مالا وولدا ..

لقد كسبت أنا ، أما أنت فكنت أحمق سفيها ..

فقال له تمليخا : لاتغتر أيها الأخ بما أنت عليه ، فما ذلك إلا متاع حائل ونعيم زائل .. وتذكر أن المال والأهل والأبناء وكل متاع الدنيا وديعة ولابد يوما أن ترد الودائع .

ان الذى يبقى ويدوم يأخى هو الإيمان والعمل الصالح .. فأقبل على الله ، واعبده ، وثق به وتوكل عليه .. وسوف تجد لقاء ذلك جنة عرضها السموات والأرض لاتفنى أبدا ..

ولكن قرطوش ضحك فى سخرية بالغة وقال له :

ماأظن أن هناك إلها سوى ذلك الصنم الذى أعبده ، وما أظن أيضا أن هناك آخرة وبعثا وحسابا وعقاباً وثواباً ، وماأظن أن جنتى هذه ستبيد ، وأن متاعى الذى أنا فيه سينفد، وهب أننى صدقتك فيما تزعمه من أن هناك بعثا وحسابا ، فإننى سوف أجد فى الآخرة خيرا مما أنا فيه ..

وحاول « تمليخا » أن يقنعه بضلال رأيه وقصر نظره دون جدوى . كان يقابل كلام أخيه بسخرية بالغة ، بل قال له فى تحد سافر :

إنك كما تزعم تعبد إله السماء ، وأنا أعبد صنماً من الأصنام ، فهيًا بنا إلى الشاطىء لنصطاد السمك وكل منا يستعين بإلهه فى ذلك .. فمن اصطاد أكثر كان على حق ..

فقال له تمليخا : يأخى إن الدنيا أحقر من أن يجعلها الله ثوابا لمؤمن أو عقابا لكافر ..

أجل .. صدق تمليخا فى ذلك . وقد صدقه النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك حين قال : لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء ..

ولكن « قرطوش » أكره أخاه على الخروج . فخرجا معا إلى الشاطىء . فجعل قرطوش يرمى شبكته ويسمى صنمه ، فتخرج مليئة بالسمك .

وجعل تمليخا يرمى شبكته مستعينا باسم الله فلا يخرج فيها شيء .
لقد كان ذلك ابتلاء للكافر لتحق عليه اللعنة ، لم يشأ الله أن يهديه . .
ثم قال قرطوش لاخيه : كيف ترى ؟ ألم ترى أكثر منك مالا ونصيبا ونفرا ؟

وسوف أكون أفضل منك فى الآخرة لو أن هناك آخرة كما تقول . .

قال العلماء : وضج الملك الموكل بهما . فأمر الله جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنة ليريه منزلة تمليخا فيها . . فرأى شيئا عظيما ، فقال : وعزتك لايضره ماأصابه من ضر فى دنياه مع ذلك النعيم .

ثم انطلق به فأراه منزلة أخيه فى جهنم فرأى شيئا فظيعا : فقال : وعزتك لاينفعه ماناله من نعيم فى دنياه مع ذلك الشقاء المقيم . .

ومع ذلك استمر تمليخا فى موعظة أخيه فقال له : أما كان الأجدر بك أن تحمد ربك على ماخولك من نعمة ، وأن تشكره على ما افاءه عليك من صحة البدن وكثرة المال والولد ، أما كان يجدر بك أن تكثر من قول : ماشاء الله ولاقوة إلا بالله ؟ . .

ولكنه ظل سادرا فى غفلته ، مصرا على كفره ، عند ذلك قال له أخوه : عسى ربى أن يؤتيني أفضل مما أعطاك ، وأن يحرمك من هذا النعيم الذى تتقلب فيه ، ثم يكون عليك وبالا فى الآخرة .

وكأنما كانت أبواب السماء مفتحة ، فما أسرع ماكانت الاستجابة . .
نزلت صاعقة من السماء أحرقت الجنتين ، وغار مابينهما من نهر ، وأصبحت أرضهما جرداء قاحلة . .

وأقبل الأخ على الجنتين ، فاذا بهما وقد أصبحتا أثرا بعد عين . . لاماء ولاثمر ولاخضرة ولانبات ولا نضرة ولاجمال . . فأصبح يقلب كفيه ندما ، ويبكى حسرة ، لقد ضاع أمله ، وهلك ماله ، وذهب كده وتعبه ، وندم ولات ساعة مندم . .

وقد قص الله علينا هذه القصة بقوله :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ
وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا
خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ
مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ
هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ
خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ
مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ
أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ
أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا
غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ
مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ

تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ

هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٣٦)

حوار فى الآخرة :

وهلك « قرطوش » فى الهالكين .. لقد كان قوله .. ياليتنى لم أشرك بربى أحدا » كقول فرعون حين أدركه الغرق

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ

إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ

وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣٧)

إنه إيمان بعد فوات الأوان لا يجدى صاحبه شيئاً .

إنه ممن ورد فيهم قوله تعالى

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ

﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ

وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣٨)

ويجمع الله العباد يوم القيامة ..

ويمضى بعد الحساب أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار .

ويجتمع أهل الجنة يتسامرون فى حبور ، ويتذاكرون ماحدث فى الدنيا ..

---

(٣٦) الكهف ٣٢ : ٤٤

(٣٧) يونس ٩٠

(٣٨) غافر ٨٤ ، ٨٥

ويلتقى تمليخا بإخوانه المؤمنين فيحدثهم بالحوار الذى دار بينه وبين أخيه فى الدنيا ، ويطلعه الله على ما آل إليه أمر أخيه فى جهنم ، فيراه فى سواء الجحيم . . فيحمد الله على نعمة الايمان ولعله خاطب أخاه بقوله : لقد كدت أن تغويني بضلالك ، وتهلكنى بفسادك لولا أن مَنَّ الله على فثبتنى على الحق ، وعصمنى من الفتنة ، وأرشدنى الى الطريق المستقيم . . وهذا هو مايقصه القرآن الكريم بقوله ؟ .

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾
يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ
لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾
إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ
هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ (٣٩)

هذا القرآن الكريم لم يذكر أن الرجلين كانا أخوين وقد اختلف العلماء فى شأن الرجلين فى تلك القصة فقيل : هما مقدران ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء .

وقيل : هما محققان واختلفوا فى تعيينهما فقيل هما أخوان من بنى إسرائيل ، وقيل أخوان مخزوميان من أهل مكة أحدهما مؤمن والآخر كافر (٤٠) .

---

(٣٩) الصافات ٥٠ : ٦١

(٤٠) انظر فتح القدير جـ٣ ص ٢٨٥

عظات وعبر

هذه القصة ترشدنا إلى عدم الركون إلى الدنيا ، والاعتزار بزخرفها ، ويجب علينا فيها أن نتقبل نعم الله بالشكر حتى نزداد ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (٤١)

وقوله ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٤٢)

وليس معنى الزهد أن ينصرف الإنسان عن الدنيا انصرافا كاملا ، بل معناه أن يترك تعلق قلبه بها ، وقد أوضح القرآن الكريم حقيقة الزهد فى قوله تعالى

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٤٣)

فالإنسان مطالب بأن يعمل ويجد ويكسب ، وينمى ماله ، ويأكل من الطيبات فى غير اسراف وفى الوقت نفسه مطالب بأن يجعل جزءاً من هذا المال للفقراء ، وأن لا يجعل الدنيا كل همه .

ثم إن التمتع بالطيبات فى اقتصاد لاينافى الزهد ، وهذا هو مفهوم قوله تعالى

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤٤)

---

(٤١) ابراهيم ٧
(٤٢) آل عمران ١٤٤
(٤٣) الحديد ٢٣
(٤٤) الأعراف ٣٢

أما أن يؤثر الانسان رضا ربه على ماعداه ، ويتصدق بما فى يده على غيره فذلك مثل أعلى لايطيقه إلا أولو العزم من الرجال الذين ورد فى حقهم قوله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾(٤٥)

والقصة ترشدنا إلى وجوب الإقبال على الله واللجوء إليه فرارا من فتنة المال وغرور الدنيا . . فهذا تمليخا يقول لأخيه : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله . . ﴾ .

وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

أخرج مسلم فى صحيحة من حديث أبى موسى . قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم :

ياأبا موسى ، ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ؟ قلت : ماهى يارسول الله ؟ .

قال : لاحول ولاقوة إلا بالله .

وذكر القرطبى فى تفسيره لهذه الآية قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم : من دخل منزله أو خرج منه فقال : باسم الله ماشاء الله لاقوة الا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله عليه البركات .

---

(٤٥) الحشر ٩

وفيما يرويه أبونعيم الأصفهانى بسند متصل إلى جابر - رضى الله عنه - قوله :

شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حر الرمضاء فلم يشكنا وقال : استعينوا بلاحول ولاقوة إلا بالله فإنها تذهب سبعين بابا من الضر أدناها الهم (٤٦) .

وفى القصة دعوة الى وجوب التبصير والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن ذلك مما يستوجب الإيمان ، وهو من مقومات الخيرية التى اختص الله بها هذه الأمة . . قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (٤٧)

وفيها وجوب الموالاة لله - تعالى - والسير على منهجه ، ومن ثبت على ذلك كان الله وليه فى الدنيا والآخرة .

ولو تأملنا قوله - تعالى - ﴿ لمثل ذلك فليعمل العاملون ﴾ .

لوجدناهاتشير الى مايجب على المؤمن أن ينصب نفسه له ويبذل جهده فيه ، وهو ميدان التنافس الحقيقى الذى يحصل صاحبه فيه الفوز العظيم ، والاجر الكريم ، والأثر الباقى ، والسعادة الحقة .

---

(٤٦) أبو نعيم الأصفهانى - عبدالحفيظ فرغلى - أعلام العرب ص ٥١

(٤٧) آل عمران ١١٠

أصحاب الجنة

بالقرب من صنعاء على مسافة فراسخ منها وفى قرية أسمها « ضَوْرَان » كانت توجد حديقة وارفة الظلال ، زكية الثمار ، دانية القطوف ، يملكها شيخ مؤمن ، يؤدى حق الله فيها ، كان ذلك بعد رفع عيسى ـ عليه السلام ـ بفترة قصيرة .

آمن هذا الشيخ بما جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ وعرف من دينه الذى آمن به أن الفقراء لهم حق فى هذا الثمر الذى أنعم الله به عليه . . فكانت عادته مع المساكين أن يكون لهم كل ما تعداه المنجل فلم يجذه من الكرم ، فإذا طرح الثمر على البساط فكل شيء سقط من البساط فهو لهم أيضاً ، وكل شيء انتثر كان من حقهم كذلك ، وكان مع ذلك لا يمنع السائل والمحروم ، ولا ينهر اليتامى والأرامل ، بل كان هؤلاء يعيشون فى كنفه آمنين .

وكان لهذا الشيخ ثلاثة بنين ، لم ينشأوا على ما نشأ عليه أبوهم من الصلاح والتقوى وحب الخير وبذل المعروف ، بل كان الشح طبعهم ، والحرص ديدنهم ، وكانوا ينتقدون أباهم فى تصرفه ، ويضيقون ذرعاً بانفاقه ، ويرون أن ما يفعله إسراف ، وأن هؤلاء الذين يجتمعون حوله طامعون فى ماله ولا حق لهم فيما يأخذونه منه .

ولعلهم كانوا يقولون : مابال هؤلاء النهازين للفرص ، القناصين للمال يزاحمون أصحاب المال فى حقهم ؟ إنه لو شاء الله لأغناهم ، ولو علم فيهم خيراً لأعطاهم . . ولكن الله حرمهم لأنهم يستحقون الحرمان ، فما لأبينا حق فى أن يطعم من لو شاء الله لأطعمه ان أبانا لفى ضلال مبين . .

وربما أقبلوا على أبيهم يعذلونه فى تصرفه وينصحونه ألا يبذر فى ماله وألا يعطيه من لا يستحق وأولاده يحتاجون إلى كل ثمرة ، وهم ذوو عيال فى حاجة إلى النفقة والتوسعة . .

ولكن الرجل توجه إلى أبنائه بالنصح مبيناً لهم أن هذا المال مال الله ائتمنه عليه وجعله خليفته فيه ، وجعل للفقراء والمساكين حقاً فيه ، فاذا هو حرمهم هذا الحق ، حرمه الله وحرمهم هذه النعمة ، وشكر النعمة يحفظها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها ومن جحدها فقد عرضها لزوالها .

وسكت الأولاد على مضض ، إن أباهم قد طعن فى السن ، وهو يوشك أن يفارق هذه الحياة فليتركوه يفعل ما يشاء ، وليفعلوا هم بعد وفاته ما يشاءون .

الأولاد يرثون الحديقة :

وانطوت حياة الشيخ ولحق بربه راضياً مرضياً .

وشمر أولاده عن ساعد الجد فى حديقتهم التى ورثوها .. وهم على عهدهم الذى قطعوه على أنفسهم من حرمان الفقراء ماكانوا يأخذونه من أبيهم .

وأقبلوا على الحديقة يتعهدونها بالرى والاصلاح حتى أزهرت وأثمرت واستحصدت ..

ولما دنا جمع ثمارها تعاهدوا مرة أخرى على ألا يعطوا مسكيناً منها ثمرة واحدة ، وامعاناً فى تنفيذ هذا العهد قرروا أن يكون جمعهم للثمار ليلاً ، حتى لا يحس بهم أحد فيتبعهم ويأخذ منهم شيئاً .

ولكن والحق ـ يقال ـ كان أخوهم الأوسط لا يعجبه منهم هذا الجمود فى الحس ، والتطرف فى العداء للفقراء ، لقد ورث عن أبيه شيئاً من طبعه ، فحاول نصحهم وارشادهم ، وتذكيرهم بالله وضرورة تسبيحه وشكره .. ولكنهم صموا آذانهم عن نصحه ، وأبوا إلا أن ينفذوا ما تعاهدوا عليه ..

فلما رأى اصرارهم على ماهم عليه لم يسعه إلا اصطحابهم، وقد يكون اصطحبهم وهو كاره، ولسان حاله فى ذلك يردد قول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وأن ترشد غزية أرشد
نصحتهم جهدى بمنرج اللوى ... فلم يستبينوا النصح إلا ضحا الغد

فى طريقهم إلى الحديقة:

وانطلق الأخوة إلى الحديقة بقطع من الليل، ومعهم آلات القطع والجذ، يتهامسون فيما بينهم خشية أن يسمعهم أحد .. يتلصصون فى مشيتهم خيفة أن يراهم فقير فيتبعهم، ويمنون بعضهم بعضاً بكثرة ما سوف يجنونه من ثمار ويجمعونه من قطوف، وقلوبهم فرحة لأنهم سيحرمون الفقراء والمساكين فهم لم يذهبوا لجمع ثمارهم ليلاً إلا بغية حرمانهم مما اعتادوا أن يأخذوه .. ومع ذلك أخذوا يحذرون أنفسهم من دخول هؤلاء عليهم حديقتهم قائلين:

لقد كفى هؤلاء ما أخذوه فى حياة أبينا، وطالما سلبونا حقنا وأكلوا ثمارنا فلن يأخذوا شيئاً منا بعد ذلك ..

لقد مضوا على حرد ـ أى قصد وقدرة على تنفيذ ما يريدون ـ ولكن الله كان لهم بالمرصاد، فأطاح بأملهم، وأبطل كيدهم وأعقبهم حسرة فى قلوبهم.

أمام الحديقة:

ووقف الاخوة أمام الحديقة مبهوتين .. أهذه هى الحديقة؟ كلا، إنها ليست هى، لقد ضلوا المكان ..

ولكنهم يعرفون الطريق إلى حديقتهم جيداً، وقد كانوا هنا بالأمس، وكانت الحديقة فى مكانها هذا مزهرة مثمرة، أما الذى أمامهم الآن فهو ركام محترق

وحطام أسود ودخان متصاعد لا يمت للأشجار الزاخرة بصلة ..

قطعاً أخطأوا الطريق إلى جنتهم ، هكذا قالوا لأنفسهم .

وأخذوا يلتفتون يمنة ويسرة ، ويقطعون الطريق ذهاباً وجيئة ، ولكنها هى الطريق بعينها .. وهذا الركام المتناثر المحترق هو مكان حديقتهم ..

وأصابتهم حيرة .. ماذا حدث للحديقة ؟

أهى مؤامرة أحاطت بها ؟ أهناك اعتداء حدث عليها ؟

لم يكن هذا ولاذاك .. وأنى لهم أن يعرفوا وقد عميت عيونهم عن الحق ؟ إنهم أخطأوا طريق السماء وأغمضوا أعينهم عنها ؟ فكيف يعرفون أن ما أصاب حديقتهم هى نقمة السماء ؟

لقد أرسل الله إليها طائفاً من عنده .. قيل ـ هو جبريل ـ عليه السلام ـ فاقتلعها من جذورها وأرسل الله عليها حسباناً من السماء فأحرقها فأصبحت كالليل المظلم ..

وقد عاقبهم الله بذلك حين علم ما انطوت عليه نفوسهم من خبث وحين عقدوا العزم على حرمان الفقراء حقهم ، وجحود نعمة ربهم عليهم ..

لقد أبدلهم الله من أملهم حسرة ، ومن فرحهم غمة ، ومن استبشارهم نقمة ..

ووقفوا أمام الجنة يعضون بنان الندم ، ويتجرعون كئوس الحسرة ..

وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، كل منهم يكيل التهمة للآخر ..

وأقبل أوسطهم عليهم وهو الوحيد الذى كان قد نصح لهم ولكنهم لم يصيخوا إلى نصحه .. أقبل يقول لهم :

.. ألم أقل لكم لولا تسبحون ؟ ألم أنصحكم ألا تنقضوا عهد أبيكم وتجحدوا حق الله عليكم ؟

ولكنكم أبيتم الاستماع لما أقول ، ورفضتم الانصات لنصحى ، وسفهتم رأيى ، وخطأتم قولى فذوقوا وبال أمركم ، وأجنوا نتيجة عملكم ..

ندم وتوبة :

نظر الأخوة إلى أخيهم نظرة اعتذار ، وقالوا لقد أخطأنا فيما فعلنا ، فهل لنا من توبة ؟

إن باب التوبة مفتوح أمام التائبين ..

وما زالت هناك فسحة فى العمر يجدد فيها الراغب فى الآخرة العمل الطيب ، ويطوى بساط المعصية والشر .. ورحمة الله واسعة ، وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ..

وأقبل الاخوة على الله فى رجاء صادق وضراعة خاشعة يسألونه المغفرة ويطلبون منه العفو قائلين بلسان الذل والانكسار : عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون .

ولم يطلبوا ماهو خير إلا بناء على عزمهم على فعل ما هو خير .. لقد رغبوا فيما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى ..

والرغبة إلى الله تفتح الطريق أمام المؤمن لكثير من الأعمال الصالحة المبرورة . لقد تابوا مع هذه الرغبة عن الشح والبخل والأنانية .. وأدركوا أن هؤلاء الفقراء الذين عزموا على أن يحرموهم مما اعتادوا أن يأخذوه فى حياة أبيهم إنما هم إخوان لهم ، ولهم عليهم حقوق ، ولهم فى أموالهم نصيب مرسوم وحق معلوم .

لقد أثنى الله على من يعرف حق المسكين بما هو خير ، وأنزله فى منازل الصديقين وأنجاه من عذاب الجحيم ، وقال فى حقهم :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٤٨)

وحين علم الله صدق توبتهم وحسن إقبالهم عوضهم خيراً من جنتهم . . قال القرطبى : إن الله أمر جبريل - عليه السلام - أن يقتلع هذه الجنة المحترقة فينقلها إلى مكان من أرض الشام ، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها .

ونقل عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قوله : إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منها عنقودا واحداً .

وقال اليمانى أبو خالد : دخلت الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم (٤٩)

وقال القرطبى أيضاً : إن الله حين أراد إهلاك الجنة ، أمر جبريل - عليه السلام - فاقتلعها ، فيقول إنه طاف بها حول البيت ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم ، ولذلك سميت الطائف .

ولكن هذا التعليل فيه نظر ، لأن هناك تعليلات أخرى لتسمية هذه المدينة بالطائف ، وليس غناؤها بالثمر دليلاً على طواف جبريل - عليه السلام - بها ،

---

(٤٨) المعارج ١٩ : ٢٥

(٤٩) تفسير القرطبى - سورة القلم - ص ٦٧٢٤

ووضعها فى هذا المكان . فإن غناها مرده إلى خصوبة هذا المكان وريه واعتدال جوه ولذلك تعد الطائف مصيفاً طيباً لأهل الحجاز .

وقد ذكر بعض العلماء عن البكرى فى معجمه أنه قال : سميت الطائف بهذا الاسم لأن رجلاً من الصدف ـ مخلاف باليمن ـ يقال له « الدمون » بنى حائطا وقال : قد بنيت لكم طائفاً حول بلدكم .

وظاهر الآيات لا يشير إلى أن الله قد أبدلهم جنة أخرى ، إلا أن العلماء استنبطوا من ـ عيسى ـ وهو فعل رجاء قبول رجائهم وتحقيق أملهم .

وقد أشار بعض العلماء المجتهدين إلى أن عسى ماذكرت فى القرآن الكريم إلا فى موضع رجاء الخير الذى يتحقق ، ولم يأت هذا الفعل فى الشر إلا فى الشطر الثانى من دعوة « تمليخا » على أخيه صاحب الجنتين حين قال : فعسى ربى أن يبدلنى خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا » وهذا فى الحقيقة خير لأن هلاك مال الظالم الجاحد خير .

وقد تحقق له رجاء الخير ، وأحاط الحسبان بثمر أخيه ..

القصة فى القرآن :

وقد قص الله علينا قصة أصحاب الجنة فى الآيات التالية :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾
فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ
﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن
لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا
لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ

﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا
طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (٥٠)

عظات وعبر :

لقد قص الله هذه القصة إنذاراً لأهل مكة الذين آذوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أعطاهم الله أموالاً ليشكروا نعمة الله ـ ويعرفوا حق الفقير والمسكين ، ولكنهم اغتروا بذلك ، وصموا آذانهم عن دعوة الحق ، وتجبروا بهذه الأموال فآذوا الفقراء واستعبدوهم وأذلوهم . . وقد أخبر الله بأن هذا عذاب الدنيا ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأقسى ، وذلك إذا لم يرجع الضال عن غيه وضلاله . .

والآيات وان كانت خطابا لأهل مكة فهى كذلك خطاب لكل جيل وكل أمة تجىء بعد ذلك تحذيراً لهم من الغرور والعصيان والبغى والعدوان واغتيال حق الفقراء فى مال الله الذى أتاه للناس وجعلهم مستخلفين فيه . .

وهذه الآيات الكريمة تشير إلى ما يجب أن يؤديه الزراع من زكاة الزرع وقد أنزل الله فى ذلك آية بينة هى :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ
كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (٥١)

---

(٥٠) القلم ١٧ : ٢٣
(٥١) الانعام ١٤١

وقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ (٥٢)

وحدد النبى - صلى الله عليه وسلم - مقدار ما يخرج من زكاة الزروع فقال فى حديث رواه جابر وأخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى : « فيما سقت السماء والأنهار والعيون العشر ، وفيما سقى بالآلة نصف العشر »

وقد تحدث الفقهاء حول الشروط التى يجب أن تتوافر فى الزروع التى يستخرج فيها زكاة ، وأشاروا إلى أنها تكون فى الحنطة والشعير والتمر والزبيب .

ويجب فى الحبوب باشتدادها وفى التمر بظهور صلاحه وفى العنب بحلاوته . . (٥٣)

على أن إخراج الزكاة وإن كان أمراً مفروضاً إلا أنه لا يعفى من أداء حق الزرع عند الحصاد ، بمعنى أنه إذا حضرك مسكين وأنت تحصد فاطرح له من السنبل واذا جذذت فالق له من الشماريخ واذا درسته وذريته فاطرح له منه ، فاذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته . وهذا ماقاله مجاهد ونقله القرطبى عنه (٥٤)

---

(٥٢) البقرة ٢٦٧

(٥٣) راجع كتاب الزكاة وحاجه العصر لعبد الحفيظ فرغل ص ٧٩ - دار الصحوة -

(٥٤) تفسير القرطبى - سورة الأنعام - ص ٢٥٣٦

واستنبط السيوطى من هذه الآيات أن زكاة الزروع لا تسقط عن صاحبها وإن سَوَّف فى أدائها ، وقال فى ذلك ما أسنده إلى العلماء من أن من فر من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط ، فإن ذلك لا يسقطها .

قال : ووجه ذلك من الآيات أن الأخوة قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين ، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم .

ـ وفى ذلك دليل على أن المعاصى تكون سبباً فى تقتير الرزق والحرمان منه

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مسعود مرفوعاً ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« إياكم والمعاصى ان العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيىء له ، ثم تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطاف عليها طائف من ربك . . » .

فهؤلاء قد حرموا خير جنتهم بذنبهم . .

وكما تكون المعاصى سبباً فى الحرمان يكون الاستغفار سبباً فى سعة الرزق وافاضته مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٥٥)

---

(٥٥) نوح ١٠ : ١٢

ـ وقد استنبط العلماء من ذلك أيضاً كراهة قطع الثمار وحصاد الزرع بالليل ، وقد ورد التصريح بذلك فى آثار كثيرة محافظة على حق الفقراء . . (٥٦)

وفى هذه الآيات تنبيه إلى وجوب الاستثناء ، وهو تقديم المشيئة عند العزم على فعل أى شىء ، وقد ورد فى ذلك أمر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سورة الكهف . . قال تعالى :

« ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله »

وقد أول بعض العلماء الاستثناء فى هذه الآية على أنه بمعنى التسبيح ، أو بمعناه الحقيقى على أنه استثناء لحق الفقراء والمساكين . أى لا يستثنون حق الفقراء والمساكين من الثمر الذى يكون متناثراً هنا وهناك وبما أخطأته آلة الجذ والحصاد ، وبما تخلف من الجمع . . لا يستثنون ذلك من عزمهم الذى عزموه .

ولعل هذا التأويل أنسب لأنه كيف يستثنى ـ بمعنى تقديم المشيئة ـ وهو يعزم على فعل ضار أو قبيح أو معصية ؟

وفى تعويض الله أصحاب الجنة دليل على رحمة الله الواسعة ، وقبوله توبة التائب الصادقة ، وذلك يحول بين المرء واليأس ، ويدفعه إلى الدخول فى ميدان الرجاء الواسع .

---

(٥٦) الاكليل فى استنباط التنزيل للسيوطى ص ٢٧١

ولو تأملنا الجوائح التى تجتاح الثمار والمحصولات لوجدناها نتيجة لجحود أصحابها وطغيانهم وماهذه الآفات التى تصيب الزروع والحقول إلا بسبب إعراضهم عن الله وأكلهم حقوق الناس بالباطل وعدم أداء حق الثمر يوم حصاده ، وعدم شكر الله على نعمائه وقد صدق الله فى قوله :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٥٧)

لقد ورد فى الآثار الكريمة : حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة . وهذا أمر تصدقه الشواهد وتؤكده التجارب . وما حفظ المال حارس أيقظ من زكاته ، وقد رأينا ورأى من نصدقه أن حقولاً بعينها حفظت من الآفات الزراعية التى تجتاح القطن أو غيره من المحصولات فى حين أن ما جاورها من حقول فى مختلف الجهات تلفت تماماً ، وبالتقصى عرف أن أصحاب الحقول المحفوظة يدأبون على أداء حق الثمار والمحصول ولا يفرطون فى ذلك ، حافظوا على أداء حق الله فحفظهم الله ، وهناك أثر يدل على أن الله ساق سحابة ووكل بها ملكاً قيل له : اسق حديقة فلان . .

فسئل صاحب الحديقة عن ذلك فقال : إنى أقسم ريع حديقتى ثلاثاً ، ثلثا لله ، وثلثا أقتات به ، وثلثا أرده عليها . . فتبارك الله الذى لا تغفل عينه عن أحبائه وأوليائه . . والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين . .

---

(٥٧) الأعراف ٩٦

أصحاب الأخدود

- من أصحاب الأخدود ؟
- المسيحية تدخل اليمن .
- قصة الغلام والساحر .
- الشهداء أحياء .
- هل هناك أكثر من أخدود ؟
- عظات وعبر .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أصحاب الأخدود

الأخدود هو الشق فى الأرض ويجمع على أخاديد ، ومثله الخَد والخُدة .

وتقول : خددت الأرض شققتها أو حفرتها ، والأخدود : الحفرة المستطيلة .

وتقول : خد السيل الأرض إذا شقها بجريه ، ومنه الحديث الشريف : إن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود (١)

وقد وردت قصة أصحاب الأخدود فى سورة البروج . .

وتحدث عنها العلماء وذكروا حولها تفسيرات متعددة نشير إليها فيما يأتى :

من أصحاب الأخدود :

أصحاب الأخدود هم الذين حفروه ليعذبوا فيه من آمن .

وعلى هذا فيكون معنى (قُتِل) فى قوله تعالى :

« قتل أصحاب الأخدود »

من قبيل قوله تعالى :

« قتل الإنسان ما أكفره »

وقيل : هم الذين ألقوا فيه فعلاً ، فيكون ذلك إخباراً عما حدث لهم . .

وقصة ذلك يسبقها أحداث نشير إليها فيما يلى :

اليهودية فى اليمن :

كان تبع وهوتبان أسعد أبو كرب صاحب أوثان ، وكانت قد حدثته نفسه وأغراه بعض الهزيليين بغزو مكة ونهب الكعبة ، ولكن حبرين من أحبار اليهود نهياه عن ذلك ، وأخبراه بأن هذا البيت ربا سيمنعه ، واستشارهما فيما

(١) لسان العرب لابن منظور حـ٢ ص ١١٠٩

يصنع ، فدعواه إلى أن يحجه ويطوف به ويسوق الهدى أمامه ففعل ، وعاد إلى اليمن بعد أن كسا البيت وعظمه .

وكانت قد أعجبته ديانة الحبرين فاعتنقها

وحين دنا من بلاده حالت حمير بينه وبين دخولها ، وقالوا له : لا تدخل بلادنا وقد فارقت ديننا ودين آبائنا . .

فعرض عليهم الدين الذى اعتنقه ودعاهم إليه . . فأبوا إلا أن يتحاكموا إلى النار .

وكان أهل اليمن - فيما يزعمون - يتحاكمون إلى نار تخرج من باطن الأرض ، يدخلها صاحب الحق فلا تضره ، ويدخلها الظالم فتحرقه .

فقال لهم تبع : لقد أنصفتم . .

فخرج وخرج معه قومه بأوثانهم . .

وأقبل مع تبع الحبران بصحفهما فقعد الفريقان جميعاً عند المكان الذى تخرج منه النار

فلما خرجت حاد عنها قوم تبع ولم يصمدوا لها . .

أما تبع والحبران فقد صبروا عليها حتى غشيتهم ولم تضرهم . .

فأقبلت حمير على دين الحبرين فاعتنقته ، وتتابع ملوك اليمن على هذا الدين يخلصون له حتى جاء ذو نواس . . وكان من أشدهم إخلاصاً لهذا الدين . وكان اسمه يوسف . .

المسيحية تدخل اليمن :

وكان رجل من أتباع عيسى بن مريم - عليه السلام - سائحاً يتنقل فى البلاد اسمه « فيميون » وكا ، صالحاً مجتهداً فى العبادة ، مخلصاً لله ، فأكرمه

الله باستجابة دعائه ، كان يدعو للمرضى فيشفيهم الله بقدرته ، وكان يأكل من كسب يده ، يحترف العمل فى البنيان .

وكان « فيميون » هذا من قرية من قرى الشام ، وكان هذا دأبه ، فرآه يوماً رجل اسمه « صالح » فتعلق به وأحبه ، وكان يتبعه أينما سار دون أن يدرى عنه « فيميون » شيئاً .

وفى يوم وقف « فيميون » يصلى فى فلاة بعيداً عن الناس ، وصالح يرقبه من بعيد ، واذا بتنين عظيم أقبل نحو « فيميون » لم يكترث واستمر فى صلاته حتى فرغ منها .

فلما انصرف من صلاته أقبل عليه صالح يعرفه بنفسه ، ويقول له : والله ما أحببت شيئاً حبك قط وقد أردت صحبتك والذهاب معك إلى أى مكان .

فقال له « فيميون » : أما أمرى فهو ما تراه فهل تصبر على مصاحبتى على ذلك ؟

فقال له صالح : أجل ، ولزمه ، وسار معه أينما ذهب .

وهبطا معا قرية ، وأقبل رجل له ابن ضرير على « فيميون » فقال له : إن عندى جداراً أريد أن ترفعه واصطحبه ، وكان قد أجلس ابنه فى حجرته وألقى عليه ثوباً ، وحين دخل « فيميون » البيت نزع الرجل الثوب عن ولده ، وقال : يا فيميون ادع ربك أن يشفى ابنى . .

فتضرع « فيميون » إلى الله فأبصر الولد وقام يمشى ليس عليه بأس واشتهر أمره فى القرية . .

وكان إذا أدرك أن أمره قد فشا يترك القرية إلى غيرها ..

وخرج ومعه صالح إلى قرية أخرى ، حتى إذا مرا بشجرة عظيمة ، سمع صوتاً يناديه : يا« فيميون » إنى أنتظرك منذ حين ، وها أنت ذا قد جئت ، فلا تبرح هذا المكان حتى تقوم بدفنى فإنى أموت .

ولفظ الرجل صاحب الصوت أنفاسه ، فقام « فيميون » بأمره وواراه التراب .

وانطلق ومعه صالح نحو أرض العرب ، فاختطفتهما رحالة من بعض العرب وخرجوا بهما إلى نجران حيث باعوهما هناك ..

وكانت نجران فى ذلك الوقت وثنية تعبد ما يعبده العرب .. كانت لهم نخلة طويلة يعبدونها من دون الله ، ويقيمون لها عيداً كل عام ، يعلقون عليها فيه كل ثوب حسن ، وكل حلية جميلة من حلى النساء ..

وفرق الرق بين « فيميون » وصاحبه صالح ، فقد اشترى « فيميون » رجل من أشراف نجران واشترى صالحاً رجل غيره ..

وخصص الرجل الذى اشترى فيميون له بيتاً مفرداً قريباً من بيته .. وكان « فيميون » يقوم من الليل فيتعبد ، فكان البيت يضىء له من غير سراج ، ورأى سيده ذلك فأعجبه ، فسأله عن دينه فأخبره ..

وقال « فيميون » لذلك السيد : إنكم فى باطل ، تعبدون مخلوقاً أصم لا حس له لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر .. ولو دعوت ربى على هذه النخلة لأحرقها ..

فقال له السيد : إن فعلت ذلك دخلنا فى دينك ..

فدعا « فيميون » ربه على النخلة فجاءت ريح فاقتلعتها من جذورها

والقتها بعيداً فأقبل أهل نجران على دين « فيميون » يعتنقونه ويعبدون الله وحده ، فدخلت المسيحية بذلك إلى نجران .

فسمع ذو نواس بخبر ذلك فغار على دينه ، فأقبل على نجران بجنده ، وحفر أخدوداً فى الأرض أجج فيه النار ، ودعا أهل نجران إلى اليهودية ، فمن اعتنقها نجا ، ومن أبى قذفه فى النار[٢] .

قصة الغلام والساحر :

وهناك قصة أخرى حول هذه الفتنة التى افتتن بها أهل نجران رواها مسلم فى صحيحه ورواها غيره من أصحاب السنن عن صهيب ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

كان لأحد الملوك الذين ملكوا نجران كاهن يتكهن له ـ وفى رواية ساحر ـ فقال الساحر يوماً : إنى قد كبرت ، وأخاف أن أموت فينقطع عنكم علمى ولا يكون فيكم من يعلمه ، فاحضروا الىّ غلاماً فطنا لقنا فأعلمه علمى .

فنظروا له غلاماً على ما وصف ، وأمروه أن يحضر إلى ذلك الساحر وأن يتردد عليه .

وكان على طريق الغلام راهب فى صومعة[٣] .

فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به عن أمره ، فلم يزل به حتى أخبره فقال : إنما أنا عبد الله أعبد الله وحده فجعل الغلام يمكث عند

(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبرى ص١٠٣ حـ٢

(٣) قال معمر : أحسب أن أصحاب الصوامع يومئذ كانوا مسلمين ـ حياة الحيوان حـ٢ ص ٥٩٩

الراهب ويبطىء على الساحر ، فأرسل الساحر إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرنى .

فأخبر الغلام الراهب بذلك ، فقال له الراهب : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر .

فبينما الغلام على ذلك إذ هجمت على الناس دابة عظيمة ـ قيل هى أسد ـ وقد حبست الناس ، فقال : اليوم يبين أمر الراهب من أمر الساحر .

فأخذ حجراً وقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة ، ثم رمى بالحجر فقتلها .

فقال الناس : من قتلها ؟

فقالوا : الغلام

ففزع الناس وقالوا : لقد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد . .

قال : فسمع به أعمى كان جليساً للملك ، فقال له : إن رددت إلىَّ بصرى فلك كذا وكذا .

فقال الغلام : لا أريد منك شيئاً ، ولكن أرأيت إن رجع بصرك إليك أتؤمن بالذى رده إليك ؟

قال : نعم

فدعا الغلام الله تعالى ، فرد عليه بصره ، فآمن الأعمى بالله . .

وجاء الأعمى إلى الملك بعدما شفى ، فجلس معه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟

قال : ربى

قال : وهل لك رب غيرى ؟

قال : الله ربى وربك

فأمر بالمنشار فوضع على رأسه حتى شقه نصفين

وكان الراهب ـ كما يقول الترمذى فى روايته ـ حين قتل الغلام الدابة قد قال له : إن لك شأناً ، وإنك ستبتلى فلا تدل علىّ ، ولكن الملك علم بأمرهم

وحين بلغه أمرهم أتى بهم وقال لهم : لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه .

ثم أمر بالراهب وبالرجل الذى كان أعمى فشق كل واحد منهما بالمنشار ، وأمر بالغلام أن يلقى من فوق رأس جبل .

فانطلقوا به إلى ذلك الجبل ، فلما انتهوا به إلى قمته قال : اللهم اكفنى شرهم بما شئت

فجعلوا يتساقطون من ذلك الجبل ويتردّوْن منه حتى لم يبق منهم إلا الغلام

فرجع الغلام يمشى حتى أتى الملك .

فقال له : ما فعل أصحابك ؟

قال : كفانيهم ربى بما شاء

فأمر الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر

فقال الغلام : اللهن اكفنى شرهم بما شئت

فأغرق الله ـ عز وجل ـ الذين كانوا معه وأنجاه (٤)

---

(٤) فى رواية الطبرى : جعل يبعث به إلى مياه بنجران لايقع فيها شىء إلا هلك ، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس ـ تاريخ الأمم والملوك حـ ٢ ص ٥٠٠

فأقبل الغلام يمشى على وجه الماء حتى أتى الملك ، فتحير الملك فى نفسه فقال له الغلام : أتريد أن تقتلنى ؟

قال الملك : نعم

قال : إنك لا تقدر على ذلك حتى تصلبنى وترمينى بسهم من كنانتى ،وتقول إذا رميتنى : باسم الله رب هذا الغلام ، بعد أن تجمع الناس فى صعيد واحد .

فجمع الملك الناس فى صعيد واحد ، وأمر بالغلام أن يُصلب فصُلب ، وأخذ الملك سهماً من كنانة الغلام ، وقال : باسم الله رب هذا الغلام ، ورماه فوقع السهم فى صدغه فقتله ، ووضع الغلام يده على صدغه .

فقال الناس : آمنا برب هذا الغلام .

فقيل للملك : إنك جزعت حين خالفك ثلاثة ، فهذا جمع غفير قد خالفك .

فأمر بالأخدود فخد ، ثم ألقى فيه الحطب والنار ثم جمع الناس وقال لهم : من رجع عن دينه تركناه ومن لم يرجع ألقيناه فى النار فجعل يلقيهم فى ذلك الأخدود . .

وزاد مسلم فى روايته فقال :

فأتى بامرأة لتلقى فى النار ومعها صبى رضيع ، فقال لها الغلام : ياأماه لاتجزعى فإنك على الحق . وذكر قتيبة أن الغلام كان عمره سبعة أشهر (٥)

---

(٥) حياة الحيوان للدميرى جـ ٢ ص ٥٦٠ وأورد القرطبى هذه القصة فى تفسيره ـ سورة البروج ـ

وقد ورد ذكر هذه القصة فى قوله ـ تعالى ـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ
الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ
فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ
(١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ
ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) ﴾ (٦)

الشهداء أحياء :

وقص ابن هشام فى سيرته هذه القصة ، وذكر أن اسم هذا الغلام الذى علمه الراهب « عبدالله بن الثامر » وأنه استطاع أن يهتدى إلى معرفة اسم الله الأعظم .

وروى عن عبدالله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه حدَّث أن رجلاً من أهل نجران كان فى زمان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حفر خربة من خرب نجران ، فوجدوا عبدالله بن الثامر تحت دفن منها ، قاعداً واضعاً يده على ضربة فى رأسه ممسكاً عليها بيده فإذا أخرت يده عنها تنبعث دما ، واذا أرسلت يده ردها عليها فأمسكت دمها ، وفى يده خاتم مكتوب فيه « ربى الله »

---

(٦) البروج ١ : ١١

فكتب فى شأنه إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يخبر بأمره ، فكتب إليهم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن أقروه على حاله وردوا عليه الدفن الذى كان عليه ففعلوا (٧)

قال السهيلى : ويصدق ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (٨)

وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء » (٩)

نهاية ذى نواس :

ولا خلاف فى أن الذى أمر بحفر أخدود نجران هو ذو نواس ، ولكن الخلاف فى ديانته هل كان يهودياً أو وثنياً ؟

قال السهيلى : وذو نواس اسمه زرعة بن تبان بن أسعد الحميرى وكان أيضاً يسمى بيوسف وكانت له غدائر من شعر تنوس ـ أى تضطرب ـ فسمى ذا نواس لذلك .

ويبدو أنه لم يكتف بأخدود نجران ، بل كانت له أخاديد أخرى . . وحين فعل ذلك بأهل نجران أفلت منهم رجل اسمه دوس ذو ثعلبان على فرس له ، سلك الرمل فأعجز مطارديه ، ومضى على وجهه حتى لحق بقيصر

---

(٧) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٣٥
(٨) آل عمران ١٦٩
(٩) أخرجه أبو داود

ملك الروم وأخبره الخبر ، واستنصره على ذى نواس الذى فتك بنصارى نجران .

فقال له قيصر : بعدت بلادك عنى ، ولكنى سأكتب إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين ، وهو أقرب إلى بلادك .

وكتب قيصر إلى نجاشى الحبشة يأمره بنصر « دوس » والطلب بثأره ، فبعث النجاشى سبعين ألفا من الحبشة ، وأمر عليهم رجلاً يقال له « أرباط » ومعه فى جنده « أبرهة الأشرم » ونزلوا ساحل اليمن وسار إليهم ذو نواس فى حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن .

فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ذلك وجه فرسه نحو البحر فاقتحمه فمات غريقاً واستولت الحبشة على اليمن ، وأمعن « أرباط » فى تخريب اليمن وآثاره ، وكان من هذه الآثار المشهورة حصون « بينون » وسلحين ، وغمدان » وقال أحد شعراء اليمن وهو ذو جدن الحميرى يرثيها :

هونك ليس يرد الدمع ما فاتا   لا تهلكى أسفاً فى أثر من ماتا
أبعد « بينون » لا عين ولا أثر   وبعد « سلحين » يبنى الناس أبياتا ؟(١٠)

وهكذا شأن الغازى لا يرعى للديار حرمة مالم يكن له عصمة من دين أو وازع من ضمير ..

متى حدثت هذه الواقعة ؟

يذكر كاتب مادة أصحاب الأخدود فى دائرة المعارف الاسلامية أن ذا نواس أحرق نصارى نجران سنة ٥٢٣ م

---

(١٠) سيرة ابن هشام حـ ١ ص ١٧ ومعنى هونك : ترفقى وليهن عليك الأمر . وقال السهيل : بينون وسلحين مدينتان خربهما أرباط ، وكانت بينون بين عمان والبحرين .

ويقدر البعض أن ذلك كان قبل مولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنصف قرن تقريباً .

وهو الزمن الموافق لتمكن الحبشة فى اليمن ثم تفكيرهم على يد أبرهة فى غزو مكة وهدم البيت ، وقد كان هجوم أبرهة بالفيلة على مكة فى العام الذى ولد فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ
وقد حدد الشيخ محمد الخضرى مولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه يوافق ٢٠ من ابريل عام ٥٧١ م(١١)

وهذا يوافق الثانى عشر من ربيع الأول من عام الفيل . .
وقد قدر بعضهم بأن ذلك ـ أى حرق المؤمنين فى الأخدود ـ كان قبل بعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسبعين عاماً وبعضهم بأربعين عاماً . . والله أعلم بالصواب . .

هل هناك أخاديد أخرى ؟ :

أشار بعض المؤرخين إلى أن حفر الأخدود لإحراق المؤمنين لم يكن قاصراً على ذى نواس . .

ولكن هناك جبابرة آخرون فعلوا ذلك وقد أشار العهد القديم إلى أن « بختنصر » أقام تمثالاً من ذهب وعكف على عبادته وأجبر الناس على عبادته معه ومن لم يؤمن به ويعبده كان يلقيه فى أتون النار المتقدة ، وكان يتزعم المؤمنين بالله ثلاثة من الأحبار فقال لهم « بختنصر » : إن لم تسجدوا لتمثال

---

(١١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين

الذهب فى تلك الساعة فسوف تلقون وسط أتون النار المتقدة ، وأرونى من هو الاله الذى ينقذكم من يدى ؟

فأجابه هؤلاء قائلين :

يا بختنصر لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر ، إن إلهنا الذى نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة ، وأن ينقذنا من يدك أيها الملك ، وليكن معلوماً لك أيها الملك أننا لن نعبد آلهتك ولن نسجد لتمثال الذهب الذى صنعته .

حينئذ امتلأ « بختنصر » غيظاً وتغير منظر وجهه ، وأمر جنوده أن يضاعفوا من إشعال النار فى الأتون سبعة أضعاف ، وأوثقوا الرجال الثلاثة فى سراويلهم وقمصانهم وأرديتهم وألقوا بهم وسط النار ولكن هذه النار لم تعمل فيهم شيئاً ، بل أصبحت عليهم برداً وسلاماً وخرجوا من النار سالمين (١٢)

ولعل ذلك كان سبباً فى ايمان « بختنصر »

قصة الثعلبى فى ذلك :

وأشار الثعلبى فى كتابه إلى قصة أخرى جرت فى فارس قال :

أخبرنا عبدالله بن حامد باسناده إلى ابن أروى قال :

اختلف المسلمون حول الأحكام التى تجرى على المجوس بعد هزيمتهم ، وسبب الاختلاف أنهم ليسوا أهل كتاب وليسوا من مشركى العرب . وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ قد استشهد

---

(١٢) راجع العهد القديم ـ سفر دانيال ـ الاصحاح الثالث

فقال على ـ كرم الله وجهه ـ : بل هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها ملك من ملوكهم فغلبت على عقله حتى تناول أخته فوقع عليها .

ولما ذهب عنه السكر ندم ، فقال لها : ويحك ماهذا الذى صنعت ؟ وما المخرج ؟

فقالت له : المخرج أنك تنادى فى الناس بأن الله أحل لكم نكاح الأخوات ، فاذا ذهب هذا فى الناس تناسوا حرمته عليهم .

فقام الملك خطيباً فى قومه فنادى : أيها الناس إن الله أحل لكم نكاح الأخوات ، فأنكر الناس جميعاً عليه ذلك ، وقالوا : ماجاءنا بهذا نبى ولا أنزل علينا فى كتاب .

فرجع الملك إلى أخته ، فقالت له : ابسط فيهم السوط
فبسطه فيهم فأبوا أن يقروا له بما يقول
فرجع إلى أخته فقالت له : جرد فيهم السيف
فجرده فيهم ، فلم يفد شيئاً

فقالت له أخته : فاحفر لهم أخدوداً وأوقد فيه النار ، فمن تابعك فخل عنه ، والا فاقذفه فيه ..

فخد الأخدود وأوقد النار وعرض أهل مملكته عليها فمن أبى منهم الإقرار بما قال لهم قذفه فيه .. (١٣)

فانظر كيف تفعل الخمر بأصحابها ، لقد أشعلت فتنة وغيرت دينا وأباحت منكراً وظل من أباحوه يتوارثونه آماداً طويلة ، وصدق من قال عن الخمر بأنها أم الخبائث .

---

(١٣) قصص الأنبياء للثعلبى ص ٤٤٦

عظات وعبر :

والقصة فى صورها المختلفة تحدثنا عن الصراع بين الإيمان والكفر .. وتعلمنا أن الثبات على الإيمان سمة المؤمن الصادق الذى يثق بوعد ربه ويوقن بنصرته ..

والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يتخلى عن الصادقين ، فهو يثبتهم بآيات من عنده ، فتلك المرأة التى تقاعست حين أمر ذو نواس بإلقائها فى الأخدود ، يلتفت رضيعها إليها فيأمرها بالثبات ، وهذه آية لاشك فيها حتى ورد أنه لم يتكلم فى المهد سوى شاهد يوسف ، وابن ماشطة بنت فرعون ، ويحيى وعيسى وصاحب الراهب وابن امرأة الأخدود .

هم ستة ذكرهم الثعلبى فى خبر مسند إلى صهيب ـ رضى الله عنه ـ

كما تشير القصة إلى أن الكفر حين يستولى على القلب يعقد حجاباً كثيفاً من الظلمة فلا يرى صاحبه الحق فيمعن فى الظلم ويبالغ فى الطغيان .. فانظر كيف زين الكفر لذى نواس أنه ليس إلا هو وأن ماعداه من الناس لاشىء ، فقتلهم مشروع ودماؤهم حلال .. وهكذا قتل فى الأخدود قوماً مؤمنين .

اختلف الرواة فى عددهم فبينما يقدرهم البعض بسبعين أو ثمانين يقدرهم البعض الآخر بأكثر من ألف ..

وعلى كل فقتل نفس واحدة ظلماً كقتل الناس جميعاً مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ :

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا

﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١٤)

لقد سولت لذى نواس نفسه ، وزين له الشيطان عمله ، وامتد به حبل غروره ، ولكن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وكان مصيره عبرة لمن يعتبر .. لقد أزهق روحه بيده ، وألقى بنفسه فى لجة البحر تتقاذفه الأمواج ، كما تقاذفت قبله بفرعون الذى ادعى الربوبية .

إن البشاعة التى تم بها حادث الأخدود يدل دلالة قاطعة على تجرد قلوب الذين قاموا به من الرحمة ، ويشهد على أنهم قوم غلاظ الأكباد قساة القلوب ، وقد أدان القرآن الكريم هذا الحادث وتوعد من قاموا به بأشد أنواع العقاب ، ولما كان الجزاء من جنس العمل فقد توعدهم بعذاب جهنم ، ولم يكتف بذلك بل أتبع ذلك الوعيد بقوله : « ولهم عذاب الحريق » تأكيداً لإحراقهم مع أن جهنم هى النار ..

والقرآن يعنيه الإيمان بالله وحده ، وقد كان هؤلاء المعذبون مؤمنين على ديانة عيسى ـ عليه السلام ـ والأنبياء كلهم يدعون إلى دين واحد فى أصله ..

وهكذا يظل أهل الإيمان دائماً عرضة للعذاب والنكال من أعداء الله ونحن نرى بعض المسلمين فى هذا العصر يتعرضون لكثير من ألوان القسوة والعذاب من أعدائهم ..

---

(١٤) المائدة ٣٢

وماجاء الاسلام إلا لانصاف المظلوم وتأمين الخائف وإشاعة الأمن والعدل واسعاد البشرية ، فكان جزاؤه أن جرد أعداؤه فى وجوه أتباعه السيف ، ومارسوا معهم أقسى أنواع الارهاب ، وأشاعوا فى بعض بلادهم الخوف والفزع حتى اضطروا إلى الفرار بدينهم أو القتل أو الرضوخ . .

ولسنا نقول هذا الكلام من فراغ ولكنه الواقع المؤسف الذى تشهد به صفحات التاريخ وتتحدث عنه الوقائع والأحداث فى أيامنا تلك ، فالاستعمار بكل قواه والتبشير بكل أساليبه يتعاونان معاً على البطش بالمسلمين فى أى مكان يظفرون بهم فيه وبخاصة فى الأماكن التى توجد بها أقليات مسلمة . .

وهذه أمثلة للممارسات التعسفية التى لا تقل بشاعة عن ممارسات أصحاب الأخدود . .

كانت أسبانيا دولة مسلمة فتحت سنة ٩٢ هـ ، وأشاع المسلمون العدل فى هذه البلاد وظل الاسلام فيها حتى نهاية القرن التاسع الهجرى ثم تحالفت عليهم جيوش الفرنجة واستولوا على السلطة فطردوا المسلمين وأجبروهم على الجلاء أو الارتداد عن الإسلام ، وأنشأ راهب حاقد اسمه « توماس توركيمادا » مايسمى بمحاكم التفتيش التى سجلت أسود الصفحات فى تاريخ البشرية ، وقد حكم فى نطق واحد على ألفى مسلم بالموت حرقاً ، وفى عهد خلفائه من بعده ازدادت هذه المحاكم شراسة مما اضطر الكثرة من المسلمين إلى الفرار ، ومن بقى كتم اسلامه ، ومارست المحاكم البشعة شراستها أكثر من ثلاثة قرون ، ولم تلغ هذه المحاكم إلا فى عهد نابليون فى أواخر القرن التاسع عشر .

كان الاستعمار البريطانى وراء الفظائع التى ارتكبها الهندوك ضد المسلمين فى الهند ..

إن أى مؤرخ لايمكنه ملاحقة الأحداث التى تمخضت عن أبشع الجرائم التى ارتكبت ضد المسلمين فى أرواحهم ومساجدهم وممتلكاتهم ، وحسبنا من ذلك الإشارة إلى حادث مدينة « جمشديور » مركزصناعة الصلب فى ولاية « بيهار » حيث استولى قطاع الطرق على المدينة وتعرض المسلمون على مدى أيام ثلاثة لحركة إبادة وتدمير بشعة وبعلم من السلطات الحاكمة ، فقتل حوالى ألف مسلم وجرح أكثر من ألف وخمسمائة ، ودمرت منازل تقدر قيمتها بثلاثة ملايين من الدولارات وماخفى كان أعظم ، كان ذلك الحادث فى سنة ١٩٧٩ م أى فى العصر الحديث .

إن هؤلاء المعتدين لم يكونوا قطاع طرق ، ولكن الذين شجعوهم على ذلك وظاهروهم قالوا عنهم إنهم قطاع طرق ستراً للمؤامرة الدنيئة التى راح ضحيتها المسلمون ، وكيف يفرق قاطع الطريق بين مسلم وغير مسلم ؟ لكنه فرق ، فكيف يكون قاطع طريق ؟

والاستعمار نفسه وراء إسرائيل التى مازالت تمارس عدوانها الشرس ضد الإسلام فى فلسطين وما جاورها ، واعتداؤها على القدس حلقة فى سلسلة هذه الهجمات الشرسة التى تستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين .

والاستعمار وراء حركات التبشير المستمرة فى بلاد الإسلام والتى يقاسى المسلمون من ضراوتها وشراستها ، والتبشير يقوم بمحاولات ماكرة خبيثة فى سبيل إجبار المسلمين على التنصر ، ويبذل فى طريق ذلك أموالاً طائلة .

كانت الحروب الصليبية تستهدف القضاء على الإسلام ، ولم تكن بسبب الغيرة على الأماكن المقدسة كما ادعى كذباً من أشعلوها ، وكان فى إمكانهم

الاكتفاء بالسيطرة على بيت المقدس ، ولكن نياتهم فضحت بالحملات المسعورة التى قاموا بها ضد المسلمين الأبرياء العزل حتى قتلوا وشردوا الآلاف من المسلمين الأبرياء العزل .

ولم يقابل المسلمون المعاملة بالمثل بعد أن استردوا بيت المقدس بقيادة صلاح الدين الأيوبى ولكن معاملتهم للصليبيين كانت فى منتهى الرحمة والعطف ، وقد شهد بذلك الغربيون أنفسهم ،

إن الصليبية تحالفت الآن مع الصهيونية ، ونسيتا عداوتهما التقليدية مؤقتاً لتتفرغا معاً لمحاربة الإسلام والقضاء على أهله ، مستعملين أبشع أنواع التنكيل والإرهاب .

ومازالت هذه القوى المعادية للإسلام تخطط بذكاء حتى تحول دون أدنى استقرار للدول المسلمة . .

وانظر إلى خريطة العالم الاسلامى تجد قلاقل وفتنا فى كل مكان فيها . .

ومن الغريب أن المشرفين على تلك الحملة الشرسة قرروا أن تحول افريقيا المسلمة إلى افريقيا المسيحية قبل نهاية هذا القرن . .

ومجلس الكنائس العالمى يقرر استراتيجية جديدة لتنصير المسلمين ، وقد تم رصد مليار من الدولارات لتنفيذ الخطة ، وزادت قوافل الغزو التبشيرى الذى أصبح فى أماكن كثيرة من أندونيسيا وبنجلاديش وبعض دول افريقيا دولة داخل الدولة لهم كيانهم المستقل

يدخل المبشرون هذه الدول فى صورة خبراء وتحت هذا الستار يفعلون ما يريدون (١٥)

---

(١٥) استندنا فى هذه المعلومات على كتاب « محنة الأقليات المسلمة » لمحمد عبدالله السمان الأمانة العامة للدعوة الاسلامية بالأزهر

ولكن ما أصدق الله الذى يقول : « **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** » . .

ونحن لم نشر إلى الممارسات الشيوعية ضد الإسلام ، مع فظاعة هذه الممارسات ، لأن الشيوعية مذهب قام على الالحاد والكفر وعدم الاعتراف بالله ، والتنكر لكل خلق ومبدأ فلا عاصم يعصمه من خلق أو دين فليس غريباً مايحدث منهم .

ولكن هؤلاء الذين يزعمون كذباً أنهم يؤمنون بالله ، ويدعون زوراً انتسابهم لرسالات سماوية تدعو إلى محاسن الأخلاق وحسن المعاملة بين الناس والصفح والمغفرة مابالهم يفعلون فعل الملحدين المارقين من كل دين ؟

إنه لا تعليل لذلك كله إلا الحسد ، وقد صدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩ ﴾ (١٦)

وهذا يفرض على المسلمين واجباً نحو أنفسهم ونحو دينهم ونحو مجتمعاتهم ونحو العالم أجمع . .

عليهم أن يستيقظوا من سباتهم ، ويجمعوا شملهم ، ويفكروا جدياً فى الكارثة التى توشك أن تحيق بهم . . عليهم أن يتعلموا من الزمن ويتعظوا من التاريخ ، ويعودوا إلى الله فيكونوا معه حتى يكون معهم ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . .

---

(١٦) البقرة ١٠٩

قوم سبأ

- أين كان قوم سبأ ؟
- سد مأرب .
- وصف بلاد سبأ .
- تهدم السد .
- عمرو بن عامر يحتال للنجاة .
- كيف أفسدت الفئران السد ؟
- قصة السد فى القرآن الكريم .



قوم سبأ

تفسير لغوى :

جاءت كلمة « سبأ » فى اللغة فعلاً واسماً . .

فمعناها وهى فعل يستعمل فى الخمر ، تقول : سبأ الخمر يسبؤها سبأ بمعنى اشتراها ليشربها ومنه قول الشاعر :

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل   لخيلى كرى كرة بعد إجفال

ويطلق على الخمر اسم السبيئة ، ومنه قول حسان بن ثابت :

كأن سبيئة من بيت رأس   يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض   من التفاح هصره اجتناء (١)

أما معناها وهى اسم ، فهو اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن ، أو اسم مكان فإن سميت به قبيلة منع من الصرف للعلمية والتأنيث ، وان سمى به رجل أو حى أو مكان صرف ، ومنه قوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ (٢)

وقوله تعالى :

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (٣)

---

(١) السبيئة : اسم الخمر : وبيت رأس : مكان بالشام مشهور بالخمر. غض : طازج ـ هصره : أماله للقطف يقول : إن طعم ريقها كأنه الخمر أو طعم التفاح الطازج .
(٢) سبأ ١٥
(٣) النمل ٢٢

وأما كونه اسم رجل فقالوا : إنه يطلق على سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان

وقيل : اسم رجل له عشرة بنين فسميت قريتهم باسم أبيهم ، وسيأتى حديث فى ذلك .

وأما كونه اسم بلدة فقالوا : إنها البلدة التى كانت تسكنها بلقيس ملكة سبأ ،

وقال الزجاج : هى مدينة تعرف بمأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .

وقد ورد فى سبأ مثل مشهور يرويه العرب ويضربونه فى أحداثهم المشابهة له ، فيقولون : تفرقوا أيدى سبأ ، أو يقولون أيادى سبأ . . وفى ذلك يقول كثير الشاعر :

أيادى سبأ ياعز ما كنت بعدكم   فلم يحل للعينين بعدك منظر
وقد زعمت انى تغيرت بعدها   ومن ذا الذى ياعز لا يتغير

قال ابن منظور : لما تفرق السبئيون عقب تهدم السد أخذ كل قوم منهم طريقاً ، وتبددوا مذاهب شتى ، فضرب بهم المثل فى التفرق والتشتت ، والعرب لا تهمز سبأ فى هذا الموضع لأنه كثر فى كلامهم فاستثقلوا الهمزة وان كان أصل الكلمة مهموزاً .

أين كان قوم سبأ ؟ :

قال السهيلى : أما سبأ فاسمه « عبد شمس » وكان أول من تتوج من ملوك العرب وهو أول من سبى فسمى « سبأ » ولكن هذا التعليل فيه نظر

لأن الاشتقاق لا يؤدى اليه ، لأن سبأ مهموز ، وسبى معتل الآخر بالياء . .

وكانوا يقيمون باليمن . .

وقد روى ابن الأثير فى ترجمة فروة المرادى حديثاً عنه يذكر فيه أصل « سبأ » قال فيه :

« أتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يارسول الله : ألا أقاتل من أدبر من قومى بمن أقبل منهم ؟ فأذن لى فى قتالهم وأمرنى ، فلما خرجت من عنده سأل عنى : مافعل الغطيفى ؟ فأخبر أنى قد سرت . .

قال : فأرسل فى أثرى من ردنى إليه ، فأتيته ـ وهو فى نفر من أصحابه ـ فقال : ادع القوم ، فمن أسلم منهم فاقبل منهم ، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك .

قال : وأنزل الله فى سبأ ما أنزل . فقال رجل : يارسول الله ، وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟

قال : ليس بأرض ولابامرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب ، فتيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة .

وأما الذين تيامنوا فالأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج وأنمار .

فقال رجل : يارسول الله ، وما أنمار ؟

قال : الذين منهم خثعم وبجيلة (٤) .

قال المسعودى : ويعد سبأ أول من ملك فى اليمن وأول من غنم فى الغزو

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة حـ ٤ ص ٣٥٩ الترجمة رقم ٤٢١٨ ، ورواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب ـ تحفة الأحوزى حـ ٩ ص ٨٨

وأعطى قومه ، فسمى بالرائش ودام ملكه أربعمائة سنة ، وملك بعده من ولده حمير بن سبأ بن يشجب الذى كان من أشجع الناس فى عصره وأفرسهم وأجملهم وهو أول من وضع التاج على رأسه من الذهب ، فلقب بالمتوج . وجاء بعده أخوه كهلان ، وتتابع بعده الملوك والتابعة ـ وقد أسس هؤلاء فى اليمن حضارة عريقة وآثارا تالدة منها سد مأرب المشهور الذى ذكر القرآن الكريم قصة هدمه ..

وذكر ابن كثير أنه بشر بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال فى ذلك شعرا منه :

سيملك بعدنا ملكا عظيما ... نبى لايرخص فى الحرام
ويملك من بعده منهم ملوك ... يدينون العباد بغير ذام
ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبى ... تقى خبته [٥] خير الأنام
وسمى أحمد ياليت أنى ... أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصرى ... بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يبلغه سلامى [٦]

وسبأ بن يشجب هذا هو الذى أنشأ سد مأرب [٧] .

وقيل : إن الذى بنى السد لقمان بن عاد ..

وجاء فى دائرة المعارف للبستانى :

---

(٥) لعل المقصود من « خبته » الوصف بالمصدر ، أى تواضعه

(٦) تفسير ابن كثير حـ ٦ ص ٤٩٣ ولعله يقصد بالنبى الأول سليمان ، أما الثانى فهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(٧) جاء فى اللسان : مأرب : بلاد الأزد التى أخرجهم منها سيل العرم ، وقال ابن الأثير : وهى مدينة باليمن كانت بها بلقيس

سد مأرب بناه سبأ بن يشجب بن يعرب ، وكان سافله سبعين واديا ، ومات قبل أن يتمه ، فاكمله ملوك حمير . .

ولكن المسعودى يقول : بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخا فى فرسخ ، وجعل له ثلاثين مثغبا ـ أى فتحة ـ ليسيل منها الماء ؤ وجعلوا مادته الحجارة الكبيرة والرصاص ، فاذا انحدرت السيول اجتمعت خلف السد كالبحر العظيم ، فإذا أرادوا سقى أراضيهم فتحوا من ذلك السد على مقدار حاجتهم بأبواب محكمة وحركات هندسية (٨) .

بل إن بعضهم ينسب بناءه إلى بلقيس ملكة سبأ .

ونسب بنائه إلى سبأ أشهر .

صفة بنائه وأثره :

وكانت المياه خلف السد كثيرة جدا كالأنهار العظام جمع أهل الفن والهندسة منها قدرا كبيرا فى مخراق مبنى من الحجر الصلد والحديد طوله فرسخ وعرضه فرسخ وجعلوا فى جسم السد منافذ مستديرة فى استدارة الذراع طولا وعرضا ، تخرج المياه من هذه المنافذ إلى مجار منتظمة إلى مصابها حيث تروى الحقول والجنان .

والذى يغذى مياه السد السيول التى كانت تندفع من أعالى الجبال فى سرعة تغمر الوديان وتخددها وتتجمع فيها على غير انتظام . فهداهم ذلك إلى حفر المصارف أمامها التى وحدت هدفها فى مجرى رئيسى مرسل ينتهى خلف السد فتتجمّع فيه .

---

(٨) دائرة المعارف البستانى حـ ٩

إنه عمل فنى رائع يدل على عقلية منظمة ، ويشهد بأن اليمن قديما وصلت إلى منزلة عالية من الهندسة والابتكار .

وكان لهذا السد أثر طيب فى البلاد . فقد كان يرد السيل الجارف ويحبس ماءه خلفه حتى ينتفع به أهل البلاد بمقدار ، ومكنهم ذلك من أن يحولوا بلادهم الى جنان وحدائق تعمر بمختلف الفواكه والثمار . حتى أصبحت أرض سبأ من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها . وأكثرها جنانا وارفة وحقولا زاهرة ومروجا خضراء تتخللها الجداول الصافية والأشجار العالية ، ويعطر نسيمها شذى الأزهار الفواحة ذات المناظر الأخاذة . .

وكانت مساحتها شاسعة قدرها البعض فى طولها بمسيرة شهر للراكب المجد وفى عرضها مثل ذلك .

وان الراكب ـ كما يقول المسعودى ـ [9] كان يسير فى تلك الجنان من أولها حتى ينتهى إلى آخرها لاتواجهه الشمس ولاتعارضه ، لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية واستيلائها عليها واحاطتها بها .

وصوف بلاد سبأ :

لقد ورثت سبأ دولة معين باليمن ، وكان فيها ورثته حضارتها الراقية ومدنيتها الرائعة . وازدهرت فيها العمارة ازدهارا واسعا ، ونشأت فيها صروح كبيرة وعمارات عظيمة من بينها ذلك السد الذى كان مضرب الأمثال فى الهندسة والفن وحكمة التدبير والتقدير .

---

(٩) مروج الذهب حـ ١ ص ٤٢١

وكانت عاصمة سبأ « مأرب » التى كان أهلها يتمتعون بنعمة واسعة ورزق وفير ، أدرَّته عليهم خصوبة البلاد ووفاه لهم ذلك السد المنيع الذى كان الماء ينساب من خلاله بمقدار معلوم وتدبير محكم .

وكان السبب فى إنشائه أن الأمطار الكثيرة التى كانت تنزل ، والسيول المتوافرة التى كانت تجتاح القرى والبلاد ، كانت تتبدد سدى ، وتبتلعها الرمال ، وربما أهلكت ماتجده فى طريقها من قرى وعمران . . ففكروا فى إنشاء سد يحجز هذه المياه الوفيرة وراءه فينتفعون بها وقت التحاريق ، ويستنبطون منها جداول وأنهارا تفيدهم فى ريهم وزراعتهم ونجحت الفكرة نجاحا كبيرا .

ولم يكن سد مأرب هو السد الوحيد فى اليمن ، ولكن كانت هناك سدود متعددة أقامها اليمنيون أمام وديانهم الكثيرة التى يكثر منها تدفق الماء إلا أن سد مأرب كان هو أعظم السدود وأطولها وأقواها وأكثرها فنا وأرقاها هندسة وأوفاها نفعا .

وكانت مدينة مأرب تقع فى نهاية واد فسيح يتجه إلى الجنوب ، ثم يقصر أمده وتضيق رقعته شيئا فشيئا حتى يصبح ضيقا ، ثم يمتد حتى يلتقى بمجرى السيول المنحدرة من جبال السراة . فى هذا الوادى أقام الفنيون هذا السد الذى يمتاز بطوله وعرضه حتى قال الرواة : إنه فرسخ فى فرسخ . .

وأثمر هذا السد ثماره فى الوادى ، فكانت الزروع الوافرة والحدائق الناضرة والأشجار الوارفة والأنسام العاطرة ، والقطوف الدانية ، والطيور المغردة .

وشعر الناس بنعمة الحياة وتقلبوا فى جنباتها حتى أصبحوا فى أطيب عيش وأرغده ، وأهنأ حال وأسعده ، كانوا فى نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء وتدفق الماء كما كانوا فى قوة شوكة واجتماع كلمة وعزة مملكة . .

ويتحدث الرواة عما وصلت إليه البلاد من نعمة البال ورخاء الحال فيقولون : « كانت المرأة تسير فى وسط الحدائق فوق رأسها مكتلها وفى يدها مغزلها ، فلا تمضى فى السير غلوة ، حتى يكون المكتل قد امتلأ من الثمر المتساقط من الشجر من غير أن تمتد يد لقطفه . . وقد اتسعت لديهم النعمة وفاض عندهم الخير واشتغل بعضهم بالتجارة والرحلات . . فكانوا يسيرون فى القرى التى بارك الله فيها من الحجاز والشام آمنين مطمئنين ، وفى طريقهم يجدون الأماكن المريحة ، يقضون فيها بعض الأوقات استجماما من مشقة السفر ، وقد أعدت بكل مايلزم المسافر من زاد وراحلة »[١٠] .

مكث هؤلاء ماشاء الله لهم أن يمكثوا فى حياة هانئة ، وعيشة راضية ولهم من عدل حكامهم وحسن أخلاقهم مايكفل لهم السعادة والاطمئنان . .

قال المسعودى :

« فمكثوا فى ذلك ماشاء الله من الأزمان لايعاندهم ملك إلا قصموه ، ولايوافيهم جبار فى جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد وأذعن لطاعتهم الملوك ، فصاروا تاج الأرض . . »[١١] .

---

(١٠) راجع قصص القرآن لمحمد جاد المولى ص ٢٤١

(١١) مروج الذهب جـ ١ ص ٤٢٢

وكان ملك سبأ حكيما يقرب الحكماء ويدنيهم ويستشيرهم ويأخذ برأيهم ، وكان السد ثمرة هذه الاستشارة . .

ولكن بمرور الوقت تولى ملوك لم يفعلوا مثلما كان يفعل سلفهم الحكيم ، فأعرضوا عن سماع أقوال الحكماء ، واستبدوا بآرائهم وتفردوا بأنفسهم فابتلوا بما ابتلوا به .

تهدم السد :

ويدور الزمن دورته ، ويخلف فى اليمن خلف أساءوا السيرة ، واخطأوا المحجة ، وضربوا بآداب الأقدمين عرض الحائط ، وابتعدوا عن تعاليم دينهم ووصايا أنبيائهم . .

ولكن هل كان فى سبأ رسالة ؟

أجل - يقول المرحوم مصطفى الحديدى الطير : كان أهل سبأ أهل حضارة ونعمة فبطروا ولم يشكروا ربهم على مارزقهم فأرسل الله إليهم رسولا يدعوهم إلى أن يشكروا الله ولايكفروا به حتى لاينزل بهم عقابه ، فأعرضوا فأغرق الله أرضهم وأهلك بساتينهم ونعمتهم (١٢) .

وذكر القرطبى فى تفسيره عن السدى ووهب أن الله بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم ، وقال القشيرى : وكان لهم رئيس يلقب بالحمار ، وكانوا فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد - صلى الله عليه وسلم .

---

(١٢) عصاء القرآن من شريعة القرآن - مصطفى الحديدى الطير ص ٥٢ - سلسلة البحوث الاسلامية

وقيل : كان لهذا الرئيس ولد فمات فرفع رأسه إلى السماء ساخطا معترضا وكفر بالله ، ولهذا يقال : أكفر من حمار[١٤] .

وذكر الدميرى هذا المثل وقال : ان حمارا هذا رجل من عاد ، واسمه حمار بن مويلع وقيل : حمار بن مالك بن نصر الارزدى ، كان مؤمنا ، وكان له واد ، طوله مسيرة يوم فى عرض اربعة فراسخ ، لم يكن ببلاد العرب أخصب منه وفيه من كل الثمار . .

فخرج بنوه يوما يتصيدون فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم فكفر وقال : لا أعبد من فعل هذا ببنى ، ودعا قومه الى الكفر فمن عصاه قتله ، فأهلكه الله وأخرب واديه فضربت العرب المثل به فى الكفر قال الشاعر يهجو :

ألم تر أن حارثة بن بدر يصلى وهو أكفر من حمار[١٤]

ولم تذكر المصادر أسماء الرسل الذين أرسلوا إليهم ، وإن كانت الآيات التى تحكى قصتهم تشير إلى أن هناك رسالة خرجوا على تعاليمها . فقد قال تعالى :

﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ .

---

(١٣) قال الأصمعى : حمار : رجل من العمالقة كان له بنون وواد خصب ، وكان حسن الطريقة فسافر بنوه فى بعض أسفارهم فأصابتهم صاعقة فأحرقتهم فكفر بالله عز وجل وقال : لا أعبد ربا أحرق بنى وأخذ فى عبادة الأوثان ، فسلط الله على واديه ناراً فذهبت به ، واسم هذا الرجل : حمار بن مالك بن نصر ، وهو من الأزد ، وبه يضرب المثل فى الكفر ـ الفاخر فى الأمثال للمفضل بن عاصم ص ١٥ .

(١٤) حياة الحيوان للدميرى حـ ١ ص ٤٤١

والاعراض لايكون الا عن رسالة ، وعدل الله يقضى بألا يعذب إلا بعد إنذار قال ـ تعالى ـ

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (١٥)

وقد أشار الدميرى فى كتابه حياة الحيوان إلى أن قوم سبأ خرجوا على تعاليم سليمان ـ عليه السلام ـ فكأن رسالة سليمان كانت فيهم إلى جانب بنى إسرائيل ، وعبارته فى ذلك : وكان لهم سد بنته بلقيس لما ملكتهم ، وبنت دونه بركة فيها اثنا عشر مخرجا على عدد أنهارهم ، فكان الماء يقسم بينهم على ذلك ، فلما كان من شأنها مع سليمان ـ عليه السلام ـ ماكان مكثوا مدة بعدها ثم طغوا فسلط الله عليهم جرذا أعمى يقال له : الخلد فنقب السد من أسفله ، فهلكت أشجارهم وخربت أرضهم . . (١٦)

هذا الخبر : لايناقض ما جاء من أن الله ارسل إليهم ثلاثة عشر نبيا . . فقد يكون هؤلاء أرسلوا بعد سليمان ـ عليه السلام .

وعلى كل فأنبياء الله لايحصون كثرة ، ومنهم من عرف اسمه ومنهم من لم يعرف وقد قال الله تعالى فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١٧)

---

(١٥) الاسراء ١٥

(١٦) حياة الحيوان للدميرى ص ٥٢٣

(١٧) غافر ٧٨

ماذا كان يعبد هؤلاء ؟

كان هؤلاء يعبدون الشمس ، على ماذكر الله فى قصة بلقيس « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » وبعد أن هداهم الله على يد سليمان ـ عليه السلام ـ غيروا وبدلوا .

قال المسعودى : فأرسل الله اليهم رسلا يدعونهم إلى الله ويزجرونهم عما هم عليه ، ويذكرونهم آلاء الله ونعمته عليهم ، فجحدوا قولهم وردوا كلامهم ، وأنكروا نعمة الله عليهم ، وتحدوهم قائلين : إن كنتم رسلا حقا فادعوا الله أن يسلبنا ما أنعم به علينا ويذهب عنا ما أعطانا . وفى ذلك تقول امرأة كافرة منهم :

إن كان مانصبح فى ظلاله من ربكم فلينطلق بماله
إليه عنا وإلى عياله

فردت عليها امرأة مؤمنة مستوثقة بربها فقالت :

لولا الاله لم يكن عيالنا ولم يسع عيالنا أموالنا
هو الذى يجيبنا سؤالنا ويكشف الغم إذا ماهالنا

فلما يئس الرسل منهم دعوا عليهم فأرسل الله عليهم سيل العرم ، فهدم سدهم ، وغشى الماء أرضهم وأهلك أموالهم وزروعهم وحدائقهم .

فضجوا إلى رسلهم قائلين : ادعوا الله أن يخلف علينا نعمتنا ويخصب بلادنا ، ويرد علينا ماذهب من نعمنا ، ولكم علينا عهد الله وميثاقه ألا نشرك بالله شيئا .

فسألت الرسل ربهم ، فأجابهم الله إلى ما أرادوا ، وأعطاهم ماسألوا .

وعادت ديارهم إلى الخصوبة ، وآتاهم الله خيرا مما أخذ منهم ، واتسعت ديارهم حتى بلغت أرض فلسطين والشام ، وأقاموا القرى والمنازل والأسواق . .

وجاءت إليهم الرسل فطلبوا منهم الوفاء بما وعدوا من الاقبال على عبادة الله وحده وعدم الاشراك به ، ولكنهم أبوا إلا العناد والكفر . فمزقهم الله كل ممزق ، وشتتهم فى كل مكان .. وباعد بين أسفارهم (١٨) .

وكان عذاب هؤلاء المعرضين من قِبَل ماكانوا يعتبرونه مصدر أمنهم ورزقهم وسعادتهم .

كان من قِبَلِ السد الذى جعلوه عماد حياتهم . . والحَذِر - عادة - يؤتى من مأمنه .

لقد تهدم السد فجرف فى طريقه كل شىء واجتاح العمران وأغرق الوديان وقوض البنيان وتفرق أهل سبأ فى كل مكان ، حتى ضرب بهم المثل - كما قدمنا - فى التفرق والتبدد . .

كيف تهدم السد ؟ :

لقد أراد الله أن يهدم هذا البناء الشامخ بدابة حقيرة صغيرة لايؤبه لها اسمها الخلد والخلد - بضم الخاء وسكون اللام وحكى فيه فتح الخاء وكسرها : دابة صغيرة عمياء صماء لاتعرف مابين يديها إلا بالشم ، فتخرج

---

(١٨) مروج الذهب للمسعودى حـ ١ ص ٤٢٩

من جحرها وهى تعلم أنه لاسمع لها ولابصر فتفتح فاها وتقف عند جحرها فيأتى الذباب فيقع الذباب على شدقها ويمر بين لحييها فتأكله .

هذا ماقاله الجاحظ فى كتابه « الحيوان » .

وقال غيره : الخلد فأر أعمى لايدرك إلا بالشم .

ونقل الدميرى عن أرسطو قوله : كل حيوان له عينان إلا الخلد ، وإنما خلق كذلك لأنه ترابى ، جعل الله له الأرض كالماء للسمك ، وغذاؤه من بطنها ، وليس له فى ظهرها قوة ولانشاط ، ولما لم يكن له بصر عوضه الله حدة حاسة السمع ، فيدرك الوطء الخفيف من مسافة بعيدة ، فإذا أحس بذلك جعل يحفر فى الأرض . وهو يصاد بحشرة حقيرة هى القملة ، توضع له ، فيحس بها فيخرج إليها ويذهب عنه حذره ، فيأخذه الصيادون . .

وفى طبعة الهرب من الرائحة الطيبة . .

هذه الدابة التى لاتستطيع الدفع عن نفسها هى التى شتت شمل سبأ ، وخربت ديارهم ومزقتهم كل ممزق . . فسبحان الله القادر العظيم الذى أهلك أعز خلقه بأحقر خلقه .

فهل يتعظ الناس ويعرفون أن قوتهم وتدبيرهم قد يغلبهما أدنى حيوان وأحقر حشرة ؟

وكم رأينا كيف تؤرق الانسان هامة صغيرة تدخل فى طيات ثيابه فتحيل فراشه جحيما لايطاق ، وتحول بينه وبين لذة الرقاد وطيب المنام .

عمرو بن عامر يحس بالخطر

قال العلماء : وكان أهل مأرب يلجأون إلى كهان لهم يتعرفون لهم الأخبار ، ويذكرون لهم ماسوف يأتيهم من أخطار . .

وكان للملك عمرو بن عامر أحد ملوكهم أخ كاهن عقيم يقال له عمران . وكانت له أيضا كاهنة حميرية اسمها طريفة الخير . .

فتوافق عمران مع طريفة فى التنبؤ بتهدم السد . .

ذلك أن عمران رأى أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ، ويباعد بين أسفارهم فذكر ذلك لأخيه عمرو وهو الملك المشهور بمُزَيْقِياء .

وبينما طريفة ذات يوم نائمة إذ بها ترى سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ثم صعقت فأحرقت ماوقعت عليه ولم يبق شىء وقعت عليه إلا أحرقته . .

فقامت من نومها فزعة وهى تصرخ قائلة :

رأيت غيما أبرق . أرعد طويلا ثم أصعق . فما وقع على شىء إلا أحرق . فما بعد هذا إلا الغرق .

وكان الكهان يسجعون فى كلامهم ، حتى ضرب بسجعهم المثل فقيل : سجع كسجع الكهان .

وأسرعت طريفة إلى الملك تقص عليه رؤياها وتنذره بما سوف يكون ، فوجدته قد دخل إحدى حدائقه ومعه جاريتان له ، فأسرعت نحوه وخلفها تابع لها اسمه سنان . .

وكان لدى العرب علم بزجر الطير ، يتفاءلون أو يتطيرون على حسب جنسه ونوعه وهيئته . . وكانت طريفة عندما خرجت من بيتها فى طريقها إلى الملك قد صادفها ثلاث مناجد [19] . منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن .

---

(١٩) المناجد دواب تشبه اليربوع ، وهو حيوان طويل الرجلين ، قصير اليدين له ذنب كذنب الجرذ وتكثر هذه الدواب بأرض اليمن .

فلما رأتهن طريفة غطت وجهها بيديها وقالت لتابعها : إذا ذهبت هذه المناجد عنا فأعلمنى .

فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة إلى عمرو ـ وفى خليج الحديقة التى بها عمرو ، عارضتها سلحفاة قد انقلبت على ظهرها وهى تحاول الاعتدال فلا تستطيع ، فتستعين بذنبها ، وتحشو التراب على بطنها وجنبها ، وتقذف بالبول . .

فلما رأتها طريفة جلست على الأرض حتى عادت السلحفاة إلى الخليج ، ثم مضت طريفة حتى دخلت على عمرو حديقته وقد انتصف النهار واشتد الحر ، وجعل الشجر يتكفأ من غير ريح .

واقتحمت طريفة على الملك حجرته فإذا به بين جاريتيه على الفراش .

فلما رآها استحيا منها ، وأمر الجارتين فنزلتا . .

وقال لطريفة اجلسى على الفراش ، فجلست وتكهنت له قائلة :

والنور والظلماء . والأرض والسماء . إن الشجر لتالف . وسيعود الماء كما كان فى الدهر السالف .

فقال لها عمرو : من خبَّرك بهذا ؟

قالت : أخبرتنى المناجد . بسنين شدائد . يقطع فيها الولد والوالد .

قال : ماتقولين ؟

قالت : أقول قول الندمان لهفا . قد رأيت سلحفا تجرف التراب جرفا . وتقذف بالبول قذفا فدخلت الحديقة فإذا الشجر يتكفّأ .

قال عمرو : وماترين ذلك ؟

قالت : هى داهية ركيمة . ومصائب عظيمة . لأمور جسيمة .

قال : ماهى ؟ ويلك .

قالت : أجل ، إن لى الويل ، ومالك فيها من نيل ، فلى ولك الويل ، مما يجىء به السيل .. فألقى عمرو نفسه على الفراش وقال : ماهذا ياطريفة ؟

قالت : هو خطب جليل ، وحزن طويل وخُلْف قليل ، والقليل خير من تركه .

قال : وماعلامة ذلك ؟

قالت : نذهب إلى السد فإن رأيت جرذا يكثر بيديه فى السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر فاعلم أن النقر عقر ، وأنه وقع الأمر .

قال : وماهذا الأمر الذى يقع ؟

قالت : وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نزل ، فبغيرك ياعمرو فليكن الثكل[٢٠] .

وأرق هذا الخبر من طريفة عمرا ، وأوقع به الهم ، وأثقل خاطره ..

وأراد أن يستوثق بنفسه من الخبر ، ويختبر أمر السد ، فانطلق نحوه فى توجس وحذر . وإذا به يرى ما هاله وأفزعه .

رأى فأرا يقلب برجليه صخرة مايقدر على قلبها خمسون رجلا ..

إن هذا لشىء عجيب . أحقا مايرى ؟ كيف يحدث هذا من فأر صغير

(٢٠) مروج الذهب للمسعودى جـ١ ص ٤٢٥ .

حقير يفزع من صوت إنسان ، ويجرى مذعورا إن رأى خيال حيوان ؟ . .

كيف يقدر هذا الحيوان المذعور أن يدفع هذا الحجر الضخم فى سهولة ويسر ويقذف به فى اتجاه هذا السد ليرتطم به فى عنف وقوة ؟ .

إن هذه آية لاشك فيها ، وإنذار لهؤلاء القوم بأن هناك دمارا سوف يحيق بهم عما قريب .

وارتاع عمرو لما رأى ، ولم يجد له ملاذا إلا تلك الكاهنة التى أخبرته به ، فانطلق إليها يقول :

أبصرت أمرا عادنى منه ألم ... وهاج لى من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم ... أوتيس موم من أفاريق الغنم
يسحب صخرا من جلاميد العرم ... له مخاليب وأنياب قضم[٢١]

فأخبرته طريفة بأن تهدم السد واقع لامحالة ، وجعلت له علامة يعرف بها ذلك . قالت له : اجلس بمجلسك بين جنتيك ، وضع زجاجة بين يديك ، فإنك ترى أنها ستمتلىء من تراب البطحاء من سهلة الوادى ورمله ، دون أن تكون هناك ريح تثير الرمال والتراب .

وفعل عمرو ما أشارت به الكاهنة ، فرأى بنفسه حقيقة ما أخبرت به . .

فتأكد لديه خراب السد ، واحتال فى نجاته ونجاة أهله .

عمرو بن عامر يحتال للنجاة :

وأصبح عمرو ذات يوم مذعورا وقد رأى رؤيا ، رأى أن سيلا سيجتاح السد ويهدمه وان علامة ذلك أن يرى الحصباء فى سعف النخل . .

---

(٢١) المرجع السابق وموم : مفازة ـ وجلاميد : جمع جلمود وهو الصخرة العظيمة ـ والعرم : اسم السد

وأراد أن يقطع الشك باليقين فتوجه الى كُربَ النخل وسعفه فوجد الحصباء قد ظهرت فيها .

فعلم عمرو أن الخراب وشيك ، وأن السيل عما قليل سوف يجرف الديار ، وأن ذلك السد الذى كان عماد البلاد هو الذى سوف يكون سبب دمارها وفنائها .

وعزم على النجاة بنفسه وولده .. وخشى إن فاجأ الناس بذلك أن يستنكروا عمله ، أو يحولوا بينه وبين الخروج فيهلك مع الهالكين .. ووجد أن الحكمة تكون فى الاحتيال لذلك .

أعلن أنه سوف يقيم وليمة للناس ، وأمر بالإبل فنحرت ، وبعث للناس أن يحضروا ، فجاءوا من كل مكان ملبين دعوة ملكهم عمرو بن عامر .

وكان عمرو قد اتفق مع ابن له اسمه مالك ـ وقيل : بل هو يتيم عنده قد رباه حتى كأنه ابنه ـ على أنه إذا جلس الناس للطعام نازع أباه الحديث ، ورد عليه مايقول ، ويفعل به مثلما يفعله به .

وحين أخذ الناس مجالسهم ، ومد الطعام أمامهم أقبل عمرو على ولده يحدثه بخشونة ، فرد الولد على أبيه بخشونة كذلك .

فمد عمرو يده ولطم ابنه ، فاذا بالابن يلطم أباه ..

فصاح عمرو قائلا : واذلاه ، يوم فخر عمرو ومجده يضرب فيه وجهه من صبى ؟

وحلف ليقتلنه ..

فلم يزالوا به حتى تركه . ولكن عمرا أقسم ألا يقيم ببلد لطم وجهه فيه أصغر ولده ، ونادى بأنه سيبيع أملاكه ..

فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غضبة عمرو واشتروا منه قبل أن يرجع عن غضبته ويرضى عن ابنه .

فأقبلوا على أمواله يشترونها ، حتى باع أملاكه بمأرب ..

وخرج ناجيا بنفسه ..

إلا أن هذا الحديث فشا ، وعرف الناس حقيقة الأمر ، ويقال : إن عمرا أخبر بعض الناس بما سوف يحدث للسد كي يستعدوا كما استعد ..

وفزع الناس إلى عمران الكاهن أخى عمرو فقال لهم :

إنكم ستمزقون كل ممزق ويباعد بين أسفاركم ، وإنى واصف لكم البلدان فليختر كل منكم مايرتاح له ..

من كان منكم ذا هَمٍّ بعيد .. وجمل شديد . ومزاد جديد . فليلحق بقصر عمان المشيد . فكان الذين نزلوا فى هذا المكان هم أزد عمان ..

ومن كان منكم ذاهَمٍّ غير بعيد . وجمل غير شديد .. ومزاد غير جديد فليلحق بالشعب من كرود . وهى أرض همدان .

فلحق بهذا المكان وادعة بن عمرو فاقتسموا فيه ..

قال عمران : ومن منكم ذا حاجة ووطر . وسياسة ونظر . وصبر على أزمات الدهر . فليلحق ببطن مر .

فانطلق إلى هذا المكان خزاعة ـ قيل : سميت بذلك لانخزاعها فى ذلك الموضع عمن كان معها من القوم وهم بنو عمرو بن لحى .

قال : ومن كان يريد الراسيات فى الوحل . المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل وهى المدينة المنورة .

فذهب إليها الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو .

قال : ومن كان يريد منكم الخمر والخمير ، والديباج والحرير . . والأمر والتدبير فليلحق ببصرى وحفير وهى أرض الشام ، فانطلق اليها الغسانيون .

قال : ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق . والخيول العتاق ، والكنوز والأرزاق . فليلحق بالعراق فالتحق بها مالك بهم فهم الأزدى .

وانطلق عمرو بن عامر ومعه بنو مازن حتى مروا بمكان بين السراة ومكة ، فنزل فيه أخوه عمران الكاهن ، واستمر عمرو فى المسير حتى نزل بين بلاد الأشعريين وعك . . على ماء يقال له : ماء غسان .

وغلب اسم الماء على من أقام من الناس فهم الذين يقال لهم : الغسانيون ، والشاعر يقول فى ذلك :

أما سألت فإنا معشر نجب الأزد نسبتنا والماء غسان

لقد ترك أهل سبأ مأرب ، خوفا من تصدع السد ، وفروا من السيل الذى سوف يجتاح الوادى .

ولم يبق بمأرب إلا مالك بن اليمان بن فهم وهو من الأزد ، فقد أبى الخروج وظل بالبلاد وتملكها حتى أغرق السيل البلاد . .

كيف أفسدت الفيران السد ؟ :

وقد أخبر العلماء أن الكهنة كانوا قد أخبروا بأن انهيار السد سيكون بسبب الفيران . لذلك أكثر أهل سبأ من تربية القطط ، ولم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة .

فلما كان الوقت الذى أراد الله تعالى فيه إخراب السد ، أقبلت فأرة حمراء إلى هرة من تلك الهرار فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة ، فدخلت الفأرة الفرجة التى كانت عندها ، ونقبت وحفرت ، حتى جاء السيل فوجد خللا دخل فيه حتى انهار السد ، وفاض على زروعهم فأغرقها ودفن بيوتهم بالرمال .

ومن الطرائف التى يرويها العلماء فى ذلك : أن هناك مفاخرة جرت بين أولاد قحطان وبين ولد نزار فى مجلس أبى العباس .

وكان أولاد نزار قد سكتوا على فخر أولاد قحطان هيبة لأبى العباس لأن أخواله من قحطان ، فلم يشاءوا أن يحرجوه .

فلما أكثر القحطانيون من الفخر قال السفاح لخالد بن صفوان وهو نزارى : ألا تنطق ياخالد وقد غمرتكم قحطان بشرفها وعلت عليكم بقديم مناقبها ؟

فقال خالد كلاما جاء فيه : ماذا اقول لقوم أغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة ، ودل عليهم هدهد ؟

ومن الممكن أن يرد على هذا القول بأن الفأرة من آيات الله التى أراد الله أن يهلك بواسطتها قوما كفروا به . .

وأما المرأة فقد كانت غاية فى الحكمة ، وحسن السياسة والتدبير ، وقد فعلت مالم يقدر عليه كثير من الرجال ، وهدتها حكمتها إلى الاسلام فأنقدهم الله بذلك من الكفر .

وأما الهدهد فإنه لم يدل عليهم إلا ليؤمنوا بالله فكان ذلك نعمة وبركة عليهم .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد جرت محاورة بين قرشي ويمني ذات يوم . قال القرشي لليمني ما أحمق قومك حين ولوا عليهم امرأة .

فقال اليمني : بل ما أحمق قومك حين قالوا ـ كما حكى عنهم القرآن الكريم ـ

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ ﴾ (٢٢)

هلا قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه ؟

معنى كلمة العرم :

وقد فسر العلماء العرم بتفسيرات .

قالوا : العرم : الأحباس تبنى في أوساط الأودية . .

وقالوا : العرم : السيل الذى لايطاق أو المطر الشديد .

وقالوا : العرم : هو الجرذ الذكر .

وقالوا : العرم : هو المسناة وهى السد أو الجسر .

وقالوا : العرم : اسم واد من وديانهم . .

والذى يدل على أن العرم اسم للسد قول الشاعر :

من سبأ الحاضرين مأرب اذ ... يبنون من دون سيله العرما

وقد فسر بعضهم مأرب فى هذا البيت بأنه اسم لقصر ملكهم ، أشار الى ذلك أبوالطمحان القينى فى قصيدة له منها هذه الأبيات :

ألم تروا مأربا ماكان أحصنه ... وماحواليه من سور وبنيان ؟

---

(٢٢) الأنفال ٣٢

ظل العبادى يسقى فوق قلته   ولم يهب ريب دهر جد خوان
حتى تناوله من بعد ماهجعوا   يرقى إليه على أسباب كتان

قال ابن كثير : وقد ذكر الأعشى أمر السد فى قصيدة له قال فيها :

وفى ذاك للمؤتسى أسوة   ومأرب عفى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير   إذا جاء موّاره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها   على سعة ماؤهم اذ قسم
فصاروا أيادى ما يقدرون   منه على شرب طفل فطم .

قصة السد فى القرآن الكريم

وقد قص الله هذه القصة فى القرآن الكريم ، وسمى السورة التى وردت فيها هذه القصة باسم سبأ لفتا للأنظار إلى هذه القصة لما فيها من عظات وعبر . .



قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ
وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا
الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً
وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا
بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ
مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن
سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢٣)

عظات وعبر

وفى هذه الآيات دلائل وإشارات يفطن إليها من فطنّه الله وذكّره ، فمن ذلك :

تنبيه الناس عامة وأهل اليمن خاصة إلى مايجب عليهم نحو استعادة أمجادهم التاريخية الغابرة ، الحافلة بالنهضة والتقدم العمرانى والعلمى فى ظل الإيمان بالله واليوم الآخر . وبقيادة الرجال المخلصين الذين يعملون لوجه الله والوطن .

لقد نبهت الآيات إلى وجود مظاهر كثيرة فى اليمن للتقدم العمرانى الذى يشهد به هذا السد الذى ابتكرته عقول يمنية مفكرة ، وبنته على قواعد متقدمة من الهندسة لاتقل شأنا عما ابتكره العلماء المحدثون فى بناء السدود والقناطر . وقامت بإنشائه أيد يمنية لم تستقدم فنيا من الخارج ، ولم تعتمد على خبير من أهل الدول الأخرى .

فما السر فى ذلك ؟

لقد قال العلماء : إن ملك سبأ كان ملكا حكيما يحب الحكمة ويجمع حوله الحكماء ويستفيد من تجاربهم وقد استشارهم فأشاروا عليه ، ونفذ ما أشاروا به ، وهكذا تكاتفت الرأس الحاكمة مع الرؤوس المفكرة مع الأيدى العاملة فى تقديم العمل المثمر للبلاد .. الذى عاد بالخير على العباد ..

---

(٢٣) سبأ ١٥ : ٢١

وهذا مايجب أن يكون فى كل زمان ومكان . .

إن كثيراً من الأمم الاسلامية الآن أمرها فى غير يدها . . وخيرها منزوع منها وخبرتها مستمدة من غيرها . . مع أن دينها فيه حسن التوجيه لأحسن مايريدون من تقدم ، وبلادهم حافلة بالخير مليئة بالكنوز التى تغنى وتقنى . وتستطيع إذا اتحدت إرادتها وصدق عزمها أن تعود إلى سابق مجدها وعزها وكرامتها . .

وفى الآيات دعوة للاستمتاع بالنعمة التى أنعم الله بها على العباد فى غير سرف أو انصراف عن الواجب مع وجوب الشكر على ما أنعم الله . .

والله ـ جلت حكمته ـ لايهب النعم عبثا ، ولايعطيها لعباده ليطووا عنها كشحا أو يصرفوا عنها نظرا ، ولكنه وهبهم إياها ليمتحن إيمانهم فى حال التنعم بها ، ويعرف أيقدرون الله حق قدره على ما أفاء عليهم من فضله ، وأتاح لهم من هذه النعم تفضلا منه فيشكروه على ماأفاءه عليهم وأتاحه لهم ؟

أم انهم سوف يميلون أعناقهم ، وينأون بجانبهم كبرا واعجابا ، ويقولون مع القائلين : إنما أوتينا هذا على علم منا ، واستوجبناه بفضل واستحقاق لنا ؟

وقد تمثلت النعم التى أنعم الله بها على قوم سبأ فى مظاهر الطبيعة الجميلة التى سخت بكل طيب من الثمرات الشهية والقطوف الدانية والظلال الوارفة والبيئة الخالية من الأمراض والأوبئة ، فقد حدث الرواة أن أهل سبأ لم يروا فى مساكنهم بعوضة قط ولاذبابا ولابرغوثا ولاقملة ولاعقربا ولاحية

ولاغيرها من الهوام ، بل إن الراكب إذا جاءهم وفى ثيابه شيء من ذلك مات قبل أن يدخل الديار . .

كما تمثلت فى غفران الله لذنوبهم . . فقد اجتمع لهم إلى طيب البلاد حسن المعاد ، ولم تجتمع هاتان النعمتان لجميع الناس ولكنها مزية لهؤلاء الذين كان ينتظر منهم حسن الشكر لله والثناء عليه ، والتفانى فى عبادته والاخلاص فى محبته .

ولكنهم أشركوا به ، وخرجوا على كل القيم والمبادىء التى توارثوها عن آبائهم الأقدمين وجاءتهم بها الرسل المكرمون . .

* تدعو الآيات إلى عدم الاغترار بالنعمة الفائضة والخير المتدفق والرزق الوفير ، فإن ذلك اختبار من الله مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥ ﴾ (٢٤)



وعليه جاء قول الشاعر :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

وقد يجد العاقل فى الشدة منحة لأنها تلجئه إلى الله وتذكره به

وتضطره إلى دعائه والتضرع اليه حتى يكشفها عنه

وقد قال تعالى :

﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ (٢٥)

---

(٢٤) الأنبياء ٣٥

(٢٥) الأنعام ٤٣

وقال :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (٢٦)

كما قد يجد فى النعمة محنة ، فقد يترتب عليها انصراف عن الله ونسيان لحقه ، وتراخ فى عبادته ، والترفـ فى كثير من الأحوال ـ يدعو إلى ذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢٧)

والمترفون غالبا مايدعون إلى الفساد ويصرفون الناس إلى الباطل ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ (٢٨)

وقال ـ تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢٩)

---

(٢٦) الفرقان ٧٧
(٢٧) الشورى ٢٧
(٢٨) الاسراء ١٦
(٢٩) سبأ ٣٤ : ٣٥

وقد يجحد المترف حق ربه تماما فيزعم أن ماأوتيه لم يكن إلا بناء على جهد شخصى أو مقدرة خاصة أو استحقاق ومنزلة لم تتح لغيره ، وقد قال قارون حين طلب منه قومه عدم الاغترار بماله : إنما اوتيته على علم عندى .. فكانت عاقبته شبيهة بعاقبة هؤلاء الذين جحدوا نعمة الله ، وانصرفوا عن أداء حقه وشكره ، فخسف به وبداره الأرض ، كما هدم السد على هؤلاء فاجتاحهم السيل .

وفى الآيات الكريمة إشارة إلى قسوة الحرمان ، وضراوة العقوبة التى استبدل فيها لهؤلاء المر بالحلو والفقر بالغنى والتعب بالراحة ..
وماأقسى هذا العقاب وأشد هذا العذاب ..

فالمتعود على النعمة المتقلب فيها صباح مساء الذى يجد الخير عن يمينه ويساره ، والظل فى مقيله ومثواه ، أينما سرح طرفه يجد الحياة الناعمة والرزق الموفور والمنظر الجميل ، وأينما مد يده يقطب زهرة يانعة أو ثمرة شهية أو ريحانة زكية ، ولايشم أنفه إلا الرائحة الطيبة التى تهب بها النسائم السخية من كل الأنحاء والاتجاهات ، ذلك الانسان لايجد اقسى من أن يصبح ذات يوم فإذا به لايجد مأوى يأويه ولاظلا يحميه ، ولاطعاما يقوته ، ولانسمة تهب عليه ..

وهذا ماحدث لأهل سبأ فقد أصبحوا لايرون أمامهم إلا بضعة أشجار متناثرة ليس فيها ماينتفع به من ثمر اللهم إلا ثمر النبق الصغير الذى لايسمن ولايغنى من جوع .. لقد ذهبت الأشجار الباسقة المظلة واستبدل بها شجر الاثل وهو من الأشجار المفرطة فى الطول مع قصر ظلها الذى لايحمى من يقيل فيه من حرارة الشمس أو قسوة الجو .

وإذا بهم يلتفتون فلا يجدون تلك القرى الظاهرة التى كانت تملأ الوديان فقد استبدل بها قرى متناثرة تحتاج للتنقل بينها إلى مشقة كبيرة وتعب شديد . .

لقد كانوا يقطعُون المسافة بين اليمن والشام فى طرق معمورة ظليلة تصل بين قرى عامرة ، وتربض حول الطرق استراحات يجد فيها المسافر حاجته ويتزود منها بما يريد من مأكل ومشرب . فإذا بهذه الطرق وقد تبددت ، وتلك القرى وقد اجتاحها السيل ، وهذه الاستراحات وقد ذهبت .

لقد سئموا النعمة فطلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم . فابتلوا بالشتات والمشقة . . وإنك لتنظر فى بعض أماكن اليمن إلى قريتين فوق جبلين تحسبهما قريتين ، يتخاطب أهلهما باللسان ويتنادون فيجيب بعضهم بعضا ، ويحدث بعضهم بعضا ، فإذا ما أراد أهل القريتين التزاور قطعوا فى الوصول إلى بعضهم مسافات شاسعة قد تصل إلى أكثر من يوم . .

ذلك أن القاصد للزيارة عليه أن يهبط الجبل الذى توجد فوقه قريته ، ثم يدور حول الجبل الذى نزل منه وسط طرق متعرجة شاقة حتى يصل إلى سفح الجبل الذى توجد فوقه القرية الأخرى فيبدأ فى الصعود فى شعاب لايستطيع أن يسلكها إلا الخبير بدروبها ، العارف باتجاهاتها وكيفية الصعود فيها . . وإن ذلك ليعلمنا كيف نتأدب مع الله فيما نطلب ، فلا ندعوه إلا بما هو أرفق بحالنا وأنسب مع ضعفنا مع التفويض إليه فى اختيار ماهو أوفق لنا وأنفع لعاجلنا وآجلنا . وقد نعى الله على بنى إسرائيل أن طلبوا الأدنى وفضلوه على الأعلى حين خرج بهم موسى إلى سيناء وأعطاهم الله نعمتى المن

والسلوى فتاقت أنفسهم إلى الثوم والبصل والعدس والبقل فحكى حالهم قائلا :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣٠)

كما نعى على كفار قريش حين طلبوا العذاب لأنفسهم قائلين :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣١)

وكان عقاب من طلب ذلك أن قتل يوم بدر شر قتلة وهو النضر بن الحارث ، كما كان عقاب بنى اسرائيل أن ضلوا فى التيه أربعين سنة ، وكان عقاب أهل سبأ أن تبددوا ومزقوا كل ممزق ، وأصبح أمرهم أحاديث يرويها الناس تعجبا من شأنهم وسخرية من حمقهم .. وأصبح تفرقهم مضرب الأمثال فيقال فى كل قوم تفرقوا بعد تجمع : تفرقوا أيدى سبأ أو أيادى سبأ .

---

(٣٠) البقرة ٦١
(٣١) الأنفال ٣٢

وكما دعت الآيات إلى الشكر فقد دعت إلى الصبر كذلك .. قال الله تعالى : إن فى ذلك الآيات لكل صبار شكور ..

وكما يكون الصبر على الشدة يكون كذلك الصبر على النعمة . ومعنى الصبر على النعمة : استمرار استعمالها فى الخير وعدم عصيان الله بها ، وهو عين الشكر عليها ، وفى الأدعية المأثورة عن الصالحين اللهم صبرنا على طاعتك وعلى ابتلائك وأوزعنا شكر نعمتك .

وفى الآيات تحذير ضمنى من الشيطان ، وتذكير بعداوته للإنسان منذ الأزل فهو لايحب السعادة وراحة البال للإنسان ، ومارأى قوما فى راحة ونعمة إلا تمنى أن يبدل حياتهم شقاء ولذتهم غصة وطاعتهم معصية ، وقد نجح مع هؤلاء فأضلهم عن سنواء السبيل إلا من عصم الله منهم .

وهذا ماتشير اليه الآية :

﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ .

أما ظن إبليس فهو ماحدث به نفسه حين وسوس لآدم فى الجنة فأخرجه وحواء منها فقال : أما إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أمامى أضعف وأهون .

وقد توعد ذرية آدم بإغوائهم حتى قال لمولاه :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣٢)

فهاهو ذا قد ألهى هؤلاء عن واجب الشكر ، وحقق وعيده فيهم . ولم يكن لابليس عليهم سلطان ، ولكنه دعاهم فاستجابوا وأمرهم فأطاعوا ، وكان شأنه معهم ماحكاه القرآن

---

(٣٢) الأعراف ١٧

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ
فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم
بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ (٣٣)

قال الحسن البصرى فى ذلك - فيما يرويه الطبرى - وينقله عنه ابن كثير :
« والله ماضربهم بعصا ولاأكرههم على شيء ، وماكان إلا غرورا وأماني دعاهم إليها فأجابوه » (٣٤) .

وفى الآيات مع ذلك حمد لنعمة التجمع وائتلاف واتحاد الكلمة والهدف والتعاون البناء فى مصلحة الفرد والجماعة واصلاح شأن الأمة وتعميرها

والعمل على اصلاح مرافقها وتعهدها بالموالاة فى ظل الايمان الكامل بالله وطلب نصرته فعينه التى لاتنام هى الحارس الأعظم للأمة المؤمنة الواثقة بربها المتوكلة عليه لاعلى حولها وقوتها فحسب . .

---

(٣٣) ابراهيم ٢٢
(٣٤) تفسير الطبرى حـ ٢٢ ص ٦١ وتفسير ابن كثير حـ ٦ ص ٥٠١

وفى الآيات أيضا ذم للفرقة والاختلاف وتحذير منهما فما أخر الأمم بعد تقدمها إلا التخاذل ، وماأضعفها إلا التواكل ، وما أضاعها إلا تفرق الكلمة وشتات الرأى . .

ومن العظات التى تهدى إليها القصة عدم الاستهانة بمخلوق . فالصغير قد يفعل مالا يفعله الكبير والحقير الذى لايؤبه له ربما أتى منه عمل خطير لا يستطيع أن يقاومه أحد . .

والمثل لذلك هذا السد الذى بنته الجبابرة بعقولها وحكمتها وأيديها لقد استطاع فأر صغير الحجم قليل الخطر أن يهدمه ، فأتى على القوم وهم لا يشعرون وأهلك أموالهم وزروعهم وقصورهم وشتت شملهم وأضاع أملهم وفى حياتنا أمثلة كثيرة لذلك . . فذلك العامل المجهول الذى يقوم بأدنى الأعمال التى يأنف منها الكبار له شأن فى حياتنا لايمكن غض العين عنه ، ويمكن التنبه لخطره يوم يقبض يده عن العمل الذى يقوم به ، فلو أضرب عمال النظافة يوما عن العمل لأصبحت الحياة جحيما لايطاق ، فهل تنبه أحد الى قيمة ذلك الإنسان الذى رضى بالدون من الأعمال وهو مع ذلك يرفع عن كاهلنا أثقل الأحمال ؟ ان فى ذلك لعبرة لمن يعتبر وتذكرة لمن يزدجر .

أصحاب الفيل

- الأحباش فى اليمن .
- أبرهة يبنى القليس .
- دعوته إلى حج كنيسته .
- استعداده لغزو مكة وهدم البيت .
- العرب يتصدون له .
- وصوله إلى الطائف .
- بداية النقمة بموت أبى رغال .
- عبد المطلب فى معسكر أبرهة .
- عبد المطلب يستغيث بالله ويستصرخه .
- العقاب الإلهى .
- القصة فى القرآن الكريم .
- خواطر الشيخ الشعراوى حول القصة .
- الشعر العربى يسجل الحادث .
- نهاية الحبش فى اليمن .
- الإسلام يحرر اليمن من التبعية للفرس .
- العبرة من قصة الفيل .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أصحاب الفيل

سبق فى حديثنا عن الكعبة المشرفة أن أشرنا إلى قصة الفيل ، وعدوان الأحباش على مكة المكرمة ، ولكن المقام هنا يستدعى مزيداً من التفصيل حول هذه القصة التى ذكرها الله فى القرآن الكريم فى سورة خاصة هى سورة « الفيل » لتكون علامة بارزة على اعجاز القرآن الكريم من ناحية ، وعلى تعهد الله بيته الحرام بالحفظ والرعاية من ناحية ثانية ، وعلى تكريم النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى كان مولده فى هذا العام الذى أهلك الله فيه المعتدين على حرمة بيته بآية خارقة من ناحية ثالثة . .

ويستدعى ذلك تمهيداً عن تاريخ وجود الأحباش فى اليمن .

الأحباش فى اليمن :

بعد أن حفر ذو نواس الأخدود وألقى فيه الذين تنكروا للديانة التى كان يدين بها واعتنقوا النصرانية التى غزت نجران ، انطلق رجل يقال له « دوس ذو ثعلبان » حتى دخل على قيصر الروم فاستنجد به على ذى نواس ، فكتب قيصر إلى النجاشى ملك الحبشة آمراً له أن يغزو اليمن فينتقم من ذى نواس ويقتل الرجال ويسبى النساء ويخرب البلاد .

وجهز النجاشى جيشاً جعل على رأسه أرباط بن أصحمة ومعه مساعد له اسمه أبرهة الأشرم .

وتمكن الأحباش من الهبوط على ساحل اليمن ، وحين سمع ذو نواس بخبرهم خرج اليهم ومعه الجنود الذين استنفرهم لرد العدوان الحبشى ، ولكن الأحباش تمكنوا من هزيمتهم ، فركب ذو نواس فرسه ووجهه نحو البحر فاقتحمه وغرق ، وتولى أمر الملك بعده ذو جدن واسمه « علس بن الحارث » .

ويقال : إنه ظل يجاهد الأحباش حتى هلك أيضاً بالطريقة التى هلك بها

ذو نواس واستتب الأمر للحبشة فى اليمن واستبدوا ، وأقبلوا على جباية المال منها ، وكان الذى يتولى أمر ذلك أرباط دون مساعدة أبرهة .

النزاع بين أرباط وأبرهة :

وأقام أرياط بأرض اليمن سنين يجبى المال ويستمتع به ، وقد غاظ ذلك أبرهة فحقد عليه ، وأرسل إلى النجاشى يوغر صدره على أرياط .. وقد استمال كل من القائدين بعض الجنود اليه حتى تفرق أمر الحبشة فى اليمن بين الولاء لأرياط والولاء لأبرهة .

وكثر النزاع بين أنصار أرياط وأنصار أبرهة .. وفعلت الأطماع فعلها بين الطائفتين وبين الرجلين ، كما يحدث دائماً فى مثل هذه الظروف والمناسبات .. وتطور الأمر بينهما حتى أطل الشر بينهما بقرنيه ..

ومشى كل من الرجلين الى الآخر ووراءه أنصاره .

وأوشكت الحرب أن تحتدم بين الفريقين ، فأرسل أبرهة إلى أرباط يقول له :

إن فعلنا هذا لا يزيد على أننا نفنى بعضنا ببعض ، وخير من هذا أن تبرز إلىَّ وأبرز إليك ، فإما أن تقتلنى فيكون الأمر لك ، وأما أن أقتلك فيكون الأمر لى .

فأرسل إليه أرياط أنْ أنصفت ..

وخرج كل منهما لصاحبه ..

وكان أرباط جسيما وسيما ، أقبل يمشى فى ثقة إلى أبرهة ، وفى يده حربة ..

وأقبل أبرهة وخلفه غلام له اسمه عتودة يحمى ظهره ..

ورفع أرباط حربته فضرب بها أبرهة فوقعت على جبهته فشرمت حاجبه ، وأنفه وعينه وشفته ، فلقب من حين ذلك بالأشرم .

وحمل عتودة غلام أبرهة على أرباط فقتله .. وحسم الموقف لصالح ابرهة ..

وانحاز أنصار أرباط لأبرهة .. واجتمع الأمر كله له ..

مكافأة عتودة

وأراد أبرهة أن يكافىء غلامه ، فقال له : تمن عليّ - فما تمنيته فهو لك .

فقال هذا الغلام الخبيث : أتمنى ألا تزف امرأة إلى بعلها حتى تمر على ..

فأمضى أبرهة له شرطه ..

ولكن اليمنيين ثاروا على عتودة فاغتالوه .. وتخلصوا من شره .. ولم يغضب أبرهة لغلامه ، بل لعله سعد لذلك ، تحسبا للمستقبل ، ولذلك لم يقبل ديته وتنازل عنها راضيا .

ونما خبر مقتل أرباط إلى النجاشي فغضب على أبرهة وأقسم أن يطأ عليه اليمن ويجز ناصيته ويريق دمه .

فأسرع أبرهة - وكان داهية - إلى جراب فملأه من تراب اليمن ، وجز ناصيته بيده وجعل من دمه فى قارورة واختار رسولا لبقا ، وكتب معه إلى النجاشي :

أيها الملك إنما كان أرباط عبدك وأنا عبدك ، فاختلفنا فى أمرك ، وكلٌ طاعته لك ، إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأفضل سياسة منه ، وقد حلقت رأسي كله حين بلغنى قسم الملك ، وبعثت اليه بدمى فى قارورة فليهرقه بيده ، وبعثت إليه بجراب من تراب أرض ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه .

فلما انتهى ذلك إلى النجاشي أعجب بفطنته ، ورضى عنه ، وقال : اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى ، فأقام أبرهة باليمن .

أبرهة يبنى كنيسة القليس :

ورأى أبرهة أهل اليمن يذهبون كل عام إلى مكة فى أشهر الحاج ، فسأل عن ذلك ، فأعلموه أن بمكة بيتا لله يعظمه العرب واليه يحجون من كل مكان فى مثل هذا الوقت من العام .

فأراد أن يصرفهم عن ذلك ، ولعله أراد أن يسر بذلك النجاشى ، ويعْلِمَهُ شدة إخلاصه لدينه فيزداد تقربا منه ورضا عنه .

فبنى بصنعاء كنيسة عالية سماها « القليس »[1] لعلوها وارتفاعها .

وتفنن فى صنعها وتزيينها . . وكان قد استذل أهل اليمن فى بنائها ، وسخرهم فى تشييدها كان ينقل إليها الرخام المجذع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس ، وكان هذا القصر قريبا من موضع هذه الكنيسة على بعد فراسخ قليلة منها .

ونصب فى الكنيسة صلبانا من الذهب والفضة ، وجعل فيها منابر من العاج والأبنوس ، وبالغ فى ارتفاعها ـ كما يقولون ـ ليشرف من فوقها على عدن . .

وكان من أنواع السخرة التى استعملها مع العاملين فيها أن تقطع يد العامل إذا بدأ فى عمله بعد طلوع الشمس ، حتى ضج الناس بالشكوى .

وحكى السهيلى فى الروض الأنف[2] أن عاملاً نام حتى طلعت الشمس ، فجاء وجاءت أمه معه وهى عجوز ، فتضرعت إلى أبرهة لتتشفع لابنها حتى لا يقطع يده ، فأبى عليها ذلك .

فقالت له : اضرب بمعولك اليوم ، فاليوم لك ، وغدا لغيرك .

فتنبه لها أبرهة : فقال لها : ويحك ماذا قلت ؟

---

(١) وما سميت القلنسوة بهذا الأسم إلا لارتفاعها على الرأس ، تقول : تقلس وتقلنس ، وجمع قلنسوة قلانس وقلاس وقلانيس ـ مختار الصحاح .

(٢) حـ ٢ صـ ٦٣

فقالت : نعم كما صار هذا الملك من غيرك لك ، فكذلك يصير منك إلى غيرك .

فأثرت فيه موعظتها ، وأعفى الناس من السخرة .

ولكن بعد أن كاد العمل ينتهى فى الكنيسة .

أبرهة يدعو الناس إلى حج القليس :

وبعد أن تم تشييد الكنيسة وتزينت بأبهى ما تكون من الزينة ، أمر أبرهة أن ينادي فى الناس بأن يحجوا إليها وأن يتركوا التوجه إلى مكة . .

وغاظ ذلك العرب ، وبخاصة من كانوا يقومون على أمر الكعبة ومنهم بنو كنانة الذين كانوا ينسأون للناس . .

ومعنى ينسأون أى يؤخرون الأشهر الحرام عن موضعها .

فجاء رجل من كنانة حتى أتى القليس فلطخها ببعض القاذورات وقيل : مرقوم بجوارها فاستراحوا ، وأشعلوا ناراً لبعض حاجتهم ، وانصرفوا بعد أن غفلوا عن إطفاء النار فجاءت ريح فأججتها فأحرقت الكنيسة .

فلما بلغ أبرهة ذلك ، قال : من فعل هذا ؟

فقالوا : صنع ذلك رجل من أهل هذا البيت الذى تحج إليه العرب بمكة ، حين سمع بأنك ستصرف إلى هذه الكنيسة حج العرب وتمنع الناس من الحج إلى الكعبة .

فاستشاط أبرهة غضباً وحلف ليهدمن الكعبة . .

أبرهة يستعد لغزو الكعبة :

واستنفر أبرهة الأحباش وخرج بهم إلى مكة ومعه الفيلة التى قدم بها من الحبشة ، وكان منظر الفيلة مخيفاً لم يألفه العرب ، ولم يتعودوا على مواجهتها فى ميدان الحرب . .

وتسامع العرب بعزم أبرهة فثارت حميتهم ، إذ كيف يتركون هذا الغازى

الغريب يخرب بيت الله الحرام ؟

وكان أول من تصدى لمقاومة أبرهة رجل من أشراف اليمن وأولاد ملوكهم يقال له : ذو نفر ، دعا قومه وغيرهم من سائر العرب واستنفرهم ضد هذا العدو الغاشم حتى يصدوه ، عن غايته التى أراد أن يحطم فيها البيت الحرام .

وقد أجابه إلى ذلك قوم فتعرضوا لأبرهة وجنده ، وقد كان فى الإمكان أن يصدوا هذا الخبيث عن غايته ، لولا أن الله قد ادخر هزيمته لتكون آية بارزة على مر الزمن .

فكانت الفيلة سبباً فى تشتيت الجند الذى جمعه ذو نفر . فقد نفرت الخيول منها ، وفرت من أمامها وفوقها فرسانها .

واستطاع أبرهة أن يأسر ذا نفر وهم بقتله ، ولكن « ذا نفر » قال له : أيها الملك لا تقتلنى فقد يكون بقائى خيراً لك من قتلى .

وكان أبرهة مع شره وخبثه حكيماً داهية ، فأبقاه مقيداً ، وحمله معه فى طريقه إلى مكة . .

وسار أبرهة فى طريقه وقد أعجبته نفسه ، فقد قضى على أول مقاومة تصدت له فى الطريق إلى غايته وتصور أن الطريق كله أصبح ممهداً أمامه بل ومفروشاً بالورود أيضاً .

لقد دخل فى وهمه أن فرسان العرب وراجليهم لن يقدروا على الثبات أمام هذه الفيلة الرهيبة .

إنها سلاح لا يقهر . . لم يجربه العرب قبل ذلك ، ولا قبل لهم بمقاومته ولا يمكنهم الثبات أمامه واستمر فى سيره لايلوى على شىء . .

وفوجىء فى أرض خثعم بمقاومة أخرى لم تخطر له على بال .

فقد تعرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى جمع من قبيلتى ـ شهران

وناهس ـ وقد تبعتهما بعض قبائل العرب التى ثارت حميتها لدينها وكرامة بيتها .

وكما حدث فى المقاومة الأولى حيث نفرت الخيول أمام الفيلة ، حدث فى هذه المقاومة الثانية .

واضطربت خيول هذه القبائل أمام أفيال الحبشة ، وارتبكت صفوف المقاومين والفرسان فانهزموا . .

ووقع نفيل بن حبيب أسيراً فى قبضة أبرهة . . وهم بقتله ، ولكنه استبقاه كما استبقى قبله ذا نفر ، وحمله معه ليكون دليلاً له إلى مكة .

وانطلق أبرهة وقد انتفخت أوداجه كبراً ، وامتلأ زهواً وعجباً . .

وكيف لا ؟ وقد قضى على مقاومة أخرى اعترضت طريقه ، وحاولت صده عن غايته التى أقسم ألا يعود دون تحقيقها ، وهى مقاومة لاشك أشد من الأولى . .

ولعل أمر العرب قد هان عليه ، وصغروا فى نظره ، وبخاصة بعد أن قال له كل من الزعيمين « ذى نفر » و« نفيل » استبقنى لعلى أنفعك . .

لقد وقع فى وهمه أنه من الممكن شراء هؤلاء بالمال والوعود إن لم يمكن القضاء عليهم بقوة الجنود .

ومما قوى هذا الوهم فى نفسه أنه حين وصل إلى الطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك الثقفى فى وفد من ثقيف ، وكان لثقيف صنم اسمه « اللات » يعظمونه ويعبدونه ، وكان له بيت يطوفون حوله ويقيمون له عيداً ، فخشوا أن يحطم بيت إلههم ، فأقبلوا إليه يقولون : أيها الملك إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا الذى تريد ، إنما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه .

فلماذا لا يهون أمر العرب فى نظر أبرهة بعد ذلك ؟

ولماذا لا تمتلىء نفسه زهواً بعد ما سمع من عروض هؤلاء الزعماء ؟

وكيف يكون لأى منهم احترام فى نفسه وقد رأى حرصهم على البقاء ورغبتهم فى النجاة ؟

إن قيمة المقاتل فى حرصه على الموت ، وعظمته فى رغبته عن الحياة فإذا ما فضل الحياة على الموت فقد هان فى نظر خصمه ، وهوى ميزانه الى الحضيض .

وأصبح أبرهة ـ بعد ذلك ـ لا يرى إلا نفسه ، وظن أن أمر البيت الذى يقصده قد أصبح فى يده فماهى إلا أيام حتى يصبح بيت العرب فى ذمة التاريخ . .

ولعل خاطرا خطر فى نفسه . لماذا لا يبسط سلطانه على كل هذه البقاع ؟

ألم يتمكن من القضاء على كل مقاومة اعترضته ؟ ألم يعتقل كل زعيم تصدى لقتاله ؟ فماذا بقى لبسط نفوذه ؟ لاشىء . .

ربما تكون هذه الخواطر قد راودته . . وربما راودته خواطر أخرى أكبر من ذلك طوتها يد القدر حين طوحت به وقضت عليه . .

وأرسلت ثقيف مع أبرهة ـ كما وعدته ـ شخصا يطلقون عليه أبا رغال .

وابتسم أبرهة فى داخله ابتسامة ساخرة . .

ماذا بقى لهؤلاء العرب ؟

لقد أسلموا اليه زمام الأمر بأنفسهم . .

ألم يقل له « ذونفر » : استبقنى لعلى أنفعك ؟

ألم يقل له نفيل بن حبيب : استبقنى وأنا دليلك على العرب ؟

ألم ترسل معه ثقيف دليلا يدله على البيت ؟

إنه لم يبق لهم شيء بعد ذلك بل هو الآن أصبح كل شيء ، وماهى إلا لحظات حتى يسوى البيت بالتراب ، ثم هو حر بعد ذلك إن شاء بقى فبسط نفوذه ، وان شاء عاد إلى صنعاء ، وبقية بلاد العرب دائنة له بالطاعة أرادت أو لم ترد ، وسوف تؤدى له الخراج وهو فى أى مكان . .

إنها خواطر تجول فى ذهن أى قائد يصادف ما صادفه أبرهة ، فما بالك إذا كان هذا القائد مدفوعاً بدين يريد أن ينشره ويجعله سائداً فى جزيرة العرب ، وبنى من أجله كنيسة غاظه أن يهينها بعض العرب وأقسم أن يهدم البيت الذى يتبعه هؤلاء الذين أهانوها ؟!

قد تكون هذه الخواطر قد ألحت عليه وهو فى طريقه إلى مكة وراء هذا الدليل الثقفى . .

ولكن ، هل هان العرب حقا كما تصوره وهم هذا المغامر ؟

وهل استسلموا بهذه الصورة المهينة التى أنستهم نخوتهم العربية وعزتهم الموروثة ومجدهم القديم ؟

وهل ضاعوا نهائياً لمجرد أنهم خسروا جولة أمام فيل فرت الخيول خوفاً منه ؟ وإلا فأين مكائد الفرسان ؟ وأين صمودهم فى كل ميدان ؟ وأين وقائع العرب التى كانت تستمر دائرة على مدى الأعوام والأزمان ؟

كلا . . لقد كان العرب على ثقة من أن السماء قد ادخرت لهذا القائد الأرعن يوما أشد سوادا من وجهه ، وأن مطاولته الآن لا تجدى شيئاً أمام ما ينتظره من حدثان . .

لقد أرادوا أن يمدوا له فى حبل غروره ، وأن يفسحوا الميدان أمام زهوه وفجوره ، حتى إذا أُخذ لم يُرحم وإذا عوقب لم يجد من يرثى له . . لقد رأوا قبله مصارع قوم أرادوا البيت بسوء فتركوه ليذوق مصير من سبقه . .

بداية النقمة :

وسار أبرهة مزهواً فى أثر « أبى رغال » وأنزله المغمس [٣] وهو مكان قريب من مكة على ثلث فرسخ منها .

وشاء الله أن ينغص على أبرهة آماله فى أول نزوله ، فمات أبو رغال فى هذا المكان ودفن فيه ، وأصبح قبره مرجوماً من العرب يتقربون برجمه إلى الله ، أليس هذا الرجل دليلاً لعدو الله الى بيت الله فمالهم لايرجونه بالحجارة حين يكونون فى الموسم ؟ وقد قال جرير فى ذلك يهجو الفرزدق :

اذا مات الفرزدق فارجموه　　كرجمكم لقبر أبى رغال

ويذكر المسعودى خبراً آخر فى رجم قبر أبى رغال .

قال : إن أبا رغال هذا كان فى عهد النبى صالح ـ عليه السلام ـ بعثه يجمع صدقات الأموال فخالف أمره وأساء السيرة ، فوثب عليه رجل من ثقيف وهو قس بن منبه ، فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته فى أهل الحرم ، وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت الثقفى :

نفوا عن أرضهم عدنان طرا　　وكانوا للقبائل قاهرينا
وهم قتلوا الرئيس أبا رغال　　بمكة إذ يسوق بها الوضينا [٤]

وفى التمثيل برجم قبر أبى رغال يقول مسكين الدرامى :

وأرجم قبره فى كل عام　　كرجم الناس قبر أبى رغال

وحين نزل أبرهة المغمس أقاموا له فسطاطا ، وهيأوه له ، وأخذ يعد جنده للمعركة الفاصلة . .

---

(٣) المغمس ـ بضم الميم الأولى ، وفتح الثانية مشددة بينهما غين مفتوحة ، وقيل انه بكسر الميم الثانية مشددة ولعله أصح ، مشتق من الغميس وهو الغمير نبات أخضر يكثر فى هذا المكان .

(٤) مروج الذهب حـ ١ صـ ٣٤٤ .

وبدأ بالمناوشة ـ على عادة المحاربين ـ فأرسل رجلاً من الحبشة اسمه الأسود بن مقصود فى خيل له للإغارة ، فلقى أمولاً من سائمة وابل لتهامة وقريش ، فاستاقها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم سيد قريش ، جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقال إنها كانت معدة للهدى . ومن هنا كان حرصه عليها .

وقد همت قريش وكنانة وهذيل بقتاله ، ولكن عبد المطلب حال بينهم وبين ذلك .

لقد كان عبد المطلب ملهماً فطناً ، وأدرك بفطنته أن الله مانع بيته لا محالة ، فقال لقومه : إنكم لا طاقة لكم بقتاله فذروه لمن هو أقدر عليه منكم .

وأرسل أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد ، فدلوه على عبد المطلب بن هاشم ، سيد مكة وشريفها وصاحب الكلمة النافذة فيها فأنهى إليه رسالة حملها إليه من أبرهة يقول له فيها :

« إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تتعرضوا لى دونه بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم »

وماذا يبقى للعرب بعد هدم البيت ؟ لقد كانت هذه الرسالة غاية فى الإذلال والتشفى وكأنه أراد أن يقول لهم : أنا ما جئت لقتالكم بل جئت لأسلبكم كرامتكم وعزتكم وشرفكم ومجدكم . .

وهل للعرب كرامة إلا بهذا البيت الذى ألبسهم الله به تاج العز الذى لا يبلى وثوب المجد الذى لا يفنى ؟

وملك عبد المطلب جأشه ، وضبط أعصابه ، فقابل الرسالة ببرود ، كأن الأمر لا يعنيه ، ورد على الرسول فى ثقة :

والله ما نريد حربه ، ومالنا به طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فقال له حناطة : فانطلق معى إلى أبرهة فإنه قد أمرنى أن آتيه بك .

ومضى عبد المطلب مع حناطة إلى معسكر أبرهة ..

عبد المطلب فى معسكر أبرهة :

ومع ثقة عبد المطلب فى حفظ السماء ، لم يشأ أن يترك أمر الاحتياط والأخذ بالأسباب ، فأراد أن يعرف شيئاً عن دخيلة هذا الغازى وسياسته وتصرفه ، وفطنة الزعماء تقضى بالاستعداد لخصومهم فقبل أن يدخل إلى أبرهة ، طلب مقابلة ذى نفر ، وكان أسيراً ـ كما نعلم ـ فى معسكر أبرهة وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب ، وكان مع عبد المطلب بعض أبنائه وكان معه أيضاً وفد من زعماء العرب منهم يعمر بن نفاثة بن عدى سيد بنى بكر ، وخويلد بن وائل الهذلى سيد هذيل ..

وفى المقابلة التى جرت بين عبد المطلب وذى نفر ، قال عبد المطلب : ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟

فقال ذونفر : وما غناء رجل أسير بين يدى ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً ؟ ولكن ـ أنيسا ـ سائس الفيل صديق لى سأرسل إليه وأوصيه بك ، وأسأله أن يستأذن لك على أبرهة فتكلمه بما بدالك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك ..

لقد جاء أبرهة إذن بقوته وسلطانه وحوله حاشيته التى قد تحول بينه وبين لقاء عبد المطلب ، فالأمر اذن فى حاجة إلى وساطة ..

فقال عبدالمطلب لذى نفر : حسبى ذلك ، وازداد وثوقه بالله ..

وأرسل ذو نفر إلى صديقه أنيس ، وأعلمه بقدر عبد المطلب ، وقال له : إن هذا الرجل سيد قريش وزعيمها وهو صاحب عير مكة ، وهو الذى يطعم الناس بالسهل والوحوش فى الوعر .. وأخذ يعظم من شأنه ..

وطلب منه أن يستأذن له على الملك وينفعه بما يقدر عليه ..

ووعد أنيس ذانفر فى شأن عبد المطلب خيراً ..

واستأذن له على أبرهة .. فأذن له ..

وكان عبد المطلب من أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، وحين وقعت عين أبرهة عليه استعظمه وأجله وامتلأ قلبه هيبة له ، وأكرمه أن يجلسه دونه ، وكره أن يجلسه معه على سريره ، فنزل أبرهة من مكانه وجلس على البساط وأجلس عبدالمطلب بجواره .

وأقبل عليه قائلاً : على لسان ترجمانه ـ ماحاجتك ؟

فقال عبد المطلب : حاجتى أن يرد الملك علىّ مائتى بعير أصابها جنده منى ..

فرد عليه أبرهة : قد أعجبتنى حين رأيتك وزهدتنى فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أخذتها منك كى أردها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك جئت لأهدمه ولا تكلمنى فيه؟

فقال عبدالمطلب فى وثوق وأنفة : أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه .

فقال أبرهة فى ضيق وتحد : ما كان ليمتنع عنى

فقال له عبد المطلب فى تحد أكبر : أنت وذاك

وكأنما أراد أفراد الوفد المرافق لعبد المطلب مهادنة أبرهة ، وأن يعقدوا معه صلحاً يعود بمقتضاه دون التعرض للبيت على أن يدفعوا له ثلث أموال تهامة .

ولكنه أبى إلا أن يهدم البيت .. لقد جاء لهدمه وسيهدمه ..

هكذا قال بعض الرواة فيما يذكر ابن هشام [5]

---

(٥) الروض الأنف جـ ١ صـ ٦٩

وانصرف عبد المطلب إلى مكة وهو يقول :

يا أهل مكة قد وافاكم ملك   مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه   مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعه   كمنع تبع لما جاءها حرد

وطلب من قريش أن تلحق ببطون الأودية ورءوس الجبال فراراً من معرة الحبشة ، وقلد الإبل النعال وخلاها حول الحرم ووقف بباب الكعبة وهو يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا   فامنعهم أن يخربوا قراكا(٦)

ثم أخذ بحلقة باب الكعبة وأرسل ضراعة صادقة ضمنها كل ما يملك من إيمان والتجاء إلى الله فقال :

لاهم إن العبد يمنع   رحله فامنع حلالك
لايغلبن صليبهم   ومحالهم غدوا محالك
وانصر على آل الصليب   وعابديه اليوم آلك

إنها ساعة اللجوء إلى الله .. وحق على الله أن ينصر من يصدق فى اللجوء إليه ..

وقد شعر عبدالمطلب فى هذه اللحظة أنه المسئول عن هؤلاء الذين حال بينهم وبين لقاء أبرهة ، لأنه خشى أن يعرضهم لمعركة غير متكافئة تصمهم بذل لا يمحى حيث يقال : لقد هزم الأحباش أهل مكة فى عقر دارهم .

وكانت صرخته إلى الله صاعدة من قلبه وقد ضمت كافة المعانى التى يمكن أن تجول فى خاطر زعيم نصبته الأقدار رئيساً حول حرم

(٦) مروج الذهب جـ ١ صـ ٣٨٢

الله . وجعلته مسئولاً عن حمايته وأمنه والحفاظ عليه . . وما يتعرض له الحرم اليوم ليس فى مقدوره أن يدفعه فعليه أن يلجأ إلى رب الحرم ليدفعه . .

كان صادقاً فى التجائه إلى الله . . فأيده الله . .

وفى الحق لم يكن الدعاء قاصراً على عبد المطلب ، بل شاركه فى ذلك أهل الحرم جميعاً ، ان لم يكن جهراً فسرا ، وهذا عكرمة بن عامر بن هاشم يهتف بالله يستصرخه على ذلك الذى اجتاح أموال مكة وهو الأسود بن مقصود أحد قواد أبرهة ، فقال :

لا هم اخز الأسود بن مقصود   الآخذ الهجمة فيها التقليد

بين حراء وثبير فالبيد   يحبسها وهى أولات التطريد

فضمها الى طماطم سود   أخفره يارب وأنت محمود(٧)

العقاب الالهى :

وعبأ أبرهة جيشه ، وتهيأ لدخول مكة ، وأصدر أمره بإعداد الفيلة للهجوم على البيت لهدمه ، ثم العودة إلى اليمن . .

ووجه الجنود الفيلة الى مكة فأبت . .

قال الرواة : جاء نفيل بن حبيب الذى أطلقه أبرهة بعد أسره واصطحبه معه ، وأمسك الفيل من أذنه وهمس فيها : ابرك محمود ، أو ارجع من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام . .

وكان الفيل اسمه محمود . .

فبرك الفيل مكانه . . ومعنى برك جثم فى مكانه ورفض مبارحة المكان . .

---

(٧) لاهم : اللهم ـ الهجمة : الابل والماشية المقلدة للحرم ـ ثبير : اسم جبل والطماطم السود جنود أبرهة ـ أخفره : بالهمزة : انقض عزمه وأبح دمه .

وانتهز نفيل بن حبيب الفرصة ، فخرج يشتد حتى أصعد فى الجبل هارباً . .

وأقبل سائس الفيل يحاول أن يقيمه فأبى ، فضربوا رأسه بآلة من حديد ، فلم يزد إلا جثوماً على الأرض ، وحاولوا معه بكل وسيلة كى يقوم ففشلت كافة المحاولات فى ذلك .

فأخذوا برأسه ووجهوه إلى اليمن فقام مهرولاً ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، فوجهوه إلى الكعبة فبرك .

وأرغى أبرهة وأزبد وهدد وتوعد ، مابال الفيل يعصى أوامر سائسه ، وربما أراد أن يوجه النقمة إلى هذا السائس الذى لم يحسن تأديب فيله . .

ولكن عقاب السماء كان أسرع من كل شىء . .

لقد أقبلت أسراب من الطيور غريبة الشكل أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار صغيرة فى حجم حبة الحمص أو العدس . . فى المنقار حجر وفى كل رجل حجر ، وقد وكل بكل جندى طائر من هذه الطيور . .

وألقت هذه الطيور أحجارها فوق هؤلاء الجنود ، فأصاب كل حجر هدفه بدقة كاملة ، وكان هذا الحجر الصغير الذى لا يتعدى حبة الحمص ينزل فوق رأس الرجل منهم فيحطمها ويمضى فى طريقه إلى أمعائه فيمزقها فلا يجاوزه إلا وقد أصبح جثة هامدة ممزقة الأوصال . .

وجرى الذين لم تصبهم الأحجار فى كل مكان يطلبون النجاة ، ولكن أنّى لهم النجاة وهذه الطيور لهم بالمرصاد وتتبعهم فى كل مكان حتى قال لهم نفيل ابن حبيب وقد رأى مانزل بهم ، وعاين نقمة السماء الشديدة بهم .

أين المفر والاله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب ؟

وأصيب أبرهة ونقل محمولاً إلى صنعاء فكان يتساقط فى الطريق أنملة أنملة حتى وصلوا به وهو مثل فرخ الطائر . . وكأن الله قد أراد أن يشهد الذين لم يكونوا معهم ماحدث لهؤلاء الغزاة الذين لم يرعوا لله حرمة ولم يخشوا له بأساً . .

قيل : وأفلت جندى حلق فوقه طائر ، يتبعه حتى وصل إلى النجاشى فى الحبشة ، فأبلغه ماحدث وبعد أن أتم إبلاغه ألقى الطائر الأحجار فوق رأسه ، فحدث له ماحدث لرفاقه فى مكة . .

ورأى النجاشى بعينه ماحدث لجنوده الذين سولت لهم أنفسهم التعرض لبيت الله . . وخاب ظن أبرهة وخاب ظن من بعثه غازياً .

القصة فى القرآن الكريم :

وقد صدق الله إذ يقول قاصاً علينا هذه القصة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ (٨)

---

(٨) سورة الفيل

تعليقات الأئمة المجتهدين على هذا الحدث :

ونستعرض آراء بعض المفسرين المحدثين والأدباء فى تعليقهم على حادث الفيل .

وقد عرض هذه الآراء الدكتور محمد رجب البيومى فى مقال جاء فيه : (٩)

رأى الامام محمد عبده :

وفى اليوم التالى أى لمجىء الجيش فشا فى جند أبرهة داء الجدرى والحصبة ، قال عكرمة : وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب ، وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث ، إن أول مارؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام وقد فعل الوباء بأجسامهم مايندر وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه ، وولوا هاربين ، وأصيب قائد الجيش - أى أبرهة - ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات فى صنعاء .

قال الأستاذ الإمام :

هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به ، وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون الحجارة من الطين

---

(٩) مجلة الأزهر - بعنوان الطير الأبابيل - عدد صفر ١٤١٠ هـ

المسموم اليابس ، الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسد دخل فى مسامه ، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم ، وتساقط لحمه وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا خالقها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الباغين على أن يكون الطير فى ضخامة رءوس الجبال ، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة ، وكيفية تأثيرها ، فلله جند من كل شىء .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ثم قال الإمام : « ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل ـ وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسماً ـ ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ، ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر . . ولا ريب عند العاقل أن هذا اكبر وأعجب وأبهر وأعظم »

رأى العقاد :

وكتب الأستاذ العقاد بمجلة الرسالة العدد ٧٤٧ فى ١٩٤٧/١٠/٢٧ مقالاً جيداً تحت عنوان (القرآن والنظريات العلمية) نص فيه على أن من الخطأ البين أن نجعل تفسير القرآن تابعاً للنظريات العلمية التى تنقضّ اليوم ما ثبت بالأمس ، والتى يجرى عليها الجدل بين المدارس العلمية على أسس شتى لم يتفق عليها العلماء .

ثم ضرب العقاد أمثلة للمحاولات المخطئة فى تفسير آيات كريمة لا مجال للحديث عنها فى هذا الموطن ، ولكنه من الوجهة المقابلة ضرب أمثلة للمحاولات المأمونة المعقولة التى لا حرج فى القول بها ، فقال :

« وقد تكون محاولات التوفيق مأمونة معقولة كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى تفسير الطير الأبابيل بجراثيم الأمراض التى تسمى بالميكروبات ، فالميكروبات موجودة لاشك فيها ، والإصابة بها محققة فهذه مشاهدات مجربة لا تقبل الجدال ، فإذا قال المفسر كما قال الأستاذ الإمام إن هزيمة أصحاب الفيل ربما كانت من فعل هذه الجراثيم ، فذلك قول مأمون على سبيل الترجيح والجواز ، ولكنه غير مأمون على الجزم والتوكيد ، لأن الحفريات التاريخية قد تكشف لنا غداً عن حجارة من سجيل ، أصيب بها أصحاب الفيل فجعلتهم كعصف ماكول » . .

رأى الأستاذ سيد قطب :

أما الأستاذ سيد قطب فلم يسترح لرأى الأستاذ الامام ، ولكنه أبدى ما أكده فى مواضع كثيرة فى تفسيره من أن سنة الله ليست محصورة فيما يعهده البشر وما يعرفونه ، لأنهم لا يعرفون من سنة الله إلا طرفاً يسيراً يكشفه الله لهم بقدر ما يطيقون ، وبمقدار ماتتهيأ له مقدرتهم العقلية ، والخوارق من سنة الله وان كانت غير ماعهدوه .

ويقول الأستاذ سيد قطب :

« إن هناك قاعدة مأمونة فى مواجهة النصوص القرآنية ، لعل هنا مكان تقريرها . . انه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة ، بل ينبغى أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا . . فمنها

نتلقى مقرراتنا الإيمانية ، ومنها نكوّن قواعد منطقنا ، وتصوراتنا جميعاً ، فإذا قررت لنا أمراً فهو المقرر كما قررته ، ذلك أن ما نسميه العقل ، ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية هو إفراز واقعنا البشرى المحدود وتجاربنا البشرية المحدودة »

فالشهيد سيد قطب يدعو إلى تقبل الخوارق دون تعليل بشرى يوحى به عقل محدود الإدراك مهما كان صاحبه مجتهداً . . لإن الخوارق خوارق بالنسبة لنا ، ولكنها سنن طبيعية بالنسبة لخالق السموات والأرض . . وحادث الفيل أمر خارق فى بابه . . ومحاولة تقريبه للذهن بتعليل علمى تجعله أمراً طبيعياً لا معجزة فيه . . وهو مع هذه المخالفة الصريحة لمنحى الأستاذ الإمام يقدر كل التقدير دوافع اتجاهاته العلمية فى عصره المتلىء بالتهجم على الاسلام افتراء وبغياً من قوم هم أشد أعدائه ، وبالخرافات الوهمية التى تنسب اليه بغياً وجهلاً من قوم آخرين ، لذلك جاءت مدرسة الإمام الى الاحتكام إلى العقل لتقنع ذوى الشطط الوبىء من أعداء الإسلام .

ويقول الأستاذ سيد قطب بصدد رأى الامام فى تفسير (الطير الأبابيل) :

« إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التى كان الأستاذ الإمام رحمه الله على رأسها فى تلك الحقبة . . ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات فى تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية ، فقد كانت هذه المدارس تواجه النزعة الخرافية التى تسيطر على العقلية العامة فى تلك الفترة ، كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التى حشيت بها بعض كتب التفسير والرواية ،

فى الوقت الذى وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها ، وموجة الشك فى مقولات الدين إلى قمتها ، فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ماجاء به موافق للعقل » .

خواطر الشيخ الشعراوى حول هذه السورة :

وأخيراً نأتى إلى الشيخ الشعرواى ـ أمد الله فى عمره ـ فنجده يؤكد مادعا إليه المرحوم الشيخ سيد قطب من وجوب الاقرار بالمعجزات وعدم محاولة إخضاعها للعقل

قال الشيخ الشعراوى : من الأدلة المادية على وجود الله سبحانه وتعالى ، وعلى علمه وعلى معجزاته سورة الفيل . .

فهذه السورة تتضمن معجزة لم يأت بها رسول ، ولم تنزل لتثبيت الإيمان على قوم نبى كان يدعو قومه للإيمان وهم لا يؤمنون ، ولكنها حدثت لإثبات القدسية والحماية لبيت الله الحرام ، ولقد ولد رسول الله ـ صلى اله عليه وسلم ـ فى عام الفيل ، وكانت هذه المعجزة علامة على أن دين الله سينزل على رسول من أهل هذا المكان . .

والقصة معروفة وبطلها ذلك الملك الحبشى المسمى أبرهة ، الذى بنى بيتا ليحج إليه الناس بدلاً من الكعبة ، وجاء بعض الأعراب ، وألقوا فيه قاذورات ، فصمم أبرهة أن ينتقم بهدم الكعبة ، وأخذ جيشاً ضخماً وعدداً كبيراً من الأفيال وذهب إلى مكة .

فلما رأى أهل مكة هذا الجيش هربوا وفروا . . فجاء الطير بحجارة من جهنم فقضت على أبرهة وجيشه وأفياله فى دقائق .

القصة قد يرفض تصديقها العقل غير المؤمن ، إذ كيف يمكن لطير صغير أن يقضى على جيش من الأفيال . . بينما لو وقفت مئات من الطير على جسد فيل واحد لا يحس بها .

ولقد توقف بعض العلماء عند هذه السورة الكريمة فقالوا : إن الله أرسل جراثيم لتقضى على أبرهة وجيشه ، وكأنهم يريدون أن يسهلوا الأمر على الله مع أن الله على كل شيء قدير .

نقول : لقد ولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عام الفيل ، وبعث فى الأربعين ، ونزلت هذه السورة فى مكة فى بداية الدعوة الاسلامية ، وكان الكفار هم القوة والعزة ، والمسلمون هم القلة والضعف ، وكان الكفار يبحثون عن أى شيء للطعن فى الدين الإسلامى .

نقول : إن هذه السورة نزلت فى مكة ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسله الله بالرسالة وعمره أربعون سنة ، أى أن هناك من أهل مكة من كان يبلغ الخامسة والخمسين ، والستين ، والخامسة والستين والسبعين ، وهم قد شهدوا هذه المعجزة ، ورأوها رؤية العين ، ولو أن الطير لم تأت وجيش أبرهة لم يتم إفناؤه وهزيمته لقال هؤلاء الناس : إن هذا الكلام غير صحيح ، ولقال الكفار : لقد كنا موجودين فى مكة فى هذا الوقت ولم نر طيراً جاء ولا جيشاً أُفْنِي ، ولطعنوا بذلك فى الاسلام وفى القرآن وفى أنه كلام الله ، ولكن لأن الطير جاء ، ولأن المعجزة تمت لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام على أن يطعن فيه . .

وهكذا يعطينا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ دليلاً من التاريخ لمعجزة مشهورة حدثت ويعطينا معها الدليل على صدق حدوثها (١٠)

---

(١٠) الأدلة المادية على وجود الله ـ للشيخ محمد متولى الشعراوى ـ صـ ١١٤ ـ أخبار اليوم ـ

الشعر يسجل الحادث :

ويقول النقاد : إن الشعر ديوان العرب بمعنى أنه سجل كامل لأخبارهم وللأحداث التى مرت فى حياتهم ، ويندر أن تكون هناك حادثة مهمة لم يسجلها شاعر من الشعراء فى شعره ، وقد تناول شعراء العرب حادث الفيل وسجلوه ، ومن ذلك ماقاله نفيل بن حبيب الخثعمى ، وكان الأحباش المذعورون يبحثون عنه ليدلهم على طريق الهروب ، ولكنه لم يكن أقل منهم رعباً وذعراً ، وكان قد تسلل من بينهم وأصعد فى الجبل قبل أن تسقط الحجارة عليهم . قال نفيل :

ألا ردى جمالك يارديناً نعمناكم مع الأصباح عينا
فانك لو رأيت ولن تريه لدى جنب المحصب مارأينا
حمدت الله إذ عاينت طيرا وحصب حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل كأن علىّ للحبشان دينا(١١)

أما عبدالمطلب ـ وكان الى جانب زعامته شاعراً مجيداً ـ فقد أنشأ يقول ، بعد أن رأى كيف رد الله عن بيته هؤلاء الطغاة :

أيها الداعى لقد أسمعتنى ثم مابى عن نداكم من صمم
ان للبيت لربا مانعا من يرده بآثام يصطلم
رامه تبع فيمن جندت حمير والحى من آل قدم
فانثنى عنه وفى أوداجه جارح أمسك منه بالكظم(١٢)

---

(١١) مروج الذهب للمسعودى حـ ١صـ ٣٨٢

(١٢) الكظم : مخرج النفس يقال أخذ بكظمه اى بمخرج نفسه ـ اللسان .

قلت والأشـرم تـردى خـيله | إن ذا الأشـرم غِرٌّ بالحرم
نحن آل الله فيها قد قضى | لم يزل ذاك على عهد أبرهم
نحن دمـرنا ثمـودا عـنوة | ثم عادا قبلها ذات الإرم
نعبد الله وفينـا سـنة | صلة القربى وايفاء الذمم
لم تـزل لله فـينا حجـة | يدفع الله بها عنا النقم[١٣]

ولم يفت تسجيل هذا الحادث عبدالله بن الزبعرى وهو شاعر قريش المشهور فقال :

تنكلوا عن بطـن مكـة إنها | كانت قديماً لايرام حـريمها
لم تخلق الشعرى ليالى حرمت | إذ لاعزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها مارأى | ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يئوبوا أرضهم | ولم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم | والله من فوق العباد يقيمها[١٤]

وقال أبو الصلت الثقفى :

ان آيات ربنـا ثاقـبات | لايمارى فيهـن إلا الكفـور
حبس الفيل بالمغمس حتى | ظـل يحبو كأنه معقـور
لازما حلقة الجران كما قطر | من صـخر كـبكب محـدور
حوله من ملوك كندة أبطال | ملاويث فى الحـروب صـقور
خـلفوه ثم ابذعـروا جـميعا | كلهـم عظـم سـاقه مكـسور
كل ديـن يوم القـيامة عند | الله إلا دين الحنيفة بـور[١٥]

---

(١٣) المرجع السابق صـ ٣٨٣

(١٤) سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ٧٧

(١٥) المرجع السابق ص ٧٩ والجران : العنق ، ويقصد بحلقة الجران بروك الفيل على الأرض ، وشبهه بالصخرة التى انحدرت من الجبل ولصقت بالسفح-والملاويث : المتعطشون للحرب ، وابذعروا : افترقوا .

نهاية الحبشة فى اليمن :

وتبددت فلول جيش أبرهة فى الفياق ، وبعضها عاد ثخيناً بجراح لا يستطيع مقاومتها حتى لفظ أنفاسه فى اليمن أو فى الحبشة ، لقد كان الدرس قاسياً ، والانتقام مراً .

وتولى أمر الحبشة باليمن بعد أبرهة ابنه يكسوم بن أبرهة ، وبعد هلاكه تولى أخوه مسروق بن أبرهة . .

وكان مسروق أشد وطأة على اليمن من أبيه أبرهة ومن أخيه يكسوم وسوغ له ذلك نسبه فى اليمن ، فقد كانت أمه يمنية من آل ذى يزن .

وكان اليمنيون لا يزالون يتطلعون للتخلص من الحكم الحبشى ، ولم يجدوا طريقاً للخلاص من ذلك إلا بالاستعانة بالفرس فهم أكفاء القياصرة الذين يمدون الأحباش بالقوة ويعضدونهم ويناصرونهم لمكان الدين الذى يعتنقونه جميعاً . .

وكان سيف بن ذى يزن قد لجأ إلى قيصر ملك الروم يستغيث به فى تخليص بلاده من الأحباش ، ولكن أنى يستجيب له قيصر وهو يعلم أن الحبش لم تغز اليمن إلا باسمه وأمره ؟

ومكث سيف بن ذى يزن على باب قيصر مدة طويلة دون أن يأذن له قيصر حتى يئس فانصرف إلى كسرى ، فاستنجده فوعده بالنصرة .

وأمده بجيش قوامه المسجونون وعليهم قائد اسمه وهرز . .

قال كسرى : هؤلاء أهل السجن إن هلكوا كسبنا وإن فتحوا كسبنا فهو ظفر على أى حال . .

وركب هذا الجيش السفن فى طريقه إلى حضرموت ، وقد هلك بعضه فى الطريق غرقاً .

ونما خبر هذا الجيش إلى مسروق بن أبرهة فاستعد لمقابلتهم فى مائة ألف من الأحباش وغيرهم من حمير وكهلان وقبائل اليمن . .

وركب مسروق فيله ، وكأنه استنكف أن يقاتل هؤلاء على فيل ، فتحول عن الفيل إلى فرس ، ثم تحول عن الفرس إلى حمار استصغاراً لهؤلاء الذين جاءوا عبر البحار فى عدة سفن ليقاتلوه . .

فلما رآه وهرز وقد تحول إلى الحمار قال : لقد ذهب ملكه ، إذ تحول من الكبير إلى الصغير ومن العظيم إلى الحقير . .

وكان بين عينى مسروق ياقوته حمراء معلقة فى تاجه بمعلاق من ذهب فلم يكن لوهرز شأن إلا أن يصيبه فى مقتل بين عينيه .

وصدق الفرس فى القتال ، ورمى وهرز مسروقاً بسهم فأصابه بين عينيه فى موضع اللؤلؤة وقتله ، وتفرق الجمع من حول مسروق ، وتبددوا وانتهت المعركة بهزيمة الحبشة شر هزيمة ، وتم الأمر لسيف بن ذى يزن . .

فتولى ملك اليمن على شرط أن تكون تابعة للفرس ، يحكمها باسم الفرس .

ولكن اليمن تخلصت من حكم الحبشة على أى حال ، وكان هذا الحكم قد استمر فى اليمن اثنتين وسبعين عاماً كان ملك مسروق منها ثلاث سنين .

وجاءت وفود العرب تهنىء سيفاً بالنصر ، وكان فيمن وفد عليه عبد المطلب بن هاشم ، فأكرم سيف وفادته وأعطاه هدايا قيمة عند عودته . .

وقيل إن النصر تم على يد معديكرب بن سيف لأن سيفاً كان قد مات قبل أن تبارح جيوش كسرى بلاد فارس فى طريقها إلى اليمن .

وظلت ولاية اليمن تابعة لكسرى حتى جاء الاسلام فحررها من التبعية وأصبحت خالصة لأهلها .

العبرة من قصة الفيل :

لقد أشار الشيخ الشعراوى فيما نقلناه عنه إلى أن قصة الفيل فى القرآن

الكريم تدل على معجزة القرآن الكريم ، كما تدل على قدرة الله الخارقة ووجوده العظيم ، وحمايته لبيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأمناً .

وهلاك الفيلة وأصحابها فى العام الذى ولد فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دليل على عظم منزلة هذا الرسول الأمين ، الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، والذى سوف تكون رسالته توطيدا لدعائم هذا البيت الذى ولد فى رحابه وتدرج فى ظله ، وسيكون قبلته التى توجه إليها أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى أداء صلواتهم لله .

لقد كان هلاك أبرهة بهذه الصورة الغريبة الخارقة درساً لكل المتغطرسين الذين يناصبون الله العداء والذين تسول لهم نفوسهم أن فى إمكانهم أن يَتَحَدُّوا القدر أو يجعلوا من أنفسهم طواغيت يرهبون الناس بسلطانهم ، ويوجهونهم وجهة غير صحيحة .

والقصة فى الوقت نفسه تثير العجب من هؤلاء الذين جاءوا باسم حماية الضعفاء يزعمون أن شعارهم الرحمة والعدل فإذا بهم يحاولون أن يفرضوا بالحديد والنار والقوة الغاشمة سلطانهم فى أرض احتلوها ليست لهم أولا .. ثم فى بقية البلاد التى تجاورها ثانياً .

فهاهم أولاء أرادوا أن يصرفوا العرب عن التوجه إلى بيت الله الحرام ، فلما رأوا بوادر العصيان لهذا الاتجاه المتعصب أرادوا أن يهدموا البيت الذى يحج إليه الناس من مختلف الجهات ..

وعبرة العبر فى القصة . ما توحى به من دلائل على أن القوة بغير سلاح الإيمان لا تفيد ، وكم من مغتر بقوته طوحت به الطوائح ووضعت الأحداث أنفه فى الرغام ، كما تدل على أن لله جنودا لا يعلمها إلا هو يذل بها الجبابرة ويهلك بها الغاشمين .

وانظر إلى الفيل فى ضخامة جثته وهول منظره أهلكه الله بحجر فى حجم العدسة ألقاه عليه طائر لا يعرف أحد من أين جاء ولا إلى أين ذهب ..

واصبح الجيش المعتد بقوته المغتر بصولته وشدته كعصف[16] ماكول ، فى أقل من غمضة عين ، وفى أسرع من البرق .

إن أعتى الأسلحة الحديثة وأدق الأجهزة الراصدة لا تستطيع أن تؤدى مهمتها بنجاح فائق كما أدتها هذه الطيور التى بعثتها العناية الربانية فى وقتها المعلوم ومكانها المرسوم .

ولقد أبقى الله من هذه الموقعة علامات تذكر الناس بها ، وتشهد الأجيال التى جاءت بعد ذلك على صدق حدوثها . فقد قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة فاقدى البصر مقعدين يستطعمان الناس[17]

فأى عبرة أقوى من هذا ؟ هؤلاء الذين جاءوا غزاة أقوياء معتدين بقوتهم يصبحون بعد حين ضعفاء أذلاء مقعدين . .

ومن العبر المستخلصة وجوب اللجوء إلى الله فى الشدة ، وهو سبحانه برحمته يأخذ بيد المستجير ويغيث الملهوف وينصر المظلوم ، قال القشيرى فى كتابه « لطائف الإشارات » : إذا كان عبد المطلب ـ وهو ليس صاحب دين ـ أخلص فى التجائه إلى الله فى استدفاع البلاء عن البيت فلم يخيب الله رجاءه ، وسمع دعاءه . . فالمؤمن المخلص اذا دعا ربه باخلاص أحق أن لا يرده الله خائباً .

ويقال : إنما أجيب لأنه لم يسأل الله لنفسه وانما لأجل البيت ، وماكان لله لا يضيع[18]

---

(١٦) العصف : اطراف الزرع قبل أن يدرك ، ويقصد بماكول أى ممضوغ أو أن ثمره ماكول . والطير الأبابيل هى المتجمعة والمتفرقة ، أما السجيل فهى حجارة مطبوخة بالنار ، وقيل هو لفظ فارسى .

(١٧) الروض الأنف للسهيل جـ ١ ص ٧٧

(١٨) لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٦ ص ٣٣٨

رحلتا الشتاء والصيف

- قريش ولم سميت بهذا الاسم ؟
- قصيّ هو الذى جمع قريشًا .
- هاشم بن عبد مناف صاحب فكرة الإيلاف .
- حسده والحقد عليه .
- التنازع حول تكاليف السيادة .
- همة هاشم البعيدة .
- ماذا فعل هاشم لتحقيق فكرة الإيلاف .
- قصده قيصر ولقاؤه به .
- توسيع فكرة الإيلاف .
- وفاة هاشم فى إحدى رحلات الإيلاف .
- معنى الإيلاف .
- أثر الإيلاف فى حياة العرب .
- مناسبة سورة قريش .
- العبرة من القصة .

رحلتا الشتاء والصيف

أشارت إلى هاتين الرحلتين سورة نزلت فى القرآن الكريم هى سورة « قريش » التى يقول الله - تعالى - فيها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤ ﴾

وتتضمن هذه السورة توفير عاملين لقريش من أهم العوامل التى تسعى الأمم قديمها وحديثها فى سبيل توفيرهما حتى تعيش سعيدة فى حياتها ، هذان العاملان هما توفير الرزق للشعب ، واحراز الأمن له ، ويتطلب الحديث عن ذلك التمهيد بذكر نبذة عن قريش ومكانتها التى جعلت القرآن الكريم يفرد سورة باسمها .

قريش :

القرش فى اللغة الجمع والكسب والضم من هنا وهناك ومعناه ضم الأشياء بعضها إلى بعض ، وتقرش القوم اذا اجتمعوا وقرش بقرِش ويقرُش قرشا واقترش جمع واكتسب ، والتقريش الاكتساب .

وتقول : قَرَش لأهله وتقرش واقترس أى اكتسب لهم

ويقال : تقرش عن الشىء تنزه عنه

ويقال : تقارشت الرماح وتقرشت إذا تطاعنوا بها

والقرش بكسر القاف دابة فى البحر لاتدع دابة فيه إلا أكلتها فجميع

الدواب تخافها . . من هذه المادة وتقلباتها فى المعنى جاءت تسمية قبيلة قريش التى ينتسب اليها سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقبيلة قريش كانت مجتمعة متضامة ، وكانت ماهرة فى التكسب عن طريق التجارة ، وكانت مترفعة عما يقبل عليه غيرها من بعض العادات والتقاليد ، دفعهم إلى ذلك شرفهم الذى هيأ لهم ولاية البيت ورعايته ، وكانت على أنفة تدعوها الى الذود عن كيانها حتى اكتسبت بذلك هيبة فى نفوس العرب وغير العرب ، وإن كان بعض اللغويين قد غلب المعنى الأخير فى سبب تسمية قريش بهذا الاسم كما سيأتى .

وأبو هذه القبيلة هو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إياس بن مضر فكل من ولد النضر ـ كما يقول ابن منظور ـ[1] فهو قرشى دون ولد كنانة ومن فوقه .

قال : وسموا بقريش تشبيها بهذه الدابة البحرية التى تخشاها الدواب وتعمل حسابها وفى حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى ذكر قريش سأله معاوية : لم سميت قريش قريشاً ؟ فقال : لدابة تسكن البحر تأكل دوابه يقال لها القرش ، تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تُعلى ، وأنشد قول تبع فى ذلك :

وقريش هى التى تسكن البحر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولاتترك فيها لذى جناحين ريشا
هكذا فى البلاد حى قريش يأكلون البلاد أكلاً كميشا[2]

---

(١) لسان العرب جـ ٥ صـ ٣٥٨٦

(٢) الكميش : السريع .

وربما كان لتجمعها فى مكة بعد تفرقها فى البلاد حين غلب عليها قصى بن كلاب أثر فى تسميتها بذلك ، وقد رأينا أن التقرش معناه التجمع ، ويؤيد ذلك أن قُصَيًّا هذا كان يسمى مُجَمِّعاً .

وكانت قريش صاحبة تجارة ، يخرجون الى البلاد المجاورة متجرين ومكتسبين ، وهذه علة أخرى لتسميتها بهذا الاسم ، وقد علمنا أن من معانى هذه الكلمة الكسب والجمع ولم يكن القرشيون أصحاب زرع وضرع بل كانوا أصحاب تجارة .

وتطلق كلمة قريش على الحى كما تطلق على القبيلة .
فإن أطلقتها على الحى صرفت الكلمة تقول : نزلت حى قريشٍ بالتنوين وأن أطلقتها على القبيلة منعتها من الصرف كما يقول الشاعر وهو عدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك :

غلب المساميحَ الوليدُ سماحةً وكفى قُرَيْشَ المعضلاتِ وسادها

من قصـــى ؟ :

أما قصى فهو ابن كلاب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر ، وكلاب مصدر الفعل كالب ، تقول : كالب كلابا ومكالبة إذا غالب وخاصم واشتد فى الحرص على حقه ، وضايق خصمه حتى غلبه .

وأمه هى فاطمة بنت سعد بن سيل وهى من الأزد الذين حملهم السيل على الخروج من مأرب فنزل جدها الأعلى فى كنانة فتزوج منهم وأعقب أولاده من الكنانية التى تزوجها .. فهى أزدية الأب كنانية الأم ..

وكانت فاطمة قد ولدت قصياً فاسمته زيداً ، ومات أبوه فاحتملته أمه معها بعد أن تزوجت إلى الشام حيث يقيم أهل زوجها وبقى عندهم مدة من الزمن فلقب بقصى لتقصيه عن أهله .

وكان زوج أمه يسمى ربيعة بن حرام ، ونسب قصى إلى زوج أمه فترة حتى تناضل مع رجل اسمه « رقيع » من قضاعة . . قبيلة ربيعة . زوج أمه فغلب قصىٌ رقيعا .

فغضب رقيع ، ووقع بينه وبين قصى شر ، حتى قال رقيع لقصى : ألا تلحق ببلدك وقومك فانك لست منا ؟

فرجع قصى إلى أمه فقال لها : من أبى ؟

فقالت له : أنت والله أكرم الناس نفسا ووالدا ونسبا وأشرف منزلا ، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب القرشى ، وقومك بمكة عند البيت الحرام فيما حوله .

قال قصى : فوالله لاأقيم هاهنا أبدا . .

قالت أمه : فأقم حتى يجىء وقت الحج فتخرج مع الحجاج ، فإنى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس ، فأقام حتى جاء موسم الحج فخرج إلى مكة ، فقدمها وأخوه زهرة بن كلاب حىٌ إلا أنه كان قد فقد بصره ، وكان كلاهما أشعر - أى كثير الشعر . .

فقال قصى لأخيه : أنا أخوك ، فقال له زهرة : ادن منى ، فدنا منه وأخذ يتلمسه ، وعرف أنه أخوه ، فقال : أعرف والله الصوت والشبه .

وحاول القضاعيون أن يعودوا به إلى أمه بعد موسم الحج فأبى ، وبقى فى مكة .

قصى يجمع أمر قريش :

وكان أمر الكعبة فى ذلك الوقت لخزاعة ، يقوم عليها حُلَيْلُ بن حبيشة بن سلول الخزاعى فخطب قصى إليه ابنته فزوجه حليل لمكانه ونسبه .

ومات حليل فجعل أمر البيت لابنه المحترش ، وكنيته « أبو غبشان » وكانت العرب ـ كما يقول ابن سعد فى طبقاته ـ تقدم لأبى غبشان جُعْلاً فى كل موسم ، فقصرُّوا بهذا الجعل فى بعض المواسم ، ومنعوه أبا غبشان ، فغضب لذلك وكان صاحب خمر .

فدعاه قصى فسقاه فرضى ، ثم اشترى منه حجابة البيت التى كان يقوم بها بأزواد من إبل .. وقيل : بزق من خمر ، فرضى وترك أمر البيت لقصى ..

وعيرت العرب خزاعة بذلك .. وبهذا عاد الحق إلى أصحابه ورد السيف إلى قرابة والأمر إلى نصابه ، لقد كان أمر البيت لإسماعيل وولده ، فأُخذ منهم ظلما ، فتولاه الجراهمة فالخزاعيون حينا من الزمن حتى جاء قصى ، فعاد إليه أمر البيت ..

وروى ابن سعد فى ذلك خبراً عن فاطمة الخزاعية ، وكانت قد أدركت النبى ـ ﷺ ـ قالت : لما تزوج قصى من حُبّى ابنة حليل فولدت له أولاده قال حليل : إنما ولد قصى ولدى ، هم بنو ابنتى ، فأوصى بولاية البيت والقيام بأمر مكة إلى قصى وقال : أنت أحق به ..

ولعل هذا الخبر هو الذى تستريح إليه النفس ويطمئن إليه القلب ، لأن أمر البيت أعظم ـ مهما كان متوليه ـ من أن يكون سلعة تعرض فى سوق التجارة والهوى . .

ويقول بعض الرواة : إن قصياً بعد أن كثر ماله ونما ولده وعظم شرفه رأى أنه أولى بالبيت وأمر مكة من خزاعة وبكر ، وأن قريشاً هم صريح ولد اسماعيل ، فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة واستنصر بأخيه من أمه فجاء بقومه القضاعيين فنصروا قصياً فى قضيته حتى آل إليه أمر البيت .

ويقال : إنه حدث قتال شديد بين قريش وحلفائها وبين الخزاعيين والبكريين حتى كثر القتل فى الفريقين ، وتداعوا للصلح ، وكان الحكم فيه يعمر بن عوف بن كعب من كنانة فقضى بأن قصى بن كلاب أولى بالبيت وأمر مكة من خزاعة ، وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع ، وكل دم أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة فيه الدية .

وجمع قصى بذلك قريشاً فسمى مجمعاً ، ونفى خزاعة من مكة . .

وحين جمع قصى قومه سموا قريشاً لتجمعهم ، وهذا تعليل آخر لتسميتهم قريشاً . .

وبعد أن استقر الأمر لقصى انصرف أخوه القضاعى « رزاح بن ربيعة العذرى » ومن معه من قضاعة وكان عدتهم ثلثمائة رجل . . وظل رزاح مواصلاً لأخيه قصى . . يوافيه فى الموسم ومن شاء من قومه فينزلهم قصى فى ضيافته . .

وارتفع شأن قصى بين العرب ، وكان له أولاد من حُبَّى بنت حليل أعانوه على ماأراد من شرف ورفعة لقومه .

فكان له عبد الدار بن قصى ، وهو بكره

وعبد مناف بن قصى واسمه المغيرة

وعبد العزى بن قصى

وعبد قُصىَ بن قصى

وقال فى تسميتهم : ولد لى أربعة رجال ، فسميت اثنين بإلهى ، وواحد بدارى ، وواحد بنفسى واللذان سماهما بإلهه هما عبد مناف وعبد العزى . وابتنى قصى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت ، وفيها تبرم قريش أمرها وتتشاور فى مهامها . . وتيمنت قريش بقصى وأحبته وشرفته وملكته . .

واجتمعت حوله بطونها إلا قليلا منهم . .

فالذين اجتمعوا حوله أقامهم ببطاح مكة حول البيت فأطلق عليهم : قريش البطاح ، والذين أبوا إلا الاقامة بظاهر مكة أطلق عليهم : قريش الظواهر ، وفى ذلك يقول الشاعر :

فلو شهدتنى من قريش عصابة   قريش البطاح لا قريش الظواهر

كان يطلق على قريش قبل قصى : بنو النضر ، فلما جمعهم قصى أطلق عليهم قريشا ، سأل عبد الملك بن مروان محمد بن جبير : متى سميت قريش قريشاً ؟

قال : حين اجتمعت الى الحرم بعد تفرقها . .

ولكن بعضهم يذكر أن الذى سما بذلك هو النضر بن كنانة . .

قصى يدعو قريشا لإكرام الحجيج

واضطلع قصى بتكاليف الزعامة كلها ، وأشرك قريشا معه فى الأمر ، قال ابن سعد : فرض قصى على قريش السقاية والرفادة ، فقال : يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته الحرام ، وإن الحجاج ضيفان الله وزوار بيته ،

وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا .

فكانوا يخرجون كل عام من أموالهم جزءا يدفعونه إليه ، فيصنع الطعام للناس أيام الحج ، ويصنع حياضا للماء من أدم ، فيسقى فيها الناس بمكة ومنى وعرفة ، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية على قومه حتى قام الاسلام . ثم جروا فى الإسلام على ذلك(٣) .

وتوارث هذا العمل عن قصى أبناؤه وبالأخص منهم عبدمناف ، وورث ذلك عن عبدمناف ابنه هاشم الذى يرجع إليه الفضل فى الإيلاف الذى نحن بصدده والذى كانت تتم فى ظلاله رحلتا الشتاء والصيف .

هاشم بن عبدمناف

وكان هاشم اسمه عمرو ، وإنما لقب بهاشم لأنه أطعم الناس فى يوم المَحْل ، هشم لهم الخبز وأصعمهم الثريد . . فقال الشاعر عبدالله بن الزبعرى فى ذلك :

كانت قريش بيضة فتفلقت ... فالمُخُّ خالصه لعبدمناف
الخالطين فقيرهم بغنيهم ... والظاعنين لرحلة الأضياف
والرائشين وليس يوجد رائش ... والقائلين : هلم للأضياف
عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مستنين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الإيلاف

وكان السبب فى هذه الأبيات ـ كما يقول السهيلى ـ أن عبدالله بن الزبعرى وهو من بنى سهم كان قد هجا قصيا بشعر كتبه فى أستار الكعبة ، فاستعدى القرشيون عليه بنى سهم فأسلموه اليهم ، فضربوه وحلقوا شعره

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ قسم ١ ص ٤٠

وربطوه إلى صخرة بالحجون ، فاستغاث قومه فلم يغيثوه ، فجعل يمدح قصيا ويسترضيهم ، فأطلقه بنو عبدمناف وأكرموه فمدحهم بهذا الشعر وغيره (٤) .

أما قصة هشم الخبز فترجع إلى أن هاشما كان يستعين على إطعام الحجيج بقريش فيرفدونه بأموالهم ويعينونه ، ثم جاءت أزمة شديدة فكره أن يكلف قريشا أمر الرفادة ، وذهب إلى الشام بجميع ماله ، واشترى به أجمع كعكا ودقيقا ، ثم أتى الموسم فهشم ذلك الكعك كله هشما ودقه دقا ، ثم صنع لحجاج البيت طعاما شبه الزبد ، فسمى بذلك هاشما ، لأن الكعك اليابس لايثرد وانما يهشم هشما . .

وقد قال وهب بن عبدقصى فى ذلك :

تحمل هاشم ماضاق عنه ... فأعيا أن يقوم به ابن بيض
أتاهم بالغرائر متأقات ... من أرض الشام بالبر النفيض
فأوسع أهل مكة من هشيم ... وشاب الخبز باللحم الغريض
فظل القوم بين مكللات ... من الشيزاء حائرها يفيض (٥)

حسد وحقد يؤديان إلى منافرة :

وغاظ فعل هاشم هذا حسد ابن أخيه أمية بن عبدشمس بن عبدمناف ، وكان صاحب مال ، فحاول أن يتكلف ماتكلفه هاشم فعجز عن ذلك ، فشمت به قوم من قريش ، فغضب ونال من هاشم ودعاه للمنافرة ولكن هاشما كره ذلك لسنه وقدره ، ولكن قريشا لم يتركوه وحاله ، بل أحفظوه وأثاروه فقال لأمية : إنى أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين فرضى أمية بذلك واتفقا على أن يحكم فى المنافرة بينهما الكاهن الخزاعى .

---

(٤) الروض الأنف جـ ١ صـ ١٦١

(٥) وردت الأبيات بتسكين حرف الروى فى بعض الروايات ، ومتأقات : ممتلئات والشيزاء : القصاع لحائرها ـ لعل المقصود مافيها من خبز الحوارى أو طعام الحوارى وهو مأخوذ من الطعام أى بيض .

فلما أدلى كل منهما بمقومات شرفه حكم الكاهن لصالح هاشم .

فأخذ هاشم الإبل من أمية ونحرها وأطعمها الحاضرين ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية التي توارثها الأبناء والأحفاد بعد ذلك (٦) .

وكان هاشم إذا حضر الموسم يخطب فى قومه كما كان يخطب جده قصى ، يحثهم على إكرام الحجيج ومن خطبه فى ذلك قوله :

يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته ، وهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، فاجمعوا لهم ماتصنعون لهم به طعاما فى أيامهم هذه التى لابد لهم فيها من الإقامة بمكة ، فانه والله لو كان لى مال يسع لذلك ماكلفتكموه .

فكانوا يخرجون لذلك خرجا من أموالهم ، كل امرىء بما يقدر ، فيصنع به للحجاج طعاما حتى يصدروا من مكة .

التنازع حول تكاليف السيادة

وكان بنو قصى قد ورثوا عن أبيهم مسئوليات البيت من حجابه ورفادة وسقاية وغيرها .

إلا أن عبدالدار كان قد خصه أبوه ببعض المآثر لما رأى من ضعفه عن أخوته ولكن الأخوة ساروا متآزرين فيها ورثوه حتى نشأ الأحفاد ، وأراد بنو عبدالدار أن يستأثروا بكل شىء ولكن أبناء عمومتهم أبوا إلا مقاسمتهم هذا الشرف .

لقد أراد بنو عبدالدار الاستئثار بالحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة ، وهذا ماكان قصى قد أوصى به لعبدالدار .

ولكن ماذا بقى لغيرهم بعد ذلك ؟

تزعم هاشم بن عبدمناف جبهة المعارضين ضد بنى عبدالدار .

وأيد بنى عبدمناف فى مطالبهم بنو أسد بن عبدالعزى وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهد وأتوا بجفنة ملأوها طيبا ووضعوها حول الكعبة

---

(٦) الطبقات الكبرى حـ ١ قسم ١ صـ ٤٤

وغمسوا أيديهم فيها وتعاقدوا على أن يكونوا معا ، ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم ، فسموا بالمطيبين .

أما بنو عبدالدار فأتوا بجفنة ملأوها دما وغمسوا فيها أيديهم وتعاهدوا على أن يكونوا يدا واحدة على من سواهم فسموا لعقة الدم ، وتهيأوا للقتال . .

ولكن الناس سعوا فى الصلح بينهم ، واتفقوا على أن يأخذ بنو عبدمناف السقاية والرفادة ويختص بنو عبدالدار بالحجابة واللواء ودار الندوة . .

ولم تزل دار الندوة فى بنى عبدالدار حتى اشتراها منهم معاوية بن أبى سفيان فجعلها دار الإمارة فى مكة . .

وتولى هاشم بن عبدمناف من ذلك الوقت السقاية والرفادة وقام بذلك الأمر خير قيام ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك . .

همـــة بعيدة

ومنذ أن تولى هاشم أمر قريش أخذ يفكر فيما يصلحهم ويرفع من شأنهم ويعلى من مكانتهم . وكان قومه تجارا يتحركون بقوافلهم فى اتجاهات متعددة . وعلى التجارة قوام حياتهم فأراد أن يضمن الأمان لهذه التجارة ، ومن وراء ذلك يضمن استمرار القيام بهذه التبعات التى فرضتها رعاية هذا البيت الحرام عليهم .

لقد كان هذا البيت قبلة أنظار العرب من شتى البقاع يأتونه حاجين فى أشهر معلومات ، ومعتمرين على مدار العام ، وزواره ضيوف يجب إكرامهم ، ولا إكرام بدون مال ، ولا مال بدون مصدر مضمون لايتعرض لهزات المغامرين أو مؤامرات المساومين .

إن ذلك يتطلب أمنا عاما لهؤلاء الذين يتولون أمر البيت . وكان الأمن مفقودا فى ربوع الجزيرة وإن كان مكفولا فى مكة فقط .

وقد أخبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله ـ تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٧)

---

(٧) العنكبوت ٦٧

وأشار إلى ذلك المعنى فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٨)

وأدرك هاشم بفطنته أن هذا الأمر الذى يحلم به لايمكن أن يتحقق بدون حكومة قوية ، وبدون اهتمام بطرق القوافل وشرايينها ، وبدون حراسة يقظة تكفل للقوافل السلامة ضد غارات البدو المتحفزين واللصوص الذين يقطعون على الناس طرقاتهم ويسلبونهم مامعهم ، أو الصعاليك الذين كانوا يتخذون الصعلكة حرفة أو هواية يتمدحون بها .

ولكن أين الحكومة القوية ، والعرب قبائل متناثرة كل قبيلة تحكم نفسها بنفسها ، لا رابطة تجمعها بل هناك عداء يكاد يكون عاما بين هذه القبائل وسلطان القوة هو الذى يفرض نفسه عليها ؟ . . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العداء فى معرض المنة عليهم بالتآلف الذى أوجده الإسلام بينهم فقال :

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٩)

ولعل هاشم بن عبدمناف نظر إلى الوراء ، فتذكر حالة الجزيرة العربية قبل قرون . . أيام دولة سبأ حين كانت هناك دولة زاهرة تتمتع برغد العيش وخصب الحياة وسعة الأمن ووفرته . .

وقد امتد هذا العصر الزاهر قرابة تسعة قرون قبل الميلاد ، حتى انهار السد فأغرق البلاد وشتت شمل العباد . .

---

(٨) القصص ٥٧

(٩) آل عمران ١٠٣

ولكن الذى راود خيال هاشم بن عبدمناف حقا هو ذلك الرغد الذى كان يعيش فيه العرب أيام سبأ والذى كفلته حياة الاستقرار والأمن الداخلى الذى كانت تنعم به البلاد فى ذلك الوقت السحيق فقد كان للعرب من أهل اليمن اكتفاء ذاتى من جنتين وارفتين تحدث عنهما القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ١٥ ﴾ (١٠)

بل وزيادة على ذلك كانت تصدر إلى الخارج فى قوافل تجارية كانت تجوب البلاد والبحار ، وتتبادل مع الدول المجاورة السلع التى تحتاج إليها البلاد ، وقد أشار الدكتور على الخطيب إلى ذلك حيث قال « كان ازدهار سبأ يعتمد فى أصله على ماحققته ببناء السد من اكتفاء زراعى لشعبها عاش به بين جنتين ، ثم كان يصدر مازاد عن حاجتها ، إلى جانب التجارة الدولية الخطيرة الشأن التى كانت تمسك بأمرها فان الهند لم تكن قد عُرِفَتْ بعد للغرب ، فكان العرب وحدهم هم أمراء البحرية بين ثغور بلاد العرب الشرقية والهند ، وهم الذين أحاطوا علما دقيقا ومعرفة وثيقة بالأنواء والرياح الموسمية للمحيط الهندى ومداخل المندب ، فجلبوا من الهند التوابل والطيب والبخور والحيوانات النادرة كالطواويس والنسانيس وغيرها من العروض والسلع ، التى كان الغرب يعتقد أنها جميعا نتاج الجزيرة العربية ، وكانت الطرق البرية داخل الجزيرة مفضلة نظرا إلى صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر الذى لم يلق له السبئيون اهتماما بحريا حيث لم يشكل عندهم مصدرا تجاريا يغرى بترك الهند ـ وكان من أهم الطرق البرية طريقان . طريق تبدأ من مدينة « شبوة » بحضرموت تنتهى إلى غزة على ساحل البحر الأبيض ، وطريق تبدأ من ساحل عمان وتنتهى عند البحر الأحمر ، وبذلك امتلكت سبأ ناصية الأمر على الشاطىء الشرقى للبحرين الأبيض والأحمر . . » (١١) .

---

(١٠) سبأ ١٥

(١١) من مقال بعنوان قصة الايلاف د . على الخطيب ـ مجلة الأزهر ـ رجب ١٤٠٩ هـ جـ ٧ السنة الحادية والستون

ماذا فعل هاشم لتحقيق أمله ؟

نظر هاشم إلى حالة العرب فوجد أمرهم موزعا بين نفوذ الروم من جهة ونفوذ فارس من جهة أخرى . . وهم فيما بينهم قبائل متعددة متنافرة غالبا ، ولكن كلمة الشرف تحكمها فى النهاية . .

ثم نظر إلى اليمن فوجد فيها حكما يكاد يكون مستقرا لولا ماحدث فيه من صراع أدى إلى احتلال الحبشة لليمن بعد حادث الأخدود المشهور ، والذى سبقت الإشارة إليه . .

ونظر كذلك للحبشة فوجد فيها حكومة قوية وأدرك قربها من الجزيرة العربية وحاجة العرب إليها ، ولكن ولاء الحبشة للروم مازال قائما وقويا لمكان الدين الواحد الذى يربط الدولتين وهو المسيحية . . فهناك إذن فارس بنفوذها القوى وسيطرتها على العراق . .

وهناك الروم بنفوذها القوى وسيطرتها على الشام . .

وهناك أيضا الحبشة وهناك اليمن . . وهناك القبائل العربية المتعددة . .

فإذا ما أراد هاشم أن يعقد تآلفا فمن أين يبدأ ؟ وكيف يسير؟

لقد بدأ بالعرب ـ كما يقول د . على الخطيب .

أثار فى العرب نخوة الشرف وعزة القيم ، وكانت له مكانته التى يعرفها الجميع ، وله من سمعته الطيبة وكرمه الفياض ووجهه البشوش وكلمته الطيبة مقومات جعلت زعماء القبائل يتلقون اقتراحه بإقامة إيلاف بين قريش وبين القبائل على طول طريق القوافل بالقبول . .

إنه بذلك يضمن سلامة قوافل قريش التجارية ، فلا يعتدى عليها معتد من أى قبيلة تمر عليها حتى تصل هذه القوافل بأمان إلى مقاصدها ذاهبة أو آيبة . .

كانت هذه القوافل تنتهى شمالا إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتنتهى جنوبا إلى عدن حيث البحر الأحمر ، ومنه إلى الحبشة إن أرادت . .

وهاتان هما الرحلتان الرئيسيتان اللتان أشار إليهما القرآن الكريم بقوله : ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾

وبعد أن اطمأن هاشم إلى وعود الزعماء وكلمة الشرف عهد وميثاق عندهم ـ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ـ أخذ يفكر فى الانتقال بهذا الإيلاف خطوة أوسع .

وهذا هو المنطق الطبيعى ، وإن كان بعض الرواة يذكر أن الاتفاق مع القبائل كان بعد لقائه بقيصر والظفر منه بتأييد الإيلاف ، ولامناقضة على أى حال ، فقد يكون اتفق مع زعماء القبائل أولا ثم زاد الاتفاق توكيدا بعد ذلك . .

بينه وبين الروم

وجد هاشم أن علاقة الروم التجارية بالعرب أقوى وأكبر . . وفى الجزيرة العربية سلع يحتاج اليها الروم كثيرا ، وكان العرب يستوردون من الهند كثيرا من المواد التى تباع فى أسواق الروم عن طريقهم بالاضافة إلى ماينتجه العرب أنفسهم كالعطور التى كان يقبل عليها الروم إقبالا شديدا . .

وأسر هاشم إلى اخوته عبدشمس ونوفل والمطلب برغبته فى لقاء عاهل الروم ومحادثته فى شأن الإيلاف الذى يريد أن يعقده معه ، ورحب الأخوة بالفكرة واستجابوا لها ، ورأوا أنها خطة حكيمة للنهوض بالعرب عامة وقريش خاصة . .

وكان لهاشم صداقات كثيرة فى الشام مع ذوى النفوذ فيها ، اكتسبها بشخصيته المحبوبة وبشاشته المعهودة وأريحيته الواسعة وكرمه الفياض . . وكان له وزنه السياسى فى نظر المسئولين فى الشام وماوراءها فقد كانوا

يدركون قوة نفوذه بين بنى جلدته وزعامته فيهم واحترام كلمته بينهم . إلى جانب المكانة الدينية التى اكتسبها من رعايته للبيت الحرام ورفادته لحجاج بيته وسقايته لهم . .

وكان ساسة الروم ينظرون إلى هذه الأمور نظرة اعتبار ، وكانوا يعرفون منزلة البيت الحرام فى نفوس العرب ومنزلة من يقومون بأمره ، لذلك كانوا يحرصون على توثيق صلتهم بهؤلاء الذين يلون أمر البيت فعن طريقهم يمكنهم الوصول إلى قلب عامة الناس فى أنحاء الجزيرة العربية ، ويسيِّرون مصالحهم . . واستطاع هاشم أن يصل إلى أنقرة مقر أمبراطور الروم . . .

وتمكن بلباقته وكياسته وشخصيته أن يغزو قلبه . . ولنستمع إلى أبى على القالى يحدثنا عن صنيع هاشم الذى غزا به قلب قيصر الروم قال :

كانت قريش تجارا ، وكانت تجارتهم لاتعدو مكة وإنما ترد عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها لمن حولهم من العرب ، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبدمناف إلى الشام فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ، ويجمع من حوله فيأكلون وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذكر ذلك لقيصر فقيل له : هاهنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ، ويفرغ عليه اللحم ، وإنما كانت العجم تصب المرق فى الصحاف ثم يأتدمون بالخبز .

فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث إليه كل يوم فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : أيها الملك إن قومى تجار العرب ، فان رأيت أن تكتب كتابا تؤمِّن تجارتهم فيقدمون عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فيباع عندكم فهو أرخص عليكم ، فوافق قيصر على ذلك ، واستجاب له . .

فكتب له كتاب أمان لتجارتهم ..
فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مربحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافا .

والإيلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق ، وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملها ، ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم .

فأصلح هاشم بذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام ، حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شىء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يوفيهم إيلافهم الذى أخذ لهم من العرب حتى أوردهم الشام وأحلهم قراها .. [١٢] .

لقد كسب هاشم بهذا الإيلاف ـ كما يقول د . على الخطيب ـ القبائل المتاخمة لبيزنطة دون أن يرهقها بعهد تنال به سخط الامبراطور .

وعقد إيلافه مع قبائل الطريق حتى مكة .. وبذلك أمَّن الطريق للتجارة ، وأصبحت كل قبيلة كفيلة بتوفير حاجة القوافل التجارية ، وقد تم هذا التأليف بأمرين :

* أن تحمل قريش اليهم بضائع فيكفونهم السعى إليها .
* أن تحمل عنهم قريش مالديهم من سلع يريدون الاتجار فيها ، ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم ولاكراء على قبائل الطريق .

واقتضى ذلك أن يشاركه بعض أبناء هذه القبائل العمل ، وبذلك أتاح لهم فرصة لكسب مشروع ، وعمل موفق [١٣] وكان لذلك أثره فى إنعاش

---

(١٢) النوادر لابى على القالى ص ٢٢٢ .
(١٣) راجع قصة الايلاف د . على الخطيب ـ مجلة الأزهر ـ عد ذى القعدة ١٤٠٩ .

اقتصادى لهذه القبائل . رفع عن كاهلها مرارة الفقر وذل الحاجة وقسوة الحرمان . .

وأتاح هذا العمل إلى جانب ذلك استقرار هذه القبائل فى أماكنها ونزوعها إلى السلم ، لأن الرغبة العدوانية إنما يثيرها ـ فى كثير من الأحوال ـ العوز والحرمان .

توسيع فكرة الإيلاف :

ولم يكتف هاشم بذلك الإيلاف الذى حصل عليه من قيصر ، بل طلب من قيصر أن يكتب له كتابا إلى النجاشى يوصيه فيه بتيسير مهمة تجار العرب فى الحبشة .

« فكتب قيصر إلى النجاشى أن يدخل قريشا أرضه »(١٤) .

واستجاب النجاشى لقيصر ، وفتحت الحبشة ذراعيها لتجار قريش وأحسنوا استقبالهم .

والذى حمل رسالة امبراطور الروم إلى النجاشى عبدشمس أخو هاشم .

وطلب هاشم من أخيه نوفل ان يتوجه إلى فارس واستطاع أن ينجح فى مهمته مع أصحاب كسرى ، وحصل من الفرس على إذن يخول لتجار قريش أن يترددوا بقوافلهم إلى العراق وإلى أرض فارس .

وأرسل هاشم أخاه المطلب إلى اليمن فاستطاع أن يحصل من الحميريين على إيلاف يكفل لتجار قريش الاختلاف إلى أرض اليمن آمنين مصدرين ومستوردين وبائعين ومشترين . .

وجبر الله بهؤلاء الأخوة الأربعة هاشم وعبدشمس ونوفل والمطلب كسر قريش فسموا المُجَبِّرين . .

---

(١٤) طبقات ابن سعد حـ ١ قسم ١ ص ٤٥

قال الألوسى : كانت لقريش فى السنة أربع رحلات على ماذكره بعض المفسرين فى سورة قريش ، فان اصحاب الإيلاف كانوا أربعة أخوة ، وهم بنوعبدمناف ، أحدهم هاشم ، وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلا فأمن به فى تجارته إلى الشام ، والثانى عبدشمس وكان يؤالف ملك الحبشة ، والثالث المطلب وكان يرحل إلى اليمن ، والرابع نوفل وكان يرحل إلى فارس .

وكان هؤلاء يسمون بالمتجرين ـ كما سموا أيضا بالمجبرين ـ ويلتحق تجار قريش بركب هؤلاء الأخوة فلايتعرض لهم أحد ، وفى هؤلاء الأخوة يقول الشاعر :

يا أيها الرجل المحول رحله   هلا نزلت بآلف عبدمناف ؟
الآخذون العهد من آفاقها   والراحلون لرحلة الإيلاف [١٥]

وفاة هاشم فى إحدى رحلاته

وتوالت رحلات قريش تحت رئاسة هؤلاء الأخوة حتى انتعشت حالة قريش الاقتصادية وازدهرت ، وازدادت مكانتها ارتفاعا فى نفوس العرب ، وأصبحت مكة إلى جانب مركزها الدينى المرموق مركزا للصيرفة يقوم بما تقوم به البنوك فى عصرنا الحديث ، إذ كان يمكن للتجار أن يدفعوا فيه أثمان السلع التى ترسل إلى بلاد بعيدة كما كانت عملية الشحن والتفريغ تتم فيه ، وكان أيضا يتم فيه التأمين على المتاجر وهى تجتاز الطريق المحفوفة بالمخاطر التى ربما يترتب عليها فساد السلع لوعورة الطريق أو لظروف الجو ، فى أزمنة لم تكن وسائل الحفظ والتعبئة قد تطورت فيه . .

أما المخاطر الأمنية فقد كفلتها نصوص الإيلاف ، فلم يعد هناك قطاع طرق ينهبون التجار كما كان الحال قبل عقد هذا الإيلاف . .

---

(١٥) المختار من بلوغ الارب للألوسى ص ٢١٣

يقول القالى : واتسعت قريش فى التجارة فى الجاهلية وكثرت أموالها ، فبنو عبدمناف أعظم قريش على قريش منة فى الجاهلية والاسلام [١٦] .

وخرج هاشم فى عير لقريش فيها تجارات . . وكان طريقهم إلى الشام يمر على المدينة ، فنزلوا بسوق النبط فصادفوا سوقا تقوم بها فى السنة . . يحشدون لها ، فباعوا واشتروا ، ونظروا إلى امرأة على موضع مشرف من السوق تأمر بما يشترى ويباع لها ، فرآها هاشم حازمة جَلِدَة مع جَمَال ، فسأل عنها : أأيم هى أم ذات زوج ؟ فقيل له : أيم ، ولكنها لاتنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها ، فإذا كرهت رجلا فارقته . وهى سلمى بنت عمرو بن زيد من بنى النجار .

فخطبها هاشم ، فعرفت شرفه ونسبه فزوجته نفسها ، ودخل بها .

وصنع طعاما ودعا من معه ودعا رجالا من الخزرج ، وأقام بأصحابه أياما ، وعلقت سلمى من هاشم بابنها شيبة الحمد الذى يطلق عليه « عبدالمطلب بن هاشم » .

واستأنف هاشم رحلته مع أصحابه فى طريقهم إلى الشام ـ كعادته ـ حتى اذا كان بغزة اشتكى فلم يلبث أن مات ودفن هناك ، وقبره بها ظاهر ، وعاد أصحابه بتركته إلى ولده . . ثم مات أخوة هاشم الثلاثة بعد ذلك . .

فقد خرج أخوه المطلب وهو أكبر أولاد مناف إلى اليمن فى إحدى رحلاته ، وكان يسمى الفيض لكرمه وأريحيته فمات « بردمان » باليمن .

وخرج عبدشمس إلى الحبشة كعادته وعاد فمات بعد عودته ودفن بالحجون .

أما نوفل وهو أصغر اخوته فقد ذهب إلى العراق فى احدى رحلاته فمات بسلمان . .

وانطوت صفحة هؤلاء الأخوة الذين أقاموا لقريش مجدا خلّده القرآن بما صنعوه من إيلاف .

معنى الإيلاف

يقول المفسرون فى معنى الإيلاف إنه الإجارة ، فمعنى يؤلف يجير ، وكان

---

(١٦) النوادر ص ٢٢٣

هؤلاء الأخوة يسمون بالمجيرين ذلك أنهم كانوا إذا خرجوا فى رحلة ضمنوا السلامة لمن فيها ، فى حين أن الرحلات التى لايكونون فيها ربما تعرضت للاغارة إلا إذا اتصلوا بحبل هؤلاء الأخوة . .

وقال الأزهرى - فيما يرويه القرطبى فى تفسيره : الإيلاف شبه الاجارة بالخفارة يقال : آلف يؤلف إذا أجار الحمائل بالخفارة ، والحمائل جمع حَمولة - بفتح الحاء - والتأويل أن قريشا كانوا سكان الحرم ولم يكن لهم زرع ولاضرع ، وكانوا يسيرون فى الشتاء والصيف آمنين ويتخطف الناس من حولهم ، فاذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله ، فلا يتعرض الناس لهم .

وروى القرطبى فى معنى الإيلاف قصة غير ذلك الذى ذكرناه من سعى هاشم واخوته فى عقد الإيلاف مع الدول والقبائل المجاورة . قال فى خبر مسند إلى ابن عْباس - رضى الله عنهما :

كانت قريش إذا أصابت واحدا منهم مخمصة - مجاعة - جرى هو وعياله إلى موضع معروف فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا جوعا . حتى كان عمرو بن عبدمناف ، وكان سيدا فى زمانه وله ابن يقال له أسد ، وكان لابنه هذا تِرْب - مماثل فى السن - من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه ، فقال له المخزومى : نحن غدا نعتفر [١٧] يعنى أنهم سيدخلون الخباء فيموتون واحدا اثر آخر .

فدخل أسد على أمه يبكى فسألته عن بكائه ، فقال لها : ما أخبره به صاحبه - فأرسلت أم أسد إلى هؤلاء بشحم ودقيق فعاشوا به أياما . . فلما نفد هذا الطعام جاء المخزومى صديق أسد إليه وقال له : نحن غدا نعتفر .

فدخل أسد على أبيه باكيا وخبره الخبر .

فاشتد ذلك على عمرو بن عبدمناف - ولعلنا لاننسى أن عمرا هذا هو هاشم بن عبدمناف نفسه .

فقام عمرو خطيبا فى قومه قريش ، وكانوا يطيعون أمره ، فقال إنكم أحدثتم حدثا تقلون بسببه وتكثر العرب ، وتذلون وتعز العرب ، وأنتم أهل حرم الله عز وجل - وأشرف ولد آدم والناس لكم تبع ويكاد هذا الاعتفار يأتى عليكم . .

فقالوا له : نحن لك تبع . فقال لهم : ابتدئوا بهذا الرجل - يعنى ذلك الرجل الذى رفع ابنه إليه قصته - فاغنوه عن الاعتفار ففعلوا .

---

(١٧) الاعتفار ومثله الاعتفاد أن يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحداحتى يموت جوعا .

ثم إنه نحر البدن وذبح الكباش والمعز ، ثم هشم الثريد وأطعم الناس .

ثم جمع بين كل بنى أب على رحلتين فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم فجاء الإسلام وهم على هذا ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش ، وهذا مايشير إليه الشاعر بقوله :

الخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافى [١٨]

وقد قرئت لفظة الإيلاف ـ بدون ياء ـ كما قرئت « إلْف » .

قال ابن منظور راويا عن أبى اسحاق : فى لفظة إيلاف ثلاثة أوجه : لإيلاف ، ولإلاف ، ووجه ثالث لإلف قريش .

وأضاف إلى المعانى السابقة فى الإيلاف قوله : إنه بمعنى يهيؤون ويجهزون ومن معانى الإلاف الأمان يقال إلاف الله أى أمان الله [١٩] .

مناسبة السورة

قال بعض المفسرين : إن هذه السورة أى سورة قريش متعلقة بما قبلها أى بسورة الفيل ، فكأن الله تعالى أراد أن يقول لقريش : من أجل إيلافهم أهلك الفيل . .

فإهلاك الفيل كان سببا فى إيلافهم أو اتفاقهم أو أمانهم الذى يترتب عليه تنظيم رحلاتهم وتسيير تجارتهم والذى يرشح هذا المعنى قول سفيان بن عيينة ـ فيما يرويه القرطبى عنه ـ كان لنا إمام لايفصل بين السورتين فى القراءة بل يقرؤهما معا ، وقال عمرو بن ميمون الأودى :

صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقرأ فى الأولى « والتين والزيتون » وفى الثانية « ألم ترك كيف ولايلاف قريش » ـ أى بدون فصل ببسملة .

ونقل عن الفراء قوله : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى لأنه ـ سبحانه ـ ذكَّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : لإيلاف قريش ، أى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش ، وذلك أن قريشا كانت تخرج فى تجارتها ، فلا يُغار عليها ولاتُقرب يقولون : هم أهل بيت الله جل وعز ، حتى

---

(١٨) تفسير القرطبى ـ سورة قريش ـ ص ٧٢٩٤ ـ ط دار الشعب .

(١٩) لسان العرب جـ ١ ص ١٠٨

جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبني بها بيتا فى اليمن يحج الناس إليه فأهلكهم الله عز وجل ، فذكّرهم الله نعمته . .

ولكن ابن كثير فى تفسيره يقول : إنها مفصولة عما قبلها ـ وهذا هو المشهور وإن كانت متعلقة بما قبلها فى المعنى . فذلك لايعنى وصلها بها فى التدوين ـ والمصحف الامام الذى سار الناس عليه وتوارثوه دُوِّنت فيه السورة مفصولة عما قبلها بالبسملة .

وقد ذكر القرطبى مناسبة أخرى فى نزول السورة قال :

لقد استجاب الله دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى قوله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) ﴾ (٢٠)

اذ كان العرب يُغير بعضهم على بعض إلا قريشا أمنت من ذلك لمكان الحرم وقال الله فى ذلك

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ (٢١)

فذكرهم الله بذلك ودعاهم إلى عبادته وحده وعدم الإشراك به حمدا لهذه النعمة التى كفلها لهم دون العرب .

وقيل : إن قريشا شق عليهم سفر الشتاء والصيف وتعرضوا بسبب ذلك لمجاعة فألقى الله فى قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاما فى السفن ، فحملوه ، ولكن قريشا خافت منهم ، وظنت أنهم إنما أقبلوا لحربهم ، فخرجت إليهم متحرزةمسلحة ، فإذا بهم قد جلبوا إليهم الطعام وأعانوهم بالأقوات . فكان أهل مكة يخرجون إلى جدة بالحمر والإبل فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين . .

وقيل : إن الله استجاب فيهم دعوة نبينا عليه السلام حين اشتدوا عليه فى الإيذاء فقال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، فاشتد عليهم القحط ،

---

(٢٠) البقرة ١٢٦

(٢١) القصص ٥٧

فقالوا : يامحمد ادع لنا ربك فانا مؤمنون . فدعا ، فأخصبت « تبالة وجرش » من بلاد اليمن فحملوا الطعام إلى مكة وأخصب أهلها [٢٢] .

وذكر الواحدى فى أسباب النزول عن أم هانىء بنت أبى طالب قالت : قال النبى - صلى الله عليه وسلم : « إن الله فضل قريشا بسبع خصال لم يعطها قبلهم أحدا ، ولايعطيها أحدا بعدهم , ان الخلافة فيهم والحجابة فيهم ، وان السقاية فيهم ، وان النبوة فيهم ، ونصروا على الفيل وعبدوا الله سبع سنين لم يعبده أحد غيرهم - وذلك قبل أن ينتقل الاسلام إلى غيرهم من القبائل - ونزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم : لإيلاف قريش » [٢٣] . .

العبرة من هذه القصـــــة

تشير السورة - التى اتخذتها الدول الحديثة شعارا - إلى أهم ماتهدف إليه الحكومات نحو شعوبها من توفير الغذاء والأمن . . ويبذل القائمون على أمر الشعوب فى سبيل ذلك جهودا جبارة منها المستساغ وغير المستساغ . . لقد كفل الله ذلك لقريش فضلا منه ونعمة ، إكراما لبيته الحرام وتكريما لنبيه - صلى الله عليه وسلم - الذى اصطفاه من قريش . .

وفضل قريش فضل مشهور يشير إليه الحديث الشريف الذى رواه واثله بن الأسقع : إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم [٢٤] .

والدولة التى تملك أسباب رزقها وأمنها تحيا سعيدة منعمة ، لاتخضع لتخويف أو إرهاب ، ولاتقع تحت سطوة التجويع والقهر ، أما الدولة التى لاتملك رزقها ولاتصنع أسباب أمنها فإنها تعيش ذليلة خائفة ، ليس لها رأى مستقل ولاكلمة نافذة ولا جانب مرهوب ، وصدق الشيخ الشعراوى فى قوله : لايكون الشعب محترما إلا إذا كان رأيه من رأسه وطعامه من فأسه .

وقد وضع الله منهجا تستطيع الدول - إذا أرادت - أن تملك به زمام أمنها وتحقق به رغد حياتها . ذلك المنهج يتمثل فى الأخذ بما أمر الله به ، والكف عما نهى عنه وقد ذكر ذلك صراحة فى مواضع عدة من كتابه الكريم . فهو يقول :

---

(٢٢) تفسر القرطبى

(٢٣) أسباب النزول للواحدى صـ ٣٤٢

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢٥)

وذكرنا بحال أمة أعرضت عن كتاب الله ومنهجه فأبدلها من العز ذلا ومن الأمن خوفا ومن الرخاء جوعا وفقرا قال :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (٢٦)

لقد نجح الاستعمار فى تحويل بعض الشعوب الاسلامية إلى شراذم تابعة جائعة خائفة تنتظر الصدقات وتتلهف على المعونات ، وتريق دماء وجهها فى طلب القروض والمساعدات .

ولم ينجح الاستعمار فى ذلك إلا بعد أن ابتعد هؤلاء عن دينهم وأداروا له ظهورهم ، فسلط الله عليهم عدوهم الذى استنزف خيراتهم واستغل ثرواتهم واستولى على إمكاناتهم وسخرهم فيها . التعب لهم والخير له . . وكم من موارد تدر الرزق والخير استطاع الغرباء أن ينتفعوا بزبدتها ويستفيدوا منها ، ولم يتركوا لأصحابها إلا أقل القليل الذى لايسمن ولايغنى من جوع .

ولنا أن نتساءل : كيف يعيش هؤلاء الذين يستغلون الشعوب النامية فى رخاء شعوبهم مع ابتعادهم عن منهج الله ؟ وهم والشعوب المستضعفة سواء فى ذلك ؟ فَلِمَ يسعد أولئك ويشقى هؤلاء ؟

وربما كانت الإجابة متمثلة فى أن كلا من المستغِل والمستغَل بعيد عن الله فالغلبة مكفولة للأقوى منها مادة وفكرا وتنظيما . . وغلبة القوى إلى أجل محدود وسيأتى زمن يتسلط عليه من هو أقوى منه . . لأن غلبته لغيره ليست محروسة من السماء بل هى بأسباب رتبها ليحقق من ورائها مغنما ماديا وغاية دنيوية . . وإن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وقد ورد فى بعض الآثار : الظالم سيف

---

(٢٤) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما

(٢٥) الأعراف ٩٦

(٢٦) النحل ١١٢

الله فى الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه . ويمكن أن يرد ايضا بأن غلبة هؤلاء غلبة موقوتة لن تدوم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (٢٧)

فإذا أراد المسلمون أن يحققوا أمنهم الغذائى وأمنهم العسكرى وأمنهم الوقائى فعليهم ان يعودوا إلى منهج الله لأن الله يقول لهم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (٢٨)

إن مايثير العجب حقا أن تكون الأسباب مكفولة ولكن الناس يحرمون ثمرة الانتفاع بها فقد توجد الخصوبة والماء والقوى البشرية ، ولكن البصائر تُحْجَب عن استغلال ذلك للمصلحة العامة فلا يزرع الناس من الحبوب مايكفل حاجة البلاد بل يفكرون فى الاستيراد .

والمورد يفرض عليهم الأسعار ولايعطيهم إلا بمقدار فتصبح أزمتهم من عند أنفسهم ويدخلون فى قبضة المستغل بالاختيار لابالاضطرار . أليس ذلك دليلا على عمى البصيرة ؟ وصدق الحق سبحانه وتعالى الذى يقول

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٢٩)

وإنه لمن دلائل التوفيق أن يمن الله على الناس بنعمة الهداية حتى يعودوا الى منهج الله وكتاب الله ، يجدون فيه الشفاء من كل داء ، والاطمئنان من كل حيرة ، والأمن من كل خوف ، والسلامة من كل عطب

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٣٠)

---

(٢٧) آل عمران ١٩٦ ، ١٩٧

(٢٨) محمد ٧

(٢٩) الحج ٤٦

(٣٠) الانعام ١٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم
فهرس المجلد الخامس

صواب الخطأ

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
ذى القرنين	ذو القرنين	١٤٠	قبل الأخير
ذى القرنين	ذو القرنين	١٤٠	الأخير

سلسلة القصص القرآنى

دكتور

حمزة النشرتى

عبد الحفيظ فرغلى د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد السادس

سلسلة

القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى د. عبد الحميد مصطفى

المجلد السادس

مع تحياتنا للقارىء الكريم نود ان نقول له :

لقد اصطحبناه فى رحلتنا المباركة « سلسلة القصص القرآنى » عبرالمجلدات الخمس الماضية إلى رحاب الأنبياء السابقين ، من لدن آدم ـ عليه السلام أبى البشر ـ إلى عيسى ـ عليه السلام .

وفى أثناء هذه الرحلة التى استنشقنا فيها عبير التاريخ الصحيح لهذه الأحقاب من الزمن ، لم نترك ماتشير إليه من دلائل وعظات ، ومايستدعيه الأمر من الحديث حول الأحداث الهامة والأماكن المقدسة والموضوعات الحيوية التى كانت تثير التساؤلات وتستدعى التفسيرات كحديثنا عن الكعبة ، وزمزم ، والجن ، والسحر والسحرة وغير ذلك .

ونحن بمشيئة الله نستأنف رحلتنا فى هذه السلسلة التى استقبلها القراء الكرام أعظم استقبال . . ابتداء من المجلد السادس . . الى رحاب السيرة النبوية المطهرة . . لنقدمها الى القراء الكرام فى ضوء القرآن الكريم الذى أنزله الله هدى ونورا على قلب صاحب هذه السيرة العطرة .

وسوف يجد القارىء الكريم فيها ـ بمشيئة الله وتوفيقه ـ عرضا جديدا لجوانب السيرة الكريمة نرجو أن يفى بما يحتاج إليه .

ونظرا لضخامة موضوع السيرة العطرة وأهميتها ، رأينا أن نقدم بين يديها حديثا وافيا عن زمن الفترة الذى يكاد يكون مجهولا لايعرف الناس عنه ـ عدا المتخصصين منهم ـ إلا قليلا . . وسوف نتعرض ـ إن شاء الله ـ فى هذا الحديث لأديان العرب فى الجاهلية وعاداتهم وتقاليدهم وأحوالهم .

ونتعرض لذكر الذين شغلهم التطلع لدين صحيح غير ذلك الذى غرق فيه الجاهليون وقدسوا فى ظله المخلوق . . واتخذوا من الأصنام الهة يعبدونها من دون الله . ونتعرض للمبشرات السابقة والتى بشرت بالنبى صلى الله عليه وسلم ونتحدث عن دلائل النبوة وارهاصاتها وعن النسب النبوى الشريف .

وستتناول الموضوعات التالية :

احداث المولد والنشأة ، والأحداث الهامة التى شهدها النبى صلى الله عليه وسلم ـ قبل البعثة .

وسوف نتحدث ـ ان شاء الله تعالى ـ عن الوحى والبعثة .

وستتحدث كذلك عن الدعوة ، والأسس التى قامت عليها ، وكفاح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تبليغها ، وماتعرض له من أذى شديد ونصب كبير .

وقد نتعرض ـ إن شاء الله ـ فى أثناء ذلك لأحاديث خاصة عما يهم القراء معرفته كعالم الروح ، وعالم الملائكة وغير ذلك .

وسيأتى الحديث بعد ذلك عن الهجرة وماصاحبها من خوارق ، وعن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المدينة ، والتنظيم الجديد الذى وضعه فيها ، والعلاقات الجديدة التى طرأت بين الناس وسيستدعى ذلك الحديث عن النظم الاقتصادية والزراعية فى الإسلام فى ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وسيجد القارىء ان شاء الله أحاديث عن المهاجرين ، والمنافقين ، واليهود ، وغير ذلك .

ثم يأتى بعد ذلك ان شاء الله ـ حديث عن الغزوات والوفود والكتب والعلاقات بين الدولة الاسلامية والدول الأخرى .

وستكون ان شاء الله تعالى أحاديث تتناول حياة الصحابة رضوان الله عليهم فيمن وردت عنهم اشارات فى القرآن الكريم .نحن نرجو الله ان يوفقنا فى الوفاء بما تتطلبه هذه السيرة من عرض لمختلف الجوانب .

والله ولى التوفيق .

أهل الفترة

- ضرورة إرسال الرسل .
- لماذا يوجد الفساد والشر مع إرسال الرسل .
- خبر خالد بن سنان العبسي .
- ديانات العرب في الجاهلية .
- القرآن يتحدث عن جهل المشركين .
- من نساء العرب الخالدات .
- المتحنفون العقلاء .
- أمية بن أبي الصلت .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أهل الفترة

قال الله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾ (١)

تشير هذه الآية الكريمة إلى زمن الفترة الذى خلا من الرسل تقريباً بين رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ ورسالة النبى محمد ﷺ

وقد اختلف الرواة حول تقدير هذه الفترة

فابن قتيبة يقدرها بستمائة وعشرين عاماً . .

وذكر ابن كثير عن قتادة أن مدة الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام كانت ستمائة سنة ، وروى عن قتادة أيضاً أنها خمسمائة وستون سنة وقال بعضهم : إنها خمسمائة وأربعون سنة . . وقال غيرهم غير ذلك . .

وأخرج ابن سعد فى كتاب الطبقات عن ابن عباس قال : كان بين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة سنة ولم يكن بينهما فترة فإنه أرسل بينهما ألف نبى من بنى إسرائيل سوى من أرسل من غيرهم وكان بين ميلاد عيسى ومحمد ﷺ خمسمائة سنة وتسع وستون سنة بعث فى أولها ثلاثة أنبياء كما قال الله تعالى : « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث »

وكانت الفترة التى لم يبعث الله فيها رسولاً أربعمائة وثلاثين سنة تقريباً . .

---

(١) المائدة ١٩

والذى يعنينا من ذلك ليس مقدار المدة . . فهى إن طالت أو قصرت تدل على شيء واحد هو ما أشار إليه القرآن الكريم من أن حجة المحتجين بعدم وجود رسول يحذر وينذر ويبشر بعد تلك المدة حجة داحضة . . ذلك أن النذير والبشير جاء بالذكر والكتاب المنير ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما ربك بظلام للعبيد . .

هل من رسل فى تلك الفترة ؟ :

الصحيح أن هذه الفترة لم يكن فيها رسل ، وقد يكون فيها أنبياء . . أو قد يكون فيها بعض الأولياء الصالحين الذين يعتبرون معالم للناس يهتدون بها ويسيرون على ضوئها .

فالله جلت قدرته لايترك الناس هملا بدون راع يرعاهم أو قائد يقودهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم أما عدم وجود رسول فقد ثبت بالحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال ـ قال رسول الله ـ ﷺ : « إن أولى الناس بابن مريم لأنا لأنه لا نبى بينى وبينه » (٢)

ضـــرورة الرســـــل :

وعدل الله يقضى بألا يؤاخذ قوماً دون أن يبعث لهم من ينذرهم ويبشرهم قال ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ ﴾ (٣)

---

(٢) البخارى : كتاب الأنبياء جـ ٤ ص ٢٠٣

(٣) الاسراء ١٥

قال القرطبى فى تفسير هذه الآية : أى لم نترك الخلق سدى ، بل أرسلنا إليهم الرسل ، وفى هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع ، خلافاً للمعتزلة بأن العقل يُقَبِّحُ ويُحَسِّن ويبيح ويحظر ولكن إذا صح هذا فى أمور الدنيا فإنه لا يصح فى أمور الآخرة .

والذى يدل على أن لكل أمة رسولاً قوله ـ تعالى ـ

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾ (٤)

ونقل القرطبى عن ابن عطية قوله : والذى يعطيه النظر أن بعثة آدم ـ عليه السلام ـ بالتوحيد وبث المعتقدات فى بنيه ، مع نصب الأدلة على الصانع مع سلامة الفطر توجب على كل أحد من العالم اتباع شريعة الله ، ثم تجدد ذلك فى زمن نوح ـ عليه السلام ـ بعد غرق الكفار . .

وهذا يعنى أن الرسل يوقظون العقول ، ويحفزون الهمم للتفكير ومعرفة ما ينفع ويضر . . وليس العقل هو كل شىء . .

إن إرسال الرسل يقطع حجة الكفار مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٥)

على أن ارسال الرسل يبطل حجة المعترضين . . ولا يترك لهم مجالاً للتنصل والاعتذار إذا حاولوا ذلك . .

---

(٤) الملك ٨ ، ٩

(٥) النساء ١٦٥

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ (٦)

ولعل هذا يثير تساؤلاً هو إذا كان العدل الإلهى يقتضى إرسال الرسول فما شأن أهل الفترة ؟

والإجابة على هذا نهتدى إليها من خلال أخبار الرواة الذين يقولون إن أهل الفترة عرفوا بعض التعاليم الدينية . . التى لا تعد رسالات بالمدلول الواسع لمعنى الرسالة . . ولكنها إنذارات وتوجيهات جاءت على لسان بعض من نصبهم الله فى كونه ليكونوا معالم هداية ومنارات إرشاد . .

ذكر الزمخشرى فى تفسيره قال : كان بين عيسى ومحمد ـ صلوات الله عليهما ـ خمسمائة وستون سنة وقيل ستمائة . . ونقل عن الكلبى قوله : كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبى ، وبين عيسى ومحمد ـ صلوات الله عليهما ـ أربعة أنبياء ثلاثة من بنى اسرائيل ، وواحد من العرب خالد بن سنان العبسى

وسنتحدث بمشيئة الله عن بعض هؤلاء الذين أشار اليهم الرواة ممن كانوا فى هذه الفترة التى كانت بين عيسى ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ

هل يمكن حصول الهداية بغير نبى ؟ :

إن الذى يسوغ وجود هداة فى زمن الفترة هو حكمة الله التى تقتضى ألا

---

(٦) طه ١٣٤

يعطل الكون من علة خلقه ، وقد خلق الله الكون لعبادته قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ (٧)

والعبادة لا تكون إلا بإخلاص كما يقول :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ (٨)

ولا يتأتى ذلك إلا بارشاد منه سبحانه وتعالى ..

هب أن الانسان اهتدى بفطرته إلى الله ، فكيف يعرف وسائل التقرب إليه والتأدب معه والحصول على رضاه وثوابه والبعد عما يغضبه وينهى عنه ؟ إن ذلك لا يتم إلا بشريعة يأتي بها رسول مرسل أو نبى هاد ..

وقد أشار إلى ذلك الإمام محمد عبده حيث قال : أقام الحق سبحانه من بين أفراد خلقه مرشدين هادين ، وميزهم بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأيدهم زيادة على ذلك بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذى الطامع ويذل الجامح ، ويقتنع بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتدع عن غيه ، يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة للأذهان عنه ، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل

---

(٧) تفسير الكشاف حـ١ ص ٦١٨ ـ سورة المائدة .

(٨) البينة ٥

والمفضول والفاضل ، فيكون الاذعان لهم والرضا بمبادئهم وقيمهم التى تلقوها من ربهم .

يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وماأراد أن يعْلَموه من شئون ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الأنبياء والمرسلون . فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص ، نعمة أتمها الله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (٩)

لماذا يوجد الفساد والشر مع ارسال الرسل ؟ :

وقد ذكر الامام محمد عبده اعتراضاً أورده بعضهم وَرَدَّ عليه ـ يقول ذلك الاعتراض : إذا كانت بعثة الرسل ضرورة تدعو إليها الحاجة لإصلاح البشرية ، فما بالهم لم يزالوا أشقياء ، بعيدين عن السعادة يتكالبون على الدنيا ويتحاربون فيها ، ويطغى القوى على الضعيف ، ويغتال الغنى الفقير ؟

ملأ الطمع حياتهم ، وسادت الأثرة فيما بينهم ، وضاعت النصفة من طريقهم ، وتملك الشر أنفسهم ، وهاهو ذا الدين الذى جاءت به الرسل لم يتخذوه سبيلاً إلى الأمن والسلام ، ولكنهم تحاربوا به واختلفوا حوله وتفرقت كلمتهم عليه ، وتشتت طرقهم فيه . . « فما هذه الدعوى وماهذا الأثر » ؟

وقد أجاب الشيخ عن هذا قائلاً :

---

(٩) انظر رسالة التوحيد ص ١٠٧

نعم كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء ، وانقضاء عهدهم ، ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم أو الخيرة من تابعيهم وإلا فقل لنا : أى نبى لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الأعم ، ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها فى أفرادها وجملتها ؟ (١٠)

فالعيب إذن عيب الناس لا عيب الرسل ، والتقصير فى التطبيق لا فى المنهج ، ولو سار الناس على تعاليم رسلهم وانتهجوا نهج أنبيائهم لسعدوا وأسعدوا ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (١١)

وصدق نبيه إذ يقول : « تركت فيكم ماإن تمسكتم به لا تضلوا أبداً كتاب الله وسنتى »

أنبيـــاء الفتـــرة :

والفترة بمعنى السكون ، تقول : فتر الشىء إذا سكن ، أو بمعنى الانقطاع فتقول : فتر عن الشىء إذا انقطع عنه ، وأصابته فترة أى انقطاع . وتقول : فتر الماء إذا انقطع عما كان عليه من السخونة إلى البرودة .

---

(١٠) رسالة التوحيد ص ١٢٤

(١١) الاسراء ٩

واستعير اللفظ فى اللحظ فتقول : ذات لحظ فاتر ، أى منقطعة عن حدة النظر .

وفتور البدن كفتور الماء ، انتقل من الحرارة إلى البرودة . .
وتستعمل المادة فى القياس فتكسر الفاء ، فيقال الفِتر : مابين السبابة إلى الابهام اذا فتحتها .
واذا استعمل هذا المعنى فيما نحن بصدده قصد به مضى مدة بعد عيسى ـ عليه السلام ـ حتى جاء محمد ﷺ

وتطلق « الفترة » التى وردت فى الآية الكريمة على المدة الزمنية التى مرت بين رفع المسيح حتى جاء النبى ﷺ برسالته التى أثارت الوجود وأسعدت البشرية .
ويقول كثير من المفسرين : إن هذه الفترة عمرت ببعض الأنبياء . . ولكنهم كانوا أنبياء فى قومهم ـ هم أصحاب رسالات خاصة . . كهؤلاء الرسل الذين أرسلوا إلى أنطاكية وقد سبق أن ذكرنا قصتهم التى وردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ
ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ
أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾
قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ

﴿ ١٩ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ
٢٠ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي
فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٢ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ
بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ٢٣ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ٢٤ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ
يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ٢٧ ﴾ (١٢)

وقد سبق أن تحدثنا عن قصتهم ..

وهؤلاء الرسل هم - عند بعض المفسرين - شمعون ويوحنا وحبيب النجار ..

وعند بعضهم سمعان ويحيى وحبيب النجار ، وعند آخرين : صادق وصدوق وشلوم (١٣)

ويعد هؤلاء من أنبياء بنى إسرائيل ..

وقد يكونون رسلاً من الله ، ولكنهم عند كثير من المفسرين رسل لعيسى - عليه السلام - أرسلهم إلى أهل أنطاكية ، وكان قد أرسل حوارييه إلى أماكن متفرقة يدعون إلى الله بإذن من الله فكأنهم رسل الله .

حديث المسعودى عن الفترة :

ذكر المسعودى فى مروج الذهب (١٤) حديثاً عن الفترة جاء فيه :

---

(١٢) سورة يس ١٣ : ٢٧

(١٣) تفسير القرطبى - سورة يس ط دار الشعب

(١٤) جـ ١ ص ٤٧

وقد كان بين المسيح ومحمد ﷺ فى الفترة جماعة من أهل التوحيد ممن يقرون بالبعث وقد اختلف الناس فيهم ، فمن الناس من رأى أنهم أنبياء ومنهم من رأى غير ذلك . .

وذكر المسعودى منهم : حنظلة بن صفوان ، وهو صاحب الرس ، وقد ذكرنا قصته ، وذا القرنين وقد ذكرنا قصته ، وأهل الكهف ، وقد ذكرنا قصتهم ، وجرجيس الذى قال عنه :

كان فى الفترة بعد المسيح - عليه السلام - وقد أدرك بعض الحواريين ، فأرسله الله إلى أحد ملوك الموصل ، فدعاه الى الله عز وجل ، فقتله ، فأحياه الله تعالى وبعثه إليه ثانياً ، فقتله ، فأحياه الله تعالى فأمر الملك بتقطيعه وإحراقه وإذرائه فى دجلة ، فأهلك الله - عز وجل - هذا الملك ، وجميع أهل مملكته ممن اتبعه على حسب ما وردت به الأخبار من أهل الكتاب الذين نجوا بسبب إيمانهم .

وقد ذكر الطبرى قصة جرجيس فى كتابه [١٥] وفيها مبالغات أضربنا عن ذكرها . .

ولكننا نفرد حديثاً عن خالد بن سنان ، ونورد خبره كما جاء فى البداية والنهاية لابن كثير ، كاملاً مع التعليق عليه بما يبين وجه الصواب فيه .

خبر خالد بن سنان العبسى [١٦] :

كان خالد بن سنان العبسى فى زمن الفترة ، وقد زعم بعضهم أنه

---

(١٥) تاريخ الأمم والملوك حـ ٢ ص ٤٨

(١٦) البداية والنهاية حـ ٢ ص ٢١١ تحت عنوان : باب ذكر جماعة مشهورين كانوا فى الجاهلية .

كان نبياً ـ والله أعلم ـ

قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التسترى ، حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور الرازى ، حدثنا محمد بن الصلت ، حدثنا قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبى ـ ﷺ فبسط لها ثوبه وقال : بنت نبى ضيعه قومه . .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يحيى بن المعلى بن منصور عن محمد ابن الصلت عن قيس عن سالم عن سعيد عن ابن عباس ، قال : ذكر خالد ابن سنان عند رسول الله ﷺ فقال : ذاك نبى ضيعه قومه

ثم قال : ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، وكان قيس بن الربيع ثقة فى نفسه إلا أنه كان ردىء الحفظ وكان له ابن يُدْخِل فى أحاديثه ما ليس منها ، ـ والله أعلم ـ

قال البزار : وقد رواه الثورى عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلاً

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا المعلى بن مهدى الموصلى قال : حدثنا أبو عوانة عن أبي يونس عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً من عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه : إنى أطفىء عنكم نار الحرتين فقال له رجل من قومه[17] : والله ياخالد ما قلت لنا قط إلا حقاً ، فما شأنك وشأن نار الحرتين التى تزعم أنك تطفئها ؟

---

(١٧) هو عمارة بن زياد كما صرح به الحاكم

فخرج خالد ومعه أناس [١٨] من قومه فيهم عمارة بن زياد ، فأتوها ، فإذا هى تخرج من شق جبل ، فخط لهم خالد ، مكانا فأجلسهم فيه وقال لهم : إن أبطأت عليكم فلا تدعونى باسمى .

فَخَرَجَتْ [١٩] كأنها خيل شقر يتبع بعضها بعضاً ، فاستقبلها خالد يضربها بعصاه ويردها حتى دخل معها الشق ، فأبطأ عليهم ، فقال لهم عمارة بن زياد : والله إن صاحبكم لو كان حياً لكان قد خرج إليكم بعد ، قالوا : فادعوه باسمه ، قال : فقالوا إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه ، فدعوه باسمه فخرج وهو آخذ برأسه ، فقال : ألم أنهكم أن تدعونى باسمى ؟ فقد والله قتلتمونى ، فادفنونى ، فإذا مرت بكم الحُمُرُ فيها حمار أبتر فانبشونى [٢٠] فإنكم تجدونى حياً .

فدفنوه ، فمرت بهم الحمر فيها حمار أبتر ، فقلنا انبشوه فإنه أمرنا أن ننبشه ، فقال لهم عمارة : لا تنبشوه ، لا والله لا تتحدث مضر أنَّا ننبش موتانا ، وكان خالد قد قال لهم : إن فى عكن [٢١] امرأته لوحين فإن أشكل عليكم أمر فانظروا فيهما فإنكم ستجدون ما تسألون عنه ، قال : ولا تمسهما حائض . .

---

(١٨) عدتهم ثلاثون كما فى المستدرك .

(١٩) النار

(٢٠) أى فانبشوا قبرى . والحمار الابتر : مقطوع الذنب .

(٢١) عكن : العكن والاعكان : الاطواء فى البطن من السمن ، وعكن الدرع ماتثنى منها ، يقال : درع ذات عكن اذا كانت واسعة .

فلما رجعوا إلى امرأته سألوها عنها ، فأخرجتها إليهم وهى حائض ، فذهب ما فيها من علم .

قال أبو يونس : قال سماك بن حرب : إن ابن خالد بن سنان أتى النبى ﷺ فقال : مرحبا بابن أخى . .

هذا السياق الوارد عن ابن عباس ليس فيه أنه كان نبياً ، وعليه فهو لا يتفق مع الأحاديث المرسلة التى فيها أنه نبى . .

والأشبه أنه كان رجلاً صالحاً له أحوال وكرامات ، فإنه إن كان فى زمن الفترة فقد ثبت فى صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ : ان أولى الناس بعيسى بن مريم أنا لأنه ليس بينى وبينه نبى ، وإن كان قبلها فلا يمكن أن يكون نبياً لأن الله تعالى قال :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾ (٢٢)

وقد قال غير واحد من العلماء إن الله تعالى لم يبعث بعد اسماعيل نبياً فى العرب إلا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء ، الذى دعا به إبراهيم الخليل بانى الكعبة المكرمة ، التى جعلها الله قبلة لأهل الأرض جميعاً ، وقد بشرت به الأنبياء أممهم ، حتى كان آخر من بشر به عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ

وبهذا المسلك بعينه يُرَدُّ ما ذكره السهيلى وغيره عن وجود نبى من العرب يقال له شعيب بن مهذم بن شعيب بن صفوان صاحب مدين ونبى آخر

---

(٢٢) السجدة ٣

يسمى حنظلة بن صفوات وقد ذكر أن العرب كذبوهما ، فسلط الله على العرب « بختنصر » فنال منهم من القتل والسبى نحو مانال من بنى إسرائيل ، وذلك فى زمن معد بن عدنان .

والظاهر أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين يدعون إلى الخير ـ والله أعلم ـ [٢٣]

وقد آثرنا نقل حديث ابن كثير بتمامه لما فيه من التوضيح والبيان . .

وقد أوردت دائرة المعارف الاسلامية ترجمة لخالد بن سنان وذكرت المصادر التى يرجع اليها فى ذلك ومن بينها ما كتبه الجاحظ عنه وقد رجح الجاحظ أنه ليس نبياً

ومن الذين ذكروا قصة خالد بن سنان . . الدميرى فى كتابه حياة الحيوان ، كما أشار اليها ابن عربى فى كتابه فصوص الحكم وذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى ، وابن حجر فى كتابه الإصابة .

رئاب الشنى :

قال المسعودى : وممن كان فى الفترة ـ أى من المؤمنين الموحدين ـ رئاب الشنى وكان من عبد القيس ، ثم من شن ـ وهى قبيلة عربية ـ

وكان على دين المسيح ابن مريم ـ عليه السلام ـ قبل مبعث النبى ﷺ

وقد ذكر أنه كان من خير أهل هذه الفترة وكان ذا ورع وتقوى

ديانات العرب فى الجاهلية :

كان العرب فى الجاهلية يدينون بديانات شتى . .

---

(٢٣) انتهى كلام ابن كثير .

ونذكر فى ذلك ما ورد فى كتاب المستطرف للأبشيهى قال :

كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة . .

وكانت اليهودية فى نمير وبنى كنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة . .

وكانت المجوسية فى بنى تميم منهم زرارة بن عدى وابنه ، وكان قد تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس ، كان مجوسياً . .

وكانت عبادة الأصنام والأوثان فى كثير من قبائل العرب ، وكانت بنو حنيفة قد اتخذوا فى الجاهلية صنماً من حيس (عجوة) فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه :

أقول ـ وفى ذلك قال شاعر يهجوهم :

أكـــلت حــنيفة ربهـــا عـــام التقحـــم والمجـــاعة

لم يحـــذروا من ربهـــم سوء العواقـــب والتباعـــة

قال المرحوم محمد هاشم عطية :(٢٤) كانت الديانات الشائعة فى الجزيرة قبيل ظهور الإسلام بعد عبادة الأوثان النصرانية واليهودية فى اليمن والشام والبحرين وبعض بلاد الجزيرة ، وكان هناك الموحدون على ملة إبراهيم .

أما عباد الأوثان فكانوا يقولون بالخالق قال تعالى فى حقهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٢٥)

أول من أدخل الأصنام :

وقد سبق أن ذكرنا أن أول من غيَّر الحنيفية ديانة ابراهيم ـ عليه السلام ـ

---

(٢٤) الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ٤٨ .

(٢٥) العنكبوت ٦١

هو عمرو بن لحى الخزاعى وذلك أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام ، فأعجبه ذلك ، فقال : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدونها ؟

قالوا : هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا . .

فقال : أعطونى منها صنماً أسير به إلى أرض العربْ فيعبدونه . .

فأعطوه صنماً يقال له هُبَل .

فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، فأطاعوه [٢٦] لما سبق عليهم وعليه من الشقاء . .

وهذا ما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [٢٧]

لقد أطاع الخزاعيون زعيمهم ، وتابعهم على ذلك من حولهم ، فتحولت ساحة الكعبة المشرفة التى أعاد بناءها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى معرض لتماثيل مشوهة ينحتونها بأيديهم ، ثم يسجدون لها من دون الله .

وقال الأبشيهى : إن أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل ، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حتى ضاقت عليهم فتفرقوا فى البلاد ، وما من أحد ظعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له ، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا حوله كطوافهم بالكعبة ، وأفضى

---

(٢٦) المستطرف من كل فن مستظرف حـ ٢ ص ٧٨ .

(٢٧) الاحزاب ٦٧ ، ٦٨

ذلك إلى عبادة ما استحسنوه من الحجارة ، حتى مر الزمن ودار دورته فنسيت الحنيفية وعبدت الأوثان من دون الله . .

أساف ونائلة :

وكان أساف ونائلة رجلاً وامرأة متحابين وغير متزوجين ، جمع بينهما الحج ، ووجدا خلوة حول البيت ففجر أساف بنائلة فى الحرم ، فمسخهما الله حجرين ، ليكونا عبرة لمن يعتبر . . وقد نقلهما الناس حول الصفا والمروة ليعتبر بهما الناس .

ولكن الشيطان زين للناس عبادتهما فعبدوهما بعد أن نسوا قصتهما بمرور الزمن . . ونقلوهما قريباً من زمزم . .

وكان العرب يقصدون هذه الأصنام من شتى البقاع وينحرون حولها . . وكأن البيت لم يقصد إلا لهذه الأصنام ، ولم يطف به إلا من أجلها . .

وأصبحت مكة سوقاً لتجارة الأصنام ، يذهب الحجاج إلى الحرم ، ثم يعودون وفى رحل كل منهم صنم ابتاعه من تجار الأصنام ، وربما ساوم فى شرائه ، وربما حط من ثمنه درهماً أو درهمين . . فواعجباً لهذا العقل الذى يرضى صاحبه أن يسجد لقطعة من الحجر عملت فى نحتها فأس نحات فصنعت منها تمثالاً كيفما اتفق . . حتى ولو كان هذا التمثال آية فى الجمال والفن كما يزعم المضللون . . كيف يسوغ ذلك عبادته وهو جماد لا يحس وأصم لا يسمع وأعمى لا يبصر ؟!

حتى ولو كان مخلوقاً يسمع ويبصر ويحس ونصب من نفسه إلها كما ادعى ذلك فرعون ونمروذ ومن على شاكلتهما ، كيف يستسيغ العاقل أن يعبد بشراً مثله لا فرق بينهما إلا أن أحدهما تعالى وتغطرس على الناس ؟

وربما لم يكن لذلك الشخص من مقومات التفوق ما يكفل له ذلك التعالى .. بل ربما كان أدنى من كثير من الناس فى المناقب والمواهب ..

العرب يحكمون الأصنام فى حياتهم ؟

اتخذ العرب الأصنام فى دورهم فإذا أرادوا سفراً تمسحوا بها قبل أن يركبوا وكأنهم يستأذنونها فى ذلك ، واذا أرادوا حرباً قربوا لها ونحروا عندها حتى ينتصروا فى حربهم ، واذا أرادوا أمراً هاماً صنعوا لها مثل ذلك ، واذا عادوا من سفرهم كان أول شيء يبدأون به قبل دخول منازلهم الطواف حولها والتمسح بها . يفعلون ذلك مع أنها صماء لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع . إنها كما وصفها الحق سبحانه وتعالى :

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ۝١٩٥﴾ (٢٨)

وانهمكوا فى عبادة الأصنام انهماكاً كبيراً ، وأصبح لكل قبيلة من القبائل صنم تعرف به ويعرف بها .

كانت لقريش وبنى كنانة العُزّى ، وكان حجابها بنى شيبة .

وكان لثقيف بالطائف « اللات » ، وكان حجابها بنى مغيث

وكان للأوس والخزرج مناة ..

وكان لغيرهم هبل ، وربما كان هبل معبوداً للجميع ، بدليل أن أبا

---

(٢٨) الأعراف ١٩٥ .

سفيان فى غزوة أحد بعد أن استشهد عدد من المسلمين فيها ، وظن المشركون أنهم كسبوا الجولة قال بصوت مسموع : اعل هبل . .

ولكن عمر بن الخطاب بادره بالرد الذى أفحمه فقال : بل الله أعلى وأعز . .

وجاء فى التعليق على لفظ الجلالة « الله » فى دائرة المعارف الاسلامية مايلى :

كانت مذاهب العرب فى الجاهلية كماياتى :

طائفة منهم أنكروا الخالق ، وهم الدهريون ، وطائفة قالوا بالخالق وأنكروا البعث والنشور وإليهم يشير الحق بقوله :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٢٩)

وطائفة قالوا بالخالق وبالدار الآخرة وأنكروا الرسل وبعث الأجسام واليهم يشير الحق بقوله :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (٣٠)

وهذه الطائفة تنقسم إلى قسمين فريق منهم يعتقدون بوجود الملائكة ، وهم الذين قالوا : « لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » وفريق لايعتقدون بوجود الملائكة ، بل يعتقدون بالأصنام يعبدونها على

---

(٢٩) يس ٧٨ .

(٣٠) الاسراء ٩٤

أنها وسائل وشفعاء عند الله وهم دهماء العرب ، لكل قبيلة أو عدة قبائل صنم خاص هو معبودهم الذى يلجئون إليه . .

كان « وَدّ » بقبيلة كلب وهو بدومة الجندل

وكان « سواع » لقبيلة هذيل . .

وكان « يغوث » لقبيلة مذحج ولقبائل من اليمن

وكان « يعوق » لقبيلة همدان

وكان « نسر » لذى الكلاع بأرض حمير

وكان « اللات » لثقيف بالطائف

وكان « العزى » لقريش وغطفان وقوم من بنى سليم

وكان « مناة » صخرة لهذيل وخزاعة

وكان لهم جميعاً صنم هو أعظم أصنامهم يسمونه « هبل » وضعوه على ظهر الكعبة

وكان لبنى ملكان من كنانة صنم يقال له « سعد » وهو الذى قال فيه قائلهم

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فما نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لايدعو لغى ولارشد [٣١]

سبب تسمية اللات :

روى السهيلى فى سبب تسمية الصنم المشهور « اللات » بهذا الاسم خبراً طريفاً قال فيه :

كان عمرو بن لحى حين غلبت خزاعة على البيت قد اتخذته العرب رباً

---

(٣١) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ ص ٢٧٠ .

لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم فى الموسم ، فربما نحر عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة ، حتى ليقال : إنه اللاّت ، أى الذى يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمى صخرة اللات .

ويقال : إن الذى كان يلت السويق كان رجلاً من ثقيف ، فلما مات، قال لهم عمرو : إنه لم يمت ولكن دخل الصخرة ، ثم أمرهم عمرو بعبادتها ، وأن يبنوا فوقها بيتاً يسمى بيت اللات ـ ويقال : إن أمره وأمر ولده دام على هذا بمكة ثلاثمائة سنة ، فلما هلك سميت الصخرة : اللات ـ بتخفيف التاء ، واتخذت صنماً يعبد وكان عمرو بن لحى قد ابتدع غير بدعة الأصنام بدعة الإشراك فى التلبية فى الحج .

كانت التلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك

فبينما كان عمرو يلبى بذلك إذ تمثل له الشيطان فى صورة شيخ ، فلما قال عمرو : لبيك لا شريك لك ، قال له الشيخ : إلا شريكاً هو لك . .

فأنكر عمرو ذلك وقال : ما هذا ؟

فقال له الشيخ : قل : تملكه وما ملك ، فلا بأس بهذا

فقالها عمرو ، فدانت بها العرب [٣٢]

وأغلب الظن أن هذه الأصنام لم تكن حكراً على عابديها ، ولكنها كانت مشاعاً . . لقد تعارفوا على أن يعبدوا هذه الأصنام ، وتعارفت كل قبيلة على أن تسمى صنمها باسم تميزه عن بقية الأصنام الأخرى . ولكن ذلك لا يمنع أن تُجل القبائل الأخرى أصنام بعضها . . وقد يتحاربون ويقتل

---

(٣٢) الروض الأنف جـ ١ ص ١٠٣ .

بعضهم بعضاً ولكنهم لا يحطمون أصنام القبيلة المغلوبة . .

فانظر كيف يراعون حرمة الحجر ، ولا يراعون حرمة الإنسان الذى رفع الله منزلته عن سائر المخلوقات وسخر له ماق الأرض والسموات ؟

لقد كانت عبادة الأصنام نكسة لعقل الانسان ، وردة له عن الطريق السوى والمنهج السليم . .

أصنام قوم نوح عند العرب :

وهناك مسميات أخرى لأصنام كانوا يعبدونها هى • يغوث ويعوق ونسر ، وقد ورد ذكر هذه الأصنام فى قصة نوح ، وأنها كانت أسماء أصنام قومه ، ولكنها أسماء توارثها من جاءوا بعدهم ، وقال بعضهم فى تعليل هذه الأسماء إنها كانت أسماء لأولاد آدم ـ عليه السلام ـ وكانوا أتقياء عباداً ، فمات أحدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً ، فجاءهم الشيطان ، وحَسَّنَ لهم أن يصوروا صورته فى قبلة مسجدهم ليذكروه إذا نظروا إليه ، فكرهوا ذلك ، فقال : اجعلوه فى مؤخرة المسجد ، ففعلوا ، ومات الآخر ففعلوا مثلما فعلوا مع أخيه السابق ، ومات الثالث ، ففعلوا مثل ذلك ، ثم تركوا عبادة الله إلى عبادة هذه التماثيل .

وجاءهم نوح فنهاهم عن ذلك فعصوه ، وكان ماكان من أمر الطوفان الذى أغرق الأرض ، وغرقت هذه الأصنام فيما غرق .

وبعد أن انكشفت الأرض بانحسار الطوفان ، وتقدم الزمن ، جاء الشيطان فأخرج هذه الأصنام فعبدها المشركون

وربما شكك البعض فى هذا الخبر ولكن الذى لاشك فيه أن العرب عبدوا الأصنام وكان من بين أصنامهم ما يسمى بهذه الأسماء ، فقد يكونون أعادوا

الأسماء القديمة وخلعوها على أصنامهم ، والأسماء لا تموت بموت أصحابها الأولين ، ولكنها تتكرر إلى ماشاء الله . .

وقد صور العرب « وَدّاً » على صورة رجل ، وصوروا « سواع » على صورة امرأة ، وصوروا « يغوث » على صورة أسد ، وصوروا « يعوق » على صورة فرس ، وصوروا « نسراً » على صورة نسر[٣٣]

وذكر المسعودى أن العرب لم يكونوا قاصرين فى ديانتهم على عبادة الأوثان ، بل منهم من كان يعبد الملائكة ، ويزعم أنها بنات الله ، وكانوا يعبدونها لتشفع لهم عند الله ، وهؤلاء هم الذين أخبر الله عنه بقوله :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[٣٤]

وقوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾[٣٥]

وكان منهم أيضاً من لا يؤمن بشىء وهم الدهريون الذين يقولون : « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر » حكى القرآن عنهم ذلك بقوله :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٣٦]

---

(٣٣) المرجع السابق ص ٧٩ .

(٣٤) النحل ٥٧ .

(٣٥) النجم ١٩ : ٢٢ .

(٣٦) الجاثية ٢٤ .

القرآن يتحدث عن جهلهم :

وقد استدعت عبادة العرب للأوثان أن يجعلوا لها نصيباً فيما يرزقهم الله ، زين ذلك لهم الشيطان وسول لهم ان يقسموا ما يخرجونه من أموالهم قسمين ، أحدهما جعلوه لله ، والاخر جعلوه للأصنام ، فإذا ذهب الجزء الذى جعلوه للأصنام فى الإنفاق عليها وعلى سدنتها واحتاجوا الى نفقة أخرى فى ذلك الطريق ، أخذوا مما جعلوه لله وأضافوه إلى الأصنام .

أما اذا نفد ماكانوا جعلوه لله بالانفاق فى وسائله كإكرام الضيف أو الانفاق على الفقراء والمساكين واحتاجوا إلى نفقة جديدة فى هذا الميدان فإنهم لا يأخذون مما جعلوه لأصنامهم شيئاً . . زاعمين أن الله مستغن أما الأصنام فمحتاجة .

وهذا يدل على جهل مطبق وضلال كبير ، ذلك أنهم أولا قد جعلوا لله شركاء ـ جل الله عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ـ وثانياً قد جاروا فى القسمة ـ واعتذروا عن الجور بالأمعان فى الضلال ثالثاً . .

ولذلك قال سعيد بن جبير راوياً عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : من أراد أن يعلم جهل كفار العرب فليقرأ مافوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام .

لقد وصف الله الشرك بأنه ظلم عظيم ، وذلك على لسان لقمان الحكيم حين أوصى ابنه قائلاً :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣٧)

---

(٣٧) لقمان ١٣

وكان الشرك ظلماً لأنه اعتداء على حق الله ، وخلع صفات الله على صفات غيره فكأنه أعطى حق من يستحق إلى ما لا يستحق . فما بالك إذا كان ما لا يستحق لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ولا يعقل ولا يميز ؟

حكى القرطبي قال : روى أن رجلاً قال لعمرو بن العاص : إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر ؟ فقال له عمرو : تلك عقول كادها باريها .

فهذا الذى أخبر الله به من جهل العرب قبل الإسلام أمر أذهبه الاسلام ، وأبطله الله ببعثة الرسول ﷺ فكان من الظاهر أن نميته حتى لا يظهر ، وننساه حتى لا يذكر ، إلا أن ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ذكره بنصه وأورده بشرحه ، وكانت الحكمة فى ذلك ـ والله أعلم ـ أن قضاءه قد سبق ، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينفعان إلى يوم القيامة .

وكما زين الشيطان للكفار عبادة الأوثان حتى جعلوا جزءاً من أرزاقهم لها زين لهم كذلك قتل أولادهم ، وسياق الحديث عن وأد البنات .

وزين لهم الشيطان كذلك أن يخصصوا بعض الأنعام والحرث لأصنامهم ، يقصرونها على سدنة هذه الأصنام وخدامها ، كما كانوا يقصرون على الأصنام أنواعاً معينة هى البحيرة والوصيلة والحام والسائبة .

أما البحيرة فهى الناقة التى تنتج خمسة أبطن يكون آخرها ذكراً ، كانوا يبحرون أذنها أى يشقونها ويعفون ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، وقال الشافعى كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن إناثاً بحرت أذنها فحرمت أى حرم ركوبها ودرها . .

أما السائبة فهى الناقة التى تسيب فلا تحبس عن رعى ولا ماء وقيل : هى البعير ينذره الرجل إن سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة فيسيب أى لا يحبس عن رعى ولا ماء ولا يركبه أحد قال الشاعر :

وسائبة لله تنمى تشكرا   إن الله عافاها عامراً ومجاشعاً

وقيل : هى التى تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر فعند ذلك لا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف ..

والوصيلة : هى الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى .. وقيل هى الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكراً و أنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

والحامى هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة ، قالوا : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء .

وقد أبطل الحق سبحانه وتعالى كل ذلك فقال :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ ﴾ (٣٨)

وزين لهم الشيطان كذلك أن ألبان بعض الأنعام تكون خالصة للذكور دون الاناث ، فان مات منها شيء اشترك فى أكله الذكور والإناث وقيل : إن الشاة كانت إذا ولدت ذكراً ذبحوه وخصوا به الرجال دون النساء ، وإن ولدت أنثى لم يذبحوها

---

(٣٨) المائدة ١٠٣ .

وقد قصت علينا الآيات التالية ذلك .. قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ
أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟
هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ
وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ
سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى
بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ
وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟
مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ (٣٩)

ما تثيره هذه الآيات من قضايا :

وتثير هذه الآيات الكريمة بعض القضايا التى يجب التفكير فيها .

منها :

★ **تفضيل الذكور على الإناث عند العرب** وقد توارث الناس عنهم هذا الاتجاه ، ومازال كثير من الناس لديهم هذه العقدة ، عقدة استقبال الأنثى

---

(٣٩) الانعام ١٣٦ : ١٤٠ .

بالامتعاض ، واستقبال الذكر بالفرح والسرور ، وبخاصة البيئات الريفية والأمية .

ومن العجب أن هذه العقدة سرت إلى الأمهات والنساء أيضاً ، مع أن المفروض أن يكون العكس ، وذلك بأن تهش المرأة للأنثى كما تهش للمولود الذكر سواء بسواء . . ولكن الذى يحدث أن المرأة إذا وضعت تجهمت إذا قيل لها إنها وضعت أنثى ويسارع من حولها إلى التسرية عنها كأنها ارتكبت جرماً ، فإذا كان المولود ذكراً أسرعوا إلى تهنئتها والاحتفاء بها ، وكأنهم يشكرونها على أنها استطاعت أن تقوم بالواجب وتقدم للأسرة الفارس المنتظر .

والقرآن الكريم نعى على العرب القدامى سوء استقبالهم للإناث وقال فى ذلك :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٤٠)

وهو تصوير دقيق لحال هؤلاء الذين كانوا لا يتورعون عن إصدار الحكم على هذه الطفلة البريئة بدفنها حية عقاباً لها على أنها فرضت نفسها على هؤلاء الزاهدين فى رؤيتها الذين لا يشرفون بانضمامها إلى أفراد الأسرة .

والإسلام لا ينظر إلى البنت هذه النظرة ، وقد قدمها الله على الذكر فى معرض المنة على الناس بالذرية فقال :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا

---

(٤٠) النحل ٥٨ ، ٥٩ .

﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٤١)

ولعل فى هاتين الآيتين رداً على ما يراد من إجبار الناس على تحديد النسل خوفاً من الفقر والحاجة ، فإن الذرية هبة من الله وفى يده ـ سبحانه ـ رزقهم والذى يرفض هبة الله جاحد للنعمة ، مكذب بهذا الكتاب فاقد للثقة فى الله .

وليلتفت الجازعون والجازعات من ولادة البنات إلى أن الله جلت قدرته قدم هبة الإناث على هبة الذكور فى الآيتين ، لعلهم يتذكرون أن المفاضلة فى الذرية ليست بالجنس ، ولكن بما يُمْنَحهُ المولود ذكراً كان أو أنثى من قدرات وملكات ومواهب ، وكم من أنثى فاقت الذكور عقلاً وإيماناً وحسن تصرف .

من نساء العرب الخالدات بلقيس والزباء :

والتاريخ العربى بصفة عامة ، والتاريخ الاسلامى بصفة خاصة حافل بمواقف نسائية خالدة ربما قصر دونها كثير من الرجال . .

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

هذه بلقيس ملكة سبأ استطاعت أن تتبوأ مكاناً فى التاريخ سجله القرآن الكريم بما يشهد لها بالفخر والاعتزاز لبنات جنسها ، وقد كان موقفها مع سليمان ـ عليه السلام ـ آية فى الذكاء والحكمة وحسن التصرف وحسن القيادة وبعد النظر فقد آمنت بالله واليوم الآخر ، واستطاعت أن تأخذ بيد

(٤١) الشورى ٤٩ ، ٥٠ .

شعبها إلى هذا الطريق القويم الأمثل الذى ضمن لها وله السعادة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة .

هذه واحدة . .

ومثل آخر نراه فى الزباء ابنة عمرو بن ظرب ملكة الشام ، وكانت مدائنها على شاطىء الفرات من الجانب الشرقى والغربى واستطاعت كما يقول ـ المسعودى ـ أن تسقف الفرات وتجعل فوقه أبنية تجرى من تحتها الأنهار ، ووصلت إلى مكانة عظيمة فى زمانها .

ولها قصة سجلت بأقلام المؤرخين حافلة بالحكم والأمثال مع جذيمة بن الأبرش ، وهى تدل على بعد نظرها وإحكام تدبيرها وقوة ملكها . .

حرقة بنت النعمان :

ومن النساء العربيات الخالدات حرقة بنت النعمان بن المنذر ، وكانت قد بلغت فى ترف الملك وعز السلطان فى ظل أبيها مَلِك الحيرة مبلغاً عظيماً .

وظلت كذلك حتى دالت دولتهم وفُتِحت الحيرة فى عهد الاسلام بقيادة سعد بن أبى وقاص ، فوفدت عليه فى جمع من قومها وجواريها عليهن المسوح والمقطعات السود مترهبات تطلب صلته فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد ، فقال : أفيكن حرقة ؟

قالت : هأنذا

قال : أنت حرقة ؟

قالت : نعم ، فما تكرارك فى استفهامى ؟

ثم قالت : إن الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على حال ، تنتقل بأهلها

انتقالا ، وتعقبهم بعد حال حالا ، كنا ملوك هذا العصر يجبى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر ، فصدَّع عصانا وشتت شملنا ، وكذلك الدهر ياسعد إنه ليس يأتى قوماً بمسرة إلا ويعقبهم بحسرة ، ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا   إذا نحن فيهم سوقة ليس نُعرف
فأف لِدُنْيَا لا يدُوم نعيمها   تقلب تارات بنا وتصـــــرف

فقال سعد : قاتل الله عدى بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول :

إن للدهـر صــولة فاحــذرنها   لا تبيتن قد أمنت الدهـــورا
قد يبيت الفتى معافىً فيردى   ولقـد كـان آمنا مســــروراً

فبينما هى واقفة بين يدى سعد إذ دخل عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، وكان زوارا لأبيها فى الجاهلية .

فلما نظر إليها قال : أنت حرقة ؟

قالت : نعم

قال : فما دهمك فأذهب محمودات شيمك ، وأين تتابع نعمتك وسطوات نقمتك ؟

فقالت : ياعمرو ، ان للدهر لسطوات وعثرات وعبرات ، تعثر بالملوك وأبنائهم ، فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد منعة ، وتذلهم بعد عزة ، إن هذا لأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره ، فأكرمها سعد وأحسن جائزتها ، فلما أرادت فراقه ، قالت : حتى أحييك بتحية ملوكنا بعضهم لبعض : لانزع الله من عبد صالح نعمة إلا جعلك سبباً لردها عليه .

ثم خرجت من عنده فلقيها نساء المدينة فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : حاط لى ذمتى ، وأكرم وجهى ، إنما يكرم الكريم الكريم [٤٢]

نساء أخـــر

ومن خير مانقدمه لتتأسى به نساء عصرنا هذه القدوة الطيبة ، وهى وان كانت من العصر الجاهلى إلا أن فيها ما أقره الإسلام واحتفل به . .

خطب عمرو بن حجر إلى عوف بن محلم الشيبانى ابنته أم إياس فزوجه إياها ، فلما كانت ليلة زفافها خلت بها أمها وقالت لها توصيها :

أى بنية ، إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا .

أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع له والطاعة .

وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواضع عينه وأنفه فلا تقع عينيه منك على قبيح ، ولايشم منك إلا أطيب ريح ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فان تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة وأما السابعة والثامنة فالمحافظة على ماله ، والارعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير .

وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرا ، ولاتفشين له سرا ، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره وان أفشيت سره لم تأمنى غدره .

---

(٤٢) مروج الذهب للمسعودى حـ ١ ص ٣٦٢ .

ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا (٤٣)

هؤلاء النساء وغيرهن كثير فى العصر الجاهلى كن زينة عصرهن ، وهن يَفُقن كثيرا من الرجال الذين ليست لهم مثل عقول هؤلاء النساء ولاحسن تفكيرهن . فمالهؤلاء الذين يحزنون على إنجاب البنات ! ولم لاتكون الوليدة التى قدمت على كره من أبيها مثل من تقدمنها من نجيبات النساء وعقيلات العرب اللاتى تزينت بآرائهن وسلوكهن المجالس ؟ .

فإذا ماجئنا إلى العصر الإسلامى وجدنا الدرر والجواهر ، ورأينا النساء اللاتى طلعن فى أفق الاسلام نجوما زاهرة بل شموسا باهرة . من أمثال خديجة بنت خويلد ، وعائشة بنت الصديق ، وفاطمة بنت محمد ، وأسماء بنت أبى بكر ، ونسيبة بنت كعب ، والربيع بنت معوذ ، وحفصة بنت عمر ، وتماضر بنت عمرو ابن الشريد الملقبة بالخنساء . . وكثيرات غير هؤلاء كانت لهن فى تاريخ الإسلام صفحات مشرقات ، وقد جاء الاسلام ليرفع من شأن المرأة ويأخذ بيدها لتمضى مع الرجل فى بناء أركان الدولة الإسلامية التى يعضدها الرجال والنساء معا . .

نقول هذا بمناسبة كتاب ظهر أخيرا يسلب عن المرأة الإسلامية كفاءتها ، ولايذكر للاسلام فضلا فى تفوقها بل يزعم أن هذا التفوق ليس من صنع الإسلام بل هو من صنع المرأة نفسها ويتحدى قائلا : هاتوا لى امرأة نبغت فى ظل الإسلام نبوغ الزباء أو نبوغ بلقيس . .

وقد فات هذا الكاتب أن الاسلام هو الذى رفع عن المرأة وصمة الوأد وأتاح لها فرصة المشاركة البناءة فى نهضة الأمة ، ولم يجحد لها ماتقوم به من عمل خير . .

---

(٤٣) العقد الفريد حـ ٣ ص ٢١٠ .

بل قدم لها عليه أعظم الثواب قال تعالى :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) ﴾ (٤٤)

وقال :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) ﴾ (٤٥)

ولم يدخر الإسلام وسعا فى أن يعطى المرأة حقها المشروع الذى أتاحه الله لها من ميراث أو إعلان رأى أو رغبة فى الجهاد أو غير ذلك من الحقوق التى كانت محرومة منها فى الجاهلية . .

ومن القضايا التى تثيرها الآيات التى تقدمت من سورة الأنعام مايلى :

ذكر اسم الله على الذبائح :

لقد حرم الإسلام أكل الذبائح التى لايسمى الله عند ذبحها ، أو يذكر

---

(٤٤) آل عمران ١٩٥ .

(٤٥) النساء ٣٢ .

اسم غير اسمه عليها كما كان يفعل أهل الجاهلية حين يذكرون أسماء أصنامهم كاللات والعزى وغيرهما ، قال تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤٦)

وعلة تحريم ذلك - كما يقول صاحب تفسير المنار - أنه من عبادة غير الله - تعالى - فالأكل منه مشاركة لأهله ومشايعة لهم عليه ، وهو ما يجب إنكاره لا إقراره .

وحرم الإسلام كذلك ماذبح على النصب ، والنصب حجارة كان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها وينضحون منها الدم على جدران الكعبة .

فلما جاء الإسلام قال المسلمون : يارسول الله ، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق أن نعظمه . فنزل قوله تعالى :

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٤٧)

وقد أوجب الإسلام أن يذكر الذابح اسم الله بصوت مسموع عند ذبح ذبيحته .

وربما تفرع على ذلك سؤال عما يستورد من لحوم لانعرف هل ذكر اسم الله عليها عند ذبحها أم لا ؟ وقد أفتى العلماء فى ذلك بأن هذه اللحوم تحل

---

(٤٦) المائدة (٣٠)

(٤٧) الحج ٣٧ .

بذكر اسم الله عند تناولها ، وقد أباح الله لنا ذبائح أهل الكتاب بقوله :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥ ﴾ (٤٨)

المتحنفون العقلاء :

على الرغم من شيوع عبادة الأصنام فى العصر الجاهلى فقد كان هناك عقلاء يعملون عقولهم فى الاهتداء إلى الله ، وقد هالهم ماعليه أمر قريش من وثنية وعبادة أصنام .

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ، وكان ذلك عيدا لهم ، فى كل سنة .

فانفرد من هذا الجمع أربعة نفر وتناجوا فيما بينهم ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكتم بعضكم على بعض .

وهؤلاء الأربعة هم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصى بن كلاب بن مرة . . وعبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر . . وكانت أمه

---

(٤٨) المائدة ٥

أميمة بنت عبدالمطلب . . وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى بن قصي . . وزيد بن عمرو بن نفيل . .

فقال بعضهم لبعض : لقد علمتم والله أن قومكم ليسوا على شيء . لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم . ماذا يفعل حجر لايسمع ولايبصر ولايضر ولاينفع ؟ .

ياقوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم . وسنعرض ماكان من أمر كل منهم .

ورقة بن نوفل :

فأما ورقة بن نوفل ، فاستحكم فى النصرانية ، وحصل على الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب . وهو ابن عم خديجة ـ رضى الله عنها ـ وقد ذهبت إليه حين جاء الوحى إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتستخبره عما حدث للنبى عليه الصلاة والسلام .

فلما سمع ورقة ما أخبرته به قال : قدوس ، قدوس ، والذى نفسى بيده لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطمأنته . .

ثم إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انطلق يوما إلى الكعبة يطوف بها كعادته فلقيه ورقة ، فقال له ورقة : يابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت .

فأخبره النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

فقال ورقة : والذى نفسي بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولَتُكَذَّبنَّ ولَتُؤْذَين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أدركت يومك لأنصرن الله نصرا يعلمه ، ثم أدنى رأس النبى - صلى الله عليه وسلم - إليه فقبله .

ومات ورقة قبل بعثة النبى - صلى الله عليه وسلم - وقيل عنه إنه مات مسلما وانه فى الجنة .

ويقال : إنه عاش حتى بعث النبى - صلى الله عليه وسلم - ورأى قريشا تعذب بلالا وهو يقول : أحد ، فقال ورقة فى ذلك :

سبحان ذى العريش سبحاناً نعوذ به وقيل قد سبح الجودى والجمد
سخر كل ماتحت السماء له لاينبغى أن يناوى ملكه أحد
لاشيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

وقال حين سمع قول زيد بن عمرو يدعو للتوحيد :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وانما تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك جنان الجبال كما هيا
أقول اذا مازرت أرضا مخوفة حنانيك لاتظهر على الاعاديا
حنانيك ان الجن كانت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجائيا
أدين لرب يستجيب ولا أرى أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا
أقول إذا صليت فى كل بيعة تباركت قد أكثرت باسمك داعيا[٤٩]

(٤٩) مهذب الأغانى حـ ٢ ص ٢٣٧ لمحمد الخضرى .

عثمان بن الحويرث :

أما عثمان بن الحويرث فإنه قدم على قيصر ملك الروم ، وتنصر وأقام عنده وحسنت منزلته لديه ، حتى أصبحت له كلمة مسموعة عنده ..

وقد طلب عثمان من قيصر الروم أن يفرض على تجار قريش الذين يذهبون الى الشام خرجا يؤدونه إليه ، وتطوع هو للقيام بهذه المهمة ، وهَمَّ قيصر بالاستجابة له فى هذا الأمر ..

وتصادف ان خرج سعيد بن العاص بن أمية ، وأبوذئب هشام بن شعبة إلى الشام متاجرين ، فأخذا وحبسا ، ومات أبوذئب فى السجن ، واستطاع سعيد أن يتخلص من السجن ، فتغيظ القرشيون من عثمان لأنه هو الذى زين لقيصر ذلك .

والذى ضاعف من غيظهم أن القيصر أراد أن يجعل من عثمان ملكا على مكة وتوجه لذلك ولكن القرشيين أنفوا من ذلك ، ورفضوا أن يدينوا لملك ، لاسيما اذا كان الملك تابعا لقيصر وحين جاء الخبر بذلك لقريش صاح الأسود بن أسد بن عبدالعزى : ألا إن مكة حى لقاح لاتدين لملك ..

ولم يتم لعثمان مراده ، فقد دس له السم فى الشام ، ومات ولاعقب له ، وكان يلقب بالبطريق (٥٠) .

عبيدالله بن جحش

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ماهو عليه من الالتباس حتى أسلم ،

---

(٥٠) الروض الانف جـ ١ ص ٢٥٥

وهاجر إلى الحبشة ومعه زوجته التي أسلمت أيضا وهي رملة بنت أبي سفيان وهي أم حبيبة . .

ولكنه في الحبشة ارتد عن الاسلام وتنصر ، ومات على نصرانيته .

وتزوج النبي - صلى الله عليه وسلم - أم حبيبة ، وأمهرها عنه النجاشي . .

زيد بن نفيل :

وتوقف زيد بن عمرو بن نفيل ، فلم يقبل النصرانية ولا اليهودية وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه - وهو أبوسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وحين هجر الأصنام التي يعبدها قومه وأخذ يعيبها ، ضاق به عمه الخطاب ذرعا ، وأغرى به سفهاء مكة وسلطهم عليه فآذوه ، فسكن كهفا بحراء ، وكان يدخل مكة سرا .

وخرج إلى الشام يسأل عن الدين الصحيح فلقي عالما من علماء اليهود فسأله عن دينهم وقال له : لعلي أتبعه .

فقال له اليهودي : لاتكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله .

فقال زيد : ما أفر إلا من غضب الله . ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا ، وأنَّى أستطيعه ؟ فهل تدلني على غيره ؟

قال اليهودي : ما أعلمه إلا أن تكون حنيفا .

قال زيد : وما الحنيف ؟

قال اليهودى : دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولانصرانيا .

فخرج زيد فلقى عالما من علماء النصارى فسأله عن دينه لعله يتبعه .

فقال له النصرانى : لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله .

فقال زيد : ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولامن غضبه شيئا ، وأنَّى أستطيع ذلك ؟ فهل تدلنى على غيره ؟

قال : ما أعلمه الا أن تكون حنيفا .

قال زيد : وماالحنيف ؟

قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولانصرانياولكن كان حنيفا مسلما

فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم ، خرج عائدا من الشام ، ورفع يديه إلى السماء قائلا : اللهم إنى أشهدك أنى على دين ابراهيم . .

وعاد زيد إلى مكة وقد ثبت على ماهو عليه . . اعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن وأد البنات .

روى هشام بن عروة بن الزبير عن أمه أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا قد أسند ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يامعشر قريش ، والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته .

وروى أن سعيد بن زيد وعمر بن الخطاب قالا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟ قال : نعم ، فانه يبعث أمة وحده .

وكان زيد يقول شعرا يدعو فيه الى التوحيد منه :

أربا واحدا أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولاصنمي بني عمرو أزور
ولاهبلا أدين ، وكان ربا لنا في الدهر إذ حلمي يسير
عجبت وفي الليالي معجبات وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالا كثيرا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم فيربل منهم الطفل الصغير(٥١)
وبينا المرء يعثر ثاب يوما كما يتروح الغصن النضير
ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ماتحفظوها لاتبوروا

وله شعر آخر غير هذا . .

وكان لزيد زوجة هي صفية بنت الحضرمي ، تعذله وتلومه على اتجاهه في التعرف على الحق ، وكانت تحاول صده عن الهداية ، وكلما هم في الخروج باحثا عن المعرفة تسارع فتخبر الخطاب بن نفيل - والد عمر - وكان الخطاب عم زيد وأخاه لأمه أيضا ، وكان قد وكل زوجته صفية به ، قال لها : إن رأيته قد هم بأمر فأخبريني . .

فكانت تسرع باخباره كلما رأته قد هم بالهجرة إلى مكان . . فيجيء الخطاب ويؤذيه . . ولكنه كان لا يأبه لذلك ، ولايلقي إليه بالا . . كان الخطاب يخشى أن يفتن زيد شباب قريش عن دينهم فيهجروه . .

---

(٥١) يربل : يشب ويكبر .

عجبا : أى دين هذا الذى يخشى عليه الخطاب الفتنة ، أهو السجود لتلك الأصنام التى لاتسمع ولاتبصر ، ولاتنفع ولاتضر ؟ أهو الطواف حول هذه الطواغيت الصماء التى أضل الشيطان بها الناس فعبدوها من دون الله ؟ ومن أعجب العجب أن يستوى فى ذلك عقلاء القوم وجهلاؤهم وسادتهم وطغامهم . .

ولو فكر الخطاب قليلا ، لأدرك أن الحق مع زيد وأنه أجدر بأن يكرم لا أن يؤذى . .

ولكن الخطاب كان قاسيا عليه ، كان يؤذيه ، ويطرده ، ويحول بينه وبين دخول مكة .

ولكن ذلك كان لايصد زيدا عن طريقه ، بل ويطرده ،ويحول بينه وبين الحق . .

وكان يجل البيت الحرام ويعظمه هذا البيت الذى انتهك هؤلاء القوم حرمته بما وضعوه فى ساحته من أصنام قربوا لها القرابين وطافوا بها مهللين مكبرين .

كان الأذى لايصده عن طريقه ، وكان العنف لايزيده إلا اصرارا على موقفه . .

إن الهداية إذا دخلت القلب استهان بكل صعب ، وصغر أمامه كل كبير . .

كان زيد اذا دخل البيت واستقبل الكعبة يقول ـ وهو قائم :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحَاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذ با زلالا
اذا هى سيقت الى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا

وحين يئس زيد من قومه ، خرج مهاجرا سائلا الأحبار والرهبان ، ودخل الموصل ، وجال فى الجزيرة ، ثم عاد إلى الشام ، ولقى فى أرض البلقاء راهبا ينتهى إليه علم النصرانية ، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم .

فقال له الراهب : إنك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظلك زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين إبراهيم ، فالحق به وإنه مبعوث الآن .. هذا زمانه ..

وكادت الفرحة تقتل زيدا .

فعاد مسرعا إلى مكة يريد ان يسعد بلقاء ذلك المبعوث الذى قضى حياته باحثا عنه .. ولكنه قتل فى الطريق إليها .. قتل وهو يبحث عن الحقيقة .. فذهب شهيدا مرضيا عنه ، شاكيا ظلم أهل الأرض إلى أهل السماء .. وحلقت روحه فى عليين مع من سبقه من الشهداء والصالحين ..

روى صاحب كتاب « خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والإسلام » أن بعض ملوك غسان دس السم لزيد بن عمرو فمات بدمشق .. [٥٢] .
فقال ورقة بن نوفل يرثيه :

---

(٥٢) بشائر النبوة الخاتمة دكتور رءوف شلبى ٦٥ .

رشدت وأنعمت ابن عمرو وانما تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وادراكك الدين الذى قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن من الناس جبارا الى النار هاويا
وقد تدرك الانسان رحمة ربه ولو كان تحت الأرض سبعين واديا (٥٣)

متحنفون آخرون :

وتشير المصادر المختلفة إلى أن هناك متحنفين آخرين سوى هؤلاء الذين ذكرناهم . .

منهم قس بن ساعدة الإيادى ، وهو من قبيلة إياد بن أد بن سعد ، ويلقب بحكيم العرب وكان مقرا بالبعث .

وقد ضرب العرب المثل بحكمته ، وعقله ـ قال الأعشى :

وأحكم من قس وأجرا من الذى بذى الغيل من خفان أصبح خادرا

وقدم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفد من إياد فسألهم عنه ، فقالوا ، هلك .

فقال : رحمه الله ـ كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر ، وهو يقول :

أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ماهو آت آت .

---

(٥٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٣ .

أما بعد ، فإن فى السماء خبرا وإن فى الأرض لعبرا ، نجوم تمور ، وبحار تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، أقسم قس بالله لا حانثا فيه ولا آثما : إن لله لدينا هو أرضى من دين أنتم عليه ، مالى أراهم يذهبون ولايرجعون ، أرضُوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ سبيل مؤتلف ، وعمل مختلف .

وقال أبياتا لا أحفظها .

فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : أنا أحفظها يارسول الله .

فقال : هاتها .

فقال :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها تمضى الأوائل والأواخر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صادر القوم صائر

أيقنت أنى لامحالة حيث صادر القوم صائر

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : رحم الله قسا ، إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده .

وقال المسعودى : ولقس أشعار كثيرة وحكم وأخبار تبصر فى الطب والزجر والفأل وأنواع الحكم (٥٤) وكانت لقس رحلات إلى الشام ، وله لقاءات بقيْصر الذى كان يقربه ويدنيه ويعجب بحكمته .

---

(٥٤) مروج الذهب حـ ١ ص ٥٠ .

قال أبو على القالى : كان قس بن ساعدة يفد على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يوما : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه .

قال : فما أفضل العلم ؟

قال : وقوف المرء عند علمه .

قال فما أفضل المروءة ؟

قال : استبقاء الرجل ماء وجهه .

قال : فما أفضل المال ؟

قال : ماقضى به الحقوق [٥٥] .

والحكمة كما يقول العلماء : قول موجز يتضمن حكما مسلما به فى الحث على الخير والكف عن الشر ، وهو ثمرة تجربة صادقة وخبرة صائبة . فإذا ماطبق ذلك على هذه العبارات كانت غاية فى الصدق .

والعاقل هو الذى يعرف قدر نفسه ولايتجاوز حدها . ومايزال الجاهل يفتن بنفسه ويغتر بها حتى يورد نفسه موارد التهلكه . وصدق الرسول الكريم الذى يقول : رحم الله امرءا عرف قدر نفسه .

والعالم الحق هو الذى يقف عند حدود مايعلم ، فإذا ماسئل عما لايعلم قال : لا أعلم ، ولايستحى من ذلك وقد ورد عن الحكماء قولهم : إذا أخطأ العالم قوله لا أدرى فقد أصيبت مقاتله . وصاحب المروءة هو الذى يحافظ على كرامته ، ولايوقع نفسه مواقع التهم أو الحرج ، وقد نصح العلماء طلاب العلم بقولهم : إياك ومايعتذر منه . .

---

(٥٥) الامالى لابى على القالى جـ ٢ ص ٤٣ .

فَحِكَمُ قس خلاصة تجربة صدقتها الأيام ، ولذلك سارت مع الدهر ترددها الأجيال وتستشهد بها فى وقائع الأحوال .

والعرب على بداوتهم أكثر الناس إرسالا للحكمة وضربا للأمثال . لفصاحة ألسنتهم ولمطاوعة الكلام لهم ، ولتفرغهم لصناعة الكلام والمساجلة بالبيان . وقد اشتهر كثير من بينهم بالحكمة .

وَحَسْب الحكمة فائدة أن يضمنها المتكلم عبارته فلا تزال تورثها من البهاء والقبول مايرتفع به جانبها فتكون أمتع فى الصدر وآنق فى السمع وأسير فى الآفاق ، إلى ماتثيره فى النفس من حب الفضيلة والهداية إلى مكارم الاخلاق وصالح الأعمال .

ويعد قس بن ساعدة من خطباء الجاهلية المشهورين وحكمائها المعدودين .

المأمور الحارثى

ذكره أبو على القالى بأنه المأمون الحارثى ، وهو من بنى الحارث . وصححته بالراء قال : قعد المأمور الحارثى فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم فكر طويلا ، ثم قال : أرعونى أسماعكم واصغوا إلىَّ قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد .

طمح بالأهواء الأشر[٥٦] وران على القلوب الكدر[٥٧] وطخطخ الجهل النظر[٥٨] ، إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء

---

(٥٦) طمح : ذهب ـ والاشر : الفرح والعجب .

(٥٧) ران : غطى .

(٥٨) طخطخ : سوى الشيء وضم بعضه إلى بعض .

مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتغرب ، وقمر تطلعه النحور [٦٠] ، وتمحقة أدبار الشهور ، وعاجز مثر وحُوَّل مكد [٥٩] وشاب محتضر ويفن قد غبر [٦١] وراحلون لايئوبون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيى البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، وماء يتفجر من الصخر الأير [٦٢] فيحيى الأنام ويشبع السوام وينمى الأنعام ، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارىء المصور .

يأيها العقول النافرة ، والقلوب الثائرة [٦٣] أنى تؤفكون ، وعن أى سبل تعمهون [٦٤] ، وفى أى حيرة تهيمون ، وإلى أى غاية توفضون [٦٥] .

لو كشفت الأغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون ، لصرح الشك عن اليقين ، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة [٦٦] .

والمتأمل فى هذه الخطبة يجد بينها وبين خطبة قس السابقة مشابهة ـ كما يقول الأستاذ محمد هاشم عطية ـ تدل على اتفاق الخواطر أو تواردها على مشاهدات واحدة ، هى التى أنتجت هذا التشابه [٦٧] .

---

(٥٩) النحور : جمع نحر ويقصد بها أوائل الشهور .

(٦٠) حول : شديد الاحتيال . ومكد : قليل الخير .

(٦١) يفن : شيخ كبير ، وغبر بمعنى بقى .

(٦٢) الأير : الشديد الصلب .

(٦٣) القلوب الثائرة : ذات العداوة .

(٦٤) تؤفكون : تصرفون ـ تعمهون : تتحيرون .

(٦٥) توفضون : تسرعون .

(٦٦) الأمالى جـ ١ ص ٣٢٣ .

(٦٧) الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ص ٧٦

وهى دليل على أى حال على يقظة فكرية حركت الحواس نحو مشاهد الكون التى تشهد بعظمة الخالق وتدل على أن للكون ربا واحدا أوجده . .

وقد عاش العرب فى باديتهم الواسعة ذات السماء الصافية التى لاتحجبها الغيوم ، فتظهر فيها الكواكب الساطعة والنجوم اللامعة ، ويظهر فيها القمر ساطعاً فينير الأرض ليلا فتسرى فيه القوافل ، وتشرق الشمس نهارا فتملأ الكون بوهجها اللامع .

كل هذه المشاهد تثير عند ذوى الحس رغبة فى التفكر والتدبر ، وهذا هو مادعا إليه القرآن الكريم حيث قال :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾ (٦٨)

ونبه الأذهان إلى مظاهر القدرة فيما يقع تحت الحس والمشاهدة :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ (٦٩)

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ (٧٠)

---

(٦٨) الاعراف ١٨٥ .

(٦٩) الغاشية ١٧ : ٢١ . (٧٠) الاعراف ٥٤ .

أمية بن إبى الصلت :

ومن الذين هجروا الأوثان فى الجاهلية ، واهتدوا إلى الحق وإلى أن للكون خالقا وربا يدبره . . أمية بن أبى الصلت الثقفى .

وكان أمية شاعرا عاقلا ، وكان يتاجر إلى الشام ، فيلتقى بأهل الكنائس فيها من اليهود والنصارى ويسألهم عن دينهم ، وأخبره أهل العلم منهم أن نبيا سوف يبعث من العرب ، وقد أظل زمانه . . ولأمية أشعار يتحدث فيها عن قدرة الله وعظمته ، ويصف فيها السموات والأرض ، والشمس والقمر والملائكة ويتحدث فيها عن الأنبياء والبعث والنشور والجنة والنار ويعظم فيها الله ويوحده ومن ذلك قوله :

الحمد لله لاشريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما

وحين أنهى إليه أهل الكتاب أن هناك نبيا سيبعث من العرب توقع أنه هو ذلك النبى ، فلما بعث الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفر به وتنكر له وحاربه ، ومات كافرا . .

وذكر ابن الأثير فى أسد الغابة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن أخت أمية ، وهى الفارعة بنت أبى الصلت قدمت على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح الطائف ، وكانت ذات لب وعقل وجمال ، فقال لها : تحفظين من شعر أخيك شيئا ؟ .

قالت : نعم وأنشدت له الأبيات التى أولها :

باتت همومى تسرى طوارقها   أكف عينى والدمع سابقها

مارغب النفس فى الحياة ، وان   تحيا قليلا فالموت سابقها

وفيها يقول :

يوشك من فر من منيته يوما على غرة يوافقها
من لم يمت عبطة يمت هرما للموت كأس والمرء ذائقها(٧١)

قالت : ولما حضرته الوفاة قال عند المعاينة :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما(٧٢)

ثم قال :

كل عيش وإن تطاول دهرا صائر مرة إلى أن يزولا
ليتنى كنت قبل ماقد بدا لى فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا

ثم مات ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : كان مثل أخيكِ كمثل الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (٧٣) .

لقد أمعن أمية فى التفكير ، وأتبع ذلك بمنهج عملى ، فزهد ولبس المسوح ، وأفاض الله على قلبه ألوانا من الحكمة ضمنها شعره ، ولكنه لم يستطع المحافظة على ماأوتيه من نعمة ، بل حسد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان الأولى به بعد أن تكشفت له الحقائق أن يكون من أول المؤمنين به . .

إلا أنه اتبع سبيل الكفار ، ورثى قتلى بدر من المشركين .

قال المسعودى : لما بلغة ظهور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اغتاظ لذلك وتأسف ، وجاء المدينة ليسلم فرده الحسد ، فرجع إلى الطائف ،

---

(٧١) عبطة : شابا .

(٧٢) لاألما ـ يعنى لم يرتكب اثما .

(٧٣) اسد الغابة جـ ٧ ص ٣٢٥ .

فبينما هو ذات يوم فى فتية يشرب إذ وقع غراب فنعب ثلاثة أصوات وطار ، فقال أمية : أشعر بدنو الأجل .

فقال القوم : لتكذبن هذا الغراب .

ثم قال : احسوا كأسكم ، فحسوها ، فلما انتهت النوبة إليه أغمى عليه ، فسكت طويلا ، ثم فاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما　　　هأنذا لديكما

أنا من حفت به النعمة ، والحمد والشكر . . ثم شهق شهقة فكان فيها موته ، بعد أن قال الأبيات التى أورناها سابقا إلا أنه جاء فى آخرها :

كل عيش وان تطاول حينا　　　فقصارى أيامه أن يزولا (٧٤)

ويبدو أن أمية كان على صلة بالجن ، والذى يدل على ذلك ما أخبر به المسعودى أيضا حيث قال : السبب فى كتابة قريش واستفتاحها فى أوائل كتبها « باسمك اللهم » يرجع الى أمية بن ابى الصلت وذكر فى ذلك قصة رواها عن أحد الرواة قال : خرج أمية بن أبى الصلت إلى الشام فى نفر من ثقيف وقريش فى عير لهم ، فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا ، واجتمعوا لعشائهم . . اذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم ، فحصبها بعضهم بشيء فى وجهها ، فابتعدت فشدوا سفرتهم ، ثم قاموا فشدوا على إبلهم وارتحلوا من منزلهم .

فلما نزلوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصاها ، فقالت : ما منعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة التى جاءتكم عشية ؟

---

(٧٤) مروج الذهب حـ ١ ص ٥١ .

قالوا : ومن أنت ؟

قالت : أم العوام ، أولادي يتامى منذ أعوام ، أما ورب العباد لتفرقن فى البلاد .

ثم ضربت بعصاها الأرض ، فأثارت بها الرمل ، وقالت : أطيلى إيابهم ، وأنفرى ركابهم فوثبت الإبل حتى افترقت فى البوادى ، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ، ولم نكد .

فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز ، ففعلت مثل فعلتها ، وعادت لمقالتها : مامنعكم أن تطعموا رحيمة ، الجارية اليتيمة ؟ ثم قالت : أطيلى إيابهم ، وأنفرى ركابهم :

فخرجت الإبل ، مانملك منها شيئا ، فجمعناها من آخر النهار إلى غد ، ولم نكد .

فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز ، ففعلت مثل فعلتها الأولى والثانية فتفرقت الإبل .

وأمسينا فى ليلة مقمرة ، وقد يئسنا من ظهورنا (٧٥) فقلنا لأمية بن أبى الصلت : أين ماكنت تخبرنا به عن نفسك ؟

فتوجه إلى ذلك الكثيب الذى كانت تأتى منه العجوز ، حتى هبط من ناحية أخرى ، ثم صعد كثيبا آخر حتى هبط منه وإذا برجل جالس أبيض الرأس واللحية .

قال أمية ؟ فلما وقفت عليه رفع رأسه إلىَّ وقال : إنك لمتبوع .

قلت : أجل .

---

(٧٥) ظهورنا : يقصد الابل .

قال : فمن أين يأتيك صاحبك ؟

قلت : من أذنى اليسرى .

قال : فبأى الثياب يأمرك ؟

قلت : بالسواد .

قال : هذا خطب الجن ، كدت ولم تفعل وليس هذا الأمر لك ، ولكن صاحب هذا الأمر يكلمُه فى أذنه اليمنى وأحب الثياب إليه البياض .

ثم قال له : فما جاء بك ؟ وماحاجتك ؟

قال أمية : فحدثته حديث العجوز .

قال صَدَقَتْ ، وليست بصادقة ، هى امرأة يهودية متصلة بالجن هلك زوجها منذ أعوام ، وإنها لاتزال تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت .

قال : اجمعوا ظهوركم ، فإذا جاءتك ، ففعلت ماكانت تفعل فقولوا لها سبعا من فوق ، وسبعا من أسفل ، باسمك اللهم . فإنها لاتضركم .

فرجع أمية إلى أصحابه فأخبرهم بما قيل له .

فجاءتهم ففعلت كما كانت تفعل ، فقالوا : سبعا من فوق وسبعا من أسفل ، باسمك اللهم ، فلم تضرهم فلما رأت الابل لم تتحرك قالت : عرفت صاحبكم ، ليبيضن أعلاه ويسودنَّ أسفله ـ وسرنا ، فلما أدركنا الصبح نظرنا إلى أمية وقد برص فى عذاريه ورقبته وصدره ، واسود أسفله (٧٦) .

---

(٧٦) برص اى اصابة البرص .

فلما قدموا مكة ذكروا هذا الحديث . . وهذه قصة يغلب عليها الخيال وإن كان العقل لايحيلها ولهذا ذكرناها .

وكان أمية أول من كتب : باسمك اللهم ، إلى أن جاء الإسلام فرفع ذلك وكتب :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .[77]

وليس السبب فى استبدالها أنها من ألفاظ الجاهلية ـ كما تزعم دائرة المعارف الإسلامية [78] فانها مما يجوز استعمالها ، وقد استعملها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صلح الحديبية حين رفض المشركون ما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستعمله فى بدء كتبه وهو ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ولو كانت من ألفاظ الجاهلية ما استعملها . .

لقد استبدل بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ البسملة لأن الله ابتدأ بها سور القرآن الكريم ، وقد ووردت فى أول كتاب سليمان لبلقيس حين قرأته فقالت : إنه من سليمان وانه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

ثم صارت شعار المسلمين فى الكتابة والقراءة وفى كل عمل يعمله المسلم ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل عمل لايبدأ باسم الله فهو أقطع أو أبتر .

لذلك كانت هى أفضل فى الاستعمال لأنها تعنى الاستعانة بالله والتبرك به فى كل عمل وقول .

نهاية أمية :

انتهت حياة أمية نهاية سيئة على غير ماكان متوقعا له . .

---

(٧٧) مروج الذهب جـ ١ ص ٥١ .

(٧٨) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١ ص ٣٦٢ .

لقد بدأ حياته مفكرا زاهدا وانتهى به الأمر أن مات كافرا ـ لقد تحول تأمله وبحثه عن الهداية إلى رغبة نفسية أن يكون نبى هذه الأمة المنتظر ، وألح عليه هذا الخاطر حتى أسلمه إلى الكفر . . ونسى أن الرسالة لاتعطى بالتمنى ولكنها منحة إلهية يهبها الله لمن يشاء من عباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . .

وكان المفروض أن يكون أول من يؤمن بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند بعثته ، وأول من يؤازره فى دعوته ، ويرد عنه أذى المعارضين والمشركين ، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك اتجه إلى معاضدة المشركين ضد الدعوة المحمدية ، ورثى قتلى المشركين فى غزوة بدر ، فى قصائد منها ماأورده ابن هشام فى سيرته ومانهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من روايته ، ونحن نتأدب بأدب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا نروى شيئا من ذلك .

وخطفت الدنيا بصر أمية بعد أن كان زاهدا فيها ، فاتجه اتجاه الشعراء الذين يتكسبون بشعرهم وله فى مدح عبدالله بن جدعان قصائد عدة . .

وتوفى أمية فى العام الثامن أو التاسع من الهجرة ، وقلبه يتنزى حقدا على نبى الاسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكره هنا للاستدلال على اتجاه بعض العرب نحو الهداية ورفض ماكان عليه عامة أهل الجاهلية من عبادة الأصنام من دون الله جل وعلا . .

ويذكر أبوالفرج فى كتابه الأغانى قصة تكشف تطلع أمية إلى النبوة وحزنه على أنها فاتته فيقول : خرج أمية الى الشام فمر بكنيسة ، وكان معه جماعة من قريش والعرب ، فقال أمية :

ان لى حاجة فى هذه الكنيسة فانتظرونى .

فدخل الكنيسة وأبطأ ، ثم خرج إليهم كاسفا متغير اللون ، فرمى بنفسه ، وأقاموا حتى سرى عنه .

ثم مضوا فقضوا حوائجهم ، ثم رجعوا ، فلما صاروا الى الكنيسة قال لهم : انتظرونى . ودخل الكنيسة ، فابطأ . ثم خرج اليهم أسوأ من حالته الأولى ، فقال له أبوسفيان بن حرب : قد شققت على رفاقك .

قال : خلونى ونفسى ان ها هنا راهبا عالما أخبرنى أنه يكون بعد عيسى نبى من العرب وأنا أطمع فى النبوة وأخاف أن تخطئنى ، فأصابنى مارأيت .

فلما رجعت ثانية أتيته فقال : قد بعث نبى من العرب ، فيئست من النبوة فأصابنى مارأيت ، اذ فاتنى ماكنت أطمع فيه [٧٩] .

وينقل الدكتور رءوف شلبى عن ابن برهان الحلبى فى سيرته قوله فيما يرويه عن أميه فى حديث له مع أبى سفيان :

إنى لأجد فى الكتب صفة نبى يبعث فى بلادنا فكنت أظن أنى هو ، وكنت أتحدث بذلك ، ثم ظهر لى أنه من بنى عبدمناف ، فنظرت فلم أجد فيهم من هو يصلح لذلك إلا عتبه بن ربيعة الا انه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه فعرفت أنه غيره . .

ثم يقول بعد ذلك . لما مرض أمية مرضه الذى مات فيه جعل يقول : قد دنا أجلى ، وهذه المرضة منيتى ، وأنا أعلم أن الحنيفية حق ، ولكن الشك يداخلنى فى محمد .

---

(٧٩) انظر الأغانى ص ١٢٣ .

وسأله سائل : ولم الشك يا أمية ؟

فأجاب : لقد عرفت أن هذا الأمر سيئول الى رجل من قريش من بنى عبدمناف ، وإن شباب بنى عبدمناف قد جاوزوا الأربعين ولم يوح اليهم ، ولم يبق فى دائرة الصفات التى علمتها الا محمد بن عبدالله . . ولكن الحياء من نساء ثقيف يمنعنى من الإيمان به . إنى كنت أخبرهن أنى سأكون النبى ثم أصير تابعا لفتى من بنى عبدمناف ! [٨٠] .

رفض زعم للمستشرقين

ويهمنا هنا رفض ما زعمه المستشرقون من أن أمية بن أبى الصلت كان مصدراً للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما كان يقوله من قرآن . . وعبارتهم فى ذلك التى حكتها دائرة المعارف الإسلامية فى ترجمة أمية هى : « والآراء الدينية ومعالجة هذه الموضوعات فى كلام أمية مطابقة لما جاء فى القرآن إلى حد كبير ، ويكاد الاتفاق يقع فى كثير من الأقوال ، ولهذا أثيرت بالطبع مسألة اعتماد أحد القولين على الآخر ، فيذهب « إيوار » إلى أن أشعار أمية بن أبى الصلت التى تتضمن قصصا من قصص التوراة هى من المصادر التى استمد منها القرآن رأسا . . ثم تمضى الدائرة فتنقض هذا الرأى وتنفى أن يكون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ استمد شيئا من شعر أمية ، ولكنهما معا وغيرهما كورقة وزيد بن عمرو استمدوا جميعا من تفسيرات المفسرين للتوراة والانجيل . . » . هذا بعض ما ذكرته دائرة المعارف عن المستشرق « إيوار » .

---

(٨٠) بشائر الرسالة الخاتمة ص ٧٣ .

وهذا زعم باطل من أساسه فلا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ استمد شيئا من شعر أمية أو غيره ، أو أخذ شيئا عمن كان موجودا من علماء أهل الكتاب . . كيف وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايقرأ ولا يكتب والقرآن الكريم يحكى ذلك بقوله :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٨١)

ورد على الذين يزعمون أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ علمه بشر بقوله

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٨٢)

وهناك أدلة كثيرة وقاطعة تدحض زعم هؤلاء أن النبى ﷺ قد أخذ شيئا من شعر أمية أو غيره . . ذاك أن النبى ـ صلى اله عليه وسلم ـ جاء بالقرآن وفيه من أخبار الأولين مالم يكن أحد يعلمه ، وفيه من المواعظ والنذر مالا عهد لأحد به ، وقد تحداهم القرآن الكريم على أن يأتوا بمثله أو بسور من مثله أو بآيات من مثله فلم يستطيعوا ـ على الرغم مما هم عليه من فصاحة وبلاغة ، وكان هذا التحدى دليلا على أنه من عند الله لامن عند أحد من الناس .

---

(٨١) العنكبوت ٤٨ ، ٤٩ .

(٨٢) النحل ١٠٣ .

وقد اجتهد المخالفون والمعارضون الذين كانوا فى زمن نزول القرآن أن يجدوا للقرآن مصدرا من المصادر التى كان للناس علم بها فلم يعثروا على شيء من ذلك وباءت كل محاولاتهم بالفشل وحق الحق وذهب الباطل . .

ولو أن شعر أمية أو غيره كان مصدرا للقرآن ـ كما يزعم الزاعمون ـ لاهتبلها المعارضون فرصة وهللوا لها وكبروا ولكان قول الله ـ جل وعلا :

﴿ ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من مقبل هذا ﴾

لامحل له ، لأنهم كانوا سيردون قائلين : لالقد ذكرها أمية فى شعره .

ويضاف إلى ذلك حقيقة أخرى هى أن الأشعار التى ذكر الرواة نسبتها إلى أمية وفيها ذكر القرون الأولى وماشابه ذلك ليست له بل هى منحولة نحلها له من لديهم مقدرة على صياغة الشعر ونحله وقد شهد بذلك كل من لديه دراية بنقد الشعر وروايته (٨٣)

الحقيقة التى يجب أن تقال :

والحقيقة التى يجب أن تقال هى أن القرآن الكريم قد ثبت بالأدلة القاطعة أنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . . والعجب من أمر هؤلاء المستشرقين . . كيف يقرن أمية الى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ؟ بل كيف يوضع شعره مع كتاب الله ؟

ولقد كنا فى غنى عن الرد على هؤلاء لولا أن بعض الذين يزعمون الولاية على الأدب من أهل زماننا يقلدون أولئك المتعصبين فى هذه السخافات من غير نظر ، كأنهم لايعلمون عن نشأة الاسلام شيئا ! ولايعرفون عن صاحب الدعوة قليلا ولاكثيرا ! وكأنهم لايشعرون بآثار الثقافة الإسلامية فى العلم الحديث ! وكأن الأوربيين لم يصيغوا إلى خطباء العرب على منابر قرطبة وأشبيلية ! .

---

(٨٣) راجع فى ذلك تعليق من عرفة على.دائرة المعارف الاسلامية جـ ٤ ص ٤٦٥ .

وكأنهم لم يفسحوا الطريق لحضارة الإسلام تجتاح ماكان يطبق آفاقهم فى عصورهم المظلمة من الجهالات وأين الذين استجابوا لأمية بن أبى الصلت أو لسواه ، وهو لم يخل من عقوق بنيه ، وقد شكا ذلك فى شعره فى قصيدته المشهورة التى منها :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا تعل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالسهد لم أبت لنجواك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى وعينى تهمل

والله قد جعل لمحمد رسوله من صفاء الروحانية وقوة النفس ، ماكان به يحول طبائع الناس ، ويبدل فى جبلاتهم من الإباء إلى الطاعة ، ومن البغض إلى المحبة ، ومن الكفر إلى الإيمان ، حتى بلغ بأتباعه أنهم يحبونه أكثر من محبتهم لأنفسهم وأبنائهم ، ولقد عذبوا فى سبيله وأوذوا وقاتلوا وقتلوا ، وأخرجوا من ديارهم ولم يزدهم ذلك إلا استمساكا به وإيمانا بشريعته ، ومضوا على الجهاد معه حتى بلغ الكتاب أجله ، وضرب الدين بجرانه ، وخفقت أعلام المسلمين على آفاق البلاد . وماترى الأمم الأجنبية تشجى بشيء الآن أكثر مما تراه من تطلع الأمم الاسلامية إلى مجدهم الذاهب وشعورهم بالحاجة إلى استرداد عظمتهم الماضية .(٨٤)

والعجيب أنهم لم ينسبوا هذا التأثير إلا إلى أمية ، فما بالهم لم ينسبوه إلى ورقة ولا إلى زيد ممن أثرت عنهم أشعار تدعو إلى التوحيد . . أغلب الظن أن ذلك إنما كان لأن أمية هو الذى كفر بالإسلام لما بعث الله به غيره فأصبح

---

(٨٤) الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى لمحمد هاشم عطية ص ٤٥٢

بينه وبين هؤلاء الحاقدين على الإسلام صلة أوجبت الاحتفال به وتزييف الحقائق من أجله .

بحيرى الراهب :

ولايحسب بحيرى على المتحنفين لأنه من أهل الكتاب ، ولكن المسعودى ذكره ضمن أهل الفترة الذين يعتبرون معالم فى طريق الهداية إلى الله . .

ولبحيرى أهمية خاصة فى البشارة بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد اكتشفه وهو ضمن القافلة المتجهة إلى الشام فى اثناء مرورها بالمكان الذى كان يقيم فيه .

قال عنه المسعودى : ان اسمه فى النصارى « سرجس » وكان من عبدالقيس ، وذكر قصته مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مع عمه ابى طالب إلى الشام فى تجارة وهو ابن اثنتى عشرة سنة ومعهما أبوبكر وبلال ، مروا ببحيرى وهو فى صومعته فعرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفته ودلائله ، وماكان يجده فى كتابه ونظر إلى الغمام يُظله حيثما جلس .

فأنزلهم بحيرى وأكرمهم وصنع لهم طعاما ، ونزل من صومعته حتى نظر الى خاتم النبوة بين كتفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووضع يده على موضع ، وآمن به ، وأعلم أبابكر وبلالا بقصته ومايكون من أمره ، وسأل أبا طالب أن يرجع به إلى مكة ،وحذرهم من أن أهل الكتاب قد يلحقون به الأذى إذا عرفوه وأخبر عمه أبا طالب بذلك فرجع به .

فلما رجع من سفره ذلك كان بدء قصته مع خديجة ، وماأظهر الله لها من

دلائل نبوته وماأخبرت به مما كان منه فى طريقه [85] .

ولكن اتصاله بخديجة ـ رضي الله عنها ـ عن طريق التجارة لم يكن إلا بعد ذلك بسنين .

ويذكر ابن هشام أن بحيرى هذا كان ببصرى من أرض الشام ، وكان يقيم فى صومعة ، وإليه انتهى علم أهل النصرانية . .

والسهيلى يذكر أنه كان حَبْرا من يهود تيماء ، ونقل عن ابن قتيبة قوله فى المعارف إنه سُمِع قبل الإسلام بقليل هاتف يهتف : ألا إن من خير أهل الأرض : بحيرى : ورباب بن البراء الشنى والثالث المنتظر هو خير أهل الأرض على الاطلاق يعنى النبى صلى الله عليه وسلم . قال : وكان قبر رباب الشنى وقبر ولده من بعده لايزال يرى عليه طش ، والطش : المطر الخفيف .

وحدث حوار بين بحيرى والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلاصته أن بحيرى قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يومئذ غلام ، فى رواية سنه اثنتا عشرة سنة ، وفى رواية أخرى سنه تسع سنين : ـ

ياغلام ، أسألك بحق اللات والعزى أن تخبرنى عما أسألك عنه .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم : لاتسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ماأبغضت شيئا قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبالله أخبرنى عما أسألك عنه .

فقال له : سلنى عما بدا لك .

---

(٨٥) مروج الذهب ج ١ ص ٥٤

فجعل بحيرى يسأله عن أشياء من حاله ، من نومه ، وهيئته ، وأموره .

فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره ، فيوافق ذلك ماعند بحيرى من صفته .. وزاده تأكدا من ذلك ما رآه من خاتم النبوة .

وقد روى الترمذى قصة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع بحيرى ، قال : بعد أن ذكر اقتراب ركب التجار من بحيرى : فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولايلتفت ـ فجعل الراهب يتخللهم وهم يحلون رحالهم ، حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ من قريش ما علمك ؟

قال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولاشجر إلا خر ساجدا ، ولايسجدان إلا لنبى ، وانى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه .

ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به ـ وكان هو ـ أى النبى ـ فى رعْية الإبل ـ قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله .

فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة ، فلما جلس مال فىء الشجرة عليه ، فقال : انظروا إلى فىء الشجرة مال إليه ؟

ثم قال بحيرى للعرب : أنشدكم بالله أيكم وليه

قالوا : أبوطالب .

فلم يزل يناشده حتى رده أبوطالب ، وقال أبوطالب فى هذه القصة

يتحدث عن عزمه على الخروج متاجرا وتعلق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ به واصطحابه معه حتى التقوا ببحيرى :

ألم ترنى من بعدهَمٍّ همته بفرقة حر الوالدين كرام
بأحمد لما ان شددت مطيتى لنرحل اذ ودعته بسلام
بكى حزنا والعيس قد فصلت بنا وأمسكت بالكفين فضل زمام
ذكرت أباه ، ثم رقرقت عبرة تجود من العينين ذات سجام
فقلت : تروح راشدا فى عمومة مواسين فى البأساء غير لئام
فرحنا مع العير التى راح أهلها شآمى الهوى والأصل غير شآمى
فلما هبطنا أرض بصرى تشرفوا لنا فوق دور ينظرون جسام
فجاء بحيرى عند ذلك حاشدا لنا بشراب طيب وطعام
فقال : اجمعوا أصحابكم لطعامنا فقلنا : جمعنا القوم غير غلام [86]

هذا موجز ماذكرته المصادر العربية من قصة بحيرى ولقائه بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن المستشرقين ـ كعادتهم ـ يلتمسون من الأحداث أسبابا ينفثون من خلالها سمومهم ، فقد صور لهم خيالهم المريض أن بحيرى فى لقائه بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد لقنه عقيدته وشريعته وأجزاء من القرآن .

وهذا افتعال لايقوم على أساس ، فقد كان لقاء بحيرى بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقاء عابرا لم يدم سوى بضع ساعات ، وكانت سن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك الوقت تسع سنوات أو اثنتى عشرة سنة على

---

(٨٦) الروض الأنف ج ١ ص ٢٠٦

اختلاف الروايات فكيف يتلقى النبى فى هذه السن وفى تلك الساعات القليلة شريعة دين وأصول عقيدة ، ونصوصا قرآنية متعددة

عمرو بن عبسة السلمى:

ومن الذين اتجهوا إلى التحنف عمرو بن عَبَسة بن عامر من سُليم .

قال عنه ابن الأثير : أسلم قديما ، وكان يقال عنه : هو ربع الإسلام - يعنى أنه تقدمه ثلاث وكان هو الرابع .

ولنتركه يتحدث بنفسه عن رغبته عن عبادة الأصنام فيقول :

ألقى فى روعى أن عبادة الأوثان باطل ، فسمعنى رجل وأنا أتكلم بذلك ، فقال : ياعمرو بمكة رجل يقول كما تقول .

قال : فأقبلت إلى مكة أسأل عنه ، فأخبرت أنه مختف لا أقدر على رؤيته إلا بالليل وهو يطوف بالبيت . فنمت بين الكعبة وأستارها ، فما علمت إلا بصوته يهلل الله . فخرجت إليه قلت : من أنت .

فقال : رسول الله ، فقلت : وبم أرسلك

قال : بأن يعبد الله ولايشرك به شيء ، وتحقن الدماء وتوصل الأرحام .

قلت : ومن معك على هذا .

قال : حر وعبد .

فقلت : ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعته على الإسلام ، فلقد رأيتنى وإنى لربع الإسلام .

وروى عنه أنه قال للنبى - صلى اله عليه وسلم - أقيم معك يارسول الله

قال : لا ولكن الحق بقومك ، فإذا سمعت أنى قد خرجت فاتبعنى .

قال : فلحقت بقومى ، فمكثت دهرا طويلا منتظرا خبره ، حتى أتت رفقة من يثرب ، فسألتهم عن الخبر ، فقالوا : خرج محمد من مكة إلى المدينة . قال : فارتحلت حتى أتيته فقلت : أتعرفنى ؟

قال : نعم ، أنت الرجل الذى أتيتنى بمكة .

ومن الأحاديث التى رواها عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم : « من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى سهما فى سبيل الله فبلغ العدو أو قصر كان له عدل رقبة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله تعالى بكل عضو منه عضوا من المعتِق من النار . (٨٧) .

هل كان عبدالمطلب متحنفا ؟

يقول المسعودى : تنازع الناس فى أمر عبدالمطلب ، وهل كان مؤمنا موحدا كما كان هؤلاء المتحنفون الذين هجروا الأوثان ، ودعوا إلى عبادة الواحد الديان أم كان شأنه شأن غيره من عامة العرب الذين يدينون بتلك الأوثان ويطوفون حولها وينحرون لها .

والذى يرى أنه كان مؤمنا يستند إلى أنه لم يكن أحد من آباء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشركا . . وأنه تنقل فى الأصلاب الطاهرة والأرحام النقية ، وأن الله أكرمه بذلك ، وقد فهم بعض المفسرين من قوله ـ تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ (٨٨)

---

(٨٧) اسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الانير حـ٤ ص ٢٥١

(٨٨) الشعراء ٢١٧ : ٢١٩

أن التقلب هو تقلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أصلاب الآباء حتى أخرجه نبيا .

وربما استند من ذكروا ذلك إلى وثوق عبدالمطلب بنصر الله إياه فى كل مأزق كان يحيط به . .

لقد نصره فى معركته مع قريش فى زمزم حين حفرها ونازعوه فيها ، ونصره على أبرهة حين اعتدى أبرهة على الحرم ، فالتجأ عبدالمطلب إلى الله ضارعا وقد أمسك بحلقة باب البيت وهو يقول :

لاهم ان العبد يمنع رحلة فامنع حلالك . .

فهو لم يلتجىء إلى صنم يدعوه ، بل التجأ إلى الله .

وقد يجيب المعترض على ذلك إذا أراد . . بأن المشتركين كانوا يعترفون بالله ، ويعرفون أنه الخالق وأن هذه الأصنام إنما هى زلفى إليه . .

ويستشهد من يرى أن عبدالمطلب كان من المتحنفين وأنه كان مقرا بالتوحيد ، مثبتا للوعيد ، تاركا للتقليد ، بأنه حين حفر زمزم ـ وكانت مطوية استخرج منها غزالتين من ذهب عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلى ، وسبعة أسياف ، وسبعة أدرع سوابغ ، فضرب من الأسياف بابا للكعبة وجعل إحدى الغزالتين صفائح ذهب فى الباب ، وجعل الأخرى فى الكعبة .

فهو لم يصطف شيئا لنفسه ، بل جعل كل ماعثر عليه لله ، ولايفعل ذلك إلا موحد وهو أول من سقى الماء عذبا بمكة ، وجعل باب الكعبة مذهبا تعظيما لله وكان يطعم الحجيج ويسقيهم بلا شح ولابخل يفعل ذلك إكراما لضيوف الله وزوار بيته الحرام . .

ونذر إن رزقه الله عشر بنين أن يقرب أحدهم لله ـ تعالى ـ فكان أمره حين رزقه الله إياهم أن قرب أحبهم إليه وهو عبدالله أبوالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضرب على القداح حتى افتداه بمائة من الإبل ذبحها كلها وأباحها للناس والطير والوحش (٨٩) . وقد سبق ذكر هذا الخبر .

وعلى كل فان إيمان أو عدم إيمان عبدالمطلب لايقدح فى قدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولايضع من شرفه بل هو دليل على اجتباء الله له واصطفائه إياه . .

والذى لاشك فيه أن عبدالمطلب كان على قدر عظيم من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، وكان يوصي ولده بصلة الأرحام وإطعام الطعام وكان يرغبهم ويرهبهم وهذا فعل من يراعى الله ويحب العدل ويخشى الظلم (٩٠) وحسن الخلق هبة من الله لايمنحها إلا لمن يحبه ويرضى عنه . . وعلى أى حال فإن عبدالمطلب يعد من حكماء العرب ، والحكمة مغنم ثمين يهبها الله لمن يشاء من عباده ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .

لماذا لم يتأثر الناس بالمتحنفين؟

وعلى الرغم من وجود هؤلاء المتحنفين ، وصرخاتهم الحارة فى أقوامهم وتحذيرهم مما هم عليه من فساد ، إلا أنه لم يكن لهم تأثير فى أقوامهم . . فلم يحذ أحد حذوهم ، ولم يسر على نهجهم أحد من الناس .

ولعل السر فى ذلك استشراء الضلال وشدة الطغيان كما وأنه لم يكن مع هؤلاء مايؤيدهم من الآيات والمعجزات التى تحمل الناس على الاتباع ،

---

(٨٩) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٨١

(٩٠) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٨٤

فالرسول ـ عادة ـ مؤيد بمعجزة من السماء تشهد بصدقه وتؤكد حقيقة مايدعو إليه من تعاليم وارشادات . . وهؤلاء ليسوا كذلك ، فهم لم يؤمروا بشيء ولم يكلفوا بشيء . .

لقد كان هؤلاء القوم علامات بارزة تشهد على الناس بأنهم فى باطل ، ومصابيح تضيء فى وسط الظلام الحالك لمن يريد الاهتداء . . وهم دلائل تشير إلى أن شيوع الباطل ليس أمرا مسلما به من الجميع . بل إن هناك من يتيقظ لابطاله ، ويتصدى للانكار عليه . وفى ذلك رد على الشيطان الذى توعد باغواء الناس جميعا ، وسوقهم إلى الجحيم . . ليعلم أن هناك من ينجيه الله من براثنه وينقذه من مخالبه .

ألوان من الفساد الجاهلى :

على أن الفساد فى الجاهلية لم يكن قاصرا على عبادة الأوثان ، وان كانت تلك قمته ، فليس بعد الكفر ذنب ، ومعرفة الله طريق لكل خير وسبيل لكل رشد ، والابتعاد عنه وسيلة إلى كل غى وسبب إلى كل ضلال .

ذلك أن الإيمان وازع يزع صاحبه عن ارتكاب الآثام . فإذا فكر فى الشر استيقظ ضميره وخشى من العقاب .

والإيمان بالله يستلزم مراعاة جانبه والخوف منه ، كما يستلزم الإيمان بالحساب والثواب والعقاب . . وذلك يؤدى إلى تهذيب السلوك وتقويم الأخلاق وترقية الوجدان . .

وقد اقترن الإيمان بالعمل الصالح دائما ، ودعا القرآن الكريم فى كثير من آياته إلى التلازم بينهما لأنه لاقيمة لأحدهما بدون الأخر . .

والمؤمن الذى لايقدم الخير محروم ، وايمانه لاجدوى منه ، وقد نفى الحديث الشريف الإيمان عن شارب الخمر ومقترف الزنا ومرتكب المنكر وغير ذلك من أنواع الشر ، وقال فى ذلك : لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن .

كما أن العمل الصالح الذى لا يصحبه إيمان بالله واليوم الآخر لاقيمة له أيضا . وقد أخبر الله عن قوم كافرين يمارسون بعض الأعمال الصالحة بأنهم لانصيب لهم من النعيم فى الآخرة ، وقال فى حقهم :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٩١)

وقال :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٩٢)

وقد تعددت صور الفساد فى المجتمع الجاهلى .. منها :

كثرة الحروب

فقد كثرت الحروب بينهم كثرة مفزعة ، وكانت نيرانها لاتخبو إلا لتشتعل من جديد ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى معرض التذكير بنعمة الله

---

(٩١) الفرقان ٢٣

(٩٢) الاحقاف ٢٠

عليهم فقال :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٩٣)

وكانت هذه الحروب تثور لأتفه الأسباب ، فقد كانت الأمية سائدة فيهم ، وكان أغلبهم بدوا تأصلت فيهم طبائع البادية من نجدة وحب للغزو وميل للانتقام والأخذ بالثأر ، كان البدوى حين يفتح عينيه لا يرى إلا تألق الأسنة ، ولايسمع إلا صهيل الخيل وزئير الوحوش ، ولم يكن لهم حمى يلجئون إليه إلا ظهور خيلهم ومقابض سيوفهم فرسخت فيهم صفات الفروسية وقوة المراس وكثرة الفتك والسلب والنهب ولم يكن لهم مقام بأرض ، وانما كانوا يتتبعون مساقط المياه ومنابت الكلأ ليرعوا أغنامهم وأنعامهم التى عليها تقوم حياتهم ومعاشهم ، فإذا وجدوا غيرهم قد سبقهم إليها تنازعوا والتنازع يؤدى الى الاحتكام إلى السيف (٩٤) .

والمغلوب لايسكت ، بل يستعد للأخذ بالثأر ويلتمس لذلك الفرص . .

وقد تُشْعِل الحرب بينهم كلمة عابرة أو خطأ غير مقصود ، أو استنجاد كان يمكن تلبيته بغير السيف أو غدر كان يمكن الاحتكام فى مواجهته إلى العقل والمنطق . .

---

(٩٣) آل عمران ١٠٣

(٩٤) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ـ محمد هاشم عطية ص ٤٨

وتستمر الحروب سنين طويلة تأكل الشباب والشيوخ ، ويذهب ضحيتها الأنفس والثمرات . .

وهم يفتخرون بذلك ، وقد أصبح الظلم فى شرعهم مستساغا حتى قال حكيمهم زهير بن أبي سلمى :

ومن لايذد عن حوضه بسلاحه يهدَّم ومن لايظلم الناس يظلم

وقال عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

وقال آخر يهجو قوما ، وأنت تحسبه يمدحهم :

قبيلته لايغدون بذمة ولايظلمون الناس حبة خردل

ولايردون الماء الاعشية اذا صدر الوراد عن كل منهل . .

وأد البنات :

كان العرب يكرهون البنات ويحتقرون شأنهم وقد أدى ذلك الى مايعرف بوأد البنات الذى عيرهم القرآن به فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾ (٩٥)

وحذرهم عاقبة ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾ (٩٦)

---

(٩٥) النحل ٥٨ ، ٥٩

(٩٦) التكوير ٨ ، ٩

وقد ظهر من بينهم من استفظع ذلك الأمر ورفضه ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل الذى أشرنا إلى قصته آنفا . .

ومنهم صعصعة بن معاوية أو ابن ناجية ـ على اختلاف الروايات ـ وهو جد الفرزدق الشاعر ، كان يحيى الموءودة ، واحياؤها كان يغنى أباها فيمنعه من التخلص منها ، لأن الأغلب عليهم ـ كما حكى القرآن عنهم ـ أنهم كانوا يقتلونهم خشية الفقر قال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ (٩٧)

وقد افتخر الشاعر الفرزدق بجده صعصعة هذا وقال :

ومنا الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد

وقال :

ومنا الذى أحيا الوئيد وغالب وعمرو ، ومنا حاجب والأقارع
أولئـك آبائى فجئنى بمثلهم اذا جمعتنا ياجرير المجامع

وذكر ابن الأثير فى أسد الغابة قصة وفود صعصعة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا على لسانه : قدمت على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرض علىَّ الاسلام ، فأسلمت ، وعلمنى آيات من القرآن ، فقلت : يارسول الله ، إنى عملت أعمالا فى الجاهلية فهل لى فيها من أجر .

قال : ماعملت

قلت : ضلت ناقتان لى عشرا وان ، فخرجت أبغيهما على جمل لى ، فرفع لى بيتان فى فضاء الأرض ، فقصدت قصدهما ، فوجدت فى أحدهما شيخا

---

(٩٧) الاسراء ٣١

كبيرا ، فبينما هو يخاطبنى وأخاطبه إذ نادته امرأة : قد ولدت . . قد ولدت .

قال : وماولدت ؟ قالت : جارية .

قال : فادفنيها .

فقلت : أنا أشترى منك روحها ، ولاتقتلها ، فاشتريتها بناقتى : وولديها والبعير الذى تحتى .

وظهر الإسلام وقد أحييت ثلاثمائة وستين موءودة ، اشترى كل واحدة منهن بناقتين عشراوين وجمل . فهل لى من أجر .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا باب من البر ، لك أجره إذ مَنَّ الله عليك بالإسلام (٩٨)

وذكر السهيلى ماقيل من أنهم كانوا يفعلون ذلك، غيرة على البنات ، ولكنه قال : وما قاله الله فى القرآن هو الحق من قوله « خشية إملاق » .

ويروى القرطبى فى وأد البنات قصة قال : روى أن رجلا من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان لايزال مغتما بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه سلم ـ فقال له : مالك تكون محزوناً ؟ فقال : يارسول الله ، إنى أذنبت ذنبا فى الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لى ، فقال له : أخبرنى عن ذنبك ، فقال : يارسول الله ، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لى بنت فتشفعت إلىَّ امرأتى أن أتركها ، فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبوها ، فدخلتنى الحمية ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج فقلت للمرأة : إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثيها معى ، فسرت بذلك وزينتها

---

(٩٨) أسد الغابة فى معرفة الصحابة بن الأثير ج ٣ ص ٢٢ دار الشعب

بالثياب والحلى ، وأخذت على المواثيق ألا أغدر بها .

فذهبت بها إلى رأس بئر ، فنظرت فى البئر ، ففطنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البئر فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول : ياأبت ، ماذا تريد أن تفعل بى ؟فرحمتها ثم نظرت فى البئر فدخلت علىَّ الحمية ثم التزمتنى وجعلت تقول : ياأبت لاتضيع أمانة أمى .

فجعلت أنظر مرة فى البئر ومرة إليها وأرحمها ، حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسة ، وهى تنادى فى البئر : ياأبت قتلتنى ، فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت .

فبكى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وقال : لو أمرت أن أعاقب أحدا بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك (١٠٠) . وهذا الخبر يشير إلى أن وأد البنات قد يكون مرده إلى الحمية والأنفة وقد كان بعضهم يعضل بناته فلا يزوجهن .

ومما يروى فى ذلك ، ماذكره أبوعلى القالى فى أماليه قال :

كان رجل من العرب له ثلاث بنات قد عضلهن ومنعهن الأكفاء ، فقالت احداهن : إن أقام أبونا على هذا الرأى فارقنا وقد ذهب حظ الرجال منا فينبغى لنا أن نعرض له مافى نفوسنا وكان يدخل على كل واحدة منهن يوما . فلما دخل على الكبرى تحادثا ساعة ، فحين أراد الانصراف أنشأت تقول :

أيزجر لاهينا ونلحى على الصبا ... ومانحن والفتيان إلا شقائق
يؤبن حبيبات مرارا كثيرة ... وتنباق أحيانا بهن البوائق

---

(١٠٠) تفسير القرطبى ـ سورة الأنعام ـ ص ٢٥٢٣ ط دار الشعب

فلما سمع الشعر ساءه . ثم دخل على الوسطى فتحادثا . فلما أراد الانصراف أنشدت :

ألا أيها الفتيان إن فتاتكم   دهاها سماع العاشقين فحنت
فدونكم ابغوها فتى غير زُمَّلٍ   والا صبت تلك الفتاة وجنت

فلما سمع شعرها ساءه . ثم دخل على الصغرى فى يومها فتحدثا ، فلما أراد الانصراف أنشدت :

أما كان فى ثنتين مايزع الفتى   ويعقل هذا الشيخ إن كان يعقل
فما هو الا الحل أو طلب الصبا   ولابد منه فأتمر كيف تفعل

فلما رأى تواطؤهن على ذلك زوجهن .

وحكى أيضا قصة همام بن مرة مع بناته حين أراد منعهن من الزواج فاسمعنه شعرا ، فزوجهن .

ويستتبع ذلك الغضب من النساء حين يلدن البنات ، ومن الطرائف الواردة فى ذلك أن رجلا من العرب اسمه أبوحمزة ، غضب من زوجته وهجرها وترك البيت الذى تقيم فيه لأنها ولدت بنتا ، وأقام فى بيت جار له فسمعها يوما ترقص ابنتها وتقول لها :

مالأبى حمزة لايأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا   والله ماذلك فى أيدينا
وانما نأخذ ما أعطينا   ونحن كالأرض لزارعينا
نُنبت ماقد زرعوه فينا

فأثر ذلك فى نفسه ، فعاد إلى بيته (١٠١) .

وقد ذكر بعض الرواة أن بعض العرب كانت لهم عادات فى النكاح باطلة

---

(١٠١) تاريخ أدب العصر الجاهلى لعبدالجواد رمضان وحامد مصطفى ص ٣١

هدمها الإسلام لأنها لاتليق وشرف الأسرة وكرامة الحياة ، ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : ولدت من نكاح لم يصبنى من سفاح الجاهلية شيء .

وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط لا تستطيع أن تخص منها وسطا دون وسط أو صنفا دون صنف اللهم إلا أفرادا من الرجال والنساء ، ممن تعظمت نفوسهم فأبوا الوقوع فى هذه الرذيلة ، وكانت الحرائر أحسن حالا من الإماء ، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار فى الانتساب الى هذه الفاحشة ، روى أبوداود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قام رجل فقال : يارسول الله إن فلانا ابنى ، عاهرت بأمه فى الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لادعوة فى الاسلام ، ذهب أمر الجاهلية ، الولد للفراش ، وللعاهر الحجر . . (١٠٢) . وكان للخمر فى الجاهلية سوقه الرائجة كانوا يشربونها ويتمدحون بذلك قال عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة ... قرنت بأزهر بالشمال مفدم

ولهذا الافراط فى الشراب لم تحرم الخمر فى الاسلام دفعة واحدة ، ولكنها حرمت بالتدريج شيئا فشيئا ، حتى أمكنهم الاقلاع عنها . .

أخلاقهم الحميدة :

ولكن والحق يقال ، كانت للعرب إلى جانب هذه العادات المرذولة أخلاق حميدة يتنافسون فيها . فمن أخلص صفاتهم الوفاء ، لاينكثون

---

(١٠٢) الرحيق المختوم للشيخ صفى الرحمن المباركفورى ـ الجامعة السلفية الهند ص ٥٠

وعدا ، ولايخلون بعهد ، بل إن منهم من كان يقتل فى سبيل الوفاء بعهده ولاينكص عنه . وقصة السموءل بن عاديا ذهبت مضرب الأمثال فى ذلك ، وهو عربى كان يدين باليهودية ، ولكن وفاءه لامرىء القيس الذى استودعه ودائع وهو فى طريقه للاستنجاد بمن يعينه على الأخذ بثأر والده ، جعله يضحى بولده فى سبيل هذا الوفاء .

فقد حدث الرواة أن أعداء امرىء القيس أحاطوا بحصن السموءل فأغلقه عليه دونهم ، وكان له ابن فى خارجه لم يتمكن من الدخول الى الحصن قبل إغلاقه ، فقبض عليه هؤلاء الأعداء ، وهددوا أباه بقتله ان لم يسلم مال امرىء القيس ومتاعه وسلاحه ، فأبى فقتلوه ، فأصبح أمره مثلا يقولون : أوفى من السموءل . .

والسموءل عربى وخلقه العربى الأصيل هو الذى أملى عليه الوفاء بعهده والتضحية فى سبيل ذلك بولده . .

وهو مثل نهديه لأهل زماننا الذين لايرعون للناس حرمة ولايحفظون للعهود ذمة ، ولايعرفون للانسانية طريقا ، ولايحترمون فى سبيل منافعهم المادية ومآربهم الذاتية حليفا أو صديقا .

والعرب فى الكرم مضرب الأمثال يمتدحون به ويفتخرون . . يبذل الواحد منهم مافى يده ومافى بيته إكراما لضيفه ، بل ربما ذبح له ناقته التى هى عماد حياته كلها يقتات بلبنها وينتقل عليها وتحمل متاعه إذا أراد الارتحال من مكان إلى مكان . . ولايقبلون لوم لائم فى الكرم ـ وينظرون إلى المال على أنه عرض زائل ومتاع حائل . . يقول حاتم :

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر . .

وربما دفعهم هذا الكرم إلى تبذير المال فى الشراب ، تفاؤلا باسم الخمر لأنها ابنة الكرم كما يقولون وعنترة يقول :

وإذا شربت فاننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى ..

وقد سجل لنا الحطيئة فى شعره قصة أعرابى هم يذبح ابنه إكراما لضيفه لأنه لم يجد مايقريه به .. لولا ان عناية الله ساقت اليه صيدا فدى ابنه من الذبح . وأكرم به ضيفه . ويستتبع الخمر الميسر ، لأنهم كانوا ينفقون مايربحونه منه فى الكرم .

ومن صفاتهم المحمودة إباء الضيم والحفاظ على العزة والكرامة وعدم الرضوخ للظلم وعدم الرضا بالذل ودفعهم ذلك الى الشجاعة والنجدة والمروءة والمسارعة إلى الحرب وتلبية دعوة الصريخ ..

لايسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ماقال برهانا

وكان شعارهم فى ذلك انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، وهو شعار هذبه الاسلام ، بأن جعل نصرة الأخ الظالم كفه عن الظلم .

لقد كانت لهم مآثر كما كانت لهم رذائل ..

والشعوب كلها فى جميع بقاع الأرض لها محاسنها ولها مساوئها .. ولكن الأمة العربية جعل الله لها مكانة خاصة فهى تجاور حرم الله وتقيم فى منطقة جغرافية هى قلب العالم ووسطه ..

ولهذا جعلها الله مهد الدعوة الاسلامية الراشدة ، واختارها منبت نبينا الكريم الذى جمع الله له المجد من أقطاره واصطفاه من أعظم القبائل مجدا ، ومن أفضل البيوت منزلا ، ومن أكرم الآباء والأمهات نسبا ، وموئلا ..

تطلع الناس إلى الهداية والانقاذ :

وبسبب هذه الحالة تطلع كثير من الناس إلى الهداية وأخذوا يبحثون عن وسائلها بطرقهم المختلفة . .

وكان للمظالم الكثيرة التى أرهقت المستضعفين والأرقاء ، وأثقلت كاهل المظلومين والضعفاء أثر فى التطلع إلى من يأخذ بأيديهم إلى طريق الخلاص الذى يرفع عن كاهلهم الظلم ويأخذ بأيديهم إلى حياة آمنة مستقرة عادلة .

فساد فى كل مكان :

ولم يكن الأمر كذلك فى ربوع الجزيرة العربية فحسب ، بل كان الأمر كذلك فى أنحاء متفرقة من العالم ففى بلاد الروم مظالم ، وفى بلاد الفرس مظالم وفى كل صقع من الأصقاع ضجة وشكوى ففى اليمن فى جنوب الجزيرة العربية . . كان الأحباش يعيثون فى الأرض فسادا بعد أن استولوا عليها ، وقد عرفنا كيف أذلوا الشعب اليمنى اذلالا لامثيل له ، وامتهنوا كرامته ودينه ، وساقوه ليهدموا به الكعبة التى هى مناط عزتهم وشرفهم وكرامتهم .

وحين توجه ابن ذى يزن مستنجدا بقيصر حجبه عن لقائه ولم يسمح له بالدخول حتى يئس وعاد . . ثم توجه شطر كسرى ليعينه ، فاستنكف أن يمده بجيش منظم ، بل أمده بالمسجونين الذين وضعوا فى السجن ليقضوا مدة عقوبة جزاء إجرامهم وخروجهم على القانون الفارسى وعصيانهم للدولة ، فهم بين قاتل أو قاطع طريق ، أو سارق أو متهم فى جريمة من الجرائم التى يعاقب عليها القانون . .

واعتبر الفرس هذه فرصة للتخلص من هؤلاء الذين يعد وجودهم فى البلاد بلاء . . وقال كسرى : إن انتصروا فهو ظفر وإن انهزموا فهو ظفر .

وقُدِّر لهؤلاء أن ينتصروا على الحبشة فى اليمن فبقوا فيها ، وتولى سيف بن ذى يزن الحكم تحت حراب هؤلاء الذين كانوا بالأمس مجرمين وأطلق عليهم اليوم لقب فاتحين . .

وناهيك بما تحمله نفس مجرم أصبح بطلا بين عشية وضحاها . . والذي يدل على عتو الفرس أنهم بعد انتصارهم على الحبشة تقدموا صوب صنعاء ليدخلوها ، ومع وهرز قائدهم راية ، فلما وصلوا الى باب صنعاء قال : لاتدخل رايتى منكسة أبدا اهدموا هذا الباب فهدموا باب المدينة العريقة لتدخل منه راية وهرز منصوبة . . فهل ترى هناك اعتدادا بالقوة أكثر من ذلك ؟

ثم كتب إلى كسرى يقول له : إنى قد ضبطت لك اليمن ، وأخرجت من كان بها من الحبشة ، وبعثت إليك بالأموال .

فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك سيف بن ذى يزن على اليمن . . وفرض كسرى عليه جزية وخَرْجاً يؤديه إليه فى كل عام (١٠٣) .

واغتيل سيف بيد غادرة حبشية ، فأصبح وهرز الفارسى ملكا على اليمن وأورثها ابنه المرزبان بن وهرز وظل الفرس يتوارثونها بعد ذلك . .

وظلت اليمن تحت الولاية الفارسية حتى جاء الاسلام وهى كذلك . وهو الذى رد إليها اعتبارها وخلصها مما كانت فيه من شقاء وبلاء . .

أما الروم وفارس فقد كانتا متناحرتين فيما بينهما ، وقد شهد مطلع الاسلام لونا من هذا الصراع الدامى بينهما ، فقد هزمت الفرس الروم هزيمة

---

(١٠٣) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ص ٢ ص ١١٧

ساحقة استولت فيها على أماكن متعددة منها وخربت بيت المقدس وأخذت الصليب . . ولم تلبث الروم أن استردت النصر وطردت الفرس من البلاد التى استولت عليها وسيأتى الحديث عن ذلك فى موضعه .

وكانت الشام يحكمها عرب الغساسنة وهم نصارى تابعون للروم ولقيصر عليهم سيادة ، وكانت العراق وعاصمتها الحيرة يحكمها المناذرة وهم عرب موالون للفرس . . وكانت بين الشام والعراق مناوشات يتحكم الروم والفرس فى اشعالها واطفائها . . كانت الدولتان تتحاربان بجنود من العرب ، فالعرب هم وقود المعركة فى كل حال .

وكان كل من الفرس والروم ينظرون الى العرب نظرة ازدراء ، يعتقدون أنهم ليسوا أهلا للملك والحضارة والتقدم ، إنما خلقوا ليكونوا تابعين لامتبوعين . .

ولذلك غضبوا حين بعث النبى صلى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرسل إليهم كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام ، استكثروا ذلك ، واستعظموه ، وأمر كسرى عامله على اليمن أن يقبض على النبى أو يقتله . . ولكن الله خيب ظنه فقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ارسلوا لقتله أو القبض عليه بمقتل كسرى ، قال لهم قولوا لمن أرسلكم : إن ربى قتل ربه .

هذا العالم الذى كان يغلى فى منتصف القرن السابع الميلادى كان يتطلع إلى من يطفىء عنه النار ويجعله يشعر بالراحة والاستقرار ، ويرد إليه برد السلامة والأمن بعد طول انتظار فكان ذلك إيذانا بمولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعثه .

التبشير بالنبوة

- نبوة "محمد صلى الله عليه وسلم" قديمة.
- أدلة تثبت علم أهل الكتاب بالنبي "صلى الله عليه وسلم".
- مصادر علم أهل الكتاب بالنبي "صلى الله عليه وسلم".
- قصة في سبب إسلام أبي بكر.
- شهادة شيخ من بني قريظة.
- حديث ربيعة بن نصر ملك اليمن.
- رؤيا مرثد بن عبد كلال.
- قصة إسلام عروة بن الثقفي.



المبشرات التى بشرت بالنبى صلى الله عليه وسلم

هناك الكثير من المبشرات التى بشرت بالنبى صلى الله عليه وسلم .. جاءت على ألسنة الرسل السابقين ، وذكرتها كتبهم المقدسة ، وتواردت على ألسنة الأحبار والرهبان وعلماء أهل الكتاب فى كل مكان .

وقد أخبر القرآن الكريم بذلك حين قال على لسان موسى ـ عليه السلام :

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ
أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ
وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ
ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ
ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ
ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (١٥٧) قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥٨)﴾ (١٠٤)

---

(١٠٤) الأعراف ١٥٦ : ١٥٨

وحين قال على لسان عيسى ـ عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (١٠٥)

وقد ذكر صاحب المنار فى تفسير قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (١٠٦)

قال : قد جاءنا رسولنا المبشر به فى كتبكم ، المنتظر فى اعتقادكم ، فان الله أخبركم على لسان موسى أنه سيقيم نبيا من نبى إسماعيل ، وعلى لسان عيسى بن مريم أنه سيجىء بعده رسول الحق الذى يعلمكم كل شىء ، ولاتزال هذه البشارات فى كتبكم ، وان حرفتموها بسوء قصد منكم . ذلك هو النبى الكامل المعهود الذى سأل أجدادكم عنه يحيى ـ عليه السلام .

فقد جاء فى الانجيل الرابع أن اليهود أرسلوا بعض الكهنة فسألوا يحيى ـ عليه السلام ـ يوحنا ـ أأنت المسيح ؟ قال : لا ، قالوا أأنت إيليا ؟ قال : لا ، قالوا : أأنت النبى ؟ قال : لا . . فقولهم : أأنت النبى إشارة الى أنهم كانوا يعرفون أن هناك نبيا سيبعث . .

---

(١٠٥) الصف ٦

(١٠٦) المائدة ١٩

ذلك هو الرسول محمد النبى العربى الأمى الذى يبين لكم على فترة ـ اى انقطاع ـ من الرسول وطول عهد على الوحى ـ جميع ماتحتاجون إليه من أمر دينكم ، ومايصلح به أمر دنياكم من العقائد السليمة ، والأخلاق والآداب الصحيحة التى أفسدها عليكم الافراط والتفريط فى الأمور المادية والروحية كما يبين لكم العبادات والأحكام التى تصلح بها أموركم الشخصية والاجتماعية .

وقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يكون انقاذ هذا العالم الذى يعانى من الضلال والفساد على يد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى اصطفاه منذ الأزل ، واختاره ليكون خاتم الأنبياء والرسل ، وقد أخذ العهد والميثاق على كافة الانبياء السابقين عليه أن يؤمنوا به ، ويبشروا به ويدعون أممهم الى الايمان به عند بعثته . .



وقد جاء ذلك فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١٠٧)

---

(١٠٧) آل عمران ٨١ ، ٨٢

روى ابن كثير فى تفسيره عن على بن أبى طالب وابن عمه عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما : قال : مابعث الله نبيا من الانبياء إلا أخذ عليه الميثاق أن يؤمن بمحمد ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . . (١٠٨) .

ومقتضى هذا أن رسالته صلى الله عليه وسلم خاتمة وشريعته ناسخة ، والكتاب الذى جاء به مهيمن على ماسبقه من الكتب ففيه ماتضمنته وزيادة . .

قال ابن كثير : فالرسول محمد ـ صلوات الله ـ وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء وهو الذى يجب على جميع الخلق اتباعه والايمان برسالته وهو آخر الرسل والأنبياء والمقدم عليهم ولهذا كان إمامهم ليلة الأسراء ، لما اجتمعوا فى بيت المقدس ، وهو الشفيع فى يوم الحشر وصاحب المقام المحمود الذى لايليق إلا له ، والذى يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين فهو صاحب الشفاعة العظمى .

نبوة محمد قديمة :

وربما أسلم هذا الكلام إلى سؤال هو : متى كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا وللاجابة عن ذلك نقول : إن نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم فى علم الله قديمة ـ روى الترمذى فى صحيحه قال : حدثنا أبوصالح قال حدثنى معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد عن عبدالأعلى بن هلال السلمى عن العرياض بن سارية صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إنى

---

(١٠٨) تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٥٥

عبدالله وخاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته ، وسأخبركم عن ذلك : دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى التى رأت ، وان أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام . (١٠٩) .

أما دعوة ابراهيم فيحققها قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١١٠)

وأما بشارة عيسى فهى التى أخبر بها قومه ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد . .

وأما رؤيا أمه فقد فسرها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديثه . . .

وأخرج الحاكم فى المستدرك وصححه ، كما أخرجه غيره ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لما اقترف آدم الذنب قال : يارب بحق محمد أن تغفر لى ، فقال الله : ياآدم وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه قال : يارب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا : لا اله الا الله محمد رسول الله ، فقلت إنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله : صدقت ياآدم ، إنه لأحب الخلق إلىَّ ، ادعنى بحقه فقد غفرت لك . . (١١١) .

---

(١٠٩) دلائل النبوة للبيهيقى حـ ١ ص ٦٩

(١١٠) البقرة ١٢٩

(١١١) المستدرك حـ ٢ ص ٦٥١ البيهقى فى دلائل النبوة ـ الحافظ السيوطى فى الخصائص ـ والطبرانى فى الأوسط .

وذكر ابن تيمية فى فتاواه حديثا بهذا المعنى قال : روى أبوالفرج ابن الجوزى بسنده إلى ميسرة قال : قلت يارسول الله متى كنت نبيا قال :

﴿ لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الانبياء ، وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء ، فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمى ، فأخبره الله أنه سَيِّد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه (١١٢) .

فهذه الآثار تشير إلى قدم نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن الله اختاره فى علمه الأزلى ليكون هاديا وبشيرا ونذيرا فى آخر الأمم ، وأنه قربه واصطفاه وأخذ العهود على الأنبياء أن يبشروا بقدومه ويأخذوا العهود والمواثيق على أممهم أن يؤمنوا به . .

بل لقد أشار بعض المفسرين إلى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر للأنبياء السابقين خصائص هذه الأمة التى شملها برحمته حتى أطلق عليها لقب الأمة المرحومة ، وهى أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

البشريات السابقة :

لقد أصبح لزاما على كل نبى يبعث ورسول يرسل بناء على ذلك الميثاق الذى أخذه الله على النبيين أن يخبر كل نبى أمته برسول آخر الزمان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويذكر لهم أوصافه وهيئته وزمنه وربما تجاوز ذلك إلى ذكر بعض أوصاف قومه وأخص صحابته والسابقين الأولين من المؤمنين به .

---

(١١٢) فتاوى ابن تيمية جـ ٢ ص ١٥٠ ومفاهيم يجب ان تصحح لمحمد علوى المالكى ص ٤٧

وبذلك أخذ أهل الكتاب يتناقلون خبر بعثته فيما بينهم ويتحدثون عن البشارات الواردة فى كتبهم ، ولقد كان ذلك سببا فى إسلام كثير منهم حينما بعث صلى الله عليه وسلم . . ومن أئمة اليهود الذين أسلموا بناء على تلك البشارات التى وردت فى الكتب السابقة عبدالله بن سلام ، ومن أئمة النصارى تميم الدارى ، وكلاهما كان من أخلص الصحابة وأصدقهم ايمانا ، ومن غير هؤلاء سلمان الفارسى وكان مجوسيا وصل اليه علم هذه البشارات عن طريق النصارى الذين التقى بهم فى بلاده . . ومازال يكابد فى سبيل الوصول إلى الحقيقة حتى استرق فى ذلك ، وبيع بيع العبيد فى المدينة ، حتى هاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها فأسلم وحسن إسلامه ـ وستأتى قصته إن شاء الله تعالى فيما بعد .

إلا أن الغالبية الساحقة من اليهود والنصارى كتموا هذه البشارات أو زيفوها وتوارثوا هذا الكتمان والتزييف الى يومنا هذا ، مع أن الحق أحق أن يتبع . . ومازالت شمس الحقيقة الساطعة تنادى راغبى النور إلى اعتناق الاسلام . . وهناك من يلبى دعوتها بعد ان تبين له الحق ، وهذه الأنباء المتوالية تقدم إلينا كل يوم أسماء لامعة تعلن عن إسلامها طائعة مختارة عن اقتناع كامل ويقين صادق . .

ولافائدة من مكابرة هؤلاء الذين يزعمون أن الكتب السابقة ليس فيها تبشير بالنبى المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو إخبار عن رسالته . . ذلك أن الرد عليهم ميسور ، وأن كذبهم فى ذلك ظاهر .

ترسب هذه البشارات فى أعماق أهل الكتاب

على الرغم من إنكار أهل الكتاب لهذه البشارات وتعمدهم اخفاءها أو

تزييفها أو تأويلها بصرفها عمَّن وردت فيه الى غيره .. إلا ان كثيرا منهم يؤمن بها ويعتقد صحتها ويكتم ايمانه خوفا أو حقدا أو حسدا وقد جاء فى القرآن الكريم مايشير إلى هذا المعنى . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (١١٣)

قال ابن كثير فى تفسير هاتين الآيتين : يخبر الله تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشيء بهذا . كما جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال لرجل معه طفل صغير :ابنك هذا ؟ قال : نعم يارسول الله ، أشهد به . قال : أما أنه لايجنى عليك ولاتجنى عليه (١١٤)

ثم أخبر ـ تعالى ـ أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمى ليكتمون الحق وهو مافى كتبهم من صفة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (١١٥) ولقد أصبحت صفة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أهل الكتاب علما بينهم يتوارثونه ولايكادون يفشونه على الملأ ، حتى إذا حزبهم أمر فزعوا إلى الاستنصار بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبى آخر الزمان ، فينصرهم الله

---

(١١٣) البقرة ١٤٦ ، ١٤٧
(١١٤) مسند احمد ٥ / ٨١
(١١٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٠

به ، حتى إذا جاء هذا النبى من عالم الغيب إلى الظهور كفروا به . . وقد قص القرآن الكريم قصة ذلك حين قال :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١١٦)

قال محمد بن اسحاق : أخبرنى محمد بن أبى محمد ، أخبرنى عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ماكانوا يقولونه فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور ، أخو بنى سلمة : يامعشر يهود ، اتقوا الله ، وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ماجاءنا بشىء نعرفه ، وماهو بالذى كنا نذكر لكم ، فأنزل الله تعالى الآية السابقة . (١١٧) .

لقد كان هؤلاء اليهود يستنصرون على العرب المشركين بقولهم : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم ، فلما بعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

---

(١١٦) البقرة ٨٩

(١١٧) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٧٨

أدلة تثبت علمهم بالنبى صلى الله عليه وسلم

ذكر وهب بن منبه قال : قرأت فى بعض الكتب المنزلة على بنى إسرائيل . . قم فى قومك وقل : ياسماء اسمعى ويا أرض أنصتى ، لأن الله ـ تعالى ـ يريد أن يقص شأن بنى إسرائيل إنى ربيتهم بنعمتى وآثرتهم بكرامتى واخترتهم لنفسى ، وإنى وجدت بنى إسرائيل كالغنم الشاردة التى لا راعى لها ، فرددت شاردتها ، وجمعت ضالتها ، وداويت مريضها ، وجبرت كسيرها ، وحفظت سمتها ، فلما فعلت ذلك بها بطرت فتناطحت كباشها ، فقتل بعضها بعضا ، فويل لهذه الأمة الخاطئة ، وويل لهؤلاء القوم الظالمين ، إنى قضيت ذلك يوم خلقت السموات والأرض قضاء حتما ، وجعلت له أجلا مؤجلا لابد منه ، فإن كانوا يعلمون الغيب فليخبروك متى حتمته ، فى أى زمان يكون ذلك فإنى مظهره على الدين كله فليخبروك متى يكون هذا وَمَنْ القيم به ومن أعوانه وأنصاره إن كانوا يعلمون فإنى باعث بذلك رسولا من الأميين ، ليس بفظ ولاغليظ ولاصخاب فى السوق ، ولاقوَّال بالهجر والخنا ، أسدده لكل جَميل وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة على لسانه ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والإسلام ملته ، أرفع به الوضيعة ، وأغنى به من العيلة ، وأهدى به من الضلالة ، وأؤلف به بين قلوب متفرقة وأهواء مختلفة ، وأجعل أمته خير الأمم ، ايمانا بى وتوحيدا وإخلاصا لما جاء به رسولى ، ألهمهم التسبيح والتحميد والتمجيد لى فى مساجدهم وصلواتهم ومتقلبهم ومثواهم ، يخرجون من

ديارهم ويتركون أموالهم ابتغاء مرضاتى يقاتلون فى سبيلى صفوفا ، ويصلون لى قياما وركوعا وسجودا ، يكبرون على كل شرف رهبان الليل أسد النهار ذلك فضلى على من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم(١١٨) .

مصادر علم أهل الكتاب بالنبى :

لقد استقى أهل الكتاب علمهم بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وصفته من عدة مصادر . . أحدها تلك الكتب المنزلة - مابقى منها بدون تحريف أو تزييف - وقد توارث بعضها علماؤهم الذين عضوا عليها بالنواجذ ، إن لم يكن حفاظا عليها فخوفا من أن يستاقط مافيها من علوم إلى غيرهم . .

وثانيها : ماكانت تأتى به الجن إلى كهانهم ، وكانت الجن والشياطين تسترق السمع من السماء قديما قبل بعثة النبى - صلى الله عليه وسلم .

جاء فى السيرة الحلبية : قال ابن إسحاق : وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مبعثه لما تقارب زمانه ، أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى فلِماَ وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه .

وأما الكهان من العرب فجاءتهم الجن فيما تسترق السمع ، إذ كانت لاتحجب عن ذلك كما حجبت عند ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثته .

وكان الكاهن والكاهنة لايزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، ولاتلقى العرب لذلك بالا حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرونها فعرفوها ، وهذا فيه تصريح بأن الملائكة كانت تذكره - صلى الله

---

(١١٨) خير البشر ص ٣٩

عليه وسالم ـ قبل وجوده . وكانت الجن تسترق بعض تلك الأخبار وتخبر بها .

من أخبار أحبار اليهود

(١) جاء عن سلمة بن سلامة وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بنى عبدالأشهل فَذَكَر عند قوم من أصحاب الأوثان القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار .

فقالوا له : ويحك يافلان ، أو ترى هذا كائنا ان الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم .

قال : نعم ، والذى يحلف به فهل تريدون طريقا للنجاة من تلك النار سيظهر ذلك قريبا .

فقالوا له : ويحك ، ومآية ذلك

قال : نبى يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمن .

قالوا : ومن يراه

فنظر إلىَّ وأنا من أحدثهم سنا ، فقال : إن يستكمل هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة : والله مامضت مدة حتى بعث الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ـ اى ذلك اليهودى ـ بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفر بغيا وحسدا ، فقلنا له : ويحك يافلان ، ألست الذى قلت لنا فيه ماقلت قال : بلى ولكن ليس به (١١٩) .

---

(١١٩) السيرة الحلبية حـ ١ ص ٢٩٩ ط دار المعرفة ببيروت ـ واسد الغابة فى معرفة الصحابة حـ ٢ ص ٤٢٩ ترجمة سلمة رقم ٢١٧٠ .

إنه الحسد الذى حال بين هذا اليهودى وبين الإسلام ، وهذا ماأخبر به القرآن الكريم عنهم حين قال :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (١٢٠)

إنهم لم يكتفوا بعدم الإيمان بل تعمدوا التحريف وإخفاء الحقائق وكتمانها ، وليس هذا بجديد عليهم إنه ميراث لهم منذ عهد موسى ـ عليه السلام .

ألم يذهبوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ فيقولوا له : ياموسى ، قد حيل بيننا وبين رؤية الله تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلمك .

فطلب ذلك موسى إلى ربه ـ تعالى ـ فقال : نعم ، مرهم فليتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا ، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور ، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا ، فوقعوا سجودا ، وكلمه ربه ـ تعالى ـ فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم ، حتى عقلوا عنه ماسمعوا ، ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل ، فلما جاءهم حرَّف فريق منهم ما أمرهم الله به ، وقالوا حين قال موسى لبنى اسرائيل : إن الله قد أمركم بكذا وكذا .

---

(١٢٠) البقرة ٧٥ : ٧٧

قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله : إنما قال كذا وكذا ، خلافا لما قال الله عز وجل لهم .

وقال أبوالعالية ـ فيما يحكيه ابن كثير : عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم من نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحرفوه عن مواضعه .

وقال ابن اسحاق روايا ماقاله ابن عباس : إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا أى بصاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لاتحدثوا العرب بهذا ، فإنكم كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم [١٢١]

(٢) وحدث ابن ظفر قال : روى أن أمير المؤمنين عليا ـ رضى الله عنه ـ نزل بالبليخ إلى جنب دير ، فأتاه قيِّم الدير فقال : ياأمير المؤمنين ، إنى ورثت عن آبائى كتابا قديما كتبه أصحاب المسيح ـ عليه السلام ـ فإن شئت قرأته عليك ، قال : نعم ، هات كتابك ,

فجاء بكتاب فإذا فيه : الحمد لله الذى قضى فيما قضى ، وسطر فيما سطر أنه باعث فى الأميين رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدلهم على سبيل الجنة ، ليس بفظ ولاغليظ ولاصخاب فى الأسواق ولايجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، وأمته الحمادون لله فى كل هبوط ونشز وصعود ، ذلَّل ألسنتهم بالتكبير والتهليل ، ينصر دينهم على كل من ناوأه .

(٣) وروى عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلا جاء الى كعب الأحبار من بلاده باليمن فقال : إن فلانا الحبر اليهودى أرسلنى إليك برسالة :

---

(١٢١) تفسير ابن كثير حـ ١ ص ١٦٥

فقال له كعب : هاتها :

قال الرجل : إنه يقول لك : ألم تكن فينا سيدا شريفا مطاعا فما الذى أخرجك من دينك إلى أمة محمد .

فقال له كعب : أتراك راجعا ؟

قال : نعم .

قال : فان رجعت إليه ، فخذ بطرف ثوبه لئلا يفر منك ، وقل له : يقول لك كعب : أسألك بالذى رد موسى إلى أمه ، وأسألك بالذى فَرَق البحر لموسى ، وأسألك بالذى ألقى الألواح إلى موسى بن عمران فيها علم كل شيء ، ألست تجد فى كتاب الله أن أمة محمد ثلاثة أثلاث • فثلث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يدخلون الجنة برحمة الله ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة فإنه سيقول لك : نعم . فقل له : يقول لك كعب : اجعلنى فى أى هذه الأثلاث شئت .[١٢٢] .

(٤) قصة فى سبب إسلام أبى بكر

روى ابن الأثير فى أسد الغابة قصة فى سببب اسلام ابى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال : روى عبدالله بن مسعود عن ابى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : خرجت إلى اليمن فى تجارة قبل مبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت على شيخ من الأزد عالم ، قد قرأ الكتب وحوى علما كثيرا ، وأتى عليه من العمر ثلاثمائة وتسعون سنة .

فلما تأملنى قال : أحسبك حرميا . أى من أهل الحرم .

قال أبوبكر : نعم ، ، أنا من أهل الحرم .

---

(١٢٢) خير البشر ص ٤١

قال : أحسبك تيميا .

فقلت : نعم ، أنا من تيم بن مرة .

قال : بقيت لى فيك واحدة .

قلت : ماهى

قال : اكشف عن بطنك .

قلت : لاأفعل أو تخبرنى لم ذلك ؟

فقال : إنى أجد فى العلم الصحيح الصادق أن نبيا يبعث فى الحرم ، يعاونه على أمره فتى وكهل ، فأما الفتى فخواض غمرات وكشاف معضلات .

وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة ، وعلى فخذه اليسرى علامة ، فلا عليك أن ترينى ماخفى علىَّ .

قال ابوبكر : رضى الله عنه ـ فكشفت له عن بطنى ، فرأى شامة سوداء فوق سرق .

فقال : أنت هو ورب الكعبة ، وإنى متقدم إليك فى أمر فاحذره .

فقلت : وماهو ؟

قال : إياك والميل عن الهدى ، وتمسك بالطريقة المثلى ، وخف الله ـ عز وجل ـ فيما أعطاك وخولك قال أبوبكر ـ رضى الله عنه : فقضيت باليمن حاجاتى ، ثم أتيت الشيخ لأودعه .

فقال : أحامل أنت منى أبياتا إلى ذلك النبى ؟

قلت : نعم ـ فأنشأ يقول :

ألم ترانى قد سئمت معاشرى . ونفسى وقد أصبحت فى الحى راهنا (١٢٣)
حييت وفى الأيام للمرء عبرة ثلاث مئين ثم تسعين آمنا
وصاحبت أحبارا أناروا بعلمهم غياهب جهل ماترى فيه طابنا (١٢٤)
وكم عفشليل راهب فوق قائم لقيت وماغادرت فى الأرض كاهنا (١٢٥)
فكلهم لما تعطشت قال لى : بأن نبيا سوف يلقاه دائنا
بمكة والأوثان فيها عزيزة فيركسها حتى تراها كوامنا
فمازلت أدعو الله فى كل حاضر حللت به سرا وجهرا معالنا
وقد خمدت منى شرارة قوتى وألفيت شيخا لا أطيق الشواجنا (١٢٦)
وأنت ورب البيت تلقى محمدا بعامك هذا قد أقام البراهنا
فحيٍّ رسول الله عنى فإننى على دينه أحيا وإن كنت واهنا
فياليتنى أدركته فى شبيبتى فكنت له عبدا وإلا العجاهنا (١٢٧)
عليه سلام الله ماذر شارق فألق هفهافا من النور هافنا (١٢٨)
وماسنخت بالجهلتين وشيجة وماخلد الطود المتالع عادنا (١٢٩)

---

(١٢٣) راهنا : مقيما ثابتا .
(١٢٤) طابنا : الطابن العارف بالشىء الخبير به
(١٢٥) العفشليل : الجافى الثقيل
(١٢٦)الشواجن : الأرض الغليظة ـ يقصد أنه لايطيق السير فيها لضعفه .
(١٢٧) العجاهن : هو الذى يتلهى ويضحك منه ، وهو فى الأصل رجل يحضر العرس للاضحاك .. يقصد أننى اكون فى خدمته وبعض حاشيته ولو للاضحاك .
(١٢٨) ذر شارق : أشرق صباح ، والق : برق ولمع .
والهفهاف : الرقيق المضطرب والهافن : الضعيف
(١٢٩) سنخت : تغيرت ـ الجهلتين : جانبى الوادى .
الوشيجة : عروق الشجر الملتفة المتداخلة المتالع : المطاول عادنا : مقيما .

قال أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ فحفظت وصيته وشعره ، وقدمت مكة ، فجاءنى شيبة بن ربيعة ، وأبوجهل بن هشام ، وأبوالبخترى ، وعقبة بن أبى معيط ، ورجالات قريش مُسَلِّمِينِ علىَّ .

فقلت : هل حدث أمر ؟

قالوا : حدث أعظم الخطوب ، هذا يتيم أبى طالب زعم أنه نبى أرسله الله إلى الناس ، ولولا أنت ماانتظرنا به ، فإذْ جئت فأنت النهية .

قال : فأظهرت لهم تعجبا ، وصرفتهم فى أحسن حال ، وذهبت أسأل عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم فقيل لى : هو فى منزل خديجة بنت خويلد . فقرعت الباب عليه ، فخرج إلىَّ . .

فقلت : يامحمد ، فقدت من نادى قومك ، واتهموك بالغيبة ، وتركت دين آبائك .

فقال : ياأبا بكر ، إنى رسول الله إليك وإلى الناس كلهم فآمن بالله .

قلت : وماآيتك

قال : الشيخ الذى لقيته باليمن .

فقلت : وكم من شيخ قد لقيت ، وبعت منه واشتريت ، وأخذت وأعطيت .

قال : الشيخ الذى أخبرك عنى وأفادك الأبيات .

قلت : ومن أخبرك بهذا ياحبيبى

قال : الملك المعظم الذى كان يأتى الأنبياء قبلى .

قلت : أشهد ألا اله إلا الله ، وأنك رسول الله .

قال أبوبكر ـ رضى الله عنه : وانصرفت ومأأحد أشد سرورا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باسلامى .[١٣٠]

(٥) شهادة شيخ من بنى قريظة

وروت السيرة الحلبية قالت : حدث شيخ من بنى قريظة قال : إن رجلا من يهود أهل الشام يقال له ابن الهيبان ، قدم إلينا قبل الإسلام بسنين ، فحل بين أظهرنا ، والله مارأينا رجلا قط من اليهود أفضل منه .

فأقام عندنا ، فكنا إذا قحط المطر ـ احتبس ـ قلنا له : اخرج يابن الهيبان فاستسق لنا .

فيقول : لا والله حتى تقدموا بين يدى نجواكم صدقة .

فنقول له : كم

فيقول : صاعا من تمر ، ومُدَّيْن من شعير ، فنخرجها .

ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى لنا ، فوالله مايبرح من محله حتى يمر السحاب ونسقى وقد فعل ذلك غير مرة . ثم حضرته الوفاة عندنا ، فلما عرف أنه ميت قال : يامعشر يهود ماترينه أخرجنى من أرض الخمر والخمير[١٣١] إلى أرض البؤس والجوع

قلنا : أنت أعلم .

قال : فانما قدمت هذه الأرض أتوكف[١٣٢] خروج نبى قد أظلنا زمانه ، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه فقد أظلكم زمانه ، فلا تُسْبَقُن إليه

---

(١٣٠) اسد الغابة فى معرفة الصحابةلابن الاثير جـ ٢ ص ٣٠٩ ط دار الشعب ـ والابيات من ابن ظفر ص ٦٧ .

(١٣١) الخمير : الشجر الملتف

(١٣٢) انتظر واتوقع

يامعشر يهود ، فإنه يبعث بالرسالة الخاتمة فلا تخالفوه ولاتحاربوه حتى لاتسفك دماؤكم وتسبى ذراريكم .

فلما بعث الله رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحاصر بنى قريظة قال لهم نفر من هَدَل (١٣٣) .

يابنى قريظة ، والله إنه لهو بصفته ، فنزلوا وأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم . .

بشريات أخرى :

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ولكنَّ هناك كهانا كانوا يتلقون الأخبار عن توابعهم من الجن ، فيخبرونهم بقرب ظهور نبى آخر الزمان فى مكة . .

ولقد سَرَتْ هذه الأخبار حتى عرفها كثير من العرب ، ومنهم المتحنفون الذين سبق أن تحدثنا عن بعضهم ، ومنهم غير المتحنفين ، ونذكر هنا بعض الشواهد التى تشير إلى ذلك .

حديث ربيعة بن نصر ملك اليمن :

جاء فى سيرة ابن هشام : رأى ربيعة بن نصر ملك اليمن فى منامه رؤيا هالته وفظع بها ، فلم يترك كاهنا ولاساحرا ولا عالما ولا منجما من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها . .

قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها .

قال : إنى انْ أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لايعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها .

---

(١٣٣) هدل ـ بفتح الهاء والدال وقيل بسكونها أخوة بنى قريظة وهم ثعلبة بن سعية واسد بن عبيد

فقال رجل منهم : إن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق ، فإنه ليس أحد أعلم منهما - فهما يخبرانه بما سأل عنه .

واسم سطيح : ربيع بن ربيعة بن مسعود الغسانى - وسمى بسطيح لأنه كان جسما ملقى لايستطيع الحركة ، ولايقدر على الجلوس إلا إذا غضب .

واسم شق : شق بن صعب بن يشكر من أنمار ، وسمى بشق لأنه كان شق إنسان - يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . .

فبعث الملك إليهما . . فجاء سطيح قبل شق ، فقال له الملك : إنى رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها فأخبرنى عنها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها .

قال سطيح : رأيت حممة خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة فأكَلَتْ منها كل ذات جمجمة .

فقال الملك : ما أخطأت منها شيئا ياسطيح . فما عندك من تأويلها

قال : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن مابين أبين إلى جرش .

فقال الملك : وأبيك ياسطيح إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن أفى زمانى هذا أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين .

قال أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع

قال : لا ، بل ينقطع بعد بضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين .

قال : من يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم

قال : يليه إرم ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحدا منهم باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع .

قال : ومن يقطعه ؟

قال : يقطعه نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى .

قال : وممن هذا النبى ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون يسعد فيه المحسنون ، ويشقى المسيئون .

قال : أحق ماتخبرنى ؟

قال : نعم ، والشفق والغسق والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق .

ثم قدم شق . فسأله الملك كما سأل سطيح ، وكتمه ماقال سطيح ، لينظر أيتفقان أم يختلفان ؟

فقال شق : رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نسمة .

فلما قال له ذلك ، عرف الملك أنهما قد اتفقا وأن قولهما واحد ـ فى المعنى .

فقال الملك : ماأخطأت ياشق منها شيئا ، فما تأويلها

قال : أحلف بمابين الحرتين من إنسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان وليملكن مابين أبين إلى نجران .

فقال الملك : وأبيك ياشق ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن أفى زمانى أم بعده ؟

قال : لا بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان ، ويذيقهم أشد الهوان .

قال : ومن هذا العظيم الشان ؟

قال : غلام ليس بدنى ولامدن ، يخرج عليهم من بيت ذى يزن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتى بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، ويكون المُلك فى قومه إلى يوم الفصل .

قال : ومايوم الفصل ؟

قال : يوم تجزى فيه الولاة ، ويدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه بين الناس الميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات .

قال : أحق ما تقوله ؟

قال : إى ورب السموات والأرض ، ومابينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ، مافيه أمض[135] فسطيح وشق بمالُهما من كهانة قد أُخْبِرا

---

(١٣٥) الروض الانف للسهيلى حـ ١ ص ٢٦

عن طريق تابعيهما من الجن بمبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال السهيلى: لقد ولد سطيح وشق فى اليوم الذى ماتت فيه طريفة الكاهنة، امرأة عمرو بن عامر ودعت قبل أن تموت بسطيح، فأُتِيت به، فتفلت فى فيه، وأخبرت أنه سيخلفه فى علمها وكهانتها.. وكانت الكهانة فى العرب قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما بعث نبينا وحرست السماء بالشهب ومنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة بطل علم الكهانة وأزهق الله أباطيل الكهان بالفرقان الذى فرق الله به بين الحق والباطل.

رؤيا مرثد بن عبدكلال:

ومما يقرب من هذه الرؤيا التى رآها ربيعة بن نصر، ماراه مرثد بن عبدكلال (١٣٦) وكان سيدا مطاعا فى قومه.. وكان قد غزا غزوة عاد منها مظفرا، فتوافد عليه زعماء العرب وشعراؤهم وخطباؤهم يهنئونه، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعهم عطاء، واشتد سروره بتقريظ الخطباء والشعراء وبينما هو على ذلك إذ رأى فى منامه ذات ليلة رؤيا أخافته وهالته فى حال منامه، فلما انتبه أنسيها حتى مايذكر منها شيئا.

وثبت ارتياعه لها فى نفسه، فانقلب سروره حزنا، واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن.

ثم إنه حشد الكهان، فجعل يدعو بكل كاهن ويقول له: أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه. فيجيبه الكاهن بأنه لا علم عنده بذلك.

---

(١٣٦) هذا الخبر فى كتاب خير البشر ص ٩٦.

حتى انه لم يدع كاهنا عرفه إلا كان منه إليه ذلك الرد . أى أنه لايعلم شيئا عما يريده . . فتضاعف قلقه : وطال أرقه ، وكانت أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن إن الكواهن ـ جمع كاهنة ـ أهدى إلى ماتسأل عنه ، لأن اتباع الكواهن ألطف وأظرف من اتباع الكهان .

فأمر الملك بحشر الكواهن إليه ، وسألهن كما سأل الكهان ، فلم يجد عند واحدة منهن ماأراد علمه ولما يئس من معرفة تلك الرؤيا سلا عنها . .

ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد ، فأوغل فى طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرأى بعض البيوت فى ذراجبل ، وقد لفحه الهجير ، [(١٣٧)] فعدل إليها ، وقصد بيتا منها كان منفردا عنها .

فبرزت إليه عجوز ، فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المدعذعة ، والعلبة المترعة . [(١٣٨)]

فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس وخفقت عليه الريح نام فلم يستيقظ حتى تصرم الهجير ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا بين يديه فتاة لم ير مثلها جمالا ولاقواما .

فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك الهمام ، هل لك فى الطعام فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما أنها قد عرفته ، وتصامم عن كلمتها .

---

(١٣٧) الهجير : الحر .

(١٣٨) الجفنة المدعذعة : التى ملئت ثم حركت حتى تراص مافيها ثم ملئت بعد ذلك ، والعلبة : اناء اللبن ، المترعة : المليئة .

فقالت له : لا حذر ، فداك البشر ، فجدك الأكبر [١٣٩] وحظنا بك الأوفر .

ثم قربت إليه ثريدا قديدا وحَيْساً ، وقامت تذب عنه حتى انتهى أُكله ، ثم سقته صريفا وضريبا .[١٤٠] فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مقبلة ومدبرة ، فملأت عينيه حسنا وقلبه هوى .

فقال لها : ماسمك ياجارية ؟

قالت : اسمى عفيراء .

قال لها : ياعفيراء من الذى دعوت الملك الهمام ؟

قالت : مرثد عظيم الشان ، حاشر الكواهن والكهان ، لمعضلة بَعَلَ [١٤١] بها الجان .

فقال : ياعفيراء ، تعلمين ماتلك المعضلة ؟

قالت : أجل ، أيها الملك الهمام ، إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث أحلام ،

قال الملك : أصبت ياعفيراء ، فما تلك الرؤيا ؟

قالت : رأيت أعاصير وزوابع ، بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان ساطع ، يقفوها نهر متدافع ، وسمعت فيها أنت سامع ، دعاء ذى

---

(١٣٩) جدك : حظك

(١٤٠) الصريف : اللبن المحض ـ والضريب : اللبن الرائب .

(١٤١) بعل بها : ضاق بها ولم يستطع حلها .

جرس صادع ، هلموا إلى المشارع ، علموا إلى المشارع رَوِى جارع ، وغرق كارع .[١٤٢]

قال الملك : أجل هذه رؤياى . فما تأويلها

قالت : الزوابع : ملوك تتابع - اى يتبع بعضها بعضا أو جمع تبع من ملوك اليمن - والنهر علم واسع والداعى نبى شافع ، والجارع ولى له يتابع ، والكارع عدو له منازع .

قال الملك : ياعفيراء أسِلْم هذا النبى أم حرب ؟

قالت : أقسم برافع السماء ومنزل الماء من العماء ، إنه لمبطل الدماء غير مفرق بين العقائل والإماء .

قال الملك : إلى ماذا يدعونا ياعفيراء .

قالت : إلى صلاة وصيام ، وصلة أرحام ، وكسر أصنام ، وتعطيل أزلام ، واجتناب آثام .

قال الملك : ياعفيراء مَنْ قومه ؟

قالت : مضر بن نزار ، ولهم منه نقع مثار[١٤٣] يجلى عن موت وإسار .

قال : ياعفيراء إذا عاداه قومه فَمَن أعضاده ؟

قالت : أعضاده غطاريف يمانون ، طائرهم به ميمون ، يأمرهم فيطيعون ، ويدمث بهم الحزون[١٤٤] والى نصره يعتزون .

---

(١٤٢) ساطع ، مرتفع ، الجرس : الصوت ، المشارع : المداخل الى النهر - ، روى جارع : من شرب جرعا روى ، غرق كارع : من شرب حتى امتلأ غرق .

(١٤٣) النقع المثار : التراب المتصاعد تقصد حروبا تثير الخيل فيه التراب .

(١٤٤)يسهل بهم الصعاب

فأطرق الملك يؤامر نفسه فى خطبتها ، فقالت : أبيت اللعن ، إن تابعى غيور ، ولأمرى صبور ، وناكحى مقبور ، والكَلَف بى ثبور .

فنهض الملك مبادرا ، فجال فى صهوة جواده وانطلق فبعث إليها بمائة ناقة كوماء .

فانظر كيف رأى مرثد رؤياه التى تشير إلى بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستطاعت هذه الكاهنة أن تفسرها له عن طريق تابعها الذى كان يسترق السمع من السماء ، فيخبر بما يسمعه متبوعيه من الكواهن والكهان .

قصة إسلام عروة بن مسعود الثقفى :

ذكر الرواة أن عروة بن مسعود الثقفى كان غائبا عن الطائف حين حاصرها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح مكة ، فلما ارتحل النبى عنها جاء عروة ، فلقى غيلان بن سلمة ، فقال له عروة : ألا ترى علو أمر محمد واتباع الناس له :؟

قال له غيلان : بلى قد رأيت ، فماذا عندك فى أمره ؟
قال عروة : إن العرب يرون أن لنا رأيا ودهاء ، ولسنا كذلك إن لم نتبعه ونؤمن به .

قال غيلان : ما أحب أن يسمع أحد من ثقيف هذا القول منك ، وإنى

لأخافها عليك وان كنت سيدها قال عروة : والله ماينبغى أن تجهل صدق مقالتى وأن محمدا نبى ، وإنى معتمده فمتبعه وذاكر لك أمرا لم أذكره لأحد قط . .

قال غيلان : ماهو ؟

قال عروة : قصدت نجران لتجارة قبل أن يظهر محمد ويخالف قومه ، فغورت تحت سرحة منتبذا [١٤٥] من أصحابى ، فاذا جاريتان تسوقان بَهْماً إلى السرحة ، فحجرتا البهم [١٤٦] فى ناحية من ظل السرحة وجلستا وأنا مضطجع فتناومت .

فقالت إحداهما للأخرى : من هذا يابنة الاكرمين ؟

قالت الأخرى : هذا عروة بن مسعود ، سيد غير مسود ، مفيض جود ، وعصره منجود .

قالت لها : صدقت يابنة الأكرمين فمن أين هوى ؟ وإلى أين نوى ؟

قالت الأخرى : أتى من المعقل المنيف ، طائف ثقيف ، وهو ينوى نجران ذات المخاليف .

قالت : صدقت يابنة الأكرمين ، فما هو مصيب فى سفره هذا ؟

قالت الأخرى : تسهل طريقه ، وتنفق سوقه ، ويعلو فُوُقه [١٤٧] .

---

(١٤٥)غورت : نزلت ـ سرحة : شجرة عظيمة ـ منتبذا : منفردا

(١٤٦) حجرتا : حجزتا وحصرتا .

(١٤٧) الفوق : السهم .

قالت : صدقت ياابنة الأكرمين فما عاقبة أمره ؟ قالت يعيش زعيما ويتبع نبيا كريما ويتعاطى أمرا جسيما فيرتد عنه كليما . . قالت صدقت ياابنة الأكرمين ومن النبى الذى سيتبعه ؟

قالت : الأخرى : داع مجاب ، له أمر عجاب ، يأتيه من السماء كتاب ، يبهر الألباب ، ويقهر الأرباب .

قال عروة : ثم أمسكتا عن القول فغشينى النوم فما أيقظنى إلا رغاء الإبل ، وأصحابى يتحملون ، فاذا الجاريتان قد ذهبتا .

ولما بلغت نجران نزلت على أسقفها وكان صديقا لى ، فقال : يا أبايعفور ، هذا حين خروج نبى من أهل حرمكم يهدى إلى الحق .
قلت : ماهذا الذى تقول ؟

قال : إى والمسيح إنه لخير الأنبياء وآخرهم ، فان ظهر فكن أول من يؤمن به .

وقد كتمت عن ثقيف لِمَا كنت أرى من شدتهم عليه ، وكنت امرءا منهم وأما الآن فإنى معتمدة ومتبعه ومستكثر منه ، فاكتم على مخرجى هذا .
قال غيلان : إنى فاعل ذلك فانصرف راشدا .

فأتى عروة النبى - صلى الله عليه وسلم - فأسلم وحسن إسلامه .
أما الخطب الجسيم الذى ورد فى خبر هذه الفتاة فقد ذكره الرواة بقولهم :

بعد أن أسلم عروة بن مسعود قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مارأيت يارسول الله مثل هذا الدين ذهب عنه ذاهب ، فأْذن لى أن أنطلق إلى قومى بخير ما قَدِم به وافد على قومه ، فلعل الله يهديهم بى .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنهم قاتلوك ياعروة .

فقال عروة : يارسول الله إنى لأعز عليهم من أسماعهم وأبصارهم وأبكار أولادهم . .

ثم استأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرة أخرى فقال له : إنهم قاتلوك .

قال : يارسول الله لوجدونى نائما ماأيقظونى .

ثم استأذنه الثالثة ، فقال له : إن شئت فاخرج .

فتجهز عروة للخروج ، فقال له المغيرة بن شعبة : ياعم إنى أريد الخروج معك فى هذا الوجه .

قال له عروة : يابن أخى ، إنى خائف منهم مع شرفى فيهم ، وقد سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول إنهم قاتلوك ـ وقوله الحق ، ولكنى وطنت نفسى على الموت ، ورجوت أن تكون لى شهادة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حى يشهد ويستغفر لى ، وماأحب أن أبقى بعده .

فخرج عروة بن مسعود حتى أتى الطائف عشاء ، فدخل منزله ، ولم

يذهب إلى الرَّبَّة ـ وهى اللات التى كانوا يعبدونها من دون الله ـ فيحلق رأسه عندها كما يصنع قومه عند عودتهم من سفرهم .

فأنكروا ذلك منه ، وتشوفوا له ، وتحدثوا فيه .

وحاولوا أن يلتمسوا له عذرا ـ إذ كان سيدهم ـ فقالوا : لعله عجز عن ذلك لِمَا ناله من نصب السفر . فأتوا منزله فحيوه بتحية الجاهلية فقال لهم : ياقوم ، أتعلمون أنى أوسطكم نسبا وأعزكم نفرا وأكثركم مالا ؟

قالوا : نعم .

قال : فاقبلوا نصيحتى ، فوالله ماقدم وافد بأفضل مما قدمت به عليكم ، واعلموا أن أمر محمد حق . فلما سمعوا مقالته أغلظوا له فى القول وآذوه ، وخرجوا من عنده يأتمرون به .

وبات عروة فى منزله ولما طلع الفجر صعد غرفة له ، فقام على سطحها وأذن ، فتداعت ثقيف لمَّا سمعوا أذانه ـ فأتوه من كل جهة ، فرماه أوس بن عوف من بنى مالك بسهم فقطع أكحله ، ونزف دمه بشدة ولبس قومه السلاح ، وقالوا : نقتل من بنى مالك به عشرة .

فدعاهم عروة وهو فى سكرات الموت وقال : إنى تصدقت بدمى على قاتلى ، وهذه كرامة ساقها الله إلىَّ وقد أخبرنى بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشهد أن قوله حق .

ثم قال لأهله : ادفنونى مع الشهداء الذين قتلوا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين حاصرهم ففعلوا ذلك

ولما بلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - أمر عروة قال : مثل عروة فى قومه مثل صاحب يس دعا قومه إلى الله فقتلوه (١٤٨) .

لقد استطردنا الى ذكر بقية قصة عروة لما فيها من دلالة على قوة الإيمان التى تجعل صاحبها يستهين بالموت فى سبيل الله ، ويقدم روحه رخيصه فى سبيل المجد الباقى والنعيم الخالد ، ورفعة كلمة الله .. وهى مُثُل نذكر أنفسنا وشبابنا بها لعلنا ننتفع بذلك فنسعى جادين فى سبيل عودة روح الإيمان إلى النفوس وعزة الإسلام إلى القلوب .

لقد وضح بذلك كله أن إنكار المتعصبين الضالين من أهل الكتاب للرسالة المحمدية هو مكابرة لاجدوى فيها ولافائدة منها . فلا يستطيع أحد أن ينكر وجود الشمس .. اللهم إلا أن يكون أعمى البصر والبصيرة .

فالدين الاسلامى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دين ثابت ، وحقيقة واقعة لايستطيع اى عاقل انكاره . ولهذا لم يكن ممكنا ألا يبشر الأنبياء والرسل السابقون بهذا الرسول الخاتم وبذلك الأمر العظيم الذى جاء به ، وذلك لأسباب كثيرة منها :

أولا : لقد أخبر الأنبياء السابقون من بنى إسرائيل ، من أمثال أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى - عليهم السلام - بحوادث متعددة ، مثل : الاخبار

---

(١٤٨) انظر ذلك فى تفسير المنار حـ ٩ ص ٢٩٩ .

باجتياح بختنصر وقورش بيت المقدس ، والإخبار بالحوادث التى حدثت فى أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل . . فمن غير المعقول أن يخبروا بهذه الأحداث ولايخبروا ببعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم التى ملأت المشارق والمغارب وبلغ دينه شرقا وغربا حتى غلب الأديان وامتد على الزمان وسيمتد ان شاء الله إلى أن يطوى الله الأرض وماعليها . وظهر فى أمته ألوف من العلماء والحكماء والمتخصصين والسلاطين ، وهذه الحادثة تعد أعظم الحوادث ، فكيف يسوغ العقل إخبار هؤلاء الأنبياء عن الأحداث الصغار وترك هذا الحدث الكبير بدون تنبيه أو إخبار(١٤٩) .

ثانيا : النبى المتقدم إذا أخبر عن النبى المتأخر ، لايشترط أن يكون إخباره تفصيليا دقيقا ولكنه يخبر عن أوصاف عامة ، ويترك التفصيلات للخواص يدركونها بالقرائن ، وربما أدى ذلك إلى خفاء هذه الأوصاف على بعض الناس حتى يظهر النبى المخبر عنه فيقول : لقد أخبر النبى السابق بكذا وكذا . .

عند ذلك ينتبهون إلى الأوصاف السابقة فيجدونها مطابقة ، وقد عاتب المسيح ـ عليه السلام ـ علماء اليهود الذين أنكروا بعثته ، وأغفلوا الأوصاف التى ذكرت عنه فى كتبهم قال لهم : **ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ، مادخلتم أنتم والداخلون منعتموهم**(١٥٠) .

وحين جاء يوحنا وهو يحيى عليه السلام ـ ذهب إليه بعض الكهنة اللاويين ليسألوه عن هويته ، ذلك لأنهم لم يحاولوا تطبيق الأوصاف الواردة

---

(١٤٩) لوقا ـ الباب الحادى عشر ـ ٥٢ .

(١٥٠) انجيل يوحنا ـ الاصحاح السابع ٤٠ ، ٤١

عنه عليه ، بل ادعوا الجهل به ، قالوا له : من أنت ؟ هل أنت المسيح ؟ فقال : انى لست المسيح ، فسأوه : هل أنت إيليا ؟ فقال : أنا لست إيليا

فسألوه : هل أنت النبى ؟ النبى بالألف واللام - فأجاب لا . فقالوا له : من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا ؟ ماذا تقول عن نفسك ؟ .

قال : أنا صوت صارخ فى البرية ، اتبعوا طريق الرب كما قال أشعيا النبى . . فسألوه وقالوا : فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبى ؟

والمعروف أن الألف واللام فى كلمة « النبى » للعهد ، يعنى النبى المعهود الذى اخبر عنه موسى - عليه السلام - وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - فذكره هنا يفيد أنهم كانوا على علم به . .

ثالثا : والذين يزعمون أن هل الكتاب حين ناقشوا يحيى - عليه السلام - المناقشة السابقة لم يكونوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح وايليا زعمهم باطل ، لأنهم كانوا ينتظرون نبى آخر الزمان كذلك ، وهذا يدل على أن التوراة قد نبهت إليه كما نبهت إلى غيره ممن جاءوا قبله . والمسيح أمره ظاهر ، وأما

إيليا فقد أخبر المسيح - عليه السلام - عنه بأنه هو يحيى نفسه ، ولكن يحيى لم يكن يعلم بذلك ، لأن بعض الأنبياء لايعرفون نبوتهم إلا بعد حين ، وهذا يوضح الفرق بين النبى والرسول .

فلولا أن اليهود كانوا ينتظرون النبى كما كانوا ينتظرون المسيح لما اختلط الأمر عليهم فى شأنهما ، وعلى كل فلم يؤمنوا بواحد منهما ، وكانت نهاية عيسى ـ عليه السلام ـ على الصورة التى ذكرها القرآن الكريم عنه .

رابعا : لامجال لادعاء أنه لانبى بعد المسيح عليه السلام ـ ومن يدع ذلك فادعاؤه باطل فقد عرفنا أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون نبيا آخر غير المسيح ، فظهور المسيح لايسقط ظهور غيره الذى كانوا ينتظرونه أيضا

والدليل على ذلك أنهم كانوا يعترفون بنبوة الحواريين ، وهم بعد المسيح ـ عليه السلام ـ بل بنبوة غيرهم أيضا ، انظر الى قولهم فى سفر « أعمال لرسل » : « وفى تلك الأيام انحدر الأنبياء من أورشليم إلى طاكية » (١٥١) .

امسا : جرت عادة أهل الكتاب أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، فكثير ن الأخبار الواردة فى حق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنكروها أو حرفوها أونوها على أنها واردة فى حق عيسى ـ عليه السلام .

وقد جرت عادتهم أيضا على أنهم يترجمون الأسماء ويوردون بدلها معانيها كثيرا ما تختلف عبارات المترجمين ومعانيهم حول اللفظ الواحد مما يحدث ضطرابا فى اللفظ والمعنى وقد قصدوا من وراء كل ذلك إخفاء الحقيقة الواضحة ولكن هيهات هيهات فقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . . .

---

(١٥١)أعمال الرسل اصحاح ١١

دلائل النبوة

- أخبار سيف بن ذي يزن عبد المطلب بمبعث حفيده .
- رؤيا عبد المطلب .
- انتظار المتحنفين له .
- خبر سواد بن قارب .
- قصة إسلام وائل بن حجر .
- قصة في إسلام عمر رضي الله عنه .
- حديث خريم بن فاتك الأسدي .
- عبد الله بن أبي ذباب يخبر عن سبب إسلام أبيه .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

إخبار سيف بن ذى يزن عبدالمطلب بمبعث حفيده :

ذكر البيهقى فى دلائل النبوة وابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وغيرهما قالوا : لما ظهر سيف بن ذى يزن على الحبشة ، وذلك بعد مولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنتين أتاه وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئته وذكر ماكان من بلائه وطلبه بثأر قومه .

وأتاه وفد قريش ، منهم عبدالمطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وعبدالله بن جدعان ، وأسد بن عبدالعزى ، ووهب بن عبدمناف ، وقصى بن عبدالدار . .

هؤلاء هم رؤوس قريش والمقدمون فيهم ، وزهرة بنى هاشم وعبدمناف . . وكان ما قام به سيف بن ذى يزن من عمل بطولى قد نال إعجاب العرب ورضاهم فقدموا إليه من كل فج ، واستقبلهم فى قصر غمدان ، وكان مما قاله أبو الصلت الثقفى فى قصيدة له يمدحه :

لم يدرك الثأر أمثال بن ذى يزن ... لجج فى البحر للأعداء أحوالاً
أتى هرقل لما حان رحلته ... فلم يجد عنده القول الذى قالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد تاسعة ... من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يقدمهم ... انك عمرى لقد أسرعت قلقالا
أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد ... غادرت أوجههم فى الأرض أفلالا
اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً ... فى رأس غمدان دار منك محلالا
ثم اطل بالمسك إذ شالت نعامتهم ... وأسبل اليوم فى برديك اسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا (١٥١)

(١٥١) شالت نعامتهم : كناية عن رحيلهم وضعفهم وهلكتهم ـ القلقال : شدة الحركة

وكان الملك جالساً فى هذا القصر المنيف ، وقد تضمخ بالعنبر ، والمسك يبدو فى مفرق رأسه ، وقد ارتدى بردين أخضرين ، سيفه بين يديه ، وعن يمينه وشماله الملوك والزعماء . . فأُخْبِر بمكان هؤلاء الوافدين ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه ، ودنا منه عبد المطلب فاستأذنه فى الكلام ، فقال : إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك .

فتقدم عبدالمطلب وقال : أيها الملك إن الله ـ عز وجل ـ قد أحلك محلاً رفيعاً ، شامخاً باذخاً منيعاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته ، وعظمت جرثومته [152] ، وثبت أصله [153] ، وبسق وفرعه ، فى أطيب موضع وأكرم معدن ، وأنت ـ أبيت اللعن ـ ملك العرب الذى له تنقاد وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد بعد رب العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا من بعدهم خير خلف ، فلن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل ذكر من أنت سلفه .

نحن أهل حرم الله ـ تعالى ـ وسدنة بيت الله ، أشخصنا إليك الذى أنهجك [154] لكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة .

قال الملك : من أنت أيها المتكلم ؟

قال : أنا عبد المطلب بن هاشم .

قال : ابن أختنا ؟

قال : نعم .

قال : ادن منى

---

(١٥٢) الجرثومة : الأصل

(١٥٣) بسق : طال

(١٥٤) أنهجك : هيأ لك طريقاً

ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال : مرحباً وأهلاً . . نزلتم أهلاً وحللتم سهلاً ، وناقة ورحلاً ، ومستناخاً سهلاً ، وملكاً ربحلا (١٥٥) ، يعطى عطاء جزلاً ، قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فإنكم أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم .

ثم نهضوا الى دار الضيافة والوفود ، وأجرى عليهم النزل فأقاموا بذلك شهراً لا يصلون اليه ، ولا يؤذن لهم فى الانصراف .

ثم انتبه لهم انتباهة ، فأرسل إلى عبدالمطلب فأدناه ، ثم قال له : ياعبد المطلب إنى مفض إليك من سر علمى أمراً ، لو غيرك يكون لم أبح له به ، ولكنى رأيتك معدنه ، فأطلعتك طلعة فليكن عندك مخبئاً ، حتى يأذن الله عز وجل فيه .

إنى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى ادخرناه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا خيراً عظيماً ، وحدثاً كبيراً ، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاء للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة .

فقال له عبد المطلب : مثلك أيها الملك سَرٌّ وَبَرٌّ ، فما هو فداك أهل الوبر ، زُمراً بعد زُمر .

قال : إذ ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة .

---

(١٥٥) ربحلاً بكسر الراء وفتح الباء : عظيم الشأن كثير العطاء

قال عبد المطلب : أيها الملك لقد أبتُ بخير مآب وافدُ قَوْمٍ ، ولولا هيبة الملك واجلاله واعظامه لسألته من سراره إياى ما أزداد به سروراً .

قال له الملك : هذا حينه الذى يولد فيه ، أو قد ولد ، اسمه محمد يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، قد قرأنا عنه مراراً ، والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً ، يعز بهم أولياءه ، ويذل بهم أعداءه يستفتح بهم كرائم أهل الأرض ، يعبد الرحمن ، ويدحض الشيطان ، ويخمد النيران ويكسر الأوثان . . . قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

قال عبد المطلب : عز جدك ، ودام ملكك ، وعلا كعبك ، فهل يسعدنى الملك بإفصاح ، فقد وضح لى بعض الإيضاح ؟

فقال له الملك سيف بن ذى يزن : والبيت ذى الحجب ، والعلامات على النقب ، إنى لأرى أنك جده ياعبد المطلب ، غير ذى كذب .

فانحنى عبد المطلب أمامه ، فقال له ابن ذى يزن : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا كعبك فهل أحسست بشىء مما ذكرت لك ؟

قال : نعم ، أيها الملك ، إنه كان لى ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً ، وإنى زوجته كريمة من كرائم قومى : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ـ فجاءت بغلام سميته محمداً ، مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه .

قال له ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحفظه ، واحذر عليه من اليهود ، فانهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً ، واطو ماذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن تتداخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة ، فينصبون له الحبائل ، ويبغون له الحوائل ، وينصبون له الغوائل ، وإنهم لفاعلون ذلك وأبناؤهم غير شك ، ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيل ورجل حتى أُصَيِّرَ بيثرب دار ملكى ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكام أمره ، وأهل نصره ، وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنته على حداثة سنه أمره ، ولأوطأت على أسنان العرب كعبه ، ولكن سأصرف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك .

ثم دعا بالقوم ، فأمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد سود وعشر إماء سود ، وحلتين من حلل البرود وخمسة أرطال من ذهب ، وعشرة أرطال من الفضة ، ومائة من الإبل ، وكرش مملوءة عنبراً (١٥٦) .

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك ، وقال : إذا جاءك الحول فأتنى بخبره ، وما يكون من أمره فمات سيف بن ذى يزن قبل أن يحول عليه الحول .

فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل العطاء من الملك وإن كثر فإنه إلى الفناء ، ولكن يغبطنى بما يبقى لى ولعقبى ذكره ، وفخره ، فإذا قيل : وماهو ؟

---

(١٥٦) الكَرِشُ : وعاء الطيب

يقول : سيعلم ما أقول ولو بعد حين (١٥٧) .

لقد سر عبد المطلب حقاً ببشرى سيف بن ذى يزن له ، وعاد من رحلته والسعادة كلها فى ركابه ، ولكن أنى لسيف بهذه الأنباء ؟

لقد أشار إلى ذلك بأنه من العلم الذى توارثه عن آبائه وأجداده ، ولقد كان سيف من أهل الكتاب . . فقد انتشرت اليهودية فى اليمن ، وكان أحبارهم يتناقلون أسرار التوراة فيما بينهم ، وإلى اليمن زحفت النصرانية التى ترتب عليها حادث الأخدود المشهور ، الذى ذهب ضحيته كثيرون ممن اعتنقوا هذا الدين الذى أقبل إلى نجران ليزاحم اليهودية فى اليمن .

ولا يبعد أن تكون تفصيلات المبعث مذكورة فى الكتب السابقة ، وقد سبق القول بأن أخبار أصحاب هذا الرسول الكريم وأوصافهم فى هذه الكتب أيضاً .

ولكن هل كان عبد المطلب غافلاً عن ذلك كله لا يعلم عنه شيئاً ؟ أغلب الظن أنه كان على يقين بمنزلة حفيده المرتقب ، ولولا ذلك ما أكثر من قوله : إن ابنى هذا سيكون له شأن ستعلمونه بعد حين .

رؤيا عبد المطلب بشأن ابنه :

وكان عبد المطلب قد رأى رؤيا فى منامه ، رأى كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض ، وطرف فى

---

(١٥٧) دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٢٩٥ ـ العقد الفريد جـ ١ ص ٩٩

المشرق ، وطرف فى المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها .

فقصها على من عنده علم بتأويل الرؤى ، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه : محمداً

وقد ذكر ابن دريد أنه ألقيت عليه جفنة يوم ولادته لئلا يراه أحد قبل جده ، فجاء جده ، والجفنة قد انفلقت عنه ، ولما قيل له : ما سميت ابنك؟ فقال : سميته محمداً . .

فقيل له : كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟
قال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم (١٥٨) .

سوابق الإلهام فى تسميته محمداً :

وإننا لنرى أن كثيراً من الآباء يعدون لأبنائهم الأسماء قبل ولادتهم ذكوراً كانوا أو إناثاً ، ويتخيرون هذه الأسماء وفق بطولات رائعة أو شخصيات لامعة أو معانى راسخة فى أذهانهم يحبون أن تظهر فى الأبناء .

وأحياناً ترتبط هذه التسميات بأحوال معينة عند الولادة لم تخطر على البال ، كأن يطرق طارق اسمه « سعد » الباب عند ولادة طفل فيسمى الرجل ابنه بهذا الاسم تفاؤلاً ، أو يولد فى رمضان فيسميه رمضان ، أو يولد فى العيد فيسميه عيداً . . وهكذا

---

(١٥٨) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٢

وربما رسخ فى ذهن بعض العامة من الجهلاء أن صاحب الاسم الجميل لا يكتب له طول العمر فيعمد إلى اسم غير لامع ليسمى به ابنه حتى يضمن له طول البقاء ، والعصبية الجاهلية القديمة كانت تمنح العبيد أسماء حساناً ، وتحرم الأبناء ذلك ، حتى قيل لأحدهم : لم تسمون أبناءكم حرباً وكلباً وصخراً ، وتسمون عبيدكم رباحاً وبلالاً ومسروراً ؟ فقال : لأنا نسمى أبناءنا لأعدائنا ونسمى عبيدنا لأنفسنا .

وهو تعليل تمليه الجاهلية وتدفع إليه العصبية .

وقد وافق الالهام الفطرى ـ الذى يكاد أن يكون من إملاء الغيب ـ معنى رائعاً وأملاً منتظراً فى اسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين اختار له جده عبد المطلب بن هاشم هذا الاسم العظيم .

واسم محمد مشتق من الحمد على وزن مفعَّل ، قال ابن دريد فى كتاب الاشتقاق ، لما ولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ، ودعا رجال قريش ، وكانت سنتهم فى المولود إذا ولد فى استقبال الليل كفأوا عليه جفنة بحيث تسمح بدخول الهواء له وذلك حتى يصبح ، ففعلوا ذلك بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأصبحوا وقد وانشقت هذه الجفنة وهو شاخص إلى السماء . فلما حضرت رجال قريش وطعموا قالوا لعبد المطلب : ما سميت ابنك هذا ؟

قال : سميته محمداً . .

قالوا : ماهذا من أسماء آبائك ؟

قال : أردت أن يكون محموداً فى السموات والأرض [159] .

وصدق حدس عبد المطلب ، وجاء حفيده محموداً فى الأرض والسماء ، ووافق اسمه ما سطره القلم فى الأزل ونطق به القرآن الكريم على لسان عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [160]

واذا كانت أقلام الحق ألسنة الخلق فإن لسان عبد المطلب فى تسمية النبى ﷺ كان استجابة لإرادة الله ـ جل وعلا ـ حين أراد أن يكون نبيه ﷺ بهذا الاسم المحمود .

وكانت آمنة حين حملت به أمرت أن تسميه عند ولادته أحمد [161] فلعلها أخبرت جده بذلك فوافق ما ألهمه ما أخبرت به أمه .

تأكيد أن عبد المطلب كان يعرف منزلة حفيده :

سبق أن أشرنا إلى أن سيف بن ذى يزن أخبر عبد المطلب بما سيكون عليه شأن حفيده ﷺ وقد وافق ذلك ماوقع فى روع عبد المطلب .

---

(١٥٩) الاشتقاق لابن دريد ص ٧

(١٦٠) الصف ٦

(١٦١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٦٤ قسم ١

ذكر ابن سعد فى طبقاته قال : كان عبد المطلب إذا ذهب إلى اليمن نزل على عظيم من عظماء حمير ، فنزل عليه مرة ، فوجد عنده رجلاً من أهل اليمن قد أمهل له فى العمر ، وقد قرأ الكتب فقال له : ياعبد المطلب إنى أرى فيك شيئاً عجيباً . .

قال له عبد المطلب : وما ترى ؟

فقال : أرى نبوة وأرى ملكاً ، وأرى أحدهما فى بنى زهرة .

فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة فولدت له محمداً ﷺ

لقد كان عبد المطلب رجلاً حكيماً ذا حس صاف وتجربة صائبة والهام صادق . . والعرب يتميزون بالفراسة الصادقة ، فما بالك إذا كان صاحبها حكيماً عظيماً فى قومه تفد إليه الوفود من شتى الجهات فى الموسم فيلتقى بحكمائها وعلمائها وأحبارها ، فيلقون إليه من أخبارهم ما يشاءون ، وبخاصة حول ذلك الحدث الخطير الذى شغل أذهان المستقبلين له وقد أوشك على الظهور ؟

قال ابن سعد أيضاً فيما يحدث به عن مخرمة بن نوفل الزهرى قال : سمعت أمى رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم بن عبد مناف تحدث وكانت لدة عبد المطلب ـ قالت : تتابعت على قريش سنون ذهبن بالأموال وشققن على الأنفس ، قالت : فسمعت قائلاً يقول فى المنام : يا معشر قريش سوف يكون النبى المبعوث منكم ، وهذا إبان خروجه ، وبه يأتيكم الحيا

والخصب ، فانظروا رجلاً من أوسطكم نسباً أبيض مقرون الحاجبين ، أهدب الأشفار جعداً ، سهل الخدين ،فليخرج هو وجميع ولده ، وليخرج من كل بطن رجل ، فتطهروا وتطيبوا ، ثم استلموا الركن ، ثم ارقوا - أى اصعدوا - رأس أبي قبيس [١٦٢] ثم يتقدم هذا الرجل فيستسقى وتؤمنون فإنكم ستسقون . .

فأصبحت فقصت رؤياها عليهم ، فنظروا فوجدوا هذه الصفة صفة عبد المطلب . .

فاجتمعوا إليه وخرج من كل بطن منهم رجل ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم علوا على أبي قبيس ومعهم النبى ﷺ وهو غلام . .

فتقدم عبد المطلب وقال : اللهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك ، واماؤك وبنات إمائك وقد نزل بنا ما ترى ، وتتابعت علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف ، وشقت على الأنفس ، فأذهب عنا الجدب ، وائتنا بالحيا والخصب . .

فما برحوا حتى سالت الأودية ، وبرسول الله ﷺ سقوا .

فقالت رقيقة بنت أبي صيفى بن هاشم بن عبد مناف

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا	وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر
فجاد بالماء جوفى له سبل	دان فعاشت به الأنعام والشجر
مَنّاً من الله بالميمون طائره	وخير من بشرت يوماً به مضر
مبارك الأمر يستسقى الغمام به	ماق الأنام له عدل ولا خطر

---

(١٦٢) اسم جبل بمكة

انتظار المتحنفين له :

وقد مر بنا القول حول ترقب المتحنفين له ، وتأكدهم من دنو موعد ظهوره ، وذكرنا أسماء بعضهم ونضيف إليهم هنا : أبا قيس صرمة بن أبي أنس بن مالك . .

وكان أبو قيس هذا رجلاً من بني النجار في المدينة . . سما بفكره حتى أدرك أن ما عليه الجاهليون ضلال ، وأن مايعبدونه من الأوثان شرك . .

فاعتزلهم . . ولبس المسوح وترهب ، وفارق الأوثان ، واغتسل من الجنابة ، واجتنب الحيض من النساء وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً ، وقال : أعبد رب إبراهيم . .

وله شعر كان يقول فيه :

سبحوا الله عند كل صباح   طلعت شمسه وكل هلال
يابَنِيَّ الأرحام لا تقطعوها   وَصِلُوها قصيرة من طوال
يابنيَّ التجوم لا تظلموها   إن ظلم النجوم داء عضال

وظل على ذلك يلتمس الهدى ، وينتظر مبعوث آخر الزمان ، حتى بشر ببعثة النبي ﷺ وهجرته إلى المدينة فآمن به وصدقه وأسلم وقد كبرت سنه ، وقال عن إسلامه وذكر النبي ﷺ :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة   يذكر لو يلقى صديقاً مواتياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه   فلم يلق من يؤمن ولم ير داعياً
فلما أتانا واطمأنت به النوى   وأصبح مسروراً بطيبة راضياً

وأصبح لا يخشى عداوة واحد | قريباً ولايخشى من الناس باغياً
بذلنا له الأموال من جل مالنا | وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
أقول إذا صليت فى كل بيعة | حنانيك لاتظهر علىَّ الأعاديا(١٦٣)

إنه يتحدث عن تجربته قبل ظهور النبى ﷺ وتجربته بعدها . . ويشير إلى تطلعه إلى رؤية ذلك النبى ﷺ الذى بشرت به الأخبار ، وجاء ذكره على ألسنة الأحبار ، كما يشير إلى خوفه من هؤلاء الأعداء الذين يحاربون هذه البشريات ، بل ويبحثون عمن يؤمنون بها ويدعون لها . . كما حدث من اعتدائهم على زيد بن نفيل وقتلهم له . . ولاذنب له إلا أنه هجر الكفر ونبذ الشرك ودعا إلى عبادة الواحد الأحد . .

تواتر الأخبار :

لقد أخذت الأخبار بقرب ظهور النبى ﷺ تتواتر وتأخذ صوراً جديدة . . فقد أخذت تظهر على ألسنة الجن الذين كانوا يسترقون السمع قبل بعثته ﷺ

ومن أمثلة ذلك :

خبر سواد بن قارب :

سواد بن قارب الأزدى الدوسى ، كان كاهناً فى الجاهلية . . وحين جاء الاسلام أسلم وحسن إسلامه ولكن إسلامه هذا له قصة غريبة ذكرها الرواة فى كتبهم . .

---

(١٦٣) أسد الغابة جـ٣ ص١٨

روى ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة قال : دخل سواد بن قارب الدوسى على عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال له عمر : ياسواد ، هل تحسن اليوم من كهانتك شيئاً ؟

قال سواد : سبحان الله . والله ما اسْتُقْبِلْت من أحد من جلسائى بمثل الذى استقبلتنى به . .

فقال عمر : سبحان الله ياسواد ماكنا عليه من شركنا أعظم مما كنت عليه من كهانتك . . . والله ياسواد قد بلغنى عنك حديث عجيب فحدثنيه . .

قال سواد : كنت كاهناً فى الجاهلية ، فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتانى رَئِيِّى (١٦٤) ، فضربنى برجله وقال لى ياسواد اسمع ما أقول لك قلت:هات فقال :

عجبت للجن وأنجاسها ... ورحلها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمنوها مثل أرجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... واسم بعينك إلى رأسها

هذه رواية أسد الغابة . أما البيهقى فى دلائل النبوة فيذكر هذه القصة بتفصيل أكثر فيقول : قال سواد : بينما أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان ، أتانى رئيى من الجن فضربنى برجله فقال : قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى ، اعقل إن كنت تعقل ، انه قد بعث رسول الله ﷺ من لؤى بن

---

(١٦٤) الرئى : التابع من الجن

غالب يدعو إلى الله عز وجل ، وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها ... وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... ليس قداماها كأذنابها

فقلت : دعنى أنام فانى أمسيت ناعساً ..

فلما كانت الليلة الثانية أتانى ، فضربنى برجله وقال قم ياسواد بن قارب ، فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ، انه قد بعث رسول من لؤى بن غالب ، يدعو إلى الله عز وجل والى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتخبارها ... وشدها العيش بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمن الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... بين روابيها وأحجارها

فقلت : دعنى أنام فإنى أمسيت ناعساً .

فلما كانت الليلة الثالثة أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد بن قارب فاسمع مقالتى ، وأعقل إن كنت تعقل ، انه قد بعث رسول من لؤى ابن غالب ، يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتحساسها ... وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما خُيِّر الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... وارم بعينيك إلى رأسها

فقمت فقلت : قد امتحن الله قلبى ، فرحلت ناقتى ثم أتيت المدينة ، وفى رواية حتى أتيت مكة ، وهى أقرب إلى الصحة من الأولى ، لأن الجن إنما جاءت الى النبى ﷺ للإيمان به فى مكة .

يقول سواد : فوصلت فإذا رسول الله ﷺ وأصحابه حوله ، فلما رآنى قال : مرحبا بك ياسواد بن قارب ، قد علمنا ماجاء بك . .

قلت يارسول الله قد قلت شعراً ، فاسمع مقالتى فقال : هات فأنشأت أقول :

أتانى رئيى بعد ليل وهجعة ... ولم يك فيما قد تلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤى بن غالب
فشمرت عن ساقى الإزار وَوَسَّطت ... بى الذعلب الوجناءَ بين السباسب[١٦٥]
فأشهد أن الله لا رب غيره ... وأنك مأمون على كل غائب
وانك أدنى المرسلين وسيلة ... إلى الله يابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل ... وان كان فيما جاء شيب الذوائب
وكن لى شفيعاً يوم لاذو شفاعة ... سواك بمغن عن سواد بن قارب

قال : ففرح النبى ﷺ وأصحابه بمقالتى فرحاً شديداً حتى رؤى الفرح فى وجوههم .

وقال : أفلحت يا سواد

---

(١٦٥) الذعلب : الناقة السريعة ، والوجناء : الصحراء ـ والسباسب : مفردها : سبسب وهى المفازة والأرض القفر

فرأيت عمر ـ رضى الله عنه ـ التزمه ، وقال : لقد كنت أشتهى أن أسمع هذا الحديث منك ، فهل يأتيك رَئِيُّك اليوم ؟

قال : منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله ـ عز وجل ـ ولما مات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخشي سواد على قومه من الردة قام فيهم خطيباً فقال :

يامعشر دوس ، من سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم ، ومن شقائهم الا يتعظوا إلا بأنفسهم ، وان من لم تنفعه التجارب ضرت به ، ومن لم يسعه الحق لم يسعه الباطل ، وانما تسلمون اليوم بما أسلمتم به أمس ، ولا ينبغى لأهل البلاء إلا أن يكونوا أذكر من أهل العافية للعافية ، ولست أدرى لعله يكون للناس جولة فإن لم تكن فالسلامة منها الأناة ، والله يحبها فأحبوها .

فأجاب القوم بالسمع والطاعة (١٦٦)

ولقد كثر هذا اللون من الإخبارات حتى وردت فيه أحاديث طريفة منها : أن الجن كانت تتكلم من داخل الأصنام لتضل أصحابها ، فلما رميت بالشهب ، وبلغتهم الرسالة أخذت تنذر الناس ، وتخبرهم ببعثة النبى ﷺ

قصة إسلام وائل بن حجر :

كان وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل بن يعمر الحضرمى قيلاً من أقيال حضرموت ، وكان أبوه من ملوكهم .

---

(١٦٦) دلائل النبوة جـ ١ ص ٣٢٢

وقد قص ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة قصة وفادته على النبى ﷺ ليعلن إسلامه فقال :

وفد وائل على رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد بشر أصحابه بقدومه قبلّ أن يصل بأيام ، وقال : يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة : من حضرموت طائعاً راغباً فى الله ـ عز وجل ـ وفى رسوله ، وهو بقية أبناء الملوك .

فلما دخل وائل على النبى ﷺ رحب به وأدناه من نفسه وقرب مجلسه وبسط له رداءه وأجلسه عليه مع نفسه ، وقال : اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده .

واستعمله النبى ﷺ على الأقيال من حضرموت وأقطعه أرضاً ، وأرسل معه معاوية بن أبى سفيان ، وقال : أعطها إياه . . . فخرج وائل راكباً ، وكان معاوية راجلاً : فقال له معاوية : أردفنى خلفك ـ وشكا إليه حر الرمضاء ـ فرفض وائل .

وقال له : سر فى ظل الناقة

قال : وما يغنى ذلك عنى ؟

وكان وائل قد قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن أهلى غلبونى على الذى لى ، فقال له النبى ﷺ : أنا أعطيك ضعفه .

وعاش وائل حتى أدرك أيام معاوية ، ووفد عليه ، فأحسن معاوية استقباله وأجلسه معه على السرير وذكّره ما جرى بينهما ، فقال وائل : وددت

لو أني كنت حملتك بين يدي[167]

هذا مارواه ابن الأثير ، أما قصة إسلامه فلنستمع إلى مارواه ابن ظفر فيها قال :

كان وائل بن حجر ملكاً مطاعاً ، وكان له صنم من العقيق الأحمر يعبده ويحبه حباً شديداً ، وكان يتمنى أن يكلمه الصنم أو يرد عليه لذلك كان يكثر من السجود له ، ويعقر له العقائر وهى ذبائح كانوا يتقربون بها إلى الأصنام .

وبينما هو نائم فى الظهيرة أيقظه صوت منكر من المخدع الذى فيه الصنم .

فقام من مضجعه وأتاه فسجد بين يديه ، واذا بقائل يقول :

واعجبا لوائل بن حُجْرِ يخال يدرى وهو ليس يدرى
ماذا يُرَجِّى من نحيت صخر ليس بذى عُرف ولا ذى نكر
ولا بذى نفع ولا ذى ضر لو كان ذا حِجْرٍ أطاع أمرى[168]

قال وائل : فرفعت رأسى ، واستويت جالساً ثم قلت : قد سمعت أيها الناصح فماذا تأمرنى ؟

قال :

---

(١٦٧) أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٣٥ ترجمة رقم ٥٤٣٦
(١٦٨) حِجر : عقل

ارحل إلى يثرب ذات النخل   وسر إليها سير مُشْمَعِل [169]
قبل تقضى العُمُر المولى   تدن بدين الصائم المصلى
محمد المرسل خير الرسل

قال وائل : ثم خر الصنم لوجهه وانكسر أنفه ، واندقت عنقه ، فقمت إليه فجعلته رُفَاتاً ثم سرت حتى أتيت المدينة ، وأتيت المسجد ، فلما رآنى رسول الله ﷺ أدنانى وبسط رداءه ، فجلست عليه ، ثم صعد المنبر وأقامنى دونه ثم قال : أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض بعيدة حضرموت ، راغباً فى الإسلام .

فقلت : يارسول الله ، بلغنى ظهورك وأنا فى ملك عظيم ، فمنَّ الله علىَّ أن رفضت ذلك كله وآثرت دين الله .

قال : صدقت ، اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده .

قال وائل : فما لقينى أحد من أصحابه إلا قال لى : بشرنا بك رسول الله ﷺ قبل قدومك بثلاث [170]

قصة فى إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ :

قد ذكر الرواة أسباباً متعددة فى إسلام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ والمشهور منها أنه توجه لقتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقيه فى طريقه

---

(١٦٩) مشمعل : سريع نشيط
(١٧٠) خير البشر ص ١١٣

رجل سأله عن وجهته ، فأخبره بما هو قاصد إليه ، فقال له الرجل : ألم تعلم أن أختك وزوجها قد أسلما ؟

فغير اتجاهه ، وقصد إلى بيت أخته غاضباً ، وفي بيتها سمع القرآن الكريم فلان قلبه وهداه الله إلى الإسلام .

ويذكر العقاد ـ رحمه الله ـ أن عمر كان معجبا بالقرآن فكان يختبىء بين أستار الكعبة ليصغى إلى النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن بالليل فتمتلىء نفسه رضا بما يسمع .. وكان ذلك مقدمة لإسلامه ..

أما الذى لم يشتهر فى سبب إسلامه فهو مايقصه ابن ظفر فيمايلى :

قال : روى عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ توجه عمر لما ضمنه لقريش من قتل رسول الله ﷺ فمر بقوم من خزاعة قد اعتمدوا صنماً لهم كانوا يريدون أن يتحاكموا إليه ، فقالوا لعمر : ادخل معنا لتشهد الحكم .

فلما مثلوا أمام الصنم سمعوا هاتفاً يقول :

يا أيها الناس ذوو الأجسام ... ما أنتم وطائش الأحلام
ومسند الحكم إلى الأصنام ... أصبحتم كراتع الأغنام
أما ترون ما أرى أمامى ... من ساطع يجلو دجى الظلام
قد لاح للناظر من تهامى ... وقد بدا للناظر من شآمى
محمد ذو البر والاكرام ... أكرمه الرحمن من إمام
قد جاء بعد الشرك بالإسلام ... يأمر بالصلاة والصيام
والبر والصلات للأرحام ... ويزجر الناس عن الآثام
فبادروا سبقاً إلى الاسلام ... بلا فتور وبلا إحجام

قال : فتفرق القوم عن الصنم ، ولم يحضره يومئذ أحد إلا أسْلم . .

ثم إن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ذكر انطلاق عمر ـ بعد ذلك ـ إلى منزل أخته زوج سعيد بن زيد ،وامتحانه إياها على إسلامها ، ومبيته عندها ، وأنه لما أصبح سأل عن النبى ﷺ أين هو؟

فأخبر بأنه فى منزل عمه حمزة ، فخرج من بيت أخته واضعاً سيفه على عاتقه ، فلقيه رجال من بنى سليم قد تنافروا إلى صنم لهم ليحكم بينهم اسمه (الضمار)

فدعوا عمر إلى الدخول معهم إليه ففعل ، ولما قاموا بين يدى الصنم سمعوا هاتفاً من جوفه يقول :

أودى الضمار وكان يعبد مرة   قبل الكتاب وقبل بعث محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى   بعد ابن مريم من قريش مهتدى
سيقول من عبد الضمار ومثله   ليت الضمار ومثله لم يعبد
أبشر أبا حفص بدين صادق   تهدى اليه وبالكتاب المرشد
واصبر أبا حفص قليلاً إنه   يأتيك عز فوق عز بنى عدى
لا تعجلن فأنت ناصر دينه   حقا يقينا باللسان وباليد(١٧١)

فعجب القوم ، وانكسر عمر ـ رضى الله عنه ـ وأذهب الله ما كان فى نفسه من عداوة النبى ﷺ

---

(١٧١) خير البشر ص ١١٢

إن هذه الروايات - إن صحت - فهي إرهاصات حركت دوافع الإيمان في نفس عمر ليقوم بدوره الكبير في بناء هذا الدين ، ذلك الدور الذي أعده له القدر ، وليس عجيباً أن يسوق الله حديثاً على لسان هذا الجني الذي يسكن ذلك الصنم في المرتين ، لينذر عباده عامة وعمر خاصة حتى يقلع عما كان في نفسه من عزم وتصميم وتعهد لقريش بأن يخلصها من هذه الدعوة الجديدة .

وما كان لعمر أن يغير اتجاهه هذا إلا بإنذار غريب بصورة غريبة . وقد تكون هذه الأبيات الشعرية التي ذكرت والتي قيل ان عمر فقد سمعها وكانت من أسباب تغيير وجهته من الكفر إلى الإيمان ومن الخير إلى الشر ، نقول قد تكون هذه الأبيات لرجل من المتحنفين الموحدين الذين كانوا يعرفون نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته وكان عمر يسمع هذه الأبيات ويحفظها ، فلما وقف أمام الصنم وفكر بعقله أدرك مدى سخف هذه العقول التي تعتقد في حجارة صماء فتذكر هذه الأبيات التي تدعو الى الإيمان الصحيح وذكرها بقلبه ولسانه وفكر فيها بعقله وكأنه يسمعها فكانت بداية الهداية إلى طريق النور . .

حول إسلام تميم الداري - رضي الله عنه - :

أما تميم بن أوس بن خارجة الداري فقد كان يدين بالنصرانية وأسلم سنة تسع من الهجرة ويُذكر في سبب إسلامه القصة التالية :

روى الواقدى عن خالد بن سعيد عن تميم الدارى قال : سرت إلى الشام فأدركنى الليل فأتيت وادياً فقلت : أنا فى جوار عظيم هذا الوادى الليلة .

فلما أخذت مضجعى إذ بصوت أسمعه دون أن أراه يقول : عذ بالواحد الأحد ، فإن الجن لاتجير على الله أحداً ، وأنه قد خرج رسول الأميين وصلينا بالحجون وأسلمنا واتبعناه وآمنا به وصدقناه ، فأسلم تسلم . .

قال تميم : فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب ، فسألت الراهب الموجود به عما سمعت من الهاتف .

قال : صدق يخرج خير الأنبياء من الحرم ، ويهاجر إلى الحرم فلا تُسْبَق إليه .

فسرت إلى مكة فلقيت النبى ﷺ وكان مستخفياً فآمنت به .

وكان تميم ـ رضى الله عنه ـ كثير التهجد بعد إسلامه ، وهو أول من أسرج السراج فى المسجد ، وأقام بفلسطين وأقطعه النبى ﷺ أرضا وكتب له كتاباً بذلك .

وروى عدة أحاديث عن النبى ﷺ وقد ذكر للنبى ﷺ حديث الجساسة وهى الدابة التى رآها فى إحدى جزر البحر ، وسميت بذلك لأنها تجس أخبار الدجال :

قال ابن الأثير : وهو حديث صحيح (١٧٢)
لقد كان إسلام تميم - رضى الله عنه - نتيجة دليلين .
أما أحدهما فهو إخبار الجن له : بمبعث النبى ﷺ

وثانيهما إخبار الراهب له بذلك ، وقد جاء ذلك موافقاً لما علمه من الكتب التى درسها ، والتى كانت سبباً فى إسلام كثير من أهل الكتاب الذين لم يحجبهم الحقد والحسد والتعصب الأعمى ، ولكن الهدى هدى الله .

حديث خريم بن فاتك الأسدى :

ذكر ابن الأثير فى ترجمة مالك بن مالك الجنى خبراً عجيباً قال فيه :

روى محمد بن خليفة الأسدى عن الحسن بن محمد ، عن أبيه قال : قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ذات يوم لابن عباس - رضى الله عنهما - حدثنى بحديث تعجبنى به - فقال : حدثنى خريم بن فاتك الأسدى قال : خرجت فى ابتغاء أبل لى ، فأصبتها بأبرق العزاف (١٧٣) ، فعقلتها وتوسدت ذراع بكر منها ، وذلك حدثان (١٧٤) خروج النبى ﷺ ثم قلت : أعوذ بكبير هذا الوادى ، - وكذلك كانوا يفعلون - فإذا هاتف يهتف بى ويقول :

ويحك عذ بالله ذى الجلال   منزل الحرام والحلال
ووحد الله ولا تبال   ماهول ذى الجن من الأهوال

---

(١٧٢) أسد الغابة جـ ١
(١٧٣) أبرق العزاف : ماء لبنى أسد بن خزيمة ، وهو فى طريق القاصد إلى المدينة من البصرة

فقلت :

يا أيها الهاتف ما تخيل ... أرشد عندك أم تضليل ؟

فقال :

هذا رسول الله ذو الخيرات ... جاء بياسين وحاميمات
وسور بعد مفصلات ... محرمات ومحللات
يأمر بالصوم والصلاة ... ويزجر الناس عن الهنات (١٧٥)

قال : قلت : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا مالك بن مالك ، بعثنى رسول الله ﷺ على جن أهل نصيبين . .

قال : قلت : لو كان لى من يكفينى إبلى هذه لأتيته حتى أومن به .
قال : أنا أكفيكها حتى أؤديها إلى أهلك سالمة ، إن شاء الله تعالى ـ

فاعتقلت بعيراً منها ، ثم أتيت النبى ﷺ فوافقت الناس يوم الجمعة وهم فى الصلاة ، فبينما أنيخ راحلتى إذ خرج أبو ذر فقال لى : يقول لك رسول الله ﷺ ادخل ، فدخلت ، فلما رآنى قال : ما فعل الشيخ الذى ضمن أن يؤدى إبلك إلى أهلك ؟ أما إنه قد أداها إلى أهلك سالمة .
فأسلم خريم رحمه الله وحسن إسلامه (١٧٦)

لقد آمن كثير من الجن إذن برسول الله ﷺ وقد أُرْسِلَ إليهم كما أرسل إلى الإنس ، وقد تحدثنا عن ذلك فى حديثنا السابق عن الجن .

---

(١٧٤) حدثان : أول خروجه
(١٧٥) الهنات : جمع هنة ، وهى السيئة والأمور المعيبة والقبيحة
(١٧٦) أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٧

وفى هذا الخبر دليل جديد يؤيد ما سبق ، وفيه من الجديد أن النبى ﷺ اختار منهم من يتولى أمرهم ، فهو لم يكتف بتبليغ الرسالة إليهم بل جعل منهم نقباء وولاة ، وهذا مالك بن مالك قد بعثه الله على جن نصيبين .

وكان الجن يتوافدون على النبى ﷺ ليتعلموا الدين ويتفقهوا فيه ، وذلك من دلائل نبوته ورسالته العامة ﷺ

ولئن كان سليمان ـ عليه السلام ـ قد سخر الله له الجن يعملون بين يديه ماشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد بعث نبيه محمداً ﷺ إلى الجن هادياً ومبشراً ونذيراً . .
والله ـ تعالى ـ يقول :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟
أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ
طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١٧٧)

خبر هامة بن الهيم :

وأورد ابن الأثير كذلك خبراً عن الهامة بن الهيم بن لاقيس فى سند متصل ذكره بأنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال :

---

(١٧٧) الأحقاف ٢٩ : ٣٢

كنت مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خارجاً من جبال مكة ، إذ أقبل شيخ متكىء على عكازه ، فقال : النبي ﷺ مشية جنى ونغمته . .

قال : أجل

قال : من أى الجن أنت ؟

قال : أنا هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس

قال : لا أرى بينك وبينه إلا أبوين

قال : أجل

قال : كم أتى عليك ؟

قال : أكلت عمر الدنيا إلا أقلها ، كنت وقت قتل قابيل هابيل غلاماً ابن أعوام ، وذكر أنه تاب على يد نوح ـ عليه السلام ـ وآمن معه ، وأنه لقى شعيباً ـ عليه السلام ـ وإبراهيم الخليل ـ صلى الله على نبينا وعليه وسلم ـ أفضل الصلاة والسلام ، ولقى عيسى ـ عليه السلام ـ فقال له عيسى : إن لقيت محمداً فأبلغه منى السلام ، وقد بلغت وآمنت بك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عيسى السلام وعليك ياهامة

وعلمه رسول الله ﷺ عشر سور من القرآن الكريم ، قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : فمات رسول الله ﷺ ولم ينعه لنا ، ولا أراه إلا حيا (١٧٨)

---

(١٧٨) أسد الغابة جـ ٥ ص ٢٧٩

وقد لا يوافق البعض على صحة هذا الخبر ، لبعده عن نطاق العقل ، ولكن الإعجاز النبوى لا يعارضه ، وقد ثبت أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يلقى الجن ويحادثهم ويحادثونه ، ولقد حكموه فى خلاف بينهم ، فقد روى بلال بن الحارث قال : نزلنا مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره فى مكان يسمى العرج ، فتوجهت نحوه فلما قاربته سمعت لغطاً وخصومة رجال لم أسمع أحَدٌ من ألسنتهم ، فوقفت حتى جاء النبى ﷺ وهو يضحك ، فقال : اختصم إلىَّ الجن المسلمون والمشركون ، وسألونى أن أسكنهم فأسكنت المسلمين من الجلس وأسكنت المشركين الغور (١٧٩)

عبد الله بن أبي ذباب يخبر عن سبب إسلام أبيه :

روى قتادة بن دعامة السدوسى عن عبد الله بن أبي ذباب السعدى عن أبيه قال :

كنت مولعاً بالصيد ، وكان لنا صنم اسمه « فراض » كنت كثيراً ما أذبح له ، ولم أكن أتخذ جارحاً للصيد إلا رمى بآفة ، ولم أكن أدخل إلى الحى بصيد حتى إلا ما ندر لأنى كنت لا أدركه إلا وقد أشرف على الهلاك .

فلما طال بى ذلك أتيت فراضاً فعترت له عتيرة (١٨٠) ولطخته من دمها وقلت :

فـراض أشـكو أنكـد الجـوارح ... من طـائر ذى مخـلب ونابـح
وأنت للأمـر الشـديد الفـادح ... فافتح فقد أسـهلت المفاتـح

---

(١٧٩) حياة الحيوان للدميرى جـ ١ ، والجلس كل مرتفع من الأرض والغور : كل منخفض
(١٨٠) العتيرة : القربان يذبح على الصنم

وظل أمرى على ذلك مدة من الزمن حتى أصبت كلباً خلاسياً بهيماً عظيماً ، أهرت الشدقين ، شابك الأنياب غليظ البراثن [١٨١] ، أشعر مهول المنظر .

فصفرت به فأتى فلاذ بى فسميته « جياضا » واتخذت له مربطاً بإزاء فراشى وأكرمته ثم خرجت إلى الصيد ، فإذا هو أبصر بالصيد منى ، وكان لا يثبت له شيء من الوحش ، فقلت فيه :

جـياض إنك مـأمول منافـعه   وقد جـعلتك موقوفاً لفـراض

فكنت أعتر أى أذبح لفراض من صيده ، وأقرى الضيف ، فلم أزل به من أوسع العرب وأكثرهم ضيفاً ، إلى أن ظهر رسول الله ﷺ فنزل بى ضيف كان قد رأى رسول الله ﷺ وسمع منه القرآن ، فحدثنى عنه فرأيت جياضاً كأنه ينصت لحديثه .

ثم إنى غدوت اقتنص بجياض فجعل يجاذبنى ويأبى أن يتبعنى ، فأجذبه وأمسحه ، إلى أن عنَّ لى تولب [١٨٢] ، فأرسلته عليه فقصده ، حتى إذا قلت قد أخذه حاد عنه ، فساءنى ذلك ، ثم إنى أرسلته على رأل [١٨٣] ، فصنع مثل ذلك .

ثم أرسلته على بقرة ، ثم على خشف [١٨٤] كل ذلك لا يأتى بخير فقلت :

---

(١٨١) خلاسيا : مختلفاً بين لونين ـ أهرت : واسع ـ البراثن : الأظافر
(١٨٢) عن : ظهر ـ التولب : الجحش من حمر الوحش
(١٨٣) الرأل : فرخ النعام
(١٨٤) الخشف : بكسر الخاء ـ ولد الظبى

ألا ما لجياض يحيد كأنما   يرى الصيد ممنوعاً بزرق اللهازم [185]

قال : فأجابني هاتف لا أراه فقال :

يحيد لأمر لو بدا لك غيبه   لكنت صفوحاً عاذراً غير لائم

قال : فأخذت الكلب وانكفأت راجعاً ، فإذا شخص عظيم الخلق قد ركب حماراً وحشياً فتربع على ظهره وهو يساير شخصاً مثله يركب على قرهب [186] ، وخلفهما عبد أسود يقود كلباً عظيماً بساجور [187] ، فأشار أحد الراكبين إلى جياض ، وأنشد ، وجعل يقول :

ويلك جياض لم تصيد ؟   اخنس وحد عما حوته البيد
الله أعلى وله التوحيد   وعبده محمد السديد
سحقاً لفراض وما يكيد   قد ظل لا يبدى ولا يعيد

قال : فملئت رعباً ، وذل الكلب فما يرفع رأساً ، وأتيت أهلي مغموماً كاسفاً ، فبت أتململ على فراشي من آخر الليل ، فإذا نغمة ، ففتحت عيني ، فرأيت الكلب الذي كان العبد الأسود يقوده ، واذا جياض يقترب منه ثم قصدني جياض فتأملني ورجع اليه ، ثم سارا معاً . .

فقمت أنظر فلا عين ولا أثر

---

(١٨٥) زرق اللهازم : السيوف القواطع

(١٨٦) قرهب : ثور ضخم

(١٨٧) الساجور : القلادة أو الخشبة في عنق الكلب

ولما أصبحت أخبرت قومى بما رأيت وسمعت وقلت لهم : تخيروا من ينطلق معى إلى هذا النبى من حكمائكم وخطبائكم ، فقالوا : ترغب عن دين آبائك ؟

فقلت لهم : إذا كرهتم شيئاً كرهته ، فما أنا إلا واحد منكم ، ثم انسللت منهم ، فكسرت الصنم ، ثم قصدت المدينة ، فقدمتها ورسول

الله ﷺ يخطب فجلست بإزاء منبره ، فعقب بأن قال : بازاء منبرى رجل مَن سعد العشيرة قدم راغباً فى الإسلام ، ولم يرنى ولم أره إلا هذه الساعة ، ولم أكلمه ، ولم يكلمنى قط ، وسيخبركم خبراً عجباً .

ونزل فصلى ، ثم قال ادن ياأخا سعد الشعيرة ، فدنوت فقال : أخبرنا خبر جياض وفراض ، وما رأيت وسمعت .

قال : فقمت على قدمى فقصصت القصة ، والمسلمون يسمعون ، فسرَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ ودعانى إلى الإسلام وتلا على القرآن فأسلمت على يديه وقلت فى ذلك :

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى ... وخلفت فراضاً بدار هوان
شددت عليه شدة فتركته ... كأن لم يكن ، والدهر ذو حدثان
رأيت له كلباً يقوم بأمره ... يهدد بالتنكيل والرجفان
فلما رأيت الله أظهر دينه ... أجبت رسول الله حين دعانى

وأصبحت للإسـلام ماعشت ناصراً　　وألقيت فيه كلكلى وجرانى [188]
فمن مبـلغ سـعد العشيرة أننى　　شريت الذى يبقى بما هو فانى [189]

وإنا لنرى فى هذه القصة من علامات النبوة ملامح كثيرة .
منها إيمان الجن بالنبى ﷺ

ومنها تجنيد المؤمنين من الجن لإعلان إخوانهم بنبوة محمد ﷺ ودعوتهم إلى الإسلام ، وترك خدمة الأصنام .

ومنها معرفة النبى ﷺ بهذا الخبر قبل أن يحضر صاحبه ، وإخبار أصحابه به ودعوته إلى قص خبره الغريب عليهم .

إن ما ذكرناه من دلائل تشير إلى أن نبوة محمد ﷺ كانت معروفة لكثير من الناس قبل بعثته وذلك عن طريق الأخبار التى وردت فى الكتب السابقة التى يعلمها علماء أهل الكتاب ، ومن تلقاها عنهم من غيرهم ، أو عن طريق الجن الذين سمعوا بخبر النبى ﷺ من السماء حين كانوا يسترقون السمع فعادوا إلى كهانهم يخبرونهم بذلك .

وهناك دلائل فى حياة النبى ﷺ نفسه تشهد له بأنه هو النبى المنتظر وهناك إرهاصات كثيرة قدمت لمولده وبعثته ، وهو مانتحدث عنه فيمايلى .

---

(١٨٨) الكلكل : الصدر ـ والجران : مقدم العنق
(١٨٩) أسد الغابة جـ ٦ ص ٩٩ وخير البشير ١٢٧

إرهاصات النبوّة

- أخذ الميثاق على الرسل .
- تبشير الأنبياء به .
- رصد الكهان للنجوم .
- علامات النبوة فى جبهة الآباء .
- ما رأته آمنة بنت وهب من علامات النبوة .
- تنكيس الأصنام .
- هلاك أصحاب الفيل .
- ترصد اليهود له .

إرهاصات النبوة

جاء فى كتب اللغة : رهصه فى الأمر استعجله فيه ،
وأرهصه الله للخير أى جعله معدناً له
ويقال : رهصنى فلان بحقه أى أخذنى أخذاً شديداً
والإرهاص : الإثبات
والرهص أيضاً تثبيت البنيان

هذا بعض ماجاء فى مادة « رهص » فى اللغة ، ومن هذه المعانى ندرك المقصود من إرهاصات النبوة ، فهى إعداد لها ، واستعجال لها ، واثبات وتبييت لها . . . ومن يتابع حياة النبى ﷺ قبل مولده وبعد مولده وقبل بعثته وبعد بعثته يستنبط آيات متعددة منها تشهد له بالنبوة ، وتؤكد أنه جدير بها ومختار لها منذ الأزل .

اختيار منذ الأزل :

وردت عدة أحاديث تذكر أن الله سبحانه وتعالى ـ اختار نبيه قديماً ، وأخر ظهوره إلى آخر الزمان لتكون رسالته المختارة خاتمة الرسالات السماوية التى يقول الله فى حقها :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣ ﴾ (١٩٠)

ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ وقد سئل متى كنت نبياً ؟ قال :

« كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » (١٩١)

ومنها :

« كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث » (١٩٢)

ومنها :

« كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » (١٩٣)

ومنها :

« وكنت وآدم فى الجنة فى صلبه ، وركب بى نوح السفينة وأنا فى صلبه ، وقذف بى فى النار فى صلب أبى إبراهيم ، لم يلتق أبواى قط على سفاح ، لم

---

(١٩٠) المائدة ٣

(١٩١) الحديث فى الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ص ٤١ فى ترجمة عبد الله بن أبى الجدعاء العبدى قال : قلت يارسول الله متى كنت نبيا ؟ قال : إذ آدم بين الروح والجسد ، وأورده الطبرانى فى الكبير جـ ١٢ ص ٩٢ برقم ١٢٥٧١ وفى الأوسط برقم ٣١٣ ، وفى مجمع الزوائد جـ ٨ ص ٢٢٣ تحت عنوان : قدم نبوته ، ورواه السيوطى فى الجامع الصغير برقم ٦٤٢٤ ورمز له بالصحة .

(١٩٢) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٩٦ بعنوان نبوة رسول الله ﷺ وفى الجامع الصغير برقم ٦٤٢٣ عن قتادة

(١٩٣) أخرجه ابن لال عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة فى جمع الجوامع برقم ٤٤١/١٦٨٣٤ ، وذكره المناوى عند شرحه للحديث السابق .

يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة ، مصفًى مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما ، قد أخذ الله بالنبوة ميثاقي ، وبالإسلام عهدي ، ونشر في التوراة والإنجيل ذكرى ، وبيَّن كل نبي صفتي ، تشرق الأرض بنوري ، والغمام لوجهي وعلمني كتابه ، ورقاني في سمائه ، وشق لي اسما من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد ، ووعدني أن يَحْبُونِي بالحوض والكوثر وأن يجعلني أول شافع وأول مشفع ، ثم أخرجني من خير قرن لأمتي ، وهم الحمادون ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »(١٩٤)

وجاء في كتاب المواهب اللدنية : « أن الله أنزل على آدم عصيا بعدد الأنبياء والمرسلين ، ثم أقبل آدم على ابنه شيث فقال : ابني أنت وخليفتي من بعدي ، فخذها بعمارة التقوى والعروة الوثقى ، وكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد فإني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش ، وأنا بين الروح والطين ، ثم إني طفت السموات فلم أر في السموات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه ، وإن ربي أسكنني الجنة فلم أر قصراً ولا غرفة إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه ، ولقد رأيت اسم محمد مكتوباً على ورق قصب آجام الجنة ، وعلى ورق شجرة طوبى ، وعلى ورق سدرة المنتهى ،

---

(١٩٤) الحديث في تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر جـ ١ ص ٣٤٩ ـ باب ذكر مولده وطهارة أصله وكرم محتده عن ابن عباس قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت فداك أبي وأمي يارسول الله أين كنت وآدم في الجنة ؟ قال : فتبسم حتى بدت ثناياه ثم قال : كنت في صلبه وهبط إلى الأرض وأنا في صلبه .. وفي جمع الجوامع للسيوطي برقم ٤٤٢/١٦٨٣٥

وعلى أطراف الحجب ، وبين أعين الملائكة ، فأكثروا ذكره فأن الملائكة تذكره فى كل ساعاتها »[١٩٥]

قال الشيخ محمد علوى المالكى : قال الزرقانى فى شرحه : رواه ابن عساكر ، وقد ذكر نحو هذا الخبر الشيخ ابن تيميه فقال : وقد روى أن الله كتب اسمه على العرش وعلى مافى الجنة من الأبواب والقباب والأوراق وروى فى ذلك عدة آثار . .

وروى ابن الجوزى عن ميسرة قال : قلت يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء . . . وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله تعالى ، نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه »[١٩٦]

إن هذه الآثار لتشهد بأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ مختار الله فى الأزل ، ومصطفاه منذ القدم . . .

ولأن الله تعالى اعتنى بخيرته من خلقه ، فقد نقش اسمه ـ كما رأينا ـ على الأماكن المتعددة فى الجنة . . جاء فى كتاب حجة الله على العالمين للنبهانى :

---

(١٩٥) المواهب اللدنية جـ ١ ص ١٨٦ ومفاهيم يجب أن تصحح للمالكى ص ٤٩
(١٩٦) الفتاوى لابن تيمية جـ ٢ ص ١٥٠

قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : بلغنى فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢ ﴾ (١٩٧)

قال : كان لوحاً من ذهب وقيل : كان لوحاً من رخام كُتِبَ فيه :

: عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يغفل ، عجباً لمن أيقن بالقضاء كيف يحزن ، عجباً لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا عند رسول الله ﷺ واذا بطائر فى فمه لؤلؤة خضراء فألقاها ، فأخذها النبى ﷺ فوجد فيها درة خضراء مكتوباً عليها بالأصفر : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقد ذكر ذلك الحلبى فى سيرته (١٩٨)

وأمثال ذلك كثير جمعها المعنيون بذلك فى كتبهم .

ويدل على اصطفاء الله لرسوله ﷺ قديماً ذلك الميثاق الذى أخذه الله على الرسل . .

---

(١٩٧) الكهف ٨٢

(١٩٨) حجة الله على العالمين ص ٢١١

أخذ الميثاق على الرسل :

قال - تعالى -

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١٩٩)

وأخذ الميثاق على الأنبياء السابقين تزكية للنبى - صلى الله عليه وسلم - وتشريف له فكأنهم مابعثوا إلا ليبشروا بقدومه ويمهدوا الطريق لرسالته الخاتمة التى اختارها الله للبشر .

وأصبح لزاماً أن يخبر كل نبى قومه بأمر هذا النبى المصطفى ، ويأخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا به عند ظهوره .

قال الإمام تقى الدين السبكى فى تعليقه على هذه الآية الكريمة : فى هذه الآية من التنويه بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وتعظيم قدره مالايخفى ، وفيها كذلك أنه مرسل لجميع أمم الأنبياء قبله ، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة ، وتكون الأنبياء

---

(١٩٩) آل عمران ٨١

وأممهم كلهم من أمته ، ويكون قوله : بعثت للناس كافة شاملاً لكل الخلق ولجميع الأمم ويتبين من معنى قوله ﷺ « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » أن النبوة ثابتة له صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت ، ولهذا رأى آدم اسمه مكتوباً على العرش « محمد رسول الله » ولو كان المراد بذلك بمجرد

العلم بما سيصير فى المستقبل لم يكن فى ذلك خصوصية له صلى الله عليه وسلم ، لأن جميع الأنبياء يعلم الله نبوتهم أزلاً . . . فلا بد من خصوصية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أجلها أخبر بهذا الخبر إعلاماً لأمته ليعرفوا قدره عند الله فيحصل لهم الخير . .

وقد روى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه ـ قال : « لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى شأن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه »

ليكونوا تحت لوائه . . ثم يوم القيامة تشملهم شفاعته العظمى ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَـٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (٢٠٠)

تبشير الأنبياء به :

وقد تمت بشارات الأنبياء فى كتبهم واخبارهم لأممهم به ، وقد سبق أن

---

(٢٠٠) الأنبياء ١٠٧

عرضنا نماذج من هذه البشارات التي ينكرها أو يحرفها أو يصرفها عن وجهها اتباع هؤلاء الأنبياء بغياً وعدواً بغير علم .

إلا أن منهم من تبين له وجه الحق فآمن ، ومن هؤلاء « مخيريق » وكان حبراً عالماً كثير المال من النخل وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته ، وغلبت عليه ألفة دينه ، فلم يزل كذلك حتى كان يوم أُحُد ، وكان يوم السبت ، فقال : يا معشر اليهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم حق . .

قالوا : فإن اليوم يوم سبت ، فقال : لا سبت ، ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى النبى ﷺ بأحد ، وعهد إلى مَنْ وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فمالى لمحمد يصنع فيه ماأراده الله تعالى فقاتل حتى قتل .

فكان رسول الله ﷺ يقول : مخيريق خير يهود ، وَقَبَضَ رسول الله ﷺ أمواله ، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها .

مناظرة بين ابن القيم وبعض العلماء من أهل الكتاب :

ذكر ابن القيم فى كتابه زاد المعاد مناظرة جرت بينه وبين أهل الكتاب حول التبشير بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كتبهم ، يقص ذلك بنفسه فيقول :

قلت لهم فى أثناء الكلام : لا يتم لكم القدح فى نبوة نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بالطعن فى الرب ـ تعالى ـ والقدح فيه ـ سبحانه ـ ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ

فقالوا : كيف يلزمنا ذلك ؟

قلت : بل لا يتم ذلك لكم إلا بجحوده وانكار وجوده تعالى . . . وبيان ذلك :

إن كان محمد ﷺ عندكم ليس بنبى صادق ، وهو بزعمكم ملك ظالم فقد تهيأ له أن يفترى على الله ، ويتقول عليه مالم يقله ، ثم يتمم له ذلك ويستمر حتى يحرم ويحلل ، ويفرض الفرائض ويشرع الشرائع وينسخ الملل ويضرب الرقاب ويقتل أتباع الرسل ، وهم أهل الحق ، ويسبى نساءهم وأولادهم ويغنم أموالهم وذراريهم ، ويتم له ذلك حتى فتح الأرض ، ونسب ذلك كله إلى الله ، وأنه تعالى أمره به ، والرب ـ تعالى ـ يشاهده وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل ، وهو مستمر فى الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة ، وهو مع ذلك يؤيده وينصره ، ويعلى أمره ، ويمكّن له من أسباب النصر الخارجة عن طوق البشر . .

وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته ، ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ، بل تارة بدعائه وتارة يستأصلهم سبحانه من غير دعاء منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومع ذلك يقضى له كل حاجة سأله إياها ، وَيَعِدُه كل وعد جميل ثم ينجز له وعده على أتم الوجوه وأهنئها وأكملها . . . هذا وهو عندكم فى غاية الكذب والافتراء والظلم فإنه لا أكذب ممن كذب على الله واستمر على ذلك ، ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله وسعى فى رفعها من الأرض وتبديلها . . فيلزمكم معاشر من كذبه أحد أمرين لابد لكم من القول بواحد منهما . .

الأول : أن تقولوا لا صانع للعالم ، ولا مدبر ولو كان للعالم صانع مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه وجعله نكالاً للصالحين . .

الثانى : نسبة الرب تعالى إلى ما لايليق به من الجور والسفه والظلم وإغفال الخلق دائماً ونصرة الكاذب والتمكين له فى الأرض وإجابة دعواه . . وإحرازه النصر تلو النصر على رءوس الأشهاد فى كل مجمع وناد . . فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين ؟

فرد مناظره قائلاً : معاذ الله أن نقول انه ـ أى محمد ـ ظالم أو كاذب بل كل منصف من أهل الكتاب يقر بأن من سلك طريقه واقتفى أثره فهو من أهل النجاة والسعادة فى الأخرى .

قال ابن القيم : فكيف يكون سالك طريق الكذاب بزعمكم من أهل النجاة والسعادة ؟ فلم يجد مناظره بُدًّا من الاعتراف برسالته ولكنه زعم أنه لم يرسل إليه . .

قال له : فقد لزمك تصديقك ولابد وهو قد تواتر عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين أن تصدق به . . فبهت الكافر ، ونهض من فوره . .

فتبشير الأنبياء به فى كتبهم كان إرهاصاً للنبى ﷺ وإثباتاً لنبوته . .

قرب الظهـــور :

ولما قرب ظهوره صلى الله عليه وسلم تهيأت الأذهان لذلك بأسباب عديدة . .

وقد يكون من هذه الأسباب شيوع الفساد وتفشيه ، حتى تتهيأ الألسنة بالدعاء إلى الله واستصراخه ليبعث للناس من يأخذ بأيديهم إلى العدالة ، وينجيهم من الظلم ويرفع عنهم غشاوة القهر وجبروت العنف ، وقد ورد فى حكمة الحكماء : « أشد الساعات أقربها إلى طلوع الفجر » وقد سبق أن تحدثنا عن الظروف القاسية التى مرت بالعالم فى الجزيرة العربية وغيرها من الأمم ، حتى جأر الناس جميعاً بالشكوى . .

وربما وجد فى البيئة العربية بعض الاستعدادات الطيبة والنفوس الخيرة التى ظهر لها أثر فى بعض التصرفات الحسنة كحلف الفضول الذى يقول فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد شهده : « لقد شهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ماأحب به حمر النعم ، ولو دعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت » وكاستجابة بعض العقلاء لنداءات التوفيق والصلح بين المتخاصمين ، وكنأى بعضهم عن الانغماس فى رجس الجاهلية . . إلا أن هذه البوادر الطيبة كانت لا تلبث أن تنزوى فى طيات الظلام الذى ألقى رواقه فى ربوع الجزيرة العربية التى اضطرمت بالشر وماجت بالحروب فاصطلى الجميع بنارها ، وربما امتدت الحروب بين قبيلتين أو أكثر سنين طويلة .

ولم يكن ذلك إلا صورة مما كان يحدث فى خارج الجزيرة العربية من حروب طاحنة بين الدولتين العظميين فى ذلك الوقت ـ فارس والروم ـ وربما امتد أوار هذه الحرب إلى العرب أنفسهم حيث كان أبناؤهم وقوداً لهذه الحرب فى بعض الأحيان ، فقد كان الغساسنة وهم عرب يناصرون الروم ،

والمناذرة وهم عرب أيضاً يناصرون الفرس (٢٠١)

بل قد يمتد الصراع إلى ماوراء ذلك . . . إلى تلك الدول التى كانت تحت نفوذ إحدى الدولتين . . كان من الطبيعى أن تضيق النفوس وتضطرب الأفئدة ويتعطش الناس إلى منقذ يأخذ بأيديهم ، وهاد يهديهم إلى السبيل الصحيح . . . وإنه لا يبعث الأمن والأمان إلا الدين السوى ولا يأتى

الشعور بالاطمئنان إلا من التحصين بالإيمان الحق والالتجاء إلى إله قادر يجد الانسان فى ظله الهدى والسعادة والحماية . . فأخذ الناس يتطلعون إلى من يأخذ بأيديهم إليه ويدلهم إلى الصواب . .

وقد كثر ذلك التطلع قرب البعثة . . وأصبحت له مظاهر متعددة منها :

رصد الكهان للنجــوم :

العلم بالنجوم قديم ، وقد برع فيه العرب . . فقد كان ما انبسط لأعينهم من رقعة السماء داعياً إلى إدمان النظر فى الكواكب ، وتعرف صورها وألوانها ومطالعها وأنوائها ، وتوصلهم بذلك إلى معرفة زمان الخصب والحمل ، وأوقات الريح والمطر ، واهتدائهم بها فى ظلمات البر والبحر ،

وهم مدينون بشىء غير قليل من علم النجوم أو الفلك للكلدانيين ـ بقايا بابل القديمة ويسمون بالصابئة ، وهم عبدة الكواكب ولا يزال كثير من أسماء البروج والكواكب فى اللغتين متقارباً أو متحداً ، فبرج الثور يسمى فى

(٢٠١) هدى السيرة لعبد الحفيظ فرغل ص ١٩ دار الفكر العربى

الكلدانية « ثوراً » والجدى يسمى فى الكلدانية « كديا » والمريخ يقابل « مرادخ » وهكذا . .

وهذا علم وفن يقوم على دقة الملاحظة وقوة الفراسة والذكاء . . ولكن الذى لا يحمد هو ربط النجوم بالقدر والاعتقاد بأن هذه الكائنات لها ارتباط بحياة الناس ومستقبلهم وأقدارهم ، فهذا نوع من الكهانة التى يدعيها قوم لا صلة لهم بالله .

وكان بعض الكهان يرصدون النجوم ويرقبونها ويعرفون من خطوط سيرها وطلوعها وغروبها دلائل يزعمون أنها تشير إلى أحداث هامة . .

وقد روى ابن إسحاق قائلاً : حدثنى صالح بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة الأنصارى قال : حدثنى من شئت من رجال قومى عن حسان بن ثابت قال : والله إنى لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ماسمعت ، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب : يا معشر يهود : حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك مالك ؟ قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به [٢٠٢]

فهذا يعنى أن الأحبار والكهان كانوا يرصدون النجوم ترقباً لمجىء ذلك المولود المنتظر .

---

(٢٠٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٨١

جاء فى السيرة الحلبية عن كعب الأحبار ـ رضى الله عنه ـ قال : رأيت فى التوراة أن الله ـ تعالى ـ أخبر موسى عن وقت خروج محمد ﷺ أى من بطن أمه ، وموسى ـ عليه السلام ـ أخبر قومه أن الكوكب المعروف عندكم اسمه كذا إذا تحرك وسار عن موضعه فهو وقت خروج محمد ﷺ وصار ذلك مما يتوارثه العلماء من بنى إسرائيل .

وجاء فيها أيضاً عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان يهودى يسكن مكة ، فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول اله ﷺ قال فى مجلس من مجالس قريش : هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلمه ، قال : احفظوا ما أقول لكم ، ولد هذه الليلة نبى هذه الأمة الأخيرة : وهو منكم معاشر قريش ، على كتفه أى عند كتفه علامة ، أى شامة ـ فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس وتلك العلامة هى خاتم النبوة ، والدليل عليها .. لا يرضع ليلتين ، وذلك فى الكتب القديمة من دلائل نبوته ,

وعند قول اليهودى ماذكر تفرق القوم من مجالسهم وهم متعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم آله بما سمع ، فقالوا : لقد ولد الليلة لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً ,

فالتقى القوم حتى جاءوا اليهودى وأخبروه الخبر قائلين له : أعلمت ؟ ولد فينا مولود

قال : اذهبوا معى حتى أنظر إليه

فذهبوا معه حتى وصل الدار فقال لأمه : أخرجى إلينا ابنك ، فأخرجته وكشفوا عنه ظهره ، فرأى تلك الشامة فخر مغشياً عليه .

فلما أفاق قالوا : ويلك مالك ؟ قال : ذهبت النبوة من بنى اسرائيل ، أفرحتم به يا معشر قريش ؟(٢٠٣)

فها نحن أولاً ندرك من خلال هذه الأخبار أن العلماء والأحبار كانوا يترصدون النجوم لترقب نجم أحمد ﷺ

وليس فى ذلك غرابة ، فقد كان استطلاع النجوم لمعرفة ماتهدى إليه من أخبار عند المتخصصين فى استخبارها أمراً قديماً . .يدل عليه مايأتى :

ذكر الدميرى فى كتابه حياة الحيوان : أن والد ذى القرنين كان لديه علم بالنجوم ولم يراقب أحد الفلك كما راقبه ، وكان يتطلع إلى ظهور نجم فى السماء فظهر وكان يرتب على ذلك بعض الأمور والأحداث(٢٠٤)

وحين رميت الشياطين بالشهب ارتاع العرب ، فلم يكن تساقط الشهب أمراً ملموساً عندهم ولكنهم فوجئوا به ، عند ولادة النبى ﷺ وقد سألوا عن هذا الأمر كهانهم فأفادوهم بأن ذلك لم يكن إلا لمولد نبى آخر الزمان .
وقد تم بناء على ذلك :

إخبارهم ببعث النبى ﷺ :

روى الواقدى ـ رحمه الله ـ أنه كان بمكة يهودى يقال له يوسف ، فلما

(٢٠٣) السيرة الحلبية جـ١ ص ١١٣

(٢٠٤) حياة الحيوان للدميرى جـ٢ ص ٣٦

كان اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ قبل أن يعلم به أحد من قريش قال : يامعشر قريش قد ولد نبى هذه الأمة الليلة فى ناحيتكم . .

وجعل يطوف فى أنديتهم فلا يجد خبراً ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب بن هاشم ، فسأل فقيل له : قد ولد لابن عبد المطلب أى لعبد الله غلام ، فقال : هو نبى والتوراة .

وكان هناك راهب من أهل الكتاب يدعى « عيصا » وقد آتاه الله علماً كثيراً ، وكان يلزم صومعةً له ، وكان يأتى مكة فيلقى الناس ويقول :

يوشك أن يولد فيكم مولود ياأهل مكة تدين له العرب ، ويملك العجم ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته .

فكان لايولد بمكة مولود إلا ويسأل عنه ويقول : ماجاء بعد ، فلما كان صبيحة اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد المطلب حتى أتى « عيصا » فوقف على أصل صومعته فناداه . .

فقال : من هذا ؟

قال : أنا عبد المطلب ، وأخبره بمولد محمد ﷺ

فقال : كن أباه ، فقد ولد ذلك المولود الذى كنت أحدثكم عنه ، وان نجمه طلع البارحة ، وعلامة ذلك أنه الآن وَجِع فيشتكى ثلاثاً ثم يعافى (٢٠٥)

---

(٢٠٥) السيرة الحلبية جـ ١ ص ١١٣

ولتوقع ذلك النبى كان بعضهم يسمى ابنه محمداً ، على أمل أن يكون هو النبى المنتظر ، ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

تسميتهم بمحمـــد :

ذكر ابن الأثير فى أسد الغابة أن كل الذين سموا بمحمد قبل بعثة النبى ﷺ كان أبوه يتوقع أن يكون هو النبى المنتظر ،واستشهد بما رواه أبو نعيم الأصفهانى قال : حدثنى أحمد بن إسحاق بهذه الأسامى ـ وهى : محمد بن عدى ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن البراء ، ومحمد بن حمران ، ومحمد بن خزاعى بن علقمة ـ قال : حدثنا محمد بن سليمان المروى فى كتاب الدلائل أن هؤلاء المحمدين ممن سماهم قبل بعثة رسول الله ﷺ سموا بذلك لما أخبرهم الراهب بقرب مبعثه . .

وذكر قصة الراهب فى ترجمة محمد بن عدى :

روى عبد الملك المنقرى عن جد أبيه خليفة ، وكان خليفة مسلماً قال : سألت محمد بن عدى بن ربيعة بن سعد بن سواءة بن جشم بن سعد : كيف سماك أبوك محمداً ؟

فضحك : ثم قال : أخبرنى أبى عدى بن ربيعة قال : خرجت أنا وسفيان بن مجاشع بن دارم ويزيد بن ربيعة بن كابية بن حرقوص بن مازن ، وأسامة بن مالك بن العنبر ـ نريد ابن جفنة ، فلما قربنا منه نزلنا إلى شجرات وغدير ، فأشرف علينا راهب من دير ، فقال : إنى أسمع لغة ليست لغة أهل هذه البلاد ،

فقلنا : نعم ، نحن قوم من مضر

قال : أي المضريين ؟

قلنا : من خندف

قال : إنه يبعث وشيكاً نبى منكم ، فخذوا نصيبكم منه تسعدوا . .

قلنا : ما اسمه ؟

قال : محمد

قال : فأتينا ابن جفنة ، فقضينا حاجتنا من عنده

ثم انصرفنا ، فولد لكل منا ابن ، فسماه محمداً (٢٠٦)

وذكر السهيلى أن الذين تسموا بهذا الاسم طمعاً فى النبوة ثلاثة هم محمد بن سفيان بن مجاشع جد جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ، ومحمد بن حمران بن ربيعة ، وعزا السبب فى ذلك إلى أنهم وفدو على بعض الملوك وكان عنده علم من الكتاب فأخبرهم بمبعث النبى ﷺ وباسمه ، وكان كل منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذر كل منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ففعلوا ذلك (٢٠٧)

علامات النبوة فى جبهة الآباء :

وشاءت إرادة الله أن يجعل أثر نور النبى ﷺ بادياً فى جبهة آبائه من لدن آدم ـ عليه السلام ـ حتى عبد الله والد النبى ﷺ

---

(٢٠٦) أسد الغابة جـ ٥ ص ١٠٤

(٢٠٧) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٢

يروى العلماء عن كعب الأحبار - رضى الله عنه - كان نور محمد ﷺ يرى فى دائرة غرة آدم - عليه السلام - كالشمس فى فلكها ، وكالقمر فى ديجور ليلة ظلماء ، وقال الله تعالى لآدم - عليه السلام - خذه يعنى النور النبوى بعهدى وميثاقى وسوف تودعه فى الأصلاب الطاهرة والمحصنات الزاهرة ، قال : نعم ، ياإلهى وسيدى قد أخذته بعهدك على أن أودعه فى المطهرين من الرجال والمحصنات من النساء(٢٠٨)

وذكر النبهانى سِلْسِلَةً من الذين انتقل النور إلى جبهتهم بعد آدم - عليه السلام - فقال : انتقل إلى جبهة شيث بن آدم - عليهما السلام - ثم انتقل منه إلى ابنه « آنوش » ومنه انتقل إلى ابنه « قينان » ثم إلى « مهلائيل » ثم إلى « أخنوخ » وهو « ادريس » - عليه السلام - ومازال ينتقل من طيب إلى طيب حتى وصل إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ومنه إلى ابنه « قيدار » الذى أوصاه أبوه بأن يحافظ على ماورثه من نور النبوة ، وظن « قيدار » أن الذى يرث الحكمة منه سيكون من بنات إسحاق عمه ، فأكثر من الزواج منهن دون أن يعقب ، حتى ألهمه الله أن يتزوج امرأة من العرب اسمها « الغاضرة » فتزوجها وأعقب منها ولداً سماه « حمل » ورأى قيدار النور فى جبهة هذا الولد ، فسر سروراً بالغاً . . ومازال هذا النور ينتقل فى بنى إسماعيل حتى وصل إلى « أد » ومن « أد » انتقل الى عدنان .

قال : ولما انتهى النور إلى « نزار » قرب قرباناً عظيماً ، ثم انتقل إلى « مضر » . .

---

(٢٠٨) حجة الله على العالمين للنبهانى جـ ١ ص ٢١٧

ولما انتهى النور إلى « النضر بن كنانة » رأى مناماً عرضه على الكهان ، فقالوا له : إن صدقت رؤياك فقد صرف الله العز والكرم إليك ، وقد خصصت بحسب وسؤدد لم يحظ به أحد من العالمين .

وانتقل النور إلى هاشم بن عبد مناف ، ثم إلى ابنه عبد المطلب ثم إلى ابنه عبد الله والد النبى ﷺ

وقد ظهر النور واضحاً فى جبهة عبد الله حتى افتتنت به بعض نساء العرب اللاتى كان عندهن علم من أهل الكتاب . .

المرأة التى عرضت نفسها على عبد الله :

وقد ذُكِرَ أن أم قتال رقية بنت نوفل كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل أن فى الإنجيل والتوراة علامات النبى الخاتم ، وكان ورقة يحتل منزلة عليا وشهرة فى الحياة الفكرية والدينية عند العرب ، وكانت أخته أم قتال أكثر الناس سماعاً منه وكان اتصالها به ميسراً وثقتها فيه كبيرة .

وبفراستها العربية شاهدت فى جبين عبد الله بن عبد المطلب أنوار النبوة ، فتمنت للحظتها أن تكون هى أم ذلك النبى المرتقب . .

واندفعت وهى منفعلة بلهب أمنيتها ودون تحفظ ولا اختيار تطلب من عبد الله أن يتزوجها وله من الإبل مثل الإبل التى نحرت عنه (٢٠٩)

---

(٢٠٩) بشائر النبوة الخاتمة ص ١٥٦

ولكنه يرفض ذلك العرض .. وينصرف مع أبيه حيث يخطب له أم النبى المرتقب : آمنة بنت وهب وتزف إليه فى يومها .. وتحمل من ليلتها بالنبى الخاتم ﷺ

وقد ذكر أن أم قتال هذه قد حاولت إغراء عبد الله ودعته إلى نفسها فقال لها :

أما الحـــرام فالحِمام دونــه والحـــل لا حـــل فاســـتبينه
فكـيف بالأمـر الـذى تبغــينه يحـمى الكــريم عرضــه ودينـه

ولا يبعد ـ وهذا ماحدث فعلاً ـ أن تكون المرأة قد تعرضت للوم النساء لها خصوصاً وأنها كانت مشهورة بالعفة والنقاء ، فما بالها تندفع مع عواطفها هذا الاندفاع الملوم ، ولكنها دافعت عن نفسها قائلة :

إنى رأيــت مُخيلة نشــات فتلألأت بحـــناتم القطـــر
فلمـأتها نـوراً يضــىء بـه ما حــوله كإضـاءة الفجـر
ورأيــت ســقياها حيا بلـد وقعـــت به وعمـــارة القفـر
ورأيته شـــرفاً أبـــوء به ما كل قـادح زنـــده يـــورى
لـلـــه ما زهريـــة ســـلبت منك الذى استلبت وماتدرى [٢١٠]

وقد اختلف الرواة حول هذه الفتاة التى عرضت نفسها على عبد الله ، فمنهم من يقول : إنها أم قتال رقية بنت نوفل ، ومنهم من يقول : إنها

---

(٢١٠) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٠ والمخيلة : السحابة ـ والحناتم : السحاب الأسود ـ لمأتها : أبصرتها .

فاطمة بنت مر ، ومنهم من يقول : إنها ليلى العدوية ، وربما تكرر ذلك منهم لما كان فى وجه عبد الله من نور يغرى هؤلاء المتطلعات الى المجد الباقى والشرف الخالد بالإقدام على هذه المغامرة . . ويدل ذلك على أن الإخبار بقدوم النبى ﷺ كان قد شاع وكثر ، وأن علامات خاصة تظهر فى أبيه ، وقد توفرت هذه العلامات فى عبد الله . . فتنافست الفتيات فى شرف الفوز بالزواج منه . .

قال أبو نعيم فى دلائل النبوة : كان عبد الله بن عبد المطلب أجمل شباب قريشٍ . . خرج يوماً على نساء قريش مجتمعات ، فقالت امرأة منهن : أيّكن تتزوج بهذا الفتى فتصيب النور الذى بين عينيه ، فإنى أرى بين عينيه نوراً » (٢١١)

وقد ذهب هذا النور فور حمل آمنة بمحمد ﷺ . . . وقد ذكر بعض الرواة أن عبد الله أراد أن يسأل تلك المرأة التى عرضت نفسها عليه عن سبب ذلك ، فذهب إليها بعد أن تزوج فلم يجد لديها ذلك الاقبال الذى رآه منها قبل ذلك ، وسمعها تقول : لقد فارقك النور الذى كان معك بالأمس . .

ولعل الذى دفع عبد الله إلى الذهاب إلى تلك المرأة لسؤالها هو أن ما فعلته أمر غريب غير مألوف ـ فالمفروض أن تكون عقيلات العرب

---

(٢١١) دلائل النبوة للأصفهانى جـ ١ ص ٣٩

مطلوبات غير طالبات ، وخصوصاً أنها قد عرضت عليه فى نظير ذلك مائة من الابل .. ففى الأمر ـ إذن ـ سر خفى أراد أن يستجليه ويعرف حقيقته .. فقالت متمثلة :

لا تطــلبى الأمر إلا مقــبلاً ــــ قد كان ذلك مــرة فاليوم لا

فذهبت هذه الجملة مثلاً ، ثم قالت مستخبرة : أى شىء صنعت بعدى ؟

قال : دخلت على زوجتى آمنة .

فقالت : والله لست أنا بصاحبة ريبة ، ولكنى رأيت نور النبوة فى وجهك ، فأردت أن يكون ذلك لى فأبى الله إلا أن يجعله حيث جعله ..

وذكر البيهقى فى دلائله أنها قالت فى ذلك شعراً منه :

عليك بـآل زهــرة حيـث كانوا ــــ وآمنــة التى حــــملت غلاما
تــرى المهــدى حين ترى عليه ــــ ونــوراً قد تقـــدمه إماما
فكل الخـلق ترجـــوه جميعـــا ــــ يســود الناس مهتدياً إماما
بـــراه الله من نـــور صـفاء ــــ فأذهــب نـــوره عــنا الظلاما
وذاك صـــنيع ربك اذ حــــباه ــــ إذا مـا ســـار يومـاً أو أقاما
فيهـــدى أهـــل مكـة بعد كفر ــــ ويفـرض بعد ذلكم الصـــياما

قال أحمد ـ رحمه الله ـ وهذا الشىء قد سمعته « أم قتال » من أخيها فى صفة رسول الله ﷺ ويحتمل أنها كانت امرأة عبد الله مع آمنة بنت وهب .

ويؤكد البيهقى ذلك برواية عن إسحاق بن يسار قال : حُدثت أنه كان لعبد الله بن عبد المطلب امرأة مع آمنة بنت وهب . . وكانت ترجو أن يكون هذا النور لها . فلما ذهب لآمنة ، قالت له : لا حاجة لى بك ، مررت بى وبين عينيك غرة فرجوت أن أصيبها منك ، فلما دخلت على آمنة ذهبت بها منك .

قال ابن اسحاق : فحدثت أن امرأته تلك كانت تقول ، فمر بى وإن بين عينيه لنوراً مثل الغرة فدعوته رجاء أن يكون لى ، فدخل على آمنة فحملت برسول الله ﷺ (٢١٢) وهذا الخبر الذى ذكره البيهقى من أنه كان لعبد لله زوجة أخرى مع آمنة غير دقيق وتعوزه الصحة . .

ولقد كان عبد الله أهلاً لأن يكون أباً لأطهر مخلوق وأشرف مرموق ، فقد كان يرضى الخلّاق ويتمسك بمكارم الأخلاق ، ويدل ذلك كله على استمرار التوحيد فى ذرية إبراهيم ـ استجابة لقوله فيما حكاه عنه القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢١٣)

---

(٢١٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٨٥

(٢١٣) ابراهيم ٣٥

وقد تحققت دعوته لاسيما فى آباء النبى ﷺ

حفظ الاله كرامة لمحمد ... آباءه الأمجاد صوناً لاسمه
تركوا السفاح فلم يصبهم عاره ... من آدم وإلى أبيه وأمه (٢١٤)

روى ابن الأثير عن خريم بن أوس قال : هاجرت إلى رسول الله ﷺ فقدمت عليه منصرفه من تبوك وأسلمت ، فسمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله أريد أن أمدحك فقال رسول الله ﷺ لا يفضض الله فاك ، فأنشأ العباس يقول :

من قبلها طبت فى الظلال وفى ... مستودع حيث يخصف الورق (٢١٥)
ثم هبطت البلاد لا بشـ ... ـر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسراً وأهله الغرق (٢١٦)
تنقل من صالب الى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق (٢١٧)
حتى احتوى بيتك المهيمن من ... خندف علياء تحتها النطق (٢١٨)
وانت لما ولدت أشرقت الأرض ... وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى ... النور وسبل الرشاد نخترق (٢١٩)

---

(٢١٤) محمد ﷺ ، رفاعة الطهطاوى جـ١ ص ٦٢ دار الفكر والفن .
(٢١٥) أى كنت فى صلب آدم فى الجنة حيث كان هو وحواء عليهما ورق الجنة .
(٢١٦) أى ركبت فى صلب نوح السفينة حين أغرقت الأرض وما عليها من أصنام
(٢١٧) الصالب : الصلب ، والطبق : القرن
(٢١٨) يقول : حتى احتوى بيت ابيك امرأة من علياوات خندف
(٢١٩) أسد الغابة لابن الأثير ج ٢ ص ١١١

حمل آمنة وما رأته من علامات النبوة :

ومن إرهاصات النبوة ودلائلها أيضاً ما رأته آمنة فى أثناء حملها بالنبى ﷺ فقد روى كعب الأحبار عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه ليلة حملت آمنة برسول الله ﷺ لم يبق كاهن ولا كاهنة من قريش ولا من قبيلة من قبائل العرب ، إلا حجب عن صاحبه وحجبت عن صاحبها وانتزع علم الكهانة من الكهنة ولم يبق سرير من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً .

وبقى فى بطن أمه تسعة أشهر كملاً لا تشكو وجعاً ولا مغصاً ولا غير ذلك مما يعرض للنساء عادة من أعراض الحمل ، وكانت آمنة تحدث عن نفسها وتقول : أتانى آت فى المنام حين مر من حمله ستة أشهر فوكزنى برجله وقال لى : ياآمنة إنك حملت بخير العالمين قاطبة ، فإذا ولدته فسميه محمداً ، واكتمى شأنك .

فلما استوفت أيام حملها قالت : لقد أخذنى ما يأخذ النساء ولم يعلم أحد من القوم وإننى لوحيدة فى المنزل ، وعبد المطلب فى طوافه ، قالت : فسمعت رجة شديدة وأمراً عظيماً ، فهالنى ذلك فرأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادى فذهب عنى كل رعب وكل فزع وكل وجع كنت أجد ، ثم التفت فإذا أنا بشربة بيضاء ظننتها لبنا ، وكنت عطشى فتناولتها فشربتها ، فأضاء منى نور عال .

وعن العباس ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت يا آمنة ما الذى رأيت فى ولادتك من علامة هذا الصبى ؟ فقالت : رأيت عَلَماً من سندس على قضيب من ياقوت قد ضرب بين السماء والأرض ، ورأيت نوراً ساطعاً من رأسه قد بلغ السماء ، ورأيت سرباً من القطا قد سجدت له ونشرت أجنحتها ، ورأيت تابعة شعيرة الأسدية قد مرت وهى تقول : مالقى الأصنام والكهان من ولدك هذا ؟ هلكت شعيرة ، والويل للأصنام ، ثم الويل لها . ورأيت شاباً من أتم الناس طولاً وأشدهم بياضاً فأخذ المولود منى ومعه طاس من ذهب فشق بطنه ، ثم أخرج قلبه كالدرة البيضاء فحشاه ثم رَدَّه إلى مكانه ثم مسح على بطنه فاستيقظ فنطق فلم أفهم ما قال : إلا أنه قال : أنت فى أمان الله وحفظ الله وكلاءته ، قد حشوتك علماً وحلماً ويقيناً وإيماناً وشجاعة ، وأنت خير البشر . .

إن ما رأته آمنة من حمل رسول الله ﷺ ومولده يدخل فى باب الخوارق والمعجزات وليس ذلك عجيباً بالنسبة لهذا المولود الذى تسعد البشرية باستقباله ، وسيكون سبباً فى إنقاذها مما هى فيه من تعب وشقاء . . إنه أعظم من وطىء الأرض فلتستقبله الأرض بما هو جدير به من العظمة التى ألبسه الله إياها . .

ولقد صدقت هذه الخوارق لإخبار النبى ﷺ بها ، فقد أخرج أحمد والبزار والطبرانى والحاكم والبيهقى عن العرياض بن سارية ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : إنى عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم عن ذلك : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى التى رأت ـ وكذلك أمهات الأنبياء يرين وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاء له قصور الشام حتى رأتها (٢٢٠)

وروى الطبرانى وغيره عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : من كرامتى على ربى أنى ولدت مختوناً ولم ير أحد سوأتى . .

وأخرج ابن سعد فى طبقاته قال : أنبأنا يونس بن عطاء المكى ، حدثنا الحكم بن أبان العدنى ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس عن أبيه العباس بن عبد المطلب قال : ولد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مختوناً مسروراً ، وأعجب ذلك عبد المطلب وحظى عنده وقال : ليكونن لأبنى هذا شأن . .

وكون النبى ﷺ يولد مختوناً كرامة له من الله ، حتى لا تنكشف عورته على أحد وقد أكرم الله بهذه الخصيصة بعض الأنبياء . .

قال ابن الكلبى : بلغنا عن كعب الأحبار أنه قال : نجد فى بعض كتبنا أن آدم خلق مختوناً واثنى عشر نبياً من ولده خلقوا مختونين آخرهم محمد ﷺ . .

---

(٢٢٠) ورواه الحاكم فى السمتدرك جـ ٢ ص ٦٠٠ ، وفى جمع الجوامع ٣٥٧٢/٨٠٦٠ جـ ١ ص ٢٨٧٤

وهؤلاء هم شيت وإدريس ونوح وسام ولوط ويوسف وموسى وسليمان وشعيب ويحيى وهود وصالح .. صلى الله عليهم أجمعين ..

والختان من شعائر الفطرة ، وقد أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالختان . . .

أما الامام الماوردى فإنه يحدث فى كتابه « أعلام النبوة » قائلاً :

« ولما حملت آمنة بنت وهب برسول الله ﷺ حدثت أنها رأت فى المنام من يقول لها : إنك حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع على الأرض فقولى :

أعـيذه بالواحـــد من شـر كل حاسـد

ثم سميه محمداً ..

لقد ألهمت تسميته من السماء .. ولم تكن تسميته اجتهاداً كما يسمى الآباء أبناءهم ..

أما أم عثمان بنت العاص ، ـ وكانت قد حضرت إلى آمنة عندما علمت بأمر ولادة النبى ﷺ فقد حدثت عن ذلك قائلة : وكانت الولادة ليلاً ، فما من شىء أنظر إليه من البيت إلا أضاء ، وحتى أنظر إلى النجوم تدنو ، وإنى أقول : لتسقطن علىّ .. ولما وضعته أمه تركت عليه فى يوم ولادته جفنة فانفلقت عنه ، ثم أرسلت إلى جده عبدالمطلب أن قد ولد لك غلام فأته وانظر اليه ، فأتاه ونظر إليه ، وحدثته بما رأته منه وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسميه به ، فقال وقد رأى فيه سمات المجد وتوسم فيه أمارة السؤدد :

إن محمداً لن يموت حتى يسود العرب والعجم ، وأنشأ يقول :

الحـــمد لله الذى أعطـــانى   هـذا الغـــلام الطــيب الأردان
قد ســاد فى المهـــد على الغلمان   أعــيذه بالله ذى الأركـــــان
حــتى أراه بالــغ البنيـــان   أعيــذه من شــر ذى شـــنآن
من حاســد مضطـرب العـنان (٢٢١)

وقد حدثت الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف وكانت قد حضرت لتساعد آمنة : قالت : لما حملته على يدى استهل فسمعت قائلاً يقول : رحمك الله ورحم بك ، قالت : وأضاء لى ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الروم ..

قالت الشفاء : فلم يزل الحديث منى على بال حتى بعثه الله ـ تعالى ـ فكنت أول الناس اسلاماً (٢٢٢)

وفى قولها : أضاء لى مابين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الروم خارقتان ، إحداهما إضاءة النور ، والثانية دنو قصور الروم إلى مكة حتى لتراها وهى فى مكة ..

إن ذلك من إرهاصات النبوة التى لا شك فيها .. ومن الشهادات على أن ذلك القادم ليس طفلاً عادياً ولكنه مبعوث العناية الإلهية الذى سيحرر هذه البقاع من الظلم والكفر الذى تنغمس فيه .. وسيكون مقدمه بشرى

---

(٢٢١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ قسم ١ ص ٦٤
(٢٢٢) حجة الله على العالمين جـ ١ ص ٢٢٧

خير ومطلع نور وتبديد ظلام وتحطيم أصنام .. لقد آن للإنسانية أن ترى عهداً سعيداً وديناً جديداً وعصراً مجيداً ..

تنكيس الأصنام :

وهل هناك شيء أدل على ذلك أكثر من هذا الخبر الذى يرويه السيوطى فى الخصائص ؟ قال : أخرج الخرائطى فى الهواتف وابن عساكر عن عروة أن نفراً من قريش منهم ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل وعبدالله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، مروا على صنم فى إحدى الليالى فرأوه مكبوباً على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه الى حاله فلم يلبث أن انقلب انقلابا عنيفاً ، فردوه الى حاله فانقلب الثالثة ، فقال عثمان بن الحويرث : إن هذا لأمر قد حدث ، وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ فهتف بهم هاتف من الصنم بصوت جهير وهو يقول :

تردى لمولود أنارت بنوره ... جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب
وخرت له الأوثان طراً وأرعدت ... قلوب ملوك الأرض طرا من الرعب
ونارُ جميع الفُرْسِ باخت وأظلمت ... وقد بات شاه الفرس فى أعظم الكرب
وصدت عن الكهان بالغيب جنها ... فلا مخبر عنهم بحق ولا كذب
فيالقصى ارجعوا عن ضلالكم ... وهبوا إلى الإسلام والمنزل الرحب (٢٢٣)

وأخرج الخرائطى من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبى بكر قالت : كان زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل يذكران أنهما أتيا النجاشى بعد رجوع أبرهة من مكة .. قالا : فلما دخلنا عليه قال :

---

(٢٢٣) حجة الله على العالمين جـ١ ص ١٩٧ ـ ومعنى باخت : أطفئت

أصدقاني أيها القرشيان هل ولد فيكم مولود أراد أبوه ذبحه فضرب عليه بالقداح فسلم ، ونحرت عنه جمال كثيرة ؟ قلنا : نعم

قال : فهل لكما علم بما فعل ؟

قلنا : تزوج امرأة يقال لها آمنة تركها حاملاً وخرج .

قال : فهل تعلمان ولدت أم لا ؟

قال ورقة : أخبرك أيها الملك أني الليلة قد مررت على وثن لنا إذ سمعت من جوفه هاتفاً يقول :

ولد النبي فذلت الأملاك[٢٢٤] ونأى الضلال وأدبر الإشراك

ثم انتكس الصنم على رأسه .

فقال زيد : عندي خبر كخبره ،أيها الملك . . ذلك أني مثل هذه الليلة خرجت حتى أتيت جبل أبي قبيس إذ رأيت رجلاً ينزل من السماء له جناحان أخضران فوقف على أبي قبيس ، ثم أشرف على مكة فقال : ذل الشيطان وبطلت الأوثان وولد الأمين ، ثم نشر ثوباً معه وأهوى به نحو المشرق والمغرب . . وأومأ إلى الأصنام التي كانت على الكعبة فسقطت .

قال النجاشي : ويحكما أخبركما عما أصابني ، إني لنائم في قبتي ، وقت خلوق ، إذ خرج عليّ من الأرض عنق ورأس ، وهو يقول : حل الويل بأصحاب الفيل ، رمتهم طير أبابيل ، بحجارة من سجيل ، هلك الأشرم

---

(٢٢٤) الأملاك جمع ملك ـ بضم الميم ـ أو ملك بفتح الميم وكسر اللام

المعتدى الأجرم ، ولد النبى الأمى الحرمى المكى ، من أجابه سعد ومن أباه شقى ثم دخل الأرض فغاب (٢٢٥)

هلاك أصحاب الفيل :

ويسوقنا هذا الخبر إلى إرهاصة قوية من إرهاصات النبوة ، هى هلاك أصحاب الفيل ، فقد هلكوا فى العام الذى ولد فيه النبى ﷺ وقد أهلكهم الله بالطير الأبابيل التى رمتهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول .

لقد كان حادث الفيل - كما يقول كثير من الرواة - والنبى ﷺ جنين فى بطن أمه فقد ولد بعد هلاك أصحاب الفيل بخمسين يوماً .

وكان هلاكهم كرامة للنبى ﷺ من وجهين أحدهما : أن الأحباش لو ظفروا لسبوا واسترقوا فنجى الله قريشاً من ذلك لصيانة رسول الله ﷺ من أن يجرى عليه السبى حملاً ووليداً .

والثانى : أنه لم يكن لقريش من القوة أو التدين مايستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم ، فالغالبية العظمى منهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة ومانع من الرجعة . .

فكان مَنْعُ الله بيته واهلاك عدوه لما أراده من ظهور دينه تأسيساً للنبوة وتعظيماً للكعبة ليجعلها قبلة للصلاة ومنسكاً للحج .

---

(٢٢٥) حجة الله على العالمين جـ١ ص ٢٠١

وقد ترتب على هذا الحادث تعظيم العرب للبيت وازدياد هيبته فى نفوسهم ، ودانوا لقريش وأكبروها وأذعنوا لها بالطاعة وقالوا : أهل الله قاتل الله عنهم .

وقد شاهد الحادث قوم كانوا فى زمن النبى ﷺ منهم حكيم بن حزام وحويطب بن عبد العزى ونوفل بن معاوية ، فلو أن هناك أدنى شك فى هذه القصة لأخبروا بذلك وكذبوا الواقعة . .

وعلى كل فإن مولد النبى ﷺ فى هذا العام كان دليلاً على رعاية الله لنبيه وتكريم العرب جميعاً بمولده . . حيث أنجاهم الله من معرة الهزيمة وخزى الاحتلال الذى يستتبعه الأسر والإذلال .

حراسة السماء بالشهب :

وكان من أقوى الإرهاصات المشاهدة بالحس لكثير من الناس تلك الشهب التى أخذت تتساقط من السماء وماكان لهم عهد أن تكون بهذه الكثرة التى ظهرت بها . .

جاء فى الروض الأنف : روى فى مأثور الأخبار أن إبليس كان يخترق السموات قبل عيسى ـ عليه السلام ـ فلما بعث عيسى أو ولد حجب عن ثلاث سماوات ، فلما ولد محمد ﷺ حجب عنها كلها وقذفت الشياطين بالنجوم ، وقالت قريش حين كثر القذف بالنجوم قامت الساعة ، فقال عتبة ابن ربيعة : انظروا إلى العيوق ، فإن كان قد رمى به ، فقد آن قيام الساعة وإلا فلا . .

ويبدو أن القريشيين كانوا يصدقون قيام الساعة ، ولكنهم لا يصدقون بالبعث بناء على هذا الخبر . .

وقد ذكر ابن إسحاق العلة فى قذف الشياطين بالنجوم قال : ظهر القذف بالنجوم لئلا يلتبس الكذب بالوحى ، وليكون ذلك أظهر للحجة وأقطع للشبهة ، وعلق السهيلى على ذلك بقوله : والذى قاله صحيح . . . ويرى البعض أن القذف بالنجوم قد كان قديماً ، وذلك موجود فى أشعار القدماء من الجاهليِّين ومن ذلك قول أوس بن حجر وهو شاعر جاهلى :

فانقض كالدرى يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

والجاحظ ينكر ذلك ويقول كل شعر روى فيه مثل هذا فهو مصنوع ، وإن الرمى لم يكن قبل المبعث (٢٢٦)

وحجة الجاحظ قوية يؤيدها قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ (٢٢٧)

ولكن الذين يقولون : إن الرمى كان موجوداً يقررون أنه فى الإسلام غلظ وشدد . . وهذا التغليظ والتشديد من علامات النبوة ، ويقولون فى

---

(٢٢٦) تفسير القرطبى ـ سورة الجن ـ ص ٦٨٠٥ ط دار الشعب
(٢٢٧) الجن ٨ ، ٩

الآية السابقة إن الله سبحانه وتعالى يقول على لسان الجن : ملئت ، ولم يقل حرست

وذكر ابن قتيبة أن الجن كانوا يسترقون السمع فى بعض الأحوال فلما بعث صلى الله عليه وسلم منعوا من ذلك أصلاً .. وذكر نافع أن الشياطين فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كانت تسمع فلا ترمى ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رميت بالشهب (٢٢٨)

إن الله سبحانه وتعالى ـ ملأ السماء بالحرس والشهب لينحسم أمر الشياطين وتخليطهم ، لتكون الآية أبين والحجة أقطع وقد سئل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الكهان فقال : ليسوا بشىء ، فقيل : إنهم يتكلمون بالكلمة فتكون كما قالوا ..

فقال : تلك الكلمة من الجنى ، فيقرها فى آذان وليه قر الزجاجة ـ أو قر الدجاجة فى رواية أخرى ـ فيخلط فيها أكثر من مائة كذبة (٢٢٩)

لقد انقطعت أخبار السماء عن الكهان بمولد رسول الله ﷺ وكان كهان الجاهلية يرسلون توابعهم من الجن لاستراق السمع من السماء ومن ذلك مارواه ابن هشام عن الغيطلة وصاحبها قال :

قال ابن اسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن امرأة من بنى سهم يقال لها الغيطلة ، كانت كاهنة فى الجاهلية فلما جاءها صاحبها فى ليلة من الليالى

---

(٢٢٨) انظر تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٣٠٦
(٢٢٩) الروض الانف جـ ١ ص ٢٢٤

فانقض تحتها ثم قال : ادر مادر - وفى رواية مابدر يوم عقر ونحر ..
فقالت قريش : حين بلغها ذلك : ما يريد ؟

ثم جاءها فى ليلة أخرى فانقض تحتها ، ثم قال : شعوب ، ما شعوب ، تصرع فيه كعب لجنوب فلما بلغ ذلك قريشاً قالت : مايريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن ، فانظروا ماهو ؟

فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب ، فعرفوا أنه الذى كان جاء به التابع إلى صاحبته (٢٣٠) ومن ذلك أيضا ..

ما حدث به السهيلى قال : كان لفاطمة بنت النعمان النجارية تابع من الجن ، وكان إذا جاءها دخل عليها فى بيتها ، فلما كان أول البعث أتاها فقعد على حائط الجدار ، ولم يدخل ، فقالت له : لم لا تدخل ؟ فقال : قد بعث نبى فمنعنا من العبث واستراق السمع ، فكان ذلك أول ما ذكر النبى ﷺ بالمدينة (٢٣١)

أما كيف عرف الناس أن تساقط الشهب إبطال للكهانة وإحراق للشياطين فإليك هذا الخبر :

روى أبو جعفر العقيلى فى كتابه الصحابة عن رجل من بنى لهب يقال له لهب أو لهيب .

---

(٢٣٠) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٨

(٢٣١) انظر الروض الانف ج ١ ص ٢٣٩

قال لهيب : حضرت إلى رسول الله ﷺ فذكرت عنده الكهانة ، فقلت : بأبى وأمى ، نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم . وذلك أننا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له « خطر بن مالك » وكان شيخاً كبيراً ، قد أتت عليه مائتا سنة أو أكثر وكان من أعلم كهاننا ، فقلنا : يا خطر هل عندك علم عن هذه النجوم التى يرمى بها ، فإنا فزعنا لها وخشينا سوء عاقبتها ؟ فقال :

ائتونى بِسَحَر
أخبركم الخبر
أبخير أم ضرر
أو لأمن أو حذر

قال : فانصرفنا عنه يومنا ، فلما كان من غد فى وجه السحر أتيناه ، فإذا هو قائم على قدميه ، شاخص فى السماء بعينيه ، فناديناه : أخطر ياخطر ؟ فأومأ إلينا : أن أمسكوا .

فانقض نجم عظيم من السماء ، وصرخ الكاهن رافعاً صوته :

أصابه أصابه خامره عقابه
عاجله عذابه أحرقه شهابه
زايله جوابه
ياويله ما حاله بلبله بلباله
عاوده خباله تقطعت حباله
وغُيِّرت أحواله

ثم أمسك طويلاً وهو يقول :

يامعشر بني قحطان أخبركم بالحق والبيان
أقسمت بالكعبة والأركان والبلد المؤتمن السدان
لقد مُنع السمعَ عتاة الجان بثاقب بكف ذي سلطان
من أجل مبعوث عظيم الشان يبعث بالتنزيل والقرآن
وبالهدى وفاصل القرآن تبطل به عبادة الأوثان

قال : فقلنا : ويحك ياخطر ، إنك لتذكر أمراً عظيماً ، فماذا ترى لقومك ؟ فقال :

أرى لقومي ما أرى لنفسي أن يتبعوا خير بني الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس يبعث في مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس

فقلنا له : ياخطر ، وممن هو؟

فقال : والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ، ما في حلمه طيش ، ولا في خلقه هيش - أي قبيح - ، يكون في جيش وأي جيش ، من آل قحطان وآل أيش (٢٣٢)

---

(٢٣٢) آل قحطان هم الأنصار لأنهم قحطانيون ، وأما آل أيش ، فيحتمل أن تكون قبيلة من الجن المؤمنين ينسبون إلى أيش ، وإلا فله معنى في المدح غريب ، تقول : فلان أيش وهو ابن أيش ، ومعناه أي شيء عظيم هو ؟ فكأنه أراد من آل قحطان ومن المهاجرين الذين يقال فيهم مثل هذا

فقلنا له : بين لنا من أى قريش هو ؟

فقال : والبيت ذى الدعائم ، والركن والأحائم (٢٣٣) ، إنه لمن نجل هاشم ، من معشر كرائم ، يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان .

ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع من الجن الخبر .

ثم سكت وأغمى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاثة ، فقال : لاإله إلا الله . .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد نطق عن حق ، وإنه ليبعث يوم القيامة أمة وحده (٢٣٤) .

وقد كان محل هذا الخبر تحت عنوان بشريات النبوة ، ولكن لما فيه من إشارات إلى رجم الشياطين كان من إرهاصات النبوة ودلائلها ، ولذلك ذكرناه هنا ـ

ترصـد اليهـود له :

إن هذه الدلائل التى ظهرت حتى ماتكاد تخفى على أحد ، غاظت غير المنصفين من أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود الذين كانوا يزعمون أن النبوة محصورة فيهم ، وغاظهم أن يتخطاهم هذا الشرف إلى غيرهم من الأميين

---

(٢٣٣) الإحائم : كناية عن رواد زمزم الذين يحومون حول مائها .

(٢٣٤) أشار إليه ابن الأثير فى أسد الغابة ج ٤ وذكر الخبر السهيل فى الروض الانف جـ ١ ص ٢٣٩

الذين يرون أنهم أدنى منهم وأقل شأناً أو خطراً من أن يكون فيهم رسول يبعث .

ولذلك كانت منة الله على العرب قوله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ (٢٣٥)

ووجه المنة كما يقول الماوردى : ثلاثة أشياء : موافقته ما تقدم من بشارات الأنبياء به ، فقد أخبروا بأن الرسول المبعوث آخر الزمان أمى ، ومشاكلة حاله حال المبعوث اليهم فهو أمِّى وهم أميون ، والأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك لينتفى الشك أو الادعاء فى أن ماجاء به إنما هو من الكتب التى قرأها أو الحكم التى درسها وهذا كله دليل معجزته وصدقه . . (٢٣٦)

قال ابن منظور فى لسان العرب : قيل لسيدنا محمد ﷺ الأمى ، لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب ، وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وكانت هذه الخلة إحدى آياته المعجزة لأنه صلى الله عليه وسلم تلا عليهم كتاب الله منظوماً بالنظام الذى أنزل عليه ، فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه ، وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبته ثم أعادها زاد فيها ونقص ، فحفظه الله ـ عز وجل ـ على نبيه كما أنزله وأبانه عن سائر من

---

(٢٣٥) الجمعة ٢

(٢٣٦) تفسير القرطبى سورة الجمعة ص ٦٥٧١

بعثه إليهم بهذه الآية التي باين بينه وبينهم بها وفي ذلك أنزل الله قوله ـ تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢٣٧)

ولقالوا إنه وجد هذه الأقاصيص مكتوبة فحفظها من الكتب (٢٣٨) لذلك ترصد اليهود النبي ﷺ وهو طفل ليقضوا عليه قبل أن يكبر ويبعث ويستفحل أمره فيقضى على رسالتهم .

وقد رأينا أن بحيرى الراهب حين رآه وعرف مافيه من علامات النبوة أقبل على عمه أبي طالب وقال له : ارجع بابن أخيك واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوه لألحقوا به الشر فإنه سيكون لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به عمه راجعاً إلى بلاده .

وذكر أن عمه قد خرج به سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام ، وقد روى أن نفراً من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رأى بحيرى فأرادوه ، فردهم عنه بحيرى وذكرهم بما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته ، وانهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ولن يصلوا إليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه (٢٣٩)

---

(٢٣٧) العنكبوت ٤٨

(٢٣٨) لسان العرب جـ١ ص١٣٨ ـ مادة أمم ـ

(٢٣٩) سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٠٦

وأخبر ابن هشام أيضاً قال : قال ابن اسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أنه مما هاج أمه السعدية على رده ـ وكان مسترضعاً عند حليمة السعدية فى بادية بنى سعد ـ إلى أمّه آمنة بنت وهب ، أن نفراً من نصارى الحبشة رأوه معها فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ثم قالوا لها : إن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره ، قال : فذكر الذى حدثنى أنها لم تكد تنفلت به منهم إلا بصعوبة . .

وهذا الخبر يشير إلى أن النصارى كانوا على علم بأخباره كما كان اليهود كذلك . . إلا أن نية الغدر به لم تكن مبيتة عند النصارى كما كانت مبيتة عند اليهود . . ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢٤٠)

---

(٢٤٠) المائدة ٨٢ : ٨٥

ولقد كان اليهود - ومازالوا - يكنون العداوة للنصارى كما يكنونها للإسلام ، ومازالوا يأتمرون بالمسيح الذى بعثه الله إليهم مصححاً لعقائدهم وهادياً لهم حتى أنجاه الله من شرهم ، وقد كانوا أعدوا له من الشر ماأخبرت به الكتب وتحدثت به الأخبار .

وقد نقض اليهود العهود التى أبرمت معهم مرات مما اضطر النبى ﷺ إلى حربهم تخلصاً من شرهم .

لقد كانت عداوتهم للنبى مبكرة جداً قبل ولادته . . غذّاها الحقد الدفين الذى توارثوه عبر الأجيال المتوالية . . فقد طُبعوا على التقلب ومُقابلة الإحسان بالإساءة . . ولقد أساءوا مصاحبة أنبيائهم الذين هم منهم فكيف يحسنون مصاحبة نبى آخر الزمان وهو ليس منهم ؟

وقد لقى أنبياؤهم منهم أشد أنواع البلاء والعذاب ولم يسلموا من الاعتداء عليهم بالقتل فى بعض الأحيان على النحو الذى أخبر به القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢٤١)

---

(٢٤١) آل عمران ٢١ : ٢٢

ويقوله :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢٤٢)

ويقوله :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (٢٤٣)

فلماذا لايترصدون طلوع نجم آخر الأنبياء ، وهو من بنى اسماعيل لا من بنى إسحاق ، فيتخلصون منه قبل أن يحرمهم من ذلك الشرف الذى كانوا يدعونه لأنفسهم ؟

إنه لشرف حقاً ، ولكنهم لم يعرفوا قدره ، ولم يرتقوا بأنفسهم إلى مستواه ولم يحسنوا الاحتفاظ به . .

---

(٢٤٢) البقرة ٦١
(٢٤٣) آل عمران ١١٢

وقد مرت بنا آنفاً قصة اليهودى الذى رآه .. وعرف بالعلامات التى هى فيه أنه هو النبى الذى أخبرت به الكتب السابقة فأخذ يبكى وينتحب، فسئل عن ذلك فقال : ذهبت النبوة من بنى إسرائيل ..

وحدث ابن هشام عن ابن إسحاق قال : كان رجل من لِهْب عائفاً، فكان اذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم .. أى يخبرهم عما سيكون عليه شأنهم فى المستقبل - ، قال : فأتى أبو طالب بمحمد ﷺ وهو غلام مع من يأتيه، فنظر اللهبى إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شىء، فلما فرغ قال : أين الغلام علىَّ به

فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيّبه عنه، فجعل يقول : ويلكم ردوا علىَّ الغلام الذى رأيت آنفاً، فوالله ليكونن له شأن .
قال : فانطلق به أبو طالب ..

وكان هذا اللهبى هو لِهْب بن أحجن بن كعب بن الحارث، من قبيلة لِهْب، وهى حى من الأزد مشهورة بالعيافة والزجر، وفى هذه القبيلة يقول الشاعر :

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا مقاله لهبى إذ الطير مرت

كانت لديهم خبرة بالعيافة والزجر .. قال ابن منظور : العائف هو الذى يعيف الطير فيزجرها، ويتفاءل بأسمائها وأصواتها واتجاه سيرها ...

وممن اشتهر مع بنى لهب فى ذلك بنو أسد أيضاً، ومما رواه ابن منظور من الطرائف فى ذلك : أن قوماً من الجن تذاكروا عيافة بنى أسد فأتوهم،

فقالوا : ضلت لنا ناقة فلو أرسلتم لنا من يعيف ؟

فقالوا لغلام صغير لهم : انطلق معهم ... فاستردفه أحدهم ، ثم ساروا ، فلقيهم عقاب كسر أحد جناحيها فاقشعر الغلام وبكى ، فقالوا : مالك ؟

فقال : كَسَرت جناحا ، ورفعت جناحا ، وحلفت بالله صراحا ، ما أنت بإنسى ولا تبغى لقاحا (٢٤٤)

والعيافة لون من الفراسة وقوة الذكاء كالقيافة التى هى استدلال القائف بهيئة الشخص وكلامه وظاهر أعضائه على أخلاقه وصفاته ..

لقد رأى ذلك اللهبى الذى تفرس فى النبى ﷺ رأى فيه مخايل النبوة وعرف فيه اتصالاً بينه وبين السماء على صورة لا تكون فى الناس عامة ، بل هى لذلك الذى تواترت الأخبار عنه بأنه نبى هذه الأمة ..

وإذن ، فعلامات النبوة التى جاءت بها أخبار الكتب وأثبتها أحبار أهل الكتاب وتبينوها فى النبى ﷺ صدقتها أخبار الكهان الذين كانوا يتسقطون الأخبار من السماء بواسطة الجان وصدقتها أيضاً فراسة المتفرسين من أذكياء العرب وعُيَّافهم ..

لقد كان علماء أهل الكتاب يكادون يجزمون بمعرفة اليوم الذى سوف يبعث فيه النبى ﷺ جاء فى السيرة الحلبية مايلى : يروى ابن الجوزى أن طلحة بن عبيد الله قال : حضرت سوق بصرى فإذا راهب فى صومعة يقول :

---

(٢٤٤) لسان العرب جـ ٤ ص ٣١٩٣

سلوا أهل الموسم : هل فيكم أحد من أهل الحرم
قال طلحة : فقلت نعم ، أنا

قال لى : هل ظهر بمكة أحد ؟
قلت : من أحد ؟

قال : ابن عبدالمطلب ، هذا شهره الذى يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ، ومخرجه من الحرم ، ومهاجره إلى نخلة وحرة وسباخ .

قال طلحة : فوقع فى قلبى ما قال الراهب ، فخرجت حتى قدمت مكة فقلت : هل كان مِنْ حَدَث ؟

قالوا : نعم ، محمد بن عبد الله الأمين تنبأ ، وتابعه ابن أبى قحافة ، فخرجت حتى أتيت أبا بكر فأخبرته ، وقلت له : هل بعث هذا الرجل ؟

قال : نعم ، انطلق فتابعه فإنه يدعو إلى الحق . .

قال طلحة : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته خبر الراهب وما قال لى . . (٢٤٥)

وأسلم طلحة وكان من السابقين إلى الإسلام ـ وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة . .

---

(٢٤٥) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٣١٣ ـ وبشائر النبوة الخاتمة د . رؤوف شلبى ص ١٦٩

جاء فى الطبقات الكبرى على لسان حليمة السعدية : لقد أمرتنى أمه - أم النبى ﷺ أن أسأل عنه ، فَرَجَعْتُ به إلى بلادها ، فأَقَمتْ به حتى قامت سوق عكاظ ، فانطلقتُ برسول الله ﷺ حتى أتيت به إلى عرّاف من

هذيل ، يريه الناس صبيانهم ، فلما نظر إليه صاح : يا معشر العرب ، فاجتمع إليه الناس من أهل الموسم فقال : اقتلوا هذا الصبى . .

وانسلت به حليمة ، فجعل الناس يقولون : أى صبى ؟

فيقول : هذا الصبى ، فينظرون ولا يرون شيئاً فقد انطلقت به حليمة بعيداً عنهم ,

فيقال له : ماهو ؟

قال : رأيت غلاماً ، وآلهته - يعنى أقسم بآلهته - ليقتلن أهل دينكم ،وليكسرن آلهتكم ، وليظهرن أمره عليكم .

فبحث الناس عنه بعكاظ فلم يجدوه ، ورجعت به حليمة إلى منزلها ، فكانت بعد لا تعرضه لعراف ولا لأحد من الناس . .

وفى رواية أخرى : أن هذا الشيخ الهذلى جعل يصيح : يالهذيل ، وآلهته ، إن هذا لينتظر أمراً من السماء - يعنى بذلك النبى ﷺ وجعل يغرى بالنبى ﷺ وظل الرجل على ذلك حتى دَلِهَ عقله ومات كافراً (٢٤٦)

---

(٢٤٦) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٩٨ ومعنى دله عقله : ذهب وجن

من دلائل نبوته صغيراً :

لقد صَحِبَتْ النبى ﷺ فى صغره علامات تشهد بأنه محل نظر الله فى الأرض ، وبأنه محفوف بعناية الله مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢٤٧)

لقد رأت حليمة منه فى رضاعه الأعاجيب . .

فما أن ضمته إلى صدرها حتى فاض ثدياها باللبن على صورة لم تعهدها ولم تألفها من قبل . .

وما أن امتطت حمارها حتى سبقت به الركب ، وكان هزيلاً وانيا فى أثناء قدومها حتى كان فى مؤخرة القوم ، فلم تستطع التسابق مع المتسابقات إلى بيوت الأثرياء لتحصل على رضيع موسر كما حصلت صواحبها .

وكان من نصيبها ذلك اليتيم الذى قبلته على مضض . . ولكنها حصلت بحصولها عليه على كل السعادة والغنى والبركة والخير . . حتى قال لها زوجها : تعلمى يا حليمة لقد أصبت نسمة مباركة .

وماأن عادت به إلى بادية بنى سعد حتى أخصب مرعاها وفاض الخير لديها حتى تعرضت لحسد الحاسدين من ذوى قرباها . .

---

(٢٤٧) الطور ٤٨

وكان يشب بصورة غير معهودة فلم يبلغ سنتيه عند حليمة حتى كان غلاماً جَفْراً ـ كما تقول حليمة السعدية (٢٤٨)

لقد تفتحت مخايل النبوة فى هذا الغلام الناضر الذى أشرقت الدنيا بطلعته واستنار الكون ببهجته

وأقبل على مهام الأمور وعنى بها على الرغم من صغر سنه ، وشغلت مكارم الأخلاق قلبه ، فلم يعد يعنى بسفاسف الأمور ، وربما استرعى انتباهه ما يسترعى انتباه أترابه من الأطفال فتتدخل العناية الإلهية لتحفظه وتوجهه إلى الوجهة التى اختاره الله لها .

قال ابن هشام : « فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً ، حتى سماه قومه الصادق الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة » (٢٤٩)

---

(٢٤٨) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٨٦

(٢٤٩) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٦

« وفى حسن أخلاق نبينا ﷺ صغيراً مُثل تهيب بنا أن نجعلها الأسس الكاملة فى برامج التربية لأطفالنا حتى يشبوا على مُثل كاملة من الصفات النبيلة والأخلاق الفاضلة الكريمة . .

ولقد عرف النبى ﷺ هذه المنة الكريمة التى أكرمه الله بها ، حيث آواه ورباه ، فكان يحدث عن ذلك شكراً لله على رعايته وحفظه ويقول « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

ومما حدث به فى ذلك وذكره ابن هشام فى سيرته قوله : « لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلهم قد تعرى وأخذ إزاره ، فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ، وإنى لأقبل معهم وأدبر فهممت أن أفعل مثلهم إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك ، قال : فأخذته وشددته علىَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وازارى علىَّ من بين أصحابى »

وقد وردت هذه الرواية الصحيحة فى الحديث الصحيح فى قصة بناء الكعبة ، فقد كان رسول الله ﷺ ينقل الحجارة مع قومه إليها ، وكانوا يجعلون أزرهم على عواتقهم لتقيهم الحجارة وكان رسول الله ﷺ يحملها على عاتقه وازاره مشدود به ، فقال له العباس ـ رضى الله عنه ـ يابن أخى

لو جعلت إزارك على عاتقك ، ففعل فسقط مغشيا عليه ، ثم قال : إزارى ، إزارى فشد عليه إزاره ثم قام بعد ذلك بحمل الحجارة .

وفى حديث آخر : أنه لما سقط ضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه ، فأخبره أنه سمع من يقول له : أن اشدد عليك ازارك يامحمد ، قال : وإنه لأول ما نودى . .

فهذه الروايات تدل على ملاحظة العناية له ، وأنه كان يُوَجَّهُ أولا بأول إلى ما ينبغى أن يفعل فلم يُتْرك منذ صغره يفعل إلا ما يليق بالكبار ، وإلا ما يتفق مع الحياء ، وآداب الإسلام ، التى ستتقرر بعد ذلك .

ومما تجدر روايته فى هذا الصدد ما يرويه ابن الأثير فى خبر عن رسول الله ﷺ قال : ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين .

حال بينى وبينه الله ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله برسالته . . . قلت ليلة للغلام الذى يرعى الغنم معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . .

فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حرارة الشمس . .

فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ..

ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء ..

فهذه الرواية أيضاً تدل على أن الله قد لحظ صفيه بعين التوجيه السديد ، حتى لا يحدث منه ما يحدث من لداته عادة ، وهذه تربية النبوة ودلائلها وارهاصاتها .. وقد ورد مثلها مع أبيه إبراهيم - عليه السلام - الذى قال الله تعالى فى حقه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ ﴾ (٢٥٠)

ومع موسى الذى قال الله له :



﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١ ﴾ (٢٥١)

ولقد كان جو مكة مهيئاً لأن ينساق الشباب فى تيار الضلال ، والفساد الذى كان يضرب برواقه على مجتمعها ولم يستطع أن ينكره سوى عدد قليل من العقلاء لا يجاوز عددهم أصابع اليدين ، أما أن يستنكره ناشىء صغير فذلك من عظمة القدر أو قل من توجيهات السماء التى لا تريد أن تترك هذا

---

(٢٥٠) الأنبياء ٥١

(٢٥١) طه ٤١

الفتى ـ الذى اختاره الله وهيأه للقيام بالمهمة الكبرى ـ لتصرفات المجتمع الحمقاء [٢٥٢]

لقد كانت الصفات الأثيرة التى وصف بها القرشيون محمداً ﷺ قبل بعثته هى الصدق والأمانة وحسن الخلق . وهى صفات لم تتولد من فراغ ، ولكنهم شاهدوها منه وجربوها فيه ، فلقد عرفوا عنه أنه لم يكذب قط وعرفوا أنه لم يخن قط ، فسموه الصادق الأمين والصدق والأمانة هما أساس كل خلق كريم ومعدن قويم ..

حادث شق الصدر

يعد شق صدر النبى ﷺ من إرهاصات النبوة التى لا شك فيها .. وقد تكرر حادث الشق مراراً على إثر كل مرة كانت هناك مرحلة هامة من مراحل حياته ..

وقد ذكرنا أن شقاً حدث فور ولادته ﷺ فقد روى العباس قائلاً : سألتِ آمنة بنت وهب ما الذى رأيت فى ولادتك ؟ فكان مما قالت رأيت رجلاً من أتم الناس طولاً وأشدهم بياضاً ، فأخذ المولود منى وحمله على يديه وكان معه طاس من ذهب فشق بطنه ، ثم أخرج قلبه فشقه شقاً ، فأخرج منه نكتة سوداء فرمى بها ، ثم أخرج صرة من حرير أخضر ففتحها فإذا فيها شيء كالدرة البيضاء فحشاه بها ، ثم رده إلى مكانه ، ثم مسح على بطنه فاستيقظ

---

(٢٥٢) هدى السيرة ـ عبد الحفيظ فرغلى القرنى ص ٣٤ ط دار الفكر العربى

فنطق ، فلم أفهم ماقال ، إلا أن الرجل قال : أنت فى أمان الله وحفظه وكلاءته ، قد حشوتك علماً وحلماً ويقيناً وإيماناً وعقلاً وشجاعة ، وأنت خير البشر (٢٥٣)

كان هذا الشق لصدره ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى المهد .. وهو يستقبل الحياة لأول مرة بعد ولادته .. فاستقبلها بهذا الاستعداد الربانى الذى وضعه فيه ..

وفى بادية بنى سعد حدث شق آخر ..

قالت حليمة ـ فيما يرويه ابن هشام ـ : بينما محمد ﷺ مع أخيه (٢٥٤) خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه (٢٥٥)

قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً متغيراً وجهه ، فالتزمته ، والتزمه أبوه .

فقلنا له : مالك يابنى ، قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقا بطنى ، فالتمسا شيئاً لا أدرى ماهو ، قالت : فرجعنا إلى حياتنا .

وقد قص النبى ﷺ بعد النبوة ذلك فقال : فيما يرويه خالد بن معدان الكلاعى : أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : يارسول الله :

---

(٢٥٣) حجة الله على العالمين ص ٢٢٦
(٢٥٤) أى فى الرضاعة
(٢٥٥) يسوطانه : يحركانه

أخبرنا عن نفسك ، قال : نعم ، أنا دعوة ابراهيم ، وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا مع أخ خلف بيوتنا نرعى بَهْماً لنا إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض ، ثم أخذانى فَشَقَّا بطنى ، واستخرجا قلبى ، فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبى وبطنى حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بمائة من أمته فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، فقال : دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها (٢٥٦)

وهذه الرواية متواترة . . وتؤكد أن حادث الشق تم فى بادية بنى سعد . .

وهناك حديث يشير إلى أن حادثاً مثل ذلك كان بصحراء مكة . .

روى ابن أبى الدنيا وغيره باسناد يرفعه إلى أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يارسول الله كيف علمت أنك نبى ؟ وبم علمت ؟

قال : ياأبا ذر أتانى ملكان ، وأنا ببطحاء مكة ، فوقع أحدهما بالأرض ، وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ قال : هو هو

قال : فزنه برجل ، فوزننى برجل فرجحته ، ثم قال : زنه بعشرة ، فوزننى فرجحتهم ، ثم قال : زنه بمائة فوزننى فرجحتهم ، ثم قال : زنه بألف ، فوزننى فرجحتهم . . . .

---

(٢٥٦) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٧٨

فقال أحدهما لصاحبه : شق بطنه فشق بطنى ، فأخرج قلبى ، فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم فطرحهما .

فقال أحدهما لصاحبه : اغسل بطنه غسل الإناء ، واغسل قلبه غسل الملاء .

ثم قال أحدهما لصاحبه : خِط بطنه ، فخاط بطنى ، وجعل الخاتم بعد كتفى كما هو الآن ، ووليا عنى وكأنى أعاين الأمر معاينة (٢٥٧)

وحدث شق آخر ليلة الإسراء وحين عرج به إلى السماء ، وفيه أتى بطشت من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغ فى قلبه . وعلق السهيلى على تكرار هذا الحادث بقوله : لقد تكرر هذا التطهير مرتين : الأولى : فى حالة الطفولة لينقى قلبه من مغمز الشيطان وليطهر ويقدس من كل خلق ذميم ، حتى لا يتلبس بشىء مما يعاب على الرجال ، وحتى لا يكون فى قلبه شىء إلا التوحيد ، ولذلك قال : فوليا عنى وكأنى أعاين الأمر معاينة . .

والثانية : فى حال الاكتهال ، وبعدما نبىء ، وعندما أراد الله أن يرفعه إلى الحضرة المقدسة التى لا يصعد اليها إلا مطهر مقدس ، وعرج به من هنالك لتفرض عليه الصلاة وليصلى بملائكة السموات ، ومن شأن الصلاة الطهور ، فطهر ظاهراً وباطناً وغسل بماء زمزم .

مناقشة من ينكرون شق الصدر :

ولا ندرى لماذا يشكك بعض الناس فى مسألة شق الصدر وكأنهم

---

(٢٥٧) الروض الأنف للسهيلى جـ ١ ص ١٨٩ وروى مثل هذا عن أبى هريرة وسياق

يستكثرون هذا الحادث ، أو كأنهم لا يريدون أن يثبتوا معجزات مادية للنبى ﷺ اكتفاء بالمعجزة الخالدة الباقية وهى القرآن الكريم . .

ولكن شق الصدر قد ثبت حدوثه حقيقة . . وفيه رموز لا ينبغى إغفالها . .

ذاك أن غسل الصدر بالماء المثلج بعد شقه فيه رمز إلى برد اليقين الذى تحلى به سيد المرسلين ﷺ وكان فى قمة التخلق به .

وقد ناقش العلماء دعاوى الذين ينكرون هذا الحادث ، ونقتطف من هذه المناقشات مايلى :

قال صاحب كتاب بشائر النبوة الخاتمة :

« التنقية حسياً ومعنوياً فى عالم البشر شيء مألوف ومرغوب فيه ، فاستحمام الإنسان استعداداً للقاء عزيز . عمل يزينه العقل وتدعو إليه العادة ، وتأسف الإنسان لصديق عن خطأ ألم به فى حقه مثل أخلاقى محمود ومعقول . . ذلك شأن الإنسان العادى الذى يرتبط فى حياته بأخلاقيات الأرض ويتصل فى شئون عمره بأنظمة البشر » . .

أما الأنبياء فهم أصحاب بشرية سوية ، لأنهم يعيشون على الأرض وهم متصلون بالسماء رعاية وتربية وإعداداً لرسالة المستقبل ، وتنقية هؤلاء الأنبياء وتربيتهم تأخذ مستوى سلطان المربى وما يملك من وسائل الإعداد والتربية والتطهير . .

إن حياة الأنبياء منذ الاصطفاء حياة ربانية ، واصطفاؤهم عند الله منذ الأزل . . فإعدادهم يكون على هذا المستوى الربانى ، وليس عند العقل ما يرفض ذلك الواقع لإدراكه الفرق الكبير بين التربية الربانية والتربية البشرية العادية ، ونحن نرى أن البشر يتفاوتون فى استخدام أفضل وسائل التربية وذلك باختلاف نظم الشعوب ومناهجها وطرق علمائها وتربية الأنبياء لا يمكن أن تخضع لهذا التخبط . إن حياة الأنبياء لها ميزة خاصة لأنهم يربون فى رحاب الله كما قال سبحانه :

« فإنك بأعيننا »

ولقد كان شق الصدر الشريف عملية تربية وتنقية لرسول الله ﷺ وذلك لكى يتخلص من علائق الحياة العادية لتبقى الذات سوية لا تشوبها شائبة من شوائب الحياة المادية وطبيعتها . .

ومن جانبنا نرى أن هذه العملية كانت طبيعية بالنسبة لإعداد الرسول ﷺ للرسالة ، فمن أجل أن يكون رسولاً كان لزاماً أن تنقى ذاته النبوية من الشوائب البشرية لتظل تربيته ربانية .

جاء فى المواهب اللدنية : واستخراج العلقة من قلبه تطهير له عن حالات الصبا وعبث الصبيان حتى يتصف فى سن الصبا بأوصاف الرجولة ، ولذلك نشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان وغيره . .

وإنما خلقت فيه هذه العلقة لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقها تكملة للخلق الإنسانى ولابد ، ونزعها كرامة ربانية ورعاية إلهية . فإخراجها بعد خلقها أدل على مزيد من الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية .

وقال العلامة السبكى : لو خلق سليماً منها لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته ، فأظهره الله على يد جبريل ليتحققوا كمال باطنه كما يرون كمال الظاهر .

ولهذه الخاطرة أسانيد ، وقد تكررت هذه التنقية فى أوقات توحى ظروفها أن الذات النبوية أو البشرية السوية تستلزم التنقية من مظاهر البشرية العادية الناجمة عن تغذية الأرض فى مراحل متعددة .

وقد تحدث عن سر هذا التكرار فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله فقال : وهذا الحادث وقع للرسول ﷺ منذ طفولته المبكرة . . لقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان ـ على مايرويه الإمام مسلم ـ أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق عن قلبه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا خط الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده مكانه .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعنى مرضعته ـ قائلين إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر . . . فقد روى الإمام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن كعب أن أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ كان جريئاً يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

يا رسول الله ، ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال :

لقد سألت أبا هريرة : إنى لفى الصحراء وأنا ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو؟ قال : نعم ، فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلىَّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد أحدهما مساً فقال أحدهما لصاحبه :

أضجعه ، فأضجعانى بلا قسر ولاهصر ، وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع . .

فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها .

فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرجه يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : اغد واسلم .

فرجعت أغدو رقة على الصغير ورحمة على الكبير .

ويقول : بينما كان فى الحطيم أو الحِجْر مضجعاً بين النائم واليقظان أتاه فشق عن صدره حسبما يروى البخارى ومسلم ـ واستخرج قلبه . . ثم أتى بطست من ذهب قد مُلىء إيماناً ، فغسل قلبى ثم حشى ، ثم أعيد . .

وكان المعراج فتكرر شق الصدر . .

ولايعنينا هنا ـ لا فى قليل ولا فى كثير ـ أن نمارى الماديين فى جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر فالأمر أسمى بكثير من المماراة فى الشكل والكيف والزمان والمكان . .

والمغزى أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التى تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنة بالأسانيد الصحيحة (٢٥٨) ، وروت كتب السيرة (٢٥٩) ، هذه الحادثة التى توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله ﷺ منذ طفولته المبكرة .

وإن من مظاهر هذه العناية أن يستخرج الله خط الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه سبيل .

إن الله سبحانه وتعالى ـ وقد شاءت إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل .

والانسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب وتصفية النفس والتوبة والإخلاص ، أو بتعبير آخر بشق الصدر واستخراج خط الشيطان منه .
وأرسل الله ملائكته فشقوا عن صدر رسول الله ﷺ واستخرجوا خط الشيطان منه

وأرسلهم فشقوا عن صدره وملأوه سكينة .
وأرسلهم فشقوا عن صدره وملأوه رأفة ورحمة
فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ رقة على الصغير ورحمة على الكبير . .

---

(٢٥٨) ورد هذا الخبر فى البخارى جـ ١ ص ١٨٢ ـ مسلم جـ ١ ص ١٠١ ط الحلبى
(٢٥٩) الوفا بحقوق المصطفى جـ ١ ص ٢١٩ ـ سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٦٤ ـ الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٩ ـ تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٢٨ ـ الخصائص جـ ١ ص ١٣٤ ـ دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٢٩٣ ـ أعلام النبوة ص ١٥٣

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره فملأوه إيماناً . .
ثم شقوا عنه فملأوه حكمة .

إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعد ليكون الأسوة الحسنة والمثل الكامل للنقاء والصفاء والرحمة والسمو

إنه سيكون المقياس والدليل والإمام ، فلابد وأن يتحقق فيه سنام النقاء ، وذروة الصفاء وغاية السمو ، حتى يكون هو القدوة والمثل .

ولقد كانت هذه الإجابة من النبى ﷺ على سؤال أبى هريرة : إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر . .

هذه الرواية إشارة إلى تنقية بدأت مصاحبة لطفولته ، وليس ذلك بغريب إذا تصورنا القضايا فى جوها المتناسق ، نبوة المصطفى من رب العالمين . .

ولقد كان محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ذروة النقاء والصفاء والسكينة والرحمة والإيمان والحكمة ، وصدق الله العلى العظيم :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٢٦٠)

وصدق الرسول الكريم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

ويمضى صاحب بشائر الرسالة الخاتمة ويناقش منطق الدكتور هيكل الذى ينساق مع المستشرقين فى إنكار حادث شق الصدر . . فيقول :

---

(٢٦٠) القلم ٤

« غير أن بعض الشواذ من الكتاب الإسلاميين الذين يستحبون الاستشراق على الذاتية الإسلامية لا يستريحون لرواية شق الصدر . . . يقول الدكتور هيكل :(٢٦١)

قصة لا يطمئن إليها المستشرقون ولا يطمئن اليها جماعة من المسلمين كذلك . . قصة الملكين هذين ، ويرونها ضعيفة السند ، فالذى رأى الرجلين فى رواية كتاب السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلاً ، وكانت كذلك سن محمد يومئذ .

والمستشرقون ومعهم جماعة من المسلمين الملتفين معهم فى غلالة الشك مخطئون فى الفهم والبحث من عدة جوانب :

الجانب الأول : زاوية تفهم حياة الرسول ﷺ فيما قبل البعث وفيما بعده
الجانب الثانى : زاوية التحمل التاريخى لرواية الحادثة
الجانب الثالث : محاولة تحقيق القصة برواية تتمشى مع الزاوية التى يريدون أن يفهموا منها شخصية الرسول ﷺ ومستوى الرواية فى الحديث .

أما فيما يتعلق بالجانب الأول ، فالمخطئون حينما يدرسون السيرة النبوية العطرة يركزون فى دراساتهم على جانب البشرية البحتة فى شخصية الرسول ﷺ ولا ينتبهون إلى أن هذه البشرية داخلة فى إطار « يوحى إليه » فينبغى إذا درس هؤلاء القوم حياة الرسول ﷺ أن يلاحظوا جوانب

---

(٢٦١) حياة محمد ﷺ ص ١١١

الشخصية النبوية الكريمة فى إطار الرسالة والبشرية معا من قبل الابتعاث ومن بعده . .

وهذا أمر واضح جداً فى عصرنا الحديث ، عصر الإيمان بالتخصص ، فليس هناك مجال من المجالات يقوم على شأنه مدير أو رئيس غير متخصص ، وإلا فسد العمل ، بل لا يسمح البتة لطبيب متخصص فى جراحة العيون أن يقوم بإجراء جراحة فى القلب أو فى الأمعاء مثلاً .

بل إن المتخصصين أنفسهم يتفاوتون فى مجال تخصصهم نتيجة لتفاوت الذكاء والنشاط والاستفادة من التدريب واستيعاب المعلومات والقدرة على دقة تطبيقها . .

والنبوة مجال أعظم من كل مجالات الحياة وأخطر كثيراً جدا من كل مجالات التخصص ، فإن الأنبياء هم المصطفون عند الله لتبليغ وحيه وإرساء قواعد الحياة التى يريدها الله للانسان ليحيا عليها .

وبالطبع وحسب مجريات الأمور فى الحياة العادية لابد وأن يكون للأنبياء حظ وافر من التهيئة والإعداد الربانى قبل الرسالة ، والذى يتولى هذه التهيئة والتربية والإعداد هو صاحب الكون والملكوت الذى سينيبهم عن جلاله فى تبليغ أحكامه .

وعلى سبيل المثال مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ فإن رئيس الدولة يتخير الممثل له الذى سيتحدث باسمه ، ويجرى له تدريبات واختبارات حتى يتحقق من قدرته على النيابة عنه . هذا فى جانب البشر . . فما بالك إذا كان الأمر

يتعلق بتبليغ رسالة الله جل جلاله وهو الذى سيختار ويصطفى وهو فعال لما يريد فكيف يكون الاختيار ؟

واذا كان هو جل شأنه المربي وهو الذى أتقن كل شيء فكيف تكون التربية ؟

يقول الإمام الماوردى : تَدَرَّجَتْ إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحواله فى النبوة حتى علم أنه نبى مبعوث ورسول مبلغ ، وترتبت هذه الأحوال والمراتب وتنقل فيهن من منزلة إلى منزلة حتى بلغ غايتها .

ثم يقول : والمنزلة الثانية ما ميز به عن سائر الخلق من ترفعه على الأرجاس وتطهيره من الأدناس ليصفو فيصطفى ويخلص فيستخلص فيكون ذلك انذاراً لأمر ، وتنبيها على العاقبة . .

ويقول : ولا منزلة فى العالم أعلى من النبوة التى ـ هى سفارة بين الله ـ تعالى ـ وعباده تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق ، فكان أفضل الخلق بها أخص . . . وأعلمهم بشروطها أحق وأمس . . . ولم يكن فى عصر الرسول ﷺ ولا قبله ولا بعده من يساويه فى فضله ، ولا فى كماله وخلقه وبذلك وصفه الله تعالى بقوله : « **وإنك لعلى خلق عظيم** » . .

فالعصمة للنبى طبيعة وجبلة منذ اصطفاه الله وآدم منجدل فى طينته ، إنها له جبلة منذ تعلقت إرادة الله جل شأنه فى الأزل البعيد بأن سيكون محمد ﷺ رسولاً . .

وعلى هذا فينبغى أن يلاحظ أن بشرية الرسول ﷺ بشرية معصومة منذ

طفولتها المبكرة منذ وجوده فى الحياة ، منذ ولادته . .

ومن الإشارات اللطيفة لفضيلة الدكتور محمد بن فتح الله بدران ـ رحمه الله ـ قوله : إن القرآن الكريم يقرن محمداً ﷺ دائماً بالرسالة ، وكأنها مقصورة عليه ، وكأنه مقصور عليها ، واقرأ فى ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ (٢٦٢)

وقوله :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢٦٣)

وقوله :

﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ (٢٦٤)

وقوله :

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢٦٥)

وقوله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢٦٦)

---

(٢٦٢) آل عمران ١٤٤
(٢٦٣) هــود ١٢
(٢٦٤) الشورى ٤٨
(٢٦٥) فاطـر ٢٣
(٢٦٦) سـبأ ٢٨

وتدبر معى قوله ـ تعالى ـ فى سورة الأحزاب :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢٦٧)

واتخذ شعارك دائماً من سورة الفتح قوله تعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (٢٦٨)

فقد وضح أنه من الخطأ البين الذى بسببه لا يطمئن المستشرقون وإخوانهم من تلاميذهم فى الشرق الاسلامى إلى قضية شق الصدر ـ أنهم غير قادرين على أن يتفهموا شخصية الرسول الكريم ﷺ إنْ قبل البعثة وإنْ بعدها ـ وهم ينظرون إليها من زاوية البشرية البحتة فقط ، ويجعلون عقولهم وما أصغرها فى ساحة هذا الشرف العظيم ـ هى المقياس فى إدراك حقائق عليا تخص نبينا ﷺ الذى شاء الله ـ تعالى ـ له منذ الأزل أن يكون للعالمين نذيراً .

ولفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود استفاضات جيدة فى عرض منهاج الباحثين الذين يرغبون فى تفهم سيرة النبى ﷺ يقول فيه :

بعض الناس حينما يقرأون القرآن فتمر عليهم الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (٢٦٩)

---

(٢٦٧) الأحزاب ٤٠

(٢٦٨) الفتح ٢٩

(٢٦٩) الكهف ١١٠

يقفون عند كلمة بشر . .

ويحاول الواحد منهم التركيز عليها ، وتوجيه الانتباه كله إليها ، وتحويل الأنظار نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ويندفع فى هذا الاتجاه اندفاعاً لا يتناسب قط مع قوله تعالى « يوحى إلى » ويهملها إهمالاً . .

وينسى فى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ (٢٧٠)

وينسى في ذلك قوله تعالى : « يوحى إلىَّ » وينسى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لست كهيئتكم »

وينسى قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (٢٧١)

ثم يقول : ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية ويركزون عليها يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين وفاتهم أن هذه النظرة هى نظرة أبى جهل إلى النبى ﷺ وهى نفسها النظرة التى تبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحديث ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم . .

وماكان المستشرقون فى التركيز على بشرية الرسول إلا متابعين لزعيمهم الأكبر فى هذه النزعة وهو أبو جهل ، وكل من يركز من الكتاب على بشرية الرسول ﷺ فقط دون نظر إلى ما يتلوها من النبوة والرسالة وهو الأهم إنما هو

---

(٢٧٠) النجم ٣

(٢٧١) النور ٦٣

بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين فى هذه النزعة ، أو هو يتابع أبا جهل . .

وهم فى ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين ، بل هم من الرجعيين لأن هذا القول ترجع فكرته إلى ما قبل أربعة عشر قرناً مضت يتزعمهم فيها أبو جهل وغيره من كفار العرب الذين كانوا يريدون البقاء فى الظلمة القلبية . . .

ثم يحدد الدكتور عبدالحليم محمود ـ رحمه الله ـ الموقف فيقول :

« هناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس :

طرف « بشر » أى الذين يركزون على قوله تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم » .

وطرف « يوحى إلىّ » أو الذين يركزون على قوله تعالى « وما محمد إلا رسول الله » وبين الطرفين يتأرجح عدد لايحصى من المسلمين نزولا وارتفاعا ، انخفاضا وسموا ومقياس درجة الإيمان الذى لا يخطىء إنما هو فى الجمع بين الأمرين فلا نغلب البشرية ولانتفيها عنه ونخرجه منها فهو صلى الله عليه وسلم بشر رسول . . بشر لاكسائر البشر ، وإنما يوحى إليه إنهما يمثلان مايوضع فى كفتى ميزان :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وإذن فالزاوية التى يجب أن يلتزمها المؤمنون والباحثون فى السيرة النبوية هى البشرية السوية ، البشرية التى رباها ربها ، بشرية يوحى إليها حتى لايخطئوا ، وتلك هى الزاوية التى يتجنبها الدكتور هيكل وجماعة المسلمين الذين معه فى حلقة الاستشراق . . (٢٧٢) .

---

(٢٧٢) انظر بشائر الرسالة الخاتمة د . رؤوف شلبى ص ١٩٤ وما بعدها

تعليق على ماقالوه بشأن الراوى

ولقد قال هؤلاء المشككون فى قضية شق الصدر : إن الراوى طفل لايتجاوز سنه عامين أو أكثر قليلا .

ولكن الواقع أن التى روت هذه القصة إنما هى حليمة السعدية ذاتها ، فالتحمل التاريخى لهذه الرواية ـ كما يقول الدكتور رءوف شلبى ـ مرتبط بإخبار السيد حليمة بنت أبى ذؤيب ، وهى لم تحمل الرواية من إخبار ولدها الذى جاءها وهو يشتد ، بل لقد انتقلت هى وزوجها إلى مكان الحادث .

وبنفس الألفاظ التى نقلها إليها ولدها ، أخبرها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما حدث له . فى كل الروايات التى تناقلها الرواة كان الراوى لهذه القصة فيها هى حليمة السعدية نفسها . وهى وان كانت قد تلقت الخبر لأول مرة من طفلها الذى سعى إليها وهو يشتد إلا أنها أخبرت بأنها انتقلت إلى مكان الحادثة ثم قصت بأسلوبها ماحدث ، وإن أول دليل على صدق القصة أنها تمت فى جوها الطبيعى والجو الطبيعى هو انفعال ولدها الصغير ورعبه من هول الحادث وفزعه إلى والدته ليخبرها ثم انتقال حليمة وزوجها بناء على الاخبار الى مكان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمشاهدة ماحدث ، ثم رؤيتها له وهو ممتقع اللون .

فليكن مخبر حليمة صغيرا أو كبيرا ، فإن صحة الرواية ثابتة لاشك فيها ورؤية الأطفال لهذه الحوادث هو الأمر المقبول عقلا ، لأنهم هم الذين كانوا فى مسرح الحادث وهم المشاهدون لها وليس معهم سواهم من الكبار . .

والطفل عادة لايكذب ، إنه صريح بالفطرة . . ولايتلون لسانه بالكذب إلا حين يكبر .

ثم إن نضج محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان نضجا غير عادى ، لقد شب شبابا لا يشبه لداته وقد اعترف الذين كذبوا هذه الحادثة أنفسهم بذلك وهذا هو الدكتور هيكل نفسه يقول فى كتابه حياة محمد : ويجد هو فى الصحراء وخشونة عيش البادية مايسرع به إلى النمو ، ويزيد فى وسامة خلقه وحسن تكوينه . .[٢٧٣] .

وابن كثير يقول : كان يشب شبابا لايشبه الغلمان ، فوالله مابلغ السنتين حتى كان غلاما جفرا وهو ماقرره ابن هشام أيضا فى سيرته ، وهو ماحدثت به حليمة السعدية نفسها . .

أما ابن الجوزى فيقول على لسان من شاهدت نمو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : وكان يشب فى اليوم شباب الصبى فى الشهر ، ويشب فى الشهر شباب الصبى فى السنة ، قالت فبلغ سنتين وهو غلام جفر . ومؤدى ذلك أنه كان يدرك تماما ماحدث وماحصل له . .

لقد سمعت حليمة من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماسمعته وهو يعنى مايقول ، لقد كان تام التكوين ، سليم العقل صادق الاحساس دقيق التعبير .

---

(٢٧٣) حياة محمد ﷺ ص ١١

وليس أدل على صدق الرواية التي روتها من أنها قررت هي وزوجها إرجاع الصبي إلى أمه بعد أن رأت مارأت ، وسمعت ماسمعت . . وقد كانت حريصة على بقائه معها ، وهي التي سألت أمه بعد أن انتهى رضاعه منها في عامين أن تعيده معها إلى البادية مرة أخرى وتذرعت بالخوف عليه من وباء مكة ، وألحت في سؤالها ، حتى رضيت أمه آمنة بذلك ، وتركتها تعود به مرة أخرى ، ثم إذا بأمه تفاجأ بعودة حليمة إليها سريعا بابنها ، فكان هذا مثار عجب لها ، فقالت لها : لماذا رددت ابني سريعا وكنت حريصة على بقائه معك ؟ فقالت لها : لقد أديت ماعليّ وخفت عليه الأحداث . .

ولكن آمنة ازدادت في الاستفسار منها . . حتى أخبرتها حليمة بما حدث لابنها . .

فإذا بآمنة تقول لها في وثوق . . أفتخوفت عليه الشيطان ؟ .

قالت حليمة : نعم .

قالت آمنة : كلا ، ما للشيطان على ابني من سبيل ، وإن له لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟

قالت : بلى .

قالت : رأيت حين حملت به ، أنه خرج مني نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله مارأيت قط أخف ولاأيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء . . دعيه وانطلقي راشدة (٢٧٤) .

---

(٢٧٤) سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٨٨

فاذا ماتشكك المتشككون على الرغم من ذلك فى القصة مستندين إلى أن راويها طفل ، فكيف يتشككون فيها ، وقد رواها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه ؟ .

وانظر إلى هذا الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك ، من أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه . . يعنى مرضعته ، فقالوا : إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر المخيط فى صدره [٢٧٥] .

وقد مرت بنا رواية ابن أبى الدنيا وغيره بإسناد رفعه إلى أبى ذر قال : قلت يارسول الله كيف علمت أنك نبى ؟ وبم علمت ؟ قال : ياأبا ذر أتانى ملكان [٢٧٦] . . إلى آخر الحديث .

لقد أصبحت القصة ثابتة بإخبار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه عنها ، وأصبح المكذب لها مطعونا فى دينه مغموزا فى عقيدته ، فالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينطق عن الهوى كما أخبر بذلك القرآن الكريم . .

---

(٢٧٥) صحيح مسلم جـ٢ ص ٢١٦ شرح الامام النووى
(٢٧٦) الروض الانف جـ١ ص ١٨٨

تأكيد الأئمة لصدق هذه القصة

قال ابن حجر فى ذلك :

رجح القاضي عياض أن شق الصدر كان وهو صغير عند مرضعته حليمة ، وتعقبه السهيلي بأن ذلك وقع مرتين وهو الصواب ، ومحصله :

أن الشّق الأول كان لنزع العلقة التى قيل عندها : هذا خط الشيطان منك .. والشّق الثانى كان لاعداده للتلقى الذى سيحدث له فى ليلة الاسراء والمعراج - وقد روى الطيالسى والحارث من حديث عائشة - رضى الله عنها - أن الشّق الثانى وقع عند مجىء جبريل بالوحى فى غار حراء والله أعلم ، ومناسبته ظاهرة ، وهى الاستعداد لتلقى وحى السماء ، .

وروى أن الشق حدث أيضا وهو ابن عشر سنوات أو نحوها .

وهذا يؤكد ماذكره العلماء من أن الشق حدث أكثر من مرتين [٢٧٧] .

أما فضيلة الدكتور محمد أبو شهبة فيقول :

أما قول البعض بأن هذه القصة ضعيفة السند فنقد مجمل ، وكنا نحب من الناقد أو المنكر - وقد تعرض لإنكار أمر يقره جمهرة المسلمين وفيهم أئمة كبار لهم بعد نظر بالنقد والتعديل والتجريح للرواة - أن ينقد سند القصة نقدا تفصيليا .

أما وقد أتى به نقدا مجملا فهو معارض بتوثيق أئمة كبار لسند القصة ، وقد رواها الامام مسلم فى صحيحه وإن كانت مجملة ، وان أسانيد القصة حسنة جيدة ، وتصلح للاحتجاج بها . . . بل إن قصة الشق ليلة الإسراء

---

(٢٧٧) انظر بشائر الرسالة الخاتمة نقلاً عن شرح المواهب اللدنية جـ ١ ص ١٥٣

والمعراج مروية فى الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث .

بل قال بعض العلماء المحققين ، إنها متواترة (٢٧٨)

قال الحافظ ابن حجر بعد أن عرض لذكر الروايات الدالة على شق الصدر وتكراره : وجميع ماورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم به دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة لذلك . . فلا شيء يستحيل أمام قدرة الله .

ولنلتفت إلى تقرير عالم فاضل محقق من علمائنا الأجلاء هو الدكتور محمد الطيب النجار يقول فيه تحت عنوان حادثة شق الصدر (٢٧٩) .

وهى حادثة جديرة بالبحث والتوثيق والتحقيق العلمى الدقيق ، فقد ذكر مؤرخو السيرة النبوية عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو فى الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع فى بادية بنى سعد خلف بيوتهم ، فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشى محمد قد أخذه رجلان عليها ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه أى « يقلبانه » تقول السيد حليمة : فخرجت أنا وأبوه فوجدناه قائما ممتقعا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه (زوج حليمة) فقلنا له : مالك يابنى ؟ قال : جاءنى رجلان عليها ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا لم أدر ما هو ؟ . .

وقد خشيت السيدة حليمة على محمد أن يكون قد أصابه شيء فأرجعته إلى أمه آمنة ، وقصت عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة : لاتفزعى

---

(٢٧٨) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة د . أبوشهبة ص ٢٠٥

(٢٧٩) من بحث بعنوان « مشكلات السيرة النبوية » بالعدد التذكارى لمؤتمر السيرة النبوية العاشر ١٤٠٦ هـ مجمع البحوث الاسلامية ـ الأزهر

ياحليمة فإن لابنى هذا شأنا ، فلم أكن أحس أثناء حمله بشىء مما تجده الحوامل ، وقد رأيت فى المنام وأنا أحـمله كأن نوراً خرج منى فأضاء قصـور الشام . . ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية فعادت به حليمة ، وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره ، وتروى كتب السنة وقوع هذه الحادثة مرة ثانية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الاسراء والمعراج .

ويختلف رأى العلماء فى معنى شق الصدر ، فيذهب جمهور منهم إلى أنه شَق حقيقى ، وأنه معجزة وقعت مرتين : مرة قبل البعثة ومرة بعدها فأما قبل البعثة فلكى تكون إرهاصا للنبوة وبشيرا بما يُنْتَظَرُ لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مركز سام ومقام كريم ، وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التى كرم الله بها نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى تؤيد صدقه فى دعواه . ويذهب البعض من العلماء إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وإنما يقصد به مايفهم من قوله ـ تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ فهو بذلك يكون إشارة إلى تطهير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية .

وممن يرون هذا الرأى من العلماء فى هذا العصر الشيخ محمد الغزالى فى كتابه : « فقه السيرة » فلقد جاء فيه : « ان بشرا ممتازا كمحمد لاتدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس ، فإذا كانت للشر ، موجات تملأ الأفق ، وكانت هناك قلوب تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين يحفظها الله فلاتستقبل هذه التيارات الخبيثة ولاتهتز بها ،

وبذلك يكون جهد المرسلين فى متابعة الترقى لا فى مقاومة التدنى ، وفى تطهير العامة من المنكر لا فى التطهر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته . . »

ثم يقول ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد فجعلته منذ طفولته بنجوة قَصِيَّة عن مزالق الطبع الانسانى وعن مفاتن الحياة الأرضية . .

وقد أورد الخازن فى تفسيره لقوله تعالى

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾ (٢٨٠)

أورد قصة شق صدر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طفولته . .

وشرح الصدر الذى عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها مَلَك أو طبيب . . ثم يؤكد الشيخ الغزالى أن شق صدر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يجب أن يحمل على الهدف من ورائه والمراد به لا على الحقيقة ، وأن المقصود به انتزاع الوساوس الشيطانية دون حاجة إلى تلك العملية الجراحية فيقول : « ويحسن أن نعرف شيئا عن أساليب الحقيقة والمجاز التى تقع فى السنة ، فعن عائشة رضى الله عنها : « أن بعض أزواج النبى قلن : يارسول الله أينا أسرع بك لحوقا ؟ قال : أطولكن يدا ، فأخذن قصبة يذرعنها فكانت سودة أطولهن يدا فعلمن بعد ذلك أن المراد بطول يدها

---

(٢٨٠) سورة الشرح

« الصدقة » حيث كانت تحب الصدقة ، وكانت أسرع زوجات الرسول لحوقا به . . وهكذا نرى أن الشيخ الغزالى يميل إلى هذا الرأى . . حيث يرى أن شق صدر الرسول مشكلة لاتحل إلا بطريقة واحدة هى أن يكون شق الصدر مجازا لاحقيقة ، وأن يراد به شرح الصدر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما أودعه الله فيه من هدى ونور . . ونرى أن من واجبنا فى هذا الصدد أن نقول : ان محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تدعه العناية الالهية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس وحتى لو لم يقم الملكان بشق صدره لما كان أبدا غرضا للوساوس ، بل لكان مثله مثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوساوس دون أن تشق صدورهم ، وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة فى نوعها أن تتوجه الأنظار والقلوب إلى محمد فى طفولته وبعد بعثه ، ويعرف الناس عنه أن عناية خاصة تحيط به وتميزه عن غيره ، وأن العناية التى أحيت الموتى وأبرأت الأكمة والأبرص على يد المسيح ـ عليه السلام ـ هى العناية التى شقت صدر محمد ثم أرجعته فى لحظات إلى حالته الطبيعية وهذا شأن المعجزات التى لا تخضع ولاترتبط بالأسباب العادية .

ومن البعيد أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المجازية لأن سياق القصة والتعبير بلفظ « جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض » وكلمة « فاضجعانى وشقا بطنى » وفرار أخيه من الرضاعة فزعا مما رأى ، ومجىء السيدة حليمة هى وزوجها بعد أن أخبرهما ولدهما بما حدث لمحمد ، ومقابلتها لمحمد وهو ممتقع اللون ، وحكايته القصة مرة ثانية بنفس

الألفاظ . . كل ذلك يجعل الحقيقة فى هذه القصة واضحة لذى عينين ، ويبعد بها عن الأسلوب المجازى بعد المشرقين . .

واذا كان بعض المستشرقين من أمثال سير وليم موير ، ودرمنجم ومن يتجه إلى رأيهما من المؤرخين المحدثين كما جاء فى كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ـ نقول إذا كان أمثال هؤلاء ينكرون حادثة شق الصدر لأنها تعتمد على رواية طفلين لايصح الأخذ بقولهما ، فإننا نرى أن رواية الأطفال كثيرا ماتكون بعيدة عن الكذب والاختلاق أكثر من رواية الرجال . . ومع ذلك فقد تحدث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة على أصحابه ، كما تحدث الرسول عن المرة الثانية التى وقعت له فى ليلة الإسراء والمعراج . .

وإذن فالرأى الذى نرتضيه والذى ترشد إليه السنة الصحيحة هو أن حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسية لاريب فيها ، وأنه من الإرهاصات التى تبشر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتسلط الأضواء عليه قبل النبوة ، إذ ليس هناك مايمنع من ذلك مادمنا نؤمن بالعناية الإلهية التى تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . .

آيات وخوارق أخرى

إذن فقد كان حادث الصدر حقا لامرية فيه ، وبناء على ذلك فلابد من أن تصحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حياته بعد ذلك خوارق

لاتصحب غيره من عامة الناس . . لقد أصبح محل عناية الله فى الأرض ومبعث رحمة للعاملين ومنار هداية للحيارى والضالين . . فليس عجيبا أن يمده الله بما يُثَبِّتُ قدميه على طريق الحق ، ويشد قلبه ويقوى يقينه ويملأ الكون من حوله أنسا ونورا . .

وإن الرواة ليحدثونا عن بعض هذه الخوارق التى صاحبته قبل بعثته وقبل أن يوحى إليه بالمعجزة الكبرى القرآن الكريم . .

وهذه المعجزات السابقة على البعثة تدخل فى باب الإرهاصات بالنبوة وهو فى نطاق الموضوع الذى نتحدث فيه . .

وسنعرض بعض هذه الخوارق كما حدث بها رواة الأخبار وأصحاب السنن . .



تسليم الجماد عليه

روى ابن سعد فى طبقاته : عن منصور بن عبدالرحمن عن أمه عن برة قالت : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراد الله كرامته وابتداء نبوته ، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لايرى بيتا ، ويفضى إلى الشعاب وبطون الأودية ، فلا يمر بحجر ولا شجرة إلا قالت : السلام عليك يارسول الله ، فكان يلتفت يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحدا [٢٨١] .

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة فخرجنا معه الى بعض نواحيها ، فما استقبله جبل ولاشجر إلا وهو يقول : السلام عليك يارسول الله .

---

(٢٨١) الطبقات الكبرى جـ١ ص١٠٢ قسم ١

وعلق الحلبى على ذلك فقال : وعن تسليم الحجر قبل البعثة يشير الإمام السبكى - رحمه الله تعالى - بقوله :

وماجزت بالأحجار إلا وسلمت عليك بنطق شاهد قبل بعثة

وقال السهيلى : يحتمل أن يكون نطق الحجر والشجر كلاما مقرونا بحياة وعلم ، ويحتمل أن يكون صوتا مجردا غير مقترن بحياة وعلم ، وعلى كل هو عَلَم من أعلام النبوة . .

ويعلق محيى الدين بن العربى على ذلك بقوله : أكثر العقلاء يقولون عن الجمادات لاتعقل ، فوقفوا عند بصرهم ، والأمر عندنا ليس كذلك ، فإذا جاءهم عن نبى أو ولى أن حجرا كلمه يقولون مثلا : خلق الله فيه العلم والحياة فى ذلك الوقت ، والأمر عندنا ليس كذلك ، بل سر الحياة فى جميع العالم وقد ورد أن كل شىء سمع صوت المؤذن من رطب أو يابس يشهد له ، ولايشهد إلا من عَلِمَ (٢٨٢) .

ويشهد لذلك قوله - تعالى -

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢٨٣)

وقوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢٨٤)

---

(٢٨٢) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٣٦٢ ط دار المعرفة ببيروت

(٢٨٣) الاسراء ٤٤

(٢٨٤) النمل ٨٨

الملائكة تظـــلله : ذكر ابن هشام فى سيرته قال : عرضت خديجة على محمد صلى الله عليه وسلم ـ أن يخرج فى مال لها إلى الشام متاجرا ، وتعطيه أفضل ماكانت تعطى غيره من التجار . . وكانت قد اختارته لما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم خلقه ـ فخرج ومعه غلام لها يقال له ميسرة . .

فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة ، فقال له : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم . . فقال الراهب مانزل تحت هذه الشجرة إلا نبى .

ثم باع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلعته التى خرج بها واشترى ماأراد أن يشترى ، وأقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر ـ يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره .

فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ماجاء به فأضعف أو قريبا ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه(٢٨٥) وقد ظهرت هذه العلامات مبكرة ايضا عن ذلك ، فقد أخبرت حليمة ـ رضى الله عنها ـ أنها كانت بعد رجوعها به ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاتدعه يذهب

---

(٢٨٥) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢١٢

بعيدا ، فغفلت عنه يوما فى الظهيرة ، فخرجت تطلبه فوجدته مع أخته الشيماء وكان الحر شديدا . . فقالت حليمة لابنتها : أفى هذا الحر تخرجان ؟

فقالت الشيماء : ماوجد أخى حرا ، رأيت غمامة تظل عليه ، إذا وقف وقفت واذا سار سارت ، حتى انتهى إلى هذا الموضع .

فجعلت حليمة تقول : أحقا يابنية ؟

قالت : إى والله .

فجعلت تقول : أعوذ بالله من شر مانحذر على ابني . .

ومعنى ذلك أنها تخوفت عليه اعتداء الحاسدين بعد أن تبينت فيه علامات النبوة التى كان يخبر عنها أهل الكتاب فى مبعوث آخر الزمان . .

وقد أخبر بعضهم أن حليمة نفسها رأت فى بعض الأوقات الغمامة تظله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا وقف وقفت وإذا سار سارت (٢٨٦) .

شباب غير عادى

ومن دلائل نبوته ، مايخبر به البعض من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يشب شباباً على غير المعتاد من لداته ، وقدحدثت حليمة بأنه لم يبلغ سنتيه فى الرضاع منها حتى كان غلاما جفرا . أى قويا ممتلئا ـ والعبارة التى أوردها ابن منظور فى لسان العرب عنها « كان يشب فى اليوم شباب الصبى فى شهر فبلغ ستا وهو جفر » (٢٨٧) وقال ابن الأثير : استجفر الصبى اذا قوى على

---

(٢٨٦) حجة الله على العالمين ص ٢٦٠

(٢٨٧) لسان العرب جـ ١ ص ٦٤٠

الأكل ، والجفر : الصبى الذى اشتد وأكل وقوى ، وأخرج ابن سعد قال : قدم وفد هوازن على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيهم عمه من الرضاعة « أبوثروان » فقال : بارسول الله لقد رأيتك مرضَعا فما رأيت مرضَعا خيرا منك ورأيتك فطيما فما رأيت فطيما خيرا منك ، ثم رأيتك شابا فما رأيت شابا خيرا منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير . .

وفى كتاب الترقيص للأزدى أن حليمة كانت ترقص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقولها :

يارب إذ أعطيته فأبقه وأعله إلى العلا وأرقه
وادحض أباطيل العدا بحقه

أما أخته من الرضاع الشيماء فكانت تقول له وهى ترقصه :
هــذا أخ لى لم تـلده أمى وليس من نسـل أبى وعمى
فـديتــه مـن مخــول معـم فـأنمـه اللهم فيمـن تنمى
وأعطه عزا يدوم أبدا . .

قال الأزدى : ما أحسن مااستجاب الله به دعاءها[٢٨٨] .

فقد أثبت الله له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضلا على النبيين وذلك بأخذ الميثاق على النبيين بالإيمان به ونصره كما كبت أعاديه كأصحَاب الفيل قبل وجوده وأعطاه الله فى الدنيا والآخرة من السيادة والعز والدائم مالم يشاركه فيه مخلوق أبدا .

---

(٢٨٨) حجة الله على العالمين ص ٢٦٠

لقد كان دعاء الشيماء إلهاما لها من الله . . دعوة وافقت الإجابة والمقدور ، وكلمة حق جاءت على لسان أحد الخلق .

حدث ابن هشام قائلا : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ إن أول مابدىء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به : الرؤيا الصادقة . كان لايرى صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح .

قالت : وحبب الله إليه الخلوة ، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده (٢٨٩) .

وحدث ابن سعد قال : أخبرنا إسحاق بن يوسف الأزرق ، حدثنا عبدالله بن عون عن عمرو بن سعيد أن أبا طالب قال : كنت بذى المجاز ومعى ابن أخى ـ يعنى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأدركنى العطش ، فشكوت إليه فقلت : يابن أخى قد عطشت ، وماقلت له ذاك وأنا أرى أن عنده شيئا إلا الجزع ، قال : فثنى رجله ، ثم نزل فقال : ياعم ، أعطشت ؟ قال : فقلت : نعم .

فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا بالماء . فقال : اشرب ياعم ، قال : فشربت (٢٩٠) .

كراهته للأصنام

وكره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأصنام كرها شديدا ، واجتنبها ،

---

(٢٨٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٦٥

(٢٩٠) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٩٨

وحذر منها على الرغم من أنه لم يكن قد بعث أو جاءته بذلك رسالة ، وقد رأينا سابقا كيف أن بحيرى الراهب استحلفه باللات والعزى فأنكر عليه ذلك بقوله : لاتستحلفنى بهما فوالله ماكرهت شيئا كرهى إياهما . .

وحدث الرواة أن قريشا كان لهم صنم يقال له (بوانة) يعظمونه وينسكون له النسائك ويحلقون رءوسهم عنده ويعكفون عنده يوما إلى الليل فى كل سنة . .

وكان أبوطالب يحضر هذا اليوم مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن يحضر ذلك العيد معهم فأبى ذلك إباء شديدا حتى غضب لذلك أبوطالب ، وغضبت عليه عماته كذلك أشد الغضب وجعلن يقلن له : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا . . يحذرنه غضب الآلهة ، فلم يأبه فقلن له : ماتريد يامحمد أن تحضر لقومك عيدا ولاتكثر لهم جمعا ؟ . . فلم يزالوا به حتى ذهب .

فغاب عنهم ماشاء الله ثم رجع مرعويا فزعا ، فقالت عماته : مادهاك ؟ قال : إنى أخشى أن يكون بى لمم .

فقلن له : ماكان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مافيك . فما الذى رأيت ؟

قال : إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى ، وراءك يامحمد لاتمسه ، قالت أم أيمن ـ وهى التى روت هذا الحديث :

فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ [٢٩١] .

وأخرج أبونعيم والبيهقى والحاكم وصححه عن زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ قال : كان صنم من نحاس يقال له أساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا ، فطاف رسول الله [٢٩٢] صلى الله عليه وسلم بالكعبة وطفت معه ، فلما مررت مسحت به ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاتمسه ، قال زيد : فطفنا ثم قلت فى نفسى : لأمسنه حتى أنظر مايكون فمسحته ، فقال رسول الله ـ صلى ألم تُنْه ؟ قال زيد : فوالذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب مااستلمت صنما حتى أكرمه الله وأنزل عليه القرآن .

الاستسقاء بوجهه

روى أبوسلمان حمد بن محمد بن إبراهيم البستى النيسابورى أن رقيقة بنت أبى الصيفى بن هاشم قالت : تتابعت على قريش سنوات جدب قد أقحلت الظلف ، وأرقت العظم ، فبينما أنا راقدة أو مهدمة ، إذا بهاتف يصرخ بصوت مسموع يقول :

يامعشر قريش إن هذا النبى المبعوث منكم ، هذا إبان نجومه ، سوف يأتيكم الحيا والخصب ، ألا فانظروا منكم رجلا وسيطا عظاما جساما أشم العرنين ، له فخر يكظم عليه ، ألا فليخرج هو وولده ، وليدلف إليه من

---

(٢٩١) الطبقات جـ ١ قسم ١ ص ١٠٣

(٢٩٢) أى طاف بالكعبة وكان الصنم ملاصقاً لها

كل بطن رجل ، ألا فليغتسلوا بالماء ، وليمسوا من الطيب وليطوفوا بالبيت سبعا ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته ، ألا فليدع الرجل وليؤمن القوم ، ألا فسوف تغاثون أبدا ماعشتم .

قالت : فأصبحت مذعورة ، قد تصلب جسمي ووله عقلي ، فقصصت رؤياي وعليهم فوالحرمة والحرم ، مابقى أبطحى إلا قال : هذا شيبة الحمد . أي عبدالمطلب بن هاشم ، وكان يسمى شيبة الحمد . .

وتتامت عنده قريش ، وانفض إليه الناس من كل بطن رجل ، فتطهروا ، ومسوا الطيب ، واستلموا ، واطوفوا ، ثم ارتقوا أبا قبيس ، وطفق القوم يجتمعون حوله . .

فقام عبدالمطلب ، فأخذ ابن ابنه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرفعه على عاتقه ، وهو يومئذ غلام ، قد أيفع . .

ثم قال : اللهم ساد الخلة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، ومسئول غير مبخل ، وهؤلاء عبادك وإماؤك بعذرات حرمك يشكون إليك سنتهم ، فاسمعن اللهم ، وأمطرن علينا غيثا مربعا مغدقا . .

فماراموا ـ والبيت حتى انفجرت السماء بالماء ، وكظ الوادى بثجيجه (٢٩٣) .

---

(٢٩٣) الروض الانف جـ ٢ ص ٢٨ ـ ابان : وقت ـ نجومه : ظهوره ـ أشم العرنين : مرتفع الأنف ، كناية عن العزة ـ ليدلف : ليتجه ـ كظ : امتلأ ـ ثجيجه : سيله

ولقد لحظ ذلك أبوطالب عم الرسول وأدرك أن القوم لم يسقوا الا بوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضمن ذلك قصيدة يمدحه فيها ، وذلك

بعد بعثته ومحاربة قريش له .. فقال

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى رحمة وفواضل

ولقد أشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قول أبي طالب هذا فى مناسبة كريمة ، حين استسقى به أهل المدينة فسقاهم الله ..

وقد روى ابن هشام هذه القصة فقال : أقحط أهل المدينة فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشكوا ذلك اليه فصعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنبر ، فاستسقى ، فمالبث أن جاء المطر حتى أتاه أهل الضواحى ـ البادية ـ يشكون من الغرق ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : اللهم حوالينا ولاعلينا ، فانجاب السحاب عن المدينة فصار حواليها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لو أدرك أبوطالب هذا اليوم لسره ..

فقال له بعض أصحابه : كأنك يارسول الله أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال : أجل (٢٩٤)

ولعل هذه الحادثة قد تكررت أيضا مع أبي طالب فقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم فى قحط ، فقالت قريش : ياأبا طالب ، أقحط الوادى وأجدب العيال ، فاخرج فاستسق لهم ، فخرج أبوطالب ومعه غلام كأنه شمس تجلت عنها سحابة ، فأخذه أبوطالب ، فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ الغلام باصبعه ومافى السماء قزعة ـ قطعة سحاب ـ فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا ، وأغدق واغدودق ـ كثر مطره ـ وانفجر له الوادى وأخصب ، وفى ذلك يقول أبوطالب :



وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (٢٩٥)

خاتم النبوة

وقد خصه الله بخاتم النبوة ، علامة على نبوته ، بين كتفيه وقد وردت هذه العلامة فى أخبار أهل الكتاب ، وجاءت على لسان بحيرى الراهب بالشام ، فقد جاء فيما رواه ابن هشام أن بحيرى جعل يسأل :

---

(٢٩٤) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٨

(٢٩٥) من بحث بعنوان : آيات النبوة المحمدية ، مصطفى الطير ـ العدد التذكارى لمؤتمر السيرة العاشر ١٤٠٦ هـ

يسأل رسول الله ﷺ عن حاله ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلىٰ ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده[٢٩٦]

ووصف السهيلى خاتم النبوة فقال : كأنه أثر المحجم ، يعنى أثر المحجمة القابضة على اللحم حتى يكون ناتئاً ـ وفى الخبر أنه كان حوله خيلان فيها شعرات سود ـ وخيلان جمع خال وهى الشامة فى الجسد

وفى صفته أيضاً أنه كان كالتفاحة ، ومثل زر الحجلة[٢٩٧]

قال : وفسره الترمذى تفسيراً وهم فيه فقال : زر الحجلة ـ يعنى بها الطائر المعروف ـ وانما هى حجلة السرير واحدة الحجال ، وزرها الذى يدخل فى عروتها .

وكذلك قال الدميرى فى حياة الحيوان[٢٩٨]

قال السهيلى : وفى حديث آخر : كان كبيضة الحمامة . .

وفى حديث عياذ بن عمرو قال : رأيت خاتم النبوة وكان كركبة العنز ـ ذكره النمرى مسنداً فى كتاب الاستيعاب .

وفى رواية أخرى عن عبدالله بن سرجس قال : رأيت خاتم النبوة كأثر المحجمة .

---

(٢٩٦) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٩٦ ط التحرير

(٢٩٧) الحجلة بالتحريك . بيت كالقبة يستر بالثياب ويكون له أزرار كبار , فشبه الخاتم بزر الحجلة .

(٢٩٨) جـ ٢ ص ٣٩٠ باب الحجل

فهذه صفات خمس لخاتم النبوة : أنه كالمجحم ، وكزر الحجلة ، وكبيضة الحمامة ، وكركبة العنز ، وكالتفاحة .

ووصفه أبو سعيد الخدرى ـ وقد سئل عن خاتم النبوة ـ فقال : بضعة ناشزة هكذا : ووضع طرف السبابة فى مفصل الابهام (٢٩٩)

أما متى وضع هذا الخاتم فقد ورد فى حديث عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يارسول الله كيف علمت أنك نبى ؟

قال : يا أبا ذر أتانى ملكان وأنا ببطحاء مكة . . ثم ذكر شق صدره . . ثم قال : وجعل الخاتم بين كتفى . . وقد مر ذكر هذا الحديث فى موضوع شق الصدر (٣٠٠)

وكان من العلامات التى ذكرت لسلمان الفارسى فى النبى ﷺ على ألسنة من لقيهم من أحبار النصارى أن بين كتفيه خاتم النبوة . فكان هم سلمان أن يتثبت من هذه العلامات ، قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه ـ جئته وهو جالس فى أصحابه ، فسلمت عليه ، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى خاتم النبوة الذى وصف لى صاحبى ؟

---

(٢٩٩) الروض الأنف جـ ١ ص ٢٠٦

(٣٠٠) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٨

فلما رآنى رسول الله ﷺ على تلك الحال ، عرف أنى أستثبت من شىء وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكى (٣٠١)

وقد ظل هذا الخاتم ملازماً للنبى ﷺ فى جسده حتى قبض فلم ير له أثر . روى البيهقى فى دلائل النبوة عن الواقدى عن شيوخه أنهم قالوا : لما شُكَّ فى موت النبى ﷺ قال بعضهم قد مات ، وقال بعضهم : لم يمت .

فوضعت أسماء بنت عميس يدها بين كتفيه ثم قالت : توفى رسول الله ﷺ قد رفع الخاتم من بين كتفيه ، فكان هذا هو الذى عرف به موته ـ صلى الله عليه وسلم ـ(٣٠٢)

تحنث النبى ﷺ والرؤيا الصادقة :

ومن المقدمات الكبرى لنبوة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد عزوفه عن عبادة الأصنام وهجره إياها إقباله على التحنث . . (٣٠٣)

كان يذهب إلى غار حراء يختلى فيه بربه .

وقد سبق ذلك أو اقترن به الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح كما حدثت بذلك عائشة ـ رضى الله عنها ـ

---

(٣٠١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٩ ط التحرير
(٣٠٢) حياة الحيوان للدميرى جـ ١ ص ٣٩٠
(٣٠٣) التحنث : التعبد واعتزال الأصنام

جاء فى السيرة الحلبية : وإنما ابتدىء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرؤيا لئلا يفجأه الملك بالنبوة فلا تتحملها قواه البشرية ، لأن القوى البشرية لا تتحمل رؤية الملك ، حتى يكن على صورته التى خلقه الله عليها ولا على سماع صوته ولا على ما يخبر به لاسيما الرسالة - فكانت الرؤيا تأنيساً له - صلى الله عليه وسلم -

وتعد رؤى النبى - صلى الله عليه وسلم - جزءاً من الوحى ، لأن أنواع الوحى ثلاثة كما أخبر بذلك القرآن الكريم :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (٣٠٤)

فالوحى كما قال المفسرون قد يجيء عن طريق الرؤيا الصادقة ومنه قول ابراهيم :

﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ (٣٠٥)

وقد أخبر النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الرؤيا الصادقة بأنها جزء من النبوة ، جاء فى البخارى « الرؤيا الحسنة - أى الصادقة من الرجل الصالح » جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

وفى الأثر أنه قال : لم يبق بعدى إلا المبشرات ، قيل : وما المبشرات يارسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له .

---

(٣٠٤) الشورى ٥١
(٣٠٥) الصافات ١٠٢

وتطورت الرؤيا من النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى مايسمى بالمكاشفة .
جاء - فيما يرويه الحلبى - عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لخديجة إنى إذا خلوت سمعت نداء . . أن يا محمد يا محمد . .

وفى رواية : أرى نوراً - أى يقظة لا مناماً ، وأسمع صوتاً ، وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر .

وفى رواية أخرى : والله ما أبغضت شيئاً بغضى لهذه الأصنام والكهان ، وإن لما أسمعه وأراه لشأناً . . واستمر هذا الأمر لدرجة أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لخديجة : لقد خشيت على نفسى . .

فقالت له خديجة : كلا يابن عم ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله انك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث ، وفى رواية : وان خلقك لكريم أى فلا يكون للشيطان عليك سبيل ، استدلت - رضى الله عنها - بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على أن الله لا يفعل به إلا خيراً .

قال الحلبى : ونقل الماوردى عن الشعبى أن الله قرن إسرافيل - عليه السلام - بنبيه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ، يعلمه الشىء بعد الشىء ، ولا يذكر له القرآن ، فكان فى هذه المدة مبشراً بالنبوة ، وأمهله هذه المدة ليتأهب لوحيه . . (٣٠٦)

---

(٣٠٦) السيرة الحلبية جـ١ ص ٣٨٠

وبعد ذلك حبب الله إليه الخلوة التى يكون بها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق ، فهى تفرغ عن أشغال الدنيا ، مع مداومة ذكر الله ـ تعالى ـ والتفكر فى خلقه .. ولذلك أثر كبير فى صفاء النفس وإشراق نور المعرفة ..

لم يكن شىء لدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحب من أن يخلو وحده إلى ربه .. فكان يلجأ إلى غار حراء ، وهو ممعن فى الصعود فوق هذا الجبل ، والشعاب الموصلة اليه متعرجة صعبة المرتقى ، وقد شاهدنا ذلك فى محاولة للصعود

حالت الظروف دون إتمامها ، ولكنها لم تحل دون كثير ممن صاحبهم التوفيق للائتناس بمكان طيب شهد خلوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعبده ، وتعطره بأريج أول آيات من القرآن الكريم هبط بها جبريل عليه السلام ... وكأن النبى صلى الله عليه وسلم ـ باختياره هذا المكان البعيد أراد أن يقطع الطريق على الفضوليين والمتطفلين حتى لا يزعجوه بالمراقبة أو التدخل فى شئونه ..

كان يقضى فى هذا الغار الليالى ذوات العدد وأكثر ما يكون ذلك فى شهر رمضان ، وكان يحمل معه زاده ـ وما كانت به حاجة إلى زاد ، وهو الذى يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه ، وهو التقى وتقواه خير زاد .. إلا أنه كان يأخذ بالأسباب ، وهى لا تنافى التوكل .

وقال الحلبى : فى كلام بعضهم ماقد يدل على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يختل أقل من شهر ، فقول الرواة فى الحديث : الليالى ذوات العدد محمول على القدر الذى كان يتزود له ، فإذا فرغ زاده رجع إلى مكة وتزود إلى غيرها إلى أن يتم الشهر .. ولم يصح أنه اختلى أكثر من شهر ..

وكان زاده كثيراً ما يكون الكعك والزيت ، وأحياناً يكون اللحم واللبن .. وهى أطعمة لا تبقى طويلاً .. واختياره الزيت لبركة شجرته التى أشار إليها قوله ـ تعالى ـ

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ۝٢٠﴾[٣٠٧]

أوصى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالائتدام منها فقال : « **ائتدموا من هذه الشجرة المباركة** »[٣٠٨] ويقصد بالشجرة المباركة الزيتون .

عن عبيد بن عمير ـ رضى الله عنه ـ : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجاور فى حراء فى كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تتحنث فيه قريش فى الجاهلية[٣٠٩] والمراد بعض رجال من قريش ، وهم الذين رفضوا عبادة الأصنام ، ونفروا من أوثان الجاهلية وأرجاسها ..

قالوا : وأول من تحنث فى حراء من قريش عبد المطلب جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ابن الأثير : أول من تحنث بحراء عبد المطلب ، كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين ثم تبعه على ذلك من كان يعبد الله ويتحنف ـ كورقة بن نوفل ،وأبى أمية بن المغيرة .

---

(٣٠٧) المؤمنون ٢٠

(٣٠٨) الحديث فى جمع الجوامع ولفظه « ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » عن عبد بن حميد جـ١ ص ٣٢ ط مجمع البحوث وهوفى الجامع الصغير برقم ٣٢ ورمزله بالصحة . ورواه الترمذى فى العلل عن عمر .

(٣٠٩) السيرة الحلبية جـ١ ص ٣٨٢

قال البوصيرى يتحدث عن تعبد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ألف النسك والعبادة والخـ ـلوة طفلاً وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلباً نشطت فى العبادة الأعضاء

وكانت تعبده على دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت العبادة قائمة على التفكر والذكر . .

ويصاحب ذلك إطعام المساكين . .

ومن هنا شرعت الخلوة ـ عند من يقول بها ـ لأن فى الخلوة يخشع القلب وينسى المألوف من مخالطة أبناء الجنس المؤثرة فى البنية البشرية ـ وقد قال الحكماء : الخلوة صفة الصفوة .

وفى مزايا العزلة والخلوة جاء حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من خير معايش الناس رجلاً أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، إن سمع فزعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغى الموت أو القتل فى مكانه ، أو رجلاً فى غُنَيْمة له فى رأس شعفة من هذه الشعاف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا فى خير »[٣١٠]

---

(٣١٠) الرسالة القشيرية ص ٥٤ والحديث فى جمع الجوامع جـ٢ برقم ١٣٧٦٢/٢٧٣ بلفظ « خير الناس رجل » وفى مسلم بشرح النووى جـ١٣ ص ١٣٥ باب فضل الجهاد والرباط مع اختلاف يسير فى الألفاظ ـ والهيعة الصوت الذى تفزع منه

قال ابن عطاء السكندرى فى حِكَمِه : « ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة »[311] لأنه بالعزلة يسلم من الأغيار وبالفكرة تستنتج الأنوار ، وكل عزلة لا تصحبها فكرة فإلى الحمق مآلها وقد وضع العلماء شروطاً للعزلة حتى تثمر ثمارها ، وحتى يكون المختلى سائراً على نهج المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه الشروط : أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد التوحيد لكيلا يستهويه الشيطان بوساوسه ، ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدى به فرضه ليكون بناء أمره على أساس محكم . .

وقد شرع الإسلام الاعتكاف لتطهير النفس وتنقيتها ، ففيه يخلص الإنسان إلى ربه وينسى كل ماعداه من أمور الدنيا وكل هذا طيب وحسن ومحمود . . ولكن الأهم من ذلك أن نعرف أن العزلة الحقيقية هى اعتزال الخصال الذميمة ، والتخلق بالأخلاق الشريفة . .

وكان من عادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قضى جواره من شهره الذى يجاور فيه ، كان أول شيء يفعله قبل دخوله داره أن يذهب إلى الكعبة فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله ثم يدخل داره . .

وظل على ذلك حتى جاء اليوم المشهود ، حيث استقبله جبريل بالرسالة ، وأبلغه دعوة الله إليه ليقوم فى الناس هادياً وبشيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . .

---

(٣١١) شرح الحكم العطائية للشيخ زروق ص ٣٢ ط الجامعة الليبية

مع خصائص النبوة

هذا ولم يكن نبينا - صلى الله عليه وسلم - بدعاً فى أن تقع إرهاصات كثيرة تنبىء عن قدومه وتعد الأمر لاستقباله . .

فقد جرت العادة عند استقبال العظماء والكبار من رجال الدنيا أن تعد لهم الاحتفالات اللائقة بمقامهم ، فهؤلاء سفراء يجتمعون ، ووزراء يتقدمون ، وهذه مواكب وهؤلاء وفود وتلك صحافة تكتب وأجهزة إعلام ترقب . . إلى غير ذلك مما نراه ونشهده كل يوم . . كل هذا يحدث عند استقبال قادة الدول ومن هم أقل مرتبة منهم فى دنيانا التى نحياها .

فما بالك إذا كان القادم مبعوث العناية الإلهية ، ومختار الله ومصطفاه ؟ لقد كانت تلك البشريات السابقة والدلائل النبوية التى روينا طرفاً منها ، والإرهاصات التى تحدثنا عنها . . كانت من قبيل الحشد الذهنى والاعداد النفسى لقدوم خير البشر - صلى الله عليه وسلم - . .

هل هناك إرهاصات خاصة بالأنبياء السابقين ؟ :

أجل فقد سبق أن أعلن الله ملائكته قبل خلق آدم عليه السلام قائلاً لهم : إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً » وكان هذا الخبر على أسماع الملائكة مفاجأة لهم فقالوا :

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (٣١٢)

---

(٣١٢) البقرة ٣٠

إلى آخر الآيات التي سبق وتحدثنا عنها في قصة آدم ـ عليه السلام ـ

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يعد الملائكة لاستقبال آدم ، وهم الخلق الذين كانوا قبل وجود آدم ـ فهذا إرهاص لآدم عليه السلام ـ

وحين خلقه الله جعل له من أمارات النبوة ومقومات الخلافة في الأرض خصائص . . منها أنه علمه الأسماء كلها وميزه بذلك على الملائكة . . فقد تحداهم الحق سبحانه وتعالى أن ينبئوه بأسماء بعض الأشياء فعجزوا ، فطلب من آدم أن يخبر عنها فأخبر ، وبذلك ارتفعت منزلته عندهم .

ثم أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس . .

ثم أسكنه الجنة . . فسكنها فترة قبل أن يبتلى ويهبط منها . .

هذه خصائص امتاز بها آدم ـ عليه السلام ـ وبقيت بعض هذه الامتيازات في عقبه من الأنبياء . .

ثم ظهرت كاملة في سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي أتاه الله العلم الكامل وأفاض عليه من رحمته الشاملة . . وقال له :

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ (٣١٣)

وحين أراد الله أن يقر عين خليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالولد بشره بإسماعيل أولاً ثم بإسحاق ثانياً ، ففي خلق إسماعيل بشره بقوله ـ تعالى ـ

---

(٣١٣) النساء ١١٣

﴿ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٣١٤)

لقد تضمنت قصة الذبيح فى هذه السورة إرهاصتين :

إحداهما الإرهاص بولادته ، والأخرى الإرهاص بما أمر الله به إبراهيم من إعداد ابنه للذبح . . وإخباره بذلك وانتظار رأى إسماعيل بقوله : فانظر ماذا ترى ؟ . . وكان الابن عند حسن ظن ربه وأبيه فقال : ياأبت افعل ما تؤمر . .

قال السبكى ـ فيما ينقله عنه د . رءوف شلبى (٣١٥) ـ بل وهناك إرهاصة ثالثة تضمنها قوله :

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٣١٦)

ذلك أن إبراهيم كان نبياً مبعوثاً عهد الله إليه ببناء البيت ولكن الأمر بالنسبة لإسماعيل إرهاص بما سوف يكون عليه أمره من رفعة شأن وعلو قدر فى المستقبل .

---

(٣١٤) الصافات ٩٨ : ١٠٢

(٣١٥) بشائر النبوة الخاتمة ص ٣٢٦

(٣١٦) البقرة ١٢٥

وهناك إرهاص آخر بمقدم إسحاق ويعقوب ـ عليهما السلام ـ

فقد أراد الله أن يقر عين سارة بولد تسر به ، فجاءت الملائكة وهم فى طريقهم إلى مدينة سدوم لمعاقبة أهلها على ما اقترفوه من خبائث ، وعلى عصيانهم نبى الله لوط .. جاءت لتبشر زوجة إبراهيم بولدها إسحاق .. قال ـ تعالى ـ

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ ﴾ (٣١٧)

فقبل أن يرزق الله إبراهيم بإسحاق ، أخبره به ، ولم يكتف بذلك بل أخبره أيضاً بأنه سيكون له ولد وسوف يسمى يعقوب ..

والإرهاص لم يكن إلا بمن أوتى النبوة وهما إسحاق ويعقوب ، وإلا فقد كان مع يعقوب توأم آخر هو « عيصو » ومع ذلك لم ترد البشارة به كما وردت بالنسبة ليعقوب ..

أما الإرهاص ليوسف ـ عليه السلام ـ فقد كان بما أوتيه من رؤيا صادقة حققتها الأيام وأخبر القرآن الكريم عنها ، حيث يقول :

﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ ﴾ (٣١٨)

---

(٣١٧) هود ٧١

(٣١٨) يوسف ٤

وقد فهم أبوه هذه الرؤيا وعرف تأويلها ولذلك طلب منه عدم قصها على إخوته حتى لا يكيدوا له كيداً ، فإن الشيطان للإنسان عدو مبين .. وتمر الأيام و تتحقق هذه الرؤيا .. فيتبوأ يوسف عرش مصر ، ويسجد له أبواه [319] ـ وهما الشمس والقمر ـ وإخوته الأحد عشر وهم الكواكب الذين ورد ذكرهم فى الآية السابقة ، وقد قال يوسف فى ذلك كما ذكر القرآن الكريم

﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [320]

وقد أوحى الله إلى أم موسى ـ عليه السلام ـ أن تلقيه فى اليم لينجو وليصبح رسولاً من رب العالمين وقال فى ذلك :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [321]

فهذا تبشير لأم موسى بما سوف يكون عليه ولدها الذى تخشى عليه من بطش فرعون ..

---

(٣١٩) وكان ذلك جائزاً فى شريعتهم يقوم مقام التحية .. وقيل المراد بالسجود الإيماء .

(٣٢٠) يوسف ١٠٠

(٣٢١) القصص ٧

وكما بشر الله أم موسى بمستقبل ابنها ، وأرهص لها بما سوف يكون عليه حتى يطمئن قلبها ويذهب خوفها ـ أرهص كذلك لمريم بعيسى ، وأخبرها بأنها سوف تحمل من غير أب بابن سيكون نبياً ورسولاً ووجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . . قال لها ذلك على لسان الملائكة :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٣٢٢)

فهذه الارهاصات للأنبياء السابقين تشير إلى أن ماصاحب مجىء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من آيات ، وما سبقه من بشارات ، وما جرى على يديه قبل البعثة من خوارق كان إرهاصاً بنبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدلائل النبوة وإرهاصاتها وعلاماتها هى سنة من سنن الله التى سنها لكثير من أنبيائه . . . وقد اتفق المقرون والمتوقفون فيما يتعلق بالإرهاصات على أن سيدنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد سبق اسمه ونعته فى الكتب السابقة ، وتلك من علامات النبوة ودلائلها . . (٣٢٣)

---

(٣٢٢) آل عمران ٤٥ :٩٠٤

(٣٢٣) بشائر النبوة الخاتمة د . رءوف شلبى ص ٣٢٨

الخصــائص النبــوية :

وقد خص الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيدنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخصائص لم تتوفر لغيره من الأنبياء السابقين .. وقد أفرد كثير من العلماء الأجلاء لذلك الموضوع كتباً خاصة ، كان معينها العلم الواعى والروايات الثابتة والاستنباطات الذكية والفهم الدقيق لسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ونحن نطوف بين رياض هذه الخصائص ونقتطف من زهورها ما نقدمه شذا عطراً للقراء معتمدين فى ذلك على كتاب الخصائص الكبرى للحافظ جلال الدين السيوطى ، وهو أوفى من كتب فى هذا الموضوع .

اختصاصه بأنه أول النبيين خلقاً :

اختص الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه كان نبياً وآدم منجدل فى طينته ، والدليل على ذلك أن الله أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا به وينصروه ويبشروا أممهم به .

وكتب الله اسمه على العرش ، وجعل الملائكة تذكره فى كل ساعة ، وذكر اسمه فى الأذان ، وحجب إبليس عن السموات من أجله ، وسماه الرءوف الرحيم وهما من أسماء الله تعالى .. وجعله أرجح الناس عقلاً ، وأعطاه كل الحسن ولم يؤت يوسف إلا شطر الحسن ، وأبطلت الكهانة بمبعثه وحرست السماء من استراق السمع ورميت بالشهب ، وأحيا الله له أبويه فآمنا به كما جاء فى بعض الروايات ..

وقبل الله شفاعته فى العفو وتخفيف العذاب ، وجعل له الشفاعة العظمى ، وقد عصمه الله من الناس ، واختصه الله بالاسراء والمعراج ، وجعل قدمه

الشريفة تطأ مكاناً ما وطئه نبى مرسل ولا ملك مقرب ، وجمع الله له الأنبياء ، وجعله إماماً لهم وللملائكة ، وأطلعه على الجنة والنار ، وأراه من آياته الكبرى . قال تعالى :

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ (٣٢٤)

اختصاصه بالقرآن الكريم :

وخصه الله بنزول المعجزة الخالدة عليه ، كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من

بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وحفظه الله من التبديل والتحريف ، وجعله جامعاً لكل شيء ومستغنياً عن غيره وغيره لا يستغنى عنه ، وقد اشتمل على ما اشتملت عليه الكتب الأخرى وزيادة .. وجعل معجزة القرآن باقية مستمرة إلى يوم القيامة ، وهذا بخلاف معجزات الأنبياء السابقين الذين انتهت معجزاتهم بانتهاء حياتهم أو رفعهم إلى السماء ..

وأعطاه مع معجزة القرآن الخالدة كل ماأعطاه للأنبياء السابقين من معجزات ، فأعطاه معجزة شفاء المرضى وأعطاه معجزة إحياء الموتى وأعطاه معجزة قلب الأعيان ، فكلمه الجماد ، وسبح فى يديه الحصى واستجاب له الشجر فسعى إليه ، وشكا له الطير والجمل ، ونطق له الضب ، وغير ذلك ، مما رواه أصحاب السير والسنن ..

رسـالته العامـة :

واختصه الله بعمومية الرسالة ، وكان كل نبى من الأنبياء والرسل السابقين يبعث إلى قومه خاصة .. وقال الله فى ذلك :

---

(٣٢٤) النجم ١٨

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٣٢٥)

وقال - جل وعلا - :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (٣٢٦)

وقال - تبارك اسمه - :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٣٢٧)

وأخرج الشيخان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة العظمى ، وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت أنا إلى الناس عامة »

اقسام الله بحياته :

واختصه الله بأن أقسم بحياته فقال - تعالى -

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٣٢٨)

---

(٣٢٥) سبأ ٢٨
(٣٢٦) الفرقان ١
(٣٢٧) الأعراف ١٥٨
(٣٢٨) الحجر ٧٢

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ماخلق الله وماذرأ نفساً أكرم عليه من محمد ، وما حلف الله بحياة أحد إلا بحياة محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » . .

وقال أبو نعيم : ومن خصائصه - صلى الله عليه وسلم - أن الله فضله فى الخطاب على من قبله تشريفاً واجلالاً فنهى المؤمنين عن مخاطبة النبى - صلى الله عليه وسلم - بالألفاظ الكريهة أو الكلمات المحتملة لذلك . . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (٣٢٩)

ولم يناده الله فى القرآن باسمه ، بل كان يناديه بصفته تشريفاً وتعظيماً ، وإجلالاً :



﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ (٣٣٠)

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ ﴾ (٣٣١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ (٣٣٢)

---

(٣٢٩) البقرة ١٠٤
(٣٣٠) المدثر ١
(٣٣١) المزمل ١
(٣٣٢) الأحزاب ٤٥

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٣٣٣)

وكان الله يخاطب الأنبياء بأسمائهم :

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٣٣٤)

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣٣٥)

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣٣٦)

وكان الأنبياء يخاطبهم أقوامهم بأسمائهم مجردة ، ولكن الله دعا المؤمنين إلى خطاب نبيهم بما يليق به وبما يخالف مخاطبتهم لبعضهم البعض ..

وقال فى ذلك :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (٣٣٧)

أخرج أبو نعيم من طريق الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : كانوا يقولون يا محمد ، فنهاهم عن ذلك إعظاماً لنبيه فقالوا : يانبي الله ، يارسول الله ..

وأخرج البيهقى عن علقمة وغيره ، فى الآية قال : لا تقولوا يامحمد ، ولكن قولوا يارسول الله ، يانبى الله

---

(٣٣٣) المائدة ٦٧

(٣٣٤) هود ٤٨

(٣٣٥) يوسف ٢٩

(٣٣٦) ص ٢٦

(٣٣٧) النور ٦٣

سؤال الميت فى قبره عن النبى ﷺ :

من الاختصاصات الكبرى للنبى ﷺ أن الميت يسأل عنه فى قبره ، حين يقول له الملكان يسألانه : من ربك ؟ ومن رسولك ؟

أخرج أحمد والبيهقى عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : أما فتنة القبر فعنى تسألون ، فإذا كان الرجل الصالح أجلس ، فيقال له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : محمد رسول الله . .

عدم زواج زوجاته من بعده :

واختص بأن زوجاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتبرن أمهات للمؤمنين ، ويحرم زواجهن من أحد بعده ، قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (٣٣٨)

دفاع الله عنه :

وكان الأنبياء السابقون يدفعون عن أنفسهم أقوال أقوامهم وأعدائهم التى لا تليق بهم . . كما ذكر القرآن على لسان نوح ـ عليه السلام ـ

« ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين » (٣٣٩)

وكان هود يقول :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٣٤٠)

---

(٣٣٨) الأحزاب ٥٣
(٣٣٩) الأعراف ٦١
(٣٤٠) الأعراف ٦٧

ولكن نبينا محمداً - صلى الله عليه وسلم - تولى الله الدفاع عنه ،وتبرئته مما نسب إليه ، فحين رمى بالجنون ، رد الله قول هؤلاء الكفار قائلاً :

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ ﴾ (٣٤١)

وحين شكوا فى أقواله ليلة الإسراء والمعراج وكذبوه قال الله لهم :

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (٣٤٢)

وحين اتهموه بالشعر قال الله لهم :

﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ ۝٦٩ ﴾ (٣٤٣)

اختصاصاته بجميع أنواع الوحى :

وجمع الله له أنواع الوحى كلها وهى : الإلهام والرؤيا الصادقة ، والكلام بغير واسطة ، والتكليم بواسطة جبريل . .

ورفع الله له ذكره وشرح له صدره ووضع عنه وزره وقرن اسمه باسمه وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقال له :

﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ ﴾ (٣٤٤)

واتخذه حبيباً : أخرج البيهقى فى الشعب وابن عساكر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اتخذ الله ابراهيم خليلاً وموسى نجياً واتخذنى حبيباً ثم قال : وعزتى وجلالى لأوثرن حبيبى على خليلى ونجيى » . .

---

(٣٤١) القلم ٢

(٣٤٢) النجم ٢ : ٤

(٣٤٣) يس ٦٩

(٣٤٤) الضحى ٤

وأخرج عبدالله بن أحمد فى زوائد الزهد وأبو نعيم عن ثابت البنانى قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « موسى صفى الله وأنا حبيب الله »

وأخرج أبو نعيم فى المعرفة عن عبد الرحمن بن غنم قال : كنا جلوساً عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد فإذا سحابة فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « نزل على ملك فقال : « لم أزل استأذن ربى فى لقائك حتى كان هذا أوان أُذِنَ لى ، إنى أبشرك أنه ليس أحد أكرم على الله منك »

اختصاصه بأن الله فرض طاعته على كل الناس بدون استثناء :

قال أبو نعيم : ومن خصائصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله فرض طاعته على كل الناس فرضاً لا شرط فيه ولااستثناء فقال :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (٣٤٥)

وقال :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٣٤٦)

وأوجب على الناس التأسى به قولاً وفعلاً مطلقاً بلا استثناء فقال :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٣٤٧)

---

(٣٤٥) الحشر ٧
(٣٤٦) النساء ٨٠
(٣٤٧) الأحزاب ٢١

واستثنى فى التأسى بخليله ابراهيم فقال :

« قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم » إلى أن قال :

﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ (٣٤٨)

اختصاصه بالمقام المحمود :

واختصه الله بالمقام المحمود وبأن له لواء الحمد وبأن آدم فمن دونه تحت لوائه وبأنه إمام النبيين يومئذ وخطيبهم وقائدهم وبأنه أول شافع وأول مشفع وأول من ينظر إلى الله وأول من يؤذن له بالسجود ، وأول من يرفع رأسه ولا يطلب منه شهيد على التبليغ ، ويطلب من سائر الأنبياء .

كما خص بالشفاعة العظمى فى فصل القضاء ، وبالشفاعة فى إدخال قوم الجنة بغير حساب ، وبالشفاعة فيمن استحق النار من الموحدين ألا يدخلها ، وبالشفاعة فى رفع درجات أناس فى الجنة ، وبالشفاعة فيمن خلد أن يخفف عنه العذاب .

وهذا هو المقام المحمود الذى ورد فيه قوله ـ تعالى ـ

﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩ ﴾ (٣٤٩)

أخرج أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أنا سيد الناس يوم القيامة . .

ـ صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً ـ

---

(٣٤٨) الممتحنة ٤

(٣٤٩) الاسراء ٧٩

النسب الشريف

• عبدالله	• فهر
• عبدالمطلب	• مالك
• هاشم	• النضر
• عبدمناف	• كنانة
• قصي	• خزيمة
• كلاب	• مدركة
• مرة	• الياس
• كعب	• مضر
• لؤي	• نزار
• غالب	• معد

• عدنان


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

النسب الشريف

ينتمي النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أعرق أسرة عرفها العرب . . جمعت من الشرف الطريف والتليد وحوت من المجد كل قديم وجديد ، وهى أسرة

قريش التى اختصت بالمكارم ، وانتخبت للعظائم واختارها الله لتكون أمينة على حرمه وبيته ، فقامت بالأمر خير قيام ، وأكرمت حجاج بيت الله الحرام ، وقرتهم بما قدمت لهم من الشراب والطعام ، حتى عادوا وقد أوفوا نذورهم ، وأدوا مناسكهم ، ورفعوا إلى الله حوائجهم ، واطوفوا بالبيت العتيق واستحقوا من الله أن ينظر إليهم بعين رحمته وأن يشملهم بأمنه ورعايته . .

وكانت قريش هى خلاصة العرب ، أوسطها نسباً وأشرفها حسباً . . قال الجاحظ - فيما يرويه الحصرى عنه - فى وصف قريش . .

قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف ايجازها وتحسيرها [٣٥٠] ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كل الحديد [٣٥١] ،

وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها فى اللأواء [٣٥٢] وكيف وفاؤها إذا استحسن

---

(٣٥٠) التحسير : الاطناب
(٣٥١) الحديد : القوى الذهن
(٣٥٢) اللأواء : الشدة

الغدر ، وكيف جودها إذا شح المال ، وكيف ذكرها لأحاديث غد ، وقلة صدورها عن جهة القصد[٣٥٣] وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف

وصفها له ودعاؤها إليه ، وكيف سماحة أخلاقها ، وصونها لأعراقها وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم ، وطريفهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم وقولهم فعلهم .

بل لقد علم الناس كيف جمالها وقوامها وكيف نماؤها وبهاؤها، وكيف سروها ونجابتها[٣٥٤] وكيف بيانها وجهارتها ، وكيف تفكيرها وبداهتها ، فالعرب

كالبدن وقريش روحها ، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبها وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهى العلم والسنام الأضخم والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والغرس المبارك والنصاب الوثيق[٣٥٥]

ومعدن الفهم وينبوع العلم .. هم الأنف المقدم والسنام الأكرم[٣٥٦]

هذه الأسرة العريقة هى التى قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى هاشماً من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم »[٣٥٧]

---

(٣٥٣) القصد : الغرض
(٣٥٤) السرو : الشرف ، والنجابة : كرم الحسب
(٣٥٥) النصاب : الأصل
(٣٥٦) زهر الآداب للحصرى جـ ١ ص ٩٥

قال السيوطى : لقد اختار الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - من أزكى القبائل وأفضل البطون وأطهر الأصلاب فما تسلل شيء من أدران الجاهلية إلى شيء من نسبه - صلى الله عليه وسلم -

نســـــبه :

أما نسبه الذى أورده ابن سعد فى طبقاته عن هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبى فهو : محمد الطيب المبارك بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شيبة الحمد - بن هاشم - واسمه عمرو - بن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قصى - واسمه زيد - بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر ، واسمه قيس - بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة - واسمه عمرو - بن إلياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

قال ابن سعد : وأخبرنا هشام بن محمد قال : أخبرنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان إذا انتسب لم يجاوز فى نسبه معد بن عدنان بن أدد ، ثم يمسك ويقول : كذب النسابون ، قال الله - عز وجل - :

﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣٥٨)

---

(٣٥٧) فقه السيرة - محمد سعيد البوطى ص ٤٩ والحديث فى مسلم

(٣٥٨) الفرقان ٣٨

والأدب يقضي بالإمساك عند هذا النسب وعدم تجاوزه ، وإن كان هناك بعض لنسابين ذكر سلسلة النسب النبوى إلى آدم ـ عليه السلام ـ

ولكن الذى لاشك فيه على الإطلاق أن عدنان ينتهى نسبه إلى إسماعيل ـ عليه السلام ـ

ويعنى ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتهى نسبه إليه ، ويؤكد ذلك استجابة الله دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وابنه إسماعيل ـ حين رفعا القواعد من البيت ، وقالا :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (٣٥٩)

وقد جاء فيما أخبر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نفسه : أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى . . » ولم يكن واحد من هؤلاء الآباء الذين انحدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أصلابهم إلا عظيماً . والمقام يقتضي التعريف بهم تعريفاً موجزاً . . مادمنا نحن بصدد سيرة ذلك الرسول الذى هو أزكى الخلق وخلاصة السادة النجب . .

عبد الله :

عبد الله بن عبد المطلب شقيق أبي طالب والزبير وعبد الكعبة وعاتكة وبرة ، أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

وهو الملقب بالذبيح ، لأن أباه كان قد نذر إن رزقه الله بعشرة بنين يذبح

---

(٣٥٩) البقرة ١٢٩

أحدهم ، فلما رزقه اقترع بين أبنائه ، فوقعت القرعة على عبد الله . .

فهم عبد المطلب بذبحه ، ولكنه افتداه بمائة من الإبل ، بناء على فتوى كاهنة من كواهن العرب قالت له : كم دية القتيل عندكم ؟ قال : عشرة من الإبل .

فقالت : اضرب القداح بين ابنك وعشرة من الإبل فإن أصابت الإبل فانحرها ، وإن أصابت ابنك فزد عشرة بعد عشرة حتى يرضى ربكم . .

فمازال عبد المطلب يزيد عشرة عشرة حتى بلغت الإبل مائة . . فنحرها . . وأباحها للناس . .

وكان عبد الله أحب أبناء عبد المطلب إليه . . ولكن القرعة حين أصابته لم يضن به على الذبح كما نذر ، وأخذ الشفرة وهم بذبح ابنه ، ولكن قريشاً قامت من أنديتها وقالت : والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فوالله لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فيصبح هذا سنة فى العرب . . وكان أن اصطحبه إلى الكاهنة فأشارت بما قلناه . .

واكتسب عبد الله بذلك الفداء الذى حدث صيتاً زائداً ، وكان شاباً وسيماً جسيماً شجاعاً مارآه أحد إلا ملأ قلبه حباً وإعجاباً ، وكانت غرة النبوة المدخرة لابنه تتلألأ فى وجهه ، يعرفها من آتاه علماً وفراسة . .

قال الطبرى : بعد أن ذبح عبد المطلب الإبل فداء لابنه عبد الله أخذ بيده ، فمر على امرأة تسمى أم قتال بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وهى أخت ورقة بن نوفل . .

وتفرست فى وجهه فرأت نور النبوة فى وجهه فتمنت أن تكون أم النبى المنتظر . . فدعته إلى نفسها ولكنه عزف عنها . .

وتوجه به أبوه إلى وهب بن عبد مناف بن زهرة ،وَوَهْب يومئذ سيد بنى زهرة سنا وشرفاً ، فخطب إليه ابنته آمنة بنت وهب لابنه عبد الله ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً ، وأمها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى .

وبنى عبد الله بآمنة من ليلته فحملت بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفكر عبد الله فيما عرضته عليه أم قتال .. ما الذى دعاها أن تعرض نفسها عليه وهى معروفة بالعفة والطهارة والشرف ؟ فأراد أن يستفسر منها عن سبب ذلك ، فتوجه إليها فأعرضت عنه فسألها عن سبب ذلك ولماذا عرضت نفسها بالأمس القريب عليه وهى من عقيلات العرب وأطهرهم ؟

فقالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس .. فليس لى بك اليوم حاجة ..

لقد كانت أم قتال تسمع من أخيها ورقة علامات النبى المنتظر ، ومن هذه العلامات ذلك النور الذى يظهر فى جبهة أبيه ..

لقد كان عبد الله عفيفاً طاهراً حتى لقد قال حين عرضت عليه هذه المرأة ما عرضت :

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه ؟

وقيل إن المرأة التي رغبت في عبد الله هي كاهنة خثعمية ، اسمها فاطمة بنت مر ، كانت متهودة من أهل تبالة ، وكانت قد قرأت الكتب وعرفت علامات النبوة .

وحين فاتها شرف أمومة النبي - صلى الله عليه وسلم - وظفرت بها آمنة بنت وهب قالت هذه المرأة

ولما حوت منه أُمَيْنَةُ ما حوت   حوت منه فخراً ما لذلك ثان

قال الطبري : حدثني الحارث بن محمد ، قال حدثنا محمد بن سعد قال : حدثنا محمد بن عمر ، قال : حدثنا معمر وغيره عن الزهري أن عبد الله بن عبد المطلب كان أجمل رجال قريش ، فَذُكِر لآمنة بنت وهب جماله وهيئته ، وقيل لها : هل لك أن تتزوجيه ؟ فتزوجته ، فدخل بها وعلقت برسول الله - صلى الله عليه وسلم -

ثم بعثه أبوه إلى المدينة في ميرة يحمل لهم تمراً فمرض ومات بالمدينة . . فبعث عبد المطلب بابنه أبي طالب حين أبطأ عبد الله في العودة يطلبه ، فوجده قد مات

وقيل إن عبد الله كان في تجارة في الشام في عير لقريش ، فنزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفي ودفن في دار النابغة (٣٦٠)

---

(٣٦٠) تاريخ الأمم والملوك للطبري جـ ٢ ص ١٧٦

عبد المطلب :

أما عبد المطلب فاسمه شيبة . .

وسمى بذلك لأنه كان فى رأسه شيبة حين ولد . . أما تسميته بعبد المطلب فلذلك قصة . .

كان أبوه هاشم بن عبد مناف تاجراً ، وفى إحدى رحلاته التجارية إلى الشام سلك طريق المدينة ، فلما قدمها نزل بها على عمرو بن زيد بن لبيد الخزرجى ، فرأى ابنته سلمى وأعجبته فخطبها إلى أبيها ، فزوجه إياها ، وشرط عليه ألا تلد ولداً إلا فى أهلها وقبل هاشم الشرط ، وانصرف هاشم إلى طريقه ، ثم عاد من رحلته فأقام بيثرب ، حيث بنى بزوجته سلمى ، وأقام بها أياماً ، ثم ارتحل بها إلى مكة ، وحملت سلمى من هاشم ، فلما أثقلت اصطحبها عائداً بها إلى المدينة وفاء بالشرط وتركها عند أهلها متجهاً إلى الشام فمات بغزة . . وهناك رواية أخرى فى زواجه من « سلمى » سبق أن ذكرناها .

وولدت سلمى عبد المطلب ، الذى أسمته شيبة . .

ومكث شيبة مع أمه فى يثرب عند أخواله سبع سنين ، حتى رآه رجل من بنى الحارث بن عبد مناة ، وكان فى زيارة ليثرب ، فرأى غلماناً يتتضلون ، ورأى من بينهم شيبة يغلبهم ويقول : أنا شيبة بن هاشم أنا ابن سيد البطحاء . . فقال له الحارثى : من أنت أيها الفتى ؟ فقال : أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف .

فلما أتى الحارثى مكة قال للمطلب بن عبد مناف . . وهو جالس فى الحجر . .

ياأبا الحارث ، إن لك ابن أخ بيثرب ، رأيته كلما غلب لداته افتخر عليهم وقال : أنا ابن هاشم أنا ابن سيد البطحاء .

فقال المطلب : والله لا أرجع إلى أهلى حتى آتى به .

فقال له الحارثى : فهذه ناقتى بالفناء فاركبها .

فركبها المطلب وسار فأتى يثرب عشاء .. فاحتمل ابن أخيه وعاد به ، وقد أردفه خلفه .

فكان الناس يقولون وهم يرونه وراءه : هذا عبد المطلب .. هذا عبد المطلب .. فغلب عليه هذا الاسم ..

وكان أخوال عبد المطلب بارّين به ، مناصرين له ، حتى لقد انتدبهم فى نصره حين ظلمه بعض أعمامه حقه فوافوه سراعاً وردوه إليه ونصروه .

وبلغ عبد المطلب فى قومه منزلاً رفيعاً تسامعت به العرب فى كل مكان ، وحين هزم الله الحبشة فى أيامه وقد جاءوا بأفيالهم يريدون هدم الكعبة ازدادت منزلة عبد المطلب رفعة وعلواً .

ويرجع الفضل إلى عبد المطلب فى إعادة حفر زمزم ، وكان ذلك تكريماً له ، فقد شغله أمر سقاية الحجيج بعد أن تولى السقاية بعد موت عمه المطلب ، وتمنى أن ييسر الله له الماء فيوفره للحجاج وكان يحمله إليهم من مكان بعيد ويقدمه لهم فى حياض من أدم بمكة وعرفات ومنى .

وأراه الله فى نومه أن يحفر طيبة ، فقال : وما طيبة ؟

فلما كان فى الليلة الثانية جاءه فى المنام من يأمره أن يحفر برة . فقال وما برة ؟ ولكن الذى يأمره يتركه ويمضى دون أن يخبره كما تركه فى الليلة السابقة .

فلما كان فى الليلة الثالثة جاءه الآتى فى المنام يقول له : احفر المضنونة ، قال : وما المضنونة ؟ أبِنْ ما تقول ؟

فلما كان الغد أتاه ، وقال له : احفر زمزم ..

قال : وما زمزم ؟ قال : لا تنزح ولا تزم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ..

وكان غراب أعصم لا يبارح الذبائح مكان الفرث والدم ..

ثم قال له الذى يأتيه : وهى شرب لك ولولدك من بعدك ..

وغدا عبد المطلب إلى موضع العلامة ومعه ابنه الحارث ولم يكن له يومئذ سواه .. وحفر حتى استنبطها ونازعته قريش ، ولكنها سلمت له حين استبانت منزلته وكرامته وأن الله لن يخذله ..

لقد كان عبد المطلب على شرف معروف ، وجاه موصوف ، وعلم وحكمة وكان يُبْسَطُ له بساط فى فناء الكعبة ليجلس عليه وحوله شيوخ قريش ، لا يجرؤ أحد أن يقرب البساط فيجىء محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو طفل فيجلس على البساط ، فيحاول أعمامه رده - فيقول عبد المطلب : دعوه إن لابنى هذا شأناً ..

قال الرواة : كان عبد المطلب أحسن قريش وجهاً وأمدهم جسماً ، وأحلمهم حلماً ، وأجودهم كفاً ، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ، ولم يره مَلِك قط إلا أكرمه وشفعه وكان سيد قريش حتى هلك (٣٦١)

وتنافر عبد المطلب وحرب بين أمية إلى نفيل بن عبد العزى .

فقال نفيل لحرب : ياأبا عمرو أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفدا ، وأطول منك مذودا ؟

وتنازع عبد المطلب مع ثقيف على ماء كان له بالطائف وأعاره لهم دهراً فادعوه وجحدوه ..

وَحَكَّمُوا بينهم أحد كهنة الشام ، وفى الطريق إليه نفد ماء عبد المطلب ومن معه من قريش ، فطلب من الثقفيين أن يسقوهم فأبوا ، فهيأ الله لعبد المطلب

---

(٣٦١) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٥١ قسم ١

اكتشاف عين من الماء فحمد الله عز وجل ـ وشرب ومن معه وحملوا حاجتهم ، ونفد ماء الثقفيين ، فبعثوا إلى عبد المطلب أن يسقيهم فسقاهم ولم يعاملهم بالمثل .. ولما وصلوا إلى الكاهن حكم لعبد المطلب ..

هكذا كان عبد المطلب جد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

هاشم بن عبد مناف :

أما هاشم بن عبد مناف فكان مثلاً يحتذى ، وهو صاحب الإيلاف ، وهو الذى سن لقريش الرحلتين اللتين ورد ذكرهما فى القرآن الكريم :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ④ ﴾ (٣٦٢)

واسم هاشم عمرو ، أما هاشم فهو لقب اكتسبه من هشمه الخبز للناس والطير ، وذكر الرواة فى ذلك قصة :

قال ابن سعد : أصيبت قريش بسنة من القحط ذهبت بالأموال ، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقاً ثم أمر بخبزه فخبز له ، فحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة ، فهشم ذلك الخبز ـ يعنى كسره ـ وثرده ، ونحر الإبل ، ثم أمر الطهاة فطبخوا ، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة ، فكان ذلك أول الحيا بعد السنة التى أصابتهم ، فسمى بذلك هاشماً ، وقال عبد الله بن الزبعرى فى ذلك ؟

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

---

(٣٦٢) سورة قريش

وقال وهب بن عبد قصى فى ذلك :

تحمل هاشم ما ضاق عنه ... وأعيا أن يقوم به ابن بيض
أتاهم بالغرائر متأقات ... من أرض الشام بالبر النفيض
فأوسع أهل مكة من هشيم ... وشاب الخبز باللحم الغريض
فظل القوم بين مكللات ... من الشيزاء حائرها يفيض

وقد تعرض بسبب ذلك لحسد الحاسدين ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه . . وكان هاشم يقوم بأمر الحجاج ، حين يفدون إلى البيت فى الموسم ، وكان إذا حضر الموسم قام فى قريش خطيباً فيقول لهم :

« يامعشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار بيت الله ، يعظمون حرمة بيته فهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته . . » (٣٦٣)

والفخر الذى يذكر لهاشم هو استطاعته أن يظفر لقريش بالحلف من قيصر ، ذلك الحلف الذى أمنت به قريش فى تجارتها ، فسافرت شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، فى تجارة آمنة فأثرت واغتنت واكتسبت عزاً ومنعة وشرفاً . .

عبد مناف :

واسمه المغيرة ، وكان يقال له القمر لجماله وحسنه ، وهو الذى قام بالأمر بعد أبيه « قصى » فاختط بمكة ، رباعاً جديدة . . . وبنو عبد مناف هم عشيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولهذا لما نزل قوله ـ تعالى ـ :

---

(٣٦٣) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٤٥ قسم ١

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٣٦٤)

أخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - يدعو بنى عبد مناف ، فصعد المروة وقال : ياآل عبد مناف : فاجتمعوا فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - إن الله قد أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ،وأنتم الأقربون من قريش وإنى لاأملك لكم من الله حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لاإله إلا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم ، فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا دعوتنا ؟ فأنزل الله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ (٣٦٥)

أى : خابت وهلكت يدا أبى لهب (٣٦٦)

وولد لعبد مناف ستة ذكور وست إناث ، فالذكور هم المطلب ، وهو أكبرهم ، وهو الذى عقد الحلف لقريش مع النجاشى ، وهاشم - وهو الذى عقد الحلف مع قيصر - وعبد شمس وهو الذى عقد الحلف مع النجاشى ملك الحبشة ونوفل وهو الذى عقد الحلف مع كسرى - وأبو عمرو وأبو عبيد . .

والإناث : هن تماضر ، وحنة ، وقلابة ، وبرة ، وهالة ، وريطة . .

قصـــــى :

هو قصى بن كلاب بن مرة

وقد تزوج كلاب بن مرة فاطمة بنت سعد بن سيل وهى من الأزد ، فولدت له

---

(٣٦٤) الشعراء ٢١٤

(٣٦٥) المسد ١

(٣٦٦) الطبقات الكبرى جـ١ قسم ١ ص ٤٢

زهرة بن كلاب ، ثم ولدت بعده بفترة طويلة قصياً ـ وكان اسمه زيداً ـ وتوفى كلاب بن مرة فقدم أحد أقارب فاطمة فتزوجها ورحل بها لتقيم فى أهله ، وحملت زيداً معها لصغره فسمى قصياً لتقصيه معها إلى الشام . .

وكان هذا الذى تزوجته فاطمة اسمه ربيعة بن حرام من قضاعة ، وأنجبت منه ولداً اسمه « رزاح »

وكان « قصى » ينسب إلى ربيعة زوج أمه ، حتى تنازع « قصى » مع بعض القضاعيين .

فقال القضاعى : ألا تلحق ببلدك وقومك فإنك لست منا ؟

فرجع قصى إلى أمه يقول لها : من أبى ؟

فقالت له : أبوك كلاب بن مرة بن لؤى بن غالب وهو سيد قريش ، وقومك بمكة عند البيت الحرام فيما حوله . .

فقال قصى : فوالله لاأقيم هنا أبداً . .

فقالت له : فأقم حتى يأتى الموسم لتكون مع الحجاج

فلما جاء الموسم خرج إلى مكة مع قوم من قضاعة . .

وكان أخوه زهرة بن كلاب حيا ولكن بصره قد ذهب ، فلما قدم قصى إليه قال له : ادن منى ،فلمسه وسمع صوته فعرفه ، وقال : أنت والله أخى .

وبعد انتهاء الموسم حاول القضاعيون أن يعودوا بقصى إلى أمه فأبى ، وأقام بمكة مع أخيه . .

وكان رجلاً جلداً نهداً نسيباً ، وكان أمر الكعبة وقتئذ فى يد الخزاعيين ، وكان الذى يتولى منهم أمرها حليل بن حبيشة . وكانت له ابنة اسمها « حُبَّى » . .

فخطب قصى إلى حليل ابنته ..

فلما عرف حليل نسبه رغب فيه فزوجه

وهلك حليل وتولى حجابة البيت وأمر مكة بعده ابنه المحترش ، وهو الذى يكنى « أبا غبشان »

وكانت العرب تجعل له جعلاً [٣٦٧] فى كل موسم ، فقصروا عنه فى بعض المواسم ، وكان أبو غبشان صاحب شراب ، ولم يكن أهلاً لأن يتولى أمر البيت فدعاه قصى ثم اشترى منه أمر البيت وحجابته بأذواد من الإبل .. فرضى أبو غبشان ومضى إلى ظهر مكة ـ هذه رواية .. ولكن هناك رواية أخرى ولعلها أليق بهذا الموضع ..

تقول هذه الرواية : إن قصيا أعقب من حبى ، فلما رأى حليل ولد ابنته من قصى أعجب بهم وقال : إنما ولد قصى ولدى وهم بنو ابنتى ، فأوصى لقصى بولاية البيت والقيام بأمر مكة ، وقال له : انت أحق به ..

وغلب قصى وولده على مكة ، وعاد الأمر بذلك إلى نصابه ، وأصبح بنو إسماعيل هم ولاة البيت بعد أن ابتعدوا عنه بغلبة الجراهمة حيناً والخزاعيين حيناً آخر .

واستعان قصى باخوته لأمه من بنى قضاعة فنصروه ووقفوا بجانبه وآزروه فى الخلاف الذى نشب بينه وبين الخزاعيين حتى استقر له الأمر أخيراً ..

قال الرواة : لما فرغ الأمر لقصى ، ونفى خزاعة وبنى بكر عن مكة تجمعت إليه بطون قومه فسموا قريشاً لتجمعهم ، فالتقرش هو التجمع ..

وولد لقصى من حبى أولاده كلهم وهم ..

---

(٣٦٧) أى خرجاً يخرجونه إليه

عبد الدار ـ وكان بكره ـ وعبد مناف ، واسمه المغيرة ـ وعبد العزى ـ وعبد قصي ـ بالإضافة إلى بنتين هما تخمر وبرة

قال ابن سعد راوياً عن أبي صالح وابن عباس قالا : كان قصي بن كلاب أول من جمع قومه من أولاد كعب بن لؤى وأول من رضى به قومه وأطاعوه . . فكان شريف أهل مكة لاينازع فيها ، فابتنى دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت ففيها يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيها ينوبهم ، ولايعقدون لواء حرب لهم ولا لغيرهم إلا في دار الندوة ، وإن الأحلاف وفض المنازعات لا تعقد إلا فيها ، ولا تخرج عير قريش إلا منها ، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها . .

واجتمع لقصى الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة كلها .

وقسم قصي مكة رباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم . .

وسمته قريش مجمعاً لما جمع من أمرها وتيمنت به وبأمره وشرفته قريش وملَّكته ، وأدخل قصى بطون قريش كلها الأبطح فسموا قريش البطاح ، ومن أقام منهم بظاهر مكة سموا قريش الظواهر ، وفي ذلك يقول الشاعر :

فلو شـــهدتنى من قـريش عصـابة ... قـريش البطـاح لا قريش الظواهر

وفي قصي يقول الشاعر :

أبوكـم قصـى كان يدعـى مجمعـاً ... به جـمع الله القبائـل من فهـر

قصى هو الذى سمى قريشاً :

وبقصي سميت قريش بهذا الاسم ، وكان يقال لهم قبل ذلك : بنو النضر

روى ابن سعد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : لما نزل قصي

الحرم وغلب عليه فعل أفعالاً جيلة فقيل له : القرشى ، فهو أول من سمى به . .

ولكن بعضهم يقول : إن النضر بن كنانة كان يسمى أيضاً القرشى

وإلى قريش وأحلافها ينسب ماأحدثوه فى مكة من « حمس » والتحمس أشياء أحدثوها فى دينهم شددوا على أنفسهم فيها وابتعدوا بذلك عن آداء المشاعر الصحيحة . .

والحمس سكان الحرم من قريش لأنهم كانوا يتشددون فى دينهم ، وقيل كانوا لا يستظلون أيام منى ، ولايدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون . وكانوا لا يخرجون أيام الموسم إلى عرفات إنما يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل الله ، ولا نخرج من الحرم ، وهذا تقصير عن بلوغ الحق الذى شرعه الله لإبراهيم عليه السلام . . وحين جاء الإسلام جعل الوقوف بعرفة ركناً أساسياً ، وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : الحج عرفة . .

وكان البعض منهم لا يطوفون بالبيت طواف الإفاضة إلا عراة . . وإن طافوا فى ثياب يلقونها ولا يحل لهم لبسها بعد ذلك . .

وكانوا يحرمون على أنفسهم وعلى غيرهم من الحجاج أكل أى طعام اصطحبوه معهم من الحل إذا جاءوا حجاجاً أو معتمرين .

وقد حمل بعض القرشيين العرب على تلك الأمور حتى دانوا بها وأصبحت من العقائد الثابتة فى حجهم أو زيارتهم للبيت الحرام . .

الإسلام يبطل الحمس :

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعض القرشيين يخالفون أهل الحمس وذلك قبل بعثته ـ لقد وفقه الله إلى إقامة المشاعر الصحيحة ـ حدث جبير بن مطعم قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى ، وانه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم توفيقاً من الله له .

لقد كان القرشبيون أو المتحمسون منهم ـ كما سبق أن قلنا ـ لا يقفون بعرفات .. وفى ذلك مخالفة صريحة للمناسك الصحيحة فوقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعرفة ليفيض مع الناس مخالفاً بذلك قومه ..

ولما جاء الإسلام عادت الشريعة الصحيحة للحج .. ونزل القرآن الكريم ينهى عن العرى فقال ـ تعالى ـ :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾ (٣٦٨)

وفى قوله : كلوا واشربوا إشارة إلى ماكان المتحمسون قد حرموه من أكل الطعام الذى حملوه معهم من الحل ..

وفى قوله : خذوا زينتكم ـ إشارة الى استعمال اللباس الذى نَهوا عنه .. ودعا إلى الإفاضة من عرفات فقال :

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ ﴾ (٣٦٩)

فدعاهم إلى أن يفيضوا من عرفات بعد الوقوف بها ..

وكانت قريش قد أحدثت تلك البدع السابقة ، وقالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت وقُطّان مكة وسكانها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف العرب حقاً لأحد مثل ما تعرف لنا ، فلا يجب من

---

(٣٦٨) الاعراف ٣١
(٣٦٩) البقرة ١٩٩

وجهة نظرهم هذه أن يتساووا مع الناس ، لأنهم إن فعلوا ذلك استخفت العرب بهم وبحرمة البيت (٣٧٠)

وقد دخلت مع قريش فى هذا الحمس والتشدد كنانة وخزاعة .

ولقصى يرجع الفضل فى إيقاد النار بالمزدلفة حين وقف بها حتى يراها مع دفع من عرفة ، ولم تزل توقد هذه النار فى تلك الليلة وليلة الدفع من عرفة ، فى الجاهلية ـ وظلت توقد فى أيام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وعمرو وعثمان واستمرت بعد ذلك فترة طويلة .

قصى يأمر قريشاً بإكرام الحجاج :

وفرض قصى على قريش السقاية والرفادة ، وهو الذى كان يقول : يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وإن الحجاج ضيفان الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة .

واستجاب له القرشيون ، وتوارثوا الأمر من بعده ..

وتولى الأمر بعد قصى بنوه ..

وقد سبق أن قلنا إن قصياً هذا اسمه زيد ،وإنما سمى قصياً لأنه قصى عن قومه وعاش فى بنى عذرة مع ةأمه وأخيه لأمه .. ويقال : قصى وأقصى بمعنى ابتعد ، والناحية

---

(٣٧٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٢٩

القصوى والقاصية أى البعيدة (٣٧١)

كـــــلاب :

جاء فى هامش كتاب الاشتقاق : أن اسمه حكيم ، وقيل : اسمه عمرو وكلاب مصدر كالب ،وبنو كلاب قبيلة عظيمة من العرب ، وكلب : حى من قضاعة ، وأم كلاب ـ فيما ذكر ـ هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث بن فهر بن مالك .

وكان لكلاب أخوان من أبيه أى من غير أمه ، وهما : تيم ،ويقظة ، وأمهما هى أسماء بنت عدى بن حارثة (٣٧٢)

مـــــرة :

ومرة اسم شجرة ، والمرار ـ بضم الميم ـ أيضا شجر ، الواحدة منه مرارة ـ بضم الميم ـ

واسم مرة مشهور فى العرب ، سمى به قبائل مثل : مرة بن عوف فى غطفان ، ومرة بن عبيد فى بنى تميم ، ومرة فى بكر بن وائل ، ومرة فى عبد القيس .

---

(٣٧١) الاشتقاق لابن دريد ص ١٩

(٣٧٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٨٥

وأمه وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر بن مالك بن النضر . . وله أخوان شقيقان هما : عدى وهصيص . .

كعـــــب :

وكعب مأخوذ ، إما من كعب الإنسان ،أو كعب الرمح ، وجمع كعب الإنسان : كعاب ، وجمع كعب القناة : كعوب (٣٧٣)

وسميت الكعبة كعبة لتربعها

وفى العرب بنو كعب فى أهل العالية ، ولهم خطة بالبصرة ، وبنو كعب فى بنى العنبر . .

وقد سمت العرب كعباً ومكعباً وكعيباً بالتصغير.

وأم كعب هى ماوية بنت كعب بن القين بن جسر من قضاعة . .

وله أخوان شقيقان يقال لأحدهما : عامر ، ويقال للآخر : سامة . . .

ولكعب أخوان آخران من أبيه أى من غير أمه ، أحدهما اسمه خزيمة ، وأمه اسمها عائذة بنت الخمس بن قحافة من خثعم .

والآخر اسمه : سعد . . واسم أمه : بنانة

لـــؤى :

قال ابن دريد : واشتقاق لؤى من أشياء :

---

(٣٧٣) القناة : الرمح

إما من لواء الجيش وهو ممدود ، أو من لوى الرمل وهو مقصور ، أو هو تصغير لأى ..

وأم لؤى عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة ...
ولؤى له أخوان شقيقان : هما : تيم ، وقيس

غـــالب :

وغالب اسم فاعل من قولهم : غلب يغلب غلباً فهو غالب
ويقولون : لمن الغلب ؟ - بفتحتين - ومن قال : لمن الغلْب ؟ بفتح فسكون فقد لحن - قال ذلك ابن دريد فى كتابه « الاشتقاق »

وأم غالب ليلى بنت الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة .
واخوته الأشقاء هم الحارث ، ومحارب ، وأسد ، وعوف ، وجون ، وذئب ..

فهـــر :

والفهر هو الحجر الأملس ، وقد صغروا فهراً على فهيرة ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وهو أحد الثلاثة الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ وقد قتل فى يوم بئر معونة ، وكان المسلمون ثلاثين رجلاً ، غدر بهم عامر

بن الطفيل فقتلهم ، فطلب جسده فلم يوجد ، فقال رجل من بنى عامر : طعنت رجلاً منهم فقال : فزت والله ، فقلت فى نفسى : بم فاز ؟

والله لقد طعنته ثم ابتعد ، فلم يزل يبتعد حتى غاب عن عيني فعلموا أنه عامر ابن فهيرة حيث فقد جسده . . وقد قال بعض الرواة إن فهراً هذا هو الذى جمع قريشاً وقد ذكرنا قبل ذلك أن قصياً هو الذى جمعهم وهو الراجح . .

وأم فهر جندلة بنت عامر بن الحارث بن مضاض الجرهمى . .

وقال بعضهم : أمه سلمى بنت أد ـ بن طابخة بن إلياس بن مضر .

وذكر الطبرى لفهر موقفاً عظيماً يذكر له بكل فخر : قال : أقبل حسان بن عبد كلال الحميرى فيمن أقبل من اليمن مع حمير وقبائل من اليمن عظيمة ، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن ، ليجعل حج الناس عنده ببلاده ، فأقبل حتى نزل بنخلة ـ اسم موضع ـ فأغار على سرح الناس ، ومنع الطريق ، ولكنه هاب أن يدخل مكة .

فلما رأت قريش وأحلافها من كنانة وخزيمة وأسد ذلك . . خرجوا إليه وقائد الناس يومئذ فهر بن مالك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزمت حمير ، وأسر حسان بن عبد كلال ملك حمير .

وكان الذى أسره هو : الحارث بن فهر .

وقتل فيمن قتل من الناس قيس بن غالب بن فهر

وظل حسان أسيراً فى مكة ثلاث سنين حتى افتدى نفسه ، فخرج فمات بين مكة واليمن (٣٧٤)

وقيل : إن فهراً اسمه قريش ، وفهر لقب له .

---

(٣٧٤) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٢ ص ١٨٧

مـــــالك :

وهو اسم فاعل من ملك ـ وجاء فى فاتحة الكتاب « مالك يوم الدين » وقرىء « ملك يوم الدين » وأم مالك هى عكرشة بنت عدوان وهو الحارث بن عمرو بن قيس عيلان . . هذا قول ابن هشام وأما ابن إسحاق فيقول : إن عكرشة لقب لعاتكة بنت عدوان ، فاسمها عاتكة ولقبها عكرشة .

وقيل : إن أمه هى هند بنت فهر بن عمرو بن قيس .

النضـــــر :

واسم النضر : قيس ، وأمه برة بنت مر بن أد بن طابخة

وله أخوة أشقاء ثلاثة عشر هم : نضير ، ومالك ، وملكان ، وعامر ، والحارث ، وعمرو ، وسعد ، وعوف ، وغنم ، ومخرمة ، وجرول ، وغزوان ، وجدال .

وله أخ من أبيه ، هو : عبد مناة .

قال ابن هشام : والنضر هو قريش ، فمن كان من ولده فهو قرشى ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي قال جرير يمدح هشام بن عبد الملك :

فما الأم التى ولدت قريشاً ... بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم ... وماخال بأكرم من تميم (٣٧٥)

ويعنى جرير بالأم : برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، وهى أم النضر . . (٣٧٦)

وهناك قول يرى أن فهراً هو الذى يسمى قريشاً . . وفهر لقب له ـ كما ذكرنا سابقاً ـ

---

(٣٧٥) المقرفة : اللئيمة ـ النجار : الأصل ـ القرم : السيد

(٣٧٦) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١١٥

وقد مر بنا أن قصياً هو الذى سمى قريشاً بهذا الاسم .. لأنه جمعها ..

كـــــنانة :

والكنانة بيت السهام ، وأم كنانة عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان ، وقيل : إن أمه هند بنت عمرو بن قيس . واخوته من أبيه : أسد ، وأسدة ، والهون ، وأمهم هى برة بنت مر بن أدّ بن طابخة وهى أم النضر بن كنانة ـ قال القرطبى فيما يحكيه : تزوجها بعد أبيه ـ وسيأتى تفنيد ذلك إن شاء الله .

خـــزيمة :

وأمه سلمى بنت أسلم بن الحاف بن قضاعة .

وأخوه الشقيق هو هذيل ..

ولهما أخ من أمهما هو تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة .

مدركـــــة :

وهو اسم فاعل من أدرك ، والتاء للمبالغة .

واسمه عمرو ، وأمه خندف وهى ليلى بنت حلوان بن عمران واخوته لأبيه وأمه : عامر وعمير

وقال ابن اسحاق : ولد مدركة رجلين هما : خزيمة وهذيل ..

وقال أيضاً : كان اسم مدركة عامراً ، واسم طابخة أخيه عمراً ، وزعموا أنهما كانا فى إبل لهما يرعيانها ، فاقتنصا صيداً ، فقعدا عليه يطبخانه ، وعدت عادية على إبلهما ..

فقال عامر لعمرو : أتدرك الإبل أم تطبخ ؟ فقال عمرو : بل أطبخ الصيد . .

فلحق عامر بالإبل وعاد بها .

فلما رجعا إلى أبيهما حدثاه شأنهما فقال لعامر : أنت مدركة . . وقال لعمرو : وأنت طابخة .

قال الطبرى : وحدثت عن هشام بن محمد قالوا : خرج إلياس فى نجعة فنفرت إبله من أرنب فخرج إليها عمرو ، فأدركها فسمى مدركة ، وأخذها عامر فطبخها فسمى طابخة ، وانقمع عمير فى البناء فلم يخرج فسمى « قمعة » وخرجت أمهم تمشى فقال لها إلياس زوجها : أين تخندفين ؟ فسميت : خندف .

والخندفة ضرب من المشى

وقال إلياس لعمرو ابنه : إنك قد أدركت ما طلبنا
وقال لعامر ابنه : وأنت قد أنضجت ما طبختا
وقال لعمير : وأنت قد أسأت وانقمعتا (٣٧٧)

إليـــــاس :

وإلياس اسم نبى من الأنبياء ـ وقد مرت قصته ـ سمى به إلياس بن مضر وأم إلياس هى الرباب بنت حيدة ـ أو حميرة ـ بن معد بن عدنان .

وقال السهيلى فى تعليل الاسم : إنه إفعال من قولهم : رجل أليس وهو الشجاع الذى لا يفر ، والثابت الذى لا يبرح

---

(٣٧٧) تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ١٨٩

وقال بعضهم إنه من الياس وهو ضد الرجا . .

ومما قاله قصي يفتخر بآبائه :

إن لـدى الحـرب رخـى اللَّببِ   أمـهق خـندف والـياس أبـى

ومما يؤثر عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً .

وهو أول من أهدى البدن للبيت(٣٧٨)

مضـــــر :

قال القتيبى : اسمه مشتق من المضيرة أو من اللبن الماضر والمضيرة شيء يصنع من اللبن ، فسمى مضر لبياضه .

والعرب تسمى الأبيض أحمر ، فلذلك قيل : مضر الحمراء ، وقيل فى تعليل ذلك : إن أباه أوصى له بقبة حمراء ، وأوصى لأخيه ربيعة بفرس ، فقيل : مضر الحمراء وربيعة الفرس .

ويقال : إن مضر هو أول من سن الحداء للإبل ، وكان من أحسن الناس صوتاً

وذكر السهيلى حديثاً عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فيه : لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين .

---

(٣٧٨) الروض الأنف للسهيلى جـ ١ ص ٩

قال الطبرى : وأمه سودة بنت عك ، وأخوه لأمه وأبيه إياد . .

ولهما أخوان من أبيهما وهما ربيعة وأنمار ، وأمهما هى جدالة بنت وعلان بن جوشم الجرهمية ويضرب بهؤلاء الأربعة المثل فى الذكاء . .

حدث الرواة أن أباهم حين حضرته الوفاة أوصى بنيه وقسم ماله بينهم ، فقال : يابنى ، هذه القبة الحمراء وما أشبهها من مالى لمضر .

وهذا الخباء الأسود وما أشبهه من مالى لربيعة . .

وهذه الخادم وما أشبهها من مالى لإياد

وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه . .

فان أشكل عليكم فى ذلك فعليكم بالأفعى الجرهمى . .

فساروا يقصدون الأفعى ليقسم بينهم ، فبينما هم يسيرون ، إذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال : إن البعير الذى رعاه أعور .

وقال ربيعة : هو أزور (٣٧٩)

وقال إياد : هو أبتر (٣٨٠)

وقال أنمار : هو شرود

فما ساروا قليلاً حتى لقيهم رجل يسألهم عن جمله

فقال له مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، وقال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم

وقال إياد : أهو أبتر ؟ قال : نعم ، وقال أنمار : أهو شرود ؟ قال : نعم

قالوا : ما رأيناه فاطلب جملك .

---

(٣٧٩) أى يميل إلى ناحية دون أخرى ، ويقال للبعير المائل السنام أو الصدر أزور

(٣٨٠) أى مقطوع الذنب

فتعلق بهم وقال : هذه أوصاف جملى وما أخذه إلا أنتم

ووصلوا إلى الأفعى الجرهمى ، وكان مقيماً بنجران . .

وقال صاحب البعير : هؤلاء وصفوا بعيرى الذى افتقدته ، وما أرى إلا أنهم أخذوه .

فقال الأفعى : كيف وصفتموه له ، ولم تروه ؟

فقال مضر : رأيته قد رعى جانباً وترك جانباً فعلمت أنه أعور

وقال ربيعة : رأيت إحدى رجلية ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر فعلمت أنه أزور

وقال إياد : رأيت اجتماع بعره فعلمت أنه أبتر

وقال أنمار : رأيته يرعى المكان الملتف نبته ثم يجوزه إلى مكان آخر أرق منه نبتاً فعلمت أنه شرود .

فقال الجرهمى : إنهم ليسوا الذين أخذوا بعيرك فاطلبه . .

ثم دعا لهم بطعام ، وكان قد سألهم عن أنفسهم وعن وسبب مجيئهم فأخبروه ، فرحب بهم ، ولم يأكل معهم ، ووكل بهم من يسمع تحاورهم . .

فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً لولا أن كرمته نبتت على قبر . .

وقال ربيعة : لم أر كاليوم لحماً أطيب لولا أنه ربى بلبن كلب .

وقال إياد : لم أر كاليوم رجلاً كريماً لولا أنه لغير أبيه الذى يدعى له .

وقال أنمار : لم أر كاليوم شهداً لولا أن نحله ألقاه فى هامة جبار

وبلغ الجرهمى ماقالوا فتعجب . .

فأتى أمه فسألها عن نسبه فأخبرته أنها كانت تحت أبيه الملك وهو لا يولد له ، فأمكنت رجلاً من نفسها لتحفظ الملك .

وسأل القهرمان عن الخمر فقال : إنها من حبلة غرستها على قبر أبيك .

وسأل الراعى : عن الشاة التى ذبحت فقال : أرضعتها حين ولدت بلبن كلبة ، ولم يكن فى الغنم شاة غيرها يمكن ذبحها .

وسأل عن الشهد فأخبره المشتار بأنهم هجموا على عظام نخرة فإذا النحل قد عسلت فى جمجمة ما رأينا أطيب منه .

فقال الأفعى الجرهمى : ماهؤلاء القوم إلا شياطين .

ثم حكم لهم وقسم أموالهم بينهم (٣٨١)

نـــــزار :

وهو من النزر وهو اليسير والقليل .

قال السهيلى : وكان أبوه حين ولده قد نظر إلى نور النبوة بين عينيه ـ وكان ينتقل فى الأصلاب الطاهرة حتى وصل إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففرح فرحاً شديداً به ، ونحر وأطعم وقال : إن هذا كله نزر ـ أى قليل لحق هذا المولود ـ فسمى بهذا الاسم لذلك .

وأمه هى معانة بنت جوشم بن جلهمة بن عمرو .

معـــــد :

قيل هو من المعد ـ بسكون العين ـ وهو القوة ومنه اشتقاق المعدة وقيل هو

---

(٣٨١) راجع مروج الذهب للمسعودى جـ ١ ص ٣٧١

مفعل من العدد وأمه هى مهدد بنت اللَّهْم بن جلحب بن جديس ـ وقيل ابن طسم ـ

عـــدنان :

فعلان من عَدَنَ إذا أقام ولعدنان أخوان هما نبت وعمرو ـ كما يقول الطبرى ـ ويقال إن عدن مدينة فى اليمن سميت بعدن بن عدنان ، وإن أهلها ولده . .

كما قالوا : إن أهل حضور لما قتلوا نبيهم شعيب بن ذى مهدم الحضورى سلط الله عليهم بختنصر فخرج إليهم وحاربهم وكان معه « أرميا وبرخيا » فحملا معهما معداً ، فلما سكنت الحرب رداه إلى مكة ، ويقال إنه كان قد أقام فى الشام مدة وتزوج بها . .

وهذا النسب لا يختلف فيه أحد من النسابين .

ويتصل النسب بعد ذلك إلى إسماعيل وقد يختلف النسابون والرواة فى أسماء بعض الآباء والجدود فيما بعد عدنان ، ولكن الشىء المؤكد الذى لا جدال فيه هو اتصال هذا النسب بإسماعيل عليه السلام . .

النســب من جهة الأم :

أما نسبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جهة أمه . . فأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة . .

وأمها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب وأم برة هى أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب

وأمها برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى

وأمها قلابة بنت الحارث بن مالك وينتهى نسبها إلى هذيل بن مدركة بن إلياس .

وأمها أميمة بنت مالك بن غنم بن لحيان بن عادية بن صعصعة .

الى آخر سلسلة النسب الطاهرة العفيفة التى ذكرها الرواة وأثبتوها فى كتبهم ، وهى سلسلة طاهرة مطهرة يقول فيها الشاعر البوصيرى :

تتناهى بك العصور وتسمو بك علياء بعدها علياء

وبدا للوجود منك كريم من كريم آباؤه كرماء

نسب تحسب العلا بحلاه قلدتها نجومها الجوزاء

يوم نالت بوضعه ابنه وهب من فخار مالم تنله النساء

قال ابن سعد : أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قال : كتبت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمهاته ، فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنما خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم لم يصبنى من سفاح أهل الجاهلية شىء لم أخرج إلا من طهرة (٣٨٢)

رد شبهة :

زعم بعض المفسرين فى قوله تعالى :

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ (٣٨٣)

---

(٣٨٢) الطبقات الكبرى جـ١ قسم ١ ص ٢١

(٣٨٣) النساء ٢٢

ان فيها إشارة إلى أن خزيمة وهو أحد أجداد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما مات خلفه على زوجته أكبر أولاده من غيرها وهو كنانة فجاء منها بالنضر ، فقوله ـ تعالى ـ إلا ما قد سلف ـ لاستثناء هذه الواقعة حتى يبعد الشبهة عن نسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولبيان أن هذا النكاح كان سائغاً فى الجاهلية ولكن الاسلام أبطله ، فما وقع فى سلسلة نسب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايعيبه ...

ولكن هذا الكلام لم يصح ، ولم يحدث ولا حقيقة له على الاطلاق . . ذاك أن التى تزوجها كنانة وأعقب منها النضر لم تكن زوجة أبيه وإنما كانت ابنة أخيها وكان اسمها موافقاً لاسمها فمن هنا اشتبه الأمر على بعض المفسرين .

ومن هنا يعلم أن سلسلة نسب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا شائبة فيها ، وأن نسبه طاهر مصفى خال من كل عيب أو شبهة أو شك [٣٨٤]

صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .



(٣٨٤) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٦٥

فهرس المجلد السادس





صواب الخطأ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٦٧	٦	مقبل	قبل
٧٠	١٠	وفبر	وقبر
٧١	الأخير	ابو بطالب	أبو طالب
١٠٣	٨	يستاقط	يتساقط
١٠٦	١٠	الدمبر	الدير
١٩٢	١٢	لانبى	لابنى
٢١٠	١٥	إذ	إذا



انتهى بحمد الله المجلد السادس ويليه بمشيئته تعالى المجلد السابع وأوله المولد النبوى الشريف

سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد السابع

المجلد السابع



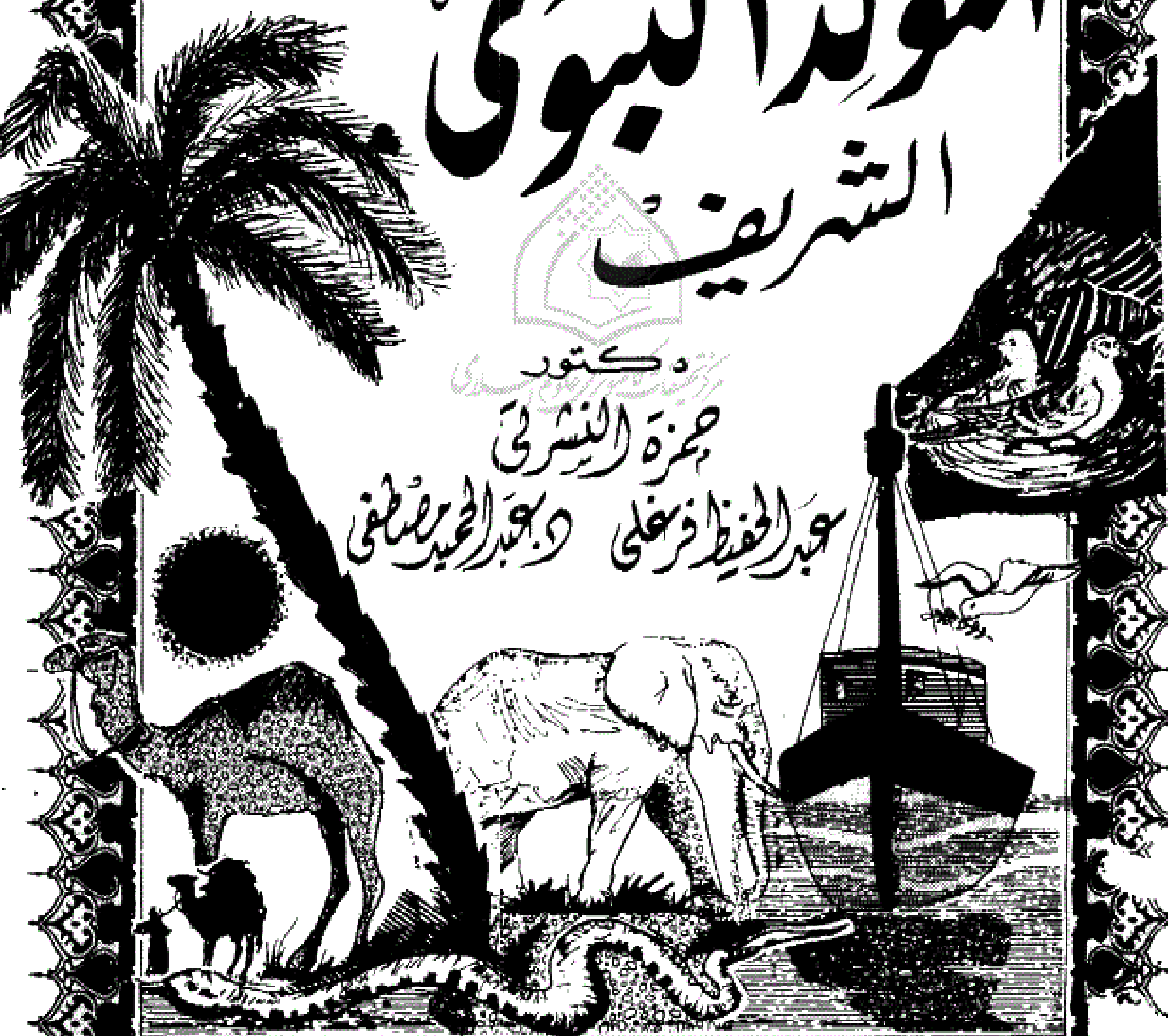
دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي   د. عبد الحميد مصطفى

سلسلة ٣١

[redacted]

المولد النبوي الشريف

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي
د. عبد الحميد مصطفى



المولد الشريف

- مكة بعد هزيمة الفيل .
- أين ولد الرسول ؟ • متى ولد ؟
- إحساس الأم بعظمة ابنها .
- خوارق صاحب المولد .
- التسمية والكنية .
- حكمة يُتم النبى - صلى الله عليه وسلم .
- احتفال المسلمين بالمولد .
- رضاعه - قصة حليمة .
- أحزان متواصلة ويُتم جديد .
- وفاة عبد المطلب وكفالة أبى طالب .
- كفاح فى سبيل الحياة .
- أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم الخِلقية .. والخُلقية .
- مشاركته فى المهام العظيمة .
- حلف الفضول .
- زواجه من خديجة رضى الله عنها .
- مشاركته فى بناء الكعبة .

بسم الله الرحمن الرحيم

معطيات النسب الشريف وأبعاده الحضارية :

رأينا فى سلسلة النسب الزكية التى قدمناها ، كيف أن النبى ﷺ ينتسب إلى أعلى أرومة عربية عرفها التاريخ ، وقد اجتمعت فى أسرته خصائص أهمها :

* المجاورة لبيت الله الحرام والمحافظة على دين إبراهيم .
* التمسك بمكارم الأخلاق من نجدة ومروءة وإكرام ضيف ورحمة بالضعفاء وغير ذلك .
* شرف النفس والحفاظ على آداب الفروسية وما يقتضيه ذلك من تقاليد وعادات .

ولمزيد من البيان نقول :

ضمن الله لنبيه ﷺ أن تكون سلسلة نسبه بين الأجداد الذين ينحدرون من عدنان حتى جده عبد المطلب من الذين تشرفوا بالبقاء حول البيت . ولم يبتعدوا عنه . . ولنضرب لذلك مثلاً :

أعقب عدنان ولدين . . أحدهما اسمه عك ، والآخر اسمه معد . .
أما عك فنزح إلى اليمن وفيها أقام . . ولكن معداً هو الذى بقى مجاوراً للبيت . . وإليه ينتسب النبى ﷺ

وولد معد عدة أولاد منهم نزار ، وقضاعة ، وقنص . .
والذى بقى مجاوراً للبيت من هؤلاء هو نزار ، وإليه ينتسب النبى ﷺ
وولد نزار : ربيعة وأنمار ، وإياد ، ومضر . .

تفرق هؤلاء الأولاد ولم يبق مجاوراً للبيت إلا مضر ، الذى أحبه الناس وقدروه ، وإلى مضر ينتسب النبى ﷺ

وأعقب مضر ولدين : هما : غيلان وإلياس

وظل إلياس مجاوراً للبيت محافظاً على تقاليد وآداب الدين حتى ورد فيه قول النبى ﷺ لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً .

وإلى إلياس ينتسب النبى ﷺ

واذا تتبعت بقية الأجداد رأيت أن الفرع الذى انحدر منه النبى ﷺ هو الفرع الملازم للبيت ، وهو الفرع النبيل المحافظ على الإرث الكريم والشرف القويم والمثل العليا الخالدة . .

فانظر مثلاً إلى أولاد إلياس تجدهم ثلاثة هم : عامر ولقبه مدركة وعمرو ولقبه طابخة ، وعمير ولقبه قمعة . . فإلى أى فرع ينتمى النبى ﷺ من بين هؤلاء ؟

إنه ينتمى الى مدركة . .

ومالقب بذلك إلا لأنه أدرك عدوه فاستنقذ ما كان قد سلبه من إبله . .

أما طابخة فلقب بذلك لأنه قعد يطبخ ، وأما قمعة فلقب بذلك لأنه انقمع عن العدو وتخاذل . .

لقد انتمى النبى ﷺ إلى فرع الفروسية والنجدة ومكارم الأخلاق . . وأنجب مدركة خزيمة وهذيلاً .

فانتمى النبى ﷺ إلى خزيمة الذى اتسم بالشرف وحسن الخلق كما يحدث الرواة . . .

وأعقب خزيمة كنانة وغيره . .

وكنانة هو الذى ورد فى حقه الحديث الشريف : إن الله اصطفى من بنى اسماعيل كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم . .

فإلى كنانة ينتمى النبى ﷺ دون غيره من بنى خزيمة . .
ولقب كنانة بذلك لأنه كان يكن الأسرار ويحفظها . .
وأنجب كنانة عدة أبناء منهم النضر ومالك وملكان . .
فكان نسب النبى ﷺ فى النضر من بينهم . .
وقد سمى النضر لنضرته وبهائه وجماله وحسن خلقه . .

وأعقب النضر من الأبناء مالك وغيره . .
ومالك هو جد النبى ﷺ وسمى بذلك لأنه كما يقول الرواة قد ملك أمر العرب . .
وأعقب مالك من الأبناء : فهراً وغيره . .
وفهر هو الذى يقال إنه قريش وسمى بذلك لأنه كان يقرش . . أى يفتش عن خلة لمحتاج ليسدها ويقيل عثرته ، وكان أبناؤه يقرشون أهل الموسم ويقضون لهم حوائجهم . .

وترك فهر من الأبناء : غالباً ومحارباً والحارث وأسداً . .
فكانت نسبة النبى ﷺ إلى غالب . .
وقد سمى بذلك لأنه كان يغالب من أجل الحق ، ويدفع الباطل . .
وأنجب غالب لؤياً وتميماً . .

وإلى لؤى ينتسب النبى ﷺ وكان سيداً شريفاً مطاعاً . .

ومن لؤى كان كلاب الذى جمع بين جدى النبى ﷺ - أبيه وأمه - ويقال إن كلاباً هذا كان اسمه حكيماً - كما سبق أن قدمنا -

وعلل بعضهم تسميته بهذا الاسم لأنه جمع كلاب الصيد . .

وإليه يرجع الفضل فى جمع قومه ليوم العروبة وهو يوم الجمعة . . وقيل إنه هو الذى سماه يوم الجمعة لجمع قومه فيه . .

وأنجب كلاب قصياً وزهرة . . وهما جدا النبى ﷺ لأبيه وأمه . .

أما قصى فإليه يرجع الفضل فى أنه جمع أمر قريش وانتزع لها الحجابة والسقاية والرفادة واللواء وأقام بيت الندوة وجمع مآثر عظيمة لقومه . .

ومن قصى كان أولاده عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصى . .

وإلى عبد مناف المعروف بالشرف والرحمة بالضعفاء والمروءة والنجدة ينتسب النبى ﷺ

ومن عبد مناف جاء هاشم ومنه عبد المطلب . .

وهما معدن الكمال والنقاء والشهامة والنجدة . .

فانظر إلى هذا النسب كيف جمع الفضائل التى يتسابق إليها أفاضل الرجال وأماثلهم . . وكيف اجتمعت كلها فى هذه السلسلة الذهبية المباركة التى انتهت بأكمل الرجال وأعظم الخلق وأشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ

آثار هذا النسب العظيم :

لقد أثمرت هذه السلسلة ثمارها فى النبى ﷺ فما انتهى إليه إلا خلاصة كاملة من المثل العليا والقيم النبيلة التى تفرقت فى هؤلاء الأجداد العظام . .

فرفعة نسبه هذه جعلت له مكانة مرموقة فى قومه . . فاتسم بالعدالة فى حكمه ، وجلال الهيبة فى نفوس من يراه ، وجمال التواضع ، ورعاية الضعفاء والرحمة بالفقراء ، وحب المساكين ، فكان أهلاً للوحى والنبوة والرسالة الخاتمة التى أنعم الله عليه بها . . وقد أفاء الله عليه بحسن التوجيه وعظمة التأديب وسعة العلم وكمال التوفيق . . فمكنه كل ذلك من إقامة بنيان هذه الدولة العظيمة التى شيدت قواعدها على العدل والرحمة والكرم والأخلاق الكاملة الرفيعة ، حتى قال فى ذلك أحد المنصفين من غير المسلمين :

كان محمد بن عبدالله ﷺ أكمل زعماء العالم قاطبة ، لأنى أجد فيه خلالاً مختلفة وأخلاقاً جمة وخصالاً كثيرة لم أرها اجتمعت فى تاريخ العالم لإنسان واحد فى آن واحد ، فهو حاكم وهو متواضع وهو قائد عظيم يقود الجند القليل فيغلب العدد الكثير وهو محب للسلام ، وهو البطل الشجاع وهو صاحب القلب الرقيق ، ونراه مشغولاً بجزيرة العرب بينما لا يفوته أمر من أمور بيته أو من أمور فقراء المسلمين ، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم فيحرص على هدايتهم . . (١)

مولد الرسول (صلى الله عليه وسلم)

مكة بعد هزيمة الفيل :

شعرت مكة بالإرتياح الكامل عقب هزيمة الأحباش ، وتجاوبت أصداء فرحها فى كل مكان ، وأقبلت الوفود إليها من شتى أنحاء الجزيرة العربية

---

(١) راجع فى ذلك بحثا بعنوان بيت الرسول وقيمه الحضاريه د . رؤوف شلبى ـ العدد التذكارى لمؤتمر السيرة ١٤٠٦ هـ

تؤدى حق الشكر لله على أنْ نجى بيته الحرام من هذه المؤامرة الدنيئة ، وتهنىء قريشاً وزعيمها عبد المطلب الذى أكرمه الله بهذه النعمة ، وأتم الانتصار فى عهده . .

وأصبح الحديث عن هزيمة الأفيال بهذه الصورة الخارقة حديث كل الناس فى كل مكان ، وهو حادث يثير العجب حقاً ، فمن كان يصدق أن طيوراً صغيرة أقل من العصافير حجماً تحمل فى مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة فى حجم الحمصة أو السمسمة تلقيها على الأفيال وجنودها فتبيدها وتقطع أوصالها وتجعل منها عبرة لمن يعتبر

لقد رفع هذا من مكانة البيت فى قلوب الناس . .

ورفع أيضاً من مكانة قريش التى تتولى أمر هذا البيت . .

ورفع كذلك من مكانة عبد المطلب الذى تسلح بالإيمان ، ولجأ إلى الله بالدعاء ، ولم ترهبه صولة أبرهة ، ولا رهبة جنوده وأفياله . . ولم يزد على أن حرك حلقة البيت فى سكينة وتضرع وابتهال وهو يقول :

لا هـم إن المـرء يمنـع رحـ ـله فامنـع حـلالك
لا يغـلبن صـليبهم ومحـالهم أبـداً محـالك
فلئـن فعـلت فإنـه أمـر تتـم به فعـالك
جَـرُّوا جمـوع بلادهـم والفيـل كـى يسـبوا عيالك
عمـدوا حـماك بكيدهـم جـهلاً ومـا رقـبوا جـلالك

وأرسل عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق هو ومن معه فى سكون إلى شعب الجبال المحيطة بمكة . . لقد كان دعاء صادراً من الأعماق ، وجد أمامه أبواب السماء مفتوحة فتلقفته بالإجابة . .

فسرعان ماجاءت الطيور كالخطاطيف تعرف وجهتها تماماً ، ويرقب كل طائر منها فريسته التى أعدت له ، فيلقى فوق رأسها مافى منقاره وبين رجليه من أحجار السجيل ، فتتحول هذه الفريسة سريعاً إلى ما يشبه العصف المأكول .

ومهما حاول الواصفون أن يصفوا جلال هذا المشهد وروعته ، فإنهم لن يستطيعوا الوصول إلى ما صوره القرآن الكريم فى لفظه الموجز المعجز الذى يتحدى أرباب الفصاحة والبلاغة قائلاً :

« بسم الله الرحمن الرحيم . .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

لقد عرف الناس فضل عبد المطلب يومئذ ، وأدركوا رباطة جأشه وقوة شخصيته ، ومكانته الروحية التى تفتحت لها أبواب السماء . .

وهكذا عاشت مكة وأهلها أياماً سعيدة ، تتجاوب الأفراح فى أنحائها . .

ولم لا ؟ وقد نجاها الله من شر مستطير وخطر جسيم ؟

ألم يكن متوقعاً أن يسبى أبرهة من يسبى ويقتل من يقتل ، ويشرد من يشرد ؟

إن أبرهة لو غلب لحق له بقانون الغلبة أن يفعل ما يشاء ، وكان من الممكن لو تم له النصر أن يجعل من سادة قريش عبيداً أذلاء . .

---

(٢) سورة الفيل

ولكن الله برحمته الواسعة ، ونعمته السابغة نجى قريشاً ومكة من هذا المصير المشئوم . .

ولقد شعر عبد المطلب ـ عقب هزيمة أبرهة وجيشه بهذه الصورة الرائعة ـ أن عين العناية ترقبه وأدرك أن هناك سبباً قوياً يربطه بالسماء . . فمازاده ذلك الشعور إلا تواضعاً . .

ولم يمر على هذا الحادث خمسون يوماً حتى كانت هناك فرحة أكبر وأعظم ، وبشرى أجل وأكرم . .

مولد الرسول :

ولد صلى الله عله وسلم فى ليلة طاب هواؤها ، ورق نسيمها ، وأشرق ضوؤها ،وعظم نورها ، وغردت أطيارها ، وضحكت أزهارها ، وانسابت أنسام السكينة ، تملأ الأرض أنساً والنفوس أملاً ، والقلوب أمناً . .

كما سعدت السماء وابتهجت الملائكة بإشراق مولد نبى الله محمد بن عبدالله . .

متى وأين ولد ؟

فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول من عام الفيل الذى دحر الله فيه الباطل ونصر الحق ، وفى دار عبد الله بن عبد المطلب ـ تلك الدار التى وهبها النبى ﷺ فيما بعد لعقيل بن أبى طالب فظلت فى يده حتى توفى فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفى ، فابتنى بها بيتاً ثم جاءت الخيزران أم الرشيد فيما بعد ، فأخذتها من ورثته وجعلتها مسجداً يعبد الله فيه [٣] فى تلك الدار ولد محمد بن عبد الله .

---

(٣) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٣٥

وأشهر الأقوال فى مولد النبى ﷺ أنه كان فى ليلة الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من عام الفيل (٤)

جاء فى هامش المنتخب من السنة :

أشهر الأقوال أن ولادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت بعد حادث الفيل بخمسين يوماً ، ويقرب منه قول : أبي جعفر الباقر : إن مولده ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بعد حادث الفيل بخمس وخمسين ليلة ، وذلك أن قدوم الفيل كان فى منتصف المحرم ، وكان بين هذا اليوم واليوم الثانى عشر من ربيع الأول ـ يوم مولده الشريف ـ خمس وخمسون ليلة .

وقد حدد بعض المحققين يوم الميلاد باليوم العشرين من نيسان وقيل : إنه كان فى العشرين من أغسطس سنة ٥٧١ ميلادية (٥)

وكان ملك الفرس إذ ذاك كسرى أنو شروان المشهور بالعدل ، وفى ذلك يقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاكياً عن نفسه : « ولدت فى زمن الملك العادل » (٦)

وحكى الطبرى أن عبد الله أباه ولد لأربع وعشرين مضت من سلطان كسرى وأن رسول الله ﷺ ولد فى سنة اثنتين وأربعين من سلطانه . . (٧)

وكان ملك الروم عند مولد الرسول ﷺ هو : يوسطا نياس ـ الذى ملك الروم أربعين سنة ، أو هو يوسطنيوس الأول (٨) الذى ملك تسعاً وعشرين سنة .

---

(٤) سيرة ابن هشام
(٥) المنتخب من السنة ـ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية جـ ١ ص ٦٩ ط التحرير
(٦) محمد قبل الوحى وبعده : على السيد سليمان ص ١٢
(٧) تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٣٥
(٨) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٤٧

وهناك أخبار أخرى تؤكد أن مولد الرسول ﷺ كان عام الفيل . .

فقد ورد فى ترجمة قباث بن أشيم ـ فى أسد الغابة ـ أنه أى قباث رأى الفيل فى أثناء هجومه على مكة ـ وعاش قباث حتى زمن عبد الملك بن مروان ، فسأله عبد الملك ذات يوم قال له : أنت أكبر أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

فقال : بل رسول الله أكبر وأنا أسنُّ منه (٩)

يعنى أنه ولد قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنوات ذاك لأنه أدرك الفيل ورآه ، ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولد بعد الفيل ، وقد جاء ذلك صريحاً فى رواية الطبرى :

قال قباث : ولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الفيل . . (١٠)

ويروى ابن الأثير فى سبب إسلام قباث قصة طريفة نذكرها للاستدلال على شفافية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى عظم ما أعطاه الله من علم ونبوة .

قال لقباث بن أشيم رجال من قومه : إن محمداً قد خرج يدعو الناس إلى دين غير ديننا . فقام قباث حتى أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما دخل عليه ، قال له : اجلس ياقباث ، أنت الذى قلت : لو خرجت قريش بأكمتها ردت محمداً وأصحابه ؟ (١١)

---

(٩) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ ٤ ص ٣٧٩
(١٠) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٢ ص ١٣٥
(١١) الأكمة : المكان الذى هو أشد ارتفاعاً من غيره

. قال قباث : والذى بعثك بالحق ما تحرك به لسانى ، ولا زمزمت به شفتاى ، ولا سمعته أذناى وماهو إلا شىء هجس فى نفسى ، أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وأن ما جئت به لحق .

ومن الذين ولدوا عام الفيل مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحدثوا عن ذلك « قيس بن مخرمة » وقد روى فى ذلك قوله : كنت أنا ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لدة ، ولدنا عام الفيل . .(١٢)

إحساس الأم بعظمة ابنها :

سبق أن ذكرنا أن آمنة بنت وهب كانت تحس بجلال ذلك المولود المرتقب الذى يضطرب فى أحشائها ، والذى تركه أبوه وديعة فى بطنها ومضى ضارباً فى الأرض فى سبيل الرزق مبتعداً عن عروسه الطاهرة ولم يمض على زفافها إليه بضعة أيام . .

والأمر يستدعى الحديث عن ذلك الزواج السعيد الذى أثمر هذه النعمة الطيبة المباركة التى أسعدت الكون . .

كان عبد الله أكمل أبناء أبيه وأحسن رجل فى قريش خَلْقاً وخُلُقاً ، وهدى الله والده عبد المطلب فسماه باسم من خير الأسماء وهو عبد الله . . وقد عرضنا أنه كان يلقب بالذبيح لأن أباه كان قد نذر : إن رزقه الله عشرة ذكور ذبح أحدهم قرباناً لله .

فرزق بعشرة ذكور ، فأقرع بينهم فأصابت القرعة عبد الله ، فهم بذبحه ، فحالت قريش بينه وبين ذلك ، واحتكموا إلى كاهنة أشارت

---

(١٢) أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٤٥ ، وتاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ١٣٥

عليهم بالاقتراع بينه وبين الدية المقررة فيهم ونُحرت مائة من الإبل فداء لعبد الله .. فلقب بالذبيح ..

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : أنا ابن الذبيحين ـ يعنى عبدالله وإسماعيل ـ عليه السلام ..

وروى عن بعضهم قوله : كنا عند معاوية ـ رضى الله عنه ـ فتذاكر القوم الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق ، فقال معاوية : على الخبير سقطتم ، كنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتاه أعرابى يشكو جدب أرضه ـ فقال : يارسول الله ، خلفت البلاد يابسة ، هلك المال ، وضاع العيال ، فتصدق علىَّ مما أفاء الله عليك يابن الذبيحين .

فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم ينكر عليه ..

فقال القوم : من الذبيحان ياأمير المؤمنين ؟

قال : عبدالله وإسماعيل .. (١٣)

ولا يمنع عدم تواتر هذا الخبر من الاستدلال به على إثبات أن الذبيح الأول هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ أما عبد الله فلا يشك أحد اطلاقاً فى أن أباه أوشك أن يذبحه وفاء لنذره لولا أن منعته قريش من ذلك .. فافتداه بالنياق المائة ..

وقد سبق أن عرضنا فى قصة إسماعيل ـ عليه السلام ـ ما يثبت أنه كان هو الذبيح ..

وكان نور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى فى جبين عبد الله كالكوكب الدرى ..

---

(١٣) السيرة الحلبية جـ١ ص ٥٩ ، قال الحلبى : قال الحافظ السيوطى : هذا حديث غريب وفى اسناده من لا يعرف حاله ..

وقد مر بنا كيف أن أم قتال بنت نوفل ، رغبت فى أن يكون زوجها حتى تظفر بأمومة المولود الذى يشرق نوره فى جبين عبد الله ، وقد عرفت ذلك بفراستها الصادقة وباخبار أخيها ورقة لها عن علامات نبى آخر الزمان . .

ولكن الله أراد أن تكون أمه هى آمنة بنت وهب سيدة نساء قريش فى ذلك الوقت . .

وكانت جدة لآمنة قد تنبأت قبل ذلك لها بمولود له شأن عظيم . . .

جاء فى كتاب « خير البشر بخير البشر » :

روى أن زهرة بن كلاب ولدت له بنت بيضاء ناصعة البياض بها شامة سوداء ، فكره أبوها بياض لونها ، وعاف الشامة التى بجسدها ، وأمر بها أن توأد - أى تدفن حية - فخرج بها الذى أمره بذلك ، حتى إذا دنا من الحجون حفر لها ، ودلاها فى الحفرة .

فسمع هاتفاً يقول : رب فارس ركّاد ، ومطعم جواد ، فى السنة الجماد ، من الجارية الملقاة بالواد . .

فلما سمع الرجل مقالة الهاتف استخرج الطفلة من الحفرة وانطلق بها إلى أبيها ، فأخبره بما سمع .

فقال زهرة : دعها فسيكون لها نبأ وشأن . .

فلما كبرت زوّجها عمرو بن كعب بن تيم ، فولدت له ، ثم تزوجت غيره بعد وفاته وكثر بنوها وبناتها . .

وكانت لبيبة حازمة كاهنة ، ولما حضرتها الوفاة أمرت أن تؤتى بذكور ولدها .

فأتيت بعبد الله بن جدعان ، وهشام بن المغيرة ، وغيرهما من ذكور ولدها ، فوصفت كل واحد منهم بخصائصه ،وذكرت جملاً مما يكون من أموره . .

ثم أمرت أن تعرض عليها بناتها ، وقالت : إن فيهن لنذيرة أو من تلد نذيراً .

فعرضت عليها هالة بنت وهيب فقالت : ليست بها ، وستلد ، فولدت حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ

وعرضت عليها الشفاء ، فقالت : ليست بها ، وستلد ، فولدت عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ

وعرضت عليها آمنة بنت وهب ، أم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : واللات والعزى ، إن ابنتى لنذيرة أو والدة نذير ، له شأن كبير ، وبرهان منير .

ثم إن السوداء بنت زهرة ماتت فخرج فى جنازتها من بناتها وبنات بنيها وبنات بناتها مائة عذارى سوى الثيب [١٤]

فقد كانت آمنة بمقتضى هذا الخبر تحس بأنها ستكون أم النبى المنتظر . .

كيف تزوج عبد الله بآمنة ؟ :

عقب الإنتهاء من نحر الإبل التى افتدى بها عبدالله ، ذهب أبوه عبد المطلب بن هاشم إلى عم آمنة وهو وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وهو

---

(١٤) خير البشر بخير البشر ص ٧٧

يومئذ سيد بنى زهرة نسباً وشرفاً ، وكانت آمنة فى حجره لوفاة أبيها وهب . .

وخطب إليه آمنة لابنه عبد الله ، وكانت آمنة فى ذلك الوقت أفضل فتاة فى قريش نسباً وموضعاً . .

ولم يرفض وهيب لمكانة عبد المطلب وشرفه . . وتم الزواج

وقيل : إن وهباً والد آمنة كان حياً وهو الذى زوج ابنته .

وبنى عبد الله بزوجته آمنة فى بيتها . . وشاء الله أن يكون الحمل برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقيل ، بل بنى بها فى شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى . .

وأقام عندها ثلاثة أيام ، على حسب العادة التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . . أى يبنى الزوج بزوجته فى بيت أهلها ، ثم ينطلق بها بعد ذلك إلى بيته أو بيت أهله . .

لقد حظيت آمنة بنت وهب بالسعادة العظمى التى لم تنلها امرأة قبل ذلك . .

لماذا اختار عبد المطلب بنى زهرة ؟ :

ويروى الرواة فى اختيار عبد المطلب بنى زهرة ليزوج منهم ابنه عبد الله . . أن عبد المطلب كان قد قدم اليمن فى رحلة الشتاء ، فنزل على حبر من اليهود يقرأ الزبور .

فقال الحبر : ممن الرجل ؟

قال عبد المطلب : من قريش ؟

قال الحبر : من أيهم ؟

قال : من بنى هاشم . .

فنظر الحبر إلى عبد المطلب وتفرس فيه ثم قال : أشهد أن فى إحدى يديك ملكاً وفى الأخرى نبوة ، وإنما نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك ؟

قال عبد المطلب : لا أدرى

قال الحبر : فهل لك من زوجة منهم ؟

قال عبد المطلب : أما اليوم فلا ، أى لم تكن له زوجة من بنى زهرة فى ذلك الوقت .

فقال الحبر : فإذا تزوجت فتزوج منهم . .

فكان أن تزوج عبد المطلب من هالة بنت وهيب بن عبد مناف وزوج ابنه عبد الله من آمنة بنت وهب بن عبد مناف . . فولدت هالة حمزة وولدت آمنة محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهما أخوان من الرضاع . .

وكانت قريش تقول : فلج عبد الله على أبيه . . أى فاز عبد الله على أبيه لأنه أنجب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير بنى البشر . . وفيه النبوة التى هى أعظم من الملك [١٥]

خوارق صاحبت المولد :

وليس عجيباً أن تحدث خوارق تصاحب مولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فالقادم ليس مولوداً عادياً ، ولكنه هدية الله إلى البشرية ، الذى أخذ الله له العهد من النبيين على أن يؤمنوا به وينصروه ، ويبشروا به . . فلا بد

---

(١٥) السيرة الحلبية ج ١ ص ٧١

أن كون مقدمه مصحوباً بما يليق به من احتفال واعلان . . لتعلم الدنيا كلها أن النبى المنتظر قد حضر . .

قال الطبرى : حدثنا سلمة عن ابن إسحاق : أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت تحدث أنها لما حملت برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمعت هاتفاً يقول لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع بالأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمداً ، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام .

وروى الطبرى كذلك خبراً مسنداً إلى عثمان بن أبى العاص قال : حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك ليلاً . . قالت : فما شىء أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول : لتقعن علىّ[١٦]

وفى رواية أخرى رواها أبو عثمان أيضاً عن أمه قالت : إنها شهدت آمنة لما ولدت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها نور أضاء له البيت الذى نحن فيه والجوار ، فما من شىء أنظر إليه إلا نور[١٧]

ليس غريباً أن تتواكب الدنيا كلها فى الاحتفال باستقبال سيد البشر الذى جاء لينقذهم من الظلمات الى النور ومن الضلالة إلى الهدى ويأخذ بيدهم من الشر إلى الخير ومن الشقاوة إلى السعادة ، ليس غريباً أن تدنو الكواكب وتتدلى النجوم ، وتشرق الكائنات وتنكس الأصنام وترجم الشياطين ،

---

(١٦) تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص١٣٣ ـ الاصابة لابن حجر جـ٨ ص٦٧

(١٧) أسد الغابة جـ٧ ص٢٢٨ ص٣٦٦

ويعم الكون كله البهجة والسرور فى استقبال من جعله الله رحمة للعالمين .
وإنا لنقرأ فى الأخبار المروية المتواترة مايؤيد ذلك .

روى ابن الأثير عن هانىء المخزومى : قال : لما كانت ليلة ولد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ارتج إيوان كسرى وسقط منه أربع عشرة شرفة وغاضت بحيرة ساوة ، وفاض وادى سماوة ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ـ ورأى الموبذان ـ أحد حكام الفرس ـ إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلاد الفرس ـ [١٨]

وقد سبق أن أشرنا إلى أن كسرى قد ارتاع لسقوط الشرفات كما ارتاع الموبذان لرؤياه ، فاستدعى كسرى أحد الكهان واسمه عبد المسيح ، فلم يستطع تأويل ذلك إلا بالرجوع إلى خاله سطيح ، الذى وصل إليه وهو على وشك الموت .

فأخبره سطيح بأن ذلك إشارة إلى مولود ولد هو نبى الأمة المرتقب ، وسيكتسح دينه دين الفرس ، ويملك المسلمون أرضهم بعد هلاك أربعة عشر ملكاً من الفرس بعدد الشرفات التى سقطت وقد تم ذلك فعلاً . .

ويحسن أن نذكر هنا ماكتبته الدكتورة بنت الشاطىء حول هذا الموضوع ، قالت بعنوان « البشريات آيات اصطفاء »

« جماهير الشعوب الإسلامية تعرف بشريات المولد ومشاهده راسخة فى وعيها لتاريخها ووجودها فلست أذكّرها بما غفلت عنه ، ومتى نسينا العهد حتى نذكر ؟ هيهات هيهات . . وإنما أتجه بالحديث إلى بشريات المولد التى

---

(١٨) المرجع السابق جـ ٥ ص ٣٨٢

تتجلى فيها آيات الاصطفاء وإن بدت للغافلين من مباغتات الصدف العشواء أو من أفانين السمار ومنحولات الرواة يستجيبون بها لمواجد المحبين ووجدان الجماهير . .

فى « مكة » أم القرى كان مولده والجاهلية تؤذن بمغيب ، والتاريخ العام يرصد نذر الانهيار لعالم يريد أن ينقض . .

وضعته أمه بشراً سوياً فى دار أبيه عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى ، بجوار البيت العتيق أقدم بيت عبد فيه الله على الأرض .

ونور الفجر يبشر بصبح جديد والدنيا تتفتح لموكب الشروق وتستقبل مع أنفاس الصباح أنفاس ألوف من بنى البشر ، ولدتهم أمهاتهم من مختلف الأجناس وشتى البقاع فى تلك الليلة المقمرة من ربيع الأول .

منهم من ولدوا فى قصور مصر والشام وفارس والروم . .

ومن ولدوا فى مجاهل القفر ونجوع البوادى وأدغال الغابات وكهوف الجبال . .

تباعدت بهم الأصول والأنساب ، وتفاوتت الألوان والأجناس . .

وتناءت الأعراق والطبقات . .

وجمعتهم بنوتهم للبشرية كلهم لآدم وحواء . .

ولم تر فيهم الفطرة الإنسانية إلا تحقيقاً لإرادة البقاء وامتداداً للحياة ، على مابينهم من تفاوت بعيد . . من هؤلاء المواليد الذين لا يحصون عداً ـ عدد غير قليل ولدوا فى أم القرى لبنى هاشم وعشائر قريش صفوة العرب العدنانية من بنى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ ولا يعرف تاريخ

مكة أنها استقبلت أى وليد منهم بمثل ما استقبلت به بشرى مولد اليتيم الهاشمى « محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب » الخالق عز وجل يصطفى من عباده من يشاء ، ولقد حفت بهذا الوليد الهاشمى ظروف فريدة ، جعلت مكة مرهفة الوعى لبشريات مولده تتجلى فيها آيات الاصطفاء ، ثم تحرص على متابعة سير الحياة بهذا الوليد الهاشمى إلى أن بلغ أشده ، واصطفاه الله خاتماً للنبيين ـ عليهم السلام ـ فأخذت البشريات موضعها الجليل فى السيرة النبوية وأعلام النبوة ، وتجرد علماء الطبقات الأولى من عصر الصحابة وكبار التابعين لتوثيق ما وعت ذاكرة مكة من بشريات المولد ، لم تكد تفلت منها شيئاً ذا بال .

الليلة من بدئها كانت مقمرة ، ينيرها قمر أوشك أن يكتمل بدراً ، وتؤنسها أطياف ورؤى للوالدة طوال حملها فتعينها على تجربة المخاض ، وبزغ نور الفجر وقد وضعته كما تضع كل والدة من البشر ، وفاض عالمها بالنور والأنس والغبطة ، وهى ترنو إلى وليدها الغالى وتذكر به أباه الحبيب الذى أودعها إياه ثم ودعها ورحل . .

وكانت مكة حين تلقت بشرى المولد تحتفل بنجاتها من أصحاب الفيل الذين أرادوا بها كيداً فجعل الله تعالى كيدهم فى تضليل .

ورأت مكة فى مولد اليتيم الهاشمى إبان الاحتفال بالخلاص من أصحاب الفيل ، آية تذكر بأخرى . . يوم هم عبد المطلب بن هاشم بنحر ولده عبد الله قرباناً لرب الكعبة وفاء بنذر له حين اهتدى إلى بئر زمزم بعد أن طمرتها رمال الزمن .

ثم كان فداء عبد الله بمائة من الإبل نحرت عنه هناك ، وأضيئت المشاعل فى أم القرى وسهرت مسامرها تسترجع ذكرى قصة الذبيح الأول إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ حين هم أبوه بذبحه طاعة وتعبداً ففداه الله بذبح عظيم بعد ذلك البلاء المبين .

إنه القصة التى وعتها ذاكرة مكة من عهد إسماعيل تتكرر فى حمى البيت العتيق الذى رفع إبراهيم القواعد منه وإسماعيل وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وإسماعيل ـ عليه السلام ـ جد العرب العدنانية وعبد الله المفتدى من صريح ذرية إسماعيل ، صفوة الصفوة من قريش جيرة الحرم المكى .

غير مستبعد أن يربط المكيون بين الذبيحين وأن يحتفلوا بعرس عبد الله من آمنة بنت وهب القرشية الزهرية إثر الفداء فيتوقع له ذوو الحس المرهف منهم أمراً جليلاً كالذى كان لجده الأعلى إسماعيل بعد الفداء . .
وغير مستغرب كذلك فى مثل هذا المناخ الدينى للبد العتيق ، أن تهفو قلوب نساء كريمات من قريش إلى عبدالله ، ثم ينصرفن عنه زاهدات فيه بعد زواجه بالسيدة آمنة بنت وهب ، زهرة قريش .

فى ليالى العرس رأت كأن شعاعاً من النور يشع من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا حولها وسمعت هاتفاً يبشرها بأنها حملت بسيد البشر .
وحين ودعها عبد الله بعد أشهر فى رحلة قريش صيفاً إلى الشام ، كان لها من رؤياها مايؤنس وحشة فراق لم يدر العروسان أنه فراق لا لقاء بعده فى

هذه الدنيا ، ولا خطر لهما على بال أنها رحلة بغير مآب . .

فى طريق الإياب ألمت بعبد الله وعكة طارئة فتخلف عن قافلة قريش ، عند أخوال أبيه بنى النجار بيثرب ريثما يسترد صحته وعافيته فلم يلبث إلا قليلاً حتى غاله الموت ودفن هنالك فى ثرى يثرب ، لم يقبل القضاء فيه هذه المرة أى فداء .

ولبست مكة ثوب الحداد على زين الشباب الهاشمى الذى احتفلت قبل أشهر بفدائه وعرسه ، وترملت زهرة قريش وفى كفيها خضاب العرس ، وخيف عليها من وطأة الحزن حتى أحست خفقة جنين فى رحمها فأشرق وجهها بنور الإلهام وكأنها عرفت جواب ما طالما تساءلت عنه : عبد الله لم يفتد من الذبح عبثاً وفى المهلة ما بين فدائه وموته أودع عروسه هذا الجنين الطيب الذى يعطى حادث الفداء تفسيره ومنطقه ويجعل لحياتها بعد عبد الله قيمة ومعنى .

وآنستها الرؤى والهواتف حتى استكملت شهور حملها ووضعت وليدها فجر ليلة مقمرة من شهر ربيع الأنور عام الفيل ، فبوركت الليلة الغراء بمولده ، وخلدت على الأيام نشيداً فى وجدان الأمة وفى سمع الزمان . .

وفى ذلك قال شوقى أمير شعرائنا :

ولـد الهـدى فالكائنـات ضـيـاء
وفـم الزمـان تبسـم وثـنـاء

الـروح والمـلأ الملائـك حوله
للـدين والدنيـا بـه بشـراء [19]

---

(١٩) صحيفة الأهـــرام فى ١٩٨٩/١٠/١٢

قَــابِلَتُه :

وكانت الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنها - هى قابلته فقد ورد عنها أنها قالت : لما ولدت آمنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقع على يدى فاستهل فسمعت قائلاً يقول : يرحمك الله تعالى وفى هذا يقول شوقى :

شــمتته الأمــلاك إذ وضــعته   وشــفتنا بقولهــا الشفاء [٢٠]

والتشميت أن يقال للعاطس : يرحمك الله . .

وروى الحلبى فى سيرته أن أمه - صلى الله عليه وسلم - قالت : رأيت ثلاثة أعلام مضروبات . . علما بالمشرق وعلما بالمغرب وعلما على ظهر الكعبة - أى عند ولادته . .

وكان من عادتهم أن المولود إذا ولد ليلاً ، كفأوا فوقه جفنة حتى يصبح الصباح ، ففعلوا ذلك مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فلما أصبحوا وجدوا الجفنة قد انفلقت فلقتين وعيناه إلى السماء فتعجبوا من ذلك . .

وصرخ إبليس عند مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم - صرخة منكرة ، ذلك أنه حين رأى تساقط النجوم أنكر ذلك ، وقال لجنوده : لقد ولد الليلة مولود يغيِّر علينا أمرنا - فقال له جنوده : لو ذهبت إليه فخبلته ، فلما دنا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث الله جبريل - عليه السلام - فركضه برجله ركضة أوقعته بعدن . .

---

(٢٠) الشفاء : إما بكسر الشين ، أو بفتحها مع تشديد الفاء

وقد نظم بعضهم الخوارق التي صاحبت مولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أبيات منها :

لمولده إيوان كسرى تشققت مبانيه وانحطت عليه شئونه
لمولده نيران فارس أخمدت فنورهم اخماده كان حينه (٢١)

تسميته :

ولم تكن تسمية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اجتهاداً من أمه أو جده ، ولكن أمه أمرت في المنام بتسميته وهو مكتوب في الأزل بذلك الاسم « محمد » .. بدليل أن آدم حين رفع رأسه إلى العرش وجد مكتوباً على ساقه : لا إله إلا الله محمد رسول الله .. واستشفع كما أخبر بعض الرواة ، بصاحب هذا الاسم إلى الله ليغفر ذنبه .. فقبل الله توبته ..

وقد ذكر القرآن الكريم أن عيسى ـ عليه السلام ـ أخبر أمته باسمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال فيما حكاه القرآن الكريم عنه :

﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۝٦ ﴾ (٢٢)

وواضح أن اسم محمد مشتق من الحمد ، فهو على وزن مُفَعَّل ـ بتشديد العين المفتوحة فمحمد وأحمد بمعنى واحد واشتقاقهما من مصدر واحد .

والذي ينسب هذه التسمية إلى عبد المطلب يذكر لذلك سبباً ، فقد قال القرشيون لعبد المطلب : ما سميت ابنك ؟ قال : سميته محمداً ..

قالوا : ما هذا في أسماء آبائك ..

قال : أردت أن يحمد في السموات والأرض ..

---

(٢١) السيرة الحلبية ج ١ ص ١١٩

(٢٢) الصف ٦

وهذه فراسة صادقة من الجد تفرسها فى حفيده الذى احتفى به وأحبه وقدمه على سائر ولده .. فقد رأى فيه صورة أبيه الذى كان أثيراً لديه ، وافتقده فى غيبة عنه وهو قريب عهد بعرسه ، التى ما كادت تفرح بزواجه منها حتى أتاها نعيه ، وفى أحشائها جنين منه كان يرتقب رؤية والده ..

ولم يكن هذا الاسم رائجاً فى الجاهلية ، وإن تسمى به بعضهم لرجاء أن يكون هو النبى المنتظر لأنه قد ورد فى أخبار أهل الكتاب التى راجت على ألسنة الأحبار والكهان أن نبى آخر الزمان سوف يكون اسمه محمداً .. فطمع أصحاب الطموح أن يكون ابن كل منهم الذى سماه بهذا الاسم هو ذلك النبى ..

ومادروا أن النبوة لا تمنح بالتسمية ، ولكنها هبة تعرف موضعها ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .. وللنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسماء أخرى وردت بها الأخبار ..

فقد روى أحمد فى مسنده عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال : بينما أنا أمشى فى طريق المدينة إذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمشى ، فسمعته يقول : أنا محمد ، وأنا أحمد ، ونبى الرحمة ونبى التوبة ، ونبى الملاحم ..

وروى كذلك مالك والترمذى والنسائى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن لى أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر وأنا الماحى الذى يمحى بى الكفر وأنا العاقب .. ومعنى العاقب الذى لا يعقبه نبى ..

والعَلَمُ من هذه الأسماء هو محمد وأحمد ، أما بقية الأسماء الواردة فى هذا الخبر فهى صفات له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإذا غلبت الصفة أصبحت علماً . . كما غلبت عليه صفة الصادق والأمين والمصطفى وغيرها من الصفات التى إذا أطلقت كان هو المعنىُّ الوحيد المقصود بها .

ومحمد وأحمد أيضاً منقولان عن صفة الحمد ، ولكن سمى بهما ابتداء وللنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسماء أخرى . . منها طه ، ويس وتبرك الناس بها فسموا أبناءهم بها كما سموا محمداً وأحمد ومصطفى . .
ورد فى تفسير القرطبى ، قال سعيد بن جبير : إن يس اسم من أسماء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودليله ، قوله ـ تعالى ـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾ (٢٣)

واستشهد على ذلك بقول السيد الحميرى :

يانفس لا تمحضى بالنفس جاهدة على المودة إلا آل يس (٢٤)

وأورد القرطبى أيضاً فى تفسير سورة طه : طه اسم للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سماه الله ـ تعالى ـ به كما سماه محمداً . .

وروى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : لى عند ربى عشرة أسماء . . فذكر أن فيها طه ويس
وقال أيضاً : ذكر الماوردى عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت

---

(٢٣) يس من ١ ـ ٣
(٢٤) تفسير القرطبى ـ سورة يس ـ

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن الله تعالى أسمانى فى القرآن سبعة أسماء : محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله . .

كـــنيته :

أما كنيته فهى أبو القاسم . .

وقد نهى النبى ـ صلى الله غليه وسلم ـ أن يجمع الانسان بين اسمه وكنيته ، فقال فيما رواه ابن سعد فى طبقاته ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : سَمُّوا باسمى ولا تكتنوا بكنيتى . .

وكثير من الصحابة سموا أبناءهم باسم محمد ، بل إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمى بعض أبناء أصحابه باسمه . .

روى ابن الأثير فى ترجمة محمد بن أنس بن فضالة الأنصارى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم المدينة ـ ومحمد ابن أسبوعين ـ فأتى به إليه فمسح رأسه ودعا له بالبركة وقال : سموه باسمى ولا تكنوه بكنيتى (٢٥)

وذكر برهان الدين الحلبى فى السيرة الحلبية : لا يخفى أن جميع أسمائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشتقة من صفات توجب له المدح والكمال .

وذكر تعليلاً لاختيار عبد المطلب اسم محمد لحفيده ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

عن أبى نعيم قال : قال عبدالمطلب : بينما أنا نائم فى الحجر إذ رأيت رؤيا هالتنى ففزعت منها فزعاً شديداً فأتيت كاهنة قريش ، فلما نظرت إلىَّ عرفت فى وجهى التغير .

---

(٢٥) أسد الغابة جـ ٥ ص ٨٠

فقالت : ما بال سيدهم قد أتى متغير اللون ؟ هل رابه من حدثان الدهر شيء ؟

فقلت لها : بلى ، إنى رأيت الليلة وأنا نائم فى الحِجْر كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء ، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب ، وما رأيت نوراً أزهر منها ، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها ، وهى تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً ، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخرهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً فيكسر أظهرهم ، ويقلع عيونهم .

فرفعت يدى لأتناول منها نصيباً فلم أنله ، فانتبهت مذعوراً فزعاً .

قال عبد المطلب : فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ، ثم قالت : لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك من يملك المشرق والمغرب ، وتدين له الناس .

وعند ذلك قال عبد المطلب لأبى طالب ابنه : لعلك أن تكون هذا المولود .

فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعدما ولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقول كانت الشجرة هى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أجل لقد كانت الشجرة محمداً ، وأبو طالب هو الذى كان فى حياته يذب الناس عنها حين أرادوا التخلص منها ، ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما نالت منى قريش مانالت حتى مات أبو طالب .

لقد كان عبد المطلب موفقاً فى اختيار الاسم الذى سمى الله به نبيه منذ الأزل ، وهو من سوابق الإلهام التى لا تتاح إلا لمن وفقه الله ومنحه الفراسة والذكاء ونقاء الفطرة .

وكانت الحكمة فى التسمية مطابقة لما قاله الشاعر الحكيم :

وشق لـه مـن اسـمه ليجـله　　فذو العرش محمـود وهذا محمـد

حكمة يُتْمِ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ومن المعروف أن عبد الله والد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مات بالمدينة قبل أن يولد ابنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولم يقدر له أن يرى هذه الدرة اليتيمة التى أشرق الكون بطلعتها وسعدت الإنسانية بغرتها . .

ولم تلبث أمه أن ماتت بعد وضعه بقليل . . ثم مات بعدها جده عبد المطلب . .

وفى يُتْمِ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكمة بالغة ، فقد اختار الله عز وجل لنبيه هذه النشأة لحكم باهرة ، لعل من أهمها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى ادخال الريبة فى القلوب أو إيهام الناس بأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما رضع لبان دعوته ورسالته التى نادى بها بعد ذلك بإرشاد وتوجيه من أبيه أو جده ولم لا ؟ وقد كان جده عبد المطلب صدراً فى قومه ، فلقد كانت له الرفادة والسقاية .

ومن الطبيعي أن يربي الجد حفيده أو الأب ابنه على ما يحفظ لديه . لذا الميراث . .

فشاءت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى مثل هذه الريبة أو ذلك الادعاء .

فنشأ رسوله بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجده ، وحتى فترة طفولته الأولى أراد الله أن يقضيها فى بادية بنى سعد بعيداً عن أسرته كلها ، ولما توفى جده وانتقل إلى كفالة عمه أبى طالب الذى امتدت حياته إلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً ، كان من نور الحكمة أن عمه لم يعلن إسلامه حتى لا يتوهم متوهم أن لعمه دخلاً فى دعوته وأن المسألة مسألة قبيلة وأسرة وزعامة ومنصب .

وهكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيماً ، تتولاه عناية الله وحدها بعيداً عن الذراع التى تمعن فى تدليله ، والمال الذى يزيد فى تنعيمه ، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة ،فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا (٢٦)

لقد رباه الله على عينه ، وقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نفسه قائلاً : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »
والقرآن الكريم يشير إلى ذلك قائلاً :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ ﴾ (٢٧)

---

(٢٦) فقه السيرة محمد رمضان البوطى ص ٥٠
(٢٧) الضحى ٦

وقد جاءت هذه الآية فى معرض المنة على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد ورد فى نهاية تلك السورة :

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾ (٢٨)

وأى نعمة أجل من أن يكون الانسان قد رباه ربه وأدبه ؟

ولقد قال الله لحبيبه :

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢٩)

ولم تكن تلك العناية الربانية مصاحبة لولادته ، بل سبقتها قبل ذلك بكثير ، سبقتها عبر الأجيال والعصور وعلى تعاقب الأيام والدهور . . وقد أخبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ (٣٠)

احتفال المسلمين بالمولد الشريف :

وقد جرت عادة المسلمين بالاحتفال بمولد النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شهر ربيع الأول من كل عام ، واختلف العلماء حول مشروعية هذا الاحتفال .

ولا ينبغى الاختلاف حول ذلك فإنه ليس من القضايا التى يجب أن يهتم بها المسلمون فى حاضرهم ومستقبلهم ، وأمامهم من الأحداث الجسام مايجب أن يشغلوا أنفسهم به ، وهؤلاء هم الأعداء يتربصون بهم من

---

(٢٨) الضحى ١١

(٢٩) الطور ٤٨

(٣٠) الشعراء ٢١٨ ، ٢١٩

حولهم ، ويحاولون تعويقهم عن قصدهم والحيلولة بينهم وبين النهوض حتى لا ينطلقوا فى طريق التقدم والنهضة التى جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقيم معالمها ويؤسس بنيانها ويأخذ بيد المسلمين اليها ، ولم يتركهم إلا بعد أن أوضح لهم الطريق ووضع لهم المنهج وهيأ لهم السبل الكفيلة بعزتهم وكرامتهم .

ولا يستطيع أحد أن يقول : إن الاحتفال بالمولد سنة فى ليلة مخصوصة : ولكن الاحتفال به يجب أن يكون قائماً فى كل نفس فى كل وقت ويكون ذلك بتذكره والصلاة عليه واحياء سنته والسير على منهجه .. هكذا يكون تكريمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاحتفال به .. وهذا ما كان عليه السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ

إلا أن العادة جرت فى بعض الأقطار الإسلامية باستقبال شهر ربيع الأول الذى ولد فيه المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالابتهاج والفرح ، ويزداد فرح المسلمين بهذه المناسبة الكريمة فى تلك الليلة التى ذكر أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ولد فيها وحق للمسلمين أن يفرحوا بذكرى ميلاد نبيهم ، على أن يكون فرحهم على المستوى اللائق بتلك الذكرى الكريمة العزيزة .. وذلك بأن يكثروا من الصلاة على نبيهم وأن يقيموا سنته وأن يتعاهدوا على السير على منهجه وأن يدعو بعضهم بعضاً إلى اتباع النهج الصحيح للدين القويم والابتعاد عن البدع والخرافات ..

فإذا اجتمع قوم يتذاكرون سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستمعون إلى قصة مولده الشريف ، ويتذاكرون سنته الحسنة ، ويطعمون

الطعام ويدخلون السرور على قلوب الفقراء فلا بأس فى ذلك ، لما فى هذه الاجتماعات من فرصة طيبة يلتمسها الدعاة والعلماء للتذكير بأخلاق النبى - صلى الله عليه وسلم - وصفاته وآدابه وأحواله وعبادته ومعاملته ، ليثيروا أذهان الناس إليها ويذكّروهم بها علهم يقتدون بها ويسيرون على نهجها .

وقد ورد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يذكر يوم مولده ، ويكثر من شكر الله - تعالى - فيه على نعمته الكبرى عليه وتفضله عليه بالوجود لهذا الوجود . . إذ سعد به كل موجود ، وكان يعبر عن ذلك الفضل بالصيام .

روى أبو قتادة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل عن صوم يوم الإثنين فقال : « فيه ولدت وفيه أنزل علىّ » (٣١)

الفرح بالنبى - صلى الله عليه وسلم - مطلوب بأمر القرآن الكريم فى قوله - تعالى -

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٣٢)

فالله - تعالى - أمرنا أن نفرح بالرحمة ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - أعظم الرحمة قال - تعالى -

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٣٣)

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يلاحظ ارتباط الزمان بالحوادث الدينية العظمى التى مضت وانقضت ، فإذا جاء الزمان الذى وقعت فيه كان

---

(٣١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه باب الصيام

(٣٢) يونس ٥٨

(٣٣) الأنبياء ١٠٧

فرصة لتذكرها وتعظيم يومها لأجلها ، وقد أقر ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه القاعدة بنفسه ، وذلك أنه حين وصل إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسأل عن ذلك فقيل له : إنهم يصومونه لأن الله نجى فيه موسى عليه السلام وأغرق عدوهم فهم يصومونه شكراً لله على هذه النعمة فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحن أولى بموسى منهم فصامه وأمر بصيامه (٣٤)

إن إحياء الذكرى يبعث على الإكثار من الصلاة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا أمر مطلوب شرعاً لقوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣٥)

وقد روى فى البخارى أنه يخفف عن أبى لهب العذاب كل يوم اثنين ، بسبب عتقه لجاريته لما بشرته بولادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٣٦)

وقد قال الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين الدمشقى فى هذا المعنى :

اذا كان هذا كافراً جاء ذمه ... بتبت يداه فى الجحيم مخلداً
أتى أنه فى يوم الاثنين دائماً ... يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذى كان عمره ... بأحمد مسروراً ومات موحداً

قال تعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (٣٨)

---

(٣٤) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود ـ أحاديث الصيام د . الحسينى هاشم ص ٦٥
(٣٥) الأحزاب ٥٦
(٣٦) البخارى كتاب النكاح ، ونقلها الحافظ ابن حجر فى الفتح
(٣٧) المولد النبوى الشريف لمحمد بن علوى المالكى ص ٨ ورواها عبد الرازق فى المصنف جـ٧ ص ٤٧٨ وابن كثير فى سيرته من البداية والنهاية جـ١ ص ٢٢٤ وغيرهما . .
(٣٨) هود ١٢٠

تشير هذه الآية الى الحكمة من قص قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، والمسلمون أولى بذلك فى الاستماع إلى قصة نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما قام به من جهاد وكفاح فى سبيل دعوة الاسلام التى أرسله الله بها ، لعلهم بها يهتدون وعلى نهجها يسيرون حتى يعود لهم مجدهم القديم وشأنهم القويم .

إن من واجبنا أن نقتدى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبالسلف الصالح من أصحابه وتابعيه .. فما فعلوه وتواصوا به فهو مشروع ، وما أنكروه فهو مذموم ..

أما ما يستجد من أمور وأحداث لم تكن فى عصرهم ، وليس لهم فيها حكم سابق فيجب أن يعرض كل أمر من ذلك على أدلة الشرع ، فما اشتمل على مصلحة فهو واجب أو على محرم فهو محرم ، أو على مكروه فهو مكروه ، أو على مباح فهو مباح ، أو على مندوب فهو مندوب .

قال الامام الشافعى ـ رضى اله عنه ـ : ماأحدث وخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو أثراً فهو البدعة الضالة ، وما أحدث من الخير ولم يخالف شيئاً من ذلك فهو المحمود ..

وقال عليه الصلاة والسلام : من سن سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء (٣٩)

(٣٩) أورده الطبرانى فى الكبير عن واثلة ورجاله موثقون ، ولفظه : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر ما عمل بها حياته وبعد مماته حتى يترك ، ومن سن سنة سيئة فعليه إثمها حتى تترك ، ومن مات مرابطاً فى سبيل الله جرى له أجر المرابط حتى يبعث يوم القيامة .

وروى عن أبى هريرة ورجاله رجال الصحيح بلفظ : من سن خيراً فاستن به كان له أجره كاملاً ومن أجور من استن به غير منتقص من أجورهم شيئاً ، ومن استن شراً فاستن به كان عليه وزره كاملاً ومن أوزار الذين استنوا به لاينقص من أوزارهم شيء ـ الجامع الأزهر من حديث النبى الأنور للحافظ المناوى جـ٣ ص ٩

وقد ورد فى بعض الآثار عن ابن مسعود : ماراه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وماراه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح [٤٠]

ومما يدل على أنه ليست كل بدعة سيئة قول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى اجتماع الناس لصلاة التراويح : نعمت البدعة .

وهذا لا ينافى قوله - صلى الله عليه وسلم - إياكم ومحدثات الأمور . . لأن هذا القول عام أريد به خاص . . أى مما خالف الكتاب والسنة . . وعلى ذلك فإن إحياء ذكرى ميلاد النبى - صلى الله عليه وسلم - بالطريقة الحسنة التى ذكرناها والتى تتفق وجلال تلك الذكرى عمل حسن لا يخالف الكتاب ولا السنة . قال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

رضاعه - صلى الله عليه وسلم -

قال ابن الأثير : ثويبة جارية أبى لهب - وهى التى أعتقها فرحاً بمولد النبى - صلى الله عليه وسلم - أرضعت النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد اختلف فى إسلامها . . . وكان رضاعه - صلى الله عليه وسلم - منها أمراً عارضاً . .

وبمناسبة إعتاق أبى لهب لثويبة نذكر هذا الحديث الذى رواه العباس - رضى الله عنه - مكثت حولاً بعد موت أبى لهب لا أراه فى نوم ، ثم رأيته فى شر حال ، فقلت له : ماذا لقيت ؟ فقال أبو لهب : لم أذق بعدكم رخاء . . غير أنى سقيت فى هذه - وأشار إلى النقرة التى بين السبابة والإبهام - بإعتاقى ثويبة . .

---

(٤٠) أخرجه الإمام أحمد

وفى رواية : رؤى أبو لهب بعد موته فى النوم : فقيل له : ماحالك ؟ فقال : : فى النار إلا أنه يخفف عنى كل ليلة اثنين ، وأمص من بين أصبعىَّ هاتين مساء ، وأشار برأس إصبعيه ، وأن ذلك بإعتاقى لثويبة عندما بشرتنى بولادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبإرضاعها له (٤١)

وأرضعت ثويبة كذلك حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهما أخوان من الرضاع .

وأرضعته كذلك ثلاث نسوة من بنى سليم ، وهؤلاء النسوة كل واحدة منهن اسمها عاتكة ، ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنا ابن العواتك من سليم . .

قصـــة حليمة :

والتُمِسَت له المراضع . . فأرضعته حليمة بنت أبى ذؤيب من بنى سعد بن بكر ، وكان زوجها هو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة من سعد بن بكر بن هوازن .

وكان لهما أولاد هم . . عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وخذامة بنت الحارث التى يقال لها الشيماء . . وهم إخوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاع . . وكانت الشيماء تكبره ولذلك كانت حاضنة له مع أمها . .

---

(٤١) السيرة الحلبية جـ ١ ص ١٣٨

ويقص ابن هشام قصة حليمة قائلاً :

كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي أرضعته تُحدِّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً .

قالت : فخرجت على أتان لي قمراء [٤٢] ، معنا شارف لنا [٤٣] والله ما تبض بقطرة ، وما نبام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا وذلك من بكائه من الجوع ، ماقي ثديي ما يغنيه وماقي شارفنا ما يغذيه ، ولكنا نرجو الغيب والفرج ، فخرجت على أتاني تلك ، وقد أدمت بالركب [٤٤] حتى شق عليهم ذلك ضعفاً وعجفاً حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فمامنا إمرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ، وماعسى أن تصنع أمه وجده فكنا نعرض عنه لذلك .

فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري .

فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبي : والله إني أكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . .

قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . .

قالت : فذهبت إليه وأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره . .

---

(٤٢) قمراء : بيضاء فيها كدرة

(٤٣) ناقة مسنة

(٤٤) أدمت بالركب أي حبستهم ، ويروى أذمت ـ بالذال المعجمة ـ من الذم أي كأن الأتان جاءت بما تذم عليه .

ويذكر ابن سعد روايا عن محمد بن عمر أن آمنة بنت وهب لما خرجت حليمة بابنها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت :

أعيذه بالله ذي الجلال   من شر ما مر على الجبال
حتى أراه حامل الحلال   ويفعل العرف إلى الموالى
وغيرهم من حشوة الرجال [٤٥]

وقد صدقت فراسة آمنة فى ابنها ، فما أخذ أحد بيد الموالى كما أخذ وما أسدى أحد إليهم معروفاً كما أسدى إليهم ، فقد انتشلهم من وهدة الاستضعاف والاسترقاق حتى وضعهم بين صفوف السادة والعظماء .

هذا إذا كان الموالى بمعنى الأرقاء ، أما إذا كان بمعنى الموالين فقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلاً أعلى فى الوفاء والإحسان وإسداء المعروف للقريب والغريب على السواء . .

قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما فيهما من لبن فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما . .

وقام زوجى إلى شارفنا [٤٦] تلك فإذا ضرعها حافل ، فحلب ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشبعاً فبتنا بخير . .

قالت : يقول زوجى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

---

(٤٥) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٧٠
(٤٦) أى ناقتنا المسنة

قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى ، وحملته عليها معى ، فوالله لقد أسرعت بالركب ، مايقدر عليها شيء من حمرهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى : يابنة أبي ذؤيب ، ويحك ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهى هى .

فيقلن لى : والله إن لها لشأنا . .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً حفلاً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ماتبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعاً حفلاً ، فلم نزل نرى من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه ، وفصلْتُه ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً .

قالت حليمة : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بُنَيَّ عندى حتى يغلظ فإنى أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا . .

وفى هذه القصة أمور ينبغى الوقوف عندها . .

أما أولها فهو الاسترضاع والدافع إليه . .

وأهم هذه الدوافع عند العرب ـ أن ينشأ الطفل ـ نشأة بدوية تصحيحاً لجسمه وتقوية لبنيته وتقويماً للسانه وتعويده الفصاحة والبلاغة . .

قال السهيلى : وقد يكون ذلك منهم لينشأ الطفل فى الأعراب ، فيكون ذلك أفصح للسانه وأجلد لجسمه وأجدر ألا يفارق الهيئة المعدية - نسبة إلى

معد بن عدنان - كما قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : اشتدوا - واخشوشنوا - وقد قال أبو بكر - رضى الله عنه - للنبى - صلى الله عليه وسلم - : مارأيت أفصح منك يا رسول الله ، فقال : وما يمنعنى وأنا من قريش وأرضعت فى بنى سعد ؟

قال : وذكر أن عبد الله بن مروان كان يقول : أضَرَّ بنا حب الوليد ، لأن الوليد كان لحاناً ، وكان سليمان فصيحاً وسبب ذلك أن الوليد أقام مع أمه ، أما سليمان وغيره من إخوته فنشأوا فى البادية فتعربوا ، ثم أدبوا فتأدبوا ، وكان من قريش أعراب ومنهم حضر ، فالأعراب منهم بنو الأدرم وبنو محارب ، وأحسب بنى عامر بن لؤى كذلك لأنهم من أهل الظواهر وليسوا من أهل البطاح (٤٧)

ثانياً : تشير القصة إلى ما أفاء الله على حليمة من خصب ببركة النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول البوطى : يدل ماالتفق عليه رواة السيرة النبوية من أن الدر أصبح حافلاً فى ضرع ناقتها الكبيرة المسنة بعد أن كانت يابساً لا تتندى بقطرة لبن - يدل ذلك على علو شأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورفعة مرتبته عند ربه حتى عندما كان طفلاً صغيراً كغيره من الأطفال ، فقد كان من أبرز مظاهر إكرام الله له أن أكرم بسببه حليمة السعدية التى تشرفت بإرضاعه ،وليس فى ذلك غرابة ولا عجب ، فقد

---

(٤٧) الروض الأنف جـ ١ ص ١٨٨

علمتنا شريعتنا الإسلامية أن نستقى عند انحباس المطر ، ونصلى صلاة الاستسقاء ، وأن يدعو الصالحون من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجاء استجابة الله لدعائنا . وقد أجمع على ذلك جمهور الأئمة الفقهاء (٤٨)

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يستجيب لدعاء الصالحين من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد يغاث الناس بسبب أطفال رضع وبهائم رتع ـ فأجدر برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون فى مقدمة أسباب البركة والإكرام الإلهى ذلك أنه رحمة الله إلى الناس بصريح تبيانه ـ سبحانه وتعالى - « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤٩)

العودة إلى مكة :

ثم حدث حادث شق الصدر المشهور الذى حدا بحليمة وزوجها أن يسرعا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العودة إلى مكة ليسلماه إلى أمه . . وكان ذلك بعد أن عادت به إلى بادية بنى سعد بفترة ليست بالطويلة .

قالت حليمة : فحملناه فقدمنا به مكة على أمه . .

وعجبت آمنة لعودة حليمة بابنها هكذا سريعاً . . فقالت لها :

لماذا عدت سريعاً وكنت حريصة على بقاء ابنى معك ؟

فقالت حليمة : لقد أديت ما علىَّ وخفت عليه الأحداث فأتيت به إليك كما تحبين.ولكن آمنة لم تقتنع بكلام حليمة ، فمازالت بها حتى أخبرتها حليمة بما حدث . .

---

(٤٨) انظر فى ذلك فتح البارى جـ ٢ ص ٣٣٩ ، وسبل السلام جـ ٢ ص ١٣٤ والمغنى لابن قدامة جـ ٢ ص ٢٦٥

(٤٩) فقه السيرة ـ محمد سعيد رمضان البوطى ص ٥١

فقالت آمنة لحليمة : أفتخوفت عليه الشيطان ؟

قالت : نعم

فقالت آمنة : كلا والله ماللشيطان عليه من سبيل ، وإن لابنى هذا شأناً . .

أفلا أخبرك خبره ؟

قالت حليمة : بلى

قالت آمنة : رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام ثم حملت به فوالله ما شعرت بتعب فى حمله قط ، ووقع حين ولدته وانه لواضع يديه بالأرض ورافع رأسه إلى السماء . دعيه عنك وانطلقى راشدة . (٥٠)

وقد ذكر الرواة أن حليمة حين قدمت إلى مكة هذه المرة لترد محمداً - صلى الله عليه وسلم - إلى أمه . كانت سنه إذ ذاك أربع سنين . .

هل أدركت حليمة الإسلام ؟ :

واذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فلنشر إلى ماجاء حول إدراك حليمة الإسلام ، وقد اختلف العلماء فى ذلك .

فقد ذكرها ابن الأثير فى أسد الغابة وترجم لها ترجمة ضافية ، ومعنى ذلك أنها صحابية ومما قاله فى ترجمتها .

حليمة بنت أبى ذؤيب ، واسمه : عبدالله بن الحارث بن شجنة بن جابر . . ينتهى نسبه إلى سعد بن بكر بن هوازن .

---

(٥٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٨٧ - السيرة الحلبية جـ ١ ص ١٥٤ - أسد الغابة جـ ٧

ونقله أبو عمر فى الاستيعاب هكذا ووافقه ابن أبى خيثمة . .

ثم تحدث عن قصة إرضاعها للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى ذكرناها آنفاً .

وأضاف الخبر التالى :

أخبرنا أبو الفضل بن أبى الحسن الفقيه باسناده ـ وذكر سلسلة سند إلى عمارة بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بالجِعِرَّانة [٥١] يقسم لحماً ، وأنا يومئذ غلام أحمل على البعير ، فأقبلت امرأة بدوية ، فلما دنت من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟ قالوا : أمه التى أرضعته . .

وأخبر ابن الأثير أن زوجها الذى أرضعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى معه . . هو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة . .

وترجم له أيضاً ابن الأثير فى كتابه ، ومما أورده فى ترجمته قوله :

قدم الحارث بن عبد العزى ـ أبو رسول الله ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاعة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ، فقالت قريش : ألا تسمع ما يقول ابنك ؟ هذا ؟

قال : مايقول ؟

قالوا : يزعم أن الله يبعث الناس بعد الموت وأن هناك داراً آخرة يعذب الله فيها من عصاه ويكرم من أطاعه . .

وقد شتت أمرنا ، وفرق جماعتنا . .

---

(٥١) الجعرانة ـ بكسر الجيم وتشديد الراء المفتوحة : منزل بين الطائف ومكة وهى إلى مكة أقرب

فأتاه ، فقال : أي بني ، مالك ولقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول : إن الناس يبعثون بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة أو نار ؟

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم ، أنا أقول ذلك ، وإنه لحق ، ولسوف آخذ بيدك ياأبت وأعرفك حديثك اليوم . .

فأسلم الحارث بعد ذلك ، فحسن إسلامه ، وكان يقول حين أسلم : لو قد أخذ ابني بيدي فعرفني ماقال لم يرسلني حتى يدخلني الجنة (٥٢)

وكانت حليمة قد وفدت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل البعثة ، وقد تزوج خديجة ـ رضي الله عنها ـ فشكت إليه حالها ، فكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خديجة في شأنها فأعطتها أربعين شاة وبعيراً ، وانصرفت إلى أهلها (٥٣)

ونستطرد إلى ذكر قصة أخرى لعلنا لا نسبق بها الأحداث ، وهي قصة وفود أسرة حليمة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين ، لندرك كيف كان بر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأهله من الرضاعة

قال ابن سعد في طبقاته :

بعد هزيمة هوازن يوم حنين وغنيمة المسلمين أموالهم ، جاء وفد هوازن الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسلم بالجعرانة وكان قد قسم الغنائم . .

وفي الوفد أبو ثروان عم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاعة . . قال :

---

(٥٢) أسد الغابة جـ ١ ص ٤٠٤ ترجمة رقم ٩٢٠ وجـ ٧ ص ٦٧ ترجمة رقم ٦٨٤٨

(٥٣) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٧١

يارسول الله ، إنما فى هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالا تك وحواضنك وقد حضناك فى جوارنا ، وأرضعناك بثُديِّنا ،ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك ، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيماً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملتْ فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك فامنن علينا مَنَّ الله عليك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، وقد قسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الغنائم ولكنه أعطاهم مما كان له وأرضاهم . .

وقدم عليه أربعة عشر رجلاً من هوازن مسلمين ،وتحدثوا عن إسلام من وراءهم وكان رأس القوم والمتكلم فيهم أبو صرد ، فقال : يارسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء مالايخفى عليك ـ يارسول الله انما فى هذه الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، وانت خير المكفولين فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن أحسن الحديث أصدقه ، وعندى من ترون من المسلمين أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب من غنائمكم فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ،فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله وإنى أرد لكم ما كان لى ولبنى عبد المطلب وسأطلب لكم إلى الناس . .

فلما صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الظهر قاموا فتكلموا بالذى قال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فرد عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماكان له ولبنى عبد المطلب ، ورد المهاجرون ورد الأنصار ، وسأل لهم قبائل العرب ، فاتفقوا على قول واحد بتسليمهم ماكان فى أيديهم من السبى ، إلا قوماً تمسكوا بما فى أيديهم من الغنائم فأعطاهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إبلاً عوضاً عن ذلك (٥٤)

فانظر إلى رحمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبره ، وتأمل كيف كانت حروبه لا تهدف إلا إلى نشر الدين وبث اليقين ، أما عرض الدنيا ومغانمها فكانت أبعد الأشياء عن نظره ونظر المسلمين . .

وفاة أمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكفالة جده له :

حين بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من العمر ست سنين ، خرجت آمنة وفى صحبتها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحاضنته أم أيمن ، إلى المدينة ، لهدفين ـ أحدهما : زيارة قبر زوجها والد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والآخر زيارة أخوال عبد المطلب بنى عدى بن النجار ، وتأكيد الصلة الوثيقة بين الأسرتين . .

ووصل الركب المدينة ونزل فى دار التابعة (٥٥) وأقاموا فى المدينة شهراً . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكر ذلك ويحدث به . .

فبعد الهجرة أثر عنه أنه لما نظر إلى أطم بنى عدى بن النجار عرفه (٥٦) ، وقال : كنت ألعب على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالى نطير طائراً كان يقع عليه ، ونظر إلى الدار وقال : ههنا نزلت أمى ، وفى هذه

---

(٥٤) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٧٢

(٥٥) التابعة هو رجل من بنى عدى بن النجار ـ السيرة الحلبية جـ ١ ص ٨١

(٥٦) الأطم حصن مبنى بحجارة

الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب ، وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار .

قال ابن سعد : وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون اليه ، فقالت أم أيمن :

فسمعت أحدهم يقول : هو نبى هذه الأمة ، وهذه دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامه (٥٧) وعند عودة الركب من المدينة وفى مكان اسمه « الأبواء » مرضت آمنة ، واشتد بها المرض فتوفيت ، ودفنت بهذا المكان .

فعادت به أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ حزينة كاسفة البال إلى جده عبد المطلب بعد خمسة أيام من وفاة أمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ
وذكر السهيلى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زار قبر أمه بالأبواء . . فبكى وأبكى

ونقل حديثاً عن القرطبى فى تذكرته عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : حج بنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجة الوداع فمر على المكان الذى دفنت فيه أمه وهو باك حزين فبكيت لبكائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٥٨)

وفى عمرة الحديبية مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأبواء فوقف عنده وبكى المسلمون لبكائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقيل له فى ذلك ، فقال : أدركتنى رحمتها فبكيت . .

---

(٥٧) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ص ٧٣
(٥٨) الروض الأنف جـ ١ ص ١٩٤

لقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - بشراً تكاملت فيه الرحمة ، وبكاؤه على أمه ليس جزعاً ، وإنما هو من غلبة الرحمة التى امتلأ بها قلبه فشملت العالمين جميعاً . . وقد ورد عنه ، حين فاضت عيناه بالدموع على ابنه إبراهيم أنه قال : إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولا نقول مايغضب الرب . .

أما الأحاديث الواردة فى شأن سؤاله ربه أن يستغفر لأمه وأبيه أو أن الله أحيا له أبويه فأسلما . . فقد تكلم فيها من تكلم . . ونحن نترك ذلك إلى علم الله سبحانه وتعالى ومشيئته فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن .

وأجمل القول فى ذلك أن والديه - صلى الله عليه وسلم - من أهل الفترة ، وأهل الفترة متجاوز عنهم بنص قوله - تعالى -

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٥٩)

وحكمهما حكم عبد المطلب وهاشم وغيرهما ممن أثرت عنهم أفعال صالحة بالطبيعة والفطرة وحسن توجيه الله إياهم وحمايته لهم من الرجس الذى ارتكس فيه أهل الجاهلية . . وفيما سبق من حديث عن جلال هذه الأسرة المطهرة غناء عن الاستطراد فى ذلك . .

وبقى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى كفالة جده عامين بعد وفاة أمه . .

وآثره عبد المطلب بالحب كله والحنان . . . لقد كان يتوسم فيه خيراً ، وقد سبقت الإشارة الى ذلك فيما مضى من أخبار . .

---

(٥٩) الاسراء ١٥

وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من أهل بيته ولا أحد من أشراف قريش إجلالاً له ، فكان بنوه وسادات قريش يحدقون به ، فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجىء وهو غلام جَفْر [٦٠] حتى يجلس عليه ، فيحاول أعمامه تأخيره عن الفراش ، فيقول عبد المطلب اذا رأى منهم ذلك : دعوا ابنى فوالله إن له شأناً . .

ثم يجلسه على الفراش معه ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع . .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان عبد المطلب يقول : دعوا ابنى يجلس فإنه يحس من نفسه بشىء ـ أى بشرف ـ وأرجو أن يبلغ من الشرف مالم يبلغه عربى قبله ولا بعده . .

وحدث بعضهم أن قوماً من بنى مدلج ـ وهم من القافة الذى يعرفون الآثار والعلامات ، رأوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا لعبد المطلب احتفظ به ـ أى حافظ عليه ـ فإنا لم نر قدما أشبه بالقدم التى فى المقام منه . . يعنون قدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ

وحدث بعضهم أيضاً قال : بينما عبد المطلب يوماً فى الحِجْر وعنده أسقف نجران ، يحادثه ويقول له : إنا نجد صفة نبى بقى من ولد إسماعيل ، وهذا البلد مولده ، ومن صفته كذا وكذا ، فأتى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنظر إليه الأسقف . . . إلى عينيه وإلى ظهره وإلى

---

(٦٠) جفر : قوى

قدمه ، وقال : هو هذا . . ثم سأل عبد المطلب ماهذا منك ؟ أى ما علاقة هذا بك ؟

قال عبد المطلب : هذا ابنى . قال الأسقف : ما نجد أباه حياً . .
قال : هو ابن ابنى ، وقد مات أبوه وأمه حامل به
قال : صدقت . .
فقال عبد المطلب لبنيه : تحفظوا بابن أخيكم ، ألا تسمعون ما يقال فيه ؟

وقالت أم أيمن : كنت أحضن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغفلت عنه يوماً ،فلم أدر إلا بعبد المطلب قائماً على رأسى ، يقول : يابركة ، قلت : لبيك
قال : أتدرين أين وجدت ابنى ؟
قلت : لا أدرى

قال : وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، لا تغفلى عن ابنى فإن أهل الكتاب ومنهم سيف بن ذى يزن يزعمون أنه نبى هذه الأمة ، وأنا لا آمن عليه منهم .
فقد كان عبد المطلب إذن يرقب فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالا يرقبه غيره ويرى أن هناك أمراً عظيماً ينتظره ولذلك اشتد تعلقه به وحبه له ، وإيثاره إياه . .
فكان لا يؤتى عبد المطلب بطعام إلا أجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنبه ، وربما أقعده على فخذه فيؤثره بأطيب طعامه . .

وفاة عبد المطلب وانتقال كفالة محمد إلى عمه أبي طالب :

ولكن هذا العطف الأبوى الكريم من عبد المطلب لم يستمر طويلاً فلم تمض سنتان على كفالة عبد المطلب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد وفاة أمه ، حتى مات عبد المطلب

وكان عبد المطلب قد ناهز التسعين حين توفى ، بل قال بعضهم إنه أوفى على مائة وعشرين عاماً وبكى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جده حين مات . .

لقد تواصلت أحزانه . . فما تكاد تجف دموعه على غال حتى تتجدد على غال غيره . .

وهى حكمة عالية ، لأن الله أراد أن يضرب به المثل الأعلى فى الصبر ليكون قدوة لأمته . .

فما من محنة تعرض لها أحد من الناس إلا وكان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تعرض لها ، واليُتم أقسى ما يتعرض له الصغير ، ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أنا وكافل اليتيم فى الجنة ـ وأوصاه ربه باليتيم قائلاً له :

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ ﴾ (٦١)

بعد أن ذكره بحاله ونعمته عليه فقال له :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾ (٦٢)

---

(٦١) الضحى ٩

(٦٢) الضحى ٦

قالت أم أيمن - رضى الله عنها - كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبكى خلف سرير عبد المطلب وهو ابن ثمانى سنين ، ودفن بالحجون . .

ولكن عبد المطلب لم يفارق الدنيا حتى أوصى أبا طالب بمحمد - صلى الله عليه وسلم -

وأحب أبو طالب النبى - صلى الله عليه وسلم - حباً شديداً وأحبه النبى كذلك ، وتعلق به حتى ما يكاد يفارقه . .

وحصلت بركة النبى - صلى الله عليه وسلم - لأبى طالب حين ضمه إليه . . فقد كان أبو طالب مقلاً من المال كثير العيال . . فكانوا إذا اجتمعوا على طعام ومعهم النبى - صلى الله عليه وسلم - أحسوا بالشبع وبقى من الطعام الكثير . .

فإذا لم يكن معهم نفد الطعام قبل أن يشبعوا ولو كان كثيراً . . ولذلك كان لا يجعلهم يقتربون من طعام حتى يأتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فيأكل معهم فإن كان لبناً ناول أبو طالب النبى - صلى الله عليه وسلم - الإناء ليشرب أولاً ، ثم يتناوله أهله بعده فيرتوون جميعاً ، ويبقى فى الإناء بقية ، ولذلك كان أبو طالب يقول للنبى - صلى الله عليه وسلم - إنك لمبارك .

سفره مع أبى طالب للتجارة :

وازداد تعلق النبى - صلى الله عليه وسلم - بأبى طالب حتى إذا هم أبو طالب بالخروج إلى الشام فى تجارة تعلق به النبى - صلى الله عليه وسلم -

وبكى . . فرحمه أبو طالب واصطحبه معه وقال : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى أبداً . .

ومن هنا بدأ بصر النبى - صلى الله عليه وسلم - بالتجارة . .

ومن قبلها كان يرعى الغنم ، ولأمر ما كان الله يوجه أنبياءه لرعى الغنم . .

وقد ورد فى ذلك أثر : ما من نبى إلا ورعى الغنم . .

وفى ذلك تعليم لهم وتدريب على سياسة النفوس وكيفية معاملة الناس ، والتمرين على تحمل المشاق وتعود الصبر والشفقة والحلم واليقظة .

وربما كان فى حال الناس وجهلهم وغفلتهم عن الحق وتفرقهم فى الباطل وجه شبه بينهم وبين البهم التى دأبها التفرق والنفور والاستعصاء على الجماعة ، والتأبى على الانقياد والاستجابة . .

فالراعى الحكيم هو الذى يستطيع بحكمته وصبره وحسن حيلته وسياسته التحكم فى أمرها وجمع شتاتها وتعهد ضعيفها حتى يقوى ، ومشاكسها حتى يألف ، وعاصيها حتى ينقاد ، ومريضها حتى يشفى وحمايتها من الذئب إن اعتدى ومن الوحش إذا افترس ، ومن النفور إذا نفرت . .

حدث الإمام أحمد فى كتابه الفتح الربانى عن جابر بن عبدالله - رضى الله عنه - أنه قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلنا له : أكنت ترعى الغنم يارسول الله ؟ قال : نعم ، وهل من نبى إلا وقد رعاها ؟

وأخرج عن أبي سعيد الخدرى ـ رضي الله عنه ـ قال : افتخر أهل الإبل والغنم عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفخر والخيلاء فى أهل الإبل والسكينة والوقار فى أهل الغنم

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بعث موسى ـ عليه السلام ـ وهو يرعى غنماً على أهله ، وبعثت أنا وأنا أرعى غنماً لأهلى ..

وقد مر بنا أنه كان يرعى الغنم مبكراً ..

فقد رعاها فى بادية بنى سعد وهو يرضع عند حليمة .. وشب هناك ، وكان يرعى مع أخيه من الرضاع ..

فلما كبر .. اتجه إلى التجارة ، وأول رحلة تجارية اشترك فيها كانت مع عمه أبي طالب ..

وفى هذه الرحلة رآه بحيرى ـ راهب الشام ـ اطلع من صومعته حين بلغ الركب بصرى فرأى غمامة تظل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستضاف الركب وصنع لهم طعاماً ، وسأل أبا طالب عن الغلام الذى كانت الغمامة تظله ، وعرف منه أنه ابن أخيه ، فقرب بحيرى الغلام إليه وسأله عن أشياء أدرك من إجابته عليها أنه هو النبى المنتظر ، وازداد تثبتاً من ذلك حين رأى خاتم النبوة على ظهره بين كتفيه ..

عند ذلك نصح بحيرى أبا طالب قائلاً له : عد بابن أخيك واحذر عليه يهود فإنهم قوم حسد لو رأوه لقتلوه ..

وقد ذكر الرواة هذه القصة مفصلة ، وقد سبق أن أشرنا إليها فى دلائل النبوة ..

ويروى ابن الأثير أن بحيرى آمن بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر له ترجمة فى كتابه : أسد الغابة . .

ولكنه يذكر ـ راوياً عن ابن عباس ـ أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ صحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ابن ثمانى عشرة سنة والنبى ابن عشرين ، وهما يريدان الشام فى تجارة حتى إذا نزلوا منزلاً فيه سدرة ، قعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ظلها ، ومضى أبو بكر إلى راهب اسمه بحيرى يسأله عن شىء ، فقال له : من الرجل الذى فى ظل السدرة ؟

فقال له : ذلك محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، فقال بحيرى : هذا والله لنبى ، ما استظل تحت هذه الشجرة بعد عيسى بن مريم إلا محمد [٦٣]

فوقع فى قلب أبى بكر الصديق اليقين والتصديق ، فلما نبىء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أول من اتبعه . .

ولعل هذه رحلة أخرى غير الرحلة السابقة كما أشار الى ذلك الحافظ ابن حجر ـ [٦٤]

فقد كانت سن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الرحلة الأولى اثنتى عشرة سنة . .

وبعدها رحلة أخرى وكان مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها ميسرة غلام خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرج متاجراً لخديجة فى مال لها حين وصفت لها أمانته وعفته . .

فعاد وقد ربح وأضعف . .

وفى رحلة التجارة لخديجة ، التى كان معه فيها ميسرة رآه الراهب نسطورا الذى تفرس فيه كما تفرس فيه بحيرى قبل ذلك . . وأدرك من

---

(٦٣) أسد الغابة جـ ١ ص ١٩٩

(٦٤) السيرة الحلبية جـ ١ ص ١٩٨

العلامات التى رآها تصاحبه وتلازمه أنه نبى هذه الأمة المنتظر . .

وقد رأى ميسرة من أخلاق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشريفة ومعاملته الحسنة ما جعله يدرك أنه نسيج وحده وأنه مفطور على غير ما تعود عليه الناس من أخلاق ومعاملات وزاده ارتفاعاً فى نظره واكباراً فى قلبه مالحظه من خوارق صاحبته كتظليل الغمام له وإيراق الأشجار اليابسة فوقه وشفاء العليل على يديه وتيسير الأمور أمامه . . فعرف أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملحوظ بعناية الله وممدود بقوة إلهية ، لاتتاح لغيره من البشر . .

فلما اقترب الركب من مكة ، تقدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليخبر خديجة بما حقق من ربح فى سفرته . .

وكانت خديجة مع نساء لها فى غرفة عالية تتطلع منها ، فرأت محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ راكباً بعيره وفوقه غمامة تظلله من وقدة الشمس ، فلفتت أنظار من معها من النساء إلى ذلك فعجبن معها مما رأين وجاء ميسرة بعده فأخبرها بما رآه فى رحلته مع هذا الأمين من أخلاق طاهرة ومعاملة كريمة وخوارق وآيات باهرة . . ولم ينس أن يخبرها بما قاله الراهب نسطورا فى شأنه وكان كل ذلك يرفع من شأن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نظر خديجة ـ رضى الله عنها ـ ويزيد من رغبتها فى الزواج منه . .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكدح فى سبيل الرزق ، وبخاصة بعد أن أدرك أن عمه أبا طالب رقيق الحال كثير العيال ، فلم يشأ أن يصبح عالة عليه ، بل قرر أن يكون عوناً له .

ولعله بعمله بالتجارة قد أراد أن يضرب المثل الكامل للتجارة التى جعل

الله فيها تسعة أعشار الرزق ، وأراد أن يعلمهم كيف يكون التاجر الصدوق الأمين الذى قال عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة . .

إن كثيراً من المآسى والمظالم التى تحدث الآن سببها عدم الإلتزام بآداب التجارة ، فقد أصبحت أهداف التجارة اقتناص المغانم والمكاسب من أقصر طريق ، وبأى وسيلة كانت ، ولو كان الغش من بينها ، بل لقد أصبح الغش أمراً مشروعاً بل مفروضاً ، وهو أقصر الطرق إلى الثراء السريع . .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تجارته كان الصادق الأمين الوفى الذى لا يلتمس الربح من أقصر طريق ، أو يحصل عليه بوسائل التدليس أو الخداع . .

وقد أثنى عليه السائب المخزومى ـ وكان شريكه فى التجارة قبل البعثة ، فقال وقد وفد على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : صدقت بأبى أنت وأمى كنت شريكك فنعم الشريك أنت لا تدارى ولا تمارى (٦٥)

وقد ذكر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أثنى على السائب ووصفه بتلك الصفة . . فقال له مرحباً بأخى وشريكى كان لا يدارى ولا يمارى (٦٦)

لقد وضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبادىء للتجارة لو سار عليها التجار لسعدوا وأسعدوا ، وطيبوا أموالهم وتجارتهم من الحرام الذى يدخلها بتصرفاتهم المشبوهة وأيمانهم الكاذبة وتحاسدهم وحقدهم وأثرتهم وظلمهم . .

---

(٦٥) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٦١

(٦٦) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٢٢

محمد مثل أعلى

أوصاف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أولاً : الأوصاف الخِلقْية :

تنم فى كثير من الأحيان الأوصاف الجسدية عن الأوصاف الخُلُقِيَّة ، وكثيراً ما يحكم على الانسان من مظهره الخارجى على ما تبطنه نفسه من أخلاق وطباع ، وقديماً قال أحد الشعراء :

تبين لى أن القماءة ذلة   وأن أعزاء الرجال طوالها

ولكن ذلك ليس حكماً قاطعاً ـ على أى حال ـ فقد يكون القصر من علامات الحكمة ، كما يكون الطول مصاحباً للطيش . .

والتوسط بينهما خير . .

وقد جمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين جمال المنظر وجمال المخبر . . كانت أوصافه الخلقية غاية فى الحسن ، كما كانت أخلاقه على ما وصفها القرآن الكريم وهو أبلغ وصف وأغناه

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٦٧)

ودعانا الى الإقتداء به فى قوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (٦٨)

---

(٦٧) القلم ٤

(٦٨) الأحزاب ٢١

ولنستعرض أولاً الأوصاف الخِلْقية التى استقرأها الرواة من مصادرها الأصلية وهى أخبار من شاهده ورآه .. وهذه خلاصتها :

« لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالطويل البائن [٦٩] ، ولا بالقصير المتردد [٧٠] ، بل كان ينسب إلى الربعة [٧١] ، إذا مشى وحده ، ومع ذلك لم يكن يماشيه أحد ممن ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : جُعِل الخير كله فى الرَّبعة .

« وأما لونه فقد كان أزهر اللون ، ولم يكن بالآدم [٧٢] »

« وأما شعره فقد كان رَجِل الشعر [٧٣] وليس بالسَّبْط ولا بالجَعْد القَطَطَ [٧٤] »

وكان إذا مشط بالمشط يأتى كأنه حُبك الرمل [٧٥] .. وأكثر الرواة أنه كان يبلغ شحمة أذنيه وربما فرق عقيقته [٧٦] فرقتين ، وكان شيبه فى الرأس واللحية سبع عشرة شعرة مازاد على ذلك .

---

(٦٩) الطول البائن : الطول المفرط

(٧٠) المتردد : المتناهى فى القصر

(٧١) الربعة : المتوسط بين الطول والقصر

(٧٢) الآدم : الأحمر ، والأزهر هو الأبيض الناصع الذى لا تشوبه صفرة ولا حمرة

(٧٣) رجل الشعر : ليس شديد الجعودة أو الاسترسال ـ والسبط : المسترسل بدون تجعيد والمجعد : الملتوى

(٧٤) القطط : شعر الزنج

(٧٥) أى كأنه الرمل إذا مرت به الريح تظهر فيه تعاريج

(٧٦) العقيقة : شعر الرأس

« كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسن الناس وجهاً وأنورهم ، لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر ، وكان يرى غضبه ورضاه فى وجهه لصفاء بشرته ، كان كما وصفه ابوبكر ـ رضى الله عنه ـ

أمين مصطفى للخير يدعو كضوء البدر رايله الظلام

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ واسع الجبهة ، أزج الحاجبين سابغهما (٧٧)

وكان أبلج (٧٨) مابين الحاجبين ، عيناه نجلاوان (٧٩)

وكان أدعج العينين أشكلهما ـ ، أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها (٨٠)

وكان أقنى العرنين ـ أى مستوى الأنف ـ وكان مفلج الأسنان ـ أى متفرقها ـ

وكان إذا افتر ـ أى ضحك ـ افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ

وكان من أحسن الناس شفتين وألطفهم ختم فم ، وكان سهل الخدَّين صلبهما ، ليس بالطويل الوجه ولا المكلثم (٨١) ، كث اللحية (٨٢) ، يعفى لحيته ويأخذ من شاربه

---

(٧٧) أزج الحاجب : مقوسه ، والسابغ الكامل

(٧٨) أبلج : بين حاجبيه فاصل لطيف

(٧٩) نجلاوان : واسعتان

(٨٠) أدعج ، شديد سواد العين ـ أشكل : فى عينيه حمرة خفيفة وهى من علامات النبوة وأهدب الأشفار : طويلها والأشفار : الأجفان والمقصود شعر الأجفان .

(٨١) المكلثم : المدور

(٨٢) كث اللحية : كثيفها

وكان أحسن عباد الله عنقاً ، لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ، وما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشربٌ ذهباً - يتلألأ فى بياض الفضة وفى حمرة الذهب .

وكان - صلى الله عليه وسلم - أجود الصدر [٨٣] ، عريضه ، لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً ، كالمرآة فى استوائها ، وكالقمر فى بياضه . . . .

وكان عظيم المنكبين أشعرهما ، ضخم الكراديس أى رءوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين

وكان واسع الظهر ، مابين كتفيه خاتم النبوة ، وهو مما يلى منكبه الأيمن ، فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس . .

وكان عَبْل [٨٤] الذراعين والعضدين ، طويل الزندين [٨٥] ، رَحْبَ الراحتين ، سائل [٨٦] الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة ، كفه ألين من الخز ، كأن كفه كف عطار ، مسها بطيب أم لم يمسها . .

وكان معتدل الخلق فى السمن . . .

وأما مشيه - صلى الله عليه وسلم - فكان يرفع رجله من الأرض بهمة وقوة ويمشى فى تثبت وأناة ، ويميل إلى سَنَن المشى وقصده ، إى إلى قدام

---

(٨٣) أجود الصدر من الجودة : كناية عن خلوه من الحقد والغل

(٨٤) عبل : غليظ

(٨٥) الزندين : الذراعين

(٨٦) سائل الأطراف : طويل الأصابع

كالسفينة فى جريها ، ويمشي الهوينى بغير تبختر ـ والهوينى ـ تقارب الخطا ـ

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « أنا أشبه الناس بآدم ـ عليه السلام ـ وكان أبى إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشبه الناس بى خلقاً وخلقاً » (٨٧)

إن عناية صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوصفه دليل حب وإعجاب ، فقد ملك عليهم قلوبهم ، حتى إن خواطرهم تتمثله فى غياب شخصه عنه ، ولقد رُوِى أن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ وكان مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم ، وقد تغير لونه ونحل جسمه وبدا فى وجهه الحزن .

فقال له رسول الله : ياثوبان ما غيَّرَ لونك ؟

فقال : يارسول الله ، مابى ضر ولا وجع ، غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة ألا أراك هناك لأنك ستكون فى أرفع مكان أما أنا إن دخلت الجنة فسوف أكون فى منزلة أدنى من منزلتك ، وان لم أدخل فذلك حين لا أراك أبداً ، فأنزل الله ـ تعالى ـ قوله :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (٨٨)

---

(٨٧) هذه الأوصاف من كتاب (المثل الأعلى فى الأنبياء) ص ٢٢

(٨٨) النساء ٦٩ ، ٧٠

وقيل : إن الذى نزلت بشأنه هاتان الآيتان هو عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى الذى قال : يارسول الله ، إذا مت ومتنا كنت فى عليين لا نراك ولا نجتمع بك ، وذكر حزنه . . . فنزلتا . .

لقد أحبه أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ أكثر من أنفسهم ، وذلك ما يدعو اليه الايمان . .

« لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده ونفسه التى بين جنبيه »

ومن شدة حبه كانوا يتمثلونه فى خواطرهم دائماً ، ولا تفوتهم من منظره وصفاته صغيرة ولاكبيرة ، حتى لقد وصفوه أدق وصف ـ وقد مرت بنا بعض هذه الأوصاف التى أثرت عنهم فى وصفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ويذكر فضيلة الشيخ الشعراوى ـ عن الامام على ـ كرم الله وجهه ـ أن أحد أحبار اليهود سأله عن وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان الحبر فى يده كتاب ينظر فيه ، وكلما تحدث على ـ رضى الله عنه ـ قلّب اليهودى صفحات الكتاب ، كأنه يراجع الأوصاف التى ينطق بها . .

فقال على ـ رضى الله عنه ـ إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس بالقصير ولا بالطويل البائن ، وليس بالجعد ولا بالسبط الشعر ، أى أنه وسط بين النعومة والتجعد ، وكان أبيض الوجه مشرباً لونه بحمرة أهدب الأشفار واسع الجبين ، وكان عظيم الكفين والقدمين ، بعيد ما بين المنكبين ،أى أن كفيه وقدميه كانت ضخمة وأصابعه قوية ، وكان اذا مشى لا يسرع ولا يبطىء ، وكأنه ينزل من صبب لم أر قبله مثله ولم أر بعده مثله . .

أى ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما يسير كانت الأرض تنحدر أمامه خشوعاً فيميل فى سيره ،

وسكت على ـ رضى الله عنه ـ فأكمل الحبر اليهودى الوصف من كتابه الذى كان معه فقال :

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عينيه حمرة ، وهو حسن اللحية ، حسن الفم ، تام الأذنين ، يقبل جميعا ويدبر جميعا .

فرد الامام على ـ رضى الله عنه ـ قائلاً : هذه والله صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال الحبر : وفيه جناء ـ أى ميل للأمام .

فقال على ـ رضى الله عنه ـ : هو الذى قلت كأنه ينزل من صبب

فقال الحبر اليهودى : إن هذه الصفات فى سفر آبائى هذا ، وأشار إلى الكتاب الذى بيده . . ثم قال : ومكتوب فيه أيضاً : ومجده يبعث من حرم الله وأمنه ، وموضع بيته ، ثم يهاجر إلى حرم يحرمه هو ـ يقصد الحرم النبوى فى المدينة المنورة ـ ويكون لهذا الحرم حرمة كحرمة حرم الله.

ويستمر الحوار بين على ـ رضى الله عنه ـ والحبر اليهودى ، حتى يعلن اليهودى إسلامه [٨٩]

وقد اشتهر من بين الصحابة من أجاد وصف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن بين هؤلاء هند بن أبى هالة وقد أُثر عنه فى وصفه أنه قال : كان رسول الله خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء يبدأ

---

(٨٩) انظر محمد رسول الله ـ فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٢٩

من يلقاه بالسلام ، دائم الفكر ، طيب الرائحة ، لا يتكلم فى غير حاجة . .

وقد وصفته أم معبد فأبدعت فى وصفه . . قالت وهى تصفه لزوجها : « مر بنا رجل مبارك ، فقال لها : صِفيه . . قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، مُتْبَلج الوجه (٩٠) ، فى أشفاره وَطَف (٩١) ، وفى عينيه دَعَج (٩٢) ، وفى صوته صَحَل (٩٣) ، غصن بين الغصنين ، لا تشنؤه (٩٤) من طول ، ولا تقتحمه (٩٥) من قصر ، لم تعبه ثجلة (٩٦) ، ولم تزر به صعلة (٩٧) ، كأن عنقه إبريق فضة ، إذا نطق فعليه البهاء ، وإذا صمت فعليه الوقار له كلام كخرزات النظم ، أزين الناس منظراً ، وأحسنهم وجهاً . .

إن هذه الأوصاف الحسية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تنبىء عن تكامل الأعضاء فيه وجمالها .

وتشعر بأن أول ما يقع بصر الإنسان عليه يدرك أنه أمام جمال مذهش لا مثيل له ، ومظهر يوحى بثقة مطلقة لاحد لها ، وهذا ما انعقد عليه اجماع من شاهدوه . .

---

(٩٠) متبلج الوجه : مشرقه
(٩١) الأشفار : الأجفان والمقصود شعرها ، والوطف : الطول
(٩٢) الدعج شدة سواد العين
(٩٣) الصحل : البحة فى الصوت
(٩٤) لاتشنؤه : لا تبغضه
(٩٥) تقتحمه : تزدريه
(٩٦) الثجلة : عظم البطن وكبرها
(٩٧) الصعلة : صغر الرأس

وقد صدق أصحابه فى مدحه ووصفه بالجمال الحسى والمعنوى . . وقد أدركوا أن جماله الحسى ينبىء عن جماله المعنوى كما قال عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ :

لو لم تكن فيه آيات مبينة   لكان منظره ينبيك بالخبر

أخرج الدرامى والبيهقى عن جابر بن سمرة قال : رأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ليلة أضحيان ـ أى مقمرة مسفرة ـ فجَعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو كان أحسن فى عينى من القمر(٩٨)

الأوصــاف الخُلُقِية :

أما الأوصاف الخلقية فهى أعظم من أن يحاط بها ، ويكفى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال فى حقه :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (٩٩)

ومهما أكثر الواصفون فى فضله فلن يبلغوا عشر معشار هذا الوصف الربانى المعجز . .

وكل ما تحدث به كتاب السيرة والمتحدثون عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هو قطرة من بحر . .

ورحم الله البوصيرى فى همزيته التى كتب فى مطلعها تقريراً صادقاً عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال :

---

(٩٨) الرسول لسعيد حوَّا جـ ١ ص ١٧

(٩٩) القلم ٤

كيف ترقى رقيك الأنبياء ؟ ياسماء ماطاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حال سنى منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للناس، كما مثَّل النجوم الماء

وكان البوصيرى بارعاً فى الوصف ، اشتق براعته من حبه للنبى - صلى الله عليه وسلم - وفتح باباً للمدائح النبوية لا يغلق أبداً ، على حد تعبير فضيلة الشيخ سيد حسن قرون - فى احدى مقالاته الأسبوعية الممتعة (١٠٠)

وبهذه الأخلاق العظيمة التى منحها الله - سبحانه وتعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - استطاع أن يؤدى رسالته التى بعث بها أجمل أداء وأكمله وأتمه . .

لقد كانت أخلاقه من مدد النبوة وفيضها ، إنها من معين الأدب الإلهى الذى أدبه ربه به ،وطبعه عليه ، فلا ترى منه إلا كل كمال . .

إنها أخلاق لم تأت نتيجة تلقين وتعليم من بشر ، فهو قد نشأ يتيم الأبوين ، وابتعد فترة طويلة من الزمن ، تقرب من ست سنوات عن محيط أسرته التى ولد فيها ، حيث كان يقيم فى بادية بنى سعد ، وهى بيئة أعرابية صرفة ، لا حظ لها من التعليم أو التثقيف .

ولكنه مع ذلك فطر منذ صغره على مكارم الأخلاق . .

لقد تربى تربية إلهية كما ربى الله موسى - عليه السلام - وقال له :

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١٠١)

---

(١٠٠) صحيفة الأخبار ١٩٨٩/١٠/٦
(١٠١) طه ٣٩

وقال لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴿٤٨﴾ ﴾ (١٠٢)

وربما استطعت إدراك الفرق بين قوله « على عينى » وقوله « بأعيننا » إنه فرق دقيق يدل على شدة العناية بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستمع إلى الدكتور مصطفى محمود وهو يقول :

كان محمد ذاته كسلوك وخلق وسيرة هو المعجزة التى تسعى على الأرض ، وإنْ تبلغ ذاتك الكمال فى صفة واحدة فتبز فيها وتتفوق على أقرانك فهذه هى العبقرية .

قد يصل إنسان إلى غاية بعيدة فى الخطابة . .
وقد يصل إنسان إلى غاية بعيدة فى الزعامة . .
وقد يصل إنسان إلى غاية عظيمة فى الحكمة . .
وقد يصل إنسان إلى غاية عظيمة فى فنون الحرب . .
وقد يصل إنسان إلى مكانة كبرى فى القيم والمبادىء ومعرفة القوانين والتشريعات . . .

أما أن يوجد بشر هو كل هؤلاء ، وأن بمنح كل صفة فيبلغ فيها المدى دون مدرسة أو معلم فهو الإعجازبعينه ،وإذا حدث فإنه لا يفسر إلا بأنه نبوة ومدد وعون من الله الوهاب وحده . . هذا هو محمد بن عبدالله . . .
وهذا هو البرهان على نبوته . .

---

(١٠٢) الطور ٤٨

فها أنت ذا أمام رجل إذا تحدث كان أبلغ البلغاء ..

وإذا نطق كان أفصح الفصحاء ، لا ينطق عن هوى ، ولا يتحدث عن حفيظة ، وإنما عن حكمة الحكيم وبصر البصير الملهم ، وهذه أحاديثه المجموعة تشهد لنا بأنها من جوامع الكلم ..

فإذا ذهب هذا المحدث الهادىء ليحارب رأينا فيه مقاتلاً فذاً ومخططاً عسكرياً من الطراز الأول ..

وإذا اختبر بالهزيمة لا يضعف ولا يتزعزع بل إنه يحول الهزيمة إلى نصر بثباته وشجاعته كما حدث فى غزوة حنين ..

وإذا غنم كان أزهد الناس فى الغنيمة ..

لقد اجتمعت فيه كمالات بلغ فى كل منها الذروة .. فهو العابد المبتهل الذى يذوب خشوعاً ويفنى حبا ، وهو المقاتل الصنديد الذى يتعرض لجحافل الموت ثابت القدم ، وألوف الأبطال والفرسان يفرون أمامه كالجرذان،.وهو المخطط العبقرى الذى يرسم الخطط فيتفوق على أهل الحرفة ، وهو السياسى الحاذق الذى يحرك المجاميع ويمسك بمقاليد المشاعر

بمهارة .. وهو المحدث الذى ينطق بجوامع الكلم ، وهو الأب والزوج والصديق ، وهو صاحب الدعوة الذى يقيم نظاماً وينشىء دولة من عدم ، من قبائل وشراذم متطرفة كانت فى معظمها لا تعرف إلا قطع الطريق والثأر والتفاخر بالأحساب والأنساب ، وهو برزخ الأسرار المكاشف بالملكوت الذى يستمع إلى الله وملائكته كما نستمع نحن بعضنا إلى بعض ، وقد بلغ بذلك القمة فى علوم الظاهر والباطن ، وهو الكريم الحليم الودود الرءوف

الصبور الباسم الهادىء القوى لا تمنعه الأعباء الجسام عن ملاطفة الطفل الوليد ، فيحمله على كتفه راكعاً وساجداً وقائماً ، ولا من ملاطفة زوجه فى حنان .. لا ينضب لعواطفه معين ، وكأنه يستمد من بحر ..

هذه الذات هى المعجزة ، واجتماع هذه الكمالات فى ذات واحدة معجزة وليست عبقرية ..

فالعبقرية هى أن تتفوق فى صفة واحدة فحسب ، أما أن تكون الذات مجمع كمالات فهنا نبوة [١٠٣]

مشاركته - صلى الله عليه وسلم - فيما ينفع وبعده عما يضر موقفه من حرب الفجار :

الفجار - بكسر الفاء والجيم المفتوحة مصدر فاجر ، وهى بمعنى المفاجرة ، مثل قتال ومقاتلة من قاتل .

سميت بذلك لأنها كانت قتالاً وحرباً فى الأشهر الحرام ..

قال الجوهرى فى الصحاح : الفجار يوم من أيام العرب ، وهى أربعة أفجرة كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان فى الجاهلية ، وكانت الدَّبَرة أى المزيمة على قيس ، وإنما سمت قريش هذه الحرب فجاراً لأنها كانت فى الأشهر الحرام ، فلما قاتلوا فيها قالوا : قد فجرنا فسميت فجاراً ..

---

(١٠٣) محمد . د . مصطفى محمود من الفصل الأول بتصرف

والفجارات الأربعة هي : فجار بدر بن معشر ، وفجار القرد ، وفجار المرأة ، والفجار الرابع هو فجار البراض ..

ووقت المسعودى زمنه فقال : بين الفجار الرابع الذى اشتد فيه القتال وبين بنيان الكعبة خمس عشرة سنة .. وقد نأى النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه عن المشاركة فى مثل تلك الحروب التى لا جدوى منها إلا الخراب والقتل والدمار ، فلم تكن تلك الحروب دفاعاً عن مبدأ أو عقيدة ، وإنما اشتعلت لأسباب تافهة غذتها العصبية القبلية .. وكانت سن النبى - صلى الله عليه وسلم - عند حرب الفجار الأول ، على ما ذكر الرواة .. عشر سنين ، ولم يشترك النبى - صلى الله عليه وسلم - فى القتال فى أى من هذه الحروب ، ولما ألح عليه أعمامه على أن يخرج معهم فى حرب الفجار الرابع ، وأصروا على ذلك وكانت سنه إذا ذاك تقارب العشرين ، لم يجد محمد - صلى الله عليه وسلم - بدا من الخروج تحت ضغط أعمامه وإلحاحهم عليه ، وبالرغم من خروجه معهم إلا أنه لم يشترك فى القتال ، ولكنه وقف يرد النبل عن أعمامه ، أى يدفع عن أعمامه نبل خصومهم .

وقد ذكر ابن هشام سبب حرب الفجار الرابع فقال :

كان الذى هاجها أن عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب من بنى عامر بن صعصعة .

كان قد أجار لطيمة (١٠٤) للنعمان بن المنذر ..

---

(١٠٤) اللطيمة : قافلة تحمل تجارة من الثياب والعطور

فقال له البراض بن قيس من بنى كنانة[١٠٥] أتجيرها على كنانة؟ قال عروة : نعم ، وعلى الخلق .

فخرج فيها عروة ، وخرج البرَّاض يطلب غفلته ، حتى إذا كان بذى طَلَّال بالعالية غفل عروة ، فوثب عليه البراض ، فقتله فى الشهر الحرام ، وقال البراض فى ذلك :

وداهية تهم الناس قبلى ... شددت لها - بنى بكر - ضلوعى
هدمت بها بيوت بنى كلاب ... وأرضعت الموالى بالضروع
رفعت له بذى طلال كفى ... فخر يميد كالجذع الصريع

فأتى آت قريشاً ، فقال : إن البراض قد قتل عروة ، وهم فى الشهر الحرام بعكاظ ، وهوازن لا تشعر ثم بلغهم الخبر فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم ، فأمسكت عنهم هوازن ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً ، والقوم متساندون ، على كل قبيل من الفريقين ، رئيس .

وشهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعض هذه الأيام - ولكنه لم يشترك فى القتال كما ذكرنا - أخرجه أعمامه معهم ، وقال رسول الله ﷺ : كنت أنبل على أعمامى ، أى أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها[١٠٦]

وقد ذكر السهيلى أسماء هذه الأيام فقال : يوم شمطة ، ويوم العيلاء ، وهما عند عكاظ ، ويوم الشرب وهو أعظمها يوماً ، وفيه قيد حرب بن أمية

---

(١٠٥) البراض : بفتح الباء وتشديد الراء

(١٠٦) سيرة ابن هشام جـ١ ص ٢٠٩

وسفيان وأبو سفيان أبناء أمية أنفسهم كيلا يفروا ، فسموا العنابس - ويوم الحريرة عند نخلة . . والعنابس جمع عنبسة وهو الأسد -

والسبب الذى من أجله لم يقاتل رسول الله ﷺ وإنما اكتفى بأن كان يرد النبل عن أعمامه أنها كانت حرب فجار وقد عصمه الله من القتال فيها لأنه ليس لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هى العليا (١٠٧)

كيف انتهت هذه الحرب :

وكان من الممكن أن تستمر هذه الحرب بين الحيين سنين طويلة كما جرت بذلك عادة الحروب فى الجاهلية ، ولكن الله قد فيض ببركة رسول الله ﷺ من يحول بينها وبين استمرارها - ذلك أن الحيين كانا قد تواعد على اللقاء فى العام المقبل ، وجاء الحيان للموعد وكان أمر قريش إلى عبدالله بن جدعان وقيل إلى حرب بن أمية ، وكان عتبة ابن أخيه ربيعة قد تربى فى كفالته بعد وفاة والده . .

وخرج عتبة سراً بدون إذن عمه ، ولما أوشك الجمعان أن يلتقيا بالسيوف . . إذا بعتبة فوق بعير بين الصفين ينادى : يامعشر مضر علام تقتتلون ؟

قالت هوازن : وماالذى تدعو اليه ؟

قال : الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتعفُوا عن دمائنا .

قالوا : وكيف ؟

---

(١٠٧) الروض الأنف جـ ١ ص ٢٠٩

قال : ندفع لكم رهناً منا إلى أن نوفى لكم ذلك .

فقالوا : ومن لنا بذلك ؟

قال : أنا ـ وكان عمه حرب بن أمية لا يعلم بذلك كله بل فوجىء به ـ

فقالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . .

فرضيت بذلك هوازن وكنانة وقريش . .

وانتهت الحرب عند ذلك . . وحقنت الدماء . .

لقد أراد الله ألا يكون مبعث رسوله الأمين فى جو مشحون بالكره والعداء والدماء . .

فهيأ للمتحاربين من ألف بينهم وأصلح ذات بينهم . .

لقد كان خروج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الحرب تلبية لمؤازرته أعمامه ودفاعاً عنهم .

وكان دوره فيها قاصراً على رد السهام عنهم ، مع أنه كان فى مقدوره أن يكون له دور أكبر من ذلك ، ولكنه اكتفى بدور المدافع لأنه لم يكن راضياً عن أمثال تلك الحروب التى لا هدف من ورائها ولا جدوى منها إلا الخراب والقتل . .

وقد حفظه الله من جريرتها . .

حلف الفضول :

وكان حلف الفضول منصرف قريش من حرب الفجار ، وكانت سن النبى ﷺ اذ ذاك عشرين سنة . .

كان الفجار في شوال ، وهذا الحلف في ذى القعدة وكان أشرف حلف جرى في الجاهلية . .

وأول من دعا إلى هذا الحلف الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وشقيق أبيه .

واجتمع إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى .

وتم عقده في دار عبد الله بن جدعان . .

وكان سببه فيما رواه السهيلي أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، ولكنه حبس الحق عن صاحبه ولم يؤد له ثمن بضاعته فاستعدى الزبيدى عليه الأحلاف من بنى عبد الدار ومخزوم وجمح وسهم وعدى بن كعب ، ولكنهم أبوا أن يعينوه على العاص بن وائل ، وانتهروه . .

فلما رأى الزبيدى ذلك صعد أبا قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته قائلاً :

ياآل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك .

فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا في ذى القعدة في شهر حرام وهم قيام وتعاقدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه مابل بحر

صوفة ، وما رسا حراء وثبير مكانهما [١٠٨] ، وعلى التآسي فى المعاش .

فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها اليه [١٠٩]

وقد سمى هذا الحلف بهذا الاسم لأسباب منها :

مايؤخذ من قول النبى ﷺ وقد شهد هذا الحلف : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت ، تحالفوا على أن ترد الفضول على أهلها وألا يعز ـ أى لا يغلب ـ ظالم مظلوماً . .

فقوله : أن ترد الفضول على أهلها . . يشير إلى سبب التسمية . . وكانوا قد تعاهدوا أن يجمعوا فضول أموالهم فينصروا منها المظلوم ويواسوا منها الضعيف . .

وهناك سبب آخر هو ما ذكره ابن قتيبة قال : كان قد سبق قريشاً إلى مثل هذا الحلف ـ جرهم ـ فى الزمن الأول ، فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم ، أحدهم الفضل بن فضالة ، والثانى الفضل بن وداعة ، والثالث فضيل بن الحارث . . فلما أشبه حلف قريش هذا الحلف السابق سموه حلف الفضول ، والفضول جمع فضل وهو اسم أولئك الذين تقدم ذكرهم . .

ولهذا الحلف آثار طيبة فقد ذكر السهيلى أن رجلاً من خثعم قدم معتمراً أو حاجاً ، ومعه بنت له يقال لها القتول ، وكانت من أجمل النساء ،

---

(١٠٨) هذان التعبيران كناية عن طول الدهر

(١٠٩) الروض الانف للسهيلى جـ ٢ ص ١٥٦

فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيبها عنه .

فقال الخثعمى : من ينصرنى على هذا الرجل ؟

فقيل له : عليك بحلف الفضول . .

فوقف عند الكعبة ونادى : ياالحلف الفضول . .

فإذا بهم يجيئون إليه من كل جانب ، وقد انتضوا سيوفهم وهم يقولون : جاءك الغوث ، فمالك ؟

فقص قصته ، وقال : إن نبيها ظلمنى فى ابنتى ، وانتزعها منى قسراً وغيبها عنى ، فساروا معه حتى وقفوا على باب الدار فخرج إليهم .

فقالوا له : أخرج الجارية ، ويحك ، فقد علمت من نحن . . وما تعاقدنا عليه . .

فقال : أفعل . . فأخرجها إليهم وهو يقول :

راح صحبى ولم أحى القتولا ... لم أودعهم وداعاً جميلاً
إذ أجد الفضول أن يمنعوها ... قد أرانى ، ولا أخاف الفضولا
لاتخالى أنى عشية راح الركـ ... ـب هنتم على ألا أقولا

ويمر الزمن ، وتنطوى بعض صفحاته ، فإذا بالحسين بن على - رضى الله عنه - يتعرض لظلم من الوليد بن عتبة بن أبى سفيان - والوليد يومئذ أمير المدينة .

فقال له الحسين : أحلف بالله إن لم أنصف وأعطى حقى - لآخذن سيفى ، ثم لأقومن فى مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول . .

فقال عبدالله بن الزبير : وكان عند الوليد حين قال الحسين له ذلك : وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى يأخذ حقه أو نموت جميعاً .

فبلغت هذه المقالة المسور بن مخرمة الزهرى فقال مثل قولهما ، وبلغت عبدالرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك .

فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة لم يجد بدا من إنصاف الحسين بن على وإعطائه حقه حتى رضى [١١٠]

إن اشتراك النبى ﷺ قبل بعثته فى هذا الحلف وتأييده له دليل على حبه لمكارم الأخلاق وتأييده كل عمل فيه خير للناس وانصاف للمظلوم ونصرة للحق منذ نشأته .

زواجه من خديجة :

تلك هى صفات محمد بن عبدالله رسول الانسانية ـ وسوف نفصل بعد قليل كمال صفات النبوة وتوافرها فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكننا قبل ذلك يجب أن نشير إلى أن شهرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين قومه بتلك الصفات النبيلة إلى جانب ما رأته السيدة خديجة بنت خويلد من أمانته التى لا حدود لها حين ولى لها أمر تجارتها بالإضافة إلى ماحدثها به خادمها ميسرة من أمور عظيمة رآها وشاهدها فى رحلته مع الرسول ﷺ . . كل ذلك كان الدافع لرغبة السيدة خديجة رضى الله عنها فى الزواج من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى التى رفضت كل من تقدم لها من كبار القوم وأثريائهم وذوى النفوذ والسلطان فيهم . .

---

(١١٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٥٥

وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها كما يحدث ابن هشام عنها ـ امرأة حازمة شريفة لبيبة ، وكانت ذا مال وفير وجاه عريض . .

وهى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى . . تجتمع مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نسبها عند قصى بن كلاب . .

واتفق الرواة على أن خديجة بنت خويلد كانت إمرأة حازمة جلدة شريفة وهى يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالا وكانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة .

وفى رواية كان يقال لها سيدة قريش وكل كبار قومها كان حريصاً على أن يتزوجها فقد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل . . وعن نفيسة بنت منية قالت : أرسلتنى خديجة خفية إلى محمد ﷺ بعد أن رجع فى عيرها من الشام . .

فقلت : يامحمد ، مايمنعك أن تتزوج ؟

فقال : مابيدى ما أتزوج به .

قلت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب ؟

قال : فمن هى ؟

قلت : خديجة . .

قال : وكيف لى بذلك ؟

قلت : قل بلى وأنا أفعل .

فذهبت وأخبرتها ، فأرسلت إليه أن إئت لساعة كذا وكذا . .

فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها ، لأن أباها كان قد توفى . .

وأخبر النبى ﷺ أعمامه برغبته فى الزواج من خديجة ، فذهب معه عمه حمزة وفى رواية ـ ولعلها أصح ـ ذهب معه عمه أبو طالب ، ولا يبعد أن يكون الاثنان قد ذهبا معه . . وخطب أبو طالب خطبة النكاح قال فيها :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، ومعدن معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته والقائمين على حرمه ، وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس . .

ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل إلا رجحه محمد شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً . . وإن كان فى المال أقل من غيره ، فإن المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق اثنتى عشرة أوقية ونشاً ـ عاجله وآجله (١١١) .

وأجاب ورقة بن نوفل ، وهو ابن عم خديجة ـ رضى الله عنها ـ قائلاً :

الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، ورغبتنا فى الاتصال بحبكم وشرفكم ، فاشهدوا معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله وذكر المهر . .

---

(١١١) الأوقية : أربعون درهماً ، والنش : عشرون درهماً ، وقال بعضهم : كان الأواقى والنش من الذهب فيكون قيمة الصداق خمسمائة درهم ـ السيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٢٦

فقال أبو طالب : قد أحببت أن يشركك عمها . .

فقال عمها : اشهدوا عليَّ معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد . .

وأولم النبى ﷺ فنحر جزوراً وقيل جزورين وأطعم الناس . .

وفرحت خديجة فرحاً شديداً وأمرت جواريها أن يضربن بالدفوف ويرقصن ويغنين . .

وليس فى رغبة خديجة فى الزواج من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنها هى التى بدأت بالعرض عن طريق نفيسة بنت منية ، أو عن طريق أختها ـ فى رواية أخرى . . ليس فى ذلك غض من شأنها . . بل هو العقل الكامل الذى يبحث عن السعادة العاجلة والآجلة .

لقد رأت خديجة فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ علامات النبوة فحرصت على ألا يفوتها هذا الشرف ولقد عاينت بنفسها المعجزة الخارقة حين رأت الغمامة تظله من الشمس الحارقة وهو متقدم فوق بعيره صوب مكة ، فأدركت أن ذلك الشخص مرموق من السماء ، فلماذا لا تحرص على أن تكون أولى بشرف رعايته وخدمته من غيرها ؟

وذكر ابن اسحاق ـ فيما يرويه الحلبى ـ قال : كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه فى المسجد فاجتمعن يوماً فيه ، فجاء يهودى وقال : يا معشر نساء قريش إنه يوشك أن يظهر فى قريش نبى قرب وجوده ، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له (١١٢) فلتفعل .

---

(١١٢) تكون فراشا له : كناية عن أن تكون زوجة له .

فحصبته النساء وقبحنه وأغلظن له ، وأغضت خديجة على قوله ، ووقع ذلك فى نفسها .

فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات ، وبما قاله الراهب نسطورا ، وما رأته هى من العلامات الباهرات والأخلاق المطهرة ، والعفة والأمانة والبركة ، وماقاله لها ورقة حين حدثته بما رآه ميسرة من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رحلته ـ من أنه سيكون نبى هذه الأمة . . وما سمعته من اليهودى فى ذلك العيد الذى اجتمعت فيه النساء .

تيقنت خديجة عند ذلك أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو النبى المنتظر فحرصت على الزواج منه ، وفعلت ما فعلت فى سبيل الفوز بهذا الشرف ، وما أعظمه من شرف .

وإلى هذا المعنى أشار البوصيرى فى همزيته حين قال :

ورأتـه خـديجة والتقـى والزهـد فيه سجية والحياء .
وأتاها أن الغـمامة والسـرح أظـلته منها أفـياء .
وأحاديث أن وعد رسول الله بالبعث حان منه الوفاء .
فدعته إلى الزواج ،وماأحسن ما يبلغ المنى الأذكياء .

كانت سن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين تزوج من خديجة خمساً وعشرين سنة ، أما سنها هى فقد كانت أربعين سنة .

وكانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ وزير صدق للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دعوته . . آزرته ونصرته . . وضحت بمالها فى سبيل الدعوة

الإسلامية . . وكان للنبى ﷺ منها أولاده كلهم ماعدا إبراهيم الذى مات طفلاً . . وسيأتى حديث مفصل إن شاء الله عن أمهات المؤمنين .

اشتراكه فى بناء الكعبة :

كانت سن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند بناء قريش للكعبة خمساً وثلاثين سنة . .

وكان السبب فى بنائها ـ أو بالأحرى تجديدها ـ أن سيلاً اجتاح الردم الذى وضعوه فى طريقه إليها فخرب الجدران وصدع البنيان ، وكانت الكعبة قبل ذلك قد تعرضت لحريق بسبب امرأة أوقدت بخوراً فطارت شرارة منها أمسكت بأستار الكعبة فأحرقتها . .

ففكر القرشيون فى إعادة بنائها وتجديدها . . ولكنهم ترددوا فى ذلك هيبة لها وخوفاً من نقض بناء أقامه خليل الله إبراهيم عليه السلام

وضاعف من خوفهم أن حية كانت تسكن بئراً تودع بها أموال الكعبة وهى على يمين الداخل من بابها . . ويذكر الرواة قصة وجود هذه الحية فيقولون :

لم يكن للكعبة سقف وكان الناس يلقون الحلى والمتاع كالطيب وغيره مما يهدى للكعبة فى تلك البئر فجاء رجل من جرهم وأراد أن يسرق من ذلك شيئاً فوقع على رأسه وانهارت البئر عليه فهلك . وقيل إنه سقط عليه حجر فحبسه حتى استنقذوه وأخذوا المال منه .

فبعث الله حية بيضاء ذات رأس سوداء سكنت هذه البئر ، فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منها أو أخذ شيء مما أودع فيها .. فما من أحد تحدثه نفسه بذلك إلا هجمت عليه وفتحت فاها .. فيولى الأدبار ..

ولكن حين أذن الله أن تجدد الكعبة وكانت قريش قد باتت تدبر أمرها وكيف تتم هذا الأمر الذى انتهى اليه تفكيرها وهو تجديد البناء ـ سهل الله عليهم ذلك بأن أرسل عقاباً فاختطف هذه الحية واحتملها بين مخالبه إلى حيث يعلم الله ..

فأدركت قريش أن ما عزمت عليه من أمر بناء الكعبة مؤيد من الله ، ومأذون له منه ، لأن علامة الإذن التيسير .. وأول علامات التيسير التخلص من هذه الحية المتوحشة ..

واتفقوا على أن تكون نفقات البناء من مال حلال ، ليس فيه إثم أو قطيعة رحم أو شبهة ربا أو مظلمة أحد ..

كما اتفقوا على أن يكون لكل بطن من بطون قريش ركن تقوم ببنائه ..

وقد اشترك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أعمامه فى تشييد الركن الذى عهد إليهم وهو ما بين الركن الأسود إلى ركن الحِجْر وهو وجه البيت ..

وجدَّت قريش فى البناء حتى بلغوا موضع الركن الذى يوضع فيه الحجر الأسود . وتنازعوا فيما بينهم أيهم يكون له شرف وضع الحجر فى مكانه ..

النبى يحسم النزاع :

لقد اشتد نزاعهم حتى أوشك أن يتحول الأمر إلى صراع دموى ..

وأحضر بنو عبد الدار جفنة مملوءة بالدم وتحالفوا عليها ومعهم بنو عدى ، ومعنى ذلك أنهم تحالفوا على الموت دون وضع الحجر مكانه . . وقد سماهم العرب لذلك : لعقة الدم . .

واستمر الخلاف على أشده أياماً . .

حتى هدى الله أبا أمية بن المغيرة وهو يومئذ أسنُّ قريش ، واسمه حذيفة وهو والد أم سلمة زوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بعد وهو احد أجواد قريش ، كان يلقب بزاد الراكب ـ لأنه كان يكفى من يسافر معه طعامه وشرابه ، فلا يتزود معه أحد بزاد . .

هدى الله هذا الرجل إلى أن يقول لقريش : اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب بنى شيبة . .

وارتضت قريش هذا الرأى . .

وتعلقت عيون الناس بالباب . . واحتبست أنفاسهم يرقبون مَنْ ذلك الداخل الأول الذى يكون على يديه انهاء هذا الصراع ؟

وكان أول داخل هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وهلل الجميع فرحين به وهتفوا من أعماقهم قائلين : هذا الأمين وكلنا نرضاه . .

وعرض الأمر فى سرعة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولم يستغرق التفكير فى حل هذه المشكلة العويصة التى تحيرت فيها ألباب القوم ، وكادت الحرب تنشب بين القبائل بسببها ـ لم يستغرق تفكير محمد

الأمين فيها لحظات ..

فسرعان ما قال على الفور :

هلم ثوبا .. فأتى به ..

فبسطه ، وتناول الحجر بيده الشريفة ووضعه على الثوب ، وقال لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف الرداء .. وهى أربعة أطراف ، وهم أربعة بطون ، فاختار كل بطن منهم شخصاً ..

كان فى ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة ..

وكان فى الربع الثانى زمعة بن الأسود ..

وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ..

وكان فى الربع الرابع قيس بن عدى ..

وساروا بالرداء والحجر فوقه ، حتى حاذوا الركن ، فأخذه الرسول ﷺ بيده الشريفة ووضعه فى مكانه ، وسواه وشدد عليه .. وتنازع القبائل على هذا الحجر دليل على أهميته الخاصة ومكانته من البيت الحرام ..

وكون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضعه بيده .. فيه تكريم لكليهما ـ للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللحجر الأسود ..

لقد أراد الله ألا يكون لأحد شرف وضعه إلا لمصطفاه ومجتباه من خلقه .. وبذلك يكون البيت المكرم قد بنى أولاً وأخيراً بأيد طاهرة مطهرة .. بيد آدم أولاً .. فإبراهيم ثانياً ، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثالثاً ..

وقد ذكر بعض الرواة أن الشيطان تمثل فى صورة رجل ، ووقف بجوار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يناوله حجراً يشد به الركن ، فنحاه العباس بن عبد المطلب ، وقال : إنه ليس يبنى معنا فى البيت إلا من هو منا . . وناول العباس النبى الحجر . .

فغضب الرجل وقال : ياعجباً لقوم أهل شرف وعقول وسن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سنا وأقلهم مالاً فجعلوه رئيساً عليهم فى مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له ، أما والله ليفوتنهم سبقاً وليقسمَنَّ بينهم حظوظاً وجدوداً .

وفى ذلك الحادث أنشد أبو طالب :

إن لــنا أولــه وآخـــــره فى الحكم والعدل الذى لا ننكــره
وقـد جــهدنا جــهده لنعمــره وقد عمرنا خيره وأكبره [١١٣]

وقد تحدثنا فى العدد الخاص عن الكعبة المشرفة عما يتعلق ببنائها وتجديدها وكسوتها وما تعرضت له من عدوان عبر العصور ، وماجد فيها الآن من تعمير وتوسعة وتزيين وتحسين على يد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وفقه الله لخدمة بيته ورعاية حرمه . .

---

(١١٣) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ قسم ١ ص ٩٤

نبوة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

- مقدمات النبوة
- دعوة النبي ﷺ ليست حركة إصلاحية
- أمية الرسول ﷺ وحكمتها
- الله يتولى رعاية نبيه
- محمد ﷺ المثل الأعلى
- تكامل شرائط النبوة فيه . .
- أمثلة من صدقه وأمانته والتزامه بالتبليغ
- فطانته ومستلزماتها من :

  الفصاحة والعلم والذكاء وقوة العارضة
- أمثلة من صبره وكفاحه وجهاده


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نبوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

مقدمات النبـــوة :

كان لحسن تصرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حل نزاع القرشيين حول الكعبة أثر كبير فى نفوسهم . . وقد ازداد رفعة فى نظرهم . . وكانوا قبلها يحبونه ويعظمونه . . حتى انه كان يلقب عندهم بالصادق الأمين . .

لقد فطر النبى ﷺ على صفات الخير جميعاً ، فما ذكر عنه أنه رؤى عابثاً أو لاهياً أو حانثاً ، أو ناكثاً لعهد ، أو خارجاً على مبدأ من المبادىء الكريمة التى اتفق الناس جميعاً على إقرارها والاقتناع بها والرغبة فى اعتناقها والتخلق بها .

كانت الخمر مباحة فى الجاهلية ، ولكنه لم يشرب ولم يجلس فى مكان فيه شراب . .

وكان اللهو رائجاً ، ولكنه لم يله قط ، وقد سبق أن أشرنا إلى أنه هم أن يسمر كما كان شباب مكة يسمرون ، فضرب الله على أذنه فنام حتى أيقظه حر الشمس ، وعصمه الله من ذلك اللهو وإن كان بريئاً

وهم مرة أخرى فحدث له ماحدث فى المرة السابقة . . فعلم أنه ملحوظ بعناية الله التى تصرفه عن سفاسف الأمور وتشغله بعظائمها . .

كانت حياته جداً كلها . . يصرفها فى كدح فى سبيل الرزق بوسائله ، التى أشرنا إليها وهى رعيه الغنم صغيراً ، وتجارته كبيراً . .

ويصرفها فى التفكر والتأمل فى هذا الكون الذى لابد أن يكون له خالق عظيم أبدعه على غير مثال . . وليس الخالق هو تلك الأوثان البلهاء التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تعى ولا تعقل ولا تنفع ، ولا تضر ، والتى ضل بها

الناس ضلالاً مبيناً ، وخروا أمامها ركعاً وسجوداً يستشفعون إليها ويتوسلون بها وينحرون لها ويدعون عندها ، وهى غافلة عنهم تماماً . . لاتحس بهم ولا تعرف عنهم شيئاً . .

وقد فطن لهذا المعنى مستشرق غربى فقال :

إن العرب المعاصرين لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبدوا أرباباً كثيرة وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها المعابد ، وقدموا لها الذبائح والقرابين ومع تقدم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السن كان اعتقاده يزداد بفساد هذه الأرباب وبطلان تلك الآلهة وأن ديانة قومه ديانة كاذبة ، وأن هناك إلها واحداً حقيقياً هو خالق هذا الكون كله (١١٤)

لقد انشغل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما انشغل به قومه . . وانصرف إلى فكره وتأمله يستلهمه الهدى والبصيرة عسى الله أن يهديه إلى الطريق المستقيم . . وهذا مافهمه بعض المفسرين من قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾ (١١٥)

وقد سبقت الإشارة إلى أحد وجوه التفسير فى هذه الآية . .

وهذا وجه آخر ذكره القرطبى أيضاً بقوله :

أى وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك أى أرشدك .

وقال بعضهم : إذا وجدت العرب شجرة منفردة فى فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالة فيهتدى بها إلى الطريق ، فقال الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ

---

(١١٤) من هو محمد ؟ للفيلسوف تولستوى ص ٥

(١١٥) الضحى ٧

« ووجدك ضالا » أى لا أحد على دينك وأنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق لى (١١٦)

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينشد الحق ، لأنه لم يقتنع بديانات العرب السابقة وقد هداه الله إلى الفطرة السليمة ، فبغض إليه الأصنام ونفره من عبادتها ، حتى إنه لم يشارك قومه فى الاحتفال بها .

وقد جهد به عمه وعماته مرة أن يشاركهم فى الاحتفال بعيد لهم حول صنم لهم يخرجون إليه كل عام . . ومازالوا به حتى خرج معهم ، ولكنه رأى ما صده عن ذلك فعاد دون أن يحتفل معهم .

وكان يسيئه ما يراه من أصنام حول الكعبة يطوف الناس بها . . وكانوا حينما يطوفون يمسون الأصنام تبركاً بها . فكان إذا طاف لا يمس الأصنام وقد نهى غلامه زيداً عن ذلك حين رآه يمس الأصنام فى طوافه . .

وكان لذلك ينأى عن الناس ويختلى وحده بعيداً ، وقد حُبب إليه الخلاء ، وكان يذهب إلى غار حراء يتسلقه وهو ممعن فى العلو والارتفاع حيث يعكف الأيام والليالى ذوات العدد متعبداً على دين إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وقد جاء فى ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ قول الله تعالى :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ

---

(١١٦) تفسير القرطبى ـ سورة الضحى

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ (١١٧)

لقد هُدِىَ الى ملة أبيه إبراهيم فطرة وجِبِلَّةً ، فهجر الأصنام والأوثان ، وقال فى ذلك ما أبغضت شيئاً بغضى هذه الأصنام .

واذا كان بعض القرشيين كورقة وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل وغيرهم قد تنبهوا إلى ضلال قومهم ، وخرجوا يطلبون الهدى بعيداً عن هؤلاء الوثنيين عبدة الأصنام .

فلا غرابة أن يتنبه لذلك من هيأه الله لأداء هذه الرسالة والقيام بتلك المهمة الجليلة . . وأيده فيما بعد بما يعينه على آداء هذه الرسالة النبيلة من معجزات حسية ومعنوية . .

دعوة النبى نبوة وليست حركة إصلاحية

يزعم بعض الجهلة من المستشرقين أن النبى ﷺ لم يقم بما قام به إلا بدافع من الاحساس بالعظمة أو الرغبة فى اصلاح قومه . . كما يقوم المصلحون بذلك . . فرسالته بدافع من نفسه كما يندفع الثوار وطلاب المغانم والشهرة والمصالح . .

وقد رد على هذا الوهم كثير من العلماء والكتاب المسلمين . . يقول الدكتور مصطفى محمود : سوف نمضى نتصفح كتب السيرة ، وسوف نرى دونما حاجة إلى التدليل- بالخوارق أننا أمام رجل كان أكثر من مجرد رجل عظيم . .

---

(١١٧) الحج ٧٨

هذا الرجل الفطرى البدوى الأمى البسيط الذى يسعى بين الناس بلا تكلف ، يتكلم فى تلقائية لا يتصنع علماً ولا يتلو من كتاب ولا يتدارس مذهباً ولا يأخذ بأى سبب من أسباب العظمة الدنيوية . .

أى خلط نقع فيه حينما نخلط بين مثل هذا الرجل وبين المفكرين أصحاب المذاهب والدارسين والمتكلفين والعاكفين على الكتب والمتخصصين والسياسيين أصحاب الأغراض والماكرين العظام الذين قلبوا الدنيا وخطفوا أضواء التاريخ لفترة من زمان . .

هاهنا شىء مختلف تماماً . .

ومن حكمة التدبير الإلهى أن يختار الله لرسالته هذه الفطرة البسيطة .... ليلقى إليها بكلماته حتى لا تتهم بأنها كانت تأتى بتلك الكلمات اجتهاداً . .

ولقد هيأه الله ليتحمل أضعاف ما يتحمله الرجل العادى من أعباء وعلى الإتيان بأضعاف ما يستطيعه الرجل العادى من أعمال ، وكأنه أمة فى رجل . .

وإننا إذ نمضى فى كتب السيرة نتتبع هذه الذات المحمدية فى فعلها وانفعالها وفى أثرها البعيد المستمر فى هذا الواقع البدوى من حولها ، نراها تؤثر تأثيراً لا حدود له فيمن حولها ، فأيما لمست من انسان أحالته إلى طبيعة أخرى غير التى كان عليها وأيقظت فيه نوازع الخير وفجرت فيه ينابيع المحبة .

وقد أعطى الله نبيه تلك القدرة المذهلة على تغيير الرجال وصهر معادن النفوس واعادة سبكها فى أحلى الصور . .
ولذلك أحبه أصحابه وافتدوه بالمهج والأرواح ، فقد رأوا أنفسهم تولد من جديد بين يديه وكأنهم كانوا عدما فأحياهم .

نحن إذن أمام نبوة مؤيدة بسند من الغيب وأمام ورجل انعقد له لواء التمكين الإلهى . . ولسنا أمام مصلح اجتماعى أو صاحب ثورة أو عظيم من عظماء الدنيا يعمل بالاجتهاد والعلم الكسبى .
رأينا شواهد ذلك من أثر هذه النفس المحمدية المشعة فى النفوس ثم أثر تلك النفوس فى غيرها حيث يجرى التبديل والتغيير باسلوب عظيم مذهل (١١٨)

أمية الرسـول ﷺ

وفى تعليل أمية الرسول يقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ أمد الله فى عمره ونفع المسلمين بعلمه ـ :
« الله ـ سبحانه وتعالى ـ قبل أن ينزل الوحى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبعد عنه كل شبهة بأنَّ ما سيتلقاه من وحى السماء ممكن أن يكون من العلم البشرى ، سواء كان ذلك من حضارة الأمم السابقة ، أو مما يمكن أن يقرأه من الكتب وغير ذلك .

ولذلك اختار الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأمية . . ومعنى أمى أى كما ولدته أمه لم يتلق علماً من بشر ، وكانت هذه الأمية

---

(١١٨) محمد ﷺ د . مصطفى محمود ٢٥ وما بعدها . دار المعارف

شرفاً له صلى الله عليه وسلم

ذلك لأن الله الذى اختاره خاتم المرسلين أراد أن يعلمه بنفسه ، وأراد له ألا يتلقى إلا علم السماء فلو أنه كان يقرأ أو يكتب لقالوا أخذ العلم مما قرأه ، أو أخذ العلم من كتب الأولين أو من حضارات الأمم المعاصرة ،

ورغم هذا الاختيار وهذه الحكمة فقد غفلت عنها عقول الكفار ، وادعوا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمه بشر ، وادعوا أنه جاء بهذا العلم من أساطير الأولين . .

ورد الله ـ تبارك وتعالى ـ عليهم يذكرهم بمعجزة الأمية لرسوله فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١١٩)

إذن فقد لفت الله أنظار البشرية كلها إلى أنه اختار أن يكون رسوله أمياً ، حتى يرد على ما يدعيه أنصار الباطل وأعداء الإيمان من أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى بالقرآن من عنده ، وحجة من قال بذلك باطلة يردها قوله تعالى :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١٢٠)

---

(١١٩) العنكبوت ٤٨

(١٢٠) يونس ١٦

لقد عاش النبى ﷺ معهم قبل البعثة أربعين سنة ، ولم يقل إنه أوحى إليه ، ولو أنهم فكروا بعقولهم فى هذا العمر الذى قضاه بينهم لكان ذلك كافياً لأن يصدقوه . .

ولو قال واحد منهم إنه نوع من العبقرية التى ربما تظهر على عبد من عباد الله ،فأى عبقرية تلك التى لم تظهر إلا فى سن الأربعين ؟

إن العبقرية والنبوغ يظهران عادة فى سن مبكرة ولا ينتظران بلوغ هذه السن .

فإن قيل : ربما تكون قد ظهرت وكتمها حتى سن الأربعين . . يرد على ذلك : ومن أدرى محمداً بأنه سيعيش حتى سن الأربعين ، وهو يرى أباه قد توفى قبل أن يولد ، وأمه تموت وهو طفل ، فينشأ يتيم الأب والأم ، فكل توقعات حياته أن الموت يخطف الناس فى سن مبكرة ، فهل يُتَوَقَّعُ ممن يؤمن بذلك أن يكتم عبقريته حتى سن الأربعين ؟

ولقد شاءت إرادة الله أن ينشأ محمد ﷺ يتيماً حتى لا يقال إنه استخدم نفوذ أبيه أو أنه استند إلى سلطان غير سلطان الله فى نشر دعوته (١٢١)

كمال فى كل صفة : توافر شروط النبوة فيه :

وإذا نظرنا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجدناه قد بلغ القمة فى كل صفة من الصفات الحسنة .

والمعروف أن كل رسول لابد أن يتصف بأوصاف ضرورية . . خلاصتها الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة . .

---

(١٢١) محمد رسول الله ﷺ الشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٥٠

ولنستعرض هذه الصفات فى حياة محمد ﷺ لنجد كيف كان مثلاً كاملاً فيها ، ونستعين فى ذلك بما كتبه الرواة والمؤلفون فى بحوثهم .. ولا سيما كتاب الرسول للأستاذ سعيد حوا ..

صـــفة الصـــدق :

لقد شهد بصدق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خصومه قبل أتباعه ، وصدّق ذلك الواقع ..

فمن شهادة الخصوم ما أخرجه البيهقى عن المغيرة بن شعبة قال : بينما كنت أمشي أنا وأبو جهل فى بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله ﷺ وذلك بعد أن بعث ..

فقال رسول الله ﷺ : لأبى جهل : ياأبا الحكم هلم إلى الله ورسوله ، أدعوك إلى الله ..

فقال أبو جهل : يامحمد ، هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أنك قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقوله هو الحق لاتبعتك .

فانصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأقبل علىّ أبو جهل يقول : والله إنى لأعلم أن ما يقوله هو الحق ولكن يمنعنى شيء : إن بنى هاشم قالوا : فينا الحجابة ، قلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية ، قلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة . فقلنا نعم . ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم . ثم أطعموا فأطعمنا ، حتى إذا تحاكّت الركب قالوا : منا نبى ..

والله لاأفعل ـ أى لا أتبع دينه أبدا . . [١٢٢]

وجاء فى أسباب النزول : فى قوله تعالى :

« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون » مايلى :

التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام : فقال الأخنس لأبى جهل : ياأبا الحكم ، أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ههنا من يسمع كلامك غيرى .

فقال أبوجهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنو عبد المطلب باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [١٢٣]

وذكر أبو ميسرة : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر بأبى جهل وأصحابه ـ فقالوا : يا محمد ، إنا والله ما نكذبك ، وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذب ما جئت به فنزلت .

وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف . . كان يكذب النبى ﷺ فى العلانية ، فإذا خلا مع أهل بيته قال : مامحمد من أهل الكذب ، ولا أحسبه إلا صادقاً [١٢٤]

ولقد كان ملقباً عندهم قبل البعثة بالصادق الأمين . .

---

(١٢٢) الرسول لسعيد حوا جـ ١ ص ٢٢

(١٢٣) الانعام ٣٣

(١٢٤) أسباب النزول للواحدى ص ١٦١

فكيف به بعد البعثة ؟ ولكن مكابرة الكفار وعنادهم هو الذى جعلهم يكذبون . . إلا أن تكذيبهم هذا لم يستمر . . فكثير منهم دخل الاسلام بعد فترة من الزمان طالت أو قصرت من أمثال ـ خالد وأبي سفيان وعكرمة وعمرو بن العاص وغيرهم . .

ولم يكتف هؤلاء بالإسلام بل تفانوا فيه ، وجاهدوا فى سبيل نشره . .
هذه بعض شهادات الأعداء . . أما شهادة الأتباع فظاهرة واضحة . .
وكلامهم عنه ووصفهم له وحبهم إياه وإيثارهم له على أنفسهم وأهليهم يشهد بأنه كان المثل الأعلى فى حياتهم . .
وإيمانهم بصدقه كان مضرب الأمثال حتى ان أحدهم ليقول له : أصدقك على خبر السماء أفلا أصدقك على خبر الأرض ؟

وهذا هو خزيمة بن ثابت الذى يقول فيه النبى ﷺ من شهد له خزيمة فحسبه ، يعنى أن شهادته بشهادة رجلين . .
ولذلك قصة يحسن أن نذكرها كما قصها فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى . .
قال : ابتاع الرسول ﷺ فرساً من أعرابى ثم طلب النبى ﷺ من الأعرابى أن يتبعه ليعطيه ثمن فرسه . .

فأسرع رسول الله ﷺ فى مشيته ، وأبطأ الأعرابى فطفق رجال يعترضون الأعرابى ليساوموه فى الفرس ، ولا يعرفون أن النبى ﷺ قد ابتاعه فنادى الأعرابى رسول الله ﷺ قائلاً : إن كنت مبتاعاً هذا الفرس وإلا بعته . .

يعنى : هل تريد شراء الفرس أو أبيعه ؟

فقال النبى ﷺ : أو ليس قد ابتعته منك ؟

فقال الأعرابى : لا والله مابعتكه ـ أى مابعته لك ـ

فقال النبى ﷺ : بلى قد ابتعته منك . .

فقال الأعرابى : هلم شهيداً . . أى ائتنى بشاهد

فقال خزيمة بن ثابت : إنى أشهد أنك قد بعته لرسول الله . .

وبعد أن انصرف الناس أقبل النبى ﷺ على خزيمة وقال له : بم تشهد ولم تكن موجوداً ؟

فقال خزيمة : بتصديقك يارسول الله ، هل نصدقك فى كل ماتأتينا به من خبر السماء ونكذبك فى هذه ؟ فعرف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سعة العقل وحسن الاستنباط فقال : من شهد له خزيمة فحسبه . .

فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهادة خزيمة بشهادة رجلين وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجاز شهادته بشهادة رجلين . .

ولما بدأت كتابة القرآن الكريم وكتبت الآية الكريمة :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٢٥)

ولم توجد هذه الآية محفوظة إلا فى صدر خزيمة بن ثابت . . فأخذت شهادته بشهادة رجلين ، وتم تدوين الآية (١٢٦)

---

(١٢٥) الأحزاب ٢٣

(١٢٦) محمد رسول الله ﷺ للشيخ محمد متولى الشعراوى ص ١٢١

وكانوا لا يكتبون إلا ماوجد محفوظاً فى صدر رجلين على الأقل . .

فكانت كلمة النبى ﷺ معجزة تم بها حفظ آية من آيات القرآن الكريم ، إذ لولا شهادة النبى ﷺ لخزيمة بأن شهادته بشهادة رجلين ماقبل كتّاب الوحى منه هذه الآية إلا بشهادة رجل آخر معه .

وقد تعرض المسلمون لكثير من المتاعب والمصاعب من أجل تصديقهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أداهم ذلك إلى التضحية بنفوسهم فى سبيل ما جاء به ، وربما استدعى ذلك المواجهة الدامية بين الابن وأبيه والأب وابنه . .

فقد كان تصديق أبي عبيدة بن الجراح للنبى ﷺ سبباً فى أن يواجه أباه فى بدر ، ويحرص الأب على قتل ابنه الذى اتبع محمداً ﷺ وتضييق الخناق عليه حتى لا يفلت منه مما اضطر أبا عبيدة إلى الدفاع عن نفسه دفاعاً كان من نتيجته مصرع والده .

وأخرج الحافظ أبو الحسن الطرابلسى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ، ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور ، فقال : ياأبا بكر إنا قليل ، فلم يزل أبو بكر يلح ، حتى ظهر رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم ـ وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد ، كل رجل فى عشيرته ، وقام أبو بكر فى الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس . .

فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين واعتدوا عليهم وآذوهم إيذاء شديداً ، وهجموا على

أبي بكر وأخذوا يضربونه ضرباً شديداً حتى سقط على الأرض ، وكان عتبة بن ربيعة هو أكثر الكفار اعتداء على أبي بكر في ذلك اليوم (١٢٧)

وجاء بنو تيم يهرولون فدفعوا عن أبي بكر وهم يظنون أنه قد مات ، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن به عتبة بن ربيعة .. ولم ينج عتبة من القتل إلا برد أبي بكر بعد أن كان لا يرد ..

وكانت أول كلمة نطق بها أبو بكر بعد إفاقته أن سأل عن النبي ﷺ وكان يخشى أن يكون قد أصابه مكروه .

ولم يهدأ له بال حتى علم أنه بخير ..

وهناك أخبار كثيرة تشهد بذلك ، بل إن أخبار أصحابه كلها ، وبسالتهم النادرة وتضحيتهم البالغة وتسابقهم إلى الجهاد في سبيل الدعوة التي جاء بها ، وإيثارهم الموت على الحياة في ذلك .. لهو شهادة قاطعة بصدق رسول الله ﷺ فيما جاء به ..

فإذا ماجئنا إلى شهادة الواقع أدركنا عظم صدقه ﷺ وإن أعظم شهادة لهي شهادة التاريخ ..

وانظر إلى أي خبر ذكر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو أي كلمة قالها ، أو إلى أي حديث أخبر به عن المستقبل تجده صادقاً كل الصدق .. حتى في مزاحه العادي ومداعباته ، كان آية في الصدق ، وقد كان النبي ﷺ مع أصحابه بشراً يباسطهم ويداعبهم ..

انظر إلى قوله لعجوز قالت له : ادع الله أن يدخلني الجنة .. فقال لها .. لايدخل الجنة عجوز

---

(١٢٧) الرسول لسعيد حوا جـ١ ص ٢٥

وظاهر هذه العبارة التى داعب بها الرسول هذه المرأة العجوز يقضى بحرمانها من الجنة ، فولت المرأة وهى تبكى ..

ولكنه أمر بردها فقال لها : لم تبكين ، أوماعلمت أنك عند دخولك الجنة سترجعين شابة كما يقول - تعالى -

﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ (١٢٨)

وجاءه رجل فقال له : احملنى يارسول الله ؛ فقال : إنا حاملوك على ولد ناقة ..

فقال الرجل : يارسول الله ما أصنع بولد ناقة ؟

فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ (١٢٩)

لقد داعبه النبى ﷺ ولم تكن مداعبته إلا حقاً ، كما كانت مداعبته لتلك العجوز هى عين الحق ..

أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قالوا : يارسول الله إنك تداعبنا ..

قال : نعم ولكنى لا أقول إلا حقاً ..

أجل ، إنها النبوة ومن دلائلها الصدق الكامل فى كل شىء ، حتى لو كان فى مزاح أو مداعبة ..

ولم يحدث أن أخل النبى ﷺ بوعد أو نكث فى عهد .. وكيف يخلف الصادق وعداً أو ينكث فى عهد ؟

---

(١٢٨) الواقعة ٣٥ : ٣٧

(١٢٩) رواه الترمذى وأبو داود

روى ابن الأثير فى ترجمة عبد الله بن الحمساء قال : بايعت النبى ﷺ ببيع قبل أن يبعث ، فوعدت أن آتيه فى مكانه ذلك ، فنسيت يومى هذا والغد فأتيته فى اليوم الثالث ، وهو فى مكانه ، فقال لى : يافتى ، لقد شققت علىَّ ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك (١٣٠)

وأخرج ابن حبان والحاكم : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال : إن لى عندك موعداً يارسول الله ، قال صدقت ، فاحتكم ما شئت ، قال أحتكم ثمانين ضائنة . .

قال : هى لك ، وقال : احتكمت يسيراً (١٣١)

شهادة من مفكرى المحدثين :

لقد كتب توماس كارليل كتابه ـ الأبطال ـ الذى جاء فيه حديث عن النبى ﷺ بعنوان الرسول البطل . .

وكان مما كتبه فى ذلك :

لقد أصبح من العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يدعيه بعض الجهال الحاقدين من أن دين الاسلام كذب ، وأن محمداً ليس بنبى . . . إن علينا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مائتى مليون من الناس (١٣٢)

أفكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها الملايين

---

(١٣٠) أسد الغابة لابن الأثير جـ ٥ ص ٣١٧

(١٣١) الرسول لسعيد حوا جـ ١ ص ٣٣

(١٣٢) كلن ذلك وقت كتابة بحثه أما الآن فقد مضى أربعة عشر قرناً ، وعدد المسلمين يزيد على الألف مليون مسلم .

الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً . . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ـ فما الناس إلا بله ومجانين ، ومالحياة إلا سخف وعبث . .

وهل رأيتم قط أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد دينا عجيباً ؟ والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب . . وليس هذا البيت جديراً بأن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم وكأنه لم يكن . .

أما الرجل الكبير فإنى أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإنى أرى الصدق أساسه وأساس كل ماجاء به من فضل ومحمدة . .

والاخلاص هو أول خواص الرجل العظيم ، ولا أريد إخلاص ذلك الرجل الذى لا يبرح يفتخر للناس بإخلاصه ، كلا ، فإن هذا حقير جداً ، وإخلاصه إخلاص سطحى وقح ، وهو فى الغالب غرور وفتنة . .

وإنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه ، ولا يشعر بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بالتقصير . . إن إخلاصه كامن فيه فهو مخلص بطبيعته التى أودعها الله فيه . . هو يرى الوجود كله حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول . هكذا خلق الله ذهنه ، وَخَلْقُ ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته . .

وعلى هذا فلسنا نعد محمداً ﷺ قط كاذباً متصنعاً يتذرع بالوسائل والحيل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر . . ومالرسالة التى أداها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوت صدق صادر من العالم المجهول ، كلا . . ما محمد بالكاذب ولا المخادع ،

وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الأرض فإذا هو شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدفع كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين (١٣٣)

إن شهادة هذا المستشرق الفرنسى بعد اثنى عشر قرناً من تاريخ الدعوة الاسلامية شهادة لها وزنها فى عالم الغرب الذى يملؤه الغرور ، ويحاول أن يشوه صورة الاسلام ورسوله فى نفوس الناس .

ولكى يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، فتجىء الشهادات تلو الشهادات من الخصوم قبل الأنصار تعلن نصاعة هذا الدين وصدق رسوله بما لا يدع مجالاً لشبهة أو مكاناً لشك ، ويتوج ذلك إعلان بعض هؤلاء إسلامهم عن اقتناع كامل وتفكير عميق ودراسة متأنية وبحث طويل ، ويجرد هؤلاء المسلمون الجدد أقلامهم فى نصرة هذا الدين الغالب الذى جعله الله خاتم الأديان وارتضاه للناس جميعاً ديناً لا يقبل منهم سواه

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١٣٤)

وما ينطق عن الهوى :

ويمر الزمان على أقوال الرسول ﷺ التى قالها منذ أربعة عشر قرناً فلا تجد إلا أنها ازدادت صدقاً وثبوتاً وتأكيداً .

ومنها ما أثبت العلم الحديث أصالته وصدقه واهتدى به فيما يقوم به من تجارب يصل بنتائجها إلى مقررات . .

---

(١٣٣) من بحوث العدد التذكارى للسيرة النبوية ص ٥٦١ الأزهر الشريف

(١٣٤) آل عمران ٨٥

لنستشهد على ذلك بحديث طالما تحدث عنه العلماء ودارت حوله معارك قلمية وعلمية . . . ذاك هو حديث الذبابة : « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن فى أحد جناحيه داء وفى الآخر شفاء » (١٣٥)

ولنبدأ فى مناقشة مادار حول الحديث بقول الحافظ ابن حجر ـ قال : قال الخطابى : تكلم على هذا الحديث من لا خلاق له فقال : كيف يجتمع الشفاء والداء فى جناحى الذباب ؟ وكيف يعلم ذلك من نفسه حتى يقدم جناحاً ويؤخر جناحاً . .

نقول : هذا سؤال جاهل أو متجاهل ، فإن كثيراً من الحيوان قد جمع الصفات المتضادة ، وقد ألف الله بينها وقهرها على الاجتماع ، وجعل منها قُوَى الحيوان ، وإن الذى ألهم النحلة اتخاذ البيت العجيب الصنعة للتعسيل فيه ، وألهم النملة أن تدخر قوتها إلى أوان حاجتها ، وأن تكسر الحبة نصفين لئلا تستنبت-لقادر على إلهام الذبابة أن تقدم جناحا وتؤخر آخر .

وقال ابن الجوزى : ما ذكر عن هذا ليس بعجيب ، فإن النحلة تعسل من أعلاها وتلسع من أسفلها ، والحية القاتل سمها يدخل بعضه فى الترياق الذى يعالج به السم ، والذبابة تسحق مع الإثمد لجلاء البصر ، وذكر بعض حذاق الأطباء أن فى الذباب قوة سُمّية يدل عليها الورم والحكة العارضة عن لسعه ، وهى بمنزلة السلاح له ، فإذا سقط الذباب فيما يؤذيه تلقاه بسلاحه ، فأمرنا أن نقابل تلك القوة السمية بما أودعه الله تعالى فى الجناح الآخر من الشفاء ، فتتقابل المادتان فيزول الضرر بإذن الله تعالى (١٣٦)

---

(١٣٥) أخرجه البخارى عن أبى هريرة بلفظة : ثم ليطرحه ـ باب الطب ورقمه ٥٧٨٢ وأخرجه البزار عن أنس ورجاله الصحيح ـ الجامع الأزهر فى حديث النبى الأنور جـ ١ ص ٤٨ وشرح الحديث الحافظ ابن حجر فى فتح البارى جـ ١٠ ص ٢٦٠

(١٣٦) فتح البارى لابن حجر جـ ١٠ ص ٢٦٣

هذا ما قاله العلماء الأقدمون ..

فماذا قال العلماء المحدثون فى ذلك ؟

وبغض النظر عن استعمال الطعام والشراب الواقع فيهما الذباب فإن الحديث لم يدع إلى استعمالهما أو تركهما ، ولكنه يتعرض لقضايا علمية يجب التنبيه لها ..

قال الأستاذ سعيد حوا :

إن هذا الحديث ذكر قضيتين كلتاهما لم تكن معروفة قديماً ..

أولاهما أن الذباب ناقل داء ، وهذا شيء أصبح الآن معروفاً لدى الجميع من أن الذباب ناقل جراثيم ممتاز .

والثانية وهى التى يجهلها الكثير أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم من النوع الممتاز كذلك ..

وهناك تحقيق كتبه « الدكتور عز الدين جوالة » حول هذا الموضوع ننقل منه ما يلزمنا :

١ ـ من المعروف منذ القدم أن بعض المؤذيات يكون فى سمها نفع وداء ، فقد يجتمع الضدان فى حيوان واحد ، فالعقرب فى إبرتها سم ناقع ، وقد يداوى سمها بجزء منها ، وفى ذلك يقول العلماء : « وقد وجدنا لكون أحد جناحى الذباب داء ، والآخر شفاء فيما أقامه الله من عجائب خلقه ، وبدائع فطرته شواهد ونظائر ... منها النحلة يخرج من بطنها شراب نافع ، ويكمن فى إبرتها السم الناقع » ـ وقد أشار ابن حجر الى ذلك فيما نقلناه آنفا ..

٢ ـ وفى الطب يحضرٌ لقاح من ذبيب الأفاعى والحشرات السامة ، يحقن به

لدفع سم العقرب ولدفع سم الأفعى بل وينفع فى تخفيف آلام السرطان أيضاً .

٣ ـ إن الطب الحديث استخرج من مواد مستقذرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأساً على عقب ، فالبنسلين استخرج من العفن والستربتومايسين من تراب المقابر ، وبمعنى أدق من طفيليات العفن وجراثيم تراب المقابر .

أماً والحالة كذلك فهل يمتنع عقلياً ونظرياً أن يكون فى الذباب ـ تلك الحشرة القذرة والتى تنقل القذر ـ طفيل أو جُرثوم يُخْرِج أو يحمل دواء يقتل هذا الداء الذى تحمله ؟

٤ ـ من المعروف فى فن الجراثيم أن للجرثوم ذيفان (مادة منفصلة عن الجرثوم) وأن هذا الذيفان إذا دخل بدن الحيوان كون البدن أجساماً ضد هذا الذيفان ، لها قدرة على تخريب الذيفان والتهام الجراثيم ـ تسمى بمبيدات الجراثيم .

فهل يستبعد القول بأن الذباب يلتهم الجراثيم فيما يلتهم ، فيكون فى جسم الذباب الأجسام الضدية المبيدة للجراثيم ، والتى مر ذكرها ؟ ولها القدرة على الفتك بالجراثيم المرضة التى ينقلها الذباب إلى الطعام أو الشراب ؟ فإذا وقعت فى الطعام ذبابة فما علينا إلا أن نغمس الذبابة فيه فتخرج تلك الأجسام الضدية فتبيد الجراثيم التى تنقلها وتقضى على الأمراض التى تحملها .

وهناك تحقيق للطبيبين المصريين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين ـ فى إثبات ما فى الحديث .. ننقل منه مايلى :

فى ١٨٧١ م وجد الأستاذ الألمانى « بريفلد » من جامعة هال بألمانيا أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيل من جنس الفطريات سماها « امبوزاموسكى » وهو طفيلى يعايش الذبابة على الدوام .

وبالتدقيق فيه وجده من نوع الفطور التى تسمى « انتوموفترالى » تنتمى إلى أهم فصيلة فى الفطور الأشنية وهى المسماة بالفطور الأشنية المرتبطة أو المتحدة ، وهو من النوع الثانى للفطر المسمى الفطور الأشنية الطفيلية . .

وهذا الطفيل يقضى حياته فى الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطن الذبابة بشكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة سيأتى ذكرها ، ثم لا تلبث هذه الخلايا المستديرة أن تستطيل فتخرج من الفتحات أو من بين مفاصل حلقات بطن الذبابة فتصبح خارج جسم الذبابة .

ودور الخروج هذا يمثل الدور التناسلى لهذا الفطر ، وفى هذا الدور تتجمع بذور الفطر داخل الخلية ، فيزداد الضغط الداخلى للخلية من جراء ذلك ، حتى إذا وصل الضغط الى قوة معينة لا تتحملها جدر الخلية انفجرت الخلية وأطلقت البذور إلى خارجها بقوة دفع شديدة ، تدفع البذور الى مسافة ٢ سم خارج الخلية ، على هيئة رشاش مصحوب بالسائل الخلوى ، وعلى هذا إذ أمعنا النظر فى ذبابة ميتة ومتروكة على الزجاج نشاهد :

أ ـ مجالاً من بذر هذا الفطر حول الذبابة المذكورة .

ب ـ ونشاهد على بطنها وعلى ظهرها وجود الخلايا المتفجرة والتى أخرجت معها البذور ، وقد برز منها رءوس الخلايا المستطيلة التى مر ذكرها

وقد جاءت اكتشافات العلماء الحديثة مؤيدة لما ذهب إليه « بريفلد » ومبينة خصائص عجيبة لهذا الفطر الذى يعيش فى بطن الذبابة .

والخلاصة أنه يستدل من كل ما سبق على مايلى :

١ ـ يقع الذباب على الفضلات والمواد القذرة فيحمل بأرجله أو يمج من جسمه كثيراً من الجراثيم المرضية الخطيرة .

٢ ـ يقع الذباب على الطعام فيلمس بأرجله الملوثة الحاملة للمرض هذا الطعام أو الشراب فيلوثه بما يحمل من سم ناقع ، ويلقى فيه الجراثيم الدقيقة الممرضة .

٣ ـ فإذا أخرجت الذبابة من الطعام وألقيت خارجاً دون غمس بقيت هذه الجراثيم فى مكان سقوط الذباب فإذا التهمها الآكل وهو لا يعلم طبعاً ، دخلت الجراثيم فيه ، فإذا وجدت أسباباً مساعدة تكاثرت ثم صالت وأحدثت لديه المرض ، فلا يشعر إلا وهو فريسة للحمى طريح الفراش .

٤ ـ أما اذا غمست الذبابة كلها فى الطعام أو الشراب فماذا يحدث ؟ تحدث حركة الغمس ضغطاً داخل الخلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة ويؤدى ازدياد توتر البروز والسائل داخلها إلى انفجار الخلايا وخروج الأنزيمات الحاملة لمضادات المرض القاتلة له ، فتقع على الجراثيم التى تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها ، ويصبح الطعام طاهراً من الجراثيم المرضية .

٥ ـ وهكذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيراً للحديث النبوى الشريف المؤكد لضرورة غمس الذبابة كلها فى السائل أو الغذاء ليخرج من بطنها الدواء الذى يكافح الداء .

ويستنتج من ذلك أن العلم الحديث قد حقق ما أخبر عنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ أربعة عشر قرناً (١٣٧) ، ويؤكد أن كلام النبى ﷺ لم يطلق على عواهنه ، ولكنه كلام مؤيد باليقين العلمى الدقيق ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (١٣٨)

حديث السواك :

ومن الأحاديث النبوية الشريفة المتصلة بالناحية العلمية ـ والتى استطاع العلم الحديث أن يدرك قيمتها وأهميتها بعد قرون عديدة قوله : ـ صلى الله عليه وسلم ـ

« لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » . . .

لقد أثبتت الأيام عبقرية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأكد العلم الحديث أن استعمال السواك والمداومة عليه فيه منجاة من كثير من الأمراض التى تعترى الجسم عن طريق تسوس الأسنان أو فساد اللثة بسبب عدم المواظبة على نظافة الفم .

ربما كان الناس ينظرون إلى هذا الحديث قديماً على أنه من الأوامر المستحبة التى يمكن التجاوز عنها دون أن يكون هناك خطر كبير ، ولكن بعد التقدم العلمى واكتشاف أسباب العلل والأمراض وإمكان رؤية الجراثيم والميكروبات بواسطة المناظير المكبرة أمكن معرفة ما يعترى الإنسان من خلل ، وأمكن فى ضوء ذلك اكتشاف مافى شجر الأراك الذى يؤخذ منه

---

(١٣٧) راجع كتاب الرسول لسعيد حوا ص ٣٦ : ٤٠

(١٣٨) النجم ٣ : ٤

السواك من مواد طاردة لهذه الجراثيم وقاضية عليها . .

إن اكتشاف الآثار الضارة المترتبة على مرض الأسنان كان وراء إنشاء هذه المعامل وتلك الشركات التى أنتجت وتنتج مئات الأنواع من معجون الأسنان ووسائل التنظيف والعلاج ، ومازالت هذه الأنواع وتلك الوسائل عاجزة عن اللحاق بما فى هذا العود الصغير البدائى المأخوذ من شجر الأراك .

وربما ظن بعض الناس أن قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شأن السواك ليس من قبيل الإعجاز ولكنه كلام يدعو إلى النظافة . . فليكن كذلك ـ ولكن لابد أن يلاحظ ذلك الظان تلك البيئة التى كان يعيش فيها الرسول ﷺ وكيف أن هذا السواك الذى دعا إلى استعماله فيها لم يفقد فعاليته بعد مرور أربعة عشر قروناً من الزمان ، عرف الإنسان فى خلالها تلك الأدوية والمطهرات والوسائل الحديثة والمعقمة .

ولكن ماقول هذا الظان وغيره حين يسمع قول النبى ﷺ يتحدث عن أحدث التخصصات العلمية فى الحديث التالى :

عن عائشة رضى الله الله عنها ـ أن فاطمة بنت أبى حبيش سألت النبى ﷺ ـ فقالت ؛ إنى أستحيض فلا أطهر أفأدع الصلاة ؟ (١٣٩)

فقال : لا ، إن ذلك دم عرق ، ولكن دعى الصلاة قدر الأيام التى كنت تحيضين فيها ثم اغتسل وصلى . .

وقد علق الأستاذ سعيد حوا على هذا الحديث بقوله :

المسألة هنا كمايلى : للمرأة عادة شهرية يخرج فيها الدم من رحمها كأثر من آثار عدم تلقيح بويضة الأنثى بماء الذكر ، والدم الذى يخرج منها فى

---

(١٣٩) الاستحاضة أن يستمر بالمرأة خروج الدم بعد أيام حيضها المعتاد

هذه الحالة يسمى دم حيض .

وهذه امرأة يخرج منها الدم دائماً ، وكانت تتصور أن هذا الدم كله دم حيض ، ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفهمها أن هذا الدم ليس دم حيض ولكنه نزيف عرق . .

فماذا يقول العلماء المتخصصون المعاصرون الآن فى هذه الظاهرة ؟

يقولون : إن الدم الوحيد الذى يخرج من الرحم هو دم الحيض والنفاس . .

أما الدم الآخر الذى يكون فى غير هذا فمرجعه إلى نزيف يحدث فى بعض الأغشية مما لا علاقة له بالرحم أو بدم الحيض الذى يخرج منه .

فهل كان حديث أهل الاختصاص فى عصرنا إلا مصدقاً لما قاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ من عصور لم يكن هذا معروفاً فيها ؟

إن مطابقة ما يقوله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما توصل إليه العلم الحديث من كشوفات ـ دليل صدق على أن الله سبحانه وتعالى كشف لنبيه ﷺ عن حقائق المعلومات ، مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ﴾ (١٤٠)

وصدق البوصيرى ـ رحمه الله ـ فى قوله :

لك ذات العلوم من عالم الغيب قديماً وآدم له الأسماء

وضرب الأستاذ سعيد حوا أمثلة متعددة خلص منها إلى أن كشوفات عصرنا قد برهنت على صدق مادلت عليه الأحاديث التى مثل بها .

---

(١٤٠) النساء ١١٣

وقرر فى ضوئها أنه مامن كلمة قالها رسول الله ﷺ إلا وكان الحق والصدق يملؤها . .

وكلام الرسول ﷺ ينقسم إلى قسمين : ماله علاقة بالغيب ، وماله علاقة بالمشاهد المحسوس . .

والنوع الثانى هو الذى يستطيع الإنسان أن يختبره ، فإذا ما ثبت صدقه فيه . . كان ذلك آية صدقه فى النوع الأول ، مع أن الله قد جعل له علامات أخرى تكون دليل صدق له فى أمر الغيب وهى المعجزات الحسية والمعنوية . .

فرسول الله ﷺ ثبت صدقه فى كل شىء مع هذه المؤيدات فلا يبقى هناك مجال أمام الانسان إلا التسليم له . .

لقد كان النبى ﷺ محباً للصدق داعياً إليه ، ولم تُكَذِّبْ الأيام طول القرون الكثيرة الماضية كلمة واحدة قالها ،مرشداً أو موجهاً أو مخبراً أو مشرعاً أو محدثاً أو متنبئاً .

وصدق الله اذ يقول عنه « وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى »

وإذا كنا قد ذكرنا أمثلة لما صدقه الواقع ، فلنذكر مثالاً من تنبؤ الرسول ﷺ بالغيب وتصديق الزمن لذلك . .

النبى وسـراقة :

حين هاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة تبعه سراقة بن مالك طمعاً فى المكافأة التى رصدها المشركون لمن يأتى بمحمد وصاحبه .

قال سراقة ـ فيما ذكره ابن هشام ـ : فركبت على أثره ، فبينما فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه ، فقلت : ماهذا ؟

ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره

قال : فأبيت إلا أن أتبعه ..

فركبت فى إثره ، فبينما فرسى يشتد عثر بى فسقطت عنه ..

قال : فأبيت إلا أن أتبعه

فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى فذهبت يداه فى الأرض وسقطت عنه ..

ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعها دخان كالإعصار ..

قال : فعرفت ـ حين رأيت ذلك ـ أنه قد منع منى وانه ظاهر ..

فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقة بن جعشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لاأريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ..

قال : فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : قل له وماتبغى منا ؟

قال : فقال لى أبو بكر ذلك ، فقلت : تكتب لى كتاباً يكون آية بينى وبينك ..

قال : اكتب له ياأبا بكر .

فكتب لى أبو بكر كتاباً فى عَظْم أو فى رقعة ثم ألقاه إلىّ ، فأخذته فجعلته فى كنانتى وفى بعض الروايات أن النبى ﷺ وعده سوارى كسرى ومنطقته وتاجه ، ثم تدور الأيام ويسلم سراقة عام الفتح ويحسن إسلامه ، ويشترك فى فتوح فارس ، فلما أُتِىَ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بتاج كسرى وسواريه ومنطقته دعا بسراقة ، وكان أزب الذراعين ـ أى كثير الشعر فيهما ـ

فحلاه حلية كسرى ، وقال له ارفع يديك وقل : الحمد لله الذى سلب هذا كسرى ـ الملك الذى كان يزعم أنه رب الناس ـ وكساها أعرابيا من بنى مدلج ، فقال ذلك سراقة ، وإنما فعلها عمر لأن رسول الله ﷺ كان قد بشر بها سراقة حين أسلم ، وأخبر أن الله سيفتح عليه بلاد فارس ، ويغنمه ملك كسرى ، فاستبعد ذلك سراقة فى نفسه ، وقال : أكسرى ملك الملوك ؟

فأخبره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن حليته ستجعل عليه تحقيقاً للوعد ـ وإن كان أعرابياً بدوياً ، ـ لأن الله يعز بالإسلام أهله ، ويسبغ على محمد ﷺ وأمته نعمه وفضله (١٤١)

لقد تحققت نبوءة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وهناك قصص كثيرة تشهد بذلك ، وكلها تنبىء عن الصدق المعجز الذى تتحقق نبوءته ، وليس هذا من قبيل الحدس أو التخمين الذى يقيس فيه صاحبه النتائج على المقدمات ، فإن ذلك إن حدث لبعض أصحاب الفطنة والذكاء وبعد النظر والتأمل ، فإنه يتخلف فى كثير من الأحيان . .

والفراسة على أية حال ضرب من الالهام ولاسيما إذا كان صاحبها مؤمناً ويقول ﷺ فى ذلك : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله . . ولكن ذلك بالنسبة للنبى ﷺ أمر أعظم من ذلك وأجل ، إنه الوحى الإلهى والتلقين الربانى والتعليم الأسمى والتوعية العليا التى تعصم صاحبها من أن تذهب ألفاظه أدراج الرياح ، أو أن تغير الأيام من أنبائه التى استشفها من مسطور

---

(١٤١) الروض الانف جـ ٢ ص ٢٣٣

الغيب وأخبر بها . لتضيف إلى جلال العظمة النبوية أرصدة أخرى من الصدق والجلال .

تبليغ الدعوة :

ولكى يكون الداعى إلى أمر من الأمور ناجحاً فى دعوته لابد أن يكون قدوة عملية فيه . . فإنه بذلك يكون خليقاً بالاستجابة إلى دعوته موفقاً فى مهمته . .

والنبى - صلى الله عليه وسلم - حين دعا إلى ربه كان ملتزماً بكل كلمة يقولها ويدعو إليها . . فليس هناك انفصال فى سلوكه بين قوله وفعله أو بين منهجه وتطبيقه ، واذا دققنا النظر فى دعوات الداعين عبر العصور ممن جاءوا بدعوات أو نظريات ليس بينها وبين السماء اتصال . وجدناها تبرق قليلاً ثم لا تلبث أن تنطفىء وتذهب مبادئها أدراج الرياح ، لأن أصحابها لا يلتزمون بما يدعون إليه من مبادىء . . وكم فشلت لذلك ثورات ونظريات ودعوات وفى التاريخ أمثلة كثيرة لذلك . .

ولكن النبى ﷺ جاء بدعوته التى أوحى الله إليه بها ، وكان قدوة عملية فى تطبيقها قبل أن يدعو غيره إلى ذلك . .

ومنذ أن صدر إليه الأمر بتبليغ دعوته لم يقصر ولم يستكن ولم يهدأ له بال فى ذلك . .

ولنضرب أمثلة لبعض الأوامر التى جاءت بها هذه الدعوة الكريمة وكان النبى ﷺ قدوة عليا فى تنفيذها أولاً . .

قال الله له :

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ (١٤٢)

فكان مثالاً فريداً فى العبادة ، لقد عرف ربه وعرف حقه عليه ، فألزم نفسه عبادته ، واشتد قربه منه فاشتدت خشيته له ، وأدرك قدره عند ربه الذى غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر فأجهد نفسه فى عبادته شكراً له وعرفاناً بفضله ، وعرف أن الله أرسله ليقيم دعائم دين جعله الله خاتم الديانات ، وجعل سلوكه وسيرته تشريعاً لأمته وأخلاقه منهاجاً يتبع وسنة يقتدى بها فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الكامل فى العبادة الخالصة المخلصة .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى الهدف من خلق الانسان ، فقال

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ ﴾ (١٤٣)

فالهدف هو العبادة والعبادة المخلصة . كما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾ (١٤٤)

---

(١٤٢) الحجر ٩٩
(١٤٣) الذاريات ٥٦ : ٥٧
(١٤٤) البينة ٥

فالتزم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا الهدف ، وأداه كما يجب ، لأنه رآه كما جاء ـ هدفاً عاماً للجميع وقد خوطب به هو بصفة خاصة فى موضع آخر حيث يقول القرآن الكريم :

« قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت أن أكون أول المسلمين ، قل أنى أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصاً له دينى »

وللعبادة هدف يظهر فى ترقية نفس الإنسان وتنويرها ، وتخليصها بالطاعة يعلق بها من آثام ومازال تصفو بذلك وترتفع حتى تصل إلى درجة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فإذا جاز هذا فى حق الإنسان العادى فما بالك بالنبى ﷺ الذى قربه الله واصطفاه وغفر له ما تقدم من ذنبه وماتأخر ؟

لقد كان النبى ﷺ قدوة لأمته فى العبادة حتى انه كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه ، وسألته السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ يوماً عن ذلك ، ومما قالت له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وماتأخر . .
فقال لها : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

أجل ، كان النبى ﷺ قدوة المتعبدين قبل البعثة وبعدها . .
فقد كان قبل البعثة يدرك أن هناك من يستحق التفرد بالعبادة غير هذه الأصنام التى كان يصنعها قومه ويسجدون لها من دون الله ، فنأى عنها ، وأخذ يتحرى دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعبد الله فى ظله . .

جاء فى سيرة ابن هشام : كان ـ عليه السلام ـ يجاور فى حراء كل سنة شهراً . . يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره أن يطوف بالكعبة سبعاً أو بما شاء الله من ذلك . .

وبعد أن مَنَّ الله عليه بالنبوة والرسالة ازدادت عبادته لله وطاعته له ، ورسم المنهج الكامل فى العبادة لأمته ، حتى يعبدوا الله على بصيرة من أمرهم مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (١٤٥)

لقد علم أمته كيف يكون الإخلاص فى العبادة وبيَّن الله له المنهج الذى أمره أن يبلغه لقومه فى ذلك ، وأخبر عنه القرآن الكريم بقوله :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١٤٦)

لقد كان النبى ﷺ يشق على نفسه فى العبادة لأنه يعرف حق ربه عليه

---

(١٤٥) يوسف ١٠٨

(١٤٦) الأنعام ١٦١ : ١٦٣

ومع ذلك فقد كان ينصح أمته بالاقتصاد فيها قائلاً لهم : إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

وكان يواصل أحياناً فى صيامه ولكنه نهى أمته عن ذلك خشية أن يشقُّوا على أنفسهم ، ولما قيل له : إنك تواصل . قال : إنى لست مثلكم إنى أطعم وأسقى وفى رواية وأيكم مثلى ؟ إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى . .

وكان إذا صلى وحده أطال ولكنه يدعو من يؤم الناس أن يخفف . يقول لهم : من أم الناس فليخفف فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة .

كان النبى ﷺ قدوة لأمته فى حياته الخاصة والعامة وفى علاقته بربه وعلاقته بالناس ، وكان يكثر من مناجاته لربه ، والدعاء إليه ، والدعاء مخ العبادة كما يقولون ـ والمأثور عن النبى ـ ﷺ فى ذلك لاحصر له ، وفيه أسو صالحة لمن أراد أن ينسج على منواله من الطامحين إلى رحمة الله المتطلعين إلى عفوه ورضاه (١٤٧)

ومن الأوامر التى دُعِىَ النبى ﷺ إلى تبليغها لأمته ـ الإنفاق فى سبيل الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزهرتها . .

وقد كان النبى ﷺ مثلاً أعلى فى الزهد والعفة والقناعة والإنفاق فى سبيل الله . .

وبلغ من زهده أنه كان يطوى الليالى جائعاً وليس فى بيته شيء . .

روى البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : توفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى . .

وكانت تقول : يمر الشهر والشهران ولا يوقد فى بيت محمد وأهله نار . .

فقيل لها وماذا كنتم تأكلون ؟ قالت : الأسودان : الماء والتمر . .

---

(١٤٧) راجع بحث النبى العابد ـ العدد التذكارى لمؤتمر السيرة النبوية .

وربما يظن ظان أن هذا الزهد عن قلة ، فهو زهد المغلوب على أمره الذى لايجد شيئا . . كلا ، ولكنه زهد القادر ، الذى فى استطاعته أن يملك ولكنه عف عن الملك ، وقد خيره الله بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً ، وقال : أجوع يوما وأشبع يوما ، فإن جعت حمدت الله وإن شبعت شكرتُ الله . .

فى غزوة حنين غنم المسلمون غنائم كثيرة ، وكان فى إمكانه صلى الله عليه وسلم أن ينال منها الكثير ولكنه وزع كل ماغنمه على المسلمين ، وأعطى المؤلفة قلوبهم عطاء كثيرا كان مثار العجب ، حتى لقد قال أحدهم : إن محمداً يعطى عطاء من لايخشى الفقر . . أجل إنه كان لايخشى الفقر لأن الله ملأ قلبه غنى وسكينة وأمناً واطمئناناً .

وتكاثر عليه طالبو العطاء يومئذ فوقف مغضبا إلى جانب بعير له فأخذ وبرة من سنامه وجعلها بين اصبعيه ثم رفعها وقال : أيها الناس والله مالى فى هذه الغنائم ولاهذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم . .

أيها الناس ، فوالله لو أن لى بعدد شجر تهامة إبلا لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولاجباناً ولاكذاباً .

ثم إنه نزل عن نصيبه لهؤلاء الذين كانوا منذ أيام ألد أعدائه ، فأعطى مائة من الإبل لكل من أبى سفيان وابنه معاوية والحارث بن كلدة ، والحارث ابن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبدالعزى ، وغيرهم من الأشراف ورؤساء العشائر ممن أراد أن يؤلف قلوبهم بعد فتح مكة ، وأعطى خمسين من الإبل لآخرين (١٤٨) .

وحين غنم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أموال بنى قريظة فرقها بين أصحابه ولم يبق شيئا ، فدخل نفوس نسائه مايدخل نفوس الناس من

---

(١٤٨) محمد ـ د . مصطفى محمود ـ ص ١٩

التطلع إلى زهرة الدنيا فنزل قول الله ـ تعالى ـ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (١٤٩)

وقد تحدث المفسرون حول هذه الآية كثيرا ، ومما قالوه مما نحن بصدده مارواه البخارى ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بنْ عبدالله ـ قال : دخل أبوبكر يستأذن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد الناس جلوسا ببابه لايؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبى بكر ، فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى ـ ﷺ ـ واجماً ساكتاً وحوله نساؤه ، قال : فقال : والله لأقولن شيئا أُضحِكُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة . .

فقام أبوبكر إلى عائشة يجأ ـ أى يضرب ـ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماليس عنده ؟ .

فقلن : والله مانسأل رسول الله شيئا أبداً ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعا وعشرين ثم نزلت عليه هذه الآية :

﴿ يأيها النبى قل أزواجك . . . ﴾ .

---

(١٤٩) الأحزاب ٢٨ ، ٢٩ .

فبدأ النبى - ﷺ - بعائشة فقال : ياعائشة ، إنى أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت : وماهو يارسول الله ؟ فتلا عليها الآية ، قالت : أفيك يارسول الله استشير أبوى ؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت ، قال : لاتسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله بعثنى معلما ميسرا (١٥٠) .

لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آية فى الإنفاق ، لايصل إلى يده شىء إلا أنفقه فى سبيل الله وفى أمر الدعوة ومواساة الفقراء من المهاجرين والأنصار . . وكان يؤثر الفقراء والمحتاجين على نفسه وأهله .

أمانة الرسول ﷺ

وأمانة الرسول ﷺ مضرب الأمثال . . وبين الأمانة والصدق تلازم كامل .

والأمانة قد تكون معنوية وقد تكون حسية . . وحرص النبى ﷺ - على تبليغ رسالة ربه ، وتفانيه فى ذلك ، وعدم تقصيره فى أدائها كاملة غير منقوصة . هو مانعنيه بالأمانة المعنوية .

وقد كان النبى - ﷺ - يبلغ وحى ربه إلى الناس فور نزوله ، لايخفى منه حرفا ولاينقص كلمة أو يزيد أخرى ولايغير شيئا مما أنزل الله على قلبه . .

وقد أشار الحق - سبحانه وتعالى - إلى ذلك فى قوله - تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١٥١)

---

(١٥٠) تفسير القرطبى - سورة الأحزاب

(١٥١) الحاقة : ٤٤ : ٤٧ .

فأى تهديد أبلغ من ذلك ؟

والقرآن يقول ذلك فى حق نبيه - ﷺ - تزكية له ورفعا لقدره ..

لأنه على يقين من أمانة النبى - ﷺ - والتزامه بما أوحى إليه .

كما أشار مرة أخرى إلى عدم إخفائه شيئا من أخبار الغيب التى يطلعه الله عليها وينزل بها القرآن الكريم آمرا إياه بتبليغها . قال - تعالى - ﴿ وماهو على الغيب بضنين ﴾ .

فمعنى « ضنين » بخيل ..

فقد جاء فى بعض وجوه تفسير هذه الآية ... أن النبى - ﷺ - لم يضن ولم يبخل بما أمره الله أن يبلغه .

ومن مقتضيات الأمانة الالتزام بمبادىء الدعوة ، وتنفيذ منهجها الذى تدعو إليه .. وقد كان النبى - ﷺ - مثلاً أعلى فى ذلك ..

فما دعا إلى شىء إلا وكان قدوة فى أدائه ، ومانهى عن شىء إلا وكان أول التاركين له ، العافين عنه .. وقد مرت أمثلة لذلك ..

أما الأمانة الحسية ، فأمرها معروف وقد كان النبى - ﷺ - موضع ثقة الناس جميعا ، الخصوم منهم قبل الأصدقاء .. وفى يوم الهجرة أمر عليا بالتخلف حتى يرد الودائع التى عنده إلى أصحابها وكان القرشيون يصفونه بالصدق والأمانة .. ولم يستطيع واحد منهم أن يصفه بغير ذلك .

فطنته - ﷺ -

والفطنة لها مستلزمات تتضافر معها وتشد من أزرها ..

فمن مستلزماتها الفصاحة ، وقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم -

أفصح العرب ، وقد ورد عنه أنه قال : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش واسترضعت فى بنى سعد . .

وقد طلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الفصاحة الكاملة حتى يستطيع أن يكون قوياً على إبلاغ رسالة ربه . . وكان يشعر أن بلسانه عثرة تمنعه من أداء هذه الرسالة على وجهها الأكمل ، ولذلك قال لربه

﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١٥٢)

وطلب من ربه أن يحل عقدة لسانه ليكون قادرا على إبلاغ الرسالة على وجهها الأكمل فقال ـ كما حكى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١٥٣)

لقد كان النبى ـ ﷺ ـ أفصح العرب ، وقد شهد بذلك القاصى والدانى ، وشهد به الخصوم قبل الأنصار . .

---

(١٥٢) القصص ٣٤ ، ٣٥

(١٥٣) طه ٢٧ : ٣٧

ومن فصاحته أنه كان يقول الكلمة القصيرة فتبلغ كل مبلغ وتحيط كل إحاطة وتصل إلى أدق القضايا ، ويتفاوت الناس فى الأخذ منها على مقدار ما أوتوه من حكمة وعلم وذكاء وفهم ، وقد عبر النبى - ﷺ - عن ذلك فقال : أوتيت جوامع الكلم . .

وهذه ميزة لم تتوفر لسواه - صلى الله عليه وسلم - ومعناها أنه يستطيع باللفظ القصير أن يتناول المعنى الكبير ، وأن أى حكمة من حكمه أو كلمة من جوامع كلمه يتناولها الشارحون والمحللون فى صفحات كثيرة وربما قصروا فيما تصل إلى من هدف .

وقد ضر العقاد أمثلة على ذلك نذكر منها هذا المثل . . قال :

« ومن أمثلته - أى الكلام الجامع للمعانى الكبار فى الكلمات القصار قوله - صلى الله عليه وسلم - كما تكونوا يول عليكم . . فأى قاعدة من القواعد الأصلية فى سياسة الأمم التى لاتنطوى تحت هذه الكلمات ؟ .

« ينطوى فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها لايعفيها من تبعة ماتصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالاكراه ، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه ، والأكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه .

« وينطوى فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومة ، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين . . ولاسبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال . .

وينطوى فيها أن الولاية تبع تابع ، وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله

مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . .

« وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم صلاح واستقرار » .

« وينطوى فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث » .

« ويختم العقاد حديثه فى هذا الموضوع بقوله :

وأمثال هذه الأحاديث فى أصول السياسة والأخلاق ، والاجتماع مما لايتناوله الإحصاء فى هذا المقام . . كان محمد فصيح اللغة ، فصيح اللسان ، فصيح الأداء وكان بليغاً مبلغاً على أساس ماتكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده قدرة المرسلين (١٥٤) .

ومن مستلزمات الفطانة العلم . وقد كان النبى - ﷺ أعلم الأولين والآخرين . . منحه الله العلم من خزائن رحمته . (١٥٥)

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

ومنحه إياه من ميراث التقوى (١٥٦)

﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

ومن أقوال النبى - ﷺ - فى ذلك

من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم

ومنحه الله إياه من ميراث الطلب فقد أمره بأن يقول

---

(١٥٤) الرسول لسعيد حوا حـ ١ ص ١٣١

(١٥٥) النساء ١١٣

(١٥٦) البقرة ٢٨٢

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (١٥٧)

والعلم ضرورى للنبى ليكون أوسع علماً من مخاطبيه ومجادليه والمتحدين له وماأكثرهم ، وكان الله يمده بالعلم الكافى والجواب الشافى والمنطق السديد .. وكثيراً مايرد فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ يسألونك ﴾ ويأتى بعدها الجواب عما يسألون عنه من حضرة القدس وفيض الغيب ..

فقد تحداه اليهود والنصارى والمشركون بمسائل ليس لأحد من الناس علم بها ، إلا ماجاء عنها من الأخبار فى الكتب السابقة ومايعلمها إلا القليل ، فكان النبى - ﷺ - يخبر عنها بما أفاضه الله عليه ..

ومن مستلزمات الفطانة الذكاء .. ومن نافلة القول الحديث عنه بالنسبة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن الذى يرى بنور الله ، أكبر وأعظم من كل ذكاء ، وكل فراسة ، والأحداث الكثيرة تشهد لذلك .

ولعل قصة فصله فى الخلاف الذى نشب بين القبائل بشأن وضع الحجر الأسود فى مكانه أكبر دليل على ذكائه وفطنته .. فقد استطاع فى دقائق معدودة أن يفض نزاعا ، وأن يقضى على خلاف جردت من أجله السيوف ، وأوشكت الحرب أن تندلع بسببه بين القبائل .. فاستل صلى الله عليه وسلم بحكمه الضغائن من القلوب ورضى الجميع بهذا الحكم فهدأت

---

(١٥٧) طه ١١٤

النفوس ، وعادت السيوف الى أغمادها ، وعلت الفرحة والسعادة وجوه القوم . وحينما خرج فى تجارة السيدة خديجة رضى الله عنها . شهد له كل من تعامل معه بالذكاء وسعة الأفق ، وصدق القول ، وتحدث الجميع بذلك ومنهم ميسرة خادم السيدة خديجة الذى رافقه فى رحلته .

ومن أعظم الأمور دلالة على فطانته وسعة عقله رفضه لعبادة الأصنام منذ نشأته الأولى . فقد فطن بفطرته الصافية إلى أن مايعبده قومه من تلك الأوثان بعيد كل البعد عن منهج العبادة الصحيحة ، وأن الدين القويم لابد أن يكون شيئا آخر غير ماعليه هؤلاء القوم . ومن ثم فقد اتخذ طريقا غير طريق قومه وسلك فى عبادته منهجاً غير منهج قومه . .

هذه مقتطفات من صفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ العظيمة التى بلغ بها المثل الأعلى بين الأنبياء فضلاً عن الناس وكان جديراً بهذه الأخلاق الرائعة أن يكون مختار الله للنبوة ومصطفاه للوحى والرسالة .

إنها النبوة تعرف طريقها إلى صاحبها . . وإن الله ليختاره ثم ينشئه النشأة التى تؤهله لهذه التبعة الثقيلة التى تحتاج إلى إعداد طويل وتربية خاصة وتأديب ربانى . . حتى إذا جاءه أمر بالإبلاغ كانت لديه الصلاحية الكاملة لذلك فصدع بأمر الله غير هياب ولا وجل .

« لقد كانت الحياة الخلقية فى حياة الرسول ـ ﷺ ـ من أهم العناصر

وأبعدها أثراً فى تذليل العقبات التى اعترضت سير الدعوة الإسلامية ، وجذبت إلى الإسلام الكثير من المنصفين الذين تجردوا من الأهواء ، وأحبوا الحق للحق » .

« ولقد حفظ الله رسوله الكريم فى خُلُقِه قبل أن يؤيده بالوحى ، ثم أنزل عليه الكتاب وفيه الدعوة إلى مكارم الأخلاق فكان المثل الأعلى فيما دعا إليه » .

« جعل الله لنبيه - ﷺ - من خصال الكمال وصفات الجلال والجمال مالايحصره حد ولايحيط به عد ، ثم أثنى عليه فى كتابه الكريم بقوله ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ فوصفه بالعظيم مما يدل على أن أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - لم يصل إليها أحد من قبل ، فكل خلق حميد اندرج تحت خلقه ، ومن ثم قالت عائشة - رضى الله عنها - كان خلقه القرآن . وقد علم من كلامها أن كمالات خلقه - صلى الله عليه وسلم - لاتتناهى ، كما أن معانى القرآن الكريم لاتتناهى »(١٥٨) .

وسوف نتحدث بمزيد من التفصيل عن هذه الأخلاق فى عدد قادم إن شاء الله .

---

(١٥٨) من كلمة للأستاذ حسن مصطفى - صحيفة الأخبار - ١٩٨٩/١٠/٦ .

الوحى الإلهى

- البعثة وبدء الوحى.
- كلمة الوحى فى القرآن.
- مفهوم الوحى.
- صور الوحى.
- الوحى من وراء حجاب.
- الوحى بواسطة الملك.
- كيف كان يجئ جبريل ؟
- من هو دحية الكلبى ؟
- لماذا يجئ جبريل فى صورة آدمية ؟
- هل تلقى النبى الوحى مباشرة ؟
- كيفية الإنزال والوحى.
- الوحى والسنة.
- الوحى القرآنى.
- لماذا كان النبى يعانى شدة عند نزول الوحى.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

البعثة وبدء الوحى

على رأس الأربعين من عمره المبارك - ﷺ - كان مبثعه . .

وقدم ابن هشام فى سيرته لحديثه عن مبعث النبى - ﷺ - بذكر الآية الكريمة التى سبق واستشهدنا بها فى البشارات بالنبى - ﷺ - وهى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١٥٩)

ذكرها ليستدل بها على أن الأنبياء السابقين قد أعلموا بهذه البعثة المحمدية التى أراد الله أن يختم بها الرسل والنبيين ، وأن تكون الديانة التى جاء بها هذا النبى الأمى هى الديانة التى أمروا بالتصديق بها وهى آخر الديانات وهى الديانة التى اختارها الله للبشر جميعا - قال تعالى :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١٦٠)

ويستطرد ابن هشام ذاكرا حديث البعثة راويا عن ابن اسحاق قال : حدثنى وهب بن كيسان قال : قال عبيد : كان رسول الله - ﷺ - يجاور فى حراء ذلك الشهر - أى رمضان - من كل سنة ، يطعم من جاءه من

---

(١٥٩) آل عمران ٨١

(١٦٠) آل عمران ٨٥

المساكين ، فإذا قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جواره من شهره ذلك ـ كان أول مايبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة وذلك قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته . .

حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله ـ تعالى ـ فيه ماأراد من كرامته ، من السنة التى بعثه الله فيها ، خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ، ورحم العباد بها جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ بأمر الله تعالى »

عن عائشة رضى الله عنها ـ قالت :

أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم . فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ : فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾
ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة فقال : زملونى زملونى ـ فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر ـ لقد خشيت على نفسى .

قالت خديجة : كلا ، والله مايخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به « ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصى » وهو ابن عم « خديجة » رضى الله عنها .. وكان امرأ قد تنصّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة رضى الله عنها ـ ياابن عم ـ اسمع من ابن أخيك مايقول : فقال له ورقة : ياابن أخى ماذا ترى ؟ .

فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا . ياليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال : صلى الله عليه وسلم ـ أو مخرجى هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى (١٦١) .

وفى رواية ابن اسحاق مرسلا عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال : « أتانى جبريل بنمط ـ أى قطعة من ديباج ـ فقال : اقرأ .. الخ .

ومعنى هذا أن جبريل جاءه بكتاب مرقوم . فإن كان هذا الكتاب المرقوم

---

(١٦١) أخرجه الشيخان

إنما أتى به جبريل ليستملى منه ، ويلقن النبى صلى الله عليه وسلم مافيه ، فهذا واضح لايحتاج إلى مناقشة ، وإن كان إنما عرضه ليقرأ منه النبى صلى الله عليه وسلم . فإن الأمر يحتاج الى مناقشة . . ذاك أن تكليفه صلى الله عليه وسلم بالقراءة من الصحيفة ، وهو لايقرأ ولايكتب تكليف بما لايطاق . فإن قيل : إن الله سبحانه وتعالى علمه حينذاك القراءة لزم عليه أنه صلى الله عليه وسلم قد انتقل بهذا من الأمية إلى التعليم ، وقد عرفنا أن أميته من دعائم إعجاز رسالته ﷺ .

والأقرب إلى الصواب أن جبريل عليه السلام جاء بتلك الصحيفة ليستملى منها ويلقن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تكون الحكمة فى نزوله بالصحيفة وعرضها على النبى صلى الله عليه وسلم عند أمره بالقراءة فى بداية الوحى ـ نقول قد تكون الحكمة فى ذلك الإشارة إلى أن ماسيتلقاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جبريل ليس من عنده ، وإنما هو عبد مأمور ، وسفير أمين يحمل إليه وحى ربه . . كما قاله تعالى

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (١٦٢)

غير أنه لما اقترن عرض الصحيفة بالأمر بالقراءة ، وكان ظاهر هذا الاقتران أن جبريل عليه السلام يأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالقراءة من الصحيفة نفسها حمل النبى عليه الصلاة والسلام الأمر على ظاهره فقال « ما أنا بقارىء » أى لست من القارئين بل أنا من الأميين حتى علم أخيرا أنها

---

(١٦٢) سورة عبس من ١١ ـ ١٦

قراءة عن ظهر الغيب لشيء لم يسبق له حفظه بل يتعلمه الآن بإذن الله الذى علم الإنسان مالم يعلم .

ويتحدث الإمام الطبرى عن بدء الوحى قائلا :

حدثنى أحمد بن عثمان المعروف بأبى الجوزاء فى سند متصل بعروة عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : كان أول ما ابتدىء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحى الرؤيا الصادقة ، كانت تجىء مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يذهب إلى غار حراء يتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق فأتاه فقال : يامحمد أنت رسول الله ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجثوت على ركبتى وأنا قائم ، ثم زحفت ترجف بوادرى ، ثم دخلت على خديجة فقلت : زملونى ، زملونى ، حتى ذهب عنى الروع ، ثم أتانى فقال : يامحمد أنا جبريل وأنت رسول الله . ثم قال : اقرأ،قلت : ماأقرأ . قال : فأخذنى فغطنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد ، ثم قال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . .

فأتيت خديجة ، فقلت : لقد أشفقت على نفسى ، فأخبرتها خبرى ، فقالت : أبشر فوالله لايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق (١٦٣)

ويذكر بعض الرواة أنه عقب نزول الوحى بفترة جاء أبوبكر . . وكان

---

(١٦٣) انظر المختار من كنوز السنة ص ٢٠ ، ٢١

صديقا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت له خديجة : ياعتيق اذهب مع محمد إلى ورقة . .

فأخذ أبوبكر بيد صديقه وقال له : انطلق بنا إلى ورقة بن نوفل .

فقال له : ومن أخبرك ؟ .

قال أبوبكر : خديجة . فانطلقا إليه .

فقص محمد ـ ﷺ ـ على ورقة مايراه ، فقال : إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء من خلفى ، : يامحمد ، يامحمد ، فأنطلق هاربا فى الأرض . .

فقال له ورقة : لاتفعل ، إذا أتاك فاثبت ، حتى تسمع مايقول لكِ ، ثم ائتنى فأخبرنى .

فلما خلا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمع النداء يقول له : يامحمد قل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

ثم قال له قل : لا إله إلا الله . .

فعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ورقة فذكر له ذلك فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم . . (١٦٤) .

وظل ورقة بن نوفل مترقبا لبعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يؤمن به وينصره ، وكان يضمن شعره هذه المعانى يقول :

---

(١٦٤) الروض الأنف جـ ١ ص ٢٧٤ .

فان يك حقا ياخديجة فاعلمى حديثك إيانا فأحمد مرسل
وجبريل يأتيه وميكال معهما من الله وحى يشرح الصدر منزل
يفوز به من فاز فيها بتوبة ويشقى به العاتى الغوى المضلل
فريقان منهم فرقة فى جنانه وأخرى بأحواز الجحيم تغلل
اذا مادعوا بالويل فيها تتابعت مقامع فى هامتهم ثم تشعل
فسبحان من تهوى الرياح بأمره ومن هو فى الأيام ماشاء يفعل
ومن عرشه فوق السموات كلها وأقضاؤه فى خلقه لاتبدل[١٦٥]

لقد آمن ورقة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل بعثته وترقب هذه البعثة لينصره . ولكنه قضى قبل أن يبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه مضى مؤمنا طيبا ، بعد أن قدم للتاريخ حقيقتين :

(الأولى) أن مرحلة التمهيد للرسالة المحمدية قد آتت ثمارها بمواءمة حاضر الوحى عند نزوله على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما كان يعلمه المثقفون قديما على يد الأحبار والرهبان . .

(الثانية) أن نبوة محمد ـ ﷺ ـ لم تفاجىء المجتمع ، فقد كانت على الطريق إليها معالم تؤكد أنه حقاً رسول الله وخاتم النبيين لاشك فى ذلك .[١٦٦] .

أجل ، لقد مات ورقة مسلما ، وأخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه رآه فى الجنة عليه ثياب الحرير.لأنه آمن به وصدقه وقال ﷺ : ورقة على نهر من أنهار الجنة .

---

(١٦٥) دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٤٠٥ .
(١٦٦) بشائر الرسالة الخاتمة د . رءوف شلبى ص ٣٥٧ .

كلمة الوحى فى القرآن الكريم

قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣) ﴾ (١٦٧)

وردت كلمة الوحى بمشتقاتها فى القرآن الكريم ثمانيا وسبعين مرة .

ومنها غير الآية المتقدمة قوله ـ تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ (٣٩) ﴾ (١٦٨)

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠) ﴾ (١٦٩)

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ ﴾ (١٧٠)

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (١١٤) ﴾ . (١٧١)

مفهوم الوحى

الوحى ـ لغة ـ هو الإعلام بالشىء سرا ، ولذلك كانت الكتابة والإشارة والرمز والكلام الخفى كل ذلك يسمى وحياً .

---

(١٦٧) الشورى ٥٢ ـ ٥٣ .

(١٦٨) الاسراء ٣٩ .

(١٦٩) النجم ١٠

(١٧٠) آل عمران ٤٤ .

(١٧١) طه ١١٤ .

أما فى الشرع فإن كلمة الوحى إذا أطلقت ، انصرفت إلى ذلك التعليم السرى الصادر من الله تعالى الوارد إلى الأنبياء عليهم السلام .. فالمعنى الشرعى أخص من المعنى اللغوى .

والوحى بمعناه الشرعى نوعان « ١ » تعليم بواسطة ملك « ٢ » وتعليم مباشر لا بواسطة ملك . وكلاهما يصح أن يكون فى اليقظة أو فى المنام وهى الرؤيا الصادقة ..

والتعليم بدون واسطة الملك له طريقتان .. إما بالإلهام وهو إلقاء المعنى فى النفس .. وإما بالكلام من وراء حجاب ـ أى بدون رؤية ـ كتكليم موسى عليه السلام ..

والتعليم بواسطة الملك يقع على وجهين أيضا .. لأن النبى تارة يشاهد الملك عند الوحى ، إما على صورته الحقيقية .. وهذا نادر ـ وإما متمثلا فى صورة بشر يكلمه فيعى مايقول .

وتارة لايرى النبى الملك عند الوحى ، بل يسمع عند قدومه دويا وصلصلة شديدة يعلم النبى كنهها ومصدرها فتعتريه حالة روحية غير عادية لايدرك الحاضرون منها إلا أماراتها الظاهرية كثقل بدنه وتفصد جبينه عرقا .. وربما سمعوا عند وجهه الكريم دويًا كدوىّ النحل مدة نزول الوحى . فإذا قضى الملك رسالة ربه ، وأوحى إلى النبى ما أوحى انفصم عنه ، وذهبت عنه تلك الشدة التى كان يجدها فيرجع إلى حالته العادية ، وقد وعى ما قال الملك ..

تفسير الشيخ الشعراوى للوحى :

ويبسط الشيخ الشعراوى معنى الوحى فيقول : إذا كان حديثنا عن

رسول الله - ﷺ - والوحى ، فلابد أن نعرف أولا معنى الوحى . . الوحى هو إعلام بخفاء ، أى تعلم شخصا بشىء ، ولايشعر أحد بأنك أعلمته إلا أنت وهو . فإذا كنت متفقا مثلا مع أهل بيتك على إشارات معينة لايفهمها إلا أنت وهم لإحضار الطعام والشراب ، وقمت بالإشارة لهم بحيث لم يفهمك أحد إلا هم ، فإن هذا يؤدى معنى الوحى ، لأنه إعلام بخفاء بين الموحى والموحى إليه .

والله سبحانه وتعالى - أوحى إلى رسله جميعا ، أى أن الرسالات السماوية كلها نزلت بطريق الوحى ، وفى ذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى - :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ (١٧٢)

وساعة يأتى الوحى فإنه يسيطر على الذهن تماما ولايكون هناك موضع لفكر بشرى أو استخدام للعقل لأنه أمر فوق عقل البشر (١٧٣) . وإذا قصد بالوحى القرآن تحدد مفهومه كالآتى :

إعلام الله - سبحانه وتعالى - نبيه محمداً - ﷺ - عن طريق نزول ملك الوحى جبريل - عليه السلام - بكلامه تعالى - المعجز ، المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر ، وهو المكتوب فى المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

وهذه الظاهرة للوحى القرآنى أجل طرق الوحى الشرعى ظهوراً

(١٧٢) النساء ١٦٣ .

(١٧٣) محمد رسول الله للشيخ الشعراوى ص ٤٦ .

ووضوحا وإشراقاً » .

تفسير الوحى فى ضوء العلم الحديث

يقول د . الحسيني هاشم : إن من أقرب الآيات لتفسير ظاهرة الوحى ماتراه فى المخترعات الحديثة مثل الهاتف « التليفون » فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما فى أقصى المشرق والآخر فى أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءيان من حيث لايرى الجالسون فى مجلس التخاطب شيئا ، ولايسمعون إلا أزيزا كدوى النحل الذى فى صفة الوحى . .

ومثل « اللاسلكى » الذى يحدد جهة الإرسال والاستقبال وينقل الكلام بنفس الصوت والألفاظ ، والتليفزيون الذى ينقل الكلام والصورة على موجات الأثير بدون أسلاك تحمل ذلك . .

كل ذلك يقرب فكرة الوحى للأذهان المؤمنة بالمادة ولم تعرف سر الروحانية التى هى أسمى وأجل (١٧٤)

والوحى للأنبياء يأتى على صورة متعددة :

١ - يأتى فى صورة منام - ورؤيا الأنبياء حق فى منامهم - وقد رأى ابراهيم - عليه السلام - فى منامه أن يذبح ابنه اسماعيل فعد ذلك وحيا إلهيا ، وأقبل على تنفيذ الأمر . . وجاء ذلك فى قوله - تعالى :

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ

---

(١٧٤) الوحى الإلهى د. الحسين هاشم ص٢٢

﴿ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾
قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ
الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١٧٥)

وقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه دخل مكة وفى ذلك يقول الله ـ تعالى :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن
شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٧٦)

٢ ـ يكون الوحى بواسطة كلام من وراء حجاب

يكلم الله نبيه فى هذه الحالة دون أن يراه النبى ..

وقد حدث ذلك لموسى ـ عليه السلام ـ قال الله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي
آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا
أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ
الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا
إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ

---

(١٧٥) الصافات ٩٩ : ١٠٧ .

(١٧٦) الفتح ٢٧ .

أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾(١٧٧)

إلى آخر الآيات التى أوحى الله إليه فيها بالرسالة وحمله إياها وكلفه ابلاغها لفرعون وملئه . .

وقال ـ تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ كلمه دون أن يراه ، وقد طلب موسى ـ عليه السلام الرؤية ولكنه أجيب بقوله ـ تعالى : ﴿ لن ترانى ﴾ وجاء ذلك مفصلا فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾(١٧٩)

٣ ـ وقد يكون الوحى بإرسال رسول من الملائكة

يبلغ النبى مايأمره به ربه . وهذا الرسول الملكى هو الروح الأمين ، وهو ماتشير إليه الآيات الكريمة

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾(١٨٠)

---

(١٧٧) طه ٩ : ١٦ .

(١٧٩) الأعراف ١٤٣ .

(١٨٠) الشعراء ١٩٢ : ١٩٥ .

وقد اجتمعت أنواع الوحى الثلاثة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه خصيصة من خصائصه . . وقد ابتدأ الوحى له بالرؤيا المنامية إيناسا له حتى لايفجأه الملك - وهو جبريل عليه السلام - بالنبوة فلا تتحملها قواه البشرية . لأن القوى البشرية لاتتحمل رؤية الملك على صورته التى خلقه الله عليها .

عن علقمة بن قيس : « أول مايؤتى به الأنبياء فى المنام ، ثم ينزل الوحى » أى فى اليقظة وكانت رؤى الأنبياء حقاً ، لأنه لاسبيل للشيطان عليهم ، فلا تخيل ولا أضغاث أحلام . ولأن قلوبهم نورانية ، فما يرونه فى المنام له حكم اليقظة تماما . فجميع ماينطبع فى عالم منامهم لايكون إلا حقا ومن ثم جاء « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولاتنام قلوبنا » .

مدة الوحى بالرؤيا للنبى ﷺ

وكانت مدة الوحى بالرؤيا للنبى صلى الله عليه وسلم - ستة أشهر . وعلى ذلك فيكون ابتداء الوحى للنبى - صلى الله عليه وسلم - فى شهر ربيع الأول - ثم أوحى إليه فى اليقظة فى رمضان .

وهذا مايفيده قول بعضهم : إن النبى صلى الله عليه وسلم ولد فى ربيع الأول ،وأوحى إليه فى ربيع الأول ، وهاجر فى ربيع الأول ، وتوفى فى ربيع الأول . . وهذه الموافقات النادرة من خصائصه - ﷺ - .

وقد جاء فى الحديث الصحيح بخصوص الرؤيا قوله - صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » (١٨١) .

---

(١٨١) الحديث فى البخارى عن أبى سعيد وفى مسلم عن أبى هريرة ورواه احمد وابن ماجه والطبرانى وفى الجامع الصغير وفى جمع الجوامع برقم ١٠٧٩٠/٢٢ حـ ٢ ص ٢٤٧ .

ومعنى هذا الحديث كما فسره الحلبى عن بعضهم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقام بمكة ثلاث عشرة سنة وفى المدينة عشر سنوات ـ فهذه ثلاث وعشرون سنة ، ومدة الوحى إليه فى المنام كانت ستة أشهر فهذه المدة تمثل جزءا من ستة وأربعين جزءا [١٨٢] .

إلا أن هناك أحاديث أخرى ورد فيها أن الرؤيا جزء من سبعين جزءا ، أو جزء من خمسة وعشرين جزءا أو جزء من تسعة وأربعين جزءاً » وعلى هذا فان المقصود بالعدد مطلق وكأنه أراد أن الرؤيا جزء من مطلق النبوة .

وقد ورد أنه لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له . .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى الرؤيا ـ كما تقول السيدة عائشة رضى الله عنها ـ فتجىء كفلق الصبح . . وهذا ضرب من الوحى آنسه به الحق سبحانه وتعالى فترة قبل أن يظهر له الملك عيانا فى غار حراء .

سماع الوحى بدون ملك

عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « كان من الأنبياء من يسمع الصوت فيكون بذلك نبيا » .

وقد فسر بعضهم ذلك بأنه يحتمل أن يكون صوتا خلقه الله ـ تعالى ـ أى ليس من جنس الكلام ـ وخلق لذلك النبى ففهم المراد منه عند سماعه . .

ويحتمل أن يكون من جنس الكلام المعهود . .

ومن هذه الحالات مايسمى « بالنفث » ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى . أن نفسا لن تموت حتى

---

(١٨٢) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٧٨ .

تستكمل أجلها ورزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولايحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فان ماعند الله لن ينال إلا بطاعته » .

وقد كان الوحي يأتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مثل صلصلة الجرس ، وكانت هذه من أشد الأحوال على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ورد فى ذلك ما رواه الحارث بن هشام قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيك الوحى ؟

قال : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليَّ ، فيفصم وقد وعيت ماقال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول . .

وعن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ كان إذا نزل الوحى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثقل لذلك وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم وربما بركت .

وجاء أنه لما نزلت سورة المائدة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها . وفى رواية فاندق كتف راحلته العضباء من ثقل السورة .

وأخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا : مامن مرة يوحى إلىَّ إلا ظننت أن نفسى ستقبض من شدته :

وذكرت أسماء بنت عميس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزل عليه الوحي يكاد يغشى عليه ، ويقول الدكتور مصطفى محمود فى تأثير الوحي على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

« وإن الكلمات لتأتيه فتغير من جسده تماما ، وكأنما هى صدمة قاهرة لايملك لها دفعا ، فيأخذه مايشبه الغيبوبة ويتفصد جبينه عرقا ويثقل بدنه

حتى ليبرك البعير من ثقله الهائل ، إذا كان راكبا عليه . .

فإذا انفصم عنه الوحى عاد لطبيعته لفوره دونما أثر من جهد ليتلو على الناس مانزل عليه . .

« وهو على نقيض الصرع الذى حاول بعض الجهلة من المستشرقين إلصاقه بالرسول عليه الصلاة والسلام . . ذاك أن الصرع يخرب الجسد ثم يترك الذاكرة ممسوحة تماما ليس فيها شيء ، والبدن فى حالة أعياء تام يسلم صاحبه إلى نوم عميق أو إلى يقظة تختلط فيها النوايا الإجرامية بازدواج الشخصية . هذا مايعرفه الطب عن الصرع . . تخريب كامل لايعقبه أى نوع من أنواع القدرة ، وانقطاع لخيط الحياة مع العجز وفقدان السيطرة على جميع الأفعال والأقوال . .

وماكان هذا حال محمد ـ ﷺ ـ الذى كان مثالا للانتباه واليقظة واكتمال البدن ، والسلامة من جميع العلل والقدرة النفسية والجسدية على تحمل أضعاف مايتحمله الرجل الصحيح من أعباء ـ وعلى الإتيان بأضعاف مايستطيعه الرجل الصحيح من أعمال ، وكأنه أمة فى رجل . . فأين وجه الشبه إذن بين هذه الحال وحال الصرع [١٨٣] .

مجىء الملك إليه فى صورة رجل

أما عند مجىء الملك إليه فى صورة رجل فلم تكن تصحبه هذه الحالة التى ذكرناها آنفا . .

أى لاتوجد هذه الرعدة ولا تلك الشدة التى يتعرض لها ولاهذه الغشية التى تصيبه . .

---

(١٨٣) محمد ـ د . مصطفى محمود ـ ص ٢٨ .

إنه أمام منظر مأنوس إليه محبوب له . .

أما إذا جاءه فى صورة ملائكية فعند ذلك تحدث له الحالة الشديدة التى تعتريه . قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وان جبينه ليتفصد عرقا . .

وتعليل ذلك هو تقريب الطبيعة البشرية إلى ملاءمة الطبيعة الملائكية والجو الملائكى ، إنها بتعبير ابن خلدون : انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملائكية الروحانية . .

وفى هذه الحالة يحدث عند قدوم الملك صوت صلصلة مثل صلصلة الجرس إيذانا بقدوم الوحى ، والحكمة فى ذلك أن يتهيأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن يفرغ سمعه للوحى فلا يبقى فيه مكان لغيره .

روى أحمد فى مسنده عن عبدالله بن عمر : سألت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل تحس بالوحى ؟ فقال : أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلىَّ إلا ظننت نفسى تقبض . .

يعنى أنها تقبض من عالم البشرية إلى عالم الملكية حيث يلقنه جبريل الآيات . .

وكان أحياناً يتابع جبريل فى كل حرف مردداً على لسانه الشريف مايسمعه حتى قال الحق له :

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ (١٨٤)

---

(١٨٤) القيامة ١٦ : ١٩ .

وقال له :

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (١٨٥)

وكثيرا مايأتيه الملك فى صورة رجل جميل الشكل والهيئة . .

ومنه ماورد فى حديث عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : بينما نحن عند رسول الله ـ ﷺ ذات يوم . . طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر . . (١٨٦) .

وتارة كان يعرفه النبى ـ ﷺ ـ وتارة لايعرفه . . وسيأتى الحديث بتمامه .

من هو دحية الكلبى ؟

هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرىء بن القيس بن الخزرج . .

صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهد أحدا ومابعدها ، وبعثه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى قيصر رسولا سنة سبع من الهجرة فى الهدنة . . فآمن به قيصر ، وامتنع عليه بطارقته . .

وكانت له أحاديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ رواها عنه الشعبى وغيره . .

وكان يحب النبى ـ ﷺ ـ حبا جما ، ويؤثره على نفسه ، روى الترمذى فى سند عن المغيرة قال : أهدى دحية الكلبى لرسول الله ـ ﷺ ـ خفين فلبسهما .

---

(١٨٥) طه ١١٤ .

(١٨٦) رواه البخارى وسيأتى الحديث كاملاً .

وكان النبى - ﷺ - يكافىء على الهدية مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ (١٨٧)

وقد روى ابن الأثير فى سند متصل بدحية الكلبى قال : أتى رسول الله - ﷺ - بقباطى فأعطانى منها قبطية (١٨٨) .

وقد أسلم دحية قديما ولكنه لم يشهد بدرا . .

وكان جبريل - فيما يذكر ابن الإثير وابن سعد فى طبقاته - يأتى فى صورته . .

وقال ابن سعد : شَبَّه النبى - ﷺ - ثلاثة نفر فقال : دحية الكلبى يشبه جبريل ، وعروة بن مسعود الثقفى يشبه عيسى بن مريم ، وعبدالعزى بن قطن يشبه الدجال .

وقال راويا عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهرى عن أبيه عن ابن شهاب قال : قال رسول الله - ﷺ - أشبه من رأيت بجبريل دحية الكلبى .

قال : وأخبرنا خالد بن مخلد قال : حدثنا عبدالله بن عمر عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : وثب رسول الله - ﷺ - وثبة شديدة فنظرت فإذا معه رجل واقف على برذون وعليه عمامة بيضاء قد سدل طرفها بين كتفيه ، ورسول الله - ﷺ - واضع يده على معرفة برذونه - أى منبت عرفه من من رقبته - فقلت : يارسول

---

(١٨٧) النساء ٨٦ .

(١٨٨) أسد الغابة حـ ٢ ص ١٥٨ - والقباطى : جمع قبطية ثوب رقيق أبيض من ثياب مصر .

الله ، لقد راعتنى وثبتك ، من هذا ؟ قال : أرأيته ؟ قلت : نعم . قال : ومن رأيتِ ؟ قلت : رأيت دحية الكلبى . قال : ذاك جبريل ـ عليه السلام ـ » وقد اختار النبى ـ ﷺ ـ دحية بن خليفة الكلبى ـ رسولا له إلى قيصر ومعه كتاب أمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر . . فأداه دحية كما طلب منه ، ودفعه إلى عظيم بصرى فدفعه إلى قيصر ، وقيصر يومئذ بحمص ، فقرأ الكتاب ، وجمع عظماء الروم فى دسكرة له بحمص فقال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت الله ملككم وتتبعون ماقال عيسى بن مريم ؟ .

قالوا : وماذاك أيها الملك ؟

قال : تتبعون هذا النبى العربى .

فحاصوا حيصة حمر الوحش ، وتدافعوا ورفعوا الصليب .

فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من إسلامهم . وخافهم على نفسه وملكه ، فهدأهم ، ثم قال : إنما قلت لكم ماقلت أختبركم لأنظر كيف صلابتكم فى دينكم ، فقد رأيت منكم الذى أحب . فسجدوا له (١٨٩) وكانت هذه الرسالة سنة سبع من الهجرة فى محرم .

لماذا ينزل جبريل فى صورة آدمية ؟

ذكرنا أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان ينزل أحياناً فى صورة آدمية تأنيساً للنبى ـ ﷺ ـ وهو يتحدث معه . . ويذكر بعض العلماء أن نزول جبريل فى تلك الصورة إنما يكون فى وحى السنة لافى وحى القرآن . أما فى وحى القرآن فكان ينزل بصورة ملائكية ولايراه ولايسمعه غير الرسول عليه

---

(١٨٩) الطبقات الكبرى حـ ١ قسم ١ ص ١٦ .

الصلاة والسلام . . كما وأن الصورة الملائكية التي كان ينزل بها جبريل بالوحي ليست هي صورته التي خلقه الله عليها لأن صورته الحقيقية لاتقوى النفس على مطالعتها .

وقد رأى النبي - ﷺ - جبريل على صورته الحقيقية - جاء عن عائشة وابن مسعود - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - لم ير جبريل على صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين : الأولى حين كان بحراء في أوائل البعثة . رآه بالأفق الأعلى من الأرض ، وهذه المرة هي المعنية بقوله - تعالى -

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٩٠)

ويقوله - تعالى -

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (١٩١)

وقد روى أن جبريل طلع من المشرق فسد الأفق إلى المغرب فخر النبي ﷺ مغشياً عليه ، فنزل جبريل - عليه السلام - في صورة آدمية وضمه إلى نفسه ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه . . والأخرى ليلة الإسراء والمعراج ، وهي المعنية بقوله - تعالى -

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٩٢)

وذكر الحلبي أيضا في سيرته قال : جاء في الخصائص الصغرى : خص النبي - صلى الله عليه وسلم - برؤيته جبريل - عليه السلام - في صورته التي

---

(١٩٠) التكوير ٢٣ .
(١٩١) النجم ٥ : ٧ .
(١٩٢) النجم ١٣ ، ١٤ .

خلقه الله عليها ، أى لم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبينا - صلى الله عليه وسلم .

وفى قصة رؤية النبى - صلى الله عليه وسلم - لجبريل على صورته الحقيقية قال القرطبى فى تفسيره :

حكى الثعلبى عن ابن عباس قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لجبريل : إنى أحب أن أراك فى صورتك التى تكون فيها فى السماء ؟

قال : لن تقدر على ذلك .

قال : بلى .

قال : فأين تشاء ذلك ؟

قال : بالأبطح .

قال : لن يسعنى .

قال : فبمنى .

قال : لا يسعنى .

قال : فبعرفات .

قال : ذلك بالحرى أن يسعنى .



فواعده ، فخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - للوقت ، فإذا هو قد أقبل بخشخشة وكلكلة من جبال عرفات ، قد ملأ مابين المشرق والمغرب ، ورأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، فلما رآه النبى - صلى الله عليه وسلم - خر مغشيا عليه ، فتحول جبريل فى صورة بشرية وضمه إلى صدره ، وقال : يامحمد لاتخف فكيف لو رأيت إسرافيل ، ورأسه من تحت العرش

ورجلاه فى تخوم الأرض السابعة ، وان العرش على كاهله ، وإنه ليتضاءل أحيانا من خشية الله حتى يصير مثل الوصع - العصفور - حتى مايحمل عرش ربك إلا عظمته .[193]

هذه حالات فريدة ولكن غالب ماكان يراه كان يراه فى صورة رجل . قد يكون دحية - الذى تحدثنا عنه ، وقد يكون غيره ، وقد يراه الحاضرون مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ويسمعونه وهو يحدث الرسول - ﷺ - ولايعرفون حقيقته .

وليس فى هذه الحالة شدة تعترى النبى - صلى الله عليه وسلم - يتصبب منها عرقا كما يحدث فى الحالات الأخرى ، وهذه الصورة من الوحى - أى مجىء الملك فى صورة بشرية - تكون فى وحى السنة - كما قلنا .

جاء فى البخارى فى سند متصل [194] .

حدثنا مسدد قال : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، أخبرنا أبوحيان التميمى ، عن أبى زرعة عن أبى هريرة قال : كان النبى - ﷺ - بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال :ما الإيمان ؟قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث .

قال ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولاتشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استعطت .

قال : ماالإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

---

(١٩٣) تفسير القرطبى - سورة التكوير - ص ٧٠٣٢ ط دار الشعب .

(١٩٤) كتاب بدء الوحى - البخارى - حـ ١ ص ٣٢ .

قال : متى الساعة ؟

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . .

ثم تلا النبى - ﷺ - قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١٩٥)

ثم أدبر ، فقال : ردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال النبى - ﷺ - : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم .

هل تلقى النبى الوحى مباشرة ؟

قال الحلبى : ومن حالات الوحى أن الله - تعالى : أوحى إليه - ﷺ - بلا واسطة ملك . وكان ذلك ليلة المعراج ، ذكر ذلك ابن القيم فى قوله : السادسة من حالات الوحى : ما أوحاه الله - تعالى - إليه ، وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها ، لأن ذلك إنما هو ليلة المعراج بغير واسطة ملك .

ويقول السيوطى - رحمه الله - : « وليس فى القرآن من هذا النوع ، أى مما شافهه به الحق - سبحانه وتعالى : شىء فيما أعلم .

نعم يمكن أن يعد منه - كما ذكر بعض العلماء - آخر سورة البقرة : أى - آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه . . إلى آخر الآيات ، لأنها نزلت بقاب قوسين . . وربما كان من ذلك بعض سورة الضحى ، وألم نشرح ، فقد أخرج ابن أبى حاتم من

---

(١٩٥) لقمان ٣٤ .

حديث عدى بن ثابت ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسألت ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألته ، قلت : أى رب ، اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، فقال : يامحمد ، ألم أجدك يتيما فآويت ، وضالا فهديت ، وعائلا فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أُذْكَرُ الا وتذكر معى ؟ (١٩٦) .

هل كان جبريل ينزل وحده ؟

روى عن ابن جرير قال : مانزل جبريل بوحى قط إلا ونزل معه من الملائكة حفظة يحيطون به وبالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يوحى إليه ، يطردون الشياطين عنها ، لئلا يسمعوا مايبلغه جبريل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغيب الذى يوحيه إليه فيلقوه إلى أوليائهم . .

وذكر السيوطى فى الاتقان نقلاً عن ابن حبيب : من القرآن ما نزل مشيَّعاً بالملائكة ، ومنه سورة الانعام ، شيعها سبعون ألف ملك ، وفاتحة الكتاب . نزلت ومعها ثمانون ألف ملك ، وآية الكرسى نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك ، وسورة يس نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك ، وآية :

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١٩٧)

نزلت ومعها عشرون ألف ملك ، وسائر القرآن نزل به جبريل مفرداً بلا تشييع (١٩٨)

---

(١٩٦) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى حـ ١ ص ١٦١ .

(١٩٧) الزخرف ٤٥ .

(١٩٨) الاتقان فى علوم القرآن حـ ١ ص ١٣٨ .

كيفية الإنزال والوحى :

وتحدث العلماء عن كيفية الإنزال والوحى ، وهل الوحى خاص بالقرآن فقط ، أم أن هناك وحياً غير القرآن ؟

وقد أجاب السيوطى عن ذلك بقوله :

قال الأصفهانى : اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله منزل ، واختلفوا فى معنى الإنزال ، فمنهم من قال : الإنزال هو إظهار القراءة .

ومنهم من قال : إن الله ـ تعالى ـ ألهم كلامه جبريل وهو فى السماء فى عال من المكان وعلمه قراءته ، ثم نزل جبريل فأداه فى الأرض .

وفى تلقى التنزيل طريقان : أحدهما أن النبى ﷺ ينخلع من صورته البشرية إلى صورة الملكية ويتلقاه من جبريل .

والثانى : أن الملك ينخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه .

والأول أصعب الحالين . .

أما الطيبى ، فيرى أن نزول القرآن على النبى ﷺ كان بواسطة الملك ، الذى يتلقاه من الحق سبحانه وتعالى تلقيا روحانيا ، أو أن يحفظ الملك القرآن من اللوح المحفوظ فينزل به إلى الرسول فيلقيه عليه . .

ويمكن أن يكون المراد بإنزاله إثباته فى السماء الدنيا بعد الإثبات فى اللوح المحفوظ . .

والمراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تلقفاً روحانيا ، أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها فيلقيها عليهم .

ويقول السيوطى بعد أن استعرض طائفة من أقوال العلماء .

إن جبريل تلقف الوحى من الله ـ تعالى ـ سماعاً ، ونزل به إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويؤيد ذلك ماأخرجه الطبرانى من حديث النواس ابن سمعان مرفوعاً : « إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ـ عليه السلام ـ فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، فينتهى به على الملائكة ، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ فيقول : قال الحق .. فينتهى به حيث أمر »

وينقل السيوطى عن الجوينى قوله : كلام الله المنزل على الأنبياء والرسل قسمان ..

قسم قال الله لجبريل : قل للنبى الذى أنت مرسل إليه : إن الله يقول : افعل كذا وكذا ، وأمر بكذا بكذا ففهم جبريل ماقاله ربه ، ثم نزل على ذلك النبى وقال له ماقاله ربه ، لا يغير من معناه شيئاً ـ وإن تغيرت العبارة ـ .. كما يقول الملك لمن يثق به من المخلصين : قل لفلان يقول لك الملك : اجتهد فى الخدمة ، واجمع جندك للقتال ، فإن قال الرسول : يقول لك الملك : لا تتهاون فى خدمتى ولا تترك الجند تتفرق وحثهم على المقاتلة ، لا ينسب إليه كذب ولا تقصير فى أداء الرسالة .

وقسم آخر قال الله لجبريل : اقرأ على النبى هذا الكتاب ، فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير ... كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين ، ويقول : اقرأه على فلان ، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفاً .

والقرآن هو القسم الثانى ..

والسنة من القسم الأول فقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداها بالمعنى . .

أما القرآن فلا تجوز روايته بالمعنى ، لأن جبريل أداه باللفظ المحفوظ الذى لا يتغير ولا يتبدل . . '

والسر فى ذلك أن المقصود فى القرآن الكريم.التعبد بلفظه والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتى بلفظ يقوم مقام لفظه لأن كل حرف منه تحته معانى لا يحاط بها . .

وذكر السيوطى خبراً فى ذلك قال : أخرج ابن أبى حاتم ، عن طريق عقيل عن الزهرى أنه سئل عن الوحى ، فقال :

الوحى ما يوحى الله به إلى نبى من الأنبياء ، فيثبته فى قلبه ، فيتكلم به ويكتبه ، وهو كلام الله . . ومنه مالا يكتبه ولا يأمر بكتابته ، ولكنه يحدث به الناس حديثاً ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه (١٩٩)

الوحى القرآنى :

قال الله فى شأن الوحى القرآنى :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (٢٠٠)

، ومفاد ذلك أنه ليس لجبريل وهو الروح الأمين دخل فى الوحى بالقرآن ، فليس له سوى التبليغ المأمور به ، لأنه من أمر الله . . وكذلك ليس لمحمد

---

(١٩٩) المرجع السابق .

(٢٠٠) الشعراء ١٩٢ : ١٩٥

ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل فيما أوحى إليه ، ولم يكن على علم به قبل أن يوحى به إليه ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٢٠١)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢٠٢)

هذه هو طريق الوحى القرآنى كما تحدده هذة الآيات الكريمة ، هو الطريق الجلى الواضح الصريح ، الذى يلتقى فيه الملك الأمين بالنبى الكريم ـ عليهما السلام ـ لقاء مباشراً لا لبس فيه ولا غموض ، فيتلقى النبى ﷺ الوحى من الملك كما تلقاه الملك من الله مباشرة .

فظاهرة الوحى القرآنى ظاهرة السمات لا لبس فيها ولا غموض ، ولا اختلاط فيها بعوامل النفس أو الإلهام أو الرؤيا . إنه الطريق الذى اختاره الله لكلامه . . فليس هو بكلام جبريل ، ولا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه الوحى من الله إلى رسوله محمد ﷺ بواسطة جبريل الأمين ؛

---

(٢٠١) القصص ٨٦

(٢٠٢) الشورى ٥٢

والقرآن الكريم يطلق عليه « الكتاب » من بين الكتب التى نزلت من السماء ، بمعنى أنه إذا ذكر الكتاب انطلق الذهن إلى القرآن مباشرة . . وقد ورد هذا المدلول فى قوله ـ تعالى ـ

« ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »(٢٠٣)

وهذا واضح من الآية السابقة : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »

وواضح من قوله ـ تعالى ـ

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩ ﴾(٢٠٤)

وواضح من آيات أخرى كثيرة أطلق فيها لفظ الكتاب وأريد به القرآن الكريم . . كما أنه إذا ذكر « كلام الله » انصرف أيضاً إلى القرآن الكريم دون غيره من كلام الله الذى أنزل على الرسل السابقين . .

وهذه خصيصة من خصائص القرآن الكريم . .

كما أنه إذا أطلق لفظ الرسول انصرف إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أن هناك رسلاً آخرين .

---

(٢٠٣) البقرة ١ ، ٢

(٢٠٤) ص ٢٩

ولذلك وجه إليه الخطاب بهذا الوصف فى آيات كثيرة مثل قوله تعالى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ (٢٠٥)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (٢٠٦)

وذكر بهذا الوصف فى آيات كثيرة أيضاً مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ (٢٠٧)

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٣ ﴾ (٢٠٨)

لماذا كان النبى ﷺ يعانى شدة فى نزول الوحى ؟ :

سبق أن قلنا إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعانى شدة فى أثناء نزول الوحى عليه ..

وعلة هذه الصعوبة كما يرى العلماء . أن القرآن الكريم ينزل فى جو ملائكى ، يُنْقَلُ النبى ﷺ إليه ويهيأ له ، ليستعد لما يلقى إليه ، فينتزع انتزاعاً من كل ماحوله ، حتى يتفرغ قلبه وسمعه تماماً لتلقى القرآن الكريم ..

---

(٢٠٥) المائدة ٤١

(٢٠٦) المائدة ٦٧

(٢٠٧) النساء ١٧٠

(٢٠٨) النساء ٨٣

إنها ظاهرة الوحى القرآنى التى تصل بالنبى - صلى الله عليه وسلم - إلى حالة توجد ثقلاً ملموساً فى جسده ، وَعَرَقاً متقاطراً مثل الجمان من جبينه ، إنه أمر خارج عن الإرادة البشرية ، وليس هو من تأثير حر قائظ فى يوم شديد الحر ، فإن ذلك كان يحدث كثيرا فى اليوم الشديد البرودة ، وقد أكدت ذلك السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت : ويبلغ ثقل جسمه إلى أن راحلته تبرك به إلى الأرض فلا تستطيع أن تحمله ..

هذا الطريق الملائكى هو الطريق الوحيد بالنسبة لنزول القرآن الكريم (٢٠٩)

والذى يؤيد أن القرآن لم ينزل إلا فى هذا الجو الملائكى ماوراه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : سألت النبى ﷺ هل تحس بالوحى ؟ قال : أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك ، فمامن مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسى تقبض .

وقد أخبرت السيدة عائشة - رضى الله عنها - قائلة : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - اذا نزل الوحى يتغير لونه ويعرق حتى ينحدر منه مثل الجمان .

إنه القرآن الكريم الذى أخبر عنه الحق بقوله :

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ (٢١٠)

وكانت هذه الظاهرة العجيبة التى تحدث للرسول ﷺ حين ينزل القرآن لا يخفى أمرها على أحد .

---

(٢٠٩) الوحى الالهى د . الحسينى هاشم ص ٣٢
(٢١٠) المزمل ٥

حيث يشتد الأمر على النبى ، وَيُسْمَعُ عند وجهه أصوات مختلطة تشبه دوى النحل ، ثم لا يلبث أن يسرى عنه ، فإذا هو يتلو آيات من القرآن الكريم . .

إنها ظاهرة غير متكلفة ولا مصطنعة ولا مرضية ـ كما يزعم بعض جهال الغرب .

ولكنها أمر غير اختيارى ، يتتابه فى أحوال مختلفة ، ليلاً أو نهاراً ، مقيماً أو مسافراً ، قائماً أو قاعداً .

هو أمر يأتى فجاة ، ويذهب فجاة ، ولا يترك فى ذهابه أثراً من تلك الآثار التى تعترى المصابين بالأمراض العصبية المختلفة .

ومن العجيب أن هذا القرآن الذى كان يعانى منه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه المعاناة الشديدة ، فى أثناء تلقيه جعله الله سهلاً فى التلاوة ، يسيراً فى الحفظ ، قال ـ تعالى ـ

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢١١)

الملك لا يتمثل فى صورة رجل حين يلقى القرآن :

وقد ذكر العلماء أن الملك لم ينزل بالقرآن وهو فى صورة رجل . وإنما كان ينزل فى صورة رجل ، عندما يوحى بالسنة . . وهذه الحالة من حالات الوحى كان لا يجد فيها النبى ﷺ المعاناة التى يجدها فى الحالة الأولى . . .

فوحى السنة لا تصحبه تلك الشدة ، لأنه يأتى عن طريق يتمثل فيه الملك فى

---

(٢١١) القمر ٣٢

صورة بشر ، كما رأينا فى الحديث الذى ذكرناه آنفاً ، أو يأتى عن طريق الإلهام والنفث الذى أشرنا إليه . .

ولو نزل القرآن الكريم عن طريق ملك يتمثل بشراً لقال الكفار - وهم يتلمسون الأسباب لتكذيب النبى ﷺ - إنما يعلمه بشر جاء إليه من مكان وقد رأيناه يعلمه القرآن . .

ولقد قالوا ذلك فعلاً حين رأوا غلاماً للفاكه بن المغيرة اسمه - جبر - وكان نصرانياً فأسلم ، رآه الكفار يتعلم من النبى ﷺ أمر الدين فقالوا : إن محمداً يتعلم منه . . وقد كذبهم القرآن الكريم فى قوله :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ (٢١٢)

قالوا ذلك مع أن هذا الغلام الذى يتردد على النبى ﷺ أعجمى لا يدرك جمال العربية وبلاغتها وفصاحتها ، ولسانه لا يكاد يبين بها . . فهل هناك افتراء وكذب أكبر من هذا ؟؟

إن نزول القرآن بهذه الصورة العجيبة التى تصاحب النبى ﷺ فتغير من حالته وتثقل جسمه وتجعله يتفصد عرقاً فى شدة البرد ، أمر قاطع بكذب افتراءات المفترين حول القرآن الكريم . .

---

(٢١٢) النحل ١٠٣

وانتقال النبي ﷺ إلى هذا الجو الملائكي وانقطاعه كلية في أثناء تلقي الوحي عما حوله مناسب تماماً لجلال هذه القرآن وعظمته وإعجازه وتحديه . .

الملك الموكل بالوحي « الروح الأمين »

والملك الموكل بالوحي من بين الملائكة هو جبريل عليه السلام

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن سابط قال : في أم الكتاب كل شيء هو كائن إلى يوم القيامة ، وقد وكل ثلاثة من الملائكة بحفظه ، فوكل جبريل بالكتب والوحي إلى الأنبياء ، وبالنصر عند الحروب ، وبالمهلكات إذا أراد الله أن يهلك قوماً .

ووكل ميكائيل بالقطر والنبات .

ووكل ملك الموت بقبض الأنفس . .

فإذا كان يوم القيامة عارضوا ـ أي قابلوا ـ بين حفظهم وبين ما كان في أم الكتاب فيجدونه سواء .

وأخرج أيضاً عن عطاء بن السائب قال : أول ما يحاسب جبريل لأنه كان أمين الله على رسله .

ويطلق على جبريل « الروح الأمين » وقد جاء ذكره أو الاشارة إليه في مواضع عدة من القرآن الكريم منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٢١٣)

---

(٢١٣) الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤

كما يطلق عليه الروح فقط أو روح القدس ، كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢١٤)

قال القرطبى : روح القدس يعنى جبريل ـ عليه السلام ـ نزل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه . . ولكن إذا كان الأمر كذلك ، وأن جبريل هو أمين الوحى ، وأنه هو المخصص بنزول القرآن ، فما معنى ما جاء فى حديث آخر ، ان الله وكل اسرافيل بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث سنوات فى أول أمره ؟ وما معنى ماورد بشأن نزول الفاتحة ، من أن ملكا نزل بها لم ينزل إلى الأرض قط ؟ . . وللإجابة عن ذلك قال العلماء . . .

أما ان إسرافيل قد وكل بالنبى ﷺ فقد وكل به فى أثناء الوحى المنامى الذى كان مقدمة للوحى القرآنى الذى سينزل به جبريل بعد ذلك ، حتى لايفاجأ بعظمة هذا الوحى الذى يصعب على القوى البشرية تحمله دون تمهيد له . .

وأما أن ملكاً لم ينزل إلى الأرض نزل بسورة الفاتحة فإن هذا الملك لم ينزل إلا وكان جبريل مع النبى ﷺ فقد أورد ابن كثير فى تفسيره ، عن ابن عباس

---

(٢١٤) النحل ١٠٢

ـ رضى الله عنها ـ قال : بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده جبريل إذ سمع صوتاً فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك فأتى النبى ﷺ فقال :

أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته .. وهذا لفظ النسائى (٢١٥)

ومعنى هذا أن جبريل نزل بالآيات ، وهذا الملك نزل بالخبر عن مزاياها ..

وهذا ما أشار إليه القرطبى فى تفسيره حيث قال : إن نزول الفاتحة كان بمكة نزل بها جبريل ـ عليه السلام ـ فيكون جبريل قد نزل بتلاوتها فى مكة ونزل هذا الملك بثوابها فى المدينة والله أعلم (٢١٦)

والدليل على أن جبريل عليه السلام هو الذى نزل بجميع القرآن قوله تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٢١٧)

---

(٢١٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٤ .
(٢١٦) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١١٦ ط دار الشعب .
(٢١٧) الشعراء ، ١٩٣ ، ١٩٤

القرآن الكريم

- لم سمي قرآنا ؟
- سور القرآن .
- أول ما نزل من القرآن.
- أول آية نزلت في موضعها.
- الآيات المكية والمدنية .
- آخر ما نزل من القرآن .
- خصائص القرآن المكي والمدني.
- لماذا نزل القرآن منجما ؟
- الفرق بين القرآن والأحاديث القدسية والنبوية .
- جمع القرآن وترتيبه .
- معنى أن القرآن نزل على سبعة أحرف .
- إعجاز القرآن .
- من أسباب النزول .
- موقف الكفار من القرآن .
- المستشرقون والقرآن .
- واجب المسلمين نحو القرآن .
- آداب تلاوة القرآن وحفظه.



« القرآن الكريم »

ومتى ما تحدثنا عن الوحى ، فالمقام يستدعى الحديث عن القرآن الكريم الذى هو شغل هذه السلسلة الشاغل . . وسوف نوجز حديثنا بقدر المستطاع لأن الحديث عنه أوسع من أن يحيط به الحصر وقد كتبت فيه جوامع وأمهات من الكتب لا حصر لها . .

كلمة القرآن فى القرآن :

وردت كلمة القرآن فى القرآن الكريم ثمانياً وخمسين مرة

ووردت كلمة قرآن بدون « أل » اثنتى عشرة مرة

ووردت كلمة الذكر ـ ويقصد بها القرآن ـ اثنتين وخمسين مرة

ووردت كلمة الفرقان ـ ويقصد بها القرآن ـ فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (٢١٨)

ووردت كلمة الكتاب ـ ويقصد به القرآن ـ فى مواضع متفرقة منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » (٢١٩) ﴾

وقوله تعالى :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (٢٢٠)

---

(٢١٨) الفرقان ١

(٢١٩) البقرة ٢

(٢٢٠) البقرة ١٥١

وقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (٢٢١)

وقوله تعالى .

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ (٢٢٢)

لقد سمى الله القرآن بأسماء مختلفة ، فهو كما علمنا : القرآن ، وهو الذكر ، وهو الفرقان ، وهو الكتاب ، وهو التنزيل ، وهو كلام الله ، وهو النور ، كما قال سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ (٢٢٣)

وهو موعظة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٢٢٤)

وهو القول الفصل :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢٢٥)

---

(٢٢١) البقرة ١٧٦
(٢٢٢) الأعراف ١٩٦
(٢٢٣) النساء ١٧٤
(٢٢٤) يونس ٥٧
(٢٢٥) الطارق ١٣ ، ١٤

وهو النبأ العظيم :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢٢٦)

وهو التنزيل :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ (٢٢٧)

وهو الوحى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢٢٨)

وهو البيان :

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (٢٢٩)

ولكن الاسم الجامع لكل هذه الأسماء هو القرآن . . إنه العَلَمُ وبقية الأسماء صفات له .

وإذا أطلقت كلمة القرآن انصرفت إلى التنزيل العزيز الذى نزل على محمد ﷺ ، وقد بدأ ابن منظور مادة (قرأ) فى معجمه بتفسير معنى القرآن ، وقال فى تعليل ذلك : وإنما قدم على ماهو أبسط منه لشرفه

---

(٢٢٦) ٦٧ سوزة ص

(٢٢٧) الشعراء ١٩٢

(٢٢٨) الأنبياء ٤٥

(٢٢٩) آل عمران ١٣٨

واستشهد بكلام أبي إسحاق النحوى فى قوله : يسمى كلام الله تعالى المنزل على نبيه ﷺ كتاباً وقرآناً وفرقاناً ، ومعنى القرآنِ الجمع وسمى قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها ، أما معنى قرآنه فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢٣٠)

فهو القراءة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : فإذا بيناه لك بالجمع والقراءة فاعمل بما بيناه .

لم سمى قرآناً ؟

يقول الفراء : إنه مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً

وقال الراغب : سمى قرآناً لأنه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة

وقال قطرب : إنما سمى قرآناً لأن القارىء يظهره ويبينه من فيه

وقال السيوطى أيضاً : وأما تسميته كتاباً فلجمعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه ، والكتاب لغة : الجمع

هذه هى تسمية القرآن ، وهى تسمية توقيفية من عند الله ـ تعالى ـ فكيف جاءت كلمة المصحف ؟

ذكر السيوطى فى ذلك ما حاكاه المظفرى قال : لما جمع أبو بكر القرآن قال : سموه ، فقال بعضهم : سموه انجيلاً ، فلم يرتضوا ذلك . وقال بعضهم : سموه سفراً فترددوا فى ذلك أيضاً فقال ابن مسعود : رأيت بالحبشة كتاباً يسمونه المصحف فسموه به . .

---

(٢٣٠) القيامة ١٧

ســـور القرآن :

السور جمع سورة ، واشتقاقها من السؤر ـ بالهمزة ـ وهو البقية من الشراب فى الإناء فكأن السورة جزء أو قطعة من القرآن ، وقد تسهل الهمزة

ويعضهم يقول : انها بدون همزة أصلاً ، وهى تشبه سور البناء أى القطعة منه،أو كأنها سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها ، ومنه السوار الذى يحيط بالمعصم . .

وقيل سميت بذلك لارتفاعها لأنها كلام الله ، والسورة هى المنزلة الرفيعة .

وتسمية السور بأسمائها توقيفية ولأسرار علية ، وقد نبه الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره على بعض الأسرار فقال : « اعلم أن الله عز وجل سمى السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام وببعضها كالبقرة ، وبالمخلوقات الصغيرة كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو ألطف من ذلك كالنور ، كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وببعض الأخلاق كالتوبة وببعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم ، وببعض الأماكن كالبلد والبروج ، وببعض النباتات كالتين ، وبكل شىء مما نراه ومالا نراه ، كالمرسلات والنازعات والجن وغير ذلك .

والمتأمل فى أسماء هذه السور يراها ترمز إلى حقائق يمكن له أن يدرك بعضها على حسب ما يفتح به الله عليه من فهم وإدراك

ولنضرب لذلك مثلاً : سميت سورة البقرة بذلك لورود ذكر بقرة بنى إسرائيل فيها ، وهى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا
هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ
ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا
مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ
ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ
عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ
بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ
فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ
ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢٣١)

وفى هذه القصة من العبر والعظات والمعانى ماهو كفيل أن يوجه الناس أنظارهم إليه ، كعناد بنى اسرائيل وتشددهم فى أمور لا تستحق التشدد فيها ، فتكون مغبة ذلك عليهم ، فلو أنهم استجابوا إلى أمر موسى ـ عليه السلام ـ لهم من أول مرة لما حملوا أنفسهم عناء شديداً فى طلب بقرة تجمع كل الصفات التى أوردتها الآيات ، حتى أنهم لم يتمكنوا من الحصول عليها

---

(٢٣١) البقرة من ٦٧ : ٧٣

١

إلا بملء جلدها ذهباً كما ذكر الرواة ولذلك ضرب المثل بتعنت بنى اسرائيل فقيل : لاتكونوا كبنى إسرائيل شددوا فشدد عليهم .

وليست هذه أول مرة يشددون على أنفسهم فيها ، ولكن هذا التشدد عادة درجوا عليها وجاءت هذه القصة كدليل على ذلك .

ومع أن السورة فيها آيات كثيرة توضح فساد بنى اسرائيل وعنادهم وكفرهم بعد إيمانهم وترددهم الشديد الذى يوضح سوء نواياهم وقبح سرائرهم ، إلا أن أوضح مثل يفصل ذلك تماماً هو هذه القصة التى حكيت فى أروع بيان وأجمل نسق .

إن هذه القصة تضع أمامنا صورة لهذا العناد فنحذره ونحذر أصحابه ، ونعلم أى لون من الناس أصبح المسلمون الأوائل يختلطون بهم فى المدينة ، بعد أن أصبحت موطن الدين الجديد ومستقر المسلمين بعد الهجرة ،

سورة آل عمران :

أما سورة آل عمران فقد سميت بذلك لتفتح أذهاننا إلى أن الله يخص برحمته من يشاء ويصطفى للهداية من يشاء .. لقد ذكرت سورة البقرة السابقة عليها طوائف من الضالين تمثلت فى المنافقين وفى اليهود وفى المشركين ، وهذه السورة ذكرت طائفة من المهتدين اختصهم الله واصطفاهم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢٣٢)

(٢٣٢) آل عمران ٣٣ ، ٣٤

واختص آل عمران بهذا الفضل لأنهم كانوا قدوة فى الصبر والاستسلام لأمر الله والرضا بقدره وكانوا آية فى الإيمان القوى واليقين الكامل والثقة فى الله جل وعلا والتوكل عليه . .

سورة الرعد :

لعلها سميت بذلك لتلفت نظرنا إلى هذه الظاهرة الكونية التى تحيط بنا ، والتى تدل دلالة قوية على قدرة الله ـ تعالى ـ فنعرف سر هذه الظاهرة ، وندرسها دراسة علمية متخصصة متدبرة ، ونهتدى من ورائها إلى أسرار علمية تقودنا إلى غيرها ، وترشدنا إلى ما يفيدنا فى حياتنا ، ويعمق إيماننا بالله واليوم الآخر ، ونعرف أن الاسلام ليس دينا فقط ، بل هو دين ودنيا ، انظر إلى قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢٣٣)

إن نسق التعبير هنا يوحى بكثير من الدلائل ، فهذه ظواهر طبيعية يترتب بعضها على بعض ، برق ، فسحاب ، فرعد ، فصواعق . تصيب المجادلين فى الله بغير علم وهو وحده القوى القادر العظيم . .

إن القرآن يخاطبنا عن طريق تسمية هذه السورة طالباً منا أن نتنبه لقدرة الله الخارقة ، حاثاً لنا على النظر فى معرفة ظواهر الكون المختلفة ، للتعرف

---

(٢٣٣) الرعد ١٢ ، ١٣

عليه وعلى عظمته ، وفى الوقت نفسه نفتح لأنفسنا آفاقاً من العلم تجعلنا نتفوق فى حياتنا وننتفع بما يمكن الانتفاع به .

النحـــــل :

وفى التسمية بالنحل تنبيه لما ورد فى هذه السورة حول هذه الحشرة الصغيرة التى سخرها الله لتقدم للإنسان أجل خدمة يعجز عنها أمهر الأطباء وأذكى الحكماء ، إنها تحول ما تجنيه من رحيق الأزهار إلى شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، وقد ضربت هذه الحشرة المثل الكامل فى الإيثار وانكار الذات والسعى المتواصل والدأب المستمر فى خدمة الحياة ، مع نظام كامل ، وتعاون عظيم ، وتدبير محكم ، ونظافة تامة ، فهل يتعلم الإنسان الطامع الأثر الجشع من هذه الحشرة ما ينفعه فى حياته ويسعده بعد مماته ؟

إن هذه الحشرة الصغيرة تقدم لنا أمثلة من روائع الأخلاق التى نحن فى أمس الحاجة إليها .

النمـــــل :

ولعل فى تسمية النمل تفقيهاً لنا وتعليماً لنا بأن الله قادر على أن يضع سره فى أضعف مخلوقاته ، فهذه الحشرة التى لا يأبه بها أحد استطاعت أن تدبر مملكتها الصغيرة أحسن تدبير ، وأن تنظر فى شئون رعيتها ، بحكمة منقطعة النظير ، حتى إنها لم تغفل عن الخطر المحدق بهم ، فأنذرت الرعية قبل أن تدهمهم جيوش سليمان فقالت :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ ﴾

مما حدا بسليمان الحكيم - عليه السلام - أن يتعلم منها دروساً فى اليقظة والفطنة فيهتف من أعماقه قائلاً :

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (٢٣٤)

إنها تعلم الحكام كيف يسهرون على مصلحة رعاياهم وكيف يعملون على أن يجنبوهم المتاعب ويحفظوهم من المعاطب ، وأن يدأبوا على التفكير فى العواقب .

الشـــعراء :

ولعل اسم الشعراء يعلمنا ما يبطن فى هذا القرآن العظيم المنزل من عند الله من أسرار عظيمة ومعانى كريمة ، ونسج محكم وأسلوب معجز ، وأنه ليس فى مقدور البشر جميعاً شعراء كانوا أو غير شعراء - أن يأتو بمثله

كما وأن هذه التسمية تشير إلى تحذير الشعراء من الانسياق وراء عواطفهم وأهوائهم ونزواتهم فى أشعارهم ، فعليهم أن يرعوا حق هذه الملكة التى وهبها الله لهم ، ويحترموا هذه الموهبة التى منحها الله إياهم ، فلا يستعملوها إلا فى أشرف المعانى وأنبل المقاصد .

لقد جرت عادة الشعراء أن ينقضوا اليوم ما أبرموه بالأمس ، وأن يجروا فى شعرهم على سنن غير سليم ، فهم فى كل واد يهيمون وهم يقولون

---

(٢٣٤) النمل ١٨ ، ١٩

ما لايفعلون ، ولذلك اصطنعهم الملوك والرؤساء ، واشتروا ذممهم بالمال والهبات ، والهدايا « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

وما يصدق على الشعراء يصدق على غيرهم من أرباب البيان وأساطين الفن والثقافة والاعلام ، إن فى تسمية هذه السورة بهذا الاسم الذى ورد فى آية منها ـ إشعاراً لكل هؤلاء وغيرهم حتى لا يستعملوا مواهبهم فى غير ما خلقت له ، إن القرآن الكريم وضع أيدى الناس على داء وبيل ينخر فى جسم الدول ، حيث نبه إلى الخطر الناجم عن اللسان الفصيح الذى يستعمل فى تزيين الشر وتقبيح الخير ، وإعلاء الباطل وتوهين الحق ، وقد ورد فى ذلك أثر يقول « البيان شعبة من النفاق » وذلك لأن صاحب هذا البيان يزين به حجته وينمق به فكرته ، فيصور الباطل حقاً والحق باطلاً ، وقد استشرى هذا الداء فى العصور المتأخرة ، حتى تخصصت أجهزة فى كل دولة ، تكون مهمتها تزيين سياسة الحكام والدفاع عنها . . فليتق الله حملة الأقلام ، فهم مسئولون أمام الله عن أمانة الكلمة وضمير القلم .

العنكـــبوت :

وربما كان اسم العنكبوت يشير إلى ما ألهم الله هذه الحشرة العجيبة من قدرات ـ فجعل فى إمكانها أن تعلم الإنسان مالم يكن يعلم ، إن فى لعابها سحراً تصنع منه خيوطاً محكمة النسج ، تبنى بها قلعة تحميها وتحرسها ، وتجعل منها شركاً تصطاد به فرائسها وعلى هذه الخيوط تتسلق وتعلو وتهبط دون أن تبذل فى ذلك جهداً ومشقة .

وعلى ضعف بيت العنكبوت الذى ضرب الله به المثل على ضعف الشركاء الذين يتخذهم الكفار أولياء من دون الله إلا أن فيه بياناً لقدرة الله العظيم الخالق الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . فهو الذى ألهم كل مخلوق حكمة تعينه على حياته ومعيشته ورزقه وعدوه ، ولفت أنظارنا حتى نفكر ونتدبر فى هذا الكون الملىء بالعجائب والمتناقضات ، حيث يوجد القوى والضعيف ، والمفترس والفريسة ، والهازم والمنهزم ، والمهتدى والضال ، ومع ذلك فالكون يسير فى دقة متناهية ، ونظام عجيب متكامل . . . أليس ذلك دليلاً على قدرة الله الواحد وعظمة الخالق الذى قدر فهدى ؟

هذه بعض ملاحظات متواضعة حول أسماء بعض السور ، وهناك معان دقيقة كثيرة لم نفطن لها ، تدعونا إلى التأمل والتفكر .

الدليل على أن أسماء السور توقيفية :

ومما يدل على أن أسماء السور توقيفية أن الآية حينما كانت تنزل كان النبى ﷺ يقول : ضعوا هذه الآية فى مكانها من سورة كذا .

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : كان المشركون يقولون : سورة البقرة ، وسورة العنكبوت ، يستهزئون بذلك ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (٢٣٥)

ومعنى ذلك أن أسماء السور كانت معروفة .

وربما كان للسورة أكثر من اسم ، وكل اسم منها يشير إلى معان دقيقة .

---

(٢٣٥) الحجر ٩٥

فالفاتحة لها أسماء كثيرة ، منها فاتحة الكتاب ، وأم القرآن ، والسبع المثانى ، ومن أسمائها التى وصفت بها : الوافية ، والكافية ، والأساس ، والشفاء .. وغير ذلك

وسورة البقرة ، كان يطلق عليها فسطاط القرآن ، وكان يطلق عليها وعلى آل عمران اسم الزهراوين .. وهكذا ..

ومما يدل أيضاً على أن أسماء السور توقيفية أن هناك سوراً وردت فيها قصص وافية لبعض الأنبياء ولم تسم بهم هذه السور .. فسورة طه اشتملت كلها تقريباً على قصة موسى ـ عليه السلام ـ ومع ذلك لم تسم السورة باسمه ، كما أنه لم تسم أى سورة باسمه فى القرآن ، كما سميت سور باسم غيره من الأنبياء مثل : يوسف وابراهيم وهود ونوح ومحمد ويونس .

كما أنه ورد ذكر آدم فى بعض سور ومع ذلك لم تسم به إحداهن ..

فهذا دليل على أن التسمية توقيفية وليست اجتهادية .

أول ما أنزل من القرآن :

المتواتر والمشهور أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو الآيات الأولى من سورة العلق :

بسم الله الرحمن الرحيم ..

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥ ﴾ (٢٣٦)

---

(٢٣٦) العلق ١ : ٥

وهناك أقوال أخرى تذكر أن أول مانزل آيات سورة المدثر . . فقد روى عن يحيى بن كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول مانزل من القرآن فقال : ياأيها المدثر

قلت إنهم يقولون : « اقرأ باسم ربك الذى خلق »

قال أبو سلمة : سألت « جابراً » عن ذلك فقال : لاأحدثك إلا بما حدثنا به رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شياً ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً فلم أثبت له ، فأتيت « خديجة » فقلت : دثرونى دثرونى فنزل :

(٢٣٧)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾

وذلك قبل أن تفرض الصلاة » أخرجه الشيخان والترمذى

وقد حاول العلماء التوفيق بين هذا الحديث ، وحديث عائشة رضى الله عنها الذى يذكر أن أول مانزل من القرآن ، « اقرأ باسم ربك » وقد أجابوا عن ذلك بأجوبة منها :

١ ـ أن حديث جابر عن نزول سورة كاملة ومعنى ذلك أن سورة « المدثر » نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة « اقرأ » التى نزل صدرها أولاً

٢ ـ أن مراد ـ جابر ـ بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحى لا أولية مطلقة .

٣ ـ أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالانذار ، وعبر بعضهم عن ذلك بقوله : أول مانزل للنبوة « اقرأ باسم ربك » وأول ما نزل للرسالة « ياأيها المدثر »

---

(٢٣٧) سورة المدثر ١ ـ ٥

ويذكر البعض أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة ، والذى يقول بذلك يستند إلى خبر أخرجه البيهقى فى الدلائل والواحدى من طريق يونس بسند متصل إلى أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لخديجة : إنى اذا خلوت وحدى سمعت نداء ، فقد والله خشيت على نفسى . . فقالت : معاذ الله ، ماكان الله ليفعل بك ما يضر ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم ، وتصدق الحديث (٢٣٨)

فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة له أمر الرسول ، وقالت : اذهب مع محمد إلى ورقة ، فانطلقا فقص عليه الرسول ﷺ ، فقال : إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى ، يامحمد يامحمد ، فانطلق هارباً فى الأفق ، فقال له ورقة : لا تفعل . . إذا أتاك ، فاثبت حتى تسمع ما يقول ، ثم ائتنى فأخبرنى ، فلما خلا ناداه ، يامحمد قل :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » حتى بلغ « ولا الضالين » (٢٣٩)

وذكر بعضهم أن « بسم الله الرحمن الرحيم » هى أول ما نزل من القرآن الكريم

أخرج ابن جرير وغيره من طريق الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أول مانزل جبريل عليه السلام قال : يامحمد استعذ . . ثم قل : « بسم الله الرحمن الرحيم »

ولكن هذا لاينافى أولية « اقرأ » كما هو المشهور بين العلماء لأن البسملة تقدم بين يدى السورة فهى أول آية على الاطلاق ولو أنها لاتعد آية محسوبة إلا فى أول الفاتحة على المشهور من أقوال العلماء ـ وهى بعض آية فى سورة النمل .

---

(٢٣٨) دلائل النبوة حـ ١ ص ٤١٢

(٢٣٩) هذا الحديث مرسل ورجاله ثقات كما قال السيوطى فى الاتقان حـ ١ ص ٩١

وإذا كانت أول آيات نزلت هى أوائل العلق ، فإن آخر سورة نزلت هى سورة النصر .

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ (٢٤٠)

ولذلك تسمى هذه السورة بسورة التوديع

ثم تنزل القرآن الكريم بين أول آية وآخر آية موزعاً على حسب الحوادث والنوازل فى مدى ثلاث وعشرين سنة .. عند بعض الرواة .. أو عشرين سنة عند بعض الرواة الآخرين .. ومن القرآن مانزل فى مكة ومنه مانزل فى المدينة .

ويطلق على ما نزل فى مكة لقب المكى ، وما نزل فى المدينة لقب المدنى .

الآيات المكية والمدنية :

وقد استعرض الرواة الآيات المكية والمدنية وحصروها وتحدثوا عنها وأشار كتّاب المصحف ونساخه إلى ذلك فى أوائل السور بقولهم : هذه السورة مكية أو مدنية ، إلا آية كذا وكذا ، ونزلت بعد سورة كذا ..

ويمكن ايجاز ذلك فيما يأتى :

المكى من القرآن :

أول ما نزل بمكة من القرآن : إقرأ ، ثم القلم ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم الفاتحة ، ثم المسد ، ثم التكوير ، ثم الأعلى ، ثم الليل ، ثم الفجر ، ثم الضحى ، ثم الشرح ، ثم العصر ، ثم العاديات ، ثم الكوثر ، ثم

---

(٢٤٠) النصر

التكاثر ، ثم الماعون ، ثم الكافرون ، ثم الفيل ، ثم الفلق ، ثم الناس ، ثم الاخلاص ، ثم النجم ، ثم عبس ، ثم القدر ، ثم الشمس ، ثم البروج ، ثم التين ، ثم قريش ، ثم القارعة ، ثم القيامة ، ثم الهمزة ، ثم المرسلات ، ثم ق ، ثم البلد ، ثم الطارق ، ثم القمر ، ثم ص ، ثم الأعراف ، ثم الجن ، ثم يس ، ثم الفرقان ، ثم الملائكة « فاطر » ثم مريم ، ثم طه ، ثم الواقعة ، ثم الشعراء ، ثم النمل ، ثم القصص ، ثم بنى اسرائيل « الاسراء » ثم يونس ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الحجر ، ثم الأنعام ، ثم الصافات ، ثم لقمان ، ثم سبأ ، ثم الزمر ، ثم غافر ، ثم السجدة ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الاحقاف ، ثم الذاريات ، ثم الغاشية ، ثم الكهف ، ثم الشورى ، ثم إبراهيم ، ثم فصلت ، ثم الأنبياء ، ثم النحل (بعضها) ، ثم نوح ، ثم الطور ، ثم المؤمنون ، ثم الملك ، ثم الحاقة ، ثم المعارج ، ثم النبأ ، ثم النازعات ، ثم الانفطار ، ثمن الانشقاق ، ثم الروم ، ثم العنكبوت ، ثم المطففين » .

أما السور المدينة فهى على الترتيب :

البقرة ، آل عمران ، الأنفال ، الأحزاب ، المائدة ، الممتحنة ، النساء ، الزلزلة ، الحديد ، محمد ، الرعد ، الرحمن ، الانسان ، الطلاق ، البينة ، الحشر ، النصر ، النور ، الحج ، المنافقون ، المجادلة ، الحجرات ، التحريم ، الجمعة ، التغابن ، الصف ، الفتح ، التوبة .

وجملة المكى ست وثمانون سورة ، وجملة المدنى ثمان وعشرون سورة .

أول آية فى موضوعها :

وفى القرآن آيات متعددة نزلت فى موضوع واحد ، كتحريم الخمر ، وكالدعوة إلى الجهاد ، وغير ذلك ويكون عادة من بينها آية هى أول ما نزل فى هذا الموضوع ، ومن ذلك ..

ـ أول آية نزلت فى الدعوة إلى الجهاد هى قوله تعالى ـ

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٢٤١)

وهذا مارواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس

ولكن ابن جرير يروى عن أبى العالية أن أول آية نزلت فى هذا الشأن هى :

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٢٤٢)

وفى الإكليل للحاكم : أول آية نزلت فى القتال هى قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ

---

(٢٤١) الحج ٣٩

(٢٤٢) البقرة ١٩٠

ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ (٢٤٣)

وبالرجوع إلى أسباب النزول يستدل على أن آية ـ الحج ـ سبقت آية ـ البقرة ـ فى النزول ذلك أنها نزلت كما يقول الواحدى أول الهجرة ، وقال : « كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون يجيئون بين مضروب ومشجوج ، فشكوهم إلى رسول الله ﷺ فكان يقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بقتال ، حتى هاجر إلى المدينة فنزلت هذه الآية : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا »

وقال ابن عباس : لما أخرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر رضى الله عنه : إنا لله لنهلكن فى سبيله فأنزل الله تعالى :

« أذن للذين يقاتلون » قال أبو بكر : فعلمت أنه سيكون قتال (٢٤٤)

أما آية البقرة فيقول الواحدى : إنها نزلت بعد صلح الحديبية ، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما صُدَّ عن البيت هو وأصحابه نحر الهدى بالحديبية ، ثم صالحه المشركون على أن

عامه هذا ثم يأتى فى العام القابل على أن يخلوا له مكة ثلاثة أيام ، فيطوف بالبيت ويفعل مايشاء ، وصالحهم رسول الله ﷺ ـ فلما كان العام المقبل تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء ، وخافوا ألا تفى لهم قريش بذلك ، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام

---

(٢٤٣) التوبة ١١١

(٢٤٤) اسباب النزول للواحدى ص ٢٣٢ .

ويقاتلوهم ، وكره أصحابه قتالهم فى الشهر الحرام ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾(٢٤٥) .

وربما كانت آية التوبة سابقة على كلتا الآيتين فان الواحدى يقول عنها . .
قال محمد بن كعب القرظى : لما بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفسا ـ قال عبدالله بن رواحة : يارسول الله اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، فقال : اشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعونى مما تعبدوه منه أنفسكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : ربح البيع فنزلت هذه الآية (٢٤٦) .

وعلى ذلك فهى مكية . . والآيتان الأخريان مدنيتان .

أما أول آية نزلت فى الخمر فهى قوله ـتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ (٢٤٧)

فلما نزلت قيل : حرمت الخمر فقالوا : يارسول الله
دعنا ننتفع بها كما قال الله ـ تعالى ـ فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (٢٤٨)

---

(٢٤٥) أسباب النزول للواحدى ص ٣٧

(٢٤٦) المرجع السابق ص ١٩٦ وأسباب النزول للسيوطى ص ١١١

(٢٤٧) البقرة ٢١٩

(٢٤٨) النساء ٤٣

فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا : يارسول الله لانشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم . ثم نزلت :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (٢٤٩)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت الخمر (٢٥٠) .

وأول آية نزلت فى الأطعمة بمكة هى قوله ـ تعالى :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ (٢٥١)

ثم نزلت آية النحل :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ

---

(٢٤٩) المائدة ٩٠ : ٩١

(٢٥٠) الاتقان جـ١ ص ٩٩

(٢٥١) الأنعام ١٤٥

وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ (٢٥٢).

ثم نزلت بالمدينة آية البقرة - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ
مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ
ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ (٢٥٣)

ثم آية المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ
وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾ (٢٥٤)

ونزلت سورة براءة فى شأن غزوة تبوك .

وكان أول آية نزلت منها كما يحكى عن مجاهد . . هى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ
كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢٥٥)

ويحكى بعضهم قولا آخر هو أن أول مانزل منها قوله تعالى :

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢٥٦)

---

(٢٥٢) النحل ١١٤ ، ١١٥

(٢٥٣) البقرة ١٧٢ـ١٧٣

(٢٥٤) المائدة ٣

(٢٥٥) التوبة ٢٥

(٢٥٦) التوبة ٤١

روى ذلك عن مسروق عن أبي الضحى . ثم نزل من أول براءة حتى هذه الآية . . أربعون آية قبلها .

وحكى السيوطى قول عامر ـ لعله الشعبى ـ أن آية « انفروا خفافا » هى أول آية نزلت فى براءة ـ فى غزوة تبوك ، فلما رجع الرسول من تبوك نزلت براءة الإيمان إلا ثلاثون آية من أولها .

واذا كان هذا بيان أول مانزل من الآيات .

فما آخر آية نزلت ؟

ورد فى ذلك أقوال كثيرة . .

منها أن آخر آية نزلت هى آخر سورة النساء :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾(٢٥٧)

ومنها أن آخر مانزل هو الآيتان من آخر براءة :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾(٢٥٨)

وقيل : إن آخر مانزل هو آية الربا فى البقرة وهى :

---

(٢٥٧) النساء ١٧٦

(٢٥٨) التوبة ١٢٨ : ١٢٩

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾(٢٥٩)

وقال السيوطى راويا ما أخرجه النسائى عن طريق عكرمة عن ابن عباس : أن آخر مانزل هو قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾(٢٦٠)

وقد حاول السيوطى التوفيق بين هذه الروايات .

فقال : إن آيات الكلالة - والربا ـ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ـ والتداين ـ هى من الفرائض . وكانت هى آخر الآيات نزولا . .

واستند إلى قول القاضى أبى بكر فى الانتصار ان هذه الأخبار ليس فيها شيء مرفوع الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل ماقيل فيه هو ضرب من الاجتهاد . . والى قول البيهقى : يجمع بين هذه الاختلافات إن صحت بأن كل واحد أجاب بما عنده . . والله أعلم .

خصائص كل من المكى والمدنى

وضع العلماء ضوابط لمعرفة خصائص كل من القرآن المكى والمدنى نوجزها فيما يلى استنادا الى كتاب ﴿ مباحث فى علوم القرآن ﴾(٢٦١)

خصائص القرآن المكى :

كل سورة فيها سجدة فهى مكية ماعدا الرعد

ـ كل سورة فيها « كلا » مكية .

(٢٥٩) البقرة ٢٧٨

(٢٦٠) البقرة ٢٨١

(٢٦١) الكتاب من تأليف الدكتور صبحى الصالح

ـ كل سورة فيها قصة آدم وابليس مكية ماعدا البقرة . . ويغلب على القرآن المكى سوى ذلك .

ـ القرآن المكى يغلب عليه قصر الآيات والسور ، وإيجازها ، وشدة التعبير ، وقوة الرنين الصوتى .

ـ الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار .

ـ الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير .

ـ مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم .

ـ كثرة القسم جريا على أساليب العرب .

خصائص القرآن المدنى

ـ الإذن بالجهاد أو الإشارة إليه وبيان أحكامه .

ـ يحتوى على تفصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين المدنية والاجتماعية .

ـ يحتوى على ذكر للمنافقين .

ـ مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلو فى دينهم .

وهناك أمارات غالبة تظهر فى طول السور والآيات ، والأسلوب التشريعى الهادىء .

ـ ويظهر فيه تفصيل للبراهين والأدلة على الحقائق الدينية . .

لماذا نزل القرآن منجما ؟

المعروف بين العلماء أن القرآن الكريم نزل من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا فى ليلة القدر جملة واحدة ، كما قال سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ ﴾[٢٦٢]

---

(٢٦٢) سور القدر ١

وهى ليلة من ليالى شهر رمضان مصداقا لقوله عز وجل

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾(٢٦٣)

. ولكنه نزل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منجما فى مدى عشرين سنة . . أو ثلاث وعشرين سنة . . أو خمس وعشرين سنة . . على حسب الخلاف فى إقامة النبى ـ ﷺ ـ بمكة بعد البعثة . وأصح الأقوال وأشهرها هو أنه نزل فى ثلاث وعشرين سنة . منها ثلاث عشرة بمكة .

أما العلة فى نزوله منجما فقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى مواضع .

قال الله ـ تعالى ـ فى سورة الإسراء :

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾(٢٦٤)

قال القرطبى : على مكث : أى تطاول فى المدة شيئا بعد شىء ، أنزلناه آية آية وسورة سورة . . وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾(٢٦٥)

وفسر القرطبى ذلك قال :

رأى الكفار أن القرآن ينزل مفرقا فى حين رأوا الكتب المتقدمة مجتمعة

---

(٢٦٣) البقرة ١٨٥

(٢٦٤) الاسراء ١٠٦

(٢٦٥) الفرقان ٣٢ ، ٣٣

فقالوا : لولا أنزل القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ؟ .

ولكن الله أنزله منجما ليثبت به فؤادك يامحمد ويقوى به قلبك فتعيه وتحمله . . . والحكم والأسرار التى من أجلها نزل القرآن منجما كثيرة منها .

١ ـ تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه وشد أزره بالوحى المرة بعد المرة .

٢ ـ أن فى التنجيم تيسيرا عليه ﷺ ـ من الله فى حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامه وحكمه .

٣ ـ التدرج فى تربية الأمة الإسلامية الناشئة فى العلم به ، والعمل بأحكامه ، وتيسير حفظه عليهم والتدرج فى تخليهم عن العقائد الباطلة والعبادات المرذولة التى درجوا عليها .

٤ ـ تفصيل القول فيما يجد من أحداث وبيان أحكام الوقائع فى حينها ووقت حصولها فيكون ذلك أثبت فى النفس وآكد وأشد وقعا .

٥ ـ إجابة السائلين على أسئلتهم التى يوجهونها الى الرسول ﷺ سواء أكانت من المسلمين أو من الكفار أو من أهل الكتاب .

٦ ـ لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أخطائهم التى يقعون فيها ، وارشادهم فى الوقت نفسه إلى الصواب ولاشك فى أن التوجيه والارشاد فى وقت حدوث الخطأ يكون أوقع وأعمق أثرا فى النفس . .

فإن قيل : هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه الرسول إذ كان ذلك فى قدرته ؟ والجواب : أن فى قدرة الله أن يعلم رسوله القرآن والحكمة فى لحظة واحدة ، ولكنه لم يفعل لحكم عظيمة ولامعترض عليه فى حكمه .

لقد ثبت من تتابع الآيات فى النزول ومناسباتها أن القرآن كان ينزل بحسب الحوادث والحاجة الى الأحكام خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . . وكان النبى ـ ﷺ ـ يأمر بكتابتها ووضعها فى السورة التى تخصها .

أما كونه نزل مرة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، فذلك لتفخيم أمره وأمر من نزل عليه ، وفى ذلك إعلام لسكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة . . . نزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم .

ولولا أن حكمة الله اقتضت نزوله منجما لأنزله إلى الأرض دفعة واحدة كسائر الكتب المنزلة قبله ، ولكن الله باين بينه وبين الكتب السابقة فجمع له صفتين : أنزله من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزله مفرقا على نبيه بعد ذلك فى مدة بعثته ورسالته ـ ﷺ .

والذى نزل به جبريل على النبى ـ ﷺ ـ هو القرآن بألفاظه المعجزة من أول سورة الفاتحة الى آخر سورة الناس . وتلك الألفاظ هى كلام الله وحده ولا دخل لجبريل ولا لمحمد فى إنشائها وترتيبها بل هى من إنشاء الحق وترتيبه ـ عز وجل ـ ولذا تنسب الى الله دون سواه ، وان نطق بها جبريل ومحمد وملايين الخلق بعد ذلك الى أن تقوم الساعة .

فليس لجبريل عليه السلام فى هذا القرآن سوى نقله للرسول صلى الله عليه وسلم . وقراءته عليه ، وليس لمحمد صلى الله عليه وسلم سوى إبلاغه للخلق، وتلاوته عليهم ، وتحفيظهم إياه ، ثم بيانه وتفسير أحكامه والعمل بما فيه . وآيات القرآن الكريم تؤكد ذلك .

قال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝ ٦ ﴾(٢٦٦)

وقال :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ١٥ ﴾(٢٦٧)

الفرق بين القرآن والأحاديث القدسية والنبوية

لكل من القرآن والأحاديث سواء كانت قدسية أو نبوية ـ سمات مشرقة من حيث إنها وحى من الله بطرق الوحى المختلفة مصداقا لقوله ـ تعالى فى حق نبيه

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ٤ ﴾(٢٦٨)

وإن كان لكل من هذه الأنواع الثلاثة ـ القرآن ـ الأحاديث القدسية ـ الأحاديث النبوية ـ سمات مميزة نشير إليها فيما يأتى :

يقول الإمام الجوينى : كلام الله قسمان :

قسم قاله الله لجبريل : قل للنبى الذى أنت مرسل إليه ان الله يقول لك افعل كذا ومر بكذا . ففهم جبريل ماقاله ربه ووعاه تماما ثم نزل على ذلك

---

(٢٦٦) النمل ٦

(٢٦٧) يونس ١٥

(٢٦٨) النجم ٣ : ٤

النبى وأبلغه بما قاله ربه ـ جل وعلا ـ وهنا قد يختلف التعبير بعض الشىء ، ولكن تبقى المعانى هى هى التى أمر بها الله . .

وقسم آخر قال الله لجبريل عليه السلام ـ اقرأ على النبى هذا الكتاب . فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير . . كما يكتب الملك كتابا يسلمه إلى أمين ، ويقول : اقرأه على فلان ، فهو لايغير منه كلمة ولاحرفا .

وقد علق الإمام السيوطى فى كتابه الإتقان على هذا القول الذى قاله الإمام الجوينى بقوله :

فالقرآن هو القسم الثانى .

والسنة هى القسم الأول .

فقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة أيضا كما كان ينزل بالقرآن . .

ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى . . أما القرآن فلايجوز ذلك فيه .

والسر فى ذلك أن القرآن يتعبد بتلاوته وأنه معجز فى ألفاظه ، ولذلك لايستطيع أحد مهما أوتى من الفصاحة أو البلاغة أن يأتى بكلمة مكان كلمة أخرى تقوم مقامها ، لأن تحت كل حرف من المعانى مالايحيط به أحد .

وللتخفيف على الأمة جعل الله المنزل عليهم على قسمين : قسم يروونه بلفظ الموحى به ، وقسم يروونه بالمعنى ، ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق ذلك على الناس .

وهناك من السلف من يؤيد كلام الجوينى .

والفرق بين القرآن الكريم والأحاديث القدسية يظهر فيما يأتى :

ـ القرآن الكريم هو مانزل به جبريل ـ عليه السلام ـ بلفظه ومعناه كما هو مقيد فى اللوح المحفوظ ـ على وجه اليقين ، ونقله متواتر تواترا قطعيا فى كل

طبعة وفى كل عصر وحين . . ولاتصح الصلاة إلا به - وهو معجز ومعجزته باقية على مر الدهور وهو محفوظ من التغيير والتبديل ، بنص قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢٦٩)

وبأن مسه يحرم على المحدث وتلاوته تحرم على الجنب ، وروايته بالمعنى غير جائزة ، ولايسمى قرآنا إلا هو ، وقراءة كل حرف منه بعشر حسنات .

أما الأحاديث القدسية فهى مانقلت إلينا عن النبى - ﷺ - مع إسناده لها إلى ربه - جلا وعلا - فهى من كلام الله تعالى - فتضاف إليه لأنه المتكلم بها أولا . . وقد تضاف إلى النبى - ﷺ - لأنه المخبر بها عن الله - تعالى .

بخلاف القرآن فإنه لايضاف إلا إلى الله - تعالى - فيقال : قال الله - تعالى - أما الأحاديث القدسية فيقال : قال النبى - ﷺ - فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى - لقد تلقى النبى - ﷺ الأحاديث القدسية عن ربه إلهاما بأن ينفث روح القدس فى صدره بها، أو أمر بها عن الرؤيا فى المنام

وأما بقية السنة ، وهى الأحاديث النبوية فهى وحى بالمعنى من الله تعالى ، واللفظ للرسول صلى الله عليه وسلم - وآيه ذلك قوله تعالى « وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » أى أنها وحى . لأنها سواء أكانت وحيا ابتداء أم باجتهاد منه - صلى الله عليه وسلم - ثم أقره الله عليه - فهى وحى ، لأن الله لايقره على خطأ والنبى - ﷺ - يقول : ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه . وإن ماحرم رسول الله كما حرم الله . والله يقول .

﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (٢٧٠)

---

(٢٦٩) الحجر ٩

(٢٧٠) الحشر ٧

يقول السيد عبدالعزيز الدباغ فى الابريز : لو لم يكن عند النبى - ﷺ - إلا مايشبه الأحاديث القدسية أو النبوية - لما آمن العرب . . ثم بين أن السيطرة على النفوس كانت بسلطان عظمة القرآن فكل من استمع إلى القرآن وأجرى معانيه على قلبه علم عليا ضرورياً أنه كلام الرب - سبحانه - فإن العظمة التى فيه ليست إلا عظمة الربوبية وسطوة الألوهية ، والعاقل الكيس إذا استمع للقرآن عرف أنه كلام الله ، لأنه لايمكن أن يكون كلام بشر بحال من الأحوال . . وقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم ربهم من القرآن ، وعرفوا صفته ومايستحقه من ربوبية ، وقام لهم سماع القرآن مقام المعاينة والمشاهدة فى إفادة العلم القطعى بالله عز وجل . . وفرق الدباغ - رحمه الله بين الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية من حيث الهدف فقال :

الأحاديث القدسية تتعلق بالحق سبحانه وتعالى ، وتبين عظمته وإظهار رحمته أو تنبه على سعة ملكه وكثرة عطائه . وذلك مثل قوله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه - جل وعلا :

﴿ ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ﴾ .(٢٧١) .

أما الأحاديث النبوية فهدفها العام أنها تتكلم على مايصلح البلاد والعباد بذكر الحلال والحرام ، والحث على الامتثال بذكر الوعد والوعيد(٢٧٢) . كما أنها توضح مجمل القرآن الكريم .،

---

(٢٧١) رواه مسلم من حديث أبي ذر

(٢٧٢) الوحى الإلهى د . الحسينى هاشم

جمع القرآن وترتيبه

وكان الوحى ينزل على النبى - ﷺ - بالآيات من القرآن الكريم يرشد بها المسلمين إلى أمور دينهم ، أو يجيب بها عن سؤال سائل منهم ، أو يجلى بها عن أمر غامض من شئونهم أو يبشرهم بنصر ، أو يذكرهم بما يجب عليهم ، إلى غير ذلك من المعانى التى تتناولها آيات الكتاب الكريم وأغراضه الشريفة .

وكان النبى - ﷺ - يتلو ماينزل فور نزوله ، فإذا كان على غير محضر منهم خرج إليهم فألقاه إليهم فيتلقونه عنه ويحفظونه . .

وكان النبى - ﷺ - يأمر كتاب الوحى بكتابة ماينزل فيبادرون بكتابته . . ومن كتاب الوحى : على ، ومعاوية ، وعثمان ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله ابن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث ، وغيرهم .

فكانوا يكتبون ماينزل فى عسب النخل أو الحجارة البيض الرقاق أو قطع الخزف ، أو الجلود ، والنبى - ﷺ - يرشدهم إلى موضع الآية من السورة . . وقد ورد فى صحيح البخارى أن جبريل كان يعارض النبى - ﷺ - بالقرآن ، وقد عارضه به فى السنة التى توفى فيها مرتين .

وجمع الآيات وترتيبها فى السور متفق على أنه كان أيام النبى - ﷺ - بتوقيف من جبريل - عليه السلام - والدليل على ذلك أن النبى - ﷺ - كان يقرأ فى صلاته سورا كاملة كالبقرة وآل عمران والنساء . والمقصود - صلاته وهو منفرد . أما صلاته بأصحابه فكان يتخفف فيها رحمة بالضعفاء منهم .

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن جمع الآيات فى السور أمر توقيفى تولاه النبى صلى الله عليه وسلم بتوقيف من أمين الوحى جبريل .

أما ترتيب السور على ماهى عليه فى المصحف فقد اختلفوا فيه . أكان

أيام النبى - ﷺ - أم أنه كان باجتهاد من أصحابه بعده ؟ وذلك على ثلاثة أقوال .

أحدها أن السبع الطوال والحواميم كانت مرتبة على وضعها قبل وفاة النبى - صلى الله عليه وسلم . .

الثانى أن ترتيب السور على ماهو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبى ﷺ - وإنما باجتهاد من أصحابه .

الثالث : أن ترتيب السور كلها توقيفى بتعليم الرسول ﷺ -لهم، كترتيب الآيات ، وأنه لم توضع سورة فى مكانها إلا بأمر منه ﷺ - بدليل أن الصحابة أجمعوا على هذا الترتيب فى المصحف الذى كتب فى عهد عثمان رضى الله عنه ، ولم يخالف منهم أحد فى ذلك ، واجماعهم هذا لايتم إلا إذا كان الترتيب الذى أجمعوا عليه عن توقيف لا عن اجتهاد .

والشيء الذى لاخلاف فيه على الإطلاق أن النبى - ﷺ - توفى والقرآن كله مكتوب ومحفوظ فى صدور أصحابه ، ولكنه لم يكن مجموعا فى مكان واحد .

وقد عارض جبريل عليه السلام - النبى - ﷺ - بالقرآن فى العام الذى توفى فيه مرتين (٢٧٣) .

فلما تولى أبوبكر الخلافة ، وجاءت حروب الردة ، وكثر القتلى من حفظة القرآن اتفقت كلمة المسلمين على جمعه .

وعهد أبوبكر إلى زيد بن ثابت بهذه المهمة التى شمر لها عن ساعد الجد وفرغ لها وقته وجهده وقلبه .

---

(٢٧٣) عارضه به - أى قابله به - والمعنى قرأه عليه

قال زيد : قال لى أبوبكر : إنك شاب عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ـ ﷺ ـ فتتبع القرآن فاجمعه قال : فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن .

قال زيد ـ لأبى بكر وعمر » وكانا معا . . كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ـ ؟ قالا : هو والله خير . فلم يزل أبوبكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح به صدر أبى بكر وعمر .

قال : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف (٢٧٤) وصدور الرجال ، ووجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره وهى

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (٢٧٥)

فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله .

ثم عند عمر حياته .

ثم عند حفصة بنت عمر ـ زوج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم .

وسمى أبوبكر ماجمعه مصحفا .

وفى أيام عثمان ـ رضى الله عنه ـ كثرت الفتوح واتسعت الأمصار ، وتباعدت المواطن ، واختلفت القراءات فخاف عثمان أن تحدث فتنة من تخطئة القراء بعضهم لبعض . فرأى أن يكتب عدة نسخ من المصحف .

---

(٢٧٤) الحجارة البيض الرقاق

(٢٧٥) التوبة ١٢٨ ، ١٢٩

ووكل هذه المهمة إلى أربعة من الصحابة وهم : عبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث ، وزيد بن ثابت الذى يقال إنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن قبل وفاة النبى ـ صلى اله عليه وسلم ـ وهو الذى وكل إليه أبوبكر جمع القرآن أولا .

وكتب عثمان ستة مصاحف ، أرسل أربعة منها إلى الكوفة ، والبصرة ، ومكة والشام . وأبقى واحدا لأهل المدينة وآخر لنفسه ، وهو الذى كان يقرأ فيه حين استشهد ـ رضي الله عنه .

وسمى عثمان مصحفه إماما . لأنه قام خطيبا فقال : أنتم عندى تختلفون وتلحنون فمن نأى من الأمصار كان أشد اختلافا وأشد لحنا ، فاجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماما .

ثم أمر عثمان بجمع ماكان قبل ذلك فى الصحف وإحراقه ، وقد اقتصر فى كتابة المصاحف على لغة قريش لنزول القرآن بها .

والناس يسمون عمل عثمان هذا جمعا للقرآن ، وعلى ذلك فيكون للقرآن جمعان . . أحدهما على يد أبي بكر ، والآخر على يد عثمان ـ رضى الله عنهما ـ هذا بخلاف الجمع الأول الذى كان على أيام النبى ـ ﷺ .

والفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان يقرره السيوطى فى قوله : إن جمع أبي بكر كان خشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحد . فجمعه فى صحائف مرتبا لآيات سوره على ماوقفهم عليه رسول الله ـ ﷺ .

وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءات حين قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك الى تخطئة بعضهم بعضا ، فخشى من تفاقم

الأمر فى ذلك . فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد مرتبا لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش (٢٧٦) .

معنى نزل القرآن على سبعة أحرف

روى مسلم عن إبى بكر بن كعب أن النبى - ﷺ - كان عند أضاة (٢٧٧) بمى غفار فأتاه جبريل - عليه السلام - فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته وان امتى لاتطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : ان الله يأمرك ان تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال أسأل الله معافاته ومغفرته ، وان أمتى لاتطيق ذلك . ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : اسأل الله معافاته ومغفرته وان أمتى لاتطيق ذلك . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا (٢٧٨) .

وقد اختلف العلماء حول تفسير ذلك اختلافا كبيرا .

فمنهم من قال : إن المراد بها سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو : أقبل ، وتعال ، وهلم .

ومنهم من قال : هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها - يمنها ونزارها ، لأن رسول الله ﷺ لم يجهل شيئاً منها وقد أوتى جوامع الكلم ، وليس معناه أن يكون فى الحرف سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن ، فمعظمه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن . . الخ .

---

(٢٧٦) الأدب العربى وتاريخه - الأستاذ محمود مصطفى جـ ١ ص ١٣

(٢٧٧) اضاة كحصاة : غدير صغير

(٢٧٨) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٤١

ومنهم من قال : إن هذه اللغات السبع إنما تكون فى مضر ، وقد احتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مضر .

ومنهم من قال : المراد بالأحرف السبعة المعانى التى اشتمل عليها كتاب الله تعالى ، وهى أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال . .

لقد عد السيوطى : أربعين رأياً فى معنى كلمة أحرف . . وقد رجح فضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعى فيما يحكيه عنه الأستاذ محمود مصطفى : أن المراد من الأحرف السبعة أنها أوجه سبعة ترجع إلَى كيفية النطق بألفاظ القرآن ، وتختلف بسببها تأدية تلك الألفاظ ، وقد بنى ترجيحه لهذا المراد على ماروا‍ه من الأسباب التى دعت إلى نطق رسول الله ﷺ بهذا الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف » فهى لاشك تحدد معنى كل حرف ، وقد روى تلك الأسباب من طرق عدة ، منها أن عمر سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، فإذا هو يقرأ على حروف لم يتلقنها عمر من رسول الله ﷺ ـ قال عمر : فكدت أساوره فى الصلاة ، وتصبرت حتى سلم ـ فلببته بردائه، وانطلقت به إلى رسول ﷺ فسمع منى وسمع منه ، وقال لكل منا : كذلك أنزلت « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه »

وقد عدد ابن قتيبة هذه الأخرى السبعة فقال :

١ ـ ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته نحو « ولا يضارُّ كاتب » بفتح الراء وضمها .

٢ ـ ما يتغير بالنقط مثل : « ننشرها ، ننشزها »

٣ ـ ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل : « طلح ، طلع » .

٤ ـ ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل : « وجاءت سكرة الموت بالحق ، وسكرة الحق بالموت » . .

٥ ـ ما يتغير فيه الفعل مثل : « بَعُد ، وباعِدْ » بلفظ الماضى والطلب .

٦ ـ ما يتغير بزيادة ونقصان مثل : « والذكر والأنثى ، وما خلق الذكر والأنثى »

ومن ذلك ما ورد فى قوله تعالى :

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ (٢٧٩)

فقد قر سعد بن أبى وقاص « وله أخ أو أخت من أم »

بزيادة لفظ « من أم » فتبين بذلك أن المراد بالإخوة فى هذا الحكم الإخوة للأم دون غيرهم من الإخوة .

٧ ـ ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل « كالعهن المنفوش ، وكالصوف المنفوش » وقد ذكر ذلك أيضاً الإمام أبو الفضل الرازى مع اختلاف بسيط قال : إن الوجوه السبعة التى لا تخرج القراءات عنها هى

« الأول » اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث

« الثانى » اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر

« الثالث » الاختلاف بالنقص والزيادة « فى لفظة أو حرف »

« الرابع » الاختلاف بالتقديم والتأخير

« الخامس » الاختلاف بإبدال حرف من حرف

« السادس » اختلاف اللغات ـ أى اللهجات » كالفتح والإمالة ، والترقيق والتفخيم ، والإظهار والإدغام ، ونحو ذلك .

« السابع » اختلاف وجوه الإعراب كقوله تعالى فى بيان الوضوء :

---

(٢٧٩) سورة النساء ١٢

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ
جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ
أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ
وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

« يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » (٢٨٠)

قرىء بنصب أرجلكم وبجرها ، فالنصب يفيد طلب غسلها لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « وجوهكم » المنصوب ، وهو مغسول ، والجر يفيد طلب مسحها ، لأن العطف حينئذ يكون على لفظ « رءوسكم » المجرور ، وهو ممسوح وقد بين الرسول ﷺ أن المسح يكون للابس الخف ، وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخف .

وقد حكى مثل تلك الوجوه أيضاً صاحب الدلائل عن بعض العلماء ، وحكى نحوه القاضي ابن الطيب فيما رواه القرطبي فى مقدمة تفسيره .

فلما كثرت وجوه الاختلاف هذه فى القراءة أيام عثمان رضى الله عنه وخشى الفتنة ، جمع الناس على مصحفه ، ولوحظ فى كتابته أن يجمع ما اشتهر من لغات القراءة ، فكتبوا « الصراط » مثلا بالصاد المبدلة من السين التى هى الأصل ، لتكون قراءة السين « السراط » وإن خالفت الرسم ، قد أتت على الأصل اللغوى المعروف فيعتدلان .

---

(٢٨٠) المائدة ٦

وكتبوا الصلاة هكذا : « الصلوة » لتقبل التفخيم للام وهو بعض القراءات .

وكتبوا : « إن رحمت الله قريب من المحسنين » بالتاء المفتوحة ليدلوا على اللغة التى لا تبدل الهاء من تاء التأنيث . .

وقد اشتهر فى تاريخ القراءة قراء عرفوا باسم القراء السبعة وهم :

نافع بن أبى نعيم

عبد الله بن كثير

أبو عمرو بن العلاء

عبدالله بن عامر

عاصم بن بهدلة الأسدى

حمزة بن حبيب الزيات

على بن عمر الكسائى

ولكل واحد من هؤلاء تلاميذ أخذوا عنه وأذاعوا قراءته :

هذا وفى تنوع القراءات ضروب من البلاغة والإعجاز ، ودليل قاطع على أن القرآن كلام الله ، وبرهان ساطع على صدق من جاء به وهو رسول الله ﷺ ـ فإن هذه القراءات على تنوعها لا تؤدى إلى تناقض أو تضاد فى المقروء ولا إلى خلل أو ضعف فى النظم ، بل القرآن كله مهما تعددت قراءة اللفظة أو الحرف منه ـ يصدق بعضه بعضاً ويبين بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ، وكله على نمط واحد فى علو النظم وجمال التركيب وسمو الهدف ودقة المعنى . .

إعجاز القرآن

لكل نبى معجزة ، ولابد أن تكون المعجزة متحدية لأعظم ما برع فيه قوم هذا النبى فقوم موسى برعوا فى السحر فتحداهم موسى بالعصا التى

تحولت إلى ثعبان مبين قهر السحرة . . وقوم عيسى برعوا فى الطب فتحداهم عيسى باحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . .

وقوم محمد ﷺ بلغوا الذروة فى الفصاحة والبلاغة فتحداهم محمد ﷺ بالقرآن الكريم الذى أعجزهم بلاغة وفصاحة .

لقد كانت الأمة العربية أمية ليس لديها تقدم علمى ولا صناعى ، ولكن الله أفاض عليهم موهبة البيان والفصاحة يصرفون الكلام ، ويجيدون الضرب فى نواحيه والتحليق فى سمائه شعراً ونثراً ، فانتجت هذه الأمة شعراء مجيدين ، مازال شعرهم يؤثر ومازالت معلقاتهم تروى وتحفظ .

وكان فيهم خطباء مصاقع وحكماء أثرت عنهم الحكمة ، وذهبت أمثالهم التى تمثلوا بها عبر التاريخ إلى كل مكان .

فجاء القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله ﷺ فكان حجة دامغة وقوة غالبة فبهتوا لبلاغته وأذعنوا له حين سمعوا آياته ، فكان سبباً فى إسلام كثير من المعاندين . . ومن لم يسلم منهم لم يستطع أن يقول فى هذا القرآن شيئاً يعيبه ، بل أقر أمامه بالعجز الكامل .

وهذا هو الوليد بن المغيرة وقد جاء إلى النبى ﷺ يحاول أن يصده عن دعوته فأسمعه النبى ﷺ آيات من القرآن الحكيم ، فعاد مبهوتاً إلى بيته ولزمه .

فخشى الكفار أن يكون قد أسلم ، فذهب إليه أبو جهل يقول له : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه حتى لا تذهب لمحمد تسمع ما يقوله .

فرد عليه الوليد قائلاً : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا .

قال له أبو جهل : فقل فى القرآن قولاً يبلغ قومك أنك كاره له .

قال : وماذا أقول ؟ فوالله مافيكم رجل أعلم منى بالشعر ، لا برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقوله محمد شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ،وإنه ليحطم ما تحته .

قال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر . . أى يأخذه محمد عن غيره . .

وقد نزل فى هذه الواقعة قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦ ﴾ (٢٨١)

فمن هذه الأحاديث وغيرها ندرك أن القرآن الكريم قد أعجز القوم وبهرهم وأعشى أبصارهم بنوره ، وقهرهم عن أن يأتوا بمثله .

وقد كان القرآن صريحاً فى تحديه لهم ، فقد قال :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٨٨ ﴾ (٢٨٢)

---

(٢٨١) المدثر ١٨ : ٢٦

(٢٨٢) الاسراء ٨٨

وقال لهم :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ (٢٨٣)

وفضحهم حين قالوا إن محمداً ﷺ افتراه فقال لهم :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) ﴾ (٢٨٤)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ (٢٨٥)

لم يستطيعوا أن يثبتوا أمام تحديه ، بل عجزوا عن ذلك تماماً ، فما السر فى هذا الاعجاز العظيم الذى أوقف هؤلاء البلغاء الفصحاء حيارى مشدوهين ؟

---

(٢٨٣) البقرة ٢٣ : ٢٤
(٢٨٤) هود ١٣ : ١٤
(٢٨٥) يونس ٣٨

إن فى القرآن أسراراً كثيرة وقوى هائلة ، كل شىء منها كاف وحده لأن تدين له النفوس وتخضع لحكمه ، وقد ألفت فى هذا الموضوع كتب كثيرة ، ونحن نكتفى فى ذلك ببعض الإلماحات حول وجوه الإعجاز التى أسهب العلماء فى توضيحها فى كتبهم :

١ ـ اشتماله على كثير من المغيبات التى عرفت بعد أن أخبر القرآن بها بسنين .

مثل دخول المسجد الحرام ـ وذلك فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢٨٦)

ومثل انتصار الروم بعد هزيمتها من الفرس وموافقة انتصارهم انتصار المسلمين على عدوهم وقد ورد ذلك فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢٨٧)

---

(٢٨٦) الفتح ٢٧

(٢٨٧) الروم ١ : ٦

وغير ذلك من الآيات التى تحمل أخباراً غيبية حققتها الأيام ، وما أكثر هذه الآيات فى القرآن الكريم .

٢ ـ إنباؤه بأخبار القرون السالفة والأمم الماضية ، والشرائع المتقدمة ، وقد كان لا يعلم أحد شيئاً عن هذه الأخبار إلا من ندر من أحبار أهل الكتاب الذين قطعوا أعمارهم فى معرفة ذلك وتطلبه ، وبالرغم من ذلك لم يصلوا إليه على حقيقته . . ولكن القرآن أورده على وجهه الصحيح وأنزله على قلب نبيه ﷺ وقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا يعرف أحدا من علماء أهل الكتاب وأحبارهم ، وكثيراً ما كان هؤلاء الأحبار يأتون فيسألونه على فجأة منه فيجدون الجواب حاضراً مما ينزل عليه من القرآن فلا يستطيعون محاورة ولا مداورة ، وكثيراً ماكان يؤمن بعضهم لذلك ، لأنهم يجدون صدق ما يخبر به ومطابقته لما عندهم من العلم الذى قرأوه فى كتبهم المنزلة . . ومن باهت منهم وكابر قال القرآن له :

« قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » فكان ذلك أعظم تقريع وتوبيخ له ـ قال ـ تعالى ـ

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢٨٨)

---

(٢٨٨) المائدة ١٥

٣ ـ حسن تأليفه والتئام كلمه وتخير ألفاظه ، وحسن مقاطعه ومطابقة هذا النظام لمقتضى الحال مضموناً إلى ذلك جلال الغرض وسمو المعانى وصفاء الحكمة وانطباق المثل .

وأمثلة ذلك فى القرآن كثيرة جداً لا تحصر . . بل إن كل آية من آيات القرآن يمكن أن ينطبق عليها ذلك ، لدرجة أن هذا الأمر هو الذى شغل علماء البلاغة فظلوا أجيالاً طويلة يحاولون الكشف عن هذه الأسرار فما انتهوا فى ذلك إلى غاية ، فما أشبه القرآن ـ ولله المثل الأعلى ـ بالشمس الساطعة التى ينتفع بنورها العالم دون أن ينقص من ضوئها شيء ، أو يصل إلى مكنونها أحد ـ وكل مخلوق يأخذ منها حاجته ، فالمقرور يجد الدفء والسالك يجد النور والزارع يجد نماء زرعه ، والطبيب يجد شفاء مرضاه ، إلى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى من الفوائد .

٤ ـ وقد عد القرطبى من وجوه إعجاز القرآن نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها ، لأن نظمه ليس من نظم الشعر ، كما قال الله فى حق نبيه ﷺ :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٢٨٩)

وجاء فى صحيح مسلم أن أنيساً أخا أبى ذر قال لأبى ذر : لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر .

وكان أنيس أحد الشعراء . .

قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله

---

(٢٨٩) يس ٦٩

على نظام الشعر فلم يلتئم ، فعلمت أنه ليس بشاعر . . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . .

وكذا أقر بذلك عتبة بن ربيعة ، وكذا أقر الوليد بن المغيرة ـ فيما مضى من قصته ـ فإذا اعترف هؤلاء بأنهم لم يسمعوا مثل هذا القرآن كان قولهم إقرارا بعجزهم وإقراراً بإعجاز القرآن الكريم لهم .

٥ ـ كما أن القرآن مخالف لنظم الشعر فهو مخالف أيضاً لكل أساليب العرب فى كلامهم . . فهو نمط عجيب من الكلام الذى لا يقدر عليه بشر . ويظهر ذلك فيمايلى :

١ ـ جزالته التى لا تصح من مخلوق بحال ، تأمل قوله تعالى :

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ (٢٩٠)

إلى آخرها ، وتأمل قوله تعالى :

﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧ ﴾ (٢٩١)

الى آخر السورة

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٤٢ ﴾ (٢٩٢)

---

(٢٩٠) سورة ق ١

(٢٩١) الزمر ٦٧

(٢٩٢) ابراهيم ٤٢

تجد أنه لا يمكن أن يتأتى اطلاقاً من مخلوق بل هو من كلام الحق سبحانه وتعالى

٢ ـ التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستطيعه عربى ، حتى وقع منهم الاتفاق جميعاً على إصابته فى وضع كل كلمة وكل حرف موضعه .

٣ ـ الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان فى كل ما وعد الله سبحانه ـ وينقسم ذلك إلى : وعد مطلق ـ كوعده بنصر رسوله ﷺ على الذين أخرجوه من وطنه .

وإلى وعد مقيد بشرط كقوله ـ تعالى ـ :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٢٩٣)

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (٢٩٤)

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٢٩٥)

٤ ـ تضمنه كثيراً من أبواب العلم الذى هو قوام جميع الأنام فى الحلال والحرام وفى سائر الأحكام

٥ ـ حكمه البالغة التى لا يقدر على مثلها بشر مهما أوتى من الحكمة والعلم . وقد أصابت حكم القرآن المحز فى كل ماتضمنته ظاهراً وباطناً من غير اختلاف . . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢ ﴾ (٢٩٦)

---

(٢٩٣) الطلاق ٣

(٢٩٤) التغابن ١١

(٢٩٥) الطلاق ٢ : ٣

(٢٩٦) النساء ٨٢

رأى النظام فى إعجاز القرآن :

النظام من شيوخ المعتزلة ، وكان له رأى فى إعجاز القرآن هو « الصرفة » يعنى بذلك أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن ، وأنه كان فى مقدورهم أن يأتوا بمثله ولكن الله صرفهم عن ذلك .

ومعنى ذلك أن الإعجاز ليس فى ذات القرآن ، بل فى صرفهم عنه .

والنظام يرى أن ذلك أدل على تأييد الله لرسوله إذ كان العجز مع القدرة ، واستحالة الممكن أدل على إرادة الله لنصر نبيه .

ولكن العلماء أبطلوا هذا الرأى وجاءوا بالأدلة التى تدل على فساده .

قال الأستاذ محمود مصطفى : إن هذا القول باطل لا يليق الأخذ به ، ففيه اعتراف من قائله بأن القرآن فى ذاته ممكن معارضته ، ولا فضيلة له يمتاز بها على كلام العرب ، وأن تقصيرهم عن محاكاته كان لسبب خارج عن ذاته ممكن معارضته ، ولا فضيلة له يمتاز بها على كلام العرب ، وأن تقصيرهم عن محاكاته كان لسبب خارج عن ذات القرآن ، موقوت بالمدة التى شاءت القدرة الإلهية أن تحد فيها من عزم العرب عن معارضته ، وهذا كله نقص ينزه القرآن عنه . . على أنه لو كان ماادعاه النظام صحيحاً لما استعظم العرب فصاحة القرآن ، ولما تعجبوا من حسن سبكه وعلو كلمه ، ولكان تعجبهم من عجزهم عن المعارضة مع قدرتهم عليها (٢٩٧)

---

(٢٩٧) رجعنا فى موضوع إعجاز القرآن إلى الاتقان فى علوم القرآن ومقدمة القرطبى ، والأدب العربى وتاريخه جـ ١ لمحمود مصطفى

بلاغة القرآن :

القرآن الكريم أرفع درجات البيان ، وخصائصه البلاغية من الايجاز وضرب المثل وحسن التشبيه وجمال التصوير ودقة النظم والسبك لا تجارى ولا تبارى .

هذا رسول الله ﷺ مع ما أوتى من جوامع الكلم ، واختص به من غرائب الحكم ، إذا تأملت قوله ﷺ فى صفة الجنة : « فيها مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » تجده كلاما فى غاية الحسن إذا قيس بكلام البشر .. ولكن أين هو من قوله تعالى :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ (٢٩٨)

وقوله :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢٩٩)

إن بين كلام رسول الله ﷺ وهو أفصح البشر وبين القرآن الكريم بون بعيد ، وفرق شاسع ، فكلامه صلى الله عليه وسلم من النوع الذى يمكن أن يطمع فى الإتيان بمثله ، والذى يمكن أن يجارى فى بعض أقواله أو مقاماته ، أما القرآن الكريم فلا يطمع أحد فى مجاراته على الاطلاق فقد خرست الألسنة دونه ، وعجز أبلغ البلغاء عن محاكاته ، فما قرنت آيات القرآن بأى كلام ـ مهما علا قدره ـ إلا كانت أعدل نظماً وأحسن تركيباً ، وأعذب لفظاً وأقل حروفاً ، وأسهل مخرجاً ، وأحسن مطلعاً ، وأروع

---

(٢٩٨) الزخرف ٧١

(٢٩٩) السجدة ١٧

ختاماً ، وأجل غرضاً ، وأوسع معنى ، وأشمل فائدة ، وأكثر إحاطة ، وأدمغ حجة .

ويقول الأستاذ محمود مصطفى : « لا خلاف بين أهل العلم ونقدة الكلام فى أن القرآن لايدانيه فى بلاغته كلام عربى مهما ارتفعت درجته وعلت ذروته .

ولو أن بلغاء العرب شعروا بقرب مرتبته من مرتبة كلامهم لحاولوا معارضته ، ولكنهم لم يفعلوا ، فثبت أن سموه على كلام العرب ليس بقدر معتاد فهو لذلك معجز .

وقد عرف العرب بلاغة القرآن بسليقتهم وطبعهم القوى ومعرفتهم بفنون الكلام وطرقه وأساليبه فهم أهل بيان وفصاحة بطبعهم ، وحسن البيان هو مجال مفاخرتهم . . . ومن هنا أدركوا عظمة القرآن وعلو قدره بالرغم من معارضتهم ومعاداتهم للنبى الذى جاء به . . . فهذا هو الوليد بن المغيرة أشد المعارضين لرسول الله ﷺ يسمع قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ (٣٠٠)

فيتعجب لذلك ويقول : إنه له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وانه يعلو ولا يعلى عليه » وسمع أعرابى قارئاً يقرأ

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ ﴾ (٣٠١)

(٣٠٠) النحل ٩٠

(٣٠١) الحجر ٩٤

فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ؟

وسمع آخر قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ (٣٠٢)

فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام ؟ . .

إن كلاماً يستطيع أن يلين قلباً كقلب عمر ويجعله يسلم لهو كلام لا عهد للناس بمثله فى شدة التأثير . .

إن المزية فى القرآن الكريم تكمن فى دقة نظمه ، وحسن نسقه وتخير كلماته وحسن مقاطعه ومراعاته لمقتضيات المقامات والأحوال . .

فإذا أضيف إلى ذلك كله جلال الغرض وسمو المعانى وصفاء الحكمة ، وتمام مطابقة المثل ، علمنا أن القرآن الكريم جمع الحسن من أقطاره فصار نسيجا وحده فى البلاغة والفصاحة (٣٠٣)

(ا) من أسباب النزول :

سبقت الإشارة إلى أن القرآن الكريم كان ينزل منجماً على حسب الحوادث ، والمناسبات التى تقتضى نزول آية أو آيات ، ولكن هناك آيات نزلت ابتداء بدون أسباب .

ولذلك قسم العلماء نزول القرآن إلى قسمين : قسم نزل ابتداء ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال .

ولمعرفة أسباب النزول فوائد جليلة تحدث عنها العلماء وأفاضوا فيها .

ومن هذه الفوائد : معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع حكم من

---

(٣٠٢) يوسف ٨٠

(٣٠٣) انظر الأدب العربى وتاريخه جـ ١ ص ١٨

الأحكام . . ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب .

ومنها أن اللفظ قد يكون عاماً ولكن الدليل يخصصه .

ومنها الوقوف على المعنى الدقيق للآية ، حتى قال الواحدى لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها ، وكذلك قال ابن دقيق العيد وابن تيمية .

ومن أمثلة ذلك ما أشكل على مروان بن الحكم فى فهم معنى قوله تعالى :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨٨ ﴾ (٣٠٤)

فقد قال : لئن كان كل امرىء فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن جميعاً ، حتى بين له ابن عباس - رضى الله عنهما - أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، وأرادوا أن يحمدوا لذلك (٣٠٥)

وحكى عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان : الخمر مباحة ، ويحتجان بقوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٠٦)

---

(٣٠٤) آل عمران ١٨٨

(٣٠٥) أخرجه الشيخان

(٣٠٦) المائدة ٩٣

ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك . . . أما سبب نزولها فهو أن أناساً قالوا لما حرمت الخمر : كيف بمن قتلوا فى سبيل الله وماتوا ، وكانوا يشربون الخمر وهى رجس ؟ فنزلت (٣٠٧)

وهذه بعض الأمثلة فى أسباب نزول بعض الآيات :

أ ـ أخرج الواحدى والثعلبى من طريق محمد بن مروان والسدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : نزلت آية :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣٠٨)

فى عبد الله بن أبى وأصحابه ، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ .

فقال عبدالله بن أبى : انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء ؟

فذهب فأخذ بيد أبى بكر ، فقال : مرحباً بالصدِّيق سيد بنى تيم ، والسابق إلى الإسلام ، وثانى رسول الله فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحبا بسيد بنى عدى بن كعب ، الفاروق القوى فى دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد علىّ فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وختنه ، سيد بنى هاشم ، ماخلا رسول الله .

ثم افترقوا فقال عبدالله لأصحابه ، كيف رأيتمونى فعلت ؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت ، فأثنوا عليه خيراً .

---

(٣٠٧) أخرجه أحمد والنسائى وغيرهما .. أسباب النزول للواحدى ص ١٥٦
(٣٠٨) البقرة ١٤

فرجع المسلمون إلى النبى ﷺ وأخبروه بذلك فنزلت هذه الآية (٣٠٩)

ب - فى قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ (٣١٠)

أخرج الحارث بن أبى أسامه فى مسنده وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : أقبل صهيب مهاجراً إلى النبى ﷺ فاتبعه نفر من قريش يريدون منعه ، فنزل عن راحلته واستل مافى كنانته ، ثم قال : يامعشر قريش ، لقد علمتم أنى أجيد الرمى ، وأيم الله لا تصلون إلىَّ حتى أرمى كل سهم معى فى كنانتى ، ثم أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شىء ، ثم افعلوا ماشئتم .

وإن شئتم دللتكم على مالى بمكة وخليتم سبيلى ، قالوا : نعم - فدلهم على ماله وتركوه . . فلما قدم على النبى ﷺ المدينة قص عليه ماحدث ، فقال صلى الله عليه وسلم ، ربح البيع أبا يحيى فنزلت هذه الآية (٣١١)

جـ - فى آية

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣١٢)

---

(٣٠٩) هذا ما ذكره الواحدى ص ١٣ ولكن السيوطى فى أسباب النزول يقول : هذا الإسناد واد جداً .

(٣١٠) البقرة ٢٠٧

(٣١١) أسباب النزول للسيوطى ص ٢٨

(٣١٢) الأنعام ٥٢

ذكر أنه لما سبق إلى الاسلام رجال من الموالى والمستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ مثل صهيب وعمار و المقداد ، وبلال ، قالت قريش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطردهم حتى نؤمن بدينك فأنزل الله تعالى هذه الآية .

هذا ولا يشترط أن يكون للآية سبب واحد، فقد يكون هناك أكثر من سبب وعلينا فى هذه الحالة أن نأخذ فى سبب النزول بالرواية الصحيحة أو الرواية الراجحة فإن استوت الروايتان فى الصحة ولا مرجح لإحداهما حمل ذلك على تعدد سبب النزول .

وتختلف عبارات القوم فى التعبير عن سبب النزول فتارة يصرح فيها بلفظ السبب . . فيقال : « سبب نزول الآية كذا » وهذه العبارة نص فى السببية لا تحتمل غيرها . .

وتارة لا يصرح بلفظ السبب ، ولكن يؤتى بفاء داخلة على لفظ « أنزل أو نزلت » وذلك بأن يذكر الراوى حادثة ما ثم يقول عقب ذكره لهذه الحادثة فأنزل الله تلك الآية ، أو فنزلت تلك الآية ، ـ أى التى تبين تلك الحادثة ـ وهذه العبارة مثل السابقة فى الدلالة السببية أيضاً .

ومرة يُسأل الرسول ﷺ فيوحى إليه ويجيب بما نزل عليه ، ولا يكون تعبير بلفظ سبب النزول ، ولا تعبير بتلك الفاء ، ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام ، وحكم ذلك أيضا حكم ماهو نص فى السببية .

ومرة أخرى لا يصرح بلفظ السبب ، ولا يؤتى بتلك الفاء ، ولا يكون هناك سؤال يدل على سبب النزول ، وإنما يقال : نزلت هذه الآية فى كذا « مثلاً » وهذه العبارة ليست نصاً فى السببية ، بل تحتملها وتحتمل أمراً آخر هو بيان ما تضمنته الآية من أحكام، والقرائن وحدهاهى التى تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه .

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان فى موضوع واحد : إحداهما نص فى السببية لنزول آية أو آيات والثانية ليست نصاً فى السببية لنزول تلك الآيات فإننا فى هذه الحالة نأخذ فى سبب نزول الآية بما هو نص فى السببية ، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية ، لأن النص أقوى فى الدلالة .

مثال ذلك ما أخرجه مسلم عن جابر قال : كانت اليهود تقول : من أتى امرأته من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول ، فأنزل الله :

نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » (٣١٢)

وقد أخرج البخارى عن ابن عمر قال : أنزلت آية « نساؤكم حرث لكم » الخ

فى إتيان النساء فى أدبارهن . .

فالمعول عليه فى بيان سبب نزول هذه الآية هو رواية جابر لأنه قال بعد أن ذكر مقولة اليهود « فأنزل الله » فأتى بالفاء التى هى نص فى السببية ، أما ابن عمر رضى الله عنهما فقد قال : أنزلت الآية فى كذا ؟ ولم يأت بالفاء ولم يصرح بلفظ السبب فيقول مثلاً : سبب نزول الآية كذا . . ولذا فإن كلامه قد يحمل على أنه بيان لمدلول الآية ، وقد يحمل على السبب أما قول جابر فنص فى السببية لمجيئه بالفاء الدالة عليها .

(٢) آيات نزلت موافقة لرأى بعض أصحابه

وهذا الأمر لايتعدى أسباب النزول ،ولكنه يدل على شفافية معينة لدى بعض صحابة رسول الله ﷺ من أمثال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

---

(٣١٣) البقرة ٢٢٣

الذى قال النبى ﷺ فى حقه : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »

ذكر ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : مانزل بالناس أمر قط فقالوا وقال عمر إلا نزل القرآن على نحو ماقال عمر .

من أمثلة ذلك . . .

(أ) أخرج البخارى وغيره عن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث ، قلت : يارسول االله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزل قوله تعالى :

« وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » (٣١٤)

وقلت : يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ؟ فنزلت آية الحجاب .

واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : لو طلقكن لأبدله الله خيراًمنكن : فنزل قوله ـ تعالى ـ

« عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ » (٣١٥)

وكان رأى عمر فى أسرى بدر أن يقتلوا فنزل القرآن الكريم موافقاً لرأيه فى قوله تعالى :

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ » (٣١٦)

---

(٣١٤) البقرة ١٢٥

(٣١٥) التحريم ٥

(٣١٦) الأنفال ٦٧

ب ـ وجاء على لسان سعد بن معاذ قوله حين سمع حادث الإفك : « هذا بهتان عظيم » فنزل قوله تعالى موافقاً لما جاء على لسان سعد ، قال تعالى :

« ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » (٣١٧)

هل نزل من القرآن شيء يوافق في لفظه لما نزل على الرسل السابقين ؟

القرآن كلام الله أنزله على نبيه ﷺ وقد تقدمت القرآن كتب نزلت على الأنبياء السابقين ، وماينزله الله على رسله لايتناقض ، فهو إما دعوة إلى توحيد أو تذكير بالآخرة أو دعوة إلى الفضائل أو وعد بإثابة أو إنذار بعقوبة وغير ذلك مما تتضمنه الآيات البينات .

ومتى كان المنزل من مصدر واحد لايبعد أن يكون المعنى متكررا في بعض الأحكام . . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ (٣١٨)

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما : لما نزلت « سبح اسم ربك الأعلى » قال ـ ﷺ : كلها في صحف إبراهيم وموسى .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا خالد بن عبدالله عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى .

---

(٣١٧) النور ٢٦

(٣١٨) الأعلى ١٨ ، ١٩

وقد ذكر العلماء أن مما أنزله الله على محمد مما أنزل على إبراهيم ، قوله تعالى :

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾(٣١٩)

وقوله :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (٣٢٠)

ومن ذلك مانزل فى شأن النبى ﷺ فى القرآن :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ، (٣٢١)

---

(٣١٩) التوبة ١١٢

(٣٢٠) المؤمنين ١ : ١١

(٣٢١) الأحزاب ٤٥ : ٤٦

ذكر أن هذه الآية نزلت فى التوراة مضافا اليها بعض أوصاف أخرى للنبى ﷺ .

وغير ذلك من الآيات . .

وذكر الرواة : أن يوسف حين رأى برهان ربه رأى آيات من القرآن . . هى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (٣٢٢)

وهذا كله يشهد بأن القرآن الكريم قد وجد فى اللوح المحفوظ فى وقت لايعلمه إلا الله . ومن اطلعه ـ عز وجل ـ على غيبه . . قال عز من قائل :

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾ (٣٢٣)

موقف الكفار من القرآن

غنى عن القول أن الكفار على الرغم من إعجابهم بالقرآن وانبهارهم به لم يؤمنوا به ، ووقفوا منه موقف المعارضة . ذلك لأنه جاء يزلزل عقائدهم ، ويسفه أحلامهم ، ويسخر من آلهتهم التى يصنعونها بأيديهم .

لقد هالهم هذا البيان الرائع والقول الفصل والمنطق القوى وتحداهم بقوة لم يستطيعوا ردها ، ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا عنادا واستكبارا . وهذا هو شأن الكفار فى كل زمان ومكان .

انهم يقفون دائماً من رسلهم موقف المكذب المستهزىء ، وقد جاء هؤلاء الرسل ليهدوهم إلى سواء السبيل ويخرجوهم من الظلمات إلى النور . وإذا طلب الكفار من الرسل آية وتحققت كذبوا بها .

وقد مر بنا كيف كان موقف الوليد بن المغيرة من القرآن الكريم حين

---

(٣٢٢) الأنفطار ١٠ : ١٢

(٣٢٣) سورة الزخرف ٤

سمعه فلم يملك نفسه إلا أن يقول : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه » .

وكانوا أحيانا يتسللون خفية ليسمعوا القرآن والنبى - ﷺ - يتلوه . .

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل ابن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا الى القرآن من رسول الله - ﷺ - وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لايعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا - ثم قال بعضهم لبعض : لاتعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسهم شيئا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق . فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة . ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود .

فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أباسفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى ياأبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد .

فقال : ياأباثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولامايراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به - كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أباجهل ، فدخل عليه فى بيته . فقال : ياأبا الحكم ، مارأيك فيما سمعت من محمد ؟ .

فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذا ؟ والله لانؤمن به أبدا ولانصدقه .

فقام عنه الأخنس وتركه (٣٢٤)

إن اجتماع هؤلاء الثلاثة بهذه الصورة المتكررة لسماع القرآن دليل على إعجابهم به ، ولكن عدم إيمانهم مرده إلى ماركب فى طباعهم من كبر وحسد ظهر أثره واضحا فى كلمة أبى جهل .

إذ كيف يسلِّمون لمحمد بالنبوة ؟ .

ولكنهم فى مناوأتهم للحق كانوا كمن ينفخ رماد . .

وقد حاول بعضهم أن يصد سمعه عن القرآن ، ولكن دون جدوى .

وفضح القرآن ماكانوا يصنعونه ويتكلفونه حين كان النبى ﷺ - يتلو القرآن ، من وضع أصابعهم فى آذانهم ، أو ادعائهم عدم سماع ماأنزل على النبى - ﷺ - بسبب ماكانوا يصدرونه من تصايح وتصفيق . . أثناء تلاوة القرآن قال تعالى :

(٣٢٥)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾

قال ابن عباس - فيما يرويه القرطبى : قال أبوجهل للمشركين : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لانسمع مايقول .

---

(٣٢٤) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦٩

(٣٢٥) فصلت ٢٦

وقيل : إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن .

وقال مجاهد : والغوا فيه» بالمكاء والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى لايسمعه أحد (٣٢٦)

وقد ختم الله على قلوب هؤلاء وحال بينهم وبين فهم مايراد من القرآن الكريم ووصف حالهم بقوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣٢٧)

إنه حين أذهلهم بفصاحته وبلاغته ، وأفحمهم بحججه وبراهينه ، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا . فروا إلى المكابرة والعناد ، ولجأوا إلى المغالطة والافتراء ، فادعوا كذبا وزورا أن هذا القرآن من أساطير الأولين :

﴿ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾(٣٢٨)

ومن الذي يمليها ؟ إنه كما يزعمون عبد أعجمى لايكاد يبين . .

ولكن الله يرد على افتراءاتهم بقوله :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(٣٢٩)

---

(٣٢٦) انظر تفسير القرطبى ـ سورة فصلت ـ المكاء ـ الصغير

(٣٢٧) الأنعام ٢٥

(٣٢٨) الفرقان ٥

(٣٢٩) النحل ١٠٣

﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[٦] (٣٣٠) .

لقد حاولوا أن يصدوا أنفسهم عن سماع القرآن وأن يصموا آذانهم عنه . فوضع الله حجابا على قلوبهم أن يفقهوه .. وقال تعالى فى ذلك

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا
مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا
ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (٣٣١)



وكما قال بعضهم عن القرآن : إنه أساطير الأولين ، قال بعضهم : إنه سحر يؤثر .. وقد كذبوا فى قولهم وخسروا .. إنه قول الحق جل وعلا ، الذى ليس فى طوق بشر أن يأتى بمثله . وما قولهم هذا إلا أضاليل حاولوا أن يستروا بها عجزهم أمام جلال هذا القرآن وبيانه الرائع ومنطقه الفصل . لقد آمن كثير منهم بسبب تأثرهم بعظمة القرآن وصولته ـ وفى مقدمة هؤلاء كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .

---

(٣٣٠) الفرقان ٦

(٣٣١) الاسراء ٤٥ : ٤٧

القرآن وأهل الكتاب

وإذا كان المشركون قد أدركوا عظمة القرآن ولم يؤمنوا به كبرا وعنادا، فإن أهل الكتاب وقفوا نفس الموقف.

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى مواضع :

قال تعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ (٣٣٢)

قال صاحب تفسير المنار : إن الذين أعطاهم الله علم الكتب المنزلة قبل القرآن كأحبار اليهود والنصارى وعلمائهم كانوا يعلمون أن هذا الكتاب منزل على محمد - ﷺ - بالحق . . . وبيان ذلك من وجهين :

أحدهما أن العالم بالشيء يميز بين ماكان منه ومالم يكن ، فمن ألف كتابا فى علم الطب كان الأطباء أعلم الناس بكونه طبيبا ، ومن ألف كتابا فى النحو كان النحاة أعلم الناس بكونه نحويا ، كذلك المؤمنون بالوحى العاملون بما أنزل الله على أنبيائهم منه يعلمون أن هذا القرآن من جنس ذلك الوحى وفى أعلى مراتب الكمال ، وإن أوسع البشر علما لايستطيع أن

---

(٣٣٢) الانعام ١١٤ : ١١٥

يأتى بمثله ، فكيف يستطيعه رجل أمىّ لم يقرأ ولم يكتب قبله شيئاقال تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٣٣٣)

ثانيهما : أن فى الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل بشارات بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تكن تخفى على علماء اليهود والنصارى فى زمنه ـ ﷺ ـ وقد سبقت الإشارات إلى ذلك فيما أوردنا من أحاديث حول البشارات والإرهاصات . وقد أشار الحق سبحانه وتعالى إلى معرفة أهل الكتاب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾(٣٣٤)

وقد آمن المنصفون منهم به .. وأما غير المنصفين فقد كتموا الحق وعاندوا بغيا وحسدا وكبرا كما فعل المشركون تماما .

بل إن هؤلاء كانوا أشد مكرا من المشركين ، لما أدركوا من علوم سابقة يجهلها المشركون . ولهذا كانوا يحاولون التقدم إلى النبى ـ ﷺ ـ بأسئلة بغية إحراجه أو تعجيزه ، وقد يلقنون هذه الأسئلة للمشركين ، ويطلبون منهم أن يسألوا النبى عنها . . وكان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يلهم نبيه الإجابة ويمده بالوحى الذى ينزل عليه بما يرد على أسئلتهم .

---

(٣٣٣) العنكبوت ٤٨

(٣٣٤) البقرة ١٤٦

وعلى نمط المعاندين من أهل الكتاب الذين عاصروا النبى - ﷺ - سار المستشرقون فى العصور المتأخرة فحاولوا النيل من القرآن بغية النيل من الإسلام ورسوله . وقالوا فى شأن القرآن ماقاله أئمة الكفر السابقين . ولكن علماء الإسلام كانوا لهم بالمرصاد فردوا عليهم مفترياتهم ودحضوا أباطيلهم فجزاهم الله عن الإسلام وكتابه ورسوله خير الجزاء . .

وبقيت كلمة هى أن الله عز وجل قد تعهد بحفظ القرآن فقال . .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾[٣٣٥]

وبناء على هذا فقد باءت

محاولات أهل الكتاب قديما وحديثا بالفشل ، وكم من مرة حاول فيها أعداء القرآن أن يحرفوا شيئا من آى القرآن الكريم ، ولكن سرعان ماتتكشف محاولاتهم وتنفضح أساليبهم على أيديهم هم أنفسهم وربما قبل أن تنكشف على أيدى المسلمين .

لقد ظهر صدق كفالة الله بحفظ القرآن بتسخير الألوف الكثيرة فى كل عصر بحفظه عن ظهر قلب ، وبكتابة النسخ التى لاتحصى منه فى كل عصر من زمن الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - حتى هذا العصر الذى نحن فيه[٣٣٦] .

انظر إلى ملايين النسخ ومئات الطبعات المختلفة الأشكال والأحجام ، وملايين الأشرطة التى تذاع بأصوات مشاهير القراء عبر موجات إذاعات العالم كله بما فيها إذاعات الأعداء أنفسهم ، ويقتنيها الناس فى مختلف أنحاء المعمورة . .

---

(٣٣٥) الحجر ٩

(٣٣٦) راجع تفسير المنار جـ ٨ ص ٩ وما بعدها

هذه خصيصة للقرآن الكريم لم تتوفر لغيره من الكتب السابقة التى تناولتها أيدى أصحابها والقائمين عليها بالتغيير والتحريف والتبديل .

خاتمة : فى آداب حفظ القرآن وتلاوته

لقد جعل الله القرآن معجزة باقية خالدة أبد الدهر ، لاتفنى آياته ، ولاتبلى عجائبه ، ولاتمحى بركته ، ولاتطفأ أنواره ، ولاتنقضى أسراره . . لأنه حبل الله المتين وصراطه المستقيم ومعجزة خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقد دعانا الله إلى تلاوته وتدبره ، فقال ـ جل شأنه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾(٣٣٧)

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾(٣٣٨)

ولقد يسر الله القرآ للذكر والتلاوة ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾(٣٣٩)

وهذه خصيصة أخرى من خصائصه . حتى إن الطفل الصغير يستطيع أن يحفظه وهو دون العاشرة ، بل إن هناك من يحفظة فى سن الخامسة أو السادسة . .

---

(٣٣٧) فاطر ٢٩ : ٣٠
(٣٣٨) ص ٢٩
(٣٣٩) القمر ١٧

لقد أمرنا الله بقراءته فقال تعالى :

﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ ﴾ (٣٤٠)

ثم حبب الينا قراءته فى وقت السحر فقال :

﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (٣٤١)

وأمرنا بتعهده وحفظه وعدم تضييعه بالغفلة والنسيان :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٣٤٢)

وقد روى عن أبى موسى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ - قال : « تعاهدوا هذا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها » .

ويستحب الاجتماع على تلاوة القرآن ، فقد روى عن النبى - ﷺ - أنه قال : « ماجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

---

(٣٤٠) المزمل ٢٠

(٣٤١) الاسراء ٧٨ : ٧٩

(٣٤٢) طه ١٢٤ : ١٢٦

وقد وضع سادتنا العلماء الأفاضل ـ رضوان الله عليهم ـ آدابا لتلاوة القرآن الكريم مشتقة من منطوقه ومن الآثار الشريفة الواردة فى ذلك .

● فمن هذه الآداب التطهر قال ـ تعالى :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾(٣٤٣)

● ولأن تلاوة القرآن عبادة فينبغى للقارىء أن يستقبل القبلة ما أمكنه ويجلس كجلسته فى الصلاة فى أدب وخشوع .

● وعليه أن يستعيذ قبل التلاوة لأن الله ـ جل وعلا ـ يقول :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾(٣٤٤)

● وعليه أن يرتله كما أمر الله بذلك :

﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾(٣٤٥) مراعيا فى ذلك أحكام القراءة وشروطها .

● وعلى القارىء أن يستحضر عظمة القرآن وعلو قدره وعظمة المنزل عليه ـ ﷺ ـ وعظمة من أنزله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن توجيهات والد الشاعر الاسلامى محمد إقبال لابنه فى ذلك .. « يابنى اقرأ القرآن بأدب وخشوع وتدبر معانيه » .

---

(٣٤٣) الواقعة ٧٥ : ٨٠

(٣٤٤) النحل ٩٨ : ٩٩

(٣٤٥) المزمل ٤

ويقول الشاعر الإسلامي محمد إقبال في ذلك ..

ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره مانظمت . ولم يزل محمد إقبال - فيما يحكيه العلامة أبوالحسن الندوى - إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في اجوائه ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلم جديد واشراق جديد وقوة جديدة ، وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاق أفكاره ازداد إيمانا بأن القرآن هو الكتاب الخالد والعلم الأبدي ، وأساس السعادة ومفتاح الأقفال المعقدة وجواب الأسئلة المحيرة إنه دستور الحياة ونبراس الظلام (٣٤٦) .

هذا مع العلم بأن لسان إقبال لم يكن عربي الأصل ، ولكنه تعلم العربية وأتقنها من أجل الإسلام والقرآن .

فما بالك لو كان القارىء للقرآن عربي الأصل والبيان ؟

● ومن الآداب عند قراءة القرآن ترك الشواغل ، وحضور القلب ، وتدبر المعاني ، وتفهم الأحكام ، والتأثر بالقراءة ، بمعنى أن القارىء إذا مر بآية تسبيح سبح ، وبآية دعاء دعا ، وبآية استغفار استغفر ، وبآية سجود سجد سجدة التلاوة ، وإذا مر بذكر الجنة تشوق إليها ، وإذا مر بآية فيها ذكر النار استعاذ منها ، وأن تكون غايته من التلاوة طلب ثواب الله ، لاطلب السمعة أو الرياء أو الأجر من الناس .

● وسامع القرآن شأنه شأن القارىء في وجوب التدبر فيما يسمع وحسن الإنصات له استجابة لأمر الله في قوله :

---

(٣٤٦) روائع إقبال - أبو الحسن الندوى ص ٤٥

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾(٣٤٧)

وإلا كان شأنه شأن الكافرين الذين ورد فى حقهم قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(٣٤٨)

وورد فى حقهم :

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾(٣٤٩)

إن كل مسلم يسمع القرآن ينبغى أن يكون شأنه شأن الذين وصفهم الله بقوله :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾(٣٥٠)

وبقوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾(٣٥١)

---

(٣٤٧) الأعراف ٢٠٤

(٣٤٨) فصلت ٢٦

(٣٤٩) الاسراء ٤٧

(٣٥٠) الحج ٣٤ : ٣٥

(٣٥١) الأنفال ٢

لقد أحسن أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ حينما وعوا ذلك تماما ، وأدركوا قيمة هذا القرآن العزيز الذى نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين منجما فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الظروف والأحوال والمناسبات ، ليتدبره المسلمون ، وتعيه الآذان الواعية ، وليسهل حفظه ومعرفة مراميه ، وليقطع ألسنة المعاندين والمعارضين .

واجب المسلمين

لقد قال الله ـ تعالى : فى شأن هذا الكتاب وأهله :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(٣٥٢)

وهذا يدعو المسلمين إلى التنبه إلى واجبهم نحو هذا الكتاب الذى رفع الله به شأنهم بين الأمم ، فلا عز لهم إلا به ، ولا مجد لهم إلا إذا انتهجوا طريقة ، وساروا على تعاليمه ، مصداقا لقوله ـ صلى الله عليه وسلم : تركت ، فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتى » .

وقد حفظ الله كتابه بنفسه ليظل منهج المسلمين محفوظا محروسا بعناية الله من التحريف والتبديل . .

ولذلك فقد آن للمسلمين أن يفتحوا مع القرآن الكريم صفحة جديدة ، يجددون فيها عهدهم معه ، ويقرءونه قراءة واعية مستنيرة ، ليستخرجوا منه مايصلح حياتهم ويبنى مستقبلهم ويسعد شعوبهم ويذهب الفرقة من بينهم ، ويزيل عنهم الغربة التى يشعرون بها الآن ، فلن يصلح حالهم إلا بهذا الكتاب المبين قال تعالى :

---

(٣٥٢) الأنبياء ١٠

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى
ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ
بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾(٣٥٣)

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾(٣٥٤)

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا
لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾(٣٥٥)

وبعد ، قد تحدثنا فى إيجاز شديد عن القرآن الكريم معجزة الرسالة الخالدة الذى يحتاج الحديث عنه إلى مجلدات . وقد هدفنا من ذلك إلى التعريف بهذا السلاح القوى الذى وضعه الله فى يد نبيه - ﷺ - ليمضى به فى دعوته التى كلف تبليغها إلى أمته .

فمضى على هدى من الله . . فى قلبه الإيمان ، وفى يده القرآن . . قائلا بلسان الحق الذى أنزله عليه :

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ اللَّهِ
وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

والآن مع النبى - ﷺ - فى تبليغ دعوته .

---

(٣٥٣) فصلت ٤٤

(٣٥٤) الاسراء ٨٢

(٣٥٥) الاسراء ٩ : ١٠

(٣٥٦) يوسف ١٠٨

بدء الدعوة

- فتور الوحي .
- الأمر بالتبليغ .
- الدعوة سرًا .
- من أسلم أولاً ؟
- السابقون الأولون .
- مدرسة دار الأرقم .
- فاصدع بما تؤمر .
- لم خص الله قرابة النبي بالإنذار أولاً ؟
- الإيذاء .
- لماذا قاومت قريش الدعوة ؟
- الإيذاء لم يثن محمدًا عن تبليغ الدعوة .
- وسائله في تبليغ الدعوة .
- وسائلهم في إعاقة الدعوة .



عرفنا فيما سبق أن القرآن الكريم هو معجزة الرسالة الإسلامية الخالدة ، وأنه قد نزل على الرسول ﷺ منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة . . وهى الفترة الزمنية منذ أن نبىء محمد ﷺ فى الأربعين من عمره إلى أن لحق بالرفيق الأعلى وهو فى الثالثة والستين من العمر . . وطوال هذه الفترة صاحب القرآن رسول الله ﷺ مؤيداً له ومعيناً له على مصاعب الدعوة ومشاقها .

وقد عرف محمد ﷺ أنه نبى هذه الأمة ، ورسول آخر الزمان منذ أن نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بالآيات الأولى من سورة « اقرأ » وبعد أن ذهب إلى ورقة بن نوفل وقص عليه مارآه وطمأنه ورقة بأن هذا هو الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى عليه السلام ، وبشره بأنه نبى آخر الزمان الذى أخبرت به الكتب السماوية السابقة . اطمأن قلب النبى ﷺ بما نزل عليه من قرآن وبما شاهده من رؤية جبريل ـ عليه السلام ـ

وتأمّل فى معنى ما نزل عليه ، فوجده يفيض بالمعانى النيرات ، ويزخر بكثير من الإشراقات ويحمله الكثير من التبعات والعديد من المسئوليات . .

إنها دعوة إلى العلم فى بيئة لا تعرف عن العلم شيئاً ، ودعوة إلى التأمل والتفكير فى قوم ألغوا عقولهم ، وأهملوا فكرهم ، وغضوا عن التأمل أبصارهم . .

ولكنه على الرغم من شعوره بثقل هذه التبعة التى ألقيت عليه كان يشعر بجمالها وجلالها ويأنس إليها لأنها تصله بالملأ الأعلى ، وتقربه من عالم المثل العليا ، وتطلعه على عالم الغيب وتملأ قلبه سكينة وأمنا واطمئناناً

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يربطه تماماً بهذا الأمر ويشغله به ليفرغ كل همه إليه ، فجعل يشوقه ، إليه وإلى انتظار الملك الذى يجىء بالوحى :

فتــور الوحـــى (٣٥٨)

ولكن الوحى يفتر ، وينتظر النبى ﷺ مجىء جبريل فلا يجىء فيشتد الأسى به ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لقد حزن النبى ﷺ حزناً شديداً وعانى الكثير من التعب فى تلك الفترة وانتابته الوساوس والأشجان الكثيرة إلى الدرجة التى كان يشعر معها أن الحزن يكاد يقضى عليه .

إن هذا يعنى تعلق النبى ﷺ الشديد بالوحى ، وبما رآه فى مصاحبته من أنس ملأ كيانه وملك وجدانه حتى لقد خشى أن يفوته ذلك الأنس الذى ملأ روحه يقيناً وسعادة واطمئناناً . . إنها السعادة الحقة التى لا تعد الحياة بدونها حياة .

ويختلف الرواة فى تقدير هذه المدة التى فتر فيها الوحى . .

فمنهم من يقول : إنها ثلاث سنوات ، ومنهم من يقول : إنها سنتان ونصف ، ومنهم من يقول : إنها ستة أشهر ، ومنهم من يقول إنها أقل من ذلك . .

وقد أشار ابن حجر ـ فى فتح البارى ـ إلى الحكمة من فتور الوحى فقال : وفتور الوحى عبارة عن تأخره مدة من الزمان ، وكان ذلك ليذهب عن النبى ﷺ ماكان قد وجده من الروع والخوف عندما نزل عليه الملك بالوحى أول مرة ، وليحصل له التشوق إلى العود .

وقد حددت هذه المدة فى حديث مرسل رواه أحمد عن الشعبى بأنها كانت سنتين ونصف . . فإذا ضمت مدة فتور الوحى هذه إلى مدة الوحى بالرؤيا

---

(٣٥٨) معنى فتور الوحى انقطاعه عن النبى ﷺ فترة من الزمن

الصادقة وهى ستة أشهر كما ذكر قبل ذلك ، كان المجموع ثلاث سنين ، وهى مدة النبوة التى لم يؤمر فيها النبى ﷺ بالتبليغ .. ثم نزل بعد تلك الفترة قوله تعالى : « ياأيها المدثر قم فأنذر » فكان هذا أمراً من الله تعالى ببدء مهمة التبليغ والرسالة بالفعل .. وليس المراد بفتور الوحى فى تلك المدة أن جبريل عليه السلام لم يكن ينزل على الرسول ﷺ بل المراد تأخر نزول القرآن فقط .

أما نزول الملك فكان يحدث فى تلك المدة بين الحين والحين خصوصاً عندما يشتد الحزن بالنبى ﷺ بسبب توقف الوحى ـ فكان جبريل ينزل لطمأنته ... يؤيد هذا ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن الفترات التى كان يسكن جاش الرسول إنما كانت أياماً ، ثم يعاوده الحزن ، فلعل تلك الفترات التى كان يسكن فيها جاشه هى عندما ينزل عليه الملك ويطمئنه ويخبره أنه رسول الله ، ثم يعاوده الحزن بعد ذلك إذا تأخر عليه الملك .

ثم أذن الحق سبحانه وتعالى ـ بنزول الوحى بعد فتوره .. فمكث صلى الله عليه وسلم أياماً لايرى جبريل ، لا بوحى ، ولا بدونه ، فحزن حزناً شديداً ، وصعد إلى حراء فبينما هو كذلك إذ سمع صوتاً فوقف فزعاً ثم رفع رأسه ، فإذا جبريل على كرسى بين السماء والأرض متربعاً يقول ، يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل ، فانصرف وقد أقر الله عينه وانبسط جاشه .. ثم تتابع الوحى (٣٥٩)

لقد علل بعض العلماء هذا الحزن الشديد الذى أصابه ﷺ بسبب فتور الوحى بخشيته ﷺ من ذهاب الأمر الذى بشر به وهو النبوة ، وهذا أعظم

---

(٣٥٩) انظر فتح البارى جـ١٣ كتاب التعبير

ما يطمح إليه بشر . . فإذا كان قد بُشِّر بها وجاءه الملك بها وأنس فؤاده إليها ، فما باله لا يعاوده الملك بما كان يجيئه به ؟ أتراه قد صرف الأمر عنه ؟

هذه أحاسيس لا يبعد أن تكون قد راودته ﷺ وهى التى أصابته بذلك الغم الشديد الذى كاد يسلمه إلى اليأس . . ولكن الله كان يثبت فؤاده بإظهار جبريل ـ عليه السلام ـ أمامه يقول له : أنت رسول الله حقاً . . فيطمئن . .

الأمر بالتبليغ

ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٣٦٠) : عن جابر بن عبد الله الأنصارى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ثم فتر الوحى عنى ، فبينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى إلى السماء ، فإذا الملك الذى كان يجيئنى قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، ففزعت حتى هويت إلى الأرض ، فجئت إلى أهلى ، فقلت لهم : دثرونى دثرونى ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾ (٣٦١)

وأبلغ النبى ﷺ الدعوة إلى أهل بيته . .

فكان أول من آمن به خديجة ـ رضى الله عنها ـ

وقد رأى كثير من العلماء أن فترة انقطاع الوحى هى الفترة ما بين نزول « اقرأ » إلى نزول سورة المدثر

---

(٣٦٠) دلائل النبوة جـ٢ ص ١٤٠

(٣٦١) المدثر ١ : ٥

وذكر ابن هشام في سيرته : أن سورة الضحى نزلت بعد فترة الوحى لتطمئن النبى ﷺ بأن ربه لم يودعه ولم يتركه .

قال ابن هشام راوياً عن ابن إسحاق : ثم فتر الوحى عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك ، حتى شق ذلك عليه ، فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى :

﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾ (٣٦٢)

قال بن هشام : يقسم له ربه ـ وهو الذى أكرمه بما أكرمه به ـ أنه ما ودعه وما قلاه ، فقال : تعالى :

﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وماقلى ﴾ يقول ما قطعك قطع المودع وماكرهك . ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ اى مالك فى الآخرة أعظم وأجمل من كل ماق الدنيا من متع ونعيم ، فلك السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمتك على سائر الأمم . ولك الشفاعة العظمى . ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وهذا شامل لعطاء الدنيا والآخرة فقد أعطاه

---

(٣٦٢) سورة الضحى

فى الدنيا النصر والظفر بأعدائه ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وانتشرت دعوة الإسلام ووصلت إلى كل مكان .. كما ادخر له فى الآخرة من الثواب والنعيم مالايعلم كنهه إلا الله .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

يعرفه الحق سبحانه وتعالى ماأكرمه به فى عاجل أمره ، فقد ولد يتيماً فرعاه الحق سبحانه وتعالى وحفظه ، وكان حائراً يبحث عن طريق الحق والصواب فهداه الله إلى الطريق الصحيح ، وأكرمه بالنبوة والرسالة ، ورضاه بما أنعم عليه من الرزق فأصبح غنياً ، لأن الرضا هو الغنى الكامل . ويذكر القرطبى رواية أخرى لنزول تلك السورة فيقول :

سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح وذى القرنين وأصحاب الكهف قال : « سأخبركم غداً » ولم يقل إن شاء الله . فاحتبس عنه الوحى . إلى أن نزل جبريل بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٣٦٣)

ثم أخبره الله عما سئل عنه ، وفى هذه القصة نزلت :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾

وقد ذكرنا ما أورده القرطبى (٣٦٤) حول هذه السورة لتوضيح أن آيات المدثر هى التى نزلت عقب فتور الوحى . وفيه أمر له ﷺ بالتبليغ ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى ـ له : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ .

أما سورة الضحى فلا أمر له فيها بالتبليغ .

---

(٣٦٣) الكهف ٢٣، ٢٤

(٣٦٤) تفسر القرطبى ـ سورة الضحى ـ ص ٧١٨٢

أما الحكمة فى مخاطبته ﷺ - بوصف المدثر فقد أشار إليها السهيلى فقال : إن من عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمى المخاطب باسم مشتق من الحالة التى هو عليها ، فلاطفه الحق - سبحانه وتعالى - بقوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فبذلك علم رضاه الذى هو غاية مطلوبه ، وبه كان يهون عليه تحمل الشدائد .

قال : ومن هذه الملاطفة قول النبى ﷺ - لعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه : قم ياأباتراب - وكان قد نام وترب جنبه ، وقوله - ﷺ - لحذيفة فى غزوة أحد : قم يانومان .

الدعــوة ســراً

وبدأ النبى - ﷺ يدعو سرا إلى الإيمان بالله واتباع دينه الحق . . فكان أول من آمن به - كما سبقت الاشارة - زوجه - خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها .

وقد كوفئت لهذه المبادرة الطيبة من الحق - سبحانه وتعالى - روى عبدالله بن جعفر بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ - أمر أن يبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولانصب (٣٦٥) .

وروى مسلم هذا الحديث متصلا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماغرت على أحد ماغرت على خديجة ، ولقد ماتت قبل أن يتزوجنى رسول الله - ﷺ - بثلاث سنين ، ولقد أمر أن يبشرها ببيت من قصب فى الجنة . وقد وصف هذا البيت بأنه لاصخب فيه ولانصب .

وهذا البيت قد بشرت به خديجة - رضى الله عنها - حين سالت النبى ﷺ قائلة : هل فى الجنة قصب ؟ فقال : إنه قصب من لؤلؤ مُجَبّى - أى مقطع .

---

(٣٦٥) القصب هنا : الدر والزبرجد المرصع بالياقوت

وهذا العطاء قد خصص لها ثوابا لإيمانها وعملها وسبقها إلى الإسلام . .

وروى ابن هشام فى سيرته قال : حدثنى من أثق به أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى رسول الله ـ ﷺ فقال اقرىء خديجة السلام من ربها ، فقال رسول الله ﷺ : ياخديجةهذا جبريل يقرئك السلام من ربك . فقالت خديجة : الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

لقد علمت خديجة ـ رضى الله عنها ـ بتفقيه الله لها وإلهامه إياها أن الله لايرد عليه السلام ، كما يرد على المخلوق ، لأن السلام دعاء بالسلامة ، فكان معنى قولها ـ كما ذكر السهيلى : الله السلام ، فكيف أقول عليه السلام والسلام منه يسأل ومنه يأتى ؟ ولكن على جبريل السلام (٣٦٦) إنه الأدب الذى اكتسبته من مصاحبتها للنبوة ، وهو توفيق من الله . . .. . هذا الأدب دلها على أن تجعل رد التحية ثناء على الله . وتمجيداً له وتعظيما لجلاله ـ سبحانه .



من أسلم أولاً ؟

ليس من المبالغة إذا قلنا إن خديجة آمنت بالنبى ﷺ ـ قبل بعثته ، فقد آمنت به حين رأته عائداً من تجارتها وقد أظله الملكان ، وآمنت به حين عاشرته وخبرت أخلاقه فأدركت أنه ليس من هؤلاء الناس الذين رأتهم وعرفتهم ولكنه نسيج وحده . . إنه محل عناية الله فى الأرض ، فجدير به أن يكون هو نبى آخر الزمن الذى وعد الله به عباده وجاء خبره فى الكتب السابقة ، وورد ذكره على ألسنة الكهان والأحبار .

وصدّق لسانها هذا الإيمان الذى انطبع فى قلبها حين عاد إليها النبى ـ ﷺ ـ

---

(٣٦٦) الروض الأنف للسهيلى جـ ١ ص ٢٨٠

ترجف بوادره بعد أن تلقى أول وحى ، فقالت له : والله لن يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتغيث الملهوف ، وتعين على نوائب الدهر . . وأسرعت إلى ورقة تستخبره فما زادها قول ورقة إلا يقينا . .

وتبع خديجة فى الإيمان على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وكان فى كنف الرسول - ﷺ .

ذلك أن أبا طالب كان ذا عيال كثيرة فقال النبى - ﷺ - لعمه العباس وكان من أيسر بنى هاشم : إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ماترى من جهد وبلاء ، بسبب أزمة كانت قد طرأت فى قريش ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه عياله ، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا ، فنكلهما عنه . فاستجاب العباس رضى الله عنه - لهذا الرأى المستنير من رسول الله ﷺ - وأسرعا حتى أتيا أبا طالب ، فعرضا عليه ما اتفقا عليه . فقال أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ماشئتما . فأخذ النبى - ﷺ - عليا فضمه إليه .

وأخذ العباس جعفرا فضمه اليه .

فلم يزل على فى كفالة النبى - ﷺ - حتى كبر ، وكان بمثابة ولده وأحبه حبا شديداً وزوجه ابنته فاطمة التى كانت أحب بناته إليه .

وهذا من سعادة على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ثم أسلم زيد بن حارثة ، وكان مولى للنبى - ﷺ .

ثم أسلم أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - واسمه عبدالله بن عثمان .

كانت سن على بن أبى طالب حين أسلم عشر سنين . . وصحب النبى - ﷺ - فى عبادته حين أمر الله نبيه بالعبادة .

ذلك أنه لادين بدون عبادة . .

فرضيــة الصلاة

وأساس العبادة الصلاة . . وقد فرضت مبكرة قبل أن تفرض بصورتها مالتى

هى عليها الآن فى ليلة الاسراء والمعراج . . كانت الصلاة ركعتين فى الغداة وركعتين فى العشى . . أورد ابن هشام فى سيرته قال : قال ابن إسحاق :

حدثنى بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ - أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ، فضرب بعقبه فى ناحية الوادى ، فانفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل - عليه السلام - ورسول الله - ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله - ﷺ - كما رأى جبريل توضأ ،ثـم قـام بـه جبريل فصلى به ، وصلى رسول الله - ﷺ - بصلاته .

ثم انصرف جبريل - عليه السلام . . . وروى عن عائشة - رضى الله عنها - قولها : افترضت الصلاة على رسول الله - ﷺ - أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين ، ثم إن الله - تعالى - أتمها فى الحضر أربعا وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين (٣٦٧) .

وذكر العلامة ابن حجر فى كتابه الإصابة فى ترجمة عزيزة العبدرية أنها قالت : كانت قريش لاتنكر صلاة الضحى ، وكان المسلمون قبل أن تفرض الصلوات الخمس يصلون الضحى والعصر ، وكان النبى - ﷺ - وأصحابه إذا صلوا آخر النهار تفرقوا فى الشعاب فصلوها فرادى (٣٦٨) .

لقد أشارت المصادر إلى أن فرضية الصلاة كانت مصاحبة للبعثة ، وأداها النبى - صلى الله عليه وسلم - جماعة مع من آمن به أولا ، وكان من آمن به أولا خديجة وعلى بن أبى طالب ذكر ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة فى ترجمة عفيف الكندى أنه قال :

---

(٣٦٧) سيرة ابن هشام حـ١ ص ٢٦٢

(٣٦٨) الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ٨ ص ٢٦

جئت فى الجاهلية إلى مكة ، وأنا أريد أن أبتاع لأهلى من ثيابها وعطرها ، فأتيت العباس بن عبدالمطلب ـ وكان رجلا تاجراً ـ فأنا عنده جالس حيث أنظر إلى الكعبة ، وقد حلقت الشمس فى السماء فارتفعت وذهبت ، إذ جاء شاب . فرمى ببصره إلى السماء ، ثم قام فاستقبل الكعبة ، ثم لم ألبث إلا يسيرا حتى جاء غلام فقام على يمينه ، ثم لم ألبث إلا يسيرا حتى جاءت امرأة ، فقامت خلفهما ، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة ، فسجد الشاب فسجد الغلام والمرأة .

فقلت : ياعباس ، أمر عظيم . قال العباس : أمر عظيم ، تدرى من هذا الشاب ؟ قلت : لا . قال : هذا محمد ابن أخى عبد الله

أتدرى من هذا الغلام ؟ هذا على ابن أخى .

أتدرى من هذه المرأة ؟ هذه خديجة بنت خويلد ـ زوجة محمد ـ إن ابن أخى هذا أخبرنا أن ربه رب السموات والأرض أمره بهذا الدين الذى هو عليه ، ولا والله ما على الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة (٣٦٩)

كان ذلك ـ كما يشير هذا الخبر ـ قبل ان يفشو أمر الدين ، فلم يكن زيد قد اسلم ـ ولاأبوبكر ـ رضى الله عنهما .

ويؤكد ذلك الخبر مايرويه ابن هشام قال :

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا حضرت الصلاة خرج إلى الكعبة ، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا ، ثم إن أباطالب عثر عليهما يوما يصليان ، فقال لرسول الله ـ ﷺ ـ يابن أخى ، ماهذا الدين الذى أراك تدين به ؟ .

---

(٣٦٩) أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٩

قال : أى عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم أو كما قال ﷺ ـ بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعانني عليه . فقال أبوطالب : أى ابن أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لايخلص أحد إليك بشيء تكرهه ماحييت .

وقال لابنه على : أما إنه ـ أى النبي ـ ﷺ ـ لم يدعك إلا إلى خير فالزمه (٣٧٠) .

هذه الأخبار ترشدنا إلى أن علياً كان أسبق الناس بعد خديجة ـ رضى الله عنها ـ إلى الإيمان . .

وبعده أسلم زيد بن حارثة . .

من زيد ؟

وزيد : هو بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبدالعزى بن امرىء القيس الكلبى . . الوحيد الذى ورد اسمه صريحا فى القرآن الكريم من بين الصحابة الأجلاء ، وذلك فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(٣٧٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٥ .

حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

وكان زيد قد اختطفته عصابة وهو صغير ، ذلك أن أمه خرجت به لتزور قومها فى بنى معن فأغارت عليهم خيل بنى القين بن جسر ، فأخذوا زيداً وبيع على أنه رقيق فى بعض أسواق الشام أو الحجاز ، واشتراه حكيم بن حزام ووهبه إلى عمته خديجة بنت خويلد - زوج النبى - ﷺ - ووهبته بدورها إلى النبى - ﷺ - فأصبح زيد مولى لرسول الله - ﷺ وتوسم فيه النجابة والاخلاص فأحبه .

وكانت سن زيد إذ ذاك ثمانى سنين .

وكان حارثة والد زيد لا يكف عن السؤال عن ابنه ويبحث عنه ، وقد جزع عليه جزعاً شديداً ، وأخذ يبث فى شعره شوقه إليه ووجده عليه ، ومن ذلك قوله :

بكيت على زيد ولم أدر مافعل ... أحىٌّ يُرَجَّى أم أتى دون الأجل
فوالله ما أدرى وإنى لسائل ... أغا لك سهل الأرض أم أغا لك الجبل
فياليت شعرى هل لك الدهر رجعة ... فحسبى من الدنيا روجوعك لى بجل (٣٧٢)

---

(٣٧١) الأحزاب ٣٧

(٣٧٢) بجل بمعنى حسب

تذكرنيه الشمس عند طلوعها وتعرض ذكراه إذا قارب الطفل (٣٧٣)

وإن هبت الأرواح هيجن ذكره فيا طول ما حزنى عليه ويا وجل (٣٧٤)

سأعمل نص العيش فى الأرض جاهدا ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل (٣٧٥)

حياتى أو تأتى على منيتى وكل امرىء فانٍ وإن غره الأمل

سأوصى به قيسا وعمراً كليهما وأوصى يزيدا ثم من بعده جبل

يعنى أنه سيوصى إخوته عليه للبحث عنه بعده ..

ثم إن قوماً من كلب قبيلة زيد حجوا ، فرأوا زيدا فعرفوه وعرفهم ، فقال لهم : أبلغوا عنى أهلى هذه الأبيات ، فإنى أعلم أنهم جزعوا علىَّ :

أحن إلى قومى وإن كنت نائيا فإنى قعيد البيت عند المشاعر

فكفوا من الوجد الذى قد شجاكم ولا تعملوا فى الأرض نص الأباعر

فإنى بحمد الله فى خير أسرة كرام معد كابرا بعد كابر

وعاد هؤلاء القوم يبشرون أباه بالعثور عليه ، ويصفون له موضعه ومكانه ، فخرج حارثة ومعه أخوه كعب لفداء زيد ، فقدما مكة ، والتقيا بالنبى - ﷺ - وقالا له : يابن عبدالمطلب ، يابن هاشم ، يابن سيد قومه جئناك فى ابننا عندك ، فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه .

---

(٣٧٣) الطفل : الغروب

(٣٧٤) الأرواح : الرياح ، والوجل : الخوف

(٣٧٥) العيس : الإبل - ونصها : حثها على بذل أقصى سرعتها

فقـــال النبى - ﷺ - : من هو ؟

قالوا : زيد بن حارثة .

فقال رسول الله - ﷺ : فهلا غير ذلك ؟

قالوا : ماهو ؟

قال : ادعوه وخيِّروه ، فإن اختاركم فهو لكم - يعنى بغير فداء - وإن اختارنى فوالله ماأنا بالذى أختار على من اختارنى أحدا .

قالا : قد زدتنا على النُّصَف ، وأحسنت . أى قد أنصفتنا وزدت وأحسنت إلينا فدعاه رسول الله - ﷺ - فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ، هذا أبى ، وهذا عمى .

قال النبى - ﷺ - فأنا من عرفت ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما . قال زيد : ما أريدهما ، وما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى مكان الأب والعم .

قالا : ويحك يازيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا . أجل لقد رأى زيد من رسول الله - ﷺ - جمال الأخلاق ، وحسن الشيم ، وسماحة المعاملة ، وأنس المعشر ، وصدق الحديث ، رأى البر والوفاء والمروءة ، ورأى كيف تتجسم معالى الأمور والمثل العليا فى رجل يمشى على الأرض . . فكيف يؤثر زيد غيره عليه ؟ أيتركه لرحمة الأبوة ؟ فلقد رأى زيد من رحمة النبى - ﷺ - به وعطفه عليه وبره به مالايجده ابن أبداً من أبيه ، ولقد صدق الشاعر فى وصفه - ﷺ حين قال :

وإذا رحمت فأنــت أم أو أب   هذان فى الدنيا هما الرحماء

أيتركه لآصرة القرابة وصلة الرحم ؟ فلقد وجد زيد فى علاقته بالنبى - ﷺ - أوثق علاقة وأقوى رابطة وأجل رعاية وأصدق معاملة . .

ولما رأى النبى - ﷺ - من زيد هذا التعلق به والإيثار منه ، خرج إلى الحِجْر ، ومعه زيد وحوله أبوه وعمه ، ونادى قائلا : « يامن حضر . . اشهدوا أن زيدا ابنى » [٣٧٦] .

هنيئا لك يازيد هذه الأبوة الحانية ، والرحمة الشاملة التى وسعتك بل وسعت الناس جميعا . . ألم يقل الله فى حقها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [٣٧٧] وألم يقل هو فى حق نفسه : « إنما أنا رحمة مهداة » ؟ .

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما ، وانصرفا مسرورين سعيدين . . لقد أحزنهما أولا ماسمعاه من أن ابنهما عبد يسام سوم الرقيق ، ولكنهما أدركا الآن أنه حر يعيش فى كنف أعظم أسرة عرفتها البشرية ، وفى ظل أعظم أب يعرفه الناس .

هذا زيد بن حارثة الذى أسلم بعد علىّ ، فكان ثالث ثلاثة فى الإسلام وسنعرض لبقية قصة زيد الحافلة بالمعانى الطيبة فى حينها إن شاء الله تعالى .

إسلام أبى بكر

وأبوبكر اسمه عتيق ، واسمه عبدالله ، واسم أبيه عثمان وكنيته أبوقحافة . .

---

(٣٧٦) راجع أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٨٢ وسيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٦

(٣٧٧) الأنبياء ١٠٧

وسمى بعتيق لحسن وجهه ، فهى صفة غلبت حتى صارت علما . . وكان اسمه عبدالكعبة فسماه النبى - ﷺ - عبدالله .

كان صديقا للنبى - ﷺ - منذ نشأته ، قال النبى - ﷺ - « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه - صورة نادرة للإخلاص والوفاء ، وقد لقب بالصديق لصدقه ، وتصديقه للنبى ﷺ - كل كل قول وأمر . .

ولم يتردد أبوبكر فى الإسلام حين عرضه النبى - ﷺ - عليه ويذكر الرواة فى سرعة استجابة أبى بكر للاسلام أسبابا . . منها أنه رأى رؤيا . رأى القمر ينزل إلى مكة ، ثم رآه قد تفرق على جميع منازل مكة وبيوتها ، فدخل فى كل بيت منه شعبة ، وكان لأبى بكر من ذلك نصيب أكبر من غيره . .

فقص هذه الرؤيا على بعض أهل الكتاب فعبرها له : بأن النبى المنتظر الذى قد أظل زمانه تتبعه وتكون أسعد الناس به ، فلما دعاه رسول الله - ﷺ - إلى الإسلام لم يتوقف .

ومنها ماسبق أن أشرنا إليه من أنه كان مع النبى - ﷺ - فى رحلة تجارية ، وتوسم الرهبان فى النبى - ﷺ - علامات النبوة فأخبروا بها وسمع أبوبكر منهم ذلك .

ومنها ما أورده ابن الأثير فى كتابه من قصة - سبق أن أوردناها أيضا فى البشارات - فحواها أن أبابكر - رضى الله عنه - كان فى رحلة إلى اليمن والتقى هناك بشيخ يمنى معمر لديه من علم أهل الكتاب . رأى فيه بعض العلامات التى

ذكرت فى أتباع الرسول الأمى فتحقق منها فيه ، فلما وجدها أخبره بمبعث النبى - ﷺ - وحمله رسالة له .

ولما عاد أبوبكر إلى مكة ، أخبره قومه بمبعث النبى ﷺ - فانطلق إليه . فأخبره النبى - ﷺ - برسالته ، ودعاه إلى الإسلام ، فقال أبوبكر - ليس على سبيل الإنكار ، بل على سبيل التثبت . . وماذليلك على ماتقول ؟ قال النبى - ﷺ - الدليل ما أخبرك به الشيخ اليمنى الذى أرسل معك الأبيات .

فأسلم أبوبكر دون تردد (٣٧٨)

وكان إسلام أبى بكر خيرا وبركة ، فقد أسلم بإسلامه كثير من أصحابه . .

من السابقين إلى الإسلام

قال - تعالى -

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٣٧٩)

وحديثنا ينصرف إلى السابقين الأولين من المهاجرين ، هؤلاء الذين اتبعوا النبى - ﷺ - فى أول بعثته ونصروه فى دعوته ، فقد أخذ الإسلام يسرى سرا كما

---

(٣٧٨) راجع القصة فى هذه السلسلة جـ ٦ ص ١٠٧ وفى اسد الغابة جـ ٢ ص ٣٠٩

(٣٧٩) التوبة ١٠٠

يسرى الماء فى العود والنور فى الآفاق ، فتتلقفه نفوس حائرة تطمئن به ، وقلوب خائفة تأمن فى ظله ، وأرواح هائمة تستقر فى أحضانه ، وعقول قلقة تشعر فى حماه بالهدى واليقين والاقتناع . .

وبهؤلاء انتقل الاسلام إلى أماكن متعددة ، فشرق وغرب ، وعرفه الناس فى كل مكان ، ولكنهم أوذوا فى سبيل ذلك ، وذاقوا من ويلات العذاب والاضطهاد والعنف مالا قبل لأحد به . .

حين أسلم أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ كان الساعد اليمنى للنبى ـ ﷺ ـ وكانت له سن وشرف ومنزلة فى قريش ، يحبونه ويعظمونه ـ فأخذ يدعو أصدقاءه إلى هذا الدين الذى جاء به محمد ـ ﷺ .

فأسلم على يديه عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ الملقب بذى النورين لتزوجه بنتين من بنات الرسول ـ ﷺ ـ هما رقية وأم كلثوم . الواحدة تلو الأخرى . .

وكان عثمان شريفا فى أهله وقومه ولكنهم لم يعتدوا بشرفه حين آمن فقد أخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أمية فأوثقه كتافا ، وقال له : ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ؟ والله لا أحل وثاقك أبداً حتى تدع ماأنت عليه .

ولكن عثمان أصر على إسلامه ، وأبى أن يستجيب لتهديد عمه .

وأسلم على يدى أبى بكر أيضا الزبير بن العوام الملقب بحوارىّ رسول الله ـ ﷺ ـ أسلم صغيرا ـ قيل كانت سنه ثمانى سنين ـ وهى تقارب سن على ـ رضى الله عنه .

وأسلم أيضا عبدالرحمن بن عوف ، وكان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو ، وقيل عبدالكعبة فسماه النبى ـ ﷺ ـ عبدالرحمن .

قــال الحلبى : وكان عبدالرحمن بن عوف صديقا لأمية بن خلف وهو من قادة الكفر والشقاق، فحاول أن يثنى عبدالرحمن عن قبول الاسم الجديد ، وقال له : أترغب عن اسم سماك به أبوك ؟ .

فقال عبدالرحمن : نعم

ولكن أمية قال له : ولكنى لا أرغب فى ذلك ، وسوف أناديك باسمك القديم وظل يناديه به . .

أما سبب إسلام عبدالرحمن بن عوف فيحدث هو عنه قائلا :

سافرت إلى اليمن غير مرة ، وكنت إذا قدمت إليها نزلت بعسكلان بن عواكف الحميرى ، فكان يسألنى هل ظهر فيكم رجل له نبأ وله ذكر ؟ هل خالف عليكم أحد منكم فى دينكم ؟ فأقول لا . . حتى كانت السنة التى بعث رسول الله - ﷺ - قدمت اليمن فنزلت عليه (٣٨٠) فأخذ يكرر علىَّ قوله وأسئلته التى فهمت منها صدق النبى - ﷺ - فلما عدت إلى مكة أسلمت -وأم عبدالرحمن بن عوف هى الشفاء التى حضرت إلى آمنة بنت وهب ليلة ولد النبى - ﷺ - ورأت من أنواره الباهرة واشراقاته العظيمة ماحدثت به .

وأسلم سعد بن أبى وقاص . وأبووقاص اسمه مالك بن أهيب ، وهو ابن عم آمنة بنت وهب أم النبى - ﷺ - فهو خال النبى .

وكان سعد مستجاب الدعوة لأنه كان طيب المطعم ، استجاب فى ذلك لتوجيهات النبى - ﷺ - حين قال له : « أطب مطعمك ياسعد تكن مستجاب الدعوة » .

---

(٣٨٠) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٤٦

وكان عمر «سعد» حين أسلم تسع عشرة سنة ..

وقد ضاقت أم سعد ذرعا بإسلام سعد ، وهددته بالإضراب عن الطعام والشراب . وقالت له : والله لا أكلت طعاما ولاشرابا حتى تكفر بما جاء به محمد . فقال لها : ياأمه تعلمين والله : لو كان لك مائة نفس تخرج نفسا نفسا ماتركت دين هذا النبي - ﷺ - فكلي إن شئت أولا تأكلي .

فلما رأت ذلك أكلت .

قـال الرواة : وكانت أم سعد تُعَيِّرُ سعداً بأخيه عامر ، وكان لم يسلم بعد ، فتقول : انظر إلى أخيك عامر كيف بره بأمه ؟ وكيف لايفارق دينه ؟ فلما أسلم عامر لقبته بما لقبت به سعدا وأشد .

وقد جاء سعد يوما إلى البيت والناس مجتمعون على أمه وأخيه . فقال : ماشأن الناس ؟ .

فقالوا : هذه يأمه ، قد أخذت أخاك عامرا ، وقد أخذت على نفسها عهداً . . لايظلها نخل ولاتأكل طعاما ولاتشرب شرابا حتى يترك دين محمد . . فقال لها سعد : يأمة لاتستظلين ولاتأكلين ولاتشربين حتى تتبوئى مقعدك من النار .

ولم ينج عامر من شرها إلا بهجرته إلى الحبشة (٣٨١) .

وأسلم أيضا طلحة بن عبدالله التيمي . . وكان أبوبكر سببا فى إسلامه .وقد رويت له فى ذلك قصة :

---

(٣٨١) راجع السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٤٧

قال طلحة : حضرت سوق بصرى فإذا راهب فى صومعته يقول : سلوا أهل هذا الموسم هل بينكم من أهل الحرم أحد ؟

فقلت : نعم أنا

قال : هل ظهر أحمد بعد ؟

قلت : ومن أحمد ؟ .

قال : ابن عبدالله بن عبدالمطلب . هذا شهره الذى يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء . يخرج من الحرم ، ويهاجر إلى أرض ذات نخل ، فإياك أن تسبق إليه .

قال طلحة : فوقع فى قلبى ماقال ، فخرجت سريعا حتى قدمت مكة ، فقلت : هل كان من حدث ؟ .

قالوا : نعم ، محمد بن عبدالله الأمين يدعو إلى الله ، وقد تبعه ابن أبى قحافة . فخرجت حتى دخلت على أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فأخبرته بما قال الراهب .

فخرج أبوبكر حتى دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره بذلك فسر بذلك وأسلم طلحة . .

وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وكنيته أبومحمد ، ولقبه القرشى التيمى .

وأمه : الصعبة بنت عبدالله بن مالك الحضرمية .

ويطلق عليه : طلحة الخير وطلحة الفياض .

ولما أسلم طلحة والزبير آخى النبى ـ ﷺ ـ بينهما فى مكة قبل الهجرة ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة ، آخى النبى ـ ﷺ ـ بن طلحة وبين أبى أيوب الأنصارى .

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، ولم يشهد بدرا لأنه كان غائبا بالشام ، ولكن رسول الله ﷺ ـ جعل له سهما منها ،

وشهد أُحداً ومابعدها من المشاهد كلها . .

وفى حياته مواقف جليلة سيأتى الحديث عنها فى حينها إن شاء الله تعالى .

وهؤلاء الذين أسلموا سابقا من العشرة المبشرين بالجنة : على ، وأبوبكر ، وعثمان ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله . . ويضاف إليهم زيد بن حارثة ، وهو من غير العشرة ، ولكن وردت فيه آثار كثيرة طيبة ويكفى أن يكون هو الوحيد الذى ذكر اسمه فى القرآن ، فى الآية التى سبق أن أوردناها . . فهو الوحيد ـ من بين الصحابة الذى صرح القرآن الكريم بذكر اسمه .

أما بقية العشرة المبشرين بالجنة فهم : أبو عبيدة بن عامر الجراح ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعبدالله بن مسعود بن الحارث وعمرو بن الخطاب .

كما يعد من السابقين ايضا أبو سلمة وهو عبدالله بن عبد الأسد بن هلال من بنى مخزوم .

والأرقم بن أبى الأرقم ، الذى كانت داره ملتقى النبى ـ ﷺ ـ بأصحابه .

وعثمان بن مظعون وأخويه ، وسعيد بن زيد وزوجته أخت عمر بن الخطاب وهى التى كانت سببا فى اسلامه .

وعمير بن أبى وقاص أخو سعد وعبدالله بن مسعود . . وغيرهم . . وغيرهم . . لقد كان الإسلام على الرغم من تخفيه ينمو ويسرع صوته إلى القلوب . لأنه نداء الفطرة الصادقة

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

---

(٣٨٢) البقرة ١٣٨

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٣٨٣)

وهناك سابقون كثيرون وردت الأخبار بهم ومن ذلك ، ما رواه ابن الأثير فى ترجمة صهيب بن سنان عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : السبُاق أربعة ، أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق فارس ، وبلال سابق الحبش .

ولكن هذا الخبر يفيد الأسبقية بالنسبة للأمم ، باستثناء النبى - ﷺ - لأنه المبعوث بهذه الرسالة الخاتمة التى سبق إليها هؤلاء . . فهو بطبيعة الحال الأول . وبذلك شهد القرآن الكريم فى قوله :

﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٣٨٤)

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٣٨٥)

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (٣٨٦)

وأورد ابن الأثير أيضا فى الترجمة نفسها مايرويه عن مجاهد : أول من أظهر اسلامه بعد النبى - ﷺ - ستة أبوبكر وبلال وصهيب وخباب وعمار بن ياسر وسمية أم عمار - رضى الله عنهم أجمعين - فأما النبى - ﷺ - فمنعه الله ، وأما

---

(٣٨٣) الروم ٣٠

(٣٨٤) الأنعام ١٦٣

(٣٨٥) الزخرف ٨١

(٣٨٦) الزمر ١٢

أبوبكر فمنعه قومه ، وأما الآخرون فأخذوا وألبسوا أدراع الحديد ، ثم أصهروا فى الشمس [٣٨٧] .

ولكن هذه الأولية تعنى إظهار الإسلام لا الإسلام نفسه فقد كان هناك مسلمون سابقون ولكنهم لم يظهروا إسلامهم ، أو أظهروه ولم يتعرض لهم الكفار . . وقد يكون هؤلاء هم السابقون فى التعرض للأذى من قريش ـ لأنه لم يذكر فيهم خديجة وزيد بن حارثة وعلىّ وغيرهم ممن سبق إلى الإسلام . .

وقد ورد هذا النص نفسه فى الاستيعاب [٣٨٨] فى ترجمة بلال بن رباح رضى الله عنه ـ وذكر فيهم المقداد بن الأسود ، ولم يذكر فيهم خباب بن الأرث . .

ومن السابقين إلى الإسلام أبو ذر الغفاري . واسمه جندب بن جنادة بن سفيان .

أسلم والنبى ـ ﷺ ـ بمكة أول الإسلام ، فكان رابع أربعة ، وقيل خامس خمسة ، وهو أول من حيا النبى ـ ﷺ بتحية الإسلام .

ولما أسلم عاد إلى بلاده فأقام بها حتى هاجر النبى ـ ﷺ ـ فأتاه بالمدينة بعد موقعة بدر وأحد والخندق .

وكان يعبد الله تعالى قبل مبعث النبى ـ ﷺ ـ بثلاث سنين ، وبايع النبى ـ ﷺ ـ على الا تأخذ فى الحق لومة لائم وعلى أن يقول الحق ولو كان مرا ، وقال عنه ﷺ ـ ابوذر يمشى على الأرض فى زهد عيسى بن مريم [٣٨٩] .

---

(٣٨٧) اسد الغابة جـ ٣ ص ٣٧

(٣٨٨) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبدالبر جـ١ ص ١٧٨

(٣٨٩) اسد الغابة جـ ١ ص ٣٥٧

ويروى أبوذر قصة إسلامه فيقول :

صليت[٣٩٠] قبل أن ألقى النبى ـ ﷺ ـ ثلاث سنين لله ، أتوجه حيث يوجهنى ربى ، فبلغنا أن رجلا خرج بمكة يقول إنه نبى ، فقلت لأخى أنيس : انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وائتنى بخبره .

فلما جاء أنيس قلت له : ماعندك ؟

فقال : والله رأيت رجلا يأمر بخير وينهى عن الشر .

قلت : فما يقول الناس فيه ؟

قال : يقولون شاعر ، كاهن ، ساحر ـ والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

فقلت : اكفنى حتى أذهب فأنظر .

قال : نعم ، وكن على حذر من أهل مكة .

فحملت جرابا وعصا ، ثم أقبلت حتى أتيت مكة ، وكنت لا أعرفه وخفت أن أسأل عنه .

فكنت فى المسجد ثلاثين ليلة ويوما نفد فيها زادى واشتد بى الجوع . وفى ليلة لم يطف فيها بالبيت أحد . إذا رسول الله ﷺ ـ وصاحبه جاءا فطافا بالبيت ، ثم صلى رسول الله ﷺ ـ فلما قضى صلاته اتيته ، فقلت : السلام عليك يارسول الله . أشهد ألا إلا إلا الله وأن محمدا رسول الله .

فرأيت الاستبشار فى وجهه .

ثم قال : من الرجل ؟

قلت : من غفار ـ بكسر الغين المعجمة .

قال : متى كنت ؟

قلت : كنت من ثلاثين ليلة ويوما هاهنا .

---

(٣٩٠) المقصود من الصلاة هنا عبادة الله والتوجه اليه والتفكير فى كونه

قال : فمن كان يطعمك ؟ .

قلت : نفد زادى ، وعشت أياما على ماء زمزم .

قال : مبارك ، إنها طعام طعم وشفاء سقم(٣٩١) .

ويقال : إن الذى دل أباذر على النبى - ﷺ - هو على بن أبى طالب .

لقد هدت الفطرة أباذر إلى الإسلام ، ودله صدق طاعته لله على النبى - ﷺ .

لقد كان صادقا فى طلبه - ووصفه النبى - ﷺ - بالصدق .

ولأن الهدى هدى الله ، وليس باجتهاد بشر ، فإن الله يهدى لدينه من يشاء ، وصدق الحق فى قوله

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾(٣٩٢)

فقد هدى الله قوم أبى ذر بأبى ذر .

ذلك أن النبى - ﷺ - قال له : ياأباذر اكتم هذا الأمر وارجع الى قومك فأخبرهم يأتونى - فإذا بلغك ظهورنا فاقبل .

وهكذا أسلمت غفار قبيلة أبى ذر .

الله يهدى المسلمين إلى الإسلام بالرؤيا الصالحة

وقد مر فى حديثنا عن الوحى ، بأن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وأن الرؤيا الصالحة من المبشرات ولذلك فقد اهتدى بعض المسلمين إلى النبى بواسطة رؤاهم .

---

(٣٩١) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٥١

(٣٩٢) الكهف ١٧

فقد أسلم خالد بن سعيد بن العاص ـ رضى الله عنه ـ لأنه رأى فى النوم النار وفظاعتها ، وأن أباه يريد أن يلقيه فيها والنبى ـ ﷺ ـ يمنعه من الوقوع فيها . .

فقصها على أبى بكر فعبرها له بالإسلام على يدى النبى ـ ﷺ ـ فأسلم ، وكان إسلامه مبكرا .

ورأى أخوه عمرو بن سعيد ليلة أنه خرج من زمزم نور أضاءت له نخل المدينة حتى رأى البسر فيها .

فقصها على من يعرف التعبير . فقال له : هذه بئر بنى عبدالمطلب ، وهذا النور منهم .

فكان ذلك سبب إسلامه .

مدرسة دار الأرقم بن أبى الأرقم

وكان لابد للمسلمين من مكان يلتقون فيه بالنبى ـ ﷺ ـ يعلمهم مبادىء دينهم ، ويعرفهم طريق ربهم ـ فتبرع الأرقم بداره . وهى فى أصل الصفا .

والأرقم : هو الأرقم بن أبى الأرقم ، واسم أبى الأرقم عبدمناف بن أسد بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشى .

وكان الأرقم من السابقين إلى الإسلام ، وكان من المهاجرين الأولين ، وممن شهد بدراً .

قال ابن الأثير : وهو الذى استخفى رسول الله ـ ﷺ ـ فى داره ، والمسلمون معه بمكة لما خافوا المشركين ، فلم يزالوا بها حتى كملوا أربعين رجلا ، وكان آخرهم إسلاما عمر بن الخطاب ، فلما كملوا أربعين رجلا خرجوا .

وكانت دار الأرقم المدرسة الأولى فى الإسلام ، أستاذها الأول والوحيد هو رسول الله - ﷺ .

يذهب إليها المسلمون الأوائل خفية حيث يجدون الرسول - ﷺ - فيقرأ عليهم القرآن ، ويلقنهم تعاليم الإسلام ، ومازال ينضم إليها الواحد إثر الواحد حتى كثر عددهم ، وكان المسلمون يفرحون حين ينضم إليهم طالب جديد ، يجيء راغبا فيها عند الله .

وفى هذه المدرسة أسلم صهيب بن سنان وعمار بن ياسر والحصين أبوعمران وعمر بن الخطاب .

ومما يروى عن صهيب أن أباه كان عاملا لكسرى ، وأسر الروم صهيبا فى إغارة لهم على الفرس ، فنشأ فى الروم حتى كبر ، ثم ابتاعه بعض العرب التجار وحملوه إلى سوق عكاظ فاشتراه عبدالله بن جدعان .

فلما بعث رسول الله - ﷺ - التقى صهيب بعمار بن ياسر ، فقال له : إلى أين ياصهيب ؟ .

قال : أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه ومايدعو إليه .
فقال عمار : وأنا أريد ذلك . .

فالتقيا برسول الله - ﷺ - وأمرهما بالجلوس فجلسا ، وعرض عليهما الإسلام ، وتلا عليهما مانزل من القرآن فأسلما ، ثم مكثا عنده يومهما ذلك ، حتى أمسيا ثم خرجا وقد تخفيا .

ولما دخل عمار على أمه وأبيه سألاه أين كان ؟ فأخبرهما بإسلامه وعرض عليهما الإسلام فأسلما . .

وفى إسلام الحصين دارت محاورة بين النبى - ﷺ - وبينه أسلم على أثرها .
وكان الحصين قد ذهب إلى النبى - ﷺ - متحديا بعد أن أثاره قومه على النبى - ﷺ - وكان الحصين عظيما فى قومه له شرف ومكانة .

أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن محمد بن عمران بن حصين قال : حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن قريشا جاءت إلى حصين ، وكانت تعظمه - فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم .

فجاءوا حتى جلسوا قريبا من باب النبى - ﷺ .
فقالوا : أوسعوا للشيخ - وعمران وأصحابه متوافرون .
فقال حصين : ماهذا الذى بلغنا عنك ، إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم بسوء .

فقال له النبى - ﷺ : ياحصين ، كم تعبد من إله ؟
قال : سبعة ، ستة فى الأرض وواحد فى السماء .
قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟
قال : الذى فى السماء .
قال : فإذا هلك المال من تدعو ؟
قال : الذى فى السماء .

قال : ﷺ - فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟ أرضيته فى الشكر أم تخاف أن يغلب عليك ؟
قال : لا واحدة من هاتين . . وقال : وعلمت أنى لم أُكَلِّم مثله - يعنى أنه لم يواجه بحجة مثل هذه من قبل .
قال النبى - ﷺ - : ياحصين أسلم تسلم .
قال : إن لى قوما وعشيرة . فماذا أقول ؟

قال : قل اللهم أستهديك فأرشد أمرى وزدنى علما ينفعنى .
فقالها الحصين ، فلم يقم حتى أسلم . .
فقام إليه عمران . ابنه ـ فقبل رأسه ويديه ورجليه .
فلما رأى النبى ـ ﷺ ـ ذلك بكى وقال :

بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر ، فلم يقم إليه عمران ، ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلنى من ذلك رقة .
فلما أراد حصين أن يخرج قال النبى ـ ﷺ ـ لأصحابه : قوموا فشيعوه إلى منزله . فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا : صبأ ، وتفرقوا عنه (٣٩٣) .

وقدم الحصين بعد ذلك على النبى ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله ، كنت أتيتك فعلمتنى كذا وكذا ، فما أقول الآن وقد أسلمت ؟

قال : قل اللهم قنى شر نفسى واعزم لى على أرشد أمرى ، اللهم اغفر لى ما أسررت وما أعلنت ، وما أخطأت وماعمدت وماجهلت (٣٩٤)
وكان الذى دعا المسلمين إلى الاستخفاء فى دار الأرقم مارأوه من إيذاء المشركين لهم .

ذلك أنه بعد أن نزل قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ يأيها المدثر .قم فأنذر ﴾ خرج النبى ـ ﷺ ـ يدعوا الناس إلى ربه .
وبينما كان سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر نفر من المشركين وكان سعد وأصحابه يصلون فأنكر المشركون عليهم مايفعلون وعابوا عليهم مايصنعون ، وجرى بينهم كلام أدى إلى

---

(٣٩٣) الرسول لسعيد حوا ١١٩ ـ نقلا عن الاصابة جـ ١ ص ٣٣٧
(٣٩٤) أسد الغابة جـ٢ ص ٢٦

قتال ، فضرب سعد رجلا منهم بلحى بعير فشجُّه . فهذا أول دم أريق في الإسلام .

منذ ذلك الوقت تعصب المشركون ضد المسلمين . وكان لابد أن يلتقى المسلمون بالنبى - ﷺ - فكيف يلتقون والكفار يترصدون الطريق المؤدى لبيت رسول الله يقطعونه على المسلمين ؟ .

فوضع الأرقم داره تحت تصرف النبى - ﷺ - وهى فى معزل عن بيوت مكة . .

فكان النبى - ﷺ - بدار الأرقم مع أصحاب يقيمون الصلاة فيها إلى أن أمره الله بإظهار الدين .

وتقدر مدة الاستخفاء هذه بأربع سنين حتى نزل قوله تعالى :

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[٣٩٥]

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾[٣٩٦] .

لقد كانت دار الأرقم مدرسة روحية بمعنى الكلمة صحب فيها الرعيل الأول من السابقين إلى الإسلام رسول الله - ﷺ - فترة طويلة من الزمن ، فرأوا روحه العالية ، وأخلاقه الكريمة ، ومعاملته الرفيعة ، وأنسوا بطلعته النورية وتربيته

---

(٣٩٥) الحجر ٩٤

(٣٩٦) الشعراء ٢١٤ - ٢١٥

الربانية . . لقد صقل النبى - ﷺ - فى هذه الفترة أرواحهم ، ودربهم على مقاومة نفوسهم وقهر الدواعى النفسية والنوازع الأرضية ، وأخرج منهم رجالا روحانيين كالملائكة يمشون على الأرض . .

كان بين المسلمين ضعفاء وفقراء وصغار وكبار ، ومن علية القوم ومن الأرقاء ولكنهم كانوا فى هذه المدرسة إخوة متحابين متآلفين محيت من بينهم الفوارق الاجتماعية التى تعيش فى خارج هذه الدار وتستعلى حتى تصنع فارقاً كبيراً بين الفقير والغنى وبين العبد والسيد وبين الضعيف والقوى .

كان التواضع هو شعار الجميع الذى حطم الكبر فى النفوس ، وجعلهم يشعرون بأن هذا الكون ليس له إلا سيد واحد هو الله الواحد الذى لاشريك له .. وبهذا التواضع العظيم بنى المسلمون فيها بعد أمتهم القوية العزيزة الغالبة . .

وكان أستاذهم الأول فى التواضع هو رسول الله - ﷺ - وهو سيد الخلق وأشرف الناس . لقد علمه ربه ذلك حين قال له :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨ ﴾ (٣٩٧) .

---

(٣٩٧) الكهف ٢٨

الجهر بالدعوة

وجاء الأمر الإلهى للنبى - ﷺ - قائلا :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٣٩٨)

ونهض

النبى لهذا الأمر . ملبيا . ولكنه كان يخشى تكذيب أهله وتخليهم عن دعوته ، وكان يقدر أنه إن تخلى قومه عنه فغيرهم من العرب أولى بالتخلى والإعراض . وكأنه أخذ يجيل فى نفسه كيف يبدؤهم بالدعوة وقد أهمه ذلك . حتى ظنت عماته - فيما يرويه برهان الدين الحلبى فى سيرته (٣٩٩) أنه يشتكى من مرض فدخلن عليه عائدات .

فقال - ﷺ - ما اشتكيت شيئا لكن الله أمرنى بقوله : وأنذر عشيرتك الأقربين .

فقلن له : ادعهم ولاتجعل عبدالعزى - وهو أبولهب - بينهم فإنه لن يجيبك إلى ماتدعوه إليه .

وروى البيهقى فى دلائل النبوة ذلك قائلا : عن ابن عباس عن على بن أبى طالب :

لما نزلت هذه الآية على رسول الله - ﷺ - قال رسول الله - ﷺ - عرفت أنى إن بادأت بها قومى رأيت منهم ما أكره ، فسكت عليها بعض الوقت فجاءنى جبريل - عليه السلام - فقال لى : يامحمد افعل ما أمرك به ربك . .

---

(٣٩٨) الشعراء ٢١٤

(٣٩٩) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٥٧

فنفذ ﷺ ـ أمر به . .

وقد ذكر البيهقى (٤٠٠) وغيره ما فعله ـ ﷺ ـ لتنفيذ هذا الأمر فقال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ خرج ـ ﷺ ـ حتى صعد الصفا ، فهتف قائلا : يابنى عبدالمطلب ، يابنى هاشم ، يابنى عبدمناف .

فقالوا : من هذا الذى يهتف ؟ .

قالوا : محمد .

فاجتمعوا إليه ـ فقال : أرأيتم لو أخبركم أن وراء هذا الوادى خيلا تريد أن تغير عليكم ـ أكنتم مصدقى ؟

قالوا : ماجربنا عليك كذبا .

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

فقال أبولهب : تبالك ، أما جمعتنا إلا لهذا ؟

ثم انصرف فنزلت هذه السورة :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾

لقد رد الله على أبى لهب قولته بما هو أشد وأنكى ، وفضحه على رءوس الأشهاد إلى يوم التناد .

ثم إن النبى ـ ﷺ ـ لم يقتصر على هذا ، ولكنه لم يأل جهدا فى دعوة قومه وغيرهم ، لقد خص بالدعوة وعمم .

---

(٤٠٠) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٢ ص ١٧٨ .

ومما يؤثر فى ذلك قوله لقبائل قريش :

يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى عبدشمس أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى عبدمناف أنقذوا أنفسكم من النار .

يابنى زهرة أنقذوا أنفسكم من النار .

ياصفية عمة محمد أنقذى نفسك من النار . فإنى لا أملك لكم من الله شيئا . . ثم مكث رسول الله - ﷺ - بعد ذلك أياما ثم جمعهم ثانيا وخطبهم قائلا لهم :

أيها الناس إن الرائد لايكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ماكذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ماغررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا ، والله يابنى عبدالمطلب ما أعلم أحدا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . إنى جئتكم بأمر الدنيا والآخرة .

وقد تكلم بنو عبدالمطلب بكلام لين مع الرسول ﷺ - إلا أبا لهب ، فقد أغلظ القول وهدد وتوعد وأبرق وأرعد ، وأخذ يحرض قومه على رسول الله - ﷺ - وكان مما قاله :

يابنى عبدالمطلب هذه والله هى السوأة - خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم .

فقالت أخته صفية - عمة رسول الله - ﷺ - أى أخى أيحسن بك خذلان ابن

أخيك ، فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من بنى عبدالمطلب نبى فهو هو .

قال أبولهب : هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال . إذا قامت بطون قريش ، وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله مانحن عندهم إلا أكلة رأس [٤٠١] .

فقال أبوطالب : والله لنمنعنه مابقينا [٤٠٢] .

لماذا خص الله قرابة النبى بالانذار ؟

وقد خص الله قرابة نبيه - ﷺ - بالإنذار لأنهم أحق الناس أولا باتباعه وأدناهم إلى مؤازرته فى دعوته . . . ولكن كثيرا منهم أعرضوا عنه وكذبوه وآذوه ولم يؤمن به من قرابته إلا القليل ، وكانت قبائل قريش أكثر الناس عداء لدعوته . .

وصدق ما تنبأ به ورقة حين قال له : لتكذبن ولتؤذين ولتخرجن . ماجاء أحد بمثل ماجئت به إلا أوذى . .

والحكمة تقول : لا كرامة لنبى فى وطنه . . وهذا مثل توارثه الأجيال . فلم يستقم لنوح فى قومه أمر وقد مكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما . ولم ينج هود من أذى قومه ، ولا صالح صدقه قومه . وشعيب قال له قومه كما حكى القرآن الكريم

﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ

---

(٤٠١) أكلة رأس - مثل يضرب فى قلة الشىء وعدم غنائه .
(٤٠٢) السيرة الحلبية جـ١ ص ٤٥٨

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ (٤٠٣)

وغير هؤلاء من الأنبياء لقوا ما لقوا من أقوامهم . .

هذه سنة الله فى خلقه . .

لقد كان الهدف من إنذار قومه ﷺ - إلزامهم الحجة - حتى لايكون لهم عذر حين يحيق بهم العذاب . أو حين يكون لغيرهم من الذين ناصروا النبى - ﷺ - الفضل عليهم .

وقد اعترف النبى - ﷺ - بفضل الأنصار وقال فى ذلك : والله لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . . (٤٠٤) .

وفى هجران القوم صاحب الفضل فيهم أورد ابن كثير هذه القصة : قال : عن عبدالواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء - رضى الله عنه يحدث الناس ويفتيهم ، وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون . فقيل له : مابال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لايسمعون ؟ .

فقال : لأنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء وأشدهم عليهم الأقربون .

وذلك فيما أنزل الله - عز وجل -

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

ثم قال : إن أزهد الناس فى العالم أهله حتى يفارقهم - ولهذا قال تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين .

---

(٤٠٣) هود ٩١

(٤٠٤) تفسير بن كثير جـ ٦ ص ١٨١ سورة الشعراء ط دار الشعب

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ
مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (٤٠٥) .

فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين

ولقى النبى - ﷺ - من المشركين الأذى ، وتتبعوا من آمن به بالتنكيل فصدر الأمر الكريم يقول له

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾
ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ
يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾
وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (٤٠٦) .

لقد طلب الله منه الإعراض عن هؤلاء الرافضين لدين الله ، وأن يمضى فى دعوته إلى التوحيد ولايهتم بما يقول هؤلاء . . وسوف تمضى الدعوة فى طريقها ولن يستطيع هؤلاء إيقافها . .

لقد كان هذا إيذانا بأن يخرج المسلمون من استخفائهم فى دار الأرقم بن أبى الأرقم وأن يعلنوا عن أنفسهم .

قال عبدالله بن عبيد - فيما يرويه القرطبى فى تفسيره - مازال النبى ﷺ - مستخفيا حتى نزل قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه .

والإعراض عن المشركين معناه عدم المبالاة بهم .

---

(٤٠٥) الشعراء ٢١٤ - ٢١٦

(٤٠٦) الحجر ٩٤ - ٩٨

وروى القرطبى ماذكره ابن إسحاق قال :

لما تمادى المشركون فى الشر ، وأكثروا من الاستهزاء برسول الله - ﷺ - أنزل الله - تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون ﴾ومعناه اصدع بما تؤمر ولاتخف غير الله فإن الله كافيك شرهم واستهزاءهم . .

قال : وكان هؤلاء المستهزئون خمسة من رؤساء مكة ، وهم . . الوليد بن المغيرة ، وهو رأسهم ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة ، والأسود بن عبديغوث ، والحارث بن الطلاطلة . أهلكهم الله جميعا . لاستهزائهم برسول الله - ﷺ .

وكفى الله نبيه - ﷺ - أذى هؤلاء الذين كانوا قد تمادوا فى الكفر والشقاق ، وأمعنوا فى إيذاء المسلمين والاستهزاء بهم حتى لاقى المسلمون منهم عنتا كبيرا وأذى كثيرا . .

إيذاء الكفار للنبى والمسلمين

ونزل على النبى - ﷺ - قوله - تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ (٤٠٧) .

ذكر بعض المفسرين فى أسباب نزول هذه الآية مايلى : روى عكرمة عن ابن عباس - رضى عنهما - قال : كان رسول الله ﷺ - يحرس ، وكان أبوطالب يرسل

---

(٤٠٧) المائدة ٦٧

معه رجالا من بنى هاشم يحرسونه ، حتى نزلت عليه هذه الآية :

﴿ يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك . . الى قوله : والله يعصمك من الناس . . ﴾ قال : فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال : ياعم إن الله ـ تعالى ـ قد عصمنى من الجن والإنس (٤٠٨) .

ولايمنع أن يكون لها مناسبة أخرى هى ماروى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سهر رسول الله ـ ﷺ ـ ذات ليلة ، فقلت : يارسول الله ماشأنك ؟ قال : ألا رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ فقالت : بينما نحن فى ذلك سمعت صوت السلاح . فقال : من هذا ؟ قال : سعد وحذيفة : جئنا نحرسك . فنام رسول الله ـ ﷺ ـ هادئا مطمئنا . . ثم نزلت هذه الآية : فأخرج رسول الله ـ ﷺ ـ رأسه من قبة آدم ، وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله .

وعلى ذلك أخذ النبى ـ ﷺ ـ يبلغ رسالة ربه ـ وواجه المشركين بما لاعهد لهم به ، فقد جاءهم بعقيدة جديدة تدعوهم إلى الإيمان بالله وحده ، وترك هذه الأصنام التى لاتضر ولاتنفع ولاتغنى عنهم من الله شيئا ـ كما دعاهم إلى الإيمان بالبعث والحساب والجزاء .

لماذا قاومت قريش الدعوة ؟

وكبر على المشركين مايدعوهم إليه النبى ـ ﷺ ـ كيف يتركون أوثانهم وقد تعودوا أن يلجأوا إليها ضارعين ، وأن يطوفوا بها خاشعين . . وإن مبلغ من أوق العقل منهم يقول

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (٤٠٩) .

---

(٤٠٨) اسباب النزول للواحدى ص ١٥١

(٤٠٩) الزمر ٣

ولم تقاوم قريش النبى - ﷺ - فى أول الأمر.. ذلك أن الدعوة كانت محدودة فى نطاق ضيق ، وكادت تكون محصورة فى نطاق الأهل والأقارب والضعفاء والموالى ، وكان بنو عبدالمطلب يحظون بمكانة سامية فى قريش..

ولكن بعد أن أعلنت الدعوة وبدأت تزحف فى طريقها . ارتاعت قريش ، وبدأت تقاوم هذه الدعوة التى سوف تقوض سلطانها وتقضى على نفوذها - فى زعمها - لأنها كانت تظن أن هذه الهيبة التى لها . إنما هى من تلك الأصنام التى يتقربون إليها . فمتى تقوضت هذه الأصنام تقوضوا . ثم إنها مصدر رزق وفير لهم فإذا ذهبت ذهب ما يجنونه من رزق ويجمعونه من كسب .

ولذلك اشتدت مقاومة قريش للدعوة حين أخذ النبى - ﷺ - يمس هذه الأصنام ويسخر منها ويسفه أحلام من يتخذونها آلهة من دون الله - تعالى .

ويمكن إجمال أسباب مقاومة قريش الشرسة للدعوة الإسلامية فيما يأتى :

١ - من المعلوم عن العرب أنهم كانوا يتنازعون دائما على السيادة والسلطان ، وقد ظنوا أن محمدا - ﷺ - بهذه الدعوة يريد أن يسود قريشا ، أو على الأقل ستكون السيادة من وراء هذه الدعوة الجديدة لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم وهناك بطون أخرى قرشية ترى نفسها أحق بهذه الرئاسة .

٢ - الدعوة الإسلامية الجديدة من أسسها الأولى أنها تساوى بين الجميع ، لافرق بين غنى وفقير ، ولابين سيد وعبد ، ولابين عربى وعجمى ، ولافضل لأحد من هؤلاء على الآخر إلا بمقدار الطاعة والعبادة ، كما أخبر القرآن الكريم بذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾(٤١٠) .

---

(٤١٠) الحجرات ١٣

وقد أكد ذلك النبى - ﷺ - بقوله : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

فإذا كان محمد - ﷺ حرا فى أن يدعو قومه إلى هذا الدين الجديد ، فليس حرا فى أن يضم إليه هؤلاء العبيد ، الذين كان ينظر إليهم القرشيون على أنهم جزء من متاعهم وبضاعتهم . . ومن جهة أخرى كيف يسوى محمد - ﷺ - هؤلاء الموالى بغيرهم من سادة القوم ، ومعاييرهم الاجتماعية يومئذ لاتسمح بهذه المساواة .

٣ - يرى بعض المؤرخين أن من أسباب مقاومة قريش للدعوة الاسلامية ، أنهم رأوا فيها مايسمى بيوم الحساب ، وأن هناك عقابا لهؤلاء الظالمين ، ولما كان الظلم غالبا فى طباعهم فلم يتقبلوا هذه الدعوة التى تتوعدهم بالحساب يوم القيامة على ماقاموا به من ظلم الغير : قال تعالى :

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾ (٤١١) .

وقال - تعالى :

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ ﴾ (٤١٢) .

---

(٤١١) سورة القارعة

(٤١٢) عبس ٣٣ - ٣٧

٤ ـ كان القرشيون يعارضون الدعوة الجديدة بسبب تمسكهم بتقاليد الآباء والأجداد . . فقد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم تلك الأصنام التى أقاموها حول الكعبة وداخلها ، وقد وجدوا آباءهم يتقربون الى تلك الأصنام ، ويسجدون لها . . والدعوة الجديدة تدعوهم الى نبذ عبادة الأصنام ، وتسفيه عقول من يلجأون اليها ، ويعتقدون فى ضرها أو نفعها لهم . والحال أنها لاتستطيع أن تنفع نفسها بخير أو تدفع عن نفسها شرا . وفاقد الشىء لايعطيه كما هو معلوم . . .

٥ ـ لقد تأثرت بطبيعة الحال اقتصاديات قريش بالنسبة لهذه الدعوة الجديدة . أو بدأت تتأثر ، وبخاصة عند هؤلاء الذين كانوا يقومون بصناعة نماذج للآلهة ويبيعونها للوافدين من الحجاج كل عام ، كما أن سدنة الكعبة الذين كانوا يحصلون على الثراء الفاحش من وراء خدمة الكعبة وحجاجها سيتأثرون بمرور الأيام نتيجة لدخول الناس فى هذا الدين الجديد »[٤١٣] .

قد مرت مقاومة قريش للدعوة بمرحلتين :

المرحلة الأولى كانت تستهدف الضعاف من المسلمين ـ العبيد والمستضعفين ـ من أمثال خباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وبلال وغيرهم ممن لم يكن لهم قبيلة ، ينتمون إليها تمنع عنهم العذاب ، ويخشى من غضبها .

والمرحلة الثانية كانت ضد هؤلاء الذين كانت لهم منزلة فى قومهم من أمثال أبى بكر ، وعثمان ، والزبير وغيرهم . وكان فى إمكان هؤلاء أن يردوا العنف بالعنف ولكن الله لم يأذن بعد فى قتال .

لقد كانت مهمة التربية النبوية فى مكة بناء النفوس وإعدادها ، وتكوين

---

(٤١٣) انظر حول السيرة وآدابها د . محمد كمال شبانة ص ٥٠ .

الشخصية الإسلامية القوية التى سوف تواجه المحن والصراع فى المستقبل . وقد كان كبح جماح النفس والتحكم فيها والسيطرة عليها من أهم مناهج هذه التربية .

وكان أبوطالب يذود عن النبى ﷺ ـ ويمنعه من قريش ، فلما مات أبوطالب امتد الأذى إلى النبى ـ ﷺ ـ نفسه ، وعنفت به قريش عنفا شديداً حتى أذن الله له بالهجرة هو وأصحابه . .

الإيذاء لم يثن محمداً عن تبليغ رسالة ربه

كان النبى ﷺ ـ مثالا رائعا للصمود والإصرار على تبليغ رسالة ربه التى كلف تبليغها . ولم تثنه المقاومة الشرسة من قريش ، والإيذاء الشديد الذى تعرض له أصحابه من الاستمرار فى الدعوة إلى الله . .

ولقد سلك كافة الطرق فى أداء هذه الرسالة .

« اتصل بالأفراد اتصالا شخصيا ، وعرض نفسه على القبائل ، ورحل من أجل تبليغ الدعوة ، وتتبع مواطن اجتماع الناس ليبلغهم ، وأرسل الرسل نيابة عنه لتبليغ الدعوة ، واستقبل الوفود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين ، وراسل الأمراء والملوك داعيا لهم إلى الله ، وكلف أصحابه أن يتعلموا ويعلموا ، وأمر المسلمين ألا يقاتوا قبل أن يأمرهم الدين بذلك ثم حمَّل جميع المسلمين أمانة البلاغ ليبلغوا العالم دعوة الله ، حتى لايبقى أحد من البشر إلا وقد بُلِّغ بالدين الخالص . . وفى المقابل ماترك الآخرون طريقا إلا سلكوه لإنهاء الدعوة الإسلامية والقضاء عليها » (٤١٤) .

---

(٤١٤) الرسول لسعيد حوا ص ٨٥

ويهمنا فى هذا المكان أن نوضح ما قام به النبى - ﷺ - من تبليغ للدعوة فى مرحلتها الأولى . فى مكة .. وذلك قبل أن يهاجر إلى المدينة ،وتتخذ الدعوة منهجاً جديداً فى مسيرتها ..

فقد كانت طريقته ﷺ فى الإبلاغ فى مكة لها وسائل مختلفة .

فقد دعا الناس إلى الاجتماع لإبلاغهم ، وقد رأينا كيف هتف بهم حين صعد إلى الصفا وناداهم فاجتمعوا وأبلغهم ..

وكان يتجه إلى الناس فى أماكن اجتماعهم - وكان يعرف أنهم يجتمعون فى أسواق لهم يبيعون ويشترون ويتناشدون الأشعار ويتبادلون الخطب .

أخرج أحمد عن ربيعة بن عباد من بنى الدبل - وكان جاهليا فأسلم - قال : رأيت رسول الله - ﷺ - فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز ، وهو يقول : ياأيها .. الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل يقول : إنه صابىء كاذب .. يتبعه حيث ذهب . فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب .

وعن ابن إسحاق عن الزهرى أن رسول الله - ﷺ - أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض نفسه عليهم .

فقال رجل منهم - يقال له بحيرة بن فراس -: والله لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال لرسول الله : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ .

قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .

فقال له : أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟

لا حاجة لنا بأمرك وامتنعوا عليه .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كانت أدركته السن ، حتى لايقدر أن يواق معهم الموسم . فكانوا إذا رجعوا حدثوه بما يكون فى الموسم .

فلما قدموا عليه ذلك العام أخبروه ـ قالوا : جاءنا فتى من قريش من أبناء بنى عبدالمطلب ـ يزعم أنه نبى ـ يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

فوضع الشيخ يديه على رأسه . ثم قال :

يابنى عامر ، هل لها من تلاف ؟ هل لِذُنَابَاهَا من مطلب ؟

والذى نفسى بيده ماتقوّلها إسماعيل قط ، وإنها الحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟ (٤١٥) فلامهم الشيخ على عدم استجابتهم للنبى ـ ﷺ .

وقد كان ﷺ يرحل فى سبيل التبليغ ، وقد رحل إلى الطائف لتبليغ قبائل ثقيف ، ولكنهم لم يحسنوا استقباله . وتلقوه بالأذى ، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم يقذفونه بالحجارة حتى دميت قدماه .. وسيأتى ذكر ذلك .

● وكان يكلف من أسلم تبليغ من لم يسلم ..

ومن الأدلة على ذلك ما أخرجه أبونعيم (٤١٦) فى ترجمة . « أبى ذر الغفارى »

---

(٤١٥) المرجع السابق ص ١٠٩ والذنابى ذنب الطائر ، وهو مثل يضرب فى عدم إمكان تدارك الأمر .

(٤١٦) حلية الأولياء جـ ١ ص ١٦٠

من أن النبى ـ ﷺ ـ أمره أن يلحق بقومه بعد أن أسلم ـ وكان إسلامه مبكرا ، فعاد إلى قومه وأبلغهم رسالة الإسلام حتى أسلموا ، وعاد بهم إلى النبى ـ ﷺ ـ بعد الهجرة . وأسلم كذلك الطفيل بن عمرو الدوسى فأرسله إلى قومه يبلغهم ، ومازال بهم حتى أسلموا (٤١٧) .

ولم يثنه الأذى عن تبليغ دعوة ربه . فقد كان مثلا أعلى فى التضحية والجهاد ، وقد عرف عظمة الله وعظمة الدين الحق ، فأراد أن يبصر الناس إلى مايأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة ..

لقد أراد أن يذيقهم طعم السعادة الخالدة الباقية التى تتجلى فى الإيمان بالله الواحد الأحد ، واتباع تعاليم الإسلام السامية ..

ولكن أنى لهذه القلوب الجامدة ، والعقول المتحجرة ، والعيون المغلقة أن تبصر طريق النور؟ ولقد صدق الله فى تصويرهم إذ يقول :

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (٤١٨) .

وقد تنوع إيذاء قريش للنبى ـ ﷺ ـ وصحبه .. ولكن ذلك لم يفت فى عضد أحد من المسلمين ـ فضلا عن النبى ـ ﷺ ـ ومن ذلك مايرويه هذا الخبر :

---

(٤١٧) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٣١ .
(٤١٨) الأعراف ١٧٨ ، ١٧٩ .

● اخرج البيهقى عن عبدالله بن جعفر ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما مات أبوطالب عرض لرسول الله ﷺ سفيه من سفهاء قريش ، فألقى عليه ترابا ، فرجع إلى بيته ، فأتت إحدى بناته تمسح عن وجهه التراب ، وتبكى فجعل يقول : أى بنية ، لاتبكين فإن الله مانع أباك وناصره .

لقد كان فى حياة أبى طالب لايجرؤ أحد من سفهاء قريش على التعرض له . ولكنه بعد وفاته تعرض لأذى كثير . حتى ورد عنه أنه قال : « مانالت منى قريش مارجت أن تنال حتى مات أبوطالب » .

وروى البيهقى (٤١٩) أيضا عن عروة بن الزبير ، قال : سألت عبدالله بن عمرو بن العاص قلت : حدثنى بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ـ ﷺ ـ قال : أقبل عقبة بن أبى معيط ، ورسول الله ـ ﷺ ـ يصلى عند الكعبة ـ فلوى ثوبه فى عنقه فخنقه شديداً فاقبل أبوبكر رضى الله عنه ، فأخذ بمنكبيه فدفعه عن رسول الله ﷺ ـ ، ثم قال : « اتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله » .

والأخبار فى ذلك كثيرة روتها كتب السيرة والسنن . وقد أمر الله سبحانه وتعالى ـ نبيه ـ ﷺ ـ بالصبر على الأذى فى قوله ـ تعالى :

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٤٢٠) .

---

(٤١٩) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٧٤
(٤٢٠) الاحقاف ٣٥

وقوله تعالى :

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ (٤٢١) إلى غير ذلك من الايات التي تحثه على الصبر .

لقد طلب منه ربه أن يستعين على دفع الأذى بالعبادة والتسبيح والصبر والأناة . .

محاولة إغرائه . ولما وجد الكفار أن سلاح الإيذاء للنبى ـ ﷺ ـ لم يجد شيئا . . فقد جربوا معه وسائل الإيذاء المختلفة مثل : الاستهزاء به والسخرية منه . . إلقاء الأشواك فى طريقه وإلقاء التراب عليه ، وإلقاء القاذورات فوقه وهو ساجد ، وغير ذلك . فلما لم تجد هذه الوسائل ـ حاولوا أن يُغروه . .

ذكر ابن إسحاق : أن عقبة بن ربيعة وكان سيدا من سادات قريش قال يوما وهو جالس فى نادى قومه ـ ورسول الله ـ ﷺ جالس فى المسجد وحده : يامعشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ . . وكان ذلك حين أسلم حمزة بن عبدالمطلب ، ورأى القرشيون أصحاب رسول ـ ﷺ ـ يزيدون ويكثرون .

فقالوا : بلى ياأبا الوليد ، قم إليه فكلمه .

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يابن أخى ، إنك منا حيث علمت من الحسب والشرف والفضل ، والمكان فى النسب . . وإنك قد

---

(٤٢١) الطور ٤٨ ، ٤٩

أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وسفهت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ قل ياأبا الوليد .

قال : يابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاجمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك . وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع (٤٢٢) على الرجل حتى يداوى منه . .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ـ ﷺ ـ يسمع منه . قال رسول الله .

أقد فرغت ياأبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع منى .

قال : أفعل .

قال : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ

---

(٤٢٢) يقصد الجنى الذى يأتيه .

حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾(٤٢٣)

. ثم مضى رسول الله - ﷺ - فى هذه السورة يقرؤها عليه .

فلما سمعها عتبة أنصت إليها وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليها يسمع منه . ثم انتهى رسول الله - ﷺ - إلى السجدة منها ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت ماسمعت ياأبا الوليد ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ماوراءك ياأبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط . والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولابالكهانة . يامعشر قريش . أطيعونى واسمعوا قولى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه . . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله ياأبا الوليد بكلامه .

قال : هذا رأيى فيه ، فأصنعوا مابدا لكم (٤٢٤) .

محاولة أخرى للضغط : لقد رأت قريش أن أباطالب يحمى النبى ﷺ - ويدفع عنه . . فإن هم استطاعوا أن يؤلبوه عليه فقد أفلحوا إذن . . فحاولوا ذلك .

---

(٤٢٣) فصلت ١ : ٥

(٤٢٤) الرسول لسعيد حوا ص ٩٣

ذكر البيهقى : عن موسى بن طلحة قال : أخبرنى عقيل بن أبى طالب قال : جاءت قريش إلى أبى طالب فقالوا : إن ابن أخيك هذا قد آذانا فى نادينا ومسجدنا فامنعه عنا أو اتركه لنا .

فقال : ياعقيل : انطلق فأتنى بمحمد .

قال عقيل : فانطلقت إليه فأخبرته . فجاء معى وكنا وقت الظهيرة فى شدة الحر . فلما أتاهم قال أبوطالب :

يابن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا : كذا وكذا ، فأبق علىَّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالاأطيق أنا ولاأنت ، فاكفف عن قومك مايكرهون من قولك .

فظن رسول الله - ﷺ - أن عمه خاذله ومُسْلِمه ، وأنه قد ضعف عن القيام معه .

فقال رسول الله - ﷺ - ياعم والله لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ماتركت هذا الأمر حتى يظهره الله - تعالى - أو أهلك دونه ثم بكى رسول الله - ﷺ .

فلما ولى قال له عمه حين رأى مابلغ الأمر به : يابن أخى .

فأقبل عليه . فقال : امض على أمرك وافعل ما أحببت وقل ماشئت فوالله لا أسلمك إليهم أبدا .

قال ابن إسحاق : ثم قال أبوطالب فى شعر قاله حين صمم على حماية رسول الله - ﷺ - والدفاع عنه :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أوسد في التراب دفينا
فامضي لأمرك ماعليك غضاضة   أبشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي   فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه   من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة   لوجدتني سمحا بذاك مبينا (٤٢٥)

ثم استعملوا سلاح الضغط على أبي طالب نفسه : ذهبوا إليه ـ بعد أن عرفوا أنه لن يسلم ابن أخيه ـ وسيظل مناصرا له ـ فقالوا له : ياأبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذه ، واتخذه ولدا فهو لك ، وسلم لنا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل .

وما كان أحمق قريش في هذا العرض .

ولذلك كان رد أبي طالب عليهم لاذعا ، فقد قال لهم : والله لبئس ماتسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله مالايكون أبدا . والأعجب من ذلك أن يقول المطعم بن عدي : والله ياأباطالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فأي إنصاف ذلك ؟ إنه إنصاف الذي ينظر من جهة واحدة ، هو إنصاف الظالم الذي يريد أن يملي شروطه على المظلوم ، والقاتل الذي يريد أن يمثل

---

(٤٢٥) دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ١٨٦ .

بالمقتول . . والا فأى عقل يقضى بأن يُسلِّم رجلٌ ليكرَّم مكان رجل ليُقتل ؟ ؟ واستعملوا سلاح البطش بالمسلمين فساموا من أسلم أشد العذاب ، وعدا القرشيون على المستضعفين يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، ويلقونهم فى رمضاء مكة إذا اشتد الحر ، يحاولون فتنة المسلمين عن دينهم . فمنهم من يظهر الرجوع عن الإسلام من شدة البلاء الذى يصيبه ومنهم من يصبر . .

ولقد ذاق بلال على يد أمية بن خلف العذاب الشديد فكان يطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول بلال : أحد أحد . وظل كذلك حتى اشتراه أبوبكر فحرره .

ومن الذين ذاقوا العذاب الشديد آل ياسر ـ وكانوا فى بنى مخزوم ـ كانوا يعذبونهم أشد العذاب ، ويطرحونهم إذا حميت الظهيرة فى الرمضاء ، وكان النبى ـ ﷺ ـ يمر بهم وهم يعذبون فيأسى لهم ويقول : صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة . وقتلوا أم عمار « سمية » وهى تأبى إلا الإسلام . .

ولم يجد المسلمون بدا من الهجرة إلى الحبشة فرارا بدينهم ، قال لهم النبى ﷺ ـ : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكا لايظلم عنده أحد ـ يجعل الله لكم فرَجا مما أنتم فيه .

واستعملوا سلاح المقاطعة : فقد رأى القرشيون أن الإسلام على الرغم من هذا التعذيب الشديد الذى يذيقونه للمسلمين ينتشر ، ويزداد ذيوعا ويتضاعف

عدد المسلمين . فلجأوا إلى أسلوب آخر ظنوا أنه يقضى على المسلمين .

فاجتمعوا على أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبدالمطلب . . . على ألا ينكحوا إليهم ولاينكحوهم وألا يبيعوهم ولايبتاعوا منهم حتى يسلموا لهم محمدا . . وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ووضعوا هذه الصحيفة الظالمة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم . . . وقد دعا النبى - ﷺ - على كاتب هذه الصحيفة فشلت أصابعه . قيل : هو منصور بن عكرمة بن عامر ، وقيل : هو النضر بن الحارث .

وعُزِل المسلمون فى شعب أبى طالب ، وانحازت بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلى أبى طالب مناصرين له ماعدا أبالهب الذى خرج على إجماع عشيرته فظاهر بقية قريش ضد أهله وعشيرته .

واشتد الحصار حول المسلمين حتى جهدوا جهدا شديدا. وظلت المقاطعة زهاء ثلاث سنوات . حتى أذن الله بالفرج . . وقيض الله من بين القرشيين أنفسهم من ثار على هذا الظلم الواقع على ذوى رحمهم وقرباهم ، وفزعوا إلى الصحيفة فاستخرجوهامن جوف الكعبة ويمزقوها ، فوجدوها قد أكلتها الأرضة كلها إلا موضع « باسمك اللهم » وكان النبى - ﷺ قد أخبر عمه أبا طالب بذلك قبل وقوعه . .

واستعملوا سلاح المحاجة : لقد لج القرشيون فى العناد ولم يصيخوا إلى دعوة الحق ، وقد جربوا كل وسائل العنف ضد النبى - ﷺ - وضد هذه الدعوة التى جاء بها . ولكن هذه الدعوة تزداد انتشارا ، ويتسامع بها الناس فى كل مكان ، والذى ساعد على ذلك أن مكة تستقبل كل يوم وفودا تأتى لزيادة البيت الحرام ،

ويزداد الإقبال عليها فى موسم الحج . وكان النبى - ﷺ - يتعرض لهذه الوفود ، معلنا دعوته بينهم . . وكان لايعدم أن يجد سامعا أو مجيبا ، وكان الصادرون من الحج يحملون نبأ هذه الدعوة إلى من وراءهم ، فتعود وفود جديدة ولديها أخبار هذه الدعوة .

عند ذلك أراد القرشيون أن يجربوا سلاحا آخر . هو سلاح المحاجة والتحدى . قالوا له فيما حكاه لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (٤٢٦) .

وقد حاولوا معارضة القرآن الكريم ففشلوا . . . وذلك أن النضر بن الحارث - وكان من شياطين قريش ، وممن يؤذون رسول الله - ﷺ - أذى شديدا ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث القصاص ورواة الأخبار ، فكان إذا جلس رسول الله - ﷺ - مجلسا فذكّر فيه بالله وحذر من العذاب ، خلفه النضر فى مجلسه ، وقال : أنا أحدثكم بأحسن مما حدثكم به محمد . ثم يظل يحدثهم بأحاديث ملوك فارس وغير ذلك من القصص والأخبار وقد نزل فى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا

---

(٤٢٦) الاسراء ٩٠ ، ٩٤

كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ (٤٢٧) .

وسلكوا طريقا آخر فى المجادلة .. فقد أرسل القرشيون النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما : سلا اليهود عن محمد ، وصفا لهم صفته ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء ... فخرجا حتى قدما المدينة ، والتقيا بهؤلاء الأحبار ، ووصفا لهم أمر الرسول ﷺ .

فقال لهم أحبار اليهود : عودوا إليه وسلوه عن هذه الأمور الثلاثة :

● عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان أمرهم ، فإنه كان لهم حديث عجب .

● وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . ماذا كان من أمره ؟

● وعن الروح ماهى ؟

فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا به مابدا لكم ..

فعاد النضر وعقبة ، وسألا النبى - ﷺ - عن هذه الأمور .. فنزل القرآن مجيبا لهم عما سألوه ..

نزل بقصة أهل الكهف .. وقد سبق أن تحدثنا عنها حديثا خاصا .

ونزل بقصة ذى القرنين . وسبق ايضا ان تحدثنا عنها حديثا خاصا .

ونزل فى شأن الروح قوله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (٤٢٨)

ويستدعى ذلك التحدث عن الروح حديثا خاصا نوضحه فيما يأتى :

---

(٤٢٧) لقمان ٦ ، ٧

(٤٢٨) الاسراء ٨٥

فهرس القصص القرآني

سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الثامن

سلسلة
القصص القرآني



دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي   د. عبد الحميد مصطفى

المجلد الثامن



الروح والنفس

- ويسألونك عن الروح .
- كلمة "الروح" في القرآن .
- الإنسان وعلاقة الروح به .
- أين تذهب الروح بعد مفارقة الجسد ؟
- هل حياة الشهداء بالروح والجسد معا ؟
- هل عرف النبي - صلى الله عليه وسلم - حقيقة الروح ؟
- هل وجدت الروح قبل البدن ؟
- هل هناك فرق بين الروح والنفس ؟
- مكان الروح بعد الموت .
- تحضير الأرواح .
- قوام الدعوة المحمدية .

ويسألونك عن الروح

الـــروح فى اللغـــة

الروح - بفتح الراء وسكون الواو ، : برد نسيم الريح .. ومنه قوله - تعالى -:

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[1]

وقد يطلق على الرحمة والراحة كما فى قوله - تعالى -:

﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[2]

أما الروح - بضم الراء وسكون الواو - فيطلق على معان .

يطلق على النفس ، ويذكر ويؤنث ، ويجمع على أرواح .

وان كان ابن الأنبارى يقول : الروح والنفس واحد . إلا أن الروح يذكر ، والنفس تؤنث .

والروح فى قوله - تعالى - :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴿٨٥﴾ ﴾[3]

ما به حياة النفس .. قال الفراء : والروح هو الذى يعيش به الانسان لم

---

(١) الواقعة ٨٩

(٢) يوسف ٨٧

(٣) الاسراء ٨٥

يخبر الله به أحداً من خلقه ، ولم يعط علمه العباد . قال - عز وجل - :

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴿٢٩﴾ ﴾ (٤)

فهذا الذى نفخه فى آدم وفينا لم يعط علمه أحداً من عباده .

ويقال : هو النفس الذى يتنفسه الانسان وهو جار فى جميع الجسد ، فإذا خرج لم يتنفس بعد خروجه .

ويقال : هو خلق من خلق الله ، وعلى ذلك يؤول قوله - تعالى - :

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ (٥)

أضاف الروح المرسل - لمريم - إلى نفسه كما تقول : أرضه وسماؤه - ومثله قوله - تعالى -

﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (٦)

ويطلق الروح على الوحى أو أمر النبوة أو القرآن . . ومنه قوله - تعالى :

﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾ (٧)

---

(٤) الحجر ٢٩

(٥) مريم ١٧

(٦) النساء ١٧٠

(٧) غافر ١٥

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ (٨)

وقد سمى الوحي والقرآن روحاً لأنه حياة من موت الكفر فصار بحياته للناس كالروح الذى يحيا به جسد الانسان قال ابن الأثير : وقد تكرر ذكر الروح فى الحديث كما تكرر فى القرآن ووردت فيه على معان ، والغالب منها أن المراد بالروح الذى يقوم به الجسد وتكون به الحياة ، وقد أطلق على القرآن والوحى والرحمة وعلى جبريل فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٩)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١٠)

قال : وهو يذكر ويؤنث .

أما ما جاء فى الحديث « تحابوا بذكر الله وروحه » فقد أراد ما يحيا به

---

(٨) النحل ٢

(٩) الشعراء ١٩٣ : ١٩٤

(١٠) النحل ١٠٢

الخلق ويهتدون ، فيكون حياة لكم وقيل : أراد بالروح أمر النبوة ، وقيل : القرآن .

وأما قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (١١)

فقد قال الزجاج : الروح خلق كالإنس وليس هو بالإنس .

وقال ابن عباس : هو ملك فى السماء السابعة وجهه على صورة الانسان وجسده على صورة الملائكة . وقال بعضهم : هو جبريل .

وروح الله حكمه وأمره . .

وينسب إلى كلمة روح فيقال : روحانى ـ ولا يقال : روحى . . وهو نسب على غير قياس(١٢)

كلمة الروح فى القرآن :

وقد وردت كلمة الروح فى القرآن الكريم ـ بفتح الراء وسكون الواو ـ فى ثلاثة مواضع . وقد ذكرناها . وهى خارجة عن نطاق البحث .

والدراسة تدور حول معنى « الروح » بضم الراء ، وهو الأمر المعضل الذى حدا باليهود أن يطلبوا من المشركين سؤال النبى ـ صلى الله عليه

---

(١١) النبأ ٣٨

(١٢) راجع لسان العرب لابن منظور ح ٣ مادة روح

وسلم ـ عنه . وقيل : إن اليهود أنفسهم هم الذين سألوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه .

قال الواحدى فى أسباب النزول :

أخبرنا محمد بن عبد الرحمن النحوى ، قال : أخبرنا بن بشر بن العباس ، قال : أخبرنا أبو لبيد محمد بن أحمد بن بشر ، قال : حدثنا سويد عن سعيد قال : حدثنا على بن مسهر عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : إنى مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حرث بالمدينة وهو متكىء على عسيب ، فمر بنا ناس من اليهود ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فقال بعضهم لبعض : لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون ، فأتاه نفر منهم فقالوا : يا أبا القاسم ، ما تقول فى الروح ؟

فأنزل الله عليه:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (١٣)

ـ رواه البخاري ومسلم ـ

قال : وقال عكرمة عن ابن عباس : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح .. فنزلت هذه الآية .

فهذه الكلمة وردت احدى وعشرين مرة .. فى مواضع متعددة من

---

(١٣) أسباب النزول للواحدى ص ٢٢٠

القرآن . منها هذه الآية التى ذكرناها . ومنها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴿٨٧﴾ ﴾(١٤)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ (١٥)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١٦)

وغير ذلك من الآيات .

وبما أن الروح سر مستغلق ، وهو أمر خفى أدى الخوض فيه إلى أختلافات كثيرة ، وربما ترتب على ذلك بعض الأخطاء التى ينبغى تصحيحها ، فنحن نرجو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفقنا فى الحديث حول هذا الموضوع بما يجلى بعض الغموض ، ويبين للناس طريقهم فى ، مثل الأمور التى يجب تناولها بحذر وحرص وتفويض . فنقول : والله المستعان .

---

(١٤) البقرة ٨٧

(١٥) النحل ٢

(١٦) المجادلة ٢٢

ما قاله المفسرون حول آية الروح

جاء فى تفسير القرطبى :

روى البخارى ومسلم والترمذى عن عبد الله قال : بينما أنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ـ فى حرث وهو متكىء على عسيب ، إذ مر نفر من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح فترددوا فى سؤاله ، ثم تقدم بعضهم فسألوه فأمسك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يرد عليهم شيئاً ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ ﴾



وفى مسلم : « وما أوتوا . . »

قال القرطبى : وقد اختلف الناس فى الروح المسئول عنه . .

أىّ الروح هو؟

فقيل : هو جبريل

وقيل : هو عيسى

وقيل : هو القرآن .

وقال القرطبى : أسند البيهقى بسنده إلى ابن عباس فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ ﴾

الروح ملك .

وقال النحاس : الروح جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام . .

وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوا عن الروح الذى يكون به حياة الجسد . . وهذا ما نرجحه ، وهو الأقرب إلى الصواب وقال أهل النظر منهم : إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه فى بدن الانسان ، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به ، وهذا شىء لا يعلمه إلا الله - عز وجل -

ونقل عن أبى صالح : الروح خلق كخلق بن آدم وليسوا بنى آدم ، لهم أيد وأرجل ، والصحيح الابهام وأن شأن الروح وعلمه عند الله . .

لقوله - تعالى - :

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

أى هو أمر عظيم ، وشأن كبير من أمر الله - تعالى - أبهم أمره وترك تفصيله ، ليعرف الانسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها ، وإذا عجز الإنسان عن معرفة نفسه ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق سبحانه وتعالى - أولى . وحكمة ذلك أن عجز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دليل على أنه عن إدراك حقيقة خالقه أعجز .

- عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : مر النبى ﷺ على قوم يتفكرون فى الله . فقال : تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لن تقدروه »

أما المخاطب بقوله - تعالى - :

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فقد اختلف فيه .

فمنهم من يقول : إنهم السائلون فقط .

ومنهم من يقول : إنهم اليهود بجملتهم ، وعلى هذا قراءة ابن مسعود

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ومنهم من يقول : المراد العالم كله ،ـ وهو الصحيح ـ وعليه قراءة الجمهور « وما أوتيتم . . » وقد قالت اليهود للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كيف لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ؟

فعارضهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعلم الله فغلبوا . .
وقال اليهود : من عنيت بقول :

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

نحن أم قومك ؟ فقال : كلاً عنيت
قال القرطبى : وفى هذا المعنى ـ أى عدم إحاطة أحد بعلم الله ـ نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٧)

وقد قيل : ان السائلين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه

---

(١٧) لقمان ٢٧

عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ، فان أخبركم عن اثنين وأمسك عن واحدة فهو نبى .. فأخبرهم كما قالوا .. ولكنهم لم يؤمنوا ..

هذا ما قاله القرطبى حول هذه الآية مختصراً ..

ما قاله ابن كثير :

وذكر ابن كثير فى تفسيره نفس السبب الذى ذكره القرطبى حول نزول هذه الآية ..

وأضاف : أن هذا السياق يقضى أن هذه الآية مدنية ، وإن كانت السورة التى جاءت فيها الآية مكية . ويجاب عن ذلك بأنه قد تكون الآية نزلت مرتين ، مرة فى مكة ومرة فى المدينة .

ودليل نزولها فى مكة سؤال القرشيين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح ، وإجابته بالآية التى نزلت .. ويحاول ابن كثير أن يجمع بين قول من يقول نزلت بمكة وقول من يقول نزلت بالمدينة فيقول :ـ

قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » فلما هاجر الرسول ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا : يا محمد بلغنا عنك أنك تقول « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » أفعنيتنا أم عنيت قومك ؟

فقال : كُلًّا قد عنيت .

قال : إنك تقر بأننا قد أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شيء ؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن علمتم به وعملتم به استقمتم . وأنزل الله آية لقمان

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾

وذكر ابن كثير كذلك اختلاف العلماء حول المراد بالروح . فقال : المراد أرواح بنى آدم عند بعض العلماء .

وقال العوفى نقلا عن ابن عباس : قال اليهود للنبى - ﷺ - : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذب الروح التى فى الجسد ؟ وانما الروح من الله ، ولم يكن قد نزل عليه فيه شىء فسكت - ﷺ - فأتاه جبريل فقال له : قل الروح من أمر ربى . .

فأخبرهم النبى - ﷺ - بذلك .

فقالوا : من جاءك بهذا ؟

فقال : جاءنى به جبريل من عند الله .

فقالوا له : والله ماقاله لك إلا عدو لنا .

فأنزل الله

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[18]

وذكر أقوال العلماء فى المقصود بالروح . .

---

(١٨) البقرة ٩٧

وبعض هذه الأقوال غير مستساغ لدى العلماء ..

ومعنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أى من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، وما أطلعكم من علمه إلا على القليل فانه لايحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء الله .

وذكر ابن كثير كلام السهيلى فى هذا الموضوع .

فقال : قال السهيلى : قال بعض الناس لم يجبهم النبى ـ ﷺ ـ عما سألوه ، لأنهم سألوه على وجه التعنت قاصدين تعجيزه ..

وقيل : أجابهم . وعول على أن المراد بقوله : من أمر ربى أى من شرعه ، أى فادخلوا فيه ، وقد علمتم ذلك لأنه لاسبيل إلى معرفة هذا من طبع ولافلسفة ، وانما يسأل من جهة الشرع ..

قال : وذكر السهيلى الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس أو غيرها ، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر ، وقرر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن ، واكتسابها بسببه صفات مدح أوذم . فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء

قال : كما أن الماء هو حياة الشجر ، ثم يكسب بسبب اختلاطه بالشجر اسما خاصا ، فاذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مصطارا [١٩] أو خمرا ، ولايقال له ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز . وهكذا لايقال للنفس (روح)

---

(١٩) المصطار : الخمر الحديثة المتغيرة الطعم والريح

إلا على هذا النحو ، وكذلك لايقال للروح نفس إلا باعتبار ماتؤول إليه .
فحاصل مايقول : ان الروح أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن ، فهى هى من وجه لامن كل وجه .

تفسير الزمخشري:

ولم يضف صاحب الكشاف فى تفسيره جديدا إلى ماجاء فى القرطبى وابن كثير . إلا أنه ذكر قول ابن أبى بريدة : لقد مضى النبى - ﷺ - وما يعلم الروح .

أى ان ذلك مما استأثر الله بعلمه لقوله تعالى

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى ﴾

ومعنى أمر ربى أى من وحيه وكلامه ، وليس من كلام البشر .

وحديث ابن أبى بريدة ذكر أن الواحدى قد ذكره فى الوسيط عن عبد الله بن بريدة فى حديث لم يسبق إسناده . .

أما الذى أفاض فى الحديث عن الروح فهو الإمام فخر الدين الرازى فى كتابه « مفاتيح الغيب » ونحن نوجز منه مايستدعيه المقام »[٢٠]

مع الفخر الرازى

أولا : عن أى شىء سألوا ؟

لقد سألوا عن حقيقة الروح وماهيته

---

(٢٠) قدم الأستاذ محمد عبدالعزيز الهلاوى دراسة محققة فى هذا الموضوع بعنوان : « يسألونك عن الروح » للامام فخر الدين الرازى- من تفسيره « مفاتيح الغيب »

أهو عبارة عن أشياء موجودة فى داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والأخلاط ؟

أو هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب ؟

أو هو عبارة عن عرض قائم بهذه الأجسام ؟

أو عبارة عن موجود يغاير هذه الأجسام والأعراض ؟

وقد خلص من هذه الاسئلة إلى إجابة محددة

انه موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض ، لأن الأجسام تحدث من امتزاج الأخلاط والعناصر ، وأما الروح فإنه ليس كذلك ، بل هو جوهر بسيط مجرد لايحدث إلا بمحدث هو قوله تعالى :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

إنه يحدث بأمر الله ، وتكوينه وهو سر الحياة فى هذا الجسد . ولايلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه فإن أكثر حقائق الأشياء وماهياتها مجهولة . .

أما كلمة أمر فمعناها الفعل كقوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٢١)

أى ومافعل فرعون برشيد ، وقال ـ تعالى ـ :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا ﴾ (٢٢) أى جاء فعلنا .

---

(٢١) هود ٩٧

(٢٢) هود ٦٦

فكذلك قوله

« من أمر ربي »

أي من فعل ربي ..

هل يجوز أن يكون المقصود بالروح في الآية القرآن ؟

ذكرنا أن الله ـ سبحانه تعالى ـ سمى القرآن روحا في مواضع عدة منها قوله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢٣)

ومنها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ (٢٤)

وقد سبقت الاشارة الى أن تسمية القرآن روحا لأن به تحيا القلوب والعقول .

أما أن يكون المقصود من الروح في قوله تعالى :

---

(٢٣) الشورى ٥٢

(٢٤) النحل ٢

القرآن . . . فهذا مالا يساعد عليه السياق ، ولا يؤيده سبب نزول الآية . . . .

وقد رجح الرازى أن يكون المراد بالروح الذى سألوا عنه فى الآية هو سبب الحياة لأنه الشىء الذى تتوفر دواعى العقلاء على معرفته . . .

ولذلك كان صرف هذا السؤال اليه أولى . . وهذا مانراه ونرجحه . . والله أعلم . .

الانسان وعلاقة الروح به:

وهذا يتطلب أن نعرف أولا . ما الانسان ؟ هل هو ذلك الجسم الذى نراه فى هذه البنية ؟ أو هو جسم داخل فى هذه البنية ؟ وقد ناقش الرازى ذلك : والحقيقة التى يراها أن الإنسان ليس هو ذلك الجسم الذى نراه لأن هذا الجسم لاحياة له بدون العلم الذى يوجد فى القلب ، وقد استدل على ذلك بأدلة : منها : أن الانسان قد يكون حيا حال كون هذا الجسم ميتا ، فوجب كون الإنسان مغايرا لهذا الجسم ، والدليل على صحة ذلك قوله ـ تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ (٢٥)

---

(٢٥) آل عمران ١٦٩

فهؤلاء المقتولون أحياء . فدل ذلك على أن الإنسان ليس هو الجسم الذى مات

ومنها قوله ـ تعالى فى حق آل فرعون

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾(٢٦)

وقوله ﷺ : « أنبياء الله لايموتون ولكن ينتقلون من دار الى دار »
وقوله ﷺ
« القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار »

فهذه النصوص تدل على أن الإنسان يبقى بعد موت الجسد . . وبديهة العقل والفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت ، واذا ثبت أن الانسان شىء وكان الجسد ميتا لزم أن الانسان شىء غير هذا الجسد .

ومن ذلك قول النبى ـ ﷺ ـ فى خطبة طويلة : « حتى إذا حمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش ، ويقول : ياأهلى وياولدى لاتلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى ، جمعت المال من حله ومن غير حله فالغنى لغيرى والتبعة على ، فاحذروا مثل ما حل بى . . .

ففى هذا تصريح فى الوقت الذى كان فيه الجسد ميتا محمولا كان ذلك الإنسان حيا باقيا فاهما . . فلزم من ذلك أن الإنسان ليس هو ذلك الجسد المحمول على الأعناق .

---

(٢٦) غافر ٤٦

ومنها قوله ـ تعالى

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢٧)

فالخطاب موجه للنفس حال الموت . فدل على أن الذى يرجع يكون حيا راضيا عن الله راضيا عنه الله . والذى يكون راضيا هو الإنسان . وهذا يدل على أن الانسان بقى حيا بعد موت الجسد ، فالإنسان ـ إذن ـ مغاير لهذا الجسد . . .

ومنها قوله ـ تعالى ـ

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٢٨)

فكيف يكونون مردودين الى الله حال كون الجسد ميتا ؟

إن ذلك يدل على أن المردود مغاير للجسد الميت .

ومن الحجج العقلية أن جميع الناس فى مختلف الأجناس والأقطار والأزمنة والملل والنحل يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون إلى زيارتهم ، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدق عنهم عبثا والدعاء لهم عبثا وزيارتهم عبثا .

---

(٢٧) الفجر ٢٧ : ٣٠

(٢٨) الانعام ٦١ : ٦٢

فالإجماع على الصدقة والدعاء والزيارة يدل على أن الفطرة الأصلية شاهدة بأن الإنسان شيء غير هذا الجسد وأن ذلك الشيء لايموت بل الذى يموت هو الجسد .

وخلاصة القول : أن الانسان يلزم أن يكون عالما ـ على نحو ما من العلم ـ والعلم لايحصل إلا فى قلب فيلزم أن يكون الإنسان عبارة عن الشيء الموجود فى القلب . واذا ثبت هذا بطل القول بأن الانسان عبارة عن هذا الهيكل وهذه الجثة .

والذى يدل على أن العلم لايحصل إلا فى القلب قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴿١٧٩﴾ ﴾ (٢٩)



وقوله ـ تعالى ـ

﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣٠)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (٣١)

وعلى ذلك فالإنسان غير محسوس لأنه هو الروح الذى يحل بذلك الجسم المحسوس .

بدليل أن هذا الروح إذا فارق الجسم لزم الموت لهذا الجسم .

---

(٢٩) الاعراف ١٧٩

(٣٠) المجادلة ٢٢

(٣١) الشعراء ١٩٣ : ١٩٤

ما الأرواح ؟

ذكر بعض العلماء أنها أجسام نورانية سماوية لطيفة لاتقبل التحلل ولا التبدل ولا التفرق ولا التمزق .

فاذا تكون البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله ـ تعالى ـ « فاذا سويته » نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية فى داخل أعضاء البدن نفاذ النار فى الفحم ونفاذ دهن السمسم فى السمسم ، ونفاذ ماء الورد فى جسم الورد .

ونفاذ هذه الأجسام السماوية فى جوهر البدن هو المراد بقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴿٢٩﴾ ﴾

رأى آخر فى حقيقة الإنسان

يقول بعض المحققين : الإنسان هو الجوهر المخصوص والنفس . . . والنفس اذا تعلقت بالبدن اتحدت به ، فصارت النفس عين البدن والبدن عين النفس ، ومجموعهما هو الإنسان ، فاذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد ، وبقيت النفس ، وفسد البدن .

هـل النفس جسم ؟

نفى المحققون أن تكون النفس جسما . واحتجوا بحجج كثيرة أثبتها الرازى فى تفسيره . .

* منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴿١٩﴾ ﴾(٣٢)

---

(٣٢) الحشر ١٩

ففى هذه الآية دليل على أن النفس الانسانية شىء غير الهيكل وغير الجسد . .

فمن المعلوم أن أحدا من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد ، فدل ذلك على أن النفس التى ينساها الانسان عند فرط الجهل شىء آخر غير البدن

* ومنها قوله ـ تعالى ـ

﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٣٣)

فلا شك أن معناه أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وهذا يدل على أن النفس مغايرة للجسد

* ومنها أنه ـ تعالى ـ ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴿١٤﴾ ﴾ (٣٤)

فليس من شك فى ان فى جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الأحوال

---

(٣٣) الانعام ٩٣

(٣٤) المؤمنون ١٢ : ١٤

الجسمانية . لأن الله تعالى حين أراد أن يذكر نفخ الروح قال

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾

وهذا صريح بان ما يتعلق بالروح جنس متغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة فى الأحوال الجسمانية وهذا يدل على أن الروح شىء مغاير للبدن

* ومنها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣٥)

فان هذا يعنى أن الله ـ تعالى ـ ميز بين البشرية وَنَفْخ الروح . فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء وتعديل المزاج والأشباح ، فلما ميز النفخ عن التسوية ، وأضاف الروح إلى نفسه ، دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد .

* ومنها قوله تعالى ـ

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ (٣٦)

فهذا صريح فى وجود شىء موصوف بالإدراك والتحريك حقا ، لأن الإلهام عبارة عن الإدراك ، وأما الفجور والتقوى فهما فعل .

---

(٣٥) الحجر ٢٩

(٣٦) الشمس ٧ : ٨

والآية تفيد أن الإنسان شيء موصوف بالإدراك والتحريك ، وموصوف أيضا بفعل التقوى تارة وفعل الفجور أخرى . ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين فدل على وجود جوهر آخر يكون موصوفا بكل هذه الأمور .

أين تذهب الروح بعد مفارقة الجسد ؟

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ (٣٧)

ظاهر هذه الآية يقضى أن الشهداء أحياء ..

وهذه الحياة قد تكون حقيقية وقد تكون مجازية .

فان كانت الحياة حقيقية فاما أن تكون فى الآخرة ، وإما أن تكون فى الحال .

أما ان تكون الحياة فى الآخرة فهذا هو رأى المعتزلة وهو مردود عليه بوجوه : .

* منها أن قوله ـ تعالى ـ بل أحياء ـ يفيد حياتهم فى الحال .

* ومنها أن الله تعالى لو أراد أن يجعلهم أحياء فى الآخرة ، لما قال لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ولا تحسبن » لأن حياة الآخرة معلومة غير منكرة .

---

(٣٧) آل عمران ١٦٩ : ١٧٠

وقد أراد الله أن يبشره بحياتهم بعد استشهادهم مباشرة وظاهر استشهادهم يوحى بموتهم ، فأراد الله ان يثبت حياتهم لاموتهم . .

* هناك آثار كثيرة وردت مفسرة لهذه الآية تؤكد حياة الشهداء فى عالم البرزخ حياة سعيدة منعمة ويدل عليها قول صاحب يس

﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧ ﴾ (٣٨)

ومن الآثار الواردة فى ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صفة الشهداء « إن أرواحهم فى أجواف طير خضر وأنها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها تسرح حيث شاءت وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش فلما رأوا طيب مساكنهم ومطعمهم ومشربهم قالوا ياليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم وما صنع الله بنا كى يرغبوا فى الجهاد فقال الله ـ تعالى ـ :

« أنا مخبر عنكم ومبلغ اخوانكم ففرحوا بذلك واستبشروا . فأنزل الله هذه الآية »(٣٩)

وقد اختلف العلماء فى كيفية حياتهم فى الحال .

هل ستكون هذه الحياة للروح فقط ؟

أم أنها ستكون للروح والجسد معا ؟

وللإجابة عن ذلك يجب أن نتذكر ما سبق عرضه وهو أن الانسان ليس مجموع هذه البنية التى نراها بدليلين :

---

(٣٨) يس ٢٦ : ٢٧

(٣٩) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير عن عبدالله بن مسعود ، ومسلم فى كتاب الامارة . .

أحدهما أن أجزاء هذه البنية قد تتبدل من آن لآخر . فالجسم قد يكون سمينا ثم يصبح هزيلا ، وقد يكون صغيرا ثم يصبح كبيرا ، ولن يظل الجسم على حال واحد طول حياة الانسان .

والثانى أن الإنسان قد يكون عالما بنفسه حال ما يكون غافلا عن جميع أعضائه وأجزائه ، والمعلوم وهو النفس مغاير لما ليس بمعلوم وهو الجسم .

أما الجسد الذى كان فى الدنيا فلا عيرة به ، وليست هناك استحالة فى اعادته كما كان ، وقدرة الله أكبر من أن يحيط بها عقل أو يصل إليها إدراك .

وبذلك تبعد الشبهات التى يثيرها البعض حول نعيم القبر وعذابه . . وان التمست دليلا عقليا لن يعجزك ذلك : ـ

* فمن المعروف أنه فى حالة النوم يضعف البدن وضعفه لا يقتضى ضعف الروح بل ربما قويت وقت النوم فانطلقت عبر الكون واطلعت على كثير من الأشياء ، فإذا كان ضعف البدن لا يوجب ضعف النفس فذلك يؤكد أن موت البدن لا يستعقب موت النفس .

قد تؤدى كثرة الأفكار إلى جفاف الدماغ ، وهذا يؤدى إلى الموت ، مع أن كثرة الأفكار قد تؤدى إلى استكمال النفس بالمعارف الإلهية وهو غاية كمال النفس . فما كان سببا فى كمال النفس كان سببا فى ضعف البدن وهذا يدل على أن النفس لا تموت بموت البدن . .

---

(٤٠) استعنا فى عرض بعض ماقاله « الرازى » بكتاب « ويسألونك عن الروح » الذى أصدرته مكتبة القرآن للأستاذ المحقق محمد عبدالعزيز الهلاوى

/

* المتأمل فى أحوال النفس يدرك أنها على الضد من أحوال البدن . فالجوع مثلا يؤدى إلى ضعف البدن مع أنه فى المقابل يؤدى إلى صفاء النفس ، والمبتهج بالمعارف الإلهية لا يجد لديه إقبالا على شهوة الطعام والشراب التى تقوى البدن . وتستطيع ملاحظة ذلك فى المستبشر بخدمة السلطان أو بالفوز بمنصب أو بالحصول على جائزة لا يجد لديه الإقبال على الطعام أو الشراب بل ربما وجد نفرة من ذلك . . ذلك أن السعادة النفسية تطغى على السعادة الجسمانية ، وهذا يؤكد أن النفس لا تموت بموت البدن . .

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن أرواح الشهداء أحياء وهى تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش الى يوم القيامة والدليل على ذلك ساقه الرازى ـ رحمه الله ـ من قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

« اذا دام العبد فى سجوده باهى الله ـ تعالى ـ به ملائكته ويقول : انظروا الى عبدى روحه عندى وجسده فى خدمتى »

هل حياة الشهداء بالروح والجسد معـا ؟

قال بعض العلماء : إنه تعالى يصعد أجساد هؤلاء الشهداء إلى السموات وإلى قناديل تحت العرش ويوصل أنواع السعادة والكرامات إليها .

القائلون بالحياة المعنوية المجازية :

ويرى بعض العلماء أن المراد بالحياة فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾

هى الحياة المجازية المعنوية : فالعالم الذى ينتفع الناس بعلمه حى بأثره ، والجاهل ميت يمشى على قدمين

وعلى ذلك يفهم قول الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت　　أنما الميت ميت الأحيـــاء

وقول الشاعر :

والناس صنفان موتى فى حياتهم　　وآخرون ببطن الأرض أحياء

والحق أن الشهداء يحيون الحياتين معاً . فهم يحيون الحياة الحقيقية بعد الموت بدليل الآية الكريمة .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

كما يحيون الحياة المعنوية فى هذه الدنيا . لأن ذكراهم باقية بين الناس بما قدموه من بذل للنفس والمال فى سبيل إعلاء كلمة الله . .

وقال بعض العلماء إن المقصود بالحياة أن الله يحفظ أجساد هؤلاء الشهداء فلا تبلى فى القبور فبقاء أجسادهم دون تحلل هو حياة مجازية والذى يؤيد ذلك أن كثيرا من قبور الشهداء كشفت فرئيت فيها أجسادهم ما تزال كأن قد دفنت الآن . .

هذا موجز ما ذكره الإمام فخر الدين الرازى حول مضمون هذه الآية

مع الامام الألوسى :

ولم يبعد الإمام الألوسى عما ذهب اليه الإمام الرازى .

فقد قرر ان سؤال اليهود أو المشركين للنبى - صلى الله عليه وسلم - كان عن حقيقة الروح الذى هو مدار البدن الانسانى ومبدأ حياته ، لأن ذلك من أدق الأمور التى لا يسع أحد إنكارها ، ويشرئب كل إنسان إلى معرفتها ، وتتوفر دواعى العقلاء إليها ، وتكلُّ الأذهان عنها ، ولا تكاد تعلم إلا بوحى . .

أما فى تفسير قوله ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ فقد قال :

معنى كون الروح من أمره تعالى أنه من الابداعات الكائنة بالأمر التكوينى من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كالجسد الإنسانى . فالمراد من الأمر واحد الأوامر أعنى « كن »

والسؤال عن الحقيقة والجواب إجمالى ، ومآله أن الروح من عالم الأمر مبدعة من غير مادة ، لا من عالم الخلق وهذا من الأسلوب الحكيم كجواب موسى - عليه السلام - سؤال فرعون إياه حين قال له « ومارب العالمين » فأجابه بقوله :

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٤١)

لقد سأل فرعون عن كنه الحقيقة .وذلك مالا يعلمه إلا الله الذى يقول

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

---

(٤١) الشعراء : ٢٤.

ومعنى ذلك أنكم لا تعلمون إلا علما قليلا تحصلونه عن طريق الحواس ، وقالوا فى ذلك : من فقد حسا فَقَدْ فَقَدَ علما .

وربما كان أكثر الأشياء لا تدرك بالحس لأنها غير محسوسة ، أو محسوسة ولكن منع من الإحساس بها مانع كالغيبة مثلا .

وظاهر كلام بعض العلماء أن إدراك كنه الروح غير ممكن .

وفرق بعضهم بين بيان كنه الروح الذى هو ممكن وكنه الذات الأقدس الذى ليس بممكن إدراكه .

هل عرف النبى - صلى الله عليه وسلم - حقيقة الروح ؟

روى عن عبد الله بن بريدة أنه قال : لقد قبض النبى - صلى الله عليه وسلم - وما يعلم الروح .

ولكن عبدالله - هذا كان من الذين يقولون بامتناع العلم بها . . وذكر بعض العلماء

أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يقبض حتى علم كل شيء يمكن العلم به أى ماعدا الأمور التى لم يرد الله أن يطلع عليها أحداً من خلقه . .

ويفهم بعض العلماء أن الروح من عالم الأمر ، ويقصد بعالم الأمر : العالم الكائن من غير تحصل من مادة وتولد من أصل . .

ويقابل عالم الخلق وهو الكائن المتحصل من المادة والمتولد من أصل . .

ويقول هؤلاء إن الحق - سبحانه وتعالى - قد أشار إلى ذلك بقوله - تعالى -

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤ ﴾ (٤٢)

---

(٤٢) الأعراف ٥٤

ولكن هذا مجرد اصطلاح - كما يقول الألوسى - وليس أمرا مقررا فى لغة العرب .

هل وجدت الروح قبل البدن ؟

يرى الألوسى أن الروح حادث حدوثا زمنيا كسائر أجزاء العالم إلا أن العلماء اختلفوا : فى كون ذلك قبل البدن أو بعده ؟

والذى يرى أن الحدوث قبل البدن يستدل بالحديث الشريف : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »[٤٣]

فهذا الحديث يفيد أن الأرواح كانت مخلوقة قبل الأجساد - نقول : ويمكن الاستشهاد على ذلك بآية الميثاق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴿١٧٢﴾ ﴾[٤٤]

وقال بعضهم : إنها فى برزخ منقطع العناصر فاذا استعد جسد لشىء منها هبط إليه ، وانها تعود إلى هذا البرزخ بعد الوفاة ، وهذا القول منسوب إلى ابن حزم ، وان كان لادليل عليه من كتاب أو سنة . .

ومن العلماء من يرى أن الروح حادثة بعد البدن ، ومن هؤلاء حجة الاسلام الغزالى ، ويستشهد أصحاب هذا الرأى بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله خلق ابن آدم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما دما ، ثم

---

(٤٣) رواه البخارى فى بدء الخلق

(٤٤) الأعراف ١٧٢

يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح »[٤٥]

فهذا الحديث يدل على أن البدن خلق أولا ، ثم أرسل الملك لينفخ فيه الروح بعد ذلك .

وهناك من العلماء من يؤكد فساد الرأى الذى يقول إن الأرواح خلقت قبل الجسد .

والقول الصحيح عند الألوسى وهو الذى دل عليه الشرع والعقل أنها مخلوقة مع الأجساد ، وأن الملك ينفخ الروح أى يحدثه بالنفخ فى الجسد إذا مضى على النطفة أربعة أشهر ودخلت فى الخامس .

أما الفلاسفة الذين يرون قدم الروح من أمثال افلاطون وغيره فقولهم باطل .

هل هناك فرق بين الروح والنفس ؟

اختلفت آراء العلماء حول ذلك .

فمنهم من يقول : إن الروح والنفس شىء واحد ، يطلق كل منهما على الآخر .

والدليل على ذلك الحديث المروى عن أبى هريرة وأخرجه البزار : « ان المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين يود لو خرجت نفسه ، والله ـ تعالى ـ يحب لقاءه ، وإن المؤمن تصعد روحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفه من أهل الدنيا »

---

(٤٥) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ومسلم فى كتاب القدر

ومنهم من يفرق بين الروح والنفس

فيقول : الروح هو النفس المتردد فى الانسان .

والنفس أمر غير ذلك وهى التى تلتذ وتتألم وتفرح وتحزن ، وهى التى تتوفى فى المنام وتخرج وتسرح وترى الرؤيا ويبقى الجسد دونها بالروح فقط لايلتذ ولا يفرح حتى تعود ، ودليل من يقول ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ (٤٦)

ومنهم من يرى أن الروح نورية روحانية ، وأن النفس طينية نارية .

ومنهم من يرى أن قوام النفس بالروح ، والنفس صورة العبد والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ، ولا عدو للإنسان أعدى من نفسه ، فهى تريد الدنيا وشهواتها ، ويؤيد هذا قوله ـ تعالى ـ على لسان من وردت فى حقه :

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٤٧)

أما الروح فإنها تدعو إلى الآخرة وتؤثرها(٤٨)

وربما حدث بين الروح والنفس نزاع ، يخضع القلب للغالب منها . .

---

(٤٦) الزمر ٤٢

(٤٧) يوسف ٥٣

(٤٨) راجع فى ذلك « يسألونك عن الروح » الاستاذ محمد عبدالعزيز الهلاوى

هل ترقى النفس ؟

يعنى العلماء المهتمون بتهذيب النفس بضرورة جهادها حتى ترقى وتصعد إلى الدرجات العلا ، ولهم فى ذلك وسائل مختلفة يسلكونها ويحثون تلاميذهم . . . عليها

وللشيخ حسن رضوان كتاب اسمه « روض القلوب المستطاب » فيه باب مستقل عن جهاد النفس ، ويبين سر إيجاد النفس ، وسر إيجاد الهوى والروح ، وميل النفس مع الهوى ، وكيف تتغلب الروح فى معركتها المستمرة مع النفس وشهواتها ثم يتعرض لمراتب النفس وألوان جهادها فى كل مرتبة وأحوالها فى هذه المراتب حتى تصل إلى نهاية كمالها المطلوب ، هذا عدا المتناثر بين أبواب الكتاب الأخرى حول هذا الموضوع .

ولا نتعرض لرأى المؤلف بقدر ما نتعرض لاثبات قدرة هؤلاء العلماء على إدراك أسرار النفس إدراكا يبرز قدرتهم على الكشف . . ويبين ما يحصل لهم من الالهام . . .

يقول السيد محمود أبو الفيض المنوفى فى ذلك : اعلم علمك الله من علمه أن النفس والقلب والروح خط واحد يمكنك تصوره إذا تصورت خطا رأسيا يبدأ بنقطة هى الروح ، ويتوسط بنقطة هى القلب ، وينتهى بنقطة هى النفس ، على أن تتصور أن النقطة الأولى المبدئية تتجه ناحية العلو والرفعة والنقطة السفلى تتجه ناحية الجسم وغرائزه وما جبل عليه من الصفات الأرضية . . . فان بالغت فى ذلك وانسجمت مع صفات الجسم كان أعظم مبتغاها الدنيا لا الآخرة ، وأصبح ارتباطها بالجسم وغرائزه أكثر من ارتباطها بطاعة الله وشكره . .

أما القلب فتصوره كنقطة فى وسط الخط الذى فرضناه ، وفى درجة بين حالتين : حالة سماوية روحية وحالة أرضية بهيمية .

ولذلك كان القلب محل النزاع بين النزعات الروحية والنزعات البهيمية ، وفى نقل هذا المرقف يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دعائه : ـ يا مقلب القلوب والأحوال حول قلبى إلى أحسن حال »

وفى حالة سمو القلب وصلاح حاله مع الروح يرتفع صاحبه إلى أعلى عليين ، ويستحق بذلك نظر الله ، وقد ورد فى ذلك أثر قدسى « وما وسعتنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن »

ويمكن التعبير عن القلب بأنه العرش الذى صوره الشيخ حسن رضوان فى كتابه .(٤٩)

وهو المملكة التى يتنازع عليها سلطان الروح وسلطان النفس . .
ومعنى ذلك عند هؤلاء العلماء أن الروح خلاف النفس . .

ونتيجة هذا الصراع أن الغالب يسيطر على المغلوب منهما . . فإن تغلبت الروح خضعت النفس لها واستولت الروح على القلب وأصبح الانسان روحانيا لا هدف له إلا المثل العليا . . .

وإن تغلبت النفس أخضعت القلب واستولت عليه وانطوى الروح فى داخله وأصبح الإنسان أرضيا شهوانيا لا هدف له إلا اللذات ، ولا تفكير له إلا فى الشهوة والشر . .

---

(٤٩) روض القلوب المستطاب

وليست هذه النظرية بدعا فقد فكر فيها كثير من الناس ، حتى نظم فيها الفرزدق الشاعر الأموى شعرا قال فيه :

لكل امرىء نفسان نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من أحرارهن شفيعها

« ولعل الفرزدق أتى بهذا المعنى من بعض الآثار الدينية فقد روى أن ابن عباس قال » فى الإنسان نفس وروح بينهما شعاع كشعاع الشمس »[٥٠]

أما مراتب النفس التى تحدث عنها العلماء فهى تدور حول المراتب التالية : ـ

١ ـ مرتبة النفس الأمارة بالسوء

وهى التى يقول الله فيها على لسان امرأة العزيز أو على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ على حسب اختلاف المفسرين : ـ

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾[٥١]

وهذه المرتبة يندرج تحتها عامة البشر ، وتظل النفس فى هذه الحالة أمارة للإنسان بالسوء ، موسوسة له بالشر ، مرغبة له فى الباطل حتى يوفقه الله إلى الانتباه واليقظة ، فيلتجىء إلى التوبة ويأخذ نفسه بالاستغفار حتى تقوى بواعث الخير فيه ، وتضعف دوافع الشر عنده ، فينتقل إلى المرتبة الثانية

---

(٥٠) التصوف فى الشعر العربى لعبدالحكيم حسان ص ١٦١

(٥١) يوسف ٥٣

٢ ـ المرتبة الثـــانية

وهى مرتبة النفس اللوامة ، وقد أقسم الله بها فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ (٥٢)

وتأتى هذه المرتبة بعد جهاد شاق ، تنبعث من نتائجه زواجر نفسية تمنع الانسان من الاقتراب إلى الشر فاذا حدث منه تقصير لامته نفسه على ذلك ، ويظل فى هذه المرتبة فى مراقبة ومحاسبة حتى تضعف دوافع الشر ، ويصبح الانسان محبا لفعل الخير وممارسة الصالحات فتصفو نفسه فينتقل الى المرتبة الثالثة ،

٣ ـ النفس الملهمــة

وهذه المرتبة نتيجة حتمية للمرتبة السابقة ، لأن المريد للخير متى انبعثت قوة الخير التى تمكنه من تنقية نفسه وتصفية قلبه يصبح فى مقدوره التمييز بين الخير والشر الخفى الملتبس به ، وتنفجر أمامه عيون الحكمة التى تفيض على لسانه وينتقل بعد ذلك إلى المرتبة التى تليها . .

٤ ـ النفس المطمئنــة

وهى المخاطبة بقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ﴾ (٥٣)

وهذه المرتبة تؤهل صاحبها للارتفاع عن مواطن الغرور والبعد عن

---

(٥٢) القيامة ١ : ٢

(٥٣) الفجر ٢٧

الانخداع بما يراه من إكرام يحيط به من كل جانب ، كمدح الناس له وإقبالهم عليه ، أو التزلزل حين يرى منهم عكس ذلك كذمهم له أو انتقاصهم من قدره فأنسه بربه لا بالناس ، وهو فى هذه الحالة لايجزع من قضاء ولا يبطر بعطاء ولذلك نرى الآية المتقدمة وردت فى سياق قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ (٥٤)

٥ ـ النفس الراضية

وهى التى تتمتع بمقام الرضا لكل ما يأتى به القدر وما يقضى به الحق فتنبعث لها الأنوار ويفيض الله عليها من لدنه علما ونورا ، ويرضى الانسان فى هذه المرتبة بكل ما يأتى الله به ، وفى هذا الرضا يقول الحكيم ابن خفيف « الرضا سكون القلب إلى أحكام الله والرضا بكل ما اختاره وقضاه »

وفيها تقول رابعة العدوية وقد سئلت : متى يكون العبد راضياً ، قال : « إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة »

وفيها يقول القائل : « أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القدر »

٦ ـ النفس المرضية

وهى التى يرضى فيها الله عن الإنسان ، وفى هذه المرتبة والتى قبلها يقول الله ـ تعالى ـ

﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴿٨﴾ ﴾ (٥٥)

---

(٥٤) الفجر ١٥ : ١٦

(٥٥) البينة ٨

٧ ـ النفس الكاملة

وهى المرتبة التى يصل فيها صاحبها إلى أعلى درجات السلوك ويستحق بها أن يكون خليفة الله فى أرضه مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ ﴾ (٥٦)

ولا يترقى الانسان من مرتبة إلى مرتبة إلا بجهاد شاق يصل به إلى غاية ما يأمله ويتمناه ، مصداقا لقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٥٧)

مكان الروح بعد الموت

ويثور سؤال حول مكان الروح بعد مفارقة الجسد ، ويتكفل ابن القيم بالرد على ذلك فيقول ناقلا عن ابن حزم : الأرواح تستقر فى المكان الذى كانت فيه قبل خلق أجسادها . وهو ما قاله الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (٥٨)

---

(٥٦) البقرة ٣٠

(٥٧) العنكبوت ٦٩

(٥٨) الأعراف ١٧٢

وقال ـ عز وجل ـ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ ﴿١١﴾ ﴾ (٥٩)

فيفهم من ذلك أن الله خلق الأرواح جملة ، وبذلك أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وأخذ الله عهدها وشهادتها له بالربوبية ، وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لأدم ، وقبل أن يدخلها فى الأجساد ، والأجساد يومئذ تراب وماء ثم أقرها الله حيث شاء ، وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت ، ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنى . .

فحين يتوفى الله الأرواح ترجع الى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا ، أرواح أهل السعادة عن يمين آدم ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره . . وهذا ما أجمع عليه أهل العلم ، وهو قول جميع أهل الاسلام .

وهو المعنى بقوله ـ تعالى ـ

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٦٠)

---

(٥٩) الأعراف ١١

(٦٠) الواقعة ٨ : ١٤

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[٦١]

فلا تزال الأرواح هنالك حتى يتم عدد الأرواح كلها بنفخها فى الأجساد ثم برجوعها الى البرزخ فتقوم الساعة ويعيد الله ـ عز وجل ـ الأرواح الى أجسادها ثانية ، وهى الحياة الثانية ، ويحاسب الخلق فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

وينقل ابن القيم كذلك رأى بعض العلماء حول استقرار الروح بعد مفارقة الجسد ، فيذكر قول ابن عبد البر : أرواح الشهداء فى الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم .[٦٢]

أما الذى يدل على أنها على أفنية قبورها ما رواه زيد بن أسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم »[٦٣]

وما رواه زيد أسلم ـ أيضا عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم رد عليه السلام »[٦٤]

وأما كون أرواح الشهداء والمقربين فى الجنة فيشهد له ما ذكره ابن القيم قال : حدثنا محمد بن الحسين ، حدثنى يحيى بن بسطام الأصغر حدثنى

---

(٦١) الواقعة ٨٨ : ٨٩

(٦٢) الروح لابن القيم ص ١٢١

(٦٣) المرجع السابق ص ٦

(٦٤) المرجع السابق

رجل من آل عاصم الجحدرى قال : رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها . .

قال : قلت أجسادكم أم أرواحكم ؟

قال : هيهات ، بليت الأجسام ، وانما تتلاقى الأرواح

قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟

قال : نعم ، نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت الى طلوع الشمس .

قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟

قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته(٦٥)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾(٦٥)

يشهد بأن أرواح المقربين فى الجنة ، لأن الله ذكر ذلك عقب ذكر خروجها من البدن بالموت . وفى مقابل ذلك تكون أرواح الكفار ـ والعياذ بالله ـ فى النار .

وهناك من الآثار النقلية فى القرآن والسنة ما يدل دلالة قاطعة على أن أرواح المقربين والشهداء فى الجنة فقد قال الله فى حق أصحاب القرية على

---

(٦٥) الواقعة ٨٨ : ٨٩

لسان شهيد منهم عقب استشهاده ودخوله الجنة :

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾(٦٦)

وقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لما أصيب اخوانكم ـ يعنى يوم أحد ـ جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة فى ظل العرش »(٦٨)

قوة الروح بعد انطلاقها

وتتفاوت الأرواح فيما بينها قوة وضعفا ، فالروح العظيمة التى وهبها الله لأنبيائه وأوليائه والصالحين الذين استطاعوا أن يهذبوا أنفسهم ويخلصوها من شهواتها ويرتقوا بها فى مدارج الصعود ـ لها من قوة التصرف ما ليس لغيرها من الأرواح المكبلة فى أسر الشهوات مع تكبلها فى أسر الجسد . .

وإذا انطلقت الروح من أسر الجسد بعد الموت ، ازدادت قوتها وفعاليتها قال ابن القيم : وقد تواترت الرؤيا من أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لاتقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل . وكم قد رؤى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أبو بكر وعمر فى النوم وقد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم مع كثرة عددهم وعدتهم .(٦٨)

ومن العجب أن أرواح المؤمنين المتحابين تتلاقى وبينها أعظم مسافة

---

(٦٦) يس ٢٦ : ٢٧

(٦٧) الروح لابن القيم ص ١٢٨

(٦٨) الروح لابن القيم ص ١٢٨

وأبعدها فتتسالم وتتعارف ، فيعرف بعضها بعضا كأنه جليسه وعشيره . قال عبد الله بن عمرو : إن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط . وقد رفع بعضهم هذا الأثر إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - (٦٩)

القــول بتناسخ الأرواح

يزعم بعض الناس ممن لاعلم ولا فهم لهم : أن الروح بعد خروجها من جسد صاحبها قد تحل فى بدن آخر . وربما ارتقت فحلت فى جسم أعظم مما كانت فيه ، وربما هبطت فحلت فى جسم أقل أو أحقر مما كانت فيه ، بل ربما حلت فى جسم حيوان عظيم أو حقير ..

وقد ينظر أصحاب هذا القول الى الحديث الشريف : « لما أصيب اخوانكم - يعنى يوم أحد - جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة فى ظل العرش ... » على أنه يؤيد زعمهم

ولكن فهمهم لهذا الحديث على أنه يدل على تناسخ الأرواح فهم خاطىء لا يصح . لأن هذه منزلة خاصة بأرواح الشهداء تكريما لهم بعد أن أصيبت أجسادهم فى الدنيا وتمزقت فى سبيل الله ، وقد جعل الله هذه الأرواح فى الجنة ولم تهبط الطيور التى جعلها فيها إلى الأرض كما يزعم هؤلاء الذين يقولون بتناسخ الأرواح .

وليس من المعقول أن تحل روح نبى أو ولى فى بدن آخر قد يكون صاحبه

---

(٦٩) الروح لابن القيم ص ١٣٨

كافرا أو زنديقا .. وهذا يقضى أن الروح قد تتناقض أفعالها فتتعرض للمثوبة حينا والعقاب حينا آخر . وهذا يؤدى إلى تعطيل الحكمة من التكاليف الشرعية كما يؤدى إلى الطعن فى الثواب والعقاب ..

ويقول ابن القيم فى ذلك : ان القول بتناسخ الأرواح الذى يقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد باطل . وانهم ليقولن : إن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التى تناسبها وتشاكلها فاذا فارقت هذه الأبدان حلت فى أبدان أخرى تناسب أعمالها وأخلاقها وهكذا أبدا . فبهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لامعاد لها عندهم غير ذلك ..

هذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، وهو كفر بالله واليوم الآخر .

إنهم يقولون : إن مستقر الأرواح بعد المفارقة - أبدان الحيوانات التى تناسبها ، وهو أبطل قول وأخبثه ويليه القول بأن الأرواح تعدم جملة بالموت ، ولا تبقى هناك روح تنعم ولا تعذب .

ومن الناس من يقول : إن الروح لا تعاد إلى الجسد بوجه ولا تتصل به والعذاب والنعيم فى الروح فقط ولكن هذا القول ترده السنة الصحيحة المتواترة من أن النعيم أو العذاب يقع للجسد والروح معا مجتمعين ومنفردين .(٧٠)

---

(٧٠) الروح لابن القيم ص ١٥٢

مستقر الروح فى رحلتها:

للروح فى رحلتها الطويلة أربع دور - كما يقول ابن القيم - فدارها الأولى بطن الأم .

ودارها الثانية بعد الولادة حيث يكتسب فى الحياة الخير والشر ويمتحن بأسباب السعادة والشقاء .

ودارها الثالثة البرزخ وهو أوسع من دار الدنيا وأرحب .

ودارها الرابعة دار البقاء وهى الجنة أو النار ، ولا دار بعدها والله ينقل الروح فى هذه الدور طبقا بعد طبق حتى تبلغ مستقرها النهائى ، وإلى هذا يشير معنى قوله - تعالى -

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ ﴾ (٧١)

مع العلماء المحدثين :

بعد أن طفنا مع العلماء القدامى فى آرائهم حول الروح ، نجول مع العلماء المحدثين للتعرف على هذا الموضوع .

- رأى الشيخ محمد حسنين مخلوف

* يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية الأسبق ، فى فتوى صدرت عنه حول حقيقة الروح : « ينبغى أن يعلم أن عالم الروح » عالم

---

(٧١) الانشقاق ١٦ : ١٩

البرزخ » يختلف عن عالم المادة اختلافا كثيرا فى أحواله وأطواره . فالروح من أمر الله تعالى يسلكها فى البدن فتوجب له حسا وحركة وعلما وادراكا ولذة وألما ، ويسمى حيا ، ثم تفارقه فى الوقت المقدر أزلا لقطع علائقها به فتبطل هذه الآثار ، ويفنى هيكل البدن ويصير جمادا ، ويسمى عند ذلك ميتا ولكن الروح تبقى فى البرزخ - وهو ما بين الحياة الدنيا والأخرى من يوم الموت الى يوم البعث والنشور - حية مدركة تسمع وتبصر وتسبح فى ملك الله ، حيث أراد الله وقدر ، وتتصل بالأرواح الأخرى وتناجيها وتأنس بها سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات »(٧٢)

* أما الأستاذ محمد شاهين حمزة فيقول : -

« لاتزال الروح سرا غامضا لم يمط عنه اللثام ، وإن كانت أنوار العلوم الحديثة قد أضاءت بعض مناحيها فإن هذا البعض الذى اكتشف منها لم يتجاوز منطقة القشور الخارجية . أما لبابها ، أما غورها ، وكنهها فلا يزال بعيدا بعيدا » (٧٣)

* أما العقاد فيقول فى كتابه « الفلسفة القرآنية » بعنوان مسألة الروح : مسألة الروح أعضل مسائل العلم والفلسفة ، ومذاهب التفكير - منذ فكر الانسان فى حقائق الاشياء - بين جميع أصحاب النحل والآراء فى جميع العصور .

ولايزال العلم بحقيقتها قليلا أو أقل القليل . .

---

(٧٢) الروحية الحديثة فى التراث الاسلامى - جمال الدين حسن حسين ص ٣٨

(٧٣) الروحية الحديثة دعوة إلى الإيمان محمد شاهين حمزة ص ١٦

ومن مغجزات القرآن أنه وضعها هذا الوضع الصحيح ، وجعلها أعضل المعضلات التى يتساءل عنها الناس بغير استثناء . .

ويزيد فى تقدير هذه المعجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الإنسانى أن يخوض فى كل شىء خلقه الله وأن يصل إلى الإيمان بالله من طريق البحث والاستدلال والنظر فى آيات الخلق وعجائب الطبيعة . .

فالعقل يهتدى إلى وجود الله من النظر فى وجود الأشياء ووجود الأحياء ، ولكنه لا يهتدى إلى حقيقة الروح من هذا الطريق ، ولا يذهب فيها مذهباً أبعد ولا أعمق من الإحالة إلى مصدر الموجودات جميعا ، وهى إرادة الله أو أمر الله . . »

فالعلماء المحدثون كالعلماء القدامى قد اتفقوا على أن الروح مما اختص الله نفسه بعلمه . . ومحاولة الخوض فى معرفة كنهها لن تصل إلى نتيجة . والدليل على ذلك واضح مما تراه من أقوال كثيرة لا تكاد تتفق على خط واضح إلا فى أنها من أمر الله . .

إلا أن العلماء المحدثين لا يحرمون البحث فى مسائل الروح . . وقد وصل بعضهم إلى معلومات ، قد تقود الباحثين إلى معرفة بعض الأسرار التى تتصل بالروح . مستدلين فى ذلك ببعض مافهموه من آيات وأحاديث .

فقد اتفق القدامى والمحدثون من العلماء إذن على أن حقيقة الروح شىء اختص الله بعلمه .

ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى للسائلين عن حقيقتها : « قل الروح من أمر ربى » وكأنه يقول لهؤلاء السائلين : الزموا حدودكم ، وحدود ما منحتم


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وغريب أيضا أن ينكر البعض عالم الجن الموجود بيننا على الأرض التى خلق عليها قبل وجود آدم ـ عليه السلام ـ ولا نعترف باتصاله بالإنسان ومبادلته الحديث معه ومشاركته وتعاونه فى تنفيذ أمور تتفاوت فى الضرر أو الخير .

هذا بالرغم من أن الكتب الدينية والأحاديث النبوية نصت عنه وعن ظهوره فى مناسبات كثيرة منها ظهوره لسيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ حينما هم بذبح ولده تنفيذاً لأمر الله كما ظهر لزوجته .(٧٥)

والأخبار مستفيضة حول ظهور الجن ومخاطبتهم للأنس . . واخبارهم بأشياء مغيبة عنهم . .

إن مايحدث فى جلسات تحضير الأرواح هذه ومايلقيه الوسيط من أنباء يزعم أنه تلقاها من الروح إنما هى من القرين الذى كان ملازما للانسان فى حياته ويعرف كل شيء عنه ، وهذا القرين وهو جنى لديه القدرة على الانتقال من مكان إلى مكان فى سرعة خاطفة لاستنشاق الأخبار المطلوبة من الوسيط والإدلاء بالمعلومات التى يراد منه الافصاح بها . .

أما الروح فستظل كما أخبر عنها البارى جل وعلا

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾

وسيظل علمنا قليلا ـ كما أخبرنا بذلك الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مهما انفتحت أبواب العلم وتعددت منافذه ودنت قطوفه وتحطمت مغاليقه .

---

(٧٥) حقيقة تحضير الأرواح ـ محمد أنور القونى ص ٤٥

ابن سينا وقصيدته فى الروح

وما أجمل أن نختم هذا الموضوع بما قاله ابن سينا ـ وهو الشيخ الرئيس ـ وهو من كبار الفلاسفة المسلمين ـ وقد تناول المعانى التى دارت حول الروح وأنها لا تفنى بفناء البدن ، بل هى خالدة وذلك لأنها ليس بينها وبين الجسم من علاقة توجب فناءها بفنائه إذ هى جوهر روحى مجرد .(٧٦) وقد تناول هذه المعانى فى قالب شعرى جميل ، وقد شبه النفس بالورقاء وهى الحمامة التى يضرب لونها إلى الخضرة فيقول فيها : ـ

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وماألفت فلما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع

* * *

حتى اذا قرب المسير إلى الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع
وتعود عالمة بكل خفية ... فى العالمين فخرقها لم يرقع
فهبوطها إذ كان ضربة لازب ... لتكون سامعة لما لم تسمع
فلأى شىء أهبطت من شاهق ... سام إلى قعر الحضيض الأوضع ؟
إن كان أهبطها الإله لحكمة ... طويت عن الفطن اللبيب الأورع
أوعاقها الشرك الكثيف وصدها ... قفص عن الأوج الفسيح الأرفع
فكأنها برق تألق بالحمى ... ثم أنطوى فكأنه لم يلمع

---

(٧٦) ابن سينا بين الدين والفلسفة د. حمودة غرابة ص ١٦١


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



ولقد صور القرآن الكريم هذه المعانى أجمل تصوير حين قال :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٧٩)

ففى هاتين الآيتين اعتراف صريح من المفكرين بأن هناك إلها يفزع إليه المخلوق الضعيف الذى لا يملك حولاً ولا قوة حين يحيط به ما لا يستطيع دفعه ولا يمكنه قهره . .

هذه هى الفطرة فلماذا يأبى هؤلاء الكفار هذه الفطرة ؟

إنه الشيطان الذى سول لهم وأملى لهم . هو الذى زين لهم طريق الضلال وصدهم عن سبيل الله . .

قوام الدعوة :

إن سبيل الاسلام واضح ، وقوام دعوته الإيمان بالله الواحد الأحد والايمان برسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر . . لقد قام الاسلام على أسس علمية وأسس عملية . .

---

(٧٩) يونس ٢٢ : ٢٣

أما الأسس العلمية فهى الايمان بالله تعالى وبرسله واليوم الآخر ، والايمان بالرسل يستتبع الايمان بما أنزل عليهم من كتب ، ويستتبع كذلك الايمان بالملائكة الذين نزل بعضهم بهذه الكتب . . وقد جاء القرآن الكريم يقرر ذلك فى آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (٨٠)

وقوله تعالى ـ

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٨١)

وقد جاء فى الحديث الشريف المشهور أن جبريل ـ عليه السلام ـ جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بين أصحابه فسأله عن الاسلام ، وعن الايمان فقال له : ﷺ « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره »

معنى الايمان

والايمان يعنى التصديق والإقرار بأن الله لا إله إلا هو ، أى لا معبود بحق إلا هو . وهذا يستدعى التصديق بأنه موجود ، لا أول لوجوده ولا

---

(٨٠) البقرة ١٧٧

(٨١) النساء ١٣٦


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ولا يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله ، ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى ينفى خصائص الألوهية عن كل موجود سوى الله ـ تعالى ـ ولا يكون مصدقاً بها مَنْ نفى أن الله أرسل الرسل للهداية ، وأنه اجتبى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفضله على الناس جميعاً ، وأنزل عليه القرآن

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴿٤٨﴾ ﴾(٨٦)

وأنه جعل رسالته عامة لجميع الأمم وناسخة وخاتمة للرسالات ، وأنه أسرى به ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه .. ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصدقاً بها حقاً من نفى عموم خلق الله لكل شيء وعلمه بكل شيء ، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾(٨٧)

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾(٨٨)

« يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم »(٨٩)

---

(٨٦) المائدة ٤٨

(٨٧) النبأ ٤٠

(٨٨) الحج ٢

(٨٩) الشعراء ٨٨ ، ٨٩

« ولا يكون مصدقاً بهذه الكلمة من زعم أن الله ترك خلقه سُدًى ، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله .

« فالتصديق بالشهادتين يقتضى الإذعان والاقرار بحقوقها ، وهذه الحقوق هى شرائع الاسلام التى جاء بها سيد الأنام ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى هى تفصيل هذه الكلمة العظيمة « لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله » وذلك بتصديق جميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ـ فالمصدق بالشهادة هو الذى يأتى بذلك كله ولا تنال سعادة الدارين إلا بالتصديق بها والقيام بحقها . ولا يحيق الشقاء فى الدنيا والآخرة إلا على من تركها أو ترك حقها »[٩٠]

لم يقتنع المشركون بذلك ـ لأنهم لم يستوعبوا هذه المعانى الرائعة التى تضمنتها دعوة الاسلام التى جاءت لتأخذ بأيديهم من الضلالة الى الهدى ومن الظلام إلى النور .

لقد ارتكست نفوسهم فى الرجس ، وغطت عبادة الأصنام على عيونهم فلا يبصرون وعلى آذانهم فلا يسمعون وعلى عقولهم فلا يفكرون .

الايمان وسيلة السعادة

وهم من أجل ذلك كانوا فى شقاء وبلاء ـ لأن الايمان الذى أشرنا إليه فى العبارات السابقة هو سبب رقى الانسان وسعادته ، ولولاه ما كان فى العالم نظام ، ولا عرف الناس معنى الواجب ولا حدوده ، والواجب هو محور النظام بين الأفراد والجماعات والأمم . إنه ليس للشهوة ما يقمعها ولا

---

(٩٠) أدب الإسلام ج ٣ لعلى محمد حسب الله وآخرين ص ١٦


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ذلك الى غيره من الأفراد ، فيخرج المجتمع الفاضل المتكامل المبتكر المتقدم .

فالايمان يدعو صاحبه إلى الاتصاف بالأخلاق الكريمة والصفات الحسنة . . وممارسة العبادات التى فرضها الاسلام تساعده على تحقيق ذلك . وهذا هو الجانب العملى فى العقيدة .

ففى الصلاة صلة بين الانسان وربه ، وفى صلاة الجماعة تقوية لروابط الأخوة بين المسلمين ، وفيها نظافة وطهارة ونظام وتعاون وتواضع وأداء للواجب . وغير ذلك من صفات الكمال التى يتعودها المسلم من الصلاة .

وفى الصوم صفاء للنفس وتعويد على الصبر والشفقة والعطف على الفقراء ، والشعور بحاجة الغير .

وفى الزكاة والصدقة بذل وعطاء وتقوية للأواصر بين الفقير والغنى وقطع لمادة الحقد والعداوة والأثرة وإشاعة للأمن والاطمئنان وفى الحج فرصة للبحث عما يعودِ على الأمة الاسلامية بالخير كما يطبع الانسان فى ظله بطابع الحب والصفاء والقرب من الله والتحليق فى جو من الأنس الروحى والاطمئنان النفسى . . وغير ذلك مما يستشعره الحاج فى الأماكن المقدسة التى تربطه بالمعانى الروحية العالية . .

فى نظام الاسلام سعادة وأى سعادة .

وقد ذاق طعمها المسلمون الأوائل فأفنوا أنفسهم فى سبيل تحصيلها والتنعم بها . وتسابقوا الى كلمة الله العليا يعلنونها ، فقابلهم الكفار بالنكير والتذير ، وآذوهم إيذاء شديداً ، ولكن هذا الايذاء لم يحل دون إقبال

المسلمين على الاستظلال بظل هذه الدعوة التى جاءت لتقيم العدل ، وترسى نظام الحرية ، وتأخذ بيد الضعيف ، وتضرب على يد الظالم ، وتنادى بأنه لا سيد ولا مسود ، ولا قوى ولا ضعيف ، بل الناس كلهم إخوة لأب واحد وأم واحدة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٩٣)

وأشار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى مضمون هذه الآية الكريمة بقوله :

« كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »

ولعل هذه المساواة التى أراد الاسلام إذاعتها بين صفوف المسلمين ، كانت من بين الأسباب الرئيسية التى جعلت الكفار يقاومون هذه الدعوة بكل ما أوتوا من قوة . إذ كيف يقبلون دعوة يجلس فيها بلال بن رباح بجوار أمية بن خلف ؟ ويتواضع فى ظلها سادة قريش لمستضعفين من أمثال عمار بن ياسر وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان ؟

سخرية الكفار من الدعوة

واتخذ موقف الكفار الانكارى من الدعوة صورا متعددة من بينها السخرية من الدعوة ومبادئها ونبيها والمؤمنين بها . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك

---

(٩٣) الحجرات ١٣

فى مواضع متعددة منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ (٩٤)

وقد ذكر القرطبى فى تفسيره حول هذه الآيات ماروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : هؤلاء الكفار هم الوليد بن المغيرة ، وعقبة بن أبي معيط ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص بن هشام ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث .

كان هؤلاء النفر حين يرون بلالا وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وصهيب بن سنان وأمثالهم من الفقراء الذين آمنوا بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدقوه وبايعوه . يضحكون سخرية واستهزاء ، واذا مروا بهم يتغامزون ويعيرونهم بالاسلام ويعيبونهم به ، ويقضون وقتهم فى السخرية والضحك حتى ينقلبوا إلى بيوتهم وقد اعتقدوا أنهم قضوا وقتا ممتعا طيبا حيث أتيحت لهم فرصة الضحك والسخرية بأصحاب محمد .

. . . وكان هؤلاء الكفار ينكرون الآخرة والبعث وماقولهم الذى حكاه القرآن فى مواضيع كثيرة :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٩٥)

---

(٩٤) المطففين ٢٩ : ٣٦

(٩٥) يس ٤٨ ـ تبارك ٢٥ ـ الأنبياء ٣٨

إلا نوع من السخرية والاستبعاد الذى يعطيه معنى الاستفهام .

ويذكر القرطبى فى تفسيره كيف يرد المؤمنون الصاع للكفار صاعين يوم القيامة ، وكيف يسخرون منهم فى الآخرة كما سخروا منهم فى الدنيا . فيقول راويا قول قتادة : ذكر لنا أن كعبا كان يقول إن بين الجنة والنار كوى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر الى عدو كان له فى الدنيا اطلع من بعض الكوى فيراه فى العذاب . . . قال الله ـ تعالى ـ

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ٥٥ ﴾(٩٦)

وقيل : إنه تفتح للكفار أبواب النار من جهة الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا فيقبلون يسبحون فى النار ، والمؤمنون على الأرائك ينظرون إليهم ، حتى إذا انتهى الكفار إلى الأبواب أغلقت دونهم . وهذا مايشير اليه قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(٩٧)

ومن أنواع سخرية الكفار بالمؤمنين ماروى حول أسباب نزول سورة الهمزة

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ٣ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ٩ ﴾

---

(٩٦) الصافات ٥٥

(٩٧) البقرة ١٥

قال المفسرون : إنها نزلت فى الأخنس بن شريق وكان يلمز الناس ويعيبهم . وقال بعضهم : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان يغتاب النبى - صلى الله عليه وسلم - من ورائه ويقدح فيه فى وجهه ، وقيل : نزلت فى أُبَىّ بن خلف(٩٨)

والهمزة اللمزة هو المشاء بالنميمة المفسد بين الأحبة الذى يعيب الناس

ومن أسباب رفضهم للدعوة الاسلامية انهم كانوا يستكثرون نزول القرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - قال الوليد بن المغيرة يوما : أينزل القرآن على محمد - ولاينزل علىَّ أنا ، وأنا كبير قريش وسيدها ، وإذا كان لم ينزل على ، فلماذا لم ينزل على أبى مسعود الثقفى سيد ثقيف ، ونحن عظماء القريتين ، أى مكة والطائف ؟ فأنزل الله - تعالى - قوله :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾(٩٩)

وهذا مارواه « الحلبى » فى سيرته ، وإن كان القرطبى فى تفسيرة قد ذكر أن هناك أقوالا حول عظيم الطائف . فبعضهم قال : هو أبو مسعود الثقفى ، وبعضهم قال : هو عمير بن عبد ياليل الثقفى ، وبعضهم قال : إنه حبيب بن عمرو الثقفى . وأيا ما كان هو فقد ردت الآية الكريمة على قوله من قال ذلك بالحجة القاطعة والقول الفصل :

---

(٩٨) أسباب النزول للسيوطى ص ١٨٣
(٩٩) الزخرف ٣١ : ٣٢

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرية ورحمة ربك خير مما يجمعون »

لقد كان مقياسهم الذى يتفاضلون به هو المال والجاه والولد والرياسة وكثرة المال ـ هذه أسباب العظمة فى نظرهم ـ وأين محمد الفقير اليتيم من كل ذلك ؟ إنه لا يحيط به إلا هؤلاء الفقراء والعبيد الأرقاء ـ ولكن القرآن يرد عليهم ويقرر أن الرحمة والنبوة فوق ذلك كله . وإنها لأعظم من الدنيا ومتاعها الزائل وزخرفها الباطل . .

وكان الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يحمى رسوله ويحفظه من سخريتهم وعدوانهم ويرد عليهم تلك السخرية سهاما نافذة ويحولها إلى معجزة عظيمة تثير عجب الكفار ، وتزيد من حيرتهم . . ومن ذلك ماذكره الرواة ونقله أصحاب السير من أن أبا جهل بن هشام ابتاع من شخص يقال له : الإراشى ـ بكسر الهمزة ـ اجمالا فماطله بأثمانها ، فسأل الرجل عمن ينصفه من أبى جهل فدلته قريش على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينصفه من أبى جهل ـ استهزاء بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعتقادا منهم بأنه لن يستطيع انصاف الرجل وأنه لا قدرة له على أبى جهل . فعلوا ذلك سخرية بالرجل وبالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان هذا الرجل قد وقف على حلق قريش حلقة بعد أخرى وهو ينادى : يامعشر قريش ، هل من رجل يعيننى على أبى الحكم بن هشام فإنى غريب وابن سبيل ، وقد غلبنى على حقى ؟

فقالوا له : أترى ذلك الرجل ؟ يعنون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذهب اليه فهو يعينك عليه .

فجاء الرجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر له حاله مع أبى

جهل ، وقال له : لقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لى حقى من أبى جهل فأشاروا اليك . فخذ لى حقى منه يرحمك الله .

لقد مَنَّى هؤلاء القرشيون أنفسهم بمشهد من مشاهد التشفى ، وقد ظنوا أن أبا جهل بن هشام سوف يرد محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخذولا مصغرا أمام من استنجد به .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثقة كاملة واعتزاز بقوة الله ـ أخذ بيد الرجل وانطلق به إلى بيت أبى جهل بن هشام وطرق عليه الباب ـ والمشركون من ورائه منطلقون يترقبون كيف يكيل له أبو جهل الشتائم وكيف يسخر منه . وفى هذا شفاء لنفوسهم وتحقيق لظنهم .

ورد أبو جهل من الداخل : من الطارق ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : محمد . .

فبادر أبو جهل بالخروج من الباب وقد امتقع لونه . وقال : ماتريد يامحمد ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هدوء تام وحزم قاطع : أعط هذا الرجل حقه .

قال أبو جهل ـ وقلبه يرجف ـ : نعم يا أبا القاسم ، لا تبرح حتى أعطيه حقه الذى له . ودخل وعاد إلى الرجل بحقه فدفعه اليه .

وبهت القوم مما رأوا . ورد الله غيظهم فى نحورهم .

وعاد الرجل اليهم وقد أخذوا مجالسهم متعجبين من هول مارأوا كيف يجبن أبو جهل فى مواجهة محمد ؟ وكيف يضيع هذه الفرصة الثمينة فلا يصغره أمام من استنجد به ؟

وقال الرجل لهم : جزى الله محمدا خيرا ، فقد والله أتى لى بحقى

وفى رواية : أنهم كانوا قد أرسلوا رجلا خلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا له : انظر ماذا يصنع .

فعاد الرجل يقول لهم : رأيت عجبا من العجب ، والله ماهو إلا أن ضرب محمد على أبى جهل بابه فخرج إليه ، فقال له محمد : أعط هذا حقه . فقال أبو جهل لا تبرح حتى أعطيه حقه . . فاعطاه له .

ثم جاء أبو جهل فقالوا له : ويلك . . مارأينا مثل ماصنعت .

قال أبو جهل : ويحكم ، ماهو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبا ، ثم خرجت إليه وإن وراءه فحلا من الأبل مارأيت مثله قط لو أبيت أو تأخرت لأكلنى[100]

● ومن صور استهزائهم مارواه البيهقى فى دلائل النبوة قال :
عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله ـ عز وجل ـ

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾[101]

قال : المستهزئون هم الوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث الزهرى ، والأسود بن المطلب أبو زمعة ، والعاص بن وائل . وغيرهم

فكان من استهزاء الأسود بن عبد يغوث قوله لأصحابه ـ اذا رأى المسلمين ـ : قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر ،

---

(١٠٠) السيرة الحلبية جـ١ ص٥٠٦

(١٠١) الحجر ٩٥

ويقول للنبى ـ صلى الله عليه وسلم : ـ أما جاءك اليوم شيء من السماء يامحمد ؟ يقول ذلك سخرية واستهزاء . .

وكان من استهزاء الأسود بن المطلب أنه كان يتغامز هو وأصحابه بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلم يوما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكلام شق عليه فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه أن يقيه شر هذا الرجل . فوقاه الله شره . وأصيب الأسود بالعمى ، وأصبح عاجزا عن أن يسخر أو يستهزىء . .

وكان من استهزاء العاص بن وائل مايرويه الشيخان وابن إسحاق عن خباب بن الأرت قال : كنت قينا ـ حدادا ـ فى الجاهلية ، فعملت للعاص بن وائل سيوفا فجئته اتقاضاه فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث .

قال : وإنى لميت ثم مبعوث ؟

قلت : بلى .

قال : دعنى حتى أموت وأبعث فنؤتى مالا وولدا ، فأعطيك هنالك حقك ، ووالله لا تكون أنت وصاحبك ياخباب آثر عند الله منى ، ولا أعظم حظا . فأنزل الله تعالى فيه :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾(١٠٢)

---

(١٠٢) مريم ٧٧ : ٨٠

وقد أضاف بعض الرواة الى هؤلاء المستهزئين غيرهم من أمثال . . مالك بن الطلاطلة ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وأبو لهب .

ذكر ابن الاثير في ترجمة الحارث بن الغامدى قال :

قال الحارث : قلت لأبي : ماهذه الجماعة ؟ ـ وكان قد رأى جماعة تجتمع على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تؤذيه وتنال منه .

قال : هؤلاء قوم اجتمعوا على صابىء لهم .

قال الحارث : فأشرفنا فاذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو الناس إلى عبادة الله والايمان به وهم يؤذونه ، حتى ارتفع النهار ، وانتبذ عنه الناس ، فأقبلت امرأة تحمل قدحا ومنديلا ، تبكى ، فتناول الرسول القدح ، فشرب ، ثم توضأ ، ثم رفع رأسه اليها ، فقال : يابنية لا تخافى على أبيك غلبة ولا ذلا .

فقلت : من هذه؟ فقالوا : هذه ابنته زينب(١٠٣)

* كان الإيذاء متعدد الوجوه ، فمنه الايذاء بالكلم ، وهو على الرجل الحيى أقسى من وقع السهام . . فحين دعا قومه لينذرهم حين نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

قال له أبو لهب ـ وهو أقرب الناس إليه ـ لأنه عمه ـ : تبا لك ألهذا دعوتنا ؟ فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ (١٠٤)

---

(١٠٣) أسد الغابة جـ١ ص ٣٨٥

(١٠٤) المسد ١

لم تكن كلمة أبي لهب هينة ، ولكنها قاسية عنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا ردها القرآن الكريم على أبي لهب ووسمه بها أبد الدهر . . .

وكان أبو لهب مولعا بتكذيب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل مكان . . . أخرج ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد الدئلى ، وروى ذلك أيضا ابن الأثير فى ترجمته عنه قال ربيعة :

رأيت أبا لهب بعكاظ وهو يتبع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول : ياأيها الناس إن هذا قد غوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفر منه وهو على أثره ، ونحن نتبعه ونحن غلمان . قلت : من هذا ؟ قالوا : محمد بن عبد الله . قلت : من هذا الذى يرميه ؟ قالوا : عمه أبو لهب(١٠٥)

وفى رواية ابن إسحاق : إنى لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يابنى فلان : إنى رسول الله اليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوا بما جئت به وتسمعوا منى حتى أبين عن الله مابعثنى به .
قال : وخلفه رجل أحول له غديرتان عليه حلة عدنية .

فإذا فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قوله ومادعا إليه ، قال ذلك الرجل : يابنى فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولاتسمعوا عنه . .(١٠٦)

---

(١٠٥) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢١٤
(١٠٦) الرسول لسعيد حوا ص ١٠٦

لم يكن تكذيب أبي لهب ومهاجمته للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرا هينا ، بل كان أمرا صعبا على نفسه عائقا له عن أداء رسالته ، فإذا كان أقرب الناس يهاجمه بهذه القسوة ، ويتبعه مكذبا له فى كل مكان فكيف يستجيب له الغريب ؟ لقد صدق طرفة حين قال :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

* وربما تعدى الايذاء القول الى الفعل . .

فعن أبي شيبة عن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ قال : مارأيت قريشا أرادوا قتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا يوما ائتمروا به وهم جلوس فى ظل الكعبة ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى عند المقام ، فقام إليه عقبة بن أبي معيط ، فجعل رداءه فى عنقه ، ثم جذبه حتى وجب(١٠٧) لركبتيه ساقطا ، وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول فأقبل أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يشتد حتى أخذ بضبعى(١٠٨) رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ورائه ، وهو يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله »

ثم انصرفوا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصلى ، فلما قضى صلاته مر بهم ـ وهم جلوس فى ظل الكعبة ـ فقال : يامعشر قريش ، أما والذى نفسى بيده ماأرسلت إليكم إلا بالحق الذى هو من عند الله فمن آمن بى سلم ونال حسن الثواب . ومن كفر عوقب بأشد العقاب . .

وأخرج البيهقى عن عبد الله بن جعفر ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سفيه من سفهاء

---

(١٠٧) وجب : سقط

(١٠٨) ضبعه : عضده

قريش فألقى عليه ترابا فرجع الى بيته ، فأتت احدى بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكى ، فجعل يقول : أى بنية لا تبكين فإن الله مانع أباك .

وأخرج البزار والطبرانى عن عبد الله بن مسعود ، قال : بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد وأبو جهل بن هشام وشيبة وعتبة ابنا ربيعة وعقبة بن أبى معيط وأمية بن خلف ورجلان آخران كانوا سبعة ، وهم فى الحجر ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى ، فلما سجد أطال السجود .

فقال أبو جهل : أيكم يأتى جزور بنى فلان فيأتينا بفرثها فنضعه على محمد ، فانطلق أشقاهم عقبة بن أبى معيط فأتى به ، فألقاه على كتفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ساجد .

قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندى منعة تمنعنى ، فأنا ذاهب إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فأقبلت . فألقت الروث عن عاتق أبيها . .

ومن ألوان الايذاء . ماقاله المشركون حين رأوا أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم ـ الذكور يموتون . . فقالوا عنه إنه أبتر . . ذكر القرطبى فى تفسيره قول الله تعالى . . « إن شانئك هو الأبتر » قال : إن العاص بن وائل وقف يوما مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلمه ، ثم قال له فى جمع من صناديد قريش : إنك أبتر ـ أى لا ولد لك ، وكان ذلك حين توفى عبد الله ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله جل شأنه هذه الآية . .

وذكر الواحدى . أنهم كانوا يسمون من ليس له ابن أبتر . . وقال راويا عن ابن إسحاق . قال : حدثنى يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل

السهمى . إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : دعوة فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو هلك انقطع ذكره ، واسترحتم منه ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾(١٠٩)

وقال عطاء عن ابن عباس : كان العاص بن وائل . يمر بالنبى صلى الله عليه وسلم ـ ويقول له : إنك الأبتر من الرجال . . فأنزل الله سورة الكوثر وفيها يقول الحق سبحانه وتعالى لنبيه : إن الله قد أعطاك يامحمد خير الدنيا والآخرة فلست أبترا ، وإن شانئك هو الأبتر من خير الدنيا والآخرة . .

وقد انتقم الله تعالى من هؤلاء المستهزئين شر انتقام . فقد روى البيهقى قال : جاء جبريل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره أن الله قد كفاه المستهزئين .

فأما الوليد فمر برجل من خزاعة يريش نبلا له ، فأصاب أبجله(١١٠) فقطعها . وأما الأسود بن المطلب فعمى . وقيل : نزل تحت سمرة ، فجعل يقول يابنى ألا تمنعون عنى قد قتلت ؟ فجعلوا يقولون له : مانرى شيئا . فيقول : قد هلكت ها هو ذا أطعن بالشوك فى عينى . فيقولون : مانرى شيئا . فلم يزل كذلك حتى عمى .

وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج فى رأسه قروح فمات منها

وأما الحارث بن عنظلة فأخذه الماء الأصفر فى بطنه حتى خرج من فيه

---

(١٠٩) سورة الكوثر

(١١٠) الأبجل : عرق فى باطن الذراع ، وقيل : عرق غليظ فى الرجل

فمات وأما العاص بن وائل فدخل فى رأسه شبرقة ـ شوكة ـ فمات منها وأما مالك بن الطلاطلة فعصر جبريل بطنه حتى مات

وأما الحكم بن العاص بن أمية ـ وكان ممن يؤذى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويشتمه ويتلصص عليه ، فدعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه فلُبط(١١١) مغشيا عليه شهرا ثم أفاق . وبه علة لا تفارقه حتى مات

وأما أبو لهب ، وقد كان يضع الأقذار فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما روت عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : كنت بين شر جارين ، بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابى .

قالت : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : يابنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ ثم يميطه عن بابه .

ومات أبو لهب بداء يعرف بالعدسة ، كانت العرب تتشاءم به ، وتفر ممن ظهر به . فلما أصاب أبا لهب تركه أهله ، حتى مات ومكث مدة لايدفن ، حتى خافوا فحفروا له حفرة فرموه فيها(١١٢)

مزاعمهم فى الملائكة

ومازال هؤلاء القوم يسخرون من كل ماأتى به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستهزئون به وبأصحابه ـ وينكرون أقواله ـ حتى بلغ بهم الأمر أن زعموا أن الملائكة بنات الله . وهذا ماتشير اليه الآية الكريمة

---

(١١١) لبط : صرع وسقط على الأرض

(١١٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ٢ ص ٣١٦

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (١١٣)

قال القرطبى : نزلت هذه الآية فى خزاعة وكنانة ، فانهم زعموا أن الملائكة بنات الله .

وهم فى ذلك مخطئون عدة مرات فقد أخطأوا فى شركهم بالله ، وأخطأوا فى ادعائهم أن لله ولدا ـ سبحانه ـ وأخطأوا فى وصف الملائكة بأنهم إناث مع أن الله وصفهم بأنهم

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ (١١٤)

وللملائكة حديث خاص نسوقه فيما يأتى :

---

(١١٣) النحل ٥٧

(١١٤) الأنبياء ٢٦ : ٢٨

عالم الملائكة

- الملائكة في القرآن الكريم .
- فضل الملائكة .
- الحكمة من خلق الملائكة .
- أنواع الملائكة .
- الروح الأمين .
- عداء اليهود لجبريل .
- ملك الموت .
- ما ورد في منكر ونكير .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

جاء فى لسان العرب : الملك ـ بفتح اللام ـ واحد الملائكة . والعلاقة بين الملك والرسالة ، أن الملائكة رسل الله إلى خلقه ، وهم سفراؤه إلى أنبيائه ورسله . والعرب يقولون : ألِكْنى أى أرسلنى (١١٥)

وقال القزوينى : زعموا أن الملك جوهر بسيط ذو حياة ونظر وعقل (١١٦) والملائكة أجسام نورانية . فحكمة الله اقتضت أن يخلق الملائكة من نور والجن من نار ، والإنس من طين ـ وهم جواهر مقدسة عن طلب الشهوة وكدورة الغضب لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقال الحافظ ابن حجر : الملائكة أجسام لطيفة أعطيت القدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، ومسكنها السموات . . . وأبطل قول من قال إن مسكنهم الكواكب ، أو الأنفس الخيرة التى فارقت أجسادها ، وغير ذلك من الأقوال التى لا يوجد فى الأدلة السمعية شىء منها .

قال : وقد جاء فى صفة الملائكة وكثرتهم أحاديث : منها ما أخرجه مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ مرفوعا « خلقت الملائكة من نور » ومنها ما أخرجه الترمذى وابن ماجة والبزار من حديث أبى ذر مرفوعا : « خلقت الملائكة من نور » ومنها ما أخرجه الترمذى وابن ماجة والبزار من حديث أبى ذر مرفوعا : « أطّت السماء وحق لها أن تئط ، مافيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد » ومنها ما أخرجه الطبرانى من حديث جابر مرفوعا : ماق

---

(١١٥) راجع لسان العرب مادة « ألك » و« ملك »

(١١٦) عجائب المخلوقات ص ٥٦

السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد .

وذكر سعيد بن المسيب قال : الملائكة ليسوا ذكورا ولا إناثا ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتزاوجون ولا يتوالدون . وفى قصة الملائكة مع إبراهيم وزوجه سارة حين قرب إليهم العجل فلم يأكلو ما يؤيد أنهم لا يأكلون ولا يشربون (١١٧)

الملائكة فى القرآن

ورد ذكر الملائكة فى القرآن الكريم فى ثلاثة وسبعين موضعا ، كما ورد مفردها وهو لفظ « ملك » فى ثلاثة عشر موضعا . وورد المثنى منه فى موضعين فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ (١١٨)

وفى قوله ـ تعالى ـ حكاية عن قول إبليس ـ لعنه الله ـ مخاطبا آدم وحواء :

﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١١٩)

---

(١١٧) فتح البارى لابن حجر جـ ٦ ص ٣٥٣ باب بدء الخلق
(١١٨) البقرة ١٠٣
(١١٩) الأعراف ٢٠

ومن المواضع التى ورد فيها لفظ الملائكة بالجمع قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١٢٠)

ومن المواضع التى ورد فيها لفظ « ملك » مفردا قوله ـ تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١٢١)

متى خلقت الملائكة ؟

لعل هذه الآية الكريمة

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

تجيب على هذا السؤال . فإن مضمونها يفيد أن الله أخبر ملائكته بإرادته خلق آدم ، ومعنى ذلك أن الملائكة خلقوا قبل آدم .

وقد قال الملائكة متعجبين : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ؟

فأجابهم الحق بقوله :

﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

ومضمون هذه المحاورة يفيد أسبقية الملائكة وأنهم شاهدوا أنواعا من

---

(١٢٠) البقرة ٣٠

(١٢١) الأنعام ٨ : ٩

الخلق على الأرض قد أفسدوا ، فظنوا أن آدم وذريته سوف يكونون كذلك .

جاء فى تفسير القرطبى : ان الملائكة قدرأت وعلمت ماكان من إفساد الجن وسفكهم الدماء ، وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، وقد دخله الغرور من ذلك الوقت . . . . . . ومن هنا جاء قول الملائكة : « أتجعل فيها » على جهة الاستفهام المحض من الحق سبحانه وتعالى . هل هذا الخلق الجديد على طريقة من تقدم من الجن أو لا ؟(١٢٢)

فضل الملائكة

وهذه الآية الكريمة تشير إلى فضل الملائكة ، وأن الله خلقهم للتقديس والتسبيح وأنه لا تقع منهم الخطيئة . وقد وصفهم الله فى القرآن بصفات كثيرة تبين فضلهم ، وفيهم يقول الحق ـ سبحانه تعالى ـ :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾(١٢٣)

وفيهم يقول :

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾(١٢٤)

---

(١٢٢) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٧٤ ط دار الكتب

(١٢٣) الأنبياء ١٩ : ٢٠

(١٢٤) الأنبياء ٢٦ : ٢٨

قال القرطبى : وقد اختلف العلماء أيهما أفضل الملائكة أم بنو آدم ؟

فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة .

وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل . وقد احتج من فضّل الملائكة بأنهم « عباد مكرمون . لا يسبقون بالقول وهم بأمره يعملون » وبأنهم

﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (١٢٥)

وبأن الله قال فى حقهم :

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (١٢٦)

وأشار إلى فضلهم أيضا فى قوله لرسوله - صلى الله عليه وسلم -

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ (١٢٧)

وجاء فى صحيح البخارى : يقول الله - عز وجل :

« من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه »

أما الذين فضلوا المؤمنين الصالحين من البشر على الملائكة فقد احتجوا بقوله - تعالى - :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾ (١٢٨)

---

(١٢٥) التحريم ٦

(١٢٦) النساء ١٧٢

(١٢٧) الأنعام ٥٠

(١٢٨) البينة ٧

- بالهمز من برأ الله الخلق - وبقوله - صلى الله عليه وسلم -
« إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم »(١٢٩)

وبما جاء فى أحاديث من أن الله - تعالى - يباهى بأهل عرفات الملائكة . . . . . ومن المعلوم أنه لا يباهى الا بالأفضل .

والحقيقة أنه لا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة ، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم ، لأن سبيل ذلك خبر الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وإجماع الأمة ، وليس هناك شيء من ذلك مقطوع به . .

وأما من قال بأن الأنبياء أفضل لأن الله - تعالى - أمر الملائكة بالسجود لآدم فيجاب عن ذلك بأنهم سجدوا تنفيذا لأمر الله تعالى واستجابة لطلبه سبحانه . .

ولا خلاف أن السجود لا يكون إلا لله - تعالى - ، لأن السجود عبادة والعبادة لا تكون إلا لله .

وكان الأمر للملائكة بالسجود لآدم معناه : اسجدوا لى مستقبلين وجه آدم ، وهو كقوله - تعالى -

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾(١٣٠)

أى عند دلوك الشمس ، وكقوله :

﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩ ﴾(١٣١)

---

(١٢٩) أخرجه أبو داود
(١٣٠) الاسراء ٧٨
(١٣١) الحجر ٢٩

أى فقعوا لى عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين .

وربما ثار سؤال هنا : إذا لم يكن آدم أفضل من الملائكة فلماذا أمروا بالسجود له ؟

والإجابة عن ذلك تظهر فى أن الملائكة لما ذكروا تسبيحهم بحمد الله وتقديسهم له ، وكأنهم بذلك قد استصغروا شأن آدم ولم يعرفوا خصائص الصنع فيه أمروا بالسجود له تكريما .

وقد فهم بعض العلماء من معنى السجود لأدم تكريمه والإقرار بفضله لأن الله اختاره خليفة فى الأرض وعلمه الأسماء كلها . .(١٣٢)

أما الأصل الذى خلقت منه الملائكة فهو النور قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »(١٣٣)

أى من طين .

وقال عكرمة :

« خلقت الملائكة من نور العزة »

الحكمة من خلق الملائكة :

خلق الله السموات وعمرها بالملائكة ـ قال بعض الحكماء : إن لم يكن فى

---

(١٣٢) راجع فى ذلك تفسير القرطبى جـ١ ص ٢٨٩

(١٣٣) أخرجه مسلم فى باب الزهد ، وأحمد فى مسنده ٦ / ١٦٨

فضاء الأفلاك وسعة السموات خلائق فكيف يليق بحكمة البارى ـ جلت قدرته ـ تركها فارغة مع شرف جوهرها ؟

فإنه لم يترك مقر البحار المالحة المظلمة فارغا حتى خلق فيه أجناس الحيوانات وغيرها ، ولم يترك جو الهواء الرقيق حتى خلق له أنواع الطير ، ولم يترك البرارى اليابسة والآجام والجبال حتى خلق فيها أجناس الهوام والحشرات .

ثم إن الله ـ سبحانه ـ خلق الملائكة لتسبيحه وتقديسه وعبادته ، وجعل منهم حفظة لخلقه ، وخزنة لنعمه ، وسفرة بينه وبين أنبيائه ، ووكل إليهم من الأمور التى لا يمكن أن يقوم بها إلا هم ، لما أعطاهم الله من خصائص ومزايا . .

وإلى بعض هذه الحكم الجليلة يشير الحق ـ سبحانه ـ فى قوله : ـ

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ ﴾ (١٣٤)

وفى قوله :

﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١٣٥)

---

(١٣٤) الرعد ١١ : ١٣

(١٣٥) الأنعام ٦١

وفي قوله :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ (١٣٦)

وقوله

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) ﴾ (١٣٧)

جاء في كتب التفسير عند قوله ـ تعالى ـ « له معقبات » أن لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ، إذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وهؤلاء هم الحفظة الذين يحفظون الإنسان مما يضره .

قال القرطبي : جاء رجل من ـ مراد ـ إلى علي بن أبي طالب فقال : احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك . فقال علي : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله ، وإن الأجل حصن حصينة .

قصة في مناسبة آية البرق :

وفي تفسير قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾ (١٣٨)

---

(١٣٦) ق ١٦ : ١٨

(١٣٧) ق ٢١

(١٣٨) الرعد ١٢ : ١٣

ذكرت هذه القصة ـ نسوقها للذكرى والعظة . . . .

كان رجل من طواغيت العرب ، بعث إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفرا يدعونه إلى الإسلام ، فقال لهم : أخبرونى عن رب محمد ماهو؟ ومم هو؟ أمن فضة أم من حديد أم من نحاس ؟

فاستعظم القوم مقالته . فقال : أأجيب محمدا إلى رب لا يعرفه ؟ .

فبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه مرارا وهو يقول مثل هذا . فبينما النفر ينازعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم ، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة . فأحرقت الكافر وهم جلوس .

فرجعوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستقبلهم بعض أصحابه ، فقالوا : احترق صاحبكم ؟

فقالوا : من أين علمتم ؟

قالوا : أوحى الله إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله . . »

وهناك قصة أخرى حول هذه الآية :

أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة العامريان يريدان النبى ـ صلى الله على وسلم ـ وهو فى المسجد جالس فى نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر ـ وكان أعور ـ وكان من أجمل الناس .

فقال رجل من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا يارسول الله عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك .

فقال : دعه فإن يرد الله به خيرا يهده .

فأقبل حتى وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يامحمد مالى إن أسلمت ؟

قال : لك ماللمسلمين وعليك ماعلى المسلمين .

قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟

قال : ليس ذاك إلىَّ ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء .

قال : أفتجعلنى على الوبر وأنت على المدر ؟(١٣٩)

قال : لا .

قال : فما تجعل لى ؟

قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها فى سبيل الله .

قال : أو ليس لى أعنة الخيل اليوم ؟ قم معى أكلمك . فقام معه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان عامر قد أومأ إلى أربد : إذا رأيتنى أكلمه فَدُر من خلفه واضربه بالسيف .

فجعل عامر يخاصم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويراجعه . فأخرج أربد من سيفه شبرا ثم حبسه الله ـ تعالى ـ فلم يقدر على سله ويبست يده على سيفه ، وأرسل الله عليه صاعقة فى يوم صاف صاح فأحرقته .

وولى عامر هاربا . وقال : يامحمد دعوت ربك على أربد حتى قتله ، والله لأملأنها عليك خيلا جردا وفرسانا مردا .

فقال ـ عليه السلام ـ يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة ـ يعنى الأوس والخزرج .

فنزل عامر بيت امرأة سلولية ، وأصبح وهو يقول : والله لئن

---

(١٣٩) الوبر : البادية ، المدر : الحضر

أصحر[١٤٠] لى محمد وصاحبه ـ يريد ملك الموت ـ لأنفذتهما برمحى .

فأرسل الله ملكا فلطمه بجناحه فأوقعه على التراب ، وخرجت على ركبته غدّة عظيمة فى الوقت .

فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول : غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية . ثم ركب فرسه فمات على ظهره .

والشاهد فى هذه القصة أن الملائكة من جند الله يسلطهم الله على من يشاء من عباده ، ويقتص بهم ممن يشاء . وهذه بعض الحكمة من خلقهم .

استطراد لطيف

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فلا بأس من الإفادة من توجيهات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند رؤية الصواعق والرعود فقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الصاعقة لا تأكل ذاكراً لله ـ عز وجل ـ

وذكر أبو هريرة قال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سمع صوت الرعد يقول :

« سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شىء قدير »

وروى عبدالله بن عباس قال : كنا مع عمر فى سفر فأصابنا رعد وبرد ، فقال لنا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ثلاثا ـ عوفى مما يكون فى ذلك الرعد ، ففعلنا فعوفينا ـ ثم لقيت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فإذا بردة . قد أصابت

---

(١٤٠) أصحر الرجل : إذا خرج إلى الصحراء

أنفه فأثرت فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بردة أصابت أنفى فأثرت . فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ـ ثلاثا ـ عوفى مما يكون فى ذلك الرعد فقلنا فعوفينا . . فقال عمر أفلا قلتم لنا حتى نقولها ؟ .

ما قيل فى عدد الملائكة :

ومن المجازفة تحديد عدد الملائكة ، فالله ـ جلا وعلا ـ يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١٤١)

والحديث الشريف يقول : « أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها قدر شبر إلا وفيه ملك راكع أو ساجد »

وقد ورد فى حديث الإسراء أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه بعد ذلك .

وفى معنى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

قال القرطبى : أى ما يدرى عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار إلا هو . وهذا جواب لأبى جهل حين قال : أما لرب محمد من الجنود إلا تسعة عشر ؟ وذلك حين نزل قوله تعالى فى شأن جهنم

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١٤٢)

---

(١٤١) المدثر ٣١

(١٤٢) المدثر ٣٠

وعن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم كان يقسم غنائم حنين ، فأتاه جبريل فجلس عنده ، فأتى ملك فقال : إن ربك يأمرك بكذا وكذا . فخشى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون شيطانا ـ فقال : يا جبريل ، أتعرفه ؟

فقال : هو ملك وما كل ملائكة ربك أعرف .

وقال الأوزاعى : قال موسى : يارب من فى السماء ؟

قال : ملائكتى .

قال : كم عدتهم يارب ؟

قال : اثنى عشر سبطا .

قال : كم عدة كل سبط ؟

قال : عدد التراب . .



وقد قيل : ما من ذرة من ذرات العالم إلا وقد وكل بها ملك أو ملائكة ، وما من قطرة إلا ومعها ملك ينزل بها من السحاب ويدعها فى المكان الذى قدر الله ـ تعالى ـ

« هذا حال الذرات والقطرات ، فما ظنك بالأفلاك والكواكب والهواء والغيوم والرياح والأمطار والجبال والقفار والبحار والعيون والأنهار والمعادن والنبات والحيوان ؟ »[١٤٣]

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن الوحى الإلهى له ملائكة ينزلون به ، وملائكة يشيعون بعض الآيات والسور التى كانت تنزل ، حتى قيل إن

---

(١٤٣) عجائب المخلوقات ص ٥٦

بعض الآيات كان يشيعها سبعون ألف ملك وبعضها يشيعها أربعون ألف ملك . . .

إن عددهم يفوق الحصر حقا وإنهم ليقفون صفوفا مسبحين الحق ـ سبحانه وتعالى ـ كما أخبروا عن أنفسهم فى قوله ـ تعالى

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾

وفى تفسيرها ورد عن ابن عباس قوله : مافى السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلى ويسبح ، وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : قال النبى صلى الله عليه وسلم ـ مافى السماء موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم .



حول أصناف الملائكة

وقد ورد فى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأخبار الصحيحة ـ ما يفيد وجود أصناف من الملائكة ، لكل صنف منهم دور معلوم ومقام معلوم فمن هذه الأصناف :

حملة العرش

وفى حق حملة العرش يقول الله ـ تعالى ـ

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) ﴾ (١٤٥)

---

(١٤٤) الصافات ١٦٥ : ١٦٦

(١٤٥) الحاقة ١٧

واختلف العلماء حول تفسير العدد . فقال ابن عباس : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله .

وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك .

وأورد القرطبى قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« إن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين فكانوا ثمانية »(١٤٦)

وقال تعالى

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾

فقوله « يومئذ » أى يوم القيامة .

وقال العباس بن عبدالملك : هم ثمانية أملاك . وفى الحديث : « إن لكل ملك منهم أربعة أوجه ، وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر ، وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس .

وقال القزوينى(١٤٧) : حملة العرش هم أعز الملائكة وأكرمهم على الله تعالى ـ تتقرب إليهم سائر الملائكة ويسلمون عليهم بالغدو والرواح لمكانتهم عند الله تعالى ، وهم يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا . .

وهذا ما تشير إليه تلك الآيات الكريمة

---

(١٤٦) أورده القرطبى عن الثعلبى وأخرجه الماوردى عن أبى هريرة رضى الله عنه
(١٤٧) عجائب المخلوقات ص ٥٦

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (١٤٨)

وحملة العرش يتلذذون بتسبيح الله تعالى وهم الذين قال الله فى حقهم :

﴿ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (١٤٩)

وقد ورد عن النبى - صلى الله عليه وسلم أنه قال - فيما أخرجه أبو داود - : « أذن لى أن أحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه فى الأرض السفلى وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنه وعاتقة خفقان الطير سبعمائة سنة ، يقول ذلك الملك : سبحانك حيث كنت »

وروى الامام أحمد عن العباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوسا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبطحاء فمرت سحابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : « أتدرون ما هذا ؟ »

قال : قلنا السحاب . قال : « والمزن » قلنا : والمزن . قال : « والعنان »

---

(١٤٨) غافر ٧ : ٩

(١٤٩) الزمر ٧٥

قال : فسكتنا . فقال : « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ »
قال : قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : « بينهما مسيرة خمسمائة ، سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شىء »(١٥٠)

ومعنى « فوقهم » فى قوله تعالى :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾

أى فوق رءوسهم . قال السدى :

العرش تحمله الملائكة فوق رءوسهم ـ وقدرة الله تحمل هؤلاء الحملة

الروح الأمين

قال ـ تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾(١٥١)

قيل هو جبريل ـ عليه السلام ـ لأنه هو الذى كان ينزل بالقرآن على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرى القزوينى : أن الروح الأمين ليس هو جبريل ، وإنما هو ملك يقوم صفا والملائكة كلهم صفا لكرامته عند الله ـ

---

(١٥٠) عالم الملائكة ص٥٠ وأخرجه أحمد فى مسنده ١ / ٢٠٦ وغيره
(١٥١) الشعراء ١٩٣ : ١٩٤

تعالى وعظمته ، وإنما سمى روحا ـ لأن كل نفس من أنفاسه يصير روحا لحيوان ، وقد وكله الله تعالى بإدارة الأفلاك وحركات الكواكب ، وبما تحت فلك القمر من العناصر والمعادن والنبات والحيوان ، وهو أكبر من الفلك وأقوى منه وأعظم وأشرف ، وأعلى من الجسمانيات ، وهو قادر على تسكين الأفلاك ، كما هو قادر على تحريكها[152]

لقد نظر القزوينى فى فهمه هذا إلى قوله ـ تعالى ـ :

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾﴾[153]

وقد أشار القرطبى فى تفسيره إلى أقوال : العلماء فى المقصود بالروح فى هذه الآية . وذكر فى ذلك كثيرا من الأقوال : ـ

● أحدهما أنه ملك من الملائكة ـ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ما خلق الله مخلوقا بعد العرش أعظم منه . فإذا كان يوم القيامة قام هو وحده صفا وقامت الملائكة كلهم صفا ، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم ـ وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قول يشبهه ـ فقد قال : الروح ملك أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال . .

يجىء يوم القيامة وحده صفا وسائر الملائكة صفا .

● ثانيها : أنه جبريل ـ عليه السلام ـ وجاء هذا الوصف واضحا له فى الآية التى ذكرناها آنفا :

---

(١٥٢) عجائب المخلوقات ص ٥٧

(١٥٣) النبأ ٣٨ : ٣٩

« نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين »

روى : أنه عن يمين العرش نهر من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع . يدخل جبريل كل يوم سحرا فيغتسل فيه فيزداد نورا على نور وجمالا على جمال وعظما على عظمه . .

● ثالثا : روى عن ابن عباس أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : الروح فى هذه الآية :

أى قوله تعالى

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ ﴾

جند من جنود الله - تعالى - ليسوا من الملائكة ، لهم رءوس وأرجل يأكلون الطعام . فهم خلق على صورة بنى آدم كالناس وليسوا بالناس

● رابعها : أنهم أشراف الملائكة .

● خامسها : أنهم حفظة على الملائكة

● سادسها : المقصود بالروح أرواح بنى آدم تقوم صفا فتقوم الملائكة صفا ، وذلك بين النفختين ، قبل أن ترد الأرواح إلى الأجساد .

عظماء الملائكة :

ذكر العلماء أن عظماء الملائكة أربعة وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وهو « ملك الموت »

وقد جاء اسم جبريل وميكائيل فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : -

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (١٥٤)

قال تعالى :

وقد وصف جبريل فى القرآن بعدة صفات ، فهو الروح الأمين ، وهو الروح القدس ، وهو شديد القوى وهو ذو مرة ، وهو مطاع ، وهو أمين ، وهذه بعض الآيات التى وردت فيها صفاته : ـ

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (١٥٥)

وقال تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (١٥٦)

وقال تعالى :

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ (١٥٧)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (١٥٨)

---

(١٥٤) البقرة ٩٧ : ٩٨
(١٥٥) الشعراء ١٩٣ : ١٩٤
(١٥٦) البقرة ٨٧ : ٢٥٣
(١٥٧) النجم ٥ ، ٦
(١٥٨) التكوير ١٩ : ٢١

وقد وصف جبريل ـ عليه السلام ـ بالقوة ، لأن الله أيده بها ، وقد بلغ من شدة قوته أنه استطاع أن يرفع على جناحه مدائن قوم لوط حتى بلغ بها عنان السماء ، وحتى سمعت الملائكة صياح الديكة ونباح الكلاب ، ثم قلبها بمن فيها وما فيها فجعل عاليها سافلها .

عداء اليهود لجبريل

صرح القرآن الكريم بعداوة اليهود لجبريل ، وقد بدءوا هم بالعداوة بشقاوتهم التى كتبها الله عليهم ـ وقد سبقت الاشارة فى حديثنا عن الروح أن اليهود قالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من أخبرك بهذا القول أى فى شأن الروح ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : جبريل . فقالوا : هذا عدونا .

قال ابن جرير الطبرى : أجمع أهل العلم بالتأويل أن قوله ـ تعالى ـ ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

نزل جوابا لليهود من بنى إسرائيل ، حين زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولىٌّ لهم »

ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك .

● فقال بعضهم : إنما كان السبب من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر نبوته ـ

وذكر ابن كثير هذه المناظرة فقال :

حضرت عصابة من اليهود إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لايعلمهن إلا نبى . فقال

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سلوا عما شئتم ، ولكن اجعلوا لى ـ عهد الله وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه أن تبايعونى على الاسلام .

فقالوا : ذلك لك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سلونى عما شئتم .

فقالوا : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة .

وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى النوم . ووليه من الملائكة

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم أن تتبعونى فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق .

فقال : ناشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن اسرائيل (يعقوب) مرض مرضا شديدا فطال سقمه منه ، فنذر لله نذرا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان ذلك لحوم الابل وألبانها .

فقالوا : اللهم نعم . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم اشهد عليهم .

قال : ناشدتكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟

قالوا : اللهم نعم .

قال : اللهم اشهد

قالوا : أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة ؟ فعندها نكون معك أو نفارقك .

قال : فإن وليى جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط الا وجبريل وليه .

قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك .

قال : فما منعكم أن تصدقوه ؟

قالوا : إنه عدونا . فأنزل الله عز وجل الآية :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ ﴾(١٥٩)

وقال بعضهم : بل كان قول اليهود ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم فى أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأورد ابن كثير روايات فى ذلك منها عن الشعبى قال : نزل عمر الروحاء ، فرأى رجالا يبتدرون أحجارا يصلون إليها . فقال : ما هؤلاء ؟

قالوا : يزعمون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى ههنا .

قال : فكره ذلك ، وقال : إنما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدركته الصلاة فصلاها ثم ارتحل ، فتركه ـ ثم أنشأ يحدثهم فقال : كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم ـ كنيستهم ـ فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدق التوراة . فبينما أنا عندهم ذات يوم ، فقالوا : يابن الخطاب ، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك .

قلت : ولم ذلك ؟

---

(١٥٩) رواه الإمام أحمد فى مسنده من عدة طرق ورواه الترمذى والنسائى وغيرهما .

قالوا : إنك تغشانا وتأتينا .

قلت : إنى آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان . .

قال : ومر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يابن الخطاب ، ذاك صاحبكم فالحق به .

قال : فقلت لهم عند ذلك : نشدتكم بالله الذى لا إله إلا هو وبما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله ؟

قال : فسكتوا . فقال عالمهم وكبيرهم : إنه قد استحلفكم بالله فأجيبوه .

فقالوا : أنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت .

قال : أما إذ نشدتنا بما نشدتنا به فإنا نعلم أنه رسول الله .

قال : قلت : ويحكم فأنى هلكتم ؟

قالوا : إنا لم نهلك .

قلت : كيف ذاك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ؟

قالوا : إن لنا عدوا من الملائكة وسلما من الملائكة ، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة .

قال : قلت : ومن عدوكم ؟ ومن سلمكم ؟

قالوا : عدونا جبريل ، وسلمنا ميكائيل .

قال : قلت : وفيم عاديتم جبريل ؟ وفيم سالمتم ميكائيل ؟

قالوا : إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والاعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا وإنما ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا .

قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما - عز وجل - ؟

قالوا : أحدهما عن يمينه والأخر عن يساره .

قال : قلت : فوالذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما ، ما ينبغى لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل ، وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبريل .

قال : ثم قمت فاتبعت النبى - صلى الله عليه وسلم - فلحقته وهو خارج من خوخة لبنى فلان . أى طريق ضيق بين بناءين - فقال : يابن الخطاب ، الا أقرأ عليك آيات نزلن قبل ؟ فقرأ علىَّ :

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

قال : قلت : بأبى وأمى يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك . فأسمعُ اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر(١٦٠)

رؤية النبى جبريل على صفته

وقد رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - جبريل على صفته التى خلقه الله عليها ، فقد روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - صلى

---

(١٦٠) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٨٨ ط دار الشعب

الله عليه وسلم ـ رأى جبريل له ستمائة جناح .

وقد سبقت الاشارة إلى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلب من جبريل أن يراه على صورته الحقيقية ، فرآه فغشى عليه .

وحين فتر الوحى واهتم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآه بين السماء والأرض . قال فيما يرويه البخارى ـ : فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى قِبل السماء فإذا الملك الذى قد جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلى فقلت : دثرونى دثرونى . فأنزل الله :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾

وقيل إن بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم رآه على حقيقته . ذكر ابن سعد فى ترجمة حمزة بن عبد المطلب أن حمزة سأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريه جبريل فى صورته ـ فقال :

إنك لاتستطيع أن تراه .

قال : بلى

قال : فاقعد مكانك

قال : فنزل جبريل على خشبة فى الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا بالبيت . فقال : ارفع طرفك فانظر ، فنظر فإذا قدماه مثل الزبرجد الأخضر فخر مغشيا عليه(١٦١)

وقد وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل لورقة بن نوفل حين سأله عنه .

---

(١٦١) الطبقات الكبرى جـ٣ قسم ١ ص ٦

فقد قال ورقة : يا محمد أخبرني عن هذا الذي يأتيك ـ يعني جبريل عليه السلام ـ فقال : يأتيني من السماء جناحاه من لؤلؤ وباطن قدميه أخضر[١٦٢] .

ولكن هذا الوصف في صورة مبسطة . وإلا فصورته الحقيقة تسد الأفق .

ولذلك كان يأتي جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ـ في غير الصورة الحقيقية التي خلقه الله عليها ، وكان كثيرا ما يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي . وقد سبق الحديث في ذلك .

وصف إسرافيل

وإسرافيل ـ عليه السلام ـ هو مبلغ الأوامر ونافخ ، الأرواح في الأجساد . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وأصغى بالأذن حتى يؤمر فينفخ ؟

والقرن هو الصور الذي ينفخ فيه إسرافيل ، وإليه الاشارة في قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[١٦٣]

قال القزويني : وهو ـ أي إسرافيل ـ شاخص ببصره نحو العرش ينظر

---

(١٦٢) أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٤٧

(١٦٣) الزمر ٦٨

متى يؤمر فينفخ ، فإذا نفخ صعق من فى السموات والأرض إلا من شاء الله .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : قلت لكعب الأحبار ـ رضى الله عنه ـ : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « يا رب جبريل وميكائيل وإسرافيل » أما جبريل وميكائيل فسمعت بهما فى القرآن ، وأما إسرافيل فأخبرنى عنه .

فقال كعب : إنه ملك عظيم الشأن له أربعة أجنحة ، أحدها يسد به المشرق والآخر يسد به المغرب ، والثالث ينزل به من السماء إلى الأرض ، والرابع التثم به من عظمة الله ـ تعالى ـ قدماه فى الأرض السابعة ، ورأسه ينتهى إلى أركان قوائم العرش . .

فسبحان الخالق البارىء المصور[164]

وقد مر بنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل : إنى أحب أن أراك على صورتك التى صورك الله فيها . .

فقال : إنك لاتطيق ذلك .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أرنى . فواعده جبريل ـ عليه السلام ـ بالبقيع فى ليلة مقمرة ، فأتاه فنظر إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هو قد سد الأفق فوقع مغشيا عليه . فلما أفاق ، عاد جبريل ـ عليه السلام ـ إلى

---

(١٦٤) عجائب المخلوقات ص ٥٧

صورته التى يأتيه عليها فقال - صلى الله عليه وسلم - : ما ظننت أن أحدا من خلق الله - تعالى - هكذا .

فقال له جبريل : كيف لو رأيت إسرافيل وان العرش لعلى كاهله وان رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله - تعالى - حتى يصير كالوصع(١٦٥) - الوصع العصفور الصغير -

روى الطبرانى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعه جبريل إذ انشق أفق السماء فأقبل إسرافيل يدنو من الأرض فإذا ملك قد مثل أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تختار بين نبى عبد أو ملك نبى ؟

فأشار جبريل إلىَّ بيده أن تواضع ، فعرفت أنه لى ناصح . فقلت : عبد نبى

فعرج ذلك الملك إلى السماء ، فقلت : يا جبريل قد كنت أردت أن أسألك عن هذا فرأيت من حالك ما شغلنى عن المسألة . فمن هذا يا جبريل ؟

قال : هذا إسرافيل - عليه السلام - خلقه الله يوم خلقه بين يديه صافا قدميه لايرفع طرفه ، بينه وبين الرب سبعون نورا ، ما منها من نور يكاد يدنو منه إلا احترق . . . . بين يديه لوح ، فإذا أذن الله فى شىء من السماء أو فى الأرض ارتفع ذلك اللوح فضرب جبهته فينظر ، فإن كان من عملى

---

(١٦٥) حياة الحيوان للدميرى جـ٢ ص ٦٩٩

أمرنى به ، وإن كان من عمل ميكائيل أمره به ، وان كان من عمل ملك الموت أمره به .

قلت : يا جبريل ، وعلى أى شيء أنت ؟

قال : على الريح والجنود

قلت : وعلى أى شيء ميكائيل ؟

قال : على النبات والقطر .

قلت : وعلى أى شيء ملك الموت ؟

قال : على قبض النفس ، وما ظننت أن إسرافيل نزل إلا لقيام الساعة ، وما الذى رأيت منى إلا خوفا من قيام الساعة . .(١٦٦)

ميكائيل :

أما ميكائيل ـ عليه السلام ـ فهو موكل بالأرزاق للأجساد والحكمة والمعرفة للنفوس .

ذكر القزوينى عن كعب الأحبار قال : فى السماء السابعة البحر المسجور ، وعليه من الملائكة ما شاء الله ، وميكائيل قائم على البحر المسجور ، لايعرف وصفه وعدد أجنحته إلا الله ـ تعالى ـ ولو أنه أشرف على أهل السموات والأرض لاحترقوا من نوره ، وله أعوان موكلون على جميع العالم من شأنهم إحداث قوة النهوض فى الأركان والكائنات وغيرها من الأمور التى بها الوصول إلى الغايات وبلوغ الكمال فى الكائنات بأمر من الله ـ عز وجل (١٦٧) .

---

(١٦٦) عالم الملائكة ص ٣٦

(١٦٧) عجائب المخلوقات ص ٥٨

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل : ما لى لم أر ميكائيل ضاحكا قط ؟

فقال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار[١٦٨]

عزرائيل

وهو ملك الموت ، الذى يفرق الأرواح من الأجساد .

قال كعب الأحبار : عزرائيل فى سماء الدنيا ورجلاه فى تخوم الأرضين ورأسه فى السماء العليا ، ووجهه مقابل للوح المحفوظ ، وله أعوان يعينونه على أداء مهمته ، وإلى ذلك يشير الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[١٦٩]

وبقوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[١٧٠]

ذكروا أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ سأل ملك الموت فقال له : ماذا تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ، ووقع الوباء بأرض ، والتقى الزحفان بأخرى ؟

---

(١٦٨) مسند أحمد ٢ / ٢٣١ وأخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان

(١٦٩) الأنعام ٦١

(١٧٠) النساء ٩٧

فقال : أدعو الأرواح بإذن الله ـ تعالى ـ فتكون بين اصبعى هاتين .

سليمان يتمنى رؤية ملك الموت

وروى القزوينى عن وهب بن منبه أن سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ تمنى أن يرى ملك الموت ليتخذه صديقاً ، فلم يشعر سليمان حتى أتاه كأنه خرج من تحت سريره . فقال له سليمان : من أنت ؟

فقال : ملك الموت .

فصعق سليمان ـ عليه السلام ـ فلما رأى ملك الموت ذلك قال : اللهم إن عبدك سليمان تمناني ونزل به ما ترى ، اللهم إنى أسألك أن تقويه على رؤيتى . فأوحى الله ـ تعالى ـ أن ضع يدك على صدره ..

ففعل ذلك فأفاق سليمان ـ عليه السلام ـ وقال : يا ملك الموت إنى أراك عظيم الخلق . أَوَ كُلُّ الملائكة مثلك ؟

فقال : والذى بعثك بالحق نبياً إن منهم لمن هو أعظم من ذلك ، ومن يستطيع أن يطبق على ما بين السماء والأرض ـ بإذن الله . .

فقال له سليمان ـ عليه السلام ـ: لقد وصفت أمراً عظيماً .

فقال له : كيف لو رأيتنى على صورتى التى أقبض فيها أرواح الكفار ؟

فصار ملك الموت صديقاً لسليمان يزوره كل خميس ويقعد معه إلى أن تزول الشمس . فقال له سليمان ـ عليه السلام ـ يوماً : ما لى أراك لا تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا ؟

فقال عزرائيل : ليس المسئول بأعلم من السائل . إنما هى كُتُب فيها

أسماء المقبوضين تلقى إليّ ليلة الصك ـ يعنى ليلة النصف من شعبان ـ إلى مثلها من السنة القابلة .

فأما أهل التوحيد فأقبض أرواحهم بيمينى فى حريرة بيضاء مغموسة فى المسك وترفع إلى عليين ، وأما أهل الكفر فأقبض أرواحهم بشمالى فى سربال من قطران وتنزل إلى سجين ، وأمرهم إلى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون .

ومن القصص التى تحتوى على عبرة ما يرويه القزوينى أيضاً عن الأعمش عن خيثمة قال :

دخل ملك الموت على سليمان ـ عليهما السلام ـ فجعل ينظر إلى أحد جلسائه ويديم النظر إليه . فلما خرج ملك الموت قال الرجل : يا نبى الله من كان هذا ؟

قال : انه ملك الموت .

قال : رأيته ينظر إلىّ كأنه يريدنى ، أريد أن تخلصنى منه بأن تأمر الريح لتحملنى إلى أقصى بلاد الهند .

فأمر سليمان الريح بذلك ففعلت . فلما عاد ملك الموت إلى سليمان ـ عليه السلام ـ قال له : رأيتك تديم النظر إلى بعض جلسائى .

قال : كنت أعجب منه لأنى أمرت أن أقبض روحه بأقصى بلاد الهند فى ساعة قريبة ورأيته عندك .

وقال وهب : قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ، فقالت الملائكة لملك الموت : لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت أرواحهم ؟

فقال : أمرت بقبض روح امرأة فى فلاة من الأرض ، فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه فى فلاة لا أحد بها .

فقالت الملائكة : الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود .

فقال ملك الموت : سبحان اللطيف بعباده .

قال العلماء : واسم ملك الموت عزرائيل ومعناه بالعربية عبد الجبار ، ويحكى أن تكليفه بهذه المهمة الشاقة كان لأنه لم يرحم الأرض حين عاذت بالله منه حين جاء ليقبض منها قبضة .

وقصة ذلك كما حكاها ابن مسعود فى قصة خلق آدم : بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تأخذ منى شيئاً ، فرجع ولم يأخذ وقال : يارب قد عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت بالله منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث الله ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد . فقال الله تعالى له :

« أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك وعاذت بى » ؟

فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . . . فوكل إليه الحق سبحانه وتعالى ـ قبض أرواح ولد آدم(١٧١) .

النبى يخبر عن مهمة ملك الموت

روى الامام أحمد عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جنازة رجل من الأنصار ، فأنتهينا إلى القبر ولمَّا يلحد ،

---

(١٧١) تفسير القرطبى جـ١ ص ٢٨٠

فجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به فى الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : « ان العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وخيوط من خيوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .

قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ـ بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه ـ فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقول الله :

« اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى »

قال : فتعاد روحه إلى جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟

فيقول : ربى الله .

فيقولان له : ما دينك ؟

فيقول : ديني الاسلام .

فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟

فيقول : هو رسول الله .

فيقولان له : وما علمك ؟

فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت .

فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة . قال : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول :

أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد .

فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير .

فيقول : أنا عملك الصالح .

فيقول : رب أقم الساعة حتى آتى إلى أهلى وأحبابى .

قال ـ أى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وان العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء غلاظ شداد معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب .

قال : فتفرق فى جسده فينتزعها بقوة وشدة ، فيأخذها . . فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن

ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟

فيقولون :

فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهى به الى السماء الدنيا فيستفتح له . فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

(١٧٢)

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾

فيقول الله - عز وجل - :

« اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى »

فتطرح روحه طرحاً . ثم قرأ :

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (١٧٣)

فتعاد روحه في جسده . ويأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولون له : من ربك ؟

فيقول : لا أدرى .

فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟

فيقول : لا أدرى .

---

(١٧٢) الأعراف ٤٠

(١٧٣) الحج ٣١

فينادى مناد من السماء : أن كذب ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له باباً الى النار ـ فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب ، منتن الريح . فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد .

فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر .

فيقول : أنا عملك الخبيث .

فيقول : رب لا تقم الساعة(١٧٤)

النبى يوصى ملك الموت بأصحابه

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رءوفاً بأصحابه ، فكان إذا عاين محتضراً منهم يوصى به ملك الموت خيراً ، وكان ملك الموت يستجيب له .. أخرج الطبرانى فى الكبير قال :

روى ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : نظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا ملك الموت ارفق بصاحبى فإنه مؤمن »

فقال ملك الموت :

يا محمد ، طب نفساً وقر عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا أتفحصهم فى كل يوم خمس مرات ، حتى انى أعْرَف بصغيرهم وكبيرهم من أنفسهم ، والله يا محمد لو

---

(١٧٤) مسند الإمام أحمد ٤ / ٢٨٧

أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها(١٧٥)

بين موسى وملك الموت ـ عليهما السلام

أخرج البخارى فى كتاب بدء الخلق فى خبر مسند الى أبى هريرة رضى الله عنه ـ قال : أرسل ملك الموت إلى موسى ـ عليهما السلام ـ فلما جاءه صكَّه . فرجع إلى ربه فقال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت . قال : ارجع إليه ، فقل له : يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة .

قال موسى : أى رب ، ثم ماذا ؟

قال : ثم الموت .



قال : إذن فالآن .

قال : فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر .

قال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

« لو كنت ثمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر »(١٧٦)

الملائكة الكروبيون

وهم الملائكة العاكفون فى حظيرة القدس لا التفات لهم إلى غير الله

---

(١٧٥) عالم الملائكة ص ٣٩ وورود هذا الخبر فى أسد الغابة جـ ٢ ص ١٣٢ فى ترجمة خزرج أبى الحارث

(١٧٦) وأخرجه البخارى أيضاً فى كتاب الجنائز ومسلم فى باب فضائل موسى وفى كتاب الأحاديث القدسية جـ ٢ ص ١٨ برقم ٣٠٨

تعالى ، لاستغراقهم بجمال حضرة الربوبية - يسبحون الليل والنهار لا يفترقون . جاء فى الخبر : أن لله تعالى أرضاً بيضاء مسيرة الشمس فيها ثلاثون يوماً محشوة خلقاً من خلق الله ، لا يعلمون أن الله تعالى يُعْصَى طرفة عين . قالوا : يا رسول الله : أمن ولد آدم هم ؟

قال : لا يعلمون أن الله - تعالى - خلق آدم .

قيل : يا رسول الله ، أنّى غفل عنهم إبليس ؟

قال : لا يعلمون أن الله - تعالى - خلق إبليس ، ثم تلا قوله - تعالى -

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ [١٧٧]

ذكر هذا الخبر القزوينى فى عجائب المخلوقات[١٧٨] .

وقد فهم بعض العلماء من قوله - تعالى لإبليس -

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥ ﴾ [١٧٩]

أن العالين هم الكروبيون . وهم أعلى الملائكة وذكر ابن منظور فى لسان العرب قال : الملائكة الكروبيون هم أقرب الملائكة إلى حملة العرش . واسمهم مشتق من العلو والارتفاع . نسبة إلى كَرَب النخل وهو أصول السعف .

ملائكة السموات السبع

قال القزوينى ناقلاً عن كعب الأحبار : هم ملائكة مداومون على التسبيح

---

(١٧٧) النحل ٨

(١٧٨) عجائب المخلوقات ص ٥٩

(١٧٩) ص ٧٥

والتهليل فى القيام والقعود ، والركوع والسجود ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون حتى تقوم الساعة ، فإذا قامت الساعة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن للملائكة صوراً مختلفة ولكل جنس منهم ملك موكل عليهم ، فمنهم من هم على صورة العُقاب والموكل عليهم اسمه « ميخائيل » ، ومنهم من هم على صورة النسر ، والموكل عليهم اسمه « صاعديائيل » ومنهم من هم على صورة الخيل والموكل عليهم اسمه « صلصائيل » ومنهم من هم على صورة الحور العين والموكل عليهم اسمه « كلكائيل » ومنهم من هم على صورة الآدميين ، والموكل عليهم اسمه « روفائيل »

ولكل طائفة من هؤلاء سماء يقيمون فيها .

ويلاحظ أن نهاية كل اسم من أسماء الملائكة ياءولام . فذلك نسبة الى الله ـ جل وعلا ـ لان « إيل » اسم الله .

جاء فى تفسير ابن كثير عن ابن عباس : إنما قوله جبريل كقوله عبد الله وعبد الرحمن وقيل : جبر : عبد ، وإيل : الله . وقال محمد بن اسحاق عن الزهرى عن على بن الحسين : أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم ؟

قلنا : لا . قال : اسمه عبد الله .

قال : فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم ؟

قلنا : لا . قال : اسمه عبيد الله . وكل اسم مرجعه إلى « إيل » فهو الى الله(١٨٠) .

---

(١٨٠) تفسير ابن كثير جـ١ ص ١٩٠

قال وهب : وفوق السموات السبع حجب فيها ملائكة لا يعرف بعضهم بعضاً لكثرتهم يسبحون الله ـ تعالى ـ بلغات مختلفة كالرعد القاصف .(١٨١)

الحفظـــــة :

قال ـ تعالى ـ

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾(١٨٢)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ ﴾(١٨٣)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾(١٨٤)

فهذه الايات الكريمة تشير الى الملائكة الحفظة الذين وكل الله إليهم حفظ خلقه .

إنهم ملائكة يحفظون أعمال العباد ويحفظونهم من الآفات .

قال القرطبي : لكل انسان ملكان بالليل وملكان بالنهار ، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر ، وإذا مشى الانسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه ، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله لقوله تعالى :

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾(١٨٥) .

---

(١٨١) عجائب المخلوقات ص ٦٠

(١٨٢) الأعراف ٦١

(١٨٣) الانفطار ١٠ : ١١

(١٨٤) الرعد ١١

(١٨٥) ق ١٧

وقيل : إن لكل انسان خمسة من الملائكة : اثنان بالليل ، واثنان بالنهار ، والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، وقال عمر بن الخطاب :

ومن الناس من يعيش شقيا — جاهل القلب غافل اليقظة
فإذا كان ذا وفاء ورأى — حذر الموت واتقى الحفظة
إنما الناس راحل ومقيم — فالذى بان للمقيم عظة[١٨٦]

وفى تفسير قوله ـ تعالى ـ :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾

قال كعب فيما يرويه القرطبى : « لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن ـ وخصهم بأن قال « من أمر الله » لأنهم غير معاينين ، أى ليس ممن تشاهدونه أنتم . وفى الكلام تقديم وتأخير نبه إليه بعض النحويين والبلغاء ، فقالوا : التقدير « له معقبات من أمر الله يحفظونه »[١٨٦] .

دخل عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ، أخبرنى عن العبد كم معه من ملك ؟

قال : « ملك عن اليمين يكتب الحسنات ، وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذى على اليمين أمير على الذى على الشمال . فإذا عمل العبد حسنة كتبت عشراً ، وإذا عمل سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين : أأكتب ؟ قال : لا لعله يستغفر الله تعالى ويتوب ـ فإذا قال ثلاثاً .

قال : نعم ، اكتب أراحنا الله منه ، فبئس العبد هو ، ما أقل مراقبته لله

---

(١٨٦) تفسير القرطبى سورة الأنعام ص ٢٤٤٢ ط دار الشعب ـ معنى ـ بان ـ رحل

عز وجل ـ وما أقل استحياءه منا . . ويوضح هذا قوله : ـ تعالى ـ :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾(١٨٧)

وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول ـ تعالى ـ

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله »

وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفعك وإذا تجبرت على الله قصمك .

وملكان على شفتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ وآله . وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملكان على عينيك .

فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتداولون ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، لأن ملائكة الليل ليسوا ملائكة النهار . فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمى ، وإبليس مع ابن آدم بالنهار وولده بالليل »(١٨٨)

وقال بعضهم : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر .
قال القزوينى : وللكفار أيضاً حفظة ، لأن آية الحفظة نزلت فى شأن الكفار وهى قوله ـ تعالى ـ

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾(١٨٩)

وفى الخبر : ان الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإذا

---

(١٨٧) ق ١٨

(١٨٨) تفسير القرطبى ـ سورة الرعد ـ ص ٣٥٢٢ ط دار الشعب وقال : ذكره الثعلبى

(١٨٩) الانفطار ٩ : ١٢

تاب أو استغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبه . . وفى رواية أخرى : فإذا كتبه عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمين عليه : ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشرة ، وأرفع تسع حسنات ، فيفعل صاحب الشمال .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن الله وكل بعبده ملكين يكتبان عليه ، فإذا مات قالا : يارب ، قبضت عبدك فلاناً ، فإلى أين نذهب ؟ قال الله ـ تعالى ـ : سمائى مملوءة من ملائكتى يعبدوننى ، وأرضى مملوءة من خلقى يطيعوننى ، اذهبا إلى قبر عبدى فسبّحانى وكبرانى وهللانى واكتبا ذلك فى حسنات عبدى الى يوم القيامة(١٩٠) .



وجاء فى تفسير قوله ـ تعالى ـ

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

ما روى عن أبى هريرة وأنس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله فى أول الصحيفة خيراً وفى آخرها خيراً إلا قال الله ـ تعالى ـ لملائكته : اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة » ومن أجل هذا أورد القرطبى نصيحة لعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال فيها : « إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا فى أولها وفى آخرها خيراً يغفر لكم ما بين ذلك » . .

---

(١٩٠) عجائب المخلوقات ص ٦٠

إن مهمة هؤلاء الحافظين دقيقة ، وإنهم ليتناولون فى كتابتهم كل صغيرة وكبيرة حتى الهم بالحسنة ، ولا يفارقون صاحبهم إلا عند الحدث أو الجماع .

سئل سفيان : كيف تعلم الملائكة أن العبد قد هم بحسنة أو سيئة ؟

قال : إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك ، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح النتن .

إن الانسان يواجه يوم القيامة بصحيفة أعماله كاملة غير منقوصة . لقد سجلها كاتباه بدقة وأمانة . يشهد لذلك قوله تعالى

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (١٩١)

ويرى القزوينى أن المعقبات غير الحفظة ، ويقول : إنهم الملائكة الذين ينزلون بالبركات ويصعدون بأرواح بنى آدم وأعمالهم بالليل والنهار ، فإذا واظب الانسان على الصلوات فى أول أوقاتها ، فصلى الفجر ، وأتاه ملائكة النهار فوجدوه مصلياً ، وفارقه ملائكة الليل وتركوه مصلياً ، وهكذا إذا صلى المغرب ، وما بين الصلاتين من الذنوب تكفرها الصلاة ، وإذا كان كذلك فلا يرفعون له غير الحسنات .

ومن الآثار الواردة التى تؤكد ذلك ما جاء فى الحديث القدسى : يقول الله ـ تعالى ـ : ابن آدم ، ما أنصفتنى ، أتحبب إليك بالنِّعم وتبتعد

---

(١٩١) الكهف ٤٩

أنت بالمعاصى ، خيرى إليك نازل وشرك الى صاعد ، ولايزال ملك كريم يأتينى عنك فى كل يوم وليلة بعمل قبيح ، ياابن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تعلم من الموصوف لأسرعت إلى مقته[١٩٢] »

ما ورد فى منكر ونكير

ومنكر ونكير هما ملكا الحساب فى القبر ، ويتميزان بالغلظة والشدة ، وقد وردت الاشارة إليهما فى الحديث الذى رواه الامام أحمد عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ

ويؤيده ما رواه البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ؟

فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله ـ تعالى ـ به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً »
قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره أربعون ذراعاً .

وقال مسلم : سبعون ذراعاً ، ويملأ عليه خضرا الى يوم يبعثون .
وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟

فيقول : لا أدرى ، كنت أقول ما يقول الناس .

فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين .

---

(١٩٢) عجائب المخلوقات ص ٦٠

وفى وصف الملكين أورد القرطبى فى كتابه التذكرة عن أبى حامد الغزالى قوله : قد روى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : يا رسول الله ما أول ما يلقى الميت إذا دخل قبره ؟

قال :ياابن مسعود ، ما سألنى عنه أحد إلا أنت . فأول ما يناديه ملك اسمه رومان يجوس خلال المقابر فيقول : يا عبد الله اكتب عملك . فيقول : ليس معى دواة ولا قرطاس ـ

فيقول : هيهات كفنك قرطاسك ومدادك ريقك وقلمك إصبعك .

فيقطع له قطعة من كفنه ، ثم يجعل العبد يكتب وإن كان غير كاتب فى الدنيا ، فيذكر حينئذ حسناته وسيئاته كيوم واحد ، ثم يطوى الملك القطعة ويعلقها فى عنقه . ثم تلا قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ (١٩٣)

فإذا فرغ من ذلك دخل عليه فتَّانا القبر ، وهما ملكان شديدان ، يخرقان الأرض بأنيابهما ، لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض كلامهما كالرعد القاصف ، وأعينهما كالبرق الخاطف ، ونَفَسُهُما كالريح العاصف ، بيد كل منهما مقمع من حديد ، لو ضرب به أعظم جبل لجعله دكاً ، فإذا أبصرتهما النفس ارتعدت وولت هاربة فتدخل فى منخر الميت فيحيا الميت من الصدر ويكون كهيأته عند الغرغرة ، ولا يقدر على حراك غير أن يسمع وينظر ، فيقعدانه فيبتدثانه بعنف وينهرانه بجفاء فيقولان له :

---

(١٩٣) الاسراء ١٣

من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وما قبلتك ؟

فمن وفقه الله وثبته بالقول الثابت قال :

ومن وكلكما عليَّ ؟ ومن أرسلكما إليَّ ؟

وهذا لا يقوله إلا العلماء الأخيار .

فيقول أحدهما للآخر : صدق ، كُفِي شرنا ، ثم يضربان عليه القبر كالقبة العظيمة ، ويفتحان له باباً الى الجنة من تلقاء يمينه ثم يفرشان له من حريرها وريحانها ، ويدخل عليه من نسيمها وروحها ، ويأتيه عمله فى صورة أحب الأشخاص إليه . . ودونه فى المنزلة المؤمن العامل الخير ليس له حظ من العلم ، يلج عليه عمله فى أحسن صورة ، طيب الريح حسن الثياب ، فيقول له : أما تعرفنى ؟

فيقول : من أنت الذى منَّ الله علىَّ بك فى غربتى ؟

فيقول : أنا عملك الصالح ، فلا تحزن ولا توجل . فعما قليل يلج عليك منكر ونكير يسألانك فلا تدهش . ثم يلقنه حجته . .

ومن الناس من يحجم فى مسألته ، فإن كانت عقيدته مختلفة امتنع أن يقول : الله ربى ، وأخذ غيرها من الألفاظ ، فيضربانه ضربة يشتعل منها قبره ناراً ، ثم تطفأ عنه أياماً ، ثم تشتعل عليه . هذا دأبه ما بقيت الدنيا .

ومن الناس من يعتاص عليه ويعسر أن يقول : الاسلام دينى لشك كان يتوهمه أو فتنة تقع به عند الموت ، فيضربانه ضربة واحدة فيشتعل عليه قبره ناراً كالأول . .

وأما الفاجر فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : لا أدرى . فيقولان له : لا دريت ولا عرفت فيضربانه بتلك المقامع (١٩٤) .

---

(١٩٤) التذكرة للقرطبى ص ١٢٧

لقد وردت أحاديث كثيرة بروايات مختلفة فى شأن منكر ونكير ، وهذا يتطلب من المؤمن الاستعداد لهذا الموقف العسير الذى يتعرض فيه الانسان للفتنة . ونحن نرجو أن يجعلنا الله ممن ورد فيهم قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (١٩٥)

الملائكة السياحون

أما السياحون فهم صنف من الملائكة يسيحون فى الأرض يتتبعون مجالس الذكر والعلم ، فإذا رأوا مجلساً منها اجتمعوا عليه وجلسوا فيه وسجلوا أسماء أصحابه . . روى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « إن لله تعالى ملائكة يسيحون فى الأرض فضلاً عن كتّاب الناس ، فإذا وجدوا قوماً .

يذكرون الله ـ تعالى ـ ينادون : هلموا إلى بغيتكم ، . فإذا انصرفوا يقول الله تعالى ـ على أى شىء تركتم عبادى يصنعون ؟ فيقولون : تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويقدسونك ، فيقول الله ـ تعالى ـ : وهل رأونى ؟

فيقولون : لا

فيقول : كيف لو رأونى ؟

فيقولون : لو رأوك لكانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتمجيدا .

فيقول لهم : من أى شىء يتعوذون ؟

فيقولون : من النار .

فيقول : وهل رأوها ؟

---

(١٩٥) ابراهيم ٢٧

فيقولون : لا

فيقول : كيف لو رأوها ؟

فيقلولون : لو رأوها لكانوا أشد هربا منها وأشد تعوذا .

فيقول : أى شيء يطلبون ؟

فيقولون : الجنة .

فيقول : وهل رأوها ؟

فيقولون : لا

فيقول : كيف لو رأوها ؟

فيقولون : لو رأوها لكانوا أشد طلبا لها .

فيقول الحق سبحانه وتعالى : أشهدكم أنى قد غفرت لهم .

فيقولون : كان فلان لم يشهدهم إنما جاء لحاجة .

فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم . (١٩٦)

ومن الآثار الواردة فى ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوننى عن أمتى السلام »

وقوله : إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوننى الصلاة علىّ من أمتى . فاستغفر لهم .

وقوله : إن لله ملائكة سياحين فى الهواء بأيديهم قراطيس من نور وأقلام من نور لا يكتبون إلا الصلاة علىّ وعلى أهل بيتى . (١٩٧) ومن هؤلاء السياحين الملائكة الذين يكلفهم الله القيام عند أبواب المساجد وفى الطرقات اليها ، وفى المساجد يشهدون المصلين ، وقارئى القرآن . ومقدمى أعمال البر للناس .

---

(١٩٦) البخارى كتاب الدعوات ، والترمذى فى الدعوات ، وعجائب المخلوقات ص ٦١

(١٩٧) أورد الأبشيهى فى المستطرف هذه الآثار فى فضل الصلاة على النبى

ومن الآثار الواردة فى ذلك :

روى البخارى عن أبي هريرة قال . قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :
« اذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول ، ومثل الأول كمثل الذى يهدى بدنة ، ثم كالذى يهدى بقرة ، ثم كبشا . ثم دجاجة ، ثم بيضة ، فإذا صعد الإمام طووا صحفهم وجلسوا يستمعون الذكر »(١٩٨)

والمقصود بالذكر الخطبة .

وروى البخارى أيضا عن رفاعة بن رافع الزرقى قال : « كنا يوما نصلى وراء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رفع رأسه من الركعة قال : سمع الله لمن حمده . قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه .

فلما انصرف رسول الله قال : من المتكلم ؟

قال الرجل : أنا .

قال : رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها قبل الأخر(١٩٩)

أما اهتمام الملائكة السياحين بسماع القرآن وحضور مجالسه والاعجاب بحسن الأداء وجمال القراءة فيقدمه لنا هذا الخبر :

بينما أسيد بن حضير ـ رضى الله عنه ـ فى ليلة يقرأ فى مربده إذ جالت فرسه فقرأ ، ثم جالت أخرى ، فقرأ ، ثم جالت أيضا .

فخشى أسيد أن تطأ فرسه ابنه يحيى ، فقام اليها ، فاذا به يرى مثل الظلة فوق رأسه . فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى غابت عن نظره . .

---

(١٩٨) رواه البخارى فى كتاب الجمعة

(١٩٩) أورده البخارى فى كتاب الأذان ، ومسلم فى المساجد

قال أسيد : فغدوت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يارسول الله ، بينما أنا البارحة من جوف الليل اقرأ فى مرْبدى اذ جالت فرسى .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اقرأ ابن حضير »

قال : فقرأت ، ثم جالت أيضا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اقرأ ابن حضير »

قال : فقرأت : ثم جالت أيضا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ ابن حضير »

قال : فانصرفت ، وكان يحيى قريبا منها ، خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج خرجته فى الجو حتى ماأراها

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تلك الملائكة كانت تستمع لك[٢٠٠] وقد روى أن من الملائكة مَنْ يصوب للقارىء المخطىء خطأه فى التلاوة .

روى السيوطى فى الجامع الصغير والجامع الكبير من حديث أنس مرفوعا عن النبى ـ ﷺ ـ : « إن ملكا موكلاً بالقرآن ، فمن قرأ شيئا منه لم يقومه قومه الملك ورفعه »

وليس من الضرورى أن يسمع القارىء التصويب . فان هدف الملك أن يرفع التلاوة الى الله صحيحة .

ويؤيد هذا الحديث مارواه السيوطى أيضا : « إن ملكا موكلا بالقرآن فمن قرأه من أعجمى أو عربى فلم يقومه قومه الملك ثم رفعه قواما »[٢٠١] إن هذا يعنى أن الله مع المؤمن يضاعف عمله ويزكيه ، ويرفعه اليه كاملا

---

(٢٠٠) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن

(٢٠١) عالم الملائكة ص ٦١

غير منقوص . وهذه رحمة الله الواسعة التى تضاعف الحسنات وتغض النظر عن المفوات .

وقد مر بنا كيف أن الملائكة تستغفر للمؤمنين ، بل إنهم يستغفرون لجميع من فى الأرض رحمة بهم واشفاقا عليهم .

قال تعالى

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾(٢٠٢)

وإذا دعا المؤمن ربه أمنت الملائكة على دعائه ، وقد ورد فى الأثر : إذا أمن الامام فأمنوا فان من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه »(٢٠٣)



مهام الملائكة الأخرى :

بعد هذه الجولة التى عرفنا فيها بعض أصناف الملائكة . وأدركنا بعض المهام الجليلة الموكولة اليهم نشير الى بعض الاختصاصات الأخرى للملائكة :

● فهناك ملائكة مختصون بالجبال يشهد لذلك الحديث التالى :

روى البخارى من حديث عروة أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ حدثته أنها قالت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم

---

(٢٠٢) الشورى ٥

(٢٠٣) أورده البخارى فى كتاب الأذان ، ومسلم فى الصلاة ، وفى عالم الملائكة ص ٦٣

العقبة ، اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني الى ما أردت . فانطلقت وأنا مهموم ، على وجهي ، فلم استفق الا وأنا بقرن الثعالب . فرفعت رأسي فاذا أنا بسحابة قد ظلتني فاذا فيها جبريل ، فناداني :

فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وماردُّوا عليك ، وقد بعث الله اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

فناداني ملك الجبال ، فسلم عليّ ، ثم قال : يامحمد ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أي الجبلين - فعلت فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً (٢٠٤)

● ومنهم الموكلون بالريح - يصرفونها على حسب ما يريد الله - عز وجل - وكل شيء عنده بمقدار .

أخرج ابن عساكر عن قبيصة بن ذؤيب قال : « ما يخرج من الريح شيء إلا عليها خُزَّان يعلمون قدرها وسيرها ووزنها وكيلها »

وأخرج الدار قطني . أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما أنزل الله من السماء كَفاً من ماء إلا بمكيال ، ولا كفاً من ريح إلا بمكيال ولكل من ذلك خزان يصرفونه إلا يوم نوح فإن الماء طغى على الخزان بأمر الله فلم يكن للخزان عليه سلطان » قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ (٢٠٥)

---

(٢٠٤) البخاري في بدء الخلق - باب الملائكة - فتح الباري جـ ٦ ص ٣٦٠
(٢٠٥) الحاقة ١١

ويوم عاد ، فإن الريح عتت على الخزان . قال الله تعالى :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ (٢٠٦)

ومنهم الموكلون بالبحار والسحب والأمطار .

فلا يتم مد أو جزر إلا بإذن ملك البحار ، ولا تنزل قطرة من مطر ولا يساق سحاب إلى جهة من الجهات إلا بواسطة الملك الموكل بذلك ـ على حسب ما يأمر به الحق سبحانه وتعالى ومن الآثار الواردة فى ذلك .

ما ذكر من أن رجلاً سمع صوتاً ينبعث من سحابة أن أسق حديقة فلان . . قال فتبعتها فإذا هى تصب ماءها فيها . قال : فجئت صاحبها فسألته : فقال : إنه يقسم ريعها أثلاثاً ، ثلثاً يتصدق به ، وثلثاً ينفقه ، وثلثاً يرده عليها .

ولم يكن ذلك الصوت المنبعث من السحابة إلا صوت ملك قيضه الله لذلك . فما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقرها فى موضعها من الأرض .

ومنهم الموكلون بالشمس ، يصرفون شئونها ، ويرعونها ويبردونها . وفى هذه الآثار بيان لعمل الملائكة نحوها :

عن أبى أمامة الباهلى قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم ولولا ذلك ما أصابت شيئاً إلا أحرقته »

وعن عكرمة : « ما طلعت الشمس حتى يناديها سبعون ألف ملك : اطلعى ، فتقول : كيف أطلع وأنا أُعْبَدُ من دون الله ؟ فيدفعها ملكان حتى تطلع »

---

(٢٠٦) الحاقة ٦ وهذان الحديثان من عالم الملائكة ص ٤٤

وعن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ « إن الشمس إذا طلعت يقف معها ملكان موكلان بها يجريان معها ما جرت[٢٠٧] .

● ويستتبع وجود ملائكة للشمس ضرورة وجود ملائكة للظل .

● كما يوجد ملائكة موكلون بالرعد والبرق وبالنبات والرزق وقد مر بنا أن ميكائيل هو الموكل بأرزاق العباد ، وقد وضع الله فى يده مقاليد النبات والأمطار لأنها سبب الرزق . .

والحق سبحانه ـ وتعالى ـ بيده كل شيء ولكنه سبب أسباباً ووزع أقداراً ، قال تعالى :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢٠٨)

إن الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله ، وقد وزع الله بعلمه وحكمته وقدرته عليهم أعمالهم ، فما من ملك منهم إلا وله مهمة يقوم بها . . حتى فى العبادة نفسها . . منهم القائم أبداً ، ومنهم الراكع أبداً ، ومنهم الساجد أبداً . . وصدق الله إذ يقول حاكياً عنهم . .

---

(٢٠٧) هذه الآثار من كتاب عالم الملائكة ص ٤٥ وهى معزوة فيه إلى مصادرها

(٢٠٨) الحجر ١٩ : ٢٢

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (٢٠٩)

ومنهم من يتولى أمر النعيم ، وزعيمهم فى ذلك رضوان خازن الجنة ومنهم من يتولى أمر العذاب ، وزعيمهم فى ذلك مالك خازن النار .

ملائكة تصلح الانسان

قال القزوينى :

● ومن الملائكة ملائكة موكلون بالكائنات لإصلاحها ودفع الفساد عنها ، وقد وكل بكل فرد من أفرادها من الملائكة ما شاء الله ـ تعالى ـ

روى أبو أمامة رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « وكل الله بالمؤمن ملائكة يذبون عنه مالا يقدر عليه .

من ذلك الموكلون بالبصر يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل فى اليوم الصائف .

وغير ذلك من الموكلين ببدن بنى آدم . . . فهم مشتغلون بك وأنت فى النوم ، أو تتردد فى الغفلة

« وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها »

وهكذا حال جميع الكائنات(٢١٠) ، فسبحان الحكيم القدير العليم الخبير . وكل هذا يقتضى شكر المنعم على نعمته ، وذلك بعبادته حق عبادته .

لا يعصون الله ما أمرهم

---

(٢٠٩) الصافات ١٦٤ : ١٦٦

(٢١٠) انظر عجائب المخلوقات ص ٦٢

جبل الله الملائكة على الطاعة فهم مخلوقون من نور ، وفى ذلك يقول الله تعالى

﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٢١١)

إن لذتهم فى امتثال أمر الله كما أن سرور أهل الجنة فى الكون فى الجنة .

ومع أن منهم من وكل الله إليهم أمر العذاب ـ كما قال تعالى ـ

« عليها ملائكة غلاظ شداد »

إلا أنهم لا يصيبهم من العذاب شيء . . إن النار التى وكلوا بإشعالها وايقادها وتسليطها على المذنبين والعصاة لا تصيبهم بشيء ، وإنما تكون عليهم برداً وسلاماً . كما أصبحت نار النمروذ على إبراهيم برداً وسلاماً .

إنهم ليست لديهم القدرة على المعصية . فتكوين أجسامهم يأباها . .

وإذا كان تكوين الملائكة يأبى المعصية لأنهم خلقوا لطاعة الله ، فما حقيقة الأمر بالنسبة لهاروت وماروت ؟

إن لهما قصة يتطلب المقام ذكرها هنا . . . فمن هاروت وماروت ؟

هاروت وماروت ملكان يعذبان ببابل . . وقد سبق أن أوردنا قصتهما ولكنا نوجزها هنا للذكرى ، وللمناسبة التى تفرضها . .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لما خرج آدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الجنة عرياناً نظرت إليه الملائكة وقالت : إلهنا ، هذا آدم بديع فطرتك أَقِلْه ولا تخذله .

فمر بملأ من الملائكة فوبخوه على نقضه عهد ربه ، وكان ممن وبخه هاروت وماروت .

---

(٢١١) التحريم ٦

فابتلاهما الله تعالى حتى عصيا ومُنِعا من الصعود إلى السماء . فلما كان أيام إدريس ـ عليه السلام ـ صارا إليه وذكرا له قصتهما ، ثم قالا له : هل لك أن تدعو لنا حتى يتجاوز عنا ربنا ؟

فقال ادريس ـ عليه السلام ـ : كيف لى العلم بالتجاوز عنكما ؟

قالا : ادع لنا ، فإن رأيتنا فهو الاستجابة ، وإن لم ترنا هلكنا فتوضأ ادريس ـ عليه السلام ـ وصلى ودعا الله ـ تعالى ـ ثم التفت فلم يرهما ، فعلم أن العقوبة حلت بهما . ونقلا الى أرض بابل ، ثم خُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما مسلسلان معذبان فى بئر بأرض بابل منكسين الى يوم القيامة .

ووردت رواية أخرى فى ذلك . عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

أشرفت الملائكة على أهل الدنيا فرأوهم يعصون الله فقالوا : ياربنا ما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك .

فقال الله ـ تعالى ـ :

لو كنتم فى حالهم لعصيتمونى

قالوا : كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟

فقال : اختاروا مَلَكين ، فاختاروا هاروت وماروت ، ثم أهبطا الى الأرض وركبت فيهما شهوات بنى آدم . وتسلطت عليهما امرأة فاتنة حتى واقعا المعصية ، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فنظر أحدهما الى صاحبه فقال له :

ما تقول ؟

فقال : أقول : إن عذاب الدنيا ينقطع وعذاب الآخرة لا ينقطع . فاختارا عذاب الدنيا .

فهما اللذان ذكرهما الله - تعالى فى قوله - ناعيا على اليهود جهلهم وكفرهم وضلالهم - :

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢١٢)

وفى رواية أخرى : أن الله قال لهما : انى أرسل رسولاً الى الناس وليس بينى وبينكما رسول ، انزلا ولا تشركا بى شيئاً ولا تقتلا ولا تسرقا .

قال كعب : فما لبثا فترة حتى واقعا المعصية وأتيا ما حرم الله عليهما (٢١٣) .

فالمعصية التى لحقت بهاروت وماروت إذن ، لم تحدث حال كونهما

---

(٢١٢) البقرة ١٠٢

(٢١٣) عجائب المخلوقات ص ٦١

ملكين ، بل بعد أن تحولا إلى رجلين .

وهذا يؤكد عصمة الملائكة وأنها خلقا للطاعة وتنفيذ أوامر الله مصداقاً لقوله - تعالى - :

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢١٤)

ومن العلماء من يرى أن هاروت وماروت كانا ملكين - بكسر اللام - وهناك قراءة بذلك . وهذه القراءة تذهب عن الملائكة أى شبهة فى المعصية .

معنى أن الملائكة رسل :

وصف الله الملائكة بأنهم رسل فى مواضع متعددة .

قال - تعالى -

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ (٢١٥)

وقال - تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (٢١٦)

وقال - تعالى -

---

(٢١٤) الأنبياء ٢٦ : ٢٧

(٢١٥) فاطر ١

(٢١٦) الشورى ٥١

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾
بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢١٧)

ورسالة الملائكة مقصورة على الأنبياء ، تبلغهم أوامر ربهم ليبلغوها بدورهم الى عباده . . فهم سفرة ـ جمع سفير ـ يترددون بين السماء والأرض يبلغون الأوامر والأحكام .

وقال السدى : انهم رسل الى العباد أيضاً بالرحمة والنقمة .

وقد وصفت الآية الأولى الملائكة بأنهم ذوو أجنحة . وهم يتفاوتون فى عدد الأجنحة . وقد سبقت الاشارة الى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى جبريل وله ستمائة جناح .

جاء ذلك فى صحيح مسلم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ وفى غيره من كتب السنن . . . وعن الزهرى أن جبريل ـ عليه السلام قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا محمد لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش لعلى كاهله ، وانه فى بعض الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته .

وذكر بعض العلماء أن زيادة الأجنحة هى ما يشير اليه قوله ـ تعالى « يزيد فى الخلق ما يشاء »

وقيل الزيادة مقصود بها الحسن فى الخلق وقيل الزيادة فى الملائكة وقيل الزيادة فى الخلق عموماً . .

وتشير الآيات الأخرى الى نزول الملائكة بالقرآن الكريم وغيره من أنواع

---

(٢١٧) عبس ١١ : ١٦

الوحى الأخرى ، التى جاء بها الرسل الى أقوامهم ، يبلغون بها عن ربهم ، كالتوراة والانجيل والزبور وصحف إبراهيم وغيرها .

هل يرى أحد من البشر غير الأنبياء الملائكة ؟

سبق أن ذكرنا أن حمزة بن عبد المطلب طلب من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريه جبريل عليه السلام ـ فقال له : انك لن تقدر على ذلك .

فلما رآه غشى عليه . .

ولكن هذا الخبر ورد فى أنه طلب أن يراه على حقيقته ، ورؤيا الملك على حقيقته لا يقدر عليها أحد من البشر حتى الأنبياء أنفسهم .

وقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرى جبريل على صورته الحقيقية فتجلى له فى ستمائة جناح سادا الأفق فغشى عليه .

ولكنه كان يأتيه بالوحى فى صورة غير صورته التى خلقه الله عليها . . وكان أحياناً يأتيه فى صورة رجل حسن الهيئة جميل المنظر ، وكان يأتيه أحياناً فى صورة دحية بن خليفة الكلبى .

وقد رأت السيدة عائشة جبريل فى هذه الصورة ، كما رآه غيرها من الصحابة ، وروى ابن الأثير فى ترجمة حارثة بن النعمان هذا الخبر :

قال : روى ابن عباس أن حارثة بن النعمان مر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه جبريل ـ عليه السلام ـ يناجيه فلم يسلم .

فقال جبريل : ما منعه أن يسلم ؟

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما منعك أن تسلم حين مررت ؟

قال : رأيت معك انساناً تناجيه فكرهت أن أقطع حديثك .

قال : أو قد رأيته ؟

قال : نعم .

قال : إن ذاك جبريل . . وقال جبريل : أما انه لو سلم لرددت عليه ، ثم قال : أما إنه لمن الثمانين .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما الثمانون ؟

قال : يفر الناس عنك غير ثمانين يكونون معك ، رزقهم ورزق أولادهم على الله وهم فى الجنة . فأخبر حارثة بذلك(٢١٨)

وقد روى هذا الخبر بطريقة أخرى عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن حارثة بن النعمان قال : مررت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه جبريل ، فسلمت عليه وجزت .

فلما رجعت قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل رأيت الذى كان معى ؟

قلت : نعم .

قال : فإنه جبريل وقد رد عليك السلام

والمقصود بالثمانين : الثمانون رجلاً الذين ثبتوا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين .

وروى ابن سعد فى طبقاته ان حارثة رأى جبريل مرتين . يوم الصورين حين خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى بنى قريظة . . رآه فى صورة دحية الكلبى .

وفى هذه المرة التى ذكرها ابن الأثير(٢١٩)

وروى مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص أنه رأى عن يمين

---

(٢١٨) أسد الغابة جـ ١ ص ٤٢٩

(٢١٩) الطبقات الكبرى جـ ٣ قسم ٢ ص ٥٢

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض - قال : ما رأيتهما قبل ولا بعد - يعنى جبريل وميكائيل - عليهما السلام - يقاتلان كأشد القتال[٢٢٠]

والاخبار فى ذلك مستفيضة .

الملائكة تنصر النبى ﷺ والمؤمنين

ولاشك فى أن الملائكة كانت مع النبى - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين فى معاركه تنصره . وقد قص القرآن الكريم علينا ذلك .

ففى معركة بدر قال الله - تعالى -

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾[٢٢١]

---

(٢٢٠) تنوير الحلك فى رؤية النبى والملك للسيوطى ص ٦

(٢٢١) الأنفال ٩ : ١٢

وفى موضع آخر يقول الله - تعالى -

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٢٢٢)

قال ابن كثير فى تفسيره : نزلت الملائكة يوم بدر مسومين - أى معلَّمين بعلامات مميزة .

قيل كانوا مسومين بالعمائم الصفر .

وقيل - عن على - كانت سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكانت سيماهم أيضاً فى نواصى خيولهم .

ولقد رآهم بعض الصحابة وسمعوا أصواتهم .

قال القرطبى فى تفسيره : كان الملك يسير أمام الصف فى صورة الرجل ، ويقول : سيروا فإن الله ناصركم ، ويظن المسلمون أنه منهم .

وقاتلت الملائكة فى ذلك اليوم فكان المسلمون يرون رءوساً تسقط عن الأعناق من غير ضارب يرونه ، وسمع بعضهم قائلاً - يسمع قوله ولا يرى شخصه - يقول : أقدم حيزوم - وحيزوم اسم فرس من خيل الملائكة - أما

---

(٢٢٢) آل عمران ١٢٣ : ١٢٦

فى أحد فقد مر بنا الحديث الذى رواه سعد بن أبى وقاص الذى ذكر فيه أنه رأى جبريل وميكائيل - عليهما السلام - يقاتلان عن النبى - صلى الله عليه وسلم -

وقد علق النووى على هذا الحديث بقوله : فيه بيان إكرامه - صلى الله عليه وسلم - بإنزال الملائكة تقاتل معه ، وبيان أن قتالهم لم يختص بيوم بدر .

وجاءت الملائكة تنصر النبى - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين يوم الأحزاب وفى ذلك يقول الله - تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ ﴾ (٢٢٣)

قال أهل التفسير : الجنود الذين أرسلهم هم الملائكة . قلعوا الأوتاد ، وقطعوا أطناب الخيام ، وأطفأوا النيران ، وأكفأوا القدور ، وجالوا الخيل بعضها فى بعض ، فكان ذلك مع الريح الشديدة التى أرسلها الله سبباً فى اضطراب صفوف الأحزاب وهزيمتهم ثم ولوا الأدبار وكفى الله المؤمنين القتال .

وفى غزوة حنين يقول الله - تعالى -

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ

(٢٢٣) الأحزاب ٩

بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٢٤)

قال القرطبي في تفسير هاتين الآيتين : أنزل الله الملائكة يقوون المؤمنين بما يلقون في قلوبهم من الخواطر والتثبيت ، ويضعفون الكافرين بتخويفهم من حيث لا يرونهم من غير قتال ، لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر . هذا قول القرطبي ، وفيه نظر . . وقد روى القرطبي نفسه ما يناقض هذا الرأي . . فقد روى أن رجلاً من بني نصر قال للمؤمنين بعد القتال : أين الخيل البلق والرجال الذين كانوا عليها بيض ؟

ما كان قتلنا إلا بأيديهم (٢٢٥)

وهذا الخبر يرد على قوله السابق من أن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر كما يرد عليه أيضاً حديث سعد بن أبي وقاص السابق وتعليق الامام النووي عليه .

الملائكة تصلي على النبي ﷺ وعلى المؤمنين

قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (٢٢٦)

---

(٢٢٤) التوبة ٢٥ ، ٢٦

(٢٢٥) تفسير القرطبي سورة التوبة ص ٢٩٤٠

(٢٢٦) الأحزاب ٥٦

وصلاة الله رحمته ورضوانه

وصلاة الملائكة دعاء له واستغفار

وصلاة المؤمنين دعاء وتعظيم لأمره

وهذا تكريم للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخصيصة من خصائصه . .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة قال المهاجرون والأنصار ـ فيما يروى عن ابن عباس ـ هذا لك يارسول الله خاصة وليس لنا فيه شيء . فأنزل الله ـ سبحانه ـ :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢٢٧)

وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم ، ودليل على فضيلتها على سائر الأمم وقد قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢٢٨)

وقد مر أن الصلاة من الله على عباده رحمة لهم وبركة عليهم ، ومن الملائكة استغفار لهم . والملائكة يستغفرون للمؤمنين ، وقد ذكر ذلك فى آيات كثيرة سبق ذكرها .

سأل بنو إسرائيل موسى ـ عليه السلام ـ أيصلى ربك ـ عز وجل ـ ؟ فأعظم موسى ذلك . فأوحى الله إليه : إن صلاتى بأن رحمتى سبقت غضبى . فصلاته سبحانه وتعالى إنما هى رحمته السابغة ، وفضله الواسع ، ونعمه الكثيرة التى لا تحصى ، وتجاوزه عن المسىء حين يتوب ، والمذنب

---

(٢٢٧) الأحزاب ٤٣

(٢٢٨) آل عمران ١١٠

حين يستغفر ، والمدبر عن بابه حين يقبل ويتوب .

ولئن كانت الملائكة تصلى على المؤمنين وتستغفر لهم . فإنها تلعن العاصى السادر فى عصيانه ، الممعن فى كفرانه ، المصر على شقاقه وعدوانه . قال - تعالى - :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٦١ ﴾ (٢٢٩)

حب الملائكة للنبى والمؤمنين

لقد ثبت من حديث الاسراء أن الملائكة كانت تتشوق لرؤية النبى - صلى الله عليه وسلم - وكانت ترحب به حينما يستفتح جبريل - عليه السلام - وهو معه أبواب السماء وكان جبريل يثنى على النبى - صلى الله عليه وسلم - بما هو أهله .

وحين نفر البراق عندما هم النبى - صلى الله عليه وسلم - بركوبه قال جبريل : يا برقة لا تنفرى من محمد فوالله ما ركبك ملك مقرب ولا نبى مرسل أفضل من محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا أكرم على الله منه(٢٣٠)

وإن الملائكة لتسارع الى نصرة النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مواقفه وتواليه مع الله - سبحانه وتعالى - وقد جاء ذلك فى قوله - تعالى -

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ ﴾ (٢٣١)

---

(٢٢٩) البقرة ١٦١

(٢٣٠) تفسير القرطبى سورة الاسراء ص ٣٨٢٣ ط دار الشعب

(٢٣١) التحريم ٤

وكذلك تناصر الملائكة المؤمنين وتحرسهم وتسدد خطاهم وترشدهم وهذه عناية من الله بأمر المؤمن الذى يهىء الله له من ملائكته الكرام من يحرسه ، ويشد أزره ، ويعينه على ما هو مقبل عليه من أمور البر والخير .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من سأل القضاء وكل إلى نفسه ومن جُبر عليه نزل إليه ملك فسدده[٢٣٢] »

وهكذا شأن بقية المؤمنين الذين يستعينون بالله فى أعمالهم يبعث الله إليهم من ملائكته من يسددهم . .

ونحن نرجو الله أن يجعلنا من الذين تشملهم عنايته وتوفيقه إنه نعم المولى ونعم النصير . .

ولنستأنف رحلتنا بتوفيق الله مع السيرة المباركة الطيبة . .

التَّحَـــدِّى

طريق الايمان شاق

لم يكن طريق الايمان ممهداً مفروشاً بالورود والرياحين ، ولكنه كان صعباً شاقاً ، تكتنفه الوهاد والأشواك ، وتعترضه الأغوار والعقبات ، وحق الذى هيأ الله له من الناس عقلاً ذكياً ، وروحاً تواقاً ، وقلباً متطلعاً إلى النور لم يصل إلى غايته إلا بعد محن واختبارات .

هذه قاعدة غالبة تدل على نفاسة الايمان وعظم جوهره ، وعلى أنه ليس شيئاً هيناً فى مقدور أى انسان أن يناله بأيسر جهد ويحصله من أقصر طريق . بل على المتقدم للايمان أن يتعرض لامتحان دقيق واختبار صعب يجتازه بنجاح ، وهذا الاختبار هو الذى يجعله يحرص على ما ناله بسببه من سعادة وفلاح قال تعالى :

(٢٣٢) أخرجه أحمد فى مسنده ٣ / ١١٨ وابن ماجه والترمذى

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (٢٣٣)

وكما لم يسلم المؤمنون من فتنة الاختبار لم يسلم الأنبياء كذلك من ضراوة هذا الامتحان .

لقد وجد الأنبياء جميعاً فى طريقهم كثيراً من الصعاب والمشقات التى اعترضتهم . وجدوا السفهاء من الكفار والمشركين يصدون أتباعهم عن الانقياد لأمر الله ـ مرة بالتهديد والوعيد ، وأخرى بالاغراء والإغواء ، وثالثة بالإرهاب والتشديد ، وكان للأنبياء أنفسهم نصيب كبير من هذا الأذى . . وقد أعانهم الله على تحمله والانتصار عليه بقوة العزيمة وخوارق العادات والمعجزات التى أيدهم الله بها .

مكث نوح ـ عليه السلام ـ فى قومه يدعوهم الى الله وحده ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ولم يكف عن دعوته إلا بعد أن قال الله ـ تعالى ـ له فيما يحكيه القرآن :

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٢٣٤)

آذوه إيذاء شديداً واعترضوا طريق المؤمنين به وفتنوهم وقالوا له : كما حكى لنا القرآن الكريم

---

(٢٣٣) العنكبوت ١ : ٣

(٢٣٤) هود ٣٦

﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢٣٥)

لم يجد نوح ـ عليه السلام ـ بدا بعد هذا العمر الطويل الذى قضاه فيهم دون جدوى ، سالكا معهم كل وسائل الهداية والارشاد دون فائدة . . لم يجد بداً من أن يلجأ الى الله بالشكوى قائلاً :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٢٣٦)

وما زال يوجه نظرهم الى بدائع خلق الله وعظائم نعمه لعلهم يهتدون ، ولكنهم ما ازدادوا إلا عناداً . . فدعا عليهم قائلاً :

﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٣٧)

---

(٢٣٥) هود ٢٨
(٢٣٦) نوح ٥ : ١٢
(٢٣٧) نوح ٢٦

وإذا قرأنا هذه الآيات الكريمة التى أنزلها الله فى قصة نوح مع قومه وجدناها تسجل فى دقة بالغة وأسلوب حكيم ما تعرض له نوح ـ عليه السلام ـ من أذى ، وما لقيه من عنت ، مع أنه جاء لهداية قومه ، وانقاذهم من الضلال ، والوصول بهم الى طريق الصواب والسداد . .

وما تعرض له نوح ـ عليه السلام ـ تعرض له كل نبى جاء بعده . .

جاء هود فقال له قومه

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢٣٨)

وقال له قومه متهمين إياه بالجنون :

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢٣٩)

وصبر هود على أذاهم حتى تحقق له أنهم لن يؤمنوا فأهلكهم الله بالريح كما قال سبحانه .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ (٢٤٠)

---

(٢٣٨) الأعراف ٦٦ ، ٦٧

(٢٣٩) هود ٥٥

(٢٤٠) الحاقة ٦ : ٨

وتواتر الأنبياء والرسل للأقوام الذين لم يستجيبوا لنور الايمان ، فقد أرسل الله الى ثمود أخاهم صالحا فآذوه ، وعقروا الناقة التي أرسلها الله لهم آية ، وكذبوا وعتو عتواً كبيراً . .

وأرسل الله إبراهيم فلقى من قومه أذى شديداً ، وقالوا كما حكى القرآن الكريم :

﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (٢٤١)

ولقى لوط من قومه الأذى الشديد وهموا بالاعتداء على ملائكة الله فاهلكهم الله .

ولقى شعيب من قومه ما لقى من أذى وتعنيف ، وقد جاء ليدعوهم الى الله ويهديهم الى الصراط المستقيم . هددوه بالطرد هو ومن معه وقالوا لأتباعه : لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذن لخاسرون .

وجاء موسى برسالته فلم يلق هو ومن آمن به من فرعون إلا الأذى الشديد ، حتى ضج بنو إسرائيل بالشكوى وقالوا لموسى كما حكى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

---

(٢٤١) الأنبياء ٦٩ : ٧١

(٢٤٢) الأعراف ١٢٩

وقد تعرض موسى لمحنة اخرى أشد من محنته مع فرعون الذى أغرقه الله جزاء بغيه وطغيانه ، فقد امتحن بقوم تمردوا عليه بعد إذ نجاهم الله من بطش فرعون ، والتووا عليه وغيروا وبدلوا حتى مسخ الله منهم من مسخ وأهلك من أهلك . .

ولم ينج عيسى - عليه السلام - من أذى قومه ، كما لم ينج أتباعه من الايذاء والتعذيب . . لقد تعرض المؤمنون عبر الأزمان لضروب من المحن والابتلاء . وكانوا بحلاوة الايمان يصبرون على تلك المحن حتى يعينهم الله على اجتيازها ، أو يستشهدون فى سبيل عقيدتهم التى آمنوا بها .

وكان الاسلام الذى جاء به خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم - والذى استعرضنا فى ايجاز بعض ما لقيه هو وأتباعه من أذى - هو قمة المثل العليا ، لأنه يعلم الناس كيف يحيون ، وكيف يتذوقون لذة الحياة ، وكيف يستشعرون معنى آدميتهم وقيمة انسانيتهم .

إنه يتسامى بهم الى درجة عالية يباهى الله بهم ملائكته فى سماواته العلا ، انه يحقق فيهم معنى الخلافة التى أقرها الله فى الأرض ، فى آدم وذريته انه يأخذ بأيديهم ليرتفعوا فوق مستوى شهواتهم التى تردهم الى الدرك الأسفل ، وتلقى بهم فى حضيض الحيوانية والرذيلة ، وتبتعد بهم عن طريق الاعتدال وسواء السبيل . فالانسان انسان متى عرف حدود انسانيته وتمسك بمعناها ، ولكنه حيوان حين يكون كل همه فى الحياة التهالك المزرى على اللذات والشهوات . وهنا يتحقق فيه معنى قوله - تعالى -

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ ﴾ (٢٤٣)

---

(٢٤٣) الأعراف ١٧٩

ومعنى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ (٢٤٤)

الدين يعلم الناس كيف يعيشون إخوة متحابين متسامحين لا يعتدى بعضهم على بعض ، ولا يظلم أحدهم الآخر ، إنه يقيم الفضائل فيهم مقام القانون ، فلا مروءة ولا صدق ولا شجاعة ولا نبل ولا أمانة ولا أى خليقة من الخلائق الرفيعة إلا وهى مستمدة من الدين وتعاليمه . . إن الفضائل كلها مستقاة من ذلك المعين الصافى والمنبع الثرّ الفياض بكل معانى العظمة والسمو والشموخ .

وليس الدين بمحقق للمؤمن سعادته فى الدنيا فحسب ، ولكنه يحقق له سعادة أبدية خالدة فى الآخرة لا تفنى ، لأنه التزم بتعاليمه السمحة ، وسار على مبادئه الكريمة ، وآثر رضوان الله على رضا نفسه .

إنه أتعب نفسه فى الدنيا وحملها على سبيل المشقة فى التزام الطاعة ومداومة العبادة ، فأسهر ليلها وأظمأ نهارها ، فكان على الله حقاً أن يجزيه على ذلك أوفى الجزاء ، وينيله أعظم الثواب .

فما بال الانسان المؤمن لا يستعذب المشقة فى سبيل تحقق هذه الغاية الكريمة ؟

وما باله لا يستلذ المتاعب من أجل الوصول الى أكرم النتائج ؟

إن رضوان الله أنبل هدف فى الوجود ، ومعرفته أسمى ما يحرص عليه العاقل من غايات . فلتكن كذلك عقيدة المؤمن عليها يحيا وعليها يموت .

---

(٢٤٤) محمد ١٢

إن الانسان الذى يتعشق بشراً مثله ، أو يمشى فى ركاب انسان آخر فى سبيل مغنم مادي يحرص على أن يرضيه بشتى الوسائل ولو أغضب فى ذلك كافة الناس . وبعض الناس يركب الأخطار ويقتحم المشقات ويخاطر بحياته أحياناً فى سبيل ربح يعود عليه من تجارة يعمل فيها أو سلعة يروجها . وكل ذلك مغنم مادى رخيص . فكيف بمن يجمع خيرى الدنيا والآخرة فى يده ؟ ألا يحق له أن يستلذ المخاطر ويستهين بما يقاسى من متاعب ؟

ذلك هو الدين الذى يحقق سعادة الدنيا والآخرة ، وهو الاسلام الذى جاء به الأنبياء جميعاً ودعوا إليه أقوامهم ، ولقوا فى سبيل تبليغه والدعوة إليه ما لقوا ، ولقى من آمن به من الناس الأذى الذى استعرضنا فيما سبق ألواناً منه ، وذلك هو الدين الذى شرح الله له صدور قوم آمنوا به حتى من قبل أن يرسل الله لهم رسوله ﷺ لقد كان رسولهم العقل الذكى والبصيرة الملهمة والروح التواق فجالوا بأنظارهم فى ملكوت السموات والأرض وأعملوا عقولهم فى جمال هذا الكون باحثين ومتأملين ومتعطشين لمعرفة رب الوجود ، ولم يسلم أيضاً هؤلاء من عذاب الشوق وعقبات الطريق ، واعتبروا أنفسهم غرباء بين قوم لا يألفونهم ، وهذا أقسى أنواع العذاب .

المشقة ـ إذن ـ هى منهاج الوصول ، وهى ضريبة الايمان ، .وبدونها لا يحقق الانسان ربحا فإن خلص الانسان من ضريبة المشقة حين يؤمن ، فلن يخلص بعد ذلك من ضريبة التكاليف الشرعية التى تربطه بربه وتوثق صلته به ، وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يقول : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »

أجل ، ولله در الشاعر العربي الحكيم إذ يقول :

بصرت بالراحة العظمى فلم أرها تنال إلا على جسر من التعب

أمثلة من التعذيب

لقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأذى فى سبيل تبليغ رسالة ربه ما لا يستطيع أحد احتماله . وقد سبق أن عرضنا لألوان من ذلك .

فقد عارضه المشركون بما استطاعوا أن يعارضوه به فلم تلن له قناة ، ولم يهن له عزم . . قالوا عنه إنه ساحر ، وقالوا عنه إنه شاعر ، وقالوا عنه إنه مجنون ، وقالوا عنه كل مايمكن أن يقوله موتور حاقد كاذب مُفْترٍ . .

وكان الله يرد عنه هذه السهام المشرعة ، والقذائف الموجهة . . ومنحه الله قوة الارادة على مواجهتها بشجاعة وحزم فارتد أصحابها مدحورين مقهورين .

● حدث عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطوف بالبيت ، ويده فى يد أبى بكر وفى الحِجْر ثلاثة نفر جلوس :

عقبة بن أبى معيط ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، فمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما حاذاهم أسمعوه بعض مايكره ، فعرف ذلك فى وجه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدنوت منه حتى وسطته ـ أى جعلته وسطا ـ فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينى وبين أبى بكر وأدخل أصابعه فى أصابعى وطفنا جميعا ـ فلما حاذاهم قال أبو جهل : والله لا نصالحك مابل بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ماكان يعبد آباؤنا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنا ذلك .

ثم مشى عنهم فصنعوا به فى الشوط الثالث مثل ذلك .

حتى اذا كان الشوط الرابع ناهضوه ، وقاموا له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه ، فدفعت فى صدره فوقع على الأرض ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقبة بن أبى معيط .

ثم انفرجوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو واقف . ثم قال : أما والله لاتنتهون حتى يحل بكم عقابه أى ينزل عليكم عاجلا .

قال عثمان : والله مامنهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة .

فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول بئس القوم أنتم لنبيكم ، ثم انصرف الى بيته وتبعناه حتى وصل إلى باب بيته ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : أبشروا ، فإن الله ـ عز وجل ـ مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر نبيه ، إن هؤلاءالذين ترون ممن يقتلهم الله على أيديكم عاجلا .

ثم انصرفنا إلى بيوتنا . فوالله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر[٢٤٥]

● ومماحدث به الحلبى فى سيرته قال : ذكر أن أباجهل بن هشام قال يوما لقريش : يامعشر قريش ، إن محمدا قد أبى ماترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم ، إنى أعاهد الله لأجلسن له ـ يعنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ غدا بحجر لا أطيق حمله إلا بصعوبة ، فاذا سجد فى صلاته ضربت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف مابدالهم .

قالوا : والله لانسلمك أبدا ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا ـ كما وصف ـ ثم جلس لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينتظره ، وغدا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(٢٤٥) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٧٢

كما كان يغدو للصلاة ، وكانت قبلته إلى بيت المقدس ، فكان يصلى إلى الركن اليمانى والحجر الأسود ، ويجعل الكعبة بينه وبين الشام .

وقريش جلوس فى أنديتهم وهم ينتظرون ماأبو جهل فاعل .

فلما سجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما ممتقعا لونه ، وقد يبست يداه على حجره حتى قذفه من يده ـ بعد أن عالجوا فكه من يده فلم يقدروا إلا بعد لأى ـ تعب ـ . .

وقامت اليه رجال من قريش وقالوا : مالك ياأبا الحكم ؟

قال : قمت لأفعل ماقلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى فحل من الأبل والله مارأيت مثله قط ، هم بأن يأكلنى .

فلما ذكر ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ذاك جبريل لو دنا لأخذه » ذكر بعض المفسرين ـ فى سبب نزول قوله تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢٤٦)

أن الآية الأولى نزلت فى أبى جهل لما حمل الحجر ليرضخ به رأس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رفعه تسمرت يداه إلى عنقه ، ولزق الحجر بيده ، فلما عاد إلى اصحابه أخبرهم فلم يفكوا الحجر من يده الابعد تعب شديد . . .

---

(٢٤٦) يس ٨ ، ٩

وأن الآية الثانية نزلت فى رجل آخر لما رأى ماوقع لأبى جهل قال : أنا ألقى الحجر عليه ، فذهب إليه ، فلما قرب منه غشي بصره ، فجعل يسمع صوته ولايراه . فرجع إليهم فأخبرهم بذلك .(٢٤٧)

وقال السيوطى فى أسباب النزول : ـ

أخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ فى الصلاة فيجهر بالقراءة ، حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه ، واذا بأيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، واذا بهم عمى لايبصرون ، فجاءوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : ننشدك الله والرحم يامحمد ، فدعا حتى ذهب ذلك عنهم ، فنزلت أول يس :

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢٤٨)

قال : فلم يؤمن من ذلك النفر أحد .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : قال أبو جهل لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن فأنزل الله :

---

(٢٤٧) السيرة الحلبية جـ١ ص ٤٦٤

(٢٤٨) يس ١ : ١٠

« إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا .... الخ »

فكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو؟ أين هو؟ ولا يبصر[٢٤٩] لقد كان الله يؤيده ويدفع عنه ، وكيف لا ، وقد قال له :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٢٥٠]

● لقد قالت ابنة الحكم بن أبى العاص يوما لأبيها : مارأيت قوما كانوا أسوأ رأيا وأعجز فى أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم .. فقال لها : لاتلومينا يابنية ، إنى لا أحدثك إلا مارأيت . لقد أجمعنا ليلة على اغتياله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رآيناه يصلى ليلا جئنا خلفه ، فسمعنا صوتا ظننا أنه مابقى بتهامة جبل إلا تفتت علينا وانه يقع علينا ، فماعقلنا حتى قضى صلاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجع إلى أهله ، ثم تواعدنا ليلة أخرى ، فلما جاء نهضنا إليه ، فرأينا كأن الصفا والمروة التصقتا إحداهما على الأخرى ، فحالتا بيننا وبينه .

● وقد كانوا يحاولون نهيه عن الصلاة عند الكعبة ، وقد ألح عليه أبو جهل فى ذلك فنزل قوله تعالى : ـ

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾[٢٥١]

---

(٢٤٩) أسباب النزول للسيوطى ص ١٤٥

(٢٥٠) المائدة ٦٧

(٢٥١) العلق ٩ : ١٩

إن أبا جهل لم يكتف بنهى الرسول عن الصلاة ، بل هدده بناديه وأهله ، ولقد قال له يوما : لقد علمت يامحمد بأنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم . فنزل قوله تعالى ساخرا منه ، ومبكتا له :

﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢٥٢)

وقد كانت هذه الآيات الكريمة تنزل عليهم كالصواعق فتزلزل أركانهم وتهدم كيانهم وتصيبهم بالذهول حتى لايدرى أحدهم مايقول .

إنهم يدركون ـ على الرغم من تكذيبهم لماينزل ـ أن هذا القول له أثره الشديد فى النفوس ـ إن له صولة لم يعهدوها فى أى قول آخر ، وله سحره الذى يأخذ بمجامع قلوب الناس فيرددونه وهم به معجبون . .

● حين نزلت سورة المسد . أقبلت حمالة الحطب الى المسجد ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبوبكر وعمر فيه ، وفى يدها حجر . فأخذ الله على بصرها فلم تر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنها رأت أبابكر وعمر .

فأقبلت على أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فقالت : أين صاحبك ؟

قال : وماتصنعين به ؟

قالت : بلغنى أنه هجانى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر ـ الحجر ـ فمه .

فقال عمر رضى الله عنه : ـ ويحك إنه ليس بشاعر .

فقالت : إنى لا أكلمك يابن الخطاب ـ وذلك لما تعلمه من شدته ـ ثم

---

(٢٥٢) الدخان ٤٧ : ٤٩

أقبلت على أبى بكر لما تعلمه من لينه وتواضعه ، فقالت : والثواقب - أى النجوم - إنه لشاعر وإنى لشاعرة ، فكما هجانى لأهجونه . وانصرفت .

فقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنها لم ترك . فقال ﷺ : جعل الله بينى وبينها حجاب .

● وقد قال صاحب الهمزية فى ذلك :-

وأعدت حمالة الحطب الفهر وجاءت كأنها الورقاء

ثم جاءت غضبى تقول : أفى مثلى من أحمد يقال الهجاء

وتولت ومارأته ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء ؟

أمثلة من الأذى الموجه للمؤمنين :-

وحدث من الأذى للنبى - صلى الله عليه وسلم - أكثر من ذلك بكثير . ولكنه كان قمة شماء فى الصبر وقوة الاحتمال .

ولقد ضاق بهم ذرعا ذات يوم فدعا عليهم فقال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، اللهم عليك بأبى الحكم بن هشام وعتبة بن ربيعة وعقبة بن أبى معيط وأمية بن خلف . .

وهابت قريش دعوته ، وقد كانوا يضحكون منه ويسخرون بعد أن كان أحدهم قد ألقى عليه وهو ساجد فرث جزور .

وقد استجاب الله دعاءه ، فأصابتهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام ، وصار الواحد منهم يرى مابينه وبين السماء كالدخان من الجوع . .

فجاءوا إليه تائبين مستغفرين ، فدعا الله فرفع عنهم العذاب ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ

﴿ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢٥٣)

قال السيوطى فى أسباب النزول :

أخرج البخارى عن ابن مسعود قال : إن قريشا لما استعصوا على النبى - صلى الله عليه وسلم - دعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام . . فقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يارسول الله استسق لمضر فانها قد هلكت فاستسقى فسقوا . فنزلت : « إنكم عائدون » فكما أصابتهم الرفاهية عادوا الى حالهم ، فأنزل الله قوله

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢٥٤) يعنى يوم بدر(٢٥٥)

ولقد لقى أصحابه من العذاب على أيدى هؤلاء المشركين مايفوق الوصف ، وماتقشعر منه الأبدان وتتفطر من هوله الأفئدة .

ذكر الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية قال :

أورد البخارى عن خباب بن الأرت قال : أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد برده فى ظل الكعبة - ولقد لقينا من المشركين شدة شديدة - فقلت : يارسول الله ، ألا تدعو الله لنا ؟

فقعد محمرا وجهه فقال : « إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب مايصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع

---

(٢٥٣) الدخان ١٠ : ١٥

(٢٥٤) الدخان ١٦

(٢٥٥) أسباب النزول للسيوطى ص ١٥١

المنشار على مفرق رأس أحدهم فيشق فلا يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف الا الله .

لم يكن النبي ﷺ ـ حين يدعو إلى الاسلام نهّازاً يطلب سلطة أو جاها ، بأن يجمع حوله الأنصار واعدالهم بأن يحيل الدنيا من حولهم نعيماً وارفا وظلا ممدوداً . ولكنه كان يطلب منهم نصر دين الله باذلين فى سبيله مهجهم وأرواحهم ولهم الجنة فى الأخرة ورضوان الله . . .

وكان يطلب منهم أن يوطنوا أنفسهم على البذل وتحمل العذاب والمشقة حتى يظهر أمر الله .

ولذلك حين شكا إليه خباب مايلقاه هو وأصحابه من الأذى ، لم يواسه بكلمة بل ذكره بما كان يلقاه المؤمنون السابقون على أيدى الكفار والمعاندين ، ومن العجيب أن ذلك لم يصرف خباباً ومن أسلم من المؤمنين عن هذا الدين الذى يطلب منه فى سبيله بذل نفسه وتحمل أقسى ما يحتمله من عذاب ، بل جعلهم يزدادون تمسكا بدينهم ، وإصرارا على عقيدتهم .

لم يستثن الكفار أحدا من الايذاء . . .

فقد آذوا أبا بكر إيذاء شديدا كما آذوا غيره . . . .

ومما وقع لأبى بكر من الأذى أنه كان أول خطيب فى الاسلام دعا إلى الله ورسوله وثار عليه المشركون ، وضربوه ضربا شديدا ووطئوه بأرجلهم حتى أوشك أن يموت . . . وضربه عتبة بن ربيعة بقسوة حتى سقط مغشيا عليه وحملوه فى ثوب إلى منزله وهم لايشكون فى موته . . .

أما ابن مسعود رضى الله عنه ـ فقد جهر بالقرآن فى الكعبة ـ وقرأ سورة الرحمن ، فمازال المشركون يضربونه وهو مستمر فى القراءة لايقطعها ، حتى أدموا وجهه . فقال له أصحابه : هذا الذى خشينا عليك منه .

فقال : والله مارأيت أعداء الله أهون عليَّ مثل اليوم ، ولو شئتم لآتينهم بمثلها غدا .

قالوا : كفى ذلك لقد أسمعتهم مايكرهون .

وقد قدمٌ بلال مثلا فى الصبر والاحتساب . كان مملوكا لأمية بن خلف . فحين بلغه إسلامه جعل فى عنقه حبلا ودفعه إلى الصبيان يلعبون به ، ويطوفون به فى شعاب مكة ، وبلال يردد : أحد أحد ، مشيرا بذلك إلى إصراره على التوحيد . . .

وكانوا يلقونه فى حر الظهيرة على الرمل اذا اشتدت حرارته ، بحيث لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ، ثم تطرح فوق صدره صخرة عظيمة ، ويقول له أمية بن خلف لاتزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .

ولايزيد بلال على أن يقول : أحد أحد .

قال الحلبى : كان بلال مولدا من مولدى مكة ، وكان من جملة مائة مملوك لعبد الله بن جدعان . فلما بعث الله النبى ﷺ ـ أمر بهم سيدهم فأخرجوا من مكة خوفا من إسلامهم ، فأخرجوا إلا بلالا ، فقد كان يرعى غنم سيده وأسلم بلال وكتم إسلامه حينا ـ ولكنه ضاق بالأصنام ذرعا ، فبصق يوما عليهن وقال : خاب وخسر من عبدكن ـ

فشعرت به قريش ، فشكوه إلى سيده . . . .

فأعطاهم عبد الله بن جدعان مائة من الابل ينحرونها للأصنام وأغراهم بتعذيب بلال .

وقد باعه عبد الله بن جدعان لأمية بن خلف أو وهبه له ،

وقد اشتراه أبو بكر من أمية وأعتقه .

أبو بكر يشترى الأرقاء ويعتقهم

وكان أبو بكر يشترى الأرقاء الذين أسلموا ، ويعتقهم .

ومن الذين اشتراهم ـ حمامة أم بلال ، وعامر بن فهيرة ، وأبى فكيهة ـ وكان عبداً لصفوان بن أمية ، أسلم حين أسلم بلال ـ وزنيرة ـ التى عذبوها فى الله حتى عميت ـ وقد قال لها أبو جهل يوما : إن اللات والعزى فعلا بك ما ترين .

فقالت : كلا والله ماتملك اللات والعزى نفعا ولاضرا ، هذا أمر السماء وربى قادر على أن يرد علىَّ بصرى .

فأصبحت تلك الليلة ، وقد رد الله عليها بصرها .

فقالت قريش : إن هذا من سحر محمد ـ فاشتراها أبو بكر هى وابنتها وأعتقهما

كان جملة العبيد والارقاء الذين اشتراهم أبو بكر وأعتقهم تسعة .

وهذا لون من الجهاد بالمال فى سبيل الله .

صبر المعذبين على الأذى

ذكر القسطلانى فى المواهب اللدنية قال :

أقبل كفار قريش على من آمن يعذبونهم ويؤذونهم حتى إن عدو الله أبا جهل مر بسمية أم عمار بن ياسر وهى تُعَذب فطعنها فقتلها ورمى ابنها عبد الله فسقط .

وقد روى ابن سعد فى طبقاته أن سمية أول شهداء الاسلام . . . وبلغ النبى ﷺ ـ ما يتعرض له ياسر وأبناؤه وزوجه من أذى فقال مواسيالهم : صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة . ودعا لهم قائلا : اللهم لاتعذب من آل ياسر أحدا بالنار .

وظل آل ياسر فى العذاب ، حتى فرج الله عن عمار ، وكان يعذب حتى لايدرى مايقول ، وكان يُرى فى ظهره أثر كالمخيط . فسئل ، فقال : هذا ما كانت تعذبنى قريش فى رمضاء مكة .

وروى أن النبى ﷺ ـ مر وهم يحرقونه بالنار فقال : يانار كونى بردا وسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم[٢٥٦] .

ولم يزل أمر الايذاء يشتد على المسلمين لافرق بين كبيرهم وصغيرهم ، حتى أذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة .

الهجرة الى الحبشة

لقد خشى المسلمون على أنفسهم الفتنة ، وكان العذاب عليهم قاسيا لايحتمل . . . . حدث خباب عن نفسه قال : لقد رأيتنى يوما وقد أوقدوا لى نارا ووضعوها على ظهرى فما أطفاها إلا ودك ظهرى ـ أى دهنه ـ

وكان خباب حدادا ، وكان قد سبى فى الجاهلية فاشترته أم أنمار ، وحين أسلم كانت مولاته تأخذ الحديدة وقد أحمتها فى النار فتضعها على رأسه ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ ـ فقال : اللهم انصر خبابا .

فاشتكت مولاته رأسها فكانت تعوى مع الكلاب . فقيل لها : اكتوى ، فكان خباب يأخذ الحديدة وقد أحماها فيكوى رأسها . .

وهكذا أراد الله أن يكون عقابها بمثل ما فعلت بخباب ، وكان خباب هو الذى يتولى بنفسه أمر كيِّها . . . واحدة بواحدة والبادى أظلم . . .

وكذلك اشتد الأمر بالمسلمين ، ورأى النبى ﷺ ـ ما أصاب أصحابه من البلاء والأذى . وهو لايقدر أن يمنع عنهم ماينالهم من الأذى والظلم . . . فقال لهم ـ فيما يرويه ابن هشام ـ : لوخرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكا

---

(٢٥٦) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ١ ص ٢٦٨

لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .

فخرج فى الهجرة الأولى بضعة عشر نفرا منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ -

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه زوجته سهلة بنت سهيل والزبير بن العوام . ومصعب بن عمير . وعبد الرحمن بن عوف . وأبو سلمة الأسدى ومعه امرأته أم سلمة بنت أمية بن المغيرة . وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبى حنتمة . ، وسهيل بن وهب بن ربيعة . ويقال : إن النبى - ﷺ - أمر عليهم عثمان بن مظعون . . كان هذا هو الفوج الأول من المهاجرين إلى الحبشة . .

ثم لم يلبث أن لحق بهم بعض أصحاب رسول الله - ﷺ - فخرج جعفر بن أبى طالب وغيره - منهم من خرج وحده ، ومنهم من خرج ومعه أهله ، حتى بلغت عدة هؤلاء المهاجرين ثلاثة وثمانين رجلا .

ولم يكن فراق هؤلاء المهاجرين لوطنهم سهلا ، ولكن فراق الوطن والأها والمال يهون إذا كان ذلك فى سبيل الله .

وأحسن النجاشى استقبال المسلمين ، فى دياره . حتى اطمأنوا عو أنفسهم ودينهم ، وأقبلوا على عبادتهم يمارسونها فى حرية كاملة . .

وقد أكرم الله النجاشى لذلك حتى قالت عائشة - رضى الله عنها - فى ذلك : « كنا نتحدث أنه لايزال على قبر النجاشى نور[٢٥٧] »

وكانت طريقة هؤلاء فى الهجرة سرًا حتى لايحس بهم المشركون فيرجعوهم . فقد خرجوا خفية حتى وصلوا إلى ساحل البحر ، وهناك

---

(٢٥٧) الروض الأنف للسهيلى جـ ٢ ص ٨٦

استاجروا سفينة لنقلهم وأحست قريش بهم فخرجت فى أثرهم ، فجاءت وقد ركبوا البحر فلم تدركهم .

أبو بكر يعدل عن الهجرة إلى الحبشة

وكان الصديق ـ رضي الله عنه ـ قدهَمَّ بالهجرة مع من هاجر ، فخرج حتى إذا بلغ برك الغماد ـ وهو موضع وراء مكة بخمسة أميال ـ لقيه الحارث بن الدُّغِنة وهو سيد قبيلة « القارة » وهى قبيلة مشهورة بقوة الرمى . فقال له : أين تريد يا أبا بكر؟

قال : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى . .

قال ابن الدغِنة : إن مثلك يا أبا بكر لايخرج ، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعتق الأرقاء وأنت فى جوارى فارجع فاعبد ربك ببلدك .

فرجع أبو بكر مع ابن الدغنة .

وطاف ابن الدغنة فى أشراف قريش وقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ، وهو فى جوارى . . .

فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، ولم ترد عليه جواره ، ولكنهم قالوا له : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذنا بذلك ، ولايستعلن حتى لايفتن أبناءنا وعبيدنا . . . فقال ابن الدغنة ذلك لأبى بكر .

ومكث أبو بكر يعبد ربه فى داره ، يصلى فيها ويقرأ القرآن ، وكان رجلا بكاء لايملك عينيه إذا قرأ القرآن . فكان كثير من رجال قريش يزدحمن عليه ليسمعن منه القرآن فأفزع ذلك القرشيين .

فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقالوا له :

إنا قد أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن الصلاة والقراءة ، وإنا قد خشينا أن يفتن رجالنا وعبيدنا بهذا . إن أحب أن يقتصر على عبادة ربه فى داره فعل . وإن رأى أن يعلن بذلك فاسأله أن يرد عليك جوارك . فإنا كرهنا أن نخفر ذمتك ونبطل عهدك .

فجاء ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال له :

قد علمت الذى قد عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجع إلىّ ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمْع العرب أنى قد أخفرت .

فقال له أبو بكر : فإنى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى .

وحين رد أبو بكر جوار ابن الدغنة ، وتسامع الناس بذلك ، لقيه بعض السفهاء وهو فى طريقه إلى الكعبة فرمى على رأسه ترابا .

ومر به بعض كبراء قريش . فقال له أبو بكر : أما ترى ما صنع هذا السفيه ؟

فقال له : أنت صنعت ذلك بنفسك . .

فقال أبوبكر : رب ما أحلمك . قالها ثلاثا . .

قال الحلبى فى سيرته : ولك أن تتأمل فيما وصف به ابن الدغنة أبا بكر ، إنها الأوصاف الفاضلة والسمات الكريمة والأخلاق السامية ولم يستطع القرشيون أن يطعنوا فى هذه الصفات ولكنهم مع ذلك تناسوها أمام حقدهم الشديد وعداوتهم المستعرة لما رأوا من صدق مولاته لرسول الله ﷺ وعظيم محبته له (٢٥٨) .

---

(٢٥٨) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٨٥

قريش تفكر فى إعادة المهاجرين

وحين رأت قريش أن المسلمين قد اطمأن بهم المقام فى أرض الحبشة ، وأنهم أصابوا بها مستقرا آمنا . ائتمروا فيما بينهم على أن يعيدوهم بأى سبيل .

واجتمع رأيهم على أن يبعثوا منهم رجلين قويين من ذوى الرأى والمكيدة إلى النجاشى ملك الحبشة . واختاروا لهذه المهمة عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص .

ولننصت إلى أم المؤمنين أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ وقد كانت إحدى المهاجرات مع زوجها أبى سلمة وهى تقص علينا قصة هذه المؤامرة الفاشلة . .

قالت ـ رضى الله عنها : « لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا خير جار : النجاشى أمنًا على ديننا ، وعبدنا الله ـ لانُؤذَى ولانسمع شيئاً نكرهه . فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا إلى النجاشى فى شأننا فبعثوا إليه رجلين جلدين حملوا معهم الهدايا الكثيرة مما يستطرف من متاع مكة . وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدم ، فجمعوا له أُدما كثيرا ، ولم يتركوا أحدا من بطارقته إلا حملوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو ابن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فى أمر هؤلاء .

ثم قَدِّماً إلى النجاشى هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .

قالت : فخرجا حتى قدما على النجاشى ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما

النجاشى ، وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد لجأ إلى بلد الملك من غلمان سفهاء من قومنا ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولاأنتم ، وقد بَعَثَنا أشرافُ قومهم ، إلى الملك ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولايكلمهم ، فإن قومهم أعرف بهم ، وأعلم بما عابوا عليهم .

فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قدما هداياهم إلى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه . فقالا له : أيها الملك العظيم إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لانعرفه نحن ، ولاأنت ، وقد بَعَثَنا إليك فى شأنهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعرف بهم وأعلم بما عابوا عليهم .

قالت أم سلمة : فقالت بطارقته حوله : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ، ليردوهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشى ، ثم قال : لا والله لا أسلمهم ، ولا يهان قوم جاورونى ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

النجاشى يجاور المسلمين

قالت ـ أم سلمة رضى الله عنها ـ ثم أرسل ـ النجاشى ـ إلى أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعاهم .

فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، قال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل إذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ماعلمنا ، وما أمرنا به نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كائنا فى ذلك ماهو كائن ، فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشي اساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ـ سألهم ، فقال : لهم :

ماهذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولافى دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب فقال له :

أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم . وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

قالت أم سلمة : فعدد عليه أمور الإسلام ، ثم قال جعفر : فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من عند الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، فحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ـ فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ـ تعالى ـ وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا

علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك .

قالت أم سلمة : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به نبيكم من شيء .

فقال له جعفر : نعم

فقال له النجاشي : فاقرأه على .

قالت : فقرأ عليه صدرا من سورة « كهيعص » - مريم -

قالت : فبكى - والله - النجاشي - حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال النجاشي : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، فانطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ، ولايُكادون .

قالت أم سلمة - رضى الله عنها : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم .

فقال له عبدالله بن أبي ربيعة - وكان أقل كيدا لنا : لاتفعل ، فإن لهم أرحاما ، وإن كانوا قد خالفونا .

قال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

قالت أم سلمة - رضى الله عنها : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما . فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه . .

فأرسل إليهم النجاشي ليسألهم عن ذلك .

قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط - ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟

قالوا : نقول ـ والله ـ ماقال الله وماجاءنا به نبينا وليكن مايكون .

قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟

قالت : فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ماعدا عيسى بن مريم ماقال هذا العود :

فتعالت أصوات بطارقته حوله حين قال ماقال .

فقال : وإن غضبتم والله . . ثم قال للمسلمين اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى ـ والشيوم : الآمنون ـ من سبَّكم غرم . . . قالها ثلاثا .

ثم قال : ما أحب أن لى جبلا من ذهب وأنى أذيت رجلا منكم .

والتفت إلى بطارقته فقال لهم : ردوا عليهما ـ أى على عمرو وصاحبه ـ هداياهم فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد علىَّ ملكى ، فآخذ الرشوة فيه ، وماأطاع الناس فىَّ فأطيع الناس فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ماجاءا به . وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

فشل عمرو فى مهمته

لقد فشل عمرو بن العاص وصاحبه فى مهمتهما وقد عز ذلك على عمرو فيما يبدو ، ولكنها كانت فرصة لأن يراجع فيها نفسه على أى حال .

وقد اختارت قريش عمراً لما كانت تعرفه فيه من سعة الحيلة وإحكام التدبير . ولكنه مع ذلك لم يستطع مع إيمان النجاشى أن يفعل شيئاً يكيد به المسلمين الذين هاجروا فرارا بدينهم إلى الله . .

وقد أسلم عمرو فيما بعد وحسن اسلامه ، وأبلى فى جهاد أعداء الإسلام بلاء حسنا ، وسبحان مقلب القلوب ومغير الأحوال . .

وكذلك أسلم صاحبه عبدالله بن أبى ربيعة المخزومى ، وحسن إسلامه وولاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجند ومخاليفها ، فلما حوصر عثمان جاء لينصره فوقع عن راحلته قرب مكة فمات ـ رضى الله عنه ـ

وهكذا أصبح أعداء الإسلام بالأمس من أعظم أنصاره بعد ذلك . .

إسلام حمزة

ولنترك المسلمين فى الحبشة مطمئنين على دينهم يجاورون فيها هذا الملك العادل الذى أحبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعا له ، ولنعد إلى مكة لنرقب كيف كان حال من بقى فيها مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكان حمزة بن عبدالمطلب قد أسلم ـ وهو الملقب بسيد الشهداء ، وأسد الله ـ كان خير أعمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخاه من الرضاع . أرضعتهما معا ثويبة جارية أبى لهب . وإن كان حمزة أسن من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنتين ، وهذا يعنى أنها أرضعتهما فى زمانين مختلفين .

وكان حمزة من أقوى شباب قريش وأنضرهم وأشدهم شكيمة . .

أسلم سنة ست من النبوة ـ وكانت الهجرة إلى الحبشة سنة خمس ـ وسبب إسلامه ـ كما جاء فى المواهب اللدنية ـ أن أبا جهل أذى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالغ فى إيذائه وشتمه .

وكان حمزة غائبا فى رحلة صيد فلما عاد أخبرته مولاة ابن جدعان قالت له : لو رأيت ماحدث لابن أخيك من أبى الحكم بن هشام .

وقيل : بل أخبرته صفية أخته .

فغضب حمزة غضبا شديداً ، ولم يخلع ملابس الصيد ، بل عمد إلى

الكعبة فورا فوجد أبا جهل فعلا رأسه بقوسه فشجه شجة منكرة . وقال له : أتشتم محمداً وأنا على دينه ؟ فرد عليَّ ذلك إن استطعت .

فقام رجال من بنى مخزوم لنصرة أبى جهل .

فقال أبوجهل : دعوا أبا عمارة فانى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا ـ وروى ابن أبى حاتم قال : قال حمزة دينى دين محمد ، إن كنتم صادقين فامنعون . فتعجب القوم من ذلك فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٥٩)

لقد أنف القرشيون أن يقول حمزة ذلك أو أن يقروا بنصره وهو على دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد أعمتهم الحمية عن أن يروا الحق الواضح والرشد الناجح .

وإن كان غالب المفسرين يقولون : إن الآية السابقة نزلت فى شأن قريش حين أنفت أن يدخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة معتمرا عام الحديبية .

وبإسلام حمزة ـ رضى الله عنه ـ كفت قريش عن أذاها قليلا ـ وعز بإسلامه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كان إسلام حمزة مفاجئا ، حتى لقد فاجأ به نفسه قبل أن يفاجىء به قريشا ـ كان ثورة عاطفية أثارتها العصبية وصلة الرحم .

---

(٢٥٩) الفتح ٢٦

ولذلك فإنه حين رجع إلى بيته أخذ يحدث نفسه ـ كما يقول الزرقاني ـ ويقول مخاطبا لها : أنت سيد قريش كيف تترك دين آبائك ؟ فأخذ يدفع وساوس الشيطان عن نفسه .

ثم قال : اللهم إن كان هذا رشدا فاجعل تصديقه في قلبي ، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجا . وبات بليلة لم يبت مثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح .

فغدا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : يابن أخي إني قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلي على ما لا أدري أهو رشد أم لاغيٌّ شديد ، فحدثني حديثاً فقد اشتهيت يابن أخي أن تحدثني . .

فأقبل ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكره ووعظه وخوفه وبشره . فالقى الله في قلبه الإيمان بما قاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال حمزة : أشهد انك لصادق ، فأظهر دينك ، فوالله ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأنا على ديني الأول . وقال حمزة معتزا باسلامه :

حمدت الله حين هدى فؤادى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
لدين جاء من رب عزيز ... خبير بالعباد بهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا ... تحدر دمع ذي اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها ... بآيات مبينة الحروف
وأحمد مصطفى فينا مطاع ... فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نسلمه لقوم ... ولما نقض فيهم بالسيوف

وأسقط في يد قريش حين رأت حمزة ـ رضي الله عنه ـ يسلم ـ ورأوا أن ذلك أول بوادر الاختراق في صفوفهم . . ولئن سكتوا على ذلك ليوشكن أمر

هذا الدين يزداد استعلاء ، وأمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزداد ظهورا وارتفاعا . .

فعولوا على أن يسلكوا طريقا آخر فى مقاومته ، ولا بأس عليهم إذا استعانوا بمن هم أقدم منهم معرفة فى مقاومة مثل هذه الدعوة . .

فأرسلوا ـ كما سبقت الاشارة ـ من يسأل اليهود ـ وهم ذوو خبرة فى نظر قريش ـ عن وسائل يستعينون بها فى إيقاف زحف هذه الدعوة ، فأشاروا عليهم بأن يتحدوا النبى سائلين إياه عن أمور مغيبة لايعرفها الا نبى يوحى إليه . .

فعادوا وسألوه عن ذى القرنين وأهل الكهف والروح ، وقد عرضنا أحاديث خاصة عن ذلك ،

وقد كانت إجابة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ موافقة لما جاء فى الكتب السابقة . وقد أدى ذلك إلى خذلان اليهود كما أدى إلى كبت القرشيين ، واظهار أمر المسلمين .

ولكن ظهور الحق لم يزد الباطل الا شراسة فى المقاومة ، ولم يزد المشركين الا إمعانا فى التحدي ومقابلة من بقى من المسلمين فى مكة بالإيذاء الشديد . . .

إسلام عمر

وكأن الله قد أراد أن يفت فى عضد المشركين ـ وأن يذيقهم كأس الغيظ ويجرعهم مرارة الخذلان ، فهدى الله عمر الفاروق إلى دينه الحنيف ـ فكان وقع هذا على نفوس أهل الكفر عنيفا .

أسلم عمر بعد حمزة بثلاثة أشهر فى رأى بعض الرواة ، ولكن بعضهم يقولون : إنه أسلم بعده بثلاثة أيام .

وكان إسلام عمر إستجابة لدعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رأى استشراء الكفر واستبداد أهله ـ فقال : اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين . .

والعمران هما : عمرو بن هشام ـ وهو أبو جهل ـ وعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر هذا الحديث ولفظه : قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم أعز الاسلام بأحب العمرين إليك »

وفى رواية أخرجها الحاكم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصر دعوته على عمر خاصة فقال : اللهم أيد الأسلام بعمر بن الخطاب ـ

وفى رواية : اللهم أعز عمر بالاسلام . .

وقال الزرقانى فى تعليل هذه الدعوة : لأن الاسلام يعز صاحبه ولا يعز بأحد[٢٦١]

كان المسلمون فى مكة حين أسلم عمر ـ رضى الله عنه ـ بضعة وأربعين رجلا ، ولكنهم باسلام عمر وحمزة أصبحوا وكأنهم أضعاف هذا العدد مرات ومرات .

وقد وردت روايات كثيرة فى قصة إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ ذكرنا بعضها فيما سبق[٢٦٢] . . ولكن لانرى بأسا من ذكرها هنا كما جاءت على لسان عمر نفسه . .

عمر يقص قصة اسلامه بنفسه

ولنترك الفاروق ـ رضى الله عنه ـ يقص لنا قصة إسلامه :

---

(٢٦١) شرح المواهب اللدنية جـ١ ص٢٧٣

(٢٦٢) المرجع السابق

قال أسلم مولى عمر - رضى الله عنه - قال لنا عمر : أتحبون أن أعلمكم كيف كان إسلامى ؟

قلنا : نعم

قال : كنت من أشد الناس على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبينما أنا فى يوم حار شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة إذ لقينى رجل من قريش ، فقال : أين تذهب ؟

انك تزعم أنك أشدنا على محمد وقد دخل عليك أمره فى بيتك ؟

قلت : وما ذاك ؟

قال : أختك قد صبأت .

فرجعت مغضبا ، وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة ، فيكونان معه ويصيبان من طعامه ، وقد ضم إلى زوج أختى رجلين .

فجئت حتى قرعت الباب ، فقيل : من هذا ؟

قلت : ابن الخطاب .

قال : وكان القوم جلوسا يقرءون صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا ونسوا الصحيفة من أيديهم .

فقامت المرأة - يعنى أخته - ففتحت لى - فدخلت عليها ، فقلت : يا عدوة نفسها ، قد بلغنى عنك أنك صبأت . ثم ضربتها . فسال الدم ، فلما رأت الدم بكت وغضبت ، وقالت : أتضربنى يا عدو الله على أن أوحد الله ،

لقد أسلمنا على رغم أنفك يابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت .

وفى رواية أخرى : فلما جئت الباب سمعت همهمة ، فقلت : ما هذا ؟ فقال ختنه : ما عدا حديثا كنا نتحدثه .

قال : فما زال الكلام بيننا حتى أخذت برأس ختنى فضربته وأدميته ، فقامت إلىّ أختى ، فأخذت برأسى ، وقالت : قد كان ذلك على رغم أنفك .

قال : فاستحييت حين رأيت الدماء . .

قال : ورأيت الكتاب فى ناحية البيت ، فقلت : ما هذا الكتاب ؟ أعطنيه .

فقالت : لا أعطيكه ، لست من أهله وهذا لايمسه إلا المطهرون .

قال : فلم أزل بها حتى أعطتنيه .

وقيل : لم تعطه الصحيفة إلا بعد أن اغتسل وتطهر ـ

وتناول عمر الصحيفة وأخذ يقرأ .

قال عمر : فإذا ـ فى الصحيفة ـ « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ، ورميت الصحيفة من يدى ، ثم رجعت إلى نفسى فأخذتها فإذا فيها :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (٢٦٣)

إلى قوله ـ تعالى ـ « ان كنتم مؤمنين »

---

(٢٦٣) الحديد ١ ـ ٣

فقلت : أشهد أن لااله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

وفى رواية أخرى . أن الآيات التى قرأها : «بسم الله الرحمن الرحيم .

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ ﴾ (٢٦٤)

فلما قرأ البسملة قال : هذه أسماء طيبة طاهرة . .

ولما قرأ الآيات : عظمت فى صدرة وقال : أمن هذا فرت قريش ؟ ثم أسلم .

وفرح القوم باسلام عمر ، وخرج من كان مختبئا فى الدار وكبروا وقالوا : أبشر يابن الخطاب ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا يوم الاثنين فقال : اللهم أعز ، دينك بأحب الرجلين إليك : إما أبو جهل بن هشام ، وإما عمر بن الخطاب ، وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لك فأبشر .

قال عمر : قلت : أخبرونى أين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ؟

فلما عرفوا الصدق منى قالوا : فى بيت بأسفل الصفا . فخرجت ، حتى قرعت الباب عليهم . فقالوا : من هذا ؟

---

(٢٦٤) طه ١ : ٨

قلت : ابن الخطاب .

قال : وقد علموا من شدتى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يعلمون باسلامى ، فما اجترأ أحد منهم بفتح الباب . حتى قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : افتحوا له إن يرد الله به خيرا يهده .

ففتحوا لى الباب ، فأخذ رجلان بعضدى ، حتى أتيا بى إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم فقال : خلوا عنه ، ثم أخذ بمجامع قميصى ، ثم جذبنى إليه ، ثم قال : أسلم يابن الخطاب ، اللهم اهده ، فقلت : أشهد أن لا اله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بفجاج مكة . . .

عمر يعلن إسلامه :

وليس مثل عمر ـ رضى الله عنه ـ يستخفى باسلامه كبقية المسلمين ، ولكنه أراد أن يعلن عن نفسه ، وأن يعرف القرشيون جميعا أنه أسلم . إن المسلمين أخفوا إسلامهم خوفا من الأذى أو خوفا من الفتنة ، ولكن ابن الخطاب من أى شىء يخاف ؟

أيخاف من الأذى ؟ ومن الذى يجرؤ على إيذائه ؟

أم يخاف من الفتنة ؟ وهو لم يؤمن إلا بعد أن ملأ الايمان قلبه وكيانه وروحه . لقد نطق بالشهادتين عن اقتناع كامل ويقين تام ، وما فى الأرض قوة يمكن أن تزحزحه عن هذه العقيدة . .

فليعلن عن نفسه إذن . .

واسمع اليه أيضا يتحدث عن ذلك فيما يرويه البيهقى :

قال : فخرجت حتى جئت خالى ، وكان شريفا ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟

قلت : ابن الخطاب .

قال : فخرج الىّ .

فقلت : هل علمت أنى قد أسلمت ؟

قال : أوفعلت ؟

قلت : نعم .

قال : لاتفعل .

قلت : قد فعلت .

قال عمر : فدخل وأغلق الباب دونى ـ وفى رواية أنه أغلق الباب وقال : بئس ما جئتنى به .

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : فقلت : ما هذا شيء فذهبت الى رجل من عظماء قريش فناديته ، فخرج إلى ، فقلت مثل مقالتى لخالى ، وقال مثل ما قال ، ودخل ، وأجاف الباب دونى . أى أغلق الباب دونى ، ولم يكتف عمر بذلك ، لقد خشى أن لايفشى هذان الرجلان خبر إسلامه أمام الناس وربما أخفيا ذلك فعلا ، لأنهما حريصان على ألا يذيع مثل هذا الخبر فيفتح الطريق لغير عمر أن يسلم . وعمر ليس بالمرء المهين الذى لايقتدى به غيره . إن إسلامه لو فشا لوجد من المترددين الذى يخشون الخروج على طاعة هؤلاء الكبراء من يسرع إلى الاقتداء به ، وقطع عوامل التردد فى نفسه . .

ولذلك فقد عول عمر على أن يسلك طريقا آخر فى الإعلان عن إسلامه . .

وقد أشار العقاد الى ذلك فى عبقرية عمر قال :

« أبى من اللحظة الأولى إلا أن يواجه الخطر الأكبر فى سبيل دينه ، والا أن

يقبض على الثور من قرنيه كما يقول الغربيون فى أمثالهم ، وأن يتحدى قريشا بحقه مذ آمن بأنهم على باطل ، فسأل أناسا : أى أهل مكة أنقل للحديث ؟

قيل له : جميل بن معمر الجمحى .

فذهب اليه فصرح له باسلامه ، ولم يكذب الرجل الظن به ، فما هو الا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه إلى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على باب المسجد : يا معشر قريش ، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا .

وعمر يقول من خلفه : كذب ، ولكنى أسلمت وشهدت أن لا اله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله »

ولقد ملأ اليقين نفس عمر ، واستولى الايمان على قلبه تماما ، واستيقظت مشاعر الحب لهذا الدين فى قلبه حتى ملأت كيانه كله ..

ولم يعد الخوف من قريش يشغله ، لقد هانت قريش كلها فى نظره . . . بل الذى يشغله الآن كيف عُذِّب المسلمون ولم يعذب هو؟ لقد أراد أن يذوق حلاوة الأذى فى سبيل الله ..

لقد طالما عُذِّب المسلمون فى سبيل الله .. وما كان يرى أحدا من هؤلاء المعذبين يتراجع عن إسلامه رغم الأذى .. فما سبب ذلك ؟

لقد عذب بيده « زنِّيرة » وضربها ضربا عنيفا على إسلامها .. كان يضربها حتى يتعب من شدة الضرب ويقول : ما تركت ضربك إلا ملالة . وذهب بصرها من التعذيب ، فأرجفت قريش أن اللات والعزى أعمتها ، ولكنها كذبت قولهم وقالت : وما تغنى اللات والعزى عن نفسها شيئا ، إنما ذلك من السماء وان الله لقادر على أن يرد بصرى ، وصدقها الله ـ سبحانه

وتعالى ـ ورد بصرها ـ وقد سبق أن أشرنا الى هذه القصة ـ وفيها أن الذى كان يعذبها أبو جهل ولا مانع من أن يكون كلاهما قد اشترك فى تعذيبها . . لقد كان الكفار يستهزئون بالمسلمين أن ضموا بين صفوفهم « زنيرة » وأمثالها من المستضعفين ، وكانوا يقولون : لو كان هذا الدين خيرا ما سبقتنا اليه زنيرة . . وقد سجل القرآن الكريم عليهم هذا القول ، فتنزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٢٦٥)

ذكر ذلك الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية .

لقد أراد عمر أن يذوق لذة هذا التعذيب . . قال العقاد : « فما شغله أمر بعد إعلان الدين إلا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناسا فى سبيل ذلك الدين . قام الى الناس يضربونه ويضربهم ، فقام خاله يسأل : ما هذه الجماعة ؟ قيل له : إن إبن الخطاب قد صبأ .

فقام خاله على الحجر فنادى : ألا إنى قد أجرت ابن أختى .

فانكشف الناس عنه . فكان لايزال يرى مسلما يضرب ولا يضربه أحد .

وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين ، فذهب الى خاله وقد اجتمع الناس فى الحجر وناداه : اسمع يا خال ، جوارك مردود عليك .

قال خاله : ـ وهو به وبما يستهدف له أدرى : لاتفعل يابن أختى .

فأصر على رد جواره ، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم ، فلا تمضى تلك الضربات بغير قصاص ،

---

(٢٦٥) الأحقاف ١١

وان كفّر عنها بالتوبة واعزاز الدين الذى أذاهم من أجله »(٢٦٦)

بل إنه انتقل خطوة أوسع ـ قال فى نفسه : ما بالى كنت أضرب الناس على الايمان ولا أضربهم الآن على الكفر ؟

إنه لن يكون مؤمنا حقا حتى تكون غيرته على دينه الجديد كغيرته على ذلك الدين الذى عز عليه أن يهجره الناس فآذاهم لذلك .

وتحرش بالمشركين ، ولم تلبث أن نشبت معركة بينه وبينهم ووثب على أدناهم منه وأجرئهم عليه ، وكان هو « عتبة بن ربيعة » وهو صنديد من صناديد الكفر ومن أكبر المناوئين لدعوة الاسلام ، وصرعه عمر وبرك عليه وأخذ يضربه وأدخل إصبعيه فى عينيه لأنهما ـ كما يقول العقاد ـ عمياوان عن الحق لايبصران النور .

وتكاثر عليه المشركون فلا يدنو منهم أحد إلا صرعه . حتى أحجموا عنه ، وفتر من طول الصراع ، فجلس ، وهم قائمون ولكنهم لايملكون إلا شتمه وثلبه . فقال لهم : افعلوا ما بدا لكم ، فوالله لو كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم ـ يقصد مكة ـ افعلوا ما بدا لكم ـ . . وأدرك أنه فعل شيئا يرضى ضميره فى سبيل هذا الدين الذى اعتنقه وشيكا وأدرك أنه الحق .

لقد رضى ، وقد أدرك انه عُذّب كما عُذّب غيره ، وعَذّب غيره على كفره كما عذّب غيره لايمانه . .

إنه الانتصاف من النفس ، وما أجدر عمر بذلك

ولكن الخطوة الكبرى لم تأت بعد . .

إنه الآن ينطلق إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سائلا : ألسنا على الحق يا رسول الله ؟

---

(٢٦٦) عبقرية عمر ص ٩٦ ط وزارة التعليم ، دلائل النبوة للبيهقي جـ ٢ ص ٢١٨

ويجيبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بلى ، إننا على الحق إن متنا وإن حيينا .

ويقول عمر : ففيم إذن الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن . هذا هو عمر الذى أعزه الاسلام . لابد أن ينتفع به الاسلام . .

واستجاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاقتراح عمر . . وقد كان ينتظر ذلك اليوم .

فخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه المسلمون من دار الأرقم بن أبى الأرقم فى صفين . يشقون الطريق الى المسجد ، وعلى رأس أحد الصفين عمر وعلى رأس الآخر حمزة . .

ووصل هذا الموكب الايمانى إلى المسجد الحرام ، يتصاعد من تحت أقدامهم تراب ناعم شبهه الرواة بكديد الطحين ورأى المشركون هذا الموكب الصغير عدده القوى روحه ، فعلتهم كآبة ، وشملهم خذلان ، وأحاط بهم خزى من الله ، فقد جبن كل منهم أن يعترض هذا الموكب أو يقترب من أحد صفيه ، أو يتفوه بأى كلمة من كلمات السخرية التى كانت تمتلىء بها أفواههم قبل أن يسلم الفاروق . .

لقد تغير وجه الموقف بين عشية وضحاها . .

وأصبح المسلمون المقهورون على قلتهم عصبة قوية تستطيع أن تعلن عن نفسها فى ثقة واعتزاز . . فكان جديرا أن يلقب النبى ـ صلى الله عليه وسلم عمر بعد هذا بالفاروق ، لأنه فرق بين الحق والباطل . .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « لما أسلم عمر قال جبريل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم : يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر » ذلك أن الله أعز به الدين ونصر به المستضعفين . .

وقال ابن مسعود : كان إسلام عمر عزا ، وهجرته نصرا ، وامارته رحمة ، والله ما استطعنا أن نصلى حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر .

وقال صهيب : لما أسلم عمر قال المشركون انتصف القوم منا .[٢٦٧]

وهناك روايات أخرى فى إسلام عمر ، منها ما ذكره السهيلى فى كتابه « الروض الأنف » قال : حدثنا أبو المغيرة قال : حدثنا صفوان بن عمرو ، قال : حدثنى شريح بن عبيد قال : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمت خلفه فاستفتح سورة « الحاقة » فجعلت أتعجب من تأليف القرآن .

قال : قلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش .

فقرأ

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [٢٦٨]

قال : قلت : كاهن علم ما فى نفسى . فقال :

﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [٢٦٩]

إلى آخر السورة .

قال : فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع .

وسجل عمر إسلامه بشعره ، وقال فى ذلك : ـ

الحمد لله ذى المن الذى وجبت   له علينا أياد مالها غير

---

(٢٦٧) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٧٧

(٢٦٨) الحاقة ٤٠ : ٤١

(٢٦٩) الحاقة ٤٢

وقد بدأنا فكذبنا ، فقال لنا ... صدق الحديث : نبي عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى ... ربي عشية قالوا : قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل ... بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة ... والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذي تدعوه خالقها ... فكاد تسبقني من عبرة درر
فقلت : أشهد أن الله خالقنا ... وافي الأمانة ما في دينه خور[270]

الكفر يواصل تحديه

ولكن هل كف المشركون عن عنادهم باسلام عمر ؟

إنهم قد زلزلوا حقا ، وفقدوا صوابهم ولكن إلى حين ، فإنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من كفر وشقاق ، وتحد لهذه الدعوة الجديدة .

فأقبلوا على النبي - صلى الله عليه وسلم - يطلبون منه الآية تلو الآية . .

آية انشقاق القمر

وكانت قريش قوما خصمين كما ذكرهم القرآن ، قالوا له : أرنا آية حتى نؤمن بك .

فأراهم الله آية انشقاق القمر . ذكر البيهقي في دلائل النبوة هذه الواقعة وأتى بمصادر متعددة لها . ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أنس قال : إن أهل مكة سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم آية فأراهم القمر مرتين انشقاقه » أي فأراهم انشقاق القمر مرتين . .

وقد سجل القرآن الكريم هذه الحادثة في قوله تعالى :

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ

---

(٢٧٠) الروض الأنف جـ ٢ ص ٩٩

مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ
﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ
بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ
نُّكُرٍ ﴿٦﴾ ﴾ (٢٧١)

لقد صار القمر فلقتين فلقة فوق جبل ، وفلقة فوق جبل آخر ، فقالوا سحرنا محمد .

ولكن إن كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سحر القرشيين ، فهل سحر الناس كلهم فى كل مكان هؤلاء الذين عاينوا القمر مقسوما شطرين ؟

ولكنها المكابرة التى أعمتهم عن سبيل الحق ، وصدتهم عن طريق الصواب لقد كان انشقاق القمر ردا على تحدى الكفار للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريهم آية فيؤمنوا . ولكنهم لم يؤمنوا .

قال القرطبى راويا ما ذكره ابن عباس قال : اجتمع المشركون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : إن كنت صادقا فاشقق لنا القمر نصفين

فقال لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن فعلت تؤمنون ؟

قالوا : نعم ـ وكانت ليلة بدر ـ

فسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه أن يعطيه ما قالوا فانشق القمر نصفين ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينادى المشركين يا فلان ، يا فلان ، اشهدوا .

---

(٢٧١) القمر ١ : ٦

قال ابن مسعود : فقالت قريش : هذا من سحر محمد ، سحركم ، فاسألوا السفار - اى الذين كانوا فى سفر ، فسألهم ، فقالوا قد رأينا القمر انشق ، فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر »

وقد جعل الله تعالى - هذه الآية علامة من علامات قرب القيامة ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - أخبر عن قرب الساعة بمبعثه ، فقال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين السبابة والوسطى .

ومعنى ذلك أنه خاتم الرسل ، ولن يأتى رسول بعده لينذر الناس .

ومن أسمائه - صلى الله عليه وسلم - : أنا الحاشر وأنا العاقب - أى الذى يحشر الناس على قدمه ولا يعقبه أحد من الأنبياء .

إنكارهم البعث

وكان إنكارهم الشديد للبعث الذى جعل الله الايمان به جزءا من عقيدة الإسلام . سبباً من أسباب تماديهم فى الكفر وتمسكهم بما هم فيه من ضلال . .

إنهم يرون أن الناس يموتون فلا يعودون . فكيف يصدقون أنهم يبعثون ؟

إن قضية البعث عرضها القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، وأثبت إمكانها فى مواضع متعددة ، والمشاهدات اليومية تثبت قضية البعث بما لا يحتاج إلى دليل . .

فالنوم واليقظة وهما دائبان مستمران لاينقطعان عن حى ، أمر مشاهد محسوس فما بالهم يصدقون بانتباه الانسان من نوم عميق كان فيه أشبه بالميت ولا يصدقون بانتباهه من نومه الآخر ليحاسب على ما قدمت يداه ؟

قال الحلبي في سيرته : إن قريشا في تحديها للنبي - صلى الله عليه وسلم - طلبت منه قائلة : سل ربك يسيِّر عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا ويبسط لنا بلادنا ويشق فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب ، فانه كان شيخ صدق ، فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله - تعالى - وأنه بعثك إلينا رسولا كما تقول . فقال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما بهذا بعثت لكم ، إنما جئت من الله بما بعثني به »(٢٧٢)

لقد استنكر القرشيون البعث تماما ، وعارضوه بكل قوة ، لقد كانوا يقولون : ما حكاه القرآن عنهم

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢٧٣)

جاء في سيرة ابن هشام :

مشى أبيّ بن خلف الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعظم بال فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ؟ ثم فته بيده ، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : نعم أنا أقول ذلك ، يبعثه الله

---

(٢٧٢) السيرة الحلبية جـ١ ص ٤٩٥

(٢٧٣) الجاثية ٢٤ : ٢٦

وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار .

فأنزل الله ـ سبحانه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٢٧٤)

الحياة الآخرة

إن وقوف مشركى قريش بكل ما أوتوا من قوة أمام الإيمان بالبعث ، يستدعى حديثا خاصا عن هذه الحياة الأخرى ، وهى الحياة الأبدية التى خلق الانسان من أجلها ، وجعل الدنيا معبرا لها . . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلح عليها فى أحاديثه ، ويركز على توجيه الأنظار إلى ما يدعو إلى الايمان بها لأن النفوس درجت على الإيمان بما هو محسوس فحسب ، وما وراء المادة شىء لاتقبل النفس على الايمان به بسهولة . . ومن هنا وجدت دعوات الالحاديين والماديين فى العصر الحديث رواجا كبيرا ، بعد أن ارتدت الانسانية الى جاهليتها الأولى ، وطغت المادة فى الأرض ، وفشا الضلال حتى أصبحت الغيبيات التى جاءت بها الأديان ودعت الى التصديق بها شيئا يحتاج الى مائة دليل وبرهان . .

---

(٢٧٤) يس ٧٨

ومن هنا كان للحديث عن الحياة الآخرة أهمية خاصة لأنه يناقش منطق الجاهلية الأولى وجاهلية القرن العشرين .

ونستعين فى حديثنا عن الحياة الآخرة بما كتبه علماؤنا الأفاضل من أمثال الغزالى فى كتابه - إحياء علوم الدين - والقرطبى فى تذكرته وابن القيم فى كتاب الروح ، وغيرهم من العلماء . .

الايمان باليوم الآخر جزء من عقيدة المسلم :

تقوم عقيدة المؤمن كما سبق أن ذكرنا على الأساس الذى بينه النبى - صلى الله عليه وسلم - : فى الحديث الصحيح المشهور الذى روى عن عمر بن الخطاب من أن جبريل سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الايمان فقال له : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومره . .

والايمان باليوم الآخر هو من الأسس التى ينبغى أن نؤمن بوجودها طالما سمعنا من النبى - صلى الله عليه وسلم - الاخبار بها . هذا هو الغيب الذى أشار اليه الحق فى قوله - تعالى -

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »

إن الإيمان باليوم الآخر أمر يستدعيه العدل الإلهى الذى لم يخلق أى شىء عبثاً . .

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ (٢٧٦)

---

(٢٧٥) البقرة ٢ : ٥

(٢٧٦) المؤمنون ١١٥

ولو أن الحياة منتهية فى الدنيا لانتفت الحكمة الالهية من خلق الخلق .
وقد تنبه إلى ذلك بعض الجاهليين أنفسهم الذين أعملوا عقولهم ، وأدركوا بوحى الفطرة الصائبة أن هناك حياة أخرى يبعث فيها المرء فيحاسب على ما قدمت يداه . .

بل إن ذلك أمر تكاد معرفته أن تكون متفقا عليها من جميع العقلاء فى كل زمان ومكان . .

ولذلك يقول الشيخ محمد عبده « اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين علماء وفلاسفة الا قليلا لا يقام لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وأنها لا تموت موت فناء . وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه . .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزعة وهمية ، وانما هو من الأمور الثابتة فى الأديان السماوية ، والتى يقرها عقل الانسان وفكره . وهما طريق الانسان الى المعرفة واليقين وإن ذهب البعض إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد فى عمل ما ، أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ولا للفكر أن يصل الى مجهول ، بل قالوا إنه لا وجود للعالم الا فى اختراع الخيال ، وأنهم شاكون حتى فى أنهم شاكون . . »[٢٧٧] . وأى شىء يمكن أن يقال لمن هو شاك فى كل شىء .

وقد كان الجاهليون من هذا القبيل الذين لم يستسيغوا حتى مجرد التفكير فى هذا الموضوع . إنهم القلة التى عناها الامام محمد عبده بأنهم لا يقام لهم

---

(٢٧٧) رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص ٩٠

وزن . وكيف يقام لهم وزن والحق يقول فى وصفهم :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾

لقد جاء الاسلام ليوضح للناس معالم طريقهم ، ويوضح لهم أنهم لم يخلقوا عبثا . وأنهم سوف يبعثون ويحشرون ويحاسبون ويجازون على ما قدمت أيديهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ويقوم الايمان بالحياة الآخرة على هذه المعالم :

السؤال فى القبر . .

عذاب القبر ونعيمه

الحشر والنشر

الحساب والميزان

الصراط

الجنة والنار . .

وهناك من الأدلة النقلية ما يؤيد ذلك الى جانب تأييد العقل الثاقب والفكر الصائب .

أما عذاب القبر فيؤيده قوله ـ تعالى ـ فى حق آل فرعون :

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ ﴾ (٢٧٩)

وقد ورد فى صحيح الحديث أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يستعيذ من عذاب القبر .

---

(٢٧٨) الأعراف ١٧٩

(٢٧٩) غافر ٤٦

ومتى كان العذاب ثابتا ، فمقابله وهو النعيم لابد أن يكون ثابتا .

وأما سؤال القبر . فقد وردت فيه أحاديث صحيحة تثبته وتؤكده . ولا يدفع ذلك أننا لا نسمع هذا السؤال ولو كنا قريبين من القبر . فإن النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره ، وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمع كلام جبريل ـ عليه السلام ـ ويشاهده ، ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه .

وأما الحشر والنشر فقد أخبرنا به القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قال تعالى :

﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (٢٨٠)

وقال تعالى

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢٨١)

وقال :

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢٨٢)

وقد جاء في الحساب قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ
يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ

---

(٢٨٠) الكهف ٤٧

(٢٨١) مريم ٨٥

(٢٨٢) طه ١٠٢

﴿ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٢٨٣)

وغير ذلك من الآيات

وأما الميزان فهو ثابت بقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٢٨٤)

وغير ذلك من الآيات.

أما الصراط فهو من قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢٨٥)

أما الجنة والنار، فما أكثر الآيات الدالة عليها، المتحدثة عنها، الواصفة لأحوالها . .

وسنحاول بتوفيق الله ـ تعالى ـ الاجابة على بعض التساؤلات التى تدور فى الأذهان حول الحياة الآخرة . .

متى تبدأ الحياة الآخرة ؟

تبدأ الحياة الآخرة بالموت .

والقبر هو أول منازل الآخرة .

ذكر القرطبى عن ابن ماجة عن هانىء بن عثمان قال : كان عثمان ـ رضى

---

(٢٨٣) الانشقاق ٧ : ١٥

(٢٨٤) الأنبياء ٤٧

(٢٨٥) الصافات ٢٢ : ٢٤

الله عنه ـ إذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى من هذا ؟

قال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه . . (٢٨٦)

وكان عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذى عضيمة والا فإنى لا إخالك ناجيا

والموت قاس على كل نفس مهما كانت درجتها فى الايمان ، حتى لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى دعائه : اللهم أعنى على سكرات الموت .

قال الامام الغزالى : واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها فى الحقيقة الا من ذاقها ، ومن لم يذقها فانما يعرفها بالقياس الى الآلام التى أدركها ، أو بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ماهم فيه .

فأما القياس الذى يشهد له فهو أن كل عضو لاروح فيه لا يحس بالألم ، فاذا كان فيه روح أحس بذلك فالمدرك للألم هو الروح . فمهما أصاب العضو من جرح أو حرق سرى الأثر الى الروح فيتألم ـ فأجزاء الجسم التى تباشرها الآلام ، إنما تتألم لما فيها من روح تعطى لتلك الأجزاء الحس والشعور . فان كان فى الآلام ما يباشر نفس الروح فما أعظم ذلك الألم وأشده . (٢٨٧)

ان ألم النزع الذى ينزل بالروح . هو أعظم الألم وأشده .

---

(٢٨٦) التذكرة ص ٨٨

(٢٨٧) إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٤ ص ٢٨٦٥ ط دار الشعب

روى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر الموت وغصته وألمه فقال : « هو قدر ثلثمائة ضربة سيف »

وكان الامام على ـ كرم الله وجهه ـ يحض على القتال فيقول: « إن لم تقتلوا تموتوا . والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علىّ من موت على فراش » . فنزع الروح أصعب شيء وأشقه على الفساق والعصاة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى ييسر ذلك ويسهله على المؤمن الصالح ، لأنه على الرغم من صعوبته أول راحة المؤمن .

وقد ذكر السيوطى عدة أحاديث توضح فضل الموت وأنه خير من الحياة عند المؤمن .. ومما أورده فى ذلك .

عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحفة المؤمن الموت ..(٢٨٨)

وأورد عن الحسين بن على أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « الموت ريحانة المؤمن »(٢٨٩)

وذكر عن محمود بن لبيد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « يكره ابن آدم الموت ، والموت خير له من الفتنة »(٢٩٠)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « الدنيا سجن المؤمن وسنته فاذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة »(٢٩١)

ومعنى السنةُ : الجدب

---

(٢٨٨) أخرجه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات
(٢٨٩) الحديث فى جمع الجوامع ١ / ٤٤٩
(٢٩٠) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده
(٢٩١) أورده السيوطى فى الصغير

ومن دعاء النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يُرْوَى عن أبى مالك الأشعرى : « اللهم حبب الموت الى من يعلم أنى رسولك »

وتعليل ذلك أن المؤمن الصادق يوقن بأن ماعند الله خير وأبقى فهو يرغب فيه وقد قال تعالى :

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ (٢٩٢)

أما الكافر فهو يائس من الآخرة لا ينتظر بعد الموت نشورا ولا نعيما .

حياة البرزخ :

اذا مات الميت انتقل الى البرزخ ، قال - تعالى -

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (٢٩٣)

والبرزخ - كما فسره القرطبى - حاجز بين الموت والبعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ ، قال رجل بحضرة الشعبى : رحم الله فلانا فقد صار من أهل الآخرة . فقال : لم يصر من أهل الآخرة ، ولكنه صار من أهل البرزخ وليس من الدنيا ولا الآخرة .

وقد وردت كلمة البرزخ بمعنى الحاجز فى قوله - تعالى - :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢٩٤)

---

(٢٩٢) آل عمران ١٩٨

(٢٩٣) المؤمنون ٩٩ ، ١٠٠

(٢٩٤) الفرقان ٥٣

وفى قوله تعالى : ـ

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢٩٥)

ولكن حاجز مابين البحرين بخلاف الحاجز بين الدنيا والآخرة .

وهذا البرزخ يشرف فيه أهله على الدنيا والآخرة . والمؤمن منعم فيه لأنه ينظر الى ماأعده الله له فى آخرته من نعيم .

والكافر فيه معذب . لأنه يرقب منه مصيره الى النار .

والبرزخ هو أول دار الجزاء ـ كما يقول ابن القيم (٢٩٦) يظهر فيه ما يليق بتلك الدار وماتقتضى الحكمة إظهاره . فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها فبشريات النعيم ونذر العذاب يصلان الى أهل البرزخ كما دل على ذلك القرآن والسنة الصحيحة الصريحة فى غير موضع كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حق المؤمن : « فيفتح له باب الى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها » وفى الفاجر : « فيفتح له باب الى النار فيأتيه من حرها وسمومها »

قال ابن القيم : ومعلوم أن البدن يأخذ حظه من هذا الباب كما تأخذ الروح حظها ، فاذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب الى مقعده الذى هو داخله .

ماقاله العلماء عن الموت :

قال العلماء : الموت ليس بعدم محض ولافناء صرف . . وانما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقة وحيلولة بينهما ، وتبدل حال وانتقال من دار الى دار ، والله ـ سبحانه ـ لم يخلق الناس للفناء ، والا تعطلت الحكمة من

---

(٢٩٥) الرحمن ١٩ ، ٢٠

(٢٩٦) الروح ص ١٠٠

خلقهم ، وإنما خلقهم للبقاء فى دار أخرى غير دار الدنيا حيث يثابون أو يعاقبون .

وقد تنبه المعرى لهذه الحكمة فقال :

خلق الناس للبقاء فضلت　　أمة يحسبونهم للنفاد

انما ينقلون من دار أعمال　　الى دار شقوة أو رشاد

وهذا ما قاله بلال بن سعد : إنكم لن تخلقوا للفناء وانما خلقتم للخلود والأبد ولكنكم تنتقلون من دار الى دار .

قال ابن القاسم : للنفس أربعة دور كل دار أعظم من التى قبلها :

الأولى بطن الأم وذلك محل الضيق والحصر والظلمات الثلاث ـ لعله يقصد ظلمة البطن والرحم والمشيمة ـ والثانية هى الدار التى انشأتها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر . وهى الدار الدنيا .

والثالثة هى دار البرزخ ، وهو أوسع من هذه الدار وأعظم ، ونسبة هذه الدار الدنيا إليها كنسبة البطن إلى دار الدنيا .

والرابعة هى دار القرار ، الجنة أو النار ، وللنفس فى كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الأخرى .

ومن العجيب أن النفس عادة تألف المكان الذى تقيم فيه ، فإذا ما فارقته تألمت على الرغم من ضيقه ورحابة ما هى منتقلة إليه . .

فالطفل حين يولد يبكى على فراق بطن أمه مع أنه خارج إلى سعة الدنيا . .

وحين يموت يبكى ويتألم ويود لو بقى فى دنياه مع أنه منطلق إلى ما هو أوسع وأرحب . .

وقد فلسف ابن الرومى بكاء الطفل عند ولادته فلسفة أخرى فقال :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد ؟

وذكر السيوطى أثرا فى حال المؤمن عند انتقاله من الدنيا فقال : « إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه ، حتى إذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ، وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا مضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا ، كما لايحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه[٢٩٧]

حالة المؤمن عند قبض روحه

مر بنا فى حديثنا عن الروح ما رواه البراء بن عازب عن النبى - صلى الله عليه وسلم - بشأن قبض روح المؤمن ، وأن المؤمن تنزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس فيطمئنونه ويقبضون روحه إلى رحمة الله ومغفرته ورضوانه وعلى النقيض من ذلك الكافر . .

وقد ورد فى معنى الحديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » أن الله سبحانه وتعالى يبشر المؤمن قبل موته ويريه مقعده من الجنة ، فيفرح بلقاء الله ويحب لقاء الله . .

أخرج ابن أبى الدنيا - رضى الله عنه - مرفوعا : « إن المؤمن إذا احتضر ورأى ما أعد الله له جعل يحرص على أن تخرج نفسه لأنه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وأن الكافر إذا احتضر ورأى ما أعد له جعل يتمنى عدم خروج نفسه كراهية أن تخرج ، فهناك كره لقاء الله وكره الله لقاءه .

وعن أبى هريرة- رضى الله عنه - : قال :

---

(٢٩٧) بشرى الكئيب بلقاء الحبيب للسيوطى ص ٢٢

« لايقبض المؤمن حتى يرى من البشرى ، فإذا قبض نادى - وليس فى الدار دابة صغيرة ولا كبيرة إلا وهى تسمع صوته إلا الثقلين : الجن والإنس - تعجلوا بى الى أرحم الراحمين ، فإذا وضع على سريره - أى نعشه - قال : ما أبطأ ما تمشون ، فإذا أدخل فى لحده أقعد ، فأرى مقعده من الجنة وما أعد الله له ، وملء قبره من روح وريحان ومسك ، فيقول : يا رب قدمنى ، فيقال : إن لك إخوة وأخوات لم يلحقوا نم قرير العين »

إن هذا هو ما يشير إليه قوله - تعالى :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢٩٨)

قال القرطبى فى تفسير هذه الآيات :

ذكر الله طبقات الخلق عند الموت وعند البعث فقال :

فأما إن كان المتوفى من المقربين - وهم السابقون - فروح وريحان وجنة نعيم .

والروح هو الرحمة والاستراحة والأمن والطمأنينة . . والريحان هو الرائحة الجميلة التى يُتَلَقى بها المؤمن عند قبض روحه ، قال أبو العالية : لايفارق أحدا روحه من المقربين فى الدنيا حتى يُؤْتى بغصنين من ريحان فيشمهما ثم تقبض روحه .

---

(٢٩٨) الواقعة ٨٨ : ٩٦

وأما إذا كان من أصحاب اليمين ، فإنه يتلقى بالتحية والسلام قائلين له : سلام لك ، أي لست ترى إلا ما تحب من السلامة ، لقد نجوت مما تكره ، وهذا ما يوافق قوله تعالى

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢٩٩)

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . . .

وأما ـ والعياذ بالله ـ إن كان من المكذبين الضالين فإنهم يتلقون بنزل من حميم وهذا يوافق قوله ـ تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣٠٠)

إن الله يُري المؤمن مقعده في الجنة قبل موته فيطمئن على مصيره . . عن مجاهد في قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ

---

(٢٩٩) النحل ٣٢

(٣٠٠) الواقعة ٥١ : ٥٦

﴿ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢ ﴾ (٣٠١)

ان ذلك عند الموت . . . .

ولعل هذا ما يفسر سرور المؤمن عند معاينة الموت وإستبشاره ، وما يُرَى على وجهه من علامات النور والوضاءة .

فاذا زفت الروح إلى مثواها الذى انتقلت إليه بعد فراق جسدها استقبلتها أرواح المؤمنين السابقين بفرح وسرور .

قال ابن القيم : الأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة ـ وهى أرواح المؤمنين(٣٠٢) ـ تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ماكان منها فى الدنيا ، وما يكون من أهل الدنيا فتكون كل روح مع مايماثلها فى عملها ، وروح نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الرفيق الأعلى ، قال الله تعالى ـ

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ﴾ (٣٠٣)

قال : وهذه المعية ثابتة فى الدنيا وفى دار البرزخ وفى الدار الأخرة .(٣٠٤)

فقد ورد قوله ـ صلى الله عليه وسلم : يحشر المرء مع من أحب .

وقال الشعبى : جاء رجل من الأنصار وهو يبكى إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له النبى : ما يبكيك ؟

---

(٣٠١) فصلت ٣٠ : ٣٢

(٣٠٢) أما أرواح الكفار فهى محبوسة فى سجين

(٣٠٣) النساء ٦٩

(٣٠٤) الروح لابن القيم ص ٢١

فقال : يا نبى الله ، والله الذى لا اله الا هو لأنت أحب إلىّ من أهلى ومالى ومن نفسى ، وأنا أذكرك أنا وأهلى - وأشتاق إليك حتى أراك ، فذكرت موتك وموتى فعرفت أنى لن أراك إلا فى الدنيا وأنك فى الآخرة ترفع فى النبيين وعرفت أنى إن دخلت الجنة كنت أدنى منزلة منك . فلم يرد النبى - صلى الله عليه وسلم - شيئا ، فأنزل الله - تعالى هذه الآية :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾[٣٠٥]

وهذا ما يفهم من قوله - تعالى

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾[٣٠٦]

أى ادخلى فى جملتهم وكونى معهم . . . وهذا يقال للروح عند الموت[٣٠٧]

ويزيد السيوطى[٣٠٨] هذا الأمر توضيحا بما ذكره من آثار . قال :

لما مات بشر بن البراء بن معرور حزنت عليه أمه حزنا شديدا ، فقالت : يا رسول الله لايزال الهالك يهلك من بنى سلمة ، فهل تتعارف الموتى فأرسل إلى بشر السلام ؟

---

(٣٠٥) النساء ٦٩ ، ٧٠

(٣٠٦) الفجر ٢٧ : ٣٠

(٣٠٧) الروح لابن القيم ص ٢٢

(٣٠٨) بشرى الكئيب ص ٣٢

قال : نعم ، والذى نفسى بيده إنهم ليتعارفون كما يتعرف الطير فى رءوس الشجر .

فكان لايهلك هالك من بنى سلمة الا جاءته أم بشر فقالت : يا فلان ، : أقرأ بشرا السلام .

قال : وعن سعيد بن جبير قال : إذا مات الميت استقبله ولده كما يستقبل الغائب . .

ويقصد بولده الذين تقدموه . يؤيد ذلك ما ورد عن ثابت البنانى قال : بلغنا أن الميت إذا مات استوحشه أهله وأقاربه الذين تقدموه من الموتى . فلهم أفرح به وهو أفرح بهم من المسافر إذا قدم إلى أهله .

ولم لا ؟ أليست هى حياة حافلة ؟ إنها بالنسبة للمؤمن حافلة بالخير والمسرات ، خالية من الهم والغم الذى يملأ عرصات هذه الحياة الدنيا التى نحياها .

روى أبو أيوب الأنصارى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عباد الله تعالى كما يتلقون البشير من أهل الدنيا ، ويقولون : اتركوا صباحكم يستريح فانه كان فى كرب شديد ، ثم يسألونه : ما فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة ؟

لم ينس هؤلاء أهلهم فى الدنيا ، وإنهم ليستروحون أخبارهم يريدون أن يطمئنوا عليهم . وإن هذه الأخبار لتصل إليهم فيفرحون بما يفرح ، وربما اغتموا بما يكون سببا للغم .

حدث القرطبى قال :

أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى الثقفى قال : أخبرنى عثمان بن عبد الله بن أوس أن سعيد بن جبير قال له : استأذن لى على ابنة أخى ـ وهى

زوجة عثمان ، وهى ابنة عمرو بن أوس -
فاستأذنت له ، فدخل عليها ، ثم قال : كيف يفعل بك زوجك ؟
قالت : إنه إلىّ لمحسن فيما استطاع . فالتفت إلىّ ثم قال : يا عثمان أحسن إليها فانك لاتصنع بها شيئا إلا جاء عمرو بن أوس .

فقلت : وهل تأتى الأموات أخبار الأحياء ؟ أى هل تصل إليهم ؟
قال : نعم ، ما من أحد منهم له حميم يموت إلا ويأتيه بأخبار أقاربه ، فإن كان خيرا سر به وفرح وهنىء ، وان كان شرا ابتأس وحزن(٣٠٩)

ان الموتى يسألون القادم إليهم من دار الدنيا عن كل شىء حتى إنهم ليسألونه كما قال أبو هريرة عن هرّ البيت(٣١٠)
ما هذا الاستقصاء المتناهى ؟ إنه ليدل على أن هناك صلة على وجه ما بين الأموات والأحياء ، وإن هناك حياة متكاملة فى هذه الدار التى انتقل إليها الميت .

زيارة الموتى :

وهذا موضوع يشغل بال الكثيرين من الناس

والمعروف أن تشييع الجنازة أمر واجب تحتمه المروءة والوفاءوالبر ،وقبل ذلك كله يحتمه الدين . . والدين بدعوته الى تشييع الجنائز إنما دعا اليه للعظة والاعتبار والتذكر ، فإنه لاواعظ أوعظ من الموت - وقد ورد أنه : « من أراد واعظا فالموت يكفيه »
والعاقل هو الذى يتعظ بغيره . ويقدر فى نفسه أنه هو الميت المحمول على الأعناق ، ولو قدر ذلك واقتنع به لنفعه ، ودفعه الى الخير ومنعه من الشر .

---

(٣٠٩) التذكرة للقرطبى ص ٦٢
(٣١٠) التذكرة للقرطبى ص ٦٣

يروى أن أبا هريرة - رضى الله عنه - كان إذا رأى جنازة قال : امضوا فإنا على الأثر .

وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإنَّا رائحون ، موعظة بليغة وغفلة سريعة ويذهب الأول ،والآخر لا عقل له .

كان شهود الجنائز للعظة والاعتبار فأصبح للمجاملة والافتخار ، وقد تنبه لنبى - صلى الله عليه وسلم - لما سوف يحدث للناس بالنسبة لموقفهم من هذا الحدث اليومى المتكرر دون أن يثير فى النفوس أكثر من احساس وفتى بالتشاؤم والرثاء ، ثم تبحث عن الأثر الذى تركه فى النفس فلاتجد شيئا . .

تنبه النبئ - صلى الله عليه وسلم - لذلك فوضع للناس منهجا يتبعونه يفيدهم عند مجابهة هذا القضاء المحتوم . . فقال لهم : « أيها الناس كأن الموت على غيرنا كتب ، وكأن الحق فيه على غيرنا وجب ، وكأن مانشيِّعُ من الموتى عن قليل الينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ، ونأكل تراثهم ، كأنا مخلدون من بعدهم ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره ، طوبى لمن ذل فى نفسه من غير منقصة ، وتواضع لله من غير مسكنة ، وأنفق مالا جمعه من غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة ، طوبى لمن ذلت نفسه وطاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وحسنت خليقته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله(٣١١)

أما زيارة القبور فقد أباحها النبى - صلى الله عليه وسلم - بالحديث

---

(٣١١) أخرجه الحكيم الترمذى عن أنس ، وفى جمع الجوامع برقم ٣١٣ / ٩٥٦٣

المشهور : كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألافزوروها فانها تذكر الآخرة غير الا تقولوا هجرا(٣١٢)

وقد زار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبر أمه ويبكى على قبرها وكان عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ اذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته . .

وقال الغزالى : زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار . .

ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى زيارة الشهداء فقال : زوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسى بيده ما يسلم عليهم مسلم الى يوم القيامة الا ردوا عليه السلام .

ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى زيارة قبره فقال : من زار قبرى فقد وجبت له شفاعتى يوم القيامة

ولزيارة القبور آداب هى : أن يقف الزائر مستدبر القبلة ، مستقبلا بوجهه الميت ، وأن يسلم ، ولا يمسح القبر ، ولايمسه ، ولايقبله .

وقد ورد أن الميت يستأنس بالزيارة . قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده الا استأنس به ورد عليه حتى يقوم »

وروى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ـ واذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام .(٣١٣)

---

(٣١٢) رواه الامام أحمد فى مسنده وابن أبى الدنيا فى كتاب القبور

(٣١٣) الروح لابن القيم ج٦

تلقين الميت :

وقال الغزالى : يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له . قال سعيد بن عبد الله الأزدى : شهدت أبا أمامة الباهلى وهو فى النزع ، فقال : ياسعيد ، إذا مت فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول : يافلان بن فلانة . فإنه يسمع ولايجيب ، ثم ليقل : يافلان بن فلانة ـ الثانية ـ فانه يستوى قاعدا ، ثم ليقل : يافلان بن فلانة ـ الثالثة ـ فانه يقول : أرشدنا يرحمك الله ، ولكن لاتسمعون ـ فيقول له : اذكر ماخرجت عليه من الدنيا ، شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأنك رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا ، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا ورسولا وبالقرآن إماما .

فقال رجل : يارسول الله فإن لم يعرف اسم أمه ؟

قال : فلينسبه الى حواء(٣١٤)

قراءة القرآن للميت

اختلف العلماء فى انتفاع الميت بثواب قراءة القرآن . فذهب كثير من العلماء الى أن آيات القرآن الكريم صريحة وظاهرة فى أن الانسان لاينتفع إلا بسعيه وعمله . قال تعالى

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (٣١٥)

وقال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ (٣١٦)

---

(٣١٤) أورده الطبرانى فى تلقين الميت . . والاحياء جـ ١٥ ص ٢٩١٢ ، ط دار الشعب

(٣١٥) البقرة ٢٨٦

(٣١٦) الشمس ٩ ، ١٠

وقال :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (٣١٧)

وقال :

(٣١٨)
﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

فهذه الآيات ظاهرة فى أن الانسان لاينتفع الا بسعيه وعمله . ولهذا رأى هؤلاء العلماء أن الميت لاينتفع بثواب قراءة القرآن . ولابثواب أى عمل يفعله الغير .

ويرى بعض العلماء أن الميت ينتفع بثواب العمل الصالح الذى يوهب له مصداقا لقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث . صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له . . وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة التى سئل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ـ عن الحج عن الميت . والصوم عه فأجاب بجواز ذلك . مما يدل على أن الميت يثاب بعمل غيره ، وهؤلاء يرون أن الميت ينتفع بعمل غيره حتى وان كان العامل ليس من ولده ، ويقولون ان الثواب ملك للعامل فله أن يتبرع به . وأن يهديه الى أخيه المسلم .

والحق الذى نراه أن الميت لاينتفع الا بعمله وكسبه طبقا لنص الآيات الكريمة . . أما الأحاديث الشريفة التى وردت فى هذا الشأن ، فإنها وردت فى شأن قيام الأبناء بالحج أو الصوم أو الصدقة عن الآباء بعد موتهم . وقد

---

(٣١٧) النجم ٣٩ : ٤١

(٣١٨) فصلت ٤٦

رأى العلماء أن الآباء والأمهات ينتفعون بذلك لأن ولد الانسان من سعيه وعمله من عمله . وبذلك كان انتفاع الآباء بهذا العمل مما تتناوله الآيات الكريمة . . أما ماجرت به عادة الناس من استئجار المقرئين لقراءة القرآن ، واهداء ثوابها للميت . فليس له سند شرعى سليم . والله تعالى أعلم .

على أن هذا لايمنع من قراءة القرآن عند قبر الميت والدعاء له . . فالدعاء عبادة ثوابها للداعى . . والمدعو له إنما ينتفع بالاستجابة إذا قبل الله سبحانه وتعالى دعاء الداعى . . والرحمة تنزل على قُرَّاء القرآن فاذا نزلت عليهم وهم يقرأون القرآن عند قبر الميت أصابه منها نصيب .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو لمن مات من أصحابه . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلما كانت ليلتها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .(٣١٩) يخرج من آخر الليل الى البقيع فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ماتوعدون غدا مؤجلون . وإنا ان شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الفرقد » رواه مسلم(٣٢٠)

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إذا حضرتم المريض أو الميت . فقولوا خيرا ، فإن الملائكة يؤمنون على ماتقولون . قالت فلما مات أبو سلمة أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ـ فقلت يارسول الله ، إن أبا سلمة قد مات ، قال : قولى : اللهم اغفر لى وله ، واعقبنى منه عقبى حسنة ، فقلت : فأعقبنى الله من هو خير لى منه :

---

(٣١٩) أى الليلة التى تخصها منه صلى الله عليه وسلم
(٣٢٠) دليل الفالحين جـ٣ ص ١٩

محمدا صلى الله عليه وسلم »[٣٢١]

كما أن الدعاء للميت فى صلاة الجنازة أمر مشروع وردت به الأحاديث الصحيحة .

فعن أبى عبد الرحمن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : « صلى رسول الله الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جنازة فحفظت من دعائه ، وهو يقول : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ، ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله دارا خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله . وزوجا خيرا من زوجه ، وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار ، حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت » رواه مسلم .

وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ كان اذا فرغ من دفن الميت قال : استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل »

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال « إذا دفنتمونى فأقيموا حول قبرى قدر ماتنحر جزور ويقسم لحمها حتى استأنس بكم ، وأعلم ماذا أراجع به رسل ربى » رواه مسلم . . قال الشافعى رحمه الله : ويستحب أن يقرأ عنده شيء من القرآن ، وإن ختموا القرآن كله كان حسنا »[٣٢٢]

---

(٣٢١) دليل الفالحين جـ٣ ص ٤٠١

(٣٢٢) دليل الفالحين جـ٣ ص ٤٣٢

علامات الساعة

أبو حمزة

- خروج الدابة من الأرض .
- المسيخ الدجال .
- الدجال وفتنة آخر الزمان .
- طلوع الشمس من المغرب .
- الترتيب بين العلامات .
- علامات أخرى .
- نزول عيسى بن مريم .
- ظهور الدخان .
- حقيقة ظهور المهدى .
- قيام الساعة .
- النفخ فى الصور .

يظل الميت فى قبره أو بعبارة أصح فى برزخه حتى تقوم الساعة . . وهو كما سبق إما منعم أو معذب . .

وقد يلطف الله بالعاصي ، فيخفف عنه بسبب ماتركه من أعمال صالحات ، فقد ورد فى الحديث الصحيح : اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : علم نافع أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له . .

وبسبب مايصل إليه من ثواب قراءة أو الدعاء له أو الاستغفار له من ولده وذريته .

ويتحلل الجسد ويعود إلى أصله الأول وهو التراب بمرور الزمن ، ماعدا أجساد الأنبياء فقد ورد أن الله تعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء .

يظل الناس على ذلك حتى يجيء موعد الساعة التى يبعث الله فيها العباد للعرض والحساب والجزاء ، وللساعة علامات . .

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وضم السبابة والوسطى .

ويدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ ﴾

وقوله تعالى :

﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ۝١٨ ﴾ (٣٢٤)

---

(٣٢٣) القمر ١

(٣٢٤) محمد ١٨

ولم يرد فى القرآن الكريم ولا السنة الصحيحة خبر يفيد الموعد الدقيق لقيام الساعة وطالما سأل الكفار عن ذلك الموعد - كما أخبر القرآن بذلك فى أكثر من موضع : - قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٣٢٥)

وقد أجاب الحق عز وجل عن هذه الأسئلة بقوله :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣٢٦)



ويقوله :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ (٣٢٧)

وحين سأل جبريل النبى - صلى الله عليه وسلم - أمام أصحابه ليعلمهم

---

(٣٢٥) الأنبياء ٣٨ يس ٤٨ تبارك ٢٥
(٣٢٦) النازعات ٤٢ : ٤٦
(٣٢٧) الأعراف ١٨٧

قواعد الاسلام والايمان والاحسان ، سأله أيضاً قائلاً : أخبرنى عن الساعة .

فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن أخبرك بعلاماتها : أن تلد الأمة ربتها ، وأن يتطاول الناس فى البنيان . ثم قال خمس لا يعلمهن إلا الله وقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٣٢٨)

وقد جاء فى الأخبار الصحيحة ما يوضح هذه العلامات وقد أشار إليها القرطبى فى كتابه التذكرة . ومن ذلك :

ما رواه البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر القتل ، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض ، وحتى يُهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه لا أرب لى فيه ، وحتى يتطاول الناس فى البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتنى مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون فذلك حين « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن

---

(٣٢٨) لقمان ٣٤

آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » فهذه ثلاث عشرة علامة منها ما قد حدث فعلاً .

فما أكثر الدجالين ومدعى النبوة الذين ظهروا .

وما أكثر العلماء الذين ماتوا فطويت صفحات من العلم النافع بوفاتهم ، وقل العمل بالعلم ، وما أكثر الزلازل التى حدثت ومازالت تحدث ، حتى هلك بسبب ذلك خلق كثير .

وما أقل البركة فى الوقت حتى تنتهى السنوات كأنها شهور . أو قل ما أسرع الوقت الذى يمر . وما أكثر المسافات التى تطوى فى الزمن القليل وما أكثر الفتن التى حدثت وراح ضحيتها الآلاف المؤلفة من القتلى . وما أكثر المال الذى فاض حتى غير حال كثير من الناس والأمم والجماعات .

وما أشد الضوائق التى تمر بالناس حتى جعلت الأحياء يغبطون الأموات على سكناهم القبور ونجاتهم من هذه المعاناة التى يقاسونها .

وما أكثر العمارات الشاهقة التى ارتفعت طوابقها إلى المئات ، حتى انها لتطاول السحاب ، وعاش فيها الناس وتمتعوا فيها بالعيش الوارف والظل الظليل والهواء المكيف . .

وفى غير هذا الحديث الذى ذكرناه أخبار أخرى وأحاديث كثيرة تشير الى علامات غير تلك التى ذكرناها . . وقد ظهر بعضها أيضاً . . منها : إذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة . .

وما أكثر من تولوا مقاليد الأمور دون أن يكونوا أهلاً لذلك .

وروى الترمذى عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء قيل : وما هى يا رسول الله ؟

قال : إذا كان المغنم دولا ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه ، وبر صديقه وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات ، والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً أو مسخاً(٣٢٩) .

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث وجدناه قد صدق فيما أخبر به . فلم يبق إلا ارتقاب ما أنذر به ـ نرجو الله النجاة من سوء العاقبة ـ

خروج الدابة من الأرض

ذكر العلماء أن من علامات الساعة ـ خروج الدابة التى تكلم الناس ـ قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾(٣٣٠)

---

(٣٢٩) التذكرة للقرطبى ص ٧٣٠

(٣٣٠) سورة النمل ٨٢

وقد قيل الكثير فى شأن هذه الناقة وصفاتها فقيل : انها فصيل ناقة صالح فر هاربا حين عقر القوم أمه ، وانفتحت له فى طريقه صخرة فدخلها ثم انطبقت عليه فهو فى باطنها إلى أن يخرج قرب يوم القيامة . . وقيل : إنها الجساسة وهى دابة بحرية سوداء كثيرة الشعر رآها أحد أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واسمه تميم الداري ـ فى احدى الجزر وأخبر رسول الله ﷺ بما رآه .

وقيل : هى دابة قديمة خلقت فى عهد الأنبياء المتقدمين ، وأن موسى عليه السلام سأل ربه أن يريه إياها ، فأخرجها الله ثلاثة أيام ولياليها فرأى موسى عليه السلام منظراً فظيعاً ، فقال : يارب ردها فردها الله سبحانه وتعالى . . وقيل : هى الثعبان الذى كان فى جوف الكعبة الذى خافت منه قريش حين أرادت بناء الكعبة وتراجعوا حتى أرسل الله عقاباً فاختطفته وألقته بالحجون فابتلعته الأرض فهو فى باطنها حتى يخرج قرب قيام الساعة . .

ومن أعجب ما قيل فى شأنها أنها جمعت من كل حيوان عضواً ، فلها وجه انسان ورأس ثور وعين خنزير وأذن فيل ، وأن طولها ستون ذراعاً بذراع آدم عليه السلام . وأنها لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب . .

والحق أن المفسرين قد ذكروا كثيراً من الغرائب والعجائب فى وصف تلك الدابة ، ولكن ما يجب أن نؤمن به حق الايمان هو ما ورد فى كتاب الله بشأنها . وأنها ستظهر للناس حين يأمر الله بذلك ، وحين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل . . أما حقيقتها ونوعها وصفاتها وغير ذلك من

الأمور فكل ذلك فى علم الله . فنحن نؤمن بأن دابة ستخرج وتكلم الناس . وأن خروجها سيكون قرب قيام الساعة .

المسيخ الدجال

.. ومن علامات الساعة التى ذكرها العلماء ظهور الدجال .. والدجال الكذاب .. وقد ورد فى وصفه أنه أعور العين اليسرى . وأن شعره شديد الجعودة ، وأن عينه طافية . وقد ذكره الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر أوصافه فى عدة أحاديث فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين لا أدرى أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين سنة . فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة . ثم يرسل الله عز وجل ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو ايمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه ، فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع . لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول ؛ ألا تستجيبون فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك دارٌ رزقهم حَسَنٌ عيشهم . ثم يُنْفَخُ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس حوله ، ثم يرسل الله . أو قال ينزل الله مطراً كأنه الطل أو الظل ، ثم ينفخ فى الصور مرة أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من

كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق[٣٣١] »

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ، وليس نَقْب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافِّين تحرسها فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج الله منها كل كافر ومنافق[٣٣٢] »

وقد بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمسلمين صفات الدجال حتى لا يفتتنوا به ، وقال : إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم ، فكل امرىء حجيج نفسه ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف »

ولحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى فإنه يبعث مع الدجال آيات تفتن الناس ، وذلك لاختبار مدى تمسكهم بدينهم ، وإيمانهم بصدق ما أخبر به نبيهم ـ فقد ذكر أنه يأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، ثم يدعى الربوبية ، فيلتبس الأمر على بعض الناس ، ولهذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبيناً ذلك لأمته : « ألا إن الدجال أعور ، وإن ربكم عز وجل ليس بأعور » فمن تبع الدجال فقد فتن .

ومن قال : ربى الله عز وجل حتى يموت على ذلك فقد عصم من فتنته ، ولا فتنة عليه ولا عذاب .

---

(٣٣١) دليل الفالحين جـ ٤ ص ٦٤٧ ، ٦٤٨ ـ الليت ـ صفحة العنق ، يلوط حوضه أى يطينه ويصلحه

(٣٣٢) دليل الفالحين جـ ٤ ص ٦٤٩ ـ السبخة ـ الأرض الرملة لا نبت فيها

مخرج الدجال

قيل يخرج الدجال بين الشام والعراق فيعيث يميناً وشمالاً . . . . هذا ولم يرد ذكر فى القرآن الكريم للدجال . وقد ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يستعيذ منه ، وأمر بالاستعاذة منه ، وربما كان خبره مندمجاً ضمن قوله ـ تعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ (٣٣٣)

فقد وضح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديثه هذه الآية ، والحديث مفصل للقرآن . قال :

« ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها (٣٣٤) »

وذكر كثير من العلماء أنه قد ورد فى القرآن ما يفيد نزول عيسى بن مريم فى قوله ـ تعالى ـ

(٣٣٥)
﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن المسيح هو الذى سيقتل المسيخ الدجال فذكر أحدهما أغنى عن ذكر الآخر .

الدجال وفتن آخر الزمان

إن الناظر الى فتن آخر الزمان يشهد بأن كثيراً من الدجالين وراءها وما يروج من الباطل فى زماننا وما يشيع من الالحاد الآن وراءه كثير من

---

(٣٣٣) الأنعام ١٥٨

(٣٣٤) أخرجه الترمذى فى أبواب التفسير

(٣٣٥) الزخرف ٦١

الدجالين . . ووراءه من يزعم أن الدين أفيون الشعوب ، وأن المادة هي أساس كل شيء ، وأن الطبيعة خلقت نفسها وأن الاله الوحيد هو الآلة . ووراء هذه الدعوات أموال توزع بغير حساب لترويجها ،فمن اتبع هذه الدعوات تمتع قليلاً فى دنياه وخسر كل أخراه ومن ابتعد عنها ربح دنياه وأخراه فالابتعاد عنها هو السعادة الكاملة والصراط المستقيم . .

إن كل مُرَوِّج للفتنة والباطل دجال ، وقد يكون وصف دجال آخر الزمان بالعور وتشويه الخلقة كناية عن بشاعة مخبره وسوء فعله ، ولكن ذلك لا يحول بالطبع دون أن يظهر فى هذه الصورة التى أخبر بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شخص تنطبق عليه هذه الأوصاف فى آخر الزمان ، ليكون علامة من علامات الساعة . .

طلوع الشمس من المغرب

ذكر العلماء أن من علامات الساعة الكبرى التى أخبر بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلوع الشمس من مغربها ، ورووا فى ذلك أحاديث منها ؛ ما رواه مسلم عن أبى هريره ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض »

وعنه أيضاً أنه قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس ، آمن من آمن عليها . فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل » ومنها ما أخرجه ابن ماجة فى سننه عن صفوان بن عسال قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن من قبل مغرب الشمس باباً مفتوحاً عرضه

سبعون سنة . فلا يزال ذلك الباب مفتوحاً للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه ، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيراً .

ذكر القرطبى فى تفسيره عند قوله ـ تعالى ـ

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٣٣٦)

قال :

روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول : أيها الناس ، إن الرجم حق فلا تخدعن عنه ، وان آية ذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رَجَم ، وأن أبا بكر قد رَجَم ، وإنا قد رَجَمْنا بعدهما ، وسيكون قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم ، ويكذبون بالدجال ، ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها ، ويكذبون بعذاب القبر ، ويكذبون بالشفاعة ، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا(٣٣٧) .

أما كيف تطلع الشمس من المغرب ، فقد ذكر القرطبى أيضاً حديثاً فى ذلك ، قال :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ ما معناه :

« إن الشمس تحبس عن الناس ـ حين تكثر المعاصى فى الأرض ،

---

(٣٣٦) الأنعام ١٥٨

(٣٣٧) امتحشوا : احترقوا ، والرجم المقصود فى الحديث هو رجم ابليس فى الحج (رمى الجمار)

ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد ، ويفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد - تحتبس مقدار ليلة تحت العرش كلما سجدت واستأذنت ربها - تعالى - من أين تطلع لم يجيء لها جواب ، فلا يعرف طول تلك الليلة إلا المتهجدون فى الأرض وهم يومئذ عصابة قليلة فى كل بلدة من بلاد المسلمين ، ثم يأمر الحق سبحانه وتعالى أن ترجع الشمس إلى مغربهافتطلع منه ثم يغلق باب التوبة فلا تقبل لعبد بعد ذلك توبة ، ولم تنفعه بعد ذلك حسنة يعملها إلا من كان قبل ذلك محسناً فإنه يجرى عليه ما كان عليه قبل ذلك اليوم ، فذلك قوله - تعالى -

« يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً . . »

من أفهام بعض العلماء

ولبعض العلماء فهم آخر فى عدم قبول التوبة . يقولون : إن العبد لا يقدر عليها لما أصابه من ذهول وخوف وفزع ، ويكون ذلك سبباً فى إخماد كل شهوة من شهوات النفس وفتور كل قوة من قوى البدن ، فيصير الناس كلهم كذلك لإيقانهم بدنو القيامة يصبحون كلهم كحال من حضره الموت فى انقطاع الدواعى الى أنواع المعاصى والشهوات عنهم . فمن تاب فى مثل هذه الحالة لا تقبل توبته ، كما لا تقبل توبة من حضره الموت مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٣٣٨)

---

(٣٣٨) النساء ١٨

ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

الترتيب فى العلامات

لقد ذكرت هذه العلامات وليس من الشرط أن تأتى متعاقبة كما ذكرت فقد تأتى على غير الترتيب الوارد فى الحديث السابق ذكره . ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثاً لم أنسه بعد . سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحا وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً[٣٣٩] قال عبد الله ، ولا أظنها إلا طلوع الشمس من مغربها . وهناك حديث آخر يذكر الترتيب بين العلامات ـ ذكره القرطبى أيضاً ، ورواه عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال :

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غرفة ونحن أسفل منه ، فاطلع إلينا فقال : ما تذكرون ؟

قلنا : الساعة

قال : « إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف فى جزيرة العرب ، والدخان ، والدجال ، ودابة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس »

فهذه تسع علامات عاشرها نزول عيسى بن مريم .

وعلق القرطبى ـ رحمه الله ـ على ذلك بقوله : هذا حديث متقن فى ترتيب العلامات ، وقد وقع بعضها وهى الخسوفات . .

---

(٣٣٩) تفسير القرطبى ـ الأنعام ـ ص ٢٥٨٣ ط دار الشعب

ويقال : إن هذه الآيات تتابع كالنظم فى الخيط عاماً فعاماً .

أما الحكمة فى طلوع الشمس من مغربها فقد أشار إليها العلماء بقولهم : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال لنمروذ : « فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب »

فلم يستطع نمروذ ـ وقال القرآن الكريم عن ذلك)

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (٣٤٠)

وجاء من الملاحدة من جارى النمروذ فى تفكيره وعدم تصديقه بإمكان طلوعها من المغرب إذا أراد الله ـ فكان إطلاعها من المغرب رداً على هؤلاء المنكرين واثباتاً لقدرة الله الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

العلامات الأخرى

ومن العلامات التى ذكرت نزول عيسى بن مريم ، وقد أشار الى ذلك القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣٤١)

---

(٣٤٠) البقرة ٢٥٨

(٣٤١) الزخرف ٥٧ : ٦١

فقد ذكر العلماء أن الآية الأخيرة تشير الى نزول عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ آخر الزمان ، وأن ذلك من علامات الساعة .

ويؤيد ذلك ما جاء فى الأحاديث الشريفة ، فقد جاء فى صحيح مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله بعليه وسلم ـ : « لينزلن عيسى بن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون الى المال فلا يقبله أحد »(٣٤٢)

ويوضح الأستاذ عبد اللطيف عاشور فى كتابه « المسيخ الدجال » هذا الأمر فيقول : « من المعلوم أن السيد المسيح ـ عليه السلام ـ لم يمت(٣٤٣) وإنما رفعه الله إليه ، ثم يعيده مرة أخرى الى الأرض ليقوم بمهمة أخرى كشفت عنها الأحاديث النبوية ، مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عبد الله بن عمرو ـ يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين (لا أدرى أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً) فيبعث الله عيسى بن مريم

---

(٣٤٢) تفسير القرطبى ـ سورة الزخرف ـ ص ٥٩٢٦ ط دار الشعب

(٣٤٣) هذا رأى كثير من العلماء ، ويرى آخرون موت عيسى عليه السلام ، ويقولون : إن التوفى المذكور فى قوله تعالى : « إذ قال الله ياعيسى بن مريم إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا » وفى قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد »

يقولون : إن التوفى فى هذه الآيات هو الموت . . ويفسرون الرفع فى قوله تعالى « ورافعك الىّ » برفع المكانة والمنزلة كقوله تعالى فى شأن ادريس عليه السلام « ورفعناه مكاناً علياً » ويقولون أيضاً : إن معنى الآيات الكريمة الواردة فى شأن رفع عيسى ونجاته أن الله سبحانه وتعالى : بشر عيسى بانجائه من مكر الكافرين ، ورد كيدهم فى نحورهم وأنه عليه السلام سيستوفى أجله المقدر له ثم يموت من غير قتل ولا صلب ثم يرفعه الله إليه . . » راجع فى ذلك كتاب الفتاوى للشيخ محمود شلتوت رحمه الله . . ص ٥٢ ومابعدها

كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه . .

قال : فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟

فيقولون : فما تأمرنا ؟

فيأمرهم بعبادة الأوثان

وهم فى ذلك دارٌ رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا .

قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله .

قال : فيصعق ويصعق الناس(٣٤٤) »

كيف ينزل ؟

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه حذيفة : « فإذا كان يوم الجمعة من صلاة الغداة ، وقد أقيمت الصلاة ، فالتفت الامام(٣٤٥) فإذا عيسى بن مريم ، قد نزل من السماء فى ثوبين كأنما يقطر من رأسه الماء . .

---

(٣٤٤) رواه مسلم فى باب خروج الدجال ومكثه فى الأرض ونزول عيسى . . رقم ٢٩٤٠ من كتاب الفتن وأشراط الساعة

(٣٤٥) فى حديث مسلم باب نزول عيسى من كتاب الإيمان ١ / ١٣٧ : « ينزل عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ فيقول أميرهم تعال صل لنا فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله تعالى لهذه الأمة »

فيقول له الامام : تقدم فصل بالناس .

فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك .

فيصلى عيسى خلفه .

وحين يرى الدجال عيسى ـ عليه السلام ـ يذوب كما يذوب الملح فى الماء[٣٤٦] . فمهمة عيسى ـ عليه السلام ـ فى أثناء نزوله هى تحذير الناس من الدجال وتخليصهم منه ، بعد أن يدعوهم إلى قتاله . فهو يقول لهم : أيها الناس ، ما يمنعكم أن تخرجوا الى الكذاب الخبيث ؟

فيقولون : هذا رجل جنىٌّ .

وقد تقدم أن عيسى ـ عليه السلام ـ يكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ومعنى ذلك أنه يصحح العقيدة ويقيم العدل ، ويروج به الخير ويرفع الظلم .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ينزل ابن مريم حكما عادلاً مقسطاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويرجع السلم ، فتتخذ السيوف مناجل ، ويُذْهِب حُمَةَ كل ذى حمة ، وتُنْزِل السماء رزقها ، وتخرج الأرض بركتها ، حتى يلعب الصبى بالثعبان فلا يضره ، ويراعى الذئب الغنم فلا يضرها ، ويراعى الأسد البقر فلا يضرها[٣٤٧] »

وسوف يذهب الشره الذى استشرى داؤه فى الناس ، وتقطعت بسببه الأرحام وضاعت المودة ، وفقدت الثقة ، وعز الوفاء . . ففى حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ « يفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون

---

(٣٤٦) مسند أحمد عن جابر ٣ / ٣٦٧ بلفظ نيماث كما نيماث الملح فى الماء

(٣٤٧) رواه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة ٢ / ٤٨٢

السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ « اقرءوا إن شئتم

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ (٣٤٨)

إن عيسى ـ عليه السلام ـ يدعو الى الاسلام حين نزوله ـ بدليل أنه يصلى خلف إمام المسلمين ـ ويرفض أن يؤم هو الناس . وتهلك فى زمانه الملل كلها إلا الاسلام(٣٤٩)

عيسى يجد فى أمة محمد خلفا من حوارييه

ذكر القرطبى فى كتابه التذكرة ما قاله الترمذى راويا حديث عبد الرحمن بن سمرة ، قال : « بعثنى خالد بن الوليد بشيراً الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم مؤتة ، فلما دخلت عليه قلت : يا رسول الله . .

فقال : على رسلك يا عبد الرحمن ، أخذ اللواء زيد بن حارثة ، فقاتل زيد حتى قتل ـ رحم الله زيدا ـ

ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ، فقاتل جعفر حتى قتل ـ رحم الله جعفراً ـ

ثم أخذ اللواء عبد الله بن أبي رواحة ، فقاتل حتى قتل ـ رحم الله عبد الله بن رواحة ـ

---

(٣٤٨) النساء ١٥٩

(٣٤٩) ارجع الى كتاب « المسيخ الدجال حقيقة لاخيال لعبداللطيف عاشور ، فصل عودة المسيح ص ٤٥ ومابعدها . .

ثم أخذ اللواء خالد ففتح الله لخالد ، فخالد من سيوف الله ـ فبكى أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم حوله .

فقال : ما يبكيكم ؟

قالوا : وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا ؟

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا تبكوا فإنما مثل أمتى مثل حديقة ، قام عليها صاحبها ورعاها وهيأها وسقاها فهى تعطى أكلها كل حين بإذن ربها ولن تخلو من الخير والذى بعثنى بالحق ليجدن ابن مريم فى أمتى خلفاً من حوارييه(٣٥٠)

الدخان

ومن علامات الساعة الدخان الذى أشارت إليه الآية الكريمة :

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٣٥١)

وكثير من العلماء يرون أن الدخان هنا من علامات الساعة . وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً ، يملأ ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام . وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة .

وفى حديث حذيفة بن أسيد الغفارى الذى ذكرناه آنفاً ، والذى ذكر فيه علامات الساعة وأنها عشر . .

قال حذيفة : قلت : يا نبى الله ، وما الدخان ؟

قال : هذه الآية :

« فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . . . . » يملأ ما بين المشرق

---

(٣٥٠) انظر التذكرة للقرطبى ص ٧٧٤ ط دار الكتب العلمية بيروت

(٣٥١) الدخان ١٠ : ١١

والمغرب ، يمكث أربعين يوماً وليلة ، فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران ، يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنه ودبره[٣٥٢] »

ومن العلماء من يقول : إن الدخان المذكور فى الآية هو ما أصاب قريشاً بدعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم حتى كان الرجل يرى ما بين السماء والأرض دخاناً . .

ولم يرتفع هذا العذاب عنهم حتي دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم فكشفه الله عنهم ، وقد مرت الاشارة الى ذلك .

ولا يمنع أن يكون الدخان قد حدث وسوف يحدث . . وحدوثه أولاً تذكير بما سوف يحدث قبل قيام الساعة . ليتفكر الناس ويعتبروا ، وليعلموا أن وعد الله حق ـ وان الساعة آتية لا ريب فيها . .

هذه بعض العلامات التى وردت بها الأخبار وهناك علامات غيرها ظهرت واضحة يتحدث بها الناس ـ كظهور المنكر وكثرة الفجور ، وخروج النساء كاسيات عاريات والاستهانة بالدين وغير ذلك مما يجعل العامة يتحدثون قائلين « هذا من علامات الساعة .

ظهور المهدى

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هناك أخبارا تدور حول مَعْلم من معالم الساعة ينبىء بقيامها ، وهو ظهور المهدى . .

من هذه الأخبار ما رواه مسلم عن أبى نضيرة قال : كنا جلوسا عند جابر بن عبد الله فقال : يوشك أهل العراق أن لايجىء قفيز ولا درهم ، قلنا : من أين ؟

---

(٣٥٢) انظر تفسير القرطبى ـ سورة الدخان ص ٥٩٥٠

قال : من قبل العجم ، يمنعون ذلك .

ثم قال : يوشك أهل الشام أن لا يجيء اليهم دينار ولامدى - أى مكيال - قلنا : من أين ذلك ؟

قال : من قبل الروم . ثم سكت هنيهة ثم قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يكون فى آخر الزمان خليفة ، يحثى المال حثيا ولا يعده عدا .

قيل لأبى نضرة وأبى العلاء : تريان أنه عمر بن عبد العزيز ؟ قالا : لا .

وجاء فى صحيح سنن ابن ماجة عن أبى سعيد الخدرى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال:يكون فى أمتى المهدى إن قصر فسبع وإلا فتسع فتنعم فيه أمى نعمة لم ينعموا مثلها قط تؤتى أكلها ولا تدخر منهم شيئاً والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدى أعطنى فيقول : خذ (٣٥٣)

والحق أن ظهور رجل يعيد للاسلام مجده ، ويرفع شأنه ، ويشيع العدل ويقضى على الظلم ، ويقهر أعداء الدين ، ويرفع راية اليقين ، ليس أمرا مستغربا إن لم يكن من الأمور المتوقعة الواجبة لهذا الدين الذى قضى الله بظهوره على غيره من الأديان بنص قوله - تعالى - :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٣٥٤)

---

(٣٥٣) صحيح سنن ابن ماجة - مجلد ٢ ص ٣٨٩ باب رقم ٣٤

(٣٥٤) الصف ٨ : ٩

وقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣٥٥)

وقوله تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٣٥٦)

وهذه الآيات كونية ليست خاصة بزمان دون زمان . فدين الله لابد وأن يظهر على غيره من تلك الأديان التى تناولتها يد التحريف والتبديل . وظهوره لابد وأن يكون على يد رجل يهيئه الله لحمل هذه الأمانة ، فيقوم بها خير قيام ، وتسميته بالمهدى لذلك ليس أمرا غريبا . .

إلا أنه يجب أن تتوافر فيه صفقة الهداية فعلا ، فيكون أمنا وسلاما على المسلمين ، فلا يجرد السيف إلا ضد أعداء الاسلام . . . . أما أن يحارب

---

(٣٥٥) التوبة ٣٢ : ٣٣

(٣٥٦) النور ٥٥

أهل الإسلام فذلك ليس مهديا بل هو على عكس ذلك تماما . . . . وقد حاول البعض استغلال الأخبار التى وردت فى شأن ظهور المهدى ، وادعوا كذبا وزورا أنهم هم المقصودون بتلك الأحاديث . . . ومن هؤلاء ذلك الذى ظهر منذ سنوات ـ مع مطلع القرن الخامس عشر الهجرى ـ فى مكة المكرمة ، وأطلق على نفسه اسم المهدى ، وأشاع الفزع فى الحرم ، وروع الطائفين ، والعاكفين والركع السجود وانتهك حرمة بيت الله الحرام الذى جعله الله حرما آمنا وقال فى حقه

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ ﴾ (٣٥٧)

فهل هذا وأمثاله يمكن أن يقال عنهم أنهم مهديون لقد استقصى ابن خلدون الأحاديث الواردة فى شأن المهدى ، ولكنه ذكر معها ما تكلم به العلماء فى شأنها حتى إنه لم يكد يخلص منها من النقد إلا القليل . .

ولكن على الرغم من ذلك يمكن أن نقول : إن هذا القليل يصلح أن يكون دليلا على ظهور مهديين صادقين يدعون الى الله ، ويسيرون على نهج واضح من الكتاب والسنة ليعيدوا للاسلام مجده وقوته وعظمته

وقد ذكرت بعض الروايات أن عيسى عليه السلام بعد نزوله آخر الزمان ـ سيأتم بالمهدى وهذا يدل على أنه لن يكون فى آخر الزمان إلا دين واحد هو دين الإسلام . ويظل كذلك حتى يأذن الله بقيام الساعة . . فيأزر الإيمان إلى المدينة كما تأزر الحية الى جحرها(٣٥٨) ، وتنطفىء شعلة الإيمان فى الأرض ، وتعلو كلمة الباطل بعد أن علت كلمة الحق حينا ، وينعدم

---

(٣٥٧) آل عمران ٩٧

(٣٥٨) يأزر ـ أى يضمُّ ويجمع

الأمن ، ويذهب الاستقرار ، ولا يصبح فى الدنيا من يقول : لا إله إلا الله » الا القليل النادر عند ذلك ، يبعث الله نارا تسوق الناس الى المحشر ، استعدادا للحدث الأكبر : وهو النفخ فى الصور .

قيام الساعة

النفخ فى الصور :

قال ـ تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٣٥٩)

والصور هو البوق الذى يأمر الله إسرافيل ـ عليه السلام ـ بأن ينفخ فيه ، وهو الناقور أيضا . ذكره الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣٦٠)

قال العلماء : هما نفختان : النفخة الأولى يموت منها الخلائق أجمع إلا من شاء الله ، والنفخة الثانية يحيون جميعا .

أما الاستثناء فهو ينصرف إلى بعض الملائكة : جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ـ عليهم السلام ـ والى ذاك أشار حديث رواه القرطبى فى تفسيره عن أنس ـ رضى الله عنه ـ

---

(٣٥٩) الزمر ٦٨

(٣٦٠) المدثر ٨ : ١٠

وقد أضاف بعض العلماء إلى هؤلاء - موسى عليه السلام - لأنه صعق مرة قبل ذلك حين طلب رؤية ربه .

وقيل : إن الاستثناء ينصرف الى الشهداء الذين استشهدوا فى سبيل الله ، يكونون حول العرش متقلدين سيوفهم ، وقد روى ذلك مرفوعا من حديث أبي هريرة ، وذكره القرطبى .

وبعد أن تموت الخلائق جميعا باستثناء من شاء الله ، يأمر الله ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ثم روح إسرافيل ، ثم يأمر الله ملك الموت أن يموت فيموت .

ويبقى الخلق فى البرزخ أربعين سنة . .

ثم يحيى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية . وهذا ما يعنيه قول الحق :

« ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

وهذا هو البعث ، وهو الهول الذى لاينجو منه إلا من رحم الله . . وهى الساعة التى طالما تساءل المشركون عن موعد قيامها مكذبين . . فاذاهم فيها الآن يجنون ما قدمت أيديهم ، ويتجرعون غصة تكذيبهم بآيات الله ورسله . .

لقد جاءت النفخة الأولى وهم يختصمون ويتنازعون ويتبايعون ، فيأخذهم الموت دون أن يستطيع الواحد منهم التوصية لمن يريد ، وقد أشار الحق - سبحانه وتعالى - إلى هذا الهول الذى لاتستطيع الأقلام وصفه بقوله :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ (٣٦١)

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : « تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فلا يطويانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يليط حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم الساعة ، والرجل يخفض ميزانه فما يرفعه حتى تقوم الساعة ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما يتبلعها حتى تقوم الساعة »(٣٦٢)

إن المقصود بقوله « تقوم الساعة » الأولى - النفخة الأولى . التى يموت الخلق على أثرها ،ثم يبعثون بالنفخة الثانية على حالهم التى كانوا عليها . .

ثم إن الدنيا كلها تحتضر سماء وأرضا ، فليس الفناء خاصا بالانسان وحده لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

« فصعق من فى السموات ومن فى الأرض »

ويشمل انفناء الجبال والأنهار والشمس والأقمار وغير ذلك مما تقع عليه العين من مظاهر الحياة . .

فالسموات تطوى

---

(٣٦١) يس ٤٨ : ٥٢

(٣٦٢) تفسير القرطبى سورة يس ص ٥٤٨٣ ط دار الشعب

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ (٣٦٣)

والجبال تتلاشى ، وتصبح كالعهن المنفوش ، والأرض تتغير وتتبدل : (٣٦٤)

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾

والبحار تفور والأنهار تثور وتطمس النجوم وتنسف الجبال وتنشق السماء وتنتثر الكواكب وتزلزل الأرض ، وتذهل الشياطين »

لقد أتى أمر الله الذى وعد به ، وفنى كل مخلوق ، وسكن كل شىء ، حتى الملائكة الذين كانت لهم الهيمنة والسيطرة ، خمدت فيهم الأنفاس ، واستسلم الشيطان وذريته لمصيرهم ، بعد أن أزهقت أرواحهم ، وضاع نشاطهم وشلت حركتهم ..

ولم يبق فى مسرح الحياة الذى كان يمرح بالحركة والاضطراب شىء . لم يبق الا الله ـ قال عز وجل : (٣٦٥)

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾

حال الناس عند قيام الساعة :

لقد صورت الآيات الكريمة هول الساعة بما لايدع مجالا لقائل بعدها اللهم إلا إعمال الفكر والنظر والتأمل فى بعض ما تدور حوله هذه الآيات من معان لايدرى حقيقتها إلا الله ـ تعالى ـ

انظر الى قوله ـ تعالى ـ

---

(٣٦٣) الأنبياء ١٠٤

(٣٦٤) ابراهيم ٤٨

(٣٦٥) الرحمن ٢٦ ، ٢٧

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ ﴾ (٣٦٦)

وانظر إلى قوله - تعالى -

﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ٨٨ ﴾ (٣٦٧)

ولقد قلنا قبل ذلك إن هناك نفختين فى الصور ، نفخة الإماتة ، ونفخة البعث ، وذكر بعض العلماء أن هناك نفخة ثالثة تسبقهما أشار إليها الحديث الذى ذكره القرطبى فى تفسيره قال :

قال أبو هريرة - رضي الله عنه - : إن الله لما فرغ من خلق السموات خلق الصور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله ما الصور ؟ فقال : قرن والله عظيم ، والذى بعثني بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات ، النفخة الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين(٣٦٨) .

---

(٣٦٦) الحج ١ ، ٢

(٣٦٧) النمل ٨٧ : ٩٠

(٣٦٨) تفسير القرطبى سورة النمل ص ٤٩٥٦ ط دار الشعب

ولكن الثابت بنص القرآن الكريم أنهما نفختان فقط .

إن النفخة التى يفنى على أثرها الخلق جميعا لتشهد بعظمة الله سبحانه وقهره وجبروته ، فهو وحده الباقى بعد فنا كل شيء . . يقول: لمن الملك اليوم ؟

ولا مجيب إلا هو ـ عز وجل ـ « لله الواحد القهار »

أين من كانوا يدَّعون القوة ؟ ، وأين أصحاب السلطة والتسلط ؟ أين المتكبرون والجبابرة ؟ أين المتسلطون والمتغطرسون ؟

أين الذين كانوا ينظرون إلى الناس شذرا ؟ ويصعرون خدودهم عجبا وكبرا ؟

أين الذين ظلموا الناس وأذاقوهم العسف والنكال ؟ وأين الذين قضوا أيامهم فى اللهو الباطل والغرور الكاذب ؟

أين الذين باعوا أنفسهم للشيطان ؟ وأين الذين قضوا أيامهم لاهم لهم إلا ممالأة الظالم ومداهنة السلطان ؟

لقد سجل القرآن الكريم هذا المشهد الرهيب بأسلوب معجز عجيب حيث قال : ـ

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣٦٩)

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ـ صلى الله

---

(٣٦٩) غافر ١٦

عليه وسلم ـ : « يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهم بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يقول : لمن الملك اليوم فلا يجيب أحد ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا . . ويجيب الحق نفسه بنفسه قائلا : لله الواحد القهار . .

ويروى القرطبى فى تذكرته حديثا يفسر به هذه المحاورة الالهية فيقول : « ثم يأمر الله ـ عز وجل ـ إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق كل من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، فإذا صاروا أمواتا جاء ملك الموت إلى الله فيقول : قد مات أهل السماء والأرض إلا من شئت ، فيقول الله ـ سبحانه ـ وهو أعلم ـ : من بقى ؟

فيقول : يا رب بقيت أنت الحى الذى لايموت ، وبقى حملة العرش ، وبقى جبريل وميكائيل واسرافيل ، وبقيت أنا فيقول الله عز وجل : ليمت جبريل وميكائيل .

فينطق الله ـ عز وجل ـ العرش ، فيقول : أى رب بموت جبريل وميكائيل ؟

فيقول : اسكت إنى كتبت الموت على كل من تحت عرشى . فيموتان .

قال : ثم يأتى ملك الموت إلى الله ـ جل جلاله ـ فيقول : يارب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله ـ سبحانه ـ وهو أعلم : من بقى ؟

فيقول : يا رب بقيت أنت الحى الذى لايموت وبقى حملة عرشك وبقيت أنا .

فيقول : ليمت حملة العرش فيموتون .

ثم يقول ـ ليمت اسرافيل . فيموت

ثم يأتى ملك الموت فيقول : يارب قد مات حملة عرشك ومات إسرافيل فيقول ـ وهو سبحانه أعلم ـ بمن بقى ؟

فيقول : بقيت أنت الحي الذى لا تموت ، وبقيت أنا .

فيقول الله : أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت وأردت فمت ـ فيموت ـ فاذا لم يبق إلا الله الواحد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فكان كما كان أولا طوى السماء كطى السجل للكتب .

ثم قال : أنا القهار الجبار ، لمن الملك اليوم ؟

فلا يجبه أحد فيقول : جل ثناؤه وتقدست أسماؤه : « لله الواحد القهار » ان هذا تصديق لقوله تعالى

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾(٣٧٠)

ولقوله تعالى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾(٣٧١)

قدرة الله تتجلى فى إعادة الأجساد .

إن قدرة الله تتجلى فى إعادة الأجساد كما كانت فى الحياة الدنيا ، ولقد كانت هذه الاعادة هى مثار الشك عند الكفار لأنها تكبر على مستوى تفكيرهم ، وتبعد عن مدار تصورهم . . . إن الإيمان بالبعث إيمان بالغيب ، وأنى لهؤلاء أن يؤمنوا بالغيب ؟

على أن الله سبحانه وتعالى ـ أراد أن يقرب أمر البعث إلى الأذهان ، فلفت أنظار الناس إلى وجود البعث فى حياتنا الدنيا ، وأنه ظاهر أمام أعيننا صباح مساء ، مشاهد لنا فى متقلبنا ومثوانا ، وما النوم الا موت تعقبه حياة هى اليقظة ، وما جدب الأرض إلا موت لها تعقبه حياتها ، بالخصوبة والخضرة والنبات ، وقد ذكر الله فى القرآن الكريم آيات متعددة تنبه الأذهان وتحفزها الى التفكير الذى يصل بصاحبه الى الاقتناع بأن البعث بعد

---

(٣٧٠) الرحمن ٢٦ : ٢٧

(٣٧١) القصص ٨٨

الموت ، والحياة بعد الفناء حقيقة لاشك فيها . إقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ (٣٧٢)

لقد وجه الحق أنظار الخلق هم الى مشهدين محسوسين لا يغيبان عن حس أحد . . ولا يحتاجان إلا الى التنبه الى ماوراءهما من قدرة عجيبة . .

فهل ذلك الخالق الذى قدر على أن يخلق هذا البشر السوى من تراب أولا ثم من نطفة بعد ذلك ـ يعجز عن ان يعيد هذا البشر بعد موته ؟

وهل ذلك الخالق الذى قدر على أن يحيل هذه التربة القاحلة الجرداء الصماء الى روضة بهيجة ضاحكة بالأزهار والثمار يعجز أن يعيد الانسان الى الحياة مرة أخرى بعد موته ؟

واذا احتج الجاحد بأن الميت تفتت وتبدد واندثر فان قدرة الله الخارقة المعجزة التى جعلت من العدم وجودا ومن التراب مخلوقا حياً متحركا فى صورة إنسان لا تعجز أن تجمع الذرات المتبددة وتعيد الأجزاء المبعثرة الى ما كانت عليه . وجل القادر الذى اذا أراد أمراً أن يقول له كن فيكون . . ومن يحتج بكثرة الأعداد الفانية يرد عليه بما قاله الحق ـ

---

(٣٧٢) الحج ٥ : ٧

سبحانه وتعالى -

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٣٧٣)

ولنستمع إلى الإمام القرطبى فى كتابه « التذكرة » يحدثنا عن بدائع القدرة فى إعادة الخلق فيقول :

« النفخ فى الصور هو علامة وإشارة لخروج أهل القبور وغيرهم ، فيعيد الله الرفات من أبدان الأموات ، ويجمع ما تفرق منها فى البحار وبطون السباع وغيرها حتى تصير كهيئتها الأولى ، ثم يجعل فيها الأرواح ، فيقوم الناس كلهم أحياء حتى السقط ، الذى تم خلقه ونفخ فيه الروح والموءودة قال الله - تعالى - ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ ﴾ (٣٧٤)

فدل على أن الموءودة تحشر وتسأل ، ومن قبرها تخرج وتبعث وأما من لم ينفخ فيه الروح فهو وسائر الأموات سواء .

ويكون خروج الخلق بدعوة من الحق سبحانه لقوله - تعالى - :

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (٣٧٥)

أجل .. إن هذه الأحقاب والازمان على امتدادها ليست فى حسبان المبعوثين الا قليلا .. اقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (٣٧٦)

ويقول القرطبى : ان الخلق حينما يبعثون يقولون : سبحانك اللهم

---

(٣٧٣) لقمان ٢٨

(٣٧٤) التكوير ٨

(٣٧٥) الاسراء ٥٢

(٣٧٦) المؤمنون ١١٢ : ١١٥

وبحمدك . . ، فيوم القيامة يبدأ بالحمد ويختم به . .

فبدؤه بالحمد من قوله تعالى - « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » وختامه بالحمد من قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾(٣٧٧)

قام الخلق من مرقدهم استجابة لأمر الله ، إنهم يخرجون من الأرض كما يخرج المطر النبات من البذور الميتة . . . اقرأ قوله - تعالى -

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾(٣٧٨)

ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فتنطلق كل نفس الى جسدها حتى تدخل فيه ثم يقومون فيحيون بنفخة واحدة .

أما كيف يحيُّون ربهم ؟

فقد قيل إن التحية على حالتين :

إحداهما أن يقوم المبعوث على قدميه واضعا يديه على ركبتيه . .

والأخرى ان يخر المبعوثون على أذقانهم سجدا كما يقول القرآن الكريم « يخرون للأذقان سجدا » . .

وربما اتضحت صورة البعث أكثر بذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة وذكره القرطبي أيضا قال :

حدثنا رسول الله - - صلى الله عليه وسلم - ونحن فى طائفة من أصحابه . . ذكر فى هذا الحديث : قوله الله تعالى

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾(٣٧٩)

---

(٣٧٧) الزمر ٧٥

(٣٧٨) فاطر ٩

(٣٧٩) سورة إبراهيم ٤٨

تبدل الأرض بسيطها بسطاً

﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾(٣٨٠)

ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فاذا هم فى هذه الأرض المبدلة فى مثل ماكانوا فيه من الأولى ، من كان فى بطنها كان فى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثم ينزل الله عليكم ماء من تحت العرش يقال له ماء الحياة ، فتمطر السماء عليكم أربعين سنة حتى يكون الماء من فوقكم اثنى عشر ذراعا ، ثم يأمر الله عز وجل الأجساد فتتجمع حتى اذا تكاملت أجسادكم فكانت كما كانت يقول الله - عز وجل - ليبعث حملة العرش فيحيون ، ثم يقول : ليبعث جبريل وميكائيل واسرافيل ، فيبعثون ، فيأمر الله تعالى اسرافيل فيأخذ الصور ، ثم يدعو الله - تعالى - الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نورا .. أما أرواح الكافرين فتكون مظلمة ، فيأخذها الله فيلقيها فى الصور ، ثم يقول لاسرافيل : انفخ نفخة البعث ، فينفخ فتخرج الأرواح كلها كأمثال النحل ، وقد ملأت مابين السماء والأرض ، فيقول الله - عز وجل - : وعزتى وجلالى ليرجعن كل روح الى جسده ، فتدخل الأرواح إلى الأجساد ، فتمشى فى الأجساد مشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنكم ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه . فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين ، سراعا الى ربك تنسلون ... قال تعالى :

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾(٣٨١)

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾(٣٨٢)

---

(٣٨٠) سورة طه ١٠٧

(٣٨١) القمر ٨

(٣٨٢) ق ٤٢

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ (٣٨٣)

وهنا يكون الموقف صعب(٣٨٤) ...

أرض المحشر

ويحدثنا الامام الغزالى - رضى الله عنه - عن أرض المحشر ، فيصفها لنا بأنها أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا ترى عليها ربوة يختفى الانسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط - أى مبسوط - لا تفاوت فيه(٣٨٥) .

ويساق الخلق الى أرض المحشر زمرا ..

وقد وصف النبى - صلى الله عليه وسلم - هذه الأرض بقوله :

« يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقىّ . ليس فيها معلم لأحد(٣٨٦)

وأرض عفراء أى بيضاء غير ناصعة البياض ، وقرص النقىّ هو المصنوع من دقيق خال من قشر ونخالة . والمَعْلَمَ هو البناء أو العلامة التى توضع ليهتدى بها الناس .

إنها أرض جديدة لا تفاوت فيها يردُّ البصر ، ليس بينها وبين أرض الدنيا تشابه إلا فى الاسم ... قال - عز وجل -

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ (٣٨٧)

قد يكون التبديل بالتغيير وبالزيادة وبالنقصان وبذهاب الأشجار والجبال والوديان وغير ذلك مما هو مشاهد محسوس فى أرض الدنيا ... هى أرض

---

(٣٨٣) الكهف ٤٧

(٣٨٤) التذكرة للقرطبى ص ٢٠٤

(٣٨٥) احياء علوم الدين جـ ١٦ ص ٢٩٥٢

(٣٨٦) متفق عليه من حديث سهيل بن سعيد

(٣٨٧) ابراهيم ٤٨

جديدة ، لم تسفك فيها دماء ، ولم يظلم عليها أحد ، ولم ترتكب عليها فاحشة ، ولم تقترف عليها خطيئة ، تظلها سموات جديدة لا شمس فيها ولا قمر ولا نجوم . .

ظلام دامس ، فقد طمس نور الشمس والقمر وزال ضوؤهما . . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية منهارة سائلة كالفضة المذابة تخالطها صفرة فهى كما أخبر الحق عنها « وردة كالدهان » أو كالمهل .

وتتناثر الجبال وتتطاير فهى كالعهن المنفوش . . أى الصوف المنقوش .

تأملات فى معنى آية

لقد قال الله ـ تعالى ـ فى شأن الشمس والقمر

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ ﴾ (٣٨٨)

كيف تجمع الشمس والقمر ؟ إن ذلك لن يكون إلا نتيجة اختلال حركة الكون واضطرابه وتغيره يوم تقوم الساعة . . فيخسف القمر بزوال ضوئه ، ويجمع بين الشمس والقمر بطلوعهما معا من المغرب مظلمين لا نور فيهما . .

إن هذا وإن كان علامة من علامات الساعة إلا أن وراءه سببا أراده الله . .

ويمكن التعبير عنه بما قالته الاستاذة ليلى مبروك فى كتابها « علامات الساعة » : قالت : « كلام الله ـ تعالى حق لا ريب فيه ، وقد قال

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (٣٨٩)

وكلام الله لا يحتاج الى دليل ، ولكنه يحتاج الى تفسير . .

---

(٣٨٨) سورة القيامة ٧ : ١٠

(٣٨٩) الأنبياء ٣٠

وقد ثبت أن الماء يدخل فى تكوين كل جسم حى سواء كان انسانا أو حيوانا أو نباتا ـ وما الى ذلك من سائر الكائنات الحية .

ومم يتكون الماء ؟ يتكون من عنصرى الهيدروجين والأوكسجين .

وماذا لو تفككت عناصر الماء ؟ ماذا لو انفصل الأوكسجين عن الهيدروجين واتحد كل منهما مع عناصر أخرى ؟

لو حدث ذلك لتحولت المادة الأصلية وهى الماء الى مواد أخرى مختلفة تماما فى خواصها عن المادة الأصلية وهى الماء .

ولو ثبت أن أجسام الكون المختلفة تحتوى على أحد عنصرى الماءوهما الهيدروجين أو الأكسجين ، أيرجع ذلك أن الكون كان أصله ماء ؟ ولماذا لايكون ذلك والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾(٣٩٠)

إن ذرات الهيدروجين هى المكونة لغالبية كتلة الشمس الغازية .. كما ثبت أن الغلاف الجوى يدخل فيه العديد من العناصر ، ومنها الأكسجين والهيدروجين .

دعك من كل هذا ، وفكر فيما ثبت من أن الماء نفسه كان أصله هيدروجين ، والهيدروجين هو أصل كل العناصر التى كونت المواد المختلفة .

ترى ، ماسر هذا ؟(٣٩١)

إن سره يعلمه الله الواحد الأحد الذى وسع كل شىء علما .. فلايستحيل عليه إذن أن يحيل الكون كله بنفحة واحدة من الصور ينفخها إسرافيل بأمر الله الى بقايا حطام أو الى عدم محض . ثم يعيده بنفحة أخرى بأمر الله الى كون آخر له وظائف أخرى ، وسبحان القادر المقتدر الذى اذا

---

(٣٩٠) هود ٧

(٣٩١) علامات الساعة لبيل مبروك ص ١٨٦

أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . . وهكذا تحشر جميع المخلوقات من جديد ، ومن بينهم الناس . . ويهيم الناس على وجوههم فهم كالفراش المبثوث ، حفاة عراة ، مشاة ، قد ألجمهم العرق ، ويلغ شحوم آذانهم ، وربما زاد على أكثر من ذلك

لقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك . . حتى قالت عائشة أو سودة ـ رضى الله عنهما ـ يارسول الله واسوأتاه ، ينظر بعضنا الى بعض ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : شغل الناس عن ذلك بأنفسهم ـ ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٣٩٢)

وَسَيْرُ الناس فى ذلك الى الغاية المسوقين اليها مختلف ، فبعضهم يمشون كما يمشون فى الدنيا على أقدامهم

وبعضهم يزاد فى تكريمهم فيسيرون ركبانا .

وبعضهم يبالغ فى إهانتهم فيزحفون على بطونهم مكبين على وجوههم .

قال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ فيما يرويه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم . فقال رجل : يارسول الله ـ وكيف يمشون على وجوههم »

فقال : الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم . . إنه موقف صعب ، يكتنفه الهول من جميع نواحيه ، لقد انكشف المستور ، ووقع المحذور ، وجاء اليوم الذى استبعد عقل الكفار حدوثه ، وأنكر المكذبون وقوعه ، واجتمعت الخلائق كلها منذ البدء السحيق الى يوم الصعق الأول فى صعيد واحد ، على اختلاف أجناسهم وفصائلهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم مابين ملائكة وانس وجان وشياطين ووحوش وسباع وبهائم وطير وحشرات وغيرها من أنواع الخلق التى لا

---

(٣٩٢) عبس ٣٧ .

يعلمها الا الله ..

وربما يقول قائل : إنما يبعث الناس للحساب فما بال الحيوان والطير يبعث ويحشر ؟

والاجابة على ذلك أن القرآن الكريم سجل حشر هذه العجماوات فقال :

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ ﴾ (٣٩٣)

وقال :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨ ﴾ (٣٩٤)

إنه يوم الحساب ، يحشر هؤلاء ليحاسب كل على مااقترفت يداه . حتى انه ليقتص للجماء من القرناء ..

الا أن هذه الدواب والحشرات والحيوانات بعد الحساب يقول الحق لها : كونى ترابا فتكون ترابا .. أما الثقلان وهما الإنس والجن فيؤمر بمن أطاع الله وعمل صالحا منهما الى الجنة ويؤمر بالعاصى منهما الى النار الا من رحم الله ..

ولذلك يود الكافر أن لو كان كالبهائم فيصير ترابا .. وهذا هو قول الله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠ ﴾ (٣٩٥)

يشتد الهول فى هذا اليوم ، وتدنو الشمس من الرءوس ـ وقد اشتد حرها ، وتضاعف لهيبها وتبدلت عما كانت عليه . لقد كانت فى الدنيا نعمة

---

(٣٩٣) التكوير ٥

(٣٩٤) الأنعام ٣٨

(٣٩٥) النبأ ٤٠

للناس تستوجب الشكر . أما الآن فقد اصبحت نقمة على الكافرين ووبالا على العاصين .

لقد كان الانسان فى الدنيا فى امكانه النجاة من لفح الشمس باللجوء الى الظل . . أما فى هذا اليوم فأين الظل الذى يلجأ إليه ؟

لاجبل ، ولاشجر ، ولاجُدُر . . لم يبق الا ظل العرش الذى وعد الله أن يظل فيه فئات من خلقه ذكرهم الحديث الشريف : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله رب العالمين . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »(٣٩٦)

ذكر القرطبى فى تفسيره عند قوله - تعالى - :

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾(٣٩٧)

قال : عن النبى - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاثة يوم القيامة فى كثيب من المسك الأذفر ولايحزنهم الفزع الأكبر : رجل أمَّ قوما محتسبا وهم له راضون ، ورجل أذَّن لقوم محتسبا ، ورجل ابتلى برق فى الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه »(٣٩٨)

ولامنافاة بين هذا الحديث وذاك ، فإن فضل الله واسع ، ورحمته سابغة

---

(٣٩٦) رواه البخارى فى كتاب الصلاة عن أبى هريرة وفى صحيح مسلم فى كتاب الزكاة وفى الترمذى ومسند الامام أحمد وفى غير ذلك ، وهو حسن صحيح وله روايات متعددة وفى جمع الجوامع برقم ٨٠ / ١٤٥٩

(٣٩٧) الأنبياء ١٠٣

(٣٩٨) تفسير القرطبى سورة الأنبياء ص ٤٣٨٦

وعطاءه متعدد ، وأبواب الخير التى فتحها أمام عباده ليرحمهم بها كثيرة متعددة وليس يعنى ذكر العدد القصر عليه .. بل هناك من أسباب النجاة وطرقها مالاحصر له . قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاما له ، فأشار الىَّ الغلام ، فكلمت مولاه حتى عفا عنه ، فلقيت أبا سعيد الخدرى فأخبرته ، فقال : يابن أخى : « من أغاث مكروبا أعتقه الله من النار يوم الفزع الأكبر » سمعت ذلك من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ان ذلك تصديق لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٣٩٩)

طول هذا اليوم :

ويشتد طول هذا اليوم على مافيه من تعب ونصب ، حتى يغطى العرق الرءوس ، عند بعض الخلائق ، إن العرق يرتفع على حسب الأعمال ، وعلى حسب المنازل عند الله ، فمن الناس من يبلغ العرق ركبتيه ، ومنهم من يبلغ حقويه ، ومنهم من يصل الى شحمة أذنيه ، وبعضهم يغيب فيه . قال ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه الى أنصاف أذنيه »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « يعرق الناس حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ آذانهم »

وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ

---

(٣٩٩) النمل ٨٩

فخذه ، ومنهم من يبلغ خاصرته . ومنهم من يبلغ فاه ، ومنهم من يغطيه العرق ، وضرب بيده على رأسه هكذا »(٤٠٠)

فياله من موقف عصيب ومقام رهيب . .

ويطول اليوم طولا زائدا على الحد دون طعام أو شراب أو منام . . وكيف يفكر أحد فى ذلك وقد ذهلوا عن أنفسهم ، وأهمهم هذا الهول الذى لايعرفون كيف يواجهونه أو يتخلصون منه . .

لقد ذكر : ان مقدار هذا اليوم ألف عام ، وقال عبد الله بن عمرو : تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾(٤٠١)

ثم قال :

« كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لاينظر اليكم ؟ »(٤٠٢)

ووصف الغزالى بلسان الحسن ـ رضى الله عنه ـ حال الكفار فى ذلك اليوم فقال :

« ماظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ، ولايشربون فيها شربة ، حتى اذا انقطعت أعناقهم عطشا ، واحترقت أجوافهم جوعا ، انصرف بهم الى النار فسقوا من عين آنية ـ ملتهبة ـ قد عظم حرها واشتد لهبها ، فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا فى طلب من يكرم لدى مولاه ليشفع فى حقهم فلم يتعلقوا بنبى الا دفعهم ، وقال : دعونى ، نفسى نفسى ، شغلنى أمرى عن أمر غيرى .

---

(٤٠٠) هذه الآثار من مكاشفة القلوب للغزالى ص ١٠٦ ط دار الشعب

(٤٠١) سورة المطففين ٦

(٤٠٢) رواه الطبرانى فى الكبير

واعتذر كل واحد بشدة غضب الله ـ تعالى ـ وقال :

« قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولايغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن يؤذن له فيه

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٤٠٣)

أسماء يوم القيامة :

وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر يوم القيامة حتى لم تكد تخلو سورة من ذكرها ، وسميت بعض السورباسمها كسورة الحاقة . وسورة القارعة ، وسورة القيامة وسورة التغابن ، وسورة الزلزلة ، وسورة الغاشية ، وسورة الجاثية ، وسورة الواقعة . .

وأسماؤها المذكورة فى القرآن الكريم ، والتى أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها تدل عليها وتنبىء عن أهوالها . .

فانظر إلى أسماء الطامة الكبرى ، والى الصاخة ، والى الآزفة والى الحاقة ، والى الواقعة ، والى غيرها مما يشير الى ما يكون فى هذا اليوم من فزع شديد ، وويل كثير ورعب طويل .

إنه اليوم الذى تنفطر فيه السماء ، وتنتثر فيه الكواكب وتتكدر النجوم الزواهر ، وتتكور الشمس ، وتسير الجبال ، وتعطل العشار ، وتسجر البحار ، وتسعر النيران .

يوم ترى الأرض وقد زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها ، قال تعالى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ (٤٠٤)

وقال تعالى :

---

(٤٠٣) طه ١٠٩

(٤٠٤) الزلزلة ١ ، ٢

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ
ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ
ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨ ﴾ (٤٠٥)

إنه اليوم الذى يفر فيه المرء من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . وفصيلته التى تؤديه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه .

لقد أكثر الله من أسماء هذا اليوم ـ كما يقول حجة الاسلام ـ الغزالى ـ ليقف الانسان من كثرة « أسامى القيامة » على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الأسامى تكرار الأسماء والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر .



(٤٠٥) الحاقة من ١٤ : ١٨


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مشاهد يوم القيامة

- الحشر .
- العرض .
- الحساب .
- الميزان .
- الصراط .
- الشفاعة .
- الحوض .
- صفة جهنم .
- أسماء جهنم .
- موقف الكفار من النار .
- الجنة ونعيمها .
- أبواب الجنة .
- أول الناس دخولاً إلى الجنة .
- محاورة بين أهل النار وأهل الجنة .
- أصحاب الأعراف .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحشر

ومن أسماء القيامة الحشر ، ولنقف قليلا عند هذا الاسم . .

والحشر معناه الجمع ، ويتردد هذا الاسم كثيرا فى الألسنة كما تردد فى القرآن الكريم .

من ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾(٤٠٦)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾(٤٠٧)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾(٤٠٨)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ﴾(٤٠٩)

وغير ذلك من الآيات .

وقد اتسع مدلول هذا اللفظ حتى أصبح يطلق على أربعة وجوه . . منها وجهان فى الدنيا . أحدهما هو المعنى بقوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ ﴾(٤١٠)

فهؤلاء القوم من اليهود أجلاهم الله ـ تعالى ـ على يد نبيه صلى الله عليه وسلم ـ لكفرانهم ونقضهم العهد ـ أجلاهم إلى الشام وهو أرض المحشر كما يقول العلماء ، ولذلك قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فيما يرويه القرطبى

---

(٤٠٦) الكهف ٤٧ .

(٤٠٧) مريم ٨٥

(٤٠٨) طه ١٠٢

(٤٠٩) مريم ٦٨ .

(٤١٠) الحشر ٢ .

فى تذكرته : « من شك أن المحشر فى الشام فليقرأ هذه الآية ، وذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم : اخرجوا ،

فقالوا له : إلى أين ؟

قال : إلى أرض المحشر .

فهذا حشر فى الدنيا . .

وحشر الدنيا الثانى هو ما يشير إليه الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير وثلاثة على بعير ، وتحشر بقيتهم النار ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسى معهم حيث أمسوا »

إن هذا يكون فى الدنيا قبل قيام الساعة ، وهذه النار هى آخر أشراطها .

فهذا الحديث يشير إلى حال الناس . . فهم إما أبرار راغبون فيما عند الله .

وإما مخلطون ، خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يعفو عنهم ، وهؤلاء هم الذين أشار اليهم الحديث بقوله : اثنان على بعير وثلاثة على بعير .

وعلى قدر العمل تكون الإبل التى تحملهم . . وقد فهم أبو حامد الغزالى رضى الله عنه فى هذا الحديث فهما آخر ، فقال : إن قوما يأتلفون فى الاسلام برحمة الله فيخلق الله لهم بسبب أعمالهم إبلا يركبون عليها . . فعلى قدر الأعمال تكون الإبل ، وكلما حسن العمل تميزت النجيبة التى تحمل صاحبها . . والمتقون يفدون على ربهم وفودا على نجائب النجاة هؤلاء فى

أمن إذا فزع الناس « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا »

وبما يقرب هذا المعنى إلى الأذهان هذه القصة التى وردت فى بعض الأخبار قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما لأصحابه :

« كان رجل من بنى إسرائل كثيرا ما يفعل الخير ، حتى انه ليحشر فيكم »

قالوا : وماذا كان يصنع ؟

قال : « ورث من أبيه مالا كثيرا ، فاشترى بستانا فحبسه للمساكين ، وقال :

هذا بستانى عند الله ـ تعالى ـ وفرق دنانير عديدة على الضعفاء ، وقال : بهذا أشترى جارية من الله ـ تعالى ـ وعبيدا .

وأعتق رقابا كثيرة وقال : هؤلاء خدمى عند الله ـ تعالى ـ

والتفت ذات يوم لرجل ضرير البصر فرآه تارة يمشى ، وتارة يكبو ، فابتاع له مطية يسير عليها ، وقال : هذه مطيتى عند الله أركبها .

والذى نفس محمد بيده لكأنى أنظر إليه وقد جىء بها إليه مسرجة ملجمة ، يركبها تسير إلى الموقف »(٤١١)

وما أشبه هذا العمل بعمل أخ صاحب الجنتين الذى أنفق ماله فى مرضاة الله ليشترى به نفسه من عذاب الله . .

إن هذا الحشر الذى أشار إليه هذا الخبر وأشار إليه حديث النار التى تحشر الناس هو فى الدنيا حيث يبدأ الحشر الأكبر ليوم لاينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأما الحشران اللذان فى الآخرة ، فأحدهما الحشر إلى الموقف ، وإليه يشير قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾(٤١٢)

---

(٤١١) التذكرة للقرطبى ص ٢٢٧ .

(٤١٢) الكهف ٤٧ .

حيث يقف الناس للحساب والمناقشة وقد ذكرنا هذا اليوم ووصفناه بقدر ما أسعفنا به اللفظ والجهد . . .

وأما الثانى فهو الحشر إلى الجنة أو النار .

أما المؤمنون فيحشرون فى مواكب مشرقة يعلوهم النور وتحفهم الملائكة . ويصحبهم الرضا ، وتفتح لهم أبواب الجنة التى أزلفت لهم ، يدخلون من أىّ أبوابها . . وسيأتى الحديث عن ذلك إن شاء الله ـ تعالى .

وأما الكفار ، فيحشرون مسوقين إلى النار على حسب ما وصف الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى قوله :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٤١٣)

إن هذا المصير الذى يصير إليه كل من المتقين والفجار إنما يكون بعد العرض والمناقشة ، وبعد أن يوقن كل إنسان بعدالة الحكم الذى صدر له أو عليه ، وهذا ما سنتحدث عنه فيما يأتى :ـ

العرض وتجىء ساعة العرض التى يقول الحق فيها

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٤١٤)

ويقول :

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (٤١٥)

---

(٤١٣) الزمر ٧١ ، ٧٢ .

(٤١٤) الحاقة ١٨ .

(٤١٥) الكهف ٤٨ .

إن هذا الموقف الذى يمثل فيه العبد بين يدى ربه لهو أعظم المواقف وأخطرها ، يبعث الله ملائكة أشداء يأخذون بنواصى المجرمين وأقدامهم حيث يقفون صفوفا يناقشهم الله فى أعمالهم ، ويذكرهم بنعمه عليهم .

وحين ينزل هؤلاء الملائكة لإيقاف الناس للعرض لايبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا وقد خر ساجدا لله خوفا من أن يكون من المأخوذين بالنواصى والأقدام .

ويُسأل المرسلون هل بلغوا رسالة الله إلى خلقه ؟ لتكون إجابتهم حجة على العصاة والمقصرين . قال ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾(٤١٦)

وقال تعالى

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾(٤١٧)

لقد ذهل الأنبياء عن الاجابة من هول الموقف ، أو أنهم وكلوا ما علموه إلى علم الله تعالى الذى أحصى كل شىء ووسع كل شىء علما .

وقال تعالى :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾(٤١٨)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾(٤١٩)

وقبل هذا العرض وتوجيه الأسئلة للخلق يظهر نور العرش الذى تشرق

---

(٤١٦) الاسراء ١٥ .

(٤١٧) المائدة ١٠٩ .

(٤١٨) الأعراف ٦ ، ٧ .

(٤١٩) الحجر ٩٢ ، ٩٣ .

به أرض المحشر وتعشى لنوره الأبصار ، وقد قال الله ـ تعالى ـ فى ذلك ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٢٠)

وتنادى جهنم فتجىء وقد تميزت غيظا

﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٤٢١)

وتزفر جهنم زفرات يخر المجرمون على وجوههم من هولها خوفا ورعبا ، ولا ينجو من هذا الهول والخوف أحد . . إن الكل يقول : نفسى نفسى وتستدعى الخلائق للمناقشة أمام الله ـ تعالى ـ فيسأل الله الإنسان عن قليل عمله وكثيره وسره وعلانيته ، وهو سبحانه أعلم بكل ذلك ، ولكن لتقوم الحجة .

روى أبو هريرة وأبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنهما قالا : إن ناسا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ـ قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : « هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة صحوا ليس دونها سحاب ؟ وهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس دونه سحاب ؟

قالوا : لا يا رسول الله .

قال : ما تضارون فى رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما .

إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون فى النار ، حتى

---

(٤٢٠) الزمر ٦٩ .

(٤٢١) الفجر ٢٣ : ٢٦ .

إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وغير أهل الكتاب ، فيدعى اليهود الذين بدلوا وغيّروا وانحرفوا ـ فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟

قالوا : كنا نعبد عزيزا بن الله .

فيقال لهم : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون ؟

قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار : ألا تردون ، فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون فى النار .

ثم يدعى النصارى الذين بدلوا وغيّروا وانحرفوا ـ فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟

قالوا : كنا نعبد المسيح بن الله . .

فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد .

فيقال لهم : ما تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار ألا تردون ، فيحشرون الى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون فى النار .

حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين . .

قال : فماذا تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد .

قالوا : يا ربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم .

فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : ما أشركنا بالله شيئا ، مرتين أو ثلاثا ، حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟

فيقولون : نعم .

فلا يبقى من كان من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود . ولا يبقى من كان يسجد نفاقا ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة ، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه .

ثم يرفعون رءوسهم فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا .

ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلم اللهم سلم(٤٢٢)

وفى هذا جاء قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾(٤٢٣)

قال العلماء فى تفسير الساق إنها أصل الشىء وحقيقته أى يكشف لهم عن أصل الأمر حتى يعاينوا حقائق الأمور وأصلها فيزدادون إيمانا ويقينا ، وقيل المقصود ساق العرش .

الحساب

ويحاسب كل انسان على ماقدمت يداه ..

ويتولى الحق سبحانه وتعالى حساب الخلق .. قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾(٤٢٤)

وكل انسان يجد أعماله التى قام بها فى الدنيا مسطورة فى صحيفة يتناولها بيمينه أو يساره .

فمن تناولها بيمينه فهو السعيد ، ومن تناولها بيساره أو من وراء ظهره فهو الشقى ..

ويقرأ كل منهم صحيفة عمله .

قال تعالى :

---

(٤٢٢) التذكرة للقرطبى ص ٢٤٨ .

(٤٢٣) القلم ٤٢ ، ٤٣ .

(٤٢٤) الرعد ٤٠ .

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (٤٢٥)

ولا يستطيع أحد أن يتخلص من كتابه أو يلقى به بعيدا ، إنه ملازم له لا يستطيع منه فكاكا

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ (٤٢٦)

وفى تناول الكتاب باليمين أو باليسار يقول الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٤٢٧)

ومن نوقش الحساب عذب ـ تصديقا لحديث رسول الله ﷺ ـ الذى روته عائشة ـ رضى الله عنها ـ

قالت : قال رسول الله ﷺ : « من حوسب يوم القيامة عذب » قالت : فقلت : يارسول الله ، أليس قد قال الله « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا » ؟

فقال : « ليس ذلك الحساب ، إنما ذلك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب » (٤٢٨)

إن العبد يقف بين يدى الله ـ تعالى ـ ومعه صحيفة أعماله التى سطر فيها

---

(٤٢٥) الكهف ٤٩ .

(٤٢٦) الاسراء ١٣ ، ١٤ .

(٤٢٧) الانشقاق ٧ : ١٥ .

(٤٢٨) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وقال حديث صحيح حسن .

كل شيء حتى ماهم به من أعمال الخير . .

ويستطيع كل واحد أن يتمثل كيف يكون موقفه حين يسأله ربه عن شبابه الذى أنعم الله به عليه فيم أبلاه ؟ .

وعن عمره الذى منحه له فيم أفناه ؟

وعن ماله الذى كان معه من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وهذا مفهوم الحديث الوارد فى ذلك : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن ثلاث : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟

ومع المساءلة تكون المخاصمة والقصاص . . فيؤخذ من حسنات المعتدى لتوضع مع حسنات المعتدى عليه ، ويؤخذ من سيئات المعتدى عليه فتوضع على أوزار المعتدى . . وقد ورد فى ذلك الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ : قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس من لادرهم له ولا دينار . قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار »[429] وربما كان فى التجاوز عن المظالم يوم العرض نصيب ، ولكن ذلك يكون لمن أراد الله كرامته وسعادته .

روى أنس قال : بينما رسول الله ـ ﷺ ـ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه .

فقال عمر : مايضحكك يارسول الله ؟ بأبى أنت وأمى ؟

قال : رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة ، فقال أحدهما : يارب خذ لى مظلمتى من أخى .

---

(٤٢٩) رواه ابو هريره وذكره الغزالى فى الاحياء .

فقال الله ـ تعالى ـ للثانى : أعط أخاك مظلمته .

فقال : يارب لم يبق من حسناتى شيء .

فقال الله ـ تعالى ـ للطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء ؟

قال : يارب يتحمل عنى من أوزارى .

قال : وفاضت عينا رسول الله ـ ﷺ ـ بالبكاء . ثم قال : « إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس فيه إلى أن يُحْمَل عنهم من أوزارهم » قال : فقال الله للطالب : ارفع رأسك فانظر فى الجنان ، فرفع رأسه . فقال : يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة ، وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ . لأى نبى هذا أو لأىِّ شهيد هذا ؟

قال : لمن أعطانى الثمن .

قال : يارب ، ومن يملك ثمنه ؟

قال : أنت تملكه .

قال : وماهو ؟

قال : عفوك عن أخيك .

قال : يارب إنى قد عفوت عنه .

فيقول الله ـ عز وجل ـ خذ بيد أخيك فأدخله الجنة .

ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين »(٤٣٠)

الميزان

ولاينبغى أن نغفل عن الميزان ، وقد ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة قال ـ تعالى ـ

---

(٤٣٠) احياء علوم الدين جـ ١٦ ص ٢٩٧٢ .

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٤٣١)

وقال - تعالى -

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٤٣٢)

وقال - تعالى -

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا
مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ
﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾(٤٣٣)

وساعة الميزان هذه من الساعات التى لايذكر فيها أحد أحداً لأنه مشغول بمصيره ، فعن عائشة رضى الله عنها - قالت . قال رسول الله - ﷺ - :

« والذى نفسى بيده - فى ثلاثة مواطن فإن أحدا لايذكر إلا نفسه ، اذا وضعت الموازين ، ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند تطاير الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أم بشماله ، وعند الصراط »(٤٣٤) .

وماأشد فرح الانسان حين يثقل ميزانه ، لقد نجا ونجاته تعنى فوزه بسعادة الأبد . وماأشد حزنه حين يخف ميزانه ، لقد خسر وخسراته يعنى شقاء الأبد .

روى عن أنس أنه قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى

---

(٤٣١) الأعراف ٨ ، ٩ .

(٤٣٢) الأنبياء ٤٧ .

(٤٣٣) القارعة ٦ : ١١

(٤٣٤) رواه أبو داوود . وفى الأحياء جـ ١٦ ص ٢٩٦٧ .

الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت مسموع يسمعه الخلائق : سعد فلان سعادة لايشقى بعدها أبدا ، وان خف ميزانه نادى بصوت يسمعه الخلائق : شقى فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا إلا أن يشاء الله

الصـــــــراط

أما الصراط فقد ذكره الله ـ تعالى ـ فى قوله :

﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾(٤٣٥)

والصراط جسر ممدود على متن جهنم ، وصفه الواصفون بأنه أدق من الشعرة وأحد من السيف .

إن الكافر يتمثله كذلك لأنه يتعثر فى اجتيازه والمرور عليه ، حتى يتجندل فى جهنم هاويا فيها . .

أما المؤمن فيتسع امامه حتى ليجتازه سريعا بتوفيق الله إياه وتسليمه منه .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« يضرب الصراط بين ظهران جهنم فأكون أول من يمر بأمته من الرسل ، ولايتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان « هل رأيتم شوك السعدان » ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال : « فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله ـ تعالى ـ تختطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبقه عمله ، ومنهم من يخردل ثم ينجو »(٤٣٦)

إن هذا الحديث يصور حالة الناس فى اجتيازهم الصراط ، وقد بين ذلك أيضا أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ فذكر عن رسول الله ـ ﷺ ـ أحوال الناس ، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف ، ومنهم من يمر كالريح ،

---

(٤٣٥) الصافات ٢٣ ، ٢٤) .

(٤٣٦) الأحاديث القدسية من حديث رقم ٣٣١ جـ ٢ ص ٥٧ .

ومنهم من يمر كالفرس المجرى ، ومنهم من يسعى سعيا ، ومنهم من يمشى مشيا ، ومنهم من يحبو حبوا ، ومنهم من يزحف زحفا ، وللناجين على الصراط نور ويكون مرورهم على الصراط على قدر نورهم ، فمن أعطى نوراً قليلا على قدر إبهام قدمه ، يحبو على وجهه ويديه ورجليه ، وتكاد كلاليب جهنم تتخطفه وتصيب جوانبه النار ، فلايزال كذلك حتى يخلص ، فاذا خلص وقف عليها ثم قال : الحمد لله لقد أعطانى الله مالم يعط أحدا إذ نجانى منها بعد إذ رأيتها . . ثم يذهب إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل . فيذهب مابه من ضر .

إن حكمة مد الصراط على متن جهنم أن يعاين المؤمنون النار حتى يفطنوا إلى مدى النعمة التى مَنْ الله بها عليهم فنجاهم منها قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢ ﴾(٤٣٧)

الشفاعة

من المأثور عن سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ قوله : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأعطيت الشفاعة العظمى ، وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »(٤٣٨)

واعطاؤه ﷺ ـ الشفاعة العظمى يقرره قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾(٤٣٩)

---

(٤٣٧) مريم ٧١ ، ٧٢ .

(٤٣٨) متفق عليه من حديث جابر أخرجه الترمذى ، وأخرجه ابن ماجه من حديث أبى بن كعب ، قال الترمذى : حسن صحيح .

(٤٣٩) الضحى ٥ .

روى أنه ـ ﷺ ـ قال : لن أرضى وأحد من أمتى فى النار . . بل إن شفاعته ﷺ شملت الخلائق أجمعين يوم الموقف العظيم ، حيث يشتد الكرب بالناس ، ويودون الانصراف ولو إلى النار ، ظنا منهم أن النار أخف وطأة مما هم فيه . .

أخرج البخارى فى كتاب بدء الخلق عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا مع النبى ـ ﷺ ـ فى دعوة فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون بم ؟

يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعى ، وتدنو الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون إلى ماأنتم فيه ؟ إلى مابلغكم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟

فيقول بعض الناس : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : ياآدم ، أنت أبو البشر ، صورك الله ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى مانحن فيه وما بلغنا ؟

فيقول : ربى غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولايغضب بعده مثله ، ونهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى ، نفسى ، إذهبوا الى غيرى . اذهبوا الى نوح .

فيأتون نوحا فيقولون : يانوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبدا شكورا ، أما ترى مانحن فيه ؟ ألا ترى مابلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟

فيقول : ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولايغضب بعده مثله ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى محمد ـ ﷺ ـ فيأتونى ، فاسجد تحت العرش فيقال : يامحمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعط(٤٤٠)

---

(٤٤٠) الأحاديث القدسية جـ ٢ ص ٤٧ عن البخارى فى بدء الخلق جـ ٤ ص ١٣٤ .

وأورده البخارى فى كتاب التفسير بزيادة أن نوحا دلهم على موسى ، ودلهم موسى على عيسى ، وعيسى هو الذى دل على محمد ـ ﷺ ـ الذى غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فتأتونى ، فانطلق لأستأذن ربى ، فاذا رأيت ربى وقعت ساجدا ، فيدعنى ماشاء الله ، ثم يقال : ارفع رأسك وسل تعط ، وقل يُسمع ، واشفع تشفع . فأرفع رأسى ، فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع ، فيحد لى حدا ، فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ، ثم أعود الرابعة ، فأقول : مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود .

قال البخارى : إلا من حبسه القرآن يعنى قول الله تعالى : خالدين فيها[441]

ولهذا الحديث روايات أخرى فى مختلف كتب الصحاح . وكلها تشير الى منزلة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ربه . . كما تشير الى صفة الرحمة التى اختصه الله بها حيث قال له :

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾[442]

وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظهرت رحمته فى موقفه من الخلق فى ذلك اليوم العصيب ، وأنه لم يعتذر كما اعتذر غيره من الأنبياء عن أداء هذه المهمة . التى انتدب إليها . بل نشط لها من فوره ، وقبل الله شفاعته فى الخلق أولا فصرفهم ، من هذا الموقف الى مصائرهم ، ثم قبل شفاعته فى أمته حيث أخذ بأيديهم الى الجنة والحمد لله .

---

(٤٤١) الأحاديث القدسية جـ ٢ ص ٥١ نقلا عن البخارى ـ كتاب التفسير باب وعلم آدم الأسماء جـ ٦ ص ١٧ .

(٤٤٢) الأنبياء ١٠٧

وكانت هذه الشفاعة فى الآخرة استجابة لوعد سابق من الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ تلا قول الله ـ على لسان ابراهيم ـ عليه السلام ـ

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾(٤٤٣)

وقوله تعالى ـ على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾(٤٤٤)

ثم رفع يديه وقال : « أمتى أمتى » ثم بكى فقال الله ـ عز وجل ـ :

« ياجبريل اذهب الى محمد فسله مايبكيك ؟

فأتاه جبريل فسأله : فأخبره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخوفه على أمته والله أعلم به ، فقال :

« ياجبريل ، اذهب الى محمد فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »(٤٤٥)

لقد أحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته حبا شديدا ، ولم يكف عن الدعاء لها والأخذ بيدها الى طريق النجاة على الرغم مما لقيه من أذى وتكذيب . . روى أنس وأبو هريرة فيما أخرجه مسلم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن تكون دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة

---

(٤٤٣) ابراهيم ٣٦ .

(٤٤٤) المائدة ١١٨ .

(٤٤٥) ذكره مسلم ، وفى احياء علوم الدين جـ ١٦ ص ٢٩٧٩ .

فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى . أترونها للمتقين ؟ لا ولكنها للمذنبين الخطائين »(٤٤٦)

بل لقد أكرم الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن أكرم الصالحين من أمته بقبول شفاعتهم فى غيرهم .

فعن عبد الله بن أبى الجدعاء أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتى أكثر من بنى تميم . قالوا : سواك يارسول الله - أى رجل سواك - ؟ قال : سواى » وقال الترمزى : هذا حسن صحيح

ان هذا يدل على أن للمؤمن الصالح شفاعة ، وهذه خصيصةلهذه الأمة المرحومة التى ورد ذكرها فى الكتب السابقة . ولاحرج على فضل الله . .

حوض النبى - صلى الله عليه وسلم -

قال - تعالى - : بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾(٤٤٧)

وحين نزلت هذه السورة قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنه نهر وعدنيه ربى - عز وجل - فى الجنة عليه خير كثير - عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء »(٤٤٨)

وروى مسلم عن أنس - رضى الله عنه - قال النبى ﷺ : « مابين لابَتَىْ(٤٤٩) حوضى مثل مابين المدينة وصنعاء »

ولقد وصف الرواة هذا الحوض وماءه وآنيته والمزدحمين حوله - فقالوا ان

---

(٤٤٦) صحيح سنن بن ماجة مجلد ٢ ص ٤٣١ باب ذكر الشفاعة .

(٤٤٧) سورة الكوثر .

(٤٤٨) رواه مسلم عن أنس .

(٤٤٩) لابتى حوضى : طرفيه .

ماءه أشد بياضا من اللبن وأحلى مذاقا من العسل ، وإن من شرب منه شربة لايظمأ بعد ذلك أبدا وإن ريحه أطيب من المسك وإن الحصباء التى يجرى عليها مثل اللؤلؤ وإن أوانيه لاتحصى كثرة بعدد نجوم السماء . . ويدل ذلك على كثرة المتزاحمين عليه الذين يطلبون الأوانى للشرب ، وقد ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذود عن هذا الحوض من غيَّر وبدل من أمته كالفساق وأصحاب الدعوات الضالة والمنحرفة .

ولقد وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وُرَّاد هذا الحوض بأنهم متواضعون وأن أولهم ورودا هم فقراء المهاجرين . ومن سار على نهجهم فباع دنياه بآخرته ، وآثر رضا ربه على رضا غيره من المخلوقين .

صفة جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ

بعد المناقشة واجتياز الصراط يصير كل الى مصيره . . وقد أعد الله للكفار نار جهنم ، وقد وصفها الله فى القرآن الكريم وصفا يكفى العاقل أن يحذرها ، وذلك بترك الأسباب الموصلة اليها ، وأن يسلك الوسائل التى تنجيه منها .

وقد حذر الله الناس منها ، ولم يترك لاحد عذراً قال الله تعالى مخاطبا الكفار الذين تحدوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وناصبوه العداء :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
(٢١) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
(٢٢) وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟
شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟
فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ (٢٤) ﴾ (٤٥٠)

---

(٤٥٠) البقرة ٢١ : ٢٤ .

ولقد أفاض القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة فى وصف النار ، وذكر القرآن الكريم أن أبوابها سبعة لكل باب جزء من الضالين المكذبين . قال ـ تعالى ـ فى حق أتباع ابليس ـ لعنه الله ـ

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) ﴾[451]

أما طعامها فهو الزقوم قال تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) ﴾[452]

والزقوم شجرة ملعونة ثمرها كريه قال عنها القرآن

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ﴾[453]

وأما شراب جهنم فهو الحميم والماء الحار الذى يشوى الوجوه .. قال تعالى :

﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾[454]

وقال :

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) ﴾[455]

وقال :

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) ﴾[456]

---

(٤٥١) الحجر ٤٣ ، ٤٤ .

(٤٥٢) الواقعة ٥١ ، ٥٣ .

(٤٥٣) الصافات ٦٤ : ٦٦ .

(٤٥٤) الكهف ٢٩ .

(٤٥٥) الصافات ٦٧ ، ٦٨ .

(٤٥٦) الواقعة ٥٤ ، ٥٥ .

أما أبوابها التى أشرنا اليها ، والتى ذكرها القرآن فى الآية التى استشهدنا بها آنفا ـ فقد خصص لكل طائفة من الكفار باب منها . وأورد القرطبى فى تذكرته حديثا عن أنس بن مالك يحدد هذه الطوائف قال : « جزء أشركوا بالله ، وجزء شكُّوا فى الله ، وجزء غفلوا عن الله ، وجزء آثروا شهواتهم على طاعة الله ، وجزء شفوا غيظهم بغضب الله ، وجزء صيروا رغبتهم الى غير الله ، وجزء عتوا وتكبروا »(٤٥٧)

وفسر القرطبى هذه الاجزاء بقوله : فالمشركون بالله هم الثنوية وأمثالهم ، والشاكُّون فى الله هم الذين لا يدرون أن لهم إلها ، أولا ، أو يشكون فى شريعته وفى أنها من عند الله

والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلا ، ولايثبتونه وهم الدهرية .

والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون فى المعاصى لتكذيبهم رسل الله وأمره ونهيه .

والشافون غيظهم بغضب الله ـ تعالى ـ هم القاتلون أنبياء الله والذين يعذبون كل من ينصح لهم ، أو يذهب غير مذهبهم

والمصِّيرون رغبتهم الى غير الله ـ تعالى ـ هم المنكرون للبعث والحساب ، الذين يعبدون أى شىء يرغبون فيه . .

والعاتون المتكبرون هم الذين لايبالون بأن يكون ماهم فيه حقا أو باطلا ، فلايتفكرون ولايعتبرون ولا يستدلون .(٤٥٨)

ومن القصص التى أوردها القرطبى . والتى تدل على خشية المسلمين الأوائل من الله ، ورغبتهم فى ثوابه وعطائه ـ وما أحرانا أن نقتدى بهم ـ مايقصه قائلا : ـ

(٤٥٧) التذكره للقرطبى ص ٤٤٦ .

(٤٥٨) المرجع السابق .

قال بلال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى فى مسجد المدينة وحده ، فمرت به أعرابية فصلت خلفه ، ولم يعلم بها ، فقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية

« لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم »

فخرت الاعرابية مغشيا عليها ، وسمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صوت وقعتها . فلما انصرف ـ اى عن الصلاة ـ دعا بماء فصب على وجهها حتى أفاقت وجلست .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياهذه ، مالك ؟

فقالت : يارسول الله ، هذا شيء من كتاب الله أو شيء من تلقاء نفسك ؟ـ فقال : ياأعرابية ، بل هو من كتاب الله المنزل .

فقالت : كل عضو من أعضائى يعذب على باب منها ؟

قال : ياأعرابية : « بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل باب على قدر أعمالهم .

فقالت : والله إنى امرأة مسكينة لا مال لى ، وليس لى إلا سبعة عبيد أشهدك يارسول الله أن كل عبد منهم حر لوجه الله ـ تعالى ـ .

فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : يارسول الله : بشر الأعرابية أن الله قد غفر لها وحرم عليها أبواب جهنم ، وفتح لها أبواب الجنة كلها .(٤٥٩)

أسماء جهنم :

ولجهنم أسماء كثيرة تشير الى شدة عذابها ونكالها ، وماسميت جهنم الا لأنها تتجهم فى وجوه أهلها ، وهى لَظَى النزاعة للشوى وهى الحطمة ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ ﴾(٤٦٠) وهى الجحيم لعظم جرها ، وهى السعير التى

(٤٥٩) المرجع السابق .

(٤٦٠) الهمزة ٥ : ٧ .

تسعرت نارها،وهى الهاوية لأن المأخوذ فيها يهوى فى قعرها الى مالا نهاية

وهى سقر التى تأكل اللحم والعظم . . عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون . . أما عذابها فالوصف لايستطيع أن يدركه . . ويكفى فى وصف عذابها . قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾ (٤٦١)

ويكفى أن يتمثل الانسان فى نفسه أن نار الدنيا على شدتها وهولها لاتمثل إلا جزءا من سبعين جزءا من نار الآخرة . . ومن الذى يطيق ان يتعرض جسمه لشعلة عود كبريت فضلا عما هو فوق ذلك ؟ . .

موقف الكفار من النار

إن افاضة القرآن الكريم فى وصف النار وتحذير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أحاديثه وخطبه ونصائحه ووصاياه من عذاب النار لم يلق من الكفار الا سخرية واستهزاء . وحين نزل قوله تعالى ـ فى شأن الوليد بن المغيرة وغيره ممن هم على شاكلته :

« سأصليه سقر . وماأدراك ماسقر . لاتبقى ولاتذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر » (٤٦٢)

حين نزلت هذه الآيات ظلوا يسخرون ويستهزئون فقال أبو جهل

---

(٤٦١) الملك ٦ : ١١ .

(٤٦٢) المدثر ٢٦ : ٣٠ .

لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع محمدا يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدّهم الشجعان . . أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ؟ ؟

وقال أبو الأشد الجمحي : لا يهولنكم التسعة عشر- أنا أدفع بمنكبى الأيمن عشرة من الملائكة وبمنكبى الأيسر تسعة ، ثم تمرون الى الجنة . يقول ذلك مستهزئا .

وفى رواية : أن الحارث بن كلدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر ، واكفونى أنتم اثنين .

وقيل : إن أبا جهل قال أما لرب محمد من الأعوان إلا تسعة عشر : أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار ؟ فنزل قول الله تعالى

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ (٤٦٣)

لقد أعمى الله أبصارهم فلم يدركوا أن هذا العدد ما هو إلا فتنة لهم .

وما دروا أن قدرة الله كفيلة بأن تحرس كل شيء ، ولو وكل أمر النار على سعتها إلى ملك واحد لجعل فيه القدرة على حمايتها وتسعيرها وإلقاء أهلها فيها على مراتبهم . . وحتى لو لم يكل أمرها إلى أحد من ملائكته فإن قدرته تعالى كفيلة بحفظها وسوق المكذبين إليها وإدخالهم فيها . . ولكنهم ضلوا عن الحق لأن الله أراد أن يجعلهم طعاماً لهذه النار التى وقودها الناس والحجارة . .

---

(٤٦٣) سورة المدثر ٣١ .

ويكفى فى حديثنا عن جهنم أن نعلم أن الله أعدها للكافرين والعصاة والمذنبين ، حتى يرتدعوا عن غيهم وضلالهم ، وربما فكر بعضهم فى هذا المصير السيىء الذى ينتظره فارتدع وثاب الى رشده ، ومن الناس من لا يلجئون الى الايمان إلا بالتخويف والانذار ، ولولا العقاب لتمادى الناس فى مخالفة الأوامر والتعدى على القانون بل وتحديه .. ونار الحياة الدنيا ظاهرة أمامنا ، وممثلة فى أذهاننا وأحاسيسنا ، نراها فى كل وقت ، ونلمس شدة تأثيرها .. فحرارة الصيف وقيظه الشديد ، ونار الشمس فى الصيف وحرارة الرمضاء فى الصحراء وما نشعله من نيران وما يشب من حرائق تشوى الوجوه والأبدان بل وتأكل الحجارة والجدران ، كل ذلك كفيل بأن يجعلنا نفكر فى نار الآخرة التى هى أشد من ذلك وأفظع ـ فما لنا لا نتقيها ؟ وما لآذاننا لا تعى ولا تسمع ؟ وما لعقولنا لا تفكر فى النجاة منها ؟ وما لضمائرنا لا تحيا حتى ننقذ أنفسنا مما هو واقع لا محالة بنا إن صددنا عن سواء السبيل ، وابتعدنا عن الصراط المستقيم ؟

نسأل الله العفو والعافية ونرجوه أن يقينا سوء المصير وعذاب الجحيم ..

وإلى الجنة معاً إن شاء الله ..

الجنة ونعيمها

كما توعد الله جلت قدرته ـ الكافرين بعذاب النار ، وعد المؤمنين بثواب الجنة قال ـ تعالى ـ

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾[٤٦٤]

وقد اقتضت حكمة الله أن تكون سياسة الناس والخلائق أجمع مبنية على الترغيب والترهيب . وهما طريقان إلى تهذيب النفوس وإشاعة الأمن وتحقيق العدل وسيادة النظام ..

وما يزال الانسان راغباً وراهباً حتى يصل إلى مقام يتعدى فيه الرغبة

(٤٦٤) الرعد ٣٥ .

الحسية والرهبة الحسية إلى ما هو أعظم من ذلك . فبدلاً من أن يتقى النار يتقى ربها ، وبدلاً من أن يطلب الجنة يطلب المثيب بها . . وقد سئلت السيدة رابعة العدوية وهى احدى الصالحات القانتات ، ما لك لا تذكرين الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار . .

ولعل ذلك هو ما تشير إليه الآية الكريمة :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾ (٤٦٥)

قال العلماء : الحسنى هى الجنة ، والزيادة هى رؤية الله . .

ووصف الجنة لا يفى به بيان ، وقد قرب الله إلينا نعيمها بما ذكره لنا من آيات بينات فى مختلف سور القرآن العظيم ، وإلا ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . .

ومن الأوصاف التى ذكرها الله فى القرآن الكريم للجنة قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ
الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا
مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ
(١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا
يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا
أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ
مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ
(٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) ﴾ (٤٦٦)

---

(٤٦٥) يونس ٢٦ .

(٤٦٦) الواقعة ١٠ : ٣٧ .

ومن نعيم الجنة أن شباب المؤمن يتجدد فيها فلا يهرم أبداً ، وهو فى كل لحظة فى لذة متجددة لا يسأم منها ولا يزهد فيها . روى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : ينادى مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحُوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تظلوا شباباً فلا تهرموا أبداً ، وان لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً ، فذلك قوله - تعالى -

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ (٤٦٧)

ولقد أشار الحق سبحانه وتعالى - إلى أن هذه الأوصاف التى ذكرت للجنة فى القرآن الكريم - ما هى إلا أمثلة ونماذج لما أعد فيها من النعيم ، وإلا فإن ما أعده للمنعمين فيها شىء لا يحيط به الوصف . قال - تعالى -

﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ (٤٦٨)

وقد أشار الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك فى قوله : « فيها ما لأعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »

أجل إن فيها ما ذكره الله - تعالى - فى قوله

﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾ (٤٦٩)

« ولكن عذوبة مائها ولذة لبنها ، وطيب خمرها وحلاوة عسلها تفوق ما يرى فى الدنيا أضعافاً مضاعفة بدون نهاية . . إن الآفات التى تعرض لفاكهة الدنيا وطعامها وشرابها لا وجود لها فى دار الخلد التى لا يفنى نعيمها أبداً . .

---

(٤٦٧) الأعراف ٤٣ .

(٤٦٨) السجدة ١٧ .

(٤٦٩) محمد ١٥ .

وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى أى ظل فى الدنيا تجده محدوداً بأصله المتناهى أما ظل الجنة فممدود لا نهاية له . . وقد أخبر الصادق المصدوق أن من أشجار الجنة ما يسير الراكب فى ظله سبعين سنة أو مائة سنة . .

أبواب الجنة

وللجنة أبواب ثمانية . وقد أشار الحق إلى أبواب الجنة فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٤٧٠)

إنهم يجيئون فيجدون الأبواب أمامهم قد فتحت ، على نقيض أهل النار الذين لا تفتح أبواب النار إلا بمجيئهم . .

وفى فتح الأبواب مسبقاً أمام المتقين تكريم لهم وحسن استقبال لهم فالمكرمون يجدون أبواب الكرام أمامهم مفتوحة . . أما المهانون فلا تفتح لهم الأبواب إلا بعد وصولهم ، وإذا فتحت لا يجدون وراءها إلا العذاب والاهانة .

وأبواب الجنة على حسب الأعمال ، فهناك باب الصلاة ، وهناك باب الصيام ، وباب الزكاة وغير ذلك . .

وقد ذكرنا أنها ثمانية أبواب لما ورد فى الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من توضأ فأسبغ الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

---

(٤٧٠) الزمر ٧٣ ، ٧٤ .

له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صادقاً من نفسه ـ أو قال : من قلبه ـ فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة يدخل من أيها شاء[471] »

وفى رواية : « فتحت له أبواب الجنة الثمانية »

أول الناس دخولاً إلى الجنة

لاشك فى أن أول الناس دخولاً إلى الجنة هو سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ورد عنه أنه قال :

« آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن : من ؟ فأقول : محمد ، فيقول : لقد أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك[472] »

ولا عجب فى ذلك ، فهو سيد الخلق ومصطفاهم ، وهو رحمة الله للعالمين وحبيب الله ـ جل جلاله . .

ويشفاعته تدخل أمته ، لا يدخلها أحد من الأمم قبلهم ، وقد ورد ذلك فى الكتب السابقة ، حتى عرفت أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أهل الكتاب بأنها الأمة المرحومة .

إن الحديث عن الجنة ونعيمها ، وما فيها من أشجار وأنهار وقصور وحور وولدان ومتاع يقصر عنه الوصف ويعجز عنه القلم .

ولكن هناك ما هو أعظم منها وأجل وهو رؤية الله سبحانه وتعالى التى أختص بها المقربين من عباده وقال فى ذلك

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[473]

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا

---

(٤٧١) أخرجه الترمذى وغيره .

(٤٧٢) رواه مسلم من حديث أنس .

(٤٧٣) القيامة ٢٢ ، ٢٣ .

القمر لا تضامون فى رؤيته فسبحوه ما استطعتم قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ثم قرأ

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾(٤٧٤)

وقد ذكر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ قوله تعالى

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »

وقال : الزيادة هى النظر إلى وجه الله الكريم .

محاورات بين أهل النار وأهل الجنة

ومادمنا قد ألمحنا إلى طرف من أوصاف الجنة والنار ، فعلينا أن نتأمل بيان القرآن المعجز فى تصوير الحوار الذى يدور بين الكفار بعضهم بعضا فى النار ، وبينهم وبين الملائكة ، وبينهم وبين المؤمنين الذين أكرمهم الله بالجنة .

فحين يُدفع الكفار إلى جهنم ، ويعاينون بأسها ، ويذوقون حرها ، يحاولون أن يتخلصوا من هذا المصير ، ويُلقون تبعة كفرهم وضلالهم على غيرهم .. فيقولون : ياربنا إنا كنا مستضعفين لا رأى لنا ، وقد غلبنا كبراؤنا على أمرنا ، أمرونا فأطعناهم وما كنا نستطيع أن نخالف لهم أمرا ..

وهذا هو ما تحكيه لنا هذه الآيات الكريمة :

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾(٤٧٥)

---

(٤٧٤) طه ١٣٠ .

(٤٧٥) الأحزاب ٦٦ : ٦٨ .

ولكن الحق سبحانه وتعالى الذى خلق الانسان وميزه بالعقل وعلمه كيف يصمد فى وجه الطغيان والجبروت ـ يرفض منطق هؤلاء وزعمهم ، فقد كان باستطاعتهم ان يتخلصوا من استعباد هؤلاء الكبار لهم . . ولكنهم خضعوا لهم فاستحقوا جميعا العذاب ، قال تعالى :

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾(٤٧٦)

لقد كانت هذه المحاورة تتمة لما سبق من محاورات جرت فى يوم عرضهم على ربهم لمناقشة الحساب . فهناك نقاش طويل عريض حدث بين السادة وأتباعهم ، بعد أن عاين كل منهم ذلك المصير المشئوم الذى يتردون فيه .

لقد ألقى المستضعفون المسئولية الكاملة على عاتق سادتهم ، ولكن السادة تبرءوا من أتباعهم ، وردوا القول عليهم بحجة أن الضلال كامن مستقر فى نفوسهم ومستكن فى ضمائرهم ، وحقا ذلك ، فما بالهم لم يؤمنوا كما آمن غيرهم ممن لم ترهبهم القوة أو تغريهم المادة أو تخطف أبصارهم الوعود البراقة ؟ ولولا أن الاستعداد للضلال موجود فيهم ما استجابوا لاضلال الرؤساء والكبراء . .

وفى محاولة التبرى بين الطرفين والقاء كل منهما التبعة على الآخر يقول الله ـ تعالى ـ

---

(٤٧٦) الأعراف ٣٨ ، ٣٩ .

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾(٤٧٧)

وحكى لنا القرآن الكريم نقاشا دار بين الضعفاء وسادتهم نقرؤه فيما يلي :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾(٤٧٨)

لقد سجل القرآن الكريم أن هؤلاء الأغنياء صرفهم الاستمتاع بنعيم الدنيا ، وماهم فيه من عُجب بأنفسهم وكبر ملأ شعاب قلوبهم ـ عن الاصغاء لكلمة الحق ـ بل كان همهم أن يستولوا غلى غيرهم يصرفونهم كيف يشاءون . . يوسوسون لهم بالشر ، ويزينون لهم الباطل ، ويغرونهم بالفساد . . وحين كشف الحجاب ووقع العذاب تبين زيف الكبراء وما أوقعوه من خداع بالضعفاء قال تعالى :

---

(٤٧٧) البقرة ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٤٧٨) سبأ ٣١ : ٣٣ .

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (٤٧٩)

لقد استطاع الكبراء أن يؤثروا فى المستضعفين بكلامهم المعسول ووعودهم الكاذبة ، وأن يغروهم بالمال والوعود حتى أطاعوهم ، وقد تحمل هؤلاء الكبراء مسئولية معارضة رسل الحق فى كل زمان ومكان . فكان لهم العقاب الأكبر . . قال تعالى :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (٤٨٠)

لقد غرت الدنيا هؤلاء الكبراء ، وظنوا أن ماهم فيه من نعمة إنما كان لميزة فيهم سوف تستمر معهم فى الآخرة بل إنهم شكوا فى أن تكون هناك آخرة أصلا . . ولقد قال صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره :

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ (٤٨١)

---

(٤٧٩) الصافات ٢٧ : ٣٣ .

(٤٨٠) سبأ ٣٤ : ٣٧ .

(٤٨١) الكهف ٣٦ .

وقد توهم هؤلاء الضعفاء أن الكبراء الذين خدعوهم يمكن أن يتحملوا عنهم نصيبا ، من العذاب الذى هم فيه . . ولم لا ؟ أليسوا هم الذين أضلوهم ؟ وهم يطلبون منهم ذلك فعلا ، ولكنه طلب لا يجد صدى ، ولا يمكن الاستجابة إليه . .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) ﴾ (٤٨٢)

لقد قاس هؤلاء قياسا باطلا ـ ظنوا أن حالهم فى الدنيا حينما كان هؤلاء الكبراء يتحملون مغارم أتباعهم التى تقضى عليهم نتيجة أعمالهم الاجرامية التى يسوقونهم إليها . . يمكن أن يكون فى الآخرة . . ولكن أنى هذا ؟ فلئن كان فى الدنيا زيف فكيف يكون ذلك فى الآخرة ؟

ويشتد ضيق الكفار بعضهم ببعض وهم يساقون الى جهنم ويتدافعون فيها فوجا اثر فوج حتى إذا دخلت أمة لعنت أختها . ولا تصدر من ألسنتهم إلا كلمات التحقير والضيق والكراهية التى يقولها كل فريق للآخر . . ويقول القرآن الكريم مصورا ذلك :

﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) ﴾ (٤٨٣)

---

(٤٨٢) غافر ٤٧ ، ٤٨ .

(٤٨٣) ص ٥٥ : ٦١ .

وييأس الكفار من أن يجدوا لهم طريقا الى النجاة أو الافلات من ذلك الجحيم السرمدى الخالد . . فينظرون الى مالك خازن النار نظرة استعطاف قائلين : يامالك هل فى الامكان أن يكون هناك نهاية لهذا العذاب ؟ أو هل فى الامكان أن تكون لنا نهاية تخلصنا من هذا العذاب ؟

ولكن مالكا يسد أمامهم طريق الأمل فيزدادون يأسا على يأسهم إنهم مخلدون فى العذاب قال تعالى :

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٤٨٤)

قال المفسرون : إن مالكا لم يرد عليهم فورا بل مكث ثمانين سنه لايجيبهم . . إنهم لم ينادوا مالكا إلا حين بلغ بهم اليـأس أقصاه ، بعد أن استغاثوا بخزنة النار من الملائكة أن يخففوا عنهم العذاب ولو يوما واحد . . ولكنهم لم يجدوا استجابة لذلك . . وقد حكى القرآن الكريم ذلك قائلا :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٤٨٥)

ولقد جرب أهل النار محاولة أخرى مع أهل الجنة ، ولكنها كانت محاولة فاشلة أيضا . هذه المحاولة سجلها القرآن الكريم أيضا فى قوله تعالى :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (٤٨٦)

---

(٤٨٤) الزخرف ٧٧ .

(٤٨٥) غافر ٤٩ ، ٥٠ .

(٤٨٦) الأعراف : ٥٠ ، ٥١ .

إنها محاورات تدل على شدة ما يعانيه هؤلاء الكفار من عذاب متجدد لا يفتر كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا العذاب .

وربما استعرض هؤلاء الكفار أحوالهم فى الدنيا ، وتذكروا هؤلاء الذين كانوا يسخرون منهم ويستهزئون بهم لأنهم اتبعوا دعوة الرسل الذين جاءوا اليهم .. أين هم الآن وما مصيرهم ؟

ويحكى القرآن الكريم لنا هذا المشهد قائلا :

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ ﴾(٤٨٧)

لقد طمس الله بصيرتهم وأعمى عيونهم فلم يدركوا أن هؤلاء كتب الله لهم السعادة ونجاهم من ذلك المصير السيء الذى وقعوا هم فيه ..

ولكن المؤمنين فى المقابل كشف الله لهم الحجب فرأوا هؤلاء الضالين وهم يصلون العذاب الشديد ، وذلك فى أثناء المحاورات الجميلة العذبة التى تدور بينهم فى الجنة وسط الرياض الناضرة والمناظر الساحرة والسعادة الغامرة ، وهم اخوان على سرر متقابلون .. فيقول أحدهم كما حكى لنا القرآن :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾(٤٨٨)

---

(٤٨٧) ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٤٨٨) الصافات ٥١ : ٦٠ .

شتان ما بين المصيرين . . . أما أحدهما فقد كفر فى الدنيا فلقى نار جهنم فى انتظاره يصلى عذابها الشديد ، وأما الآخر فقد آمن بالله ورسله فلقَّاه الله نضرة وسرورا ، وجزاه بإيمانه جنة وحريرا لا يرى فيها شمسا ولا زمهريرا .

وهناك محاورة جرت بين المؤمنين والكفار . حين دخل المؤمنون الجنة ونعموا بما أعطاهم الله من نعيم ودخل الكفار النار وذاقوا أشد العذاب ، وتسجل هذه المحاورة التى حكاها القرآن الكريم حال المؤمنين وماهم فيه من رضا ، وغبطة بمقامهم ، وسعادة بمصيرهم ، ولذة بما هم فيه من أنواع المتعة والجمال والراحة . وقد أرادوا فى هذه المحاورة أن يسجلوا على الكفار ضلالهم وغرورهم وتعاميهم عن الحق فقالوا فيما حكاه القرآن :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾(٤٨٩)

إن كلام أهل الجنة ، فى الجنة تمجيد وتسبيح لله وشكر له على ما أفاءه عليهم من نعمة الهداية التى أوصلتهم الى ذلك النعيم المقيم .

﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ ﴾(٤٩٠)

فتناديهم الملائكة أو يناديهم ربهم ـ جل وعلا ـ فيما حكاه القرآن الكريم بعد هذا القول منهم ـ

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ٤٩٠

أصحاب الأعراف

---

(٤٨٩) الأعراف ٤٤ ، ٤٥ .

(٤٩٠) الأعراف ٤٣ .

واذا كانت هناك محاورات تمت على النحو الذى وصفناه بين الكافرين والمؤمنين ، فهناك محاورة تمت بين هؤلاء جميعا وبين أصحاب الأعراف سجلها القرآن الكريم بقوله :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٤٩١)

ولتوضيح هذه المحاورة نوضح أولا معنى الأعراف ومن هم أصحابه . . ؟

ما الأعراف ؟

الأعراف جمع عُرف ـ بوزن قفل ـ ويطلق على أعالي الأشياء وأوائلها وكل مرتفع من الأرض وغيرها ، ومنه عرف الديك وعرف الفرس .

والمراد به هنا سور بين أهل الجنة وأهل النار . وهذا السور هو الذى أشار اليه الحق ـ سبحانه ـ فى قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾ (٤٩٢)

---

(٤٩١) الأعراف ٤٦ : ٤٩ .

(٤٩٢) الحديد ١٣ .

أما أصحاب الأعراف : فهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلم يستحقوا الجنة بالحسنات ولا النار بالسيئات ، فكانوا على ذلك الحجاب الحاجز بين الجنة والنار .

وقال بعضهم : انهم أهل الفترة ، أو هم مؤمنو الجن ، أو هم آخر من يفصل الله بينهم ، وربما كان القول الأول هو أعدل الأقوال ، وهو قول الجمهور .

وأصحاب الأعراف هؤلاء يعرفون كلا من المؤمنين والكافرين بسيماهم ، اى بعلامات فيهم . فسيما أهل الجنة بياض الوجوه والضحك والاستبشار ، كما قال تعالى فى حقهم :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾(٤٩٣)

وسيما أهل النار سواد الوجوه والكآبة والحزن كما قال تعالى :

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾(٤٩٤)

وقال فى حق هؤلاء وأولئك :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ٤٩٥

فحين يرى أصحاب الأعراف أهل الجنة يرحبون بهم ، قائلين : سلام عليكم ، وهى تحية أهل الجنة . وأما قولهم :

« لم يدخلوها وهم يطمعون »

فمعناه أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد وهم طامعون بفضل الله فى دخولها . .

---

(٤٩٣) عبس ٣٨ : ٣٩ .

(٤٩٤) عبس ٤٠ : ٤٢ .

(٤٩٥) آل عمران ١٠٦

وحين يرون أهل النار يدعون الله قائلين :

ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » .

وهذا هو الذى يرجح رأى الجمهور فى أن أهل الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . فهم يرجون الرحمة ويخشون العذاب . . فمن أجل ذلك يستعيذون من أن يكون مصيرهم مصير هؤلاء الكفار الذين استحقوا النار . .

وهم من أجل ذلك أيضا يبكتون المستكبرين الذين أذلوا الضعفاء ، وكانوا يسخرون من المؤمنين فى حياتهم مقسمين بأن هؤلاء لن يشموا رائحة الجنة ـ فهاهم الآن قد دخلوا الجنة ، ويبقى هؤلاء الكبراء يتلظون فى السعير . نعوذ بالله من سوء المصير . .

وبعد . فان حديث القرآن عن الجنة والنار لجدير بأن يتعظ به كل عاقل ، وأن يفكر فيه كل ضال مغرور فيعتبر ، ويحاول أن يبتعد عن الطريق الموصلة الى النار ، وأن يقترب من الطريق الموصلة الى الجنة . .

كما أنه يثير فى النفس الخوف من النار والرهبة من عذابها ، بقدر مايثير فى النفس . . الشوق الى الجنة والعمل على الفوز بها وسلوك الطرق المؤدية لها . .

ولم يترك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الناس هملا دون أن يضعا أمامهم المنهج السليم الموصل الى السعادة الحقيقية والنعيم السرمدى ، والمنجى من المصير السىء والشقاء الأبدى ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى ذلك « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتى » وقال تعالى فى حق القرآن :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ ﴾(٤٩٦)

ولنعد الآن الى وصل ماانقطع من حديث حول معاندة الكفار للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحديهم له ، وإيذائهم الشديد لمن آمن معه . حتى وصل الأمر الى حد حصار فرضه المشركون على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أسلم معه وناصره فى شعب أبي طالب ، وتحرير وثيقة ظالمة بذلك وايداعها جوف الكعبة . .

فإلى الحديث عن هذه الصحيفة الظالمة . .



---

(٤٩٦) الاسراء ٩ ، ١٠ .

فهرس القصص القرآني



تم بحمد الله المجلد الثامن

ويليه بتوفيقه تعالى المجلد التاسع

وأوله «الصـــحيفة الظـــالمة»

سلسلة القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد التاسع

سلسلة

القصص القرآني



دكتور

حمزة النشرتي

عبد الحفيظ فرغلي   د. عبد الحميد مصطفى

المجلد التاسع


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الصَّحِيفَةُ الظالمة

- تفكير في المقاطعة .
- من الأسباب الداعية للمقاطعة .
- الوفد الحبشي .
- إسلام ضماد الأزدي .
- كتابة الصحيفة وإيداعها جوف الكعبة .
- النبي يدعو النجاشي إلى الإسلام .
- الهجرة الثانية للحبشة .
- دخول الشعب .
- القرآن يقرع الكفار .
- ما نزل في شأن النضر بن الحارث .
- عبد الله بن الزبعرى وموقفه من النبي .
- ما نزل في شأن الأخنس بن شريق .
- أبو جهل يستهزئ .
- قصة الغرانيق ونقدها .
- نقض الصحيفة ، ووجه الإعجاز في تآكلها .
- تأملات في أحداث المقاطعة .

الصحيفة الظالمة

لما رأت قريش أن أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أخذ يستقر ويثبت . . وأن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وجدوا هناك مأمنا ومستقرا ، وأن أحد صناديدهم الذى كانوا يعتدون به ويعتبرونه خصماً ألد وهو عمر بن الخطاب قد أعلن إسلامه بعد أن سبقه حمزة إلى ذلك ، بل ووقف فى معسكر محمد متحديا لهم ، مشجعا غيره من المترددين على أن يتخطى حاجز الخوف فيقول فى صراحة وقوة : لا إله إلا الله محمد رسول الله . . وأصبح هو وحمزة بن عبد المطلب يقفان بالمرصاد لكل من تسول له نفسه من المعارضين للدعوة أن ينال منها أو يهاجمها . .

لما رأت قريش ذلك ازداد غيظها ، واشتد قلقها ، وعظم خوفها من أن يستفحل خطر هذه الدعوة عليهم فتزلزل الأرض تحت أقدامهم ، وتذهب بمكانتهم إلى الأبد . . فأجمعوا أمرهم على أن يكتبوا فيما بينهم كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب الذين يدافعون عن الرسول : ـ فلا ينكحون إليهم ولا ينكحونهم ولا يبيعون لهم شيئا ولا يبتاعون منهم . .

وكان من الأسباب التى جعلتهم يتعاقدون على ذلك ما رأوه من أن الإسلام أخذ أمره يشيع لا فى القبائل العربية فحسب ، بل تعدى ذلك إلى خارج البلاد . حيث بدأ الأحباش يعرفونه ويقبلون عليه ، ويتعرفون أمره ، وتأتى بعض الوفود منهم لمقابلة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاستماع إليه . .

من الوفود الحبشية

ذكر البيهقى فى كتابه قال :

. . قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بمكة عشرون رجلا من

النصارى . وذلك حين ظهر خبره فى الحبشة ، فوجدوه فى المجلس عند الكعبة فكلموه وسألوه ، ورجال قريش فى أنديتهم حول الكعبة .

فلما فرغوا من مسألتهم وأجابهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أرادوا ، دعاهم رسول الله إلى الله ـ عز وجل ـ وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره . فلما قاموا من عنده اعترضهم أبوجهل فى نفر من قريش . وقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، فتأتونهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ؟ ما نعلم ركبا أحمق منكم ـ

فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نألو أنفسنا خيرا[1] .. وفى هذا نزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وقال بعض العلماء : إن هؤلاء الوفد كانوا من نصارى نجران .. ولئن كانوا من نجران فقد بلغهم أمر الإسلام عن طريق الحبشة لما كان من صلة

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى جـ٢ ص٣٠٦

(٢) القصص ٥٢ : ٥٥

بين نصارى نجران وأوليائهم فى الحبشة . وقد سرت النصرانية من الحبشة إلى نجران أول ما سرت ، ومن أجل مناصرتها فى اليمن كانت غزوة أبرهة التى استمرت حينا من الزمن فيها . .

نعود فنقول : إن هذا كله كان من أسباب زيادة حقد القرشيين على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو لم يكتف ـ بأن يعلن دعوته بين أهله فى مكة بل تعدى ذلك حدود مكة وما وراءها إلى اليمن أو إلى الحبشة . .

وحقا لقد استوثقت العلاقة بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين النجاشى حتى لقد قيل : إن النجاشى قد أصبح مسلما ، إن لم يكن علنا فسراً . وإن لم يكن مؤمنا بلسانه فهو مؤمن بقلبه . كما ستبين ذلك الأحداث الآتية بعد .

وما ظنك برجل وقف فى طريق قساوسته وأعلن رأيه صريحا فيما قاله القرآن الكريم عن عيسى بن مريم من أن ما قاله القرآن هو الحق . وقد سبقت الاشارة إلى ذلك .

ويذكر برهان الدين الحلبى أن هذا الوفد من نجران قد سمعوا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسلمين فى أثناء هجرتهم إلى الحبشة . وهذا الوفد غير الوفد الذى جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نجران بعد الهجرة ، وسيأتى خبره إن شاء الله تعالى ـ

ولا ينبغى ترك هذا الموقف دون أن نشير إلى خبر ـ لعله من أصعب ما مر على الكفار وهو خبر إسلام ضماد الأزدى .

إسلام ضماد الأزدى .

روى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قدم ضماد الأزدى ـ وهو من

---

(٣) السيرة الحلبية جـ٢ ص ٣٨ ـ أسد الغابة جـ٣ ص ٢٤

أزد شنوءة ـ مكة ـ وكان يرقى من به لمة من الجن ـ كما قيل ـ فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمداً لمجنون .

فقال ضماد : لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدى .

قال ضماد : فأتيته ، فقلت : يامحمد ، إنى أرقى من مس الجن . وإن الله يشفى على يدى من شاء فهل لك ؟

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ـ وربما قرأ عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن »

فقال ضماد : أعد علىَّ كلماتك هذه . فأعادها عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث مرات . .

فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هذه . هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه ، وقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وعلى قومك ؟ قال : وعلى قومى .

عود إلى ذكر الصحيفة

لقد اجتمع رأى قريش ـ إذن ـ على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب وإخراجهم من مكة إلى شعب أبى طالب .

لقد اعتقدوا أن هذا الدين الجديد الذى جاء به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أفسد عليهم أبناءهم ونساءهم .

والحق أن هذا الدين قد أخذ يسرى سريان الماء فى العود ، وكان يستجيب له كل من فكر بعقله . . . . وأقبل عليه الضعفاء والفقراء لأنه يحميهم من الظلم ، كما مال إليه كل ذى فطرة لم تفسدها أوضار الجاهلية .

وهذا ما جعل الكفار يقولون : لقد أفسد علينا محمد أبناءنا وعبيدنا ولا مخلص لهم فى رأيهم إلا بعزلة ومن معه ، ما داموا قد فشلوا فى قتله أو منعه من الدعوة إلى دينه .

وقد مر بنا آنفا أنهم فاوضوا عمه فى أن يعطوه بدلا من محمد عمارة بن الوليد فأبى ، وعرضوا عليه أن يدفعوا له دية مضاعفة ويقتلوه فأبى ، ولم يأب أبو طالب وحده ، ولكن أبى بنو هاشم كلهم ذلك العرض السخيف .

وهل يقبل عاقل شريف مثل هذا العرض ؟

فلتكن المقاطعة إذن . . هذا ما قررته قريش ـ فليعزل هؤلاء فى شعب أبى طالب خارج مكة وليبعد الهاشميون وبنو المطلب عن أسواق قريش وتجارتهم والإصهار إليهم

لقد قال القرشيون بعضهم لبعض محذرين : لا تأخذكم بهم رأفة أبدا . .

ولم يكتفوا بمجرد هذا التعاقد فيما بينهم شفويا بل حرروه عقدا مكتوبا موثقا موقعا عليه منهم .

ولم يكتفوا بأن يكون وثيقة مكتوبة بل أرادوا أن تكون لها قداستها فأودعوها جوف الكعبة ـ وكأنهم أرادوا أن يشهدوا الله على حربه ومنابذته والوقوف فى طريق دينه الذى أرسل به رسوله . . وأنَّى لهم أن يفطنوا إلى ذلك ؟

كان اجتماع القرشيين الذى أسفر عن هذا التعاقد فى خيف بنى كنانة بالأبطح ويسمى « محصبا » وهو بأعلى مكة عند المقابر .

وتحمل بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم هذا الأمر ، وكأنهم قبلوه تحديا ، ولم يشذ على إجماعهم إلا أبولهب فإنه ظاهر قريشا على قومه ، وكان

يفخر بذلك ، بل كان خصما شديدا على قومه ، فقد ذكر السهيلى أن العير إذا قدمت مكة وجاء أحد من بنى هاشم ليشترى شيئا من الطعام يقتاته كان أبو لهب يقول للتجار يامعشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئا مما معكم ، فيزيدون عليهم فى ثمن السلعة أضعافا ، حتى يرجع الرجل إلى أطفاله وهم يتضورون من الجوع وليس فى يده شيء يعللهم به ثم يغدو التجار على أبى لهب فيربحهم ..

ولما رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أصاب أصحابه من المسلمين من جهد طلب أن يخرجوا إلى الحبشة فيلحقوا بأصحابهم الذين سبقوهم إلى هناك ..

كان دخول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشعب فى هلال المحرم ستة سبع من البعثة . وانخزل بنو عبد شمس ونوفل عن بنى عمومتهم بنى هاشم وبنى المطلب ، فلم يدخلوا معهم فى الشعب ، بل لم يظاهروهم فى موقفهم ضد بقية قبائل قريش التى أجمعت على حربهم وتجويعهم وأحكمت الحصار حولهم .. حتى قال أبو طالب :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شرٍّ عاجلا غير آجل

وقال أيضا :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا وتيما ومخزوما عقوقا ومأثما

النبى يدعو النجاشى إلى الاسلام

لقد أحب النجاشى الإسلام وأكرم المسلمين هناك ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أرسل إليه كتابا يدعوه فيه إلى الاسلام ، وجاء فى هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة . سلام عليك . فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بى وبالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وقد بعثت إليكم ابن عمى ومعه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى والسلام »

وقد رد النجاشى على هذه الرسالة بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن أبجر .

سلام عليك يانبى الله ورحمة الله وبركاته . لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الحق . فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى . فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وعرفت أنك رسول رب العالمين ، وإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يارسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق (٤)

وهذا الكتاب ان صح يشهد أن النجاشى أسلم ، ويدل على ذلك أنه حين مات صلى عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - صلاة الغائب . والله أعلم

---

(٤) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٢ ص ٣٠٩

الهجرة الثانية

أمر النبى - ﷺ - المسلمين بالهجرة الى الحبشة . فهناك ملك مؤمن يأمنون فى جانبه ، ويتركون هذا الجوار الذى وسعهم ظلما وعسفا وتعذيبا .

على أن معاملة النجاشى للمسلمين لم تقابل من الأحباش بالرضا والتسليم ، ولكنهم خرجوا عليه وثاروا ضده وأجمعوا على حربه . فاستعدلهم .

ولكنه وفاءً منه لضيوفه من المسلمين لم يشأ أن يعرضهم للأذى وقد هاجروا إليه فرارا من الأذى . فأرسل إلى جعفر بن أبى طالب وأصحابه ، فهيأ لهم سفنا وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فاثبتوا . ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه : أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله وروحه ، وكلمته القاها إلى مريم ، ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن ، وخرج إلى أعدائه ، وقد صُفُّوا له . فقال : يامعشر الحبشة ، ألست أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتى فيكم ؟ قالوا : خير سيرة - قال : فمالكم ؟ قالوا : فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد . قال : فما تقولون أنتم فى عيسى ؟

قالوا : نقول : هو ابن الله .

فقال النجاشى وقد وضع يده على صدره قِبَلَ قُبائه - : وأنا أشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا شيئا ، وهو يعنى ماكتب . فرضوا وانصرفوا . واستقر المسلمون آمنين وقد استقر الملك للنجاشى . .

اضطرابات فى الحبشة

ولم يخل الأمر من اضطرابات فى الحبشة ولكنها لم تمس المسلمين . . .

غير أنهم كانوا على نقاء ضمائرهم ووفائهم لمن أحسن إليهم يتمنون للنجاشى السلامة من أعدائه ، وتقص علينا أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها قصة منازعة النجاشى ملكه فتقول .. فيما يرويه ابن هشام فى سيرته :

قالت : وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار ، فوالله إنا لعلى ذلك ، إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه ملكه .

قالت : فوالله ماعلمنا حزنا قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك ، تخوفا من أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى - فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ماكان النجاشى يعرف من ذلك .. .

وسار إليه النجاشى وبينهما عرض النيل . فقال أصحاب رسول الله - ﷺ - من الذى يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخير ؟

فقال الزبير بن العوام : أنا . وكان من أحدث القوم سنا .

فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها ، حتى خرج إلى ناحية ملتقى القوم ....

وأخذنا ندعو الله - تعالى - للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين فى بلاده ..

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير وهو يسعى ، فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشى وأهلك الله عدوه ، ومكّن له فى بلاده - فوالله مافرحنا فرحة قط مثلها[٥] ...

ولعلنا نتذكر الكلمة التى قالها النجاشى لأساقفته حين ذهب إليه عمرو بن العاص سفيرا من قريش ليردَّ معه المسلمين إليهم ، وأرسلوا معه بعض الهدايا التى أغرقوا بها حاشيته وأطرفوا بها الملك ..

---

(٥) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٨

إن النجاشي بعد المحاورة التي جرت بينه وبين المسلمين وتبين منهم حقيقة الدين الذى آمنوا به . رد الهدايا على عمرو وقال : ماأخذ الله منى الرشوة حين رد علىَّ ملكى . .

ولعله من المفيد أن نذكر هذه القصة التي أوردها الرواة فى مختلف كتبهم ، ورووها عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها . . قالوا :

كان أبو النجاشي ملكا على الحبشة ، ولم يكن له سوى ولد واحد هو النجاشي وكان أخوه ذا عقب كثير ، كان له اثنا عشر ولدا . .

فقال الأحباش : إن الملك ليس له سوى ولد واحد ، فإن مات تولى ابنه بعده ، وربما أدى هذا إلى ضعف الملك وهوان أمر الحبشة ، فزينوا للأخ أن يقتل أخاه ويتولى الأمر من بعده ، فإن له ذرية كثيرة يصلح بها أمر الملك ويقوى بها شأن الحبشة . ومازالوا به حتى وثب على أخيه فقتله وتولى الملك . .

ونشأ النجاشي مع عمه ، وكان لبيبا حازما حكيما ، فاستولى على قلب عمه ، حتى لم يعد يبرم أمرا إلا بمشورته .

ونظرت الحبشة فإذا بالذى كانت تحذره قد وقع . وعلمت أنه لابد أن يوصى له عمه بالأمر فيملك ، ولئن ملك ليثأرن لأبيه ، ولينتقمن له أشد انتقام .

وذهب أولو الرأى لعم النجاشي يقولون : إما أن تقتل هذا الفتى أو تنفيه من بلادنا فإنا نخافه على أنفسنا .

فقال الملك : ويلكم ، تقتلون أباه بالأمس ، وتقتلونه هو اليوم ؟ ؟ إن خروجه من بين أظهركم أهون .

واحتالوا لاخراجه ، فذهبوا به إلى السوق فباعوه لتاجر بمائة درهم ، وحمله فى سفينة له استعدادا للانطلاق به . .

وفى مساء ذلك اليوم نفسه هاجت سحابة من سحائب الخريف ، فخرج ملك الحبشة يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته .

وفزع الأحباش إلى أولاده يختارون منهم من يخلفه فى الملك فإذا كلهم حمقى لايصلحون للرياسة أو السياسة . فاختلط على الاحباش أمرهم ، واضطرب عليهم ملكهم .

فلما اشتد بهم الضيق قال بعضهم لبعض : اعلموا والله إن ملككم الذى يعودبكم إلى حسن السيرة ويأخذ بأيديكم الى طريق النجاة هو ذلك الذى بعتموه بالثمن البخس دراهم معدودة وكنتم كارهين له .. فإن كان لكم فى بلدكم خير فردوا الملك لصحابه لأن الله يؤتى الملك من يشاء .

وخرجوا يبحثون عن الرجل الذى اشتراه حتى عثروا عليه بعد حين ، فأخذوه منه وأجلسوه على العرش ، وعقدوا فوق رأسه التاج .. ولم يردوا على التاجر الثمن ..

وجاء التاجر يشكو هؤلاء المغتصبين الذين اغتصبوا عبده دون أن يردوا عليه ثمنه ..

ورفع أمرهم إلى الملك وقال : أيها الملك ابتعت غلاما من قوم بالسوق بمائة درهم ، فأسلموا إلى غلامى وأخذوا دراهمى ، حتى إذا سرت به أدركونى فأخذوا الغلام ولم يردوا الدراهم .

فقال النجاشى : لتعطُنَّ الدراهم أو ليضعن الغلام يده فى يده فليذهبن به حيث شاء ..

فرضخ القوم حينذاك ، لأنهم رأوا علامات العزم على التنفيذ فى وجه النجاشى وقالوا : بل نعطيه دراهمه ..

قالت عائشة رضى الله عنها : فلذلك يقول : ماأخذ الله منى رشوة حين

رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وماأطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه . وكان ذلك أول ماخبر من صلابته فى دينه وعدله فى حكمه[٦] . .

وأى عدل أعظم من أن يقبل طائعا أن يسلم نفسه للتاجر الذى اشتراه طالما أن البائعين له قد جحدوا حقه ؟

فإذا كان هذا الملك فى هذه الصورة المثالية من العدل فما للمسلمين لا يأمنون فى جواره ؟ وماللنبى - ﷺ - لايأذن لبقية أصحابه المستضعفين بالهجرة إليه فيلحقوا بأصحابهم هناك . ويعيشوا فى أمن معهم ؟

لقد شاء الله أن تكون الحبشة مأوى آمنا للمسلمين يفدون إليها مختارين ، وربما وفد إليها بعضهم مضطرين . .

ذلك أن أبا موسى الأشعرى أراد أن يهاجر إلى المدينة ليلحق بالنبى - ﷺ - فيها بعد أن بلغته هجرته اليها وكان معه خمسون رجلاً من قومه . . . ولكن الظروف اضطرتهم إلى تغيير وجهتهم إلى الحبشة .

وهناك وجدوا جعفرا وأصحابه ، فأمرهم جعفر بالاقامة فاقاموا ، حتى قدموا على النبى - ﷺ - وهو فى فتح خيبر . .

النبى فى شعب أبى طالب

وتمسك القرشيون بصحيفتهم الظالمة القاطعة . ويقال : إن الذى كتب نصوصها منصور بن عكرمة ، فشلت يده . وقيل : بل الذى كتبها بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى - كما قال بذلك ابن سعد فى طبقاته فشلت يده . ويكفى أن اسمه بغيض . .

---

(٦) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٩

ولم يكن انحياز كثير من بنى هاشم وبنى المطلب إلى النبى - ﷺ - حبا فى الاسلام ، ولكنه حمية وعصبية ، وأقاموا فى ذلك الشعب سنتين أو ثلاثا ، واشتد بهم الجهد ، فقد انقطعت عنهم الميرة والطعام إلا ماكان يجىء إليهم سرا من ذوى المروءة والرحمة من ذويهم . . ومن هؤلاء الذين كانوا يصلونهم حكيم بن حزام ، وهشام بن عمرو العامرى ، وكان أكثر الناس صلة لبنى هاشم . .

وكان أبو طالب بارا بالنبى - ﷺ - حريصا عليه ضنينا به ، فكان اذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله - ﷺ - فاضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد به مكرا أو اغتيالا .

فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه فاضطجع على فراش النبى - ﷺ - وأمر رسول الله - ﷺ - أن ينتقل إلى بعض فرشهم فينام عليها . .

وكان الذى يتولى أمر إحكام الحصار على بنى هاشم أبو جهل بن هشام ، وكان يراقب تصرفات بعض الموالين للنبى ومن معه حتى لايمدوهم بأى شىء .

ويقص علينا ابن هشام طرفا مما كان يحدث بين المشركين أنفسهم من مخاصمة فى شأن هذا الحصار الظالم .

قال : لقى أبو جهل بن هشام حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ، ومعه غلام يحمل قمحا يريد به عمته خديجة - رضى الله عنها - وهى عند رسول الله - ﷺ - ومعه فى الشعب ، فتعلق أبو جهل به ، وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . .

فجاء أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد فقال لأبي جهل : مالك وله ؟

فقال : يحمل الطعام إلى بني هاشم .

فقال أبو البختري : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل .

فأبى أبو جهل ، حتى نال أحدهما من صاحبه . فأخذ أبو البختري لحى بعير فضربه به فشجه ووطئه وطئا شديدا ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك . . . . وكان الكفار يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - وأصحابه فيشتموا بهم .

القرآن يقرع الكفار

وكان رسول الله - ﷺ - لايكف عن التضرع الى الله أن ينقذه من هذه المحنة هو ومن معه . .

وفي الوقت نفسه كان لايكف عن الدعوة إلى الله ليلا ونهارا سرا وجهرا لايخشى أحدا إلا الله - تعالى .

وكان القرآن الكريم ينزل فيجد فيه النبي - ﷺ - البلسم الشافي والنور الهادي ، كما كان الكفار يجدون فيه السلاح البتار الذي يقضي على مؤامرتهم ودسائسهم ومكائدهم وسخريتهم وتحديهم للدعوة . .

كانت الآية تنزل فتسم الكافر بميسم الذل والهوان ، ويتلقفها الناس يقرءونها فسرعان ما تنتقل من فم إلى فم ومن مكان إلى مكان ، حتى تتردد في الآفاق وتملأ الوديان . .

حين اشتد أذى أبي لهب وامرأته للنبي - ﷺ - أنزل اله سورة المسد وهي :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ⑤ ﴾ (٧)

فكانت هذه الآيات أقسى عقاب نزل عليه هو وزوجته .. حتى فقدت زوجته صوابها فكانت تذهب الى الرسول - ﷺ - وهو فى المسجد وبيدها حجر تريد أن تلقيه عليه فيأخذ الله على بصرها فلا تراه .. وكانت تقول ردا على مانزل من القرآن

مذمما عصينا .. وأمره أبينا .. ودينه قلينا - أى كرهنا ..

وكان النبى - ﷺ - يقول : ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذى قريش ؟ يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد ؟

مانزل فى شأن النضر بن الحارث

ومامن كافر من الذين اشتدت عداوتهم للرسول - ﷺ - إلا نزلت فيه آيات تفضحه وتخزيه .. ومن أمثلة ذلك مايلى :

كان النضر بن الحارث يجلس فى نوادى قريش ويقول لهم : إن محمدا يقرأ عليكم كلاما ويذكر لكم أساطير اكتتبها وأنا أذكر لكم مثل ذلك ، ثم يحدثهم عن كسرى وملوك فارس . ويقول : والله مامحمد بأحسن حديثا منى . فأنزل الله - تعالى - فيه قوله :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥ ﴾ (٨)

ونزل فيه أيضاً قوله - تعالى -

---

(٧) سورة المسد

(٨) الفرقان ٥ : ٦

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ (٩)

كما نزل فيه قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ (١٠)

وكان النضر من أشد المعاندين لرسول الله - ﷺ - يسلك فى ذلك طرقا كثيرة ، وكان كثيرا مايتعرض لرسول الله - ﷺ - بالمحاجة والمجادلة .

عبد الله بن الزبعرى وموقفه من النبى - ﷺ -

وفى يوم جلس النبى - ﷺ - الى بعض المشركين ففى محاولة لانقاذهم وهدايتهم ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسولُ الله - ﷺ - حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (١١)

وانصرف النبى - ﷺ - من المجلس ، وجاء بعد انصرافه عبد الله بن الزبعرى وهو أحد شعراء قريش . فجلس معهم فقال الوليد بن المغيرة معلقا على ماحدث من حوار - وكأنه قد أراد أن يغرى هذا الشاعر - بالحديث

---

(٩) الجاثية ٧ : ٨

(١٠) لقمان ٥ : ٧

(١١) الأنبياء ٩٨ : ١٠٠

ويثيره ضد النبى - ﷺ - :

والله ماقام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وماقعد - وقد زعم أنًا ومانعبد من آلهتنا حصب جهنم .. ثم قص الوليد قصة ماحدث ، وبيَّن عجز النضر عن الرد على النبى - ﷺ -

فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدت محمدا لأسألنه : أكل مايعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟

فنحن نبعد الملائكة ، واليهود يعبدون عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، فهل هؤلاء فى النار ؟

فعجب الوليد بن المغيرة من هذا المنطق وحجته ، وعلم هو ومن كان معه أنهم استطاعوا أن ينالوا من محمد ويغلبوه ويحاجوه

وتطوع من أبلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عَبَده إن الملائكة وعزيرا والمسيح لم يأمروا أحدا بعبادتهم ، ولكن الشياطين هى التى أوحت إلى هؤلاء الأقوام بذلك ثم أنزل الله - تعالى قوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١٢)

إن الملائكة لم تَدْعُ هؤلاء أن يعبدوها .. كما أن عزيرا لم يَدْعُ اليهود إلى عبادته ، والمسيح لم يطلب من النصارى أن يجعلوه إلها ..

---

(١٢) الأنبياء ١٠١ : ١٠٣

لقد افترى كل هؤلاء وضلوا ضلالا بعيدا ..

وقد عبد بعض المشركين الملائكة زاعمين أنها بنات الله - فنفى القرآن الكريم ذلك عنها ، وأثبت أن الملائكة عباد لله وأن الله لا ولد له - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾ (١٣)

وحكى القرآن الكريم قصة فرح المشركين بحجة ابن الزبعرى التى ظن أنه بها يخصم محمدا فقد قالوا : كيف يرفع محمد من شأن عيسى ثم يقذف به فى النار مع من يعبده ؟ فقال الله تعالى :

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ (١٤)

ومعنى قوله : يصدون : أى يضجون فرحا .. أى أنهم وجدوها فرصة سانحة لهزيمة النبي - ﷺ - وما علموا أن عيسى - عليه السلام - برىء ممن

---

(١٣) الأنبياء ٢٦ : ٢٩

(١٤) الزخرف ٥٧ : ٦١

اتخذوه إلها . . وما قال لهم يوما أنا إله بل قال : أنا عبد الله ورسوله . . وقد قرر القرآن الكريم ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١٥)

لقد كان القرآن يسجل ما يجرى من أحداث ، وكان يحصى على الكافرين أنفاسهم وما يجول فى خواطرهم ويتردد فى صدورهم . يرصده أولا بأول ثم ينزله الله آيات بينات تقرعهم وتلاحقهم وتفضح ضلالهم . . بل وتخزيهم وتسمهم بميسم عار أبدى لايستطيعون منه فكاكا . .

ما نزل فى شأن الأخنس بن شريق

كان الأخنس بن شريق من ألد المشركين الذين يؤذون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان الناس يعتقدون أنه من أشراف العرب وأعاظمهم الذين لايجرؤ أحد على مهاجمتهم فلما كثر لجاجه ومخاصمته للنبى ـ ﷺ ـ نزل فيه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (١٦)

---

(١٥) المائدة ١١٦ : ١١٧

(١٦) القلم ١٠ : ١٣

فلما نزلت هذه الآيات تزلزلت الأرض تحت أقدام الأخنس ، فقد علم الناس أنه قد امتهن واحتقر وظهر على حقيقته بتلك الأوصاف القوية العنيفة ، لأن معنى « زنيم » أنه لصيق فى القوم وليس منهم .. وبعد أن كان يتعالى برأسه كبرا ويشمخ بأنفه ، إذ به يمشى منكس الرأس ذلا وخزيا .. هذا ما يراه بعض العلماء فى شأن من نزلت فيه تلك الآيات ...

وقال آخرون : إن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة .

وقيل فى تفسير الزنيم أقوال أخرى ، وهى لاتخرج عن صفات الذم التى لايحمد صاحبها . وأيا كان من نزلت الآيات فى حقه فهى وصمة عار له ، ما زالت تلاحقه فى حياته وبعد مماته والى أن تقوم الساعة ..

أبو جهل يستهزىء

حين نزل قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١٧)

قال أبو جهل : يا معشر قريش ، هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟

قالوا : لا .

قال : عجوة يثرب بالزبد . والله لئن استمكنا منها لنتزقمها تزقما . ـ حقا ما أجهلك يا أبا جهل ـ وهنيئا لك هذا الطعام الذى نزل فيه قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك :

---

(١٧) الواقعة ٥١ : ٥٣

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى
ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ
﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١٨)

لقد كانت هذه الآيات نارا كاوية على رأس أبي جهل ـ لعنه الله ـ فطالما أذى النبى ﷺ ـ بلسانه وفعله ، وطالما شجع السفهاء على النيل من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . وهو يزعم أنه سيد القوم وعظيمهم والكريم المقدم فيهم ، فقال له القرآن الكريم على سبيل السخرية والاستهزاء :

« ذق إنك أنت العزيز الكريم »

حكى القرطبى فى مناسبة نزول هذه الآيات عن قتادة قوله : قال أبو جهل ما فيها ـ أى مكة ـ أعز منى ولا أكرم فنزل قوله :

« ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

وقال عكرمة : التقى النبى ـ ﷺ ـ وأبو جهل ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : إن الله أمرنى أن أقول لك

« أولى لك فأولىٰ »

ـ وهى عبارة تقال فى التهديد ـ فقال أبو جهل : بأى شيء تهددنى ؟ والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا ، إنى لمن أعز هذا الوادى وأكرمه على قومه ، فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية . .

إن مفهوم « ذق إنك أنت العزيز الكريم »

---

(١٨) الدخان ٤٣ : ٥٠

أى أنت الذليل المهان . .

وهذا أسلوب يعرفه العرب ويستعملونه كثيرا ، يأتون بعبارات مدح لمن لايستحقه تهكما به وسخرية منه . ومثله قول الشاعر « الحطيئة »

دع المكـــارم لا ترحـــل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فوصفه بالطاعم الكاسى على أنه مطعوم ومكسو . وضع اسم الفاعل موضع اسم المفعول سخرية منه واستهزاء به .

قصة الغرانيق

والاستطراد حول موقف الكفار ومناقشاتهم للنبى ﷺ ـ يقتضينا أن نشير إلى قصة الغرانيق التى ذكرها بعض المفسرين . . ثم التعليق عليها بما يليق بقداسة القرآن الكريم وعصمة النبى ﷺ ـ وهى لاتخرج بنا عن محور الأحداث التى نحن بصددها ـ وهى الحصار وهجرة الحبشة وتحدى الكفار للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقصة ذلك أن المهاجرين فى الحبشة نما إلى علمهم أن المشركين قد أسلموا بأسرهم فى مكة ، وصلوا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسجدوا معه ، فعادوا سراعا إلى مكة ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة فسألوهم عن قريش ، فقالوا : ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم عاد فشتم آلهتهم ، فعادوا كما كانوا . .

فتشاور القوم فى الرجوع إلى الحبشة ، ثم قالوا : قد بلغنا مكة ، فندخل لننظر ما فيه قريش ، ونرى أهلنا ، ثم نرجع .

فدخلوا مكة ، ولم يدخل واحد منهم إلا بجوار . . . غير أن عبد الله بن مسعود ، لم يدخل معهم ، بل مكث يسيرا ثم رجع إلى الحبشة .

ودخل عثمان بن مظعون فى جوار الوليد بن المغيرة . فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين وهو آمن ، رد عليه جواره .

فبينما هو فى مجلس لقريش ، جاء لبيد بن ربيعة قبل إسلامه ، فقعد ينشدهم من شعره ، فقال :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ..

فقال عثمان : صدقت .

فقال لبيد : وكل نعيم لامحالة زائل .

فقال عثمان : كذبت . نعيم الجنة لايزول .

فقال لبيد : متى كان يؤذى جليسكم يا معشر قريش ؟

فقام رجل منهم فلطم عثمان لطمة اخضرت منها عينه ، فلامه الوليد على رد جواره ، وقال له : قد كنت فى ذمة منيعة فرددتها .

فقال عثمان : والله إن عينى الأخرى إلى ما أصاب أختها فى الله لفقيرة .

فقال له الوليد : فعد إلى جوارك .

فقال عثمان : بل أرضى بجوار الله ..[19]

ولنعد إلى بيان ما قاله ركب كنانة من أن محمداً ذكر آلهة قريش بخير ..

فهل حقا حدث ذلك ؟

قال بعض المفسرين :

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ قوله ـ تعالى ـ

والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . إن هو الا وحى يوحى .. »

---

(١٩) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٨٠

حتى بلغ إلى قوله ـ تعالى ـ

« أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى »

قال هؤلاء المفسرون : إن الشيطان عندما وصل الرسول ﷺ فى قراءته إلى هذه الآية ـ قرأ محاكيا صوت النبى ـ ﷺ ـ قائلا :

« تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى »

واستمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القراءة حتى بلغ نهاية السورة ، فسجد سجدة التلاوة . . وسجد معه المسلمون والمشركون الذين كانوا يسمعون هذه القراءة . ما عدا أمية بن خلف فإنه أخذ قبضة من تراب ورفعها الى جبهته .

لقد ظن المشركون أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر هذه الآلهة بخير ، فسروا وفرحوا وسجدوا معه . . ثم قالوا : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فأما إذ جعلت لها نصيبا فنحن معك . .

لقد توهموا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى قرأ تلك العبارات السابقة ضمن ما قرأ . .

ولكن النبى ﷺ ـ لم يقرأ على الاطلاق تلك العبارة التى أفرحتهم ، وهى قولهم : تلك الغرانيق العلا . . وإن شفاعتهن لترتجى » . . ولهذا عظم عليه الأمر ودخله شيء من الهم والضيق حتى لزم البيت . قالوا : فنزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢٠)

قال هؤلاء المفسرون : إن تمنى بمعنى قرأ . . أى إذا قرأ ألقى الشيطان فى قراءته . . ومعنى كلامهم هذا أن الشيطان ألقى هذه العبارة فى نفس النبى ﷺ فقرأها

مناقشة هذه القصة

وقد ناقش المحققون من العلماء هذه القصة ، وتعقبوها بما فندها وأبطل وقوعها لأنها تتنافى مع إحكام القرآن وعصمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ إن هذه القصة بعيدة كل البعد ـ وهى لاتجوز على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو المعصوم فى التبليغ . .

وقال : الأحاديث المروية فى ذلك ليس منها شىء يصح وكذلك قال غيره من المحققين . . .

إن حجة المفسرين الذين جوزوا هذه القصة هى تلك الآيات التى نزلت فى سورة الحج ، أى قوله تعالى « وما أرسلناك من قبلك من رسول ولا نبى

---

(٢٠) الحج ٥٢ : ٥٤

إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته . . » على أن تمنى معناها قرأ . .
وقد ضيق هؤلاء المفسرون واسعا . فإن تمنى لايقتصر معناها على قرأ ،
ولكن التمنى هو ما يحدث به الانسان نفسه ويتمناه . .

وهذا تفسير أشار إليه بعض العلماء من أمثال ابن عباس فقد نقله عنه على بن أبى طلحة . قال : إن قوله تعالى
« إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته »

أى إذا حدَّث ـ أى حدث نفسه ـ ألقى الشيطان فى حديثه . .
فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، أى يبطل ما يلقى الشيطان . .
قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية وأعلاه ، وقد قال أحمد بن حنبل : بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة لو رحل فيها أحد إلى مصر قاصدا ـ ما كان كثيرا . يعنى بذلك الصحيفة التى فيها تفسير ابن عباس المشار اليه . . والمعنى على هذا التفسير : ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا حدث نفسه تمنى هداية قومه ، وربما دار فى نفسه أن يسأل الله تعالى أن يزداد مال المسلمين ويتسع . وأن يهدى الله رؤساء الكفر إلى الاسلام ثم يعلمه الله تعالى أن الصلاح فى غير ذلك وفيما قدره الله . .

وروى عن ابن عباس ـ وقاله مجاهد والضحاك وغيرهما ـ : ليس هذا التمنى من القرآن والوحى فى شيء ، وإنما كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم إذا صفرت يداه من المال ، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال ، تمنى أن تتسع عليهم الدنيا وربما حاول الشيطان تغذية هذا التمنى ليجد فرصة ينفذ منها

إلى قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه لايلبث أن يرتد خائبا خاسرا لأن الله قد عصم رسوله منه . . ونحن نرفع قدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون للشيطان فى نفسه سبيل .

ولكن يمكن قياسا على هذا المعنى الذى ذكره القرطبى فى تفسيره استنباط المعنى الآتى الذى أشار إليه بعض العلماء المحدثين قالوا :

الأنسب فى فهم هذه الآية أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتمنى اهتداء أمته إلى الإسلام ، وكذلك كان كل نبى ورسول يتمنى هداية أمته . ولكن الشيطان لايكف عن ترصد طريق الحق ، ومحاولة إبعاد الناس عنه ، ويقف فى طريق تحقيق هذه الأمنية التى يتمناها كل نبى ، بما يقذفه فى قلوب أهل الزيغ والفساد ، وبما يزينه فى نفوسهم من ضلال وعناد .

ولكن ما يزينه الشيطان يتبخر أمام شمس الحقيقة الساطعة ، ويتبدد أمام منطق الحق الواضح ، فيقبل على الرغم من ذلك قوم أراد الله بهم الخير فيهتدون ، وبذلك يتبدد الوهم ويبقى الحق . . وهو ما يراد بقوله تعالى « فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته »

وما يلقيه الشيطان فى نفوس الضالين إنما هو فتنة لهم وصرف لعقولهم عن متابعة الحق . ولكن المحبين للايمان يستعينون بالله فى رد كيد الشيطان فيعصمهم الله ويثبتهم على الصراط المستقيم . .

وهذا ما ينبغى فهمه من هذه الآيات الكريمة . . وهو الفهم الذى تنساق إليه الفطر السليمة والعقول القويمة ، ويلتقى مع عصمة النبى ـ صلى الله

عليه وسلم - الذى لم يجعل الله للشيطان عليه سبيلا ، وإذا كان فى أمة النبى - صلى الله عليه وسلم - من يفر منه الشيطان فما بالك بالنبى - صلى الله عليه وسلم - نفسه ؟ ألم يقل النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حق عمر بن الخطاب : إن الشيطان ليفر منك يا عمر ؟ وقال لو سلك عمر طريقا لسلك الشيطان طريقا آخر ؟ . . . أفيستطيع الشيطان إذن أن يضع على لسان النبى ﷺ كلاماً ، أو يستطيع أن يضيف إلى كلام الله فى أثناء قراءة النبى - صلى الله عليه وسلم - كلاما آخر فى مدح الأصنام - كما زعمت بذلك - بعض الروايات ؟ ؟ كلًا وألف كلًا

إن هذه القصة التى انزلق اليها بعض المفسرين موضوعة كما قال بذلك أئمة المحققين من المفسرين . .

ذلك أن سورة النجم مكية نزلت كلها فى مكة . .

روى أن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : هى أول سورة أعلنها النبى - ﷺ - بمكة .

وفى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

وقال أيضا : قرأ النبى - ﷺ - سورة النجم فسجد لها ، فما بقى أحد من القوم إلا سجد ، فأخذ رجل من القوم كفا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال : يكفين هذا قال عبد الله : فلقد رأيته بعد ذلك قُتِل كافرا - متفق عليه - وهذا الرجل يقال إنه : أمية بن خلف . . كما ذكرت بعض الرويات . .

وهذه الأحاديث التى رواها الثقات لم يذكروا فيها قصة الغرانيق ولم يشيروا اليها . فمن أين جاءت هذه القصة ؟ إنها إضافة متعمدة هدفها الطعن فى الدين والتشكيك فيه . وهى تتعارض تماما مع ماجاء فى صدر هذه السورة الكريمة[21] من قوله تعالى

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ ﴾

فالنقل ينفى القصة والنظر أيضا ينفيها . لأن النبى ـ ﷺ ـ لايمكن أن يرد على لسانه تعظيم الأوثان ـ وهو الذى امتهنها قبل رسالته ، فكيف يعظمها بعد الرسالة ؟

ولو جاز أن يكون للشيطان سبيل إلى الاضافة أو التغيير أو التبديل فى آيات القرآن لانتفت بذلك حكمة التشريع ، وأمكن دخول الباطل فى الأحكام ، وفى شرع الله ، ولبطل قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾[22]

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

جاء فى شرح المواهب اللدنية : إن هذه القصة وما جاء فى شأنها من حديث لا أصل لها ، وقال القاضى عياض فى الشفا : ما جاء فى تلك القصة لم يخرجه أهل الصحة ولارواه ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم »[23] أما سجود الكفار مع النبى ـ ﷺ ـ عقب تلاوة السورة ،فيمكن تعليله بالانقياد لصولة القرآن والإعجاب بجلاله والانصياع لتلك المعانى الرائعة التى تضمنتها السورة ـ وكان كثير من المشركين

---

(٢١) أى سورة النجم

(٢٢) الحجر ٩

(٢٣) شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ ١ ص ٢٨٤

يسجدون حين تصافح قلوبهم روعة القرآن . سمع أحدهم قارئا يقرأ

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ (٢٤)

نقض الصحيفة

ونعود إلى النبى - ﷺ - ومن معه فى شعب أبى طالب . .

فعلى الرغم من المحاورات التى كانت تدور بين النبى - ﷺ - والمشركين فإن ذلك لم يزدهم إلا اعنادا وإمعانا فى الضلال ، وتصميماً على الوقوف من النبى - ﷺ - موقف العداء .

وقد علمنا فيما سبق أن النبى - ﷺ - لم يرد أن يعرض أصحابه لمزيد من الأذى ، فأمرهم أن ينطلقوا إلى الحبشة فى هجرتهم الثانية ، فانطلقوا . . ومن بقى منهم بقى فى جوار زعيم يحميه . ماعدا أبا بكر فإنه بعد أن كان فى جوار سيد القارة . . ابن الدغنة ، وهو الحارث بن يزيد أو مالك بن يزيد - . . بعد أن كان فى جواره فترة من الوقت رد عليه جواره وقد سبقت الاشارة الى ذلك . .

واستمر المحاصرون فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات فى أشهر الأقوال ، حتى بلغ بهم الجهد مبلغا كبيرا . حتى مشى رجال من قريش فى نقض هذه الصحيفة الظالمة . .

وكان أكبر المتحمسين لنقضها هشام بن عمرو بن الحارث العامرى . -

---

(٢٤) يوسف ٨٠

وقد أسلم بعد ذلك.

وكان هشام هذا يمد المحاصَرين بالطعام سرا . فقد أدخل عليهم فى ليلة ثلاثة أحمال من الطعام ، وحين علمت قريش بذلك مشوا إليه يلومونه على أنه خرج على الاجماع .

وكان لبقا فى محاورته لهم ، فقال : إنى لن أعود إلى مخالفة الاجماع فانصرفوا عنه . ثم عاد مرة أخرى فأدخل إليهم حملا أو حملين . فاغتاظت قريش وأغلظت عليه فى القول وهمت بأن تبطش به .

فقال أبو سفيان بن حرب : دعوه - رَجُلٌ وصل رحمه . فماذا تعيبون عليه ؟

أما إنى أحلف بالله لوفعلنا مثل مافعل لكان أحسن بنا . .

إنها بوادر الوهن فى صفوف المشركين ، بعد ثلاث سنين عجاف مرت بالنبى - ﷺ - ومن معه ولم يروه تراجع عن دعوته ، ولم يروا من آزروه تخاذلوا فى نصرته ، بل رأوا قوة الحق تترى تُقَوِّى من أزره وتثبت أقدام من معه وتزلزل الأرض تحت أقدام الكافرين ، وتبث الرعب فى جوانحهم وأوصالهم .

وسلك هشام بن عمرو بن الحارث مسلكا عمليا فى نقض هذه الصحيفة ، فمضى إلى زهير بن أبى أمية . فقال له : يازهير ، أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ؟

وقال له أخوالك لأن أم زهير هى عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم .

فقال زهير : ويحك ياهشام ، فماذا أصنع ؟ فإنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها .

فقال هشام : أنا معك .

قال زهير : ابتغ لنا ثالثا

فمشيا معا إلى المطعم بن عدى ، فقالا له : أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد ؟

فقال : إنما أنا واحد .

فقالا له : نحن معك

فقال : نريد رابعا فذهب أحدهم إلى أبى البخترى بن هشام . فوافق ولكنه قال : نريد خامسا ، فانضم إليهم زمعة بن الأسود . .

فقعدوا ليلا بأعلى مكة ، وتعاقدوا على القيام بنقض الصحيفة وحين أصبح الصباح واجتمعوا فى الحجر ، وأخذت قريش مجالسها . كان أول المتكلمين فى النقض على حسب ما اتفقوا فى ليلتهم زهير بن أبى أمية . .

فقد أقبل وعليه حلة جديدة فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال : ياأهل مكة ، أناكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لايباع ولايبتاع معهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

فكان أول من انبرى له أبو جهل أقبل عليه من ناحية المسجد يصيح به : كذبت والله لاتشق .

فقام زمعة يعضد زهيرا ويقول لأبى جهل : أنت والله أكذب ، مارضينا

بكتابتها حين كتبت .

ووقف أبو البخترى يقول : أجل ، صدق زمعة ، لانرضى ماكتب فيها ، ولانقربه وأيد هذا القول المطعم بن عدى فقال : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نحن نبرأ الى الله منها ومماكتب فيها .

وقال هشام بن عمرو بن الحارث كلاما يشبه ذلك .

وأسقط فى يد أبى جهل ، لقد ظن أن هؤلاء القوم وهم من زعماء قريش سيعضدونه فى رده على زهير . فإذا بهم يناصرون زهيرا ضده . وأدرك أن هناك إجماعا من هؤلاء على قول ما قالوا وعلى رأى مارأوا . فقال : ـ وهو كالمغلوب على أمره ـ : هذا أمر قضى فيه بليل ، وتشوور فيه بغير هذا المكان . .

كل هذا وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد يرقب الموقف كله دون أن يتكلم ببنت شفة .

وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليستخرجها من المكان الذى كانت قد وضعت فيه ، فوجد الأرضة قد أكلتها ، إلا كلمة « باسمك اللهم »

النبى أخبر عمه أن الأرضة أكلت الصحيفة

ويروى العلماء أن النبى ـ ﷺ ـ كان قد أخبر عمه أبا طالب أن الله قد سلط على الصحيفة الأرضة فأكلتها ، ولم تترك فيها الا اسم الله . .

فقال أبو طالب للنبى ـ ﷺ ـ : أَرَبُّك أخبرك بذلك ؟

قال : نعم .

قال : فو الله مايدخل عليك أحد . .

فلما كان ما كان من أمر قريش وقام المطعم بن عدى ليستخرج الصحيفة وقف أبو طالب فقال : يامعشر قريش ، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا فهلموا إلى صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخى فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عما فيها ، وان يكن كاذبا فأنتم وشأنكم . . . .

فقال القوم رضينا . فتعاقدوا على ذلك . ثم نظروا ، فإذا هى كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ فزاد ذلك الكفار حسرة .

فعند ذلك صنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ماصنعوا(٢٥) وامتدح أبوطالب هؤلاء النفر الذين قاموا بنقض الصحيفة ـ بقصيدة ذكرها ابن هشام فى سيرته . . وانخذل أبو جهل ومن مالأه على حقده . .

ونجا هؤلاء المحاصرون مما كانوا فيه من عناء شديد قاسوا فيه الشدائد حتى اكلوا ورق الشجر . . .

تأملات فى هذه الأحداث :

لقد أرادت قريش بهذه المحاصرة الاقتصادية الرهيبة أن تفت فى عضد النبى ـ ﷺ ـ ومن يقف وراءه من قومه ـ وأن يعرضوا هؤلاء لمحنة الجوع القاسية . فى بلد لازرع فيه ولاضرع ، وإنما كل موارده المعيشية قائمة على الواردات التجارية أو الموسمية .

وهى تجربة جديدة على النبى ﷺ وصحبه ومن ناصره لقد تعرض قبل ذلك لضروب من الإيذاء والاستهزاء . ولكنه كان

---

(٢٥) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٢٣

يتعرض لذلك وحده أو يتعرض معه من آمن به . وكذلك تعرض لتجربة الإغراء بالملك والثراء ولكنها لم تجد شيئا

أما الآن فقد أصبح يتعرض هو وأقرباؤه الذين انحازوا اليه بدافع العصبية والحمية لتلك الحملة الضارية من المقاطعة والتجويع .

والأعجب من ذلك هو هذا الصبر المتحدى لحصار قريش .. ولقد عرضت قريش قبل ذلك على النبى - ﷺ - الملك والسلطان والثروة ، ولكنه نظر إلى عَرْضِهم باستخفاف وقال لهم : « لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

إن ما يدعو إليه أعظم من ذلك كله ، يهون فى سبيله كل صعب ، وتسهل كل مشقة .. والدليل على ذلك هو ذلك الصبر العظيم على هذه المحنة القاسية ، والتضحية بالأهل والمال والوطن والهجرة إلى بلاد نائية غريبة .

وأرادت قريش أن تفرد النبى - ﷺ - عن عشيرته حتى يتركوه لهم بعد أن يذوقوا شدة الجوع . ويسأموا شدة المحاصرة . ولكن قوم النبى كانوا أوفياء له .. على الرغم من أن دافعهم إلى ذلك كان هو الحمية والعصبية ، لأن معظمهم لم يكن قد دخل الاسلام بعد ..

ولابد أن نعلم أن حماية أقارب رسول الله - ﷺ - له كما يقول الدكتور محمد سعيد البوطى - « لم تكن حماية للرسالة التى بعث بها ، وإنما كانت حماية لشخصه من الغريب ، فإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية ، من قِبَل

المسلمين ، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم ، فأنعم بذلك من جهد مشكور ، وسبيل يتنبهون إليها »[٢٦]

وعلى أي فقد كانت محنة امتدت زهاء ثلاث سنوات ـ إلا أنها مازادت النبي ـ ﷺ ـ إلا صلابة ، ومازادت المسلمين الا اصرارا . .

لقد كشفت عن جلال الايمان حين يستولى على القلوب ويتربع على عرشها ، فترى بعيون البصيرة مدى ما تملكته من سلطان تهوى الدنيا بأسرها أمامه ، ويصغر كل سلطان دونه . . ولقد كانت عاقبة هذا الصبر الجميل هو الحصول فيما بعد على ثمرات الدنيا وخير الآخرة تحقيقا لوعد الله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[٢٧]

---

(٢٦) فقه السيرة ومحمد سعيد رمضان البوطى ص ٩٦

(٢٧) النور ٥٥

عَامُ الحُزْنِ

- أشد الناس بلاء الأنبياء .
- مرض أبي طالب .
- محاورة بين القرشيين والنبي حول فراش أبي طالب .
- النبي يطمع في إسلام عمه .
- أبو طالب يوصي قريشًا .
- معنى عدم إيمان أبي طالب .
- ما نزل من القرآن في شأن أبي طالب .
- وفاة خديجة - رضي الله عنها .
- لِمَ سُمي هذا العام عام الحزن ؟


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

عام الاحزان

مما يؤثر عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »

وقد تحمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من البلاء مالا تستطيع تحمله الجبال الرواسى . . فلم يكد يفرغ من تجربة الحصار بأيام حتى فوجىء بوفاة عمه أبى طالب الذى كان بالنسبة له اليد الحانية المؤازرة والعضد المساعدة المناصرة . . .

كان الخروج من الشُعب فى الثانى عشر من رمضان سنة عشر من النبوة ومات أبوطالب فى شوال من هذا العام ، وقيل فى رجب سنة احدى عشرة من نبوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى بعد الخروج من الشعب بتسعة أشهر . .

وحزن النبى صلى الله عليه وسلم ـ لوفاة عمه ، وكان حزنه الأكبر لأن عمه مات قبل أن يسلم ولقد جهد فى أن يلقنه الشهادة قبل وفاته ، ولكن أبا طالب لم ينطقها .

محاورة فى بيت أبى طالب

وحين ثقل المرض على أبى طالب قال القرشيون : لقد أسلم حمزة وعمر ، وفشا أمر محمد فى القبائل كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فليأخذ لنا من ابن أخيه وليعطه منا ، فإنا والله لا نأ من أن يغلبونا على أمرنا . أو أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شىء ـ يعنون قتل محمد ـ فتعيرنا العرب ، يقولون : تركوه حتى إذ مات عمه تناولوه .

فمشى أشراف قريش إلى أبى طالب ، واستأذنوا عليه فأذن لهم .

فقالوا له : يا أبا طالب أنت منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه وخذ له منا وخذ لنا منه . لينكف عنا ونتكف عنه . وليدعنا وديننا ولندعه ودينه .
فبعث إليه أبوطالب فجاء .

وحين دخل ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بين أبي طالب والقوم فرجة تسع الجالسين فخشى أبو جهل أن يجلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها فيكون أدنى القوم إلى أبي طالب ، فوثب أبو جهل فجلس فيها ، فلم يجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجلسا قريباً من أبي طالب فقال : خلوا بيني وبين عمى .

فقالوا : ما نحن بفاعلين ، وما أنت بأحق به منا ، إن كانت لك قرابة فإن لنا قرابة مثل قرابتك . فجلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الباب ـ
وقال أبوطالب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك ، وقد اجتمعوا لك ليعطوك ويأخذوا منك ، وهم يطلبون أن تكف عن شتم آلهتهم وَيَدَعُوك . وإلهك

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم هل تعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟
فقال أبوجهل : نعم بل نعطيك عشر كلمات . . . فماهي ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تقولون لا إله إلا الله وتقلعون عما تعبدونه من دونه .

فصفقوا بأيديهم عجبا وقالوا : أتريد يامحمد أن تجعل الآلهة إلها

واحدا . . . إن أمرك لعجب . فنزل قوله ـ تعالى :

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ ﴾ (٢٨)

لقد عجبوا من أن يكون للكون إله واحد ، فقالوا : أيسع لحاجاتنا جميعا إله واحد ؟؟ ونظر بعضهم الى بعض ، منكرين على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يقول . ثم قالوا : هل من كلمة غيرها ؟ وقال أبو طالب : يابن أخي إن قومك قد كرهوا هذه الكلمة فاطلب منهم غيرها .

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والله ، ياعم : لو جئتموني بالشمس فوضعتموها في يدي ما سألتكم غيرها .

فيئس القوم ، وقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل لن يعطيك مما تريدون شيئا . .

أجل ، وكيف يعطيهم ما يسألون ، وهم يريدون أن يرضى عن آلهتهم ويقرهم على عبادتهم ؟ فعلام كانت الرسالة إذن ؟ ولماذا كان هذا الجهاد الشاق المرير ؟

---

(٢٨) ص ١ : ٨

وانصرفوا وهم يتوعدونه بأن يسبوا إلهه كما سب آلهتهم . فنزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٠٨ ﴾ (٢٩)

فترك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سب آلهتهم .

قال العلماء : وحكم هذه الآية باق فى هذه الأمة ، فإن الكافر إذا كان فى منعة وخيف أن يسب الاسلام أو الرسول فلا يحل للمسلم سب دينه حتى لا يؤدى ذلك إلى تعريض الإسلام للأذى ، فإن الطاعة إذا كانت تؤدى إلى مفسدة خرجت عن أن تكون طاعة(٣٠)

النبى ـ يطمع فى إسلام عمه أبى طالب

بعد هذه المحاورة التى جرت فى بيت أبى طالب ـ قال أبو طالب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا .

فلما قال ذلك طمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إسلامه . . فأقبل عليه فى رجاء وحب واشفاق : أى عم ، « فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة » بمعنى إذا أذنبت بعد تلفظك بها ، ودخولك هذا الدين الذى أعتق الله رقاب أهله من النار ـ شفعت لك يوم القيامة ـ وإلا فالإسلام يَجُبُّ ما قبله . .

---

(٢٩) الأنعام ١٠٨

(٣٠) السيرة الحلبية جـ٢ ص ٤٥

ولكن الهداية بيد الله وحده « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا »(٣١)

فقد أمسك أبو طالب لسانه عن النطق بالشهادة المنجية ، وما أسهلها وأجملها على اللسان لو نطق بها بل وما أثقلها غدا فى الميزان . . . ولكنها إرادة الله . . .

لقد كبر على أبى طالب ـ على الرغم من منافحته عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأييده له ، ووقوفه معه ضد قريش كلها ـ كبر عليه أن ينطق بشهادة لا إله إلا الله ، وقال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم :

والله ياابن أخى لولا مخافة السبة والعار عليك وعلى بنى عبدالمطلب من بعدى وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعا من الموت لأقررت بها عينك ، لما أرى من شدة وجدك . . . ولكنى أموت على ملة الأشياخ عبدالمطلب وهاشم وعبدمناف . .

فحزن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك ، وكم كان يود أن يكون هذا الرجل الذى أحبه من الناجين من النار . وعلم الله مدى حزن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعدم إسلام عمه أبى طالب ، فنزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾(٣٢)

وقيل : إن شيوخ قريش كانوا بجواره حينئذ فاستحيا منهم أن ينطق بالشهادتين . . .

---

(٣١) الكهف ١٧

(٣٢) القصص ٥٦

أبوطالب يوصي قريشا

ذكر الرواة أن أبا طالب حين حضرته الوفاة جمع إليه وجهاء قريش فأوصاهم فقال لهم :

يامعشر قريش ـ أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم المطاع وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا إلا آحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة أوصيكم بتعظيم هذه البنية ـ يقصد الكعبة ـ فإن فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها ، فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل ، وزيادة فى العدد ، واتركوا البغى والعقوق فبهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل .

فإن فيهما شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام ، وإنى أوصيكم بمحمد خيرا ، فإنه الأمين فى قريش ، وهو الصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان[٣٣] وأنكره اللسان مخافة الشنآن ـ يعنى البغض ـ ، وأيم الله كأنى أنظر إلى ضعاف العرب وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أسيادا واذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أخطاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأعطته قيادها دونكم يامعشر قريش ، كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لا

---

(٣٣) أى العقل

يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد ، ولا يأخذ أحد يهديه إلا سعد »

وقيل إنه قال لبنى عبدالمطلب خاصة : لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره ، فأطيعوه ترشدوا . .

عجبا . . إن كلام أبي طالب هذا ـ إن صح جميعه ـ كلام مؤمن صادق ـ ولكن المفتاح الذى يفتح به باب هذا الحصن الأمين قد فقد منه أو استعصى عليه . وهذه حكمة الله . .

معنى عدم إيمان أبي طالب

ولعل الحكمة فى عدم إيمان أبي طالب ووفاته قبل أن تستعلى كلمة الدين ويظهر شأن الإسلام ذلك الظهور الذى أصبح عليه فيما بعد ـ لعل الحكمة فى ذلك أن الله أراد أن يظهر للملأ أن النصر بيده هو وحده لابيد أحد من خلقه ـ فلو قُدِّر لأبي طالب الاسلام وطول العمر ، لربما نسب الناس إليه الفضل فى انتشار الإسلام وذيوع أمره . ولقد أشار إلى هذه الحكمة بعض العلماء ومنهم صاحب كتاب فقه السيرة حيث يقول : ـ

« ترى ما الحكمة فى أن يتعجل قضاء الله فى استلاب أبي طالب من الحياة قبل أن يشتد ساعد المسلمين فى مكة ويتكون لهم شيء من المنعة ؟ ومعلوم أنه قد كان يحمى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدر الإمكان ـ من كثير من المصائب والشدائد .

تبرز هنا ظاهرة هامة تتعلق بأساس العقيدة الإسلامية ، فلو أن أبا طالب بقى إلى جانب ابن أخيه يكلؤه ويحميه إلى أن تقوم الدولة الاسلامية فى المدينة ، وريثما ينجو الرسول من أذى المشركين وقبضتهم ، لكان فى ذلك ما

قد يوهم أن أبا طالب كان من وراء هذه الدعوة ، وأنه هو الذى يدفعها إلى الأمام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قوته ، ولجاء من يطيل ويطنب فى بيان الحظ الذى تهيأ للرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الدعوة ، بسبب حماية عمه له ، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله ، فأوذوا وهو محفوظ الجانب ، وتعذبوا وهو مستريح البال(٣٤)

...... ومن هنا كانت حكمة الله فى أن يموت أبو طالب قبل أن يشتد ساعد الإسلام ....

أما حماية أبي طالب للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهو على غير دينه فمردها إلى قدرة الله - تعالى - الذى يسخر قلوب من يشاء لمن يشاء - وقدرته - سبحانه - تتجلى فى أن يكون من بين هؤلاء الذين لم يؤمنوا من يعضد هذه الدعوة التى جاءت لتحطم حصون الشرك وتزلزل الأقدام تحتهم .

وقد استعان النبي - صلى الله عليه وسلم - فى هجرته بدليل غير مسلم وهو عبد الله بن أريقط . واستعان فى دخول مكة بعد الطائف ببعض المشركين .

وكأن الله - سبحانه - يريد أن يقول للكفار : إن كلمتى هى العليا وستنفذ مشيئتى فى ظهورها بسواعد بعضكم وتحت أسماعكم وأبصاركم على الرغم منكم .

وهذا أمر ملحوظ فى كل زمان ومكان فمنذ سنوات أرادت بعض القلوب الحاقدة والأيدى الجاحدة تحريف القرآن ... ويشاء الله أن يكون كشف

(٣٤) فقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطى ص ١٠٥

هذا التحريف بواسطة دولة غير مسلمة هى ألمانيا الغربية ـ وذلك قبل أن يكتشف المسلمون ذلك بأنفسهم ـ لقد سخر الله عقول بعض العلماء إلى اكتشاف التحريف وضبطه وفضحه والتنبيه إليه وإعدام النسخ التى تحمله .. أليس ذلك تأييدا للدين بواسطة من لم يؤمنوا بهذا الدين ؟

إن رمز أبي طالب موجود فى كل عصر ، ليشهد العالم أن الله غالب ، سواء أراد الناس أم لم يريدوا ولينبه الأذهان إلى أن الله غنى بقدرته وحوله عن كل حول وقوة ، وليذكر المؤمنين بواجبهم وأنهم أحق من غيرهم فى المنافحة عن هذا الدين وتأييده ونصره .

هل نزل من القرآن شىء فى شأن أبى طالب ؟

ذكر العلماء أنه قد نزلت آيات عدة تشير إلى موقف أبى طالب من الاسلام ، وموقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه ..

(١) وأولى الآيات التى نزلت فى شأن أبى طالب ـ كما يقولون ـ هى قوله ـ تعالى :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(٣٥)

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ : عن ابن عباس رضى الله عنه : هذه الآية خاصة بأبى طالب ينهى الكفار عن إيذاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتباعد عن الايمان به .

ويذكر فى ذلك خبرا عن ابن عباس أيضا ـ قال :

---

(٣٥) الأنعام ٢٦

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرج إلى الكعبة يوما وأراد أن يصلى فلما دخل فى الصلاة قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ : من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته ؟

فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثا ودما فلطخ به ثوب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانفتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صلاته ثم أتى عمه أبا طالب فقال : يا عم ألا ترى ما حدث لى

فقال أبو طالب : من فعل هذا بك ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يابنى من فعل بك هذا ؟

فقال النبى : عبد الله بن الزبعرى .

فقام أبو طالب ووضع السيف على عاتقه ، ومشى معه حتى أتى القوم ، فلما رأوه قد أقبل جعل القوم ينهضون .

فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لضربته بسيفى ، فقعدوا حتى دنا إليهم ، فقال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يابنى من فعل بك هذا ؟ . .

فقال النبى عبد الله بن الزبعرى .

فأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ وجوههم ولحاهم وثيابهم ، وأساء لهم القول ، فنزلت هذه الآية

« وهم ينهون عنه وينأون عنه . . »

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا عم نزلت فيك آية .

قال : وما هى ؟

قال : تمنع قريشا أن تؤذينى وتأبى أن تؤمن بى ـ وتلا الآية ـ

فقال أبو طالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار سبة لوجدتنى سمحا بذاك يقينا(٣٦)

وإن كان ابن كثير فى تفسيره يقول : إن الآية نزلت فى جميع عمومة النبى - صلى الله عليه وسلم - وكانوا عشرة ، فكانوا أشد الناس معه فى العلانية وأشدهم عليه فى السر ، وقد تكلم النقاد فى هذا الخبر الذى رواه ابن كثير عن سعيد بن أبى هلال .

ولكن المشهور عند الرواة أنها نزلت فى شأن أبى طالب ، لأنه الوحيد الذى ينطبق عليه الوصف الوارد فى الآية الكريمة .

وقد سأل الصحابة النبى - صلى الله عليه وسلم - : هل تنفع أبا طالب نصرته للإسلام ؟

قال : « نعم رفع عنه بذاك الغُلّ ، ولم يقرن مع الشياطين ، ولم يدخل فى جُبِّ الحيَّات والعقارب ، وهو أهون أهل النار عذابا »

عبد الله بن الزبعرى يسلم بعد ذلك ويعتذر :

وقد أسلم عبد الله بن الزبعرى فى عام الفتح وحسن إسلامه ، واعتذر للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقبل عذره ، ومدح النبى - صلى الله عليه وسلم - بقصائد حسان . منها قوله :

(٣٦) تفسير القرطبى - سورة الأنعام - ص ٢٤٠٢ ط دار الشعب

يا خير من حملت على أوصالها عَيْرَانَةٌ سُرُح اليدين غشوم
إنى لمعتذر إليك من الذى أسديت إذ أنا فى الضلال أهيم
أيام تأمرنى بأغوى خطة سهم وتأمرنى بها مخزوم
فاليومُ آمن بالنبى محمد قلبى ، ومخطىء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها وأتت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والداى كلاهما زللى فانك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه شرفا وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق حقا وأنك فى العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى مستقبل فى الصالحين كريم

وحكى فى سبب إسلامه أنه لما فتحت مكة هرب عبد الله إلى نجران ، فقال حسان بن ثابت فى شأنه :-

لاتعدَمَنْ رجلا أحلك بغضه نجران فى عيشٍ أجدُّ لئيم

فلما سمع ذلك - عبد الله - رجع إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فاعتذر إليه وأسلم ، وقال :

يا رسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور
أذهَبَ اللّه ضِلَّةَ الجهل عنا وأتانا الرخاء والميسور(٣٨)

---

(٣٧) عيرانة : ناقة
(٣٨) أسد الغابة لابن الأثير جـ٣ ص ٢٣٩

(٢) ونزل أيضا فى شأن أبى طالب قوله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣٩)

(٣) وقد نزلت فى أعقاب آية أخرى هى قوله ـ تعالى ـ

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ (٤٠)

فقد روى مسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جاءه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا عم قل لاإله إلا الله أشهد لك بها عند الله .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ـ أترغب عن ملة عبد المطلب ؟

فلم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضها عليه ويعيد تلك المقالة حتى مات أبو طالب . .

---

(٣٩) القصص ٥٦

(٤٠) التوبة ١١٣ ، ١١٤

فكان آخر ما كلمهم : إنه على ملة عبد المطلب . .

وأبى أن يقول لا إله إلا الله محمد رسوا الله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فأنزل الله عز وجل قوله

« ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى . . »

وقوله

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

فكانت هذه الآيات ناسخة لاستغفار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمه ، فإنه استغفر له بعد موته ، على ما روى فى كتب الثقات .

وفاة السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ

بعد وفاة أبى طالب بقليل ، توفيت السيدة ـ خديجة بنت خويلد ـ رضوان الله عليها . قيل إنها ماتت بعده بثلاثة أيام .

وكانت بالنسبة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم المناصرة والمؤازرة والمواسية . .

وقد أنجبت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولاده كلهم ما عدا إبراهيم

قال ابن الأثير : اختلف العلماء فى أولاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خديجة .

فيقال : إنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر ، ولدت أيضا القاسم وبه كان

يكنى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال : إن القاسم عاش حتى مشى . أما الطاهر فمات صغيرا وقيل : إن الذكور الذين ولدتهم هم القاسم والطاهر والطيب وأما الإناث فهن : زينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية . وقد مات الذكور قبل الإسلام ، أما الإناث فقد أدركن الإسلام وهاجرن معه واتبعنه وآمنَّ به . .

وذكر الرواة أن الطاهر لقب لعبد الله ـ ويقال إنه أيضا كان يلقب بـ « الطيب »

وقد علمنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تزوج السيدة خديجة قبل البعثة بخمس عشرة سنة ، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة .

وقد رأت علامات النبوة فيه ، وكان هذا هو ما رغبها فى الزواج منه ووقفت بجانبه حين أوحى إليه تشد من أزره وتساعده ، ويكفى أن تكون هى أول من آمن به من البشر على الاطلاق . .

بل لعلها قد آمنت به نبيا ورسولا قبل أن يبعث حين استيقنت بوجود العلامات التى أخبر بها علماء أهل الكتاب عن النبى المنتظر فيه .

ولذلك قالت له حين جاء يرجف من الغار بعد أن رأى المَلَكَ ، ويقول

دثرونى دثرونى ـ قالت له : والله لن يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . . وقد ورد فى شأن خديجة ـ رضى الله عنها ـ آثار عدة تذكر فضلها ، وتبين منزلتها عند ربها ـ جل وعلا ـ

فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ خير نساء

العالمين مريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ـ ﷺ ـ[٤١]

وروى أحمد فى مسنده عن ابن عباس قال : خط رسول الله ـ ﷺ ـ فى الأرض أربع خطوط ثم قال : أتدرون ماهذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون .[٤٢]

وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ بشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب .[٤٣]

لقد كان إسلام خديجة كما قلنا مبكرا جدا ، بل هى أول من أسلم . ذكر ابن سعد فى طبقاته قال : مكث رسول الله ـ ﷺ ـ وخديجة يصليان سرا ماشاء الله .

ويورد الخبر الآتى بعد ذلك ليدل على أن ثالث المسلمين هو على بن أبى طالب فيقول : ـ عن عفيف الكندى قال :

جئت فى الجاهلية إلى مكة ـ وأنا أريد أن أبتاع لأهلى من ثيابها وعطرها ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب .

---

(٤١) أخرجه ابن مردويه من طريق أبى جعفر الرازى ـ وذكره ابن كثير فى تفسيره عند قوله ـ تعالى ـ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ..... الخ

(٤٢) مسند أحمد ١ / ٣١٦

(٤٣) أسد الغابة جـ ٧ ص ٨٣

قال : فأنا عنده وأنا أنظر إلى الكعبة ، وقد حلقت الشمس فارتفعت ، إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة ، فرفع رأسه إلى السماء فنظر ، ثم استقبل الكعبة قائما فبينما هو مستقبلها ، إذ جاء غلام حتى قام عن يمينه ، ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما . ثم ركع الشاب ، فركع الغلام ، وركعتْ المرأة ، ثم رفع الشاب رأسه ورفع الغلام رأسه ورفعت المرأة رأسها .

ثم خر الشاب ساجدا وخر الغلام ساجدا وخرت المرأة ساجدة

قال : فقلت : ياعباس إنى أرى أمرا عظيما .

فقال العباس : أمر عظيم ، أتدري من هذا الشاب ؟

قلت : لا ، ماأدرى .

قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخى . هل تدرى من هذا الغلام ؟

قلت : لا ، ماأدرى .

قال : على بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن أخى . هل تدري من هذه المرأة ؟

قلت : لا ـ ماأدرى .

قال : هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخى هذا ـ إن ابن أخى هذا الذى تراه ـ قد حدثنا أن ربه رب السموات والأرض ـ أمره بهذا الدين الذى هو عليه ، فوالله ماعلمت على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة .

قال عفيف : فتمنيت بعد أنى كنت رابعهم[٤٤]

توفيت خديجة ـ رضوان الله عليها ـ لعشر خلون من رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين ، وسنها إذ ذاك خمس وستون سنة . .

وقد حزن النبى ـ ﷺ ـ على فقد خديجة ـ رضوان الله عليها ـ ولكنه حزن الانسان الوفى لزوجته الوفية ، وليس حزن الجازع من قضاء الله وقدره .

ودفنت بالحجون ، ولم تكن صلاة الجنازة قد شرعت بعد .

لم سمى هذا العام عام الحزن ؟

وقد أُطْلِق على العام الذى مات فيه أبو طالب وأم المؤمنين ـ خديجة ـ عام الحزن وسمى بذلك لوفاة هذين العضدين القويين فى وقت واحد ، فتتابعت على اثرهما أحداث جسام على النبى ـ ﷺ ـ

ولابد أن نلاحظ أن النبى ـ ﷺ ـ لم يطلق على هذا العام هذه التسمية ، ولكنها من تسميات الرواة وأصحاب السير . .

والتعليل السليم لهذه التسمية أن النبى ـ ﷺ ـ تعرض لأذى شديد كانت تخبئه قريش له ، لقد وجدتها فرصة سانحة للنيل منه ، فوقفت فى طريقه بكل قوتها ، بعد أن انزاح من طريقها الرجل الذى كانت تخشى بأسه ، وفقد النبى ـ ﷺ ـ بفقد عمه الصدر الحنون الذى كان يخفف عنه مايلقاه من شدة وبأس .

---

(٤٤) الطبقات جـ ٦ قسم ٢ ص ١١

لقد وَجَد بعد وفاتها كثيرا من المصاعب والمشاق تقف فى طريق دعوته ـ فمن هنا كان حزنه . . . . كان حزنه بسبب خوفه من العجز أو التقصير فى إبلاغ رسالة ربه التى كلف ابلاغها . فهو حزنٌ مبعثه الايمان القوى بربه ، والاخلاص فى تبليغ دعوته ، ولذلك كان القرآن الكريم لايكف عن مواساته وتخفيف لواعج الأسى التى تعتريه ويطلب منه الصبر ـ ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾ (٤٥)

إن أهم ماكان يشغل بال النبى ـ ﷺ ـ هو الدعوة وابلاغها ، وأكثر ماكان يحرص عليه هو هداية قومه . . ولذلك كان يأسى حين يرى هذا الاعراض الشديد ، والتمادى فى الباطل والتحدى البالغ للدعوة . . حتى قال له الحق ـ سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ (٤٦)

ولايمنع ذلك ان يكون قد حزن على فقد عمه وزوجته ، ولكن حزنه

---

(٤٥) الأنعام ٣٣ ، ٣٤

(٤٦) الكهف ٦

حزن المؤمن بقضاء الله وقدره الذى ينظر فيجد أحب الناس إليه قد ووري التراب .

فكان ﷺ - فى حزنه قدوة لأمته .. قد تدمع العين ويحزن القلب ولكن اللسان لا يلفظ إلا بالحق والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره .

ان الموت قدر الله الغالب ، لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب ، والنبى - ﷺ - يعرف تماما بل هو أصدق العارفين أن الموت نهاية كل حى ، وأن حكمة الحياة والموت تكمن فى قوله - تعالى -

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (٤٧)

كان حزنه حزن الانسان المؤمن ذى القلب الكبير الذى يستوعب حقائق الدين وحكمته الغالبة ..

وقد أراد الله أن يبتليه لأن سنة الله جرت بأن يكون أشد الناس بلاء هم الأنبياء ..

ومع ذلك فلم يفت هذان الحدثان الجليلان فى عضده ، بل انطلق فى طريقه يبشر برسالة ربه ، وهو أشد مايكون مضاء وأقوى مايكون عزما ، فى الوقت الذى استجمعت فيه قريش كل بطشها وجبروتها فى محاولة القضاء على هذا الرجل الذى جاء ليهديها ويأخذ بيدها من الهلاك الى النجاة فصارت حاله مع قريش حال من يقول : أريد حياته ويريد قتلى ..

---

(٤٧) الملك ٢

الرحلة إلى الطائف

- تفكير النبي في الاستعانة بثقيف .
- سوء استقبال الثقفيين له .
- مناجاة وضراعة .
- مكاسب من الرحلة .
- إيمان الجن .
- الرجوع إلى مكة .
- المطعم بن عدي يجير الرسول - صلى الله عليه وسلم .
- دروس في هذه الرحلة .
- حراسة وتأييد من السماء .
- النبي يصرع ركانة أقوى رجل في قريش .
- إسلام الطفيل بن عمرو الأزدي .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سوء استقبال

وكان فى طريقة يدعو القبائل التى يمر بها إلى الاسلام ، ولكن تلك القبائل كانت ترفض دعوته . . واستمر فى سيره حتى وصل الى الطائف ـ وكان بها ثلاثة إخوة هم رؤساء ثقيف :

وهم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفى . . وقد استقبله هؤلاء الأخوة أسوأ استقبال ، وتهكموا به وسخروا منه :

قال أحدهم : إنه يمرط ثياب الكعبة ـ أى يمزقها ـ إن كان الله أرسله .

وقال له الآخر : أما وجد الله أحدا غيرك يرسله ؟

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، إن كنت رسولا لأنت أعظم خطر من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فماينبغى أن أكلمك . .

فقال لهم ـ بعد أن يئس من استجابتهم له ـ : أمّا إذ فعلتم مافعلتم فاكتموا عنى .

لقد خشى ـ ﷺ ـ شماتة قريش به ، والشماتة مرة ، والشاعر العربى يقول :

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهـون غير شـماتة الحسـاد

ولكنهم لم يكونوا جديرين بالمروءة . . فقد اشاعوا ماقالوه للنبى ـ ﷺ ـ وأصبح النبى ـ ﷺ ـ ولا مقام له بين هؤلاء القوم الذين لم يرعوا حرمة القرابة ولا الضيافة ولا الانسانية . .

أما القرابة فقد قال بعضهم إن ثقيفا من أخوال النبى ـ ﷺ ـ وهم لم يراعوا ذلك .

أما الضيافة فهو وافد اليهم ضيف عليهم . وللضيف حق الاكرام مهما كان الخلاف معه هذا شأن العرب الكرام ..

وأما الانسانية ، فهو مستنجد بهم على قومه الذين اشتد ايذاؤهم له والعرف يقضى بأن يمد الإنسان يده لمن استجار به .. وهم لم يفعلوا ذلك .. بل فعلوا عكس ذلك ..

فقد أمعن هؤلاء الثقفيون فى سوء المعاملة ، وقبح الفعال ، فقد أغروا به سفهاءهم بعد أن قالوا له : اخرج من بلادنا . ـ ثم أغروا به وهو خارج من القرية وقعد الصبيان والسفهاء له صفين وأخذوا يكيلون له السباب ويقذفونه بالحجارة حتى دميت عقباه .. واختضبت نعلاه بالدماء ، وحاول زيد بن حارثة أن يقيه بنفسه فأصيب فى رأسه بالحجارة فشج وسال منه الدم .. ومازال كذلك حتى لجأ إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة على بعد ثلاثة أميال من الطائف .. فجلس فى ظله يستريح من التعب ، وعاد السفهاء يتضاحكون ويعبثون ، وكأنهم غنموا غنما ، وانتصروا على عدو جاء يغزو بلادهم ويسلب أموالهم ..

يالسوءة : هؤلاء من هذه الفعلة التى سودت وجوههم فى التاريخ ، وذكرت الناس بما فعله اسلافهم مثل : مسعود بن معتب الثقفى وغيره من رجال ثقيف حينما قالوا لأبرهة وهو فى طريقه لهدم الكعبة : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون وليس بيتنا هذا الذى تريد ـ يعنون بيت اللات التى يعبدها الثقفيون ـ انما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث

معك من يدلك عليه ، فبعثوا معه أبارغال حتى إذا بلغ المغمس ـ مكان بطريق الطائف ـ مات فرجمت العرب قبره[٤٩] . . .

لقد كان بامكانهم ان يرفضوا دعوة الرسول دون ان يسيئوا إليه . . وهو الذى جاء إليهم مستجيرا وداعيا . . ولكنهم ضربوا بالأخلاق العربية المتوارثة عرض الحائط ، وأعماهم التعصب الأعمى والحقد الأسود عن تبين وجه الرشد ، وكان الشيطان راكبا رءوسهم فسول لهم ماصنعوا . .

لقد كان فعلهم قاسيا على قلب المصطفى ـ ﷺ ـ ولم يكن يتوقع منهم هذه المقابلة السيئة التى لم يجربها عرف عربى ولا ذوق أدبى . . حتى قالت السيدة عائشة رضى الله عنها ـ للنبى ـ ﷺ ـ هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟

قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ماأردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق مما أنا فيه إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى وإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك ومارَدّوا به عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بماشئت ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم علىَّ ، ثم قال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك ومارُدّوا عليك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى إليك ربى لتأمرنى بأمرك . . . إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .

---

(٤٩) المواهب اللدنية جـ ١ ص ٨٢

قال النبى - ﷺ - بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لاشريك له .

ماأحلمك ومارأحمك يارسول الله . . لقد كان بوسعه بعد هذا اللقاء الشرس والمقابلة السيئة ان يدعو عليهم فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . ولكنه كان رحمة مهداة . . ولذلك قال له المَلَك : صدق من سماك الرءوف الرحيم . . أجل فقد سماه الله جل وعلا بذلك فى محكم كتابه - قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٥٠)

مناجاة وضراعة

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - عقب هذه المقابلة وجلوسه تحت حائط عتبة . . قد رفع يديه إلى الله فى ضراعة واسترحام ، وناجى ربه بهذه المناجاة الرائعة :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل

---

(٥٠) التوبة ١٢٨

عليَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

إنها قمة الاستكانة والرضا بقدر الله .

بل هي قمة الحب والاقبال على الله . .

فهو لا يبالي بما لقي من عذاب في سبيل الله . . بل انه ليعتذر عن التقصير في جنب الله وانه ليخشى أن يكون ما أصابه ذلك نتيجة فتور أو تقصير . . وما قصر وما فتر . ولكنه الاخلاص المفرط الذي يجعله يستهين بحياته ويستقل قصارى جهده في سبيل الله . .

ولقد فجرت هذه المناجاة الصادقة الرحمة من الصخور الصماء . . فألانت قلبي صاحبي البستان ، وجعلتهما يستدعيان غلامهما النصراني « عداساً » ويأمرانه بأن يحمل قطفاً من العنب في طبق إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بالرغم من أنهما كافران .

لقد كان هذان الرجلان بالأمس القريب في مكة من الذين يحملون أعباء المقاطعة الصارمة التي فرضت على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه - ومن الذين يحملون لواء المعارضة الشديدة للدعوة ويشجعون على التنكيل بالمسلمين - فما بالهم الآن يغيران موقفهما وينظران إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بغير العين التي كانا ينظران إليه بها ؟

إنه اللطف الالهي الذي يصاحب عنفوان الابتلاء ، وهو اليسر الذي يصاحب العسر ، وهو معنى الحكمة الرائعة التي تقول : « من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره »

وحمل الغلام الطبق الى النبي - صلى الله عليه وسلم - وقدمه إليه . ومد النبي - صلى الله عليه وسلم - يده إلى القطف قائلاً : باسم الله - ثم أكل -

فتعجب الغلام وقال : إن هذا كلام ما يقوله أهل هذه البلاد فمن أين لك ذلك ؟

فأقبل النبى عليه الصلاة والسلام على الغلام وسأله قائلاً : من أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟

فقال عداس : أنا نصرانى من نينوى »

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلد الرجل الصالح يونس بن متى .

فقال عداس : وما أدراك ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه أخى ، هو نبى وأنا نبى .

فأكب عداس على رأس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويديه يقبلها . . وقد غلبته عبرة الايمان والصفاء الروحى التى تساعدها رقة القلب وبشاشة اليقين .

مكاسب من الرحلة

لم تكن الرحلة الى الطائف بدون فائدة على أى حال . .

لقد كسب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خلالها رجلاً . . وهداية رجل واحد تعدل الدنيا بما فيها ـ كما جاء ذلك فى أثر شريف عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أهون المشقة إذن فى سبيل الله . . لقد تبدد تعب كل هذه الأيام ، وذهبت ضراوة تلك الآلام . وشعر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك البلسم الذى يشفى جراح الروح عقب المعارك القاسية التى كانت كثيراً ما تدور بينه وبين الخصوم . .

وعاد عداس إلى صاحبيه . . وقد قال أحدهما للآخر بعد أن رآه يقبل رأس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويديه لقد أفسد محمد عليك غلامك .

وكأنهما تذكرا خصومتهما الدفينة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن ذلك العطف المفاجىء على النبى كانت قد حركته الرحم والعصبية ، ولكنه سرعان ما تبدد حين رأيا شعاع الايمان يضىء ويظهر أثره على الغلام .

وأقبلا على الغلام يقولان له : ويحك ما هذا الذى صنعت ؟

فأجاب الغلام فى ثقة واعتداد : يا سيدى ما على الأرض أفضل من هذا الرجل لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى .

قالا له : ويحك يا عداس . لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فإن دينك خير من دينه .

ولكن عداسا كان فى واد وهما فى وادٍ آخر . . لقد انصرف إلى عمله دون أن يرد عليهما . .

ويدأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رحلة العودة من الطائف الى مكة . . وقلبه مملوء بالثقة فى الله واليقين الكامل بأن هذا الدين سوف يغزو الآفاق ، وسوف يظهره الله على الدين كله . إن الله معه ولن يتخلى عنه . . وها هو ذا قد رأى جبريل ينزل إليه بأمر ربه ويخبره أن الله معه ، وأنه يستجيب لدعائه ، وها هو ذا ملك الجبال يقول له : مرنى أن أطبق عليهم الأخشبين ، وهما الجبلان المحيطان بمكة . ويمكن أن ينصرف الضمير فى عليهم إلى أهل مكة لأنهم هم الذين آذوه أولاً واضطروه إلى اللجوء لأهل ثقيف .

ويمكن أن ينصرف أيضاً الى أهل ثقيف ، وذلك بأن يقتلع الجبلان من مكانهما ثم يطبقان عليهم فلا يبقى منهم أحد وما ذلك على الله بعزيز .

وليس ذلك أمراً غريباً أو مستبعداً فطالما أهلك الله المكذبين بالرسل بطرق مختلفة من العقاب . فأهلك عادا بالريح ، وقوم نوح بالغرق وحمل جبريل على جناحه قرى قوم لوط ورفعها إلى السماء ثم ألقى بها . . وسبق أن أُرْسِلت الصواعق والصيحات على المكذبين . .

إن إطباق الجبلين على هؤلاء القوم ليس أمراً غريباً ، بل هو الجزاء الوفاق لهذا التكذيب المتوالى طوال عشر سنوات ، ومع التكذيب إيذاء عنيف وحصار وتجويع ومقاطعة مما دفع المسلمين الى الهجرة الى الحبشة مرتين .

ولكن الغريب هو تلك الرحمة الشاملة ، والرفق العظيم ، والتسامح الكريم والحلم الذى لا حدود له . . ذاك الذى تجلى فى قول المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . .

ولعل الله أن يُخْرِج من أصلابهم من يوحد الله . .

وصدق توقع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد خرج من أصلابهم من أسلم وحسن إسلامه ، وآمن وصدق إيمانه ، وحمل راية الجهاد فى سبيل نشر هذا الدين الذى عارضوه فى البداية بكل ما أوتوا من قوة ، فإذا بهم يؤيدونه بكل ما أوتوا من قوة أيضاً .

إيمـــان الجـــن

ومضى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه زيد بن حارثة فى طريقهما الى مكة ، وهناك فى وادى نخلة أقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قليلاً ليستريح فى مكان به مسيل ماء وقام فى ليله متهجداً يعبد الله . وإذا بنفر من

الجن يقبلون عليه فينصتون إلى ما يتلو من قرآن فيسلمون ، ولنستمع الى هذه القصة كما وردت فى كتب التفسير :

قال القرطبى : حين يئس النبى - صلى الله عليه وسلم - من أهل ثقيف انصرف حتى إذا كان ببطن نخلة قام من الليل يصلى - فمر به نفر من جن أهل نصيبين ، وكان سبب ذلك أن الجن كانوا يسترقون السمع ، فلما حرست السماء ورُموا بالشهب قال إبليس : إن هذا الذى حدث فى السماء لِشَىْء حدث فى الأرض ، فبعث جنوده ليعرفوا الخبر ، فانتشروا فى كل مكانِ فلما بلغوا بطن نخلة سمعوا النبى - صلى الله عليه وسلم - يصلى صلاة الغداة ويتلو القرآن ، فاستمعوا له ، وقالوا : أنصتوا(٥١).

وقصة إيمان هؤلاء النفر من الجن مذكورة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾(٥٢)

« وذكر بعض المفسرين أن هؤلاء النفر كانوا سبعة ، وقد أمرهم النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد إسلامهم أن ينذروا قومهم ، ويرى بعض

(٥١) تفسير القرطبى - سورة الاحقاف - ص ٦٠٣١ - ط دار الشعب
(٥٢) الاحقاف - ٢٩ : ٣٢

المفسرين أن إسلام الجن لم يكن فى هذه الليلة وإنما كان فى أول البعثة وقد عرضنا لذلك بالتفصيل فيما سبق .

كيف دخل النبى - صلى الله عليه وسلم - مكة ؟

عاد النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة وبلغ حراء ، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل مكة على قريش وقد أخرجوك ، فذهبت تستنصر عليهم فلم ينصرك أهل الطائف .. فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - يا زيد ، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

لم ييأس النبى - صلى الله عليه وسلم - لحظة .. بل كان فى أشد الساعات حلكة يرقب طلوع الفجر . وكيف ييأس وقد أنزل الله عليه قوله

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨ ﴾ (٥٣)

وأرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فيدخل مكة آمناً ، فقال له الأخنس : أنا حليف والحليف لايجير - وهذا حق .

ولكن من الأخنس هذا ؟

إنه الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب أصله من ثقيف ، فهو ثقفى ، ويكنى أبا ثعلبة .

---

(٥٣) سورة الشرح

فلم يكن قرشياً ، ولكنه كان حليفاً لبنى زهرة قوم خديجة ـ رضوان الله عليها ـ واسمه أبيّ ـ وإنما لقب بالأخنس فغلب عليه اللقب وسبب هذا اللقب أنه كان ذا دهاء وحيلة ومكر . . أشار على حلفائه بنى زهرة وكانوا ثلثمائة رجل يوم بدر بعدم الخروج مع قريش ، قال لهم : قد نجى الله عيركم التى مع أبى سفيان فلا حاجة لكم فى غيرها ، فعادوا فلم يقتل منهم أحد ببدر . فقالوا : خنس بهم الأخنس ـ ومعنى خنس : وسوس وزين .

وكان الأخنس من أشد المشركين على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان داهية فى لسانه حلاوة ، وفى منظره حسن وجمال . . . وبعد موقعة بدر ، جاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأظهر الاسلام ، وقال : الله يعلم أنى صادق ، ثم هرب بعد ذلك ، فمر بزرع لقوم من المسلمين ، وبحمر ، فأحرق الزرع وعقر الحمر . فنزل فيه قوله ـ تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[٥٤]

وذكر بعض الرواة أنه لم يعد الى الاسلام بعد ذلك .

ولكن البعض يقول : إنه أسلم يوم الفتح وأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع المؤلفة قلوبهم وتوفى أول خلافة عمر ـ رضى الله عنه[٥٥] ـ والمهم هنا أن الأخنس رفض أن يجير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(٥٤) سورة البقرة ٢٠٤ : ٢٠٦

(٥٥) راجع أسد الغابة جـ١ ـ ص ٦٠ وتفسير القرطبى جـ٣ ، ص ١٤ ط دار الكتب

بحجة أنه ليس قرشياً ، وإنما هو حليف لبنى زهرة فقط ، فكيف يجير عليهم ؟

فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى سهيل بن عمرو يطلب جواره . .

فمن سهيل بن عمرو؟

هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس وهو أحد أشراف قريش وعقلائهم وخطبائهم وكان كثيراً ما يقوم بينهم خطيباً يهاجم الاسلام ونبى الاسلام . . وقد أسر يوم بدر . وكان مشقوق الشفة العليا ـ فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله ، أنزِعُ ثَنِيَّتَيه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً نحمده عليه .

وصدق قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه بعد أن ارتد العرب بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ارتجت مكة ، واختفى عتاب بن أسيد أمير مكة . . . . فقام سهيل بن عمرو ـ خطيباً فقال : يا معشر قريش ، لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد ، والله إن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما . .

فثبت القرشيون على الاسلام ، وعاد عتّاب بن أسيد إلى عمله .
ومما يحمد له قوله الآتى فى بعض مواقفه :

حضر الناس باب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بعد خلافته ، ومنهم سهيل بن عمرو ، وأبو سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ،

وأولئك الشيوخ من مسلمى الفتح ، فخرج آذن عمر ، فجعل يأذن لأهل بدر كصهيب ، وبلال ، وعمار وأمثالهم أولاً . .

فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلْتَفتُ إلينا .

فقال سهيل ـ ويا له من رجل ، ما كان أعقله ـ : أيها القوم ، إنى والله قد أرى ما فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتاً من بابكم هذا الذى تنافسون عليه .

ثم قال : أيها الناس ، إن هؤلاء سبقوكم بما ترون ، فلا سبيل والله إلى ما سبقوكم إليه ، فانظروا هذا الجهاد فالزموه ، عسى الله أن يرزقكم الشهادة ثم نفض ثوبه وقام ـ فلحق بالشام .

وقد أسلم سهيل يوم الفتح ، وهو الذى كان يفاوض عن قريش مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الحديبية .

ذكر ابن سعد قال : لم يكن أحد من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم الى يوم الفتح أكثر صلاة ولا صوماً ولا صدقة ، ولا أقبل على ما يعنيه من أمر الأخرة ـ من سهيل بن عمرو ـ حتى إنه قد شحب لونه . . وكان كثير البكاء ، رقيقاً عند قراءة القرآن ، وكان يختلف الى معاذ بن جبل يقرئه القرآن وهو يبكى ، حتى خرج معاذ من مكة ، فقال له ضرار بن الأزور : يا أبا يزيد ، تختلف إلى هذا الخزرجى يقرئك القرآن ؟ ألا يكون اختلافك الى رجل من قومك ؟

فقال : يا ضرار ، هذا الذى صنع بنا ما صنع ، حتى سُبِقْنَا كل السبق . . .

لقد وضع الاسلام أمر الجاهلية ، ورفع الله أقواماً بالاسلام كانوا فى الجاهلية لا يذكرون ، فليتنا كنا مع أولئك فتقدمنا ، وانى لأذكر ما قسم الله لى فى تَقدم أهل بيتى الرجال والنساء ، ومولاى عمير بن عوف فأسرُّ به ، وأحمد الله عليه ، وأرجوا أن يكون الله نفعنى بدعائهم ، وإلا فقد كان من الممكن أن أهلك على ما مات عليه نظرائى وقتلوا ـ فقد شهدت مواطن كثيرة وأنا فيها معاند للحق .. يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الخندق ، وقد وَليت أمر الكتاب يوم الحديبية يا ضرار إنى لأذكر مراجعتى رسول الله يومئذ ، وما كنت ألتزم به من الباطل ، فأستحى من رسول الله وأنا بمكة وهو يومئذ بالمدينة ، ثم قتل ابنى عبد الله يوم اليمامة شهيداً ، فعزانى به أبو بكر وقال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن الشهيد ليشفع لسبعين من أهل بيته » وأنا أرجو أن أكون أول من يشفع له(٥٦) .

وقد خرج سهيل مجاهداً الى الشام ، ومات فى طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة فى خلافة عمر ـ رضى الله عنه ـ

سهيل هذا الذى أسلم فحسن إسلامه ، وآمن فصدق إيمانه ، هو الذى أرسل إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلب جواره عقب عودته من ثقيف ليدخل مكة آمناً فى جواره . . . ولكن سهيلاً رد عليه قائلاً : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب .

---

(٥٦) أسد الغابة جـ٢ ص ٤٨٠

انظر كيف بدل الاسلام نفوس الناس وأخلاقهم ؟ ؟

المطعم بن عدى يجير النبى

واضطر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرسل الى المطعم بن عدى ـ ليجيره ، فأقبل المطعم ومعه بنوه وقد تسلحوا وخرجوا حتى أتوا المسجد . فقام المطعم على راحلته فنادى يا معشر قريش إنى قد أجرت محمداً فلا يتعرض له أحد منكم .

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة آمناً ودخل المسجد وطاف بالبيت وصلى عنده ، ثم انصرف الى منزله . .

وقيل : إن المطعم وبنيه كانوا مدة طواف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جلوساً محتبين بحمائل سيوفهم حول الكعبة محدقين بها . فأقبل أبو سفيان فقال للمطعم : أمجير أم تابع ؟ فقال : بل مجير .

فقال أبو سفيان : إذن لا نخفر جوارك ، قد أجرنا من أجرت . وجلس معه حتى قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طوافه . .

ولا عجب فى دخول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة فى جوار رجل مازال على الكفر ـ فحكمة الله هى التى تؤكد ذلك . . . وهذا يؤكد مضمون الحديث الذى يقول فيما معناه : إن الله يؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أتباعه ، وربما كانوا من المعادين له .

والحكمة تقضى بسلوك الأسباب التى تعين على تحقيق الغاية ، مادامت هذه الأسباب لا تجافى الشرف ولا تهتك حجاب الأخلاق . . وهذه الحكمة هى التى تفرض على المسلمين الآن أن يستعينوا بوسائل القتال التى يصنعها أعداء الاسلام . فى قتال أعداء الاسلام . . . وقد حفظ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمطعم هذه اليد ، وكان النبى ﷺ ودوداً وفياً . . فقد وفد

جبير بن مطعم على النبى - صلى الله عليه وسلم - ليكلمه فى أسارى بدر فقال له : « لو كان الشيخ أبوك حياً فأتانا فيهم لشفعناه » .

وكان المطعم من عقلاء قريش ، وهو أحد الذين قاموا فى نقض الصحيفة ، وقد مرت الاشارة الى ذلك .

تأملات فى رحلة الطائف

لو نظرنا الى هذه الرحلة الشاقة التى قام بها النبى - صلى الله عليه وسلم - لوجدنا أنه لم يقصر فى أى أمر يخدم الدعوة الاسلامية مهما كانت تبعاته . فقد كان يبذل قصارى جهده فى تبليغ رسالة ربه . . صابراً على ما يلاقيه من جهد ومشاق ، محتسباً ذلك عند ربه - جل جلاله .

لقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - مثلاً أعلى فى الجهاد والصبر والرضا واليقين ، ولا يظن ظان أنه حين ناجى ربه بعد خروجه من الطائف بهذه الصورة المؤثرة كان متبرماً أو يائساً أو جزعاً . . ولكنها كانت مناجاة مبعثها اللجوء الى جنب الله والتقرب إليه بالدعاء ليجد الراحة فى ذلك .

لقد ورد عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أن الدعاء مخ العبادة ، وأن إظهار الشكوى الى الله هو قمة الايمان به والرضوخ له والاعتراف التام بالعجز أمام قوته وعظمته وقد أمرنا الله أن نتعبد بالدعاء إليه فقال فى كتابه

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (٥٧)

---

(٥٧) الفرقان ٧٧

ونعى على قوم أنهم لم يرفعوا إليه أكف الضراعة حين مسهم الضر فقال :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٥٨)

قال ذلك بعد أن بين أنه بالدعاء تفرج الكروب وتذهب المكاره وتنزاح الضوائق قال تعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (٥٩)

وقد وعد الله باستجابة الدعاء فقال :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٦٠)

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (٦١)

---

(٥٨) الانعام ٤٢ ، ٤٣

(٥٩) الانعام ٤٠ ، ٤١

(٦٠) غافر ٦٠

(٦١) البقرة ١٨٦

فالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مناجاته ربه متأدب بأدب القرآن ، لاجيء الى جناب الله القوى ، ضارع إليه بلسان الخضوع والانكسار اعترافاً بعزته واحتماء بكنفه . ومع ذلك فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قمة فى الصبر ، متلذذاً بما يلقاه فى سبيل مولاه من أذى وضر ، حتى لقد قال : إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى . . . وهو صلى الله عليه وسلم ـ فى مناجاته لربه ودعائه إياه يعلمنا كيف نقف أمام الله ، ونتأدب بأدب الاسلام بحيث نقف أمام امتحان الله موقف الضعيف المستغيث . . وإن من أعظم الدروس التى يجب أن نعيها فى هذه الرحلة ما تفيض به من دلائل الرحمة على الرغم مما صاحبها من عنف وقسوة . .

فهذان ابنا ربيعة وهما اللذان كانا من أشد المعارضين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن المشاركين فى حصار المسلمين وإيذائهم ، ومن الذين عرضوا على أبى طالب أن يسلمهم محمداً ليقتلوه وليأخذ من الدية ما شاء أو من البدل من يشاء ـ إذ بنا نراهما بالرغم من مشاركتهما فى كل ذلك يُسَخَّران بإرادة الله وقدرته ويرسلان الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الفاكهة ما يدفع عنه قسوة الجوع وشدته . . وقد كان بوسعهما التخلص منه ، أو الشماتة به على الأقل ، أو مظاهرة أهل ثقيف عليه . .

وما أروع نظر الله الى نبيه وإرساله الملكين ليكونا طوع أمره فى الانتقام من أعدائه ـ ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان كشأنه دائماً رحمة مهداة . . مصداقاً لقول الحق

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ (٦٢)

---

(٦٢) الانبياء ١٠٧

وكان إيمان عداس النصرانى دليلاً ملموساً على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعد من رحلته هذه خالى الوفاض . بل انها كانت رحلة ناجحة بمختلف المقاييس ، فقد كشفت عن وجه ثقيف الكالح ، كما أضافت الى الاسلام عناصر جديدة تؤكد عالمية الاسلام ، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن رسولاً للعرب فحسب ، ولا للبشر فحسب ، ولكنه رسول للبشر جميعاً بل وللجن أيضاً .

أما موقف زيد بن حارثة ، فهو موقف الفدائى البطل الذى حاول الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم بكل ما عنده من جهد . . . وقد أوذى وشج رأسه فى سبيل ذلك . . . . . . وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعا يودون لو فدوه بأرواحهم وجوارجهم . .

إن هذه الرحلة تعلمنا أن الجهاد فرض على كل مسلم ، وأن المبادىء لا يمكن أن تنتشر بمجرد الكلام أو الهتاف أو رفع الشعارات ، ولكنها تحتاج إلى كفاح عملى ، وسعى متواصل ، وبذل لكل ما يملك أصحابها من طاقات وجهود ، وقد وعد الله المجاهدين بالثمن الربيح والثواب العظيم فقال :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٦٣)

حراسة وتأييد

استمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة يدعو إلى الله ، ويعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج طالبا منهم الإسلام والنصرة . . وكانت قريش تقف ضد هذه الدعوة وتحذر الوفود من السماع إليه أو الاقبال على

(٦٣) العنكبوت ٦٩

دعوته ، ولكن المعجزات التى كان يُؤَيد بها من قبل الله كانت تساعده على تبيلغ هذه الدعوة وتضع له برهانا عمليا ملموسا ينطق بالحق والقوة .

حدَّث ابن هشام فى سيرته قال : كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب أشد قريش قوة وفتوة فخلا يوما برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض شعاب مكة .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك اليه ؟

فقال ركانة : لو أعلم أنك على حق لاتبعتك .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفرأيت إن صرعتك ، أتعلم أن ما أقوله حق ؟

قال ركانة : نعم .

قال : فقم حتى أصارعك .

فقام ركانة يصارعه ـ فصرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مرة بعد مرة .

وذهل ركانة ـ لقد كان يظن أنه لا يستطيع أحد مهما بلغ من قوة أن يصرعه . إنه بطل قريش غير منازع ـ فكيف يصرعه محمد ، وهو دونه قوة وجسما ؟

فقام ركانة وقال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم : عد يا محمد . .

لقد أراد أن يرد اعتباره ـ كيف يفقد لقب البطولة بهذه السهولة ؟ وكيف يمشى فى مكة يزهو بقوته بعد اليوم وهو مهزوم ؟ وماذا يقول عنه شباب قريش بعد أن علموا أن ركانة البطل قد هزمه محمد وصرعه .

عد يا محمد لاصارعك . هكذا قال ركانة متحديا .

ولم يتوان النبى - صلى الله عليه وسلم - فقام إليه - ولم يلبث أن صرعه مرة أخرى .

فقال ركانة : يا محمد والله ان هذا لعجيب أتصرعنى ؟

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم

وأعجب من ذلك أستطيع أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمرى .

قال ركانة : ماهو ؟

قال : أدعو هذه الشجرة التى ترى فتأتينى .

قال ركانة - فى تحد - : ادعها .

فدعاها النبى - صلى الله عليه وسلم - فأقبلت الشجرة حتى وقفت بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسم -

ثم قال لها النبى - صلى الله عليه وسلم - : ارجعى مكانك - فرجعت مكانها . .

إنها حراسة السماء للنبى - صلى الله عليه وسلم - وتأييد الله له بالمعجزات حتى يبصر من كان ذا عينين ، ويعقل من كان ذا عقل . . .

ولكن هل أبصر ركانة وسمع ؟ وهاهو ذا قد لمس بنفسه معجزتين . . . إحداهما أنه على الرغم من قوته التى يفتخر بها قد هزم أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - .

لقد كان بين يدى النبى - صلى الله عليه وسلم - كالعصفور أمام نسر قوى جسور . . أية قوة هذه التى مُنحها النبى - صلى الله عليه وسلم - ؟ وأين ذهبت قوة ركانة التى اشتهر بها بين شباب قريش ؟ . . حقا إنه لعجب .

وأما الأخرى فهى تلك الشجرة الراسخة فى مكانها رسوخ الجبل إذ بها تنخلع بجذورها .

ثم تقبل مسرعة حينما صدر إليها الأمر من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمشى على الأرض وتسجد بين يدى النبى . .

كيف تمشى شجرة ؟ بل كيف تسمع وتعقل وتستجيب للأمر ؟ حقا إن هذا لشيء عجاب . .

ولكن الأعجب من ذلك أن ركانة على الرغم من أنه شاهد ماشاهد لم يزده ذلك إلا انصرافا عن الحق ولجاجة فى الشر ، وانصرف ركانة إلى قومه فقال :

يابنى عبد مناف ، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فو الله ما رأيت أسحر منه قط . ثم أخبرهم بالذى رأى والذى صنع[٦٤] . .

ويقص ابن الأثير قصة هذه الشجرة فيقول :

لقد طلب ركانة من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريه آية ليسلم ، وقريب منها شجرة ذات فروع وأغصان ، فأشار إليها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال لها :

أقبلى باذن الله ، وأقبلت حتى كانت بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ركانة : لقد أريتنى عظيما ، فمرها فلترجع ، فأخذ عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ العهد لئن أمرها فرجعت ليسلمن ، فأمرها فرجعت ـ وبالرغم من ذلك لم يسلم ركانة .

---

(٦٤) راجع هذه القصة فى سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٢٤

قال ابن الأثير : ثم أسلم بعد ، ونزل المدينة ، وأعطاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خيبر . وقيل انه من الذين أسلموا بعد الفتح[٦٥] .

إنها المعجزات المادية التى أيد الله بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكل نبى معجزاته ـ وسنقدم حديثا خاصا إن شاء الله تعالى ـ عن المعجزات ـ وقد كثرت معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت تواتيه بين الحين والحين لتكون شاهد صدق على مايدعو إليه . . . ومن ذلك ما تشير إليه قصة إسلام الطفيل :

إسلام الطفيل بن عمرو الدوسى

والطفيل ـ هو طفيل بن عمرو بن طريف بن العاص ينتهى نسبه إلى الأزد من قبيلة دوس ، الملقب بذى النور . .

ويقص علينا الرواة قصة إسلامه كما أخبر هو نفسه بها ـ فيقولون : قدم الطفيل مكة قبل هجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموقف قريش منه هو موقف المعارضة وتحذير الناس ـ وبخاصة الوافدون إلى مكة ـ منهم ، فجاء إليه رجال من قريش يقولون له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل يعنون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أظهرنا ، وقد عضل بنا ـ أى اشتد وغلظ علينا ـ وفرق جماعتنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبينه وبين زوجه ، وإننا نخشى عليك وعلى قومك ، فلا تكلمه ولا تسمع منه .

---

(٦٥) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٣٦

قال الطفيل : فو الله مازالوا بى حتى صممت على أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه ، حتى لقد حشوت أذنى كُرْسُفا ـ أى قطنا ـ خوفا من أن يبلغنى من قوله شيء وأنا لا أريد أن اسمعه .

وكان إلحاح قريش على الطفيل لما كانوا يعرفون عنه من شرفه وعقله بالإضافة إلى أنه كان شاعرا ، وللشاعر منزلته الرفيعة بين العرب ـ

قال الطفيل : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم يصلى عند الكعبة .

قال : فقمت قريبا منه . فأبى الله إلا أن يسمعنى قوله ، فسمعت كلاما حسنا . . فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله إنى لرجل شاعر لبيب ما يخفى علىّ الحسن من القبيح ـ فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل مايقول ، فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته ؟

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه .

فقلت : يا محمد ، إن قومك قالوا لى كذا وكذا ، ثم أبى الله إلا أن أسمع قولك ، فسمعت قولا حسنا ـ فاعرض علىَّ أمرك .

فعرض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه الإسلام ، وتلا عليه القرآن .

قال الطفيل : فو الله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت . وقلت : يارسول الله ، إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وسأدعوهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونا عليهم فيما أدعوهم إليه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم اجعل له آية .

قال : فخرجت إلى قومى ، حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على حاضر أهلى ، وقع نور بين عينى مثل المصباح .

فقلت : اللهم فى غير وجهى فإنى أخشى أن يظنوا أنها مُثْلَةٌ لفراقى دينهم . فتحول النور حتى جاء فى رأس سوطى . .

فجعل أهله يتراءون ذلك النور فى سوطه كالقنديل المعلق ، وهو يهبط إليهم من الثنية . فلما نزل أتاه أبوه ، وكان شيخا كبيرا فقال له الطفيل : إليك عنى يا أبت ، فلست منك ولست منى .

قال له أبوه : ولم يا بنى ؟

قال الطفيل : إنى أسلمت ـ ثم قص على أبيه قصة إسلامه ودعاه إلى الإسلام . .

فقال أبوه : يا بنى إن دينى دينك . فأسلم أبوه .

ثم أسلمت زوجته .

ودعا الطفيل قومه إلى الإسلام ، ولكنهم أبطأوا عليه ـ لقد كان لهم صنم يعبدونه اسمه « الشرَّى » يخافون منه .

وظل الطفيل زمنا يدعوهم دون أن يستجيبوا له ، فعاد الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشكوهم إليه ـ وكان النبى مازال بمكة .

فقال له : يارسول الله إنه قد غلبنى على قومى حبهم الزنا فادع الله عليهم .

ولكن النبى الذى بعثه الله رحمة للعالمين رفع يديه الى السماء وقال : اللهم اهدهم الى الحق . . . لم يدع عليهم ولكنه دعا لهم .

ثم قال للطفيل : ارجع الى قومك فادعهم وارفق بهم . . فعاد الطفيل . . . وبقى بأرض قومه يدعوهم الى الإسلام حتى هاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة وحدثت غزوة بدر وأحد والخندق . . قال :

ثم قدمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله بخيبر ، فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من قبيلة دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ فى خيبر ، فأسهم لنا مع المسلمين(٦٦) أى جعل لنا سهما من الغنائم . . .

لقد استجاب الله دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعطى طُفيلاً آيةً ، وهذه معجزة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكرامة لطفيل . . .

وهكذا كانت السماء ترقب خطوات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتمده بالآيات التى تعينه على تبليغ الدعوة وأداء الرسالة . حتى كانت المعجزة الكبرى التى تجلت فى الرحلة العظيمة التى اخترق بها ـ الرسول طباق الأرض وأجواز السماء . . . . رحلة الإسراء والمعراج .

فإلى الرحلة الكبرى

---

(٦٦) أسد الغابة جـ٣ ص ٧٩ ـ سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١٣٠

الرحلة الكبرى

- متى ومن أين بدأت الرحلة ؟
- سبب الرحلة .
- لماذا كان الإسراء من مكة ؟
- كيفية الإسراء .
- البراق .
- النبي في بيت المقدس .
- صلاته - صلى الله عليه وسلم - بالأنبياء .
- المعراج .
- فرضية الصلاة .
- الآيات الكبرى التي رآها النبي - صلى الله عليه وسلم .
- العودة من الرحلة .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الرحلة الكبرى
الإسراء والمعراج

متى ومن أين وكيف ؟

ورد ذكر الإسراء صراحة فى قوله تعالى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (٦٧)

ولم يختلف أحد من الرواة والعلماء فى ثبوت هذا الحدث ولكن الاختلاف كان فى كيفية حدوثه .. هل كان يقظة أو مناما ؟

والذى عليه جمهور العلماء أنه كان يقظة بالروح والجسد .

وقبل أن نناقش منطق المخالفين لذلك ـ نذكر الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه والذى يؤكد حدوث المعراج . حيث ان الإسراء ثابت بالآية الكريمة السابقة ، ولا مجال للاختلاف فى حدوثه ..

روى البخارى قال : حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا همام بن يحيى ، حدثنا قتادة عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ـ رضى الله عنهما ـ أن نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدثهم عن ليلة أسرى به قال :

« بينما أنا فى الحطيم ـ وربما قال فى الحجر ـ مضطجعا ، إذ أتانى آت ، فشق ما بين هذه الى هذه . وأشار الى مكان صدره .

فاستخرج قلبى ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار بيضاء فقال له الجارود : هو البراق يا أبا حمزة .

قال أنس : نعم .

---

(٦٧) الاسراء ١

فَحُمِلت عليه ، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ،

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل :

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : أو قد أرسل اليه ؟

قال : نعم

قيل : مرحبا به فنعم المجيء جاء .

ففتح ـ فلما خلصت فإذا فيها آدم ، فقال جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد السلام . ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : أو قد أرسل اليه ؟

قال : نعم

قيل : مرحبا به فنعم المجيء جاء .

ففتح ، فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى . . . قال جبريل : هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت ، فردًا عليَّ ثم قالا : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء الثالثة ، فاستفتح . فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : أو قد أرسل إليه ؟

قال : نعم . .

قيل : مرحبا به فنعم المجىء جاء .

ففتح ، فلما خلصت إذا يوسف . قال : هذا يوسف ، فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح .

قيل : من هذا ؟



قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : أو قد أرسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به فنعم المجىء جاء .

ففتح ، فلما خلصت إذا إدريس ، قال : هذا إدريس ، فسلم عليه . فسلمت عليه فرد . ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى اتى السماء الخامسة فاستفتح .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : أو أرسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجىء جاء .

فلما خلصت إذا هارون . قال : هذا هارون ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد . ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى السماء السادسة ، فاستفتح .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد

قيل : أو قد أرسل اليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحبا به ، فنعم المجىء جاء .

فلما خلصت إذا موسى . قال : هذا موسى ، فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل .

فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد ﷺ

قيل : أو قد بعث اليه ؟

قال : نعم

قيل : مرحبا به فنعم المجيء جاء .

فلما خلصت إذا إبراهيم ، قال : هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه . قال : فسلمت عليه فرد السلام .

ثم قال : مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر ، واذا ورقها مثل آذان الفيلة .

قال : هذه سدرة المنتهى . . . .

ثم رفع لى البيت المعمور ، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل . فأخذت اللبن . فقال : هذه الفطرة أنت عليها وأمتك .

ثم فرضت على الصلوات ، خمسين صلاة كل يوم .

فرجعت فمررت على موسى . فقال : بم أمرت ؟

قال النبى ﷺ : أمرت بخمسين صلاة كل يوم .

قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وانى والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عنى عشرا .

فرجعت الى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشرا .

فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشرا .

فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم .

فقال موسى : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وانى قد جربت الناس من قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

قال النبى ﷺ : سألت ربى حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم .

هذا ما ورد فى شأن المعراج ، وغير ذلك كثير . . . أما فى شأن الإسراء فقد ورد بالاضافة إلى الآية القرآنية السابقة كثير من الأحاديث . منها ما أورده البخارى فى باب الاسراء قال : حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث عن عقيل ، عن ابن شهاب حدثنى أبو مسلمة بن عبد الرحمن قال : حدثنى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول » « لما كذبتنى قريش قمت إلى الحجر ، فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر » .

وقوله :كذبتنى - أى كذبتنى فى إخبارى إياها عن الإسراء الى بيت المقدس .

وقد روى حديث الإسراء أكثر من عشرين صحابيا :

ومن الأحاديث التى أوردها القرطبى فى تفسيره ما رواه أبو سعيد الخدرى - رضى الله عنه - فى قوله تعالى :

« **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله . . .** » .

قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به قال : « أُتيت بدابة هى أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان ، وهو البراق الذى كانت الأنبياء تركبه قبل - فركبته ، فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره .

ثم استقبلتنى امرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول : على رسلك يا محمد حتى أسألك ، فمضيت ولم أعرج .

ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقتها فى الحلقة التى كانت الأنبياء توثق بها . ثم دخلت المسجد وصليت فيه . فقال لى جبريل ـ عليه السلام ـ : ما سمعت يا محمد ؟

قلت : استقبلتنى امرأة عليها من كل زينة الدنيا ، رافعة يديها ، تقول : على رسلك ، فمضيت ولم أعرج عليها .

فقال : تلك الدنيا ، لو وقفت لاخترت الدنيا على الآخرة .

قال : ثم أُتيت بإناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر . فقيل لى : خذ فاشرب أيهما شئت ، فأخذت اللبن فشربته .

فقال لى جبريل : أصبت الفطرة ، ولو أنك أخذت الخمر غوت أمتك .

ثم جيء بالمعراج الذى تعرج فيه أرواح بنى آدم فإذا هو أحسن مارأيت .

هذه بعض الأحاديث الواردة فى الإسراء والمعراج وقد ذكر أصحاب السنن والمفسرون كثيرا من الأحاديث التى تقص هذه القصة بتفصيلاتها المختلفة . وما صاحبها من أحداث نعرض لها إن شاء الله ـ تعالى ـ

وفى ضوء هذه الأحاديث والأخبار يمكن استخلاص أحداث هذه القصة فيما يأتى :

سبب الرحلة

قال كثير من العلماء : إن الله أراد أن يسرى عن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن فقد عمه وزوجته . . . ولكن هذه العلة ليست كافية وحدها لتكون سبب القيام بهذه الرحلة الكبرى التى انتقل فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عرج به إلى السموات

السبع فما فوقها .. على أن هناك من الرواة من يذكر أن الإسراء والمعراج حدثا قبل وفاة أبي طالب . وخديجة ـ رضى الله عنها ـ

بخمس سنوات أو ثلاث .. على اعتبار أن ذلك تم بعد مبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات أو سبع سنوات ..

والسبب الحقيقى لهذه الرحلة أشار إليه القرآن الكريم فى قوله « لنريه من آياتنا » .

وما يريه الله لأنبيائه من الآيات سنة درج عليها الأنبياء من قبل .. ففى حق إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقول الله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٦٨)

وفى حق موسى عليه السلام يقول الله تعالى :

﴿ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ (٦٩)

فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما هو معروف ـ يحدثون الناس عن أمور غيبية تتناول السماء والملائكة والجنة والنار وغيرها مما هو محجوب غير محسوس ، لذا يطلعهم الله على هذه الأمور ليكون إخبارهم عنها إخبارا يقينيا كما قال لابراهيم ـ عليه السلام » ـ « ليكون من الموقنين » .

ولهذا كان من أوجز وأعظم ماقيل فى تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى :

« لنريه من آياتنا »

وهذه سنة الله فى الأنبياء .

---

(٦٨) الانعام٧٥

(٦٩) طه ٢٣

ذاك أنه بعد استناد علم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين مالا يقادر قدره ، وليس الخبر كالمعاينة . . لذا فانهم يتحملون فى سبيل الله مالا يتحمل غيرهم وتصبح الدنيا عندهم بكل ما فيها كجناح بعوضة لايعبأون بها ولا يركنون إليها على الاطلاق .

ولابد لمبعوث الله إلى العالم أجمع أن يطلعه الله على بعض أسرار الكون الكبرى وأن يريه بعض الآيات العظيمة حتى تتحقق بذلك عالمية رسالته .

وقد قال الله فى هذه العالمية :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٧٠)

. . وقال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٧١)

وقال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (٧٢)

وربما طلب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ربه أن يطلعه على بعض الغيبيات كما سأل إبراهيم ربه قائلا :

﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (٧٣)

فقد ورد فيما يرويه ابن سعد فى طبقاته عن أبى بكر بن عبد الله وغيره من الذين يروى عنهم قالوا : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل ربه أن يريه الجنة والنار » .

---

(٧٠) الاعراف ١٥٨

(٧١) سبأ ٢٨

(٧٢) الأنبياء ١٠٧

(٧٣) البقرة ٢٦٠

وقد أشار فضيلة الشيخ الشعراوى الى حكمة القيام بهذه الرحلة فقال :

« ان حدث الإسراء والمعراج يعتبر حدثا ضخما من أحداث الدعوة الاسلامية سبقته البعثة وجاءت بعده الهجرة . وقد بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على فترة من الرسل ، وبعث بدين خاتم ، وبدين جامع يشمل الزمان كله والمكان كله ، لأن الرسالات السابقة كانت محدودة الزمان ومحدودة المكان ، ولكن الرسالة الاسلامية جاءت عالمية للناس كافة فى كل زمان ومكان .

واختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ لانطلاق هذا الدين أول بيت وضع للناس ، ليكون هو المكان الذى تبعث منه الدعوة الجديدة . . ومن المعروف أن مكة قد أخذت على كل القرى فى الجزيرة العربية مكان الصدارة ومكان السيادة ، وبالتالى أخذ سكانها من قريش مكان السيادة والعزة والجاه . . . . وكان ـ صلى الله عليه وسلم فى حاجة مادية الى أن يُحمى حمايتين : حماية من الكفار فى الخارج ، وحماية له فى ساعة راحته وسكونه وهدوئه فى البيت . . .

فكانت السيدة خديجة ـ رضوان الله عليها ـ هى السكن الذى يلجأ إليه فى البيت . . وكان عمه أبو طالب يحميه فى الخارج من أذى الكفار . .

ولكنَّ قَدَر الله شاء أن تموت زوجه خديجة فى العام الذى يموت فيه عمه أبو طالب ، وهنا يفقد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السكن الذى كان يأوى الى حنانه وعطفه ، كما فقد الحماية الخارجية .

ومع أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعلم تماما أن الله لا يُسلمه إلا أنه مع ذلك أخذ يُعْمل فكره وبصيرته ويخطط لينطلق بالدعوة

بالأسباب البشرية التى يقدر عليها .

فما كان منه فى هذا الجو الخانق فى مكة إلا أن يلتمس منطلقا للدعوة لعله يجد نصيرا خارجيا ، فقام برحلته إلى الطائف . ولكنه وجد خلاف ماتوقع ، فقد آذوه بالقول والفعل واضطهدوه وسلطوا عليه سفهاءهم حتى أدموا قدميه ـ كما علمنا ـ فوقف موقف الضارع الى الله يدعوه ويناجيه . .

كان دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحمل كل مقومات الايمان واليقين ، كما يعنى أنه استنفد الأسباب ، وأنه لم يجد إلا عدوا وإلا معاندا . . فلابد أن تتدخل السماء . .

سمع الله ضراعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد أن يبين له أن جفاء الأرض لا يعنى أن السماء تخلت عنه ، ولكنه سيعوضه عن جفاء الأرض بحفاوة السماء ، وعن جفاء عالم الناس بعالم الملأ الأعلى ، وأنه سيريه من آياته ومن قدرته ومن أسراره فى كونه ما يعطيه طاقة وشحنة .

إن الله الذى أراك يا محمد هذه الآيات قادر على أن ينصرك ولن يتخلى عنك .

ولكن الله تركك للأسباب أولا لتجتهد فيها حتى تكون أسوة لأمتك حتى لا تدع الأسباب وتكتفى بأن ترفع أيديها إلى السماء .

إذاً فقد كان حدث الإسراء وحدث المعراج بعده نتيجة لجفوة الأرض لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونتيجة لفقد النصير والمعاون من أهل الأرض ، فالله سبحانه وتعالى ـ شاء أن يجعل لرسوله هذه الرحلة العلوية حتى يثبت له تكريمه ، وحتى يثبت له أن فى عون الله وقدرته عوضا عن كل فاقد ، وأن الملكوت سيحتفى به حفاوة تمسح عنه كل عناء ، وتبدد عنه كل

هذه المتاعب ، وسيعطيه الله شحنة قوية لتكون أداته فى منطلقه الجديد باذن الله(٧٤) .

أما متى كان هذا الحدث فقد اختلف العلماء فى تحديد وقته .

فقيل إنه ليلة السابع عشر أو السابع والعشرين من ربيع الأول وقيل : إنه ليلة التاسع والعشرين من رمضان .

وقيل : إنه كان لسبع وعشرين ليلة خلت من ربيع الآخر ، وقيل من رجب ، وقيل فى شوال ، وقيل فى ذى الحجة . وذلك قبل الهجرة بسنة ، وبه جزم ابن حزم وادعى فيه الاجماع وقيل بسنتين ، وقيل بثلاث سنوات .

ولكن الشائع أن هذا الحدث كان فى ليلة السابع والعشرين من رجب قبل الهجرة بعام ونصف تقريبا .

وأما من أين بدأ ؟ فقد حدد القرآن الكريم المكان فقال « من المسجد الحرام » وروت أم هانيء بنت أبى طالب ـ خبرا فى ذلك قالت : « دخل علىَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بُعيد الفجر .

فقال استشعرت أنى نمت الليلة فى المسجد الحرام . . أى عند البيت أو فى الحجر ، وهو الحطيم الوارد فى بعض الروايات .

وهناك روايات تفيد أنه كان نائما فى بيت عمته أم هانيء بنت عبد المطلب فهناك رواية عنها تقول فيها : « ما أسرى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وهو فى بيتى ، نائم عندى فى تلك الليلة ، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان قبل الفجر أيقظنا وأقامنا من نومنا ـ فلما صلى الصبح

---

(٧٤) الأسراء والمعراج للشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٣١

وصلينا معه قال : يا أم هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين .

والمقصود بالصلاة هنا هما الركعتان اللتان كان يصليهما بالغداة والعشى ، وإلا فالصلاة المعروفة لم تفرض إلا فى تلك الليلة .

وفى رواية أخرى : « أنه أسرى به من شعب أبى طالب » .

والجمع بين هذه الروايات أن منطقة المسجد الحرام تجمع كل هذه الأماكن ، وبيت أم هانىء عند شعب أبى طالب . . . . ففرج عن سقف البيت الذى هو نائم فيه ، وهو بيت أم هانيء ونزل الملك وأخرجه إلى المسجد ، وأضجعه عند الحجر .

وشُقَّ صدره الشريف ، واستُخرج قلبه ، وغسل بماء زمزم ، وقد سبق أن ذكرنا أن شق صدره ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد حدث مرة قبل ذلك ، ومرة أخرى عند المبعث . .

ولعل الهدف من الشق فى هذه المرة تقويته على تحمل ما سوف يراه فى رحلته القدسية المباركة .

لماذا كان الاسراء من مكة ؟

كان الاسراء من مكة بلد « المسجد الحرام » لأنها ـ كما قال فضيلة الشيخ الشعراوى فيما سبق ـ المكان الذى انبعثت منه الدعوة الجديدة العالمية التى اختار الله لها رسولا هو خاتم الأنبياء والمرسلين « سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » .

والمقام يقتضى الاشارة الى أن هذا المكان بالذات هو قلب العالم كله وهو

بالنسبة للكون المكان الوسط الذى يشير اليه قول الحق ـ سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (٧٥)

وقد أشار إلى ذلك كثير من المفسرين . .

ويمكن الاسترشاد فى ذلك بما توصل اليه الدكتور « حسين كمال الدين » من كشف يثبت أن مكة المكرمة هى مركز اليابسة فى العالم . وأنه تمكن بواسطة الرسم الدقيق أن يكتشف أن الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة توزيعا منتظما ، وأعد خريطة للعالم قبل وبعد اكتشاف أمريكا واستراليا ، وكرر المحاولة فاذا به يكشف أن مكة هى أيضا مركز الأرض اليابسة حتى بالنسبة للعالم القديم يوم بدأت دعوة الاسلام . والرسم التوضيحى(٧٦) المرفق يبين حقيقة هذا الاكتشاف ، ويؤكد حقيقة أن مكة هى مركز الأرض ـ قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٧٧)

إكتشاف علمى مثير لباحث مصرى بالعقل الألكترونى :

مكة مركز اليابسة في الكرة الأرضية الاكتشاف الذى يجيب على سؤالين ظلا ١٤ قرناً بلا إجابة :

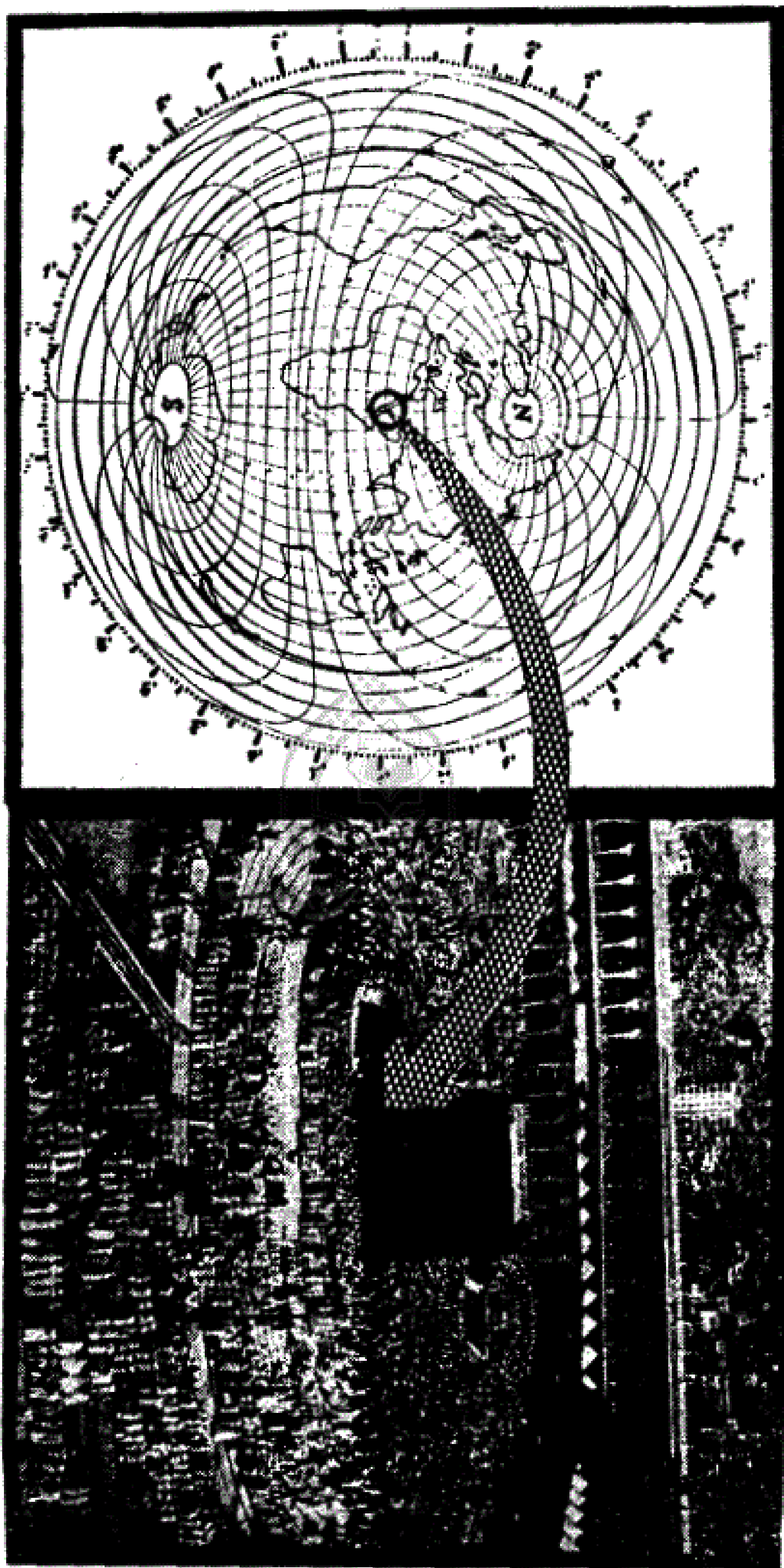
لماذا اختار الله مكة لتكون مقراً للبيت الحرام . . وتبدأ منها الدعوة إلى الرسالة العالمية .

---

(٧٥) البقرة ١٤٣

(٧٦) نشر هذا الرسم مع مقال فى صحيفة الأهـــرام بتاريخ ١٥ المحرم ١٣٩٧ هـ ـ ٥ يناير ١٩٧٧ م

(٧٧) الشورى ٧



الاكتشاف العلمى الجديد الذى يشغل العلماء الآن توصل إليه عالم مصرى ، والحقيقة العلمية التى اكتشفها ، وأعلنها أخيرا تقول إن مكة المكرمة هى مركز اليابسة فى العالم الآن ، وأنها كانت ايضا مركز اليابسة فى العالم قبل اكتشاف امريكا واستراليا . . هذه الحقيقة الجديدة لعبت الصدفة دورها فى الوصول اليها ، واستغرقت سنوات من البحث العلمى ، واعتمدت على مجموعة من الجداول الرياضية المعقدة استعان فيها العالم المصرى بالكمبيوتر . .

والعالم المصرى صاحب هذا الاكتشاف هو الدكتور حسين كمال الدين الذى يعمل الآن فى السعودية رئيسا لقسم الهندسة المدنية بكلية الهندسة بجامعة الرياض منذ عام ٧١ ، وقبل ذلك كان أستاذ كرسى المساحة بجامعة اسيوط ثم استاذا فى جامعتى القاهرة والأزهر .

والدكتور حسين كمال الدين عمره الآن ٦٢ سنة ، وتاريخه العلمى طويل ، فقد حصل على بكالوريوس الهندسة مع مرتبة الشرف من جامعة القاهرة منذ ٣٨ سنة ، وبعدها حصل على ماجستير المساحة التصويرية منذ ٣٣ سنة ، وعلى الدكتوراه فى المساحة التصويرية أيضا منذ ٢٦ سنة . . وكان عضوا فى عدة لجان علمية فى مصر ، وله ٧ كتب معروفة تعتبر من المراجع الأساسية فى المساحة والفلك ومساحة المناجم والمساحة التصويرية بالاضافة الى أبحاث علمية عديدة ، عن استخراج الطاقة الكهربائية من منخفض القطارة فى مصر . وخرائط البحث عن المنجنيز . .

خريطة جديدة للأرض

ويروى الدكتور حسين كمال الدين قصة هذا الاكتشاف الغريب ، يقول : إنه بدأ البحث وكان هدفه مختلفا تماما ، كان يجرى بحثا ليعد وسيلة

تساعد كل شخص فى اى مكان من العالم على معرفة وتحديد مكان القبلة ، لانه شعر ـ فى رحلاته العديدة للخارج ـ أن هذه هى مشكلة كل مسلم عندما يكون فى مكان ليست فيه مساجد تحدد مكان القبلة ، أو يكون فى بلاد غريبة كما يحدث لمئات الآلاف من طلاب البعثات فى الخارج .

وقبل ذلك قام الدكتور حسين كمال الدين بتصميم أكثر من جهاز صغير يستطيع الانسان ان يضعه فى جيبه أو يحمله معه فى اى مكن ، ليساعده على تحديد اتجاه القبلة فى اوقات الصلاة ، لكنه ـ كما يقول ـ لم يوفق حتى الآن فى تصنيع أى واحد من هذه النماذج ليكون فى متناول ايدى الناس بثمن معقول ، وذلك لعدم وجود رأس المال اللازم للبدء فى التصنيع . . لذلك فكر الدكتور حسين فى عمل خريطة جديدة للكرة الارضية لتحديد اتجاهات القبلة عليها ، وكان يتصور ان طبع مئات الآلاف من هذه الخريطة لن يكلف كثيرا . . وبعد أن وضع الخطوط الأولى فى البحث التمهيدى لاعداد هذه الخريطة ، ورسم عليها القارات الارضية ظهر له فجأة هذا الاكتشاف الذى أثار دهشته .

فقد وجد العالم المصرى ان موقع مكة المكرمة فى وسط العالم ، وامسك بيده « برجلا » وضع طرفه على مدينة مكة ، ومر بالطرف الآخر على أطراف جميع القارات فتأكد له ان الأرض اليابسة على سطح الكرة الارضية موزعة حول مكة توزيعا منتظما ـ ووجد ان مكة ـ فى هذه الحالة ـ هى مركز للأرض اليابسة . .

وأعد خريطة للعالم القديم ـ قبل اكتشاف امريكا واستراليا ـ وكرر المحاولة ، فاذا به يكتشف ان مكة هى ايضا مركز الأرض اليابسة حتى بالنسبة للعالم القديم ، يوم بدأت الدعوة للاسلام . .

الصدفة لعبت دورها

ويدهشة العالم حين يكتشف شيئا جديدا ، يقول الدكتور حسين ، لقد بدأت بحثي برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الارض عن مدينة مكة ، ثم وصلت بين خطوط الطول المتساوية مع بعضها لاعرف كيف يكون اسقاط خطوط الطول وخطوط العرض بالنسبة الى مدينة مكة ، وبعد ذلك رسمت حدود القارات وباقى التفاصيل على هذه الشبكة من الخطوط ، واحتاج الأمر الى اجراء عدد من المعادلات والعمليات الرياضية المعقدة بالاستعانة بالكمبيوتر لتحديد المسافات والانحرافات المطلوبة ، وكذلك احتاج الأمر الى برنامج آخر للكمبيوتر لرسم خطوط الطول وخطوط العرض لهذا الاسقاط الجديد ، وأعد البرنامجية للكمبيوتر عالم مصرى متخصص هو الدكتور محمد الشافعى عبد اللطيف . .

وبالصدفة وحدها اكتشفت أنى أستطيع أن أرسم دائرة يكون مركزها مدينة مكة وحدودها خارج القارات الارضية الست ، ويكون محيط هذه الدائرة يدور مع حدود القارات الخارجية . .

ويقول العالم المصرى . . حسين كمال استطعت ان افهم بعض آيات القرآن فهما جديدا ، مثل الآية التى تقول :

وكذلك جعلناكم أمة وسطا ،

والآية التى تقول :

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا

وعرفت الحكمة الآن من اختيار مكة بالذات ليكون فيها البيت الحرام ، واختبار مكة بالذات لتكون نواة لنشر رسالة الاسلام للعالم أجمع .

جريدة الأهـــــرام ـ الأربعاء ١٥ من المحرم ١٣٩٧ هـ ـ ٥ يناير ١٩٧٧ م . . .

كيفية الإسراء

أما كيفية الإسراء فقد كان بالروح والجسد معا خلافا لمن يقول إنه بالروح فقط أو أنه كان رؤيا منامية .

ويتكفل فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى بمناقشة منكرى الاسراء بالروح والجسد فيقول : لقد استهل الله هذا الحدث بقوله ـ تعالى « سبحان »

ومعنى « سبحان » أول ماتقع على الذهن أنها تعطى الانسان طاقة قوية تبعد عنه كل شبه للمقارنة بين قانون المادة الأرضى الانسانى البشرى ، وبين قانون الله .

فمعنى سبحان الله أن الله منزه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، عن قوانين البشرية . . والله هو الذى أسرى بعبده ، ومحمد ـ ﷺ ـ لم يسر بنفسه . ومادام الفعل منسوبا إلى الله فعلينا أن نستبعد قانون البشرية . .

إن شبهة الذين يزعمون أن الإسراء كان مناما هو طول المسافة بين مكة وبيت المقدس . تلك المسافة التى قدروها بقولهم : نحن نضرب اليها أكباد الإبل شهرا .

ولو كان الاسراء رؤيا منامية ماكان هناك مماراة فيها ، لأن المنام لايمارى فيه فإذا رأى أحد فى منامه أنه قد ذهب إلى لندن مثلا فى هذه الليلة وعاد ، فإن أحدا لايناقشه فى ذلك . .

لأن المسألة مسألة رؤيا منامية . . ولكن الإسراء لم يكن رؤيا منامية وقد فهم المشركون أنها ليست رؤيا منامية ولذلك ردوا على النبى بذلك الأسلوب الانكارى : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهرا ؟ . . ومادموا قد ناقشوا فيها ووقفوا هذه الوقفة الانكارية فهذا

دليل على أنهم قد فهموا أن ماحدث كان يقظة وليس مناما .

من أين جاءت شبهة الرؤيا ؟

وشبهة الذين يقولون إنها رؤيا منامية جاءت من قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (٧٨)

والرد على ذلك سهل . . ذاك أنه إذا كانت رؤيا منامية فكيف تكون فتنة للناس ؟

لأن معنى فتنة أن بعض الناس يصدق وبعضهم يكذب ، ولو كانت رؤيا منامية ماناقشها أحد لا تصديقا ولا تكذيبا .

إن الذى يقول إنها رؤيا منامية يقف عند حدود لفظ « رؤيا » ويفسره بأن هذا اللفظ بهذه الصورة لايكون إلا لما يراه النائم ، أما مايراه المستيقظ فيقال له رؤية .

وهذا الفهم وإن كان شائعا بين الناس إلا أنه لايتفق مع حقائق اللغة . فالرؤيا فى اللغة الفصيحة وردت على ألسنة العرب القدامى بمعنى الرؤية البصرية أيضا . وقد نقل ذلك ابن منظور فى لسان العرب عن ابن برى العالم اللغوى المشهور واستشهد على ذلك بقول الشاعر العربى :

فَكَبر للرؤيا وهش فؤاده

وبشر نفسا كان قبل يلومها

قال : وعلى ذلك فُسِّر قوله ـ تعالى ـ

« وماجعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس »

---

(٧٨) الأسراء ٦٠

وعليه أيضا جاء قول أبي الطيب المتنبى :

ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض[٧٩]

وإذن فقد استعملت الرؤيا بمعنى الرؤية البصرية وبمعنى الرؤيا المنامة ، فلماذا تنصرف إلى المنامية فقط فى هذه الآية ، مادام يمكن فهمها على أنها بصرية ؟

أما إيثار استعمال كلمة « الرؤيا » فى الآية على كلمة « الرؤية » التى لايوهم استعمالها ، فلذلك علته . وهو الاشارة إلى أن هذا الحادث أمر عجيب غريب يصعب إدراكه حسا حتى كأنه رؤيا منامية . . ولذلك جاء بعدها قوله سبحانه : « فتنة للناس » والرؤيا المنامية لا تفتن الناس بأى حال . . ولم يحدث على الاطلاق أن اختلف الناس مع واحد رأى فى منامه رؤيا مهما كانت هذه الرؤيا مغرقة فى البعد والاستحالة . . . وذكر بعض العلماء أنه لا يمتنع أن يكون الرسول ـ ﷺ ـ رأى مارآه مناما ثم رآه بعد ذلك يقظة مما أحدث هذه الفتنة بين الناس ، واستدل على ذلك بالمعنى اللغوى الذى تؤديه كلمة « جعل » فإن « جعل » التى تتعدى إلى مفعولين تقتضي وجود شيئين : مجعولا ومجعولا منه والمجعول كان موجودا ثم تحول إلى شيء آخر . .

فإنك تقول مثلا : جعلت الخشب مكتبا ، فالخشب كان موجودا ثم صار بكلمة « جعل » إلى شيء آخر هو المكتب .

وقوله ـ تعالى

« وماجعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة » يقتضى أن الرؤيا كانت موجودة ، ثم

---

(٧٩) لسان العرب جـ٣ ص.١٥٤١ مادى رأى

انقلبت إلى حقيقة حتى تكون فتنة ـ ولو ظلت الرؤيا على مفهومها المنامى لم تصبح فتنة للناس . .

وقد رأى النبى ـ ﷺ ـ أشياء كثيرة فى منامه ثم تحولت إلى حقائق ، وذلك مثل فتح مكة الذى أشار اليه الحق بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ (٨٠)

لقد كان فتح مكة رؤيا ثم أصبح حقيقة واقعة . .

فكذلك الأمر بالنسبة للاسراء ، كان رؤيا سابقة للنبى ﷺ . . ثم أصبح حقيقة واقعة . .

واذن فلا مانع من أن يكون الرسول ـ ﷺ ـ قد تعرض لحدث الإسراء مناما ، وتعرض له روحا ثم تعرض له بعد ذلك يقظة ، والسيدة عائشة رضى الله عنها تقول : « إنه ـ ﷺ ـ مارأى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح »

من تذوقات اللغة

ويلفتنا فضيلة الشيخ الشعراوى ـ حفظه الله ونفعنا بعمله ـ إلى معنى جميل فى استعمال لفظ « بعبده » فى قوله ـ تعالى ـ

« سبحان الذى أسرى بعبده »

فيقول : إن الله أتى بصفة العبودية لله التى هى باب العطاء من الله . لأن كل الديانات جاءت لكى تصحح عبوديتنا لله ، وكل رسول من الرسل قدوة لنا ، فلابد أن يكون قدوة فى العبودية .

---

(٨٠) الفتح ٢٧

والعبودية لفظ قد يمقته الناس ، ولكنهم يمقتونه إذا كان مستعملا فى استعباد مخلوق لمخلوق ، لأن عبودية الخلق تعطى خير العبد لسيده . فالسيد يمتص خير عبده ويستغله أسوأ استغلال .

ولكن عبودية الخلق لله ـ سبحانه وتعالى ـ تعطى الخير كل الخير للعبد ، فالعبودية له شرف ، وكلما زادت العبودية زادت منن العطاء من الله ـ تعالى ـ لعبده ، وكلما أخلص العبد فى عبوديته أفاض عليه المولى أكثر وأكثر . .

وكلمة العبد لا تطلق الا على الروح والجسد معا ، فلايقال للروح وحده عبد ، ولا للجسد وحده عبد ، وإنما يطلق هذا اللفظ على الانسان حينما توجد فيه المادة والروح .

البراق

واستخدم النبى ـ ﷺ ـ فى انتقاله فى رحلته هذه ـ البراق . .

وفى كتاب « حياة الحيوان للدميرى » وصف للبراق ، نذكر منه مايأتى : ـ

البراق هو الدابة التى ركبها سيد المرسلين ـ ﷺ ـ ليلة الاسراء ، وركبها الانبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهى مشتقة من البرق الذى يلمع فى الغيم . وفى ذلك إشارة الى سرعته الخاطفة

وفى الصحيح أنه دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ، يضع خطوه عند أقصى بصره ـ ويؤخذ من هذا أنه قطع المسافة من الأرض إلى السماء فى خطوة ، وإلى السموات السبع فى سبع خطوات ، وبه يرد على من استبعد احضار عرش بلقيس أمام سليمان ـ عليه السلام ـ فى لحظة واحدة .

وقد شمس[٨١] البراق حين امتطاه النبى - ﷺ - فقال له جبريل - عليه السلام - أما تستحيى يابراق ؟ فماركبك عبد قبل محمد أكرم على الله منه . أما سبب شموسه فى رأى بعضهم فقد كان لبعد عهده بالانبياء ، وطول الفترة بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام .

ويقال : إن البراق يبعث يوم القيامة ليركبه النبى - ﷺ - فقد روى الحاكم وغيره عن سويد بن عمرو أن النبى - ﷺ - قال : حوضى أشرب منه يوم القيامة أنا ومن استسقانى من الانبياء عليهم السلام ، ويبعث الله لصالح ناقته يحلبها ويشرب هو والذين آمنوا معه ، ثم يركبها حتى يوافى بها الموقف ولها رغاء . فقال له رجل : يارسول الله وأنت يومئذ على العضباء ؟ - اسم ناقة رسول الله - قال - ﷺ - : « تلك تحشر عليها ابنتى فاطمة ، وأنا أحشر على البراق به أُخَصُّ به دون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام »[٨٢]

أما سرعة البراق فهى قياسية ، بل هى فوق القياس ، انها تدخل فى نطاق القدرة الالهية التى تفوق مقاييش البشر .

لقد خرق الله له قانون الزمن وقانون المسافة ، وطوى له الأرض وطوى له الفضاء ، وطوى له السماء ، فجعل ينقله بين طبقاتها كلما اجتاز سماء أدخله سماء أخرى حتى جاوزها جميعا الى ماوراء ذلك من غيب لا يعلمه الا الله . .

وإنه لمن الجهل ان تخضع هذه الرحلة للمقاييس البشرية والزمنية العادية - إن بشرية محمد - ﷺ - ملغية فى هذا الحدث - كما قال الشيخ

(٨١) استعصى على الانقياد

(٨٢) حياة الحيوان جـ ١ ص ١٩٦ ط التحرير

الشعراوى - إنه محمول فى هذه الرحلة على قانون خالقه - جل وعلا -

واذا نظرنا إلى القوة فى العقل وإلى المسافة والزمن وجدنا ان الزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً ، بمعنى أن القوة اذا زادت قل الزمن ، فقطع أى مسافة على بعير مثلا يختلف عن قطعها فى سيارة أو طائرة أو صاروخ ، فاذا كان الحدث بقوة الله فانسب الزمن الى قوة الذى فعل وهو الله ، واذا نسبت الحدث اليه لا تحتاج لزمن أبداً . . . لأن قوة الله قوة القوى . كن فيكون »(٨٣)

النبى فى بيت المقدس

اتجه النبى - صلى الله عليه وسلم - فى رحلته وجبريل فى صحبته - الى بيت المقدس حتى وصلا اليه . .

وفى الطريق كما يروى بعضهم - قال جبريل للنبى - ﷺ - : انزل فصل هنا . وكانت أرضا ذات نخل .

فنزل النبى - ﷺ - وصلى ، ثم ركب .

فقال له جبريل : أتدرى أين صليت ؟

قال : لا .

قال : صليت بطيبة واليها المهاجرة .

ثم سارا ، حتى بلغ أرضا فقال له جبريل : انزل فصل هنا ، ففعل ، ثم ركب .

فقال له جبريل : أتدرى أين صليت ؟

قال : لا .

---

(٨٣) الإسراء والمعراج - الشيخ الشعراوى ص ٦٣

قال : صليت بمدين .

ثم ركب وانطلق بهما البرق ، حتى قال جبريل ـ عليه ا لسلام ـ انزل فصل .

ففعل ثم ركب . فقال له : أتدرى أين صليت ؟

قال : لا .

قال : صليت ببيت لحم . وهى قرية تلقاء بيت المقدس ـ ولد فيها المسيح ـ عليه السلام ـ وقيل انه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر على قبر ابراهيم ـ عليه السلام ـ ونزل فصلى ركعتين .

لقد كانت رحلة روحية الى جانب أنها رحلة إيناسية استطلاعية . .

وانتهى النبى ـ ﷺ ـ الى بيت المقدس ، فأوثق جبريل البراق بالحلقة التى بالباب ، والتى كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يوثقون بها البراق وقيل إن جبريل عليه السلام خرق الصخرة باصبعه وشد فيها البراق . .

صلاته بالأنبياء

ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « فنشر لى رهط من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيهم ابراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فصليت بهم وكلمتهم »

وقال العلماء فى ذلك : أرسل الله ملكا فنادى بالأذان ثم أقام .. فقام الأنبياء صفوفا ـ ينتظرون من يؤمهم ، فأخذ جبريل بيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقدمه فصلى ركعتين .

وفى هذه الصلاة نزل قوله تعالى :

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٨٤)

جاء فى تفسير القرطبى : قال ابن عباس وابن زيد : لما أسرى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بعث الله له آدم ومن ولد من المرسلين ، وجبريل مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فأذن جبريل - عليه السلام - ثم أقام الصلاة ، ثم قال : يامحمد تقدم فصل بهم ، فلما فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال له جبريل : سل يامحمد من أرسلنا قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا أسأل قد اكتفيت . قال ابن عباس : كانوا سبعين نبيا منهم ابراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - فلم يسألهم لانه كان يعلم ذلك .

وفى غير هذه الرواية : فصلوا خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبعة صفوف المرسلون ثلاثة صفوف ، والنبيون أربعة . كانْ يلى ظهر النبى - صلى الله عليه وسلم - إبراهيم خليل الله ، وعلى يمينه إسماعيل ، وعلى يساره إسحاق ثم موسى ، ثم سائر المرسلين فأمهم ركعتين .

فلما انفتل من صلاته قام فقال : إن ربى أوحى إلىَّ أن أسألكم هل أُرْسِل أحد منكم يدعو إلى عبادة غير الله ؟

---

(٨٤) الزخرف ٤٥

فقالوا : يامحمد إنا نشهد أنا أرسلنا أجمعين بدعوة واحدة هى أنه لا إله إلا الله ، وان ما يعبد من دونه باطل ، وأنك خاتم النبيين وسيد المرسلين ، قد استبان ذلك لنا بامامتك إيانا ، وإنه لانبى بعدك الى يوم القيامة(٨٥)

وصلاته بالانبياء لايمنعها عقل المؤمن . . . ولم لا ؟ وقد حرم الله على الأرض أجساد الأنبياء وفى قدرته تعالى أن يعيد الحياة الى الأجسام متى شاء . والمشهور أن صلاته بالانبياء قبل العروج الى السماء ـ ولا معنى للسؤال عن أى صلاة كانت هذه الصلاة التى أمهم فيها ـ فهى صلاة نفلية تهجدية فإن الصلاة الفرضية المعروفة لم تكن قد فرضت بعد فقد فرضت بعد صلاته بهم ، وعقب عروجه الى السماء ـ وكان قد سبق وصلى ركعتى العشى اللتين كان يصليهما قبل فرضية الصلاة . . . وذلك فى مكة قبل بدء الرحلة ، وسوف يصلى ركعتى الغداة وهى صلاة الصبح عقب عودته من الرحلة ، كما سنعلم ، وكما جاء فى حديث الإسراء . .

« وأخبرنا الرواة أنه قدم للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدحان أحدهما من لبن والآخر من خمر ، فتناول إناء اللبن وشربه ، وترك إناء الخمر . . فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ الحمد لله الذى هداك للفطرة . . إن اللبن هو رمز الفطرة ، وقد قال الله ممتنا به على عباده .

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ (٨٦)

روى ابو داود وغيره عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : أُتِىَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلبن فشرب ، فقال رسول الله ـ صلى الله

---

(٨٥) تفسير القرطبى ـ سورة الزخرف

(٨٦) النحل ٦٦

عليه وسلم ـ : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه ، واذا سقى لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزى عن الطعام والشراب إلا اللبن .

وقال علماؤنا ـ فيما يرويه القرطبى فى تفسيره ـ : وكيف لايكون ذلك وهو أول ما يتغذى به الانسان وتتكون به الأبدان ؟

فهو قوت خلى من المفاسد . . به قوام الأجسام ، وقد جعله الله ـ تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التى هى خير الأمم . . جاء فى الصحيح : « فجاءنى جبريل بإناء من خمر واناء من لبن ، فاخترت اللبن ـ فقال لى جبريل : اخترت الفطرة ، أما انك لو اخترت الخمر لغوت أمتك » ثم إن فى الدعاء بالزيادة منه ـ علامة الخصب وظهور الخيرات والبركات ، فهو مبارك كله(٨٧)

المعراج

ثم عرج به ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى السموات العلا . . ووسيلة المعراج قيل : هى البراق ايضا ـ وقيل هى آلة العروج ، وقد ورد فى خبر رواه ابن كثير فى حديث عن أبى سعيد الخدرى قال فيه : ـ « ثم أُتيت بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح بنى آدم ، لم ير الخلائق أحسن من المعراج ، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحا الى السماء ، فإنما يشق بصره طامحا الى السماء عجبه بالمعراج .

قال : فصعدت انا وجبريل الى سماء الدنيا . . فاستفتح جبريل باب السماء فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

---

(٨٧) تفسير القرطبى ـ سورة النمل ص ٣٧٤٣ ط دار الشعب

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : أوقد بعث اليه ؟

قال : نعم (٨٨)

وفى السماء الاولى آدم ـ عليه السلام ـ وقد وصفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : فإذا أنا بآدم ـ كهيئته يوم خلقه الله تعالى ، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ـ فيقول : روح طيبة ونفس طيبة ، اجعلوها فى عليين . . ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة ، اجعلوها فى سجين .

أما السماء الثانية فكان فيها يوسف عليه السلام . . وقد وصفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا :

فاذا أنا برجل من أحسن ما خلق الله عز وجل ، قد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، قلت : ياجبريل : من هذا ؟ قال : اخوك يوسف ، ومعه نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلم علىَّ .

وفى السماء الثالثة كان يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ

وفى السماء الرابعة كان ادريس الذى قال الله تعالى فى حقه .

﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ ﴾ (٨٩)

وفى السماء الخامسة كان هارون ـ عليه السلام ـ وقد وصفه النبى صلى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله : نصف لحيته أبيض ونصفها أسود ، تكاد تصيب سرته من طولها ، قلت : ياجبريل من هذا ؟ قال : هذا المحبب فى

---

(٨٨) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢١ ط دار الشعب

(٨٩) مريم ٥٧

قومه ، هارون بن عمران ومعه نفر من قومه ـ فسلمت عليه وسلم عليَّ .

كما وصف موسى ـ عليه السلام ـ الذى وجده فى السماء السادسة قائلا : كان رجلا آدم كثير الشعر ، لو كان عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص ـ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلت لجبريل من هذا ؟

قال : هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ـ ومعه نفر من قومه ، فسلمت عليه وسلم عليَّ .

أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكان فى السماء السابعة مسندا ظهره الى البيت المعمور ، وهو كأحسن الرجال . .

وقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلمَ ـ أمته شطرين : شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمد . . ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ البيت المعمور ودخل معه أصحاب الثياب البيض ، وحجب أصحاب الثياب الرمد ـ قال : وهم الى خير ـ ولعل الثياب الرمد اشارة الى أولئك المقصرين من الناس الذين يدخلون فى شفاعة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشير إلى ذلك بقوله « وهم الى خير » وقد أوضحت الآيات الكريمة الآتية أحوال أمة النبى ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يدعو الى التفاؤل بشأنهم ، والفرح بهذا النبى الكريم الذى أكرم الله أمته بسببه فقد قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٩٠) »

ويؤكد هذه البشرى الطيبة ما رواه أسامة بن زيد ، أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ هذه الآية وقال : كلهم فى الجنة ، وقرأ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية ثم قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له (٩١) »

ثم صلى هو ومن معه فى البيت المعمور . .

قال : ثم رفعت الى سدرة المنتهى فإذا فيها عين تجرى يقال لها سلسبيل ، ينشق منها نهران ، أحدهما الكوثر ، والآخر يقال له ؛ نهر الرحمة . فاغتسل فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وعاين الجنة وأنهارها التى وصفها القرآن الكريم بقوله :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (٩٢)

ولقد وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انهارها وثمارها وطيرها وعقب على ذلك بقوله : « إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لاعين رأت ولا

---

(٩٠) فاطر ٣٢ : ٣٥

(٩١) تفسير القرطبى ـ سورة فاطر ص ٥٤٢٨ ط دار الشعب

(٩٢) محمد ١٥

أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »

وبشر بعض أصحابه بما اعد لهم من طيبات .

فرضية الصلاة

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : فدفعت الى سدرة المنتهى ، فتغشانى النور - ونزل على كل ورقة - من اورق سدرة المنتهى - ملك من الملائكة

قال : وفرضت عليَّ خمسون - صلاة - وقال الله تعالى - له : لك بكل حسنة عشر ، إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة فإذا عملتها كتبت لك عشرا ، واذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء ، فإذا عملتها كتبت عليك سيئة واحدة . . وهذا إعلام لأمته - صلى الله عليه وسلم -



محاورة بين النبى وموسى عليهما السلام .

وعاد - صلى الله عليه وسلم - فاستقبله موسى - عليه السلام - فقال له : بم أمرك ربك ؟ قال النبى - صلى الله عليه وسلم - بخمسين صلاة .

قال : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، وقد بلوت الخلق قبلك . .

فرجع النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارب خفف عن أمتى - فانها لا تطيق ذلك . فوضع الله عنه عشرا ، وجعل الصلوات أربعين .

واستقبله موسى ايضا بمثل ما استقبله فى المرة الاولى . . وطلب منه مناشدة ربه التخفيف .

فعاد النبى - صلى الله عليه وسلم - الى الله ورجاه أن يخفف عن امته ، فحط عنه عشر صلوات ، فأصبحت الصلوات ثلاثين .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمازلت اختلف بين ربى وموسى ، كلما أُتيت عليه قال لى مثل مقالته ــ الأُولى ـ حتى رجعت إليه فقال لى ؛ بم أمرت ؟

قال : فقلت : أمرت بعشر صلوات .

قال : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك .

فرجع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى ربه فقال ؛ أى رب خفف عن أمتى . . .

فوضع الله عنه خمس صلوات .

وسمع نداء يقول له :

« تممت فريضتى ، وخففت عن عبادى ، وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها »

ثم رجع النبى صلى الله عليه وسلم ـ إلى موسى . فقال له : بم أمرت ؟

فقال : أمرت بخمس صلوات .

قال موسى : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : رجعت إلى ربى حتى استحييت .

ولنا أن نقف وقفة تأمل أمام هذه المحاورة . .

ولنتأمل أولا : لماذا فرضت الصلاة فى هذا المكان بالذات ، وفى هذه الليلة المباركة ومن فوق سبع سنوات ؟

ان هذا يدل على أهمية الصلاة ، وأنها هى الصلة بين العبد وربه ، وأن الله ما خلق الانسان إلا لعبادته ، ومظهر العبادة العملى هو الصلاة أولا ثم بقية الشعائر بعد ذلك . . فالصلاة تجمع كل العبادات ، ثم هى الذكر الخالص

لله ـ قال ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾(٩٣)

وقد قال فضيلة الشيخ الشعراوى فى ذلك : فرضية الصلاة كانت بالمباشرة لأهميتها ولم تكن عن طريق جبريل كما كانت العبادات الاخرى ، لأنه ليس للصلاة عمل إلا أن تقربك من الله . . ان الانسان هو صناعة الله ، فالله هو صانعه ، وصنعة تقف أمام الذى صنعها كل يوم خمس مرات فلابد ان تكون على أوفى شيء من الضبط ، واذا كان المهندس من البشر يصلح الآلة بشيء مادى يصنعه فيها فان الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يصلح عبده الذى يقف بين يديه فى لحظة القرب بأمر غيبى ، وليس بعملية مادية ، ولذلك يخرج المصلى من بين يدى ربه وقد استراح وتبددت همومه واكتسب طاقة ايمانية (٩٤)

فعظمة الصلاة اقتضت ان يستدعى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الحضرة الالهية ليتلقى الأمر بها . . ولجلالها ولروعتها ولعظمتها ولحسن أثرها كان الاكثار منها يقرب العبد من ربه . . لأن العبد يقف فى الصلاة بين يدى ربه مفرغا لخدمته ومناجاته ، وما ذلك إلا لحبه لله وحب الله له . . ولنتأمل بعد ذلك فى هذه المحاورة التى تمت بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين موسى ـ عليه السلام ـ ولماذا طلب موسى ـ عليه السلام ـ من النبى ﷺ أن يسأل ربه التخفيف عن هذه الأمة ؟ وهذا سؤال قد أورده البعض ، وقد تكفل الشيخ الشعراوى ـ حفظه الله ونفعنا بعلمه ـ بالإجابة عن ذلك فقال : الرواية التى قالت لنا : إن الله قد فرض علينا خمسين

---

(٩٣) طه ١٤

(٩٤) الاسراء والمعرج ـ الشيخ الشعراوى ص ١١٠

صلاة وبعد ذلك ذهب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى موسى ، فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، وتكرر ذلك حتى صارت خمسا .

هنا كلام أحب أن يلتفت اليه المسلمون جيدا ، وهو ان كراهيتنا لليهود نجمت من حبنا لموسى عليه السلام - فقد أوذى من اليهود أشد الايذاء ، ورفضوا تنفيذ ما أمرهم به ، وغيروا وبدلوا . وطلبوا ما لا يصح ان يطلبه عاقل ، وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم - ولذا فان موسى عليه السلام - طلب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف لأنه خبر طبائع البشر ، وعرف ان التكاليف تشق على الناس ، وليس ذلك لوصاية منه على هذه الأمة . . لأن الوصاية تكون من الانسان الذى يأتى ليفرض عليَّ أكثر مما فرض عليَّ .

أما الذى يأتى للتخفيف فلا يوصف بالوصاية ، لأنه يريد ان يخفف عنى أمورا يعلم أننى لا أطيقها .

وقد جرب موسى - عليه السلام - الأمم قبل النبى - صلى الله عليه وسلم - فلم يكن الله قد فرض على قوم موسى الا صلاتين : صلاة بالغداة وصلاة بالعشى ، ومع ذلك فلم تقم أمته بها . ولهذا طلب من رسول الله ان يعود ويسأل ربه التخفيف حتى تستطيع الأمة المحمدية ان تقوم بما كلفت به خير قيام . . فهذا دليل على أنه يحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويحب أمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو لا يريد ان تفعل هذه الأمة مثل ما فعلت أمته فقد أراد - عليه السلام - لأمة محمد الاستقامة على الطاعة والمواظبة عليها ، لان التكاليف إذا كثرت شقت على النفس ، وصعب عليها

المداومة على فعلها ، وانقطعت عنها . وهذا ما خشيه موسى عليه السلام ـ على أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم (٩٥)

ويأتى تساؤل آخر هو :

إذا كان الله قد أراد أن تكون الصلاة خمسا فلماذا فرض خمسين أولا ؟

لعلنا نكون قد أشرنا إلى الاجابة على هذا السؤال قبل ذلك حين قلنا : ان الله قد أراد بذلك صالح الأمة الاسلامية . . فالتكليفات من الله ليست لحاجة الله إلى فعلنا وانما هى لصالحنا نحن ولما يعود علينا من جزاء وثواب نظير هذا التكليف .

ومع ذلك فان الله لم ينقص من الأجر بانقاص الصلاة إلى خمس ، فقد جعل ثواب الخمس هو ثواب الخمسين ، واذاً فالعطاء غير متناسب مع العمل ، بل العطاء أجل وأعظم . .

لقد خفف الله العمل الموصل إلى الثواب ، ولم ينقص الثواب . .

قال الشيخ الشعراوى : ولقائل ان يقول : كيف ينسخ الله الحكم قبل ان تُمكّن من الفعل ؟

والرد عليه : أن الناس يفهمون أن مراد التكليف من الله إنما هو فعل الشيء المكلف به فقط . . ولكن المراد من كل تكليف من الله لخلقه أمران ،

الأمر الأول الايمان بالتكليف وعدم رده .

والأمر الثانى فعله .

فاذا قبلت الأول فقد أخذت شقا من الأمر بالتكليف ويبقى الثانى وهو فعله .

ولتوضيح ذلك نضرب هذا المثل :

إبليس عصى ربه ، وآدم عصى ربه ، فلماذا طرد إبليس من رحمة الله ؟ ولماذا

---

(٩٥) انظر المرجع السابق ص ١١٤

تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ؟

والاجابة : هى ان ننظر إلى معصية كل منهما .. فمعصية إبليس كانت فى انه رد الأمر التكليفى على الله ، فقال :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ (٩٦)

وكأنه قال : أنا لا يعجبنى هذا التكليف ، فأنا خير منه ..

ولكن آدم ـ عليه السلام ـ لم يرد التكليف على الله ، بل اتهم نفسه وقال :

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (٩٧)

فحين كلف الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلاة خمسين قبلها رسول الله ، وانصاع لأمر التكليف ولم يعارض فيه . ولكنه رجع على سبيل الرجاء لا الاعتراض . فالمنسوخ ليس قبول التكليف ولكنه أداء الخمسين التى صارت الى خمس منَّةً من الله ورحمةً بعباده .

ويشبه هذا أمر ابراهيم ـ عليه السلام ـ بذبح ولده .. فقد انصاع ابراهيم واسماعيل ـ عليهما السلام ـ ولم يردا على الله التكليف .. فنسخ الله أمره تكريما لابراهيم وولده ، وفدى الولد بذبح عظيم .

واذن فالأمر التكليفى يتطلب شيئين : الايمان به وقبوله . ثم فعله ، فاذا جاء واحد لا يصلى ، يقال له : أنت لا تصلى ، فهل أنت منكر للصلاة أو

---

(٩٦) الاسراء ٦١

(٩٧) الأعراف ٢٣

كسلان ؟ فان كان منكرا يقال له كفرت ـ لأنه رد الفعل على الله . وان كان متكاسلا فهو عاص يوجه نظره إلى وجوب أدائها .

كيف يلتقى الأحياء بالأموات ؟

لقد رأينا كيف التقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الرحلة الكبرى بالأنبياء ودارت بينه وبينهم أحاديث . والمعروف ان هؤلاء الأنبياء الذين التقى بهم قد ماتوا . . وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حيا . فكيف التقى بهم اذن ؟

وقد رأينا ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفهم بصورتهم الجسمية التى كانوا بها فى الدنيا ، فكيف يكونون بهذه الاجساد فى السماء ؟

وهذه تساؤلات لابد ان تثور فى عقل القارىء المفكر ، ولابد من إجابة عليها حتى يطمئن قلبه وتهدأ نفسه ويهتدى عقله .

والاجابة تتمثل فى وجوب الرجوع إلى الآيات القرآنية التى لو وقف الانسان عندها بإمعان لأمكنه ان يأخذ الأصل الذى يعتمد عليه فى إيمانه بتلك الرحلة وما حدث فيها .

ان لروح كل منا اتصالات مختلفة تحكمها قوانين ثابتة .

واتصال الروح بصاحبها فى حالة اليقظة لها قانون ، واتصالها به فى حالة النوم لها قانون آخر ، واتصالها به فى عالم البرزخ لها قانون ثالث .

ونحن فى الحياة لنا حالتان فقط ، حالة النوم وحالة اليقظة . . ففى حالة النوم ، قد يرى لانسان فى منامه ان فلانا يرتدى ملابس حمراء ، وآخر يرتدى ملابس خضراء . وهو يرى هذه الالوان مع ان عينيه مغمضتان . فكيف تمكن من رؤية الألوان من غير آلة رؤية ؟

فهناك اذن وسيلة من وسائل الادراك غير التى نعرفها ، ووسائل من وسائل الاحساس بالاشياء غير الحواس الخاصة بنا .

فبمجرد خلود مادة كل منا للنوم تبتدى الروح إشراقاتها وتجلياتها مع الجسم ، وتعطى له معاز أخرى ، وليس للزمن سيطرة فى هذه الحالة .

والمرائى التى يراها النائم ليست لها سيطرة ايضا ، ولكن لها قانون خاص . فقد يكون هناك شخصان ينامان متجاورين ، فيرى أحدهما فى نومه أنه يأكل ويشرب ويضحك ويرى الآخر انه يُضرب ويُعذب ، وكلاهما لا يشعر بالآحر مع أنهما متجاوران ، ولو كانا فى اليقظة لأحس كل منهما بحالة الآخر .

قانون الروح فى النوم أخف وأشف وأقوى من قانونها فى اليقظة ، فاذا كان ذلك مع بقاء الحياة ، فما بالك لو ان هذه الروح تجردت كلية عن هذه المادة . . ؟

ماذا يكون القانون الذى يأتى بعد ذلك ؟ أيكون أكثف من قانون النوم أم أشف ؟ لابد ان يكون أشف من قانون النوم ، وتكون فيه المرائى ، وفيه الصور وفيه الالتقاءات .

لكن من الذى يستطيع أنْ يجرد روحه من ماديته لتتفوق روحانيته حتى يلتقى بمثل هؤلاء ؟

هذا ما فعله الله مع رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جرده من بشريته فجعل الاشياء التى

لم يرها وهو يقظ يراها فى هذه الحالة . .

لقد أحدث الله سبحانه فى نبيه تغييرا مكنه من مجابهة هذه الرحلة ومن رؤية مالا يمكن أن يراه وهو بشر على الأرض . .

وإذا كان الإنسان العادى فى حالة الغرغرة يرى أشياء لا يمكن أن يراها قبلها مصداقا لقوله ـ تعالى :

﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٩٩)

فلماذا لا يكون الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد أعطى نبيه صلاحيات خاصة يرى بها أنبياءه ورسله فى رحلته هذه ؟ ويكلمهم ويحادثهم ويصلى بهم ؟ . . وبقدرة الله كانوا فى الصورة التى كانوا عليها فى حياتهم الدنيا . .

مارآه النبى صلى الله عليه وسلم ـ فى رحلته

لقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أثناء رحلته ، كثيرا من الآيات العجيبة . . وقد أورد ابن كثير فى تفسيره حديث أبى هريرة وفيه ـ ثم أتاه جبريل بفرس فَحُمِل عليه ، كل خطوة منه منتهى بصره ، فسار وسار معه جبريل ـ عليهما السلام . .

● فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياجبريل ، ماهذا ؟

قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

● ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يُفَتَّر عنهم من ذلك شىء . فقال : ماهؤلاء ياجبريل ؟

---

(٩٩) ق ٢٢

قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

● ثم أتى على قوم يسرحون كما تسرح الإبل والنعم ، ويأكلون الضريع والزقوم ونار جهنم وحجارتها . قال : ما هؤلاء ياجبريل ؟

قال : هؤلاء الذين لايؤدون صدقات أموالهم وماظلمهم الله شيئا ، وما ربك بظلام للعبيد .

● ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر حسن ، ولحم آخر نىء فى قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النىء الخبيث ، ويدعون النضيج الطيب ، فقال : ماهؤلاء ياجبريل ؟

فقال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يُصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى تصبح .

● ثم أتى على خشبة على الطريق ، لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شىء إلا فرقته . قال : ما هذا ياجبريل ؟

قال : هذا مثل أقوام من أمتك ، يقعدون على الطريق يقطعونه ، ثم تلا

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ (١٠٠)

●ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها .

فقال : ماهذا ياجبريل ؟

---

(١٠٠) الاعراف ٨٦

فقال : هذا رجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يزيد أن يحمل عليها .

● ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يُفَتَّر عنهم من ذلك شيء . قال : ماهؤلاء ياجبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

● ثم أتى على جُحْر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، فلا يستطيع . فقال : ما هذا ياجبريل ؟

فقال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

● ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة ، وريح مسك ، وسمع صوتا ، فقال : ياجبريل ، ماهذه الريح الطيبة الباردة ؟ وماهذا المسك ؟ وماهذا الصوت ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : يارب ، آتني ماوعدتني فقد كثرت غُرَفي وإستبرقي وحريري وسندسي ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي وعسلي ومائي وخمري ولبني ، فآتني ما وعدتني .

فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحا ولم يشرك بي شيئا ولم يتخذ من دوني أندادا . . .

● ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ، ووجد ريحا منتنة ، فقال : ماهذا الريح ياجبريل ؟

وماهذا الصوت ؟

فقال : هذا صوت جهنم ، تقول : يارب آتنى ماوعدتنى[١٠١] . . . .

وهناك مرائى أخرى رآها أيضا فى عروجه . . . ففى رواية أخرى ذكرها ابن كثير أيضا ، يقول بعد أن عرج به صلى الله عليه وسلم ـ إلى السماء :

● ثم مضيت هُنَيَّة فإذا أنا بأخونه عليها لحم مُشَرَّح ليس يقربها أحد ، وإذا أنا بأخونه أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن ، عندها أناس يأكلون منها . فقلت : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام .

● قال : ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خرَّ . . يقول : اللهم لاتقم الساعة ـ قال : وهم على سابلة آل فرعون ، فتجىء السابلة فتطؤهم . قال : فسمعتهم يضجون إلى الله عزوجل . قلت : ياجبريل . من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء أكلة الربا من أمتك قال تعالى

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [١٠٢]

قال : ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل ، فتفتح على أفواههم ويلقمون من ذلك جمرجهنم ثم يخرج من أسافلهم ، فسمعتهم يضجون إلى الله ـ عز وجل ـ فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟

قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى من أمتك قال تعالى (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)

---

(١٠١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣١

(١٠٢) البقره ٢٧٥

● قال : ثم مضيت هنية فإذا أنا بنساء يعلقن بثُديهن ، فسمعتهن يصرخن إلى الله ـ عز وجل ـ قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟

قال : هؤلاء الزناة من أمتك .

● قال : ثم مضيت فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه ، فيقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك . قلت : ياجبريل ، من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء الهمازون من أمتك

● قال : ثم صعدنا إلى السماء الثانية . . .

وهذه كلها أمور أراها الحق ـ سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ـ ويريد بذلك أن يلفت أنظار الناس إلى ما أعده الله تعالى للعاصين والمخالفين لأوامره ونواهيه . . .

أو بتعبير الشيخ الشعراوى هى وسائل إيضاح ـ كما يقول رجال التربية ـ ووسائل الإيضاح هذه تنقل الكلام النظرى إلى ترجمة عملية . . هى أمور مادية معملية ترينا صدق القضية النظرية . . .

والدين يأتى بتشريعات تحتاج إلى ضرب الأمثال التى تصدقها وتؤكدها وتثبتها فى الأذهان .

وقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الرحلة أمورا تعطى له واقع الأوامر المنهجية التى أتى بها التكليف .

فأول شىء يعرضه لنا مسألة الفطرة وتغيرها . فعرض عليه كوب اللبن وكأس الخمر .

فلما اختار كوب اللبن قال له جبريل : هديت إلى الفطرة . .

ومعنى ذلك أن الفطرة بطبيعتها نقية ، لأن اللبن الذى نشربه من أمهاتنا أو اللبن الذى نشربه من البهائم لا صنعة للإنسان فيه أبدا ، إننا نشربه كما ينزل فهذه هى الفطرة .

لكن فى الخمر نحن نأخذ رزقا من الرزق الحسن وهو العنب فنتلفه حين نخمره ونجعله ينتن ويتحلل فيخرج بذلك عن فطرته . .

أما منظر القوم الذين يزرعون ويحصدون فى وقت واحد مع تكرر هذه العملية عدة مرات فهو رمز للجهاد ، لأن الجهاد فى سبيل الله هو الوسيلة الناقلة لهدى الله إلى خلق الله ، فالجهاد فى سبيل الله هو الانسياح بالدعوة المنهجية التى جاءت من الله إلى الناس كى يهتدوا إليها ، فلابد لهؤلاء المجاهدين أن يكون لهم ثمرات متعددة ، لأنهم يجودون بأموالهم وأرواحهم فلابد أن يخلف الله عليهم خلفا يناسب عظمة الله فى العطاء . .

أما منظر الذين تُقَصُّ شفاههم وألسنتهم وهو رمز لخطباء الفتنة . فإنما ذلك لأن الشفتين واللسان هما الأداتان اللتان تتعاونان فى إخراج الكلام . .

وخطباء الفتنة هم الذين يقولون مالايفعلون ، لهم ألسنة أحلى من العسل ، وأفعال أمرُّ من الحنظل ، وهم يروجون الفتنة ، وآفة كل دعوة هم خطباء الفتنة فيها . . . فالناس ينظرون إلى كلام هؤلاء فيجدونه يخالف فعلهم ، وإذا انفصلت الكلمة عن السلوك انقلبت المناهج رأسا على عقب . .

ومثال ذلك أننى إذا جلست أحدث ابنى عن مضار الكذب وفضائل الصدق ثم رآنى هذا الابن أكذب بعد ذلك .

كان ذلك هدما لما أردت أن أعلمه إياه . . لأن سلوكى مخالف لقولى .

وهكذا الأمر بالنسبة لخطباء الفتنة الذين يجعلون من الدين مبررا لتصرفاتهم ، والدين ليس دين تبرير ، ولكنه دين تمسك بالفضائل ، وارتفاع بالمستوى الخلقى والسلوكى للناس . .

فهذه المرائى إذن كانت وسائل إيضاح بالنسبة للمنهج التشريعى الذى اختاره الله للبشر . .

وهذا المنهج يقرر لهم حياتهم الدينية والخلقية والاجتماعية والاقتصادية والمعيشية . . . . .

لقد جاءت هذه المشاهد التى رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتوضح له - ثم يوضح هو للناس - حقيقة المنهج وخطورة الخروج عليه . .

فقد أراه الله أكلة الربا - مثلا - فى صورة الذين يسبحون فى بحر من الدم ثم بعد ذلك يلقمون الحجارة . .

وهذا رمز لقلب الأوضاع . لأن المرابى يقلب الأوضاع والقوانين التى سنها الشرع ، والتى فطر الله عليها الناس . . .

فهو ليس فى حاجة إلى المال ، ولكنه يستغل فقر الفقير ليزيد هو فى ثرائه ويزيد الفقير فقرا . . وهو بذلك يقلب أوضاع التنظيم الاقتصادى الذى يجب أن يكون على وفق ما شرع الله ليستريح الناس ويسعد غنيهم وفقيرهم على السواء .

كما عرضت صورة المغتابين الذين يتناولون أعراض الناس فى صور عدة : منها صورة القوم الذين يخدشون وجوههم بأظفار من نحاس .

ومنها صورة الذين يأخذون قطعا من لحمهم فيأكلونها .

وما ذلك إلا للتنفير من هذا الداء الوبيل الذى يقوض سلامة المجتمع ويعرض بنيانه للانهيار . . . .

وهكذا بقية المرائى إنما كانت أمثلة توضيحية لبيان وتقريب المنهج الإلهى إلى أذهان البشر . وتقريره فى عقولهم ، ليقتنع الناس بضرورة تطبيقه وخطورة الخروج عليه . . . ولعلنا نلاحظ أن هذه المرائى قد تناولت تشريعات لم تكن قد فرضت بعد ، فقد فلاضت الصلاة مثلا فى تلك الليلة . . . أما بقية التشريعات الأخرى فقد نزل بها جبريل ـ عليه السلام . بعد الهجرة . وذلك بعد هذه الليلة بسنوات وكأن هذه الأمثلة التوضيحية عرضت لتتقرر فى الأذهان عمليا قبل أن يقررها الشرع الحكيم . . . وقد أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يطلع نبيه على ماسيكون عليه عقاب المخالف للمنهج الذى سيقرر على الناس ، حتى إذا ما حذّر النبى صلى الله عليه وسلم ـ من مخالفته يكون تحذيره نابعا من عين اليقين الذى عاينه وحققه .

العودة من الرحلة

عاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذه الرحلة العظيمة إلى مكة ، ولم تستغرق هذه الرحلة سوى جزء من الليل ، لأن الزمن ملغى فى جناب الله الذى أسرى بعبده . . . . وأقبل ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدث الناس عن رحلته ، فتعجبوا من ذلك وكذبوه . . . ولقد طالبوه بالدليل على صدقه ، فأتى لهم بالدليل تلو الدليل ، فمازادهم ذلك إلا تكذيبا وضلالا . .

قال لهم : لقد مررت بعير لقريش بمكان كذا وكذا ، وقد أضلوا بعيرا لهم . . . وإنهم ينزلون بمكان كذا وكذا ، ثم يأتون إليكم يقدمهم جمل آدم عليه غرارتان سوداوان . .

وأسرع المشركون إلى أبى بكر يقولون له : هل لك إلى صاحبك . . يزعم أنه أسرى به الليلة الى بيت المقدس ؟ . فقال أبوبكر : أوقد قال ذلك ؟

قالوا : نعم .

قال : لئن قال ذلك لقد صدق . .

قالوا : تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟

قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة وروحة . . .

وأقبل المطعم بن عدى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : يا محمد صف لنا بيت المقدس .

وإنما أراد بذلك أن يتحداه ، ويبين أمام الناس أن رحلته هذه لم تكن إلا من وحى خياله فحسب وأنه لم يغادر مكة فى ليلته . .

صفه لنا يامحمد إن كنت قد ذهبت إليه حقا . . .

فإذا ببيت المقدس يجلى بقدرة الله أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإذا به ينظر إليه ويصفه لهم بابا بابا ، ومكانا مكانا حتى أتى على أوصافه كلها . . وأبوبكر يقول له : صدقت . . . ومع ذلك لم يصدق الكفار بل أمعنوا فى تكذيبه .

لقد طلبوا منه وصف المسجد ، لأن كثيرا منهم ذهب إلى بيت المقدس ، ورآه . .

ولكنهم لم يستوصفوه السماء التى عرج إليها مع أنه أخبرهم أيضا بعروجه إليها : ذلك لأن أحدا منهم لم يعاين السماء ولذا فلن يستطيعوا معارضته فيما يقول ـ أما بالنسبة لبيت المقدس ففى إمكانهم لو أخطأ الوصف أن يعارضوه . .

ولم يسرع إلى تصديقه إلا أبوبكر ـ رضى الله عنه ، ومن ذلك الوقت لقب بالصديق ـ قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ياأبابكر إن الله تعالى قد سماك الصديق .

هل رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - ربه ؟

اختلف العلماء في ذلك .. فالذين نفوها استندوا إلى قوله تعالى :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١٠٣)

كما استندوا إلى ما روته عائشة رضى الله عنها . قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله ... فالله تعالى يقول :

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ويقول « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء(١٠٤) »

أما الذين أثبتوها فاستندوا إلى ماروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين سئل عن ذلك فقال : نور أنى آراه ..

واستشهدوا على ذلك بما فهموه من قوله - تعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٠٥)

وعلى كل فلا معنى للخوض في هذا المجال الذى اختلف العلماء حوله .. ذاك أنه أمر غيبى بالنسبة لنا ، وليس لنا أن ندلى فيه برأى لأن هذا شيء بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وربه جل وعلا ..

فلئن كان أطلعه على الرؤية فقد شرفه بذلك ، وهو جدير بذلك الشرف

---

(١٠٣) الانعام ١٠٣

(١٠٤) انظر تفسير الطبرى حـ ٢٧ ص ٥٠

(١٠٥) النجم ١٣ ، ١٤

- واكثر المفسرين على ان المرئى في قوله « ولقد رآه نزلة اخرى » هو جبريل عليه السلام

وإن لم يطلعه عليها فهذا شان ـ الحق ـ جلت قدرته وتعالت كلمته . . على أنه يمكن التوفيق بين ما ورد عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، وبين ما ورد عن ابن عباس وغيره ، من أن الرسول قد رأى ربه . . بأن الرؤية المنفية عند عائشة هى رؤية البصر الذى يحد ما يدركه ، والرؤية المثبتة عند ابن عباس هى رؤية الفؤاد والبصيرة التى انكشفت أمامها الحجب ، والله تعالى أعلم ، وهو على كل شىء قدير .

تذوق لغوى

قال الله ـ تعالى ـ بالنسبة للإسراء « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا »

وقال بالنسبة للمعراج « لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

فقد عبر فى الإسراء بقوله « لنريه » فكأنه لم ير بنفسه ـ وعبر فى المعراج بقوله « لقد رأى » فكأنه رأى بنفسه . فما السر فى هذا التعبير ؟

يتولى فضيلة الشيخ الشعراوى الإجابة عن هذا السؤال فيقول ـ ونحن ننقل رأى فضيلة الشيخ الشعراوى هنا ليستفيد القارىء معنا من مصاحبة القرآن الكريم وإدراك الدقة اللغوية فى استعمالاته وجمال التعبير اللفظى فى كشف الحقائق الغائبة عن الأذهان ـ :

يقول فضيلة الشيخ الشعراوى :

هناك فرق بين الإراءة والرؤية . .

فالإراءة هى أن تجعل من لا يرى يرى ، وذلك إما بتحويل المرئى إلى قانون الرائى ، أو بنقل الرائى لأن ينفذ إلى قانون المرئى .

والمثال التوضيحى لذلك هو المريض ببصره ، فالطبيب ينصحه باستعمال نظارة حسب مقاس عينه ، أو يجرى له عملية جراحية إذا وجد فى العين ما

يستدعى ذلك ، وبذلك يتمكن المريض من الرؤية التى لم تكن متاحة له من قبل .

ففى حادث الإسراء كان النبى - صلى الله عليه وسلم - على الأرض ، وكان بشريا يخضع لقانون البشر ، وقانون الإبصار فيه خاضع لقانون الضوء ، وقانون الضوء لا يختلف فيه أحد .

فإذا كانت هناك آيات من غيب الله فى الأرض فلابد أن يحدث للنبى - صلى الله عليه وسلم - إراءة ، لأنه بطبيعته لا يرى هذه الأشياء . . ومن أجل ذلك جاء الفعل « لنريه » .

أما حينما عرج به فقد انتقل - صلى الله عليه وسلم - إلى الملأ الأعلى ، وهناك التقى بالملائكة والأنبياء السابقين ، فلابد أن تتغير ذاتيته أو يتغير شىء فى ذاتيته ، وكأنه طرح البشرية وأخذ شيئا من الملائكية التى ترى بنفسها ، ولذلك جاء فى هذه الحالة الفعل « رأى » أى رأى بنفسه . . فقال تعالى :

« لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

المراحل التى مربها الرسول - صلى الله عليه وسلم -

لقد مر النبى - صلى الله عليه وسلم - فى هذه الرحلة بثلاث مراحل . . المرحلة الأولى كان بشرا ، وجبريل - عليه السلام - يريه الأشياء ، وهو يسأل جبريل : ما هذا يا أخى ياجبريل ؟ وجبريل عليه السلام - يرد عليه فيقول : هذا كذا وهذا كذا .

المرحلة الثانية : كان يرى بنفسه دون أن يسأل جبريل ، فكأنه قد تغير فى ذاتيته شىء ، وخلص من عالم البشر إلى عالم الملائكية ، وأصبحت له ذاتية

فاهمة بدون وساطة جبريل ، ورائية أيضا بلا واسطة .

المرحلة الثالثة وهو التى دخل فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سبحات النور ولم يكن جبريل معه فى هذه الحالة ، لأنه صلى الله عليه وسلم ارتقى ارتقاء آخر ونقل من الصفة الملائكية التى لا قدرة لها على ما وراء سدرة المنتهى ، إلى صفة أخرى تستطيع أن تتحمل رؤية ما وراء سدرة المنتهى دون مصاحبة جبريل .. عليه السلام .

وإذن فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى الأرض بشرا مع جبريل .

وبعد ذلك كانت له صفة ملائكية مع الرسل والملائكة فى السماء . . .

وبعد ذلك كان له وضع آخر ارتقى به عن الملائكية حتى ان جبريل ـ عليه السلام ـ قال له : لو تقدمت أنا لاحترقت . أما أنت إذا تقدمت اخترقت(١٠٦)



دلائل وعبر

لقد اعتبر العلماء أن الإسراء والمعراج من معجزات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن دلائل نبوته ومن خصائصه التى اختص بها دون غيره من الأنبياء والرسل . .

والمعجزات أمر لازم للأنبياء ، وهى سلاح يؤيدهم الله به ليقهر خصومهم ، وينصرهم فى شدائدهم على أعدائهم .

وقد لقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قومه ألوانا من الأذى والشدة التى لا يستطيع أحد من البشر تحملها . فكان لابد أن يؤيده الله بما يشد أزره ، ويثبت قلبه ، ويقوى جنانه ، وبخاصة بعد أن توجه إلى ربه متضرعاً شاكيا له تكذيب قومه وايذاءهم الشديد له بعد رحلة الطائف .

---

(١٠٦) الاسراء والمعراج الشيخ الشعراوى ٦٦

لقد كانت رحلة الاسراء والمعراج بالنسبة له تكريما وتشريفا ، وكأن الله أراد أن يقول له : لقد عوضتك عن تكذيب الأرض تأييد السماء ، وعن إيذاء البشر حفاوة الملائكة . . فلا تظنن أن الله قد تخلى عنك أو تركك وشأنك ، وما عداء قومك لك إلا حلقة فى سلسلة عداء المكذبين الضالين لأنبيائهم عبر الأزمان والأجيال .

لقد أراد الله أن يعلى من قدر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكما أرسله إلى أهل الأرض إرسال تكليف ، فقد أحضره كذلك إلى أهل السموات إحضار تشريف كى يعلو مقامة الكريم ، ويعرف الجميع شأنه عند ربه ـ جل وعلا ـ

ولقد كان الاسراء إلى بيت المقدس للإشارة إلى ما لهذا البيت من منزله وقداسة ، وهو ثانى بيت بنى فى الأرض لعبادة الله بعد البيت الحرام ـ وقد أفردنا عددا خاصا للحديث عن المسجد الأقصى سبق نشره . . . . وفى رحلة الإسراء أيضا دلالة على هيمنة الإسلام على ما سبقه من ديانات مع بيان العلاقة الوثيقة التى تربط بين ما جاء به كل من موسى وعيسى ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

وربما أشار هذا الحادث إلى ضرورة الحفاظ على هذا المكان المقدس الذى جمع بين المقدسات المختلفة ، وحمايته من أى اعتداء يهدد حرمته وأمنه وسلامته ، ويصد الناس عن زيارته والصلاة فيه

ولعلنا لا نغفل عن تلك المرائى والآيات التى حفلت بها هذه الرحلة المباركة . فهى تشير إلى أن الإسلام دين الفطرة .

كما تشير إلى وجوب الجهاد فى سبيل الله ، والانفاق من الطيبات ، والابتعاد عن الرذائل بأنواعها التى أشارت المرائى المختلفة إليها من ربا

وغيبة ونميمة وزنا وإشاعة للفتنة والفساد بين الناس وغير ذلك مما تضمنته تلك المشاهد التى رآها النبى - صلى الله عليه وسلم وسأل عنها جبريل - على السلام . . فأعلمه بما تشير إليه وتوحى به . واستلزم ذلك من النبى - صلى الله عليه وسلم - تحذير الأمة وتنفيرها من ارتكاب هذه الموبقات . . . . . وفى قصة الاسراء تمجيد للحق ووجوب المسارعة إلى مظاهرة أهله والدفاع عنهم ضد الكفار وأعداء الحق . . وقد رأينا صورة واضحة للتصديق فى سيدنا أبى بكر - رضى الله عنه - الذى لقب بالصديق لتصديقه النبى - صلى الله عليه وسلم - دون إبطاء أو تأخير . .

ولعل من أجلّ ما حدث فى تلك الرحلة هو حشد الأنبياء والرسل ليؤمهم - النبى صلى الله عليه وسلم - فى صلاة جامعة تشهد بإمامته لهم وإيمانهم به ومبايعتهم إياه تصديقا لقول الحق

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١٠٧)

وتشريف النبى - صلى الله عليه وسلم - بهذه المنزلة تشريف لأمته وإشهاد بفضلها على الأمم واعلاء لقدرها فى الآفاق ، فهى أمة النبى الخاتم التى يقول الحق فى وصفها

---

(١٠٧) آل عمران ٨١

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ (١٠٨)

كل نبى يفيض على أمته من علمه

ولا شك فى أن كل نبى يفيض على أمته من العلوم والمعارف والهدى على مستوى المعين الذى ارتوى منه ، وعلى قدر ما أعطاه الله من التشريف والتكريم والاجتباء ، والأنبياء يتفاضلون على حسب ما ذكر القرآن الكريم

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾ (١٠٩)

ومنزله نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العلم أسمى منزله وقد منحه الله العلم من أبواب كثيرة .. منها باب المحبة ـ من الله ـ قال تعالى :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾ (١١٠)

---

(١٠٨) آل عمران ١١٠

(١٠٩) البقرة ٢٥٣

(١١٠) النساء ١١٣

ومنها باب الطلب امتثالا لقوله تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

ومنها باب المشاهدة التى استطلعها فى ليلة الاسراء والمعراج

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ (١١٢)

ومن ذلك أيضا باب الوحى

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١١٣)



وباب الجهاد

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

ومن هنا كان العلم الذى ورثه النبى - صلى الله عليه وسلم - لأمته زائدا على علم غيرها من الأمم فاستحقت بذلك أن تتبوأ به من المنازل الرفيعة مالم تصل إليه أمة آخرى

عالمية الدعوة

لقد كان الاسراء إلى بيت المقدس إشعارا بأن الاسلام ليس مقصورا على الجزيرة العربية ، وليست دعوته مقصورة على أمة معينة كما كانت الرسالات

(١١١) طه ١١٤
(١١٢) النجم ١٨
(١١٣) الشورى ٥٢
(١١٤) العنكبوت ٦٩

السابقة ... ولكنه رسالة شاملة عامة ـ قال تعالى ـ

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ (١١٥)

فلابد أن تشمل فيما تشمل المكان الذى انبثقت منه الرسالات السابقة . خصوصا اليهودية والمسيحية . لأنهما الرسالتان اللتان نزلت رسالة الإسلام على أثرهما ... وذلك لإثبات أن رسالة الله لا تتعدد فى جوهرها ، ولقد جاء الإسلام متمما لمكارم الأخلاق ، ومصححا للانحرافات التى وقع فيها أتباع الرسل السابقين ومصوبا للأخطاء التى أضيفت عن عمد إلى النصوص المقدسة السابقة ...

ما تثيره الذكرى من أحاسيس

إن ذكرى الاسراء والمعراج تثير فى نفوس المسلمين اعتزازا بدينهم ، وتبعث فيهم قوة اليقين الذى يضىء جوانب النفس ، ويطلق الروح إلى عوالم الكون فترتاد منها مايبعث الشوق إلى الملأ الأعلى وما يزخر به من نور ومثل .

وتذكر المسلمين بواجبهم نحو هذا المسجد الأقصى الذى جعله الله مسرى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبلة له فى أول فرضية الصلاة قبل أن تتحول القبلة إلى الكعبة المشرفة ، ولعلهم يستطيعون بانطلاقة روحية قوية أن يخلصوه من أسره ، ويعيدوه حرا طليقا كما كان ، يتردد عليه الزائرون المتعبدون من كل مكان .

---

(١١٥) سبا ٢٨

لقد رسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحديثه عن مشاهداته الراقية الطريق لأمته نحو التأمل الصافى ، والتفكر فى خلق السموات والأرض ، ليصل منه الانسان إلى حقائق لم يكن ليصل إليها لو وقف جامد الفكر بليد الحس خامل العقل . . . .

والإسلام من بين الأديان جميعا حث الإنسان على التفكر والتأمل . . . وآيات القرآن العديدة تشهد بذلك . . منها قوله تعالى

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (١١٦)

فهو يحث على التفكر فى السموات ويدعو إلى النظر إليها ، وتوجيه القلب والفكر نحوها لعل الإنسان يستطيع عن طريق تأمله أن يصل إلى بعض أسرار الكون المستكنة ، فيدرك عن يقين عظمة الله وقدرته . .

بل إن سورة النجم التى تحدثت عن المعراج بدأت بالقسم بالنجم إذا هوى لتلفت النظر من المشاهدة الحسية إلى التفكر فيها وراءها من أسرار حكيمة ودقائق عظيمة . وإنها لتنعى على الجامدين وقوفهم عند ظواهر من العلم أضلتهم فتقول

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ (١١٧)

---

(١١٦) آل عمران ١٩٠ / ١٩١

(١١٧) النجم ٢٨

وتقول

﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾ (١١٨)

ثم إنها تختم آياتها باستنكار موقف من يقابل هذا الحديث بالعجب والسخرية دون أن يفطن لما فيه من آيات وعبر

(١١٩)
﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) ﴾

لقد ارتاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم السماء بجسمه واطلع على ما فيها بحسه . . . . وميراث أمته من ذلك أن يمعنوا فى النظر ويوجهوا الفكر إلى أسرار الكون . طالبين من الله أن يفتح بصائرهم ، وأن يلهمهم من فيضه ـ جزاء وفاقا لجهودهم ـ وهذه هى السياحة الفكرية التى فهمها بعض المتذوقين من قوله تعالى ـ

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ (١٢٠)

ليس غريبا أن يفتح الإسراء والمعراج للمسلمين آفاقا جديدة من المعرفة ويتطلعون إلى السماء ، التى عرج إليها نبيهم صلى الله عليه وسلم ـ بمعجزة خرقت قوانين الأرض ومنطق الحياة ، وهذه المعجزة تنبيه لأمته وتشريع لهم لأن يجولوا بأفكارهم ويبحثوا بعقولهم فى أسرار هذا الكون العظيم ـ

---

(١١٨) النجم ٣٠
(١١٩) النجم ٥٩ ـ ٦١
(١٢٠) التوبة ١١٢

ولا يتأتى ذلك إلا بالجهاد ، الجهاد الأكبر ، جهاد النفس والهوى . . إنهم بذلك يكونون مع الله ، ومن كان مع الله كان الله معه يعلمه ويهديه ويرشده إلى طريق الحق والرشاد فى دنياه وآخرته . . إن طاعة الله تفتح أمام المسلمين جميع الأبواب المغلقة فتتكشف أمامهم أسرار العلم والمعرفة . . وما أحوج المسلمين اليوم إلى العلم والعمل . . وما أعظم أن نختتم هذا الموضوع بآيات المعراج كما بدأناها بآية الاسراء » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ
بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ
عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢
وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥
إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ
ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ ﴾ (١٢١)

ولنستأنف معاً حديثنا مع جهاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومثابرته فى تبليغ رسالة ربه ، وليكن حديثنا القادم عن عرض نفسه على القبائل تمهيداً للهجرة المظفرة .

---

(١٢١) النجم ١ : ١٨



مقدمات الهجرة

- ضيق أهل مكة بالنبي .
- النبي يعرض نفسه على القبائل .
- التقاؤه بقوم من الأوس والخزرج .
- إقبالهم عليه واستبشارهم بأنه النبي المنتظر .
- بيعة العقبة الأولى والثانية .
- أول سفير في الإسلام .
- موقف المشركين من الأنصار .
- النبي يأذن لأصحابه بالهجرة .
- حرص المسلمين على الهجرة .
- هجرة الرسول .

ضيق أهل مكة بالنبى ﷺ

كان لحديث الاسراء والمعراج دوى كبير فى أرجاء مكة ، وكانت له آثاره المتعددة الجوانب .. ومن ذلك أن الكفار أمعنوا فى تكذيبهم واستهزائهم وسخريتهم ، وارتد بعض ضعاف النفوس من المسلمين الذين لم يثبت فى قلوبهم الإيمان ، قال ابن هشام فى سيرته :

لما أصبح النبى - صلى الله عليه وسلم - غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر . فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر الغريب ، والله إن العير لتسير شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب محمد ﷺ ذلك فى ليلة واحدة ، ويرجع إلى مكة . فارتد كثير ممن كان أسلم .

قال الحسن : وأنزل الله - تعالى - فيمن ارتد عن إسلامه قوله

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (١٢٢)

ومن الآثار الايجابية : ازدادت طمأنينة النبى - صلى الله عليه وسلم - واكتسب طاقات جديدة وإشراقات كثيرة بما رآه من آيات ربه الكبرى .. وبما شاهده من أنوار العزة والجلال ، وبما أفيض على قلبه من علوم ومعارف .. وبما زكاه به ربه من ثناء ... فقد زكى يقينه بقوله

« ما ضل صاحبكم وما غوى » ،

وزكى لسانه وحديثه فقال

---

(١٢٢) الاسراء ٦٠

« وما ينطق عن الهوى »

وزكّى علمه فقال :

« علمه شديد القوى »

وزكى فؤاده فقال

« ما كذب الفؤاد ما رأى »

وزكى بصره فقال

« ما زاغ البصر وما طغى »

وزكاه جملة وتفصيلاً فقال

« وإنك لعلى خلق عظيم » . .

لقد ثبّتت هذه الرحلة المباركة قلبه . وملأته ثقة ويقيناً . . . . وخصوصا بعد رحلة الطائف التى لقى فيها من كفار ثقيف ما لقى . . لقد بدأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجابه قريشاً بروح جديدة وقوة خارقة ، وكأنهم فى نظره لا شىء .

أما هؤلاء المسلمين الذين ارتدوا فلم يؤثروا فى موقفه ، لأنهم انكشفوا على حقيقتهم ، وهو ليس فى حاجة إلى هذا الصنف من الناس الذين يعبدون الله على حرف ، فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم . . خسروا الدنيا والآخرة .

إن الاسلام ليس فى حاجة إلى أمثال هؤلاء ، ولكنه فى حاجة إلى قوم لهم صلابة فى دينهم ، وقوة فى يقينهم ، ورسوخ فى عقيدتهم ، لا تزلزلهم النوائب ولا تهزهم العواصف ، ولا تصرفهم الفتن أياً كانت عن دينهم . . قال ـ تعالى ـ

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ (١٢٣)

إن الاسلام فى حاجة إلى مثل أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ الذى ما إن سمع أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر عن رحلته حتى قال : صدق . .

وإلى مثل عمر وحمزة وعلى وأحزابهم من الذين لم يزدهم هذا الخبر إلا يقيناً وثقة فى نبيهم ، وحباً له وتمسكاً بدينهم وإقبالاً عليه وتصديقاً به ، وإيماناً بأن الله زاد نبيهم رفعة وتكريماً وتشريفاً وتعظيماً . .

وأصبحت قريش بعد هذا الحادث ولا هم لها إلا السخرية بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنكاية به ، والايذاء له . .

ولكن ذلك لم يثن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المضى فى دعوته ، والدأب فى تبليغ أمر ربه ـ « صابراً محتسباً مؤدياً إلى قومه حق النصيحة . . . بالرغم مما يلقى من التكذيب والأذى والاستهزاء . .

النبى ﷺ يعرض نفسه على القبائل

ولم يجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد تكذيب قومه له بُداً من طلب النصرة من غيرهم . فأخذ يعرض نفسه على القبائل العربية الوافدة فى موسم الحج إلى مكة . .

كان يتبع الحجاج فى منازلهم بمنى وغيرها من المواقف يسأل عن القبائل قبيلةً قبيلةً ، ويأتى إليهم فى أسواقهم المشهورة .

---

(١٢٣) العنكبوت ٢ ، ٣

وكان للعرب أسواق ثلاثة هى عكاظ ومجنة وذو المجاز .

أما عكاظ فهو نخل فى واد بين نخلة والطائف ، وهو إلى الطائف أقرب ، بينها عشرة أميال . . .

ولعل هذا السوق هو أشهر أسواقهم ، لأنه إلى جانب ما فيه من سلع تجارية كان منتدى لمفاخراتهم ومحاوراتهم ومناشدتهم الأشعار وإلقائهم الخطب وقد قال حسان بن ثابت فيه :

سأنشر إن حييت لهم كلاماً ينشر فى المجامع من عكاظ

وكان كل شريف يحضر سوق بلده . . والجميع يحضرون سوق عكاظ . . . . كانوا يتوافون به من كل جهة . فكان يأتيه من قريش وهوازن وسليم والأحابيش وعقيل والمصطلق ومختلف طوائف العرب[١٢٤] »

أما مجنة ، فهى فى موضع قرب مكة ، كانت تقام فيه سوق قرب أيام موسم الحج من كل عام ويحضرها كثير من قبائل العرب .

وسوق ذى المجاز كانت بناحية عرفة إلى جانبها ، وقيل : إنها كانت لهذيل على فرسخ من عرفة .

وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تجىء إلى سوق مجنة فتقيم بها عشرين يوماً ، ثم تجىء إلى سوق ذى المجاز فتقيم بها إلى أيام الحج .

فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتى القبائل فى هذه الأسواق يدعوهم إلى ربه ، ويطلب منهم أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه .

---

(١٢٤) مختصر بلوغ الارب للالوسى ص ٥٦

ذكر الحلبى فى سيرته قال : عن جابر - رضى الله عنه - قال : « كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يعرض نفسه على الناس فى الموقف ويقول : ألا رجل يَعْرِضُنى على قومه ، فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى ؟ »

وقد مر بنا أن أبا لهب كان يتبعه ويصد الناس عنه فقد روى عن بعضهم أنه قال : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يهاجر إلى المدينة يطوف على الناس فى منازلهم[125] ، يقول : ياأيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ووراءه رجل يقول : يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم فلا تسمعوا له . . فسألت : من هذا الرجل ؟ فقيل : أبو لهب . .

ومما روى فى ذلك عن بعضهم قال : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسوق ذى المجاز يعرض نفسه على قبائل العرب يقول : يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، وخلفه رجل له عذيرتان ، يرميه بالحجارة حتى أدمى كعبه ، يقول : يأيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب .
قال : فسألت عنه فقيل : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . . . فقلت : ومن الرجل الذى يرميه بالحجارة ؟ فقيل : هو عمه عبد العزى - أبو لهب . .

لقد تعهد أبو لهب أن يتبع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى كل منزل ، وكأنه لا عمل له إلا ذلك . فما يقوله النبى - صلى الله عليه وسلم - من إصلاح يفسده أبو لهب ، حتى إن العرب ليقولون : قوم الرجل أعلم به . . . أترون رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ؟

---

(١٢٥) اى الاماكن التى ينزلون بها

وقد كانت قريش وراء أبي لهب تسانده في تكذيب النبي - صلى الله عليه وسلم - وقريش إذ ذاك في يدها سدانة البيت ، وزمام الآلهة التي يرونها بعيونهم ، ويطوفون حولها ويتمسحون بها ، أما محمد ﷺ فهو يحدثهم عن شيء غير مرئي ، ويعدهم بشيء غير موجود ، ولن ينالوه إلا بعد الموت ، وكيف ينالونه وهم لا يعتقدون أن هناك بعثاً أو حساباً أو جزاء ؟ وليس وراء محمد ﷺ قوة مادية تظاهره ، ليس معه إلا حفنة من المستضعفين أو العبيد الأرقاء الذين لا يملكون الدفع عن أنفسهم ، وقد سامهم سادتهم سوء العذاب .

فكيف لا يصدق العرب أبا لهب ؟ أم كيف يصدقون محمداً ؟

قال الحلبي في سيرته : لما قدمت بكر بن وائل مكة للحج ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر : ائتهم فاعرضني عليهم .

فأتاهم فعرضه عليهم .

فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم : كيف العدد فيكم ؟

قالوا : كثير مثل الثرى .

قال : كيف المنعة ؟

قالوا : لا منعة ، جاورنا فارس ، فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم .

قال : لو آمنتم بالله ، وأتبعتموني على ما جئت به فسوف تهزمون فارس ، وتنزلون منازلهم ، ويفتح الله أمامكم أبواب الخير . .

قالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا رسول الله .

ثم مر بهم أبو لهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟

قال : نعم . فأخبروه بما دعاهم إليه ، وأنه زعم أنه رسول الله .

فقال لهم : لا ترفعوا بقوله رأساً ، فإنه مجنون يهذى من أم رأسه .

فقالوا : والله لقد صدق ما أخبرنا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورأينا بعد ذلك من أمر فارس ما ذكر[١٢٦] ! »

اشتراط بعض القبائل

لقد كانت بعض القبائل ترفض ما يعرضه النبى - صلى الله عليه وسلم - رفضاً باتاً ، وكان منهم من يشترط لنفسه . .

ومن القبائل التى رفضت رفضاً باتاً بنو ثقيف كما رأينا من موقفهم حين ذهب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف ودعاهم إلى نصرته . فخذلوه . . وبنو حنيفة - فقد أورد ابن سعد فى طبقاته قال : لقد أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - بنى عبس وبنى سليم وغسان وبنى محارب ، فكانوا يردون عليه أقبح الرد ، ويقولون له ، أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك[١٢٧] . ولم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه من بنى حنيفة ، وهم أهل اليمامة قوم مسيلمة الكذاب ، ومن ثم جاء : شر قبائل العرب بنو حنيفة وثقيف .

ومن القبائل التى اشترطت بنو عامر بن صعصعة . . فإنه حين عرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - نفسه عليهم قال له رجل منهم : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظفرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

---

(١٢٦) السيرة الحصبية حـ ٢ صـ ١٥٨

(١٢٧) الطبقات الكبرى حـ ١ قسم ١ صـ ١٤٥

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: الأمر لله يضعه حيث شاء .

فقال الرجل : أنقاتل العرب دونك ، ونهدف نحورنا للعرب دفاعاً عنك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ، وأبوا عليه .

فلما رجع بنو عامر إلى منازلهم وكان فيهم شيخ أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم الموسم ـ فسألهم عما كان فى موسمهم ، فقالوا له : جاءنا فتى من قريش من بنى عبد المطلب ، يزعم أنه نبى يدعونا أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا .

قال الشيخ ؛ وماذا كان ردكم عليه ؟

قالوا : فرفضنا دعوته لأنه رفض أن يكون الأمر لنا من بعده . . .

فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال : يا بنى عامر هل لها من تلاف ؟ هل لها من مطلب ؟ والذى نفسى بيده ما يقولها كاذباً أحد من بنى إسماعيل قط ، وإنها لحق ، وإن رأيكم غاب عنكم(١٢٨) .

لقد أدرك هذا الشيخ صدق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولام قومه على أنهم لم ينتهزوا هذه الفرصة ولو أنهم أطاعوه ومنعوه لملكوا رقاب العرب ، ولكن الله أراد أمراً آخر . وادخر لهذه المهمة قوماً آخرين . .

وقد أدرك بعض العرب بثاقب فكرهم وفطنتهم ما عليه أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صدق ، حتى لقد اتخذ من اسمه شعاراً يقاتل به عدوه . . ذكر : أن بكرا حين عرض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه

---

(١٢٨) السيرة الحليفة جـ ٢ / سيرة ابن هشام جـ ٢ صـ ١٧٤

عليها قال بعضهم : لا نقول شيئاً حتى يجىء شيخنا حارثة ـ فلما جاء قال : إن بيننا وبين الفرس حرباً ، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول .

فلما التقوا مع الفرس قال شيخهم : ما اسم الرجل الذى دعاكم إليه ؟

قالوا : محمد .

قال : فاجعلوه شعاركم

فجعلوا اسمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شعاراً لهم فنصروا على الفرس فى قتالهم معهم ، وكانت هذه اول مرة ينصر فيها العرب على الفرس ، حتى قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك : وبى نصروا ـ أى نصروا بذكرهم اسمى .

وهذه المعركة تسمى موقعة « ذى قار » وقد سجلها الأعشى فى شعره وهو من بكر فقال :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا

وفيها يقول :

لو أن كل معد كان شاركنا ** فى يوم ذى قار ما أخطأهم الشرف . .

ولقد كان العرب يخشون بأس الفرس ، وكان الفرس يتخذون من القبائل المجاورة لهم مناطق نفوذ ، وقد رأينا فيما سبق كيف قال بعضهم إنا لا نجير على الفرس أحداً .

محاورة طريفة

ذكر الحلبى فى سيرته راوياً عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قصة الحوار

الذى دار بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وبين بنى شيبان بن ثعلبة .

قال : لقى النبى - صلى الله عليه وسلم - جماعة من بنى شيبان بن ثعلبة ، وكان معه أبو بكر وعلى - رضى الله - تعالى - عنهما - فسألهم أبو بكر : ممن القوم ؟

فقالوا : من شيبان بن ثعلبة .

فالتفت أبو بكر إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله - هؤلاء غرر - أى سادات قومهم - وكان أبو بكر - رضى الله عنه - نسَّابة يعرف أصول العرب وفروعهم . . وكان فى القوم مفروق بن عمرو ، وهانىء بن قبيصة - حكيم العرب وخطيبها ، والمثنى بن حارثة الشيبانى - الفارس المشهور ، والنعمان بن شريك .

وكان مفروق بن عمرو قد غلب الوفد جمالاً ولساناً ، وله ذوابتان من شعر ، وكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر - رضى الله تعالى عنه - فقال أبو بكر لمفروق : كيف العدد فيكم ؟

قال مفروق : إنا لنزيد على الألف ، ولن تغلب الألف عن قلة .

فقال أبو بكر : كيف المنعة فيكم ؟ - أى القوة والنصر .

قال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جَدّ ، أى حظ يعنى أن علينا أن نجتهد وليس علينا بأس أن يكون لنا الظفر أولا لأن ذلك من عند الله يؤتيه من يشاء .

فقال أبو بكر : كيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

قال مفروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلتقى ، وإنا لأشد ما نكون

لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ، ويديل علينا مرة(١٢٩) .. ثم قال لأبي بكر : لعلك أخو قريش .

فقال أبو بكر : أو قد بلغكم أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فها هو ذا وأشار إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال مفروق : بلغنا أنه أتى بدين جديد . ثم التفت مفروق الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : إلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ـ وأني رسول الله ، وإلى أن تؤوونى وتنصرونى ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد .

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (١٣٠)

---

(١٢٩) يديلنا : ينصرنا ، ويديل علينا : ينصر علينا

(١٣٠) الأنعام ١٥١

قال مفروق : ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم عرفناه .

ثم قال : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله ـ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ (١٣١)

فقال مفروق : دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك(١٣٢) قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وأراد مفروق أن يشاركه فى رأيه هانىء بن قبيصة ، فقال : هذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

فقال هانىء : قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، وإنى أرى أن تَرْكَنا ديننا ، واتباعنا إياك على دينك بمجلس واحد جلسته إلينا لزلة فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة ، وإنما تكون الزلة مع العجلة ، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً ، ولكن نرجع وترجع ، وننظر وتنظر .

وكأنه أحب أن يشاركه فى الكلام المثنى بن حارثة ، فقال : هذا المثنى بن حارثة صاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب

---

(١٣١) النحل ٩٠

(١٣٢) افك : انصرف عن الحق

هانىء بن قبيصة : ان فى تركنا ديننا واتباعنا دينك بمجلس جلسته إلينا . لزلة فى الرأى وقصر فى النظَر . وإنما يجب أن ننظر فى الأمر دون عجلة . . .

وإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب دون ما يلى أنهار كسرى فعلنا ، فإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ، وأن لا نؤوى من أحدث حدثا ، وإنى أرى هذا الأمر الذى تدعونا إليه هو مما نكرهه الملوك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه . . . وسوف يورثكم الله أرض الفرس وأموالهم إذا آمنتم برسالتى . .

ثم تلا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـٰذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (١٣٣)

ثم نهض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم(١٣٤) .

وقد ذكر ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة أسماء ثلاثة من الصحابة هم : مفروق بن عمرو ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وأشار فى تراجمهم إلى المحاورة التى ذكرناها آنفاً .

---

(١٣٣) الاحزاب ٤٥ : ٤٧

(١٣٤) السيرة الحلبية حـ ٢ صـ ١٥٥

من مفروق بن عمرو

قال ابن الأثير : هو مفروق بن عمرو الأصم بن قيس بن مسعود بن عامر من بنى ذهل بن شيبان . قيل : إن اسمه النعمان ، وهو بمفروق أشهر . .

روى أبان بن تغلب عن عكرمة عن ابن عباس عن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه قال : تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم »

على بنى شيبان . .

وذكر طرفا من المحاورة التى أوردناها آنفاً . .

ولكن أبا نعيم الأصفهانى يقول : لا أعرف لمفروق إسلاماً[١٣٥] .

ولكن قول مفروق لرسول الله ﷺ فى المحاورة أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك ، يدل على أنه مال إلى الاسلام إن لم يكن أسلم فعلاً بعد ذلك .

المثنى بن حارثة

أما المثنى بن حارثة الشيبانى ، فقد أسلم فعلاً ، ولم يختلف فى ذلك أحد وهو المثنى بن حارثة بن سلمة بم ضمضم ينتهى نسبه إلى ذهل بن شيبان .

وفد على النبى - صلى الله عليه وسلم - سنة تسع مع وفد قومه ، وسيَّرة أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فى صدر خلافته الى العراق ، قبل مسير خالد بن الوليد ، وهو الذى أشار على أبى بكر بقتال الفرس ، وهوَّن أمر الفرس عند المسلمين ، وكان شهماً شجاعاً حسن الرأى . . وقد أبلى فى قتال الفرس بلاء لم يبله أحد .

---

(١٣٥) اسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٥ صـ ٢٥٠

ولما تولى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ الخلافة ـ سيَّر أبا عبيد بن مسعود الثقفى فى جيش لمساعدة المثنى فى قتال الفرس ، فاستقبله المثنى ، والتقيا بالفرس معاً فى موضع بقرب الكوفة اسمه : قسّ الناطف . واقتتلوا اقتتالاً شديداً ، فاستشهد أبو عبيد ، وجرح المثنى ، فمات من جراحته قبل القادسية .

وكان المثنى كثير الاغارة على الفرس قبل أن يكلفه أبو بكر ذلك ، وكانت أخباره تأتى أبا بكر فيقول : من هذا الذى تأتينا أخباره ووقائعه ؟

فقال له قيس بن عاصم : يا خليفة رسول الله ، أما إنه غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا قليل العدد ، ولا ذليل الغارة ، ذلك المثنى بن حارثة الشيبانى . ثم لم يلبث بعد ذلك أن قدم المثنى على أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ فقال لأبى بكر : يا خليفة رسول الله ، اجعلنى على قومى أقاتل بهم أهل فارس ، وأكفيك أهل ناحيتى من العدو ، ففعل أبو بكر .

وأخذ المثنى يغير على سواد العراق من جهة الفرس ، وطلب من أبى بكر المدد ، فأمده بخالد بن الوليد . .

فكان المثنى هو الذى شجع المسلمين على قتال الفرس(١٣٦) . .

النعمان بن شريك

وقد أشار ابن الأثير أيضاً إلى النعمان بن شريك الشيبانى ، ولكنه لم يشر إلى إسلامه ، وكل ما قاله عنه :

انه أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع صاحبيه مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة فدعاهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى دين الله وتوحيده(١٣٧) . .

---

(١٣٦) اسد الغابة جـ ٥ صـ ٥٩

(١٣٧) المرجع السابق ص ٣٣٤

واستمر النبى - صلى الله عليه وسلم - فى لقاء الوفود . . وبالرغم مما كان يلقاه منهم من تكذيب فلم يكن يزيده ذلك إلااصرارا على تبليغ رسالة ربه .

إنه لا يكره أحداً على الاسلام ، ولكنه يدعو بالرفق واللين ، استجابة لأمر ربه

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (١٣٨)

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١٣٩)

كان - كما يقول الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية - يكلم كل شريف من القوم فى قبيلته ، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شىء بل أريد أن تمنعوا عنى من يؤذينى حتى أستطيع تبليغ رسالتى . . . وكان يعاضده فى ذلك أبو بكر وبعض أصحابه - صلى الله عليه وسلم - ولكن ماذا تستطيع أن تفعل تلك القلة القليلة أمام هذا الطغيان الجارف من الضلال ، والطاغوت الجاثم فوق القلوب والأبصار ؟ حقاً ، إن الغلبة ليست بالكثرة ، وإن الكلمة الطيبة لتغنى غناء السيوف البتارة والجيوش الجرارة فى بعض الأحيان ، ولكن الله لم يأذن بعد فى وجود الأرض الخصبة التى تحسن استقبال الكلمة الطيبة لتثمر فيها شجرة طيبة تؤتى أكلها بإذن الله . .

لم يحن الوقت بعد ، ولكنه سيحين بإذن الله . .

---

(١٣٨) النحل ١٢٥
(١٣٩) البقرة ٢٥٦

لقاؤه - صلى الله عليه وسلم - برجال من الأوس والخزرج

وأخيراً حان الوقت . ووجدت الأرضُ الخصبة التى استقبلت البذرة الطيبة ممثلة فى كلمة اللّه . .

والتقى النبى - صلى الله عليه وسلم - بالأنصار الذين أحسنوا استقبال الكلمة فقدروها حق قدرها ، ووجدت من آذانهم مسمعاً ، ومن قلوبهم موضعاً .

أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقى بإسناد حسن عن ابن عباس قال : حدثنى على بن أبى طالب قال : لما أمر الله نبيه أن يعرض أمره على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى - منى - حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، وتقدم أبو بكر وكان نسابة فقال : من القوم ؟

قالوا : من ربيعة

قال : من أى ربيعة أنتم ؟

قالوا : من ذهل . .

ثم ذكر حديثاً طويلاً فى محاورتهم وتوقفهم أخيراً عن الاجابة . . قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج . قال : فما نهضنا حتى بايعوا النبى - صلى الله عليه وسلم -

أما قصة هذه المبايعة فهى :

قال على - كرم الله وجهه : فبينما هو - أى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند العقبة الأولى لقى رهْطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً .

فقال لهم النبى - صلى اللبه عليه وسلم - :من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج

قال : من موالى يهود ؟

قالوا : نعم

والمقصود بمواليهم حلفاؤهم ، فقد تحالفوا معهم على التناصر والتعاضد .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى

فجلسوا معه ـ فدعاهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الله وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . . فاستأنست قلوبهم به ومالت إليه . . وكانوا قد سمعوا من اليهود ـ قبل ذلك ـ عن النبى المنتظر . . وقد أخبر القرآن عن اليهود أنهم كانوا يستفتحون بهذا النبى ، أى ستنصرون به فينصرهم الله .

تذكر هؤلاء النفر ماكان يتحدث به اليهود ونظر بعضهم الى بعض ، وحين كلمهم النبى ـ ﷺ ـ عرفوا الوصف الذى كانوا يسمعونه من اليهود ، فقالوا لأنفسهم : تعلموا والله انه النبى الذى تتحدث عنه اليهود ، فلايسبقوكم اليه .

فأجابوه الى مادعاهم إليه وصدقوه وقبلوا منه ماعرضه عليهم من الاسلام . . وأسلم ستة نفر منهم كانوا طليعة مشرقة لغيرهم وكانوا كلهم من الخزرج وهم :

أسعد بن زرارة من بنى النجار

وعوف بن الحارث بن رفاعة بن عفراء من بنى النجار

ورافع بن مالك بن العجلان من بنى زريق

وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سلمة

وعقبة بن عامر بن نابى من بنى حرام بن كعب

وجابر بن عبد الله بن رئاب من بنى عبيد بن غنم . .

كان هؤلاء الستة من عقلاء يثرب أنهكتهم الحرب الأهلية التى اشتعلت بين الأوس والخزرج والتى مايزال لهيبها مستعرا ، ومايزال اليهود ينفخون فيها حتى تزداد اشتعالا ، فقد كانوا ومايزالون يؤججون الفتن ، ويعيشون على حساب مايراق من دماء الأبرياء فى كل مكان يوجدون فيه ، بسبب مايوسوسون به من شر ، ويذيعون من باطل ، ويفسدون من علاقات ، ويروجون من أسلحة الفتك والدمار . .

لقد أمل هؤلاء القوم ان تكون هذه الدعوة التى دعاهم اليها النبى - ﷺ - سببا فى وضع هذه الحرب ورأب الصدع وإغلاق باب الفتنة ، وقالوا فى أمل واستبشار : إنا قد تركنا قومنا ، بينهم من العداوة والشر مالا نظير له بين قوم آخرين ، فعسى أن يجمعهم الله بك . . و سوف نقدم عليهم ، فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك(١٤١)

ثم انصرفوا عن رسول الله - ﷺ - راجعين الى بلادهم ، قد آمنوا وصدقوا ، فلما قدموا إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله - ﷺ - ودعوهم الى الاسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها من يذكر رسول الله - ﷺ -

---

(١٤٠) البقرة ٨٩

كان هذا هو اللقاء الأول بين النبى - ﷺ - وأهل يثرب ، ولم يكن هناك بيعة فيه ، ولكن كان فيه تعريف بالاسلام - ونبى الاسلام ، وإقبال من هؤلاء النفر عليه واستبشار به . أما بيعة العقبة فسيأتى خبرها بعد .

وإن كان بعض الرواة يذكر أن هناك لقاءً بين النبى - ﷺ - وبين أهل يثرب سبق هذا اللقاء وربما لقاءات

لقاء سويد بن الصامت

ذكر الرواة أن هناك لقاء كان بين النبى - ﷺ - وبين سويد بن الصامت . وهذا الخبر رواه البيهقى فى دلائل النبوة ، قال : قدم سويد بن الصامت أخو بنى عمرو بن عوف إلى مكة حاجا أو معتمرا ، وكان سويد يسميه قومه الكامل ، لسنه وجلده وشِعْرِه الجيد الذى منه :

الارب من تدعو صديقا ولو ترى مقالته بالغيب ساءك مايفرى
مقالته كالشهد ماكان شاهداً وبالغيب مأثور على ثغرة النحر
يسرك بادية وتحت أديمه نميمة غش تبترى عقب الظهر
تبين لك العينان ماهو كاتم من الغل والبغضاء بالنظر الشزر
فرشنى بخير طالما قد بريتنى وخير الموالى من يريش ولايبرى[142]

---

(١٤١) الرحيق المختوم لصفى الرحمن الباركفورى صـ ١٥٣

(١٤٢) هذه الأبيات اوردها ابن هشام فى سيرته حـ ٢ صـ ١٧٥ ، واسد الغابة حـ ٢ صـ ٤٨٩

ومعنى يفرى : يختلق كذبا - ومعنى ماثور : سيف - واديمه : جلده وتبترى : تنحت ، والعقب : العصب - والنظر الشزر : النظر بمؤخر العين فى حالة الغضب وهو نظر العدو - رشنى : قونى واعنى

فلقيه النبى - ﷺ - ودعاه الى الله - عز وجل - والى الاسلام . فقال سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .

فقال رسول الله - ﷺ - : وماالذى معك ؟

فقال : حكمة لقمان

فقال رسول الله - ﷺ - اعرضها علىّ .

فعرضها عليه . فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه :

قرآن أنزله الله - عز وجل - علىّ هو هدى ونور .

فتلا عليه النبى - ﷺ - القرآن ، ودعاه إلى الاسلام ، فلم يبعد عنه ، وقال : إن هذا القول حسن .

ثم انصرف فقدم المدينة على قومه . فلم يلبث أن قتلته الخزرج ، وكان رجال قومه يقولون : إنا لنرى انه قتل وهو مسلم .

موقعة بين الأوس والخزرج

وكان قتله يوم بعاث .

وقد ذكر ابن الأثير سويد بن الصامت فى كتابه أسد الغابة فى معرفة الصحابة ولكن ذلك لا يؤكد إسلامه ، فقد ذكر ابن الاثير قول أبى عمر بن عبد البر : أنا أشك فى إسلام سويد بن الصامت كما شك فيه غيرى . .

ولكن هذا الخبر الذى ذكرناه يشير الى أن خبر الاسلام كان قد نما الى المدينة عن طريق سويد ، كما نما عن طريق غيره . مثل إياس بن معاذ .

خبر إياس بن معاذ

يروى ابن هشام والبيهقى وابن الاثير قصة إسلام إياس بن معاذ فيقولون : قدم أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحِلْف من قريش على قومهم من الخزرج .

فسمع بهم النبى - ﷺ - فأتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟

فقالوا له : وماذاك ؟

قال : أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد ، أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل الله علىّ القرآن ، ثم ذكر لهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ - وكان حدثا صغير السن : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له .

فأخذ أنس بن رافع - كبيرهم حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا من ذلك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

فصمت إياس ، وقام رسول الله - ﷺ - وانصرفوا راجعين الى المدينة .
وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج ، ثم لم يلبث إياس أن هلك .
فأخبر من حضره من قومه عند موته ، أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات .

فماكانوا يشكون انه قد مات مسلما . .

ومن هذه اللقاءات أيضا ماذكره ابن عبد البر فى كتاب الاستيعاب - وذلك فى حديثه فى ترجمة أسعد بن زرارة قال : انه أول من قدم المدينة بالاسلام هو وذكوان بن عبد قيس . . . . خرجا يتنافران الى عتبة بن ربيعة ، فسمعا برسول الله - ﷺ - فأتياه فاسلما ، فلم يقربا عتبة ، ورجعا بالاسلام الى المدينة(١٤٣)

---

(١٤٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ صـ ١٧٥ - دلائل النبوه جـ ٢ صـ ٤٢٠ - اسد الغابة جـ ١ صـ ١٨٦

وأورد ابن الاثير فى كتابه هذا الخبر عن الواقدى(١٤٤)

لقد استشعر إياس الاسلام فى ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله - ﷺ - ماسمع .(١٤٥)

فهذه اخبار تشير إلى أن خبر الاسلام كان قد وصل الى المدينة قبل أن يلتقى النبى - ﷺ - بهؤلاء النفر الذين التقى بهم عند العقبة ، وعادوا وقد اطمأنوا الى الاسلام ، وطمأنوا النبى - ﷺ - على أنهم سيكونون رسل خير الى قومهم .

بيعة العقبة الأولى

حين عاد هؤلاء النفر الذين قدمنا ذكرهم الى المدينة أخذوا يتحدثون عن هذا الدين الجديد ، ويدعون قومهم إليه ، فلم تبق دار فى يثرب ليس فيها ذكر له وخبر عنه . .

وجاء الموسم التالى للحج . فقدم مكة اثنا عشر رجلا ، والتقوا بالنبى - ﷺ - عند العقبة ، وبايعهم النبى - ﷺ - بيعة العقبة الأولى وهذا نصها :

عن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا النبى - ﷺ - على ان لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل ، أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفترينه من بين ايدينا وارجلنا ، ولا نعصيه فى معروف . . قال : فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن نقضتم من ذلك شيئا فأمركم الى الله - عز وجل - إن شاء عذب وإن شاء غفر .

---

(١٤٤) الاستيعاب جـ ١ ص ٨٠

(١٤٥) اسد الغابة جـ ٢ صـ ١٦٨ ترجمة ذكوان بن عبد قيس

وقد سميت هذه البيعة أيضا بيعة النساء لأنها هى البيعة التى نزل بها القرآن الكريم فى حق النساء بعد ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٤٦)

أما هؤلاء النفر فهم من الخزرج :

أسعد بن زرارة من بنى النجار

وعوف بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار

ومعاذ بن الحارث بن رفاعة من بنى النجار

ورافع بن مالك بن العجلان من بنى زريق

وذكوان بن عبد قيس من بنى زريق

وعبادة بن الصامت بن قيس من بنى عوف بن الخزرج

وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزيمة من بنى عوف بن الخزرج

والعباس بن نضلة بن مالك بن العجلان من بنى سالم بن عوف

وعقبة بن عامر بن نابى من بنى سلمة

وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سواد

---

(١٤٦) الممتحنة ١٢

ومن الأوس :

أبو الهيثم بن النبهان واسمه مالك

وعويم بن ساعدة

أول سفير فى الاسلام

وأرسل معهم النبى - ﷺ - عقب مبايعته لهم مصعب بن عمير ، وهو أول سفير فى الإسلام .

وهو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى بن كلاب بن مرة القرشي . . ويكنى أبا عبد الله . .

كان مصعب من فضلاء الصحابة ، ومن سابقيهم الى الاسلام ، اسلم ورسول الله - ﷺ - فى دار الأرقم بن أبى الأرقم . وكتم إسلامه خوفا من أمه وقومه ، وكان يختلف الى رسول الله - ﷺ - سرا . .

وفى يوم رآه عثمان بن طلحة من بنى عبد الدار قائما يصلى ، فأعلم أهله وأمه بذلك فأخذوه وحبسوه ، فلم يزل محبوسا إلى أن هاجر إلى أرض الحبشة . .

ثم عاد إلى مكة . . وبقى بها حتى هاجر الى المدينة المنورة ولقد تحمل مصعب فى سبيل إسلامه أذى كثيراً فصبر عليه . . كان من أنضر شباب قريش ، وأحسنهم ثوبا ووجها ومنظرا . قال عنه الواقدى : كان مصعب فتى مكة شبابا وجمالا . .

وكان أبواه يحبانه ويكسوانه أحسن مايكون من الثياب ، وكان أعطر أهل مكة ، وكان رسول الله - ﷺ - يذكره فيقول : مارأيت بمكة أحسن لمة - شعر رأس - ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير . .

وكان قبل إسلامه يقضى وقته فيما يقضيه الشباب فى اللهو والقنص والشراب والترف . . .

حتى فتح الله بصيرته على الاسلام ، فعزف عن ذلك كله ، واستعذب شظف العيش فى سبيل الله . .

فقد أجبر على لبس الخشن من الثياب ، وقيدت يداه ورجلاه ، وذاق ضراوة الجوع . ولكنه مع ذلك لم يضق ذرعا ولم يهن عزمه . بل صبر واحتسب . وكان موقفه عزاء لغيره .

قال سعد بن أبى وقاص : كنا قوما تصيبنا قسوة العيش بمكة مع رسول الله - ﷺ - فلما أصابنا البلاء صبرنا وتحملنا ، وكان مصعب بن عمير أنعم فتى بمكة ، ثم لقد رأيته جهد فى الاسلام جهدا شديدا ، حتى لقد رأيت جلده يتحشف - يتقبض ويتصلب ويتقلص - كما يتحشف جلد الحية .

قال علىٌ بن أبى طالب - رضى الله عنه - إنا لجلوس مع رسول الله - ﷺ - فى المسجد اذا طلع علينا مصعب بن عمير وماعليه إلا بردة مرقوعة بفرو ، فلما رآه رسول الله - ﷺ - بكى للذى كان فيه من النعمة ، والذى هو فيه اليوم .

ثم قال رسول الله - ﷺ - كيف بكم اذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى حلة ، ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟

قالوا : يارسول الله ، نحن يومئذ خير منا اليوم ، نتفرغ للعبادة ، ونكفى المئونة .

فقال رسول الله - ﷺ - أنتم اليوم خير منكم يومئذ .

وصدقت نبوءة رسول الله - ﷺ - وهاهى ذى حالنا كما وصف ، وهى فعلا شر من الأمس .

فبكاء النبى - ﷺ - من أجل مصعب وهو صابر على ماهو فيه ، انما هو دليل على أن مصعبا قد بلغ القمة فى الصبر والاحتساب وإيثار ثواب الله على ماعداه ، فما باله لايكون قدوة لغيره من المسلمين ؟ ولماذا لا يكون حاله عزاءً لغيره ممن أوذى فى سبيل الله ؟

هذا هو مصعب بن عمير الذى اختاره النبى - ﷺ - ليكون رفيقا لهذا الوفد من يثرب الذى اعلن اسلامه وبايعهم رسول الله . . ونزل مصعب فى المدينة على أسعد بن زرارة ، وكان عمله الذى وكل اليه هو تعليم المسلمين الاسلام ، وإمامتهم فى الصلاة واقرائهم القرآن ولذلك سمى بالمقرىء .

وقد قام مصعب بهذه المهمة خير قيام . واجتهد فى الدعوة الى الله حتى فشا الاسلام بالمدينة ، وازداد عدد المسلمين .

وأقيمت الجمعة بالمدينة - وكان عدد الحاضرين فيها أربعين رجلا . .

لقد تضاعف عدد المسلمين فى وقت قصير أكثر من ثلاث مرات .

وكان الذى جمع الناس لصلاة الجمعة أسعد بن زرارة ، والذى كان يصلى بالمسلمين مصعب بن عمير .

قال عبد الرحمن بن كعب بن مالك لأبيه كعب - وكان يسمعه يثنى على أسعد بن زرارة حين يُؤَذَّن للجمعة - ياأبت مالك اذا سمعت الأذان للجمعة أثنيت على أبى أمامة - أسعد بن زرارة ؟

قال : أى بنى ، كان أول من جمع بنا بالمدينة .

قال : كم أنتم يومئذ ؟

قال : أربعون رجلا .

سادة يثرب يعتنقون الإسلام

واصطحب أسعد بن زرارة يوما مصعب بن عمير فى زيارة لدار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر .

ودخل به حائطا من حوائط بنى ظفر . وجلسا هناك . .

وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيدا بنى عبد الأشهل جالسين حين مر بهما أسعد ومصعب

وكان كلاهما مازال على دين قومه ، فغاظهما مارأيا .

فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دورنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وأنهرهما عن أن يأتيا دورنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك ـ هو ابن خالتى ، ولا أجد عليه مقدما .

فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما .

فلما رآه أسعد بن زرارة قادما ، قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك ، فاصدق الله فيه .

قال مصعب : إن يجلس أكلمه .

فوقف أسيد عليهما متغيظا ، فقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ، اعتزلا إنْ كانت لكما فى أنفسكما حاجة .

فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره .

قال أسيد : أنصفت . ثم ركز حربته ، وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وتلا عليه القرآن . . فأشرق وجهه وانشرح صدره ، ثم قال :

ما أحسن هذا الكلام وما أجمله ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا هذا الدين ؟

قال له : تغتسل وتطهر ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ، فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ثم قال :

إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن . إنه سعد بن معاذ .

ثم أخذ حربته وعاد . فلما رآه سعد مقبلا قال لمن معه : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

فلما وقف أسيد عليهم قال له سعد : ما فعلت ؟

قال أسيد : كلمت الرجلين ، فو الله ما رأيت بهما بأسا ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت .

وغيّر أسيد مجرى الحديث فقال لسعد : وقد حُدِّثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه .

فقام سعد مغضبا مبديا تخوفا من الذى ذكر له من أمر بنى حارثة ـ فأخذ الحربة من يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئا .

ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد له أن يسمع منهما . فوقف عليهما غاضبا ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة ، لولا ما بينى وبينك من القرابة ـ لكان لى معك شأن آخر أتغشانا فى دورنا بما نكره ؟

فتلقاه مصعب باللين ، لما يعرف من أنه سيد قومه كما أخبره بذلك أسعد ، ولطمعه فى أن يسلمِ ، فيسلم كلِ من وراءه من قومه . .

فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس يسمع .

فعرض عليه مصعب الإسلام ، وقرأ القرآن ، فهش لما سمع ، وأشرق وجهه ، واطمأن قلبه ، وقال : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ؟

قالا : تغتسل فتطهر ، ثم تشهد شهادة الحق . .

فقام سعد بن معاذ فاغتسل وشهد شهادة الحق ، ثم أخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير .

فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم بوجه غير الذى ذهب به عنكم .

فلما وقف قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ، وأعلانا شرفا .

قال : فان كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله ـ فما جاء مساء هذا اليوم حتى كان رجال بنى عبد الأشهل ونساؤهم مسلمين جميعا يذكرون اسم الله ويقرءون القرآن . .

وفى إسلام سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ـ يقول القائل :

أيا سعد سعد الأوس كن أنت ناصرا ... ويا سعد سعد الخزجين الغطارف
أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا ... على الله فى الفردوس منية عارف
فإن ثواب الله للطالب الهدى ... جنان من الفردوس ذات رفارف

وقد أبلى هذان السعدان فى الاسلام بلاء حسنا[١٤٧] .

---

(١٤٧) سيرة ابن هشام حـ ٢ صـ ١٨٦ ، دلائل النبوة للبيهقى حـ ٢ صـ ٤٢٨ واسد الغابة حـ ٢ صـ ٢٥٦

واستمر مصعب بن عمير يدعو إلى الاسلام فى المدينة حتى أسلم عدد كبير جداً ، ولم تبق دار فى المدينة إلا وفيها رجال أو نساء مسلمون اللهم إلا بعض دور قليلة معدودة كان يقودها شاعر اسمه أبو قيس بن الأسلت ، وكان أهل هذه الدور يسمعون له ويطيعون ، فتوقف بهم عن الاسلام إلى ما بعد غزوة الخندق .

ثم أسلم أهل هذه الدور .... واختلف فى إسلام قائدهم الشاعر ، فبعضهم قال :

إنه أسلم عام الفتح ـ ذلك أنه هرب إلى مكة وأقام فيها حتى فتحها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم مع مسلمة الفتح .

وقيل : إنه مات قبل ذلك على كفره(١٤٨) ..

بيعة العقبة الثانية

ودار العام دورته ، وجاء الموسم التالى ، ووفد على مكة من الأنصار الذين أسلموا عدد غفير مع بقية مَنْ وفد من أهل المدينة ، ومضى مصعب بن عمير معهم . والتقى مصعب بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره بما سره وأثلج صدره .

ويقص علينا كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قصة لقاء الأنصار بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العقبة الثانية .

وكعب هذا هو : كعب بن مالك بن أبى كعب من الخزرج ، ويكنى : أبا عبد الله ، وقيل : أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة ، والمواقع كلها مع

---

(١٤٨) سيرة ابن هشام جـ ٢ صـ ١٨٧

النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عدا بدر وتبوك ـ وكان من شعراء الإسلام المعدودين الذين يدافعون عنه بلسانهم وسيفهم .

وكان يفتخر بحضوره العقبة ويقول فى ذلك « ليس شىء أحب إلىَّ من بيعتى ليلة العقبة حيث تواثقنا على الإسلام » .

وفى توبة الله عليه حين تخلف عن غزوة تبوك هو وصاحباه نزل قوله تعالى :

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (١٤٩)

قال كعب : خرجنا فى حجاج قومنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ، فلما خرجنا من المدينة قال البراء لنا : إنى قد رأيت رأيا ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا ؟

قلنا : وماذاك ؟

قال : رأيت أن لا أدع هذه البَنِيَّة ـ يعنى الكَعبة ـ منى بظهر ، وأن أصلى إليها .

ـ يقصد أنه لا يريد أن يجعل الكعبة وراء ظهره وهو يصلى ـ

---

(١٤٩) التوبة ١١٧ ، ١١٨

قال كعب : فقلنا له : والله ما بلغنا أن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى إلا الى الشام وما نريد أن نخالفه .

قال البراء : إنى أصلى اليها ـ أى إلى الكعبة ـ

قال كعب : لكنا لا نفعل .

فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام ـ يعنى الى بيت المقدس ـ وصلى البراء الى الكعبة ، أى مستدبر الشام . حتى قدمنا مكه ، وقد كنا عبنا عليه ذلك ، فلما قدمنا مكة قال لى : يابن أخى ، انطلق بنا الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء ، لما رأيت من خلافكم إياى فيه .

قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكنا لا نعرفه ، لأنا لم نره قبل ذلك . فَلَقِيناَ رجلا من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أتعرفانه ؟

قلنا : لا .

قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟

قلنا : نعم ـ وكنا نعرف العباس . . . . كان لا يزال يقدم علينا تاجرا ـ

قال : فاذا دخلتما المسجد ، فهو الرجل الجالس مع العباس .

قال كعب : فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معه . فسلمنا حين جلسنا إليه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟

قال العباس : نعم . . . . هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك .

قال كعب : فو الله ماأنسى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الشاعر :

قال العباس : نعم

فقال له البراء بن معرور : يا رسول الله ، إنى خرجت فى سفرى هذا ، وقد هدانى الله بالإسلام ، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر ، فصليت اليها ، وخالفنى أصحابى فى ذلك ، حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء . فماذا ترى يا رسول الله ؟

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قد كنت على قبلة لو صبرت عليها .

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهى بيت المقدس . . ولم يأمره - صلى الله عليه وسلم - بإعادة ماصلاه مع أنه كان مسلما . وبين له أنه كان الواجب عليه استقبال بيت المقدس كما يفعل غيره من المسلمين .

قال كعب : ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نوافيه فى الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى أسفل العقبة حيث المسجد الحرام ، وأمر ألا ينبهوا نائما ولا ينتظروا غائبا .

قال كعب : فلما فرغنا من الحج - وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله -

صلى الله عليه وسلم - لها ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا .

وكان من جملة المشركين أبو جابر بن عمرو بن حرام ، وهو سيد من ساداتنا ، فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه ، أن تكون حطبا للنار غدا ، ثم دعوناه الى الإسلام فأسلم وأخبرناه بموعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فشهد معنا العقبة .

قال كعب : فمكثنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتسلل الرجل والرجلان تسلل القطا مستخفين ، حتى إذا اجتمعنا فى الشِّعب عند العقبة ، ونحن ثلاث وسبعون رجلا وامرأتان هما : أم عمارة نُسَيْبَة ، وأم منيع .

- أما نسيبة فهى بنت كعب بن عمرو وكنيتها أم عمارة ، وكانت تشهد الوقائع مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجاهدت جهاد الأبطال ، وكان معها فى بيعة العقبة زوجها زيد بن عاصم بن كعب ، وابناها عبد الله وحبيب(١٥٠) .

---

(١٥٠) اسد الغابة جـ ٧ صـ ٢٨٠

ـ وأم منيع هى أسماء بنت عمرو بن عدى ، وهى ابنة عمة معاذ بن جبل(١٥١) .

ـ وقد دل ذلك على أن المرأة العربية لم تغب عن معالى الأمور وعظائمها ـ فى أى وقت أو عصر . .

قال كعب : فلا زلنا ننتظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى جاءنا .

وهناك رواية أخرى تقول : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى انتظارهم .

وكان مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمه العباس ـ وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب ان يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .

ولا تخالف هذه الرواية ما جاء فى رواية أخرى من أنه كان معه أيضا أبو بكر وعلى ـ لأن العباس أوقف عليًا على فم الشِّعب ، وأوقف أبا بكر على فم الطريق ، ليكونا عينا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يكن معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا العباس .

فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم . فقال : يا معشر الخزرج ، ان محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ودافعنا عنه ، فهو فى عز

---

(١٥١) اسد الغابة جـ ٧ صـ ٤٠٠

من قومه ومنعة فى بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال البراء بن معرور : والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ لقد كان البراء صادقا الصدق كله ، ولقد أحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كل قلبه . . . . ولكن القدر لم يمهله حتى يهاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المدينة فقد توفى قبل هجرته بشهر ، ولما حضره الموت أوصى أن يدفن ويستقبل به الكعبة ، ففعلوا به ذلك ، ولما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة ذهب إلى قبره مع جماعة من أصحابه وصلى عليه وكبر أربعا(١٥٢).

---

(٥٢) اسد الغابة جـ ١ صـ ٢٠٨

لقد كان العباس حريصا على أن يستوثق لابن أخيه ، وكان يعرف أنه مقدم على أمر له شأنه وخطره ويخشى عليه منه ، وأن دعوته هذه سوف تلقى معارضة لامن داخل الجزيرة العربية فحسب بل من خارج الجزيرة حيث ملوك الروم والفرس الذين يخشون على عروشهم من هذه الدعوة . . ولذلك قال العباس لوفد المدينة فيما ترويه بعض الروايات :

قد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة ، فانظروا رأيكم ، وائتمروا بينكم ، ولاتفرقوا عن ملأ منكم واجتماع ، فان أحسن الحديث أصدقه .

وحسنا قال العباس ذلك ، فقد بصرهم بما سوف يكون ، وبما هم مقبلون عليه فى حياتهم بعد الاسلام . فلربما كان إقبالهم على الدين الجديد إنما هو فورة عاطفة تبخرها الأحداث وتزلزلها الخطوب وتغيرها التجارب والحروب . .

ولكنها لم تكن مجرد حماس فورى ، أو عاطفة طارئة ، وانما هى إيمان خالطت بشاشته القلوب واطمأنت اليه الجوارح والنفوس . حتى لقد هان بجانب هذا الإيمان كل شىء ورخص كل غال ونفيس .

ويستأنف كعب ـ رضى الله عنه ـ حديثه فيقول :

وعندما تكلم العباس بماذكر قالوا له : قد سمعنا مقالتك فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ماشئت واشترط لربك ماشئت .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشترط لربى عز وجل أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا . ولنفسى ان تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم .

لقد قدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق ربه على حق نفسه ، ولم يطلب منهم لنفسه الا أن يعتبروه كواحد منهم ، يدافعون عنه كما يدافعون عن أنفسهم ..

فقال عبد الله بن رواحة : فإذا فعلنا فمالنا ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكم الجنة بفضل الله .

قالوا : ربح البيع ربح البيع ..

أجل ، إنها التجارة الرابحة مع الله سبحانه وتعالى ، والتى حكى شأنها فى كتابه الكريم حيث يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ (١٥٣)

فأخذ البراء بيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أنفسنا وأهلنا فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

وبينما البراء يكلم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أبو الهيثم بن التيهان : نقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف . أى نفديه بمالنا وأشرافنا ..

---

(١٥٣) التوبة ١١١

ماأعظمها من تضحية ، وماأجمله من قول . .

ان صاحب هذه الكلمة هو أبو الهيثم مالك بن التيهان بن مالك الخزرجى ، كان أحد نقباء قومه يوم العقبة ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحبه ، ويذهب الى منزله أحيانا . .

قصة طريفة عن أبى الهيثم :

ومن الأقاصيص الطريفة التى يقصها ابن الأثير عن أبى الهيثم بن التيهان قال : روى الترمذى حديث أبى هريرة قال : خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ساعة لايخرج فيها ، ولايلقاه فيها أحد . فأتاه أبو بكر ، فقال له الرسول : ماجاء بك ياأبا بكر ؟

قال : خرجت للقاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنظر فى وجهه والسلام عليه . ثم لم يلبث أن جاء عمر ، فقال : ماجاء بك ياعمر ؟

قال : الجوع يارسول الله .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد وجدت بعض ذلك .

فانطلقوا الى منزل أبى الهيثم بن التيهان الأنصارى : وكان رجلا كثير النخل والشاء ، وله خادم ـ فلم يجدوه . . فسألوا عنه ، فأخبروا أنه انطلق ليستعذب الماء لأهله ـ أى يأتيهم بماء عذب ـ فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقربة يَزْعَبُها ـ أى يتدافع بها ويحملها لثقلها ـ فوضعها .

ثم انطلق بهم الى حديقة . فبسط لهم بساطا ، ثم انطلق الى نخلة فجاء بِقنْوٍ ـ عِذْق بما فيه من الرطب ـ فوضعه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفلا تَنقَّيت لنا من رطبه وبُسْره ؟

فقال : يارسول الله إنى أردت أن تختاروا ـ أى بأنفسكم ـ من رطبه وبسره ، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء .

ـ وفى رواية : ثم أخذ المدية وانطلق الى الشاء ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياك والحلوبة ـ فذبح لهم وأكرمهم .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا والذى نفسى بيده النعيم الذى تُسْأَلون عنه يوم القيامة ، ظل بارد ، ورطب طيب ، وماء بارد(١٥٤) . .

قال تعالى :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾(١٥٥)

عودة الى البيعة :

قال كعب بن مالك مستأنفا قصة بيعة العقبة : فقال العباس ـ أى بعد أن قال أبو الهيثم ماقال : ـ اخفوا جَرْسَكم ـ أى صوتكم ـ فإن علينا عيونا .

---

(١٥٤) أسد الغابة ج ٥ ص ١٤

(١٥٥) سورة التكاثر

ثم قال أبو الهيثم : يارسول الله ـ إن بيننا وبين اليهود ـ حبالا وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ـ والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى بذلك أنه أصبح منهم فدمه دمهم وأمره أمرهم ، وذمته ذمتهم يبرم ماأبرموه ويهدم ماهدموه ـ

لقد قال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ذمتى ذمتكم ، ورحلتى مع رحلتكم ، أنا منكم وأنتم منى ـ أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وعند ذلك قال العباس : عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم ، وعهد الله مع عهدكم ، فى هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ، يد الله فوق أيديكم ، لتَجِدُّن فى نصرته ولتشدُّن من أزره »

قالوا جميعا : نعم .

قال العباس : اللهم إنك سامع شاهد ، وان ابن أخى قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه ، اللهم كن لابن أخى عليهم شهيدا .

ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أخرجوا منكم اثنى عشر نقيبا ، يكونون على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

وفى رواية أخرى . أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم : إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبا ـ فلا يجدث أحد فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لى جبريل .

ولعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى بذلك أن يكون كل واحد منهم أهلاً لأن يتحمل المسئولية ويقبل القيام بالتبعة . . .

ثم تخير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هؤلاء النقباء وهم :

سعد بن عبادة

وأسعد بن زرارة

وسعد بن الربيع

وسعد بن أبى خيثمة

والمنذر بن عمرو

وعبد الله بن رواحة

والبراء بن معرور

وأبو الهيثم بن التيهان



وأسيد بن حضير

وعبد الله بن عمرو بن حرام

وعبادة بن الصامت

ورافع بن مالك

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأولئك النقباء : أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى يعنى المهاجرين .

لقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك أن يكفل النظام لهذه الجماعة ، وأن يحمل التبعة لكل مسئول عن جماعته . وأن يجعل من هذه الجماعة الصغيرة العدد نواة للمجتمع الكبير الذى سوف ينشأ بعد قليل فتُبنى

عليه الأمة الاسلامية الكبيرة . . وبادر أسعد بن زرارة ، وهذا أصغر القوم فأخذ بيد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : رويدا ياأهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وان إخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب ، وقد يكون فى ذلك قتل خياركم فإما أنتم قوم تصبرون عليها اذا مستكم بقتل خياركم ومفارقة العرب كافة . فخذوه وأجركم على الله تعالى ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة ، فذروه فهو عذر لكم عند الله ـ عز وجل ـ

فقالوا : ياأسعد ، أمط عنايدك ، فوالله لانذر هذه البيعة ولانتركها مهما كان الأمر

وقيل : إن الذى تكلم مع الأنصار وشد العقدة هو العباس بن عبادة بن نضلة ـ الذى قال : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا هلكت أموالكم وقتل أشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن . . . فهو والله ان فعلتم بعد ذلك شيئا خزى الدنيا والآخرة .

وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فمالنا بذلك يارسول الله ان نحن وفينا ؟

قال : الجنة .

قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده . . فبايعوه .

لقد قال العباس ذلك ليشد العقد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ويؤكد العزم على مناصرته . وان كان بعضهم يرى أنه قال ذلك ليحمل القوم على التروى بعض الوقت حتى يحضر عبد الله بن أبيّ بن سلول ، فيكون أقوى لأمر القوم ، وآكد وأثبت لأمر البيعة . .

ولقد كانت المبادرة الى البيعة شرفا مابعده شرف . حتى ان القوم ليتفاخرون بأيهم كان أسبق فى ذلك .

فبنو النجار يقولون : إن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبايعا لهم .

وبنو عبد الأشهل يقولون : بل ان أبا الهيثم بن التيهان هو أول مبايع ويرى بعضهم أن أول مبايع كان البراء بن معرور . .

وأيا كان السابق فان جميع هؤلاء سابقون ـ وقد سجل الله لهم هذا الفخر ، كما سجل لهم إيثارهم العظيم وأريحيتهم الكريمة حيث قال :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١٥٦)

وشاء الله أن حرم من هذا الشرف آخرون كانوا يعتبرون أنفسهم أحق بالعزة والسيادة وأولى بالشرف والفخار ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . .

---

(١٥٦) الحشر ٩

فعبد الله بن أبي بن سلول ، كانوا يوشكون أن يتوجوه ملكا على يثرب . ولكنه لم يكن له شرف الاشتراك فى هذه البيعة على الرغم من وجوده فى مكة .

كلمات مأثورة فى البيعة :

ولقد أكد الأنصار عهدهم فى مبايعتهم بكلمات مأثورة قالها بعضهم ستظل هذه الكلمات علامات مشرقة فى التاريخ تُذكِّر الناس بأن الايمان حين يصافح القلوب يفجر الحكمة على اللسان .. ولعمرى لم يكن مجرد كلام يقال بل هو صدى لما كان يعتمل فى النفوس من صدق ويقين واخلاص وحب لله ورسوله ..

فقد قال أبو الهيثم : أبايعك يارسول الله على مابايع عليه الاثنا عشر نقيبا من بنى إسرائيل موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ

وقال عبد الله بن رواحة : أبايعك يارسول الله على مابايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

وقال أسعد بن زرارة : أبايع الله ـ عز وجل ـ يارسول الله ، وأبايعك على أن أتم عهدى بوفائى وأصدق قولى بفعلى فى نصرك .. وقال النعمان بن حارثة : أبايع الله ـ عز وجل ـ يارسول الله ، وأبايعك على الاقدام فى أمر الله ـ عز وجل ـ لا أرأف فيه القريب ولاالبعيد ، أى لاأعامل فيه بالرأفة والرحمة .

وقال عبادة بن الصامت : أبايعك يارسول الله على أن لا تأخذنى فى الله لومة لائم .

وقال سعد بن الربيع : أبايع الله وأبايعك يارسول الله على أن لاأعصى لكما أمرا ولا أكذبكما حديثا . .

وقد وفى كل منهم بما قال : وصدق الله ورسوله فيما قال ونزل فيهم وفى غيرهم من المهاجرين قوله تعالى :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٥٧)

وحين انتهت البيعة فزعت قريش ، وحاول كثير من شياطينهم أن يخوفوا الأنصار من عواقب تلك البيعة يعاونهم فى ذلك شياطين الجن . . ولكن الانصار صمدوا فى مواجهة تلك الوساوس وعصمهم الله من النكوث فى العهد وثبت قلوبهم على الايمان بالله ورسوله .

لقد خشى شياطين الكفر من الإنس والجن عواقب هذه البيعة ، وعلموا أنها بداية النهاية للكفر وأهله ، وأدركوا أن فى الهجرة النصر الأكبر للاسلام والخذلان المبين لعبادة الأصنام فأرادوا ان يؤلبوا قريشا ضد هؤلاء المبايعين على النصرة ، وطالما ترصد هؤلاء الشياطين خطوات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونبهوا إليه أعداءه ووسوسوا فى نفوس الموالين له من قريش . .

ولكن الله كان ينصر نبيه ويؤيده بملائكته . .

عن حارثة بن النعمان ـ رضى الله عنه ـ قال : لما فرغ الناس من المبايعة قلت : يانبى الله ، لقد رأيت رجلا عليه ثياب بيض لاأعرفه قائما على يمينك .

---

(١٥٧) الأحزاب ٢٣

قال : أوقد رأيته ؟

قلت : نعم .

قال : ذاك جبريل . .

قلت : ولماذا جاء ؟ . . قال : ليدفع كيد الشيطان

وماذا يصنع كيد الشيطان إزاء حفظ الرحمن ؟

قريش تفزع

وقد فزعت قريش فزعا شديدا عندما شاع أمر هذه البيعة . فتداعى القريشيون بعضهم الى بعض حتى قال عمرو بن العاص : ذهبت أنا وأبو جهل الى عتبة بن ربيعة أخبره بما حدث فوجدته لايعرف شيئا من أمرها فلما علم بها راعه ماراعنا من أمرها . . ثم علم بها بعد ذلك جميع القرشيين بعد ان فشا الخبر وذاع ، فتوجسوا شرا من تلك المبايعة وأرادوا ان يفعلوا شيئا يجهضون به هذه الخطوة العملية

لقد كان الأنصار فى منتهى الفدائية والبسالة فقد بايعوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم يدركون تماما عواقب تلك المبايعة . . ولكنهم لايخشون تلك العواقب ولذلك قال العباس بن عبادة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والذى بعثك بالحق ان شئت لنميلن على أهل ـ منى ـ غداً بأسيافنا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم . وانصاع القوم فعادوا الى رحالهم . وناموا حتى أصبحوا .

حوار حاد بين قريش والأنصار

ويكمل ابن هشام القصة التى بدأناها راويا عن ابن إسحاق القصة التى

حكاها كعب بن مالك . فيقول :

فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش ، حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وانه والله مامن حى من العرب أبغض الينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . وكان بعض رجال من كبار قريش لم يعلموا بعد بأمر هذه البيعة فدهشوا لذلك . .

وتوجهت قريش إلى عبد الله بن أبى بن سلول ، فقالوا له مثل ماقالوا أولا . فقال لهم عبد الله : إن هذا الأمر جسيم ماكان قومى ليفتاتوا علىّ فيه ، وماعلمته كان . . وجعل يؤكد لهم أن هذا باطل ، ولو كنت بيثرب ماصنع قومى هذا حتى يؤامرونى ـ أى يستأذنونى ويأخذون الأمر منى . .

ونفر الناس ، وأخذت قريش تفتش عن الخبر حتى أدركت أنه صحيح ، فاقتفوا أثر الأنصار ، ولكنهم لم يعثروا الا على سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو .

فأما المنذر فقد أفلت منهم .
وأما سعد فقد أمسكوا به وعذب .

قال سعد : لما ظفروا بى ربطوا يدى فى عنقى ، فمازالوا يلطموننى على وجهى ، ويجذبوننى من شعرى ـ وكان ذا شعر كثير ـ حتى أدخلونى مكة ، فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع علىّ نفر من قريش فيهم رجل وضىء أبيض شعشاع ـ حلو ـ فقلت فى نفسى : إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا .

قال : فلما دنا منى رفع يده فلكمنى لكمة شديدة ، فقلت فى نفسى : لا والله ماعندهم بعد هذا خير .

قال : فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى إلىَّ رجل ممن كان معهم ، فقال لى : ويحك ، أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولاعهد ؟

قلت : بلى ، والله لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى بن نوفل تُجّاره وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وكذا الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس .

قال : ويحك ، فاهتف باسم الرجلين ، واذكر مابينك وبينهما .

ففعلت ، وخرج ذلك الرجل اليهما ، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح يهتف بكما ، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا .

قالا : من هو؟

قال : سعد بن عبادة .

قالا : صدق والله ، ان كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده فجاءا فخلّصا سعدا من أيديهم . .

وكان الرجل الذى لكم سعدا هو سهيل بن عمرو أخو بنى عامر بن لؤى . والرجل الذى آواه هو أبو البخترى بن هشام .

انتشار الاسلام فى المدينة

وعاد الأنصار الى المدينة بروح جديدة ، والايمان سلاح من لا سلاح له ، وأقبلوا على دينهم يولونه خير عناية ، ويؤدونه خير أداء ، وينشرونه فى كل مكان .

ومن الاخبار الطريفة التى كان المسلمون يتندرون بها فى المدينة ، قصة صنم عمرو بن الجموح ، والتى يرويها الحلبى فى سيرته ، وابن هشام فى سيرته ، قالوا : لما قدم الأنصار المدينة وأظهروا الاسلام ، وفى قومهم بقايا شيوخ على دينهم من الشرك ، منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام ، وكان ابنه معاذ ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ـ ﷺ ـ

وكان عمرو سيدا من سادات بنى سلمة وشريفا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ صنما من خشب وأسماه « مناة » كما كان الأشراف يصنعون .

فلما أسلم فتيان بنى سلمة : معاذ بن جبل ، ومعاذ بن عمرو وغيرهما ، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك ، فيطرحونه منكسا على رأسه فى بعض الحفر التى تجمع فيها الأقذار . فاذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه . ثم يقول : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه .

فاذا جاء الليل ، ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل مافعلوا قبل ذلك . فيغدو عمرو فيجده فى مثل ماكان فيه من الأذى ، فيغسله ويطهره ويطيبه . فإذا جاء الليل عادوا ففعلوا به كما فعلوا قبل ذلك .

فلما أكثروا عليه ، استخرجه من حيث ألقوه يوما ، فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه وقال : إنى والله ماأعلم من يصنع بك ماترى ، فان كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو غدوا عليه ، فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها أقذار

الناس . ثم غدا عمرو فى الصباح فلم يجده فى مكانه الذى كان فيه ، فخرج يبحث عنه حتى وجده فى تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت .

فلما رآه وأبصر شأنه ، أنكر ذلك ، وكان قومه الذى أسلموا كلموه فرجع اليه عقله وأسلم .

وقال حين أسلم وعرف من الله ماعرف وأخذ يذكر صنمه ومأبصر من أمره ، ويشكر الله على نعمة الهداية من العمى والانقاذ من الضلالة :

والله لـو كـنت إلهـا لم تكـن أنت وكلب وسـط بئـر فى قـرن
أف لملقـاك إلهـا مسـتدن الآن فتشـناك عن سـوء الغبـن
الحمـد لله العلى ذى المنن الواهـب الـرازق ديّـان الديـن
هو الـذى أنقـذنى من قبـل أن أكـون فى ظلمـة قبـر مرتهـن
بأحمد المهدى النبى المرتهن[١٥٩]

وهذه القصة تشبه قصة رواها الدميرى فى حياة الحيوان قال : كان لبنى ثعلب صنم يعبدونه ، فبينما هم ذات يوم إذ أقبل ثعلبان يشتدان ، فرفع كل منهما رجله وبال عليه .

وكان للصنم سادن يقال له : غاوى بن ظالم ، فأنشد :

أرب يبـول الثعلبـان برأسـه ∴ لقـد ذل من بالـت عليه الثعالـب

ثم كسر الصنم ، وأتى النبى - ﷺ - فقال له النبى - ﷺ - : ماسمك ؟

قال : غاوى بن ظالم .

قال : بل أنت راشد بن عبد ربه .

---

(١٥٩) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٥ - السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٠

وفى نهاية الغريب ، انه كان لرجل صنم ، فكان الرجل يأتى بالخبز والزبد فيضعه عند رأسه ويقول له : اطعم ..

فجاء ثُعلبان فأكل الخبز والزبد ، ثم بال على رأس الصنم ـ والثُعلبان ذكر الثعالب .

فقام الرجل ، فضرب الصنم فكسره ، ثم جاء الى النبى ـ ﷺ ـ فأخبره بذلك وقال فيه شعرا :

لقد خاب قوم أملوك لشدة أرادوا نزالا أن تكون تحارب
فلا أنت تغنى عن أمور تواترت ولا أنت دفاع اذا حل نائب
أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب[160]

تأملات فى بيعة العقبة

ولنتأمل جيدا فى هذه الأحداث التى حفلت بها بيعتا العقبة ، لنرى من خلالها كيف أخذ الجهاد فى سبيل الدعوة يؤتى ثماره .

لقد سلك النبى ـ ﷺ ـ مسلك الانسان الذى يأخذ بالأسباب فى دعوته ، فدعا وخطب فى الناس ، وبالغ فى النصيحة ، ورحل إلى القبائل فى ديارهم ، وتعرض لهم فى منتدياتهم ، ومنازلهم ومجتمعاتهم .. لم يقصر ، ولم ييأس ، ولم يهن عزمه ، ولم تضعف همته ، كانت الكلمة سلاحه ، والقرآن الكريم دليله وبرهانه ، ولم يلق من الناس إلا كل تكذيب وسخرية واستهزاء ، حتى اتهموه بالجنون والسحر والشعر وحذروا الناس منه ، حتى لقد كانوا يقولون لكل وافد إلى مكة : احذروا هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى .

---

(١٦٠) حياة الحيوان للدميرى ج ١ ص ٢٩١

وماكانوا يدرون أنهم بكلامهم ذلك ، كانوا يغرون الناس بلقائه ويدلون الناس عليه . وينبهونهم اليه . .

أكثر من عشر سنوات قضاها النبى - ﷺ - فى تبليغ هذه الدعوة الكريمة قاسى فى خلالها ماقاسى ، وابتُلِىَ فيها بماابتلى من أحزان وأشجان . حتى جاءت هذه النتيجة الطيبة التى تذكُر بأن هذه الدعوة آن لها أن تفرخ فى غير الوطن الذى ولدت فيه . .

وهكذا تثبت الأحداث أن كل نبى ، لا كرامة له فى وطنه . وأكثر الناس تكذيبا للأنبياء هم أقوامهم . حتى جاء الوقت الذى تلقف فيه هذه الدعوة هؤلاء القوم من يثرب فوجدوا فيها المنقذ لهم ممايعانونه من ويلات . .

لقد أراد الله - سبحانه - أن يعلم الناس كيف يكون الوصول الى الهدف . . . . إن الوصول اليه لابد أن يكون بسلوك الأسباب التى أتاحها الله لنا . ولو شاء الله أن ينشر دينه بدون عناء لفعل . ولكن الثمرة إذا نالها الانسان بدون مشقة هانت عليه ، ولم يدرك قيمتها .

ولنقرأ معا ماكتبه الدكتور رمضان البوطى فى ثمار بيعة العقبة :

« لايتحقق التعبد بدون بذل الجهد ، ولا يمحص الصادق من المنافق بدون عذاب أو استشهاد ، وليس من العدل أن يكسب الانسان الغُنْم دون أن يبذل فى ذلك شيئا من العزم . من أجل ذلك كلف الله الانسان أمرين :

١ - إقامة شرعة الاسلام ومجتمعه .

٢ - السير إلى ذلك فى طريق شائكه مجهدة غير معبدة .

والآن لنتأمل فى هذه الثمار التى أخذت تبدو على رأس إحدى عشرة

سنة ، من دعوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وطبيعتها وكيفية نموها .

لقد جاءت هذه الثمار المنتظرة من خارج قريش بعيدة عن قوم الرسول ـ ﷺ على الرغم من جوارهم له وقربه منهم واحتكاكه بهم ، فلماذا ؟

لقد اقتضت حكمة الله الباهرة أن تسير الدعوة الاسلامية فى سبيل لا تدع أى شك للمتأمل فى طبيعتها ومصدرها ، حتى يسهل الايمان بها ، ولايقع أى التباس بينها وبين غيرها من الدعوات الأخرى .

من أجل ذلك كان الرسول أميا لايقرأ ولايكتب .

ومن أجل ذلك بعث فى أمة من الأميين الذين ابتعدوا عن حضارة الأمم المجاورة لهم ، ولم يتأثروا بثقافاتهم .

ومن أجل ذلك جعله الله مثال الخلق الكريم والأمانة والنزاهة .

ومن أجل ذلك أيضا اقتضت حكمة الله ـ عز وجل ـ أن يكون أنصاره الأوَل من غير بيئته وقومه ، حتى لايظن ظان أن دعوة الرسول ـ ﷺ ـ كانت فى حقيقتها دعوة قومية حاكتها رغبات قومه وظروف بيئته .

وهذا فى الواقع من أجلِّ المعجزات التى تكشف للمتأمل أن العناية الإلهية تحوط حياة الدعوة النبوية وظروفها من كل جانب ، كى لاتوجد فى أى جانب ثغرة ينفذ منها طاعن أو يدعو إليها مشكك أو محترف غزو فكرى(١٦١) .

---

(١٦١) فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى ص ١٢٥

ونلاحظ أن بيعة العقبة الأولى ، لم يكن فيها إشارة إلى الحرب أو الجهاد ، لقد كانت تمهيدا لدخول الاسلام الى المدينة ، وتهيئة للنفوس نحو هذا الدين الجديد ، وكان عدد المبايعين لايتجاوز اثنى عشر رجلا .

أما بيعة العقبة الثانية فقد كانت تنص على الحرب والجهاد ، وعلى أن يمنع المبايعون النبى - ﷺ - ممايمنعون منه أولادهم وأنفسهم .

وعلى هذا الأساس كانت هجرة النبى - ﷺ - ولذلك كثر الحوار فى بيعة العقبة الثانية . .

وقد استوثق العباس لابن أخيه ، واستوثق الانصار لأنفسهم قائلين : ماذا لنا لو أننا وفينا ؟ وهل تتركنا بعد أن تظهر وتنتصر وتعود الى قومك وديارك ؟

لقد كانت البيعة مقدمة للهجرة ، وكانت الهجرة مقدمة للجهاد حتى لقد اعتبر ابن هشام أن الأمر بالقتال صدر فى هذه الآونة . .

وسنتحدث عن الجهاد ومشروعيته فى عدد خاص إن شاء الله - تعالى . .

إذن النبى لأصحابه بالهجرة

وحين رأت قريش أن النبى - ﷺ - قد عقد مع أهل يثرب عهداً على أن يمنعوه أسقط فى أيديهم ، وأخذوا يضيقون الخناق على من عندهم من المسلمين بمكة . .

فكان الرد العملى على ذلك أن أصدر النبى - ﷺ - الأمر لأصحابه بالهجرة الى المدينة . .

ولم يأذن لهم إلا بعد أن صدر الأمر له من السماء . فقد أوحى الله إليه مناما بالهجرة .

وقال ـ ﷺ ـ لأصحابه : من أراد أن يخرج فليخرج .

وأخذ المسلمون يخرجون أرسالا . وقبل أن يهاجروا آخى ـ ﷺ ـ بينهم .. فآخى ـ كما يقول الحلبى فى سيرته .

بين حمزة وزيد بن حارثة

وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف

وبين الزبير وعبد الله بن مسعود

وبين عبادة بن الحارث وبلال

وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص

وبين أبى عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة

وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله .

وبين على ونفسه ـ ﷺ ـ

وهذه المؤاخاة بين المهاجرين غير المؤاخاة التى عقدت بعد ذلك فى المدينة بين المهاجرين والأنصار وقد أنكر كثير من الرواة ماذكر عن تلك المؤاخاة .

وقالوا : إن المؤاخاة لم تحدث إلا بين المهاجرين والأنصار بحجة أن مؤاخاة المهاجرين والأنصار إنما جعلت ليرتفق بعضهم ببعض ، ولتتألف قلوب بعضهم ببعض ، فلامعنى لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى . ولكن الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ ذكر هذه المؤاخاة وقال : إن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة ، فآخى بين الأعلى والأدنى ، ليرتفق الأدنى بالأعلى ، وليستعين الأعلى بالأدنى ، وليتعاون المتساويان وليساعد أحدهما الآخر .. ولهذا تظهر مؤاخاته ـ ﷺ ـ لعلى ـ رضى الله عنه ـ فقد كان على يقوم بكثير من الأمور يكلفه الرسول ﷺ بها (١٦٢) .

---

(١٦٢) السيرة الحلبية ج٢ ص ١٨١

وفى الصحيح ـ فى عمرة القضاء ـ أن زيد بن حارثة قال : إن بنت حمزة بنت أخى ـ أى بسبب المؤاخاة . .

أول مهاجر الى المدينة :

وكانت الهجرة طريقا من طرق الجهاد اختبر الله بها العزائم ، وامتحن بها القلوب .

ولم يكن طريق الهجرة سهلا ، ولكنه كان شاقا محفوفا بالمخاطر . .

فمن غير المعقول أن تترك قريش المسلمين وقد بدأت تظهر قوتهم وشوكتهم . . إنهم سوف يعودون إليهم يوماً أقوياء أشداء . . فكانت سياسة المشركين مع المسلمين مستوحاة من المثل :

« خذه قبل أن يأخذك »

ولكن هذا المثل ارتد على قريش فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

لقد ضرب الله على عيونهم ، وأضل عقولهم ، وشتت أذهانهم ، فانسل المسلمون من بينهم دون أن يشعروا بالكثيرين منهم .

وكانت قريش قد رصدت الطريق المؤدى إلى المدينة حتى تقطعه على من تسول له نفسه الهجرة ، فما هاجر أحد من المسلمين إلا خلسة . . . . اللهم إلا ما كان من عمر بن الخطاب الذى أعلن عن هجرته متحديا قريشا فلم تقبل التحدى .

وكثير من المهاجرين لقوا من متاعب الطريق وقسوة الصحراء ، وشدة الظمأ وحر الرمضاء ما يوردهم موارد الهلاك . . ولكنهم صبروا ابتغاء أجر الله ، ومن مات منهم فقد وقع أجره على الله مصداقا لقوله ـ تعالى :

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠)﴾ (١٦٣)

وروى القرطبى فى تفسير هذه الآية قول عكرمة : طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته .. إنه ضمره بن العيص ، أو العيص بن ضمرة بن زنباع ـ وكان من المستضعفين بمكة ، وكان مريضا ، فلما سمع ما أنزل الله فى الهجرة قال : أخرجونى فهيىء له فراش ثم وضع عليه ، وخرج فمات فى الطريق بالتنعيم ، وجاء بنوه إلى النبى ـ ﷺ ـ فأخبروه فنزلت هذه الآية .

أما أن الهجرة من شرائط الإيمان فدليلها من الكتاب قوله ـ تعالى ـ

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)﴾ (١٦٤)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا

(١٦٣) النساء ١٠٠

(١٦٤) النساء ٩٠

﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ (١٦٥)

لقد كانت الهجرة واجبة أول الاسلام ، فلما فتحت مكة وتوطد أمر الدين قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاهجرة بعد الفتح . وبقى معنى الهجرة الباطن بأن يهجر الإنسان المعاصى ، وهو ما يفهم من هذا الأثر : المهاجر من هجر ما نهى الله عنه .

واستجاب المسلمون لأمر الله ورسوله لهم بالهجرة ، لايحبس الرجل عنها إلا عائق فوق إرادته . . .

وكان أول من قدم المدينة مهاجرا أبو سلمة بن عبد الأسد . . . وروى أن ليلى بنت أبى حثمة بن حذيفة زوجة عامر بن ربيعة ، وأم عبد الله بن عامر وبه كانت تكنى ـ روى أنها كانت أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة ، وقيل ذلك أيضا عن أم سلمة زوجة أبى سلمة ـ رضى الله عنهم ـ

ومما يقصه الرواة عن المتاعب التى لقيها المهاجرون فى هجرتهم قصة هجرة أبى سلمة وزوجه أم سلمة .

كان أبو سلمة أحد مهاجرى الحبشة ، ثم قدم منها فآذاه أهل مكة ، فأراد الرجوع الى الحبشة مرة أخرى .

ولما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار فى البيعة الأولى أراد الخروج إليهم ، فرحل بعيره ، وحمل عليه أم سلمة وابنها سلمة فى حجرها .

---

(١٦٥) الأنفال ٧٢

وخرج يقود بها البعير فرآه رجال من قوم أم سلمة ، فاعترضوا طريقه ، وقاموا إليه يقولون : يا أبا سلمة قد غلبتنا على نفسك ، ولكن صاحبتنا هذه لانتركك تسير بها فى البلاد .

ونزعوا خطام البعير من يده . وتركوه يسير وحده .

وجاء رجال من قوم أبى سلمة ، وقالوا : هذا ابننا فكما نزعتموها من صاحبنا فإننا ننزع ولدنا منها ، ثم تجاذبوا الصبى بينهم حتى كاد ذراعه ينخلع ، ثم أخذه قوم أبيه من أمه .

ففرقوا بينها وبين زوجها وولدها ..

فكانت تخرج كل غداة بالأبطح تبكى حتى المساء .

وظلت على هذه الحال سنة . حتى مر بها رجل من بنى عمها ، فرأى ما بها فرحمها ، وقال لقومها : أما ترحمون هذه المسكينة ؟

فرقتم بينها وبين زوجها وولدها .

فقالوا لها : الحقى بزوجك .

فلما بلغ ذلك قوم أبى سلمة ردوا عليها ولدها .

فارتحلت أم سلمة بعيرا ، وجعلت ولدها فى حجرها ، وخرجت تريد المدينة وما معها أحد من خلق الله ـ تعالى ـ

حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة ـ صاحب مفتاح الكعبة ـ فسألها عن وجهتها .. ولما عرف أنها وحيدة ، قال :

ليس لك من مترك ، فصحبها .

فكانت تقول : والله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه . كان إذا بلغ المنزل أناخ البعير بى ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها . فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى وقال : اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه . فقادنى حتى ننزل .

فلم يزل يصنع ذاك حتى قدم بى إلى المدينة . فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك فى هذه القرية .

وكان أبو سلمة نازلا بها ، فدخلتها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة .

وكانت تقول : ما أعلم أهل بيت أصابهم فى الاسلام ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة(١٦٦)

وتتابع المهاجرون بعد ذلك .

فهاجر عمار وبلال وسعد .

ثم تبعهم عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبى ربيعة فى عشرين راكبا .

كيف هاجر عمر

ولما هم عمر بالهجرة . تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى فى يديه أسهما واختصر عنزته ـ وهى الحربة الصغيرة ـ علقها فى خاصرته ، ثم مضى إلى الكعبة ، والملأ من قريش متحلقون حولها . فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلى ركعتين ، ثم وقف على الحلق واحدة فواحدة فقال :

---

(١٦٦) أسد الغابة ج ٧ ص ٣٤٠

شاهت الوجوه ، لايرغم الله إلا هذه المعاطس ، يا معشر قريش من أراد أن تثكله أمه ، أو يوتم ولده ، أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى .

فما تبعه أحد منهم . ثم مضى لوجهته .

وكان عمر قد تواعد مع هشام بن العاص أن يهاجرا معا ، وقال له : تجدنى أو أجدك فى محل كذا . ففطن قوم هشام له فحبسوه عن الهجرة فمضى عمر لوجهته . .

ووصل عمر ومعه عياش بن أبى ربيعة إلى المدينة . . واستطاع أبو جهل بن هشام وشقيقه الحارث بن هشام أن يصلا إلى المدينة ويحتالا على عياش ابن ربيعة وكان أخاهما من الأم ، فرجع معهما على الرغم من تحذير عمر إياه . لقد وثق عياش فى قولهما ، ولكنهما لم يفيا له .

لقد قال عمر لعياش : هما ما يريدان إلا فتنتك فلا تسمع لهما .

فقال عياش لعمر ـ وقد خدع بكلام أخويه ـ : أبر أمى ، ولى مال هناك آخذه .

فقال عمر : خذ نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى عياش إلا الذهاب معهما .

فقال له عمر : فحيث صممت ، فخذ ناقتى هذه فإنها نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فإن رابك منها ريب فانج عليها .

فأبى ذلك ـ وخرج معهما . فلما خرج معهما ، أوثقاه وساقاه إلى مكة ، ودخلا به مكة نهارا ، وقالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفهائنا .

وظل عياش فى مكة حتى فتح مكة .

وذكر بعض المفسرين : أن قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ (١٦٧)

نزل فى عياش بن أبى ربيعة .

وذلك أن عياشا حين خرج من المدينة مع أخويه أوثقاه وأعانهما على وثاقه وضربه رجل من كنانة ، فأقسم عياش لئن ظفر بهذا الرجل ليقتلنه ولما فتحت مكة ، وأطلق عياش من الأسر ، خرج فوجد الكنانى ـ وكان قد أسلم ـ فقتله وهو لايدرى أنه مسلم .

ثم أعلم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك . فنزلت هذه الآية .
وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعياش : قم فحرر . . أى اعتق رقبة .

وذكر فى هذه القصة روايات أخرى ، ولكنا ذكرناها لبيان ما كان الكفار يفعلونه مع المسلمين ابتغاء فتنتهم فى دينهم والحيلولة بينهم وبين هجرتهم .

---

(١٦٧) النساء ٩٢

حرص المسلمين على الهجرة

لقد كان المسلمون يفرحون ويسرون بالهجرة ، ويخرجون إلى المدينة زرافات ووحدانا ، وربما حيل بين المسلم والهجرة فكان يأسى على ذلك .

ذكر ابن الأثير قال : كان نعيم بن عبد الله ـ وهو من بنى عدى بن كعب القرشى

من السابقين إلى الاسلام ، قيل : أسلم بعد عشرة أنفس وكان يكتم إسلامه ، وقد منعه قومه من الهجرة لشرفه فيهم ، لأنه كان ينفق على أرامل بنى عدى وأيتامهم ويمونهم . فقالوا له : أقم عندنا على أى دين شئت ، فوالله لايتعرض لك أحد إلا ذهبت أنفسنا جميعا دونك .

ثم قدم مهاجرا إلى المدينة بعد ست سنين ، عام الحديبية ، وشهد ما بعدها من المشاهد .

وحين قدم المدينة كان معه أربعون من أهل بيته ، فاعتنقه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبله وقال له : قومك خير لك من قومى .

قال نعيم : لابل قومك خير يا رسول الله .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ قومى أخرجونى وقومك أقروك .

قال نعيم : يا رسول الله قومك أخرجوك إلى الهجرة ، وقومى حبسونى عنها .

فانظر إليه ، على الرغم من تزكية النبى صلى الله عليه وسلم ، يعتبر أن الهجرة شرف قد حرم منه ، ومنزلة قصر عنها .

وكان من تزكية النبي - صلى الله عليه وسلم - إياه أنه ﷺ قال : دخلت الجنة فسمعت نحمة نعيم فيها ، فلقب بالنحام لذلك .

والنحمة : السعلة ، وقيل النحنحة الممدود آخرها(١٦٨)

ولقد نعى الله على قوم ابطأوا فى الهجرة وتقاعسوا عنها ، وفى ذلك نزل قوله - تعالى -

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ (١٦٩)

---

(١٦٨) أسد الغابة لابن الأثير ج ٥ ص ٣٤٦

(١٦٩) النساء ٩٧ : ٩٩

الهجرة إلى المدينة

- إذن النبي لأصحابه بالهجرة .
- أول مهاجر إلى المدينة .
- كيف هاجر عمر بن الخطاب ؟
- حرص المسلمين على الهجرة .
- هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم .
- فدائية علي بن أبي طالب .
- كيف خرج النبي من مكة ؟
- أبو بكر في صحبة رسول الله .
- قريش تتبع الرسول وصاحبه .
- الرسول وأبو بكر في الغار .
- دقة التخطيط في الهجرة .
- آية الإعجاز في الهجرة .

ترك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه يهاجرون قبله ، وقد أراد بذلك أن يطمئن عليهم فلا يخلفهم وراءه للفتنة والأذى .

حتى إذا اطمأن على أن من بقى بعد ذلك من المسلمين ممنوع بقوة أو متحين لفرصة بدأ يستعد للخروج مع صديقه الوفى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ

الاستعداد للهجرة

مكث النبى ـ ﷺ ـ فى مكة بقية ذى الحجة ومحرم وصفر وفى ربيع الأول هاجر إلى المدينة لاحقا بأصحابه الذين سبقوه . .

وكان أبو بكر حين رأى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أذن لأصحابه فى الهجرة أراد أن يهاجر ، فطلب منه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التريث ، وقال له لعل الله يجعل لك صاحبا .

فأمل أبو بكر أن يكون صاحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم فى هجرته ، وما أعظمها من صحبة . . فاشترى أبو بكر راحلتين ، وأقبل يعلفهما بورق السمر . .

وكانت قريش حين رأت تتابع المسلمين فى الهجرة وأنهم قد أصبحوا فى المدينة بدار منعة خشوا أن يفلت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين أيديهم ويلحق بأصحابه ثم لم يلبث أن يعود عليهم بجيش كثيف وعدد منيف فيحاربهم ويدخل مكة . . . فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فيما يجب عمله . .

ودار الندوة هذه كان قد بناها قصي بن كلاب لتكون محلا للتشاور وعقد عظائم الأمور ، وتوارثها من بعده أبناؤه حتى صارت ـ فيما يحكيه السهيلي ـ إلى حكيم بن حزام ، فباعها فى الاسلام بمائة ألف درهم زمن معاوية . فلامه من لامه وقال له : أبعت مكرمة آبائك وشرفهم ؟

فقال : ذهبت والله المكارم إلا التقوى ، والله لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر وقد بعتها بمائة ألف ، وأشهدكم أن ثمنها فى سبيل الله فأينا المغبون ؟

وكانت قريش لاتبرم أمرا إلا فى هذه الدار ، ولا يدخلها غير قرشي . فلما كان ذلك اليوم الذى اجتمعوا فيه للتشاور فى أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حضر كبار القوم من قريش وجلسوا يتشاورون . .

واختلف فى عدد المجتمعين ، حتى لقد قدرهم البعض بمائة رجل ، وقدرهم البعض بخمسة عشر رجلا . .

قال أحدهم ـ وهو أبو البخترى بن هشام : احبسوه فى الحديد ، واغلقوا عليه بابا ثم اتركوه كذلك حتى الموت

فقال شيخ آخر : ما هذا برأى ، والله لو حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه عليه إلى أصحابه وقومه ، ثم لايلبثون أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا برأى فانظروا فى غيره .

فقال أبو الأسود ربيعة بن عمرو العامرى : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فلا نبالى أين ذهب .

فقال أحد الحاضرين : والله ، ماهذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حىٍّ من العرب فيقنعهم بدينه وحديثه ، حتى يبايعوه عليكم ، ثم يسيربهم اليكم ، حتى يطأ بهم ، أرضكم فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ـ أديروا فيه رأيا غير هذا .

فقال أبو جهل : والله إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه . .

فقالوا جميعا : ما هذا الرأى ؟

قال : أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً نسيباً وسيطاً ثم يعطى كل فتى منهم سيفا صارماً ، ثم يعمدون اليه فيضربونه ضربة رجل واحد ، فيقتلونه فنستريح منه ، ويتفرق دمه فى القبائل ، فلا تقدر بنو هاشم على حرب قومهم جميعا ، فيرضون بالدية فنؤديها اليهم وينتهى الأمر .

فصفق الحاضرون لهذا الرأى ـ وقالوا جميعا : نعم الرأى ، القول ماقال أبو جهل ولارأى بعده .

لقد أعجبوا جميعا بهذا الرأى ، ورأوا فيه الطريق الوحيد للتخلص من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن دعوته ـ إنه رأى شيطان من شياطين الإنس ، وان هناك من شياطين الإنس من هو أشد ضرارة من شياطين الجن ـ إن شيطان الجن ليفر إذا استعاذ منه الإنسان بالله ، ولكن شيطان الإنس يزداد إمعانا فى الفساد عند سماع ذكر الله . . ولذلك قدمهم الله فى العداوة حين قال

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)﴾ (١٧٠)

ومن الطرائف التى يذكرها الرواة فى ذلك ان رجلا سولت له نفسه ارتكاب جريمة نكراء تحيَّل فى ارتكابها .. فلما فرغ منها قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . فتمثل له الشيطان قائلا : لماذا تستعيذ منى . فوالله ما أستطيع الاهتداء للحيلة التى اهتديت اليها .

استراح الجميع لرأى أبى جهل ، وأقروه ، عليه . وتفرق جمعهم على إجماع على هذا الرأى ـ ولم يبق إلا التنفيذ .

وظن الجميع أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد . وأن المسألة أصبحت مسألة وقت .. قصير .. ثم تطوى صفحة هذا الدين الى الأبد .. ولكن أين تدبيرهم من تدبير الله .. إن الحق سبحانه وتعالى قد وعد بإظهار هذا الدين ، وان وعده هو الحق .. قال تعالى

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ (١٧١)

وجاء جبريل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : لاتبت يامحمد هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه .

---

(١٧٠) الأنعام ١١٢
(١٧١) الصف ٨

واستجاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقوله ، وترك فراشه ، وأمر علياً أن ينام فيه ، ويتغطى ببرده الحضرمى الأخضر الذى يتغطى به . . واجتمع الفتيان حول الباب يرصدون خروج محمد لصلاته كما كان يفعل . . وقد أشهروا سيوفهم فى أيديهم مصممين على تنفيذ المهمة التى عهد بها القوم اليهم وهى ان يضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد .

وكان علىّ أول فدائى فى الاسلام ، فهو لم ينم مكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الا وهو يعلم ان السيوف ستقطعه اربا اربا . . ولكن ما أهون ذلك فى جنات الله وقد قال علىّ رضى الله عنه فى ذلك

وقيت بنفسى خير من وطىء الثرى ؞ ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر(١٧٢)

قال بعض العلماء : إن علياً نزلت فيه الآية الكريمة الآتية لما حدث من افتدائه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه ليلة الهجرة :

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ (١٧٣)

ذكر ذلك القرطبى ضمن ماذكر من أسباب نزول هذه الآية قال : ولايمنع أن تكون هناك عدة أسباب لنزول الآية إذ اتفق مؤداها مع قرينه الحال . . فقد قال بعضهم : أيضا إنها نزلت فى صهيب حين تبعه المشركون وهو مهاجر ، فنزل عن راحلته ونثر ما فى كنانته من سهام ، وأخذ قوسه ، ثم قال : يامعشر قريش ، لقد علمتم أنى من أرماكم رجلا ـ وأيم الله لاتصلون الىّ

---

(١٧٢) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٢٢
(١٧٣) البقرة ٢٠٧

حتى أرمى بما فى كنانتى ، ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى منه شىء ثم أفعلوا ماشئتم بعد ذلك . . وانى أعرض عليكم امراً . . هو أن أدلكم على مالى لتأخذوه وتتركونى لحال سبيلى . . فقالوا له : دلنا على مالك . . فدلهم على المكان الذى خبأ فيه ماله فى مكة فخلوا بينه وبين ماأراد . . فلما قدم المدينة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وقص عليه قصته . . قال له : أبا يحيى ربح البيع ، ربح البيع . . ونزلت تلك الآية السابقة .

وذكر الواحدى قال : قال الحسن : أتدرون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت فى أن المسلم يلقى الكافر ، فيقول له : قل لا اله الا الله ، فإذا قلتها عصمت مالك ودمك ، فأبى أن يقولها ، فقال المسلم : والله لأشرين نفسى لله ـ أى لابيعن نفسى لله ـ ثم يتقدم ويقاتل حتى يقتل . .

وسمع عمر رجلا يقرأ هذه الآية فقال : إن لله كل رجل قام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل (١٧٤)

خروج النبى ﷺ

وخرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الباب على هؤلاء الفرسان وقد اخذ الله على أبصارهم فلم يره واحد منهم وهذه معجزة أمدَّ الله بها رسوله . . . وأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبضة من تراب وضعها فوق رءوسهم وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ

---

(١٧٤) أسباب النزول للواحدى ص ٤٤

﴿٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ
٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ
أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ
سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩﴾ (١٧٥)

وليس عجيبا أن يعمى الله أبصار هؤلاء الأعداء وقد جاءوا يقتلون رسوله ، وهم ممتلئون بالشر والحقد ، يمنون أنفسهم بأمانى الظفر والغلبة . وليست هذه أول مرة يعمى الله فيها أعداء رسوله عنه .

لقدسبقت الاشارة الى ان حمالة الحطب زوج أبى لهب ـ حملت حجرا كبيرا وجاءت الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتلقيه عليه فأعمى الله بصرها فلم تره . . . وحدث ذلك بالنسبة لغيرها ممن أراد بالنبى ﷺ سوءا .

أبو بكر فى صحبة الرسول ﷺ

وكان الله قد أوحى الى نبيه بالهجرة ، فذهب الى أبى بكر فى ساعة لم يكن يذهب اليه فيها ، فقال له : أخرج من عندك يا أبا بكر .

فقال أبو بكر : لاعين عليك يارسول الله إنما هما ابنتاى . أو إنما هن أهلى ـ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: فإن الله قد أذن لى فى الخروج

فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله . بأبى أنت وأمى

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم

---

(١٧٥) يس ١ : ٩

فبكى أبو بكر فرحا بصحبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالت عائشة فى ذلك : ما كنت أحسب ان أحدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى فرحاً .

وقال أبو بكر : يارسول الله خذ إحدى راحلتىَّ هاتين ، فإنى أعددتهما لهذا اليوم . . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: آخذها بالثمن . وذلك لتكون هجرته الى الله تعالى بماله ونفسه . . ونحن نعرف أن أبا بكر قد أنفق ماله كله فى سبيل الله . . وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول فى حقه : ما نفعنى مال قط ، ما نفعنى مال ابى بكر . فبكى أبو بكر حين سمع ذلك وقال : وهل أنا ومالى إلا لك يارسول الله ؟

والناقة التى أخذها النبى - صلى الله عليه وسلم - من أبى بكر هى القصواء وقد عاشت حتى زمن أبى بكر رضى الله عنه . . وقدر ثمنها بأربعمائه درهم .

قالت عائشة رضى الله عنها : فجهزنا الناقتين أحث الجهاز ، وأسرعه ، ووضعنا لهما سفرة فى جراب ، وشقت أسماء بنت أبى بكر نطاقها نصفين ، فانتطقت بنصفه وربطت فم الجراب بنصفه الآخر . فسميت بذات النطاقين .

وقيل إنها ربطت الجراب بنصفه والقربة التى فيها الماء بنصفه الآخر وظلت بدون نطاق ، لذلك دعا لها النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : أبدلك الله به نطاقين فى الجنة . واستأجر النبى - صلى الله عليه وسلم - رجلا عارفا بالطريق اسمه عبد الله بن أريقط فدفعا اليه الراحلتين ،

وواعده على جبل ثور بعد ثلاث .. ولم يكن عبد الله هذا من الذين آمنوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى هذا دليل على جواز الاستعانة بغير المسلم فى قضاء المصالح وتحقيق الأمور ، طالما كان هذا المستعان به أمينا غير خدّاع .

قريش تتبع رسول الله ﷺ

خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما سبق أن ذكرنا ـ على القوم وهم مدججون بأسلحتهم مشهرو سيوفهم وقد أعمى الله ابصارهم ، ونثر على رؤوسهم التراب نكاية لهم واحتقارا لشأنهم ، وقد ذهب قوم من العلماء الى ان « سورة يس » لها أثر كبير فى الحفظ والرعاية وتحقيق الرجاء ورُوِىَ فى ذلك آثار منها « يس لما قرئت له » ومنها « إن قرأها خائف أمن أو جائع شبع ، أو عار كسى ، او عاطش سقى ، أو سقيم شفى »(١٧٦)

ومضى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لشأنه وظل فتيان قريش واقفين حتى طلع النهار ، ومر رجل عليهم فقال لهم ، ما تنتظرون هنا ؟
فقالوا : ننتظر محمدا .

فقال لهم : وكان قد رأى التراب على رءوسهم : خيبكم الله . قد والله خرج محمد عليكم ، وما ترك واحدا منكم الا وقد وضع على رأسه التراب . وانطلق الى مقصده .. فوضع كل منهم يده على رأسه فاذا فوقه تراب .

ونظروا الى داخل الدار من خصاص الباب ، وكان علىٌّ مايزال فوق الفراش

---

(١٧٦) شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٢٣

فقالوا : هذا محمد نائم وعليه برده الحضرمى الأخضر .

لم يصدقوا ما قاله الرجل لهم . حتى رأوا عليا وقد قام من الفراش ، فأدركو ان الرجل قد صدقهم . . وأدركوا انهم إنما كانوا يحرسون علياً طول ليلتهم ، وخاب أملهم الذى أملوه وكيدهم الذى كادوه ، وصدق الله اذ يقول :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (١٧٧)

فاستطار المشركون غضبا وأسقط فى أيديهم وخرجوا يتعادون فى كل طريق يبحثون عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستعانوا بالقافة الذين يتتبعون الآثار ، علهم يهتدون الى مكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ذهب بعد خروجه من بيته الى بيت أبى بكر ليخرجا معا . . ويقال إن الكفار ذهبوا الى بيت ابى بكر ولكنه كان قد خرج بصحبة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خوخة فى الجدار — اى فتحة ضيقة — فسألوا ابنته أسماء عن أبيها فقالت لهم إنه غير موجود فى الدار ، ولا تعرف أين ذهب فلطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها .

فى الطريق الى الغار

وفى الطريق الى الغار سار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثر رجليه فى الأرض ، حتى تعبت رجلاه ، فلما رأى أبو بكر ذلك حمله على كاهله ، وجعل يشتد به حتى أتى على فم الغار

---

(١٧٧) الأنفال ٣٠

فأنزله . . . ولكن كل ذلك لم يمنع القرشيين من تتبع أثره ، فإن اختفى أثر النبى فإن أثر أبي بكر ظاهر . . وقال أبو بكر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاتدخل يارسول الله الغار حتى أدخله قبلك ، ودخل أبو بكر فجعل يلتمس الأجحار ، كلما وجد جحراً سده بجزء من ثوبه ، حتى بقى جحر فسده بعقبه ، وكانت فيه حية فنهشته ولمس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده مكان اللدغة فشفى بقدرة الله — وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رأى ما فعل أبو بكر من فدائية واستبسال وحب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال اللهم اجعل أبا بكر معى فى الجنة ، فأوحى الله اليه : قد استجاب الله لك .

وأصاب حجر حاد يد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأدمى اصبعه ، فأخذ يمسح الدم ويقول :

هل أنت الا إصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت .

وهو كلام جاء على وزن الشعر ، ولكنه لم يقصد به الشعر لان الله سبحانه قال فى حق نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ (١٧٨)

ألا ترى أن قريشا تراوضت فيما يقولون للعرب فيه اذا قدموا عليهم فى الموسم فقال بعضهم : نقول إنه شاعر ، فقال أهل الفطنة منهم : والله لتكذبنكم العرب فإنهم يعرفون أصناف الشعر ، فوالله ما يشبه ما يقوله محمد شيئا منها ، وما قوله بشعر (١٧٩)

---

(١٧٨) يس ٦٩

(١٧٩) تفسير القرطبى سورة يس ص ٥٤٩٧ ط دار الشعب

فهذه العبارة التى قالها الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كانت قد جاءت على وزن الشعر الا أنها لا يقصد بها الشعر .

وهي توافق بحر السريع ، ولكن بشرط كسر التاء من دميت ، فان سكنت لا يكون شعرا بحال . وظاهر الحال ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نطقها ساكنة لا متحركة .

وكان أبوجهل يمر حين خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيت أبى بكر ، ولكن الله غطى على بصره فلم يره . .

عن عائشة بنت قدامة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لقد خرجت من الخوخة متنكرا ـ يقصد الخوخة التى فى بيت أبى بكر ـ فكان أول ما لقينى أبوجهل ـ لعنه الله ـ فأعمى الله بصره عنى وعن أبى بكر حتى مضينا » (١٨٠)

النبى فى الغار

ومضى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الغار الذى واعد عبدالله بن أريقط عنده بعد ثلاث ـ وقال بعض العلماء إن الجبل ناداه ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد ورد ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يسمع تسبيح الحصا فى يده . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد توقع ان الكفار سوف يلجأون الى حراء بحثا عنه ، لأنهم يعرفون تردده عليه . . ولكنه كان واثقا من حفظ الله له . .

---

(١٨٠) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٠٣

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه الغار ، فقيل إن الله أنبت على فم الغار شجرة أم الغيلان فسترته بفروعها . وهى أشجار فى مثل قامة الانسان لها زهر أبيض .

وأمر الله العنكبوت ان تنسج على فم الغار ، وأمر حمامتين أن تعششا على فم الغار .

وأخذ الكفار يبحثون عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل مكان . . . فتشوا مكة من أعلاها الى أسفلها ، وجاءوا بالقافة يقصون الاثر حتى وقفوا عند باب الغار .

وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وسيوفهم فأشفق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صهيب بن سنان وخاف عليه . . لأنه كان قد تواعد معهما أن يكون ثالثهما ، فلما أراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الخروج للغار أرسل اليه أبابكر مرتين أو ثلاثا فوجده يصلى .

فرجع للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره بذلك وقال: كرهت أن أقطع عليه صلاته .

وتطلع الكفار الى الغار فوجدوا العنكبوت ، والحمام ، فقالوا : ليس فى هذا الغار أحد . ان هذا العنكبوت أقدم من ميلاد محمد ، وكيف يطأ إنسان الغار وهاتان الحمامتان تعششان على بابه ؟

وهكذا رد الله الكفار عن محمد بجند من أضعف خلقه . بعنكبوت يضرب بضعفه المثل حيث يقول سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (١٨١)

وبالحمام الذى يضرب به المثل فى الوداعة والأمن والاطمئنان والسلام ، حتى لقد رمزوا للسلام بحمامة فى منقارها غصن زيتون . .

وهذه الجنود الضعيفة التى لا تغنى فى نظر الناس يمكنها أن تغنى عند الحاجة-اذا أراد الله-بما لا يستطيع غيرها ان يغنى مثلها .

إن هذه الخيوط الواهنة تصبح دروعا فولاذية لو حدثت قريش نفسها باقتحام الغار ، وان هاتين الحمامتين الوديعتين تصبحان نسرين مفترسين أو أسدين ضاريين يدفعان عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه الأذى .

ولقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى داخل الغار فى منتهى الثقة والاطمئنان بربه ، أما أبوبكر فقد كان مستطار القلب لا خوفا من الكفار على نفسه ، ولكن خوفا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

انه يخشى على الرسالة ان تضيع ، وعلى الدعوة ان تتعثر ، وعلى الاسلام ان يتبدد،انه لو مات وحده فلن يخسر الاسلام الا فردا واحدا ولكن ـ لا قدر

---

(١٨١) العنكبوت ٤١

الله ـ لو أصاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكروه لضاعت الأمة وتبدد شأن المسلمين . .

هذا ما كان يخشاه أبوبكر . . كان خوفه منبعثا من عمق إيمانه وصادق يقينه وشدة حبه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ظهر أثر ذلك فى مخاطبته للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله لو نظر أحد من هؤلاء إلى ما تحت قدميه لرأنا .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما ظنك ياأبا بكر باثنين الله ثالثهما ؟

وأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يزيد فى اطمئنان الصديق ـ رضى الله عنه فقال له : لو جاءونا من هنا لذهبنا من هاهنا .

فنظر أبوبكر الى الغار حيث أشار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد فتحة تسلم الى طريق آخر .

وما فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الا ليطمئن صديقه الذى اشتد جزعه على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد نهى عن قتل العنكبوت حيث جعله الله سببا فى نجاته ـ وجاء فى الجامع الصغير « جزى الله العنكبوت عنا خيراً فإنها نسجت على الغار » . . ولكن هذا ليس معناه أن نترك العنكبوت يعشش فى بيوتنا بهذه الصورة التى تشوه الجمال وتنفر النفوس .

حقا لقد أدى العنكبوت مهمة جليلة وجزاه الله خيرا كما قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن ليس له أن يُترك حتى يطغى على قواعد النظافة ومظاهر الجمال . وان ديننا هو دين النظافة والجمال .

آية العنكبوت

قال العلماء ، وقد جعل الله العنكبوت آية تدفع الشر عن أوليائه . فقد أخرج ابونعيم فى الحلية عن عطاء بن ميسرة قال : نسجت العنكبوت مرتين : مرة على داود حين كان طالوت يطلبه ، ومرة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الغار .

وكذا نسجت على الغار الذى دخله عبدالله بن أنيس لما بعثه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقتل خالد الهذلى ، فقتله ثم حمل رأسه ودخل فى غار فنسجت عليه العنكبوت ، فجاء القوم يطلبونه فلم يجدوا شيئا فانصرفوا راجعين .

وفى تاريخ ابن عساكر ان العنكبوت نسجت ايضا على عورة زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب لما صلب عريانا فى سنة إحدى وعشرين ومائة (١٨٢)

لقد جعلها الله آية يقهر بها العتاة ، ويبين لهم أنه سبحانه هزمهم بأضعف خلقه ، وأذلهم بأذل حشرة ، ونصر أولياءه بما لا يظن منه النصرة .

أما الحمامتان فقد بارك الله فى نسلهما حتى انحدر الى الحرم بالآلاف ، فأصبح آمناً بأمنه وعاش فى رحابه يرفرف بأجنحته فوق رءوس العاكفين ، ويطوف ملبيا مع الطائفين ، ويأوى فى سلام إلى حمى رب العالمين .

ويئست قريش وعادت بخفى حنين ، أو لعلها لم تجد خفا واحدا منهما . . ولجأت الى ما يلجأ إليه اليائس العاجز من التهديد والوعيد ، فأمرت مناديا ينادى فى كل مكان : ألا من وجد محمدا أو دل عليه فله مائة بعير .

---

(١٨٢) المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٣٧

ومكث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه فى الغار ثلاثة أيام ، كان يبيت عندهما عبدالله بن ابى بكر وهو غلام يعقل ما يقال . . كان يأتيهما حين يختلط الظلام ويخبرهما بما جرى فى يومه ، ويدلج من عندهما بفجر ، فيصبح فى قريش كأنه بات فى بيته . وكانت أسماء أيضا تحمل لهما ما يصلح من الطعام .

وكان عامر بن فهيرة ـ وهو مملوك أشتراه أبوبكر من الطفيل الذى كان يعذبه لاسلامه ثم أعتقه ـ كان يروح عليهما بغنم أبى بكر يرعاها قرب الغار ، ويحلبها لهما ، ويمضى بها على آثار عبد الله بن أبى بكر وأسماء حين يعودان من عندهما . .

لقد كان تخطيطا دقيقا يدل على ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يترك جانب الأسباب كلية وان كان عقده التوكل . .

وفى قصة الاختفاء فى الغار ، وخوف أبى بكر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الله ـ تعالى ـ

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١٨٣)

---

(١٨٣) التوبة ٤٠

لقد أنزل الله السكينة فى قلب أبى بكر فاطمأن ، وأنزل الله جنودا أيد بها نبيه وأعلى بها دينه ، وان من الجنود التى لم تُرَ الملائكة . .

ومن الجنود التى تُرى ولكن لا يظن أحد أنها جنود العنكبوت والحمامتان ، فهى فى حكم التى لا ترى . وفى هذه القصة يقول البوصيرى فى بردته :

أقسمت بالقمر المنشق ان له من قلبه نسبة مبرورة القسم
وما حوى الغار من خير ومن كرم وكل طرف من الكفار عنه عَمِى
فالصدق فى الغار والصديق لم يرما وهم يقولون ما بالغار من أرم(١٨٤)
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم(١٨٥)

أما أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ فيكفيه فخرا ان الله جعله صاحبا لنبيه فى هذه الرحلة ، واثنى عليه فى الآية التى ذكرناها ، وأنزل على قلبه السكينة ، وقد روى ابن عدى وابن عساكر عن أنس ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لحسان بن ثابت : هل قلت فى ابى بكر شيئا ؟ قال حسان : نعم .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قل وأنا أسمع .
فقال حسان :

اذا تذكرت شجوا من أخى ثقة فاذكر أخاك أبابكر بما فعلا
التالى الثانى المحمود شيمته وأول الناس طرا صدق الرسلا

---

(١٨٤) لم يرما : لم يبرحا ولم يزولا ، وأرَم : مقيم
(١٨٥) الأطم ـ بضم الهمزة والطاء ـ : الحصن يجمع على آطام .

والثانى اثنين فى الغار المنيف وقد طاف العدو به اذ صعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا

فتبسم النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال له : صدقت

الخروج من الغار

وسكن الطلب ، وجاء الدليل ، ومعه الراحلتان ، ونزل النبى - صلى الله عليه وسلم - من الغار ومعه صديقه ، وامتطى كل منهما راحلته فى طريق المدينة .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - حين خرج من مكة وقف عند « الحزورة » (١٨٦) ونظر إلى البيت وهو يقول : « والله انك لأحب أرض الله إلىّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا ان أهلك أخرجونى ما خرجت منك » . وأورد الزرقانى قوله أيضا : « الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا ، اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالى والأيام ، اللهم أصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى ، وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللنى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، واليك رب فحببنى والى الناس فلا تكلنى أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السموات والارض وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين - أن يحل بى غضبك أو ينزل علىّ سخطك ، أعوذ بك من

---

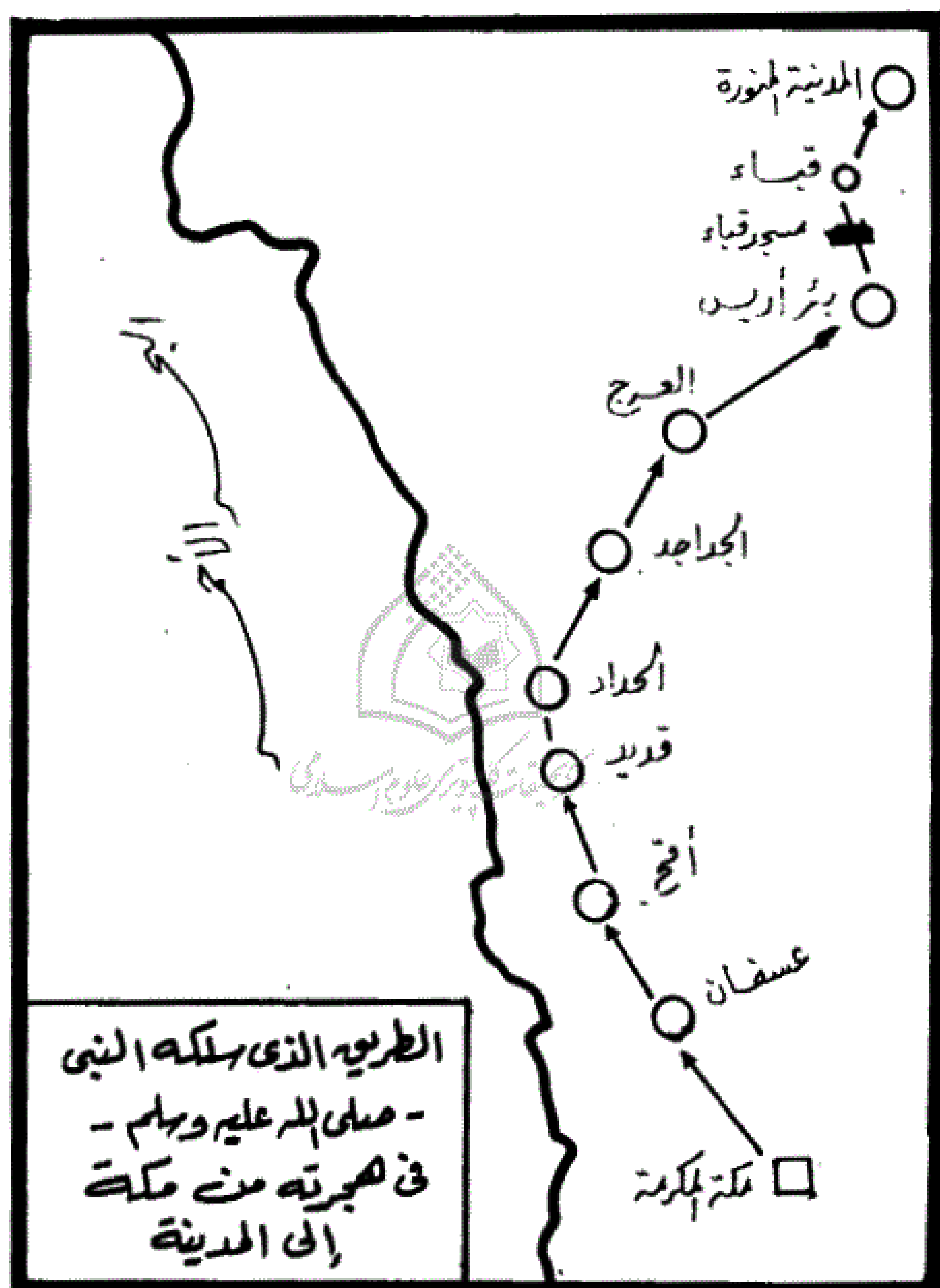
(١٨٦) الحزورة - بفتح الحاء وسكون الزاى - سوق كانت بمكة أدخلت فى المسجد بعد ذلك .

زوال نعمتك عني وفجأة نقمتك وتحول عافيتك . . . لك العتبى عندى حيثما استطعت ولا حول ولا قوة الا بك »[187]

وانطلق بهما الدليل عبدالله بن أريقط ، ومعهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما ، وكان أبوبكر يردفه خلفه ويعقبه . وقد أخذ بهما الدليل طريق السواحل .



(187) شرح المواهب اللدنية للزرقاني ج 1 ص 329 وقال : رواه أبو نعيم عن ابن اسحاق بلاغا .



الطريق الذي سلكه النبي
- صلى الله عليه وسلم -
في هجرته من مكة
إلى المدينة



لقد كان الهدف من ذلك أن يضلل العيون ، فان ما يتبادر إليه ذهن القرشيين أنه سوف يسلك الطريق المعتاد ، فهو القريب من جهة ، والآمن من جهة أخرى ، والسهل الميسر من جهة ثالثة .

أما طريق السواحل فهو شاق بعيد ولا يمكن اجتيازه الا بخبير أو دليل ، وظن القرشيون ان محمدا فى هروبه لن يلجأ إلى دليل ، ولو لجأ اليه لأعوزه وجود ذلك الدليل . وقد أوضحنا لك الطريق الذى سلكه الدليل عبدالله بن أريقط بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه .

دقة التخطيط فى الهجرة

والأمر الذى يلفت النظر فى الهجرة هو التخطيط لها . ذلك التخطيط الذى لا يصل الى مثل دقته وإحكامه أى تخطيط آخر لأى عمل مشابه فى أرقى الدول والعصور . لقد كان هذا التخطيط بإلهام من الله - تعالى -

ولعل أشبه شيء بالهجرة فى عصرنا الحديث هو تحريك الجيوش من مكان الى مكان ، فحين يقرر العسكريون القيام بمثل هذه المهمة فانهم يدرسونها دراسة وافية توفر لها ضمانات وشروطا يأملون ان تحقق للمهمة أكبر قدر من النجاح .

وأهم تلك الضمانات والشروط :

١ - السرية التامة .

٢ - رسم الطريق ومعرفة كل دقائقه وتفاصيله .

٣ - توفير الحماية من جميع الاتجاهات (الأمام - الخلف - اليمين - اليسار - الجو)

٤ ـ الاخفاء والتمويه
٥ ـ الاستطلاع لمعرفة اخبار العدو
٦ ـ توفير الاحتياجات اللازمة للرحلة من طعام وشراب وغيرهما .

وقد توفرت للهجرة النبوية كل هذه الضمانات مع الفارق فى الامكانات ، ولكن هذه المبادىء روعيت مراعاة تناسب العصر الذى حدثت فيه ، والامكانات المتاحة فى ذلك الوقت . .

فقد توفرت السرية بكل معانيها ، اذ لم يعلم بموعد الهجرة من البشر الا من شاركوا فيها . ما عدا عائشة التى توفرت فيها الثقة الكاملة . .

فهذا « على » ينام فى فراش الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خداعا للكفار وهذا أبوبكر رضى الله عنه ـ يوفر وسائل الركوب والانتقال ، ويقوم بمهمة الحماية للرسول فقد دخل الغار قبله ، ليكتشف ما فيه ، ويبعد ما عسى ان يراه من أذى .

وكان فى أثناء الرحلة تارة يكون من أمامه ، وتارة يكون من خلفه ، وتارة عن يمينه وتارة عن يساره ، ويتلفت فى كل اتجاه حتى لا يفاجأ بعدو من أى جهة . .

● وكان عبدالله بن أبى بكر يقوم بمهمة الاستطلاع

● وكان عامر بن فهيره يقوم بمهمة الاخفاء والتمويه

● وقامت أسماء بمهمة الامداد بالطعام والشراب

● وكان اختيار عبدالله بن أريقط وهو على دين قريش اختيارا موفقا (١٨٨) فقد كان على دراية واسعة بمسالك الطريق ودروبه . .

هذا التخطيط الدقيق الناجح صاحبته ايضا العناية الالهية التى أمدت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالاعجاز الذى صاحبه فى رحلته حتى وصل الى غايته فى أمان وسلام .

آية الاعجاز فى الهجرة والرد على من ينكرون المعجزات الكونية للرسول .

وقد وضحت آية الاعجاز وضوحا بينا فى هذه المسيرة ، على الرغم مما ينكره البعض من معجزات مادية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنهم يرجعون عادة الأحداث إلى الاسباب والمسببات ، ويربطون بين الامور بروابط مادية تقوم على المقدمات والنتائج ، ولكنهم يغفلون فى كثير من الأحيان عن تصاريف الأقدار التى يقف العقل أمامها عاجزا ، لايقدر على التفكير ولا يستطيع التدبير ، كما يغفلون ايضا عن ألطاف الله الخفية التى تصاحب الأحداث فتخفف وقعها وتعين على تحملها ، وتلفت نظر الناس الى رحمة الله الواسعة وتوفيقه العظيم .

وبذلك المقياس المادى حاول كثير من المؤرخين ان يقيسوا خطوات الهجرة الشريفة . . . فقالوا : إنها تمت على أساس من الترتيب العقلى

---

(١٨٨) راجع مقال خاطر فى ذكرى الهجرة للاستاذ فهيم حافظ الدناصورى ـ مجلة الوعى الاسلامى محرم ١٤٠٥ .

والتخطيط السياسي البارع الذى أوردناه فيما سبق ، والذى يدل على عبقرية فريدة وبعد نظر جديرين بتلك الشخصية العظيمة . وهى شخصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وهم بذلك يحاولون ان يجعلوا شخصية الرسول كغيره من البشر ، إلا أن الله اختصه من بينهم بالعقل المستنير . والقدرة على التصرف السليم فى الوقت المناسب وبالصورة المناسبة . ولذا فإن ما يصدر عنه من تصرفات فى نظرهم ليس له جوانب أخرى غير منظورة .

وهذا فى نظرهم قمة الكمال البشرى .

وقد تولى الرد على هؤلاء كثير من العلماء المحققين ، ومنهم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى الذى يقول : « يولع بعض الباحثين بالمبالغة فى تصوير حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - على أنها حياة بشرية عادية ، وذلك من خلال الاطناب فى بيان ان حياته - صلى الله عليه وسلم - كانت قائمة على الاخذ بالأسباب ، والتخطيط البشرى ويقولون ان المعجزات والخوارق لم تكن من شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويكثرون فى هذا من الاستشهاد بمثل قوله تعالى

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١٨٩)

بحيث يخيلون الى القارىء أو السامع أن سيرته - صلى الله عليه وسلم - كانت بعيدة كل البعد عن المعجزات والآيات التى يؤيد الله بها فى العادة أنبياءه الصادقين .

---

(١٨٩) الأنعام ١٠٩

واذا أمعنا فى منبع هذه النظرية التى يحاول البعض ترديدها نجد أنها فى الأصل فكرة المستشرقين،والباحثين الاجانب من أمثال « غوستاف لوبون » و« أوجست كونت » و« هيوم » و« جولد زيهر » وغيرهم .

وأساس هذه النظرية عندهم وسببها هو عدم الايمان بخالق المعجزات أولا . . وعدم الإيمان بنبوة النبى ﷺ ثانياً . . وذلك ان الايمان بالله — عز وجل — اذا استقر فى النفس سهل الايمان بكل شىء بعد ذلك فمن أدرك قدرة الله وعظمته عرف أن كل شىء بالنسبة لها لايعد معجزة ؟

وان كان بالنسبة لنا من أعظم المعجزات . . ولكن أين المستشرقون من هذا الايمان واليقين الصادق ؟ . . ومن الغريب ان بعض أناس ممن يحسبون على المسلمين قد تلقف هذه النظرية ، وكان من سوء حظ العالم الاسلامى أن جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الاجانب دون أى سبب سوى الافتتان بزخرف خداعهم ، وانخطاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية التى ازدهرت فى أنحاء أوروبا — وبكل أسف كان من هؤلاء أعلام يشار اليهم بالبنان ؟ « ثم نظر محترفو التشكيك وأرباب الغزو الفكرى فوجدوا فى هذا الذى يقوله بعض الذين يحسبون على المسلمين ما يفتح لهم آفاقا وميادين جديدة لغزوهم الفكرى وتشكيك المسلمين بدينهم ، ولقد وجدوا فى كلام هؤلاء ما يغنيهم عن وسيلتهم العتيقة ـ وسيلة الحرب الشاملة للعقيدة الاسلامية وغرس الافكار الالحادية فى نفوس المسلمين « فراحوا يروجون صفات معينة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كالبطولة والعبقرية والقيادة فى عبارات من الاعجاب والاطراء ، ويبالغون فى

نفس الوقت فى تصوير حياته العامة بأنها بعيدة كل البعد عن المعجزات وخوارق العادات ، كى يتم لهم إنشاء صورة جديدة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أذهان المسلمين مع مرور الزمن . . . قد تكون صورة محمد « العبقرى » أو تكون صورة محمد « القائد » او تكون صورة محمد « البطل » ولكنها لاينبغى ان تكون على أى حال صورة محمد الرسول النبى . . إنهم يريدون أن يلفتوا أنظار المسلمن الى تلك الصفات البشرية التى اتصف بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من البطولة والعبقرية والشجاعة وغير ذلك — وهم يسلطون الاضواء كل الأضواء على تلك الصفات حتى ينسى المسلمون صفات محمد النبى وصفات محمد الموحى اليه وصفات محمد المؤيد بالمعجزات والخوارق من ربه جلا جلاله . . إنهم كمن يدس للاسلام السم فى العسل . . فعلى أبناء الاسلام ان يتنبهوا لمثل هذه المحاولات التى تبدو فى ظاهرها خدمة للاسلام ورفعة لشأن نبيه،ولكنها فى باطنها محاولة لصرف المسلمين عن عقيدتهم .

إننا أبناء الاسلام يجب أن نعرف أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أولا وقبل كل شيء — نبى الله ورسوله — وان جميع صفات العظمة والعبقرية والشجاعة والبطولة وغيرها إنما هى مستمدة من كونه الرسول والنبى الذى ختم الله به الرسل والانبياء . . تلك هى الحقيقة التى يجب ان نعلمها والتى لاينبغى ان يصرفنا عنها صارف مهما كان ظاهره حسنا اوجذابا .

إن القصد السيء الذى يهدف اليه هؤلاء المستشرقون ومن هم على شاكلتهم يتجلى واضحا فى اشاعة كلمة « محمديين » كتسمية جديدة بدلا من « مسلمين » (١٩٠) إن هذا القول يلقى الضوء على محاولة المستشرقين ومن

---

(١٩٠) انظر فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى ص ١١٥

لف لفهم وخدع بهم . بكل أسف . من رجال المسلمين . الذين تخدعهم كلمة العقلانية ، ويسيرون وراءها دون ان يعملوا لقوله تعالى . .
« الذين يؤمنون بالغيب »(١٩١)

حسابا ولو أمعنا فى النظر جيدا لوجدنا ان النبوة فى حد ذاتها أمر لادخل للعقل فيه فليس بوسع اى انسان مهما كان عقله ان يصبح نبيا ، لان الله أعلم حيث يضع رسالته ، ولذلك فما أسرع ما ينكشف أدعياء النبوة أمام مجهر الاختبار ، الدقيق . . . فيهوى الى القاع كل من يدعى هذه المنحة الالهية كاذبا . . ويرتفع على هام التاريخ كل من ثبت صدقه مؤيدا بما أتاه الله من آيات بينات وخوارق ومعجزات .

ويقول الشيخ مصطفى الطير فى ذلك : « اقتضت حكمة العليم الخبير إن يكون أنبياؤه ورسله من البشر أنفسهم ، وان يمنحهم أرواحا عالية الطبقة عظيمة الصفاء والشفافية كاملة الصلاحية للاتصال بالملأ الأعلى لتتلقى منهم وحى الرحمن الرحيم .

ولم يجعلهم من الملائكة لان البشر لايستطيعون لقاءهم ولا يحتملون سماع الوحى منهم إن رأوهم على صورتهم الحقيقية . . . . ولكيلا يلتبس أمرهم عليهم إن رأوهم فى صورة البشر ، وفى ذلك يقول الله تعالى

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١٩٢)

---

(١٩١) البقرة ٣
(١٩٢) الأنعام ٨ ، ٩

وليس من الحكمة ان يمنح الله جميع البشر من قوة الروح وصفائها ما منحه أنبياءهم . حتى يروا الملائكة ويسمعوهم مباشرة . لان ذلك يكون إلجاء وقهرا على الايمان ، فيفوت المراد من جعل الدنيا دار امتحان والاخرى دار جزاء ، ولان الملائكة خلقوا بصورة لاتجعلهم يستقرون على الأرض بين الناس ، حتى يعايشوهم ويبلغوهم دين ربهم ، بل يتنقلون فى ملكوت الله تعالى — بسرعة لاتخطر على البال ، لتنفيذ ما وكله الله اليهم فى أرجاء هذا الملكوت . . فإرسالهم الى البشر ليقيموا بينهم مخالف لما خلقوا من أجله ، وفى ذلك يقول الله تعالى

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (١٩٣)

ولم يترك الله أمر النبوة فى البشر سهل الادعاء والاختلاق ، فقد أحاطها بسياج يحميها من زيف المزيفين ، حيث جعل لها آيات تدل عليها ، فمن ادعاها ولم تكن له آية عليها ، فهو كاذب ومدع فاجر أو شيطان ماكر .

معنى المعجزة

« آية النبوة معجزة يظهرها الله على يد مدعيها . . . إنها أمر يظهره الله بخلاف العادة على يد مدعى النبوة عند تحدى المنكرين على وجه يُعْجِز المنكرين عن الإتيان بمثله ، ويعتبر إجراؤها على يد من جاء بها شهادة من الله على صدقه فيما يبلغ عنه ، لانه ـ سبحانه ـ لايؤيد كاذبا .

---

(١٩٣) الاسراء ٩٥

وقد جعل الله لكل نبى معجزة تناسب قومه وعصره ، وهى اما ان تكون -فعلا-كخروج ناقة صالح من صخر الجبل ، وقلب عصا موسى حية ، وابتلاعها سحر الساحرين دون ان تترك له بقية . . وإما أن تكون-تركا-كعدم إحراق النار لأبراهيم حين ألقاه الكفار فيها . . واما ان تكون قولا كالقرآن العظيم لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (١٩٤)

ويؤكد الأستاذ أنور الجندى رأى الذين يرون أن الاستشراق كان وراء إنكار المعجزات الكونية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : « إن العمل الذى قام به الكتاب العصريون لتقديم السيرة النبوية قد أدى دورا لابأس به ، وأحدث آثارا طيبة فى نفوس المسلمين ، ولكنه لم يكن عملا أصيلا على طريق التطور الطبيعى لكتابة السيرة من منطق المفهوم الاسلامى الجامع ، القائم على أساس التقدير الكامل للوحى والنبوة والغيبيات والمعجزات .

« ومن هنا كان عجزه وقصوره الذى جعله فى تقدير الباحثين قائما على التبعية والاحتواء للمناهج الغربية التى لم تكن فى حقيقتها الا مظهرا خادعا يخفى من ورائه الأهواء والخلافات بين الاديان ـ ونزعة الاستعلاء الغربية ومطامع النفوذ الغربى فى السيطرة على الفكر الاسلامى والتاريخ الاسلامى . حتى لايحقق ابتعاثه الأصيل هدفا يجدد حضارة الاسلام ويفتح الطريق لقيام المجتمع الاسلامى القوى .

« لقد كانت ظاهرة انكار المعجزات واضحة تماما فى كتابات الباحثين المحدثين وقد جرى هؤلاء الكتاب هذه المجرى باسم المنهج العلمى الغربى .

---

(١٩٤) بحث بعنوان : آيات النبوة المحمدية ـ العدد التذكارى لمؤتمر السيرة الرابع ـ بالأزهر الشريف ص ٢١٤

والحقيقة أن هذا المنهج العلمى هو منهج إسلامى الأصل والمصدر على خلاف دعوى بعض المتأثرين بالدراسات الغربية .

ولقد كان من أبرز أهداف الغربيين التأثير فى أسلوب كتابة التاريخ الاسلامى وفى مقدمة ذلك سيرة النبى الاعظم ، إيمانا منهم بأن هذه الصفحات الباهرة من شأنها اذا عرضت عرضا صحيحا أن تبعث الأحاسيس العميقة فى قلوب شباب المسلمين . . . ومن هنا كانت محاولتهم المسمومة فى ادخال أسلوب عصرى له طابع براق ولكنه يبغى من وراء ذلك إطفاء الاضواء التى يقدمها هذا التاريخ من حيث الصلة بالله تبارك وتعالى ـ والاعجاز الربانى الواضح فى كل مواقف حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفتوحاته .

« ولما كان هذا العمل هو بمثابة هدف واضح الدلالة فى مخطط الاحتواء الغربى الذى يرمى الى التقليل من شأن البطولات الاسلامية ووضعها موضع المقارنة مع البطولات الغربية من خلال النواحى المادية وحدها ، فقد حجبت هذه الدراسات جانبا كبيرا من أثرها المعنوى والروحى الذى يهز النفوس ويملؤها بالثقة واليقين فى عظمة هذا الدين الخاتم وفى سعة العطاء الربانى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (١٩٥)

ومن هذا كله نستطيع ان نخلص الى أن ما يحاول المستشرقون ومن خدع بهم ترويجه من استبعاد المعجزات الكونية من حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر مرفوض ، لانه يرمى الى غاية مشبوهة ويؤدى الى عواقب سيئة .

---

(١٩٥) من بحث بعنوان تحفظات على الكتابة العصرية للسيرة النبوية ـ أنور الجندى ـ العدد التذكارى للسيرة النبوية ص ٩٥٦

المعجزات لاتجافى العقل

إن الشبهة التى انساق وراءها بعض الباحثين وتوقفوا من أجلها فى المعجزات المادية ، أن هذه المعجزات لاتساير العقل... وقد تكفل الشيخ الشعراوى بالرد على ذلك فقال : « إننا قد اتهمنا بأن ديننا لايتمشى مع العقل ، اتهمنا هذه التهمة من المستشرقين ولكن المستشرقين حين يلقون هذه التهمة يريدون ان يدخلوا منها الى مدخل خطير يهدمون به الاسلام . فقام قوم من الغيورين على الاسلام ، وقالوا : الاسلام فى كل قضاياه متمش مع العقل ، فجاءوا إلى كل ما يتصل بالغيب الذى يقف فيه العقل وحاولوا تأويله تأويلا يرضى العقل ، حتى يدفعوا التهمة عن الدين بأنه لايتمشى مع العقل ، وعلى رأسهم علماء كبار ومدارس عقلانية لها مذاهب شتى . . فجاءوا مثلا فى حادثة « الطير الابابيل » التى أهلكت فيل إبرهة ، وكانت معاصرة لميلاد النبى - صلى الله عليه وسلم - ومعجزة صاحبت مولده فقالوا : ان الطير الابابيل التى ترميهم بحجارة من سجيل هى الميكروبات ، ميكروبات أرسلها الله على الجيش. لماذا فعلوا ذلك ؟ لقد قالوا ذلك ليقربوا المسألة الى أذهان الناس حتى لايتهم أحد الاسلام بانه يأتى بأشياء لاتطابق العقل .

ونحن نقول لهم : انتم مشكورون على غيرتكم على الاسلام وذلك بمحاولتكم إدخال بعض قضايا الغيب فى الإسلام إلى مرتبة العقل ولكن الأديان لاتناقش هذه المناقشة .

لأن الدين إنما يناقش بالعقل فى قمته الأساسية ، وهى قمة الإيمان بالله .

ادخل على الايمان بالله بعقلك ، أنت حر فى أن تؤمن أو لاتؤمن . ولكن اذا آمنت بعقلك وفرغت من هذه القضية ، فتقبل بعد ذلك عن الله كل ما يقول ، ولاتدخل عقلك فى كل جزئية مما يقول .

وإذن فاحتراما لعقلك مادمت قد آمنت بالله يجب أن يكون عمل عقلك هو توثيق النقل عن الله . أقال الله ذلك أم لم يقل ؟

فإذا ثبت أنه قال ، وجب الايمان بذلك مهما كان هذا الامر بعيدا عن العقل . . فثبوت القول عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معناه أن الايمان بهذا القول أصبح أمرا واجبا ويقينيا مهما كان موقف العقل من هذا القول .

فإذا كان العقلانيون يريدون أن يفسروا الطير الأبابيل بانها ميكروب أو طير تحمل حجارة فيها ميكروب نقول لهم : ان هناك قوما كان من الممكن أن يكذبوا القرآن فى إخباره عن هذه القصة ، لأنهم عاصروها ورأوها رأى العين . . فلماذا لم يكذبوا إن لم تكن قد حدثت فعلا كما أخبر بها القرآن ؟

ونقول لهم : ماذلك الطير العاقل وماذلك الميكروب الموجه الذى لايوجه إلا الى اعداء الكعبة فقط .

مع أن الميكروب لا يفرق بين عدو وصديق ؟

فالمعجزة واضحة لاتجافى العقل . فما دام العقل قد اقتنع بالإيمان ، وعرف قدرة الله فعليه أن يسلم بالخوارق التى تحدثها القدرة الإلهية تأييداً لنبيه ورسوله .

المعجزات أمور خارقة لاتخضع لناموس الكون ولاالقانون الوجود . ولكنها تخضع لرب الوجود ، وهناك فرق بين قانون الخالق وقانون المخلوق .

فالإنسان يمكن ان يطلق القانون أو لا يطلقه ، ولكنه اذا اطلقه لايستطيع ان يتحكم فيه بعد اطلاقه . كالانسان الذى يجيد تصويب الهدف . فإن له ان يصوب ويطلق وله أن يمتنع عن ذلك . ولكنه اذا أطلق الرصاصة لايملك ان يردها او يتحكم فيها . . اما الحق سبحانه وتعالى ، فإنه يطلق ويتحكم . وهو من أجل ذلك قال للنار

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١٩٦)

الذين يقولون إن المعجزة الوحيدة للرسول ﷺ هى القرآن الكريم

إن هؤلاء الباحثيين يقولون ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ امتاز بأن أعطاه الله معجزة باقية هى القرآن الكريم على عكس الانبياء السابقين الذين أيدوا بمعجزات مادية انتهت بانتهاء حياتهم ـ وهذا القول صحيح لاشك فيه ـ ولكنه لايعنى على الاطلاق ان الحق سبحانه وتعالى ـ لم يعط رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزات كونية لقد ميزه الله عز وجل على غيره من الانبياء بان جمع له بين فضلين : فضل المعجزة الباقية . وهى القرآن ، وفضل المعجزات الكونية التى كانت له فى حياته .

بل إن الله ـ جعل القرآن الكريم ـ هو الشاهد الوحيد على معجزات الانبياء السابقين ، لانه هو الذى حدثنا عن ناقة صالح ، وطوفان نوح ، ونار إبراهيم ، وإلانة الحديد لداود وتسخير الريح لسليمان وقلب عصا موسى

---

(١٩٦) معجزات كونية صاحبت مولد الرسول ـ للشيخ الشعراوى ص ١٥

حية ، واحياء عيسى الموتى بإذن الله .. وغير ذلك من المعجزات التى حدثت للرسل السابقين .

وقد آمن المسلمون بهذه المعجزات التى حدثت للانبياء السابقين ، بناء على اخبار القرآن بها . فإيمان المسلمين بها هو إيمان بالغيب الذى أمروا بالايمان به . . . ولكن المعاصرين لهؤلاء الأنبياء آمنوا بأنبيائهم حين شاهدوا هذه المعجزات . فهو إيمان حس ومشاهدة .

ولكن هل معنى ذلك ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرم من معجزات كونية رآها المعاصرون له وشهدوا له بأنه الرسول الحق ؟

كلا إن الله سبحانه وتعالى ـ أعطى رسوله ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزات كونية كما أعطى غيره من الرسل السابقين فهذه المعجزات الكونية تسوية له باخوانه الرسل ومجىء القرآن هو زيادة مكانة له ، ورفع منزلة على غيره . . . لقد كان الهدف منها ، فى حينها تثبيت من رآها على الاسلام . حيث كانوا فى بداية الاسلام ، وهم فى حاجة الى مزيد من اليقين والاطمئنان ، ، فإلى جانب القرآن كانت هناك معجزات مادية ، وقد أخبر القرآن الكريم بها ، كانشقاق القمر ، ونزول الملائكة للقتال معه ونصرته . . وغير ذلك مما لم يخبر عنه القرآن ، ولكن جاءت به الأخبار الصحيحة الموثقة عن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ

معجزات الهجرة

- قصة سراقة بن مالك .
- حديث أم معبد .
- انقياد الشجرة للرسول - صلى الله عليه وسلم .
- حنين الجذع .
- نبع الماء من بين أصابعه .
- إخباره بالمغيبات .
- الفرق بين المعجزة والكرامة .
- الدليل على وجود الكرامات .
- العلاء بن الحضرمي يمشي على الماء .
- الفرق بين الكرامة والاستدراج .
- بناء مسجد قباء .
- استقبال النبي في المدينة .

● **معجزات الهجرة :**

لقد أتم الله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنعمة العقل الكبرى التى تجلت فى مقدرته على أن يسع أفكار الناس جميعا ويخاطبهم على قدر عقولهم ، ولكن العناية الإلهية لم تتخل عنه الى جانب ذلك فى أى لحظة من لحظات حياته ، وكان يدعو الله دائما الا يكله إلى نفسه طرفة عين أو أقل من ذلك .

وفى طريق الهجرة صاحبته هذه العناية فأمدته بخوارق كثيرة ، وقفت أمامها عقول الكفار من قريش ذاهلة مشدوهة ، وليس فى ذلك طعن فى مقدرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ على التصرف السليم والتخطيط الذى أعده وسبقت الاشارة اليه .

ولا ينافى الاعجاز الذى أحاط بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هجرته كماله البشرى وقدرته العقلية وبراعته فى قياس الأمور ، وتقدير الاحوال والظروف ، بل الكمال أن يعطى الله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل ذلك ثم يعطيه الى جانب ذلك العناية التى تحبط كل كيد وتتحدى كل شر لايقع فى مقدور البشر توقعه أوصده .

ليس هناك غضاضة فى ان ترقب السماء خطوات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طريقه الى يثرب وان يؤيد بالمعجزات . . وقد بعثه الله بالحق ليوطد الدين الذى لايرضى الله من الناس بغيره . . فكان لابد ان يؤيد بالخوارق وبخاصته بين قوم لايريدون الاعتراف بغير الخوارق والمعجزات .

حقا إن القرآن الكريم هو معجزة الرسول الكبرى . . نزل به الروح الأمين ليرد الناس الى صوابهم ويطلب منهم ان يحكموا العقل فى دعوة

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيؤمنوا بها لانها دعوة الفطرة ورسالة النور ، وطلب من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوضح لهم أنه ليس إلا بشرا رسولا .

ولكن ذلك لايجافى ان يكون للرسول معجزاته الكونية التى تؤيد الحق الذى جاء به فهذه المعجزات فى أغلب الاحيان هى التى تبهر العقول وتذل الجبابرة وتكبح جماح المعارضين .

وقد تحدثنا عما قيل عن الاسراء والمعراج . . وهل الاسراء والمعراج الا معجزة كبرى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقف أمامها العقل مشدوها عاجزا ؟

وانظر الى هذه الخوارق التى صاحبت الهجرة :

جاء فى سيرة ابن هشام : لما اجتمع المشركون وفيهم أبو جهل بن هشام ، فقال ـ وهم على باب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان تجرى من تحتها الأنهار . . وان لم تفعلوا كانت لكم الذلة فى الدنيا ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها ، وان مهمتكم اليوم أن تثبتوا لمحمد وأصحابه أنكم أعزة . . وقد وقف فتيان قريش لتنفيذ مهمتهم . . وخرج عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال : نعم أنا أقول ذلك .

فأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على

رءوسهم وهو يتلو الآيات من أول سورة يس ، حتى قوله تعالى ـ
« فأغشيناهم فهم لايبصرون »

ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على رأسه ترابا .

ثم انصرف الى حيث أراد أن يذهب ، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم ، فقال : من تنتظرون ههنا ؟

قالوا : ننتظر محمدا

قال : خيبكم الله ، قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ماترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته(١٩٧) .

لقد أعمى الله أبصارهم عنه ، وأذهل عقولهم ، حتى انهم لم يشعروا بما حدث لهم . . وتكرر ذلك مرة اخرى . . فقد ذكر الزرقانى فى شرحه على المواهب اللدنية انه حين خرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خوخة فى بيت أبى بكر لقيه أبو جهل فأعمى الله بصره حتى مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحاجته(١٩٨) .

وحين ذهب الرسول وصاحبه الى الغار . أنبت الله على بابه شجرة تسمى الراءة(١٩٩) ، وهى أم غيلان، تكون مثل قامة الانسان لها خيطان من زهر أبيض ، فحجبت باب الغار عن أعين الكفار ، حتى إن الواقف لايرى ما بداخله .

---

(١٩٧) سيرة ابن هشام حـ ٢ صـ ٢٢٣

(١٩٨) شرح المواهب اللدنية حـ١ صـ ٣٢٩

(١٩٩) الراءة بالراء المهملة والمد والهمز ـ شجرة معروفة ببلاد الحجاز

جاء فى مسند البزار ، من حديث أبي مصعب المكى ، قال : أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يتحدثون أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما كان ليلة بات فى الغار أمر الله - تعالى - شجرة فنبتت فى وجه الغار . فسترت وجه النبى - صلى الله عليه وسلم -[٢٠٠] وذكر البيهقى فى دلائل النبوة هذا الخبر بهذا الاسناد ، وذكر معه : أمر الله العنكبوت فنسجت خيوطها على وجه الغار فسترت النبى - صلى الله عليه وسلم - وأمر الله حمامتين فوقفتا بفم الغار[٢٠١] .

وأضاف البيهقى قائلا :

وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجل بحرابهم وسيوفهم ، حتى اذا كانوا من النبى - صلى الله عليه وسلم - بقدر أربعين ذراعا ، ذهب رجل منهم لينظر فى الغار فرأى حمامتين بفم الغار ، فرجع الى أصحابه فقالوا : مالك لم تنظر فى الغار ؟

فقال : رأيت حمامتين بفم الغار ، فعلمت أنه ليس فيه أحد .

فسمع النبى - صلى الله عليه وسلم - ما قال ، فعرف ان الله - عز وجل - قد درأ عنه بهما[٢٠٢] .

خبر سراقة :

وحدث البيهقى فيما يرويه البراء قال :

---

(٢٠٠) شرح المواهب حـ ١ صـ ٣٣٠

(٢٠١) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٢ صـ ٤٨١ ، وأضاف محقق الكتاب : وفى رواية عند قاسم بن ثابت بن حزم العوفى السرقسطى : سمع من النسائى ، وألف كتابا فى شرح الحديث سماه : الدلائل

(٢٠٢) أخرجه ابن سعد فى طبقاته حـ ١ صـ ٢٢٩ ، وأبو نعيم فى دلائل النبوة وابن عساكر

اشترى أبو بكر من عازب ـ أبي البراء ـ رحلاً بثلاثة عشر درهما . فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ لعازب ـ مر البراء فليحمله الى رحلى .

فقال له عازب : لاحتى تحدثنا كيف صنعت انت ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين خرجتما والمشركون يطلبونكما .

قال أبو بكر : أدلجنا من مكة ليلا فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا ، وقام قائم الظهيرة فرميت ببصرى هل أرى من ظل نأوى اليه ؟

فاذا صخرة فانتهيت اليها . فاذا بقية ظل لها فسويت المكان ، ثم فرشت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فروة ، ثم قلت : اضطجع يارسول الله ، فاضطجع ،

ثم ذهبت أنظر ماحولى هل أرى من القوم أحدا ؟ فاذا براعى غنم يسوق غنمه الى الصخرة يريد منها الذى نريد ـ يعنى الظل ـ فسألته فقلت : لمن أنت ياغلام ؟

قال : لرجل من قريش ـ سماه لى فعرفته ـ فقلت : هل فى غنمك لبن ؟
قال : نعم
قلت : هل انت حالب لى ؟
قال : نعم

فأمرته فاعتقل شاة من غنمه وأمرته أن ينفض ضرعها من التراب ، ثم أمرته أن ينفض كفيه ، فضرب احدى كفيه على الاخرى ثم حلب لى

كُثْبَةً[٢٠٣] من لبن ، فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوافقته وقد استيقظ .

فقلت : أتشرب يارسول الله ؟

فشرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى رضيت .

ثم قلت : قد آن الرحيل يارسول الله .

قال : فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له .

فقلت : هذا طالب لنا قد لحقنا يارسول الله .

قال : لاتحزن ، إن الله معنا .

فلما ان دنا منا ، وكان بيننا وبينه قدر رمحين أو ثلاثة . قلت : قد لحقنا يارسول الله ، وبكيت .

فقال : مايبكيك ؟

فقلت : أما والله ماعلى نفسى يارسول الله ولكنى أبكى خوفا عليك .

قل : فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : اللهم اكفنا بما شئت .

قال: فغاصت به فرسه فى الارض الى بطنها فوثب عنها . ثم قال : يامحمد قد علمت ان هذا عملك ، فادع الله ان ينجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائى من القوم ، وهذه كنانتى فخذ منها سهما ، فانك

---

(٢٠٣) الكثبة : القليل الذى يجمع من طعام أولبن أو غيرهما

ستمر بإبل وغنمى بمكان كذا أو كذا ، فخذ منها حاجتك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاحاجة لنا فى إبلك وغنمك ، ودعا له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانطلق راجعا الى أصحابه ، ومضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلا(٢٠٤)

.هذا ماحدث به أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بما رأى من سراقة حين لحقهما ، ولكن سراقة يحدث ببدء قصته فى اللحوق بهما فيقول :

« إنه لما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة مهاجرا إلى المدينة جعلت قريش لمن يرده عليهم مائة ناقة .

قال : فبينما أنا جالس فى نادى قومى إذ جاء رجل منا فقال : والله لقد رأيت ركبا ثلاثة مروا علىّ آنفا ، إنى لأظنه محمدا .

قال : فأومأت إليه بعينى ، أن اسكت . وقلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم .

قال : لعله كذلك . . . ثم سكت .

قال : فمكثت قليلا ، ثم قمت فدخلت بيتى ، وأمرت بفرسى ، فقيد الى بطن الوادى ، وأخرجت سلاحى ، ثم أخذت قداحى استقسم(٢٠٥)بها . ثم لبست درعى .

---

(٢٠٤) دلائل النبوة حـ ٢ صـ ٤٨٣ ، ومسند أحمد حـ ١ صـ ٢ وأسد الغابة حـ ٣ صـ ٣١٥ ترجمة أبى بكر

(٢٠٥) هو مايسمى عند العرب بالاستقسام بالأزلام ، وكانت لهم أقداح أحدها مكتوب عليه نعم والآخر لا . فإذا خرج الذى عليه نعم أمضوا مايريدون ، وان خرج الذى عليه لا تركوا .

ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره : أى الذى يمنعنى من المضى فى اثره . . وكنت أرجو أن أرده فآخذ المائة ناقة . . قال : ولكنى لم أعبأ بذلك . . فركبت على اثره فبينا فرسى يسير بى عثر فسقطت عنه ، فأخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره ، لاتتبعه . . فابيت إلا أن أتبعه ، فركبت ، فلما بدا لى القوم فنظرت اليهم عثر بى فرسى ، فذهبت يداه فى الارض فسقطت عنه ، فاستخرج يديه ، ثم رأيت دخانا مثل الغبار ، فعلمت أنه قد منع منى ، وأنه ظاهر ، فناديتهم ، فقلت : انظرونى فوالله لاآذيتكم ، ولايأتيكم منى شىء تكرهونه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل له : ماذا تبغى ؟

قال سراقة : اكتب لى كتابا يكون بينى وبينك آية .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اكتب له يا أبا بكر .

قال : فكتب لى ، ثم ألقاه إلىّ ، فرجعت ، فسكت فلم اذكر شيئا مما كان ، حتى إذا فتح الله ـ عزل وجل ـ مكة وفرغ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل حنين خرجت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لألقاه ومعى الكتاب الذى كتب لى ، فبينما أنا عامد له دخلت بين ظهرى كتيبة من كتائب الأنصار .

قال : فطفقوا يقرعوننى بالرماح ، ويقولون : إليك ، إليك ، حتى دنوت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على ناقته . . فرفعت يدى بالكتاب ، فقلت : يا رسول الله ، هذا كتابك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يوم وفاء وبر . .

قال : فأسلمت ، ثم ذكرت شيئا أسأل عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ قال ابن شهاب : إنما سأله عن الضالة . .

قال سراقة : فما ذكرت شيئا إلا أنى قد قلت : يا رسول الله ، الضالة تغشى حياضيَ قد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجر إن سقيتها ؟÷ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم ، فى كل كبد رطبة أجر (٢٠٦) .

ولهذا الحديث بقية ذكرها الزرقانى قال : ان النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال لسراقة حين هم باللحاق بهما : كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟

ثم لم تزل الأيام تدور حتى انتصر المسلمون على الفرس ، وأُتَى عمر ـ رضى الله عنه ـ بسوارى كسرى وتاجه ومنطقته ، فدعا عمر سراقة ، فألبسه السوارين ، وقال : ارفع يديك وقل : الله أكبر ، الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما أعرابيا من بنى مدلج (٢٠٧) سراقة بن مالك .

والمشهور أن سراقة أسلم يوم حنين ، ولكنه كان له لقاء آخر مع النبى صلى الله عليه وسلم ـ قبل ذلك ، أشار اليه ابن كثير فى تفسيره ، وأورد الخبر الذى رواه سراقة فى ذلك .

قال : لما ظهر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل بدر وأحد ، وأسلم من حولهم (٢٠٨) قال سراقة : بلغنى أنه يريد ان يبعث خالد بن الوليد إلى

---

(٢٠٦) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٢ صـ ٤٨٧ ، وسيرة ابن هشام حـ ٢ صـ ١٠٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير حـ ٣ صـ ١٨٥

(٢٠٧) شرح المواهب اللدنية حـ ١ صـ ٣٤٨ ، وأسد الغابة حـ ٢ صـ ٣٣١

(٢٠٨) يبدو أن هذا كان بعد الحديبية بعد ان اسلم خالد ، وأقبل العرب على الاسلام

قومى بنى مدلج ، فأتيته فقلت : أنشدك النعمة ، فقالوا : صه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوه ، ما تريد ؟

قال : بلغنى انك تريد ان تبعث الى قومى ، وأنا أريد أن تصالحهم فان أسلم قومك أسلموا ودخلوا فى الاسلام وان لم يسلموا لم تخش قلوب قومك عليهم .

فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيد خالد بن الوليد وقال له : اذهب معه فافعل ما يريد ، فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وان أسلمت قريش أسلموا معهم . فنزل قوله تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠ ﴾ (٢٠٩)

ويهمنا فى هذا المقام أن سراقة بن مالك وَفّى بما ضمنه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أنه لن يحدث قريشا عن رؤيته للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين تبعه ، وأن يُخذّل عنه من يلقاه .

ولكنه لم يستطع ان يكتم طويلا ما انبهر به من جلال ، وما شاهده من إعجاز ، فحدث عما رأى ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بلغ غايته وأمن .

---

(٢٠٩) النساء ٩٠ ـ ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره حـ ٢ صـ ٣٢٦

ولما علم ذلك القول إلى أبي جهل ، فخشى أن يكون حديث سراقة سببا في إسلام كثير من الناس ، فكتب إلى بني مدلج يقول :

بني مدلج إني أخاف سفيهكم سراقة مستوف لنصر محمد
عليكم به ألا يفرق جمعكم فيصبح شتى بعد عز وسؤدد

لقد أراد أبوجهل أن يغرى بنى مدلج بسراقة ، ويحثهم على الضرب على يده ، وكفه عن الاشادة بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فأجابه سراقة قائلا :

أباحكم واللات لوكنت شاهدا لأمر جوادى إذ تسيخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمداً نبى ببرهان فمن ذا يقاومه ؟
عليك بكف الناس عنه فانى أرى أمره يوما ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم لو أن جميع الناس طرا تسالمه (٢١٠)

حديث أم معبد

ومن الأحاديث التى تدل على آية الاعجاز فى الهجرة مرور النبى - صلى الله عليه وسلم - على أم معبد الخزاعية . وهى عاتكة بنت خالد بن خُليد من بنى خزاعة . وكانت امرأة بَرْزَة جلدة ، والبرزة من النساء المسنة التى برزت لسنها وخرجت عن حد المحجوبات .

وقد مر النبى - صلى الله عليه وسلم - عليها فى خيمتها ، وكانت مشهورة بأنها تطعم وتسقى من يمر عليها . ولكنها كانت فى ذلك الوقت فى سَنَة قحط وجهد كان القوم مرملين مسنتين ، فطلب النبى - صلى الله عليه وسلم - هو

---

(٢١٠) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٢ صـ ٤٨٩ - اسد الغابة حـ ٢ صـ ٣٣١ وتصويب البيت الأخير من الروض الألف حـ ٢ صـ ٢٣٣

ومن معه لبنا أو لحما أو تمرا يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئا .

وقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى .

فنظر النبى - صلى الله عليه وسلم - الى شاة فى كِسْر - جانب - الخيمة ، خَلَّفها الجهد والهزال عن الغنم .

فسألها النبى - صلى الله عليه وسلم - هل بها من لبن ؟

فقال أم معبد : هى أجهد من ذلك .

فقال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

فقالت : نعم بأبى أنت وأمى ، ان رأيت بها حلبا فاحلبها .

فدعا بالشاة ، فاعتقلها ، ومسح ضرعها ، وسمى الله - تعالى - ودعا لها ، فدرت ودعا باناء يربض - أي يشبع - الرهط . فحلب فيه ثجاً - حلبا قويا - وسقى القوم حتى رووا ثم شرب آخرهم ، وقال فى ذلك أثره المشهور : « ساقى القوم آخرهم شربا »

ثم حلب فى الاناء مرة اخرى فشربوا عَللاً بعد نهل - أى شربا ثانيا بعد الأول .

ثم حلب مرة ثالثة وغادره عندها ، وفى رواية قال : ارفعى هذا لأبى معبد اذا جاءك .

ثم ركبوا وذهبوا ، فما لبث ان جاء أبو معبد زوجها ، واسمه أكثم بن أبى الجون وأبوالجون اسمه عبدالعزى . .

جاء أبومعبد وهو يسوق أعنزا عجافا ، فلما رأى اللبن عجب ، وقال : ما هذا يا أم معبد ؟ أنَّى لك هذا ولا حلوبة فى البيت ؟

فقالت : لا والله إلا أن مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا .

فقال : صفيه يا أم معبد .

فقالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، مليح الوجه ، حسن الخلق . . الى آخر الصفات التى وصفت بها النبى - صلى ا لله عليه وسلم - وقد سبق أن ذكرناها عند حديثنا عن أوصاف النبى - صلى الله عليه وسلم - الخِلْقِيَّة فقال أبومعبد : هذا والله صاحب قريش ، لو رأيته لاتبعته ولأجتهدن أن أفعل .

ويقال : إن أبا معبد خرج فى أثرهم فأدركهم ببطن ريم فبايعه بعد أن أسلم وانصرف ، وقيل : هاجرت أم معبد وزوجها ، وأسلم أخوها حُبَيْش واستشهد يوم الفتح ، وكان أهلها يؤرخون بنزول الرجل المبارك عندهم . .

قال السهيلى : وبارك الله فى شاة أم معبد حتى كانت تكفيها وتكفى أهلها من لبنها (٢١١)

وروت أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت : لما خرج أبى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتانا نفر من قريش ، فيهم أبوجهل بن هشام ، فخرجت اليهم ، فقال : أين أبوك يا أبنة ابى بكر ؟

فقلت : لا أدرى

قالت : فرفع أبوجهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدى لطمة خرج منها قرطى ، ثم انصرفوا ، وتفرقوا فى كل اتجاه يبحثون عنها ، ولكن الله أعمى بصيرهم فلم يستطيعوا الاهتداء الى مكانه .

---

(٢١١) الروض الألف جـ ٢ صـ ٢٣٦

وفى نزول الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند أم معبد - قال القائل :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا [٢١٢] خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى مازوى الله عنكم به من فَعال لا تجازى وسؤدد
لِيَهْنِ بنى كعب مقام فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فانكم ان تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فَتَحلَّبَتْ له بصريح ضرة الشاة مُزْبد
فغادرها رهنا لديها لحالب يرددها فى مصدر ثم مورد

ولما سمع حسان بن ثابت الشاعر بهذه الأبيات بعد إسلامه قال :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم وقُدِّسَ من يسرى اليه ويغتدى
ترحَّل عن قوم فضلَّت عقولُهم وحلَّ على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربُّهم وأرشدهم ، من يَتْبَعِ الحقَّ يرشُد
وهل يستوى ضلال قومٍ تسفهوا عمىً وهداةٌ يهتدون بمهتد
وقد نزلت منه على أهل يثرب ركابُ هدىً حلَّت عليهم بأسعد
نبى يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله فى كل مشهد
وان قال فى يوم مقالة غائب فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى الغد
ليهن أبابكر سعادة جَدِّه بصحبته من يُسعِد الله يَسعد [٢١٣]

ولم يتخلف الشعر الحديث عن تسجيل هذا المشهد الرائع الذى يدل على تأييد الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال احمد محرم شاعر العروبة والاسلام فى ذلك :

---

(٢١٢) قالا : أى نزلا وقت القيلولة وهى بهذا اللفظ فى الروض الألف

(٢١٣) المواهب اللدنيه للقسطلا فى حـ١ صـ٤٤٣

ما حديث لأم معبد تستسقيه ظمأى النفوس عذبا غميرا
سائل الشاة كيف درت وكانت كزة الضرع لا ترجى الدرورا ؟
بركات السمح المزمل يقرى أمم الأرض زائـرا أو مـزورا
فظهر الحق للنبوة سبحانك ربأ فرد الجلال قديرا (٢١٤)

العبد الذى أسلم

وهناك من الأخبار التى تدل على الاعجاز فى حادث الهجرة ، ما يقصه البيهقى أيضا فى هذا الخبر :

عن قيس بن النعمان قال : لما انطلق النبى - صلى الله عليه وسلم - وأبوبكر مستخفين مروا بعبد يرعى غنما ، فاستسقاه اللبن ، فقال : ما عندى شاة تحلب . غير ان هناك عناقا حملت أول الشتاء ، وقد أخرجت وما بقى لها لبن .

فقال : ادع بها .

فاعتقلها النبى - صلى الله عليه وسلم - ومسح ضرعها ودعا حتى حلبت .

قال : وجاء أبوبكر بِمِجَنٍّ ، فحلب وسقى أبابكر ، ثم حلب فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب ، فقال الراعى : بالله من أنت ؟؟ فوالله ما رأيت مثلك قط .

قال : أو تراك تكتم علىّ حتى أخبرك ؟

قال : نعم .

---

(٢١٤) ديوان مجد الاسلام لأحمد محرم

قال : فانى محمد رسول الله .

فقال : أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء ؟

قال : إنهم ليقولون ذلك .

قال : فأشهد انك نبى ، واشهد أن ما جئت به حق ، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى ، وأنا متبعك .

قال : انك لن تستطيع ذلك الآن ، فاذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا (٢١٥)

هذه بعض آيات صحبت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رحلته أكدت ان الله سبحانه ، كان يحرسه ويرعاه ويشد أزره ، حتى تبدد ما بخاطره من تعب ، وهان ما كان يلقاه من نصب . حتى وصل إلى المدينة سالما آمنا منصورا باذن الله . .

ومما يتوج هذه الأخبار أن الله لم يشأ أن يدخل نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة إلا فى موكب عظيم وفوقه لواء .

فقد ذكر الزرقانى فى المواهب اللدنية قال :

ومما وقع لهم فى الطريق أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثيابا بيضا (٢١٦)

وكذا لقيهما طلحة بن عبيد الله وكساهما .

وأخرج البيهقى عن بريدة بن الحصيب قال : لما جعلت قريش مائة من

---

(٢١٥) دلائل النبوة حـ ٢ صـ ٤٩٧ ـ وفى البداية والنهاية لابن كثير حـ ٣ صـ ١٩٤

(٢١٦) رواه البخارى عن عروة مرسلا ووصله الحاكم عن عروة عن أبيه الزبير

الابل لمن يرد النبي - صلى الله عليه وسلم - حملق الطمع ، فركبت فى نفر من بنى سهم ، فلقيته .

فقال : من انت ؟

قلت : بريدة

فالتفت - صلى الله عليه وسلم - الى أبي بكر وقال : برد أمرنا وصلح .

قال النبى : ممن انت ؟

قلت : من أسلم .

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : سلمنا

ثم قال : ممن ؟

قلت : من بنى سهم .

قال : خرج سهمك يا أبا بكر .

فقال بريدة : للنبى - صلى الله عليه وسلم - من أنت ؟

قال : أنا محمد بن عبد الله رسول الله .

فقال بريدة : أشهد ان لا إله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعا .

فقل بريدة : الحمد لله الذى أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين .

فلما أصبح قال بريدة : يارسول الله لاتدخل المدينة الا ومعك لواء .

فحمل عمامته ثم شدها فى رمح ، ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة(٢١٨) .

---

(٢١٧) رواه ابن أبي شيبة وغيره

(٢١٨) شرح المواهب اللدنية جـ ١ صـ ٣٤٩

فانظر كيف خرج بريدة طامعا فى المكافأة التى رصدتها قريش ، فاذا به يسلم ويصبح عونا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم . وقد جاء فى أسد الغابة فى ترجمة بريد انه أسلم حين مر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهاجرا هو ومن معه ، وقد صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العشاء الآخرة فصلوا خلفه ، وأقام بأرض قومه ، ثم قدم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أحد فشهد معه بقية المشاهد«٢١٩» .

● معجزات أخرى :

هذه هى المعجزات التى صاحبت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هجرته وهناك معجزات تفوق الحصر كانت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حياته ، وقد اعتنى بذكرها واحصائها وجمعها الرواة فى مختلف كتبهم .

والمعجزة التى قصد بها التحدى للكفر هى القرآن الكريم ، أما المعجزات الكونية الأخرى فلم يقصد بها التحدى . . ذاك ان العقل البشرى فى حاجة الى مايغذيه ويرشده لا الى مايبهره ويخالف عاداته . فما اكثر الخوارق فى هذا الزمان ولا شك أن المعجزات الكونية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان غرضها الأصل تأييد معجزة القرآن الكريم وتكريم الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولقد استجاب الله لقريش مرة واحدة فيما طلبوه من معجزات كونية ، وهى معجزة انشقاق القمر ، ولما لم يؤمنوا بها مع ضخامتها لم يستجب لهم فيما طلبوه بعدها لعدم الفائدة فى الاستجابة لقوم مستكبرين معاندين

---

(٢١٩) أسد الغابة جـ ١ صـ ٢٠٩

لا يريدون الهدى ، وقد سبقت الاشارة الى هذه المعجزة الخارقة التى قال الله فيها :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ (٢٢٠)

وجاء الإخبار عنها فى السنة الصحيحة ، فقد روى أبو نعيم بسنده . والبخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال : لما اجتمع جمع من المشركين الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم الوليد بن المغيرة ، وابو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، والنضر بن الحارث ونظراؤهم ، فقالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كنت صادقا فجئنا بمعجزة ، فسأل النبى ربه فانشق له القمر . . ورأى ذلك كثير من الناس فى مكة وغيرها من الحواضر والبوادى .

● انقياد الشجر له :

ومن ذلك مارواه مسلم من حديث جابر قال : سرنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلنا واديا ، وأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقضى حاجته فذهب بعيدا فاتبعته باداوة من ماء(٢٢١) فنظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ير شيئا يستتر به ، فإذا شجرتان بشاطىء الوادى فدعاهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاقبلتا إليه ثم أخذ

---

(٢٢٠) القمر ١ : ٦

(٢٢١) إناء من جلد يوضع فيه الماء

باغصتنها ولاءم بينهما ثم قل : التئما عليّ بإذن الله فالتأمتا .

قال جابر : فجلست أحدث نفسي ، فحانت مني لفتة ، فاذا أنا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقبلا ، واذا الشجرتان قد افترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق[٢٢٢] .

● حنين الجذع :

وهذا الخبر متواتر ، وقد شهد برؤيته الملأ من المسلمين ، وبيانه : أن مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مسقوفا على جذوع النخل ، فكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا خطب يقوم الى جذع منها .. ثم بعد ذلك صنع له منبر له ثلاث درجات ، لكي يسمع الناس خطبته لما كثروا .

فلما قعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر خار الجذع حتى تصدع وانشق ، وقد تعددت رواية ما حدث . وتصوير خواره ، فمنهم من صوره بأنين الصبي ، ومنهم من صوره بصوت الناقة ، ومنهم من صوره بصوت حنين الناقة التي انتزع منها ولدها .

وكان ذلك من الجذع حزنا على فراق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتقاله الى المنبر الجديد ، وقد اجمعت الروايات على أن المسجد ارتج لأنين الجذع ، وتأثر المصلون وأنه لم يسكت حتى نزل اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولمسه ... ويقول القاضي عياض : حديث حنين الجذع منتشر والخبر به

---

(٢٢٢) من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ـ عبد العزيز محمد السلمان صـ ٤

متواتر ، وقال الامام الشافعي ما أعطى الله نبينا ما أعطى محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقيل له : أعطى عيسى إحياء الموتى .

فقال : أعطى محمدا حنين الجذع حتى سمع صوته . فهى أكبر من ذلك .

وقال أبو القاسم البغوى : كان الحسن ـ البصرى ـ اذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال : ياعباد الله ، الخشبة تحن الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شوقا اليه لمكانه من الله ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه .

● نبع الماء من بين أصابعه :

روى عن أنس فى الصحيحين قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحانت صلاة العصر ، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوا ماء فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإناء فيه قليل من الماء ، فوضع يده فى ذلك الاناء ، فأمر الناس أن يتوضأوا منه ، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم .

قيل لأنس : كم كنتم ؟

قال : كنا ثلثمائة .

وفى الصحيحين أيضا وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : عطش الناس يوم الحديبية وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين يديه ركوة توضأ منها ، وفزع الناس نحوه فقال : مالكم ؟

فقالوا : يارسول الله ماعندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما ين يديك فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا .

فقال رواية لجابر : كم كنتم ؟

قال جابر : لو كنا مائة الف لكفانا . . كنا خمس عشرة مائة .

والركوة إناء صغير من الجلد يشرب فيه .

لقد تعددت حادثة نبع الماء من بين اصابعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتكررت مرات كثيرة وفى مواطن عدة ـ كما يقول القرطبى ، وقد وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعى المستفاد من التواتر ، ولم يسمع عن غير نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث نبع الماء من بين عصبه ولحمه ودمه .

وقال المزنى : نبع الماء من بين اصابع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبلغ فى المعجزة من نبع الماء من الحجر ، حيث ضربه موسى ـ عليه السلام ـ بالعصا فانفجرت منه المياه لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروجه من بين اللحم والدم .

● تفجير الماء وتكثيره :

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن معاذ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم : « إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى .

قال : فجئناها ، وقد سبق إليها رجلان ، والعين تبض ـ اى تسيل قليلا قليلا ـ بشىء من الماء .

فسألهما رسول الله ـ صلى الله عليه ،وسلم هل مستما من مائها شيئا ؟

قالا : نعم .

فقال لهما : ماشاء أن يقول .

ثم غرفوا من العين قليلا قليلا ، حتى اجتمع فى شيء .

ثم غسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ به وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير ، فاستقى الناس .

ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ يامعاذ ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ماهنا قد ملىء جنانا ـ اى بساتين .

وفى البخارى من حديث المسور بن مخرمة انهم نزلوا بأقصى الحديبية على ثمد ـ بئر قليلة الماء يتربضه [٢٢٣] تربضا ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكا الناس الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العطش فانتزع سهما من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ،فو الله مازال يجيش [٢٢٤] لهم بالرى حتى صدروا عنه .

والاخبار فى ذلك مستفيضة .

وتكثير الطعام مستفضين كذلك فى أخباره ، ومن ذلك مارواه البخارى ومسلم بسندهما عن أنس قال : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء

---

(٢٢٣) يتربضه : يأخذونه قليلا قليلا

(٢٢٤) يجيش : يفور

فقالت : نعم فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خمارا فلفت الخبز به ثم أرسلت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد ومعه الناس .

قال الرجل الذى أرسلته : فسلمت عليه ، فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : أرسلك أبو طلحة ؟

قلت : نعم

قال : بطعام

قلت : نعم :

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوموا ـ فانطلق وانطلقت بين أيديهم ، حتى أتيت أبا طلحة فأخبرته .

فقل أبو طلحة : يا أم سليم ، قد جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقبل وأبو طلحة معه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هلمى يا أم سليم ماعندك ؟ فأتت بذلك الخبز . فأمر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَفُتَّ ، ثم وضعت أم سليم عليه بعض السمن ، فأدمته ، ثم قال : ائذن لعشرة ثم لعشرة ، فأكل القوم كلهم وشبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا .

وفى رواية مسلم : ثم أكل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل البيت وتركوا سؤرا وفى رواية البخارى : فجعلت أنظر هل نقص منها شىء[٢٢٥] .

---

(٢٢٥) هذه الأخبار ذكرها الشيخ مصطفى الطير فى بحثه آيات النبوة المحمدية فى مؤتمر السيرة الرابع العدد التذكارى ص ٢٤٠

● إخباره بالمغيبات :

وقد وردت فى ذلك أخبار كثيرة منها قصة عمير بن وهب الجمحى ، وذلك أنه كان مع صفوان بن أمية يعد مصاب أهل بدر . وكان عمير شيطانا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر .

فذكر عمير أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله ما فى العيش بعدهم خير .

قال عمير : صدقت والله . . . أما والله لولادين علىّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت الى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة ، ابنى أسير فى أيديهم .

فاغتنمها صفوان فرصة وقال : علىّ دينك أنا أقضية عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم وأقوم على رعايتهم ، وكل حق لعيالى فهو لهم .

فقال عمير : فاكتم شأنى وشأنك .

قال : أفعل .

ثم انطلق حتى قدم المدينة . فبينما عمر مع نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، وما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ راحلته على باب المسجد . متوشحا السيف . فقال : عمر هذا الكلب عدو الله ، والله ماجاء إلا لشر .

ثم دخل عمر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يانبى الله هذ عدو الله عمير بن وهب ، قد جاء متوشحا سيفه .

قال : فأدخله علىّ .

فأتى عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها .

وقال لرجال من الأنصار : ادخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ارسله ياعمر . فدنا عمير .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ماجاء بك ياعمير ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم ، فأحسنوا فيه - يعنى ولده -

قال : فما بال السيف فى عنقك ؟

قال : قبحُها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟

قال : اصدقنى ما الذى جاء بك ؟

قل : ما جئت الا لذلك .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما قتلى بدر من قريش ، ثم قلت : لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمل لك صفوان دينك وعيالك على أن تقتلنى والله حائل بينك وبين ذلك .

فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يارسول نكذبك بما كنت تأتينا من خبر السماء . ومايتنزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للاسلام وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقهوا أخاكم فى دينه وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره . ففعلوا(٢٢٦) .

فقال عمير : يارسول الله كنت جاهدا ما استطعت على إطفاء نور الله ، والحمد لله الذى هدانى وأنقذنى من الهلكة ، فائذن لى يارسول الله ان الحق بقريش فأدعوهم إلى الله ـ تعالى ـ والى الاسلام لعل الله أن يهديهم ، ويستنقذهم من الهلكة .

فأذن له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلحق بمكة .

وكان صفوان بن أمية يقول لقريس : أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر ، وجعل يسأل من قدم من المدينة هل كان بها من حدث ؟

حتى قدم عليه رجل فأخبره أن عميرا أسلم ، فلعنه المشركون ، وقالوا : صبأعمير وحلف صفوان لاينفعه بشىء أبدا ، ولايكلمه كلمة أبدا ، فقدم عليهم عمير ، فدعاهم الى الاسلام ، فأسلم بشر كثير (٢٢٧)

وقد سقنا هذا الخبر بتمامة للفائدة وقد رأينا منه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت تتفتح أمامه ـ بإذن الله ـ حجب الغيب فيعلن ماتكنه الصدور ، وهذا شىء ، أكبر من الذكاء والفراسة .

إن الامثلة على ذلك كثيرة يضيق المقام عن ذكرها ، ومن أراد تقصيها فليرجع الى أماكنها فى كتب السيرة والسنن والتاريخ .

---

(٢٢٦) من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ـ عبد العزيز محمد السلمان صـ ٩
(٢٢٧) أسد الغابة جـ ٤ صـ ٣٣٠

وما ذكرناه هنا إنما هو للاستدلال على ان هناك معجزات كونية فى حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم - وهذه المعجزات سايرته منذ ولادته حتى التحاقه بالرفيق الاعلى .

إذن فقد اطمأنت قلوبنا الى أن هناك معجزات كونية فى حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلينا بعد ذلك أن نشير إلى الفرق بين المعجزة وغيرها من الخوارق التى يشاهدها الناس فى الحياة .

● أنواع الخوارق :

والخوارق التى تجرى فى الحياة تتنوع بين المعجزة والكرامة والمعونة والاستدراج والسحر والشعوذة .

أما المعجزة :- فقد سبق بيانها وهى أمر خارق للعادة قصد به إظهار صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به من عند ربه . . كانفجار الماء من بين أصابع النبى - وعدم إحراق النار لأبراهيم . . وغيرها وعادة تكون من جنس مابرع فيه قوم ذلك النبى لتكون أبلغ فى التحدى . . ولما كان قوم النبى - صلى الله عليه وسلم - بارعين فى صناعة الكلام فقد كانت المعجزة المتحدية لهم هى القرآن الكريم . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك فى عدد خاص . . كما كانت له - صلى الله عليه وسلم - معجزات أخرى كونية أشرنا الى بعضها فى صدد هذا الحديث.

● الكرامة :

والكرامة أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح غير مقرون بدعوى النبوة .

وهذا هو الذى يوضح الفرق بين المعجزة والكرامة .

قال الإمام أبو إسحاق الاسفراييني : المعجزات دلالات صدق الأنبياء . . . . . ودليل النبوة لايوجد مع غير النبى ، كما أن العقل المحكم لما كان دليلا للعالم فى كونه عالما لم يوجد إلا ممن يكون عالما ، والأولياء لهم كرامات مثل إجابة الدعاء مثلا . . . . وأما جنس ما هو معجزة فلا يكون إلا للأنبياء فقط . . ويقول بعض الائمة العلماء فى الفرق بين المعجزة والكرامة : إن الانبياء مأمورون باظهار الأمر الخارق ـ وهو المعجزة ـ أما الأولياء فمأمورون بستر الامور الخارقة وهى الكرامات ، ولاينبغى لهم القطع بهذه الكرامات لجواز أن تكون اختبارا واستدراجا .

وقال أبو بكر الأشعرى : إن المعجزات تختص بالانبياء والكرامات تكون للأولياء كما تكون للانبياء أيضا ، والاولياء لاتكون لهم معجزات لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها . والمعجزة لم تكن معجزة لعينها ، إنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف وشروط متى اختل شرط منها لاتكون معجزة وأحد تلك الشرائط ان يكون من تظهر على يديه نبيا والولى لايدعى النبوة .

والكرامة تحصل على يديه تخصيصا له وتفضيلا وقد تحصل بطلبه ودعائه وقد لاتحصل ، وقد تكون بغير اختياره فى بعض الأوقات (٢٢٨) .

---

(٢٢٨) الرسالة القشيرية لأبى القاسم عبد الكريم القشيرى صـ ١٧٤

● انواع الكرامات :

ثم إن هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة وقد تكون بركة فى طعام فى زمن فاقة من غير سبب ظاهر ، أو نزول ماء فى زمان عطش ؛ أو تسهيل قطع مسافة فى مدة وجيزة ، او تخليص من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف أو شفاء مريض تحيّر فى أمره الأطباء - أو غير ذلك من الأفعال الناقضة للعادة .

وظهور هذه الكرامة لمن ظهرت على يده لايقتضى عصمته لأن الولى لايكون معصوما كالنبى ، والعصمة من خصائص الانبياء عليهم السلام .

● الدليل على وجود الكرامات :

قال - تعالى - فى حق الأولياء .

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٢٢٩)

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى عظم منزلة الأولياء عند الله ، وأن الله جعل لهم البشرى التى بمقتضاها لهم مايشاءون عند ربهم .

وقد ورد فى القرآن الكريم مايشير الى حدوث خوارق لبعض الأولياء ففى حق مريم قال الله تعالى .

---

(٢٢٩) يونس ٦٢ : ٦٤

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي
وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا
فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ۝٢٦ ﴾ (٢٣٠)

وقال :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ
عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ
هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧ ﴾ (٢٣١)

وفي حق أهل الكهف قال تعالى :

﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم
مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ۝١٦ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت
تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي
فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ۝١٧ ﴾ (٢٣٢)

---

(٢٣٠) مريم ٢٥ ، ٢٦
(٢٣١) آل عمران ٣٧
(٢٣٢) الكهف ١٦ ، ١٧

فهذه أدلة وردت فى القرآن الكريم . وهناك أدلة أخرى وردت فى الأخبار الصحيحة .

قصة جريج العابد

ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وصبى فى زمن جريج الناسك ، وصبى آخر . أما عيسى فقد عرفتموه ، وأما جريج فكان رجلا عابدا من بنى إسرائيل ، وكانت له أم ، فبينما كان يوما يصلى إذ اشتاقت إليه أمه ، فأرسلت إليه ، فقال : يارب الصلاة خير أم رؤيتها ؟ ثم صلى ، فدعته ، ثانيا ، فقال مثل ذلك ، حتى قال ثلاث مرات وكان يصلى ويدعها ، فاشتد ذلك على أمه فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه المومسات ، فتسلطت عليه امرأة فاتنة زانية ، وقالت : أنا أفتن جريجا حتى يزنى ، فأتته فلم تقدر على شىء ، وكان هناك راع يأوى بالليل الى أصل صومعة جريج ، فلما يئست المرأة من جريج راودت الراعى عن نفسها ، فأتاها فولدت ثم قالت : ولدى هذا من جريج ، فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه . فصلى ودعا ، ثم لمس الغلام بيده . . ثم قال : يا غلام ، من أبوك ؟ فقال : الراعى .

فندم القوم على ما كان منهم واعتذروا إليه ، وقالوا له : نبنى صومعتك من ذهب أو فضة ، فأبى عليهم ، وبناها كما كانت .

وأما الصبى الآخر الذى تكلم فى المهد . . فقد ذكر أن امرأة كان معها صبى لها ترضعه إذ مر بها شاب جميل ذو شارة حسنة فقالت : اللهم اجعل ابنى مثل هذا . فقال الصبى : اللهم لا تجعلنى مثله . ثم مرت بها امرأة .

زعموا أنها سرقت وزنت وعوقبت ، فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه . فقال الصبى : اللهم اجعلنى مثلها .

فقالت له أمه فى ذلك : فقال : ان الشاب كان جبارا من الجبابرة فكرهت أن أكزن مثله ، وإن هذه المرأة التى قيل إنها زنت ، فهى لم تزن ، وقيل إنها سرقت ولم تسرق ، وهى تقول : حسبى الله .

خبر الغار

ومن الأدلة على الكرامة التى تظهر فى إجابة دعوة الولى ـ حديث الغار المشهور فى الصحاح والذى رواه الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فآواهم المبيت الى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل وسدت عليهم باب الغار ، فقالوا : والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا ان تدعو الله بصالح أعمالكم ،

فقال رجل منهم : كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبُق [٢٣٣] قبلهما ، فناما فى ظل شجرة يوما فلم أبرح عنهما ، وحلبت لهما غبوقهما ، فجئتهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وكرهت ان أشرب قبلهما .

فقمت والقدح فى يدى أنتظر استيقاظهما حتى ظهر الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ـ اللهم ان كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة .

---

(٢٣٣) الغبوق : الشرب بالعشى من باب نصر

فانفرجت انفراجا لا يستطيعون الخروج منه .

ثم قال الآخر : كانت لى ابنة عم ، وكانت أحبَّ الناس إلىَّ ، فراودتها عن نفسها فامتنعت ، حتى ألمت بها سَنَة من السنين . . أى شدة وقحط - فجاءتنى فطلبت منها أن أعطيها مالا عظيما على أن تخلى بينى وبين نفسها ، فلما قدرت عليها قالت : لا يجوز لك أن تفض الخاتم إلا بحقه .

فتراجعت عن ذلك العمل وتركتها وتركت المال معها .

اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه فانفرجت الصخرة بعض الشيء غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال الثالث :

اللهم انى استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجرته حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد زمن طويل ، وقال : يا عبدالله أعطنى أجرى التى كانت لى عندك . . فقلت له : كلُّ ما ترى من الغنم هو أجرتك .

فقال : يا عبدالله ، أتستهزىء بى ؟

فقلت : انى لا استهزىء بك .

فأخذ ذلك كله

اللهم ان كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا يمشون .

كرامات أصحاب رسول الله

وهناك أخبار كثيرة صحيحة تثبت وجود الكرامة حدثت على يد أصحاب

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نذكر طرفا منها للاستئناس به والعظة والاعتبار رجاء ان يرزقنا الله حسن الاقتداء .

فمن الكرامات التي جرت على يد الصديق ـ رضي الله عنه ـ ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : ان أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ كان قد نحلها (٢٣٤) جداد عشرين وسقا من ماله ، فلما حضرته الوفاة قال : والله يا بُنَيَّة ما من الناس أحب إلىَّ غِنًى بعد موتى منك ، ولا أعز علىَّ فقرا بعد موتى منك ، وانى كنت قد نحلتك جداد عشرين وسقا ، فلو كنت حُزْته كان لك ، وانما هو اليوم مالُ وارث ، وانما هما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله .

قالت عائشة : يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته .. ولكن أين أختاى . إنما هى أسماء فمن الأخرى ؟ فقال أبوبكر : ذو بطن بنت خارجه (٢٣٥) أراها جارية . فكان كذلك .

قال التاج السبكى : فى هذا الخبر كرامتان لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ إحداهما : إخباره انه يموت فى ذلك المرض حيث قال : انما هو اليوم مال وارث والثانية : اخباره أن المولود الذى فى بطن زوجته بنتا .. والسر فى اظهار ذلك استطابه قلب عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى استرجاع ما وهبه لها ولم تقبضه ، واعلامها بمقدار ما يخصها لتكون على ثقة ، فأخبرها بأنه مال وارث وان معها اخوين وأختين .... ويدل على أنه قصد استطابه قلبها ما

---

(٢٣٤) نحلها : أعطاها ـ وجداد ـ بالكسر ـ : ثمرة ، والوسق : الحمل

(٢٣٥) كانت حبيبة بنت خارجة زوجة لأبى بكر ، توفى عنها وهى حامل فكانت أن وضعت بنتا

مهد به أولا من أنه لا أحد أحب اليه غنى بعده منها ، وقوله : إنما هما أخواك وأختاك ، أى ليس ثم غريب ولا ذو قرابة نائية وفى هذا من الترفق ما لا يخفى - فرضى الله عنه وأرضاه (٢٣٦)

من كرامات عمر بن الخطاب

ومن كرامات الفاروق - رضى الله عنه - انه كان قد أمّر سارية بن حصن على جيش من جيوش المسلمين ، وخرج الجيش لقتال الفرس ، فاشتد الحال على عسكر المسلمين عند باب نهاوند وسارية يحاصرها ، وكثرت جموع الاعداء ، وكاد المسلمون ينهزمون ، وعمر - رضى الله عنه - بالمدينة ، فصعد المنبر وخطب ، ثم نادى فى اثناء خطبته بأعلى صوته : يا سارية ، الجبل ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم ، فأسمع الله - عز وجل - سارية وجيوشه وهم على باب نهاوند صوت عمر ، فلجأوا الى الجبل ، وقالوا : هذا صوت أمير المؤمنين ، فنجوا وانتصروا (٢٣٧)

قال التاج السبكى : لم يقصد عمر إظهار هذه الكرامة ، وانما كشف له ورأى القوم عيانا ، وكان كمن هو بين أظهرهم واشتغلت حواسه بما داهم المسلمين من خطب بنهاوند ، فخاطب أميرهم بصوت سمعه من فى المسجد معه وسمعه قائد الجيش ومن معه قال : ياسارية الجبل ، ياسارية الجبل . . . . . . ومما يروى من كراماته : أن النيل أمسك عن الفيضان فكتب أمير مصر . عمرو بن العاص الى عمر - يخبره بذلك ، ويبلغه شكوى أهل مصر بسبب توقف الفيضان .

---

(٢٣٦) جامع كرامات الأوليا ، للنبهانى حـ ١ صـ ١٢٧

(٢٣٧) أسد الغابة لابن الأثير حـ ٢ صـ ٣٠٦

وكان أهل مصر قبل الفتح الاسلامى يلقون بفتاة فى النيل عندما يجين موسم الفيضان يسمونها عروس النيل ، وكانوا يعتقدون ان النيل لا يفيض الا بذلك فمنع عمرو بن العاص تلك العادة فلم يفض النيل فكتب الى عمر بن الخطاب يسأله الرأى ..

فكتب عمر بطاقة وأمر عمرا بإلقائها فى النيل ، وفى هذه البطاقة كتب عمر : من عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر ، أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك .

فالقى عمرو بن العاص هذه البطاقة فى النيل وكان أهل مصر قد تهيأوا للخروج منها ، فأصبحوا وقد أجراه الله ـ تعالى ـ ستة عشر ذراعا فى ليلة .

العلاء بن الحضرمى يمشى على الماء

روى أبونعيم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : خرجت مع العلاء بن الحضرمى فرأيت منه خصالا لا أدرى ايتهن أعجب : انتهينا الى ساحل البحر ، فقال : سموا الله واقتحموا فسمينا واقتحمنا فعبرنا ، فمابل الماء إلا أسافل خفاف إبلنا ، فلما قفلنا صرنا معه بفلاة من الأرض ، وليس معنا ماء ، فشكونا اليه ، فصلى ركعتين ثم دعا فاذا سحابة مثل الترس ، قد تجمعت ثم ألقت ماءها فسقينا واستقينا ـ ثم مات العلاء فدفناه فى الرمل ، فلما سرنا غير بعيد قلنا : ربما يجىء سبع فيأكله . فرجعنا فلم نره .

والأخبار فى ذكرى كرامات أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرة ومستفيضة ، وقد أولع بجمعها كثير من الرواة ـ ومن ذلك ما ذكر من

أن أبا بكر رضى الله عنه بعث العلاء بن الحضرمى على قتال أهل الردة بالبحرين ، فتلاحق به من لم يرتد من المسلمين ، وسلك بهم الدهناء ـ صحراء ـ حتى اذا كانوا فى بحبوحتها أراد الله ان يريهم آية .

فنزل إلعلاء وأمر الناس بالنزول ، فنفرت الإبل فى جوف الليل ، فما بقى بعير ولازاد ولا مزاد .. قال راوى القصة

فما علمت جمعا هجم عليه من الغم مثل ما هجم علينا ، وأوصى بعضنا الى بعض . أى قال كل منا وصيته للآخر ..

فنادى منادى العلاء : اجتمعوا ، فاجتمعنا اليه ..

فقال : ما هذا الذى ظهر فيكم وغلب عليكم ؟

فقال الناس : وكيف نلام ونحن ان بلغنا غدا لم تحم شمسه حتى نصير حديثا ؟

ـ يعنون أنهم يهلكون ويتحدث الناس عنهم ـ

فقال : أيها الناس ، لا تراعوا ألستم مسلمين ؟ ألستم فى سبيل الله ؟ ألستم أنصار الله ؟

قالوا : بلى .

قال : فأبشروا ، فوالله لا يَخْذُل الله ـ تبارك وتعالى ـ من كان فى مثل حالكم ، ونادى المنادى بصلاة الصبح حين طلع الفجر ، فصلى بنا ، ومنا المتيمم ، ومنا من لم يزل على طهوره .

فلما قضى صلاته جثا لركبتيه وجثا الناس معه ، فنصب فى الدعاء ونصبوا ، فلمع لهم سراب ، فأقبل على الدعاء ، ثم امع لهم آخر فقال الرائد : ماء .

فقام وقام الناس ، فمشينا حتى نزلنا عليه فشربنا واغتسلنا ، فما تعالى النار حتى أقبلت الابل من كل وجه ، وأناخت الينا .

فقام كل رجل الى ظهره (٢٣٨) فأخذه ، فما فقدنا منها سلكا ، فأروينا العلل بعد النهل وتروينا ثم تروحنا . .

وكان أبوهريرة رفيقى ، فلما غبنا عن ذلك المكان قال لى : كيف علمك بموضع ذلك الماء ؟

فقلت : أنا أهدى الناس بهذه البلاء .

فقال : اذهب معى حتى تقيمنى عليه .

فكررت به فأنحت على ذلك المكان بعينه ، فاذا هو لا غدير به ولا أثر للماء ، فقلت له : والله لولا انى لا أرى الغدير لأخبرتك أن هذا هو المكان ، وما رأيت بهذا المكان ماء قبل ذلك .

فنظر أبوهريرة فاذا إداوة مملوءة . فقال : يا أباسهم هذا والله المكان ولهذا رجعت بك ، كنت قد ملأت إداوتى هذه ثم وضعتها على شفير الوادى .

---

(٢٣٨) أى إلى ناقته ومتاعه

فقلت : ان كان الا منّا من المن ، وكانت آيةً عرفتها وحمدت الله عز وجل ثم سرنا حتى نزلنا هجر ، وذكر محاربتهم وانتصارهم على الكفار هناك .

ثم قال : وهرب العدو الى دارين ، فركبوا إليها السفن ، فجمعهم الله عز وجل بها ، وندب العلاء الناس الى دارين وخطبهم فقال : إن أعداء الله وأحزاب الشيطان قد تجمعوا عليكم اليوم

وقد أراكم الله من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر ، فانهضوا الى عدوكم ثم استعرضوا البحر اليهم فان الله - جل وعز - قد جمعهم به .

فقالوا : نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولا ما بقينا .

فارتحل وارتحلوا ، حتى أتى ساحل البحر ، فاقتحموه على الخيل هم والحمولة والابل والبغال ، الراكب والراجل ، ودعا ودعوا ، وكان دعاؤهم : يا أرحم الراحمين ، يا كريم يا حليم ، يا صمد ، يا محيى الموتى ، يا حيّ يا قيوم ، لا اله الا أنت يا ربنا . فاجتازوا ذلك الخليج باذن الله يمشون على مثل رملة ميثاء (٢٣٩) فوقها ماء يغمر خفاف الابل ، وبين الساحل ومنطقة دارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر ، ووصل المسلمون اليها فما تركوا من المشركين بها أحدا ، وغنموا الغنائم واستاقوا الأموال ، فبلغ من ذلك نفل الفارس من المسلمين أى عطاؤه - ستة آلاف والراجل ألفين .

---

(٢٣٩) الميثاء : الأرض اللينة من غير رمل ، وتميثت الأرض إذا أمطرت فلانت وبردت

فلما فرغوا رجعوا عودهم على بدئهم ، وفى ذلك يقول عتيق :

ألم تــر أن الله ذلـل بحـــره وأنزل بالكفـار إحدى الجـلائل
دَعَوْنَا الذى شق البحار فجاءنا بأعجب من شق البحار الأوائل

وقفل العلاء بالناس ـ أى رجع بهم ـ الا من أحب البقاء .

وكان بهجر راهب فأسلم فقيل له : ما دعاك إلى الاسلام ؟

فقال : ثلاثة أشياء خشيت أن يمسخنى الله بعدها إن أنا لم أفعل : فيض فى الرحال ، وتمهيد أثباج البحار ـ اى وسطها ومعظمها ـ ودعاء سمعته فى عسكرهم فى الهواء من السَّحَرِ .

قالوا : وما هو ؟

قال ؛ اللهم انت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ، البديع ليس مثلك شيء والدائم غير الغافل ، والحى الذى لايموت ، وخالق مايرى ومالا يرى ، وكل يوم انت فى شأن وأنت العليم الخبير . .

فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله عز وجل(٢٤٠) .

● **الأدلة العقلية :**

وهناك أدلة عقلية على جواز الكرامة تَرُدُّ على الذين وقفوا فى طريق جوازها ، واغلقوا باب فضل الله الذى يؤتيه الله من يشاء . . . ومن هذه الأدلة أنها منحة الرب للعبد ، والله ولى الذين آمنوا ، وهو يحبهم

---

(٢٤٠) جامع كرامات الاولياء جـ ١ صـ ١٥٣

ويحبونه ، واذا أحب الله عبدا فاض عليه من نعمائه مايريد ، وحقق لعبده ما يشاء مصداقا لقوله - تعالى -

« لهم ما يشاءون عند ربهم .

فليس هذا فى الآخرة فحسب ، بل هو فى الدنيا أيضا .

ومادام العبد قد وفى بعهد الله ، فإن الله يوفى بعهده معه تصديقا لقوله تعالى .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ ﴾ (٢٤١)

ولماذا لاتحدث الكرامة للاولياء ، والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء ، وهناك من المؤمنين الصادقين الأوفياء المخلصين من هو أهل لها إن معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه ومحبة الله وطاعته كل ذلك أعظم وأشرف من أى عطاء آخر ، فإذا أعطى الله عبده المعرفة بذلك فلأن يعطيه كرامة أولى .

ومن الأدلة التي يمكن للمرء ان يستدل بها على أن الله يتفضل بالكرامة على اوليائه ما يفهم من ذلك الأثر القدسى .. فإذا أحببت عبدى كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التى يمشى عليها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه .

إن هذا الاثر يفيد أن مثل هذا العبد الذى تفضل الله عليه بهذه الهبات لم يبق فى نفسه ، نصيب لغير الله ، كل شيء فيه أصبح خالصا لله ، وهذه

---

(٢٤١) البقرة ٤٠

كرامة عظيمة ، يمكن فى ضوئها أن يقول صاحبها للشيء كن بإذن الله فيكون .

ومن خصه الملك بخدمته أقدره على مالايقدر عليه غيره .

والمنكرون للكرامات بدعوى أن الكرامة تسلم الى ادعاء النبوة نقول : إن هذه الدعوى مرفوضة ، فلم يَدَّعِ وَلِيٌّ من اولياء الله النبوة على الاطلاق ، بل إن الولاية شرطها الخضوع لصاحب الشريعة والسير على قدمه واتباع سنته ووجوب طاعته - ثم إن الولى لايباهى بكرامته ، بل يحاول إخفاءها ويعد إظهارها نقصا فى حقه ، حتى قالوا : إن الاستقامة خير من آلف كرامة . وحتى قال بعضهم : إن الولى يستحى من ظهور الكرامة . . . ومن صفاتهم التواضع ، وعدم التباهى بذلك وتفضيل غيرهم على أنفسهم . .

● الفرق بين الكرامة والاستدراج :

قال العلماء : ليس كل من أعطاه الله حاجته وجبها عنده ، فقد يعطى الله العبد مايريد وهو غير مقبول عنده ، وفى الأثر ان الله يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب .

والمنحة التى يهبها الله لمن يشاء قد تكون إكراما للعبد ، وقد تكون استدراجا له ، والاستدراج هو ان يعطى الله العبد كل مايريده فى الدنيا ليزداد غيا وضلالا وجهلا وعنادا ويزداد بذلك عن الله بعدا ، ومن ذلك قوله تعالى :-

(٢٤٢)

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(٢٤٢) القلم ٤٤

والاستدراج له أسماء أخرى منها : المكر :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢٤٣)

ـ والكيد :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾ (٢٤٤)

ـ والخداع : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ (٢٤٥)

ـ والاملاء :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ (٢٤٦)

وعلامة الكرامة من الاستدارج أن صاحب الكرامة لايفرح بها ، أما المستدرج فهو يفرح بها ويستأنس بها وينتظرها ويباهى بها ويفخر . . قال تعالى ـ؛

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢٤٧)

---

(٢٤٣) الانفال ٣٠
(٢٤٤) الطارق ١٥ : ١٧
(٢٤٥) النساء ١٤٢
(٢٤٦) آل عمران ١٧٨
(٢٤٧) الأنعام ٤٤

● المعونة والاهانة :

أما المعونة ـ فهى أمر على خلاف يظهر على يد رجل مستور الحال ، ليس نبيا ، وليس مشهورا بالصلاح .. وهو نوع من توفيق الله للعبد فى حياته .. وأما الإهانة فعلى نقيضها . فهى تظهر على يد رجل كاذب بعكس مايطلب . كما ادعى مسيلمة الكذاب أنه يتفل فى بئر فيكثرماؤها ، فتفل فتحول ماؤهاالعذب الى ملح أجاج .

● الفرق بين المعجزة والسحر :

قدمنا عددا خاصا عن السحر ، وقلنا فيه : ان السحر هو تخييل للرائى بقلب الحقائق امامه فيراها على غير صورتها ، وهو فى الحقيقة أنواع من بينها تسخير الجن والشاطين ، ومن بينها استعمال أدوية خاصة تؤثر فى العقل ... والفرق واضح بين ذلك وبين المعجزة .

لان المعجزات حقائق ، وهى أمور خارقة ، ولكنها على حقائقها ، فقلب عصا موسى إلى ثعبان ـ كان حقيقة واقعة ، تحولت العصا فعلا الى ثعبان مبين التقم كل ما امامه من تخيلات السحرة ولم يبق منها شيئا ، ، ومع ذلك فالعصا بقيت على حقيقتها بعد ذلك .. ويقول الشيخ محمد رشيد رضا فى ذلك : « والفرق بين معجزات الأنبياء وغيرها من وجوه التخييلات ، أن معجزات الانبياء عليهم السلام هى على حقائقها . وبواطنها كظواهرها وكلما تأملتها ازددت بصرا ، فى صحتها . ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم .. ومخاريق السحرة وتخيلاتهم إنما هى ضرب من الحيلة والتلطف لاظهار أمور لاحقيقة

لما ، وما يظهر منها على غير حقيقتها ، يعرف ذلك بالتأمل والبحث ، ومن شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره[٢٤٨]

أما الشعوذة فهى لون من خفة اليد والحيلة والبراعة فى القيام بألعاب وهمية تخطف ألباب السذج والبسطاء .

● حكمة المعجزة فى رجلة الهجرة :

ونعود بعد ذلك الى ماكنا فيه من حكمة المعجزة فى رحلة الهجرة فنقول :ـ كانت الخطة التى تمت بها رحلة الهجرة بارعة مرسومة باحكام ، ومع ذلك فقد كان للمعجزة آثار واضحة فيها كما قدمنا .

ولعل الحكمة فى ذلك هى تنبيه المشركين الى أن عين القدرة الالهية تلحظ هذا النبى الكريم وتحرسه ، فمهما صنعوا من كيد أوجمعوا من مكر فإن الله مبطله .

كانت المعجزة ـ كما يقول د / محمد سعيد رمضان البوطى ـ « بمثابة الاعلان لهؤلاء المشركين وغيرهم فى كل عصر ووقت بإن مالاقاه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه من ألوان الاضطهاد والعذاب على أيديهم مدة من الزمن فى سبيل دينه ـ لايعنى ان الله قد تخلى عنه أو أن النصر قد ابتعد عن المؤمنين .

فلا ينبغى للمشركين ؟ ان يفرحوا ويستبشروا بما يصيب المسلمين من ايذاء ، فإن نصر الله قريب ، وان وسائل النصر توشك أن تتحقق بين كل لحظة وأخرى[٢٤٩]

---

(٢٤٨) تفسير المنار حـ ٩ صـ ٥٢

(٢٤٩) فقه السيرة صـ ١٤٧

إن المعجزة هى إيناس من السماء لرسول الله ـ صلى الله عايه وسلم ـ فى مسيرته ، وشحذ قوى لهمته ، انها المصباح الأخضر الذى أنار له الطريق ليمضى قدما فى طريقه نحو هدفه ، وليست الاشارة الخضراء بمغنية عن إعداد الوسيلة للرحلة من زاد ومركب ولذلك فلم يغفل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الاعداد المناسب . . وقد كان فى إمكانه لو شاء أن يقطع المسافة بين مكة والمدينة فى غمضة عين . . ولكنه أراد ان يسلك الأسباب تعليما لأمته ، وتشريعا يسير على هديه المسلمون من بعده .

ومن حكمة هذا التشريع الذى قرره أنه لم يعلن عن هجرته كما أعلن عمر بن الخطاب مثلا . . مع أن عمر لايفوق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شجاعة أو غيره على الدين . . لقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلم المسلمين الحيلة والحذر وعدم المجازفة ، او التقليل من شأن العدو .

إن تصرف عمر رضى الله عنه تصرف شخصى ليست فيه حجة تشريعية ، اما تصرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو تشريع لامته ، ووضع خطوط عامة تسير عليها وتتبعها وتقتدى بها ، ولذلك كان لابد من التخفى والحذر والأخذ بالأسباب .

● الرسول فى قباء :

واستمر ركب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مسيرته حتى قدم قباء وذلك فى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول على رأس ثلاث وخمسين سنة من مولده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك فى أشهر الاقوال .

وليس هناك اختلاف فى يوم الاثنين ، أو شهر ربيع الاول ، وانما الاختلاف فى تحديد هذا اليوم بالنسبة لأيام هذا الشهر ، فمن قائل إنه أول يوم فى الشهر ومن قائل إنه ثانى يوم فى الشهر ومن قائل انه اليوم الثالث عشر او الثانى عشر ويمكن الجمع بين هذه الروايات أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم قباء فاقام بضعة أيام حتى كان دخوله المدينة فى الثالث عشر من ربيع الاول .

ويؤكد ذلك مارواه ابن عبد البر فى الاستيعاب قال :

قال الخوارزمى : قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهاجرا يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة أربع وخمسين من عام الفيل ، فكان من مبعثه الى أن هاجر ثلاث عشرة سنة كاملة ، ومكث بالمدينة عشر سنين الى أن توفى ، وذلك يوم الاثنين اول شهر شهر ربيع الأول سنة أربع وستين من عام الفيل :

قال أبو قيس بن قيس الأنصارى :

ثوى فى قريش بضع عشر حجة ... يـذكر لايلقى صـديقا مـواتيا
ويعرض فى اهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسرورا بطيبـة راضيا
واصبح لايخشى ظلامـة ظالم ... بعيد ولا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من جل مالنا ... وأنفسنا عند الـوغى والتآسيـا
فعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعا وان كان الحبيب المواتيا
ونعلم ان الله لاشيء غيـره ... وان كتاب الله أصبح هاديا

---

(٢٥٠) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر حـ ١ صـ ٣٢

وكان نزوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قباء على كلثوم بن هدم .

وهو كلثوم بن هدم بن امرىء القيس بن الحارث بن زيد من الاوس . كان يسكن قباء . ويعرف بصاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان شيخا كبيرا ، اسلم قبل وصول النبى الى المدينة .

نزل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقام عنده أربعة ايام ، ثم خرج الى أبى أيوب الأنصارى بعد ذلك .

وحين نزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كلثوم ، صاح بغلام له : يانُجَيْح . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب الفال ، فنظر الى أبى بكر وقال له : انجحت ياأبابكر وكان يحدث الناس من منزل سعد بن خيثمة الأنصارى ، ومنزله كان يسمى منزل العزاب .

وهو سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب وهو من بنى عمر وبن عوف . وهم رهط كلثوم بن الهدم أيضا .

وسعد بن خيثمة ممن شهدوا العقبة ، واستشهد فى بدر . . وقد تنافس هو وأبوه فى الخروج الى بدر ، قال له أبوه : لابد لأحد أن يقيم هنا فآثرنى بالخروج وأقم أنت مع نسائنا . فأبى سعد وقال : لو كان غير الجنة لآثرتك به . إنى أرجو الشهادة فى وجهى هذا ، فاستهما فخرج سهم سعد . فخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بدر ، فقتل ولا عقب له .

● **بناء مسجد قباء :**

وفى خلال الأيام الأربعة التى أقامها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قباء

بنى مسجد قباء أول مسجد جامع بنى فى الاسلام ، وفى شأنه نزل قوله تعالى :

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ (٢٥١)

وسيأتى حديث خاص ـ ان شاء الله تعالى ـ عن مساجد المدينة الثلاثة : مسجد قباء ، ومسجد الرسول ـ ومسجد الضرار .

وكانت الأيام التى قضاها الرسول فى قباء هى أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس ، من الثانى عشر من ربيع الأول حتى الخامس عشر منه . .

وتهيأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للانتقال إلى المدينة فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى بطن الوادى . .

وكان دور الدليل عبدالله بن أريقط قد انتهى بوصول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه إلى قباء .

ويمكن ان يكون قد انتهى قبل ذلك . فقد جاء فى كتاب الاستيعاب فى ترجمة أوس بن عبدالله بن حجر الأسلمى ما يروى عنه : من أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر به ومعه أبوبكر متوجهين الى المدينة بدوحات بين الجحفة وهَرْشَى وهما على جمل واحد ، فحملهما على فحل من إبله ، وبعث معهما غلاما يقال له مسعود ، فقال له : اسلك بهما مخارق الطريق حتى يصلا الى ما يريدان فسلك بهما الطريق التى سماها أوس ورجع مسعود الى سيده ، وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسعودا أن يأمر سيده أن ـ يَسِمَ الابل فى أعناقها قيد الفرس ـ وهما حلقتان ومدٌ بينهما مدا ـ

---

(٢٥١) التوبة ١٠٨

قال صخر بن مالك بن أوس ـ وهو شيخ من أهل العرج راوى الحديث : فهى سمتنا إلى اليوم [٢٥٢]

فالدليل فى هذا الخبر هو مسعود العرجى ، وربما كان يطلق عليه سعد أيضا ، فقد جاء فى ترجمة سعد العرجى أنه قال : كنت دليل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من العرج إلى المدينة ..

وروى عن ابن سعد ، عن أبيه ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبابكر قد مرًا عليهم ثم ذكر حديث مسيره معهما الى المدينة فتلقاه بنو عمرو بن عوف ، ويقال لسعد العرجى هذا : سعد الأسلمى أيضا [٢٥٣] .

فعلى هذا الاعتبار يكون دور عبدالله بن أريقط قد انتهى عند وصول النبى إلى العرج ، بعد ان استبان الطريق وأمن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبه ، فعاد عبدالله بن أريقط ، وأكمل سعد المهمة ، وكانت مدة الرحلة اثنى عشر يوما ..

استقبال النبى فى المدينة

وشملت الفرحة كل قلب فى المدينة المنورة . لا فرق فى ذلك بين الكبار والصغار والرجال والنساء . لقد كانوا فى انتظار هذه الساعة على شوق شديد وتعطش كبير . فحين بلغهم خروج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليهم كانوا كل يوم يخرجون الى ظاهر المدينة عند الحرة يرقبون مطلعه . ويحكى عبدالرحمن بن عويم بن ساعدة عن رجال قومه من الأنصار هذه الواقعة فيقول :

---

(٢٥٢) الاستيعاب حـ ١ صـ ١٢٢ ، والخبر فى أسد الغابة حـ ١ صـ ١٧٣ وفيه بدل دوحات : « قحداوات » وهم اسم موضع

(٢٥٣) أسد الغابة حـ ٢ صـ ٢٦٠

لما بلغنا خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة كنا نخرج فنجلس بظاهر الحرة ننتظره ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا دخلنا وذلك فى أيام حارة .

حتى اذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جلسنا كما كنا نجلس ، حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا .

وقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع كل يوم واننا ننتظر قدوم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصرخ بأعلى صوته : يا بنى قَيْلة هذا جدكم [٢٥٤] قد جاء .

فخرجنا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى ظل نخلة ومعه أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ فى مثل سنه .

وأكثرنا لم يكن رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل ذلك ، وتكاثر الناس ـ وازدحموا عليه ـ وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقام أبوبكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك [٢٥٥]

وحرص كل أنصارى ان يكون له شرف نزول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنده فأقبلوا يتجاذبون زمام الناقة التى يركبها .. إنها المنافسة الشريفة المحببة ، والاستئثار المشروع المطلوب ، ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحسم هذا الموقف قائلا لهم فى حب منه وتقدير بالغ وود عظيم .. خلوا سبيلها فانها مأمورة ..

---

(٢٥٤) قيلة : اسم جدة من جدات الأنصار ، وجدكم : حظكم وسعدكم

(٢٥٥) سيرة ابن هشام

وبركت الناقة أم دار أبي أيوب الانصارى ـ رضى الله عنه ـ

وأبو أيوب ـ معروف بكنيته هذه ـ أما اسمه فهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبدعوف بن غنم من بنى النجار ، أخوال عبدالمطلب جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وهو ممن شهد العقبة فالمشاهد كلها بعد ذلك .. وآخى النبى بينه وبين مصعب بن عمير .

وحين بركت ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام داره كاد يطير من الفرح ، وأسرع الى رحل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحتمله الى داخل داره .

ولم يطل مقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدار أبي أيوب الا ريثما بنى المسجد وبنى حجراته حوله . ويخبرنا ابن إسحاق بهذه الأخبار فيقول نقلا عن كثير من الرواة :

« وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة فقابله اولا بنو سالم بن عوف فأخذوا بزمام الناقة وقالوا : يا رسول الله ، هلم إلى العدد والعدة والقوة ، انزل بين أظهرنا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : خلوا سبيلها فانها مأمورة .

ثم مر ببنى بياضة ، فاعترضوه وقالوا مثل ذلك ، ثم مر ببنى ساعدة فقالوا مثل ذلك ، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : خلوا سبيلها فانها مأمورة .

ثم مرَّ بأخواله بنى عدى بن النجار ، فقالوا : هلم إلينا أخوالك يا رسول الله ، فقال مثل ذلك ، فمر ببنى مالك بن النجار فبركت الناقة على باب

مسجده ـ أى فى المكان الذى بنى فيه الرسول مسجده بعد ذلك ، ثم التفتت ، ثم نهضت ، ثم كرت إلى مبركها الذى بركت فيه أولا . .

« فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها ، فاحتمل أبوأيوب رحل الرسول فأدخله بيته ، وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببناء المسجد .

ثم ان أبا أيوب حدث أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نزل فى بيته الأسفل .

قال : وكنت فى الغرفة التى تعلو الغرفة التى يقيم فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهريق ماء فى الغرفة ـ ذلك إن إناء كبيرا كانوا يضعون فيه الماء انكسر .

قال أبوأيوب : فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا نتتبع الماء شفقا أن يخلص إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فنزلت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا مشفق فقلت : يا رسول الله إنه ليس لنا أن تكون فوقك ، فرفض الرسول ومازال يتضرع أبوأيوب للنبى ان يسكن اعلى الدار حتى قبل (٢٥٦)

ومما يقصه أبوأيوب كذلك مما يدل على حب المسلمين لنبيهم والتماسهم بركته قال :

قلت : يا رسول الله كنت ترسل إلى الطعام فانظر اذا رأيت أثر أصابعك وضعت فيه يدى ، حتى كان هذا الطعام الذى أرسلت به إلىّ مرة فنظرت فلم أر أثر أصابعك .

---

(٢٥٦) دلائل النبوة جـ ٢ صـ ٥٠١

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أجل إن فيه بصلاً فكرهت أن آكل من أجل الملك ، وأما أنتم فكلوا . .

توفى أبوأيوب سنة خمسين مجاهدا فى عهد معاوية ، ودفن بالقرب من القسطنطينية ، وقبره بها يستسقون به (٢٥٧)

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أثناء دخوله المدينة يمر وقد فتحت الدور على مصارعها والتف حوله الناس يتبركون بمقدمه ، ويمسون ما اتصل به من ثوب أو رداء ، ويلتمسون بركة دعائه .

حدث ابن الاثير فى ترجمة جارية اسمها روضة قال :

حدثتنى شيبة بنت الأسود قالت : حدثتنى روضة انها كانت وصيفة لامرأة من أهل المدينة ، فلما هاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت لى مولاتى : يا روضة قومى على باب الدار فاذا مر هذا الرجل ـ تعنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعلمينى .

قالت : فقمت على باب الدار ، فاذا هو قدم ومعه نفر من أصحابه فأخذت بطرف من ردائه فتبسم فى وجهى . قالت : وأظنها قالت : مسح يده على رأسى ، فقلت لمولاتى : يا هذه هاهو ذا قد جاء . . فخرجت مولاتى ومن كان معها فى الدار ، فعرض عليهم الاسلام فأسلموا (٢٥٨)

وجاء فى الصحيحين عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ قال : وخرج الناس حين قدمنا المدينة فى الطرق وعلى البيوت ، والغلمان والخدم يقولون : الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله . وكان البشر والفرح يعلو وجوه الجميع . .

---

(٢٥٧) اسد الغابة حـ٢ صـ٩٥

(٢٥٨) اسدا الغابة حـ٧ صـ١٢٠

وجاء فى السيرة الحلبية : عن أنس بن مالك ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة أضاء منها كل شيء وصعدت ذوات الخدور على الاجاجير (٢٥٩) عند قدومه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينشدن بقولهن : طلع البدر علينا .

وروت عائشة رضى الله عنها قالت : لما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحبا ياخير داع

وقال بعضهم : ان هذا النشيد الذى استقبل به صلى الله عليه وسلم ـ قد استقبل به فى أثناء رجوعه من تبوك لان ثنيات الوداع ليست من جهة القادم من مكة ، بل هى من جهة الشام . .

ولكن المشهور عن أكثر العلماء والشائع عند الجميع ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استقبل بهذا النشيد عندما وصل الى المدينة مهاجرا من مكة . . ونقل عن كثير من العلماء : أن أى داخل الى المدينة لم يكن يدخل إلا عن طريق هذه الثنيات ، وهى فى طريق القادم من قباء . وقد دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة عن طريق قباء .

---

(٢٥٩) الأجاجير : جمع أجار وهو السطح
(٢٦٠) السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٢٣٤

وروى القسطلانى فى كتابه المواهب اللدنية ان ناقة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بركت أمام دار أبي أيوب خرجت جوارى بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جوارٍ من بنى النجار　　　يا حبذا محمد من جار

وقد أعلن جميعا إسلامهن

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفرحتم بقدومى ؟

قلن : نعم

فقال عليه الصلاة والسلام : الله يعلم مدى فرحى بكم .. أى بمعشر الأنصار جميعا وأنتن منهم ـ قالها ثلاثا (٢٦١)



(٢٦١) المواهب اللدنية حـ ١ صـ ٣٦٠

تصويب الخطأ

الصفحة	السطر	الخـطا	الصواب
١٠	١٠	ستة	سنة
١٨	٩	فيشتموا	فيشمتوا
١٨	الأخير	اله	الله
٢٦	٥	ومسكو	ومكسوّ
٢٩	الأخير	وماأرسلناك	وماأرسلنا
٣٣	٥	فا	فاستوى
٣٣	٦	ستوى	
٤٨	١٨	ودوزها	ودورها
٥٢	٨	فقال النبى	فقال للنبى

فهرس القصص القرآني

تم بحمد الله المجلد التاسع

سلسلة
القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي   د عبد الحميد مصطفى

المجلد العاشر

سلسلة

القصص القرآنى



دكتور

حمزة النشرتي

عبد الحفيظ فرغلي   د. عبد الحميد مصطفى

المجلد العاشر



النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة

- التاريخ الهجرى .
- المؤاخاة " استقبال الأنصار للمهاجرين "
- بناء المسجد .
- المجتمع الإسلامى فى المدينة " المهاجرون - الأنصار - اليهود - المنافقون ".
- المعاهدة بين المسلمين و اليهود .
- إسلام بعض اليهود .
- الإذن بالقتال .
- مشروعية الجهاد .

التاريخ الهجرى

استقبلت المدينة المنورة النبى ﷺ أروع استقبال كما سبق أن أشرنا الى ذلك .

وكان الله قد أوحى إليه قوله - تعالى -

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (١)

فقد أخرج الترمذى فى كتاب تفسير القرآن عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان رسول الله - ﷺ - بمكة فأمر بالهجرة وأنزل عليه « وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا »(٢)

وذكر الواحدى فى أسباب النزول أن هذه الآية نزلت حين أراد كفار قريش أن يوثقوا النبى - ﷺ - ويخرجوه من مكة - فأمر الله نبيه أن يخرج مهاجرا إلى المدينة . .

وتبدلت أحوال المدينة بحلول النبى - ﷺ - فيها ، وسرت فيها روح جديدة ، فقد مستها بركته - ﷺ - وسرى فيها شعاع هديه مسرى الماء فى العود فأنبته الله نباتا حسنا ، فأزهر وأثمر ، وأظل وأغدق .

---

(١) الإسراء ٨٠

(٢) أخرجه الترمذى - الحديث رقم ٣١٣٩ جـ ٥ صـ ٣٠٤ ودلائل النبوة جـ ٢ صـ ٥١٦

وأول ثمرة ظهرت فى المدينة بعد حلول النبى - ﷺ - فيها هو ذلك التآخى الكريم بين المهاجرين والأنصار وسيأتى حديث عن ذلك .

وقد سبق أن بينا أن هجرة المصطفى - ﷺ - كانت فى ربيع الأول بعد بعثته بثلاث عشرة سنة .

فعن محمد بن إسحاق قال : قدم رسول الله - ﷺ - المدينة يوم الاثنين ، فمنهم من يقول لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول ، والحديث المعروف أنه قدم لاثنتى عشرة ليلة ، خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين .

ويؤيد هذا الخبر مارواه ابن عاصم بن عدى عن أبيه قال : قدم رسول الله - ﷺ - المدينة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول فأقام بالمدينة عشر سنين .[٣]

ويذكرنا هذا بضرورة التحدث عن التاريخ الهجرى وكيف بدأ . . والمتواتر أن الذى بدأ بذلك عمر - رضى الله عنه - وأن هذا العمل من أَوَّليَّاته التى لم يسبق إليها .

وإن كان القسطلانى قد أشار فى المواهب اللدنية[٤] إلى أن النبى - ﷺ - قد أمر وهو بقباء بالتاريخ .

ولكن المشهور أن عمر هو الذى فعل ذلك .

ولفظة التاريخ من أرخ - بالهمزة - تقول : أرَّخت الكتاب يوم كذا ، والواو فيه لغة . وقد أخذ العرب التأريخ من أهل الكتاب . وتأريخ

---

(٣) دلائل النبوة للبيهقى حـ٢ صـ٥١١

(٤) المواهب اللدنية حـ١ صـ٣٥٢

المسلمين أخذوه من هجرة سيدنا رسول الله - ﷺ - وقد كتب فى خلافة عمر - رضى الله عنه - وأصبح تاريخا إلى اليوم وإلى ماشاء الله . .(٥)

ويقولون فى سبب ذلك إنه قد ورد له كتاب مكتوب فيه اسم شهر من الشهور ، فقال : أى شهر هذا ؟ أهو الذى مضى أم هو الذى آت ؟

ودعا إلى أن يكون حدث الهجرة هو مرجع التاريخ الاسلامى . . وكان فى اختياره التأريخ بالهجرة حكيما كعادته . لأنه حادث لم يختلف فى تحديد زمنه أحد من المسلمين كما اختلفوا فى غيره من الأحداث .

قال الزرقانى : أخرج أبو نعيم بن دكين فى تاريخه ومن طريقه الحاكم عن الشعبى أن أبا موسى - الأشعرى - كتب إلى عمر أنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ ، فجمع عمر الناس ، فقال بعضهم : أرخ بالمبعث ، وبعضهم قال : أرخ بالهجرة .

فقال عمر : الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها ، وبالمحرم لأنه منصرف الناس من حجهم .

فاتفقوا على ذلك . . . وكان ذلك سنة سبع عشرة ، ورواه ابن أبى خيثمة عن ابن سيرين(٦) . وقال بعضهم : ان ذلك كان فى سنة ست عشرة .

وهذا يوضح لنا سبب احتفال الناس بالهجرة فى أول محرم ، مع أن الهجرة تمت فى ربيع الأول كما علمنا . .

إن الهجرة حدث له دلالته التى لاتخفى ومن أجل ذلك اختاره المسلمون بمبادرة من عمر - رضى الله عنه - ليكون مبدأ تاريخهم ، واختاروا المحرم

---

(٥) لسان العرب جـ١ صـ٥٨

(٦) شرح المواهب اللدنية جـ١ صـ٣٥٢

ليكون أول سنتهم الهجرية . وقد اختاروا ذلك الشهر لأنه الذى ابتدأ العزم فيه على الهجرة ، فقد تمت بيعة العقبة فى ذى الحجة ، وهى مقدمة الهجرة ، وأول هلال استهل بعد ذى الحجة كان هلال المحرم . . . وللسهيلى رأى آخر فى سبب اختيار الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامى . قال : إن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله ـ تعالى ـ

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (٧)

لأن المعلوم أنه ليس أول الأيام مطلقاً ، فتعين أنه أضيف إلى شىء مضمر ، وهو أول الزمن الذى عز فيه الاسلام ، وعَبَدَ النبىُّ ـ ﷺ ـ ربَّه آمنا ، وابتدأ فيه بناء المسجد ، فوافق رأى الصحابة ابتداء التاريخ من ذلك اليوم ، وفهمنا من فعلهم أن قوله ـ تعالى ـ « من أول يوم » أنه أول التاريخ الاسلامى . . ولكن العلماء ردُّوا هذا الفهم لما فيه من تكلف . .

وقال المسعودى فى مروج الذهب : وتاريخ العرب من أول السنة التى هاجر فيها النبى ـ ﷺ ـ من مكة إلى المدينة ، وكان أولها يوم الخميس .

واستطرد إلى ذكر تواريخ الأمم الأخرى فقال : وتاريخ الفرس من أول السنة التى ملك فيها . يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز . . وكان أولها يوم الثلاثاء .

---

(٧) التوبة ١٠٨

وتاريخ الروم والسريانيين من أول السنة التى ملك فيها الاسكندر ، وكان أولها يوم الإثنين[٨]

لقد تواضعت الأمم منذ أقدم العصور على أن يكون مبدأ التاريخ حدثا مهما فى حياتها لاتختلف عليه . وقد ظلت البشرية تؤرخ بالطوفان حينا . وبغيره أحيانا ، وحين جاء أبرهة إلى مكة بأفياله ، وأهلك الله ـ تعالى ـ الفيل ، ظل العرب يؤرخون بذلك الحادث كما كانوا يؤرخون قبله بموت قصى بن كلاب .

وكانت للأمم الأخرى أحداث مهمة يؤرخون بها . كما رأينا من أمر الفرس والروم من تأريخهم بسلطنة عظمائهم الذين كانت لهم مكانة فى تاريخهم .

قال المقريزى : اعلم انه لما كانت الحوادث لابد من ضبطها ، وكان لايضبط مابين العصور وبين أزمنة الحوادث إلا بالتاريخ المكتوب المحدد الذى لاتنكره الجماعة أو أكثرها ـ وجب وضع التاريخ . . وذلك أن التاريخ المجمع عليه لايكون الا من حادث عظيم يملأ ذكره الأسماع . . فلهذا كان لابد ان يكون بدء التاريخ حدثا عظيما . .

ومن الاحداث المهمة التى أرخ بها الناس منذ القدم : بدء الخليقة وابتداء النسل من آدم . ثم الطوفان ، كما أرَّخوا ببختنصر ، وبالاسكندر ، كما أرَّخ النصارى بولادة المسيح ـ عليه السلام ـ وهكذا .

---

(٨) مروج الذهب حـ١ صـ٤٣٢

ولاخلاف فى أن شهور العام اثنا عشر شهرا ـ كما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٩)

ولكن الخلاف فى كيفية حساب هذه الشهور ، فهناك أمم تجرى فى حساب هذه الشهور على حسب حركة الشمس ، وهناك أمم تجرى فى حساب شهورها على حسب حركة القمر .

والعرب من الأمم التى تسير فى حساب شهورها على حسب حركة القمر وظهور الهلال ، وربما أدى اختلاف المطالع إلى اختلاف فى تحديد بدء الشهر العربى فى بعض الأقطار العربية . مماحدا ببعض العلماء الى التفكير فى الأخذ بالحساب الفلكى الدقيق فى تحديد بدء الشهور مع عدم إغفال الرؤية الموثقة للهلال .

والآخذون بالحساب الشمسى يقدرون السنة بثلثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم تقريبا ، وهم يتجاوزون عن هذا الربع فى ثلاث سنوات ويجبرونه فى السنة الرابعة إلى يوم كامل .. فيكون العام عندهم ثلاثمائة وخمسة وستين

---

(٩) التوبة ٣٦

يوما لمدة ثلاث سنوات . . ثم ثلاثمائة وستة وستين يوما فى السنة الرابعة ، وهكذا . ويسمى هذا العام الرابع عاما كبيسا لانكباس الأرباع فيه .

أما السنة العربية فهى ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما وبعض يوم . . وكان العرب فى الجاهلية ينظرون الى فضل مابين سنتهم وسنة غيرهم وهو عشرة أيام وبعض يوم،فيلحقون بها شهرا كلما تم منها مايستوفى أيام شهر . . وكان هذا نوعا من النسىء الذى أبطله الاسلام . . كما كانوا إذا أرادوا القتال فى الأشهر الحرم قاتلوا فيها ، وحرموا شهورا أخرى بدلا منها وقد اعتبر الإسلام ذلك كفراً بل زيادة فى الكفر قال تعالى ـ

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[10]

وكان يتولى ذلك العمل النَّسأة من بنى كنانة وهم المعروفون بالقلامس[11] ـ وأول من قام بالنسىء من هؤلاء الكنانيين هو حذيفة بن عبد فقيم ، وآخر من فعله أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع . .

وأخذ العرب أيضا الكبس عن اليهود حتى توافق سنتهم السنة العبرية ، فكانوا يكبسون فى كل أربع وعشرين سنة تسعة أشهر حتى تبقى أشهر السنة ثابتة مع الأزمنة على حالة واحدة لا تتأخر عن أوقاتها ولا تتقدم .

---

(١٠) التوبة ٣٧

(١١) القلامس جمع قلمس وهو البحر الغزير ، وهو اسم شخص من بنى كنانة ينتسب إليه من يقومون بهذا النسىء

وبقى الأمر على ذلك حتى حج النبى - ﷺ - حجة الوداع فى العام العاشر من الهجرة ، وخطب خطبته المشهورة التى قال فيها : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض - فبطل ذلك النسىء ، وزالت شهور العرب عما كانت عليه ، وصارت أسماؤها غير دالة على معانيها »[١٢]

تعليل أسماء الشهور العربية

وانما صارت غير دالة على معانيها لأنهم كانوا قد سموها بأسماء ترتبط بالطبيعة ، فلما أبطِل الكبس والنسىء ، دارت الشهور مع الأيام ففك الارتباط وذهب التلازم . فيما عدا المحرم . الذى بقى اسمه على حاله أى مرتبطا بمعناه ، لأن اسمه اشتق من تحريم القتال فيه وكذلك رجب وذو القعدة وذو الحجة لاشتقاق أسمائها من معان وأعمال ترتبط بها . . أما صفر فقد سمى بذلك لعلاقته بالاسواق التى كانت باليمن واسمها الصُفرية ، وكانوا يمتارون منها ، ومن تخلف عنها هلك جوعا قال النابغة الذبيانى :

إنى نهيت بنى ذبيان عن أفق .: وعن ترفههم فى كل أصفار

وقيل : إنما سمى صفر بذلك لأن المدن كانت تصفر - أى تخلو - من أهلها لخروجهم الى الحرب بعد انتهاء محرم .

أما الربيعان فسميا بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ، فإن قيل ، ان الدواب قد ترتبع فى غير ذلك الوقت ، قيل : قد لزمها الاسم فى ذلك الوقت واستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه .

---

(١٢) خطط المقريزى جـ ١ صـ ٤٩٠

أما جمادى وجمادى فسميا بذلك لجمود الماء فيهما ، لأنهما كان يجيئان فى شدة البرد ، وقد لزمهما الاسم مع مرور الزمان وتغير الأحوال .

وسمى رجب بذلك الاسم لأنهم كانوا يعظمونه ويهابونه ، والمرجب هو المعظم ، وتقول : رجبتُ الشىء اذا خفته .

وشعبان سمى بذلك لتشعب الناس وراء المياه وطلب الغارات فيه .

ورمضان سمى بذلك لشدة حر الرمضاء فى ذلك الوقت الذى سُمّى فيه هذا الشهر . .

أما شوال فقد سمى بذلك لأن الإبل كانت تشول بأذنابها فى ذلك الوقت الذى سمى فيه وذلك من شهوة الضراب . . . .

وذو القعدة سمى بذلك لقعودهم فيه عن الحرب

وذو الحجة لأن الحج كان فيه . . (١٣)

فأنت ترى أن أغلب هذه الشهور اشتقت أسماؤها من طبيعة الأرض والجو . التى كانت تلازم أيام الشهور وقت أن كانوا ينسئون فلا تتغير الشهور بدورانها . فلما أبطل الاسلام النسىء ، دارت الشهور مع القمر ، فأصبح رمضان مثلا يأتى شتاء وصيفا وربيعا وخريفا ، ولم يلتزم الحر الذى اشتق منه اسمه . وكذلك الربيعان لم يصبحا ملتزمين بفصل الربيع ، كما ان الجماديان لم يعودا ملتزمين بفصل الشتاء . فمن هنا صارت أسماء الشهور العربية غير دالة على معانيها .

أسماء الأيام :

أما الأيام ، فقد أطلق العرب عليها أسماءها المعروفة ، وهى : الأحد ـ

---

(١٣) راجع مروج الذهب للمسعودى جـ١ صـ٤٣٦

فقد سمى بذلك لأنه أول يوم خلقه الله من الزمان . وبذلك نطقت التوراة ، والاثنين لأنه ثان ، والثلاثاء لأنه ثالث والأربعاء لأنه رابع ، والخميس لأنه خامس ، والجمعة لأن الخلق اجتمعوا فيه ، والسبت لأن الخلق انقطع فيه ..(١٤)

وكانت للأيام تسمية أخرى عندهم ، فقد سموا الأحد : أول ، والاثنين : أهون ، والثلاثاء : جبار .. والاربعاء : دبار والخميس : مؤنس ، والجمعة : عروبة ، والسبت : شبار ...(١٥)

ونعود بعد ذلك الى أهم الأسس التي وضعها النبي - صلى الله عليه وسلم - لبدء بناء المجتمع الاسلامى فى المدينة المنورة ومن ذلك ..

المؤاخاة :

فقد آخى النبى - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار . وقد سبق ذلك مؤاخاة أخرى كانت بين المهاجرين أنفسهم ، وقد أشرنا اليها قبل ذلك .. وكان الاسلام قد محا مابين الأنصار أنفسهم من عداوة كانت راسخة فيها بينهم جرت بسببها الدماء غزيرة ، وأشعلت حروبا متعددة كان آخرها يوم « بعاث » المشهور .

وبعاث - كغراب - تقرأ بالعين وبالغين ، موضع بالمدينة أو بالقرب منها ، وقد حدثت فيه موقعة بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بنحو خمس سنين . وكان سبب هذه الحرب أن الأوس طلبت الى بنى قريظة وبنى النضير أن يحالفوهم على الخزرج . فبعث الخزرج الى اليهود يهددونهم ان هم

(١٤) مروج الذهب جـ ١ صـ ٤٣٩

(١٥) المرجع السابق

حالفوا الأوس فلم يسع اليهود الا أن ينزلوا على رغبة الخزرج وأكدوا ذلك بتسليمهم أربعين غلاما ليكونوا رهائن تحت أيدى الخزرج ان هم نقضوا العهد وحالفوا الأوس ، وقد افتخر أحد شعراء الخزرج بذلك فقال :

فَذَلُّوا لرهن عندنا فى حبائنا ∴ مصانعة يخشون منا القوارعا
وذاك بأنا حين نلقى عدونا ∴ نصول بضرب يترك العز خاشعا

وكان للشعر صولته ودولته ، فلما ذاع هذا الشعر غضب بنو قريظة والنضير غضبا شديدا . ونقضوا عهدهم مع الخزرج ، وحالفوا الأوس على الخزرج ، فقتل بعض الخزرجيين رهائنه التى تحت يديه من غلمان اليهود .

فاجتمعت الأوس ، ومعها بنو قريظة والنضير وقبائل أخرى يهودية على حرب الخزرج ، والتقوا ببعاث ، وكان على الأوس قائدهم المشهور « حُضَيْر الكتائب » ، وكان على الخزرج قائدهم « عمرو بن النعمان البياضى » نسبة الى قبيلة بياضة .

ودارت رحى الحرب عنيفة قاسية ، فانهزم الأوس ، وبرك حُضَيْر قائدهم على الأرض . وعمد الى حيلة ، يسترجع بها قومه ، فطعن قدمه بسنان رمحه ، وصاح : واعقراه ، والله لاأعود حتى أقتل ، فان شئتم أن تسلمونى فافعلوا .

فعطف عليه قومه ، وعادوا الى القتال بشدة ، ورمى أحدهم عمرو بن النعمان قائد الخزرج بسهم فأصابه ثم قتله ودارت الدائرة على الخزرج فانهزموا وولوا الأدبار . وصاح صائح يقول : يامعشر الأوس أحسنوا ولاتهلكوا إخوانكم ، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم ، وانما سلبهم اليهود .

وحملت الأوس قائدها حضيرا جريحا ، ثم مات متأثرا بجراحه ، ورثاه خفاف بن ندبة بقوله :

أتاني حديث فكذبته ∴ وقيل خليلك في المرمس
فياعين بكّي حضير الندى ∴ حضير الكتائب والمجلس

وكان خفاف بن ندبة هذا صديقا ونديما لحضير ، فتأثر لمقتله تأثرا شديدا وظل يرثيه حياته ، ومما قاله فيه أيضا :

لو أن المنايا حِدْنَ عن ذى مهابة لَهِبْن حضيراً يوم أغلق واقما
أطاف به حتى اذا الليل جنّ تبوأ منه منزلا متناعما

ويقال : ان الذى نهى الأوس عن الاثخان فِى الخزرج مابلغهم من أن عبد الله بن أبى بن سلول وهو من سادة الخزرج قال لقومه بعد أن نهاهم عن قتال الأوس فلم يستجيبوا : والله إنى أرى قوما لاينتهون أو يهلكوا عامتهم ، وإنى لأخاف إن قاتلوكم أن ينصروا عليكم لبغيكم عليهم ، فقاتلوا قومكم كما كنتم تقاتلونهم . فاذا ولوا فخلوا عنهم . فاذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلوا عنكم ..

فكأن هذا الكلام الصادر من عبد الله بن أبىّ كان له صداه فيما بعد حين دارت الدائرة على الخزرج .. (١٦)

وتركت هذه المعركة الأخيرة أثرها فى نفوس كل من الأوس والخزرج ، فمازال الخزرج يتحينون الفرصة للانتقام ،ومازال الأوس يعدون العدة

---

(١٦) راجع مهذب الأغانى حـ ١ صـ ١٣٠ ـ الأدب الجاهلى عبد الجواد رمضان صـ ٤٢ ـ الأدب الجاهلى لمحمد هاشم عطيه صـ ٥٥

للقاء ، حتى وفدت وفود منهم الى مكة تطلب الحلف والنصرة من قريش ومازال اليهود يغذون هذه الفتنة ويشعلون فيها النار حتى تزداد الهوة اتساعا بين الأوس والخزرج - وهم المستفيدون من وراء ذلك كله ، بما يروجون من أسلحة هم صانعوها وتجارها ، ومن نفوذ صنعوه لأنفسهم بالتفرقة بين هؤلاء وهؤلاء وقديما جاء المثل الذى توارثوه ثم ورّثوه أحفادهم : فرق تسد . . وكان اليهود يفاخرون بأنهم أهل العلم بالكتاب الذى نزل على موسى - عليه السلام - وفيه بشارة بالنبى الأمى الذى سيبعث فى آخر الزمان من أمة العرب ، وكانوا يقولون إنهم سيتبعونه ويقاتلون تحت رايته هؤلاء العرب فيقتلونهم قتل عاد وارم . ولكنهم كانوا أول المكذبين بهذا النبى حين بعثه الله ، وقد فضح الله ادعاءاتهم وكذّب أباطيلهم بقوله - تعالى - :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١٧)

ذكر ابن كثير فى تفسير هذه الآية مارواه محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة الانصارى عن أشياخ منهم قال : قالوا فينا والله وفيهم - يعنى فى الأنصار واليهود الذين كانوا جيرانهم - نزلت هذه الآية . قالوا : كنا قد علوناهم دهرا فى الجاهلية . ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون : إن نبيا يبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وارم ، فلما بعث الله رسوله من قريش كفروا به . .

---

(١٧) البقرة ٨٩

وقد قال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور : يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته .

فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ماجاءنا بشىء نعرفه ، وماهو بالذى كنا نذكر لكم . فأنزل الله هذه الآية(١٨)

لقد محا الله العداوة بين الأوس والخزرج بالاسلام ، ومسح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده الرحيمة المباركة على قلوبهم فأذهب مافيها من حقد وموجدة ، وأفرغ الله فيها الرحمة والحب والاخاء والتسامى ، حتى لقد أصبح هَمُّ كل امرىء أن يكفر عما جنت يداه فى الجاهلية من آثام ، ومن بينها المشاركة فى تلك الحروب الأثمة التى غذتها العصبية وأشعلها بين ذوى القرابة والرحم أعداء الانسانية منذ القدم .

وأظل الاسلام برايته الجميع ، وأمن الأنصار على أنفسهم فى مدينتهم فلم يعودوا يخشون الثارات والانتقام كما كانوا من قبل ، ولم تعد تشغلهم الاستعدادات الحربية وجمع الأسلحة للمعارك القادمة بل عاد يشغلهم شىء آخر جديد ، هو ذكر الله واستغفاره وحفظ مانزل وماينزل من آيات القرآن الكريم . .

رابطة الاسلام أقوى رابطة

وأصبحت هناك علاقة جديدة تربط بين المسلمين أقوى من رابطة القرابة والدم التى كانت تربط بين الأفراد ، هى رابطة الأخوة الاسلامية ، التى جمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها بين الأنصار والمهاجرين فى صورة من

---

(١٨) تفسير ابن كثير حـ١ صـ١٧٨ ط دار الشعب

التلاحم القوى الرائع ، الذى غذى لحمته الحب والإيثار ومن قبل ذلك الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر .

قال ابن إسحاق فيما يرويه ابن هشام فى سيرته : آخى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : هذا أخى ، فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد المرسلين وامام المتقين ورسول رب العالمين الذى ليس له نظير من العباد ، وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أخوين .

وكان جعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين ـ وكان جعفر غائبا يومئذ بأرض الحبشة ، ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخى بينه وبين معاذ على الرغم من ذلك .

وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وخارجه بن زهير الأنصارى أخوين،وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه وعتبان بن مالك الأنصارى أخوين ، وكان أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين وكان الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة أخوين ، وكان عثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين ، وكان طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين

وكان سعيد بن زيد ـ أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ وأبى بن كعب أخوين وكان مصعب بن عمير وأبو أيوب الأنصارى وهو خالد بن زيد ـ الذى نزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دارهْ أخوين . . .

وهكذا آخى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين كل اثنين ، أخوة خاصة ، شدت من أزر الأخوة العامة التى دعا الاسلام إليها وأشاد بها وألح فى إقامتها بين المسلمين ، بما غرسه من مبادىء وأخلاق وفضائل ، أذهبت الحقد والعداء ، وقوت روابط المودة والإخاء ، وقد جاء فى القرآن الكريم ما يؤكد أن هذه الألفة التى تمت بين المسلمين لم تكن من صنع أحد من البشر ، بل كانت منحة إلهية وهبها الله المسلمين لتكون نبراسا لهم فى طريقهم إلى الله ، وهم يبنون على ضوئها مجتمعهم المثالى الخالد قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١٩)

وما زال القرآن يُذكّر المسلمين ليتذكروا ويعرفوا حق هذه النعمة التى أنعم الله بها عليهم وهى نعمة التآلف والتوافق بعد أن كانوا متعادين متخاصمين .. قال تعالى :

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ

---

(١٩) الانفال ٦٢ ، ٦٣

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (٢٠)

حقا ، فمن كان يصدق أن هؤلاء القوم المتنافرين الذين تشتعل الحروب بينهم لأتفه الأسباب وتظل مشتعلة بينهم سنين طويلة ، تأكل الأخضر واليابس ، وتأتى على الأموال والأنفس والثمرات ـ من كان يصدق أن يصبح هؤلاء إخوة متآلفين متحابين يؤثر كل منهم أخاه المسلم على نفسه وولده وذوى قرباه ؟

لقد كان العدوان طبيعة فى نفوسهم ـ فى الجاهلية ـ دعت إليه الحمية والأنفة والرغبة فى الغلبة ، والبيئة القاحلة التى يعيش أبناؤها على الرعى وتتبع مساقط المياه ومنابت الكلأ ، لقد تأصلت فى نفوسهم طبائع البدو من الاغارة وحب الغزو والميل إلى الانتقام والأخذ بالثأر . . . كان العربى حين يفتح عينيه لايرى إلا تألق الأسنة ، ولا يسمع الا صهيل الخيل وزئير الوحش ، ولم يكن لهم حمى يلجئون إليه الا ظهور خيلهم ومقابض سيوفهم فرسخت فيهم صفات الفروسية وقوة المراس وكثر الفتك والنهب . وتنازعوا على المرعى ، وتدافعوا على الماء ، واحتكموا فى خلافاتهم دائما فى النهاية إلى السيف ، وانتشرت بسبب ذلك العداوة ، بينهم واعتبروا الظلم من الصفات الحسنة التى قال فيها حكيم العرب زهير بن أبى سلمى :

ومن لايظلم الناس يُظلم

---

(٢٠) آل عمران ١٠٣ : ١٠٥

وحتى تبعه فى ذلك شاعر آخر اعتبر أن الظلم هو الطبيعة الغالبة ، وعدم الظلم لايكون إلا لعلة . . .

.. وقال فى ذلك :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

لقد نبعت حكمة من بينهم تقول : انصر أخاك ظالما أو مظلوما ـ وترجم هذه الحكمة بعض شعرائهم بقوله :

قوم إذا الشر أبدى ناجزيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لايسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا

وقد هذب الإسلام هذه الحكمة حيث سأل المسلمون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا رسول الله ننصره مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ . . قال صلى الله عليه وسلم : بمنعه عن ظلمه . .

لقد استشرى العداء بينهم حتى ذهب ضحيته أقرب المقربين إليهم . . . . .

هؤلاء القوم الذين هذه صفتهم تبدلت أحوالهم فى سرعة خاطفة بسبب ذلك الدين الحنيف الذى طهر نفوسهم وقلوبهم ، وأنشأهم إنشاء جديدا على الهدى والإيمان ، وصبغهم صبغة نورية قدسية جعلتهم ينأون عن هذه الزخارف الباطلة ، والاهتمامات الهابطة ، لقد صهرهم الإخاء الذى أشاعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهم فى بوتقة التفانى فى الله والاقبال عليه والحب له ، فأصبح كل منهم يؤثر أخاه ابتغاء رضوان الله ، ويضحى بكل ما يملك فى سبيل الله طمعا فى ثواب الله ورغبة فى جنة عرضها السموات

والأرض أعدت للمتقين . . . ولقد زكى الله المهاجرين والأنصار- زكى المهاجرين لقناعتهم وزهدهم ونأيهم بجانبهم عن العروض التى قدمها لهم إخوانهم الأنصار ، وزكى الأنصار لإيثارهم الكريم ، وأريحيتهم النادرة ، وحسن استقبالهم لإخوانهم المهاجرين ، وإفساحهم لهم قلوبهم ودورهم والإلحاح الصادق فى تقديم كل عون لهم ، وقد قال القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ (٢١)

وكل من سار على دربهم له نصيب من ذلك الإطراء الطيب والثناء الجميل من رب العزة قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ (٢٢)

---

(٢١) الحشر ٨ ، ٩

(٢٢) الحشر ١٠

لقد جاءت هذه الآيات الكريمة وسام شرف لهذه الفئات الثلاث من المسلمين ، فئة المهاجرين الذين باعوا دنياهم بآخرتهم ، وخرجوا من ديارهم وضحوا بأموالهم حفاظا على دينهم وفرارا به من قبضة الكفر والوثنية .

وفئة الأنصار الذين مدُّوا أيديهم إلى هذا الدين وسماحته ، وأحسنوا استقبال هؤلاء المهاجرين فى مدينتهم .

وفئة المؤمنين الذين جاءوا بعد هؤلاء يسيرون على منهجهم ويحرصون على التمسك بآدابهم وأخلاقهم فى إيثار الدين على الدنيا ، وفى حب الصالحين وإكرامهم .

ذكر ابن كثير فى تفسيره ، قال : روى الإمام أحمد فى مسنده حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلا فى كثير ، لقد كفونا المئونة وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم .

أمثلة نادرة من الإيثار

وقصص الإيثار كثيرة منها ، ما رواه أبو هريرة قال : قالت الأنصار للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا

وقال المهاجرون : نكفيكم المئونة ونشرككم فى الثمرة ؟

فلما أبى النبى - صلى الله عليه وسلم - قالت الأنصار : سمعنا وأطعنا .

وحدث عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن أنس قال : كنا جلوسا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة .

فطلع رجل من الأنصار تقطر لحيته من وضوئه ، قد حمل نعليه بيده الشمال .

فلما كان الغد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى .

فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثل مقالته أيضا ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى .

فلما قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمر فقال له : إنى لا حَيْتُ - أى نازعت - أبى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت .

قال : نعم

قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه كان إذا تقلب أو استيقظ - على فراشه ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر .

قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيرا .

فلما مضت الثلاث ليال ،وكدت أحتقر عمله قلت : يا عبد الله ، لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر ، ولكنى سمعت رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - يقول عنك ثلاث مرات : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلعت أنت فى المرات الثلاث ، فأردت أن آوى اليك لأنظر ما عملك فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟

قال : ما هو إلا ما رأيت .

فلما وليت دعانى فقال : ما هو الا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه .

قال عبد الله : هذه التى بلغت بك ، وهى التى لاتطاق[٢٣]

إن نظافة القلوب من الحقد والأثرة والموجدة هى سمة الأنصار التى امتدحهم الله من أجلها . . .

وقد ظهر ذلك واضحا فى تلك القصة التى حكاها عبد الله بن عمر رضى الله عنه .

وامتدحوا كذلك من أجل إيثارهم إخوانهم على أنفسهم . قال القرطبى : كان المهاجرون فى دور الأنصار ، فلما غنم - عليه الصلاة والسلام - أموال بنى النضير دعا الأنصار وشكرهم على ما صنعوا مع المهاجرين فى إنزالهم إياهم فى منازلهم ، وإشراكهم فى أموالهم ، ثم قال : إن أحببتم قسمت ما أفاء الله به علىّ من بنى النضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم ، وان أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم .

---

(٢٣) تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٩٥

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : بل تعطيه المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا ، ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار .

وأعطى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا ثلاثة نفر[٢٤]

لقد كان إيثارهم مثلا أعلى وقمة شماء يندر الوصول اليها .... حدث الرواة عن سعد بن الربيع ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد آخى بينه وبين عبد الرحمن بن عوف ـ أنه قال لعبد الرحمن : ناصفنى مالى ومنزلى أقسمه بينى وبينك فرفض عبد الرحمن بن عوف ذلك وقال له : بارك الله لك فى مالك وأهلك ، دلنى على السوق[٢٥]

فدله سعد عليه ، فباع عبد الرحمن واشترى واكتسب حتى أصبح من أكبر أثرياء المسلمين .

وكان سعد صادقا فى عرضه ، لم يقل ما قاله مجاملة لعبد الرحمن ، ولكنه كان صورة نموذجية للبر والإيثار والإخلاص . وقد ظهر صدقه وإخلاصه فى موقعة أحد ، فقد قاتل قتالا مجيدا حتى أصيب بجراحات عدة ، وأخذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل عنه ويحاول أن يتعرف أخباره وقال : من يأتينى بخبر سعد بن الربيع ؟

وما ذلك الا لحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ له وحرصه على سلامته .

---

(٢٤) تفسير القرطبى حـ ٩ صـ ٦٥٠٢ ط دار الشعب ـ تفسير سورة الحشر
(٢٥) أسد الغابة حـ ٢ صـ ٣٤٨

فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فذهب يطوف فى القتلى بحثا عن سعد .

وكان سعد مثقلا بجراحاته ، ولم يعرفه الرجل ، ولكن سعدا عرفه فناداه وقال له : ما شأنك ؟

فقال الرجل ـ بعد أن عرفه ـ : بعثنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأعرف ما حدث لك : فقال له : اذهب فأقرئه منى السلام ، وأخبره أنى قد طعنت اثنتى عشرة طعنة . . . وأخبر قومك أنهم لا عذر لهم عند الله إن قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحد منهم حى .

وكان هذا الرجل الذى ذهب ليعرف خبر سعد هو أُبَىّ بن كعب . . . . . وقيل إن سعدا قال له : قل لقومك : يقول لكم سعد بن الربيع : الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة العقبة ، فوالله ما لكم عذر عند الله إن خلص إلى نبيكم أحد من الأعداء وفيكم عين تطرف .

قال أُبَىّ : فلم أبرح حتى مات ، فرجعت إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته ، فقال : رحمه الله ، نصح لله ولرسوله حيا وميتا(٢٦)

فهذا الخبر يشهد بصدقه وإخلاصه ، ويدل على أنه آثر رضوان الله على الدنيا بما فيها وآثر حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حياة الأنصار جميعهم ، وهذا منتهى الصدق والإيثار .

ومن القصص التى يذكرها القرطبى فى تفسيره ما رواه الترمذى عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : إنى مجهود وجائع ،

---

(٢٦) المرجع السابق

فأرسل - ﷺ - إلى بعض نسائه ، فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء .

ثم أرسل إلى الأخرى فقالت مثل ذلك ، حتى قلن كلهن مثل ذلك : لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء .

فقال : من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله ؟

فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فانطلق به إلى بيته ، فقال لامرأته : هل عندك شيء ؟

قالت : لا إلا قوت صبيانى .

قال : فعلليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وأريه أنا نأكل ، قال : فقعدوا وأكل الضيف . .

فلما أصبح غدا الرجل على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له النبى - عليه الصلاة والسلام : قد عجب الله - عز وجل - من صنيعكما بضيفكما الليلة - .

وفى هذا نزلت الآية الكريمة :

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »

وقيل إن هذه الآية نزلت فى أبى طلحة ، وقيل فى ثابت بن قيس ورجل من الأنصار نزل به ثابت يقال له أبو المتوكل ، ولم يكن عنده شيء إلا قوته وقوت صبيانه ، فآثر به ضيفه .

---

(٢٧) الأنفال ٧٥

وروى أن رجلا من الأنصار أهدى إليه رأس شاة ، فقال : إن أخى فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعثه إليهم ورأى الآخر أن غيره أحوج إليه منه فأرسله إليه . . . فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ثم عاد إلى الأول .

وقال الزهرى راويا عن أنس : لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شىء ، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار ، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام . . .

لقد كان الإيثار سمة أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جميعا ، لم يكن أحد منهم يضن بشىء أو يمسك شيئا ، وكانت الدنيا لاتطغيهم أو تخطف أبصارهم كما حدث فيما بعد . .

ذكروا أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بعد أن فتحت الممالك وكثرت الأموال ، أخذ أربعمائة دينار فجعلها فى صرة ، ثم قال لغلامه : اذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح ، ثم امكث ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها ، فذهب بها الغلام إليه فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك .

فقال أبو عبيدة : وصله الله ورحمه ، ثم استدعى جاريته فقال لها : اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى نفدت الدنانير . . .

فرجع الغلام إلى عمر ، فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، وقال : اذهب بهذا الى معاذ بن جبل وانتظر معه ساعة فى البيت حتى تنظر

ماذا يصنع ، فذهب بها إليه ، فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه فى بعض حاجتك .

فقال : رحمه الله ووصله ، واستدعى جاريته وقال لها : اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، وبيت فلان بكذا . فاطلعت امرأة معاذ فقالت : ونحن والله مساكين فأعطنا . ولم يبق فى الصرة إلا ديناران ، فأعطاهما إياها .

فرجع الغلام إلى عمر ، فأخبره بذلك فسر عمر ، وقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض . . . .

على مثل هذا الإيثار الحميد عامل الأنصار إخوانهم المهاجرين ، بل وصل الأمر إلى حد أنهم كانوا يفدونهم بأنفسهم وأرواحهم . . وأى إيثار أبلغ من ذلك ؟

كانت المؤاخاة التى عقدها النبى - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار هى الأساس المتين الذى أرسى عليه النبى قواعد المجتمع الاسلامى الجديد فى يثرب ، التى تغير اسمها بعد الهجرة ، فأصبحت المدينة المنورة . .

التوارث بالاخوة

ولقد بلغت هذه الإخوة حدها الأوفى ، حتى لقد كان الأخوان يتوارثان بناء على تلك الأخوة ، وظل هذا المبدأ معمولا به حتى نزل قوله - تعالى :

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ

إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ ﴾ (٢٨)

كان المسلمون يتوارثون فيما بينهم - قبل نزول هذه الآيات - بقانون الإخاء والهجرة .

لقد نسخت هاتان الآيتان التوارث الذى كان بين المسلمين بحكم الإخاء الذى انعقد بينهم . وذلك بعد أن توطد الدين ، وذهبت الوحشة التى كانت فى النفوس بسبب ترك المهاجرين أرضهم وديارهم .

روى هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير فى قوله - تعالى - :

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض »

قال : وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد وآخيت أنا كعب بن مالك ،

فجئت فوجدت السلاح قد أثقله ، فوالله لئن مات عن الدنيا ما ورثه غيرى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى مواريثنا .

هكذا ورد الخبر فى القرطبى . ولكن ابن الأثير فى أسد الغابة وابن هشام ، ذكرا أن كعبا آخى النبى - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين طلحة بن عبيد الله . لا بينه وبين الزبير .

والذى يعنينا هنا ما جاء فى شأن الأخوة التى أحلت الميراث فترة من الفترات لأنها حلت محل القرابة والرحم .

---

(٢٨) الأحزاب ٦

لقد ظهرت أهمية هذه القاعدة الوطيدة التى أرسى عليها النبى - صلى الله عليه وسلم - بناء المجتمع فى المدينة . . . ذلك أن أى دولة لايمكن أن تنهض وتقوم الا على أساس من وحدة الأمة وتساندها ، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخى والمحبة المتبادلة ، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخى الحقيقية لايمكن أن تتحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة فى الأمة أو الجماعة فلا يمكن أن تتألف منها دولة .

على أن التآخى أيضا لابد أن يكون مسبوقا بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها ، فالتآخى بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم ، خصوصا إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة تحمل صاحبها على سلوك معين فى الحياة العملية .

ومن أجل ذلك فقد جعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أساس الأخوة التى جمع عليها أفئدة أصحابه العقيدة الاسلامية التى جاءهم بها من عند الله تعالى ، والتى تضع الناس كلهم فى مصاف العبودية الخالصة لله تعالى دون الاعتبار لأى فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح ، إذ ليس من الممكن أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس فرقت بينهم العقائد والأفكار المختلفة ، فأصبح كل منهم مِلْكا لأنانيته وأهوائه . . إن الأساس الذى يفصل بين المجتمع المترابط المتآلف ، وبين جماعة من الناس تنتشر فى مكان واحد ، أو مساحة من الأرض - إنما هو مبدأ التعاون والتناصر فيما بين أفراد هذا المجتمع فى كل نواحى الحياة ومقوماتها ، فان كان هذا التعاون والتناصر قائما على أساس من العدل والمساواة فيما بينهم ، فذلك هو المجتمع

العادل السليم ، وإن كان ذلك قائما على الجور والظلم فذلك هو المجتمع الظالم المنحرف .

وإذا كان المجتمع السليم يقوم على أساس العدالة فى الاستفادة من أسباب الحياة والرزق فما الذى يضمن سلامة هذه العدالة وتطبيقها على خير وجه ؟

إن الضمان الطبيعى لذلك هو التآخى والتآلف ، يليهما بعد ذلك ضمان السلطة والقانون .

فمهما أرادت السلطة أن تحقق مبادىء العدالة بين الأفراد فلن تستطيع تحقيقها إلا إذا قامت على أساس من التآخى والحب والقيم الدينية والأخلاقية السليمة بل إن العدالة فى الاستفادة من أسباب الحياة والثروة والرزق تصبح مصدر أحقاد وضغائن إذا فقدت التآخى والحب . .

ومن أجل ذلك جعل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حقيقة التآخى بين الأنصار والمهاجرين أساسا لمبادىء العدالة الاجتماعية ، التى قام عليها أعظم وأروع نظام اجتماعى فى العالم .

وقد تدرجت مبادىء هذه العدالة فيما بعد فى شكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة ، ولكنها تأسست على تلك الأرضية الأولى ، وهى أرضية الأخوة الاسلامية .

ولم يكن مبدأ التآخى مجرد شعار فى كلمة كانت تجرى على الألسنة وإنما كانت المؤاخاة حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة ، وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين .

ولذلك جعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الإخوة تُؤَدّى على خير وجه . حتى وصلت إلى حد التوارث بناء على تلك الأخوة وظل كذلك حتى نسخ

أما حكمة نسخه فهى أن نظام الميراث الذى استقر أخيرا إنما هو نفسه قائم على أخوة الاسلام بين المتوارثين ، بعد أن انتشر الاسلام ، وساد العربَ جميعا واعتنقه الناس طائعين مختارين ، فمن قواعد الميراث أنه لاتوارث مع اختلاف الدين . .

لقد وضعت الفترة الأولى من الهجرة كلا من الأنصار والمهاجرين أمام مسئولية خاصة من التعاون والتناصر بسبب مفارقة المهاجرين أوطانهم وأهليهم وأموالهم . فكان التآخى ضمانا لتحقيق هذه المسئولية ، وأصبحت علاقته أقوى من علاقة النسب.

فلما استقر أمر المهاجرين فى المدينة وتمكن الاسلام ، وأصبحت الروح الإسلامية هى العصب الطبيعى للمجتمع الجديد أصبح من المناسب انتزاع القالب الذى كان قد صُبَّ فيه نظام العلاقة بين المهاجرين والأنصار إثر التقائهم فى المدينة فى البداية ، إذ لا يخشى على هذا النظام بعد اليوم من التفكك فى ظل الأخوة الإسلامية العامة . .(٢٩)

المدينة الجديدة

سبق القول أن المدينة المنورة كان اسمها يثرب . وقد ورد هذا الاسم كذلك فى قوله ـ تعالى

---

(٢٩) راجع فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى صـ ١٥٦

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ (٣٠)

وسميت يثرب بهذا الاسم لأن الرجل الذى نزل فيها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن مهلائيل بن عملاق ، وقيل : إن نسبه ينتهى إلى سام بن نوح ـ عليه السلام ـ ذكر ذلك السهيل ونقله عنه القرطبى فى تفسيره .

قال : وبنو عميل هم الذين سكنوا الجحفة فأجحفت بهم السيول فيها فمن أجل ذلك سميت الجحفة .

وقد وردت كلمة « يثرب » فى القرآن مرة واحدة فى الآية التى ذكرناها . . . وقال ابن منظور فى لسان العرب : روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه نهى أن يقال للمدينة يثرب ، وسماها طيبة ، كأنه كره الثرب لأنه فساد فى كلام العرب ، وقال ابن الأثير : غير النبى ـ ﷺ ـ اسم يثرب وسماها طيبة وطابة كراهية التثريب وهو اللوم والتعيير .

ولكن المدينة ورد ذكرها فى القرآن الكريم عدة مرات ـ منها قوله ـ تعالى :

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (٣١)

---

(٣٠) الأحزاب ١٣

(٣١) الأحزاب ٦٠

وقوله تعالى

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ
وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٣٢)

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ
ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ
وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ
صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (٣٣)

ووردت الاشارة إليها بكلمة الدار في قوله - تعالى -

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ
فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٣٤)

---

(٣٢) المنافقون ٨
(٣٣) التوبة ١٢٠
(٣٤) الحشر ٩

ذلك لأنهم أصبحوا يطلقون عليها دار الهجرة .

وبانتقال النبى - ﷺ - إلى يثرب تطورت تطورا كبيرا ، وأصبحت نموذجاً للمدينة الإسلامية التى احتذت المدن الاسلامية بعد ذلك حذوها فى الإنشاء والتعمير وحسن التنظيم . .

وشمل التجديد كل شىء فيها حتى اسمها الذى تبدل ، فأصبح طَيْبَة أو طابة أو المدينة المنورة بعد أن كان اسمها يثرب .

فقد حدث فيها تغيير واضح سعى إلى تحقيقه النبى - ﷺ - وأساس هذا التغيير الدعوة الى الاسلام . . . . ذلك الدين الذى بدأت فى ضوء قيمه وتعاليمه عملية تهيئة المجتمع الإسلامى الجديد لحياة حضارية تلازمت تماما مع اهتمامه - ﷺ - بالكيان المادى للمدينة فأدى ذلك تدريجيا إلى تكامل المراكز الحضارية الاسلامية .

وكانت خطة الرسول - كما يقول الدكتور محمد عبدالستار عثمان - واضحة منذ البداية ، فدعا إلى تذويب القبلية بدعوته إلى التآخى فى الإسلام - وقد أشرنا إلى ذلك - وأكد فى الوقت نفسه على رابطة ذوى الأرحام ، وهى تنظيم يجمع عددا من البطون والعشائر فى قبيلة واحدة تحت راية واحدة فى محيط رابطة القرابة ، وفى إطار أوسع . . .

أكد الرسول - ﷺ - على أن رابطة الإسلام العامة هى الأساس بين أبناء المجتمع الإسلامى . . [٣٥]

---

(٣٥) المدينة الاسلامية صـ٥١ د. محمد عبد الستار عالم المعرفة الكويت

وقد أدى ذلك إلى خلق مجتمع واحد متماسك بعيد عن النزعة القبلية التى كانت سائدة قبل ذلك ، وارتبط هذا المجتمع برابطة جديدة هى رابطة الدين القويم .

واتجه النبى - ﷺ - بعد ذلك إلى إلغاء العصبية القبلية وإحلال عصبية الوطن والأرض محلها وذلك بإبراز أهمية الوطن والأرض وتنمية الشعور بالانتهاء لها وإنشاء تسميات جديدة بدل التسمية القبلية التى كانت سائدة ، فأصبحت التسمية الجديدة مثلا : أهل قباء . أهل المدينة ، بدلا من التسمية بالقبائل والبطون والعشائر .

وقد تنبه اليهود لخطورة هذا التطور الجديد الذى سوف يذهب بنفوذهم فى المدينة ، فحاولوا تفتيت هذه الوحدة القوية التى تمت بين المسلمين على اختلاف فئاتهم وقبائلهم .. ولكن جهودهم فى ذلك باءت بالفشل .

وشمل التطور ألوانا من التعمير ، بدأ بانشاء المسجد - الذى سوف نتحدث عنه - والأسواق والمساكن وغيرها .. على نظام جديد لم يكن موجودا قبل ذلك .

فقد كانت المدينة قبل الهجرة عبارة عن سهل فسيح تحيط به الحرات من جهاته الأربع .. والحرات جمع حرة ، وهى أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار ... ويتميز هذا السهل بالخصوبة وكثرة المياه ، وكانت المساكن مقسمة إلى مناطق سكنية منفصلة - محلات - تسكنها البطون والقبائل اليهودية والعربية .

وكل مَحلَّة تضم إلى جانب منازلها وحقولها حصونا منيعة يطلق عليها الآطام بلغ عددها حوالى ستين أُطُماً . ونتج عن ذلك تفرق المحلات السكنية وتشتتها - كما نتج عنها كثرة الأسواق لأن كل محلة لها سوقها ، ولكن السوق كان يقع على طرف المحلة ، ربما كان ذلك لأسباب دفاعية أو اجتماعية ونتج عن ذلك أيضا أن يكون لكل قبيلة فى محلة منتدى خاص بها ، كان يطلق عليه اسم السقيفة ، وفيها يجتمعون لأمورهم الهامة ومصالحهم الضرورية ومشاوراتهم العاجلة ، ومن أمثال ذلك سقيفة بنى ساعدة التى شهدت فيما بعد مبايعة الخليفة الأول أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ولم يكن للمدينة قبل مجىء الرسول إليها رئيس يرجعون اليه جميعا ، بل كان لكل قبيلة رئيس ، فللأوس رئيسهم ، وللخزرج رئيسهم ، وكذلك الأمر بالنسبة لليهود على اختلاف طوائفهم .

فلما هاجر النبى - ﷺ - الى المدينة تغير الوضع . وأصبح هو أمام الجماعة وقائدها الذى يجمع شتاتها ويوحد كيانها ويجعل منها مركزا حضاريا متميزا .

وأصبحت المدينة المنورة مركز الدولة الإسلامية الناشئة التى منها تصدر الأحكام والمراسيم والتشريعات . وهذه الأحكام والتشريعات إما أن ينزل بها القرآن الكريم على النبى - ﷺ - أو تأتى من توجيهات الرسول وهو القائد الأعلى للدولة الناشئة .... جمع له الله بين النبوة والقيادة .

وأصبحت المدينة ذات مركز مرموق تستقبل الوفود وتصدر منها المكاتبات والرسل إلى شتى الجهات فى داخل الجزيرة العربية وخارجها .

وخططت المدينة تخطيطا جديدا بدأ ببناء المسجد الجامع الذى أصبح يتوسطها ، ولم يكن للمدينة عهد به قبل ذلك ، بل لم يكن هناك مسجد آخر فى أى مدينة سوى مكة المكرمة التى شرفها الله بالكعبة منذ عهد ابراهيم عليه السلام . والقدس التى بنى فيها سليمان ـ عليه السلام ـ بيت المقدس .

وألحق النبى ـ ﷺ ـ بالمسجد حجراته التى نزلت فيها زوجاته فيما بعد .

وانتشرت حول المسجد مساكن الصحابة من المهاجرين والأنصار . وتجمعت بذلك أبنية المسلمين بعد أن كانت موزعة مفرقة . . كانت حول المسجد أرض فضاء وهبها الأنصار للنبى ـ ﷺ ـ ، فوهبها بدوره للمهاجرين يبنون عليها دورهم .

وكانت هناك أرض موات لا يصل إليها الماء شغلها النبى ﷺ بالبنايات السكنية الجديدة ، حتى أصبحت المدينة بناء معماريا واحدا بعد أن كانت أبنية متفرقة .

وكان النبى ـ ﷺ ـ مسئولا عن توزيع الأرض وتوطين الناس ، . . . قال ياقوت الحموى ـ فيما ينقله صاحب كتاب المدينة الاسلامية ـ : « لما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ من مكة إلى المدينة مهاجرا أقطع الناس الدور والرباع ، فخط لبنى زهرة من ناحية مؤخرة المسجد ، وجعل لعبدالرحمن بن عوف الحصن المعروف به ، وجعل لعبدالله وعتبة ابنى مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهما عند المسجد ، وأقطع الزبير بن العوام بقيعا واسعا ، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع دوره ، ولأبى بكر رضى الله عنه ـ موضع داره

عند المسجد ، وأقطع كلا من عثمان بن عفان والمقداد وعبيد الله ، والطفيل وغيرهم موضع دورهم ، وكان كل عمل يقوم به الرسول - ﷺ - نابعا فى الأساس من روح الإخاء والتآلف التى سادت بين الأنصار والمهاجرين وكانت الأرض التى أقطعها للمهاجرين لبناء دورهم من الأرض الفضاء التى لا تدخل تحت ملكية أحد فى الغالب، وما كان منها من الخطط المملوكة فإن الأنصار وهبوه إياه »(٣٦)

وعلى الرغم من أن قرابة الدين كانت هى أقوى القرابات ، إلا أن قرابة الرحم لم تُغفل . فمتى اجتمعت صلة الرحم مع صلة الدين كان ذلك أقوى للرابطة وأوثق للعلاقة وأدوم للمحبة وأقرب للتعاون ،

ولذلك فقد كانت دور ذوى الرحم متقاربة ، وقد راعى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى توزيع الخطط الهدف الأساسى وهو تجميع كل قبيلة فى خطة خاصة بها ثم ترك حرية تقسيم الخطة للقبيلة حسب ظروفها وامكاناتها . كما اختلفت المساحات الموزعة بين المسلمين ، فلم تكن كلها فى حجم واحد ، وقد أعطى الزبير - كما أعطى غيره أيضا - أرضا فى موات البقيع ، فكانت أسماء - رضى الله عنها - وهى زوجة الزبير - تقول : كنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه إياها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رأسى وهى منى على ثلثى فرسخ .

وكان مسجد النبى - صلى الله عليه وسلم - هو المسجد الجامع ، ومع ذلك فقد كانت هناك مساجد أخرى فى مختلف البقاع . كما كانت هناك

---

(٣٦) المدينة الاسلامية صـ ٥٤

أرض فضاء مخصصة لصلاة العيدين ، أطلق عليها مصلى العيد . . .

وتوحدت السوق فى ظل الاسلام ، فبعد أن كان لكل محلة سوقها قبل الهجرة أنشأ النبى - صلى الله عليه وسلم - للمدينة سوقا واحدة ، وأراد النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يجعلها أولا فى الأرض التى أقطعها الزبير فى البقيع ، ولكن اليهود اعترضوا ، فنقلها الى موضع آخر .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يتعهد السوق من حين لآخر ، فقد روى زامل بن عمرو عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ خرج الى صلاة العيد وعن يمينه أبى بن كعب وعن يساره عمر - أو قال ابن عمر - فلما فرغ مر بدار أبى كبير واللحامون بفنائها - أى بائعو اللحم - فقال : بيعوا كيف شئتم ولاتخلطوا ميتة بمذبوحة ، ولاتحتكروا ، ولاتناجشوا(٣٧) ولاتغشوا السلع ، ولايبع حاضر لباد ، ولايبع الرجل على بيع أخيه ، ولايخطب على خطبة أخيه ، ولاتسأل المرأة طلاق أختها لتكفىء اناءها .(٣٨)

ومراقبة الأسواق تنظيم حضارى تدعو اليه الضرورة وتنادى به حاجة الجماهير التى تتطلع الى من ينقذها من غش التجار ومغالاتهم .

والى المسجد امتدت طرق وشوارع من مختلف الجهات والتكوينات المعمارية . .

---

(٣٧) التناجش : مدح السلعة لترويجها ، أو يزيد أحد ثمنها وهو لايريد شراءها ليقع فيها غيره

(٣٨) النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مرآة أصحابه لعبد الحفيظ فرغلى صـ ٢٣٤ والمقصود من قوله : تكفىء إناءها : من كفأت القدر كناية عن إمالة الضرة حق صاحبتها من زوجها لنفسها إذا سألت طلاقها

ذكرت المصادر التاريخية : ان هناك طريقا كان يمتد من المسجد ويتجه غربا حتى يصل الى جبل سلع ، وكان هناك طريق آخر يمتد جنوبا الى قباء ، وطريق آخر يمتد شمالا من قباء الى البقيع . لقد روعى أن يكون المسجد فى مكان يسهل الوصول اليه من مختلف الجهات ، بواسطة الطرق والشوارع المتعددة ، وقد اتجهت المدن التى بنيت بعد ذلك فى الاسلام هذا الاتجاه . . . وتعدد الطرق المؤدية الى المسجد مهدت السبيل أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - ليذهب الى المصلى فى العيد من طريق ويعود من آخر ، وأصبح ذلك سنة يتأسى بها المسلمون فيما بعد .

وكان على أطراف المدينة معسكرات أقيمت للدفاع والتدريب فى الوقت نفسه . ومن هذه المعسكرات معسكر الجرف على بعد ثلاثة أميال شمال المدينة ، وهو المعسكر الذى كان فيه أسامة حين خرج بسريته الى ملاقاة الروم ، وقد جهزه النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مرضه الأخير ، وأنفذه أبو بكر - رضى الله عنه - بعده .

ولم يغفل النبى - صلى الله عليه وسلم - مراكز العلاج التى تقوم بدور حيوى بالنسبة للمرضى والجرحى . وقد أسست هذه المراكز بعد العودة من الخندق ، وكان مركز العلاج الأول فى المسجد ، وكان نواة شجعت المسلمين فيما بعد على تطوير هذه الخدمة وتنظيمها حتى تؤدى دورها كاملا .

وكان لدور الضيافة مكان ملحوظ ، فقد بدأت بمكان أعده النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مسجده يأوى اليه أهل الصفة .

ومن دور الضيافة التى أنشئت دار تسمى دار الضيفان أو دار الأضياف ، وكانت فى دار عبد الرحمن بن عوف .

وكانت هناك دار ضيافة أخرى فى بيت رملة بنت الحارث الأنصارية نزل بها وفود غسان وبنى ثعلبة وعبد القيس وفزارة وحنيفة .

وفى هذه الدار حَبَس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجال بنى قريظة قبل أن ينفذ فيهم الحكم الذى حكم به الرجل الذى اختاروه هم بأنفسهم ـ وذلك جزاء خيانتهم وغدرهم .. ويفهم من هذا جواز اتخاذ مكان يحبس فيه المذنبون .

أما نظافة المدينة فكانت محل اعتبار ، إذ حددت أماكن لقضاء الحاجة أطلق عليها اسم : المناصع . بالاضافة الى بيوت الخلاء الملحقة بالبيوت ، ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى النظافة باعتبارها من أسس الايمان وهى شرط فى أداء فريضة الصلاة .

والدعوة الى إماطة الأذى من الطريق ضرورة ألزم بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين واعتبرها من شعب الايمان ..

هذه صورة موجزة للمدينة المنورة التى أشرق فيها نور الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبدل حالها ، ورفع شأنها ، وأعلى مكانتها ، وجعلها حرما آمنا تضاهى فى ذلك أختها العزيزة مكة المكرمة ..

وقد أشارت الى تحريم المدينة بعض الآثار منها ماورد عن أبى هريرة ـ رضى

الله عنه - قال : حرم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مابين لابتى المدينة(٣٩)

قال أبو هريرة : فلو وجدت الظباء ترتع بين لابتيها ماذعرتها . وجعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حمى .(٤٠)

وقد أوضح الأمام مالك مساحة حرم المدينة حولها فقال : روى جابر أن النبى - صلى الله عليه وسلم - حرم المدينة بريدا من نواحيها .

والبريد مسافة طولها ستة عشر فرسخا ، والفرسخ ثلاثة أميال والميل أربعة آلاف ذراع .

وكما جاء فى مكة أن شجرها لايعضد ولايخبط فكذلك الشأن فى المدينة . وللمدينة أسماء أشرنا الى بعضها . ومنها طيبة بسكون الياء وبتشديدها مع كسرها ، وطابة والمطيبة والمحبية . .

لقد أحب النبى - صلى الله عليه وسلم - المدينة حبا شديدا وكان حين خرج من مكة حزينا على فراقها لأنها وطنه وفيها بيت الله الحرام . وقال فى ذلك . لولا أن أهلك قد أخرجونى منك ماخرجت . ولكنه طلب من الله أن يحبب اليه المدينة فاستجاب الله دعاءه . فأحبها حبا شديدا . وأحب أهلها الذين آووه ونصروه . .

---

(٣٩) لابتى : مثنى لابة وهى أرض ذات حجارة سوداء ، والمدينة بين لابتين شرقية وغربية

(٤٠) أخرجه مسلم فى باب الحج - الحديث رقم ١٠٠٠ - وفى كتاب إعلام الساجد بأحكام المساجد صـ ٢٢٦

وورد فى فضل المدينة قوله - صلى الله عليه وسلم - إن الايمان ليأزر الى المدينة كما تأزر الحية الى جحرها .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : لاتقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها . وقيل : ان ذلك حدث فى حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - .

النبى يتألف قلوب من لم يؤمن من أهل المدينة

ظل النبى - صلى الله عليه وسلم - فى دار أبى أيوب الأنصارى أياما قبل أن يبنى المسجد ويبنى به دوره

وكان فى خلال هذه الأيام لايكف عن الدعوة الى الله ، يلقى الناس فى دار أبى أيوب أو يزورهم فى منازلهم . وعلى الرغم من انتشار الاسلام فى المدينة فقد بقى قوم لم يسلموا . منهم عبد الله بن أبى بن سلول وكان زعيم الخزرج . . وقد أراد النبى ﷺ أن يدعوه إلى الإسلام بعد أن قال له بعض المسلمين : يارسول الله لو أتيت عبد الله بن أبىّ متألفا له ليكون ذلك سببا لإسلام من تخلف من قومه ؟

فانطلق النبى - صلى الله عليه وسلم - وركب حمارا ، والمسلمون يمشون معه . فلما أتاه النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : اليك عنى ، وقال كلاما يتأذى منه رسول الله - ﷺ - . . فبرز رجل من الأنصار ورد على ابن أبىّ بن سلول دفاعا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فغضب لعبد الله بن أبى بن سلول رجل من قومه ، ثم غضب لكل واحد منهما أصحابه

وتشابك القوم فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدى وكان بعض رجال من المسلمين من قوم ابن أبى قد انحازوا له عصبية فنزل قوله تعالى :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٤١)

وقد أورد هذه الرواية البخارى ، وأورد أيضا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - مر على ابن أبىّ بن سلول وهو فى جماعة فقال ابن أبىّ بن سلول : لقد عثا ابن أبى كبشة فى هذه البلاد - يقصد رسول الله ﷺ فسمعها ابن عبدالله بن أبىّ - وكان مؤمنا صادق الإيمان ، فاستأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيه برأسه . فقال له : - صلى الله عليه وسلم - لا ، ولكن بر أباك .

وكان عبد الله بن أبى بن سلول جميل الصورة حسن المنطق وهو المعنى بقوله - تعالى -

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٤٢)

---

(٤١) الحجرات ٩ ، ١٠
(٤٢) المنافقون ٤

والذى حدا بعبد الله بن أبى أن يتخذ هذا الموقف العدائى عن الاسلام أن قومه كانوا قد أوشكوا أن يتوجوه ملكا عليهم . ثم عدلوا عن ذلك حين انتشر الاسلام بينهم .

أورد الزهرى عن عروة بن أسامة بن زيد ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ركب حمارا على إكاف ، وأردف أسامة وراءه وانطلق لزيارة سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج وكان مريضا وذلك قبل وقعة بدر ، فمر رسول الله بمجلس فيه عبد الله بن أبىّ بن سلول فاذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود ، وفى المسلمين عبد الله بن رواحة ، فثار غبار من مشى الحمار فغضب ابن أبى وقال : لاتغبروا علينا فى مجالسنا . فسلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم ، ثم نزل ودعاهم الى الله وقرأ عليهم القرآن . فقال ابن أبى : أيها الرجل : إنا لانرضى بماتقول فلاتؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع الى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه .

فقال عبد الله بن رواحة : بلى يارسول الله اقصص علينا فإنا نحب ذلك .

واشتد الكلام بين المسلمين والمشركين واليهود حتى كادوا يتبادرون .

فلم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهم حتى سكنوا . ثم ركب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياسعد ، ألم تسمع ماقال ابن أبى ـ قال : كذا وكذا .

فقال سعد بن عبادة : يارسول الله ، اعف عنه واصفح ، فوالله الذى

أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذى أنزل عليك فى الوقت الذى كان الناس من قومه قد اصطلحوا على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ويصبح ملكا فلما رُدَّ بالحق الذى أعطاك الله شرق ، فذلك الذى فعل به مارأيت . فعفا عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٤٣)

ولكن انظر الى إيمان ابنه ـ رضى الله عنه ـ الذى هم بأن يقتل أباه حبا فى دين الله ودفاعا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهكذا الايمان حين تخالط بشاشته القلوب تهون بجانبه كل علاقة ماعدا علاقة القرب من الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ



(٤٣) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٢٥٠

« المسجد النبوى الشريف »

بناء المسجد

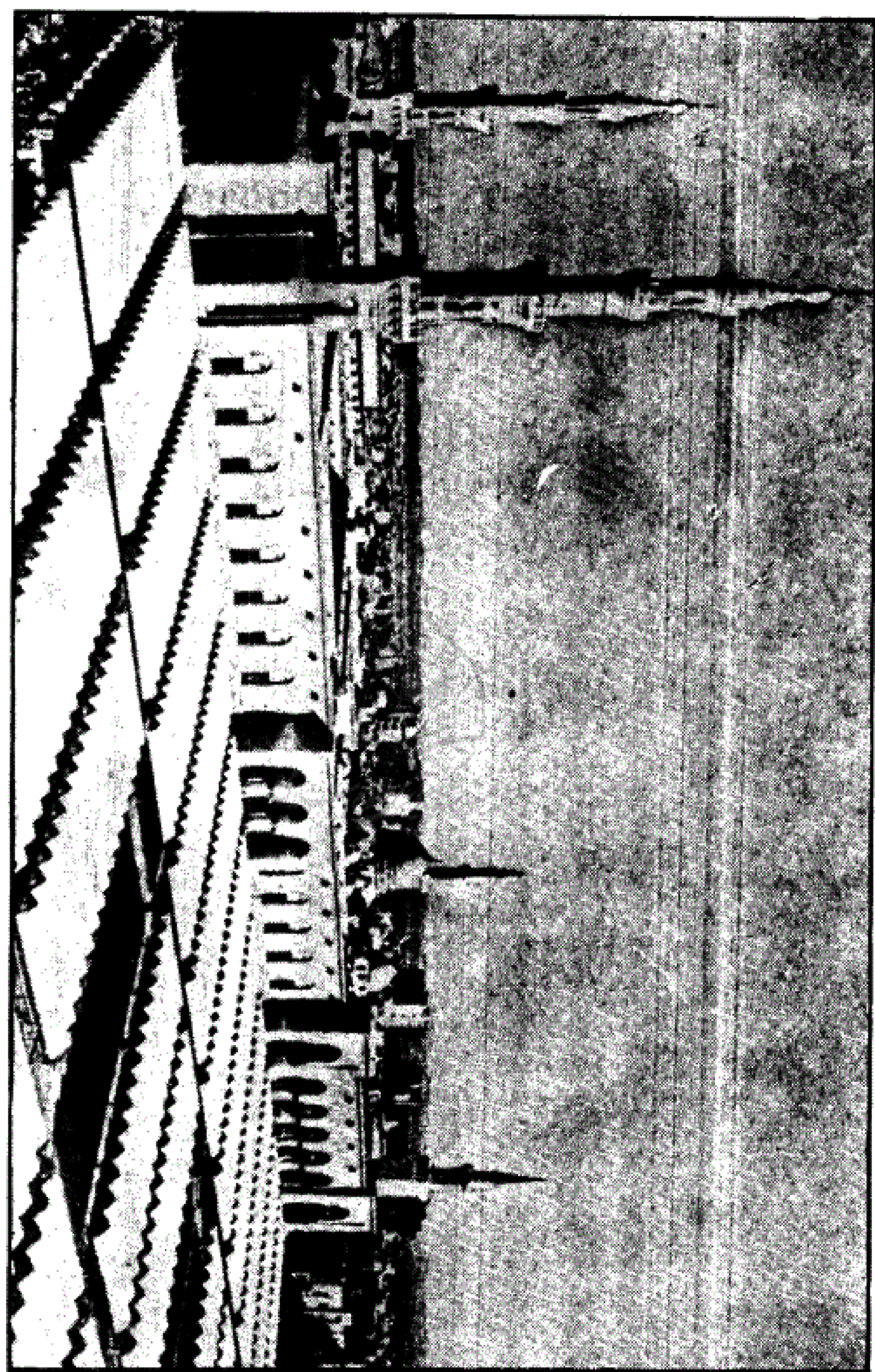
أول مسجد أسس فى الاسلام هو مسجد قباء ، ويليه مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المدينة ..

ولنبدأ بالحديث عن مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

مكان المسجد :

بنى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المكان الذى بركت فيه ناقته ، وكان هذا المكان يستخدمه أبو أمامة أسعد بن زرارة رضى الله عنه ـ لتجفيف التمر .

وفى هذا المكان كان مبرك الناقة أمام منزل أبى أيوب الأنصارى . وكان مبركها بإلهام من الله لها ، بعد أن قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : خلوا زمامها فانها مأمورة ..





سأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسعد بن زرارة أن يبيعه هذا المكان ، فقال له : إنه ليتيمين هما سهل وسهيل وهما ابنا عمرو الأنصارى من بنى النجار

وكان هذان اليتيمان فى حجر أسعد بن زرارة . .

وعرض أبو أيوب الأنصارى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يشترى هو تلك الأرض ويدفع لليتيمين قيمتها ، ثم يهبها لرسول الله ـ فأبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصر على أن يدفع هو الثمن . فاشتراها بعشرة دنانير وقيل : إن سهلا وسهيلا أصحاب الأرض ذهبا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالا له : نهب لك المكان يارسول الله

فأبى أن يقبله منهما هبة ، فرضيا أن يبتاعه منهما بعشرة دنانير ، فأمر أبا بكر أن يعطيهما ما طلبا .

وهذا يفيد أنهما كانا قد شبا وبلغا حد التصرف بدون وصى ـ فيكون وصفهما باليتم باعتبار ماكان .

العمل فى تشييد المسجد

وأمر النبى ـ ﷺ ـ بتطهير المكان مما كان فيه ، فقد كانت فيه أشجار ونخيل . . فقطعت الأشجار ، وسويت الأرض وسُيِّرت المياه ثم بدأت مرحلة البناء . .

وكان النبى ﷺ يعمل مع أصحابه بيده وقد تواترت الأخبار بذلك . وهذا يبين فضل هذا المسجد النبوى الكريم . فقد جاء أنه ـ صلى الله عليه

وسلم ـ كان ينقل الطوب ويحمل الحجارة وكان يتمثل بقول القبائل :

هــذا الحِمــال لا حمــال خيبر   هــذا أبــرُ ربَّنــا وأطــهر

يقصد أن هذا المحمول من الحجر أبر وأطهر ياربنا مما يحمل من خيبر من التمر وليس هناك ما يمنع من أن يتمثل الرسول بالشعر فى المواقف المختلفة لأن المنفى عن الرسول هو القصد إلى الشعر وتعلمه ، وهذا هو الذى نفاه القرآن عنه ـ قال تعالى

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ (٤٤)

أما التمثل به فلم يُنف عنه ، وقد روى أنه كان يتمثل يوم قتلى بدر بقول الشاعر :

نفــلق هــاما من رجــال أعزة   عــلينا وهــم كانــوا أعــق وألامــا

جاء فى الكشاف : وقد صح أن الأنبياء معصومون من الشعر ، ولكن لا دليل على منعهم من التمثل به . .

ولكن الراجح أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حين يتمثل بالشعر لا يقيمه وزنا . فقد تمثل بقول الشاعر :

« كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا »

على هذا الوجه :

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

---

(٤٤) يس ٦٩

وكان النبى ﷺ يعجبه الشعر الجيد ويستنشد أصحابه ـ وكان يحث حسان بن ثابت على قول الشعر دفاعا عن الإسلام وردًا على الكفار .

وكان يستنشد الخنساء ويقول لها : هيه ياخناس . .

قال ابن هشام : عمل رسول الله ـ ﷺ ـ فى المسجد بيده ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، وقال قائلهم

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكانوا يرددون قول الرسول ـ ﷺ ـ اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

قال ابن هشام : هذا كلام ، وليس برجز :

عمار يجتهد فى بناء المسجد

واجتهد المسلموم جيعا فى بناء المسجد ، وكان أشدهم اجتهادا عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ كانوا يثقلونه بالطوب اللبن يحمله على ظهره ـ فقال : يارسول الله أتعبونى يحملوننى مالا يحملون .

قالت أم مسلمة ـ وكانت من السابقات إلى الهجرة ولم تكن قد تزوجت النبى ـ ﷺ ـ بعد . . رأيت النبى ـ ﷺ ـ ينفض شعر رأس عمار بيده ، وكان رجلا جعِدا . . . . . ومسح النبى ـ ﷺ ـ ظهره وقال : ياعمار للناس أجرولك أجران . . . .

وكان على بن أبى طالب يرتجزُ فى أثناء بناء المسجد النبوى الشريف ويقول :

لا يستوى من يعمر المساجدا ٭ يدأب فيه قائماً وقاعدا

ومن يُرى عن الغبار حائدا

ويقال عن عمار بن ياسر : إنه أول من بنى المساجد ، ذلك أنه هو الذى أشار على النبى ـ ﷺ ـ أن يبنى مسجد قباء ، وجمع الحجارة له ، فلما أسسه النبى ﷺ أتم بنيانه عمار . .

تطور البناء

كانت مساحة المسجد الذى بناه النبى ـ ﷺ ـ سبعين ذراعا فى ستين ذراعا ، وبنيت جدرانه باللبن ، وسُقف جزء منه بسعف النخل والطين ، وترك الجزء الآخر مكشوفا ، وكان له ثلاثة أبواب هى : باب جبريل وباب النساء وباب الرحمة ، ومازالت هذه الأبواب تعرف باسمها حتى اليوم .

وكانت قبلته من اللِّبن ، ويقال : من حجارة منضودة بعضها على بعض . أما أعمدته فمن جذوع النخل .

وبنيت الحجرات التى اتخذها الرسول ـ ﷺ ـ سكنا له مع المسجد ومعنى ذلك أن المبنى ـ كما يقول الاستاذ صالح لمعى مصطفى ـ أقيم كمسجد ومنزل فى آن واحد .

ذلك أن حجرات الرسول ـ ﷺ ـ ألحقت بالمسجد ، وكان ذلك أرفق به وبالمسلمين . وقد كانت الوفود تفد إليه من كافة الأنحاء فيجدونه فى المسجد وينزلون أحيانا فى المسجد وإن كانت هناك دور ضيافة أخرى أشرنا إليها فيما سبق إلا أن استقبالاته ﷺ لهذه الوفود كانت تتم فى المسجد الذى تقام فيه الشعائر ، وكان لابد أن تكون حجراته التى يقيم فيها قريبة أيضا من المسجد ليستطيع تلبية حاجة المسلمين فى كل وقت دون مشقة .

إن الدين الإسلامى قد شمل بتعاليمه كل أنماط الحياة . . . شمل الشئون الدينية والصحية والاقتصادية وكافة الأمور المعيشية ، فلا عجب أن يكون المبنى الذى أقامه الرسول ـ ﷺ ـ قد أدى كل هذه الوظائف ، إنه حقا مجتمع بسيط متواضع يمثل حقيقة الحياة المتواضعة التى عاشها المسلمون الأوائل . .

هل ورد ذكر للمسجد النبوى فى القرآن ؟

يقول البعض : إن المسجد النبوى لم يرد ذكره فى القرآن الكريم كما ورد ذكر البيت الحرام ومسجد قباء والمسجد الأقصى .

وليس فى ذلك ما يغض من شأن المسجد النبوى . بل إن هناك من يقول إن قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ (٤٥)

يقصد به المسجد النبوى كما يقصد به مسجد قباء

وقد ذكر القرطبى فى تفسيره عن أبى سعيد الخدرى قال : تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم ، فقال رجل : هو مسجد قباء ، وقال آخر : هو مسجد النبى ـ ﷺ ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : هو مسجدى هذا .

وإذا كان المشهور عند العلماء أن الآية نزلت فى مسجد قباء فإن ذلك لا يمنع انطباقها أيضاً على مسجد النبى ـ ﷺ ـ فهو قد أسس على التقوى قطعا من أول يوم كذلك .

وقد ورد فى فضل هذا المسجد آثار نبوية شريفة منها : « صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام » . . (٤٧)

فترة إنشاء المسجد ، ووصفه

يقدر المؤرخون المدة التى أقيم فيها المسجد بسبعة أشهر ، كان النبىُّ

---

(٤٥) المدينة المنورة ، تطورها العمرانى وتراثها المعمارى صـ٥٣

(٤٦) التوبة ١٠٨

(٤٧) رواه مسلم

ـ ﷺ ـ وسلم يقيم فى أثنائها فى بيت أبى أيوب الأنصارى المواجه للمسجد النبوى الشريف . . . وذلك من شهر ربيع الأول حتى شوال ، ويوافق شوال هذا ابريل سنة ٦٢٣م

أما مساحته فيقدرها المؤرخون بأنها مستطيل . عرضه ستون ذراعا أى حوالى ثلاثين مترا ، وطوله من الشمال الى الجنوب سبعون ذراعا أى حوالى خمسة وثلاثين مترا .

ولم تكن حوائط المسجد متعامدة على بعضها تماما وقد تم تأسيس المسجد على الحجر بعمق ثلاثة أذرع تعلوه الحوائط اللبنية وكان عرض الجدار ذراعى ونصف ذراع .

ولما اشتد الحر ظلل المسجد ، فعملت له سوارى من جذوع النخيل ثم وضعت عليها جسور خشبية غطيت بالجريد والخوص ، ثم غطى هذا السطح بالطين بعد ذلك حتى لا تتسرب مياه المطر فوق المصلين

وكانت قبلة المسجد إلى جهة بيت المقدس ، وكانت به من جهته القبلية ثلاثة أروقة ، بكل رواق ستة أعمدة من جذوع النخل .

وكانت بمؤخرة المسجد من الجهة الجنوبية صُفَّة هى عبارة عن ظلة يأوى إليها المهاجرون الذين لا دار لهم ولا مأوى والذين يطلق عليهم أهل الصفة .

وكان ارتفاع سقف المسجد ثلاثة أذرع ونصف ، وعمل باب فى مؤخرة المسجد وباب فى الحائط الغربى يسمى باب الرحمة

وكان فى البداية يعرف بباب السوق ، لأنه يؤدى إلى السوق غرب المدينة ـ ثم عدل عن هذه التسمية إلى باب الرحمة . . .

وسبب هذه التسمية الأخيرة ـ كما جاء فى صحيح البخارى ـ أن رجلا دخل المسجد طالبا من الرسول ـ ﷺ ـ الدعاء بإرسال المطر ، فدعا الرسول

ـ ﷺ ـ فأمطرت السماء سبعة أيام ، ثم دخل الرجل فى الجمعة الثانية طالبا الدعاء برفع المطر خشية الغرق ، فدعا النبى ـ ﷺ ـ قائلا اللهم حوالينا ولا علينا ، فانقشعت السحب واعتبر هذا رحمة بالعباد ، فأطلق على الباب الذى دخل منه الرجل باب الرحمة .

كما أطلق عليه أيضا باب النبى ، لأن النبى ـ ﷺ ـ كان يستعمله فى الدخول والخروج .

وكان بالحائط الشرقى باب آخر أطلق عليه باب عثمان ، ثم عرف بعد ذلك بباب جبريل ،

وكانت عضادتا كل باب من الحجر .

أما سور المسجد فقد كان ارتفاعه سبعة أذرع ونصف وقد ذكرت بعض المصادر أن حائط القبلة قبل تحولها إلى الكعبة كانت من جذوع النخل المصفوف بعضها بجانب بعض .

وبعد تحول القبلة من القدس إلى الكعبة المشرفة وكان ذلك فى يوم الثلاثاء الموافق ١٥ من شعبان سنة ٢هـ ـ ١١ يناير سنة ٦٢٤م أغلق باب المسجد المقام فى الحائط الجنوبى ، وحل محله باب فى الحائط الشمالى وأقيمت ثلاثة أروقة جهة الجنوب على غرار الأروقة التى بالجهة الشمالية . .

وظل المسجد فى عهد الرسول ـ ﷺ ـ كما هو . وإن كان قد اضطر إلى توسعته بعد عودته من خيبر فى محرم سنة سبع ، وأصبحت سعته ٩٠ × ١٠٠ ذراع ، وأصبح له ثلاثة أروقة لجهة القبلة بكل صف منها تسعة أعمدة . . . . .

وقد حصب المسجد ـ أى فرش بالحصباء ـ فى عهد النبى ـ ﷺ ـ وإن كان بعضهم يرجع ذلك إلى أيام عمر ـ رضى الله عنه . . وسبب وضع الحصباء ابتلال المسجد بالمطر ، فجعل كل رجل يأتى بالحصى فى ثوبه فيبسطه ويصلى عليه . فقال النبى ـ ﷺ ـ : ما أحسن هذا البساط . ولم يكن للمسجد مئذنة ولا محراب مجوف .

وكان بلال ـ رضى الله عنه ـ حين يؤذن ، يصعد فوق بيت لأسرة من بنى النجار هو أعلى بيت حول المسجد ويؤذن .

ويعضهم يقول : إنه كان يصعد عن طريق أقتاب إلى دعامة مربعة فى دار عبدالله بن عمر فى جنوب المسجد ويرفع الأذان من فوقها .

منبر المسجد :

وكان النبى ـ ﷺ ـ يخطب إلى جذع فى المسجد ، حتى صنع له منبر من خشب الأثل يتكون من درجتين ومقعد ويرجح أن يكون ذلك فى العام الثامن أو التاسع من الهجرة ، وكان عرض المنبر ذراعا وطوله ذراعان وارتفاعه كذلك ، وقيل : إن الذى تولى صنعه رجل يسمى ـ ياقوم ـ الذى قام ببناء الكعبة قبل هذا الزمن بربع قرن تقريبا . وقيل : إن الذى صنعه غلام للعباس بن عبدالمطلب وصاحب الفكرة هو تميم الدارى ، فقد قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا أعمل لك منبرا كالذى رأيت بالشام . . .

ولم يكن المسجد يضاء بالقناديل ، الا بعد أن أشار تميم الدارى بذلك . كانوا يستضيئون بسعف النخيل يشعلونه فإذا نفد أشعلوا غيره . فأضاء تميم الدارى المسجد بقناديل الزيت فَسُرَّ منه النبى ـ ﷺ ـ ودعا له ـ

من تميم الدارى ؟

تميم هذا هو أوس بن خارجة بن خزيمة كنيته أبو رقية ، هى ابنته لم يكن له غيرها .

كان نصرانيا ، وأسلم سنة سبع وقيل سنة تسع من الهجرة ، وحسن إسلامه ، وكان كثير التهجد قام ليلة يركع ويسجد ويبكى وهو يتلو قوله تعالى

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٤٨]

وذلك حتى أصبح كان هو أول من أسرج السراج فى المسجد[٤٩] وذلك أنه لما قدم المدينة صحب معه قناديل وحبالا وزيتا ، وعلق تلك القناديل بسوارى المسجد وأوقدت .

فقال له رسول الله ﷺ ـ : نورت مسجدنا نور الله عليك[٥٠]

وجاء فى أسد الغابة عن سراج أبى مجاهد اليمنى قال : قدمنا على رسول الله ﷺ ـ ونحن خمسة غلمان لتميم الدارى فأمر تميم أن يسرج فى مسجد رسول الله ﷺ ـ قنديل بزيت ، وكانوا لايسرجون فيه إلا بسعف النخل .

فقال رسول الله ﷺ ـ من أسرج مسجدنا ؟

فقال تميم : غلامى هذا .

---

(٤٨) الجاثية ٢١

(٤٩) أسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ٢٥٦

(٥٠) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٧٨

فقال : ما اسمه ؟

فقال : فتح

فقال النبى - ﷺ - : بل اسمه سراج .

قال : فسمانى رسول الله - ﷺ - سراجا . .(٥١)

وفى هذا المسجد المتواضع الذى أقامه النبى - ﷺ - تخرج الصحابة الأجلاء الذى ملأوا الدنيا علما ونورا وحضارة . .

فلم تكن مهمة المسجد مقصورة على أداء الصلاة ، بل تعدى المسجد ذلك الدور فكانت تعقد فيه حلقات العلم والذكر ، كما كان مركزا للدعوة إلى الجهاد ومأوى للعباد ودارا للضيافة ، وساحة للقضاء ، كان يتسع لكل أغراض الحياة . .

وأضفى وجود النبى - ﷺ - على هذا المسجد روحا جديدة ، فكانت توجيهاته وتعليماته نورا يهدى ، وزادا يقوى ، وطاقة جديدة تزداد مع الأيام تألقا ويستمد منها المسلمون حاجتهم وقوتهم . .

---

(٥١) أسد الغابة ج ٢ ص ٣٣٨

أول مسجد فى الإسلام

- تجديد المسجد النبوى فى العصر الأموى .
- معنى المحراب .
- تجديد المسجد فى العصر العباسى .
- السلطان الظاهر بيبرس يعمر المسجد النبوى .
- المسجد فى عهد العثمانيين .
- حفظ الله للقبر الشريف .
- المسجد فى عهد آل سعود .
- مسجد قباء .
- أول مسجد أسس على التقوى .
- فضل مسجد قباء .
- مسجد الجمعة .
- المساجد السبعة .
- مسجد القبلتين .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

توسعات المسجد وتجديداته

ظل المسجد على حاله فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ دون زيادة ، إلا أنه قام بتجديد أعمدة النخيل التى كانت قد تلفت

وحين ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ أجرى فى المسجد عمارة كبيرة عام ١٧ هـ فقد قام بتوسعته حتى أصبح عرضه ١١٠ ذراعا وأصبح طوله ١٤٠ ذراعا . وأضيفت الصفة إلى المسجد

وقد استخدم فى الانشاء الجديد أعمدة من جذوع النخيل والطوب اللبن للأسوار ، وبلغ ارتفاع السقف ١١ ذراعا ، وبنى أساسه بالحجارة ، وتم تحصيب المسجد بحصباء من وادى العقيق ، كما أدخلت المصابيح الكبيرة إلى المسجد ، وأصبح للمسجد ستة أبواب منها باب النساء ، وباب السلام وكان يطلق عليه أولا باب مروان نسبة الى مروان بن الحكم .

ولم تكن بالمسجد أية زخارف ، بل حذر عمر من ذلك وقال لمن عهد إليه بأمر المسجد : أكن الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس .

وقد يكون عمر ـ رضى الله عنه ـ قد قال ذلك تقليلاً للنفقات ، فقد كان المسلمون فى ذلك الوقت فى حاجة إلى الكثير من المال لأغراض الجهاد فى سبيل الله . . .

وفى عهد عثمان رضى الله عنه ـ أصبحت الحاجة ملحة فى العام السادس من ولايته إلى توسعة المسجد ، وبخاصة بعد أصبحت الأعمدة فى حاجة إلى التغيير .

وبدأ العمل فى ربيع الأول عام ٢٩ هـ ، واستمر عشرة شهور حتى انتهى فى أول المحرم سنة ٣٠ هـ يوافق سبتمبر ٦٥٠ م

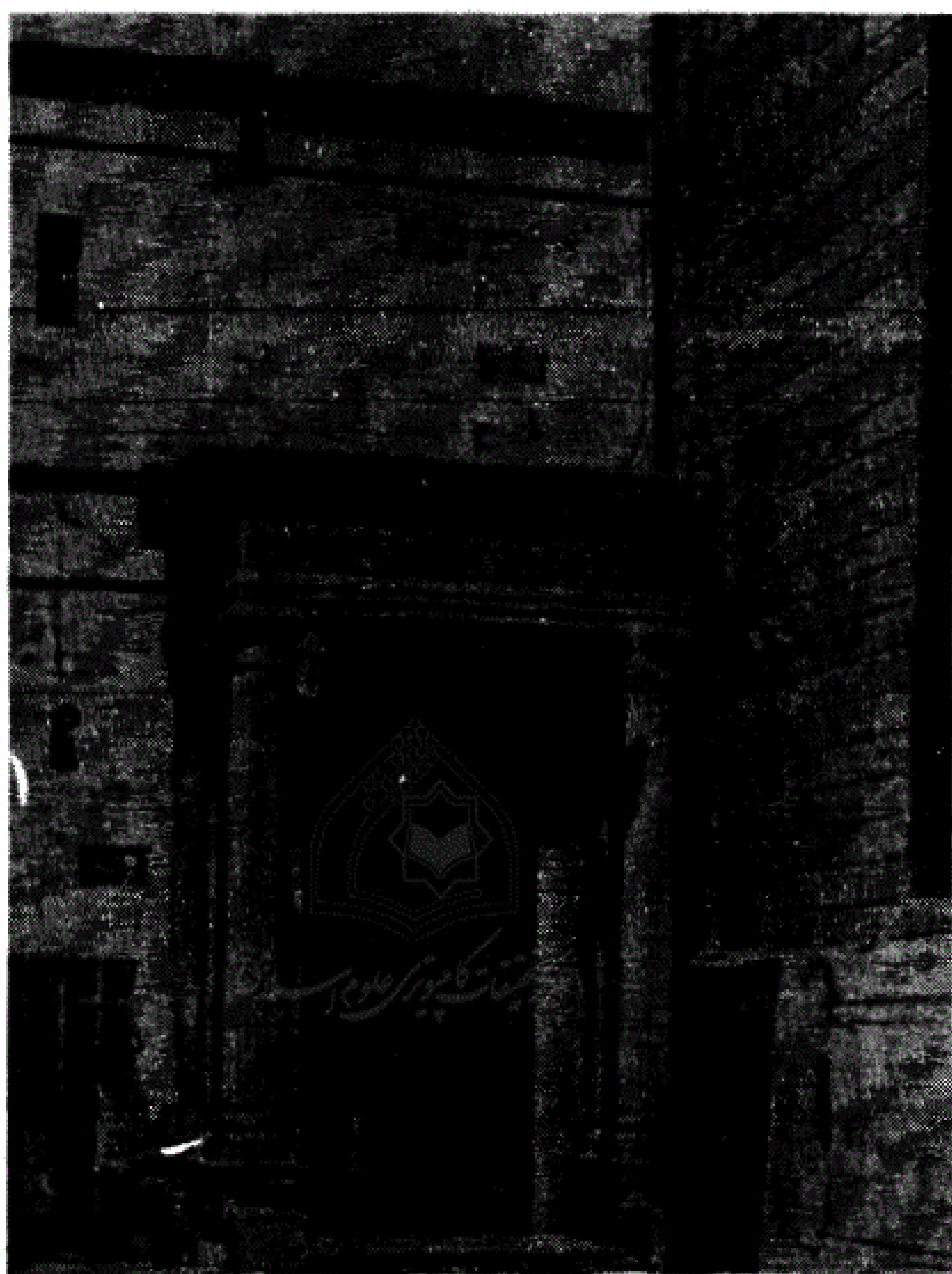
أصبح طول المسجد ١٦٠ ذراعا ، وعرضه ١١٨ ذراعا وذلك بإضافة رواق إلى الأروقة الأربعة . .

وفى هذه التوسعة والتجديد ، تم بناء المسجد بالحجر بدل الطوب اللبن ، كانت الحجارة منقوشة ، وأصبحت الأعمدة من الحجر المنحوت ، ووضع بها قطع من الحديد مغطاة بالرصاص المصهور لتثبيت حجارة الأعمدة مع بعضها . ووضعت الأعمدة الحجرية مكان الأعمدة القديمة .

أما السقف فقد عمل من الخشب الساج محمولا على جسور خشبية ترتكز على الأعمدة وأضيفت إلى الجدران طبقة من الجص ، وعملت بالحائط الشرقى والغربى فتحات « نوافذ » كانت فى الجزء العلوى من الحائط

وكان المشرف على البناء هو زيد بن ثابت رضى الله عنه ـ واحتفظ للمسجد بأبوابه الستة التى كانت فى عهد عمر ـ رضى الله عنه .

وأقام مقصورة حول منطقة المحراب من الطوب اللبن ، وعمل بها فتحات ينظر منها الناس إلى الإمام ، وكان الهدف من ذلك حماية الإمام بعد حادث اغتيال عمر بن الخطاب رضى الله عنه .



المسجد في عصر الخليفة عثمان بن عفان


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المسجد فى العَصْر الأموى

حين تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ، أمر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - الملقب بخامس الخلفاء الراشدين بإعادة بناء المسجد النبوى على طراز حديث ، مع توسعته بإدخال حجرات أمهات المؤمنين إليه .

وقد ذكر الطبرى أن هدم المسجد بدأ فى صفر سنة ٨٨ هـ - يناير ٧٠٧ م بواسطة عمال من المدينة المنورة .

أما عمال البناء فقد أرسلهم الوليد فى ربيع أول سنة ٨٨ هـ - فبراير ٧٠٧ م وظل العمل قائما فى بناء المسجد وتوسعته حوالى ثلاث سنوات ، فقد انتهى عام ٩١ هـ ، وقد حج الوليد فى هذا العام وافتتح المسجد رسميا

وقد استعان الوليد على تجميل المسجد وتعميره بعمال من الخارج ، فقد أرسل الى ملك الروم يقول له : إنا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم - ﷺ - فأعنا فيه بعمال وفسيفساء ، فبعث إليه الملك بأحمال من الفسيفساء وبضعة وعشرين عاملا ، وقيل ان العمال كانوا من الروم وعدتهم ٤٠ عاملا ، ومن القبط

وذكر الطبرى أيضا قال : حضر رسول الوليد بكتاب منه إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بإدخال حجرات أزواج رسول الله - ﷺ - فى المسجد ، وأن يشترى مما وراءه ونواصيه حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، ويقول له : قدم القبلة إن قدرت .

وقد تم التجديد بصورة كبيرة فى هذا العصر فكان المسجد آية فى الجمال والأناقة وأصبحت صفته كما ذكرها ابن عبد ربه فى العقد الفريد :[٥٢]

قال تحت عنوان « صفة مسجد النبى ـ ﷺ ـ : أروقته فى قبلته معترضته من الشرق إلى الغرب ، فى كل صف من صفوف عمدها ١٧ عمودا ، بين كل عمودين فجوة كبيرة واسعة ، والعمد فى الأروقة القبلية بيض مجصصة مرتفعة طويلة ـ وسائر عمد المسجد رخام ، والعمد المجصصة على قواعد عظيمة مربعة ورءوسها مذهبة عليها نجف ـ جسور ـ منقوشة مذهبة ، ثم السموات ـ السقف ـ على النجف ، وهى مذهبة أيضا ، وقبالة المحراب بلاط مذهب شقت به البلاطات من الصحن إلى أن ينتهى إلى البلاط الذى بالمحراب ولايشقه ، وفى البلاط الذى يلى المحراب تذهيب كثير ، وفى وسطه سماء ـ سقف ـ كالترس المقدر مجوف كالمحار مذهب[٥٣] .

وبالنسبة للتكسية ـ الطلاء ـ فقد أفاد ابن عبد ربه بأنه قد أخذ وجه السور القبلى من داخل المسجد بإزار رخام من أساسه إلى قدر القامة منه[٥٤] ولف على الإزار بطوق رخام فى غلظ الإصبع ـ ٢ سم ـ ، ثم فوقه إزار دونه فى العرض ـ أقل من ١,٧٥ مترا ـ مخلق بالخلوق[٥٥] ثم فوقه إزار مثل الأول ـ مقداره ١,٧٥ مترا ـ فيه أربعة عشر بابا ـ يقصد شباكا ـ فى صف من الشرق إلى الغرب منقشة مذهبة ، ثم فوقه إزار رخام أيضا فيه صفة

---

(٥٢) العقد الفريد ج ٣

(٥٣) يصف السقف بأنه قبة قليلة العمق

(٥٤) يقدر هذا بـ ١,٧٥ متراً

سماوية - أى مدهون بلون لازوردى وهو لون السماء - فيها خمسة سطور مكتوبة بالذهب بكتاب ثخين - غليظ - قدر إصبع - ٢ سم - والمكتوب سُوَرٌ من قِصار القرآن ، وهى سور الفاتحة ، والشمس ، والليل ، والضحى ، والشرح ، والتين ، والعلق ، والقدر ، والبينة ، والزلزلة ، والعاديات ، حتى الناس .

ثم فوقه إزار رخام مثل الأول الأسفل - ١,٧٥ مترا - فيه ترسة من ذهب منقوشة ، وبين كل ترسين منها عمود أخضر فى حافاته قضيبان من ذهب ، ثم من فوقه رخامات ضيقة منقوشة عرضها مثل عظم الذراع - ٢٥ سم - لها قضبان وأوراق من ذهب تاتئة غليظة - هى عبارة عن زخارف نباتية .

أما المحراب فقد وصفه ابن عبد ربه بقوله : وقبو المحراب مقوس جدا ، وفيه دارات - حنيات - بعضها مذهب وبعضها خمرى أسود ، ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مخلق بالخلوق ، فيه الوتد الذى كان النبى - ﷺ - يتوكأ عليه فى المحراب الأول عند قيامه من السجود ، وعن يمين المحراب باب يدخل منه الإمام ويخرج ، وعن يساره باب صغير وقد سد بعوارض من حديد ، وبين هذين البابين والمحراب ممشى مسطح لطيف .

والحيطان وصفها ابن عبد ربه فقال : حيطان المسجد كلها من داخله مرخمة بالرخام والفسيفساء أولها وآخرها ....

---

(٥٥) مطلى بعجينة ذات رائحة لونها أحمر

صفة القبر النبوى فى المسجد

بنيت حوائط الغرفة النبوية ـ ونعلم جميعا أنها كانت غرفة ـ أم المؤمنين ـ عائشة رضى الله عنها ـ وقد توفى النبى ـ ﷺ ـ فيها ، ودفن حيث توفى . . وكانت ملحقة بالمسجد النبوى كغيرها من حجرات زوجاته . وبدفن النبى ـ ﷺ ـ فيها أصبحت قبراً دفن فيه إلى جانب النبى ـ ﷺ ـ صاحباه أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ

وقد بنيت حوائط الغرفة النبوية نفسها بالحجارة المنحوتة البازلتية ولم يعمل بها أبواب ، وعمل حولها « الحظار المزور » بشكل غرفة ذات خمسة أضلاع غير متساوية .

وكانت الحوائط الخارجية المذكورة لاتصل الى سقف المسجد ، ولكن على مسافة منه بحوالى ذراعين . .

وأضيف الى المسجد فى عهد الأمويين المئذنة والمحراب المجوف . .

معنى المحراب

والمحراب فى اللغة صدر المنزل وأرفع مكان فى الدار وجمعه : محاريب ، ويطلق أيضا على الغرفة . . . .

وقد ورد ذكر المحراب فى القرآن الكريم فى مواضع منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ

هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٥٦)

وفى قوله تعالى

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ
مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٥٧)

وفى قوله تعالى

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا
﴿١١﴾ ﴾ (٥٨)

وفى قوله تعالى

وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ (٥٩)

والمحراب فى الآية الأخيرة يعنى الغرفة التى هى أرفع مكان فى الدار ، أو أرفع مكان فى المسجد .

قال ابن منظور : وفى الحديث ان النبى - ﷺ - بعث عروة بن مسعود - رضى الله عنه - إلى قومه بالطائف فأتاهم ودخل محراباً له ، فأشرف عليهم عند الفجر ثم أذن للصلاة .

---

(٥٦) آل عمران ٣٧

(٥٧) آل عمران ٣٩

(٥٨) مريم ١١

(٥٩) ص ٢١

قال : وهذا يعنى أنه دخل غرفة يُرتقى إليها .

والمحاريب صدور المجالس ، ومنه سمى محراب المسجد ، والمحراب القبلة ، ومحراب المسجد صدره وأشرف موضع فيه . . .(٦٠)

وقد وردت كلمة محاريب فى القرآن الكريم فى قوله تعالى

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾(٦١)

وتحديد القبلة أمر مشروع ، واستعمله النبى - ﷺ - فى مواضع متفرقة . فقد استعمل الحربة والعَنَزَة فى تحديد اتجاه القبلة فى أثناء الصلاة فى الفضاء .

وتجويفها الذى تم فى عهد الوليد بن عبد الملك ، لايزيد على كونه إضافة تجميلية الى المسجد ، فضلا عن أنه يعكس صدى الصوت ليسمع فى أقصى المسجد فى وقت لم تكن مكبرات الصوت قد اخترعت بعد شأنه شأن المشكاة التى تعكس الضوء فيقوى .

لقد كان هدف الوليد إبراز مسجد الرسول - ﷺ - فى صورة رائعة من الجمال تليق - بمنزلة النبى الأعظم - كما قال لملك الروم . . . واستقدم من أجل ذلك العمال المهرة من الخارج ، الذين لديهم خبرة معمارية متقدمة .

---

(٦٠) لسان العرب ج ٢ ص ٨١٧

(٦١) سبأ ١٣

ومن المتيقن أن كلمة محراب الواردة فى القرآن بمعنى المصلى لاتعنى ذلك المنحنى الذى يكون فى صدر المسجد فى اتجاه القبلة ـ وعمل هذا المنحنى ليس من الأمر المحتوم فى المساجد ، وأى اشارة فى الجدار نحو القبلة تغنى عنه ، ولكنه بمرور الوقت أصبح من مستلزمات التشييد فى المساجد الذى يكون حكمه حكم الاضافات التى جدت من تسليح وقباب وزخرفة ومنارات وبسط وغير ذلك . ينطبق على هذه الاضافات ما ينطبق عليه . فحكمه حكم المنارات العالية ومكبرات الصوت المختلفة والبسط المزركشة وغيرها مماهو طريف وبديع فى المساجد ؟

لقد كان مسجد الرسول ـ ﷺ ـ مفروشا بالحصباء وظل كذلك حتى العصر الأموى ، ولانجد منكرا الآن على فرش المساجد بأغلى أنواع « السجاد والموكيت » . .

فينبغى النظر الى تجويف المحراب من هذه الوجهة ، وأنه عمل يقصد به تحسين المسجد وتجميله ، وتحديد مكان القبلة تحديدا دقيقا .

على أن هذا التعمير الجديد للمسجد فى عهد الأمويين قد تم على الرغم من معارضة بعض العلماء والفقهاء من أهل المدينة فى ذلك الوقت . . فقد ذكر الرواة أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، حينما ورد اليه خطاب الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بشأن تجديد المسجد وتوسعته ، جمع الفقهاء وأهل المدينة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فشق عليهم ذلك ، وقالوا : هذه حجرات زوجات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصيرة السقوف وسقوفها من جريد النخل وحيطانها من الطوب اللبن ، وتركها على

حالها لْولى لينظر إليها الحجاج والزوار فيعتبروا ، ويكون ذلك أدعى الى الزهد فى الدنيا ، فلايعمرون فيها إلا بقدر الحاجة ، فكتب عمر الى الوليد برأى الفقهاء فاستشار الوليد بعض ذوى الرأى والعلم ، فلم يروا فى ذلك مايخالف الدين فأرسل اليه يأمره بالهدم وبناء المسجد»(٦٢)

ومن الحسن أنْ التجديد أضاف الى المسجد أربع منارات فى أركانه الأربعة ، وكان العمل قد استمر فى ذلك ثلاث سنوات ، وكانت احدى المنارات تطل على دار مروان ـ بن الحكم ـ وهى مقر الامارة إذ ذاك ـ فلما حج سليمان بن عبد الملك . أمر بهدم تلك المنارة ، فهدمت ، وبقى المسجد بثلاث منارات حتى عام ٧١٦ هـ حين أمر السلطان محمد بن قلاوون حاكم مصر فى ذلك الوقت بانشاء منارة رابعة .

التجديد فى العصر العباسى

فى أيام الخليفة المهدى الذى تولى الخلافة عام ١٥٨ هـ أضاف الى المسجد النبوى مائة ذراع من جهته الشمالية وكان ذلك فى عام ١٦٦ هـ ، وشملت التجديدات الأروقة والأعمدة والأبواب . .

فقد فتح فى الجدران ٢٤ بابا منها ثمانية بالحائط الغربى ناحية السوق . .

وثمانية بالحائط الشرقى

وأربعة بالحائط الشمالى

---

(٦٢) من مقال للاستاذ عبد الستار محمد فيض مجلة الوعى الاسلامى عدد ربيع الأول ١٤٠٨ه.

وأربعة بحائط القبلة ، وباب يدخل منه الأمراء ناحية دار مروان ، وباب يسار القبلة يدخل منه الى المقصورة ، وباب يمين القبلة ، ويطلق عليه باب بيت القناديل ، وباب فى قبلة المسجد يخرج منه السلطان الى المقصورة .

وتحولت خوخة عمر بحائط القبلة يسار المحراب الى شباك ، وذلك بعد عمل مقصورة جديدة من الخشب .

وهدم المهدى المقصورة الأموية وخفض منسوب أرضيتها الى منسوب أرضية المسجد .

لقد بدأت عمارة المهدى سنة ١٦٢ هـ واستمرت ثلاث سنوات حيث انتهت عام ١٦٥ هـ وزخرف المسجد بالفسيفساء .. ثم قامت بعد ذلك عدة إصلاحات متوالية فى عهد العباسيين .

وصف ابن بطوطة للمسجد

وفى عام ٧٢٥ هـ قام محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم المشهور بابن بطوطة برحلته العجيبة التى دون مشاهداته خلالها فى كتابه المشهور رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وزار المدينة المنورة ووصف المسجد النبوى وصفا دقيقاً رائعا ، وكان مماقاله فى ذلك : ـ دخلنا الحرم الشريف ، وانتهينا الى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين ، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم ، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حن لرسول الله ـ ﷺ ـ وهى ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة ، وأدينا حق

السلام على سيد الأولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين ، الرسول النبى الهاشمى محمد - ﷺ - . . . . .

ثم أدينا حق السلام على صاحبيه أبى بكر الصديق ، وأبى حفص عمر الفاروق ، رضى الله عنهما -

وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى ، مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى ، حامدين الله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفة ومشاهده العظيمة المنيفة داعين ألا يجعل ذلك آخر عهدنا بها ، وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته ، وكتبت فى سبيل الله سفرته . وبعد هذه المقدمة بدأ فى وصف المسجد فقال :

المسجد المعظم مستطيل ، تحف به من جهاته الأربع بلاطات دائرة به . . ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت . والروضة المقدسة - صلوات الله وسلامه على ساكنها فى الجهة القبلية مما يلى الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لايتأتى وصفه ، وهى مدورة بالرخام البديع النحت ، الرائق النعت ، تفوح منها رائحة المسك والطيب مع طول الأزمان .

وفى الصفحة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم ، فيسلمون وينصرفون يمينا إلى وجه أبى بكر الصديق .

ورأس أبى بكر - رضى الله عنه - عند قدمى رسول الله - ﷺ - ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ، ورأس عمر عند كتفى أبى بكر - رضى الله

عنها ـ وفى الجوف من الروضة المقدسة ـ زادها الله طيبا ـ حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب . . .

ثم تحدث ابن بطوطة عن ابتداء بناء هذ المسجد ، وعن انه كان بناءً بسيطاً متواضعاً لم يسقف حتى أمطرت السماء فسقفوه تسقيفا بسيطا بقدر مايمنع المطر عن المصلين . .

إن ذلك يدل على أن الاقبال على الله هو الأهم ، والمظاهر لاتعنى المقبل على الله ، ومن أجل ذلك جعلت الأرض مسجدا وطهورا ، وفى أى مكان أدركت المسلم الصلاة فليصل . .

وقد أشار النبى ـ ﷺ ـ إلى ضرورة الزيادة فى المسجد ، وعلى ذلك اعتمد عمر بن الخطاب حين زاد وقال : لولا أنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : ينبغى أن نزيد فى المسجد ـ مازدت فيه .



قصة للعبرة .

ومما يؤثر وينبغى أن يعيه الناس ويتذكره المسلمون ليتعظوا بمافيه من مثل تلك القصة التى ذكرها ابن بطوطة فى أثناء حديثه عن زيادة عمر فى مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ

قال : أراد عمر أن يُدْخِل فى المسجد موضعا كان للعباس عم رسول الله ـ ﷺ ـ وأراد عمر أن يدخل هذا الموضع فى المسجد

فنازعه العباس ، وحَكَّماَ بينهما أبىُّ بن كعب فأتيا داره ، فلم يأذن لهما إلا بعد ساعة ، ثم دخلا إليه . . .

فذهب عمر ليتكلم فقال له أُبَيّ : دع أبا الفضل يتكلم أولاً لمكانه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال العباس : خطة خطها لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبنيتها معه ، وأراد إدخالها فى المسجد .

فقال أبى : إن عندى من هذا علما . . .

سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : أراد داود ـ عليه السلام ـ أن يبنى بيت الله المقدس ، وكان بجواره بيت ليتيمين ، فراودهما على البيع فأبيا ، ثم راودهما فطلبا ثمنا باهظا . . فاستعظم داود الثمن ، فأوحى الله إليه : إن كنت تعطى من شيء هو لك فأنت أعلم ، وإن كنت تعطيهما من رزقنا فأعطهما حتى يرضيا ، وإن أغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لله ، وقد حرمت عليك بناءه .



قال : يارب ، فأعطه سليمان .

فأعطاه سليمان ـ عليه السلام ـ

فقال عمر : من لى بأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ذلك ؟

فخرج أبىّ إلى قوم من الأنصار فأثبتوا له ذلك .

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : أما انى لو لم أجد غيرك أخذت بقولك ، ولكنى أحببت أن أتثبت .

ثم قال للعباس ـ رضى الله عنه ـ : والله لا يؤخذ شيء إلا برضاك وبالثمن الذى تريد .

فقال : أما إذا أثبت لى فهى صدقة لله .

فهدمها عمر وأدخلها فى المسجد ..

فانظر إلى تورع الخلفاء وتواضعهم ، وإلى إقرارهم بالحق وعدم إعراضهم عنه وانظر الى عدم تملق العلماء للخلفاء ومناصحتهم لهم ، وقبول الخلفاء لما يقولون برضا وسخاء نفس ..

وتحدث ابن بطوطة عن منبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر أنه مصنوع من طرفاء الغابة وقيل من الأثل ، وكان من ثلاث درجات يجلس ﷺ على أعلاهن ، ويضع رجليه الشريفتين على أوسطهن .

فلما تولى أبوبكر جلس على الدرجة الوسطى وجعل رجليه على أولى الدرجات ولما تولى عمر جلس على الدرجة الأولى ووضع رجليه على الأرض ..

وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه صدرا من خلافته ولما صار الأمر الى معاوية زاد فى المنبر ست درجات من أسفله فأصبح تسع درجات . . .

السلطان الظاهر يعمر المسجد

ذكر الرواة أن حريقا قد حدث بالمسجد النبوى بسبب ترك أحد الخدم موقد المصباح مشتعلا فى المسجد وقد سارع السلطان الظاهر بيبرس سلطان مصر بإرسال حملة من الصناع ومعها كل ما يحتاج إليه التعمير والتجديد والبناء من مواد وآلات وكان ذلك سنة ٦٦٠هـ فأعيد المسجد كما كان قبل الحريق ، ولم يطرأ على عمارة المسجد بعد ذلك أى تعديل حتى سنة ٨٧٣هـ وكانت الخلافة العباسية قد سقطت ، وأصبحت مصر مسئولية كاملة

عن رعاية هذه الأماكن المقدسة ، وغيرها من معالم الأمة الإسلامية ونهضتها وتراثها وعلومها ، فشمرت عن ساعد الجد فى تلك الأمور ، وفى مقدمة ذلك كله أنها تصدت للعدوان التترى البربرى فأودت به فى معركة فاصلة فى عين حالوت ، بقيادة سيف الدين قطر .

ثم أنهت وجوده نهائيا بقيادة الظاهر بيبرس فى موقعة البيرة ثم الأبلستين سنة ٦٧٥هـ(٦٣)

ولا ينبغى إغفال ما قامت به الخلافة العباسية قبل سقوطها من إصلاحات توقفت بسبب انهيارها ، ولا ماقام به ملك اليمن المظفر شمس الدين يوسف من مشاركة فى إصلاح المسجد . ولا ما قام به سيف الدين قطر . الذى تولى السلطة فى مصر قبل الظاهر بيبرس البندقدارى . .

إلا أن الجهد الأكبر فى الإصلاح والترميم والتعمير والتجديد كان على يد هذا السلطان الأخير ـ رحمه الله .

وقد أرسل هذا السلطان منبرا جديدا وأقام مقصورة من الخشب بها ثلاثة أبواب وضعت حول القبر الشريف وما يعرف ببيت فاطمة ثم أقيمت قبة لأول مرة على القبر النبوى الشريف وذلك فى عهد السلطان قلاوون سنة ٦٧٨هـ

وفى الحق أن السلطان قلاوون تابع المسيرة بعد الملك الظاهر فقام بالعديد من الإصلاحات . . .

---

(٦٣) مصر العربية فى مجال التاريخ لعبد الحفيظ فرغلى ص ٩٦

ثم توالت الإصلاحات بعد ذلك فى العصر المملوكى وبخاصة بعد الحريق الثانى الذى أصاب المسجد .

الحريق الثانى

كان الملك قايتباى ملك مصر قد قام بتجديد المسجد النبوى وأعاد إليه بهاءه ورونقه ، وكان ذلك بدءا من عام ٨٧٣هـ ، وقد قيل إن تكاليف البناء قد بلغت ستين ألف دينار . . .

ومازال المسجد يشهد بعض آثار قايتباى ممثلة فى المنبر وإحدى المآذن .

ويبدو أن الملك الأشرف قايتباى ـ وكان مولعا بالبناء والانشاء ـ تدل على ذلك آثاره المختلفة فى شتى البقاع ـ وكان سعيدا بما قدمه للمسجد النبوى ، وعبر عن سعادته بزيارة المدينة المنورة وزيارة الروضة الشريفة والمسجد النبوى . وذلك قبل حجه عام ٨٨٤هـ .

ولكن سعادته هذه أجهضت بحريق حدث فى المسجد النبوى مرة أخرى عام ٨٨٦هـ وأصاب هذا الحريق المسجد بأضرار بالغة . ولم يسلم من الحريق سوى القبة الداخلية على القبر الشريف والتى أقيمت فى عمارة قايتباى السابقة للمسجد . . واحترق المنبر وسقطت أكثر عقود المسجد وأعمدته ، وما بقى منها أصبح آيلا للسقوط .

ولكن العمل على إعادة التعمير بدأ على الفور ، فأرسلت من مصر مجموعتان من العمال ، الأولى تقدر بمائة صانع من البنائين والنجارين والدهانين وغيرهم من الحرفيين .

والثانية تتكون من ثلثمائة صانع ،

ومع هذه الأعداد أرسلت الآلات والمواد اللازمة

وتم الاصلاح والتعمير والتجديد بصورة رائعة جميلة تليق بجلال هذا المسجد ومكانته فى نفوس المسلمين .

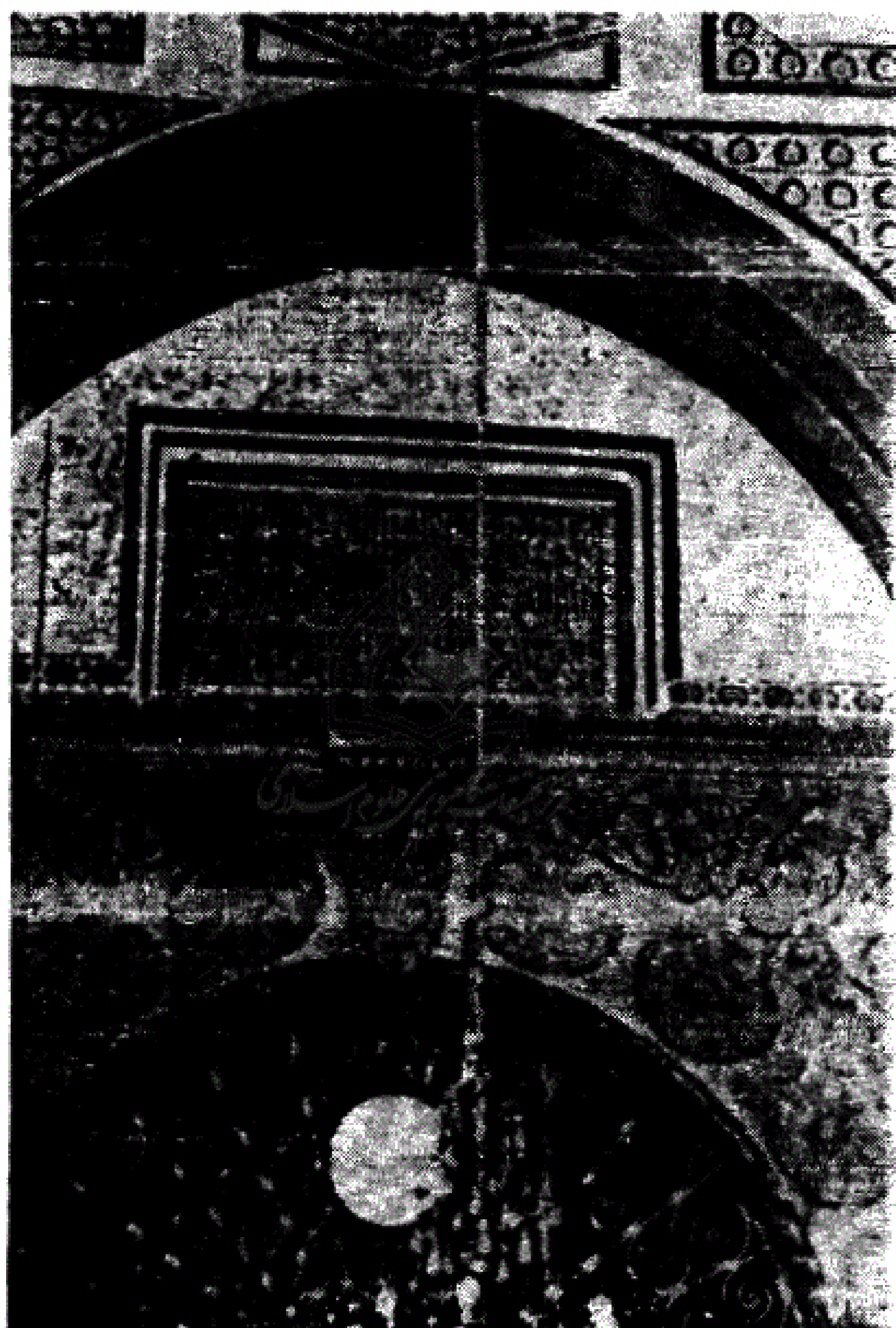
المسجد فى عهد العثمانيين

حين آلت الخلافة إلى العثمانيين أولوا المسجد النبوى عنايتهم ، ففى القرن العاشر الهجرى عمره السلطان سليم الثانى ، وفى القرن الثالث عشر بنى السلطان محمود الثانى القبة الخضراء .

وفى عهد السلطان عبدالمجيد الأول فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر لوحظ أن المسجد بحاجة إلى العمارة بعد أن انقضت على عمارته أربعة قرون لم تحدث فى أثنائها عمارة هامة له ، فأمر السلطان بتجديد المسجد النبوى تجديدا شاملا دون تعطيل الشعائر الدينية فيه .

وقد سجلت تلك العمارة من روعة الفن الإسلامى ما يزال حتى اليوم بهجة للأنظار .

وقد كتبت على جدران المسجد فى الداخل سورة الفتح ، وأسماء الله الحسنى ، وقصيدة البردة ، وأسماء النبى ـ ﷺ ـ بخط بالغ الروعة والدقة والإتقان



المسجد النبوي : باب السلام ـ نص تاريخي للسلطان قايتباي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حفظ الله للقبر الشريف

لقد رأينا من خلال ما قدمنا أن المسجد قد تعرض على مدى العصور لأحداث بعضها بفعل الزمن وبعضها بسبب الاهمال . . . وكل ذلك يشهد بأن هذا المكان كغيره من الأمكنة التى تتناولها يد الحدثان ، إلا أن الله ميزه بميزة - هى نسبته إلى خير الخلق - صلى الله عليه وسلم - وأنه أحد المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال ، وهو يمثل بالنسبة للمسلمين منزلة كبرى فى نفوسهم ، واليه تشتاق أفئدتهم وتهفو أرواحهم .

ولكن المسجد على كثرة ما مر به من أحداث لم يتعرض القبر الشريف بداخله لأى حادث من تلك الحوادث التى أتلفت المسجد وحطمته . وذاك أن الله - سبحانه - قد حفظ مثوى نبيه - صلى الله عليه وسلم - وصانه من كل حدث تعرض له المسجد .

وفى كتاب لبيك اللهم لبيك للأستاذ محمد كامل حتة ذكرت قصة عجيبة رأينا أن نقدمها للقراء للانتفاع بما فيها من عبرة ، وليعرفوا قدر نبيهم - صلى الله عليه وسلم - عند ربه :

قال الكاتب : قال لى صاحبى : هل أتاك نبأ العمارة التى أحدثها نور الدين بن زنكى فى الحجرة النبوية ؟

قلت : نعم .. وخيرا فعل .

ولهذه العمارة قصة تروى ، فقد كان نور الدين مشغولا بحرب الصليبيين فى أواسط القرن السادس للهجرة .

---

(٦٤) لبيك اللهم لبيك - محمد كامل حتة ص ٨٢ ط دار الشعب

وإنه لفى ذات ليلة إذ رأى فى منامه رؤيا - رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - يشير إلى رجلين أشقرين وهو يقول له : أنجدنى ، أنقذنى من هذين .

رأى هذه الرؤيا ثلاث مرات فى ليلته تلك .

فأرسل فى طلب وزيره جمال الدين الموصلى ، وكان معروفا بالتقوى والصلاح ، وقص عليه رؤياه .

قال الوزير : وما قعودك ؟ هذا أمر حدث فى مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس له غيرك ، فاخرج الآن الى مدينة الرسول واكتم أمرك .

وما طلعت الشمس حتى كان نور الدين محمود فى طريقه الى المدينة هو ووزيره ومعهما ألف راحلة .

حتى إذا بلغها بعد مسيرة ستة عشر يوما قصد الى المسجد ، وصلى فى الروضة ، ثم جلس لا يدرى ماذا يفعل .

واستدعى أهل المدينة فوزع عليهم ما كانت تحمل القوافل من أموال وأرزاق .

ثم قال : أبقى أحد لم يأخذ حظه ؟

قالوا : لم يبق الا رجلان من أهل الأندلس صالحان غنيان ، لا يأخذان من أحد شيئا ، ويكثران الصدقة على المحتاجين .

قال نور الدين : إلىّ بهما .

وجيء بالرجلين ، فرأى فيهما شبها من ذينك اللذين رآهما فى المنام ، ولكنهما كانا فى حديثهما مثالا للتقوى والصلاح ، وان أهل المدينة ليشهدون بأنهما يصومان دائما ، ويلازمان الصلاة فى الروضة ، ويكثران من زيارة الحجرة النبوية والبقيع وبقية المشاهد الأخرى ، ولا يردان لسائل حاجة .

على أن ذلك لم يبدد ما وقر فى نفس نور الدين من وساوس وشكوك ، فقصد الى دارهما بجوار المسجد فرأى فيها مالا كثيرا ، وأخذ يجوس خلال الدار ، ثم رفع حصيرا فى احدى غرفها فاذا تحته سرداب يتجه صوب الحجرة النبوية .

واضطربت المدينة حين بلغها النبأ ، والناس بين مصدق ومكذب ، ولكن الرجلين بعد أخذهما بالشدة وتخويفهما اعترفا لنور الدين بالسر الخطير .

لقد أوفدهما الصليبيون فى زى حجاج المغاربة ، وأمدوهما بأموال طائلة للاحتيال ومحاولة سرقة جثمان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو تخريب قبره ، فأمر نور الدين بضرب عنقيهما . ثم عمد الى الحجرة النبوية الشريفة فحفر حولها خندقا عظيما حتى بلغ منابع المياه ، ثم صب الرصاص حتى ملأ الخندق ، وصار منه سور متين لا تنفذ منه يد آثمة ، ولا تنال منه يد الزمان .

المسجد فى عهد آل سعود

ومما يسجل بالفخر والثناء لأولياء الأمر فى السعودية ماقدموه للأماكن

المقدسة فى بلادهم من أياد مشكورة ، تُقَابَلُ مِنَ المسلمين فى كل مكان بالتقدير والعرفان .

فالمسجد الحالى بشكله الفنى الجميل الرائع يرجع الى العمارة الكبيرة التى قام بها هؤلاء الملوك السعوديون فى النصف الثانى من القرن العشرين الميلادى .

فقد قام الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٥٥ م باضافة ٦٠٢٤ مترا مربعا إلى المسجد النبوى فأصبحت مساحته الكلية بعد الاضافات المتعاقبة ١٦٣٢٦ مترا مربعا .

وتم الجزء الأول من البناء عام ١٩٥٥ م بتكلفة قدرها خمسون مليونا من الريالات السعودية ، أى ما يزيد على أحد عشر مليونا من الدولارات .

وبلغ عدد الأعمدة التى أنشئت فى العمارة الجديدة ، ٢٣٢ عمودا ، كما أقيمت على مداخله الأمامية مئذنتان ، ارتفاع كل منهما سبعون مترا ، بالاضافة إلى مئذنة قايتباى والمئذنة المجيدية .

أما توسعة الملك فهد الجارية الآن فهى فريدة فى نوعها ، ومشروعه الذى يقوم به يعتبر من المشروعات العملاقة التى تستهدف أكبر توسعة للمسجد النبوى الشريف ، وانها لتلبى احتياجات العصر الحاضر كاملة وتستوعب أى زيادات فى المستقبل القريب الى عدة قرون من الزمن .

وذلك على ضوء حسابات دقيقة لاحتياجات الحاضر والمستقبل بحيث لا يحتاج المسجد الى أية توسعة أو زيادة طوال مدة لا تقل عن قرنين أو ثلاثة قرون من الزمن .

لقد رأى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد أن تكون التوسعة كاملة وشاملة بحيث تليق بالمركز المرموق للمسجد النبوى الشريف من ناحية ،

وتجعله أساسا للتطوير الحضارى الذى تشهده المدينة المنورة من ناحية أخرى .

وسيحاط المسجد الشريف بساحات من جهاته الثلاث بعروض تتراوح بين مائة ومائة وخمسين مترا ، أما الجهة الشرقية من الحرم فسيكتفى بالشارع الحالى الذى يفصلها عن المبانى والبقيع لتعذر إزالة اى جزء من البقيع .

وتبلغ المساحة الحالية للمسجد ١٦٥٠٠ متر مربع ، وتستوعبُ ثمانية وعشرين ألف مصل ، وسوف تضاف اليها عبر مشروع الملك فهد اثنتان وثمانون الف متر مربع للدور الأرضى لتصبح المساحة الكلية للمسجد ثمانية وتسعين وخمسمائة ألف متر مربع تستوعب مائة وأربعين ألف مصل تقريبا . مع الاستفادة بسطح المسجد للصلاة بمساحة مقدارها سبعة وستون الف متر مربع تستوعب تسعين ألف مصل وبذلك يمكن للمسجد فى دوريه الأرضى والعلوى استيعاب أكثر من ربع مليون مصل .

وتضمن هذا المشروع زيادة ست مآذن أخر إلى المسجد لتصبح المآذن عشرا موزعة على مختلف الجهات .

وستصبح مداخل الحرم النبوى سبعة وعشرين مدخلا وعدد الأبواب اثنين وثمانين بابا . كما سيضاف الى الأعمدة الحالية ألفان وخمسمائة عمود ويتضمن المشروع انشاء ثمانية عشر سلما متحركا تؤدى الى سطح المسجد المخصص للصلاة . هذا الى جانب المرافق التى تتطلبها الحاجة . . . . فالمشروع يتضمن انشاء خمسمائة وستين نافورة مياه للشرب وألف وأربعمائة مرحاض . . الى غير ذلك من منشآت تساعد الزائرين على اتمام زيارتهم فى يسر وسهولة وانشراح صدر وراحة كاملة .

انه مجهود ضخم يحتاج الى امكانات مالية كبيرة وأعداد فنية كثيرة ومعدات حديثة وفوق كل ذلك همة عالية وعزيمة قوية وتطلع للكمال المنشود . .

وان العمل الجاد فى هذا المشروع قائم والحمد لله ، يلمسه كل زائر للحرم النبوى الشريف ، وتشاهده الملايين التى تؤدى فريضة الحج والعمرة كل عام ، ولا يسع أى حاج أو معتمر الا ان يرفع أكف الضراعة مبتهلا الى الله أن يكتب لهذا المشروع الكمال وفق الخطة المرسومة وان يكتب للقائمين على أمره التوفيق والسعادة والمثوبة الكاملة من الله .

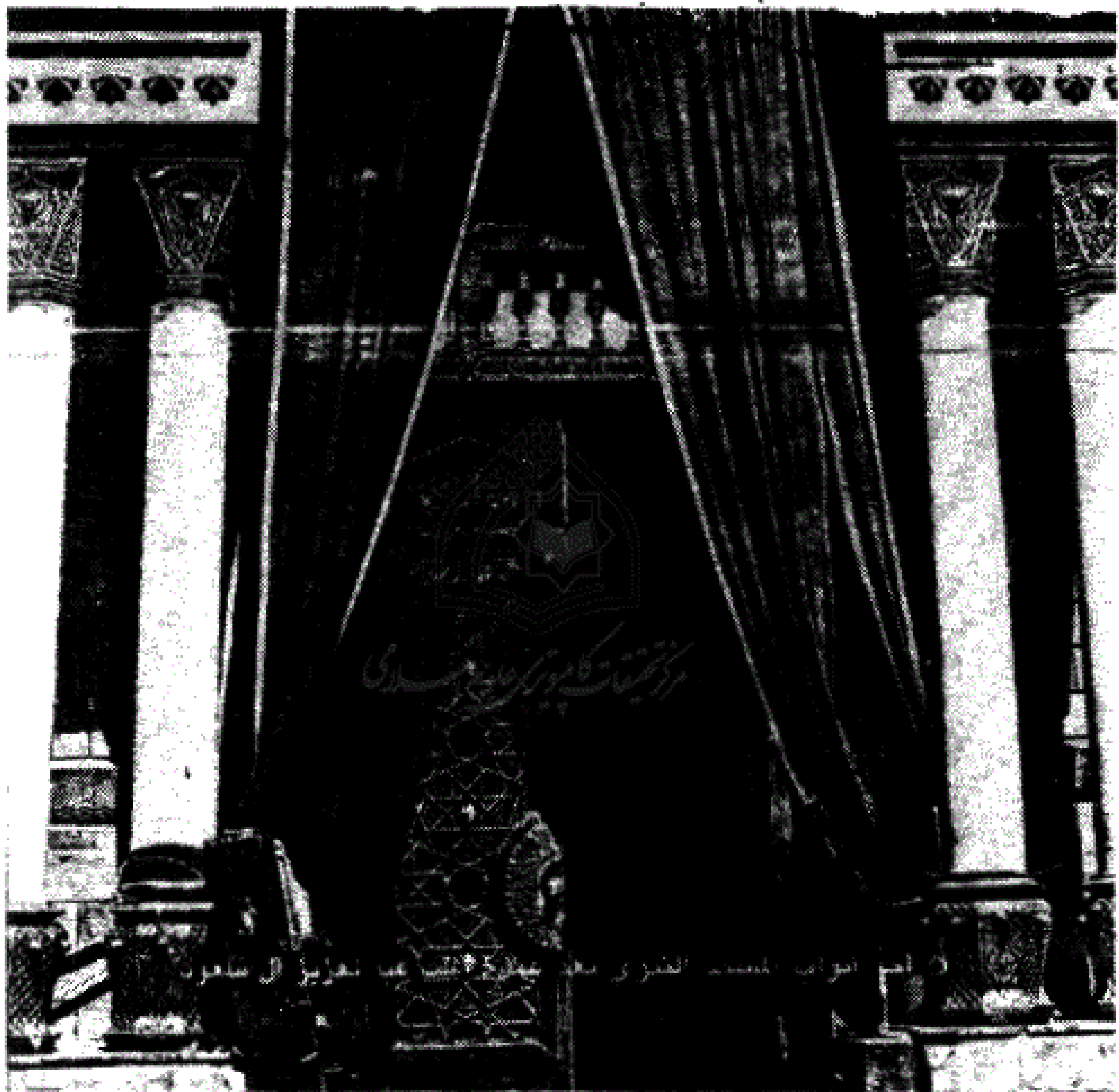
فهو وحده القادر على منح الأعمال الكبيرة المثوبة الكبيرة الجزيلة .

وبعد هذا العرض للمسجد النبوى والتطورات التى طرأت عليه عبر العصور نختتم ذلك بهذه الأبيات التى أثبتتها يد خطاط ماهر قريبا من حائط المئذنة التى ترجع الى العهد العثمانى :

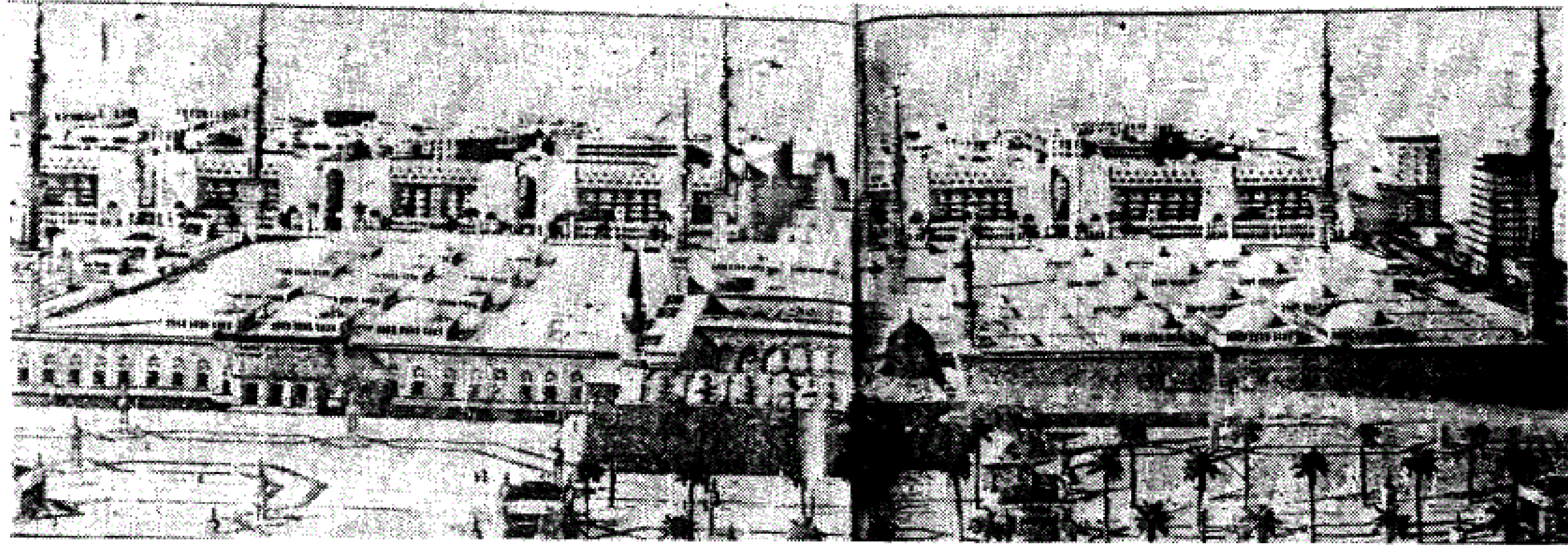
رسـول الله انى مسـتجير ... بجاهك والزمـان له اعتداء
وجـاهك يارسـول الله جـاه ... رفيـع مالرفعتـه انتهـاء
وظـنى فيـك ياطـه جـميل ... ومنك الجود يعهد والسـخاء
وحاشـا أن أرى ضـيما وذلا ... ولى نسـب بمدحـك وانتهاء
رجـوتك يابن آمنـة لأنى ... محـب والمحـب له رجـاء
عسى بك تنجلى عنى كروبى ... وكم كـرب له منـك انجلاء
وأنـت لنـا عـلى خـلق عظيم ... ونحن على العموم لك الفداء(٦٥) .

---

(٦٥) اعتمدنا فى هذا العرض على كتاب المدينة المنورة للاستاذ صالح لمعى مصطفى دار النهضة العربية بيروت والمدينة الاسلامية للاستاذ محمد عبد الستار عثمان ـ عالم المعرفة الكويت ومجلة الوعى الاسلامى عدد ربيع الأول ١٤٠٨ وكتاب اعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى .



أحد أبواب المسجد النبوى بعد عمارة الملك عبدالعزيز آل سعود



منظر فريد لما سيكون عليه المسجد النبوى الشريف بعد توسعة الملك فهد الحالية

مسجد قباء

يدرك الزائر للمدينة المنورة حين يزور مشاهدها ومزاراتها التقليدية ، ومن بينها مسجد قباء ، أن هذا المسجد قد تغيرٌ تغيّرا تاما عن المسجد القديم الذى بناه النبى ـ صلى الله عليه وسلم فى هذا المكان .

كان المسجد الذى بناه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسيطا على قدر الحاجة اليه فى ذلك الوقت ، وكان الهدف منه جمع المسلمين فى قباء على إمام واحد . . وقد روعى فيه البساطة المتناهية ، فجدرانه من اللبن ، وفرشه التراب وقبلته فى بدء الأمر الى جهة بيت المقدس ، والمعروف ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يبق فى قباء لحينِ اتمام المسجد . بل شهد وضع أساسه ثم انتقل الى المدينة وأكمل المسلمون البناء .

إلا أن هذا المسجد على تواضعه وبساطته قد شرف بما نزل فيه من قوله ـ تعالى :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٦٦)

لقد تطور هذا المسجد حتى أصبح الآن آية رائعة فى الفن المعمارى الذى يشهد بالتقدم والعظمة . يضاف الى ذلك ما تتركه الذكرى العاطرة فى النفوس من روعة وجلال . يلمس الزائر ذلك بنفسه حين يتمثل فى خاطره كيف أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ أربعة عشر قرنا خلت وضع بيده

---

(٦٦) التوبة ١٠٨

الشريفة بعض أحجار هذا المسجد ، وربما ضرب بمعوله فى تسوية أرضه أو حفر أساسه . . لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدوة لأمته فى التواضع . وقمة مع ذلك فى السمو .

لقد كان من دلائل عظمة الاسلام أن يهىء الله لدور عبادته من يسمو بها الى درجة عالية من الفن وعظمة البناء ، ويمهد أمام المتعبد الطريق ليجد فى دار العبادة مكانا يستريح فيه وجدانه كما يستريح فيه جسمه . . ان دور العبادة هى بيوت الله . فلماذا لا يتنافس المتنافسون فى تهيئة بيوت الله بما يليق بها من جمال وجلال دون مغالاة فى زخرف أو زينة قد تصرف فكر المتعبد أو نظره ؟

لا نغالى اذا قلنا إنه اصبح من الضرورى أن ترتفع هامات المساجد الى الذرا وأن تكون صورة مشرقة تعكس رفعة الاسلام وعظمته ، وأن تكون آية فى النظافة والأناقة ، وأن يحس المشاهد فيها أن الاسلام دين لا يجافى التقدم العلمى والعمرانى والفنى ، طالما كان هذا التقدم مستوحى من إشراقات هذا الدين وهادفا لاعزازه .

ولنعد بذاكرتنا الى الوراء ، نعيش فى عَبَق الأيام المباركة المقدسة التى وطئت فيها قدما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرض قباء . . كان ذلك فى يوم الاثنين الثامن من ربيع الأول على الراجح من أقوال الرواة . وظل بها حتى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول حيث دخل المدينة وكان يوم جمعة .

وفى خلال هذه الأيام الأربعة بدأ النبى - ﷺ - بناء مسجد قباء . كان أصله مربدا لكلثوم بن الهدم ، وقد أسسه الرسول - ﷺ - لبنى عمرو بن عوف ، وهم الذين استقبلوا المهاجرين حين قدومهم من مكة .

قال الزرقانى : وأسس - ﷺ - مسجد قباء وصلى فيه . . كان لكلثوم بن الهدم مربد ، فأخذه - ﷺ - فأسسه وبناه مسجدا - وأخرج عبد الرزاق والبخارى عن عروة وابن عائذ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

الذين بنى فيهم المسجد الذى أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف .

وروى يونس فى زيادات المغازى عن الحكم بن عتيبة : لما نزل رسول الله - ﷺ - قباء قال عمار بن ياسر : مالرسول الله بد من أن نجعل له مكانا يستظل فيه من حر الشمس ، ويصلى فيه ، فجمع حجارة ، فبنى مسجد قباء فهو أول مسجد بنى ، يعنى فى الإسلام .(٦٧)

الخلاف فى أول مسجد

وهذه الأخبار كلها تشير إلى أن مسجد قباء هو أول مسجد أسس فى الإسلام وأنه هو المعنى بقوله - تعالى -

« لمسجد أسس على التقوى من أول يوم »

إلا أن هناك أخبارا أخرى تقول : إن الأنصار فى المدينة كانوا قد أقاموا بعض المساجد الصغيرة فى المدينة قبل هجرة الرسول - ﷺ - إليها .

---

(٦٧) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج ١ ص ٣٥٢

وروى ابن أبي شيبة عن جابر قال : لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله - ﷺ - بسنتين نعمر المساجد ونقيم الصلاة ، وقد أقام المتقدمون فى الهجرة من أصحاب رسول الله - ﷺ - والأنصار بقباء مسجدا يصلون فيه ، فلما هاجر - صلى الله عليه وسلم - وورد بقباء صلى فيه إلى بيت المقدس . . ثم غير رسول الله - ﷺ - فى بناء المسجد وقدم القبلة . . . .

قال القسطلانى : وهو المسجد الذى أسس على التقوى - على الصحيح فى تفسير الآية ، والشائع المشهور من أقوال العلماء ، وجزم به بعضهم .

إلا أن بعض الصحابة منهم ابن عمر وأبوسعيد وزيد بن ثابت ذهبوا إلى أن المقصود بالمسجد المذكور فى الآية مسجد المدينة .

وذكر البيهقى فى دلائل النبوة أخبارا تؤيد هذا الاتجاه وتؤكده . . منها : -

ما رواه عن أبي سلمة عن أبي سعيد - قال : دخلت على النبى - ﷺ - وسلم فسألته عن المسجد الذى أسس على التقوى ، فقبض قبضة من الحصباء ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : هذا - يعنى مسجد المدينة .[٦٨]

وما رواه عن أبي سعيد الخدرى أن رجلين تلاحيا فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد رسول الله - ﷺ - وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فذهبا إلى رسول الله - ﷺ - فسألاه عن المسجد الذى أسس على التقوى . فقال رسول الله - ﷺ - : المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجدى هذا .[٦٩]

---

(٦٨) رواه مسلم فى مناسك الحج

(٦٩) مسند أحمد ٥ / ١١٦ ، وهذا الخبر والذى قبله ذكرهما البيهقى فى دلائل النبوة ج ٢ ص ٥٤٤

قال الزرقانى : والحق أن كلا منهما أسس على التقوى ، وقوله ـ تعالى ـ فى بقية الآية : يحبون أن يتطهروا . . . يؤكد كون المراد مسجد قباء .

روى أبوداود بإسناد صحيح إلى أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال : نزل قوله تعالى :

« رجال يحبون أن يتطهروا » فى أهل قباء

فقوله ـ ﷺ ـ بأن مسجده هو المراد بأنه أسس على التقوى إنما هو لرفع التوهم بأن ذلك خاص بمسجد قباء . .

ولا شك فى أن أول مسجد بنى فى الإسلام ، وأول مسجد صلى فيه النبى ـ ﷺ ـ بأصحابه جماعة علانية ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة هو مسجد قباء .

وإن كانت هناك مساجد خاصة قد سبقته كبناء أبى بكر فى بيته مسجدا كان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، ويرتفع صوته بالبكاء حتى كان ذلك سبباً فى إقبال كثير من الناس على الإسلام فضج المشركون من ذلك ، وطلبوا من ابن الدغنة أن يخلع عن أبى بكر جواره . .

ويعطينا الأستاذ صالح لمعى مصطفى ـ تصورا عن مسجد قباء فيقول : يرجح أن يكون المكان الأصلى عبارة عن قطعة أرض مربعة أحيطت بسور من الحجر ، أُخِذ من الحرة المجاورة ، ومن المؤكد أنه لم يكن به أروقة مغطاة عند أول الإنشاء ، حيث ان الفترة التى قضاها الرسول ـ ﷺ ـ فى قباء كانت قصيرة ـ أربعة أيام ـ ولا تسمح بعمل سقف .

ويبدو أن البناء تم على يد الأنصار بعد انتقال النبى - ﷺ - إلى المدينة حتى نقل عن بعضهم أنه أصبح صُفَّةً من سبعة أساطين ، يرجح أن تكون رواقا واحدا . .

ومن الطبيعى أن يتطور مع الزمن . . فقد زيد المسجد على زمن عثمان بن عفان - رضى الله عنه -

التطور الذى جد عليه

ظل المسجد على حاله تقريبا حتى جاء زمن عمر بن عبدالعزيز أيام أن كان واليا على المدينة فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك - والذى عهد إلية بتجديد المسجد النبوى . .

فأدخل عمر مسجد قباء فى خطة تعميره ، فأعاد بناءه من جديد بعد توسعته - وكان ذلك فى خلال ولايته على المدينة فيما بين عام ٨٧ - وعام ٩٣ هـ ويوافق ذلك بالتاريخ الميلادى عام ٧٠٦ - ٧١٢م

وجعل له عمر بن عبدالعزيز أروقة رحبة فى وسطه ، وبناه بالحجر وأقيمت الدعائم بالحجارة ، ووضع فى وسطها الحديد المغطى بالرصاص المصهور ، وزينت الحوائط بالجص والفسيفساء ، وسقف بالساج ، وجعل له منارة . ولعل الفسيفساء التى استحضرت من الدولة البيزنطية للمسجد النبوى استخدمت فيه ، والعمال الذين عملوا فيه هم الذين عملوا بالمسجد النبوى .

قال الأستاذ صالح : وأرجح أن تكون المئذنة قد أقيمت فى أحد أركان المبنى ولعله هو نفس المكان الذى توجد به المئذنة الحالية . كما أن شكل

المئذنة يمكن تصوره فى شكل برج مربع ، كالتى أقيمت فى عهد معاوية فى ركن من أركان جامع عمرو بن العاص بالقاهرة . وكالمآذن التى أقيمت فى أركان المسجد النبوى فى عهد الوليد .(٧٠)

وكان هناك أطم لبنى عمرو بن عوف يستخدم فى أغراض دفاعية . فأصبح يستخدم فى الإعلان عن الأذان قبل بناء المئذنة المذكورة .

وصحن المسجد مستطيل مساحته ٥٠ × ٢٦ ذراعا ، أما مئذنته فهى مربعة ٩ × ٩ أذرع وارتفاعها كان ٥٠ ذراعا ، ولها باب بالجهة الجنوبية . وبلغ ارتفاع سقفه ١٩ ذراعا . .

وقد وصف المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم حـ٣ هذا المسجد فقال ؛ مسجد عامر ، قدامه رصيف وفضاء حسن وماء عذب .

ويستدل من ذلك أن المسجد فى هذه الفترة التى أشار اليها كانت حالته جيدة وتقام به الصلاة .

وقد تم تجديد المسجد فى عهد الشريف أبى يعلى أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن سنة ٤٣٥هـ ـ على يد الشريف حسن المسلم ـ يدل على ذلك ما أورده الأنصارى قال : وجد فى القرن العشرين أعلى المحراب هذه الآية : بسم الله الرحمن الرحيم .

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨ ﴾ (٧١)

---

(٧٠) المدينة المنورة ص ١٦٣

(٧١) التوبة ١٨

أمر بعمارة ـ مسجد قباء ـ الشريف أبو يعلى أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن ـ رضى الله عنه ـ ابتغاء ثواب الله وجزيل عطائه ، على يد الشريف حسن المسلم ابن عبدالله بن مساك فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة [٧٢] .

وتجدد المسجد مرة أخرى سنة ٥٥٥هـ وذلك بعد أن تهدم جزء منه ، والذى جدده هو الوزير جمال الدين محمد بن على المعروف بالجواد الأصفهانى وقد زار ابن جبير المسجد بعد هذا التجديد الأخير بربع قرن سنة ٥٨٠هـ ووصفه ، فقال فى وصفه :

« والمسجد المؤسس على التقوى بقباء مجدد ، وهو مربع مستوى الطول والعرض ، وفيه مئذنة طويلة بيضاء تظهر على بعد ، وفى صحنه مما يلى القبلة شبه محراب على مصطبة ، هو أول موضع ركع فيه النبى ـ ﷺ ـ وفى قبلته محاريب ، وله باب واحد من جهة الغرب . .

وفى قبلة المسجد دار لبنى النجار ، وهى دار أبى أيوب الأنصارى ، وفى الغرب من المسجد رحبة فيها بئر ، وبجوارها متسع يتوضأ الناس فيه ، ويلى دار بنى النجار دار عائشة ـ رضى الله عنها ـ وبإزائها دار عمر ، ودار فاطمة ـ ودار أبى بكر ـ رضى الله عنهم ، وبإزائها بئر أريس التى تحول ماؤها ببركة النبى ـ ﷺ ـ الى ماء عذب بعد أن كان أجاجا ، وفيها وقع خاتمه من يد عثمان ـ رضى الله عنه ـ

وآثار هذه القرية المكرمة ومشاهدها كثيرة لا تحصى » . [٧٣]

---

(٧٢) المدينة المنورة ص ٢٩٨

(٧٣) رحلة ابن جبير ص ١٤٥

كان المسجد فى هذه الفترة مربعا سعته ٦٨ × ٦٨ ذراعا ، وهى نفس المساحة التى كانت للمسجد الذى جدده الوليد بن عبدالملك . وكان ارتفاعه عشرة أمتار أى عشرين ذراعا ، وارتفاع المئذنة فوق السطح أحد عشر مترا تعلوها قبة بارتفاع خمسة أمتار ، وبالمسجد ٤٩ اسطوانة بين كل اسطوانة والأخرى سبعة أذرع ، وللمسجد ثمانى نوافذ بكل جانب . . .

إضافات أخرى وتجديدات

ويبدو أنه لم تكن هناك إضافات جديدة لمدة طويلة بعد ذلك ـ فان ابن بطوطة فى كتابة يعطى نفس الأوصاف التى ذكرها ابن جبير ، بما فى ذلك الدور المنسوبة إلى أبى أيوب الأنصارى وأبى بكر وعمر وفاطمة وعائشة ـ رضى الله عنهم . .[٧٤]

وربما كانت هذه الدور قد أنشئت بعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أنه فى نهاية القرن التاسع الهجرى كان طول المسجد تسعة وسبعين ذراعا ، وحائط القبلة سبعين ذراعا والحائط الشمالى ثمانية وستين ذراعا تقريبا . . وبذلك أصبح المسجد مستطيلا بعد أن كان مربعا . كما تغير ارتفاعه فأصبح ارتفاع الواجهة الغربية من الخارج ٢٤ ذراعا . .

وتوالت يد الاصلاح والتجديد على المسجد عبر العصور .

لقد كان المسلمون ينظرون اليه نظرة خاصة على أنه أول مسجد فى الإسلام فتنافسوا فى تقديم ما يمكن أن يقدموه له من العناية والتعمير ، وكانوا يتلمسون المواضع التى لمسها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو تشرفت به فيحيطونها بهالة من الحفظ والتقدير الذى تستحقه . .

---

(٧٤) راجع رحلة ابن بطوطة ص٨٦

فقد أشار المؤرخون الى المشاهدات التى رئى عليها المسجد خلال القرن التاسع عشر الميلادى ، وأنه كان على صورة رائعة من الجمال الذى أضفاه عليه السلطان عبد الحميد الثانى . وأشاروا الى وجود محراب من الرخام فى المكان الذى كان يصلى فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ به كتابات كوفية ـ غير موجودة حاليا ـ كما ان مبرك الناقة محدد بقبة محمولة على أربعة أعمدة بمسطح ٨×٨ قدم ـ وهذا غير موجود حاليا .

وقد جدده السلطان التركى محمود الثانى عام ١٢٤٥ هـ وكذلك السلطان عبد المجيد الأول بعد ذلك وأجرى فيه إصلاحات متعددة . .

وقد حليت جدران المسجد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية ، وبخاصة المحراب . وهناك نص قرآنى أعلى المحراب بحائط القبلة يمثل البسملة ثم آية التوبة

« لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » .

كما أن هناك حديثا شريفا مثبتا فوق المحراب أيضا هو :
قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كان كأجر عمرة » .

ومازال هذان النصان موجودين فى المحراب بعد تطوير المسجد فى عهده الراهن . . وهناك نصوص مكتوبة باللغة التركية ، وترجمتها بالعربية تعكس رغبة السلطان فى حسن إعمار المسجد ، كما أنها تضمن دعاء للسلطان .

ولقوة العلاقة بين مسجد قباء ومسجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد حدثت عملية نقل للآثار بين المسجدين ..

فالمنبر الرخامى الموجود فى مسجد قباء نقل إليه من مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن أرسل السلطان مراد منبرا جديدا للمسجد النبوى عام ٩٩٨ هـ وكان المنبر المنقول قد أرسله السلطان قايتباى الى المسجد النبوى قبل التاريخ المذكور بقرن وعشر سنوات .

وفى العصر الحاضر ـ عصر الاسرة السعودية ـ حدثت لمسات فنية وإصلاحية وتوسعية وجمالية فى المسجد الشريف ..

والمشاهد لمسجد قباء الآن يلمس بنفسه مقدار الافادة من التقدم التكنولوجى فى خدمة المسجد ومرافقه .

لقد أضيف الى المسجد أضعاف مساحته ، وأصبح صحنه الواسع مغطى بستارة تفتح وتغلق كهربائيا ، مع استخدام التكييف المركزى الذى يشعر المصلين بأنهم فى جو لطيف يعين على أداء العبادة بانشراح صدر وحسن إقبال .

إن هذه الخدمات الممتازة المتطورة التى تقدم للعُبَّاد لا تجافى روح الزهد الذى يدعو اليه الاسلام .. لأن الزهد فى حقيقته هو عدم تعلق القلب بزهرة الحياة الدنيا ، بحيث تطغى الدنيا على الآخرة .. ولا يمنع الزهد فى الدنيا وحب الآخرة من الأخذ بالأسباب التى أوجدها الله ، وسخرها لنا فى هذه الحياة ، وتسخير هذه الأسباب لطاعة الله ورفعة شأن دينه ..

فضل مسجد قباء

ولهذا المسجد فضل لا ينكر ـ منه ذكر الله اياه فى القرآن حيث قال فى حقه :

« لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه »

وهذه تزكية عظيمة ترفع من شأن هذا المسجد كما ترفع من شأن أهله الذين يحبون أن يتطهروا ، فأحبهم الله لذلك .

وقد أشار العلماء الى طهارتهم هذه فقالوا : إنهم كانوا يبالغون فى إزالة النجاسة والتحرز منها ، وكانوا يجمعون فى استنجائهم بين الحجر والماء .

وهذا يدل على أن الاسلام دين نظافة وطهر ، وهو يحث أهله على وجوب الحرص عليهما .

قال العلماء : لما نزل قوله ـ تعالى

« فيه رجال يحبون أن يتطهروا »

أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الأنصار يسألهم عن ذلك فقال : ماهذا الطهور الذى أثنى الله عليكم به ؟ فقالوا :

يارسول الله ، ماخرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا وقد بالغ فى الغسل والطهارة . . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو هذا .

وفى لفظٍ أتاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مسجد قباء ،

ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فاذا الأنصار جلوس ، فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكت القوم ، ثم أعادها . فقال عمر : يارسول الله ، انهم لمؤمنون وأنا منهم .

فقال عليه الصلاة والسلام ـ : أتؤمنون بالقضاء ؟

قالوا : نعم

قال : وتصبرون على البلاء ؟

قالوا : نعم

قال : أتشكرون على الرخاء ؟

قالوا : نعم

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : مؤمنون ورب الكعبة .

ثم جلس وقال : يا معشر الأنصار إن الله ـ عز وجل ـ قد أثنى عليكم ، فما الذى تتبعون عند الوضوء وعند الغائط ؟

فقالوا : يارسول الله ، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ، ثم نتّبع الأحجار الماء

فتلا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى :

« فيه رجال يحبون أن يتطهروا(٧٥) »

ومن فضل هذا المسجد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشترك فى بنائه بنفسه ، فقد ورد عن الشموس بنت النعمان ـ رضى الله عنها ـ قالت : نظرت الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم ونزل وأسس

---

(٧٥) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٨

المسجد ـ مسجد قباء ـ فرأيته يأخذ الحجر أو الصخرة حتى يصهره الحجر ـ اى يُتْعِبه ـ فيأتى الرجل من أصحابه فيقول : يارسول الله بأبي أنت وأمى تعطينى الحجر أكفك حمله يارسول الله ـ فيقول : لا ، خذ مثله ، وظل يعمل حتى أسسه .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أراد بناءه قد قال : يا أهل قباء ائتونى بأحجار من الحرة ، فجمعت له أحجار كثيرة ، فخط القبلة ثم أخذ حجرا فوضعه ثم قال : يا أبابكر خذ بحجر فضعه الى جنب حجرى ، ثم قال : ياعمر خذ حجرا فضعه الى جنب حجر ابى بكر ، ثم قال : يا عثمان خذ حجرا فضعه الى جنب حجر عمر .

قال بعضهم : كأنه ـ صلى الله عليه وصلم ـ أشار الى ترتيب الخلافة . وربما كانت هذه الحادثة فى مسجد المدينة ، أو ربما تكررت أيضا فى مسجد المدينة .

ومن فضل مسجد قباء أيضا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يأتى اليه من المدينة للصلاة فيه كل يوم سبت ماشيا وراكبا ، وقال فى حقه : من توضأ وأسبغ الوضوء ثم جاء مسجد قباء فصلى فيه كان له أجر عمرة(٧٦) » .

وفى رواية : « من صلى فى مسجد قباء يوم الاثنين والخميس رجع بأجر عمرة » .

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يأتيه يوم الاثنين ويوم الخميس وقال : لو

---

(٧٦) رواه الترمذى والحاكم عن أسيد بن حضير

كان بطرف من الأطراف ـ وفى رواية فى أفق من الآفاق ـ لضربت اليه أكباد الإبل .

وصحح الحاكم عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر الاختلاف الى قباء ماشيا وراكبا .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى ـ عنه عن أبيه قال : خرجت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الاثنين الى قباء . .

وعن ابن عمر أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يأتى مسجد قباء فيصلى فيه ركعتين . . . وعنه قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى قباء فقام يصلى فجاءته الأنصار تسلم عليه . فقلت لبلال : كيف رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرد عليهم ؟ قال : يشير اليهم بيده وهو يصلى[٧٧] . .

وفى هذه الآثار ما يدل على فضل هذا المسجد وجواز قصده للصلاة فيه لكن دون شد الرحال إليه خاصة ، لأن الرحال لا تشد الا الى المساجد الثلاثة الواردة فى الحديث « لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » .

. . . وان كان قول عمر ـ رضى الله عنه : لو كان فى طرف من أطراف الأرض أو فى أفق من الآفاق ، لضربت اليه أكباد الإبل ـ يشير الى جواز شد الرحال اليه . . .

---

(٧٧) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٨

مسجد الجمعة

ومادمنا قد تحدثنا عن مسجد قباء ، فمن الحق علينا أن نشير الى مسجد الجمعة ، وهو المسجد الذى أقيم فى الموضع الذى صلى فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - الجمعة عند خروجه من قباء متجها الى المدينة المنورة ، ويعرف هذا المسجد بمسجد الوادى أيضاً وقد بنى هذا المسجد فى زمن النبى - صلى الله عليه وسلم -

وبنى على النمط الذى بنى عليه مسجد النبى - صلى الله عليه وسلم - باستعمال الأساس من الحجر يعلوه الطوب اللبن ، وسقيفة جهة القبلة محولة على أعمدة من جذوع النخل ، والسقف من سعف النخل المغطى بطبقة طينية .

وهو مسجد صغير ، يقال ان عمر بن عبد العزيز أقام مكانه مسجدا جديدا من الحجر المنحوت .

كان هذا المسجد فى أرض بنى سالم بن عوف - حيث أدركت الصلاة النبى - صلى الله عليه وسلم - فصلاها بمن معه ، وكانوا مائة ، وقيل : كانوا أربعين . .

ويسمى الوادى الذى أقيم فيه المسجد وادى رانوباء - بوزن عاشوراء - ويقال ان اسم الوادى أيضا : ذو صلب . وتسميته مسجد الجمعة لأنه أقيم فى مكان أداء صلاة الجمعة ، وهى أول جمعة يصليها النبى - صلى الله عليه وسلم - ويلقى فيها أول خطبة للجمعة . .

قال القسطلانى : وهو مسجد صغير مبنى بحجارة قدر نصف القامة ، وهو على يمين السالك الى مسجد قباء[٧٨] .

وربما أسس هذا المسجد بعد صلاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكانه ، فأقيم المسجد تبركا بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جريا على عادة الصحابة فى تبركهم بآثاره ـ صلى الله عليه وسلم .... عن نافع ان عبد الله بن عمر حدثه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى حيث المسجد الصغير الذى بِشَرَف الروحاء ، وقد كان عبد الله يعلم المكان الذى صلى فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ... يقول : هو عن يمينك حيث تقوم فى المسجد تصلى ، وذلك المسجد على حافة الطريق اليمنى ، وأنت ذاهب الى مكة بينه وبين المسجد الأكبر رمية بحجر أو نحو ذلك[٧٩] .

تجديد المسجد فى العصر العباسى

وفى العصر العباسى جدد هذا المسجد ، تجديدا شاملا سنة ١٥٥ هـ ويبدو أنه كان قد أهمل ، أو أن تجديده فى العصر الأموى لم يكن على مستوى تجديد المسجد النبوى .

وتعاقبت عليه التجديدات بعد ذلك .. ففى عهد السلطان سليم العثمانى سنة ٩١٨ هـ جدد هذا المسجد تجديدا شاملا وأصبح يتكون من إيوان ورحبة ، ويبلغ طوله ثمانية أمتار وعرضه أربعة أمتار ونصف وارتفاعه حوالى ستة أمتار ، أما الرحبة فهى ثمانية أمتار فى ستة ومحاطة بسور يبلغ ارتفاعه مترين[٨٠] .

---

(٧٨) المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٥٤
(٧٩) مفاهيم يجب أن تصحح ـ الشيخ محمد علوى المالكى ص ١٤٧
(٨٠) المدينة المنورة ص ١٨٠

المساجد السبعة

هى من المعالم التى يحرص الزائرون للمدينة المنورة على زيارتها ويضعها القائمون على رحلات الحج والعمرة ضمن المزارات التى يتوجه اليها الحجاج والمعتمرون عند زيارتهم للمدينة المنورة .

وتسمى بمساجد الفتح ، وتقع بالجهة الشمالية الغربية لجبل سلع ، وهذه المساجد هى : مسجد الفتح ، ومسجد سلمان الفارس ، ومسجد أبى بكر الصديق ، ومسجد عمر بن الخطاب ، ومسجد على بن أبى طالب ، ومسجد السيدة فاطمة الزهراء ، وقد صلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمساجد التى حول مسجد الفتح[٨١] .

وترجع تسميته مسجد الفتح إلى أن الله سبحانه وتعالى أنزل سورة الفتح على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا المكان ، أو لأن الله أنزل نصره على المؤمنين فى غزوة الأحزاب فى هذا المكان ، ولذلك فقد عرف هذا المسجد أيضاً باسم مسجد الأحزاب ، وقد ذكر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا ربه فى هذا المكان بأن ينصره على الأحزاب ، ويطلق أيضاً عليه اسم المسجد الأعلى لأنه يوجد فى مكان مرتفع فوق جزء من جبل سلع ، بالنسبة لباقى المساجد .

وكان هذا المسجد فى أثناء غزوة الأحزاب بشكل مصلى ، ثم بنى بعد ذلك فى صورة مسجد ، ثم عمره عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ بعد

---

(٨١) المدينة المنورة ص ١٨٣

عمارة المسجد النبوى وعلى مقربة منه مسجد سلمان الفارس ، وهو الذى أشار على النبى - صلى الله عليه وسلم - بحفر الخندق فى غزوة الأحزاب ، وقد يكون هذا المسجد بنى فى عهد عمر بن عبد العزيز عندما بنى مسجد الفتح .

وفى جنوب غرب مسجد سلمان يقع مسجد أبى بكر الصديق - رضى الله عنه . . ومسجد على بن أبى طالب وهو مسجد صغير كغيره ، مساحته من الداخل : من الشمال إلى الجنوب ثلاثة عشر ذراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب ستة عشر ذراعاً . وقد جددت تلك المساجد عدة مرات .

أما مسجد عمر بن الخطاب فلم تشر المصادر القديمة إلى وجود مسجد بهذا الاسم فى العصور الاسلامية الأولى وربما يكون هذا المسجد قد جدد بعد ذلك ، واتبع فى انشائه نظام المساجد الأربعة السابقة . وهو يقع فى الجنوب الشرقى من مسجد أبى بكر .

وكذلك الأمر بالنسبة للمسجد المنسوب إلى السيدة فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - فإن المصادر القديمة لم تشر إلى وجود مسجد فى هذه المنطقة بهذا الاسم ومن الممكن أن يكون قد جد بعد المساجد الأربعة الأولى كما هو الشأن فى مسجد عمر وهذا المسجد يقع إلى الجنوب الغربى لمسجد عمر بن الخطاب . وربما كان مصلى فى أثناء غزوة الأحزاب ثم تحول إلى مسجد بعد ذلك . وربما يكون قد أنشىء فى خلال العصر العثمانى . . .

ومن خلال ذلك العرض ندرك أن هناك مسجداً كان فى أيام النبى - صلى الله عليه وسلم - هو مسجد الفتح ، أنشئت بجواره هذه المساجد التى جدت بعد ذلك ، وقد يكون بعضها تم فى العصور المتقدمة وبعضها تم فى العصور المتأخرة .

وعلى كل فهى مساجد تحمل عبير الذكرى لهؤلاء الأعلام الذين سميت بهم هذه المساجد لنتذكر ما صنعوا من أجل الاسلام ، وما قدموه من جهود وتضحيات .

مسجد القبلتين

ومن المساجد التى يحرص الزائرون على زيارتها مسجد القبلتين ، وقد أقيم على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقامه بنو سواد بن غنم بن كعب .

أما سبب تسميته بمسجد القبلتين فلأن المسلمين كانوا يصلون إلى بيت المقدس ثم تحولت القبلة إلى الكعبة . ونزل فى ذلك قوله ـ تعالى

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٨٢)

---

(٨٢) البقرة ١٤٢ : ١٤٤

وصل المسلمون فى المدينة إلى جهة الكعبة ، وكان أهل هذا المسجد لم يبلغهم الأمر بتحويل القبلة ، فمر عليهم رجل وهم يصلون العصر فوجدهم يصلون إلى بيت المقدس فصاح بهم أن حولوا وجوهكم إلى الكعبة ، فتحولوا مع الأمام إلى جهة الكعبة وأتموا صلاتهم إلى جهتها . . فسمى المسجد بذى القبلتين لأنهم صلوا نصف صلاتهم إلى بيت المقدس ونصفها الآخر إلى الكعبة . .

جاء فى تفسير ابن كثير : روى البخارى قال حدثنا أبو نعيم عن أبى إسحاق عن البراء ـ رضى الله عنه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، وكان يحب أن تكون قبلته نحو البيت الحرام فنزل الأمر بتحويل القبلة وكانت أول صلاة صلاها إلى جهة البيت ـ صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل مسجد وهو راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مكة ، فداروا وهم فى صلاتهم شطر البيت[٨٣] .

ويقال ان أهل مسجد قباء وقع لهم مثل ذلك ، ولكن مسجدهم لم يتحول عن أسمه ، والحديث الذى ذكره البخارى يوضح أن تحويل القبلة كان فى صلاة العصر إلا أن أغلب الروايات تؤكد أن التحويل تم فى صلاة الظهر ، بعد تناول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الطعام فى منزل أم بشر بن

---

(٨٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٤ ط دار الشعب

البراء بن معرور . . ولكن البخارى يشير الى أن أول صلاة صليت من أولها إلى جهة البيت الحرام كانت صلاة العصر . أما صلاة الظهر فقد صدر الأمر بتحويل القبلة فى أثنائها . .

وقد حدث ذلك الحدث الهام فى الخامس عشر من شعبان من العام الثانى للهجرة ويوافق ذلك من التاريخ الميلادى الحادى عشر من فبراير عام ٦٢٤م . وكان هذا المسجد الذى سمى مسجد القبلتين خارج المدينة المنورة ، وهو مسجد صغير كغيره من المساجد التى أنشئت فى عصره . إلا أنه جدد فى عهد عمر بن عبد العزيز أيضاً مع كافة المساجد التى جددت فى المدينة فى هذا العهد . .

ثم شملته يد التجديد أيضاً فى عهد السلطان قايتباى ثم فى عهد سليمان القانونى عام ٩٥٠هـ . .

ويقع هذا المسجد فى الطرف الشمالى الغربى للمدينة . . وقد أصبح الآن آية فى الجمال والفن المعمارى ، فقد مسته يد التعمير التى شملت المدينة المنورة فأضفت عليه كثيراً من الروعة والجمال . .

مساجد أخرى أنشئت فى عهد الرسول ﷺ

من المساجد التى أسست فى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو فى مكان أقام أو صلى فيه ـ مسجد يسمى مسجد الشمس وهو مسجد يقع شرقى مسجد قباء ، وفى شرقى قرية العوالى بالقرب من الحرة الشرقية .

ومساحته تسعة عشر متراً طولاً فى أربعة أمتار عرضاً . وله صحن تبلغ مساحته حوالى أربعة عشر متراً ، وهو مبنى بالحجر البازلتى . .

ولعل هذا المسجد قد عرف باسم مسجد الشمس ، بسبب شروق الشمس عليه أولاً قبل مبانى المنطقة .

وقد أعيد بناء هذا المسجد عام ١٢٦٦هـ فى عهد السلطان عبد المجيد الأول .

مسجد الاجابة

وهناك مسجد آخر أنشىء فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنشأه بنو معاوية بن مالك بن عوف من الأوس - يقع شمالى البقيع على يسار السالك إلى العريض :

وقد ذكر أن سبب تسميته بذلك هو أن النبى - صلى الله عليه وسلم - صلى فيه ودعا فأجاب الله دعاءه وكان ذلك بمناسبة نزول قوله - تعالى -

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٨٤)

---

(٨٤) الأنعام ٦٥

فقد ذكر الرواة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا ربه ألا يهلك أمته بالجدب أو بالغرق ، فأجابه .

جاء فى تفسير القرطبى : روى مسلم عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ان الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وانى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها بسنة عامة ، وألا يسلط عليهم عدوا فيستبيح بيضتهم ، وان ربى قال : يا محمد ، انى اذا قضيت قضاء فانه لا يرد ، وانى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا .

وروى النسائى عن خباب بن الأرت ـ وكان قد شهد بدرا ـ مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه راقب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى ليلة بطولها حتى كان مع الفجر ، فلما سلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صلاته جاءه خباب فقال : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أجل ، إنها صلاة رَغَب ورَهَب ، سألت الله ـ عز وجل ـ فيها ثلاث خصال ، فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة ، سألت ربى ـ عز وجل ـ ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها ، وسألت ربى ـ عز

وجل - ألا يظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطانيها ، وسألت ربي - عز وجل - ألا يلبسنا شيعا وأن لا يذيق بعضنا بأس بعض فمنعنيها .

قال القرطبي : وروى أنه لما نزلت هذه الآية قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لجبريل :

ياجبريل مابقاء أمتي على ذلك ؟

فقال له جبريل : انما أنا عبد مثلك ، فادع ربك وسله لأمتك .

فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتوضأ وأسبغ الوضوء ، وصلى وأحسن الصلاة ، ثم دعا فنزل جبريل وقال : يا محمد ، ان الله تعالى قد سمع مقالتك فأجارهم من خصلتين ، وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : يا جبريل ، ما بقاء أمتي اذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض ؟

فنزل جبريل بهذه الآية :

﴿ الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ③ ﴾ (٨٥)

---

(٨٥) العنكبوت ١ : ٣

ومعنى ذلك أن الفتنة ليست الا تمحيصا للمؤمنين حتى يظهر الصادقون فى ايمانهم من غيرهم ، وحتى يُعْرَف من يعبد الله حق عبادته ممن يعبد الله على حرف . .

وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت أرجلكم »

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أعوذ بوجه الله من ذلك . . فلما نزل قوله

« أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض »

قال : هاتان أهون(٨٦) .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حريصا على نجاة أمته من الفتن ، ولذلك كان دائم الاستعاذة منها ، جاء فى سنن ابن ماجة عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال :

لم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدع هذه الكلمات حين يمسى وحين يصبح : « اللهم انى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم انى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك أن أغتال من تحتى »

---

(٨٦) تفسير القرطبى ـ سورة الانعام ص٢٤٤٦ ـ ط دار الشعب

وقد استطردنا فى بيان سبب تسمية هذا المسجد لأن حالة المسلمين اليوم تستدعى ذلك . فهاهم الآن تتوزعهم الفتن وتتقسمهم الأهواء والخلافات . يتناحرون فيما بينهم ويتركون عدوهم المتربص بهم الذى يكيد لهم ويتحين الفرص لإهلاكهم .

لقد اجتهد النبى - صلى الله عليه وسلم - لأمته وحذرهم من هذا المصير ، مصير الخلافات والتنازع لأنه هو الذى يهدم كيانها ويصدع بنيانها ، فأى مصيبة أعظم من أن يكيد المسلمون بعضهم لبعض وقد أعلم الله نبيه ان هذه فتنة كالفتن التى أصابت الأمم قبل ذلك ، ولابد للأمة من محنة تتعرض لها . . وقد ظل النبى - صلى الله عليه وسلم - يدعو ليعلم أمته كيف يلجأون الى الله فى الاستغاثة به من الفتن ، والتضرع اليه فى النجاة منها وسلوك الأسباب المؤدية الى تجنبها أو الخروج منها . .

وقد أنزل الله عليه قوله - تعالى -

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٨٧)

لقد تعوذ النبى - صلى الله عليه وسلم - فأعاذه الله ، فلم ير من أمته الا الجماعة والألفة والطاعة ، ثم أنزل الله عليه آيات حذر فيها أصحاب

---

(٨٧) المؤمنون ٩٣ : ٩٤

الفتنة ، كما حذر الناس من الخوض فيها ، وبين أن عقاب أهل الفتن ربما عم غيرهم لسكوتهم عنهم وعدم نهيهم عما هم فيه فقال تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٨٨)

على أن الفتن التى تعترض الأمم وان كانت شرا إلا أنها من الشر الذى يمكن أن يخلص منه الى الخير . لأن التجارب تمحص الأمم وتزيدها قوة وصلابة واستمساكا بالحق .

إن الحديث الذى رواه ثوبان وذكرناه منذ قليل ـ من أن الله زوى الأرض للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرأى مشارق الأرض ومغاربها . . . فهم منه البعض أن ذلك شر قد يصيب الأمة ، وأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرد لأمته ذلك الاتساع الذى تصل اليه . . ولكن الأستاذ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار أوضح الصواب فى هذا الأمر ، وذكَّر المسلمين بواجبهم نحو ما فتح الله أمامهم من مغاليق الدنيا والعلم ، وقال فى ذلك :

ان لأحوال الأمم العامة تأثيرا عظيما فى فهم أفرادها لنصوص الدين وغيرها من أقوال الحكماء والعلماء ، فهى فى حال ارتقائها بالعلم والحكمة وما يثمران من العزة والقوة تكون أصح أفهاما وأصوب أحكاما وأكثر اعتبارا

---

(٨٨) الأنفال ٢٥

وادكارا ، وأحسن استفادة واستبصارا ، وفى حال فشو الجهل والغباوة والبعد عن فهم تعاليم الدين ونصوصه تكون بالضد من ذلك .

والمثل فى ذلك ان النصوص المأثورة فى ذم الطمع والحرص على المال لم تصد الأمة فى طور حياتها المتقدمة عن الفتح والكسب ، بل كانت حافزة لها على إعزاز دينها ورفع شأنه عن طريق المال الذى يحصله الأفراد واستعماله فى سبيل البر وأعمال الخير . . . كانت هذه النصوص كالغذاء الصالح للجسم السليم يزيده قوة . . . فالمؤمن الأفضل عند الله هو المؤمن القوى فى كل شيء فى دينه وبدنه وماله ، ثم هو الذى يسخر قوته وماله فى رفع شأن المسلمين ، واعزاز الاسلام فاذا عرفنا ذلك فان من واجبنا ان نجعله مرآة لما ورد فى الأحاديث النبوية من أنباء مستقبل الأمة الاسلامية كسعة ملكها فى مشارق الأرض ومغاربها ، ثم تداعى الأمم عليها كما تتداعى الأكلة الى قصعتها ثم تفرقها شيعا وأحزابا ووقوع بأسها بينها وغير بذلك من الفتن .

فما أصاب الأمة الاسلامية مَن محن انما هو بسبب سوء فهمهم لنصوص دينهم بعد فشو الجهل فيهم ، ورضاهم بالدنية ، وتخليهم عن قيم دينهم ومبادئه . .

لقد وطن جماهير المسلمين أنفسهم منذ قرون على الرضا بماهم فيه من فتن وشرور فقعدت هممهم عن القيام بما أمر الله ـ تعالى ـ به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ودفع المكروه والدفاع عن الحق بقدر

الاستطاعة . . معتذرين عن أنفسهم بأن ذلك قدر ، قد ورد بوقوعه الخبر ، فلا مهرب منه ولا مفر . .

مع أن الأحاديث التى أخبرت بالفتن ، انما أخبرت بذلك لنحذر ونفكر ونحاول بقدر المستطاع تجنب ذلك . .

ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يخبر أمته بما سيقع فيها من التفرق والشيع الا لأجل أن يكونوا على بصيرة من أمرهم فى مقاومة الضر واتقاء الشر لا لأجل ان يتعمدوا إثارة الفتن والاصطلاء بنارها واقتراف أوزارها ، فمثله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كمثل الطبيب الذى يخبر المسافرين الى أرض مجهولة لهم بما فيها من الأمراض ليحذروها ويعدوا لأنفسهم طرق الوقاية والعلاج منها . لا لأجل أن يجعلوا أنفسهم عرضة لها(٨٩) .



(٨٩) انظر تفسير المنار ج ٧ ص ٤١٥

عود إلى مسجد الإجابة

عرفنا إذن سبب تسمية هذا المسجد بهذا الاسم ، وقد أشرنا إلى تحديد موقعه من أنه فى شمال البقيع . وهو بناء صغير ، وقد أقيم مكانه مسجد حديث له رواقان وصحن وله مئذنة قصيرة فى الركن الشمالى الغربى ، وقد ألحقت بالمسجد دورة مياه . يبدو أنها حديثة . .

مسجد الشجرة

سمى هذا المسجد باسم الشجرة لأن النبى - ﷺ - فى طريق خروجه إلى مكة كان يصلى تحت شجرة كانت فى موضع هذا المسجد ، ويعرف هذا المسجد الآن باسم مسجد ذى الحُلَيْفَة .

والحليفة هى ميقات أهل المدينة ، وهى تسمى الآن باسم بئر على أو آبار على .

وقد بنى هذا المسجد فوق المكان الذى صلى فيه النبى - ﷺ - تبركا به ويبدو أنه بنى فى عهد عمر بن عبدالعزيز ضمن المساجد التى بناها أو عمرها .

وقد تناولته يد التجديد بعد ذلك . . . وفى العصر العثمانى فى عهد السلطان محمد الرابع سنة ١٠٥٨هـ جدد تجديدا شاملا ، بواسطة أحد المسلمين الهنود وأقيمت له مئذنة وسقف واصبح يتسع لحوالى مائتى مصل .

وأقيم له محراب وضع أعلاه بيتان من الشعر هما :

بمسجد سيد الأبرار كرر   سجودك بالغداة وبالعشى
لعلك أن تمس بحُرِّ وَجْهٍ   مكانا مَسَّه قدم النبى

وفى العصر الحاضر أنشىء المسجد إنشاء جديدا وشمله حسن التجديد والتجميل الذى شمل غيره من المساجد التى جددت فى هذا العصر .

مسجد السقيا

لعل هذا الخبر الذى أورده ابن الاثير يلقى ضوءا على هذا المسجد وسبب تسميته .. قال فى ترجمة على بن على السلمى :

روى عبدالله بن كثير عن بُدَيْح بن سدرة بن علي ـ من أهل قباء ـ عن أبيه عن جده قال :

نزلنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ القاحة ـ وهى التى تسمى اليوم السقيا ـ لم يكن بها ماء ، فبعث النبى ـ ﷺ ـ إلى مياه بنى غفار على ميلين من القاحة ، ونزل النبى ـ ﷺ ـ فى صدر الوادى فى الكهف الذى فيه المسجد ، فنزله فبحث بيده فى البطحاء ، فنديت فجلس ـ ﷺ ـ فخرج الماء ، فسقى ـ واستقى جميع من معه حتى اكتفوا فقال النبى ـ ﷺ ـ : هذه سقيا سقاكموها الله .... (٩٠)

ويشير بعض المؤرخين إلى أن نزول النبى ـ ﷺ ـ عند هذا المكان حيث كان فى طريقه إلى بدر ، وهناك كان المسجد الذى أشار إليه الخبر السابق .

ولم يلبث أن أصبح هذا المسجد اسمه مسجد السقيا نسبة إلى المعجزة التى حدثت فى هذا المكان . . ولم يكن مسجدا كبيرا ، ولكنه كان كسائر المساجد التى أنشئت فى ذلك العهد ، مساحته سبعة أذرع فى مثلها .

وجدد عمارته عمر بن عبدالعزيز كما جدد غيره من المساجد . ثم تجددت عمارته أيضا فى العصر العثمانى . . (٩١)

---

(٩٠) أسد الغابة جـ٤ ص١٢٦

(٩١) رجعنا فى عرض ما ذكرناه من مساجد المدينة إلى بعض المراجع ومن أهمها كتاب « المدينة المنورة تطورها العمرانى وتراثها المعمارى ـ للأستاذ صالح لمعى مصطفى » دار النهضة العربية بيروت

قصة
اليهود في القرآن الكريم

- مسجد الضرار .
- الحكمة من إنشاء المساجد .
- بعض أحكام المساجد التي يجب مراعاتها .
- آداب دخول المسجد .
- الرحلة إلى المساجد .
- جو المدينة قبل الهجرة وبعدها .
- بعض خصائص المدينة .
- الوثيقة التي وضعها الرسول لتنظيم الأوضاع في المدينة .
- موقف اليهود من الوثيقة .
- عبر مستخلصة .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مسجد الضرار

ومادمنا بصدد الحديث عن مساجد المدينة التى أنشئت فى عهد النبى - ﷺ - فلابد من الإشارة إلى ذلك المسجد الذى أنشأه المنافقون ليكيدوا عن طريقه للإسلام والمسلمين . . .

لقد كان الهدف من إنشاء المساجد فى الاسلام أداء الشعائر والعبادة وذكر الله ونشر العلم والمعرفة وإذاعة الخير بين الناس . .

أما هؤلاء فقد أرادوا من مسجدهم هذا أن يكون مثار فتنة وقلاقل وكيد وبث للفرقة والشر . وقد ذكر القرآن الكريم هذا المسجد فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾ (٩٢)

وقصة إنشاء هذا المسجد نتحدث عنها فيما يلى :-

رحب أكثر أهل المدينة - كما عرفنا - بالدين الجديد الذى وفد إلى المدينة ، وتلقفه أهلها بالحب والترحاب . . ولكن بعض أهل المدينة وهم قلة - امتلأت قلوبهم غيظا وحقدا على النبى - ﷺ - وعلى الأنصار الذين التفوا

---

(٩٢) التوبة ١٠٧ ، ١٠٨

حوله وحول إخوانهم المهاجرين . . . يؤثرونهم على أنفسهم وأهليهم ولو كان بهم خصاصة . .

لقد كان حال تلك القلة من القوم عجيبا ، فقد جاءهم الهدى والنور إلى أعتاب دورهم فأبوا إلا أن يغلقوا الأبواب أمامه ، ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا أن يضعوا السدود فى طريقه وأن يزرعوا الأشواك أمامه ، ولكنهم عجزوا عن أن يجهروا بذلك ضعفا وجبنا ، فاحترفوا النفاق ، وزين لهم شيطانهم أن يظهروا اعتناق هذا الدين ويبطنوا خلافه ، حتى يتمكنوا من النيل منه ظنا منهم أن الله لن يكشف كيدهم ويظهر خبثهم ومكرهم .

وكان يتزعم أمر النفاق فى المدينة نفر انساقوا وراء أبى عامر الراهب . الذى لقبه النبى - ﷺ - الفاسق

وهو أبوعامر بن صيفى ، وكان قد تكهن فى الجاهلية ولبس المسرح وأظهر التنسك ، فلما بعث النبى - ﷺ - كفر به . . ومن الغريب أن يكون ابنه حنظلة الشهيد غسيل الملائكة . . .

جاء أبوعامر إلى النبى - ﷺ - حين هاجر إلى المدينة ، فقال له : يامحمد ، ما هذا الذى جئت به ؟

قال النبى - ﷺ - : جئت بالحنيفية دين ابراهيم .

قال أبوعامر : فإنى عليها .

قال النبى - ﷺ - : لست عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها .

فقال أبوعامر : أمات الله الكاذب منا وحيدا طريدا .

فقال النبى - ﷺ - : نعم . أمات الله الكاذب منا كذلك .

فقال أبوعامر : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم .. فلم يزل يقاتل مع أعداء الرسول حتى حنين ، فلما هزمت هوازن خرج إلى الروم مستنصرا بهم على النبى - ﷺ -

لقد ظن أبوعامر أن الهداية وقف عليه وحده ، وأن الحق إذا جاء على لسان أحد غيره فإنما هو الباطل ، وأن الدعوة إلى الرشاد إذا قام بها أحد سواه فإنما هى ضلال وكفر .. ولم يكن أبوعامر هذا يدعو إلى الحنيفية كما ادعى ولكنه كان من الذين غيروا وبدلوا فى ديانة ابراهيم حسب أغراضهم وشهواتهم . ولكن شيطانه سول له أنه على الحق وأن ما يدعو إليه النبى - ﷺ - باطل ...

وقد حقق الله دعاء أبى عامر الذى وافقه عليه رسول الله - ﷺ - بأن يميت الله الكاذب منهما وحيدا طريدا .. فبعد أن ضاق الخناق على أبى عامر هذا خرج غاضبا يحاول أن يثير القبائل على النبى - ﷺ - ولم يكتف بأن يؤلب القبائل العربية ، بل ولّى وجهه شطر الروم يستعديهم على النبى - ﷺ - ، ويهول لهم من أمره ويصورة فى صورة الطامع فى ملكهم ..

وقد استجاب له هؤلاء ومَنُّوه بمناصرته إن كانت له جبهة داخلية تعضده . فكتب أبوعامر إلى إخواته المنافقين يقول لهم : استعدوا فإنى آتيكم من عند قيصر بجند لنخرج محمدا من المدينة .

وحين بلغت رسالة أبى عامر أصحابه فرحوا بها ، وفكروا كيف يجتمعون ليدبروا أمرهم ، فهداهم كيدهم إلى أن يبنوا مسجداً يجتمعون فيه لتدبير

الكيد وإعداد الشر . . وذلك حتى يخدعوا المؤمنين ، ويضللوهم عن حقيقة ما يدور فى تلك الاجتماعات . .

وقد كان مسجد قباء الذى أقيم فى بنى عمرو بن عوف ، وباركه النبى - ﷺ - وصلى فيه - ومازال يفد اليه كل أسبوع للصلاة فيه - كان هذا المسجد يثير الحقد فى نفوس هؤلاء المنافقين ، وكم تمنوا أن يروه أنقاضا حتى لا يجتمع فيه أحد من المسلمين ، ولا يذهب إليه النبى - ﷺ - الذى جمع شمل الأنصار على كلمة واحدة . .

واجتمع المنافقون فعلا وبنوا المسجد ، ومبالغة منهم فى إخفاء هدفهم الحقيقى - جاءوا للنبى - ﷺ - وقالوا : يارسول الله قد بنينا مسجدا لأصحاب الحاجة والعلة والليلة المطيرة ، ونود أن تحضر للصلاة فيه وتشريفه . .

ولكن النبى - ﷺ - كان متجهزا للخروج إلى غزوة تبوك ، فقال لهم : إنى على سفر وإن شاء الله بعد رجوعنا نأتيكم لنصلى فيه . .

فلما انصرف النبى - ﷺ - من تبوك ، وكانوا قد فرغوا من بنائه وصلوا فيه يوم الجمعة والسبت والأحد ، تجهز النبى - ﷺ - للذهاب الى المسجد - فنزل عليه القرآن الكريم يعلمه بهدفهم ويكشف أمرهم ونزلت الآيات الكريمة التى تحذره من الصلاة فيه . .

ودعا النبى - ﷺ - مالك بن الدُّخْشُم ، ومعن بن عدى ، وعامر بن السكن ، ووحْشِياً قاتل حمزة وكان قد أسلم عام الفتح وحسن إسلامه -

فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن الدخشم من منزله شعلة نار ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه .

ومات أبوعامر وحيدا طريدا ، فقد أصابته طعنة ظلت تكبر وتتضخم حتى قضت عليه فى بيت امرأة من سلول فمات غريباً طريداً وقيل : إنه مات ببلاد الروم .. لقد حاقت به دعوته ، ومات وحيداً طريداً ، وذهب إلى النار وبئس القرار ..

وكان الذين تزعموا فكرة بناء هذا المسجد اثنى عشر رجلا منهم : -

● خذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد

● ومعتّب بن قشير ، أسلم ، ولكن ظل النفاق يعيش فى قلبه ، وذكره بعض الرواة فيمن شهد العقبة وبدرا وأُحُدا .. أورد ابن الأثير فى أسد الغابة عنه قول الزبير - رضى الله عنه - : والله لكأنى أسمع قول معتب بن قشير وإن النعاس ليغشانى ، ما أسمعها منه إلا كالحلم وهو يقول : لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا »

وقد قضى الله بنزول هذا القول فى القرآن الكريم(٩٣) . قال تعالى ﴿ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ (٩٤)

---

(٩٣) أسد الغابة جـ٢ ص ٢٢٥

(٩٤) آل عمران ١٥٤

● ومنهم أبو حبيب بن الأذعر وقيل : أبو حبيبة بن الأذعر من بنى عمرو بن عوف

● وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف ، أما سهل أخوه فكان صادق الإيمان ، وكان من الثابتين مع النبى - ﷺ - يوم أحد ●

● وجارية بن عامر بن مجمع من بنى عممرو بن عوف .

● ومجمع بن جارية بن عامر

قيل : إنه اشترك فى بناء المسجد ولكنه لم يكن يعلم بهدفهم .

● وزيد بن جارية بن عامر

● ونبتل بن الحارث

● وبجاد بن عثمان

● ووديعة بن ثابت ..... وغيرهم ممن ملأ الحقد قلوبهم

هؤلاء الذين اشتركوا فى بناء هذا المسجد الذى لم يكن يراد به وجه الله ولارسوله ، ولكنهم أرادوا به الاضرار بالدين وتفريق كلمة المسلمين . لأنهم استقطبوا جماعة ممن كانوا يصلون فى قباء اليه وفرقوا بينهم وبين اخوانهم .

وكان الذى يصلى بهم فيه هو مجمع بن جارية لأنه كان حافظاً للقرآن . ولكنه لم يكن يعلم بنفاقهم . ولذلك حين كلم عمرو بن عوف - عمر بن الخطاب - فى أثناء خلافته أن يأذن لمجمع بن جارية أن يصلى بهم قال لهم : لا أليس بامام مسجد الضرار ؟

فقال مجمع : ياأمير المؤمنين لاتعجل علىّ فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أنى لاأعلم ماأضمروا فيه ، ولو علمت ماصليت معهم فيه . وكنت

غلاما حافظا للقرآن وكانوا شيوخا لايحفظون من القرآن شيئا ، فعذره عمر وصدقه ، وأمره أن يصلى ببنى عمرو(٩٥)

وبعد أن هدم هذا المسجد وتفرق عنه أصحابه عرضه النبى - ﷺ - على عاصم بن عدى ليتخذه دارا ، فقال : ماكنت لأتخذه دارا وقد أنزل الله فيه ماأنزل ، ولكن أعطه ثابت بن أقرن فانه لامنزل له ، فأعطاه إياه فبنى مكانه دارا فلم ير فيها خيرا فتركها . .

روى ابن المنذر عن ابن جبير وابن جريج وقتادة قالوا : ذكر لنا أنه حفر فى موضعه بقعة فأبصروا الدخان يخرج منها . . . .(٩٦) ثم آل أمر هذا المكان الى ان أصبح مكانا تلقى فيه القمامة والجيف والقاذورات .

لقد قص الله علينا قصة هذا المسجد فى قوله تعالى

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ
أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ
أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ

---

(٩٥) السيرة الحلبية جـ٣ ص١٢٢

(٩٦) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ٣ ص ٨٠

هَارٍ فَانْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾
لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (٩٧)

الحكمة من إنشاء المساجد

إن الحكمة من إنشاء المساجد أن تكون مكانا للعبادة وذكر الله مصداقا لقوله ـ تعالى ـ

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ
وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ
وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٩٨)

ومن أجل ذلك رغب الله المسلمين فى بناء المساجد ودعا النبى ـ ﷺ ـ الى ذلك فقال فى حديثه المشهور : « من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة »(٩٩) ويكون عظم هذا البيت بمقدار عظم المسجد

---

(٩٧) التوبة ١٠٧ : ١١٠

(٩٨) النور ٣٦ : ٣٨

(٩٩) رواه ابن ماجه فى سننه باسناد صحيح عن جابر

.. وفى رواية عن رسول الله - ﷺ - « المساجد بيوت الله تضىء لأهل السماء كما تضىء النجوم لأهل الأرض »[100]

وذكر النبى - ﷺ - فضل المساجد على غيرها فقال - فيما رواه مسلم عن أبى هريرة - : « أحب البلاد الى الله مساجدها وأبغض البلاد الى الله أسواقها » والمعنى أحب الأماكن فى البلاد ..

ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة .. رجل قلبه معلق بالمساجد ... وتعلق القلب بها يعنى حبها وملازمتها ..

أحكام المساجد

ولاقامة المساجد أحكام تحدث عنها العلماء ، وأفاضوا فى شرحها وتوضيحها . ونحن نقتطف من ذلك شذرات ننتفع بهاوننفع غيرنا . فنقول :

يجب فى انشاء المسجد مراعاة الاخلاص ، وتحرى الصدق ، والتأكد من أنه لايقصد به الاضرار أو الرياء وحب الظهور .. وفى مقدمة ذلك ألا يبنى المسجد فوق أرض مغصوبة . وألا يكون بناؤه يضر بمسجد آخر .... جاء فى القرطبى : لايجوز أن يبنى مسجد الى جنب مسجد آخر دون حاجة الى ذلك لئلا ينقسم المصلون بين المسجدين فيقل اجتماعهم فى مكان واحد للصلاة ، الا ان تكون المحلة كبيرة لايكفى أهلها مسجد واحد فيبنى حينئذ .

---

(١٠٠) فى مجمع الزوائد عن ابن عباس ، ورواه الطبرانى فى الكبير ورجاله موثوقون .

ومعنى ذلك أن القرية يجب أن يكتفى فيها بمسجد واحد اذا كان هذا المسجد يسع المصلين فى تلك القرية ، حتى يعمر المسجد بالمصلين ، وتزداد الصلة بينهم باجتماعهم دائما فى مكان واحد .

هذا اذا كانت البلدة أو القرية قليلة السكان لايزيد عدد المصلين فيها عن سعة المسجد ، أما اذا كانت البلدة متسعة متعددة الأحياء فلابأس باقامة المساجد تيسيرا على الناس .

بعض آداب المساجد

تحية المسجد

. . . وينبغى للانسان اذا دخل المسجد أن يؤدى تحية المسجد عند دخوله ، بصلاة ركعتين ، ومن دخل المسجد فلم يتمكن من صلاة التحية لحدث أو شغل أو لأن الوقت تكره فيه الصلاة استحب له ان يقول أربع مرات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

● النوم فى المسجد

قال الشافعى : يجوز النوم فى المسجد . ولايكره ذلك عند أغلب الفقهاء ، فقد كان أهل الصفة ينامون فى المسجد ، وقال ابن عمر : كنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ

ولكن ابن عباس رضى عنه ـ يقول : لايجب أن تتخذ المساجد مرقدا ونقل عنه رأى آخر يقول فيه : إذا نام الرجل فى المسجد انتظارا للصلاة فلابأس .

وجوز ذلك الامام مالك للغرباء . يقول أما الغرباء الذين يأتون لقضاء المصالح فإنى أراه واسعا ، وأما رجل حاضر فلاأرى له ذلك .

وقال أحمد : إن كان على وشك سفر وماأشبهه فلابأس فأما أن يُتَخذ المسجد مبيتا أو مقيلا فلا .

● نظافة المسجد

ويلتزم المصلى بالمحافظة على نظافة المسجد ، ويحرم عليه البصاق فيه ، ومن رأى بصاقا أو نحوه فى المسجد فعليه أن يزيله أو يدفنه أو يخرجه ، وبناء على ذلك فانه لايجب إدخال النجاسة المسجد . أو الاحتجام فيه ، ويكره إدخال المجانين والصبيان الذين لايميزون-المسجد من غير حاجة مقصودة ، لأنه لايؤمن تنجيسهم المسجد ، فقد ورد عن النبى - ﷺ - قوله : جنبوا مساجدكم صبياكم ومجانينكم وخصوماتكم وأصواتكم وسل سيوفكم واقامة حدودكم .. واتخذوا على أبواب مساجدكم المطاهر .(١٠١)

● إمام المسجد

يشترط فيه أن يكون قارئا ، عارفا بالأحكام ، ويلتزم الناس بالصلاة وراءه الا اذا ظهر عدم عدله أو فساده أو كذبه .

ولايجوز الاختلاف على الامام اذا صلى فاذا كان للمسجد إمام معين صلى الناس وراءه ، ويكره إقامة جماعة ثانية فى وجود جماعة ..

---

(١٠١) أخرجه فى مجمع الزوائد عن أبى أمامة وعن واثلة

● **رفع الصوت فى المسجد**

يكره اللغط ورفع االصوت فى المسجد ، ففى مصنف ابن أبى شيبة :

ان عمه سمع رجلا رافعا صوته فى المسجد فقال : أتدرى أين أنت ؟

وسئل الامام مالك عن رفع الصوت بالعِلْمِ فى المسجد فقال : لاخير فى ذلك العلم ولافى غيره ، ولقد أدركت الناس قديما يعيبون ذلك على من يكون فى مجلسه ، وأنا أكره ذلك ، ولاأرى فيه خيرا .

ولكن غير مالك من العلماء جوزوا رفع الصوت بالعلم لأن ذلك من أغراض اقامة المساجد ويتعلق بذلك جواز تعليم الصبيان فى المساجد . . . فقال بعض العلماء : الاغلب من الصبيان الضرر بالمسجد فالأفضل منعهم ، وقال القرطبى : منع بعض العلماء تعليم الصبيان فى المساجد ورأوا أنه من باب البيع ، وهذا اذا كان بأجرة ، فلو كان تبرعا فالأفضل منعه أيضا لعدم تحرز الصبيان عن القذر والوسخ . .

أما عقد حلق العلم وذكر المواعظ ونحوها فذلك مطلوب شرعا ، والأحاديث الواردة فى ذلك كثيرة مشهورة .

وقد ورد فى فضل حلق العلم الكثير من الآثار . . روى ابن ماجة عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : من دخل مسجدنا هذا ليُعلِّم خيرا أو ليتعلم كان كالمجاهد فى سبيل الله .

وتناول الطعام فى المسجد جائز ، ذكر الزركشى حديث عبد الله بن الحارث الزبيدى قال : كنا نأكل على عهد النبى - ﷺ - فى المسجد الخبز

واللحم . وقال مالك : يكره الأكل فى المسجد إلا اللقمة واللقمتين . . . الا أنه ينبغى أن يبسط شىء يوضع عليه الطعام ويحترز خوفا من التلوث ولئلا يتناثر شىء من الطعام تجتمع عليه الهوام هذا اذا لم يكن للطعام رائحة كريهة ، فإن كانت له فيكره أكله فى المسجد ويمنع آكله من دخول المسجد حتى تذهب رائحته لقوله - ﷺ - : من أكل ثوما أو بصلا فليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته(١٠٢)

● تزيين المساجد

كانت المساجد على عهد رسول الله - ﷺ - متواضعة مبنية باللبن والحجارة لا شرفات لها ومفروشة بالتراب ثم بالحصباء بعد ذلك .

ولكن عثمان رضى الله عنه - بنى مسجد الرسول - ﷺ - بالقَصّة(١٠٣) والحجارة المنقوشة . قال البغوى : ومن جَمَّل مسجدا - أى تبرعا - لا يعد من المناكير لأنه يفعله تعظيما لشعائر الاسلام وقد سامح فيه بعض العلماء وأباحه بعضهم . وكرِه بعضهم ذلك لأنه يشغل قلب المصلين . وجعل البعض تزيين المساجد وزخرفتها من علامات الساعة .

ومن أجاز ذلك قال : إن فى ذلك تعظيما للمسجد واعزازا للدين والخلاف فى ذلك هين . . وهو قريب من الخلاف فى تحلية المصحف .

ويستحب تجمير المساجد بالبخور وتخليقها بالزعفران والطيب ، وإنارتها وتنظيفها وفرشها بالبسط ولابأس باغلاق المسجد فى غير وقت الصلاة .

---

(١٠٢) أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة

(١٠٣) القصة : الحجارة من الجص

● آداب دخول المسجد والخروج منه

يستحب لداخل المسجد أن يقدم رجله اليمنى فى الدخول ، واليسرى فى الخروج ويقول عند دخوله : أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القدير من الشيطان الرجيم .

وفى صحيح مسلم عن أبى حميد الساعدى وأبى أسيد رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ـ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك .

وقال على بن أبى طالب : إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال المزنى : من بلغ باب المسجد صلى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم اجعلنى من أوجه من توجّه إليك وأقرب من تقرب إليك وأنجح من دعاك وتضرع إليك .

ويستحب الاستعاذة عند الخروج من المسجد فقد روى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن أحدكم إذا أراد أن يخرج من المسجد تداعت جنود إبليس واجتمعت كما تجتمع النحل على يعسوبها فإذا قام أحدكم على باب المسجد فليقل : اللهم إنى أعوذ بك من إبليس وجنوده . فإنه إذا قالها لم يضره .

وعلى الداخل بعد الاستعاذة والصلاة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يؤدى تحية المسجد ـ كما قلنا سابقا ـ ثم يسلم على القوم .

ويستحب للقادم من السفر أن يصلى فى المسجد ركعتين أول قدومه وهى صلاة مقصودة للقدوم من السفر وليست تحية المسجد ، ولكن تحصل التحية بهما .

ولا يجب أن يخرج الرجل من المسجد بعد الآذان قبل أن يصلى الوقت إلا لضرورة كانتقاض وضوئه مثلا . . .

جاء فى صحيح مسلم من حديث سليم بن أسود عن أبى الشعثاء قال : كنا مع أبى هريرة فى المسجد ، فخرج رجل حين أذن المؤذن للعصر ، فقال أبو هريرة : أما هذا فقد عصى أبا القاسم - صلى الله عليه وسلم -

● صلاة المرأة فى المسجد

لاشك أن صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد . جاء فى المستدرك للحاكم عن أم سلمة قالت : خير مساجد النساء بيوتهن .

وفى سنن أبى داود من حديث أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لأن تصلى المرأة فى مخدعها أعظم لأجرها من أن تصلى فى بيتها » وفى أسد الغابة فى ترجمة أم حميد الأنصارية قالت : قلت يا رسول الله ، يمنعنا أزواجنا أن نصلى معك ونحب الصلاة معك ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « صلاتكن فى حُجَرِكن ، أفضل من صلاتكن فى دوركن وصلاتكن فى دوركن أفضل من صلاتكن فى الجماعة(١٠٤)

---

(١٠٤) أسد الغابة جـ٧ ص٣٢٣

وفى الإصابة(١٠٥)خبر مثله بإضافة : فأَمَرتْ فَبُنِيَ لها مسجد فى أقصى شىء من بيتها وأظلمه فكانت تصلى فيه حتى لقيت الله تعالى .

إلا أن المرأة إذا خرجت للصلاة فلا حرج عليها فقد ورد فى الأثر : لاتمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن ، وفى حديث آخر : لاتمنعوا إماء الله مساجد الله .

فإذا كانت المرأة شابة كره لها الحضور لقول عائشة رضى الله عنها : لو أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى ما أحدث النساء بعده لمنعهن المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل(١٠٦) أما إذا كانت عجوزا لاتشتهى فلا يكره ذلك .

وخروج المرأة إلى المسجد مشروط بمراعاة الحشمة والوقار وعدم التطيب أو التزين . . .



● الاستياك فى المسجد

قال الامام مالك : يكره الاستياك فى المسجد خشيه أن يخرج من الفم دم ونحوه مما ينزه المسجد عنه ، قال القرطبى : لم يثبت قط أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ استاك فى المسجد . .

والحديث المشهور : لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة محمول على : كل وضوء

---

(١٠٥) الاصابة فى أخبار الصحابة لابن حجر جـ٨ ص١٩٧

(١٠٦) رواه مسلم فى باب خروج النساء الى المساجد ، وأخرجه البخارى كذلك .

ولكن غير الإمام مالك من الأئمة جوزه بل جعله بعضهم من المستحب .

● صلاة النافلة فى المسجد

من الفقهاء من جعل أداء النافلة فى البيت أفضل وذكروا فى ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : صلاة المرء فى بيته أفضل من صلاته فى المسجد إلا المكتوبة(١٠٧) ، ولبعد هذه الصلاة عن الرياء

ومنهم من قال : إن أداءها فى المسجد إثر الفرائض أفضل لأنها أجمع للخاطر .

ومنهم من قال : إذا كانت النوافل بعد فروض النهار فهى فى المسجد أفضل ، وإن كانت بعد فروض الليل فهى فى البيت أفضل .

● الرحلة إلى المساجد

تسن الرحلة إلى المساجد الثلاثة التى ورد بشأنها قوله ـ صلى الله عليه وسلم : لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى .

وقد أفتى بعض العلماء بمنع الرحلة إلى غيرها استنادا إلى ظاهر الحديث . ولكن النووى فى شرح مسلم يجوز ذلك . . ويقول : ذكر الشيخ أبو محمد أنه يحرم شد الرحال إلى غيرها ، وهو غلط . انتهى

---

(١٠٧) مختصر سنن أبى داود جـ١ ص٤٧٣ عن زيد بن ثابت

وأقره الرافعي كما أقره شيخه ، وقال : الظاهر أنه ليس فيه كراهة ولا تحريم . .

ذكر الشيخ محمد علوى المالك المكى الحسنى خادم العلم بالحرمين الشريفين : قال : عن صالح بن درهم قال : انطلقنا حاجين فالتقينا برجل فقال لنا : إلى جنبكم قرية يقال لها الأُبُلّة ؟

قلنا : نعم

قال : من يضمن لى منكم أن يصلى لى فى مسجد العشار ركعتين أو أربعا ويقول : هذه لأبى هريرة ؟ . . فإنى سمعت خليلى أبا القاسم - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله - عز وجل - يبعث من مسجد العشار يوم القيامة شهداء لايقوم مع شهداء بدر غيرهم[108] .

قال المالكى : وقال العلامة المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد السهارنفورى فى كتاب « بذل المجهود فى شرح سنن أبى داود » : وفى الحديث دلالات على أن الطاعات البدنية يصل أجرها إلى غير فاعلها « ٢ »[109] .

وقال العلامة المحدث الشيخ أبو الطيب صاحب كتاب « عون المعبود » : مسجد العشار مسجد مشهور يتبرك بالصلاة فيه[110] .

---

(١٠٨) رواه أبو داود ، وقال : هذا المسجد مما يلى النهر - مشكاة المصابيح جـ ٣ ص ١٤٩٦ -

(١٠٩) بذل المجهود جـ ١٧ ص ٢٢٥

(١١٠) عون المعبود جـ ١١ ص ٤٢٢ - وجمع ذلك كله : مفاهيم يجب أن تصحح للشيخ محمد علوى المالكى ص ١٥٣ ط دار الانسان للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة شارع التحرير / ميدان الدقى

تنظيم الأوضاع فى المدينة

جو المدينة

لم يكن جو المدينة ملائما للمهاجرين تماما . فقد صادفتهم متاعب صحية بسبب التباين الكبير بين طقس مكة وطقس المدينة .

ولم يكد ينجو من الحمى أحد من المهاجرين ، حتى إن أبا بكر - رضى الله عنه - رقد طريح الفراش ، وقد صرعته الحمى فأخذ يهتف بقول الشاعر - حنظلة بن يسار :

كل امرىء مُصَبَّحٌ فى أهلـــه ٭ والموت أدنى من شـــراك نعلـــه

وأخذ بلال - رضى الله عنه - يهذى من الحمى ، وكانت تصرعه فلا يستطيع حراكا ، فإذا زايلته بعض الشىء رفع عقيرته وتغنى بقول بكر بن غالب الجرهمى حين أجلت خزاعة الجراهمة من مكة :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادٍ وحولى إذخرٌ وجليل
وهل أردن يومـــا مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل(١١١)

ووعك أيضا عامر بن فهيرة واشتد به المرض حتى اقتربت منه عائشة - رضى الله عنها - فسألته : كيف تجدك يا عامر ؟

فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفـه من فوقــه
كل امرىء مجاهد بطوقه كالثور يحمى أنفه بروقه

---

(١١١) الاذخر : نبات طيب الرائحة ، وجليل : نبت ضعيف ، ومجنة - بفتح الميم وكسرها وفتح الجيم وتشديد النون - موضع على أميال من مكة كانت تعقد به سوق فى الجاهلية ، وشامة وطفيل : جبلان أوهما ماءان قرب مكة

وهما من شعر عمرو بن مامة .

فقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : هذا والله مايدرى مايقول .

وكان بلال كثيرا مايلعن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف . حين تشتد عليه الحمى . قائلا : اللهم العنهم كما أخرجونا من أرضنا .

ويبدو أن المدينة كانت مشهورة بالوباء ، ولكنها ظهرت بحلول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها . . .

وكان وباؤها الحمى . قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ دخلنا المدينة وهى أوبأ أرض الله فطهرت ببركة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولما رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه من حوله تتخبطهم الحمى ، وخشى أن يكره أصحابه المدينة لما أصابهم بها . نظر الى السماء فقال : اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة وأشد . فاستجاب الله دعاءه حتى أصبحت المدينة أحب اليهم من مكة .

ولم يكتف بذلك بل قال : اللهم بارك لنا فى صاعنا ومدنا وصححها لنا . وقال : اللهم اجعل بالمدينة ضعف ماجعلت بمكة من البركة . . . وفى رواية . . واجعل مع البركة بركتين . . فاستجاب الله فطيب هواءها وترابها وسكنها وسكانها والعيش فيها . . وقد قال العلماء : إن من أقام فيها يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة لاتكاد توجد فى غيرها . .

ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه أن يبعد الوباء عن المدينة فانتقل الوباء الى الجحفة ، وكانت يومئذ مسكنا لبعض اليهود . .

وانتقل الوباء فعلا من المدينة الى الجحفة ، ويذكر الرواة أن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ رأى فى منامه كأن امرأة سوداء ثائرة الشعر خرجت من المدينة حتى نزلت الجحفة . فتأول ذلك بأنه الوباء الذى انتقل من المدينة الى الجحفة استجابة لدعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : لقد ذهبت الحمى عن المدينة . . فلاتخافوا منها . .

لقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطمئن أصحابه الى أن المدينة قد طهرت مما كان بها من وباء يصيب الغريب عنها ، لأنه لم يتأقلم بعد مع جوها ، وأنها أصبحت صالحة للاقامة فيها ، فلاخوف عليهم من مرض الحمى الذى كان منتشرا فيها .

وليس ذلك فحسب . بل أصبحت منذ حل فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرما آمنا كمكة . . لايعضد شجرها ، ولايصاد طيرها . . ولايُرَوَّع أهلها . . . . . أخرج البيهقى فى سند متصل الى عبد الله بن زيد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ان ابراهيم حرم مكة وأنا حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة ودعوت لها فى مدها وصاعها بمثل مادعا ابراهيم لمكة ؟ »

وأخرج أيضا عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « اللهم بارك لأمتى فى مدهم ، وبارك لهم فى صاعهم ، وبارك لهم فى مدينتهم ، اللهم ان إبراهيم عبدك وخليلك وإنى عبدك وحبيبك ورسولك ، وان ابراهيم سألك

لمكة وإنى أسألك للمدينة مثل ماسألك ابراهيم لمكة ومثله معه... إن المدينة محاطة بالملائكة على كل نقب منها ملائكة يحرسونها ، لايدخلها الطاعون ولا الدجال . من أراد أهلها بسوء أذابه الله ـ عز وجل ـ كما يذوب الملح فى الماء »[١١٢]

لقد أصبحت المدينة حرما آمنا كما كانت مكة كذلك ـ وسرى الأمن منهما الى النفوس يحسه كل هابط الى هاتين المدينتين المباركتين ، ويشعر فيهما بالرضا والسكينة ..... وأصبح كل زائر يلمس فى جوانحه روحا من الأمن يحول بينه وبين التفكير فى أى عارض يروعه ، بل إن ذلك الأمن يتسع ويمتد فى داخله فلايشغله قلق المسافر على أهله وولده .

لعل مبعث هذا الأمن الذى يحس به الانسان ـ ان أسبابه انقطعت من عالم الأرض لترتبط بعالم السماء انه الآن فى جوار حرم الله وحرم رسوله فكيف يحس بخوف أو قلق ؟

لقد أصبح فى ضيافة الله وضيافة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكيف يحس ضيف الله ورسوله بروع أو أرق ؟ . .

إنه أمن من الله . ملأ جوانح النفس سكينة واطمئنانا وليس هذا الأمن أمنا مصنوعا بالحديد والنار ، أو مفروضا بالقوة والسلطان ، فمثل هذا الأمن يشيع الرهبة والخوف ، ويثير التوجس والرعب ...... أما الأمن فى الحرمين فقد فرضه الحب لهذين المكانين . والولاء لخالقهما الذى جعل

---

(١١٢) هذا الخبر والذى قبله فى دلائل النبوة للبيهقى جـ٢ ص٥٦٩ وفى صحيح مسلم فى المناسك

القلوب تهفو اليهما من كل مكان وتتشوق الى زيارتها فى كل عصر وآوان ، واليهما تتجه الانظار صباح مساء ، وتتجه معها القلوب والأرواح ضارعة الى الله أن يكتب لها زيارة مبرورة ورحلة مشكورة . . فاذا مااستجاب الله أقبل الزائرون فى فرح غامر . . يتبادرون الربوع الآمنة فى شوق وأمل . . واذا ما عاينوا مشاهد المدينة المنورة هملت دموعهم حبا وشكرا . . وهتفت قلوبهم وألسنتهم بالصلاة والسلام على ساكنها المختار الذى بعثه الله رحمة للعالمين .

شتان بين هذا الهتاف الرقيق الجميل وبين ذلك الهتاف الذى كان يصعد من حناجر الجاهليين عند دخولهم المدينة . .

فقد روى ابن اسحاق عن هشام بن عروة قال : كان وباء المدينة معروفا فى الجاهلية وكان الرجل منهم اذا دخلها وأراد ان يسلم من وبائها قيل له : انهق . فينهق كما ينهق الحمار ، وفى ذلك يقول الشاعر :

لعمرى لئن غنيت من خيفة الردى نهيق حمار انى لجزوع(١١٣)

ماأوسع أفق الاسلام الذى نقى العقول من الخرافات والأوهام ، وارتفع بالانسان من ذلك المستوى الحيوانى الجاهل الى مستوى البصيرة الهادية والتفكير السليم والوعى الناضج . .

من خصائص المدينة :

وأصبح للمدينة المنورة خصائص ، ذكرها العلماء فى كتبهم المعنية

---

(١١٣) المواهب اللدنية جـ ١ ص٣٦٢ ـ دلائل النبوة للبيهقى ج ٢ ص٥٦٧

بذلك ، ونذكر منها : أنها اشتملت على بقعة من أفضل بقاع الأرض ، وهو الموضع الذى ضم جسد النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى ذلك يقول الامام العارف أبو محمد بن عبد الله المغربى فى قصيدة يمدح بها الروضة المشرفة ويحن اليها :

دار الحبيب أحق أن تهواها ∴ وتحن من طرب الى ذكراها
جزم الجميع بأن خير الأرض ما ∴ قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم - لقد صدقوا بساكنها علت ∴ كالنفس حين زكت زكى مأواها

وفى تحريم صيد طيرها وقطع شجرها على الحال والمحرم شبه إجماع من الفقهاء ، والذين قالوا بالتحريم اعتمدوا على قوله - صلى الله عليه وسلم - « إن ابراهيم حرم مكة ، وإنى حرمت المدينة مابين لابتيها . . . . لايقطع عضاها ولايصاد طيرها »[114]

أما الحديث الوارد فى حق الصبى الذى كان يلعب بالطائر وداعبه النبى - صلى الله عليه وسلم - بقوله « ياأبا عُمير مافعل النُغير ؟ »[115] فيحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم المدينة . .

وروى الطبرانى فى الأوسط من حديث سعيد بن أبى مريم . . . . أخبرنا عبد الله بن عمر قال : حدثنى صاحب مولى زيد بن ثابت قال : دخل علىَّ زيد بن ثابت وأنا بالاسواف - موضع بالمدينة - وقد أعطلت ريشا - أى

---

(١١٤) رواه مسلم فى كتاب الحج
(١١٥) رواه البخارى من حديث أنس - عمدة القارىء ١٠ / ٢٢٩

اصطدت طائرا - فأخذ بأذنى ثم لكم فى قفاى وقال : أتصيد ههنا ، وقد حرم النبى - صلى الله عليه وسلم - مابين لابتيها ؟

وقد حرم العلماء أيضا نقل تراب حرم المدينة أو أحجاره الى خارج المدينة(١١٦)

لقد كسبت المدينة فضلا عظيما بحلول النبى - صلى الله عليه وسلم - فيها ، وأصبحت حرما آمناً . .

المجتمع فى المدينة :

وقد أكد النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك الأمان المعنوى بأمان حسى ، يربط بين الناس برباط وثيق من العهود والالتزامات . . وكانت المدينة - قبل الاسلام - تتسع لأقوام ذوى اتجاهات وعصبيات مختلفة . . ففيها الأوس وفيها الخزرج وهاتان قبيلتان كانتا فى حروب وشقاق وخلاف قبل الاسلام . أسلم منها الكثير ومازال منها مشركون لم يؤمنوا بعد

وفيها المهاجرون الذين تركوا أموالهم وأهليهم ووطنهم وجاءوا الى المدينة فارين بدينهم من وجه الكفر وطواغيت الباطل ، وكان فيها اليهود الذين ينتمون الى قبائل مختلفة . .

وقد ظهرت فى المدينة بعد مجىء الرسول - صلى الله عليه وسلم - طائفة جديدة لم تكن قبل ذلك ، ولم يكن للعرب عهد بمثلها . تلك هى طائفة

---

(١١٦) اعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى ص ٢٤٣

المنافقين الذين يظهرون خلاف مايبطنون . .

وبقدوم النبى - صلى الله عليه وسلم - الى المدينة اندمجت قبيلتا الأوس والخزرج فى تسمية جديدة اسمها الأنصار ، وهذا من أعجب العجب لقد فعل الاسلام فعله فى نفوسهم فأنساهم العداوة المتأججة والثارات المشتعلة . وانطلقوا فى سبيل الله أخوة لايفرق بينهم شىء ، وتجتمع قلوبهم على شىء واحد هو حب الله ورسوله . أما المهاجرون فقد ظلوا محتفظين بتسميتهم . وكان عددهم بالنسبة للأنصار قليلا فى بدء الهجرة . . . وكان الأنصار يبذلون جهدا غير عادى فى سبيل الاسلام .(١١٧)

وكانت نظرات اليهود الى الاسلام فى المدينة مريبة ، وهم بطبعهم لايستطيعون الحياة فى جو هادىء . وقد أحسوا ان الاسلام خطر عليهم وعلى نفوذهم،وقد كانوا يبشرون بهذا الدين قبل ذلك ، على أنه الدين الذى سيقويهم ويرضيهم ويؤيد ضلالهم، فلما رأوا غير ذلك ضاقوا به ذرعا ولم يخفوا كراهيتهم له وتخوفهم منه .

واذن فلابد من وثيقة تنظم العلاقات بين تلك الاتجاهات المختلفة ويلتزم الجميع بها ، حتى يستطيع النبى - صلى الله عليه وسلم - التفرغ لدعوته فى جو هادىء خال من القلق والنزاع .

---

(١١٧) الصحابة من الأنصار د . حسين مؤنس ص ٢٦

المعاهدة :

قال ابن هشام : وكتب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتابا بين المهاجرين والانصار واليهود . وقد عاهد فيه اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم : ونص هذا الكتاب هو :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .... انهم أمةواحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم(١١٨) ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طافة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١١٨) على ربعتهم : على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات والدماء ، والمعاقل جمع معقلة وهى الدية ويتعاقلون : يتحملون

وبنو جشم على ربعتهم يعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وإن المؤمنين لايتركون ذى غرم مفظع بينهم بل يجب أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

وأن لايحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو سعى بينهم بظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا يُنْصَر كافر على مؤمن .

وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

وإن من تبعنا من يهود فله النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر بين عليهم .

وإن سلم المؤمنين واحدة ، لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا .

وإن المؤمنين يكف بعضهم عن بعض ويعاون بعضهم بعضا فى سبيل الله . وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وإنه من اعتبط[119] مؤمنا قتلا فإنه يقتل به إلا أن يرضى ولىُّ المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

وإنه لايحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مجرما أو يحميه أو يؤويه ، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولايؤخذ منه صرف ولا عدل .

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله ـ عز وجل ـ وإلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين : لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لايهلك إلا نفسه وأهل بيته .

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف

وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف

وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف

---

(١١٩) اعتبطه قتله بدون موجب لقتله

وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف

وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف

ومثل ذلك بقية اليهود ، إلا من ظلم وأثم فإنه لايهلك إلا نفسه وأهل بيته .

وإن البر . دون الإثم[١٢٠] . وإن موالى ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم[١٢١] .

وإنه لايخرج منهم أحد الا بإذن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنه لاينحجز على ثار جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته . .

وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر . دون الاثم ، وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده الى الله ـ عز وجل ـ والى محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وان الله على أتقى ما فى هذه[١٢٢] الصحيفة وأبره

---

(١٢٠) أى أن البر ينبغى أن يكون حاجزا عن الإثم ، والوفاء ينبغى أن يمنع الغدر

(١٢١) البطانة : الخاصة

(١٢٢) ان الله على أتقى : أى لايحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وان الله جارٌ لمن بر واتقى

وإنه لاتجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحصن(١٢٣) من أهل هذه الصحيفة »

وقد آثرنا إثبات هذه الوثيقة بتمامها لما تتضمنه من أهداف عليا . توضح أهم الأسس التى وضعت للعلاقات السياسية والاجتماعية فى ظل الدولة الجديدة التى تأسست فى المدينة المنورة بعد هجرة الاسلام اليها .
كما توضح كذلك القواعد الدستورية التى تنظم حياة الناس ومستقبلهم ، وتبين الحدود التى يجب ألا يتخطاها أحد من المذكورين فى هذه الوثيقة وهم جميعا أبناء المدينة المنورة .

العبر المستخلصة من هذه الوثيقة

والمتأمل لنصوص هذه الوثيقة يجد أنها قد تضمنت هذه النقاط الأساسية : ـ

---

(١٢٣) البر المحض :. البر المحسن

١ - المسلمون أنصارهم ومهاجروهم أمة واحدة ، يتعاقلون فيما بينهم ويتعاونون .

٢ - وهم مع المعسر يفكون عسرته ويفرجون كربته .

٣ - وهم ضد الظالم المعتدى يضربون على يده ويكفونه عن العدوان .

٤ - والمؤمن لايُقْتَل فى كافر ، ولا يُنْصَرُ الكافر عليه .

٥ - لايحق لمؤمن أن يؤوى مجرما أو ينصره ، ومن فعل ذلك لعنه الله .

٦ - لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم إلا من ظلم وأثم فعليه وزره . .

لقد كانت هذه الوثيقة دستورا بمعنى الكلمة ، وبأدق ما تعطيه كلمة الدستور من معطيات فى عصرنا الحديث .

وللمتأمل أن يفكر كيف تمكن ذلك النبى الأمى الذى لم يقرأ كتب السياسيين أو القانونيين من وضع بنود هذه الوثيقة بهذه الحيطة الشاملة ، والتفصيل الذى لايترك ثغره لتاويل أو تهرب .

إنه الوحى الإلهى الذى أرشده ، والإلهام الصادق الذى ألهمه الله إياه . وبذلك يكون النبى - صلى الله عليه وسلم - قد أرسى دعائم المجتمع الاسلامى منذ نشأته على أسس دستورية تامة ، وأن دولة الاسلام تأسست على مقومات دستورية وإدارية ناضجة ، تحرسها الشريعة الاسلامية التى شرعها الله - جل وعلا - ونزل بها وحى يوحى . .

والهدف من ذلك كله أن تكون أمة الإسلام قوية ناهضة تسير على أسس وقواعد تنظم للمسلمين شئون دينهم ودنياهم معا .

فلم يأت الإسلام ديناً روحيا فقط يزهد الانسان فى الدنيا ، ويرغبه فى الآخرة ، ويقول له كما قال عيسى بن مريم ـ عليه السلام : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن نازعك الثوب فأعطه الرداء أيضا .

ولكنه قال :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ (١٢٤)

وقال

﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) ﴾ (١٢٥)

وإذا كان الدين الاسلامى قد شرع القصاص حفظا للحقوق ، وشرع رد العدوان بمثله ـ فإنه مع ذلك رغب فى العفو والصبر فقال

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٢٦)

ودافع عن آخذ الحق إذا اعتُدِى عليه فقال

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾ (١٢٧)

---

(١٢٤) البقرة ١٧٩

(١٢٥) الشورى ٤١ ، ٤٢ (١٢٦) الشورى ٤٣ (١٢٧) الحج ٦٠

لقد جاء الاسلام دينا للآخرة والدنيا معا ، ولذلك فقد دعا إلى التعمير والتثمير ، وحث على الجهاد والسعى والضرب فى الأرض . . ولهذا رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن استقر به المقام فى المدينة أن يضع تلك الوثيقة التى تنظم العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، حتى يسيروا فى أمن واطمئنان ، لايبغى أحد على أحد ، ولا يغتال أحد حق أحد .

وقد راعت هذه الوثيقة أن هناك طرفا آخر يعايش المسلمين فى المدينة وهم اليهود الذين كانت تربطهم بالأنصار علاقات اقتصادية واجتماعية وثيقة .

وأن هذا الطرف عامل مؤثر فى اقتصاديات المدينة ، ولذلك كان لزاما أن يوضع نص فى الوثيقة يلزمهم حدودا معينة لايتخطونها ، بدافع ما يعتمل فى نفوسهم من حقد وبغضاء وأثرة . . فلا ضرر ولا ضرار فى الاسلام ـ وكانت نصوص هذه الوثيقة هى التى مكنت المسلمين فيما بعد من إجلاء اليهود عن المدينة . . . . لأن اليهود غدروا بنصوصها ولم يلتزموا بموادها . على الرغم من موافقتهم عليها ورضاهم بها فى البداية . .

وبالرغم من أن هذه الوثيقة قد وضعت لتنظم علاقة المسلمين فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين غيرهم ـ فان عاطفة الاسلام القوية كانت هى الأساس الذى وحد بين صفوف المسلمين ، وهى التى تكون العلاقة الوثيقة بينهم ، إنهم كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها ، إنهم يد واحدة ، وهم يد على من سواهم ، ويجير عليهم أدناهم ، والرجل والمرأة سواء فى هذه

الإجارة . . وأنه لاسيد ولا مسود بين المسلمين ، فهم سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحدهم على الآخر الا بالتقوى . . وسنلقى الضوء الآن على أهم الطوائف التي تكون منها مجتمع المدينة المنورة بعد أن أصبحت مستقرا للدين الجديد .



مجتمع المدينة بعد الهجرة

- المهاجرون .
- ثناء الله عليهم .
- الأنصار .
- من الذى سماهم بتلك التسمية ؟ .
- ثناء الله ورسوله عليهم .
- من رجال الأنصار المبرزين .
- مثل من الإيثار والحب .
- النبي يوصي بالأنصار .
- غضب معاوية على من هجا الأنصار بعد وفاة الرسول .
- اليهود .
- متى جاءوا إلى يثرب ؟ .
- اليهود فى القرآن الكريم .

١ ـ المهاجرون

سبق أن أشرنا إلى أن المجتمع فى المدينة كانت تعيش فى ظلاله طوائف مختلفة .. وقد رأينا أن نلقى الضوء على تلك الطوائف . ونبدأ بالمهاجرين : وهم الذين تركوا ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا .. والغالب الأعم عليهم أنهم من أهل مكة ، وإن كان قد شاركهم بعد ذلك غيرهم من قبائل أخرى من أطراف الجزيرة العربية ، بعد ان أصبحت المدينة داراً للهجرة ، وبعد أن امتدح الله المهاجرين وأوجب على المسلمين الهجرة إلى المدينة لينطلق منها الاسلام .

لقد أصبحت المدينة بعد الهجرة كالمعسكر العام للاسلام .. تنطلق منها الدعوة والجيوش غازية فى سبيل الله ومبشرة بدين الله ..

وحرص المسلمون المهاجرون على الاستمساك بالمدينة ، واعتبروها وطنهم الذى االيه يثوبون اذا خرجوا الى جهاد أو عمرة أو حج أو تجارة .. بل ويحرصون على ان يكون فيها مثواهم الأخير ، وماكان ذلك الا استجابة لدعوة الرسول ـ ﷺ ـ الذى دعا الله أن يحبب المهاجرين فى المدينة .. وقد استحق المهاجرون بهجرتهم رضوان الله فأثنى الله عليهم فى مواضع متعددة من القرآن .... منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ ﴾ (١٢٨)

---

(١٢٨) الحشر ٨

ومنها قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾ (١٢٩)

ومنها قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥ ﴾ (١٣٠)

لقد اعتبر الاسلام الهجرة شرطا من شرائط الايمان ، ونهى عن موالاة الذين لم يهاجروا وقال القرآن الكريم في ذلك

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ

---

(١٢٩) البقرة ٢١٨

(١٣٠) آل عمران ١٩٥

فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ (١٣١)

ونعى على القاعدين بدون هجرة فقال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ (١٣٢)

وكان الاسلام حريصا على المستضعفين الباقين فى مكة . وكان اخوانهم من المهاجرين يتطلعون لهجرتهم ، ويدعون الله لهم أن ينجيهم من الفتنة ، وان ينصرهم على المحنة . بل دعا الاسلام الى القتال فى سبيل استنقاذهم قال ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ (١٣٣).

---

(١٣١) الأنفال ٧٢

(١٣٢) النساء ٩٧ ، ٩٨

(١٣٣) النساء ٧٥

قال القرطبى فى تفسيره : يعنى بالمستضعفين من كان بمكة من المؤمنين تحت اذلال كفرة قريش وأذاهم ، وهم المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام : اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين . وجاء فى سيرة ابن هشام قال : حدثنى من أثق به أن رسول الله - ﷺ - قال وهو بالمدينة : من لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص ؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة ، وكان قد أفلت من قومه وهاجر - أنا لك يارسول الله بهما . فخرج الى مكة فقدمها مستخفيا ، فلقى امرأة تحمل طعاما ، فقال لها : أين تريدين ياأمة الله ؟

قالت : أريد هذين المحبوسين - تعنيهما -

فتبعها حتى عرف موضعهما - وكانا محبوسين مقيدين فى بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور عليهما . وفك قيودهما ، وأسرع بهما ثم حملهما على بعيره وساق بهما ، فعثر فدميت اصبعه ، فقال متمثلا :

هل أنت إلا اصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت .

وقد تقدم أن النبى - ﷺ - قد ورد على لسانه هذا البيت فى أثناء هجرته ، وقد يكون الوليد قد تمثل به الآن .

ثم قدم بهما الى رسول الله - ﷺ - المدينة(١٣٤)

وظل المهاجرون فى المدينة موضع تكريم وإعزاز من الأنصار ، ينظرون اليهم على أنهم مثل أعلى فى التضحية والجهاد . فقد كانت الهجرة أقصى

---

(١٣٤) ابن هشام جـ ٢ ص ٢١٩

أنواع الجهاد . . . . ولم لا ؟ . . ألم يؤثر المهاجر دينه على نفسه وأهله ووطنه وماله ؟

ألم يضح بكل ذلك فى سبيل الله ؟ . .

لقد كانت الهجرة طريق الايمان منذ كانت الرسالات ، ومامن بنى الا هاجر هو ومن معه من المؤمنين فى سبيل عقيدتهم .

وقد حفظ الانصار للمهاجرين مكانتهم من رسول الله - ﷺ - فهو امام المهاجرين ، وظل معتزا بالهجرة حتى كان يقول : لولا الهجرة لكنت امرءاً من الانصار .

ولقد قال ذلك اعترافا بمكان الأنصار من الاسلام ، فقد ضحوا كذلك باموالهم وأنفسهم فى سبيل نشر كلمة الله ، وآثروا المهاجرين على أنفسهم إيثاراً عظيماً تحدث به القرآن الكريم . .

لقد برز فى المهاجرين رجال لايمكن أن يضاهيهم أحد فى فضلهم وحسن بلائهم فى الاسلام . ويكفى ان يكون منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وبقية العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم ممن ثبت فضله وأثنى عليه النبى - ﷺ -

وقد عرف المهاجرون حق الله فيهم ، وثناءه عليهم ، فظلوا على العهد الذى هاجروا من أجله ، وبذلوا أرواحهم طواعية فى سبيل الله ، وظلوا

حافظين لاخوانهم الانصار جميلهم ، ذاكرين فضلهم ، مقدرين لهم إيثارهم وجهادهم على الأيام ..

٢ - الأنصار

وكلمة الأنصار تسمية جديدة لقبيلتى الأوس والخزرج اللتين كانتا تسكنان يثرب قبل الهجرة - غيَّر الله اسمهما كما تغير اسم يثرب .... أصبحوا الانصار وأصبحت يثرب طابة أو طيبة أو المدينة المنورة ..

وقد وردت هذه التسمية فى القرآن الكريم قال الله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٣٥)

وكان الأوس والخزرج قبيلتين قد نزحتا من اليمن بعد تصدع سد مأرب ثم نزلتا فى هذا المكان . وقد أشار حسان بن ثابت الى هذا الأصل اليمنى فى قوله :

إما سألت فإنا معشر نجب ... الأسد نسبتنا والماء غسان

ياأخت آل فراس إننى رجل ... من معشر لهم فى المجد بنيان

ويذكر السهيلى سبب تسميتهما بالأوس والخزرج فيقول :

---

(١٣٥) الصف ١٤

الأوس : الذئب والعطية أيضا . وهو هنا من العطاء ، أما الخزرج فهى الرياح الباردة ، ففيها عطاء ايضا .

وأصلهما ابنان لحارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث .

والأسد هذا هو الذى يشير اليه حسان فى بيتيه الآنفين .

وينتهى هذا النسب الى عك بن عدنان . .

ويقول ابن إسحاق : بل هم من ولد معد بن عدنان . ذلك أن معدا ولد أربعة نفر هم : نزار بن معد ، وقضاعة بن معد ، وقنص بن معد ، وإياد بن معد... وقضاعة هو البكر ، وهو الذى تيامن الى حمير بن سبأ . . ومنه كان اليمانون . . ويقول د . حسين مؤنس : ونلاحظ ان الأوس والخزرج لم يكونا قبيلتين عندما نزحوا من اليمن الى الحجاز بعد تصدع سد مأرب ، وإنما كانوا قبيلة واحدة هى الخزرج ، وكان الأوس فرعا من الخزرج ، وهم من الأوس بن جشم بن الحارث ، فوقع الخلاف بين الأوس والخزرج ، وانفصل الأوس بن جشم وانضم اليهم اخوتهم بنو عبد الأشهل بن جشم وزعوراء فقوى بهم جانب الأوس أمام الخزرج ، وكان اليهود ينضمون اليهم أحيانا ، وقد ناصروهم فى موقعة بعاث ، التى انتصر فيها الأوس على الخزرج ، فأسرع الخزرج الى مكة يلتمسون الحلف هناك . لقد تلاشت هذه الخلافات فى ظل الاسلام ، وأصبحت هاتان القبيلتان عنصرا واحداً يعمل فى خدمة الاسلام .

ولقد أحس الأنصار أن الله - سبحانه وتعالى - قد وهبهم بالاسلام فضلا كبيرا ، وأحياهم بعد ان أوشكوا على التفانى بسبب الحروب المدمرة - فوهبوا الاسلام حياتهم . وكان الاسلام فى حاجة اليهم بعد أن جفاه القوم الذين ظهرت فيهم الدعوة وكانوا أحق بها وأهلها لو أن الله وهبهم مسكة من عقل أو قليلا من رشاد .

أقبل الانصار على هذا الدين بعد ان التقت وفودهم بالنبى - ﷺ - فى العقبة وبايعوه على النصرة والجهاد وباعوا أنفسهم فى سبيل الله حتى أصبحوا جديرين بهذا اللقب الذى خلعه الاسلام عليهم .

ثناء القرآن على الأنصار

وقد أثنى القرآن الكريم على الانصار ثناء مستطابا فمن ذلك قوله - تعالى -

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ (١٣٦)

ولئن كانت هذه الآية تعنيهم دون أن تذكر لفظ الأنصار فإن هناك آيات أخرى ورد فيها لفظ النصر صريحا مثل قوله - تعالى -

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١٣٦) الحشر ٩

وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ
يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ
فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ (١٣٧)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ
وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ (١٣٨)

ومثل قوله تعالى

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا
عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ (١٣٩)

---

(١٣٧) الأنفال ٧٢
(١٣٨) الأنفال ٧٤ (١٣٩) الأعراف ١٥٧

ثناء النبى على الأنصار

وقد تميز الأنصار بزهد عظيم فى شئون الدنيا ، وكان اسلامهم خالصا لوجه الله ، وكان حبهم لله ورسوله مضرب الأمثال ، وكان اقبالهم على الدين إقبالا منقطع النظير ، وقد أثنى النبى - ﷺ - عليهم ثناء عظيما .. وقد وثق بايمانهم وثوقا كبيرا حتى لقد كان يعطى غيرهم ممن يعرف أن له رغبة فى الدنيا ويترك الأنصار ثقة فى إيمانهم ..

ومن ثناء النبى - ﷺ - على الأنصار قوله فى حق سعد بن عبادة :- نعم المرء سعد بن عبادة .

وقد قال - ﷺ - ذلك فى غزوة الغابة ..... وكان النبى - ﷺ - قد استخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وأقام سعد بن عبادة فى ثلثمائة من قومه يحرسون المدينة خمس ليال حتى رجع رسول الله - ﷺ - وكان قد بعث الى النبى - ﷺ - بأحمال من التمر وعشر - نياق - وكان الذى حمل ذلك الى رسول الله - ﷺ - قيس بن سعد بن عبادة .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا قيس بعثك أبوك فارسا ، فقوى المجاهدين ، وحرس المدينة من العدو ، اللهم ارحم سعدا وآل سعد . ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : نعم المرء سعد بن عبادة .

وأعجب ذلك الخزرج فقالوا : يا رسول الله ، هو بيتنا وسيدنا وابن سيدنا ، كانوا يطعمون فى المحل ، ويحملون الكل ، ويقرون الضيف ،

ويطعمون فى النائبة ويحملون عن العشيرة .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : خيار الناس فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا فى الدين[١٤٠]

من رجال الأنصار المبرزين

ومن رجال الأنصار المشهود لهم بالفضل سعد بن معاذ الذى قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حقه : قوموا لسيدكم ، وقال يوم توفى : اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ .

وجاء فى أسد الغابة : لقد نزل من الملائكة لتشييع سعد بن معاذ سبعون ألفا ما وطئوا الأرض قبل ذلك ، وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : وبحق أعطاه الله تعالى ذلك .

وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - إن الملائكة كانت تحمله فى جنازته . . .[١٤١]

ومقامات سعد فى الاسلام مشهورة مذكورة ، ولو لم يكن له إلا موقفه يوم بدر لكفاه . . . . وذلك حين طلب النبى - صلى الله عليه وسلم - الرأى من الناس فى الخروج للقتال - فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك مواثيقنا على السمع

---

(١٤٠) الصحابة من الأنصار ص ٢٧
(١٤١) أسد الغابة جـ ٢ ص٣٧٦

والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ونحن معك ، فوالله الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصُبُر على الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، لعل الله يريك بنا ما تقر به عينيك ، فسر بنا على بركة الله .

فَسُرَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقوله .

ومن الأنصار أيضا أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ الذى قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أُبَىّ ، إن الله أمرنى أن أقرأ عليك قوله :

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ (١٤٢)

فقال أُبَىّ : الله سماني لك يا رسول الله ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم

فجعل أُبَىّ يبكى ..

قال ابنه عبد الرحمن : قلت لأبى : أفرحت بذلك ؟

فقال : وما يمنعنى أن أفرح بذلك ، والله يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١٤٣)

---

(١٤٢) سورة البينة ١

(١٤٣) يونس ٥٨

وفى حق أُبَىّ وغيره من الصحابة ورد هذا الأثر الكريم « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأقرؤهم أُبَىّ بن كعب ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح »[١٤٤] ومن الأنصار زيد بن ثابت ، الذى اشتهر بكتابة الوحى ، وكلَّفه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بجمع القرآن فى خلافته .

ومن الأنصار أسيد بن الحضير من بنى عبد الأشهل ، وكان فى الذروة من الإيمان والشجاعة ، أسلم على يد مصعب بن عمير حين بعثه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ معلما وسفيرا إلى المدينة ، وأسلم قبل معاذ بن جبل بساعة ، وقد ذكرنا قبل ذلك قصة إسلامهما .

ومن الأنصار أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن رواحة وعباد بن بشر ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وأبو دجانة والحباب بن المنذر . . . وكثير غيرهم ، أبلوا فى الإسلام بلاء حسنا .

إن الانسان ليتعجب من أمر أولئك الأنصار الذين كانوا على موعد مع الاسلام ، فقد ظلوا طوال تاريخهم وثنيين متعادين متحاربين خائفين من اليهود ، لايكادون يشتهرون بمقدرة عسكرية أو باتجاه روحى ، حتى إذا التقوا مع الاسلام تغير كل ما فيهم من النقيض إلى النقيض ، فأسلم منهم

---

(١٤٤) أسد الغابة جـ١ ص٦٢

أول الأمر نفر قليل يزيدون قليلا عن العشرة ، ثم سبعون رجلا وامرأتان ، ولا يكاد مصعب بن عمير يصل إلى المدينة ليدعو إلى الإسلام حتى يدخلوا فيه زرافات ووحدانا ، إنهم كانوا ينتظرونه.ثم إنهم تحولوا إلى أسود حرب لايثبت لهم فى جزيرة العرب أحد ، وظهر منهم قادة وأهل معارك يرسمون الخطط ، فلا تثبت لهم قبيلة أو جماعة فى جزيرة العرب ، فإذا لم يكن هذا قدرا سعيدا كتبه الله لهؤلاء فماذا يكون ؟[١٤٥] »

وقد أيقظ الاسلام فى الأنصار ملكات كثيرة فظهر فيهم الرجال الممتازون فى كل مجال ، وفى كل مطلب من مطالب الحياة ..... ظهر منهم رجال علم وإدارة ، وفقه وحرب ... وإلى جانب ذلك الاستعداد لبذل النفس فى سبيل الاسلام .. ومن قبل ذلك وبعده الايثار الجميل الذى ذكره الله لهم فى القرآن ..

يوم السقيفة

ومن أعظم الأمثلة فى إيثارهم ، هو إيثارهم المهاجرين بالخلافة دونهم ، وكانوا قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار خليفة بعد وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكان فى إمكانهم أن يقولوا : لقد آوينا ونصرنا وضحينا وفعلنا كذا وكذا ... كان فى الامكان أن يقولوا ذلك ، ولكنهم تناسوه تماما ، ولم يذكروا إلا شيئا واحدا هو الاسلام ـ الذى جاء به رسول الله ـ صلى الله

---

(١٤٥) انظر الصحابة من الأنصار ص ٥١

عليه وسلم ـ وأن هؤلاء المهاجرين الذين جاءوا معه تاركين أموالهم وأولادهم ووطنهم هم أحق بأن يتولوا الأمر مَن بعده .

لقد كان الأنصار فى منتهى الأريحية حين لم ينازعوا المهاجرين الخلافة ، وقد كان بإمكانهم أن يفعلوا ولهم مندوحة فى ذلك ، ولسنا مع الذين يحاولون إبراز صورة من الخلاف والتنازع جرت بين المهاجرين والأنصار حول هذا الأمر

فقد قال بعض الكتاب : « طبيعى من الأنصار أن يسرعوا إلى التفكير فى أمر مدينتهم أول ما عرفوا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مات ، ترى أيظل أمر هذه المدينة وأمر العرب إلى المهاجرين الذين أقاموا ضعافا بمكة لا مأوى لهم ولا نصير حتى أعزتهم المدينة ؟ أم يكون الأمر لأهل هذه المدينة الذين قال فيهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه أتاهم مكذَّبا فصدقوه ، ومخذولا فنصروه ، وطريدا فآووه ، وعائلا ـ فقيرا ـ فآسوه ؟

« تحدث بعض الأنصار إلى بعض فى هذا ، وتداعوا إلى سقيفة بنى ساعدة . . »

وهذه العبارة التى ذكرها الكاتب تبرز الحرص من جهة الأنصار على الخلافة وتطلعهم إليها ، وانتهازهم فرصة وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للانفراد بالأمر دون المهاجرين .

والحق أن الأمر لم يكن بهذه الصورة التى حاول الكاتب تصويرها لقد اجتمع الأنصار حقا فى السقيفة ـ وهذا امر طبيعى تدعو إليه الظروف الطارئة ، فلا بد من راع يرعى شئون المسلمين ، والأنصار أهل غِيرَة على هذا الدين . . . فقد أصبحوا أنصاره منذ أن أسلموا .

ولئن كانوا قد رغبوا فى أن يتولى واحد منهم الأمر ، واختاروا سعد بن عبادة لذلك ، فلا غضاضة عليهم فى ذلك ، فقد اختاروا رجلا كان يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، وقد قال فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما قال تزكية له وثناء عليه .

الا أنهم سريعا ما مالوا إلى اقتراح عمر بتولية أبى بكر ، واستجابوا إلى مقولة رجل منهم هو بشير بن سعد ـ رضى الله عنه ـ حين قال لهم : إنهم لم يؤوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم ينصروه ابتغاء الدنيا ، وإنما آووا ونصروا ابتغاء مرضاة الله عز وجل .

يقول طه حسين : والذى نعرفه من سيرة الأنصار ، ومن سيرة المسلمين عامة يدل على أن الإسلام قد ألغى ما كان فى قلوبهم من التنافس والتباغض ، وما كان فى صدورهم من الضغائن فى الجاهلية ، فغريب إذن أن تعود اليهم جاهليتهم بكل ما كان فيها من الحقد والحسد والموجدة فجأة فى اليوم نفسه الذى قبض فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ثم يقول : والذى استخلصه أنا من قصة السقيفة أيسر جدا مما صوره المؤرخون ، فقد أشفق الأنصار بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن

يلى المهارجون من قريش الخلافة، فيصير هذا سنة وتستأثر قريش بالأمر، فاذا ذهب الصالحون من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يعرف من يأتى بعدهم من قريش حق الأنصار، فيظلمهم أو يجور عليهم، فأراد الأنصار - إذن - أن يحتاطوا للمستقبل، وكأنهم أحسوا قبل أن يأتيهم أبو بكر وصاحبه أن قريشا لن ترضى منهم بهذا الأمر، فأزمعوا أن يعرضوا على المهاجرين أن يكون الأمر فى المهاجرين والأنصار على سواء، فينهض بأعباء الحكم أميران واحد من أولئك وواحد من هؤلاء، ويكون بذلك توازن فى التبعات، فإذا بغى أحدهما كفه الآخر.

وصدق عمر حين رد على الأنصار رأيهم هذا، فقال: لايجتمع اثنان فى قرن[147] فلو قد تم للأنصار ما يريدون لما استقامت أمور الحكم، ولوقع من الخلاف بين الأميرين ما يفسد على المسلمين حياتهم، ويضطرهم الى خصومات لاتنتهى، وربما اضطرهم الى الحرب

... والمهم أن أبا بكر وصاحبيه عمر وأبا عبيدة قد أقنعوا الأنصار فى يسر، فلم ينصرفوا عنهم إلا وقد بايعوا لأبى بكر، ولو كان الأنصار حراصا على الحكم والاستئثار بالسلطان. لما أتيح لأبى بكر وصاحبيه أن يقنعوهم فى ساعة من نهار»[148]

---

(١٤٦) الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل
(١٤٧) القرن: الحبل يقرن به البعيران
(١٤٨) الشيخان لطه حسين ص ٣١

حقا ، فلو كان الأنصار حراصا على السلطة لأخذوها ، ولما نازعهم المهاجرون فى ذلك ، فالأنصار أصحاب الدار ، والمهاجرون ضيوف عليهم ، ولكن الأنصار نظروا إلى سن أبى بكر ومكانته فى الاسلام وصحبته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما نظروا إلى المهاجرين نظرة إكبار وإجلال وتقدير - يفرضها عليهم دينهم الذى يؤمنون به ويحبونه ويجاهدون فى سبيله ، لاتلك النظرة التى يزعمها البعض بأن المهاجرين كانوا ضعافا وقلة فى ديارهم وأن الأنصار أصحاب فضل عليهم . .

ما نظر الأنصار إلى المهاجرين يوما هذه النظرة التى تتنافى مع مثالية هذا الدين الذى صنع من هؤلاء القوم . المهاجرين منهم والأنصار ، أخوة وأحبابا يطلق عليهم جميعا صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

لقد صهروا جميعا فى بوتقة الدين ، وخرجت منهم سبيكة واحدة وضعها التاريخ قلادة فى عنقه ، تضيء ظلام الأيام ، وتشهد فى صدق كيف يكون التواصل الحق . والإخلاص الحق ، والحب والتفانى فى سبيل المجموع . هذا وقد تحدثنا عن موقف الأنصار وماحدث منهم بعد وفاة الرسول - ﷺ - استطرادا لحديثنا عن الأنصار ، وماكان من حبهم لهذا الدين ، وإيثارهم المهاجرين على أنفسهم . . . .

مثل من الايثار والحب

حين غنم رسول الله - ﷺ - الغنائم الكثيرة من قبائل هوازن فى غزوة

حنين - وزع الغنائم على المؤلفة قلوبهم . وكانت غنائم كثيرة لاتكاد تحصى ، فقد أعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الابل ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الابل ، ثم سأله فأعطاه مثلها . . وهكذا . . فلما رأى بعض الانصار ماأعطى رسول الله - ﷺ - من رجال قريش تكلموا فى ذلك حتى قال بعضهم : يغفر الله لرسول الله ، يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم .

فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فأرسل الى الانصار فاجتمعوا فى مكان أعدّلهم ، ولم يدع معهم أحدا غيرهم . ثم قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

يامعشر الأنصار ، ماهذا الذى بلغنى عنكم ؟ ألم آتكم ضُلَّالا فهداكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بى ؟

فكان كلما قال لهم من ذلك شيئا قالوا : بلى يارسول الله .

ثم قال : ألا تجيبون يامعشر الأنصار؟

قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل

فقال - ﷺ - : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم . آتيتنا مُكَذَّبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، فصاحوا جميعا : بل المن علينا لله ورسوله .

ثم تابع رسول الله - ﷺ - خطابه قائلا : أوَجِدتم - أى أغضبتم -

يامعشر الانصار فى أنفسكم من أجل لعاعه[149] من الدنيا تألفت بها قوما ليقوى ايمانهم ووكلتكم الى اسلامكم ؟

الا ترضون يامعشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير ألف مرة ممايتقلبون به ، والذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الانصار ، ولو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكت شِعْبَ الأنصار ، وإنكم ستلقون أثره من بعدى فاصبروا حتى تلقونى على الحوض . . . ثم قال : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الانصار .

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله قسما ونصيبا .[150]

إن ماحدث من بعض هؤلاء الانصار انما هى نزعة من نزعات الشيطان الذى يجرى فى ابن آدم مجرى الدم من العروق ، ولايكاد ينجوا أحد من شره ، ولقد كان النبى - ﷺ - حكيما فى معالجة ماحدث ، كان رحيما كعادته استطاع ان يمحوا بكلماته الرقيقة وحبه الشديد للانصار ماعلق فى نفوس بعضهم ، وسرعان ماثابوا إلى أنفسهم ، وأدركوا أن ماحدث من بعضهم انما هو من وساوس الشيطان فأسرعوا بالاستعاذة منه فوقاهم الله شره .

وأثبتوا صدق جوهرهم ونقاء معدنهم ، فهو لم يبايعوا رسول الله يوم بايعوه طلبا للدنيا ، ولا رغبة فى السلطان ، ولكنهم بايعوه حبا فى الله

---

(١٤٩) اللعاعة - بضم العين - بقلة خضراء تستهوى العين -

(١٥٠) فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى ص ٣٠٠

ورسوله وحبا فى هذا الدين الذى جعله الله خاتم الأديان . أما الدنيا فهى عرض زائل ومتاع حائل وماعند الله خير وأبقى .

النبى يوصى بالأنصار

وكان النبى - ﷺ - كثيرا مايوصى بالأنصار ، وقد حرص على ذلك حتى آخر رمق فى حياته . . . فقد أورد ابن سعد فى طبقاته ان النبى - ﷺ - فى مرض موته ، شعر يوما بخفة ، فخرج ، فصلى بالناس ، ثم خطبهم واستغفر الله للشهداء من أصحاب أحد ودعالهم ، ثم أوصى بالانصار ، فقال : يامعشر المهاجرين ، انكم أصبحتم تزيدون ، وأصبحت الانصار لاتزيد . . . . إنهم على هيئتهم التى هم عليها اليوم ، وإنهم عيبتى(١٥١) التى آويت إليها ، أكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم .

وفى رواية أخرى : « إن لكل نبى تركة أو ضيعة ، وان الانصار تركتى أو ضيعتى ، وان الناس يكثرون وهم يقلون - فاقبلوا من محسنهم ، واعفوا عن مسيئهم .

وفى رواية : أتى النبى - ﷺ - فقيل له : هذه الانصار فى المسجد نساؤهم ورجالها يبكون من أجلك . .

فقال : ومايبكيهم ؟

قالوا : يخافون أن تموت .

---

(١٥١) تعبير مجازى يقصد به أنهم موضع سره - ويطلق على الصندوق الذى يحفظ فيه الانسان أسراره اسم العيبة

فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ فجلس على المنبر مشتملا ، متعطفا عليه ملحفه ، طارحا طرفها على منكبيه ، عاصبا رأسه بعصابة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يامعشر الناس ، إن الناس يكثرون وتقل الانصار ، حتى يكونوا كالملح فى الطعام ، فمن ولى من أمرهم شيئا فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم . .

وكان هذا آخر مجلس جلسه حتى قبض ـ ﷺ ـ

وقد حفظ المسلمون وصية رسول الله ـ ﷺ ـ بالانصار ، وظل الخلفاء يتذاكرونها . . روى الرواة أن مصعب بن الزبير حين ولى المدينة أخذ عريف الأنصار فَهَمَّ به ـ قال أنس : فقلت له : أنشدك الله ووصية رسول الله ـ ﷺ ـ فى الانصار .

فقال مصعب : وماأوصى به فيهم ؟

قال : قلت أوصى أن يُقبل من محسنهم وأن يتجاوز عن مسيئهم .

قال : فاضطرب مصعب على فراشه حتى سقط على بساطه ، وألصق خده على البساط ، وقال : أمْر رسول الله ـ ﷺ ـ على الرأس والعين . . اتركوه[١٥٢]

غضب معاوية على من هجا الانصار

ولئن كان مصعب بن الزبير قد ذُكِّرَ فتذكر ، وأصاخ لأمر النبى ـ ﷺ ـ

---

(١٥٢) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢ قسم ٢ ص٤٢

واعتذر . فان معاوية قبله قد غضب غضبا شديدا حين سمع أن الأخطل قد هجا الأنصار . .

أما قصة ذلك فقد رواها لنا أبو الفرج الاصبهانى فى أغانيه . قال : شبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت برملة بنت معاوية بن ابى سفيان ، فغضب يزيد بن معاوية عليه ، وأرسل الى كعب بن جُعَيْل الشاعر وقال له : اهج الأنصار . فقال كعب . أخاف من أمير المؤمنين ، ولكنى أدلك على الشاعر الفاسق الماهر . .

قال يزيد : ومن هو؟

قال كعب : هو الأخطل .

فدعا يزيد الأخطل ، وقال له : اهج الانصار

فقال الأخطل : أخاف من أمير المؤمنين .

فقال يزيد : لاتخف شيئا ، أنا لك بذلك .

فهجاهم الاخطل ، وكان فاسقا لايأبه بدين ، ولايرعوى من ضمير ، وكان مماقاله فى ذلك :

خلوا المكارم لستم من أهلها   وخذوا مساحيكم بنى النجار
ذهبت قريش بالمكارم والندى   واللؤم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك الشعر النعمان بن بشير ، فدخل على معاوية ، فحسر عن رأسه وخلع عمامته ، وقال : ياأمير المؤمنين ، أترى لؤما ؟

قال : لا ، بل أرى كرما وخيرا . ماذاك؟

قال : زعم الاخطل ان اللؤم تحت عمائمنا

قال معاوية : أو قد فعل ؟

قال النعمان : نعم

فقال معاوية : فَلَكَ لسانه . يعني : اقطع لسانه .

وكتب معاوية أن يؤتى بالأخطل ، فلما جيء به ، طلب الأخطل من الرسول الذى أحضره أن يدخل به على يزيد أولا . فادخله الرسول على يزيد ، فقال له : هذا الذى كنت أخاف . فقال له يزيد : لاتخف شيئا .

وقام يزيد من فوره فدخل على أبيه فقال له : علام أرسلت الى هذا الرجل وهو يرمى من وراء جمرتنا ـ يريد : أنه يدافع عنهم ـ

قال معاوية : لقد هجا الانصار .

قال يزيد : ومن زعم ذلك؟

قال معاوية : النعمان بن بشير .

فقال يزيد : طالبه بالبينة فان أثبت شيئا أخذنا له حقه . .

فطلب معاوية من النعمان البينة ـ فلم يأت بها ، فخلى سبيل الاخطل . .

لقد استطاع يزيد أن يذهب غضب أبيه على الأخطل الذى هجا الأنصار . ولكن النعمان مع ذلك لم يسكت ، بل استعمل نفس السلاح فى رده . . فقال قصيدة يستثير فيها معاوية على الاخطل ، جاء فيها :

معـــاوى الا تعطـنا الحـق تعترف لحى الأزد مشـدوداً عليها العمائم
أيشـتمنا عـبد الأراقـم ضـله وماذا الذى تجـزى عليه الأراقـم
فمـالى ثـأر دون قطـع لسانه فلونـك من يرضـيه عنـك الدراهم

ثم ذكر حق الهاشميين فى الخلافة وعدم أحقية معاوية فيها فقال :

فماأنت والأمر الذى لست أهله ولكن ولى الحق والأمر هاشم
اليهم يصير الأمر بعد شتاته فمن لك بالامر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم ومنهم له هاد امام وخاتم

فلما بلغت الابيات معاوية أمر بدفع الأخطل اليه ليقطع لسانه ، ولكن يزيد أجاره ، ومنع عنه ، وأرضوا النعمان حتى كف عنه[١٥٣]



(١٥٣) مهذب الأغانى جـ٣ ص ٢٠١ ، جـ ٤ ص٢٠.

موقف اليهود من الإسلام

- اليهود والنصارى يكذب بعضهم بعضا .
- محاجة اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم .
- أمثلة من عداوة اليهود .
- محاولاتهم الكيد للنبى والمسلمين .
- أمثلة من التحدى .
- إسلام بعض اليهود .
- خبث اليهود يتمثل فى كعب بن الأشرف .
- قصة أبى ياسر اليهودى وأخيه حُبَىّ .
- بعض الأقوال فى تفسير أوائل سور القرآن .

٣ ـ اليهود

واذا كنا قد تحدثنا عن كل من المهاجرين والأنصار فقد وجب الحديث عن اليهود وهم احدى الطوائف العتيدة المقيمة فى المدينة المؤثرة فى اقتصادها . فبأيديهم التجارة ولهم تأثير سياسى واجتماعى وحربى . وكان الأوس والخزرج يستعينون بهم فى حروبهم واقتصادهم .

واليهود كانوا مقيمين بالمدينة ـ وكان اسمها يثرب كما قدمنا ـ قبل مجىء الأوس والخزرج اليها .

وذكر السهيل سببين فى مجىء اليهود الى يثرب

أما السبب الأول فهو أن العماليق كانت تغير على بنى اسرائيل من أرض الحجاز وكانت منازلهم يثرب والجحفة الى مكة ، فشكا بنو اسرائيل الى موسى ـ عليه السلام ـ فوجه اليهم جيشا وأمره بقتلهم حتى لايبقى منهم أحد . ففعل الجيش ماأمره به وقتل العماليق ولم يبق منهم الا القليل الذين رقوا لهم فتركوهم ..

وعاد الجيش الى الشام فوجد موسى قد مات ، فقال بنو اسرائيل لافراد هذا الجيش : قد عصيتم وخالفتم فلانؤويكم ..

فقالوا : نعود الى البلاد التى انتصرنا عليها فنقيم بها . فرجعوا الى يثرب فاستوطنوها وأقاموا بها وتناسلوا فيها الى ان نزلت عليهم الأوس والخزرج

بعد سيل العرم . قال السهيلي : وقد أشار الى هذه القصة ابو الفرج الأصفهانى فى كتاب الاغانى ، وهذه القصة بعيدة عن الصواب كما سيأتى . . . .

والسبب الثانى أن اليهود قد جاءوا الى يثرب بعد أن غلب بختنصر على بيت المقدس ، فأمعن فى بنى اسرائيل تقتيلا وأسرا وطردا ، ففر منهم من فر وتفرقوا فى بلاد مختلفة ، ومنهم من جاء الى ثرب وأقام بها وهم بنو قريظة والنضير . ومنهم من أقام فى خيبر وفى غيرها من الأماكن .

وهذا هو السبب الأرجح بل الحقيقى . . أما السبب الأول فقد نقده السهيلي وغيره من العلماء . . . وذلك لبعد العهد بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين يهود المدينة .

ومما يؤكد ذلك السبب الثانى ويقويه أن موسى عليه السلام ظل مقيما فى التية حتى مات ، وكان بنو اسرائيل معه لايستقيمون على رأى ، وقد وجد صعوبة شديدة فى أن يوجههم إلى الأرض المقدسة ليدخلوها ، وأبوا عليه ذلك إباءاً شديدا . فعاقبهم الله بالتيه . فلم يكن من المعقول أن ينكصوا عن حرب الذين دخلوا أرضهم المقدسة وهى على مرأى عين منهم . ويتحولوا الى أسود كاسرة تقتحم الفيافى والقفار الى يثرب ليحاربوا أهلها ويقتلوهم عن آخرهم .

استطراد لغوى

كلمة يهود عربية ، مأخوذة من الهَوْد ، وهو التوبة والرجوع ، والفعل هاد بمعنى رجع ، ويهود بمعنى يرجع قال تعالى :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (١٥٤)

وقال - تعلى - :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١٥٥)

فمعنى هدنا اليك تبنا اليك .. وقد تعدى الفعل بإلى لأن فيه معنى رجع ... وفى الفعل أيضا معنى التقرب والعبادة والعمل الصالح والتوبة الى الله قال زهير بن أبى سلمى :

سوى رُبَعٍ لم يأت فيها مخافة ولارهقها من عابد متهود

وقد أصبحت هذه التسمية بعد أن غير اليهود وبدلوا تسمية على غير مسمى ....

---

(١٥٤) الأعراف ١٥٦

(١٥٥) البقرة ٦٢

وقد يحمل الفعل معنى الرجوع من الشر الى الخير أو من الخير الى الشر . ويحمل أيضا معنى العقل ، يقال : هاد إذا عقل .

من هذه المعاني جاءت كلمة يهود وسميت بها قبيلة - قال الشاعر :

أولئك أولى من يهود بمدحة   إذا أنت يوماً قلتها لم تؤنب

وقيل : ان اسم القبيلة يهوذ - بالذال - فعربت بقلب الذال دالا . .

وقالوا : اليهود بادخال الالف واللام على إرادة النسب يريدون بذلك اليهوديين . وقوله - تعالى - :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (١٥٦)

قال المفسرون معنى هادوا : دخلوا فى اليهودية ...... أما قوله - تعالى :

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ (١٥٧)

فقد قال الفراء : يجوز أن يكون هودا بمعنى يهودا فحذفت الياء الزائدة ورجع الى الفعل من اليهودية وعليها قرأ أبي بن كعب : الا من كان يهوديا أو نصرانيا .

---

(١٥٦) الأنعام ١٤٦

(١٥٧) البقرة ١١١

ويجوز أن يكون هود جمعا لكلمة « هائد » مثل قولهم : حائل وحول . وعائط وعوط . وكما يقولون فى جمع المجوسى مجوس .[158]

والهود : اليهود . . اشتقوا من هادوا بمعنى رجعوا . . وقال القرطبى فى تفسير قوله تعالى :

« والذين هادوا »

معنى هادوا صاروا يهودا ، نسبوا الى يهوذا وهو اكبر أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ فقلبت العرب الذال دالا لأن الاعجمية اذا عربت غيرت عن لفظها .

وقيل : سموا بذلك لأنهم تابوا عن عبادة العجل ، لأن الهائد هو التائب قال الشاعر

إنى أمرؤ من حبه هائد

وفى معنى الفعل (هاد) السكون والموادعة قال ابن عرفة : هدنا إليك اى سكنا إلى أمرك . .[159]

وليس لليهود من صفات هذه اللفظة ومعانيها نصيب . . .

اليهود فى القرآن :

وقد ورد فى القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن اليهود وتذكر

---

(١٥٨) لسان العرب مادة هود

(١٥٩) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٤٣٢

قصصهم مع أنبيائهم منها ما يذكر فيها لفظ يهود ، ومنها مايذكر فيها لفظ بنى اسرائيل ومن ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ ﴾ (١٦٠)

واستطردت السورة بعد ذلك الى ذكر ماحدث منهم مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وماحدث منهم مع غيره من الانبياء بعد موسى . .

وفى سورة المائدة حديث تفصيلى عن اليهود وماحدث منهم من نقض للعهد . وكفر بالنعم وتغيير وتبديل فى كلمات الله ، ومحاربة لله ورسله ، وعصيان مستمر ، وكفران شديد . .



(١٦٠) البقرة ٤٠

قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ
نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ
ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ
وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ
وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (١٦١)

وفى الآية الأخيرة تحذير مما حدث ومما سوف يحدث منهم عبر الأزمان والأجيال . . وفى كثير من السور وردت قصص بنى اسرائيل ـ والمراد بهم اليهود ـ وفى تكرار هذه القصص تنبيه وتذكير لأولى الالباب .

أما لفظ اليهود ـ فقد جاء فى عدة مواضع مجردا من الياء الأولى على اعتبار انها زائدة ، ومن ذلك قوله تعالى :

---

(١٦١) المائدة ١٢ ، ١٣

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ
وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ
وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (١٦٢)

وهى آية تصور موقف اليهود من النبى - صلى الله عليه وسلم - حين جاء الى المدينة . فقد قلبوا له ظهر المجن ، وكفروا به وبدعوته مع أنهم كانوا يبشرون به قبل مجيئه ، ويهددون به الأوس والخزرج . ويقولون لهم : سيبعث نبى هذا أوانه ، نؤمن به ونقتلكم معه قتل عاد وإرم . .

وعلى الرغم من وجود علاماته فى كتبهم وأنهم كانوا يعرفون أوصافه - صلى الله عليه وسلم - كما يعرفون أبناءهم . . مصداقا لقوله تعالى -:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ
لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (١٦٣)

فقد كفروا به . . . .

وكانوا حين يلقون النبى - صلى الله عليه وسلم - يقولون له : راعنا يلوون بها ألسنتهم ، وهى لفظة فى ظاهرها امتداح ، ولكنها بلغتهم سب

---

(١٦٢) النساء ٤٦
(١٦٣) البقرة ١٤٦

وشتم . ومعناها عندهم : اسمع لاسمعت ، وكانوا يقولون : كنا نَسُبُّه سرا ، فالآن نسبه جهرا . . . . . أى بلغتهم ظنا منهم أنه لن يفهم معنى كلامهم .

وربما قلدهم المسلمون فى هذا اللفظ على اعتبار معناه الحسن ، ولكن الله نبه المسلمين الى سوء قصد اليهود ، فنهاهم عن أن يقولوا هذه اللفظة التى تحتمل المعنى السىء فى لغة اليهود . - فنزل قوله تعالى - :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (١٦٤)

وكان سعد بن معاذ يعرف لغة اليهود فتنبه لما يقصدونه من مخاطبة النبى - صلى الله عليه وسلم - بقولهم : راعنا . فقال لهم : عليكم لعنة الله ، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبى - صلى الله عليه وسلم - لأضربن عنقه . فقال اليهود : أولستم تقولونها ؟ فنزلت هذه الآية . .

ولم يكتف اليهود بالعصيان والتكذيب الخفى بل صرحوا بذلك فكانوا يقولون للنبى - صلى الله عليه وسلم - سمعنا وعصينا . .

لم يكونوا فى حاجة الى المواربة والمداراة لأنهم كانوا يعتدون بأنفسهم ويعتبرون أنفسهم مركز قوة فى المدينة على الرغم مما ركب فى طبعهم من جبن وخوف . . وهكذا الجبان اذا وجد فرصة استأسد عضلاته وصور من نفسه

وخوف . . وهكذا الجبان اذا وجد فرصة استأسد وصور من نفسه

سنه

---

(١٦٤) البقرة ١٠٤

بطلا . . ولقد تحداهم القرآن الكريم ان كانوا صادقين حقا فى ادعائهم أن ماهم عليه حق فليتمنوا الموت . . وقال فى ذلك :

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (١٦٥)

وتكرر هذا التحدى مرة أخرى فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١٦٦)

وكما جاء ذكر اليهود وحدهم فى القرآن جاء اقترانهم مع النصارى فى

---

(١٦٥) البقرة ٩٤ : ٩٦

(١٦٦) الجمعة ٦ : ٨

بعض الآيات لأن مقولتهم واحدة .. فمن ذلك قوله تعالى :

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (١٦٧)

وليس معنى ذلك أن كلا منهما بصدق الآخر بل معناه أن اليهود قالوا : لن يدخل الجنة الا من كان يهوديا وأن النصارى قالت لن يدخل الجنة الا من كان نصرانيا .. وهذا زعم باطل وقد رد القرآن عليهم بقوله تعالى :

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١٦٨)

والذى يدل على تكذيب بعضهم لبعض قوله تعالى :



(١٦٧) البقرة ١١١

(١٦٨) البقرة ١١٢

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ (١٦٩)

وقيل إن هذه الآية نزلت حين جاء وفد نجران ـ وهم من النصارى ـ إلى النبى ـ ﷺ ـ فاجتمع اليهم اليهود وتحاجوا فكذب بعضهم بعضا »(١٧٠)

وسوف يظل هذا التكذيب متوارثا الى ماشاء الله فمازال اليهود يكذبون برسالة عيسى عليه السلام . كما ينكرون رسالة النبى ـ ﷺ ـ ومازال النصارى يستريبون فى أقوال اليهود وان كانوا يصدقون بموسى ـ عليه السلام ـ

وقد سبق أن قلنا إن هذه الآية نزلت فى شأن تكذيب أحبار اليهود للوفد الذى جاء للنبى ـ ﷺ ـ من نصارى نجران . . وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره طرفا من هذه المحاورة التى تمت بينهم قال راويا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما : ـ

لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله ـ ﷺ ـ أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ـ ﷺ ـ

فقال حبر من أحبار اليهود للنصارى : ماأنتم على شىء وكفر بعيسى وبالإنجيل .

---

(١٦٩) البقرة ١١٣

(١٧٠) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٧٦ ط دار الكتب

وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ماأنتم على شيء وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة .

فأنزل الله ـ تعالى ـ فى ذلك

« وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » .

وقال : إن كلا يتلو فى كتابه تصديق من كفر به ، أى يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ماأخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى ، وفى الانجيل الذى جاء به عيسى تصديق بموسى وأن ما جاء به من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بمافى يد صاحبه .(١٧١)

زعمهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه

وكما زعم اليهود والنصارى انه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتهم زعموا ايضا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقد كشف الله زيف دعواهم ، لأن لكل قول صادق شاهداً يؤيده ، وقد قال الله فى ذلك :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ (١٧٢)

---

(١٧١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٢٤ ط دار الشعب

(١٧٢) المائدة ١٨

وقد نزلت هذه الآية ـ كما جاء فى القرطبى عن ابن عباس ـ حين خوف النبى ـ ﷺ ـ قوما من اليهود من عقاب الله ، فقالوا : لانخاف فنحن أبناء الله وأحباؤه فنزلت الآية .

وقال ابن اسحاق : « جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ نعمان بن أضا ، وبحرى بن عمرو ، وشاس بن عدى فكلموه وكلمهم ، ودعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وحذرهم نقمته .

فقالوا : ماتخوفنا يامحمد ؟ نحن أبناء الله وأحباؤه وكذلك قال النصارى . فأنزل الله الآية .

فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب : يامعشر يهود ، اتقو الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه ، وتصفونه لنا بصفته .

فقال رافع بن حريملة ، ووهب بن يهوذا : ماقلنا هذا لكم ، ولا أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ولا أرسل بشيرا ولانذيرا من بعده . فانزل الله ـ عز وجل ـ

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾ (١٧٣)

---

(١٧٣) المائدة ١٩

وهم فى زعمهم هذا الحب الذى يدعونه يرجعون إلى قول يقولونه ـ حكاه بعض الرواة قالوا : أما زعم اليهود والنصارى بأنهم أحباء الله . فقد ذكر السدى قصة هذا الزعم فقال : زعمت اليهود أن الله ـ عز وجل ـ أوحى إلى إسرائيل ـ عليه السلام ـ أن ولدك بكرى من الولد ، أما النصارى فقد زعموا أنهم أبناء الله لأن فى الانجيل حكاية عن عيسى أنه قال : أذهب إلى أبى وأبيكم . .

وليست الأبوة حقيقية ولكنها أبوة معنوية تشير الى الرحمة والحنان ، ولكنهم جعلوها أبوة حسية ـ تعالى الله عن الشريك والصاحبة والولد علواً كبيراً .

ومقتضى الحب التغاضى عن هفوات المحبوب . ولذلك حاجهم القرآن الكريم بقوله



« فلم يعذبكم بذنوبكم »

قال القرطبى : فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين ، إما أن يقولوا هو يعذبنا فيقال لهم : فلستم إذن أحباء الله فإن الحبيب لايعذب حبيبه ، وأنتم تقرون بعذابه ، فذلك دليل على كذبكم ، أو يقولوا : لايعذبنا فيكذبوا ماف كتبهم وماجاءت به رسلهم ، ويبيحوا المعاصى وهم معترفون بعذاب العصاة منهم . . (١٧٤)

---

(١٧٤) تفسير القرطبى ج ٥ ص ٢١١٧ تفسير سورة المائدة ـ ط دار الشعب

لم يكف اليهود منذ جاء النبى - ﷺ - الى المدينة عن عدوانهم على الاسلام بالفاظهم ومؤامراتهم . . . لقد رأوا فى وجود الاسلام خطرا عليهم وعلى كيانهم ونفوذهم . فقد كانوا يشعرون أنهم يتميزون على غيرهم من سكان المدينة ، لأنهم أهل كتاب أولا ، ولأن فى يدهم المال والتجارة ثانياً .

وقد عرض النبى ﷺ - عليهم الاسلام ، ولكنهم عارضوه بكل قوة ، وأبوا أن يصدقوا أنه النبى الذى بشرت به التوراة ، وأخبر عنه موسى وغيره من الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى وقبله . .

لقد كان من محاجتهم للنبى - ﷺ - ان قالوا له :

إن لكل نبى من الأنبياء ملكاً من الملائكة يأتيه من عند ربه بالرسالة والوحى ، فمن صاحبك حتى نتبعك ؟

فقال - عليه الصلاة والسلام - : جبريل .

قالوا : ذاك الذى ينزل بالحرب وبالقتال ، فهو عدونا ، لو قلت إن صاحبك ميكائيل الذى ينزل بالقطر والرحمة لتابعناك . فأنزل الله - تعالى - قوله

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (١٧٥)

(١٧٥) البقرة ٩٧ ، ٩٨

لقد بلغ من جدالهم وخبثهم أنهم كانوا ينكرون مافى التوراة اذا وجدوه موافقا لما جاء فى القرآن ، ويمالئون الكفار على النبى - ﷺ - ويخترعون للمشركين أسئلة يتحدون بها النبى - ﷺ - وهذه أمثلة لذلك :

قصة نزول آية

حكى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (١٧٦)

نقول حكى المفسرون فى سبب نزول تلك الآية أقوالا منها :

نزلت هذه الآية فى بنى قريظة والنضير ، فقد قتل رجل من يهود بنى قريظة ، رجلا من يهود بنى النضير .

---

(١٧٦) المائدة ٤١

وكان بنو النضير إذا قتلوا من بنى قريظة لم يقيدوهم وإنما يعطونهم الدية فتحاكموا إلى النبى - ﷺ - فحكم بالتسوية بين القرظى والنضيرى ، فساء ذلك بنى قريظة ولم يقبلوا . .

وقيل : إنها نزلت فى شأن يهوديين زنيا فسألوا النبى - ﷺ - عن الحكم فى ذلك فحكم عليهما بالرجم ولكن اليهود أنكروا ذلك الحكم .

فقال النبى - ﷺ - لهم : ائتونى بأعلم رجلين منكم ، فجاءوا بابنى صوريا ، فنشدهما الله تعالى : كيف تجدان أمر هذين فى التوراة ؟

قالا : نجد فى التوراة اذا شهد أربعة أنهم رأوا رجلا وامرأة زنيا أن يرجما .

قال : فما يمنعكما أن ترجموهما ؟

قالا : ذهب سلطاننا فكرهنا القتل .

فدعا النبى - ﷺ - بالشهود ، فشهدوا بأنهما قد زنيا فأمر النبى - ﷺ - برجمهما

هذا ماجاء فى الصحيحين . . . وفى غير الصحيحين عن الشعبى عن جابر بن عبد الله قال : زنى رجل من أهل فَدَك ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمدا عن ذلك ، فإن أمركم بالجلد فخذوه ، وإن أمركم بالرجم فلاتأخذوه ، فسألوه فدعا بابن صوريا وكان عالمهم ، وكان أعور .

فقال رسول الله - ﷺ - : أنشدك الله كيف تجدون الزانى فى كتابكم ؟

فقال ابن صوريا : أما إذ ناشدتنى الله فإنا نجد فى التوراة أنه إن شهد أربعة على رجل وامرأة بالزنا رجما . .

فقال النبى - ﷺ - : هو ذاك . .

إنهم كانوا يعترفون بذلك ولكنهم لايطبقونه ، كانوا يعدلون عن الرجم الى الجلد . تغييرا لحكم الله . كما كانوا يفرقون بين الشريف والضعيف كانوا يقيمون الحد على الضعيف دون الشريف .

روى البراء بن عازب قال : إن النبى - ﷺ - رأى اليهود يجلدون الزانى ويغبرون وجهه بالفحم ، فدعاهم فقال : هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟

فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟

قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى الله بهذا لم أخبرك . نجده الرجم ، ولكنه كثر فى اشرافنا ، فكنا اذا فعل ذلك الشريف تركناه ، واذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . . فقلنا لبعضنا . لابد أن نجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا تغبير الوجه والجلد مكان الرجم . .

فقال رسول الله - ﷺ - : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأمر به فرجم .(١٧٧)

---

(١٧٧) تفسير القرطبى - سورة المائدة ص ٢١٧٣ ط دار الشعب

فهذه الأخبار كلها تشير الى عدم تطبيق الأحكام وانكارها من جانب اليهود . . ولولا أن النبى - ﷺ - كان يناشد علماء اليهود بالله أن يذكروا الحقيقة ماذكروها ، والذى يدل على انكارها مارواه أبو هريرة - رضى الله عنه - قال : زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا الى هذا النبى فإنه بعث بالتخفيفات ، فإن أفتى بشىء دون الرجم قبلناه واحتججنا بذلك عند الله ، وقلنا فتيا نبى من أنبيائك .

فأتوا النبى - ﷺ - وهو جالس فى المسجد فى جماعة من أصحابه ، فقالوا : ياأبا القاسم ماترى فى رجل وامرأة زنيا ؟

فلم يكلمهم النبى - ﷺ - حتى أتى بيت مدراسهم - كنيستهم - فقام على الباب ، فقال أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، ماتجدون فى التوراة على من زنى إذا كان محصنا ؟

فقالوا : يجلدان ثم يحملان على حمار .

وتقابل أقفيتهما ويطاف بهما .

وسكت شاب منهم ، فلما رآه االنبى - ﷺ - سكت›ألح به أن يقول الحق .

فقال : اللهم اذ نشدتنا فإنا نجد فى التوراة الرجم .

فهاأنت ذا ترى أنهم يريدون التحلل من أحكام الله ، ويتلمسون لذلك العلل ، ولكنهم حينما جوبهوا بالحق لم يستطيعوا الانكار .

عداوة اليهود للمؤمنين

وقد أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن عداوة اليهود للمؤمنين التى لايستطيعون انكارها . وقال فى ذلك

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (١٧٨)

وهناك أدلة كثيرة تثبت هذه العدواة منها :

روت صفية بنت حُيَىٍّ أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ وهى بنت حُيَىٍّ بن أخطب قالت :

كنت أحَبَّ ولد أبى إليه ، وإلى عمى أبى ياسر ، وكانا من أكبر اليهود وأعظمهم ، فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة غَدَوَا إليه ثم جاءا من العشى .

فسمعت عمّى يقول لأبى : أهو أهو؟

قال : نعم والله .

قال : أتعرفه ؟

---

(١٧٨) المائدة ٨٢

قال : نعم .

قال : فماذا فى نفسك منه ؟

قال : عداوته والله مابقيت .

وفى رواية : أنها قالت : إن عمى أبا ياسرحين قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ذهب إليه وسمع منه وحادثه ، ثم رجع إلى قومه فقال : ياقوم أطيعونى ، فإن الله قد جاءكم بالذى كنتم تنتظرونه ، فاتبعوا هذا النبى ولاتخالفوه .

ثم انطلق أبى إلى رسول الله - ﷺ - وسمع منه ، ثم رجع الى قومه ، فقال لهم : أتيت من عند رجل والله لاأزال له عدوا .

فقال له أخوه أبو ياسر : يابن أم أطعنى فى هذا الأمرواعصنى فيما شئت بعد . . . لاتهلك نفسك واتبع هذا الرسول . .

فقال : والله لانطيعك .

ثم وافق أبو ياسر أخاه حييًا فكانا أشد اليهود عداوة لرسول الله - ﷺ - وعملا جاهدين فى رد الناس عن الاسلام بما استطاعا ، فأنزل الله - تعالى - فيهما وفيمن كان موافقا لهما . . . قوله تعالى :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١٧٩)

---

(١٧٩) البقرة ١٠٩

لقد كان حيي بن أخطب يتزعم جبهة المعارضة اليهودية ، وقد كاد الحسد يقتله ، لقد أعماه الحقد عن أن يسير فى طريق الحق الذى تبين له .

وحاول أخوه أن يجره إليه ولكنه أبى ، فما كان من أخيه إلا أن اتبعه على ضلاله ، وسارا معا الى حيث سوء العاقبة والبعد عن الصواب .

وظل حُييٌّ بن أخطب يتهكم من الاسلام ودعوته ـ وبلغ من ضلاله أنه حين نزل قوله تعالى

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ (١٨٠)

اخذ يقول على سبيل السخرية والاستهزاء : ان ربنا يستقرضنا أى يطلب منا قرضا . وانما يستقرض الفقير الغنى ، فأنزل الله ـ تعالى

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ (١٨١)

هذا ماراوه بعض العلماء

ولكن هناك رواية أخرى حول هذه الآية تشير أيضا الى عداء اليهود للقرآن وللاسلام .

---

(١٨٠) البقرة ٢٤٥

(١٨١) آل عمران ١٨١

ذكر ابن كثير فى تفسيره قال : قال ابن اسحاق ، حدثنى محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : دخل أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بيت المدراس ، فوجد من يهود أناسا قد اجتمعوا الى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر آخر يقال له : أشيع .

فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ويحك يافنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله وقد جاءكم بالحق الذى تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل .

فقال فنحاص : والله ياأبابكر ، مابنا الى الله من حاجة وانه الينا لفقير ، وإنا لانتضرع اليه كما يتضرع الينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنيا استقرضنا منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم الله عن الربا ويعطيه لنا ولو كان غنيا ماأعطانا الربا .

فغضب أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال : والذى نفسي بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك . ياعدو الله . .

فذهب فنحاص الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : : أبصر ماصنع بى صاحبك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي بكر : ماحملك على ماصنعت ؟ فقال : يارسول الله ، ان عدو الله قد قال قولا عظيما ، زعم أن

اللهِ فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه .

فجحد ذلك فنحاص وقال : ماقلت ذلك . فأنزل الله الآية السابقة رداً على فنحاص وتصديقا لأبى بكر (١٨٢)

لقد كان هذا فهم فنحاص ومن على شاكلته ممن أعمى المال عيونهم عن طريق الصواب فجحدوا حق الله فيما خولهم اياه واستخلفهم فيه . .

ولقد رد بعض العلماء على هؤلاء بقوله ـ فيما يحكيه الحلبى فى سيرته ـ : إن كان الله قذ استقرض المال لنفسه فهو كما قالواحولكنه يستقرضه لفقرائكم ثم يكافئكم عليه فهو الغنى الحميد .

أمثلة أخرى من العداوة :

وحاول اليهود أن يتخلصوا من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرادوا اغتياله عدة مرات ، ولكن الله أنجاه من شرهم ، فتارة يتآمرون لالقاء صخرة فوقه وهو جالس تحت جدار من جُدُرهم ، وتارة يدسون له السم فى الطعام ، وغير ذلك من صنوف المكر والتآمر ، وكان الله يحرسه ويرعاه وينبهه الى مايضمرون ويكيدون ، وحين وضع السم له فى الشاة ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان لحم هذه الشاة يخبرنى أنه مسموم . . ولفظ ماكان قد وضعه فى فمه .

---

(١٨٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٥٣ ط دار الشعب

وحين يئسوا من النيـل منه احتالوا لإمراضه عن طريق السحر . فقد ذكر الرواة أن من أسباب نزول المعوذتين أن لبيد بن الأعصم اليهودى احتال عن طريق غلام يهودى كان يخدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أن يأخذ شيئا من شعر رأسه ، ويضعه فى مشطه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصنع سحرا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفنه فى بئر فأخبر جبريل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك فأمر باستخراجه .

أخبر السيوطى فى كتابه أسباب النزول قال : أخرج البيهقى فى دلائل النبوة من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : مرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرضا شديدا فأتاه ملكان فقعد احدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : ماترى ؟



قال : طُبَّ .
قال : وماطُب ؟
قال : سُحر .
قال : ومن سحره ؟
قال : لبيد بن الاعصم اليهودى .
قال : أين هو؟

قال : فى بئر آل فلان ، تحت صخرة فى كربة ، فائتوا البئر فانزحوا ماءها ، وارفعوا الصخرة ، ثم خذوا الكربة وأحرقوها . فلما أصبح رسول

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث عمار بن ياسر فى نفر ، فأتوا البئر ، فاذا ماؤها مثل ماء الحناء ، فنزحوا الماء ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الكربة وأحرقوها ، فاذا فيها وتر فيه احدى عشرة عقدة ، ثم أنزلت على رسول الله المعوذتان فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ (١٨٣)

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾ (١٨٤)

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل أيضا من طريق جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أنس بن مالك قال : صنعت اليهود لرسول الله ـ ﷺ ـ شيئا فأصابه من ذلك وجع شديد . . ودخل عليه أصحابه وهم فى جزع وخوف فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوذه بهما فخرج إلى أصحابه صحيحا .(١٨٥)

---

(١٨٣) سورة الفلق
(١٨٤) سورة الناس
(١٨٥) أسباب النزول للسيوطى ص ١٨٦

ويذكر الحلبى فى سيرته أن لبيد بن الأعصم أخذ أجرا لما فعله من اليهود ثلاثة دنانير ، وأن البئر التى دفن فيها السحر هى بئر « ذى أروان »

ولاينافى ذلك ماورد من أن الله عصم نبيه من الناس ، فإن ذلك إنما هو من القتل . أما الأذى فقد صح أن النبى - ﷺ - قد تعرض لأذى المشركين وغيرهم ، وهذا لون من الأذى الذى تعرض له .

محاولات أخرى من الكيد

كان شاس بن قيس وهو يهودى أعماه تعصبه لليهودية عن إبصار طريق الحق والرشاد ، مع تيقنه الشديد بأن النبى - ﷺ - هو النبى الذى أخبرت به التوراة .

وحاول شاس بكل ماأوتى من قوة أن يصرف الناس عن الهدى والايمان ، وكانت محاولاته الدائبة تنتهى بالفشل . ولما يئس من ذلك فكر فى طريقة أخرى هى إثارة الخلاف بين المسلمين .

لقد هاله أن يرى الأوس والخزرج وقد توحدت الكلمة بينهم ، وصاروا إخوة متحابين بعد أن كانوا أعداء متنافرين ، فانتهز فرصة وجدهم فيها مجتمعين معا يتحدثون ، فجلس بينهم ، وقيل إنه أغرى واحداً من أتباعه أن يجلس بينهم ويجاريهم فى الحديث حتى يذكرهم بيوم بعاث وماجرى ففيه من قتال وماقيل حوله من أشعار - والمعروف أن يوم بعاث هو موقفه انتصر فيها الأوس على الخزرج - وظل اليهودى يتحدث فى ذلك حتى خاض القوم فى أشعارهم ، فقال قائل من الأوس : قد قال شاعرنا كذا ، ورد عليه آخر

من الخزرج بقوله : بل قال شاعرنا كذا ، وتحركت النفس البشرية كمايتحرك الماء المغلى . وأثيرت الضغائن التى أطفأها الاسلام بنوره .. ونجح هذا اليهودى الخبيث فى أن يوقظ الفتنة التى كانت نائمة ، فتنازع القوم المتآلفون ، وتواعدوا على المقاتلة قائلين : تعالوا نرد الحرب جذعا كما كانت ، ونادى رجل من الأوس : فقال ياللأوس ، ورد عليه خزرجى فقال : ياللخزرج ..

فأسرع كلٌ إلى تلبية المنادى ، واصطفوا للقتال .. وبلغ الأمر النبى - ﷺ - : فجاء سريعا ومعه المهاجرون ، ووقفوا بين القوم . ثم قال النبى - ﷺ - يامعشر المسلمين ، الله ، الله ، أدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ بعد أن هداكم الله الى الاسلام ، وألفكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم من الكفر ، وألف بينكم بالإسلام ؟

فماكان أقصرها من كلمة تلكك التى قالها الرسول ، ولكن ماأبلغها وماأعظم أثرها ! !

لقد أبصر القوم ، وتنبهوا . وأدركوا أنها نزعة من الشيطان ومن كيد عدوهم .. فألقوا السلاح ، وأقبلوا يتعانقون ويعتذر بعضهم لبعض وصدق الله - تعالى إذ يقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (١٨٦)

---

(١٨٦) الأعراف ٢٠١

ولم يسكت القرآن عن فضح ذلك الخبيث الذى سولت له نفسه أن يفصم العلائق الطيبة بين الناس ، ويعكر الجو الصاف الذى صنعه الاسلام وجعل الناس يتنفسون فيه عبير السلام والأمن والصفاء ،(١٨٧) فنزل قوله - تعالى -

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾
قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن
تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ
تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم
بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ
تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا
وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١٨٨)

أمثلة من تحديهم

كان اليهود يحاولون إحراج النبى - ﷺ - بالاسئلة ، ظنا منهم أنهم بذلك

---

(١٨٧) أسباب النزول للسيوطى ص ٤١

(١٨٨) آل عمران ٩٨ : ١٠٣

يحملونه على التقول بالباطل ، أو العجز عن الاجابة ، وكأنهم لايدرون أن الله وراءه يسدده ويلهمه ويوحى إليه ، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يلقنون المشركين أسئلة ليلقوها على النبى - ﷺ - على سبيل التحدى ، وقد مر بنا قبل ذلك كيف أن المشركين استعانوا باليهود ، وأرسلوا لهم من مكة يسألونهم ، فلقنوهم بعض الأسئلة وطلبوا منهم أن يوجهوها للنبى - ﷺ - ومن ذلك سؤال عن ذى القرنين ، وسؤال عن أهل الكهف وسؤال عن الروح .

وقيل : إن سؤال الروح وجهه يهود المدينة للنبى - ﷺ - بعد هجرته إليها .

فقد روى ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : كنت أمشى مع النبى - ﷺ - فى حرث المدينة يتوكأ على عسيب - جريدة نخل - إذ مر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : لاتسألوه لئلا يسمعكم ماتكرهون - أى يجيبكم بماهو دليل عندكم على أنه النبى الأمى وأنتم تنكرون نبوته - فقاموا إليه ، فقالوا : يامحمد ، ماالروح ؟ فسكت .

قال ابن مسعود : فعرفت أنه - ﷺ - يوحى إليه . فقال :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (١٨٩)

---

(١٨٩) الاسراء ٨٥

وقد تحدثنا عن ذلك فيماسبق ..

فماأشبه اليهود بالمشركين فى موقفهم من النبى - ﷺ - وموقفهم من القرآن . ولئن كان اليهود أهل كتاب إلا أنهم رموا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، وصموا آذانهم عن دعوة الحق ، وغيروا وبدلوا فيما أنزل الله ، وزعموا أن محمداً - ﷺ - جاء بما جاء به من عنده ، لم يرسله الله ولم يبعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ..

واذا كان المشركون قد تحدوا النبى - ﷺ - بطلب الآيات فقد تحداه اليهود أيضا طالبين منه الاجابة عن أسئلة يحاولون تعجيزه بها . وكانوا يقفون من أخبار القرآن موقف المعارض ، وقد رأينا كيف سخروا من قوله - تعالى -

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا »

وكيف رد الله عليهم وكذبهم وفضح أساليبهم ..

وقد وقف المشركون نفس الموقف من آيات كثيرة ومن ذلك موقفهم من آيات سورة الروم .

وقصة ذلك . أنه حين ظهرت فارس على الروم وكان ذلك قبل الهجرة فرح المشركون وهللوا ، فقد سرهم أن يظهر قوم مشركون على قوم من أهل الكتاب .. فأنزل الله قوله تعالى -

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ

وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [١٩٠]

ولنستعرض ماذكره القرطبى حول هذه الآيات .

قال : كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان ، وكان المسلون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب . فذكروا ذلك لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أما إنهم سيغلبون .

ونزلت الآيات المتقدمة . فخرج بها أبو بكر إلى المشركين ، فقال : أسركم أن غُلِبَت الروم ؟ فإن نبينا ـ ﷺ ـ أخبرنا عن الله تعالى ـ أنهم سيُغْلَبُون فى بضع سنين .

فقال له أُبَىّ بن خلف وأخوه أمية ، وأبو سفيان بن حرب : فلنتراهن فى ذلك ياأبا بكر .

فراهنهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وكان ذلك قبل أن يحرم القرآن ذلك .. وجعلوا الرهان خمس قلائص[١٩١] ، والأجل ثلاث سنين .

ثم أتى النبى ـ ﷺ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره ، فقال النبى ـ ﷺ ـ فهلا احتطت فإن البضع مابين الثلاث والتسع والعشر ، ارجع فزدهم فى الرهان واستزدهم فى الأجل ففعل أبو بكر .

---

(١٩٠) الروم ١ : ٥

(١٩١) القلائص جمع قلوص ، وهى الفتية من الإبل

فجعلوا القلائص مائة ، والأجل تسعة أعوام . . فغلبت الروم فى أثناء الأجل . ظهروا فى السنة التاسعة ، وقيل فى السنة السابعة من غزو فارس للروم .

وحين انتشرت الهجرة بين المسلمين من مكة الى المدينة ، خشى أبى بن خلف أن يهاجر أبو بكر ـ فذهب إليه ، وقال له : أعطنى كفيلا بالرهن إن غُلبت ، فكفل به ابنه عبد الرحمن . .

فلما أراد أُبَىّ الخروج إلى أحد طالبه عبد الرحمن بالكفيل لأنه قد يموت فى الحرب فأعطاه كفيلا ، ثم مات أبىّ بمكة من جرح أصابه فى أثناء القتال . .

وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، بعد تسع سنين .

قال الشعبى : لم تمض تلك المدة حتى غلبت الروم فارس ، وربطوا خيلهم بالمدائن . وخسر أبىّ بن خلف الرهان ، وأخذ أبو بكر المال من ورثته .

فقال له النبى ـ ﷺ ـ : تصدق به ، فتصدق به .

أما سبب غلبة الروم ـ فقد ذكر الرواة أن امرأة فى فارس كانت لاتلد إلا الفرسان الأبطال ، فقال لها كسرى : أريد أن أستعمل أحد بنيك على جيش أجهزه إلى الروم .

فقالت له :

هذا هرمز أروغ من ثعلب وأحذر من صقر .

وهذا فرخان أحد من سنان وأنفذ من نبل .
وهذا شهر بزان أحلم من كذا ، فاختر .

فاختار الحليم وولاه ، فسار إلى الروم بأهل فارس ، فظهر على الروم ، فلما ظهر عليها خرب ديارها حتى بلغ الخليج .. وقد ملّكه كسرى على البلاد التى استولى عليها .. فقال له أخوه فرخان بعد فترة من ولايته .. لقد رأيتنى جالسا على سرير كسرى . فبلغ ذلك كسرى فكتب كسرى الى شهر بزان : أرسل إلىّ برأس فرخان ، فلم يفعل ، فكتب كسرى إلى جيش فارس : إنى قد استعملت عليكم فرخان وعزلت شهر بزان ، وكتب إلى فرخان إذا ولى أن يقتل شهر بزان .

فأراد فرخان قتل شهر بزان ، فأخرج له شهر بزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره ففيها كلها بقتل فرخان .

وقال شهر بزان لفرخان : ـ إن كسرى كتب إلىّ ثلاث مرات أن أقتلك وراجعته دائما فى أمرك ، أفتقتلنى أنت بكتاب واحد ؟

فرد الولاية إلى أخيه ، وكتب شهر بزان الى قيصر ملك الروم ، فتعاونا على كسرى ، فغلبت الروم فارس ومات كسرى .

وجاء الخبر الى النبى ـ ﷺ ـ يوم الحديبية ففرح وفرح من معه من المسلمين وتحقق ماجاء فى القرآن الكريم .

وفرح المؤمنون بنصر الله الذى تحقق لهم أيضا ، بصلح الحديبية الذى كان فتحا مبينا لهم ،

لقد فرح المؤمنون بصدق القرآن كما فرحوا باستتباب الأمن مؤقتا بينهم وبين قريش ، وقد مكن لهم ذلك القيام بدعوتهم فى هدوء وسلام . .

وقد ذكرنا هذه القصة هنا مع أنها تتعلق بمشركى قريش وموقفهم من الدعوة ، لإثبات التشابه بين موقف اليهود والمشركين من الدعوة ، ولأنها قصة شهدت مرحلتين من مراحل الدعوة بعضها فى مكة وبعضها فى المدينة المنورة .

وقد يسأل سائل عن سبب وجود عبد الرحمن بن أبى بكر فى مكة مع أن أباه كان قد هاجر الى المدينة بصحبة الرسول - ﷺ - والاجابة عن ذلك أن عبد الرحمن لم يكن قد أسلم بعد ، وقد شهد مع الكفار موقعتى بدر وأحد ، ولم يُسْلِم إلا فى هدنة الحديبية ، وكان قد دعا أباه الصديق الى المبارزة فى موقعة بدر ، فهم أبوه بمبارزته ، ولكن النبى - ﷺ - منعه . . .(١٩٢)

تأبى اليهود على الايمان

وعلى الرغم من أن النبى - ﷺ - كان يجيب اليهود على أسئلتهم إلا أنهم كانوا يزدادون ابتعادا عن الاسلام . مع تيقنهم بصدق هذه الإجابة وتوافقها مع ماجاء فى كتبهم .

جاءه يهوديان يوما فسألاه عن قوله - تعالى -

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾(١٩٣)

---

(١٩٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٣ ص ٤٦٦

(١٩٣) الاسراء ١٠١

يسألاه عن الآيات التسع . .

فقال ـ ﷺ ـ لهما :

لاتشركوا بالله شيئا

ولاتزنوا

ولاتقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق

ولاتسرقوا

ولاتسحروا

ولاتمشوا ببرىء الى سلطان

ولاتأكلوا الربا

ولاتقذفوا محصنة

وعليكم يايهود خاصة ألا تعتدوا فى السبت

فقبلا يديه ورجليه ـ وقالا : نشهد أنك نبى .

قال : مايمنعكما أن تسلما ؟

فقالا : نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا يهود(١٩٤)

اسلام بعض اليهود

ولكن بعض اليهود لم يمنعهم كِبْر غيرهم وحسدهم عن الاعتراف بالحق وإعلان إسلامهم .

من هؤلاء عبد الله بن سلام .

ويحكى لنا ابن هشام فى سيرته قصة إسلامه فيقول :

---

(١٩٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٢٢

كان عبد الله بن سلام ـ حبرا عالما ـ وكان اسمه قبل إسلامه الحصين . . وهو ابن سلام بن الحارث الاسرائيلى من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام(١٩٥) ـ حدث عن نفسه فقال :

لما سمعت برسول الله ـ ﷺ ـ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوقع له ، فكنت كاتما لذلك السر صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة ، فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة ابنة الحارث تحت النخلة جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ـ ﷺ ـ كبَّرْت . .

فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً مازدت على ذلك .

قال : قلت لها ، أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بعث بمابعث به .

قال : فقالت ، أى ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع قرب الساعة ؟

قال : فقلت لها : نعم .

فقالت : فذاك إذن .

قال : ثم خرجت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتى ، فأمرتهم فأسلموا .

---

(١٩٥) أسد الغابة ج٣ ص ٢٦٤

قال : وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله - ﷺ - فقلت له : يارسول الله ، إن يهود قوم بُهْت ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى . .

قال : فأدخلنى رسول الله - ﷺ - فى حجـرة ، ودخل اليهود عليه فكلموه وساءلوه ، ثم قال لهم ، أى رجل - الحصين بن سلام فيكم ؟

قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وعالمنا .

قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يامعشر يهود ، اتقوا الله ، واقبلوا ماجاءكم به هذا النبى فوالله إنكم لتعلمون انه لرسول الله ، تجدونه مكتُوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله - ﷺ - وأومن به وأصدقه وأعرفه .

فقالوا : كذبت ثم وقعوا بى .

قال : فقلت لرسول الله - ﷺ - : ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بُهْت ، أهل غدر وكذب وفجور ؟

قال : فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها .(196)

---

(١٩٦) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٧

ونزل فى إسلام عبد الله بن سلام قوله - تعالى -

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ ﴾(١٩٧)

ونزل فيه أيضا قوله - تعالى -

« قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب »(١٩٨)

وأبلى عبد الله بن سلام فى الاسلام بلاء حسنا ، وكان من المدافعين عن عثمان يوم الدار .

روى ابن الأثير فى أسد الغابة قال : لما خرج قوم على عثمان - رضى الله عنه - جاء عبد الله بن سلام فقال له عثمان : ماجاء بك ؟

قال : جئت فى نصرك .

قال عثمان : اخرج إلى الناس فاطردهم عنى يجزيك الله خيرا . .

فخرج عبد الله إلى الناس ، فقال : أيها الناس ، إنه كان اسمى فى الجاهلية هو فلان ، فسمانى رسول الله - ﷺ - عبد الله ، ونزلت فىّ آيات من كتاب الله - عز وجل - نزل فىّ « وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » ونزل فىّ « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

---

(١٩٧) الأحقاف ١٠

(١٩٨) الرعد ٤٣

إن لله سيفا مغمودا عنكم ، وان الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم هذا الذى نزل فيه رسول الله - ﷺ - فالله الله فى هذا الرجل أن تقتلوه ، فوالله لئن قتلتموه لتطردن جيرانكم الملائكة ، ولَيَسلَنَّ سيف الله المغمود عنكم ، فلايغمد إلى يوم القيامة .

قالوا : اقتلوا اليهودى ، واقتلوا عثمان .

وفى حق عن عبد الله بن سلام روى الترمذى هذا الخبر : قال : لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل له : ياأبا عبد الرحمن أوصنا . فقال : أجلسونى - فأجلسوه - فقال : إن العلم والايمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما ، فالتمسوا العلم عند أربعة : عند عويمر أبى الدرداء ، وعند سلمان الفارسى ، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند عبد الله بن سلام الذى كان يهوديا فأسلم ، فإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : إنه عاشر عشرة فى الجنة .(١٩٩)

اسلام زيد بن سَعْنة

ومن أخبار اليهود الذين أسلموا زيد بن سَعْنَة ، كان من أكثر اليهود مالا . ويحكى قصة إسلامه قائلا :

لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته فى وجه محمد حين نظرت اليه الا اثنتين لم أخبرهما منه وهما : -

أن حلمه يسبق غضبه ، وأن شدة الجهل عليه لا تزيده إلا حلماً .

---

(١٩٩) أسد الغابة ج ٣ ص ٢٦٤

فكنت أتلطف له لأخالطه وأعرف ذلك منه . .

قال : فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ يوما من الأيام ومعه على بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوى ، فقال : يارسول الله ، إن قرية بنى فلان قد أسلموا ، وقد أصابتهم سنة وشدة ، فإن رأيت أن ترسل اليهم بشيء وتعينهم به فعلت .

فلم يكن معه شيء . .

قال زيد : فدنوت منه فقلت : يامحمد إن رأيت أن تبيعنى تمرا معلوما من حائط بنى فلان إلى أجل كذا وكذا .

فقال : لايأخا يهود ، ولكن أبيعك تمرا معلوما الى أجل كذا وكذا ولا أسمى لك حائط بنى فلان .

فقلت : نعم ، فبايعنى وأعطيته ثمانين دينارا . فأعطاها الرجل .

قال زيد : فلما كان قبل حلول الأجل خرج رسول الله ـ ﷺ ـ فى جنازة رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فى نفر من أصحابه ، فلما صلى على الجنازة أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ . ثم قلت : ألا تقضى لى يامحمد حقى ؟

ووجه اليه كلاما غليظا يفهم منه أن بنى عبد المطلب كلهم قوم مُطْل .

قال زيد : فنظر إلى عمر وعيناه تدوران فى وجهه ـ كناية عن الغضب ـ ثم قال : أى عدو الله ، أتقول لرسول الله ـ ﷺ ـ ماأسمع ؟

فوالله الذى بعثه بالحق لولا ماأحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك .

هذا ورسول الله - ﷺ - ينظر إلى عمر فى سكون وتبسم ، ثم قال : ياعمر أنا وهو إلى غير هذا منك أحوج ، أن تأمره بحسن الاقتضاء ، وتأمرنى بحسن القضاء ، اذهب به ياعمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعا مكان ماروعته .

عند ذلك تبين لزيد وجود هاتين العلامتين اللتين كان يبحث عنهما فى النبى - ﷺ - صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحسن إسلامه .(٢٠٠)

ويذكر العلماء أيضا أن من أسباب نزول قوله - تعالى -

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ (٢٠١)

القصة الآتية التى يرويها القرطبى - رحمة الله فى تفسيره قال :

قال الكلبى : لما ظهر رسول الله - ﷺ - بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار الشام ، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ماأشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذى يخرج فى آخر الزمان .

فلما دخلا على النبى - ﷺ - عرفاه بالصفقة والنعت .

فقالا له : أنت محمد ؟

---

(٢٠٠) أسد الغابة ج ٢ ص ٢٨٨

(٢٠١) آل عمران ١٨

قال : نعم

قالا : وأنت أحمد ؟

قال : نعم

قالا : نسألك عن شهادة ، فان أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك .

فقال لهما رسول الله - ﷺ - : سلا ماتريدان .

فقالا : أخبرنا عن الأعظم شهادة فى كتاب الله .

فأنزل الله -تعالى- على نبيه - ﷺ - « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط »

فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله - ﷺ -(٢٠٢)

وقد ذكر على بن برهان الدين الحلبى فى كتابه « السيرة الحلبية » أيضا هذه القصة . . وقد علق القرطبى على هذه الآية الكريمة تعليقا يبين شرف العلم وفضله ، قال : والدليل على ذلك أن الله قرن أولى العلم بالملائكة فى الشهادة مع الله جل وعلا بأنه لا إله إلا هو جلت حكمته وعظمت قدرته واتسعت رحمته .

وذكر فى فضل هذه الآية قصة قال :

روى غالب القطان قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش ، فكنت أختلف إليه ، فلما كان ليلة أردت أن أنحدر الى البصرة قام فتهجد من الليل ، فقرأ بهذه الآية

---

(٢٠٢) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٤١ ط دار الكتب

« شهد الله انه لاإله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لاإله إلا هو العزيز الحكيم . ان الدين عند الله الاسلام »

قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى وديعة ، وان الدين عند الله الاسلام ـ قالها مرارا ـ فغدوت إليه وودعته ، ثم قلت : إنى سمعتك تقرأ هذه الآية فما بلغك فيها ؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدثنى بشىء من ذلك .

قال الأعمش : والله لاأحدثك بذلك قبل سنة .

قال : فحرصت على معرفة ذلك وكتبت على بابه ذلك اليوم ، فلما مضت السنة قلت :

ياأبا محمد قد مضت السنة . فحدثنى عن فضل هذه الآية . .

قال الأعمش : حدثنى أبو وائل عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله ـ تعالى ـ :

« عبدى عهد إلىّ وأنا أحق من وفّى أدخلوا عبدى الجنة »

فانظر إلى حرص العلماء على التعلم ، ودقتهم فى اختبار المتعلمين ، فالأعمش لم يلق علمه جزافا حتى عرف صدق تلميذه فى طلبه ، وغالب القطان صبر عاما ليحصل على حديث من أستاذه ولم يمل أو يتحول .

هو درس نهمس به فى آذان أهل العلم اليوم ، ونذكرهم بقول الجرجانى :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس تعظما
ولكن أذلوه جهاراً وسودوا محياه بالأطماع حتى تجهما

قصة مخيريق

ومن أصاخ لدعوة الحق من اليهود ، واستجاب لأمر الله على الرغم من معارضة الأحبار ووقوفهم بكل قوة فى طريق من يريد الاسلام « مخيريق » يقول عنه ابن هشام : كان حبرا عالما ، وكان رجلا غنيا كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله - ﷺ - بصفته ، ومايجد فى علمه . وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد - وكان هذا اليوم يوم سبت - واليهود لايعملون شيئا يوم السبت - قال : يامعشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق .

قالوا : إن اليوم يوم السبت .

قال : لا سبت لكم ، ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله - ﷺ - بأحد .

وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتل هذا اليوم فأمواله لمحمد - ﷺ - يصنع فيها ماأمره الله .

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله - ﷺ - يقول : مخيريق خير يهود .

وَقَبَضَ رسول الله - ﷺ - أمواله ، فعامة صدقات رسول الله - ﷺ - بالمدينة منها .(٢٠٣)

---

(٢٠٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٢

اليهود والمعاهدة

لقد كانت الصحيفة التى كتبها النبى - ﷺ - عهدا وثيقا يلزم هؤلاء اليهود حدوداً لايتعدونها فى معاملة أهل المدينة ، وذلك بعد أن ثبت اليهود على موقفهم وأبوا الانصياع لما تأمرهم به التوراة من ضرورة الايمان بذلك النبى الذى سيبعثه الله آخر الزمان ، والذى انطبقت أوصافه انطباقاً تاماً على النبى - ﷺ -

وهذه الصحيفة تعتبر شاهد صدق على قمة العدالة فى معاملة النبى - ﷺ - وسلم لليهود ، وقد كان بالامكان ان تؤتى هذه العدالة ثمارها الطيبة فى حسن العلاقة بين المسلمين واليهود ، ولكن اليهود تغلبت عليهم طبيعتهم المفعمة بالمكر والغدر والخديعة ، وتلك صفات بارزة ماتزال لصيقة بهم حتى وقتنا هذا . وماهى الا فترة وجيزة حتى ضاقوا ذرعا بما تضمنته هذه المعاهدة من نصوص ، فخرجوا على النبى - ﷺ - بالوان من الغدر والخيانة ، اضطرت النبى - ﷺ - لمحاربتهم وإجلائهم عن المدينة ، وسيذكر ذلك مفصلا فى موضعه المناسب إن شاء الله - تعالى .

الخبث اليهودى يتمثل فى كعب بن الاشرف

لم يترك اليهود سببا يتصل بإيذاء المسلمين فى المدينة الا تمسكوا به ، وقد كانوا يتوقعون ويأملون حين يلتقى المشركون بالمسلمين فى معركة أن ينهزم المسلمون ، وتنطوى صفحة الاسلام فى المدينة ، ويُقْضى على هذا النبى الذى جاء ليزلزل الأرض من تحت أقدامهم ، وينزلهم عن عروشهم التى

تربعوا عليها ملوكا غير متوجين بيدهم الأمر والنهى فى المدينة وماحولها .

ولكنهم فوجئوا بالنتيجة التى انتهت اليها معركة بدر . وبالهزيمة المنكرة التى حاقت بقريش . لقد كانوا بالأمس القريب يزفون الى بعضهم بشرى التخلص من هذا الدين الذى ناءت به كواهلهم ومن هذا الثقل الاسلامى الذى جثم على صدورهم . فاذا بهم اليوم يجدون هذا الثقل قد تضاعف بانتصار المسلمين .

لقد ظنوا أن فى قدوم قريش مفتاح الفرج ، فاذا بهذا المفتاح قد تكسرت أسنانه وضاع الأمل المنتظر . .

وكان من اليهود رجل اسمه كعب بن الأشرف أصله من طيىء ، وكانت أمه من يهود بنى النضير . هاله مارأى من انتصار محمد ـ ﷺ ـ وصحبه ، وماسمع من أخبار نصر المسلمين على قريش .

وكان النبى ـ ﷺ ـ قد أرسل بشيرين يخبران أهل المدينة بنتيجة المعركة . فأرسل زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، وأرسل عبد الله بن رواحة الى أهل العالية ، فصاح كل منهما مبشرا بالخير .

فقال كعب بن الأشرف حين سمع نداء الرجلين لمن حوله : أحق هذا ؟ أترون أن محمدا قتل هؤلاء القرشيين وهزمهم كما يقول هذان الرجلان ؟ أترون أنه تمكن من قتل هؤلاء الصناديد من قريش كما يزعم الرجلان ؟

إن هؤلاء الذين قتلوا هم أشراف قومهم وزعمائهم ، وهم ملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها . .

لقد كان يشك فى نبأ البشيرين ، ولكنه لم يلبث أن تيقن وأدراك أن الأمر حق .

فلما تيقن من ذلك لم يقر له قرار بالمدينة فخرج حتى قدم مكة ، فنزل على المطلب بن وداعة بن ضميرة السهمى ، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، فأنزلته وأكرمته . .

وأخذ كعب بن الأشرف - وكان شاعرا - ينشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين قتلوا ببدر ، وكان مما قاله :

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد ذى بهجة تأوى إليه الضُّيَّع

إلى غير ذلك من أشعار . .

وقد أجابه حسان بن ثابت فى قصيدة منها :

ولقد شفى الرحمن منا سيدا وأهان قوماً قاتلوه وصرّعُوا
ونجا وأفلت منهم من قلبه شغف يظل لخوفه يتصدع

ابن الأشرف يفضل الشرك على الوحدانية

واغتنم القرشيون الفرصة فسألوا كعب بن الأشرف قائلين : أدييننا خير أم دين محمد

قال ماذا تفعلون أنتم ، وماذا يفعل محمد ؟

قالوا : نحن ننحر الكوماء ، ونسقي اللبن على الماء ، ونفك العناة ،

ونسقى الحجيج ونصل الأرحام .

قال : فما ذا يفعل محمد ؟

قالوا : قطع أرحامنا وفرق بيننا ، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار .

قال : بل أنتم خير منهم وأهدى سبيلا . .

إن دينكم خير وأقدم ، أما دين محمد فحديث .

ويقال : إنه كان معه حيى بن أخطب وأجاب بمثل ما أجاب به كعب بن الأشرف . فأنزل الله قوله تعلى -

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢٠٤)

لقد أعماه الحقد عن تبين وجه الرشد ، حتى لقد زعم أن عبادة الأوثان خير من عبادة الرحمن .

وعاد بعد ذلك كعب بن الأشرف الى المدينة حزينا ، وثار حقده الدفين على المسلمين ، فأراد أن ينفس عن حقده بقصائد غزلية ينال فيها من أعراض المسلمين . . إنه سلاح رخيص لا يلجأ إليه الا حقير وضيع . . وكان للشعر قديما أثره الشديد فى النفوس . . .

---

(٢٠٤) النساء ٥١ ، ٥٢

وقد تأذى المسلمون بسبب ذلك الشعر الخسيس ، وهو وإن كان كاذبا إلا أن هناك من المنافقين والمشركين من ينتظر ذلك الشعر ويروجه ، ويتحدث به ويظل يلوكه . .

وما دام قائل هذا الشعر حيا فسيظل مستمرا . . إذن فلابد من القضاء على المصدر لينقطع هذا الإرسال ، فقال النبى - ﷺ - : من لى بابن الأشرف ؟

فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به يارسول الله ، أنا أقتله .

فقال النبى - ﷺ - : فافعل إن قدرت على ذلك .

فجلس محمد بن مسلمة ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يحفظ به نفسه . فذكر ذلك للنبى - ﷺ - فدعاه : فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟

فقال محمد بن مسلمة : يارسول الله . قلت قولا لا أدرى أأقدر على الوفاء لك به أم لا ؟

فقال النبى - ﷺ - : إنما عليك الجهد .

قال : يارسول الله ، إنه لابد لنا من أن نقول .

قال : قولوا ما بدالكم فأنتم فى حل من ذلك .

واستعان محمد بن مسلمة فى مهمته بسلكان بن سلامة وكنيته أبو نائلة ، وكان أخاً لكعب بن الأشرف من الرضاعة ، واستعان أيضاً بالحارث بن أوس بن معاذ ، وبأبى عيسى بن جبر . .

أصبحوا أربعة ، وتقدموا إلى كعب بن الأشرف . . وبعثوا إليه قبل أن يقدموا عليه أخاه من الرضاعة سلكان ، وكان شاعرا ، فجعل يتحدث إليه ساعة ويتناشدان الشعر . حتى اطمأن إليه ابن الاشرف تماما .

ثم قال له سلكان : ويحك يابن الأشرف ، إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى .

قال كعب : أفعل .

قال سلكان : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء ، عادتنا بسببه العرب ، ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع العيال ، وجهد الأنفس ، وأصبحنا وقد جهدنا وجهد عيالنا .

قال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول ـ

فقال سلكان : إنى قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك وتحسن فى ذلك .

فقال كعب : أترهنوننى أبناءكم ؟

قال سلكان : أتريد أن تفضحنا ؟ . . إن معى أصحابا لى على مثل رأيى ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ، ونرهنك من الحلقة ـ أى السلاح ـ ما فيه وفاء .

وأراد سلكان من وراء ذلك أن لا ينكر ابن الأشرف السلاح إذا جاءوا به . قال كعب : إن فى الحلقة لوفاء .

فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ، ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه .

وأقبل الأربعة حتى انتهوا إلى حصن كعب بن الأشرف ، فهتف به أبو نائلة فسمع كعب الصوت فلبى ، ونهض ، وكان حديث عهد بعرس ، ووثب فى ملحفته ، فأخذت امرأته بناحيتها ، وقالت : إنك امرؤ محارَب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة .

ولكن الله أعماه عن تدبر قولها لقدره ـ فقال لها : إنه أبو نائلة ، لو وجدنى نائما لما أيقظنى .

فقالت : والله إنى لأعرف فى صوته الشر .

فقال لها كعب وقد تمثل قول أهل الفتوة والنجدة وما أبعده عن ذلك ـ : لو يدعى الفتى لطعنة لأجاب .

ونزل كعب ، فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ، ثم قالوا له : هل لك يابن الأشرف أن نتماشى معا إلى شعب العجوز ، فنتحدث فيه بقية ليلتنا ؟ قال : إن شئتم .

فخرجوا يتماشون ، فمشوا ساعة . . كل ذلك وأبو نائلة يظهر من الود لكعب ما يزيده اطمئنانا ووثوقا ، فجعل يضع يده على رأس كعب ثم يشمها ويقول : ما رأيت كالليلة طيبا أعطر من ذلك قط ، وأخذ يكرر ذلك ، حتى اطمأن كعب تماما ، ونسى حيطته وحذره .

ومد أبو نائلة يده مرة أخرى حتى أخذ برأس ابن الأشرف ، ثم قال :
اضربوا عدو الله ، فضربوه .
ومازالوا به حتى أجهزوا عليه .

وأصاب سيف أحدهم الحارث بن أوس بن معاذ وهو واحد منهم ، فنزف دمه ، فأبطأ فى المشى ، فاحتمله أصحابه ومضوا به ، حتى وصلوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ آخر الليل ، وهو قائم يصلى فسلموا عليه . . قال محمد ابن مسلمة : فخرج الينا رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبرناه بقتل عدو الله . ورأى جرح الحارث فمسح عليه فبرأ بقدرة الله تعالى . .

قال : وأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله ، فليس بها يهودى إلا وهو يخاف على نفسه . . وكان كعب حين طعن قد صاح صيحة منكرة سمعت فى حصون اليهود .

وقد سجل الشعر هذه الواقعة ، فقال كعب بن مالك :

فغودر منهم كعب صريعا ... فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثَمَّ وقد علته ... بأيدينا مشهَّرةٌ ذكورَ

كما سجَّل حسان ذلك أيضا فى قصيدة له[٢٠٥]

لقد كان جزاء كعب بن الأشرف من جنس عمله ، فقد استطار شره ، ولجأ الى سلاح حقير هو سلاح الشعر الذى شهر فيه بأعراض المسلمات وأخذ يبث سمومه هنا وهناك ، وينتقل بين مكة والمدينة يحرض الكفار والمشركين

---

(٢٠٥) راجع هذه الواقعة فى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٣٠ ط دار التحرير

على المسلمين . إنه جرثومة شر لابد من التخلص منها حتى لا تسرى عدواها وينتشر أذاها . ولم يكن هناك غير هذه الطريقة فى التخلص منه . . .

ثم إنه كان يقوم بهذا الأمر دون أن يظاهره قومه عليه ، ولو ظاهروه لأعلن المسلمون الحرب عليهم ، ولكنه كان وحده ، إلّا أن الشر الناجم عنه وعن لسانه كبير فأصبح من اللازم أن توجد الطريقة التى تقطع هذا اللسان وتكفه إلى الأبد عن الأذى . . وكان فى التخلص منه عبرة لغيره ، ودرس يتعلم منه كل من تسول له نفسه النهش فى أعراض الناس وتشويه سمعتهم ، واذاعة الشر والباطل بين المسلمين فيكف كل فاسد نفسه عن الشر والأذى ، ويقف عند الحدود التى يجب أن لا يتجاوزها . .

لا يغنى حذر من قدر

ولم تغن حيطة اليهود البالغة من أن يصيبهم قدرهم المحتوم . فقد تعود اليهود أن يقيموا من بيوتهم حصونا مانعة ، فى معزل عن بيوت غيرهم . . . . والمشاهد لأحوالهم فى المدن التى يقيمون فيها يرى أنهم يتجمعون دائما فى أحياء منعزلة خاصة بهم ، توارثوا ذلك منذ القدم . . وقد أخذ الوجود اليهودى داخل المجتمعات القديمة والوسيطة أشكالا متعددة ، فهم فى المدينة لهم أحياء خاصة بهم يضم كل حى منها قوما تربطهم قرابة قريبة ، فهؤلاء بنو قينقاع ، وهؤلاء بنو النضير ، وهؤلاء بنو قريظة . . وهكذا . .

وانتقل ذلك إلى أبنائهم عبر العصور ، فقد عرف فى مصر ، ما يسمى بحارة اليهود : وعرف فى اليمن ما يسمى بقاعة اليهود أو المسبتة - نسبة ليوم السبت - وعرف فى المغرب حى خاص باليهود اسمه الملاح .

أما فى أوربا فمناطق الانعزال اليهودى تأخذ أسماء متعددة . . منها « الشتتل » أى المدينة الصغيرة التى تضم عددا خاصا من اليهود يتراوح بين ألف وعشرين ألفا .

و« القاهال » وهى تعنى حشد طائفة كبيرة من اليهود فى مكان واحد فى احدى المدن ، لها حكم ذاتى فيما بينها

و« الجيتو » وهو أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية ، وهو عبارة عن حى أو شارع يخصص لإقامتهم فى المدينة التى يوجدون فيها .

يقول أحدهم وهو إسرائيل ابراهامز : قبل أن تصبح السكنى فى مكان محدد أو فى « الجيتو » أمرا إجباريا كان اليهود أينما وجدوا يتجمعون فى أماكن منعزلة بالمدن التى يعيشون فيها .

إن وراء انعزالهم شعورا باطنيا بالخوف والقلق والريبة والحذر ، وفى الوقت نفسه يوجد فى داخلهم شعور بالتعالى وأنهم من طبقة مختارة مفضلة على غيرها ، فلا ينبغى لهم أن يختلطوا بغيرهم من البشر . . إنهم يقولون عن أنفسهم أنهم شعب الله المختار . . خلقهم الله أسياداً وخلق غيرهم عبيداً لهم . فكيف يختلط السادة بالعبيد ؟

كأن الله خلقهم من طينة خاصة ، أو كأنهم يعبدون ربا وإلها غير الذى يعبده غيرهم .

وهذه قمة الشرك .. وما أوصاهم موسى ولا هارون بذلك ، ولكنه اختراع اخترعوه ، ورجس ارتكبوه .

وبالرغم من أن الدين اليهودى دين سماوى يحتوى فى أصله الذى لم يحرف على التعاليم السماوية التى تحض على الخير وتنبذ الشر إلا أن المحاولات التى تمت على يد حاخامات اليهود بعد أن تم تدوين التراث الشفهى اليهودى (التلمود) أدخلت إلى الدين اليهودى مجموعة من الأفكار المحورية البعيدة عن الدين ، خلقت عند اليهود استعدادا للانعزال عن الآخرين وعمقت بعض العقائد لدى اليهود مثل عقيدة : شعب الله المختار ، والشعب المقدس ، وغيرها من العقائد التى أكدت مع مرور الأجيال انفصالية اليهود وإحساسهم بالتميز والتفرد .. » (٢٠٦)

وقد رأينا فى قصة كعب بن الأشرف كيف كان يقيم فى حصن بعيد ، وسط حصون يهودية أخرى ، وكذلك كان الشأن فى بقية أقوام اليهود فى ذلك الزمان ..

وما برحت هذه الانعزالية شأنهم حتى يومنا هذا .. وماأغنت عنهم انعزاليتهم التى مبعثها الحذر شيئاً فى القديم ، ولن تغنى عنهم ـ إن شاء الله شيئاً فى تلك العصور تصديقاً لوعد الله يقول سبحانه وتعالى :

---

(٢٠٦) الشخصية اليهودية الاسرائيلية والروح العدوانية د / رشاد عبد الله الشامى ص ٢١ ـ عالم المعرفة

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ (٢٠٧)

ووعد الآخرة هو المشار إليه فى أول سورة الاسراء بقوله تعالى :

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ (٢٠٨)

قصة أبى ياسر اليهودى

حدث ابن هشام قال :

مر أبو ياسر بن أخطب على النبى ـ ﷺ ـ فسمعه يتلو قوله ـ تعالى ـ

« الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »(٢٠٩)

فأتى أخاه حُيىّ بن أخطب فى رجال من يهود فقال : تعلموا والله قد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه « الم ذلك الكتاب » فقالوا : أنت سمعته ؟ قال : نعم ـ

فمشى حيى بن أخطب فى أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا : يامحمد ، لقد ذُكِرَ لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك « الم ذلك الكتاب »

(٢٠٧) الاسراء ١٠٤
(٢٠٨) الاسراء ٧
(٢٠٩) البقرة ١ ، ٢

فقال رسول الله - ﷺ - : نعم

قالوا : أجاءك بها جبريل من عند الله ؟

فقال : نعم .

قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ، وما نعلم أنه بين لنبى منهم مدة ملكه وأجل أمته غيرك .

ثم قال حيى بن أخطب - وقد أقبل على من معه « الم » : الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، فهى إحدى وسبعون سنة - أفتدخلون فى دين إنما مدة ملكه وأجل أمته احدى وسبعون سنة ؟

ثم أقبل على رسول الله - ﷺ - فقال : يامحمد ، هل مع هذا غيره ؟

فقال : رسول الله - ﷺ - نعم

قال : ماذا ؟



قال : ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾ (٢١٠)

قال حيى : والله هذه أثقل وأطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والصاد تسعون ، فهذه إحدى وستون ومائة سنة ، هل مع هذا يامحمد غيره ؟

قال : نعم

﴿ الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ (٢١١)

---

(٢١٠) أول الاعراف

(٢١١) أول يونس

قال : هذه والله أثقل وأطوال ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان . هل مع هذا غيره يامحمد ؟
قال : نعم

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ (٢١٢)

قال حيي : هذه والله أثقل وأطول ، الألف واحدة واللام ثلاثون ، والميم أربعون ، والراء مائتان ، فهذه إحدى وسبعون ومائتان سنة .

ثم قال : التبس علينا أمرك يامحمد حتى ما ندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا ، ثم قاموا عنه .

فقال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار : ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد ، احدى وسبعون ، واحدى وستون ومائة واحدى وثلاثون ومائتان ، واحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة ، فقالوا : قد تشابه علينا أمره .

فنزل قوله ـ تعالى

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ (٢١٣)

---

(٢١٢) أول الرعد (٢١٣) آل عمران ٧

آراء بعض العلماء فى أوائل السور

رأينا كيف فسر حيى بن أخطب الحروف الواردة فى أوائل سور القرآن تفسيرا عدديا حسب زعمه وهواه ..

وقد كثر القول فى تفسير فواتح السور ، واختلف العلماء حول مدلولها . ومن الأقوال فى ذلك ، أنها كلمات سيقت على سبيل التحدى للكفار ، وأن الله ـ سبحانه ـ وتعالى أراد أن يقول للعرب البلغاء : هذا الكلام الذى أعجزكم أن تأتوا بآية من مثله إنما هو من قبيل الحروف التى يتألف منها بيانكم وهى الألف واللام والميم والصاد وغيرها من الحروف .

والذى يؤيد ذلك أنه عقب كل حروف ترد فى أول سورة من السور التى بدئت بذلك يأتى حديث عن القرآن الكريم يشهد بفضله وعظمته وأنه من عند الله ..

فأول البقرة جاء بعد « الم » قوله ـ تعالى ـ

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »(٢١٤)

وأول آل عمران جاء بعد « الم » قوله ـ تعالى ـ

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾(٢١٥)

---

(٢١٤) البقرة ٢

(٢١٥) آل عمران ٣

وأول الأعراف جاء بعد « المص » قوله تعالى

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ (٢١٦)

وفى أول يونس جاء بعد « الر » قوله تعالى

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ
رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ (٢١٧)

وأول هود جاء بعد « الر » قوله ـ تعالى ـ

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ (٢١٨)

وأول يوسف جاء بعد « الر » قوله ـ تعالى ـ

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ (٢١٩)

وأول الرعد جاء بعد « المر » قوله تعالى

---

(٢١٦) الأعراف ٢
(٢١٧) يونس ١ ، ٢
(٢١٨) هود ١ (٢١٩) يوسف ١ ، ٢

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ﴾ (٢٢٠)

وأول ابراهيم جاء بعد « الر » قوله تعالى

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ﴾ (٢٢١)

وأول الحجر جاء بعد « الر » قوله تعالى

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ﴾ (٢٢٢)

وأول الشعراء جاء بعد « طسم » قوله ـ تعالى ـ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ ﴾ (٢٢٣)

وهكذا فى كل السور التى بدئت بحروف مقطعة . . . . فهى إذن إشارة أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ، ليكون عجزهم تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ، ليكون عجزهم عنه أبلغ فى الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم وحروفهم التى يستخدمونها فى تأليف كلامهم . .
هذا رأى بعض العلماء .

---

(٢٢٠) الرعد ١
(٢٢١) ابراهيم ١
(٢٢٢) الحجر ١
(٢٢٣) الشعراء ٢

وهناك رأى آخر ذكره القرطبى قال : روى أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا (٢٢٤)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾

نزلت هذه الحروف ليستغربوها ، فيفتحون لها أسماعهم فيسمعون القرآن فتجب عليهم الحجة .

وهناك رأى يقول : إنها حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها ، فلألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد - ﷺ - . .

وقيل : إنها مفاتيح أسماء الله تعالى .

وقال ابن عباس فى بعض ما يروى عنه « الم » أى قال : أنا الله أعلم ، و« الر » : أنا الله أرى ، و« المص » أنا الله أفصل . . وهكذا . .

واستشهد على ذلك بأن العرب تكلمت بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التى تلك الحروف منها كقول الشاعر :

فقلت لها قفى فقالت قاف

أراد : قالت وقفت

وقال زهير :

بالخير خيرات وإن شراً فا ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد : إن شراً فشر ، وإلا أن تشاء

وهذا رأى لبعض العلماء .

---

(٢٢٤) فصلت ٢٦

من كلام السيوطى فى الإتقان

قال السيوطى : من المتشابه فى القرآن أوائل السور ، والمختار فيها أيضاً أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله ـ تعالى ـ وأيده ابن المنذر وغيره ، وعن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فى فواتح السور . وهذا كلام سديد .

وقد استطرد السيوطى فى بيان ما قاله العلماء القدامى حول ذلك . ومن بين ما ذكره ما أورده القرطبى وذكرناه آنفاً .

وذكر الشيخ عبد ربه بن سليمان بن محمد بن سليمان القليوبى فى كتابه فيض الوهاب رأياً فى معانى بعض هذه الحروف فقال :

ورد فى أول سورة مريم قوله ـ تعالى ـ « كهيعص » وفى أول سورة الشورى « حمعسق » وهذه الحروف رموز لآيات أو بعض آيات وردت فى القرآن الكريم . تذكر بأحوال الدنيا وتقلباتها وبأحوال الآخرة وموقف الناس منها . . وهذه الآيات يبدأ أول حرف فيها بحرف من حروف « كهيعص » وينتهى بحرف من حروف « حمعسق » .

وهى على الترتيب كما يأتى :

قال تعالى :

« كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح » فأول هذا الجزء من الآية « ك » وآخره « ح » .

وقـــال :

« هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم »

فأول هذه الآية هاء وآخرها م .

وحال الناس يوم القيامة يمثله قوله ـ تعالى ـ

« يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »

فأول هذا الجزء ياء وآخره ع . . . وكل نفس فى ذلك تعاين موقفها وهذا ما يمثله قوله ـ تعالى ـ

« علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس »

فأول الآيات ع ، وآخرها س .

ولقد كفر المشركون بكل ذلك ولا يصدقون هذا المصير . وهذا ما يمثله قوله ـ تعالى ـ

« ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق »

فأول الآيات ص ، وآخرها ق .

وهو تفسير اجتهادى لا نصى .

حساب الجمل . .

حاول البعض أن يفسر هذه الحروف كما فسرها اليهود فى الخبر الذى أوردناه فى صدر حديثنا عنها . من أن هذه الحروف تحمل دلالات رقمية ، وهى فى جملتها تشير إلى عدد السنوات التى تعيشها هذه الأمة . وقد سبق أن قلنا إن حيى بن أخطب أوجد جملة ما تشير إليه هذه الحروف بإسقاط الحرف المكرر فبلغت سبعمائة وأربعاً وأربعين سنة .

وقد ثبت فعلاً سقوط هذا الرأى لأن الأمة ـ والحمد لله ـ قد تعدت ضعف هذا العدد ، ونرجو الله أن يمد فى عمرها أضعافاً مضاعفة حتى تنطوى صفحة الحياة على الأرض مع رجاء إمدادها بالقوة والشباب والعزة والرفعة .

وقد حسبها بعضهم حساباً آخر فبلغ مجموع الحروف ثلاثة آلاف وثلثمائة وخمساً وثمانين سنة .

وهى اجتهادات فى التفسير والتأويل على أى حال .

وحساب الجمل قد يصدق فى بعض الأحوال ، ولكنه لا ينبغى تطبيقه على أوائل السور .

قال الألوسى فى روح المعانى : روى العز بن عبد السلام أن عليا ـ رضى الله عنه ـ استخرج وقعة معاوية بحساب الأرقام من قوله ـ تعالى ـ « حمعسق » قال : وقوله هذا يبيح لنا استعمال هذا الحساب وتطبيقه على عدد

الآيات ، فإذا انطبق كان من روائع القرآن وبدائعه .

واستخرج أبو الحكم فى تفسيره ـ فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ من قوله ـ تعالى ـ « الم غلبت الروم » .

ويرى البعض أن وجود هذه الحروف فى أوائل بعض السور يُشير إلى كثرة دوران هذه الحروف فى السورة ، وقد قام بعضهم بعمل إحصاءات حول حروف الألف واللام والميم فى سورة البقرة فوجد أنها أكثر من غيرها من الحروف ، وكذلك الشأن فى بقية السور التى يوجد فى أولها حروف مقطعة .

القول الذى نرى الأخذ به فى هذا الأمر

هذا وكل ما قاله العلماء حول هذه الحروف إنما هو اجتهادات خاصة منهم ، لأنه لم يرد نص صريح من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبين معانيها . ولذلك فأجمل القول فى ذلك قول من قال : إنها سر الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله بعلمه ولايجب أن نتكلف القول فيها ونحملها ما لا تحتمله من المعانى والتأويلات ، ولكن نؤمن بها ونقر بها كما جاءت . وقد روى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن علىّ رضى الله عنهما . ولسنا فى الإيمان أو العلم مثلهما . فإذا كانا قد رأيا ذلك ، وأحدهما صديق رسول الله ﷺ والثانى باب مدينة العلم ، فالأولى بنا نحن أن نسكت كما سكتوا ونسلم الأمر فى هذا إلى علم الله كما سلموا ، والله وحده ولى التوفيق .

اليهود والمنافقون

- مفهوم النفاق .
- لماذا لم يأمر الرسول بقتل المنافقين ؟
- المعروفون بالنفاق فى المدينة .
- عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس النفاق .
- التواطؤ بين اليهود والمنافقين .
- طرد المنافقين من مسجد الرسول .
- سخرية اليهود والمنافقين من الأذان .
- المنافقون يرفضون التحاكم إلى رسول الله .
- النفاق داء وبيل .



المنافقون

ظهرت هذه الطائفة فى المدينة مع انتشار الاسلام بها ، وقد تميزت هذه الطائفة بصفات معينة لقى المسلمون منها شراً مستطيراً . وهذه الصفات لم يكن لها وجود فى المجتمع المكى الذى كان يتسم بالصراحة المطلقة ، فالمشرك معروف بشركه أمام الناس ، يعلن عن نفسه صراحة ويجابه المسلمين بالقوة والإيذاء علانية مفتخراً بما يقوم به من عمل ..

أما فى المدينة فقد ظهر قوم تظاهروا بالاسلام وأخفوا شركهم وكفرهم . وهذا الوصف يسمى النفاق .. ومن توفرت فيهم هذه الصفات سموا بالمنافقين .

المفهوم اللغوى للنفاق

قال القرطبى فى تفسيره : قال علماء اللغة : إنما سمى المنافق منافقاً لإظهاره غير ما يضمر تشبيهاً له باليربوع الذى يتخذ له جحراً ، يقال له : النافقاء ، وآخر يقال له : القاصعاء ، وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرقّ التراب ، فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج ، فظاهر جحره تراب ، وباطنه حفر ، وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر .

قال ابن منظور : والنفاق بمعنى إظهار الاسلام وإبطان الكفر تسمية إسلامية ، لم تكن قبل ذلك ، وهذا مشتق من نافقاء اليربوع ـ التى أشار إليها القرطبى فيما سبق .

وهو من المعانى التى أدخلها الاسلام الى اللغة فاكتسبت مدلولات جديدة غير ماكانت عليه ، كالصلاة والزكاة والايمان والكفر . .

وقد ورد ذكر النفاق فى القرآن الكريم والحديث الشريف فى مواضع متفرقة ففى القرآن الكريم جاء قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ﴾ (٢٢٥)

وجاء قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) ﴾ (٢٢٦)

وقوله تعالى

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾ (٢٢٧)

---

(٢٢٥) آل عمران ١٦٧

(٢٢٦) الحشر ١١

(٢٢٧) التوبة ١٠١

وغير ذلك من الآيات . .

لقد وردت كلمة النفاق بمشتقاتها فى القرآن الكريم سبعا وثلاثين مرة . . ونزلت سورة بأكملها باسم المنافقين تتحدث عن أخلاقهم وسلوكهم وتصرفاتهم ، وتفضح خفايا نفوسهم ، ودقائق نفاقهم وصفاتهم السيئة . .

وقد استعرضت الآيات المتعددة التى وردت فى القرآن قضية النفاق وأحوال المنافقين ، وما كانوا يفعلونه مع المسلمين ، وقد ظهر ذلك واضحا فى موقفهم من مختلف الغزوات التى خاضها المسلمون ضد المشركين ، واليهود . .

على أن القرآن قد أورد آيات أخرى تتحدث عن المنافقين دون ان يرد فيها ذكر كلمة النفاق ، والسياق يقضى بانصراف هذه الآيات إلى هؤلاء القوم المعروفين بهذه الصفة ـ ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ فى أول سورة البقرة :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ
﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا
نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ
﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ
﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ
﴿١٦﴾ (٢٢٨)

وهذه الآيات الكريمة تصور حالة المنافقين أدق تصوير .

وتشير فى إيجاز الى بعض صفات وأحوال هؤلاء :

● فقد قالوا آمنا بأفواههم ولكن ماق قلوبهم مخالف لما تتلفظ به ألسنتهم من قول . . . . وكأنهم عصموا بالنطق بالشهادتين أنفسهم من القتل ، لأن النبى - ﷺ - قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله إلا الله فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله » .

وقولهم هذا لايعتبر إيمانا ، لأن الايمان ماوقر فى القلب وصدقه العمل . . إنه معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان .

● المؤمن الحق لايخادع ، بل ظاهره كباطنه وباطنه كظاهره ، وهؤلاء

---

(٢٢٨) البقرة ٨ : ١٦

مخادعون يظهرون خلاف مايبطنون ، وهذا هو الخداع . وقد نهى النبى - ﷺ - عن الخداع فقال : فيما يرويه القرطبى فى تفسيره - « لاتخادع الله ، فانه من يخادع الله يخدعه الله ، ونفسه يخدع لو يشعر » قالوا : يارسول الله وكيف يخادع الانسان الله ؟

قال : تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره .

وخداع الله للمخادعين هو عقابهم ومجازاتهم على خداعهم ، وقد جاء الرد عليهم بنفس الوصف الذى اتصفوا به .. فقد سمى جزاء الخداع خداعا ، كما سمى جزاء المكر مكرا فى قوله

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢٢٩)

● والنفاق مرض خطير ، ومظهر ضعف وجبن - لأن الشجاع لاينافق وسماه القرآن مرضا لأنه داء وبيل ، يفسد القلوب والضمائر وينشر الشر والفساد فى المجتمع ويهلك المتصف به ...

ومعنى المرض فى اللغة كل ماخرج بالانسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير فى أمر من الامور ..

لقد تمادى المنافقون فى نفاقهم ، وحاولوا تخريب المجتمع الاسلامى بسوء فعلهم ، وازداد نفاقهم فزادهم الله مرضا . أى شكا ونفاقا وفسادا ليزدادوا عقابا ..

---

(٢٢٩) آل عمران ٥٤

قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٢٣٠)

● لماذا لم يأمر النبى بقتل المنافقين ؟

على الرغم من شدة فساد المنافقين ، وخطورتهم على الجبهة الداخلية فان النبى - ﷺ - أمسك عن قتالهم لأسباب أوضحها العلماء منها :

أن هؤلاء المنافقين كان لا يعلم حالهم أحد سوى النبى - ﷺ - فى بداية نفاقهم،فهم فى ظاهر الأمر مسلمون ، والعقوبات الدنيوية فى الاسلام مبنية على الظاهر ، أما العقاب الأخروى فأساسه الباطن قبل الظاهر ، لأن الذى يتولاه هو من يعلم السر وأخفى . . . والرسول - ﷺ - كان يشرع لأمته . ولهذا أحجم عن قتال المنافقين أخذا بظاهر حالهم . .

ومنها : أن عدم قتلهم كان فيه مصلحة عامة فى ذلك الوقت ، وهى تأليف القلوب عليه - ﷺ - حتى لا تنفر القلوب عنه ، وقد أشار الى ذلك النبى - ﷺ - حين هم عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول بقتل أبيه لنفاقه ، فقال له النبى - ﷺ - لا ، ولكن نحسن صحبته ماعاش .

وأراد عمر بن الخطاب ان يقتل منافقا أساء للنبى - ﷺ - بالقول ، فقال

---

(٢٣٠) التوبة ١٢٥

له النبى - ﷺ - : معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه . . . كما كان - ﷺ - يأمل أن تتغير أحوال هؤلاء أو بعضهم بمرور الأيام ، فيقتنعوا بعدالة الإسلام وحسن معاملته فيثوبوا الى رشدهم . . .

ولذلك أعطى النبى المؤلفة قلوبهم عطاء كثيرا ، وجعل الاسلام لهم جزءا من الصدقات ، مع علمه بنفاق بعضهم . . .

ومنها أن الله - سبحانه وتعالى - كان قد حفظ قلوب أصحاب النبى - ﷺ - من فتنة المنافقين ، فلم يؤثروا فى أحد من الصادقين على الرغم من محاولاتهم المتكررة لإضعاف جبهة المسلمين ، فلم يكن فى إبقائهم ضرر ، حتى يتوبوا أو يبعدهم الله من طريق المسلمين . . . اما اذا كشف النفاق عن وجهه وأصبح خطرا يهدد المجتمع الاسلامى ويهدد كيان الأمة ، فان مواجهته حينئذ تصبح أمرا لا مفر منه .

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ (٢٣١)

هل يسكت على النفاق اليوم ؟

أما السكوت على المنافقين اليوم فليس من المصلحة ، لما فيه من إضعاف شوكة المسلمين ، والنفاق هو الزندقة اليوم ، وهو الالحاد ، وله صور

---

(٢٣١) الأحزاب ٦٠ ، ٦١

متعددة ظهرت فى العصر الحديث من بينها العلمانية والوجودية وغيرهما من المسميات التى تطعن فى الدين ، وتوهن من شوكة المسلمين وتفرق كلمتهم . .

لابد من مجابهة هذه الموجات بالحجة القاطعة والكلمة النافذة ، وواجب السلطان الضرب على أيدى مفرقى الجماعة ومشتتى شمل الأمة .

المعروفون بالنفاق فى المدينة

وقد اشتهر قوم بالنفاق فى أيام النبى - ﷺ - وكان المسلمون يعرفونهم بالاسم . وقد عرفوا لما كان يظهر على ألسنتهم من قول ينم عن خبث سرائرهم ويبرز ماخفى من ضمائرهم ، والكلمة رسول القلب كما يقول الحكماء ، وما أسر انسان سريرة إلا أظهرها الله على فلتات لسانه . . وربما ظهر فى عينى الانسان حقيقة ما يخفيه فى قلبه كما قال الشاعر :

عيناك قد دلتا عينى منك على أشياء لولاهما ماكنت تبديها

فهؤلاء المنافقون كانت تظهر على ألسنتهم رغما عنهم كلمات كانت تنم عن مكنون ضمائرهم . حدث الزبير بن العوام قال : والله لكأنى أسمع قول مُعَتِّب بن قشير - وكان أحد المنافقين الذين بنوا مسجدا لضرار - وإن النعاس ليغشانى ، ما أسمعها إلا كالحلم وهو يقول « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها ههنا »[٢٣٢]

كما ظهر نفاقهم فى تصرفاتهم حين كان المسلمون يهمون بغزوة من الغزوات ، ففى غزوة أحد تخلف بعضهم ، وخرج بعضهم مكرهين ،

---

(٢٣٢) اسد الغابة جـ٥ ص٣٢٥

وكان لاهم لهم إلا أنفسهم كما تحدث بذلك القرآن الكريم بقوله

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (٢٣٣)

وفى غزوة الأحزاب حاولوا تثبيط همم المؤمنين وتوهين عزمهم ، وتعللوا بعلل واهية فى عدم المشاركة فى رد العدوان ، وقد فضحهم الله بقوله

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن

---

(٢٣٣) آل عمران ١٥٤

فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى
يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ
لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ
ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ
فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ
لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ
ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى
ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا
﴿٢٠﴾ (٢٣٤)

وفى غزوة تبوك كان لهم موقف شائن أشارت إليه سورة التوبة ، وفى غزوة بنى المصطلق فضح الله نفاقهم فى سورة كاملة هى سورة المنافقون . .

وهناك مواقف أخرى غير الغزوات ظهر فيها المنافقون بأقوال أو أفعال فضحها القرآن ، وأظهر عوارها ، وألبس المنافقين عارها وفسادها .

هذه الأقوال أو الأفعال جعلت المنافقين يكادون يكونون معروفين بالاسم ، وقد ذكر ابن هشام فى سيرته أسماء بعضهم .

---

(٢٣٤) الأحزاب من ١٢ : ٢٠

فمن هؤلاء الجلاس بن سويد بن الصامت ، وهو أخو الحارث بن الصامت الذى قتله النبى - صلى الله عليه وسلم - قودا لقتله المجذر بن زياد . .

وكان الجلاس قد تخلف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة تبوك ، وقال عن النبى - صلى الله عليه وسلم - : لئن كان هذا الرجل صادقا فنحن شر من الحمر .

وقد سمعه عمير بن سعد - زوج أمه ، فقال له :

والله يا جلاس ، إنك لأحب الناس إلىَّ ولكنك قلت كلمة لئن رفعتها عليك لأفضحنك ، ولئن سكتُّ عليها ليهلكن دينى ، وَلإحداهما أيسر على من الأخرى - يعنى أن فضيحته أيسر من هلاك دينه -

فمشى عمير بن سعد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكر له ما سمعه من جلاس .

فحلف جلاس بالله لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قال شيئا . وان عميرا كاذب فيما رفعه عنه . فنزل قوله تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا

﴿ ... أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[٢٣٥]

لقد فتحت هذه الاية طريق التوبة لمن يريد من المنافقين .

وفعلا تاب الجلاس ، واعترف بذنبه ، وحسنت توبته ، ولم ينزع عن خير كان يصنعه إلى عمير ، فكان ذلك مما عرفت به توبته[٢٣٦]

نبتل بن الحارث

ومن المنافقين نبتل بن الحارث وهو من بني عمرو بن عوف ، وقد شبهه النبي ـ صلى الله عبليه وسلم ـ بالشيطان أو شبه الشيطان به فقد قال عنه : من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث . .

كان رجلا جسيما ثائر الشعر ، أحمر العينين ، أسفع الخدين[٢٣٧] . وكان يأتي إلى مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتحدث إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين .

وكان يقول : إن محمدا أُذن ، وفيه نزل قوله تعالى

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[٢٣٨]

---

(٢٣٥) التوبة ٧٤

(٢٣٦) أسد الغابة جـ١ ص٣٤٦ . معنى لم ينزع من خير . . أى لم يتقاعس عن خير .

(٢٣٧) السفعة بالضم سواد مشرب الحمرة

(٢٣٨) التوبة ٦١

وقيل إن الذى نزلت فيه هذه الآية عتاب بن قشير وهو منافق أيضا ـ ولعله معتب بن قشير الذى سبق ذكره . .

وقد حذر جبريل ـ عليه السلام ـ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نبتل ابن الحارث ، قال له : إنه يجلس إليك رجل ثائر شعر الرأس أسفع الخدين أحمر العينين ، كبده أغلظ من كبد الحمار ، ينقل حديثك إلى المنافقين فاحذره(٢٣٩)

ابن سلول

وكان رأس المنافقين فى المدينة عبد الله بن أبى بن سلول ، ولاشتهاره بالنفاق لم يُعَدّ فى الصحابة ، ولذلك أغفلته الكتب المعنية بأخبار أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكان من أشراف المدينة قبل دخول الإسلام إليها وكان أهلها قبل مجىء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها قد صنعوا له تاجا ليتوجوه ملكا عليهم . . ، فلما جاءهم الله ـ تعالى ـ برسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انصرف عنه قومه إلى الاسلام ، فضغن وأضمر العداوة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه نظر إليه على أنه قد سلب ملكه ، وحين رأى قومه قد دخلوا الإسلام طائعين مختارين ، دخله هو كارها مصرا على النفاق ، وفيه نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا

---

(٢٣٩) سيرة ابن هشام جـ٢ ص٢٥٩

مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢٤٠)

وقيل فى سبب نزول هاتين الآيتين ان عبد الله بن أبى وأصحابه خرجوا ذات يوم ، فاستقبلهم قوم من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم أبو بكر وعمر وعلى ـ رضى الله عنهم ـ فقال عبد الله بن أبى : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد أبى بكر فقال : مرحبا بالصِّدِّيق سيد بنى تيم وشيخ الاسلام ، وثانى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحبا بسيد بنى عدى ، الفاروق ، القوى فى دين الله ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ثم أخذ بيد علىّ فقال : مرحبا بابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وختنه سيد بنى هاشم ما خلا رسول اله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ثم افترقوا ، فقال له على : اتقِ الله يا عبد الله ولا تنافق ، فإن المنافقين شر خلق الله تعالى .

فقال عبد الله : مهلا يا أبا الحسن ، أَلِي تقول هذا ؟ والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم . فتركه على وانصرف . .

---

(٢٤٠) البقرة ١٤ ، ١٥

فقال عبد الله لأصحابه : كيف رأيتمونى فعلت ؟ فأثنوا عليه خيرا فنزلت الآيات .

إنه رأس المنافقين لأنه يرسم لهم الخطط ويضع لهم المنهج الذى يسيرون عليه فى معاملة المسلمين .

ولعبد الله بن أبى مواقف متعددة تظهر عناده للإسلام ، وتنم عن سريرته الحاقدة ونفسيته المريضة .

انظر إلى سوء استقباله للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين مر به ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوما وهو جالس مع جماعة من أصحابه ، وأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعظهم ويرشدهم ويعلمهم ـ فقال له ـ ابن أبىٍّ إن كان ما تقول حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه . وغطى وجهه ، أو قبض على أنفه لئلا يصيبه الغبار المتطاير من تحت حوافر الحمار الذى كان يركبه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولكن الغيورين من المسلمين لم يعجبهم قول ابن أُبىٍّ . ومنهم عبد الله ابن رواحة الذى قال فى إيمان وصدق : نعم يا رسول الله ، فاغشنا فى مجالسنا فانا نحب ذلك .

فاشتبك المشركون الذين كانوا حول ابن أُبىٍّ مع المسلمين ـ فما زال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهم يسكنهم حتى سكنوا .

ثم دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سعد بن عبادة يعوده ـ وكان

مريضا : فقال له : ألم تسمع ما قال ابن أبيٍّ بن سلول وقص عليه ما جرى .

فقال سعد لرسول الله : اعف عنه واصفح يارسول الله ، فوالذى أنزل عليك الكتاب ، لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ، فى الوقت الذى اتفق فيه أهل المدينة ـ على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة ، فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاكه الله شرق به ، فذلك فعل به ما رأيت .

فعفا عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونزل قوله تعالى :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (٢٤١)

وكان لعبد الله بن أُبيٍّ هذا جاريتان إحداهما اسمها معاذة ، والأخرى اسمها مُسَيْكَة ، وكان يكرههما على الزنى ، ويضربهما عليه ابتغاء الأجر والكسب ، وقد شكت الجاريتان الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم

---

(٢٤١) آل عمران ١٨٦

مِن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا
لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢٤٢)

لقد كان كسب ابن أُبي من هذا الطريق كسبا خبيثاً لايلجأ إليه إلا منافق ، لأن المؤمن الصادق عفيف شريف لايلجأ إلى الطرق الخسيسة لاكتساب المال . أما المنافق فلا يبالي بذلك لأن النفاق نفسه خسة ودناءة ، ومن يلتمس فى نفسه العزة والكرامة لاينافق ولا يداهن .

ولقد زعم ابن أُبيّ أنه عزيز فى قومه ، وهو زعم باطل لا يدعمه تصرفه وعمله . فليس من العزة أن يكذب المرء أو ينافق أو يداهن ، وقد حدث فى غزوة بنى المصطلق أو غزوة تبوك - أن قال عبدالله بن أبي يُعرِّض بالنبى - صلى الله عليه وسلم - والمهاجرين . .

لقد زاحمونا فِى بلادنا ، والله ما مثلنا ومثل جلاليب قريش هذه الا كما قال القائل : سمِّن كلبك يأكلك ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل على من عنده من قومه يقول لهم : هذا ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها .

---

(٢٤٢) النور ٣٣

لقد زعم ابن أُبيٍّ أنه هو ومن معه الأعز،وأن المهاجرين هم الأذل ، وهذا زعم على غير أساس . فالعزة لاتكتسب بالمال والسلطان وكثرة الأتباع ، ولكنها ميراث إلهى من التقوى والعمل الصالح

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »

ويلغت الكلمة التى قالها عبد الله بن أبى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله مر عباد بن بشر ـ فليضرب عنقه . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمدا يقتل أصحابه ؟

ثم انظر إلى ذلك الذى يدعى العزة كيف تبدل موقفه إلى النقيض ، حين بلغه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرف ما قال ، لقد أسرع إليه يعتذر ويحلف أنه لم يقل حرفا واحدا مما بلغه . ولكن الله ـ تعالى ـ أنزل قرآنا يفضح ذلك المنافق ويكذبه . فنزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ

﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢٤٣)

لو كان هذا الرجل عزيزا كما يزعم لتصرف تصرف العزيز الشريف ، ولما قال ذلك القول الذى أسرع الى التملص منه والاعتذار عنه . والحكمة تقول : إياك وما يعتذر منه .

إنها تحذر من الفعل الذى يلجىء صاحبه الى الاعتذار ، لأن الاعتذار لايكون إلا من خطأ ، والشريف يحرص على أن يكون فعله ومنطقه صوابا بعيدا عن الخطأ والانحراف .

وكان لعبد الله بن أبى ـ ابن على النقيض من أبيه ، وكان اسمه عبد الله أيضا ، كان آية فى الصدق والإيمان والاخلاص ، هاله ما حدث من أبيه ، وبلغه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد قتله اتقاء الفتنة التى يضل بها غيره . فجاء عبد الله إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : يا رسول الله ـ بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى ـ بسبب ما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى أنا به ، فأحمل لك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله . فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأَقْتُل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لانقتله

---

(٢٤٣) المنافقون ٥ :٨

بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ،

وحين قفل[٢٤٤] الناس إلى المدينة ، أسرع عبد الله بن عبد الله بن أبي ـ فوقف على باب المدينة واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي ـ وأراد أن يدخل ، منعه ابنه عبد الله ، وقال له : وراءك .

فقال له أبوه : مالك ؟ ويلك .

فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان من عادته أن يأتي خلف أصحابه ـ حرصا عليهم وتفقدا لهم ـ شكا اليه عبد الله الأب عبد الله الإبن .

فقال عبد الله الابن : والله يا رسول الله لايدخلها حتى تأذن له .

فأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ له . فقال الابن : أما إذ أذن لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فادخل[٢٤٥]

ومن اليهود منافقون

لم يقتصر النفاق على بعض رجال الأوس والخزرج الذين كانوا يقيمون فى المدينة ولكن كان من الأعراب أيضا منافقون ، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم

---

(٢٤٤) ـ قفل ـ أى رجع

(٢٤٥) تفسير ابن كثير جـ٨ ص١٥٨

فى قوله تعالى

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (٢٤٦)

قال القرطبى : كان من مزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع ـ قوم منافقون لجوا فى النفاق وأبوْا غيره .

وقد توعدهم الله بالعذاب مرتين قبل دخولهم النار ـ العذاب الأول الفضيحة أو مصائب الدنيا لما ورد : مرض المؤمن كفارة ومرض الكافر عقوبة . والعذاب الثانى عذاب القبر . .

ثم يردون بعد ذلك الى عذاب جهنم والعياذ بالله :

ومن اليهود منافقون أيضا ، ذلك أن النفاق أساسه الخوف من المواجهة ، قال ابن إسحاق ـ فيما يرويه ابن هشام فى سيرته . . وكان ممن تعوذ بالاسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق أسعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، ونعمان بن أوفى بن عمرو ، وعثمان بن أوفى وهم من بنى قينقاع .

وزيد بن اللصيت هو الذى قاتل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بسوق قينقاع ، وقال ـ حين ضلت ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه

---

(٢٤٦) التوبة ١٠١

وسلم ـ : يزعم محمد أنه يأتيه الخبر من السماء وهو لايدرى أين ناقته .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جاءه الخبر بما قال عدو الله ـ وقد دله الله ـ تبارك وتعالى ـ على الناقة ـ : إن قائلا قال : يزعم محمد أنه يأتيه الخبر من السماء وهو لايدرى أين ناقته ، وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى مكان كذا ، قد حبستها شجرة بزمامها .

فذهب رجال من المسلمين ، فوجدوها حيث قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكما وصف .

ومن هؤلاء المنافقين رافع بن حريملة . الذى قال فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم مات : قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين .

ومنهم رفاعة بن زيد بن التابوت ـ أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ بموته فى يوم اشتدت فيه الريح وخاف منها المسلمون . فطمأنهم رسول الله ـ ﷺ ـ وبشرهم بموت رفاعة . . ومن المنافقين أيضا . سلسلة بن برهام ، وكنانة بن صوريا

لقد تهدمت أعمدة من صروح الكفر تزلزلت لها الشياطين التى خشيت على نفوذها أن يضيع .

التواطؤ بين اليهود والمنافقين

وليس غريبا أن يكون هناك تواطؤ بين اليهود والمنافقين وقد أشار إليه

القرآن الكريم في قوله - تعالى - :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا
وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا
لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ
الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ
مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا
إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ
جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ
الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ
خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾(٢٤٧)

وهذه الآيات الكريمة تلقى الضوء على العلاقة المريبة التي تربط بين عبد الله بن أبي سلول ورفاقه وبين يهود بني النضير الذين كتب الله عليهم

(٢٤٧) الحشر ١١ : ١٧

الجلاء لنقضهم عهد رسول الله - ﷺ - الذى عاهدهم فيه على ألا يؤذوا المسلمين ، ولا يعتدوا على أحد منهم ، ولا يظاهروا عليهم عدوا .

فتآمروا على رسول الله - ﷺ - . وحاولوا قتله ، وذلك بالقاء حجر ضخم عليه بينما كان يجلس إلى جوار جدار لمنزل أحدهم . .

ولكن جبريل أخبر النبى - ﷺ - فقام مسرعا ، وأفسد الله عليهم خطتهم . . وعزم النبى - ﷺ - بعد ذلك على حربهم وإجلائهم من المدينة عقابا لهم ، وإغلاقا لباب الفتنة .

وكان يحالف اليهود جماعة من الخزرج على رأسهم عبد الله بن أبى سلول رأس المنافقين . فكتبوا إلى اليهود يحثونهم على الوقوف فى وجه الرسول والمسلمين - قائلين لهم : لاترضخوا لما يريده محمد منكم ، واثبتوا ونحن معكم ، لانسلمكم لشىء أبدا ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . .

وانتظر اليهود أن يفى هؤلاء القوم بما قالوه لهم ، ولكنهم لم يفعلوا ، وقذف الله الرعب فى قلوب هؤلاء وهؤلاء جميعا .

واستسلم اليهود للأمر الواقع ، واستجابوا لشروط النبى - ﷺ - التى فرضها عليهم ، وتركوا بيوتهم وحصونهم التى خربوها بأيديهم ، وخرج بعضهم إلى أذرعات وبعضهم إلى خيبر ، وأراح الله المدينة من شرهم . .

لقد صورت الآيات الكريمة موقف المنافقين الذين دأبوا على الفتنة وبث

العصيان والكيد للمسلمين ، كما صورت حالة اليهود الذين دأبوا على الغدر والخيانة وعدم الوفاء .

كما تحدثت عن جبنهم الشديد الملازم لهم ، حتى إنهم لايستطيعون مواجهة خصومهم ، فهم لا يقاتلون إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر . .

إخراج المنافقين من المسجد

كان المنافقون - كما هو معروف - يتظاهرون بالاسلام ، ويحرصون على التواجد فى المسجد إمعانا فى التمويه . ولم يكن ذهابهم إلى المسجد محافظة على أداء الشعائر ، ولكنه لمتابعة أخبار المسلمين ، ولمحاولة بث الفتنة ماأمكنهم ذلك ، وللسخرية والاستهزاء من المسلمين .

وكانوا إذا جاءوا إلى المسجد تجاوروا وتلاصقوا وتهامسوا فيما بينهم ، حتى إذا سمعوا النداء بالأذان قاموا الى الصلاة فى تكاسل كما يقول القرآن الكريم فى ذلك : -

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (٢٤٨)

فهذا هو القرآن قد وصف صلاتهم بأنها رياء وتكاسل وتثاقل ، فهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا ، فوجودهم فى المسجد إذن عبء لا هدف من ورائه إلا الفتنة .

---

(٢٤٨) النساء ١٤٢ ، ١٤٣

وكانوا لايذهبون إلى المسجد فى صلاة العتمة . أى العشاء ـ وصلاة الصبح ـ إلا وهم كارهون ، وقد صدق النبى ـ ﷺ ـ فى قوله : « إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة والصبح » فان العتمة تأتى وقد أتعبهم عمل النهار فيثقل عليهم القيام لها ، وصلاة الصبح تأتى والنوم أحب إليهم من أى شىء . . وبعد أن كشفهم الله للمسلمين ونزل فيهم مانزل من القرآن ، كان لابد من طردهم من المسجد حتى لا يبثوا الفتنة بين المسلمين . . اجتمع يوما فى المسجد قوم ممن اشتهروا بالنفاق ، فرآهم رسول الله ـ ﷺ ـ وقد اقترنت رءوسهم بعضها ببعض وهم يتهامسون فيما بينهم لا تكاد تسمع أصواتهم ، فأمر بهم رسول الله ـ ﷺ ـ فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا ، أمر كل رجل من أصحابه أن يأخذ بيد واحد من المنافقين فيخرجه . فقام أبو أيوب الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ فأخذ عمرو بن قيس ـ أحد بنى غنم بن مالك بن النجار . . كان صاحب آلهتهم فى الجاهلية ، فسحبه إلى خارج المسجد . فكان عمرو يقول له : أتخرجنى ياأبا أيوب من مربد بنى ثعلبة ؟ لم يقل من مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ ولا من بيت الله ، ولكنه تذكر المكان الأول الذى كان قبل إقامة المسجد فيه . وفى هذا دلالة على أن الاسلام لم يغير من نفسه شيئا . . لقد كان إسلاما فى الظاهر فقط . .

ثم أقبل أبو أيوب أيضا إلى رافع بن وديعة أحد بنى النجار فلبَّبَهُ بردائه ثم دفعه دفعاً شديداً ، ولطم وجهه ، وأخرجه من المسجد وهو يقول له :

أف لك . أخرج يا منافق من مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ . . . وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو ـ وكان رجلا طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده

بها قوداً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد .

ثم وكزه عمارة فى صدره ، وهو يصرخ قائلا : لقد أوجعتنى ياعمارة ، ولكن عمارة يرد عليه قائلا : أبعدك الله يا منافق ، فما أعد الله لك من العذاب أشد وأعظم من ذلك . فلا تقربن مسجد رسول الله - ﷺ -

وقام أبو محمد مسعود بن أوس من بنى النجار . إلى قيس بن عمرو بن سهل وكان شابا فتيا ، وكان لايوجد فى المنافقين شاب مثله ، فأخذ يدفعه فى قفاه حتى أخرجه من المسجد .

وقام عبد الله بن الحارث من جماعة أبي سعيد الخدرى وهو خزرجى إلى رجل منافق اسمه الحارث بن عمرو ، فأخذ بمجامع شعر رأسه وسحبه سحبا عنيفا ، وأخرجه من المسجد ، والمنافق يقول له : لقد أغلظت يابن الحارث .

فقال له : إنك أهل لذلك ياعدو الله ، لما أنزل الله فيك ، فلا تقربن مسجد رسول الله - ﷺ - فإنك نجس .

وقام رجل آخر من المسلمين الصادقين من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه وكان منافقا ، فأخرجه من المسجد إخراجا عنيفا .

•

إن بيوت الله جعلت لذكر الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونشر العلم والفضيلة ، ولم تجعل للتآمر والدس والفتنة ، ولذلك أمر النبى - ﷺ - بإخراج هؤلاء المنافقين الدساسين من المسجد . ومن أجل ذلك أمر الله نبيه - ﷺ - بهدم مسجد الضرار الذى بناه المنافقون . . .

سخرية اليهود والمنافقين من الأذان :

كان اليهود والمنافقون يسخرون من أذان المسلمين للصلاة . قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢٤٩)

قال القرطبي في تفسيره : كانوا إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود : قد قاموا لاقاموا . وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا ، وقالوا في حق الأذان : لقد ابتدع محمد شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم ، ويقولون : إنه صياح مثل صياح العير ؟ فما أقبحه من صوت ، وماأسمجه من أمر .

وقيل : إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والمجون ، سخرية من الصلاة وتنفيرا للناس عنها وعن الداعي إليها .

وقيل : إنهم كانوا يرون المنادي إليها بمنزلة اللاعب الهازيء جهلا منهم بمنزلتها فنزلت الآية السابقة نافية عنهم صفة العقل فهم إذن كالبهائم التي لاتعي ولاتفقه . . كما عظم الله قول من يدعو إلى الله ويعمل صالحا . فقال تعال :

---

(٢٤٩) المائدة ٥٨

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢٥٠)

روى أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : نزلت هذه الآية فى المؤذنين . وروى هذا القول أيضا عن عكرمة ، وقيس بن أبى حازم ، ومجاهد .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى حق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نقل القرطبى ذلك عن ابن سيرين والسُّدى وابن زيد والحسن . قالوا : هذا استفهام بمعنى النفى موجه للذين تواصوا باللغو فى القرآن حين قالوا : لاتسمعوا لهذا القرآن والْغَوا فيه لعلكم تغلبون.وذلك لتوبيخهم . . . ومعنى الآية الكريمة . . إنه لاكلام على الاطلاق أحسن من القرآن ، ولاأحد أحسن قولا من الداعى الى الله ـ تعالى ـ وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولعل هذا القول هو الأرجح لأن الآية مكية ، والأذان شرع بالمدينة بعد الهجرة .

متى شرع الأذان ؟

ومادمنا قد عرضنا لسخرية اليهود والمنافقين من الأذان فقد لزم أن نتحدث عنه وعن شرعيته وحكمه . فنقول . . . ماعليه جمهور الفقهاء أن الاذان شرع بالمدينة . ولم يكن بمكة أذان قبل الهجرة ، كانوا ينادون قائلين : الصلاة جامعة .

---

(٢٥٠) فصلت ٣٣

لقد كان المسلمون مغلوبين على أمرهم ، وكانوا يعذبون على أيدى الكفار . ومن أجل ذلك أذن النبى - صلى الله عليه وسلم - لهم بالهجرة من مكة الى المدينة ، وكانت لهم هجرة سابقة عليها الى الحبشة فرارا بدينهم .

ولم يشرع الأذان فى المدينة فور انتقال المسلمين اليها ، بل كان ذلك بعد تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة . وبقيت عبارة « الصلاة جامعة » شعارا للدعوة الى الصلاة ، وللأمر الذى يستدعى حشد الناس واجتماعهم .

وقصة الأذان كما يرويها الثقات يقولون :

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد أهمه أمر إعلام الناس بالصلاة وجمعهم لها . .

وتشاور النبى - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه فى أمر جمع الناس للصلاة ، فقال بعضهم : نرفع راية عند حضور وقت الصلاة ، فاذا رآها الناس اجتمعوا . . .

ولكن هذا الرأى استُبعد ، لأنه لايتسنى إعلام الناس جميعا بهذه الصورة . والأمر يحتاج الى ماهو أوقع وأسرع . فقال بعضهم : نتخذ بُوقا ، ينفخ فيه فيجتمع الناس لسماعه . فكرهه النبى - صلى الله عليه وسلم - لما فيه من التشبه باليهود .

فعرض بعضهم فكرة اتخاذ الناقوس الذى يتخذه النصارى لصلاتهم ، فكرهه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضا لما فيه من التشبه بالنصارى .

فاستبعدت هذه الفكرة أيضا كما استبعدت الفكرتان السابقتان .

فقال بعضهم : نُشعل نارا عند حضور الوقت للصلاة ، فاذا رآها الناس اجتمعوا اليها . .

وكره النبى ـ صلى الله عبليه وسلم ـ ذلك أيضا لما فى ذلك من تشبه بالمجوس .

فاقترح عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن ينادى رجل بالصلاة فيقول : الصلاة جامعة .

وقد ذكر الرواة أنهم كانوا يفعلون ذلك . . فكان بلال إذا حضر الوقت رفع صوته بذلك فيجتمع الناس ويصلون . . وظلوا على ذلك بعض الوقت . .

رؤيا عبد الله بن زيد :

ولكن عبد الله بن زيد رأى فى منامه أن رجلا يلقنه صيغة الأذان ـ كما هى عليه الآن . . يقول عبد الله :

فطاف بى وأنا نائم رجل . وفى رواية ـ وأنا بين نائم ويقظان . أى أنه كان قبل أن يستغرق فى النوم ، وعلى الرجل ثوبان أخضران وهو يحمل

ناقوسا فى يده ، فقلت : ياعبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟

قال : وماتصنع به ؟

قلت : ندعو به الناس إلى الصلاة .

قال : أفلا أدلك على ماهو خير لك من ذلك ؟

فقلت : بلى .

قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا اله إلا الله ، أشهد أن لاإله الا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لااله الا الله .

قال : عبد الله : ثم استأخر عنى غير بعيد ، ثم قال : وتقول اذا قمت إلى الصلاة :

الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لاإله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر ، لاإله إلا الله .

قال عبد الله : فلما أصبحت أتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته بما رأيت . فقال : هذه رؤيا حق ، فقم مع بلال فإنه أندى صوتا منك ، فألق عليه ماقيل لك ، ولينادِ بذلك .

قال : فلما سمع عمر بن الخطاب نداء بلال بالصلاة خرج الى رسول

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يجر رداءه ويقول : يارسول الله والذى بعثك بالحق لقد رأيت فى منامى مثل الذى قال ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فلله الحمد ، فذاك أثبت(٢٥١)

وقوله : أندى منك صوتا أى أمد منك صوتا وأعلى وأرفع ، وقيل : أحسن وأعذب . .

وكان بلال أول مؤذن للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له الرسول : قم مع عبد الله ، فما أمرك به فافعله . فجعل عبد الله يلقنه وهو يردد وراءه ، حتى انتهى . وكان ذلك فى صلاة الصبح . .

من عبد الله بن زيد ؟

هو عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن زيد الأنصارى من بنى جشم بن الحارث ابن الخزرج ، يكنى أبا محمد .

أسلم مبكرا ، فهو ممن شهدوا العقبة وبدرا ، والمشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكان عبد الله محبا للخير يكثر من الصدقة ، حتى لقد جاء بماله كله الذى يملكه ويقتات منه هو وأسرته فدفعه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء أبوه الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، إن ابنى عبد الله تصدق بماله وهو الذى كنا نعيش منه ، فدعا رسول الله ـ صلى الله

---

(٢٥١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة

عليه وسلم ـ عبد الله بن زيد فقال له : إن الله قد قبل صدقتك ، وردُها ميراثا على أبويك . وقال ابنه بشير : فتوارثناها(٢٥٢)

وفى هذا حسن توجيه من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه فى أن يكون لرب الأسرة نظرة يرى بها حق أسرته عليه . وفيه بيان لعظمة الاسلام وحسن تشريعه فى أنه جعل ماينفق على الأسرة من مال حلال هو من أنواع البر التى يثاب صاحبها ، بل ويجزل الله المثوبة عليها .

وقد ورد : ان من الذنوب ذنوبا لايكفرها إلا الهم بالعيال » وهذه هى منزلة الاسلام العظيمة وتعاليمه القويمة ، وحكمته التى تقضى بأن يعمل الانسان لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ويعمل لأخراه كأنه يموت غدا . وهذا هو مايلتقى مع قوله ـ تعالى :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٢٥٣)

وقوله تعالى : (٢٥٤)

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(٢٥٢) أسد الغابة جـ٣ ص٢٤٦ ، جـ٢ص٢٧٩
(٢٥٣) القصص ٧٧
(٢٥٤) الإسراء ٢٦

حكم الأذان :

وقد اختلف الفقهاء فى حكم الأذان والإقامة فقال الإمام مالك وأصحابه ؛ إن الأذان واجب فى المساجد للجماعات حيث يجتمع الناس وقد نص الإمام مالك على ذلك فى الموطأ ـ ذكر ذلك القرطبى فى تفسيره(٢٥٥) .. وهناك قول آخر للامام مالك أن الأذان والاقامة سنتان ..

واختلف أصحابه من بعده فمنهم من جعله سنة مؤكدة واجبة على الكفاية فى المصر ، وبعضهم جعله فرض كفاية ..

أما الشافعية فقالوا : الأذان سنة كفاية للجماعة . وسنة عين للمنفرد إذا لم يسمع أذان غيره ، فإن سمع أذان الجماعة أجزأه .

وقال الأحناف : الأذان سنة مؤكدة على الكفاية لأهل الحى الواحد ، وهى كالواجب فى لحوق الاثم لتاركها ، ولايكره ترك الأذان لمن يصلى فى بيته منفردا ،لأن أذان الحى يكفيه.

وقال الحنابلة : الأذان فرض كفاية فى القرى والأمصار للصلوات الخمس الحاضرة على الرجال فى الحضر دون السفر .

كيفية الأذان :

وقد اتفق الفقهاء على أن الاذان مثنى ، والاقامة مرة . إلا التكبير الأول

---

(٢٥٥) تفسير سورة المائدة ص٢٢٢٢ ط دار الشعب

فان الامام أبا حنيفة والامام الشافعى والامام أحمد يقولون بالتربيع فيه .

ويرى الإمام مالك أنه مثنى

ويزاد فى أذان الصبح عقب قوله : حى على الفلاح مرتين : الصلاة خير من النوم . يقولها مرتين .

التثويب :

جاء فى لسان العرب : ثَوَّبَ الداعى تثويبا اذا عاد مرة بعد أخرى ، ومنه تثويب المؤذن اذا نادى بالأذان للناس الى الصلاة ، ثم نادى بعد التأذين فقال : الصلاة - رحمكم الله -

والتثويب هو الدعاء بالصلاة وغيرها .

وقيل : إنما سمى الدعاء تثويبا من ثاب يثوب إذا رجع ، فإن المؤذن إذا قال : حى على الصلاة فقد دعاهم إليها ، فاذا قال بعد ذلك : الصلاة خير من النوم فقد رجع الى كلام معناه المبادرة اليها . وفى حديث بلال - رضى الله عنه - : « أمرنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألا أثوب فى شىء من الصلاة إلا فى صلاة الفجر ، وهو قوله : الصلاة خير من النوم . مرتين . .

وعلى كل فالتثويب يفهم منه الرجوع بالدعاء الى الصلاة . . كما فهم منه بعضهم الصلاة بعد الفريضة ، وفهم منه بعضهم الإقامة إلى الصلاة(٢٥٦)

---

(٢٥٦) لسان العرب جـ١ص٥٢٠ مادة ثوب

وقد ورد فى القرآن الكريم مايشير الى الدعوة إلى الصلاة ، ولكن الأذان بألفاظه لم يذكر فى القرآن الكريم . .

وقد وردت كلمة أذّن بمعنى نادى فى قوله ـ تعالى ـ :

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ★

وفى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢٥٧)

وفى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٢٥٨)

أما الدعاء للصلاة فقد جاء بلفظ النداء فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢٥٩)

★ الأعراف ٤٤

(٢٥٧) الحج ٢٧

(٢٥٨) يوسف ٧٠

(٢٥٩) المائدة ٥٨

وفى قوله - تعالى - :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ
ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ
ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا
لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ (٢٦٠)

مؤذنو الرسول :

أول مؤذن للرسول - صلى الله عليه وسلم - بلال ، وإن كان - عبد الله ابن زيد أول من نطق به

وبلال بن رباح - وكنيته أبو عبد الكريم ، وقيل : أبو عبد الله ، وقيل : أبو عمرو - كان مولى لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - اشتراه بخمس أواق ، وأعتقه لله - عز وجل - وهو من الذين عذبهم الكفار عذابا شديداً بسبب إسلامه . كانت الحجارة توضع فوق صدره وكان أبو جهل يبطحه على وجهه فى الشمس ويضع الرحا عليه ويتركه يقاسى لهيب الرمال فى بطحاء مكة الشديدة الحرارة ويقول له : اكفر برب محمد ، فيقول : أحد أحد .. مر عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يعذب ، ولسانه يردد : أحد أحد .. فأشفق عليه وعرض على أبى بكر شراءه ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه فأصبح حرا من ذلك الوقت ..

---

(٢٦٠) الجمعة ٩ ، ١٠

كان يؤذن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حياته

ولما توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يخرج إلى الشام ، فقال له أبو بكر : بل تكون عندى . فقال بلال : إن كنت أعتقتنى لنفسك فاحبسنى ، وإن كنت أعتقتنى لله فذرنى أذهب إلى الله ـ عز وجل ـ فقال له : اذهب حيث تريد .

وقيل : إنه أذّن لأبى بكر ـ بعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذهب إلى الشام فى خلافة عمر ـ رضى الله عنه ـ وقد ذكر أن بلالا بعد إقامته فى الشام مدة من الزمن رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى منامه يقول له : ماهذه الجفوة يابلال ؟ أما آن لك أن تزورنا ؟

فانتبه بلال حزينا ، فركب إلى المدينة فأتى قبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل يبكى عنده فأقبل الحسن والحسين ـ فجعل يقبلهما ويضمهما ، فقالا له : نشتهى أن تؤذن فى السحر ، فصعد بلال الى سطح المسجد ، وأخذ يؤذن فلما قال : الله أكبر الله أكبر ـ ارتجت المدينة . فلما قال : أشهد أن لااله الا الله . . . زادت رجتها ، فلما قال : أشهد أن محمدا رسول الله . خرج الناس من بيوتهن فما رئى يوم أكثر باكيا وباكية من ذلك اليوم .

وتوفى بلال بالشام فى العام السابع أو الثامن عشر(٢٦١) ـ رضى الله عنه ـ ومن المؤذنين ـ أبو محذورة ـ وقد اختلف فى اسمه ، فقيل : سَمُرَة بن

---

(٢٦١) راجع ترجمته فى أسد الغابة جـ١ ص٢٤٣ والطبقات الكبرى لابن سعد

معير ، وقيل: أوس بن مِغير بن لوذان بن ربيعةالقرشي الجمحي . وقد غلبت عليه كنيته

كان مؤذنا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة بعد الفتح .

قال ابن محيريز : رأيت أبا محذورة صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وله شعر طويل ، قلت : ياعم ، الاتأخذ من شعرك ؟

فقال : ماكنت لآخذ شعرا مسح عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وقد تلقن أبو محذورة الأذان عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يروى ذلك بنفسه فيقول :

قفل رسول الله ـ ﷺ ـ من حُنين ، فلبث في بعض الطريق ، فأذن مؤذن رسول الله ـ ﷺ ـ فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون عن الطريق المستقيم . . فصرنا نحكيه ونستهزىء به ، فسمع النبي ـ ﷺ ـ فأرسل إلينا فوقفنا بين يديه .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع ؟
فأشار القوم كلهم إليَّ فحبسني ـ أى أبقاني عنده ـ وأرسلهم .
وقال : قم فأذِّن .

قال أبو محذورة : فقمت . ولا شيء أكره إليَّ من النبي ـ ﷺ ـ ولا مما يأمرني به . .

فقمت بين يدى رسول الله ـ ﷺ ـ فألقى عليَّ الأذان هو بنفسه فجهرت

به وكنت ذا صوت حسن ، ثم دعانى حين قضيت التأذين ، فأعطانى صرة فيها شيء من فضة ، ثم وضع يده على ناصيتى ومر بها على وجهى ثم بين يدى ، ثم على موضع كبدى ثم قال :

بارك الله فيك وبارك عليك .

فقلت : يارسول الله ، مرنى بالتأذين بمكة .

فقال - ﷺ - : قد أمرتك به .

قال أبو محذورة : وذهب كل شيء كان لرسول الله - ﷺ - .

فقدمت على - عتاب بن أسيد - رضى الله تعالى عنه ، عامل رسول الله - ﷺ - على مكة ، فأذنت بالصلاة عن أمر رسول الله - ﷺ -[٢٦٢]

وعاش أبو محذورة سنين طويلة بعد وفاة رسول الله - ﷺ - وكان مقيما بمكة :

وتوفى بمكة سنة تسع وخمسين ، وقيل تسع وسبعين .

وكان أبو محذورة ذا صوت حسن يرفع صوته بالأذان ، سمعه عمر يوماً يؤذن فأثنى عليه . وأعجب بأذانه .

وورث الأذان عنه ابن عمه ابن محيريز ، ثم ولد ابن محيريز ، ثم صار الأذان إلى ولد ربيعة بن سعد بن جُمَح .[٢٦٣]

عبد الله بن أم مكتوم

ومن المؤذنين عبد الله بن أم مكتوم . .

واسمه : عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم ، من بنى عامر بن لؤى القرشى . وهو ابن أم مكتوم الأعمى . وأمه أم مكتوم اسمها عاتكة بنت

---

(٢٦٢) السيرة الحلبية جـ٢ص٢٧٩

(٢٦٣) أسد الغابة جـ٦ ص٢٧٩

عبد الله . وهو ابن خال خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ وهو الذى نزل فى شأنه قوله ـ تعالى ـ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) ﴾ (٢٦٤)

كان من السابقين الى الاسلام ومن السابقين الى الهجرة ، فقد قدم المدينة بعد قدوم مصعب بن عمير ، وان كان بعضهم يقول إنه قدم إليها بعد بدر .

وكان النبى ـ ﷺ ـ كثيراً مايستخلفه على المدينة فى أثناء غزواته .

وبالرغم من أنه كان مكفوف البصر والحرج مرفوع عنه فى الغزو ، فقد اشترك فى غزوة القادسية ومات فيها شهيداً ، وقيل مات بعد رجوعه منها .

ومن المؤذنين سعد بن عائذ

ويعرف بسعد بن عائذ المؤذن .

وقد أثنى عليه الرسول ـ ﷺ ـ وجعله مؤذن مسجد قباء ، وخليفة بلال إذا غاب .

ثم استخلفه بلال على الأذان بمسجد رسول الله ـ ﷺ ـ أيام أبى بكر وعمر لما سار الى الشام ، فلم يزل الأذان فى عقبه .

وعاش سعد إلى أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك . (٢٦٥)

---

(٢٦٤) عبس ١ : ١٠

(٢٦٥) أسد الغابة جـ٢ ص٣٥٥

آداب الأذان

وللأذان آداب منها أن يكون المؤذن طاهراً ، وأن يكون حسن الصوت مرتفعه ، وأن يؤذن من مكان عال ، وقد نابت الآن مكبرات الصوت عن هذا الشرط . وأن يؤذن قائماً لا جالساً ، وأن يكون مستقبل القبلة ، ويلتفت إلى اليمين واليسار عند قوله : حى على الصلاة ، حى على الفلاح . وأن يقف على رأس كل جملة ، إلا التكبير فإنه يقف عند كل تكبيرتين .

وعلى سامع الأذان أن يجيب المؤذن . لقوله - ﷺ - إذا سمعتم النداء فقولوا مثل مايقول المؤذن ثم صلوا علىَّ .

والإجابة تكون بتكرار مايقول المؤذن إلا عند قوله : حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، فيقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ويدعو فى نهاية ذلك بقوله : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم مقاما محمودا الذى وعدته .

وقد رأى بعض العلماء أنه لا بأس بأن يتبع المؤذن أذانه بالصلاة على النبى - ﷺ - وحجتهم فى ذلك أنه إذا كان النبى قد أمر بها السامع فهى للمؤذن أولى . وجهر المؤذن بها يكون سببا فى صلاة كل مصل على حضرة النبى - ﷺ - فيؤجر بأجر المصلين عليه .

قال الشيخ عبد ربه بن سليمان فى كتابه « فيض الوهاب » : الصلاة والسلام على رسول الله - ﷺ - عقب الأذان من بيانه الشريف ، والعمل بها

من سنة الأقوال التى يعمل بها . وهذا هو حكمها عند الشافعية والحنابلة . امتثالا لقوله - ﷺ - : صلوا عليّ .

وعلل بعض الشافعية استحبابها لما فيها من تذكير السامعين بالصلاة والسلام عليه - ﷺ - .

وعند الحنفية والمالكية بدعة حسنة ، لأنها لم تفعل بهذه الصفة فى زمنه - ﷺ - وقولهم حسنة : لأن أصلها من الدين .

إباء المنافقين التحاكم إلى رسول الله .

ونعود بعد هذا الاستطراد فى بيان صفة الأذان وحكمه إلى استكمال الحديث عن أحوال المنافقين وصفاتهم .

فمن مساوىء المنافقين أنهم كانوا يرفضون التحاكم إلى رسول الله - ﷺ -

ذكر أن يهوديا تنازع مع منافق فى أمر من الأمور ، فدعا اليهودى المنافق للتحاكم إلى النبى - ﷺ - لأنه يعرف أنه لايقبل الرشوة ولايحكم الا بالعدل . ودعا المنافق اليهودى للتحاكم إلى حكام اليهود . لأنه يعرف أنهم يأخذون الرشوة فى أحكامهم . . فلما اختلفا فى ذلك . اتفقا على أن يحكما بينهما كاهنا من جهينة . فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ

وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟
إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ
وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ
فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا
﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ
لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ (٢٦٦)

وفى هذه الآيات أقوال ذكرها العلماء . .

قال القرطبى ـ فيما يرويه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : كان بين رجل من المنافقين يقال له بشر ، وبين يهودى خصومة ، فقال اليهودى : انطلق بنا إلى محمد .

وقال المنافق : بل إلى كعب بن الأشرف ـ فأبى اليهودى أن يتحاكما إلا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ

(٢٦٦) النساء ٦٠ : ٦٥

فلما رأى المنافق إصراره أتى معه إلى رسول الله - ﷺ - فلما عرضت القضية على رسول الله - ﷺ - قضى لليهودى . لأنه رأى أن الحق له . فلما خرجا قال المنافق : لا أرضى ، انطلق بنا إلى أبي بكر . فانطلقا إليه ، فحكم أبو بكر لليهودى . فلم يرض المنافق أيضا وقال : انطلق بنا الى عمر ، فأقبلا إليه .

فقال اليهودى : إنا صرنا إلى رسول الله - ﷺ - ثم إلى أبي بكر فلم يرض هذا بحكمهما . . .

فقال عمر للمنافق : أحدث هذا ؟

قال المنافق : نعم .

قال عمر : رويدكما حتى أخرج اليكما فدخل فأحضر السيف ثم ضرب به المنافق . وقال عمر : هكذا أقضى على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله .



وخرج اليهودى . . ونزلت الآية .

ومن القضايا التى أشار إليها القرآن الكريم أيضا ، وكان للمنافقين دور بارزفيها هذه القضية التى أشارت اليها الآيات الكريمة التالية :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

﴿ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٢٦٧)

وقصة ذلك يرويها العلماء فيقولون :

كان بالمدينة أهل بيت يقال لهم : بنو أبيرق ، ومنهم ثلاثة إخوة هم - بشير وبشر ، والثالث مبشر ، وكان لهم ابن عم اسمه أسير بن عروة .

وكان بشير رجلا منافقا يقول الشعر فى هجاء أصحاب النبى - ﷺ - ثم ينحله بعض العرب ، فاذا سمع أصحاب رسول الله - ﷺ - هذا الشعر قالوا : والله مايقول ذلك الشعر إلا هذا الخبيث .

وكان بنو الأبيرق أهل حاجة وفاقه فى الجاهلية والاسلام ، ولنفاقهم لم يهذبهم الاسلام ولم يتورعوا عن السرقة والاستقلال .

وكان رفاعة بن زيد رجلا مسلما صادق الايمان ، وقدمت عير من الشام فابتاع منها دقيقا وضعه فى غرفة له وكان فيها سلاح ، فجاء بنو الأبيرق فنقبوا الغرفة وسرقوا الدقيق والسلاح .

وقيل إن السارق كان بشيرا وحده وكنيته أبو طعمه ، سرق درعا وكان الدرع فى جراب من الدقيق ، فجعل الدقيق يتناثر من خرق فى الجراب حتى انتهى الى داره فدل ذلك على أنه السارق . .

وذهب قتادة بن النعمان - وهو ابن أخ لرفاعة - إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يشكو إليه بنى الأبيرق ويتهمهم بالسرقة .

ولكن أسير بن عروة بن أبيرق ، وهو ابن عم الثلاثة أخذ يدافع عنهم أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - ويقول : يارسول الله إن هؤلاء - أى

---

(٢٦٧) سورة النساء ١٠٥ - ١٠٧

قتادة ورفاعة ـ عمدوا إلى أهل بيت هم أهل صلاح ودين فاتهموهم بالسرقة ورموهم بها على غير بينة ، وجعل يجادل عن بني الابيرق ويحاول صرف التهمة عنهم ، وإلقاءها على رجل من الأنصار ـ اسمه ـ لبيد بن سهل .

ولكن الله العالم بخافية الأمور أنزل قرآنا يظهر فيه الحق ويقول :

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم »

كما نزل قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ (٢٦٨)

فلما نزل مانزل من القرآن ، وبرأ الله ساحة قتادة بن النعمان وعمه رفاعة من تهمة التزوير ، وساحة لبيد بن سهل ـ من تهمة السرقة ، وظهر الأمر على حقيقته وانكشف أمر السارق هرب السارق إلى مكة ، ونزل عند امرأة اسمها سلافة بنت سعد بن شهيد ـ فقال حسان بن ثابت ـ وهو شاعر الإسلام المدافع عنه ـ شعرا يعرض فيه بسلافة هذه ـ وجاء فيه :

وما سارق الدرعين إذ كنت ذاكرا بذى كرم بين الرجال أواداعه

فلما بلغها شعر حسان خافت وأخرجت السارق من بيتها ، وأخذت رحله فطرحته خارج الدار . .

فهرب إلى خيبر وارتد . . ثم إنه فى ليلة ثقب جدار أحد البيوت ليسرق فسقط الجدار عليه فمات سارقاً مرتداً شريداً . .

النفاق داء وبيل :

لقد عانى المسلمون من المنافقين فى المدينة مثل ماعانوا من المشركين فى

(٢٦٨) النساء ١١٢

مكة ـ أو أكثر ـ ذلك أن الشرك فى مكة كان صريحاً واضحا فى مواجهة الإسلام ، وكان أعداء الإسلام واضحين ظاهرين ، أما المنافق فأمره غامض ، وهو عدو غير معروف ، وهو كما يقول الشاعر فى وصفه :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

لقد كان هؤلاء المنافقون يختلطون بالمسلمين فى مساجدهم وأسواقهم ويتعاملون معهم ، ولكنهم يخفون فى داخلهم شركهم وكفرهم ، ويذهبون بأخبار المسلمين إلى أعدائهم من اليهود والمشركين ومن المتعذر الاحتراس منهم . ولكن الله كان يكشف أمرهم بما ينزل من القرآن ، حتى كانوا يخشون ماينزل من آيات . . .

قال تعالى :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ «٢٦٩»

والنفاق لايكون إلا فى إبطان الشر واظهار الخير ، بمعنى أن يتظاهر الرجل بالصلاح ويخفى فى داخله الفساد . سريرته سيئة وعلانيته حسنة . أما إذا أسر الرجل الحسنة فليس بمنافق ، وقد كان كثير من المسلمين فى مكة يخفون إسلامهم ولا يظهرونه خوفا من الأذى . .

والنفاق مرض وبيل وداء خلقى وخيم ، إذا تمكن فى النفس قضى على كل خلال الخير فيها فتصبح مقفرة مجدبة ، وما أشبه النفاق بالظلام الدامس يحجب معالم الهدى والفضيلة .

إنه ضرب من الكذب والخيانة ، بل الكذب من علاماته . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا

---

(٢٦٩) التوبة ٦٤

اؤتمن خان » وأضيف إلى هذه الخصال ـ الثلاث خصلة رابعة فى رواية أخرى فى بعض الأحاديث وهى : وإذا خاصم فجر .

وقد قُضِى على هؤلاء المنافقين بأنهم فى الدرك الأسفل من النار ، فهم أحط قدرا وأشد عذابا من المشركين .

والنفاق فى المجتمع كالسوس ينخر فى جسمه فيقوض أركانه . . وإذا أحاط المنافقون بالحكام والرؤساء ومن بيدهم الأمر زينوا لهم الباطل وأضلوهم عن الصواب ، وقد يمتدحون الأساليب الخاطئة والتصرفات السيئة لكى يستمر أصحابها فيها ويسوقون غيرهم إليها فى طريق وعر الى غايات وخيمة . .

لقد كان الله ـ تعالى ـ مع نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينبئه عن أخبار المنافقين ، فلم يكن لهم خطر مع وجود التنزيل الذى يكشف خبثهم أولا بأول ، أما بعد عهد النبوة فإن كشفهم يحتاج الى إلهام صادق وفطنة قوية ، ووعى كامل ، ومنهج سديد ، يستطيع المسلمون تلمسه من كتابهم الكريم وسنة نبيهم الرشيدة ، وسيرة سلفهم الصالح .

معاملة الإسلام للمنافق :

وعلى الرغم مما فعله المنافقون فقد أفسح الإسلام صدره لهم ، وفتح أمامهم باب التوبة فى كثير من الأحوال ، ولم يشأ أن يعاملهم بالقسوة أو العنف .

وأمامنا فى ذلك أمثلة كثيرة منها :

أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عامل عبد الله بن أبى بن سلول ـ معاملة المسلم فلم يخفر ذمته ، ولم يعامله معاملة المشرك ، مع أن النبى ـ

صلى الله عليه وسلم - كانت له مندوحة فى قتله لو أراد ، فقد علم الملأ جميعاً أنه منافق ، وأن كراهيته للإسلام مشهورة وإن كان يخفيها .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - حكيما فى تصرفه ذلك ، فقد أراد أن يعلمنا أن حكمنا على الناس يجب أن يكون بناء على الظاهر - كما قال : أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر .

إن الأحكام الإسلامية لها جانبان ، جانب يطبق فى الدنيا ويكلف المسلمون بتطبيقه ويشرف الخليفة أو الحاكم على ذلك .

وجانب آخر يتعلق بالعقيدة وأمر وذلك موكول إلى الله .

فإذا ماقامت الأدلة الملموسة على مخالفة الإنسان لأمر يتعلق بالجانب الأول وجب تطبيق الحكم القضائى الذى حدده الشرع لتلك المخالفة .

أما الجانب الآخر فهو يقوم على ما استقر فى الوجدان والضمير ، وهذا أمر يعلمه الله ، وقد يطلع الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - عليه . وقد ورد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يعلم أسماء جميع المنافقين ، وأنه أخبر بذلك بعض أصحابه .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه - إذا مات ميت يسأل : هل ذهب حذيفة للصلاة عليه ، فإذا قيل له : نعم ، ذهب عمر وصلى عليه ، وإذا قيل له : لا - لم يذهب ويقول لهم : صلوا على صاحبكم .

إن جانب العقيدة يقوم على ما استقر فى القلوب ، ومرد القضاء فيه إلى الله - تعالى - فهو العالم بخفايا القلوب وأسرارها . . ولبيان هذه القاعدة يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البخارى عن عمر - رضى الله عنه -: « إنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم » ويقول فيما رواه

الشيخان « إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ـ فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذ منه شيئا فإنما هو قطعة من النار »

والحكمة فى مشروعية هذه القاعدة أن تظل العدالة بين الناس فى مأمن من التلاعب بها والنيل منها ، إذ ربما اتخذ الحكام من الأدلة الوجدانية والاستنتاجية وحدها ذريعة إلى الإضرار ببعض الناس بدون حق .

وتطبيقاً لهذه القاعدة الشرعية كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرغم من اطلاعه على كثير من أحوال المنافقين وما تسره أفئدتهم من شر وعدواة يعاملهم معاملة المسلمين فى الأحكام الشرعية العامة «٢٧٠»

والآن بعد هذا العرض الشامل لطوائف المجتمع الذى ضمنته المدينة بين جوانحها من مهاجرين وأنصار ويهود ومنافقين ، ورؤيتنا جوانب متعددة من هذا التناقض العجيب بين الإيمان فى مثاليته النادرة ممثلا فى جانب المهاجرين والأنصار ، وبين الكفر الصريح ممثلا فى موقف المشركين الذين لم يسلموا ، وفى موقف اليهود الذين لم يؤمنوا بما جاء فى كتابهم من تبشير بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومطالبة بالإيمان به ، وبين الكفر الخفى ـ ممثلا فى موقف المنافقين الذين لقى المسلمون منهم عنتا وإرهاقاً .

بعد هذا كله نبدأ صفحة جديدة فى المواجهة القوية للكفر والتصدى له . . فنتحدث عن الجهاد ومشروعيته فى الإسلام وعن الغزوات الإسلامية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم . . إن شاء الله . . .

---

(٢٧٠) انظر فقة السيرة د / محمد سعيد رمضان البوطى ص١٨٢

فهرس القصص القرآنى

نهاية المجلد العاشر

سلسلة
القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الحادى عشر

سلسلة
القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى
د. عبد الحميد مصطفى

المجلد الحادى عشر


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الجهاد في الإسلام

- مرحلة جديدة من مراحل الدعوة .
- متى شرع القتال ؟
- تشكيك المغرضين فى أهداف الجهاد فى الإسلام .
- كيف انتشر الإسلام ؟
- السيف سلاح مؤقت .
- لماذا حارب المسلمون ؟
- أهداف الجهاد فى الإسلام .
- معطيات كلمة الجهاد فى القرآن الكريم .
- أنواع الجهاد .

مرحلة جـديدة

سبق أن ذكرنا أنه بانتقال النبى - ﷺ - بالاسلام الى المدينة بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الدعوة الاسلامية .

فقد انتقل المسلمون من حالة الضعف التى كانوا عليها ، إلى حالة القوة التى اكتسبوها بمجاورتهم الانصار الذين أفسحوا لهم قلوبهم ودورهم ، وشاركوهم فى أموالهم وثمراتهم عن رضا وايثار .

وكان الأنصار - كما علمنا - قد أقبلوا على هذا الدين بحب ورغبة ويقين ، وباعوا له أرواحهم ، وأحبوا النبى - ﷺ - والمهاجرين معه من كل قلوبهم .

وكانوا حين بايعوا النبى - ﷺ - قد بايعوه على أن يدافعوا عنه ضد أعدائه ، وأن يسيروا معه تحت لوائه .

وقد مرت بنا كلمة البراء بن معرور - رضى الله عنه - حين قال النبى - ﷺ - : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . قال البراء : وقد أخذ بيد الرسول - ﷺ - : نعم ، والذى بعثك بالحق ، لنمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

وقد عنى بالحلقة السلاح عامة أو الدروع خاصة ، وهذا يدل على أن الأنصار قد بايعوا النبى - ﷺ - من أول الأمر على أن يحاربوا معه ، ويدافعوا عنه ويعملوا على نشر هذه الدعوة التى اعتنقوها .

ولقد أرادوا أن يستوثقوا لأنفسهم من أن النبى - ﷺ - سيظل معهم ، ولن يتركهم حين يظهر الله أمره ، فقال له أبوالهيثم بن التيهان : يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا وإنا لقاطعوها - يعنى بذلك اليهود - فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم النبى - ﷺ - ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم(١)

يعنى بذلك أن دمه هو دمهم وأن حرمته وحرمتهم سواء ، وذمته وذمتهم واحدة .. ولقد وفى النبى - ﷺ - فحين استسلمت مكة له وخشى الانصار أن يبقى النبى - ﷺ - فيها ، ولا يعود معهم إلى المدينة - أصر على الرجوع معهم ..

لقد تنفس المسلمون فى المدينة بعد هجرتهم إليها نسائم الحرية ، ولأول مرة شعروا أنهم يستطيعون ممارسة عبادتهم دون خوف أو رقيب ..

لقد ارتفعت فيها شعائر الاسلام - وسُمِعَت تكبيرة الاحرام عالية مجلجلة تصافح السماء وتعانق الجوزاء ، وتتجاوب معها هتافات الملائكة بالترحيب والدعاء ..

أين هم الآن مما كانوا عليه فى مكة حين كانوا يتفرقون فى شعاب مكة فرادى لا يكادون يجتمعون على إمام واحد ؟

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٥٠

واستشعروا العزة التى ألبسها إياهم الاسلام دين العزة والكرامة ، وبدأوا يتحدثون عن وسائل نشر كلمة الله فى الآفاق ليحرروا بها عباد الله الذين أذلتهم العصبية ، أو أثقلت كواهلهم أرجاس الجاهلية .. ولكن الأمر لم يكن قد حان بعد فى الأمر بالقتال ..

متى شرع القتال ؟

يرى ابن هشام فى سيرته أن الأمر بالقتال نزل فى مكة قبل الهجرة ... يقول فى ذلك : وكان رسول الله ﷺ لم يؤذن له فى القتال ولم يؤمر به قبل بيعة العقبة فكان يدعو إلى الله وكان يصبر على الاذى ويصفح عن الجاهل والسفية والمعتدى وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم ، فهم بين مفتون فى دينه ، أو معذب فى أيديهم ، أو هارب فى البلاد فرارا منهم ... بأرض الحبشة أو غيرها ..

فلما عتت قريش على الله ـ عز وجل ـ وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه ـ ﷺ ـ وعَذَّبوا ونَفَوْا من عَبَدَالله ووحده وصدق نبيه واعتصم بدينه ـ أذن الله ـ عز وجل ـ لرسوله ـ ﷺ ـ فى القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم . فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب والقتال لمن بغى عليهم ـ فيما ذكره عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله ـ تبارك وتعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾
ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ
ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ
يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ
ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

فقد أذن الله لهم بالقتال لأنهم ظلموا ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أنهم يعبدون الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .. والمقصود بالذين ظلموا هو النبى - ﷺ - ومن آمن به رضى الله عنهم .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه قوله :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا
عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (٣)

---

(٢) الحج ٣٩ : ٤١
(٣) البقرة ١٩٣

أى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه وحتى لا يعبد مع الله غيره(٤)

فهذا الكلام الذى يتحدث به ابن هشام راويا له عن ابن اسحاق يفيد أن الأمر بالقتال كان مبكرا عن الهجرة ، ولعله استند فى ذلك إلى أن الآية الأولى الواردة فى سورة الحج مكية .

ولكن السيوطى ـ رحمه الله ـ يذكر فى أسباب النزول أن هذه الآية نزلت بعد الخروج من مكة ـ يقول : أخرج أحمد والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : خرج النبى ـ ﷺ ـ من مكة ، فقال أبوبكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن ، فأنزل الله

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا(٥) »

على أنه على فرض نزول هذه الآية فى مكة أى قبل الهجرة فانه لم يعمل بها إلا بعد الهجرة ، وقد يسبق النزول الحكم ، وربما كانت بيعة العقبة هى المقدمة الكبرى للجهاد الذى شرع فى الاسلام ، ووضعت له التنظيمات المتعددة والقوانين المنظمة له . .

جاء فى كتاب فقه السيرة : « ومن هنا نعلم أن مشروعية القتال فى الاسلام لم تكن إلا بعد هجرته ـ ﷺ ـ على الصحيح ، وليس كما قد يفهم من كلام ابن هشام فى سيرته أنه شرع قبل الهجرة عند بيعة العقبة الثانية . إذ ليس من بنود البيعة ما قد يدل على مشروعية القتال حينئذ ، لأن النبى ـ ﷺ ـ حين أخذ على أهل المدينة العهد بالجهاد والدفاع عنه وعن الاسلام ـ

---

(٤) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٧٥ ط دار التحرير

(٥) لباب النقول وأسباب النزول للسيوطى ص ١٢٠ ط دار التحرير

نظر إلى المستقبل عندما سيهاجر إليهم ويقيم بينهم فى المدينة ، والدليل على هذا قول العباس بن عبادة للنبى - ﷺ - بعد البيعة : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا ، فقال له رسول الله - ﷺ - : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم(٦)

مهمة النبى فى مكة

لقد كانت مهمة النبى - ﷺ - فى مكة إلى جانب نشر الدعوة إعداد النفوس وتهيئة الرجال وتربيتهم التربية الاسلامية الصحيحة التى تتشرب مبادىء الدعوة بيقين كامل وإيمان عميق ، حتى تصبح التضحية بالروح فى سبيل هذه العقيدة سهلة وشيئا تلقائيا لا يحتاج إلى حافز . .

وهذا لون من الجهاد المعنوى لا يقل خطرا عن الجهاد بالسيف ، وهذا ما يسمى بالروح القتالية فى مفهوم العسكريين .

لقد كان العرب فى الجاهلية يقاتلون ، ولكن هدف قتالهم يختلف تماما عن هدف القتال فى الاسلام . وشتان بين من يحارب فى سبيل الثأر أو الغلبة على ماء أو كلأ ، أو تعصبا لقبيلة أو دعوى جاهلية - وبين من يحارب فى سبيل إعلاء كلمة الله وحفاظا على الكرامة الانسانية وعزة الانسان . وقد أشارت الآية الكريمة التالية إلى هدف القتال فى الاسلام

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ

---

(٦) انظر فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى ص ١٣٢

ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ (٧)

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة »

أى حتى لا يفتن أحد عن دينه ويكره على البقاء على دين لا يريده . . .
ثم انظر الى الهدف الذى حدده الله للمجاهدين فى سبيل دينه حين يمكن الله لهم فى الأرض :

وفى هذه الآية ما يشير إلى أن القتال فى سبيل نشر الدين هو أشرف أنواع القتال ، لأنه قتال يقصد به الحق والعدل ، وحرية الدين وهو المراد بقوله ـ تعالى ـ

« الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »

فهل هناك أشرف من هذا الهدف ؟

أما غير ذلك من ألوان القتال ـ وواقعنا المرير يشهد بمئات الصور منه ـ فإنما يقصد به الملك والعظمة والسيطرة والاستغلال والإذلال . وتحكم الغالب القوى فى المغلوب الضعيف .

وقد ضعف المسلمون وغلبوا عندما اتجهت حروبهم الى أهداف أخرى غير نشر مبادىء الاسلام وإعلاء كلمة الله .

---

(٧) النساء ٧٦

إنَّ تشرب هذه المبادىء القيمة ليس أمرا سهلا يمكن إدراكه بين يوم وليلة ولكنه أمر يحتاج الى وقت تتغير فيه العقائد البالية لتحل محلها عقائد روحية باقية . وهذه هى المهمة التى قام بها النبى - ﷺ - فى مكة وَرَوَّض عليها أصحابه وأعدهم لها طوال ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة

حتى إذا ما هاجروا هاجروا بأرواح عالية ونفوس رفيعة وهمم لا تعرف الكلل وعزائم لا يعتريها الملل ، وقلوب كبيرة ملأها الإيمان حبا ويقينا وإيثارا للآخرة على الأولى .

والجهاد يحتاج إلى ثكنة عسكرية يأوى إليها المجاهد ، ويتحصن بها ، وهذه الثكنة لم تتهيأ فى مكة ، لأنها كانت ثكنة لأعداء الاسلام لا للاسلام ، وقد تهيأت هذه الثكنة فى المدينة بعد الهجرة ، فقد أصبحت المدينة دار إسلام ومعقل أمان وإيمان ، فوجب الجهاد بوجود المكان المناسب والظروف المواتية .

تشكيك المغرضين فى أهداف الجهاد فى الإسلام

ولقد أرجف المرجفون كثيرا حول قضية القتال فى الاسلام ، وتحدثوا طويلا بالباطل زاعمين أن الاسلام قام على السيف ولولا السيف ما انتشر ، وان المنطق والحجة والبرهان ليست هى الأسلحة التى انتشر بها هذا الدين الحنيف ، كما زعموا أن الاسلام دين توسعى .

وقد رأينا التعرض لهذه القضية التى كانت قد أثيرت قديما وأدحضت على يد علمائنا الأفاضل ومفكرينا العظام - لأنها عادت إلى الظهور مرة أخرى . .

وربما كان السبب فى ظهورها مرة أخرى ما يريده العدو الآن جريا على عادته من تزييف الحق وإشاعة الباطل وتشويه الوقائع.

ومن خططه المدروسة فى محاربة المسلمين ـ تلك الحرب النفسية التى يشنها عليهم محاولا بذلك إيقاع البلبلة فى أذهانهم، وإثارة الشكوك فى عقائدهم، وربما انزلق بعض البسطاء من المسلمين فى تصديق ما يزعمه هؤلاء المشككون بسبب براعتهم فى أسلوب الزيف، وإحكام وضع السم فى العسل، فيرددون ما يريده هؤلاء الأعداء.

ومغالطة المزيفين والحاقدين فى هذا الامر ـ قائمة على شقين:

الشق الأول منها: أن الاسلام قام على السيف والاكراه.

والشق الثانى أن الدين لا ينبغى أن يقوم على الحرب والقتال وإنما على المحبة والسلام.

وكلا الأمرين يحتاج إلى مناقشة وتوضيح..

لقد أشاع هؤلاء المشككون أولا قولتهم الأولى ـ فلما قام الغيورون من علماء الإسلام بالرد عليها، إذ بهؤلاء المشككين أنفسهم يرددون المقولة الثانية محاولين بذلك تشكيك بسطاء المسلمين، وخداعهم وصرفهم عن واجبهم نحو دينهم..

وقد استراح البعض لهذه المقولة الثانية وأخذ يرددها بحماس، وكأن الاسلام لا يجب أن يحارب الباطل، ولا ينبغى أن يواجه الطغيان أو يعمل على دفع الشر ودحر الظلم، وانما هو دين يرضى بالأمر الواقع، ويرضى

بما يقوله القائلون : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر . لقد وافق بعض البسطاء من المسلمين على ما أراد الأعداء إشاعته من أن الإسلام دين مسالمة وموادعة لا شأن له بالآخرين إلا إذا داهموه فى عقر داره ، وفات هؤلاء البسطاء الهدف الحقيقى لأعداء الإسلام من وراء نشر هذه المقولة ، ولم يعرفوا أن هذا هو بعينه الغرض الذى التقى عليه فى السر كل من روج للمقولة الاولى التى تقول : إن الاسلام لم ينتشر إلا بحد السيف . . فكلتا المقولتين من مصدر واحد . .

ان الهدف من كل ذلك هو إماتة روح الطموح فى نفوس المسلمين وتربيتهم على الاستنامة والرضوخ وعدم التحرك أمام العدوان .

إن الغربيين وأعداء الاسلام يخافون من ظهور فكرة الجهاد فى أوساط المسلمين حتى لا تتوحد كلمتهم فيقفوا أمام أعدائهم ، ولذلك يحاولون الترويج لفكرة نسخ الجهاد ، وصدق الله العظيم اذ يقول فيمن لا إيمان لهم :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٨)

لقد حاول بعض المستشرقين ان ينشر بين أبناء المسلمين فكرة أن الجهاد اليوم ليس بفرض ـ بناء على ما يزعمونه من أن الأحكام تتغير بتغير الأزمان ـ

---

(٨) محمد ٢٠

إذ ان الجهاد فى رأيهم وزعمهم لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة،لارتباط المسلمين بالمنظمات العالمية والمعاهدات الدولية ، ولأن الجهاد فى زعمهم وسيلة لحمل الناس على الاسلام ، وأوضاع الحرية ورقى العقول لا تقبل فكرة تُفْرض بالقوة . . فانظر إلى ما يريد أن يصل إليه هؤلاء الأعداء الذين يضمرون للاسلام والمسلمين كل حقد وشر(٩) .

وقد رد كثير من المفكرين على من يزعم أن الاسلام قد فرض بالقوة . . يقول العقاد :

« شاع عن الاسلام أنه دين السيف ، وهو قول لا يصح ، وغلط بيِّن إذا أريد به أن الاسلام قد انتشر بحد السيف ، أو أنه يضع القتال موضع الاقناع .

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربى كبير هو « توماس كارليل » صاحب كتاب « الابطال والبطولة » فقد اتخذ محمداً - ﷺ - مثلا لبطولة النبوة وقال ما معناه :

« إن اتهامه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم ، اذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يُشْهِرَ رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته . .

والواقع الثابت فى أخبار الدعوة الاسلامية أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب قبل أن يقدروا على دفع الأذى الواقع عليهم من مشركى قريش فى مكة المكرمة ، فهجروا ديارهم وتغربوا من أهليهم حتى بلغوا إلى

---

(٩) انظر فقه السيرة ومحمد سعيد رمضان البوطى ص ١٣٥

الحبشة فى هجرتهم . وذلك قبل التجائهم الى يثرب ، وإقامتهم فى جوار أخوال النبى ـ ﷺ ـ

« ولم يكن أهل يثرب ليرحبوا بمقدمهم لولا ما بين القبيلتين الكبيرتين فيها من نزاع فتح بينهما ثغرة يأوى اليها المسلمون بعد أن ضاق بهم جوار الكعبة ، وهو الجوار الذى لم يضق من قبل بكل لائذ به فى عهد الجاهلية .

« ولم يعمد المسلمون قط الى القوة إلا لمحاربة القوة التى تصدهم عن الاقناع ، فاذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها واذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء(١٠) »

فاذا ما رجعنا الى منطق الاسلام نفسه فاننا نجده يفند دعوى قيامه بالسيف ، فدستوره الخالد يقول :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١١)

ويقول مخاطبا النبى ـ ﷺ ـ وهو قائد أمته

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١٢)

---

(١٠) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ـ عباس محمود العقاد ص ٢٢٧

(١١) البقرة ٢٥٦ (١٢) يونس ٩٩

ويقول له أيضاً :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (١٣)

فهذه الآيات الكريمة تلقى ضوءا كاملا على مفهوم رسالة الاسلام . تلك الرسالة التى قامت على الحجة الكاملة والمنطق السليم ، ولم يكن فى حسابها على الاطلاق أن يحمل النبى - ﷺ - السيف - يدعم به الدعوة التى تحض على استعمال العقل والتفكر فى خلق السموات والارض ، للاستدلال من مظاهر إبداعها على قدرة إبداع الخالق والايمان به ربا واحدا لا شريك له .

بُعِث النبى - ﷺ - وحده لا سند له إلا إيمانه القوى بصدق رسالته وقوة عقيدته ، ولا مال معه ، ولا جيش يظاهره ، ولا قوة غير قوة الحق تؤيده ، فكل نجاح يلقاه فى طريق دعوته ، فأمر هذا النجاح موكول إلى صدق جهاده وبلاغة حجته وهيمنة اليقين الذى يدعم موقفه . . ترى ذلك واضحا فى عمق إيمانه حين هاجر من مكة إلى المدينة ، ولا سند له بعد الله إلا صاحبه وصفيه ، تراه يقول له فى يقين كامل : « لا تحزن إن الله معنا »

كيف انتشر الاسلام ؟

ولعل مدلول هذا اليقين الكامل هو الذى يفتح أمامنا الطريق للإجابة الكاملة عن كيفية انتشار الإسلام الذى لا يمكن أن ينتشر هذا الانتشار

---

(١٣) النحل ١٢٥

الواسع بواسطة شخص واحد ليس معه سوى صاحبه الخائف عليه ، ان لم يكن وراء هذين الصاحبين قوة إلهية جبارة هى التى مكنت لهذا الدين ونشرته فى أرجاء الأرض . . وهذا هو الذى يفهم من بقية الآية بعد قوله - تعالى -

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١٤)

إن آية الهجرة هذه دليل على أن الاسلام لم ينتشر بالسيف ، ولكنه انتشر بمعونة الله وفضله ، وتهيئة الاذهان والعقول وشرح الصدور له . .

فقد نزلت هذه الآية الكريمة فى أعقاب غزوة تبوك ، بعد فتح مكة فى معرض بيان فضل الله على رسول الله ﷺ - وفيها مقارنة بين حال المسلمين فى أول الهجرة وما وصلوا اليه بعد ذلك حينما أظهرهم الله على عدوهم ، وهيأ لهم من أسباب العزة والمنعة ما مكن لهم وأعلى شأنهم .

وقد ركز الاسلام فى انتشاره على الدعوة إلى الله بالحكمة واهتم بها اهتماما كبيرا،ومبادئه القويمة هى التى نشرته ، وقد اعتنقه وآمن به الكثيرون عن

---

(١٤) التوبة ٤٠

طريق الاقتناع العقلى فهو دين الفطرة الصافية ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (١٥)

فالصبغة هى الفطرة وهى ابتداء الخلق وكل مولود يولد على الفطرة ، ولذلك فان الدين الاسلامى لا يستعصى فهمه على العقل ، وليس فيه غموض أو تعقيد أو التواءات . ولا يحتاج الداخل فيه الى طقوس أو وساطة . وقد جاء التعبير بقوله : صبغة الله ـ ليرد به على من يصبغون أولادهم بماء يقال له ماء المعمودية زاعمين أن فى هذا تطهيراً لهم . . فما من عاقل يلقى سمعه إلى مبادىء الاسلام أو يسمع بعض آيات من القرآن إلا ويقبل عليه بقلب منشرح وحب شديد .

والذى منع المشركين فى مكة من الاقبال عليه هو روح التعصب الممقوت والتمسك بما ورثوه من عقائد بالية . . وقد كانت الغالبية العظمى منهم تعرف أن دين محمد ـ ﷺ ـ حق ولكن منعهم من اتباعه تمسكهم بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم . .

أما غير أهل مكة كالانصار مثلا فقد تجاوبت أرواحهم مع هذه الدعوة التى ترد للإنسان كرامته ، وتعلى من شأنه وقدره فى الحياة .

لقد انتشر الاسلام ومازال ينتشر بقوته الذاتية ـ أى بتعاليمه وأحكامه وأسسه وأخلاقياته السامية وحدها . . فكل من فتح عقله وقلبه لفهم دعوته

---

(١٥) البقرة ١٣٨

تجاوب معها واعتنق الاسلام طواعية واختيار .. والدليل على ذلك أن كل البلاد التى انتشرت فيها الاسلام بعد قتال مع المتحكمين فى شعبها المستذلين له ـ أيقن أهلها أن المعركة ليست ضدهم وانما هى ضد هؤلاء الحكام المستغلين ، والدليل على ذلك ـ مصر ـ .. فحين فتحت رحب الاقباط بالمسلمين وساندوهم ضد الروم الغاصبين الذين نهبوا ثروة البلاد وأذلوا العباد .

وحين رأوا حسن معاملة المسلمين ازدادوا حبا لهم ، وأقبلوا على الإسلام يعتنقونه حباً وطواعية . لقد أدركوا الفرق الواضح بين تعمير المسلمين وتدمير الروم ، وبين إعزاز الإسلام للناس وإذلال الروم لهم .

لقد كان المسلمون فى معاملتهم مثلا أعلى فى التعامل الانسانى الحضارى وكانت سياستهم مع أهل البلاد المفتوحة على غاية عظمى من العدالة والرحمة وإقرار الحرية .. فاتجه الناس الى هذا الدين الذى يدعو الى هذه الفضائل

حضر وفد من أهل سمرقند إلى دمشق يشكون إلى عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموى أن القائد مسلم بن قتيبة دخل مدينتهم ، وأسكن المسلمين بها ، فحول الخليفة شكواهم الى القاضى ، ولما تحقق القاضى من صدق كلامهم ، أمر بإخراج المسلمين من البلدة ، فكان هذا الموقف سببا فى دخولهم الإسلام جميعا حينما رأوا هذه العدالة المنقطعة النظير .

فليسمع الآن العالم الذى يزعم أنه وصل الى نهاية الحضارة ما تفعله إسرائيل فى الأرض المحتلة من تشريد وطرد لسكانها وأصحابها من العرب ،

وهدم للبيوت على سكانها لتقيم محلها مستوطنات لاقامة اليهود القادمين إليها من كل مكان فى العالم ، تغريهم للهجرة اليها بمختلف الطرق والوسائل . . وليقارن العالم بين هذه التصرفات الشائنة وتصرفات الخليفة عمر بن عبدالعزيز . . ولكن أين الثرى من الثريا ؟؟

وهناك الكثير من الأدلة على أن الاسلام انتصر بقوته الذاتية ، لا بالسيف والقمع والاكراه كما يزعم البعض ـ ومن ذلك ما رآه الجميع وسجله التاريخ من إقبال التتار على الإسلام بعد أن حاربوه وملكوا دياره وهدموا مدنه وأحرقوا كتبه وقوضوا الكثير من المعالم الاسلامية الشاهقة . . هؤلاء الذين كانوا يكنون للاسلام كل عداء ، سرعان ما اتجهوا اليه يعتنقون دعوته بعد أن تبينت لهم مبادئه الكريمة وتعاليمه القويمة ، وأصبحوا جنودا للاسلام يحاربون فى سبيله وينشرون دعوته ويفتحون البلاد باسمه . . ولو كان الاسلام يقوم على الاكراه لما وجد طريقه إلى قلوب هؤلاء الذين جاءوا كالاعصار الشديد لا يقف فى طريقه شيء . .

وان أعوزتك أدلة أكثر من ذلك فانظر إلى أكثر البلاد عددا من المسلمين مثل اندونسيا والملايو والصين وسواحل أفريقيا ، وسل نفسك كيف انتشر الاسلام فى هذه البلاد ؟ وسوف تجد أنه انتشر فيها دون أن يرفع فيها سيف ، أو يرمى فيها بسهم أو يذهب اليها جيش ، لقد دخلها الاسلام ودان أهلها به رغبة فى مبادئه وحبا فى تعاليمه .

هذا ومازال الاسلام حتى وقتنا هذا ينتشر فى ربوع العالم ، ويعتنقه رجال الفكر من الشرق والغرب بعد أن يتأملوا فى معانيه ، ويناقشوا مراميه ،

ويتبينوا أهدافه ، ويضعوا تعاليمه أمام مجهر الحق ويزنوها بميزان القسط والعدل .. وما تزال الأنباء تحمل إلينا كل يوم خبرا جديدا عن إسلام عالم هنا ومفكر هناك .

وقد انتشرت المراكز والمعالم الاسلامية فى كثير من عواصم الغرب التى كانت تقابل الإسلام بأقسى ألوان العداء والمقاومة وأصبحت مآذن المساجد يدوى من فوقها الأذان الذى يعلن صباح مساء كلمة الحق ـ الله أكبر الله أكبر أشهد الا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ..

فهل الذين أسلموا فى فرنسا وانجلترا اللتين قادتا الحملات الصليبية المسعورة واحتلتا فى زمن من الدهر بيت المقدس ، ونكلتا بالمسلمين فيه تنكيلا فظيعا ، هل الذين اعتنقوا الاسلام من هؤلاء اعتنقوه بالسيف والاكراه ؟



كلا ، إنه لم ينتشر الا بفضل مبادئه الكريمة التى تنادى بالإخاء والحب والسلام ..

السيف سلاح مؤقت

إن الإسلام حين استخدم السيف إنما استخدمه فى وقت دعت الحاجة اليه ، ولم يكن أمام المسلمين مفر من استخدامه حتى يحموا أنفسهم وعقيدتهم من عدوان أعدائهم . فهو استخدام المضطر لا استخدام الراغب فيه المحب له ..

والاسلام يترك هذا السلاح المؤقت طالما كانت هناك إمكانات لعدم استعماله . وما أكثر هذه الامكانات .

يقول العقاد : انظر الى خريطة العالم ـ فى الوقت الحاضر تعلم أن السيف لم يستعمل إلا دفاعا عن الاسلام ، وأن الاسلام قد انتشر بالاقناع والقدوة الحسنة ، بدليل أن البلاد التى قلت فيها حروب الإسلام هى البلاد التى يقيم فيها أكثر مسلمى العالم ، وهى بلاد اندونيسيا والهند والصين وسواحل القارة الافريقية وما يليها من سهول الصحارى الواسعة ، فان عدد المسلمين فيها قد قارب الألف مليون الآن[16] . ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذى لا يجدى فى تحويل الألاف عن دينهم ، فضلا عن الملايين .. وما لنا نذهب بعيدا وهذه هى البلاد التى اتجهت اليها غزوات المسلمين لأول مرة فى صدر الدعوة الاسلامية ، وهى بلاد العراق والشام . فقد عاش بين المسلمين فى تلك البلاد كثيرون ممن اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود وغيرهم ..

وقد دخل المسلمون بلاد الاندلس وأقاموا فيها قرونا ، ولم يقل أحد على الاطلاق إنهم أجبروا أحدا من سكانها على ترك دينه واعتناق دين الاسلام .

إن روح الاسلام فى العلاقة بين المسلم وسائر بنى الانسان تشف عنها كل آية وردت فى القرآن الكريم ، الذى علم المسلمين كيف تكون المودة والرحمة ، وكيف تتصل وشائج المحبة والتعارف والتقارب بين البشر[17]

---

(١٦) ذكر العقاد أن هذا العدد قريب من ثلثمائة مليون ولكن ذلك كان وقت أن ألف العقاد كتابه سنة ١٩٥٧ ـ أما الآن فقد تضاعف هذا العدد أكثر من مرة .

(١٧) انظر حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ص ٢٣٢

من ذلك كله نخلص إلى أن الاسلام دين سلام ، فهو يجعل السلام أساس العلاقات الانسانية والدولية ، وأن الحرب فى شريعته ضرورة تضطره اليها الظروف أحيانا . .

ولنتأكد جميعاً أن الاسلام لم يضق بمخاليفه ذرعاً ، بل وجدوا فى ظله الأمن والأمان طالما سالموه ولم يكيدوا له أو يثيروا ضد أبنائه القلاقل .

وقد شملت سماحة الاسلام المسلمين وغيرهم ، فهم جميعا فى شرعته سواء ، وقد قال النبى - ﷺ - فى حق الذميين الذين عاشوا فى ظل الإسلام - كلمته الرائعة : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا »

« من ظلم معاهدا فأنا حجيجه يوم القيامة »

لماذا حارب المسلمون إذن ؟

لم ينتشر الاسلام بالسيف - كما ذكرنا - وهذا واقع لا شك فيه . ولم يلجأ الى القوة إلا لمحاربة القوة التى تصد المسلمين عن الاقناع - فماذا يفعل الإسلام إذا وجد المعادين له قد رصدوا جنودهم لمحاربته ومحاولة القضاء عليه ؟ أيقف عاجزا أم يواجه القوة بالقوة ؟ إن منطق العقل يقول : إن القوة لا تحارب إلا بالقوة .

والأمثلة لذلك كثيرة من واقع التاريخ - فالمسلمون مثلا لم يحاربوا الحبشة ولكنهم حاربوا الفرس الذين حرضوا على قتل الرسول - ﷺ - وحاربوا الروم الذين أرسلوا طلائعهم إلى تبوك ، فجرد النبى - ﷺ - عليهم حملة عادت بدون قتال ، حين علم عدم تأهبهم للزحف ، ولكن حين علم

أبوبكر بعد ذلك أنهم حرضوا القبائل العربية فى العراق والشام على غزو الحجاز حاربهم وانتصر عليهم .

وهكذا فى كل قتال بدأ فى ذلك الوقت أو بعد ذلك الوقت ، كان له سبب يمت إلى الهدف الأسمى من الجهاد ، حتى فى فتح الاندلس فى العام الثانى والتسعين من الهجرة ، فان المسلمين لم يفكروا فى فتحها إلا بعد أن استنجد أهلها بالمسلمين لتخليصهم من الظلم الاجتماعى الواقع عليهم .

إن المتأمل فى رسالة الاسلام يجد أنها رسالة سامية لا تقف عند حد الابلاغ والدعوة . . ولكن الله أراد لها أن تكون رسالة شاملة للبشر أجمعين قال تعالى :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١٨)

وقال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١٩)

---

(١٨) الأعراف ١٥٨ (١٩) سبأ ٢٨

وقال :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢٠)

وقال جل شأنه :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢١)

وبمقتضى هذا الشمول الذى تشير إليه هذه الآيات الكريمة كان لابد من إيصاله إلى الناس عن طريق الحسنى والقدوة الحسنة ، فأُرسلت الرسل والكتب إلى كافة الأرجاء ، ولكن كثيرا ممن أرسلت إليهم الكتب لم يحسنوا استقبال هذه الكتب بل إن بعضهم أساء إلى الرسل ..

إن الالتزام الدينى والأخلاقى الذى التزم به المسلمون نحو هذا الدين أوجب عليهم أن يبشروا به فى كافة أنحاء العالم رغبة منهم فى إشاعة مبادئه الكريمة التى يعمل الدين على غرسها فى النفوس ..

ولقد عبر عن هذا المعنى عالم غربى هو « ليوبولد فايس » الذى اعتنق الاسلام عن اقتناع ونظر ، وسمى نفسه « محمد أسد » وألف كتابا أسماه « الاسلام على مفترق الطرق » تحدث فيه عن الفتوح الاسلامية وقرر أنها

---

(٢٠) آل عمران ١٩

(٢١) آل عمران ٨٥

نوع من تحمل المسئولية الشخصية عند المسلم فى أن ينشر كل مبادىء العدل والكرامة حوله وأن يسعى إلى إقرار الحق وإزهاق الباطل فى كل زمان ومكان مصداقا لقوله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (٢٢)

والعبرة بالهدف من وراء هذه الحروب التى قام بها الاسلام ، فلم يكن الباعث عليها حب السيطرة أو الأنانية الاقتصادية أو القومية ، أو الطمع فى أن تزيد أسباب رفاهية المسلمين الخاصة على حساب شعب آخر ، أو إكراه غير المؤمنين على الدخول فى الاسلام ، ولكن الباعث اليها كان العمل على بناء إطار عالمى لأحسن ما يمكن أن يكون عليه السمو الروحى للانسان .

لكن السيف قد يصبح ضرورة فى بعض الأحيان قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٢٣)

وقد عبر عن هذا المعنى أمير الشعراء شوقى حيث قال فى قصيدته « نهج البردة »

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

---

(٢٢) آل عمران ١١٠

(٢٣) البقرة ١٩٠

جهل وتضليل أحلام وسفسطة غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

وإن من الشعر لحكمة كما قال الرسول الكريم ، وهذه الأبيات من الحكمة التى تخرج مخرج التجربة الصادقة فليس من شك فى أن الشر لا تجُبُّه إلا القوة ولا يقطعه إلا السيف .

أهداف الجهاد فى الإسلام

ونستطيع أن نتبين أهداف الجهاد فى الاسلام من خلال الآيات الكريمة التى نزلت فى القرآن الكريم ، ومن خلال الأحاديث النبوية الشريفة ، ومن خلال تصرفات المسلمين فى غزواتهم ولقاءاتهم بالعدو .

ومن المؤكد أن النبى - ﷺ - لم يلجأ إلى القوة فى مكة ، لأنه كان يريد إبلاغ دعوته بالمنطق والعقل ، وطريقه فى ذلك الحكمة والموعظة الحسنة كما أمره بذلك ربه .

ولكن الأمر تغير فى المدينة لأن المشركين وقفوا من المسلمين وقفة عداء سافر وتحد شديد وحاولوا أن يقطعوا الطريق على الاسلام . . لقد تحمل المسلمون الإيذاء والضيم وهم فى مكة ، لأنهم كانوا قلة لا يقدرون على دفع الأذى عن أنفسهم ، فلما أصبحوا قوة أذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم .

كان الدفاع عن النفس هو أول هدف للجهاد ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين[٢٤] »

قال القرطبى : هذه هى أول آية نزلت فى الأمر بالقتال ، ولا خلاف فى أن القتال كان محظورا قبل الهجرة .

وقد سبق أن أشرنا إلى قول آخر يفيد أن أول آية نزلت فى شأن القتال هى قوله - تعالى -

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ﴾ [٢٥]

ولكن قول القرطبى هو قول أكثر العلماء ..

وسبب نزول الآية أن النبى - ﷺ - خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة فلما نزل بالحديبية قرب مكة - صده المشركون عن البيت وأقام بالحديبية شهرا ، فصالحوه على أن يرجع من عامه هذا كما جاء ، على أن تخلى له مكة فى العام القابل ثلاثة أيام ، وعلى ألا يكون بينهما قتال لعشر سنين ، ورجع النبى - ﷺ - الى المدينة ، فلما كان العام التالى تجهز لعمرة القضاء وخاف المسلمون غدر الكفار ، وكرهوا القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام ، فنزلت هذه الآية :

---

(٢٤) البقرة ١٩٠

(٢٥) الحج ٣٩

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم »

أى يحل لكم القتال إن قاتلكم الكفار . .

والهدف الثانى من أهداف الجهاد فى الإسلام هو القضاء على الفتنة ، وقد جاء ذلك واضحا فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (٢٦)

لقد تعود المشركون أن يفتنوا المسلمين عن دينهم ، ويقفوا فى طريق نشر هذا الدين ، فاذا ارتفع سيف للدفاع عن الباطل وإقرار الظلم وتمكين الفساد ونشر الشر ، فلا بد من أن يرتفع سيف للدفاع عن الحق وإقرار العدل ، وتمكين الصلاح ونشر الخير ، وهذا السيف هو سيف الاسلام الذى يحق الحق ويبطل الباطل . فالذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت .

والهدف الثالث للجهاد الإسلامى هو نصر الضعيف والأخذ بحقه ، وإنقاذ المغلوب على أمره من براثن الباغى الظالم ، ومن بين هؤلاء الضعفاء بعض المسلمين الذين استبقاهم الكفار فى مكة ، وحالوا بينهم وبين الهجرة واللحاق بإخوانهم فى المدينة . . وقد جاء القرآن الكريم يوضح ذلك بقوله تعالى :

---

(٢٦) البقرة ١٩٣

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ
ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ (٢٧)

والهدف الرابع من أهداف الجهاد هو إقرار الحق لأصحابه وكفالته فى أن يعيش الناس حياتهم فى عزة وكرامة بعيدا عن سيطرة الظالم وعسفه وجبروته وتحكمه فى مصائرهم ، وحيلولته بينهم وبين ممارسة الحرية التى كفلها الله لهم .

وقد حاولت كل من دولتى الفرس والروم فى أيام النبى - ﷺ - ومن بعده من الخلفاء الراشدين أن يحكموا قبضتهم على العراق والشام وهما ملاصقان لدولة الإسلام الناشئة ، وأن يجعلوا من هاتين الدولتين منطقة نفوذ لهم لا يستطيع أحد من سكانها أن يعلن عن رأيه أو يمارس حريته فى العقيدة التى يريدها . وبدأوا يمارسون ألوانا من الضغط والاعتداء على المسلمين مما أجبر المسلمين على مواجهتهم والدفاع عن أنفسهم . وردع هؤلاء الحكام الظالمين .

إن كل من يعرف أهداف الجهاد فى الإسلام يدرك أن هذه الأهداف تتحقق وفق مبادىء شريفة ، وبوسائل كريمة ، وبأدوات نظيفة خالية من الحقد الأسود والغدر السيىء والفظاعة التى قد يلجأ إليها المحاربون الذين

---

(٢٧) النساء ٧٥

تسيطر على تصرفاتهم نزوات الشر ، والذين يجب أن يوضعوا فى قوائم المجرمين بدلا من وضعهم فى قوائم المحاربين الشرفاء .

لا يعرف تاريخ الحروب مبادىء أنظف ولا أشرف من مبادىء الإسلام فى حروبه ، والحرب الشريفة التى يتشدق بها البعض لم تطبق إلا فى ظل الإسلام والمسلمين .

فلم تكن أمور المعارك فى الإسلام تجرى بالقسوة والفظاعة وامتهان الإنسانية .. لقد تحلى المسلمون فى حروبهم بالشرف ، فلم يدمروا أو يخربوا ، أو يمتهنوا الإنسانية كما كان يفعل غيرهم فى تلك العصور ، أو كما يفعل غيرهم اليوم ونحن فى القرن العشرين الذى يزعم أصحابه أنهم يعيشون فى ظل مبادىء وضعتها المنظمات الدولية التى تعلى من شأن الإنسان كما يزعمون . .

ولننظر إلى الحروب السائدة الآن ولاسيما فى المناطق الإسلامية التى تعتدى عليها دول لا ترعى للضمير حرمة ولا للمبادىء ذمة ، ودعك من الدين فإن هؤلاء لا يعرفون عن الدين شيئا .

وناهيك بدول تستعمل فى حروبها ضد العزل من الشعوب أفتك أسلحة الدمار الرهيبة التى تفتقت عنها أذهان شياطين الحروب . ولا تكتفى بذلك بل تستعمل فى حروبها وسائل الإبادة الجماعية الخسيسة . . من غازات سامة ، وتسميم للآبار وإشاعة للدمار ، واستعمال أسلحة محرمة فى القتال . بالإضافة إلى ألوان من الخداع القاتل الفتاك الذى يفتك بالأطفال قبل أن يفتك بالكبار .

أين هذه الأساليب من أساليب المسلمين فى حروبهم ؟
لقد حرم الإسلام الاعتداء على الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين غير المسلمين .

حدث ابن عمر ـ رضى الله عنه قال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى فى بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك ، ونهى عن قتل النساء والصبيان .(٢٨)

وقد أوصى أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ قائده يزيد بن أبى سفيان قائلا : ـ « إنى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجرا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تغبن ، وستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له » .

ولكن لو أعاق أحد من النساء أو الرهبان المقاتلين أو اشتركوا فى القتال ضد المسلمين قوتلوا ، لأنهم يصبحون فى تلك الحالة محاربين . .

إن هذه الوصية توضح مبدأ من أهم مبادىء الجهاد فى الإسلام ، وهو حماية الممتلكات ، فلا تهدم البيوت على رءوس أصحابها كما يفعل المحاربون الآن ، ولايطرد السكان من أراضيهم وديارهم لإحلال غيرهم محلهم . كما كان يحدث وكما يحدث الآن .

---

(٢٨) تفسير القرطبى جـ٢ ص٣٤٨ وقال القرطبى : رواه الأئمة

ومن مبادىء الجهاد فى الإسلام الوفاء بالمعاهدات التى وقعها المسلمون مع غيرهم ولو كانوا مشركين . وقد جاء القرآن الكريم صريحا فى ذلك حيث يقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (٢٩)

مع ضرورة حماية من يستجير بالمسلمين من المشركين قال تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٣٠)

ومن مبادىء الجهاد فى الإسلام حسن معاملة الشعوب ، فإن الحرب فى الإسلام لم تكن موجهة للشعوب ولكنها موجهة ضد الحكام الذين يظلمون الشعوب ويحولون بينهم وبين حقوقهم وحرياتهم .

ولذلك ففى كل حروب الإسلام نرى أنه ترك أهل البلاد المفتوحة أحرارا فى بلادهم وفى ممتلكاتهم وفى عقائدهم وطقوس عبادتهم ومعابدهم ، وبلغ من دقة حرص الإسلام على ذلك ما سجله التاريخ من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ حين حضرت الصلاة وهو فى الكنيسة بالشام ـ رفض أن

---

(٢٩) التوبة ٤

(٣٠) التوبة ٦

يصلى فى داخل الكنيسة ، وصلى خارجها حتى لا يأتى المسلمون بعده ويقولوا ان هذا المكان صلى فيه عمر فيجعلوه مسجداً .

والمعاهدة التى عقدها عمر مع أهل بيت المقدس تعد مثالا رائعا فى حرية العقائد وحسن المعاملة وإقرار الأمن ورعاية الحقوق .

ومن الآداب العليا للجهاد فى الإسلام أنه يرغب فى السلام ويحرص عليه مادام العدو راغبا فى ذلك ، حتى ولو كان العدو مخادعا فى ذلك . . . مصداق ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٣١)

معطيات كلمة الجهاد فى القرآن الكريم

وردت مادة الجهاد بمشتقاتها فى القرآن الكريم إحدى وأربعين مرة مما يدل على عناية الاسلام بالجهاد ، وعلى أنه هو ذروة العمل الصالح .

وقبل أن نتتبع معطيات بعض آيات الجهاد فى القرآن الكريم . نود أن نشير إلى مدلول لفظة الجهاد فى اللغة ، لنتعرف بذلك على معانيها ومدلولاتها فى القرآن الكريم ، فنقول :

---

(٣١) الأنفال ٦١ ، ٦٢

جاء فى لسان العرب : الجهد والجهد - بفتح الجيم وضمها - الطاقة تقول : اجهد جهدك ، وقيل : الجهد - بالفتح - المشقة ، والجهد : - بضم الجيم - الطاقة .

والجهد - بالفتح - أيضا المبالغة والغاية ، وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٣٢)

وقوله - تعالى - :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٣٣)

أما الجهد - بضم الجيم - فيفيد أيضا الشىء القليل يعيش به المقل على جهد العيش ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى -

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٣٤)

---

(٣٢) الأنعام ١٠٩
(٣٣) المائدة ٥٣
(٣٤) التوبة ٧٩

ويقولون اجتهد الإنسان إذا أفرغ طاقته وجهده فيما هو مقبل عليه ، وإذا جاهد فهو كذلك قد بالغ واستفرغ مافى الوسع والطاقة من قول أو فعل فى دفع العدو .

وقد وردت كلمة (جاهد) فى القرآن الكريم بمعنى المبالغة فى حمل الإنسان على مايكره ، وبمعنى الجهاد فى سبيل الله .

فبالمعنى الأول وردت فى موضعين : أحدهما قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٣٥)

والآخر فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣٦)

ولكن غالبية هذه المادة وردت فى القرآن منصرفة إلى معنى الجهاد فى سبيل الله . من ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

---

(٣٥) العنكبوت ٨
(٣٦) لقمان ١٥

وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً
عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ
وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣٧)

لقد نزلت هذه الآيات الكريمة تبين فضل الجهاد وثوابه العظيم عند الله .. وقال العلماء فى سبب نزولها أقوالا متعددة منها :

أن العباس بن عبدالمطلب حين أسر يوم بدر قال : إن كنتم قد سبقتمونا بالإسلام والهجرة لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العانى فأنزل الله

« أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ... »(٣٨)

وجاء فى تفسير القرطبى راويا عن السدى قال : افتخر العباس بن عبدالمطلب بالسقاية ، وشيبة بن ربيعة بالعمارة ، وعلى بن أبى طالب بالإسلام والجهاد ، فصدق الله علياً وكذبهما ، وأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر وإنما تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة .

---

(٣٧) التوبة ١٩ : ٢٢
(٣٨) أسباب النزول للسيوطى ص ٩٢

قال : ويقال : إن المشركين سألوا اليهود وقالوا لهم : نحن سقاة الحجاج وعمار المسجد الحرام ، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟

فقال اليهود كراهية فى الإسلام ورسوله : أنتم أفضل .

وجاء فى صحيح مسلم عن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت عند منبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال رجل : ما أبالى ألا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ،

وقال آخر : ما أبالى ألا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام .

وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم ـ

فزجرهم عمر ـ رضى الله عنه ـ وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ـ ﷺ ـ وكان اليوم يوم جمعة ـ فإذا صليت الجمعة استفتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فيما اختلفتم فيه .

فأنزل الله ـ عز وجل ـ : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر . . . » الى آخر الآية .

وربما لم يكن هذا سبب النزول بل كان مناسبة تلا النبى ـ ﷺ ـ فيها هذه الآية وكانت قد نزلت قبل ذلك ـ لأن عجز الآية وهو قوله ـ تعالى ـ

« والله لا يهدى القوم الظالمين »

لا يتفق مع هذه المناسبة ، لأن هؤلاء القوم جميعاً كانوا مسلمين . . »[٣٩]

ومن الآيات التى نزلت فى بيان فضل الجهاد أيضا قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[٤٠]

وقوله ـ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾[٤١]

قصة نزول هذه الآية

ولهذه الآية الأخيرة مناسبة يجمل أن نذكرها :

ذكر ابن كثير فى تفسيره قال :

بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى ـ فى رجب بعد أن قفل من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد .

وكتب له كتابا ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضى لما أمره به فى هذا الكتاب ، ولا يستكره من أصحابه أحدا :

وهؤلاء الرهط كما ذكرهم ابن كثير هم :

(٣٩) راجع تفسير القرطبى فى ذلك ـ سورة التوبة ص ٢٩٣١ ط دار الشعب

(٤٠) العنكبوت ٦

(٤١) البقرة ٢١٨

عبد الله بن جحش وهو أمير القوم .

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف .

وعكاشة بن حُرثان من أسد بن خزيمة .

وعتبة بن غزوان بن جابر من بنى نوفل بن عبد مناف .

وسعد بن أبي وقاص من بنى زهرة بن كلاب .

وعامر بن ربيعة من بنى عدى بن كعب .

وواقد بن عبد الله بن عبد مناف أحد بنى تميم

وخالد بن البكير من بنى سعد بن ليث

وسهيل بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر .

وسار عبد الله بن جحش يومين ثم فتح الكتاب كما أمره بذلك رسول الله - ﷺ - وقرأ الكتاب فإذا فيه :

« إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة - بين مكة والطائف - ترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم .

فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ثم التفت إلى أصحابه وقال لهم :

قد أمرنى رسول الله - ﷺ - أن أمضى إلى نخلة بين مكة والطائف ، أرصد بها قريشا ، حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معى ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله - ﷺ -

فمضى ومضى أصحابه معه ، لم يتخلف عنه منهم أحد .

وسلك عبد الله الطرق المأمونة البعيدة عن عيون القوم حتى إذا كان بموضع يقال له : بُحْران ، ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان كانا يعتقبانه ـ يتبادلان الركوب عليه ـ فتخلفا في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ـ وهو الموضع الذى سماه لهم رسول الله ـ ﷺ ـ

فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش . . وكان يرافق العير : عمرو بن الحضرمى ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة .

فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريبا منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن حرثان ، وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمِنوا ، وقالوا : عُمّار ـ أى معتمرون يؤدون العمرة ـ لا بأس عليكم منهم .

فلما كان اليوم الأخير من رجب دارت معركة بين أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وهؤلاء النفر من قريش .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ قدد ترددوا فى قتالهم ، لأن رجب من الأشهر الحرم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ مامعهم . وقالوا هذه آخر ليلة فى رجب وربما يكون شعبان قد دخل . .

فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، وأسر

عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وأفلت نوفل بن عبد الله وعجزوا عن اللحاق به .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله - ﷺ - المدينة .

فلما قدموا قال رسول الله - ﷺ - : ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام . فوقّف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا . وكان عبد الله قد عزل الخمس من الغنيمة لرسول الله - ﷺ - وقسم الباقى بين أصحابه . فلما قال رسول الله - ﷺ - ذلك ، ورفض أن يأخذ من الغنيمة شيئا أسقط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا .

وانتهزتها قريش فرصة فشنّعوا على المسلمين ، وقالوا : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

وكان فى مكة من المسلمين رجال ، فأخذوا يردون على المشركين قائلين : إنما أصابوا ماأصابوا فى شعبان وليس فى رجب .

ولما أكثر الناس القول حول ذلك الحادث ، أنزل الله على رسوله - ﷺ - قوله تعالى :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل . . . . »

ولما نزلت هذه الآية فرج الله عن المسلمين ماكانوا فيه من الضيق والحرج . .

وبعثت قريش فى فداء أسيريها ، فقال النبى - ﷺ - لانتركهما حتى يقدم صاحبانا سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ، فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم .

فقدم سعد وعتبة ، فترك النبى - ﷺ - ، الأسيرين . .

فأما الحكم بن كيسان وهو أحد الأسيرين فقد أسلم وحسن إسلامه ، ورفض العودة الى مكة ، وأقام مع النبى - ﷺ - بالمدينة ، واستشهد يوم بئر معونة .

وأما عثمان بن عبد الله بن المغيرة فلحق بمكة ، ومات بها كافراً .

قيل : ولما انجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ماكانوا فيه حين نزل القرآن ، طمعوا فى الأجر ، فقالوا : يارسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل . .

« إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء .

وقد سجل الشعر - كعادته - هذا الحدث حين قال المشركون ماقالوا من أن محمدا وأصحابه أحلوا الشهر الحرام ، ونزل القرآن الكريم ينعى على المشركين قولهم : فقال أبو بكر الصديق ، أو عبد الله بن جحش نفسه :

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد وكفر به والله راءٍ وشاهد
واخراجكم من مسجد الله أهله لئلا يُرَى لله فى البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالاسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمى رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما وابن عبد الله عثمان بيننا ينازعه غُلٌّ من القد عاند[42]

ومن الآيات الواردة فى فضل الجهاد - أيضا - قوله تعالى -

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[43]

وتبين هذه الآيات أن الجهاد والصبر عليه شرط من أهم شروط دخول الجنة .

وذلك من علامات الإيمان مصداقا لقوله - تعالى -

---

(٤٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٧٠
(٤٣) آل عمران ١٤٢

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾ (٤٤)

ونظير ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾ (٤٥)

ومعنى الآية : كيف تتركون أن تقولوا آمنا دون أن تمتحنوا بالجهاد لنرى أتصبرون عليه أم لا ؟

والوليجة هى البطانة التى نهوا عن اتخاذها فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨ ﴾ (٤٦)

والجهاد دليل من أدلة صدق المؤمن فى إيمانه ـ قال تعالى :

---

(٤٤) العنكبوت ٢

(٤٥) التوبة ١٦

(٤٦) آل عمران ١١٨

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٤٧)

والجهاد سبب من أسباب غفران الذنوب ، قال ـ تعالى ـ

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَٰهَدُوا وَصَبَرُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (٤٨)

وهذه الآية تخبرنا عن قوم كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم استطاع القوم أن يفتنوهم ، ثم إنهم بعد ذلك أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا فى سلك المؤمنين وجاهدوا الكافرين وصبروا فغفر الله لهم ذنوبهم التى علقت بهم باستجابتهم لفتنة الكفار .

إن الرسول ـ ﷺ ـ هو إمام المجاهدين ، وهو وأصحابه قدوة لنا فى الجهاد ، وقد أثنى الحق سبحانه وتعالى عليهم فى قوله : ـ

﴿ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ

---

(٤٧) الأنفال ٧٤
(٤٨) النحل ١١٠

﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٤٩)

إن لفظة « لكن » فى أول الآية السابقة ـ استدراك يبين فضل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الذين لبوا دعوة الجهاد مسرعين ، ولم يتخلفوا مع المتخلفين فى غزوة تبوك ، الذين قالوا لأصحابهم : لا تنفروا فى الحر . . ولو كانوا يفقهون لعلموا أن نار جهنم أشد حراً . . إن القعُود عن الجهاد هو من علامات النفاق ، وقد فضح القرآن الكريم المنافقين فى قوله

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٥٠)

وفى قوله

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٥١)

ولأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو القدوة فى الجهاد فقد أُمِرَ به أولاً ، والأمر إليه موجه إلى أمته بالتبعية ـ قال تعالى

---

(٤٩) التوبة ٨٨ ، ٨٩
(٥٠) التوبة ٨٦
(٥١) التوبة ٨١

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ
جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ
جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾ (٥٢)

لقد قرن الله المنافقين مع الكفار فى وجوب جهادهم ، لما يترتب على أفعالهم من خطورة فى شق عصا المؤمنين ، وتفريق كلمتهم ، وإضعاف شوكتهم ، وهم كذلك فى كل زمان ومكان .

والجهاد خير تجارة مع الله قال تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (٥٣)

هى تجارة رابحة كما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ
ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ
حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ

---

(٥٢) التوبة ٧٣ ، التحريم ٩
(٥٣) الصف ١٠ ، ١١

﴿... مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ (٥٤)

روى ابن كثير فى تفسيره قال : قال محمد بن كعب القرظى وغيره : قال عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيعة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت يا رسول الله ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم .

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال : الجنة إن شاء الله . .

قالوا : ربح البيع ربح البيع ، فنزلت هذه الآية .

« وإذا كان الجهاد يغفر الذنوب ويستوجب الجنة ، فهو أيضاً طريق للهداية قال ـ تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ (٥٥)

ما قاله العلماء فى تفسير هذه الآية

قال القرطبى فى تفسير هذه الآية : الجهاد هنا هو جهاد الكفار . أى جاهدوا الكفار فى مرضاتنا .

---

(٥٤) التوبة ١١١

(٥٥) العنكبوت ٦٩

ولكن السدى يقول : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال ، ولذا فإن الجهاد فيها لا يحمل على القتال ، وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته .

وقال الحسن : هذه الآية وردت فى حق العُبَّاد ، وقال ابن عباس ، وإبراهيم بن أدهم : هى فى العلماء الذين يعملون بما يعلمون ، وقال - صلى الله عليه وسلم -: « من عمل بما علم علمه الله علم ما لم يعلم » قال تعالى :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ (٥٦)

ولعمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - ميل إلى هذا المعنى فقد قال : إنما قصَّرَ بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا قال الله - تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

---

(٥٦) البقرة ٢٨٢

وليس هناك ما يمنع من حمل الجهاد فى الآية على ذلك كله . .

قال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين وقمع الظالمين ، وأعظمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله وهو الجهاد الأكبر .

والجهاد الأكبر يقصد به تربية النفس وتهذيبها وتخليصها من عاداتها السيئة وصفاتها المذمومة ، وحملها على الطاعات والقربات حتى ترتقى إلى أعلى المقامات .

وأطلق على تهذيب النفس لفظ الجهاد ، لأن النفس أعدى عدو لصاحبها ، والقرآن الكريم يقول فى ذلك

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾

---

(٥٧) يوسف

والبوصيرى يقول فى بردته فى معرض نصائحه :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

ذكر القتال فى القرآن

وإذا كان لفظ الجهاد قد ورد فى القرآن فيما يقرب من ثلاثين موضعاً ـ ذكرنا بعضها ـ فإن لفظ القتال فى سبيل الله قد ورد فى القرآن كذلك فى مواضع كثيرة منها غير ما ذكرناه فيما سبق قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾[58]

وقد قال بعض العلماء فى هذه الآية : إنها متعلقة بقوله ـ تعالى ـ

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾[59]

أى من أجل هذا الأجر العظيم فقاتل .

لقد أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الآية بالجهاد

---

(٥٨) النساء ٨٤

(٥٩) النساء ٧٤

ولو كان وحده ، كما أمره أن يشجع المؤمنين ويحثهم على القتال لردع العدوان ونصرة الدين .

ولهذا يجب على المؤمنين الجهاد ، لأن الأمر فى الآية وإن كان موجهاً للنبى - صلى الله عليه وسلم - فهو موجه كذلك لأمته . يفيد ذلك قوله « وحرض المؤمنين » . ومن ذلك قول النبى - صلى الله عليه وسلم - « والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتى » وقد قال هذه العبارة يوم الحديبية ، وذلك حين حالت قريش بينه وبين دخول مكة وكان قد عزم على الذهاب إليها معتمراً . . وبلغه أن قريشا قد جمعت جموعها له فقال : « يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين - أى مكتملى القوة - ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يُظهره أو تنفرد هذه السالفة » .

ومن آيات القتال قوله تعالى :

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ ﴾

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ
ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ
أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ
بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (٦٠)

وقد ذكر فى سبب نزول تلك الآيات . أن قريشاً حين عاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد صلح الحديبية بسنة ـ لأداء العمرة ـ هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة ، ونقضوا عهدهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاعتدوا على قبيلة خزاعة التى كانت فى حلف مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل قوله تعالى :

« فقاتلوا أئمة الكفر »

وأبرّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعين حلفاءه . وفى البخارى

---

(٦٠) التوبة ١٢ : ١٥

عن زيد بن وهب قال : كنا عند حذيفة فقال : ما بقى من أصحاب هذه الآية « يعنى « أئمة الكفر » إلا ثلاثة ، ولا بقى من المنافقين إلا أربعة(٦١) . .

ثم لم تلبث أن انطوت صفحة النفاق والكفر .

النفار بمعنى الجهاد

ورد فى القرآن الكريم لفظ النفار بمعنى الدعوة للجهاد ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ (٦٢)

ومعنى انفروا : انهضوا لقتال عدوكم ، يقال : استنفر الإمام الناس دعاهم إلى النَّفْر ـ أى الخروج إلى قتال العدو ، والنفير اسم للقوم الذين ينفرون ، وأصله من النفار والنفور وهو الفزع ، ومنه قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ (٦٣)

---

(٦١) أنظر تفسير القرطبى سورة التوبة ص ٢٩٢٤ ط دار الشعب

(٦٢) النساء ٧١

(٦٣) الإسراء ٤٦

أى نافرين فزعين .

والنَّفَرَ : عدة من الرجال بين الثلاثة إلى العشرة .

أما الثُّبات بضم الثاء فهو جمع ثُبَة بمعنى الجماعة ، والثبات الجماعات ويعنى بها السرايا جمع سرية .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٦٤)

وقوله :

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (٦٥)

---

(٦٤) التوبة ٣٨ ، ٣٩

(٦٥) التوبة ٤١

وقد نزلت هذه الآيات فى غزوة تبوك ـ حين دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس إليها فى حرارة القيظ ، وفى الوقت الذى يحب الناس فيه الركون إلى رطيب الثمار وبرد الظلال ، فاستولى على الناس الكسل فتقاعسوا وتثاقلوا . . فعاب الله عليهم إيثارهم الدنيا على الآخرة . .

وكما يكون النفار للجهاد بقتال العدو ، فقد يكون النفار للجهاد بطلب العلم وتعليمه ، لأن وجوه الجهاد متعددة كما سيأتى . قال تعالى

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٦٦)

وفى ذلك دليل على أن طلب العلم وتعليمه من أفضل أنواع الجهاد .

أنواع الجهاد

والجهاد فى سبيل الله له أنواع متعددة .

فمنه الجهاد بالنفس ، والمشاركة فى القتال ولقاء العدو ، وهذا يقتضى الاستعداد له بكل أوجه الاستعداد . من تدرب على استعمال السلاح ، ومتابعة تطوره ، ومعرفة طرق العدو فى قتاله وكيفية الرد عليه ومحاورته ومناورته ، والمعرفة الدقيقة بأماكن العدو وتجمعاته واستعداداته ، وقد أشار القرآن الكريم لذلك بقوله

---

(٦٦) التوبة ١٢٢

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٦٧)

وربما أوضح النبى - صلى الله عليه وسلم - طرفا من هذه القوة التى أمر الله المسلمين بإعدادها للعدو ، وهو مما كان سائداً فى عصره فقال وهو على المنبر - فيما يرويه عقبة بن عامر وأورده مسلم فى صحيحه - « وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة . . ألا ان القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى »

وقال - صلى الله عليه وسلم - « كل شىء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتعليمه فرسه وملاعبته أهله فإنه من الحق »

ومعنى هذا فيما يفسره القرطبى : أن كل ما يتلهى به الرجل مما لا يفيده فى العاجل ولا فى الآجل فائدة - فهو باطل والاعراض عنه أولى . .

أما هذه الأمور الثلاثة فإنه وإن كان يفعلها على أنه يتلهى بها وينشط ، فإنها حق لا تصالها بما قد يفيد ، فإن الرمى بالقوس وتعليم الفرس فيه

---

(٦٧) الأنفال ٦٠

تدريب على القتال ، وملاعبة الأهل فيها الوئام والحب والسرور ، فلهذا كانت هذه الثلاثة من الحق .

وقد اهتم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرمى لأنه كان وسيلة الحرب السائدة حتى لقد قال تشجيعاً على ذلك : « إن الله يدّخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد : صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى ، ومُنبله » وهذا إذا استعمل لنصرة دين الله ، وإحقاق الحق الذى أمر به .

ويقاس على ذلك كل وسيلة تجدُّ ويكون لها أثر فى كسب المعركة ، فإن الأمر بها داخل تحت قوله ـ تعالى ـ
« وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة »

وقوله : ومن رباط الخيل يفيد مزيد العناية بما له تأثير خاص فى إدارة المعركة وحسمها ، وقد كانت الخيل قديماً لها ذلك التأثير ، ويقاس عليها الطائرات فى عصرنا الراهن ، كما يقاس عليها كل وسيلة حربية تُجِدُّ ، ويكون لها التأثير القوى فى كسب المعارك .

ويدخل تحت أنواع الجهاد بالنفس ـ المشجعون والمحفزون والمهيئون لنفوس الجنود ، والمثبطون لجنود العدو بما يملكونه من طاقات إبداعية فى فن الاعلام ، أو غير ذلك مما يكون له تأثير طيب فى نفوس جنودنا ، وتأثير مضاد فى نفوس أعدائنا . .

ومن أنواع الجهاد - الجهاد بالمال - وقد نص القرآن الكريم عليه فى مواضع متعددة منها قوله - تعالى -

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)﴾ (٦٨)

وقوله - تعالى -

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾ (٦٩)

---

(٦٨) الصف ١٠ ، ١١

(٦٩) التوبة ١١١

إن المال لا يقل أهمية عن النفس فى بعض الأحيان ، بل ربما فاق الجهاد بالنفس وذلك حين يعوزنا المال لشراء السلاح وإنشاء المصانع وإعداد الوسائل وملاحقة التطور وغير ذلك . .

ومن أنواع الجهاد العلم والتعلم لأن من شأن ذلك تقدم المسلمين ورفعة شأنهم وتمكينهم من الغلبة على عدوهم - قال تعالى -

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٧٠)

وفى الأثر : « يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء يوم القيامة »

وذكر القرطبى فى تفسيره قول ابن عباس - رضى الله عنهما : « أفضل الجهاد من بنى مسجداً يعلم فيه القرآن والسنة .

وقال روى شُريك عن ليث بن أبى سليم عن يحيى بن أبى كثير عن على الأزدى قال : أردت الجهاد فقال لى ابن عباس : ألا أدلك على ما هو خير لك تأتى مسجداً فتقرىء الناس فيه القرآن وتعلمهم الفقه فى الدين .

من جهاد العلماء

وأحق الناس بالجهاد هم العلماء ، لأنهم الذين عرفوا فضل الجهاد ورووا

---

(٧٠) التوبة ١٢٢

ما ورد فيه من آثار . . فهم فضلاً عن أن طلبهم العلم جهاد ، وتعليمهم العلم جهاد إلا أنهم كثيراً ما جمعوا بين ذلك وبين الجهاد فى ميادين الحرب . . يدفعون الاعداء ويرفعون كلمة الله ويذكرون الناس بواجبهم . . .

ولقد تحدث العلماء كثيراً فى فضيلة كل من العلم والجهاد ، ووازنوا بين العالم والمجاهد ، واتفقوا على أفضلية كل منهما ، وأن كليهما له من الفضل ما يرفع من قدره فى الدنيا والآخرة بشرط أن يكون العمل فيهما خالصاً لوجه الله .

عبدالله بن المبارك

ومن العلماء المجاهدين الذين جمعوا بين فضيلتى العلم والجهاد عبدالله بن المبارك ، وهو من متقدمى السلف الصالح ، من التابعين ، كان مشهوداً له بالعلم والرواية ، وله حلقة من حلقات العلم يحضرها التلاميذ والمحبون للعلم . وكان معاصراً له الفضيل بن عياض الفقيه المحدث .

ومن صفات عبدالله بن المبارك إلى جانب علمه الغزير أنه كان يأكل من تجارته التى يكسب منها ثم يعود بعد ذلك وينفق باقى ما يكسبه على أهل العلم والمحتاجين .

قال عنه سفيان بن عيينة : نظرت فى أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلونه إلا بصحبتهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قدم مرة « الرَّقَّة » ـ اسم مدينة ـ وبها هارون الرشيد ، فاحتفل الناس به

وتركوا هارون الرشيد ، وأشرفت أم ولد للرشيد من قصرها فرأت الناس يزدحمون حوله . فقالت : ما للناس ؟

فقالوا لها : عالم خراسان عبدالله بن المبارك . جاء فاجتمع الناس إليه .

فقالت : هذا والله هو المُلْك .

هذا العالم الجليل كان يحب الجهاد فى ميادين الحرب . ومن شعره الذى يتحدث فيه عن عظمة الجهاد ، ويعلى قدر المجاهد على قدر العابد الذى ترك الجهاد ـ قوله :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا … لعلمت أنك فى الجهالة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه … فنحورنا بدمائنا تتخضب
ريح العبير بكم ونحن عبيرنا … وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا … قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى … أنف أمرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا … ليس الشهيد بميت لا يكذب

ولما سمع فُضَيْل بن عياض هذا الشعر وهو فى المسجد الحرام قال : صدق والله أبو عبدالرحمن . وذكر لمن أنشده هذه الأبيات حديث رسول الله ﷺ الذى رواه أبو هريرة : إن رجلاً قال : يارسول الله ، علمنى عملاً أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر ، وتصوم فلا تفطر ؟

فقال : يارسول الله ، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك .

فقال النبى ﷺ : ولو طقت ذلك ما بلغت المجاهدين فى سبيل الله .

أسد بن الفرات

ولنقلب معاً صفحات التاريخ لنعثر على سيرة الفقيه البطل أسد بن الفرات فى طليعة المجاهدين الذين جمعوا بين فضيلة الجهاد فى العلم والجهاد فى الغزو .

وقد نشأ هذا الفقيه فى المغرب ورحل فى طلب العلم إلى الحجاز ، حيث التقى بالإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ ثم ارتحل إلى العراق ومصر ، وكان له أثر كبير فى نشر مذهب الإمام مالك فى « القيروان » التى استقر بها أخيراً ، وكانت له حلقة كبيرة يجتمع إليه فيها التلاميذ من كل مكان ، وفى يوم كان يفسر قوله تعالى :

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ (٧١)

فأخذت الآية بأقطار نفسه ولم يطق صبراً على البقاء بعيداً عن ساحة القتال وكان المسلمون يجاهدون الروم ، فركب إحدى سفن الجنود إلى صقلية مع المجاهدين .

وكان قد بلغ من العمر نيفاً وسبعين .

وأخذ يخطب فى الجنود يحثهم على القتال ، وكان لخطبته أبلغ الأثر فى كسب المعركة ، وانضمت صقلية إلى قلاع الإسلام .

---

(٧١) التوبة ٤١

الشجاعة الأدبية

ومن أنواع الجهاد كلمة الحق التى يجهر بها صاحبها لا يخشى فى سبيل الجهر بها لومة لائم . وقد ورد فى الأثر : الساكت على الحق شيطان أخرس .

وقد برز فى هذا الميدان كثير من العلماء الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وضحوا بأرواحهم فى سبيل كلمة الحق والدفاع عن المظلوم وكف الظالم عن ظلمه .

وفى الأثر الكريم إن « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

فضل الجهاد

وغنى عن القول بيان فضل الجهاد . . . فبه يعز الإسلام ويرتفع شأن المسلمين ، وتتوطد كلمة الدين ، ويكفى فى بيان فضله قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمعاذ بن جبل : ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟

قال : بلى يارسول الله .

قال : رأس الأمر الإسلام ـ وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد .

وقد فضل الله المجاهدين على غيرهم وقال فى محكم كتابه :

﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ

﴿ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦ ﴾ (٧٢)

وَرُوِى حول هذه الآية عن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت إلى جنب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغشيته السكينة ، فَوَقَعتْ فخذ رسول الله ﷺ على فخذى ، فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سُرِّىَ عنه فقال : اكتب ، فكتبت فى كتف : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » إلى آخر الآية .

فقام عبدالله بن أم مكتوم ، وكان رجلاً أعمى لما سمع فضيلة المجاهدين فقال : يارسول الله ، فكيف من لا يستطيع الجهاد من المؤمنين ؟

فلما قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة ، ثم سرى عنه فقال : اقرأ يازيد فقرأت : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » فقال رسول الله ﷺ : « غير أولى الضرر » الآية . .

قال زيد : فأنزلها الله وحدها فألحقتها ، والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع فى كتف . .

وأهل الضرر هم أهل الأعذار الذين لا يستطيعون الجهاد وقد رفع الله عنهم الحرج بقوله تعالى :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ

---

(٧٢) النساء ٩٥ ، ٩٦

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (٧٣)

وقـــوله تعالى :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٧٤)

ويكفى فى فضل الجهاد أن الله جعله من أعظم التجارة ربحاً مع الله سبحانه وتعالى ، وجعل جزاءه الجنة بغير حساب ، وجعل الشهيد حياً يرزق عند ربه لأنه ضحى بروحه فى سبيل الله : « والجود بالنفس أقصى غاية الجود »

وقد أظهر الله سبحانه وتعالى فضل الشهيد بقوله تعالى :

---

(٧٣) الفتح ١٧

(٧٤) التوبة ٩١ : ٩٣

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (٧٥)

وقـــال :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (٧٦)

قال ابن كثير فى تفسيره : إن الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء فى صحيح مسلم ـ أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فأطلع عليهم رب العزة ، فقال : ماذا تبغون ؟

فقالوا : ياربنا ، وأى شيء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟

وذكر أنهم يقولون : نريد العودة إلى الدار الدنيا ، فنقاتل فى سبيل الله ، حتى نقتل مرة أخرى ، ثم نعود ونقاتل حتى نقتل مرة أخرى .

---

(٧٥) البقرة ١٥٤

(٧٦) آل عمران ١٦٩ : ١٧١

وهكذا لما يرون من ثواب الشهادة ، فيقول الله جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

وروى القرطبى فى تفسيره قال : قال الشهداء : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا يتخلفوا عند الحرب ؟

فأنزل الله سبحانه : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً . . . . » إلى آخر الآيات . .

وعن جابر - رضى الله عنه - قال : لقينى رسول الله ﷺ

فقال : ياجابر مالى أراك منكساً مهتماً ؟

قلت : يارسول الله ، استشهد أبى وترك عيالاً ، وعليه دين .

فقال : ألا أبشرك بما يلقاه الشهداء

قلت : بلى ، يارسول الله .

قال : إن الله يقول لهم : تمنوا أعطكم . .

فيقولون ياربنا نرد إلى الدنيا فنقتل فى سبيلك مرة ثانية . .

فيقول - تبارك وتعالى - : إنه قد سبق منى - أنهم إليها لا يرجعون ،

فيقولون : ليت إخواننا يعلمون ذلك .

فأنزل الله - عز وجل - « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله . . . . » الآية

ذلك فضل الجهاد والاستشهاد نذكره للمسلمين فى وقتنا الحاضر هؤلاء الذين نكصوا عن الجهاد ، مع أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة ، وحال المسلمين اليوم يستصرخهم أن يلبوا داعى الجهاد ليرفعوا شأن دينهم ، ويعودوا إلى سابق عزهم ومجدهم ويردوا عن أنفسهم كيد الكائدين ، وبغى الباغين وطمع الطامعين . .

متطلبات الجهاد

وإذا كان الجهاد بهذا الفضل العظيم ، وله ذلك الثواب الجزيل فإن له متطلبات تناسب هذا العمل الجليل . .

وقد وضع النبى - صلى الله عليه وسلم - بإعتباره القائد الأعلى للمسلمين المنهج الكامل لهذه المتطلبات . وكانت مدرسته التى بدأها فى مكة ثم أرسى دعائمها فى المدينة المنورة تعمل على تنشئة المجاهدين على النمط المثالى الذى يحقق الأهداف المثالية .

فقد تعلم المسلمون من رسول الله ﷺ كيف يكون الجهاد وكيف يكون الاستعداد.؟

وقد كانت قيادته - صلى الله عليه وسلم - لجنوده مثالاً يحتذى ونموذجاً فريداً فى حسن القيادة والجندية معاً . .

النبى القائد

لقد تلقى المسلمون الأوائل على يد قائدهم ونبيهم - صلى الله عليه وسلم - كل المبادىء السليمة لتكوين الجندى المثالى .

هذه المبادىء التى تجتهدُ المؤسسات العسكرية فى العصور المتوالية محاولة الوصول إليها دون جدوى .

وليس من شك فى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قمة فى حسن القيادة والتدبير وحنكة الرأى ونفاذ البصيرة ودقة التخطيط وحسن الإستشارة .

درب جنوده فأحسن تدريبهم ، ورباهم على أحسن ما يكون الجندى الفطن الكفء المتيقظ الفدائى الذى لا يأبه بالعقبات ، ولا يكترث للصعاب ، ولا تثنى عزمه المتاعب والحواجز .

كان النبى ﷺ : « نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة ـ يعلم من فنونها بالإلهام مالم يعلمه غيره بالدرس والمران ، ويصيب فى اختيار وقته وتنظيم جيوشه ورسم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة . . . وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والإنشاء ؛ لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة المجرب كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام . . . ولو تتبع حروبه ـ عليه السلام ـ ناقد عسكرى من أساطين وقواد الحرب فى العصر الحديث ليقترح وراءه خططاً غير خططه أو ينبه إلى خطأ ، لأعياه التعديل ولعجز عن التبديل (٧٧)

---

(٧٧) انظر عبقرية محمد للعقاد

ولقد خاض النبى ﷺ كثيراً من الغزوات فى مقدمتها غزوة بدر وآخراها غزوة تبوك ، وسوف نعرض لذلك بالتفصيل إن شاء الله - تعالى - وفى كل هذه المواقع كانت عظمته وحسن قيادته مضرب الأمثال ، وكانت فراسته وصدق رأيه فوق كل متناول لأنهما موصولان بسبب إلى السماء حيث قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾ (٧٨)

ولقد تخرج فى مدرسة النبى ﷺ كثير من القادة والجنود البارعين وحسبنا أن نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر - على بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وزيد بن حارثة ، وأسامة بن زيد ، والمثنى بن حارثة ، والمقداد بن الأسود ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد الذى أكسبته مدرسة النبى ﷺ صقلاً وتوجيهاً ودراية وكفاءة . . وكثير غير هؤلاء ممن كانوا فى براعتهم الحربية ومقدرتهم القتالية قدوة طيبة ومثلاً يحتذى . .

الأسس التى قامت عليها التربية العسكرية فى الإسلام

(١) قامت التربية العسكرية الإسلامية على قوة العقيدة ، فلا هدف يمكن تحقيقه دون أن تكون وراءه عقيدة تدفع إليه .

وقد وطد الإسلام عقيدته فى النفوس عن طريق العبادات والشعائر وعن طريق القدوة الطيبة التى رآها المسلمون الأوائل فى نبيهم الكريم . . وقوة العقيدة كما يعززها العمل وتغذيها القدوة يحرسها العلم وينميها ، فتصبح

(٧٨) النجم ٣

لها ثمار ناضجة شهية تظهر فى الاطمئنان الروحى والنفسى وفى الإقبال على أداء العمل بهمة لا تعرف الملل ، ونشاط لا يعتريه الكسل .

والعقيدة القوية هى التى أوجبت على المسلمين الجهاد لأنهم رأوا أن عليهم واجباً يجب أداؤه نحو مجتمعهم يتمثل فى هداية الناس وإرشادهم وإنقاذهم من حمأة الرذيلة والشرك اللذين يتردى فيهما المجتمع . . وكانوا لا يبالون فى سبيل أداء ذلك الواجب بما يلاقونه من أذى لأن عقيدتهم تبين وتؤكد لهم أن الاستشهاد فى سبيل ذلك ثمنه الجنة . .

ويتصل بقوة العقيدة تربية الإرادة التى يطلق عليها بأسلوب العسكرية الحديثة « قوة الانضباط » فتربية الإرادة تحتم على المؤمن أن يتحدى الصعاب ويتخطى الشدائد ويربى نفسه على أسس سليمة من الحرية والكرامة ، حيث لا يستشعر أمامه قوة يخشى بأسها سوى قوة الله القهار . . فمن وصايا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ما نفعوك ألا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك »

وهذا واضح فى قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٧٩)

---

(٧٩) المائدة ٤٤

وفى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه » وهذه هى الشجاعة الأدبية التى أشرنا إليها قبل ذلك . .

ومتى تغلغلت هذه المبادىء فى نفس إنسان هانت الدنيا فى نظره وأقبل على الله بشوق وحب شديدين . .

(٢) حسن القيادة من القائد وحسن الطاعة من الجنود

ربى الإسلام أبناءه على حسن القيادة ، وحسن اختيار القائد وطاعة القائد الذى يولى عليهم مهما كانت سنه . . وأمامنا فى ذلك أمثلة كثيرة نختار منها مثالين :

أحدهما اختيار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسامة بن زيد قائداً عاماً للجيش المعروف بجيش أسامة ، الذى كونه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل وفاته بقليل ، وأكمل إنفاذه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ

وقد كان فى هذا الجيش من هو أكبر وأسن من أسامة من أمثال عمر وعثمان وغيرهما .

ولكن النبى ﷺ أراد أن يعلم أصحابه وجوب طاعة القائد الذى يعين مادامت عنده القدرة على مواجهة الموقف مهما كانت سنه . .

وتوفى الرسول ﷺ قبل خروج هذا الجيش فطلب بعض الصحابة من أبى بكر تغيير القائد لصغر سنه بقائد أكبر منه سناً . فرفض أبو بكر قائلاً : أيوليه الرسول ﷺ وأنا أعزله ؟

ومشى يودع الجيش بنفسه راجلاً وأسامة على فرسه . وقال أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركبنَّ أو لأنزلن . فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه :

والله لا أركب ولا تنزل . وماعلى أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة .

وبذلك أراد أبو بكر أن يضع أمام المسلمين مثلاً فى احترام القائد على الرغم من صغر سنه .

ثم أعقب هذا المثل بمثل آخر هو استئذانه أسامة فى أن يترك له عمر بن الخطاب يعينه على الحكم ويستفيد برأيه . فقال لأسامة : إن أردت أن تعيننى بعمر فافعل . وكان عمر جندياً فى جيش أسامة .

وكان بوسع أبى بكر أن يستبقيه دون أن يستأذن أسامة ، ولكنه أمام قيم يريد أن يوطدها ، ويلفت الأنظار إليها .

أما المثال الثانى ، فنأخذه من خالد بن الوليد ، فقد كان على حداثة سنه موضع تقدير من النبى صلى الله عليه وسلم ـ لأنه عرف أقصى مستطاعه قبل أن تظهر جميع كوامن قدرته وكفاءته ، وسماه سيف الله ، وبينه وبين الوقائع التى استحق أن يأخذ بها هذا اللقب الجليل بضع سنوات ، فقد لقبه بذلك وهو عائد من غزوة مؤتة بعد أن نجح فى خطته التى أمّن فيها انسحاب المسلمين بسلام قبل أن يستحكم الخطر المحدق بهم فيقضى عليهم ، وهذا هو الفرق بين تقدير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقادته وتقدير غيره من الزعماء والحكام لقوادهم .

وهذا مثل من النبى الكريم الملهم ، الذى ينظر ببصيرة نافذة من وراء الغيب إلى رجاله وتلاميذه ، فيقدرهم حق قدرهم . .

وفى توجيهات الرسول ﷺ نجد شواهد متعددة لذلك ، فنراه يقول :

« إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم »

كما أوصى أن يكون القائد كفئاً محبوباً فقال : « أيما رجل أمَّ قوماً وهم له كارهون لم تجاوز صلاته أذنيه »

وفى حسن طاعة الجنود لأميرهم ضمان لنجاح المهمة التى وكلت إليهم . . . ويتصل بالطاعة التعاون والائتلاف ـ وقد أوصى القرآن بضرورة الائتلاف والتعاون فقال :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ﴾ (٨٠)

وحذر من الاختلاف فقال :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾ (٨١)

وإذا كان التعاون فى السلام ضرورة فهو فى القتال ضرورة أشد قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ (٨٢)

(٣) التدريب والاستعداد

مما يروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يدعو أصحابه إلى

---

(٨٠) المائدة ٢

(٨١) الأنفال ٤٦ (٨٢) الصف ٤

الرياضة لما فيها من حسن إعداد الجسم والنفس للقتال والتنشيط فى الحروب . روى أبو بكر بن عبدالله عن النبى ﷺ قال « علموا أبناءكم السباحة والرماية ، ونعم لهو المرأة المؤمنة فى بيتها المغزل ، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك »(٨٣)

وكان - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى الخشونة وعدم الاستكانة إلى النعمة والترف والراحة والدعة .

كما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : علموا أولادكم السباحة والرماية ومروهم فليثبوا على ظهور الخيل وثباً ، ورووهم ما عذب من الشعر .

وقد مرت بنا الآية الكريمة التى تأمر بإعداد القوة للعدو . .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾(٨٤)

وتنكير كلمة « قوة » لاستيفاء كل وسائل القوة الممكنة مادية كانت أو معنوية ، تقليدية أو متطورة .

والتدريب يقتضى المران المستمر ، وعدم الاهمال فى ممارسة الفنون التى يتعلمها الجندى قال عليه الصلاة والسلام « من تعلم القرآن ونسيه فليس

---

(٨٣) أسد الغابة جـ ٤ ص ٢٤١

(٨٤) الأنفال ٦٠

منا ، ومن تعلم الرمى ونسيه فليس منا »

والتدريب يقتضى اليقظة الكاملة ، وهو يتطور حسب الأزمنة والأمكنة وتطور الأسلحة ، حتى يتمكن الجندى من استيعاب السلاح الذى يتدرب عليه . وحتى يصبح استعماله فى يده تلقائياً ، وهذا لا يتأتى إلا بالإستمرار وعدم التوقف ، وقد أمرنا الله بأخذ الحذر فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ۝٧١ ﴾ (٨٥)

وقد امتدح النبى ﷺ الجندى الصادق المستعد لتلبية النداء فور صدور الأمر إليه فقال : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها »

(٤) التضحية والاستبسال وإنكار الذات

ومن المبادىء التى تعتنى بها التربية العسكرية الاسلامية ـ إنكار الذات والتضحية ، وقد ظهر ذلك واضحاً فى جميع معارك الإسلام ، وكان النبى ﷺ يحض أصحابه على التضحية والشهادة ، وقد خاضوا معاركهم على ذلك ، ففى غزوة بدر الكبرى ، وقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحرض أصحابه على القتال قائلاً : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم ـ أى الكفار ـ اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

---

(٨٥) النساء ٧١

فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة ـ وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل ، وكان ينشد :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد إن التقى من أعظم السداد

.. وعن شداد بن الهاد أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه ، ثم قال : أجاهد معك . فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة غنم فيها النبي ﷺ فقسم وقسم له ـ ثم أعطى ما قسمه له لأصحابه ـ لأن الرجل كان يرعى ظهرهم ـ فلما رفع أصحابه إليه نصيبه قال : ماهذا ؟

قالوا : قسم قسمه لك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فأخذه وجاء به إلى النبي ﷺ فقال : ما هذا يارسول الله ؟

قال : قسم قسمته لك .

قال الرجل : ماعلى هذا اتبعتك يارسول الله ، ولكن اتبعتك على أن أقاتل فأرمى هاهنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأموت فأدخل الجنة .

فقال النبي ﷺ إن تصدق الله يصدقك .

فلبثوا قليلاً ، ثم نهضوا في قتال العدو ، فلم يمض وقت إلا وجيء بالرجل إلى النبي ﷺ محمولاً وقد أصابه سهم حيث أشار ..

فقال النبي ﷺ أهو هو ؟

قالوا : نعم ..

قال : صدق الله فصدقه .

ثم كفنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جبة له ، ثم قدمه فصلى عليه ، فكان مما قال فى صلاته : اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك فقُتل شهيدا ، وأنا شهيد على ذلك (٨٦)

وأما إنكار الذات فقد ظهر واضحاً بين قوم عرفوا بالإيثار والتضحية والفرار من الشهرة والصيت . . ففى إحدى الغزوات دعا القائد الإسلامى عمرو بن العاص جنوده إلى عملية فدائية يقوم من يتطوعون لها بنقب أحد حصون العدو الذى استعصى فتحه ، ويصبح عمرو بن العاص فإذا نقب الحصن قد تم دون أن يدرى من قام بهذا العمل .

فأمر منادياً ينادى بين الجنود : من أحدث النقب فليجب الأمير . ولم يتقدم أحد ، ولما ألح عمرو فى النداء . جاءه رجل فى خفاءٍ يقول له : إن صاحب النقب يشترط عليكم ألا تسودوا اسمه فى صحيفة ،وألا تكتبوا عنه للخليفة ، أو تشهروه بين الناس ، أو تكافئوه على عمل ، فإن قبلتم ذلك أخبرتكم به .

فقال القائد : قبلنا الشرط .

فقال الرجل : أنا صاحب النقب ، ومضى دون أن يخبره باسمه .

(٥) المحافظة على الأسرار

وأوصى الإسلام أبناءه عامة بالمحافظة على الأسرار فى كل المواطن وذلك فى الحروب ألزم وأكد . وهناك علاقة وطيدة بين المحافظة على الأسرار

---

(٨٦) أسد الغابة جـ ٦ ص ٤٢٣ ـ النسائى باب الجنائز ٤/ ٦٠

والأمانة التى هى من أهم الأخلاق الإسلامية .

ويتعلق بحفظ السر الكتمان ـ قال النبى ﷺ : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .

ومن أقوال الإمام على : « ليس كل مايعرف يقال ولا كل مايقال حضر أهله ولا كل ما حضر أهله حان وقته » . . وقوله أيضاً : « سرك أسيرك فإن تكلمت به فأنت أسيره »

ويتعلق بذلك أيضاً التحكم فى الانفعالات وضبط النفس ، والقدرة على التحكم فيها . . . وهذا من أهم الصفات لجنود الإسلام الذين لا تخرجهم نشوة الانتصار عن طبيعتهم فيصيبهم الغرور فيغفلوا عن الخطر المحدق بهم ، كما أن الهزيمة لا تصيبهم باليأس فتضعف قواهم . وقد وصف حسان بن ثابت جنود الرسول ﷺ بقوله :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
لا يفرحون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

هذه بعض الأسس التى قامت عليها التربية العسكرية فى الإسلام والتى بمقتضاها خاض المسلمون حروبهم فى أيام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعده فى ظل الخلافة الرشيدة والقيادة الحكيمة . . وبها نجحوا فى تحقيق انتصاراتهم التى أذهلت العالم ، وأظهرت الشخصية الإسلامية السليمة البريئة من التسلط والغرور ، البعيدة عن الرغبة فى السيطرة وبسط النفوذ . .

لقد كانت حروباً أغلبها دفاعى وجميعها يحقق الأهداف المثلى ويرسى دعائم القيم الإنسانية والأخلاق الفاضلة . .

وسنبدأ الآن فى الحديث عن حروب المسلمين والمعارك التى خاضوها دفاعاً عن دينهم وإرساء لقيم الإسلام المثلى . .

ونبدأ ذلك بالحديث عن غزوة بدر التى قال الله تعالى فيها :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ﴾ (٨٧)



---

(٨٧) آل عمران ١٥٣

غزوة بدر الكبرى

- السرايا التي سبقت غزوة بدر .
- سرية حمزة - رضي الله عنه .
- غزوة العشيرة .
- غزوة بدر الأولى .
- رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب .
- قريش تستعد للحرب .
- أبو جهل يتزعم جبهة الدعوة للحرب .
- خروج النبي إلى بدر .
- عدة المسلمين وعددهم .
- النبي يستشير أصحابه .
- موقف تاريخي للمقداد بن الأسود .
- مشورة الحباب بن المنذر .

غزوة بدر الكبرى

لم تكن غزوة بدر الكبرى أولى الغزوات الإسلامية ، ولكن سبقها بعض الغزوات كانت أشبه بالطلائع التى تكتشف الأحوال ، وتختبر ردود الأفعال . . وهذا أمر يدل على حنكة سياسية وقدرة حربية وأسبقية قيادية . .

ذكر أن غزوة ودَّان هى أول غزوة غزاها النبى ﷺ وكانت هذه الغزوة تسمى أيضاً غزوة « الأبواء » . .

« وودَّان » هذه ـ بفتح الواو ، وتشديد الدال ـ قرية بين مكة والمدينة ، قريبة من الجحفة ، وكان يقيم بها قوم من ضمرة ، وغفار وكنانة ، وفى ودَّان هذه جاء قول الشاعر نصيب يمدح سليمان بن عبدالملك :

أقول لركب قافلين عشيةً قفا ذات أوشال ومولاك قاربُ
قفوا خبرونى عن سليمان إننى لمعروفه من آل ودَّان راغبُ
فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

أما الأبواء فهى قرية من أعمال « الفرع » ـ منطقة تابعة للمدينة ـ بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً ـ وقيل : الأبواء جبل على يمين الطريق للصاعد إلى مكة من المدينة ، قيل : هو جبل شامخ مرتفع ليس عليه شىء من النبات غير الخزامى ، وهذا الجبل لخزاعة وضمرة .

وقد ذكر أن الأبواء هذه بها قبر آمنة بنت وهب أم النبى ﷺ فقد ماتت بها ودفنت فى أثناء عودتها من المدينة ، وكان النبى ﷺ طفلاً فى ذلك الوقت . وعادت به حاضنته أم أيمن فأسلمته إلى جده عبدالمطلب . .

سار النبى صلى الله عليه وسلم - إلى هذا المكان فى عدة نفر للاستطلاع والإكتشاف . فوادعته بنو ضمرة ، فعاد - صلى الله عليه وسلم - ولم يحدث قتال . .

كان ذلك فى صفر من العام الثانى للهجرة - أى بعد حوالى أحد عشر شهراً من هجرته المباركة . .

وقد تحقق هدف الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الرغم من عدم القتال . . . فالقتال - كما علمنا - ليس هدفاً فى الإسلام فى حد ذاته .

لقد أثبت النبى - صلى الله عليه وسلم - قدرة أصحابه على الحركة وسرعة الاستجابة ، وبين للعدو المتربص ، أن المسلمين أصبحوا بدار عز يمكنهم الخروج منها إلى أى مكان يشاءون . .

وكانت موادعة بنى ضمرة كسباً ضمن من ورائه النبى - صلى الله عليه وسلم - ألا يُطعن المسلمون من طريق هؤلاء ، وألا يتخذ مكانهم الذى يقيمون فيه مرصداً للعدو أو معسكراً يُوتى المسلمون من قبله . . فهى خطة تأمين ناجحة للمدينة من غير شك .

وعاد النبى ﷺ إلى المدينة ، وأخذ يبث سراياه بعد ذلك . .

أول سـرية

عقد النبى - صلى الله عليه وسلم - لواءً لعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف فى ستين أو ثمانين رجلًا من المهاجرين فقط . .

وسار عبيدة بكتيبته الصغيرة العدد ، القوية الإيمان ، حتى بلغ ماء بأسفل « ثنيَّة المرَة » فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش يقودهم عكرمة بن أبى

جهل ، وقيل : يقودهم مكرز بن حفص بن الأخيف من بنى عامر بن لؤى .

وكان قريشاً قد وقع فى روعها أن تستطلع تحركات المسلمين ، وتعرف ما عزموا عليه ، فوجدوا الاستعداد الكامل لديهم بدليل وجود هذا العدد الغفير منهم فى هذا المكان .

وعلى الرغم من استعداد الفريقين فإنه لم يحدث قتال أيضاً ، إلا أن سعد بن أبى وقاص رمى بسهم قبل المشركين ، فكان أول سهم رمى فى الإسلام .

وعاد المشركون من حيث أتوا وقد علموا أن هناك ليوثاً تحرس الطريق إلى المدينة ، وتتحفز لردع من يقترب من عرينها .

وحدث كسب معنوى للمسلمين فى هذه السرية ـ أيضاً ـ ذلك أن بعضاً ممن كانوا فى صفوف المشركين فروا من بين الصفوف إلى المسلمين .

فقد خرج المقداد بن عمرو البهرانى خليف بنى زهرة ، وعتبة ابن غزوان بن جابر حليف بنى نوفل بن عبدمناف من بين المشركين ، وانحازا إلى المسلمين .

لقد كان هذان الرجلان مسلمين يلتمسان الفرصة إلى الهجرة . . وكان انضامهما إلى المسلمين كسباً كبيراً لهم . .

من المقـــداد ؟

هو المقداد بن عمرو ، وشهرته : المقداد بن الأسود ـ رضى الله عنه ـ وجاءت هذه الشهرة من أن الأسود بن عبد يغوث الزهرى الذى حالفه المقداد قد تبناه فنسب إليه ، ويقال له أيضاً : المقداد الكندى ، وسبب ذلك أنه أصاب دماً فى بهراء فهرب إلى كندة ، فحالفهم وأقام فيهم زمناً فنسب إليهم .. قبل أن يجىء إلى مكة ليحالف الأسود الزهرى الذى نسبه إليه ..

أسلم المقداد قديماً ، وهاجر إلى الحبشة ، ثم عاد إلى مكة فلم يقدر على الهجرة إلى المدينة حين هاجر النبى ﷺ إليها ، فبقى بمكة حتى خرج فى رجال قريش تحت قيادة عكرمة بن أبى جهل . ففر منهم وانضم إلى المسلمين .. وأبلى المقداد بن الأسود فى الإسلام بلاء حسناً ، وشهد بدراً وله فيها موقف مشهود ـ سنعرفه إن شاء الله ..

ويعد من أوائل من أظهروا الاسلام بمكة قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : أول من أظهر الاسلام بمكة سبعة منهم المقداد .

وروى ابن بُريدة عن أبيه أن النبى ﷺ قال : « إن الله أمرنى بحب أربعة ، وأخبرنى أنه يحبهم ، قيل : يارسول الله ، سمهم لنا ، قال : هم . على وأبو ذر والمقداد وسلمان » (٨٨)

---

(٨٨) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٥/٢٥٣ ، وتحفة الأحوذى ـ أبواب المناقب الحديث رقم ٣٨٠٢

وروى على بن أبي طالب عن النبي ﷺ : « لم يكن نبي ألا أعطى سبعة نجباء وزراء ورفقاء ، وإنى أعطيت أربعة عشر : حمزة ، وجعفر ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والحسن ، والحسين ، وابن مسعود ، وسلمان ، وعمار ، وحذيفة ، وأبو ذر ، والمقداد ، وبلال »[89]

وقد شهد المقداد فتح مصر ، وتوفى بالمدينة فى خلافة عثمان - رضى الله عنه - مات بأرض له بالجرف ، وحمل إلى المدينة ، وكان فى السبعين من عمره . . .

كان المقداد بن الأسود من رجالات المسلمين المعدودين . . قال عنه أبو نعيم فى الحلية : السابق إلى الاسلام ، والفارس يوم الحرب والإقدام ، ظهرت له الدلائل والأعلام ، أعرض عن العمالات ، وآثر الجهاد والعبادات ، معتصماً بالله تعالى من الفتن والبليات . .

وكلمة أبي نعيم هذه لها شاهد يرويه فى حليته قال :

روى المقداد عن نفسه قال : جئت أنا وصاحبان لى قد كادت تذهب أسماعنا وأبصارنا من الجهد . . فانطلق بنا رسول الله ﷺ إلى رَحْلِه ، وكانت عندهم ثلاث أعنز يحتلبونها ، فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يوزع اللبن بيننا ، وكنا نرفع لرسول الله ﷺ نصيبه ، فيجىء يسلم تسليما يسمع اليقظان ولا يوقظ النائم ثم يأخذ نصيبه .

---

(٨٩) أسد الغابة ٢٥٣/٥ ، والترمذى - كتاب المناقب الحديث رقم ٣٨٧٧

فقال لى الشيطان يوماً موسوساً : لو شربت هذه الجرعة فإن النبى ﷺ يأتى الأنصار فيعطونه ، فمازال بى الشيطان حتى شربتها .

فلما شربتها ندَّمنى ـ أى الشيطان ـ وقال : ما صنعت ؟ يجىء النبى ﷺ فلا يجد شرابه ، فيدعو عليك فتهلك .

وأما صاحباى فشربا شرابهما وناما ، وأما أنا فلم يأخذنى النوم ، وكانت علىَّ شملة إذا وضعتها على رأسى بدت منها قدماى ، وإذا وضعتها على قدمى بدا رأسى . .

وجاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كان يجىء ، فصلى ماشاء الله له أن يصلى ، ثم نظر إلى شرابه فلم ير شيئاً . فرفع يده ، فقلت : يدعو علىَّ الآن فأهلك ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم أطعم من أطعمنى واسق من سقانى »

فأخذت الشفرة ، وأخذت الشملة ، وانطلقت إلى الأعنز أنظر إليهن أيتهن أسمن كى أذبحها لرسول الله ﷺ فإذا حُفَّل كلهن ، فأخذت إناء للنبى ﷺ فحلبت فيه حتى امتلأ وعلته الرغوة . .

ثم أتيت رسول الله ﷺ فشرب ، ثم ناولنى فشربت ، ثم ناولته فشرب . ثم ناولنى فشربت . ثم ضحكت كثيراً . .

فقال لى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يضحكك يامقداد ؟ فأنشأت أحدثه بما صنعت . .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماكانت إلا رحمة من الله ـ عز وجل ـ لو كنت أيقظت صاحبيك فأصابا منها .

فقلت : والذى بعثك بالحق ، ماأبالى إذا أصبتها أنت وأصبت فضلتك من أخطأت من الناس . .

لقد ولاه النبى ﷺ مرة . . ثم قال له : كيف وجدت الإمارة ياأبا معبد ؟

قال : كنت أحمل فيها وأوضع حتى رأيت بأن لى على القوم فضلاً .

قال : « هو ذاك فخذ أو دع »

قال : والذى بعثك بالحق لا أتأمر على اثنين أبداً (٩٠)

ظل المقداد يجاهد فى سبيل الله حتى وافاه الأجل . . قال أبو راشد الحبرانى : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً على تابوت من تابوت الصيارفة بحمص ، وقد ضعف ورق جسمه من الكبر ولم يبق منه إلا عظام قد وهنت ، ومع ذلك فهو يريد أن يغزو فى سبيل الله .

فقلت له : قد رفع الله عنك ذلك . .

فقال : كيف وقد قال عز وجل :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ

---

(٩٠) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ١ ص ١٧٤

فلم يقبل .. رضى الله عنه ـ أن يترك الجهاد على الرغم من حالة الضعف التى وصل إليها ..

فانظر إلى الكسب الذى كسبه الإسلام بالمقداد وأمثاله .

وإلى الكسب الذى كسبه المسلمون من هؤلاء الأبطال العظام .

ومن عتبة بن غزوان ؟

وأما الرجل الآخر الذى أفلت من قبضة المشركين وانضم إلى المسلمين مع المقداد .

فهو عُتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب ـ ينتمى إلى قبيلة مازن .

ويكنى أبا عبدالله ـ وقيل : أبو غزوان ..

كان من السابقين إلى الإسلام ، وقد ناله بسبب إسلامه أذى شديد ..

قال فى إحدى خطبه بالبصرة بعد أن فتح الله على المسلمين وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها ، لقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ مالنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا ..

وهاجر إلى الحبشة ـ وهو ابن أربعين سنة ـ ثم عاد إلى مكة ، فأقام بها حتى أفلت منهم مع المقداد بن الأسود .

---

(٩١) التوبة ٤١

شهد عتبة بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وسيره عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى أرض البصرة ليقاتل بالأُبُلَّة ـ بلدة على شاطىء دجلة ـ كان الفرس يسيطرون عليها . .

فسار وافتتح الأبلة ، واختط البصرة ، وهو أول من مَصَّرها وعمرها وبنى فيها مسجدها الأعظم .

ثم خرج حاجاً ، وخلف على الجند مجاشع بن مسعود وأمره أن يسير الى الفرات ـ وأمر المغيرة بن شعبة أن يصلى بالناس . .

ولما وصل إلى عمر طلب إعفاءه من الولاية فأبى عمر أن يعفيه فقال : اللهم لا تردنى إليها . .

واستجاب الله دعوته فسقط عن راحلته وهو فى طريقه إليها ، فمات سنة سبع عشرة . .

لقد كان عتبة ـ رضى الله عنه ـ مجاهداً ذا بلاء حسن فى الاسلام ، وكان مع ذلك زاهداً ورعاً يُحذِّر أصحابه من فتنة الدنيا . . قال فى إحدى خطبه فى البصرة أيام أن كان أميراً عليها : « ألا إن الدنيا قد ولت سريعة خفيفة ـ ولم يبق منها إلا صُبابة ـ بقية قليلة ـ كصبابة الإناء يتصابها أحدكم ، وإنكم ستنتقلون منها لا محالة ، فانتقلوا منها بخير ما عندكم إلى دار لا زوال لها ، فوالله لقد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفا جهنم فيهوى فيها سبعين خريفاً لا يبلغ قعرها ، وأيم الله لتَملأن ـ أى جهنم ـ ولقد ذكر لى أن ما بين

المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً ، وأيم الله ليأتين عليه يوم وهو كظيظ بالزحام ، وأعوذ بالله أن أكون عظيماً فى نفسى ، صغيراً فى أعين الناس ، وستجربون الأمراء بعدى (٩٢)

وقد ذكره أبو نعيم فى حليته فأثنى عليه .. بما هو أهله وذكر خطبته المشهورة التى يذكر فيها بالله ، ويحذر فيها من فتنة الدنيا ، ويتحدث عن سيرة رسول الله ﷺ فى حياته ، وكيف كان سيد الزاهدين والصابرين والمتواضعين (٩٣)

لقد كسب المسلمون - إذن - فى هذه السرِيّة كسباً عظيماً ، وردا إلى الإسلام مهاجرين عظيمين كان لهما أعظم الأثر فى نصر الاسلام وإعزازه . .

وقد أثارت هذه السرية بلابل الشعراء فأنشدوا فيها شعراً يشيد بالنبى ﷺ وينعى على قريش جهلهم وضلالهم . ومن ذلك ما رواه ابن هشام فى سيرته ، وعزاه بعضهم إلى أبى بكر ، وان كان المحققون يقولون : إن أبا بكر - رضى الله عنه - لم يؤثر عنه أنه قال شعراً :

تحدى من لؤى فرقة لايصدها ... عن الكفر تذكير ولا بعث باعث
رسول أتاهم صادق فتكذبوا ... عليه وقالوا : لست فينا بماكث
إذا مادعوناهم إلى الحق أدبروا ... وهرّوا هرير المحجرات اللواهث(٩٤)

---

(٩٢) أخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة ، كتاب الزهد ٨/٢١٥ وأخرجه أحمد فى مسنده ٤ / ١٧٤ والخبر فى أسد الغابة ٣ / ٥٦٥

(٩٣) حلية الأولياء جـ١ ص ١٧١

(٩٤) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٢٤ والمحجرات : الكلاب التى تلهث

وكانت سرية عبيدة بن الحارث هذه فى شهر ربيع الأول بعد رجوع النبى ﷺ من غزوة الأبواء بشهر .

سرية حمزة إلى ساحل البحر

ويعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك سرية إلى ساحل البحر من ناحية « العيص » عقد اللواء فيها لحمزة بن عبدالمطلب ـ رضى الله عنه ـ وهو طريق كانت تسلكه قريش بقوافلها الى الشام .

وكان عدد المصاحبين لحمزة ثلاثين مهاجراً ، ليس معهم من الأنصار أحد . .

ولقى حمزة فى وجهته هذه أبا جهل بن هشام فى ثلثمائة راكب من أهل مكة . . ضعف عدد المسلمين عشر مرات . .

وفى ذلك قال حمزة ـ رضى الله عنه ـ :

فما برحوا حتى ابتدرت لغارة ... لهم حيث حلُّوا ابتغى راحة الفضل
بأمر رسول الله أول خافق ... عليه لواء لم يكن لاح من قبلى
لواء لديه النصر من ذى كرامة ... إله عزيز فعله أفضل الفعل
عشية ساروا حاشدين وكلنا ... مراجله من غيظ أصحابه تغلى
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا ... مطايا وعقلنا مدى عرض النَّبْل
فقلنا لهم حبل الإله نصيرنا ... وما لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغياً ... فخاب ورد الله كيد أبى جهل
وما نحن إلا فى ثلاثين راكباً ... وهم مائتان بعد واحدة فضلِ
فيا للؤى لا تطيعوا غواتكم ... وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل (٩٥)

---

(٩٥) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٣٠

لقد سجلت هذه الأبيات ـ ماحدث فى هذه السرية
ثلاثمائة وأمامهم ثلاثون ..

ولو أن العبرة بالعدد لأكل الثلاثمائة الثلاثين أكلاً .. لم يبقوا منهم لحماً ولاعظماً .. ولكن الله ألقى الهيبة فى قلوب المشركين .. فنكصوا عن القتال ، وجاء رجل من جهينة كان موادعاً للفريقين فحجز بين المسلمين والمشركين . فلم يحدث قتال ..

كانت سرية عبيدة وسرية حمزة فى وقت واحد ، وأوقعت كلتاهما الرعب فى قلوب المشركين ... فقد عرفوا أن المسلمين على أهبة واستعداد ، وأنهم أصبحوا بعد هجرتهم فى منعة وقوة ..

غزوة بُوَاط

وفى الشهر نفسه خرج النبى ﷺ بنفسه على رأس جماعة من المسلمين ، فتوجه إلى بواط بعد أن استخلف على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ..

وبواط هذه ـ بضم الباء وفتح الواو مخففة ـ اسم جبل من جبال جهينة ـ يقرب من ينبع ، على بعد أربعة وعشرين ميلاً تقريباً من المدينة ـ وقال السهيلى : هما جبلان لهما أصل واحد ، وقال السهيلى أيضاً : إن الذى استخلفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المدينة : هو السائب بن مظعون أخو عثمان بن مظعون لا ابنه .

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد بخروجه هذا الاستطلاع واكتشاف الطرق والمواقع ـ وسار حتى بلغ ذلك المكان ، ولكنه لم يلق أحداً فعاد ، ولم يحدث قتال . .

غـزوة العشـيرة

وقيل فيها غزوة العُسَيرة والعُسَيْرا .

والعُشيْرة فى بطن ينبع ـ وقد سلك النبى ﷺ طريقه إليها ماراً على « فيفاء الخَبَار » والخبار بزنة سحاب ـ موضع فى نواحى العقيق بالمدينة ، ونزل النبى ﷺ فى هذا المكان تحت شجرة يقال لها : ذات الساق ، فصلى عندها . وأقيم مسجد فى هذا المكان . .

وماتزال هذه الأماكن معلومة لأنها من آثار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم انطلق فى طريقه حتى وصل إلى العشيرة وأقام بها أياماً ـ وقيل : أقام بها شهراً ـ ووادع النبى ﷺ فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة وقد سبق أن وادع النبى بنى ضمرة ، وكانت هذه الموادعة توكيداً للأولى ، وكتب كتاباً لبنى ضمرة هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصر أجابوه ، عليهم بذلك عهد الله وعهد رسوله . .

وبذلك يكون النبى ﷺ قد كسب فى هذه الغزوة تأكيد الموادعة الأولى لبنى ضمرة ، وأمان حلفائهم من بنى مدلج ..

وفى الوقت نفسه ازداد موقف المسلمين قوة وتأثيراً وهيبة فى نفوس الأعداء . لقد علم الناس أن النبى ﷺ قد أصبح طالباً بعد أن كان مطلوباً - وقوياً بعد أن كان ضعيفاً ...

بدر الأولى

وقد سبقت غزوة بدر الكبرى غزوة اسمها غزوة « بدر الأولى » وقصتها كما ذكرها القسطلانى فى المواهب اللدنية أن كرز بن جابر الفهرى أغار على سرح المدينة ، فخرج النبى ﷺ فى أثره حتى بلغ سفوان - موضع بناحية بدر . ولكن كرزاً أمعن فى الهرب فلم يدركه النبى ﷺ

ولو أدرك المسلمون كرزاً لقتلوه ، ولكن الله أراد غير ذلك ، لأن كرزاً هذا أسلم فيما بعد ، وحسن إسلامه ، واستشهد يوم فتح مكة ... ذلك أنه كان تحت راية خالد بن الوليد ، ولم يقاتل فى فتح مكة إلا الفرقة التى كان خالد يقودها .

فكان كرز بن جابر وحبيش بن خالد فى خيل خالد بن الوليد ، فابتعدا وسلكا طريقا غير طريقه فقتلا[٩٦]

---

(٩٦) أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٦٨

غزوة بدر الكبرى

سمع النبى ﷺ أن أبا سفيان بن حرب قد حان وقت رجوعه من الشام بالعير التى تحمل أموال قريش ، وكان المهاجرون الذين هاجروا من مكة قد تركوا أموالهم وبيوتهم فاستولى عليها المشركون ، وكانوا يودون لو أتيحت الفرصة لاسترداد هذه الأموال ممن أخذوها ، فوجدوا فى عير قريش مع أبى سفيان تلك الفرصة ،

فندب النبى ﷺ من أصحابه من يرصدها وهى راجعة من الشام .

لقد كانت قافلة تجارية كبيرة فيها كثير من رجال قريش المرموقين منهم مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف ، وعمرو بن العاص ، وزعيمهم أبو سفيان

وقال النبى ﷺ لأصحابه : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا لعل الله يعوضكم بها عن أموالكم التى أخذوها ، فاستجاب الناس ولكن البعض ظن أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايريد الحرب فتثاقل عن الخروج . .

لقد كان الهدف من خرج من المسلمين غنيمة هذه التجارة لتكون عوضاً عن أموالهم وديارهم التى استولت عليها قريش بعد هجرتهم ، فالاستيلاء على هذه العير إنما هو جزء مما للمسلمين فى مكة . .

لقد كان كفار قريش فى غاية الظلم حين استولوا على ممتلكات المهاجرين فى مكة وبسطوا أيديهم عليها ، فهم الذين بدءوا العدوان ، والرد على

العدوان بمثله أمر طبيعى .

ولعل هذا الخبر الذى يذكره ابن هشام فى سيرته يفضح نوايا قريش وتصرفاتهم وكيف استباحوا لأنفسهم. أموال المهاجرين .

قال : لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها إلى عمرو بن علقمة أخى بنى عامر بن لؤى ، فلما بلغ بنى جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ، ذكر ذلك عبدالله بن جحش لرسول الله ﷺ فقال له : « ألا ترضى ياعبد اله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها فى الجنة »؟

قال : بلى يارسول الله

قال : رسول الله ﷺ فذلك لك

وقال أحد الشعراء فى ذلك :

أبلغ أبا سفيان عن أمر عواقبه ندامة
دار ابن عمك بعتها تقضى بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب الناس مجتهد القسامة
اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمامة (٩٧)

وحين فتحت مكة أراد بعض بنى جحش الرجوع إلى دارهم فكلموا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأبطأ عنهم فى الرد . فقال لهم الناس : ان

(٩٧) سيرة ابن هشام جـ٢ ص١١٧

رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا فى شىء من أموالكم أصيب منكم فى الله -عز وجل- فسكتوا . .

أجل ، لقد باعوا الدار لله ، واحتسبوها عنده فكيف يرجعون فى بيعهم ؟ فهذا الشاهد يذكرنا أن قريشاً أخذت أموال المهاجرين وديارهم ، واعتبرتها غنيمة سائغة . . فلماذا لايرد المسلمون بالمثل ؟

إن الرد على المعتدى واسترداد الأموال من الغاصب أمر تقره الشرائع ، ويقره العقل فلم يكن المسلمون إذن معتدين أو طالبين ماليس لهم . . ماكان المسلمون ليقطعوا الطريق على قافلة ، ولكنهم أرادوا أن يقطعوا الطريق على الكفر المستشرى ، والشرك المتفشى ، وأرادوا بخروجهم هذا أن يقطعوا دابر هذا الكفر وأن ينالوا بعض ماأخذ منهم من مال .



أبو سفيان يتحسس الأخبار

ولم يكن أبو سفيان فى غفلة من أمره ، ولكنه كان سياسياً فطناً ، وكان يدرك أن المسلمين لن يتركوه يفلت من بين أيديهم لو ظفروا به ، فأخذ يتحسس الأخبار ويسأل من يلقى من الركبان عن محمد وأصحابه ، فسمع من بعضهم أن النبى ﷺ قد استنفر الناس .

فاستأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفارى على أن يأتى قريشاً بمكة فيخبرهم بما قد يحدث ليستعدوا لاستنقاذ قافلتهم ، وأعطاه فى نظير ذلك

عشرين مثقالا ، وأمره أن يجدع أنف بعيره ، ويحول رحله ، ويشق قميصه إذا دخل مكة ، وهدفه من ذلك إثارة قريش ضد النبى ﷺ

رؤيا عاتكة عمة النبى

وكانت عاتكة عمة النبى ﷺ قد رأت قبل قدوم ضمضم بن عمرو بثلاثة أيام رؤيا أفزعتها .

فأرسلت إلى أخيها العباس بن عبدالمطلب فقالت له : يأأخى ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى وأخافتنى ، وخشيت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم عنى ما أحدثك به . .

قال لها : وماذا رأيت ؟

قالت : رأيت راكباً قد أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا ياقوم لمصارعكم فى ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا له ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مَثُل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها ، ألا انفروا ياقوم لمصارعكم فى ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفتتت ـ فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فِلقة ـ قطعة ـ

قال العباس : والله إن هذه لرؤيا وعليك أن تكتميها ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث عنها وذاع أمرها .

وهكذا شأن السر يفشوا إذا ما تجاوز الاثنين . فما يزال هذا يقص الخبر ويستكتمه صاحبه ، وهذا يفعل مثله حتى يصبح على كل لسان فى وقت قصير .

وأصبحت رؤيا عاتكة حديث كل رجل وامرأة فى مكة .

وفوجىء العباس يوماً وهو يطوف بالكعبة بأبى جهل بن هشام ، فى رهط من قريش يتحدثون فى أمر الرؤيا ، وأبو جهل يناديه : ياأبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا .

فلما فرغ العباس من طوافه أقبل عليهم وجلس إليهم .

فقال أبو جهل : يابنى عبدالمطلب .. متى حدثت فيكم هذه النبية ؟

قال العباس : وماذاك ؟

قال : تلك الرؤيا التى رأت عاتكة .. قال العباس ومارأت ؟

قال أبو جهل : يابنى عبدالمطلب ، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث ، وسوف ننتظر هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ماتقول فقد صدقت ، وإن تمض الثلاث

ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت فى العرب . .

قال العباس : فوالله ماكان منى إليه من قول إلا أنى جحدت ذلك ـ وأنكرت أن تكون عاتكة قد رأت شيئاً .

قال : ثم تفرقنا ، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبدالمطلب إلا أتتنى فقالت : أأقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يستهزىء برجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن لك غيرة لشيء مما سمعت ؟

قلت : قد والله فعلت . . ماكان منى إليه من رد ـ لكن وأيم الله لأتعرضنَّ له إن عاد ، ولأردن عليه رداً شديداً يليق بأمثاله . .

قال العباس : فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا شديد الغضب أرى أنى قد فاتنى منه أمر أحِبُّ أن أدركه منه .

فدخلت المسجد ، فرأيته ، فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ماقال فأقع به ـ وكان رجلاً حديد الوجه ، حديد اللسان ، حديد النظر ـ فرأيته قد خرج نحو باب المسجد يشتد . .

قال العباس : فقلت فى نفسى : ماله ـ لعنه الله ـ؟ أكل هذا فَرَقٌ منى أن أشاتمه ؟

ولكن سرعان ماتبين العباس أن جَرْىَ أبى جهل كان لغير ما ظنه . .
لقد سمع مالم يسمعه العباس .

سمع ضَمْضَم الغفارىّ الذى أرسله أبو سفيان يصرخ ببطن الوادى ، وهو واقف على بعير قد جدع ـ قطع ـ أنفه ، وحوّل رحله ، وشق قميصه ، وهو يقول : يامعشر قريش ، اللطيمة اللطيمة [٩٨] . أموالكم مع أبى سفيان ، قد عرض لها محمد وأصحابه ، فعليكم أن تدركوها . . . . الغوث الغوث .

لقد كانت قافلة عريضة ، تحمل كثيراً من أموال قريش . . قيل : كان فيها خمسون ألف دينار ، وكان لم يبق قرشى ولا قرشية إلا وله مال فى هذه العير . وكان هذا الأمر هو الذى أفزع قريشاً وأصابها بالخبال .

لئن ضاعت منهم هذه القافلة لقد أفلسوا . .
قال العباس : فشغلنى عن أبى جهل وشغله عنى ما جاء من الأمر . .
وصدقت رؤيا عاتكة ، وأدرك القرشيون أن الأمر جد لاكذب فيه ولا امتراء . .

---

(٩٨) اللطيمة هى الإبل تحمل الطيب

قريـش تستعد

وأرغت قريش وأزبدت ، وأصابها الذهول والفزع ، ولكنها استيقظت على دوافع الشر المتأججة فى داخلها . .

كيف يجرؤ على ذلك ؟ أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ؟

كلا ، واللات والعزى ليعلمن غير ذلك . .

واستعدت قريش عن بكرة أبيها للخروج لاستنقاذ عيرها وتلبية نفيرها .

وتأهب أهل مكة للخروج . . ومن لم يستطع منهم الخروج بعث مكانه غيره . . . ولم يتخلف عن الخروج من كبار القوم غير أبى لهب ، وبعث بدلاً منه العاصى بن هشام بن المغيرة ، كان لأبى لهب دين عليه قيمته أربعة آلاف درهم ، عجز العاصى عن سدادها ، فاستأجره أبو لهب بها على أن يجزىء عنه فى الخروج مع قريش . .

وكان أمية بن خلف قد أجمع على أن يتخلف لكبر سنه وثقله ، فأتاه عقبة ابن أبى معيط ، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه بمجمرة يحملها فيها نار ومجمر ـ نوع من العود يتبخر به ـ حتى وضعها بين يديه ـ وقال له : ياأبا على ، استجمر ، كما تستجمر النساء ،

فقال أمية : قبحك الله وقبح ماجئت به . .

وغير أمية موقفه بعد ذلك فتجهز للخروج مع القوم . .

وكان سبب رغبة أمية فى التخلف أن سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ وكان صديقاً لأمية قد قدم إلى مكة معتمراً ونزل عليه ، لأن أمية كان إذا ذهب إلى المدينة ينزل على سعد ، فقال سعد لأمية : أرقب لى ساعة خلوة لعلّى أن أطوف بالبيت . .

فقال أمية : انتظر حتى إذا انتصف النهار وعقل الناس انطلقت فطفت . فخرج به أمية قريباً من نصف النهار ، فبينما سعد يطوف إذ جاء أبو جهل ، فقال : من هذا الذى يطوف ؟

فقال سعد : أنا سعد بن معاذ .

فقال أبو جهل : أتطوف بالبيت آمنا وقد آويتم محمداً وأصحابه ؟ أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً . فتلاحيا

وقال له سعد : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعنك ماهو أشد عليك منه . . طريقك إلى المدينة . .

فقال أمية لسعد : لا ترفع صوتك على أبى الحكم ، فإنه سيد أهل الوادي ، وجعل يُسكت سعداً .

فقال سعد لأمية : إليك عنى ، فإنى سمعت محمدا ﷺ يزعم أنه قاتلك ..

قال أمية : إياى ؟

قال سعد : نعم

قال أمية : بمكة أم خارجها ؟

قال سعد : لاأدرى

فارتاع أمية وأصابه الفزع

ورجع إلى امرأته يقول لها فى فزع : أما تعلمين ماقال أخى اليثربى ؟

قالت : وماذاك ؟

قال : يقول إنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلى

قالت الزوجة : فوالله مايكذب محمد .. وإنى لخائفة ..

فلما جاء الصريخ يستصرخ أهل مكة على الخروج ، وجعل كل منهم يتسابق على الخروج ويحث غيره عليه ، حتى إن سهيل بن عمرو كان ينادى قائلاً : ياآل غالب ، أتاركون أنتم محمدا والصباة من أهل يثرب يأخذون أموالكم ؟

من أراد مالا فهذا مالى ، ومن أراد قوتاً فهذا قوتى .. وإنى لكفيل بتجهيز كل من يريد الخروج ، وليس عنده ما يتجهز به ..

فلما رأى أمية ذلك تذكر ما قاله له ، ففرق ـ سعد بن معاذ ـ أى خاف ـ حتى إذا جاءه السفيه عقبة بن أبي معيط بالمجمرة ـ أى المبخرة ـ استحيا ، وعزم على الخروج معهم على أن يرجع من الطريق .

أبو جهل يتزعم جبهة الدعوة للخروج

وكان أبو جهل زعيم جبهة المتحمسين للقتال ، فإذا ما رأى تقاعساً من أحد ويخه ، أو وكل به من يوبخه . ويقال : إنه هو الذى أغرى عقبة بن أبي معيط بالذهاب إلى أمية بن خلف بالمجمرة .

وذهب أبو جهل أيضاً إلى عتبة وشيبة ابنى ربيعة حين همّا بالقعود ، بعد أن أخبرهما غلامهما « عداس » النصرانى بأنهما إنما يخرجان إلى مصارعهما ، وكانا يميلان إليه ، ويحسان فى كلامه الصدق .

فمازال بهما أبو جهل حتى خرجا إلى مصارعهما فعلاً . وأعانه على ذلك أيضاً عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث .

قريش تكمل استعدادها

وأتمت قريش استعدادها فى ثلاثة أيام ، واجتمع منهم قرابة ألف . . قيل كانوا خمسين وتسعمائة ، وقيل : كانوا ألفا . فيهم مائة فارس بخيولهم عليها مائة درع سوى دروع المشاة ، وخرجوا على الصعب والذلول لشدة

إسراعهم ، واصطحبوا معهم القيان (٩٩) يضربن بالدفوف ويتغنين بهجاء المسلمين .

وكان أبو سفيان قائد العير القادمة من الشام حين بلغه أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرقبه.قد خالف الطريق ، وأخذ طريق الساحل ، وجدَّ فى السير حتى فات المسلمين ، فلما أمن أرسل إلى قريش يأمرهم بالرجوع ، فامتنع أبو جهل ، وأصر على المضى فى طريقه ليؤدب ـ حسب قوله وزعمه ـ هؤلاء الذين تجرءوا أن يهددوا قوافل قريش . .

كان أبو سفيان بارعاً فى تحسس الأخبار بذكاء ، وكان فى أثناء رجوعه بالعير يسأل من يلقاه عن مكان وجود المسلمين وطريقهم . . وكان النبى ﷺ قد أرسل صاحبين له يستخبران أمر العير ، حتى إذا وصلا إلى بدر نزلا قريباً من الماء عند تل هناك ، ثم توجها إلى الماء ليستقيا ، فلما اقتربا سمعا جاريتين على الماء تتخاصمان وتقول إحداهما للأخرى : إنما تأتى العير غدا أو بعد غد ، فأعمل لهم وأقضيك الذى لك .

فقال الرجل الذى على الماء : صدقت ، وخلص بينهما .

---

(٩٩) القيان : جمع قَيْنَة ، وهى الأمة مطلقا أو هى المغنية ، والمراد هنا المغنية

فلما سمع الصاحبان ذلك ركبا بعيرهما ، ثم انطلقا حتى أتيا النبى ﷺ فأخبراه بما سمعا ورأيا .

ثم إن أبا سفيان لم يلبث أن جاء متقدماً على العير فى حذر ، حتى ورد الماء . فلقى ذلك الرجل الذى فصل بين المرأتين المتخاصمتين ، فقال له : هل أحسست أحداً ؟

فقال الرجل : مارأيت أحداً أنكره ، إلا أنى قد رأيت رجلين قد أناخا بعيرهما إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شنٍّ لهما وانطلقا .

فأتى أبو سفيان إلى المكان الذى أناخا فيه البعير فأخذ بعرة من أبعاره ففتتها فإذا فيها النوى .

فقال : هذه علائف يثرب

وأدرك أن هناك عيوناً ترقبه ، ولابد أن يكون لدى هذه العيون خبر بقدومه فرجع بأصحابه سريعاً ، فحول عيره عن الطريق المأهول ، وترك بدراً بيسار وانطلق مسرعاً ، فلما علم أنه قد نجا بعيره أرسل إلى قريش يطمئنها ـ كما سبق أن قلنا ـ

قال لهم رسول أبى سفيان : إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجت ونجا الرجال فارجعوا . .

ولكن أبا جهل الذى أعمى الله بصيرته قال : والله لا نرجع حتى نحضر بدراً فنقيم عليه ثلاثة أيام ، ننحر فيها الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها .

وحين عاد رسول أبى سفيان إليه يخبره بما قاله أبو جهل .. قال أبو سفيان : هذا بغى ، والبغى منقصة وشؤم ..

وعاد بعض من كان قد تجمع مع القوم ، عاد بنو زهرة حين علموا بنجاة العير ، وكانوا نحو المائة ، وكان قائدهم الأخنس بن شريق ، فلم يقتل من بنى زهرة أحد فى بدر ، وكذلك لم يخرج أحد من بنى عدى .

وتوجه المشركون بَقَضِّهم وقضيضهم صَوْبَ بدر ، فقد أخذتهم العزة بالإثم ، ونفخ الشيطان فى نفوسهم فملأها بالعجب والخيلاء .

وسار أشرافهم أمامهم يثيرون فيهم الحماس ، ويمنونهم بالظفر المرتقب ، لقد كان فرسان قريش يظنون أنها ليست معركة بالمعنى المعروف لتلك الكلمة بل هى نزهة يتفرجون فيها على قوم لا يحسنون الكر ولا الفر ، وسرعان مايُعْمِلون فيهم سيوفهم ويقتلونهم فتجرى دماؤهم . أو يسوقونهم أمامهم أسارى مكبلين بالأغلال .

كان فى مقدمة المشركين رؤساء الكفر والضلال : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبوالبخترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو العامرى ، وغيرهم . .

ومع هؤلاء حضرت النساء بالدفوف يغنين وينشدن أناشيد الفخر والهجاء ـ الفخر بأمجاد قريش والهجاء للمسلمين ويثرن حماس المقاتلين .

قريش تتذكر ثأراً عليها فتهم بالرجوع

وقبل أن تمعن قريش فى المسير صوب ميدان المعركة تذكروا ثأراً عليهم لبنى كنانة . . فهموا بالرجوع . . وقد تحدث عن ذلك ابن هشام فى سيرته قال : لما فرغ القوم من جهازهم وأجمعوا على المسير ، ذكروا ماكان بينهم وبين بنى بكربن عبد مناة بن كنانة من الحرب . . . وسبب هذه الحرب كما ذكر ابن هشام أن بنى بكر بن كنانة قتلوا ابنا لحفص بن الأخيف القرشى ـ لدم كان لهم فى قريش فتكلمت قريش فى ذلك ، فقال عامر بن يزيد الكنانى : يامعشر قريش ، قد كانت لنا فيكم دماء ، فما شئتم . . . إن شئتم فأدوا علينا مالنا قبلكم ونؤدى مالكم قبلنا ، وإن شئتم فإنما هى الدماء رجل برجل ، فتنازلوا عما لكم قبلنا ونتنازل عما لنا قبلكم .

فقالت قريش : صدق رجل برجل . فلم يطالبوا بدم ابن الأخيف .

فبينما أخو هذا القتيل مكرز بن حفص بن الأخيف القرشي يمر بمر الظهران إذ نظر إلى عامر بن يزيد الكنانى ـ على جمل له ، فلما رآه أقبل إليه حتى أناخ بعيره وعامر متوشح بسيفه .

فعلاه مكرز بسيفه حتى قتله ، ثم أخذ سيفه فبقر به بطنه ، ثم حمل سيف عامر وجاء به إلى مكة فعلقه من الليل بأستار الكعبة . .

فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر بن يزيد معلقاً بأستار الكعبة فعرفوه فقالوا : إن هذا لسيف عامر بن يزيد عدا عليه مكرز بن حفص فقتله ، فكان قتل عامر بن يزيد الكنانى ـ نقضاً للاتفاق الذى كان بين قريش وكنانة . .

فبينما هم فى ذلك الأمر من حربهم ظهر الاسلام فتشاغلوا به حتى أجمعت قريش على المسير إلى بدر ، فذكروا الذى بينهم وبين بنى بكر بن كنانة فخافوهم . وكاد ذلك يثنيهم عن عزمهم .

ولكن رجلاً من أشراف بنى كنانة من شياطين الإنس ، قال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ، فخرجوا سراعاً . . وزين لهم الشيطان أن بنى كنانة سيكونون وراءهم لنصرهم . .

وهذا هو الذى أشار إليه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ
وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١٠٠)

خروج النبى إلى بدر

وبدر قرية مشهورة بين مكة والمدينة على نحو أربع مراحل من المدينة ، وقيل على ثمانية وعشرين فرسخاً من المدينة .

وسميت بذلك نسبة إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة ، لأنه نزل بها ..

وقيل : بل هى منسوبة إلى بدر بن الحارث الذى حفر بئرها ..

وقيل : بل سميت باسم البئر ، وكانوا قد سموا بئرها بدراً لاستدارتها وصفائها ورؤية البدر فيها ..

---

(١٠٠) الأنفال ٤٨

وقيل : غير ذلك . .

وقد ذكر الله بدراً فى القرآن مرة واحدة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣ ﴾(١٠١)

ولكنه أشار إليها وتحدث عن معركتها فى مواضع متعددة ستأتى بعد . .

كان خروج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم السبت ـ وقيل : يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من رمضان ، على رأس تسعة عشر شهراً من هجرته وخرج معه المهاجرون والأنصار . .

واستخلف النبى ﷺ على المدينة أبا لبابة بشير ـ وقيل : رفاعة بن عبدالمنذر الأنصارى .

وقد كان أحد النقباء فى العقبة .

وذكر بعض الرواة أن أبا لبابة قد سار مع النبى ﷺ إلى بدر ، ولكن النبى ﷺ رده إلى المدينة واستخلفه عليها ، كما استخلف عبدالله بن أم مكتوم على الصلاة .

---

(١٠١) آل عمران ١٢٣

وحين فصل النبى ﷺ من المدينة أمر بإحصاء عدد المسلمين . .

فوقف بهم عند بئر أبى عتبة ، وهى على ميل من المدينة وأحصى عددهم وتفقد الرسول أصحابه ، فرد من استصغره منهم ، وكان ممن ردهم أسامة ابن زيد ، ورافع بن خديج ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وزيد ابن أرقم ، وزيد بن ثابت -رضى الله عنهم-

ورد عمير بن أبى وقاص فبكى فأجازه . . وكان عدد المسلمين خمسة وثلثمائة رجل فى بعض الروايات-من المهاجرين أربعة وستون والباقون من الأنصار . . وفى رواية أخرى أنهم كانوا أربعة عشر وثلاثمائة . .

كان ذلك الخروج كما هو معروف لطلب العير ، ولم يكن لدى المسلمين علم بنجاتها واقبال قريش بخيلهم وسيوفهم إليهم .

وأرسل النبى ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يتحسسان خبر العير . وعادا إلى النبى ﷺ بالمدينة فوجداه قد خرج إلى بدر فذهبا إليه . .

دعاء النبى لأصحابه

ولما فصل المسلمون عن حدود المدينة ، دعا النبى ﷺ للمسلمين بالنصر والظفر ، وأن يغنيهم الله من فضله . وقد استجاب الله دعاء نبيه . .

فما رجع أحد منهم يريد أن يركب إلا وجد ظهراً ، للرجل البعير .. والبعيران ، واكتسى من كان عارياً ، وأصابوا الكثير من الطعام ، وأصابوا فداء الأسرى فاغتنى به كل عائل .

النبي يرد غير المسلم

وكان رجل من الخزرج يقال له حبيب بن يساف ذا بأس ونجدة ، ولم يكن قد أسلم ، ولكنه خرج نجدة لقومه من الخزرج وطلباً للغنيمة ، ففرح المسلمون بخروجه معهم ولكن رسول الله ﷺ رفض ذلك ، وقال : « لايصحبنا إلا من كان على ديننا »

وفى رواية أنه قال له : « ارجع فإنا لا نستعين بغير مسلم
ولكن حبيبا هذا أخذ يلح فى الرجاء ، وعرض نفسه مرتين أو ثلاثا . .
وأخيراً قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تؤمن بالله ورسوله ؟
قال حبيب : نعم
فأسلم ، واصطحبه النبى ﷺ وقاتل فى المعركة قتالاً شديدا .
وذكره ابن الأثير فى أهل بدر (١٠٢) وترجم له على أن اسمه « خبيب بن

---

(١٠٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ١ ص ٤٥٠ ، جـ ٢ ص ١١٨ ـ باب الحاء / وباب الخاء

إساف » بالخاء وأشار إليه أيضاً فى باب الحاء

وذكر ابن الأثير فى ترجمته لقصته - كما رواها هو بنفسه قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يريد غزواً ، أنا ورجل من قومى ، ولم نسلم بعد ، فقلنا : إنا لنستحى أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم ، فقال رسول الله ﷺ أتسلمان ؟

فقلنا : لا

فقال : إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين

قال : فأسلمنا ، وشهدنا مع رسول الله ﷺ فضربنى رجل من المشركين على عاتقى فقتلته ، وشاء القدر أن أتزوج ابنته بعد ذلك ، فكانت تقول : لا عدمت رجلاً وشَّحَك هذا الوشاح - أى ضربك هذه الضربة فى موضع الوشاح »

وأقول : لاعدمت رجلاً عجل أباك إلى النار . .

وكان النبى ﷺ قد خرج من المدينة دون أن يعقد اللواء كما يقول الحلبى فى سيرته . .

ولعل ذلك لظنه أنه لا يلقى حرباً ، ولذلك فقد تخلف من تخلف من أصحابه ، ولكنه عقد ألوية ثلاثة بعد ذلك :

لواء مع مصعب بن عمير ، ولواء على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ والثالث مع رجل مع الأنصار هو سعد بن معاذ أو الحباب بن المنذر . .

استعدادات المسلمين

كان مع المسلمين سبعون بعيراً يتناوبون ركوبها ، وكان النبى ﷺ يفعل مثلهم ، فقد اعتقب هو وعلى بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد بعيراً واحداً ، ولم يختص ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه ببعير .

وكان علىٌّ ومرثد يودان أن يركب النبى ﷺ ويمشيان وقد ألحا عليه فى ذلك ولكنه كان يقول لهما : « ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وماأنا بأغنى عن الأجر منكما »

لقد كانت حالة المسلمين المادية قاسية ، ولهذا دعا النبى ﷺ لهم بالرزق والنصر . .

وكانت إبلهم التى يتناوبونها ضعيفة حتى إن البعير الذى كان يتناوبه أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف برك فى الطريق من العى والتعب،فمر بهم رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله برك بعيرنا فدعا النبى ﷺ بماء فتوضأ فى إناء،ثم قال لأحد أصحابه : افتح فم البعير فصب من الإناء فى فيه ، ثم صب باقيه عليه ، فنشط البعير وسار بهم وعادت له قوته . .

وتذكر بعض الروايات أنه لم يكن فى جيش المسلمين سوى خمسة أفراس ، وقيل : ثلاثة .. وقيل فرس واحد هو للمقداد بن الأسود ... وروى ذلك عن على ـ كرم الله وجهه ـ قال : ماكان فينا يوم بدر فارس غير المقداد .. ولكن روايات أخرى تذكر أنه كان مع المسلمين من الخيول فوق العشرة .

فأين هذه العدة من عدة المشركين التى كان قوامها كما ذكرنا آنفاً سبعمائة بعير ومائة فرس ، وهم ألف رجل ..

ولكن العبرة ليست بالعدة والعدد ، ولكنها بالإيمان واليقين ... وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ..

النبى يستشير أصحابه

ونزل النبى ﷺ وأصحابه بواد يقال له : ذفران ـ بكسر الفاء ـ وفيها أتاه الخبر بمسير قريش إليه ليمنعوا عيرهم .

فاستشار النبى ﷺ أصحابه وأخبرهم الخبر ، وقال لهم : إن القوم قد خرجوا إليكم من مكة على كل صعب وذلول مسرعين . فما تقولون ؟ العير أحب إليكم من النفير ؟

فقال بعضهم : يارسول الله عليك بالعير ودع العدو . . . . وفى رواية أخرى أنهم قالوا : هلا ذكرت لنا العدو فنتأهب له ؟

وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾ (١٠٣)

فتغير وجه النبى - صلى الله عليه وسلم -

فلما رأى أبو بكر ذلك قام أبو بكر - رضى الله عنه - فتكلم وأحسن . . ثم قام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فتكلم وأحسن . قال : يارسول الله إنها قريش وعزها، والله ماذلت منذ عزت ، وسوف يقاتلونك بكل قوة ، فتأهب لذلك أهبته ، وأعد لذلك عدته .

ثم قام المقداد بن الأسود - رضى الله عنه - فقال :

---

(١٠٣) الأنفال ٧

يارسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . . . ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وفى رواية : نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا بَرْكَ الْغِمَاد ـ موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن ـ وقيل : هى أقاصى هجر ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ـ

فقال له ﷺ خيراً قلت : ودعا له بخير .

لقد سر النبى ﷺ بمقالة المقداد لأنها فتحت الطريق أمام الناس ليقولوا قولته . ويصولوا صولته . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب من أصحابه ألا ينكصوا عن لقاء عدوهم وقد وعدهم الله النصر ، ووثقوا أنه معهم يؤيدهم ضد عدوهم . . . ذكر ابن أبى حاتم عن أبى أيوب الأنصارى ـ فيما يرويه الزرقانى ، على شرح المواهب اللدنية للقسطلانى قال : قال لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن بالمدينة : أنى أخبرت عن عير أبى سفيان فهل لكم أن تخرجوا إليها لعل الله يجعلها غنيمة لكم عوضاً عن أموالكم .

قلنا : نعم . . .فخرجنا ـ فلما سرنا يوماً أو يومين قال : قد عرفوا خبرنا وخرجوا لنا ـ فاستعدوا للقتال .

فقال البعض : لا والله مالنا طاقة بقتال القوم . فأعاد ، فقال المقداد : لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسي .. إلى آخر ماقال .. قال أبو أيوب : فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد ..

قال فنزل قوله تعالى :

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾ (١٠٤)

ثم قال النبي ﷺ : أيها الناس أشيروا علي ..

ولقد سمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبي بكر ، ومن عمر ، ومن المقداد ، وهؤلاء من المهاجرين وقد عنى بقولته هذه الأنصار ..

وقد أراد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسمع من الأنصار لأنهم بايعوه في العقبة على النصر والتأييد . وهذا أوان الامتحان قد حان ..

---

(١٠٤) الأنفال ٥ ، ٦

فقال سعد بن معاذ -رضى الله عنه- : ولله لكأنك تريدنا يارسول الله .

قال النبى -صلى الله عليه وسلم- أجل

قال سعد : والله لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهوداً ومواثيق على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا ، إنا لصُبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله أن يريك منا ماتقر به عينك ، فسر على بركة الله -تعالى- ونحن معك .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد وفرج به ، فأسرع فى طلب العدو .

وقال النبى ﷺ يبشر أصحابه : سيروا على بركة الله -تعالى- وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين العير أو النفير- والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم -أى الذين سيقتلون ببدر-

قال ثابت البنانى فيما رواه مسلم عن طريقه عن أنس بن مالك عن عمر قال : ان النبى -صلى الله عليه وسلم- ليرينا مصارع أهل بدر . . . يقول : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله وهذا مصرع فلان ويضع يده على الأرض ههنا وههنا ، قال فما ماط -أى ماتنحى- أحدهم عن موضع يده -صلى الله عليه وسلم-

فهذه معجزة ظاهرة لاشك فيها(١٠٥)

(١٠٥) شرح المواهب اللدنية للقسطلانى جـ١ ص ٤١٤

المسير إلى المعركة

وسار النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى نزل قريباً من بدر ، وكانت قريش قد سبقت ونزلت بالعدوة القصوى من الوادى قريباً من الماء ، ونزل المسلمون على كثيب تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب بعيداً عن الماء . .

وعلى الرغم من صلاحية المكان للمشركين ووفرة الماء لديهم ، وصعوبة المكان على المسلمين وبعد الماء عنهم إلا أن الله ألقى الرعب فى قلوب المشركين والأمن فى قلوب المسلمين . .

لقد أصاب المشركين الفزع حتى أخذوا يضربون وجوه خيولهم إذا صهلت من شدة الخوف ، ونام المسلمون ملء جفونهم ثم أصبح المسلمون وهم فى حاجة إلى الماء للتطهر والشرب ، فنهض المسلمون يطلبون الماء ، ونزل المطر من السماء فكان نجدة لهم ، فقوى الأرض تحت الأقدام ، وطهر الأبدان ، وأذهب رجس الشيطان ، وقال الله فى ذلك

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) ﴾ (١٠٦)

قال القرطبى - فى تفسير هذه الآية : كان هذا النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها ، فكان النوم عجيباً فى ذلك الوقت الذى هم مقبلون فيه على أهم أمر فى حياتهم ، فقواهم وأذهب الخوف من قلوبهم - عن على

(١٠٦) الأنفال ١١

ـ رضى الله عنه ـ قال : ما من رجل منا إلا ونام يوم بدر إلا رسول الله ﷺ فقد رأيته تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح .

قال : وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان :

أحدهما : أنه قواهم بالاستراحة ، فتكون لهم قوة على القتال من الغد .

الثانى : أنه أمنهم بزوال الرعب عن قلوبهم ، كما يقال : الأمن مدعاة النوم والخوف مدعاة السهر . .

وظاهر القول أن النعاس كان قبل المطر ، ولكن ابن أبى نجيح يقول : كان المطر قبل النعاس . .

وحكى الزجاج قال : سبق الكفار المؤمنين يوم بدر إلى ماء بدر ، فنزلوا عليه ، وبقى المؤمنون لاماء لهم ، فوجست نفوسهم وعطشوا وصلوا من أجل ذلك ، وحاول الشيطان أن يتسلل إلى نفوس البعض فقالوا : كيف يشرب المشركون ، ولا نشرب ونحن أولياء الله ، وفينا رسول الله ؟

فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان ، حتى سالت الأودية ، فشربوا وتطهروا وسقوا إبلهم ، وقويت الأرض الرملية التى كانت بينهم وبين المشركين حتى تثبت فيها أقدام المسلمين وقت القتال . . . .

ولكن روايات أخرى تذكر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد سبق قريشاً إلى ماء بدر وقد أنزل الله على المشركين مطر عظيماً أوقف سرعتهم ومنعهم السبق إلى الماء ، وقد أصاب هذا المطر المسلمين بالقدر الذى ينفع والذى شد من دهس الوادى وأعانهم على السير ـ والدهس هو الرمل اللين الذى تسوخ فيه الأقدام ـ فنزل رسول الله ﷺ على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة .

مشورة الحباب بن المنذر

وقال الحباب بن المنذر للنبى - صلى الله عليه وسلم - لما رآه نزل على أدنى ماء من بدر إلى المدينة يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال - صلى الله عليه وسلم - : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال الحباب : يارسول الله إن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونُغَوِّر ما وراءه من القُلُب - جمع قليب وهو البئر قبل أن تطوى - ثم نبنى عليه حوضاً ، فنشرب ولا يشرب القوم .

فاستحسن رسول الله ﷺ رأيه وفعله (١٠٧)

وفى هذا المنزل وعدة القوم يقول الله - تعالى - :

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١٠٨)

---

(١٠٧) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٨١٠ - سورة الأنفال ط دار الشعب

(١٠٨) الأنفال ٤٢ : ٤٤

سير المعركة

أشارت الآيات إلى نزول المسلمين بالعدوة الدنيا القريبة من المدينة ، ونزول المشركين بالعدوة القصوى ـ البعيدة ـ التى هى الى ناحية مكة ، أما الركب فهو ركب أبى سفيان وهو العير التى كان المسلمون قد خرجوا لتلقيها ، وحين علم أبو سفيان بأن المسلمين فى انتظارها اتجه الى الساحل حتى نجا بها ـ كما قدمنا ـ

وقبل أن تبدأ المعركة أراد النبى ـ ﷺ ـ أن يعرف قوة عدوه ليأخذ للأمر عدته ، فأرسل على بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ومعهم نفر من أصحابه فى مهمة استطلاعية ، يتحسسون الأخبار ، فأصابوا اثنين من سقاة قريش ، فأتوا بهما رسول الله ـ ﷺ ـ فوجدوه يصلى ، فجعل أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يسألونهما : لمن أنتما ؟

فيقولان : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء . فارتاب القوم فى كلامهما ، وظنوا أنهما يكذبان .

وركع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسجد سجدتين ثم سلم . وقال :

صدقا والله انهما لقريش . ثم قال لهما : أخبرانى عن قريش .

قالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : كم القوم ؟

قالا : كثير .

قال : ماعددهم ؟

قالا : لا ندرى .

قال : كم ينحرون كل يوم ؟

قالا : يوما تسعا ، ويوما عشرا .

قال رسول الله - ﷺ - : القوم بين التسعمائة إلى الألف .

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف القوم ؟

فقالوا : فيهم أبو جهل بن هشام ، وصفوان بن أمية ، وعتبة بن ربيعة ، وسهيل بن عمرو ، وغيرهم من القوم الذين سبق ان ذكرناهم . .

فأقبل رسول الله - ﷺ - على القوم وقال : هذه مكة قد ألقت اليكم بأفلاذ كبدها .

وصدق رسول الله - ﷺ - فيما قاله عن عدد القوم ، فهم كانوا كذلك - ثلاثة أضعاف المسلمين .

خرجوا معجبين بأنفسهم ، يملؤهم الغرور الكاذب وأخذوا يتنافسون فى الإطعام طلبا للذكر والثناء . فقد نحر أبو جهل حين خرجوا من مكة عشر نياق نحرها بمر الظهران ، ثم نحر لهم صفوان بن أمية تسع نياق بعسفان ، وفى قديد نحر لهم سهيل بن عمرو عشرا ، ومالوا من قديد ناحية البحر فأقاموا يوما فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعا ، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم عتبة بن ربيعة عشرا .

ثم أصبحوا بالأبواء فنحر مقيس الجمحى تسعا ، ونحر العباس عشرا ونحر الحارث بن عامر بن نوفل تسعا ، ونحر ابو البخترى على ماء بدر

عشرا ، ونحر لهم مقيس أيضا تسعا ثم شغلهم أمر الحرب فأكلوا من أزوادهم[109] . .

بناء العريش

ولما تراءى الناس ببدر قال سعد بن معاذ : يارسول الله ، ألا نبنى لك عريشا[110] - تكون فيه ، وننيخ إلى جواره ركائبك ، ونلقى عدونا ، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك مانحب ، وان تكن الأخرى فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا ؟ فقد والله تخلف عنك أقوام مانحن بأشد حبا لك منهم ، لو علموا أنك تلقى حربا لما تخلفوا عنك ، وهم يوادونك ويناصرونك .

فأثنى عليه رسول الله - ﷺ - خيرا ودعا له .

فبنى له عريش ، فكان فيه رسول الله - ﷺ - وأبو بكر . . وتقدمت قريش حين أصبحت ، فلما أقبلت ورآها رسول الله - ﷺ - تجىء من مكان عال . من الكثيب . الذى كانوا فيه وتنزل الى الوادى قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها - تحاديك وتكذب رسولك اللهم - أهلكهم - الغداة[111] .

وكان أصحاب رسول الله - ﷺ - قد بنوا حوضا كبيرا ملئوه بالماء وقذفوا فيه الآنية بعد أن غوّروا كل القُلُب التى فى طريق القوم ، فأصبح المسلمون

---

١٠٩ الزرقانى جـ١ ص ٤١٠

١١٠ العريش : الخيمة

١١١ تفسير ابن كثير جـ٤ ص ١٢

ولديهم الماء ، وقريش ليس عندها ماء . .

بدء المناوشات

وجاءت قريش تريد أن تشرب من حوض رسول الله ـ ﷺ ـ وأراد المسلمون منعهم . فقال النبى ـ ﷺ ـ : دعوهم ، فتركوهم . . . . فما شرب أحد منهم يومئذ الا قتل ـ الا ماكان من أمر حكيم بن حزام فانه لم يقتل ، وقد أسلم فيما بعد ، وحسن إسلامه ، فكان إذا اجتهد فى يمين يقول : ألا والذى نجانى يوم بدر . . . ونظر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عتبة بن ربيعة وهو يركب جملا أحمر ، فقال : إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا »

ولكنهم لم يطيعوه .

وذلك ان القرشيين لما اطمأنوا قليلا أرادوا أن يعرفوا عدد المسلمين ، فأرسلوا عمير بن وهب الجحمى ليعرف ذلك ، فجال بفرسه حول معسكر المسلمين ، ثم رجع اليهم يقول :

هم ثلثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر إذا كان لهم كمين أو مدد . .

فضرب فى الوادى فلم ير شيئا ، فرجع اليهم فقال : ماوجدت شيئا ، ولكنى رأيت ـ يامعشر قريش ـ البلايا[١١٢] تحمل المنايا ... نواضح[١١٣] يثرب

---

١١٢ البلايا جمع بلية وهى الناقة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت وكان بعض العرب يقر بالبعث فيقول : إن صاحبها يحشر عليها

١١٣ النواضح : الابل يسقى عليها الماء

تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ الا سيوفهم ، والله مأرى ان يُقْتَل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإن أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ففكروا فى أمركم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة .

فقال له : ياأبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك الى يد لاتزال تذكر فيها بخير الى آخر الدهر ؟

قال : وماذاك ياحكيم ؟

قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى ، الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش التى تحدثنا عنها آنفا .

قال : قد فعلت ، أنت علىّ بذلك ، إنما هو حليفى فعلىّ ديته ـ وما أصيب من ماله . فأذهب إلى ابن الحنظلية(١١٤) ، فإنى لا أخشى أن يفرق ـ أمر الناس غيرُه .

وقام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال :

يامعشر قريش ، إنكم ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل منكم ، ينظر فى وجه رجل يكره النظر اليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فان أصابوه فذاك الذى أردتم وان كان غير ذلك فلن تخسروا شيئا ، فهو منكم وأنتم قومه . .

---

١١٤ ابن الحنظلية هو أبوجهل ، وأمه من قبيلة حنظلة ، وهى اسماء بنت مُخَرَّبة من بنى حنظلة

هذا كلام رجل عاقل يقصد به الخير كما قال النبى - ﷺ - ولكن هل يفشل الشيطان فى مهمته ؟

ولماذا أغراهم بالخروج إذن ؟

وهذا الشيطان يتمثل فى أبى جهل - الذى حاول بكل وسيلة أن يقطع خط الرجعة على تفكير قريش فى الرجوع . .

فقد انطلق حكيم بن حزام الى أبى جهل ليقنعه برأى عتبة بن ربيعة ولكن الشيطان كان قد استولى على لبه وتفكيره - فلم يجد حكيم مكانا يدخل منه على عقله وقلبه .

قال حكيم : وجدته قد نثل - أخرج - درعا له من جرابها يتفقدها ويهيؤها للقتال . . فقلت له : ياأبا الحكم ، ان عتبة قد أرسلنى اليك بكذا وكذا .

قال حكيم : فقال لى : لقد خاف والله عتبة حين رأى محمدا وأصحابه . . كلا ، والله لانرجع حتى تحكم الآلهة بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ماقال ، ولكنه رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فتخوفكم عليه(١١٥) . يقصد ابنه أبا حذيفة الذى أسلم قديما . وأفسد أبو جهل بذلك على الناس رأى عتبة .

---

١١٥ سيرة ابن هشام ح ٢ ص ٢٦٣ وابوجهل يقصد ان عتبة لا يعتقد صحة الرأى الذى ارتآه ولكنه خاف ان يقتل ابنه فى المعركة فقال ما قال

ثم بعث أبوجهل الى عامر بن الحضرمى فقال له : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانْشُد ـ اطلب عهدك وذمتك .

فخرج عامر بن الحضرمى يصرخ قائلا : واعمراه ، واعمراه . . فحميت النفوس وتهيأت للقتال ، ولاحت نذر الحرب .

لقد كان أبو جهل شرسا عنيفا لايرعوى عن شر ولا ينتهى عن ضلال ، وكان مولعا باشعال نار الحرب بأى وسيلة .

رؤيا ابن الصلت

كان فى صفوف المشركين رجل منهم من بنى المطلب بن عبد مناف يقال له جهم بن الصلت ـ وكان قد وضع رأسه فأغفى ريثما ينتهى الناس إلى رأى ، فانتبه فزعا فقال لأصحابه ومن حوله : هل رأيتم الفارس الذى وقف علىَّ ؟

فقالوا : لا

قال : قد وقف علىَّ فارس فقال : قتل أبو جهل ، وعتبة ، وشيبة ، وزمعة ، وأبو البخترى ، وأمية بن خلف ، وفلان وفلان ، وعد رجالا من أشراف قريش ممن قتلوا يوم بدر .

ثم قال : أسر سهيل بن عمرو وفلان وفلان وعد رجالا من قريش ممن أسروا . .

قال : ثم رأيت ذلك الفارس ضرب فى لبَّة بعيره ، ثم أرسله فى

العسكر ، فما من خباء من أخبية العسكر الا أصابه من دمه .

فقال له أصحابه : لقد لعب بك الشيطان ..

ولما شاعت هذه الرؤيا فى العسكر ، وبلغت أبا جهل قال : قد جئتم بكذب بنى المطلب مع كذب بنى هاشم ... سيرون غدا من يُقتل : وقال : أهذا نبى آخر من بنى المطلب ؟ ... سيعلم غدا من المقتول ، نحن أو محمد وأصحابه ..

لقد سعَّر ابو جهل الحرب ، وكان فى الامكان ألاتتم ، ولكن الله بالغ أمره ، ومصدق وعده ، وكان أمر الله مفعولا .

ولكى يتم ذلك النصر لابد أن تتهيأ أسبابه ، ومن أسبابه ان يكون فى صفوف المشركين من يهيجهم ليلقوا حتفهم ، وكان هذا المهيج أبا جهل بن هشام الذى جعله الله مغلاقا للخير مفتاحا للشر .. لقد غضب منه عتبة بن ربيعة حين سد فى وجهه طريق السلام والموادعة ، وقال له على ملأ من قومه : قبحك الله ، ستعلم أينا أفسد لقومه ... وقد جعل الله المسلمين فى أعين المشركين قليلا استدراجا لهم ليقدموا ، ولما التحم القتال جعلهم الله فى أعين المشركين كثيرا ليحصل لهم الرعب والوهن .

كما جعل الله المشركين فى أعين المسلمين قليلا ليقوى جاشهم على مقاتلتهم . جاء عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ انه قال : لقد قلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل : أتراهم سبعين ؟

قال : أراهم مائة . وأنزل الله تعالى قوله

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١١٦)

وقال تعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١١٧)

وفوجىء عبد الله بن مسعود حين علم أن الكفار لم يكونوا سبعين أو مائة بل كانوا ألفا ..

وقد أفسد أبو جهل محاولة أخرى للسلام قام بها حكيم بن حزام .. وذلك ان النبي - ﷺ - أرسل عمر بن الخطاب إلى قريش يقول لهم :

ارجعوا فإنه إن يل هذا الأمر مني غيركم أحب إليّ من أن تلوه مني » .. والمعنى - إن يقم غيركم بقتالي أحب إليّ من أن تقاتلون أنتم على أمري هذا .

---

١١٦ الأنفال ٤٤

١١٧ آل عمران ١٣

قال حكيم بن حزام لقومه حينئذ : قد عرض محمد عليكم نصفاً فاقبلوه فوالله لاتنصرون عليه بعد ماعرض من النَّصَف .

فقال أبو جهل : والله لانرجع بعد أن مكننا الله منهم ..

لقد حاول هذان الرجلان عتبة وحكيم الاصلاح وتفادى الحرب ولكنهما لم ينجحا ، وأبت العصبية الجاهلية إلا أن تغمسهما فيها غمسا ، فأما عتبة فقتل ، وأما حكيم فنجا ..

ثم أسلم .

الدعوة للمبارزة

التمس عتبة بن ربيعة بيضة ـ خوذة ـ يضع فيها رأسه فلم يجد خوذة تسع رأسه ، فقد كان رأسه ضخما . فاعتجر على رأسه بِبُرْدٍ له وخرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى فصل من الصف ، ودعا للمبارزة .

فخرج اليهم فتية من الأنصار ، ثلاثة أشقاء : معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء .

فقالوا : من أنتم ؟

قالوا : رهط من الأنصار .

قالوا : مالنا بكم حاجة ، إنما نريد قومنا ، يامحمد ، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا .

فقال النبى ـ ﷺ ـ : « قم ياعبيدة بن الحارث ، وقم ياحمزة ، وقم ياعلى » .

وفى رواية : « قوموا يابنى هاشم فقاتلوا بحقكم الذى بُعث به نبيكم إذ جاء هؤلاء بباطلهم ليطفئوا نور الله »

وتقدم حمزة نحو شيبة ، وتقدم على نحو الوليد ، وتقدم عبيدة نحو عتبة .

وأردى كل من حمزة وعلىّ خصمه . أما عبيدة فقد اختلفت بينه وبين خصمه عتبة ضربتين ، كل منهما أصاب صاحبه ، فكر حمزة وعلى على عتبة فأجهزا عليه ، وحملا صاحبهما الى حيث يقف الرسول - ﷺ - فأفرشه الرسول - ﷺ - قدمه الشريفة ، فوضع عبيدة خده عليها .

وقال : يارسول الله ، ألست شهيدا ؟

فقال له النبى - ﷺ : أشهد أنك شهيد .

وتوفى بالصفراء ، ودفن بها عند رجوع النبى - ﷺ - والمسلمين الى المدينة .

ذكر الحلبى فى سيرته قال : جاء فى الصحيحين عن أبى ذر . . أنه كان يقسم أن قوله - تعالى :

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ
مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ
وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا
مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟
إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١١٨)

نزلت فى حمزة وعلى وعبيدة ، وعتبة وشيبة والوليد - يوم بدر . . .

وذكر ذلك القرطبى فى تفسيره ، وأورد حديث أبي ذر . كما ذكر قول ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : نزلت هذه الآيات على النبى - ﷺ - بالمدينة فى ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة نفر من الكافرين وسماهم : حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث - رضى الله عنهم - وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة(١١٩) .

النبى يحرض المؤمنين

وأقبل النبى - ﷺ - على أصحابه يحرضهم على القتال استجابة لأمر الله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ
صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (١٢٠)

---

١١٨ الحج ١٩ : ٢٤

١١٩ تفسير القرطبى - سورة الحج - ص ٤٤١٧ ط دار الشعب

١٢٠ الأنفال ٦٥

فأخذ النبي - ﷺ - يقول : « والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة - وفى يده تمرات يأكلهن : بخٍ بخٍ - أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل - رحمه الله تعالى[١٢٠] . . وحدث ابن اسحاق قال : قال عوف بن الحارث - يارسول الله ، ما الذى يفرح الرب من عبده ؟

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : قتال أعداء الله .

فنزع درعاً كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل - رحمه الله -[١٢١] .

النبى ينصح أصحابه

بعد أن عدَّل النبى - ﷺ - الصفوف وسواها توجه الى أصحابه قائلا : إن دنا القوم منكم فادفعوهم - عنكم بالنبل ، واستبقوا نبلكم - أى لاترموهم على بعد فان الرمى مع البعد غالبا مايخطىء ، فيضيع النبل بلا فائدة - ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم .

وكان مما قال لهم : « ان الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله - عز وجل - به الهم وينجى به من الغم . .

ولما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قال أبو جهل بن هشام : اللهم

١٢١ سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٦٨

أقطعنا للرحم وآتانا بما لانعرف فأحِنه ـ أهلكه ـ الغداة .

فكان هو المستفتح ، أى الذى حكم على نفسه بهذا الدعاء . . فلم يقطع الرحم الا هو ، وما عليه هو ومن خرج معه من الكفر والضلال شيء لم ينزل به كتاب ، ولم يجيء به رسول ، ولا دعا به ذو منطق سليم أو رأى قويم .

وأخذ النبى ـ ﷺ ـ بكفه حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ورماهم بها وقال : شاهت الوجوه . .

ووجه ـ ﷺ ـ كلامه الى أصحابه وقال لهم : شدوا . فشدوا . .

ورجع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى العريش فدخله ، ومعه أبو بكر وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشحا سيفه مع نفر من الأنصار .

واصطف الناس للقتال ، فرمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفين وقال : لا أفر إلا أن يفر هذا الحجر .

وكان أول من خرج من المسلمين مهْجَع مولى عمر بن الخطاب ، فأتاه سهم غَرْب ـ لايدرى من راميه ـ وقيل : رماه عامر بن الحضرمى ـ وهو بين الصفين فقتل . وهو من أهل اليمن . وفى مهْجع هذا وأصحابه نزل قول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١٢٢)

---

١٢٢ الأنعام ٥٢

وأصحابه هم بلال ، وصهيب ، وعمار ، وخباب ، وعتبة بن غزوان ، وعامر بن فهيرة ، وغيرهم من الموالى والمستضعفين[١٢٣] قيل : انه أول من يدعى من شهداء هذه الأمة ، وقال - صلى الله عليه وسلم - فيه يومئذ : مهجع سيد الشهداء »[١٢٣] .

النبى يناشد ربه

وأقبل النبى - صلى الله عليه وسلم - على ربه يناشده النصر ، روى البخارى ومسلم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - وهو فى قبة بدر - أى العريش - دعا ربه فقال : اللهم أنشدك عهدك ، اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم فلا تعبد فى الأرض » .

وفى رواية : « اللهم لاتدعنى ولا تخذلنى ، أنشدك ماوعدتنى » ومازال يدعو ربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فأخذ أبو بكر رداءه وألقاه على منكبه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك .

---

١٢٣ أسد الغابة جـ ٥ ص ٢٨٠
١٢٤ السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٤٠٣

◉ الملائكة تشارك فى القتال

- الملائكة مدد الله للمؤمنين .
- الشياطين فى جند المشركين .
- النبى يبشر أصحابه بالنصر .
- مقتل أئمة الكفر .
- بلال يقتل أمية بن خلف .
- مصرع أبى جهل .
- بطولات نادرة قام بها بعض المسلمين .
- قتلى المشركين فى القليب .
- أثر هذا النصر على المنافقين .
- تقسيم الغنائم .
- الخلاف فى شأن الأسرى .
- حديث القرآن عن غزوة بدر .
- العبر المستخلصة من تلك الغزوة .
- قريش تبكى قتلاها .

الملائكة مدد الله

وأنزل الله ملائكته تقاتل فى صفوف المؤمنين ، وتشد من أزرهم وقد ذكر الله ذلك فى كتابه الكريم فى موضعين . . الأول فى سورة آل عمران . . حيث قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾
إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (١٢٥)

والثانى فى سورة الأنفال حيث قال :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ
وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ
ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ
عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ

---

١٢٥ آل عمران ١٢٣ : ١٢٥

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ (١٢٦)

ذكر ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات الأخيرة عن على - رضى الله عنه - قال :

نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى - صلى الله عليه وسلم - وفيها أبوبكر ، ونزل ميكائيل فى الف من الملائكة عن ميسرة النبى - صلى الله عليه وسلم - وأنا فى الميسرة .

وقد شاهد بعض المسلمين الملائكة أو أحس بقتالهم ، فقد حدث ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يشتد فى اثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، ثم سمع صوت الفارس يقول : أقدم حيزوم - حيزوم اسم فرس الملَك - ثم نظر الى المشرك أمامه ، فرآه قد خر مستلقيا ، قد خُطِم أنفه وشُق وجهه كضربة السوط .

فجاء الانصارى فحدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : صدقت ذلك من مدد السماء .

وكما عُدَّ الذين شهدوا بدرًا من الناس مفخرة المسلمين ، عد الذين شهدوا بدرا من الملائكة مفخرة الملائكة أيضا ، فقد روى معاذ بن رفاعة بن رافع الزُرَقى عن أبيه - وهو من أهل بدر قال : جاء جبريل الى النبى - صلى

---

١٢٦ الأنفال ٩ : ١٢

الله عليه وسلم ـ فقال : ماتعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها ..

قال جبريل : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة(١٢٧) .

وذكر ابن اسحاق عن ابن عباس فيما يرويه ابن هشام ـ قال : حدثنى رجل من بنى غفار قال : أقبلت أنا وابن عم لى ، حتى أصعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر ، ونحنْ مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدَّبْرَة ـ أى الدائرة فننتهب مع من ينتهب .

قال : فبينا نحن فى الجبل ، إذ دنت منا سحابة ، فسمعنا فيها حمحمة الخيل فسمعت قائلا يقول : أقدم حيزوم .

فأما ابن عمى فارتاع قلبه فمات مكانه .

وأما أنا فكدت أهلك ، ثم تماسكت .

وذكر قول أبى أسيد مالك بن ربيعة ـ وقد شهد بدرا ـ ثم ذهب بصره بعد ذلك : لو كنت اليوم ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشِّعْب الذى خَرَجَت منه الملائكة ، لاأشك فيه ولا أتمارى .

وروى قول أبى داود المازنى ـ وهو ممن شهدوا بدرا ـ قال : إنى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل اليه سيفى ، فعرفت أنه قتله غيرى .

---

١٢٧ البخارى كتاب المغازى ١٢٣/٥ ـ تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٥٦٠ سورة الانفال

كانت سيماء الملائكة يوم بدر فيما يرويه الرواة عمائم بيضا قد أرخوها على ظهورهم ، الا جبريل فقد كانت عمامته صفراء[١٢٨] .

الشياطين فى جند المشركين

وكما أيد الله المؤمنين بالملائكة ، جاء إبليس أيضا لحزبه يقويهم ويشد من أزرهم . ولكن كيف يصمد حزب الشيطان أمام حزب الرحمن ؟

قال العلماء : جاء إبليس فى صورة سراقة بن مالك فى جند من الشياطين فى صور رجال من بنى مدلج ، وقال للمشركين : « لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم » .

قالوا : وأقبل جبريل ـ عليه السلام ـ إلى إبليس ، فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين ، هو الحارث بن هشام ، أخو أبى جهل بن هشام . انتزع يده مسرعا ونكص على عقبه ومعه جنده .

فناداه الرجل قائلا : ياسراقة ـ وهو يحسبه سراقة فعلا ـ أتزعم أنك لنا جار ؟

فقال الشيطان كما حكى لنا القرآن الكريم . .

﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [١٢٩]

---

١٢٨ سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٣
١٢٩ الأنفال ٤٨

وكان قتل عتبة وشيبة والوليد قد أفزع القوم من قريش وأخافهم .

فقال أبو جهل : يامعشر قريش لايهمنكم خذلان سراقة وقتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهم قد عجلوا ، واللات والعزى لانرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه بالحبال . .

وأخذ يردد قائلا : لا تقتلوهم ، خذوهم باليد(١٣٠) .

وروى السهلى قال : ان من بقى من قريش وهرب الى مكة وجد سراقة بمكة فقالوا له : ياسراقة خرقت الصف ، وأوقعت فينا الهزيمة . فقال سراقة : والله ماعلمت بشيء من أمركم وماشهدت وما علمت ، فما صدقوه حتى أسلموا ، وسمعوا ماأنزل الله فعلموا أنه إبليس اللعين .

النبى يبشر أصحابه بالنصر

وأخذت النبى - ﷺ - سنة من النعاس حتى مالت رأسه . ثم انتبه مسرورا ، فقال : أبشر ياأبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده وهو يقول : أتاك نصر الله إذ دعوته .

وخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - من العريش ، يرقب المعركة ويحرض أصحابه وهم مقبلون على جهاد العدو فى صبر واحتساب ، وإقبال ليس فيه إدبار . . وان أحدهم ليرتجز قائلا :

ركضا الى الله بغير زاد ... الا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد . . .

---

١٣٠ السيرة الحلبية جـ٢ ص٤٠٧

وأخذ القتل يستمر فى المشركين ـ فنادى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناهيا عن قتل بعض ناس منهم ..

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه » « إنى قد عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ـ وسإهم ـ ثم قال : فمن لقى منكم أحدا من هؤلاء فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يقتله ، فإنما أخرج مستكرها » .

فقال أبوحذيفة ـ وهو ابن عتبة بن ربيعة الذى قتل مبارزا قبل ذلك بقليل :

أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لألحِمَنّه السيف ـ أو لألجمنه السيف ـ

وسمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الكلمة من أبى حذيفة فنظر الى عمر بن الخطاب ، وقال له : ياأبا حفص ـ وهى أول مرة يكنيه فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك ـ « أيُضرب وجهُ عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسيف وقد خرج مع القوم وهو لذلك كاره » .

فقال عمر : يارسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا الرجل بالسيف ، فو الله لقد نافق .

ـ يقصد بذلك أبا حذيفة .

ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التمس لأبي حذيفة عذرا ، وصفح عنه . .

فكان أبو حذيفة يقول : ماأنا بآمِنٍ من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا .

من أبو حذيفة هذا ؟

وأبو حذيفة هو هاشم ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى ، وأمه فاطمة بنت صفوان بن أمية .

كان من السابقين الى الاسلام رغما عن أبيه وعمه وجده وأخيه ، أسلم قبل دخول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دار الأرقم بن أبى الأرقم ، ثم هاجر الى الحبشة هو وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو .

وعاد من الحبشة الى مكة ، فأقام مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى هاجر الى المدينة ، وآخى النبى بينه وبين عباد بن بشر الأنصارى ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان طويلا حسن الوجه ، وكان أول من لبّى المبارزين فى الدعوة الى المبارزة يوم بدر ، ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منعه . وكان الذين طلبوا المبارزة من الكفار أباه وأخاه وعمه . كما قدمنا .

وفى ذلك قالت أخته هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان :

فما شكرت أبا رباك من صغر حتى شببت شبابا غير مجحون
الأحول الأثعل المشئوم طائره أبو حذيفة شر الناس فى الدين

لقد هجته بذلك الشعر ، وكذبت فى هجائها فقد كان خير الناس فى الدين - رضى الله عنه -

وحينما ألقى كفار قريش الذين قتلوا فى بدر فى القليب ، وأخذ رسول الله - ﷺ - يناديهم قائلا : ياعتبة ، وياشيبة ، ويأمية بن خلف ، ويأباجهل يعدد من فى القليب : هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا فقد وجدت ماوعدنى ربى حقا ؟

ونظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى وجه أبى حذيفة فرآه كئيبا قد تغير .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لعلك قد دخلك من شأن أبيك شىء ؟

قال : لا والله ماشككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يقربه ذلك من الإسلام ، فلما رأيت ماأصابه ، وذكرت مامات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجوه له حزنت لذلك . فدعا رسول الله - ﷺ - له بخير[١٣١] .

مقتل أئمة الكفر

وعلى الرغم من تحذير النبى - صلى الله عليه وسلم - من قتل أبى

---

١٣١ أسد الغابة جـ ٦ ص ٧١

البخترى فقد قتل . وقد حذر النبى - ﷺ - من قتله لأنه كان قد أكفَّ القوم عن رسول الله - ﷺ - وهو بمكة ، وكان لايؤذيه ولا يبلغه عنه شىء يكرهه ، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب : والنبى - صلى الله عليه وسلم - خير من يحفظ الجميل لمن قام به حتى لو كان على غير دينه ، وربما طمع النبى - ﷺ - فى إسلامه فينجيه الإسلام ويزيده خيرا . ولكن الله إذا أراد شيئا كان . . وكان أمر الله قدرا مقدورا .

فقد لقى المجذر بن ذياد حليفُ الأنصار- أبا البخترى فقال له : ياأبا البخترى ، لقد نهانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتلك .

وكان مع أبى البخترى زميل خرج معه من مكة اسمه جنادة بن مليحة - فقال أبوالبخترى : وزميلى ؟

فقال المجذر : لا والله مانحن بتاركى زميلك - ماأمرنا رسول الله - ﷺ -- إلا بك وحدك .

فقال أبو البخترى : لا والله ، إذن لأموتن أنا وهو جميعا ، لايتحدث عنى الناس أنى تركت زميلى حرصا على الحياة .

فقال أبو البخترى حين نازله المجذر :

كل أكيل مانع أكيله حتى يموت أو يرى سبيله

فاقتتلا ، فقتله المجذر ، ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقال :

والذى بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فآتيك به ، فأبى الا القتال فقتلته[١٣٢] .

بلال يقتل أمية بن خلف

وكان أمية بن خلف من رؤساء الكفر والضلال ، وكم قاسى بلال ـ رضى الله عنه ـ على يديه العذاب فى مكة ، كان يطرحه على ظهره فى الرمال الملتهبة ويضع على صدره الصخرة الضخمة ، ويضر به بالسياط ، ويقول له : لا أكف عنك حتى تكفر بمحمد ورب محمد . فكان بلال لايزيد على قوله : أحد أحد . فيزيده أمية على ذلك عذابا .

وظل على ذلك حتى اشتراه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وأعتقه .

فلما رأى بلال أمية فى بدر صرخ قائلا : هذا عدو الله ، لانجوت إن نجا . .

وحاول عبد الرحمن بن عوف ان يمنع عنه القتل ويأسره ، ولكن سيوف الأنصار وحربة بلال كانت أسرع اليه فقتلوه هو وابنه .

ويقال ان ابا بكر ـ رضى الله عنه قال لبلال حين قتل أمية بن خلف :

هنيئا زادك الرحمن خيرا لقد أدركت ثأرك يابلال[١٣٣]

مصرع أبى جهل

وأقبل أبو جهل يرتجز وهو يقول :

---

١٣٢ أسد الغابة جـ ٤ ص ٦٤

١٣٣ الزرقانى جـ ١ ص ٤٢٨

ماتنقم الحرب العوان منى لمثل هذا ولدتنى أمى

فأذاقه الله الهوان على يد شابين صغيرين من الأنصار .

قال عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه : انى لفى الصف يوم بدر ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، اذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه :

ياعم ، أرنى أبا جهل .

فقلت : يابن أخى وما تصنع به ؟

قال : عاهدت الله ، إن رأيته قتلته أو أموت دونه .

وقال لى الآخر سرا مثل صاحبه فأشرت لهما اليه . فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه . . وهذان الشبان هما ابنا عفراء معاذ ومعوذ .

ولما انتهت المعركة ، سأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أبى جهل . .

قال : من ينظر مافعل أبو جهل ؟

فانطلق عبد الله بن مسعود ، فوجده قد ضربه ابنا عفراء ، وهو بآخر رمق .

قال ابن مسعود ، فوضعت رجلى على عنقه وقلت : أخزاك الله ياعدو الله .

فقال أبوجهل : ولم أخزانى ، أخبرنى لمن الدبرة اليوم ؟

قلت : لله ورسوله . . وأجهز عليه ابن مسعود واجتز رأسه وحملها الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « الحمد لله الذى أعز الاسلام وأهله - ثلاث مرات - إن لكل أمة فرعونا وان فرعون هذه الأمة أبو جهل ، قتله الله شر قتلة ، قتله ابنا عفراء ، وقتلته الملائكة ، وأجهز عليه ابن مسعود . .

وقد وضع ابن مسعود رجله على عنق أبى جهل تصديقا لرؤيا كان قد رآها . . . . ذلك ان أباجهل كان قد قال لابن مسعود يوما : لأقتلنك .

فقال بن مسعود :

والله لقد رأيت فى النوم أنى أخذت حدجة[١٣٤] حنظل فوضعتها بين كتفى أبى جهل ، ورأيتنى أضرب كتفيه ، ولئن صدقت رؤياى لأطأن على رقبته ولأذبحنه ذبح الشاة[١٣٥] . .

رواية أخرى فى مقتل أبى جهل

وذكر ابن هشام رواية أخرى فى مقتل أبى جهل قال على لسان معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم - وأبوجهل فى مثل الحرجة[١٣٦] - يقولون : أبو الحكم لايُخْلَصُ إليه . فلما سمعت ذلك جعلته من شأنى ، فصمدت نحوه - قصدت إلى جهته - فلما أمكننى حملت عليه ، فضربته ضربة كسرت قدمه ، فو الله لقد شبهتها حين طاحت - ذهبت - بالنواة

---

١٣٤ الحدجة : الحنظلة الشديدة

١٣٥ المواهب اللدنية جـ ١ ص ٤٢٩

١٣٦ الحرجة : الشجر الملتف ، أو هى الشجرة بين الأشجار لا يوصل اليها

تطيح من تحت مرضخة[١٣٧] النوى حين يضرب بها . .

وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فتركته جريحا وشغلني القتال عنه .

ومر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء ، فضربه ضربة شديدة ، ولكن بقي به رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل ، فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يُلتمس أبو جهل في القتلى . .

فذهب اليه عبد الله بن مسعود فوجده بآخر رمق فعرفه فوضع ركبته على عنقه وقال له : هل أخزاك الله ياعدو الله ؟

فقال أبو جهل : وبماذا أخزاني ؟

أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟

فقال له عبد الله بن مسعود : لله ولرسوله . .

واغتاظ بنو مخزوم لمقتل زعيمهم ، فقالوا لعبد الله بن مسعود : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يارويعي الغنم .

واحتز عبد الله رأس أبي جهل وحملها الى النبي ـ ﷺ ـ[١٣٨] .

بطولات نادرة وخوارق باهرة

لقد ظهرت من المسلمين في بدر بطولات نادرة فريدة ، تدل على روح التضحية والفداء ، وتشير الى ماتحلى به المؤمنون الصادقون من يقين وايمان وتسابق الى الاستشهاد في سبيل هذا الدين القويم ورسوله الكريم . كما

---

١٣٧ المرضخة : الحجر الذي يكسر به النوى

١٣٨ سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٧٥

ظهرت فيها آيات باهرة تدل على أن الله يؤيد المسلمين فى جهادهم ، ويعينهم فى قتالهم .

ومن أمثلة ذلك ماحدث من عكاشة بن محصن الذى ظل يقاتل بسيفه حتى تكسر السيف فى يده ، وذهب الى رسول الله - ﷺ - يطلب سلاحا يستمر به فى القتال ، فأعطاه النبى - ﷺ - عودا من حطب ، وقال له : « قاتل بهذا ياعكاشة » .

وأخذ عكاشة العود ونظر اليه وهزه فى يده ، فاذا به فى يده أقوى وأصلب من سيف غضب طويل شديد المتن أبيض الحديدة ، فظل عكاشة يقاتل به حتى فتح الله على المسلمين ، ولم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى استشهد فى حروب الردة وهو عنده . . . وقد قتله طليحة الأسدى المتنبىء[١٣٩] .

وعكاشة هذا هو الذى شهد له النبى - ﷺ - بأنه من أهل الجنة . وقصة ذلك ان النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « يدخل الجنة سبعون ألفا من أمتى على صورة القمر ليلة البدر » .

فقال عكاشة : يارسول الله ، ادع الله ان يجعلنى منهم .

فقال رسول الله : « إنك منهم » .

فقام رجل من الأنصار : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم .

---

١٣٩ أسد الغابة جـ ٤ ص ٦٧

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ «سبقك بها عكاشة وبردت الدعوة»(١٤٠) .

فانظر كيف يتحول العود فى يد عكاشة ويصبح أقوى وأصلب من السيف ويبقى كذلك الى ماشاء الله . . . أليس ذلك من آيات الله ومن معجزات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

لقد كانت هذه الغزوة امتحانا للايمان واختبارا للعزائم ، فقد تواجه الآباء مع الأبناء ، والاخوة مع الاخوة ، والاقرباء مع الأقرباء ، وجرى الصراع بين أولئك وهؤلاء . ومع ذلك فقد كانت علاقة الايمان أقوى من رابطة الدم .

أبو عبيدة يقتل والده .

لقد جاء عبد الله بن الجراح بن هلال ـ والد أبى عبيدة . . وهو ممتلىء كفرا وشركا وغضبا على ابنه عامر وكنيته أبو عبيدة ـ وكان أبو عبيدة من السابقين الى الاسلام وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة والملقب بأمين الأمة . .

وظل عبد الله يترصد ابنه ليقتله ، ويسد عليه المنافذ ، لأن المشركين عيّروه بايمان ابنه .

فأراد أن يغسل عن نفسه هذا العار . .

وكان أبو عبيدة بارا بأبيه ، فكان حين يجده فى مواجهته قاصدا اليه

---

١٤٠ بردت الدعوة أى ثبتت

ليقتله يحيد عنه ، ويبتعد عن طريقه ، فعل ذلك مرارا ، ولكنَّ عبد الله جمع بعض المشركين وضيقوا الخناق على أبي عبيدة ، فلم يجد أبو عبيدة بدا من أن يدافع عن نفسه وشرف دينه ، فقاتل هؤلاء القوم ببسالة فجندل من بينهم أباه

لقد كان مثل أبي عبيدة وأبيه فى هذه الموقعة مثل ابراهيم ـ عليه السلام وأبيه ـ يحاول إبراهيم نصح الأب والابتعاد عن أذيته ، ولكن الأب يأبى الا العناد ، فابراهيم يقول لأبيه :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ (١٤١)

دعوة بارة فيها كل لطف وأدب .. ولكن الأب القاسى العنيف يرد عليه بكل غلظة وعنف ..

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ (١٤٢)

---

١٤١ مريم ٤٣ : ٤٥

١٤٢ مريم ٤٦

وهكذا كان أبو عبيدة مع أبيه . فالابن يحاول بكل مايستطيع ألا يجابه أباه فى حرب طاحنة ، ولكن الأب يصر على ان يقتل ابنه ويضيق عليه الخناق حتى يضطر الابن الى قتله دفاعا عن نفسه ودينه . وقد أنصف القرآن الكريم أبا عبيدة أيما إنصاف حيث نزلت الآيات الكريمة تسجل وتبين أن علاقة الايمان هى أقوى رابطة تربط بين الانسان والانسان قال تعالى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ (١٤٣)

وهناك صورة أخرى سجلتها غزوة بدر أيضا . . تلك هى أن عبد الرحمن بن أبى بكر شهد بدرا وهو مشرك وهو شقيق عائشة ـ رضى الله عنها ـ ودعا الى المبارزة ، فأراد أبوه ـ رضى الله عنه ـ أن يخرج اليه ، ولكن النبى ـ ﷺ ـ منعه ، وقال له : ابق معى .

وعبد الرحمن بن أبى بكر كان اسمه ـ قبل الاسلام ـ عبد الكعبة ـ وقيل : عبد العزى ـ فسماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الرحمن . وكان من أشجع قريش وأشدهم رماية .

---

١٤٣ المجادلة ٢٢

ولما أسلم قال لأبيه : لقد أهدفت لى ـ أى ارتفعت وتهيأت لى ـ يوم بدر مرارا فصدفت عنك أى أعرضت عنك.

فقال له ابوبكر : لو هدفت لى لم أصدف عنك(١٤٤) .

ومن غريب الاتفاق أن أم ابان بنت عتبة بن ربيعة كان لها عمّان وأربعة إخوة ، كل منهم حضر بدرا ، اثنان من إخوتها مسلمان وهما : أبو حذيفة ومصعب بن عمير ـ أخوها من أمها ـ واثنان كافران وهما : الوليد بن عتبة وأبو عزيز ، ولها عمان أحدهما مسلم وهو معمر بن الحارث وهو أخو عتبة لأمه ، والآخر كافر ، وهو شيبة بن ربيعة .

وحين أسر أبو عزيز بن عمير ، أخو مصعب بن عمير ، مر مصعب على آسره فقال له :

شد يدك به فان أمه ذات متاع لعلها تفديه منك . فقال له أبو عزيز : ياأخى هذه وصايتك بى ؟

وفدته أمه بأربعة آلاف درهم(١٤٥) .

قتلى المشركين فى القليب

انتهت المعركة بنصر المسلمين نصرا مؤزرا ، وهزيمة المشركين هزيمة منكرة . بعد ان قتل كبراؤهم بسيوف الله فى أيدى المسلمين والملائكة . . . لقد قتلهم الله ورماهم كما قال سبحانه :

---

١٤٤ السيرة الحلبية جـ٢ ص ٤١٤

١٤٥ أسد الغابة جـ٦ ص ٢١٣

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (١٤٦)

ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى - رضى الله عنه - يوم بدر : « أعطنى حصبا من الأرض » فناوله حصبا عليه تراب ، فرمى به فى وجوه القوم فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب ، ثم حمل عليهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم .

وقال عبد الرحمن بن أسلم : أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث حصيات فرمى بحصاة فى ميمنة القوم ، وحصاة فى ميسرة القوم ، وحصاة فى وسطهم وقال :

« شاهت الوجوه » سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فانهزموا . .

ولم تكن هزيمة الكفار فى بدر هزيمة عادية ، ولكنها كانت هزيمة منكرة قضت على رءوس الكفر والضلال . . فقتل منهم سبعون قتيلا ، وأسر مثلهم وأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يلقى هؤلاء القتلى الذى جاءوا بعجبهم وخيلائهم يريدون أن يطفئوا نور الله بجهلهم وحمقهم ، فأذاقهم الله سوء ماصنعوا وأحلهم ﷺ دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار - أمر ﷺ بأن يلقوا فى قليب فألقوا ، إلا أمية بن خلف لأنه كان قد انتفخ فتركوه

١٤٦ الأنفال ١٧

مكانه وألقوا عليه من التراب والحجارة ماغيبه عن الأنظار .

ووقف النبى - ﷺ - على حافة القليب يخاطبهم :

« ياأهل القليب هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا ، فانى وجدت ماوعد فى ربى حقا ؟

فقال أصحابه : يارسول الله ، أتكلم قوما موتى ؟

فقال : « ماأنتم بأسمع لما أقول منهم »

وفى رواية ان النبى - صلى الله عليه وسلم - مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة - القليب - وجعل يقول : ياعتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة ، ويأمية بن خلف ، ويأباجهل بن هشام ، بئس عشيرة النبى كنتم ، كذبتمونى وصدقنى الناس وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

فقال عمر - رضى الله عنه : يارسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها ؟

فقال - صلى الله عليه وسلم : « لقد سمعوا ماقلت غير أنهم لايستطيعون أن يردوا » .

العودة إلى المدينة

وأرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - الى أهل المدينة من يبشرهم بالنصر . .

أرسل عبد الله بن رواحة بشيرا لأهل العالية وهى قرية من المدينة على أميال منها .

وأرسل زيد بن حارثة بشيرا على ناقته القصواء لأهل السافلة .
ورفع عبد الله بن رواحة صوته بالنداء وقال : يامعشر الأنصار ، أبشروا بسلامة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتل المشركين وأسْرِهم . .
وأقبل زيد بن حارثة يقول لأهل السافلة بمثل ذلك ، ويذكر أسماء القتلى والأسرى .

وسمع كعب بن الاشرف اليهودى ماسمع الناس من البشيرين فكاد يتميز من الغيظ وقال : لئن كان هؤلاء قتلوا وأسروا فبطن الارض خير من ظهرها . .

وكانت السيدة رقية ابنة رسول الله ـ ﷺ ـ وزوجة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ قد توفيت ، وجاء الخبر بالنصر وهم يسوون التراب على قبرها . .
وقدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك فعزى فيها ، ولكنه كان نعم الصابر المحتسب ـ صلى الله عليه وسلم ـ

اثر هذا النصر على المنافقين

وكما تغيظ اليهود من هذا النصر تغيظ المنافقون ، بل اشتد غيظهم حتى أرجفوا برسول الله ـ ﷺ ـ قبل ان يصل الى المدينة . وأشاعوا أنه قد قتل ، وهُزِمَ أصحابه . .

قال أسامة بن زيد : جاء رجل من المنافقين الى أبى لبابة - وهو الذى استخلفه النبى - ﷺ - على المدينة ، فقال له : قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون بعده أبدا ، قد قتل محمد وغالبية أصحابه ، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة .

لا يدرى مايقول من الرعب .

قال أسامة : فجئت حتى خلوت بأبى لبابة ، وسألته عما أسره إليه هذا الرجل ، فأخبرنى بما أخبره به . فقلت : أحق ما تقول ؟ قال : إى والله حق ماأقول يابنى . فقويت نفسى ورجعت الى ذلك المنافق فقلت له : أنت المرجف برسول الله - ﷺ - ؟ لنقدمنك الى رسول الله - ﷺ - عند قدومه فيضرب عنقك .

فقال هذا الخبيث : إنما هو شىء سمعته من الناس يقولونه .

وقد حدث هذا قبل ان يجتمع أسامة بأبيه زيد بن حارثة ويستمع منه الى تفاصيل ماجاء به من بشرى .

إن الإرجاف من طبيعة المنافقين ، وهم مروجو الشائعات فى كل زمان ومكان ، ومن عادتهم دائما توليد الاكاذيب واذاعة الباطل .. وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ (١٤٧)

تقسيم الفيء

وأقبل النبى - ﷺ - راجعا الى المدينة ، ولما خرج من مضيق الصفراء قسم الغنيمة ، وكانت مائة وخمسين من الابل ، وعشرة أفراس ، ومتاعا ، وسلاحا ، وثيابا ، وأدما كثيرا وكان المشركون قد حملوه معهم للتجارة . .

ونادى منادى النبى - ﷺ - : من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له - أى مايدفع فى فدائه له .

وقد نزلت آيات القرآن توضح للمسلمين كيف يقسمون غنائمهم فى الحروب قال تعالى :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ (١٤٨)

وقال - عز شانه - :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ (١٤٩)

---

١٤٧ الأحزاب ٦٠ ، ٦١

١٤٨ الأنفال ١ ــ ١٤٩ الأنفال ٤١

لقد أحل الله الغنائم لهذه الأمة . وهى من الأشياء التى اختصت بها دون غيرها من الأمم . .

روى ابن كثير فى تفسيره ما قاله سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه . أتيت النبى - ﷺ - فقال : اذهب فاطرحه فى الغنيمة - قال : فرجعت وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى وخوفى من أن يكون هذا السيف من نصيب غيرى .

قال : فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت آية سورة الأنفال . فقال لى رسول الله - ﷺ - : اذهب فخذ سيفك[١٥٠]

وكان النبى - ﷺ - قد تشاور مع أصحابه فى شأن الغنائم فاختلفت آراؤهم . . . . ويذكر لنا عبادة بن الصامت سبب هذا الاختلاف فيقول :

خرجنا مع النبى - ﷺ - فشهدت معه بدرا ، فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يضربون ويقتلون ، وأخذت طائفة أخرى فى جمع الغنائم والأسلاب ، وأحدقت طائفة برسول الله - ﷺ - خوفا من أن يصيبه العدو على حين غفله .

حتى اذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم الى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن جمعناها فنحن أحق بها أو بمعظمها من غيرنا .

---

١٥٠ تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٥٤٥ جـ٤ ص٣

وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا نحن منعنا عنها العدو .

وقال الذين أحدقوا برسول الله - ﷺ - : لستم بأحق بها منا ، نحن أحدقنا برسول الله - ﷺ - وخفنا أن يصيبه العدو... فنزلت آية الأنفال تحسم هذه الأمر وتبين كيف تقسم الغنائم والاسلاب . .

الأسرى من المشركين

وعاد المسلمون بأسراهم الى المدينة وفى الأسرى : عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، وقد قتلا لما كان من شأنهما من أمر اشعال الشر وإذاعة الباطل وتعذيب المسلمين فى مكة .

ثم قال النبى - ﷺ - لأصحابه : استوصوا بالاسارى خيرا .

واستجاب المسلمون لوصية النبى - ﷺ - قال أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير:كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصونى بنصيب أكبر لوصية رسول الله - ﷺ - إياهم بنا ، ماتقع فى يد رجل منهم كسرة إلا نفحنى بها ، قال : فأستحى فأردها على أحدهم ، فيردها علىَّ مرة ثانية .

وأقبلت قريش تفدى أسراها . .

فأرسلت أم أبى عزيز بن عمير فى فدائه - وكانت ذات مال - فدفعت فى فدائه أربعة آلاف درهم .

ودفع المطلب بن أبي وداعة السهمي - أربعة آلاف درهم فى فداء أبيه - أبي وداعة - وكان تاجرا وصاحب مال كثير .

وكانت قريش تحاول كظم غيظها ماأمكنها ذلك ، وقالت فيا بينها لا تعجلوا فى فداء أسراكم حتى لايشتد عليكم محمد وأصحابه فى الفداء .

وحاولوا ان يستمهلوا ابن أبي وداعة بعض الوقت ولكنه انسل منهم وفدى أباه وعاد به الى مكة .

ولم يلبث أن أقبل القرشيون يفدون أسراهم .

فقدم مكرز بن حفص بن الأخيف فى فداء سُهَيْل بن عمرو ، وكان سهيلٌ خطيبا بارعا بليغا يجتمع إليه الناس فى المحافل .

فاشار عمر بن الخطاب على النبى - ﷺ - ان ينزع ثنيق سهيل حتى يدلع - يلثغ - لسانه فلايقوم خطيبا فى محفل ضد النبى - ﷺ - والمسلمين .

فقال النبى - ﷺ - : « لاأمثل به »

وقال لعمر : « عسى أن يقوم فقاما تحمده ولا تذمه »

وتحقق ما رجاه النبى - ﷺ - فإن سهيلا أسلم وحسن اسلامه ، ثم إنه ثبت يوم الردة على الاسلام ، ووقف فى أهل مكة خطيبا يذكر لهم أيادى الاسلام البيضاء ويحثهم على الثبات فى وجه الردة والوقوف ضد الشرك .

وكان فداء مكرز لسهيل عجيبا يدل على وفاء منه فقد طلب منهم أن يضعوه فى القيد مكانه ويطلقوه حتى يبعث لهم بفدائه . فأطلقوا سهيلا

وأبقوا مكرزا ، وفى ذلك يقول مكرز :

فديت بأذْوَادٍ ثمانٍ سِبا فتىً ... ينال الصميم غرمُها لا المواليا
رهنتُ يدى ، والمالُ أيسَرُ من يدى ... علىَّ ، ولكنى خشيت المخازيا
وقلت : سهيل خيرنا فاذهبوا به ... لأبنائنا حتى نـدير الأمانيـا

ومن الأسرى كان عمرو بن أبى سفيان . وكان له أخ قتل فى المعركة اسمه حنظلة .

فقال المشركون لأبى سفيان : افد ابنك عمرا .

وكان أبو سفيان شحيحا بالمال فقال : قُتِلَ ابنى حنظلة ، وأفدى عمراً .

دعوه فى أيديهم يمسكوه فى أيديهم مابدا لهم . .

وانتهز أبو سفيان فرصة وجود سعد بن النعمان الأنصارى معتمرا فى مكة ، فعدا عليه فاحتبسه . وكان العهد بأهل مكة ألا يعرضوا لحاج أو معتمر إلا بخير .

وأرسل أبو سفيان يقول لأسرى ابنه وهم رهط سعد بن النعمان : خلوا عن أسيرى أترك أسيركم .

فمشى بنو عمرو بن عوف الى رسول الله - ﷺ - فأخبروه خبرهم ، وطلبوا منه أن يرسلوا عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم ، فوافق رسول الله - ﷺ - فبعثوا به الى أبى سفيان ، فخلى سبيل سعد .

زوج زينب بنت رسول الله فى الأسرى

وكان من الأسرى أبو العاص بن الربيع وهو زوج زينب بنت رسول

الله - ﷺ - وكانت لا تزال معه فى مكة ، وهو ابن خالتها ، كانت خديجة - رضى الله عنها - تعده بمثابة ولدها .

وسار أبو العاص مع قريش الى بدر ، ونجا من القتل ولكنه لم ينج من الأسر . فأرسلت زينب بقلادة لها كانت خديجة - رضى الله عنها - قد أعطتها إياها وقت أن زوجتها لأبى العاص . . وطلبت زينب أن تفدى زوجها بتلك القلادة . .

فلما رأى النبى - ﷺ - القلادة عرفها ، ورق لابنته رقة شديدة فقال لأصحابه : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا » . ومن حقه - ﷺ - أن يأمر ، ولكنه ترك الأمر لأصحابه تواضعا منه .

قصة رجوع زينب إلى أبيها

واستجاب المسلمون لما رأى النبى - ﷺ - فأطلقوا الأسير وردوا المال . ولكن النبى - ﷺ - أخذ عليه العهد إن أطلق سراحه أن يرسل زينب الى المدينة .

وأرسل النبى - ﷺ - زيد بن حارثة ورجلا من الانصار ، واتفق معهما أبو العاص أن يكونا فى « بطن يأجج »[١٥١] حتى تجىء زينب فيصطحباها الى المدينة .

وحين عاد أبو العاص أمر زوجته أن تتجهز للخروج الى المدينة ، ونما خبر

١٥١ـ موضع على ثمانية أميال من مكة

خروجها حتى علم به بعض الناس . وممن علموا بذلك هند بنت عتبة ، فأرادت أن تستوثق فجاءتها تطلب منها أن تساعدها فى تجهيز ما تحتاج اليه فى سفرها . ولكن زينب أخفت عنها رغبتها فى الخروج حرصا وحذرا .

وفى يوم خروجها جاء أخو زوجها كنانة بن الربيع ، ومعه بعير أناخه لها فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته وخرج مصاحبا لها . .

ولكن القرشيين حين رأوا ذلك غاظهم الأمر ، فخرجوا فى أثرها حتى أدركوها بذى طوى ، وسبق إليها هبّار بن الأسود بن المطلب فروّعها برمح وهى فى هودجها وبرك كنانة ، ونثر كنانته وأوتر قوسه وقال : والله لايدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما ، فتراجع الناس عنه .

وجاء أبو سفيان فى رجال من قريش فقال له : أيها الرجل ، كف عنا سهامك حتى نكلمك . فكف .

وأقبل عليه أبو سفيان فقال له : والله إنك لم تصب حين خرجت بالمرأة هكذا على رؤوس الناس ، وقد جرى ماجرى لنا ـ وان الناس ليظنون أن خروجك بها هكذا لذل أصابنا . ونحن لا حاجة لنا فى حبسها ، فارجع الى مكة بها حتى تهدأ الأصوات وينسى الناس ماحدث ثم اخرج بها سرا بعد ذلك .

فعادت زينب ، ومكثت أياما فى مكة ، ثم خرج بها ليلا فأسلمها الى زيد بن حارثة وصاحبه فعادا بها إلى المدينة .

إسلام أبي العاص

ولم يلبث أبو العاص بن الربيع أن أسلم ... وقصة إسلامه يرويها ابن الأثير فيقول :

أقام أبو العاص على شركه بمكة ، حتى كان قبيل الفتح فخرج بتجارة الى الشام ومعه أموال من قريش ، ومعه جماعة منهم ، فلما عاد لقيته سرية لرسول الله - ﷺ - أميرها زيد بن حارثة ، وحدث قتال بين الفريقين ، وأسر المسلمون أناسا من قريش وغنموا غنما .

وهرب أبو العاص ، ودخل المدينة ليلا واستجار بزينب فأجارته ..

فلما صلى النبي - ﷺ - الصبح قالت زينب : أيها الناس ، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فلما سلّم النبي - ﷺ - قال للناس : هل سمعتم ماسمعت ؟

قالوا : نعم .

قال : أما والذي نفسي بيده ماعلمت بذلك حتى سمعته كما سمعتم ..

ثم دخل على ابنته فقال لها : أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له .

قالت : إنه جاء في طلب ماله .

فجمع النبي - ﷺ - السرية وقال : إن هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، وهو مما افاءه الله عليكم ، وأنا أحب أن تحسنوا

وتردوا عليه الذى له ، فإن أبيتم فأنتم أحق به .

فقالوا : بل نرده عليه ، فردوا عليه ماله أجمع .

فعاد الى مكة ، وأدى الى الناس أموالهم ، ثم قال : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، والله مامنعنى من الاسلام - قبل ذلك - إلا خوفا أن تظنوا بى أكل أموالكم .

ثم قدم على رسول الله ﷺ مسلما وحسن إسلامه ، ورد عليه رسول الله - ﷺ زوجته بعقد زواج جديد . وتوفى أبوالعاصى سنة اثنتى عشرة[١٥٢]

ومن الذين أطلقوا بغير فداء من أسرى بدر غير أبى العاصى بن الربيع - المطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد المخزومى كان عند الخزرج،وظل فى أيديهم حتى أطلقوا سراحه .

كما أطلق سراح رجل آخر من بنى مخزوم أيضا اسمه صيفى ، لم يتحرك أحد فى فدائه ، فأطلقوا سراحه على أن يبعث بالفداء فلم يف .

وأطلق سراح أبى عزة الشاعر كان ذا بنات محتاجا وقال للنبى - ﷺ : مُنَّ علىَّ ، فمنَّ عليه وأخذ عليه عهدا الا يظاهر عليه أحدا .

وممن أطلق سراحهم بدون فداء أيضا وهب بن عمير بن وهب - كان قد أسره رفاعة بن رافع . .

وكان أبوه قد قدم إلى المدينة متظاهرا بفدائه ولكنه كان يضمر الغدر بالنبى - ﷺ -

١٥٢ أسد الغابة جـ٦ ص ١٨٥

فلما التقى بالنبى - ﷺ - قال له : لماذا جئت يا عمير ؟

قال : جئت فى شأن الأسير الذى عندكم .

قال : فما بال السيف فى عنقك ؟

قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغننت شيئا ؟

قال له الرسول - ﷺ -: اصدقنى لماذا جئت ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

قال له : بل جلست أنت وصفوان بن أمية فتعهدت له بقتلى على أن يقضى دينك ويعول ولدك .

فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك فيما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوالله انى لأعلم ما أتاك به إلا الله

فأسلم ، وأطلق له النبى - ﷺ له أسيره .

وهناك أسرى آخرون لم يستطيعوا تقديم فداء ، أطلق سراحهم بعد أن قام كل منهم بتعليم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة .

وكان هذا دليلا على عناية الاسلام بأمر العلم وإذاعة التعليم ونشره والحث عليه .

عتاب الله فى أمر الفداء

حين أسر المسلمون من أسروا من المشركين استشار النبى - ﷺ - أصحابه فى أمرهم .

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله اضرب أعناقهم ـ ووجهة نظره ـ رضى الله عنه ـ أنهم رءوس الشرك ، وإن أطلق سراحهم فسيعودون إلى الشقاق وقال : يا رسول الله هم أخرجوك وكذبوك .

وقال أبوبكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك استبقهم واطلب منهم التوبة ، لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عبدالله بن رواحة : يا رسول الله أنت فى واد كثير الحطب فاضرم الوادى عليهم نارا ، ثم ألقهم فيه .

وكان العباس بن عبدالمطلب ـ عم رسول الله ـ فى الأسرى . فخشى أن يميل النبى ـ ﷺ ـ الى رأى المتشددين فقال : لا تقطع رحمك .

وسمع النبى ﷺ هذه الآراء وسكت ولم يرد . ثم قام فدخل حجرة من حجراته . .

فقال قوم : سيأخذ برأى عمر ، وقال قوم : سيأخذ برأى أبى بكر ، وقال قوم : سيأخذ برأى عبدالله بن رواحة .

ثم خرج رسول الله ﷺ يقول : « ان الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم ـ عليه السلام ـ حين قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم » وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام ـ قال « إن تعذبهم فأنهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم »

وان مثلك يا عمر كمثل موسى ـ عليه السلام ـ قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلايؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » وإن مثلك يا عمر كمثل نوح ـ عليه السلام ـ قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا »

ثم قال : أنتم فى حاجة خذوا منهم الفداء .

قال عبدالله بن مسعود : قلت يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء فانه يذكر الاسلام ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إلا سهيل بن بيضاء .. فأنزل الله ـ تعالى

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١٥٣)

لقد استشار النبى ـ ﷺ ـ أصحابه ـ ومال إلى ما جُبل عليه من خُلق الرحمة التى بعث من أجلها « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقد حدث عن نفسه قائلا « إنما أنا رحمة مهداة »

---

١٥٣ الأنفال ٦٧ : ٦٩

ولم يكن النبى - ﷺ - مستبدا فى اختيار ما اختاره ، ولكنه كان مجتهدا مال إلى رأى اقتنع به ووافق طبعه فلا حرج عليه ولا مؤاخذة .

أما قوله - تعالى

« لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »

فالمقصود به كما قال بعض المفسرين : لولا كتاب من الله سبق لهم بالمغفرة أو لولا كتاب من الله سبق فى إحلال الغنائم . .

والذى يدل على ذلك ما جاء بعد ذلك من قوله « فكلوا مما غنتم حلالا طيبا »

روى جابر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة العظمى وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة(١٥٤)

وفى فداء العباس حدثت محاورة طريفة بينه وبين النبى - ﷺ - تشهد للنبى بمقامه العالى عند الله ، وان الله علمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما .

روى الزهرى عن جماعة سماهم - قالوا : بعثت قريش إلى رسول الله -

---

١٥٤ تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤

ﷺ - فى فداء أسراهم . ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس : يا رسول الله ، قد كنت مسلما .

فقال رسول الله - ﷺ - : الله أعلم باسلامك ، فان يكن كما تقول فان الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك ، نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب ، وعقيل بن أبى طالب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر .

قال العباس : ما ذاك عندى يا رسول الله .

قال النبى - ﷺ - : فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ؟ وقلت لها : إن أُصِبت فى سفرى هذا ، فهذا المال الذى دفنته لأبنائى . .

قال العباس : والله يا رسول الله ، إن لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا الشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى . . . . وكانوا قد أصابوا منه عشرين أوقية من مال كان معه .

فقال رسول الله - ﷺ - :لا . . ذاك شىء أعطانا الله - تعالى - منك .

ففدى العباس نفسه ، وفدى ابنى أخويه وحليفه . وأنزل الله تعالى قوله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (١٥٥)

---

١٥٥ الأنفال ٧٠ ، ٧١

فالنبى - ﷺ - حين ظهرت هذه القضية - أى قضية الأسرى ـ لأول مرة - نظر الى جانبين :

الجانب الأول حاجة المسلمين وافتقارهم الى المال

والجانب الثانى هؤلاء الأسرى وما يمكن أن يترتب على فدائهم أو المن عليهم ، فقد يعيد بعضهم النظر فى موقفه من الاسلام .

هذا الى ما كانت تنطوى عليه نفس النبى - ﷺ - من رحمة ظهرت آثارها فى مواقفه كلها من هؤلاء المشركين قبل ذلك . فهو الذى رفض أن يدعو عليهم بالعذاب حين جاء به الملَك . وقال : « دعهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله »

تعليق المفسرين على آية الأسرى :

جاء فى تفسير المنار حول هذه الآية ما يلى :

تضع هذه الآيات أحكاما حول الأسرى فى الحروب . فتوضح أن شأن الأنبياء وسنتهم ألا يكون لهم أسرى فى حروبهم قبل أن تتم لهم الغلبة على أعدائهم تماما ، وحتى يغلبوا على الارض بحيث لا تقوم للشر قائمة ولا يبقى للعدو أثر ، ومن التجارب التى لا شك فيها أن قتل أعداء الأديان فى الحرب من أسباب التمكن والقوة وعظمة السلطان فيها ..... وقد يحصل هذا التمكن بدون ذلك ، فقد يحصل باعداد كل ما يستطاع من القوى الحربية ومرابطة الفرسان والاستعداد التام للقتال الذى يرهب الاعداء والذى أشار اليه قوله تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ
عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ
وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ
٦٠﴾ (١٥٦)

وقد يجتمع السببان معا فيكمل بهما تمكن العزة والسلطان(١٥٧) على أنه قد ورد فى سورة محمد قوله ـ تعالى :

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا
بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ٤﴾ (١٥٨)

وفى هذه الآية توضيح لموقف الاسلام من الأسرى . وهو أن الإمام بعد انقضاء الحرب مخير فى أمر أسراه ، ان شاء من عليهم فأطلق سراحهم بدون فداء ، وان شاء قبل فيهم الفداء .

ولكن للامام أن يقتل من يراه أهلا للقتل قطعا لدابر الفتنة وحسما لمادة الشر ، وقد قتل النبى ـ ﷺ ـ عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث .

---

١٥٦ الأنفال ٦٠
١٥٧ تفسير المنار جـ ١٠ ص ٧٢
١٥٨ محمد ٤

وقال الامام الشافعى فيما يرويه ابن كثير : الامام مخير بين قتل الأسير أو المنّ عليه أو مفاداته أو استرقاقه(١٥٩)

أثر المنّ فى النفوس

وربما أدى المن على الأسير إلى تأليف قلبه وإذهاب ما فى نفسه من أوضار الكفر والحقد والشر ، ويقص علينا ابن الاثير قصة فى ذلك فيقول فى ترجمة « ثمامة بن أثال » :

أسر النبى ـ ﷺ ـ ثمامة بن أثال الحنفى ـ وكان ثمامة قد تعرض للنبى ـ ﷺ ـ يريد اغتياله . فدعا النبى ـ ﷺ ـ ربه ان يمكنه منه .

فاقبل ثمامة يوما فى طريقه إلى مكة معتمرا ، فدخل المدينة فأصابه الله بالحيرة فلم يستطع التصرف ، فأخذ ، وأتى به إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأمر به فربط الى عمود من عمد المسجد .

فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له : مالك يا ثمام هل أمكننا الله منك ؟

فقال ثمامة : قد كان ذلك يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تعف تعف عن شاكر ، وان تسأل مالا تُعطه .

فمضى رسول الله ـ ﷺ ـ وتركه . حتى اذا كان من الغد مر به ، فقال له : مالك يا ثمام ؟

قال ثمامة : خير يا محمد ، ان تقتل تقتل ذا دم ، وإن تعف تعف عن شاكر ، وإن تسأل مالا تعطه .

---

١٥٩ تفسير ابن كثير جـ٧ ص ٢٩٠

ثم انصرف رسول الله - ﷺ -

قال أبوهريرة : فأخذ بعض المساكين من بيننا يقولون: ما نصنع بدم ثمامة ؟

والله إن ما يؤخذ فى فدائه أحب الينا من دمه . .

فلما كان من الغد مر به رسول الله - ﷺ - فقال : مالك يا ثمام ؟

قال ثمامة : خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وان تعف تعف عن شاكر وان تسأل مالا تعطه .

فقال رسول الله - ﷺ - أطلقوه ، قد عفوت عنك يا ثمام .

فخرج ثمامة ، حتى أتى حائطا من حيطان المدينة ، فاغتسل فيه وتطهر ، وطهر ثيابه ، ثم جاء إلى رسول الله - ﷺ - وهو جالس فى المسجد فقال : يا محمد ، لقد كنت وما وجه أحد أبغض إلىّ من وجهك ، ولا دين أبغض إلىّ من دينك ، ولا بلد أبغض إلىّ من بلدك ، ثم لقد أصبحت وما وجه أحب إلىّ من وجهك ، ولا دين أحب إلىّ من دينك ، ولا بلد أحب إلىّ من بلدك ، وإنى أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . . . يا رسول الله ، إنى كنت قد خرجت معتمرا وأنا على دين قومى ، فأسرنى أصحابك فى عمرتى ، فسيرنى - صلى الله عليك - فى عمرتى .

فسيره رسول الله - ﷺ فى عمرته ، وعلمه .

فخرج معتمرا ، فلما قدم مكة ، وسمعته قريش يتكلم بأمر محمد قالوا : صبأ ثمامة .

فقال : والله ما صبأت ، ولكنى أسلمت وصدقت محمدا وآمنت به ، والذى نفس ثمامة بيده لاتأتيكم حبة من اليمامة ـ وكانت ريف أهل مكة ـ حتى يأذن فيها رسول الله ـ ﷺ ـ .

وانصرف إلى بلده ، ومنع حمل الطعام الى مكة ، فجهدت قريش ، فكتبوا الى رسول الله ـ ﷺ ـ يسألونه بأرحامهم إلا كتب إلى ثمامة يخلى لهم حمل الطعام . ففعل ذلك رسول الله(١٦٠)

غزوة بدر فى القرآن

لقد ذكر الله ـ سبحانه ـ هذه الغزوة فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة . وأنزل سورة بأسرها فى شأنها هى سورة الانفال .

وبدأت السورة بذكر ما انتهت اليه الغزوة حيث أشارت إلى الأنفال حين اختلفوا فى أمر قسمتها ، فأمر الله بقسمتها بينهم على السواء .

ثم ذكرهم بأخلاق المؤمنين وما يجب ان يكونوا عليه من إيثار الآخرة على الاولى . .

ثم تعرضت السورة لأحداث الموقعة بدءاً بخروجهم وانتهاء بموقفهم من الأسرى .

وفى خلال ذلك تحدثت عن إمداد الله لهم بعونه ، وإرساله الملائكة مددا لهم .

كما تحدثت عن واجبات المجاهد ووجوب صموده فى مواجهة عدوه ـ قال تعالى :

---

١٦٠ أسد الغابة جـ١ ص ٢٩٤

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ
(١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ
فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٦) ﴾ (١٦١)

كما وجهت أنظار المؤمنين إلى وجوب المبادرة إلى طاعة الله ورسوله لأنه لا يأمر إلا بما فيه الصلاح والسداد :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ
(٢٠) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ﴾ (١٦٢)

وفى ذلك تعريض بالمنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون .

كما تحدثت السورة عن الكفار وبغيهم وموقفهم من الدعوة الاسلامية وتكذيبهم للرسول - ﷺ - ولقد بلغ من شدة كفرهم وجحودهم أنهم قالوا - كما حكى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا
حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ (١٦٣)

---

١٦١ الأنفال ١٥ ، ١٦
١٦٢ الأنفال ٢٠ ، ٢١
١٦٣ الأنفال ٣٢ ، ٣٣

لقد أرسل الله نبيه - ﷺ - رحمة للعالمين ، فوجوده بين قومه منع عنهم العذاب .

وَطَلَبُ كفار قريش العذاب حماقة ليس بعدها حماقة .

ومن الطرائف التى ذكرها الرواة فى ذلك ما يحكى من أن رجلا من اليمن لقى رجلا من قريش فقال القرشى لليمنى : ما أحمق قومك اذ ولوا عليهم امرأة ، يقصد بها بلقيس ملكة سبأ .

فأجابه اليمنى قائلا : بل ما أحمق قومك حين قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .
هلّا قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه ؟
ثم تحدثت السورة عن طغيان هؤلاء الكفار وصدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وبطلان عبادتهم القائمة على تقديس الأوثان المنصوبة حول الكعبة ، والإتيان بأفعال لا تناسب جلال هذا المكان الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١٦٤)

وتحدثت السورة عن مواقع المسلمين والكفار فى غزوة بدر .. كما أشارت الى وجوب لقاء العدو فى ثبات واتحاد وألفة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

---

١٦٤ الأنفال ٣٥

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا
وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (١٦٥)

ونهى القرآن المسلمين عن إظهار العجب والاختيال ، فان ذلك يأتى بالخذلان، ومن صفات المؤمنين التواضع والافتقار الى الله ـ لأن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، وليس بكثرة العدد والعدة . قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ (١٦٦)

وفى النهى عن العجب والرياء قال :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ (١٦٧)

وتحدثت سورة الأنفال أيضا عن خداع الشيطان للكفار ، واغوائه لهم حتى أحلهم دار البوار .

كما تحدثت عن موقف المنافقين من هذه الغزوة وتمنيهم هزيمة المؤمنين ، وكان المنافقون يشكون فى قدرة المسلمين على الصمود أمام كثرة قريش وما جمعته من عدة وعتاد ، وقد فضحهم الله بقوله :

---

١٦٥ الأنفال ٤٥ ، ٤٦
١٦٦ آل عمران ١٢٣
١٦٧ الأنفال ٤٧

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١٦٨)

كما بينت السورة بعض الاحكام التى تتعلق بمعاملة العدو ووجوب إعداد القوة له ، ومنابذته عند الخوف من خيانته ، ومسالمته إن رغب فى ذلك . . قال تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾
وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ
بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ
يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ
لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ
هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١٦٩)

---

١٦٨ الانفال ٤٩

١٦٩ الانفال ٥٨ : ٦٢

عبر وعظات من تلك الغزوة

ولا يمكن أن تمر غزوة بدر دون أن يأخذ منها المسلمون اليوم العظة والعبرة ، وقد دعانا الله الى الاعتبار فى قوله :

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ ﴾ (١٧٠)

ولقد حرص المسلمون الأوائل على دراسة التاريخ وتعليمه لأبنائهم ، قال زين العابدين بن الحسين بن على - رضى الله عنهم - : « كنا نُعَلَّم مغازى رسول الله - ﷺ - كما نُعَلَّم السور من القرآن »

وقال اسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنهم - كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول : يابنى إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها .

وقد حفلت غزوة بدر الكبرى بدروس تستحق أن نتأملها - نذكر منها ما يلى :

الدرس الاول : الاعلام بحقائق الموقف

لقد كان تفوق المشركين على المسلمين فى العدد والعدة تفوقا كبيرا بلغت نسبته ثلاثة الى واحد . وكان الرسول - ﷺ - حريصا على أن يعلم أصحابه بكل جوانب الموقف وأبعاده لا يخفى عليهم شيئا على الاطلاق .

---

١٧٠ الحشر ٢

وكانت هذه أول مواجهة عسكرية حاسمة بين المسلمين والمشركين .

وفى خروج المشركين وقتالهم المسلمين تهديد خطير للدين فى موطنه الجديد بعد فشلهم فى القضاء عليه بمكة ، هذا فضلا عن تفوقهم الظاهر . والنتائج التى سوف تسفر عنها المعركة سيكون لها آثار بعيدة المدى على الدعوة ومستقبلها وعلى هيبة المسلمين ومكانتهم .

وهذا ما عبر الرسول - ﷺ - عنه حين دعا ربه قبل المعركة قائلا : « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد فى الأرض »

وهنا يعلمنا النبى - ﷺ - أن القيادة الرشيدة هى التى تبصر شعبها بالحقائق عن حجم التحدى الذى يواجهه ، وشدة الخطر الذى يتهدده ، ثم تتخذ فى الوقت نفسه من التدابير ما يمكنها من مواجهة الخطر بثبات واقتدار ومن الوسائل ما يمكنها من التغلب على تفوق العدو أو تجريده من فاعليته .

● فحين علم الرسول - ﷺ - بخروج قريش عن بكرة أبيها قال لأصحابه هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ أكبادها »

● وحين استجوب الرسول الرجلين وسألهما عن عدد الذبائح التى تذبحها قريش كل يوم . قال لأصحابه : « القوم بين التسعمائة والألف »

● وحين عرف قرب العدو أعلن انه « وراء الكثيب بالعدوة القصوى » فالرسول - ﷺ - يكشف لنا الخطأ الفاحش الذى يقع فيه الذين يخفون الحقائق فى مثل هذه المواقف عن رجالهم ، فلايعلنون شيئا عن تفوق العدو

بحجة الخشية من هبوط الروح المعنوية ، دون ان يدركوا أن هذه السياسة الاعلامية القاصرة سوف تكون وبالا عليهم عند خوض المعركة ، فينكشف المستور ، ويكون وقع المفاجأة شديدا لا يمكن تلافيه .

الدرس الثانى : حشد الموارد المتاحة واستغلالها

وقد اتخذ الرسول ـ ﷺ ـ فى الوقت نفسه كل التدابير التى تمكنه من القضاء على مزية التفوق لدى عدوه ، وكان على رأس هذه التدابير حشد موارده المتاحة من الرجال والسلاح ، واستثمارها بأعلى درجات التنظيم والادارة والاقتصاد فى القوى ، وهذه من أهم المبادىء التى يقوم عليها علم الادارة الحديث لتحقيق الأهداف بكفاءة . . . وقد ظهر ذلك فيما يلى :

● إحكام السيطرة على الموارد بغاية الإحكام . فقد اتخذ لنفسه مركز قيادة يشرف منه على المعركة بصفته القائد العام .
● تنظيم الجيش فى كتيبتين إحداهما للمهاجرين بقيادة على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ والأخرى للانصار بقيادة سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه .
● حشد الموارد مع الاقتصاد فى القوى ـ فقد أصدر أوامره قائلا : « اذا أكثبوكم ـ اقتربوا منكم ـ فارموهم واستبقوا نبلكم ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم »

فهذا تنظيم دقيق يكفل استغلال طاقات السلاح بعيد المدى بأكبر حشد مع دقة استخدامه فلا يطيش سدى »

الدرس الثالث : أهمية وحدة الصف فى ميزان القوى

واذا كان ميزان القوى من حيث العدد والعدة فى صالح المشركين ، فقد كان ميزان القوى بين الطرفين لصالح المسلمين من حيث وحدة الصف والهدف من قبل أن تبدأ المعركة .

فالمتأمل فى أحوال قريش يدرك أنها خرجت وهى متضاربة الآراء بالرغم من تفوقها الظاهر فى العدد والسلاح .

فقد أرسلت قريش من يستطلع لها قوة المسلمين ، فأخبرهم أنهم ثلثمائة أو يزيدون قليلا ، وقد استعدوا بسيوفهم ، فاضطرب القرشيون ، فمنهم من أراد الرجوع ومنهم من أراد البقاء ، ومنهم من أصابة التردد .

أما المسلمون فقد اتحدت كلمتهم جميعا ، وحين استشار النبى - ﷺ - أصحابه أجمعوا مهاجرين وأنصارا على لقاء العدو . .

وكان هذا الاجماع ثمرة المؤاخاة التى حققها بينهم النبى - ﷺ - قبل ذلك عقب الهجرة .

واذا كان المشركون قد خرجوا من مكة وهم يخشون ان تأتيهم ضربة من خلف - من كنانة - فإن المسلمين قد خرجوا وابتعدوا عن المدينة حوالى مائة وستين كيلو مترا دون خوف ان تأتيهم ضربة من خلف ، لأن الرسول - ﷺ - بسياسته الرشيدة وعبقريته التنظيمية والادارية والعسكرية - جعل المدينة قاعدة وطيدة صلبة ، وجبهة موحدة ، ونظم لأهلها جميعا أمور حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية . بمقتضى ميثاق المدينة الذى سبق ان تحدثنا عنه .

الدرس الرابع ـ المجاهدون الصادقون لا يقهرون

وصف مونتجمرى ـ وهو يؤرخ للحرب عبر التاريخ ـ المسلمين بانهم قوم لا يقهرون ونوه بشجاعتهم وإقدامهم وحشدهم لقواتهم ، ولم يفته وهو الباحث الجيد ـ ان يكشف عن السر وراء ذلك فقال :

كان العرب يندفعون نحو القتال تحركهم أقوى دوافع الحرب ، ألآ وهى العقيدة والايمان ، ومثل هذه النبضات المتلاحقة لم يكن من السهل أن تخبو أو تضعف فالكثيرون منهم وخاصة فى المراحل الأولى للفتوحات الاسلامية كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بالدعوة الأسلامية ، ويتحمسون لها ويغارون عليها . وأدى هذا الى اعتناقهم مبدأ صلبا هو الجهاد فى سبيل الله ، وقد تغلغل هذا المبدأ فى قلوب اتباع الرسول ـ ﷺ ـ

ولقد حفلت غزوة بدر بصور رائعة لقوة الايمان ورسوخ العقيدة التى ملأت قلوب المسلمين ثباتا واستبسالا فى لقاء عدوهم المتفوق عليهم عددا وعدة . .

وحسبنا أن نعلم أن أبا عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ قتل أباه فى المعركة ، وأن عبد الرحمن بن أبى بكر وقد كان مع المشركين فى ذلك الوقت ـ قال لأبيه « الصديق » ـ بعد إسلامه : لقد صدفت لى يوم بدر فلم أقتلك ، فقال أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ: والله لو صدفت لى لقتلتك .

وما من شيء يدعو إلى أن يقتل الابن أباه والأب ابنه إلا قوة الايمان والعقيدة الراسخة ؟

« ان قوة الايمان والعقيدة الصادقة كانت تملأ قلب المسلم بأقوى الدوافع النفسية نحو الاستبسال فى قتال العدو الذى ليس له من تلك الدوافع دافع واحد يستند اليه ، ولا شك ان هذا مما ترجح به موازين النصر ، فان الدوافع النفسية الصادقة تحارب إلى جانب أصحابها كما يحارب الجندى الى جوار صاحبه . .

الدرس الخامس : شجاعة القيادة فى مواجهة الخطر

ولقد قدَّم الرسول القائد ـ ﷺ ـ المثل الرفيع على شجاعة القيادة والقائد فى مواجهة الخطر وقهره .

● فقد واجه فى معركة بدر معركة يطلق عليها رجال الحرب معركة غير متكافئة ولو كان القائد انسانا عاديا لتخلى عن فكرة القتال فيها ، لكنه ـ ﷺ ـ أراد أن يعلم المسلمين أن المجاهد الصادق الذى يعد العدة الكافية لا يمكن ان يقهر لان الله تعالى معه وقد وعده بالنصر قال سبحانه :

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ﴾ (١٧١)

● وكان ﷺ فى المعركة مثالا للشجاعة الفريدة حتى وصفه على بن أبى طالب بقوله : « كنا اذا اشتد الخطب واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد منا أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا الى العدو[١٧٢] »

---

١٧١ الروم ٤٧

١٧٢ راجع مقال اللواء أ ـ ح محمد جمال الدين محفوظ . بمجلة الوعى الاسلامى عدد رمضان ١٤٠٧ هـ

أثر هذه الغزوة

وغني عن القول أن نقول إن المشركين قد أصابهم الغم الشديد بما انتهت اليه هذه الغزوة من خذلان شديد لهم ، فقد أصابهم الغم حتى هلك منهم بذلك من هلك . فحين عاد أبوسفيان بن الحارث الى مكة بعد الموقعة ، سأله أبولهب عن خبر قريش ، فقال له : هلم إليَّ فعندى الخبر . .

قال أبولهب : ما هو ؟

قال أبوسفيان : والله ما هو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ، وبأسروننا كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك مالمت الناس ، لقد لقينا رجالا بيضا على خيل بلق والله لا يقوم لهم شيء - قال أبورافع مولى رسول الله ﷺ وكان غلاما مملوكا للعباس بن عبدالمطلب :

كان الاسلام قد دَخَلَنا - أهل البيت - فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا ، وكان العباس يكره مخالفة قومه فكان يكتم إسلامه وكان ذا مال .

قال أبورافع : فقلت لأبي سفيان بن الحارث وهو يقص ذلك الخبر : والله إنهم الملائكة .

قال : فرفع أبولهب يده فضربنى فى وجهى ضربة شديدة ثم احتملنى فضرب بى الأرض ثم برك عليّ يضربنى .

فقامت أم الفضل الى عمود من عمد الخيمة فضربت به رأس أبي لهب ضربة أسالت الدم من رأسه وقالت : استضعفته ان غاب عنه سيده .

فما عاش أبولهب بعد ذلك إلا سبع ليال ، حتى رماه الله بالعدسة ، وهى قرحة كانت العرب تتشاءم بها - هى بثرة كالطاعون أو أشد ، وقيل إنها كانت تعدى أشد العدوى ، فتباعد عنه بنوه . حتى قتله اللهبها ،وبقى ثلاثة أيام لا يقرب أحد جثته تشاؤما منه ، وخوفا من عدواه ، حتى خاف أولاده السبة فى تركه هكذا بدون دفن ، فحفروا له ثم دفعوه بعود فى حفرته ، وقيل : لم يحفروا له ، بل دفعوه حتى ألصقوه بالحائط ثم أهالوا عليه التراب والحجارة من بعيد حتى واروه .

وقد أقام القرشيون النوح على قتلى قريش شهرا[173]

وقطعت النساء شعورهن ، وكن يأتين بفرس الرجل أو راحلته وتستر بالستور ويبكين حولها ويخرجن إلى الأزقة . .

وكان أول من قدم مكة بخبر هزيمة قريش الحيسمان بن عبدالله الخزاعى . .

فقالوا له : ما وراءك ؟

قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبوالحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وزمعة بن الاسود ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأبوالبخترى بن هشام ، فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية : وهو قاعد عند الحجر : والله إن هذا الفتى ما يعقل ما يقول ، فاسألوه عنى ، فقالوا له : أين صفوان بن أمية ؟

---

١٧٣ المواهب الدينية جـ١ ص٤٥٣

قال : ها هو ذاك جالس فى الحجر ، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

وظلت قريش تبكى القتلى حتى قالوا : لا تبكوا فيبلغ ذلك محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى لا يبالغوا فى طلب الفداء . فكفوا عن النوح .

وكان الأسود بن المطلب قد أصيب فى ثلاثة أولاد : زمعة ، وعقيل ، والحارث بن زمعة ، وكان يحب أن يبكى على بنيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له ـ وكان قد ذهب بصره ـ انظر هل أحلَّ القوم النوح ؟

هل تبكى قريش على قتلاها ؟ حتى أبكى على أبى حكيمة ـ يعنى زمعة ـ فإن جوفى قد احترق .

فلما رجع اليه الغلام قال له : انها امرأة تبكى على بعير لها أضلته . فقال الأسود :

أتبكى أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكى على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود
وابكى إن بكيت على عقيل وابكى حارثا أسد الاسود
وابكيهم ولا تسمى جميعا وما لابى حكيمة من نديد(١٧٤)

هذا هو وقع الخبر بالنسبة لقريش .

---

١٧٤ الروض الانف للسهيل جـ٢ ص ٥٥

أما وقع الخبر فى المدينة فقد كان على عكس ذلك تماما .

لقد عمت الفرحة أرجاء المدينة وشملت كل ركن فيها ، وان كان الغم قد أصاب اليهود والمنافقين وذلك أمر طبيعى . .

روى ابن عباس - رضى الله عنهما - قال . قال النبى - ﷺ - : « لما قدمت الى المدينة بعد بدر وكنت جائعا استقبلتنى امرأة يهودية على رأسها جفنة فيها جَدْى مشوى ، فقالت : الحمد لله يا محمد أن سلمك الله ، كنت نذرت لله إن قدمت المدينة سالما لأذبحن هذا الجدى ولأشوينه ولأحملنه اليك لتأكل منه: فأنطق الله الجدى فقال : يا محمد لا تأكلنى فانى مسموم »

ذكر هذا الخبر الحلبى فى سيرته[175]

ولا يستبعد حدوث ذلك من اليهود . . . وقد أوردت الروايات الصحيحة كثيرا من أخبار غدرهم وخيانتهم . . وخبر الشاة المسمومة فى خيبر ثابت لا شك فى صحته ، أما هذا الخبر فانه فى حاجة الى توثيق .

دخل النبى - ﷺ - المدينة بين مظاهر الفرح والابتهاج ، وقد أقبلت الولائد بالغناء يرددن النشيد المشهور :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وقال أسيد بن الحضير : الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك يا رسول الله . أجل لقد أقر الله عين نبيه ، وأسعد جده ، وأظهر دينه ، وخذل عدوه . .

---

١٧٥ السيرة الحلبية جـ٢ ص٤٤٣

وقع الخبر خارج جزيرة العرب

وقد بلغ الخبر النجاشي فسر به سرورا بالغا ، ذكر جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه ـ أن النجاشي أرسل اليهم ذات يوم وهم بالحبشة،فدخلوا عليه فوجدوه جالسا على التراب لابسا أثوابا خلقة ، فقالوا له : ما هذا أيها الملك ؟

فقال لهم : إنى أبشركم بما يسركم ، إنه قد جاءنى من نحو أرضكم ـ عين لى ـ فأخبرنى أن الله ـ عز وجل ـ قد نصر نبيه وأهلك عدوه فلانا وفلانا وعدد جمعاً من القتلى . . ثم قال لهم : لقد التقى الفريقان فى مكان يقال له بدر ودارت الدائرة على أعداء الله ورسوله .

فقال له جعفر : فمالك أيها الملك تجلس على التراب عليك هذه الثياب ؟

قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى أنَّ حقا على عباد الله عندما يحدث الله نعمة أن يتواضعوا له(١٧٦)

فضل من شهد بدرا

لقد أكرم الله من شهد بدرا حتى كان شهودها سببا فى غفران الذنوب والتجاوز عن السيئات .

ذكر الرواة أن رجلا من الصحابة جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ يقول له : يا رسول الله إن ابن عم لى نافق ـ وكان من أهل بدر أتأذن لى أن أضرب عنقه ؟

---

١٧٦ انظر السيرة الحلبية جـ٢ ص٤٦٢

فقال : ﷺ : « إنه شهد بدرا وعسى أن يكفر الله عنه »

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال . قال رسول الله ﷺ : « اطلع الله على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »

وعن حفصة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إني لأرجو ألا يدخل النار إن شاء الله تعالى أحد شهد بدرا والحديبية » قيل : إن الواو هنا بمعنى « أو »

وروى الطبراني عن رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : « والذى نفسي بيده لو أن مولودا ولد فى فقه أربعين سنة من أهل الدين يعمل بطاعة الله تعالى كلها ويجتنب معاصي الله كلها إلى أن يُردَّ الى أرذل العمر . أو يرد إلى أن لا يعلم بعد علم شيئا ـ لم يبلغ ما بلغه أحدكم هذه الليلة »

لقد كانت « بدر » بدرا فى أفق الدعوة الاسلامية ، أشرق نورها فأضاء غياهب الشرك ، وأذهب ظلمات الباطل . وحق أن يطلق عليها يوم الفرقان كما ذكرها الله تعالى بذلك فى قوله :

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ (١٧٧)

---

١٧٧ الأنفال ٤١

غزوة بني قينقاع

- فزع اليهود بسبب انتصار المسلمين في بدر .
- يهود بني قينقاع ينقضون العهد .
- حصار النبي و المسلمين لهم .
- تدخل عبد الله بن سلول للعفو عنهم .
- سوء تصرف اليهود مع امرأة مسلمة من الأنصار .
- حكم موالاة غير المؤمنين .
- هل كان هناك عنف وقسوة في معاملة المسلمين لبني قينقاع ؟

فى مواجهة اليهود

« غزوة بنى قينقاع »

كان لنصر المسلمين المؤزر على كفار قريش وقع شديد على يهود المدينة ومنافقيها . وقد ظهر أثر ذلك فى قول كعب بن الاشرف اليهودى : لئن كان مايقوله هذا المنادى ـ وهو البشير الذى أرسله النبى ـ ﷺ ـ يبشر أهل المدينة بالنصر ـ صحيحا فبطن الارض خير من ظهرها . .

لقد ساءه أن يسمع أن الله نصر النبى ـ ﷺ ـ والمسلمين على الشرك وأهله ، وكان يتوقع أن يسمع نقيض هذا الخبر ، بل كان ينتظر ويترقب خبر هزيمة الرسول والمؤمنين ، ولعله قد منى نفسه الأمانى بقرب الفرج الذى ينتظره ، وأن الغُمَّةَ التى خيمت ـ فى زعمه ـ على المدينة بحلول المهاجرين فيها قد آن لها أن تنكشف ، وأن قريشا التى حشدت ماحشدت من سلاح ورجال سوف تقضى على هؤلاء الذين غرتهم قوتهم يعنى بذلك المسلمين .

وكانت المظاهر كلها تؤيد ظن ابن الأشرف وقومه فما كان يظن هو ومن معه من اليهود والمنافقين أن أولئك الغرباء الضعفاء الفقراء القليلى العدد والعدة يستطيعون ان يقفوا فى طريق هذا الجحفل القادم من مكة فى قوته وعدده ساعة من نهار . .

وربما كان ابن الاشرف ومن معه من اليهود يتضاحكون فيما بينهم ، ويستهزئون مقدما بهؤلاء المسلمين الذين يتطاولون على من بيدهم القوة ،

ويتجرءون على ان يقفوا فى طريقهم أو يفكروا فى حربهم . .

ألم يقل المنافقون الذين يظاهرون اليهود : إن المسلمين قد غرهم دينهم - كما ذكر لنا القرآن الكريم فى قوله .

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

وغفلوا عن أن الله سبحانه قادر على كل شىء كما قال فى عجز هذه الآية :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٩ ﴾ (١٧٨)

فلما جاءت نهاية المعركة على غير ماكان هؤلاء يتوقعون ملأ الغم نفوسهم ، وظلل الأسى وجوههم ، وانتابهم الغيظ الذى جعلهم يتخبطون ولايدرون ماذا يفعلون . .

وكان ماكان من أمر كعب بن الاشرف الذى سبق أن أشرنا الى قصته .

وذكرنا أنه أسرع بالذهاب الى أهل مكة يعزيهم فى مصابهم ، ويواسيهم فى خطبهم ، ويشد من أزرهم ، ويكفكف من عبراتهم .

وأخذ ينشد الاشعار - وكان شاعراً - فى رثاء قتلى بدر من المشركين ، ويذكر صنائعهم وأياديهم من مثل قوله : -

كم قد أصيب به من أبيض ماجد ذى بهجة يأوى اليه الضيع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت حمال أثقال يسود ويربع

---

(١٧٨) الأنفال ٤٩

ولقد وجد كعب بن الاشرف من يرد عليه ويلقمه حجراً ، ويذكر له أن مصرع هؤلاء كان لبغيهم والبغى مرتعه وخيم .. وأن من أفلت ممن شهد المعركة منهم لم يفلت بقوته وشجاعته وحسن تدبيره ، ولكن أفلت بجبنه وخذلانه وفراره ، وقال أحد شعراء المسلمين فى ذلك :-

ولقد شفى الرحمن منا سيدا وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
ونجا وأفلت منهم من قلبه شغف يظل لخوفه يتصدع

وأخذ كعب - كما سبق أن قدمنا - يشد من أزر المشركين بشعره ، حتى عاد الى المدينة ، فوجه شعره وجهة جديدة .. فقد أخذ يشبب بنساء المسلمين حتى تأذى المسلمون بذلك ، فقرروا التخلص منه اتقاء لشره ..

لقد كان تصرف كعب بن الاشرف هذا صدى لما كان يعتمل فى نفسه من عوامل الحقد والضغينة والغيظ .

كما كان لهذا الغيظ مظهر آخر تكشف عنه هذه القصة التى أدت الى غزو بنى قينقاع ..

وبنو قينقاع بتثليث النون والضم أشهر - بطن من يهود المدينة ، كانت منازلهم عند جسر بطحان مما يلى العالية ، وهم رهط عبد الله بن سلام الذى أسلم وأشار اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾(179)

(179) الأحقاف 10

وهم قوم لهم قوة وصبر ، بل كانوا أشجع بطون اليهود وأكثرهم مالا وأشدهم بغياً .

وقد جعل القسطلانى ـ رحمه الله ـ أعداء الاسلام بعد الهجرة ثلاث طوائف . .

منهم طائفة وادعها النبى ـ ﷺ ـ على ألا يحاربوه ولا يؤلبوا عليه عدوه بل يكونوا معه على عدوه اذا دهمه ، وهؤلاء هم فئات اليهود التى كانت تسكن المدينة وهم : بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع .

وقد نقض هؤلاء عهدهم . كما سنرى .

وطائفة ناصبته العداء والشقاق ونابذته بالحرب وهم القرشيون . .

وطائفة تركته وانتظرت مايئول اليه أمره ، فان آل الى النصر والظفر بقريش تبعوه ، وان كان العكس تبعوهم ، وهؤلاء هم طوائف من قبائل العرب ، إلا أن منهم من كان يحب فى الباطن أن يظفر النبى ـ ﷺ ـ كقبيلة خزاعة ، ولذلك سارعوا إلى الانضمام اليه فى صلح الحديبية ، ومنهم من كان يحب فى الباطن أن تظفر قريش كقبائل بكر ولذلك دخلت فى عقد قريش ، ومنهم من أظهر الاسلام وأبطن الكفر كالمنافقين [١٨٠]

يهود بنى قينقاع ينقضون العهد

ذكر الرواة أن بنى قينقاع نقضوا العهد الذى أبرمه النبى ـ ﷺ ـ معهم . وقد بدت لهذا النقض مظاهر . . منها غمهم الشديد لهزيمة قريش أمام

---

(١٨٠) المواهب الدينية جـ ١ صـ ٤٥٦

المسلمين . . وقد بدا ذلك فى فلتات ألسنتهم ، فقد روى ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : لما أصاب رسول الله ـ ﷺ ـ قريشا يوم بدر ، بدأ حقد اليهود على النبى والمسلمين يزداد ويظهر ، فكانوا يتلفظون بمايدل على كراهيتهم للرسول ـ ﷺ ـ وأخذوا يؤلبون عليه القبائل ويدبرون ضده المؤامرات . . وكانت أعمالهم تلك لا تخفى على ذى بصيرة ، فضلا عن النبى ـ ﷺ ـ الذى أيده الله بالوحى ، ورزقه الالهام الصادق والفراسة الصائبة .

ولما كلمهم النبى فى ذلك لم يحسن بنو قينقاع الرد على النبى ـ ﷺ ـ ولكنهم قالوا له : أغرك أنك لقيت قوما لا بصر لهم بالحرب ، ولا معرفة لهم بالقتال ؟ فوالله لو قاتلناك لعرفت أنا الرجال . .

وقد نزل القرآن الكريم يذكر هؤلاء وأمثالهم بأن يتخذوا مما حدث لقريش عظة وعبرة ، فقال سبحانه :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١٨١)

ولم يلبث اليهود أن شفعوا أقوالهم تلك بتصرف غادر يثير غيظ الحليم . ذلك أن امرأة من الانصار ذهبت بِحَلَب لها إلى سوق بنى قينقاع فباعته ،

---

(١٨١) آل عمران ١٢ ، ١٣

ثم انصرفت الى صائغ يهودى تشترى بعض الحلى . فراودها على أن تكشف عن وجهها فأبت .

فأوعز الى صبيان لهم جاءوا من ورائها فى خفية ، ورفعوا ذيل ثوبها فانكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصرخت . فهب لنجدتها رجل من المسلمين ووثب على الصائغ واشتبك معه ، وقام بعض اليهود يعاونون الصائغ فقتل المسلم الصائغ اليهودى ، وقتل اليهود الرجل المسلم . .

فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون على بنى قينقاع . . لأنهم الذين بدأوا بإهانة المسلمين .

وأجمعوا على حربهم . وأيدت السماء المسلمين لأنه لا عهد لغادر . . وقد نبه الحق سبحانه وتعالى إلى وجوب نبذ عهد الخائنين فقال :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١٨٢)

قال القرطبى : نزلت هذه الآية فى بنى قريظة وبنى النضير ولكن ابن سعد فى طبقاته يقول : لما كانت وقعة بدر أظهر بنو قينقاع العداء والحقد على النبى والمسلمين ونبذوا العهد فأنزل الله ـ تعالى ـ وإما تخافن من قوم خيانة . . . »

وكانت خيانة بنى قينقاع ظاهرة فسار إليهم .

---

(١٨٢) الأنفال ٥٨

الحصار

سار إليهم النبى - ﷺ - يوم السبت فى منتصف شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة . . واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر الانصارى الأوسى المدنى . . وضرب عليهم الحصار خمس عشرة ليلة ، الى هلال ذى القعدة . .

وحمل لواء النبى - ﷺ - حمزة بن عبد المطلب . . وقذف الله فى قلوب بنى قينقاع الرعب - على الرغم من أنهم كانوا قد تحصنوا فى حصونهم القوية التى تعودوا أن يحاربوا من ورائها . . . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى قوله :

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٨٣)

فلما طال الحصار نزلوا على حكم رسول الله - ﷺ - واستسلموا . . وأمر النبى - ﷺ - ، بشد أيديهم خلف ظهورهم حتى يرى رأيه فيهم .

تدخل عبد الله بن أبى

ومر عليهم عبد الله بن أبى بن سلول واتباعه وكان مواليا لهم ، فهم بأن يطلق سراحهم ، فقال له المنذر بن قدامة السلمى : أتطلق قوما أمر النبى - ﷺ - بقيدهم ،والله لا يفعله أحد إلا ضربت عنقه .

---

(١٨٣) الحشر ١٤

وأقبل عبد الله بن أبيّ على رسول الله ـ ﷺ ـ يستشفع لهم فلم يلتفت اليه . فألح عبد الله وقال : يامحمد أحسن الى هؤلاء فهم حلفائى فأعرض عنه النبى ـ ﷺ ـ ، وعاد عبد الله يلح على رسول الله ، فغضب النبى ـ ﷺ ـ وقال له : ويحك اتركنى.. قال :والله لاأتركك حتى تحسن فى موالى .. واشتد غضبه ـ ﷺ ـ حتى ظهر الغضب فى وجهه ..

لقد كان هؤلاء أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع .

فقال عبدالله بن أبيّ : هؤلاء يمنعوننى من الأحمر والأسود ، وأنا رجل أخشى الدوائر فلا تقتلهم .

فلما أثقل عبد الله على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : حلو أكتفاهم ..

وتركهم يرحلون عن المدينة على أن يتركوا أموالهم ، ويأخذوا نساءهم وأولادهم ..

فخرجوا من حصونهم وذهبوا إلى أذرعات ، فلم يدر عليهم الحول فيها حتى هلكوا ..

لقد كان بنو قينقاع حلفاء لعبد الله بن أبى ، كما كانوا حلفاء لعبادة بن الصامت .

فأما عبادة فقد نفض يده منهم وذهب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يقول له : يارسول الله إنى أبرأ إلى الله ورسوله من حلف هؤلاء الغادرين الناقضين للعهد ...

أما عبدالله بن أبي فقد تمسك بحلفهم ومظاهرتهم والدفاع عنهم .. وهذا هو الفرق بين المؤمن والمنافق ..

وقد نزل القرآن الكريم يوضح أن المؤمن لا يجب أن يوالى أعداء الله وأعداء دينه ، بل يجب أن يكون وليه الله ورسوله ، وأنه لا يوالى أعداء الله إلا من كان فى قلبه مرض . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ ٥٥ ، ٥٦ سورة المائدة ..

وقال تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١٨٤)

كما نهى الله عن موالاة جميع الأعداء فى مواضع متعددة ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

---

(١٨٤) المائدة ٥١ ، ٥٢

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ (١٨٥)

وهذا أمر عام بالنسبة للكفار جميعا ـ أما اليهود والنصارى فقد نزل أمر خاص بهم حين حدث ما حدث من أمر بنى قينقاع ، وظهر من المنافقين ما ظهر من أمر موالاتهم اليهود ودفاعهم عنهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (١٨٦)

لقد أظهر الله فى هذه الآيات موقف اليهود المعادى للمسلمين ، وكشف دخائل نفوسهم وحذر المؤمنين من غدرهم وخيانتهم . .

إن علامة المؤمن الحق أن يستجيب لله ورسوله ، ويحب الله رسوله ويتبرأ من الكفر وأهله ومن ينتسب اليه . .

إن موالاة الكفار أشبه بالارتداد عن الاسلام ، بل هو ارتداد فعلا يحبط الأعمال ويستحق صاحبه دار البوار . قال الله فى ذلك

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ

---

(١٨٥) الممتحنة ١

(١٨٦) المائدة ٥١

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾(١٨٨)

لقد كان هؤلاء اليهود يسخرون من الأذان حين ينادى به المؤذن داعيا الناس إلى أداء الصلاة ، حتى قال الله تعالى فى ذلك

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨) ﴾(١٨٩)

وفعل أهل الكتاب هذا يشهد بمدى ما وصلت إليه نفوسهم من انغلاق وبعد عن دوافع الخير ، وانفتاح على دواعى الشر والرذيلة ، وتجاوب سريع مع فعل الشيطان . فقد ورد أن الشيطان إذا سمع الأذان أدبر حتى لا يسمع التأذين . فإذا قضى التأذين أقبل ، فاذا ثوب بالصلاة أدبر ، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه ، فيقول له : اذكر كذا ، اذكر كذا ، حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام أو بعده »(١٩٠)

---

(١٨٧) المائدة ٦٧

(١٨٨) المائدة ٥٤

(١٨٩) المائدة ٥٧ ، ٥٨

(١٩٠) تفسير ابن كثير جـ ٣ ، صـ ١٣٢ وقال : متفق عليه

كما يدل هـذا على مدى التلازم بين اليهود والمنافقين ، فإن المنافقين كانوا يستقبلون الصلاة فى امتثال ظاهر واعوجاج باطن قال تعالى

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ (١٩١)

وكان الولاء واضحا بين المنافقين واليهود ، يشهد له ذلك الدفاع الحار من ابن أبى بن سلول ـ عن بنى قينقاع ، حتى لقد أغضب رسول الله ـ ﷺ ـ فى سبيل إرضائهم ، ولم يستجب رسول الله له عن رضا ، ولكنه استجاب له ضيقا بإلحاحه الشديد . .

سوء تصرف اليهود مع المرأة المسلمة

لقد كان تصرف اليهود مع تلك المرأة المسلمة تصرفا شائنا سيئا . . لقد كان هدفهم الإساءة إلى المسلمين على أى حال ـ هى امرأة مسلمة رأوها فى سوقهم جاءت تبيع وتشترى ، فأبى حقدهم الدفين إلا أن يطل برأسه من بين صدورهم ، وسول لهم شيطانهم أن يهينوا تعاليم الإسلام ، وما يأمر به من احتجاب المرأة وسترها . . سول لهم الشيطان أن يهينوا تلك التعاليم ممثلة فى تلك المرأة . . فمن اليقين أنها لم تكن أول امرأة تذهب الى السوق فى هذه الصورة . ولكن ذلك الصائغ سول له شيطانه أن يفعل ذلك لينعكس

---

(١٩١) النساء ١٤٢

هذا الشؤم عليه وعلى غيره ممن انطوت نفوسهم على الحقد الدفين ، والغيظ الذى أخذ يتلظى بعد أن ظهرت نتيجة معركة بدر ، وخذل فيها هؤلاء الذين كان يعقد عليهم اليهود الآمال فى القضاء على هذه الدعوة الوافدة على المدينة .. والحقد حينما يثور يتحين لثورته أى سبب كان ، وكان حجاب هذه المرأة هو السبب ..

وجاء رد المسلمين على هذه الوقاحة اليهودية طبيعيا ، يلتقى مع غيرة الاسلام وغيرة العروبة ..

ولكن المنافقين لم يكونوا على مستوى هذا الموقف الاسلامى النبيل .. بل تدنوا الى درجة الاستخذاء وقبول الذل وعدم الغيرة الشريفة على العرض والشرف والكرامة .. وهذا هو شأن النفاق فى كل زمان ومكان ..

حكم تولى غير المؤمنين

والإسلام يحذر من تولى غير المسلمين ، بمعنى أن يفضل المسلم العدو على أخيه فى الدين ..

وقد جاء ذلك صريحا فى آيات متعددة ، ذكرنا بعضها . ونذكر من ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ

﴿نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾(١٩٢)

وربما تذرع البعض بهذه الآية فأباحوا تولى غير المؤمنين إذا اتقينا منهم تقاة . . . ولكن ذلك مردود عليه بما قاله معاذ بن جبل ومجاهد،فقد قالا : كانت التقيه فى بدايه الإسلام قبل قوة المسلمين ، فأما بعد أن أعز الله الاسلام فلا تقية . .

وقد أراد عبادة بن الصامت رضى الله عنه ـ أن يستظهر يوم الأحزاب ببعض اليهود ، وقال للنبى ـ ﷺ ـ : يارسول الله ، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو . فأنزل الله هذه الآية .

« ولا يستثنى من هذا الحكم وهو تولى الأعداء ، إلا حالة واحدة ، هى ما إذا اضطر المسلمون إلى هذه الموالاة بسبب شدة الضعف التى قد تحملهم كرها على ذلك . . . وينبغى أن نعلم أن النهى عن موالاة غير المسلمين لا يعنى الأمر بالحقد عليهم ، فالمسلم منهى عن أن يحقد على أحد من الناس . . . وينبغى أن نعلم أن هنا لك فرقا كبيرا بين أن يغضب الانسان على أحد من أجل الله تعالى ، وبين أن يحقد عليه »(١٩٣)

---

(١٩٢) آل عمران (٢٨)

(١٩٣) فقه السيرة للبوطى صـ ١٨٣

حتى فى حالة الحرب بين المسلمين وغيرهم فإن هذا لا يمنع من إقامة العدل مع الإعداء ومعاملتهم معاملة حسنة ،

وهذا هو شأن الاسلام دائما . فالمسلم الحقيقى هو الذى يكون غضبه لله ، وبسبب تجاوز الحدود التى أمر الله بالوقوف عندها ، وعدم تجاوزها .

ولقد أمر الله ـ تعالى ـ بإقامة العدل مع الاعداء كأقامته مع الأولياء .

قال تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾ (١٩٤)

هل هناك عنف فى معاملة بنى قينقاع ؟

يخطىء من يظن أن الإسلام قد عامل بنى قينقاع بعنف . . . لقد كان إجلاء بنى قينقاع هو العلاج الحاسم لما كان يحدث منهم . وليس الأمر أمر اعتداء يهودى على امرأة مسلمة بهذه الصورة التى ذكرناها ، ولكن تصرف اليهود مع المرأة كان هو القشة التى قصمت ظهر البعير ـ كما يقال ـ لقد حدث منهم الكثير من التصرفات السيئة ، وحاولوا الكيد وفتنة الناس مما أوجب على المسلمين العمل على حسم هذا الداء وقطع دابر الفتنة التى

(١٩٤) المائدة ٨

توشك أن تستشرى . . لقد لوحوا بالحرب ، وقالوا علنا لرسول الله ـ صلى اللع عليه وسلم ـ لا تظن يامحمد أننا كقومك ؟ لا يغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس . .

فالروح العدوانية التى تنطوى على الغدر والخيانة هى التى أملت على المسلمين أن يقفوا من اليهود هذا الموقف ، والروح العدوانية سمة اليهود منذ قديم الزمان ، « فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى ملىء بالعدوان ، وتغلب عليهم صفة الشراسة والعنف . . بالإضافة إلى اتصافهم بالمكر والخديعة ، واستعمال مختلف الوسائل لتحقيق أهدافهم مهما كانت تلك الوسيلة مخالفة للقيم والأخلاق الدينية . .

وقد أفرز هذا التفكير . . صفات القوة والعنف لدى اليهود على أرض فلسطين فى العصر الحديث ، فما نراه اليوم منهم هو طبعهم المتأصل فيهم منذ القدم »(١٩٥)

لقد فطن النبى ـ ﷺ ـ إلى أن اليهود يمثلون مركز قوة فى المدينة وهم يحتكرون صناعة السلاح وترويجه ، ولهم حلفاء من المنافقين يتولون أمر الدفاع عنهم عند الضرورة . وقد رأينا كيف فعل ابن سلول مع النبى ـ ﷺ ـ من أجلهم . .

---

(١٩٥) الشخصية اليهودية الاسرائيلية والروح العدوانية د . رشاد عبد الله الشامى صـ ١٤٠ ط عالم المعرفة

فلو وقف النبى والمسلمون منهم موقفا سلبيا لاستشرى فسادهم ، وأصبحت العواقب وخيمة يصعب علاجها فى المستقبل .. فكان علاج ماحدث يتطلب هذا التصرف الحكيم من النبى - ﷺ -

ولابأس من قطع سلسلة الأحداث التاريخية ، لنستكمل حلقات التآمر اليهودى ضد الإسلام - فنتحدث عن بقية طوائف اليهود الذين كانوا يترصدون الموقف ، ويرقبون الأحداث لينفذوا من خلال مايرونه مناسبا إلى تحقيق مآربهم فى كيد الإسلام ورسوله - ﷺ -



غزوة بني النضير

- الأحداث التي سبقت تلك الغزوة .
- تآمرهم على قتل الرسول .
- عاقبة البغي .
- حصار المسلمين لبني النضير .
- استسلامهم بعد طول الحصار .
- خروجهم من المدينة .
- هل أسلم منهم أحد ؟
- مثل المنافقين واليهود .

بنو النضير قبيلة كبيرة من اليهود كانت لهم منازل ونخيل بناحية المدينة .

وذكر البعض أنهم حى من يهود خيبر ، ولهم قرية يقال لها « زهرة » وقد حدث من هؤلاء اليهود ما استوجب حصارهم وإجلاءهم عن المدينة كما أجلى سلفهم بنو قينقاع .

والقسطلانى يذكر فى كتابه ما أورده السهيلى من أن حصار بنى النضير كان ينبغى أن يكون الحديث عنه قبل غزوة أحد .. لأن هذا الحصار تم قبل أحد على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ..

فعلى هذا القول يكون حديثنا هنا ماضيا مع التسلسل الزمنى للأحداث . ولكن أغلب الرواة يرون أن حصار بنى النضير كان فى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ..

واسباب الحصار تصدق ذلك التاريخ وترجحه .

أحداث سبقت الحصار

وهناك أحداث لابد من الاشارة اليها ، لأن الحصار قد ترتب عليها .. من هذه الاحداث : حادثة بئر معونة .

وقصة ذلك كما يرويها ابن هشام فى سيرته قال : قدم أبوبراء عامر بن مالك بن جعفر الملقب بملاعب الأسنة على رسول الله - ﷺ - بالمدينة فدعاه النبى - ﷺ - إلى الاسلام بعد أن عرضه عليه ، ولكنه لم يسلم ، ولم يبعد

عن الاسلام[١٩٦] . وقال : يا محمد لو بعثت معى رجالا من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك . رجوت أن يستجيبوا لك .

فقال النبى - ﷺ - : إنى أخشى عليهم أهل نجد .

فقال ابوبراء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فأرسل النبى - ﷺ - المنذر بن عمرو ومعه أربعون رجلا من أصحابه كان يطلق عليهم القراء ، لأن القرآن كان شغلهم الشاغل يتدارسونه بالليل ، وفى النهار كانوا يحتطبون ..

ونزل هؤلاء القوم « بئر معونة » وهو موضع لهزيل ، بين مكة وعسفان ، وبجواره ارض لبنى عامر ، وحرة لبنى سليم .

وبعثوا واحدا منهم اسمه حرام بن ملحان وكان يحمل كتابا من رسول الله - ﷺ - إلى عامر بن الطفيل . فلم ينظر عامر فى الكتاب ، وعدا على الرجل فقتله ، ولم يكتف بذلك بل استصرخ عليهم قبائل بنى سليم فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا على هؤلاء القوم حتى غشوهم فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأى المسلمون غدر القوم اخترطوا سيوفهم مدافعين عن أنفسهم ومازالوا يقاتلون حتى قتلوا عن آخرهم . ولم ينجح منهم سوى كعب بن زيد فقد أصيب ، وظنوا أنه قد قتل ، ولكنه كان به رمق ، فقاوم الجرح وعاش حتى قتل شهيدا بعد ذلك فى غزوة الأحزاب ..

---

(١٩٦) أى أنه لم يقبل الاسلام ولم يرفضه

وكان رجلان من جماعة المسلمين يقومون بشأن الابل بعيدين عن أصحابهم ، فلم يشعروا بما حدث لاخوانهم ، حتى رأيا الطير تحوم فوق مكان المعركة .

فقالا : والله إن هذه الطيور لها شأن ، فأقبلا ينظران فاذا القوم مصرعون فى دمائهم ، واذا الخيل التى أصابتهم ما تزال واقفة .

فقال أحدهما للآخر : ما ترى ؟

قال له صاحبه : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر .

فقال الآخر : ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه أصحابى .

فقاتل حتى قتل ، وأُخِذَ الآخر أسيرا وهو عمرو بن أمية الضمرى .. ثم لم يلبث عامر بن الطفيل ان أطلق سراحه بعد أن جزَّ ناصيته وفى طريق عودة عمرو إلى المدينة ظفر برجلين ظنهما من بنى عامر اى من رهط عامر بن الطفيل الذى صنع هذه المأساة ، وغدر بالمسلمين .. فعدا عمرو عليهما فقتلهما وهو يرى أنه نال بقتلهما ثأرا لأصحابه ..

ولم يعرف عمرو أن هذين الرجلين كان بينهما وبين النبى ﷺ عهد .... فلما عاد وأخبر النبى ﷺ بذلك قال له : لقد قتلت قتيلين بطريق الخطأ ، ولابد من أداء دية كل منهما ..

وتأثر النبى ﷺ بمقتل أصحابه القراء الذين أرسلهم مع أبى براء ، وقال : قد كنت لهذا الأمر كارها ـ أى أنه كارهاً لذهابهم .

وظل شهرا يقنت فى صلاة الصبح يدعو على قبائل سليم ـ رعل وذكوان وبني لحيان ..... وهم القوم الذين استصرخهم عامر بن الطفيل على المسلمين بعد أن نقض عهد ابى البراء وخفر ذمته ..

واختلفت الأقوال فى أمر عامر بن الطفيل هل أسلم بعد ذلك أم لا ؟

فقيل : إنه شاهد ما كان من أمر المسلمين الذين استشهدوا دفاعا عن دينهم ـ شاهد منهم ما أثار دهشته وعجبه وقربه إلى الاسلام .

فقد رأى فيهم حبهم للاسلام ، ودفاعهم عنه ، وبذلهم كل غال ورخيص فى سبيل هذا الدين . ففكر فى أمر تلك العقيدة التى تدفع المؤمنين بها إلى بذل أى شىء وكل شىء فى سبيلها .

وقال هؤلاء : إنه أسلم وهو الذى قال يا رسول الله زودنى بكلمات أعيش بهن

فقال له : « يا عامر ، أفش السلام وأطعم الطعام واخش الله ولا تخش الناس ، واذا أسأت فأحسن فان الحسنات يذهبن السيئات » .

ولكن ابن الأثير يقول : لم يختلف أحد من المتقدمين أن عامر بن الطفيل مات كافرا ، وقد عاد من عند الرسول ـ ﷺ ـ كافرا وكان معه أربد بن قيس ، وقد دعا رسول الله ﷺ عليهما وقال : اللهم اكفنى شرهما بما شئت . فأنزل الله ـ تعالى ـ على أربد صاعقة فأهلكته ، وأخذت عامرا الغُدَّة ـ أى أصيب بمرض الغدة

فكان يقول : غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية[197] ؟

ما علاقة بنى النضير بهذه الحادثة ؟

أما العلاقة بين بنى النضير وتلك الحادثة فهى أن النبى - ﷺ - كان قد كتب معاهدة بين المسلمين وبنى النضير يلتزم فيها الطرفان بالمشاركة فى أداء الديات ..

فحين قتل عمرو بن أمية الضمرى الرجلين ظنا منه أنهما من المشركين وتبين أنهما لا شأن لهما بقتل المسلمين ، وأن هناك معاهدة بين قومهما والمسلمين . التزم النبى ﷺ - بدفع دية القتيلين ، وأصبح بنو النضير ملزمين بالمشاركة فى تحمل جزء من الدية طبقا للمعاهدة بينهم وبين المسلمين .

فذهب النبى الى بنى النضير فى نفر من أصحابه ، فيهم أبوبكر وعمر وعلى - رضى الله عنهم - وعرض عليهم الأمر .

فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، نحن ملتزمون بذلك طبقا لنصوص المعاهدة .

وكان - ﷺ - جالسا الى جنب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل بعد ذلك على مثل هذه الحالة . ولن تصادفوا منه غرة كهذه ، فمن منكم يستطيع أن يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

---

(١٩٧) أسد الغابة جـ ٣ صـ ١٢٧

فقال عمرو بن جحاش - وهو واحد منهم - : أنا لذلك ..

وحاول واحد منهم اسمه سلام بن مشكم أن يمنعهم وقال لهم : لا تفعلوا والله لَيُخْبَرن بما هممتم به ، إنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه .. ولكنهم أبوا الاستجابة له ..

وحين صعد هذا الرجل الخبيث الذى تطوع لإلقاء الحجر فوق النبى - ﷺ - أخبر جبريل النبى بالمؤامرة ، فقام النبى - ﷺ - من مكانه مسرعا ، وهو يظهر أنه قام لحاجة ما ، وانطلق راجعا الى المدينة تاركا أصحابه فى مجالسهم . ولعل الهدف من ذلك أن يطمئن اليهود بأنه لابد وأن يرجع .. ولو أخذ بيد أصحابه وقام لاسترابوا ، وربما اعتدوا عليهم وهم قلة . عاد النبى - ﷺ - إذن الى المدينة ، وبقى أصحابه مع اليهود فى انتظار عودته ، فلما أبطأ قاموا فى طلبه فلقيهم رجل عائد من المدينة فأخبرهم بأنه رأى النبى - ﷺ - قد دخل المدينة .

فأقبل أصحابه حتى انتهوا اليه ، فأخبرهم بما همت به بنو النضير من إلقاء الصخرة عليه لقتله ، وأنه قام وعاد الى المدينة بعد أن أعلمه جبريل بذلك . وكان فى استطاعة الرسول ﷺ أن يبتعد عن الحائط ليتفادى الصخرة ، ولكنه خشى إن هو فعل ذلك وبقى معهم حتى تفتضح مؤامرتهم - أن يدفعهم فشل مؤامرتهم وانكشاف أمرهم الى العدوان عليه وعلى من كان معه بطريقة أخرى من طرق الغدر التى طبعوا عليها ، ولهذا

قام دون أن يظهر لهم انه قد عرف شيئا .. وعرف اليهود أن مكيدتهم قد عرفت ، فأسقط فى أيديهم ، وعلموا أن كارثة توشك ان تحيق بهم بعد أن نقضوا عهدهم ..

وأرسل النبى - ﷺ - إلى بنى النضير محمد بن مسلمة - رضى الله تعالى عنه - يقول لهم على لسانه : « اخرجوا من المدينة لاتساكنونى بها بعد خيانتكم وبعد الذى هممتم به من الغدر » .

فسكتوا ولم يقولوا حرفا ..

وقال لهم : « لقد أجلتكم عشرا فمن رؤى بعد ذلك ستضرب عنقه ، وفى شأن نجاة النبى - ﷺ - من هذه المؤامرة نزل قوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ ﴾ (١٩٨)

ذكر ذلك القرطبى فى بعض أسباب نزول هذه الآية عن قتادة ومجاهد وغيرهما قالوا : نزلت فى قوم من اليهود جاءهم النبى ﷺ فى أمر فهموا بقتله فمنعه الله منهم ..

عاقبة البغى

وذعرت اليهود ذعرا شديدا ، وأوقع الله الرعب فى قلوبهم ، وهموا

---

(١٩٨) المائدة ١١

بالاستجابة لأمر النبى ـ ﷺ ـ وتهيأوا لذلك فعلا . ولكن المنافقين ـ بزعامة عبدالله بن أبى بن سلول ـ أرسلوا اليهم يقولون : لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم المنيعة وهى : الوطيح ، والنطاة ، والسلالم ، والكتيبة . فان محمدا وأصحابه لن يصلوا اليكم ، ونحن معكم نحارب معكم اذا حاربتم ، ونخرج معكم إذا خرجتم .

وأصاخ اليهود لصوت ابن سلول ، وتلكأوا فى الخروج ..

لقد اغتروا بقول ابن سلول لهم : إن معه ألفيْن من قومه وغيرهم من العرب ، يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل ان يصل اليكم محمد وأصحابه ـ كما قال لهم : إن بنى قريظة وخلفاءكم من غطفان سيمدونكم .. وما علم اليهود بأن كلام المنافق لا يصدق ، لأن من أولى علاماته الكذب ، وما علموا بان وعد المنافق سراب ، فان من علاماته الغدر ، وقد صدق الرسول ـ ﷺ ـ حيث قال : « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »

ومن طبع المنافق انه لا يفى لشريف فكيف يفى لغادر ؟

وأرسل اليهود للنبى ـ ﷺ ـ يقولون : انا لن نخرج من ديارنا فاصنع ما بدالك ..

فلما جاء رسولهم بذلك جهر النبى ـ ﷺ ـ بالتكبير وكبر المسلمون معه .. وقال : حاربت يهود ..

وكان الذى يتولى أمر بنى النضير حيى بن أخطب ، وهو والد صفية أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ

وجاءه سلام بن مشكم يقول له : يا حيى ، لقد منتك نفسك الباطل ، لا تغتر بقول عبدالله بن أبى ، فان كلامه ليس بشىء ، إنما يريد ان يوقعك فى الهلكة حتى تحارب محمدا ، ثم يجلس فى بيته ويتركك . ألا ترى أنه أرسل الى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة لكى تمدكم بنو قريظة ، فرد عليه كعب بقوله : ان بيننا وبين محمد عهدا ، لا ينقض رجل واحد منا العهد ، فلم يظفر عبد الله بن أبى بما كان يرجوه منهم ..

وقد وعد حلفاءه بنى قينقاع بمثل ما وعدكم حتى حاربوا ونقضوا العهد بينهم وبين محمد ثم حصروا أنفسهم فى صياصيهم ، وانتظروا من ابن أبى أن يساعدهم فجلس فى بيته ، ونزلوا فى النهاية على حكم محمد ؟

فاذا كان ابن أبى لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس فكيف ينصرنا نحن ، وقد كنا حلفاء الأوس نضرب قومه من الخزرج بسيوفنا أثناء حروبهم ؟

ذلك أن بنى النضير ظاهروا الأوس على الخزرج ـ قوم عبدالله بن أبى ..

قال ذلك سلام بن مشكم لزعيم بنى النضير حيى بن أخطب .. ولكن حيى بن أخطب جعل فى أذنيه وقرا ، ولم يستجب لنصحه ، وقال له : نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله .

قال سلام : فهو والله جلاؤنا وإخراجنا من ديارنا وأرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا ، وسبى ذرارينا مع قتل مقاتلينا .

فما زاد ذلك حيي بن أخطب إلا إصرارا على موقفه ، وقال : لابد من قتال محمد ..

وقالت بنو النضير لسيدها حيي : أمرنا لأمرك تبع ، لن نخالفك .. وجاء رسولهم الى النبى - ﷺ - يخبره بأنهم لن يخرجوا من ديارهم .

بدء الحصار

وأصبح المسلمون - ذات يوم على أهبة الاستعداد لحصار بني النضير واستعمل النبى - ﷺ - عبدالله بن أم مكتوم على المدينة ، وجعل لواءه بيد على بن أبى طالب ، وسار بالناس حتى وصل إلى حصون بنى النضير وصلى العصر بفنائهم .

أما هم فقد دخلوا حصونهم ، وتحصنوا بها ، واخذوا يرمون المسلمين بالنبل والحجارة ..

وهناك رواية تقول : ان النبى - ﷺ - حين توجه اليهم وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف الذى قتله المسلمون قبل ذلك لخيانته وفجوره ، وقد علمنا أنه قد سار إلى مكة عقب انتصار المسلمين فى بدر معزيا ومواسيا ومعاهدا لهم على النصرة . قال القرطبى : خرج الى قريش فى أربعين راكبا من اليهود فحالفهم على النبى - ﷺ - عند الكعبة .

والبكاء وسيلة يستخدمها اليهود دائما عندما يريدون أن يظهرو بمظهر الضعيف ، وذلك ليستدروا شفقة الآخرين وعطفهم ، فاذا تمكنوا غدروا بمن عطف عليهم[199] ..

كما أنه يشير الى طبيعة اليهود فى الشعور بالكآبة واجترارها والعيش فيها وعدم محاولة التخلص منها ، وكأنهم يتلذذون بها .. إن البكاء جزء لا يتجزأ من حياتهم ، وكأن من الواجبات اليومية التى يقومون بها أن يخصص الفرد منهم جزءا من وقته للبكاء ، وهناك فى القدس حائط يطلق عليه حائط المبكى يقف حوله اليهود بالعشرات حتى يومنا هذا فى حالة نشيج وبكاء واعتصار للدموع .. وهذه محاورة أجراها أديب يهودى مشهور مع عميد فى الجيش الاسرائيلى جاء فيها :

ـ لقد كنت أول من صعد جبل البيت المقدس . أليس كذلك ؟

قال ـ نعم

قال ـ هل استولى عليك الانفعال ؟

قال ـ وماذا تعتقد ؟

قال ـ أعتقد أنك قد بكيت

قال ـ كلا ، لم أبك .

قال ـ ولماذا لم تبك ؟

قال ـ لست أعرف .، إننى لا أحب الدموع .

---

(١٩٩) انظر السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٥٦٢

قال ـ هل شعرت بالرغبة فى البكاء ؟

قال ـ طبعا مثل الآخرين ، ولكنى لم أبك[٢٠٠] .

إنهم يبكون حتى فى أوقات الانتصار .. وهذا دليل على تعقد هذه الشخصية التى ابتلى العرب بمجاورتها منذ القدم .

لقد ذهب النبى والمسلمون لحصارهم ، فوجدوهم يبكون على ابن الأشرف .

فهل البكاء على ابن الأشرف يفوق فى الاهتمام التفكير فى مستقبل الجماعة ؟

وعجب النبى ﷺ بلا شك من ذلك ـ وقال لهم : اخرجوا من المدينة .. كلمة قصيرة حازمة .. ولكنها أيقظتهم ..

فقالوا : الموت أهون من ذلك .. كانوا قد انخدعوا تماما بوعد عبدالله بن ابى ، واستكانوا تماما لأمر حيى بن أخطب .

وأحكم المسلمون الحصار حول حصونهم .

وجاء وقت العشاء فرجع النبى ـ ﷺ ـ إلى بيته فى عشرة من أصحابه عليه الدرع ، وهو راكب فرسه ، واستعمل على العسكر على بن أبى طالب وقيل : استعمل عليهم أبابكر .

وبات المسلمون حولهم فى حصارهم يكبرون حتى أصبحوا وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد عاد إليهم ....

---

(٢٠٠) الشخصية اليهودية والروح العدوانية صـ ١٣٦

وارتفع صوت بلال بالأذان .. وأقبل النبى - ﷺ - فصلى بالناس . وأمر بلالا فضرب القبة ، إشارة الى الاقامة ، وإعلاما لهم بأن المسلمين مقيمون ، ولن يبرحوا حتى يستسلم اليهود ..

بدء المناوشة

وكان رجل من يهود اسمه « غزول » كان بارعا فى الرمى واصابة الهدف على الرغم من كونه أعسر . فرصد الخيمة التى أقيمت للنبى - ﷺ - ورماها بسهم فوصل اليها . فأمر النبى - ﷺ - بتحويلها فحولت الى مكان آخر .

وفى ليلة افتقد المسلمون على بن أبى طالب . وسألوا عنه . فقال النبى ﷺ : دعوه فانه فى بعض شأنكم .

ولم يلبث بعد قليل حتى جاء علىّ يحمل رأس « غزول » لقد كمن له علىّ حتى خرج هذا الأعسر يصيب غرة من المسلمين ومعه جماعة من يهود ، فشد على عليه فقتله ، وهرب من كان معه ، وحمل علىّ رأسه وعاد به .... وأرسل النبى - ﷺ - أبا دجانة وسهل بن حنيف فى عشرة من أصحابه ، فأدركوا أولئك القوم الذين كانوا مع « غزول » وقتلوهم ..

وشدد النبى - ﷺ - الحصار على بنى النضير وطال الحصار . فأقدم بعض جنود المسلمين على إتلاف بعض نخيل اليهود حتى يضطروهم الى الخروج من الحصون ، لأن أشد ما يغيظ اليهود هلاك أموالهم .

وأطل اليهود من حصونهم فوجدوا المسلمين يقطعون النخيل ، فصاحوا :

يا محمد ، ألست تزعم أنك نبى من عند الله تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ، وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد فى الأرض ؟

وعلم النبى - ﷺ - بما حدث فأمر المسلمين بالكف عن ذلك .. وفى هذا نزل قول الله تعالى :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ ﴾ (٢٠١)

ومن العجيب أن يدعى اليهود أن فى قطع نخلة يغيظ بها المقاتل عدوه فسادا ، ثم لا يعتبرون محاولة قضائهم على الرسول ﷺ وائتمارهم به ومحاولة تشكيك المسلمين فى دينهم ومظاهرة أعدائهم عليهم والحيلولة دون نشر رسالة الهدى والنور والعدل فسادا ؟ أى منطق هذا ؟

لقد ثبت من حروب المسلمين كلها أن النبى ﷺ وخلفاءه من بعده - نهوا عن قطع النخيل والأشجار وإتلاف الزرع . ولكن هذه حالة خاصة بهؤلاء القوم المفسدين . لقد رأى بعض المسلمين أن وسيلة النَّيل منهم ودفعهم

---

(٢٠١) الحشر ٥

للخروج من حصونهم ، هى إيذاؤهم فى ثمارهم ، والمعروف عنهم الشح والبخل وتفضيل المال على الأنفس والأهل .

لذلك فعل بعض جنود المسلمين ما فعلوا ونزل القرآن الكريم نافيا الإثم عمن فعل هذا الفعل ..

وقد استدل العلماء بذلك على أن الحكم الشرعى فى إتلاف ثمر العدو منوط بالمصلحة العامة للمسلمين ، وبما يراه الامام أو القائد من تأثير ذلك على العدو ، وعلى تحقيق المصلحة العامة للمسلمين .

فالمسألة إذن من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية .
وقطع بعض نخيل هؤلاء كان لتحقيق المصلحة ، وتلمس السبيل اليها .
إن إباحة قطع شجر الكفار إذا اقتضت المصلحة ذلك هو مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعي وأحمد ومن قبلهم نافع مولى ابن عمر ، والثورى وغيرهم .

وان كان هناك من العلماء من لا يجيز ذلك[٢٠٢] . ويعتبرون أن ما حدث فى معركة بنى النضير كان أمرا خاصا لا يجوز القياس عليه .. لأن المسلمين فعلوا ذلك إغاظة لليهود فقط حتى يخرجوا من حصونهم ، ولم يفعلوه بقصد التخريب أو التدمير .. بدليل انهم لم يقطعوا سوى ست نخلات فقط وفى رواية أنهم قطعوا نخلة واحدة وأحرقوا أخرى .. وقد

---

(٢٠٢) فقه السيرة للبوطى صـ ٢٠٤

اغتاظ اليهود فعلا حتى قال شاعرهم سماك اليهودى فيما يرويه القرطبى :

ألسنا ورثنا الكتاب الحكيم على عهد موسى ولم نصدف
وأنتم رعاء لشاء عجاف بسهل تهامة والأخيف
ترون الرعاية مجدا لكم لدى كل دهر لكم مجحف
فيأيها الشاهدون انتهوا عن الظلم والمنطق المؤنف
لعل الليالى وصرف الدهور يدلن من العادل المنصف
بقتلى النضير واجلائها وعقر النخيل ولم تقطف
فان لا أمت نأتكم بالقنا وكل حسام معاً مرهف
بكف كمى به يحتمى متى يلق قرنا له يتلف

ورد عليه حسان بن ثابت بقوله :

تعاهد معشر نصروا قريشا وليس لهم ببلدتهم نصير
همو أوتوا الكتاب فضيعوه وهم عمى عن التوراة بور
كفرتم بالقران وقد أبيتم بتصديق الذى قال النذير
وهان على سراة بنى لؤى حريق بالبويرة مستطير

لقد كان الشعر من أسلحة الحرب قديما ، وكان له وقع قوى فى النفوس . . فالعرب أرباب . الفصاحة والبلاغة وهم خير من يقدرون قيمة الكلمة ويعرفون سلطان الحكمة ، وان من الشعر لحكمة . .

---

(٢٠٣) أى اليهود

والذى يدل على أن قطع بعض أشجار النخيل أخزى اليهود وأغاظهم ما حدث منهم حين رأوا ذلك ، فقد ذكر الرواة أنه لما قطعت العجوة شقت النساء الجيوب وضربن الخدود ، ودعون بالويل . وقد حدث ذلك فى مكان اسمه « البويرة » تصغير بورة . .

وعلى الرغم من شعور اليهود بالخذلان ، وأن الحصار قد أخذ يفت فى أعضادهم إلا أن عبدالله بن أبى بن سلول مازال يبعث إليهم سرا - أن اثبتوا وتمنعوا فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم - وقد أشار القرآن الكريم إلى موقفه هذا قائلا

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) ﴾ (٢٠٤)

لقد كان المنافقون أجبن من اليهود ، وحين عاينوا إصرار المسلمين على الحصار نكصوا على أعقابهم .

---

(٢٠٤) الحشر ١١ : ١٣

وانتظر اليهود من المنافقين أن يسارعوا إلى نجدتهم كما وعدوا ولكنه كان انتظارا بدون جدوى . .

وتيقن اليهود أن عبدالله قد خذلهم وتخلى عنهم . .

وجاء سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا لحيى بن أخطب زعيم بنى النضير يقولان له : أين نصر ابن أبى الذى زعمت ؟

فيقول حيى : وماذا أصنع ؟ هى ملحمة كتبت علينا .

ولزم رسول الله ـ ﷺ ـ حصارهم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، والرعب من الأسلحة التى اختص بها النبى ـ ﷺ ـ يقول فى ذلك : نُصرت بالرعب مسيرة شهر . . فكيف لا ينصر بالرعب مسيرة يوم أو أقل ؟

الاستسلام

ولم يجد اليهود بدا من الاستسلام . فسألوا رسول الله ـ ﷺ ـ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ـ السلاح ـ

فاحتملوا النساء والصبيان ، وحملوا من أموالهم غير السلاح ما استطاعت الإبل حمله ، وكانت ستمائة بعير . . كان الرجل منهم يهدم بيته ليأخذ ما استحسن من خشبه كالباب وغيره ، فيضعه على ظهر بعيره فينصرف به وهذا هو التخريب الذى عناه الله ـ سبحانه ـ فى قوله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ
مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ
فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ
بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾
وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ (٢٠٥)

موكب الخروج

وخرج اليهود من المدينة مظهرين التجلد ..

خرجت النساء على الهوادج وعليهن الديباج والحرير ، والخز الأحمر والأخضر ، وحلى الذهب والفضة ، وخلفهن القيان بالدفوف والمزامير ، وكانت بين النساء سلمى صاحبة عروة بن الورد الذى قيل فيه : من قال إن حاتما أسمح العرب فقد ظلم عروة بن الورد .

وكان عروة قد أغار على قومها بنى النضير فسباها ، ثم اتخذها حليلة فجاءت منه بأولاد .

---

(٢٠٥) الحشر ٢ : ٤

ثم إن بعض بنى النضير اشتراها من عروة بعد أن سقاه الخمر .. فلما أفاق ندم وحاول أن يستردها ، واستطاع أن يتوصل إلى اتفاق مع الذى اشتراها على أن تخير بينهما ، وظن أنها لا تختار عليه أحدا .. فخيرها فاختارت من اشتراها ..

وحين فارقته قالت له : والله ما أعلم أن امرأة أرخت سترا على بعل أغض طرفا ولا أندى كفا ، ولا أغنى غناء مثلك ، وإنك لرفيع العماد ، كثير الرماد ، خفيف على ظهور الخيل ثقيل على متون الأعداء ، وأحنى على الأهل والجار ، وما كنت لأوثر عليك أهلى لولا أنى كنت أسمع بنات عمك يقلن : قالت أم عروة وفعلت أم عروة ، فأجد من ذلك الموت والغيرة ، والله لا يجامع وجهى وجه أحد من أهلك فاستوص ببنيك خيرا . ثم تزوجت فى بنى النضير بعد ذلك .

وهذا لون من غدر اليهوديات أيضا ، فقد نسيت وفاء من وصفته بالوفاء ، وتركت أولادها ، غيرة من أمه ..

من عروة بن الورد ؟

وعروة بن الورد هذا من شعراء العرب المعدودين فى الجاهلية ، وهو من الشعراء الصعاليك ، ينتمى الى قبيلة عبس ، وكان يسمى أبا الصعاليك وسماه معاوية فيها بعد باسم : مانع الضيم ،

وعرف عنه أنه إذا ما غزا فأصاب قسم الغنيمة بين جماعته بالتساوى ونال مثل حصة الفرد منهم ، بالرغم من أنه زعيم وقائد أريب قادر على ضبط

تبعية أفراده له ، وله شعر جيد منه قوله :

أقلى على اللوم يابنت منذر ونامى وإن لم تشتهى النوم فاسهرى
ذرينى أم حسان[٢٠٦] إننى بها قبل ألا أملك البيع مشترى
أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة فوق صير[٢٠٧]
ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء محضرى[٢٠٨]

إلى أين ذهب يهود بنى النضير ؟

سار الموكب اليهودى مخترقا شوارع المدينة ، وإن قلوب من فيه لتتمزق أسى ولكن وجوههم تتصنع الضحك والسرور والابتهاج .

هو درس تلقوه عن إخوانهم المنافقين أو إخوانهم المنافقون تلقوه منهم

وكان سلام بن أبى الحقيق وهو من ألداء اليهود قد رفع جلد ثور وهو مملوء بالحلى على ظهر جمل ، وهو ينادى بأعلى صوته : هذا ما أعددناه لرفع الأرض وخفضها[٢٠٩] ، وإن كنا قدر تركنا نخلا ففى خيبر النخل ..

إنه يتغنى بالمال ، ويذكر أن جمع المال هو أهم ما يشغل بال اليهود ، وسياستهم منذ القدم تقوم على السيطرة على اقتصاد البلاد التى يعيشون فيها . وإذا كان المال فى يدهم تحكموا به فى رقاب العباد ، ومن أجل ذلك قال ابن أبى الحقيق كلمته تلك : هذا ما أعددناه لرفع الأرض وخفضها ..

---

(٢٠٦) أم حسان كنية زوجته سلمى

(٢٠٧) الصير : القبر

(٢٠٨) موسوعة الشعر العربى صـ ١٥٨ ـ لمطاوع صفدى وآخرين

(٢٠٩) يقصد أنهم بالمال يستطيعون فعل كل شىء .

وزلزل زلزال المنافقين بجلاء اليهود عن المدينة ، وحزنوا حزنا شديدا ولكنهم لم يستطيعوا أن يتحدثوا ببنت شفة .

وكانت وجهة بعض هؤلاء خيبر كما رأينا من كلمة ابن أبي الحقيق . كما كانت وجهة بعضهم أذرعات في الشام . وهي التي وردت الاشارة إليها في الآية بقوله تعالى « أول الحشر »

فقد ورد أن الشام هي أرض المحشر . قال ابن عباس وعكرمة : من شك في أن المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية :

« **هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر** . . . » . . وقد قال النبي - ﷺ - لهم : اخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر . .

هل أسلم منهم أحد ؟

ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان هما : يامين بن عمير ، وأبو سعد بن وهب . فقد قال أحدهما لصاحبه : والله إنك لتعلم أنه رسول الله فما ننتظر ؟ هيا نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا .

فنزلا من الليل وأسلما . فنجوا . .

وقيل : إن أبا سعد بن وهب ليس من بني النضير وإنما من بني قريظة ، وأسلم يوم قريظة ، الذي سيأتي ذكره . وقد روى أن يامين هذا جعل لرجل من قيس - جعلا قدره عشرة دنانير ، وقيل : خمسة أوسق من تمر ، إن هو قتل عمرو بن جحاش الذي أراد أن يلقي الحجر على النبي - ﷺ -

واستطاع القيس أن يجد غفلة من ابن جحاش فقتله .

وفى يامين هذا وغيره ممن أسلم من أهل الكتاب نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٢١٠)

قال ابن الأثير : جاء مؤمنو أهل الكتاب فقالوا : يارسول الله نؤمن بك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك .

فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ : امنوا بالله ورسوله محمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب ورسول كان قبل .

فقالوا : نفعل يارسول الله . فأسلموا . (٢١١)

ونزلت الآية المتقدمة .

وقد أنزل الله سورة الحشر بأسرها فى غزوة بنى النضير . . وفيها تصوير لحالة اليهود وقتالهم أتم تصوير . .

● وقد بدأت السورة بتسبيح الله وتنزيهه . .

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ (٢١٢)

---

(٢١٠) النساء ١٣٦

(٢١١) أسد الغابة جـ ٥ صـ ٤٦٨

(٢١٢) سورة الحشر ١

● ثم تحدثت عن مظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - فى إجلائه بنى النضير من المدينة بدون قتال ، بعد أن قذف فى قلوبهم الرعب ، لأنهم شاقوا الله ورسوله . .

وتحدثت عن الفىء الذى أفاءه الله على النبى - ﷺ - فى هذه الغزوة التى لم يقاتل فيها المسلمون ، ولم يرموا بسهم . . . . . إن هذا الفىء هو غنيمة خالصة للرسول - ﷺ - ينفق منها على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . .

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (٢١٣)

مثل من إيثار الأنصار

● وفى هذه الغزوة ظهر إيثار الأنصار واضحا ، فحين جمعت الغنائم قال النبى - ﷺ - للأنصار بعد أن شكرهم على صنيعهم مع المهاجرين - وكان

---

(٢١٣) الحشر ٦ ، ٧

المهاجرون فى دور الأنصار - : « إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عَلَىَّ من بنى النضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى فى مساكنكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم .

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا . ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يارسول الله فقال النبى - ﷺ - « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » .... وأعطى رسول الله - ﷺ - المهاجرين ولم يعط من الأنصار أحدا إلا ثلاثة هم : أبو دجانة سماك بن خرشة ، وسهيل بن حنيف ، والحارث بن الصمة - لما كانوا فيه من عوز شديد وفقر واضح .

وبذلك ضرب الأنصار المثل الأعلى فى الإيثار الذى ذكرهم الله به وأثنى عليهم كما أثنى على المهاجرين ، ومن جاء بعد هؤلاء وهؤلاء من التابعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين قال تعالى :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا

ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ (٢١٤)

لقد صورت هذه الآيات الثلاث كيف يكون المجتمع المثالى السليم ، الذى يقوم على المحبة والايثار والاحترام المتبادل والتعاون الكامل .

قال ابن أبي ليلى : الناس على ثلاث منازل . . . . . المهاجرون ، والذين تبوءوا الدار والايمان ، والذين جاءوا من بعدهم . . فاجهد ألا تخرج من هذه المنازل . .

وقال بعضهم : كن شمساً ، فإن لم تستطع فكن قمرا ، فإن لم تستطع فكن كوكبا مضيئا . . . . ومعنى هذا كن مهاجريا ، فان لم تستطع فكن أنصاريا ، فان لم تكن فاعمل كأعمالهم ، فإن لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمرك الله . .

وروى مصعب بن سعد قال : الناس على ثلاث منازل ، مضت منزلتان وبقيت منزلة . . فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت .

إن هذه الآيات تعلمنا أن نحب السابقين ، ونحترم االأئمة الماضين ، ندعو لهم ونترحم عليهم ، ونذكر أعمالهم بكل خير وحب وإجلال ، ولا نتتبع زلة أحدهم ، ونضعها أمام المجهر لتبدو كبيرة شنيعة . .

---

(٢١٤) الحشر ٨ : ١٠

● ثم تحدثت السورة عن موقف المنافقين من اليهود ، وقد أشرنا إلى ذلك .

● كما تحدثت عن جبن اليهود وخوفهم وأنهم لايقاتلون إلا من وراء الحصون :

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (١)

لقد صورت هذه الآيات تنافر قلوب المنافقين واليهود ، وتخلى المنافقين عن اليهود بعد أن منوهم الأمانى ، وأغروهم بالإصرار على مجابهة النبى والمسلمين . .

وفى هذه الآية إشارة أيضا إلى التفكك القائم بينهم والاختلاف الشديد بين طوائفهم ، ولكن الذى يوحد صفوفهم هو الوقوف ضد الاسلام .

---

(٢١٥) الحشر ١٤ : ١٧

فأعداء الإسلام على مختلف العصور مختلفون فى المذاهب والاتجاهات والسياسات ، ولكنهم إذا واجهوا الاسلام وقفوا أمامه صفا واحدا ، هم مختلفون فيما عدا كيدهم للاسلام فهم متفقون .. ولعل المسلمين يتنبهون إلى ذلك فيصلحون ذات بينهم ويوحدون كلمتهم ليتمكنوا من مواجهة أعدائهم ..

● وقد أشارت الآيات أيضا إلى تشابه موقف بنى النضير مع موقف بنى قينقاع . فى الكيد والعاقبة . فكلتا الطائفتين وقفت موقف الغدر والخيانة للعهد فلقيت الجزاء الذى يستحقه الغادر اللئيم ..

مثل الشيطان الذى قال للانسان اكفر

وقد ضرب الله مثلا للمنافقين فى موقفهم من اليهود بموقف الشيطان من صاحبه الذى يغويه فيرديه ثم يتخلى عنه .

وقد ذكر القرطبى فى ذلك قصة طريفة رواها بعض الرواة .. فحواها أن راهبا ذهبت إليه امرأة أصابها لمم ، ليدعو لها ، فزين له الشيطان أن يطأها ، فوطئها ، فحملت ، فلما عرف ذلك قتلها خوفا من أن يفتضح أمره .. فعلم قومها بذلك ، فجاءوا إلى الراهب واستنزلوه من صومعته ليقتلوه ، فجاءه الشيطان ووعده إن سجد له أنجاه منهم ، فسجد الراهب له ، فتبرأ منه الشيطان بعد ذلك وأسلمه ..

وقد وردت هذه القصة بروايتين فحواها واحد ولفظها مختلف ، أحداهما نسبت لابن عباس ، والأخرى لوهب بن منبه .

ولا بأس من ذكر الروايتين لما فيهما من العظة والعبرة .

رواية ابن عباس

ذكر أن راهبا فى الفترة الأولى كان اسمه برصيصا ، قد تعبد فى صومعته سبعين سنة ، لم يعص الله فيها طرفة عين ، حتى أعيا إبليس ، فجمع إبليس مردة الشياطين فقال : ألا أجد منكم من يكفينى أمر برصيصا ؟

فقال أحد الشياطين : أنا أكفيك أمره .

فانطلق فتزيا بزى الرهبان ، وحلق وسط رأسه ، حتى أتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه ، وكان لاينفتل من صلاته إلا لضرورة ، وكان دائم الصوم ، وربما وصل بين اليومين والثلاثة فى صومه .

فلما رأى الشيطان أنه لايجيبه أقبل على العبادة فى أصل صومعته وانفتل برصيصا من صلاته فرأى رجلا فى هيئته حسنة من هيئة الرهبان قائما يصلى فندم حين لم يجبه . .

فقال له : ما حاجتك ؟

قال : أن أكون معك . أتأدب بأدبك ، وأقتبس من عملك ، ونجتمع على العبادة .

فقال برصيصا : إنى فى شغل عنك

ثم أقبل على صلاته ، وأقبل الشيطان على صلاته أيضا

فلما رأى برصيصا شدة اجتهاده وعبادته قال له : ما حاجتك ؟

قال : أن تأذن لى فأرتفع إليك .

فأذن له ، فأقام ذلك الشيطان الذى تصور بصورة راهب ـ حولا معه . . يظهر العبادة ، ويكثر من الصيام ، ولا ينفتل من صلاته إلا لضرورة ، واجتهد فى ذلك حتى فاق الراهب فى عبادته وصيامه

ورأى برصيصا اجتهاده فتقاصرت إليه نفسه ، فأخذ يتقرب إليه ويطمئن له ، فلما وجد الشيطان أنه قد وثق فيه واطمأن إليه قال له : عندى دعوات يشفى بها السقيم والمبتلى والمجنون

ألا أعلمك إياها ؟

فقال برصيصا : بلى ـ فعلمه إياها .

ثم جاء الشيطان إلى إبليس فقال له : قد والله أهلكت الرجل .

ثم تعرض الشيطان لرجل فمسه ، ثم قال لأهله ـ وقد تصور فى صورة الآدميين ـ : إن بصاحبكم جنونا أفأشفيه ؟

قالوا : نعم ـ ومكث معه مدة من الزمن فى علاجه ـ ثم قال لهم : لا أقوى على علاجه ، ولكن اذهبوا إلى برصيصا ، فإن عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب

فجاءوا به الى برصيصا ، فدعا بتلك الدعوات ، فذهب عنه الشيطان .

ثم جعل الشيطان يفعل بالناس ذلك ويرشدهم إلى برصيصا ، فيدعو لهم بالشفاء فيشفون . .

ثم انطلق إلى جارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة ، وكان أبوهم ملكا فمات واستخلف أخاه ، . . فمسها الشيطان وأصابها بالصرع ثم جاء إلى الإخوة فى صورة طبيب ليعالجها ، فقال لهم : إن شيطانها مارد لايطاق ، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا ، فدعوها عنده ، فإذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت .

فقالوا : لايجيبنا إلى هذا .

فقال : فابنوا لها صومعة فى جانب صومعته ثم ضعوها فيها ، وقولوا له هى أمانة عندك فاحتسب فيها .

فبنوا صومعة ووضعوا فيها الجارية . فلما انفتل من صلاته عاين الجارية وما بها من الجمال فأسقط فى يده . . فدعا لها فشفيت ، فجاءها الشيطان ومسها . . فانفتل برصيصا من صلاته ، ودعا لها فذهب عنها الشيطان .

ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فمسها ، فانفتل برصيصا من صلاته ودعا لها ، فذهب عنها الشيطان .

ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فمسها وكان يكشف عنها ويتعرض بها لبرصيصا .

ثم جاءه الشيطان فقال له : ويحك ، واقعها ، فما تجد مثلها ، ثم تتوب بعد ذلك .

فلم يزل به حتى واقعها ، فحملت . .

فقال له الشيطان : ويحك ، لقد افتضحت ، فهل لك أن تقتلها ثم تتوب فلا تفتضح ؟ فإن جاءوك وسألوك عنها فقل : جاءها شيطانها فذهب بها . .

فقتلها برصيصا ودفنها ليلا ـ فأخذ الشيطان طرف ثوبها حتى بقى خارجا من التراب . ورجع برصيصا الى صلاته . .

ثم جاء الشيطان إلى إخوتها فى المنام فقال لهم : إن برصيصا فعل بأختكم كذا ، وقتلها ودفنها فى جبل كذا .

فاستعظموا ذلك وذهبوا إلى برصيصا ، وقالوا له : ما فعلت أختنا ؟ فقال : ذهب بها شيطانها . فصدقوه وانصرفوا .

فجاءهم الشيطان فى المنام وقال لهم : إنها مدفونة فى موضع كذا ، وإن طرف ردائها خارج من التراب .

فانطلقوا فوجدوها . . فهدموا صومعته ، وأنزلوه ، وحملوه إلى الملك ، فأقر على نفسه فأمر بقتله .

فلما صلب جاءه الشيطان وقال له : أتعرفنى ؟

قال برصيصا : لا ، والله .

قال : أنا صاحبك الذى علمتك الدعوات ، أما اتقيت الله ؟ أما استحييت وأنت أعبد بنى اسرائيل ؟ ثم لم يكفك صنيعك حتى فضحت نفسك وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس ؟

فإن مت على هذه الحالة لم يفلح أحد من نظرائك بعدك .

فقال برصيصا : كيف أصنع ؟

قال الشيطان : تطيعنى فى خصلة واحدة ، وأنجيك منهم وآخذ بأعينهم .

قال : وماذاك ؟

قال : تسجد لى سجدة واحدة .

فقال : أنا أفعل ، فسجد له من دون الله .

قال الشيطان : يابرصيصا ، هذا ماأردت منك ، كان عاقبة أمرك أن كفرت بربك ، انى برىء منك .. إنى أخاف الله رب العالمين ..

رواية وهب

أما رواية وهب بن منبه فتقول إن عابدا من بنى اسرائيل ، كان أعبد أهل زمانه ، وكان فى زمنه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكرا وليس لهم أخت غيرها .

فخرج ثلاثتهم للغزو فلم يدروا عند من يخلفون أختهم . ولاعند من يأمنون عليها ، ولاعند من يضعونها .

فاجتمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بنى إسرائيل وكان ثقة فى أنفسهم .

فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده ، فتكون فى كنفه وجواره ، الى أن يقفلوا ـ أى يرجعوا ـ من غزاتهم .

فأبى ذلك عليهم ، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم .

فلم يزالوا به حتى أطاعهم ، فقال : أنزلوها فى بيت بجوار صومعتى . فأنزلوها فى ذلك البيت ، ثم انطلقوا وتركوها ، فمكثت فى جوار العابد زمانا ينزل اليها الطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه ويصعد فى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ماوضع لها من الطعام .

فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه فى الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارا ، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها ، فلبث بذلك زمانا . . ثم جاءه إبليس ، وقال له : لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها كان أعظم لأجرك . فلم يزل به حتى مشى اليها بطعامها فوضعه فى بيتها . .

فلبث بذلك أياما ، ثم جاءه إبليس فرغبه فى الحديث اليها وقال له : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشة

شديدة . لوجودها بمفردها ، فلم يزل به حتى حدثها زمانا ، يطلع عليها من فوق صومعته . .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال له : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها ، وتقعد هى على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها ، وتخرج الجارية من بيتها فتحدثه ، فلبثا أياما يتحدثان .

ثم جاءه إبليس فرغبه فى القرب منها ، وقال له : لو خرجت من باب صومعتك فجلست قريبا من باب بيتها كان آنس لها ، فلم يزل به حتى فعل . فلبثا أياما كذلك .

ثم جاءه إبليس وأخذ يوسوس له ، ويرغبه فى الاقتراب منها أكثر ، موهما إياه أن ذلك من باب الخير ، وقال له : لو دنوت من باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ، ففعل ، فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدثها فلبثا أياما . .

ثم جاءه إبليس فقال له : لو دخلت البيت معها تحدثها ولم تتركها تبرز وجهها حتى لايراها أحد كان أحسن بك ، فمازال به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهاره كله ، فإذا أمسى صعد الى صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها ، فلم يزل به إبليس يحسنها فى عينه ويسول له حتى وقع

عليها فحملت . ثم ولدت له غلاما .

فجاءه إبليس ، فقال له : أرأيت إن جاء إخوة هذه الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لاآمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك .

فاعمد إلى ابنها فاقتله وادفنه ، فإنها ستكتم عليك مخافة إخوتها ان يطلعوا على ماصنعت بها ففعل .

ثم أتاه بعد أن قتل الطفل فقال له : أتراها تكتم إخوتها ماصنعت بها ، وقد قتلت ابنها ! خذها واذبحها وادفنها مع ابنها . فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها فى الحفيرة مع ابنها . وأطبق عليها صخرة عظيمة ، وسوى عليها التراب .

وصعد فى صومعته يتعبد فيها .

فمكث بذلك ماشاء الله أن يمكث ، حتى قفل إخوتها من الغزو ، فجاءوه فسألوه عنها ، فنعاها لهم وترحم عليها ، وبكى لهم وقال : كانت خير فتاة وهذا قبرها ، فانظروا اليه .

فأتى إخوتها القبر فبكوا على قبرها ، وترحموا عليها ، وأقاموا على قبرها أياما ، ثم انصرفوا . . .

فلما جن عليهم الليل ، وأخذوا مضاجعهم أتاهم الشيطان فى صورة رجل مسافر فبدأ بأكبرهم ، فسأل عن أختهم ، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها . . فكذبه ذلك الرجل ، وقال :

لم يصدقكم أمر أختكم ، إنه قد واقع أختكم وولدت منه غلاما ، فذبحه وذبحها معه فزعا منكم ، وألقاها فى حفيرة احتفرها خلف الباب الذى كانت فيه عن يمين الداخل ، فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله ، فإنكم ستجدونها هنالك ، قد دفنت مع ابنها .

وأتى الأوسط فى منامه ، وقال له مثل ذلك ، ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك .

فلما استيقظ الاخوة استيقظوا متعجبين لما رأى كل واحد منهم ، فأقبل بعضهم على بعض . يقول كل واحد منهم : لقد رأيت عجبا

فأخبر كل واحد منهم بما رأى .

فقال أكبرهم : هذا حلم ليس بشيء ، فامضوا بنا لعملنا ودعوا هذا ، فقال أصغرهم : لاأمضى حتى آتى المكان فأنظر فيه ..

فانطلقوا جميعا حتى دخلوا البيت الذى كانت فيهم أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وصف لهم فى منامهم ، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفيرة كما قيل لهم .

فسألوا العابد ، فصدق قول إبليس فيما صنع بها ، فاسْتَعْدوا عليه ملكهم ، فأنزله من صومعته ، وقدمه ليصلب .

فلما أوقفوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنى صاحبك الذى فتنتك فى المرأة حتى أحبلتها وذبحت ابنها وذبحتها فإن أنت أطعتنى

اليوم وسجدت لى خلصتك مما أنت فيه ..

واستجاب العابد للشيطان فسجد له فكفر بالله .

فلما كفر خلى الشيطان بينه وبين الناس فصلبوه .. ففى مثل هذا نزل قوله - تعالى -

« كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين »

قال ابن عباس : فضرب الله هذا مثلا للمنافقين مع اليهود ، وذلك أن الله أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يجلى بنى النضير عن المدينة ، فدس إليهم المنافقون ألا تخرجوا من دياركم وان قاتلوكم كنا معكم وإن أخرجوكم كنا معكم ، فحاربوا النبى - صلى الله عليه وسلم - فخذلهم المنافقون وتبرءوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا العابد ..

ولم تنته جولة الصراع مع اليهود بجلاء بنى النضير عن المدينة ، فمازالت فى فى جعبتهم بقية وبقية .

ولم ينته تحالف المنافقين معهم عند هذا الحد ، بل استمر التحالف بينهم على الرغم من ثبوت عدم جدواه .. واليهود الذين يضرب بهم المثل فى شدة الحذر والمكر لم يستوعبوا درس المنافقين جيدا . فمازالت علاقتهم وثيقة

محكمة بالمنافقين،وربما كانت نظرية « الاستفادة ماأمكن » هى المسيطرة على الطرفين . . أو ربما كانت عقدة الكراهة للاسلام هى التى تجمع بين الاثنين وهذا هو الظاهر والواضح .

وتدير الأيام ، وتظهر حلقة جديدة من التآمر اليهودى الخبيص . وينقض بنو قريظة العهد الذى أبرموه مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أشد المواقف حرجا بالمسلمين . .

ولنتحدث عن قصة بنى قريظة الآن لنستكمل بذلك الحديث عن طوائف اليهود الثلاث التى كانت تقيم بالمدينة وحولها . .




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

يهود بني قريظة ينقضون العهد


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

غزوة بني قريظة

- كيف نقض بنو قريظة العهد ؟
- قصة أصحاب الرجيع .
- انضمام بني قريظة للعدو .
- قصة نعيم بن مسعود .
- النبي يتوجه مع المسلمين إلى بني قريظة .
- علي بن أبي طالب يحمل الراية .
- معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - " لا يصلين أحد إلا في بني قريظة "
- الحصار .
- بداية الوهن .
- حكم سعد بن معاذ على بني قريظة .
- دلائل وعبر .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

غـــــزوة بنى قريظة

بنو قريظة قوم من اليهود منسوبون الى قريظة ـ بضم القاف وفتح الراء وسكون الياء ـ وهو اسم رجل نزل أولاده قلعة حصينة قرب المدينة فنسبت إليهم ، وقريظة والنضير أخوان . . قيل : هما من ولد هارون ـ عليه السلام ـ وذكر بعضهم أن بنى قريظة كانوا يزعمون أنهم من ولد شعيب نبى الله ـ عليه السلام ولانستطيع أن نؤكد ذلك . .

وقد عاهد بنو قريظة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكونوا معه وأن لا يمالئوا عليه عدوا ؟ ؟ ولكنهم نقضوا هذا العهد ، وحدث منهم ماكان يمكن أن يترتب عليه أوخم العواقب وأسوأ النتائج بالنسبة للاسلام والمسلمين ، لولا حفظ الله لدينه . . أما قصة ذلك فتتصل اتصالا وثيقا بغزوة الأحزاب ـ التى سنتحدث عنها فيما بعد ان شاء الله ـ والتى جمع الكفار فيها جموعهم من كل مكان بتحريض من اليهود وأحاطوا بالمدينة من كل جانب ، عازمين على استئصال شأفة الاسلام والمسلمين . لولا أن هزمهم الله بجنود من عنده وسلط عليهم ريحا صرصرا عاتية . . كما سنرى فيما بعد ان شاء الله .

وأثناء حصار الأحزاب للمدينة ـ وفى هذا الوقت العصيب الذى بلغت فيه القلوب الحناجر وظن المؤمنون بالله الظنون ـ نقض يهود بنى قريظة عهدهم وانضموا الى المشركين فوجهوا بذلك طعنة للمسلمين فى ظهورهم

لولا أن الله سلم ـ لكانت قاضية . . .

كيف نقض بنو قريظة العهد ؟

قال ابن هشام فى سيرته : خرج عدو الله حيى بن أخطب ـ زعيم بنى النضير ـ حتى أتى كعب بن أسد ـ زعيم بنى قريظة ـ وصاحب عقدهم عهدهم ، وكان كعب قد وادع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قومه ، وعاقده على ذلك عاهده . .

وطرق حيى بن أخطب باب الحصن على كعب بن أسد ، فلما علم كعب أن حُيياً أغلق دونه باب حصنه ، استأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه حيى : ويحك ياكعب ، افتح لى .

فقال كعب : ويحك ياحيى ، أنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمداًفلست بناقض مابينى وبينه ، ولم أر منه الا وفاء وصدقا . . .

لقد أحس كعب بأن أمرا خطيرا هو الذى دفع حيبا الى المجىء ، وأدرك أنه ماأتى اليه إلا ليحرضه على نقض العهد الذى أبرم بينه وبين محمد . . وعرف خطورة ذلك ومايترتب عليه . . وقد جرب شؤم حيى قبل ذلك ، وكان يعرف مدى مايكنه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حقد وضغينة على الرغم من معرفته معرفة اليقين أنه نبى . .

فلماذا يورط كعب بن أسد نفسه وقومه فى مغامرة . . لاتعرف نتائجها بسماع ماسوف يقوله له حيى بن أخطب ؟

إنه لايريد أن يسمع شيئا لأنه لو سمع منه فربما يلين لى ، ولو لان لنقض العهد ، ولو نقض العهد لعرض نفسه وقومه لحرب المسلمين . . وقد يؤدى ذلك الى ضياعه وضياع قومه ، لقد عرف أن حيى بن أخطب داهية ، وله لسان ذرب ومنطق مؤثر فمتى ماتمكن من سمعه فلن يستطيع مقاومته ، فالأجدى إذن ألا يسمع منه شيئا وألا يلقاه . فأصر كعب على ألا يفتح له الباب وألا يستقبله .

ولكن حييا ألح فى لقائه ، وقال له : ويحك افتح لى أكلمك ، ومأأنا بمنصرف حتى أكلمك . .

قال كعب : مأأنا بفاعل .

فقال له حيى : والله مأأغلقت بابك دونى ألا تخوفا منك على جشيشتك - الجشيشة لون من الطعام - أن آكل معك منها . .

فأحفظت هذه الكلمة كعبا وأثارت غيظه فقام وفتح الباب وهو كاره .

وكان أول ماقال حيى لكعب : ويحك ياكعب . . جئتك بعز الدهر ، وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها . وقد تحالفوا مع أكثر قبائل العرب وعاهدوا أنفسهم وعاهدونى على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه .

فقال له كعب : بل جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماءه ، وبرعد ويبرق ليس فى شيء . . ويحك ياحيى،دعنى ومأأنا عليه فإنى لم أر من محمد الا صدقا ووفاء . .

ولكن الحقد الدفين الذى يتنزى به قلب حيى أبى أن يستكين . . ألم يقل لأخيه ذات يوم وقد رجعا من عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جاء الى المدينة أول ماجاء وتبين لهما أنه النبى المبعوث آخر الزمن : سأبقى له عدوا ماحييت .

ان رجلا يضمر ذلك العداء كله للحق لايمكن أن يرجع من عند كعب فاشلا فى مهمته ، وماله لايجرب مع كعب كل الخدع والحيل التى تمتلىء بها جعبته !

ومازال على حد تعبير ابن هشام يفتل له فى الذروة والغارب(٢١٦) حتى لان له . وقبل ماأشار عليه به ونقض عهده مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونفض يده مما كان قد أبرمه معه . . وأعطاه حيى عهدا على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا فانه سيدخل معه فى حصنه يصيبه مايصيبه

النبى يستوثق من خبر نقض العهد :

ونما الى علم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن بنى قريظة نقضوا عهدهم معه ، وظاهروا الأحزاب فى موقفهم ضده . فأراد أن يستوثق من ذلك ،

---

(٢١٦) يفتل فى الذروة والغارب : مثل يضرب ، وأصله االبعير يستصعب عليك فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنامه ، فيجد لذة فيأنس عند ذلك ، فضرب الله مثلا فى المراوضة ، ومحاولة إقناع شخص بما تريده .

فأمر سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة بالذهاب الى بني قريظة ومعرفة خبرهم ، قال لهم : انطلقوا لتنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا اليّ لحنا أعرفه . ولاتقولوا للناس حتى لاتفتوا في أعضادهم . وان كانوا على الوفاء فيما بيننا فأجهروا به للناس .

ومعنى الحنوا[٢١٧] أي أخبروني عن طريق الكناية .

وخرج هؤلاء القوم الى بني قريظة وجاءوهم في حصونهم فوجدوهم على أخبث مابلغ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم ، فقد قالوا لهم : من رسول الله ؟ على وجه الانكـار لرسالته ، وتكلموا فيه بما لايليق وتبرءوا من عقده وعهده ، وقالوا : لاعهد بيننا وبينه ولاعقد .

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلا فيه حدة ، فكفه سعد بن عبادة . وعاد الوفد الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلين له : يارسول الله ، عضل والقارة .

لم يقولوا : غدروا ، ولكنهم كنوا عن ذلك بما حدث للمسلمين من غدر أصحاب الرجيع وماأصاب خبيبا من المسلمين في ذلك اليوم ، فقال النبي ـ

---

(٢١٧) اللحن : هو العدول بالكلام عن الوجه المعروف عند الناس الى وجه لايعرفه الا صاحبه ، كما أن اللحن الذي هو الخطأ عدول عن الصواب المعروف .

صلى الله عليه وسلم ـ الله أكبر ، أبشروا يامعشر المسلمين .

قصة أصحاب الرجيع :

أما قصة أصحاب الرجيع التى كنى بها سعد بن معاذ ومن معه عن غدر اليهود فقد ذكرها الرواة كما يلى :

قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رهط من عضل والقارة ، وهما يظنان من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة . وبنو عضل ـ بفتح العين والضاد ـ ينسبون الى عضل بن الدبش بن محكم .

وبنو القارة ـ بتخفيف الراء ـ ينسبون الى أكمة سوداء فيها حجارة أطلقوا عليها اسم القارة كانوا قد نزلوا بها فسموا بها . وكانوا يُعْرَفُون باصابة المرمى ويضرب بهم المثل فى ذلك حتى قالوا : « قد أنصف القارة من راماها »

قدم هؤلاء الرهط الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يارسول الله إن فينا إسلاما فابعث فينا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن . . ويعلموننا شرائع الاسلام ، فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفرا من أصحابه للقيام بتلك المهمة وكانوا ستة هم :

مرثد بن أبى مرثد الغنوى
وخالد بن البكير الليثى
وعاصم بن ثابت بن أبى الأفلح

وخبيب بن عدى

وزيد بن الدثنة بن معاوية

وعبد الله بن طارق .

وأمَّر النبى - صلى الله عليه وسلم - على هؤلاء مرثد بن أبى مرثد الغنوى . وخرج أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز ، بين مكة وعسفان ، غدروا بهم ، فقد فوجىء أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم فى رحالهم بالرجال وقد جردوا عليهم السيوف وأحاطوا بهم ، وقالوا لهم : استأسروا لنا .

وجرد المسلمون سيوفهم ليدافعوا عن أنفسهم ، فقال لهم المهاجمون : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة(٢١٨) ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم .

فأما مرثد . وخالد ، وعاصم فقد قالوا : والله لانقبل من مشرك عهدا أبدا ، وأنشد عاصم بن ثابت :

ما علتى وأنا جلد نابل ... والقوس فيها وتر عنابل

تزل عن صفحتها المعابل ... الموت حق والحياة باطل

---

(٢١٨) أى أنهم أرادوا أسرهم وبيعهم الى أهل مكة .

وكل ماحم الاله نازل بالمرء والمرء اليه آئل
إن لم أقاتلكم فإن هابل(٢١٩)

وقاتل عاصم حتى قتل ، وقتل معه صاحباه .

وأما يزيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق ، فلانوا ورقوا ، فأسرهم العدو ، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم .

وفى الطريق إلى مكة استطاع عبد الله بن طارق أن ينتزع نفسه من القران ، وأخذ سيفه واستأخر عنهم . ولكنهم رموه حتى قتلوه ، فقبره هناك فى الموضع الذى قتل فيه .

وبيع خبيب وزيد بمكة بأسيرين لهذيل فيها .

وقد اشتراهما أهل مكة لقتلهما ثأراً لمن قتلوا فى معاركهم مع المسلمين . اشترى صفوان بن أمية - زيد بن الدثنة وحين قدَّم صفوان بن أمية - زيدا - ليقتله ثأراً بأبيه أمية بن خلف ، وساقوه من الحرم الى التنعيم واجتمع القرشيون حوله ليشهدوا مقتله ويتشفوا به ، جاءه أبو سفيان فقال له : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟

---

(٢١٩) العنابل : الشديد ، وهابل : ثاكل وفاقد .

فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى هذا المكان الذى أنا فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى .

فقال أبوسفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد .. محمداً .

وحقا ذلك فإنه حب تفرضه العقيدة وأساسه الصفاء والاخلاص .
وليس مبعثه المغانم المادية والمصالح الدنيوية كالحب السائد بين الناس .
وقتل زيد . ومضى الى ربه شهيدا راضيا مرضيا .

وأما خبيب بن عدى وكان قد اشتراه بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بأبيهم الذى قتله خبيب يوم بدر ، فقد حبسوه فى بيت ماوية ـ مولاة لهم ـ ووكلوا به من يحرسه .

وقال خبيب لموهب زوج ماوية : يا موهب أطلب إليك ثلاثا : أن تسقينى العذب ، وأن تجنبنى ما ذبح على النصب ، وأن تخبرنى إذا أرادوا قتلى .

وقد حدث من اكرام الله إياه فى أثناء حبسه ما أثار عجب هؤلاء القوم الكافرين .

حدَّثت زينب بنت الحارث أخت عقبة قاتل خبيب قالت : اطلعت على خبيب يوما وان فى يده لقطفا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ـ وما فى مكة يومئذ حبة من عنب ـ إنها كرامة له من الله على نحو ما أكرم به مريم

حين سألها زكريا وقد وجد عندها رزقا : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ولما هموا بقتله قال لهم : أمهلونى حتى أصلى ركعتين ، فصلاهما فى موضع مسجد التنعيم الآن ـ وهو الذى يقال له مسجد عائشة ـ عند طرف مكة من جهة المدينة على ثلاثة أميال من مكة .

والتفت إلى أعدائه وقال : لولا أنكم تظنون أن بى جزعا من الموت لزدت فى الصلاة . ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، ولا تبق منهم أحدا ، واقتلهم بددا .

وقد ذكر أن قاتليه لم يحل عليهم الحول ومنهم أحد على قيد الحياة إلا من أسلم منهم بعد ذلك .

لقد أصابت دعوة خبيب كل من سبق فى علم الله أنه يموت كافراً ، ومن أسلم منهم لم يعنه خبيب ولم يقصده بدعائه . .

وقال خبيب : اللهم أنى لا أجد من يبلغ رسولك منى السلام فبلغه ، فجاء جبريل عليه السلام ـ الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره وأبلغه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس بين أصحابه : وعليك السلام ، خبيب قتلته قريش .

وقد أنشد خبيب عند استشهاده أبياتا من الشعر تشهد بصدق إيمانه وقوة يقينه فقد قال :

فلست أبـالى حين أقتـل مسـلما على أى شـق كان فى اللـه مصـرعى
وذلك فى ذات الالــه وان يشــأ يبـارك على أوصـال شـلو ممـزع
إلى اللـه أشـكو غربتى بعد كربتى وما أرصـد الأحزاب لى عند مصـرعى

فهؤلاء هم أصحاب الرجيع الذين ذهبوا شهداء .... غدر بهم جمع من قبائل عضل والقارة

ومن أجل هذا كنى بهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة حين أخبرا النبى - صلى الله عليه وسلم - بغدر بنى قريظة .

انضمام بنى قريظة للعدو

وانضم بنو قريظة للعدو المحيط بالمدينة .. وهذا هو قوله - تعالى

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢٢٠)

قال القرطبى : الذين جاءوا من فوق الوادى وهو أعلاه ، عوف بن مالك فى بنى نصر وعيينة بن حصن فى أهل نجد ، وطليحة بن خويلد

---

(٢٢٠) الأحزاب ١٠

الأسدى فى بنى أسد والذين جاءوا من أسفل الوادى أبو سفيان بن حرب فى أهل مكة . وأبو الأعور السلمى ومعه حيى بن أخطب اليهودى فى بنى قريظة .

لقد انكشف أمر بنى قريظة تماما ، وأسفروا عن العداوة ، ولم يكتفوا بذلك بل كان لهم دور آخر أكبر ، هو استطلاع جبهة المسلمين الداخلية . وأخبار الكفار بكل ما يحدث . .

قالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ـ كنا يوم الأحزاب فى حصن حسان بن ثابت ، النساء والصبيان . . . . . . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فى نحر العدو لايستطيعون الانصراف الينا ، فاذا يهودى يدور حول الحصن . وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذت صفية عموداً ، ونزلت من الحصن وتربصت باليهودى فقتلته بالعمود .

لقد وضحت عداوة بنى قريظة إذن ، وأسفروا عن غدرهم ، وزين لهم شيطانهم حيى بن أخطب أنهم على وشك الانتهاء من محمد وأصحابه ووجدوا من المنافقين فى المدينة تظاهرا قويا على العصيان ونقض العهد .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن فارغا لهم . فقد كان مشغولا بالخطر الداهم من الخارج . ولكن الخطر الداخلى كان أعنف . وبذلك أصبح المسلمون فى موقف لايحسدون عليه . . لقد أصبح الموقف صعباً

فقام سليط من ساعته وأخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما سمع فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيد بن حارثة فى سرية الى القردة من أرض نجد « وهى بين الربذة والغمرة ناحية ذات عرق » فسار زيد لهلال جمادى الأخرة من العام الثالث فى مائة راكب ، وكان الصراع على أشده بين قريش والمسلمين فأصاب زيد ومن معه أعيان القوم .

وغاد زيد بالعير الى المدينة فخمسها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبلغ الخمس عشرين ألف درهم ، وقسم ما بقى على أفراد السرية ..

هذه خدمة أداها نعيم بن مسعود دون أن يدرى الى المسلمين .

وانطوت الأيام وجاءت موقعة الأحزاب حيث نجح اليهود فى تجميع القبائل المشركة ضد المسلمين وزحفوا الى المدينة يريدون تطويقها .... ولنترك نعيم بن مسعود يحدثنا عن موقفه .... يقول :

كنت أقدم على كعب بن أسد زعيم بنى قريظة فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم ثم يحمّلوننى تمرا على ركابى ما كانت ، فأرجع به الى أهلى .

فلما سارت الأحزاب الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرت مع قومى وأنا على دينى لم أسلم بعد .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بى عارفا ... فقذف الله فى

والأمر يحتاج إلى حسن التدبير وإحكام التخطيط واستعمال الحكمة ما أمكن ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعدم ذلك . . فسرعان ما تهيأت الفرصة والوسيلة التى استطاع ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طريقها أن يجد للمسلمين مخرجا وربما أغنت الفطنة غناء الجيوش الزاحفة والرعود العاصفة والرماح الخاطفة وهذا هو ما حدث . . . . لقد تهيأت تلك الفرصة أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإسلام نعيم بن مسعود :

من نعيم بن مسعود ؟

ونعيم بن مسعود الذى أسلم فى هذه الفترة الحرجة التى ألمت بالمسلمين هو من بني أشجع بن ريث بن غطفان ، وكانت منازل قبيلته فى نجد وكان قبل إسلامه كثير التردد على يهود المدينة من بنى النضير وبنى قريظة فكانوا يميزونه بالعطاء فى مقابل خدمات يؤديها إليهم . .

وقدم نعيم مرة وهو مشرك على كنانة بن أبي الحقيق فى بني النضير فشرب معه الخمر حتى سكر وكان فى المجلس سليط بن النعمان ـ وهو صحابى ـ يشرب معهم ، ولم تكن الخمر قد حرمت بعد .

فذكر نعيم والخمر تدور برأسه أن عير قريش خرجت من مكة وعليها صفوان بن أمية تحمل تجارة الى الشام ، وأنه قد ابتعد عن الطريق المسلوك ، فسلك طريقا آخر تخوفا من اعتراض المسلمين .

قلبى الاسلام فكتمت ذلك عن قومى . وخرجت حتى جئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المغرب والعشاء فوجدته يصلى . فلما رآنى قال : ما جاء بك يا نعيم ؟

قلت : جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فمرنى بما شئت يا رسول الله .

قال : إن استطعت أن تخذل عنا الناس فخذل .

قلت : ولكن يا رسول الله إنى أقول

قال : قل ما بدا لك فأنت فى حل

ولم يكن أحد من القوم قد علم بعد باسلام نعيم

قال نعيم : فذهبت الى بنى قريظة فقلت اكتموا عنى ، اكتموا عنى .

قالوا : نفعل .

فقلت : إن قريشا وغطفان على وشك الانصراف عن محمد ، إن أصابوا فرصة انتهزوها ، والا عادوا الى بلادهم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنا .

قال بنو قريظة : قد أشرت بالرأى .

ثم خرج نعيم الى أبى سفيان ، فقال : قد جئتك بنصيحة فاكتم عنى .

قال : أفعل

قال نعيم : إن بنى قريظة قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وأرادوا إصلاحه ومراجعته ، فقد أرسلوا إليه وأنا عندهم : من يقول له : إنا سنأخذ من قريش وغطفان سبعين رجلا من أشرافهم ونسلمهم اليك تضرب أعناقهم ، ونكون معك على قريش وغطفان حتى نردهم عنك ، وترد جناحنا الذى كسرت إلى ديارهم - يعنون بذلك بنى النضير - فإن بعثوا اليكم يسألونكم رهنا فلا تدفعوا اليهم أحدا واحذروهم .

ثم أتى غطفان فقال لهم ماقال لقريش ، وكان نعيم رجلا منهم فصدقوه . فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله - عز وجل - لرسوله والمؤمنين - أرسل أبو سفيان الى بنى قريظة - عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان يقول لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا صبيحة غد للقتال حتى نناجز محمدا .

فأرسلت اليهم بنو قريظة : ان اليوم يوم السبت ، وقد علمتم أنا لا نعتدى فى السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا يكونون معنا ، فاننا نتخوف أن ترحلوا وتدعونا ومحمدا .

فقال أبو سفيان : هذا ماقال نعيم .

وأرسلت بنو قريظة الى غطفان بمثل ماأرسلت به الى قريش .

فقالت قريش وغطفان : إنا والله مانعطيكم ولكن اخرجوا فقاتلوا معنا .

فقال اليهود فيما بينهم : نحلف بالتوراة أن الخبر الذى قال نعيم لحق ، وجعلت قريش وغطفان يقولون الخبر ماقال نعيم .

ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء ، واختلف أمرهم وتفرقوا فكان نعيم يقول : أنا ختلت بين الأحزاب حتى تفرقوا فى كل وجه ، وأنا أمين رسول الله - ﷺ - على سره . . وهكذا كان غناء رجل واحد فيه غناء جيش بأكمله . .

الغـــــزوة

وانتهت موقعة الأحزاب بهزيمة المشركين هزيمة منكرة كما سنفصل ذلك فيما بعد ، وعاد النبى - ﷺ - إلى بيته ، كما عاد المسلمون إلى بيوتهم .

ولكن جبريل يأتى للنبى - ﷺ - يقول له : إن كنت قد وضعت السلاح فما وضعت الملائكة السلاح . إن الله يأمرك أن تخرج الى بنى قريظة ، وإنى متقدم إليهم فمزلزل بهم حصونهم .

فأمر النبى - ﷺ - مناديا ينادى فى الناس : لايصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة . .

لقد أراد الله - عزت قدرته - أن يلقن بنى قريظة درسا قاسيا ، ويعلمهم كيف تكون نتيجة الغدر بالعهود . . فأرسل جبريل - عليه السلام - يطلب إلى النبى - ﷺ - ضرورة التوجه الى هؤلاء الغدرة ، ويُعْلِمه بأن الملائكة أمامه فى مقدمة الصفوف .

وقد كان المسلمون مجهدين من المواجهة مع الأحزاب وقد بلغ الاعياء بهم مبلغا لايخفى على أحد ، والنبى - ﷺ - رءوف بأمته ، رحيم بأصحابه ، فقال لجبريل : إن أصحابى مجهدون فلو نظرتهم أياما ؟

فقال له جبريل : انهض الى بنى قريظة فوالله لينصرنك الله عليهم ، ولأدخلن فرسى هذا عليهم فى حصونهم ، ثم لأحطمنها عليهم .

وأدبر جبريل - عليه السلام - ومن معه من الملائكة - حتى سطع الغبار فى زقاق بنى غَنْم .. وهم طائفة من الأنصار .

ولقد قال جبريل للنبى - ﷺ - أيضا : عذيرك من محارب - أى من يعذرك ؟

قالت عائشة - رضى الله عنها - وقد ارتاع النبى - ﷺ - حين سمع قول جبريل هذا حتى وثب وثبة شديدة ، وخرج فى اثر هذا الصوت ..

وكانت عائشة - رضى الله عنها - لا تعرف أن هذا جبريل ، وخرجت وراء النبى - ﷺ - فاذا هى بالنبى - ﷺ - متكىء على معرفة دابة يمتطيها رجل يكلمه . فرجعت .

فلما دخل قلت له . من ذلك الرجل الذى كنت تكلمه ؟

قال : أرأيته .

قالت : نعم .

قال : بمن تشبهينه ؟

قالت بدحية الكلبى .

قال : ذلك جبريل - عليه السلام - أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة . ولم يبق مجال للتأخر بعد ذلك ، فاستعد النبى - ﷺ - فورا للغزو .

ونادى مناديه : ياخيل الله اركبى ، وهو تعبير من أبلغ التعبيرات وأوجزها فى إثارة الحمية للقتال . . ولا عجب فى ذلك فهو - ﷺ - أفصح من نطق بالضاد وقد أعطاه الله جوامع الكلم .

ولبس النبى - ﷺ - درعه ووضع البيضة [٢٢١] على رأسه ، وتقلد سيفه ، وأخذ قناة بيده الشريفة ، وركب فرسه اللُّجيف . أو اللحيف - بالجيم أو الحاء - والناس حوله فى خيولهم وأسلحتهم ، وكانت عدة الجنود ثلاثة آلاف بينهم ستة وثلاثون فارسا . .

واستعمل النبى - ﷺ - على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

وحمل الراية على بن أبى طالب وتقدم بها . .

ومر النبى - ﷺ - على نفر من بنى النجار قد لبسوا السلاح ، فقال لهم : هل مر بكم أحد ؟

---

(٢٢١) أى الخوذة

قالوا : نعم ، رجل يشبه دحية الكلبى على بغلة بيضاء ـ وفى رواية : على فرس أبيض عليه اللأمة ، وأمرنا بحمل السلاح ، وقال لنا : رسول الله ـ ﷺ ـ يطلع عليكم الآن ، فلبسنا السلاح ووقفنا على استعداد . .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : ذاك جبريل ـ عليه السلام ـ بعثه الله إلى بنى قريظة ليزلزل حصونهم ، ويقذف الرعب فى قلوبهم .

لقد كان جبريل حين يأتى فى صورة البشر ، يأتى فى صورة دحية بن خليفة الكلبى ، وهو رجل جميل الصورة حسن المنظر والهيأة . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك .

علىّ يتقدم بالراية

وتقدم على بن أبى طالب بالراية نحو حصون بنى قريظة ، ومعه نفر من المهاجرين والانصار ، وركز اللواء قريبا منها . وحين رآه اليهود اشتد هياجهم ، وانطلقت ألسنتهم بالألفاظ السيئة ضد المسلمين ، وضد الدين الاسلامى . .

لقد ظنوا أن هناك من يمنع عنهم ، وأن حصونهم سوف تحميهم وترد عنهم القتل والهلاك ، ولكنهم كانوا واهمين . .

وقد سول لهم شيطانهم أنه بامكانهم أن ييّئسوا المسلمين من حصارهم ، فحصونهم منيعة ، ولديهم الزاد الذى يكفيهم مددا طويلة مُدَداً طويلة من

الزمان ، وسوف لا يجد المسلمون منفذا اليهم فيعودون يائسين . قادما فأشفق عليه من أن يسمع ماتفوّه به اليهود فتتأذى مشاعره ، فقال لأبى قتادة الأنصارى : الزم اللواء حتى أحضر .

وأسرع ليستقبل النبى - ﷺ - يقول له : يارسول الله لا تدن من هؤلاء الأخابث .

فقال النبى - ﷺ - « لعلك سمعت منهم لى أذى ؟ »
قال : نعم يارسول الله .
فقال النبى - ﷺ - « لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا » .

وتقدم النبى - ﷺ - نحو حصونهم ، ونادى أشرافهم ، قائلا ، أجيبوا ياأخوة القردة وعبدة الطاغوت ، لماذا توجهون إلىَّ الشتائم ؟ هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟

ولكنهم كدأبهم جعلوا يحلفون ويقولون : ماقلنا شيئا . ياأبا القاسم ، ماكنت جهولا . .

وذكر بعض الرواة - أن أسيد بن حضير - رضى الله عنه - كان قد سبق وتقدم اليهم ، وهددهم قائلا : ياأعداء الله : لا تبرحوا من حصونكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى حجر .

وتبخر ماكانوا يظهرون من تشدد ، وأسقط فى أيديهم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فبدوا على طبيعتهم من الجبن والخور ، وفزعوا فزعا شديدا ، وأقبلوا على أسيد يستعطفونه قائلين : يابن الخضير . نحن مواليك وحلفاؤك - يقصدون أن يستشفع لهم عند رسول الله - ﷺ - كما استشفع عبد الله بن أبى بن سلول لمواليه من بنى قينقاع .

ولكن أسَيْداً كان مؤمنا لا يبالىء فى دينه ، فقال لهم : لا عهد بينى وبينكم .

موقف المسلمين من قول النبى - ﷺ - لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة .

وكان النبى - ﷺ - قد قال عند خروجه بالمسلمين من المدينة : لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة . . وقد وقف بعض المسلمين من هذا القول موقف الالتزام بظاهر القول ، فأمسكوا عن الصلاة حتى وصلوا ، ولقد شغل بعضهم شاغل فلم يصلوا الى بنى قريظة إلا بعد العشاء الآخرة ، فصلوا العصر بعدها .

واجتهد بعضهم قائلا : إنما يريد النبى - ﷺ - منا الإسراع إلى بنى قريظة ، ولا يريد منا أن ندع الصلاة حتى نصل ، أو نخرجها عن وقتها . . وقد صلى هؤلاء العصر عندما حان وقته ثم واصلوا سيرهم .

وما عاب النبى - ﷺ - أحدا من الفريقين ولا عنفهم ، لأن كلا منهم مجتهد متأول ، وكل منهم مأجور بقصده . .

وقد ورد أن الذين صلُّوا العصر فى وقتها إنما صلوها على ظهور دوابهم .. وهذه نبذة قصيرة عن الاجتهاد :

معنى الاجتهاد

والاجتهاد فى اللغة بذل الجهد فى طلب المقصود .

وفى الاصطلاح : استفراغ الفقيه الوسع للوصول الى معرفة الحكم الفقهى فى قضية ما .. وقد اجتهد المسلمون فى فهم كلام النبى - ﷺ - فى هذا الأمر فمنهم من وقف عند حدود الامتثال الظاهر ، ومنهم من فهم منه الاسراع .

وربما استدل الذين أخروا الصلاة إلى أن وصلوا إلى بنى قريظة بما حدث فى أثناء - معركة الأحزاب - فقد كان لشدة انشغالهم بالحرب أن صلوا العصر بعد غروب الشمس ، فجوزوا عموم ذلك فى كل شغل يتعلق بالحرب ، لاسيما والزمان زمان تشريع .

على أن الاجتهاد لا يعنى العصمة من الخطأ ولذلك قال النبى - ﷺ - « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر(٢٢٢) »

والاجتهاد لايكون إلا فيما ليس فيه نص ، وقد دعا إلى النبى - ﷺ - فحين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له : كيف تقضى يامعاذ ؟ قال أقضى بكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -

---

(٢٢٢) رواه مسلم من حديث عمرو بن العاص

قال له : فإذا لم تجد ؟

قال : أجتهد رأيى ولا آلو - أى لا أقصر .

فَسُرَّ منه النبى - ﷺ -

ومعنى ذلك أنه لا جمود فى الإسلام .. فهناك قضايا تَجِدُّ وأحداث تنشأ تحتاج من العلماء إلى بيان الرأى فيها ، فهم يجتهدون لاستنباط مايحتاج إليه الناس من أحكام ..

ولكن الاجتهاد له شروط ، فليس لكل انسان الحق فى أن يجتهد فى أمور الدين وأحكامه .

وأهم شروط الاجتهاد المعرفة الواسعة بعلوم القرآن والسنة ومراميها وأحكامها ، مع التجرد عن الهوى ، والرجوع إلى الحق متى تبين له وجهه .

ولذلك يقول القرطبى فى تفسيره : إنما يكون الأجر للحاكم الذى يخطىء - إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس وقضاء من مضى ، لأن اجتهاده عبادة يؤجر عليها ، ولا يؤجر على الخطأ ، بل يوضع عنه الأثم فقط ، فأما من لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطأ فى الحكم ، بل يتحمل عليه الوزر(٢٢٣)

والعصور الاسلامية المزدهرة مليئة بالأئمة المجتهدين الذين أناروا الطريق للمسلمين ، ووضعوا لهم من القواعد والأحكام ماحفظوا به أصول هذا الدين الحنيف ..

---

(٢٢٣) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٣١١ ط دار الكتب تفسير آية (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث) الآية رقم ٧٨ ومابعدها من سورة الأنبياء

وجاء بعدهم من اهتدى بهديهم وسار على نهجهم ، وقد ورد عن السيوطى قوله - لا يخلو زمن من مجتهد واحد على الاقل ، كما أنه يبعث الله على رأس كل قر من يجدد للناس دينهم(٢٢٤) هذه إلمامة قصيرة وسريعة عن الاجتهاد ، اقتضاها المقام ، ونعود الآن إلى أحداث بنى قريظة . .

الحصار

وضرب النبى - ﷺ - على بنى قريظة الحصار وأحكمه .

وأطل هؤلاء المحاصرون من حصونهم فإذا المسلمون قائمون حول الحصن فى لباس الحرب يكبرون ويهللون ، وعيونهم يقظة ، وقلوبهم ثابتة ، وعزمهم قوى - لقد أعدوا أنفسهم على أنهم مقيمون لا راحلون ، وفى كل وقت من أوقات الصلاة ينادى المؤذن بصوته الجميل الرائع . . الله أكبر فتتجاوب معه القلوب ، وتردد معه الألسنة تصديقا لقول الرسول - ﷺ - :

« إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن ثم صلوا علىَّ »

فكان هذا التجاوب بالتكبير يزلزل الأرض تحت أقدام اليهود ، فترجف أفئدتهم ، وتضطرب نفوسهم . . وهكذا قذف الله الرعب فى نفوسهم فأصبحوا عاجزين عن التفكير السليم ، وعن التشاور فيما يفعلون . لقد بدأ الاضطراب واضحا فى تصرفاتهم ، وأذهلهم الخوف عن تبين وجه الصواب فى آرائهم . . وبخاصة بعد أن طال أمد الحصار دون أن يتغير شىء فى

---

(٢٢٤) دائرة المعارف الاسلامية مادة اجتهاد ج ٢ ص ٣٢ق

موقف المسلمين الصامدين حولهم .. لقد استمر الحصار طوال خمسة وعشرين يوما فى بعض الروايات ..

بداية الوهن

وجمع زعيمهم كعب بن أسد كبار اليهود قائلا لهم فى نصيحة : يامعشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى أعرض عليكم ثلاث خلال فخذوا أيها شئتم .

قالوا : ماهى ؟

قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل وأنه الذى تجدونه فى كتابكم التوراة ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم ..

ولكنهم أبوا ذلك إباء شديدا ، وقالوا : لا نفارق ديننا أبداً ، ولا نترك حكم التوراة ، ولا نستبدل به غيره ـ وقد دل ذلك على جهلهم وقصر نظرهم وشدة حمقهم وتعصبهم الأعمى ، الذى حال بينهم وبين رؤية النور الذى جاء لهدايتهم .. ولو كانوا يؤمنون بالتوراة حقا لآمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ إنهم ليجدونه فى التوراة عندهم مكتوباً يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم ..

لقد كان كعب جاداً فى عرضه على بنى قريظة أن يؤمنوا بالنبى ـ ﷺ ـ كما كان كارها لنقض العهد بينه وبين النبى ـ ﷺ ـ ولذلك قال لقومه : مامنعنا

من الدخول مع محمد إلا الحسد للغرب ، حيث لم يكن ذلك النبى من بنى إسرائيل ، ولقد كنت كارها لنقض العهد ، ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس ـ وأشار إلى حيى بن أخطب ـ

أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم ؟ لقد قال لكم : إنه يخرج بهذه القرية نبى فاتبعوه وكونوا له أنصارا ، فإن فعلتم ذلك تكونوا قد آمنتم بالكتابين الأول والآخر ، أى بالتوراة والقرآن ؟

لقد كان يهود بنى قريظة يعرفون أن رسول الله ـ ﷺ ـ مذكور فى كتبهم ، وكانوا يعلمون أولادهم صفته ، ويذكرون لهم أن مهاجره المدينة ، كما كانوا يعرفون أوصاف أصحابه . .

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : كانت يهود بنى قريظة وبنى النضير وفدك وخيبر يعرفون صفة النبى ـ ﷺ ـ قبل أن يبعث ، ويعرفون أن دار هجرته المدينة .

ومازال كعب يذكرهم بذلك ، ويرغبهم فيه وهم يرفضون حتى أيس منهم . . فلم يجد بدا من أن يعرض عليهم الخلة الثانية ، فقال لهم : فإذا أبيتم علىّ ذلك ، فهلم نقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا ـ مشاة ـ رافعين السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلا نخشى عليه أو نحرص على الحياة من أجله ، ثم نقاتلهم حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن

نهلك نهلك ولم نترك وراءنا ما نخاف عليه من أهل وولد ، وإن ننتصر على محمد فلعمرى لنجدن ـ عوضا عن النساء والأبناء ـ يعنى بذلك أنهم بامكانهم تعويض من هلك من الأزواج والأبناء ـ ولكنهم نفروا من ذلك العرض وقالوا له : أىُّ عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا ؟

فقال كعب : أما وقد أبيتم ذلك أيضا ، فقد بقيت الخلة الثالثة .

قالوا : وماهى ؟

قال : هذه الليلة ليلة السبت ، وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، لاعتقادهم أنا لا نحدث فيها شيئا ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .

فقالوا : نفسد سبتنا ، ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا ، إلا من قد علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ . يعنون بذلك ماأشار إليه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ
فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ
لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾
وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا

قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ
أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ
بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (٢٢٥)

قال لهم كعب : مابات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما .
وعرض عليهم رجل منهم إسمه عمرو بن سعدى رأيا كان فيه النجاة لهم لو قبلوه .

قال لهم : يامعشر يهود ، قد خالفتم محمدا فيما خالفتموه ، ولم أشرككم فى غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فأثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية ، فو الله ماأدرى أيقبلها أم لا ؟

قالوا : نحن لا نقر للعرب بخراج فى رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .

قال : فإنى برىء منكم .

وخرج فى تلك الليلة ، فمر بحرس رسول الله - ﷺ - وعليه محمد بن مسلمة .

---

(٢٢٥) الاعراف ١٦٣ : ١٦٦

فقال محمد بن مسلمة : من هذا ؟

قال : عمرو بن سعدى .

قال محمد : مر ، اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام ، وخلى سبيله ـ وكان عمرو معروفا بالكرم وكراهية الغدر ـ وبعد ذلك لم يدر أين هو . وقيل : وجدت جثته ، وأخبر رسول الله ـ ﷺ ـ خبره ، فقال : ذلك رجل نجاه الله بوفاته(٢٢٦)

ثم اراد اليهود أن يلجأوا إلى المفاوضات لعلهم يجدون من خلالها ثغرة للنجاة أو المماطلة والتسويف وكسب الوقت ، وهذه عادتهم التى درجوا عليها وتوارثتها أجيالهم من بعدهم حتى وقتنا هذا .

فأرسلوا الى النبى ـ ﷺ ـ قائلين : أرسل إلينا أبا لبابة ـ وهو رفاعة بن عبد المنذر الأنصارى ـ نستشيره فى أمرنا .

وكان أبو لبابة مناصحا لهم ، وكان له مال فى بنى قريظة ، فأرسله النبى ـ ﷺ ـ إليهم .

فلما رأوه قادما عليهم قام إليه الرجال ، وأسرعت إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، من شدة مالقوا من المحاصرة ـ فرق لهم .

---

(٢٢٦) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٩٢

فقال بنو قريظة لأبي لبابة : أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقة . يعنى بذلك أن النزول على حكمه معناه القتل . .

أبو لبابة يحبس نفسه

وشعر أبو لبابة أنه زل بإشارته تلك إليه حلقه زلة ، لاتغتفر وأدرك أنه قد خان سر رسول الله - ﷺ -

قال أبو لبابة : فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله ، لأن فى إشارته تلك تنفيرا لهم عن الانقياد لحكم النبى - ﷺ - ومن ثم فقد نزل فى ذلك قوله - تعالى -

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢٢٧)

وحين أدرك أبو لبابة أنه قد أخطأ بإشارته تلك ندم واسترجع ، فقال له كعب : مالك ياأبا لبابة ؟

فقال له : خنت الله ورسوله .

---

(٢٢٧) الأنفال ٢٧ ، ٢٨

ونزل أبو لبابة من حصن بنى قريظة وهى يبكى بكاء مرا ، وانطلق على وجهه ، ولم يأت رسول الله - ﷺ - وذهب الى المسجد وربط نفسه الى سارية من سوارية - هى السارية التى عند باب أم سلمة - رضى اله عنها -

وكانت هذه السارية أكثر ما يصلى النبى - ﷺ - صلاة النفل عندها ، وكان ينصرف إليها من صلاة الصبح ، وكان يستبق إليها الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فيجىء إليهم النبى - ﷺ - ويتلو عليهم ما نزل عليه فى ليلته ويحدثهم ويحدثونه .

وأقسم أبو لبابة ألا يذوق طعاما ولا شرابا حتى يموت أو يتوب الله عليه مما صنع ، كما أقسم أيضا ألا يطأ بنى قريظة ، وألا يرى فى مكان خان فيه الله ورسوله .

ويبلغ رسول الله خبره وكان قد استبطأه - فقال - وهو الذى سماه ربه الرءوف الرحيم - : لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما إذ فعل مافعل فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه .

وظل أبو لبابة فى محبسه تتناوب زوجته وابنته على ملاحظته ، لا يفكانه إلا إذا أراد الصلاة أو أراد قضاء حاجته . وانتهى أمر بنى قريظة الى ما انتهى إليه على ما سنوضحه . بعد ونزلت توبة الله على أبى لبابة

ويقص علينا ابن الأثير قصة ذلك فيقول : نكث أبو لبابة سبعة أيام لا يذوق شيئا حتى خر مغشيا عليه ، ثم تاب الله عز وجل عليه ، فقيل له : قد تاب الله عليك .

فقال : لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله - ﷺ - يحلني ، فجاء النبي - ﷺ - فحله بيده .

وقال أبو لبابة ؛ يارسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله - تعلى - وإلى رسوله - ﷺ -.

قال النبي - ﷺ - : يكفيك الثلث .[228]

وقد نزلت توبة الله على أبي لبابة والنبي - ﷺ - في بيت أم سلمة - رضى اله عنها - نزل قوله تعالى

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٠٢ ﴾[229]

قالت أم سلمة : سمعت رسول الله - ﷺ - من السحر يضحك ، فقلت : مم تضحك يارسول الله ؟

---

(٢٢٨) أسد الغابة ج ٦ ص ٢٦٦
(٢٢٩) التوبة ١٠٢

قال : تاب الله على أبي لبابة .

قلت : أفلا أبشره يارسول الله ؟

قال : بلى ، إن شئت .

فقامت على باب حجرتها فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك . فذهب الناس اليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله - ﷺ - الذى يطلقنى بيده الشريفة .

فلما مر النبى - ﷺ - على أبي لبابة خارجا الى صلاة الصبح أطلقه .

الحكم على بنى قريظة

ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله - ﷺ - فأمر بهم فجمعوا ، ثم جعل الرجال فى ناحية والنساء والذرارى فى ناحية أخرى ، واستعمل عليهم عبدالله بن سلام ، وقد كان منهم قبل أن يسلم .

وتدافعت الأوس الى النبى - ﷺ - يقولون له : يارسول الله موالينا وحلفاؤنا ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ماقد فعلت . .

إنهم يعنون بذلك ما فعل ببنى قينقاع حيث استشفع فيهم عبدالله بن أبي سلول فأطلق النبى - ﷺ - سراحهم على نحو ما قدمنا .

وأرادت الأوس أن يقبل النبى - ﷺ - رجاءهم فى بنى قريظة كما قبل رجاء الخزرج فى بنى قينقاع .

ورد النبى - ﷺ - الأمر اليهم فقال لهم : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟

قالوا : بلى

قال : فاختاروا من شئتم من أصحابى .

فتشاورت الأوس مع اليهود ثم قالوا :

نختار سعد بن معاذ - وهو سيد الأوس حينئذ - وظن بنو قريظة أنه سيكون رحيما بهم لما كان بينهم من حلف سابق .

وكان سعد بن معاذ قد أصابه سهم فى أكحله يوم الخندق . فأبقاه النبى - ﷺ - فى خيمة الجرحى التى كانت تشرف عليها رفيدة الأنصارية ، وهى امرأة متطببة كانت تداوى الجرحى من المسلمين وتقوم على رعايتهم . . وكان النبى - ﷺ - يعوده ويطمئن عليه . (٢٣٠)

وقد دعا سعد ربه قائلا : يارب لا تمتنى حتى تقر عينى فى بنى قريظة . .

وظل سعد تحت العلاج حتى أوشك أن يتماثل للشفاء ، فجاءه من يخبره أن بنى قريظة قد اختارته ليحكم فيها ؛

وجاءه قومه فحملوه من خيمة رفيدة التى فى المسجد ، وأركبوه حمارا قد فرشوا له على ظهره ، واقبلوا به الى رسول الله - ﷺ - وهم يقولون له :

---

(٢٣٠) أسد الغابة ج ، ص ١٢٠

يا أبا عمرو أحسن الى مواليك ، فقد اختاروك لتحكم فيهم كم اختارك رسول الله - ﷺ - لذلك - وقد رأيت كيف أحسن عبدالله بن أبي الى مواليه .

فقال سعد : لقد آن لسعد بن معاذ ألا تأخذه في الله لومة لائم .

ولعل ذا الفطنة ممن سمعه أدرك قصده فصاح ناديا بني قريظة : واقوماه .

وانتهى سعد بن معاذ الى مجلس النبي - ﷺ - فلما رآه قال النبي - ﷺ - لمن حوله من الأنصار : قوموا الى سيدكم .

وهو تكريم لسعد بن معاذ الذى أبلى فى الإسلام بلاء حسنا ، وكانت له منزلة فى قلب رسول الله - ﷺ - وكان إسلامه بركة على قومه ، فحين أسلم على يد مصعب بن عمير فى المدينة - قبل هجرة النبى - ﷺ - إليها - قال لقومه : كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تسلموا ، فأسلموا .

وكلمة « سيدكم » التى قالها النبى « ﷺ - لا تعنى السيادة المطلقة ، بل هو لفظ يقتضى التكريم والأفضلية ، والتفاضل بين الناس لا ينكره أحد ، وكان الجميع يعرفون مكانه سعد ومنزلته وفضله . .

وأما نهى بعض الناس عن استعمال لفظ السيد على اعتبار أن السيد هو الله ،فإن المقصود بذلك السيادة المطلقة وهى لله وحده ، فان سيادة الله

لا يبارى فيها أحد ، وهى مسلمة لا جدال فيها ، وهى سيادة مطلقة ، ومن الذى يجرؤ على تشبيه سيادة عبد مهما كانت منزلته بسيادة الله - جلت قدرته - على ملكة وملكوته ؟

ولقد وردت كلمة « سيد » فى كلام العرب ويعنون بها الفاضل فى قومه دون أن ينكر ذلك أحد .

وفى لسان العرب ؛ المسوَّد : السيد ، وفى حديث قيس بن عاصم : اتقول الله وسودوا أكبركم ويفضلكم

قال : والسيد يطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومحتمل أذى قومه والزوج والرئيس والمقدم . وفى الحديث : « لا تقولوا للمنافق سيدا مهما علا-فهو إن كان سيدكم وهو منافق فحالكم دونه حالة ، والله لا يرضى لكم ذلك » .

ولعل الذى نهى عن استعمال لفظ السيد مع الناس نظر إلى ما أورده ابن منظور بيضا من أن رجلا جاء الى النبى - ﷺ - فقال له :

أنت سيد قريش ؟ فقال النبى - ﷺ - البسيد الله . فقال الرجل : أنت أفضلها قولا وأعظمها فيها طولا .

فقال النبى - ﷺ - ليقل أحدكم بقوله ولا يستجرئنكم . . ومعنى ذلك أن الله عز وجل هو الذى يستحق السيادة المطلقة ، وقد كره النبى - ﷺ - أن

يمدح فى وجهه ، وأحب التواضع لله تعالى . وجعل السيادة للذى خلق الخلق أجمعين . . وليس هذا بمخالف لقوله - ﷺ - لسعد بن معاذ حين قال لقومه : قوموا إلى سيدكم . . . لقد أراد أنه أفضلكم رجلاً وأكرمكم ، وأما صفة الله - جل ذكره - بالسيد فمعناه أنه مالك الخلق ، والخلق كلهم عبيده فالمعنى فى وصفه عز وجل بالسيد - فير المعنى فى وصف عباده بذلك الوصف .

وكذلك قوله - ﷺ - أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . . . . أراد أنه أول شفيع ، وأول من يفتح له باب الجنة ، قال ذلك إخبارا عما أكرمه الله به من الفضل والسؤدد وتحدثا بنعمة الله عليه . . (٢٣١)

وقد ورد لفظ السيد فى عبارات كثيرة على لسان النبى - ﷺ - والصحابة ، ولا يعنون بها سوى فضل من قيلت فى شأنه ولا يعنون بها أكثر من ذلك . .

وقد تكرر وصف سعد بن معاذ بهذه الصفة على لسان النبى - ﷺ - . فقد أورد عياض بن عبدالرحمن عن سعد بن ابراهيم عن أبيه عن جده قال : كنا جلوسا عند رسول الله - ﷺ - فجاء سعد بن معاذ فقال : هذا سيدكم . . (٢٣٢)

---

(٢٣١) لسان العرب لابن منظور ج ٣ ص ٢١٤٤ مادة سود
(٢٣٢) أسد الغابة ج ٢ ص ٢٧٥

على أن الأمر بالقيام لسعد بن معاذ فيه تكريم له ـ لفضله وحسن بلائه فى الاسلام ، وفيه أيضا حث على القيام لتكريم القادم والزائر ، أما النهى الوارد عن القيام فهو منصرف الى تمثل الناس قياما لشخص من الناس .. بمعنى أن يظل هو جالسا ويظلون هم وقوفا حوله لا يجرءون على الجلوس . هذا هو المنهى عنه استنادا الى قوله ـ ﷺ ـ : « من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار »

كما أن ذلك منصرف الى من أحب ذلك من الناس ورغب فيه تعاليا واستكبارا على غيره .. إن الاسلام دين الفضل والمروءة واحترام أقدار الناس ، والنبى ـ ﷺ ـ يقول : « أنزلوا الناس منازلهم »

إنم هذا تشريع حكيم يحفظ للناس مكانتهم ، ويعطيهم حقوقهم ويؤكد الأثر الكريم : إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل ..

حكم سعد

لقد قال رجال من الأوس لسعد : ياسعد إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد ولاك أمر مواليك لتحكم بينهم ..

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لسعد : احكم فيهم ياسعد .
فقال سعد : الله ورسوله أحق بالحكم
قال النبى ـ ﷺ ـ قد أمر الله ورسوله أن تحكم فيهم .

فتوجه سعد إلى الجهة التى ليس فيها رسول الله - ﷺ - وقال عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟

قالوا : نعم

ثم أشار إلى الجهة التى فيها رسول الله - ﷺ - وقال - وهو لا ينظر إلى رسول الله - ﷺ - إجلالا له : وعلى من ههنا مثل ذلك ؟

فقال رسول الله - ﷺ - : نعم .

فقال سعد : أحكم بأن تقتل الرجال وتغنم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . وتكون ديارهم للمهاجرين دون الأنصار .

فقال النبى - ﷺ - : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .. لقد نظر سعد فى حكمه إلى أن بنى قريظة قد ارتكبوا أعظم الجرم حين نقضوا عهدهم مع رسول الله - ﷺ - فى وقت عصيب ، ولولا رعاية الله للمؤمنين ، وإرادته حفظ دينه - لكان فى ذلك القضاء الإسلام والمسلمين

إن قتل من نقض العهد أمر جائز شرعا تخلصا من شره ، وعبرة لغيره ، وحسما لدابر الفتنة ، وقطعا لمادة الشر .

لقد مر باليهود قبل هذا الحادث حادثان كان فى الإمكان أن يكون كلاهما أو أحدهما فيه عبرة لبنى قريظة ، ومع ذلك لم يعتبروا . وكان فى نقضهم

العهد هذه المرة فرصة ـ لو نجحت ـ كما كان حيى بن أخطب يمنى نفسه ـ لكان فى ذلك القضاء التام على الدعوة الإسلامية .

ولكن عين الله كانت ساهرة فأنجت الإسلام وأهله ، ودحرت الباطل وحزبه ، ونكل الله بالمشركين تنكيلا كبيرا . .

وفاة سعد

وقد مات سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ بعد ذلك من أثر الجرح الذى كان مصابا به ، فلقى ربه شهيدا مجاهدا فى سبيل دينه كما كان يتمنى . .

لم يكن سعد يرهب الموت بل كان يتمناه . .

وتمنى الموت فى سبيل الله صفة يتميز بها المسلم على غيره . . . فقد كان اليهود ينفرون من الموت ويخافونه خوفا شديدا ، وقد تحداهم القرآن بذلك قائلا :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢٣٣)

---

(٢٣٣) الجمعة ٦ : ٨

وليس معنى ذلك أن يتمنى الإنسان الموت على أى وجه أو حال ، فقد نهى النبى - ﷺ - عن ذلك فقال : « لا يتمن أحدكم الموت إما محسنا فلعله يزداد وإما مسيئا فلعله يتوب »[٢٤]

ولكن معناه ألا يرهب المؤمن الموت أو يجزع منه ذلك الجزع الذى يدفع صاحبه الى الجبن أو الخوف من لقاء العدو أو اليأس من رحمة الله .

وقد ورد عن أبى بن كعب أن الله علمه ما يقوله فى دعائه حين يستأخر أجله . . . وذلك على لسان عبد صالح رآه يصلى أمامه ويقول : «اللهم لك الحمد كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله إنك على كل شىء قدير ، اللهم اغفر لى ما مضى من ذنوبى واحفظنى فيما بقى من عمرى وتب على »

ولم يكن سعد أو أحد من أصحاب رسول الله - ﷺ - يتمنى الموت ، ولكنهم كانوا يتمنون الشهادة ، وتمنى الشهادة أمر محبوب دعا إليه الدين ، وحرص عليه الصادقون من المسلمين . .

الملائكة تشيع جنازة سعد

وقد حضر جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفا من الملائكة ما وطئوا الأرض إلا يومهم هذا ، كما فتحت له أبواب السماء . .

---

(٢٣٤) رياض الصالحين حديث رقم ٥٨٣

وقد حزن النبى - ﷺ - لموت سعد بن معاذ ، كما حزن عليه المسلمون . . . وليس حزن النبى - ﷺ - جزعا من الموت ، أو اعتراضا على القدر ، ولكنه حزن الفطرة السوية التى يسوؤها فراق الأحباب وموت الأصحاب . وقد دمعت عينا النبى - ﷺ - على فراق أصحابه كثيرا ، ودمعت على ولده إبراهيم حين مات وقال : إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولكنا لا نقول ما يغضب الرب .

ولذلك نهى النبى - ﷺ - أبا بكر حين جزع على سعد بن معاذ - وكان أبو بكر قد قال حين بلغته وفاة سعد : وانكسار ظهراه فقال له الرسول : مه - فقال عمر - رضى الله عنه - : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وهذا خير عزاء قدمه القرآن الكريم للمصابين ، وقال فى ذلك :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (٢٣٥)

---

(٢٣٥) البقرة ١٥٥ : ١٥٧

وروى الرواة قالوا : إن جبريل ـ عليه السلام ـ نزل الى النبى ـ ﷺ ـ معتجرا بعمامة من استبرق ، فقال : يانبى الله ، من هذا الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش

فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ فوجد سعدا قد قبض .

ولما دفنه رسول الله ـ ﷺ ـ وفرغ من جنازته جعلت دموعه تنحدر على لحيته ، وأخذت أم سعد تندب قائلة :

ويل أم سعد سعدا   براعة ونجدا
ويل أم سعد سعدا   صرامة وجدا

فقال النبى ـ ﷺ ـ : كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد »

حديث اهتزاز العرش .

روى أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ » . .

وقد تكلم الرواة حول معنى هذا الحديث . فقال بعضهم : هو على ظاهره ، واهتزاز العرش معناه تحركه بأمر الله فرحا بقدوم روح سعد بن معاذ . .

وفى اهتزاز العرش فضيلة لسعد .

وقد يكون اهتزاز العرش علامة للملائكة على موت أحد عظماء الإسلام . .

وقال بعضهم : المراد بالاهتزاز الاستبشارة والقبول ، وان العرش قد فرح وسعد بإرادة الله عندما مات سعد بن معاذ ، وذلك لكرامته عند ربه

ومنه قول العرب : فلان يهتز للمكارم ، لا يريدون ذلك اضطراب الجسم والحركة ، وانما يريدون الارتياح للمكارم والإقبال عليها . . . وقيل : اهتزاز العرش اهتزاز حملته فرحا بقدوم روح سعد لما رأوا من كرامته وعظم منزلته+ . وهذا هو الأقرب . . . ويؤيد ذلك ما أورده الحاكم قال : إن جبريل سأل . . من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واستبشر به أهلها ؟

وقد خفت خشبة سعد على أعناق مشيعيه . .

فقال النبى - ﷺ - إن الملائكة كانت تحمله .

لقد أعلن النبى - ﷺ - عن منزلة سعد - رضى الله عنه - عند ربه ، ومكانته فى الجنة ، فقد روى البراء بن عازب قال : أهديت للنبى - ﷺ - حلة كان الذى أهداها لى صاحب دومة الجندل - فجعل أصحابه يمسونها

ويعجبون من لينها ، فقال - ﷺ - : « أتعجبون من لين هذه ؟ والذى نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها وألين[٢٣٦] وإذا كانت

---

(٢٣٦) المواهب اللدنية ج ٢ ص ١٤١

المناديل ألين من هذه الحلة ، فما بال الحلة نفسها التى يرتديها سعد فى الجنة ؟ والمعروف أن المناديل تكون عادة أدنى من الثياب .

وروى الطبرانى برجال ثقات عن عطارد بن حاجب أنه أهدى إلى النبى - ﷺ - ثوبا فأعجب به أصحابه

فقال : وما تعجبون من ذا ؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير من هذا . ثم بعث رسول الله بالثوب إلى أبى جهم بن حذيفة ،

وتخصيص سعد بذلك لأنه كان يعجبه ذلك الجنس من الثياب اللينة أو لأن الذين تعجبوا من لين هذا الثوب كانوا من الأنصار فأراد أن يطمئنهم على منزلة سيدهم سعد بن معاذ .

وإن كان النبى - ﷺ - قد وهب الثوب الذى أهداه إليه عطارد بن حاجب إلى أبى جهم ، فهو أيضا قد وهب الحلة التى أهديت اليه من صاحب دومة الجندل الى عمر بن الخطاب .

وحين دفن سعد بن معاذ انبعثت من القبر رائحة طيبة . . . وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : أخذت قبضة من تراب قبر سعد بن معاذ فوجدت منه رائحة المسك .

وفى رواية أخرى عن محمد بن شر حبيل بن حسنة تقول : قَبَضَ رجل يومئذ بيده من تراب قبره قبضة فذهب بها ، فإذا فيها رائحة المسك ، فقال رسول الله - ﷺ - سبحان الله سبحان الله - قالها مرتين تعجبا - حتى عرف ذلك فى وجهه فقال : الحمد لله ، لو كان أحد ناجيا من ضمة القبر لنجا منها سعد ، لقد ضم ضمة ثم فرج الله عنه .

وروى عن جابر قال : لما دفن سعد ونحن مع رسول الله - ﷺ - سبح - ﷺ - فسبح الناس معه ، ثم كبر فكبر الناس معه . . .

إن فى ذلك تذكيرا للناس حتى يعملوا لهذه اللحظة ، ولذلك قال عائشة - رضى الله عنها - : يارسول الله مااستمتعت بشىء منذ سمعتك تذكر ضغطة القبر وصوت منكر ونكير .

فقال - ﷺ - ياعائشة ، ضمة القبر على المؤمن كضم الأم الشفيقة يديها على رأس ابنها يشكو إليها الصداع فتغمز رأسه غمزا رقيقا ، ولكن يا عائشة ويل للشاكين فى الله أولئك يضغطون فى قبورهم ضغطة لا يعلم مدى شدتها إلا الله عز وجل . .

هل نجا أحد من بنى قريظة ؟

لقد نجا من بنى قريظة من أسلم منهم ، ومن هؤلاء أبو سعد بن وهب القرظى ، فقد روى ابن الأثر أنه نزل إلى النبى - ﷺ - فأسلم .

وإن كان بعضهم قد نسبه إلى بنى النضير وحسن إسلام . أبى سعد كما حسن إسلام غيره ممن أسلموا من أهل الكتاب[٢٣٧]

دلائل وعبر

إن فى غزوة بنى قريظة دلائل وعبرا نستخلص منها ما يأتى : ـ

١ ـ حرص المسلمين على إرضاء الله ورسوله ولو كان فى ذلك إجهاد لهم وتضحية بمصالحهم الخاصة .

فقد رأينا كيف قيد أبو لبابة نفسه وأبى أن يفكه أحد من قيده حتى يتوب الله عليه أو يموت ، لأنه أدرك أن إشارته إلى حلقة بين بنى قريظة فيها خيانة لله ولرسوله .

ورأينا كيف أرضى سعد بن معاذ ضميره ، وآثر رضاء الله ورسوله على قومه حين أصدر حكمه فى بنى قريظة . . وهذا هو الإيمان الكامل الذى لا تأخذ صاحبه فى الحق لومة لائم .

وشتان بين موقف سعد هذا وموقف عبدالله بن أبى سلول حين آثر رضا اليهود على رضا الله ورسوله ، ومازال يلح على النبى ـ ﷺ ـ فى شأنهم ، حتى أغضبه ، فقال له : خذهم لا بارك الله لك فيهم .

---

(٢٣٧) أسد الغابة ج ٦ ص ١٤٠

٢ ـ ومن الآيات الواضحة فى هذه القصة أن الإسلام هو دين البر والوفاء ، وأنه يأنف من الغدر والخيانة ، وقد ضاق ذرعا باليهود الذين نقضوا العهد أكثر من مرة فكان لابد من الوقوف منهم موقفا حاسما ،

وقد رضى النبى ـ ﷺ ـ أن يحكم فيهم مولاهم وحليفهم الذى اختاروه بأنفسهم فحكم فيهم بما حكم الله ، وطهرت المدينة من أرجاسهم .

والاسلام يجيز نبذ عهد الخائن وإن كتم خيانته،فمن الأولى أن ينبذ عهد الذى أظهر غدره وخيانته قال تعالى : ـ

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢٣٨)

٣ ـ ونأخذ من ذلك أيضا أن نقض العهد وخصوصا فى أوقات الحرب يستحق فاعله القتل ، حتى لايتعرض المسلمون للطعن من الخلف ، أو الحياة فى قلق وخوف ومفاجآت غادرة .

---

(٢٣٨) الأنفال ٥٨

٤ ـ ان اليهود كانوا متأكدين من نبوة الرسول ـ ﷺ ـ ولكنهم مع ذلك كانوا مصرين على عدواته والكيد له وتأليب الأحزاب ضده ، ولذلك أصبحت سياسة الملاينة غير مجدية معهم ،

وقد ثبت أنهم الذين حرضوا القبائل حتى أحاطوا بالمدينة على زعم استئصال شأفة المسلمين فيها . لولا أن رد الله كيدهم الى نحورهم . .

٥ ـ وفى غزوة بنى قريظة هذه نزول قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢٣٩)

ولم تنته مؤامرات اليهود مع ذلك عند هذا الحد ، فمسلسل حقدهم لا ينتهى وسوف تكون معهم جولة أخرى فى خيبر نعرض لها إن شاء الله فيما بعد . .

وننتقل الآن بعون الله ومشيئته إلى الحديث عن غزوة أحد . . وذلك مع بداية المجلد الثانى عشر .

---

(٢٣٩) الأحزاب ٢٦ : ٢٧

فهرس



انتهى بحمد الله المجلد الحادى عشر ويليه
بمشيئة الله تعالى المجلد الثانى عشر وأوله
غـــزوة أحـــد

سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الثاني عشر

سلسلة
القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتي

عبد الحفيظ فرغلي   د. عبد الحميد مصطفى

المجلد الثاني عشر


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

غزوة أحد

- فضل أحد .
- تاريخ الغزوة .
- كيف استعدت قريش ؟
- الموقف فى جبهة المسلمين .
- الرسول يستشير أصحابه .
- النبى يستعرض الجيش .
- ميدان المعركة .
- أبو عامر الفاسق يحاول إثارة الفتنة .
- دور الفرسان .
- كيف تغير وجه المعركة ؟
- مصرع مصعب بن عمير .
- إشاعة قتل الرسول - صلى الله عليه وسلم .
- النبى يقتل أبى بن خلف .

غـزوة أحـد

أحد اسمه وفضله

أحد - بضم الهمزة والحاء - جبل مشهور بالمدينة المنورة ، على مسافة فرسخ منها تقريبا . وقد سمى بذلك - كما يقول بعض الرواة - لتوحده وانقطعه عن جبال أخرى هناك .

وقال ياقوت فى معجم البلدان : هو اسم مرتجل لهذا الجبل ، ولونه أحمر ، ويقال له : ذوعينين - بكسر العين المهملة وفتحها - لمجاورته لجبل يسمى : عينين - جاء فى القاموس : وعينين - بكسر العين ، وفتحها مثنى - جبل بأحد وقف عليه إبليس اللعين فنادى : إن محمدا قد قتل .

وجاء فى البخارى ومسلم : عينين : جبل بجوار أحد بينه وبينه واد . . وهو الجبل الذى نزلت بجواره قريش حين جاءوا من مكة . .

وقد ورد فى فضل أحد قوله - ﷺ - : « أحد جبل يحبنا ونحبه »[1]

وخاطبه النبى - ﷺ - لما اضطرب قائلا له : « أثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان »[2]

والصديق هو أبوبكر ، والشهيدان هما عمر وعثمان - رضى الله عنهم - لقد خاطبه النبى - ﷺ - خطاب من يعقل - حين قال : « أحد جبل يحبنا ونحبه »

---

(١) أخرجه الشيخان عن أنس ، والبخارى عن سهل بن سعد

(٢) أخرجه أبونعيم ، وذكره ابن الاثير فى أسد الغابة جـ ٣ صـ ٥٨٨

وفى رواية أخرى - أنه قال : « إن أحدا هذا جبل يحبنا ونحبه إذا مررتم به فكلوا من شجره ولو من عضاهه »[٣]

وفى هذا حث على الأكل من شجره تبركا به . والعضاه شجر عظيم له شوك تأكل منه الإبل والدواب .

وقد تكون محبة الجبل للنبى - ﷺ - وصحبه على حقيقتها ، وضع الله الحب فيه كما وضع التسبيح للجبال قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾[٤]

وكما وضعت الخشية فى الحجارة - قال عز وجل

﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[٥]

وقد تكون على تقدير محذوف ويكون المقصود بحب أحد حب أهله وهم الأنصار القريبون منه ونظيره قوله تعالى

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[٦]

---

(٣) رواه الطبرانى
(٤) سبأ ١٠
(٥) البقرة ٧٤
(٦) يوسف ٨٢

ومن هذه الآثار أخذ العلماء أفضلية أحد على غيره من الجبال ، وقيل أفضلها عرفة ، وقيل : أبوقبيس ، وقيل : الطور الذى كلم الله فيه موسى ، وقيل : غير ذلك .

ولا صحة لما ورد فى بعض الأخبار من أن أحدا قد دفن فيه هارون . . عليه السلام ، حين جاء مع أخيه موسى حاجين الى بيت الله الحرام . والصحيح أنه - كما أسلفنا فى قصته - قد مات بالشام بجبل مشرف قريب من بيت المقدس .

وقد مات كل من موسى وهارون - عليهما السلام - وهما فى التيه .

تاريخ الغزوة

كانت غزوة أحد فى شوال سنة ثلاث من الهجرة باتفاق الرواة ، وذكر أنها كانت يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال . وقيل كانت فى السابع من شوال . .

وسبب الغزوة كما هو معلوم أن قريشا أرادت أن تثأر لقتلى المشركين فى بدر . .

لقد هزم المشركون فى بدر هزيمة منكرة ، وقتل منهم سبعون وأسر سبعون من خيرة شيوخهم وشبابهم وقادتهم . . وما من بيت من بيوت قريش إلا وقد علا فيه النحيب والصراخ لأنه فقد عزيزا لديه فى هذه المعركة ، وأصبح لاهم لقريش إلا الأخذ بثأر هؤلاء الذين اغتالتهم سيوف المسلمين . .

وقد رصدت قريش لهذه الغزوة إمكانات هائلة ، كانت قد ربحت فى تجارتها ـ التى أراد المسلمون اغتنامها ـ وكانت سببا فى موقعة بدر ـ أموالا طائلة . . . روى أن قيمة الربح بلغت خمسين ألف دينار . وهو مساو لرأس المال . لأن الدينار ربح دينارا .

وبعد أن أصاب قريشا ما أصابها من هزيمة فى بدر ، مشى رجال من أشراف قريش ، فيهم عبدالله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية وغيرهم إلى أبى سفيان ، وإلى من كانت له تجارة فى تلك العير التى قادها أبوسفيان ، وتحدثوا معه فى أمر الثأر لقتلى قريش .

وكانت تلك العير موقوفة فى دار الندوة لم تعط لأصحابها بعد ، فقالوا : إن محمدا قد وتركم فى رجالكم ، ولم تدركوا دماءهم ، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأرا لمن أصيبوا منا . . وتشاوروا على أن يجعلوا ربح هذه العير فى تجهيز جيش الثأر .

فقال أبوسفيان : أنا أول من يجيبكم إلى ذلك وبنوا عبدمناف معى . ثم اتفق الجميع على ذلك . . فسلم أبوسفيان للناس رءوس أموالهم ، واحتفظ بالربح لتجهيز الحملة التى سيصبح هو قائدها . وقد أنزل الله فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (٧)

(٧) الأنفال ٣٦

لقد أنفقوا هذه الأموال فى حرب الله ورسوله فأعقبت الندامة والحسرة عليهم ..

وهكذا شأن كل مال ينفق فى وجه غير مشروع ، ويرصد للصد عن اتباع طريق الحق ..

لقد أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمة الباطل على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . وهو ناصر دينه ومعلن كلمته . وهذا هو الخزى للكفار فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار . فمن عاش منهم رأى بعينيه وسمع بأذنيه ما يسوؤه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزى الأبدى والعذاب السرمدى »[8]

تجهيز الحملة

وتجهزت قريش ومن والاهم من قبائل كنانة وتهامة . وأعدوا عدتهم تحت سيطرة الغيظ الشديد والحقد الدفين والنار المتأججة فى قلوبهم .

كان أبوسفيان قائد الحملة المرتقبة قد عقد مؤتمرا ضم جميع زعماء قريش ، ولم يكن أحد بين المجتمعين لم يفقد شخصا عزيزا فى وقعة بدر ، فبعضهم فقد الآباء ، وبعضهم فقد الأبناء ، والبعض الآخر فقد الأشقاء .

---

(٨) تفسير ابن كثير جـ ٣ صـ ٥٩٤ ط دار الشعب

وكان أكثر الحاضرين هياجا صفوان بن أمية الذى فقد أباه أمية بن خلف ، وعكرمة بن أبي جهل الذى فقد آباه رأس الكفر والشقاق ـ أبا جهل بن هشام .

وكان من الصعب كبح جماح عكرمة ، فأبوه كان له شرف قيادة جيش قريش فى غزوة بدر وقد قتل فى المعركة . ووجد الابن بعض السلوى والعزاء لأن أباه قتل رجلا قبل أن يقتل ، ولكن ذلك لم يكفِ لأطفاء غليله ، فأصر على أن تتحفز قريش للانتقام .

وقال له أبوسفيان : لئن كنت قد فقدت أباك فإنى قد فقدت ابنى حنظلة .

وتعطشى للثأر لا يقل عن تعطشك . .

وهكذا تناوبوا عبارات التحريض وإثارة الحمية ، والعصبية الجاهلية فوق ذلك كفيلة بتأجيج هذه النار فى داخل نفوسهم .

لن يتقاعس أحد عن القتال هذه المرة ، وسوف تجهز حملة لم يجهز مثلها قط قبل ذلك . . وهذا هو الذى دعا قريشا إلى استنفار القبائل الموالية لها من كنانة وتهامة وغيرهما .

وسوف تستعين قريش بما تقدر عليه من وسائل التعبئة والقتال ، ولن تغفل عن توهين الجبهة الداخلية للمسلمين بما تستطيعه من تدبير المؤامرات وخلق الفتن وبث الاختلافات ، مع الاستعانة فى ذلك بمن يوالونها من أهل الشقاق والنفاق . .

سلاح الشعر

قال صفوان بن أمية لأبى عزة الشاعر ـ وكان قد أسر فى بدر ـ ومَنَّ النبى ـ ﷺ ـ عليه بدون فداء ، وتعهد هو فى نظير ذلك أن يكف عن المسلمين لسانه قال صفوان له : يا أبا عزة ، إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك ، ولك علىَّ إن رجعت سالما أن أغنيك . وإن أصبت أجعل بناتك مع بناتى ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر .

فقال أبو عزة : إن محمدا قد مَنَّ علىَّ ، وأخذ على أن لا أظاهر عليه أحدا حين أطلقنى وأنا أسير فى أسارى بدر ، فلا أريد أن أظاهر عليه .

قال صفوان : فأعنا بلسانك . فوافق أبو عزة ، وبذلك يكون قد نقض عهده .

وكان هناك شاعر آخر اسمه مسافع بن عياض ، اتفق معه صفوان أيضا على أن يثير الناس ضد المسلمين . وذكر بعضهم أنه أسلم بعد ذلك .

ولكن بعد أن قام بالدور الذى كلفه إياه صفوان . وهجا المسلمين ، وهجا حسان بن ثابت شاعر الرسول ـ ﷺ ـ وقد رد عليه حسان بن ثابت بقوله :

يا آل تيـم ألا تنهـون جاهلكم قبـل القذاف بصـم كالجلاميـد[9]
فنهنـهوه فإنى غيـر تارككـم إن عاد ، ما اهتز ماء فى ثرى عود[10]

---

(٩) الجلاميد : الصخور مفردها جلمود
(١٠) نهنهوه : كفوه

لو كنت من هاشم أو من بنى أسد أو عبدشمس أو أصحاب اللوا الصيد[11]
أو من بنى نوفل أو ولد مطلب لله درك لم تهمم بتهديدى
أو من بنى زهرة الأبطال قد عرفوا أو من بنى جمح الخضر الجلاعيد[12]
أو فى الذؤابة من تيم إذا انتسبوا أو من بنى الحارث البيض الأماجيد
لولا الرسول وإنى لست عاصيه حتى يغيبنى فى الرمس ملحودى[13]
وصاحب الغار إنى سوف أحفظه وطلحة بن عبيدالله ذوالجود[14]

وهكذا خرج أبوعزة ومسافع يحرضان الناس بشعرهما ، ويثيران حميتهم ضدالمسلمين . .

الإغراء المالى

ولم يكتف المشركون بذلك بل أقبلوا على من يعرفون عنه دقة التصويب وإصابة الهدف ، يعدونه بالعطاء الجزيل إن استطاع أن يؤدى دورا فعالا فى قتل من يعرفون أنه ذو بأس فى جيش المسلمين .

فقد دعا جبير بن مطعم بن عدى غلاما له حبشيا يقال له وحشى ، وكانت له دراية قوية على الرمى بحربته ، وقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد ثأرا بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق . .

---

(١١) الصيد : جمع أصيد وهو السيد واصحاب اللواء : بنو عبد الدار
(١٢) الجلاعيد : الشداد الصلاب
(١٣) ملحودى : قبرى
(١٤) أسد الغابة جـ ٥ صـ ١٥٢

وربما كان الإغراء أكثر من ذلك فقد جاء فى القرطبى :

قال جبير بن معطم لوحشى : إن قتلت محمدا جعلنا لك أعنة الخيل ، وإن أنت قتلت على بن أبى طالب جعلنا لك مائة ناقة كلها سود الحدق ، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حر .

فقال وحشى : أما محمد فعليه حافظ من الله لا يخلص إليه أحد وأما علىٌ فما برز إليه أحد إلا قتله .

وأما حمزة فرجل شجاع وعسى أن أصادف منه فأقتله »[١٥]

وكذلك قالت له هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان : ياوحشى لك القلادة التى فى عنقى ، والأساور التى فى معصمى ، والخواتم التى فى أصابعى ، والخلاخيل التى فى رجلى إن أنت قتلت حمزة الذى قتل أبى عتبة ، ونظر وحشى إلى الذهب يبرق فى نحرها ويديها وأذنيها فسال لعابه واشتد نهمه . ووعدها بذلك

محاولة تفتيت الجبهة الداخلية للمسلمين

وفى هذه الأثناء جاء أبو عامر الراهب ، وهو من الأوس إلى أبى سفيان يعرض عليه خدماته . وقد سمى النبى - ﷺ - أبا عامر هذا بالفاسق . .

---

(١٥) تفسير القرطبى جـ ٤ صـ ١٨٧ طـ دار الكتب عند تفسير قوله تعالى « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » آية ١٢٢ آل عمران

قال أبوعامر لأبي سفيان . . . . يا أبا سفيان ، يوجد معى خمسون رجلا من عشيرتى (الأوس) ، ولى نفوذ كبير بين قومى ، وأنا أقترح عليك أن أخاطبهم قبل أن تبدأ المعركة ، وإنى على يقين أنهم سوف يهجرون محمدا وينضمون إلى جانبى .

وقد قبل أبوسفيان هذا الاقتراح ورحب به . . ووجد المشركون فى هذا العرض فرصة سانحة يوهنون بها صفوف المسلمين ، ويتمكنون بذلك من تحقيق النصر عليهم . .

وكانت مساعى أبى سفيان وغيره من رجال قريش قد أثمرت فى تجميع حلفائهم من مختلف القبائل لحرب المسلمين فانضم إليهم الأحابيش وهم بنو المصطلق وبنوالهون بن خزيمة ، وسموا بذلك لأنهم اجتمعوا عند جبل بأسفل مكة اسمه « حبشى » وتحالفوا على أنهم مع قريش يدا واحدة على غيرهم ما سجى ليل ووضح نهار ومارسا حبشى فى مكانه .

وتمت تعبئة الجيش القرشى ، وكانت عدته ألفين وتسعمائة من قريش ومواليها وأحابيشها .

ومائة من بنى ثقيف فجملتهم ثلاثة آلاف[١٦]

كان بين هؤلاء سبعمائة دارع ، ومع القوة مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير وقد اصطحب أكثر زعماء قريش نساءهم ، وقد بلغ عدد النساء خمس عشرة

---

(١٦) الرسول القائد اللواء الركن محمود شيت خطاب صـ ١٦١

امرأة ، وكانت مهمة هؤلاء النسوة تشجيع الرجال ، وحثهم على الثبات ، ودفعهم إلى القتال .

فهذه هند بنت عتبة تنادى قائلة :

ويهـــابنى عبد الـــــدار ويهــــا حمـــاة الأدبـــــار

ضـــربا بكـــل بتـــار

وتقول :

نحـــن بنــــات طـــارق إن تقبلـــوا نعـــــانق

ونبســـــط النمــــــارق أو تدبــــروا نفــــارق

فـــــراق غير وامـــــق[١٧]

الموقف فى جبهة المسلمين

هذه نظرة عامة إلى جبهة المشركين وموقفهم ، وقد زحفوا بقوتهم هذه وحالتهم التى وصفناها إلى المدينة ، حيث عسكروا فى موضع قريب من المدينة اسمه « الصمغة » وهو غرب أحد ، وقد أطلقوا إبلهم وخيلهم ترعى زرع الأنصار وتابعوا سيرهم حتى بلغوا العقيق ، ثم نزلوا عند بعض السفوح من جبل أحد على بعد خمسة أميال من المدينة .

وكان العباس ـ رضى الله عنه ـ قد أرسل رسالة إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره فيها بعزم قريش على قتاله ، وبعدد قواتها . .

---

(١٧) خالد بن الوليد صـ ٤٥

وأسرع حامل الرسالة فى مهمته حتى بلغ المدينة فى ثلاثة أيام ، وهو زمن قياسى ، ووجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مسجد قباء ، فدفع إليه الرسالة .

وقرأ أبى بن كعب الرسالة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم فطلب منه النبى ألا يبوح بمضمونها لأحد ، وعاد حامل الرسالة الى مكة .

وبدأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذ أهبته لمجابهة الموقف ، فبعث برجلين من أصحابه هما أنس ومؤنس ابنا فضالة الظفريين لمعرفة الموضع الذى وصلته جيوش قريش ، وعادا إليه فأخبراه بأنها قاربت المدينة وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها .

وخشى المسلمون عاقبة هذه الغزوة ، لأنهم رأوا قريشا قد أكملت استعدادها بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ حروبها ، حتى لقد بات المسلمون من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد ، كما بات الحراس فى مداخل المدينة لحراستها .

الرسول يستشير أصحابه

وجمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه من أهل الرأى والمشورة وكان ذلك فى صباح الجمعة الخامس عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة ، ليأخذ رأيهم فى كيفية لقاء العدو .

وكان رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ما قاله : « إن رأيتم أن تقيموا

بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وانْ هم دخلوا علينا قاتلنا وظهورنا محمية . .

وكان هذا الرأى نفسه لأكابر المهاجرين والأنصار ،

وقال بعض الأنصار : يا رسول الله ، أقم بالمدينة ، ولا تخرج ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم الصبيان بالحجارة من ورائهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

إن المدينة يعرفها المسلمون ولا يعرفها القرشيون ، فإن دخلها المشركون قاتلهم المسلمون فيها قتال الشوارع فى منطقة لاتعرفها قريش ، وذلك يساعد المسلمين على إيقاع الخسائر الفادحة بالعدو . .

ولكن كثيرا من الشباب وبخاصة الذين لم يشهدوا بدرا تحمسوا للخروج ، وأيدهم فى ذلك بعض من شهدوا بدرا ، حتى لايعيرهم المشركون بالجبن ، ويقولوا : ذهبنا اليهم فلم يجرءوا على الخروج لنا ، وكان أصحاب هذا الرأى أكثرية . وحذرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا : أخاف عليكم الهزيمة . فأبوا مع ذلك إلا الخروج . .

ونزل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رأى الأغلبية . .

رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رأى رؤيا ـ يرويها لنا الرواة ـ عن

النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « رأيت البارحة فى منامى خيرا ، رأيت بقرا تذبح ، ورأيت فى ذبابة سيفى ثلما ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة ، وأنى ذابح كبشا »

فقيل له : وما تأويلك لها يا رسول الله .

قال : فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون .

وأما الثَّلْم فهو رجل من أهل بيتى .

وأما الدرع الحصينة فهى المدينة ، وأما الكبش فإنى أقتل كبش القوم أى حاميهم »[18]

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيته ليلبس ملابس الحرب .

فقال المسلمون بعضهم لبعض : لقد استكرهتم النبى على الخروج ، فرُدُّوا الأمر اليه ، ولكنه خرج وقد لبس ملابس الحرب واستعد للقتال . . . .

لبس لأمته[19] ، وظاهَرَ بين درعين وتقلد سيفا ، وحمل ترسه وتقلد قوسا وأخذ قناته بيده ، وركب فرسه وكان يسمى « السكب »

فقالوا له : يا رسول الله ، ما كان لنا أن نخالفك ولا نستكرهك على الخروج فاصنع ما شئت .

---

(١٨) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٤٩٠

(١٩) اللأمة : الدرع ، وقد يسمى السلاح كله لأمة

فقال : قد دعوتكم إلى البقاء فى المدينة فأبيتم ، وما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

ثم خطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحث قومه على الجهاد ورغبهم فى الطاعة وأمرهم بالتهيؤ والاستعداد ، وأخبرهم بأن لهم النصر ما صبروا . .

النبى يستعرض أصحابه

وتقدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ألف من أصحابه حتى نزل « الشيخين[٢٠] » ، ولم يكن مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الخيل سوى فرسه ، وفرس أبى برده بن دينار الحارثى .

واستعرض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه فى هذا المكان فوجد بينهم مفرزة ـ جماعة ـ لايعرف أهلها . فلما سأل عنهم عرف أنهم من اليهود حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول . فرفض معاونتهم إلا أن يسلموا وقال لأصحابه : « لاتستنصروا على أهل الشرك بمن هم على غير دينكم . . وأمر أن يعود هؤلاء أدراجهم الى المدينة . فعادوا . .

وهنا ظهر النفاق واضحا ، فقد انسحب عبد الله بن أبى مع ثلاثمائة من أنصاره وهم المنافقون ، بحجة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يطع

---

(٢٠) الشيخين : مكان بالمدينة ، وهو تل صغير اسود يقع الى الشمال من المدينة على بعد ميل ونصف تقريبا

رأيه ، واستمع إلى رأى الأحداث من الناس . .

وبقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سبعمائة من أصحابه . . ورد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفراداً وجدهم دون الخامسة عشرة من عمرهم . . ذكر أنه كان من هؤلاء المردودين عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس ، الذى مدحه الشماخ فى شعره بقوله :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمن

وكان عرابة على نقيض والده أوس الذى اشتهر بالنفاق ، وقد ذكر أنه هو الذى قال يوم الأحزاب « إن بيوتنا عورة »

ومن الذين رُدُّوا أيضا لصغر سنهم أبو سعيد الخدرى ، وسعد بن خيثمة وزيد بن حارثة الأنصارى ـ وهو غير زيد بن حارثة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورافع بن خديج ، وسمرة بن جندب .

وقيل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن رافعا رامٍ مُسَدَّد فأجازه ، ولما رأى ذلك سمرة بن جندب قال : أنا أقوى من رافع وأستطيع أن أفعل كما يفعل رافع وأكثر ، فأجازه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضا . .

ورد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضا سعد بن بجير ، وهو المعروف بسعد بن حَبْتَة

وقد نظر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك بسنين إلى سعد بن حبتة يوم الخندق وهو يقاتل قتالا شديدا ، فقال له : من أنت يا فتى ؟ فقال : سعد بن حبتة .

فقال له : أسعد الله جَدَّك ، اقترب منى .

فاقترب سعد منه ، فمسح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأسه بيده ـ ودعا له بالبركة فى ولده ونسله . فعاش حتى أصبح عمًّا لأربعين وخالا لأربعين وأبا لعشرين . ومن ذريته أبو يوسف القاضى تلميذ أبى حنيفة . وما أن انتهى العرض حتى غربت الشمس فأذن بلال ، وصلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحابه ـ ثم قال : من يحرسنا الليلة حتى السحر ؟

فقام ذكوان بن عبد قيس ملبيا . فبات يحرس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

واستيقظ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لبعض أصحابه : لقد رأيت حمزة تغسله الملائكة . .

ثم أدلج بأصحابه فى السحر ، وحانت صلاة الصبح فى موضع اسمه « الشوط » وهو حائط بين المدينة وأُحُد فصلوها .

وذكر أن هذا المكان هو الذى رجع منه عبد الله بن أبى سلول بأصحابه .

عبد الله بن حرام يلوم عبد الله بن أبيٍّ بن سلول

وحين رجع عبد الله بن أبي سلول تبعه عبد الله بن عمرو بن حرام فى محاولة لإثنائه عن عزمه ، قائلا له ولأصحابه : أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم .

ولكن ابن أُبَيّ انصرف غاضبا شامخا بأنفه ، وهو يقول : عصانى واتبع الولدان ومن لا رأى له . لاندرى علام نقتل أنفسنا ؟

وقال : لو نعلم قتالا لاتبعناكم . وهذا هو ما حكاه القرآن الكريم عنهم قائلا : -

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ﴾ (٢١)

واختلف المسلمون حول موقف هؤلاء المنافقين .

فقال قوم : هؤلاء كفار يجب أن نقتلهم

وقال قوم : لانقتلهم .

واشتد الخلاف بين المسلمين فى هذا الأمر حتى أوشك أن يتحول إلى خصام وفرقة . .

---

(٢١) آل عمران ١٦٧

كان الذين يرون قتال عبد اله بن أبي ومن عاد معه قوم من الأوس ، والذين لايرون قتالهم قوم من الخزرج . فأنزل الله في ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [٢٢]

هذا قول بعض المفسرين وقد رواه مسلم عن زيد بن ثابت ، ورواه أيضا الترمذى[٢٣]

وان كان بعض الرواة يرى أن هذه الآية نزلت في شأن قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة ، وقالوا : إن ظهر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد عرفنا ، وإن ظهر قومنا فهو أحب الينا .

وذكر بعضهم أنها نزلت في قوم جاءوا الى المدينة وأظهروا الاسلام نفاقا فأصابهم وباء الحمى فأركسوا فيها ، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا لهم : مالكم رجعتم ؟
فقالوا : أصابتنا الحمى في المدينة فكرهنا المقام فيها ـ
فقالوا لهم : أما لكم في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسوة ؟
فسكتوا ولم يردوا . . .

وربما يعضد هذين القولين ماجاء بعد الآية السابقة من قوله تعالى :

---

(٢٢) النساء ٨٨

(٢٣) تفسير القرطبي جـ ٥ صـ ٣٠٦ طـ دار الكتب .

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ (٢٤)

وأيا ماكان فإن الآية الكريمة تعاتب المسلمين على اختلافهم حول موقف المنافقين ـ الذين يظهرون خلاف مايبطنون . .

وقد اشتد ضيق بعض المسلمين من هؤلاء المنافقين الى درجة أنهم كانوا يرون ضرورة قتلهم عند العودة الى المدينة . ولكن الله ـ تعالى ـ أراد ألا يشغلوا بالهم بأمر هؤلاء فهو الذى سيتولى حسابهم .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد . فقد ترك انسحاب هؤلاء فى وقت الشدة خللا ، وفتح ثغرة أمام بعض الناس ، فقد هم بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ، بالانصراف أيضا ، لولا أن سددهما الله وأرشدهما الى الصواب فثبتوا . وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (٢٥)

---

(٢٤) النساء ٨٩

(٢٥) آل عمران ١٣١ ، ١٣٢

روى البخارى عن جابر قال : فينا نزل قوله تعالى :

« اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما »

قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة ، ومانحب أنها لم تنزل لقول الله ـ عز وجل ـ

« والله وليهما »

قال القرطبى : قد كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم وأطلع الله عليه نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فازداد بصيرة ، ولم يكن ذلك لنفاق فيهم . .

فى الطريق للقاء العدو

وتهيأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه للتوجه الى العدو . فقال : من يخرج بنا على القوم من طريق قريب لايمر عليهم ؟

فقال أبو خيثمة : أنا يارسول الله .

فنفذ به من حرة لبنى حارثة حتى دخل فى حائط لمربع بن قيظى الحارثى ، وكان رجلا منافقا ضريرا . .

فقام مربع يحثو التراب فى وجوه المسلمين ويقول للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو كنت نبيا لما دخلت حائطى دون إذن . . وان كنت رسول الله لاأحل لك أن تدخل حائطى ، وأخذ بحفنة من تراب وقال : لو كنت أعلم

أنى لاأصيب بها غيرك يامحمد لضربت بها وجهك .[٢٦]

فابتدره سعد بن زيد فضربه بالقوس فى رأسه فشجه ، وأراد القوم البطش به وقتله .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حال بينهم وبينه ، وقال : لاتقتلوه ، فهو أعمى القلب أعمى البصر .

وغضب له بعض بنى حارثة ممن كانوا على مذهبه فى النفاق ، ولكنهم لم يرجعوا مع من رجع من المنافقين . فَهَمَّ بهم أسيد بن حضير وأراد التخلص منهم ، ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشار اليه بترك ذلك . فكف عنهم . .

لقد قاسى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المنافقين مقاساة شديدة ، وكان وجودهم بين المسلمين عبئا كبيرا على المعركة ، ولكن سعة صدره ورحمته ورأفته وأمله فى أن ينصلح شأنهم هو الذى جعله يصبر عليهم كل هذا الصبر الطويل .

ونزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشعب من أُحُدُ ، فجعل ظهره وعسكره الى أحد وصف المسلمين .

---

(٢٦) أسد الغابة جـ ٥ صـ ١٣٥ ، السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٤٩٥

وصف ميدان المعركة

ويصف لنا أحد القادة العسكريين ميدان المعركة فيقول :

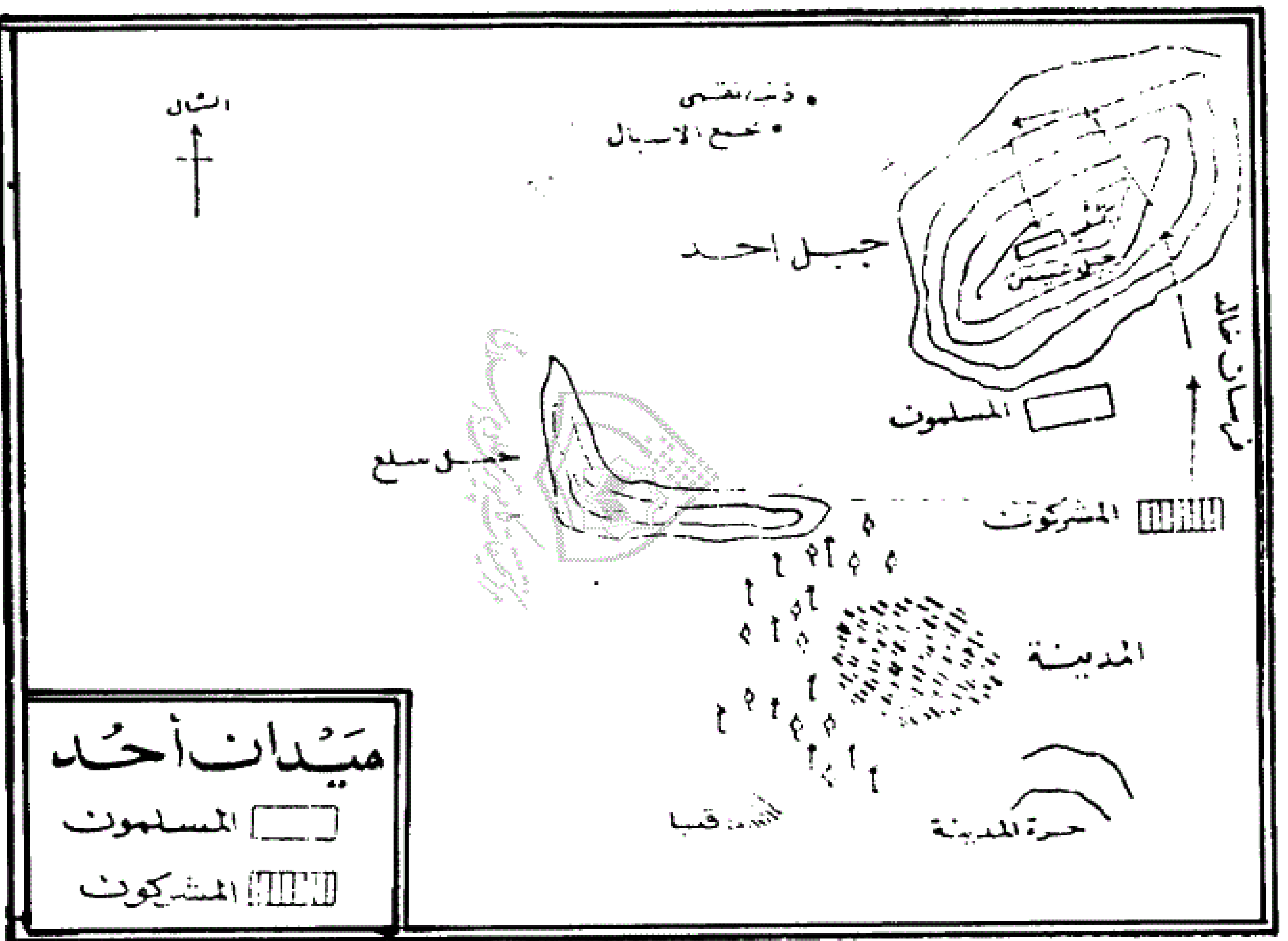
«إن أُحداً عبارة عن هضبة طبيعية كبيرة ، تقع شمال المدينة على مسافة أربعة أميال « اعتبر مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كنقطة انطلاق من المدينة » وترتفع الى علو ألف قدم عن مستوى السهل المحيط بها ، ويبلغ طول هذه الهضبة الطبيعية خمسة أميال وفي الجزء الغربي من أحد يوجد بروز كبير يهبط بانحدار شديد نحو السهل ، كما يوجد الى يمين هذا البروز واد يرتفع بشكل طفيف ويضيق وهو يبتعد حتى يصل الى مضيق يبعد ١٠٠٠ متر عن نهاية البروز ، وفي مدخل الوادي وعند نهاية البروز وضع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جيشه بحيث كان الوادي خلفه . .»[٢٧]

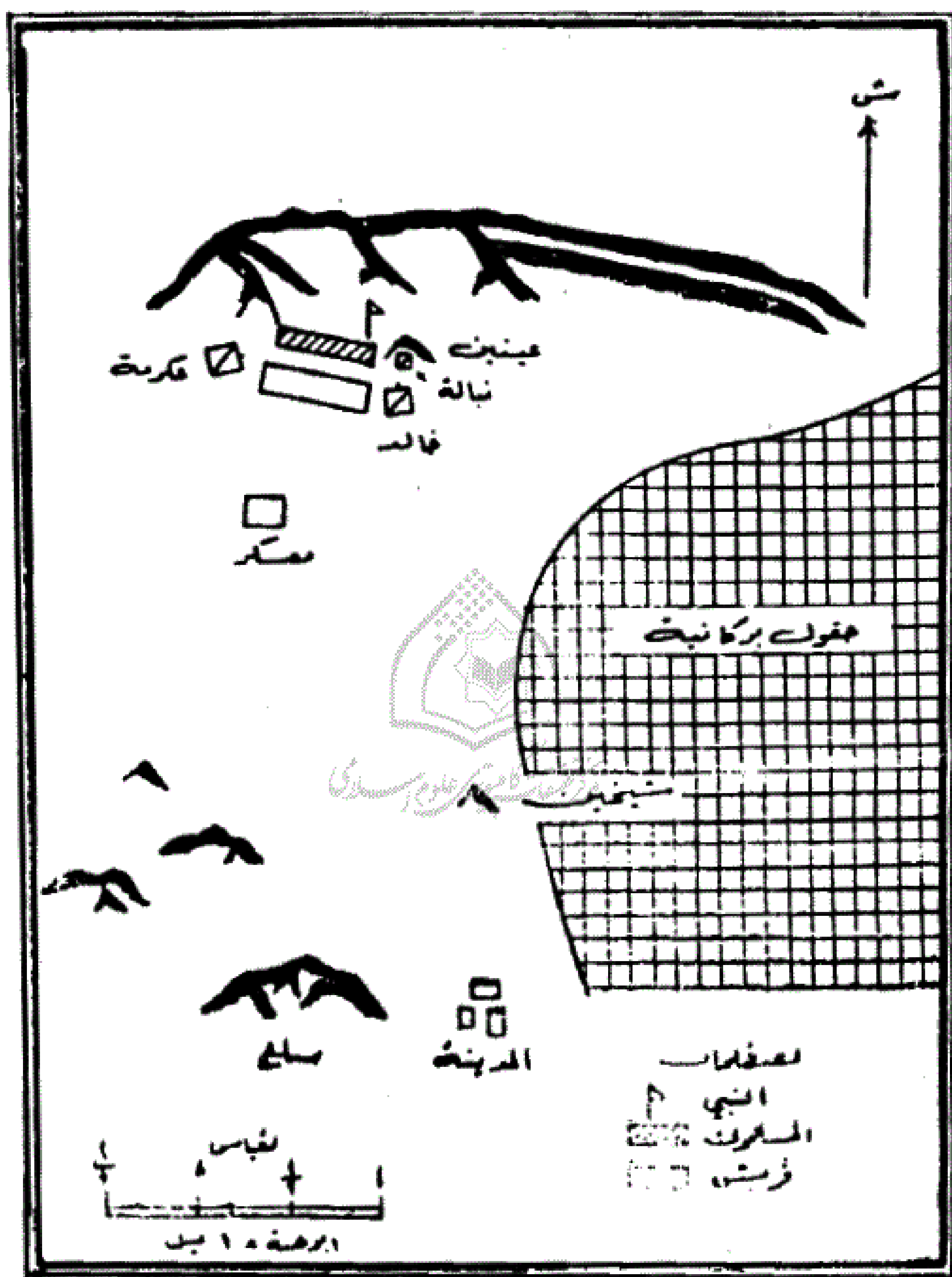
انظر الصورتين



---

(٢٧) خالد بن الوليد ترجمة العميد الركن صبحي الجابي صـ ٤٣


ميدان أحد
المسلمون
المشركون
الشمال
ذنب نقمى
مجمع الأسيال
جبل أحد
جبل عينين
فرسان خالد
المسلمون
المشركون
جبل سلع
المدينة
قبا
حرة المدينة


ش
عيينة
عكرمة
نبالة
خالد
معسكر
حقول بركانية
شعب
سلع
المدينة
العلامات
النبي
المسلمون
قريش
المقياس
١ بوصة = ١٠ ميل

لقد نظم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جيشه فى تشكيل متلاحم تبلغ جبهته ١٠٠٠ ياردة ، ووضع جناحه الأيمن عند سفح تل صغير يبلغ ارتفاعه ٤٠ قدما وطوله ٥٠٠ قدما يسمى « عينين »

كانت ميمنة المسلمين مؤمنة ، ولكن ميسرتهم كان يمكن الالتفاف حولها من وراء تل « عينين » ولمواجهة هذا الخطر وضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمسين راميا على تل « عينين » بحيث يسيطرون على طرق الاقتراب التى قد يناور القرشيون منها للوصول الى مؤخرة المسلمين .

وقد أعطى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعليماته الواضحة المشددة الى أمير الرماة وهو عبد الله بن جبير فقال له :

« انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، ان كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لانؤتين من قبلك »

وفى رواية : « لاتبرحوا مكانكم حتى أوذنكم »

« ان رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وان رأيتمونا ظهرنا على القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم »

« وان رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا . .

وفى رواية « الزموا مكانكم لاتبرحوا منه ، فإذا رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا ، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل ، إنًا لن نزال غالبين مامكثتم مكانكم ، اللهم انى أشهدك عليهم (٢٨)

---

(٢٨) السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٤٩٦

لقد كانت الأوامر الصادرة إلى الرماة محددة بشكل دقيق . .

« فبما أن « عينين » كان هضبة طبيعية هامة ومسيطرة تماماً على المنطقة المحيطة بها كان من المحتم التأكيد على ضرورة عدم سقوطها بأيدى قريش » (٢٩)

صلاة ووصية ودعاء

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يصفَّ أصحابه للقتال قد صلى بأصحابه صلاة الصبح بعد أن أذن بلال بالصلاة ، والمسلمون يرون المشركين أمامهم .

واصطف المسلمون صفوفاً خلفه ، وبعد أن انتهت الصلاة خطب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى أصحابه خطبة قصيرة ولم يذكر فيها القتال وكان من جملة ما ذكر فيها :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبياً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً » وفى رواية (إلا امرأة أو مسافرا أو عبدا أو مريضا) - ومن استغنى عنها استغنى الله عنه والله غنى حميد ، ماأعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى - إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وكونوا على يقين من أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم وأجملوا فى طلب

---

(٢٩) خالد بن الوليد ص ٤٤

الرزق ، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد ، اذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده والسلام عليكم »(٣٠)

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رابط الجأش ، وأراد أن يبث فى نفوس أصحابه الثقة بالله .. وقد أشار إلى مايجب عليهم فى معركتهم المرتقبة من طريق خفى دون أن يصرح بذلك ، تاركاً لفطنتهم التنبه له ..

فقد أخبرهم بأن الآجال مقدورة ـ فالفرار من المعركة لن يطيل العمر ، كما أن الإقدام فيها لن ينقص من العمر شيئاً كما أخبرهم أن الأرزاق مقدورة ، فالتكالب على جمع المغانم لا يزيد فى الرزق المقدور شيئاً ، كما أن الالتزام بالأوامر وعدم التقصير فيها لن ينقص من الرزق المقدور شيئاً ..

وقد أخبرهم أن العلاقة بين المؤمنين يجب أن تكون فوق الماديات ، وأن الترابط يجب أن يكون قوياً كترابط الجسم بأعضائه فلا ينبغى أن يفر أحد من المعركة تاركاً أخاه عرضة للعدو ، بل يجب أن يقيه بنفسه ويفديه بروحه وبكل مايملك .. وكأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أحس أن إتيان المسلمين لن يكون إلا بسبب الاشتغال بالدنيا والغفلة عن الواجب بسبب الرغبة فى الغنيمة ، فأعلمهم أن الرزق مكفول ولن تموت نفس قبل أن تستكمل رزقها وأجلها ..

---

(٣٠) السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٤٩٦

جعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الرماة عبدالله بن جبير ، وهو قائد كفء شجاع لم يقصر فيما وكل اليه من أمر . .

وأعطى اللواء لمصعب بن عمير ، وللخزرجيين لواء كان بيد الحباب بن المنذر وللأوس لواء كان بيد أسيد بن حضير . .

وأخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيفاً كان مكتوباً عليه :

فى الجبن عار وفى الإقدام مكرمة   والمرء بالجبن لاينجو من القدر

وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

فتنافس فى سبيل ذلك الرجال . .

قام علىّ رضى الله عنه ـ ليأخذه ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: اجلس فقام عمر ـ رضى الله عنه ـ فأعرض عنه .

فقام الزبير ـ رضى الله عنه ـ فأعرض عنه ـ وقيل : إن الزبير طلبه ثلاث مرات . .

ثم قام إليه أبو دجانة فقال : ما حقه يارسول الله ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : حقه أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى .

فقال : أنا آخذه بحقه .

فأعطاه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ له . .

قال الزبير بن العوام : وَجِدت فى نفسى حين سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وقد قمت إليه وسألته اياه قبله ، فأعطاه أبا دجانة وتركنى !

فقلت : والله لأنظرن ما يصنع به أبو دجانة ، فاتبعته لأشاهد الآية الباهرة والحكمة العظيمة فى منع المصطفى لى ولغيرى ، فازداد يقينى .

فقد أخذ أبو دجانة عصابة حمراء مكتوباً فى أحد طرفيها : « نصر من الله وفتح قريب » ، وفى طرفها الآخر : « الجبانة فى الحرب عار ، ومن فر لم ينج من النار »

فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج عصابة الموت .

فخرج بها وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر فى الكيُّول[31] أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحداً من المشركين إلا قتله ..

وكان أبو دجانة حين أخذ السيف ، أقبل يتبختر فى مشيته عجباً أمام العدو . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذه مشية يبغضها الله ورسوله إلا فى هذا الموقف .

---

(٣١) الكيول . بفتح الكاف ، وتشديد الياء المضمومة ـ مؤخر الصفوف

أبو عامر الفاسق يحاول إثارة الفتنة

وجاء أبو عامر الفاسق وبرز أمام الصفوف ينادى قومه : يا معشر الأوس أنا أبو عامر انظرونى أكلمكم فأجابوه قائلين : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ، ثم هاجموه ورموه بالحجارة ، وشتموه ، فولى مدبراً ، وهو يقول : لقد أصابكم بعدى شر .

وجاء أبو سفيان ينادى : « يا معشر الأوس والخزرج ، خلوا بيننا وبين بنى عمنا ، وننصرف عنكم .

ولكنه وُوجه بالشتم واللعن ، فعاد من حيث أتى .

وجاء رجل قَوى من المشركين على بعير له ، فدعا للمبارزة ، فأحجم عنه الناس ، حتى دعا ثلاثا ، فقام إليه الزبير ـ رضى الله عنه ـ فوثب حتى استوى معه على البعير ، ثم اقتتلا فوق البعير .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يلى حفيض الارض مقتول فوقع المشرك ووقع عليه الزبير فقتله وحميت المعركة .

وأثنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الزبير خيراً ، وقال : « لكل نبى حوارى وإن حواريى الزبير »

وقال : « لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه ، وذلك لما رأى من إحجام الناس عنه .

وقد بدأت المعركة بالمبارزة . فقد تقدم صاحب لواء المشركين : طلحة ابن أبى طلحة ونادى : هل من مبارز ؟ هل من مبارز ؟

وكرر نداءه عدة مرات . . . . .

ثم قال : يا أصحاب ـ زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا الى النار . فهل أحد منكم يعجلنى بسيفه الى النار ؟ أو أعجله بسيفى الى الجنة ، كذبتم واللات والعزى لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إلىَّ بعضكم .

فخرج إليه على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فالتقيا بين الصفين ، فبدره علىّ بالسيف فقطع رجله ، فوقع على الأرض ، وبدت عورته ، فقال : ياابن عمى ، أنشدك الله والرحم .

فرجع عنه على ـ كرم الله وجهه ـ ولم يجهز عليه .

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما منعك من أن تجهز عليه ؟

فقال : يا رسول الله ، ناشدنى الله والرحم .

فقال له : اقتله فإنه عدو لله ، فقتله .

لقد كان على ـ كرم الله وجهه ـ يستحى أن ينظر إلى عورة ، حتى عورة نفسه . ومن أجل ذلك يقال : كرم الله وجهه ـ فى الدعاء له . .

وحمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان ، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فقتله كذلك .

فأخذ اللواء أخوه أبو سعيد بن أبى طلحة ، فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم فأصاب حنجرته فقتله .

فأخذ اللواء مسافع بن طلحة فقتله عاصم بن ثابت بن الأفلح .

فأخذ اللواء أخوه الحارث بن طلحة فقتله عاصم بن ثابت أيضاً .

وكانت سلافة أمها قد رأت عاصماً يقتل ولديها مسافعا والحارث فنذرت لئن ظفرت برأس عاصم لتشربن فى قحفته الخمر . ولتعطين لمن يجىء به مائة من الابل .

وكان هذا النذر من أسباب مذبحة الرجيع التى سبق أن أشرنا إليها ، وأستشهد فيها عاصم بن ثابت ، وأراد أعداؤه من هذيل أن يحتزوا رأسه ، ولكن الله حماه بالنحل وهطل سيل فاحتمله إلى حيث شاء الله .

لقد كان لواء المشركين بيد هؤلاء وهم من بنى عبد الدار . . وهم أصحاب اللواء منذ عهد الجاهلية . .

لقد قال أبو سفيان لبني عبد الدار : يا بنى عبد الدار ، إنكم تركتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما تؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه . فَهَمَّ به بنو عبد الدار وتوعدوه ، وقالوا له : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع ؟

وذلك الذى أراد أبو سفيان .

ويقال : إن فى بنى عبد الدار هؤلاء نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (٣٢)

---

(٣٢) الأنفال ٢٢

ذكر ذلك القرطبى فى تفسيره وابن كثير فى تفسيره واختاره الطبرى مرويا عن ابن عباس ومجاهد .

لقد حرص آل طلحة وهم من بنى عبد الدار على الاستماتة دون اللواء ، وما زال يقتل منهم واحد إثر واحد دونه . حتى سقط اللواء فى النهاية ، وولى المشركون الأدبار .

دور الفرسان

ولم يكن مع المسلمين خيول تذكر ـ كما قلنا ـ أما جبهة المشركين فكان فيها مائتا فارس ، انقسموا فريقين ميمنة وميسرة .

وكان على الميمنة خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل .

وتقدم خالد تحت تغطية نبالته على رأس فرسانه لمهاجمة الجناح الأيسر للمسلمين ولكنه أجبر على التراجع بسبب رمايات المسلمين الدقيقة بقيادة عبد الله بن جبير .

وكذلك لم تُجدِ محاولة عكرمة .

وكانت المبارزة قد اشتعلت بين الفريقين وجندل أبطال المسلمين المبارزين من المشركين واحداً وراء الآخر .

ولكن ذهب ضحية هذه المبارزة أسد الله حمزة بن عبد المطلب بسبب طعنة غادرة من وحشى الذى كان يرصده خفية ويتحين الفرص له طمعاً فى المكافأة التى رصدت له ، وحين رآه وقد فرغ من قتل سباع بن عبد العزى

بضربة قاصمة ، سدد إليه ضربة بمزراقه فى منطقة انكشف عنها درعه . فاستشهد على أثرها .

وحاول أبو سفيان أن يشترك فى المبارزة وكان يمتطى فرساً ، فلقيه أنصارى شجاع هو حنظلة بن أبى عامر مترجلاً ، وقبل أن يتمكن أبو سفيان من استخدام رمحه أو سيفه كان حنظلة أسبق إلى فرسه فضرب قائمتيه الأماميتين فطرح أبا سفيان أرضاً ، فصرخ طالباً النجدة ، وخف إليه من ينجده . ولكن أبا سفيان آثر الانسحاب إلى صفوف قريش . وستأتى الاشارة الى هذه القصة فيما بعد .

ولم يستمر صمود القرشيين طويلاً ، فسرعان ما دب الذعر فى صفوفهم ، وأخذوا يفرون أمام المسلمين فى غير انتظام تاركين وراءهم أسلحتهم وأمتعتهم ، وتبعهم المسلمون واستولوا على معسكرهم .
ولم تجد صيحات النساء القرشيات وأناشيدهن للفرسان شيئاً ، بل أخذن يطلقن صيحات الفزع والخوف .

ويصور الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ هرب القرشيات وفزعهن بقوله فيما يرويه عنه ابنه عبد الله : والله لقد رأيتنى أنظر الى هند بنت عتبة وصواحباتها مشمرات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير إذ مالت الرماة الى العسكر[٣٣] . .

---

(٣٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ صـ ١٥٥

« وانقض المسلمون على مخيم قريش وبدءوا فى جمع الغنائم ، وكانت الفوضى على أشدها فى المخيم الذى يعج بالنساء والعبيد المذعورين خوفاً على حياتهم . بينما كان المسلمون يغنمون غنائم الكفار التى يجدونها فى طريقهم ، وهم يكبرون فرحين مستبشرين ، فما كان إلا أن انعدم النظام ، وفقدت السيطرة ، لأن المسلمين شعروا بأنهم كسبوا المعركة .

والحقيقة أنهم كانوا قد كسبوا المرحلة الأولى فقط من المعركة ، وكانت خسائر قريش طفيفة إلا أنهم اضطربوا بشكل واضح ، وبدا الموقف وكأن المعركة قد انتهت ، ولكن الحقيقة لم تكن كذلك[٣٤] »

تغير وجه المعركة

إلى هنا كان واضحاً أن المعركة قد انتهت لصالح المسلمين ، وأن المشركين قد ولوا الأدبار وأحاط المسلمون بنساء المشركين ، ووقع الصنم الذى حمله المشركون معهم للتبرك به من فوق الجمل الذى كان يحمله .

ولكن عندما كان المسلمون يطاردون المشركين ويقتحمون مخيمهم ، كان الجناحان المتحركان لقريش المتمثلان فى فرسانهم يقفان فى ثبات . وتحرك خالد وعكرمة إلى الوراء قليلاً عن مواقعهما السابقة ، لكنهما كانا مسيطرين تماماً على رجالهما ، ولم يسمحا لأى فارس أن يتراجع . . . . شاهد خالد الفوضى التى حدثت أمامه ورأى القرشيين وهم ينهزمون ، وشاهد المسلمين وهم منهمكون فى جمع الغنائم .

---

(٣٤) خالد بن الوليد صـ ٥٠

ورأى النبالة المسلمين الموجودين فى « عينين » الذين كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أوصاهم ألا يبرحوا أماكنهم سواء غلب المسلمون أو غُلبوا ، رآهم وقد أغرتهم المغانم فتناسوا وصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانطلقوا من أماكنهم يشاركون إخوانهم المسلمين فى جمع الغنائم ، ولم تجد تحذيرات قائدهم عبد الله بن جبير شيئاً .

كانت الغنائم مغرية ، فالتفت النبالة الى قائدهم وطلبوا منه أن يأذن لهم بالانضمام الى زملائهم فى التقاط الغنائم .

لكن عبد الله بن جبير كان حازماً فى رفضه وقال لهم : إنكم تعلمون جيداً أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرنا ألا نبرح مكاننا سواء انتصرنا أو انهزمنا . فعلينا أن نبقى فوق هذا التل الى أن تصدر إلينا الأوامر بتركه .

لكن النبالة أجابوا قائلين : إن هذا لصحيح ، لكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقصد ذلك ، وإنما يقصد أن نتمسك بالتل أثناء المعركة ، وقد انتهت المعركة فلا يوجد أى معنى لبقائنا .

وعلى الرغم من احتجاج القائد عليهم ورفضه مغادرة موقعه إلا أنهم أسرعوا نحو معسكر قريش متصايحين : الغنيمة الغنيمة . وبقى عبد الله ومعه تسعة آخرون رفضوا إغراء الغنيمة . وآثروا تنفيذ وصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أى شىء آخر . . قاتل الله المادة فما أوق الانسان

قديماً وحديثاً إلا من قِبَلها . وما عفَّ أحد عن الدنيا إلا أعزه الله ، وما حرص أحد عليها إلا أذله الله - وقديماً قال الحكماء : أذل الحرص أعناق الرجال .

وهكذا ترك هؤلاء الرماة أماكنهم . . ووجدها خالد بن الوليد فرصة سانحة فتركهم حتى وصلوا الى مخيم قريش ، وبدأ ضربته التى غيرت وجه المعركة .

شن خالد هجوماً خاطفاً على النبالة القليلين الذين بقوا بعد ترك اخوانهم مواقعهم .

ورآه عكرمة فأسرع بمظاهرته ، وقام الفريقان معاً بتطويق المكان والقضاء على من فيه . .

ولكن استيلاءهم على الموقع لم يكن سهلاً ، فقد قاوم النبالة على الرغم من قلتهم مقاومة عنيفة حتى استشهد عبد الله بن جبير بعد اصابته بعدة جراحات . واستشهد بعض زملائه وجرح الباقون . وخلا الموقع من المسلمين ليتمكن منه فرسان المشركين ، وبذلك انكشفت مؤخرة المسلمين ، وأصبح فى إمكان المشركين أن يهاجموهم من الخلف .

وفعلاً تم ذلك ، فقد هاجم عكرمة مع جزء من سريته المجموعة التى كانت مع النبى - صلى الله عليه وسلم -

أما خالد فقد هاجم بسريته وبالجزء الباقى من سرية عكرمة المسلمين المشغولين بجمع الغنائم فى مخيم قريش .

لقد كان تحول المعركة لصالح المشركين بفضل يقظة خالد بن الوليد القائد العبقرى الذى لم يكن قد أسلم بعد ، والذى كسبه الاسلام بعد ذلك قائداً من خيرة القواد وأطلق عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيف الله المسلول : على أن يقظته هذه لم تكن لتغنى شيئاً لو أن الرماة التزموا بتعليمات الرسول ﷺ ولم يتركوا أماكنهم . .

أخذ خالد المسلمين على غرة ، وأخذ هو وفرسانه يهجمون على المسلمين المنهمكين فى جمع المغانم فى معسكر قريش ، فساد الهرج والمرج بين صفوفهم ، وفقد عدد منهم صوابه وفكر فى الفرار ، إلا أن معظمهم استعاد هدوءه وتنبه للمفاجأة وبدأوا يقاتلون .

والتحم فرسان خالد برجَّالة المسلمين فى معركة ضارية ، وفى هذه الأثناء اندفعت امرأة مشركة اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية والتقطت لواء المشركين الذى كان قد سقط على الأرض وداسته الأقدام ولوثته الدماء والرمال ، ورفعته الى أعلى وأخذت تلوح به فى الفضاء ، حتى رآه القرشيون فانعطفوا نحوه . .

وكان ممن رآه قائد المشركين أبوسفيان بن حرب ، وكان قد ولى الأدبار لايلوى على شىء . فما أسرع أن عاد واستعاد السيطرة على معظم المشاة . وأعاد رجاله للقتال ، واندفعوا مرة أخرى يرددون شعارهم الذى تنادوا به فى أول المعركة : من أجل عزى ، من أجل هبل

وأصبح المسلمون فى موقف لايحسدون عليه . .

إنهم الآن بين فكى الرحى ، أو بين نارين . .

الخيالة من خلفهم بقيادة خالد ، ومشاة أبى سفيان من أمامهم واستطاع أبوسفيان الذى سبق أن فر من أمام سيف أحد المسلمين أن يقتل أحد المسلمين . .

وتصاعد الغبار عاليا حتى سد الأفق وتعذرت الرؤية ، وأربك ذلك المسلمين فأخذ بعض منهم يضرب بعضا ظنا منهم أنهم من الأعداء . . وعلى الرغم من ذلك فلم يأخذ الذعر الى نفوسهم سبيلا . . .

النبى فى المعركـــة

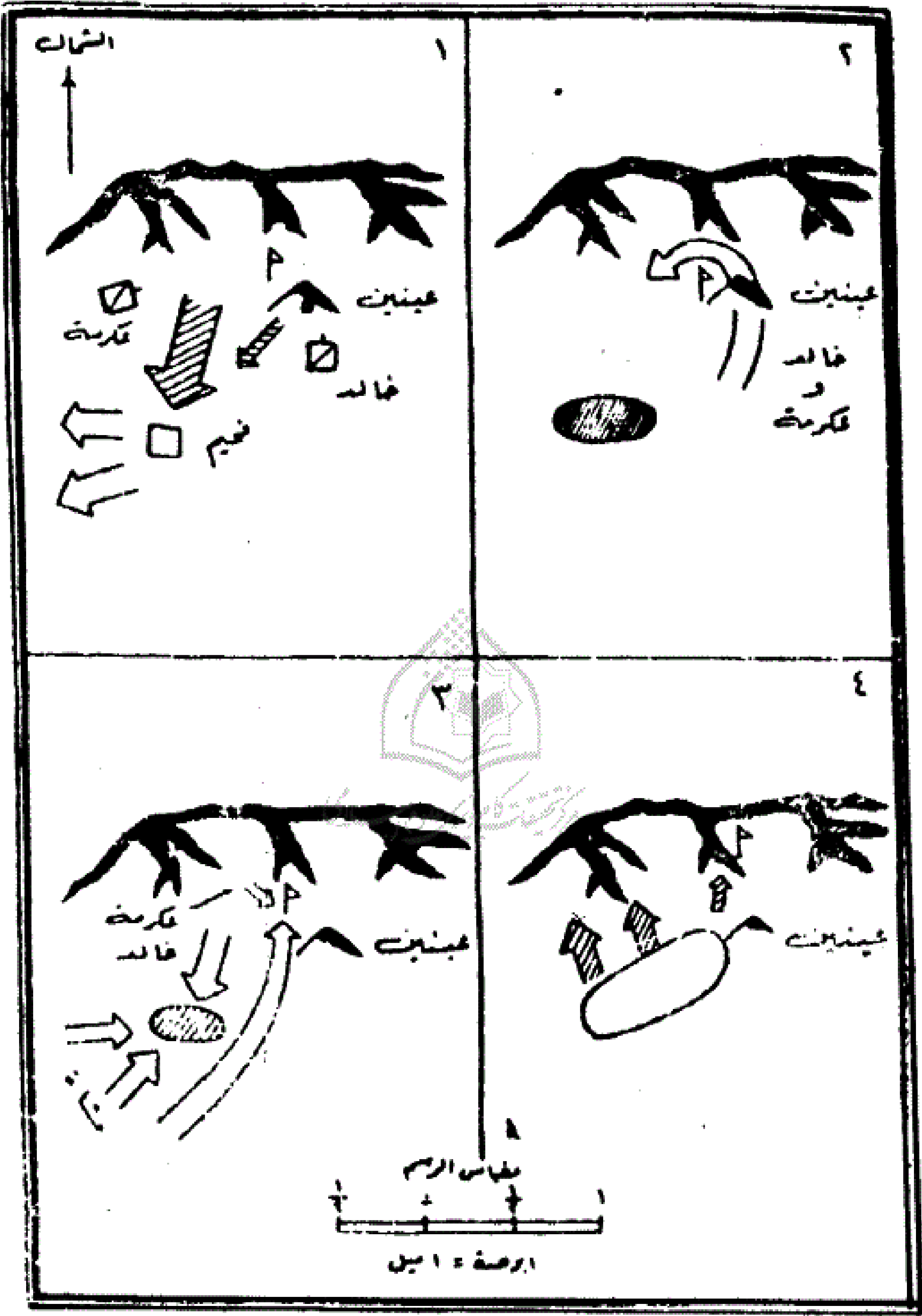
وانقسمت المعركة الى قسمين منفصلين تماما . .

ذلك أن القوة الرئيسية من المسلمين كانت تقاتل القوة الرئيسية من جيش قريش وميدانها معسكر العدو نفسه . .

وكانت هناك مجموعة أخرى من المسلمين هى التى كانت تحيط بالنبى ـ ﷺ ـ دفاعا عنه ، وأصبحت هذه المجموعة هدف العدو الذى سيطر على الموقف بعد فقد الرماة المسلمين موقعهم .

فقد انطلق عكرمة بن أبى جهل بجزء من سريته وبعض من مشاة قريش نحو موقع النبى ـ ﷺ . .

انظر الصورة رقم ٢ لتعرف كيف دارت المعركة



الشمال
١
٢
٣
٤
عينين
عكرمة
خالد
نعيم
عينين
خالد
و
عكرمة
عكرمة
خالد
عينين
عينين
مقياس الرسم
١ بوصة = ١ ميل

وقد تجلت شجاعة النبى - ﷺ - واضحة تماما فى هذا الموقف الذى يعتبر من أصعب المواقف التى مر بها المسلمون .

كان النبى - ﷺ - بين ثلاثين رجلا من أصحابه الذين لازموه ، ورفضوا أن ينساقوا وراء إغراء المادة ، ويتسابقوا كما تسابق غيرهم فى طلب الغنيمة .

ومن هؤلاء الرجال : على ، وأبو بكر ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو دجانة ، ومصعب بن عمير .

شجاعة أصحاب النبى

وقد كون هؤلاء الرجال سياجا منيعا حول النبى - ﷺ - يحفظونه بأرواحهم ، وظهر حبهم الشديد للرسول واضحا حين كان الواحد منهم يتلقى السهام حتى لاتصل الى النبى صلى الله عليه وسلم .

كان عكرمة أول القرشيين الذين وصلوا الى موقع النبى - ﷺ - يقود مجموعة من رجاله - فأمر النبى - ﷺ - علياً بمهاجمتهم .

وتجلت بطولة علىٍّ واضحة فقد استطاع أن يوقف هجومهم وأن يردهم ويقتل واحدا منهم .

ثم تقدمت مجموعة أخرى من الفرسان نحو النبى - ﷺ ، فأمر النبى عليا أيضا بمهاجمتهم ، فهاجمهم علىٌّ وطردهم وقتل واحدا منهم .

واشتدت حدة القتال ، واستعمل المشركون سهامهم كما استعملوا الحجارة يلقونها على المسلمين المحيطين بالنبى - ﷺ .

ووقف أبو دجانة - رضى الله عنه - أمام النبى - ﷺ - يتلقى عنه سهام المشركين التى كانت تصوب نحوه - ﷺ .

ووقف أبو طلحة حول النبى - ﷺ - يذود عنه ، وكان رجلا راميا شديد الرمى ، فنثر كنانته بين يدى النبى - ﷺ - وهو يقول : نفسى لنفسك الفداء ووجهى لوجهك الوقاء ، فلم يزل يرمى بها حتى نفد ماكان معه من سهام .

وكان الرجل من المسلمين يمر بالجعبة من السهام فيقول النبى - ﷺ : انثرها لابى طلحة . فينثرها .

ووقف النبى - صلى الله عليه وسلم - يشرف وينظر الى القوم ويرى مواقع النبل فيقول له أبو طلحة : يانبى الله بأبى أنت وأمى ، لاتشرف يصبك سهم من سهام القوم ، نحرى دون نحرك ، ويتطاول أبو طلحة بصدره ليقى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من أبو طلحة ؟

وأبو طلحة هو زيد بن سهيل الأنصارى ممن بنى النجار وهو من شهد العقبة .

ولما هاجر النبى - صلى الله عليه وسلم - آخى بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان من الرماة المذكورين فى الصحابة ومن الشجعان المعدودين ، قال ابن الأثير : وله يوم أحد مقام مشهود . هو ماأشرنا اليه آنفا .

قال عنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم : « صوت أبى طلحة فى الجيش خير من مائة رجل » .

وهو الذى روى الحديث التالى قال : دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرأيت من بشره وطلاقته مالم أره على مثل تلك الحال ، فقلت : يارسول الله مارأيتك على مثل هذه الحال أبدا ؟

قال : « وما يمنعنى ياأباطلحة وقد خرج من عندى جبريل آنفا ، وأتانى ببشارة من ربى عز وجل ـ قال لى جبريل : ان الله بعثنى اليك يامحمد مبشرا انه ليس أحد من أمتك يصلى عليك صلاة إلا صلى الله عز وجل ـ وملائكته عليه عشرا[٣٥] » .

وظل أبو طلحة حياته مجاهدا . . . قال أنس ـ رضى الله عنه : ان أبا طلحة قرأ يوما سورة براءة ، حتى وصل الى قوله تعالى :

« انفروا خفافا وثقالا »

فقال : أرى ربى يستنفرنى شابا وشيخا ، جهزونى ، فقال له بنوه : قد غزوت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى قبض ، ومع أبى بكر

---

(٣٥) أخرجه الامام احمد فى مسنده ٤/٣٠

ومع عمر ، فنحن نغزو عنك ، فقال : جهزونى فجهزوه ، فركب البحر فمات مجاهدا فى سبيل الله . .

وهو زوج أم سليم أم أنس بن مالك .

توفى وهو ابن سبعين سنة . .

وقال بعضهم إنه توفى بالمدينة وصلى عليه عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه[٣٦] ـ هذا هو أبوطلحة ـ رضى الله عنه ـ الذى وقف يذود عن النبى ويقيه بنفسه مع أولئك الرجال الذين ثبتوا يوم أحد يؤثرون حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حياتهم . . ومن هؤلاء الرجال

سعد بن أبى وقاص

وكان من الرماة المعدودين الذين وقفوا حول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذلك اليوم . .

ولسعد ـ رضى الله عنه ـ موقف مشهود فى هذا اليوم .

فقد أخذ يرمى والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يناوله النبل ، ويقول له : « ارم فداك أبى وأمى » .

قال سعد : لقد كان يناولنى حتى انه ليناولنى السهم ماله نصل فيقول : ارم به . فأرمى به فيصيب .

---

(٣٦) اسد الغابة جـ ٦ صـ ١٨١

وقد رمى حباب بن العرقة أحد المشركين أم أيمن . وكانت تسقى جرحى المسلمين ـ رماها بسهم فوقعت فأغرق عدو الله فى الضحك . فشق ذلك على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وناول سعدا سهما لانصل له وقال له : ارم به ، فرماه ، فوقع السهم فى نحر حباب فوقع مستلقيا ، فضحك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بدت نواجذه ، وقال : استقاد لها سعد ـ أجاب الله دعوته ـ وفى رواية : اللهم أجب لسعد دعوته . فكان سعد مجاب الدعوة .

وقال سعد : أجلسنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمامه ، فجعلت أرمى وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : اللهم استجب لسعد ، اللهم سدد رميته وأجب دعوته ، حتى إذا فرغت كنانتى نثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مافى كنانته .

وقد روى أن سعدا رمى يوم أحد مئات السهام مامنها سهم إلا ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : ارم فداك أبى وأمى ، ففداه فى ذلك اليوم مئات المرات[٣٧] .

وعن على ـ كرم الله وجهه ـ ماسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : فداك أبى وأمى إلا لسعد ـ رضى الله عنه .

---

(٣٧) السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٥٠٧

وقد كان لسعد دور آخر فيها بعد ، حين أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرد الذين حاولوا أن يرتقوا الجبل فيشرفوا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ومن معه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم إنهم لاينبغى لهم أن يعلونا ، اللهم لا قوة لنا الا بك ، فقاتلهم عمر بن الخطاب وجماعة معه حتى أهبطهم من الجبل ، وفى رواية ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لسعد : ارددهم قال : كيف أردهم وحدى ؟

فقال له : ارددهم

قال سعد : فأخذت سهما من كنانتى فرميت به رجلا منهم فقتلته .

ثم أخذت سهما فاذا هو سهمى الذى رميت به فرميت به آخر فقتلته ، فهبطوا من مكانهم .

فقلت : هذا سهم مبارك ، فكان عندى فى كنانتى لايفارقنى . .

وروى عنه أنه قال : لقد رأيتنى أرمى بالسهم يوم أحد فيرده علىَّ رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه حتى كان بعد فعرفت أنه ملك[٣٨] .

ولا عجب فى ذلك ، فقد كانت الملائكة تدفع عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

---

(٣٨) المرجع السابق

ومن الرماة المعدودين أيضا سهل بن حنيف ـ رضى الله عنه ـ وكان ممن ثبت مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد ، وكان قد بايعه يومئذ على الموت .

فمن سهل بن حنيف ؟

هو سهل بن حنيف بن واهب الأنصارى الأوسى ، وكنيته أبو سعد وأبو سعيد وأبو عبدالله وأبو الوليد وأبو ثابت .

شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ابن الأثير : ثبت يوم أحد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما انهزم الناس وكان يرمى بالنبل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ : نبِّلو سهلا فانه سهل وكان من فقراء المدينة وقد أعطاه رسول الله من أموال بنى النضير كما أعطى منها أيضا أبادجانة

توفى سهل بالكوفة سنة ثمان وثلاثين ، وصلى عليه على ابن ابى طالب(٣٩) . . ومن الذين ثبتوا حول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد أيضا .

أم عمارة

وهى نسيبة ـ بالتصغير على المشهور ـ بنت كعب ـ أبلت بلاء حسنا ،

---

(٣٩) أسد الغابة جـ ٢ صـ ٤٧٠ ـ الطبقات الكبرى جـ ٣ قسم ٢ صـ ٣٩ ط دار التحرير

وكانت من الأنصار ، وزوجها زيد بن عاصم بن كعب ، وهى ممن شهد العقبة . . كانت هى وأختها ، أو هى وأسماء بنت عمرو بن عدى .

وقد خرجت نسيبة مع المسلمين يوم أحد لتسقى الجيش وتعالج الجرحى ، فلما رأت ماأصاب المسلمين ، ورأت أن الأعداء يحاولون إصابة النبى - ﷺ - ألقت السقاء والضماد ، وأخذت تدافع عن النبى - ﷺ - . وتعرضت يومئذ لكثير من الجراح ، وأوشكت على الموت .

ولنستمع اليها تحدثنا عن موقفها . قالت : خرجت يوم أحد لأنظر مايصنع الناس - ومعى سقاء فيه ماء أسقى به الجرحى - فانتهيت الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو فى أصحابه ، والربح للمسلمين . . فلما اضطرب المسلمون انحزت الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عنه بالقوس حتى أصبت بالجراح .

وقد رُئِىَ على عاتقها جرح أجوف له غور ، فقيل لها : من أصابك بهذا ؟

فقالت : ابن قمئة - أقبل لما ولى الناس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا .

فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، فضربنى هذه الضربة وضربته ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان .

كانت درعا ابن قمئة واقيتين له من ضربة نسيبة ـ وكنيتها أم عمارة . بالاضافة الى أن ضربة المرأة تكون أقل فى شدتها من ضربة الرجل ، ولذلك لم تؤثر فيه ، واندفع نحوها بعد ان تلقى ضربتها فضربها على عاتقها ضربة شديدة أسقطتها على الأرض وسببت لها جرحا بالغا ، ولكنها لم تقتلها .

وكانت هى دون النبى ـ ﷺ ـ فحين سقطت رأى ابن قمئة النبى فقصد نحوه ، فى محاولة لقتله ، وخُيِّل له أنه قتله ، فعاد مسرعا يعلن انه قتل محمدا .

وذاع الخبر بسرعة بين القرشيين الذين هللوا فرحا ، وظنوا أنهم بذلك قد قضوا تماما على المسلمين . .

وقد سرى ذلك الخبر بسرعة بين المسلمين فأوقع فى قلوب بعضهم الوهن . .

لقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلاء أم عمارة دونه ، وشكرها على ذلك ، وقال فى حقها : « ما التفت يمينا ولا شمالا يوم أحد الا ورأيتها تقاتل دونى » .

وقد جرحت ـ رضى الله عنها ـ اثنى عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف .

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم لها ولذويها ـ زوجها زيد بن عاصم وابنيها خبيب وعبد الله ، وكانوا جميعا فى أحد : بارك الله فيكم أهل

بيت . فقالت أم عمارة : ادع الله أن نرافقك فى الجنة ، فقال : « اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » . فعند ذلك قالت نسيبة : ماأبالى ماأصابنى من أمر الدنيا ـ أى بعد هذه الدعوة .

مصرع مصعب بن عمير

وكان مصعب بن عمير بيده اللواء ، فقصده ابن قمئة الليثى ، وهو أحد فرسان قريش ، يحاول قتله ، « ولكن مصعبا أثبت قدمه فى الارض فهو لايزول ولا يميل ، ويقبل عليه ابن قمئة فيضرب يده بالسيف فيقطعها ويسقط اللواء ، فيأخذه مصعب بيده الآخرى ويكب عليه ليحفظه ـ ويكر عليه ابن قمئة فيقطع يده الأخرى ، ولكن قدم مصعب ثابتة وهو لايزول ولا يميل ، ومازال اللواء مرفوعا قد ضم عليه مصعب عضديه ، ويكر ابن قمئة مرة ثالثة فينفذ الرمح فى صدر مصعب ، ويسقط مصعب ، ويسقط معه اللواء فيتلقاه أخوه أبو الروم ، ومايزال اللواء مرفوعا حتى يبلغ المدينة[٤٠] » فقد أعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى بن أبى طالب .

الإرجاف بموت الرسول

وذكر بعض الرواة أنه حين قتل ابن قمئة مصعبا ظنه النبى ـ ﷺ ـ لأنه حين كان يعتم يشبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فأشاع بين الناس أنه قد قتل محمدا ، ويبدو أنه قد تنبه لوهمه هذا فأراد أن يصدق وهمه فقصد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرة أخرى بعد أن لمحه

---

(٤٠) على هامش السيرة د طه حسين جـ ٣

حين ضرب نسيبة بسيفه فسقطت ـ ولكن الله خيب قصده ولم تصب ضربته التى وجهها للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هدفها المطلوب ، ولكنه عاد يؤكد أنه قتل محمدا .

وقد أثر هذا الخبر فى معنويات المسلمين فأخذ بعضهم يفكر فى الهرب ، ولكن عددا منهم قرر أن يكون لحياتهم معنى . فان كان الرسول قد قتل فلماذا لايقتلون على ماقتل عليه ؟

وصمم هؤلاء ان يبيعوا أرواحهم بثمن غال . .

وقيل إن الذى أشاع قتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الشيطان نفسه متمثلا فى صورة رجل من صالحى المسلمين اسمه جعال أو جعيل بن سراقة الغفارى ، وهو من أهل الصفة . أسلم قديما وشهد مع المسلمين أحدا[41] .

ووثب الناس على جعال ليقتلوه فتبرأ من ذلك القول ، وشهد له خوات بن جبير أخو عبد الله بن جبير ، وأبو بردة ، بأنه كان عندهما وبجوارهما حين صرخ ذلك الصارخ بموت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لقد قال ثابت بن الدحداح الانصارى ـ والمسلمون يومئذ أوزاع متفرقون لايدرون مايصنعون قد أسقط فى أيديهم ـ يامعشر الأنصار ، إلىّ إلىّ أنا ثابت

---

(٤١) أسد الغابة جـ ١ صـ ٣٣٨

ابن الدحداح ، ان كان محمد قد قتل فان الله حى لايموت ، فقاتلوا عن دينكم فان الله مظهركم وناصركم ، فنهض اليه نفر من الأنصار ، فجعل يقاتل بمن معه من المسلمين ، وقد وقفت لهم كتيبة خشناء ـ كثيرة السلاح . فيها رؤساء القوم : عمرو بن العاص ، وعكرمة بن ابى جهل ، وضرار بن الخطاب ـ فجعلوا يناوشونهم ، وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فأصابه وقتل من كان معه من الأنصار ولقوا الله شهداء ، فيقال : إن هؤلاء آخر من قتل من المسلمين يومئذ .

وذكر الواقدى : ان ثابتا برأ من جراحاته ومات على فراشه بعد الحديبية .

وانهزم بعض المسلمين وولوا الأدبار ، فأقاموا ثلاثة أيام ، ثم جاءوا الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ : ذهبتم بها عريضة » ـ اى واسعة ـ وذكرت بعض الروايات ان من هؤلاء عثمان بن عفان،وخارجة بن زيد،ورفاعة بن يعلى وان كنا نستبعد ذلك على عثمان ـ رضى الله عنه ـ

وفى تولى هؤلاء نزل قوله ـ تعالى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (٤٣)

---

(٤٢) أسد الغابة جـ ١ صـ ٢٦٧

(٤٣) آل عمران ١٥٥

ذكر القرطبى فى تفسيره قال : كان بين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال عبد الرحمن : وقد شهدت بدرا ولم تشهد ، وقد بايعت تحت الشجرة ولم تبايع ، وقد كنت مع من تولى يوم الجمع ـ اى يوم أحد ـ؟

فرد عليه عثمان : أما قولك شهدت بدرا ولم تشهد ، فانى لم أغب عن شىء شهده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن بنت رسول الله ـ ﷺ ـ كانت مريضة وكنت معها أمرضها ، فضرب لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سهما فى سهام المسلمين،وأما بيعة الشجرة فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثنى ربيئة على المشركين ، فضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمينه على شماله فقال : هذه لعثمان ـ فيمين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وشماله خير لى من يمينى وشمالى .

وأما يوم الجمع فقال الله ـ تعالى :

« ولقد عفا الله عنهم » فكنت فيمن عفا الله عنه .

فحج عثمان عبد الرحمن

ولئن كان عثمان قد أجاب عن نفسه فى هذه المحاورة . فان ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ أجاب عنه بذلك فى محاورة أخرى رواها عثمان بن

موهب ، قال : جاء رجل حج البيت ، فرأى قوما جلوسا ، فقال : من هؤلاء القعود ؟

قالوا : هؤلاء قريش

قال : من الشيخ ؟

قالوا : ابن عمر

فأتاه فقال له : انى سائلك عن شيء ، أتحدثنى ؟ قال : نعم

قال : أنشدك بحرمة هذا البيت ، أتعلم ان عثمان بن عفان فر يوم أحد ؟

قال ابن عمر : نعم .

قال الرجل : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها ؟ قال : نعم .

قال : فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ؟

قال : نعم .

فكبر الرجل .

قال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك ماسألتنى عنه .

أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه ، وأما تغيبه عن بدر فانه كان تحته بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت مريضة ، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه » ، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فانه لو كان أحد أعز ببطن مكة

---

(٤٤) قال : أشار ، والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الافعال وتطلقه على غير الكلام واللسان فتقول : قال بيده اى أخذ ، وبرجله : اى مشى

من عثمان بن عفان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان ، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان الى مكة ، فقال [45]النبى ـ صلى الله عليه وسلم : بيده اليمنى : هذه يد عثمان » فضرب بها على يده اليسرى ، فقال : « هذه لعثمان » . اذهب بهذا الآن معك[46] .

لقد انهزمت طائفة فيما يروى الرواة حتى بلغت المدينة ، فلقيتهم أم أيمن فحثت فى وجوههم التراب ، وقالت لبعضهم : هاك المغزل وأعطنى سيفك . فالمنهزمون يومئذ فريقان ، فريق منهم لم يدخل المدينة وفريق دخل المدينة .

النبى يقتل أبى بن خلف

وكان أبى بن خلف يتوعد النبى ـ ﷺ ـ منذ كان فى مكة ويقول له : يامحمد ان عندى « العود » اسم فرس . أعلفه كل يوم فرقا ـ مكيال ـ من ذرة أقتلك عليه .

وكان النبى ـ ﷺ ـ يرد عليه : أنا أقتلك ان شاء الله .

وتكرر ذلك من أبىّ حين أسر يوم بدر ، وجاء أهله ليفتدوه ، فقال أمام من سمعه من الناس : والله ان عندى فرسا أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتل عليها محمدا .

---

(٤٥) تفسير القرطبى جـ ٤ صـ ٢٤٤ ط دار الكتب ، ومعنى اذهب بهذا الآن معك ـ اى ارجع بهذه الأجوبة حتى يذهب عنك الشك فى امر عثمان

فلما سمع ذلك النبى ـ ﷺ ـ قال : بل أنا أقتله ان شاء الله . .

وجاء يوم أحد ، واعتلى أبيٌّ فرسه هذه التى تحدث عنها ، وقال : أين محمد ، لانجوت إن نجا .

ورآه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قادما نحوه ، وقد تهيأ له أصحابه يريدون لقاءه والقضاء عليه إن أمكن ، أو الحيلولة بينه وبين النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه افسحوا له الطريق . .

فأقبل أبي وهو متحفز ينادي : أين تفر منى يامحمد ؟

فتناول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحربة من أحد أصحابه ، ورماه بها فأصابت فرجة فى عنقه ظاهرة من الدرع .

وقيل : إنها كسرت ضلعا من أضلاعه ، فعاد منها وهو يخوركما يخور الثور . وسقط من فوق فرسه مرارا .

وجعل يقول : قتلنى محمد ، قتلنى محمد .

ونظر رفاقه من المشركين الى جرحه فرأوا أنه غير عميق ، فقالوا له : انه ليس بشيء .

فقال : كلا ، لقد قال محمد إنه سيقتلنى وهو صادق فيما يقول ، انه لو بصق على لقتلنى .

وأخذ أبي بن خلف يهذى ، ويحاول زملاؤه أن يخففوا عنه ويخبروه أن جرحه ليس شيئا يذكر ، ولكنه كان فى حالة معنوية سيئة .

وسرعان مافارق الحياة وهو فى طريقه الى مكة فى مكان يسمى « سرف » .

لقد قتل النبى - صلى الله عليه وسلم - أبى بن خلف - بنفسه وقد كان فى إمكانه ان يوكل ذلك الى بعض أصحابه .

ولكن المسألة مسألة شرف شخصى ، ومسألة فروسية ، إن أُبَيًّا تحداه فلابد أن يقبل التحدى . .

وليس النبى - صلى الله عليه وسلم - بأقل شجاعة من غيره ، بل إنه أشجع الشجعان ، قال على - رضى الله عنه - وهو المعروف بالفروسية والاقدام والشجاعة - كنا اذا حمى الوطيس نتقى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا يكون أحد أقرب الى العدو منه .

وصدقت نبوءة النبى - صلى الله عليه وسلم - لأبى بن خلف حين قال له : بل أنا الذى سأقتلك ان شاء الله . وصدق قول الله فى حق رسوله :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (٤٦)

وكان المكان الذى دفن فيه أبىٌّ مناسبا له ، دفن فى سرف ، وهو مسرف فى كفره .

وقيل دفن فى بطن رابغ ، فعن ابن عمر - رضى الله عنهما أنه قال : إنى لأسير ببطن رابغ فى الليل إذا نار تأجج لى لهبها ، واذا رجل يخرج منها فى

(٤٦) النجم ٣ ، ٤

سلسلة يجتذب بها يصيح : العطش ، وناداني : ياعبد الله ـ فلا أدري أعرف اسمى ، او كما يقول الرجل لمن يجهل اسمه : ياعبد الله ؟

فالتفت اليه ، فقال : اسقني . فأردت أن أفعل ، فإذا رجل وهو الموكل بعذابه يقول : لاتسقه ، هذا قتيل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا أبي بن خلف ـ لعنه الله[٤٧] .

لقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فارسا ومبارزا ومصارعا وراميا ، يجيد كل أنواع القتال .

وفي هذه الموقعة « رمى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قوسه حتى تحطمت القوس ، وتساقط المسلمون حوله صرعى واحدا بعد الآخر متفانين في الدفاع عنه حتى استطاعوا شق طريقهم عبر صفوف قريش الى رابية مشرفة من روابي جبل أحد .

« وتركت هذه الاستماتة أثرها في قريش ، فتوقف هجومهم قليلا ، واستفاد المسلمون من هذه الفرصة التي سنحت لهم ، فصعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهم الى جبل أحد ، وفي طريق صعوده رآه كعب بن مالك ـ الذي كان مع المسلمين الذي تفرقوا عنه لهول صدمة المباغتة من قريش لهم ، ولانتشار شائعة قتل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنادى كعب بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله[٤٨] .

---

(٤٧) رواه البيهقي

(٤٨) الرسول القائد محمود شيت خطاب صـ ١٧٢

وارتفعت روح المسلمين المعنوية بذلك النداء . بالقدر الذى أصاب قريشا بالخيبة .

واستطاع المسلمون أن يصلوا الى هضبة مرتفعة من جبل أحد . وحاول خالد بن الوليد بفرسانه أن يسد الطريق عليهم ، ولكن المسلمين تمكنوا من صد قواته .

وذهبت كافة المحاولات التى قام بها القرشيون للقضاء على المسلمين أدراج الرياح .

فقد تجمع المسلمون حول نبيهم وأصبحوا تحت قيادته ، بعد أن فرقتهم الأطماع فى التقاط الغنائم فحدث ماحدث . .

وبلغ الاعياء بقريش حدا كبيرا ، وفشلت حملاتهم الهجومية المتكررة فقررت إنهاء القتال . . وكان ذلك فى مصلحة المسلمين . .

جراحات النبى

لقد تعرض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاعتداءات متكررة من قبل العدو ، فقد كان هو شغلهم الشاغل ، لأنه الرمز الحى الذى يلتف حوله المسلمون ، فلو تمكن المشركون من القضاء عليه لقضوا على هذه الدعوة .

وقد قصد اليه ابن قمئة كما قصد اليه أبي بن خلف ، وقصد اليه غيرهما . . وباءت كل محاولات هؤلاء بالفشل .

وكان أبو عامر الفاسق قد حفر حفرا فى طريق المسلمين فى محاولة لتعويقهم عن القتال .

وحين حاول ابن قمئة التعرض للنبى - صلى الله عليه وسلم - بسيفه ، وجرده عليه أثرت هذه الضربة فى عاتقه حتى ظل النبى صلى الله عليه وسلم - يشكو منها شهرا .

وَقُذِفَ - صلى الله عليه وسلم - بالحجارة حتى وقع وأصيب بعدة جروح .

ورماه عتبة بن أبي وقاص بحجر فأصابه فى فمه وشق شفته السفلى .

ووقع صلى الله عليه وسلم فى احدى هذه الحفر التى حفرها الفاسق - لعنه الله . .

وحين رأى حاطب بن أبي بلتعة - عتبة يصيب النبى - صلى الله عليه وسلم - بالحجر الذى أدمى وجهه وكسر رباعيته قال للنبى - صلى الله عليه وسلم : أين توجه عتبة ؟

فأشار النبى - صلى الله عليه وسلم - للجهة التى توجه اليها .

فتبعه حاطب حتى ظفر به فضربه بسيفه حتى أطاح برأسه ، وأخذ فرسه وسيفه وعاد بهما الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا له النبى صلى الله عليه وسلم قائلا : رضى الله عنك ، رضى الله عنك .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد دعا على عتبة حين وجه الحجر اليه فقال : اللهم لايحول عليه الحول حتى يموت . .

لقد كانت الاستجابة سريعة ، فلم تنتظر أكثر من ساعة بل ربما أقل . .

وقد استجاب الله دعوة النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ابن قمئة أيضا ، فانه بعد أن ضرب النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال له : خذها وأنا ابن قمئة .

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - أقمأك الله فى النار .. اى أذلك وأخزاك .

فخرج بعد وقعة أحد الى غنمه ، فوافاها وهى تفر فى ذروة جبل ، فأخذ يعترضها ، فشد على كبشها فنطحه نطحة فأرداه من شاهق الجبل فتقطع ..

وهل هناك أذل من هذه النهاية ؟

إن هذا الرجل الذى كان يطاول بنفسه ويفاخر بقوته ، ويزهو بشجاعته ، ويتحدى الأبطال والشجعان . يقتله كبش ويرديه من فوق الجبل ..

ودخلت حلقتان من المغفر(٤٩) فى وجنتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأخرجها أبو عبيدة بن الجراح بأسنانه فخلعت ثنيتاه بسبب ذلك ..

وأخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - يمسح الدم من على وجهه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟

وفى ذلك نزل قوله - تعالى

« ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون(٥٠) .

---

(٤٩) المغفر - حلق تسبغ على العنق لتقيه

(٥٠) آل عمران ١٣٨

لقد هم النبى صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو على المشركين ، أو قد استأذن ربه فى أن يدعو عليهم لاستئصالهم ، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيُسلم ، وقد آمن فعلا كثير من هؤلاء الذين أصابوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين بالأذى ـ فقد آمن خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل ، وأبو سفيان بن حرب وغيرهم . .

لقد بعث الله رسوله رحمة مهداة ، ولم يبعثه لعانا ولا صخابا . .

ذكر القرطبى قال : لما كسرت رباعيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَشُجَّ وجهه يوم أحد شقّ ذلك على أصحابه كثيرا وقالوا : لو دعوت عليهم ، فقال : إنى لم أبعث لعانا ، ولكن بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون .

وقال له عمر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا ، لقد أدمى وجهك وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول إلا خيرا ، فقد قلت : « رب اغفر لقومى فإنهم لايعلمون »

القرشيون ينصرفون

لقد فكر القرشيون فى العودة جديا ، لأنهم أيسوا من تحقيق نصر نهائى ، ولكن قبل أن ينصرفوا أرادوا أن يستوثقوا من موت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو بعض أصحابه المقربين .

فقد كانت إشاعة وفاة الرسول قد فشت فيهم وغلبت عليهم . .

أشرف أبو سفيان على الجبل ، وجعل ينادى المسلمين : أفيكم محمد ؟

فلم يجبه أحد ، لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلب منهم عدم الإجابة .

فنادى : أفيكم ابن أبي قحافة ؟

فلم يجيبوه أيضا .

فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟

فلم يجيبوه أيضا .

ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة فقط ، لعلمه وعلم قريش أن قيام الاسلام بهم ، وأن كلا من أبي بكر وعمر بمثابة الوزيرين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ورد بذلك حديث صحيح فقد روى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن لى وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض فأما وزيراى من أهل السماء فجبريل وميكائيل وأما وزيراى من أهل الأرض فأبو بكر وعمر »[٤٩] .

فلما لم يتلق أبو سفيان إجابة على أسئلته ، قال لقريش : أما هؤلاء فقد كفيتموهم . . فلم يتمالك عمر بن الخطاب نفسه فقال : يا عدو الله إننا جميعا أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ، إن محمدا يسمع كلامك الآن . .

فأسقط فى يد أبي سفيان ، وأصابه الغم ، وكم تمنى أن لو كان ما توهمه صحيحا . . ولكنه عزى نفسه بقوله : يوم بيوم بدر والحرب سجال .

وأخذ يردد قوله : أعل هُبل . أعل هُبل

---

(٤٩) رواه الترمذى فى كتاب المناقب ، وفى أسد الغابة جـ٣ صـ ٣٢٠

وهنا قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه ـ « ألا تجيبونه » ؟

قالوا : يا رسول الله ، بماذا نجيبه ؟

قال : « قولوا : الله أعلى وأجل .

فقالوا : الله أعلى وأجل

قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا تجيبونه؟

قالوا : بماذا نجيبه ؟

قال : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم »

فقالوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

وانصرف أبو سفيان وهو يقول : إن موعدكم بدر للعام القابل .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجل من أصحابه : « قل له : نعم هو بيننا وبينك موعد » .

وقد نزل فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥٢ ﴾ (٥٠)

---

(٥٠) آل عمران ١٥٢

بطولات إسلامية فى أحد

- من خوارق العادات
- النبى يشجع أصحابه
- قصة الأصيرم
- عودة المشركين
- مواراة الشهداء
- عودة النبى الى المدينة
- القرشيون يتجهون الى حمراء الأسد
- خروج النبى إلى المشركين مرة أخرى
- غزوة أحد فى القرآن الكريم
- دروس وعبر فى غزوة أحد

على الرغم مما أصاب المسلمين فى أحد إلا أنها كانت فرصة لظهور بطولات رائعة لكثير من المسلمين ، بعضهم استشهد وبعضهم بقى بعد أن أبلى بلاء حسنا . .

وقد عرضنا لصور من هذه البطولات ، ونعرض لصور أخرى منها :

حنظلة بن أبي عامر

هو حنظلة بن أبي عامر الراهب . .

شتان بينه وبين والده . . كلاهما كان فى أحد . . أما حنظلة فكان فى صفوف المسلمين مجاهدا ، وأما أبوه فكان فى صفوف المشركين معاندا . .

كان حنظلة من سادات المسلمين وفضلائهم ، وهو المعروف بغسيل الملائكة . . وسبب ذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال حين أصيب حنظلة فى أحد : إن صاحبكم لتغسله الملائكة .

فسألوا أهله : ما شأنه ؟

فقالت زوجته : خرج وهو جنب حين سمع الهائعة ـ الصيحة والدعوة إلى الحرب ـ

كانت هذه الليلة ليلة عرسه ، وقد أشهدت زوجته عليه أنه دخل بها حين رأته يلبى داعى الجهاد ، وقالت : لقد رأيت باباً فى السماء قد فتح وولج فيه حنظلة هذه الليلة . .

وذهب حنظلة إلى ميدان المعركة ، والتقى هو وأبو سفيان بن حرب ، فاستعلى عليه حنظلة وكاد يقتله . فأتى شداد بن الأسود المعروف بابن

شعوب الليثى ، فأعان أبا سفيان على حنظلة ، فَخَلّص أبا سفيان وقتل حنظلة ، وقال أبو سفيان فى ذلك :

ولو شئت نجتنى كميت طِمِرَّة .. ولم أحمل النعماء لابن شعوب[٥١]

وقيل : بل قتله أبو سفيان ، وقال : حنظلة بحنظلة ، يعنى بحنظلة الأول غسيل الملائكة ، وبالثانى ابنه الذى قتل يوم بدر كافرا .

وروى أن الأوس والخزرج افتخرتا . فقالت الأوس : منا غسيل الملائكة حنظلة ومنا الذى حمته الدَّبَر والنحل : عاصم بن ثابت ، ومنا الذى اهتز له عرش الرحمن : سعد بن معاذ ، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين :

خزيمة بن ثابت

فقال الخزرجيون : منا أربعة نفر قرءوا القرآن على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقرأه غيرهم : زيد بن ثابت ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد .

يعنى : لم يقرأه كله أحد من الأوس ـ وإلا فقد قرأه كله من غيرهم كثير كعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة وعبد الله ابن عمرو بن العاص وغيرهم[٥٢] .

---

(٥١) الطمرة : الفرس السريعة الوثب
(٥٢) أسد الغابة جـ٢ صـ٦٦

لقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف الفضة »

وقيل : إن رأسه كان يقطر ماء عند دفنه .

سعد بن الربيع

ومن الذين أبلوا بلاء حسنا سعد بن الربيع بن عمرو الانصارى الخزرجى ، شهد العقبة الأولى والثانية وبدرا ، وهو أحد النقباء . . . كان نقيب بنى الحارث بن الخزرج هو وعبد الله بن رواحة ، وهو أحد الكتاب فى الجاهلية .

آخى النبى - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين عبد الرحمن بن عوف بعد الهجرة

وقد ضرب المثل الأعلى فى الايثار فقد عرض على عبد الرحمن أن يناصفه ماله وداره

ولكن عبد الرحمن قال له : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق . فدله على السوق ، فاشترى عبد الرحمن وباع وكسب وكان تاجرا ماهرا . .

لقد كان سعد صادقا فى عرضه .

وكان عبد الرحمن صادقا عفيفا فى إعراضه . . رضى الله عنهما - فى موقعة أحد كان له موقف مشهود ، فقد دافع دفاع الأبطال الشجعان حتى استشهد . .

روى عن مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد قال : لما كان يوم أحد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ : من يأتيني بخبر سعد بن الربيع ؟

فقال رجل : أنا .

فذهب يطوف فى القتلى فرآه سعد وكان مصابا . فقال له : ما شأنك ؟

قال : بعثنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لآتيه بخبرك .

قال سعد : فاذهب فأقرئه منى السلام ، وأخبره أنى قد طعنت اثنتى عشرة طعنة ، وأنى قد أُنْفِذَت(٥٣) مقاتلى ، وأخبر قومك أنهم لاعذر لهم عند الله إن قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وواحد منهم حى .

كان هذا الرجل الذى حمَّله سعد هذه الرسالة هو أبى بن كعب . .

وأضاف سعد قائلا : قل لقومك : يقول لكم سعد بن الربيع : الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة العقبة ، فوالله مالكم عند الله عذر إن خلص أحد إلى نبيكم وفيكم عين تطرف .

قال أُبيٌّ : فلم أبرح حتى مات .

فرجعت إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته . فقال : رحمه الله نصح لله ورسوله حيا وميتا(٥٤)

---

(٥٣) أنفذت المقاتل من نفذت السهام أى خالطت الجوف وخرجت من الشق الآخر

(٥٤) أسد الغابة جـ٢ صـ٣٤٨

طلحة بن عبيد الله

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة

وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو التيمى القرشى ، ويطلق عليه : طلحة الخير ، وطلحة الفياض .

وكان من السابقين الأولين الى الاسلام ، دعاه أبو بكر إلى الاسلام فقبله . . . فأخذه ودخل به على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم وكان أبو بكر وطلحة يطلق عليهما : القرينان .

وذلك لأن نوفل بن خويلد ـ وكان أشد قريش ـ أخذهما في بدء الاسلام فشدهما معاً فى حبل حتى جاء من خلصهما منه .

وبعد الهجرة آخى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين طلحة وأبى أيوب الأنصارى .

وأبلى طلحة يوم أحد بلاء حسناً ، ووقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه ، واتقى عنه النبل بيده حتى شلت أصابعه ، وأصيب فى رأسه ، وقد حمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ظهره حتى صعد الصخرة .

روى ابنه موسى عنه أنه قال : سماني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد : طلحة الخير ، ويوم العسرة : طلحة الفياض ، ويوم حنين : طلحة الجود .

أما كيف حمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ظهره يوم أحد ، فذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان هو ومن معه من المسلمين القلائل الذين صمدوا معه ـ فى شعب فى جبل أحد ، فأراد أن يخرج منه الى صخرة تعلوه فلما ذهب لينهض لم يستطع لكثرة ما سال منه من دماء بسبب كثرة ما أصابه من جروح ، ولثقل الدرعين اللتين كانتا عليه ، فحمله طلحة ، فنهض به حتى استوى على الصخرة فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أوجب طلحة »

أى فعل شيئاً استوجب به الجنة .

وقيل : إن طلحة كان فى مشيته اختلاف لعرج كان به ، فلما حمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكلف استقامة المشى لئلا يشق على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذهب عرجه ولم يعد إليه[٥٥] .

من خوارق العادات

وإذا كان ذهاب عرج طلحة حين حمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خوارق العادات فهناك خوارق أخرى حدثت . . . من ذلك :

رد عين قتادة

كان قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الخزرجى ممن جاهد جهاداً عظيماً فى أحد فأصابه سهم فى عينه فأسالها على خده ، فذهب بها إلى النبى ـ صلى

---

(٥٥) أسد الغابة جـ٣ صـ٨٥ ، السيرة الحلبية جـ٢ صـ٥١٨

الله عليه وسلم ـ فردها ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكانها ، فعادت كما كانت ، بل كانت أحسن عينيه .

روى محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : أصيبت عين قتادة يوم أحد حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكانت أحسن عينيه(٥٦) .

وروى الأصمعى عن أبي معشر المدنى قال : أوفد أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بديون أهل المدينة إلى عمر بن عبد العزيز رجلاً من ولد قتادة ابن النعمان ، فلما قدم عليه قال : ممن الرجل ؟

فأنشد :

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها فياحسن ما عينٍ ويا حسن ماردِ

فقال عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

كان قتادة من فضلاء الصحابة ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحبه . . . . . . روى أبو سعيد الخدرى قال : خرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة لصلاة العشاء وهاجت الظلمة والسماء ، وبرقت برقة ، فرأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قتادة بن النعمان ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قتادة .

---

(٥٦) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣ قسم ٢ صـ٢٦

قال : نعم - يا رسول الله . علمت أن شاهد الصلاة الليلة قليل ، فأحببت أن أشهدها - أى معك .

فقال له : إذا انصرفت فأتنى .

فلما انصرف أعطاه عرجوناً ، فقال : خذ هذا يضىء أمامك عشرا وخلفك عشرا[٥٧] .

وقد مر بنا من الخوارق قصة السهم الذى كان يرمى به سعد فيرده عليه رجل أبيض حسن الوجه .

النبى ﷺ يشجع أصحابه

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يشجع أصحابه ويدعو لهم - كما مر - وحين غشيه القوم وأحاط به العدو قال « من رجل يشرى لنا نفسه . . ؟

فقام زياد بن السكن فى خمسة نفر من الأنصار - وبعض الناس يقول : إنما هو عمارة بن زياد بن السكن - فقاتلوا دون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً رجلاً ، يقتلون دونه حتى كان آخرهم زياد أو عمارة ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة ، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أدنوه منى ، فأدنوه منه ، فوسده قدمه فمات وخده على قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

من زياد ؟

وزياد هذا هو ابن السكن بن رافع بن امرىء القيس بن زيد الأنصارى

---

(٥٧) أسد الغابة جـ ٤ صـ ٣٩٠ - الاستيعاب ٣ / ١٢٧٥

الأوسى . ويقص ابن الأثير قصته يوم أحد فيقول : ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما ألحمه[٥٨] القتال يوم أحد وخلص إليه ، ودنا منه الأعداء ، ذبَّ ـ دافع ـ عنه مصعب بن عمير حتى قتل ، وأبو دجانة سماك بن خرشة حتى كثرت فيه الجراح ، وأصيب وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصيبت رباعيتُه ، وكُلِمتْ شفته ، وجرحت وجنته . . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يبيع لنا نفسه ؟ فوثبت فئة من الأنصار منهم زياد بن السكن فقاتلوا حتى كان آخرهم زياد[٥٩] .

وأما عمارة فهو ابنه وقد اختلف الرواة بينهما فى أيهما الذى وسده الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدمه . .

وإن كان بعضهم يذكر أن زياداً هو شهيد أحد ، أما ابنه عمارة فقد سبق أن استشهد فى بدر ـ رضى الله عنهما[٦٠] .

هذه أمثلة من البطولات الرائعة التى ظهرت يوم أُحُد ـ وما من أحد من المسلمين إلا كان له جهاد مرموق وبلاء مشهود . والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو لهؤلاء جميعاً بالرضوان ، ويعدهم بالجنة التى عرضها السموات والأرض .

قصة الأصيرم

والأُصَيْرم هو عمرو بن ثابت بن وقش الأنصارى الأوسى . وخاله حذيفة

---

(٥٨) ألحمه : ألحم الرجل واستلحم : إذا نشب فى الحرب فلم يجد له مخلصا
(٥٩) أسد الغابة جـ ٢ صـ ٢٧٠
(٦٠) أسد الغابة جـ ٤ صـ ١٤٠

بن اليمان . استشهد يوم أحد ، وهو الذى قيل عنه : : إنه دخل الجنة ولم يصل صلاة . . . فعن أبي سفيان مولى ابن أبي أحمد عن أبي هريرة أنه كان يقول : أخبرونى عن رجل دخل الجنة ، ولم يصل لله ـ عز وجل ـ صلاة ؟

فإذا لم يعرفه الناس يقول : أصيرم بن عبد الأشهل : عمرو بن ثابت بن وقش ، وذلك أنه كان يأبى الاسلام ، فلما كان يوم أحد بدا له فى الاسلام رأياً آخر فأسلم ، ثم أخذ سيفه فأثبته الجراح ، فخرج رجال بنى عبد الأشهل يتفقدون رجالهم فى المعركة ، فوجدوه فى القتلى فى آخر رمق ، فقالوا : هذا أصيرم ، فما جاء به ؟

فسألوه : ما جاء بك يا أصيرم ؟ أَحَدباً على قومك أم رغبة فى الاسلام ؟

فقال : بل رغبة فى الاسلام ، أسلمت وقاتلت حتى أصابنى ما ترون ، فلم يبرحوا حتى مات .

فذكروه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : انه لمن أهل الجنة[٦١] . إلا أن ذلك مشروط بالاخلاص فى العقيدة . . أما المنافق فهو من أهل النار حتى لو حارب مع المسلمين رياء وقتل .

قزمان من أهل النار

قال عاصم بن عمرو بن قتادة : كان عندنا رجل غريب لا ندرى ممن هو ، يظهر الاسلام . . يقال له : قزمان ـ وكان ذا بأس وقوة ، وكان رسول

---

(٦١) سيرة بن هشام جـ ٢ صـ ٩ ، الاستيعاب فى الأصحاب لابن عبد البر ٣ / ١١٦٧

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا ذكر له يقول : انه لمن أهل النار .

فلما كان يوم أحد قاتل قزمان قتالاً شديداً ، وكان أول من رمى بسهم من المسلمين ، وكان يرمى النبال ويقاتل بالسيف قتالاً شديداً . . ولما أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك قال : إنه من أهل النار .

فأعظم الناس ذلك ، وأثبتته الجراحة فاحتمل إلى دار بنى ظفر ، لأنه كان حليفاً لهم ، فجعل رجال من المسلمين يقولون : والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر .

فقال بماذا أبشر ؟

فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومى ـ أى على شرفهم ومفاخرهم ـ ولولا ذلك ما قاتلت . فلم يقاتل لإعلاء كلمة الله ورسوله وقهر أعدائهما .

وقيل : إن قتادة ـ رضى الله عنه ـ قال له : هنيئاً لك الشهادة يا أبا الغيداق . فقال : انى والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير إلينا قريش حتى تطأ أرضنا .

قيل : فلما اشتدت عليه الجراحة أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه .

وجاء رجل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رأى ذلك فقال : أشهد أنك رسول الله ، قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما ذاك ؟

قال : الرجل الذى ذكرت آنفاً أنه من أصحاب النار فعل كذا وكذا .

إن هذا يشير إلى أن الذى يستحق الجنة إنما هو الذى يجاهد فى سبيل الله لا فى سبيل فخر زائل أو عرض حائل . .

وقد سئل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

وصدق رسول الله حين قال : « إن الله يؤيد هذا الدين أحياناً بالرجل الفاجر[٦٢] » وهو حكم عام يتناول كل من قدم عمل صالحاً على غير نية صالحة ، وربما انطبق على الحاكم الذى يظهر الجهاد لرفعة الاسلام وهو يريد تثبيت ملكه وإطالة لبثه فى الحكم ، وعلى العالم الذى يجعل من علمه مصيدة للدنيا وأكل الحرام ، فإن الله يحيى بعلمه القلوب ويهدى به الى سواء السبيل ، وإن كانت نيته ليست فى ذلك ، بل هى فى طلب الدنيا وزهرتها .



العودة

واتجه المشركون بعد ذلك إلى ديارهم ، وإنهم ليشكون فى نصرهم ، وإن كانوا قد أظهروا البهجة والفرح .

وقبل أن يأخذوا طريقهم إلى العودة وقف أبو سفيان مرة أخرى ينادى قائلا :

هلم ياعمر .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أجبه ياعمر وانظر ماشأنه »

---

(٦٢) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٥٢٣

فجاءه عمر ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله ياعمر ، أقتلنا محمداً ؟
فقال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ..
لقد أراد أن يستوثق .. لأنه لو تحقق ماتمنوه من قتل النبى - ﷺ - لكان انتصارهم حاسما .

ولكنه علم الآن من إجابة عمر - رضى الله - أن ماادعاه ابن قمئة باطل . ولذلك قال لعمر : أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر .
وقفل أبو سفيان - بعد هذا الحوار القصير - راجعا إلى جيشه .
ترك القرشيون ميدان المعركة ، وتجمعوا فى معسكرهم القديم الذى كانوا فيه فى اليوم السابق .

وعندما بدأوا يغادرون أرض المعركة بعث النبى - ﷺ - فى أثرهم على بن أبى طالب - .... قال له : « اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة ، وان ركبوا الخيل وساقوا الإبل فانهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ولأقاتلنهم ، فخرج علىٌّ فى آثارهم فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الأبل ، فعلم أنهم يريدون مكة فعاد وأخبر النبى - ﷺ - بذلك .

عاد الكفار وهم مبتهجون ولم ينس وحشى أن يستنجز مكافأته من هند ، فقد قتل - كما وعدها - حمزة - رضى الله عنه - فخلعت هند حليها وهى مبتهجة فرحة وأعطتها وحشياً .

ولم ترد أن تترك معصميها وجيدها عطلا من الحلية ، فاتخذت من أطراف حمزة ـ رضى الله عنه ـ قلائد . . لقد ظنت أنها بذلك تشفى غليلها وتطفىء غيظها وتنال ثأرها . . ولم تكتف بذلك . . . لقد بقرت بطنه ـ رضى الله عنه ـ واستخرجت كبده ولاكتها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها . . إنه الحقد الأسود الذى أباح لها التمثيل بجثة الشهيد العظيم حمزة ـ رضى الله عنه ـ وقد آثار هذا العمل سخط النبى ـ ﷺ ـ فأقسم لينتقمن منهم بمثل ذلك . فنزل قوله ـ تعالى

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٦٣)

روى الدارقطنى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد انصرف رسول الله ـ ﷺ ـ فرأى منظراً ساءه . . رأى حمزة وقد شق بطنه ، واصطلم أنفه ، وجدعت أذناه فقال : « لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير ، لأمثلن مكانه بسبعين رجلا » .

---

(٦٣) النحل ١٢٦ : ١٢٨

ثم دعا ببردة وغطى بها وجهه فخرجت رجلاه ، فغطى رأسه ووجه وجعل على رجليه الاذخر ، ثم قدمه فكبر عليه عشرا ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة ، وكان القتلى سبعين فلما دفنوا ، وفرغ منهم نزلت الآية السابقة »(٦٤)

فصبر رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يمثل بأحد . .

عاد المشركون وهم يظنون أنهم قد انتصروا . . لكن الحقيقة أن الذى انطوى من المعركة صفحة منها ، ومازال بعدها صفحات وصفحات . .

وأخذت هند زوج أبي سفيان تنشد وهى نشوى بما حققت من ثأر لأبيها ، وأخذت تردد :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُعْر
ماكان عن عتبة لى من صبر ولا أخى وعمه وبكرى(٦٥)
شفيت نفسى وقضيت نذرى شفيت وحشىُّ غليل صدرى
فَشُكْر وحشىٍّ علىّ عمرى حتى ترم أعظمى فى قبرى

ولكنها وجدت من نساء المسلمين من يرد عليها ، فقد قالت لها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب :

خزيت فى بدر وبعد بدر يابنت وَقَّاعٍ عظيم الكفر
صبَّحك الله غداة الفجر بالهاشميين الطوال الزُّهْرِ

---

(٦٤) تفسير القرطبى صـ٣٨١٧ سورة النحل ط دار الشعب

(٦٥) تقصد بعتبة : أباها عتبة بن ربيعة ، وبأخيها : الوليد بن عتبة ، وبعمه : شيبة بن ربيعة أما بكرها فهو حنظلة بن أبي سفيان ، وكلهم قتلوا فى بدر

بكل قطاع حسام يفري حمزة ليثي وعليٌّ صقري[٦٦]
إذا رام شيب وأبوك غدري فخضبا منه ضواحي النحر[٦٧]
ونذرك السوء فشرٌّ نذر[٦٨]

موارة الشهداء

وحين وقف النبى ـ ﷺ ـ على الشهداء ، ورأى حمزة ـ رضى الله عنه ـ قال : « لن أُصاب بمثلك أبداً ، ماوقفت موقفا أغيظ إلىّ من هذا » . ثم قال « جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع ـ حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله .

ثم أمر النبى ـ ﷺ ـ بأن يدفن الشهداء حيث صرعوا . . وذلك بعد أن صلى عليهم . وكان بعض المسلمين قد هموا أن يحتملوا قتلاهم ليدفنوهم بالمدينة . .

وتحدث النبى ـ ﷺ ـ عن فضل الشهداء فقال ـ فيما يرويه ابن هشام ـ : « أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يجرح فى سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه . اللون لون دم والريح ريح مسك ، انظروا أكثر هؤلاء جمعا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر »[٦٩]

---

(٦٦) الحسام : السيف ، ويفرى : يقطع
(٦٧) شيب : هو شيبة ، رخمه فى غير نداء ، وضواحى النحر : ماظهر من صدره
(٦٨) هذا شاهد لجواز دخول الفاء فى خبر المبتدأ ، وهذا ليس عاما
(٦٩) سيرة بن هشام جـ٣ صـ٤١ ط دار التحرير

ثم دعا النبى - ﷺ - إلى زيارتهم فقال : زوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسي بيده مايسلم عليهم مسلم الى يوم القيامة الا ردوا عليه السلام »

عودة النبى الى المدينة

وعلى الرغم مما أصاب المسلمين من استشهاد من استشهد منهم إلا أن الإيمان عصمهم من الجزع ، وَسَرَى هذا الايمان الى النساء - وهن أقل صبرا واستمساكا من الرجال .

روى سعد بن أبي وقاص قال : مر رسول الله - ﷺ - بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله - ﷺ - بأحد ، فلما نُعُوا لها قالت : فما فعل رسول الله - ﷺ - ؟

قالوا : هو بخير يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين .

قالت : أرونيه حتى أنظر اليه .

فسارت إليه ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جَلَل - تريد صغيرة - لأن كلمة جلل تطلق على الأمر الكثير والأمر القليل ، وهى هنا من القليل ، ومن هذا المعنى قول امرىء القيس :

لقتل بنى أسد ربهم ... ألاكل سواه جلل[٧٠]

يعنى بربهم : ملكهم ويعنى بجلل : هين ويسير .

فى حمراء الأسد

ويمم القرشيون وجههم الى حمراء الأسد - على بعد عشرة أميال من المدينة وهو قرب آبار على المعروفة الآن ، وقضوا ليلتهم فيها .

---

(٧٠) سيرة بن هشام جـ٣ صـ٤٣ ط دار التحرير

فى الوقت الذى توجه فيه النبى - ﷺ - ومن معه إلى المدينة .

وفى صبيحة اليوم التالى لبس النبى - ﷺ - درعه ، ومازال يعانى من آثار الجروح التى به ، وطلب من بلال أن يؤذن فى الناس بالجهاد ، وألا يخرج معه إلا من كان معه بالأمس فقط .

ولم يتوان واحد منهم عن تلبية داعى الجهاد على الرغم مما بهم من آلام وجراح حالت بينهم وبين النوم فى ليلتهم الماضية . .

لقد قضوا ليلهم فى تضميد جراحهم ، ومع ذلك خرجوا سراعا يقولون : لبيك يارسول الله . .

وانطلق النبى - ﷺ - بهم الى حمراء الأسد حيث كان القرشيون يقضون ليلتهم . كان معه خمسمائة مقاتل ، واللواء بيد على بن أبى طالب :

لقد كان هدف النبى - ﷺ - حكيما ، أراد به أن يقضى على وساوس العدو فى العودة ، فإن أبا سفيان قد يزين له شيطانه أن يكر على المدينة بخيله ، والمسلمون مجهدون . .

لقد جرت مناقشة حادة فى معسكر قريش ، كان عكرمة بن أبى جهل يصر على العودة للمعركة ، لأن المسلمين فى حالة سيئة نتيجة المعركة ، وهذا أنسب وقت للقضاء عليهم وسحقهم قبل أن يستجمعوا قوتهم ويجددوا نشاطهم . .

ولكن صفوان بن أمية وآخرين رفضوا هذا الرأى ، وقالوا : لقد كسبنا المعركة وكفى ذلك . ولئن كان المسلمون فى حالة سيئة فلسنا أفضل منهم .

إن فينا جراحاً كثيرة ، وخيولنا معظمها مصاب ، لا تستطيع خوض معركة جديدة .

وبينما هم فى هذا التشاور إذ برجل من خزاعة يقدم عليهم اسمه معبد ابن أبى معبد الخزاعى ، وكان قادماً من المدينة ، وكانت خزاعة بالرغم من عدم إسلامها هواها مع المسلمين ، وقد رأى معبد النبى - ﷺ - فى المدينة ورأى تأهبه للخروج فى أثر قريش ، وقد عزى معبد النبى - ﷺ - فى أصحابه قائلا له : يامحمد أما والله لقد عز علينا ماأصابك فى أصحابك وكنا نود أن لا تصاب فى أحد منهم .

فشكره النبى - ﷺ - على حسن مشاعره . ومضى معبد فى طريقه .

فإذا هو بأبى سفيان وجيشه فى مكان اسمه الروحاء وقد هموا بالرجوع إلى المدينة .

قال أبو سفيان لمعبد : ما وراءك يا معبد ؟

قال معبد : محمد ﷺ قد خرج إليكم فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون - يلتهبون من الغيظ - عليكم تحرقا ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما ضيعوا ، وقد رأيت فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : ويحك ما تقول ؟

قال معبد : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل .

قال أبو سفيان : فو الله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم .

قال معبد : فإنى أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من شعر .

قال أبو سفيان : ويحك ، ماذا قلت ؟

قال : قلت :

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحلتى إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل(٧١)
تردى بأسد كرام لا تنابلة عند اللقاء ولا ميل ومعازيل(٧٢)
فظلت عدوا أظن الأرض مائلة لما سموا برئيس غير مخذول(٧٣)
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم إذا تغطمطت البطحاء بالجيل(٧٤)
إنى نذير لأهل البسل ضاحية لكل ذى إربة منهم ومعقول(٧٥)
من جيش أحمد لا وخش قنابله وليس يوصف ما أنذرت بالقيل(٧٦)

وما أن سمع أبو سفيان هذا الشعر حتى تأثر به ، واقتنع وأقنع قومه بالرجوع ، ولكنه أراد أن يحفظ ماء وجهه ، فلقى ركباً من عبد القيس يريدون المدينة طلباً للميرة فاعترضهم .

---

(٧١) الجرد : الخيل العتاق ـ الأبابيل : الجماعات
(٧٢) تردى : تسرع ـ تنابلة : قصار ـ ميل : جمع أميل : الذى لاترس معه او الذى لايثبت على الفرس
(٧٣) العدو : الجرى السريع
(٧٤) تغطمطت : اهتزت ـ البطحاء : الارض ـ الجيل : الصنف من الناس
(٧٥) البسل : الحرم يقصد بهم قريش ـ الإربة : العقل ـ الضاحية : الشمس
(٧٦) الوخش : أرذال الناس ـ القنابل : الخيول ـ سيرة بن هشام جـ ٣ صـ ٤٥

وقال لهم : هل تبلغون عنى رسالة إلى محمد ﷺ وأحمل ركائبكم هذه زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟

قالوا : نعم .

قال : إذا وافيتم المدينة فأخبروا محمداً أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

ومر هذا الركب بحمراء الأسد وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد توافد إليها هو وصحبه . وأخبروه برسالة أبى سفيان ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « حسبنا الله ونعم الوكيل » وحين بلغه أنهم هموا بالرجعة إلى المدينة قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « والذى نفسى بيده لقد سُوِّمتْ لهم حجارة لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب »

وفى خروج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه إلى حمراء الأسد وهم مثقلون بالجراح نزل قوله ـ تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (٧٧)

---

(٧٧) آل عمران ١٧٢ : ١٧٤

هذا هو رأى بعض المفسرين ويرى آخرون أن الآية نزلت فى مناسبة غير هذه . . . . . .

لقد صورت الآية الأولى حالة المسلمين فى خروجهم ، وكان منهم من أثخن بالجراح يمشى متوكئاً على عصا .

عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلاً من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بنى عبد الأشهل ، كان قد شهد أحداً مع رسول الله ـ صلى الله غليه وسلم ـ قال : شهدت أحداً أنا وأخ لى ، فرجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخروج فى طلب العدو ، قلت لأخى أو قال لى : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل .

فخرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكنت أيسر جُرْحاً منه ـ أى من أخى ـ فكان إذا غُلب ساعدته على السير ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[٧٨] .

فانظر إلى صدق هذه الاستجابة التى زكاها الله ـ تعالى ـ بقوله : « الذين استجابوا لله والرسول » .

هذا هو الايمان العميق الذى يعلو بصاحبه فوق مستوى الآلام والكوارث ، وتتضاءل أمامه الاهتمامات الشخصية والتطلعات المادية

---

(٧٨) سيرة بن هشام جـ٣ صـ٤٤

والعوائق المختلفة مهما بلغت خطورتها .

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

وفى حمراء الأسد ظفر النبى - صلى الله عليه وسلم - بأبى عزة الجمحى الشاعر ، الذى سبق أن أسر فى بدر ، وشكا للنبى - صلى الله عليه وسلم - العوز ، وكثرة العيال فمَنَّ عليه وأطلقه بدون فداء ، على ألا يظاهر المشركين بشعره ، وأن يكف عن المسلمين لسانه . .

لقد أغراه صفوان بن أمية - كما سبق أن قدمنا - على أن يخرج مع المشركين ، يحرضهم ويؤيدهم بشعره . وسيق إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأمر بقتله .

فأقبل أبو عزة يستعطفه ويقول له : أقلنى .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا والله ، لا تمسح عارضيك بمكة بعدها، وتقول : خدعت محمداً مرتين .

وأمر الزبير بضرب عنقه فضربه .

وذكر السهيلى خبراً طريفاً عن أبى عزة هذا قال :

كان أبو عزة قد أصابه البرص فى مكة ، فقاطعته قريش ، لا تؤاكله ولا تجالسه ، فقال : الموت خير من هذا .

فأخذ حديدة فطعن بها نفسه ليموت ، ولكن الحديدة لم تصب منه مقتلاً ، ولكنها أسالت من موضع الطعنة ماء أصفر كان سبباً فى شفائه .

فقال فى ذلك :

اللهـــم رب وائــل ونهـــد والتهمــات والجبــال الجــرد
ورب من يــرعـــى بأرض نجـــــد أصبحـت عبـداً لك وابن عبـد
أبرأتنــى من وضــح بجــلدى من بعد ما طعنت فى معدى[79]

لقد كان مقتضى ذلك الاعتراف أن يسارع إلى الايمان ، وألا يلج فى الضلالة والطغيان ، ولكنه طغى وبغى ، واستعمل لسانه فى إيذاء مشاعر المسلمين ، فى وقت كان الشعر سلاحاً ضارياً أقوى من كل سلاح .

وكان فى قتله إغاظة لقريش ، لأنها فقدت أحد أسلحتها الفعالة . وضرب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل للمؤمنين حين قال فى قتله أبا عزة : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » . .

ويبدو أن مهمة أبى عزة كانت قد تجاوزت الشعر إلى التجسس ، فقد وجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ معه شخصا آخر هو معاوية بن المغيرة بن العاص ، وقد استجار معاوية بعثمان بن عفان ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله . فأقام بعد ثلاث متوارياً ، فبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر وقال لهما : إنكما ستجدانه فى مكان كذا . فوجداه فقتلاه . .

---

(٧٩) الروض الأنف جـ٣ صـ١٨١

فلم يكن أبو عزة وحده ، وليس هناك مبرر لإقامته بعد ذهاب قريش إلا التقاط المعلومات هو ومن معه .

ومن حق الدولة أن تتخلص من الذين يكونون عيوناً عليها ، لأنهم لا أمان لهم إذا أفرج عنهم ، فسوف ـ ينقلون ما التقطوه من أخبار إلى العدو الذى جندهم لهذا العمل .

وعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة . . وكانت هذه الغزوة تمحيصاً للمؤمنين فأظهرت صدق الصادقين ونفاق المنافقين .

لقد كشفت الغزوة عن هؤلاء الذين كانوا يظهرون الاسلام ويخفون الكفر . . وكان على رأس هؤلاء ـ كما هو معروف ـ عبد الله بن أبى بن سلول . . فقد كان له مكان فى المسجد يوم الجمعة ، فكان إذا جلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للخطبة يقوم عبد الله فيقول : أيها الناس ، هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أظهركم ، أكرمكم الله به وأعزكم فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس . . . . هذا الرجل الذى كان يقول ذلك رجع بمن معه من المنافقين يوم أحد ، وانخذل عن الناس . . فلما أراد أن يقف ـ بعد عودة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ موقفه ذاك ، ويقول ما كان يقوله . أخذ المسلمون بثيابه وقالوا له : اجلس يا عدو الله ، لست أهلاً لذلك . وقد صنعت ما صنعت .

فخرج من المسجد يتخطى الرقاب وهو يقول : لكأنما قلت خطأ وفعلت شراً أن قمت أشدد أمره .

ولقيه رجل من الأنصار بباب المسجد ـ فقال له : مالك ؟ ويلك فقال عبد الله بن أبي : قمت أشدد أمره ، فوثب عليَّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني ، لكأنما قلت شراً أن قمت أشدد أمره .

قال له : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي .

لقد وضح إذن موقف المنافقين ، وانكشفوا على حقيقتهم ... ونزل في ذلك قوله ـ تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ ﴾ (٨٠)

غزوة أحد في القرآن الكريم

استعرضنا في أثناء حديثنا بعض ما نزل من آيات كريمة حول هذه الغزوة . وقد تناولت سورة آل عمران فيما تناولته قصة هذه الغزوة من خلال آيات بدأت بقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٢١ ﴾ (٨١)

---

(٨٠) المنافقون ٥ ، ٦

(٨١) آل عمران ١٢١

لقد أراد الله أن يذكر المسلمين بأن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، وللنصر أسباب أهمها التوكل على الله وعدم الاغترار والافتقار إليه . . ولذلك ذكرهم الله ببدر وانتصارهم فيها وإمداد الله لهم بالملائكة ، وفى ذلك تعزية للمسلمين عما أصابهم فى أحد .

لقد كسب المسلمون الجولة الأولى ، فلا ينبغى أن يكون ما أصابهم فى الجولة الثانية ميئساً لهم قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٨٢)

لقد كان الامداد بالملائكة بشرى للمسلمين ، وتذكيراً لهم بأن الله معهم يؤيدهم فى جهادهم ، فليس لهم أن ييأسوا من النصر مهما أصابهم من نكسات .

تعزية المسلمين

وضرب الله للمسلمين مثلاً من الأيام الخوالى يبين لهم أن الحياة قائمة منذ أقدم العصور على الإعطاء والمنع والأخذ والرد والجزر والمد ، ولابد من دحر الكفار فى النهاية ، فلا ينبغى للمسلمين أن يصابوا بالإحباط لأن

---

(٨٢) آل عمران ١٢٣ : ١٢٥

عدوهم كسب جولة ضدهم ، ولئن كان الكفار أصابوا منهم فهم قد أصابوا منهم أيضاً قال عز وجل :

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ (٨٣)

عتاب المنهزمين

لقد جعل الله طريق الجنة الجهاد . . . إنه الامتحان الذى يمتحن الله به المؤمنين ، وطالما أراد بعض المسلمين الدخول فى هذه التجربة ليثبتوا نجاحهم فيها . وقد نجح فيها كثير منهم ، ولكن بعضهم انهزم وفر . .

ولذلك قال الله ـ تعالى : لهؤلاء وهؤلاء :

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ (٨٤)

---

(٨٣) آل عمران ١٣٧ : ١٤١

(٨٤) آل عمران ١٤٢ : ١٤٣

قال القرطبى حول هاتين الآيتين : إن كثيراً ممن لم يحضروا بدراً كانوا يتمنون يوماً يكون فيه قتال ، فلما كان يوم أحد انهزموا ، وكان منهم من تجلد حتى قتل ، ومن هؤلاء أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، فانه لما انكشف المسلمون قال :

اللهم إنى أبرأ اليك مما جاء به هؤلاء الكفار ، وباشر القتال وقال : الله الله إنها ريح الجنة ، إنى لأجدها ، ومضى حتى استشهد .

قال أنس : فما عرفناه الا ببنانه ، ووجدنا فيه بضعا وثمانين جراحة ، وفيه وفى أمثاله نزل قوله ـ تعالى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٨٥)

فالآية تشريف لهؤلاء وعتاب فى حق من انهزم ، ولاسيما وقد كان منهم من حمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الخروج من المدينة(٨٦)

الإرجاف بموت النبى

وحين أشاع الكفار قتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال بعض الناس من المنافقين : قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم فإنما هم إخوانكم .

فرد عليهم آخرون : إن كان محمد قد أصيب ألا تمضون على مامضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به . فنزل قوله ـ تعالى :

---

(٨٥) الأحزاب ٢٣

(٨٦) تفسير القرطبى جـ ٤ صـ ٣٢٠ ط دار الكتب

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا
وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا
وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾
وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ
قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (٨٧)

لقد كانت هذه الآيات تبصرة للمؤمنين وتوبيخا للمنهزمين ، فما كان لهؤلاء الذين سرت إليهم هذه الشائعة أن تؤثر فيهم ، لأن النبوة لاتدرأ بالموت والاسلام خاتم الديانات .

وقد استشهد أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بهذه الآية عند وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واضطراب المؤمنين لوفاته ومنهم عمر ، حتى قال ـ رضى الله عنه : كأنى لم أسمع هذه الآية إلا الآن .

---

(٨٧) آل عمران ١٤٤ : ١٤٧

ومن حق المؤمنين أن يضطربوا لوقع هذا الخبر ، ولكن هذا التزلزل لاينبغى أن يثنيهم عن المضى على قدمه والسير على منهجه . .

لقد نزلت هذه الآيات فى أحد ، ولكن الحاجة إليها ظهرت بعد ، فكانت نبراسا للمؤمنين حين قبض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى خرج الناس يتلونها فى سكك المدينة كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم .

لقد تضمنت الآيات المنهج الذى ينبغى أن يسلكه الجنود عند غيبة قائدهم . وهو الثبات والصبر وعدم الفرار وتوطين النفوس على الموت والاكثار من الاستغفار ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رزقوا الشهادة .

تحذير من الكفار والمنافقين :

لقد حذر الله المؤمنين من الركون الى المنافقين والكفار قائلا لهم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (٨٨)

وطمأنهم على أن الكفار لن يستطيعوا أن ينالوا منهم شيئا طالما هم معتصمون بالله متوكلون عليه .

وأخبرهم بأن الله قد قذف الرعب فى قلوب الكفار فلن يقدروا عليهم ،

---

(٨٨) آل عمران ١٤٩ : ١٥١

وآية ذلك : أن أبا سفيان ومن معه من المشركين حين ارتحلوا من أحد ـ ندموا وهم فى الطريق ، فقالوا : بئس ماصنعنا ، قتلناهم حتى لم يبق منهم الا الشريد تركناهم ، ارجعوا فاستأصلوهم .

فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به . وفى ذلك قال الله ـ تعالى :

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ

 ﴾

من أين جاءت الهزيمة :

وطمأن الله المؤمنين أنهم قد أبلوا بلاء حسنا على الرغم من هذه النتيجة التى تبدو أنها ليست فى صالحهم ، فإن بعضهم قد أخذ يقول لبعض بعد رجوعهم الى المدينة : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟ فنزل قوله ـ تعالى :

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ

﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٨٩)

لقد كان النصر حليف المسلمين فى الوقت الذى التزموا فيه بأوامر النبى - صلى الله عليه وسلم - فلما شغلهم زخرف الدنيا أصابهم ماأصابهم .

لقد كانت الملائكة تقاتل دفاعا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى لايخلص إليه العدو .

روى البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : رأيت عن يمين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشد القتال(٩٠)

وقال عروة بن الزبير : لقد وعد الله المؤمنين على الصبر والتقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، فلما عصوا أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفكروا فى الدنيا وترك الرماة عهد الرسول ألا يبرحوا من منازلهم وأرادوا الدنيا رفع الله عنهم مدد الملائكة .. ثم نزل قوله تعالى :

« ولقد صدقكم الله وعده .. »

لقد نصر الله نبيه فى أحد .. قال ابن عباس : مانُصِرَ النبى - صلى الله عليه وسلم - فى موطن كما نُصِرَ فى أحد .

---

(٨٩) آل عمران ١٥٢

(٩٠) تفسير القرطبى جـ ٤ صـ ٢

وأنكر ذلك عليه قوم . فقال : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله ـ عز وجل ـ إن الله ـ عز وجل ـ يقول فى يوم أحد :

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » .

لقد أشارت الآية الى أن الالتزام بخطة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فيها النجاة والعصمة . ولكن الخروج عليها هو الذى جعل المسلمين يصيبهم ماأصابهم .

تصوير حالهم عند الهزيمة :

لقد أخذ المنهزمون يصعدون فى جبل أحد فرارا . وثبت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقليل معه ، وأخذ النبى يدعوهم قائلا : أى عباد الله ارجعوا . وأصابهم الغم بما سمعوا من إشاعة قتل النبى ، أو بما شاع من هزيمتهم أمام العدو .

ولكن الله أرسل عليهم النوم ليأمنوا . ويستريحوا . . . . وظهرت دخيلة المنافقين يومئذ على ألسنتهم قال الزبير : رضى الله عنه : أرسل الله علينا النوم ذلك اليوم وانى لأسمع معتب بن قشير والنعاس يغشانى وهو يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا هاهنا . .

ولقد أنزل الله فى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا

تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ
فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا
هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (٩١)

فضيحة المنافقين :

ولقد نزلت آيات تفضح المنافقين وتكشف نواياهم من ذلك قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ
ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾
وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا

---

(٩١) آل عمران ١٥٣ ، ١٥٤

﴿ يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٩٢)

وأشار القرآن إلى هذا المعنى فى موضع آخر حيث يقول :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (٩٣)

لقد قال عبد الله بن أبي بعد أن انخذل بأصحابه : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، كما قال عن الذين استشهدوا من المسلمين : لو أطاعونا ماقتلوا . .

قال أبو الليث السمرقندى : سمعت بعض المفسرين يقول : لما نزلت الآية

« قل فادرءوا عن أنفسكم الموت »

مات يومئذ كثير من المنافقين(٩٤)

---

(٩٢) آل عمران ١٥٦ ، ١٥٨

(٩٣) آل عمران ١٦٦ ، ١٦٨

(٩٤) تفسير القرطبي جـ ٤ صـ ٢٦٧

ثناء على الرسول :

وأثنى الله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووصفه بمكارم الأخلاق . وذكر ماتصف به من خلق الرحمة السابغة التى جمعت القلوب حوله ، ودعاه الى مشاورة أصحابه فى مهام الأمور التى تحتاج الى المشاورة ، والتى لم ينزل فيها قرآن . . قال ـ تعالى ـ :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ (٩٥)

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يخرج لأحد إلا بعد أن شاور أصحابه ونزل على رأى الأغلبية منهم .

ثم ذكر الله أن النصر بيده يعطيه من يشاء من عباده . قال تعالى :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾ (٩٧)

تحية للشهداء

وأثنى الحق سبحانه وتعالى على الشهداء ثناء مستطابا فأنزل فى شأنهم قوله تعالى :

---

(٩٥) آل عمران ١٥٩

(٩٦) آل عمران ١٦٠

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (٩٧)

قال العلماء : نزلت هذه الآيات فى حق شهداء أحد . . . ففى مصنف أبي داود باسناد صحيح عن ابن عباس قال ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ـ فقال الحق ـ سبحانه وتعالى : أنا أبلغهم عنكم ، فنزل قوله تعالى :

« ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا »

إلى آخر الآيات . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ـ قال : لقينى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ياجابر ، مالى أراك منكسا مهتما ؟

قلت : يارسول الله ، استشهد أبي وترك عيالا وعليه دين .

فقال : ألا أبشرك بما يلقى الشهداء ؟

قلت : بلى يارسول الله .

---

(٩٧) ال عمران ١٦٩ : ١٧١

قال : إن الله سبحانه وتعالى يقول لهم : تمنوا علىَّ .

فيقولون : يارب نتمنى أن نرد إلى الدنيا لنقاتل فى سبيلك ، ونقتل مرة ثانية . . وذلك لما رأوا من ثواب المجاهدين . .

فقال تبارك وتعالى : -

« إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون .

قالوا : يارب فأبلغ من وراءنا

فأنزل الله عز وجل . . « ولا تحسبن . . . الخ

دروس من أحد

لقد درس القادة العسكريون ومازالوا يدرسون غزوة أحد ، ويستخلصون منها كثيراً من العبر والعظات .

فهل كانت معركة أحد هزيمة أو نصرا ؟

على الرغم من كثرة عدد قتلى المسلمين الذين بلغوا واحدا وسبعين قتيلا ، عن عدد قتلى المشركين الذين بلغوا اثنين وعشرين قتيلا ، فان ذلك لا يعنى انتصار قريش على المسلمين .

لأن نتيجة المعركة لا تقاس فى الناحية العسكرية بعدد الخسائر فى الأرواح بل تقاس بتحقيق الهدف من القتال ، وقد كان هدف المشركين القضاء على الاسلام ، وهو مايعنى القضاء المبرم على المسلمين ماديا ومعنويا . . . فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين ماديا ومعنويا ؟

الاجابة قطعا بالنفى .

« إن حركة خالد بن الوليد كانت مباغتة للمسلمين بغير شك ، وقيام المشركين بالهجوم وإطباقهم على قوات المسلمين من كافة الجوانب ، وهم متفوقون فى العدد والعدة بمقدار خمسة أمثال المسلمين - كل ذلك كان يلزم أن تكون نتائجه القضاء المبرم على كافة قوات المسلمين ، ولا يمكن أن يعد التفاف قوة متفوقة تفوقا ساحقا على قوة صغيرة أخرى من جميع جوانبها ، ثم نجاة تلك القوة الصغيرة بعد خسائر لا تزيد على عشرة فى المائة فقط - لا يمكن أن يعد ذلك إلا انتصارا لتلك القوة الصغيرة .

ولا يمكن اعتبار فشل القوة الكبيرة فى القضاء على القوة الصغيرة ماديا ومعنويا فى مثل هذا الموقف الحرج للغاية إلا هزيمة لها . .

ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضا ، وإلا لما استطاع المسلمون الخروج لمطاردة قريش بعد يوم واحد فقط من يوم « أحد » دون أن تتجرأ قريش على لقاء المسلمين بعيدا عن المدينة ، خصوصا وأن الرسول - ﷺ - خرج للقاء قريش بقوته التى اشتركت فعلا فى معركة أحد ، دون أن يستعين بغيرهم من الناس .

إن نجاة المسلمين من موقفهم الصعب الذى كانوا فيه فى أحد - نصر عظيم لهم ، لأن إطباق المشركين عليهم من كافة الجهات كان يتوقع منه الفناء التام لهم .

فاذا خرجوا من ذلك بأقل خسائر ممكنة فإن ذلك يعد نصرا لهم .

ثم إن معركة أحد أتاحت للمسلمين معرفة المنافقين الذين كانوا بين

صفوفهم بصورة لا تقبل الشك أو المهارة ، وهذا مكسب عظيم أيضا لا يقدر بثمن ، ولا تعد خسائرهم فى الأرواح إلى جانبه شيئاً يذكر »[٩٨]

ولكن على الرغم من كل ذلك ، فقد حزن المسلمون لتلك الخسارة .

هذا ويمكن إرجاع خسائر المسلمين إلى الأسباب الآتية .

● عدم مطاردة المسلمين لأعدائهم فى الجولة الأولى بعد أن انهزم المشركون بعيداً عن معسكرهم .

● انشغال المسلمين بالغنائم بدلا من تطهير الموقع كما يجب .

● ترك الرماة أماكنهم مع تأكيد النبى - ﷺ - عليهم بعدم مغادرة أماكنهم وبذلك خالفوا أوامر النبى - ﷺ - الصريحة الواضحة فى ذلك .

● المباغتة التى قام بها العدو فى هجومه المضاد .

الدروس المستفادة :

وعلى كل فإن أُحُداً غاصة بالدروس المفيدة التى أفادت المسلمين بعد ذلك فى معاركهم من ذلك :

● تمكن المسلمون من معرفة القوة الحقيقية لقريش وطريقة حروبهم وتحركاتهم واستعداداتهم .

● كانت قيادة الرسول - ﷺ - حكيمة واضحة ، فقد أحسن اختيار المكان ، وأعطى تعليمات واضحة صريحة للرماة وأماكنهم ، ووزع القيادة بين أصحابه توزيعا منظما .

---

(٩٨) الرسول القائد صـ ١٧٥

واستطاعت هذه القيادة أن تسترد زمام الموقف بعد الارتباك الشديد الذى حصل بسبب إهمال الأوامر من جانب الرماة للاشتراك فى جمع الغنائم بعد أن انكشف المشركون وولوا الأدبار .

● لقد فتحت هذه الغزوة عيون المسلمين على خطورة تخطى أوامر الرسول - ﷺ - وأظهرت لهم مدى الحكمة التى يمكن اجتناؤها من إطاعة هذه الأوامر .

ولذلك حرص جميعهم على الاستجابة له حين دعاهم إلى تتبع آثار المشركين فى حمراء الأسد على الرغم مما هم فيه من ظروف قاسية وجروح شديدة ، كانت هذه الاستجابة جديرة بثناء الله عليهم حين قال فى حقهم :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (٩٩)

---

(٩٩) آل عمران ١٧٢

غزوة ذات الرقاع

وتسمى غــزوة الــرقـاع

- سـبب الغــزوة
- لمـا ذا سميت غـزوة العجائب
- صـلاة الخـوف
- غـزوة بـدر الصغـرى
- النـبى يقضى على الظـلم
- غـزوة دومـة الجـندل
- غـزوة بـنى المصطلق
- تقسـيم الغنـائم
- رؤيا جويـرية بنت الحارث
- إسـلام الحـارث



غزوة العجائب

غزوة ذات الرقاع

بين يدى هذه الغزوة

جاء فى دلائل النبوة أن النبى - ﷺ - غزا بنى لحيان قبل قيامه بغزوة ذات الرقاع .

وساق البيهقى فى ذلك خبرا قال فيه :

عن محمد بن إسحاق قال : حدثنا عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيره قالوا : لما أصيب خُبَيب وأصحابه وهم أصحاب الرجيع الذين سبق ذكرهم - خرج رسول الله - ﷺ - طلبا بدمائهم ، وليثأر من بنى لحيان ، فسلك طريق الشام وورّى على الناس حتى لايعرف أحد أنه يريد بنى لحيان ، حتى نزل أرض بنى لحيان من هذيل .

فوجدهم قد حُذِّرُوا ، فتمنعوا فى رءوس الجبال .

فخرج رسول الله - ﷺ - فى مائتى راكب حتى نزل عُسْفان . . وكانت قريش قد عرفت ذلك فخرج بعض جنودهم . . . . وذكر أبو عياش الزُّرْقى أن رسول الله - ﷺ صلى بعسفان صلاة الخوف .

قال أبو عياش الزرقى : كنا مع رسول الله - ﷺ - بعُسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد ، فصلينا الظهر .

فقال المشركون : لقد كانوا على حال لو أردنا لأصبنا منهم غِرة .

وقد شرعت صلاة الخوف حينئذ ، وكنا بين الظهر والعصر . فلما

حضرت صلاة العصر وأخذ الناس السلاح وصفُّوا خلف رسول الله - ﷺ - صفين يستقبلون القبلة ، والمشركون مستقبلوهم ، فكبر رسول الله - ﷺ - وكبروا جميعا ثم ركع رسول الله ، وركعوا جميعا ، ثم رفع رأسه ورفعوا جميعاً ، ثم سجد وسجد الصف الذى يليه ، وقام الآخرون يحرسونهم .

فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء ثم نكص الصف الذى يليه وتقدم الآخرون ، فقاموا فى مقامهم ، فركع رسول الله - ﷺ - وركعوا جميعاً ، ثم رفع رأسه ورفعوا جميعاً ، ثم سجد وسجد الصف الذى يليه ، وقام الآخرون يحرسونهم ، فلما فرغ هؤلاء من سجودهم سجد هؤلاء الآخرون ، ثم استووا معه قعوداً جميعاً ، ثم سلم وسلموا جميعاً . فصلاها بعسفان ، وصلاها يوم بنى سليم(١٠٠)

لقد ذكر البيهقى كما رأينا من هذا الخبر أن غزوة بنى لحيان كانت قبل غزوة ذات الرقاع .

الهدف من هذه التحركات

كان لابد للمسلمين بعد غزوة أحد من أن يقوموا بعملية تطهير عام فى المدينة وخارجها حتى يستعيدوا هيبتهم وسمعتهم . .

لقد أصبحت المدينة فى عهدهم حرما آمنا ، وقاعدة قوية لنشر الاسلام ، وذاع لها صيت فى أنحاء الجزيرة العربية يشيد بما أصبحت عليه بعد أن

---

(١٠٠) دلائل النبوة للبيهقى جـ٣ صـ ٣٦٤

استقر فيها النبى - ﷺ - وصحبه من المهاجرين الذين آخاهم الانصار ، وكونوا معاً مجتمعا مثالياً تظلله المحبة والأخوة والصفاء والايثار .

ولكن غزوة أحد ومماانتهت إليه سببت بعض المشاكل الداخلية والخارجية .

وجاءت المشاكل الداخلية من قبل طائفتين تكنان للمسلمين العداء ، وإن كانتا تظهران الود والصفاء . وهما اليهود والمنافقون .

لقد انكشفت طوايا الفئتين تماماً بعد غزوة أحد ، بل وقبلها ، حين انسحب عبد الله بن أبىّ بصحبه من الميدان قبل أن تنشب المعركة .

وبدت حقيقة هؤلاء وهؤلاء واضحة بما أظهروه من شماتة بما أصاب المسلمين فى إخوانهم الذين استشهدوا فى سبيل الله . . .

وقد استطاع النبى - ﷺ - أن يتغلب على الفتنة الداخلية ، وذلك بقيامه بغزو بنى النضير ، كما ذكرنا من قبل .

أما المشاكل الخارجية فقد فجرتها قريش التى أخذت تباهى بأنها انتصرت ، وإن كانت فى الواقع لم تحقق نصراً يمكن أن تباهى به . .

لقد قامت بحملة إعلامية بين القبائل المحيطة ترفع بها من شأنها وتحط بها من قدر الاسلام والمسلمين .

وأعان فى تفجير هذه المشاكل الخارجية أيضاً بعض القبائل البدوية التى لاوازع لها من دين أو ضمير ومن عادة هؤلاء أنهم ينحازون لمن يظنون به

القوة مهما اشتد ظلمه ، ثم يبطشون بالضعفاء بطشاً لا هوادة فيه ولا رحمة . وهو لون من الجبن أو النفاق ، وهو سلوك مشين على أى حال لأنه يصم صاحبه بالخزى والمهانة .

لقد طمعت بعض القبائل البدوية فى الاستيلاء على المدينة ، كما طمع اليهود فى المسلمين ظنا من هؤلاء وهؤلاء أن المسلمين بعد أحد أصبحوا فى حالة من الضعف لا يستطيعون الدفع عن أنفسهم .

لذلك كان من الضرورى أن يقوم المسلمون ببعض الحملات فى صورة سرايا أو غزوات ، لتطهير المدينة وما جاورها من نزعات التطلع والاعتداء . ومن هذه الحملات . .



سرية أبى سلمة

قلد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى قيادة سرية وأمره بالتوجه إلى بنى أسد بن خزيمة بناحية « قطن » وهو جبل به ماء لبنى أسد .

كان ذلك فى هلال المحرم بعد شهرين من غزوة أحد ،

كان الهدف من ذلك منع بنى أسد من الهجوم على المدينة . . . . فقد بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن طليحة وسلمة ابنى خويلد الأسدى قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما يدعونهم إلى حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فدعا النبى - صلى الله عليه وسلم - أبا سلمة وأمَّره على مائة وخمسين رجلا من الأنصار والمهاجرين ، منهم الراكب والراجل . . وقال له :

« سر حتى تنزل أرض بنى أسد فأغر عليهم قبل أن تجتمع عليك جموعهم » وأمرهم بالسير ليلا والاستخفاء نهارا ، وسلوك طريق غير مألوف ، حتى لايكشف أحد وجهتهم أو يعرف أخبارهم .

فخرج أبو سلمة واشتد فى السير ، ونكب عن سنن الطريق ، وسبق الأخبار واستطاع أن يصل إلى أدنى « قطن » دون أن يفطن أحد لحركته وأحاط بالعدو فجرا ، فلم يستطيعوا أن يثبتوا له وولوا الأدبار ، وأغار على سرح لهم فضمه .

ثم قسم أصحابه أقساما ثلاثة : أبقى معه قسما ، وأرسل قسمين كلًّا منهما فى جهة لطلب العدو فعادت كل منهما بغنائم ، ورجع أبو سلمة بقوته كاملة الى المدينة(١٠١)

وكان أبو سلمة - رضى الله عنه - قد جرح بأحد جُرْحا بالغاً ولكنه اندمل ، ثم انفجر هذا الجرح بعد هذه السرية بشهور فمات منه فى جمادى الأولى(١٠٢)

---

(١٠١) الطبقات الكبرى جـ٢ قسم ١ صـ٣٥

(١٠٢) أسد الغابة جـ٦ صـ١٥٣

وهو زوج أم سلمة التى أصبحت زوجا للنبى - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك .

سرية عبد الله بن أنيس

كان هدف هذه السرية استطلاعى . فقد علم النبى - صلى الله عليه وسلم - أن سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى ، يقوم بحشد قوة كبيرة من الأعراب فى عُرَنة - وهى واد بحذاء عرفات -

فندب النبى - صلى الله عليه وسلم - عبد الله بن أنيس ليقتله - فسار إليه وحده .

فقال عبد الله بن أنيس : صفه لى يا رسول الله .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : إذا رأيته هِبْتَه وفرقت منه وذكرت الشيطان

قال عبد الله : وكنت لا أهاب الرجال . واستأذنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن أقول - أى أخادع فى قولى مع العدو - فأذن لى .

قال : فأخذت سيفى ، وخرجت أعتزى - أنتسب - إلى خزاعة . حتى إذا كنت ببطن عرنة لقيته يمشى ووراءه الأحابيش ومن ضوى - انضم - إليه .

فعرفته بنعت النبى - صلى الله عليه وسلم - وهبته ، فرأيتنى أقطر - أعرق - فقلت : صدق الله ورسوله .

فقال سفيان : من الرجل ؟

قال عبد الله فقلت : رجل من خزاعة ، سمعت بجمعك لمحمد فجئتك لأكون معك .
قال : أجل ، إنى لأجمع له .

قال عبد الله : فمشيت معه وحدثته ، وأحب حديثى ثم تحينت الفرصة ليلا حين ابتعد عن أصحابه وهدأ الناس ، وناموا . . ثم أصبت منه غرة فقتلته ، وأخذت رأسه ، ثم دخلت غارا فى الجبل ، وجاء الطلب ، فلم يهتدوا إلىَّ فانصرفوا راجعين .

قال : ثم خرجت فكنت أسير الليل وأتوارى فى النهار ، حتى قدمت المدينة ، فوجدت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المسجد .
فلما رآنى قال : أفلح الوجه .
قلت : أفلح وجهك يا رسول الله .
فوضعت رأس سفيان بين يديه ، وأخبرته خبرى .
فدفع إلى عصاً وقال : تخصَّرْ بهذه وسوف تكون معك فى الجنة .
فكانت هذه العصا عند عبد الله بن أنيس حتى حضرته الوفاة فأوصى أهله أن يدرجوها فى كفنه ففعلوا . .

وقد استغرقت رحلته ثمانى عشرة ليلة ، وعاد يوم السبت لسبع بقين من المحرم(١٠٣)

---

(١٠٣) الطبقات الكبرى جـ٢ قسم ١ صـ٣٦

لقد نجحت هذه السرية أيما نجاح ـ وأغنى فيها رجل واحد غناء جيش كامل . فقد استطاع عبد الله بن أنيس بقتله سفيان بن خالد أن يقضى على الفتنة ، فقد تفرقت هذه الجموع التى كانت قد احتشدت لغزو المسلمين بعد أن فقدت قائدها .

ثم بعد ذلك كانت غزوة ذات الرقاع التى نحن بصددها للثأر لمن استشهد فى بئر معونة

غزوة ذات الرقاع

قام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الغزوة للثأر لمن استشهد من المسلمين فى بئر معونة التى أشرنا إليها فيما سبق

وسميت هذه الغزوة بهذا الاسم لأسباب ..

منها أن ذات الرقاع شجرة فى الموضع الذى وقعت فيه هذه الغزوة ، كان الأعراب يعبدونها . ويعلقون فوقها رقاعا لهم إذا كانت لهم حاجة .

أو لأن المسلمين لفوا أقدامهم بالرقاع من التعب وكثرة السير .. أو لأن جبلا هناك له ألوان مختلفة تشبه الرقاع فى الثوب .

أو لأن رقاعا كانت بألوية المسلمين أو بخيولهم . وقد ذكر أن صلاة الخوف فرضت فيها .

متى حدثت ؟

اختلف الرواة فى وقتها . فعند ابن اسحاق أنها كانت بعد غزوة بنى النضير سنة أربع فى شهر ربيع الآخر ، وبعض جمادى الأولى .

وعند ابن سعد أنها كانت فى المحرم سنة خمس .

وعند بعضهم أنها كانت بعد بنى قريظة فى ذى العقدة سنة خمس وعند بعضهم أنها كانت بعد خيبر .

ورأى بعضهم أنهما غزوتان لا واحدة . .

سبب الغزوة

ذكر ابن سعد قال : قدم قادم المدينة بتجارة له ، فأخبر أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أنماراً وثعلبة من غطفان قد جمعوا لهم الجموع وعزموا على غزو المدينة .

فبلغ ذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعزم على غزوهم قبل أن يغزوه ، بالاضافة إلى سبب آخر هو الثأر لشهداء المسلمين فى بئر معونة . . وتهيأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك ، فاستخلف عثمان بن عفان على المدينة ، وخرج فى أربعمائة من أصحابه ، وقيل : سبعمائة .

ومضى فى طريقه اليهم حتى بلغ مكانهم ، فهرب الرجال إلى رءوس الجبال فغنم المسلمون أموالهم .

كان المكان الذى نزل به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اسمه « نخل » وهو منزل من منازل بنى ثعلبة على بعد مرحلتين من المدينة .

وعلى الرغم من ضخامة عدد هؤلاء الأعراب فإنهم لم يثبتوا وهربوا متفرقين . . ولم يلق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم كيدا . . فتأهب للعودة .

ولكنه كان فى عودته حذرا حتى لايقوم المشركون بهجوم مضاد ، ولذلك كانوا يتناوبون الحراسة ليلا ويحذرون العدو نهارا . وقد سميت هذه الغزوة بـ « غزوة العجائب » . . وسبب تسميتها بذلك هو ما حدث فيها من آيات عجيبة وخوارق غريبة .

ونحن نذكر ذلك كما أورده الرواة فنقول :

● نزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه ليلا ـ فى شعب ، وكانت الليلة ذات ريح ، فقال : من رجل يكلؤنا هذه الليلة ؟ أى يقوم على حراستنا . .

فقام عباد بن بشر وعمار بن ياسر ـ رضى الله عنهما ـ فقالا : نحن يا رسول الله نكلؤكم .

فجلسنا على فم الشعب .

فقال عباد بن بشر لعمار بن ياسر : أنا أكفيك أول الليل وتكفينى آخره .

فنام عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ ، وقام عباد ـ رضى الله عنه ـ يصلى .

وكان رجل من هؤلاء القوم الذين خرج المسلمون لحربهم ـ غائبا عن ديار القوم ، فلما جاء عرف أن المسلمين قد غنموا أموالهم ، فتبع الجيش ، وحلف لاينثنى حتى يصيب محمدا أو يهريق فى أصحاب محمد دماً .

فلما رأى عباد قائماً يصلى قال : هذا ربيئة القوم ، فوجه إليه سهما فأصابه إصابة خفيفة .

فانتزعه عباد ومضى فى صلاته .

فرماه بآخر ، فانتزعه عباد ، ومضى فى صلاته .

فرماه بثالث فانتزعه ، ولكن الدم كان قد نزل منه ، فنادى عمارا فأيقظه قائلا له :

قم مكانى فقد جرحت .

فلما رأى الرجل عمارا علم بأنه قد انكشف أمره وعرف مكانه فهرب

قال عمار لعباد : أى أخى ، ما منعك أن توقظنى حين رميت من أول سهم ؟

قال عباد : كنت أقرأ فى سورة الكهف فكرهت أن أقطعها ، ولولا أنى خشيت أن أضيع نفرا أمرنى رسول الله - ﷺ - بحفظهم ، ما انصرفت . .

وبالتأمل فى هذه الحادثة يتجلى لنا الايمان الكامل والعقيدة الراسخة والتفهم اليقظ من أصحاب رسول الله - ﷺ - لطبيعة المهمة التى يقوم بها المجاهد فى سبيل الله .

« لم يكن الجهاد عملا حركيا يقوم على أساس المقاومة المادية المجردة ، ولم يتصور واحد من أولئك المسلمين الأوائل هذه الصورة له لو فى لحظة واحدة .

وإنما الجهاد - كما عَلَّمه الرسول - ﷺ - أصحابه ، وكما فهمه الصحابة منه - عبادة كبرى يتعلق فيها كيان المسلم كله بخالقه ، جل جلاله - خاشعا مستغيثا متبتلا ، وليس من ساعة يكون فيها المؤمن أقرب إلى ربه ، جل

وعلا ـ من تلك الساعة التي يستدبر فيها الدنيا ويستقبل بوجهه شطر الموت والاستشهاد .

« ولذلك ، كان من الطبيعي جدا بالنسبة لذلك الأنصاري ـ عباد بن بشر ـ رضي الله عنه ـ أن يشغل شطر حراسته من الليل بركعات خاشعة يقف فيها بين يدى ربه ـ جل جلاله ـ وقد انصرفت مشاعره كلها الى مناجاة ربه بآيات من كتابه الكريم .

وكان من الطبيعي أن لا يبالى بذلك السهم الذى وجه إليه ، ولا بالسهم الثانى الذى تبعه لأن مشاعره فى تلك الساعة كانت منصرفة إلى ربه ـ عز وجل ـ وقد غمرتها لذة العبادة والطاعة لخالقه .

فلما أصيب بالسهم الثالث ونزل منه الدم ، لم يكن همه ما أصابه ، وإنما كان همه هو المسئولية المنوطة به ، مخافة أن يضيعها بضياع حياته واستمرار سكوته ، فكان ذلك هو الذى اضطره إلى أن يلتفت فيوقظ صاحبه ، ليستلم منه أمانة الثغر الذى أنيط به مع صاحبه حفظه . وعلينا أن نتأمل فى قوله : وأيم الله لولا خوف أن أضيع ثغرا أمرنى رسول الله ـ ﷺ ـ بحفظه ، ما انصرفت ولو أتى على نفسى ـ أى ما انصرفت عن الصلاة ـ

أى لذة تلك التى يشعر بها المؤمن الصادق فى الصلاة ؟ إنها لذة عميقة يهون لديها الموت ، وهى لذة مُعِينَةٌ على أداء الواجب لا صارفة عنه وكيف لا يكون للصلاة هذا الأثر وقد أمر الله بالاستعانة بها فى تذليل

المشاق وتهوين العقبات فقال :

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١٠٤)

وقال ـ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١٠٥)

« تلك هى طبيعة الجهاد الذى تكفل الله لأربابه بالنصر والفوز مهما كانت القوى المتألبة عليهم المتجمعة من حولهم .

فلنقارن ـ ليتقطع منا الكبد حسرة وأسى ـ بين ذلك الجهاد والجهاد الذى ندعيه الآن .

نقارن لنقف على مدى عدالة الله فى الأرض ، ولنعلم أن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون »(١٠٦)

نقارن لعلنا نأخذ من سيرة هذا الأنصارى المجاهد وغيره من أبطال المسلمين عبرة تذكرنا بما يجب علينا نحو ديننا ومجتمعنا وأوطاننا الاسلامية المغلوبة على أمرها

---

(١٠٤) البقرة ٤٥
(١٠٥) البقرة ١٥٣
(١٠٦) فقه السيرة د : رمضان البوطى صـ ٢١٣

عجيبة أخرى

هذه إحدى عجائب هذه الغزوة وان كانت عجيبة بالنسبة لعصرنا لا بالنسبة لذلك العصر المثالى الأول . وإليك عجيبة أخرى يقصها الرواة :

جاء رجل من هؤلاء القوم المناوئين للاسلام إلى النبى - ﷺ - اسمه غورث - أو غويرث - بن الحارث . .

وكان غورث هذا قد قال لقومه : ألا أقتل لكم محمدا ؟

قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟

قال : ألتمس منه غفلة وأفتك به .

ثم انطلق هذا الرجل حتى جاء إلى النبى - ﷺ - فى هيئة مسالمة ، وسيف النبى - ﷺ - أمامه

ثم قال : يامحمد أرنى أنظر إلى سيفك هذا .

فأخذه من حجر رسول الله فاستله ، وجعل يهزه فى يده ، والنبى - ﷺ - ثابت لا يتحرك .

ثم قال غورث : يامحمد ، أما تخافنى ؟

قال النبى - ﷺ - : لا - يمنعنى الله - تعالى - منك .

فلم يستطع الرجل أن يفعل شيئا ودفع السيف إلى النبى - ﷺ - لقد حاول الرجل الاعتداء على النبى ، ولكنه وجد هناك قوة خفية تحول بينه وبين ذلك .

وحين أخذ النبى - ﷺ - السيف قال لغورث : من يمنعك منى ؟ قال الرجل : كن خير آخذ .

فعفا عنه النبى - ﷺ - فانطلق الرجل الى قومه يقول : جئتكم من عند خيرالناس . ويقال : إن هذا الرجل أسلم بعد ذلك .

لقد قال الله فى حق نبيه - ﷺ - : « والله يعصمك من الناس » ومفهوم ذلك أنه يعصمه من القتل . لا من الإصابة بالجراح أو مثل ذلك - لأنه - ﷺ - قد تعرض فى أحد - لاعتداءات المشركين ، وقد جرح وسال دمه وأصيبت ثنيتاه . .

لقد قال العلماء : « لا يخفى أن أجر كل نبى فى التبليغ يكون على قدر مايناله من المشقة الحاصلة له من المعادين له ، وعلى قدر ما يقاسيه منهم وله أجر الهداية لمن أطاعه ، ولا أحد أكثر أجرا من نبينا - ﷺ - فإنه لم يتفق لنبى من الأنبياء ما اتفق له فى كثرة من أطاعوه ، وشدة من عصوه ، ورفضوا دعوته »(١٠٧)

وفى غزوة « ذى أمر » حاول رجل الغدر بالنبى - ﷺ - فعصمه الله من ذلك - وكانت غزوة « ذى أمر » فى ربيع الأول من السنة الثالثة .

وذو أمر - بتشديد الراء - اسم ماء لغطفان - وكان رجل اسمه دعثور بن الحارث الغطفانى من بنى محارب جمع جموعا من ثعلبة ومحارب بذى أمر ، بهدف الإغارة على المدينة .

---

(١٠٧) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٥١٥

وبلغ ذلك النبى - ﷺ - فخرج فى أربعمائه وخمسين رجلا بعد أن استخلف على المدينة عثمان بن عفان

وفى الطريق إلى الهدف اعتقل أصحاب النبى - ﷺ - رجلا يقال له جبار من بنى ثعلبة ، فأدخلوه على رسول الله - ﷺ - فأخبره من خبر القوم ، وقال له : لن يلاقوك ، ولو سمعوا بمسيرك إليهم فسوف يهربون إلى رءوس الجبال وأنا سائر معك .

فدعاه رسول الله - ﷺ - إلى الاسلام فأسلم ، وضمه إلى بلال ، وأخذ هذا الرجل طريقا وهبط به عليهم .

فلما سمع القوم بمسير رسول الله - ﷺ - هربوا إلى رءوس الجبال ، حتى بلغوا ماء ذى أمر ، وعسكر المسلمون أيضا بالقرب منهم . . وكان المطر قد هطل بشدة حتى بل الثياب ، فنزع النبى - ﷺ - ثوبه ونشره على شجرة ليجف ، واضطجع بمرأى من المشركين الذين كانوا يرقبونه من بعيد ، وانشغل المسلمون ببعض أمورهم .

وهنا قال المشركون لدعثور زعيمهم وأشجعهم : قد انفرد محمد عن أصحابه ، فعليك به .

فقال : قتلنى الله إن لم أقتله .

وجاء دعثور ومعه سيفه وقام على رأس رسول الله - ﷺ - ونادى قائلا : يامحمد ، من يمنعك منى اليوم ؟

فقال النبى - ﷺ - : الله .

فاضطرب دعثور ، ووقع السيف من يده فأخذ النبى - ﷺ - السيف وقال له : من يمنعك منى ؟

قال دعثور : لا أحد ، أشهد أن لا إله الا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

ثم أتى قومه ، بعد أن أعطاه النبى - ﷺ - سيفه ، فجعل يدعوهم إلى الاسلام .

وأخبرهم أنه رأى رجلا طويلا دفع فى صدره فوقع على ظهره . فعلم أن هذا الرجل نبى معصوم ، فأسلم . . . وقد ذكر بعض العلماء أن قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (١٠٨)

قد نزلت فى تلك المناسبة ، ولكن البعض يذكر أن هذه الآية نزلت فى موقعة بنى النضير حين هم اليهودى بإلقاء الصخرة من فوق الجدار على النبى - ﷺ - وقد أسلم دعثور وحسن إسلامه (١٠٩)

ولم يعاقب النبى - ﷺ - غورث الذى حاول قتله مع أنه لم يبادر إلى الإسلام ، وذلك حرصا على تأليف قلوب الكفار ليدخلوا الإسلام .

---

(١٠٨) المائدة ١١

(١٠٩) أسد الغابة جـ٢ صـ١٦٠

وأرسل النبى - ﷺ - بشيرا إلى أهل المدينة يبشرهم بسلامة المسلمين ، وكان البشير هو جعال بن سراقة .. وكانت الغيبة فى هذه الغزوة خمس عشرة ليلة ..

عجيبة أخرى

وإذا كانت حكاية غورث تدل على حفظ الله نبيه من الأعداء وعصمته من الاعتداء . مصداقا لقوله تعالى

« والله يعصمك من الناس »

فإن هناك خوارق أخرى ظهرت فى هذه الغزوة أيضا .

فقد جاءت امرأة بدوية بابن لها فقالت : يارسول الله هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان . فلمس النبى - ﷺ - صدر الصبى ودعا الله فشفى الولد ، وقال النبى - ﷺ - للمرأة : شأنك بابنك ، لن يعود إليه شىء مما كان يصيبه - فكان كذلك .

والاصابة بمس الجن أمر معلوم مشاهد ملموس . وله شاهد فى القرآن الكريم فى قوله - تعالى

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ (١١٠)

فلولا أن المشبه به معروف عند العرب لما مثل الله به حالة أكلة الربا حين يقومون من قبورهم يوم القيامة .

---

(١١٠) البقرة ٢٧٥

وقد عقب القرطبى على هذه الآية بقوله : فى هذه الآية دليل على فساد رأى من أنكر الصرع من جهة الجن ، وزعم أنه من فعل الطبائع ، وأن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ولا يكون منه مس ، وقد روى النسائى عن أبى اليسر قال : كان النبى - ﷺ - يدعو فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من التردى والهدم والغرق والحريق وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان وأعوذ بك أن أموت مدبرا وأعوذ بك أن أموت لدنيا » .

وعن أنس أن النبى - ﷺ - كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الجنون والجذام والبرص وسيىء الأسقام » .

والمس المذكور فى الآية هو الجنون ، يقال : مُسَّ الرجلُ وأُلِسَ فهو ممسوس ومألوس[111] .

واذا أصاب الشيطان إنسانا فهو يحتاج إلى روح قوية تطرد هذه الروح الشريرة ، وليس هناك أقوى من روح النبى - ﷺ - الذى كان يشفى المصروع بمسه أو الدعاء له ، أو النظر إليه ..

وقد وردت قصص كثيرة فى ذلك :

فقد روى أن زارع بن عامر وفد على النبى - ﷺ - ومعه ابن له مجنون أو ابن أخت له ، فلما قدموا على رسول الله - ﷺ - قال : يارسول الله إن معى ابنا أو ابن أخت لى أتيتك لتدعو الله له ، فقال : ائتنى به ، فأتاه فدعا له فبرأ ، فلم يكن فى الوفد من يفضل عليه[112] .

(111) تفسير القرطبى جـ٣ صـ٣٥٥ ط دار الكتب

١١٢ أسد الغابة جـ٢ صـ٢٤٥ ، جـ٥ صـ١٨٧

ومن عجائب هذه الغزوةأيضاً مايحكيه الرواة من أن بعض الجنود قد اشتد عليهم الجوع ، فعثر بعض الصحابة على ثلاث بيضات من بيض النعام ، فأتى بها النبى - ﷺ - فقال لجابر : دونك ياجابر فاعمل هذه البيضات .

قال جابر : فعملتهن ، ثم جئت بهن فى قصعة ، فجعلنا نطلب خبزاً فلم نجد فجعل - ﷺ - وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز حتى انتهى كل إلى حاجته - من الشبع[١١٣] .

إنها بركة الرسول - ﷺ - وهى إحدى معجزاته التى أثرت عنه وشوهدت فى كل مكان . وحدث عنها الرواة أحاديث كثيرة .

ذكر القاضى عياض فى كتابه « الشفا » قال : عن جابر - رضى الله عنه - أن رجلا أتى النبى - ﷺ يستطعمه فأطعمه شطر وشق من شعير فمازال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى شبعوا[١١٤] .

وروى أبو هريرة قال : أصاب الناس مخمصة فقال لى رسول الله - ﷺ - : هل من شىء ؟

قلت : نعم ، شىء من التمر فى المزود .

قال : فائتنى به .

فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها ، ودعا بالبركة ، ثم قال : ادع

---

(١١٣) السيرة الحلبية حـ٢ صـ٥٧٧

(١١٤) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى حـ١ صـ١٩٠

عشرة ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم عشرة كذلك ، حتى أطعم الجميع وشبعوا .

عجيبة أخرى

ومن العجائب التى حدثت فى هذه الغزوة أيضا أن جملا جاء يرقل حتى وقف عند النبى - ﷺ - وجعل يرغى .

فقال رسول الله - ﷺ - : أتدرون ماقال هذا الجمل ؟

قالوا : لا . .

قال : هذا جمل يستعيذ بى على سيده ، يزعم أنه كان يحرث عليه سنين ، وأنه أراد أن ينحره .

اذهب ياجابر إلى صاحبه فأت به .

قال جابر : لا أعرف صاحبه .

قال النبى - ﷺ - : إنه سيدلك عليه .

قال جابر : فخرج الجمل بين يدى حتى وقف بى على صاحبه ، فجئته به . . فكلمه - ﷺ - فى شأن الجمل(١١٥)

وذكر القاضى عياض فى كتابه الشفا خبرا شبيها بذلك فقال : كان جمل فى حائط لا يدخل عليه أحد إلا شد عليه . فدخل النبى - ﷺ - فدعاه فجاء الجمل ووضع مشفره على الأرض وبرك بين

---

(١١٥) السيرة الحلبية حـ٢ صـ٥٧٧ ورواة الطبراق عن جابر

يديه ، فخطمه ، وقال : مابين السماء والأرض شيء إلا ويعلم أنى رسول الله إلا عاصى الجن والأنس .

وسأل أصحاب الحائط عن الجمل فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه ، وفى رواية أنه قال لهم : إن الجمل اشتكى كثرة العمل وقلة العلف[116] .. وأوصاهم بأن يحسنوا إليه .

جمل جابر

وفى أثناء رجوع الجيش كان جابر بن عبد الله على جمل أعيا به فى الطريق ، وأبطأ عن الركب .... وكان النبى - ﷺ - من عادته أن يسير وراء أصحابه - ليشرف عليهم - فرأى جابراً وقد أبطأ جمله .

فنخس النبى - ﷺ - جمل جابر ، فتقدم .

قال جابر : فلقد رأيتنى أكفه عن رسول الله - ﷺ - حياء منه حتى لا يسبقه .

ثم أخذ النبى - ﷺ - يلاطف جابرا ويداعبه ، فقال لجابر : كيف ترى بعيرك ؟

قال جابر : قد أصابته بركتك يارسول الله .

قال : أتبيعه لى ؟

---

(١١٦) الشفا حـ١ صـ٢٠٦

قال جابر : فاستحييت ، ولم يكن لى ناضح غيره . فقلت : نعم . فابتاعه منه بأوقية من ذهب .

قيل : إن رسول الله مازَحَه أولا وقال : أشتريه بدرهم . ومازال يزيده درهما درهما وفى كل مرة يستغفر له .

وكأن الهدف من ذلك أن يكثر استغفاره له . حتى قال جابر : استغفر لى النبى - ﷺ - فى ذلك اليوم خمسا وعشرين مرة . وفى رواية : سبعين مرة .

وقال النبى - ﷺ - لك ظهره إلى المدينة .

ويذكر ابن هشام هذه القصة فيقول :

قال جابر : وتحدثت مع رسول الله - ﷺ - فقال لى : أتبيعنى جملك هذا ياجابر ؟

قلت : يارسول الله ، بل أهبه لك .

قال : لا ، ولكن بعنيه .

قلت : لك ذلك يارسول الله .

قال : - ﷺ - : قد أخذته بدرهم .

قلت : لا

قال : فبدرهمين .

قلت : لا

فلم يزل يرفع لى رسول الله - ﷺ - حتى بلغ الأوقية .

فقلت : أفقد رضيت يارسول الله بهذا الثمن ؟

قال : نعم

قلت : فهو لك .

قال : قد أخذته .

ثم قال : ياجابر هل تزوجت بعد ؟

قلت : نعم يارسول الله .

قال : أثيبا أم بكراً ؟

قلت : ثيبا .

قال : فهلا تزوجت جارية تلاعبها وتلاعبك ؟(١١٧)

قلت : يارسول الله ، إن أبي أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعا ، فنكحت امرأة جامعة تجمع رءوسهن وتقوم عليهن .

قال : أصبت إن شاء الله .

فلما أصبحت أخذت برأس الجمل ، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله - ﷺ -

ثم جلست فى المسجد قريبا منه . وخرج رسول الله - ﷺ - فرأى الجمل ، فقال : ماهذا ؟

قالوا : يارسول الله ، هذا جمل جاء به جابر .

قال فأين جابر ؟

(١١٧) أى بكراً

فدعيت له . فقال : يابن أخى خذ برأس جملك . فهو لك ، ودعا بلالا ، وقال له : اذهب بجابر فأعطه أوقية .

فذهبت معه فأعطانى أوقية وزادنى شيئا يسيرا(١١٨) .

وبهذا يكون جابر قد أخذ الجمل وأخذ ثمنه هدية من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صلاة الخوف

وفى هذه الغزوة شرعت صلاة الخوف وصلى النبى - ﷺ - بأصحابه صلاة الخوف . وقد مر فى صدر هذا الكلام أنه فى غزوة بنى لحيان بعسفان - صلى النبى - ﷺ - بأصحابه صلاة الخوف .

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ

---

(١١٨) راجع هذه القصة فى سيرة ابن هشام حـ٣ صـ٢٤٧ ، المواهب اللدنية ١/ ٩٢ حياة الحيوان ١/ ٣٣٨ وفى البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى

والحكمة فى نزول صلاة الخوف فى ذلك الوقت ماارواه الرواة من أنه فى هذه الغزوة ـ غزوة ذات الرقاع ـ خاف المسلمون أن يغير المشركون عليهم وهم غافلون ـ فصلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحابه صلاة الخوف ـ وكانت صلاة العصر .

وفى رواية أن المسلمين صلوا صلاة الظهر فهم بهم المشركون ، فقال قائل منهم : دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه ، وهى صلاة العصر ، فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره فصلى العصر صلاة الخوف . وفى هذا دليل على أن الصلاة التى أشار اليها البيهقى وذكرناها آنفا كانت بعد ذلك .

كيف صلى النبى صلاة الخوف :

قال العلماء : كان العدو فى غير جهة القبلة ، ففرق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجنود فرقتين ـ فرقة وقفت فى وجه العدو ، وفرقة صلى بها ركعة ثم عند قيامه للثانية فارقته . وأتمت بقية صلاتها . ثم ذهبت ووقفت فى وجه العدو

وجاءت الفرقة الثانية التى كانت تواجه العدو واقتدت بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الركعة الثانية ، فصلى بها ركعة ، ثم قامت وهو فى جلوس

---

(١١٩) النساء ١٠٠

التشهد وأتمت بقية صلاتها ولحقته فى جلوس التشهد وسلم بها[120]

اختلاف الروايات فى هيئة صلاة الخوف

اختلفت الروايات فى هيئة صلاة الخوف واختلف العلماء فيها لاختلاف الروايات

ذكر ابن القصار أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاها فى عشرة مواضع . . . وقال ابن العربى : روى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه صلى صلاة الخوف أربعا وعشرين مرة

والكيفية التى ذكرناها إنما يحتاج إليها إذا كان المسلمون مستديرين القبلة ووجه العدو اليها ـ وقد اتفق ذلك كما قلنا فى غزوة ذات الرقاع ـ أما إذا كان المسلمون فى مواجهة القبلة ـ وهذا كان بعسفان ـ فى الرواية التى ذكرها البيهقى ـ فقد أداها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون . . كما يلى : حضرت الصلاة فأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه أن يأخذوا السلاح ، وَصَفَّهم خلفه صفين ، ثم ركع فركعوا جميعا ، ورفع ورفعوا جميعا ثم سجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصف الذى يليه ، والآخرون قيام يحرسونهم . فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا مكانهم ، ثم تقدم هؤلاء فى مصاف هؤلاء وجاء هؤلاء الى مصاف هؤلاء ، ثم ركع فركعوا جميعا ، ثم رفع فرفعوا جميعا ، ثم سجد النبى ـ صلى الله

---

(١٢٠) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٥٧٢

عليه وسلم ـ وسجد معه الصف الذى يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما جلس سجد الآخرون ثم سلم بهم جميعا

وقد صلاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الكيفية مرتين مرة بعسفان . ومرة فى أرض بنى سليم[١٢١]

قال القرطبى : ولاتعارض بين الروايات حول صلاة الخوف . .

وقال الخطابى : صلاة الخوف أنواع صلاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أيام مختلفة وأشكال متباينة يتوخى فيها كلها ماهو أحوط للصلاة وأبلغ للحراسة . .

كيف تصلى الآن :

الحرب قديما كانت عن طريق تقابل الجيوش والمبارزة ، وقد تطورت الحرب فأصبحت بالقذائف والقنابل وغيرها من أدوات القتال الحديثة . . . . فكيف تصلى صلاة الخوف الآن ؟

والجواب على ذلك يؤخذ من كلام القرطبى ـ قال : اختلفوا فى صلاة الخوف عند التحام الحرب وشدة القتال وخوف خروج الوقت . . . . . فقال مالك والشافعى وغيرهما : يصلى كيفما أمكن ، لقول ابن عمر : فإن كان خوف أكثر من ذلك يصلى راكبا أو قائما أو يومىء إيماء ، قال فى الموطأ : مستقبل القبلة وغير مستقبلها .

---

(١٢١) أخرجه أبو داود والترمزى من حديث أبى هريرة

فان لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنوا فيصلوا ركعتين فان لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين ، فان لم يقدروا يجزئهم التكبير ويؤخروها حتى يأمنوا . .

وحكى عن أبى حنيفة وأصحابة : أنه اذا كان الخوف شديدا وكان التحام القتال ، فان المسلمين يصلون على ماأمكنهم مستقبلى القبلة ومستدبريها .

أما إذا حدث قتال فى الصلاة فإنها تفسد . . . . .

وفى تأخير الصلاة لشدة القتال قال أنس : حضرت مناهضة حصن « تستر » عند إضاءة الفجر ، واشتد اشتعال القتال فلم نقدر على الصلاة الا بعد ارتفاع النهار ، فصليناها ونحن مع أبى موسى ففتح لنا .

قال أنس : ومايسرنى بتلك الصلاة الدنيا ومافيها .(١٢٢)

وفى حديث جابر قال : جاء عمر يوم الخندق ، فجعل يشتم الكفار ويقول : يارسول الله ، ماصليت العصر حتى كادت الشمس أن تغرب ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : أنا والله ماصليتها بعد . . قال فنزل بطحان فتوضأ وصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى المغرب بعدها .(١٢٣)

هذا وتبرز الحكمة التى من أجلها شرعت صلاة الخوف لأهمية الصلاة ووجوب المحافظة عليها وعدم التقصير فيها ، ووجوب أدائها فى أوقاتها والحرص على أدائها فى جماعة ماأمكن ذلك .

---

(١٢٢) ذكره البخارى

(١٢٣) ذكره البخارى أيضا وراجع تفسير القرطبى جـ٥ صـ٣٦٣ ط دار الكتب

الصلاة عند طلب العدو أو من يطلبه العدو

ويلحق بأحكام صلاة الخوف صلاة الذى يكون طالبا للعدو ويخشى أن يفوته إن أقام الصلاة .

وكذلك الانسان الذى يطلبه عدو ويخشى أن يدركه إن أقام الصلاة والحكم فى ذلك نستقيه من أقوال العلماء حيث قالوا : « من كان طالبا للعدو وخاف أن يفوته صلى بالإيماء ولو كان ماشيا الى غير القبلة ، والمطلوب مثل الطالب فى ذلك ويلحق بهما كل من منعه عدو عن الركوع والسجود ، أو خاف على نفسه أو أهله أو ماله من عدو أو لص أو حيوان مفترس فانه يصلى بالايماء الى أى جهة توجه اليها .

قال العراقى : ويجوز ذلك فى كل هرب مباح من سيل أو حريق اذا لم يجد معدلا عنه . وكذا المدين والمعسر اذا كان عاجزا عن بينة الإعسار ولو ظفر به المستحق حبسه ولم يصدقه، وكذا اذا كان عليه قصاص يرجو العفو عنه إذا سكن الغضب . .

عن عبد الله بن أنيس ـ رضى الله عنه ـ قال : بعثنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى خالد بن سفيان الهذلى الذى كان يجمع الناس لحرب المسلمين ـ وكان نحو عرفات ـ فقال : اذهب فاقتله ان استطعت

قال : فرأيته وقد حضرت صلاة العصر ، فقلت : إنى لأخاف أن يكون بينى وبينه مايؤخر الصلاة .

« فانطلقت أمشى وأنا أصلى أومىء إيماء نحوه .

فلما دنوت منه قال لى : من أنت ؟

قلت : رجل من العرب ، بلغنى أنك تجمع لهذا الرجل - أى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فجئتك فى ذلك - أى لأنضم إليك

فقال : إنى لفى ذلك .

فمشيت معه ساعة حتى إذا أمكننى ضربته بسيفى(١٢٤)

وقد سبقت الاشارة الى هذه القصة . . . والشاهد فيها هنا هو صلاة عبد الله ابن أنيس وهو يومىء لأنه يطلب عدوا يخشى فوته ، أو يخشى أن يعطله لقاؤه عن أداء الصلاة . ولم ينكر عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - مافعله .



(١٢٤) رواه أحمد وأبو داود ، وحسن الحافظ إسناده ، فقه السنة لسيد سابق جـ١ صـ٢٢٨

- غزوة بدر الصغرى .
- قصة هذه الغزوة .
- كيف انتهت ؟
- غزوة دومة الجندل .
- غزوة بنى المصطلق .
- هروب الحارث بن ضرار .
- رؤيا جويرية بنت الحارث - رضى الله عنها .
- كيف أسلم الحارث ؟
- إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا .
- قصة الوليد بن عقبة .
- هل قتل أحد من المسلمين فى تلك الغزوة ؟
- دور المنافقين فى غزوة بنى المصطلق .
- قصة زيد بن أرقم مع عبد الله بن أبىّ بن سلول .
- حكمة النبى - صلى الله عليه وسلم - فى علاج الأمور .

غزوة بدر الصغرى

وهى بدر الآخرة . . وسميت بالصغرى للتفرقة بينها وبين بدر الكبرى التى تحدثنا عنها قبل ذلك . وكذلك بالنسبة لتسميتها بالآخرة فانه للتفرقة بينها وبين الأولى . ويطلق عليها أيضا بدر الموعد

ولعلنا نتذكر ماقاله أبو سفيان فى نهاية غزوة أحد حيث قال للمسلمين : موعدنا معكم بدر فى العام القابل .

وقد كلف النبى - صلى الله عليه وسلم - عمر أن يجيبه بالموافقة على ذلك .

كانت هذه الغزوة فى شعبان سنة أربع بعد غزوة ذات الرقاع .

قصة هذه الغزوة

بعد أن عاد النبى - صلى الله عليه وسلم - من غزوة ذات الرقاع أقام بالمدينة جمادى الأولى والآخرة وشهر رجب .

ثم تجهز للخروج لملاقاة قريش فى الموعد الذى سبق أن حدده أبو سفيان . فخرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس .

وهذه الأفراس العشرة منها واحد للنبى - صلى الله عليه وسلم - وآخر لأبى بكر ، وآخر لعمر ، وآخر لأبى قتادة . وآخر للحباب بن المنذر ، وآخر لعباد بن بشر الأنصارى - رضى الله عنهم أجمعين .

واستخلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المدينة أحد أصحابه ـ كعادته ـ فى غزواته .

قيل : إنه استخلف عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ بن سلول . .

وقيل : بل استخلف عبد الله بن رواحة .

ويحتمل أن يكون استخلفهما معاً ، أحدهما على الصلاة والآخر على الحكم . وحمل اللواء على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ

موقف المشركين

وكان أبو سفيان قد خرج ـ وهو كسول ـ فى ألفين من القرشيين ، ومعهم خمسون فرسا . حتى بلغوا المجنة ، وهى سوق قرب مكة من ناحية مر الظهران . .

وشاور نفسه ومن معه فى الرجوع ، وعزم على ذلك ، وأراد أن يدبر أمراً يحفظ به ماء وجهه أمام المسلمين ، بل وأمام العرب الذين يرقبون المواقف ويرصدون الأحداث ، وفيهم عيون واعية وألسنة قاتلة . .

ووجد فى نعيم بن مسعود ضالته المنشودة ، فهو خير سفير له إلى المدينة يبث الرعب فى أرجائها ، ويثبط المسلمين عن الخروج ، فيبدو الأمر أمام الناس وكأن المسلمين هم الذين أخلفوا الموعد لا أبا سفيان .

ويبدو أن نعيم بن مسعود كان جاهزاً لأداء مثل هذه الأدوار قبل أن يسلم ويحسن إسلامه . . وطالما أدى أدواراً استطلاعية لمختلف الجبهات .

قال أبو سفيان لنعيم : هل لك في عشرين بعيراً إن استطعت أن تخذل المسلمين عن الخروج لنا فى موعدنا الذى اتفقنا عليه ؟

قال نعيم : إنهم قد استعدوا لكم ، وقد قدمت من المدينة ورأيتهم يجمعون لكم الجموع .

قال أبو سفيان : فأنت لذلك يا نعيم ، وأنت خير من يقوم بالمهمة التى أطلبها منك . إن العام عام جدب لا يصلح أن نحارب فيه .

قال نعيم : ومن الذى يضمن لى وفاءك بما تقول ؟

قال أبو سفيان : يضمننى سهيل بن عمرو .

فاتجه نعيم بن مسعود الأشجعى إلى سهيل بن عمرو وقال له :

هل أنت ضامن أبا سفيان فيما يقول لى من أنه سيؤدى لى عشرين بعيرا إن رددت محمدا ﷺ وأصحابه عن الخروج إليكم ؟

قال سهيل بن عمرو : نعم ، وأحملك على بعير إلى المدينة .

وما أسرع أن انطلق نعيم بن مسعود من توه إلى المدينة ، ووجد المسلمين نشيطين فى استعدادهم ، فأقبل يبث فى صفوفهم أن قريشا قد أعدت للقائهم ما لا قبل لهم به ، وأخذ يختلى ببعضهم ويتخلل صفوفهم ، حتى صادف قوله قبولاً فى بعض النفوس .

ورأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض التخاذل الذى أخذ يدب بعد النشاط الذى كان يشتعل . .

وسمع بعض الأصوات التى تنادى بعدم الخروج .

ووجد المنافقون الفرصة للقول فقالوا ما شاءوا ، وحرضوا الناس على النكوص والتراجع . .

واستبشر اليهود بهذا الموقف وعدوه من علامات الخذلان فى صفوف المسلمين .

وراقب النبى - صلى الله عليه وسلم - الموقف جيداً فقرر أن يتخذ القرار المناسب للقضاء على هذا التخاذل المصنوع . .

واستشار أصحابه - كعادته - فقال كل من أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - وكانا قد سمعا ما أرجف به المرجفون :

يا رسول ، إن الله مظهر نبيه ، ومعز دينه ، وقد وعدنا القوم من قريش موعداً لا نحب أن نتخلف عنه ، فيرون أن هذا جبن منا ، فسِرْ لموعدهم . .

وكذلك قال الصادقون المسلمون . .

فسر النبى - صلى الله عليه وسلم - بذلك القول . ثم قال : والذى نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد .

وتأهب - صلى الله عليه وسلم - للخروج . فلما رأى المسلمون ذلك نشطوا وذهب ما كان قد شعروا به من تأثر بكلام نعيم بن مسعود ، وإرجاف المرجفين من المنافقين .

وخرجوا جميعاً فى قوة وعزة ويقين بنصر الله لهم ..

ولقد كانوا يتعطشون فى خروجهم هذا لأن يلقنوا قريشا الدرس الذى لن تنساه أبداً بعد ذلك .

وعسكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحابه فى بدر ، وانتظروا قريشا أن تحضر ، ولكنها لم تحضر ..

لقد ظنت قريش أن مهمة نعيم ستنجح ، وأنه سوف يتمكن من إقناع المسلمين بالعدول عن الخروج ، ولكن نعيما لم ينجح فى مهمته . وباء تدبير أبى سفيان بالخذلان .

لقد كانت وجهة نظر أبى سفيان كما قالها لأصحابه ـ حيث قال لهم : يا معشر قريش لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه الماء ، وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا .

فرجع الناس بعد أن كانوا قد خرجوا فى ألفين من الجنود وخمسين من الفرسان وأقاموا فى مجنة يومين .

وقد عادوا ـ على غير طائل ـ فلا نعيم نجح فى مهمته ، ولا هم لاقوا المسلمين ليثبتوا أنهم كانوا جادين فى وعدهم لهم ..

ولذلك سمى أهل مكة هذا الجيش جيش السويق .. يعنون أنهم إنما خرجوا ليشربوا السويق .

والسويق شراب يتخذ من القمح أو الشعير بعد قليه ثم طحنه ، ويمزج بماء أو عسل أو سمن ..

وكانت هذه العودة فضيحة لقريش . فقد قال صفوان بن أمية لأبى سفيان : قد والله نهيتك يومئذ أن تعد القوم ، وقد اجترءوا علينا الآن ورأونا قد أخلفناهم . وتسامع الناس فى كل مكان بأن قريشا قد أخلفت موعدها مع المسلمين وأن المسلمين قد وفوا وخرجوا لهم ، فازدادت هيبة الاسلام فى النفوس ، بالقدر الذى ضعفت فيه الثقة بقريش فى نفوس العرب . وأقام المسلمون فى بدر ثمانية أيام ، وكانت سوق بدر قائمة وكان العرب قديماً يجتمعون فيها فى ذلك الوقت ، وباع المسلمون واشتروا وربحوا ربحاً عظيماً عوضهم عما فاتهم من غنائم قريش التى كانت مرتقبة لهم .

وفى هذه الغزوة نزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (١٢٥)

من الناس فى هذه الآية ؟

قال العلماء : الناس فى هذه الآية قد يقصد بهم فرداً واحداً هو نعيم بن مسعود ، الذى استأجره أبو سفيان بعشرين بعيرا . لتثبيط المسلمين . .

---

(١٢٥) آل عمران ١٧٣ ، ١٧٤

وقال بعض العلماء : إن الناس ركب من عبد القيس كانوا متجهين إلى المدينة ، ورآهم أبو سفيان فقال لهم : ثبطوا المسلمين عن الخروج إلينا ولكم علينا أن نملأ رحالكم زبيباً وأقطا إذا وافيتمونا فى الموسم .

وقال بعضهم : إن الناس هم المنافقون الذين حاولوا تثبيط المسلمين وقالوا لهم : نحن أصحابكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم فى أحد وعصيتمونا وقد قاتلوكم فى دياركم وظفروا ، فماذا يكون إذا أتيتموهم فى ديارهم فلا يرجع منكم أحد ، فقال المسلمون : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وقال أبو معشر : دخل ناس من هذيل من أهل تهامة المدينة ، فسألهم أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أبي سفيان وصحبه . فقالوا : قد جمعوا لكم جموعاً كثيرة فاخشوهم . فإنه لا طاقة لكم بهم . . فقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

ما أجمل هذه الكلمة . « حسبنا الله ونعم الوكيل » وما أعظمها من سلاح ووقاية من كل ما هو مخوف . لقد كانت سلاحاً لإبراهيم ـ عليه السلام حين ألقى فى النار ، وكان سلاحاً للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبه فى مجابهة الأعداء(١٢٦) . . وقد نجى الله كل من قالها وتسلح بها .

تعليق على قوله ـ تعالى ـ « فزادهم إيماناً »

---

(١٢٦) قال القرطبي : روى البخارى عن ابن عباس قال فى قوله ـ تعالى ـ : « الذين قال لهم الناس . . . إلى قوله تعالى . . . حسبنا الله ونعم الوكيل » : قالها ابراهيم الخليل عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ ـ حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم ، جـ٤ صـ٢٨٢ ط دار الكتب

هل الإيمان يزيد وينقص ؟

قال بعض العلماء : إنه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه ، ولاسيما أن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الايمان على الطاعات لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الإيمان بضع وسبعون بابا فأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق(١٢٧) » .

وفى حديث على ـ رضى الله عنه ـ « إن الايمان ليبدو لُمَظَة بيضاء فى القلب ، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللُّمَظَة(١٢٨)

وبعضهم قال : إن الإيمان يزيد باعتبار دوام حضوره فى قلب المؤمن وينقص بتوالى الغفلات على قلب المؤمن ، وقال قوم : زيادة الايمان تكون بمعرفة الفرائض ، والعمل بها ، والمواظبة عليها ، ونقصه يكون بالجهل بها ، والتغافل عن العمل بها .

وقال القرطبى فى تفسيره : أن معنى قوله ـ تعالى ـ « زادهم إيماناً » أى زادهم قول الناس إيماناً أى تصديقاً ويقيناً فى دينهم ، وقوة وجراءة واستعداداً ، فزيادة الايمان هى فى زيادة الأعمال . وهو قريب مما سبق من أقوال العلماء(١٢٩) .

---

(١٢٧) أخرجه الترمذى ، وزاد مسلم « والحياء شعبة من الايمان

(١٢٨) اللمظة مثل النكتة ونحوها من البياض

(١٢٩) راجع تفسير القرطبى حـ٤ صـ٢٨٠ ط دار الكتب

النبى ﷺ يقضى على الظلم

ماكَرِهَ أحد من الناس الظلم كما كرهه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى أرسله ربه ـ تعالى ـ منقذاً للمغلوبين ومنصفاً للمظلومين . .

لقد بلغه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن بـ ـ دومة الجندل ـ قوماً يَظْلِمون من مر بهم ويقطعون عليهم الطريق . .

ودُومة الجندل مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال ، وبعدها من المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة .

« ودومة الجندل » ـ بضم الدالة وفتحها .

وقال ابن القيم ، بضم الدال فقط ، أما بفتحها فمكان آخر باليمن .

وقيل إنها سميت بهذا الاسم لأن دومى بن اسماعيل ـ عليه السلام . . نزل بها .

والذى أضاف إليها اسم الجندل أكيدر صاحب دومة الحيرة ، كان يزور أخواله من كلب ، فخرج معهم للصيد ، فرأوا مدينة متهدمة لم يبق الا حيطانها مبنية بالجندل ـ الصخور والحجارة ـ

فأعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون ، وسموها دومة الجندل تمييزا بينها وبين دومة الحيرة ، وكان أُكيْدر يتردد بينهما(١٣٠) .

وأكيدر هذا . . هو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل الذى كتب اليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتابا بعد ذلك وأرسل إليه سرية مع خالد

---

(١٣٠) المواهب اللدنية حـ٢ صـ٩٤

بن الوليد ، وقال له : إنكم ستجدونه خارج الحصن يرعى البقر . فوجدوه فعلا كذلك واختلف فى أمر إسلامه ، وإن كان قد استقبل رسالة الرسول استقبالا حسنا ، وأهدى للنبى - صلى الله عليه وسلم - حلة من حرير ، فوهبها الرسول لعمر بن الخطاب[131]

سبب الغزوة

كانت هذه الغزوة لخمس ليال بقين من ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرا من هجرته - صلى الله عليه وسلم -

أما سببها فهو كما قال الرواة : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - بلغه أن بهذا المكان جمعا يظلمون من مر بهم - فهم وقاطعوا الطريق سواء - شأنهم فى ذلك شأن قوم شعيب الذين ورد فيهم قوله - تعالى

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾[132]

فالقعود بالصراط إنما هو قطع للطريق على السابلة أن يسيروا أحرارا آمنين . بل كانوا يسمعونهم قوارص الكلام ، وربما اغتصبوا ما كانوا يحملون من متاع ، وربما صدوهم عن الذهاب إلى مقاصدهم .

---

(١٣١) اسد الغابة حـ١ صـ١٣٥

(١٣٢) الأعراف ٨٦

هكذا كان قوم دومة الجندل يفعلون . وقد نما إلى علم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضا أن هؤلاء القوم جمعوا جموعهم ويريدون الاقتراب من المدينة ، وهذا تهديد سافر للمسلمين وقضاء على هيبتهم ، وإطماع لغيرهم فيهم .

لقد كانت دومة الجندل أدنى بلاد الشام إلى المدينة ، ولعل وراء هذه التحركات المريبة تطلعات من قيصر الروم الذى يحكم بلاد الشام . . فلابد من القضاء على هذه التطلعات قبل أن تستفحل الأمور . . ولا يخفى أن الروم لم يكن يسرهم ظهور دعوة الاسلام ، بل اعتبروها عدوانا على نفوذهم .

خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ألف من أصحابه ، بعد أن استخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى .

وسار إلى هؤلاء القوم الذين روّعوا الآمنين والمارين ، فكان يسير بالليل ، ويكمن فى النهار حتى لايشعروا به .

• وكان مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دليل اسمه ـ مذكور ـ من بنى عُذرة وهو صحابى .

وحين دنا النبى ـ ﷺ ـ من هؤلاء القوم كان الخبر قد وصل إليهم ، فقذف الله الرعب فى قلوبهم وأسرعوا بالتفرق والهرب ، فأصاب المسلمون منهم كثيرا من الغنائم .

ونزل النبى - ﷺ - بساحتهم ، وأقام بها ، وبعث السرايا منها إلى جهات متفرقة لعلها تعثر على أحد منهم ، فلم تلق أحدا وعادت السرايا سالمة

واستطاع محمد بن مسلمة - وكان فى بعض السرايا - أن يقبض على رجل منهم ، واستاقه إلى النبى ﷺ فسأله النبى - صلى الله عليه وسلم - عن قومه .

فقال : لقد هربوا حين سمعوا بقدومك إليهم .

فعرض عليه الإسلام فأسلم ، وهذا أحد المكاسب الجليلة من هذه الغزوة . فقد أثر عنه - صلى الله عليه وسلم - قوله « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا أحب لك من الدنيا وما فيها »

وهناك كسب آخر حصل فى أثناء الرجوع من هذه الغزوة . . وهو أن النبى - صلى الله عليه وسلم - وادع عُيَيْنة بن حصن ، واسمه الحقيقى : حُذَيفة بن حصن - من بنى فزارة - أما عيينه فهو لقب أطلق عليه لأن مرضا أصاب عينه فجحظت .

وسمح له النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يرعى إبله وماشيته بمكان بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً لأن أرضه كانت قد أجدبت . . لقد عامله النبى ﷺ معاملة حسنة ، ولكن الاحسان عند بعض الناس لايجد الأثر الطيب الذى يجب أن يترتب هليه ، فسرعان ما تبدلت أخلاق هذا الرجل الذى أحسن النبى - صلى الله عليه وسلم - إليه ، فعض اليد التى

امتدت اليه بالاحسان ، فلم يلبث بعد أن سمنت إبله وقويت جوافره أن أغار على سرح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقيل له : بئس ما جزيت به محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحلَّك أرضه حتى إذا سمن حافرك وخفك فعلت معه ذلك ؟

لقد كان أعرابيا جافيا . دخل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرة من غير إذن ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لِمَ لم تستأذن

فقال : ما استأذنت على أحد من مضر .

وكان يقال له : الأحمق المطاع ، فقد كان يتبعه عشرة آلاف فتى . . وقد أسلم يوم الفتح ، وشهد حنينا والطائف ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وارتد بعد إسلامه ، وتابع طليحة الأسدى ، فأسر وحمل الى أبى بكر فكان صبيان المدينة يقولون له : يا عدو الله أكفرت بعد إيمانك ؟

فقال : ما آمنت بالله طرفة عين . فهل هناك أحمق من هذا الرجل ؟ ولكنه أسلم مرة أخرى بعد ارتداده . . . وذلك على يد أبى بكر رضى الله عنه ، فأطلقه .

لقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأمن شر هذا الرجل وأن يكسبه هو ومن يتبعه ، فوادعه فى أثناء عودته من دومة الجندل ، لتكون موادعته كسبا للمسلمين ، ولكنها كانت موادعة مؤقتة ، لأن عيينه لم يف بما عاهد عليه . .

كان هذا الرجل قد ركب الشر فى طبعه ، فلم ينج من شره أحد حتى أقرب المقربين إليه .

فبعد أن أطلق أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ سراحه بعد عودته إلى الإسلام ، كان يتردد على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ أثناء خلافته لينال منه العطايا ، وكان يقول :

إن عمر أعطانا فأغنانا .

ومع ذلك فإن عمر ـ رضى الله عنه ـ قد هم أن يبطش به يوما . . . . ذلك أنه دخل يوما مع ابن أخيه الحر بن قيس على عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان الحر بن قيس برا صالحا ، ومن قراء القرآن .

وكان الحر قد قال لعمه : أخشى يا عم أن تتكلم بكلام لاينبغى أن تتكلم به أمام أمير المؤمنين ـ وذلك لما يعرفه من حمق عمه . . ولكنه وعده أن لايفعل .

فلما دخل قال : يابن الخطاب ، والله ما تقسم بالعدل ، ولا تعطينا الجزل .

فغضب عمر غضبا شديدا حتى هم أن يوقع به .

فقال ابن أخيه الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ، إن الله يقول فى كتابه العزيز

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ ﴾ (١٣٣)

وإن هذا من الجاهلية .

وكان عمر وقَّافا عند كتاب الله ـ عز وجل ـ فخلى عنه(١٣٤) .

المهم هنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عاد من هذه الغزوة بكثير من الفوائد ، وذلك بعد غيبة استمرت خمسا وعشرين ليلة ، ولعله جدَّ فى أثناء عودته فقطع الرحلة فى أيام أقل . وقيل إن هذه الغيبة استمرت شهرا وربما زاد قليلا(١٣٥) .

غزوة بنى المصطلق

ويقال لها غزوة « المريسيع » ـ بضم الميم وفتح الراء وسكون الياء مصغر مرسوع ، هو من قولهم : رَسَعت العينُ إذا دمعت من وجع . والمريسيع ماء لبنى خُزاعة وهم حى من الأزد .

وقد سبقت الإشارة إلى أنهم سُمُّوا خزاعة لأنهم انخزعوا عن قومهم ـ أى تخلفوا وأقاموا بمكة بعد تهدم سد مأرب .

وقيل لها « المصطلق » ـ بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء وكسر اللام ـ لقب لرجل اسمه جُذَيمة ، لُقِّبَ بذلك لحسنِ صوته . وهو جذيمة ابن سعد بن عمرو بن ربيعه بن حارثة ، وهم بطن من خزاعة . .

---

(١٣٣) الأعراف ١٩٩

(١٣٤) أسد الغابة حـ٤ صـ٣٢١

سبب هذه الغزوة

بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق أجمع على حرب رسول الله ﷺ وحشد لذلك من قدر عليه من قومه ومن العرب .

وأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستوثق من ذلك ، فبعث إليهم بُريدَة بن الحُصَيْب الذى كان قد أسلم فى أثناء هجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفاءل النبى باسمه .

أرسله لِيَعْلَم خبر هؤلاء القوم وحقيقة ما بلغه عنهم ـ فاستأذن بريدة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول ما يتخلص به من شرهم ، وإن كان هذا القول خلاف الواقع ، فأذن له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج بريدة حتى جاء إليهم ورأى جمعهم ـ فسألوه : من الرجل ؟

فقال بريدة : رجل منكم قدمت إليكم لما بلغنى جمعكم لهذا الرجل . فأسير فى قومى ومن أطاعنى ، فنكون يدا واحدة حتى نستأصلهم .

فقال له الحارث : فنحن على ذلك ، فعجِّلْ إلينا .

قال بريدة : أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومى .

فسر الحارث ومن معه بذلك .

وعاد بريدة ـ وقد استوثق من إعداد بنى المصطلق للحرب ـ وأخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما سمع ورأى .

فندب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس للخروج ، فلبوا سراعا ، وكان ذلك فى شعبان لليلتين خلتا منه سنة خمس من الهجرة ، وخرج مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جمع غفير ، وكان فيهم عدد من المنافقين خرجوا طلبا للغنيمة ، ومعهم عبد الله بن أبى بن سلول رأسهم .

وكان فى الجيش الاسلامى ثلاثون فارسا ، عشرون أنصاريا ، وعشرة من المهاجرين .

واستخلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المدينة زيد بن حارثة ، وقيل : أبا ذر الغفارى . وقيل : نُمَيْلَة بن عبد الله الليثى .

وخرج مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نسائه عائشة وأم سلمة ـ رضى الله عنهما ـ

وسار الجيش الاسلامى فى طريقه إلى هدفه ، حتى بلغ مكانا به آبار ومزارع ، فنزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه بأصحابه .

وبث العيون والأرصاد فأتوا له برجل من عبد القيس ، فسلم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال له النبى : أين أهلك ؟

قال : بالروحاء

فقال له : أين تريد ؟

فقال الرجل : إياك أريد ، جئت لأومن بك وأشهد أن ما جئت به حق ، وأقاتل معك عدوك .

وأحس النبى - ﷺ - الصدق فى حديث الرجل ، فقال له : الحمد لله الذى هداك إلى الإسلام .

وأراد الرجل أن يستزيد من العلم فقال للنبى - ﷺ - : يارسول الله ، أى الأعمال أحب ؟

فقال رسول الله - ﷺ - : الصلاة لأول وقتها .

فالتزم الرجل بذلك ، فكان يحرص على أن يصلى الصلاة لأول وقتها .

كما أسر المسلمون أيضا رجلا من المشركين كان الحارث قد وجهه عينا على المسلمين ليأتيه بخبر النبى صلى الله عليه وسلم - ويعرف عددهم وعدتهم .

وسأل الرسول - ﷺ - هذا الرجل عن قومه ، فلم يذكر من شأنهم شيئا .

فعرض عليه الإسلام ، فأبى أن يقبله ، وتناول الإسلام والمسلمين بالسوء . فأمر النبى - ﷺ - عمر بن الخطاب بضرب عنقه .

هروب الحارث

وعرف الحارث مسير النبى - ﷺ - إليه فى جيش كثيف ، فوقع الرعب فى قلبه ، وبخاصة بعد أن علم أن الرجل الذى أرسله ليستطلع الأخبار قد قتل . وتفرقت أكثر الجموع من حول الحارث .

وزحف النبى - ﷺ - بجيشه حتى انتهى إلى المريسيع ، فضربت له قبة من أدم .

ودفع النبى - ﷺ - راية المهاجرين إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وقيل لعمار بن ياسر .

ودفع راية الأنصار لسعد بن عبادة .

وَصَفَّ المسلمين للقتال .

ولكن النبى - ﷺ - قبل أن يبدأ القتال أراد أن ينذرهم . فأمر عمر بن الخطاب أن يقول لهم : « قولوا لا إله الا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالك . . فأبلغهم عمر رضى الله عنه - ذلك فأبوا . .

وترامى الفريقان بالنبل ساعة ثم أمر رسول الله - ﷺ - أصحابه أن يحملوا حملة رجل واحد . فحملوا فى ثقة ويقين . فما أفلت من الأعداء أحد ، وسقطوا جميعا بين قتيل وأسير وجريح . . . ذكر الرواة أنه قتل منهم عشرة

تقسيم الغنائم

وقسم النبى - ﷺ - الغنائم والأسرى بين المسلمين ، وهى غنائم كثيرة أنعم الله بها على المسلمين .

وكانت برة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ضمن الأسرى .

وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس الأنصارى ، فكاتبها على تسع أواق من الذهب .

فدخلت برة على النبى - ﷺ - فقالت : يارسول الله ، إنى امرأة مسلمة ، وأنا أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله . وأنا برة بنت الحارث سيد قومه ، أصابنا من الأمر ما قد علمت ، وقد وقعت فى سهم ثابت بن

قيس وابن عم له ، وخلصنى ثابت من ابن عمه بنخلات له فى المدينة ، وكاتبنى ثابت على مالا طاقة لى به ، وإنى رجوتك فأعنى على ذلك .

فأدى عنها رسول الله - ﷺ - ما كاتبها عليه ثابت بن قيس . . . ولم تعد بَرَّة بنت الحارث إلى قومها ، فقد أصبحت على الإسلام ، وهم على الكفر .

فطلبها رسول الله - ﷺ - للزواج ، فقبلت وفرحت بذلك .

وتزوجها النبى - ﷺ - وسماها جويرية

وحين علم الناس أن النبى - ﷺ - تزوج من جويرية بنت الحارث أطلقوا الأسارى من أيديهم وقالوا : أصهار رسول الله - ﷺ - قالت عائشة - رضى الله عنها - : « وخرج الخبر إلى الناس أنه - ﷺ - قد تزوج - جويرية - فقال الناس أصهار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأرسلوا ما بأيديهم . فلقد أعتق بتزويجها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها »(١٣٦)

رؤيا جويرية

قالت جويرية - رضى الله عنها - : رأيت قبل قدوم النبى - ﷺ - بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى ، فكرهت أن أخبر أحدا من الناس ، حتى قدم - ﷺ - فلما أسرنا رجوت الرؤيا ، فلما أعتقنى وتزوجنى والله ما كلمته فى قومى حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم من

(١٣٥) راجع المواهب اللدنية جـ٢ صـ٩٤ - السيرة الحلبية جـ٢ صـ٥٨١
(١٣٦) المواهب اللدنية جـ٢ صـ٩٧

أيديهم ، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمى تخبرنى الخبر ، فحمدت الله - تعالى -

وهذه إحدى أوجه الحكمة من تزوجه - ﷺ - فما كان تزوجه من جويرية إلا لحكمة يعلمها الله - عز وجل - ، ورسوله - ﷺ - .

فقد أراد الرسول بهذا الزواج المبارك تأليف قلوب هذا الحى من العرب ، وتقريبهم إلى الإسلام . وقد رأينا أثر ذلك سريعا حين أطلق الأسارى فانطلقوا إلى الإسلام يعتنقونه

كيف أسلم الحارث ؟

ويقص الرواة علينا قصة إسلام الحارث بن ضرار والد جويرية فيقولون :

قدم الحارث إلى النبى - ﷺ - راغبا فى فداء ابنته ، حين علم أنها أسرت ، وكان قد هرب حين رأى غلبة المسلمين على قومه .

وعند العقيق نظر إلى الإبل التى قدم بها فى الفداء ، فأعجبه منها بعيران فخبأهما فى شعب من شعاب العقيق ، ثم أقبل على رسول الله - ﷺ - فقال : يا محمد ، أصبتم ابنتى ، وهى كريمة لا تسبى وهذا فداؤها .

فقال له رسول الله - ﷺ - : فأين البعيران اللذان غيبتهما فى العقيق فى شعب كذا وكذا ؟(١٣٧)

---

(١٣٧) أسد الغابة جـ١ صـ٤٠٠

فقال الحارث : أشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على ذلك إلا الله . ثم أسلم - وقيل : إنه أسلم قبل ذلك ، ولكنه لم يعلن عن هذا الإسلام إلا فى هذا الوقت .

وحين علم أن النبى - ﷺ - أعتقها وتزوجها سره ذلك . وفى رواية أن ذلك كان قبل زواجها ، وقد خيرها النبى - ﷺ - بين بقائها ورحيلها .

فقالت جويرية : أختار البقاء .

فقال لها أبوها : يابنية لا تفضحى قومك .

قالت : اخترت الله ورسوله . .

وقد وردت رواية أخرى فى الاستيعاب تذكر أن الذى جاء فى فداء أسرى بنى المصطلق هو عبدالله بن الحارث أخو جويرية ، وأنه خبأ فى الطريق ذودا من الإبل .

وكلم النبى - ﷺ - فى فداء الأسارى ، فقال له النبى - ﷺ - : نعم ، فما جئت به ؟

قال : ماجئت بشىء .

قال له : فأين الذود من الإبل الذى غيبت فى موضع كذا ؟

قال عبد الله : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، والله ما كان معى أحد ، ولا سبقنى إليك أحد . ثم أسلم .

ولعل عبدالله قد خطر له أن يسأل فداء قومه دون أن يدفع شيئا طمعا فى أن النبى - ﷺ - يجيبه إلى ذلك لمكان أخته عنده ، أو ربما يكون فى العبارة اختصار ، وأن الذود هو بعض ما كان قد جاء به من فداء ، ولكنه طمع فيه فغيبه فسأله النبى - ﷺ - عنه

لأنه يبعد أن يكون قد جاء فى الفداء بذود من الإبل فقط . وعلى أى فقد كان زواج النبى - ﷺ - من جويرية بركة على قومها كما قالت السيدة عائشة - رضى الله عنها .

وقد استل هذا الزواج سخائم الحقد من قلوب بنى المصطلق وأقبلوا على الإسلام بشوق ، وأدوا فرائضه وأركانه بإخلاص ، وكانوا يحرصون على تقديم زكاة أموالهم بانتظام .

والاستطراد هنا يدعونا إلى ذكر حادثه نزل فى شأنها قرآن يتلى .. وتتلخص تلك الحادثة فيما يلى :-

بعد عامين من غزوة بنى المصطلق أرسل النبى - ﷺ - الوليد بن عقبة بن أبى معيط لجمع صدقات بنى المصطلق . ولكنه عاد وأخبره بأنهم امتنعوا عن أداء الزكاة . . فأرسل النبى - ﷺ - خالد بن الوليد فأحسن التصرف وعاد يخبر بأنهم على الإسلام . . . ولنترك الحارث نفسه يحدثنا عن قصة ذلك كما رواها ابن الأثير . قال الحارث : قدمت على رسول الله - ﷺ - فدعانى إلى الإسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعانى إلى الصلاة فأقررت بها ، ودعانى إلى الزكاة ، فأقررت بها . فقلت : يارسول الله ، أرجع إلى قومى

فأدعوهم إلى الاسلام . وأداء الزكاة . فمن استجاب لى منهم جمعت منه الزكاة ، ثم ترسل إلىَّ رسولا ، من عندك فى وقت كذا ـ ليأتيك بما جمعت من الزكاة .

فلما جمع الزكاة ممن استجاب له وحان الوقت الذى حدده مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليبعث إليه بمن يحمل الزكاة إلى رسول الله ، لم يأت ذلك الرجل .

فظن الحارث أن الرسول قد غضب منهم ، أو أخبر عنهم بشىء ما . فدعا كبار قومه فقال لهم : إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد كان وقَّتَ لى وقتا ليرسل إلى برسول ، ليقبض ما كان عندى من الزكاة ، وليس من رسول الله ـ ﷺ ـ الخلف ، ولا أرى رسوله لم يحضر إلا لأمر ما . فانطلقوا فنأتى رسول الله ـ ﷺ ـ . . .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ قد بعث ـ كما ذكرنا ـ الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى الحارث ليقبض ما كان عنده من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق خاف فرجع ، فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله ، إن الحارث قد منعنى الزكاة وأراد قتلى . . . فأرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفدا إلى الحارث ـ وأقبل الحارث بأصحابه فقابل وفد رسول الله وقد فصل من المدينة ، فلما غشيهم قال :

إلى من بعثتم ؟

قالوا : إليك .

قال : ولم ؟

قالوا : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فرجع إليه فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . فقال الحارث : لا والذى بعث محمدا بالحق مارأيته ولا أتانى . فلما دخل الحارث على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له رسول الله : منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟

قال الحارث : لا والذى بعثك بالحق مارأيته ولاأتانى ، ولاأقبلت إلا حين تأخر علىّ رسولك ، فخشيت أن يكون هناك سخطة من الله تعالى ومن رسوله . .

عند ذلك نزل القرآن الكريم مصدقا ماقاله الحارث ـ قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ ﴾ (١٣٨)

وقد جاء فى كتب التفسير مايعزز هذه الرواية ويضيف اليها . فقد ذكر أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط . وسبب ذلك مارواه سعيد عن قتادة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث الوليد الى بنى المصطلق

---

(١٣٨) الحجرات ٦ : ٨ وراجع هذه القصة فى أسد الغابة جـ١ صـ٣٩٩

جامعا للصدقة - فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم لإحنة - عداوة - كانت بينه وبينهم فرجع الى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام .

فبعث نبى الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولايعجل .

فانطلق خالد حتى آتاهم ليلا ، فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالاسلام وأنهم سمعوا أذانهم وصلاتهم .

فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ماذكره عيونه الذين أرسلهم ، فعاد الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره . فنزلت الآية . . فكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : « التأنى من الله والعجلة من الشيطان »

وفى رواية : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - بعث الوليد إلى بنى المصطلق بعد إسلامهم فلما سمعوا به ركبوا إليه فلما رآهم خافهم ، فرجع الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ، وأنهم منعوا الزكاة فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزوهم . فبينما هم كذلك اذ قدم وفدهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يارسول الله ، سمعنا برسولك فخرجنا اليه لنكرمه ، ونؤدى اليه ماقبلنا من الصدقة فانطلق راجعا ، وبلغنا أنه يزعم أنا خرجنا لنقاتله - والله ماخرجنا لذلك - فأنزل الله - تعالى - هذه الآية التى تصف الوليد بالفاسق[١٣٩]

---

(١٣٩) تفسير القرطبى - سورة الحجرات - تفسير ابن كثير جـ٧ صـ٣٥٠

الوليد وشرب الخمر

وصدّقت الأيام وصف القرآن الكريم للوليد ، فقد ولاه عثمان ـ رضى الله عنه ـ الكوفة وعزل عنها سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة ، والمعروف باستجابة الدعوة .

وحين ذهب ليتسلم عمله من سعد قال له سعد : والله ماأدرى أَكِسْتَ ـ أى أصبحت كَيِّساً ـ بعدنا أم حمقنا بعدك ؟

فقال الوليد : لاتجزعن أبا إسحاق . فإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون .

فقال له سعد : أراكم ستجعلونها ملكا .

وكان الوليد أخا لعثمان ـ رضى الله عنه ـ لأمه

وأقبل الوليد على شرب الخمر فى الكوفة حتى انه شرب ليلة حتى مطلع الفجر ، فلما أذن المؤذن خرج الى المسجد ، وصلى بأهل الكوفة الصبح أربع ركعات ، ولما سلم قال : هل أزيدكم ؟

فقال له ابن مسعود ـ وكان حاضرا : لازادك الله خيرا . وحصبه الناس ـ أى رموه بالحصا ـ ومازالوا يحصبونه حتى دخل القصر وقال فيه الشاعر الحطيئة :

شهد الخطيئة يوم يلقى ربه　　أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم　　أأزيدكم ؟ سكرا ومايدرى

ولما شهد عليه الناس عند عثمان ـ رضى الله عنه ـ بشرب الخمر استقدمه ، وأمر بجلده .

جاء فى أسد الغابة : عن حصين بن المنذر الرقاشي قال : شهدت عثمان وقد أتى بالوليد ، فشهد عليه رجلان بأنه شرب الخمر . . . . . شهد أحدهما أنه رآه يشرب الخمر ، وشهد الآخر أنه رآه يتقيؤها .

فقال عثمان : لم يتقيأها حتى شربها ، وقال لعلى : أقم عليه الحد . فقال علىٌّ للحسن : أقم عليه الحد .

فقال الحسن : وَلِّ حارَّها من تولى قارَّها .(١٤٠)

فأمر عبد الله بن جعفر بجلده ، فأخذ بجلده وعلىٌّ يعد حتى بلغ أربعين فقال لعبد الله : أمسك ، جلد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الخمر أربعين ، وجلد أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أربعين ـ وجلد عمر ـ رضى الله عنه ـ ثمانين ، وكل سُنَّة .(١٤١)

وعزل عثمان الوليد عن ولاية الكوفة ، وأعاد إليها سعد بن أبي وقاص ، فلما أراد أن يصعد المنبر أمر بغسله فغسل

وهكذا يصدق وصف القرآن فى الوليد .

---

(١٤٠) مثل يضرب ، ومعناه : ولِّ الجلد من يلزم الوليد أمره ويعنيه شأنه ، والقار ضد الحار .

(١٤١) راجع أسد الغابة جـ٥ صـ٤٥٢ ـ السيرة الحلبية جـ٢ صـ٥٩٣

عود الى غزوة بنى المصطلق

وقد حدثت جويرية ـ رضى الله عنها ـ عن بعض أخبار غزوة بنى المصطلق فقالت : لما أتانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن على المريسيع ـ مكان الماء ـ سمعت أبى يقول : أتانا مالاقبل لنا به ، فلبثت أرى من الناس والخيل والسلاح مالاأصف من الكثرة .

فلما أن أسلمت ورجعنا وتزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ جعلت أنظر الى المسلمين فرأيت أنهم ليسوا كما كنت أرى فعلمت أنه رعب من الله ـ تعالى ـ يلقيه فى قلوب المشركين كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ـ وعد منها ـ نصرت بالرعب مسيرة شهر . .

وذكر رجل من بنى المصطلق ممن أسلم وحسن إسلامه قال : لقد كنا نرى رجالا بيضا على خيل بلق ماكنا نراهم قبل ولابعد .

وهذا الخبر يدل على أن الملائكة كانت مددا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الغزوة .

وقد جعل الله الملائكة جندا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزواته وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى غزوات بدر والأحزاب وحنين . فقال فى غزوة بدر

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ (١٤٢)

(١٤٢) الأنفال ٩

وقال

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ (١٤٣)

وقال فى غزوة الأحزاب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾

وفى حنين قال :

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ (١٤٥)

وليس معنى ذلك أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يؤيد بالملائكة فى غير هذه الغزوات فقد تعهد الله نبيه بالنصر والتأييد فى مختلف المواطن والمواقف .

هل قتل أحد من المسلمين فى هذه الغزوة :

ذكر الرواة أنه لم يقتل من المسلمين فى هذه الغزوة سوى رجل واحد هو

---

(١٤٣) الأنفال ١٢

(١٤٤) الأحزاب ٩

(١٤٥) التوبة ٢٦

هشام بن صبابة ـ رضى الله عنه ـ ولم يقتل بيد المشركين ، ولكن قتله بعض الأنصار خطأ ، فقد ظنوه من العدو .

وقدم أخوه مقيس بن صبابة من مكة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مظهرا الإسلام ومطالبا بديه أخيه ، فأرسل النبى معه زهير بن عياض الفهرى الى بنى النجار فقال لهم : ادفعوا دية هشام بن صبابة لأخيه ـ فجمعوا لمقيس دية أخيه . فلما صارت الدية اليه ، وثب على زهير فقتله وارتد إلى الشرك وقال فى ذلك أبياتا منها :

فأدركت ثارى واضطجعت موسدا وكنت إلى الأوثان أول راجع

وقد أهدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دمه فقتل يوم فتح مكة(١٤٦)

دور المنافقين فى تلك الغزوة :

وكشر النفاق عن أنيابه وأعلن عن نفسه بصراحة وكأنه قد هاله انتصار المسلمين العظيم فى ذلك اليوم ، أو قد غاظه إطلاق الأسرى وإسلامهم بعد زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جويرية بنت الحارث . . . . . ذلك الزواج الذى كان بركة عظيمة على بنى المصطلق ، فردهم الى الحرية بعد الأسر . . . . . والنفاق دائما يلتمس الاسباب ليبث سمومه وينتهز الفرص للتعبير عن رأيه السيء . . وقد حدث أن اختصم أجير لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان يقود له فرسه ويقال له ـ جهجاه بن قيس الغفارى مع سنان بن وبر الجهنى وكان من حلفاء الخزرج .

---

(١٤٦) أسد الغابة حـ٥ صـ٤٠٠ ـ السيرة الحلبية حـ٢ صـ٥٩٤

وامتدت يد جهجاه الى سنان فلطمه أو دفعه ..

فنادي سنان قائلا : ياللأنصار ،

ونادي جهجاه قائلا : ياللمهاجرين ..

وهب كل فريق يلبى الدعوة مناصرا فريقه وأوشكت الفتنة أن تطل ـ حتى خرج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبادرا فقال : مابال دعوى الجاهلية ؟

وأُخبِر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما حدث فقال : دعوها فانها منتنة ـ أى دعوا التنادى بالعصبية المشئومة .

هذا فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سكن الفتنة . وحذر منها ، وقال : « من دعا بدعوى الجاهلية كان من محشى جهنم » أى ممن يرمى به فيها ـ قيل : يارسول الله ، وان صام وإن صلى وإن زعم أنه مسلم ؟

قال : وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ..

لقد عاد المسلمون الى صوابهم وأقبلوا على المضروب فسكت عن حقه وانتهى الأمر .... أما رأس النفاق ابن سلول فانه قد انتهز هذه الفرصة وأخذ يبث سمومه وأقبل على رهطه من المنافقين وكان عندهم زيد بن أرقم رضى الله عنه ـ فقال لهم : والله مارأيت كاليوم مذلة . نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، وأنكرونا ملتنا ، والله ماحالنا معاشر الأنصار مع جلابيب قريش الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، والله لقد ظننت أنى سأموت قبل أن

أسمع هاتفا يهتف بما سمعت ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل - وهو يعنى بالأعز نفسه وبالأذل - النبى - صلى الله عليه وسلم -

ثم أقبل على أصحابه قائلا : هذا مافعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم . . . ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا فقتلتم دونهم ، فأيتمتم أولادكم ، وقل عددكم وكثر عددهم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد . .

سمع ذلك زيد بن أرقم - رضى الله عنه - فأنهاه إلى النبى - ﷺ - أو ذكره لعمه أو لعمر فَنُقِل إلى الرسول - ﷺ - وقد كره رسول الله - ﷺ - هذا القول وتغير وجهه . .

قال زيد : فدعانى رسول الله - ﷺ - وقال لى : ياغلام لعلك غضبت منه فتقولت عليه .

فقلت : لقد سمعته منه .

قال : لعله أخطأ سمعك . .

وأقبل من حضر من الأنصار على زيد يلومه ، وقالوا له : عمدت إلى سيد قومك تقول عليه مالم يقل . .

ذلك أن النبى - ﷺ - كان قد استدعى عبد الله بن أبى - وجابهه بما قال . فحلف وجحد .. قال زيد : فما كان إلا أن لامنى فى ذلك كثير من الناس .

فوقع عَلَىَّ من جرأتهم مالم يقع على أحد ..

لقد كان النبى - ﷺ - واثقا من صدق زيد ، فهو لايستكثر على ابن أبى أن يقول هذا وأكثر منه .. ولكنه أراد أن يطفىء فتنة أوشكت أن تشتعل .

لقد جاء عمر بن الخطاب الى النبى - ﷺ - يقول له : ائذن لى أن أضرب عنق عبدالله بن أبىّ . فقال له النبى - ﷺ - : كيف ياعمر اذا تحدث النّاس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟

فقال عمر : يارسول الله ، إن كرهت أن يقتله مهاجرى فمر به انصاريا فليقتله .

فقال النبى - ﷺ - ترعد له آذان وأنوف كثيرة بيثرب .

وجاء عبدالله بن عبدالله بن أبىّ للنبى ﷺ يقول له : يارسول الله ، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى - يعنى أباه - لما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فمرنى أن أحمل لك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ماكان بها رجل أبر بوالده منى - وانى أخشى أن غيرى يقتله ، فانظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس . فأقتله ، فأكون قتلت مسلما بمنافق فأدخل النار .

فقال رسول الله - ﷺ - لا نقتله ، بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا .

وعالج النبى - ﷺ - هذه الفتنة بسرعة وحزم ، فحين فشا الحديث وأخذ الناس يتحدثون فيه أذن النبى - ﷺ - بالرحيل فى ساعة لم يكن يسير فيها - لشدة الحر .

فارتحل الناس ، وسار رسول الله - ﷺ - فجاءه أسيد بن حضير - رضى الله عنه - فقال : يارسول الله ، لقد رحلت فى ساعة شديدة ماكنت ترحل فى مثلها .

فقال له النبى - ﷺ - : أما بلغك ماقال صاحبكم ؟ فقال أسيد : اى صاحب يارسول الله ؟

قال النبى - ﷺ - : عبدالله بن أبى بن سلول .

قال : وماقال ؟

قال : زعم أنه إن رجع الى المدينة أخرج الأعز منها الأذل .

فقال أسيد : فأنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الأذل وأنت الأعز .

ثم قال : يارسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاء الله بك ، وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ملكا ، مابقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع

اليهودى ، فهو يرى أنك استلبته ملكا كان سيحصل عليه .

لقد سار النبى ﷺ سيرا حثيثا متتابعا ـ سار يومه ذلك وليلته وصَدْر اليوم التالى حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فما أسرع ان مست جنوبهم الارض حتى ذهبوا فى نوم عميق . .

وانما فعل النبى ـ ﷺ ـ ، ذلك ليشغل الناس عما سمعوا من حديث . .

ولقد تأذى الأنصار مما سمعوا من مقالة عبدالله بن أبي التى نقلت للرسول ـ ﷺ ـ وقال له بعضهم : ياأباالحباب ـ وتلك كنيته ـ إن كنت قلت مانقل الى الرسول . فاذهب وأخبر به النبى ـ ﷺ ـ يستغفر لك ، ولا تجحد فينزل فيك قرآن يكذبك .

وإن لم تكن قلت فاذهب وانف عن نفسك هذا القول .

فحلف بالله أنه ماقال شيئا . .

وقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يابن أبىّ ، ان كنت قلت فتب . فجعل يحلف ماقال . .

فقال الانصار : يارسول الله عسى أن يكون الغلام ـ يعنون زيدا ـ أوهم فى حديثه . .

فسكت رسول الله ﷺ

ضيق زيد وألمه

واشتد الضيق بزيد بن أرقم ، وأصابه شيىء لم يصبه قط ، واعتزل فى

بيته مهموما حتى قال له عمه : ماأردت حتى كذبك الناس وغضبوا منك .

ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يحتجب عن مصاحبة رسول الله ﷺ قال : فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ فى سفر قد خفقت برأسى من الهم ، إذ أتانى رسول الله - ﷺ - فأمسك أذنى وضحك فى وجهى . فما كان يسرنى أن ليس لى بها الخلد فى الدنيا .

ثم إن أبابكر لحقنى فقال : ماقال لك رسول الله ﷺ ؟

قلت : ماقال شيئا إلا أنه عرك أذنى وضحك فى وجهى .

فقال : أبشر .

ثم لحقنى عمر فسألنى .. فقلت له مثل قولى لأبى بكر .

فلما أصبحنا قرأ رسول الله - ﷺ - سورة المنافقين ..

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (١٤٧)

(١٤٧) سورة المنافقون ١ : ٣

لقد نزلت هذه السورة جملة واحدة ففضحت عبدالله بن أبي بن سلول ودمغته بالنفاق والشقاق . .

وكانت لسان صدق فى حق زيد بن أرقم ـ رضى الله عنه ـ وقد تحدثنا عن تلك القصة فيما سبق عند حديثنا عن المنافقين فى المدينة وذكرنا أن عبدالله بن عبد الله بن أبي ـ الإبن سبق الجيش ـ ووقف على باب المدينة .

فلما جاء عبد الله بن أبي الأب ليدخل ، حال ابنه بينه وبين الدخول ، وقال له : لاتدخل .

فقال له أبوه : ماتريد يالكع ؟

فقال الابن المؤمن فى ثقة ويقين : والله لاتدخل حتى تقر أنك الذليل وأن رسول الله ﷺ العزيز . أو حتى يأذن لك رسول الله ـ ﷺ ـ لتعلم من الأعز ومن الأذل ؟ أنت أم رسول الله ﷺ .

وظل هذا المنافق واقفا حتى جاء رسول الله ﷺ ـ فقال للابن : خل عن أبيك فخلى عنه . . قال بعض الرواة :

حين نزلت هذه السورة الكريمة ـ قال زيد بن أرقم ـ رضى الله عنه ـ رأيت رسول الله ﷺ يعرق جبينه الشريف ، وتثقل يدا راحلته ، فقلت : إن رسول الله ﷺ يوحى إليه ، ورجوت ان ينزل الله تصديقى . فلما سُرِّى

عن رسول الله ﷺ أخذ بأذنى وانا على راحلتى يرفعها إلى أعلى حتى ارتفعت عن مقعدى ، وهو يقول : وعت أذنك ياغلام ، وصدق الله حديثك وكذب المنافقين .

وفى رواية : هذا الذى أوفى الله بأذنه ، ونزل

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (١٤٨)

فكان يقال لزيد بن أرقم ـ رضى الله عنه : ذو الأذن الواعية(١٤٩) .

وأقبل الأنصار على عبد الله بن أبىّ يعنفونه ويعاتبونه . حتى قال النبى ﷺ لعمر ـ رضى الله عنه : كيف ترى ياعمر ؟ إنى والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .

فقال عمر : قد والله علمت .. لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم بركة من أمرى .

حكمة النبى فى علاج الامور

لقد ظهرت حكمة النبى ﷺ واضحة فى علاج هذه المشكلة وإطفاء الفتنة التى أطلت بقرنيها . وحاول الشيطان أن ينفخ فيها ليزيدها اشتعالا ، وفى

---

(١٤٨) الحاقة ١٢

(١٤٩) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٦٠٣

الجيش منافقون كثيرون خرجوا يتصيدون فى الماء العكر ، ويبحثون عن شيء مثل ذلك ليقوموا به ويقعدوا .

ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يترك فرصة لكل ذلك . فأذن بالرحيل فى شدة الحر وسار بهم سيرا حثيثا متتابعا لم يترك لهم فرصة للراحة والتلبث حتى أعياهم السفر ، فلما نزلوا عن رواحلهم استغرقوا فى نوم عميق أنساهم ذلك الحديث . .

والكلمة الصغيرة تكبر بدورانها على الألسنة، فمايزال هذا يضيف اليها وذاك يعلق عليها حتى تتضخم وتصبح أمرا خطيرا ، وقديما قال الشاعر العربى الحكيم : « فان الحرب أولها الكلام » .

فلم يترك النبى - ﷺ - بحكمته الثاقبة المستقاة من نبع النبوة فرصة لتداول ماحدث بين المسلمين ، وأجهدهم فى السير حتى كادوا ينسون ماحدث .

وحين وصلوا الى المدينة واستقروا بها لم يحاسب الرسول المنافقين على مااقترفوه من قول ، بل ترك الأمر للسماء التى تولت إعلانه على الملأ ، فبرأت ساحة المسلم المخلص « زيد بن أرقم » بعد ان كادت أصابع الريبة تشير

اليه ، وألسنة الشر تتطاول عليه . وفضحت المنافق الآثم وأظهرت زوره وبهتانه وضلاله ، حتى انفض عنه من كان يلتف حوله ، وتخلى عنه من كان يدافع عنه . .

ويجب أن نلاحظ أن هذه الحكمة البالغة فى علاج ماينجم من مشكلات إنما هى مستقاة من معدن النبوة التى أتاها الله سيدنا رسول الله ﷺ .

« ومن الخطأ الفادح أن يعمد باحث فيحلل مثل هذه الصفات فى حياته - ﷺ - دون أن يربطها بمصدرها الأساسى الأول وهو النبوة والرسالة - وتلك خطة يختارها محترفو الغزو الفكرى لشغل المسلمين عن التأمل فى نبوته ﷺ ويتلقفها منهم أولئك الذين فاقوا القردة فى التقليد الأعمى(١٥٠) » .

إصرار على النفاق

وعلى الرغم من هذه الفضيحة الكبيرة التى دمغت رأس النفاق عبدالله بن أبى - وأخزته بين قومه فانه لم يقلع عن التمادى فى النفاق ، والامعان فى الشقاق .

فمازال قلبه يتنزى حقدا على النبى - ﷺ - ويتلظى كراهية وشرا ، ولقد كان بإمكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قتله بعد نزول هذه السورة الدامغة ، ولكنه صبر وعفا ، كما كان يراعى مكانة ابنه التقى النقى ، لقد

---

(١٥٠) فقه السيرة - د. محمد سعيد رمضان البوطى صـ٢٢٢

كان ابنه عبدالله ـ وكان اسمه الحباب ـ فسماه النبي ـ ﷺ ـ عبدالله ـ كان آية في الصدق والاخلاص ، وقد علمنا كيف ذهب إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يسمح له بقتل أبيه . ولكنه نهاه عن ذلك . وعلمنا كيف أثر رضا الله ورسوله على رضا أبيه ، فحال بين أبيه وبين دخول المدينة حتى يعترف بأنه هو الأذل ، وحتى يسمح له النبي ﷺ بالدخول .

وليس من شك في أن عبد الله الابن كان شديد الألم لموقف أبيه من الاسلام ، وكم كان يتمنى ويحرص على أن يبدل أبوه هذا الموقف العنيد ويستبدل به موقفا آخر فيه حب للاسلام وإقبال عليه ، وقد سلك الابن من الطرق ماظن أنها ربما تغير موقف أبيه . ذكر القرطبي عند تفسير قوله ـ تعالى :

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (١٥١)

---

(١٥١) المجادلة ٢٢

قال : نزلت هذه الآية فى عبدالله بن عبدالله بن أبى .

فقد جلس إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ، فشرب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عبدالله : يارسول الله ألا أبقيت من شرابك هذا فضلة أسقيها أبى ، لعل الله يطهر بها قلبه ؟

فأفضل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضلة ، فأتى عبدالله أباه بها فقال له أبوه : ماهذا ؟

فقال : هذه فضلة من شراب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بها .

فقال له أبوه : فهلا جئتنى ببول أمك فانه أطهر منها !!

فغضب عبدالله الابن وجاء الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : يارسول الله ، أما أذنت لى فى قتل أبى ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل ترفق به وتحسن إليه وياليت الأمر وقف عند هذا الحد ، ولكنه تمادى الى أبعد من ذلك ، فكان من المروجين لحديث الافك الذى سنتحدث عنه الآن .

الحرب النفسية ضد المسلمين

- حديث الإفك .
- الوحي ينزل بالبراءة .
- صفوان بن المعطل .
- النبي يحد القاذفين .
- الصحابة يُسَرُّون عن النبي .
- عظات وعبر .

حديث الإفك

لم يقلع عبد الله بن أُبَيّ عن نفاقه ، ولم يتراجع عن شقاقه ، لم يتحرك فى نفسه وازع يرده إلى الله ورسوله ، ولم تثر فى داخله نخوة تذكره أن ما حدث منه عيب لا يليق بإنسان عنده ذرة من كرامة أو نفحة من مروءة . .

ولقد حاول معه أحد المقربين إليه أن يحمله على الذهاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليستغفر له ، عسى أن يمحو الله عنه ذنبه ويكفر عنه سيأته ، واستغفار الرسول ﷺ من شأنه أن يمحو السيئات ويكفر الخطايا ، مصداقاً لقول الحق فى شأنه .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (١٥٢)

ولكنه أصر على موقفه ، ولوى رأسه ، وأبى إباء شديداً ، وكان كما صوره القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (١٥٣)

---

(١٥٢) النساء ٦٤   (١٥٣) المنافقون ٥ ، ٦

ولقد قرر تصعيد حملته ضد المسلمين ، بل فتح جبهة جديدة حاول أن ينال بها من شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لقد رأى التفاف المسلمين حول رسولهم الكريم وتأييدهم القوى له ، بعد أن نزل القرآن الكريم فاضحاً موقف النفاق وأهله ، وبعد أن رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزداد كل يوم قوة أمام خصومه ، فها هو ذا يعود من غزواته المظفرة غانماً سالماً ، وكأن معركة أحد التى جُرح فيها واستشهد فيها سبعون من أصحابه لم تزده إلا قوة ومنعة ، ولم تزد أصحابه إلا يقظة وطاعة ، فليجرب سلاحاً جديداً علَّه يستطيع أن ينال به من قوة هذه الشخصية الطاغية التى استولت على قلوب الأوس والخزرج ، وجعلتهم ينفضون من حول زعيمهم الذى أوشك أن يتوج ملكاً على المدينة لولا حلول النبى ﷺ فيها .

إن أقوى سلاح يؤثر فى العربى أن يتناول الناس عرضه .. هكذا قال عبد الله بن أبَىّ فى نفسه .. وهذه حقيقة طالما أذلت الشرفاء ووضعت الأعزاء ..

فليتناول إذن عرض محمد ﷺ .. حقاً إنه سلاح رخيص ، ولكن الحقد الأعمى سول له استخدامه ..

وهل للمنافق ضمير يفرق به أنواع الأسلحة التى يستخدمها ؟
إنه يريد أن يهزم خصمه فحسب . أما نوع السلاح الذى يهزمه به فليكن ما يكون ..

وأعد نفسه لهذه الحرب الخسيسة .

وهيأت الظروف له فرصة إعلانها . .

فقد رأى صفوان بن المعطل السلمى ـ وهو صحابى جليل ـ يقود جملاً تركبه أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ ويدخل بها المدينة .

فقال عبد الله : من هذه ؟

قالوا : عائشة زوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال الفاسق على الفور : فجر بها ورب الكعبة . .

وفى رواية : ما برئت منه ، وما برىء منها ، وصار يقول : انظروا ، امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت .

وأخذ يشيع ذلك فى المدينة ، ويتحدث به فى كل مجلس ويستمع إلى أثره ويستوشيه ـ أى يستخرجه بالبحث عنه . . وقد كذب هذا المنافق وافترى . . .

« سبحانك ربى هذا بهتان عظيم » . .

أما لماذا كانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فوق جمل صفوان . . فلذلك قصة ، نذكرها من أولها بلسان عائشة ـ رضى الله عنها ـ كما أوردها البخارى فى صحيحه :

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معه .

« قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة[١٥٤] غزاها فخرج فيها سهمى ، فخرجت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدما أنزل الحجاب ، فكنت أُحْمَلُ فى هودجى ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزوته تلك ، وقفل راجعاً ودنونا من المدينة قافلين أذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين أذنوا بالرحيل لبعض شئونى فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى ، فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت ألتمس عقدى ، فمكثت مدة أبحث عنه .

قالت : ورحل الجيش ، وحمل هودجى فرحل على بعيرى الذى كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنى فيه . وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهْبُلن[١٥٥] ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن ما قل وخشن من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، وسار الجمل مع الركب .

ووجدت عقدى ولكن القوم كانوا قد رحلوا ، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب ، فتيممت مكانى الذى كنت به ، وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلىَّ ، فبينما أنا جالسة فى مكانى غلبتنى عينى فنمت .

---

(١٥٤) هى غزوة بنى المصطلق التى نحن بصددها
(١٥٥) يهلبن : يسمن

وكان صفوان بن المعطل السُّلَمِى من وراء الجيش ، فأصبح عند مكانى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفنى حين رآنى ، وكان رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه[١٥٦] ، حين عرفنى ، فخمرت وجهى[١٥٧] ، والله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته ، فوطىء على يدها . فقمت إليها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة ، حتى أتينا الجيش موغرين[١٥٨] فى نحر الظهيرة وهم نزول . .

قالت : فهلك من هلك ، وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول .

قالت : فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، وإنما يدخل علىّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيسلم ثم يسألنى عن حالى ثم ينصرف . فذلك يريبنى ولا أشعر بالسر . حتى نقهت ، فخرجت مع أم مسطح قِبَلَ المناصع ـ مكان كانوا يقضون فيه حاجتهم ـ وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا .

---

(١٥٦) لأنه حين رآها قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(١٥٧) أى وضعت عليه الخمار

(١٥٨) مسرعين ، ونحر الظهيرة : أولها . .

قالت : فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهى ابنة أبى رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب .... فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَلَ بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح .

فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟

فقالت : أو لم تسمعى ما قال ؟

قلت : وما قال ؟

فأخبرتنى بقول أهل الإفك ..

قالت عائشة : فازددت مرضاً على مرضى .



فلما رجعت إلى بيتى دخل علىَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فسلم ، ثم قال :

كيف تيكم ؟

فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ ـ قالت : وكنت أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ـ فأذن لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقلت لأمى : يا أمتاه ، ماذا يتحدث الناس ؟

قالت : يا بنية ، هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، له أعداء إلا كثر القول عليها .

قالت عائشة : فقلت : سبحان الله ، أو لقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتمل بنوم ، ثم أصبحت أبكى .

قالت : ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين أبطأ الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله .

قالت : فأما أسامة فأشار على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم لهم فى نفسه .. قال أسامة : أهلك ولا نعلم إلا خيرا ، وأما علىٌّ فقال : يا رسول الله ، لم يضيِّق الله عليك والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك .

قالت : فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بريرة ، فقال : أى بريرة ، هل رأيت من شىء يريبك ؟

قالت له بريرة : والذى بعثك بالحق ، ما رأيت عليها أمراً قط ولا أعرف عنها إلا كل خير .

قالت عائشة - رضى الله عنها - : فقام النبى - صلى الله عليه وسلم - من يومه ، فوقف على المنبر فقال : يا معشر المسلمين من يُعْذِرُنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ، والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا ...

فقام سعد بن معاذ أخو بنى عبد الأشهل فقال : أنا يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

فقام رجل من الخزرج ـ وكانت أم حسان بنت عمه ـ وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل .

فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد ـ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فلا تجادل عن المنافقين وإلا كنت مثلهم .

فثار الحيَّان : الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم على المنبر .

فلم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهم حتى سكنوا وسكن .
قالت عائشة : فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم .
وأصبح أبواى عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوماً . . حتى انى لأظن أن البكاء فالق كبدى .

فبينما أبواى جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت علىَّ امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى ، فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم ـ علينا ، فسلم ثم جلس . ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل . . وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء .

قالت : فتشهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جلس ، ثم قال : أما بعد يا عائشة انه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما قال .

فقال أبى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ
فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ
قالت أمى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقلت ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً : إنى والله لقد علمت ـ لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، فوالله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال :

« فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي . والله يعلم أنى حينئذ بريئة . وكنت على يقين من أن الله سيظهر براءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله ـ تعالى ـ منزل فى شأنى وحيا يتلى ، فقد كنت أرى أنى أقل من أن يتكلم الله فىّ بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النوم رؤيا يبرئُنى الله بها ، فوالله ما رام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أُنزل عليه ، فأخذه ما يأخذه من البرحاء ، حتى انه ليتحدر منه العرق مثل الجمان ، وهو فى يوم شاتٍ ، وذلك من ثقل القول الذى أُنزل عليه .

قالت : فَسُرِّىَ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يضحك . فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال : يا عائشة ، لقد برَّأك الله . قالت : فقالت لى أمى : قومى إليه . فقلت : لا والله لا أقوم إليه ، فإنى لا أحمد إلا الله ـ عز وجل ـ

وأنزل الله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ

فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ
بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ
عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا
سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ
أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (١٥٩)

---

(١٥٩) النور ١١ : ٢١

فقال أبو بكر ـ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذى قاله فى حق عائشة : فأنزل الله ـ تعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١٦٠)

قال أبو بكر : بلى والله ، انى لأحب أن يغفر الله لى .

فأرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأل زينب بنت جحش عن أمرى ، فقال لزينب : ماذا علمت أو رأيت ؟

فقالت : يا رسول الله، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً .

---

(١٦٠) النور ٢٢

قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - فعصمها الله بالورع . وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك(١٦١) .

هذا ما قصته السيدة عائشة - رضى الله عنها - حول هذه الحادثة التى شغلت الرأى الاسلامى فى المدينة طوال شهر كامل ، كان فى خلالها عبد الله بن أبى بن سلول لا يكف عن العبث والترويج للفتنة والتشفى . .

وربما كان قد وجد بعض الآذان الصاغية له ، والألسنة المتجاوبة معه ، ولكن سواد المسلمين كانوا أمام هذه الشائعة بين غاضب لا يملك التنفيس عن غضبه ، أو معرض عن الخوض فيها يقال تأدباً مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو حزين لذلك التردى الذى وصلت إليه أخلاق المنافقين .

صفوان بن المعطل

أما صفوان بن المعطل الذى ذكره عبد الله بن أبىّ ، والذى حضرت عائشة - رضى الله عنها - على ناقته ، فهو من خيرة الصحابة وشجعانهم ، وكان يعهد إليه فى الحروب بساقة الجيش ، يتخلف عن الجيش ليلتقط ما يسقط من المتاع .

---

(١٦١) فتح البارى لابن حجر - كتاب المغازى ، الحديث رقم ٤١٤١ جـ ٧ صـ ٤٩٦

وقيل : إنه كان ثقيل النوم لا يستيقظ حتى يرتحل الناس ، وهذا هو الذى أخره وكان صحابياً جليلاً حريصاً على الاستفادة من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

روى أبو هريرة قال : سأل صفوان بن المعطل السلمى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ، إنى سائلك عن أمر أنت به عالم وأنا به جاهل .

قال : ما هو ؟

قال : هل من ساعات الليل والنهار ساعة تكره فيها الصلاة ؟

قال : نعم ، إذا صليت الصبح فدع الصلاة حتى تطلع الشمس ، فإنها تطلع بين قرنى شيطان ، ثم إن الصلاة متقبلة حتى تستوى الشمس على رأسك قيد رمح ، فإذا كانت على رأسك فدع الصلاة تلك الساعة التى تُسجر ـ توقد ـ فيها جهنم حتى ترتفع الشمس عن حاجبك الأيمن ، فإذا زالت فصل فالصلاة متقبلة محضورة ـ تحضرها الملائكة ، حتى تصلى العصر ، ثم دع الصلاة حتى تغرب الشمس .

فحرصه على الاستفادة من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدل على حرصه أيضاً على الصلاة فى أوقاتها . وقد ظل صفوان مجاهداً طيلة حياته ، حتى مات شهيداً فى غزوة أرمينية سنة تسع عشرة فى خلافة عمر ـ رضى الله

عنه ـ وقيل : بل امتد به العمر حتى غزا الروم فى خلافة معاوية ، فاندقت ساقه ثم لم يزل يطاعن حتى مات سنة ثمان وخمسين .

وحين بلغه أن حسان بن ثابت كان من الخائضين فى حديث الإفك ذهب إليه فضربه بالسيف فجرحه وقال :

تلق ذباب السيف منى فإننى غلام إذا هوجيت ليس بشاعر
ولكننى أحمى حماى وأشتقى من الباهت الرامى البراءِ الطواهر(١٦٢)

فشكا حسان الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأهدر جرحه واستوهبه إياه . . . . . وهذا يدل على أن حسان كان ممن خاض فى ذلك الحديث . وقيل : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عوضه عن جرحه حائطاً من نخل .



النبى ﷺ يحد القاذفين

وبعد أن نزلت الآيات المبرئة لعائشة ـ رضى الله عنها ـ أقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حد القذف ثمانين جلدة على الذين تولوا كبره . .

فقيل : إنه أقام الحد على عبد الله بن أبى ، ومسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش . وفى ذلك يقول أحد الشعراء المسلمين ـ فيما يذكره القرطبى :

---

(١٦٢) أسد الغابة جـ٣ صـ٣٠

لقد ذاق حسان الذى كان أهله وحمنة إذ قالوا هجيرا ومسطح
وابن سلول ذاق فى الحد خزية كما خاض فى إفك من القول يفصح
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم وسخطة ذى العرش الكريم فأبرحوا(١٦٣)
وآذوا رسول الله فيها فَجُلِّلُوا مخازى تبقى عُمِّموها وفُضِّحوا
فصُبَّ عليهم محصدات كأنها شآبيب قطر من ذرا المزن تسفح

وقال بعض العلماء : لم يحد النبى - ﷺ - ابن سلول ، لأن الله - تعالى - قد أعدَّله فى الآخرة عذابا عظيما ، فلو حد فى الدنيا لكان ذلك نقصا من عذابه فى الآخرة ، وتخفيفا عنه . . . . ومع أن الله - تعالى - قد شهد ببراءة عائشة - رضى الله عنها - وبكذب كل من رماها ، فقد حصلت فائدة الحد ، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقذوف كما قال الله - تعالى - « **فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون** »

وإنما حُدَّ هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ماصدر عنهم من القذف حتى لايبقى عليهم تبعة من ذلك فى الآخرة ، وقد قال - ﷺ - فى الحدود : « **إنها كفارة لمن أقيمت عليه** »(١٦٤) . . . .

---

(١٦٣) أبرحوا : جاءوا بأمر مفرط فى الاثم
(١٦٤) تفسير القرطبى - سورة النور -

لقد كان حسان بن ثابت شاعراً ، والشاعر يتقلب مع الأهواء والعاطفة أحيانا ـ حتى إنه مال إلى ابن سلول فى قضية جهجاه الغفارى التى سبق أن أشرنا إليه ، ولنقرأ معا ما قاله صاحب مهذب الأغانى فى ذلك :

قال : خرج رجل يقال له جهجاه الغفارى بفرس لرسول الله ـ ﷺ ـ وفرس له يسقيها ، فأوردهما الماء ، فوجد على الماء فتية من الأنصار فتنازعوا ماقتتلوا . فبلغ ذلك حسان فقال ـ وهو يريد المهاجرين من القبائل الذين قدموا على رسول الله ـ ﷺ ـ فى الاسلام :

أمسى الخلابيس قد عزوا وقد كثروا　　　وابن القريعة أمسى بيضة البلد(١٦٥)

يمشون بالقول سرا فى مهادنة　　　تهدداً لى كأنى لست من أحد

فقال له النبى ـ ﷺ ـ وقد أغضبه كلامه : ياحسان نفست علىَّ إسلام قومى ؟

فغدا صفوان بن المعطل السلمى على حسان فضربه بالسيف ، وقال صفوان :

تـلق ذبـاب السيف عـنى فإننى　　　غـلام إذا هوجيت لست بشـاعر

---

(١٦٥) فى رواية : أمسى الجلابيب ويقصد به : الطارئين الذين ليس لهم أصل فى البلد ، وابن القريعة يقصد نفسه ، والقريعة : السيد واستعمل بيضة البلد فى الذم .

ـ وعلينا أن نتنبه إلى أن صفوان كان قد امتلأ غيظا من حسان ، فبينا حسان يتناول المهاجرين إذا به يخوض فى الإفك . فكان لابد من الانتقام منه ـ فلما ضربه صفوان وثب قوم حسان على صفوان فحبسوه ، ثم جاءوا سعد ابن عبادة فذكروا له ما فعل صفوان وما فعلوا ، فلامهم أن فعلوا ما فعلوا بغير أمر رسول الله ـ ﷺ ـ ودعا بصفوان وأرضاه .

وغضب رسول الله ـ ﷺ ـ على حسان وأعرض عنه ، فأقبل حسان على النبى ـ ﷺ ـ يستعطفه ، ويقول له : يارسول الله ، احفظ قولى :

هجوت محمدا فأجبت عنه — وعند الله فى ذاك الجزاء
فإن أبى ووالده وعرضى — لعرض محمد منكم وقاء

فرضى عنه النبى ـ ﷺ ـ(166) .

وأراد حسان أن يكفر عن خطيئته فقال فى عائشة ـ رضى الله عنها ـ :

حصان رزان ماتُزَنُّ بريبة — وتصبح غرثى من لحوم الغوافل(167)
حليلة خير الناس دينا ومنصبا — نبى الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حى من لؤى بن غالب — كرام المساعى مجدها غير زائل

---

(166) مهذب الأغانى لمحمد الخضرى جـ ١ صـ ١٥٦

(167) الحصان : العفيفة ، الرزان : الوقور الثابتة ، تزن : تتهم ، غرثى : جائعة ، الغوافل : الغافلة ، يعنى بذلك أنها لاتخوض فى أعراض الناس

مهـذبة قد طـيب الله خيمها[١٦٨] وطهرها من كل شين وباطل
فإن كان مابُلِّغـتِ أنى قلتـه فلا رفعت سوطى إلىَّ أناملى
فكيف وودى ماحييت ونصرق لآل رســول الله زين المحـافل
له رُتَبٌ عال على الناس فضلها تقاصر عنها سورة المتطاول

أما مسطح بن أثاثة فلا تعليل لخوضة إلا الغفلة عن حق الإسلام أولا وحق القرابة ثانيا .

وقد كان يمت بصلة القرابة للنبى - ﷺ - .
ونسبه هو : مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف .
وأمه بنت أبى رُهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها خالة أبى بكر - رضى الله عنه -

فهو قريب للنبى - ﷺ - وقريب لأبى بكر - رضى الله عنه -
وبمقتضى هذا الحق كان يجب أن يعف عن الخوض وأن يكف غيره عنه .

وعلى كل فقد كفَّرت له بدرٌ أولا لأنه شهدها ، ثم الحد الذى أقيم عليه ثانيا -

وقد اعتذر عن نفسه قائلا : إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول .

(١٦٨) الخيم - بكسر الخاء - الشيمة والطبيعة .

فقال له أبو بكر : لقد ضحكت وشاركت فيما قيل .

وأقسم أبو بكر أن يقطع صلته عنه ، فقد كان ينفق عليه لقرابته وحاجته فلما نزلت الآية « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة .... » عاد أبو بكر إلى وصله كما كان . بل أعطاه ضعف ما كان يعطيه ، وكفر عن يمينه ، استجابة لأدب القرآن ، ولقول النبي - ﷺ - : « من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » ولنذكر هذه الطرفة فى هذا المقام لمناسبتها له :

منع ابن المقرى وهو من العلماء الأجلاء ولده النفقة تأديباً له على أمر وقع منه ، فكتب الابن إلى والده هذه الأبيات :-

لاتقطعنْ عادة بر ولا تجعلْ عقاب المرء فى رزقه
فإن أمر الإفك من مِسْطح يحط قدر النجم عن أُفقه
وقد جرى منه الذى قد جرى وعُوتب الصِّدِّيق فى حقه

فكتب إليه والده يرحمه الله هذه الأبيات :-

قد يمنع المضطرُ من ميتة إذا عصى بالسير فى طرقه
لأنه يقوى على توبة تكون إيصالا إلى رزقه
لو لم يتب مسطح من ذنبه ماعوتب الصِّدِّيق فى حقه(١٦٩)

أما حمنة فهى بنت جحش بن رباب من بنى أسد ، وأمها أميمة بنت

---

(١٦٩) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٦١٢

عبد المطلب عمة رسول الله ـ ﷺ ـ وكنيتها أم حبيبة .

فقد دفعها إلى الخوض فى الإفك حميتها على أختها زينب زوج رسول الله ـ ﷺ ـ وهى حمية لامبرر لها ، وغَيْرة لاسندلها ، فإن زينب ـ رضى الله عنها ـ وكانت هى الأحق بالغيرة من عائشة لم تخض فى الإفك . . . ولكنها قالت : ما علمت عنها إلاخيرا .

وعلى كل فقد كَفَّرت حمنة عن ذنبها بالحد ، والتوبة الصادقة .

الصحابة كانوا يحاولون التسرية عن النبى .

لقد اهتم النبى ـ ﷺ ـ من هذا الحديث ، مع تيقنه ببراءة أهله . ولكنه اهتم وحزن ، لأن هذا الأمر يمس الدين كما يمس شرفه وعفته وعرويته . وكان لايقبل أن يتحدث الناس بمثل هذا الكلام فى حق غيره من الناس . فكيف يكون الحال إذا كان الحديث فى حق أهله المطهرين ؟ . . . . وكان أكثر مقامه ـ ﷺ ـ فى تلك الأيام فى البيت ، وكان أصحابه المقربون يدخلون عليه فيسرون عنه .

دخل عليه عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال : يارسول الله ، أنا أقطع بكذب المنافقين وأَخَذْتُ براءة عائشة ـ رضى الله عنها ـ من الذباب ، لأن الذباب لايقرب بدنك فإذا كان الله قد صان بدنك أن يخالطه الذباب فكيف أهلك ؟

ودخل عليه - ﷺ - عثمان فقال له : يارسول الله . أَخَذْتُ براءة عائشة - رضى الله عنها - من ظلك ، إنى رأيت الله - تعالى - صان ظلك أن يقع على الأرض - لئلا يوطأ بالأقدام - فإذا صان الله ظلك فكيف بأهلك ؟

ودخل عليه على - رضى الله عنه - فقال له : أخذت براءة عائشة من شيء آخر - هو أنا صلينا خلفك وأنت تصلى بنعليك ، ثم إنك خلعت إحدى نعليك

وقلت إن جبريل - عليه السلام - أخبرنى أن فى تلك النعل نجاسة فإذا كان جبريل قد أخبرك بنجاسة نعلك فما بالك بأهلك ؟

وعن أبى أيوب الأنصارى - رضى الله عنه - أنه قال لزوجته أم أيوب : ألا ترين مايقال ؟



فقالت له : لوكنت بدل صفوان أكنت تهم بسوء لمحرم رسول الله - ﷺ - ؟

قال : لا .

قالت : ولوكنت أنا بدل عائشة ماخنت رسول الله - ﷺ - فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك .

هذا مارواه بعض العلماء وذكره الحلبى فى سيرته - من أقوال بعض أصحاب

رسول الله المقربين ، وهو مايليق بقوم أحبوا رسولهم - ﷺ - وودوا جميعا لو يفدونه بأرواحهم .

وهو يدلنا على أن القياس لم يكن بعيدا عن أصحاب رسول الله وهم أقوى الناس ملاحظة وأشدهم ذكاء .

دعاء الفرج

روى الدميرى فى كتابه حياة الحيوان . قالت عائشة - رضى الله عنها : لما خاض الناس فى الإفك ، رأيت فى منامى من يقول لى : مالك ؟

قلت : حزينة مما ذكر الناس

قال : ادعى بهذه يفرج الله عنك

قلت : ماهى ؟

قال : قولى : ياسابغ النعم ، ويادافع النقم ، ويافارج الغمم ، وياكاشف الظلم ، وياأعدل من حكم ، وحسيب من ظُلِم ، وياأول بلا بداية ، ويا آخر بلا نهاية ، اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا .

قالت : فقلت ذلك فانتبهت وقد أنزل الله الفرج

لقد كانت براءة عائشة - رضى الله عنها - آية للمسلمين لِتُعْلِمَهم قدر نبيهم ﷺ - ومنزلته عند ربه ، كما تعلمهم كذلك قدر أهل بيته - رضوان الله عليهم - الذين نزل فى حقهم قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »

وهكذا يدفع الله عن أحبائه ـ فكما دفع عن يوسف التهمة التى وجهت اليه بشاهد من أهل امرأة العزيز ـ وبرأ موسى من قول اليهود بأنه آدر ، وبرأ مريم بإنطاق ولدها فى المهد ، كذلك برأ عائشة بالآيات القرآنية الباقية أبد الدهر ، يتلوها الناس ويتعبدون بتلاوتها ، ويتأدبون بأدب القرآن فيقولون « سبحانك هذا بهتان عظيم » حين يسمعون الخائضين فى أعراض الناس بغير حق .

لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم

وبما أنه قد يأتى الخير مما يحسبه الناس شرا ، فإن حديث الإفك الذى قال الله فيه « **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم** » قد نجم عنه خير لعائشة ـ رضى الله عنها ـ

لقد أصبح هذا الحديث لسان صدق وطهر لها فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة ، وفيه إظهار شرف لعائشة حيث أنزل الله براءتها فى القرآن العظيم الذى

﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[١٧٠]

---

(١٧٠) فصلت ٤٢

وفى ذلك تشييد لأمر هذا الدين الذى كانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ من أكبر رواة سنته ، والسنة هى المصدر الثانى لتشريعات هذا الدين الحنيف .

قال ابن كثير : ـ « ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهى فى مرض الموت قال لها أبشرى ، فإنك زوجة رسول الله ـ ﷺ ـ وكان يحبك ، ولم يتزوج بكرا غيرك ، وأنزل الله براءتك من السماء .

وقال ابن جرير فى تفسيره : تفاخرت عائشة وزينب ـ رضى الله عنهما ـ فقالت زينب : أنا التى نزل تزويجى من السماء .

وقالت عائشة : أنا التى نزلت براءتى فى القرآن حين حملنى ابن المعطل على الراحلة

قالت لها زينب : يا عائشة ماقلت حين ركبتها ؟
قالت : قلت حسبى الله ونعم الوكيل .
قالت : قلت كلمة المؤمنين[١٧١]

لقد كانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ كثيرا ما تذكر نعمة الله عليها وتقول فى ذلك : لقد أعطيت تسعا ماأعطيتهن امرأة :لقد نزل جبريل بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بكرا وماتزوج بكرا

---

(١٧١) تفسير ابن كثير جـ ٦ صـ ٢٤ ط دار الشعب

غيرى ، ولقد توفى وإن رأسه فى حجرى ، ولقد قُبر فى بيتى ، وإن الوحى ينزل عليه فى أهله فيفرقون منه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فلا أفرق وأبى - رضى الله عنه - خليفته وصديقه ، ولقد نزلت براءتى من السماء ، ولقد خلقت طيبة من طيب ، ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما »

وقد اكتسبت عائشة بتبرئة القرآن الكريم لها ميزة وفضلا زائدا على غيرها . . .

فقد برئت من فوق سبع سموات .

آية فى رحمة النبى وعفوه

وعلى الرغم مما حدث من ابن سلول ، من شقاق ونفاق وكيد لرسول الله - ﷺ - إلا أن النبى كان يرفق به كما ذكرنا - من أجل ابنه البار الصادق الذى شهد المشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ -

ولقد ابتلى هذا الابن بأبيه أكثر مما ابتلى به غيره . .

لقد جاء عبد الله الابن إلى النبى - ﷺ - حين مات أبوه ، فقال : يارسول الله ، أعطنى قميصك أكفنه فيه ، وصل عليه واستغفر له ، لعل الله يغفر له . . فأعطاه النبى قميصه . .

فلما أراد أن يصلى عليه قال له عمر - رضى الله عنه : أليس قد نهى الله - عز وجل - أن تصلى على المنافقين ؟

فقال النبى - ﷺ - أنا بين خيرتين : استغفر لهم أولا تستغفر لهم . . فصلى عليه . فأنزل الله - تعالى -

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (١٧٢)

فترك الصلاة عليهم(١٧٣) .

ماأحلمك يارسول الله ، وماأرحمك بأمتك ، وماأنبل مشاعرك تجاه أصحابك .

عظات وعبر

لقد حفلت هذه الغزوة كما رأينا بكثير من العبر والأحداث .

فقد حاول المنافقون اختلاق الفتن بغية التأثير على جبهة المسلمين الداخلية ، فلما لم يفلحوا حاولوا اختلاق حديث الإفك للتأثير فى نفس النبى - ﷺ - وتشكيك المسلمين فى أخلاق زوجاته الطاهرات ، ولكن الله برأ ساحة أم المؤمنين عائشة وازداد التفاف المسلمين حول نبيهم ، كما ازداد انكشاف موقف المنافقين الذين أصبحوا موضع ريبة واضحة .

ولقد أثبتت هذه الشائعة شدة صبر النبى - ﷺ - فقد كانت هذه أعظم محنة تعرض لها ، والذى ضاعف من شدتها تأخر الوحى الذى سبب اضطرابا بين الناس ، فلو أن الوحى نزل بسرعة لكشف الحقيقة وفضح أكذوبة المنافقين ولقضى على قالة الناس فى حينها ، ولكن الوحى مكث شهرا أو يزيد فلم يتنزل حتى ثارت الشكوك . .

---

(١٧٢) التوبة ٨٤

(١٧٣) أسد الغابة ٣ / ٢٩٦

ولقد أثبت تأخر الوحى بهذه الصورة أن الوحى ليس طوع النبى - ﷺ - وإنما هو من عند الله يأتى به حسبما يشاء فى الوقت الذى يشاء وفى ذلك دليل على عصمته - ﷺ - وعلى أنه يتلقى من ربه مايفيضه عليه دون أن يكون له فى ذلك أدنى تدخل . .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الدكتور محمد عبد الله دراز حيث قال « ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة - رضى الله عنها - وأبطأ الوحى وطال الأمر والناس يخوضون حتى بلغت القلوب الحناجر ، وهو - صلى الله عليه وسلم - لا يستطيع الا أن يقول بكل تحفظ واحتراس : إنى لا أعلم عنها الا خيراً ؟

ثم إنه بعد أن بذل جهده فى التحرى والسؤال واستشارة الأصحاب ومضى شهر بأكمله والكل يقولون : ماعلمنا عليها من سوء ، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر : ياعائشة أما إنه بلغنى كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله ؟[١٧٤]

وعلى الرغم من ثقة النبى - ﷺ - المطلقة فى صاحبته - رضى الله عنها - إلا أنه مع ذلك بشر تنتابه الأحاسيس التى تنتاب البشر ، ويهتز للمشاعر التى يهتز لها الناس ، فهو يغار كما يغارون - بل هو أشد غيرةً من سواه لتكامل شخصيته واستواء خلقته ، وكان تصرفه فى المحنة هو تصرف

---

(١٧٤) النبأ العظيم د محمد عبد الله دراز

الانسان السوى ، الذى يستنجد بمشورة أصحابه ويطلب الرأى منهم .. لذلك أقبل عليهم يستشيرهم ، كما أقبلوا عليه يطمئنونه ويخففون عنه .

ومما تشير إليه حادثة الإفك من عبر ـ تعليم المسلمين كيف يكونون مثلا عليا فى الأخلاق والتصرفات ، فيرتفعون فوق مستوى مايعتمل فى نفوسهم من إحن ، وينسون مايوجه إليهم من طعنات قاسية من بعض المحيطين بهم على الرغم من قدرتهم على الرد على ذلك .

فهذا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ طُعن من قريب له كان أبو بكر يعتبر نفسه مسئولا عنه ، ينفق عليه ضمن أهله وعياله ، ومع ذلك فقد عض هذا القريب تلك اليد التى تمتد بالاحسان إليه . ويقسم أبو بكر ـ كما يقسم الناس فى مثل هذا الموقف على أن يقطع معونته عن هذا الجاحد الذى لم يرع حق القرابة أو الصداقة أو الدين ..

ولكن الاسلام يوجه أبا بكر إلى غير هذا التصرف ـ لأن هذا التصرف إن صح من عامة الناس فانه لا يصح من الصدِّيق الذى وضعه القرآن بين ذوى الفضل .... وذوو الفضل قدوة عليا وقمة شامخة فى التغاضى عن الزلات ، والعفو عند المقدرة والاحسان إلى من يسىء ..

وهكذا نسى أبو بكر ما وجه إليه من مسطح ، ولم يكتف بذلك بل صفح عنه وعاود صلته بماهو أكثر وأعظم ..

● وبعد كل هذا ، وبعد أن فضح القرآن الكريم النفاق وأهله ، وارتد سهم النفاق إلى نحره . هل أقلع النفاق عن عادته فى الشقاق ؟ وهل فتح صفحة جديدة نسى فيها كيده ورجسه . . ؟

هل بدأ فى التكفير عن سيئاته والتوبة من جرائمه وآثامه ؟

أبداً إنه يبحث عن فرصة أخرى يجرب فيها دسائسه وينفث فيها سمومه ، ويستعرض فيها دخائله . .

ولاحت له هذه الفرصة فى معركة الاحزاب .



غزوة الأحزاب

- دور اليهود في تجميع الأحزاب .
- حفر الخندق .
- المواجهة .
- المشركون يفاجأون بالخندق .
- محاولة تفتيت جبهة العدو .
- محاولات للهجوم .
- إصابة سعد بن معاذ .
- اليهود يتخلون عن المشركين .
- غزوة الأحزاب في القرآن الكريم .
- خوارق في غزوة الأحزاب .
- لماذا فشلت غزوة الأحزاب ؟
- دروس من الغزوة .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

معركة الأحزاب

سميت بذلك الاسم لأن الأحزاب من أهل الكفر تجمعوا فى صعيد واحد ليستأصلوا شأفة المسلمين ـ كما زعموا ، وكما كانوا يرجون .

فقد اجتمع القرشيون فى أربعة آلاف مقاتل ، ومعهم ستة آلاف من بنى سليم وأسد وفزارة وأشجع وغطفان . ثم انضم اليهم يهود بنى قريظة فى عدد كبير . .

وتعاقد الجميع وتحالفوا على أن يفرغوا من قضية الاسلام نهائيا . . . وتوهموا أنهم سوف يذهبون إلى المدينة فى جمعهم هذا الذى لا مثيل له ، وأنهم لن يرجعوا الا وقد قضوا على محمد وصحبه واستولوا على المدينة ومن فيها ومافيها . . وبذلك يستريحون من ذلك الدين إلى الأبد .

كيف تجمع الأحزاب ؟

بعد أن أُجْلى يهود بنى النضير من المدينة ذهب بعضهم الى الشام ، وذهب بعضهم إلى خيبر .

وكان حُيَىّ بن أخطب ضمن الذين توجهوا إلى خيبر ، وقد انطوى قلبه على حقد دفين وعداوة شديدة للمسلمين .

فكوَّن وفدا من ذويه ـ منهم سلام بن مشكم ـ وكان عظيما فيهم ـ وكنانة بن أبى الحقيق ـ وكان رئيسا من رؤسائهم ـ وهوذة بن قيس ، وانضم اليهم أبو عامر الفاسق ، وتوجهوا الى مكة ، واجتمعوا مع أبى سفيان بن حرب ، وتشاوروا معه فى تكوين جيش كبير من القبائل العربية للانقضاض على

المدينة والتخلص من محمد وصحبه ، وقالوا لأبي سفيان : نحن معكم نؤازركم ونقف معكم ونمدكم بماتحتاجون اليه من سلاح وكراع .

رحب أبو سفيان بالعرض ، ووجدها فرصة سانحة للتخلص من العار الذى لحقه بسبب التخلف عن موعد بدر الصغرى . . . . . حيث ذهب النبى - ﷺ - والمسلمون معه ، وتخلف هو ومن معه . مع أنه هو الذى كان قد حدد الموعد .

وقال أبو سفيان لحيى ومن معه : مرحبا بكم رأهلا . إن أحب الناس الينا من أعاننا على محمد .

ووجدها أبو سفيان فرصة أيضا لسؤال هؤلاء النفر من أهل الكتاب عن دينهم ودين محمد . فقال : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم القديم ، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دين محمد ؟

قالوا : بل دينكم خير ، أنتم أهدى سبيلا ، وأولى بالحق منه ، إنكم تعظمون هذا البيت ، وتقومون على السقاية ، وتنحرون البدن ، وتعبدون ماكان يعبد آباؤكم .

فأنزل الله قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا

سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾(١٧٥)

وكأنَّ أبا سفيان أراد أن يزداد وثوقا بأن هؤلاء القوم لم يخدعوه فقال لهم : إنا لن نأمنكم إلا إذا سجدتم لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ـ ففعلوا ـ وهكذا باع اليهود دينهم فى سبيل أحقادهم ..

وليس ذلك غريبا عليهم فطالما جحدوا تعاليم دينهم وقتلوا أنبياءهم ..

وكما فعل اليهود مع قريش وتعاقدوا معهم ، أقبلوا على غطفان ففعلوا معها مثل مافعلوا مع قريش ، بل إنهم قالوا لهم : إنا سنكون معكم وإن قريشا قد بايعونا على ذلك ، وقد جعلنا لكم ولهم تمر خيبر سنة إن أنتم ناصرتمونا وخرجتم مع قريش لحرب محمد .

لقد كان هذا التلويح المادى كفيلا بأن يلوى عنق المترددين ، وبخاصة بعد أن نجح الوفد اليهودى فى إفهام قريش ـ وهى ذات تجارة واسعة ـ أن مركزها التجارى مهدد ، بل أصبح فى خطر داهم إذا استمر المسلمون فى وضعهم الراهن فى المدينة آمنين مستقرين .

ذلك أن قريشا كانت تسير آمنة إلى الشام ، ولكنها بعد موقعة بدر فقدت طريقها البرى ، واستعاضت عنه بطريق ساحلى ولكنها فقدته أيضا بالسرايا التى كان يبثها المسلمون بين حين وآخر ..

فقررت أن توطد تجارتها مع العراق والبحرين واليمن لتعويض مافقدته من تجارتها فى الشام .

---

(١٧٥) النساء ٥١ ، ٥٢

« ولكن الوفد اليهودى أوضح لقريش مقدار الخطر الذى ستتعرض له تجارة أهل مكة من جراء انتشار الاسلام ، فاذا وصل المسلمون إلى اليمامة فان تجارة قريش ستقتصر على اليمن ، لأن الطرق الى العراق والبحرين ستكون عندئذ فى أيدى المسلمين ، وإن مثل هذا التقلص فى التجارة سوف يكون ضربة اقتصادية لا يمكن لقريش أن تقوم لها قائمة بعدها[١٧٦] »

النبى يعلم الخبر

وكانت قبيلة خزاعة تميل الى النبى - ﷺ - فأقبل ركب منهم فى سرعة ، قطع المسافة فى أربع ليال فقط بين مكة والمدينة ، وأخبروا الرسول - ﷺ - بماحدث . فأخذ الأهبة لهذا الهجوم المتوقع .

واستشار النبى - ﷺ - كعادته أصحابه ، فقال لهم : هل نخرج اليهم ، أم نبقى فى المدينة انتظارا لهم ؟

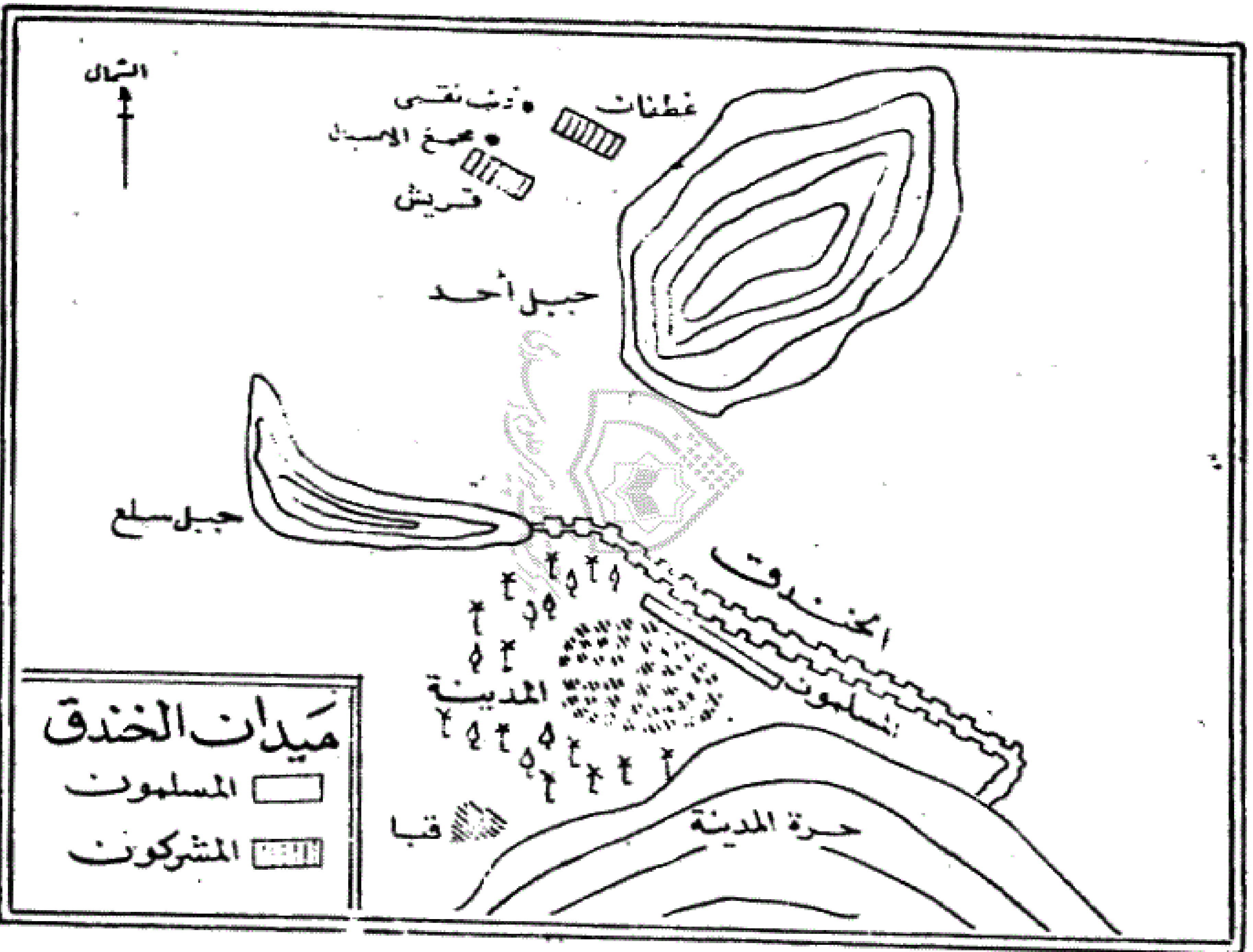
وهنا برز رأى سلمان الفارسى - رضى الله عنه - الذى قال : يارسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا . وأعجب النبى - ﷺ - وصحبه هذا الرأى فأمر بحفر الخندق .

حفر الخندق

قرر المسلمون إذن البقاء فى المدينة وأخذوا يحفرون خندقا عميقا يحيط بشمال المدينة ، ويقع بين حرة المدينة وجبل سلع لأن هذه هى المنطقة الوحيدة المكشوفة - انظر الصورة -

---

(١٧٦) خالد بن الوليد جنرال أ . أكرم صـ ٧٥


ميدان الخندق
المسلمون
المشركون
الشمال
غطفان
ذنب نقمى
مجمع الأسيال
قريش
جبل أحد
جبل سلع
الخندق
المسلمون
المدينة
قبا
حرة المدينة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أما بقية الجهات الأخرى فهى محاطة بالبساتين الكثيفة والحواجز الطبيعية الأخرى ، وذلك يحول دون إمكان إجراء القتال بقوات كبيرة فى أطراف المدينة عدا الشمالية منها . .

وقسم النبى - ﷺ - العمل بين أصحابه ، لكل عشرة منهم أربعون ذراعا ، وشارك النبى - ﷺ - بنفسه فى الحفر تشجيعا لأصحابه ، وحثا لهم على سرعة الفراغ منه .

وكان المسلمون يستعينون بالنبى - ﷺ - اذا واجهتهم صعوبة فى الحفر . كانت الأماكن الصلبة تصير بقدرة الله تحت معول النبى - ﷺ - كثيبا سهلا .

روى أصحاب كتب السيرة قالوا : واجهت الصحابة - رضى الله عنهم - فى حفر الخندق كدية صعبة شاقة ، فشكوا ذلك لرسول الله - ﷺ - فأخذ المعول وضرب فصارت كثيبا أهيل - أى رملا سائلا -

وروى أنه دعا بماء ، ثم دعا بماشاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية . فانهالت حتى عادت كالكثيب ماترد فأسا ولا مسحاة .

وحدث سلمان الفارسى - رضى الله عنه - فقال : ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت علىَّ ، ورسول الله - ﷺ - قريب منى ، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان علىَّ ، نزل فأخذ المعول من يدى ، فضرب به ضربة نتفتت المكان وسهل عَلَىَّ .

وكان المسلمون يستعينون على العمل بالأناشيد الدينية الجميلة التى تهون العناء وتذهب الشقاء ، فقد كانوا يرددون قائلين :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وان أرادوا فتنة أبينا

وهى أبيات لعبد الله بن رواحة . .

وربما شاركهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تلك الأناشيد التى تشجعهم على العمل . .

فقد ورد أن المسلمين كانوا يرتجزون باسم رجل من الصحابة اسمه جعيل ، فغير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اسمه فجعله عمرا . فكانوا يقولون :

سماه من بعد جُعَيْل عمرا وكان للبائس يوما ظهرا

فكانوا إذا قالوا عمراً قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : عمراً .
وإذا قالوا : ظهرا قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : ظهرا .
وكانوا يرددون أيضا قول ابن رواحة .

اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وربما شاركهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الترديد .
لقد تعب المسلمون تعبا شديدا فى حفر الخندق وتعب النبى ـ صلى الله

عليه وسلم ـ معهم حتى كان يحمل التراب على ظهره الشريف ، وحتى امتلأ جسمه بالتراب .

تباطؤ المنافقين

وكان كثير من المسلمين يتفانون فى العمل . ومن هؤلاء عمار بن ياسر الذى كان يحمل من الحجارة فوق ما يطيق ، فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمسح رأسه ويدعو له .

ومنهم سلمان الفارسى الذى كان يعمل عمل عشرة رجال ، حتى لقد كان يحفر وحده فى اليوم خمسة أذرع فى خمسة أذرع ، حتى بلغ به النصب أقصاه وحتى تنافس فى نسبته إليهم كل من الأنصار والمهاجرين . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : سلمان منا أهل البيت ، وهو شرف لسلمان ما بعده شرف . .

هذا فى الوقت الذى كان فيه المنافقون يتباطئون فى العمل ، ويلتمسون الأعذار للتملص منه ، وكانوا يتعللون بالضعف ، ويتسللون لواذاً راجعين إلى بيوتهم ، تاركين العمل الذى كلفوا به .

ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يثيرون الشكوك حول جدوى الخندق فى الدفاع عن المدينة

ويسخرون من الوعود التى كان يبشر بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ، من أنهم سيمتلكون مفاتيح كسرى وقيصر .

قال معتب بن قشير : ألا تعجبون من محمد يمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ،

وأنتم إنما تحفرون الخندق من الخوف لاتستطيعون أن تبرزوا ؟

وقد رد القرآن الكريم عليه وعلى أمثاله من اليهود والمنافقين والمشركين الذين لايثقون بوعد الله .. فقال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١٧٧)

وقال عز شأنه ـ

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (١٧٨)

وصف الخندق

امتد الخندق من جبل « الشيخين » إلى « تل خباب » ومن هناك إلى جبل « بنى عبيد » وكانت جميع هذه التلال ضمن المنطقة المحمية بواسطة الخندق ،

ومن جهة الغرب كان الخندق يتجه جنوبا لتغطية المنطقة اليسرى غربي المنطقة المعروفة باسم جبل بنى عبيد ...

---

(١٧٧) آل عمران ٢٦

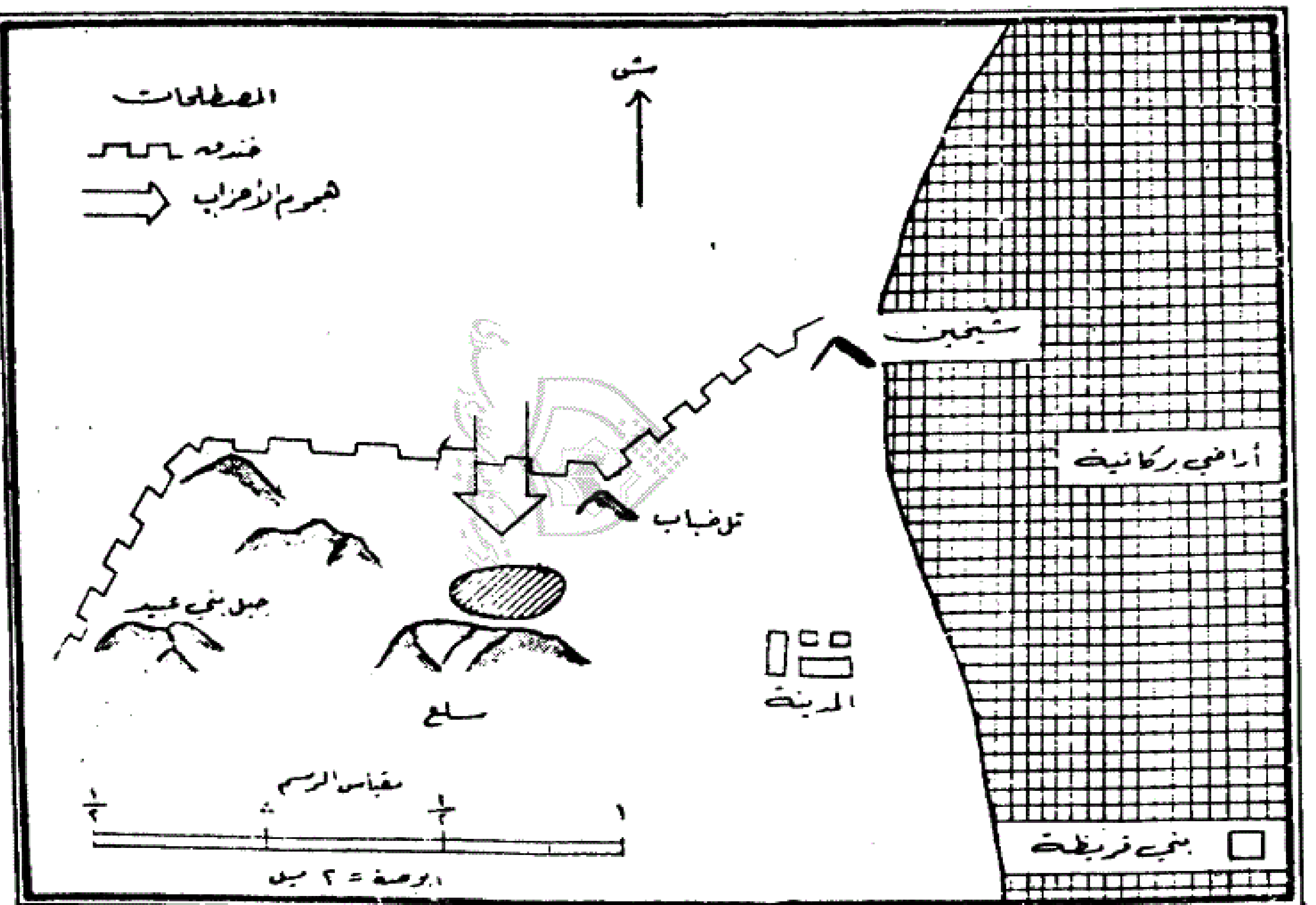
(١٧٨) النور ٥٥

أما إلى الشرق من « الشيخين » وجنوب غرب جبل « بنى عبيد » فتمتد أراض بركانية ، وكانت عبارة عن مناطق ذات أرض متكسرة غير مستوية ومغطاة بصخور كبيرة سوداء غير صالحة لتحرك عسكرى رئيسى ، وإلى الجنوب قليلا من منتصف الخندق كان يقف تل « سلع » المرتفع حوالى ٤٠٠ قدم ، والذى يبلغ طوله قرابة ميل واحد ، وبه نتوءات فى جميع الاتجاهات .

وقيل أيضا : إن الطرف الغربى للخندق كان ينتهى عند « مراد » وهذا صحيح لأن التلال الثلاثة الظاهرة تسمى أيضا مراد[١٧٩] ـ انظر الخريطة ـ



(١٧٩) هذا الوصف مستمد من كتاب خالد بن الوليد صـ ٨٧ والتلال الثلاثة هى : التلان الجنوبيان لجبل بنى عبيد والتل الموجود شمالها .



الخريطة رقم ٢ ـ غزوة الخندق

المواجهة

وأقبل المشركون بقضهم وقضيضهم فى عشرة آلاف جندى هدفهم القضاء على المسلمين والاستيلاء على المدينة وكان ذلك فى شوال من السنة الخامسة للهجرة .

وكان توزيع قوة المشركين فى قيادتها كالآتى : ـ

كان عدد قريش أربعة آلاف جندى بقيادة أبى سفيان بن حرب بن أمية .

وكانت قيادة غطفان لعيينة بن حصن الفزارى الذى قال عنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأحمق المطاع . . وكان معه أيضا الحارث بن عوف .

وكانت قيادة أشجع لمسعود بن رخيلة وعدد قواته أربعمائة

وكانت قيادة سليم لسفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية وعدد قواته سبعمائة .

أما قوات بنى أسد فكان يقودها طلحة بن خويلد الأسدى . .

وكانت قيادة بنى قريظة التى نقضت عهدها مع الرسول ، لزعيمها كعب بن أسد ، يظاهره حيى بن أخطب النضيرى . .

وحين انتهى المسلمون من حفر الخندق ، أقاموا معسكرهم أمام جبل « سلع » مباشرة حيث كان الجبل إلى ظهرهم .

وكانت قواتهم الإجمالية ثلاثة آلاف مقاتل من بينهم المنافقون الذى لايعتمد عليهم فى قتال .

وكانت خطة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تظل القوة الرئيسية معدة لضرب العدو فى أى بقعة يحاول العدو أن يتسلل منها عبر الخندق .

وجعل لحراسة الخندق مائتين من أصحابه الأشداء الأقوياء كانوا كالأوتاد . فى أماكنهم .

وخصص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحراسة المدينة وقراها خمسمائة من أصحابه .

ووضعت النساء والاطفال فى الحصون والبيوت البعيدة عن جبهة القتال .

وكانت القيادة فى يد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

المشركون يفاجأون بالخندق

كان المشركون يمنون أنفسهم بعودة سريعة من هذه المهمة التى لن تستغرق فى نظرهم وقتا .

فماذا تجدى قوة المسلمين أمام هذا الجيش العرموم الذى يتحرق شوقا للقضاء على من فى المدينة واغتنام ما فيها ، ومعظم هذا الجيش من الأعراب الذين لاحياة لهم إلا النهب والسلب والإغارة ؟

لقد ظلوا طول وقتهم يسخرون من المسلمين ، ويتصورون هزيمتهم وربما رسم لهم خيالهم المريض أن المسلمين سوف يركعون أمامهم طالبين العفو والصفح ، وليس ببعيد أيضا أن يكونوا قد منّوا أهليهم ونساءهم بما سوف يعودون به إليهم من غنائم وحلى وأسرى . . . . وبدت لهم المدينة من بعيد بأسوارها ، فألهبوا ظهور خيولهم ورواحلهم إسراعا إليها . . . . . طلبا للغنيمة المرتقبة . .

ولم يجدوا فى طريقهم ما يعترضهم فازدادوا يقينا بقرب الحصول على ما يريدون .

واستحثوا أنفسهم وخيولهم أكثر وأكثر .

وياهول المفاجأة التى وجدوها فى انتظارهم . .

لقد رأوا خندقا عميقا طويلا يحول بينهم وبين التقدم .

ووقفوا فى فزع وحنق وغضب ، وتبخرت أحلام اليقظة التى كانت تراودهم فى لحظة واحدة . .

لقد جاءوا وهم واثقون من نصر سريع مؤكد . . ولكن هذا الخندق وقف فى طريقهم شامخا يحول بينهم وبين التقدم .

وانفجر أبو سفيان فى غضب يقول : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .



ماذا كنت تظن يا أبا سفيان ؟

هل كنت تظن أن الطريق إلى دخول المدينة سيكون مفروشا بالورود والأزهار . أو هل كنت تتوهم أن يقابلك الذين جئت لتقتلهم بالاستسلام

ما أشد جهلك إذن حين تتوهم أن المسلمين باتوا نياما وأنت تنسج لهم المؤامرات وتعد لهم الجيوش ، وتشحذ لهم السيوف والحراب .

لم يكن فى ذهن أبى سفيان أبدا أنه سيفاجأ بمثل هذا الذى فوجىء به . . إنه يرى أمامه تخطيطا عسكريا متقدما ، وما كان يدرى أن الاسلام ضم بين صفوفه خبراء من مختلف الأقطار قلبوا موازين الخطط العسكرية وطوروا

نظم الحروب التقليدية ، فالإسلام يأبى الجمود ويأنف من التقليد ، وهو دين علم وعقل يأخذ بالعقل الإنسانى إلى الأمام ..

وبدت المهمة أمام الأحزاب شاقة .

ولم تعد المسألة مسألة نزهة كما كانوا يتوهمون ..

ولكنهم مع ذلك قرروا المجازفة ، وضربوا حول الخندق حصارا امتد طيلة ثلاثة وعشرين يوما ..

وكان هذا بالنسبة لهم إرهاقا عنيفا ، فهم لم يجيئوا معهم بالمئونة التى تكفيهم هذه المدة . لقد جاءوا وهم يعتقدون أن فى المدينة التى سوف تستسلم لهم مئونتهم وذخيرتهم ..

وقد حاولوا الهجوم على الخندق ولكنهم وجدوا فى انتظارهم نيرانا حامية تصليهم ، فارتدوا خائبين ..

كانت دورياتهم مستمرة تتحين ثغرة تنفذ منها إلى حيث تلتقى مع المسلمين فى الجبهة المقابلة . ولكن الخندق كان عميقا ، وعيون المسلمين يقظة ، وسهامهم جاهزة ، ورماياتهم مسددة ..

ولم تكن حالة المسلمين أفضل ، فقد كانوا يعانون أيضا من وطأة الجوع . ولكنهم استهانوا به . ولم يكن فى المدينة مخازن للطعام . ولكن روح التعاون هى التى كانت تسيطر عليهم . بل بركة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى كان لها أثرها فيما يقدم من طعام . فالقليل يصبح كثيرا .

أما الذى كان يهدد جبهة المسلمين حقا فهو موقف المنافقين ، لقد ظهر

تخاذلهم واضحا ـ كعادتهم ـ وارتفع صوتهم بالانتقاد والتشكيك ، وهذا واحد منهم يقول : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، وإن أحدنا اليوم لايأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط .

وبعضهم يقولون : إن بيوتنا عورة ، وهى عرضة للصوص وللعدوان فلنذهب لحراستها فهى أولى من الوقوف فى هذا المكان . .

ولكن المؤمنين الصادقين لم يعبأوا بضراوة الجوع ولابوطأة العدو ، بل ظلوا صامدين فى مواقعهم واثقين فى وعد ربهم ، ولهم فى رسول الله أسوة حسنة . .

وبعد مرور عشرة أيام من الحصار بدأ الموقف أمام الأحزاب ميئوسا منه ويدأ التذمر والتفكك يظهر فى صفوفهم ، واشتدت وطأة البرد عليهم وهم فى صحراء مكشوفة ، وليس لديهم من المئونة ما يكفى .

ونظر أبو سفيان إلى حيى بن أخطب الذى زين له هذه الرحلة وفرشها أمامه بالزهور . . نظر إليه نظرة ذات معنى . .

بنو قريظة ينقضون العهد مع النبى

تسلل حيى بن أخطب تحت جنح الظلام حتى طرق حصن كعب بن أسد زعيم بنى قريظة .

ولم تكن بنو قريظة إلى ذلك الوقت قد غيرت موقفها مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ودارت مناقشة بين حيى بن أخطب وكعب بن أسد ـ سبق أن تحدثنا عنها فى غزوة بنى قريظة ـ انتهت بنقض بنى قريظة العهد الذى كان بينها وبين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ونما علم ذلك الى النبى فأرسل سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وخوات بن جبير للتأكد من ذلك ، فعادوا إليه وأخبروه بنقضهم العهد .

ولكن ذلك لم يفت فى عضد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل ازداد يقينا بنصر الله الذى وعده .

وتدخلت عناية الله لتفتيت جبهة الأحزاب ، وذلك بأن ساقت نعيم بن مسعود الذى جاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلما ، وقال للنبى : مرنى بأمرك .

فقال له : وماذا تستطيع ، إنما أنت رجل واحد ، إن استطعت فخذِّل عنا فإنما الحرب خدعة .

واستطاع نعيم بن مسعود أن يقوم بمهمة كانت لها نتائج طيبة ، فقد أفسد الجو بين اليهود والأحزاب . .

محاولة لتفتيت جبهة العدو

حين اشتد على الناس البلاء بعث النبى ـ ﷺ ـ إلى عيينه بن حصن والحارث بن عوف ، وهما قائدا غطفان . وعرض عليهما أن ينسحبا بجيوشهما فى نظير أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة .

لقد جاء هذان الرجلان إلى النبى - ﷺ - مستخفيين عن أبى سفيان . ورحبا بالعرض الذى عرض عليهما . .

وطلبا أن تكتب صحيفة بذلك ، فكتبت ، ولكن قبل توقيعها أرسل النبى - ﷺ - إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة - رضى الله عنهما - وذكر لهما ماحدث .

فقالا : يارسول الله ، أهذا أمر تحب أن تفعله ؟ أم هذا أمر من عند الله أمرت به فلابد من العمل به ؟ أم هو شيء تصنعه لنا ؟

فقال النبى - ﷺ - لو كان ذلك أمرا من الله ماشاورتكما ، وماهذا شيء أحب أن أصنعه ، ولكنه شيء صنعته لكم . لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وجاءوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى حين .

فقال سعد بن معاذ - رضى الله عنه - : يارسول الله ، قد كنا وهؤلاء القوم - يقصد غطفان - على الشرك وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ولانعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعا ، وإن كانوا ليأكلون العِلهز(١٨٠) فى الجاهلية من الجهد . أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له ، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ، ونعطى الدنية ؟ مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

---

(١٨٠) العلهز : وبر يخلط بدماء ثم يشوى بالنار كانت العرب تأكله فى الجدب وقيل : هو نبات ينبت ببلاد بنى سليم وقيل : هو القراد الضخم - لسان العرب -

فقال النبى - ﷺ - : أنت وذاك .

فأخذ سعد - رضى الله عنه - الصحيفة وشقها ومحا ما فيها من كتابة .

وقال النبى - ﷺ - لعيينة بن حصن والحارث : ارجعا ، بيننا وبينكم السيف رافعا بهذا صوته . وقال سعد : فليجهدوا علينا . .

المشركون يحاولون الهجوم

وحاولت طائفة من المشركين الهجوم من منطقة ضيقة استطاعوا اكتشافها ، وكان من المهاجمين عكرمة بن أبى جهل ، وهبيرة بن وهب زوج أم هانىء - أخت على بن أبى طالب - ، وضرار بن الخطاب أخو عمر - رضى الله عنه - وعمرو بن عبد ود . فارس العرب المشهور ، وكان العرب يبالغون فى وصف شجاعة عمرو بن ود ، وينسجون حوله الأساطير فيقولون : إنه يعدل خمسمائة فارس ، وإنه يستطيع رفع فرس بيديه ويلقيها على الأرض[١٨١] .

وتقدم هذا الفارس متحديا المسلمين قائلا : هل من مبارز ؟

فلم يجبه أحد . ولكن علياً خرج إلى النبى - ﷺ - ليأذن له فى مبارزته .

فقال له النبى - ﷺ - إنه عمرو بن عبد ود .

وكرر عمرو النداء متحديا المسلمين ساخرا منهم : هل من مبارز ؟

فطلب علىٌ من النبى - ﷺ - أن يسمح له بمبارزته . فقال له النبى - ﷺ - : لا ، إنه عمرو بن عبد ود .

---

(١٨١) خالد بن الوليد صـ ٨٧

وأخذ عمرو بن عبد ود يقهقه ساخرا من المسلمين ، : أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ؟ أفلا تبرزون لى رجلا ؟ وأخذ ينشد :

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز ؟

ووقفت إذ جبن المشجع موقف القرن المناجز

وكذاك إنى لم أزل متسرعا قبل الهزاهز

إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

وهنا لم يستطع على - رضى الله عنه - صبرا ، وتقدم للنبى - ﷺ - طالبا أن يأذن له بمبارزته - فقال له : إنه عمرو بن عبد ود

فقال على : وإن كان عمرا .

فأذن له رسول الله - ﷺ -

وأعطاه سيفه ذا الفقار ، وألبسه درعه الحديد ، وقال : اللهم أعنه عليه .. وفى رواية قال : اللهم هذا أخى وابن عمى فلا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين ..

فخرج علىٌّ إليه وهو ينشد مجيبا إياه على ماأنشده سابقا :

لا تعجلن فقد أتاك مجيب قولك غير عاجز .

ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز

إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

---

(١٨٢) الروض الأنف للسهيل جـ٣ صـ ٢٧٩

(١٨٣) المرجع السابق

ولنترك أحد القادة العسكريين يحدثنا عن هذا اللقاء الذى تم بين على وعمرو بن عبد ود .

قال : كان السيف الذى أعطاه النبى - ﷺ - لعلى ملكا لمشرك اسمه منبه ابن الحجاج قتل فى معركة بدر ، ووصل السيف إلى المسلمين ضمن الغنائم ، وأخذه النبى - ﷺ - ، وبعد أن أصبح هذا السيف بيد النبى صار أشهر سيف فى الإسلام .

وكان هذا السيف يسمى « ذو الفقار » وفيه المثل المشهور : « لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علىٌّ »

خرج على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى نفر معه من المسلمين ، وسار باتجاه المشركين الذين يقتحمون الخندق ، ووقف النفر على مسافة من عمرو ، وتقدم علىٌّ إلى مسافة المبارزة منه .

كان عمرو يعرف عليا جيدا إذ كان صديقا لوالده أبى طالب ، فضحك عمرو لدى مشاهدته عليا ، مثلما يضحك الرجل من الصبى .

فنادى علىٌّ : ياعمرو ، إنك كنت قد عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

قال عمرو : أجل .

قال له على : فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الاسلام - وكأن عليا - رضى الله عنه - كان يطمع فى إسلامه .

قال عمرو : لا حاجة لى بذلك .

قال على : فإنى أدعوك إلى النزال .

فقال عمرو : لم يابن أخى ؟ فوالله ماأحب أن أقتلك .
قال على : ولكنى والله أحب أن أقتلك .

فحمى عمرو بن عبد ود عند ذلك .. وأقبل على علىّ بن أبى طالب ، ويدأ القتال .... ضرب عمر عليا عدة ضربات ، ولكن عليا لم يصب بأذى .

كان يتلقى الضربة بسيفه أو بترسه ، أو يتحرك جانبا ليتفادى ضربات عمرو . وأخيرا بدأ عمرو يتراجع ويتفادى ضربات على .
وتعجب عمرو كيف يحدث هذا ؟ فهو لم يصمد أمامه أى رجل سبق أن بارزه هذا الصمود الطويل .

ثم تتابعت الضربات بسرعة ، واندفع علىٌ كالسهم ، وبضربة بارعة أخلت بتوازن عمرو سقط عمرو على الأرض . وقد حدث ذلك كله فى ثوان .

وجلس علىٌ على صدر عمرو وأخذ يضغط على عنق عمرو بشدة .
ويدأ الهمس يدور فى صفوف الجيشين ، وحبس الجميع أنفاسهم .
وتحول الارتباك البادى فى وجه عمرو إلى غضب ، فهو مستلق على الأرض . وفوق صدره هذا الشاب الصغير الذى يقل حجمه عن نصف حجم عمرو ، لكن عمرا لم ينته ، فهو مازال مصرا على كسب المبارزة واستعادة مركزه كمحارب فذ ، وهو سيلقى بهذا الفتى فى الهواء كورقة تذروها الرياح .

احمر وجه عمرو ، وانتفخت أوداجه ، وأخذت عضلات جسمه تهتز عندما ضغط عَلىَ قبضة علىٍّ ليبعدها عن عنقه ، لكنه لم يستطع زحزحة قبضة علىّ قيد أنملة .

وهنا قال له على : اعلم ياعمرو أن النصر والهزيمة من عند الله ، وإنى أدعوك إلى الاسلام ، وبذلك لن تنجو من الموت فقط ، ولكنك ستكسب رضا الله فى الحياة الدنيا والآخرة .

ثم استل علىٌّ فى خفة خنجرا حادا من نطاقه ووضعه قريبا من عنق عمرو . لكن هذا كان فوق طاقة عمرو .

فهل عليه أن يعيش بقية حياته تحت ظل الهزيمة والعار ؟

لقد اعتبرته الجزيرة العربية واحدا من أعظم أبطالها فهل يرضى أن يقال عنه إنه قبل إنقاذ حياته فى مبارزة لقاء خضوعه واستسلامه لشروط خصمه ؟

كلا ـ إنه عمرو بن عبد ود عاش بالسيف وسيموت بالسيف .

كان عمرو رجلا شجاعا يستطيع أن يواجه الموت بدون وجل ، فقوس ظهره ورفع ذقنه ليقدم عنقه إلى علىّ .

لكن ماحدث إثر ذلك تركه فى حيرة شديدة . .

لقد نهض علىٌّ بهدوء من فوق صدر عمرو وقف على بضع خطوات منه وقال له :

اعلم ياعمرو أنى أقتلك فقط فى سبيل الله وليس لدافع آخر ، وبعد أن عرفت أنى قادر عليك فإنى أعفو عنك ، انهض وعد إلى قومك وفكر فى الإسلام .

ـ ما أعظمها من فروسية ، وما أنبله من موقف لعلى ، وما أكرمه من جهاد فى سبيل الله لا تسيطر عليه إلا المثل العليا والأهداف النبيلة . ونهض عمرو متخاذلا ، وتدبر موقفه جيدا . ما معنى رجوعه إلىٰ قومه خاسرا ؟

إنه يرغب أن يعيش منتصرا أو لا يعيش أبدا . .

والتقط سيفه فى محاولة أخيرة لإحراز النصر ، وهجم على علىٍّ فى سرعة عله أن يصيبه حين غرة .

ولكن عليا كان لديه الوقت الكافى لالتقاط سيفه وترسه والاستعداد لمفاجأة خصمه ، وتلقى ضربته . .

كانت الضربة التى سددها عمرو الآن وهو فى حالة من اليأس والغضب أشد ضربة فى المبارزة من أولها .

لقد حطم بسيفه ترس على ، لكنه لم يستطع أن يصيبه بأكثر من جرح غير عميق فى صدغه .

وكان هذا الجرح أقل من أن يزعج عليا ، وقبل أن يتمكن عمرو من رفع سيفه مرة أخرى كان ذو الفقار قد تلألأ فى ضوء الشمس وهوى على عمرو محدثا جرحا عميقا فى عنقه ، وتدفق الدم من عمرو كالنافورة .

ووقف عمرو لحظات دون حراك ثم بدأ جسمه يترنح كالثمل ثم انكفأ على وجهه جثة هامدة .

لم تهتز الأرض عند اصطدام هذا الجسد الضخم بها ، فالأرض ثابتة جداً ، لكن جبل سلع اهتز من صيحة « الله أكبر » . . التى انطلقت من

حناجر ألفين من المسلمين كانوا يرقبون المبارزة ، وسمع صدى صيحة النصر فى طول الوادى وعرضه ، قبل أن تهدأ فى قلب الصحراء .

عند ذلك انقضت مجموعة من المسلمين على الستة الباقين من قريش الذى اقتحموا الخندق مع عمرو بن عبد ود ، وحدث التحام سقط فيه شهيد من المسلمين وقتيل من المشركين ، وسقطت حربة عكرمة ، وتعثر نوفل بن عبدالله ـ وهو ابن عم خالد بن الوليد ـ فسقط فى الخندق فانهالت فوقه الحجارة من المسلمين فنادى : يامعشر العرب قتلة أحسن من هذه ـ فنزل إليه أحد المسلمين فقتله .. »[١٨٤]

لقد قال حسان بن ثابت واصفا هروب عكرمة وسقوط حربته :

فــر وألقـــى لنـــا رمحـــه لعلــك عكـــرم لـــم تفعـــل
ووليـــت تعـــدو كعـــدو الظليـــم مـا إن تجـــور عـــن المعـــدل
ولـم تلـــق ظـــهرك مستأنســـا كـــأن قفـــاك قفـــا فـــرعل[١٨٥]

أما على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فقد تحدث عن انتصاره على عمرو بن عبد ود قائلاً :

فى أبيات منها :

ألا يفـــر ولا يـــهلل فالتقـى رجـــلان يلتقيـــان كـل ضـــراب
نصـر الحجارة مـن سفاهة رأيــه ونصــرت رب محمــد بصـــوابى

---

(١٨٤) خالد بن الوليد صـ ٨٨

(١٨٥) سيرة ابن هشام جـ ٣ صـ ٢٦٣ ، والفرعل : صغير الضباع

فصدوت حين تركته متجدلا كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني كنت المقطر بزني أثوابي[186]
لا تحسبن الله خاذل دينه ونبيه يامعشر الأحزاب[187]

لقد عف عليٌ كرم الله وجهه - عن أن يسلب عمراً أثوابه وسلاحه . وقد قيل له فى ذلك - حين عاد إلى النبى - ﷺ - متهللا مشرق الوجه : لِمَ لَمْ تسلبه درعه فإنه ليس فى العرب درع خير منها ؟

قال له ذلك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - .

فقال على : إنى حين ضربته استقبلنى بسوأته فاستحييت أن أسلبه . وأرسل المشركون إلى النبى - ﷺ - يعرضون أن يشتروا جثة عمرو بن عبد ود بعشرة آلاف .

فقال لهم - رسول الله - ﷺ - : هو لكم ولا نأكل ثمن الموتى .

إصابة سعد بن معاذ

وحدث تناوش بين المسلمين والمشركين . أصيب من خلاله سعد بن معاذ بسهم فى أكحله .

وقد روت عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - قصة ذلك . فقد كانت فى حصن بنى حارثة يوم الخندق ، وكان من أحرز حصون المدينة ، وكانت أم سعد معها فى الحصن . قالت عائشة - فمر سعد وعليه درع له مقلصة

---

(١٨٦) الدكادك - أرض غليظة - والمقطر : القتيل ، وبزنى : سلبنى
(١٨٧) الروض الأنف جـ ٣ صـ ٧٩

وقد خرجت منها ذراعه كلها ، وفى يده حربته يرقل بها ويقول :

لبث قليلا يشهد الهيجا جمل   لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه : أسرع أى بنى ، فقد والله أخرت .

قالت عائشة : فقلت لها : ياأم سعد ، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مماهى .

قالت : وخفت أن يصاب فى الموضع الذى أصيب فيه .

وقد رُمِىَ سعد بن معاذ بسهم فقطع ، منه الأكحل ، رماه - كما حدثنى عاصم بن قتادة - حبان بن قيس بن العرقة - أحد بنى عامر بن لؤى ، فلما أصابه قال : خذها منى وأنا ابن العرقة .

فقال له سعد : عرق الله وجهك فى النار . اللهم إن كنت قد أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها ، فإنه لا قوم أحب إلىَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا فاجعله لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقرعينى من بنى قريظة .(١٨٨)

وقد عرفنا فى قصة غزوة بنى قريظة . أن جرح سعد بن معاذ قد انفجر بعد أن كان قد اندمل ، وذلك بعد أن حكم فى قضية بنى قريظة .

يأس المشركين

طال الأمر على المشركين ونفدت مئونتهم ، ولم تُجْد الحيل التى احتالها لهم حيى بن أخطب فى جلب القوت لهم . فقد حَدَث أن طائفة من الأنصار

---

(١٨٨) سيرة ابن هشام جـ٣ صـ٢٦٤

خرجوا ليدفنوا ميتا منهم بالمدينة ، فصادفوا عشرين بعيرا لقريش محملة شعيرا وتمراً حمّلها ذلك حيى بن أخطب تشديدا وتقوية لقريش ، فأتوا بها رسول الله - ﷺ - فوسع بها على أهل الخندق .

ولما بلغ ذلك أبا سفيان قال : إن حييا لمشئوم ، قطع بنا ، مانجد ما نحمل عليه إذا رجعنا .

وحاول خالد بن الوليد أن يفعل شيئا فى الحرب فلم يستطع ، فقد كرَّبطائفة من المشركين يطلب غرة للمسلمين ، فصادف أسيد بن حضير فى مائتين من المسلمين فناوشوهم ، وردوهم على أعقابهم .

لقد تحرك خالد بسريته الى الخلف وكأنه تخلى عن فكرته فى العبور وأدخل فى روع المسلمين فعلا أنه عدل عن فكرته فانسحبوا إلى الوراء ، ولكن خالدا كان قد هجم مرة أخرى بسريته - إلا أن المسلمين استطاعوا أنْ يوقفوا خالدا عند رأس الجسر الذى استطاع أن يحتله - ولم يتمكن من التقدم خطوة أخرى .

لقد كانت مقاومة المسلمين شديدة ، واستطاع أحد جنود خالد أن يقتل أحد المسلمين . ولكن ذلك لم يؤثر فى الموقف شيئا ، فقد ازداد إصرار المسلمين على المقاومة التى خشى خالد من نتيجتها فقرر الانسحاب ، وكان هذا آخر عمل عسكرى فى المعركة .

اليهود يتخلون عن المشركين

حاول المشركون الاستعانة بجبهة اليهود الداخلية لوضع المسلمين بين فكى الرحا . ولكن خطة نعيم بن مسعود التى سبق أن تحدثنا عنها أثناء

حديثنا عن غزوة بنى قريظة قد أفشلت خطة المشركين وأوقعت الخلاف والريبة فيما بينهم .

فقد ذهب وفد المشركين لبنى قريظة وقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه .

فأرسلوا إليهم قائلين : إن اليوم الذى يلى هذه الليلة هو يوم السبت ، وقد علمتم ما أصابنا من تعدى السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا : سبعين رجلا منكم ، يكونون تحت أيدينا ، حتى لا تتخلوا عنا وتسلمونا إلى محمد وصحبه .

وهنا صدقت قريش ما قاله لهم نعيم بن مسعود من أن بنى قريظة نفضت يدها من قريش وحلفائها .



فقررت قريش العودة . .

جندالله

وكان النبى ـ ﷺ ـ قد أقبل على الله يدعوه على الأحزاب الذين روعوا المسلمين .

أخذ يقول : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم ، وانصرنا عليهم .

ويقبل على أصحابه يثبتهم ويقويهم قائلا :

يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإن لقيتم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

ثم عاد إلى الدعاء مرة أخرى فأخذ يقول :

يامغيث المكروبين ، يامجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فإنك ترى ما نزل بى وبأصحابى .

وقال المسلمون لرسول الله - ﷺ - : يارسول الله ، هل من شىء نقوله ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟

قال : نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا . .

وهنا تدخلت السماء لنصرة جند الله ،

لقد استجاب الله لتضرع النبى - ﷺ - وأصحابه .

ونزل جبريل من السماء يبشر النبى - ﷺ - بالنصر ، ورأى النبى علامات ذلك ، فأخذ يبشر أصحابه ، ويرفع يديه إلى السماء قائلا :

الحمد لله

وكيف لا ينصر الله أولياءه الذين نصروا دينه ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيله ؟

لقد تحملوا عناء الجوع الشديد الذى حل بهم بعد أن فنيت الأزواد ، ومع ذلك صبروا محتسبين ذلك عند الله - تعالى - فكان حقاً على الله أن يرفع عنهم هذا البلاء وأن يذهب عنهم الروع وأن يشتت جمع عدوهم .

أليس هو القائل :

« وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ؟

وأليس هو القائل

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ؟

واستجابت السماء لدعاء النبى ﷺ والمسلمين فبعث الله البرد على العدو ، كما أرسل عليهم الريح ، وقذف فى قلوبهم الرعب . وفرق كلمتهم . .

وبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اختلاف كلمة العدو ، فقال من يأتينا بخبر العدو ؟

وكانت ليلة شديدة البرد شديدة الريح . ولكنها كانت فى جانب الكفار عاتية مزلزلة .

وكان المنافقون قد تسللوا لواذا فلم يبق منهم أحد قائلين : إن بيوتنا عورة . فحين قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يأتينا بخبر القوم ؟ قال الزبير بن العوام : أنا . .

فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نظر إلى أصحابه مرة أخرى فقال : ألا رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟

فسكت القوم . . من شدة البرد والجوع . .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أين حذيفة بن اليمان ؟

قال حذيفة : فلم أجد بداً من القيام حيث نطق باسمى .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحذيفة : عليك أن تأتى بخبر القوم .

فقلت : والذى بعثك بالحق ما سَكَتُّ إلا خوفاً من شدة البرد .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا بأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إلىَّ .

فقلت : والله ما بى أن أقتل ، ولكن أخشى أن أوسر .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك لن تؤسر ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته .

قال حذيفة : فمضيت مطمئناً مستريحاً .

فلما ولَّيت نادانى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا : لا تحدثن شيئاً لا ترم بسهم ولا حجر ، ولا تضربن بسيف حتى تأتينى .

قال : فجئت إليهم واقتربت منهم ، ودخلت فيهم والظلام شديد ، فسمعت أبا سفيان يقول : يا معشر قريش ، ليتعرف كل منكم جليسه ، واحذروا الجواسيس والعيون .

فأخذت بيد جليسى عن يمينى وقلت : من أنت ؟ فقال : معاوية بن أبى سفيان . وقبضت يد من على يسارى وقلت : من أنت ؟ فقال : عمرو ابن العاص .

قال حذيفة : لقد فعلت ذلك خشية أن يفطن بى . . كان ذلك ذكاء منه ، فحين بدأ بسؤال من بجواره أكد لهم بأنه منهم وأنه يخشى أن يكونوا من جند المسلمين ـ

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، والله إنكم لستم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ووثب على جمله قبل أن يحل عقاله ، لقد ركب جمله - من شدة العجلة - وهو معقول ، فلما ضربه وثب على ثلاثة قوائم ، فنزل ثم حل عقاله بعد ذلك .

فقال له عكرمة بن أبى جهل : إنك رأس القوم وقائدهم ، تذهب وتترك الناس ؟

فاستحيا أبو سفيان وأناخ جمله ، وأخذ بزمامه وهو يقوده ، وقال : ارحلوا .

فجعل الناس يرحلون وهو قائم .

ثم نظر إلى عمرو بن العاص وقال : يا أبا عبد الله ، تقيم فى مجموعة من الفرسان الخيل بإزاء محمد ﷺ وأصحابه فإنا لا نأمن أن نُطلب .

فقال : أنا أقيم .

وقال لخالد بن الوليد : ما ترى يا ابن الوليد ؟

فقال خالد : أنا أيضاً أقيم .

فأقام خالد وعمرو فى مائتى فارس ، ورحل جميع الجيش . .

قال حذيفة : لولا عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلىَّ حين بعثنى ألا أحدث شيئاً لقتلته . .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فارتحلوا كذلك .

وفى رواية : قال حذيفة : فدخلت العسكر فإذا الناس فى عسكرهم يقولون : الرحيل ، الرحيل ، لا مقام لكم .... والريح تشتد عليهم لا تجاوز عسكرهم .

قال حذيفة : ثم رجعت فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوجدته قائماً يصلى . فخبرته ، فحمد الله - تعالى - وأثنى عليه .

قال : وعاودنى البرد ، فجعلت أنتفض ، فأومأ إلىّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدنوت منه ، فسدل عَلَيَّ فضل شملته ، فنمت ولم أزل نائماً حتى طلوع الفجر .

فلما أصبحت نادانى قائلاً : قم يا نومان ..

لقد كان حذيفة حكيماً فى مهمته .. وقد نفذ تعليمات النبى - صلى الله عليه وسلم - حرفياً - وقد عرف النبى - صلى الله عليه وسلم - عنه ذلك ولهذا اختاره على الزبير ، مع شجاعة الزبير وتلبيته وتزكية النبى - صلى الله عليه وسلم - له ، لأن الزبير - رضى الله عنه - كانت فيه حدة وشدة وقد لا يملك نفسه أن يحدث بالقوم ما نهى النبى - صلى الله عليه وسلم - عنه حذيفة .

لقد كانت الريح الشديدة هى جند الله التى قلعت الأوتاد وألقت عليهم الخيام وكفأت القدور ، وسفت عليهم التراب ورمتهم بالحصا لقد كانت الريح التى نصرت النبى - صلى الله عليه وسلم - هى الصبا ، التى قال فيها : نُصرت بالصَّبا ، وأهلكت عاد بالدبور ..

القرآن يتحدث عن هذه الغزوة

لقد نزلت سورة الأحزاب وفيها آيات تتحدث عن هذه الغزوة . . . منها ما يفضح موقف المنافقين المتخاذلين الذين لقى المؤمنون منهم أشد مما لقوا من كفار الأحزاب : ومن هذه الآيات :ـ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ
رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذۡ جَآءُوكُم
مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ
ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ
زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا (١١) وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا (١٢) وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ
فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ
إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا (١٣) وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ
لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا (١٤) وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ
لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم
مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا (١٦) قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي
يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (١٧) ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ

هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ
رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا
ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ
يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ
الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي
الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ (١٨٩)

لقد صورت الآيات موقف المنافقين أدق تصوير ..

● فقد اعتبروا وعد النبي - ﷺ - أصحابه بالفتوح التي سوف تفتح عليهم - غرورا وباطلا .

● وحاول بعضهم مثل أوس بن قيظي وغيره الرجوع من جبهة القتال ، بحجة أنه لا موضع لهم فيها ، أو بحجة أن بيوتهم عورة - أي معرضة للسرقة ومكشوفة - وما هي بعورة ..

وقد اغتر هؤلاء بقول اليهود لهم : ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه ، فارجعوا إلى المدينة ، لتأمنوا على أنفسكم وتحموا بيوتكم ..

---

(١٨٩) الأحزاب ٩ : ٢٠

ولا صحة لجميع حجج المنافقين ، ولكنه الجبن والخوف من العدو ، والرغبة فى التخلى عن المعركة ، والنكوص بعهدهم مع رسول الله - ﷺ - حين عاهدهم على عدم الفرار من وجه العدو . ولو فهم هؤلاء لعرفوا أن الفرار لا ينجى من الموت .

● وكان عبدالله بن أبى بن سلول يحاول تثبيط المؤمنين عن المعركة وإعاقتهم عن الذهاب إلى جبهة القتال ، قائلا لهم : تعالوا إلينا وفارقوا محمدا فإنه هالك ، وإن أبا سفيان إن ظفر بكم فلن يبقى منكم أحدا .

حكى القرطبى فى تفسيره قال : انطلق رجل من عند النبى - ﷺ - فوجد أخاه يمسك بين يديه رغيفا وشواء فقال له : أنت فى هذا ونحن بين الرماح والسيوف ؟

فقال له أخوه : هلم إلىَّ فقد أحيط بك وبأصحابك - والذى تحلف به لا يستقل بها محمد أبدا .

فقال : كذبت ، وذهب الرجل الى النبى - ﷺ - ليخبره فوجد جبريل قد نزل بقوله تعالى :

« قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا »

● لقد كان هؤلاء المنافقون أشحاء بخلاء جبناء فى ساحات الحروب . يتكلمون بألسنتهم فقط فى وقت السلم .

● ولقد بقى هؤلاء على خوفهم حتى بعد ذهاب الأحزاب ظنا منهم أن الأحزاب باقون فى مواقعهم حول المدينة .

وكم تمنوا أن لو كانوا مقيمين فى البادية بعيداً عن المدينة يسألون عن أخبار المسلمين ، ولا يتعرضون لغارات الأحزاب .

موقف المؤمنين

أما المؤمنون فقد وصفتهم الآيات الكريمة بما يليق بهم من الشجاعة والبطولة والكرامة والعزة والاقتداء برسولهم الكريم - ﷺ - قال تعالى :

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ (١٩٠)

أما المشركون فقد فروا دون أن يجنوا أية نتيجة أو ثمرة . . قال تعالى :

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ (١٩١)

---

(١٩٠) الأحزاب ٢١ : ٢٤

(١٩١) الأحزاب ٢٥

كما أشارت الأيات إلى نهاية بني قريظة وهلاكهم على يد المسلمين جزاء غدرهم ومظاهرتهم العدو ونقضهم العهد الذى أبرموه مع النبى - ﷺ - فقالت : -

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٩٢)

أمور خارقة للعادة فى غزوة الأحزاب

تعرض المسلمون فى هذه الغزوة لضراوة الجوع كما تعرضوا لكثرة الأعداء وغدر اليهود . وبذلك أصبحوا فى محنة قاسية عنيفة أحكم القرآن تصويرها حين قال . . « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً »

وقاوم المسلمون الجوع ببسالة فائقة ، وكانت شجاعتهم فى مقاومته أقوى من اليأس فقد فضلوا الموت جوعا على الاستسلام للمشركين . .

وهنا كانت تظهر بعض الأمور الخارقة للعادة التى تعين على مجابهة هذه الحالة - فكان هذا يعطى إشعاعا قويا فى نفوس المسلمين يشجعهم على الاستمرار فى مواقعهم دون شكوى .

ذكر الرواة أن ابنة لبشير بن سعد - وهى أخت النعمان بن بشير قالت :

---

(١٩٢) الأحزاب ٢٦ ، ٢٧

دعتني أمي عمرة بنت رواحة ـ أخت عبدالله بن رواحة ـ فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي .

ثم قالت : أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبدالله بن رواحة بهذا التمر

قالت : فأخذتها فانطلقت بها ، فمررت برسول الله ـ ﷺ ـ وأنا ألتمس أبي وخالي ، فقال لي : تعالي يابنية ، ما هذا الذي معك ؟

قالت : قلت : يارسول الله . هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي : بشير بن سعد ، وخالي عبدالله بن رواحة يتغديانه .

قال : هاتيه .

قالت : فصببته في كفي رسول الله ـ ﷺ ـ ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم بسط التمر عليه ثم قال لرجل عنده : ادع القوم ، أن هلم إلى الغداء ، فاجتمع القوم عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى أكل جميع من حضروا . .(١٩٣)

قال الحلبي في سيرته بعد أن ساق هذا الخبر أيضا : لقد أصابت أهل الخندق مجاعة حتى قال بعض الصحابة : لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق زاداً ، وربط النبي ـ ﷺ ـ الحجر على بطنه من الجوع .(١٩٤)

ومن الخوارق أيضا ما يقصه جابر بن عبدالله :

قال : لما حفر الخندق رأيت بالنبي ـ ﷺ ـ خمصا ـ جوعا ـ شديداً

---

(١٩٣) انظر من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ـ عبدالعزيز المحمد السلمان صـ ١٩ مكتبة دار التقوى

(١٩٤) السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٦٥٥

فانكفأت إلى امرأتى فقلت : هل عندك شىء فإنى رأيت برسول الله - ﷺ - خمصا شديدا ؟

فأخرجت إلىَّ جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن - صغار الضأن أو الماعز - فذبحناها وطحنت الشعير ، ثم وليت إلى رسول الله - ﷺ -

فقالت زوجتى : ادع رسول الله وواحدا أو اثنين معه فالطعام قليل لا يكفى لأكثر من ذلك .

قال جابر : فجئته ، فقلت سرًّا : يارسول الله ، ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا فتعال أنت ونفر معك .

فقال النبى - ﷺ - : ياأهل الخندق ، إن جابرا قد صنع لكم طعاما . فهيا . قال جابر : فقال رسول الله - ﷺ - : لاتخبزن عجينكم حتى أجىء .

فجئت ، وجاء رسول الله - ﷺ - يقدم الناس . .

- وفزعت امرأتى من العدد القادم - فقالت : بك وبك(١٩٥)

قال جابر : فقلت : قد فعلت الذى قلت . .

- فلما عرفت أنه أخبر النبى - ﷺ - بالحال اطمأنت وسكن ما بها من جزع وخوف من الافتضاح بسبب قلة الطعام .

فأخرجت - للنبى - ﷺ - الطعام .

---

(١٩٥) بك وبك - كناية عن عبارات تفيد الثورة على زوجها لأنه جاء بكل هذا العدد الذى ليس هناك استعداد لاكرامه .

فقال - ﷺ - لرجل : ادع لى عشرة عشرة ، فجعلوا يدخلون ويأكلون وينصرفون ويدخل غيرهم - حتى أكل كل من حضر ويقى عندنا طعام .(١٩٦)

كان لابد والحال هذه أن تتدخل عناية الله ورعايته لأوليائه ، وأن تظهر معجزات النبى - ﷺ - لتثبت أقدام المجاهدين فى سبيل الله ، وتطمئنهم إلى تحقق وعد الله لهم بالنصر ، وهذا من جملة قوله - تعالى - :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾(١٩٧)

ومن ذلك أيضا ما يروى أن أم عامر الأشهلية أرسلت بقصعة فيها حيس إلى رسول الله - ﷺ - وهو فى القبة التى ضربت له ، وعنده أم سلمة رضى الله عنها - فأكلت أم سلمة حاجتها ، ثم خرج النبى - ﷺ - بالقصعة ، ونادى مناديه : هلموا إلى العشاء .. فأكل الناس منها حتى شبعوا(١٩٨)

وأم عامر الأشهلية اسمها فكيهة وقيل : هى أسماء بنت يزيد بن السكن من بنى عبد الأشهل ، وهى من النساء المبايعات .

رسالة من أبى سفيان :

ذكر بعض الرواة أن أبا سفيان أرسل كتابا لرسول الله - ﷺ - عقب رحيله قال فيه : باسمك اللهم - فإنى أحلف باللات والعزى ، لقد سرت

---

(١٩٦) انظر السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٦٥٥

(١٩٧) الأحزاب ٩

(١٩٨) السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٦٥٦

إليك فى جمع وأنا أريد أن لا أعود ، أبدا حتى أستأصلكم ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بمكيدة ماكانت العرب تعرفها ، وإنما تعرف العرب الرماح والسيوف ، ومافعلت هذا الا فرارا من سيوفنا ولقائنا ، ولك منى يوم كيوم أحد .

فكتب إليه النبى - ﷺ -

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد من محمد رسول الله إلى أبي سفيان صخر بن حرب فقد أتانى كتابك ، وقديما غرك بالله الغرور ، أما ذكرت أنك سرت الينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى ونائلة وهبل . .[١٩٩]

لقد قال النبى - ﷺ - عقب موقعة الأحزاب : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا » .

وروى البخارى عن سليمان بن صرد : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول حين أجلى الأحزاب عنه : الآن نغزوهم ولايغزوننا ، نحن نسير إليهم وفى ذلك علم من أعلام نبوته[٢٠٠]

لما فشل الأحزاب ؟

ينظر العسكريون إلى المعارك دائما نظرة تقيس الأمور بالأسباب

(١٩٩) السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٦٥٧

(٢٠٠) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ ٢ صـ ١٢٦

والمسببات ، ويحللون المواقف ويستخلصون أحكامهم بناء على هذا التحليل . . . .

وهم يقولون فى ضوء دراستهم لمعركة الأحزاب ان أسباب فشل الأحزاب يرجع إلى مايأتى :

● لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تستطيع السيطرة على جميع القوات المتجمعة وتوجيهها للعمل الحاسم فى الوقت الحاسم .

فقد كان لكل قبيلة قائد بل أكثر من قائد ، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين ، وقد كان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم ليسيطر على الجميع ، لأن هذا القائد سينال شرفا عظيما يمتاز به على الآخرين ، ولا يمكن للآخرين أن يرضوا بهذا الامتياز .

لقد كانت النعرة الجاهلية لا الهدف المشترك هى التى تسيطر على القيادة .

● ومن ذلك أيضا مباغتة الأعداء بحفر الخندق ، ولم يكن العرب على دراية بمثل هذا الأسلوب فى القتال ، ولذلك لم يضعوا فى خطتهم مايمكن أن يواجهوا به هذا الموقف لو حدث .

● تقلبات الجو . . والعسكريون يقولون : إن موسم القتال كان شتاء ، وكان الأحزاب فى العراء يعيشون فى غير مواطنهم التى يستفيدون فيها من موادهم المتيسرة عندهم للتدفئة والاعاشة وللسكنى .

هذا مايقوله العسكريون بشأن الطقس . أما القرآن الكريم فيخبرنا بأن ذلك كان مددا من السماء حيث أرسل الله ريحاً عاتية غير معتادة أو متوقعة

قلبت القدور والخيام وأثارت الرمال فأوقعت الرعب فى القلوب والارتباك فى الصفوف . .

● ومن الأسباب التى أدت إلى الفشل أيضا انعدام الثقة بين الأحزاب ، فيما بينهم من جهة ، وفيما بينهم وبين اليهود من جهة أخرى .

وانعدام الثقة من أهم الأسباب التى تؤدى إلى الفشل والاضطراب والتخبط .

● ومن الأسباب أيضا قدرة المسلمين على الصبر والتحمل وعدم قدرة الاحزاب على ذلك لأن للمسلمين قيادتهم المسيطرة ، وأهدافهم السامية .

أما هذه القبائل المتنافرة فلا صبر لها ، لأنها تعودت كثرة الحركة والتنقل ، ولم تعتد الصبر على فراق وطنها وأهلها فترة طويلة[٢٠١]



الدروس المستفادة من الغزوة :

لقد أمدت المسلمين بروح جديدة وثقة زائدة وإيمان عميق . . وأدركوا أن الله معهم يرقبهم فى جهادهم ويمدهم بعونه ونصره . وقد زادهم ذلك إصرارا على الجهاد فى سبيل الله والمضى قدما للتبشير بكلمة الله .

وإلى جانب ذلك ، فقد استفاد المسلمون خبرة جديدة بفنون الحرب ، فقد كان حفر الخندق أسلوبا جديدا لم يكونوا يعرفونه .

وعملوا فى حفره بأسلوب منظم متعاون تحت قيادة واعية رشيدة ، وكان

---

(٢٠١) الرسول القائد اللواء الركن محمود شيت خطاب صـ ٢٢٤

النبى ـ ﷺ ـ يعمل بنفسه مع جنوده وهو القائد الأعلى لهم ـ فكان خير قدوة لجنوده . ومثلا أعلى فى التغلب على المشكلات والمتاعب .

● وكما استخدم النبى ـ ﷺ ـ أسلوبا جديدا فى القتال ، استخدم سلاحا جديدا أيضا فى تفتيت جبهة الأعداء ، هو سلاح الدبلوماسية ، حيث أشار إلى نعيم بن مسعود قائلا له : خذل عنا فإن الحرب خدعة .

واستطاع نعيم بن مسعود وهو فرد واحد أن يخذل الأعداء وأن يفرق جمعهم ، وأن يبدد الثقة بينهم .

وحين أراد النبى ـ ﷺ ـ أن يستوثق من غدر اليهود أرسل أصحابه قائلا لهم : إن وجدتم الأمر كما يقال فأخبرونى بطريق الكناية : يعنى لا تصرحوا بغدرهم . وفى ذلك دلالة على رغبة النبى ـ ﷺ ـ فى الاحتفاظ بالروح المعنوية قوية بين جنوده .

وفى ذلك إشارة أيضا إلى استعمال أسلوب الشفرة الذى استعمله الدبلوماسيون والعسكريون فيمابعد ، فحين عاد سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من مهمتهما لدى بنى قريظة ، وقد أدركا غدرهم فعلا ، قالا للنبى ـ ﷺ ـ : عضل والقارة .

وهو أسلوب كنائى غير صريح بغدر هؤلاء . ولكنه فيه تلميح بأن القوم غدروا كغدر أهل عضل والقارة بأصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ

● وكانت غزوة الأحزاب نهاية لمبادأة قريش بالهجوم .

ذلك أن فشل عشرة آلاف جندى فى اقتحام المدينة ولايوجد فيها من

المقاتلين إلا نحو ثلث هذا العدد . . معناه فشلهم فيما بعد فى أى هجوم آخر يقومون به .

هذا بالإضافة إلى استحالة تكوين مثل هذا العدد الضخم مرة أخرى لفقدان الأسباب المهيئة له كما تهيأت فى هذه المرة . .

وبذلك أصبحت الكرة فى أيدى المسلمين . وأصبحت المبادأة لهم بعد ذلك . وانتقل المسلمون إلى مرحلة الهجوم بعد مرحلة الدفاع .

وأصبح الوقت فى صالح المسلمين فبدأوا بتطهير المدينة من يهود بنى قريظة لقطع دابر الفتنة نهائيا فى داخل المدينة المنورة . . . . وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الغزوة .

مثالية الرسول

من الدروس المستفادة من هذه الغزوة التأمل فى شخصية الرسول - ﷺ - والاقتداء به والتأسى بأخلاقه الكريمة وصفاته النبيلة ، وقد أنزل الله فى هذه الغزوة آية تحثنا على وجوب التأسى به . . قال - تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٢٠٢)

فقد قال المفسرون : إن هذه الآية لتدعونا إلى ضرورة التأسى بالنبى - ﷺ - فى أقواله وأفعاله وأحواله .

(٢٠٢) الأحزاب ٢١

وعلى قادة المسلمين أن يتخذوا من موقفه - ﷺ - يوم الأحزاب نموذجا لهم .. فقد كان - ﷺ - قدوة عليا فى الصبر والمصابرة والجهاد وانتظار الفرج من ربه .

ذكر القرطبى عن أنس بن مالك عن أبى طلحة قال : شكونا إلى رسول الله - ﷺ - الجوع وكان الجميع ومعهم رسول الله - ﷺ - قد ربطوا على بطونهم الحجارة من شدة الجوع .

ولقد أتيحت له - ﷺ - فرصة لأن يطعم وحده ولكنه أبى ، وذلك حين جاء جابر يدعوه هو ونفرا معه ، لأن طعامه لا يكفى لعدد كبير .

« ولكن كيف يتصور أن يترك النبى - ﷺ - أصحابه فى غمرة العمل وهم يتضورون مثله جوعا لينفرد عنهم مع ثلاثة أو أربعة من أصحابه يستريحون ويأكلون . . . إنه - صلى الله عليه وسلم - أشفق على أصحابه من شفقة الأم على أولادها ؟

« أما جابر فقد كان مضطرا إلى مافعل ، وكان ذلك منه طبيعيا ، إذا أنه لم يكن يملك إلا أن يتصرف حسب مالديه من الأسباب المادية ، والطعام الذى لديه لا يكفى إلا لعدد يسير ، فليخص به إذن رسول الله - ﷺ - ومن يشاء من بعض أصحابه فى حدود ضيقة .

« ولكنه - ﷺ - لم يكن من شأنه أن يتأثر بنظرة جابر هذه ، فهو أولا لا يمكن أن يتميز عن أصحابه بشىء من النعمة أو الراحة .

وهو ثانيا لايمكن أن يأسر نفسه تحت سلطان الأسباب المادية وحدودها التى ألفها البشر ، فالله وحده مسبب الأسباب وخالقها ، ومن اليسير عليه ـ سبحانه ـ أن يجعل من الطعام اليسير كثيراً ، وأن يبارك فى القليل منه حتى يكفى الكثير .

ومهما يكن فقد رأى النبى ـ ﷺ ـ أنه وأصحابه متضامنون متكافلون يتقاسمون النعمة بينهم مهما قلت ، كما يتقاسمون بينهم المحنة مهما عظمت وكثرت »(٢٠٣)

ولننظر إلى درس آخر من هذه الغزوة .

ذاك هو ضرورة اللجوء إلى الله ، والاعتصام بحبله ، فإن الأسباب المادية وحدها لا تكفى فى تحقيق النصر . .

ولو كانت الأسباب المادية وحدها محققة للنصر لأمكن لهذا الحشد الهائل من الأحزاب أن ينتصروا على المسلمين وهم قلة . .

لقد لجأ النبى ـ ﷺ ـ بعد أن اتخذ الأسباب من حفر الخندق وتوزيع العمل بين أصحابه ـ لجأ إلى الله يتضرع إليه ، ويستنصره . .

وكان يفعل ذلك فى حروبه كلها ، فكان الله يستجيب له . .

وكان يعلّم أصحابه دعوات يلجأون بها إلى الله ، ولاشك أن الدعاء مخ العبادة ، والله تعالى يقول :

« ادعونى استجب لكم »

---

(٢٠٣) فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى صـ ٢٣٢

وهو سبحانه يحب أن يسأل ، وسؤاله معناه الافتقار إليه والاعتماد عليه . وهو سبحانه يجيب سؤال من دعاه بصدق وإخلاص .

وليس معنى ذلك أن يلجأ المسلمون إلى الدعاء فحسب ويتركون الأسباب المادية التى يجب الاستعداد بها . .

بل معناه أن من وسائل الإعداد للعدو أيضا صدق الالتجاء إلى الله واخلاص العبودية له ، فباللجوء إلى الله يظهر الفرق بين المؤمن وغيره وبين الذى يعتمد على أسبابه وحدها والذى يعتمد على الله مع أخذ الأسباب . .

إن بركة الاعتماد على الله والصدق فى الالتجاء اليه هى التى زلزلت أقدام الأعداء وقوضت خيامهم وجعلتهم يصرخون من الرعب قائلين : النجاء النجاء . .

لقد أرسل الله على الأعداء ريحا شديدة وقد كان المسلمون على قيد خطوات من أعدائهم ، ومع ذلك فقد كانت هذه الريح دمارا فى معسكر الأعداء ، ولكنها كانت هادئة فى معسكر المسلمين .

أليس ذلك من المعجزات التى أيد الله بها القلوب الراغبة فيه والنفوس المطمئنة إلى وعده ؟ ؟

ولايجب أن ننهى الحديث فى تلك الغزوة قبل أن نتعرف على شخصية ذلك الصحابى الجليل الذى كان لرأيه أكبر الأثر فى تحقيق النصر . .

وهو سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ صاحب فكرة الخندق .

سلمان الفارسى

- من سلمان الفارسى الذى أشار بحفر الخندق ؟
- بداية النور بالنسبة لسلمان .
- هروبه إلى الشام .
- لقاؤه بأسقف الشام .
- سلمان فى الموصل .
- كيف عرف سلمان بهجرة النبى ؟
- إسلام سلمان .
- زواجه .
- موقفه من الإمارة .
- الإسلام دين ودنيا .
- سلمان العالم بأمور دينه .
- هل نزل فى شأن سلمان قرآن ؟

سلمان الفارسي

هو أبو عبد الله المعروف بسلمان الفارسي ، أو سلمان الخير ، وقد سئل عن نسبه فقال : أنا ابن الاسلام .

كان اسمه قبل الاسلام : مابه بن بوذخشان بن مورسلان بن بهبوذان بن فيروز بن سهرك ، من ولد آب الملك .

وهو أحد السباق الأربعة كما روى أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « السباق أربعة - أي إلى الإسلام : أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق الفرس ، وبلال سابق الحبشة »[٢٠٤]

وقد شرفه النبي - ﷺ - بقوله : سلمان منا آل البيت »[٢٠٥] وقال عنه كعب الأحبار : سلمان حُشي علما وحكمة .

أصله من فارس ، من مدينة رامهرمز .

وقيل : من جَيّ وهي اسم مدينة أصبهان في أصلها القديم ، وتسمى عند العجم شهرستان .

وهي مدينة مشهورة بحسنها وجمال طبيعتها . .

وكان أبوه دهقان مدينة جَيّ ، وكان يملك ضياعا يقوم على زراعتها . ورزق بسلمان بعد طول انتظار فأحبه كل الحب ، وآثره على نفسه ، وقدم له

---

(٢٠٤) حلية الأولياء لأبي نعيم الاصفهاني جـ ١ صـ ١٨٥
(٢٠٥) طبقات ابن سعد جـ ٤ صـ ٨٣

كل مايمكن أن يقدمه الوالد الثرى لولده الوحيد من رغد الحياة وخصبها ، وأعده ليكون خادما للإله ، وإلهم فى ذلك الوقت النار التى يقدسونها ويعبدونها من دون الله .

فجعل من سلمان خادما للنار يقدم لها وقودها حتى لا تخبو أبداً . وأخلص سلمان لهذه المهمة المقدسة ، التى لايُعَدُّ لها إلا أولاد الخاصة من الناس .

وأحسن سلمان اختيار أصدقائه . . . . . . يقول الطبرى : إن صديقه المخلص الذى لا يكاد يفارقه ـ كان ابن الملك[1] .

الباحث عن الحقيقة

ولنستمع إلى سلمان يقص علينا قصة بحثه عن الحقيقة واهتدائه إليها ، كما أوردها ابن هشام فى سيرته وأبو نعيم فى حليته ، وغيرهما من الرواة :

قال سلمان : كان أبى دهقان قريته ـ والدهقان هو الموكل بأمر الدين عند الفرس .

وكنت أحب إليه من كل شيء ، ومن شدة حبه إياى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية .

ـ وهو لون من الحب يعمد إليه بعض الآباء تخوفا على أبنائهم من مساوىء الاختلاط بين الأنداد ، وذلك شطط من الحب ، ولكن تعليله أن سلمان كان وحيد والده ، وكان يعده لتقاليد مهنته ، وميراث ضياعه وأملاكه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ صـ ١٥٤

وهذا لايمنع أن ينتقى له أصدقاءه ومخالطيه ، فقد مر أنه كان صديقا لابن الملك .

قال سلمان : واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قطن النار[٢٠٦] الذى يوقدها ولا يتركها تخبو ساعة .

ـ وقد استولت عليه هذه العقيدة فترة من الزمن ، ولكن عقله المتفتح كان يفكر فى شأنه هذا أحيانا ، وربما راودته بعض الخواطر : أتلك النار التى إذا تركها بدون وقود انطفأت يمكن أن تكون إلها يمد الكون بالحياة ؟

أتلك النار التى لا يمكن لأحد الاقتراب منها لأنها مخوفة دائماً ، ومحرقة دائماً ، وإذا أتت على شىء أكلته ولم تبق منه شيئاً ـ يمكن أن تكون إلها يعبد ؟ ـ

ـ لعلّ بعض هذه الخواطر راودت ذهن سلمان . . والا لما وصل إلى هذه النتائج من الرشد والهداية .

ـ وأخيرا لاحت الفرصة التى أتاحت لسلمان أن يفكر مليا فى أمره ـ

قال سلمان : وكانت لأبى ضيعة عظيمة ، فشغل فى بنيان له يوما ، فقال لى : يابنى إنى قد شغلت فى بُنيانى هذا اليوم عن ضيعتى ، فاذهب اليها فراقبها .

---

(٢٠٦) القطن : الخادم

وأمرنى ـ أبى ـ ببعض مايريد .

ثم قال لى : لاتحتبس عنى ، فإنك إن احتبست عنى كنت أهم إلىَّ من ضيعتى ، وشغلتنى عن كل شىء من أمرى .

أول النور

ـ وطمأن سلمان أباه ، ووعده خيرا ، وسار فى طريقه إلى الضيعة يدبر فى نفسه مايفعله فيها من أمور تسر والده وتجعله يزداد ثقة بحسن تصرفه ، فيسلم إليه الأمور دون توجس أو خوف أو قلق ـ

قال سلمان : فخرجت أريد الضيعة التى بعثنى اليها أبى ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم وهم يصلون ، وكنت لا أدرى شيئا عن أمور الناس وأحوالهم ، لحبس أبى إياى فى بيته ،

فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر مايصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبت فى أمرهم . .

ـ لقد تيقظ الهدى فى ضمير سلمان ، وثارت الخواطر التى كانت تراوده أحيانا فى عقله حول صلاحية هذه النار المحرقة لأن تكون ربا .

وكيف يكون المعبود مهلكا لعابده إن اقترب منه ؟

إن من شأن المعبود أن يكون رحيما بخلقه عطوفا عليهم ، كلما اقتربوا منه أمدهم بعونه وأظلهم بأمنه ، وشملهم برحمته .

أما هذه النار فلايستطيع أحد من الخلق الاقتراب منها والا أحرقته ودمرته . .

والرب معطاء لعباده وهو مصدر الخير والعطاء . وهو يحتفظ دائما بقوته وبقائه دون أن يمده غيره بالقوة والبقاء . أما هذه النار إن كف سدنتها عن إمدادها بالوقود خمدت وانطفأت وأصبحت رمادا لا يصلح إلا لأن يذوب بين طيات التراب ، أو تذروه الرياح فى جنبات الأرض . فبقاؤها منوط بغيرها مستمد من الوقود والموقد ، وماهكذا ينبغى أن يكون الإله الذى يجب أن يكون غنيا عن غيره ، مستقلا وحده بالبقاء .

كيف يناجى الانسان رباً لايملك من مقومات الربوبية شيئا ؟
لعل سلمان جالت فى نفسه هذه الخواطر . .
والا فكيف مال إلى هؤلاء القوم الذين رآهم فى الكنيسة يصلون ؟
إنهم يناجون الله بعبارات فيها خشية وضراعة ملكت عليه شغاف قلبه .
ولذلك نسمعه يقول : ـ

« فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبت فى أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الدين الذين نحن فيه وعليه .
فوالله مابرحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى فلم أذهب إليها » .

ـ عجبا لشأن الدين إنه إذا خامر العقل استولى عليه ، وأسلم الإنسان أمره إليه ، وهان كل صغير وكبير لديه ، ومن أجله يهجر الانسان أمه وأباه ،

ويترك ثروته وجاهه طائعا مختارا فى ذات الله ، لقد هانت الضيعة ، وهان أمر الأب . الذى أمره أن يذهب لرعاية الضيعة ، إن ذلك كله من حطام الدنيا الذى لا يغنى المرء شيئا ، ولا يقدم له الزاد الروحى الذى يرضى عقله وضميره ومشاعره . .

وسأل سلمان أصحاب هذه الكنيسة فقال لهم فيمايرويه عن نفسه :

أين أصل هذا الدين ؟

قالوا : بالشام . .

قال سلمان : فرجعت إلى أبى ، وقد بعث فى طلبى ، وشغلته عن عمله كله .

فلما جئته قال : أى بنى ، أين كنت ؟ أو لم أكن عهدت إليك بكذا وكذا ؟

قلت له : يا أبت ، مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم ، فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس .

ـ وكأن صاعقة قد نزلت على رأس الأب ، لقد فوجىء بجواب غير متوقع . . إن ما أخبره به ابنه لهو آخر ما كان يتوقعه منه . .

ـ أيقبل سلمان على دين آخر غير ذلك الدين الذى نذره أبوه له ؟

ـ أيمكن أن يترك سلمان النار المقدسة فلا يقدم لها غذاءها ويتجه إلى ديانة أخرى لا صلة لفارس بها ؟

ـ كيف ينحرف سلمان عن طريق درج عليه هو وآباؤه من قبله منذ مئات السنين ، فلا يعرفون لهم عملاً إلا إشعال النار المقدسة ، وإن ذلك العمل هو الذى خلع عليهم قدسية وجعل لهم منزلة خاصة فى قلوب الناس ؟

ـ إن لهم مهابة فى العيون ومنزلة فى القلوب ، والفضل فى اكتسابها يعود إلى ذلك العمل المقدس الذى يقومون به . فما بال سلمان يهجره ويتركه ، ويقبل على غيره ؟

ـ لقد ضاع مجدنا إلى الأبد . . هكذا قال أبو سلمان ـ

ـ وأراد الأب أن ينصح ابنه بالحسنى فقال له :

« أى بنى ـ ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ، ولكن سلمان كان قد فكر ووعى .

فقال لأبيه : كلا والله ، إنه لخير من ديننا . .

أجل ، فأين عبادة النار من عبادة الله ؟

وأين عقيدة المادة من عقيدة الروح ؟

قال سلمان : فخافنى ، فجعل فى رجلى قيداً ، ثم حبسنى فى بيته .

الهروب إلى الشام

ولكن سلمان كان قد اقتنع بعبادة الله ، وصمم على المضى فى هذا الطريق الذى سيعرضه لا محالة لكثير من المتاعب والمشاق . .

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣ ﴾(٢٠٧)

---

(٢٠٧) العنكبوت ٢ ، ٣

لقد بدأ الصراع بين الأب والابن . أب حريص على مكانته الدينية والاجتماعية ولو كانت مستمدة من الباطل ، وابن تكشفت أمامه الطرق لمعرفة الحق ، وظهرت أمامه أشعة النور فأراد أن يقتفى أثرها عله أن يصل إلى الحقيقة الكاملة التى بدأ يتعطش لها .

إن للكون إلهاً قادراً حكيماً مدبراً غير تلك النار . ولكن كيف الطريق إلى معرفته ؟

لابد أن يسافر إذن إلى الشام بحثاً عن هذا الدين الذى رأى شعاعه بين أولئك الذين يرتلون صلواتهم فى الكنيسة . ولكن أنى له ذلك وهو مقيد محبوس ؟

ولكنه احتال فى أن يوصل رسالة إلى أولئك الذين التقى بهم فى الكنيسة . قال سلمان : « وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم . .

ـ ولاحت هذه الفرصة ـ فقد قدم عليهم ركب من الشام ، قوم تجار من النصارى فأخبرونى بهم . فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلي بلادهم فآذنونى بهم .

قال سلمان : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبرونى بذلك فاحتلت حتى تخلصت من قيدى ، ثم خرجت معهم ، حتى قدمت الشام . .
ـ وكان سلمان توّاقاً للمعرفة ، لا يكتفى بأول ما يلوح له من طلائع ، ولكنه يريد أن يصيب كبد الحقيقة .

فسأل من اصطحبهم إلى الشام ، أو من التقى بهم هناك : من أفضل أهل هذا الدين علماً ؟

فأجابوه قائلين : إنه أسقف الكنيسة .

ـ لقد لاحت له فى عقله استفهامات كثيرة أراد أن يسأل عنها ، ورأى أنه لن يشفى غليله فى الإجابة عنها أولئك الذين التقى بهم مصادفة فى الكنيسة ، أو اصطحبهم فى الطريق ،

ويبدو أنه ناقشهم فلم يجد عندهم شفاء نفسه ، وكابدهم فلم يجد عندهم ذلك الوجدان الإيمانى الذى يخالط بشاشة القلب فيملؤه سكينة واطمئناناً . .

إن كثيراً منهم يرددون عبارات قد لا يفهمون لها معنى ، ويحاكونها محاكاة المقلد ، ولا تصدر عباراتهم عن روح ذائقة وعقل عارف .

من أجل ذلك سأل عن أعظم أهل هذا الدين علما . . . .

مع الأسقف

والتقى بالأسقف . قال سلمان : فجئته ، فقلت له : إنى قد رغبت فى هذا الدين ، فأحببت أن أكون معك ، وأخدمك فى كنيستك ، فأتعلم منك ، وأصلى معك .

ـ عجباً لك يا سلمان . . لقد اخترت طريقاً شاقاً . . إنك تركت ضياع أبيك وميراثه العريض ، وجاهه الذى ينتظرك فى بلدك . . وآثرت الضرب فى الأرض ، ووصل بك الأمر أن تكون خادماً فى كنيسة ! !

ولكنه الحب للمعرفة ، والتطلع إلى الحقائق ، والرغبة فى الوصول إلى هدف نبيل ، ومثل هذا تهون فى سبيله المتاعب ، وتستلذ المصاعب .

قال له الأسقف : ادخل .

قال سلمان : فدخلت معه . .

ولكن سلمان يصرح بأنه قد انخدع فيه ، فلم يجده كما كان يظن ، وربما لم يجد فيه القدوة التى ينتظرها ، أو القيم التى كان يتوق إليها فقد أخبر سلمان بأن الأسقف كان يأمر الناس بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورِق ـ فضة .

قال : فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع .

ـ وكيف لا يبغضه سلمان وهو قد هجر بلاده ودينه غضباً ممن يسلكون هذا السلوك وساح فى الأرض باحثاً عن المثل العليا . .

أتستحق الدنيا هذا العناء الذى حبس هذا الأسقف نفسه له ؟

إن الدنيا أهون شىء فى نظر العارف . ومن هوانها عليه يزهد فيها حقيقة . .

وإذا كان الإمساك فى الدنيا والشح بها كريه بالنسبة لعامة الناس فهو بالنسبة لرجل الدين والداعى إليه ينبغى أن يكون أشد كراهة . .

ولكن هذا الأسقف لم يكن على مستوى الأمر الذى يتولاه . . . .

وما أصدق تصوير القرآن لأمثال هذا الأمر بالمعروف التارك له :

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢٠٨)

وما أصدق وعيده لهؤلاء حيث قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢٠٩)

قال سلمان : ثم مات هذا الأسقف .

فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ويمجدوه . . . فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً ،

فقالوا لي : وما علمك بذلك ؟

فقلت لهم : أنا أدلكم على كنزه . .

---

(٢٠٨) البقرة ٤٤

(٢٠٩) التوبة ٣٤ ، ٣٥

قالوا : فدلنا عليه . فأريتهم موضعه ، فاستخرجوه ، وكان سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً .

فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً . .

فصلبوه ورجموه بالحجارة . .

لقد خُدع الناس فى هذا الرجل زمناً طويلاً . . وأمثال هؤلاء الخداعين يضللون الشعوب ويهلكون الناس . فإنما يؤتى الناس من قبل علمائهم وأئمتهم ، فإنهم يقلدونهم ويفعلون مثلهم ظناً منهم أن الذى يفعله هؤلاء الأئمة العلماء هو الصواب . ومن هنا قال الحكماء : إذا زل العالِم زَلَّ بزلَّته عالَم . .

مع الأسقف الجديد

قال سلمان : وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه . وكان رجلاً زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة يدأب فى الطاعة .

وأحب سلمان هذا الأسقف حباً شديداً لانه رأى فيه صورة صحيحة للعالم العامل ، وعن طريقه تكشفت له بعض الأنوار التى أضاءت له الطريق .

ومن خصائص المعرفة أنها ليست دروسا تلقن ، أو مناهج تدرس . ولكنها تقوى وسلوك واقتداء . .

وليس ذلك عجيبا فكتابنا الكريم يقول :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ

﴿ ... سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٢١٠)

ويقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ (٢١١)

ويقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢١٢)

ونبينا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم

ومن هنا كان الصحابة الأجلاء إذا نزل شيء من القرآن يتقنونه حفظا وعملا ، فكانوا أنوار هدى وشموس معرفة .

قال سلمان : فأقمت مع الأسقف الجديد زمانا ، ثم حضرته الوفاة ـ فقلت له : يا فلان إني كنت معك ، وأحببتك حبا كثيرا ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله ـ تعالى ـ ، فإلى من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟

قال الرجل : أي بني ، والله ما أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه ، فقد هلك الناس ، وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل . هو على ما كنت عليه فالحق به .

---

(٢١٠) الأنفال ٢٩
(٢١١) البقرة ٢٨٢
(٢١٢) الحديد ٢٨

سلمان فى الموصل

ويستبد الشوق إلى المعرفة بسلمان ، فهو لم يهجر وطنه ويترك أهله ، ويزهد فى المال والجاه ليقف عند هذا الحد . إنه يتعطش إلى معرفة الواحد المعبود .

إنه حتى الآن لم يجد هذه الطُّلبَة وإن كان قد وضع قدمه على أول الطريق ، ولابد أن يكمل المسيرة حتى يصل .

ومات الأسقف الذى كان يحبه سلمان ، فشمر عن ساقه ليلتحق بصاحب الموصل الذى أخبره الأسقف عنه .

والتقى به فقال : يا فلان ، إن فلانا أوصانى عند موته أن ألحق بك ، وأخبرنى أنك على أمره .

فقال له الرجل : أقم عندى .

قال سلمان : فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه . . ولكنه لم يلبث أن حضرته الوفاة . .

وشعر سلمان بالحزن الشديد . لا للموت ـ فالموت حق على رقاب العباد ـ ولكن لما سيفوته من الخير على يد الرجل ، ولأنه لم يحقق الهدف الذى يسعى من أجله بعد ، وأين الذى سيكمل معه الطريق ، ويعينه على الوصول إلى ما يريد .

فقال لصاحبه ـ وهو يحتضر ـ : يا فلان ، إن فلانا أوصلنى إليك وأمرنى أن ألحق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟

قال الرجل الصالح : يا بنى والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه إلا رجلا بنصيبين . وهو فلان فالحق به .

سلمان يرحل إلى نصيبين

ولم ينزعج سلمان من كثرة التجوال ، فالسياحة مرحلة من مراحل الوصول إلى المعرفة ، والهجرة ركن أساسى من أركان الطريق إليها . .

وما أن دفن ذلك الرجل الصالح حتى جد سلمان فى طريقه إلى نصيبين ، والتقى بذلك الرجل الذى وصف له . .

قال له : إن فلانا أمرنى باللحوق بك ، وأوصى بى إليك . . وأخبره خبره .

فقال له : مرحبا بك ، أقم عندى . .

قال سلمان : فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه .

ولكن القدر لم يمهل هذا الرجل أيضا .

وارتاع سلمان حين رآه على وشك الموت . .

قال له : يا فلان ، إن فلانا كان قد أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، والآن قد حضرك ما ترى من أمر الله الغالب الذى لايرد ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟

قال الرجل : يا بنى والله ما أعلم أنه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته فإنه على أمرنا .

يا سبحان الله . . فى كل قطر واحد فقط يعرف الله حق المعرفة ويعبده

حق العبادة . . . لقد فسد الزمان حقا . . وتقلص ظل الحقيقة حتى لم يعد يعرفها سوى واحد فى عمورية هو ذلك الذى سوف يقصده سلمان . .

ولئن هلك هذا الرجل قبل أن يصل سلمان إليه ، فربما ضل سلمان الطريق وتاهت المعالم منه . . هذه خواطر ربما تكون قد جالت بذهن سلمان الذى يبحث عن الحقيقة . ومن يدرى ؟ فلعله هتف من أعماقه أن يبقى الله هذا الرجل على قيد الحياة حتى يصل إليه ليرشده إلى الحق الذى يبحث عنه . .

أى ظمأ إلى المعرفة يتغلغل فى صدر سلمان ؟ وأى شوق يعتمل فى جوانحه إلى طريق الايمان الحق ؟ . .

إن هذا الوجود الذى يموج بالحركة والحياة له رب حكيم قادر . .

كيف يصل إلى معرفة هذا الحكيم القادر ؟ من يدله عليه ؟ من يوصله إليه ؟ . .

لقد هجر عبادة النار لأنها ضلال ، وصحب هؤلاء الأساقفة لأنه وجد فى كلامهم من النور ما يمكن أن يهديه إلى الطريق الذى يبحث عنه ، ولكن ما زال فى قلبه ظمأ ، وفى وجدانه تعطش ، وفى روحه شوق . . فمن الذى يروى ظمأه وتعطشه ؟ ومن الذى يطفىء نار شوقه إلى الحقيقة ؟

فى عمورية

وأخيرا وصل سلمان إلى عمورية . . والتقى بأسقفها . . وأخبره خبره . .

فرحب به الرجل ، وقال له : أقم عندى . .

وما جاء سلمان إلا ليقيم عنده ، وإلا فلماذا كان هذا التعب والنصب

والتجوال الطويل ؟ .

قال سلمان : فأقمت عند رجل على هدى أصحابه وأمرهم ..

ولم يكن سلمان يعيش فى كنف هؤلاء الرجال عالة ، ولكنه كان يحترف حرفة يقتات منها

ـ يقول : واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمات ..

لقد وجد فى العمل لونا من العبادة أعانه على مزيد من التأمل والتفكير ، إنه يقلب التربة بفأسه ، ويلقى فيها البذر ، فتنتج نباتا يكبر ويزدهر ويثمر ، ثم يذبل ، وتعود الحركة من جديد ، حركة الحياة ثم الموت ثم البعث فلماذا إذن ينكر الناس ما أخبر به الرسل من البعث ؟

لقد جاء الرسل للهداية إلى الله ، وكشف الران عن قلوب الناس ، وجلاء الغشاوة عن عيونهم ، وبعث الطمأنينة فى نفوسهم عن طريق هدايتهم إلى الله الخالق القادر المبدع الحكيم ..

ولم يدم له الحال طويلا مع ذلك الرجل الذى وجد فى ظله مزيدا من المعرفة ، فقد حضره الموت كما حضر أصحابه السابقين .

ولما حضرته الوفاة قال له سلمان والألم يعتصر قلبه : يا فلان ، إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟

قال الرجل : أى بنى ، والله ما أعلم أنه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تذهب إليه ... ولكنى أحدثك بأمر عظيم ... لقد أظل زمان نبى ، وهو مبعوث بدين إبراهيم ـ عليه السلام ـ يخرج بأرض

العرب ، مهاجره إلى أرض بين حَرَّتين ، بينهما نخل ، به علامات لاتخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل . .

انظر كيف استطاع هذا الرجل أن يحدد أوصاف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الدقة البالغة . وما ذلك إلا لأنهم أخلصوا فى استخلاص مكنونات الكتب القديمة الخالية من التحريف والتبديل ، ولم يخضعوا أنفسهم ـ كما خضع غيرهم ـ لشهواتهم وأحقادهم . .

ومن أجل ذلك كانوا قلة . . فى كل قطر واحد ، بالرغم من كثرة دور العبادة الخاصة بالأحبار والرهبان فى كل مكان . .

ولكن المسألة ليست مسألة كثرة ، ولكنها مسألة علم وإخلاص فى طلبه . . ومن أجل ذلك كان سلمان حريصا على أن يسأل منذ البداية عن الأفضل ،



سلمان فى وادى القرى

ولم يُضيِّع سلمان وقته ، فلابد من أن يهاجر إلى موطن النور . . لقد أعطاه الرجل الصالح علامات ، وعليه أن يجتهد هو فى تحرى هذه العلامات حتى يصل إلى مكان النبى المبعوث فى هذا الزمان . . فهو وحده الذى سوف يجد عنده غذاء روحه وشفاء نفسه ورواء ظمئه . .

إنه الآن فى عمورية ، وما أبعد المسافة بين عمورية وبلاد العرب ، وكيف يصل إلى هذه البلاد وليس معه دليل . .

وما زال يتحين الفرصة ليعثر على من يهديه إلى طريق المدينة ذات الحرتين اللتين بينهما نخل . .

سلمان فى وادى القرى

ولاحت هذه الفرصة أخيرا ، فقد عثر على ركب من التجار العرب ، إنهم رجال من قبيلة كلب كانوا فى تجارة فى عمورية ، وها هم قافلون إلى أرضهم .

عرض عليهم سلمان أن يحملوه معهم إلى بلادهم على أن يعطيهم بقراته وغنيماته . .

ووافقوا على الفور واصطحبوه .

ولكنهم كانوا رفاق سوء ، فما أن وصلوا به إلى وادى القرى حتى ظلموه وباعوه على أنه عبد رقيق لهم .

قال سلمان : . . حتى إذا وصلوا بى وادى القرى ظلمونى فباعونى لرجل يهودى فكنت عنده ، ورأيت النخل فرجوت أن يكون ذلك البلد الذى وصف لى صاحبى .

ولكن سرعان ما تبدد هذا الرجاء حين تبين له أنه ليس فى المدينة . ولكنه فى وادى القرى بين قوم يهود . ما أروعك يا سلمان : كم تحملت من مشقات فى سبيل الوصول إلى المعرفة .

ومع ذلك لم تلن لك قناة ، ولم تضعف لك عزيمة ، بل ظللت صامدا شجاعا قويا جلدا تستهين بالصعاب وتسخر من العقبات . .

وفى سبيل المعرفة التى تطلبها أصبحت رقيقا مملوكا ، ومع ذلك لم ينل ذلك من همتك ، فالرق الحقيقى هو رق النفس ، أما رق الجسد فهو شىء هين ضئيل ، وكم من أحرار فى الظاهر وهم أسرى النفوس والعقول

والقلوب . وكم من أرقاء فى الظاهر ولكنهم أحرار من شهواتهم ونزواتهم وتطلعاتهم ومطامحهم المادية الرخيصة .

استطاعوا أن يحطموا الأغلال التى أحاطت بعقولهم وأرواحهم فهم سادة حقا وإن كان الناس يطلقون عليهم لقب العبيد . . والشاعر الحكيم يقول :

الحـر عبـد ماطمـع والعبـد حـر مـا قنـع

لم يذهل سلمان الرق عما جاء من أجله . . لقد كان يشعر أن فى داخله روحا حرة متطلعة إلى الكمال لايثنيها عن عزمها أى شىء ، ولديه إرادة قوية تتحدى كل صعب . .

وكما يتفجر الماء من الصخر ، والنور من الظلمة ، والعسر من اليسر ، وكما يجىء الفرج بعد الشدة والأمل بعد اليأس كان الأمر كذلك بالنسبة لسلمان .

فقد جاء يهود من بنى قريظة أقرباء لهذا اليهودى الذى اشترى سلمان فى زيارة له ، ورأوا سلمان فى قوة جسمية وعقل مستنير ورأى صائب فأغراهم ذلك بشرائه من قريبهم .

فابتاعوه وساروا به إلى المدينة . .

سلمان فى المدينة

وهكذا تبددت آلام سلمان فقد أصبح فى ذلك الموطن الذى وصفه له أسقف عمورية . . هذه هى يثرب بين حرتين بينهما نخل ، وإنه ليعمل فى هذا النخل لصاحبه الذى اشتراه .

وهو سعيد بهذا العمل لم يضق به ذرعا على الرغم من صعوبته .. لقد تنشق عبير ذلك المكان الذى سوف يهاجر إليه نبى آخر الزمان ..

ومن يدرى لعله يلقاه بين آونة وأخرى .. ألم يقل له صاحب عمورية : لقد أظلنا زمانه ؟

قال سلمان : واحتملنى صاحبى إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى ، فأقمت بها ، وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأقام بمكة ما أقام ، لا أسمع له بذكر بسبب ما أنا فيه من شغل الرق .

هجرة النبى

وحانت اللحظة التى يرتقبها سلمان ..

فقد هاجر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ...... أما كيف عرف سلمان ذلك .. فهذا ما يحكيه هو بنفسه .. يقول :-

فوالله إنى لفى رأس نخلة . لسيدى أعمل فيه بعض العمل وسيدى جالس تحت النخلة ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : يا فلان ، قاتل الله بنى قَيْلَة(٢١٣) ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة يزعمون أنه نبى ...

وما أشد فرحة سلمان حينذاك ..

إنه بعد هذه السنين الطويلة التى جوَّب خلالها فى الآفاق باحثا عن الحقيقة يعثر عليها الآن .. وهى فى متناول يده .

---

(٢١٣) قيلة : أم الأوس والخزرج

وانتابته حالة من الفرحة الغامرة أوشكت أن تطيح به من رأس النخلة . .

يقول سلمان : فلما سمعت ما قال الرجل أخذتنى العروراء ـ الرعدة ـ حتى ظننت أنى سأسقط على سيدى .

فنزلت عن النخلة ـ فجعلت أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ لقد زايله تحفظه من الفرحة ، فأقحم نفسه فى الخطاب دون استئذان . .

قال : فغضب سيدى ، فلكمنى لكمة شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك . .

ولم يغضب سلمان بل احتمل ذلك ، وتوجه إلى عمله ، ولكنه كان قد أسرَّ فى نفسه شيئا ، ولقد وعى ما قال ذلك الرجل وهذا يكفيه .



إسلام سلمان

وما أن جاء المساء حتى استعد سلمان للذهاب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بين أنصاره وأصحابه فى قباء ، وقد أراد أن يستوثق من العلامات التى ذكرها له أسقف عمورية . .

كان قد جمع شيئا من التمر وحمله معه . .

واستأذن على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودخل . . وملأت طلعة الرسول البهية روحه أمنا ورضا ، وكأن عذاب السنين الطويلة كله ذهب فى لحظة ، وبعد أن ملأ عينيه منه وحياه ، قال له : قد بلغنى أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شىء كان عندى للصدقة ، فرأيتكم أحق الناس به من غيركم . . ثم قربته إليه .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : كلوا . وأمسك يده فلم تمتد إليه ولم يأكل .

قال سلمان : فقلت : هذه واحدة . ثم انصرفت . .

وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تحول إلى المدينة ، فذهب إليه سلمان مرة ثانية وقد جمع بعض التمر ، وقال له : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، فهذه هدية أكرمتك بها . .

فأقبل عليها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأكل منها ، وأمر أصحابه فأكلوا معه . . . . إلى هنا كان سلمان قد تأكد من علامتين من العلامات الثلاث التى ذكرها له صاحب عمورية فى نبى آخر الزمان ـ صلى الله عليه وسلم ـ

هاتان العلامتان هما : أنه لايأكل من الصدقة ، ويأكل من الهدية . .

بقيت العلامة الثالثة ، وهى خاتم النبوة بين كتفيه ، فكيف يعرفها ؟

قال سلمان : ثم توفى كلثوم بن الهدم أحد أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتبع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم جنازته ، وسار خلفه حتى بقيع الغرقد ، وجلس مع صحابته . .

فجئت وسلمت عليه ، ثم استدرت أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى ؟

فلما رآنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقف وراءه ، عرف أنى أريد أن أتثبت من شىء وصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكى .

فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تحول ..

فتحولت ، فجلست بين يديه ، فقصصت عليه حديثى كله ..

ـ وهنا أعلن سلمان إسلامه .. ولمَ لا وقد وجد ضالته التى يبحث عنها ؟

لقد طوف ما شاء الله له أن يطوف فى الآفاق، وتناوبت عليه أحداث الزمن من الحرية إلى الرق ، وهو يستعذب كل مشقه فى طريقه بحثا عن الحق الذى لمعت طلائعه فى جوانحه ذات يوم ..

ومن أجل ذلك هجر أهله وذويه وجاهه ووطنه .. وسار متنقلا فى الأرض ..

وها هو ذا الآن يلتقى بطلبته ، يلتقى بنبى آخر الزمان الذى سيروى ظمأ فؤاده بالمعرفة التى يبحث عنها ، وهو الذى سيضع يده على الحقيقة التى يطلبها ...

إن الطريق إلى المعرفة هو ذلك النبى الذى سيأخذ بأيدى الناس إليها .. وها هو ذا الآن بين يديه ..

ما أعظم سعادة سلمان حين تبخرت كل متاعبه فى لحظة ، وتحققت كل أمانيه فى نفس اللحظة ..

لم يعد يشغل بال سلمان منذ الآن إلا شىء واحد ، هو الرق .. لأنه لن يستطيع أن يخلص بوقته كله إلى إرواء ظمئه من ذلك النور الذى يجلس الآن فى حضرته . إنه رقيق ولسيده عليه حق لايستطيع التفريط فيه ..

وكيف يتمكن من أداء شعائر هذا الدين الذى اعتنقه وهو فى قبضة

يهودى يثقل كاهله بالعمل ويكلفه ما لايطيق ؟

ووجد الحل لهذه المشكلة فى كلمة مضيئة من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد قال له ـ ذات يوم ـ : كاتب يا سلمان . .

ويمضى سلمان إلى صاحبه اليهودى فيفاوضه فى شأن كتابته ، ويقبل اليهودى أن يحرر سلمان إذا أدى له ثلثمائة نخلة يزرعها له وأربعين أوقية من الذهب .

سلمان يحرر نفسه

ولكن هذا ثمن باهظ ، ومن أين لسلمان البائس الفقير بذلك كله ؟ إلا أن الرحمة المهداة ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايتركه هكذا غريقا فى بحر لجى تفترسه الهموم . فأخذ بيده إلى الشاطىء ، وقال لأصحابه : أعينوا أخاكم .

قال سلمان : فأعانونى بالنخل ، الرجل بثلاثين وَدِيَّة[214] ، والرجل بعشرين ودية ، والرجل بخمس عشرة ودية ، والرجل بعشر ، يعين الرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت لى ثلثمائة ودية .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اذهب يا سلمان فاحفر لها . فإذا فرغت فائتنى أكن أنا أضعها بيدى .

قال سلمان : فحفرت وأعاننى أصحابى .

حتى إذا فرغت جئته فأخبرته .

فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معى إليها . . فجعلنا نقرب

---

(٢١٤) الودية ـ بوزن هدية ـ النخلة بعد أن تخرج من النواة ثم تكبر شيئا فشيئا وهى فراخ النخل .

إليه الودى ، ويضعه رسول الله ـ صلى اللهْ عليه وسلم ـ بيده ، حتى فرغنا ، فوالذى نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة .

لقد أدى سلمان النخل ، وبقى المال وهو المشكلة الكبرى . .

كيف يؤدى سلمان أربعين أوقية من الذهب ؟ إنه لثمن باهظ لحريتك يا سلمان وأنت فى هذه الحال . .

حقاً إن حريتك لا تقدر بمال ، وإنه لا يعادلها شيء سوى الحياة نفسها ، فالحرية والحياة مترادفان . ولكن أين المال الذى يدفعه من أجل حريته وحياته ؟

وتتدخل سماحة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه المشكلة أيضاً لحلها . وليست السماحة وحدها ، بل السماحة والبركة معاً . .

قال سلمان : فأديت النخل ، وبقى عليَّ المال ، فساعدنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطلب إلى أصحابه مساعدتى حتى أديت ما عليَّ .

وتحرر سلمان . . وأصبح ملك نفسه ، لا بل أصبح ملك الإسلام ، فقد وهب نفسه للإسلام ـ أعطاه حياته كلها ، ولذلك كان يفتخر قائلاً : أنا ابن الإسلام . .

لقد نسى أباه وأمه ، ونسى نسبه وأصله ، ولم يتذكر إلا شيئاً واحداً هو ذلك الدين الذى هداه إلى الحقيقة ، وأراه قيمة نفسه ، وكشف الغطاء عن قلبه وعينه ، فرأى نور المعرفة أمامه سافراً مشرقاً . . هذه هى الولادة الحقيقية التى يفخر الانسان بالإنتساب إليها . . لقد تبدلت حالة سلمان تماماً ، وتمتع بالحرية الكاملة حين رأت عينه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

إنه ذلك الرجل الذى بشر به كل من التقى بهم فى رحلته الطويلة التى جاب فيها الآفاق . .

سلمان فى معية الاسلام

وسار سلمان فى معية الاسلام مجاهداً .

وكان أعظم عمل له فى الجهاد موقفه يوم الأحزاب ، حيث أشار على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحفر الخندق . .

قال الرواة : حين نما إلى علم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجمع الأحزاب فى زحفهم على المدينة ، جمع أصحابه للتشاور معهم فى هذا الأمر . .

ولم يحضر سلمان الاجتماع ، بل جلس فوق هضبة عالية وأخذ يتفحص المدينة ويتعرف على مداخلها ، وهاله وسره فى نفس الوقت أن وجدها محصنة بالجبال والصخور ما عدا فجوة واسعة يستطيع الجيش المغير من طريقها أن يقتحم المدينة . .

ونزل مسرعاً وانضم إلى مجلس الحرب الذى عقده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشار عليهم بحفر الخندق فى المنطقة المنبسطة أمام مدخل المدينة(٢١٥) .

واشترك سلمان فى حفر الخندق مع المسلمين .

وكان ذا قوة ونشاط وجلد ودأب حتى أعجب به المسلمون وأراد كثيرون

---

(٢١٥) رجال أنزل الله فيهم قرآنا د عبدالرحمن عميرة جـ ٢ صـ ٢٣ .

أن ينسبوه إليهم . . كل يريد أن ينسبه إلى قومه فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلمان منا أهل البيت . .

فكان هذا فخاراً ما بعده فخار لسلمان ـ رضى الله عنه ـ

وقد حدَّث سلمان أنه فى أثناء الحفر اشتدت عليه صخرة لم يستطع أن يفتتها ، فذكر ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذ النبى ﷺ المعول من سلمان وقال : بسم الله ـ وضرب ضربة فكسر ثلثها ، ثم ضرب الثانية فكسر ثلثاً آخر ، ثم ضرب الثالثة فكسر بقيتها . .

ثم كبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال يا سلمان : تفتح بعدى بلاد اليمن ، والشام ، وفارس ، وجعل يصف لى بلاد فارس . وأنا أقول : صدقت يا رسول الله[٢١٦] » .

ويمضى سلمان مجاهداً مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومع أصحابه من بعده ـ رضوان الله عليهم ـ

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحبه ويقربه .

زواج سلمان

ويحدثنا أبو نعيم الأصفهانى عن زواج سلمان فيقول :

تزوج سلمان امرأة من كندة فبنى بها فى بيتها .

ـ ويبدو أنها كانت من أسرة ثرية تعيش فى ترف من الحياة ـ وفى ليلة الزواج مشى معه أصحابه حتى أتى بيت امرأته ، فلما بلغ البيت قال لهم : ارجعوا آجركم الله .

---

(٢١٦) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ صـ ١٠٠

ـ ونظر سلمان إلى البيت فإذا مظاهر البذخ والسرف بادية ظاهرة ، وهو لم يألف ذلك ولا يحبه ، إنه يعشق الزهد والتقشف ـ قال أبو نعيم : فلما نظر الى البيت والبيت منجد ـ أى تعلوه الستائر ـ قال : أمحموم بيتكم ؟ أم تحولت الكعبة فى كندة ؟

قالوا : ما بيتنا بمحموم ، ولا تحولت الكعبة فى كندة . .

فلم يدخل البيت حتى نزع كل مظاهر البذخ والسرف .

فلما دخل رأى متاعاً كثيراً .

فقال : لمن هذا المتاع ؟

قالوا : متاعك ومتاع امرأتك .

قال : ما بهذا أوصانى خليلى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوصانى خليلى ألا يكون متاعى فى الدنيا إلا كزاد الراكب . . ورأى سلمان ـ رضى الله عنه ـ خدماً فى البيت . فقال : لمن هؤلاء الخدم ؟

فقالوا : خدمك وخدم امرأتك .

فقال : ما بهذا أوصانى خليلى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لقد كان سلمان ـ رضى الله عنه ـ مثالاً فى الزهد والعفة . . كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد آخى بين أبى الدرداء وسلمان ، وسكن أبو الدرداء الشام ، أما سلمان فقد سكن العراق .

وكتب أبو الدرداء إلى أخيه سلمان كتاباً يقول فيه :

« سلام عليك ، أما بعد ، فإن الله رزقنى بعدك مالاً وولداً ، ونزلت الأرض المقدسة .

فكتب إليه سلمان يقول له :

« سلام عليكم ، أما بعد ، فإنك كتبت إلىَّ أن الله رزقك مالاً وولداً ، فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد ، ولكن الخير أن يكثر عملك ، وأن ينفعك علمك .

وكتبت إلىَّ أنك نزلت الأرض المقدسة ، وإن الأرض لا تعمل لأحد ، اعمل كأنك ترى ، واعدد نفسك فى الموتى[٢١٧] » .

ما أحكمك يا سلمان وأبعد نظرك ، وما أتقاك وأخشاك ، وما أحرصك على وصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لك ولغيرك من المسلمين .

كان عطاء سلمان خمسة آلاف ، فإذا خرج عطاؤه فرقه ، وأكل من كسب يده . كان يسف ـ ينسج ـ الخوص . .

الوالى على المدائن

وكان سلمان يفر من الإمارة ولايحبها

واذا جاءه من يستشيره فى ذلك يشير عليه بعدم قبولها كان يقول : كل من عملك وكسب يدك ولاتكونن أميرا على اثنين ، واتق دعوة المظلوم والمضطر فإنها لاتحجب[٢١٨]

لماذا يذكر المظلوم والمضطر فى هذا المقام ؟

لأن الوالى أكثر رواد بابه من المظلومين والمضطرين فإذا لم ينصف المظلوم ويجيب المضطر دعا عليه كل منهما ، فأجاب الله دعاءهما فيه . . . ومن

---

(٢١٧) أسد الغابة جـ ٢ صـ ٤٢٠

(٢١٨) حلية الأولياء جـ ١ صـ ١٨٥

الذى يستطيع الصمود أمام هذا الامتحان الصعب ؟

ولكن عمر بن الخطاب أراد أن يولى سلمان المدائن ، فأرسل إليه ، فرفض سلمان بشدة ، ولكن عمر أمر ، وطاعة أمير المؤمنين تكليف لايستطيع النكوص دونه

وقبل سلمان على مضض . . . . ولكن هل غيرت الولاية من سلوكه فى الحياة ؟

هل أصابته بالزهو والعجب الذى يصيب الولاة ؟

يتحدث أحد الرواة عنه أثناء ذهابه لتولى عمله . فيقول : « رأيت سلمان الفارس على حمار وعليه قميص قصير وكان رجلا طويل الساقين كثير الشعر . ورأيت الصبيان يحضرون خلفه . فقلت : ألا تتنحون عن الأمير ؟ فقال : دعهم فإنما الخير والشر فيها بعد اليوم »

ورتب الخليفة عطاء لسلمان ـ خمسة آلاف كما سبقت الاشارة الى ذلك ، ولكنه كان يوزعها على الرعية ويعمل فى جدل الخوص . .

كان عدد إمارته ثلاثين ألفا من الناس . . وكانت له عباءة يفترشها ليجلس عليها

قال النعمان بن حميد : دخلت مع خالى على سلمان بالمدائن ، وهو يعمل فى جدل الخوص فسمعته يقول : أشترى خوصا بدرهم ، ثم أعمله فأبيعه بثلاثة دراهم ، فأعيد درهما فيه ، وأنفق درهما على عيالى ، وأتصدق بدرهم . ولو أن عمر بن الخطاب نهانى عنه ماانتهيت .

وكان يخرج كل يوم فى إمارته فيختلط بالناس ، ويتعرف على مطالبهم وفوقه تلك العباءة التى لا يملك غيرها ..

لقيه رجل قادم من الشام ومعه حِمْل تين وتمر وكان الحمل يثقل على الرجل الشامى ويتعبه . فلم يكد يبصر أمامه رجلا يبدو عليه أنه من عامة الناس وفقرائهم . حتى أشار اليه فدنا منه ، فقال له : احمل عنى هذا . فحمله ومضيا معا .. وسارا فى الطريق فكلما لقيا جمعا ألقى سلمان السلام . فيجيب الجمع واقفين وعلى الأمير السلام ..

كل ذلك والشامى يتعجب من كلمة الأمير . أى أمير يعنون ؟ وازدادت دهشة الشامى حين رأى بعض الناس يسارعون صوب سلمان يحملون عنه مايحمله قائلين : نحن نكفيك أيها الأمير . عند ذلك علم الشامى أن هذا الرجل الذى حمل عنه حمله إنما هو سلمان الفارسى أمير المدائن ..

وحاول الرجل أن يعتذر ، أو أن يأخذ متاعه من سلمان ، ولكن سلمان أصر على أن يبلغه منزله .(٢١٩)

هذه هى القدوة الطيبة ، وتلك هى تعاليم المدرسة المحمدية العالية التى لايمكن أن تساميها تعاليم أخرى مهما وضعت من مناهج ورسمت من طرق ..

---

(٢١٩) رجال أنزل الله فيهم قرآنا جـ ٢ صـ ٢٨

علم سلمان :

كان سلمان رضى الله عنه ـ آية فى الفقه والعلم ، لقد ورث علم الكتاب الأول ، وعلم الكتاب الآخر ـ كما قال عنه ـ على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

سئل عنه فقال : علم عِلْمَ الكتاب الأول والكتاب الآخر وهو بحر لاينزف وهو منا أهل البيت ، :

وكان حريصا على العمل ـ والعمل طريق للعلم ، فمن عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم .

حدث الحارث بن غميرة قال : انطلقت حتى أتيت المدائن . فإذا أنا برجل عليه ثياب خلقان ومعه أديم أحمر يعركه ، فالتفت فنظر إلىَّ فأومى بيده ـ مكانك ياعبد الله فقمت ، وقلت لمن كان عندى : من هذا الرجل ؟

قالوا : هذا سلمان .

فدخل بيته فلبس ثوبا أبيض ، ثم أقبلْ وأخذ بيدى ، أو صافحنى وسألنى ـ عن أمور . . . .

فقلت : ياعبد الله ، مارأيتنى فيما مضى ولارأيتك ، ولاعرفتنى ولاعرفتك .

قال : بلى والذى نفسى بيده لقد عرفت روحى روحك حين رأيتك ، ألست الحارث بن عميرة ؟

فقلت : بلى .

قال : فانى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف[٢٢٠]

فهل هناك علم أفضل من هذا .

زهده :

أما زهده فحدث عنه ولاحرج ، وقد عرضنا طرفا منه . ولطالما كان يحدث عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله : « إن أكثر الناس شبعا فى الدنيا أطولهم جوعا فى الآخرة ، ياسلمان إنما الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »

وقد ظل حريصا على هذه الوصية ، ووعاها وأحسن تنفيذها .

دخل سعد بن أبى وقاص على سلمان يعوده فى مرضه . فبكى سلمان .

فقال له سعد : مايبكيك ، تلقى أصحابك ، وترد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحوض ، وتوفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو عنك راض ؟

فقال سلمان : ماأبكى جزعا من الموت ، ولاحرصا على الدنيا ، ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد الينا فقال : « ليكن بلغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب »

فقال سعد : اعهد إلينا عهدا نأخذ به بعدل .

---

(٢٢٠) حلية الأولياء جـ ١ صـ ١٩٨

فقال له : اذكر ربك عند همك إذا هممت ، وعند حكمك إذا حكمت ، وعند يدك إذا قسمت .[٢٢١]

حياة راضية مرضية :

على الرغم من حياة الشظف التى عاشها سلمان إلا أنه كان عنها راضيا ، ومرضيا عنه بها . .

لم تفتنه الدنيا كما فتنت غيره .

ظل طول حياته مجاهدا باحثا عن العلم والمعرفة حتى أفاض الله عليه من لدنه علما ، وأسبغ عليه رحمة ، وأنعم عليه بصحبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقد كان سلمان من المعمرين ذكر أنه عاش مائتين وخمسين سنة ـ مات فى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه سنة خمس وثلاثين[٢٢٢]

هل نزل قرآن فى شأن سلمان :

قال العلماء : لقد نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[٢٢٣]

فى شأن سلمان الفارسى .

---

(٢٢١) حلية الأولياء جـ١ صـ ١٩٥

(٢٢٢) اسد الغابة جـ ٢ صـ ٤٢١

(٢٢٣) البقرة ٦٣

ويذكر العلماء أسباب نزول هذه الآية فيقولون :

قال الواجدى :

عن ابن عباس - رضى الله عنهما ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - : ان هذه الآية نزلت فى شأن سلمان الفارسى(٢٢٤)

وعن الإمام السدى : إن الذين آمنوا والذين هادوا . . . الآية نزلت فى أصحاب سلمان الفارسى .

لما قدم سلمان على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جعل يخبر عن عبادتهم واجتهادهم وقال : يا رسول الله ، كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك تبعث نبيا ورسولا . .

فأنزل الله - تعالى - قوله :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا . .

وتلا إلى قوله - تعالى - ولاهم يحزنون »

وقال الطبرى : هذه الآية نزلت فى أصحاب سلمان الفارسى ، وكان سلمان صديقا لابن الملك ، لايقضى أحدهما أمرا دون صاحبه ، وكانا يركبان الى الصيد ، وفى احدى رحلات الصيد رَأيا خيمة على بعد فأتياها ، فإذا هما

---

(٢٢٤) انظر فتح القدير جـ ١ ص ٩٤

برجل بين يديه كتاب يقرأ فيه ويبكى ، فسألاه ما هذا ؟

فقال : الذى يريد أن يعلم هذا لايقف موقفكما ، فإن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه ، فانزلا حتى أعلمكما ، فنزلا إليه فقال لهما : هذا كتاب جاء من عند الله ، أمر فيه بطاعته ، ونهى عن معصيته :

فيه أن لاتزنى ، ولا تسرق ولا تأخذ أموال الناس بالباطل . وقص عليهما بعض ما فيه ـ وكان هذا الكتاب هو الانجيل ـ الذى أنزله الله على عيسى . . . فوقع فى قلبيهما وتابعاه فآمنا ، وقال لهما : إن ذبيحة قومكما عليكما حرام ، فلم يزالا معه كذلك يتعلمان منه . . . ثم كان عيد للملك ، فصنع طعاما ثم جمع الناس والأشراف ، وأرسل الملك إلى صديق ابنه فدعاه ليأكل مع الناس فأبى الفتى ، كما أبى ابن الملك أن يأكل أيضا .

وقال : إنا لانأكل من ذبائحكم ، إنكم كفار ليس تحل ذبائحكم

فقال الملك : من أمرك بهذا ؟

فأخبره أن الراهب أمره بذلك ، فدعا الراهب فقال : ماذا يقول ابنى هذا ؟

قال الراهب : صدق ابنك

قال له الملك : لولا أن الدم فينا عظيم لقتلتك ، ولكن اخرج من أرضنا فأجله أجلا .

فقال سلمان : فقمنا نبكى عليه

فقال لهما : إن كنتما صادقين فأنا فى بيعة بالموصل مع ستين رجلا نعبد الله .

فلما التقى سلمان برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبره خبرهم فقال له :

كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبيا ولو أدركوك صدقوك واتبعوك . فأنزل الله هذه الآية

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

ثم دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلمان فقال : نزلت هذه الآية فى أصحابك ، ثم قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من مات على دين عيسى قبل أن يسمع بى فهو على خير ، ومن سمع بى اليوم ولم يؤمن بى فقد هلك(٢٢٥)

آية أخرى

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾(٢٢٦)

---

(٢٢٥) انظر رجال أنزل الله فيهم قرآنا نقلا عن تفسير الطبرى والدر المنثور للسيوطى

(٢٢٦) الجمعة ٣

جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ نزلت سورة الجمعة ، فلما قرأ .

« وآخرين منهم لما يلحقوا بهم »
قال رجل : مَنْ هؤلاء يا رسول الله ؟
فلم يراجعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى سأله مرتين أو ثلاثا .
قال : وفينا سلمان الفارسى .

قال : فوضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده على سلمان ، ثم قال :
« لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء »

وفى رواية « لو كان الدين عند الثريا لناله رجل من فارس »
أو قال : من أبناء فارس[227]
وبعد

فهذا هو سلمان الفارسى الذى جاهد فى الله حق جهاده ، وقضى حياته المديدة على تقوى من الله ورضوان .

فى حياته مثل للمسلم الصادق . والمؤمن الواثق . .
كانت مشورته يوم الأحزاب بركة على الاسلام والمسلمين فرضى الله عنه وأرضاه . .

---

(٢٢٧) تفسير القرطبى ـ سورة الجمعة وانظر فتح القدير حـ ٥ صـ ٢٢٦

هذا وبعد معركة الأحزاب أصبح الجو مهيئا لفتح مكة . .

وقد سبق ذلك بعض الأعمال التى لابد منها ليخلص طريق المسلمين إليها . .

وسنحاول فى الأعداد القادمة بمشيئة الله . عرض مايدور حول ذلك من أحداث . . والله ولى التوفيق . .



الفهـــرس

ويشتمل على:

تم بحمد الله
المجلد
الثاني عشر

سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الثالث عشر

سلسلة
القصص القرآنى



دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى   د. عبد الحميد مصطفى

المجلد الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

لكى نصل إلى فتح مكة علينا أولاً أن نسير فى الطريق الذى سار فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه قبل أن يصلوا إلى أبواب مكة فاتحين لها فى رمضان عام ثمانية من الهجرة الشريفة .. وسنرى أن هذا الطريق شهد بعض الغزوات والسرايا والأحداث الجسام ..

وكان أهم هذه الأحداث صلح الحديبية فعمرة القضاء ، كما كان أهم الغزوات فتح خيبر ..

ولكننا لا نتعجل الوقائع ولنسر معاً على مهل لنصل فى النهاية بتوفيق الله إلى أبواب مكة المكرمة التى شرفها الله بالبيت الحرام وجعل زيارته ركناً من أركان الاسلام .. كما جعل التوجه شطره شرطاً من شرائط صحة الصلاة لكل مسلم فى أرجاء العالم ..

ولنبدأ معاً رحلتنا المباركة راجين من الله التوفيق والسداد ..

في طريق الفتح المبين

- سرية القُرطاء وأسر ثمامة بن أثال .
- غزوة بني لحيان .
- مصرع ابن أبي الحقيق .
- غزوة ذي قَرَد .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فى طريق الفتح المبين

أصبح من الضرورى أمام المسلمين أن يفتحوا مكة ليفرغوا نهائياً من داء الشرك والوثنية الذى يغذيه المشركون فى مكة ، والذى يهدد المسلمين بين الحين والآخر ، وذلك ليستطيعوا التفرغ للتبشير بدين الله خارج الجزيرة العربية ، لينطلق دين الله إلى كل مكان تصديقاً لقول الله تعالى

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (١)

ولكن قبل فتح مكة حدثت أمور وأمور كان لابد من حدوثها تمهيداً لذلك الفتح .

كان على المسلمين أن يقوموا بعمليات تطهير لتأمين الطريق إلى مكة ، ولضمان الاستقرار الذى لابد منه لنجاح الفتح . ولابد من الاشارة الى بعض هذه التحركات لأهميتها ولارتباطها بذلك الحدث التاريخى العظيم .

وكانت هذه التحركات بعضها فى شكل غزوات قادها النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه ، وبعضها سرايا انتدب لها الأكفاء من قواده وجنوده الذين أبلوا بلاءً حسناً وجاهدوا فى الله حق جهاده .

وسنعرض لبعض هذه السرايا والغزوات :

سرية القُرطاء وأسر ثمامة بن آثال

بعد غزوة بنى قريظة أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - محمد بن

---

(١) الفتح ٢٨

مسلمة الأنصارى الأشهلى ، وهو من أفاضل أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسله على رأس جماعة إلى « القُرْطاء » ـ بضم القاف وسكون الراء ـ والقرطاء هم بطن من بنى بكر ، كانوا ينزلون بقرية على طريق البصرة إلى مكة ، وهى إلى مكة أقرب ، وبينها وبين المدينة سبع ليال .

وأرسل معه ثلاثين راكباً . . وكان ذلك فى المحرم سنة ست من الهجرة .

وعاد محمد بن مسلمة من مهمته إلى المدينة ظافراً غانماً ، ومعه أسير من بنى حنيفة كان مسيلمة الكذاب قد بعثه عيناً وفتنة للمسلمين ، وهو ثمامة بن آثال الحنفى .

وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يقيد هذا الأسير إلى جوار سارية من سوارى المسجد ليرقب صلاة المسلمين ، ويعرف أمرهم . . . . .

وكان المسلمون حين أسروه لا يعرفون من أمره شيئاً ، فقال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أتدرون من أسرتم ؟ قالوا : لا .

قال : هذا ثمامة بن آثال الحنفى ، فأحسنوا إساره .

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبعث له بطعام كثير . . ولكن هذا الأسير عزف عن الطعام .

لقد عرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكان ثمامة فى قومه ، لقد كان سيداً من سادات بنى حنيفة ، وعظيماً من عظائمهم .

ومرَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه ـ فقال له : كيف حالك يا ثمامة ؟ ماذا عندك ؟

فقال ثمامة : عندى خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تُنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما تشاء . فتركه النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الغد .

ثم مر عليه فى غده فسأله السؤال نفسه : ماذا عندك يا ثمامة ؟
فأعاد ثمامة الجواب نفسه ..
فتركه النبى - صلى الله عليه وسلم - دون أن يرد عليه ..

ثم عاد إليه فى اليوم الثالث : فأعاد عليه السؤال : ماذا عندك يا ثمامة ؟
فأجاب ثمامة بما أجاب به قبل ذلك .
فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : أطلقوا سراحه .
فأطلقوا سراحه .. دون فداء ..

فانطلق ثمامة حتى أتى حائطاً من حوائط المدينة ، فاغتسل فيه وتطهر ، وطهر ثيابه ، ثم جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس فى المسجد فقال : يا محمد ، لقد كنت وما وجهٌ أبغض إلىّ من وجهك . ولا دين أبغض إلىّ من دينك ، ولا بلدٌ أبغض إلى من بلدك ، ثم لقد أصبحتَ وما وجه أحب إلىّ من وجهك ، ولا دين أحب إلىّ من دينك ، ولا بلد أحب إلىّ من بلدك ، وإنى أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله ..

يا رسول الله ، إنى كنتُ خرجت معتمراً ، وأنا على دين قومى . فأسرنى أصحابك فى عمرتى . فسيِّرنى - صلى الله عليك - فى عمرتى .

فسيَّره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عمرته ، وعلَّمه .

فخرج ثمامة إلى مكة معتمراً . .

فلما قدم مكة ، وسمعته قريش يتكلم بأمر محمد ﷺ ، قالوا : صبأ ثُمامة . .

فقال : والله ما صبوت ، ولكننى أسلمت وصدَّقت محمداً ﷺ وآمنت به ، والذى نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة ـ وكانت اليمامة ريف مكة يأتيهم منها الحب ـ حتى يأذن فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانصرف إلى بلده ـ ومنع حمل الحبوب إلى مكة . .

فأصاب قريشاً جهد كبير . .

فكتبوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألونه بأرحامهم إلا كتب إلى ثمامة أن يخلى لهم عن طعامهم . فكتب إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك .

لقد حققت هذه السرية هدفاً عظيماً حين عادت بهذا الأسير الذى كان لإسلامه هذا الأثر الكبير . والذى استطاع أن يصيب قريشاً فى مقتل حين أمسك عنها ميرتها ، وحجز عنها مئونتها ، فأصابها جهد شديد حتى اضطروا إلى أكل الميتة .

قالوا : وفى ذلك نزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٢)

---

(٢) المؤمنون ٧٦

قال القرطبي في تفسيره : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في قصة ثمامة ابن آثال لما أسرته السرية وأسلم ، وخلّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبيله ، فحال ثمامة بين مكة وبين الميرة ، وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز .

قيل له : وما العلهز ؟

قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر فيلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه .

فقال أبو سفيان لرسول الله : أنشدك الله والرحم ، أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلى

قال : فاكتب الى ثمامة أن لا يمنع عنا الحنطة فقد أصابنا الجوع .

فنزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[٣]

وحقاً ذلك ، فبعد أن كتب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لثمامة ، فعفا عنهم وسمح لهم بالطعام ، عادوا إلى شقاقهم وكفرهم وعنادهم . .

أبو سفيان يدبر لإغتيال النبي :

ولنقرأ هذا الخبر لنعرف كيف قابل أبو سفيان الإحسان بالنكران . . أرسل أبو سفيان بن حرب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً ليقتله .

---

(٣) المؤمنون ٧٥

ذلك أنه قال لنفر من قريش : ألا أحد يغتر محمداً فإنه يمشي في الأسواق ؟ ـ أي يأخذه على غرة . . .

فأتاه رجل من الأعراب في منزله فقال له : قد وَجَدتَ أجمع الرجال قلبا وأشدهم بطشاً ، وأسرعهم شداً ، فإن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله ، ومعي خنجر مثل خافية النسر ، وإني هادٍ بالطريق ، وأسبق القوم عدوا .

فقال أبو سفيان : أنت صاحبنا ، فأعطاه بعيراً ونفقة ، وقال له : اطو أمرك . فخرج الرجل ليلاً ، فسار على راحلته حتى وصل المدينة ثم أقبل يسأل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في مسجد بني عبد الأشهل .

فأقبل الرجل بخنجره ليغتاله . فلما رآه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن هذا ليريد غدراً .

فجذبه أسيد بن حضير بداخلة إزاره ، فإذا بالخنجر ، فأسقط في يد الرجل . . .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ للرجل : اصدقني ، ما أنت ؟

خاطبه خطاب ما لا يعقل .

قال الرجل : وأنا آمن ؟

قال : نعم .

فأخبره بخبره ، فخلى عنه .

فقال الرجل : يا محمد ، والله ما كنت أَفْرَق - أخاف - الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ، ثم اطلعتَ على ما هممتُ به مما لم يعلمه أحد فعرفتُ أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان .

فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبتسم .

وأقام الرجل أياماً ثم خرج ، فلم يسمع له بذكر[4] .

ونعود إلى ثمامة فنقول : إن إسلامه كان خيراً وبركة عليه وعلى الإسلام ، ذاك أنه قد ثبت على إسلامه في الردة ،

ووقف في بني حنيفة مدافعاً عن الاسلام حاضا عليه ، مكذباً لمسيلمة وكان يقرأ قوله تعالى :

﴿ حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ② غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ③ ﴾[5]

ثم يقول أين هذيان مسيلمة من هذا ؟ فأطاعه من قومه جماعة انحازوا إلى المسلمين ضد مسيلمة الكذاب[6] .

لقد حققت هذه السرية إذن ثماراً معنوية كبيرة إلى جانب ما حققته من مكاسب مادية . .

---

(٤) المواهب اللدنية ج ٢ ص ١٧٧

(٥) أول غافر

(٦) المواهب اللدنية ج ٢ ص ١٤٤

ويكفى أنها ضمت إلى الاسلام رجلاً كثمامة الحنفى أغنى غناء كبيراً فى حرب المرتدين .

قال محمد بن إسحاق ـ فيما يرويه ابن الأثير : لما ارتد أهل اليمامة عن الاسلام لم يرتد ثمامة ، وثبت على إسلامه هو ومن اتبعه من قومه ، وكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة أو تصديقه ويقول : إياكم وأمرا مظلما لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله ـ عز وجل ـ على من أخذ به منكم ، فلما عصوه وأجمعوا على اتباع مسيلمة عزم على مفارقتهم . ومرَّ العلاء بن الحضرمى ومن معه على جانب اليمامة يريدون البحرين ، وبها الحُطَم بن ضبيعة ومن معه من المرتدين من ربيعة .

فلما بلغ ثمامةَ ذلك قال لأصحابه من المسلمين : إنى والله ما أرى أن أقيم مع هؤلاء ـ المرتدين ـ وقد أحدثوا ما أحدثوا وإن الله ضاربهم ببليَّة لا يقومون بعدها ولا يقعدون ، وما أرى أن نتخلف عن هؤلاء ـ يعنى بذلك العلاء بن الحضرمى وأصحابه ـ وقد عرفنا الذى يريدون ، وقد مروا بنا ولا أرى إلا الخروج معهم ، فمن أراد منكم فليخرج .

فخرج ثمامة ومعه أصحابه مسانداً للعلاء ومن معه من المسلمين ، ففتّ ذلك فى أعضاد عدوهم حين بلغهم مدد بنى حنيفة .

وشهد ثمامة مع العلاء بن الحضرمى قتل الحطم بن ربيعة فانهزم المشركون وَقُتِلوا . وقسم العلاء الغنائم ، ونفل رجالاً ، وأعطى رجلاً خميصة كانت للحطم يباهى بها ، فاشتراها منه ثمامة . والخميصة ، ثوب من خز أو صوف وتكون سوداء .

فلما رجع ثمامة بعد هذا الفتح رأى بنو قيس بن ثعلبة ـ وهم قوم الحطم ـ ابن ربيعة ـ خيصته على ثمامة ، فقالوا له : أنت قتلت الحطم .

قال : لم أقتله ، ولكنى اشتريتها من الذى غنمها .

ولكنهم لم يصدقوه وقتلوه[7]

هكذا انتهت حياة رجل عظيم بالشهادة ، بعد أن أبلى فى سبيل الله بلاء حسنا ، وجاهد جهادا عظيما . .

غزوة بنى لحيان

خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غرة ربيع الأول سنة ست من الهجرة إلى بنى لحيان ـ بكسر اللام وفتحها ـ نسبة إلى لحيان بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر . .

وكان سبب خروجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الثأر لعاصم بن ثابت وأصحابه . . الذين قتلوا بالرجيع

وأظهر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة ، وعسكر فى مائتين من أصحابه .

واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

واتجه النبى إلى « غُراب » ـ جبل بناحية المدينة ـ على الطريق إلى الشام . ثم على « محيص » ثم على « البتراء » ثم عدل ذات اليسار على « بيّن » ثم على « صُخَيْرات الثمام » ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكة ،

---

(٧) أسد الغابة ج ١ . ص ٢٩٤

فأسرع فى سيره حتى انتهى إلى « بطن غران » وهو واد قريب من « عسفان » وهو الموضع الذى استشهد فيه ـ عاصم بن ثابت ومن كان معه من أصحاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فترحم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هؤلاء الشهداء ودعالهم . .

وسمع بنو لحيان بمجىء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الرغم من مباغتته لهم ، فهربوا إلى رءوس الجبال رعبا وخوفا من المسلمين ، فلم يتمكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أحد منهم .

وأقام فى مكانه يوما أو يومين ، وبث سراياه فى كل ناحية .

ثم خرج إلى عسفان ، فبعث أبا بكر فى عشرة فوارس لتسمع بهم قريش فيصيبهم الذعر والفزع . فأتوا « كراع الغميم » وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال . . ولم يجدوا شيئا . .

وعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة دون أن يلقى كيدا ، وأخذ يردد فى عودته قوله ـ صلى الله عليه وسلم . : « راجعون تائبون عابدون لربنا حامدون »

وأضاف بعض الرواة قوله : « أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال »

كانت مدة هذه الغزوة أربع عشرة ليلة . .

لقد كان الهدف من هذه الغزوة عقاب بنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع قبل عامين ، وهم ستة من كبار الصحابة . .

اغتالوا أربعة منهم ، وباعوا الاثنين الباقيين لقريش ، فقتلهما القرشيون ببشاعة .. وقد أشرنا إلى هذه القصة فى غزوة بنى قريظة ..... إلا أن البشاعة التى ارتكبتها قريش فى قتل زيد وحبيب تقتضينا أن نفصل للقارىء الكيفية التى تم بها قتلهما ليدرك بشاعة أهل الكفر .

كيف قتل زيد وخبيب ؟

ويصور لنا بعض الرواة مقتل زيد بن الدثنة وصلب خبيب بن عدى فى صورته الدامية التى تم بها ، والتى تثير حفيظة أى غيور على دينه وعقيدته ، فضلا عن المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كان لايغضب لنفسه ، ولكنه يغضب لله ، فإذا غضب كان لايقوم لغضبه شىء .

ونحن نعيد هنا تذكير القارىء بتلك القصة التى سبق أن أشرنا إليها فنقول :

قدم بعض الأشخاص إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفة وفد عن قبيلتى « عضل والقارة » وعبروا عن رغبتهم فى اعتناق الإسلام ومعرفة أحكامه ، لكى يشرحوا الدين الجديد وأحكامه لأفراد القبيلتين ، فعين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستة من أصحابه للقيام بهذه المهمة .. وهم : مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخالد بن البكير الليثى ، وعاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة ، وعبد الله بن طارق .

وانطلق هؤلاء الستة مع الوفد وهم فخورون بهذا العمل الذى انتخبوا له ، وهو نشر الدين الحنيف ..

وعندما وصلوا إلى مكان يسمى الرجيع ، وهو ليس بعيدا عن عسفان وقعوا فى كمين مؤلف من مائة مقاتل من أفراد هاتين القبيلتين اللتين ينتمى إليهما هذا الوفد .

فاستلوا سيوفهم دفاعا عن أنفسهم فقتل ثلاثة وأسر ثلاثة . واقتيد الأسرى إلى مكة ، واستطاع واحد من الأسرى الثلاثة أن يتخلص من قيده ويهاجم آسريه ، لكنه قتل أيضا .

أما الأسيران اللذان وصلا إلى مكة فهما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة . وبيع الأسيران بمكة ليُقتلا . .

ولم يتخذ أى إجراء ضد الأسيرين لبضعة أيام ، لأن الشهر الذى أسرا فيه كان من الأشهر الحرم . .

« وعند انقضاء الشهر أُخِذا إلى مكان يسمى « التنعيم » ، وهو إلى الشمال الغربى من مكة - حيث كان كثير من السكان يتجمعون بما فيهم العبيد والنساء والأطفال . .

. . واقتيد الأسيران إلى عمودين من الخشب ثبتا فى الأرض . . فطلبا أن يُسمح لهما بصلاة أخيرة ، فاستجيب لطلبهما - وعندما انتهت الصلاة أعيد ربطهما بالعمودين .

« وخُيِّر كل منهما بين العودة إلى عبادة الأصنام أو الموت . فاختار كلاهما الموت . .

« ثم جاء أبو سفيان إلى زيد بن الدثنة فقال له : أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟

قال زيد : والله ما أحب أنّ محمدا تصيبه الآن شوكة تؤذيه ، وأنا جالس فى أهلى .

« فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً »

وقد قتل زيد بن الدثنة أولا ، وكان موته سريعا سهلا ، حيث تقدم منه عبد وغرز حربةً فى صدره .

« ثم جاء دور خبيب بن عدى . .

« وكان موته بطريقة وحشية . . وهذا هو السبب الّذى حدا بأهل مكة للتجمع لمشاهدة هذا العرض وانتظاره بشوق .

« انطلق أربعون ولداً بإشارة من عكرمة بن أبى جهل إلى العمود المربوط به خبيب وبدءوا بوخزه بحرابهم ، وكانوا فى بعض الأحيان يقفون بعيدا ثم يندفعون باتجاهه وهم يرفعون حرابهم كأنهم يريدون قتله ، ولكنهم يتوقفون قُبَيْل الوصول إليه ، ويبدءون بوخزه مرة ثانية بحيث يسببون له الجراح دون قتله . .

« كان بعض الأولاد فى منتهى العنف إذ سببوا له جراحاً عميقة . .

«وسرعان ما أصبح جسده مغطى بالدم الذى كان ينزف من مئات الجروح التى أصابته . .

وكان ينتفض لدى كل ضربة حربة ، لكنه لم يتأوه أو يصرخ .

« وكان المتفرجون يهللون فرحا لمشهد تعذيب خبيب . .

وبعد أن استمر هذا المشهد لفترة ، تقدم عكرمة وبيده حربة باتجاه خبيب ، وفرق الأولاد ـ ربما لأنهم قد تعبوا ، أو ربما لأن المتفرجين سئموا اللعبة . ثم رفع عكرمة حربته وغرزها فى قلب خبيب . . وهكذا وضع حدا لآلامه . .

« وتركت الجثتان جثتا زيد وخبيب فوق العمودين حتى تتآكلا .

« لقد نظم هذا العرض التعذيبى عكرمة بن أبى جهل وهو الذى جهز الغلمان بالحراب ، ولقنهم ما يفعلون(٨)

لقد أرقت هذه الصورة البشعة من التعذيب مشاعر المسلمين حينما تسامعوا بها . . وصمموا على الثأر لخبيب ورفاقه من هؤلاء الذين غدروا بهم وقتلوا من قتلوا منهم وباعوا من باعوا . .

فكانت هذه الغزوة التى قادها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن بنى لحيان ولوا الأدبار ـ وجبنوا أن يقفوا فى وجه طلبة الثأر . .

وأين هذه الأفعال الخسيسة من أفعال المحاربين الشرفاء الذين يعاملون أسراهم معاملة كريمة ؟ وقد مر بنا كيف أحسن المسلمون إلى أسراهم فى بدر ، وآثروهم على أنفسهم بالطعام ، وأطلقوا سراح بعضهم بدون فداء . .

وفى أُحد حين رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما فعله المتوحشون بعمه حمزة وغيره من الشهداء من تمثيل فظيع ، انتابه الأسى والغيظ كما

---

(٨) خالد بن الوليد . جنرال ا . أكرم ص ٧٠

يتتاب البشر فى مثل هذه المواقف ، فيقسم : لئن ظفر بهم ليمثلن بهم كما مثلوا .. ولكن القرآن الكريم ينزل معزيا وموجها فيقول :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (٩)

هذه هى سماحة الإسلام ، وتلك آدابه العليا وتوجيهاته السديدة وإرشاداته الحكيمة ..

على أن المسلمين وإن فاتهم فى هذه الغزوة لقاء أعدائهم فلم يفتهم تحقيق غرض أكبر هو إيقاع الرعب فى نفوس الأعداء ونفوس قريش أيضا .

ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين وجد بنى لحيان قد تفرقوا فى شعاب الجبال ورءوسها هربا ورعبا ـ ترك القسم الأكبر من قواته فى « غران » وهى منازل بنى لحيان ، وسار على رأس مائتى راكب باتجاه مكة حتى وصل إلى « عسفان » وهو موضع بين الجحفة ومكة على مرحلتين منها . بهدف التأثير على معنويات قريش ..

وقد تحقق هذا الهدف فلم تخرج قريش للقائه ..

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد تأكدت ثقتهم فى أنفسهم . وأوقعوا الرعب فى قلوب أعدائهم .

---

(٩) النحل ١٢٦ ، ١٢٧

مصرع ابن أبي الحقيق

كان أبو رافع عبد الله ـ ويقال سلّام ـ بن أبي الحقيق اليهودى من أكبر المحرضين للأحزاب ومن الذين أثاروهم ، فتجمعوا لغزو المدينة ، وقد انتهت هذه الغزوة ـ على ما عرفنا ـ بهزيمة الأحزاب وعودتهم مدحورين خائبين .

كان ابن أبي الحقيق مع حُيَىّ بن أخطب اليهودى حين أشعلا هذه الحرب ونفخا فيها حتى أحاط الأحزاب بالمدينة ، فلما فر الاحزاب انحاز حيى بن أخطب إلى بنى قريظة فى حصونهم فأصابه ماأصابهم .

وفر ابن أبي الحقيق إلى خيبر وتحصَّنَ بها . . وكان لابد من القضاء على رأس الحية حتى لا تنفث سمومها مرة أخرى . .

كان ابن أبي الحقيق يحاول تجميع القبائل لحرب رسول الله ، وكان يقول : إذا كان محمد قد أفلت هذه المرة فقد يُنال منه فى مرة قادمة . .

فلماذا لايكرر ابن أبي الحقيق محاولته مرة أخرى فى تجميع الناس على محمد ؟ وقد أضاف إلى حقده حقداً جديداً . وأضاف إلى غيظه غيظا آخر . . بعد أن فُجع فى حيى بن أخطب وبنى قريظة جميعا . .

قال ابن هشام فيما يرويه عن عبد الله بن كعب بن مالك : وكان مما أكرم الله به رسوله ـ ﷺ ـ أن هذين الحيين من الانصار ـ الأوس والخزرج ـ كانا يتصاولان مع رسول الله ـ ﷺ ـ تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئا لرسول الله فيه غَنَاء ، إلا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله ـ ﷺ ـ وفى الاسلام . فلاينتهون حتى يفعلوا مثلها ، وإذا

فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك .

فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف اليهودى الذى كان من أشد الناس عداء لرسول الله ـ ﷺ ـ قالت الخزرج : والله لا تذهبون بها فضلا علينا ابداً . . (١٠)

وتذاكروا فيما بينهم ليقوموا بعمل يشبه هذا العمل . . ففطنوا إلى أن ابن أبى الحقيق شأنه فى العداوة لرسول الله ـ ﷺ ـ وللاسلام كشأن ابن الأشرف أو يزيد . ولئن كان ابن الأشرف حرض قريشا بعد بدر ، وبكى قتلاهم ، وآذى المسلمين بشعره وشبب بنساء المسلمين كذبا وبهتانا ـ فإن ابن أبى الحقيق قام بما هو أفظع من ذلك ، فقد شارك فى تأليب الأحزاب وتجميع الأعداء ، وضحى بثمار خيبر فى سبيل النيل من الاسلام . . ومازالت عداوته كامنة ، وحقده دفينا ، وغيظه ثائرا . .

فلئن كان الأوس قد ظفروا بشرف التخلص من كعب بن الأشرف . .
فعلى الخزرج أن يظفروا بشرف التخلص من ابن أبى الحقيق . .
وهو عمل لا يقل شأنا عن عمل الأوس .

إن التخلص من الغادرين لا يكون إلا بمثل مايعملون وليس الغادر شريفا يُحَارَب محاربة الشريف . ولكنه دأب على الدس والمكر والتآمر والجزاء من جنس العمل ، والبادى أظلم . . وانطلق من الخزرج خمسة نفرٍ ـ هم : عبد الله بن عتيك ، ومسعود بن سنان ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة

(١٠) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٩٥

الحارث بن ربعى ، وخزاعى بن أسود وهو حليف لهم .

وأمَّر النبى ـ ﷺ ـ عليهم عبد الله بن عتيك . . . . وأوصاهم ألا يقتلوا وليدا ولا امرأة .

إن الهدف هو رأس الفتنة لاغير . .

وسارت هذه الحملة الصغيرة فى طريقها إلى خيبر . وكان أبو رافع فى حصن منها . . فكمنوا حتى هدأ الناس ثم جاءوا إلى منزله ، فصعدوا درجة له . . وكان فى عِلية يصعد إليها فوق جذع منقور كأنه دَرَج .

وتقدم عبد الله بن عتيك ـ وكان يرطن باليهودية ـ فاستفتح ـ أى طلب أن يفتح له .

فقالت امرأة اليهودى : من أنت ؟

فقال : جئت أبا رافع بهدية . .

وفى رواية : قال : نحن ناس من العرب جئنا نلتمس الميرة ـ وكان أبو رافع كشأن اليهود عامة تاجرا ـ

ففتحت المرأة الباب . .

قال عبد الله : فدخلنا عليه الحجرة . فلما رأت المرأة السلاح أرادت أن تصيح فأشار إليها عبد الله بالسيف فسكتت .

ثم علوه بأسيافهم فقتلوه وهو على فراشه .

وكان عبد الله بن عتيك ضعيف البصر ـ فحين انتهوا من مهمتهم خرجوا فوقع عبد الله فانكسرت رجله .

فحمله أصحابه وأسرعوا فى الخروج من الحصن .

وفى طريقة دخول هؤلاء النفر الحصن قصة طريفة فيها حذق ومهارة يحسن أن نسوقها للقارىء كما ذكرها بعض الرواة . .

كان أبو رافع فى حصن له لا يقدر عليه لارتفاعه . فلما دنوا منه وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرحهم . قال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم فإنى منطلق إلى حصن أبى رافع لعلى أن أدخل .

فأقبل عبد الله حتى دنا من الباب ثم تقنع ـ تغطى ـ ليخفى شخصه حتى لا يعرفه أحد . وكان الناس قد دخلوا . . ولكن بعض القوم فقدوا حمارا لهم فخرجوا بقبس يطلبونه . .

ونظر حارس الحصن إلى عبد الله وهو جالس وقد غطى رأسه . فقال له : ياهذا إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإنى أريد أن أغلق الباب . .

لقد ظنه واحدا من أهل الحصن ، ولم يتبينه لأنه كان مقنعا . .

قال عبد الله : فدخلت فكمنت فى مربط حمار عند باب الحصن .

وأغلق البواب الحصن وعلّق المفاتيح على وتد . .

وانتظر عبد الله حتى هدأ الناس تماما . . فأخذ المفاتيح ففتح الباب لأصحابه فدخلوا . . وكمنوا معه . .

وكان أبو رافع يسمر عنده صحبُه . فتعشَّوا عنده وتحدثوا معه حتى ذهبت ساعة من الليل . .

وكان فى غرفة عالية يُصْعَد إليها بسلم من الخشب . فلما ذهب عنه أهلُ سَمَره صعد إليه عبد الله ، وكان كلما دخل غرفة أغلق عليه من داخل . . وقال فى تعليل ذلك : إن أحس القوم بى لم يخلصوا إلىَّ حتى أقتله . .

وفى رواية أخرى : إنه حين دخل الحصن أخذ يغلق على أهل الدور دورهم من الخارج حتى إذا سمعوا صياحا لايستطيعون أن يستنقذوه . ودخل عبد الله على أبى رافع غرفته فلم يتبين موقعه لشدة الظلام وضعف بصره .

فنادى عبد الله بصوته قائلا : أبا رافع .

فقال : من هذا ؟

فانهال عليه عبد الله بالسيف . حتى ظن أنه قتل .

ورجع عبد الله فأخذ يفتح الأبواب التى كان قد أغلقها باباً باباً .

ثم أخذ يهبط حتى انتهى إلى درجة فوضع رجله عليها وهو يظن أنه قد انتهى إلى الأرض ، فوقع فأصيبت ساقه ، فعصبها بعمامته . .

وخرج هو وأصحابه من الحصن . ولكنهم حتى هذه اللحظة لم يكونوا قد تيقنوا من موته .

فقالوا : كيف لنا أن نعلم أن عدو الله قد مات ؟

فقال رجل منهم : أنا أذهب فأنظر .

فذهب حتى دخل فى الناس وسمعهم يقولون قد مات .

قال خزاعى بن أسود ـ وهو الذى ذهب يستطلع الخبر ـ : فما سمعت من

كلمة كانت ألذ فى نفسى منها .

وعاد إلى أصحابه يخبرهم الخبر .

وعاد القوم إلى المدينة فى حذر .

قال عبد الله بن أنيس : كنا نكمن النهار ونسير الليل ، وإذا كمنا أقعدنا منا واحداً يحرسنا ، فإذا رأي مايخافه أشار إلينا ، فلما قربنا من المدينة كانت نوبتى ، فأشرت إليهم محذراً فخرجوا سراعا ثم لحقتهم .

فدخلنا المدينة فقالوا : ماذا رأيت ؟

قلت : مارأيت شيئا ، ولكن خشيت أن تكونوا عَيِيتم أى تعبتم ـ فأردت أن يحملكم الفزع على المسير .

وكان النبى ـ ﷺ ـ على المنبر حين وصل القوم . فلما رآهم قال : أفلحت الوجوه .

وقد سجّل حسان بن ثابت هذا الحادث فى شعره فقال فيما يرويه ابن هشام فى سيرته :

لله در عصابة لاقيتهم ... يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف

يسرون بالبيض الخفاف إليكم ... مرحا كأسد فى عرين مغرف

حتى أتوكم فى محل بلادكم ... فسقوكم حتفا ببيض ذُفَّف

مستبصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكل أمر مجحف[11]

(١١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٩٦

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد أزالوا من طريق الدعوة الاسلامية عدواً لدوداً ، وتسامع الناس بعاقبة من يؤلب الناس ضد المسلمين ، فازدادوا هيبة للمسلمين .

وسيطر المسلمون سيطرة كاملة على المدينة ، وخرست أصوات المنافقين ومن بقى بها من يهود .

غزوة ذى قُرَد

ويطلق عليها غزوة الغابة أيضا . .

وسميت بذلك لأن بها شجراً يحتطب الناس منه وينتفعون به .

وذو قُرَد ـ بفتح القاف وضمها ، وبفتح الراء بعدها دال مهملة ـ ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي غطفان . أو على مسافة يوم منها . وقيل على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر .

كانت هذه الغزوة فى ربيع الأول سنة ست ـ أى فى عام ٦٢٧ م تقريبا .

سبب الغزوة

كان عيينة بن حصن الفزارى قد أغار على المدينة فأصاب عشرين لقحة للمسلمين كانت ترعى بالغابة(١٢) .

وكان فى أربعين فارسا فاستاقوها ، وقتلوا ابن أبى ذر ، وأسروا أمه زوجة أبى ذر واسمها ليلى .

---

(١٢) اللقحة بكسر اللام وقد تفتح والجمع لقاح بكسر اللام لاغير : هى ذوات اللبن من النياق حديثة العهد بالولادة .

وقبل أن يحدث هذا كان أبو ذر مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستأذنه فى الذهاب إلى اللقاح .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لكأنى بك قد قتل ابنك وأسرت امرأتك وجئت تتوكأ على عصاك .

قال أبو ذر : عجبا ، يقول لى ذلك وأنا ألح عليه فى الذهاب ، فكان والله ما قال . فلما رجعت وكان الليل ، أحدق بنا عيينة مع أصحابه ، فأشرف لهم ابنى ، فقتلوه ، وكانت معه امرأته وثلاثة نفر فنجوا ، وتنحيت عنهم . .

ولكنهم أخذوا زوجتى مع اللقاح .

نجاة الزوجة

وأمعن عيينة فى السير ، وهو يسوق اللقاح والمرأة ، حتى ظن أنه فى مأمن . . وقد بلغ دياره .

لقد أوثقوا المرأة ، وكانوا يريحون إبلهم وأغنامهم بين يدى بيوتهم . . وانفلتت المرأة ذات ليلة من الوثاق ، فأتت الإبل تريد أن تركب واحدا منها تنجو به .

فكانت إذا دنت من بعير رغا ، فتتركه ، حتى انتهت إلى العضباء ـ وهى ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت ضمن اللقاح التى استلبوها ـ فلم ترغ ، فركبتها ثم زجرتها ، فانطلقت بها . .

وأحس القوم بها ، فطلبوها ، فأعجزتهم فيئسوا منها وعادوا . .

وكانت قد نذرت لئن أنجاها الله لتنحرن الناقة تقربا إلى الله .

وحين وصلت إلى المدينة ، وأخبرت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنذرها تبسم وقال لها : بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك أن تنحريها ، إنه لا نذر لأحد فيما لا يملك ، إنما هى ناقة من إبلى ارجعى إلى أهلك على بركة الله .

إنه أدب عالٍ علّمنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياه . .

وبه أخذ من قال :

وإذا المطىُّ بنا بلغن محمداً	فظهورهن على الرجال حرام
قربتنا من خير من وطىء الحصا	فلها علينا حرمة وذمامُ .

الرسول فى أثر القوم

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ينادى : ياخيل الله اركبى . .

وكان هذا النداء عقب ما صرخ الصارخ : الفزع الفزع .

وذلك عند هجوم عيينة على الإبل ، ولم يكن على أثر عودة المرأة بالعضباء . .

لقد جرت المحاورة بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزوجة أبى ذر عقب عودة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغزوة .

لقد كانت المرأة آية فى الوقت الذى كان فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه فى أثر القوم .

قال سلمة بن الأكوع : خرجت قبل أن يؤذن بلال بالأولى ، وكانت لقاح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ترعى بذى قرد ، فلقينى غلام لعبدالرحمن بن عوف فقال : أُخِذت لقاح رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قلت : من أخذها ؟

قال : غطفان وفزارة

فَصَرخْتُ ثلاث صرخات : فأسمعت ما بين لابَتَى المدينة .

فنودى فى الناس : الفزع الفزع

فنزلت الخيول ، فكان أول من انتهى إليه المقداد بن الأسود ، ثم عباد ابن بشر ، وسعد بن زيد ، وأسيد بن حضير ، وعكاشة بن محصن ، ومحرز ابن نضلة ، وأبو قتادة ، وأبو عياش .

وركب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى خمسمائة أو سبعمائة .

واستخلف على المدينة عبدالله بن أم مكتوم .

وترك سعد بن عبادة فى ثلاثمائة يحرسون المدينة .

وكان قد عقد اللواء للمقداد بن الأسود ، الذى كان أول من أجاب الصريخ ، إذ أقبل وعليه درع شاهرا سيفه ، فعقد له النبى - صلى الله عليه وسلم - لواء فى رمحه . وقال له : امض حتى تلحقك الخيول وأنا على أثرك .

وانطلق الفرسان مسرعين فأدركوا أخريات العدو .

واستطاع أبو قتادة الحارث بن ريعى أن يقتل مسعدة بن حَكَمة الفزارى وكان من زعماء فزاره وسجَّاه ببرده .

وحين لحق ركب النبى - صلى الله عليه وسلم - بهذه الطليعة ، وجدوا قتيلا مغطًى ببرد ، فاسترجعوا ، وظنوا أن الذى قُتِل هو أبو قتادة .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : لا تفزعوا ليس القتيلُ أبا قتادة ، ولكنه قتيلُ أبى قتادة ، وضع عليه برده لتعرفوه فتتركوا له سلبه . . أى الأمتعة الخاصة بالقتيل .

وأعطى النبى - صلى الله عليه وسلم - أبا قتادة فرس القتيل وسلاحه .

واستطاع عكاشة بن محصن أن يقتل أوبار بن عمرو - وهو من صناديد العدو ويقتل معه ابنه - كانا معا على بعير فانتظمهما بالرمح. فقتلهما معا .

واستنقذ الفرسان بعض اللقاح . .

واستُشْهِد مسلم واحد هو محرز بن نضلة - رضى الله عنه - كان أول فارس لحق بالقوم ، فوقف قريبا منهم وقال لهم : قفوا يامعشر بنى اللكيعة فحمل عليه رجل منهم فقتله .

قيل : إن الذى قتله هو عبدالرحمن بن عيينة بن حصن الفزارى .

وقيل : إن الذى قتله هو أوبار الذى قتله عكاشة .

وقيل : إن الذى قتله مسعدة الذى قتله أبو قتادة . .

وأيا كان قاتله فقد أُخِذَ بثأره ، ولحق هو بربه راضيا مرضيا . .

خذها وأنا ابن الأكوع

وكان سلمة بن الأكوع الذى استصرخ القوم فى المدينة قد خرج يشتد فى أثر العدو قبل أن تلحقه الخيل . وكان عدَّاءً ، فجعل يرميهم بالنبل وهو على رجليه ليس معه فرس . .

واقترب منهم وهم على الماء يستقون ، وأخذ يرتجز وهو يرمى بنبله ، وكان راميا مسددا ، ويقول :

خذها وأنا ابن الأكوع   اليوم يوم الرضَّع

وقوله : اليوم يوم الرضَّع

قيل معناه : هذا يوم شديد عليكم تفارق فيه المرضعة من أرضعته فلا يجد من ترضعه .

وقيل معناه : اليوم يعرف من ارتضع كريمة فأنجبته أو لئيمة فهجنته .

ولحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس والخيول عشاء ، فنزل بذى قرد وأقام يوما وليلة .

قال سلمة : فقلت : يارسول الله ، إن القوم (غطفان وفزارة) عطاش ، وقد حصل لهم بسبب العطش وَهَن لا يقدرون معه على الحرب ، فلو بعثتنى فى مائة لاستنقذت ما فى أيديهم من السَّرْح ، وأخذت بأعناق القوم .

- وكان القوم عطاشا لأن سلمة لما رماهم بسهامه خشوا أن يكون

المسلمون قد أدركوهم فعجلوا فى السير دون أن يأخذوا حاجتهم من الماء .

فضحك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بدت نواجذه ، وقال : أتراك فاعلا ؟

قلت : نعم ، والذى أكرمك .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يابن الأكوع ، ملكت فأسجح[١٣] أى كن رفيقا ، ولا تأخذ بالشدة ، وكن عفوا عند المقدرة . .

ـ صدق الذى سماه الرءوف الرحيم ـ

وقال النبى ـ ﷺ ـ مخاطبا ابن الأكوع : قد حصلت لك النكاية فى العدو ولله الحمد . . إنهم الآن قد وصلوا إلى غطفان وهم فى ضيافتهم . . . لا فائدة من البعث فى آثارهم بعد أن لحقوا بأصحابهم وأقوامهم .

لقد كانت معجزة من الرسول ـ ﷺ ـ أن أخبر بحالهم وهم على البعد . . ولم يترك النبى ـ ﷺ ـ أصحابه الذين أبلو بلاء حسنا دون أن يثنى عليهم ويزكيهم ، فقال : خير جنودنا اليوم أبو قتادة ، وسلمة . وأعطى النبى ـ ﷺ ـ ، سلمة سهم الراجل والفارس جميعا .

ومازالت الأمداد تلحق بالنبى ـ ﷺ ـ وهو فى موضعه هذا . . ذلك أن الخبر كان قد وصل إلى أطراف المدينة البعيدة فخرجوا فى أثر النبى ـ ﷺ ـ رجالا وركبانا . .

---

(١٣) السجاحة ـ بكسر السين السهولة وفى القاموس : النجاة

وبعث سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ بأحمال من تمر مددا للمسلمين فوافت النبى ـ ﷺ ـ وصحبه بذى قرد . .

لقد أظهرت هذه الغزوة قدرة المسلمين على الحركة ، وسرعتهم فى الاستجابة ، وأرهبت العدو الذى حدثته نفسه بالإغارة ظنا منه أن المسلمين لن يلحقوه ، ولكنه كان مخدوعا مغرورا بقوته ، وفقد عيينة ابنه فى هذه المعركة ، كما فقد الفزاريون بعض زعمائهم الذين يعتزون بهم . .

لقد أوقعت هذه الغزوة الرعب فى قلوب الأعداء ففروا هاربين خوفا من جند المسلمين ، واستطاعت قوة صغيرة من رجال المسلمين أن تسترد الإبل من هؤلاء الأعداء قبل أن تصل قوة المسلمين الأصلية ، وفر الأعداء مسرعين حين رأوا غبارا متصاعدا فظنوه خيل المسلمين . .

سرايا أخرى

لقد أرسل النبى ـ ﷺ ـ سرايا أخرى كان الهدف منها توطيد الأمن وتشديد الحصار الاقتصادى على قريش وحلفائها .

ومن ذلك :

● سرية عكاشة بن محصن الأسدى إلى الغمر ـ وهو ماء لبنى أسد . .

وقد هرب المقصودون حين علموا بذلك وتركوا ديارهم خالية ، فاستاق المسلمون مائتى بعير وعادوا .

● سرية محمد بن مسلمة إلى « ذى القصة » على بعد أربعة وعشرين ميلا ، طريق الربذة ـ على بريد من المدينة تجاه نجد ـ

● وتبعتها سرية أخرى على نفس المكان للإغارة على بنى محارب الذين كانوا يريدون الإغارة على المدينة

سرية زيد بن حارثة إلى بنى سليم بالجموم - تقع ناحية بطن نخل - أربعة برد من المدينة .

● وسريته أيضا إلى العيص - موضع فى بلاد بنى سليم - على أربع ليال من المدينة .

● وسريته أيضا إلى الطرف - موضع على ستة وثلاثين ميلا من المدينة .

● سرية عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل

● سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بفدك - مسيرة يومين من المدينة

● سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادى القرى

● سرية عبد الله بن رواحة إلى أُسَير بن زارم .

وأسير بن زارم هو أمير اليهود بعد أبى رافع ، وقد بلغ النبى - ﷺ - أنه سار إلى غطفان يجمعهم لحرب المسلمين .

فانتدب النبى - ﷺ - ثلاثين رجلا على رأسهم عبدالله بن رواحة . فقدموا على أسير ، فقالوا له : إن رسول الله - ﷺ - بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك .

- فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود..

حتى إذا كانوا « بقرقرة ثبار » موضع بين المدينة وخيبر . أراد الغدر بالمسلمين . ولكن المسلمين حملوا عليهم فقتلوهم جزاء غدرهم ، وعادوا إلى المدينة فأخبروا رسول الله - ﷺ - فقال : نجاكم الله من القوم الظالمين .

● سرية كرز بن جابر الفهرى إلى العرنيين .

وهم قوم من عرينه - قبيلة من العرب قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأسلموا ، وأرسلهم رسول الله للإشراف على اللقاح وكانت ترعى فى منطقة قباء - على ستة أميال من المدينة .

فكانوا فيها حتى صحوا وسمنوا ، فغدوا على اللقاح فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى النبى - ﷺ - ومعه نفر من المسلمين فقتلو يسارا ، وقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات .

وبلغ النبى - ﷺ - خبرهم ، فأرسل فى أثرهم كرز بن جابر الفهرى فأدركهم ، وأحاط بهم وأسرهم ، وقدم بهم المدينة فقتلوا .

لقد كانت هذه السرايا تأديبية ، بعثت الاستقرار ، وأمنت المسلمين ، وأثارت الخوف فى نفوس الكفار .

ست سنوات كاملة قضاها المسلمون فى كفاح وجهاد ، لم يغمض لهم جفن ، ولم يهدأ لهم بال ، وهم يكافحون فى سبيل الإسلام ، ويدافعون عن عقيدتهم ، ويعملون جاهدين على نشر دينهم ..

وقد اشتاقت نفوسهم إلى زيارة بيت الله الحرام الذى يولون وجوههم شطره فى صلاتهم . . . . فلماذا لا يزورون هذا البيت الذى له فى نفوسهم أسمى مكانه وأعظم منزله ؟

لقد أصبح الجو مهيئا لزيارة هذا البيت بعد أن تلقى المشركون دروسا عدة تقلمت فيها أظفارهم ، وأدركوا من خلالها أن للمسلمين قوة من عند الله تمدهم وتعينهم وتدفع عنهم . .

لقد أدرك المشركون أن حروبهم لم تغن عنهم شيئا . . وأن خططهم فى الكيد والاغتيال لم تجد . . فآثروا السكوت بعد هزيمة الأحزاب . .

وكانت هذه الحملات التأديبية التى قامت بها سرايا النبى - ﷺ - ذات أثر كبير فى توطيد هذا الأمر . . وتخويف المشركين . .

ومن هنا أخذ المسلمون يفكرون جديا فى زيارة البيت الحرام الذى يحظى بمكانة عظيمة فى نفوسهم وقلوبهم . .

إن هذه الزيارة لو تمت ستكون امتحانا حقيقيا لموقف المشركين من المسلمين . . وسوف تكشف موقف القرشيين إذا حاولوا صد المسلمين عن زيارة البيت . . إذ سوف يظهر للجميع أنهم ليسوا حماة البيت كما يزعمون ، بل هم الصادون عن طريقه ، المانعون لزيارته . .

وكان المشركون يودون أن ينصرف المسلمون عن التفكير فى زيارة مكة . . لأن هذه الزيارة سوف تؤدى إلى تجدد الصراع الذى خمدت حدته ،

وهدأ بعد موقعة الأحزاب وأخذت، تتوارى تدريجيا أسباب تأججه . . مع أنهم فى حقيقة الأمر يصدون عن سبيل الله ـ كما وصفهم اله عز وجل بذلك فى قوله تعلى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١٤)

ولكن تفكير المسلمين فى زيارة البيت كان قد أخذ صفة العزم والتصميم ، وبدأوا فعلا فى التأهب لذلك .



---

(١٤) الحج ٢٥

صُلح الحديبية

- النبي - صلى الله عليه وسلم - يعزم على أداء العمرة .
- خروج النبي مع أصحابه .
- قريش تقف في مواجهة النبي .
- فشل فرسان قريش في الالتفاف حول المسلمين .
- قريش تفكر في مفاوضة النبي .
- عروة بن مسعود يفاوض الرسول نيابة عن قريش .

صلح الحديبية
الفتح المبين

الحديبية - بضم الحاء وتخفيف الياء عند الأكثر - ويجوز تشديدها عند بعضهم . وهى بئر سمى المكان بها ، وقيل شجرة ، وقال المحب الطبرى : هى قرية ليست كبيرة ، قريبة من مكة ، سميت بالبئر أو بالشجرة . وهى على تسعة أميال من مكة ..

لقد رأى النبى - ﷺ - فى منامة أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ..

فاستبشر بذلك ، وعزم على أداء العمرة . ودعا الناس إلى مشاركته ذلك . وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة .

لقد خرج - ﷺ - للعمرة فقط لا يريد قتالا ، ولبى دعوته كثير من المسلمين ، من المهاجرين والأنصار .. وكان قد استنفر الجميع للخروج معه بما فى ذلك سكان البوادى من الأعراب ، ولكن الأعراب أبطأوا عليه خوفا من قريش ..

وسار النبى - ﷺ - بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من سكان البوادى ، وساق الهدى معه . وأحرم بالعمرة ليأمن الناس حربه ، وليعلم الجميع أنه إنما خرج زائرا للبيت معظما إياه ..

كان معه ألف وأربعمائة معتمر ، وخرجت معه زوجته أم سلمة - رضى

الله عنها ـ وبعض نساء المسلمين يصحبن أزواجهن . واستخلف النبى على المدينة عبدالله بن أم مكتوم .

وقيل : بل استخلف أبارُهْم كلثوم بن الحصين . .

وقد يكون استخلفهما معا أحدهما على الصلاة وهو ابن أم كلثوم والآخر على مصالح الناس .

ولم يصطحب معه سلاحا إلا سلاح المسافر وهى السيوف فى أغمادها . .

حتى إذا وصل هذا الركب « ذا الحليفة » وهو ميقات أهل المدينة قلد النبى ـ ﷺ ـ الهدى .

وأحرم النبى ـ ﷺ ـ بعد أن صلى ركعتين ، وركب من باب المسجد بذى الحليفة راحلته ، فلما انبعثت به راحلته مستقبل القبلة أحرم بالعمرة . .

وحاكى المسلمون نبيهم ـ ﷺ ـ فقلدوا إبلهم وأشعروها وتصاعدت حناجرهم ملبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ـ إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . . لبيك ـ

وقدّم النبى ـ ﷺ ـ بين يديه رجلا من خزاعة ليكون عينا له . . وهو بسر ابن سفيان بن عمرو ، وقد اختاره لقرب عهده بالإسلام ،

فقد أسلم ـ بسر ـ فى شوال سنة ست من الهجرة ، قبل الخروج للعمرة بشهر وكان شريفا ، كتب إليه النبى ـ ﷺ ـ عليه وسلم ـ كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام فاستجاب ، وأقبل على النبى ﷺ ـ فاعتمر معه ، وساق معه الهدى .

وسار النبى - ﷺ - حتى كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان ، جاءه بسر ، فقال له : إن قريشا جمعوا جموعا ، وحشدوا لك الأحابيش ، وهم بنوالهون بن خزيمة ، وبنو الحارث بن عبد مناة ، وبنو المصطلق من خزاعة ، وهؤلاء كانوا قد تحالفوا مع قريش تحت جبل يقال له « حبشى » أسفل مكة ، فسموا الأحابيش لذلك .

وقيل : بل سموا بذلك لتجمعهم وتحبشهم . . .

وقال بسر فيما يرويه بعضهم : هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر[١٥] ، وقد نزلوا بوادى طوى يعاهدون الله أن لاتدخلها عليهم عنوة أبدا .

وكان بعض القرشيين من عتاة أهل الكفر مصممين على عدم دخول النبى - صلى الله عليه وسلم - مكة لأنهم يعلمون أن فى دخوله إذلالا للشرك وأهله ، وإزهاقا للباطل وحزبه . . . ونفخ شيطان الجن فى نفوس شياطين الإنس من الكفار ، وزين لهم الشر . وحثهم على جمع قريش لتمنع النبى ومن معه من دخول مكة وزيارة البيت الحرام .

أخرج الخرائطى فى الهواتف عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما توجه - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية قدم عليه بسر بن سفيان الكعبى . فقال له : يابسر ، هل عندك علم أن أهل مكة علموا بمسيرى ؟

---

(١٥) العُوذ : الإبل : التى وضعت أولادها حديثاً ، والمطافيل : ذوات الأطفال ، يعنى أنهم أتوا بكل مايقدرون عليه . ولبسوا جلود النمر كناية عن التنمر والاستعداد .

فقال بسر : إنى لأطوف بالبيت فى ليلة كذا وكذا ، وقريش فى أنديتها ، إذ صرخ صارخ من أعلى جبل أبى قبيس ، بصوت أسمع أهل مكة . وهو يقول : (١٦)

هبوا لصاحبكم مثل صحابته ... سيروا اليه وكونوا معشرا اكرما
بعد الطواف وبعد السعى فى مهل ... وأن يحوزهم من مكة الحرما
شاهت وجوههم من معشر نكل ... لاينصرن إذا ماحاربواصنما

فارتجت مكة وتعاقدوا أن لاتدخل عليهم عامهم هذا .

وقد رد شعراء الاسلام على تلك الأبيات فقال أحدهم :

شاهت وجوه رجال حالفوا صنما ... وخاب سعيهم ، ماأقصر الهمما
وقد أتاكم رسول الله فى نفر ... وكلهم محرم لايسفكون دما

النبى يستشير أصحابه

عندما عاد بسر وأخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن قريشا قد جمعت له . قال : « أشيروا علىّ أيها الناس » .

قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : يارسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت لاتريد قتل أحد ، ولاحرب أحد . فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه .
ـ كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستشير أصحابه فيما لاوحى فيه ، ولايستبد برأيه ، حتى قال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ : مارأيت أحدا قط

---

(١٦) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج ٢ ص ١٨٢

كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [17]

وفوجىء المسلمون بمن يخبرهم أن خالد بن الوليد على رأس فرقة من فرسان المشركين يعسكرون بالغميم ، فغير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طريقه .

قريش تقف فى مواجهة النبى :

ولنستمع إلى ماقاله العسكريون وهم أهل الخبرة فى ذلك :

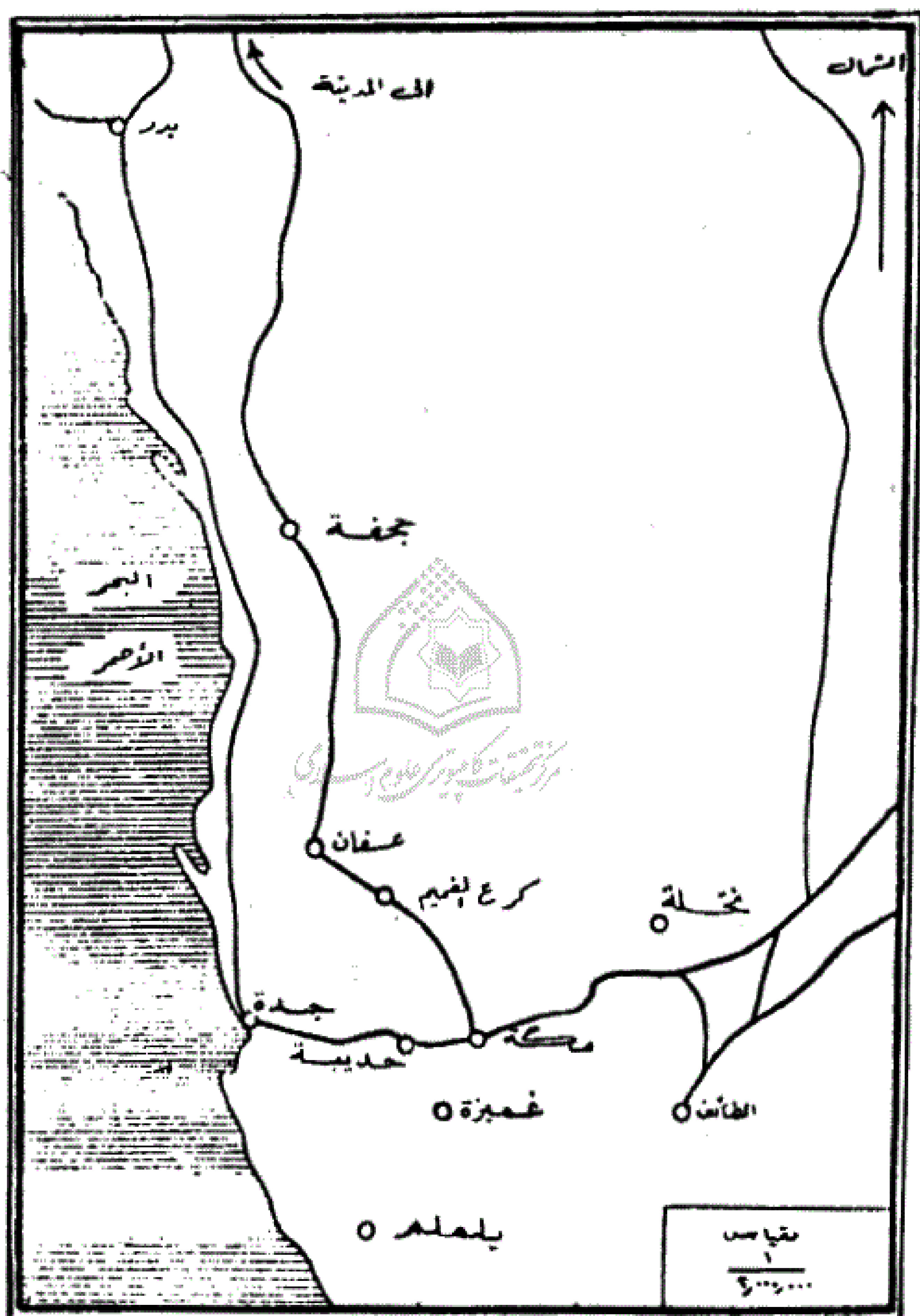
لقد خشى القريشيون أن يكون المسلمون قادمين لقتالهم وإخضاعهم فى عقر دارهم ، لأن زمام المبادرة قد أصبح بيد المسلمين ، ونتيجة لذلك ، خرج القرشيون من مكة واحتشدوا فى معسكر قريب .

ومن هناك أرسلوا خالد إلى الأمام على رأس ثلاثمائة خيال ، وسار على الطريق المؤدية الى المدينة لاعتراض جيش المسلمين ، ووصل الى « كراع الغميم » وهى تبعد خمسة عشر ميلا من عسفان .

ووضع قوته فى ممر لإغلاق الطريق أمام المسلمين فى هذه المنطقة الجبلية . وعندما وصل المسلمون الى عسفان . كانت تتقدم أمامهم مفرزة تضم عشرين خيالا تقوم بمهمة الاستطلاع ، وقد علمت هذه المفرزة بقوة خالد بن الوليد فى كراع الغميم[18] ، وأعلمت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عسفان عن موقع خالد وقوته « أنظر الخريطة » .

(١٧) أخرجه أحمد فى مسنده عن عبد الرازق ، وساقه ابن حيان من طريقه .

(١٨) كراع الغميم هذه ليست كراع الموجودة بالخرائط الحديثة ، فهى فى الخرائط الحديثة تقع فى خليج صغير على البحر الأحمر ، لكن كراع الغميم القديمة تقع فى منطقة جبلية تمتد غربا حتى البحر ، جنوب شرق عسفان .



الشمال
الى المدينة
بدر
جحفة
البحر
الأحمر
عسفان
كرع الغميم
نخلة
جدة
حديبية
مكة
غميزة
الطائف
يلملم
مقياس
١
٣،٠٠٠،٠٠٠

قرر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن لايضيع وقتا فى القتال فى هذا المكان ، وكان حريصا على تجنب سفك الدماء ، لأن قصده كان أداء العمرة وليس القتال .

فأمر مفرزته المتقدمة بالبقاء قريبا من خالد وجذب انتباهه لها . وفى الوقت نفسه حرك النبى - صلى الله عليه وسلم - رجاله من اليمين سالكا دروبا ضيقة تمر فى منطقة جبلية ليست بعيدة عن الساحل تؤدى إلى ممر يعرف باسم « ثنية المرار » .

وكان المسير شاقا ، لكنه تحقق بنجاح ، وأمكن تفادى موقع خالد . . . . وشاهد خالد غبار موكب المسلمين على مسافة بعيدة ، وأدرك ماحدث فأسرع بالرجوع إلى مكة .

وتابع المسلمون مسيرتهم حتى وصلوا الى الحديبية . . وأقاموا فيها معسكرا . وفى الحديبية بدت المعركة وكأنها وشيكة الوقوع لبعض الوقت . على الرغم من أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان حريصا على تجنب سفك الدماء . . .[19]

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - « ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين - مكتمل القوة -

---

(١٩) خالد بن الوليد جنرال ا أكرم ص ٩٥

وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ فوالله لاأزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يظهره أو تنفرد هذه السالفة »

خالد ينذر قريشا

ذهل خالد ـ على الرغم من عبقريته العسكرية ـ لحسن تصرف المسلمين وبراعتهم فى خطتهم التى لم تخطر له على بال .

وعاد على عجل لينذر قريشا بقدوم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان خالد قد أعد فرسانه لقتال المسلمين ، وصفهم ثم شاهد المسلمين يصلون . .

ولكنهم صلوا صلاة الخوف التى لم تمكن خالد من الانقضاض عليهم كما كان يتمنى . .

وأيس خالد من أن يجد فرصة يدخل منها إلى قتال . . وعمّى الله عليه حتى رأى الغبار المتصاعد من بعيد فادرك أن المسلمين غيروا اتجاههم إلى مكة وسلكوا طريقا آخر .

لقد أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يفوت على قريش فرصة القتال . لأنه لم يحضر لقتال . ولكنه جاء معتمرا وزائرا لبيت الله . ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مَنْ رجل يخرج بنا على غير طريقهم التى هم بها ؟

فقال رجل من أسلم ـ هو حمزة بن عمرو الأسلمى ـ أنا يارسول الله . فسلك بهم طريقا وعرا ، فخرجوا منه بعد أن شق عليهم ، وأفضوا منه

الى طريق سهلة . فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - : قولوا « نستغفر الله العظيم ونتوب إليه » فقالوا ذلك .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : والله إنها لَلْحِطَّةُ التى عرضت على بنى إسرائيل ، فلم يقولوها . . وهو - صلى الله عليه وسلم - يشير بذلك إلى قوله تعالى -

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢٠)

جاء فى تفسير القرطبى عند تفسير هذه الآية : حِطَّة : بمعنى حُط ذنوبنا ، أمر الله بنى إسرائيل أن يقولوا لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم فلم يقولوها . وقال ابن جبير : معناه الاستغفار . . قال الشاعر :

فاز بالحِطة التى جعل الله   بها ذنب عبده مغفورا

لقد أوضح النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حديثه الذى ذكرناه آنفا ورواه ابن إسحاق معنى كلمة « حطة » التى تحدث المفسرون حولها كثيرا .

ومن هذا التفسير نتعلم كيف يكون اللجوء الى الله واستغفاره سببا فى النجاة وفتح مغاليق الطرق والتيسير . . وهو أيضا سبب فى سعة الرزق وكثرة الخير والبركة فى الأموال والأولاد والأعمار مصداقا لقوله - تعالى - :

---

(٢٠) البقرة ٥٨

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾
وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٢١)

عاد خالد مسرعا لينذر قريشا . .

وانطلق المسلمون فى طريقهم إلى مكة ، حتى بركت ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجأة فى الحديبية .

وحاول الناس إثارتها لتستأنف سيرها . . فأبت القيام .

فقالوا : لقد خلأت القصواء ـ والقصواء هو اسم الناقة .

ومعنى خلأت : حرنت وبركت من غير علة .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماخلأت القصواء . . ولكن حبسها حابس . .

لقد حبس الله الناقة لحكمة يعلمها . . . . . وقد أشارت إلى ذلك الآية الكريمة التى وردت فى سياق هذه الأحداث .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا
أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ
فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ
لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (٢٢)

---

(٢١) نوح ١٠ : ١٢
(٢٢) الفتح ٢٥

لقد فهم النبى - صلى الله عليه وسلم - عن ربه ما يقضى به بروك الناقة من حكمة . لذلك قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » .

معجزة الماء

ونزل المسلمون فى الحديبية على غير ماء ، ما عدا حفرة فيها قليل من الماء يأخذه الناس قليلاً قليلاً ، فلم يلبث أن نُزِح . واشتكى الناس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شدة العطش . فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمر بعض أصحابه - قيل : هو البراء بن عازب ، وقيل ناجية بن جندب ، وقيل : هو ناجية بن الأعجم ، وقيل : واحد غير هؤلاء وسيأتى ما يؤكد أنه ناجية بن جندب .

أمره بأن يضع هذا السهم فى الحفرة التى جف منها الماء ، فوضعه ، فما زال الماء يفور ويتدفق ، حتى روى الناس جميعاً وملأوا أوانيهم وأخذوا حاجتهم .. وكفاهم مدة إقامتهم فى هذا المكان ..

وذكر بعض الرواة : أن هذه المعجزة تمت بطريق آخر .... وقد ورد ذلك فى حديث رواه الشيخان عن جابر قال : عطش الناس يوم الحديبية ، وبين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ركوة يتوضأ منها ، فأقبل الناس نحوه ، فقال : ما لكم ؟

قالوا : يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما فى ركوتك . فوضع النبى - صلى الله عليه وسلم - يده فى الركوة ، فجعل الماء

يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا . .

وربما حدث هذا الأمر مرتين فى مكانين ووقتين مختلفين . .

قريش تفكر فى التفاوض

ونظرت قريش فى أمرها وتحيرت . هل تخاطر وتحارب محمداً ﷺ ، وقد جربت الحرب معه فلم تشعر بأنها انتصرت ؟ بل لقد أصبحت شبه متأكدة بأنها لن تنتصر عليه . . إنها تحس فى قرارة نفسها أن وراء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوة تسانده . . ولكنه العناد الذى استولى على القلوب . والضلال الذى غشى العقول .

وفكرت فى أن ترسل رسولاً إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليستطلع جلية الأمر من ناحية ، وليقوم بعملية إرجاف من ناحية أخرى .

وجاء بديل بن ورقاء الخزاعى ـ فى نفر من قومه ، وكان بديل يميل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطمئن إليه ـ جاء بديل ناصحاً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومستطلعاً للأمر ، فقال بديل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جئت ولا سلاح معك ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لم نجىء لقتال .

فقال بديل : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا بمياه الحديبية . ومعهم العُوذُ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنا لم نجىء لقتال أحد ،

ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم ـ أى جعلت بينى وبينهم مدة نترك فى خلالها الحرب ـ ويخلوا بينى وبين الناس إن شاءوا ، فإن أظهرن الله ، وشاءوا أن يدخلوا فيها دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد استراحوا من القتال ـ وإن أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى[٢٣] » . ولينفذن الله أمره »

قال بديل : سأبلغهم ما تقول .

وانطلق بديل مع الركب الذى جاء به إلى قريش . .

فقال لهم : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ـ يعنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد قال لنا قولاً ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا .

وأسرع السفهاء منهم إلى الاجابة قائلين : لا حاجة لنا فى أن تخبرنا عنه بشيء . ولكن ذوى الأمر منهم ، والذين ينظرون إلى الأمور نظرة بعيدة قالوا : هات ما سمعته . .

قال بديل : سمعته يقول كذا وكذا . وأنهى إليهم عبارة النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

وكان بديل ـ كما قلنا ـ يميل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فساق العبارة كما سمعها ، وأداها بصورتها التى قالها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان بديل وسيطاً حكيماً حريصاً على أن يبلغ بوساطته إلى غاية حسنة وهدف كريم .

---

(٢٣) السالفة : صفحة العنق . . . . فى هذا التعبير كناية عن القتل .

وكان مما قاله بديل : إنكم تعجلون على محمد ، إنه لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت . .

ولكن السفهاء من قريش الذى أضلتهم الجاهلية ، واستولت عليهم العصبية ردوا على بديل ومن معه فى عنف ، واتهموهم ، وقالوا لهم : حتى وإن كان قد جاء لا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا يتحدث العرب عنا بذلك أبداً .

وهنا قام عروة بن مسعود الثقفى ـ وكان لم يسلم بعد . . . . . فقد أسلم بعد غزوة الطائف ـ فقال مخاطباً وجوه قريش : أى قوم ، ألستم بالوالد ؟

قالوا : بلى .

لقد شبههم بالوالد فى حنوه وشفقته على أولاده .

فقال : أو لستُ بالولد ؟

قالوا : بلى .

شبه نفسه بالولد فى اهتمامه بمصلحة أبيه وحرصه عليه . ومن المعروف أن هناك علاقة قريبة وثيقة تربطه بقريش ، فأمُّ عروة هى سُبَيْعة بنت عبد شمس بن عبد مناف . فهو أخواله ، والخال والد ـ كما يقولون ـ وهو ابنهم . وابن أخت القوم منهم ـ هكذا يقول العرب ـ

قال عروة : فهل تتهموننى ؟

قالوا : لا .

وأراد أن يزيد الأمر ثقة بينه وبينهم بعد هذه المقدمة المشوقة ، فقال لهم : ألستم تعلمون أنى استنفرت أهل عُكاظ لنصركم ، فلما امتنعوا علىّ جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى ؟

قالوا : بلى .

قال : فإن هذا ـ يعنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عرض عليكم فى الرسالة التى أداها بديل خطة رشد ، فاقبلوها . ودعونى آته . .

فقالوا : لك ما تريد .

عروة يذهب إلى النبى

وجاء عروة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له نحواً مما قاله بديل له .

فرد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمثل ما رد به على بديل .

فقال عروة : أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟

وإن تكن الأخرى فإنى والله لأرى وجوهاً ، وإنى لأرى أوشاباً ـ أخلاطاً من الناس ـ خليقا أن يفروا عنك ويدعوك .

ويعنى عروة بعبارته هذه : أنه إن كانت الأخرى وهى الغلبة لقريش فإنى لا آمنهم عليك ، وإن بعض من حولك قد لا يثبتون معك لأنهم أخلاط لا تربطك بهم صلة رحم ـ هكذا قال عروة أو هكذا كان يظن .

ولم يكن عروة يدرى أن العلاقة بين المسلمين لا تؤصلها صلة الرحم ولا الدم ولا القرابة ، وإنما يؤصلها الايمان والدين وحب الله ورسوله . .

لم يكن يدرى أن الاسلام أنشأ علاقات جديدة بين الناس تعلو على المادة ، وترتفع فوق المنفعة الخاصة وتؤكدها المواثيق الروحية والمعنوية . .

لم يكن يدرى أن المؤمن يؤثر أخاه فى الدين على نفسه ، ولا يكمل إيمانه حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

عند ذلك قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ : أنحن نفر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وندعه ؟ وأسمع عروة كلاماً شديداً .

فقال عروة : من هذا ؟

قال المسلمون : هذا أبو بكر .

فقال عروة : أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك ـ أى لرددت عليك بشدة كما أسمعتنى . .

وكانت هذه اليد ، فيما يرويه الرواة أن عروة كان قد تحمل دية فأعانه فيها أبو بكر بعون حسن . .

ثم تكلم المغيرة بن شعبة الثقفى ـ وهو ابن عم عروة ـ أو ابن أخيه ، وكان قائماً بجوار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسيف يحرسه ـ فقال لعروة : ابتعد عن رسول الله وإلا قطعت يدك . . وكان عروة قد مد يده ليمسك لحية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

فقال عروة لابن أخيه : ما أفظك وما أغلظك .

وقد كان من عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يحادثه عند الملاطفة .. وكان هذا يحدث بين المتناظرين ..

ولكن شتان بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وعروة ..

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يغضى عن فعل عروة تألفاً له ، ولكن ذلك لم يعجب المغيرة . فكان يكف يد عروة إجلالاً للنبي - صلى الله عليه وسلم - وتعظيماً .

فلما أغلظ المغيرة على عروة فى فعله وقوله . نظر إليه عروة وقال : من هذا ؟

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا ابن أخيك المغيرة ..

وكان المغيرة حين لبس مغفره ولأمته لم يعرفه عروة ..

وجعل عروة يرمق أصحاب النبي - ﷺ - فيعجب من حسن أدبهم ، وطاعتهم ورفقهم وحبهم فيما بينهم وحبهم لرسول الله - ﷺ - حتى أصبح يحدث بذلك قومه وقريشا حين عودته - إذ قال لهم : أى قوم .... والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله ما رأيت ملكا قط تعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمدا ..... إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدُّون النظر إليه تعظيما له »

لقد اقتنع عروة إذن بأن الذين يحيطون بالنبى - ﷺ - ليسوا بأوشاب أو أخلاط - وإنما هم قوم يؤثرون النبى - ﷺ - على أنفسهم ويفدونه بأرواحهم ، ولا يمكن أن يسلموه إلى شيء أبدا . .

وإن قوما هؤلاء شأنهم لا يمكن لقريش أن تنتصر عليهم مهما أعدت من قوة أو جمعت من جمع . .

وكان على عروة أن يحسن النصح لأخواله ، وأن يتم ما بدأه معهم من نصيحة على خير وجه . .

أقبل عروة على قريش فى حزم وقال : يا قومك لقد رأيت الملوك ما رأيت مثل محمد ، وما هو بملك ، ولقد رأيت الهدى معكوفا وما أراكم إلا ستصيبكم قارعة .

ثم أتبع ذلك بقوله : لقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . ويبدو أنه وجد سفهاء قريش قد غلبوا على حلمائهم ، فلم يصيخوا إلى قوله . فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف . .

لقد دل كلام عروة على أنه ذو رأى صائب وبصيرة نافذة ، وعقل ثاقب . . ولقد حاول جهده الإصلاح ولكن الأمر إذا أسلم إلى السفهاء ضاع الصواب وضل الرشاد .

محاولة أخرى

ثم قام زعيمهم الأحابيش « الحليس بن علقمة » وهو أحد بنى الحارث بن عبدمناة بن كنانة - بمحاولة أخرى ، فقصد النبى - ﷺ -

فلما رآه رسول الله - ﷺ - قال : « إن هذا من قوم يعظمون التدين ، فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه »

فلما رأى الحليس الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده ، والناس يلبون بالعمرة رجع إلى قريش دون أن يكلم رسول الله - ﷺ - إجلالا لما رأى . . وقال لهم : سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يُصدُّوا عن البيت .

أتحج لخم وجذام وكندة وحمير ويمنع ابن عبدالمطلب ؟

وفى رواية : إنه وصل إلى النبى - ﷺ - وقال أمامه ذلك . فأجاب النبى - ﷺ - قائلا : أجل يا أخا بنى كنانة .

ولما عاد الى قريش قال لهم : رأيت الهدى قد قلدت وأشعرت ، بما أرى أن يصدوا عن البيت . .

فقال له القرشيون وقد غلبهم رأى سفائهم : اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك .

وغضب الحليس غضبا شديدا ، وقال ، أَيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

فقالوا له : اكفف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى .

لقد بانت نية قريش ، وظهر أنهم لا يريدون الحرب فعلا ، ويودون لو أن المسلمين دخلوا مكة فى ظل مفاوضة تحفظ على قريش ماء وجهها . . إنه مازالت فيهم بقية تخشى غضب الله إن صدت أحدا عن بيته ، ولذلك فهم لا يزالون يفسحون الطريق لكل من يريد أن يذهب إلى النبى - ﷺ - ليكلمه .

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص بن الأخيف . وقال : دعونى آته .

فوافقوا .

فتوجه مكرز إلى النبى - ﷺ - فجعل يكلمه ، ولم يزد فى حديثه على ما قاله من سبقه . .

ولم يزد النبى - ﷺ - فى رده على ما رد به على من سبقه أيضا . . وبينما مكرز فى حديثه مع النبى - ﷺ - إذ أقبل سهيل بن عمرو القرشى

ـ وكان النبي ـ ﷺ ـ يتفاءل بالأسماء ـ فقال : قد سهل لكم من أمركم .
لقد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا الرجل . . .

كيف تم الصلح ؟

لقد تطورت الأحداث فى ظل ما ذكرناه بسرعة . . وبدا الصلح كأنه قد جرى فجأة بدون مقدمات دفعت إليه ، سوى ما اجتمع عليه رأى الرسل الذين توجهوا من قبل قريش الى النبي ـ ﷺ ـ وعودتهم بالتأكيد بأن محمدا ما جاء لحرب ، وإنما جاء معتمرا . .

وقد أراد النبي ـ ﷺ ـ أن يؤكد ذلك للقرشيين مرة أخرى . فقام ـ ﷺ ـ بمبادرة من جانبه ، وخطا خطوة تقرب وجهات النظر بينه وبين قريش ، فأرسل عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بزسالة إلى قريش يخبرهم فيها أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته . .

كان النبي ـ ﷺ ـ قد أراد يبعث عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بهذه الرسالة ، ولكن عمر قال : يارسول الله ، إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى لها وغلظتى عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان .

ونحن نرى أن شجاعة عمر وقوة إيمانه بأبيان عليه أن يخشى قريشاً ـ ولعل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عدل عن اختيار عمر لذلك لما عرف عنه من الشدة فى معاملة القرشيين فآثر عثمان لتلك المهمة . . . . . .

وكان بعض الجهلاء من القرشيين قد فكروا فى التحرش بالمسلمين

فأرسلوا طائفة منهم ، وأمروهم أن يتسللوا إلى معسكر رسول الله - ﷺ - علهم يصيبون منه غرة . ولكن المسلمين كانوا على أهبة الاستعداد فأخذوهم أخذا ، وأتوابهم إلى رسول الله - ﷺ - فعفا عنهم وخلى سبيلهم على الرغم من أنهم كانوا قد رموا العسكر بالنبل والحجارة . .

وهل هناك أدل على حسن نية المسلمين أكثر من هذا ؟ . .

عثمان يؤدى الرسالة

وتوجه عثمان إلى مكة برسالة النبى - ﷺ - فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو فى طريقه اليها - وهو ابن عمه - فحمله بين يديه وأجاره ، حتى يبلغ رسالة رسول الله - ﷺ - فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وحوله عظماء قريش فأدى إليهم الرسالة .

فعرضوا على عثمان بعد أن فرغ من أداء رسالته أن يطوف بالبيت - فقال عثمان : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله - ﷺ - وأشاع بعضهم أن عثمان طاف بالبيت ، وذكروا ذلك أمام النبى - ﷺ - فقال : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون .

فقالوا : وما يمنعه يارسول الله وقد خلص ؟

فقال - صلوات الله عليه : ذاك ظنى به ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف معا .

واحتبست قريش عثمان عندها فترة من الزمن .

وطال أمد رجوع عثمان إلى النبى - ﷺ - حتى أشيع أن قريشا قتلته .

بيعة الرضوان

- شروط الصلح
- موقف بعض المسلمين من شروط الصلح
- حكمة الرسول ﷺ في قبول تلك الشروط



- نحر الهدى
- العودة إلى المدينة
- صلح الحديبية من وجهة نظر العسكريين
- دروس من هذا الصلح
- لماذا سمي صلح الحديبية فتحاً ؟

« بيعة الرضوان »

وصلت إشاعة قتل عثمان إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لأصحابه : لا نبرح حتى نناجز القوم ..

لقد تبدل الموقف بين عشية وضحاها .. لقد جاءوا معتمرين حقاً ، ولكن قريشاً أبت إلا أن تجعلها حرباً .. ماذا بعد الاعتداء على السفير الذى أرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن الاعتداء على السفير معناه أن القوم قد آذنوا بالحرب ، والنكوص عنها جبن ..

حقاً إن المسلمين ليس معهم سلاح الحرب ، ولكن الاستبسال ينوب عن السلاح . إنها الفدائية التى تتطلب بذل الأرواح ومقابلة العدو بكل شجاعة وحماس ولو ذهبوا جميعاً ضحية الدفاع عن عقيدتهم ، وشرف كلمتهم ، ونصرة دينهم . فنادى النبى - صلى الله عليه وسلم - من يبايعنى على الموت ؟ ؟

وكان جالساً تحت شجرة ، فأقبل المسلمون سراعاً يلبون دعوته ويبايعونه .

كان أول من حضر إليه أبو سنان بن وهب الأسدى .

قال له النبى - صلى الله عليه وسلم - علام تبايع ؟

قال أبو سنان : على ما فى نفسك . وفى رواية : على ما فى نفسى .

قال : وما فى نفسك ؟

قال : أضرب بسيفى حتى يظهرك الله أو أقتل .

وبايع الناس على بيعة أبى سنان .

ولما فرغ الناس من المبايعة ، وضع النبى - صلى الله عليه وسلم - شماله فى يمينه ، وقال : هذه عن عثمان ، اللهم إن عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك ﷺ . فكانت يد النبى - صلى الله عليه وسلم - لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم .

القرآن يسجل هذه البيعة

وقد سجل القرآن الكريم هذه البيعة المباركة التى أظهرت حرص المسلمين على دينهم ، ومبادرتهم إلى الاستجابة لرسولهم ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[24]

وقال - تعالى -

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾[25]

---

(٢٤) الفتح ١٠
(٢٥) الفتح ١٨ ، ١٩

وسميت البيعة بيعة الرضوان ، لأن الله قد ذكر أنه رضى عن أصحابها وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حقها : « لا يدخل النار أحد بايع تحت هذه الشجرة[٢٦] »

وقال أيضاً : يأيها الناس إن الله قد غفر لأهل بدر والحديبية »

لقد تسابق الناس إلى البيعة مستبشرين . حتى لقد بايع بعضهم أكثر من مرة ، واعتبروا التنافس فيها شرفاً لا يعلوه شرف ، حتى لقد بايع سلمة بن الأكوع ثلاث مرات : مرة فى أول الناس ، ومرة فى أوسطهم ، ومرة فى آخرهم . .

لم يتخلف عن هذه البيعة سوى الجد بن قيس ـ وكان معروفاً بالنفاق . .

ولشرف هذه البيعة شرف المكان الذى تمت فيه ، وشرفت الشجرة التى استظلوا بها ، وجلس تحتها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبايع الناس . . حتى قصدوها بالزيارة . . فخشى عمر ـ رضى الله عنه ـ عاقبة ذلك ـ فقطعها[٢٧] »

وسمعت قريش بأمر هذه البيعة فهالتهم ودخلهم الفزع وأدركوا أن الأمر جد لا هزل فيه ، وأن ألفاً وأربعمائة مقاتل سينطلقون من عُرُنهم يوشكون ألا يلقوا منهم أحداً إلا افترسوه . .

---

(٢٦) رواه مسلم

(٢٧) المواهب اللدنية جـ ٢ ص ٢٠٧

لا داعى للمناورة إذن ، وما على قريش إلا أن تذعن للواقع ، وترسل مفاوضاً ناجحاً لتأخذ لنفسها ما يحفظ عليها كرامتها ، ويعقد مع محمد ﷺ صلحاً يحترمه الجميع . وما على المسلمين بأس أن يعودوا فى عامهم هذا على أن يُقبلوا فى العام القادم لأداء العمرة إن شاءوا . وعلى هذا الأمر جاء سهيل بن عمرو . .

شروط الصلح

لقد صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فى قوله حين رأى سُهيل بن عمرو : قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا الرجل . .

وحين وصل سهيل وقف أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - وقام عباد ابن بشر وسلمة بن أسلم على رأس النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد جلس متربعاً . وجلس المسلمون حوله . وجرى القول بين النبى ﷺ وسهيل . وأطال سهيل الكلام ، وربما رفع صوته شأن المفاوض الذى يريد أن يحصل لقومه على أقصى ما يريد . فقال له عباد : اخفض صوتك عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستمرت المفاوضات بين النبى ﷺ وسهيل حتى تم توقيع الصلح بينهما على شروط . . أهمها :

- أن توضع الحرب بينهم عشر سنين يكف الناس فيها بعضهم عن بعض .
- وعلى أن من أتى محمداً ﷺ من قريش بغير إذن وليه رده إليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ﷺ لم يردوه عليه .

● وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

● وأن يعود المسلمون دون أن يدخلوا مكة هذا العام على أن يدخلوها فى عام قابل ، بعد أن يخليها القرشيون لهم لمدة ثلاثة أيام .

فتواثبت قبيلة خزاعة وقالت : نحن فى عقد محمد ﷺ وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم .

كتابة هذا العهد :

ودعا النبى - صلى الله عليه وسلم - على بن أبى طالب - لكتابة هذا العهد .

فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : لا أعرف هذا . بل اكتب : باسمك اللهم .

فكتبها لأن قريشاً كانت تقولها . .

وأول من كتب باسمك اللهم أمية بن أبى الصلت . . وكتبها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى عدة كتب سابقة .

وحين نزل قوله - تعالى -

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ ﴾ (٢٨)

---

(٢٨) النمل آية ٣٠

كتبها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتبه .

ثم قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى : اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد ﷺ رسول الله سهيل بن عمرو .

فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدك عن البيت .

ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

وكان على ـ رضي الله عنه ـ قد كتبها . فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ امحها .

فقال على : لا أمحوها أبداً .

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرنيه .

فأراه على إياه ، فمحاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده الشريفة . وقال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

وقال : أنا والله رسول الله وإن كذبتموني ، وأنا محمد بن عبد الله » .

وثار بعض المسلمين قائلين : كيف نرضى الدنية في ديننا ؟

ثم زاد غضب بعض المسلمين حين جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو وهو يرسف في قيوده وكان أبوه قد قيده حتى لا يلحق بالمسلمين ـ ورمى بنفسه بينهم ، فأقبل المسلمون عليه يهنئونه ويرحبون به ، ولكن سهيلاً قام

من مكانه وضرب ابنه وقال : يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه ، أن ترده إليَّ ، لقد تم الاتفاق بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا .

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - صدقت .

فأقبل سهيل على ابنه يأخذ بتلابيبه ويجره إلى قريش .

وأبو جندل يصرخ قائلاً : يا معشر المسلمين ، أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟ ألا ترون ما لقيت ؟

لقد عُذِّب أبو جندل عذاباً شديداً في مكة على أن يترك الاسلام ، ولكنه كان مُصِراً عليه . وها هو قد برقت أمامه بارقة أمل في النجاة فإذا بها تغلق دونه .

فزاد هذا الموقف المسلمين شجناً وألماً ، وأثار كوامن الثورة في نفوسهم .. لقد جاءوا وهم على أمل أن يدخلوا مكة ، فإذا هم لم يدخلوها .. وقد أبى المشركون أن يقبلوا أن محمداً رسول الله .

وقد اشترط المشركون أن يرد المسلمون من جاءهم منهم ، في حين أنهم غير ملزمين برد من جاءهم من المسلمين .

وها هو ذا أبو جندل أمامهم يستنجد بهم فلا يملكون أن ينجدوه .. إن هذا لهو الرضا بالدنية ..- هكذا فهم بعض المسلمين الأمر -

والتفت النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أبي جندل فقال له : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً

ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك .

وجاء عمر بن الخطاب يمشي إلى جانب أبي جندل وأبوه يدفعه ـ ويقول عمر لأبي جندل في همس يسمعه أبو جندل ولا يسمعه أبوه : اصبر يا أبا جندل فإنما هم مشركون وأنت مسلم . .

وأراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطمئن على أن أبا جندل لن يعذب فقال لسهيل : أجره لى .

فقال سهيل فى جفاء : ما أنا مجير ذلك لك .

فقال مكرز وحويطب بن عبد العزى : قد أجرناه لك .

وقد تكلم بعض المسلمين فى شأن هذا الصلح ، الذى كتب ، وقالوا : إنه لا يتناسب مع ما نحن فيه من عزة وعلو شأن . .

وأقبل عمر على أبي بكر يقول له : كيف نقبل الدنية فى ديننا ؟ ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟

فقال أبو بكر له : يا عمر إنه رسول الله . .

ولكن عمر ـ بما ركب فى طبعه من صراحة وشدة ـ لم تهدأ نفسه حتى جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : يا رسول الله ، أترضى بما فى هذا الكتاب ؟

فيتبسم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقول : يا عمر ، من جاءنا منهم فرددناه سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه فى شيء ، أى ولا حاجة لنا به . .

لقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر بأنه رسول الله ولن يضيعه . .

كان نظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعيداً . . لقد أدرك أن هؤلاء المستضعفين سيكونون عوناً للمسلمين بمكة فى وسط العدو ، ويمكنهم أن يؤثروا على أهل مكة فى حالات معينة ، ووجودهم فى معسكر قريش سوف يكون فى حقيقة الأمر مصدر قوة للمسلمين . .

قريش تضطر للتنازل عن هذا الشرط

على أن قريشاً لم تلبث أن اضطرتها الظروف الى التنازل عن هذا الشرط الذى كانت تعتبره مغنماً لها ، وسعت راضخة الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تطلب إلغاءه .

ذلك أن رجلاً اسمه أبو بصير عتبة بن أسيد بن عبد الله ين سلمة الثقفى وكان أحد المستضعفين فى مكة . ومن الذين حال المشركون بينهم وبين الهجرة . . . . أقبل أبو بصير بعد الصلح الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى المدينة مسلماً فرده الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ طبقاً للاتفاق الذى تم مع القرشيين .

ولنترك ابن الأثير يحدثنا عن هذه القصة فيقول :

لما أمن الناس وتفاوضوا ، دخل كثير من الناس فى الاسلام ، فلقد دخل فى تلكما السنتين أكثر مما كان دخل فيه قبل ذلك ، وكان صلح الحديبية فتحاً عظيماً ، ولما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة واطمأن بها أقبل

إليه أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية الثقفى ، حليف بنى زهرة ، فكتب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأخنس بن شريق الثقفى ، والأزهر بن عبد عوف ، وبعثا بكتابهما مع مولًى لهما ورجل من بنى عامر بن لؤى استأجراه ليرد عليهم صاحبهم أبا بصير .

فقدما على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفعا إليه كتابهما . فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بصير ، فقال له : يا أبا بصير ، إن هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد علمت ، وإنا لا نغدر ، فالحق بقومك .

فقال أبو بصير ، يارسول الله ، أتردنى الى المشركين يفتوننى فى دينى ؟

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اصبر يا أبا بصير واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين من المؤمنين فرجاً ومخرجاً .

فخرج أبو بصير ، وخرجا . حتى إذا كان بذى الحليفة ، جلسوا إلى سور جدار . . .

فانتهز أبو بصير غفلة من العامرى ثم أخذ سيفه وضرب به عنق العامرى وفر هارباً وأسرع المولى الذى كان يرافق العامرى يشتد حتى طلع على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بالمسجد .

فلما رآه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : هذا رجل قد رأى فزعاً . فلما انتهى إليه قال : قتل صاحبكم صاحبى .

فما برح حتى أقبل أبو بصير وهو متوشح بالسيف . فوقف على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله وفيت ذمتك ، وقد امتنعت بنفسي .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا مُسَعِّر حرب لو كان معه رجال .

وخرج أبو بصير حتى نزل بالعيص ، وهو طريق أهل مكة الى الشام ، فسمع به من كان بمكة من المسلمين فلحقوا به ، حتى كان فى عصبة تقرب من ستين أو سبعين ، وكانوا لا يظفرون برجل من قريش إلا قتلوه ، ولا تمُرُّ بهم عير إلا اقتطعوها . .

حتى أزعجوا قريشاً وزلزلوا أقدامها . فكتبت قريش الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسأله بحق الأرحام أن يؤوى هؤلاء إليه فإنهم لا حاجة لهم بهم . وهكذا ألغت قريش الشرط بنفسها . . وكان هذا الشرط الذى ظنت أن فيه كرامة لها هو الذى أذهب الكرامة عنها وأذلها . . وهكذا أصبح الشرط الذى ظنه المسلمون مجحفاً بهم فى صالحهم .

وكان أبو جندل بن سهيل ممن لحق بأبي بصير أيضاً فمكث عنده . .

وأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى أبي بصير وأبي جندل كتاباً يستقدمهما فيه إليه هما ومن معهما . . ووصل الكتاب وأبو بصير مريض ، فمات فدفنه أبو جندل وصلى عليه(٢٩) .

---

(٢٩) أسد الغابة حـ ٦ صـ ٣٥

على أن المسلمين لم يتنبهوا حينذاك لهذه النتائج البعيدة ، ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد تنبه لها .. ولذلك قبل الصلح بالرغم من أنه يبدو فى الظاهر مجحفاً بالمسلمين . ولكنه فى حقيقة الأمر لم يكن كذلك .

لقد اعترف المشركون بأن المسلمين أصبحوا قوة يحسب حسابها ، وها هم أولاء قد قبلوا أن يجلسوا معهم إلى مائدة المفاوضات يضعون بنوداً للصلح ، بعد أن كانوا يرفضون ذلك .

وأصبح المسلمون أحراراً يتنقلون كيفما شاءوا فى شرق الجزيرة وغربها بعد أن كانوا يسيرون على حذر كما كان المشركون أيضاً يسيرون على حذر . .

ولنرجىء الحديث مؤقتاً عن نتائج هذا الصلح لنعود مرة أخرى الى موقف المسلمين من الصلح . .

لما فرغ النبى - صلى الله عليه وسلم - من كتاب الصلح أشهد عليه رجالاً من المسلمين . فشهد أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة .

كما شهد رجال من قريش كذلك منهم مكرز وحويطب بن عبد العزى .

عند ذلك أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بالنحر والحلق .

قال ذلك ثلاث مرات . فلم يقم أحد منهم . لظنهم أنَّ فى شروط الصلح إجحافاً بالمسلمين .

فدخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على زوجه أم سلمة - رضى الله عنها - وهو غاضب أشد الغضب ، فاضطجع .

فقالت له : مالك يا رسول الله ؟ فلم يجبها فألحت عليه ، فقال : هلك المسلمون يا أم سلمة .. أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا ..

فقالت أم سلمة - رضى الله عنها - يا رسول الله لا تلمهم ، فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ، ورجوعهم دون أن يؤدوا العمرة .

ثم أشارت عليه أن يخرج ولا يكلم أحداً منهم ، وينحر الهدى ويحلق رأسه .

ففعل ذلك .. أخذ - صلى الله عليه وسلم - حربة ، وقصد هديه ، وأهوى بالحربة إلى البدن رافعاً صوته بسم الله والله أكبر .

ثم دخل - صلى الله عليه وسلم - قبة له من أدم أحمر ، ودعا بخراش بن أمية - وكان حجاماً - فحلق رأسه ، ورمى شعره على شجرة ، فلما رأى الناس ما فعل النبى - صلى الله عليه وسلم - قاموا فنحروا وحلقوا .

وفرق النبى - صلى الله عليه وسلم - لحوم الهدى على الفقراء الذين حضروا الحديبية .

وقيل : إنه بعث إلى مكة عشرين بدنة مع ناجية بن جندب الخزاعى . وكان ناجية هذا هو الذى نزل فى الحفرة التى نضب منها الماء ، ووضع فيها

سهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنبع الماء ، وأقبل الناس عليه يملأون دلاءهم . واستشار ناجية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يفعله بالهدى الذى يعطب منه فى الطريق . أى الذى تصيبه آفة تمنعه من السير .

فقال له : انحرها ، وخلِّ بينها وبين الناس يأكلونها(٣٠) .

ونحر ناجية الهدى بالمروة ، وقسم لحومه على فقراء مكة . . .

وبعد أن فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك أقبل الناس يحلقون ويقصرون ... ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً : اللهم ارحم المحلقين ، وفى رواية : اللهم اغفر للمحلقين . .

قالوا : والمقصرين ؟ فقال : يرحم الله المحلقين والمقصرين .

وقال بعضهم : قال أصحاب رسول الله : يارسول الله لم أظهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين ؟

قال : لأنهم لم يشكُّوا . أى عزموا على تنفيذ أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولم يرجوا أن يطوفوا بالبيت ، بخلاف المقصرين . . لأن الظاهر من حالهم أنهم أخروا بقية شعورهم رجاء أن يحلقوها بعد طوافهم بالبيت(٣١) ، وعلى ذلك فقد كان لهذا الدعاء مناسبته .

ولاشك أن التحليق أفضل من التقصير لتقدمه فى الآية

---

(٣٠) أسد الغابة حـ٥ صـ٢٩٤ ، وتحفة الأحوذى ـ أبواب الحج . باب . إذا عطب الهدى .

(٣١) السيرة الحلبية حـ٢ صـ٧١٣

« محلقين رءوسكم ومقصرين » . وليس للنساء إلا التقصير[٣٢] . .

العودة إلى المدينة

وانصرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ راجعاً الى المدينة بعد أن أقام بالحديبية تسعة عشر يوماً . .

رجعوا على أن يعودوا فى العام القادم . . وفق الشروط المبرمة مع قريش ، ليدخلوا مكة معتمرين .

فلما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين مكة والمدينة ـ وهو بكراع الغميم . أنزل الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة الفتح . وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر بن الخطاب : أنزلت على الليلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس . .

ولما أنزلت قال جبريل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هنيئاً لك يا رسول الله ، وهنأه المسلمون ، ولكن بعض المسلمين تكلموا فقالوا : ما هذا بفتح ـ لقد صدونا عن البيت وصدوا هدينا .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بلغه ذلك ـ بل هو أعظم الفتح ، لقد اعترف المشركون بقوتكم ، وطلبوا منكم الصلح ، ورغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا ، وأظفركم الله عليهم ، وردكم

---

(٣٢) راجع تفسير القرطبى سورة الفتح

الله تعالى سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتوح . أنسيتم يوم أحد - إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟ ونسيتم يوم الأحزاب « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا .

فقال المسلمون : صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح ، والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا .

وقال له عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ألم تقل يا رسول الله - صلى الله عليك وسلم - إنك تدخل مكة آمناً ؟ قال : بلى ، أفقلت لكم من عامى هذا ؟ قال : لا . قال : فهو كما وعدنى ربى عز وجل - وسوف تدخلونها وتطوفون بالبيت[٣٣] .

ما نزل فى الحديبية من قرآن

نزلت سورة الفتح كاملة وهى تسع وعشرون آية ، فى شأن الحديبية . جاء فى الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يسير فى بعض أسفاره ، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً . فسأله عمر عن شىء ، فلم يجبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه .

(٣٣) المرجع السابق صـ٧١٥

فقال عمر بن الخطاب لنفسه : ثكلتك أمك يا عمر ألححت فى السؤال على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات وهو لا يجيبك .

قال عمر : فحركت بعيرى ، ثم تقدمت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فىَّ قرآن ، فما نشبت - ما لبثت - أن سمعت صارخاً يصرخ بى ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فىَّ قرآن ، فجئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزلت علىَّ الليلة سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ [٣٤]

لقد عد الله صلح الحديبية فتحاً ، روى البخارى عن أنس قال : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » قال : الحديبية .

وقال جابر : ما كنا نعد فتح مكة إلا الحديبية .

وقال الفرّاء - فيما يرويه الطبرى - تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية .

ولما نزل قوله - تعالى

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾

---

(٣٤) الفتح ١ : ٣

قال المسلمون : هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله ، لقد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟

فنزل قوله تعالى :

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [٣٥]

ثم نبهت السورة الى موقف المنافقين وشقاقهم ، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ويظنون بالمسلمين ظن السوء ، وقرنتهم مع المشركين فى العذاب . فقال الله تعالى ـ فى ذلك :

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [٣٦]

كان من ظن السوء عند المنافقين أن عبد الله بن أبى بن سلول قال : أيظن محمد ﷺ أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ؟ فأين فارس والروم ؟

فبين الله ـ تعالى ـ أن لله جنوداً أشار إليهم بقوله

---

(٣٥) الفتح ٥

(٣٦) الفتح ٦

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧ ﴾ [٣٧]

وأشارت السورة الى مهمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يجب على المؤمنين .

فقالت

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ ﴾ [٣٨]

وأثنت على المبايعين الذين بايعوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت الشجرة ، كما نعت على أولئك الذين تخلفوا عن هذه البيعة أو حدثوا أنفسهم بنقضها . وقد ذكر الرواة أن الجد بن قيس ـ وهو معروف بالنفاق ـ كان هو الذى انقبض عن البيعة واختبأ خلف بعير فلم يبايع ، وكان سيد بنى سليمة فى الجاهلية ، فلما أسلموا قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سيدكم ؟

قالوا : الجد بن قيس ـ على بخل فيه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأى داء أدوأ من البخل ؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح .

وقد نزل فى شأن الجد بن قيس هذا فى غزوة تبوك قوله تعالى

---

(٣٧) الفتح ٧
(٣٨) الفتح ٨ ، ٩

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [٣٩]

وكان بعض الأعراب ممن يقيمون حول المدينة قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أذن بالعمرة بين الناس . متعللين بأسباب واهية ، وهم فى الواقع خائفون من قريش ففضحهم الله بقوله :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [٤٠]

لقد بينت الآيات حقيقة تخلفهم ، وهو اعتقادهم أن قريشاً ستقضى على النبى ﷺ والمسلمين فى عمرتهم هذه . ولكن خاب ظنهم ، وظهر نفاقهم .

وأراد هؤلاء المخلفون أن يكون لهم حظ الاشتراك فى الغزوات المقبلة كغزوة خيبر ، ولكن الله قد قضى ألا يشترك فى خيبر إلا من اشترك فى عمرة الحديبية .. وبذلك حَرَمَ هؤلاء المخلفون أنفسهم من غنيمة الدنيا والآخرة ..

---

(٣٩) التوبة ٤٩

(٤٠) الفتح ١١ ، ١٢

وقال الله ـ تعالى ـ فى ذلك :

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٤١)

ومع ذلك فسوف تترك لهم فرصة أخرى غير خيبر يظهر فيها صدق قولهم إن كانوا حقاً صادقين قال تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ (٤٢)

وقد ذكر العلماء أن هؤلاء القوم الذين سوف يدعى لهم هؤلاء المخلفون هم هوازن وغطفان يوم حنين ، وقال بعضهم : هم بنو حنيفة أهل اليمامة الذين ارتدوا بعد الاسلام . .

ولكن هناك من المخلفين من له عذر ولذلك استثناهم الله بقوله ـ تعالى ـ

---

(٤١) الفتح ١٥

(٤٢) الفتح ١٦

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾[43]

وقد أثنى الله على المبايعين خيراً ورضى عنهم . كما وعدهم خيراً ، وأثابهم فتحاً آخر قريباً هو فتح خيبر الذى أشار إليه الحق بقوله تعالى

﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى
قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً
يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً
تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾[44]

لقد ذكرهم الله نعمته عليهم . بأن كف أيدى القرشيين عنهم بالصلح ، لما فى ذلك من دلالة على قدرة الله ، وبشرهم بما سوف يفتح عليهم فيما بعد - إن شاء الله تعالى - من بلاد فارس والروم . وهذه هى التى أشار إليها بقوله

---

(٤٣) الفتح ١٧
(٤٤) الفتح ١٨ : ٢٠

«وأخرى لم تقدروا عليها»

يعنى فى الوقت الحاضر. ولكنها ستكون لكم مستقبلاً.

وقد أشارت السورة إلى أن الله جلت قدرته حافظ دينه، ومحقق وعده وناصر جنده ـ فلو أنه حدث قتال بينكم وبين أهل مكة لأظفركم عليهم. ولكنه كف أيديكم عن القتال لتنالوا بالصلح ما لم تنالوه بالحرب. فقال ـ تعالى:

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

سورة الفتح ٢٢، ٢٣، ٢٤

أمثلة من هذا الإظفار

● لقد كانت قريش على كثرتها واستعدادها فى منتهى الفزع والخوف من الحرب، حتى لقد كف الله خالد بن الوليد وهو المشهور بالشجاعة والاقدام عن التقدم جهة المسلمين.

● قال عبد الله المزنى: كنا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحديبية فى أهل الشجرة التى ذكرها الله فى القرآن، فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا، فدعا عليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذ الله بأبصارهم.

فأخذناهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتحدث معهم ثم خلى سبيلهم.

● أرسلت قريش أيضاً نحو سبعين رجلاً أو ثمانين للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة فى أطرافهم ، ففطن المسلمون لهم فأخذوهم أسرى .. فأطلقهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

● وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقال له : زُنَيْمْ ، اطلع الثُّنية من الحديبية ، فرماه المشركون بسهم فقتلوه ، فبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيلاً فأتوا باثنى عشر من الكفار ، فقال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل لكم علىَّ ذمة ؟

قالوا : لا

فأرسلهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأشارت السورة إلى الحكمة فى الكف عن القتال ، وأظهرت أن هناك مستضعفين من المسلمين فى مكة ، بعضهم لم يعلن عن إسلامه خوفاً ، فلو حدث قتال لَقُتِل بعض هؤلاء بأيدى المسلمين . ولذلك قال ـ تعالى

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

وكان من هؤلاء المستضعفين سلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، وأبي جندل بن سهيل وغيرهم ، ومن النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكان أبوها من كبار المشركين المعاندين . ولكنها أسلمت وكتمت إسلامها ، وقيل : إنها كانت قد أسلمت قبل هجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكنها لم تستطع أن تهاجر . فلما تم الصلح هاجرت . ودخلت على أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة ، ولكنها تتخوف أن يردها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما رد أبا جندل .

وجاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعلمته أم سلمة بأمر أم كلثوم فرحب بها ، وجاء أخوها عمارة والوليد فى ردها بناء على العهد وقالا : يا محمد ﷺ أوف لنا بما عاهدتنا عليه . ولكن الله أنزل فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾[٤٥]

---

(٤٥) الممتحنة ١٠

فرفض النبى - ﷺ - إرجاعها .

وزوجها النبى - ﷺ - من زيد بن حارثة - رضى الله عنه -

ومنهن أيضا سبيعة بنت الحارث ، فقد أقبلت أيضا مهاجرة وكانت زوجة لمسافر المخزومى ، فجاء يطلبها فلم يردها النبى - ﷺ - بناء على هذه الآية . فطلقت من زوجها ، وأخذ ما أنفقه عليها أى ما كان أعطاه إياها من مهر . . وعاد إلى مكة .

وتزوجها عمر - رضى الله عنه -

فهؤلاء وأمثالهم من المستضعفين كانوا مسلمين فى السر ، وخوفاً من إصابة مثل هؤلاء هدى الله المسلمين إلى الصلح ، ولو أنهم حاربوا لربما أصابوا بعض هؤلاء دون علم ولو كان هناك تميز بين المسلمين وغيرهم فى مكة لعذب الله الكفار بالسيف ، ولكنهم كانوا مختلطين بهم لا يعرفهم أحد . .

وأشارت السورة إلى صفات الكافرين الذين أعمتهم الحمية الجاهلية عن الحق فلم يتبينوا قيمة كلمة « بسم الله الرحمن الرحيم » وكلمة « رسول الله » أما المؤمنون فقد أنزل الله السكينة فى قلوبهم وألزمهم كلمة التقوى وهم أحق بها . .

كما أشارت إلى أن وعد الله حق ، ورؤيا نبيه ﷺ واقعة لا شك فيها . . ولابد من أن يظهر دين الله فى الآفاق مهما جمع الكافرون ، وشكك المنافقون .

كما تحدثت السورة عن أوصاف الصادقين من أصحاب النبى - ﷺ -
كل ذلك ذكرته الآيات الكريمة فى قوله - تعالى

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ ٤٦

---

(٤٦) الفتح ٢٦ : ٢٩

صلح الحديبية من وجهة نظر العسكريين :

ولقد وقف العسكريون فى عصرنا الحديث أمام هذا الصلح موقف الإعجاب الكبير بنتائج هذا الصلح الذى أبرمه النبى - ﷺ - مع المشركين ولعل من المفيد أن نذكر نص الوثيقة التى حررت لما فيها من إحكام فى الصياغة ، وبراعة فى التحفظات ، ودقة فى الاشتراطات - على إيجازها -

نص الوثيقة

« باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو . . . اصطلحا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم - ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه إليه .

« وأن بيننا عيبة مكفوفة ،[47] وأنه لا إسلال ولا إغلال . »[48]

وأنه من أراد أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

● وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه اذا كان عام قابل خرجنا فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب فى القرب ،[49] لا تدخلها بغيرها . »

---

(٤٧) العيبة المكفوفة : تعنى أننا تكف عنك وتكف عنا ، والعيبة موضع السر من أهل الثقة .

(٤٨) الإسلال : السرقة الخفية ، والإغلال : الخيانة

(٤٩) القرب : جمع قراب وهو الغمد للسيف

أهم دروس الصلح

قال المراقبون العسكريون : أهم هذه الدروس مايلى :

● توخى الهدف وهو السلام .

وتوخى الهدف مبدأ من مبادىء الحرب المهمة ، ووضع الخطة المناسبة لتحقيقه ، وتنفيذ هذه الخطة بدقة وبراعة .

وقد برز توخى الهدف عند الرسول ـ ﷺ ـ واضحا ، إذ خرج محرما ، يسوق الهدى ، يعلن أنه غير محارب ، لا يصطحب سلاحا إلا السيوف فى أغمادها ، وعدل عن الطريق العام إلى طريق آخر خشية الاصطدام . .

وبقى مصرا على تحقيق هذا الهدف إلى آخر لحظة حتى نما إلى علمه أن عثمان قتل . فلما وضح أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ لم يقتل أفسح الطريق للمفاوضات . .

● الضبط . ويعنى العسكريون بالضبط الحالة النفسية التى تساعد الفرد على أداء واجبه ، أو القدرة على حبس الانفعالات غير العادية كالخوف أو الغضب . .

وقد ظهر ذلك واضحا فى تصرف النبى ـ ﷺ ـ وبخاصة حين صُدَّ المسلمون عن هدفهم ومنعوا دخول مكة وهم على أبوابها ومتشوقون إليها .

وحين أقبل أحد المسلمين يريد أن ينضم إليهم فحيل بينه وبين ذلك وبسبب شروط المعاهدة ـ رده النبى ـ ﷺ ـ بالرغم من عدم رضا كثير من المسلمين عن رده إلى المشركين .

كان النبى - ﷺ - مثالا نادرا فى ضبط أعصابه والتحكم فى انفعالاته ، ولم يكن أقل من غيره حرصا على دخول مكة ، ولم يكن أقل من غيره غيرةً على الدين ولكنها النظرة البعيدة وسعة الأفق . .

● الحياد المسلح

ويقصد به فى القانون الدولى الحالة القانونية التى توجد فيها الدولة التى لا تشتبك فى حرب قائمة بين طرفين ، وتستبقى علاقاتها السلمية مع الطرفين المتحاربين ، ويتميز الحياد المسلح عن الحياد السلبى بما يصدر من الدولة المحايدة من إعلان عزمها على استعمال القوة للمحافظة على حيادها ، ومنع الدول المحاربة من الإخلال به .

وقد دخلت خزاعة فى حلف النبى - ﷺ - لأنها كانت تميل إلى المسلمين ، ولم تستطع محالفتهم قبل ذلك . ولكن هذا الصلح أتاح لها هذه الفرصة - وقد حَرَمت هذه الهدنة يهود خيبر من الأمل فى معاونة قريش لها . .

وأتاحت هذه الهدنة الأمان فى المنطقة الجنوبية للمدينة ، كما أتاحت الفرصة لانتشار الإسلام والتبشير به .

لقد نظرت قريش نظرة سطحية أملتها العصبية الجاهلية - وهى ألا يدخل المسلمون مكة بهذه الصورة التى تشير إلى إنهم دخلوها عنوة ، كما اشترطوا ألا يقبل المسلمون أحداً بدون إذن وليه ، وألا يردوا هم أحداً . .

فماذا كانت نتيجة هذه الشروط . . ؟

لقد زاد عدد المسلمين ، وعاد المسلمون فى العام التالى فأدوا عمرتهم آمنين ، واستطاع أبو بصير أن يتمرد على قريش ويكون حامية أرهبت قريشا فأسرعت قريش تطلب إلغاء الشرط الذى أملته بنفسها فى الصلح .

●● ولقد كسب المسلمون من ذلك وما خسروا ، وخسرت قريش وما كسبت . . لقد أظهر هذا الصلح المسلمين فى صورة المسالمين ، وأظهر قريشا فى صورة المعاندين . لقد جاء المسلمون الى البيت معظمين ، ولكن قريشا صدتهم عنه ـ فظهر أمام العرب جميعا أنَّ قريشا ظالمة ، فليس من حقها أن ترد أحدا عن زيارة البيت . . وقد رأى الحليس وهو أحد الزعماء المحالفين لقريش بعينه الهدى الذى ساقه الرسول فأنكر فعل قريش ، وكادت تشتعل الحرب بينه وبين قريش بسبب ذلك .

كما أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قد تمكن فى أثناء وجوده بمكة من الاتصال بكثير من الناس وتوجيههم إلى أهداف الإسلام العظيمة .

فكانت الحديبية إذن حرب إعلام من الطراز الممتاز .

وقد حققت نتائج عظيمة من أهمها :

● اعتبار المسلمين طرفا مساويا لقريش ، وهذا اعتراف منهم بالدولة الإسلامية .

● انفتح المجال أمام القبائل الراغبة فى التحالف مع المسلمين دون خوف أو وجل

● فرقت الحديبية بين قريش وحلفائها الطبيعيين كيهود خيبر الذين لم يكفوا عن التحريض ضد المسلمين وجمع الجموع لهم .

● الاستقرار الذى تهيأ لنشر الدعوة فى كافة أنحاء الجزيرة العربية ، بل وفى خارجها أيضا :

● تأليب الرأى العام ضد قريش التى وقفت فى وجه من يقصدون البيت الحرام ، وقد كان لهذا الموقف أثره فيما بعد بالنسبة لفتح مكة .

● ازداد تعلق المسلمين بنبيهم - ﷺ - حين تبينت لهم هذه النتائج التى لم تخطر لهم على بال وقت توقيع المعاهدة والتى فطن لها النبى - ﷺ - وقد قال أبوبكر - رضى الله عنه فى ذلك : « إن الحديبية كانت أعظم نصر للإسلام »

وقد أدرك المسلمون حينئذ أن الفتح الذى أشار الله - تعالى - إليه فى قوله تعالى

« إنا فتحنا لك فتحا مبينا »

كان هو صلح الحديبية . . »(٥٠)

● ولقد فتح هذا الصلح الطريق لعقلاء المشركين أن يتدبروا موقفهم جيدا ، ويفكروا بإخلاص فى هذا الدين ومراميه ، فاهتدى كثير منهم إلى الإسلام كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وغيرهم ممن انتفع بالاسلام وانتفع به الاسلام . .

---

(٥٠) راجع الرسول القائد صـ٢٧١ وما بعدها

● على أن هذا الصلح قد أتاح للمسلمين الفرصة للقضاء على وباء خطير كان لا يكف عن تهديد المسلمين والتأليب ضدهم .. فكان فتح خيبر الذى قضى نهائيا على شوكة اليهود فى الحجاز ..

وإذا كانت هذه هى وجهة نظر العسكريين حول هذا الصلح ، فإليك وجهة نظر الأدباء والمفكرين وتأملاتهم ..

تأملات حول الحديبية

إن رسول الله - ﷺ - حين أجمع المسير إلى مكة معتمرا استنفر العرب وَمَنْ حوله من أهل البوادى من الأعراب ، ليخرجوا معه ، ولكن الأعراب تباطأوا ، فخرج - صلوات الله عليه - فى ذى القعدة - بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب .

« والذى ينبغى أن نعرفه أن الأعراب - فى أكثر الأحيان - لم يكونوا من قوة الإيمان ، بحيث يجاهدون مع رسول الله - ﷺ - لإعلاء كلمة الإسلام ، وإنما يخرجون التماسا للمنفعة ، ثم إن كثيرا منهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين ، فيظهرون غير ما يبطنون ، فذلك قول الله - جل ثناؤه -

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ

ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٥١)

- وهذا هو موقف المنافقين أيضا . . . إنه نفس موقف الأعراب كما سيأتى فى مواقف أخرى . . وقد تحدث عن ذلك القرآن الكريم أيضا - فى سياق غزوة تبوك - قال تعالى :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٥٢)

●● إن أول ما يخطر بالبال فى باب التأملات أن صلح الحديبية كان مقدمة بين يدى الفتح الأعظم الذى هو فتح مكة فى شهر رمضان سنة ثمان .

لماذا سمى صلح الحديبية فتحاً ؟

« وإنما سمى صلح الحديبية فتحا - مع أن المسلمين صُدُّوا عن البيت - لأنه فتح طريق الاسلام أمام الناس ، فكلم بعضهم بعضا ، وتناظروا فى الاسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين فى مكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه ، ثم من حيث إن كثيراً من المشركين دخلوا فى سلطان

---

(٥١) الفتح ١١ ، ١٢

(٥٢) التوبة ٩٧ ، ٩٨

الإسلام بسبب هذا الصلح الشريف ، وآية ذلك نزول سورة الفتح . . وقد سأل عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال أو فتح هو يارسول الله ؟ فقال رسول الله : « نعم هو فتح » وليس وراء بيان رسول الله بيان .

« يقول الامام ابن القيم : وذلك هو شأن الحق سبحانه وتعالى ـ أن يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، مُنبئة بها ولافتة إليها ، كما قدم بين قصة المسيح ـ عليه السلام ـ وخلقه إياه من غير أب قصة زكريا وخلق الولد له ـ مع كونه كبيرا لايولد لمثله عادة ، وكما قدم بين يدى نسخ القبلة قصة البيت فى بنائه وتعظيمه والتنويه به وذكر بانيه تعظيما له وإعلاء لشأنه ، وكما قدم ـ سبحانه ـ بين يدى مبعث رسول الله ـ ﷺ ـ من قصة الفيل وبشارات الكهان به ، وعلى ماقدم بين يدى الوحى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فى اليقظة ـ الرؤيا الصالحة فى النوم . . وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدى الأمر بالجهاد .

« ولعلك سائل بعد ذلك عن الفتح الذى كان صلح الحديبية توطئة له ومقدمة بين يديه .

« وجواب سؤالك هذا ـ أن ذلك الفتح هو فتح مكة الذى جاء فى كتاب الله معرفا بالألف واللام فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ

﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾[٥٣]

تحرير العبيد

« ومما ينشرح له صدر المتأمل فى أحداث الحديبية أن يتمثل المسلم مقدار حرص رسول الله - ﷺ - على تحرير العبيد ، ومقدار غضبه على من يعترض سبيلهم إلى هذه الغاية الشريفة . . . وبيان ذلك أنه كان قد خرج إليه - صلوات الله عليه - يوم الحديبية قبل تمام الصلح عبيد قد اعتنقوا الاسلام ، فكتب إليه سادتهم يقولون له : إن هؤلاء العبيد لم يخرجوا إليك يامحمد رغبة فى دينك ، ولكنهم خرجوا هربا من الرق . فقال ناس لرسول الله - ﷺ - : ردهم إليهم » فغضب - ﷺ - أشد الغضب ، ثم قال : « ماأراكم تنتهون يامعشر قريش حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم » ثم أبى أن يرد العبيد إلى سادتهم ومواليهم وهو يقول : « إنهم عتقاء الله من النار »[٥٤]

● ● ومما يطيب للمتأمل أن يكثر من ترداده فى عصرنا الحاضر اعتزازا به - هو أن الاسلام كرم المرأة بما لم يسبقه إليه سابق ، ولا يلحقه فيه لاحق من أولئك الذين يتحاملون على الاسلام فى هذا الباب جهلاً أو افتئاتا بالباطل وعناداً للحق .

---

(٥٣) سورة النصر
(٥٤) أخرجه أبو داود

وبيان ذلك ماأخرجه جامع الأصول من أن رسول الله - ﷺ - بعد أن فرغ من كتاب الصلح بينه وبين قريش قال لأصحابه من المهاجرين والأنصار : « قوموا فانحروا واحلقوا » .

ومع أن الكلمة الشريفة قد ملأت أسماعهم فإن أحدا منهم لم يقم ، وكرر رسول الله - ﷺ - الأمر ، ولكن أحدا لم يقم ، فأمر مرة ثالثة ، ومع ذلك ظل القوم على سكوتهم لم يتحرك منهم أحد امتثالا لأمر رسول الله - ﷺ - . . وكان ذلك لاعتراضهم على شروط الصلح . . « فقام هو فدخل على أم المؤمنين أم سلمة - رضى الله عنها - فذكر مالقى من الناس .

« فقالت له - مشيرة عليه - : يارسول الله اخرج إليهم دون أن تكلم أحدا منهم فانحر واحلق . .

« فلما خرج رسول الله - ﷺ - من بيته أمضى ماأشارت به عليه زوجة . فلما رأى أصحابه ذلك قاموا ففعلوا كما فعل رسول الله - ﷺ - . . - فكان رأى أم سلمة - رضى الله عنها - بركة وخيرا على المسلمين .

ومما يسترعى النظر فى صلح الحديبية أيضا موقف سهيل بن عمرو وابنيه : عبد الله بن سهيل وأبى جندل بن سهيل ، وقد رأينا كيف كان موقف سهيل من رسول الله - ﷺ - فى تشدده معه ، وإبائه أن يكتب البسملة ، أو يكتب كلمة رسول الله فى عقد الصلح . .

« ثم نرى سهيلا هذا يعتنق الاسلام ويهاجر إلى الشام ، ثم يقتل شهيداً

مع ابنه أبي جندل فى خلافة عمر ، وقد قتل قبل ذلك ابنه عبد الله فى معركة اليمامة .

« ولست ترتاب فى أن الذى يتدبر هذه الصورة على هذا النحو - لا مندوحة له عن أن يرى أن الاسلام كأنه قد خلق هؤلاء القوم خلقا جديداً .

وأخيرا فإن هذا الصلح قد مهد الطريق لتطهير البلاد من اليهود والتخلص من مؤامراتهم ضد الاسلام والمسلمين فكان فتح خيبر . .



فتح خيبر

- متى خرج النبي لتلك الغزوة ؟
- سبب الغزوة .
- الاستعداد للمعركة .
- عنف الصراع .
- كيف تم فتح الحصن ؟
- أحداث مثيرة في خيبر .
- النهي عن المتعة .
- ما حدث بعد فتح خيبر .
- تشريعات إسلامية .

الفتح القريب : فتح خيبر

لقد جاء فتح خيبر تصديقاً لقوله ـ تعالى ـ . .

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ ﴾ (٥٥)

ولقوله ـ تعالى :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧ ﴾ (٥٦)

ذكر كثير من المفسرين أن الفتح القريب فى هذه الآيات ، هو فتح خيبر . .

ووصف بأنه قريب ، لأنه كان أقرب مماكان يظن المسلمون ، ومماكان يتوقع اليهود والمشركون . . .

فلم يكن بعد العودة من الحديبية والتوجه إلى خيبر أكثر من عشرين ليلة . .

---

(٥٥) الفتح ١٨ ، ١٩

(٥٦) الفتح ٢٧

تجهز النبى - ﷺ - فى خلالها للخروج إلى خيبر . . التى كان الله قد وعده إياها فى تلك الأيات المتقدمة .

أين خيبر ؟

وخيبر - على وزن جعفر - سميت باسم رجل من العماليق نزلها يقال له : خيبر ، وهو أخو يثرب الذى سميت باسمه المدينة ، وهما ابنا قانية بن مهلايل .

وقيل : الخيبر - بلسان اليهود - معناه الحصن ، ولذلك سميت خيابر أيضاً .

وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثير ، بينها وبين المدينة المنورة ثمانية بُرُد - جمع بريد - والبريد أربعة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، فهى على ستة وتسعين ميلا من المدينة - يقطعها المسافر على قدميه فى ثلاثة أيام تقريبا .

متى خرج النبى ؟

خرج النبى - ﷺ - إلى خيبر فى آخر سنة ست من الهجرة الشريفة . وقد استنفر أصحابه الذين صحبوه فى الحديبية .

كانوا زهاء ألف وأربعمائة راجل ومائتى فارس .

وجاء المخلفون من الأعراب عن الحديبية يريدون الخروج طمعا فى الغنيمة ، ولكن النبى - ﷺ - قال لهم : لا تخرجوا معى إلا رغبة فى الجهاد لاغير ، أما الغنيمة فلا . وأمر مناديا ينادى بذلك ، ليكون الخارج على بينة

من أمره ، فلا يطمع فى أن ينال شيئاً من الغنيمة حين توزع على أصحابها ، وكان ذلك عقابا لهم على تخلفهم عن النبى - ﷺ - حين أذن بالعمرة قبل ذلك ، وتأديبا لهم بأدب الاسلام الذى علم المسلمين الإخلاص فى سبيل الله ، وأن يكون جهادهم خالصاً لوجه الله ، وكان القرآن الكريم قد أخبر عن موقف هؤلاء المخلفين ، وأن هدفهم من الاشتراك فى الغزو هو المغنم المادى . . . والجهاد فى الإسلام لم يبن على ذلك ، ولكنه بنى على إعلاء كلمة الله ، وقد سأل المسلمون النبى - ﷺ - عن المجاهد فى سبيل الله - من هو ؟

فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو مقاتل فى سبيل الله . . وإذا مات فهو شهيد ، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

لقد فضح القرآن موقف هؤلاء المخلفين سلَفاً ، وأخبر عما سوف يحدث منهم فى المستقبل ، وعما ينبغى أن يُرَدَّ به عليهم ، فقال سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٥٧)

(٥٧) الفتح ١٥

ولذلك لم يصطحب النبى - ﷺ - معه إلا من كان معه فى الحديبية وقد خرجوا جميعاً معه إلا جابر بن عبد الله فقد تخلف لعذر . فقسم له النبى

- ﷺ - سهما كالذين حضروا .

قال القرطبى فى تفسيره : قال رسول الله - ﷺ - لمن أراد أن يخرج من المخلَّفين : « إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لاسهم لكم » فقالوا : هذا حسد .. قال المسلمون : قد أخبرنا الله فى الحديبية بماستقولونه .

سبب الغزوة

لقد غضب اليهود غضباً شديداً بسبب الصلح الذى أبرم بين المسلمين والمشركين ، فقد كانوا يعقدون على النزاع الدائر بين الطرفين أمالا كبارا ، ويرون فيه الفرصة الذهبية فى محاولتهم التخلص من المسلمين .

فلما هادنت قريش النبى - ﷺ - تخوف اليهود أن يكون فى هذا الصلح قضاء عليهم ، فأسرعوا فى تحريض القبائل وجمع الأحلاف ضد المسلمين ، واستمروا فى قذف الاسلام بالتهم الباطلة وإيواء أعداء الاسلام ، والغدر بالمسلمين كلما رأوا إلى ذلك سبيلا ..

لقد كانت هناك أسباب كثيرة لتلك الغزوة من أهمها : -

- فتن اليهود وتحريضهم المستمر لغطفان وغيرها من القبائل ضد المسلمين .

● التخلص نهائياً من هؤلاء اليهود الذين يمثلون شوكة فى جنْب المسلمين تسبب الأرق وتثير القلاقل ، وتحرك الفتن وتخلق المؤامرات . .

الخروج للغزوة

وخرج النبى - ﷺ - ومن معه من المسلمين إلى خيبر بعد أن استخلف على المدينة سباع بن عرفطة . . وقال بعضهم : بل استحلف نُمَيلة بن عبد الله الليثى . . والأول أرجح . .

وقال النبى - ﷺ - لعامر بن الأكوع - عم سلمة بن الأكوع - وكان رجلاً شاعرا لبيبا : ألا تسمعنا شيئاً من أراجيزك - يطلب منه أن يحدو بها أمام القوم ليهون عليهم السير ، والحداء هو الغناء للإبل ليحثها على السير .

فأقبل عامر يحدو قائلا :

اللهم لولا أنت ماهتدينا ولاتصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ماتقينا وألقين سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا إنا إذا صِيح بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا إن الذين قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا

وفى رواية : أن النبى - ﷺ - سمع عامراً،وهو يحدو . فقال : من هذا ؟ فقالوا : عامر بن الأكوع .

فقال له النبى - ﷺ - يرحمك الله .

وفى رواية : غفرلك ربك . .

وكان النبى - ﷺ - فى أثناء خروجه يسير ليلا ، ولم يُظْهِر أنه سائر إلى خيبر . ولكنه تحرك بأصحابه إلى مواضع « الرجيع » من أرض غطفان ،

ليحول بين تعاون يهود خيبر وقبائل غطفان . وكانوا متحالِفَيْن معاً ضد المسلمين - فقد استطاع اليهود أن يضمنوا معاونة غطفان لهم إذا داهمهم الخطر .

وقد تمكن النبى - ﷺ - بتحركه ناحية غطفان أن يقضى على هذه المعاونة من جانب غطفان فقد ظنوا أن هذا الهجوم موجَّهٌ ضدهم ، وأن قوات المسلمين سوف تنقض وتطوقهم .

وبعد أن تمكن هذا الظن من نفوس الغطفانين - بأن الغارة موجهة إليهم عاد النبى - ﷺ - متوجهاً إلى خيبر ، وكلف طائفة من أصحابه بمباغتة ديار غطفان إذا مافكر الغطفانيون فى نجدة أهل خيبر .

وقال بعض الرواة :

كان الغطفانيون قد سبقوا متجهين إلى خيبر للدفاع عنها قبل ذلك . فما أن علموا أن المسلمين يريدون بلادهم حتى أسرعوا عائدين للدفاع عن مواطنهم وتركوا خيبر لتلاقي مصيرها المحتوم وحدها أمام المسلمين .

وبذلك نجحت خطة النبي - ﷺ - في عزل اليهود عن حلفائهم .

وكان اليهود على توقع بأن المسلمين سوف يوقعون بهم ويفاجئونهم ، ولكنهم كانوا فى غرور من أنفسهم .

قال الرواة : كان بخيبر عشرة آلاف مقاتل ، كانوا يخرجون كل يوم ويصطفون للقتال ، ثم يقولون : محمد يغزونا ؟ هيهات هيهات . .

ويقال : إن عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين فى المدينة كان قد أرسل إليهم يحذرهم من المسلمين ، ويقول لهم : إن محمداً سائر إليكم فخذوا حذركم ، وأدخلوا أموالكم حصونكم واخرجوا إلى قتاله ، ولا تخافوا منه فإن عددكم كثير ، وقوم محمد شرذمة قليلة وأسلحتهم أقل . .

ويبدو أنهم سئموا الاستعداد والخروج كل يوم - لما أراد الله من خذلانهم - ويئسوا من أن يجيء أحد للقائهم - فكفوا عن الخروج فى اليوم الذى صبحهم فيه النبى - ﷺ

ففى الليلة التى جاء فيها النبى - ﷺ - ومن معه من المسلمين لم يتحركوا من ديارهم ، ولم يصح لهم ديك ، حتى طلعت الشمس ، فأصبحوا من نومهم وأفئدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم ، وغدوا إلى أعمالهم ، ففوجئوا بجيش المسلمين أمامهم ، فولوا الأدبار وقد ألقوا مابأيديهم ، وأسرعوا راجعين إلى ديارهم وأغلقوا أبوابهم .

قائلين : محمد والخميس[٥٨]

فعند ذلك قال النبى - ﷺ - : الله أكبر هزمت خيبر .

دعاء النبى

كان النبى - ﷺ - حين أشرف على خيبر - وكان وقت الصبح - قد توجه إلى ربه بالدعاء قائلا : -

« اللهم رب السموات وماأظللن ، ورب الأرضين وماأقللن ، ورب الشياطين وماأضللن ، ورب الرياح وماأذرين ، فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير مافيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر مافيها .

---

(٥٨) الخميس : الجيش الكثيف وسمى بذلك لأنه مقسوم إلى خمسة أقسام : المقدمة ، والساقة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب .

ثم التفت إلى أصحابه حاثًا لهم على الجهاد قائلا :
تقدموا باسم الله وادخلوا على بركة الله .

وكان من دأبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول ذلك عند كل قرية يدخلها . .

وكان المسلمون يرفعون أصواتهم بالتكبير قائلين : الله أكبر ، لا إله إلا الله . .

وهذا الهتاف وحده سلاح قاهر ، يزلزل كيان الكفر ويهدم أركانه . . وبالغ المسلمون فى رفع الصوت . فقال لهم النبى ـ ﷺ ـ :

« هونوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم »

حدث عبد الله بن قيس ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت خلف دابة النبى ـ ﷺ ـ فسمعنى أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فقال : ياعبد الله بن قيس .

قلت : لبيك يارسول الله . .
قال : ألا أدلك على كلمة مّن كنوز الجنة ؟

قلت : بلى ، يارسول الله ، فداك أبي وأمي .

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

لقد أراد النبى - ﷺ - أن يؤكد لعبد الله أن كلمته التى كان يرددها إنما هى كنز عظيم من كنوز الجنة وأنها إلهام صادق ألهمه الله إياه . . فدعاه إلى الحرص عليها وملازمة تردادها .

ولايغفلن أحدٌ عن مزية « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » وأثرها الطيب فى تذليل المصاعب ، وتيسير الأمور ، وتهوين المتاعب .

أخرج أبو نعيم عن جابر - رضى الله عنه - قال : شكونا إلى رسول الله - ﷺ - حرَّ الرمضاء فلم يُشْكِنا وقال : « استعينوا بلا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها تذهب سبعين بابا من الضر أدناها الهم »[59]

والنهى عن رفع الصوت بالتكبير منصرف بالطبع إلى ماهو خارج عن العادة . بدليل قوله : هونوا على أنفسكم ، وإلا فإن الإعلان بالتكبير مطلوب لإرهاب العدو وزلزلة الشيطان .

---

(٥٩) من مرويات أبى نعيم عن أبيه فى أخبار أصبهان

ونزل النبى ـ ﷺ ـ أمام حصون خيبر .

وكانت مكونة من سبعة حصون هى : حصن ناعم ، والقموص ، والشِّق ، والنَّطَاة ، والسلالم ، والوَطيح ، والكتيبة .

وكان نزوله ـ ﷺ ـ قريبا من حصن النّطاة ، فجاءه الحباب بن المنذر ـ رضى الله عنه ـ وقال له :

يارسول الله ، إنك نزلت منزلك هذا . فإن كان عن أمر أُمِرْتَ به فلا نتكلم . وإن كان الرأى تكلمنا .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : هو الرأى . .

فقال : يارسول الله ، إن أهل النْطاة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مَدَى سهمٍ منهم ، ولاأعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا ، وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، ولانأمن من بياتهم ، فهم يدخلون فى حمرة النخل ـ أى النخل المجتمع بعضه على بعض ـ تَحَوَّلْ يارسول الله عن هذا الموضع .

فأثنى عليه النبى ـ ﷺ ـ وقال له : أشرت بالرأى . . . إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا . .

كان النبى - ﷺ - يقبل الاستشارة من أصحابه ولايستبد برأيه .
ثم دعا بمحمد بن مسلمة - رضى الله عنه - وقال له :
يامحمد بن سلمة - انظر لنا منزلا بعيدا . .

فأخذ محمد بن مسلمة - رضى الله عنه - يطوف حتى وجد منزلا مناسبا ، فعاد إلى النبى - ﷺ - يقول له :

يارسول الله ، لقد وجدت لك منزلا .

فقال رسول الله - ﷺ - : على بركة الله . .

وحين حل المساء تحول إليه ، وأمر الناس بالتحول(٦٠)

وأقام النبى - ﷺ - مسجدا فى منزله هذا . . وفى إقامة المسجد إشارة لا تخفى تدل على أنه قرر الاقامة فى مكانه هذا ، فلا مناص أمام اليهود من الاستسلام أو القتال . . لقد أراد أن يعلمهم بأنه باقٍ فى مكانه هذا ولن يبرحه حتى يفتح هذه الحصون أو يموت أهل خيبر جوعاً . .

---

(٦٠) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٧٣١

وكان اليهود قد قرروا المقاومة ، ورفضوا الاستسلام ، فلديهم الرجال والعدة والطعام . ولم يريدوا أن تكون نهايتهم كتلك النهاية التى انتهى إليها أسلافهم من بنى قينقاع . والنضير ، وقريظة .

وكان فيهم شجعان يدلون بقوتهم ويفخرون بها ، وكان لديهم الغدر الذى يحسنونه ، والكيد الذى يجيدونه ، والخيانة التى تمرسوا عليها ، ولا بأس باستعمال ذلك كله عندهم فهذه أمور مشروعة فى قانونهم . .

وفى الحقيقة لم تكن المعركة سهلة أمام المسلمين ، ولكنها كانت عنيفة . فاليهود يقيمون فى حصون منيعة يصعب الارتقاء إليها أو هدمها . . وهى غنية بالذخيرة والعتاد ، وقد احتاط أهل هذه الحصون لأنفسهم فجمعوا فيها ما يقوتهم لمدة طويلة من الزمن .

فكان لابد من اللجوء إلى سلاح يفت فى عضد هؤلاء اليهود . . . ولا يفت فى عضدهم شىء كإتلاف الأموال الخاصة بهم . . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم ـ بقطع بعض النخيل المحيط بحصونهم . .

وقد كان الهدف من قطع النخيل أيضا كشف الطريق أمام المسلمين . . . فقد كان هذا النخل عائقا للحركة بالإضافة إلى كونه يمثل عائقا يزيد من

تحصين العدو وتخفيه وكان اليهود قد أحسنوا توزيع أنفسهم . .

فقد أدخلوا أموالهم وعيالهم حصنى الوطيح والسلالم »
وأدخلوا ذخائرهم حصن « ناعم »

ودخلت قواتهم المحاربة حصن « النطاة »
وخرجت طائفة من اليهود تهاجم المسلمين يقودها الحارث بن أبى زينب بعد أن قُتِل زعيمهم سلام بن مشكم فى هجوم سابق . .

وتلقاه الأنصار بهجوم مضاد ألجأوه إلى حصنه . .
وشدد المسلمون الحصار والقتال ، وأمعن اليهود فى المقاومة والدفاع .
كانوا يعلمون علم اليقين أن هزيمتهم تعنى خروجهم نهائيا من الجزيرة العربية . . وانتهاء وجودهم فيها . .

وقد ركز المسلمون قتالهم حول حصن ناعم الذى يجمع ذخيرة العدو التى تمدهم بالقوة والمقاومة . .

واستمر هجوم المسلمين على هذا الحصن لمدة ثلاثة أيام . . فلم يجد اليهود بدا من الخروج بعدها للقاء المسلمين خارج الحصن . .

وكانت هذه فرصة طيبة للمسلمين ، فقد استطاعوا أن يقتلوا قائد اليهود الحارث بن أبي زينب ، وبقتله استسلم هذا الحصن ، وفتح أبوابه للمسلمين . .

وأثر استسلام هذا الحصن على معنويات اليهود الذين لم يلبثوا أن سلموا حصنا آخر هو حصن « القموص » ولكن بعد قتال شديد . .

لقد تعود اليهود أن يكون قتالهم من داخل حصونهم ، وهذا هو ما أخبر به القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٦١)

إنهم لايستطيعون مجابهة أعدائهم ، وهذا ما يفعلونه حتى الآن ، وقد برعوا فى إقامة الاستحكامات المحصنة والخطوط القوية التى يختبئون من

---

(٦١) الحشر ١٤

ورائها ، أما لقاء الخصوم وجها لوجه فذلك أمر لايستطيعونه ، وإن حدث فهو نادر ، تجده فى أفراد معدودين . لافى كثرة غالبة .

وركز المسلمون بعد ذلك هجومهم على الحصن الذى جمع اليهود فيه معظم المؤن الغذائية ، وبعد قتال عنيف استطاعوا الدخول إليه .

ويسر هذا الحصن مهمة التموين للمسلمين وحرم اليهود من ميزة كبيرة .

صراع عنيف

لم يكن أمر الاستيلاء على هذه الحصون التى استولى عليها المسلمون سهلا بل كان الصراع عنيفا . . فقد دافع اليهود عن حصونهم دفاعا شديدا . . . وأبلوا على غير عادتهم بلاء شديدا فى الدفاع عن مواقعهم ، ولكن الله أوقع الرعب فى قلوبهم والوهن فى صفوفهم . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحرض أصحابه على القتال ، وهو بينهم على جواد يقال له : « الظرب » وعليه درعان ومغفر وفى يده قناة وترس .

واستدعى النبى ﷺ رجلا من المهاجرين ودفع له اللواء ، فاندفع الرجل ولكنه رجع دون أن يحقق شيئا .

فأخذ منه اللواء وأعطاه لآخر أيضا من المهاجرين . ولكن كتائب اليهود بقيادة رجل منهم اسمه « ياسر » تقدمت فى طريقها نحو مواقع الأنصار فكشفتهم ، حتى كادوا يصلون إلى موقع النبى - صلى الله عليه وسلم -

فاشتد ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أمسى مهموما . . واستشهد بطل من أبطال المسلمين اسمه « محمود بن مسلمة » أخو محمد بن مسلمة .

فقد ألقى عليه رجل من اليهود رحىً من فوق الحصن .

وكان محمود قد قاتل فى يومه هذا قتالا عنفا حتى أعياه القتال ، وكان الجو شديد الحرارة وثقل عليه السلاح ، فانحاز إلى جوار الحصن ، فألقى عليه رجل هذه الرحا . .

وأدركه بعض المسلمين فحملوه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فعصب رأسه بخرقة ، ولكن أجله قد سبق ، فصعدت روحه إلى بارئها طاهرة مطهرة . .

واشتد الغضب بأخيه محمد بن مسلمة ، حتى حاول أن يغرر بنفسه فى لقاء العدو ، ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفكف من غضبه ، وقال

له : « لاتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإنكم لاتدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموه فقولوا :

اللهم أنت ربنا وربهم ، ونواصينا ونواصيهم بيدك ، وإنما تقتلهم أنت ، فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا »[٦٢]

وقد مكث المسلمون يناضلون طوال سبعة أيام ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ معهم يتقدم للقتال ، ويخلف عثمان بن عفان فى محل العسكر . فإذا أمسى عاد إلى ذلك المحل ، ومن جرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل للتداوى . .

وكانت هناك مُنَاوبَة بين الصحابة فى حراسة الليل ، فلما كانت نوبة عمر فى الليلة السادسة ، عثر عمر فى أثناء طوافه حول العسكر بيهودى ، فاقتاده إلى حيث تضرب عنقه .

---

(٦٢) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٧٣٢

ولكن اليهودى استمهله ، وطلب منه أن يسمح له بمقابلة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكلمه ، فأمسك عمر ـ رضى الله عنه ـ عنه .. وانتهى به إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجده يصلى ..

فلما فرغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الصلاة أقبل عليه عمر اليهودى .

فقال اليهودى : تؤمننى يا أبا القاسم ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ له : أنت آمن ..

فقال : خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة ..

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فأين يذهبون ؟

قال : يذهبون إلى حصن الشق ، يجعلون فيه ذراريهم ويتهيئون للقتال ..

وفى هذا الحصن ، ـ يعنى حصن النطاة ـ يوجد فى أحد بيوته تحت الأرض منجنيق ودروع وسيوف ، فإذا دخلت الحصن غداً ، وأنت تدخله .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن شاء الله
قال اليهودى : أوقفتك عليه فإنه لا يعرفه غيرى ..

وطلب اليهودى من النبى - صلى الله عليه وسلم أن يحقن دمه .
فطمأنه النبى - صلى الله عليه وسلم -

تسليم الراية لمن يفتح الله على يديه

قال النبى - ﷺ - : لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه .. وتطلع كثير من أصحاب رسول الله أن يكونوا هم الموعودين بهذه البشارة .

حتى روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم . لأن النبى - ﷺ - وصف ذلك الرجل بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ..

إن الحرص على الإمارة كان من أجل ذلك الوصف الذى صاحب هذا الرجل ، وهو منزلة ترفع من قدر صاحبها ومجال للتنافس المحمود - وفى ذلك فليتنافس المتنافسون - فهل بعد حب الله ورسوله مجال آخر للتنافس والتسابق ؟

وأصبح المسلمون ينتظرون . . . من ذلك الذى ينال هذا الشرف العظيم ؟ ونادى النبى - ﷺ - : أين على بن أبى طالب ؟ وكان على فى ذلك الوقت مصابا برمد ، وكان عاصبا عينيه من شدة الوجع . فقيل للنبى - ﷺ - : إنه يشتكى عينيه .

فقال النبى - ﷺ - من يأتينى به ؟

فانطلق إليه سلمة بن الأكوع ، وعاد به يقوده حتى أتى به النبى - ﷺ - فمسح النبى - ﷺ - بيده الشريفة على عينيه ، فذهب الرمد فى الحال ، وأبصر كأن لم يكن فى عينيه شىء من المرض على الإطلاق .

وأعطاه النبى - ﷺ - الراية وقال له : سر على بركة الله ولا تلتفت . .

فسار علىٌّ قليلا ثم وقف ولم يلتفت وقال بصوت مرتفع : يارسول الله ، علام أقاتل الناس ؟

قال له : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله .

ثم أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله . . . فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم »

سار عليٌّ ، وكلام النبى - ﷺ - يجلجل فى نفسه ويملؤه ثقة ويقينا وإيمانا ، فقد دعا له النبى - ﷺ - قائلا : اللهم اذهب عنه الحر والقر . . فما شكا بعدها حراً ولا برداً ، وما رمد بعد ذلك ولا صدع . .

وقال حذيفة - رضي الله عنه - : لما تهيأ على - كرم الله وجهه - يوم خيبر للحملة قال له رسول الله - ﷺ - : يا على والذى نفسى بيده إن معك من لا يخذلك ، هذا جبريل - عليه السلام - عن يمينك بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها ، فاستبشر بالرضوان والجنة . . »[٦٣]

ومضى على - كرم الله وجهه - فى طريقه لا يلتفت إلى شيء ، ولا هم له إلا تنفيذ وصية رسول الله - ﷺ - وإعلاء كلمة الله . وأخذ يردد : اللهم لا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت . . وقد رفع اللواء بيده ، وانطلق فى ثقة حتى ركز اللواء أمام الحصن . .

واطلع يهودى من أعلى الحصن فقال له : من أنت ؟
قال : على بن أبى طالب . .

---

(٦٣) السيرة الحلبية جـ٢ صـ٧٣٦

فاستطار اليهودى فزعا وقال : علوتم وحق ما أنزل على موسى .. وخرج اليهود يحاربون .. يتقدمهم « مرحب » وهو يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مرحب　　شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

برز إليه عامر بن الأكوع : وهو يرد على الرجز بمثله :

قد علمت خيبر أنى عامر　　شاكى السلاح بطل مغامر

وتضاربا بالسيوف . فاختلفت ضربتاهما . وقع سيف مرحب فى ترس عامر ، وذهب عامر يضرب مرحب بالسيف من أسفل ، فرجع ذباب سيف عامر إليه فأصابه فى ركبته ، فجرح جرحا شديداً كان فيه حتفه .. وتقاول الناس : ان عامراً قتل نفسه فهو ليس شهيدا ..

وأخذ سلمة بن الأكوع يبكى ـ لاعلى أن عمه قتل ، بل لما يقوله المسلمون عنه ..

ورآه النبى ـ ﷺ ـ وهو يبكى .. فسأله : ما يبكيك يا سلمة ؟
قال سلمة : يارسول الله ، فداك أبى وأمى ، زعموا أن عامرا أحبط عمله ، يقولون : قتل نفسه

فقال النبى - ﷺ - : كذب من قال ذلك وإن له أجرين .. وجمع بين إصبعيه - وقال : إنه لجاهد مجاهد - والجاهد هو الذى يرتكب المشقة ، والمجاهد هو المجاهد لأعداء الله .(٦٤)

ومضى عامر إلى ربه راضيا مرضيا ..

الثأر لعامر

ومضى مرحب يتحدى ، وهو يرتجز برجزه السابق

وذكرت بعض الروايات أن النبى - ﷺ - قال : من يبرز لهذا المتحدى ؟ قال محمد بن مسلمة : أنا له يارسول الله ، أنا الموتور .

لقد قُتِل أخوه محمود بن مسلمة بالأمس ، فهو يريد أن يأخذ بثأره .. فقال النبى - ﷺ - : قم إليه ، اللهم أعنه عليه .. فقتله محمد بن مسلمة .

ويؤيد هذه الرواية ، ما ذكره الإمام المزنى فى مختصر المزنى على كتاب الأم للشافعى قال : إن النبى - ﷺ - يوم خيبر نفل محمد بن مسلمة سلب

مرحب اليهودى : سيفه ورمحه ومغفره وبيضته ، وكان سيف مرحب قد كتب عليه : هذا سيف مرحب . من يصبه يعطب .

---

(٦٤) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ٢ صـ٢٢٥

أما الإمام مسلم فى صحيحه : فإنه يجزم بأن الذى قتل مرحبا هو الإمام على كرم الله وجهه بنفسه . .

فقد خرج على وهو يرتجز قائلا : ـ

أنا الذى سمتنى أمى حيدرة ضرغام آجـام وليـث قسـورة

أكيلهم بالسيف كيل السندرة

وحيدرة اسم من أسماء الأسد ، سمى بذلك حين ولد ، سمته به أمه وكان أبوه غائبا ، فلما قدم أبوطالب كره هذا الاسم وسماه عليا .

ومن معانى حيدرة أيضا : الغليظ القوى ، وقد يكون لقب بذلك فى صغره لقوته

وأوقع هذا الرجز الرعب فى قلب مرحب . ذلك أنه كان قد رأى فى نومه قبل هذا اللقاء أن أسدا قد افترسه . . فحين أنشد على ـ رضى الله عنه ـ رجزه تذكر مرحب ما رآه فى منامه . . وتعجل مرحب متمثلا بقول القائل : خذه قبل أن يأخذك . . فأسرع يحاول أن يضرب عليا بسيفه . ولكن عليا ـ رضى الله عنه ـ كان أسرع منه ، فضربه بسيفه ضربة قوية قدت ترسه الذى كان قد تترس به فوق هامته ، ثم قدت مغفره وفلقت هامته ، فخر

صريعا لا يلوى على شىء..

ويمكن الجمع بين هاتين الروايتين - أى بين الرواية التى تقول : إن محمد بن مسلمة هو الذى قتل مرحبا - والتى تقول : إن عليا - رضى الله عنه - هو الذى قتله .. بأن علياً كرم الله وجهه - ضربه الضربة القوية التى ألقته على وجهه ومحمد بن مسلمة - رضى الله عنه - أجهز عليه .

ياسر بعد مرحب

وتقدم بعد مصرع مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز أيضا قائلا :

قد علمت خيبر أنى ياسر   شاكى السلاح بطل مغامر

وكان من الفرسان المشهورين بين اليهود ..



تقدم وأخذ يقول : من يبارز؟

فخرج إليه الزبير بن العوام - رضى الله عنه - فقالت أمه صفية بنت عبدالمطلب - رضى الله عنها - : يارسول الله ، يقتل ابنى .

فقال النبى - ﷺ - : بل يقتله ابنك إن شاء الله ..

فقتله الزبير ...

سقوط الحصون

بهذا الصراع العنيف بين الجانبين دارت أحداث المعركة التى انتهت بانتصار المسلمين ، ودخولهم الحصون حصناً حصناً ، حتى فتح المسلمون خمسة حصون . وصدقت كلمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن علىّ حين قال : لأسلمن الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه . .

وكان ما وجده المسلمون فى هذه الحصون المفتوحة من طعام وسلاح وآلات حرب معيناً لهم على استمرار القتال ، والاصرار على فتح بقية الحصون السبعة .

لقد بقى حصنان هما : الوطيح والسلالم .

ومكث المسلمون فى حصار هذين الحصنين أربعة عشر يوماً ، فلم يخرج أحد من أهل الحصنين للقاء المسلمين . .

فهمّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرميها بالمنجنيق ـ وهو آلة حربية ـ كان يستعملها اليهود ، وقد عثر عليها المسلمون فى الحصون التى فتحوها . . . . . . دلهم عليها ذلك اليهودى الذى جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحين عاين اليهود المحاصرون المنجنيق وقد وُجِّه إليهم أيقنوا بالهلكة . فسألوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلح على حقن الدماء وترك الذرية ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، وألا يصحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره .

فصالحهم على ذلك ، وعلى أن ذمة الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم بريئة إن كتموه شيئاً من متاعهم يسألهم عنه . .

وخرج أهل هذين الحصنين وهم ينفذون ما فرضوه على أنفسهم من شروط .. وأصبح الحصنان فيئا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ..

أما بقية الحصون فقد جرى فيها تقسيم الأسهم بين المقاتلين .. لقد عثر المسلمون في هذين الحصنين على غنائم كثيرة منها مائة درع ، وأربعمائة سيف وألف رمح ، وخمسمائة قوس عربية ..

وعثروا على صحائف متعددة من التوراة ، فطلبها اليهود فدفعها النبى - صلى الله عليه وسلم - إليهم .

ولكن اليهود كانوا قد غيبوا حليهم التى أخذوها معهم عند جلائهم من حصون بنى النضير بالمدينة .

وقد مر بنا هناك أن سلام بن أبي الحقيق كان قد وضع هذه الحلى الثمينة فى جراب ورفعه فى أثناء خروجه من المدينة وهو ينادى بأعلى صوته : هذا ما أعددنا لرفع الأرض وخفضها ..

لقد انخدع - كما ينخدع اليهود - بالمال ، وجعله نهمته كما جعلوه نهمتهم ..

إنه درس أتقن اليهود تعلمه عبر الأزمان . وكانوا وما زالوا يعملون بكل ما وسعهم من حيلة وقوة للسيطرة على أسواق المال ، حتى يتحكموا بذلك فى رقاب الشعوب .

وها هم أولاء الآن فى كل مكان يحلون فيه يسعون إلى هذه الغاية حتى تصبح الثروات فى أيديهم ، وتصبح لهم مركز قوة ينفذون من خلالها إلى تحقيق مآربهم .. هذا ما هدف إليه سلام بن أبي الحقيق منذ خمسة عشر قرناً

ولم يستطع أن يحققه ، ولكن أحفاده وعوا هذا الدرس وحققوه بعده . .

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسعية بن عمرو ـ وهو عم حيى بن أخطب ـ أين مَسْك حُيَيّ بن أخطب[٦٥] ؟

ونسب إلى حُيَي بن أخطب لأنه كان زعيم بنى النضير حين خروجهم من المدينة . وقد سبق أن ذكرنا أنه قتل مع بني قريظة .

فقال سعية : أذهبته الحروب والنفقات .

فدفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سَعْية للزبير ـ رضى الله عنه ـ فخاف سَعْية واعترف بمكان الحلى . .

لقد كانت مدفونة فى خربة من خربات الحصن . .

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنانة بن الربيع ، زوج صفية بنت حيى بن أخطب أين آنيتكم التى كنتم تعيرونها أعيان مكة ؟

وكانت لدى اليهود آنية تحتوى على حلى وجواهر ـ إذا كان لأحد من أهل مكة عرس يرسلون فيستعيرون من تلك الحلى ـ

فقال كنانة مثلما قال سعية : أذهبته الحروب والنفقات .

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك . وسوف يعلمنى الله بمكانه .

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد هداه الله إلى موضع هذه الحلى . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجل من الأنصار : اذهب

---

(٦٥) المسك ـ بفتح الميم ـ الجلد الذى تودع به الذخائر .

إلى محل كذا وكذا ، ثم ائت النخل ، فانظر نخلة عن يمينك . . أو قال عن يسارك ـ مرفوعة فائتنى بما فيها .

فانطلق الرجل الى حيث وصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء بالآنية وفيها الحلى . .

وكان فيها أساور وخلاخيل وأقرطة وخواتم وغير ذلك من الحلى التى قومت بعشرة آلاف دينار .

أحداث مثيرة فى خيبر

لقد جرت فى خيبر أحداث مثيرة تستحق التسجيل ، من ذلك :

زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صفية بنت حيى بن أخطب . .

فقد جمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الغنائم التى غنمت قبل الصلح . وقسمها بين المجاهدين .

وكانت صفية بنت حيى بن أخطب قد أسلمت بعد قتل زوجها بسبب خيانته لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وجعلها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أم سليم ـ وهى أم أنس ـ أيضاً . . . . . . فلما هداها الله إلى الاسلام تزوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل عتقها صداقها . .

وأولم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليها ، ومنه أخذ الفقهاء استحباب الوليمة عند الزواج .

وحين بنى بها النبى ﷺ وجد فى عينها خضرة ، فسألها عنها ، فقالت : رأيت مرة فى منامى كأن القمر وقع فى حجرى ، فانتبهت فأخبرت أبى بذلك .

قالت : فلطمنى هذه اللطمة التى أخضرت منها عينى ، وقال لى : تتمنين ملك العرب ؟ [٦٦]

وقالت صفية ـ رضى الله عنها : انتهيت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما من الناس أكره إلىَّ منه ـ قتل أبى وزوجى وقومى .

فأخذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لها : فعل قومك بى كذا وكذا . وما زال يعدد أفعالهم حتى ذهب ما فى نفسى ، فقمت من مقعدى وما أحد من الناس أحب إلىَّ منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وبنى بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قبة . ووقف أبو أيوب الأنصارى بجوار هذه القبة متوشحاً سيفه .

فلما انفتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لصلاة الصبح رآه يقظاً متحفزاً . .

فقال له : ما لك يا أبا أيوب ؟

قال : يا رسول الله ، خفت عليك منها قَتَلْتَ أباها وزوجها وقومها ، وهى حديثة عهد بكفر ، فبت أحرسك .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى .

---

(٦٦) أسد الغابة ٧ / ١٧٠

ذكر السهيلي في الروض الأنف : فحرس الله أبا أيوب بهذه الدعوة ، حتى إن الروم لتحرس قبره ، ويستشفون به فيصحون ، ويستسقون فيسقون .

روى ابن الأثير : أن أبا أيوب خرج غازياً إلى القسطنطينية في جيش يزيد ابن معاوية فمات هناك . فخشي يزيد أن ينبش الروم قبره ، فقال لهم : هذا رجل من أكابر أصحاب نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقدمهم إسلاماً ، وقد دفناه حيث رأيتم فلا تنبشوا قبره . . .

فأخذت الروم تتعهد بحفظه وحراسته . قال مجاهد : وكانوا إذا أمحلوا طلبوا السقية عند قبره فمطروا[٦٧] .

أما الوليمة التي أولمها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كانت « حَيْساً » والحيس طعام يتخذ من تمر وأقط وسمن .

بسط النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فراشاً وقال : من كان عنده شيء فليأت به فجعل الرجل يجيء بالتمر ، وجعل الرجل يجيء بالسمن ، وجعل الرجل يجيء بالأقط . .

وقال لأنس : آذن من حولك ليأكلوا من ذلك الحَيْس . .

فجاء المسلمون وأكلوا جميعهم . .

وأحسن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صحبة صفية كما أحسن صحبة غيرها من زوجاته ـ رضي الله عنهن ـ وكانت صفية تحدث قائلة : ما رأيت

(٦٧) أسد الغابة ١ /٩٥، ٦ /٢٥

أحداً قط أحسن خلقاً من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد رأيته ركب ناقته ليلا فى خيبر وأنا على عجز الناقة ، فجعلت أنعس فتضرب رأسي مؤخرة الرحل ، فيمسنى بيده ويقول : يا هذه مهلاً . .

وروى الترمذى فى أبواب المناقب قائلاً : حدثت صفية قالت : دخل علىَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد بلغنى عن حفصة وعائشة كلام ، فذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ألا قلت : كيف تكونان خيراً منى وزوجى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما هو زوجكما . وكان بلغها أنهما قالتا : نحن أكرم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها ، نحن أزواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبنات عمه[٦٨] .

النهى عن المتعة

وفى هذه الغزوة ورد النهى من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن متعة النساء ـ أى عن زواج المتعة .

جاء فى صحيح مسلم عن على ـ رضى الله عنه ـ « أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن متعة النساء يوم خيبر » .

والمتعة هى الزواج إلى أجل محدود قرب أو بعد ، وذلك أن يقول الرجل للمرأة : نكحتك يوماً ، أو عشراً ، أو شهراً ، أو نكحتك حتى أخرج من هذا البلد . . وكانوا يلجأون الى هذا النكاح أحياناً . قال ابن مسعود ـ

---

(٦٨) تحفة الاحوذى ، الحديث ٣٩٨٣ جـ ١٠ ص ٣٩١ .

رضى الله عنه - كنا نغزو مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس لنا نساء ، فشق علينا ذلك ، فشكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرخص لنا النكاح إلى أجل .. ثم قرأ هذه الآية :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٦٩)

وكان انفصال الرجل عن زوجته فى مثل هذا الزواج لا يتم بالطلاق ولكن بانتهاء المدة التى تعاقدا على المتعة فيها ، ولا يتوارثان بهذا الزواج .. ثم نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن مثل هذا الزواج ، وكان النهى عن ذلك فى هذه الغزوة على الأرجح ، وإن كان بعضهم يقول : إن النهى كان بعد ذلك .. فقد روى الربيع الجهنى عن أبيه قال : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة فى حجة الوداع ، فأذن لنا فى المتعة ، فانطلقت إلى إمرأة من بنى عامر .. فعرضت عليها نفسى فتزوجتها ، ومكثت معها ثلاثة أيام ، ثم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من كان عنده شىء من هذه النساء اللاتى يتمتع بهن فليخل سبليها(٧٠) »

ذكر المزنى فى مختصره على كتاب الأم للشافعى قال : وفى القرآن والسنة دليل على تحريم المتعة قال الله - تعالى -

---

(٦٩) المائدة ٨٧ .
(٧٠) شرح معانى الآثار للطحاوى جـ٣ ص ٢٥ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾ (٧١)

فلم يحرمهن الله على الأزواج إلا بالطلاق ،

وقال - تعالى -

﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ (٢٢٩) ﴾ (٧٢)

وقال - تعالى -

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) ﴾ (٧٣)

فكان بيّناً أن نكاح المتعة منسوخ بالقرآن والسنة ، لأنه إلى مدة ، ثم نجده ينفسخ بلا إحداث طلاق فيه وليس فيه أحكام الزواج(٧٤) .

ومن طرائف المناظرات فى تحريم المتعة ما جرى بين المأمون والقاضى يحيى بن أكثم .

---

(٧١) الأحزاب ٤٩

(٧٢) البقرة ٢٢٩

(٧٣) النساء ٢٠

(٧٤) مختصر المزنى على الأم جـ ٤ ص ٢

وكان المأمون يرى أن نكاح المتعة حلال لم يحرم .

فدخل عليه يحيى بن أكثم وهو متغير اللون بسبب ذلك . فقال له المأمون :

ما لى أراك متغيراً ؟

قال يحيى : لما حدث فى الإسلام

قال المأمون : وما حدث ؟

قال : النداء بتحليل الزنا .

قال المأمون : المتعة زنا ؟

قال يحيى : نعم ، المتعة زنا .

قال : ومن أين لك هذا ؟

قال : من كتاب الله وسنة رسول الله ـ ﷺ ـ أما الكتاب ، فقد قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ ﴾ (٧٥)

---

(٧٥) المؤمنون ١ : ٧

يأمير المؤمنين ، هل زوجة المتعة ملك يمين ؟

قال المأمون : لا

قال يحيى : فهل هى الزوجة التى عند الله ترث . وتورث ، ويلحق بها الولد ؟

قال : لا

قال يحيى : إذن فمتجاوز هذين من العادين . ثم قال : وأما السنة ، فقد روى الزهرى بسنده إلى على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال : « أمرنى رسول الله ـ ﷺ ـ أن أنادى بالنهى عن المتعة ، وتحريمها بعد أن كان أمر بها » .

فالتفت المأمون للحاضرين وقال : أتحفظون هذا من حديث الزهرى ؟

قالوا : نعم ، يأمير المؤمنين .

فقال المأمون : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة .

النهى عن تحريم لحوم الحمر الأهلية

وأصاب المسلمين جوع شديد فى أيام حصارهم خيبر ، وصادف أن ثلاثين حمارا خرجت من أحد الحصون ، فأخذها رهط من المسلمين ، وذبحوها وقطعوا لحومها فى القدور . وتهيأوا لطبخها للأكل .

فمر بهم النبى ـ ﷺ ـ فسألهم عما فى القدور والبرم ، فقالوا : لحوم حمر إنسيه .

فنهاهم النبى ـ ﷺ ـ عن أكلها ، وأمر بالقدور فأهرق مافيها ، وإنما

لتفور ، كما أمر بغسل القدور بعد إراقة مافيها . وأمر منادياً أن ينادى فى الناس : إن لحوم الحمر الأهلية لا تحل لمن يشهد أن محمداً رسول الله .

وروى مسلم فى صحيحه : أمر رسول الله - ﷺ - أبا طلحة فنادى : إن رسول الله - ﷺ - ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها لا تحل . .

وهذه الآثار تدلنا على أن المسلمين لم يتناولوا شيئاً من هذه اللحوم ، وإن كان ابن هشام فى سيرته يقول : « وأكل المسلمون من لحوم الحمر ، فقام رسول الله - ﷺ - فنهى الناس عن أمور سماها لهم » .

ولئن كانوا قد أكلوا فإنما أكلوا للاضطرار ، ولحم الميتة مباح عند الاضطرار بشرط عدم التجاوز قال - تعالى - بعد أن ذكر تحريم بعض الأشياء :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٧٣ ﴾ (٧٦)

ذكر الإمام الطحاوى فى كتابه شرح معانى الآثار : عن عبد الرحمن بن بشير عن رجال من مزينة من أصحاب النبى - ﷺ - عن أبجر أو ابن أبجر أنه قال : يارسول الله ، إنه لم يبق من مالى شىء ، أستطيع أن أطعمه أهلى إلا بعض حمر لى .

---

(٧٦) البقرة ١٧٣

قال لى : « فأطعم أهلك من سمين مالك ، فإنما كرهت لكم جوّال القرية » .

وروى كذلك من طريق آخر عن غالب بن أبجر . قيل للنبى - ﷺ - : إنه قد أصابتنا شدة وإن سمين مالنا فى الحمير . فقال : كلوا من سمين مالكم[77] .

لقد كان ذلك إذن فى حال الضرورة . . . . . فليس فى هذه الآثار دليل على تحليلها فى غير الضرورة .

وتحريم ماحرم الله لم يكن إلا لمصلحة العباد ، فإن الله بحكمته لم يحل إلا الطيبات ، وماحرم إلا الخبائث . .

استطراد لابد منه :

ومادمنا بصدد التعرض لما شرع من الأحكام فى تلك الغزوة ، فإن الحاجة تدعو إلى ذكر مااستخلصه العلماء من حكمة التشريع فى تحريم هذه الأنواع التى حرمها الله على الناس ، والتى تضمنتها الآيتان الكريمتان فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ

---

(77) شرح معانى الآثار جـ ٤ ص ٢٠٣ باب لحوم الحمر الأهلية .

﴿ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ ﴾ (٧٨)

قال العلماء : فى هاتين الآيتين لطائف منها :

●● المراد من الطيبات الرزق الحلال ، فكل ماأحله الله فهو طيب ، وكل ماحرمه الله فهو خبيث . وقال عمر بن عبد العزيز : المراد طيب الكسب لا طيب الطعام . . . . . ويؤيده الحديث الشريف : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ ﴾ (٧٩)

وقال : « ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم . . »

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يقول : يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام فأنى يستجاب له(٨٠)

فهذا بيان الطيب من الرزق ببيان الرسول ـ ﷺ ـ ولاعطر بعد عروس ـ كما يقول المثل العربى المشهور .

●● قال أبو حيان : لما أباح الله ـ تعالى ـ لعباده أكل مافى الأرض من

---

(٧٨) البقرة ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٧٩) المؤمنون ٥١ .
(٨٠) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ

الحلال الطيب وكانت وجوه الحلال كثيرة ، بين لهم ماحرم عليهم لكونه أقل ، فلما بين ماحرم بقى ماسوى ذلك على التحليل حتى يرد منع آخر ، وهذا مثل قوله ـ ﷺ ـ لما سئل عما يلبس المُحْرِم فقال : « لا يلبس القميص ولا السروال » . فعدل عن ذكر المباح إلى ذكر المحظور ، لكثرة المباح وقلة المحظور ، وهذا من الايجاز البليغ .

●● فى قوله ـ تعالى ـ « اشكروا لله » التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة ، إذ لو جرى على الأسلوب الأول لقال « واشكرونا » وفائدة هذا الالتفات تربية المهابة والروعة فى القلوب .

●● قوله ـ تعالى ـ

« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »

هو على حذف مضاف ، أى أكل الميتة وأكل لحم الخنزير مثل قوله ـ تعالى :

﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٨١)

أى أهل القرية .

قال العلامة الألوسى : وإضافة الحرمة إلى العين ـ مع أن الحرمة من الأحكام الشرعية وليست مما يتعلق بالأعيان ـ اشارة إلى حرمة التصرف فى الميتة من جميع الوجوه بأخصر طريق وأوكده .

---

(٨١) يوسف ٨٢ .

وقال أبو السعود : وإنما خص ملحم الخنزير مع أن سائر أجزائه أيضاً فى حكمه ، لأنه معظم مايؤكل من الحيوان ، وسائر أجزائه بمنزله التابع له .

والأحكام الشرعية المتعلقة بهاتين الأيتين تتلخص فيمايأتى : ـ

الحكم الأول : هل المحرم فى الميتة الأكل أم الانتفاع ؟

ورد التحريم فى الآية مسنداً إلى أعيان الميتة والدم ، ولكن لما حرم الأكل حرم البيع كذلك ، وحرم الانتفاع بشىء منها لأنها ميتة ، إلا ماأستثناه الدليل .

وذهب بعض العلماء إلى أن المحرم إنما هو الأكل فقط ، بدليل قوله تعالى : ـ

« كلوا من طيبات مارزقناكم »

وبدليل مابعده « فمن اضطر غير باغ » أى اضطر إلى الأكل .

قال الجصاص : والتحريم يتناول سائر وجوه المنافع ، فلا يجوز الانتفاع بالميتة على وجه ولايطعمها الكلاب والجوارح ، لأن ذلك ضرب من الانتفاع بها ، وقد حرم الله الميتة تحريما مطلقاً معلقاً بعينها ، فلايجوز الانتفاع بشىء منها إلا أن يخص بدليل يجب التسليم به .

الحكم الثانى : فيمايتعلق بالميتة من السمك والجراد .

تضمنت الآية تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وماأهل به لغير الله . فأما الميتة فهى ماماتت من الحيوان حتف أنفه من غير قتل ، أو قتل بغير ذكاة شرعية ، وكان العرب فى الجاهلية يستبيحون الميتة فلما حرمها الله جادلوا فى

ذلك المؤمنين ، وقالوا : لاتأكلون مما قتله الله ، وتأكلون مماتذبحون بأيديكم ؟ فأنزل الله فى سورة الأنعام :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (٨٢)

ويستثنى من ذلك ماورد بخصوصه أحاديث مثل قوله ـ ﷺ ـ : « أحل لكم ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال »[٨٣]
وقوله : فى البحر : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »[٨٤]

وفى الصحيحين عن جابر بن عبد الله أنه خرج مع أبى عبيدة بن الجراح ، يتلقى عيرا لقريش ...... قال : فانطلقنا على ساحل البحر ، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم ، فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر[٨٥]

قال أبو عبيدة : ميتة ... ثم قال : بل نحن رسل رسول الله ـ ﷺ ـ وقد اضطررتم فكلوا .

قال : فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ـ ﷺ ـ فذكرنا ذلك له ، فقال :

---

(٨٢) الأنعام ١٢١ .
(٨٣) رواه أحمد وابن ماجة والدارقطنى .
(٨٤) رواه مالك فى الموطأ .

هو رزق أخرجه الله لكم من البحر . هل معكم من لحمه شيء فتطعموننا ؟ قال :

فأرسلنا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ منه فأكله[86]

وروى عن ابن أوفى قال : غزونا مع رسول الله ـ ﷺ ـ سبع غزوات نأكل الجراد[87]

الحكم الثالث : ذكاة الجنين بعد ذبح أمه .

رأى بعض الفقهاء أن الجنين الذى يخرج ميتا بعد ذبح أمه حرام لأنه ينسحب عليه حكم الميتة . وهذا رأى أبي حنيفة .

وذهب الشافعي وأبو يوسف ومحمد إلى أنه يؤكل لأنه مذكًى بذكاة أمه .

واستدلوا بحديث : « ذكاة الجنين ذكاة أمه »[88]

وقال مالك : إن تم خلقه ونبت شعره أُكِلَ وإلا فلا .

الحكم الرابع : هل ينتفع بالميتة فى غير الأكل ؟

قال بعضهم : يجوز الانتفاع بشحم الميتة وجلدها وحجة من يقول بذلك قوله ـ تعالى

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾[89]

---

(٨٥) هى سمكة بحرية كبيرة الحجم .

(٨٦) رواه البخارى ومسلم .

(٨٧) أخرجه مسلم . (٨٨) أخرجه أبو داود بمعناه وطرقه واهية (٨٩) الأنعام ١٤٥

وذهب الجمهور إلى تحريمه مطلقاً ، لأن ظاهر الآية يقضى بذلك . . .

ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها » . ـ

وجملوها أى أذابوها

فهذا الحديث يدل على أن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه .

الحكم الخامس .. ما يتعلق بالدم الذى يبقى فى العروق .

الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به . وهو وإن كان مقيداً فى قوله ـ تعالى ـ

« أو دما مسفوحا »

إلا أن العلماء حملوا المطلق على المقيد ، وورد عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قولها : « لولا أن الله قال أو دماً مسفوحاً لتتبع الناس ما فى العروق » .

فما خالط اللحم غير محرم بإجماع ، وكذلك الكبد والطحال مجمع على عدم حرمتهما ، وإن كانا فى الأصل دماً .

الحكم السادس ـ ماذا يحرم من الخنزير ؟

ذهب بعض الظاهرية الى أن المحرم من الخنزير لحمه لا شحمه ، وعلتهم فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

« ولحم الخنزير » .

ولكن الجمهور ذهبوا الى أن شحمه حرام كذلك ، لأن اللحم يشمل الشحم ، وهو صحيح ،

وإنما خص الله ـ تعالى ـ اللحم بالذكر ليدل على تحريم عينه ، سواء ذكى ذكاة شرعية أم لا .

ويجوز الانتفاع بشعره ـ عند بعضهم ، ولا يجوز مطلقاً عند بعضهم ، ويكره عند آخرين .

أما خنزير الماء فقد قال أبو حنيفة : لا يؤكل لعموم الآية .

وقال الشافعى ومالك والأذراعى : لا بأس بأكل كل شىء يكون فى البحر .

الحكم السابع : ما يجوز للمضطر

اختلف العلماء فى المضطر . أيأكل حتى يشبع أم يأكل على قدر ما يسد به رمقه ؟

ذهب مالك الى الأول ، لأن الضرورة رفعت التحريم فتعود الميتة مباحة .

وذهب الجمهور إلى الثانى . لأن الإباحة ضرورة تقدر بقدرها ، وعلة الخلاف ترجع إلى مفهوم قوله ـ تعالى ـ

« غير باغ ولا عاد »

فالجمهور فسروا البغى بالأكل لغير حاجة ، والعَادِي هو المتعدى حد الضرورة .

ومالك فسر ذلك بالبغى والعدوان على الإمام .

لقد أباح الله لعباده المؤمنين تناول الطيبات من الرزق ، وحرم عليهم الخبائث ، كما نهاهم عن تعذيب النفس وحرمانها من اللذائذ الدنيوية ، فإن المشركين وأهل الكتاب حرموا على أنفسهم أشياء لم يحرمها الله تعالى .

وكان المذهب الشائع عند النصارى أن أفضل ما يتقرب به العبد لربه تعذيب النفس واحتقارها وحرمانها من جميع الطيبات المستلذة ، وكانوا يعتقدون أنه لا حياة للروح إلا بتعذيب الجسد . وهذه الأحكام ليست من عند الله بل وضعها الرؤساء لهم ، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٩٠)

وقد تفضل الله على أمة الاسلام فجعلها أمة وسطا ، تعطى الجسد حقه والروح حقها ، فأحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث وأمرنا بالشكر على الطيبات ، ولم يجعلنا جثمانيين خلصا كالأنعام ، ولا روحانيين خلصا كالملائكة ، بل جعلنا أناسى كملة بهذه الشريعة المعتدلة .

---

(٩٠) الأعراف ٣٢ ، ٣٣.

وحكمة تحريم الميتة لما فيها من الضرر ، لأنها إما أن تكون ماتت لمرض أو علة أفسدت بدنها وجعلتها غير صالحة للبقاء والحياة ، وإما أن يكون الموت لسبب طارىء . .

فأما الاولى فقد خبث لحمها وتلوث بجراثيم المرض فيخشى عدواها وانتقال مرضها للآكلين .

وأما الثانية فإن الموت الفجائى يقتضى بقاء المواد الضارة فى جسمها .

وحُرِّم الدم المسفوح لقذارته وضرره ، وقد أثبت الطب الحديث أن الدم ضار كالميتة ، وأنه تتجمع فيه الميكروبات والمواد الضارة .

وحرم لحم الخنزير لأن غذاءه من القاذورات والنجاسات ، فهو قذر لذلك ، وقد اكتشف العلماء أن لحم الخنزير يحمل جراثيم شديدة الفتك ، والمتغذى من لحم الخنزير يكتسب من طباع ما يأكله ، والخنزير فيه كثير من الطباع الخبيثة ، وأشهرها عدم الغيرة وعدم العفة .

وذكر الشيخ سيد قطب فى تفسيره ما نصُّه : الخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم ، ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل . وقد كشف علم الناس منذ قليل أن فى لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة : « الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة »

ويقول الآن قوم : إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت ، فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر ، لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التى توفرها وسائل الطهو الحديثة . وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى

قرون طويلة ليكشف آفة واحدة ، فمن ذا الذى يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى فى لحم الخنزير لم يُكْشَفْ عنها بعد ؟ أفلا تستحق الشريعة التى سبقت هذا العلم البشرى بعشرات القرون أن نثق بها ، وندع كلمة الفصل لها ، ونحرم ما حرمت ، ونحلل ما حللت وهى من لدن حكيم خبير ؟

أما ما أهل لغير الله به فعلة تحريمه أنه وجه لغير الله ، فهو محرم لعلة روحية ، لسلامة القلب وطهارة الروح وخلوص الضمير ، فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية ، وقد حرص الاسلام على أن يكون التوجه لله وحده لا شريك له[٩١] .

لقد استطردنا عامدين الى ذكر هذه الأحكام وما يتعلق بها من آثار فردية واجتماعية لنقيس عليها حكمة تحريم النبى - صلى الله عليه وسلم - للحمر الأهلية . وتحريم النبى - صلى الله عليه وسلم - لشىء إنما هو تحريم من الله لذلك الشىء ، لانه - صلى الله عليه وسلم - لا ينطق عن الهوى . . . . قال - صلى الله عليه وسلم - « لا ألفين أحداً منكم متكئاً على أريكة يأتيه الأمر من أمرى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، وما وجدنا من حلال أحللناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو مثل ما حرم الله » .

لقد أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بإكفاء القدور التى طبخت فيها هذه اللحوم فقال : اكفئوا القدور واكسروها - فى رواية سلمة بن الأكوع -

---

(٩١) روائع البيان - تفسير آيات الأحكام - محمد على الصابونى - جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها . .

فقالوا : يا رسول الله . أو نغسلها ؟ فقال : أو ذاك .

الخيل والبغال

وعلى العكس من لحوم الحمر الأهلية ـ الخيل والبغال . ولذلك قال جابر ـ رضى الله عنه ـ فيما رواه أبو داود « ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال ولم ينهنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الخيل ، وفى رواية : ورخص فى أكل الخيل[٩٢] . ويبدو أن غزوة خيبر كانت فرصة أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لإعلان أصحابه بتحريم بعض الأشياء . فقد نهاهم عن أكل لحم الجلاَّلة وعن ركوبها حتى تعلف أربعين يوماً . . . . والجلالة هى التى تأكل الروث والعذرة .

كما نهى أيضاً عن أكل كل ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطير ـ كما نهى عن بيع المغانم حتى تقسم .

عود إلى الأحداث المثيرة بعد فتح خيبر

قدوم مهاجرة الحبشة

وبعد أن فتحت خيبر عاد المسلمون الذين كانوا قد هاجرو الى الحبشة فراراً بدينهم ، وفى مقدمتهم جعفر بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وكان معه وفد من الأشعريين منهم أبو موسى الأشعرى وأخواه ـ أبورهم ، وأبو بردة . .

---

(٩٢) السيرة الحلبية جـ٢ ص٧٥٣ .

وقد سُرَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقدوم جعفر حتى قال : لا أدرى بأيهما أسر ؟ أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟

ورحب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجعفر ـ رضى الله عنه ـ وصافحه .

ولما رأى جعفر سرور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقدومه فرح فرحاً شديداً برضاء الله ورسوله عنه ..... ولماذ لايفرح والله ـ تعالى ـ يقول

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾(٩٣)

وكانت مع جعفرٍ زوجته السيدة « أسماء بنت عميس » ـ رضى الله عنها ـ ويحدثنا أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن رحلته فيقول :

« بَلَغَنَا مبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى ، أنا أصغرهما ، أحدهما أبو رهم والآخر أبو بردة ـ وكنا فى ثلاثة وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلاً ـ من قومى ـ فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا الى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده .

فقال جعفر : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعثنا وأمرنا بالاقامة فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين فتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن خيبر شيئاً إلا نحن وجعفر وأصحابه ..

---

(٩٣) يونس ٥٨ .

« وكان ناس يقولون لهم : سبقناكم بالهجرة . نحن أحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - منكم . فغضبت - أسماء بنت عميس - وقالت ، كلا ، والله لقد كنتم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا فى أرض - أو فى دار - بعيدة بالحبشة ، وذلك فى الله وفى رسوله ، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن كنا نقاسى ونُؤذى . وسأذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله لا أكذب ولا أزيغ ، ولا أزيد على ذلك .

« فلما جاء النبى - صلى الله عليه وسلم - قات له : يارسول الله إن ناساً قالوا كذا وكذا .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قُلتِ لهم ؟

قالت : قلت لهم : كذا وكذا .

فقال - صلى الله عليه وسلم - ليسوا بأحق بى منكم ، لهم هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

وكان أبوموسى وأصحاب السفينة يأتون أسماء - أرسالا - جماعات - يسألونها عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شىء هم أفرح به ولا أعظم فى أنفسهم مما قال رسول الله - ﷺ - فى شأنهم »(٩٣)

أجل ، فهذه هى رحمة الله وفضله - وهل هناك أعظم من أن يظفر إنسان

---

(٩٤) انظر صفوة السيرة - الشيخ أحمد حسن الباقورى ص ٣٧٣ .

برضاء رسول الله عنه الذى هو عنوان رضاء الله . . ؟

قدوم أصحاب الصوامع

ومن قدم أيضا على النبى - ﷺ - سبعون رجلا عليهم ثياب الصوف ، منهم اثنان وستون من الحبشة ، وثمانية من الروم .

وقيل : كانوا ثمانين رجلا - فقرأ عليهم رسول الله - ﷺ - سورة يس إلى آخرها ، فبكوا وأسلموا . وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى - عليه السلام .

ووفد إلى رسول الله أيضا وفد النجاشي ، فقام - ﷺ - يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك يارسول الله

فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أكافئهم . . لقد أراد النبى - ﷺ - أن يطبق أدب القرآن الكريم تطبيقا عمليا حين قال

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾ (٩٥)

سئلت السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن أخلاق النبى - ﷺ - فقالت : كان خلقه القرآن . .

وفد دوس

قال ابن سعد : أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا ، وقدم معه إلى المدينة سبعون أو ثمانون أهل بيت من قومه ، وفيهم

---

(٩٥) النساء ٨٦ .

أبو هريرة وعبدالله بن أزيهر الدوسى . جاءوا ورسول الله بخيبر ، فساروا إليه فلقوه هناك . . .

ثم عادوا معه إلى المدينة .

وقال الطفيل بن عامر : يارسول الله ، لا تفرق بينى وبين قومى فى مكان - فأنزلهم النبى - ﷺ - حرة الدجاج -

وقال أبوهريرة فى هجرته حين خرج من دار قومه :

ياطولها من ليلة وغناءها　　على أنها بلدة الكفر نجت

وقال عبدالله بن أزيهر : يارسول الله ، إن لى فى قومى مكانة ومكانا فاجعلنى عليهم .

فقال رسول الله - ﷺ - : يا أخا دوس ، إن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ، فمن صدق الله نجا ، ومن آل إلى غير ذلك هلك ، إن أعظم قومك ثوابا أعظمهم صدقا ، ويوشك الحق أن يغلب الباطل »[٩٦]

ويذكر أبوهريرة أنهم حين وفدوا إلى المدينة صلوا الصبح خلف سباع بن عرفطة ، وهو الذى استخلفه النبى - ﷺ - على المدينة فى خلال تلك الغزوة .

وأخبرهم سباع أن النبى - ﷺ - بخيبر ، وزودهم حتى وصلوا إليها .

قال أبوهريرة : جئنا خيبر فأقمنا حتى فتح الله عليه .

قدوم أم حبيبة

وقدمت مع الوفد القادم من الحبشة أم حبيبة بنت أبى سفيان . وكانت قد

---

(٩٦) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ٢ ص ٨١ .

هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش . . واسمها الأصل « رملة » ولكنها شهرت بكنيتها .

وكان زوجها قد تنصر بالحبشة ومات بها . وثبتت هى على إسلامها . . وأبوها هو أبوسفيان الذى كان زعيم قريش وقائدها فى حرب الإسلام »
وعلى الرغم من ذلك كانت من السابقين إلى الإسلام . . . . . .

فكان لابد من مكافاتها على ثباتها على الاسلام . وإذهاب الوحشة من نفسها بعد كفر زوجها ووفاته ، وهى فى ديار غريبة عن الأهل والوطن ، وهى امرأة ليس لها ما للرجال من قوة تحمل وصبر على المعاناة . .
فأرسل النبى - ﷺ - عمرو بن أمية الضمرى ، إلى النجاشى يوكله عنه فى أن يزوجه منها . .

قالت أم حبيبة - رضى الله عنها - : رأيت فى المنام كأن قائلا يقول لى : يا أم المؤمنين . ففزعت . فأولتها أن رسول الله - ﷺ - يتزوجنى .

قالت : فما شعرت إلا وقد دخلت علىّ جارية النجاشى فقالت لى : إن الملك يقول لك : إن رسول الله - ﷺ - كتب إليه أن يزوجك منه .
قالت : فقلت لها : بشره الله بالخير .

قالت الجارية : ويقول لك الملك : وكلّ من يزوجك .
فأرسلت أم حبيبة بالوكالة إلى خالد بن سعيد رضى عنه - وأعطت الجارية سوارين ، وخلخالين وخاتم فضة - أى حليها التى كانت عليها - سرورا بما بشرت به .

فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين ، فحضروا ، وخطب النجاشى فقال فى خطبته :

ـ الحمدلله الملك القدوس . أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله . وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم . عليه الصلاة والسلام ـ أما بعد فإن رسول الله ـ ﷺ ـ كتب إلى أن أزوجه أم حبيبه بنت أبى سفيان ، فأجبنا إلى مادعا إليه رسول الله ـ ﷺ ـ وقد أصدقها أربعمائة دينار .

وسكب النجاشى الدنانيربين يدى القوم .

ثم تكلم خالد بن سعيد بن العاص فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد . . . . فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ـ ﷺ ـ وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فبارك الله لرسول الله ـ ﷺ ـ

قيل : ودفع النجاشى الدنانير لخالد بن سعيد ، فقبضها منه ، وقيل : إنه أنفذها إلى أم حبيبة . على يد جاريته ، فأعطت أم حبيبة الجارية خمسين دينارا . .

ويقال : إن الجارية أخبرت النجاشى بما وهبته لها أم حبيبة ، فأمرها بأن ترد عليها ما أخذت منها ، فردت الجارية المال ، وقالت : إن الملك رفض أن آخذ منك شيئا ، وأمر نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من العطر . .

فأهدى إلى أم حبيبة من ذلك الشىء الكثير . .

وأولم النجاشى وليمة . .

وذكر أن أم حبيبة عادت بصحبة جعفر إلى المدينة والرسول - ﷺ - فى خيبر وقيل : عادت قبل ذلك .

رؤيا عيينة بن حصن الفزارى

كانت غطفان كما علمنا حليفة لليهود ، ولكن الله حال بينها وبين نصرة اليهود ، وكان النبى - ﷺ - قد أوهم غطفان بأنه يريدها ، فتخلفوا عن يهود خيبر دفاعا عن أنفسهم .

وقد حاول اليهود الاستنجاد بغطفان على أن يعطوهم نصف ثمار خيبر . فهم الغطفانيون بنجدتهم ، ولكن الله خذلهم . . . . ذلك أنهم بعد أن ساروا إليهم سمعوا أن قوة من المسلمين أغاروا على أهليهم ، فألقى الله الرعب فى قلوبهم ، ورجعوا إلى ديارهم . .

ويقال : إن النبى - ﷺ - كان قد أرسل إلى بنى فزارة يثبطهم عن إعانة أهل خيبر على أن يكون لهم من خيبر كذا وكذا ، ولكن بنى فزارة أبو ذلك ، وخرجو لنصرة اليهود فسمعوا ما سمعوا فرجعوا إلى ديارهم . . فلما فتح رسول الله خيبر أتاه بنو فزارة فقالوا : وعدك الذى وعدتنا .

فقال النبى - ﷺ - لكم ذو الرقيبة ، وذو الرقيبة جبل من جبال خيبر .

فلما سمعوا ذلك قالوا : إذا نقاتلك .

فقال النبى - ﷺ - : موعدكم كذا .

فلما سمعوا ذلك ولوا هاربين .

أما قول النبى - ﷺ - لهم :.لكم ذو الرقيبة ، فله معناه - قال الواقدى : قال أبو شييم المزنى - وكان ممن أسلم فحسن أسلامه ، : لما نفرنا إلى أهلنا مع عيينة بن حصن ، رجع بنا عيينة .

فلما كان دون خيبر قال : عيينة : أبشروا ، إنى رأيت الليلة فى المنام ، أننى أعطيت ذا الرقيبة - جبلا بخيبر- . قد والله أخذت برقبة محمد .

فلما قدمنا خيبر قدم عيينة ، فوجد رسول الله - ﷺ - قد فتح خيبر . فقال : يا محمد ، أعطنى مما غنمت من حلفائى ، فإنى انصرفت عنك ، وقد فرغنا لك .

فقال رسول الله - ﷺ - كذبت ، ولكن الصياح الذى سمعت ، نفرك إلى أهلك .

قال : أجزنى يا محمد .

قال : لك ذو الرقيبة .

قال : وما ذو الرقيبة .

قال : الجبل الذى رأيت فى النوم أنك أخذته .

فانصرف عيينة .

فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف ، فقال له : ألم أقل لك : إنك توضع فى غير شىء ؟ والله ليظهرن محمد ما بين المشرق والمغرب . . إن يهود كانوا يخبروننا بهذا ، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبى الحقيق يقول :

إنا لنحسد محمدا على النبوة ، حيث خرجت النبوة من بنى هارون . . ومحمد نبى مرسل ، ويهود لا تطاوعنى على هذا . .

قال الحارث : قلت لسلام : يملك الأرض جميعا ؟

قال : نعم والتوراة التى أنزلت على موسى ، وما أحب أن يعلم يهود بقولى هذا »[٩٧]

الشاة المسمومة

وأهدت زينب بنت الحارث اليهودية زوجة سلام بن مشكم ، أهدت للنبى - ﷺ - شاة مسمومة . . وضعت السم فى سائرها ، وأكثرت منه فى الذراع حين سألت فعلمت أن النبى - ﷺ - يحب الذراع

وأقبل النبى - صلى الله عليه وسلم - على الطعام ومعه بعض أصحابه ، فمد يده إلى الذراع وقضم منه قضمة ، ولكنه لم يُسِغْها ، فلفظها ، وقال : إن هذه الذراع تخبرنى أنها مسمومة . .

وكان بعض أصحابه قد ألقوا ما فى أفواههم .

واستدعى النبى - صلى الله عليه وسلم - زينب ، وسألها عما صنعت ، فاعترفت بأنها وضعت السم فى الشاة ، قالت : قلت : إن كان كاذباً أراحنا الله منه ، وإن كان نبياً فسيخبره الله . وقد استبان لى أنك نبى وأنك صادق ، وَأُشْهِدُكَ ومن حضر أنى على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله[٩٨] .

---

(٩٧) صفوة السيرة ص ٣٧٦ .

(٩٨) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ٢ ص ٢٤١ .

قال بعض الرواة : وقد عفا عنها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال بعضهم : حين مات بعض أصحابه الذين أكلوا قتلها قصاصاً .

وكان الذى مات بعد أن أكل هو بشر بن البراء بن معرور ـ رضى الله عنه ـ ويرجح بعض العلماء العفو عنها لأن فعلها هذا كان قبل الاسلام ، والاسلام يَجُبُّ ما قبله .

الحجاج بن علاط ـ يسخر من قريش

وحين ظهر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل خيبر ، استأذن الحجاج بن علاط النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوجه إلى مكة لاستيفاء مالٍ كان له بها فأذن له . . وقبل أن نذكر هذا الخبر نقدم بين يديه خبراً آخر طريفاً عن سبب إسلام حجاج هذا .

قال ابن الأثير : كان سبب إسلامه أنه خرج فى ركب قومه إلى مكة ، فلما جن عليه الليل ، وهو فى وادٍ مخوف قعد ، فقال له أصحابه : قم يا أبا كلاب ـ وهذه كنيته ـ فخذ لنفسك ولأصحابك أماناً ـ كان من عادة العرب فى الجاهلية أنهم إذا نزلوا فى مكان فى أثناء سفرهم يتعوذون بالجن الذين يقطنون بهذا المكان قائلين : نعوذ بأهل هذا الوادى أو بسيد هذا الوادى ـ

فقام الحجاج بن علاط يطوف حول أصحابه يكلؤهم وهو يقول :

أعيذ نفسى وأعيذ صحبى   من كل جنى بهذا النَّقب

حتى أؤوبَ سالماً وركْبى

فسمع قائلاً يقول :

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ ﴾ (٩٩)

فلما قدم مكة أخبَرَ بذلك فى نادى قريش ، فقالوا له : صبأت والله يا أبا كلاب ، إن هذا مما يزعم محمد أنه نزل عليه ـ فقال : والله لقد سمعته . . . . ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، وهاجر إلى المدينة ، وابتنى بها مسجداً وداراً تعرف به ، وهو والد نصر بن حجاج الذى اشتهر بجمال الوجه .

قال حجاج بن علاط للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله إن لى مالاً بمكة وإن لى بها أهلاً ، وإنى أريد أن آتيهم ، فهل أنا فى حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئاً ؟

قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نعم .

ويبدو أنه حين أسلم لم تعلم قريش بإسلامه . .

وخشى إن علموا بإسلامه أن يأكلوا ماله ، وهو كثير . وكانت له زوجة بمكة اسمها شيبة بنت أبى طلحة أخت بنى عبد الدار .

وانطلق حجاج فى طريقه إلى مكة حتى إذا انتهى إلى ثنية البيضاء ـ وجد نفراً من قريش يتحسسون الأخبار ، فلما رأوه قالوا : هذا الحجاج وعنده الخبر .

---

(٩٩) الرحمن ٢٣ .

قال حجاج : فقلت لهم : هُزِم الرجل - يقصد النبى - صلى الله عليه وسلم - أقبح هزيمة سمعتم بها وقُتل أصحابه وأخذ أسيراً . فقالت يهود : لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتل بين أظهرهم .

واتجه حَجَّاج معهم إلى مكة . . وأذاعوا هذه الأخبار التى التقطوها من حجاج ابن علاط .

وقالوا : هذا حجاج قد جاءكم بالخبر . . إن محمداً قد أسر ، وإنما تنتظرون أن تُؤتوا به فَيُقْتل بين أظهركم .

وانتهزها حجاج فرصة ، فقال : أعينونى على جمع مالى فإنى أريد أن ألحق بخيبر فأشترى مما أصيب من محمد قبل أن يأتيهم التجار . .

وكان قد انطلق إلى صاحبته فأخبرها بذلك ، وطلب ودائعه عندها حتى يلحق الفرصة قبل أن يغتنمها التجار دونه . .

وسرى الخبر إلى العباس - وكان يُسرُّ إسلامه - فساءه الخبر ، واشتد عليه حتى لم يستطع القيام من موضعه . .

وأخذ القرشيون يغلظون له ويتفوهون بما يسوؤه . .

فلما اشتد الأمر عليه أرسل غلاماً له سراً الى حجاج بن علاط يطلب منه أن يعلمه بحقيقة الأمر .

فلقى حجاج الغلام وقال له : قل لمولاك فليلقنى فى موضع خال فى بعض بيوته فإن له عندى ما يسره . . وضرب له موعداً . .

وعاد الغلام إلى العباس - رضي الله عنه - بهذا الخبر فأعتقه سروراً بما سمع منه .

وجاء حجاج في موعده . فقال له العباس : ما عندك من الخبر ؟

فقال حجاج : الذى والله يسرك ، تركت والله ابن أخيك قد فتح الله عليه خيبر ، وقتل من قتل من أهلها ، وصارت أموالها له ولأصحابه ، وتركته وقد تزوج ابنة ملكهم ، ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالي ، ثم ألحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاكتم عليَّ الخبر ثلاثاً فانى أخشى القوم .

فلما كان اليوم الثالث لبس العباس حلة ، وتخلّق - تطيب - ثم أخذ عصاه وخرج الى المسجد ، واستلم الركن .

فنظر إليه رجال قريش فقالوا له : يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد على حر المصيبة .

فقال : كلا والذى حلفتم به . ولكن ابن أخى قد فتح خيبر ، وصارت له ولأصحابه ، وتركه حجّاج وقد تزوج ابنة ملكهم .

قالوا : ومن أخبرك بهذا ؟

قال : حجاج بن علاط - فقد أسلم وتابع محمداً على دينه ، وما جاء إلا ليأخذ ماله ثم يلحق به .

فقالوا : أى عباد الله ، خدعنا الحجاج بن علاط . . . . ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر(١٠٠) .

---

(١٠٠) اسد الغابة جـ١ ص٤٥٦ .

وكان العباس قبل أن يذهب إلى المسجد قد مر على زوجة حجاج ، فقال لها : ما فعل زوجك ،

قالت : ذهب . ثم قالت : لا يحزنك والله ما سمعت ، لقد شق علينا الذى بلغك يا أبا الفضل .

فقال : أجل لا يحزننى والله ، ولم يكن والله إلا ما أحب بحمد الله ، فتح الله على رسوله خيبر ، وجرت فيها سهام الله ، وتزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفية بنت حيى بن أخطب ـ ملكهم .

وإن كان لك فى زوجك حاجة فالحقى به

قالت : أظنك والله صادقاً ، فمن أخبرك ؟

قال أخبرنى بذلك زوجك(١٠١) .

بقية اليهود

وبفتح خيبر انكسرت شوكة اليهود فى الحجاز ، فلم يبق إلا يهود « فدك » « ووادى القرى » و« تيماء » .

فأما أهل « فدك » وهى قرية فى الحجاز بينها وبين المدينة يومان ـ وقيل : ثلاثة .

فقد أذعنوا بدون قتال ، واستسلموا على أن يدفعوا النصف من أموالهم .

ثم تجهز الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعودة الى المدينة عن طريق

---

(١٠١) صفوة السيرة ـ بتصرف ص ٣٨٢ .

وادى القرى ، وهو وادٍ بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى .

وبعد أن استعد يهود وادى القرى للقتال رأوا أنهم لا يستطيعون الصمود فأذعنوا للصلح .

ويعدهم أهل « تيماء » وهى فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى ..... وقد قبل أهل تيماء أن يدفعوا الجزية من غير حرب ولا قتال .

وبذلك تكون اليهود قد دانت جميعاً لسلطان المسلمين ، وأصبح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مأمن من ناحية الشمال إلى الشام ، كما أصبح فى مأمن من ناحية الجنوب بصلح الحديبية .

وباستسلام اليهود ذهبت مشاعر الكراهية ضد الاسلام ، فقد كانوا هم العامل الأكبر فى إثارة الحقد والعداوة ضد المسلمين . .

وتفرغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك لإرسال رسله إلى خارج الجزيرة العربية للملوك والأمراء تبليغاً لدعوة الاسلام التى أمر بإبلاغها للناس جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها . .

ولهذا حديث خاص سوف نعرض له إن شاء الله بعد أن نعرض لبعض الأحداث المهمة التى أعقبت غزوة خيبر . تلك الغزوة التى أطلق عليها القرآن الكريم اسم الفتح القريب-وقد ذكرنا الآيات الكريمة الواردة فى ذلك . .

وكان من أهم هذه الأحداث :

« إسلام خالد بن الوليد »

هو سيف الله المسلول . . خالد بن الوليد بن المغيرة بن عُمَر بن مخزوم . وكنيته أبو سليمان ، أمه هى لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية ، أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبى - صلى الله عليه وسلم - وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم النبى - صلى الله عليه وسلم -

كان خالد أحد أشراف قريش فى الجاهلية ، وإليه أمر القبة وأعنة الخيل . أما القبة فكانوا يضربونها عند التجهز للحرب ، يجمعون فيها ما يعدونه للجيش ، وأما الأعنة فهى جمع عنان ، ويكنى بذلك عن قيادة الفرسان..وكان خالد على رأس الفرسان فى معارك قريش ضد أعدائها .

ولنترك خالد بن الوليد - رضى الله عنه - يحدثنا عن قصة إسلامه فيقول : لما أراد الله - عز وجل - بى الخير قذف فى قلبى الاسلام ، وحضرنى رشدى ، فقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد - صلى الله عليه وسلم - فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى مُوضِع فى غير شيء - أى أعمل دون فائدة - وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - يظهر .

فلما جاء - صلى الله عليه وسلم - لعمرة القضاء - تغيبت ولم أشهد دخوله . وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل معه - صلى الله عليه وسلم - فطلبنى فلم يجدنى ، فكتب إلىّ كتاباً فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام وقلة عقلك - ومثل الاسلام يجهله أحد ؟

وقد سألنى عنك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أين خالد ؟

فقلت : يأتي الله به .

فقال رسول الله : يأتي الله به .

ثم قال : ما مثله يجهل الاسلام ، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له . .

فاستدرك يا أخي ما فاتك ، فقد فاتك مواطن صالحة . .

قال خالد : فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ، وزادني رغبة في الإسلام ، وسرتني مقالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورأيت في المنام كأني في بلاد ضيقة جدباء فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة .

فلما أردت الخروج الى المدينة لقيت صفوان ، فقلت : يا أبا وهب ، أما ترى أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظهر على العرب والعجم ؟ فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا ؟

قال : لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً .

قلت : هذا رجل قُتِل أبوه وأخوه ببدر .

فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان . فقال مثل الذي قال صفوان .

قلت له : فاكتم ما قلت لك .

قال : لا أذكره .

ثم لقيت عثمان بن طلحة . قلت : هذا لي صديق ، فأردت أن أذكر له ، ثم ذكرت من قتل من آبائه ـ فقد قُتِل أبوه طلحة وعمه عثمان ، وإخوته الأربعة ، كلهم قتلوا يوم أحد ـ فكرهت أن أذكر له .

ثم قلت : وما عليَّ ؟

فقلت له : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جُحْر ، لو صُبَّ فيه ذَنُوب ـ دلو ـ من ماء لخرج .

ثم قلت له ما قلته لصفوان وعكرمة ، فأسرع الإجابة . فواعدنى إن سبقنى أقام فى محل كذا ، وإن سبقته إليه انتظرته فلم يطلع الفجر حتى التقينا فغدونا حتى انتهينا إلى الهدَّة ـ موضع ـ فوجدنا عمرو بن العاص بها ، فقال : مرحباً بالقوم .

فقلنا : وبك .

قال : أين مسيركم ؟

قلنا : الدخول فى الاسلام .

قال : وذلك الذى أقدمنى .

ـ وفى رواية قال عمرو : يا أبا سليمان أين تريد ؟

قال خالد : والله لقد استقام الميسم ـ تبين الطريق ـ وظهر الأمر ، وإن هذا الرجل لنبى ، وسوف أذهب فأتبعه . فحتى متى ؟

فقال عمرو : وأنا ما جئت إلا لأسلم .

قال خالد : فسرنا جميعاً حتى دخلنا المدينة الشريفة ، فأنخنا بظهر الحرة ركابنا ، فأُخبرنا رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسُرَّ بنا وقال : أسلم فرسان مكة .

قال : فلبست من صالح ثيابى ، ثم عمدت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقينى أخى ، فقال : أسرع فإن رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ قد سُرَّ بقدومكم وهو ينتظركم ،

فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه ، فما زال ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبتسم إلىّ حتى وقفت عليه . فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق .

فقلت : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك رسول الله .

قال : الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير .

قلت : يا رسول الله ، ادع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإسلام يَجُبُّ ما قبله .

ثم تقدم عثمان وعمرو فأسلما[102] . . »

وهذه القصة التى وردت على لسان خالد ـ رضى الله عنه ـ تفيد أن إسلامه كان بعد عمرة القضاء . إلا أن هناك بعض الروايات تشير إلى أن إسلامه كان قبل عمرة القضاء .

وأبلى خالد فى الإسلام بلاء حسناً ، وكان ميمون النقيبة ، ما توجه فى الاسلام وجهة إلا كان الفتح على يديه ، حتى أطلق عليه أنه القائد الذى لم يهزم أبداً .

وكانت أولى المعارك التى خاضها خالد فى ظل الاسلام هى معركة مؤتة وستتحدث عنها بعد قليل إن شاء الله ـ تعالى ـ

أما الحدث الثانى المهم الذى كان بعد فتح خيبر فهو ـ عمرة القضاء . .

---

(١٠٢) السيرة الحلبية جـ٢ ص ٧٧٦ .

عمرة القضاء

- خروج المسلمين للعمرة .
- قريش تخرج من مكة حتى يؤدى الرسول وأصحابه العمرة .
- زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من ميمونة بنت الحارث .

غزوة مؤتة

- سبب الغزوة .
- سير الأحداث .
- دروس من تلك الغزوة .

وسميت بهذا الاسم لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاضى قريشاً عليها ـ أى صالحهم عليها ـ

ويقال لها من أجل ذلك عمرة الصلح ، ويقال لها أيضاً عمرة القضية ، ويقال لها : عمرة القصاص ـ وسميت بعمرة القصاص لقوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (١٠٣)

قال القرطبى فى تفسير هذه الآية : أى اقتصصت لكم منهم إذ صدوكم سنة ست فقضيتم العمرة سنة سبع .

وقد نزلت آية الحصر فى نفس العام وهى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ

---

(١٠٣) البقرة ١٩٤ .

وقد اعتبرت عمرة الحديبية عمرة كاملة لأن الحيلولة دون الوصول إلى البيت كانت بفعل العدو ، ولذلك نحر النبى - صلى الله عليه وسلم - هديه وحلق رأسه .

وقد قال بعض العلماء : إن من أحصر بعدو فلا قضاء عليه لحجه أو عمرته إلا أن يكون صَرُورة - أى لم يحج قبل ذلك - أو لم يعتمر عند من اعتبر العمرة فرضاً - وهذا قول مالك والشافعى .

أما أبو حنيفة فقد قال : المحصر بمرض أو عدو عليه حج وعمرة .
وعلى ذلك فأصحاب هذا القول يرون أن عمرة القضاء كانت قضاء لتلك العمرة التى لم تتم فى الحديبية . ولذلك قيل لها : عمرة القضاء .
ولكن أصحاب الرأى الأول يقولون : لم يأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أحداً من أصحابه ولا ممن كان معه أن يقضوا شيئاً ولا أن يعودوا بشىء ، ولا حُفِظ ذلك عنه بوجه من الوجوه ، ولا قال فى العام المقبل : إن عمرتى هذه كانت قضاءً عن العمرة التى حصرت فيها ، ولم ينقل ذلك عنه .

ولذلك قال الامام مالك : وعمرة القضاء وعمرة القضية سواء ، وإنما قيل لها ذلك لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاضى قريشاً وصالحهم فى ذلك العام على الرجوع عن البيت وقصده من قابل فسميت بذلك عمرة القضية(١٠٥) .

---

(١٠٤) البقرة ١٩٦ (١٠٥) تفسير القرطبى جـ٢ ص ٣٧٦ ط دار الكتب .

قال الواقدى : وقد اعتمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أربع عمرات : عمرة الحديبية وهى عمرة الحصر ، وعمرة القضاء من قابل ، وعمرة الجعرانة ، والرابعة التى مع حجته . وكانت الثلاث الأولى فى ذى القعدة من كل عام تمت فيه .

قال : أخبرنا الفضل بن دكين ، حدثنا زكرياء بن أبى زائدة عن عامر قال : لم يعتمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمرة إلا فى ذى القعدة(١٠٦) .

الخروج للعمرة

حين أهل شهر ذى القعدة من العام القابل سنة سبع أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التى صدهم المشركون عنها بالحديبية وأمر ألا يتخلف أحد ممن شهدوا الحديبية فلم يتخلف أحد إلا من سبقه أجله .

وجاءه قوم من حاضرى المدينة من العرب فقالوا : يا رسول الله ، والله ما لنا زاد وما لنا من يطعمنا ، فأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه أن ينفقوا فى سبيل الله وأن يتصدقوا وأن يكُفُّوا أيديهم . .

فقالوا : يا رسول الله ، بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئاً ؟

فقال - صلى الله عليه وسلم - ما كان ولو بشق تمرة .

روى البخارى والبيهقى وغيرهما أن قوله - تعالى -

---

(١٠٦) الطبقات الكبرى جـ ٢ قسم ١ ص ١٢٣ .

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (١٠٧)

يعنى حث المسلمون على الإنفاق فى سبيل الله ، وأن التهلكة هى ترك النفقة فى سبيل الله ، وليست التهلكة هى أن يُقتل الرجل فى سبيل الله(١٠٨) .

وقد نزلت هذه الآية فى سياق الحديث عن عمرة القضاء والإحصار فى الحديبية . فكأنها نزلت لتحض المسلمين على الا يبخلوا بما فى أيديهم على مساعدة العاجزين والضعفاء غير القادرين .

وخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألفان سوى النساء والصبيان .

واستخلف على المدينة أبارُهم الغفارى ، وهو كلثوم بن الحصين ، أسلم بعد قدوم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة وشهد أُحُداً فرمى بسهم فى نحره فسمى المنحور ، فجاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمسح عليه بيده فبرأ واستخلفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرتين . مرة فى عمرة القضاء ومرة عام الفتح(١٠٩) .

---

(١٠٧) البقرة ١٩٥ .

(١٠٨) المواهب اللدنية جـ٢ ص ٢٥٤ .

(١٠٩) اسد الغابة جـ٦ ص ١١٧ .

وساق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الهدى ، ستين بدنة ، قَلَّدها بيده ، وجعل عليها « ناجية بن جندب » يسير بها أمامه ، يطلب الرعى فى الشجر ، ومعه أربعة فتيان من أسلم .

واحتاط النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحمل معه سلاحاً ، وأعد مائة فرس .. وجعل على السلاح بشير بن سعد والد النعمان بن بشير .

وقد قيل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله لم حملت السلاح وقد شرطوا عليك أن لا تدخلها إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القُرُب ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنا لا نُدْخِل السلاح عليهم الحرم ، ولكن يكون قريباً منا ، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا .

ولما انتهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ذى الحليفة ـ قدَّم الخيل أمامه ، وجعل عليها محمد بن مسلمة ـ رضى الله عنه ـ

فلما كان بمرِّ الظهران وجد محمد بن مسلمة نفراً من قريش ، فسألوه :

فقال : هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتى هذا المنزل غداً إن شاء الله . وقد رأى هؤلاء القوم السلاح ، فأسرعوا الى قريش يخبرونهم بما رأوا من خيل وسلاح ..

ففزعت قريش ، وقال بعضهم لبعض : ما أحدثنا حدثاً ، وإنا على عهدنا وكتابنا ومدتنا ، ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟

وبعثت قريش مكرز بن حفص فى نفر منها إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا له : والله يا محمد ماعُرِفْتَ صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، فكيف

تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر- وهو السيوف فى قُرُبِها ؟

فقال - صلى الله عليه وسلم - إنى لا أدخل عليهم بسلاح .

فقال مكرز : هذا الذى تُعرفُ به : البر والوفاء .

وعاد مكرز إلى قريش يخبرها أن محمداً لن يدخل مكة بسلاح ، وهو على الشرط الذى شرط لكم .

قريش تخرج من مكة

ونزل النبى - صلى الله عليه وسلم - بمر الظهران ، وقدم السلاح إلى مكان يسمى « بطن يأجج » وهو مكان ينظر إلى أنصاب الحرم ، أى قريب من مكة .

وخلف عليه « أوس بن خولى » الأنصارى فى مائتى رجل ، ثم خلَفَهم مثلهم بعد أن قضوا عمرتهم ، وذهب هؤلاء مكانهم حتى اعتمر الجميع .

وخرجت قريش من مكة إلى رءوس الجبال ، عداوةً لله ورسوله ، ولم يقدروا على الصبر على رؤيته - صلى الله عليه وسلم - وهو يطوف بالبيت هو وأصحابه .... خرجوا لأنهم لم يقدروا أن ينظروا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غيظاً وحَنَقاً وحسداً .

ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة بعد سبع سنوات من خروجه منها مهاجراً لله بدينه ، وقد ركب ناقته القصواء ، وأصحابه

يحيطون به قد توشحوا السيوف يلبوُن .

ثم دخل من الثنية التى تطلعه على الحجون وهى ثنية كُدَاء . .
وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما دخل مكة يكثر من الدعاء وكان يدعو لأصحابه قائلاً : اللهم أمض لأصحابى هجرتهم .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه المهاجرون يحرصون على مهاجرهم الجديد وهو المدينه ، ويعتبرونه هو الوطن الذى يثوبون إليه إن خرجوا فى جهاد أو حج أو عمرة أو تجارة ، ويحرصون على أن يكون فيه مثواهم الأخير ، وما كان ذلك إلا استجابة لدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى دعا الله أن تكون المدينة أحب إلى المهاجرين من مكة . ولقد حج سعد بن خولة وهو من المهاجرين مع النبى ـ صلي الله عليه وسلم ـ حجة الوداع ، ومرض فى مكة ، وعاده النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مرضه ورثى له أن مات فى مكة ، وقال : اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم(١١٠) .

وأخذ عبد الله بن رواحة بزمام ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل يرتجز قائلاً :

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويُذهل الخليل عن خليله
يا رب إنى مؤمن بقيله ... إنى رأيت الحق فى قبوله

---

(١١٠) الاستيعاب لابن عبد البر ج ٢ ص ٥٨٦ .

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ يا بن رواحة ، بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى حرم الله تقول شعراً ؟

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلِّ عنه يا عمر ، فلهى فيهم أسرع من نضْح النبل[111] .

ثم قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعبد الله بن رواحة : يا ابن رواحة ، قل : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ،

فقال عبد الله ذلك ، فقالها الناس معه .

وقد تأذى القرشيون بهذه الكلمات أكثر من تأذيهم بشعر ابن رواحة الذى قاله أولاً .

ولم يزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلبى حتى استلم الحجر الأسود بمحجنه[112] .

كان كفار قريش فوق الجبال يرقبون موكب المسلمين وهم يطوفون حول نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أحس النبى بما يعتمل فى نفوس القرشيين الذين كانوا يقولون : إن المهاجرين أوهنتهم حُمىً يثرب .

أطلعه الله على ما يعتمل فى نفوسهم ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة . . وأمرهم أن

---

(١١١) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٥٦ .

(١١٢) المحجن : عصا معوجة الرأس يلتقط بها الراكب ما سقط منه .

يرملوا فى الأشواط الثلاثة الأولى ، أى يسرعوا ، فأسرعوا فى طوافهم ، فرآهم المشركون فى قوتهم ونشاطهم وجريهم . ما بهم ضعف ولا فتور ولا وهن . فأخذ بعضهم يقول لبعض : أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى وهنتهم ؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا ...... إنهم لينفرون نفر الظبى .. أى يثبون وثب الغزال فى نشاطه وخفته وقُوته .

وقد رأى المشركون قوة أعضادهم أيضاً فلم يجدوا فيهم ضعيفاً أو مهزولاً ..

وقد أصبح الرمل ـ أى الإسراع فى الأشواط الأولى ، من سنن الاحرام فى الحج والعمرة منذ ذلك الوقت .

وبعد الطواف بالبيت سعى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المسلمين بين الصفا والمروة .. وقد سمى السعى بينهما طوافاً اقتداء بما جاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾(١١٣)

فقد سمى القرآن السعى طوافاً .

وبعد أن انتهى من الشوط السابع فى السعى ، وكان الهدى واقفاً فى انتظاره عند المروة ، وكان قد بعث فى إحضاره بعد أن كان محبوساً بذى طُوى .

---

(١١٣) البقرة ١٥٨ .

وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - هذا المنحر ، وكل فجاج مكة منحر . فنحر النبى - صلى الله عليه وسلم - الهدْى عند المروة وحلق هناك أيضاً . وكذلك فعل المسلمون .

ثم أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - مائتين من أصحابه أن يذهبوا الى بطن يأجج ليحلوا محل إخوانهم الذين خُلِّفوا عند السلاح ليأتى هؤلاء فيطوفوا بالبيت ويسعوا بين الصفا والمروة كما فعلوا هم .

ففعلوا ذلك حتى أدى الجميع نسكهم . .

وأقام النبى - صلى الله عليه وسلم - بمكة ثلاثاً .

وجاء وفد من قريش إلى على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فقالوا له : قل لصاحبك أخرج عنا فقد مضى الأجل .

فخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - وفاء للشرط ، وفى أثناء الخروج جاءت ابنة الحمزة - رضى الله عنه - تجرى وهى تقول : ياعم ياعم فأخذها على - رضى الله عنه - وضمها وأعطاها لفاطمة الزهراء - رضى الله عنها - وقال لها : دونك ابنة عمك . فأخذتها فاطمة وقالت : إنه شرط - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن لا يصيب منهم أحداً إلا رده عليهم .

فقال لها على : إنها ليست منهم ، إنما هى منا .

فحملتها فاطمة معها . واختلف فى اسم هذه الفتاة والمشهور أنها أُمامة ثم اختصم فيها - بعد ذلك - على وجعفر وزيد ، كل منهم يريد أن تكون عنده ، فقضى النبى - صلى الله عليه وسلم - بها لجعفر لأن خالتها أسماء

بنت عميس عنده . أما طلب زيد بن حارثة لها ، فلأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قد آخى بينه وبين حمزة ـ رضى الله عنه ـ ثم زوجها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سلمة ابن أم سلمة ، وقال له حين زوجها منه ـ : هل جُزِيت سلمة ؟

لأن سلمة هو الذى زَوَّج أمه أم سلمة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم(١١٤) .

وأخذت أمامة تسأل عن قبر أبيها ، فدُلَّت عليه وهو بأحد .

فقال حسان بن ثابت فى ذلك :

تسائل عن قَرْم هجان سميذع ... لدى الناس مغوار الصباح جسور
فقلت لها : إن الشهادة راحة ... ورضوان رب يا أُمام غفور
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنة فيها رضا وسرور(١١٥)

زواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ميمونة

وتزوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ميمونة بنت الحارث الهلالية فى سفرته هذه ، وهى أخت لبابة بنت أم الفضل زوج العباس ـ رضى الله عنه ـ وأصدقها العباس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربعمائة درهم .

وبنى بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكان اسمه « سَرَف » .

قال ابن اسحاق . وكانت قريش قد وكُلت سهيل بن عمرو بإخراجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة ، فقال له : اخرج عنا

(١١٤) أسد الغابة جـ٧ ص ٢١ .
(١١٥) المواهب اللدنية جـ٢ ص ٢٦٢ . والقرم البطل الشجاع والهجان : الأبيض الكريم ، والسميذع : الشجاع . والمغوار : كثير الإغارة .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لو تركتمونى تزوجت بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟

فقال : لا حاجة لنا فى طعامك ، فاخرج عنا .

وغضب سعد بن عبادة وأراد أن يغلظ القول لقريش . . ذكر أنه قال لسهيل بن عمرو - لما رأى من غلظ كلامه للنبى - صلى الله عليه وسلم - وإلحاحه عليه فى الخروج : كذبت لا أم لك ، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ، والله لا يبرح منها رسول الله إلا مختاراً راضياً .

فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : يا سعد ، لا تؤذ قومنا . زارونا فى رحالنا .

ذكر بعض العلماء أن ميمونة بنت الحارث هى التى نزل فى شأنها قوله - تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠ ﴾ (١١٦)

(١١٦) الأحزاب ٥٠ .

جاء فى القرطبى : وقد اختلف اسم الواهبة ، فقيل : هى أم شريك الأنصارية ، واسمها غُزَيَّة أو غزيلة ، وقيل : ليلى بنت حكيم ، وقيل : هى ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبى - صلى الله عليه وسلم - فجاءها الخاطب وهى على بعير لها فقالت : البعير وما عليه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم[١١٧] .

وشاءت الأقدار أن تموت ميمونة فى نفس المكان الذى بنى بها فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو « سرف » وذلك سنة احدى وخمسين .... وقيل سنة ثلاث وستين من الهجرة .

غزوة مؤتة

لقد سبقت مؤتة بسرايا كثيرة ، إلا أنها كانت أول صدام مسلح ضد الروم .

ومؤتة بالهمزة وبدونها ، وأولها ميم مضمومة ، هى قرية فى حدود الشام .. وقد أطلق البعض على هذه الغزوة اسم - سرية مؤتة - لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يكن فيها - وهم يقولون : إن الغزوة تطلق على الحملة التى يكون فيهاالنبى - صلى الله عليه وسلم - أما تسميتها غزوة ، فلكثرة عدد الجنود والأمراء فيها ، ولأن النبى - صلى الله عليه وسلم - وصف ماحدث فيها كأنه يراه رأى العين ..

---

(١١٧) القرطبى تفسير سورة الأحزاب الآية رقم ٥٠ ، وجاء ذلك فى تفسير ابن كثير وسيرة ابن هشام .

وسببها أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قد أرسل الحارث بن عمير الأزدى برسالة الى أمير بُصْرَى من جهة هرقل ، وهو الحارث بن أبي شمر الغسانى ، فتصدى له فى الطريق شرحبيل بن عمرو الغسانى ، فقال له : أين تريد ؟

قال الحارث : الشام

فقال شرحبيل : فلعلك من رسل محمد ؟

قال : نعم

فأمر به فأوثق بالحبال ثم قدمه فضرب عنقه .

ولم يقتل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول غيره .

فنما الخبر الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعزم على الثأر له ، مع تأديب الأعراب الذين غدروا بدعاة المسلمين فى ذات الأطلاح ـ وراء ذات القرى ـ من أرض الشام . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أرسل كعب بن عمير الغفارى على رأس فرقة من خمسة عشر صحابيا فغدر بهم الأعراب فى هذا المكان وقتلوهم ولم ينج منهم سوى رجل واحد أفلت بجراح .

فعقد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لزيد بن حارثة على رأس ثلاثة آلاف جندى وقال له : إن أصبت فالراية لجعفر ، فإن أصيب فالراية لعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب اختار المسلمون أميرا منهم . .

وتوجه الجيش الاسلامى وعدته الصبر والايمان إلى جانب مامعه من أسلحة العرب المعروفة ، فوجد فى انتظاره الروم فى مائة ألف يقودهم هرقل

قيصر الروم ، ومعهم الأعراب الموالون للروم .. يقودهم شرحبيل ابن عمرو الغسانى الذى قتل الحارث بن عمير الذى أرسله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم اليهم .....

سير الأحداث

كانت هذه الغزوة فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة ....

وقد ودعهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكبار أصحابه حتى ثنية الوداع وأوصاهم ألا يقتلوا النساء أو الأطفال أو المكفوفين ، وألا يهدموا المنازل ولايقطعوا الاشجار ..

كما أوصاهم أن يأتوا إلى المكان الذى قتل فيه الحارث بن عمير ، ويدعوا من هناك إلى الاسلام فان أجابوا كفوا عنهم ، وإلا استعانوا عليهم بالله ـ تعالى ـ وقاتلوهم .

وظل المسلمون يدعون للخارجين للغزو قائلين : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا سالمين غانمين .

وأقبل عبد الله بن رواحة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمدحه بأبيات قال فيها :

فثبت اللـه ماآتاك من حسـن   تثبيت موسى ونصر كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة   فراسة خالفت فيك الذى نظروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله   والوجه منه فقد أزرى به القدر

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : وأنت ثبتك الله يابن رواحة[118] .

وسارت القوة تشيعها الدعوات الصالحات ، والتمنيات بالنصر والسلامة . . حتى وصلت الى مكان فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء .

ووصلت أنباء تحركاتهم إلى الروم قبل وصول المسلمين الى هذا المكان . . فحشد الروم قواتهم فى « مآب » فى طرف الشام من نواحى البلقاء . . وفوجىء المسلمون بهذه الأعداد الهائلة من قوات الروم والأعراب الموالين لهم . وهى تفوق عدد المسلمين عشرات المرات . فماذا يجدى ثلاثة آلاف أمام مايقرب من مائة ألف ؟ والمسلمون بعيدون عن بلادهم وهؤلاء فى بلادهم ؟

واجتمع قواد المسلمين للتشاور . فقال بعضهم : نكتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نخبره بحقيقة الأمر ، فإما أرسل لنا مددا أو أفادنا بما نصنع .

ولكن أغلبهم رأى أن يمضوا لأداء مهمتهم مهما كانت النتائج . . . . ومن هؤلاء عبد الله بن رواحة الذى قال : ياقوم ، والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له . خرجتم تطلبون الشهادة ونحن مانقاتل الناس بعدد ولاقوة ولاكثرة ، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به ، فإنما

---

(١١٨) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٧٠ .

هى إحدى الحسنين إما ظهور وإما شهادة .

فقال المسلمون : صدق والله ابن رواحة

وكان عبد الله بن رواحة شاعرا فأنشد أبياتا زادت فى حماس الجند وألهبت مشاعرهم ، فقد قال :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى يا أرشد الله من غاز وقد رشدا (١١٩)

ومضى الناس للقتال ، وتحركوا نحو جيوش الروم ـ وقد انحاز المسلمون إلى مؤتة . ويبدأ القتال الأول عند قرية « مشارف » بتخوم البلقاء ، وهى قرب حوران من أعمال دمشق . .

ولكن المسلمين رأوا أن منطقة قرية « مؤتة » بين الكرك والطفيلة أنسب لخوض المعركة فيها ، لوجود العوارض الطبيعية التى يمكنهم التحصن بها نظرا لقلة عددهم بالنسبة لعدوهم .

ودار القتال بين قوتين غير متكافئتين عددا وعدة ، ولم يكترث المسلمون بكثرة عدوهم بل أقبلوا فى هجومهم بشجاعة نادرة وبسالة فائقة . .

وتقدم زيد بن حارثة أمير الجيش فى حماس منقطع النظير وهجم على

---

(١١٩) المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٧٠ ـ وذات فرغ يعنى : واسعة يسيل دمها كالعيون ، والزبد ـ بفتح الزاى والباء رغوة الدم .

عدوه الذى وجه إليه رماحه من مختلف الجهات ..

واستشهد البطل زيد بعد قتال مستميت ..

وحمل الراية بعده جعفر بن أبى طالب كما أشار النبى - صلى الله عليه وسلم - واندفع بها نحو صفوف العدو ، فأصيبت يده اليمنى ، فحمل الراية بيسراه فأصيبت أيضا ، فاحتضن الراية بعضدية ومازال محافظا عليها حتى استشهد - رضى الله عنه - ولذلك لقبه النبى - صلى الله عليه وسلم - بذى الجناحين ، فقد قال : لقد أبدله الله بيديه جناحين فى الجنة .

وكان جعفر يقاتل أولا على فرس له شقراء فنزل عنها . وأخذ ينشد :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

علّى إذ لاقيتها ضرابها

وقاتل حتى قتل[١٢٠]

وحمل الراية من بعده الأمير الثالث الذى سماه النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو عبد الله بن رواحة . وتقدم بالراية وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ، وربما تردد بعض تردد ، فاستحث نفسه مخاطبا لها قائلا :

أقسمت بالله لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه

قد طالما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة فى شنة ؟

---

(١٢٠) المرجع السابق ص ٢٧٢

ثم قال :

يانفس إن لاتقتلى تموق هذا حمام الموت قد صليت
وماتمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت[١٢١]

يريد صاحبيه زيدا وجعفرا .

فلما نزل عن الفرس ، أتاه ابن عمه بعرق من لحم وقال : شد بهذا صلبك فإنك لقيت فى أيامك هذه مالقيت ، فأكل منه قطعة ثم سمع ارتطام السيوف ـ فألقاه من يده وأخذ سيفه ، وقاتل حتى قتل .

فأسرع ثابت بن أقرم العجلانى ـ وأخذ اللواء ، وقال : يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم .

قالوا : أنت .

قال : ماأنا بفاعل . والتفت إلى خالد بن الوليد ، وقال ماأنا بصاحب ذلك ، ماأخذت اللواء إلا لأقدمه إليك .

فاصطلحوا على تولية خالد بن الوليد . . وكانت هذه أول معركة يخوضها وهو مسلم ، وهى أول اختبار له فى الإسلام .

نظر خالد الى الموقف فأدرك أنه فى غير صالح المسلمين . . ولأن ينسحبوا انسحابا منظما أشرف من أن يبادوا جميعا .

والانسحاب فى لغة العسكريين يقصد به التخلص من القتال بالحركة الى الخلف انتظارا لظروف مناسبة .

ولذلك قرر خالد الانسحاب لتخليص قوات المسلمين من المأزق الحرج الذى وقعوا فيه . .

---

(١٢١) المرجع السابق

واستفاد من حلول الظلام فأعاد تنظيم قواته وجمع مؤخرة قوية لحماية الانسحاب .

لقد قام بعملية تمويه بارعة على العدو ، فقد جعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة والمقدمة ساقة والساقة مقدمة ، وأمر جماعة يثيرون التراب من بعيد ليظن العدو أن هناك أمدادا قادمة للمسلمين . .

والتزم العدو حصونه انتظارا لما سوف يحدث . .

وانتهز خالد الفرصة . . فأبقى المؤخرة لشغال العدو وتعويقه عن المطاردة وبذلك تم إنقاذ الجيش من عملية تطويق كان من الممكن أن يقوم بها العدو لإفنائه . .

وجعل مؤخرة المسلمين تنتشر فى جبهة واسعة وتحدث ضجة هائلة لإيهام العدو بقدوم إمدادات جديدة للمسلمين ، ولحرمان العدو من معرفة انسحاب قوات المسلمين .

وقد أدت هذه الخطة مفعولها بنجاح . فلم يتكبد المسلمون فى انسحابهم خسائر تذكر ، على الرغم من أن عملية الانسحاب من أصعب العمليات العسكرية لاحتمال انقلاب الانسحاب الى هزيمة .

لقد كان تفكير خالد سليما ويعد من أبرع العمليات التى يقوم بها القائد الناجح .

إن خالدا لم يترك القتال فى أثناء القيام بهذه العملية ، بل كان يناوش العدو ويقاتله فى الوقت الذى تتم فيه عملية الانسحاب فى خفاء ، حتى لقد تكسر فى يد خالد تسعة سيوف .

وعاد المسلمون ولم يفقدوا فى هذه المعركة العنيفة سوى اثنى عشر شهيدا فى الوقت الذى كان من الممكن أن يفنى الجيش بأسره .

أما قتلى العدو فكانت أضعاف قتلى المسلمين . حقا إنه لاتوجد معلومات توضح مقدار خسارته ، لكنها بلاشك كانت جسيمة ، لأن كل قائد من قواد المسلمين الذين تولوا القيادة قبل خالد كان شجاعا ومقاتلا بارعا ومن المؤكد أنه لم يبع نفسه رخيصة ..... وقد تكسرت فى يد خالد تسعة سيوف قبل أن يتناول السيف العاشر ، وهذه السيوف لم تتكسر إلا على رقاب الأعداء وأجسامهم ..

ولقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون الجيش العائد .. وتحدث بعض الناس قائلين .. لهم : يافرار فررتم من القتال فى سبيل الله .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رد اعتبارهم قائلا : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله .. ووضع وساما باقيا على صدر خالد حين قال عنه : إن خالدا سيف من سيوف الله .. ومنذ ذلك الوقت أصبح خالد يطلق عليه : سيف الله المسلول .

لقد كانت نتيجة هذه المعركة رائعة بالنسبة للمسلمين .. فقد استفادوا منها كثيرا فى معرفة قوات الروم وأسلوب قتالها ، فأفادوا من ذلك فى قتالهم لهم بعد ذلك .. ولاتعد خسائر المسلمين الطفيفة فى الأرواح شيئا بجانب المزايا العسكرية التى أفادوها من الاطلاع على خواص قوات الروم وتنظيمها

وتسليحها وأساليب قتالها[١٢٢]

درس من مؤتة :

والآن بعد أربعة عشر قرنا من موقعة مؤتة أو تزيد ، ننظر الى واقعنا الأليم فنزداد حسرة وألما . .

لقد كان المسلمون وهم ثلاثة آلاف فى مواجهة مايقرب من مائة ألف ومع ذلك لم يجزعوا ولم يجبنوا ولم يضعفوا ولم يترددوا بل أقبلوا على عدوهم الكثيف العدد الكثير المدد ، القوى العُدَدِ ، بقلوب ثابتة ، وعقيدة راسخة ، ويقين صادق . .

ومع ذلك لم يضعف هذا الايمان بقتل الأمير الأول ثم الثانى ثم الثالث . بل ازداد المسلمون حماسا وقوة . .

●● لقد كان المسلمون يقتحمون أبواب الشهادة فى نشوة بالغة وإقبال عجيب ، حتى يدخل الرعب الإلهى فى أفئدة كثير من المشركين ، دون أن يكون له سبب ظاهر فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير ويقتل منهم الكثير ، وهذا أمر يثير العجب والدهشة . . ولكن الدهشة كلها تزول والعجب ينتهى إذا تذكرنا مايفعله الإيمان بالله والاعتماد عليه واليقين بوعده فى نفوس المسلمين . . .

●● بل إن المدهش بالنسبة للمسلمين ـ إذا كانوا مسلمين حقا ـ ألا يكونوا كذلك والعجيب فيهم حقا أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد والعدة

---

(١٢٢) الرسول القائد ص ٢٩٥ وما بعدها

حساب فى أفكارهم .. إن هذا الحساب يجب أن يتلاشى الى جانب ماوعدهم الله به من نصر وتأييد ، أو جنة ونعيم خالدين .. فالمسلمون كما قال عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ لايقاتلون بعدد ولاعدة ولاكثرة ، وانما يقاتلون بهذا الدين الذى أكرمهم الله به .(١٢٣)

إننا نتحسر الآن على أنفسنا وقد وصل عدد المسلمين إلى الف مليون ومع ذلك فهم مهزومون فى كل ميدان ، مغلوبون على أمرهم تتحكم فى أقدارهم ومواردهم ومستقبلهم شعوب أجنبية وتستولى على أرضهم شراذم من آفاق العالم ، تطرد السكان المسلمين من مواطنهم لتقيم مكانهم مهجرين ولاجئين من مختلف الجنسيات واللغات . فهل هناك هوان أفظع من ذلك ، وكل ذلك تحت سمع العالم الذى يدعى الحرية والتحضر ..... بل وبموافقته ومشورته ..

إننا لو تدبرنا موقف المسلمين فى مؤتة وكيف أبلى الابطال فيها بلاءهم الحسن ، لاتخذنا من ذلك درسا يحرك فى نفوسنا الغيرة على أنفسنا وديننا ومجتمعنا .. ولنا ان ننظر الى موقف الابطال وتشوقهم الى الجنة ..

فقد روى ابن إسحاق قال : « ودع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الجيش عند خروجه من المدينة ، وفى تلك الأثناء بكى عبد الله بن رواحة فقالوا له : مايبكيك ؟ قال : أما والله ماأبكى فى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ آية من كتاب الله ـ تعالى ـ يذكر فيها النار ... وهى قول الله تعالى :

« وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا »(١٢٤)

---

(١٢٣) فقه السيرة ص ٢٧١ (١٢٤) سورة مريم ٧١

فلست أدرى كيف لى أن أصدر بعد الورود ؟

إنه الإيمان الحقيقى ، والشوق الى الجنة والخوف من النار ـ هو الذى أبكاه ـ إن هؤلاء الأبطال لاهم لهم إلا ماأعدوا أنفسهم له من طلب الآخرة والحرص على مافيها من سعادة فى الجنة . .

ومن أجل ذلك دانت لهم الحياة عن طريق حرصهم على الوت فى سبيل الله . . وعلينا أن نتدبر هذه الحكمة التى نبعت من صفوفهم : احرص على الموت توهب لك الحياة .

ثم انظر إلى هذه المعجزة الخارقة من معجزات المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين وقف ينعى أصحابه وعيناه تذرفان بالدموع . . . . لقد زوى الله له الأرض حتى أراه المعركة التى دارت مع هؤلاء الأبطال .

ثم إنه زكى خالد بن الوليد وهو واقف مكانه فقال : لقد أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم . .

كانت موقعة مؤتة جولة فى تاريخ الجهاد الاسلامى تبعته جولات أخرى قهرت الباطل وقضت على الشرك وقوضت حصون الكفر . .

وقد آن لنا الآن أن ننتقل معا إلى صفحة أخرى من صفحات هذا الجهاد المقدس لرفع كلمة الله . .

وهذه الصفحة وإن كانت ليست حربية إلا أن تأثيرها فى نشر الإسلام كان عظيما . . تلك هى مرحلة بعث الكتب والرسل الذين بعث بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مختلف الجهات يبلغون الملوك والامراء كلمة الله ويؤكدون عموم رسالة الإسلام . . . .

البعوث والكتب


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الاسلام دين عالمى

فى خلال العام السابع الهجرى بدأ النبى - ﷺ - يبلغ دعوة الاسلام إلى شعوب الأرض فى خارج الجزيرة العربية عن طريق ملوكهم ورؤسائهم . . وتبليغ الدعوة إلى العالم أجمع هو محور هذه الرسالة العالمية التى اختارها الله للبشر جميعاً . . مصداقاً لقوله - تعالى -

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١٢٥)

ولايمنع أن يكون النبى عربيا ثم هو فى الوقت نفسه رسول إلى العالم أجمع فقد جعل الله الأمة العربية أمة وسطا - قال تعالى . .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (١٢٦)

ولايمنع أن يكون النبى معتزاً بقوميته ثم هو فى الوقت نفسه يقدر قوميات الآخرين ، فالاعتزاز بالقومية إنما هو اعتداد بكرامة الانسان وصيانة لحقه ، وإحياء لمعانى الإنسانية فى الناس أجمعين .

---

(١٢٥) آل عمران ٨٥

(١٢٦) البقرة ١٤٣

قبل ألف وأربعمائة سنة بعث الله فى العالم الأرضى رجلا كان إماما للبشرية فى مثلها الأعلى ، ورسولا للإنسانية فى مقدمتها الحسنى .

ذلك هو محمد بن عبد الله ، النبى العربى ، رسول رب العالمين إلى جميع خلقه من عرب وعجم ، ومن بيض وسود ، ومن سادة ومستعبدين .

نبىٌ عربى مبين .. ولكنه رسول رب العالمين إلى جميع بنى الإنسان ، وذلك هو مثال القومية الفاضلة ، وقوام الانسانية كما يتمثل فيها جميع بنى الانسان .

كان محمد بن عبد الله - ﷺ - راضى النفس بعروبته ، يحمد الله لأنه ولد يوم أعز الله العرب ونصرهم على دولة الأكاسرة التى طغت على حوزتهم واستباحت ماملكت من جوارهم . وكان يحب قومه ولايحب من يبغضهم ، فلايكره العرب إلا منافق ، ولايخلص فى عقيدته من لا يخلص فى رعايتهم وعرفان حقهم ، قال لصاحبه وحبيبه « سلمان الفارسى » : « ياسلمان لاتبغضنى فتفارق دينك » .

قال سلمان رضى الله عنه - : وكيف أبغضك وبك هدانا الله ؟

قال - صلوات الله عليه : تبغض العرب فتبغضنى »

وفى حديث عثمان ذى النورين : من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى » .

« كان النبى - ﷺ - يحب قومه ، ويحب أن يحبهم الناس ، ولكنه الحب الذى يعمل وينفع ويرفع من قدر قومه وإنسانية الآخرين .

« وهذا الحب هو الذى جمع شمل العرب وألف بين قلوبهم ، وأخرج من

أشتات قبائلهم أمة واحدة تهابها الأمم ، وتتلقى عنها رسالة الهداية باسم الله ، باسم رب العرب والعجم ، باسم رب العالمين ، باسم رب الانسان فى المشارق والمغارب »(١٢٧) .

.. لقد كانت البشرية قبل بعثة محمد - ﷺ - فى حاجة إلى رسالة عامة تنقذها مما كانت تتردى فيه من فساد وضلال وانحلال وانحراف عن الجادة ، وخروج على النهج الذى جاءت به الرسالات السابقة على الاسلام .

لقد كان العرب - مثلا - قبل الإسلام يزعمون أنهم يسيرون وفق شريعة جدهم إبراهيم - عليه السلام - ولكن ذلك قول يجانبه الصدق فإن إبراهيم - عليه السلام - كان حنيفا مسلما ، ولم يكن وثنيا مشركا . وقد زعم اليهود والنصارى أيضا أن إبراهيم منهم ، ولكن زعمهم هذا مردود عليهم - فما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ، ولكنه كان حنيفاً مسلماً ..

وقد تصدى القرآن الكريم للرد على هذه الافتراءات فقال :-

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾(١٢٨)

---

(١٢٧) الاسلام دعوة عالمية للعقاد ص ١٠ - دار الهلال

(١٢٨) النحل ١٢٠ : ١٢٣

وقال :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ
وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ
فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ
وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ
لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[129]

لقد حرف العرب فى الجاهلية دين إبراهيم فجعلوا صلاتهم للأوثان وحولوا الحج والعبادة للأحجار والأنصاب ..... ولم يكن فى شريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ سجود لصنم أو دعاء له أو تقديم القرابين إليه أو وأد للأناث أو غير ذلك مما شاع بينهم . ولم يكن الانحراف عن الجادة فى الجزيرة العربية فحسب ، بل كان العالم كله من شرقه إلى غربه يضطرب بالفتن ويموج بالبلايا والمحن وتسوده شريعة الغاب وقانون القوة الغاشمة .. والأمم المختلفة وقود للحرب بين أمتين تسيطران على شعوب العالم ـ الفرس شرقا ، والرومان غربا .. وأرزاق العباد نهب لأولئك المسيطرين ، والكل عبيد لأولئك الجبارين ، وهم فى جبروتهم لايخشون نقمة الجبار يوم الدين .

---

(١٢٩) آل عمران ٦٥ : ٦٨

« والديانتان السماويتان الموجودتان فى ذلك الوقت قد سخرتها الشهوات لخدمة الطغاة المستبدين ، وحرفت الأهواء كتبهما بثمن قليل .... فكان العالم كله بحاجة إلى بعثة عامة شاملة ترفع المظالم عن المظلومين وتكبح جماح الظالمين ، وتنقى العقائد من الوثنية والشرك ، وتنزه الخالق عن الصاحبة والولد ، وعن أن يكون له كفوا أحد ، وتُطَمْئِن كل انسان على رزقه ، وتنشر الأمن والطمأنينة بين العباد وتعيد الحق إلى نصابه والعدل إلى محرابه »(١٣٠) .

لماذا اختير نبى عربى لهذه الرسالة العامة ؟

أما لماذا اختار الله لهذه الرسالة العامة نبيا عربيا ، مع أن الرسل فى هذه المنطقة كانوا من ذرية إسحاق أخى إسماعيل عليهما السلام ؟ ..

فلأن حكمة الله وفضله قد أرادا ذلك .. خصوصاً وأن بنى إسرائيل ـ كما يقول ـ الشيخ مصطفى الطير ـ كانوا قد تمردوا على شريعة الله جيلا بعد جيل .

ففى عهد موسى ـ عليه السلام ـ عبدوا العجل ، ولم يمض على إنجاء الله لهم من قبضة فرعون قليل من الزمن ، فبعد أن عبروا البحر الأحمر ، ورأوا بأعينهم كيف أغرق الله فرعون وقومه ، رأوا قوما يعبدون الأصنام فقالوا لموسى اجعل لنا أصناما نعبدها مثلهم ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك قائلا :

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ

---

(١٣٠) عطاء الرحمن من شريعة القرآن ـ الشيخ مصطفى الحديدى الطير ص ٥٤

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (١٣١)

ثم انتهزوا فرصة غيبة موسى فى مناجاة ربه فاتخذوا من حليهم عجلا جسدا له خوار وسجدوا له من دون الله ،

وانساقوا بعد موسى فى تيار الوثنية مع الشعوب المجاورة لهم ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل تطاولوا على أنبيائهم وقتلوهم . .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو
بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ
يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ
وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١٣٢)

وقد بينا ذلك تفصيلا فى موضعه من قصة سيدنا موسى مع بنى إسرائيل .

ومن أجل هذا الانحراف فى طباعهم وأخلاقهم كان الله يتعهدهم بإرسال الرسال والأنبياء إليهم ، لوعظهم وإرشادهم وردهم إلى سواء السبيل . . .
وكان آخر هؤلاء الأنبياء الذين أرسلوا إليهم عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ .

---

(١٣١) الأعراف ١٣٨ : ١٤٠
(١٣٢) آل عمران ١١٢

ولم يزل الانحراف عن التعاليم السماوية سائداً حتى قالت اليهود : ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

« لهذا فَقَد بنو إسرائيل الصلاحية لجعل الرسالة العامة فيهم ، فاختار الله ـ تعالى ـ لها أمة شديدة العزم قوية البأس ، وقوما صلاب الإرادة . . . . . . فقراء لكن لايبطرهم الغنى إذا جاءهم ، ولايستحوذ عليهم الغرور إذا نصروا على الناس ، ولايبعثهم على الصلف أن رسالتهم هى الرسالة العامة ، وأن رسولهم هو خاتم الرسل . .

وتتمثل هذه الأمة الرشيدة فى أحفاد اسماعيل الغر الميامين ، حراس البيت الحرام الذى بناه إبراهيم وابنه اسماعيل ليكون مثابة للناس وأمنا ، وليكون كعبة للرسالة الخاتمة .

« واختار الله من هذه الأمة واحداً من أنضر أرومة فيهم ، وأعرق مجد فى أنسابهم . أراد الله له أن يذوق اليتم فى طفولته ليعظم إحساسه بآلام البشر . . . . إنه لا يعرف الألم إلا من ذاق طعمه .

وقد رباه ربه على أرفع السجايا وأطهر الأخلاق ، ومنحه قوة الصبر والاحتمال على محن الحياة ، ليستطيع القيام بعبء هذه الدعوة الجسيم . . ذلك هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب حفيد إسماعيل ، ودعوة إبراهيم وبشرى الأنبياء المتتابعين . . قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً

﴿لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا
وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (١٣٣)

المقصود بعالمية الإسلام ..

من أجل عالمية هذا الدين العظيم الذى اختاره الله للبشر جميعاً ـ اختار الله له هذا النبى الكريم ـ ﷺ ـ

ولكن ماذا تعنى عبارة عالمية الدين ..

إنها تعنى أن الدين لايختص بجنس دون جنس ، أو بإقليم دون إقليم ، أو بجيل دون جيل ، أو بعصر دون عصر .

بمعنى أن يكون صالحاً لكل زمان ومكان . . . . أو بمعنى آخر ـ أن يكون الدين شريعة الانسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة التى لا تدخل فى ماهية الإنسان كإنسان ..

ولا يوجد دين من الأديان السماوية ، أو غير ذلك من القوانين الوضعية فيه من المواصفات الخلقية والقوانين السماوية التى تجعله عالمياً إلا دين الاسلام .

فالديانتان السماويتان الكبيرتان اللتان سبقتاه ـ وهما اليهودية والنصرانية كانتا مخصوصتين بقومهما وبعصرهما .

---

(١٣٣) البقرة ١٢٧ : ١٢٩

« فاليهودية لا تصلح أن تكون دينا عالميا لأنها مرتبطة بشعب معين تعرض للتشريد غير مرة ، وتقوم حياته على العصبية الحادة والعنصرية الجامحة ، ذلك أنهم يحاولون أن يستأثروا بعبادة الله الذى وصفوه بأوصاف تجعله إلها لهم فقط .

وهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار وأن غيرهم أميون ، ويستبيحون من غيرهم مالا يستبيحون من أنفسهم كالربا ، فهل مثل هذا الدين يصلح أن يكون عالميا ؟

على أنه لا يوجد نص فى التوراة يتحدث عن هذه العالمية . . . . فهو دين أسرة بشرية واحدة هم بنو إسرائيل ، وهم يكرهون أن يدخل بينهم غير عنصرهم . يقول (جوليان ويل) حاخام باريس فى كتابه اليهودية : يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخول فى عهد إبراهيم ثلاث مرات ، لافتا نظره إلى الصعوبات التى سيصادفها ، والتكاليف الشاقة التى سيتحملها ، والأخطار التى سيتعرض لها .

ثم قال : ثم هذا التحفظ فى أمر طالبى التهود دعت إليه طبيعة اليهودية ونظامها الخاص الذى لايقصد به إلا الإسرائيلى بأدق معانى هذه الكلمة . . وأوجبه كذلك ما فى اليهودية من التكاليف الكثيرة التى يستدعى العمل بها الاتصاف بأمور معينة والعمل على تحقيق غايات معينة . .

وغاية ما يتمسك به اليهود فى إدعاء عموم رسالتهم ما يزعمون من أنه ورد فى كتابهم أن بنى إسرائيل سيكونون مربين للشعوب القوية ، وأنه قبيل قيام الساعة سيتفق العالم كله على عبادة الله اتباعا لديانة بنى إسرائيل ، إذ

يكونون قد عقدوا مع الخالق عهداً جديداً ، فيضطر الناس إلى القيام عليه . ولكن هذا النص على فرض ـ صحته ـ يفهم منه أن دينهم لايصلح الآن ولا فى عهده الأول لقيادة البشر عامة ، بل سيكون ذلك على زعمهم قبيل قيام الساعة ـ على افتراض صحة هذه النصوص .

وأنى لها أن تكون صحيحة ، وقد حكم القرآن بأنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وبدلوا كتاب الله وغيروا معالمه ؟

لقد استبدلوا به تلموداً مملوءاً بالتعاليم الشاذة القائمة على الفساد والإفساد ، ليبسطوا نفوذهم على العالم كله بأية وسيلة مهما كانت . .

ولو نظرنا إلى المسيحية لوجدنا أنها تنادى بالزهد البالغ والرهبانية الشديدة ، وتحرم الأغنياء أن يدخلوا ملكوت السموات . .

على أن سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ بدأ دعوته ببنى إسرائيل خاصة كما جاء فى إنجيل متى وهو يقص محاورة المرأة الكنعانية لعيسى ـ وهى غير إسرائيلية ـ فأجاب عيسى وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة .

. . فليس فى المسيحية نص على عالميتها ، وما نشطت الدعوة إليها إلا بعد اعتناق الرومان لها ، وقد بقيت نحو ثلاثة قروق محصورة فى طوائف مبعثرة ، ولم تقم لها دولة إلى أن تولى قسطنطين الأول الامبراطورية الرومانية ، وكانت أمه قد ربته على المسيحية فحمل قومه عليها . ومن ذلك الحين قام النصارى بإرسال بعثات التبشير إلى البلاد النائية . بعد أن أعلن قسطنطين النصرانية

دينا رسمياً للبلاد سنة ٢٧٤ ـ ٣٣٧ م وحطم الهياكل والمعابد الوثنية[١٣٤]

وإذا كان هذا شأن هاتين الديانتين فى عدم صلاحيتهما للعالمية ، فأولى بذلك بقية الأديان والدعوات الأخرى .

القرآن يؤكد عموم رسالة النبى

لقد ذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خصائص رسالته أنه أرسل إلى الناس كافة ، وفى ذلك يقول : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة العظمى ، وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[١٣٥]

وستاتى أحاديث أخرى تظاهر هذا الحديث وتؤكده ، ولكنا ذكرنا هذا الحديث فى المقدمة لأنه يشير إلى ما ورد فى القرآن الكريم من آيات بينات تتحدث عن عموم رسالة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الناس جميعاً ، وإلى أنه من المحتوم عليه بناء على ذلك أن يقوم بابلاغها . .

فمن ذلك قوله ـ تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ

---

(١٣٤) الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه ـ الشيخ عطية صقر ص ١٠ ومابعدها .

(١٣٥) أخرجه الإمام البخارى عن جابر بن عبد الله ـ كتاب التيمم ـ والحديث متفق عليه

﴿ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨ ﴾ (١٣٦)

وقد جاءت هذه الآية بعد آية تُذَكِّر بنى إسرائيل بأن الله مرسل رسولا أمياً يجب عليهم أن يتبعوه ويؤمنوا به وأورد لهم صفته ـ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ
قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ
فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا
يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ
مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ
فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ
مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧ ﴾ (١٣٧)

فقوله ـ تعالى لنبيه :

« قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »

---

(١٣٦) الأعراف ١٥٨

(١٣٧) الأعراف ١٥٦ ، ١٥٧

أمر من الله تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغ دعوته لجميع البشر ، من العرب والعجم ، وبيان بأن رسالته ليست خاصة بقومه . . .

وقد ورد فى القرآن الكريم آيات أخرى تحمل هذا المعنى ، مثل قوله ـ تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١٣٨)

وقوله ـ تعالى :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (١٣٩)

وقوله ـ تعالى :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١٤٠)

وهذه الآية تشير إلى وجوب تبليغ الرسالة إلى كل الخلق حتى يطوى الله الأرض ومن عليها .

وهذا مثل قوله ـ تعالى :

« وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »

أى من بلغه القرآن فى أى زمان ومكان .

---

(١٣٨) سبأ ٢٨

(١٣٩) الفرقان ١

(١٤٠) يس ٦٩ ، ٧٠

ومن ذلك قوله - تعالى -

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ (١٤١)

وواضح أن أم القرى هى مكة ، أما من حولها فهم الناس جميعا فى مختلف الأقطار ، لأنهم حول مكة التى هى قطب العالم ، وهى بالنسبة للقرى قلبها ووسطها ، فكل حى على وجه الأرض مقيم حول مكة ، فهى مركز الدائرة ، وقطرها ممتد بين كل نقطتين على المحيط العالمى .

وقوله - تعالى -

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (١٤٢)

إشارة إلى أثر هذه الرسالة العالمية فى العالم أجمع ، فهى التى تنقذهم من الضلالة وترشدهم إلى الحق ، وتأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة الواسع ، فأى رحمة أعظم من ذلك ؟

وكتاب الله الذى هو دستور هذه الرسالة ، ليس كتابا خاصا بالعرب - وإن كان عربيا - ولكنه كتاب للناس أجمعين على اختلاف لغاتهم وأجناسهم

قال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١٤٣)

وقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٤٤)

---

(١٤١) الشورى ٧

(١٤٢) الأنبياء ١٠٧

(١٤٣) القلم ٥٢

(١٤٤) التكوير ٢٧

وهذا يبين أن الله اختار اللغة العربية لسانا لتبليغ هذه الدعوة فى أرجاء الأرض ، بدليل أنه لاتقبل صلاة أحد ـ وهى الشعيرة الأساسية فى الاسلام التى تمارس يوميا خمس مرات ـ إلا بتلاوة آيات من القرآن الكريم باللغة التى نزل بها .

وإذا كانت الأيات التى استشهدنا بها مكية فهناك آيات مدنية تشير إلى عالمية هذه الرسالة وتؤكد وجوب تبليغها إلى مختلف الأمم وأتباع الديانات الأخرى . .

فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١٤٥)

وقوله

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن

---

(١٤٥) المائدة ٤٨

يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١٤٦)

فقد جاء القرآن ليهيمن على ما سبقه من كتب ، ووجب أن يكون هديه وحكمه هو الذى يَدين به الجميع .

وقد دعا القرآن كلا من اليهود والنصارى إلى أن يقبلوا عليه ويستمعوا إلى ما جاء به من أحكام ويؤمنوا بشريعته التى أرسل بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١٤٧)

وأمر القرآن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغ أهل الكتاب دعوة الإسلام صريحة دون مواربة فقال له :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١٤٨)

---

(١٤٦) المائدة ٤٩ ، ٥٠

(١٤٧) آل عمران ٦٤

(١٤٨) آل عمران ٢٠

وأمره كذلك أن يبين لهم انحرافهم عن الدين الحق ـ وهو الذى سبق أن جاء به إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصحح هذا الانحراف ، ويعدل هذا الاتجاه ، ويرد عليهم مزاعمهم الباطلة التى زعموها .. يقول الله ـ تعالى :

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ (١٤٩)

ثم أعلنها لهم صريحة لامواربة فيها فقال لهم :

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (١٥٠)

وأعلمهم أن الله مظهر دينه على سائر الأديان ، مهما استعلت كلمة الكفر

---

(١٤٩) البقرة ١٣٥ : ١٣٨

(١٥٠) آل عمران ٨٥

وأعلنت العصيان قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١٥١)

وقال

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (١٥٢)

ولقد ذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رسالته عامة ، وأشار فى أحاديث متعددة رواها الثقات إلى أنه مبعوث للعالم أجمع ـ وأحاديثه هى المبينة والمفسرة لما جاء فى القرآن الكريم مجملا ، ومهمتها تفصيل موجزه وبيان مجمله

وقد سبق أن ذكرنا حديثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يقول فيه : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى . . . » ومن بين تلك الخمس عموم رسالته .

ويضاف إلى ذلك أيضا ماورد فى خطبه وكتبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من إشارات الى رسالته العامة . فمن ذلك قوله :

« كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود » .

وفى إحدى خطبه قال : « إنى رسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة »

---

(١٥١) التوبة ٣٣

(١٥٢) الفتح ٢٧

وفى إحدى رسائله : « فإنى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين »

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون .

ولاتختم الرسالة إلا بنبى تدوم رسالته وتعم سائر الممالك والأقطار ، وروى البخارى ومسلم عنه ـ صلى الله عليه وسلم . أنه قال : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأكمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين . .

وفى هذا الحديث دليل على أن هذه الرسالة لم تترك ثغرة لمستكمل ، أو فرصة لمستدرك ، فهى رسالة كاملة شاملة صالحة لكل زمان ومكان . .

وجوب تبليغ هذه الدعوة لعموم البشر :

فقد وجب إذن تبليغ هذه الرسالة الخاتمةالى جميع البشر ، وقد شمَّر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالفعل عن ساعد الجد فى ذلك ـ كما ذكرنا وكما سيأتى ـ وهذا الوجوب مستمر إلى يوم القيامة بنص القرآن الكريم . .

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (١٥٣)

---

(١٥٣) آل عمران ١٠٤

ذلك أن الناس كلما ابتعدوا عن التعاليم السماوية ازداد اقترابهم من الوثنية والجهالة التي كانت متفشية قبل الاسلام . وهانحن أولاء نرى مظاهر ذلك واضحة فيما حولنا .

فقد انتشرت التيارات الالحادية ، والشبه العقلانية ، والعلمانية وظهرت دعاوى كثيرة تغرى الانسان بالبعد عن الله ، وتصم الدين بوصمات من الجهل والتخلف وتسم المدينين بميسم الغفلة ، والبلادة وعدم مسايرة العصر ، إلى غير ذلك مما هو شائع وواضح .

ولئن كان العداء للاسلام قديما قد ظهر فى مقاومته بالقوة والوقوف فى وجه انتشاره بالسيف ، وتجريد الحرب ضده فى الأماكن التى انتشر فيها ـ فإن العداء الحديث قد ظهر فى صورة أخرى أشد ضراوة من الحرب المعلنة . ظهر فى صورة التبشير الذى رصد الكثير من الوسائل والامكانات المادية التى يحاول بها أن يقضى على الدعوة الاسلامية فى الشعوب التى تعتنقها منذ مئات السنين . .

وبدلا من أن يوجه التبشير المسيحى جهوده إلى محاربة الوثنية ، بذل هذه الجهود فى محاولة تحويل المسلمين عن دينهم وسلخهم عن شخصيتهم . وهدف التبشير الآن موجه إلى تشكيك المسلم فى دينه ولايهمه بعد ذلك أن يقبل على أى دين آخر . ويعد المبشر نفسه ناجحا إلى أقصى حدود النجاح لو استطاع أن يبذر الشبهات والشكوك فى نفس الضحية التى يستهدفها ، واذا ضعفت الثقة فى نفس المتدين بالنسبة الى دينه ، فقد ضاع منه كل شىء . إن الانسان فى ظل دينه آمن مطمئن واثق قوى ، ولكنه بدون ذلك خائف

ضائع تائه مشرد . . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى قوله ـ تعالى ـ على لسان إبراهيم عليه السلام ـ

﴿ وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

فيجب علينا أن ننتبه ونتيقظ ونعرف واجبنا نحو هذا الدين الحنيف ونتابع الدعوة اليه ونرد على الشبه التى يثيرها هؤلاءالأعداء بغية زعزعة العقيدة فى نفوس المسلمين . كما يجب علينا أن نقف بالمرصاد لحركات التبشير الضارية التى يقوم بها الأعداء بوسائل فى منتهى الدناءة والخبث .

هذه واحدة . أما الأخرى فانه فى هذا العصر قد انتشر الالحاد وتجددت لأهل الباطل على اختلاف فرقهم شبهات جديدة يتكئون فيها على مسائل من العلوم العصرية لم تكن معروفة من قبل . . وقد أثار ذلك انتشار المادية وفوضى الآداب وتدهور الأخلاق وتغلب الرذائل على الفضائل ، وظهور

---

(١٥٤) الأنعام ٨٠ : ٨٢

الفساد فى أفظع صورة . مما أوجب ضرورة الدعوة للعودة الى تعاليم الاسلام التى تأخذ بأيدى الناس الى الحياة السعيدة النظيفة التى تقيم بنيان المجتمع على أسس من الخير والفضيلة التى يولدها الايمان بالله واليوم الآخر . .

بعد هذا التقديم الذى لابد منه . نرى لزاما علينا أن نوضح للقارىء كيف استجاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمر ربه حين قال له

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (١٥٥)

وقد جاء بعد هذه الآية مباشرة قوله ـ تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١٥٦)

وتجاور الآيتين يوحى بأن الأمر بالتبليغ ليس قاصرا على أمة العرب بل هو شامل للعرب وغيرهم ـ كما سبق بيانه ـ وإذا كان أهل الكتاب مدعوين الى الايمان بالرسالة الخاتمة ـ فغير أهل الكتاب أولى بالدعوة إلى الايمان بها . .

متى أرسل النبى كتبه ورسله الى الملوك والأمراء ؟

ذكر ابن سعد فى طبقاته أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رجع من

---

(١٥٥) المائدة ٦٧

(١٥٦) المائدة ٦٨

الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، وكتب إليهم كتبا ، وقد قال له بعض أصحابه : يارسول الله ، إن الملوك لايقرءون كتابا إلا إذا كان مختوما ، فاتخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ خاتما من فضة ، نقش عليه - محمد رسول الله - وختم به الكتب . . . . . فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد . وذلك فى المحرم سنة سبع . وكان كل رجل منهم يعرف لسان القوم الذين بعثه اليهم(١٥٧)

لقد كانت لغة هذه الكتب هى اللغة العربية ، وهى لغة كتاب هذه الدعوة وقد قال الله - تعالى - :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤ ﴾(١٥٨)

قال المفسرون : لاحجة للعجم وغيرهم فى هذه الآية لأن كل من ترجم له ماجاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - ترجمة يفهمها لزمته الحجة . . قال الله تعالى -

« وماأرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ٢٨ سبأ »

وقال - صلى الله عليه وسلم - : وكان كل نبى يرسل الى قومه خاصة وأرسلنى الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه » وقال : « والذى نفسى بيده لايسمع بى أحد من الناس يهودى ولانصرانى لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »(١٥٩)

---

(١٥٧) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ٢ ص ١٥

(١٥٨) ابراهيم ٤

(١٥٩) أخرجه مسلم . وراجع تفسير القرطبى فى الآية المتقدمة .

وقد فهم العلماء من الآية السابقة أن اللغة العربية ستسود وتنتشر حتى تصبح لغة الشعوب التى تدين بالاسلام ـ وهذا ماحدث فعلا ـ فى مصر والشام وأفريقيا وفارس وغيرها من الدول التى اعتنقت الاسلام . وبذلك اتفق لسانها مع لسان ذلك الرسول الذى نزل عليه القرآن .

قال صاحب تفسير المنار : ومما يدخل فى شأن اتّباعه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تعلم لغته التى هى لغة الكتاب الالهى الذى أوحاه الله ـ تعالى ـ إليه ، وأمر جميع من اتبعه ودان بدينه أن يتعبد به وأن يتلوه فى الصلاة وغير الصلاة مع التدبر والتأمل فى معانيه ، وذلك يتوقف على إتقان لغته وهى العربية .. فالمسلمون يبلغون الدعوة لكل قوم بلغتهم حتى إذا ماهدى الله من شاء منهم ودخل فى الاسلام علموه أحكامه ولغته ، وكذلك كان يفعل الخلفاء والفاتحون فى حيز القرون ومابعدها . الى أن تغلبت الأعاجم على العرب وسلبوهم الملك فوقفت الدعوة إلى الإسلام وضعف العلم بالعربية »(١٦٠)

وقد أوجب الفقهاء على المسلمين من مختلف الأمم تعلم اللغة العربية لفهم القرآن الذى نزل بها ..

والحكمة فى نزول القرآن باللغة العربية هى بيان أفضلية هذه اللغة ووجوب تعلمها على كل مسلم حتى يستطيع أن يقيم صلاته على الوجه الأكمل والصلاة هى رأس العبادات كما نعلم ..

ولنعد إلى هؤلاء الرسل الذين بعثهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم

---

(١٦٠) انظر تفسير المنار ج١ ص ٢٦٤ ط الهيئة المصرية للكتاب .

عرب خلص إلا أنهم كانوا على دراية بمعرفة لغة الأقوام الذين أرسلوا إليهم .

على أن عدم معرفتهم بلغات من أرسلوا اليهم لايحول دون تبليغ الرسائل فان للملوك مترجمين يحيطون بهم ، وقد جاء فى خبر كتاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هرقل عندما سلمه إليه دحية بن خليفة الكلبى ـ أن هرقل دعا الترجمان وأمره أن يقرأ الرسالة .

وعلينا أن نلاحظ الدقائق الآتية ـ التى تنبه لها فضيلة الشيخ عطية صقر ـ فى هذه الرسائل المرسلة للملوك والأمراء فى خارج الجزيرة العربية .

أولا : أنها كتبت باللغة العربية وهى اللغة الرسمية للجهة المُرسِلة ، وفى ذلك ضمان أكيد لدقة التبليغ بالمعنى الذى يريد المبلغ ، حتى إذا حدث خطأ فى الترجمة كانت التبعة على المترجم لا على الكتاب ولاعلى مرسله . وكثيرا ماتحدث مشكلات كثيرة من جهة الخطأ فى الترجمة وفى الرجوع الى النص الأصلى فيصل الموضوع .

ثانيا : أن كتب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى هؤلاء الملوك كانت على خلاف كتبه الى أمراء العرب ، فقد ختمت بخاتم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان نقش الخاتم « محمد رسول الله » كما رواه البخاري ـ ولهذا الخاتم أهميته فى الوثوق من رسمية الكتاب وصدوره عن مرسله ، وفيه تكريم لهؤلاء الكبار على ماكان متبعا عندهم .

ثالثا : اتبع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إرسال هذه الكتب طريقا

يتسم بحسن التصرف وعظمة التفكير . . إذ بعث بها إلى ممثلى هؤلاء الملوك فى بلاد العرب ليكونوا وسطاء فى توصيلهاالى الملوك ، وهو تقليد يجرى عليه العرف الحديث اتبعه الرسول ـ صلى الله على وسلم ـ منذ قرون . .

رابعاً : أن النقط الجوهرية التى دعت إليها هذه الكتب هى التوحيد والايمان برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا ترتيب طبيعى فى الدعوة ، يبدأ فيها بالأصول والمبادىء الأساسية ، فإذا حصل التصديق بها بينت الفروع بعد ذلك .

خامساً : كانت الدعوة إلى الملوك دعوة إلى العالم كله أو إلى غالبه . . بوصف هؤلاء الملوك ممثلين للشعوب التى يحكمونها ، والأجناس التى تعيش تحت ظلهم ، وقد كانت لفارس مستعمرات تحتها أجناس ، وللروم كذلك مستعمرات كثيرة متعددة ، وكان للحبشة نفوذ فى البلاد التى تجاورها ـ وكان يُحَمِّل المرسل إليهم التبعة فى تبليغ شعوبهم تلك الدعوة . .

سادساً : ضمن كتابه لهرقل آية كريمة هى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(١٦١)

وفى ذلك دعوة إلى المساواة ورفع لكرامة الانسان ، ودعوة إلى عدم خضوع أحد لأحد ، وبعد عن الاستعلاء أو التحكم .

---

(١٦١) آل عمران ٦٤

وفى ذلك أيضاً تقليد حسن رائع أساسه الدعوة إلى السلام والاحترام المتبادل بين الأمم[١٦٢] ..

تحذير من الاختلاف

حين عزم النبى - صلى الله عليه وسلم - على إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء خرج على أصحابه يوماً فقال : أيها الناس إن الله بعثنى رحمة للعالمين كافة ، فأدوا عنى - رحمكم الله - ولا تختلفوا علىَّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم - عليه السلام -

فقالوا : سمعنا وأطعنا يا رسول الله .

وقد بلغت وصية النبى - صلى الله عليه وسلم - مبلغها من القوم ، فما حدث أن تمرد رسول على الجهة التى أرسل إليها ، بل كل منهم قبل المهمة التى وجه إليها بصدر رحب ، ومضى الى وجهته مستبشراً مسروراً .

وقد أحسن النبى - صلى الله عليه وسلم - اختيار رسله ، وكلهم كانوا من ذوى اللباقة وحسن التصرف ، وسنرى طرفاً من ذلك حين نعرض لأخبارهم .. وحسن اختيار الرسول يغنى المرسِل والمرسَل إليه عن هموم كثيرة . وقد صدق القائل :

إذا كنت فى حاجة مرسلاً ... فأرسل حكيماً ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيباً ولا تعصه

وهذه هى أهم الكتب والرسائل التى بعث بها الرسول - صلى الله عليه وسلم -

---

(١٦٢) الدين العالمى ص ٥٩

كتابه - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل

كان رسول النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل قيصر الروم - هو دحية بن خليفة الكلبى - الذى كان جبريل - عليه السلام - يأتى فى صورته أحياناً بالوحى . .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد قال لأصحابه : من ينطلق بكتابى هذا فيسير إلى هرقل وله الجنة ؟ فقالوا : وإن لم يصل ؟ قال : وإن لم يصل .

فقال دحية : أنا .

وأمره النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يدفع الكتاب إلى الحارث بن أبى شمر - ملك غسان - ليدفعه الى هرقل .

وسار دحية حتى وصل إلى الحارث فأرسل الحارث معه عدى بن حاتم ليوصله إلى قيصر . فذهب به إليه .

وقال له القوم : إذا رأيت الملك فاسجد له ، ثم لا ترفع رأسك حتى يأذن لك .

قال دحية : لا أفعل ذلك أبداً ولا أسجد لغير الله .

قالوا : إذن لا يأخذ كتابك .

فقال له رجل منهم : أنا أدلك على أمر يجعله يأخذ كتابك دون أن تسجد له .

قال دحية : ما هو ؟

قال له : إن للقيصر على كل عتبة منبراً يجلس عليه ، فضع صحيفتك

تجاه المنبر فإن أحداً لا يحركها حتى يأخذها هو ثم يستدعى صاحبها .

فقبل دحية ذلك .

وأخذ قيصر الكتاب فوجد عليه عنوان كتاب العرب . فدعا الترجمان الذى يقرأ بالعربية وأمره بقراءته . فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى قيصر عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعوة الاسلام أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين (١٦٣) .

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

قال قيصر : انظروا لنا مِنْ قومِ هذا الرسول أحداً نسأله عنه .

وكان أبو سفيان بن حرب فى تجارة بغزة ، مع رجال من قريش ، وذلك فى أثناء هدنة الحديبية .

فإذا برسل قيصر يطلبون أبا سفيان ، فانطلقوا به هو ومن معه إلى قيصر . وكان فى بيت المقدس .

ويحكى أبو سفيان قصة لقائه بقيصر . فيقول :

قدمنا عليه فإذا هو جالس وعليه التاج ، وعظماء الروم حوله .

فقال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسباً لهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟

---

(١٦٣) أخرجه البخارى عن ابن عباس . والإريسيين : جمع إرِّيس الفلاح والأجير

فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً إليه ، لأنه لم يكن فى الركب يومئذ من بنى عبد مناف غيره .

فقال له قيصر : ادن منى . . . . يقول أبو سفيان . . . . ثم أمر بأصحابى فجعلوا خلف ظهرى ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه : إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، وإنما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه الكذب إن قاله .

ثم قال قيصر لترجمانه : قل له : كيف نَسَبُ هذا الرجل فيكم ؟

قلت : هو منا ذو نسب .

قال : قل له : هل قال هذا القول أحد قبله ؟

قلت : لا

قال : قل له : هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا

قال : قل له : هل كان من آبائه ملك ؟

قلت : لا

قال : قل له : كيف عقله ورأيه ؟

قلت : لم نعب عليه عقلاً ولا رأياً .

قال : قل له : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : قل له : فهل يزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : قل له : فهل يرتدُّ أحد منهم سخْطةً لدينه ؟

قلت : لا

قال : فهل يغدر إذا عاهد ؟

قلت : لا . . . . . . ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

قال : فهل قاتلتموه ؟

قلت : نعم .

قال : فكيف حربكم وحربه ؟

قلت : دُوَل وسجال ، نداك عليه مرة ويدال علينا أخرى ـ وفى لفظ قال أبو سفيان : انتصر علينا مرة يوم بدر وأنا غائب ، ثم غزوتهم يوم أحد وانتصرت عليهم .

قال : فما يأمركم به ؟

قلت : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدقة .

وفى لفظ : جمع بين الصدق والصدقة والعفاف ـ أى ترك المحارم وخوارم المروءة ـ ويأمرنا بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

فقال قيصر لترجمانه : قل له :

إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها . .

وسألتك : هل هذا القول قاله أحد منكم قبله ؟ فقلت لا . . فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأتَمُّ بقولٍ قيل قبله .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا فعرفت أنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى .

وسألتك : هل كان من آبائه ملك ؟ فقلت : لا ، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

فقلت : ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل ـ ذلك أن أتباع الرسل هم أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار ـ

وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون . وكذلك الإيمان حتى يتم .

وسألتك : هل يرتد أحد منهم سَخْطةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فزعمت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، إذا حصل به انشراح الصدور ، والفرح به لا يسخطه أحد .

وسألتك : هل قاتلتموه ؟ قلت : نعم ، وقلت : إن حربكم وحربه دُوَل وسجال ، يدال عليكم مرة وتدالون عليه أخرى ، وكذلك الرسُل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

وسألتك : ماذا يأمركم به ؟ فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا . . . وكذلك الرسل لا تغدر ـ لأنها لا تطلب حظ الدُّنيا الذى لا يناله

طالبه إلا بالغدْر ـ فعلمت أنه نبى . . . . . . وقد كنت أعلم أنه يبعث ، ولكن لم أظن أنه فيكم . وإن كان ما حدثتنى به حقاً فيوشك أن يملك موضع قدمى هاتين . ثم قال قيصر : ولو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت ـ تكلفت مع المشقة ـ لقاءه ، ولكنى لا أستطيع أن أفعل ، إن فعلت ذهب ملكى وقتلنى الروم .

قال أبو سفيان : فلما قضى قيصر مقالته ارتفعت الأصوات وكثر الصخب ، فلا أدرى ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا . فلما خرجت أنا وأصحابى وخلصت قلت لهم : لقد عظم أَمْر ابن أبى كبشة(١٦٤) ، هذا ملك بنى الأصفر يخافه . فمازلت موقنا أن سيظْهر حتى أدخل الله علىَّ الاسلام . .

لم يجد أبو سفيان فى حواره مع الملك فرصة ينال فيها من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أنه حاول أن يغمز بالتخوف من نقض العهد حين قال : ونحن الآن معه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

كما أنه حاول ـ فى بعض روايات هذا الحوار أن يشكك القيصر فى بعض معجزات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد قال أبو سفيان حين سأله قيصر عن النبى : هل يكذب ؟ قال : لا ، ولكنى أخبرك عنه أيها الملك خبراً .

قال الملك : ما هو؟

---

(١٦٤) أبو كبشة كنية تطلق على وهب والد آمنة بنت وهب أم النبى ـ ﷺ ـ وتطلق أيضا على زوج مرضعته حليمة السعدية . فكانوا يقولون للنبى ـ ﷺ ـ : ابن أبى كبشة لذلك .

قال : إنه يزعم أنه خرج من أرضنا ـ أرض الحرم ـ فى ليلة فجاء مسجدكم هذا ورجع إلينا فى تلك الليلة قبل الصباح . . . . . وقد هيأ الله للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يؤكد لقيصر صدق هذا الأمر .

فقد قال بطريق من البطارقة الذين كانوا حاضرين :

صدق أيها الملك . .

فنظر قيصر إليه وقال : ما أعلمك بهذا ؟

قال البطريق : إنى كنت لا أنام ليلة أبداً حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كانت تلك الليلة ـ أى التى يشير إليها أبو سفيان ـ أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى ، فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول جبلاً ، فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا : لا نستطيع أن نحركه حتى نصبح .

فلما أصبحت جئت إليه فإذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة ـ أى البراق ـ

فقلت لأصحابى : ما امتنع هذا الباب الليلة إلا لهذا الأمر .

فقال قيصر لقومه : يا قوم ، ألستم تعلمون أن بين يدى الساعة نبياً بشركم به عيسى بن مريم . . . . ترجون أن يجعله الله فيكم ؟

قالوا : بلى .

قال : فإن الله قد جعله فى غيركم ، وهى رحمة الله ـ عز وجل ـ يضعها حيث يشاء .

ثم أمر بإنزال دحيه وإكرامه . .

ويقال : إن قيصر عرض الإسلام على قومه فأبوا أخرج البخارى : أن هرقل لما سار إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكرة ـ قصر ـ له ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يامعشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ؟ وأن يثبت ملككم ؟ تبايعوا هذا النبى . . .

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت .

فنفروا منه وقالوا له : أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيداً لهذا الأعرابى ؟

فلما رأى قيصر نفرتهم ويأس من إيمانهم قال : ردوهم علىّ . . فلما رجعوا قال لهم : إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم ـ وقد رأيت ـ فسجدوا له ورضوا عنه .

عند ذلك كتب قيصر كتاباً وأرسله مع دحية إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فيه : إنى مسلم ولكنى مغلوب ، وأرسل بهدية إلى رسول الله . . . . فلما قرىء رد قيصر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كذب عدو الله ، ليس بمسلم . وقسم هديته بين المسلمين .

والدليل على أن قيصر كاذب فى ادعائه الإسلام محاربته المسلمين بعد ذلك فى مؤتة ـ

لقد خاف قيصر ، كما يقول الحافظ بن حجر ـ وآثر العافية على العاقبة .

رسالة أخرى لقيصر

وروى عن أنس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب لقيصر كتاباً آخر

وهو فى تبوك يدعوه إلى الإسلام ، وأن قيصر قارب الإجابة ولكنه لم يجب . . وسيأتى أن الذى حمل هذا الكتاب هو دحية أيضاً ، وحدثت بينه وبين قيصر محاورة سوف نعرض لها . .

وذكر الإمام أحمد فى مسنده أن هرقل كتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إنى مسلم .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كذب ـ إنه على نصرانيته .

وقد أرسل قيصر رسالة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى تبوك .

وجاء حامل الرسالة فسأل عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجده بين أصحابه جالساً . فقال : أين صاحبكم ؟ فأشاروا له الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس بين أصحابه لا يتميز عنهم فى مجلس أو شارة ، بل هو كأحدهم .

فأقبل رسول قيصر حتى جلس بين يديه ، وناوله الرسالة ، فوضعها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجره . ثم قال للرسول : من أنت ؟

قال : أنا رسول قيصر

قال له : هل لك فى الاسلام دين الحنيفية ملة إبراهيم ؟

قال : أنا رسول قوم وعلى دينهم ، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم .

فضحك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقرأ قول الله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (١٦٥)

---

(١٦٥) القصص ٥٦

وقرأ النبى ـ الكتاب ـ أى قرأه بعض أصحابه عليه ـ فلما فرغ من القراءة قال للرسول : إن لك حقاً ، وإنك رسول مَلِك ، ولو كان عندنا ما نهديه لك فعلنا . .

فقال عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ أنا أعطيه يا رسول الله . . . . . فأتى بحلة فوضعها فى حجره(١٦٦) .

ويقال : إن قيصر احتفظ برسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى كان قد أرسلها إليه ـ تكريماً لها . فقد ذكر الرواة ـ أن هرقل وضع الكتاب فى قصبة من ذهب تعظيماً له .

وحين أرسل الملك المنصور قلاوون بعض أمرائه إلى ملك المغرب بهدية ، فأرسله ملك المغرب إلى ملك الفرنجة فى شفاعة ـ أكرمه وقال له : لأتحفنك بتحفة سنية ، فأخرج له صندوقاً مغلفاً بالذهب ، وأخرج منه مقلمة ـ وفى لفظ قصبة من ذهب ـ فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه ، وقد ألصق عليه خرقة من الحرير . فقال : هذا كتاب نبيكم لجدى قيصر ، مازلنا نتوارثه حتى الآن ونحفظه غاية الحفظ ونعظمه(١٦٧) .

محاورة بين دحية وقيصر

وكان دحية عاقلاً لبيباً فى عرضه رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قيصر . فقد ذكر الهيل فى الروض الأنف أن دحية قال لقيصر :

---

(١٦٦) السيرة الحلبية جـ٣ ص٢٩٠

(١٦٧) انظر المرجع السابق ـ والمواهب اللدنية نقلا عن الحافظ ابن حجر فى فتح البارى من حديث بدء الوحى وراجع فتح البارى ج١ ص ٥٧

يا ملك الروم أرسلنى إليك من هو خير منك ، فاسمع منى ثم أجب بنصح ، فإنك إن لم تسمع لم تفهم ، وإن لم تنصح لم تنصف .

قال : هات

قال : هل تعلم أن المسيح كان يصلى ؟

قال : نعم

قال : فإنى أدعوك إلى من كان المسيح يصلى له ، وأدعوك إلى من دبَّر خلق السموات والأرض والمسيح فى بطن أمه ، وأدعوك الى هذا النبى الأمى الذى بشر به موسى ، وبشَّر به عيسى بن مريم بعده ، وعندك من ذلك أثَارَة من علم تكفى وتشفى ، فإن أجبت كانت لك الدنيا والآخرة ، وإلا ذهبت عنك الآخرة وشوركت فى الدنيا .

واعلم أن لك رباً يقصم الجبابرة ويغير النعم .

قال : فأخذ قيصر الكتاب فوضعه على عينيه ورأسه وقبله .

ثم قال : أما والله ما تركت كتاباً إلا وقرأته ، ولا عالماً إلا وسألته فما رأيت إلا خيراً .

فأمهلنى حتى أنظر فى هذا الأمر ، فأنى أكره أن أجيبك اليوم بأمر أرى غداً ما هو أحسن منه ، فأرجع عنه فيضرنى ذلك ولا ينفعنى ـ أقم حتى أنظر .. فلم يلبث أن أتاه وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم[١٦٨] ـ

وواضح أن هذا الحوار كان عند إرسال الكتاب الثانى الذى أرسله

---

(١٦٨) الروض الأنف ج٤ ص ٢٤٩

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هرقل فى أثناء غزوة تبوك ، لأن الكتاب الأول كان سنة سبع . .

فمن تبوك كتب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاباً وأرسله إلى قيصر مع دحية بن خليفة الكلبى أيضاً . .

وذكر بعض الرواة أنه حين وصل الكتاب إلى هرقل أمر منادياً ينادى . . ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه فدخلت الأجناد فى سلاحها وأطافت بقصره تريد قتله . فقال لهم : إنه أراد اختبارهم[169] . .

وعلى ذلك يمكن تفسير الأحداث التى صاحبت تصرف قيصر إزاء الكتب كما يلى :

أن الكتاب الأول هو الذى حدثت فيه المحاورة بينه وبين أبى سفيان . وقد يكون قيصر قد أظهر على أثره الميل إلى الاسلام ولكنه لم يستطع أن يعلنه .

وأن الكتاب الثانى هو الذى حدثت فيه المحاورة بينه وبين دحية ، وأظهر قيصر على أثره الاسلام ونادى به ، ولكنه تراجع عنه حين علم إصرار قومه على الكفر . . .

وعلى الرغم من استبانة الحق لهرقل ، فقد حارب الإسلام بكل شدة ، ومازال يقاوم الفتح الاسلامى حتى قُضِىَ على نفوذه تماماً فى الشرق العربى فى أيام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وخلصت الشام كلها للاسلام ،

---

(١٦٩) المرجع السابق ص ١٩٦

وأصبحت دمشق حاضرة الدولة الاسلامية فى العصر الأموى ، ومنها انطلقت الحضارة الإسلامية الى شتى بقاع العالم .

رسالة النبى إلى كسرى

حمل رسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - الى كسرى عبد الله بن حذافة السهمى . وهو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى من بنى سهم ، ولذلك يلقب بالسهمى ، ويكنى بأبى حذافة .

أسلم قديماً ، وصحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية مع أخيه قيس بن حذافة .... وهذه قصة عن عبد الله بن حذافة تشهد بقوة إيمانه وشدة تعلقه بدينه ..... نقدمها بين يدى ما نحن بصدده لندرك أيضاً من خلالها قوة إيمان عبد الله ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان مصيباً حين اختاره ليكون رسولاً من رسله .

روى ابن الاثير بسند عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال :

أَسَرت الروم عبد الله بن حذافة السهمى ، صاحب النبى - صلى الله عليه وسلم - وذلك فى فتوحات الشام -

فقال له الطاغية - ملك الروم - تنصر وإلا ألقيتك فى البقرة ، وهى بقرة من النحاس -

قال عبد الله : ما أفعل .

فدعا الطاغية بالبقرة النحاس ، فملئت زيتاً وأغليت ، ودعا برجل من الأسرى فعرض عليه النصرانية ، فأبى ، فألقاه فى البقرة ، فإذا عظامه

تلوح ، ثم قال لعبد الله : تنصر وإلا ألقيتك .

قال : ما أفعل

فأمر به أن يلقى فى البقرة . فبكى عبد الله .

فقالوا : إنه جزع ، فبكى .

فقال الطاغية : ردوه . فردُّوه ـ وقد ظن الطاغية أنه استجاب لهم .

فقال عبد الله : لا تظن أنى بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بى ؟ ولكنى بكيت حيث ليس لى إلا نفس واحدة يفعل بها هذا فى الله . كنت أحب أن يكون لى من الأنفس عدد كل شعرة فى جسدى ثم تسلط علىَّ فتفعل بى هذا .

فتعجب منه الطاغية من ذلك وأحب أن يطلقه . فقال له : قبل رأسى وأطلقك .

قال عبد الله : ما أفعل .

قال الطاغية : تنصر وأزوجك ابنتى ....

قال عبد الله : ما أفعل

قال الطاغية : قبل رأسى وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين .

قال عبد الله : أما هذه فنعم . فقبل رأسه وأطلقه . وأطلق معه ثمانين من المسلمين .

فلما قدموا على عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وعرف قصته قام إليه عمر فقبل رأسه ـ تكريماً له ، وإعجاباً بما فعل ـ

قال ابن عباس : فكان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

يمازحون عبد الله فيقولون : قبلت رأس علج ؟[١٧٠]

فيقول لهم : أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين[١٧١] ، وكان هذا الحدث فى بعض غزوات عمر على قيسارية . .

كان عبد الله بن حذافة هذا هو رسول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى كسرى فى أرجح الأقوال . وكان نص الكتاب الذى حمله هو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ـ الى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

أدعوك بدعوة الله فإنى أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين .

أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس »

وختم الكتاب بختم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ محمد رسول الله ـ

وسار عبد الله بالكتاب حتى وقف على باب كسرى .

من كسرى ؟

وكسرى هو لقب الملك أما اسمه فهو « أبرويز بن هرمز بن أنوشروان . . وهو كسرى الكبير المشهور الذى بنى الإيوان ، وملك ثمانية وأربعين عاما ، وهو الذى حدثت فى عهده موقعة ذى قار المشهورة . . كانت هذه الموقعة

---

(١٧٠) العلج ـ الرجل من كفار العجم . .

(١٧١) أسد الغابة ج ٣ ص ٢١١

لتمام أربعين سنة من مولد رسول الله - ﷺ - وقيل بعد أن هاجر بقليل - وكانت بين الفرس وبنى بكر بن وائل ، وكان قائد الفرس فيها هو الهرمزان صاحب كسرى - وانتصر العرب فيها انتصارا مؤزرا .. قال فيه النبى - ﷺ - : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بى »

- وسجل الشعر العربى هذا الحديث فى قول الأعشى : -

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم   منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململة شهباء يقدمها   للموت لا عاجز فيها ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة   موفق حازم فى أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم   مثل الأسنة لا ميل ولا كشف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا   ليعرفوا أننا بكر فينصرفوا
قالوا : البقية والهندى يحصدهم   ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو أن كل معد كان شاركنا   فى يوم ذى قادر ما أخطاهم الشرف .

لقد أشرنا إلى هذه القصة لأنها تعد من إرهاصات النبوة . وكان سبب هذه الموقعة أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة رفض أن يخضع لأوامر كسرى التى رأى فيها إهدارا لكرامته . فغضب عليه كسرى ، وأراد أن ينتقم منه .

وشعر النعمان بغضب كسرى عليه . وكان النعمان أميرا على الحيرة وهى خاضعة لنفوذ الفرس .

واحتمى النعمان بهانىء بن قبيصة الشيبانى زعيم قبائل بكر .. ومازال

كسرى يحتال على النعمان حتى أقدمه عليه تاركا أمواله وسلاحه وحرمه أمانة عند هانىء .

وظن النعمان أن كسرى قد عفا عنه ، ولكن كان استقدامه خدعة من كسرى الذى زج به فى السجن ـ فمات . ،

ثم أقبل كسرى يطلب ودائع النعمان التى تركها عند هانىء فرفض هانىء إعطاءها له بإباء وشمم .

فجرد كسرى جيشا بقيادة الهرمزان وأمره أن يؤدب هؤلاء العرب . وكانت قبيلة إياد موالية للفرس . ولكن طبعها العربى أبى عليها أن تقاتل مع الفرس ضد إخوانهم العرب . فأرسلوا بنى بكر يقولون لهم : أى الأمرين أحب إليكم : أن نطير تحت الليل فنذهب ، أو نقيم حتى إذا التقى القوم بكم فررنا عنهم ؟

فقال بنو بكر لهم : كونوا مع الفرس حتى إذا التقى الجيشان تخاذلتم عنهم . . والتقى الجمعان فى بطحاء ذى قار بين البصرة والكوفة ، وكان البكريون قد أعدوا كمينا للعدو . . وعندما فاجأهم هذا الكمين تخلت إياد فى الوقت نفسه . . فاضطرب الفرس وانهزموا هزيمة منكرة ـ وكان ذلك إيذانا ببزوغ فجر جديد أشرق على العرب نوره فتخلصوا من تبعيتهم للفرس .

ديانة الفرس

وكانت ديانة الفرس هى المجوسية يعبدون النار . . . وقد تواضعوا على

ذلك منذ القدم ، ويحكى فى سبب ذلك - أن أفريدون الملك وهو من أقدم ملوك الفرس وجد نارا يعظمها أهلها وهم عاكفون على عبادتها ، فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم فى عبادتها ، فأخبروه بأشياء اجتذبت نفسه إليها ، وأنها واسطة بين الله وبين خلقه وأنها من جنس الآلهة النورية - وذكروا له أمر النور ،*وأنه مراتب ، وفرقوا بين طبع النور وطبع النار ، وأن الحيوان يجتذب إلى النار فيحرق نفسه كالفراش الطائر بالليل .. إلى غير ذلك من كلام ما أنزل الله به من سلطان .

فأمر أفريدون بحمل جزء من تلك النار التى يعبدها هؤلاء القوم إلى خراسان وبنى لها بيتا بطوس ، واتخذ بيتا آخر فى مدينة « بخارى » يقال له : « برد سورة » وبنى بيتا آخر فى سجستان وسماه « كراكر » وتوارث الملوك هذا الأمر ، وأخذوا يبنون البيوت يعظمون فيها النار ، وكان عدد هذه البيوت قبل ظهور « زرادشت » عشرة بيوت .

وزرادشت هذا يطلقون عليه لقب : نبى المجوس ..

ويلغ من حق هؤلاء أنهم كانوا يفرقون بين النيران ..... فالنيران التى تشتعل فى هذه البيوت غير النار الأخرى التى يستعملونها فى إنضاج الطعام وغيره من الاستعمالات الأخرى .

فهم يعظمون النار المعبودة التى بنوا لها بيوتا وجعلوا لها سدنة وحفظة وكهانا موكلين بها يسهرون عليها حتى لا تنطفىء أبدا . وكان من بين هؤلاء الحفظة سلمان الفارس وأبوه - كما سبق أن ذكرنا ذلك - فى موضعه .

وحاول الفرس المحافظة على هذه النار حين ظهر الإسلام وتخوفوا من إطفائها ولهذا فرقوها فى أماكن كثيرة ، ونقلوا بعضها إلى مواضع مختلفة لتبقى إحدى هذه النيران مشتعلة إن أطفئت الأخرى .[١٧٢]

وقد جاء الإسلام فأبطل كل ذلك ، ورد إلى الناس عقولهم ، وهداهم إلى الصواب وأرشدهم إلى الدين الحق وهو عبادة الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . .

كسرى يرفض خطاب الرسول

وحين أعلم كسرى بكتاب الرسول ـ ﷺ ـ أذن لحامل الكتاب أن يدخل عليه فدخل .

فلما وصل أمر كسرى بأن يؤخذ منه الكتاب .

قال عبد الله بن حذافة : لا حتى أدفعه إليك كما أمرنى بذلك رسول الله ـ ﷺ ـ

فقال له كسرى : ادن منى . . فدنا منه

فدعا كسرى من يقرأ له الكتاب . فقرىء له . .

فلما سمع كسرى أن النبى ـ ﷺ ـ بدأ بنفسه . . يعنى قال : من محمد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى كسرى عظيم فارس ـ غضب غضبا شديدا ومزق الخطاب قبل أن يعلم ما فيه .

وأمر بإخراج حامل الكتاب . فأخرج . .

---

(١٧٢) مروج الذهب للمسعودى ج١ ص ٤٧٠ ط دار التحرير

وامتطى عبدالله بن حذافة راحلته ومضى . .

ثم لم يلبث أن ذهب غضب كسرى ، فاستدعى عبدالله ، ولكنه كان قد ذهب .

وجاء عبدالله إلى النبى - ﷺ - فأخبره بما حدث فقال النبى - ﷺ - مزق الله ملكه . .

فلم يلبث أن وثب عليه ولده « قباذ » المعروف بشيرويه القابض على أبيه والجانى عليه والقاتل له . . فانتزع الملك من أبيه وقتله . . . . . . والفرس تسمى قباذ هذا بالمشئوم . . وفى أيامه كان الطاعون بالعراق وغيرها من الأقاليم ، فهلك فيه آلاف من الناس . ودام ملك شيرويه هذا سنة أو ستة أشهر . .(١٧٣)

كسرى يرسل إلى عامله باليمن فى شأن النبى .

ولم يكتف أبرويز بتمزيق الخطاب ، بل كتب إلى عامله باليمن « باذان » وكانت اليمن تحت سيطرة الفرس فى ذلك الوقت . وقد سبق أن أشرنا إلى أن سيف بن ذى يزن استعان بالفرس على إخراج الحبشة من اليمن ، فأمدوه بجيش طرد الأحباش ، وجعل اليمن تحت حكم الفرس . .

وكان آخر ولاة الفرس فى اليمن هو باذان هذا . . الذى كتب إليه كسرى « أبرويز » يقول له :

---

(١٧٣) مروج الذهب جـ١ ص ٢١١

إنه بلغنى أن رجلا من قريش بمكة يزعم أنه نبى ، فسر إليه ، فاستتبه ، فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه ثم قال : لقد كتب إلىّ هذا الرجل كتابا بدأ فيه بنفسه .. فكيف» يفعل هذا وهو عبدى ؟

ويقال : إنه كتب إليه يقول : إن تكفنى رجلا خرج بأرضك يدعون إلى دينه وإلا فعلت بك كذا وكذا ، وأخذ يتوعده .. فابعث إليه برجلين جلدين فيأتيانى به ..

وأرسل باذان قهرمانه ومعه رجل من الفرس ، بكتاب كسرى إلى النبى - ﷺ - وطلب منهما أن يأمرا النبى - ﷺ - أن يقدم معهما إلى كسرى ، حسب ما جاء فى خطابه .

فخرج الرجلان حتى قدما الطائف ، فوجدا بها رجلا من قريش ، فسألاه عن النبى - ﷺ - فقال لهما : هو بالمدينة .

فأقبلا إليه . وقالا : شاهنشاه - أى ملك الملوك - كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتى بك إليه ، وقد بعثنا إليك ، فإن أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بلادك ..

وكانا حين رأيا النبى - ﷺ - هاباه وارتعدت فرائصهما من الخوف .

وكان الرجلان يرتديان زى الفرس ... فكره النبى - ﷺ - النظر إليهما . ثم قال لهما : ويلكما ، من أمركما بالمجىء إلى هنا ؟

قالا : أمرنا ربنا - يعنيان كسرى -

وقال لهما : اذهبا الآن وأتيا إلىّ غدا وكأنه أراد بذلك أن يهدى من روعهما بعد أن رأى شدة خوفهما واضطرابهما .

وأتى رسول الله - ﷺ - بهذين الرجلين ، فقال لهما : إن الله أخبرنى أن كسرى يقتله ابنه - وذكر لهما الموعد .. الذى يحدث فيه ذلك .

ثم كتب كتابا إلى باذان قال فيه : إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى يوم كذا فى شهر كذا ..

فلما وصل الكتاب إلى باذان توقف وقال : إن كان نبيا فسيكون ما قال .

فَقُتِل كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله - ﷺ - على يد ولده شيرويه .

وفى رواية .. أن رسول الله - ﷺ - قال لرسولى باذان : اذهبا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربى قتل ربك الليلة ... ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة التى أخبر بها النبى - ﷺ - وهى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة

ولم يكتف شيرويه بقتل والده ، ولكنه قتل معه إخوته .

كسرى ينتقم لنفسه من قاتله .

ويقال : إن كسرى قد أحس أن ابنه سيقتله فاحتال لينتقم منه .

فعمد إلى حُقٍّ وضع فيه سُماً زُعافاً ، وكتب عليه من الخارج : هذا حُقٌّ به مسحوق القوة من تناول منه كذا قوى على عمل كذا وكذا . وأحكم إغلاقه ، ووضعه فى بعض خزائنه .

فلما قتل الابن أباه ، أقبل على الخزائن يفتحها ليعرف مافيها ، فعثر على هذا الحق ، فتناول منه فمات وكان ذلك بعد أبيه بستة أشهر ، ولم يكن له ذكر يرثه ، فملَّك الفرس أخته « بوران » ثم ملَّكوا أختها « أزد ميدخت »

بعدها ، ولم يلبثوا أن مزقهم الله شر ممزق كما أخبر بذلك النبى - ﷺ - (١٧٤).

وحين تولت بُوران - وذكر ذلك للنبى - ﷺ - قال : لن يفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة » .

وقد أخبر النبى - ﷺ - عن هلاك كسرى وفتح فارس ، وقد سبق أن علمنا أن النبى - ﷺ - وعد سراقة بن مالك حين تبعه فى الهجرة ، سوارى كسرى وتاجه - ﷺ - وأن عمر بن الخطاب دعا بسراقة فألبسهما إياه ، وقال : الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة كما وعد رسول الله - ﷺ -

عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - أنه - ﷺ - قال : لتفتحن جماعة من المسلمين - أو المؤمنين ، أو قال - رهط من أمتى - كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض - فكنت أنا وأبى فيهم ، وأصبنا من ذلك ألف درهم . . .

وقدم على باذان كتاب ولد كسرى « شيرويه » فيه : أما بعد ، فقد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس ، فإنه قتل أشرافهم ، فتفرق الناس . فإذا جاءك كتابى هذا فخذلى الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى يكتب إليك فيه فلا تزعجه ، حتى يأتيك أمرى فيه .

ولكن باذان بعث باسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله - ﷺ -(١٧٥) واعتبره ابن الأثير من الصحابة وترجم له فى أسد الغابة ، وذكر أنه كان

---

(١٧٤) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج١ ص ٣٤١ - المعارف لابن قتيبة .
(١٧٥) السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٩٢

له أثر كبير فى قتل الأسود العنسى . كما تحدث عن أخباره فى كتابه الكامل فى التاريخ[176]

كتابه - ﷺ - إلى النجاشى

كان رسول النبى - ﷺ - إلى النجاشى هو عمرو بن أمية الضمرى - رضى الله عنه - وهو عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله إياس . . الكنانى الضمرى يكنى أبا أمية ، أسلم قديما ، وهو من مهاجرة الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وأول مشاهده بئر معونة . . . . وقال بعضهم بل أسلم بعد أحد .

وكان ذا عقل وحكمة ، وصاحب نجدة وجراءة ، وكان النبى - ﷺ - يبعثه فى أموره . .

كانت مهمة عمرو إلى النجاشى ذات شقين . . أو بمعنى آخر كانت له مهمتان لا مهمة واحدة . أما إحداهما فهى إبلاغ النجاشى الدعوة ، وأما الأخرى فهى توكيل النجاشى فى تزويج النبى - ﷺ - من أم حبيبة بنت أبى سفيان - رضى الله عنها - بعد أن تنصر زوجها ومات بأرض الحبشة . وقد ذكرنا أمر هذه الرسالة قبل ذلك . وكان نص الكتاب الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة . . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهمين .

---

(١٧٦) أسد الغابة ج١ ص ١٩٥

وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول(١٧٧) الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى .. حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله ـ عز وجل ـ وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وكان النجاشى اسمه أَصْحَمة ..

فأحسن النجاشى استقبال الكتاب ، ووضعه على رأسه ، واستجاب لدعوة الاسلام . وكتب إلى النبى ـ ﷺ ـ يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله ـ ﷺ ـ من النجاشى أصحمة . السلام عليك يانبى الله ورحمة الله وبركاته ، الذى لا إله إلا هو ـ الذى هدانى إلى الإسلام .

اما بعد ، فقد بلغنى كتابك يارسول الله ، فيما ذكرت من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ـ فورب السماء والأرض إن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يزيد على ماذكرت وقد عرفنا مابُعِثَ به إلينا ، وقد قربْنا ابن عمك وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله ـ صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يده لله رب العالمين(١٧٨)

---

(١٧٧) البتول : العفيفة ، المنقطعة عن الرجال ، أو المتقطعة عن الدنيا وزينتها
(١٧٨) السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٩٣

وفى رواية : وقد بعثت إليك ابنى ، وإن شئت أتيتك بنفسى - ويقال : إنه أرسل ابنه فعلا فى ستين فرداً فى سفينة فلما كانوا وسط البحر غرقت سفينتهم .[(١٧٩)]

قال ابن الأثير عن النجاشى : إنه أسلم فى عهد النبى - ﷺ - وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه ، وتوفى ببلاده قبل فتح مكة ، وصلى عليه النبى - ﷺ - وكبر أربعاً[(١٨٠)]

وكان انطباع النجاشى عن الاسلام انطباعاً حسناً ، وكان سابقا على ورود هذه الرسالة إليه ، فقد مرَّ بنا أن المسلمين حين هاجروا إلى الحبشة وجدوا فى ظلال النجاشى انعطافا نحوهم ، ووجدوا أنفسهم فى أمن وحرية يعبدون الله وحده دون خوف أو توجس . وحاولت قريش استعادة هؤلاء المسلمين عن طريق عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ولكنهم فشلوا فى ذلك . . .

وحدث نقاش بين المسلمين وبين النجاشى حول بعثة النبى - ﷺ - اقتنع بعده النجاشى بصواب هؤلاء المهاجرين وفضلهم ، فرفض تسليمهم لعمرو بن العاص ومن معه ، ورد عليه الهدايا التى كان قد اصطحبها معه وقال له : ماقبل الله منى الرشوة حين رد علىَّ ملكى . . وقد سبق أن عرضنا لذلك .

وقال النجاشى ايضا لعمرو بن العاص : أنا أشهد أنه رسول الله ، وأنه

---

(١٧٩) ذكر ذلك القسطلانى فى المواهب اللدنية ج٣ ص ٣٤٥

(١٨٠) أسد الغابة ج ١ ص ١١٩

الذى بشر به عيسى فى الأنجيل ، والله لولا ماأنا فيه من الملك لأتيته فأكون من أتباعه .

محاورة بين عمرو بن أمية والنجاشى .

وقد حدث حوار بين عمرو بن أمية والنجاشى . فقد قال له عمرو . أيها الملك إنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه منك ، ولم نخفك على شر قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك منك ، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لايجور ، وفى ذلك موقع الخير وإصابة الفضل(١٨١) وإلا فأنت فى هذا النبى الأمى - ﷺ - كاليهود فى عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - وقد فرق النبى - ﷺ - رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرْجهم له ، وأمنك على ماأخافهم عليه ، لخير سالف وأجر ينتظر .

فأجاب النجاشى على ذلك بقوله : أشهد بالله انه للنبى الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى - عليه الصلاة والسلام - براكب الحمار كبشارة عيسى - على الصلاة والسلام براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر ، ولكن أعوانى من الحبش قليل ، فأنظرنى حتى أكثر الأعوان وألَين القلوب(١٨٢) .

صلاة الجنازة على النجاشى

وتوفى النجاشى فى رجب سنة تسع من الهجرة ، عند الأكثر من العلماء -

---

(١٨١) فى رواية : موقع الحز واصابة المفصل .
(١٨٢) المواهب اللدنية للقسطلانى ج٣ ص ٢٤٤

وقيل : سنة ثمان قبل فتح مكة ، ونعاه النبى - ﷺ - بالمدينة إلى آصحابه .

وأخرج أصحاب الصحيح قصة صلاته - ﷺ - صلاة الغائب على النجاشى . فعن جابر - رضى الله عنه - قال : لما مات النجاشى قال النبى - ﷺ - : قد مات اليوم عبد صالح يقال له أصحمة ، فقوموا فصلوا ، فصفنا خلفه . وفى رواية بعضهم عن أنس - رضى الله عنه - قال : قوموا فصلوا على أخيكم النجاشى ، فقال بعضهم - وهم المنافقون - يأمرنا أن نصلى على علج من الحبشة ؟ فأنزل الله - تعالى - قوله : « وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وماأنزل إليكم وماأنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا اولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب »(١٨٣)

ونوَّر الله قبر النجاشى لإيمانه فقد حدثت عائشة رضى الله عنها - قائلة فيما رواه ابن إسحاق : « لما مات النجاشى كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور(١٨٤)

هل هناك كتاب آخر إلى نجاشى آخر ؟

يقول بعض الرواة : إنه بعد وفاة النجاشى أصحمة تولى بعده نجاشى آخر فكتب له النبى - ﷺ - كتابا يدعوه فيه إلى الاسلام .

فقد روى البيهقى عن ابن إسحاق قال :

---

(١٨٣) آل عمران ١٩٩

(١٨٤) أخرجه أبو داود

هذا كتاب من النبى محمد - ﷺ - إلى النجاشى الأصحم عظيم الحبشة سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله . وأدعوك بدعوة الله فإنى أنا رسوله ، فأسلم تسلم

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[١٨٥]

فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك[١٨٦] .

ولكن بعض العلماء يذكرون أنه نجاشى واحد هو صاحب جعفر بن أبى طالب ، لأن النبى - ﷺ - كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم جميعاً إلى الله فى وقت واحد ، وكان ذلك قبيل الفتح ، قال الزهرى : كانت كتب النبى - ﷺ - إليهم واحدة ، وكلها فيها هذه الآية ، وهى من سورة آل عمران ، وهى مدنية بلا خلاف .[١٨٧]

والمقصود بكلها أى الكتب الموجهة إلى أهل الكتاب وهم : النجاشى وهرقل والمقوقس . أما الكتب الموجهة إلى كسرى وغيره فليست فيها هذه الآية . والذى يرى أن النبى - ﷺ - كتب إلى الحبشة كتابين أحدهما إلى

---

(١٨٥) آل عمران ٦٤
(١٨٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢ / ٦٢٣ - البداية والنهاية لابن كثير ٣ / ٦١
(١٨٧) هامش دلائل النبوة للبيهقى ج٢ ص ٣٠٨

النجاشي صاحب جعفر ، والآخر إلى الذى جاء بعده ـ يستند إلى ماروواه مسلم عن قتادة بن دعامة عن أنس ـ أن نبي الله ـ ﷺ ـ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله ، وليس النجاشي الذى صلى عليه النبى ـ ﷺ ـ لأنه لم يكن جباراً .

فقد صرح أنس بأن هذه الرسالة الأخيرة موجهة إلى غير النجاش الأول الذى مات مسلما ، وصلى عليه النبى ـ ـ ﷺ ـ صلاة الغائب .

ويؤيد ذلك أيضا ماروواه الطبراني عن المسور قال : خرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أصحابه فقال : إن الله بعثنى للناس كافة فأدُّوا عنى ولا تختلفوا علىَّ ، فبعث عبد الله بن حذافة الي كسرى ، وسليطا إلى هوذة واليمامة ، والعلاء إلى المنذر بهجر ، وعمرو بن العاص الى جيفر وعباد ابنى الجلندى بعمان ، ودحية إلى قيصر ، وشجاع بن وهب إلى ابن أبي شمر وعمرو بن أمية الى النجاسى ، فرجعوا جميعا قبل وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير عمرو بن العاص .

وزاد بعض أصحاب السير أنه بعث السائب إلى مسيلمة ، وحاطبا إلى المقوقس .(١٨٨)

النبى يخبر بوفاة النجاشي

وقد مر بنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر وهو فى المدينة بوفاة النجاشى فى الحبشة ـ أعلمه بذلك ربه ، وذكرنا أنه صلى عليه صلاة

---

(١٨٨) المواهب اللدنية ج٣ ص٣٤٦

الغائب ـ وطلب من أصحابه أن يستغفروا له ، ووصف بأنه عبد صالح . . . وذكر البيهقى روايا فى سند ينتهى الى أم كلثوم ـ رضى الله عنها ـ قالت : لما تزوج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم سلمة قال : إنى قد أهديت إلى النجاشي أواق من مسك وغير ذلك ، وإنى لاأراه الا قد مات ، ولاأرى الهدية إلا سترد علِّ ، فان ردت على ـ أظنه قال ـ قسمتها بينكن أو فهى لكن . قالت : فكان كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مات النجاشى وردت الهدية فلما ردت أعطى كل امرأة من نسائه أوقية من ذلك المسك(١٨٩)

رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المقوقس

المقوقس ـ بضم الميم وفتح القاف وسكون الواو وكسر القاف الثانية ـ طائر معروف مُطَوَّق . سواده فى البياض كالحمام(١٩٠)

ولامعنى لمحاولة إخضاعه للاشتقاق من لفظ عربى ـ فهو لقب لملك مصر فى أيام الحكم الرومانى ، كفرعون الذى كان قبل ذلك . وكان اسم هذا المقوقس : جريج بن مينا بن قرقوب . .

كان ملكا على مصر من قبل هرقل . . وكانت مصر قد فتحها الرومان وبسطوا نفوذهم عليها .

---

(١٨٩) دلائل النبوة للبيهقى ج٤ ص ٤١٢
(١٩٠) حياة الحيوان للدميرى ج٢ ص ٥٧٤

كيف احتل الرومان مصر ؟

ترجع علاقات الرومان بمصر الى أيام بطليموس الثانى الملقب بفيلادلفوس الذى عاش فى الفترة مابين (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق . م) وعقد مع روما اتفاقات ودية ومعاهدات تجارية ، وتبادل مع روما السفراء .

وفى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد ارتقى عرش مصر ملك صغير السن هو بطليموس الخامس ـ ٢٠٤ : ١٨١ ق . م ـ فانتهزت مقدونيا وسوريا الفرصة لاقتسام أملاك مصر الخارجية فى منطقتى البحر الإيجى وفلسطين . . . .

وأثار هذا العمل مخاوف روما التى لم تستبعد مهاجمة ملكى مقدونيا وسوريا لها بعد فراغهما من مصر ، فاضطرت الى التدخل لحفظ التوازن السياسى فى الشرق حرصا على مصالحها نفسها ، وقضت على هذين الملكين الواحد بعد الآخر .

ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى حدث نزاع آخر بين مصر وسوريا حول السيطرة على فلسطين . وتمكن أنطيونس الرابع ملك سوريا من احتلال بعض الأراضى المصرية عام ١٦٩ ق . م ، واستولى على منف ، وسار شمالا ليضرب الحصار حول الاسكندرية .

فبادرت روما من فورها بإرسال بعثة عسكرية تحمل معها إنذارا لسوريا بالانسحاب من مصر ، وأنقذ هذا الإنذار مصر من الاحتلال السورى ، ولكنها فى الوقت نفسه أصبحت تحت وصاية روما ، وبدت وكأن روما هى الحامية لمصر من الاحتلال الأجنبى . وشيئا فشيئا أصبحت روما هى صاحبة

اليد الطولى فى تنصيب الملوك المصريين وخلعهم ، وارتمى هؤلاء الملوك الضعاف فى أحضان روما رغبة أو رهبة .

واستغلت روما هذا الموقف تماما لمصلحتها فعملت على إضعاف الملوك وضاعفت من بذر الشقاق بين المتنافسين على عرش مصر وعملت على تمزيق وحدتها . وفى الوقت نفسه كان هؤلاء الملوك الذين يحكمون مصر ـ وهم البطالمة ـ يعيشون فى عزلة عن الشعب ولايفكرون فى مصلحته . .

وكانت روما قد أصبحت الدولة القوية التى تبسط نفوذها على شواطىء البحر الأبيض المتوسط من جميع نواحيه بعد أن أخضعت الولايات لنفوذها . وفى عام ٥١ ق م تولت عرش مصر الملكة كليوباترا وريثة العرش بعد وفاة أبيها بطليموس الثانى عشر ، وكان قد أوصى لها ولأخيها بالملك ولكنها استقلت بالحكم دونه . فحدث نزاع بينهما . وتمرد أنصار هذا الأخ على كليوباترا وأثاروا ضدها غضب أهل الاسكندرية . ففرت الى الحدود الشرقية وجمعت جيشا من القبائل السامية وتأهبت لغزو الاسكندرية .

وتمكن يوليوس قيصر فى ذلك الوقت من النزول الى الاسكندرية وكانت معه حامية مكونة من فرقتين وثمانمائة فارس وعشر سفن حربية .
ودعا الأخوين المتنازعين ليحكم بينهما محاولا إصلاح ذات البين . . وبمجرد أن رأى كليوباترا افتتن بجمالها . . وأدرك الشعب المصرى أن وجود قيصر ليس إصلاحا بين أخوين متنازعين بل هو احتلال للوطن . فقاوم الشعب يوليوس قيصر مقاومة عنيفة .

قيصر يحرق مكتبة الاسكندرية :

وكان بطليموس الثالث عشر ـ أخو كليوباترا الذى عزلته عن حقه فى العرش ـ قد أعد جيشا للمقاومة ، وقد أحرج هذا الجيش موقف يوليوس قيصر ، وزحف على الإسكندرية لطرد قيصر منها . فقرر قيصر الهرب من الاسكندرية عن طريق البحر مع قواته . ولكن تعذر عليه ذلك لوجود بعض قطع الأسطول المصرى فى الميناء ، فأضرم فى هذه القطع النار ليحرم خصومه من الانتفاع بها فامتدت النيران إلى المستودعات المليئة بالغلال ولفائف البردى ، ومنها امتدت الى مكتبة الاسكندرية التى كانت حافلة بأغنى الكتب العلمية والثقافية ، وبذلك حَرمَ هذا القيصر الانسانية من نور العلم ، وكَبد الإنسانية خسارة فادحة . ومن العجيب أن يحاول بعض المغرضين إلصاق هذه التهمة بالعرب الذين جاءوا إلى مصر بعد هذا الحادث بأكثر من ستة قرون .

وبعد معارك ضارية بين يوليوس قيصر والشعب المصرى تمكن قيصر من السيطرة على الموقف لصالح كليوباترا ضد أخيها وفى الوقت نفسه لصالحه لأنه كان قد ضمن ولاءها له بزواجه منها . .

ولم يلبث قيصر أن أغتيل فتبددت أحلام كليوباترا وبعد أن كانت قد استقرت فى روما زوجة لقيصر عادت الى الاسكندرية . .

ولكن الصراع تجدد مرة أخرى بين الشعب المصرى والرومان الذين عادوا لتوطيد أقدامهم فى مصر . . واستطاعت كليوباترا أن تفتن أنطونيو القائد الرومانى . . مما أثار ثائرة الرومان ضده ، فدارت موقعة شهيرة تعرف

بموقعة أكتيوم البحرية هزم فيها انطونيو ، ثم لم يلبث خصمه اللدود اكتافيوس أن استولى على الاسكندرية سنة ٣٠ ق م . وانتحرت كليوباترا غما وحزنا على المصير المحزن الذى انتهت اليه . . ومرت الأيام والرومان فى مصر يلقون مقاومة عنيفة ، وثورات متتالية ، فلم يستقر الأمر لهم طوال إقامتهم . حتى بدأت المسيحية تدخل الى مصر على الرغم من معارضة الرومان لها . وزادت المقاومة أيضا مع ذلك .

ودانت روما بالمسيحية حين اعتنقها قسطنطين الامبراطور الذى بنى القسطنطينية ، وأصبح أمراؤه الذين يحكمون الولايات التابعة لروما منذ ذلك الوقت مسيحيين ، ومن ضمن ذلك أمير مصر وحاكمها الذى يلقب بالمقوقس .

ولكن نصرانيته لم تمنع من استمرار الثورة ضد الرومان على اعتبار أنهم غاصبون للبلاد . يضاف إلى ذلك سوء معاملة الرومان للمصريين واعتبارهم خدما وعبيدا للرومان[١٩١]

من الذى حمل رسالة النبى إلى المقوقس ؟

كان الذى حمل رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المقوقس هو حاطب بن أبى بلتعة بن عمرو بن عمير حليف بنى أسد ، وكنيته أبو عبد الله . أصله من مذحج ـ وكان حليفا لبنى أسد بن عبدالعزى ، ثم

---

(١٩١) رجعنا فى كتابة هذه المادة إلى كتاب « كفاحنا ضد الغزاة » د . عبد اللطيف أحمد على ص ١٢٨ وما بعدها وزارة الإرشاد القومى ١٩٥٧ م

للزبير بن العوام ، وقيل : كان مولى لعبيد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد وقد شهد بدرا والحديبية وكان من المشهود لهم بقوة الإيمان وحسن الطاعة والاستقامة وكان حاطب لبقا حسن التصرف حكيما حاضر الجواب ، وسنعرف ذلك من خلال مناقشته للمقوقس .

وكانت الرسالة التى حملها حاطب للمقوقس تتضمن مايأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن عبد الله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعوة الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط « ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

وحمل حاطب الكتاب ومضى به إلى مصر . .

فلما وصلها سأل عن المقوقس فوجده فى الاسكندرية . وأخبر بأنه فى مجلس مشرف على البحر . .

فركب حاطب سفينة وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه .

فلما رآه المقوقس أمر باحضاره بين يديه .

وتناول المقوقس الكتاب ، وأمر بإحضار من يقرؤه فقرىء عليه . . . .

وفكر المقوقس قليلا ثم قال لحاطب : مامنعه إن كان نبيا أن يدعو عليّ فيستجيب الله دعاءه ؟

فقال له حاطب : مامنع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل الله بهم كذا وكذا ؟

فوجم المقوقس ساعة ، ثم استعادها فأعادها حاطب عليه ، فسكت . فقال له حاطب : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولايُعْتبر بك . وإن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافى به الله فقد ماسواه ، ومابشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، ومادعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به وهو يأمرك بالإسلام . . . .

أعجب المقوقس بكلام حاطب فقال له : أحسنت . أنت حكيم جاء من عند حكيم .

وكان حاطب فطنا لبيبا حازما ، وكان معروفا بين أصحابه بأنه لايخدع . وبه يضرب المثل الذى يقول : « صفقة لم يحضرها حاطب » وسببه أن بعض أصحابه باع بيعا غبن فيه ، لأن حاطبا لم يكن حاضرا فى أثناء هذا البيع ، فقالوا هذه العبارة التى أصبحت مثلا .

المقوقس يرد على النبى :

وكتب المقوقس كتابا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فيه : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط .

سلام عليك ، أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت وماتدعو

إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين ، وبحلة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها ، والسلام .

حوار بين المقوقس وحاطب

وأخرج ابن عبد الحكم عن أبان بن صالح قال :

أرسل المقوقس الى حاطب ليلة ، وليس عنده أحد إلا ترجمانا له .

فقال له : ألا تخبرني عن أمور أسألك عنها ، فإني أعلم أن صاحبك تخيرك حين بعثك لى ؟

قال حاطب : قلت : لاتسألنى عن شيء إلا صدقتك .

قال المقوقس : إلام يدعو محمد ؟

قال حاطب : يدعونا إلى أن نعبد الله ولانشرك به شيئا ، ونخلع ماسواه ويأمر بالصلاة .

قال : كم تصلون ؟

قال : خمس صلوات فى اليوم والليلة وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، والوفاء بالعهد ، وينهى عن أكل الميتة والدم .

قال المقوقس : من أتباعه ؟

قال حاطب : الفتيان من قومه وغيرهم

قال المقوقس : صفه لى .

قال حاطب : فوصفته بصفة من صفاته ، ولم آت عليها .

قال المقوقس : قد بقيت أشياء ، لم أرك ذكرتها : فى عينيه حمرة خفيفة

ماتفارقه وبين كتفيه خاتم النبوة ، يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزى بالتمرات والكِسَر ، لايبالى من لاقى من عم ولاابن عم .

قال حاطب : قلت : هذه صفته .

قال المقوقس : قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أن مخرجه بالشام فمن هناك تخرج الأنبياء ، ولكنى أراه قد خرج فى العرب والقبط لاتطاوعنى فى اتباعه ، ولاأحب أن تعلم بمحاورتى إياك ، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه بسحاتنا هذه حتى يظهروا على ماههنا ، وأنا لاأذكر للقبط من هذا حرفا . فارجع الى صاحبك(١٩٢)

هدية المقوقس للنبى

ورجع حاطب الى النبى - صلى الله عليه وسلم - بكتاب المقوقس وهديته إليه . وقد أشار المقوقس إلى بعض هذه الهدية فى رسالته ، ولكن الهدية كانت أكبر مما تضمنته الرسالة . وأرسل المقوقس مع حاطب رجلا عاقلا من حاشيته بهذه الهدايا .

كانت الهدايا عبارة عن ثلاث جوار منهن أختان هما مارية وسيرين ، وبغلة شهباء ، وحمار أشهب ، وثياب من قباطى مصر ، وعسل من عسل بنها ، وبعث بمال للصدقة .

وأمر المقوقس رسوله أن ينظر مَنْ جلساؤه ؟ وينظر إلى ظهره ليرى خاتم النبوة ، وهو شامة كبيرة ذات شعرات . .

---

(١٩٢) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ج١ ص٤٢

فلما قدم الرسول على النبى - ﷺ - قدم له الهدايا ، فقبلها . أما الصدقة ففرقها على من يستحقها ، وهكذا فعل بالمال .

وحين نظر للجاريتين قال : اللهم اختر لنبيك ، فاختار له مارية ، ثم وهب الثانية لحسان بن ثابت ، وقيل : لمحمد بن مسلمة الأنصارى . . ووهب الجارية الثالثة التى صحبتها لأبى جهم بن حذيفة . وكانت البغلة والحمار من أحب الدواب إليه . . . . .

وأعجبه العسل فدعا فيه بالبركة . .

وتزوج النبى - ﷺ - بمارية ، التى ولدت له إبراهيم ابنه ومات صغيراً لم يتجاوز ثمانية عشر شهرا . .

وأخرج ابن عبدالحكم عن راشد بن سعد أن رسول الله - ﷺ - قال : « لو بقى إبراهيم ما تركت قبطيا إلا وضعت عنه الجزية »[١٩٣]

رواية البيهقى فى ذلك

روى البيهقى فى سند متصل عن حاطب بن أبى بلتعة قال :

بعثنى رسول الله - ﷺ - الى المقوقس ملك الإسكندرية .

قال : فجيئته بكتاب رسول الله - ﷺ - فأنزلنى فى منزله ، وأقمت عنده ، ثم بعث إلىَّ وقد جمع بطارقته فقال لى : إنى سأكلمك بكلام وأحب أن تفهمه منى .

قلت : هلم .

قال : أخبرنى عن صاحبك ، أليس هو بنبى ؟

---

(١٩٣) حسن المحاضرة جـ ١ صـ ٤٥

قلت : بلى هو رسول الله ونبيه

قال : فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟

فقلت : عيسى بن مريم ـ ألست تشهد أنه رسول الله ؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله ـ عز وجل ـ حتى رفعه الله إليه فى السماء الدنيا ؟

قال : أنت حكيم جاء من عند حكيم . هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد ، قال : فأهدى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاث جوار منهن أم إبراهيم ابن رسول الله ـ ﷺ ـ ، وواحدة وهبها رسول الله ـ ﷺ ـ عليه وسلم ـ لأبى جهم بن حذيفة ، وواحدة وهبها لحسان بن ثابت الأنصارى ، كما أرسل إليهم بِطُرف من طرفهم .(١٩٤)

والجارية التى وهبت لحسان أنجبت له عبدالرحمن بن حسان

وقد اختلف فى الجارية الثالثة فقيل : إنها أهديت لأبى جهم بن حذيفة وقيل ـ فى رواية للبيهقى أيضا ـ إنها أهديت لجهم بن قيس العبدى فهى أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص على مصر .(١٩٥)

وقيل : بل أهديت لمحمد بن مسلمة الأنصارى .

والمشهور أنهما جاريتان فقط مارية وأختها . وقد وهبت أخت مارية لحسان بن ثابت . وقد أورد ابن الأثير فى ترجمة عبدالرحمن بن حسان أن أمه

---

(١٩٤) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٤ صـ ٣٩٦

(١٩٥) المرجع السابق

هى سيرين القبطية أخت مارية فهو ابن خالة إبراهيم ابن رسول الله - ﷺ -(١٩٦)

كما أهدى المقوقس للنبى - ﷺ - طبيبا

فرد النبى - ﷺ - الطبيب ، وقال له ، لا حاجة لنابك . فلما عاد إلى المقوقس . سأله عن سبب رده .

فقال : لقد بعثتنى لرجل جمع الحكمة كلها والطب كله فى كلمتين : قال لى : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع .

وهذا هو قوام الصحة أجمع . فإن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء كما أخبر بذلك النبى - ﷺ - أيضا .

المقوقس يستخبر من المغيرة بن شعبة عن النبى

وكان المغيرة بن شعبة قد خرج مع جماعة من بنى مالك إلى المقوقس فى زيارة له ، وكان المغيرة وقتئذ مازال على شركة .

فقال لهم المقوقس : كيف خلصتم إلىَّ من طائفتكم ومحمد وأصحابه بينى وبينكم ؟

قالوا : لصقنا بالبحر ، وقد خلفناه على ذلك .

قال : فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه ؟

قالوا : لم يتبعه منا إلا القليل

قال : ولم ذاك ؟

قالوا : جاءنا بدين جديد لا تدين به الآباء ، ولا يدين به الملك - يقصدون

---

(١٩٦) اسد الغابة حـ٣ صـ٤٣٤

المقوقس ـ ونحن على ما كان عليه آباؤنا .

قال : فكيف صنع قومه ؟

قالوا : تبعه أحداثهم ، وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب فى مواطن ، مرة تكون عليهم الدائرة ، ومرة تكون عليه .

قال : ألا تخبرونى إلى ماذا يدعو؟

قالوا : يدعو إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونخلع ما كان يعبد الآباء ، ويدعو إلى الصلاة والصدقة

قال : ألها وقت يعرف ، وعدد ينتهى إليه ؟

قالوا : نعم يصلون فى اليوم والليلة خمس صلوات لمواقيت وعدد ، ويؤدون من كل ما بلغ عشرين مثقالا ، وكل إبل بلغت خمسا شاة ، ثم أخبروه بصدقة الأموال .

قال : أفرأيتم إن أخذها أين يضعها ؟

قالوا : يردها على فقرائهم . ويأمرهم بصلة الرحم ، ووفاء العهد ، وتحريم الزنا والربا والخمر ، ولا يأكل ما ذبح لغير اسم الله .

عند ذلك قال لهم المقوقس : هو نبى مرسل إلى الناس كافة ، ولو أصاب القبط والروم تبعوه ، وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم ، وهذا الذى تصفونه منه بعثت به الأنبياء من قبل ، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ، ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور .

قالوا : لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا .

فأنغض [١٩٧] المقوقس رأسه ، وقال : أنتم فى اللعب .

ثم عاود المقوقس مساءلتهم فقال لهم : كيف نسبه فى قومه ؟

قال المغيرة : فقلنا : هو أوسطهم نسبا .

قال المقوقس : كذلك الأنبياء تبعث فى نسب قومها .

ثم قال : فكيف صدق حديثه ؟

قالوا : يسمى الصادق الأمين من صدقه .

قال المقوقس : انظروا فى أموركم ، أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ، ويكذب على الله ؟

ثم قال : فمن تبعه ؟

قالوا : الأحداث .

قال : هم أتباع الأنبياء قبله .

ثم قال : فما فعلت يهود يثرب فهم أهل التوراة ؟

قالوا : خالفوه ، فأوقع بهم فقتلهم وسباهم ، وتفرقوا فى كل وجه .

قال المقوقس : هم قوم حسد ، حسدوه . . أما إنهم ليعرفون من أمره مثلما نعرف .

قال المغيرة : فقمنا من عنده وقد سمعنا كلاما ذللنا لمحمد - ﷺ - وخَضَّعنا ، وقلنا : ملوك العجم يصدقونه ويخافونه على بعد أرجائهم منه ، ونحن أقرباؤه وجيرانه لم ندخل معه ، وقد جاءنا داعيا إلى منازلنا ؟

قال المغيرة : فأقمت بالاسكندرية لا أَدَعُ كنيسة إلا دخلتها ، وسألت

---

(١٩٧) أنغض : حرك رأسه عجبا

أساقفتها من قبطها وروما عما يجدون من صفة محمد - ﷺ -

وكان أسقف من القبط لم أر أشد اجتهادا منه ، فقلت له : أخبرنى ، هل بقى أحد من الأنبياء ؟

قال : نعم ، هو آخر الأنبياء ، ليس بينه وبين عيسى نبى ، قد أمر عيسى باتباعه ، وهو النبى الأمى العربى ، اسمه أحمد ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، فى عينيه حمرة خفيفة يلبس ما غلظ من الثياب ، ويجتزى بما لقى من الطعام ، سيفه على عاتقه ، ولا يبالى من لاقى ، يباشر القتال بنفسه ، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم ، هم أشد حبا له من آبائهم وأولادهم ، مِنْ حرم يأتى وإلى حرم يهاجر ، إلى أرض سباخ ونخل ، يدين بدين إبراهيم .

قال المغيرة : قلت زدنى فى صفته .

قال : يأتزر على وسطه ، ويغسل أطرافه ، ويخص بما لم يخص به الأنبياء قبله . كان النبى يبعث إلى قومه وبعث هو إلى الناس كافة ، وجعلت له الأرض مسجدا وطهورا ، أينما أدركته الصلاة تيمم وصلى ، وكان من قبله مشددا عليهم لا يصلون إلا فى الكنائس والبيع .

قال المغيرة : فوعيت ذلك كله من قوله وقول غيره . فرجعت وأسلمت .(١٩٨)

---

(١٩٨) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة حـ ١ صـ ٤٥ ، والمواهب اللدنية حـ ٣ صـ ٣٤٩

رسالة النبى إلى البحرين

وكان العلاء بن الحضرمى رسول النبى - ﷺ - إلى المنذر العبدى أمير البحرين .

والعلاء بن الحضرمى ـ هو العلاء بن عبدالله بن عباد بن أكبر ولُقّب أبوه بالحضرمى فغلب عليه للقب ، ولقب بذلك لأن أباه من حضرموت ، قدم مكة وحالف حرب بن أمية . .

وكان العلاء من الذين أسلموا قبل فتح مكة . وكان له أخ اسمه عامر قتل يوم بدر كافرا . . وله أخت اسمها الصعبة بنت الحضرمى تزوجها أبوسفيان ثم طلقها ، فتزوجها طليحة بن عبيدالله أحد العشرة المبشرين بالجنة . وكان العلاء مستجاب الدعوة . .(١٩٩)

أما المنذر فهو ابن ساوى بن عبدالله بن زيد بن عبدالله بن دارم التميمى الدارمى صاحب البحرين ، وقيل : إنه من عبدالقيس .

كان أمير البحرين . . . . وكان نص الرسالة التى حملها العلاء إليه : ـ

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد : فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك ـ أى وليتك عليهم ـ فاترك للمسليمن ما أسلموا

---

(١٩٩) اسد الغابة حـ ٤ صـ ٧٤

عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، ولن نعزلك عن عملك ، مادمت مصلحا . . ومن أقام على يهوديته أو مجو سيته فعليه الجزية »

والمتأمل فى هذا الكتاب يجده جوابا لكتاب كان المنذر بن ساوى قد أرسله للنبى - ﷺ - رداً على كتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، ولذلك بدأه النبى - ﷺ - بالسلام عليه بعد أن تبين له استجابته للإسلام . فقال له : سلام عليك - وكان من عادته - ﷺ - أن يكتبَ فى صدر رسالته : السلام على من اتبع الهدى . .

والرسالة الأولى التى أرسلها النبى - ﷺ - للمنذر لم يذكرها أحد من الرواة ، ولكن ابن سعد أشار فى الطبقات إلى أنه أرسلها إليه بعد حنين فقد قال : ويعث رسول الله - ﷺ - حين انصرف من الجعرانه - العلاء بن الحضرمى الى المنذر العبدى وهو بالبحرين يدعوه إلى الاسلام ، وكتب إليه كتابا ، فكتب إلى رسول الله - ﷺ - بإسلامه وتصديقه ، وأنه قرأ كتابه على أهل هجر ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وأن بأرضه مجوسا ويهودا . . وطلب من الرسول - ﷺ - أن يرسل له فى شأن هؤلاء أمره . . . . . فكتب إليه رسول الله - ﷺ - الرسالة التى ذكرناها .(٢٠٠)

وكان العلاء بن الحضرمى عاقلا لبيبا ، كما كان المنذر رشيدا موفقا ، فقد رحب بالإسلام حين بلغه -

---

(٢٠٠) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ صـ ١٩

وكان العلاء قد قال له : يامنذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة ، إن هذه المجوسية شردين ، ليس فيها تَكَرُّمُ العرب ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتنزه عن أكله ، ويعبدون فى الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا نصدقه ؟ ولمن لا يخون ألا نأمنه ؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به ؟ هذا هو النبى الأمى ، الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، وليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه ؛ إذ كل ذلك منه أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر»(٢٠١)

إنه وصف صادق بارع دقيق لأخلاق النبى - ﷺ - وسياسته .

وكان رد المنذر بن ساوى عليه أنه قال : -

قد نظرت فى هذا الدين الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فرأيته للآخرة والدنيا ، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ؟

ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده ، من عظم ما جاء به وسأنظر .

أى سأنظر فيما أصنع من الذهاب إلى الرسول ، أو مكاتبته وإنى قد أسلمت(٢٠٢)

---

(٢٠١) هدى السيرة لعبد الحفيظ فرغل القرنى صـ١٩٣ حـ١ دار الفكر العربى

(٢٠٢) شرح المواهب اللدنية للزرقانى حـ٣ صـ٣٥٢

وكان الكتاب الثانى للنبى - ﷺ - للمنذر وهو الذى ذكرناه آنفا ، قد حمله العلاء بن الحضرمى أيضا إلى المنذر ، ومعه تكليف من النبى - ﷺ - للعلاء بأن يجمع صدقات أهل البحرين ، ويبعث معه أبا هريرة - رضى الله عنه - وأوصى العلاء به خيرا .

قال أبو هريرة : بعثنى النبى - ﷺ - مع العلاء بن الحضرمى وأوصاه بى خيرا ، فلما فصلنا قال لى : إن رسول الله - ﷺ - قد أوصانى بك خيرا ، فانظر ماذا تحب ؟

قال : قلت : تجعلنى أؤذن لك ، ولا تسبقنى بآمين . فأعطاه ذلك .

وكتب النبى - ﷺ - بعد ذلك للعلاء بن الحضرمى أن يقدم عليه بعشرين رجلا من عبدالقيس - وهم قوم المنذر - فقدم عليه بعشرين رجلا منهم - رأسهم عبدالله بن عوف الأشج ، واستخلف العلاء على البحرين المنذر بن ساوى .(٢٠٣)

ويفهم من ذلك أن العلاء بن الحضرمى قد ولاه النبى - ﷺ - البحرين بدلا من المنذر بن ساوى . .

ثم لم يلبث أن وفد المنذر على النبى - ﷺ - فى وفد آخر . . . .

روى نافع أبوسليمان العبدى مولى المنذر بن ساوى قال :

وفد المنذر بن ساوى من البحرين حتى أتى مدينة رسول الله - ﷺ - ، ومع المنذر أناس ، وأنا غلام لا أعقل أمسك جمالهم .

---

(٢٠٣) الطبقات الكبرى جـ ٤ قسم ٢ صـ ٧٦

قال : فذهبوا مع سلاحهم ، وسلموا على رسول الله - ﷺ - ووضع المنذر سلاحه ، ولبس ثيابا كانت معه ، ومسح لحيته ، وأتى النبي - ﷺ - فسلم عليه

قال المنذر : قال النبي - ﷺ - رأيت منك ما لم أر من أصحابك .

قال : وما رأيت منى يانبي الله ؟

قال : وضعت سلاحك ، ولبست ثيابك ، وتطيبت .

قال المنذر : قلت : يانبي الله ، أهذا شيء جُبِلْتُ عليه أم شيء أحدثته ؟

قال النبي - ﷺ - : لا بل جبلت عليه .

فسلموا على النبي - ﷺ فقال : أسلم عبدالقيس طوعاً وأسلم كثير من الناس كرها ، فبارك الله فى عبد القيس وموالى عبدالقيس .

قال سليمان بن نافع : قال لى أبي : نظرت إلى رسول الله - ﷺ - كما أنى أنظر إليك . . . ومات أبي وهو ابن عشرين ومائة سنة (٢٠٤)

كتابه ﷺ - إلى ملك عمان

وكان يحكم عمان ملكان أخوان هما جيفر - بوزن جعفر - وعبد أو عباد وهما ابنا الجلندى - بضم الجيم وفتح اللام ، وضبطه ابن الأثير بفتح الجيم - وهو - ابن المستكبر بن الحراز بن عبدالعزى بن معولة بن عثمان الأزدى العمانى . (٢٠٥)

أرسل إليهما النبي - ﷺ - مع عمرو بن العاص كتاباً يدعوهما فيه إلى الاسلام ، وهذا نص الكتاب .

---

(٢٠٤) أسد الغابة جـ ٥ صـ ٣٠٢

(٢٠٥) أسد الغابة جـ ١ صـ ٣٧١

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبدالله إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى . . .

أدعوكما بدعوة الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملكما زائل عنكما ، وخيلى تحل - أى تنزل - بساحتكما وتظهر نبوق على ملككما » .

وهذا هو المشهور عند الرواة - أن عمرو بن العاص أرسله النبى - ﷺ - إلى ابنى الجلندى لا الجلندى أبيهما .

فقد ذكر بعضهم عن ابن إسحاق قال : إن النبى - ﷺ - بعث إلى الجلندى عمراً يدعوه إلى الإسلام . فقال الجلندى : لقد عرفت عن هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يَغْلِب فلا يبطر ، ويُغْلَب فلا يهجر ، وأنه يفى بالعهد وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبى ، وأنشد أبياتا منها :

فيا عمرو قد أسلمت لله جهرة
ينادى بها فى الوادين فصيح(٢٠٦)

وابن الأثير لم يذكر الجلندى فى أسد الغابة ، ولكن ابن حجر ذكره فى الإصابة وقال : يحتمل أن عمرو بن العاص أُرْسِلَ إليهم جميعا أى إلى الجلندى وإلى ابنيه . .(٢٠٧)

---

(٢٠٦) شرح المواهب اللدنية حـ٣ صـ٣٥٣
(٢٠٧) أسد الغابة حـ١ صـ٥٣٨

وفى اختيار عمرو بن العاص لأداء هذه المهمة حكمة لا تخفى ، فالمرسل إليهما أخوان عربيان متمكنان من قومهما الأزد . وهما فى حاجة إلى رجل ذى حكمة وعقل وسياسة ، وهى صفات تتوفر فى عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ

وعمان ـ بضم العين وفتح الميم مخففة ـ سميت باسم عمان بن سبأ ، وهى مجاورة لليمن .

وكان النبى ـ ﷺ ـ يتوسم فى عمان وأهلها خيرا . روى مسلم عن أبى برزة قال : بعث رسول الله ـ ﷺ ـ رجلا إلى قوم فسبوه وضربوه ، فجاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له : لو أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك . وروى أحمد عن عمر قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : إنى لأعلم أرضا يقال لها عمان ينضح بناحيتها البحر لو أتاهم رسولى ما رموه بسهم ولا حجر .

ولنترك عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ يحدثنا عن مهمته التى قام بها فى عمان قال ؛

خرجت وسرت حتى انتهيت إلى عمان . . فقصدت إلى عباد بن الجلندى ـ وقد بدأته أولا لأنه أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا . . وأنهيت إليه مهمتى ، وأفهمته أننى أحمل إليه وإلى أخيه رسالة من سيد البشر

وكان عبد أو عباد هو الأخ الأصغر ، فلم يشأ أن يستبد بالأمر دون أخيه ، وفى الوقت نفسه أراد أن يستفسر من عمرو عن رسالته التى جاء بها إليهما . فقال لعمرو :

ياعمرو ، إن أخى هو المقدم بالسن والملك ، وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك . ولكن ، ما الذى تدعو إليه ؟

فقال عمرو ؛ أدعوك إلى الله وحده ، وأن تخلع ماعبد من دونه وتشهد أن محمدا ـ ﷺ ـ عبده ورسوله . .

وهنا أراد عبد أن يثير حفيظة عمرو ، وأن يستخرج ما فى دخيلة نفسه ، وأن يختبر عقله وذكاءه .

إنه سمع عن عمرو بدون شك ـ فقد كان معروفا مشهورا بين العرب ، وخصوصا أنه كان من زعماء قريش . . . ولقريش مكانتها التى لا تخفى على أحد ، وكان العاص بن وائل السهمى والد عمرو أحد أقطاب قريش . . .

قال عباد لعمرو :

ياعمرو ، إنك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ، فإن لنا فيه قدوة ؟

قال عمرو : فقلت له : إن أبى قد مات ولم يؤمن بمحمد ـ ﷺ ـ ولوددت أنه كان أسلم وصدق به .

ثم استطرد عمرو يبين له أن اتباع من مضوا على الكفر ليس مما يحمد عليه صاحبه ، وأن التقليد الأعمى ليس من شأن العقلاء من الناس ، وكأنه قد أراد أن يشير بذلك إلى قوله ـ تعالى ـ

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ (٢٠٨)

---

(٢٠٨) الزخرف ٢٢ ، ٢٣

ثم قال عمرو لعباد ؛ وقد كنت على مثل رأى والدى ، حتى هدانى الله بالإسلام .

فقال له عباد : فمتى تبعته ؟

قال عمرو : قريبا . .

ولعل قصة إسلام عمرو قد أثارت فضول عباد ، فأراد أن يعرف منه هذه القصة ، فقال له : أين كان إسلامك ؟

فأخبره عمرو بقصة إسلامه التى سبق أن ذكرناها . .

قال عمرو : وأخبرته كذلك بأن النجاشى أسلم . .

وقد أثار هذا الخبر عجب عباد ، كيف يسلم ملك دون أن يثور عليه قومه ؟

ثم كيف يسلم ملك وهو على دين سماوى ، تحيط به قساوسة ورهبان يؤمنون بكتاب جاء به نبي مرسل ؟

لقد أثار هذا الخبر اهتمام عباد وهو ملك مثل النجاشى ، فأراد أن يستوثق من هذا الخبر فقال له : ياعمرو ، كيف صنع قوم النجاشى بملكه حين أسلم ؟

فأجابه عمرو قائلا : لقد أقروه على ملكه واتبعوه .

قال عباد : والأساقفة ؟ والرهبان ؟

قال عمرو : تبعوه . .

قال عباد : تبعوه ؟

قال عمرو : نعم .

وبدا كأنه لم يصدق ما سمع فقال لعمرو : ياعمرو ، انظر ما تقول . لقد

استعظم عباد وقوع ذلك ، واتهم عمراً بالكذب فى قرارة نفسه ، وظن أنه يكذب فى الخبر الذى أخبريه لحاجة فى نفسه ، فأردف يقول لعمرو : إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب .

فقال عمرو ـ فى ثقة وتأكيد ـ : وما كذبت ، وما نستحله فى ديننا . . . . وحقا ذلك . . . . . فإن الصدق من الفضائل التى اهتم بها الإسلام اهتماما كبيرا لأنه اعتبره جماع الفضائل كلها ـ وما التزم إنسان الصدق إلا كملت صفاته جميعا . وما اتسم إنسان بالكذب إلا سقط فى كافة مواقفه وتصرفاته وسلوكه . وسقط فى أعين الناس كذلك .

وتردد فى صدر عباد خاطر ، يهتم به كل من كان مثله فى مُلْك ، فهو يدرك مقدار نفوذ القياصرة والأكاسرة على ما تحت أيديهم من ولايات . والنجاشى معروف بتبعيته لقيصر . . فماذا كان موقف هرقل من النجاشى بعد إسلامه . هذا ما جال بخاطر عباد . . فقال لعمرو بن العاص :

ما أرى يا عمرو أن هرقل قد علم بإسلام النجاشى . .

ولكن عمراً بادر فأخبره : بلى . قد علم بإسلامه .

فقال عباد : بأى شىء علمت ذلك ؟

فأجابه عمرو قائلا : كان النجاشى يخرج خَرْجاً لهرقل فلما أسلم وصدق بمحمد ـ ﷺ ـ قال : لا والله لو سألنى هرقل درهما واحدا ما أعطيته . فبلغ ذلك هرقل . فقال له أخوه :(٢٠٩) أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين دينا محدثا ؟

(٢٠٩) أخوه اسمه : يَنّاق ـ بياء فنون بعدها ألف ثم قاف . وهو علم ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة

فأجابه هرقل قائلا : رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ، ما أصنع به ؟ والله لولا أنى ضنين بملكى لصنعت كما صنع .

فازدادت دهشة عبد أو عباد ـ على خلاف فى ذلك ـ واستكثر أن يكون ذلك قد حدث من هرقل ، لقد استبعده من النجاشى فكيف يصح وقوعه من هرقل ؟ فأعاد الكرة على عمرو قائلا : ياعمرو ، انظر ما تقول .

ولكن عمراً قال له : لقد صدقتك القول .

وفعل هذا الحديث فعله فى نفس عباد .

كيف يؤمن النجاشى فعلا بهذا الدين ؟ وكيف يهم به قيصر ثم ينكص عنه خوفا على ملكه ؟ أى سحر فى هذا الدين ؟ وأى قوة له ؟ ماذا يوجد فيه من إغراء يشد الناس إليه ، وتهون الدنيا بجانبه ، ويترك الملوك ملكهم من أجله ؟ فأقبل عباد على عمرو مستفسرا . وقال له : أخبرنى ياعمرو عما يأمر به هذا الدين وعما ينهى عنه ؟ .

فأجابه عمرو قائلا : إنه يأمر بطاعة الله ـ عز وجل ـ وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب .

لقد استعمل عمرو أسلوب الإطناب لأن مقام الخطابة والبيان يقتضى ذلك . وإلا فكل ما ذكره من منهيات داخل تحت قوله : وينهى عن معصيته . وهذا من وجوه البلاغة ، فلكل مقام مقال .

ويبدا الاقتناع على وجه عباد تماما . . وأكد ذلك بما قاله لعمرو . . فقد قال لعمرو : ما أحسن هذا الذى يدعو إلى هذه الفضائل . . ولو كان أخى

يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً

ولكن عمرو بن العاص - ﷺ - سارع يقول له : إن يسلم أخوك أقره رسول الله - ﷺ - على ملكه - وأمره أن يأخذ صدقات الأموال من الأغنياء فيردها على الفقراء ..

فازداد عباد إعجابا بهذا الدين فقال : إن هذا الخلق حسن .

وأراد عباد أن يعرف شيئا عن الصدقة . فقال لعمرو : وما الصدقة ؟

فأقبل عمرو يبين له ما فرض الله - تعالى - وبينه رسول الله - ﷺ - من الصدقات فى الأموال حتى انتهى إلى الإبل .

فقال عباد : ياعمرو ، يؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه ؟

قال عمرو : نعم

قال عباد : ما أرى - ما أظن - قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا - أى يقرون بهذا .

وبعد هذه المحاورة التى كشفت أمام عباد حقائق الإسلام ومبادئه وتكاليفه اطمأنت نفسه للإسلام . ولكن الذى فى يده الأمر وهو أخوه جيفر لا يعلم عن ذلك شيئاً ..

وأراد عباد أن يمهد طريق اللقاء بين عمرو وجيفر . وليس طريق اللقاء فقط ، بل طريق الإسلام أيضا ..

وذلك يحتاج إلى وقت . . قال عمرو . . فمكثت عنده أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى .

ثم دعانى يوما لأدخل معه على أخيه ، فدخلت عليه ـ فأخذ أعوانه بضبعى .(٢١٠) فقال الملك : دعوه

قال عمرو : فأرسلت ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس . لقد جرت عادتهم على ذلك ، وهذا من عنجهية الملوك ، وفى شأن هؤلاء وأمثالهم ورد قوله ـ ﷺ ـ : « من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار »

ثم نظر الملك إلى عمرو وقال له : تكلم بحاجتك .

قال عمرو : فدفعت إليه الكتاب مختوما ، ففض ختمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه عباد فقرأه مثل قراءته حتى استوفاه إلى آخره .

ولكن عمرا لاحظ أن استقبال جيفر للكتاب ليس كاستقبال عباد له ، لقد بدا أن عبادا قد تفتحت نفسه للإسلام ، واستجاب قلبه له . أما جيفر فقد كان متجهما . وكأن الكتاب قد سبب له ضيقا . . وكأن أخاه لم يفلح فى إذهاب ما بنفسه بالنسبة لهذا الدين طوال هذه الفترة التى احتجب فيها عمرو عن لقائه . وأخيرا قال جيفر لعمرو : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟

فقال له عمرو : تبعوه ورغبوا فى هذا الدين فأسرع البعض إلى قبوله

---

(٢١٠) الضَّبْع ـ بفتح فسكون ـ العضد والجمع أضباع مثل فرخ وأفراخ ، وهى هنا مثنى حذفت نونه للإضافة إلى ياء المتكلم ـ والضبُع بضم الباء وهى مؤنثة دائما حيوان متوحش يجمع على ضباع ، وتطلق أيضا على السنة المجدبة

وتريث البعض إلى أن هداه الله وحسن إسلامه

قال جيفر : ومن معه ؟

قال عمرو : الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله لهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الحرجة . .[211] وإن لم تسلم اليوم وتتبعه فاتك الخير كل الخير . . فأسلم تسلم ، ويستعملك رسول الله على قومك ، فتبقى على ملكك مع الإسلام . . . . . . هذا مع سعادة الدارين والراحة من القتال .

لقد كان عمرو غاية فى الشجاعة واللباقة والحكمة ، فقد أوعد ووعد وأنذر وبشر ، مع أنه واقف بين يدى ملك أبى عليه الجلوس فى مجلسه ، وهنا قال جيفر : دعنى يومى هذا وارجع إلىَّ فى غد .

فخرج عمرو ، ورجع إلى عباد ، فقال له : ياعمرو ، إنى أرجو أن يسلم أخى إن لم يضن بملكه . . . . وجاء الغد ، وقصد عمرو إلى جيفر كما وعده . فأبى أن يأذن له . . فلم ييأس عمرو ، وانصرف إلى أخيه فأخبره ، فأخذه عباد وأوصله إليه . فلما رآه جيفر قال له : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً شيئاً مما فى يدى ، وهو لاتبلغ خيله موضعى ، وإن بلغت خيله هنا ألفت قتالا ليس كقتال من لاقى .

ووجد عمرو أن الحكمة تقضى بألا يرد على مثل هذا الرجل الذى لم يحسن التفكر فى عاقبة أمره . . لقد رأى الجزيرة العربية كلها قد دانت

(٢١١) الحرجه ـ بفتحات ـ الشجر الملتف ، ويريد بها الضيق

بالإسلام وأقرت به قريش التى لم تترك وسيلة إلا حاربت بها الإسلام ، فكيف يبقى جيفر هذا سادرا فى عنجهيته يلوح بالقوة والعصيان . .

ولم يرد عليه عمرو إلا بكلمة واحدة هى : إنى خارج غداً .

وكان هذا الرد أبلغ من أى رد .

لم يضيع عمرو وقته فى نقاش ضائع مع مثل هذا الذى ركب رأسه ، فأولى به أن يرى بعينه لا أن يسمع بأذنه . . وانصرف عمرو .

فلما أيقن جيفر بمخرج عمرو خلا به أخوه فقال له : فكر ياجيفر فى هذا الدين فقد استجاب له من هم أفضل منا ، وحكى له ما سمعه من عمرو . . .

فأصاخ جيفر إلى كلامه ، فلما أصبح أرسل إلى عمرو بن العاص ، فأجابه إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدقا بما جاء به النبى - ﷺ - وأطلقا يد عمرو فى جَمْع الصدقة والحكم فيما بينهم بما أنزل الله . قال عمرو : وكانا معى عونا على من خالفنى . .

وظل عمرو بعمان حتى توفى النبى - ﷺ - . . (٢١٢)

رسالة النبى إلى هوذة الحنفى باليمامة

كان هوذة بن على من بنى حنيفة ملكا على اليمامة . . (٢١٣) وهى بلاد بالبادية كان اسمها « الجو » فسميت باسم جارية زرقاء كانت تبصر الركب

---

(٢١٢) راجع فى هذه المادة - طبقات ابن سعد - المواهب اللدنية - السيرة الحلبية

(٢١٣) فى حياة الحيوان - هَوْذة - بفتح الهاء وهى ضرب من الطير ، وضبطها الزرقانى بضم الهاء نقلا عن الصحاح

من مسيرة ثلاثة أيام ، فكان يقال لهذه البلاد : بلاد اليمامة ، ثم أصبحت « اليمامة » علما على البلاد لكثرة ما أضيفت إليها . وهي مشهورة بكثرة النخيل من سائر بلاد الحجاز ، وهي دون المدينة في وسط الشرق عن مكة ، على ست عشرة مرحلة من البصرة ، وعن الكوفة نحوها .

وقد حمل رسالة النبي إلى هذا الملك سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ العامري ،وهو من السابقين إلى الإسلام ، المهاجرين إلى الحبشة هو وزوجته ، وولد له في الحبشة غلام سماه سليطا باسمه ، فهو سليط بن سليط بن عمرو . . . . . وقد شهد سليط بدرا في رأى بعض الرواة ، ولكن ابن سعد ذكر أنه شهد أحدا وبقية المشاهد بعد ذلك مع رسول الله ـ ﷺ ـ واستشهد سليط في معركة اليمامة سنة اثنتي عشرة في خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وكان سليط يختلف كثيرا إلى اليمامة ـ أي يتردد عليها ـ فمن أجل ذلك اختاره النبي ـ ﷺ ـ لهذه المهمة . .

وكان نص الكتاب الذي حمله سليط لهوذة هو ؛

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر ـ وينتهي إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يديك »

وقدم سليط بهذه الرسالة إلى هوذة فقدمها له . . فأنزله وحباه وأكرمه . وفض هوذة خاتم الكتاب ثم قرأه . وأخذ يفكر في مضمونه . . عند ذلك قدم له سليط النصيحة فقال له :

يا هوذة إن سودتك أَعْظُمٌ حائلة[٢١٤] وأرواح فى النار ، وإنما السيد من مُتِّع بالإيمان ثم زود بالتقوى ، إن قوما سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وإنى آمرك بخير مأمور به ، وأنهاك عن شر منهى عنه ، آمرك بعبادة الله ، وأنهاك عن عبادة الشيطان ، فإن فى عبادة الله الجنة ، وفى عبادة الشيطان النار ، فإن قبلت نلت مارجوت ، وأمنت ما خفت ، وإن أبيت خسرت كل شيء والله ناصر دينه ..

فقال هوذة : ياسليط ، سودنى ـ جعلنى سيدا ـ من لو سودك شرفت به ، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور ، فقدته الآن .. فموضعه من قلبى هواء . ـ أى فارغ ـ ، فاجعل لى فسحة يرجع إلىَّ رأيى ثم أجيبك إن شاء الله .

وأخذ هوذة يديم التفكير ويقلب الآراء ويزن الأمور ولكنه لم يستقر على رأى يطمئن إليه ويملأ عليه خاطره ووجدانه ويشغل به قلبه وجنانه .

ولم يرد هوذة على الكتاب بالإيجاب أو السلب ، وهذا معنى قول الرواة : فردَّ ردّاً دون رد .

فهو لم يستجب للإسلام كما استجاب غيره ، وفى الوقت نفسه لم يرفض الإسلام كما رفض غيره .

ولكنه كتب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً :

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم ، والعرب

---

(٢١٤) سودتك : من السيادة أى سيادتك على قومك ، وأعظم جمع عَظْمة ، وحائلة أى بالية . يعنى أن سيادتك على قومك زائلة وليست باقية دائمة

تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك . .

ماذا كان يريد هوذة من رسالته هذه ؟

ألم يقل له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم تسلم وأقرك على ما تحت يدك ؟

ماذا يطلب أكثر من ذلك ؟

أغلب الظن أنه كان يريد أن يكون له نصيب فى النبوة أو الخلافة

لقد تجاوز هوذة قدره حين فكر فى هذا الأمر . .

وكأنَّ النبوة أمر من أمور الدنيا يستطيع أن يحصله الانسان بذكاء أو اجتهاد أو ميراث . . وغاب عنه أن الله أعلم حيث يجعل رسالته . .

وحين قرأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الرد العجيب قال : لو سألنى سَيَابة[٢١٥] من الأرض ما فعلت . وسوف يخسر كل شيء . .

ومات هوذة على كفره ، وحق فيه ما حق فى الكافرين الذين وصفوا بأن أفئدتهم هواء ، ولقد حكم هو على نفسه بذلك حين رد على سليط رده الذى ذكرناه .

لقد جاء جبريل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو منصرف من فتح مكة يخبره بوفاة هوذة على كفره ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ وسوف يقتل بعدى[٢١٦] .

---

(٢١٥) سَيابة ـ بفتح السين وفتح الياء المخففة من غير تشديد ـ : ناحية أو قطعة ، وبعضهم قال : معناها البلحة أو البسرة ـ كناية عن قلة الشيء وصغره ـ

(٢١٦) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ٣ صـ٣٥٦

فكان كذلك ، وظهر مسيلمة الكذاب باليمامة وادعى النبوة .

وقد اشترك فى قتل مسيلمة جماعة منهم خالد بن الوليد ـ رضى الله عنهم ـ

هل كان هوذة صاحب دين ؟

ويبدو أن هوذة كان نصرانياً ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن ظفر فى كتابه قال : روى عن عبد الله بن مالك أنه قال :

قدمت اليمامة فى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ فجلست فى ناد بِحجر ـ قال محمد : وهى قصبة اليمامة ـ فقال رجل فى النادى ـ وكان هذا الرجل من أصدقاء هوذة ـ :

بينما أنا يوماً عند هوذة ذى التاج ـ وكان هوذة نصرانياً من ملوك العرب .

قال الرجل : فدخل هوذة ، فقيل له : هذا راهب دمشق يستأذن فأذن له ، فدخل فرحب به هوذة وتحادثا .

فقال له الراهب : ما أطيب بلاد الملك .

قال هوذة : أجل هى ريف العرب وأصح بلادها .

قال الراهب : أين بلاد محمد الذى يدعو الناس إلى دينه من بلاد الملك ؟

فقال هوذة : هو منا قريب ، بيثرب ، وقد جاءنى كتابه يدعونى فلم أجبه إلى ما سأل .

قال الراهب : لِمَ ؟

قال هوذة : ضننت بملكى وخشيت أن يذهب إذا صرت تبعاً له .

فقال الراهب : لو اتبعته لملكك وأقرك ، والخير لك فى اتباعه ، فإنه

النبى الذى بشر به عيسى ووصفه فى الإنجيل بصفته .

فقال هوذة للراهب : فما لك لا تتبعه ؟

قال : أجدنى أحسده ، وأحب الخمر وهو يحرمها .

فقال هوذة : ما أرانى إلا متبعه وسائله أن يقرنى على ملكى ، ولقد وعدنى رسوله بذلك .

ثم أمر كاتبه ، فكتب كتاباً وبعث به إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وبعث إليه رسولاً بهدية . .

وشعر قومه بذلك فأتوه وقالوا : إن تركت دينك لم نملكك علينا ، فعدل عما كان قد عزم عليه وأمر بعودة الرسول ولم يبعث بالرسالة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - خوفاً على ضياع ملكه . .

ولبث الراهب عنده فى كرامة ، وكان يفد إليه كل عام .

قال الرجل : فلقيت الراهب مرة فقلت له : أحق ما قلت لهوذة فى أمر محمد ؟

قال : نعم ، فاتبعه .

قال الرجل : فرجعت إلى أهلى فتجهزت ، وأتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته بما سمعت وآمنت به(٢١٧) .

وذكر الواقدى قصة مثل هذه قال : إن أركون دمشق وهو عظيم من عظماء النصارى - كان عند هوذة ، فسأله عن النبى - صلى الله عليه وسلم -

---

(٢١٧) انظر خير البشر بخير البشر لابن ظفر الحموى صـ٧٦ ط الأهرام ١٩٩٠ م

فقال : جاءنى كتابه يدعونى إلى الاسلام فلم أجبه .

قال الأركون : لِمَ لم تجبه ؟

قال : ضننت بدينى وأنا ملك قومى ، ولئن اتبعته لن أملك .

قال : بلى والله لئن اتبعته ليملكنك ، وإن الخير لك فى اتباعه ، وإنه للنبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم ، وإنه لمكتوب عندنا فى الإنجيل : محمد رسول الله . وقد ذكر ابن حجر فى الإصابة أركون هذا وقال عنه : أدرك الجاهلية والاسلام فأسلم على يدى خالد بن الوليد فى عهد أبى بكر(٢١٨) ـ فهو تابعى ـ على ذلك ـ

لقد تضافرت إذن أسباب الهداية أمام هوذة ، ولكن الشقاوة غلبت عليه وصدق قول الحق :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (٢١٩)

رسالته ﷺ إلى الحارث الغسانى

كان الحارث بن أبى شمر الغسانى أمير دمشق وكان مقيماً بغوطتها ، وغوطة دمشق مكان معروف بجماله وهو متنزه حافل بالماء والشجر قال عنه أمير الشعراء شوقى

---

(٢١٨) شرح المواهب اللدنية للزرقانى حـ٣ صـ٣٥٦ قال : وذكره ابن عساكر فى ترجمة حفيده : ابراهيم بن محمد صالح بن سنان بن يحيى بن أركون . وأركون بفتح الهمزة وضم الكاف : العظيم من الروم

(٢١٩) القصص ٥٦

« دمشق روح وجنات وريحان » .

كان الحارث أميراً عليها من قبل هرقل ملك الروم .

وكان الرسول الذى أرسله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه هو شجاع بن وهب بن ربيعة ، ويكنى أبا وهب أسلم قديماً ، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وشهد بدراً واستشهد فى اليمامة وهو ابن بضع وأربعين سنة . .

وكتب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الكتاب المرسل إلى الحارث بن أبى شمر ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر .

سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق ، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك » وختم الكتاب .

وانصرف شجاع لوجهه ، حتى أتى الغوطة ، فوجد الحارث مشغولاً فى تهيئة الضيافة لقيصر ، حيث كان قيصر فى طريقه من حمص إلى بيت المقدس فى زيارة شكر لله أن نجاه الله من الفرس ونصره عليهم ، وهذا مصداق لما أخبر به القرآن الكريم .

﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③ فِى بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ ﴾ (٢٢٠)

---

(٢٢٠) الروم ١ : ٥

قال شجاع : فأقمت على باب الحارث يومين أو ثلاثة ..

وأخيراً قلت لحاجبه : إنى رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الحارث ، وأنا أريد أن أصل إليه .

فقال الحاجب : إنك لن تستطيع أن تصل إليه حتى يخرج يوم كذا .

وكان الحاجب رومياً ، واسمه : « مِرى » - بكسر الميم مخففاً - فجعل يسأل شجاعاً عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وما يدعو إليه .

وكان شجاع يجيبه عما يسأل عنه ، فيجد لإجابته وقعاً طيباً فى نفس هذا الحاجب ، حتى لقد كان يغلبه البكاء من الرقة والخشوع حين يسمع أخبار النبى - صلى الله عليه وسلم - وهذا من علامات الايمان - وقد سجل القرآن ذلك فى حق بعض أهل الكتاب الذين كانوا يَرِقُّون حين يسمعون القرآن فيبكون قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٢٢١)

وقال مرى لشجاع : إنه قرأ الانجيل وعرف منه صفة النبى - صلى الله عليه وسلم - فلما سمعت منك صفاته وأخباره تأكد لى أنه هو نفسه الموصوف فى الإنجيل .

ثم قال مرى لشجاع : وكنت أظن أنه سيخرج بالشام ، فإذا به يخرج بأرض القرظ - كناية عن أرض العرب -

---

(٢٢١) المائدة ٨٣

وقال مرى : إنى أومن بهذا النبى وأصدقه ، ولكنى أخاف من الحارث أن يقتلنى إن أنا أعلنت ذلك .

وكان مرى يكرم شُجَاعاً ويحسن ضيافته ، ويقول له : إن الحارث ميئوس من إيمانه ، لأنه يخشى قيصر ويهابه ..

وحانت فرصة لقاء شجاع للحارث ، فقد أذن له الحارث بالدخول عليه .

فتقدم إليه شجاع ودفع الكتاب إليه ، فقرأه ، فامتلأ غيظاً ورمى بالكتاب وقال مهدداً : من ينتزع ملكى منى ؟ .. أنا سائر إليه .. وهدد وتوعد ونادى فى الناس بالاستعداد للحرب واستنفرهم للقتال ..

قال شجاع : فلم يزل جالساً حتى الليل ، وقد أمر بالخيل أن تُنعل .. ومعنى ذلك أن تُعَد لسير طويل وجهاد شديد ..

ثم قال لشجاع : أخبر صاحبك بما ترى ..

واستغنى بذلك عن كتابة خطاب .. لقد أراد أن يكون رده عملياً .

ولم يتعجل شجاع العودة ، بل تلبث قليلاً لأنه علم أن الحارث كتب لقيصر فى هذا الشأن .

فأراد أن يعرف نتائج ذلك ، ليعود ببيان شاف واف ..

كتب الحارث لقيصر يخبره بأمر هذه الرسالة التى وافته من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويذكر له استعداده وتهيؤه للقتال .

ووصلت الرسالة الى قيصر فى الوقت الذى كان مازال دحية بن خليفة الكلبى لدى قيصر يسلمه رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه .

وقد علمنا فيما سبق أن قيصر كان على بينة بأن النبى - ﷺ - هو نبى آخر الزمان الذى أخبرت به الكتب السابقة ، وبشر به عيسى - عليه السلام - فى الانجيل .

فكتب قيصر إلى الحارث يقول له : لا تسر إليه ، والْهُ عنه - يعنى لا تذكره - واشتغل بإيلياء - أى ببيت المقدس .

ويعنى قيصر بذلك أن يهيىء الحارث لقيصر فى بيت المقدس مكاناً ينزل فيه . وكان قيصر قد نذر أن يسير على قدميه إلى بيت المقدس من حمص ، وقيل : من القسطنطينية - شكراً لله - تعالىٰ - فأعدوا له بساطاً نثروا عليه الرياحين ليمشى عليه .

كما طلب من الحارث أيضاً أن يلقاه ببيت المقدس .

فلما وافت هذه الرسالة من قيصر للحارث سأل عن شجاع فعلم أنه مازال مقيماً لم يبرح ، فاستدعاه ، وتلطف له . وقال له : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟

قال شجاع : فقلت له : غداً .

فأمر له بمائة مثقال من الذهب .

ووصله الحاجب الرومى - مرى - يحمل الهدية ، وقال للحارث : أقرأ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - السلام وأخبره أنى متبع دينه .

ولذلك عده ابن حجر من الصحابة وترجم له فى كتابه الإصابة فى تمييز الصحابةباسم : مِرى الرومى[٢٢٢] .

---

(٢٢٢) الإصابة جـ ٦ صـ ٢٨٧

قال شجاع : فعدت إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبرته بخبر الحارث فقال : سيذهب ملكه .

قال : وأقرأته من ـ مرى ـ السلام وأخبرته بما قال ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدق[٢٢٣] .

أما ابن هشام فيقول : إن شجاع بن وهب كان رسولاً إلى جبلة بن الأيهم . ولا مانع مِنْ أن يكون قد أرسل إليهما معاً ـ أى إلى جبلة والحارث ـ . . وهما فى طريق واحد . . فقد كان جبلة ملكاً على غسان .

مَنْ جبلة بن الأيهم ؟

ذكر ابن سعد فى طبقاته أن النى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب إلى جبلة ابن الأيهم ملك غسان يدعوه إلى الاسلام ، فأسلم ، وكتب بإسلامه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم[٢٢٤] . ولكنه لم يذكر نص الخطاب ، وحضر جبلة بن الأيهم إلى المدينة فى عهد عمر بن الخطاب ، بعد أن كتب إليه يستأذنه فى القدوم عليه ، فسُرَّ عمر بقدومه وأذن له .

فخرج جبلة فى خمسين ومائتين من أهل بيته . حتى إذا قارب المدينة عمد فألبسهم غالى الثياب ، ثم عمد إلى الخيل فقلدها بقلائد الذهب والفضة ، وألبسها الديباج وغالى الحرير ، ووضع تاجه على رأسه ، فلم يبق أحد إلا خرج ينظر إليه وإلى زيه وزينته .

فلما دخل على عمر ـ رضى الله عنه ـ رحب به وأدنى مجلسه ، وأقام بالمدينة مكرماً ، وخرج عمر حاجاً فاصطحبه معه .

---

(٢٢٣) شرح المواهب اللدنية للزرقانى حـ٣ صـ٣٥٧

(٢٢٤) الطبقات الكبرى حـ١ قسم ٢ صـ٢٠

وحين طاف جبلة بالبيت وطىء رجل من فزارة إزاره فغضب جبلة ولطم الفزارى لطمة شديدة أصاب بها أنفه وأسنانه .

فشكا الفزارى لعمر ، فاستدعى جبلة ، فقال له : لم فعلت ذلك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، تعمد أن يطىء بقدمه إزارى ، ولولا حرمة البيت لضربت عنقه بالسيف .

فقال له عمر : أما أنت فقد أقررت . فإما أن ترضيه وإلا أقتص منك .

فقال جبلة : فتصنع بى ماذا ؟

قال عمر : مثلما صنعت به .

قال جبلة : أتقتص له منى سواء وأنا ملك وهو سوقى ؟

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ الإسلام سوى بينكما ، ولا فضل لك عليه إلا بالتقوى .

فقال جبلة : إن كنت أنا وهذا الرجل سواء فى هذا الدين فأنا أتنصر . . . كنت أظن يا أمير المؤمنين أن أكون فى الاسلام أعز منى فى الجاهلية .

فقال له عمر : إذاً أضرب عنقك .

فقال جبلة : فأمهلنى الليلة حتى أنظر فى أمرى .

قال عمر : فذلك إلى خصمك .

فقال الرجل : أمهلته يا أمير المؤمنين .

فأذن له عمر ـ رضى الله عنه ـ فى الانصراف ، فركب فى بنى عمه وهرب ليلا إلى القسطنطينية ، ودخل على هرقل وتنصر هناك ، ومات هنالك نصرانياً .

وقد سر هرقل بقدومه فزوجه ابنته وقاسمه ملكه وجعله من سُمَّاره ، وبنى له مدينة بين طرابلس واللاذقية سماها باسمه(٢٢٥) .

ويروى ابن سعد قصة أخرى فى تنصره قال فيها :

لم يزل جبلة مسلماً حتى زمن عمر بن الخطاب ، فبينما هو فى سوق دمشق إذ حدثت مشادة بينه وبين رجل من مزينة ، فوثب المزنى فلطم جبلة فأخذ أعوان جبلة المزنى وانطلقوا به الى أبى عبيدة بن الجراح - وكان والياً على الشام بعد أن فتحها العرب ، فقالوا له : هذا لطم جبلة .

قال أبو عبيدة : فليلطمه - أى يقتص منه بمثل ما اعتدى به عليه .

فقالوا : بل يقتل .

قال أبو عبيدة : لا .

فقال أعوان جبلة : تقطع يده .

قال أبو عبيدة : لا . إنما أمر الله - تعالى - بالقصاص بالمثل . .

فقال جبلة : أو ترون أنى جاعل وجهى نِدّاً لوجه رجل من السوقة ؟ بئس الدين هذا .

ثم ارتد نصرانياً ، ورحل بقومه حتى دخل أرض الروم ، فبلغ ذلك عمر فشق عليه ، وقال لحسان بن ثابت : يا أبا الوليد ، أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانياً ؟

فقال حسان : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وَلِمَ ؟

قال : لطمه رجل من مزينة .

---

(٢٢٥) السيرة الحلبية جـ٣ صـ٣٠٦

فقال حسان : كان يجب أن تقطع يد المزنى .

فقام إليه عمر بالدرة فضربه بها تأديباً له ، لأن هذا كلام لا يصح أن يصدر من مسلم ، لأن القصاص فى الاسلام بالمثل ، وإنما حمل حسان بن ثابت على قول ما قال ـ ما كان يدين به من فضل للغساسنة حين كان يفد إليهم وينال جوائزهم ، وله فيهم قصائد رائعة من عيون الشعر يتغنى بها المغنون ويتحدث بها الركبان فى كل مكان . إلا أن ذلك لا يسوغ له أن يعتبر أن جبلة أفضل من هذا الرجل الذى أكرمه الله بالاسلام . .

لقد ارتد جبلة لأنه رفض بعض تعاليم الاسلام ، والإسلام يرفض أن تقبل بعض تعاليمه ويرفض بعضها ، والذى يدين به يجب عليه أن يعى ذلك جيداً ، ولو كان جبلة هذا مقبلاً على الاسلام بقلبه لهان فى سبيله كل ما درج عليه من عز وسلطان ، ولأدرك أن كل ذلك بهرج زائف وزخرف باطل ومتاع زائل ، وأن السعادة الحقيقية إنما هى فى الفوز برضوان الله الذى يقول :

« قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا[٢٢٦] »

إن الاسلام لم يخسر شيئاً بارتداد جبلة ، ولكنه كسب تطبيق مبادئه واعتزازه بتعاليمه ، وإصراره على أخذ الحق لأصحابه . . ومن أجل ذلك جاء الاسلام ـ وإلا فما الفائدة التى يكسبها الناس من وراء هذا الدين الذى رحبوا به وأقبلوا عليه إن لم يجدوا فى ظله النصفة من الظالم والأمن من الخوف ، والنجاة من الجور .

---

(٢٢٦) النساء ٧٧

لقد جاء الاسلام بمبادىء أهمها بعد توحيد الله ـ تعالى ـ إقرار الحق ، وإشاعة العدل ، ونشر المساواة ، وإحلال الأخلاق الاسلامية الرفيعة محل الكبر والتعالى والغرور الزائف .

ما خسر الاسلام ، ولكن الخاسر الحقيقى هو جبلة ـ فماذا يجنى الانسان إذا كسب العالم وخسر نفسه ؟

إن أجمل ما يحققه الانسان ليس هو زهرة الدنيا وزخارفها الباطلة بل الفوز برضا الله فى جنة عرضها السموات والأرض تجرى من تحتها الأنهار تهون بجانبها أنهار الدنيا مهما عذُب ماؤها ، وطاب نسيمها ، وورفت ظلالها ، وامتدت القصور على ضفافها .

ولو آمن جبلة بالمسيح حقاً لعلم أن ما جاء به نبى الاسلام هو الذى بشر به المسيح عليه السلام ، ودعا إليه ، ولما استنكر تعاليمه التى أخرجت الناس من الظلمات إلى النور ، وقد كان المسيح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ قدوة فى الزهد والتواضع والعفو والرحمة وإنكار الذات . . أليس هو القائل:من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ، ومن نازعك الثوب فأعطه الرداء أيضاً ؟ . .

ندم جبلة

وقد حَدَّث مَنْ رأى جبلة بعد ارتداده عن الاسلام أنه ندم ندماً شديداً على ذلك ، ولكن بقية من كبر حالت بينه وبين الرجوع إلى الحق .

ولنستمع الى أبى الفرح الأصفهانى يحدثنا عن قصة ندمه هذه فيقول :

كتب عمر بن الخطاب كتاباً إلى هرقل ، وجه به رجلاً من أصحابه اسمه جثامة بن مساحق الكنانى .

فلما انتهى الرجل الى هرقل أجاب إلى كل شىء سوى الاسلام .

فلما أراد الرجل الانصراف قال له هرقل : هل رأيت ابن عمك الذى جاءنا راغباً فى ديننا ؟ يقصد جبلة بن الأيهم فهو عربى من الغساسنة الذين حكموا الشام .

فقال جثامة : لا

قال له هرقل : فالقه .

قال جثامة : فتوجهت إليه ، فلما انتهيت إلى بابه وجدت من البهجة والحسن والسرور ما لم أر بباب هرقل .

فلما سلمت عليه رد السلام ورحب بى وألطفنى ولامنى على تركى النزول عنده ، ثم أقعدنى على كرسى من الذهب ، فانحدرت عنه ، فقال لى : مالك ؟

فقلت : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن هذا .

فقال جبلة أيضا مثل قولى ـ أى ـ صلى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال لى : يا هذا إنك إذا طهرت قلبك لم يضرك ما لبسته ولا ما جلست عليه .

ـ وهذه فلسفة أهل الدنيا التى يحاولون بها استحلال ما حرمه الله ـ

قال جثامة : ثم أقبل علىّ يسألنى عن الناس ، وألحف فى السؤال عن عمر ـ رضى الله عنه ـ ثم جعل يفكر حتى رأيت الحزن فى وجهه .

فقلت : ما يمنعك عن الرجوع إلى قومك وإلى الإسلام ؟

قال : أبَعْدَ الذى قد كان ؟

قلت : قد ارتد الأشعث بن قيس ومنع الزكاة وحارب بالسيف ، ثم

رجع إلى الإسلام ، فقبل منه . ثم أخذا يتحدثان ، حتى أومأ جبلة إلى غلام ، فمد أمامهما خوانا ، ووضعت فوقه أطباق من ذهب ، ولكن جثامة أعرض عنها ، فرفعت ووضعت بدلا منها أطباق أخرى . .

ثم أقبلت جوار فجعلن يتغنين بشعر لحسان بن ثابت يمدح فيه جبلة وقومه : ومنه قوله :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول
يغشون حتى ماتهر كلابهم لايسألون عن السواد المقبل

ومنه قوله :

لمن الدار أقفرت بمعان بين شاطئ اليرموك فالصَّمَّان

وكان جبلة يسمع وهو يشرب الخمر ، يعب منها عبًا .

فاهتز جبلة سرورا ، وقال لجثامة : أتعرف هذه المنازل ؟

قال : قلت : لا .

قال : هذه منازلنا فى ملكنا بأكناف دمشق ، وهذا شعر ابن الفريعة حسان بن ثابت ، شاعر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فينا

قال : قلت : أما انه الآن مضرور البصر كبير السن .

فقال جبلة : يا جارية ، هات .

فأتته بخمسمائة دينار وخمسة أثواب من الديباج ، فقال لى : ادفع هذه إلى حسان ، وأقرئه منى السلام ، ثم أرادأن يعطينى مثلها فأبيت ، فبكى . ثم قال لجواريه : أبكيننى . فوضعن عيدانهن ، وأنشأن يقلن أبياتاً قالها جبلة نفسه يصور بها حاله ، وهى :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة　　وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى فيها لجاج ونخوة　　وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى ، وليتنى　　رجعت إلى القول الذى قال لى عمر
ويا ليتنى أرعى المخاض بدمنة　　وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر
وياليت لى بالشام أدنى معيشة　　أجالس قومى ذاهب السمع والبصر
أدين بما دانوا به من شريعة　　وقد يحبس العود الضجور على الدبر

قال جثامة : ثم بكى ، وبكيت معه ، حتى رأيت دموعه تجول على لحيته كأنها اللؤلؤ .

ثم سلمت عليه وانصرفت .

فلما قدمت على عمر ـ رضى الله عنه ـ سألنى عن هرقل ، وجبلة ، فقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها .

فقال : أو رأيت جبلة يشرب الخمر ؟

قلت : نعم

قال : أبعده الله ـ تعجل فانية اشتراها بباقية ، فما ربحت تجارته . فهل سرّح معك شيئا ؟

قلت : سرّح إلى حسان خمسمائة دينار وخمسة أثواب ديباج .

فقال : هاتها ،

وبعث إلى حسان فأقبل يقوده قائده ، حتى دنا فسلم ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إنى لأجد أرواح آل جفنة .

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : قد نزع الله ـ تبارك وتعالى ـ لك منه على رغم أنفه وأتاك بمعونة .

فانصرف حسان عنه وهو يقول :

إن ابن جفنة من بقية معشر لم يغذهم آباؤهم باللوم
لم ينسنى بالشام إذْ هُوَ رَبُّها كلا ولا متنصرا بالروم
يعطى الجزيل ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المذموم
وأتيته يوما فقرب مجلسى وسقى فروّان من الخرطوم

فقال له رجل : أتذكر قوما كانوا ملوكا فأبادهم الله وأفناهم ؟

فقال حسان : ممن الرجل ؟

قال : مزنى

قال : أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لطوقتك طوق الحمامة(٢٢٧)

ثم التفت حسان الى جثامة وسأله عما قال له جبلة .

قال جثامة ـ : قال ـ أى جبلة ـ : إن وجدته حيا فادفعها إليه ، وإن وجدته ميتا فاطرح الثياب على قبره ، واشتر بهذه الدنانير بُدْناً فانحرها على قبره .

فقال حسان : ليتك وجدتنى ميتا ففعلت ذلك بى .

ثم ذكر أبو الفرج خبرا آخر يتمم ذلك الخبر الذى ذكرناه .

قال راويا عن عبد الله بن مسعدة الفزارى قال : وجهنى معاوية إلى ملك الروم ، فدخلت عليه ، فاذا عنده رجل على سرير من ذهب دون مجلسه ، فكلمنى بالعربية .

---

(٢٢٧) أى لهجوتك هجاء يبقى معك إلى الأبد

فقلت : من أنت يا عبد الله ؟

قال : أنا رجل غلب عليه الشقاء ، أنا جبلة بن الأيهم . إذا صرت إلى منزلى فالقنى .

قال عبد الله : فلما انصرف وانصرفت أتيته فى داره فإذا هو على شرابه وعنده قينتان تغنيانه بشعر حسان .

فلما فرغتا أقبل علىَّ ، ثم قال : ما فعل حسان ؟

قلت : شيخ كبير قد عمى ، فدعا بألف دينار فدفعها إلىَّ ، وقال : ادفعها إليه .

ثم قال : أترى صاحبك ـ يقصد معاوية ـ يفى لى إن خرجت إليه وعدت إلى الاسلام ؟

قلت : قل ما شئت أعرضه عليه .

قال : يعطينى الثَّنِيَّة فإنها كانت منازلنا ، وعشرين قرية من الغوطة . ويفرض لجماعتنا ، ويحسن جوائزنا .

قال عبد الله : قلت : أبلغه .

فلما قدمت على معاوية أبلغته فقال : وددت أنك أجبته إلى ما سأل فأجزته له .

وكتب له معاوية يعطيه ذلك فوجده قد مات .

قال عبد الله : وقدمت المدينة فدخلت مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقيت حسان ، فقلت : يا أبا الوليد ، صديقك جبلة يقرأ عليك السلام .

فقال حسان : هات ما معك ؟

قلت : وما أعلمك أن معى شيئا ؟

قال : ما أرسل إلىَّ بالسلام قط إلا ومعه شىء .

فدفع عبد الله إليه المال(٢٢٨)

ونعود بعد هذا الاستطراد القصير إلى الحديث عن رسائل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأثرها العظيم فى نشر دعوة الإسلام .



(٢٢٨) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى حـ ١٤ صـ ٣ ومابعدها

دعوة الإسلام تنتشر

- كيف تهيأ الجو لفتح مكة ؟
- النبي - صلى الله عليه وسلم - ينجح في دعوته .
- قريش تنقض العهد .
- أبو سفيان يحاول تجديد العهد .
- دعوة الإسلام تنتشر .

نجاح النبى فى تبليغ دعوته

قدمنا فيما سبق صورة لمكاتبات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ملوك العالم وأمرائه ، منهم ما هو عربى ، ومنهم ما هو غير عربى .

وهناك كتب أخرى لم نذكرها اكتفاء بما قدمنا .

وذلك كله يشهد بأن رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بلغت إلى أسماع العالم المحيط به فى ذلك الوقت .

وقد ظل ـ صلى الله عليه وسلم ـ طول حياته دائبا على تبليغ رسالة ربه التى أرسل من أجلها ، ولم يأل جهدا فى ذلك ، وكان لايكتفى بإرسال الرسول إلى من يرسله إليه ليبلغه الدعوة وكفى ، فإن ذلك فعل من يريد أن يبرىء ذمته فقط . ولكنه كان يجتهد أن يكون لهذا الابلاغ أثره الملموس ، ملتمسا فى ذلك كافة الوسائل الممكنة ، ومختلف الفرص المتاحة . . وقد كان لكل ذلك أثره العظيم فى انتشار دعوة الإسلام .

لقد مكث ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة وعشرين عاما بعد النبوة ، لم يهدأ ولم يسترح ، وقد أشهد المسلمين جميعا على أنه بلغ الدعوة ولم يقصر فى ذلك ، فقد بلَّغها بمختلف وسائل التبليغ ، بلغها بالاتصال الشخصى ، والعرض الجماعى ، وفى السفر والحضر ، وبنفسه وأتباعه وبالمشافهة والخطاب ، ثم عمم الأمر على أمته جميعا بأن عليهم واجب الإبلاغ عنه ، حتى لايبقى إنسان من البشر إلا وقد بلغته الدعوة ، وانظر إلى نتائج هذا كله تجد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا والجزيرة العربية كلها مستجيبة لأمر الله ـ تعالى ، وأكبر الدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة . . . . ولم يمض عصر الخلفاء الراشدين إلا وكان أكثر العالم

المعروف وقتذاك قد بلغته الدعوة ، فمن مستجيب ، ومن معرض قامت عليه الحجة فأصر على الكفر عنادا . . وهذا الحماس المنقطع النظير فى تبليغ الدعوة لايمكن أن يكون إلا وليد اقتناع بصدق الدعوة والداعى ، وما كان الداعى ليعطى هذا الحماس لأتباعه لو لم يكن هو فى أعلى مقامات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسئولية أمام الله .

« إن تاريخ العالم كله لايقص علينا أن أحدا قد استوعبت دعوته الآخرين فى حياته كما حدث لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى لم يمت إلا وعشرات الألوف من أتباعه يحفظون القرآن الكريم ويحفظون من أحاديثه الكثير . . . . » ثم حفظت نصوص تعاليمه حرفيا لكل الأجيال الآتية بعد ، لأنها كلها مكلفة باتباعه ، ومحاسبة أمام الله إن لم تفعل ذلك . .

« وها أنت ترى الآن الدعاة إلى الإسلام على صراط الله منتشرين فى العالم كله . . . لقد قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمهمة التبليغ حق القيام ، وكما رأينا فإن فى كل موقف من مواقفه ما يجعل كل فرد من أفراد البشر على يقين كامل - لو تدبر ذلك - بأن هذه المواقف ما كانت لتكون لولا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تفانى فى دعوى الرسالة عن الله[229]

كيف تهيأ الجو لفتح مكة ؟

بهذه الكتب التى توجهت إلى مشاريق الأرض ومغاربها تفتحت أذهان الناس فى كل مكان للإسلام . .

ولكن أم القرى ، ومهد الدعوة التى انبعثت منها ما زالت على كفرها . .

---

(٢٢٩) الرسول لسعيد حوا جـ ١ صـ ١١٥

ومن غير المعقول أن يُقْبِل ناس فى خارج الجزيرة على الاسلام ويبقى أحق الناس بهذا الدين بعيدين عنه ..

إذن فلابد من أن تمهد الإدارة الإلهية الطريق لفتح مكة البلد الحرام ، ومقر بيت الله الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا .

ولكن كيف ذلك ومعاهدة الحديبية قائمة ، والمسلمون لايمكن أن ينقضوا العهد ، ودينهم يأمرهم بالوفاء .. قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾ (٢٣٠)

وقال :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (٢٣١)

ولكن إرادة الحق سبحانه وتعالى شاءت أن تكون قريش هى التى تنقض العهد بينها وبين المسلمين ، وكانت قريش فى ذلك كالساعى إلى حتفه بظلفه والباحث عن مصرعه بنفسه ..

كيف نقضت قريش العهد ؟

كان من بين بنود العهد الذى أبرم بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقريش فى الحديبية : أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه

---

(٢٣٠) المائدة ١

(٢٣١) النحل ٩١

فدخلت خزاعة فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودخل بنو بكر فى عهد قريش .

وبذلك أصبحت خزاعة حليفة للمسلمين ، وبكر حليفة للمشركين . .

وكان بين هاتين القبيلتين عداء وثارات فى الجاهلية ، وجاء الإسلام فهادن بينهما فى هدنة غير رسمية ، بمعنى أن الناس انشغلوا بقضية الإسلام وأحداثه ونسوا خلافاتهم مؤقتا ، وإن كانت العداوة ما تزال باقية .

محالفة الخزاعيين قديمة

وكان الخزاعيون حلفاء لعبد المطلب بن هاشم جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يناصرونه على عمه نوفل بن عبد مناف ـ فى الخلاف الذى نشب بينهما . . وقصة هذا الخلاف كما يذكرها الرواة هى :

حين مات المطلب بن عبد مناف وثب نوفل أخوه على أملاك وساحات كانت لعبد المطلب ابن أخيه فوضع يده عليها . . وكأنه أراد بذلك أن يحول بينه وبين القيام بواجب الرفادة والسقاية الذى هيأ نفسه له ، فأراد عبد المطلب الاستنصار بقومه فرفضوا التدخل بينه وبين عمه ، فكتب إلى أخواله بنى النجار لأن أمه منهم ، فجاءه سبعون راكبا ، فدخلوا على نوفل وقالوا له : وحق هذا البيت لتردن على ابن أختنا ما أخذت منه وإلا قتلناك . فرد ما أخذه منه عليه .

ثم حالف عبد المطلب خزاعة حين رأى أن نوفلا حالف بنى أخيه عبد شمس . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم قصة هذا الحلف ، بعد أن اطلع عليه حين استحضره بنو خزاعة له ، وقرأه عليه أبى بن كعب فى الحديبية . .

وكانت صورة هذه المحالفة هى : ـ

« باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة ، إذ قدم عليه سرواتهم وأهل الرأى منهم ، غائبهم يقر بما قضى عليه شاهدهم ، أن بيننا وبينكم عهد الله وميثاقه وما لاينسى أبدا ، اليد واحدة ، والنصر واحد ، ما أشرق ثبير وثبت حرا مكانه وما بل بحر صوفة »[٢٣٢]

وفى رواية أخرى عبارات أصرح فى النصرة والمؤازرة بين المتحالفين مثل : فعلى عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على كل طالب ، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب فى شرق أو غرب ، أو حزن أو سهل[٢٣٣]

وقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبنى خزاعة وقتئذ : ما أعرفنى بحقكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الحلف . .

فهو يذكر لهم مكانهم من جده عبد المطلب ومؤازرتهم له . .

قريش تنقض العهد

روى الواقدى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صبيحة نقض قريش عهدها وذلك حين نصرت بكرًا على خزاعة ـ وهو فى المدينة وهم فى مكة ـ قال لعائشة ـ رضى الله عنها ـ : لقد حدث يا عائشة أمر .

فقالت : أترى قريشا تجترىء على نقض العهد الذى بينك وبينهم ، وقد بلغ منهم الجهد كل مبلغ . . . ؟

فقال : ينقضون العهد لأمر يريده الله .

قالت : يا رسول الله ، خير ؟

---

(٢٣٢) ثبير ، وحرا : جبلان ، وفى التعبير كناية عن استمرار الحلف والعهد

(٢٣٣) السيرة الحلبية جـ ٣ صـ ٤

قال : خير إن شاء الله .

أما كيف نقضت قريش العهد فإليك ما يأتى :

فى أثناء الهدنة ـ هدنة الحديبية ـ خرج نوفل بن معاوية وهو من بنى بكر فى جماعة من بنى الدِّيل أو الدُّئل(٢٣٤) ، حتى بيَّت خزاعة ، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له : الوتير ، فأصاب منهم رجلا ، يقال له مُنَبِّه

وكان هذا الرجل مفئودا ـ ضعيف الفؤاد ـ(٢٣٥) خرج مع رجل من قومه يقال له : تميم . وأدرك منبه الخطر لما رأى نوفلا ومن معه . .

فقال منبه لتميم : يا تميم ، انج بنفسك ، فوالله إنى لميت قتلونى أو تركونى ، لقد انْبَتَّ فؤادى ، أى تقطع ـ

فأدركوا مُنبِّها وهو الرجل المريض ، فقتلوه ، وأفلت تميم .

وجمعت خزاعة رجالها بسرعة لترد العدوان عن نفسها ، ومازالوا يقتتلون مع بنى بكر حتى دخلوا الحرم .

وقالت بكر لقائدها نوفل بن معاوية وهو من بنى الدئل : يانوفل ، إنا دخلنا الحرم ، إلهك إلهك .

فقال : لا إله له اليوم ، يابنى بكر أصيبوا ثأركم ، إنكم تَسْرِقون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟

وظاهرت قريش يومئذ بنى بكر على خزاعة ، فأمدتها بالسلاح ، بل إن بعضهم قاتل ليلا معهم ، ومن هؤلاء صفوان بن أمية ، وشيبة بن عثمان ، وسهيل بن عمرو وغيرهم . .(٢٣٦)

---

(٢٣٤) ورد اللفظ فى هذه القبيلة بالياء مع كسر الدال ، وبالهمزة المكسورة مع ضم الدال ، فإذا نسبت إلى الأخير فتحت الهمزة فقلت : دُؤَلى

(٢٣٥) المفئود المريض بالفؤاد أى القلب ، كما يقال : مصدور : مريض بالصدر ، وممعود : مريض بالمعدة

(٢٣٦)سيرة ابن هشام حـ ٤ صـ ٤ ، المواهب اللدنية حـ ٢ صـ ٢٩٠

وهناك سبب غير هذا آشار اليه بعض الرواة وهو : أن شخصا من بنى بكر هجا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصار يتغنى بهجائه ، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه ، فثار الشر بين الحيين لما كان بينهما من العداوة ، فاستنجدت بكر بأشراف قريش فأعانوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، فبيتوا لهم بغتة وهم آمنون فقتلوا منهم عشرين أو ثلاثة وعشرين . ولازالوا بهم حتى ألجأوهم الى دار بديل بن ورقاء الخزاعى بمكة .

وظنت قريش أن المسلمين لن يفطنوا لهذا الأمر ، وأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن يبلغه الخبر . وإن بلغه مقتل الخزاعيين فلن يبلغه مبلغ مظاهرة قريش لبنى بكر ولامقاتلة من قاتل من قريش معهم .

ولكنهم جهلوا أن الله قد أطلع نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ماحدث . .

وسرعان ماأدركت قريش أنها أخطأت ، وأنها نقضت بيدها ماكانت قد أبرمت من عهد . .

وفزع الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم ، فقال أبو سفيان : هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه ، وإنه لشر . والله لسوف يغزونا محمد ، ولقد حدثتنى هند بنت عتبة ـ زوجته ـ أنها رأت رؤيا كرهتها . . . . رأت كأن دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة . .

قريش تتشاور فى أمرها :

واجتمعت قريش لتتدبر عاقبة أمرها وتنظر فيما يترتب على ذلك من مخاطر لتحترز عنها ، بعد أن تيقنت أن ماحدث يسمح للمسلمين بأن يدخلوا مكة بعد ان نقضت قريش عهدها معهم .

وأخذوا يتلاومون ، ولكن ماذا يجدى التلاوم ؟

قال أحدهم : إن محمدا غازينا ، لاشك فى ذلك .

فقال بن أبى سرح : إنه لايغزوكم حتى يخيركم بين خصال كلها أهون من غزوه .

قالوا : ماهى ؟

قال : يرسل إليكم أن تدوا[٢٣٧] قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلا ، أو تبرءوا من حلف بنى بكر الذين اعتدوا على الخزاعيين ، أو ينبذ إليكم على سواء[٢٣٨] .

فقال سهيل بن عمرو : نبرأ من خلفهم أسهل .

وقال شيبة : ندى القتلى أهون

وقال قرطة بن عمرو : لاندى ، ولانبرأ ، ولكنا ننتبذ إليه على سواء ـ وتركهم أبو سفيان حتى انتهوا من كلامهم ، ثم قال : ليس كل هذا بشيء . .

والرأى الأصوب هو جحد هذا الأمر ، والتبرؤ من أن تكون قريش قد دخلت فى نقض عهد أو قطع مدة ، وأن ماحدث إنما هو من فعل قوم على غير رضا منا ولامشورة لنا ، فما علينا ؟

فقالوا جميعا : هذا الرأى ، ولا رأى غيره . .

واتفقوا على ذلك . . ووكلوا أبا سفيان فى التحدث عنهم بهذا .

خزاعة تفزع إلى الرسول

ولكن خزاعة لم تسكت على هذا الأمر ، فتوجه ركب منهم برئاسة عمرو بن سالم إلى المدينة .

قالت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ـ رضى الله عنها : بات عندى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة ، فقام يتوضأ للصلاة فسمعته يقول وهو يتوضأ : لبيك ، لبيك ، لبيك ـ ثلاثا ـ نُصرت ، نُصرت ، نُصرت ـ ثلاثا .

فقالت : يارسول الله سمعتك تقول كذا وكذا وكأنك تكلم إنسانا ، فهل كان معك أحد ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا راجز بنى كعب يستصرخنى ، ويزعم أن قريشا أعانت عليهم بنى بكر . .

---

(٢٣٧) تدوا القتلى : تدفعوا دية القتل

(٢٣٨) يعنى نقض العهد الذى بينكم دينه

قالت ميمونة : فأقمنا ثلاثا بعد ذلك ، وفى اليوم الثالث صلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصبح فى الناس ، فاذا بعمرو بن سالم الخزاعى قد أقبل فى ركبه الذى يضم أربعين راكبا ، فوقف أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس فى المسجد بين الناس ، وجعل يقول :

يارب إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا[239]
فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا[240]
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفا وجهه تربدا[241]
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لى فى كداء رصَّدا[242]
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هُجدا وقتلونا ركعا وسجدا

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نصرت ياعمرو بن سالم . .

ثم عرضت سحابة فى السماء ، نظر اليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب . .

وأنهى إليه بنو خزاعة ـ وكان فيهم بديل بن ورقاء ـ الخبر كله جملة وتفصيلا . .

وطلب اليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتمان أنهم جاءوه . . وطمأنهم ، فعادوا قافلين إلى مكة . .

أبو سفيان فى طريقه إلى المدينة :

وكما أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقدوم بنى خزاعة قبل أن يجيئوا،

---

(٢٣٩) الأتلد: القديم ، وناشد : طالب ومذكر .

(٢٤٠) أعتدا : حاضرا

(٢٤١) تجرد : تروى هذه الكلمة بالجيم ومعناها : تهيأ ، وتروى بالحاء ومعناها : غضب وثار

(٢٤٢) كداء : موضع بمكة ، ورصد : جمع راصد

كذلك أخبر بقدوم أبي سفيان . . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة .

وهذا ماحدث بالفعل . .

فبعد أن مضى وفد بني خزاعة كان أبو سفيان يشبد رحاله فى طريقه إلى المدينة .

وفى الطريق تقابل الوفدان . أبو سفيان فى طريقه الى المدينة ، وبديل بن ورقاء ومن معه من الخزاعيين فى طريقهم الى مكة .

وقال أبو سفيان لبديل : من أين أقبلت يابديل ؟

فقال بديل : تسيرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى .

قال أبو سفيان : أوما أتيت محمدا ؟

قال بديل : لا

فلما سار بديل الى مكة . . قال أبو سفيان لمن معه : لئن كان بديل قد جاء المدينة لقد علف راحلته بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد كان بديل عند محمد

وكانت قد مضت فترة طويلة لم ير فيها أبو سفيان ابنته رملة ـ أم حبيبة ـ زوجة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى هاجرت الى الحبشة مع زوجها الذى توفى هناك ، وأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى النجاشي يوكله عنه فى أن يزوجه منها ، وقدمت من الحبشة إلى المدينة زوجة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظن أبو سفيان أنه بواسطة ابنته يستطيع ان يتوصل إلى ما يريد عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وماظن أن قرابة النسب لاتغنى إلا إذا عضدتها قرابة الإيمان . .

ودخل أبو سفيان على ابنته . ولكنه لم يجد ذلك الترحيب الذى يكون عادة بين الابنة وأبيها الذى لم تره من سنين . .

إنها لاتعرفه الآن ، وكيف تعرف زعيم قريش المعارضين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

وسكت أبو سفيان على مضض ، وأقبل ليجلس على فراش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسرعت بطيه عنه .

فقال : يابنية : ماأدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟

قالت : بل هو فراش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاينبغى لمشرك أن يجلس عليه ..

وسكت أبو سفيان على مضض ، وأدرك أن وسيلته هذه لن يأتى عن طريقها شيء مما كان يأمله ...

هذا أول باب أغلق فى وجهه ..

ولم يجد بدا من الانصراف .. فانصرف بعد أن قال لابنته : والله لقد أصابك يابنية بعدى شر ..

لعلها كلمة أراد أن يسرى بها عن نفسه أويشفى بها غيظه .. ولكن الواقع يكذبه تماما ، فما أصاب ابنته بعده إلا كل خير ..

ومضى لتوه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأفضى له بحاجته التى جاء من أجلها .. ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقبل منه .. فازداد يأسه ـ فمضى إلى أبي بكر ، فكلمه ورجاه أن يكلم له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أن يوثق العهد ويمد الأجل .. فقال له أبو بكر : ماأنا بفاعل ..

وازداد اليأس عنده ـ ولكنه قال : لعلى أجد عند ابن الخطاب فرجة من الأمل .

فانطلق إلى عمر بن الخطاب . فقال له عمر ـ رضى الله عنه ـ : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .... ! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .. وضاع هذا الأمل أيضا من أبي سفيان ..

فأخذ طريقه الى بيت على بن أبي طالب وعنده فاطمة زوجه ـ ابنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعها ابنها الحسن ـ رضى الله عنهم ـ وكان غلاما يدب بين يديها .

فقال أبو سفيان : ياعلى ، إنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة ولاينبغى أن أرجع كما جئت فاشفع لى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال على : ويحك ياأبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمر ما نستطيع أن تكلمه فيه .

فالتفت أبو سفيان الى فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فقال : يابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟

فقالت : والله مابلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس ، ومايُجِير أحد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال أبو سفيان : ياأبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى .

فقال على : والله ماأعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك .

قال أبو سفيان : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ . .

قال على : لا والله ماأظنه ، ولكنى لاأجد لك غير ذلك . .

جلت قدرة الله ، التى أخضعت كبرياء زعيم قريش الذى سول له كبرياؤه ذات يوم أن يقول يوم أحد : اعل هبل ، لنا العزى ، ولاعزى لكم . . أين هبل الآن منك يازعيم قريش وأين العزى التى تزعم نصرتها ؟

لقد بلغ بك الحال أن أصبحت تُرَدُّ من باب الى باب وحتى أوشكت أن تأخذ بتلابيب طفل صغير ليجيرك عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد أغلقت الأبواب فى وجهك ، وضاقت منافذ الرجاء أمامك وأصبح صدرك ضيقا حرجا . .

أما آن لك أن تدرك أن العزة فى الإيمان ، وأن القوة فى التمسك بمن فى يده الحول والقوة ؟

ثم مضى أبو سفيان إلى المسجد ـ كما قال علىّ ـ فقال : يأيها الناس إنى قد أجرت بين الناس . .

وركب بعيره ومضى فى طريقه إلى مكة . . .

فهرس المجلد الثالث عشر

انتهى المجلد الثالث عشر
ويليه بمشيئة الله المجلد الرابع عشر

سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الرابع عشر

سلسلة
القصص القرآنى

المجلد الرابع عشر

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى   د. عبد الحميد مصطفى


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفتح الأكبر - فتح مكة

- الإعداد لذلك الفتح
- كتمان الأمر
- قصة حاطب بن أبي بلتعة
- لقاء العباس
- إسلام أبي سفيان بن الحارث
- إسلام أبي سفيان بن حرب
- دخول مكة
- خالد بن الوليد يقاتل فرسان مكة
- إهدار دم بعض المشركين ثم العفو عن بعضهم بعد إسلامه

الفتح الأكبر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ (١)

لقد آن للمسلمين أن يدخلوا مكة .. بعد أن طردوا منها ذات يوم منذ ثماني سنوات .

آن لهم أن يدخلوها فاتحين مهللين مكبرين ، يرفعون في أيديهم ألوية الإسلام عالية خفاقة ، وقد كانوا منذ ثماني سنوات قلة ضعيفة لايجرؤ واحد منهم أن يجهر بكلمة التوحيد خوفا من أولئك القوم الغلاظ الشداد الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب ـ يجلدونهم بالسياط ، ويلقونهم على حر الرمضاء وقد جردوهم من ثيابهم وألقوا فوق ظهورهم وصدورهم الصخور الثقال ، وكانوا يكوونهم بالنار ويرجمونهم بالأحجار ويتركونهم في أيدي السفهاء وقد ربطوهم بالحبال يجرونهم منها ويكيلون لهم ألفاظ السباب وقوارص الكلم ..

لقد تبدل الموقف الآن وحقت كلمة الله ، وجاء الحق وزهق الباطل ، وها هي ذي جحافل المسلمين تستعد بعد أن صدرت لها الأوامر من قائدها الأعلى بالاستعداد . . .

---

(١) سورة النصر

عودة أبي سفيان إلى مكة

ولكنا لانتعجل سير الأحداث ؟ لقد وقف بنا الحديث قبل ذلك عند خروج أبي سفيان من المدينة وقد فشل فى مهمته . . إنه ذهب إليها يطلب من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يمد الأجل بينه وبينهم ، ولكنه لم ينجح فى مهمته . . . . . فهم الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين .

وانصرف من المدينة بعد أن دخل المسجد وهو يهتف : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ، ولا والله ما أظن أن يخفرنى أحد .

ورجع إلى مكة ، وأخذ يقص على زوجته هند بنت عتبة قصة سفارته ، وكانت غيبته قد طالت حتى ظنت به قريش الظنون ، وكثير منهم أشاع أنه قد صبأ . .

قالت له هند : لعلك بعد طول غيابك قد جئت قومك بطائل . . لئن كنت قد ظفرت لهم بعهد فأنت الرجل .

فلما قص عليها قصته ظهر الغضب فى وجهها ، وقالت : قبحت من رسول قوم ، فما جئت بخير .

وحين أشرقت الشمس توجه إلى الحرم ، فحلق رأسه عند أساف[٢] ونائلة ، وذبح لهما ، ومسح بالدم رأسيهما ، وقال : لا أفارق عبادتكما حتى أموت .

---

(٢) أساف ونائلة صنمان كان يعبدهما أهل مكة . وأصلهما رجل وامرأة تعاشقا وفجرا معا فى الحرم فمسخهما الله حجرين ، فاتخذهما الناس ـ بعد أن أغراهم الشيطان ـ إلهين .

لقد فعل أبو سفيان ذلك أمام قومه حتى يبرأ نفسه مما اتهمته به قريش من أنه قد صبأ وترك دينهم واتبع دين محمد . .

واجتمع حوله زعماء قريش يقولون له : ما وراءك يا أبا حنظلة ؟

فأنهى إليهم قصته من أولها إلى آخرها ، حتى قال : لم أجد أمامى إلا العمل بما أشار عليّ به ابن أبي طالب . فدخلت المسجد

وقلت : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس .

فقالوا له : هل أجاز لك محمد هذا الجوار ؟

قال : لا .

قالوا : لقد رضيت بغير رضا ، وجئتنا بما لايغنى عنا ولاعنك شيئا . ولعمر الله ما جوارك بجائز ، وإن إخفارك عليهم لهين (٣) والله ما زاد ابن أبي طالب على أن لعب بك .

فقال أبو سفيان : والله ما وجدت أمامى غير ذلك . .

قالوا له : يا أبا سفيان ، ما جئتنا بصلح فنأمن ، ولا بحرب فنحذر . . وهكذا فشلت سفارة أبي سفيان .

الاستعداد للفتح

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين بالتجهز دون أن يعلن عن وجهته . . لقد أراد أن يفاجىء قريشا قبل أن تأخذ الأهبة له . .

---

(٣) الإخفار : نقض العهد والذمة والجوار

وكان قد أخفى ذلك حتى عن أقرب المقربين إليه ، فقد دخل أبو بكر رضى الله عنه على ابنته أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ فوجدها تعد بعض حاجات السفر ، فقال لها : أى بنية ، أمركن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتجهيزه ؟

قالت : نعم .

قال : فأين ترينه يريد ؟

قالت : لا والله ما أدرى . .

كان ذلك قبل أن يستشير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه فى ذلك . .

ثم إن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ دخل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ، أردت سفرا ؟

قال : نعم .

قال : أفأتجهز ؟ قال له : نعم

قال : أين تريد يا رسول الله ؟

قال : قريشا ، واكتم ذلك يا أبابكر . .

قال أبو بكر : أوليس بيننا وبينهم مدة ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنهم قد غدروا ونقضوا العهد .

وأوصى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بكر أن يطوى الخبر ، ولا يذكره لأحد .

ويذكر الرواة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم دعا أبا بكر ، فاستشاره فى

أمر المسير إلى قريش ، فذكر له أنهم قومه وعشيرته ، وفهم من قوله ما يشير إلى ميله إلى عدم السير إليهم .

ثم دعا عمر ـ رضى الله عنه ـ فاستشاره فى ذلك ، فوافق على الفور ، وذكر له أنهم رأس الكفر والشقاق ، وذكَّر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما افتروه فى حقه ، حيث قالوا عنه إنه ساحر وإنه كاذب وإنه مجنون إلى غير ذلك مما كانوا يقولون ، ثم قال له : وأيم الله إنهم أشد الناس عداوة للدين .

فعند ذلك أعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان قد ذكره قبل ذلك ـ حين شبه أبابكر بإبراهيم ، وشبه عمر بنوح ، وقال : إن الله ليلين قلوب قوم فى الله حتى تصبح ألين من اللبن ، وانه ليشدد قلوب قوم فى الله حتى تصبح أشد من الحجارة .

ووافق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رأى عمر . .

وقد سبق أن ذكرنا أن هذا التصوير وهذا القول كان فى شأن الاستشارة فى أمر أسرى بدر ، ولكن لامانع من أن يكون قد تكرر فى هذا الموقف أيضا . . . .

وصدر الأمر للمسلمين بالتجهز للمسير دون الإفصاح عن الجهة التى عزم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على التوجه إليها .

وقدمت المدينة قبائل من العرب الذين أسلموا : قدموا من غفار وأسلم ومزينة وأشجع وجهينه للمشاركة فى الجهاد .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : اللهم خذ العيون والأخبار

عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . .

وضمانا لعدم سريان الخبر إلى مكة ، وضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الطرق المؤدية إلى مكة حراسا يحولون بين من ينكرونهم والتوجه إلى مكة حتى لايخبروا أهلها بتجهز النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين للخروج إليهم .

سرية بطن إضم

وإمعانا فى التمويه بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا قتادة الحارث بن رِبْعى الأنصارى على رأس سرية إلى بطن إِضَم ، وهو واد بين « ذى خُشُب » و« ذى المروة » على مسافة ثلاثة بُرُد ـ جمع بريد ـ من المدينة ـ كان ذلك فى أول رمضان من العام الثامن .

كان الهدف من هذه السريَّة إسدال الستار أمام قريش على تحركات المسلمين ، فلايدخل فى حسبانها أنهم يقصدونها بالغزو ، لأنه من غير المعقول أن يكون التجهز لمكة ثم هم يرسلون سرايا إلى غيرها .

وكانت هذه خطة بارعة ، أدت إلى اطمئنان القرشيين بأنهم فى مأمن من جهة هذا الإعداد الذى سرت بعض أخباره إليهم . . .

ولم تكن سرية أبى قتادة خالية من أهداف أخرى حققتها . . . . . وهى تأمين الطريق وإرهاب العدو واستطلاع الأخبار .

إلا أن هناك حدثاً هاماً صاحب هذه السرية نزل فى شأنه قرآن يتلى ـ نقصه فيما يأتى :

روى الطبرانى وابن إسحاق وأحمد وغيرهم عن عبد الله بن أبى حدْرَد

قال : بَعَثَنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى *إضم* في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومحلِّم بن جَثَّامة بن قيس ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له ، ومعه متاع له ، فسلم علينا بتحية الإسلام ، فأمسكنا عنه ولكن محلم حمل عليه فقتله لشيء كان بينهما ، وقد ظن أنه نطق بكلمة الإسلام مخادعة لهم - وأخذ بعيره ومتاعه .

فلما قدمنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخبرناه الخبر ، نزل فينا قوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾ (٤)

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لمحلم : أقتلته بعد ما قال آمنت بالله ؟

قال محلِّم : إنما قالها متعوذا من القتل .

---

(٤) النساء ٩٤

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفلا شققت عن قلبه لتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

قال : وهل قلبه إلامضغة من لحم ؟

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنما كان ينبيء عنه لسانه . . لاماق قلبه تعلم ، ولا لسانه صدَّقت .

قال : استغفر لى يا رسول الله .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاأستغفر لك .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك زجرا وتخويفا له ولغيره من الاعتداء على الآخرين وقتلهم بناء على الظن . أو قتلهم لأمور شخصية باسم الإسلام .

وقام محلم ودموعه تبتدر ، يتلقاها ببرديه . فما مضى عليه سبع ليال حتى مات .

ودفنه أصحابه فلفظته الأرض ، فعادوا لدفنه مرة أخرى فلفظته الأرض ، ثم دفنوه مرة ثالثة فاستقر حتى أصبح فوجدوه خارج القبر .

فلما رأوا أن الأرض لاتقبله ألقوه فى بعض الشعاب ووضعُوا فوقه الحجارة حتى وارته .

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن الأرض لتقبل من هو شر منه ، ولكن الله يريد أن يعظكم . . (٥)

---

(٥) أسد الغابة حـ ٣ صـ ١١٧ ـ تفسير القرطبى حـ ٥ صـ ٣٣٦

رسالة حاطب إلى قريش

جد المسلمون فى التجهز للحرب ، ولكن الوجهة التى سيوجهون لها لم يكن يتبينها السواد الأعظم من المسلمين ، وان كان كثير منهم قد توقع أن يكون التوجه إلى مكة ، وقد قال حسان بن ثابت أبياتا من الشعر يحرض فيها المسلمين على القتال ، ويذكر بما أصاب الخزاعيين على أيدى بنى بكر بمعاونة قريش لهم .. ومن هذه الأبيات

عنانى ولم أشهد ببطحاء مكة ... رجال بنى كعب تُحَزُّ رقابها
بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم ... وقتلى كثير لم تُجَنَّ ثيابها
ألا ليت شعرى هل تنالن نصرتى ... سهيل بن عمرو وحرها وعقابها
فلا تأمننا يابن أم مجالد ... إذا احتلبت صرفا وأعصل نابها
فلا تجزعوا منها فإن سيوفنا ... لها وقعة بالموت يفتح بابها (٦)

وتأكد حاطب بن أبى بلتعة ، وهو من المهاجرين الأولين السابقين إلى الإسلام من وجهة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكتب رسالة إلى ثلاثة من كبراء قريش هم : سهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل يقول لهم :

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل ، وأُقسِمُ بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله عليكم ، فانه منجز له ما وعده فيكم ، وإن الله ـ تعالى ـ ناصره ووليه »

---

(٦) المواهب اللدنية حـ ٢ صـ ٢٩٤ ، وبنى كعب هم الخزاعيون ، وأيدى رجال : هم قريش ، وابن أم مجالد : هو عكرمة بن ابى جهل . وتجن ثيابها : لم تستر ، اى قُتِلوا ولم يدفعوا . وأعصل نابها : اعوج نابها

وأعطى هذه الرسالة لامرأة كانت فى المدينة ،ومتوجهه إلى مكة ، وكان اسم هذه المرأة سارة ، وكانت مولاة لأبى عمرو بن صيفى بن هاشم ، قدمت المدينة قبل الفتح تطلب الصلة وتشكو الحاجة . وكانت مغنية فقال لها ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أما كان فى غنائك ما يغنيك ؟

فقالت : إن قريشا منذ قتل من قتل ببدر تركوا الغناء .

فأعطاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حمل بعير من الطعام .

أعطى حاطب رسالته لتلك المرأة وأوصاها بالحفاظ عليها وإخفائها حتى تصل إلى مكة فتسلمها إلى من هى مرسلة إليهم . وأعطاها فى نظير ذلك عشرة دنانير وكساها .

ونزل الوحى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخبره بذلك ، فاستدعى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ علىَّ بن أبى طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ـ وقال لهم : انطلقوا الى « روضة خاخ » فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها . .

وخرج الركب فى أثر هذه المرأة حتى بلغوا المكان الذى سماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هى فيه .

قالوا لها : أخرجى الكتاب الذى معك

قالت : ما معى كتاب

فقالوا : والله ما كذب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخرجى الكتاب وإلا نلت العقاب

فلما رأت أن الأمر جد لاهزل فيه أخرجت الكتاب من عقاص شعرها ،

وكانت قد وضعته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها .

وعاد الأصحاب بالكتاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرفوا ما فيه . . فاستدعى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاطبا

وقال له : ما حملك على ما فعلت ؟

قال حاطب : والله يا رسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولا كفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ نصحت ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكنى امرؤ ملصق فيهم ، ليس لى فى القوم أهل ولا عشيرة ، ولى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم خوفا عليهم ، وقد علمت أن الله ـ تعالى ـ منزل بهم بأسه ، ولا يغنى كتابى عنهم شيئا .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه قد صدقكم .

فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق . . ثم التفت الى حاطب يقول له : قاتلك الله ، ترى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمعن فى السرية وتكتب إلى قريش تحذرهم ؟

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعمر : مايدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم

ونزل فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ

إن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠
أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن
يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟
لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ
مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ
لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ
أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ (٧)

وكانت هذه المرأة إحدى النساء اللاتى أهدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دمهن فى الفتح ، ولكنها أسلمت ، فعصمت بذلك نفسها من القتل .

تأملات فى تصرف حاطب وموقف النبى منه :

ولنا أن نستخلص من موقف حاطب وتصرف النبى ـ صلى الله عليه

---

(٧) الممتحنة ١ : ٤

وسلم ـ إزاء هذا الموقف بعض العظات والعبر .. وبعض الأحكام التى تفيدنا فى مجريات حياتنا .

ونستعين فى بيان ذلك بما ذكره الدكتور البوطى فى كتابه فقه السيرة حيث قال :

١ ـ إننا نجد أنفسنا أمام مظهر جديد آخر لنبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان يؤيد به من الوحى من قبل ربه جل جلاله . لقد قال لبعض أصحابه : اذهبوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فمن الذى أخبره بأمر هذا الكتاب وأطلعه على ما دار بين الظعينة وحاطب بن أبى بلتعة فى شأنه ؟ إنه الوحى والتأييد من الله تعالى لنبيه حتى تتم الإرادة الإلهية للفتح العظيم الذى أكرم الله به نبيه والمسلمين .

٢ ـ هل يجوز تعذيب المتهم بمختلف الوسائل ، حملا له على الاعتراف ؟ لقد استدل بعضهم على جواز ذلك بما قاله على رضى الله عنه لتلك المرأة : لتخرجن الكتاب أو لتلقين العقاب .

استدلوا بذلك على أنه يجوز للامام أو نائبه أن يسلك من الوسائل ما يراه كفيلا بكشف الجريمة وإظهارها . كما استدلوا على ذلك بما روى من أن اليهود غيبوا أموالا فى غزوة خيبر لحيى بن أخطب فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعم حيى : مافعل مسك حيى الذى جاء به من بنى النضير ؟ ـ المسك وعاء من جلد ـ فقال : أذهبته النفقات والحروب .
فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ العهد قريب والمال أكثر من ذلك . . .

ثم دفعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الزبير فهدده بالعقاب فقال لهم : قد رأيت حيى يطوف بخربة هنا ، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك فى الخربة .

والحق الذى عليه كل الأئمة الأربعة وجمهور الباحثين والعلماء ، أنه لايجوز تعذيب المتهم الذى لم تثبت عليه الجريمة ببينة شرعية كافية ، حملا له على الاعتراف ، فالمتهم برىء مالم تثبت جريمته .

وخبر الظعينة التى أرسلها حاطب إلى مكة ، وتهديد على رضى الله عنه لها ، ليس من هذا فى شىء وذلك لسببين .

أولهما ـ ليست تلك المرأة مجرد متهمة بما ووجهت به ، بل هى حقيقة ثابتة ، دل عليها خبر أصدق الناس محمد عليه الصلاة والسلام ، وخبره عليه الصلاة والسلام أقوى فى دلالته من بينة الاعتراف والإقرار ، فكيف يقاس عليها من حامت حوله التهم لمجرد ظنون وشكوك من أناس غير معصومين ؟ وما يقال عن هذه المرأة يقال ، أيضا عن عم حيى بن أخطب .

ثانيا ـ ليس التهديد بالعقاب ، كأمر التعذيب أو الحبس ، فالفرق بينهما كبير واضح . . . . . وإذا ثبت أن الكتاب معها لامحالة ، ولم يكن من سبيل إلى الوصول إليه الا بالتهديد والتفتيش ، فذلك أمر مشروع ولا ريب ، بل هو واجب استلزمه أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأما ما يقال عن ضرب الزبير لعم حيى بن أحطب ليقر بالمال ـ فهو أولا : قائم كما قلنا على الحقيقة لا التهمة ، ثم هو ثانيا متعلقٌ بأمر الجهاد والحرابة بين المسلمين وغيرهم ، فكيف يقاس عليه تعامل المسلمين بعضهم مع بعضهم ؟

وأما من زعم أن هذا مذهب ذهب إليه مالك رضى الله عنه فى فقهه ، فهو زعم باطل مخالف لما هو معروف واضح من مذهبه . فقد ورد عنه رضى الله عنه قوله :

(قلت أرأيت إذا أقر بشيء من الحدود بعد التهديد أو القيد أو الوعيد أو الضرب أو السجن . . أيقام عليه الحد أم لا ؟ قال : قال مالك : من أقر بعد التهديد أقيل ، فالوعيد والقيد والتهديد والسجن والضرب تهديد عندى كله وأرى أن يقال - أى لايقام عليه الحد - ثم قال (قلت فإن ضرب وهدد فأقر فأخرج القتيل أو أخرج المتاع الذى سرق أيقام عليه الحد فيها أقر به أم لا وقد أخرج ذلك ؟ قال ؛ لا أقيم عليه الحد إلا أن يقر بذلك آمنا لايخاف شيئا)

٣ - دلنا حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحاطب وجوابه له ، ثم القرآن الذى نزل بسببه على أنه لايجوز للمسلمين - فى أى الظروف كانوا - أن يتخذوا من أعداء الله تعالى أولياء لهم يلقون إليهم بالمودة أو أن يمدوا نحوهم يد الإخاء والتعاون ، وذلك رغم ما كان قد اعتذر به حاطب من أنه لصيق بقريش ليس له فيها شيعة تدافع عنه أو يحتمى بها ، فهو يريد أن يتخذ عندهم يدا يحتمى بها ، عندما يحتمى غيره بما له بينهم من قرابة وأهل .

إن الآيات القرآنية نزلت صريحة تأمر المسلمين أن يجعلوا ولاءهم لله وحده ، وأن يقيموا علاقاتهم مع الناس ، أيا كانوا ، على أساس ما يقتضيه ولاؤهم لهذا الدين الحنيف والإخلاص له ، وإلا كيف يتصور أن يضحى

المسلمون بأموالهم وأنفسهم وشهواتهم وأهوائهم فى سبيل الله تعالى ؟

وتلك هى مشكلة كثير ممن يعدون أنفسهم مسلمين فى هذا العصر .

يقبلون إلى المساجد للصلاة ، ويتمتمون بالكثير من الأذكار والأوراد ، وتظل مسابحهم فى أيديهم ولكنهم يقيمون علاقتهم مع الناس على أساس الولاء للأهل والعشيرة ، أو مصلحة المال والدنيا أو وحى الشهوات والأغراض لا يهمهم فى سبيل مصلحتهم أن يجعلوا من دين الله غلافا للأمانى والأغراض الدنيوية الحقيرة . . أولئك هم المنافقون الذين بسببهم يعانى المسلمون من صنوف التأخر والتفرق والضعف (٨)

الخروج إلى مكة

واستخلف النبى - ﷺ - على المدينة أبارُهم كلثوم بن الحصين الغفارى ، وقيل استخلف عبد الله بن أم مكتوم .

وخرج فى عشرة آلاف مقاتل ، وقيل : فى اثنى عشر ألفا من المهاجرين والأنصار وأسلم وغفار ومُزَينة وجُهَينة وسُلَيم .

وكان ذلك فى أوائل رمضان .

روى أحمد فى مسنده عن أبى سعيدِ الخُدرى - رضى الله عنه - قال : خرجنا مع رسول الله - ﷺ - عام الفتح لليلتين خلتا من شهر رمضان . .

وصام النبى - ﷺ - والمسلمون ، حتى إذا كانوا بين قُدَيد بالقرب من مكة رأى النبى - ﷺ - الجهد من الصيام قد ظهر أثره على المسلمين فأفطر وأمر المسلمين أن يستعملوا رخصة الإفطار . .

---

(٨) فقة السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى صـ ٢٨٢

وكان هو قدوة لهم ، فقد دعا بماء وهو فوق راحلته بعد العصر وشرب منه ليراه المسلمون جميعا . ثم ناوله رجلا إلى جنبه فشرب منه كذلك .[9]

والافطار فى السفر رخصة لمن أراد ، وقد صام النبى - ﷺ - فى سفره على ماكان يكابد من مشقة . . . . وقد روى مالك وغيره عن رجل من الصحابة قال : لما دخل النبى - ﷺ - منطقة العرج وهو صائم صب الماء على رأسه ووجهه من العطش[10] .

وظل النبى - ﷺ - مفطرا بقية الشهر فقد كان على أهبة القتال ولم ينو الإقامة .

وقد صام بعض المسلمين ، وأخبر النبى - ﷺ - بذلك ، فحثهم على الإفطار إشفاقا عليهم ورحمة بهم وتقوية لهم على ماهم فيه ، وحين رأى قوما حول رجل صائم يظللونه مماهو فيه من جهد قال : ليس من البر الصيام فى السفر .

التفاؤه بالعباس

وكان العباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه - قد أسلم هو وأهله ، وبقى فى مكة بإذن من النبى - ﷺ - فقد قال له : ياعم أقم مكانك الذى أنت فيه فإن الله يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة .[11]

---

(٩) روى ذلك مسلم والترمذى عن جابر ، وفى الصحيحين من طريق طاووس عن ابن عباس وللبخارى وحده من طريق عكرمة عن ابن عباس وفيه دعا باناء من لبن أو ماء

(١٠) المواهب اللدنية حـ٢ صـ٣٠٠

(١١) أسد الغابة حـ٣ صـ١٦٥

وكانت إقامته فى مكة ذات فوائد فهو صاحب السقاية ، ولقب بعد ذلك بساقى الحرمين ، أما سقاية مكة فمعروفة لأنه ورث ذلك عن عبد المطلب بعد أبى طالب .

وأما سقايته فى المدينة فقد استسقى به عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عام الرمادة لما اشتد القحط فسقاهم الله ـ تعالى ـ به وأخصبت الأرض .

وقال حسان بن ثابت فى ذلك :

سأل الامام وقد تتابع جدبنا فسقى الغمام بغرة العباس

عم النبى وصنو والده الذى ورث النبى بذاك دون الناس

أحيا الإله به البلاد فأصبحت مخضرة الأجناب بعد الياس[١٢] .

وكان العباس الى جانب ذلك يكتب للنبى ـ ﷺ بأخبار المشركين فى مكة ، وكان ينفع المستضعفين الذين يجدون فى ظله الأمان . فوجوده فى مكة مأذون له فيه لما يتضمنه من أهداف متعددة .

ثم عزم العباس على الهجرة ، وسار بأهله فى طريق المدينة ، فالتقى بالنبى ـ ﷺ ـ بالجحفة .

فعاد العباس مع النبى ـ إلى مكة ، وبعث بمتاعه وعياله إلى المدينة .

التقاؤه بأبى سفيان بن الحارث .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، وهو ابن عم

---

(١٢) أسد الغابة جـ٣ صـ١٦٦

النبى - ﷺ - وأخوه من الرضاعة - أرضعتهما حليمة السعدية - كان فى طريقه إلى المدينة أيضاً ليعلن إسلامه ، والتقى بالنبى - ﷺ - بنيق العقاب[13] وقيل : بالأبواء .

وكان أبو سفيان قبل البعثة يألف النبى - ﷺ - ويحبه ولا يكاد يفارقه ، فلما بعث النبى - ﷺ - هجره وعاداه وهجاه ، ولذلك كان حسان بن ثابت يهجوه فيمن يهجو من المشركين ، ومن قوله فيه :

ألا أبلــغ أبـا ســـــفيان عنـى مُغَلْغَـلةً فقــد بــرح الخفـاءُ
هجــوت محمــدا فأجـبت عنـه وعنـد اللــه فى ذاك الجــزاءُ

وكان مع أبى سفيان فى طريقه إلى المدينة عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة وهو أخو أم سلمة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وكان راغبا أيضا فى الاسلام .

لقد هداهما الله بعد طول شقاق وعناد ، وخرجا معا تائبين إلى الله :
فلما التقيا بالنبى - ﷺ - التمسا الدخول إليه ، فرفض لقاءهما . فكلمته أم سلمة - رضى الله عنها - وكانت مصاحبة له فى سفره :
قالت له : يارسول الله ، ابن عمك ، وابن عمتك وصهرك[14] .
فقال لها : أما ابن عمى - يعنى أبا سفيان بن الحارث - فهجانى بما كان يقوله من شعر يهجو به النبى والمسلمين .

---

(١٣) نيق العقاب : موضع بين مكة والمدينة قرب الجحفة
(١٤) كان عبد الله بن ابى أمية ابن عمة رسول الله - ﷺ - : عاتكة بنت عبد المطلب

وأما ابن عمتي وصهري - يعني عبد الله بن أبي أمية - فهو الذي قال بمكة ماقال .

وكان عبد الله قد قال : والله لا آمنت بك يامحمد حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك .

وقيل : بل هو الذي قال ماحكاه القرآن الكريم :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾ (١٥)

فقالت أم سلمة - رضي الله عنها - : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك يارسول الله .

وهذا نهي يحمل معنى الرجاء والاستعطاف .

وكان أبو سفيان حين بلغه أن النبي - ﷺ - لا يأذن بلقائه قال : والله ليأذنن لنا رسول الله - ﷺ - أو لآخذنَّ بيد ابني هذا - وكان معه ابنه - ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا ، فلما بلغ ذلك رسول الله - ﷺ - مع ماسمعه من ترجي أم سلمة واستعطافها رقَّ لهما ، ورضي بلقائهما . فدخلا عليه ، فأنشده أبو سفيان قوله في اسلامه واعتذاره مما كان قد مضى منه - قال :

---

(١٥) الاسراء ٩٠ ، ٩١

لعمرك إنى يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمظلم الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى
هدانى هاد غير نفسى ونالنى مع الله من طردته كل مطرد
أصد وأنأى جانبا عن محمد وأدعى وإن لم أنتسب من محمد
هم ماهم من لم يقل بهواهم وإن كان ذا رأى يلام ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلائط مع القوم مالم أهد فى كل مقعد

ويذكر الرواة أن أبا سفيان حين قال : ونالنى مع الله من طردته كل مطرد .. ضرب النبى - ﷺ - فى صدره وقال له : أنت طردتنى كل مطرد ؟ ..

ويروى البيت هكذا :

وردنى إلى الحق من طردته كل مطرد ..

وكان على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قد قال لأبى سفيان مرشدا له ومعلما : إذا دخلت على رسول الله - ﷺ - فقل له ماقال إخوة يوسف ليوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » فإنه - ﷺ - لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولا منه ..

ففعل أبو سفيان ذلك ، فقال له النبى - ﷺ - « لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

ولزم أبو سفيان بعد إسلامه النبى - ﷺ - وكان من الصامدين يوم حنين ، وكان لا يرفع رأسه إلى رسول الله - ﷺ - حياء منه ، وكان النبى

- ﷺ - يحبه ويقربه ، ويشهد له بالجنة[١٦] .

عقد الألوية

وفى قديد عقد النبى - ﷺ - الألوية والرايات لأمراء الجيش ، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - قد رأى رؤيا قصها على النَّبى - ﷺ - قال : يارسول الله ، أرانى فى المنام وأراك دنونا من مكة فخرجت إلينا كلبة تهر ، فلما دنونا منها استلقت على ظهرها فاذا هى تشخب لبنا .

فقال - ﷺ - : ذهب كَلَبُهم وأقبل دَرُّهم ، وهم سيأوون بأرحامهم ، وإنكم لاقون بعضهم ، فان لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه .

ومضى الجيش فى طريقه حتى وصل إلى مر الظهران - وكان على أساس وهذا الموضع على مسافة أربعة فراسخ من مكة .. وفى هذا الموضع عسكر النبى - ﷺ - بمن معه ..

وأمر النبى - ﷺ - كل مسلم أن يوقد نارا ، حتى ترى قريش ضخامة الجيش الزاحف اليها فيفت ذلك فى عضدها ، دون أن تعرف هوية هذا الجيش .

كان النبى - ﷺ - يأمل أن يدخل المسلمون مكة دون قتال ، وأن تستسلم له قريش دون مقاومة . وبذلك يجنب مكة إراقة الدماء ....

وارتفعت فى الأفق أضواء النيران ، فخطفت أبصار القرشيين وأثارت فزعهم وانتباههم ، فأسرع أبوسفيان بن حرب وبديل بن ورقاء الخزاعى

---

(١٦) أسد الغابة جـ ٦ صـ ١٤٤

وحكيم بن حزام بالخروج ناحية هذه النار يستطلعون خبرها . وحدث حوار بين هؤلاء الرفاق حول مصدر هذه النيران .

قال أبو سفيان : مارايت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا . لكأنها نيران عرفة .

فرد عليه بديل بن ورقاء : هذه والله خزاعة قد حمشتها الحرب .

فقال أبو سفيان وهو غير مقتنع بما قال بديل : خزاعة أقل من ذلك .

القبض على أبى سفيان

وبينما هم يتبادلون الحديث فيما بينهم إذ رآهم ناس من حرس رسول الله ـ ﷺ ـ فأدركوهم فأخذوهم .

وقيل إن العباس بن عبد المطلب كان قد استأذن النبى ـ ﷺ ـ فى أن يذهب إلى مكة فيستقدم من أهلها من يطلبون الأمان حتى لا يدخلها المسلمون عليهم عنوة فأذن له . . . . .

وذلك لا ينافى المباغتة التى أرادها النبى ـ ﷺ ـ لأهل مكة . لأنه الآن على أبوابها فعلا ، وهم الآن لا يستطيعون الاستعداد له فقد فات وقت الاستعداد ، وهو قد أعلنهم عن نفسه وقوته عن طريق هذه النيران الكثيفة التى أمر بإشعالها . .

فبينما العباس فى طريقه وقد ركب بغلة رسول الله ـ ﷺ ـ إذا سمع كلام أبى سفيان وبديل وهما يتراجعان .

قال العباس : فعرفت صوت أبى سفيان . وكان صديقا له ـ فقلت : ياأبا حنظلة .

فعرف أبو سفيان صوت العباس ، فالتفت اليه وقال : أبو الفضل ؟

قال العباس : نعم .

قال أبو سفيان : مالك فداك أبي وأمي ؟

قال العباس : هذا والله رسول الله - ﷺ - فى الناس قد جاءكم بمالا قبل لكم به ، قد جاءكم بعشرة آلاف .

قال أبو سفيان : فما الحيلة فى ذلك ياأبا الفضل ؟

قال العباس : اركب فى عجز هذه البغلة حتى أستأمن لك رسول الله - ﷺ -

فركب أبو سفيان خلفه . ورجع صاحباه ليخبرا القرشيين .

قال العباس : فجئت به ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فاذا رأوا بغلة رسول الله - وأنا عليها قالوا : عم رسول الله - ﷺ - على بغلته . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : من هذا ؟ وقام إليَّ . فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : الحمد لله الذى قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله - ﷺ - فركضت البغلة فسبقته ، فدخلت على رسول الله - ﷺ - ودخل عليه عمر فى أثرى ، فقال : يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد فدعنى لأضرب عنقه .

قال العباس : فقلت : يارسول الله ، إنى قد أجرته . .

وكان عمر مصراً على قتل أبي سفيان ، فقال له العباس : مهلا ياعمر ،

فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ماقلت مثل هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف .

فقال عمر : مهلا ياعباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىَّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وماذلك إلا لأنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله - ﷺ - من إسلام الخطاب لو أسلم .

وأنهى النبى - ﷺ - هذا النقاش بقوله : اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فاذا أصبحت فأتنى به .

ويقال : إن رفيقى أبى سفيان كانا معه ولم يرجعا .

فلما أصبحوا وأذن مؤذن الفجر ، هب المسلمون سراعا الى الصلاة . . وأصاب أبا سفيان الفزع ، فقال : ياعباس ، ماللناس ؟ أأمروا فىَّ بشىء ؟ . . لقد حسب أبو سفيان أن الناس فى اهتمامهم الذى رآه قد وجهت إليهم الأوامر بقتال - ولم يدر أن اهتمامهم كان لما هو أعظم من ذلك . . إنه اللقاء مع الله . إن أبا سفيان لا يعرف ذلك ولا يدرك أن أهم مايحرص عليه المسلم فى حياته هو الصلاة ، لأنها هى أول مايسأل عنه يوم القيامة .

وطمأن العباس أبا سفيان من فزعه ، فقال له : إن الناس قد قاموا إلى الصلاة .

وذهل أبو سفيان حين رأى المسلمين يبتدرون إلى الوضوء والصلاة ويسرعون إلى رسول الله - ﷺ -

ثم رآهم يصطفون خلفه فى خشوع ، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ويقومون بقيامه .

فقال للعباس : ياعباس مايأمرهم بشيء إلا فعلوه .

فقال له العباس : لونهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه .

فقال أبو سفيان : مارأيت مُلْكاً مثل هذا ، لا ملك كسرى ، ولا ملك قيصر ، ولا ملك بنى الأصفر . ثم قال للعباس : كلمه فى قومك ، هل عنده من عفو عنهم ؟ . . فوعده العباس بذلك .

إسلام أبى سفيان

وانطلق العباس بأبى سفيان حتى دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له النبى ـ ﷺ ـ : ويحك ياأبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ، ماأحلمك وأكرمك وأوصلك ، لقد علمت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عنى شيئاً بعد .

قال النبى ـ ﷺ ـ : ويحك ياأبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

قال : بأبى أنت وأمى ، أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيئاً . وكان بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام قد سبقا أبا سفيان بالاسلام ، فلما رأى العباس أن أبا سفيان قد نكص عن الاعتراف برسالة النبى ـ ﷺ ـ قال له : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل فوات الأوان .

فقال أبو سفيان : وكيف أصنع بالعزى ؟

فقال له عمر بن الخطاب وكان يسمع الحوار : حطمها وألق عليها القاذورات .

فقال له أبو سفيان : ويحك ياعمر ، إنك رجل فاحش ، دعنى مع ابن عمى فاياه أكلم . .

وبعد حوار طويل أعلن أبو سفيان إسلامه ، ونطق بالشهادتين وطاف فى رأسه حوار كان قد دار بينه وبين أمية بن أبى الصلت الثقفى منذ سنين .

ذلك أن أمية بن أبى الصلت كان يقول : كنت أرى فى كتبى أن نبياً يبعث فى حرتنا ، فكنت أظن بل كنت لا أشك أنى هو ، فلما دارست أهل العلم علمت أنه فى بنى عبد مناف ، فنظرت فى بنى عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر إلا عتبة بن ربيعة ، فلما تخطى الأربعين ولم يوح إليه علمت أنه غيره .

قال أبو سفيان : فخرجت فى ركب أريد اليمن فى تجارة فمررت بأمية بن أبى الصلت فقلت له كالمستهزىء به : ياأمية قد خرج النبى الذى كنت تتحدث عنه .

قال : إنه حق فاتبعه .

قلت : فمايمنعك من اتباعه ؟

قال : مايمنعنى من اتباعه إلا الاستحياء من بُنَيَّات ثقيف ، أنى كنت أحدثهن أنى هو ، فإذا بى أصبح تابعا لرجل من بنى عبد مناف .

ثم قال أمية : ياأبا سفيان ، كأنى بك إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بمايريد[١٧]

دار هذا الحوار فى خاطر أبى سفيان الآن ، وتمثله جيدا ، وأدرك أنه كان فى ضلالة وقد آن له أن يخرج نفسه منها . .

وهذه فرصة له قد لاحت ، أن يؤمن وهو عزيز قبل أن يؤمن وهو ذليل . فشهد شهادة الحق ، وأعلن إسلامه .

وأراد العباس أن يجعل لأبى سفيان فضلا فى قومه ، فقال للنبى - ﷺ - : يارسول الله . إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا .

فقال النبى - ﷺ - : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . . وفرح أبو سفيان فرحاً شديداً بذلك ، لقد أصبحت له منة على قريش إذن ، أليست داره مأمنا لمن يلجأ إليها ؟

ولم يخل هذا المجلس الذى اجتمع فيه أولئك النفر من زعماء قريش أمام النبى - ﷺ - من حجاج .

فقد حدث الرواة أن حكيم بن حزام قال : يارسول الله ، أجئت بالناس من يعرف ومن لا يعرف لتقاتل أهلك وعشيرتك ؟

فقال رسول الله - ﷺ - : قد غدرتم بعقد الحديبية ، وتجاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله وأمنه . فقال بديل بن ورقاء الخزاعى :

---

(١٧) رواه الطبرانى فى معجمه

صدقت والله يارسول الله ، فقد غدروا بنا . والله لو أن قريشاً خلوا بيننا وبين عدونا مانالوا منا الذى نالوا .

قال حكيم : قد كنت يارسول الله حقيقا أن تجعل عدتك وكيدك لهوازن ، فإنهم أبعد رحما وأشد عداوة .

فقال رسول الله - ﷺ - : إنى لأرجو الله أن يجمع لى فتح مكة وإعزاز الاسلام بها وهزيمة هوازن .

وصدر الأمر بالتحرك نحو مكة ، وقال النبى - ﷺ - للعباس : قف مع أبي سفيان بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها .

لقد خشى النبى - ﷺ - أن ينطلق أبو سفيان إلى مكة فيرجع عن إسلامه ويقاوم ، ويؤدى ذلك إلى إراقة الدماء ، والنبى - ﷺ - يريد أن يجنب مكة ذلك .

وأراد النبى - ﷺ - أن يُرِىَ أبا سفيان وصاحبيه عزة الإسلام وقوة جند الله ، فيمكن ذلك للاسلام فى نفوسهم ..

وأوقف العباس أبا سفيان بجانبه ، وجنود الله تمر عليه فى طريقها إلى مكة ..

فكانت أول راية تمر يحملها خالد بن الوليد وخلفه بنو سُلَيْم ..

فقال أبو سفيان : ياعباس ، من هؤلاء ؟

قال العباس : هذا خالد بن الوليد ؟

قال : ومن معه ؟

قال : بنو سُلَيْم .

قال أبو سفيان : مالى ولسليم ؟

ثم جاء بعد ذلك الزبير بن العوام فى خمسمائة من المهاجرين وفتيان العرب . فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟

قال العباس : هذا الزبير بن العوام .

قال : ابن أختك ؟

قال العباس : نعم .

ثم مرت بعد ذلك قبائل غفار ، وأسلم ، وبنى كعب ، ومزينة ، وجهينة ، وكنانة . كل قبيلة لها قائدها وعَلَمها .

ثم جاءت قبيلة أشجع ، فسأل عنهم أبو سفيان فقال له العباس : هؤلاء أشجع .

فقال أبوسفيان : هؤلاء كانوا أشد العرب على ابن أخيك

فقال العباس : لقد أدخل الله الإسلام فى قلوبهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكانوا ثلثمائة مقاتل معهم لواءان يحمل أحدهما معقل بن سنان ، ويحمل الآخر نعيم بن مسعود .

وكان كل فوج يمر يرتفع صوته بالتكبير ، فتتجاوب الأفاق معه بالتكبير ، حتى يخيل لأبى سفيان أن جبال مكة ووديانها تكبر معهم . .

وأبو سفيان يسأل العباس بين آونة وأخرى : أين محمد ؟ ألم يمر بعد ؟ . .

فيقول له العباس : لم يأت بعد وعندما تأتى الكتيبة التى هو فيها سوف

ترى الخيل والحديد والرجال وما ليس لأحد به طاقة .

قال أبوسفيان : ومن له طاقة بهؤلاء الذين مروا ؟

لقد فعل هذا العمل فعله فى نفس أبى سفيان ، وأدرك أن الدنيا كلها قد أسلمت ، فهذه أفواج لا يكاد يحصرها العد ، وهى تمثل أقوامها الذين لم يحضروا كلهم ، بل حضر منهم من هو قادر على القتال وتجشم مشقة السفر - فما بالك بمن لم يحضروا ؟

وأخيرا جاءت كتيبة لم ير أبوسفيان مثلها من قبل ، إنها الكتيبة الخضراء ، فى كل بطن منها لواء وراية ، وكلهم فى الحديد لا يرى منهم إلا الحدق . . فقال أبوسفيان : ويحك يا عباس ، من هؤلاء ؟

قال العباس : هؤلاء الأنصار يقدمهم سعد بن عبادة يحمل الراية - راية الأنصار -

وقال سعد حين لمح أمامه أبا سفيان : اليوم يوم الملحمة . . اليوم يقتل من أهدر النبى - ﷺ - دمه . . .

وكان أبو سفيان قد ذهل من القوة التى رآها تمر أمامه ، فأدرك أنها شىء لا يمكن أن يقوم ضده أحد . . وأدرك أن النبى - ﷺ - محاط بجنود لا قبل لأحد بهم . . وإلى هذا الوقت لم يكن فى حسبان أبى سفيان شىء إلا القوة المادية التى يحسب بها البشر حساباتهم ، فهو لا يعرف شيئا عن القوة المعنوية التى ينصر الله بها أولياءه ويمد بها أحباءه .

فقال للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما .

فقال له العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان ، أجل إنها النبوة ، وماذا يغنى

الملك بجانب النبوة ؟ إن النبوة أمر عظيم ، ولقد خير النبى - ﷺ - بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا ، فاختار النبوة فحسب . . . .

اليوم يوم المرحمة

وحين مر النبى - ﷺ - بين هؤلاء الأنصار قال أبوسفيان له : أو ما سمعت ياابن أخى ما يقوله سعد بن عبادة ؟ لقد قال : اليوم يوم الملحمة . فهل أمرت سعدا بقتل قومك ؟

فقال النبى - ﷺ - : لا ، اليوم يوم المرحمة . . وأرسل النبى - ﷺ - لسعد بن عبادة ، فأخذ منه الراية ودفعها لابنه قيس بن سعد .

لقد أفهمه النبى - ﷺ - أن هذا اليوم ليس فيه استباحة للكعبة ولا لمن حولها ، ولكنه يوم تعظيم للكعبة واحترام لها ، إنه اليوم الذى تكسى فى الكعبة ، وتطهر مما حولها ومما فيها من الرجس والأوثان . . . . وكان إعطاء الراية لقيس بن سعد إرضاء لوالده - رضى الله عنهما - وفى رواية أن الذى شكا إلى النبى - ﷺ - مما قاله سعد بن عبادة امرأة لقنها بعض شعراء قريش أبياتا من الشعر ضمنها الاستغاثة برسول الله - ﷺ - مما يهم به سعد . . . . وقيل إن هذا الشاعر هو ضرار بن الخطاب . فاستقبلت هذه المرأة النبى - ﷺ - وقالت له : -

يانبى الهدى إليك لجاء قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القوم ونودوا بالصيلم الصلعاء(١٨)

---

(١٨) البطان : حزام البعير ، والتقاء حلقتيه كناية عن الشدة والضيق ، والصيلم : الداهية ، والصلعاء . مثلها

إن سعدا يريد قاصمة الظهر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجى لو يستطيع من الغيظ رمانا بالنسر والعواء[19]
وغر الصدر لا يهم بشيء غير سفك الدما وسبى النساء
قد تلظى على البطاح وجاءت عنه هند بالسوأة السواء
إذ ينادي بذل حى قريش وابن حرب بذا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى ياحماة الأدبار أهل اللواء
ثم ثابت إليه من بهم الخزرج والأوس أنجم الهيجاء
لتكون بالبطاح قريش فقعة القاع فى أكف الإماء[20]
فانهينه فانه أسد الأسد لدى الغاب والغ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمر سكوتاً كالحية الصماء

فلما أنشدت المرأة هذه الأبيات ، وسمعها النبى - ﷺ - رق رقة شديدة ، ودخلته الرحمة التى هو أهلها وبعث من أجلها ،

فأرسل إلى سعد أن يسلم الراية لابنه .

فقال سعد : لا أسلمها إلا بأمارة .

فأرسل النبى - ﷺ - بعمامته .. فسلم سعد الراية لابنه ..

وبعض الرواة يقول : إنه أمرها أن يسلمها لعلى بن أبى طالب ..

أبو سفيان ينذر قومه

وأسرع أبوسفيان إلى قومه ينذرهم ، وينادى بأعلى صوته :

يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، أسلموا

---

(١٩) النَّسْر والعوَّاء : نجوم فى السماء

(٢٠) الفقعة : نوع من الكمأة الرخوة كناية عن الذل

تسلموا ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقالوا له : وما تغنى عنا دارك ؟

فقال : ومن دخل المسجد فهو آمن .

فقامت إليه زوجه هند بنت عتبة وهى تقول :

اقتلوا الدسم الأحمس[٢١] ، قبح من طليعة قوم .

فقال أبوسفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ، فانصرفوا إلى منازلكم وإلى المسجد .

دخول مكة

وقسم النبى - ﷺ - جنوده أربعة أقسام على كل قسم قائد يقودهم . .

● فالميسرة يقودها الزبير بن العوام ، وعليها أن تدخل مكة من جهة الشمال . من جهة كداء .

● والميمنة يقودها خالد بن الوليد وعليها أن تدخل مكة من جهة الجنوب . من جهة الخندمة

● وقوات الأنصار بقيادة سعد بن عبادة أولاً . ثم بقيادة ابنه قيس بعد ذلك ، وعليها أن تدخل مكة من جهة الغرب .

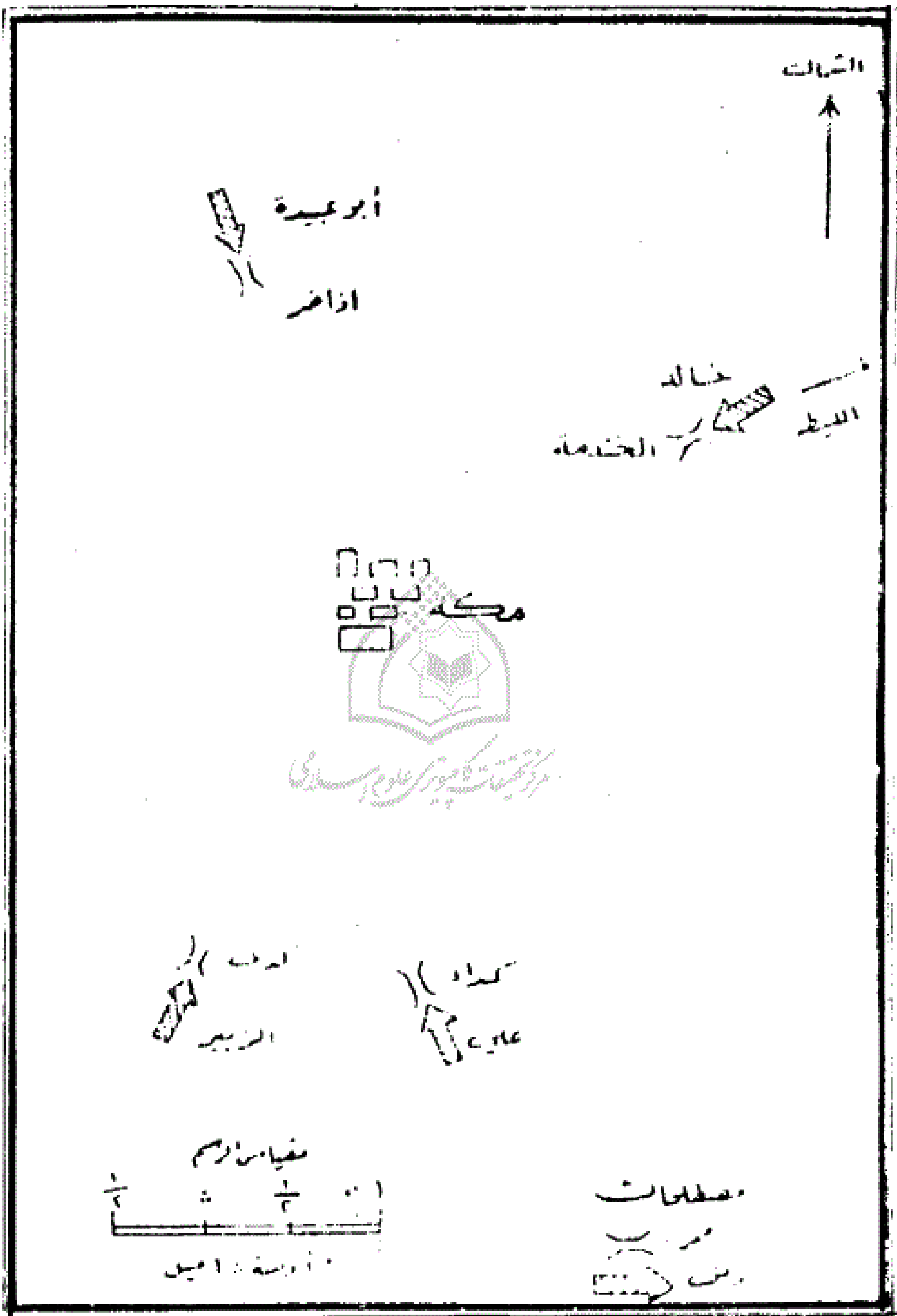
● وقوات المهاجرين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ومهمتها أن تدخل مكة من الشمال الغربي من اتجاه جبل هند .

(انظر الخريطة)

---

(٢١) الأحمس : الذى لاخير فيه

الخريطة رقم ٥ - فتح مكة - ٢



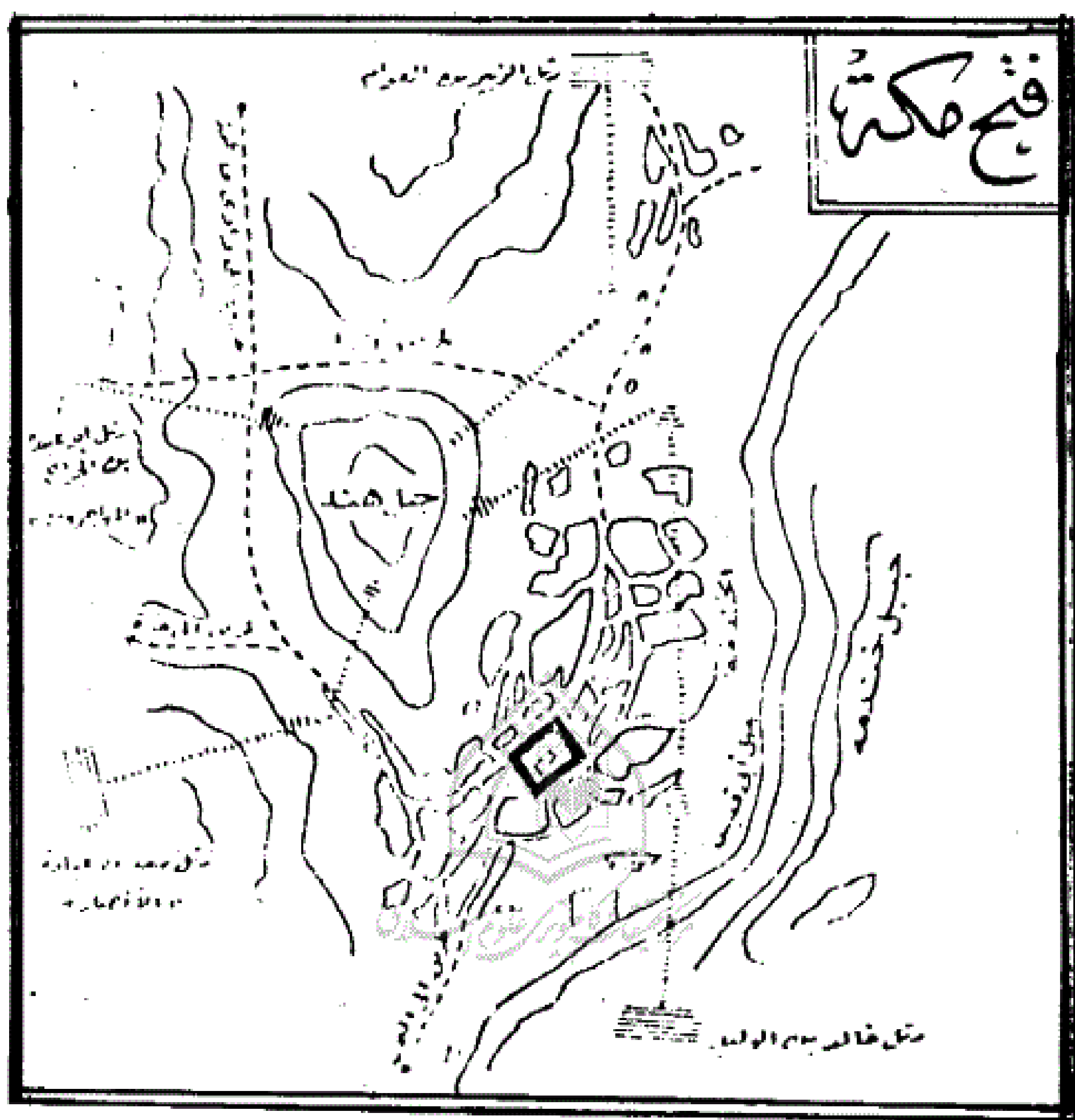
● وكانت منطقة اجتماع القوات بعد الفتح منطقة جبل هند . . وصدرت الأوامر صريحة للقواد والجنود بعدم القتال إلا فى حالة الاضطرار .

لقد كان الهدف دخول مكة بدون إراقة دماء . . ولذلك أمر النبى - ﷺ - مناديه أن ينادى فى الناس بأن يلزموا دورهم أو يلوذوا بالمسجد ، قائلا : من دخل داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن

وصف مكة

لقد كانت خطة توزيع القواد بهذه الصورة بارعة أيما براعة - لأنها راعت ظروف مكة وطبيعتها . فهى تقع فى وادى إبراهيم ، تحيط بها تلال سوداء وترتفع هذه التلال إلى ما يزيد على ألف قدم فوق مستوى الأرض المحيطة بها ، ويتم الاقتراب إلى مكة بواسطة أربعة محاور تمر عبر هذه التلال ، وهذه المحاور تأتى من جهة الشمال الغربى ، وغالبا من الشمال ، ومن الجنوب الغربى ، ومن الجنوب ، ومن الشمال الشرقى ، من أجل ذلك قسم النبى - ﷺ - جيشه إلى أربعة أرتال ، يتقدم كل رتل على أحد المحاور الأربعة بقيادة قائدة

(انظر الخريطة رقم ٥)


فتح مكة
دخل الزبير بن العوام
جبل الخندمة
جبل أبي قبيس
دخل خالد بن الوليد

وكان الهدف من تقدم المسلمين بهذه الصورة القيام بهجمات متقاربة على هدف مركزي واحد ، يجبر العدو على توزيع قواته وعدم تمكينه من تركيزها على محور واحد من محاور التقدم ، علاوة على ذلك فإن العدو لو نجح فى إيقاف الهجوم على بعض المحاور ، فهنالك محاور أخرى يمكن للمهاجمين أن يستخدموها لمتابعة الهجوم ، وبذلك تتاح الفرصة لنجاح الهدف المطلوب .(٢٢)

الرسول فى ذى طوى

وانتهى الرسول - ﷺ - إلى ذى طوى ، وهو فوق راحلته ، ومن هذا الموقع أصدر أمره إلى قادة الجيوش ليأخذ كل طريقه إلى غايته ،

واستوى الرسول - ﷺ - على راحلته يرقب الموقف ، وقد اعتجر - تعمم - بشقة برد حبرة - من ثياب اليمن -

ثم أخذ - ﷺ - يدعو تواضعا وخشوعا لله . . . إنها الأخلاق العالية والشمائل المحمدية التى تأبى عليه إلا أن يكون متواضعا فى هذا الموقف المهيب . .

ولو أن رجلا غيره ، طرد ذات يوم من هذا البلد ، وعامله أهله أسوأ معاملة - وهو يدعوهم إلى الله - وجمعوا له الجموع وحزبوا له الأحزاب ، وقالوا فيه كل قول . ثم إذا به تجتمع له هذه الجموع الفقيرة ، تأتمر بأمره وتلبى إشارته ، وتنطلق أمامه فاتحة هذا البلد الذى طرد منه ذات يوم . . نقول لو أن أحدا غير رسول الله فى هذا الموقف لفعل الكثير انتقاما لنفسه . .

(٢٢) خالد ابن الوليد جنرال أكرم صـ ١١٤

ولكن الأدب الربانى الذى تحلى به النبى - ﷺ - يفرض عليه أن يكون صورة مثالية تقتدى بها الأمم ، ويتعلم منها القادة والرؤساء والساسة كيف يكون علو الروح وبعد الهمة وجلال التواضع وسموا الخشوع لله الذى يقهر الظلم بمشيئته مهما امتدت صولته وشمخت دولته وارتفعت كلمته حينا من الزمن . .

ما تذكر النبى - ﷺ - شيئا مما صنعه القرشيون معه فى ذلك الوقت وأمامه هذه الآلاف التى تنطلق إلى أبواب مكة وهى تهتف بكلمة - الله أكبر - وهى تأتمر بأمر ذلك الرجل الذى كانوا يقولون عنه ذات يوم يتيم أبى طالب ، وكأنهم يكنون بذلك عن ضعفه وقلته .

لم يتذكر النبى - ﷺ - فى موقفه هذا إلا جلال الله الذى تهتف باسمه هذه الحناجر التى هداها الله إلى نور الاسلام . هذه الرسالة التى اختاره الله لها ووفقه للقيام بها ، ومكنه من النجاح فى أدائها حتى عادت إلى هذا المكان الذى انطلقت منه أول مرة منذ عشرين عاما أو تزيد قليلا . . وهاهو ذا شعار هذه الدعوة يدوى فى الآفاق دون خوف أو استخفاء بعد أن كان أصحابه يعذبون ويطاردون . .

أفلا يحق لهذا النبى الكريم الذى أتم الله على يديه هذه النعمة أن يتواضع لله شكرا واعترافا بالفضل ؟ . .

ومن أحق من النبى - ﷺ - بذلك الأدب العالى ، وهو الذى يقول فى معرض الحمد-والثناء على الله : أدبنى ربى فأحسن تأديبى . . ؟

أبو قحافة يقدم على الرسول

وكان أبو قحافة والد أبي بكر - واسمه عثمان بن عامر بن كعب من قبيلة تيم بن مرة القرشي - لم يسلم بعد .

وكان قد كف بصره . وحين وقف النبي - ﷺ - بذى طوى قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده : أى بنية : اصعدى على أبي قبيس - جبل بمكة - فانظرى ماذا ترين ؟

فنظرت فقالت : أرى سواداً مجتمعا .

قال لها : تلك الخيل .

ثم قالت : وأرى رجلا يسعى بين يدى ذلك السواد مقبلا ومدبرا - قال أبو قحافة : أى بنية ، ذلك الوازع[٢٣] ، يعنى الذى يأمر الخيل وينظمها .

ثم قالت : قد والله انتشر السواد .

فقال أبوقحافة : إذن فقد اندفعت الخيل فأسرعى بى إلى بيتى . . فنزلت به وتلقته الخيل قبل أن يصل إلى بيته . وكان فى عنق ابنته عقد من فضة فقطعة رجل من عنقها وأخذه ، وذلك وسط الزحام والاضطراب الذى حدث .

فلما دخل النبى - ﷺ - مكة ودخل المسجد أقبل أبوبكر بأبيه يقوده إلى رسول الله - ﷺ - فلما رآه النبى - ﷺ - قال لأبى بكر : « هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا الذى آتيه فيه » ؟

---

(٢٣) الوازع الذى يكف الجيش أى يقدم بعضه على بعض

ولكن أبابكر - رضى الله عنه - قال : يارسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت .

إن أبابكر - رضى الله عنه - يعرف للنبوة حقها وللرسالة قدرها . . ولكن النبى - ﷺ - أراد أن يكرم الصديق فى إكرامه لأبيه . .

وأجلس أبوبكر أباه بين يدى النبى - ﷺ - فمسح النبى - ﷺ - على صدره ، ثم قال له : أسلم . فأسلم الشيخ . وأكرمه الله بالإسلام وقرت عين أبى بكر بإسلام أبيه كما قرت بإسلام أبنائه ، وهنأ النبى - ﷺ - أبا بكر بإسلام والده .

وقال العلماء : إنه فى شأن أبى بكر نزل قول - تعالى

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢٤)

وقالوا : لا يعرف فى الصحابة أربعة أسلموا وصحبوا النبى - ﷺ - ، وكل واحد أبو الذى بعده إلا فى بيت أبى بكر - رضى الله تعالى عنه - أبو

(٢٤) الأحقاف ١٥ ، ١٦

قحافة ، وابنه أبو بكر ، وابن أبي بكر عبدالرحمن ، وابن عبدالرحمن محمد ويكنى بأبي عتيق .(٢٥) وأخذ أبو بكر ينشد الناس عقد أخته الذى اختطف من عنقها فقال : أنشد الله والإسلام طوق أختى ، فلم يجبه أحد .

فقال لأخته : يا أخيه ، احتسبى طوقك عند الله(٢٦)

ولا تعليل لما حدث إلا أن يكون بعض أخلاط الناس أو بعض اللصوص قد اندسوا بين صفوف المسلمين فأساءوا إلى الإسلام بذلك التصرف غير المسئول . وكان النفاق ما يزال موجودا فى بعض النفوس . وسيبقى دائما لأنه داء يصعب اقتلاعه .. وقد صاحب المنافقون ـ وهم يظهرون غير ما يبطنون ـ النبى ـ ﷺ ـ فى غزواته ، ومنهم لقى المسلمون المصاعب ـ وسيأتى فى غزوة تبوك ـ إن شاء الله ـ كيف تصرفوا وكيف فضحهم القرآن الكريم فى سورة التوبة ..

وخروجهم مصاحبين للمسلمين ليس إلا طمعا فى المغانم والكسب المادى ، فلا يبعد أن يكون أحد هؤلاء المنافقين أو الأعراب الجاهلين هو الذى امتدت يده إلى عنق هذه الصبية فاختطف منها العقد ، وهو لا يدرى أنه بذلك قد أساء إلى نفسه قبل أن يسىء إلى غيره .

قتال خالد

ومضى كل قائد إلى وجهته ، ودخلوا مكة بدون قتال ، فيما عدا الجهة التى دخل منها خالد ، فقد تجمع بعض المشركين من أمثال صفوان بن

---

(٢٥) السيرة الحلبية حـ٣ صـ٣٥

(٢٦) سيرة ابن هشام حـ٣ صـ٢٠

أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو وغيرهم بالخندمة ، وأجمعوا على قتال المسلمين وبخاصة حين علموا أن خالدا هو قائدهم فى تلك الجهة .

« لقد وقف هؤلاء أمام الجهة التى وجه إليها خالد وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح ، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين رجلا أكثرهم من قريش وقلة من هذيل ، وولى السادة والأتباع بعد ذلك فى هزيمة نكراء

« أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير ؟

لقد كان خالد دون غيره من القواد هو الذى تصدى له القرشيون ، فقاتل فرسانا كانوا رفقاءه بالأمس فى جيش المشركين ، وقد كانوا مما يرمون المسلمين عن قوس واحدة .

لقد حارب خالد فى صفوف المشركين قبل أن يسلم ، فلماذا لا يحارب الجاهلية القرشية وينصر الإسلام عليها ؟ ثم إنه حارب فى صفوف الإسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب فى صفوف الإسلام بعد ذلك جيوش الفرس والروم ، وحارب فى صفوف الاسلام كل من برز لتلك الصفوف ، فكان كما سماه الرسول - ﷺ - سيف الله المسلول .

لقد التقى خالد بفرسان قريش الذين تصدوا له أثناء دخوله مكة لأن إرادة الله شاءت أن يقتل بعض صناديد الكفر على يده

« وقال النبى - ﷺ - حين سمع بضربته : أَلَمْ أَنْه عن القتال ؟ قالوا : إنه خالد ، قوتل فقاتل .

فقال النبى ـ ﷺ ـ : قضاء الله خير . ثم قال : لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة »[٢٧]

لقد كانت الصداقة الوطيدة تربط بين خالد وأولئك النفر من قريش ولكن الإسلام محا تلك العلاقة وأبدل خالداً خيرا منها . وطبعه بطابع جديد هو الولاء لله ولرسوله .. بدلا من الأهل والعشيرة .

ومن العجيب أن صفوان بن أمية كان زوجا لأخت خالد ، ولكن ما قيمة ذلك بالنسبة لهذا الدين الذى يخاطب المسلمين قائلا : « لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » ؟

ويحكى ابن هشام فى سيرته أن رجلا اسمه حماس بن قيس بن خالد ـ من بنى بكر ـ كان يعد ســــلاحاً قبل دخول رسول الله ـ ﷺ ـ مكة فقالت له امرأته : لماذا تعد ماأرى ؟

قال : لمحمد وأصحابه .

ويبدو أن زوجته كانت تسر الإسلام ، فقالت له : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء .

قال : والله أنى لأرجو أن أجعل بعضهم خدما لك .. ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى علة هذا سلاح كامل وألة[٢٨]
وذو غرارين سريع السلة[٢٩]

(٢٧) عبقرية خالد للعقاد صـ ٦٨

(٢٨) الألة : الحربة ذات السنان الطويل

(٢٩) ذو غرارين السيف مثنى غرار وهو الحد

وشهد حماس هذا - الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ناوشوهم شيئا من قتال ، فقتل كرز بن جابر وخنيس بن خالد بن ربيعة وكانا فى جيش خالد فشذا عنه وسلكا طريقا غير طريقه فقتلا - ولكن بعد أن أبليا بلاء حسنا

أصيب خنيس أولا ، فجعله كرز بين رجليه ، ثم قاتل عنه حتى قتل وهو يرتجز قائلا :

قد علمت صفواء من بنى فهر نقية الوجه نقية الصدر

لأضربن اليوم عن أبى صخر

وأبو صخر كنية خنيس بن خالد .

ولما هجم جيش المسلمين أصيب من المشركين ناس كثيرون ، ثم انكشفوا وفروا متفرقين ، وهرب حماس منهزما حتى دخل بيته ، وهو يقول لامرأته : أغلقى على الباب .

قالت له : فأين ما كنت تقول من أنك تخدّ منى بعض أصحاب محمد ؟ فقال لها :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو زيد قائم كالمؤتمة واستقبلتهم بالسيوف المسلمة[30]

يقطعن كل ساعد وجمجمة ضربا فلا يسمع الا غمغمة

لهم نهيت خلفنا وهمهمة لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة[31]

---

(٣٠) المؤتمة : الأيم التى قتل زوجها وترك لها أيتاما

(٣١) النهيت : نوع من صياح الأسد ، والهمهمة صوت فى الصدر - سيرة ابن هشام حـ٣ صـ ٢١

ويبدو أن بعض فرسان قريش قد كبر عليهم أن تستسلم قريش بهذه الصورة ، وأن تقبل دعوة الإسلام بهذه السهولة . فقرر بعضهم أن يقاوموا حتى النهاية وربما قال لأنفسهم أو قال لهم شيطانهم .

لماذا كان هذا النصب والتعب طوال السنوات الماضية إذن ؟

ولماذا لا يموتون على مامات عليه أشياخهم الذين ورثوهم الكفر والضلال ؟

أيذهب دم أبي جهل وأمية وعقبة وغيرهم عبثا دون طائل ؟

وربما تمثل بعضهم بقول امرىء القيس :

والله لا يذهب شيخي باطلا   حتى أبير مالكا وكاهلا

لقد زين لهم الشيطان طريق آبائهم فهم يقتدون به ، ولا يمكن أن يناموا على الضيم أو يقبلوا الذل . أو يعطوا بأيديهم ، فلتكن المقاومة إذا وليكن ما يكون .

وعلى ذلك فقد استعد عكرمة ورفاقه للقاء خالد من جهة ، وجمعوا جموعا من قبائل شتى من جهة أخرى .

ومن أجل ذلك قال النبي ـ ﷺ ـ لأبي هريرة : اهتف بالأنصار . فهتف أبو هريرة بهم ، فجاءوا سراعا قائلين : لبيك يارسول الله . فقال لهم : ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم ؟

ثم قال لهم : قاتلوهم بقوة ، حتى توافوني بالصفا .

واستجاب الأنصار . ولم تثبت أوباش قريش أمام هذه الجموع الغفيرة المستعدة للفداء والاستشهاد ؟

قال أبو هريرة - ﷺ - فانطلقنا إليهم ففر القوم من أمامنا دون أن يفعلوا شيئا .

ويبدو أن ذلك كان فى بدء الأمر ، فإن أبا سفيان حين رأى تحفز الأنصار لإبادة هذه الجموع التى تريد التصدى للفاتحين ، أقبل على النبى - ﷺ - يقول : يارسول الله أبيحت خضراء قريش ، لاقريش بعد اليوم .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم : من أغلق عليه بابه فهو آمن . . فهرع الناس إلى بيوتهم يدخلونها ويغلقون أبوابها . .

وقول أبى هريرة - رضى الله عنه - يفهم منه أن هؤلاء المتجمعين لو تصدوا للأنصار لكان فى إمكان الأنصار أن يصيبوا منهم من يصيبون ويأسروا من يأسرون ، ولكنهم آثروا العافية على المقاومة .

إن النبى - ﷺ - لم يقل ما قال إلا بعد أن رأى فى نفوس نفر من قريش رغبة فى القتال ، ولكنه حمد الله أن رأى منهم الرغبة بعد ذلك فى السلام ومن أجل ذلك ثار هذا السؤال :

هل فتحت مكة صلحا أو حربا ؟

لم يحدث قتال فى فتح مكة إلا من الجهة التى دخل منها خالد بن الوليد ، وكان للضرورة ، فقد كان خالد حريصا على تنفيذ أمر رسول الله - ﷺ - بعدم القتال .

ولكنه اضطر إلى ذلك عندما تصدى له فرسان قريش ، فاندفع يقاتلهم حتى قتل منهم سبعون

فجاء إلى النبى - ﷺ - رجل من قريش يقول : يارسول الله هلكت قريش ، لا قريش بعد اليوم .

قال : ولم ؟

قال : هذا خالد بن الوليد لا يلقى أحدا من الناس إلا قتله .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضى الله أمرا ، ثم قال : كفوا السلاح . . . . والذى يطمئن إليه القلب فى ذلك أن الأمر لخالد بعدم القتال كان ضمن الأمر الذى وجه لغيره من القواد . ولم يلجأ خالد للقتال إلا حين وجد المقاومة الشرسة أمامه من هؤلاء الخصوم الألداء . الذين تصدوا له وقتلوا اثنين من أصحابه فاضطر بذلك للقتال . وعلى ذلك فان القتال لم يكن الا فى جهة واحدة من جهات أربع وجه اليها القادة والجيوش .

فأغلب مكة بناء على ذلك فتح صلحا . .

ولكن بعض العلماء يرى أنها فتحت حربا ويستندون فى ذلك الى ماحدث من قتال خالد ، وإلى مأمر به النبى - صلى الله عليه وسلم - حين رأى تجمع أوباش مكة فقال للأنصار : قاتلوهم .

قال ابن حجر فى فتح البارى : تمسك بهذه القصة من قال : إن مكة فتحت عنوة بالقهر والغلبة ، وهو قول بعض العلماء ،

ولكن الشافعى - رضى الله عنه - يؤكد أن مكة فتحت صلحا ، ويؤيده الامام أحمد فى رواية . وسند ذلك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أمّن قريشا وقال لهم : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

وربما أجاب بعضهم عن ذلك بأن التأمين يكون سندا للصلح إذا كفت قريش عن الحرب ، ولكنها حاربت وقتلت رجلين من المسلمين ، وتصدى خالد لهم وقتل منهم عددا . .

إلا أن حجة الذين قالوا إنها فتحت صلحا مازالت مع ذلك قوية لأسباب أخرى منها . . . .

أن الدور والأموال فى مكة بقيت لأهلها ، وأنها لم تقسم ولو فتحت عنوة لقسمت بين الفاتحين .

ومع ذلك فقد أجاب الذين قالوا إنها فتحت عنوة عن ذلك أيضا ، فقالوا : إن ترك القسمة بين الفاتحين لاتستلزم عدم العنوة ، فقد تفتح البلد عنوة ، ويمن على أهلها بتركها لهم ، وعدم إخراجهم من دورهم ، وقد فتحت بلاد كثيرة عنوة بعد ذلك فلم تقسم وذلك فى زمن عمر وعثمان - رضى الله عنهما - مع وجود أكثر الصحابة .

هذا مع أن مكة تزيد على غيرها من البلاد شرفا لأن الله أكرمها بأن جعلها حرما لبيته ودار نسك وعبادة للناس أجمعين .

وأيا ماكان الأمر فقد فتحت مكة ، واستسلم أهلها أخيرا وعزوا بالاسلام . وبادت منها كلمة الكفر وعبادة الأصنام . .

النبى يبيح دم نفر من قريش :

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد أباح دم نفر من قريش ، لأسباب تتعلق بالأمن وصالح الدعوة . من هؤلاء النفر : عبد الله بن سعد بن أبى سرح . . وسبب إهدار دمه أنه كان قد أسلم قبل الفتح وهاجر ، وكان

كاتبا ، فاستعمله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كتابة الوحى . .

ولكنه غلبت عليه شقاوته فارتد مشركا ، وقال : إنى كنت أُصرِّف محمدا حيث أريد . . ولعل الذى أدخل الغرور على قلبه أنه حين نزلت آيات سورة المؤمنين وفيها . . . . ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر . .

وأخذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ عليه ذلك فتعجب عبد الله من تفصيل خلق الانسان فقال بعد قراءة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أنشأناه خلقا آخر . . فتبارك الله أحسن الخالقين . . قيل إنه نطق بذلك قبل أن يكمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قراءة الآية ـ فقال له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اكتب ذلك هكذا أنزلت .

عند ذلك قال عبد الله : إن كان محمد نبيا يوحى اليه فأنا نبى يوحى الىّ وارتد ولحق بمكة مشركا . . وأخذ يقول لقريش . . إنى كنت أصرف محمدا كيف شئت . .

لم يكفه الارتداد بل زاد عليه الافتراء والكذب ، ولكن ليس بعد الكفر ذنب . .

ولقد قرئت هذه الآية أيضا على عمر بن الخطاب ولم يكن سمعها قبل ذلك فقال بعد أن سمع « ثم أنشأناه خلقا آخر » فتبارك الله أحسن الخالقين .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هكذا نزل ياعمر . ففرح عمر بذلك ، ولكنه لم يغتر ولم يدع النبوة كما ادعاها ابن أبى سرح . . لقد زاد

إيمان عمر وقوى يقينه ، وأدرك أن الله قد صفى مرآة قلبه ونقى سريرته فماينطبع فيها من خاطر يوافق الحق .

وذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده . وفى كثير من المواقف كان الوحى يوافق رأى عمر ، ونرجو أن نعرض لذلك فى حينه إن شاء الله تعالى .

ولجأ عبد الله بن أبى سرح بعد الفتح الى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وكان أخاه من الرضاعة ـ وقال له : ياأخى ، استأمن لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ـ فأخفاه عثمان ريثما هدأ الناس واطمأنوا ، فجاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ به ليستأمنه له .

قال عثمان : يارسول الله . هذا عبد الله ـ وقد أمنته ـ بايعه على الإسلام فأعرض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عثمان ولم يجبه .

فألح عليه عثمان ـ رضى الله عنه ـ ثلاث مرات . كل ذلك وهو يعرض عنه فمازال عثمان ـ رضى الله عنه ـ يلح على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بسط النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده فبايعه . .

فلما خرج عثمان قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن حوله : لقد أعرضت عنه مرارا . . ولو أن أحدكم قام فضرب عنقه ما كان عليه شيء . .

وكان أحد الصحابة وهو عباد بن بشر قد نذر : إن رأى عبد الله بن أبى

السرح أن يقتله فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم -انتظرتك أن تفى بنذرك . .

فقال : يارسول الله خفتك . أفلا أومأت إلىّ ؟

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : لاينبغى لنبى أن يكون له خائنه الأعين . . وقد أراد الله خيرا بعبد الله بن أبى سرح ، فقد حسن إسلامه بعد ذلك : وظل ذنبه أمامه بالمرصاد يذكره ولاينساه ، وأصبح يستحى من مقابلة النبى - صلى الله عليه وسلم - ويتوارى منه .

فكلم عثمان النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : أما بايعته وأمنته ؟

قال عثمان : بلى ، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحى منك .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : الإسلام يُجُبُّ ماقبله .

أخبر عثمان عبد الله بذلك ، ولكنه مع ذلك كان لايذهب الى النبى - صلى الله عليه وسلم - منفردا ، بل كان يتحين ذهاب جماعة فيذهب معهم . وقد ولاه عثمان بعد ذلك إمارة مصر سنة خمس وعشرين . . ففتح الله على يديه أفريقية

وأقام آخر حياته فى عسقلان وكان يدعو قائلا : اللهم اجعل خاتمة عملى الصلاة . . فصلى الصبح فقرأ فى الركعة الأولى بأم الكتاب والعاديات وقرأ فى الثانية بأم الكتاب وسورة قصيرة وسلم عن يمينه ، ثم أخذ يسلم عن يساره فتوفى سنة ست وثلاثين(٣٢)

---

(٣٢) أسد الغابة حـ٣ صـ٢٥٩ ، البداية والنهاية حـ٤ صـ٢٩٧

ومن الذين أهدر النبى صلى الله عليه وسلم ـ دمهم أيضا عبد الله بن خطل ، وهو رجل من بنى تيم بن غالب .

وكان سبب الأمر بقتله ـ مايأتى :

كان اسمه فى الجاهلية عبد العزى ، فحين أسلم سماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الله . . .

وأرسله النبى ﷺ يجمع الصدقة من قوم وبعث معه رجلا من الأنصار ، وكان معه مولًى له يخدمه ، فنزل منزلا ، وأمر المولى أن يذبح له تيسا ويصنع له طعاما ، فنام واستيقظ فوجد المولى لم يصنع له شيئا .

فعدا عليه فقتله ، ثم ارتد مشركا .

وكانت له قينتان ـ جاريتان مغنيتان ـ يصنع لهما الشعر ويلقنهما إياه تتغنيان به ، فيه هجاء لرسول الله ﷺ .

فأهدر النبى ﷺ دمه فقتله بعض الصحابة ، واشترك فى قتله أبو برزة الأسلمى وسعيد بن حريث المخزومى(٣٣) .

وقال بعض الرواة : إن ابن خطل حين رأى المسلمين فى طريقهم إلى فتح مكة ، ركب فرسه ، ولبس الحديد ، وأخذ بيده قناة ، وصار يقسم : لا يدخلها محمد عنوة .

فلما رأى خيل الله دخله الرعب ، فنزل عن فرسه وألقى سلاحه ، فأخذ رجل سلاحه ، وركب فرسه ، ولحق برسول الله ﷺ بالحجون فأخبره خبره فأمر الرسول بقتله(٣٤) .

---

(٣٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ٢٥ ـ البداية والنهاية جـ ٤ صـ ٢٩٨

(٣٤) انظر السيرة الحلبية جـ ٣ صـ ٣٨

● ومن هؤلاء أيضا : الحويرث بن نقيذ وقد أهدر دمه لأنه كان شديد الإيذاء للنبى ﷺ وهو فى مكة ، وكان يعظم القول فى أذِيَّته ، وينشد الشعر يهجوه فيه . وحين حمل العباس ابنتى الرسول ﷺ : فاطمة وأم كلثوم لتلحقا بأبيهما فى المدينة بعد هجرته . جاء الحويرث فنخس البعير الحامل لهما ، فرمى بهما على الأرض .

وقد قتله على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وكان قد خرج يريد الهرب[٣٥] .

● ومن هؤلاء مقيس بن صبَّابة ، وسبب إهدار دمه ما يأتى :

كان أخوه هشام بن صبَّابَةَ بن حَزْن بن سيَّار الليثى قد أسلم وهاجر . وفى غزوة ذى قرد قتله رجل من الأنصار خطأ وهو يظنه من العدو .

وجاء أخوه مقيس بعد ذلك مهاجرا مظهرا الإسلام ومطالبا بدية أخيه ، فأرسل النبى ﷺ معه زهير بن فياض الفهرى الى بنى النجار فقال لهم : هذا أخو هشام بن صبابة فادفعوا إليه دية أخيه .

فجمعوا لمقيس دية أخيه ، فلما صارت الدية إليه وثب على زهير فقتله ، وارتد مشركا إلى مكة وقال فى ذلك أبياتا منها :

فأدركت ثأرى واضطجعت موسدا وكنت الى الأوثان أول راجع

ويقال : إنه بعد أن أخذ الدية عدا على الأنصارى قاتل أخيه فقتله[٣٦] .

---

(٣٥) البداية والنهاية حـ ٤ صـ ٢٩٨

(٣٦) أسد الغابة حـ ٥ ص ٤٠٠

وقد ظفر به عمه نميلة بن عبد الله الليثى ، وجده فى رهط يشربون الخمر فقتله . فقالت أخت مقيس ترثيه .

لعمرى لقد أخزى نميلةُ رهطه وفجّع أضياف الشياء بمقيس
فلله عينا من رأى مثل مقيس إذا النفساء أصبحت لم تُخَرَّس(٣٧)

ولكنا نقول لها : تعساً للنفساء التى تتغذى على نفقة مثل هذا العادى الآثم ، الذى يستحل المال الحرام ، ويقتل النفس بغير حق ، ويؤثر دين الباطل على دين الحق .

● ومن هؤلاء أيضا هبار بن الأسود

وهو هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى ، وكان قد تعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ وحين أرسلها زوجها أبو العاص بن الربيع الى المدينة لتلحق بأبيها مهاجرة ، فروعها برمحه وضرب هودجها ونخس بعيرها فأسقطها من فوق رحلها ، وكانت حاملا فأجهضت ، ولازمها المرض بعد ذلك حتى توفيت ـ رضى الله عنها .

فقال النبى ﷺ ـ لأصحابه : ان لقيتم هبارا فاقتلوه فلم يلقه أحد من المسلمين يوم الفتح .

كان هبّار قد توارى حتى عاد النبى ـ ﷺ ـ الى المدينة ، فجاء هبار رافعا صوته يقول : يا محمد أنا جئت مقرا بالاسلام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ولقد هربت منك يا رسول الله فى البلاد فأردت

---

(٣٧) سيرة ابن هشام حـ ٤ صـ ٢٤ وتخرس : يصنع لها طعام عند ولادتها . وطعام النفاس اسمه : الخرس

اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرت فضلك فى صفحك عمن جهل عليك ، وكنا يا نبى الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من الهلاك ، فاصفح عن جهلى وعما كان منى فإنى مقر بسوء فعلى ، معترف بذنبى .

فقال النبى ﷺ : يا هبار عفوت عنك وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الاسلام ، والاسلام يجب ما قبله .

قال بعضهم : إن هبارا حين جاء المدينة كان بعضهم يسبه ، فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فنهى عن ذلك فانتهوا عنه[٣٨] .

وقيل : إنه أقبل على النبى - ﷺ - وهو منصرف من الجعرانة بعد حصار الطائف وقبل عودته إلى المدينة .

وقد رآه بعض الصحابة قبل أن يكلم رسول - ﷺ - فأراد أن يقوم إليه ويقتله ، فأشار النبى - ﷺ - إليه أن يجلس فجلس الرجل ، وجاء هبَّار فسلم على النبى - ﷺ - وأسلم[٣٩] .

بعد أن اعتذر بالاعتذار السابق .

● ومنهم عكرمة بن أبى جهل بن هشام ، وقد أهدر النبى دمه لعداوته الشديدة للإسلام ، فقد تولى زمام الكفر بعد أبيه ، واشتد إيذاؤه للنبى - صلى الله عليه وصحبه .

وقد حاول عكرمة الوقوف ضد الفتح الاسلامى ولكنه لم يفلح ، وفر هاربا مع من فر بعد أن قُتِل منهم من قُتل .

---

(٣٨) أسد الغابة حـ ٥ صـ ٣٨٤

(٣٩) المرجع السابق

وحين بلغه أن النبى ـ ﷺ ـ أهدر دمه فر الى اليمن وقيل : ركب البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أصحاب السفينة لمن فى السفينة من الركاب : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئاً هنا .

فقال عكرمة : إن لم ينجنى فى البحر إلا الاخلاص فلن ينجينى فى البرّ غيره ، اللهم لك علىَّ عهد إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتِىَ محمدا حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفوا كريما .
فنجاه الله فجاء وأسلم .

أما من حكى أنه ذهب الى اليمن فهو يقول : إن زوجته أم حكيم بنت عمه الحارث بن هشام ، سارت إليه وهو باليمن بأمان من رسول الله ـ ﷺ ـ أخذته له منه ، وكانت قد أسلمت قبله يوم الفتح ، فعاد معها الى رسول الله ـ ﷺ ـ .
وأسلم عكرمة وحسن إسلامه . وأبلى فى الاسلام بلاء حسنا بعد ذلك .

ولما أسلم كان بعض المسلمين يقولون : عكرمة ابن عدو الله أبى جهل .
فشكا ذلك الى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال النبى لأصحابه : لا تسبوا الميت فإن سب الميت يؤذى الحى .

قال بعض العلماء ، وفى هذه القصة نزل قوله وتعالى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ

﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾(٤٠)

قالوا : نزلت فى عكرمة بن أبى جهل حين قدم المدينة مسلما ، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا : ابن فرعون هذه الأمة ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فنزلت وقيل غير ذلك(٤١) .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه ـ قولوا : عكرمة بن عمرو . . ولا تقولوا عكرمة بن أبى جهل لأن أبا جهل اسمه عمرو ، وكنيته جاءته من جهله على النبى ـ ﷺ ـ وعداوته له وللاسلام .

وحين رجع عكرمة من اليمن مقبلا على النبى ـ ﷺ ـ رحب به وقال له : مرحبا بالراكب المهاجر .

وقال عكرمة بعد أن أسلم : يا رسول الله ، لا أَدَعُ ما لا أنفقت عليك ـ يعنى فى حربك . إلا أنفقت فى سبيل الله مثله .

وقال له ـ ﷺ ـ : يا عكرمة ما تسألنى شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتكه .

قال : استغفر لى كل عدواة عاديتك إياها .

فقال ـ ﷺ ـ : اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة وكل منطق تكلم به .

● ومن هؤلاء الذين أهدر دمهم أيضا . وحشى بن حرب الحبشى الذى يكنى : أبا دسمة ـ وكان من سودان مكة ، وهو مولى لطعيمة بن عدى ،

---

(٤٠) الحجرات ١١

(٤١) التفسير الوسيط ـ المجلد الثالث ـ الحزب الثامن والخمسون صـ ١٠٤٢ مجمع البحوث الاسلامية

وقيل : لجبير بن مطعم بن عدى . أما سبب إهدار دمه فلقتله أسد الله حمزة بن عبد المطلب فى أحد .

قال وحشى : أقمت بمكة حتى افتتحها رسول الله - ﷺ - فهربت الى الطائف ، فكنت بها ، فلما خرج وفد أهل الطائف الى رسول الله - ﷺ - ليسلموا ضاقت علىَّ الأرض ، وقلت : الحق بالشام أو باليمن او ببعض البلاد .

فإنى لفى ذلك إذ قال لى رجل : ويحك إنه - أى رسول الله - ما يقتل أحدا من الناس دخل دينه .

فلما قال لى ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله - ﷺ - المدينة ، فلم يرنى إلا وأنا قائم على رأسه أشهد شهادة الحق . فلما رآنى قال : وحشى ؟

قلت : نعم

قال : اقعد ، فحدثنى كيف قتلت حمزة . فحدثته .

فلما فرغت من حديثى قال : ويحك غيب عنى وجهك فلا أراك .

قال : فكنت أتنكب - أعدل عن طريق رسول الله - ﷺ - حيث كان حتى لا يرانى .

وكأنما أراد وحشى أن يكفر عن هذه الجريمة التى ارتكبها فى حق سيد الشهداء فألقى بنفسه فى صفوف المجاهدين ، فكان فى جيش خالد الذى بعثه أبو بكر إلى اليمامة ، وقد شارك فى قتل مسيلمة الكذاب . ولذلك كان يقول : قتلت رجلا من خير الناس ورجلا من شر الناس ، يعنى حمزة ومسيلمة .

ولئن كان النبى - ﷺ - عفا عن وحشى لأنه أسلم إلا أن إعراضه عن رؤيته كان له أثره السيء فى حياة وحشى . حتى كانت نهايته كما يقول بعض الرواة فى إفراطه فى شرب الخمر(٤٢) .

أم هانىء تجير بعض الناس .

وأقبلت أم هانىء ابنة عم النبى - ﷺ - وهى أخت على ابن أبى طالب كرم الله وجهه - ولم تكن قد أسلمت بعد ، وكانت تحت هبيرة بن أبى وهب - أقبلت الى النبى - ﷺ - وكان نازلا بأعلى مكة .

فسلمت عليه ، فقال : من هذه ؟

فقالت : أم هانىء بنت أبى طالب .

فقال - ﷺ - مرحبا بأم هانىء .

ثم قال لها : ما جاء بك ؟

قالت : جاء إلىَّ رجلان من أقارب زوجى يستجيران بى فأجرتهما فأراد أخى على أن يقتلهما .

فقال النبى - ﷺ - قد أجرنا من أجرت ، وأمنا من أمنت .

كان هذان الرجلان هما : الحارث بن هشام بن المغيرة وزهير بن أبى أمية بن المغيرة .

وقد أسلم الرجلان وحسن إسلامهما .

أما الحارث بن هشام فهو ابن عم خالد بن الوليد - رضى الله عنه .

وقد أعطاه النبى - ﷺ - من غنائم حنين مائة من الابل ، وكان يعتبر من المؤلفة قلوبهم .

---

(٤٢) أسد الغابة حـ ٥ صـ ٤٤٠

واستشهد الحارث بن هشام فى اليرموك ، وفى قصة استشهاده مثل يذكره الرواة يوحى بالإيثار والمروءة والوفاء .

قالوا : روى حبيب بن أبى ثابت أن الحارث بن هشام ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعياش بن أبى ربيعة خرجوا يوم اليرموك وأثناء القتال جُرحوا جراحة عميقة قاتلة ـ فدعا الحارث بن هشام بماء ليشربه فقال لمن أتى بالماء : ادفعه إلى عكرمة . . فلما ذهب به إلى عكرمة . قال عكرمة . ادفعه إلى عياش ، فلما جاء به عياش قال : اذهب به إلى الحارث . فذهب به إلى الحارث فاذا به قد مات ، ثم ذهب به الى عكرمة فوجده قد مات ، فذهب به الى عياش فاذا به قد مات . ماتوا جميعا قبل أن يشربوا ، وكل منهم كان حريصا على أن يؤثر صاحبه على نفسه .

وكان الحارث مشهورا بالنجدة والكرم ، وكان مقيما فى مكة فلما أراد أن

أن يخرج من مكة مجاهداً جزع أهل مكة جزعاً شديداً ، ولم يبق أحد إلا خرج يشيعه . فلما كان بأعلى البطحاء وقف ووقف الناس حوله يبكون .

فلما رأى جزعهم رقَّ فبكى وقال : يأيها الناس ، إنى والله ما خرجت رغبة بنفسى عن أنفسكم ، ولا اختيار بلد عن بلدكم ، ولكن كان هذا الأمر ـ الاسلام ـ فَخَرَجَت رجال ، والله ما كانوا من ذوى أسنانها ولا فى بيوتاتها ـ فأصبحنا ، والله ولو أن جبال مكة ذهباً فأنفقناها فى سبيل الله ما أدركنا يوماً من أيامهم ، والله لئن فاتونا به فى الدنيالنلتمسن أن نشاركهم به فى الآخرة . ولكنها النقلة إلى الله ـ تعالى[٤٣] .

---

(٤٣) أسد الغابة جـ١ ص ٤٢٠

وزهير بن أبي أمية بن المغيرة وهو ابن عم خالد بن الوليد أيضاً . وقد أسلم أيضاً ، واعتبره الرواة من المؤلفة قلوبهم ، وكانت له يد فى نقض الصحيفة الظالمة قبل الهجرة[٤٤] .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أهدر دم بعض النساء اللاتى كانت لهن آثار سيئة على الدعوة الاسلامية ـ فمنهن المرأة التى حملت رسالة حاطب ـ ولكنها أسلمت فعصمت نفسها من القتل .

ومنهن مغنيتان لابن خطل ، وقد استؤمن لإحداهما وأسلمت وأما الأخرى فقد قتلت .

ومنهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ، وكانت زعيمة من زعماء الكفر ، وهى التى حرضت وحشياً على قتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ وأعطته فى نظير ذلك حليها ، واستبدلت بها ما قطعته من أحشاء حمزة وأعضائه فتزينت بها ، ونقبت عن كبده فأخرجته ولاكته فلم تستطع أن تسيغه فلفظته . .

وكانت تحرض المشركين بشعرها على القتال يوم أحد .

وأسلم أبو سفيان قبلها . فقالت له بعد ان أستقر الأمر للإسلام فى مكة إنى أريد أن أبايع محمداً .

فقال لها : قد رأيتك تكذبين هذا الحديث أمس .

قالت : والله ما رأيت الله عُبِد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة ، والله إنْ باتوا إلا مصلين .

قال لها : فإنك قد فعلت ما فعلت ، فاذهبى برجل من قومك معك .

---

(٤٤) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٦١

فذهبت إلى عثمان بن عفان ، وقيل : إلى أخيها أبى حذيفة بن عتبة ، فذهب معها إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستأذن لها فدخلت وهى منتقبة .

فقال لها : تبايعين على ألا تشركى بالله شيئاً ، ولا تسرقى ولا تزنى .

فقالت : وهل تزنى الحرة ؟

فلما قال : ولا تقتلى أولادك . قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً .

فعرف الرسول أنها هند . . فقالت له : اعف عما سلف يا نبى الله .

فعفا عنها وشاركت فى الجهاد مع زوجها أبى سفيان وشهدت معه اليرموك(٤٥) .

ويروى أنها حين جاءت وهى منتقبة بالأبطح وقالت : إنى امرأة مؤمنة أشهد ألا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، ثم كشفت عن نقابها فقالت : أنا هند بنت عتبة ـ اعف عنى يا رسول الله .

فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عفوت عنك .

ويقال : إنها أرسلت إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهدية وهى جديان مشويان مع مولاة لها ، فاستأذنت ، فأذن لها ، فدخلت والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس مع نسائه ـ أم سلمة وميمونة ونساء من بنى عبد المطلب ، وقالت : إن مولاتى تعتذر إليك وتقول : إن غنمها اليوم لقليل الوالدة .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم بارك لكم فى غنمكم وأكثر والدتها .

---

(٤٥) أسد الغابة جـ٧ ص ٢٩٢

فكثر الله ذلك .

تقول هذه المولاة : لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكن نرى من قبل .

وجاءت هند للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالت له : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك ، فهل على من حرج أن أطعم من الذى له عيالنا ؟

فقال لها : لا عليك أن تطعميهم بالمعروف .

وفى رواية : خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف(٤٦) . .

يا لقدرة الله التى أذهبت كل ذلك العداء الذى كان كالبحر الهادر فى لحظة واحدة . وأحلت محله الرضا والإقبال على الله ورسوله .

وجل الذى يقول :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾(٤٧)

وقال سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾(٤٨)

---

(٤٦) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٤٦

(٤٧) الأنفال ٦٣

(٤٨) الأنعام ١٢٥

اذهبوا فأنتم الطلقاء :

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ، حتى نزل بأعلاها وضربت له هنالك قبته التى أقام بها . .

كان ذلك فى صبيحة العشرين من رمضان المعظم من العام الثامن الهجرى . وهو يوافق بالتاريخ الميلادى اليوم الحادى عشر من كانون الثانى (يناير) من عام ٦٢٠ .

وحين تم فتح مكة خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى جاء البيت الحرام فطاف به سبعاً .

ووقف عند باب الكعبة قائلاً : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثره أوْدَمٍ أومال يُدْعى فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة : مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها . يا معشر قريش . إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وتعظمها بالآباء ـ الناس من آدم وآدم من تراب . ثم تلا قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٤٩)

---

(٤٩) الحجرات ١٣

لقد اجتمع الجم الغفير من قريش يستمعون إليه ، وما منهم إلا مصيخ لما يقول ، سترقب لما يفعل .

كل رجل منهم يشعر بالذنب ويتوجس مما قدمت يداه . لقد طالما أمعنوا فى الكفر ، وناصبوا ذلك الرجل الماثل أمامهم العداء ، وما منهم إلا وقد تقول عليه الأقاويل ، وعذب من آمن معه بالعذاب الشديد . وها هم أولاء الآن بين يديه يقفون صاغرين لا يدرون ما مصيرهم الذى يئولون إليه . . إن ذلك المصير متعلق بكلمة تصدر من بين شفتيه .

لقد طافت بأذهانهم صور الفاتحين عبر التاريخ . وسمعوا عن هؤلاء الذين يملكون البلاد ثم يصدرون أوامرهم لجنودهم ، فتطيح الرءوس وتتناثر الأشلاء وتسيل الدماء أنهاراً . . وربما لا يكون هؤلاء المغلوبون قد أساءوا إلى ذلك الغالب أو حاربوه .

أما هم فلهم صفحات سوداء أمام ذلك الرجل الذى يقف الآن أمامهم يخاطبهم بهذا الهدوء القوى والمنطق الجلى والبيان الرائع . . فماذا سيكون أمره فيهم ؟

ولم يطل بهم الموقف كثيراً ، فقد سمعوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخاطبهم قائلاً : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل فيكم ؟

وكانوا فى أشد الشوق لسماع هذا السؤال الذى التمسوا فيه السماحة والعفو والرحمة . . وأدركوا منه جلال البر وصدق الوفاء وجمال المروءة . . فأسرعوا قائلين ـ وكأنَّ ملقناً قد لقنهم ما يقولون : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . .

ماذا تنتظر أن تكون إجابة الرحمة المهداة على هذا الاستعطاف الرائع ؟

لقد قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . .

لقد عفا عنهم جميعاً فى كلمة واحدة . .

لقد نسى عداوتهم الجامحة ، وحروبهم وأحزابهم ومكائدهم وكل ما قدمت أيديهم فى كل هذه السنين الماضية . نسى ذلك كله فى لحظة . . ولم يذكر ساعتئذ إلا أنه رحمة الله المهداة ، ورسول الله لهذه الأمة ليأخذ بأيديها من الظلمات إلى النور . .

ولم لا وقد قال تعالى فى حقه :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين(٥٠) »

وقال :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨ ﴾(٥١)

ثم جلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطلب من عثمان بن طلحة أن يأتيه بمفتاح الكعبة .

وذهب عثمان إلى أمه سلافة بنت سعيد وأصلها من الأوس ليأخذ منها المفتاح وكان محفوظاً عندها فأبت عليه ذلك ـ وكانت لم تسلم بعد ـ

---

(٥٠) الأنبياء ١٠٧

(٥١) التوبة ١٢٨

فقال لها عثمان : والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبى .

ويقال : إنها امتنعت وزادت فى الإباء ووضعت المفتاح فى حجزتها حتى لا يجرؤ رجل أن يأخذه منها ..

وأدى ذلك إلى إبطاء عثمان ، والرسول ينتظر حتى إن العرق ليتحدر منه مثل الجمان ، ويقول : ما يحبسه ؟

وكانت حجة سلافة فى امتناعها أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن أخذ المفتاح لا يرده إلى أبناء طلحة مرة أخرى .. ولكنها كانت واهمة .. وما زال عثمان بها حتى أخذ المفتاح منها وذهب به إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففتح الباب .

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان ـ وأجاف عثمان الباب .

ورأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى داخل الكعبة صوراً وتماثيل ، فأقبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هذه الصور يمحوها ، وأرسل أسامة بن زيد ليأتى بماء يمحو به هذه الصور ، وكان الكفار قد وضعوا فى الكعبة صورة لإبراهيم عليه السلام وجعلوه فى هيئة مَن يستقسم بالأزلام .. فتعجب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هؤلاء الذين يصورون إبراهيم ـ عليه السلام ـ مشركاً .. فمحا تلك الصور وتلا قوله ـ تعالى ـ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٥٢)

---

(٥٢) آل عمران ٦٧

وصلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يحدث الرواة ـ ركعتين فى داخل الكعبة .

وخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الكعبة ، وقد تطلع على بن أبى طالب لمفتاح الكعبة ، وقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ـ صلى الله عليك ـ وقيل : إن الذى تطلع لذلك إنما هو العباس .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أين عثمان بن طلحة ؟

وجاء عثمان بن طلحة ، فأعطاه المفتاح وهو يتلو هذه الآية :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٥٣)

قال القرطبى فى مناسبة نزول هذه الآية :ـ

ذلك خطاب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن أبى طلحة العبدرى ـ من بنى عبد الدار ـ ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ـ فطلبه العباس بن عبد المطلب لتضاف له السدانة إلى السقاية ، فدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان ، وأخرج مقام إبراهيم ونزل عليه جبريل بهذه الآية .

قال عمر بن الخطاب ـ خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقرأ هذه الآية . وما كنت سمعتها قبل منه ، فدعا عثمان وشيبة فقال :

---

(٥٣) النساء ٥٨

خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم[٥٤] .

وما تزال الحجابة فى يد خلفهم حتى الآن .

وذكّر النبى - صلى الله عليه وسلم - عثمان بحادثة قديمة حين قال له : ألم يكن الذى قلت لك ؟ . .

وتذكر عثمان هذه الحادثة . . وهى : أن الكعبة فتحت ذات يوم قبل أن يهاجر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة وأخذ الناس يدخلونها . وجاء النبى - صلى الله عليه وسلم - ليدخلها ، فأبى عليه عثمان وأغلظ له القول ونال منه .

ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - حلم عليه ، وقال له : يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت .

فقال له عثمان يومذاك : قد هلكت قريش يومئذ وذلت .

فقال - صلى الله عليه وسلم - بل عمرت وعزت يومئذ .

تذكر عثمان هذه الحادثة حين ذكّره النبى - صلى الله عليه وسلم - بها . .

أجل هذا هو المفتاح بيد النبى - صلى الله عليه وسلم - يعطيه من يشاء . . وهذه هى قريش قد عزت بالإسلام ، وعمرت قلوبها بالإيمان . . لقد كانت ذليلة بالكفر قبل ذلك . أما الآن فقد زادها الاسلام عزاً وفخراً ، وأصبحت جديرة بأن تكون لها حجابة هذا البيت وسقايته وسدانته ومجاورته .

لقد قال عثمان حين سمع كلمة المصطفي يومذاك : قد وقعت كلمته -

---

(٥٤) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٥٥

صلى الله عليه وسلم ـ منى موقعاً ، وظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال .

فلما سمع كلمته يوم الفتح قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بلى أشهد أنك رسول الله .

وصدق الله العظيم إذ يقول فى حقه

« وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى »(٥٥)

بلال يؤذن :

وحانت صلاة الظهر فأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلالا أن يصعد فوق الكعبة ويؤذن .

فارتفع بلال ، ورفع صوته بالأذان فدوى فى أرجاء مكة لأول مرة بصورة رسمية منذ بدء الاسلام .

وفى فناء الكعبة كان يجلس القرشيون ومن بينهم عتاب بن أسيد وأبو سفيان بن حرب . وغيرهم

فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدا أن لايكون قد سمع هذا العبد فيسمع منه مايغيظه .

فقال آخر : أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته . وفى رواية أن عتاب قال : أما وجد محمد غير هذا الأسود مؤذنا ؟

فقال أبو سفيان : لاأقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء .

فخرج عليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : لقد علمت الذى

---

(٥٥) النجم ٣ ، ٤

قلتم . ثم ذكر مقالة كل واحد منهم قائلا : أما أنت يافلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يافلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يافلان فقد قلت كذا .

فقال أبو سفيان : أما أنا يارسول الله فما قلت شيئا .

فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وهنا قالوا جميعا : نشهد أنك رسول الله ، والله مااطلع على هذا أحد معنا فتقول إنه أخبرك .

إنها المعجزة النبوية التى كان يؤيد بها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتقع موقعها فى نفوس أهل الشرك فيخرون لله ساجدين .

لقد خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أبى سفيان يوما وهو فى المسجد ، فلما نظر إليه أبو سفيان ، قال فى نفسه : ليت شعرى بأى شىء غلبنى هذا الرجل ؟

فأقبل عليه رسول الاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وضرب بين كتفيه بيده وقال : بالله غلبتك ياأبا سفيان .

فقال أبو سفيان وهو يزداد خشوعا وخضوعا : أشهد أنك رسول الله .

حديث فضالة الليثى

ومثل آخر من أمثلة ماكان يحيك فى نفوس هؤلاء يرويه لنا ابن هشام فى سيرته . يقول :

كان فضالة بن عمير بن الملوح الليثى قد هم فى نفسه أن يقتل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يطوف بالبيت عام الفتح .

فلما اقترب منه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناداه قائلا : أأنت فضالة ؟

قال : نعم أنا فضالة يارسول الله .

قال له : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال فضالة : لاشيء ، كنت أذكر الله ـ عز وجل ـ

على من تُموِّه يافضالة ؟ أتظن أن الله لايطلع رسوله على مافى ضميرك ويخبره عما يكنه فؤادك ؟

أتعتقد يافضالة أن الله تاركك تنفذ مافى زعمك دون أن يلقنك درسا بليغا يحول بينك وبين ماتريد ؟

أغاب عن ذهنك قول الله تعالى فى حق نبيه ـ ﷺ ـ « والله يعصمك من الناس » ؟

وكيف يكون ذكر الله يافضالة ؟ أيكون بالعدوان على رسوله . وحديث النفس بقتله ؟ .

وضحك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من إجابة فضالة . ثم قال له : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . أجل ، استغفر الله يافضالة ، من الكذب أولا .. ومن الخيانة ثانيا ، ومن الهم بالسوء ثالثا :

قال فضالة : فوالله مارفع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده عن صدرى حتى كان أحب خلق الله إلىّ .. مامن خلق الله شيء أحب إلىّ منه ..

وغسل الله ماحاك فى صدر فضالة من سوء ، وتبدل باطنه تبدلا كاملا ، وظهر أثر اليد الشريفة التى مرت على صدره فتغيرت أحواله الدنيوية وأصبحت أحوالا سنية ، وكان امرءا داعرا فاجرا فأصبح صالحا طاهرا .

قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت : هلم إلى الحديث .. فقلت لا ..

وأنشد فضالة يقول

قالت : هلم الى الحديث ، فقلت : لا   يأبى عليك الله والاسـلام
لو مارأيت محمدا وقبيله   بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّناً   والشرك يغشى وجهه الاظلام[٥٦]

وعلى الرغم من عفو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفحه عن هؤلاء المشركين ، فمازالت فى نفوس بعضهم بقية بل بقايا من كبر وشرك ، والكفر لايذهب بين عشية وضحاها من نفوس مثل هؤلاء . .

إن هؤلاء هم الذين نزل فيهم وفى أمثالهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ ﴾[٥٧]

ومن صور ذلك ماحدث من بعضهم حين سمعوا أذان بلال ـ فأخذوا يحاكونه غيظا أو استهزاء . .

ومن الذين حاكوا بلالا استهزاء ـ أبو محذورة ، وكان ذا صوت حسن ـ وسمعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستدعاه . فجاء وهو يعتقد أنه مقتول لامحالة . فلما مثل بين يدى الرسول ـ مسح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صدره فامتلأ إيمانا ويقينا .

---

(٥٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣١

(٥٧) غافر ٥٦

ولقنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه الأذان ـ فتعلمه وأتقنه وأمره أن يؤذن لأهل مكة . وورث الأذان فى الكعبة عقبه من بعده .

النبي يطهر البيت من الأوثان :

ذكر الرواة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين دخل مكة جعل يقرأ سورة الفتح حتى جاء البيت وطاف به سبعا وهو على راحلته ، ومحمد بن مسلمة ـ رضى الله عنه ـ آخذ بزمامها ـ واستلم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الركن . . . . ولم يكن للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاغل الا تطهير البيت مما فيه من الأوثان والأصنام

عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة يوم الفتح وعلى فناء الكعبة ثلاثمائة وستون صنما لكل حى من أحياء العرب صنم قد شدت أقدامها بالرصاص فجاء ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم فيسقط الصنم

وفى رواية : فما أشار لصنم من ناحية وجهه الا وقع لقفاه . ولاأشار لصنم من ناحية قفاه إلا وقع على وجهه من غير أن يمسه بما فى يده وهو يقول « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » حتى مر عليها كلها »(٥٨)

وفى وقوع الأصنام منكسة بهذه الصورة المخزية قال شاعر خزاعة تميم بن أسد الخزاعى :

وفى الأصـــنام معتـــبر وعلـم لمن يرجـو الثـواب أو العقـابا(٥٩)

---

(٥٨) السيرة الحلبية جـ٣ ص ٢٨

(٥٩) سيرة ابن هشام جـ٤ ص ٣٠

وحين كسر هبل ـ وكان موضوعا ـ بجانب الكعبة ، وهو أكبر أصنام قريش وأعزها عندهم . أقبل الزبير على أبى سفيان يقول له : قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت فى يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعم وعلا . .

والزبير يشير بذلك إلى مارده أبو سفيان يوم أحد بقوله : اعل هبل . فقال ابو سفيان : دع هذا عنك يابن العوام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ غيره لكان غير ماكان . . .

وكان مقام إبراهيم يومئذ لاصقا بالبيت ، فنحاه

وكان فوق الكعبة صنم لخزاعة . فقال على ـ رضى الله عنه ـ انطلق بى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلا ، حتى أتى الكعبة ، فقال : اجلس ، فجلست الى جنب الكعبة . فصعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على منكبى ، ثم قال : انهض فنهضت ، فلما رأى ضعفى عن حمله قال : اجلس . فجلست .

فقال لى : اصعد على منكبى واهدم الصنم .

فقال على : يارسول الله ، بل اصعد أنت .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنك لاتستطيع حمل ثقل النبوة ، فاصعد أنت .

قال : فصعدت على منكبه ، فلما نهض بى صعدت فوق ظهر الكعبة ، وتنحى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلمْ ـ وخُيِّل إلىّ حين نهض بى أنى لو شئت لنلت أفق السماء .

كان على ظهر الكعبة صنم من نحاس - لم يبق إلا هذا الصنم بعد أن تكسرت كل الأصنام حول الكعبة : وكان هذا الصنم لخزاعة وهو موتد بأوتاد من حديد . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : عالجه فعالجته ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »

قال على : فلم أزل أعالجه حتى تمكنت منه فقذفته فتكسر . . . . . . لقد طهر البيت تماما من الأصنام حوله وفوقه ، ولم يعد يذكر غير الله تعالى فى بيته العتيق الذى هو أول بيت جعل للناس مثابة وأمنا . .

وهاهى ذى الآلاف المؤلفة من كل مكان ، يقصدون الى هذا البيت فى كل أوان ومن كل مكان حاجين ومعتمرين حتى لايخلو البيت من طائف فى أى لحظة من لحظات الزمن فى ليل أو نهار . وشعارهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك لبيك .

ولم يعد يذكر مع الله - تعالى - أحد . . وعلت كلمة الله كما قضى ووعد وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وسقطت الأصنام الى الأبد . .

وأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - كل من فى بيته صنم أن يكسره . . . . . وحين أسلمت هند بنت عتبة عمدت الى صنم كان فى بيتها وجعلت تضربه بالقدوم حتى كسرته وقالت : قد كنا منك فى غرور .

وبث النبى - صلى الله عليه وسلم - السرايا الى مختلف الجهات المحيطة بمكة لكسر مابها من أصنام

وستتحدث إن شاء الله عن هذه السرايا التى أرسلها النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد قليل . .

النبى يحطم التقاليد البالية :

الاسلام عقيدة وتعاليم ومثل ، جاء ليقيم للناس العدل ويشيع الأمن ويقضى على الظلم ويذهب الخوف

وقد كان من العادات المنتشرة بين الناس - تلك الثارات الحمقاء التى أشعلت الحروب أزمانا وأحقابا . . وقد حدث فى أثناء الفتح حادثة أشار اليها الرواة مؤداها كما يلى :

حدث سعيد بن أبى سندر الأسلمى عن رجل من قومه قال :

كان معنا رجل يقال له : أَحْمَرَ بأْسا[٦٠] ، وكان رجلا شجاعا ، وإذا نام غط غطيطا منكرا[٦١] لايخفى مكانه ، وكان إذا بات فى حيِّه بات مُعْتَنزاً[٦٢] . فإذا بُيِّت[٦٣] الحى صرخوا قائلين : ياأحمر ، يا أحمر ، فيثور كما يثور الأسد لايقوم فى طريقه شىء .

فأقبل ذات ليلة غُزَاة من هُذَيْل يريدون أخذ مائهم ، حتى إذا دنوا من الماء قال ابن الأثوع الهذلى : لاتعجلوا حتى أنظر ، فإذا كان - أحمر - عند الماء فلا سبيل إليهم . .

---

(٦٠) أحمر بأساً - جملة مركبة كحضرموت

(٦١) الغطيط صوت النائم : الشخير

(٦٢) بات منفرداً بعيدا عن الحى

(٦٣) بُيِّت الحى : جاءهم الغزاة ليلاً

فاستمع ابن الأثوع إلى غطيط أحمر فمشى إليه حتى وضع السيف فى صدره . ثم تحامل عليه فقتله .

ثم أغار قوم ابن الأثوع على القوم . . فأخذ القوم يصرخون : ياأحمر ، ياأحمر ولايجيب لهم . فقد قتل أحمر .

فلما كان عام الفتح ، وكان الغد من يوم الفتح ـ جاء ابن الأثوع حتى دخل مكة ينظر ، ويسأل عن أمر الناس . وهو على شركه ـ

فرأته خزاعة ، فعرفوه ، فأحاطوا به وهو إلى جنب جدار من جدر مكة

فقالوا له : أأنت قاتل أحمر ؟

قال : نعم ، أنا قاتل أحمر . فَمَهْ[٦٤] ؟

فجاء خراش بن أمية مشتملا على السيف ، فقال : تنحوا عن الرجل . .[٦٥]

قال الراوى : مانظن إلا أنه يريد أن يفرج الناس عنه .

فلما انفرجنا عنه حمل عليه فطعنه بالسيف فى بطنه . فوالله لكأنى أنظر إليه وأحشاؤه تسيل من بطنه ، وإن عينيه لترنقان[٦٦] فى رأسه ، وهو يقول : أقد فعلتموها يامعشر خزاعة ؟ حتى سقط على الأرض .

عند ذلك خطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يامعشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل لئن قتلتم قتيلا لأدِيَنَّه[٦٧] .

---

(٦٤) مه : ماذا تريدون ؟ كأنه يتحداهم

(٦٥) يريد : ابتعدوا عن الرجل

(٦٦) ترنقان : تكادان تنغلقان

(٦٧) لأدينه : أؤدى دينه

لقد عاب النبى - صلى الله عليه وسلم - خراش بن أمية على فعلته ووصفه بأنه قتّال[٦٨] ، وهذا لايتفق مع تعاليم الإسلام .

وفى خطبته التى خطبها وأشرنا إليها آنفا دعا إلى نبذ مآثر الجاهلية وقبائحها فقال : كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين . . وكذلك كل عادة من العادات التى لاتتناسب وقيم الإسلام ومبادئه .

ولم يترك النبى - صلى الله عليه وسلم - حادثة القتل هذه تمر دون أن يرسى المبادىء التى يجب أن يسير عليها الناس منذ الآن . . فقد مضت نعرة الجاهلية إلى غير رجعة ، وذهبت حمية العصبية ، والنعرة الجاهلية . . والدعوة إلى الأخذ بالثأر وغيرها من العادات . . فقام النبى - صلى الله عليه وسلم - خطيبا فقال :

« ياأيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، فلايحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولايعضد فيها شجرا ، لم تحل لأحد كان قبلى ، ولاتحل لأحد يكون بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة غضبا على أهلها ، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاتل فيها فقولوا : ان الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم ، يامعشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل

---

(٦٨) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٧

لئن قتلتم قتيلا لأدينه ، فمن قتلْ بعد مقامىْ هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا فَدَمُ قاتله وإن شاءوا فديته »

ثم ودى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة .

كما وَدَى قتيلا آخر قتله بنو كعب وهو جندب بن الأكوع(٦٩)

المبايعة

وأقبل الناس يبايعون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإسلام .

جلس على الصفا وتقاطر الناس صغارهم وكبارهم ، ورجالهم ونساؤهم ،

ودخل الناس أفواجا فى دين الله . . وتحقق بذلك مضمون هذه السورة الكريمة

« إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

وكانت المبايعة للرجال على شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبايع الناس على ذلك وهو فى منتهى التواضع والخشوع لله عز وجل ، ولايكف عن ترديد قول : الحمد لله الذى أعز الاسلام ورفع شأنه وأذل الشرك وقوض ركنه . .

وكان فى تواضعه الجم يزداد رفعة ومهابة فى عيون الناس . . جاءه رجل يبايعه فأخذته الرعدة ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

---

(٦٩) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩

هون عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

مبايعة معاوية

وجاءه معاوية بن أبى سفيان يبايعه ، وكان معاوية قد وقع الاسلام فى قلبه قبل ذلك ، ولكنه أسره مجاملة لأبيه . .

يقول معاوية حاكيا قصة إسلامه :

لما كان عام الحديبية وقع الاسلام فى قلبى ، فذكرت ذلك لأمى ، فقالت : إياك أن تخالف أباك فيقطع عنك القوت ، فأسلمت وأخفيت إسلامى ، فقال لى يوما أبو سفيان وكأنه شعر بإسلامى ـ : أخوك خير منك ، هو على دينى .

فلما كان عام الفتح أظهرت إسلامى . ولقيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرحب بى وكتبت له .

هرب صفوان بن أمية

وبعض الزعماء الذين خشوا على أنفسهم هربوا فأمنهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هؤلاء صفوان بن أميه . . . . جاء عمير بن وهب إلى النبى ـ ﷺ ـ يقول له : يانبى الله إن صفوان سيد قومى قد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمّنه ، فإنك أمّنت الأحمر والأسود .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أدرك ابن عمك فهو آمن .

فقال عمير : أعطنى آية يعرف بها أمانك .

فأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمامته التى دخل بها مكة . وقيل : أعطاه برده .

ولحقه عمير بن وهب وهو يريد أن يركب البحر ، وطلب منه الرجوع .
ولكن اليأس كان قد استولى على صفوان فقال له : ابتعد عنى لاتكلمنى .

فقال له عمير : أى صفوان ، فداك أبي وأمي ، جئتك من عند أفضل الناس ، وأبر الناس ، وأحلم الناس ، وخير الناس ، وابن عمك عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك .

فقال صفوان : إني أخافه على نفسى .

فقال عمير : هو أحلم من ذلك وأكرم ، وقد أمنك ، وهذه أمارة على ذلك ، وأظهر له العلامة . .

فعاد صفوان معه ، وجاء حتى وقف على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إن هذا يزعم أنك أمنتنى .

قال النبى ـ ﷺ ـ صدق .

قال صفوان : يارسول الله أمهلنى بالخيار شهرين .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنت بالخيار أربعة أشهر . .

وخرج مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حنين ، وحين فرّق النبى الغنائم رآه ينظر إلى شِعب يمتلىء بالنعم والشاء ، فأعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصيبا كبيرا .

فقال صفوان : ما طابت نفسى أحد بمثل هذا الا نبى ، وأسلم .

وكما استأمن عمير بن وهب لصفوان ، استأمن عبد الله بن سهيل لأبيه سهيل بن عمرو .

فقد جاء عبد الله بن سهيل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له :

يارسول الله ، أبي تؤمنه ؟

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هو آمن بأمان الله ، فليظهر ، ثم قال لمن حوله : من رأى سهيل بن عمرو فلايشد إليه النظر . فلعمرى إن سهيلا له عقل وشرف ، ومامثل سُهيل جهل الاسلام .

فمضى عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال سهيل : كان والله برّاً كبيرا وصغيرا(٧٠)

فجاء سهيل ، ولكنه لم يبادر بإعلان إسلامه ، بل ظل يقبل ويدبر وخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حنين وهو على شركه ، وأسلم بالجعرانة(٧١)

ومن المعروف أن سهيل بن عمرو هو الذى فاوض عن قريش فى صلح الحديبية . وأسلم سهيل بعد ذلك وحسن إسلامه ومات شهيدا يوم اليرموك .

مبايعة النساء

ولما فرغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيعة الرجال أخذ فى مبايعة النساء وكانت مبايعتهن على ما أنزل الله ـ تعالى ـ فى قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ

---

(٧٠) أسد الغابة جـ٣ ص ٢٧١

(٧١) السيرة الحلبية جـ٣ ص ٥٦

﴿ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (٧٢)

قال القرطبي فى تفسيره : لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة جاءته نساء مكة يبايعنه فأمر أن يأخذ العهد عليهن ألا يشركن ـ ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن . . .

والذى يفهم من ذلك أن هذه الآية نزلت فى الفتح .

ولكن عائشة ـ رضى الله عنها قالت : كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُمْتَحَنَّ بقول الله ـ تعالى ـ

« يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين .. إلى آخر الآية .

فمن أقرت بهذا من المؤمنات فقد بايعت ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن : انطلقن فقد بايعتكن . ولا والله ما مست يد رسول الله ـ ﷺ ـ يد امرأة قط . غير أنه بايعهن بالكلام .

وعلى ذلك فان هذه الاية متعلقة بما قبلها فى قوله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ

---

(٧٢) الممتحنة ١٢

أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ (٧٣)

وقد هاجرت بعض النساء فعلا إلى المدينة قبل فتح مكة وخاصة بعد صلح الحديبية ، وأراد بعض المشركين استرجاعهن فابى النبى - ﷺ - استنادا إلى هذه الآية .

ولكن مبايعة هؤلاء المهاجرات فى المدينة لا تنفى اجتماع النساء فى مكة لمبايعة النبى - ﷺ - على الإسلام أسوة بمبايعة الرجال .

وقد عقد ابن سعد فى طبقاته فصلا خاصا أورد فيه أسماء النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم وغرائب نساء العرب .

وذكر فى مقدمتهن : فاطمة بنت أسد - أم على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ورقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم بن عبدمناف ، وهند بنت عتبة .

وقد أشرنا سابقا إلى أن النبى - ﷺ - كان قد أهدر دمها يوم الفتح لما سبق من فعلها فى الكيد للاسلام ، ولكن الله بقدرته قذف فى قلبها الاسلام فأسلمت وحسن إسلامها . .

كما أشرنا سابقا إلى بعض حوارها مع النبى - ﷺ - عند إسلامها ونضيف إلى ذلك قولها حين أسلمت :

يا رسول الله ، والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلىَّ من أن يذلوا

---

(٧٣) الممتحنة ١٠

من خبائك ، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلىّ من أن يعزُّوا من خبائك .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : وزيادة ، وقرأ عليهن القرآن وبايعهن .

فقالت هند من بينهن : يا رسول الله نصافحك ؟

فقال : إنى لا أصافح النساء ، إن قولى لمائة امرأة مثل قولى لامرأة واحدة .

وبايعت مع هند أختاها أم كلثوم بنت عتبة ، وفاطمة بنت عتبة . وابنة عمها رملة بنت شيبة بن ربيعة .

كما بايعت بنات أبي سفيان بن حرب : أمنية وجويرية وأم الحكم وصخرة وميمونة . وغيرهن(٧٤) . .

وذكر بعض العلماء أن النبى ﷺ بايع النساء على ما فى الآية الكريمة السابقة وأضاف اليها : ألا تلحقن بأزواجكن غير أولادهم ولا تقعدن مع الرجال فى خلاء .

وذلك داخل ضمن قوله ـ تعالى ـ ولا يزنين . ولا يأتين ببهتان يفتريته بين أيديهن وأرجلهن .

وحين قال لهن : لا تعصين فى معروف سألت بعض النسوة : ما هذا المعروف الذى لا نعصى فيه ؟

فقال : لا تصحن أو لا تنحن ، ولا تخمشن وجها ، ولا تنشرن شعرا ولا تحلقن قرنا ، ولا تشققن جيبا ، ولا تدعين بالويل .

---

(٧٤) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٨ ص ١٣١ ومابعدها

لقد أخذ النبى - ﷺ - على النساء من العهد أكثر مما أخذ على الرجال .

ولقد لاحظت هذه الملاحظة هند بنت عتبة - فقالت : يا رسول الله - انك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال .

لقد راعى القرآن الكريم حال ضعف العزيمة والانسياق مع العاطفة الذى طبعت عليه المرأة .

جاء فى صحيح مسلم عن أم عطية - رضى الله عنها -: لما نزلت هذه الآية :

« يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا . . »

قالت : كان منه النياحة .

وعنها أنها قالت : أخذ علينا رسول الله - ﷺ - مع البيعة الا ننوح ، فما وفت منا امرأة الا خمس : هى ، وأم سليم ، وأم العلاء ، وابنة أبى سبرة وامرأة معاذ .

والملاحظ أن البيعة تناولت خصالا شتى ، إلا أن الآية صرحت بالمنهى عنه فى الدين ولم تذكر ما أمرت به النساء وهو ستة أشياء : الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والاغتسال من الجنابة .

وسر عدم الإشارة إلى المأمور به فى الآية والاقتصار على المنهى عنه - مع أن المبايعة من النبى - ﷺ - للنساء شملت الأوامر والنواهى - يشير اليه القرطبى فى تفسيره بقوله : ذلك النهى دائم فى كل الأزمان والاحوال ، فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد ، وقيل : إن هذه المناهى كان يرتكبها كثير من النساء ولا يحجزهن عنها شرف النسب ، فخصت بالذكر لهذا ،

ونحو منه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لوفد عبدالقيس : وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت(٧٥) ، فنبههم على ترك المعصية فى شرب الخمر دون سائر المعاصى لانها كانت شهوتهم وعادتهم ، وإذا ترك المرء شهوته من المعاصى هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة له فيها(٧٦) .

وليس معنى اختصاص النساء بالبيعة على هذه الأمور أنه مرخص للرجال فيها . بل هى محظورة على الرجال كذلك . . وقد بايع النبى ـ ﷺ ـ الرجال على ذلك أيضاً . . . فعن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا عند النبى ـ ﷺ ـ فقال : أتبايعوننى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ـ ثم قرأ آية بيعة النساء ـ ثم قال : فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو الى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها . .

وقد سبق أن أشرنا فى بيعة العقبة إلى أن النبى ـ ﷺ ـ بايع الانصار على ما جاء ذكره بعد فى بيعة النساء .

عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر بيعة العقبة الأولى وكنا اثنى عشر رجلا فبايعنا رسول الله ـ ﷺ ـ على ماجاء فى بيعة النساء وذلك قبل ان تفترض الحرب(٧٧) .

---

(٧٥) الدباء : القرع اليابس ـ الحنتم : الجرة ـ النقير : أصل النخلة ـ ينقر فيتخذ منه وعاء ـ المزفت : الإناء يطلى بالزفت . والنهى عن ذلك : أن أهل اليمامة كانوا ينقرون أصل النخلة ـ وينبذون فيها الرطب والبسر . والحنتم : جرار كانت تحمل فيها الخمر . .

(٧٦) تفسير القرطبى جـ ١٠ ـ سورةالممتحنة

(٧٧) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١٨٥

والبيعة التزام ، ولذلك كان النبى - ﷺ - يهتم بها مع من يجىء ليسلم ذكرا كان أو أنثى .

وقد أخذ الله العهد على بنى آدم عامة وعلى النبيين خاصة ..... أما أخذه على بنى آدم عامة فذلك قوله - تعالى

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (٧٨)

وأما أخذه على النبيين للإيمان بمحمد والتبشير به فذلك قوله تعالى

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٧٩)

---

(٧٨) الاعراف ١٧٢

(٧٩) آل عمران ٨١

وأخذ على النبيين جميعا بتبليغ الدعوة والتبشير والانذار وعدم كتمان رسالتهم وذلك فى قوله ـ تعالى

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ (٨٠)

وقد خص هؤلاء الخمسة بالذكر لأنهم أولو العزم من الرسل وأئمة الأمم ، فاذا كان الله قد أخذ الميثاق على النبيين فأخذه على الناس ألزم . .

وقد جرت عادة الناس على ألا يتوافوا إلا بميثاق ولا يلتزموا إلا بعهد ، وهو الحجة عليهم عند مناقشة الحساب .

وقد أمرنا الله بالمحافظة على العهد والوفاء به فقال تعالى

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٨١)

---

(٨٠) الأحزاب ٧

(٨١) النحل ٩١ ، ٩٢

خوف الانصار من بقاء النبى بمكة

لقد صدق الله وعده ، وحقق ما كان يقوله حسان بن ثابت يوما فى رده على مشركى قريش من الشعراء ـ يتوعدهم بفتح مكة :

عدمنا خيلنا إن لمَ تروها تثير النقع موعدها كداء
يسارعن الأعنة مصعدات تلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم يُعزُّ الله فيه من يشاء
وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس له كفاء ..

لقد دخل المسلمون من كداء فعلا ، ولقيت نساء قريش خيل المسلمين فحاولن ان يلطمهن بخمرهن .. وتبسم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى ابى بكر حين رأى ذلك[٨٢] وفى تلطيم النساء للخيول بالخمر دلالات .. منها صدق الحدس الشعرى لدى حسان ، فكأنه حين قال ذلك كان واقعا تحت سيطرة إلهام روحى صادق .. لم يلبث الواقع الحسى ان صدقه وهذه الحالة كثيرا ما تنتاب الشعراء الملهمين ، وتزداد هذه الحالة صفاء كلما كان صاحبها على درجة عالية من نقاء الدين وصفاء الروح .

ويكاد الشعراء يجمعون على أنهم لايكونون فى حالتهم الطبيعية حين يقولون شعرهم ، بل تتقمصهم أرواح غريبة عنهم، أما فى الجاهلية فكانوا يقولون : لكل شاعر شيطان ينفث شعره على لسانه . أما فى الاسلام فقد رجمت الشياطين وتغيرت المفاهيم واستيقظ

---

(٨٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٤٩

الوعى الدينى الذى ملأ أفكار النفوس روعة وجلالا ، فأصبحت لا تنزع إلا عن روح الدين . وأصبح ما يغلب على شعراء الاسلام هو ما يسمى بالالهام الصادق المنبعث من قوة الايمان وصدق اليقين ، ويقابله بالنسبة لغير الشعراء ما يسمى بالفراسة التى يقول فيها النبى - ﷺ -: « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » .

وعلى كل فقد صدقت كلمة حسان ، وجاءت خيل الله من كداء واستقبلتها النساء فعلا بالخمر تلطمها فى وجوهها فى محاولة لردها عن غايتها وأنَّى لهن أن يستطعن ذلك ؟

ومن الدلالات التى يوحى بها هذا الأمر - توارى الرجال خوفاً ورعبا .

لقد صدق الله وعده وحقق نصره لرسوله والمسلمين ، ودخل الإسلام مكة وسعد الرسول - ﷺ - بعودته اليها . . .

وخاف الأنصار أن يفضل الرسول - ﷺ - البقاء فى مكة - لما رأوا من فرحة بالعودة اليها . . .

قال أبوهريرة - فيما يرويه البيهقى - وغيره : ألقى الناس سلاحهم ، ودخل رسول الله - ﷺ - فبدأ بالحجر فاستلم ، ثم طاف سبعا وصلى خلف المقام ركعتين ، ثم جاء ومعه القوس آخد بسيتها(٨٣) ، فجعل يطعن بها فى عين صنم من أصنامهم ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

ثم انطلق حتى أتى الصفا فَعَلَا منه حتى يرى البيت ، وجعل يحمد الله ويدعوه ، والأنصار عنده يقولون - يعنى فى نفوسهم - أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته .

---

(٨٣) سية القوس : طرفها المنحنى

وجاء الوحى ، وكان الوحى إذا جاء لم يخف علينا .

فلما رفع الوحى قال : يامعشر الأنصار ، قلتم : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة فى عشيرته ؟

كلا ، فما أُسَمَّى إذاً ـ قال ذلك ثلاث مرات .

كلا ، إنى عبدالله ورسوله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم . .

فأقبل الأنصار يبكون ، وقالوا : يارسول الله ، والله مادفعنا الى ذلك إلا الضنُّ بالله ورسوله .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم(٨٤)

لقد خشى الأنصار ـ بعد أن فتح الله مكة لرسوله ـ أن يبقى النبى ـ ﷺ ـ بمكة ، فهى بلده التى أُخْرِج منها ، وهى مسقط رأسه وهى أحب البلاد إليه ، والوطن له مكانة فى القلب لايشك فى ذلك أحد . ولو بقى النبى ـ ﷺ ـ بمكة مالامه أحد .

ومن هنا كان إشفاق الأنصار من أن يتركهم النبى ـ ﷺ ـ بعد أن وجدوا الأنس به ، واستشعروا العزة بوجوده بينهم ، وأدركوا الأمن والسعادة بحلوله دارهم . .

إنهم لايتصورون كيف تكون المدينة بدون وجوده فيها ؟ من أجل ذلك كانوا يجزعون .

ولكن النبى ـ ﷺ ـ يطمئنهم . ويقول لهم : لو بقيت هنا ماكنت جديرا بهذه التسمية : عبدالله ورسوله . .

---

(٨٤) أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير ـ فتح مكة ـ دلائل النبوة جـ ٥ ص ٥٦

ولقد كان النبى ـ ﷺ ـ يحب الأنصار ، ويقول : والله لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . .

واطمأن الأنصار بقول رسول الله ـ ﷺ ـ لهم ، وذهب ماكانوا يشعرون به من جزع وقلق .

الشعر يحيى الفتح الإسلامى لمكة

وحيا الشعر الفتح الإسلامى ، وكان مما قاله الشعراء فى ذلك أبيات لبجير بن زهير بن أبى سلمى ، منها :

ضربناهم بمكة يوم فتح ... النبى الخير بالبيض الخفاف
صبحناهم بسبع من سليم ... وألف من بنى عثمان واف
نطا أكتافهم ضربا وطعنا ... ورشقا بالمريشة اللطاف[85]
فأبنا غانمين بما اشتهينا ... وأبوا نادمين على الخلاف
وأعطينا رسول الله منا ... مواثقنا على حسن التصافى[86]

وقال عباس بن مرداس :

منا بمكة يوم فتح محمد ... ألف تسيل به البطاح مسوم[87]
نصروا الرسول وشاهدوا أيامه ... وشعارهم يوم اللقاء مقدم
فى منزل ثبتت به أقدامهم ... ضنك كأن الهام فيه الحنتم[88]

---

(٨٥) نطا : مخفف نطأ ـ بالهمز ـ والمريشة : السهام

(٨٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٤٠

(٨٧) البطاح : جمع بطحاء ـ الأرض السهلة ـ ومسوّم : معلّم بعلامة

(٨٨) ضنك : ضيق ـ الهام : جمع هامة وهى الرأس ـ الحنتم : الحنظل يريد : تطير كما يطير الحنظل عند هصره

جرت سنابكها بنجد قبلها حتى استقاد لها الحجاز الأدهم
اللـــه مكنـــه لـه وأذلــه حكم السيوف لنا وجد مزحم
عـود الرياسـة شامخ عرنينه متطلع ثغر المكارم خضرم[89]

وان كان هذا هو لسان الشعر فى عصر الفتح فهناك من تناولوا هذا الحدث الجليل بعد عصر النبوة، وصوروه بألسنتهم وأقلامهم ومن ذلك مايرويه القسطلانى فى كتابه المواهب اللدنية من قول بعضهم :

ويوم مكة إذ أشرفت فى أمم تضيق عنها فجاج الوعث[90] والسهل
خوافق ضاق ذرع الخافقين بها فى قاتم من عجاج الخيل والابل
وجحفل قذف الأرجاء ذى لجب عرمرم كزهاء السيل منسحل[91]
وأنت صلى عليك الله تقدمهم فى بهو إشراق نور منك مكتمل
ينير فوق أغر الوجه منتجب متوج بعزيز النصر مقتبل
يسمو أمام جنود الله مرتديا ثوب الوقار لأمر الله ممتثل
خشعت تحت بهاء العز حين سمت بك المهابة فعل الخاضع الوجل
وقد تباشر أملاك السماء بما مُلِّكْتَ إذ نلت منه غاية الأمل
والأرض ترجف من زهو ومن فرق والجو يزهو إشراقا من الجذل

---

(٨٩) العرنين : طرف الأنف، الخِضْرِم : الكريم الواسع العطاء
(٩٠) الوعث : المكان الواسع
(٩١) زهاء : قدر، منسحل- سريع

والخيل تختال زهوا فى أعنتها والعيس تنتال رَهْوًا فى ثنى الْجُدُل[92]
لولا الذى حظت الأقلام من قدر وسابق من قضاء غير ذى حِوَل
أهل نهلان بالتهليل من طرب وذاب يذبل تهليلا من الذُّبُل[93]
الملك لله هذا عز من عقدت له النبوة فوق العرش فى الأزل[94]

الشعراء يسلمون

واذا كان الحديث عن الشعر ، فمن المناسب ذكر الشعراء الذين كانوا يعادون الاسلام ، ويهاجمونه بشعرهم ويستعملون الشعر سلاحا يحاربونه به . . لقد علموا أن هذا السلاح قد ذهب جَدُّه وتثلم حده ، وتنكس لواؤه ، ووجد فى وصف القرآن الكريم للشعراء الغاوين صدعا زلزل كيانه وهدم أركانه حيث يقول فيهم :

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾
وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ
مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (٩٥)

---

(٩٢) رهْواً : ذات رهو وهو السير السهل - وثنى : جمع ثِنْى ، والجُدُل : الزمام المجدول
(٩٣) نهلان ويذبل : جبلان ، والذُّبُل : الرماح
(٩٤) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ٣ ص ٢٣٠ والأبيات من قصيدة لأبى محمد الشقراطى
(٩٥) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧

وقد سبق أن تحدثنا عن أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ، وذكرنا أنه أسلم والنبى - ﷺ - فى طريقه إلى فتح مكة .

وكان أبوسفيان بن الحارث يهجو المسلمين بشعره ويؤذيهم بلسانه ، فتولى شعراء الإسلام الرد عليه ، وقد قال له حسان بن ثابت فى احدى قصائده :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء
فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاءُ

وكأنَّ إسلام أبي سفيان بن الحارث قد فتح الطريق أمام غيره من الشعراء فأقبلوا على النبى - ﷺ - مسلمين .

إسلام عبدالله بن الزبعرى

● ومن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يهجون المسلمين بشعرهم ويثيرون خواطر المشركين ضد الاسلام - عبدالله بن الزِّبَعْرَى بن قيس السهمى . وقد أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه .

كان عبدالله أحد شعراء قريش المعدودين ، وكان ضالعا معها فى الكفر ، وله فى مصاولة حسان شاعر الرسول - ﷺ - جولات متعددة .

من ذلك قوله يوم أحد - وكان إذ ذاك مشركا :

ياغراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئا قد فُعِل
إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل
والعطيات خساس بينهم وسواء قبر مثر ومقل
كل عيش ونعيم زائل وبنات الدهر يلعبن بكل

أبلغـــا حســـان عنـــى آيـــة فقريض الشعر يشفى ذا الغلل
كم قتلنـــا من كـريـــم ســـيد ماجد الجديـــن مقدام بطـــل
ليـت أشياخى ببدر شـــهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل[96]

فأجابه حسان بن ثابت بقصيدة منها :

ذهبتْ يابن الزِّبَعْرى وقعة كان منا الفضل فيها لو عـــدل
ولقد نلتم ونلنا منكـــــم وكذاك الحرب أحيانـــا دول
نضع الأسياف فى أكتـــافكم حيـث نهوى عَلَلاً بعد نهـــل
إذ تـولون على أعقابكـــم هربا فى الشُعْـــب اشباه الرسل[97]
إذ شـددنا شـــدة صـــادقة فأجـأناكم الى سـفح الجبـــل
وتركـنا فى قـريش عـورة يـوم بـدر وأحـــاديث المثل
ورســول الله حقــاً شـاهد يوم بـدر والتنابيـل الهبل[98]

ولما فتح النبى - ﷺ - مكة فر عبدالله بن الزبعرى الى نجران هربا من النبى - ﷺ - فرماه حسان بن ثابت ببيت واحد من الشعر هو :

لاتعدمـن رجـلاً أحـلك بغضـه نجـران فى عيشس أجد لئيم[99]

---

(٩٦) من مهذب الأغانى - بتصرف - جـ ٢ ص ٢٣٥

(٩٧) أشباه الرُسْل : يعنى الغنم التى يرسلها الراعى

(٩٨) من سيرة ابن هشام بتصرف جـ٣ ص ٢٠١ - والتنابيل : القصار يقصد بهم قوم عبدالله

(٩٩) تروى كلمة أحذٌ - بالحاء والذال - ومعناها : القليل المنقطع ، وتروى : أجد بالجيم والدال فمعناها المنقطع أيضاً من جده بمعنى قطعه

وواضح انه يقول له : ان هذا الرجل الذى عاديته وسلطت شعرك عليه هو الذى جعلك تفر وتسكن نجران فى شظف من العيش وانقطاع عن الأهل والعشيرة .

وقد يفهم منه التحريض على كسب رضا الرسول بدلا من الاستمرار فى عداوته ، وقد يفهم منه الدعاء عليه ببقائه فى هذا الحرمان والانقطاع .

وأيا كان المقصود منه فقد كان ابن الزبعرى عاقلا فى الخلوص من المأزق الذى أوقع نفسه فيه بجهله وطيشه وشركه ، فقرر الرجوع الى النبى - ﷺ - واستعطافه والعيش فى كنفه وظله .

فحين بلغه هذا البيت - وللشعر حينئذ ذيوع وانتشار وسير أسرع من أى وسيلة فى الانتقال ، فلا يقال بيت فى مكان إلا حركته الألسن كأنها تمشى به فتنقله فى أسرع من لمح البصر إلى أقصى مكان -

جاء ابن الزبعرى فألقى بنفسه بين يدى المصطفى - ﷺ - تائبا مستغفرا وهو يقول :

يارسـول المليك إن لسـانى رائق مافتقت إذ أنا بور(١٠٠)

إذ أبارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال مَيْلَه مثبور(١٠١)

---

(١٠٠) بور : هالك

(١٠١) مثبور : هالك ، والسنن - بفتح السين والنون - : وسط الطريق

ثم قال :

إن ماجئتنا به حق صدق ساطع نوره مضىء منير
جئتنا باليقين والبر والصدق وفى الصدق واليقين سرور
أذهب الله ضلة الجهل عنا وأتانا الرخــاء والميسور
إننى عنك زاجر ثم حيا من لؤى وكلهم مغــرور(١٠٢)

أجل ، لقد أمن عبدالله باسلامه ، أمن لحمه وعظامه وقلبه وجنانه ، حين شهد قلبه وصدق بأن محمدا ـ ﷺ ـ هو البشير النذير . . والايمان أكبر أمان

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »

ولقد تعهد ابن الزبعرى بأن يضع سلاحه من الشعر فى خدمة هذا النبى الكريم مدافعا عنه ضد أولئك المغرورين الذى يعارضونه .

وأسلم عبدالله ، وحسن إسلامه ، وظل ينطق لسانه بما يحسه من ندم على ماقدم فى أيام شركه ، فنراه يقول :

منع الرقاد بلابل وهموم والليــل معتلج الرواق بهيـم(١٠٣)
مما أتانى أن أحمـد لامنـى فيه فبت كأننى محمـوم
ياخير من حملت على أوصالها عَيْرَانَةٌ سـرح اليـدين غشوم(١٠٤)

---

(١٠٢) أسد الغابة جـ٣ ص ٢٣٩ والبيت الأخير من سيرة ابن هشام

(١٠٣) البلابل : الوساوس والأحزان ـ والمعتلج : المضطرب يركب بعضه بعضاً ـ والبهيم : المظلم

(١٠٤) عيرانه : ناقة تشبه العير وهو حمار الوحش فى شدته ، وسرح اليدين : خفيفة وغشوم : ظلوم ، يعنى أن مشيها فيه خفاء . .

إنى لمعتذر إليك من الذى أسديت إذ أنا فى الضلال أهيم
أيام تأمرنى بأغوى خطة سهم وتأمرنى بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودنى أمر الغواة وأمرهم مشئوم
فاليوم آمن بالنبى محمد قلبى ومخطىء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدىً لك والدىَّ كلاهما زللى فإنك راحم مرحوم(١٠٥)

وكسب الإسلام جنديا من أقوى الجنود الذين ناصروا الدين الاسلامى بشعرهم بعد أن كانوا فى المعسكر الأخر يرمونه بهذا السلاح الذى كان العرب يعتبرونه من أمضى الأسلحة وأقواها .

كان البيت من الشعر يرفع القبيلة ، وأحيانا يخفضها .

فما هو الا القول يسرى فتفتدى له غرر فى أوجه ومواسم

إسلام ضرار بن الخطاب

وكان من الشعراء الذين عادوا الإسلام بشعرهم ـ ضرار بن الخطاب بن مرداس بن كثير بن عمرو ، من بنى فهر بن مالك ، ولذلك يقال له : القرشى الفهرى ، وكان شاعراً شجاعاً ، وهو أحد الأربعة الذى وثبوا بخيولهم الخندق فى معركة الأحزاب .

---

(١٠٥) أسد الغابة جـ٣ ص ٢٤٠ ، سيرة ابن هشام جـ٤ ص ٣٣

ومن شعره فى أُحُد يُعَرِّضُ بالمسلمين :

حتى اذا ماأبوا إلا محاربة   واستحصدت بيننا الأضغان والحقدُ[١٠٦]
سرنا إليهم بجيش فى جوانبه   قوانس البيض والمحبوكة السرد[١٠٧]
والجرد ترفل بالأبطال شازبة   كأنها حِدأً فى سيرها تُؤَدُ[١٠٨]
جيش يقودهم صخر ويرأسهم   كأنه ليث غاب هاصر حرد[١٠٩]
فأبرز الحَيْنُ قوما من منازلهم   فكان منا ومنهم مُلْتَقىً أُحُدُ
فغودرت منهم قتلى مُجَدَّلَةً   كالمعز أَصْرَدَهُ بالصَّرْدَحِ البرد[١١٠]

وهو صاحب القصيدة التى لقنها لامرأة أنشدتها أمام النبى - ﷺ - حين سمع أن سعد بن عبادة يقول : اليوم يوم الملحمة .. وقد سبق أن ذكرنا هذه القصيدة التى أولها :

يانبى الهدى إليك لجا حىّ قريش وأنت خير لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء

وكانت هذه القصيدة مقدمة لاسلامه ، نلمح فيها روح التقرب إلى النبى - ﷺ - واستعطافه ..

لقد أقبل ضرار على الإسلام بعد أن أدرك أنه كان أحد المخدوعين الكبار بالضلال الجاهلى .

---

(١٠٦) استحصدت : قويت واستحكمت
(١٠٧) القوانس : أعالى بيض السلاح جمع قانسة - السَّرْد : المنسوجة ، يقصد الدروع
(١٠٨) الجرد : جمع أجرد ، يقصد الخيل العتاق - وترفل : تمشى متبخترة - شازبة : ضامرة شديدة اللحم - والحدأ : جمع حدأة ، وتؤد : تمهل
(١٠٩) هاصر : كاسر ، وحرد : غاضب ، وصخر هو أبوسفيان
(١١٠) أصرده : بالغ فى إبراده ، والصرد : البرد ، والصردح : المكان الغليظ

وماكان أعجب هؤلاء الشعراء الذين كانوا يُعْتبرون الطائفة المتميزة فى أمتهم ، وحاملى لواء الثقافة فى قبائلهم كيف ينساقون فى تيار الجاهلية .

ولا تتفتح عقولهم على صوت الهدى حين أعلنه النبى - ﷺ - واضحا لا لبس فيه ولا غموض ؟

ولا تعليل لذلك إلا أن الانصياع لسلطان القبيلة كان هو السيف المصلت على رقاب أبنائها لا يستطيعون الخروج عليه أو الفكاك منه ، أليس شاعرهم هو الذى يقول :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد ؟

وعلى كل فقد تخلص ضرار من ربقة الجاهلية وأعلن اسلامه ،

وكما وقف - ضرار - ضد الاسلام جاهد فى سبيله . . وكان ضرار شجاعاً لبقاً فى حديثه . . اختلف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم أحد ، فمر بهم ضرار بن الخطاب فقالوا : هذا شهدها ، وهو عالم بها .

فسألوه عن ذلك فقال : لا أدرى ماأوسكم من خزرجكم ، لكنى زوجت يوم أُحُد أَحَدَ عشر رجلا من الحور العين - يعنى بذلك أنه قتل أحد عشر رجلا من المسلمين .

فانظر إلى لباقته فى إجابته ، وفى التعبير عن شجاعته ، وفى الاعتذار عن جهالته .

وشهد ضرار بن الخطاب فتوح الشام(١١١)

---

(١١١) أسد الغابة جـ ٣

إسلام كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، واسم أبي سلمى : ربيعة بن رباح بن قرط ، وهو من الشعراء المخضرمين .

أما أبوه فهو شاعر الجاهلية وحكيمها ، وصاحب المعلقة المشهورة التى مطلعها :

أمن أم أوفى دمنــــة لم تكلـــم ... بحومانــة الـــدراج فالمتثلـــم

وأبياتها فى الحكمة تشهد بعلو كعبه فى الشعر ، وسعة عقله ، ووفور علمه .. وفيها يقول :

وما الحـــرب الا ماعلمتـــم وذقتـــم ... وماهو عنهـــا بالحديـــث المرجـــم

متى تبعثوهـــا تبعثوهـــا ذميمـــة ... وتضـــر اذا ضريتموهـــا فتضـــرم

ومنها : ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومـــه يستغن عنه ويذمـــم

ومن يجعل المعروف من دون عرضـه ... يفـره ومن لا يتـق الشـــتم يشـــتم

وقد شهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لزهير ـ فيمايرويه أبو الفرج فى أغانيه . قال :

قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : أنشدنى لشاعر الشعراء .

قال ابن عباس : من هو ياأمير المؤمنين ؟

قال عمر : ابن أبى سلمى .

قال ابن عباس : وبم صار كذلك ؟

قال عمر : لأنه لا يتبع حوشى الكلام ، ولا يعاظل فى المنطق ، ولا يقول

إلا مايعرف ، ولا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه ، أليس هو الذى يقول :

ولو كان حمد يخلد الناس لم تمت ولكن حمد الناس ليس بمخلد ؟

أنشدنى . فأنشده ابن عباس حتى برق الفجر . فقال : حسبك ، اقرأ القرآن .

وقد وَرَّثَ زهير ابنيه بُجَيْراً وكَعْباً الشعر .

أما بجير فقد سبق أخاه إلى الاسلام . وتأخر إسلام كعب ، وصار إلبا على الاسلام حتى أهدر النبى - ﷺ - دمه .

ويقص علينا الرواة قصة إسلام بجير فيقولون :

كان بجير وكعب قد خرجا يتتجعان بأغنام لهما ، حتى وردا موضعا اسمه « أبرق العزاف »(١١٢)

فقال بجير لأخيه كعب : اثبت فى غنمنا فى هذا المكان ، حتى آتى الرجل - يعنى النبى - ﷺ - فأسمع مايقول .

فثبت كعب ، وخرج بجير حتى وصل إلى النبى - ﷺ - فسمع منه ، فأعجبه كلامه ، وعرض عليه الاسلام فأسلم ، ولم يعد لأخيه الذى كان فى انتظاره .

وبلغ كعبا إسلام أخيه فأرسل اليه معاتبا يقول :

من مبلغ عنى بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت بالخيف ؟ هل لكا ؟

شربت مع المأمون كأسا روية فأنهلك المأمون منها وعلكا

---

(١١٢) هو ماء لبنى أسد بن خزيمة فى طريق القاصد من البصرة إلى المدينة

وخالفت أسباب الهدى واتبعته على أي شيء ويب غيرك دلكا[113]
على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل إما عثرت لعاً لكا[114]

ويروى البيت الثانى هكذا :

سقاك أبو بكر بكأس روية وأنهلك المأمور منها وعلّكا[115]

وكان أخوه بجير شاعراً فكتب اليه يوجهه ويرشده :

من مبلغ كعبا فهل لك فى التى تلوم عليها باطلا وهى أحزم ؟
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم

وكان بجير حين بلغته أبيات كعب لم يستطع كتمانها عن النبى - ﷺ - وأنشده إياها ، فقال النبى - ﷺ - حين سمع قوله : سقاك بها المأمون : صدق وإنه لكذوب ، أنا المأمون .

ولما سمع : على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه - قال : أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه .

ولم يطع كعب أخاه ، ولم يستمع إلى نصحه ، بل استمر فى غيه ، ومضى فى طريق الضلال .

ولعله أفرط فى لومه أخاه ، وتجاوز الحد فى ذلك فهاجم الاسلام

---

(١١٣) ويب غيرك : كلمة تقال فى الدعاء بالهلاك

(١١٤) لعاً لكا : كلمة تقال للعاثر يدعى له بها ومعناها : قم وانتعش . . والأبيات من سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١١٦

(١١٥) النهل - بفتحتين - أول الشرب - والعلل - بفتحتين أيضاً - الشربة الثانية

والمسلمين ، فلم يجد النبى - ﷺ - بدًّا من إهدار دمه .

إن فى قتله قطعا للشر ، وقمعا للفتنة ، وقضاء على الباطل الذى يذيعه هؤلاء الشعراء ، الذين يبلغون بلسانهم أحيانا مالا يستطيع الشجاع أن يبلغه بسيفه .

وضاقت الأرض أمام كعب بمارحبت ، فهو لا يولى وجهه فى مكان حتى يجد الإسلام قد ألقى بجرانه فوقه ، فتنكر له الناس ، وأحجموا عن لقائه وحمايته وأغلقوا أبوابهم فى وجهه ، وجفاه أقرب الناس إليه .

ولا شك أنه سمع بإسلام غيره من الشعراء ، فهذا أبو سفيان بن الحارث يسلم ، وهذا ضرار بن الخطاب وهذا ابن الزبعرى ، ومن قبل هؤلاء أسلم العباس بن مرداس وغيره ممن وضعوا شعرهم تحت تصرف الاسلام ، يوجهه فى الخير وبث تعاليمه والدفاع عن أبطاله وإذاعة محامده والاشادة بأمجاده .

فما باله لا ينحو نحوهم .. لقد أهدر النبى - ﷺ - دمه - فأى رجل يلقاه فيقتله فلا دية له . . ؟

ماأضيعك إذن ياكعب إن ظللت على هذه الحال . وإلى متى تظل عصا الترحال على كاهلك ، وتطردك الفيافى والقفار ؟

وأخيرا جاء الغوث من قبل أخيه بجير ، يقول له :

ما أراك تفلت من قبضة النبى - ﷺ - ، ولا نجاة لك إلا بإعلان إسلامك واعتذارك للرسول - ﷺ - فهو رحيم ، ولا يأتيه أحد يشهد شهادة الحق الا قبله وعفا عنه ، وتجاوز عن إساءته ، وأسقط عنه ماكان قبل ذلك منه .

فإذا أتاك كتابى هذا فأقبل وأسلم .

وفرجت هذه الرسالة ضيقه ، فأنشأ قصيدته المشهورة فى الاعتذار ، وأقبل إلى المدينة مختفيا ، فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة قديمة فغدا به هذا الجهنى إلى رسول الله - ﷺ - حين صلى الصبح فصلى مع رسول الله - ﷺ - ثم أشار الجهنى لكعب على رسول الله - ﷺ - وقال له : قم فاستأمنه . .

وقام كعب يخطو إلى النبى - ﷺ - فى وجل ، وجلس بين يديه ، ووضع يده فى يده ، وكان رسول الله - ﷺ - لم يره قبل ذلك .

فقال كعب : يارسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟

فقال رسول الله - ﷺ - : نعم .

وتلقفها كعب بفرحة غامرة ملأت كيانه فقال : أنا يارسول الله كعب بن زهير .

وهنا وثب رجل من الأنصار يقول : يارسول الله ، دعنى وعدوَّ الله أضرب عنقه .

ولكن المبعوث رحمة للعالمين يقول لهذا الأنصارى :

دعه عنك فإنه قد جاء تائبا نازعا عما كان عليه . وربما كان ذلك سبب غضب كعب على الأنصار . .

وأقبل كعب يستأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى إلقاء قصيدته التى سارت بها الركبان وحفظتها الأجيال عبر الأزمان ، وسار على نهجها الشعراء فى كل عصر وأوان - وفتحت الطريق أمام المادحين والمعجبين

بأخلاق المثل الأعلى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأذن له الرسول ـ فأخذ كعب يقول :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم إثرها لم يُفْد مكبول(١١٦)
وماسعاد غداة البين إذ رحلوا   ألا أغن غضيض الطرف مكحول(١١٧)

وفيها يقول واصفا خوفه وقلقه وإعراض الناس عنه :

وقال كل خليل كنت آمله   لا ألهينك انى عنك مشغول
فقلت : خلوا سبيلى لاأباكم   فكل ماقدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وان طالت سلامته   يوما على آلة حدباء محمول(١١٨)

ثم خلص إلى الاعتذار فقال :

نبئت أن رسول الله أوعدنى   والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة   القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم   أذنب ولو كثرت فى الأقاويل

ثم مدح الرسول بقوله :

ان الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم   ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فمازال أنكاس ولاكشف   عند اللقاء ولاميل معازيل(١١٩)

---

(١١٦) البين : الفراق ـ متبول : هالك ـ مكبول : مكبل ومقيد

(١١٧) الأغن : من الغُنَّة ، جمال فى الصوت ، غضيض الطرف : فاتر الجفن ، من علامات جمال العيون

(١١٨) الآلة الحدباء : النعش

(١١٩) انكاس : جمع نِكْس وهو الضعيف ، والكشف : جمع اكشف وهو الذى لاترس معه والميل : جميع أميل وهو من لاسيف معه ، والمعازيل : جمع معزال وهو من لاسلاح معه

وحين قال كعب : إن الرسول لنور يستضاء به قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : أن اسمعوا ، فمازال كعب ينشد حتى انتهى من انشاده ، فخلع عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بردته ، التى توارثها أبناؤه من بعده . حتى اشتراها معاوية من أحفاده بثلاثين ألف درهم ، وظل يتوارثهاالخلفاء من بعده ـ وحسن إسلام كعب وأبلى بلاء مشكورا فى الاسلام ، وامتدح الأنصار الذين آووا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصروه بقصيدة قال فيها :

من سره كرم الحياة فلايزل ... فى مقنب من صالحى الأنصار[120]

ورثوا المكارم كابرا عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار

شهرة قصيدة بانت سعاد

وقد بلغت شهرة قصيدة « بانت سعاد » مبلغا كبيرا ، وأصبحت نموذجا ـ كما قلنا ـ يحتذى فى المدح . وتولاها بالشرح والتحليل كثير من الأدباء لأن فيها ـ كما يقول الدكتور الحوفى ـ ملامح جديدة لم يكن الشعراء يمدحون بمثلها فى الجاهلية . كحديثه عن القرآن ، وعن هداية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس وتأييده من ربه ، وبذلك فقد فتح الباب لمن جاء بعده ليسير على نهجه .[121] . وفى ذلك خدمة كبرى للإسلام .

هذا وقد تأثر كعب فى شعره بالإسلام فرقّ ولان ، ودخلته المعانى الدينية ، والحكم الرائعة ومن ذلك قوله :

---

(١٢٠) مقنب ـ بزنة منبر ـ الجماعة من الخيل

(١٢١) الاسلام فى شعر شوقى د . أحمد الحوفى

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني   سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها   والنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ماعاش ممدود له أمل   لاينتهي العيش حتى ينتهي الأثر .

قال ابن الأثير :

ومما يستحسن له قوله :

مقالة السـوء إلى أهلهـا   أسـرع من منحـدر سـائل
ومن دعـا النـاس الى ذمـه   ذموه بالحـق وبالبـاطـل[١٢٢]

لقد كسب الاسلام إلى صَفِّه فرسان البيان ، كما كسب فرسان الميدان وكان فتح مكة خيرا وبركة ، فتح العيون على الحقيقة الناصعة التي أعشى نورها كثيرا من العيون فلم يبصروها على حقيقتها ولم يقدروها حق قدرها . .

ولم يتخلف عن رؤيتها إلا من غلبت عليه شقاوته فمات طريدا شريدا فريسة الحقد والكفر والكبر الكاذب الذي لم يغن عنه شيئا .

ومن هؤلاء الشعراء الذين غلبت عليهم شقاوتهم ـ هبيرة بنت أبي وهب المخزومي زوج أم هانىء بنت أبي طالب ـ شقيقة علي وابنة عم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . لقد عز على هبيرة أن يسلم ، وهرب الى نجران واتخذها مقاما ، ورفض أن يعود مع ابن الزبعرى حين عاد ، ولو عاد لأمن ولكن القدر له تصاريفه . . . . ولم يكتف بأن ظل على كفره ، ولكنه اغتاظ حين

---

(١٢٢) أسد الغابة لابن الأثير جـ ٤ ص ٤٧٧ ـ الشعر في موكب الدعوة ـ د . صادق عبدالحليم ص ١١٨

بلغه أن زوجته أم هانىء قد أسلمت فقال فى ذلك :

فإن كنتِ قد تابعت دين محمد وقطعت الأرحام منك حبالها
فكونى على أعلى سحيق بهضبةٍ ململمة غبراء يبس بلالها(١٢٣)

ومات هبيرة بنجران كافرا .

وكان هبيرة قد قاتل يوم فتح مكة ، ولم يستطع الصمود ففر أمام خالد ، وفى ذلك يقول معتذرا عن فراره :

لعمرك ماوليت ظهرى محمدا وأصحابه جبنا ولاخيفة القتل
ولكننى قلبت أمرى فلم أجد لسيفى غناء إن ضربت ولانبلى
وقفت فلما خفت ضيقة موقفى رجعت لعود كالهزبر أبى الشبل

قال خلف الأحمر : أبيات هبيرة فى الاعتذار عن الفرار خير من قول الحارث بن هشام فى الاعتذار عن الفرار حين قال :

الله يعلم ماتركت قتالهم حتى علوا فرس بأشقر مزبد(١٢٤)

سرايا لهدم الأصنام

انتداب خالد لهدم العزى

بعد أن فرغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تطهير مكة من الأصنام الرابضة حولها وفوقها وأصدر أمره الى الناس جميعا أن يكسروا الأصنام التى فى بيوتهم .. تفرغ لإرسال البعثات لهدم الأصنام التى يحج إليها العرب فى خارج مكة .

---

(١٢٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٥
(١٢٤) أسد الغابة جـ ٧ ص ٤٠٤

فوجه خالد بن الوليد لهدم الْعُزَّى .

والعزى ـ بضم العين المهملة وتشديد الزاى المفتوحة تأنيث الأعز ـ وقيل اشتقوها من اسم الله ـ تعالى ـ العزيز . وفى هذا دلالة على إشراكهم بالله تعالى ـ وكانت العزى شجرة ـ فيها يقول بعضهم .

أو هى صنم وضعه سعد بن ظالم الغطفانى حين قدم مكة ، ورأى أهلها يطوفون بين الصفا والمروة ، فأخذ من كلٍّ حجرا ونقلهما إلى نخلة وسماها الصفا والمروة . . . . . . ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها الى شجرة فقال : هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ، ويعبدون الحجارة .

ونخلة هذه اسم موضع وهو على مسيرة ليلة من مكة .

وكان الذين يعبدون العزى هم قريش وجميع بنى كنانة . ولذلك قال أبو سفيان مفتخرا على المسلمين ومعتزا بجاهليته فى غزوة أحد : لنا العزى ولاعزى لكم .

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر من يرد عليه بقوله : الله أعلى وأعز . . وكان سدنة العزى وحجابها بنى شيبان من بنى سليم ، وهم حلفاء بنى هاشم . كانت العزى ، من أعظم أصنام الجاهلية ، وقد أشار القرآن الكريم إلى مدى جهلهم حين قال :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١٢٥)

كانت اللات لثقيف ، والعزى لقريش وبنى كنانة ، ومناة لبنى هلال .

وكان اختيار خالد لهذه المهمة أمرا له دلالته فهو ذو بأس من ناحية ،

---

(١٢٥) النجم ١٩ ، ٢٠

وسدنة هذه الشيطانة من بنى سليم الذين قاتلوا مع خالد فى مواطن شتى من ناحية أخرى .

وتجرد خالد لهذه المهمة . وهى شاقة من الوجهة النفسية ـ كما يقول العقاد ولكنها سهلة من الوجهة الحربية . . وعلى أى حال فقد كانت اختبارا لعزيمته وعقيدته . .

كان العرب يهدون للعزى كما يهدون للكعبة . ويعظمونها كتعظيم الكعبة . ويطوفون وينحرون عندها . وكانوا يقولون : إن الرب يشتى عند اللات ويصيف عند العزى ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ

وخرج خالد لخمس بقين من رمضان سنة ثمان ، ووصل الى العزى ـ وكان معه ثلاثون فارسا .

وحين رأى سادن العزى خالدا ، وقد جاء لهدم العزى . قال ـ بعد أن علق سيفه فوقها :

فياعز شدى شدة لاسوى لها على خالد ألقى القناع وشمرى
فياعز إن لاتقتلى اليوم خالدا فبوئى بإثم عاجل وتنصرى

وهدم خالد العزى وسوى مكانها وكانت على ثلاث سمرات ، ثم رجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : هل رأيت شيئا ؟

قال خالد : لا

قال : فإنك لم تهدمها ـ أى لم تهدمها الهدم الأبدى الذى يزيل أثرها فارجع إليها فاهدمها .

فرجع خالد إليها ، وهو متغيظ ، فجرد سيفه وأقبل على هذه السمرات يجزها ويقطعها ، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ثائرة الشعر ، تحثو

التراب على رأسها ووجهها ، وجعل السادن يقول لها : ياعزى خبليه . ياعزى غوريه ولاتموق برغم - يعنى مرغمة - فأهوى عليها خالد بالسيف وهو يقول :

ياعز كفـــرانك لاســبحانك إنى رأيـت اللــه قـد أهانـك

ففلقها نصفين . وقيل : اقتلع السمرات التى فيها من جذورها بالفأس ، وقتل سادنها واسمه « دبية السلمى » وعاد خالد الى النبى - صلى الله عليه وسلم - يخبره بذلك فقال : نعم تلك العزى وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبدا .

وقال للنبى - صلى الله عليه وسلم - : « الحمد لله الذى أكرمنا بك وأنقذنا من الهلكة ، لقد كنت أرى أبى يأتى العزى بخير ماله من الابل والغنم فيذبحها للعزى ، ويقيم عندها ثلاثا ، ثم ينصرف إلينا مسرورا ونظرت الى مامات عليه أبى ، وكيف خدع حتى صار يذبح لما لايسمع ولايبصر ولايضر ولاينفع .

فقال عليه الصلاة والسلام :- إن هذا الأمر إلى الله ، فمن يَسَّرَه الله للهدى تيسر له ، ومن يَسَّره للضلالة كان فيها .

وهكذا بلغت العبرة إلى خالد قبل أن تبلغ منه إلى الناس[١٢٦] »

هدم سواع

وكما أصدر أمره إلى خالد بن الوليد بهدم العزى أمر عمرو بن العاص بهدم سُوَاع .

---

(١٢٦) عبقرية خالد للعقاد ص ١٠٣

قال ابن جرير الطبرى سمى هذا الصنم بسواع ـ لأنهم أطلقوا عليه اسم سواع بن شيث بن آدم ـ فإنه لما مات صوروا صورته وعظموها لموضعه من الدين ، ولما عهدوا فى دعائه من الإجابة ، وأولاده هم : يغوث ويعوق ونسر وقد ورد ذكر هؤلاء فى القرآن فى سياق التنديد بعبدة هذه الأصنام ، والتدليل على جهلهم حيث قال الله ـ تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾
وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟
نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ
ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا
﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ
وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ (١٢٧)

وذكر القرطبى راوياً عن محمد بن كعب قصة عبادة هذه الأصنام فقال :

كان ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ـ من ولد آدم . .

وكانوا عُبّاداً ، فمات واحد منهم فحزنوا عليه ، فصوروا مثله حتى إذا نظروا إلى الصورة ذكروه . فصوروه فى المسجد من صُفْر ورصاص .

ثم مات آخر ، فصوروه ، حتى ماتوا كلهم . . . . ومازال الناس

---

(١٢٧) نوح ٢٣ ، ٢٨

يعظمونهم حتى تركوا عبادة الله ـ تعالى ـ بعد حين ـ وعبدوا تلك الصور .

ووسوس لهم الشيطان وقال لهم :

هذه آلهتكم وآلهة آبائكم فعبدوها من دون الله ، حتى بعث الله نوحاً ، فقالوا « لا تذرن لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً . .

ونلاحظ هنا اختلافاً بين الرواة . . فهذه الرواية تقول إنهم من ولد آدم ـ والرواية السابقة تقول : إن سواع من ولد شيث ـ ولا اختلاف إذا نظرنا إلى أن ولد الولد هو ولد كذلك .

وقد شرف الإسلام عقول أبنائه من الاعتقاد الفاسد فى تلك الصور والتماثيل ، وحطم الأصنام وقضى على عبادتها . .

ومن هنا ندرك فضيلة هذا الدين الذى نؤمن به ونحمد الله الذى هدانا إليه ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . . ومن خصائص هذه الأمة الاسلامية أن الله عصمها من الشرك الذى وقعت فيه الأمم السابقة

وقد أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرض الإسلام . كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبشراً أمته : أنا لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدى[١٢٨] .

وكان الصنم الذى يطلق عليه سواع لهذيل بساحل البحر .

روى عن ابن عباس أن الطوفان دفنه فأخرجه إبليس ، فعبد ، وصار لهذيل . وكان الناس يحجون إليه . وكان فى موضع على ثلاثة أميال من مكة .

---

(١٢٨) أخرجه البخارى فى باب الجنائز

وخرج عمرو بن العاص إلى مهمته هذه فى شهر رمضان بعد خروج خالد بن الوليد إلى العزى .

قال عمرو بن العاص : فانتهيت إليه وعنده سادنه ، فقال : ما تريد ؟

قلت : أمرنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن أهدمه .

قال : لا تقدر على ذلك .

قلت : لِمَ ؟

قال : تُمنع .

فقلت : حتى الآن مازلت على الباطل . . . . ويحك ، وهل يسمع أو يبصر ؟

قال عمرو : فدنوت منه فكسرته ، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزائنه ، فلم نجد فيه شيئاً .

ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟

قال : أسلمت لله رب العالمين .



هدم مناة

وأرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة وبعضهم يقول « مناءة » .

وهى صنم لخزاعة ، وقيل للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب قبل الإسلام .

وقيل : كانت أيضاً لغسان .

وسبب تسميتها بذلك لكثرة ما يريقون عندها من دماء - يتقربون إليها بذلك .

وكانت بالمشلَّل ، وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانوا يهلون لمناة ، وكانت حذو قديد .

وليس صحيحاً أن اللات والعزى ومناة كانت أصناماً فى جوفِ الكعبة ، إذ لو كانت كذلك لهدمت فيها هدم من أصنام حول الكعبة ، إلا إذا كانت هناكِ أصنام سميت على اسمها ووضعت هناك . وبقى الأصل فى مكانه الذى سيِّر إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه البعوث .

وتجرد سعد لمهمته . وخرج فى عشرين فارساً .

ولكن ابن الأثير يذكر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتدب سعداً لهدم المنار الذى كان بالمشلل(١٢٩) .

وقد يكون المنار هو مناة ، وحدث تحريف أدى إلى إضافة الألف واللام ووضع الراء بدل التاء المربوطة . فلا شيء اسمه مناراً كان بالمشلل ولكن المعروف أن مناة هى التى كانت بالمشلل .

وعلى أى فقد توجه ـ سعد لهدم مناة ، فلقيه السادن فقال له : ماذا تريد ؟

قال : أريد هدم مناة .

فقال له السادن متحدياً : أنت وذاك .

كأنه يتهكم به ، ويسخر منه ويتحداه ظناً منه أنه لا يستطيع ذلك .

فأقبل سعد على هذا الصنم وأهوى فوقه بما يكسره به ، فخرجت إليه

---

(١٢٩) أسد الغابة جـ٢ ص ٣٥١

امرأة عريانة سوداء ثائرة الشعر ، تدعو بالويل وتضرب صدرها .

فقال السادن : مناة دونك بعض عصاتك .

فضربها سعد بن زيد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه ولم يجدوا فى خزانته شيئاً .

وعادوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ذلك لست بقين من رمضان . . . وهذا يدل على أن هذه السرية كانت قبل توجه خالد للعزى . ولكن الرواة قدموا الحديث عن سرية خالد للعزى ، وربما كان ذلك لأهمية أحداث العزى واهتمام القرشيين بشأنها .

هدم ذى الخُلصَة

ذكر بن كثير ما ورد فى البخارى من تخريب خثعم للبيت الذى كانت تعبده من دون الله ، وكانوا يسمونه « الكعبة اليمانية » مضاهاة للكعبة التى بمكة .

وكانوا يسمون الكعبة التى بمكة : « الكعبة الشامية » .

قال البخارى : ثنا يوسف بن موسى ، ثنا أبو أسامة عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس عن جرير قال : قال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا تريحنى من ذى الخلصة .

قلت : بلى فانطلقت فى خمسين ومائة فارس من أحمس ، وكانوا أصحاب خيل ، وكنت لا أثبت على الخيل ، فذكرت ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضرب بيده على صدرى ، حتى رأيت أثر يده فى صدرى وقال : « اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً »

قال : فما وقعت عن فرسى بعد .

قال : وكان ذو الخلصة بيتا باليمن لخثعم وبجيلة ، فيه نُصُب تعبد وكان يقال له : الكعبة اليمانية .

فأتاها فحرقها بالنار وهدمها .

ولما قدم جرير إلى اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام ، فقيل له : إن رسول رسول الله ﷺ هاهنا ، فإن قدر عليك ضرب عنقك .

قال : فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير ، فقال له : لتكسرنها وتشهد أن لا إله إلا الله ، أو لأضربن عنقك .

فكسرها الرجل وشهد .

ثم بعث جرير رجلا من أحمس يكنى أبا أرطاة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يبشره بذلك . فلما أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب .

قال : فبارك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على خيل أحمس ورجالها خمس مرات(١٣٠) .

رواه مسلم أيضاً . وجرير .... هو جرير بن عبد الله البجلى .

هدم ذى الكفين

وكان هناك صنم من خشب له كفان أقامه حاكم دَوْس واسمه : عمر بن حُمَمَة - بضم الحاء وفتح الميمين بعدهما تاء مربوطة .

واختار النبى - صلى الله عليه وسلم - لهدمه رجلاً من دوس هو الطفيل

---

(١٣٠) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٥

ابن عمرو بن طريف الدوسى .

وكان الطفيل قد أسلم قديماً بمكة ورجع إلى بلاده يدعو قومه إلى الاسلام ، ثم عاد إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشهد معه فتح مكة .

وكان الطفيل حين أسلم وذهب ليدعو قومه إلى الاسلام دعا له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل الله معه آية ، فسطع له نور بين عينيه ، فقال الطفيل : أخاف يارب أن يقولوا مُثْلَة ـ فحول الله له النور إلى طرف سوطه ، فكان يضىء له فى الليلة المظلمة .

وحين بَعَث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الطفيل لهدم ذى الكفين ، كان فى طريقه لغزو الطائف ، فقال له : اهدم الصنم ووافنى سريعاً بقومك بالطائف . فخرج الطفيل سريعاً ، وأشعل النار فى الصنم ، وجعل يلقى النار فى وجهه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عُبَّادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

ومعنى حشوت : ألقيت . .

وقد صدق الطفيل فى قوله : إذ كيف يعبد هؤلاء صنماً صنعوه بأيديهم ، ووجودهم أقدم من وجوده ؟

ولو استعمل الكفار عقولهم بمثل ما استعمله الطفيل لاهتدوا إلى الحق ، لأن عامة هذه الأصنام التى كانت منصوبة فى كل مكان قد صنعها الناس بأيديهم من مواد مختلفة ، بعضها من حجارة ، وبعضها من خشب ، وبعضها من نحاس . . . . . بل الأعجب من ذلك أن بنى حنيفة كان لهم إله من عجوة أو من حَيْس ، يسجدون له ، فإذا جاعوا أكلوه ، وفى ذلك يقول

بعض الشعراء متهكماً منهم :

أكلت حنيفة ربها عام التقحم والمجاعة

لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة ..

وعاد الطفيل بعد نجاح مهمته إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أربعمائة من قومه ، بعد مقدم النبى ـ ﷺ ـ الطائف بأربعة أيام .

ويقال : إنه عاد ومعه دبابة[١٣١] ومنجنيق ، وهما آلتان من آلات الحرب ، والدبابة بالطبع آلة بدائية ، لا كتلك الآلات التى تطورت فيها بعد وأصبحت على ما هى عليه الآن .. والمنجنيق هو الذى تطور إلى القذائف الصاروخية المختلفة فيما بعد .

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهؤلاء القادمين : يا معشر الأزد من يحمل رايتكم ؟

فقال الطفيل : من كان يحملها فى الجاهلية ـ النعمان بن الرازية اللهبى .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصبتم .

وبذلك تطهرت الجزيرة العربية من الأصنام ، ولم يبق إلا اللات صنم ثقيف ، وسوف يقوض بعد قليل بأيدى الثقفيين أنفسهم حين يعلنون إسلامهم .

---

(١٣١) الدبابة : آلة يدخل فيها الرجال فيدبون فيها لنقب الأسوار

مانزل فى فتح مكة من قرآن

أخرج عبد الرازق فى مصنفه عن معمر عن الزهرى قال : لما دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة عام الفتح بعث خالد بن الوليد ، فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكة حتى هزمهم الله ، ثم أمر بالسلام فرفع عنهم فدخلوا فى دين الله ، فأنزل الله - تعالى -

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ (١٣٢)

وروى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكثر من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » . قالت : فقلت له : يارسول الله ، أراك تكثر من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » ؟

فقال : خبرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه - فقد رأيتها : « إذا جاء نصر الله والفتح » - فتح مكة - . . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا »

---

(١٣٢) أسباب النزول للسيوطى جـ ٤ ص ١٨٥

وليس من شك فى أن النصر والفتح إنما هو نصر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قريش وفتح مكة .

والنصر فى اللغة معناه العون مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض إذا أعان على نباتها .

وللمفسرين أقوال متعددة حول مضمون السورة . . . . ذكر القرطبى ـ فيما ذكر من ذلك .

قال : قال العرب لما فتحت مكة : أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من الفيل فليس لكم به يدان ـ أى طاقة ـ فكانوا يسلمون أفواجا ، أمة أمة . فهذا المعنى بالناس .

وذكر أيضا أن الناس هنا إشارة إلى أهل اليمن ، فقد جاء بعد الفتح منهم سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين ، بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يقرءون القرآن ، وبعضهم يهللون ، فسُرَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبكى عمر وابن عباس .

وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ : « إذا جاء نصر الله والفتح » وجاء أهل اليمن رقيقة أفئدتهم ، لينة طباعهم ، سخية قلوبهم ، عظيمة خشيتهم ، فدخلوا فى دين الله أفواجا .

وفى أهل اليمن وردت أحاديث تشيد بهم .

ذكر مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبا وأرق أفئدة ، الفقه

يمان ، والحكمة يمانية »

أما بكاء عمر وابن عباس فلفهمهما أن ذلك يعنى قرب أجل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وان هذه السورة لتدعو إلى التسبيح وكثرته ، والمقصود به الصلاة ، وإلى كثرة حمد الله على نعمه ، والنعمة هنا النصر والفتح ، وإلى كثرة الاستغفار ، ولذلك قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ما صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاة بعد أن نزلت عليه سورة « إذا جاء نصر الله والفتح » إلا يقول : سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى .

وقال أبو هريرة : اجتهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العبادة بعد نزول هذه السورة حتى تورمت قدماه ونحل جسمه وقل تبسمه وكثر بكاؤه .

وقال عكرمة : لم يكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قط أشد اجتهادا فى أمور الآخرة ماكان منه عند نزولها .

ولسائل أن يسأل : أى ذنب يستغفر منه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد غفر الله له ذنبه ما تقدم وما تأخر ـ على أنه لم يذنب ؟

والإجابة على ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول فى دعائه : « رب اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى كله ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى خطئى وعمدى ، وجهلى وهزلى ، وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وما أعلنت وما أسررت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، إنك على كل شىء قدير »

إنه سيد المتواضعين ، وهو أقرب الناس إلى الله وأخوفهم منه ، وكلما

اقترب العبد من ربه ازداد خوفه منه حتى قالوا إن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخشى التقصير لعظم ما أنعم الله به عليه ، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوبا .

وقيل : الاستغفار بالنسبة للرسول تعبد يجب القيام به . .

وقيل : ذلك تنبيه لأمته لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار ، وقيل المعنى : استغفره لأمتك . .(١٣٣)

وقال الإمام محمد عبده فى تفسير هذه السورة :

كأن الله يقول : إذا حصل الفتح وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق فقد ارتفع الخوف ، وزال موجب الحزن ، فلم يبق الا التسبيح وشكر الله والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس ، فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ماداموا على تلك الكثرة من الإخلاص .

ومن هذا أخذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال ـ فيما يروى عنه : إنه قد نعيت إليه نفسه . والله أعلم(١٣٤)

● ومن الآيات التى قال بعض العلماء إنها نزلت فى شأن الفتح قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(١٣٥)

---

(١٣٣) راجع تفسير القرطبى جـ ٢٠ ص ٢٣١

(١٣٤) تفسير جزء عم للامام محمد عبده ص ١٧٤

(١٣٥) السجدة ٢٨ : ٣٠

فقد قال الفراء والقتبى فيما يرويه القرطبى : يعنى فتح مكة ...
ولقد كان المسلمون يهددون الكفار بالفتح فاستبطأوه ، وقالوا : متى هو ؟

ويقول ابن كثير معقبا على ذلك .
ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة وأخطأ فأفحش .

فإن يوم الفتح قد قَبِلَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه إسلام الطلقاء ، وكانوا قريبا من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ، لقوله - تعالى -

« قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون »
وإنما المراد هو يوم القضاء والفصل كقوله - تعالى -

﴿ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ ﴾ (١٣٦)

وهذا تفسير صحيح يلتقى مع ماذكر فى أسباب النزول ،(١٣٧) ،
فقد أخرج ابن جرير عن قتادة ، قال الصحابة : إن لنا يوما يوشك أن نستريح فيه وننعم ، فقال المشركون : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ؟
فنزلت : « ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون »

---

(١٣٦) الشعراء ١١٨
(١٣٧) أسباب النزول للسيوطى ص ١٣٦

ولكن الزمخشرى يرد على هذا الإيراد فيقول فى تفسيره :

فإن قلت : فمن فسر الفتح بفتح مكة أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لاينفعهم الإيمان ، وقد نفع الطلقاء يوم مكة ، وناسا يوم بدر ؟

قلت : المراد أن المقتولين منهم لاينفعهم إيمانهم فى حالة القتل ، كما لا ينفع فرعون إيمانه عندما أدركه الفرق(١٣٨)

● ولم تخل سورة الفتح التى نزلت عقب الانصراف من الحديبية من إشارات إلى فتح مكة ، مثل قوله ـ تعالى ـ

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾(١٣٩)

وقد ذكر بعض المفسرين أن الفتح القريب هو فتح مكة ، ولكن جمهور المفسرين كما سبق أن ذكرنا يرى أن المقصود به فتح خيبر .

والآيتان تؤكدان نصر الله لرسوله ، وتبشيره بظهور دينه ، وقد تم ذلك فعلا بفتح مكة ، فقد نكست على أثر هذا الفتح الأصنام ، وذهبت الى غير رجعة دولة الشرك وعبادة الأوثان ، ودان هؤلاء القوم الذين طالما حاربوا الاسلام ودخلوا فى دين الله وساروا تحت رايته مجاهدين فاتحين ، بعد أن

---

(١٣٨) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى جـ٣ ص ٥١٧

(١٣٩) الفتح ٢٧ : ٢٨

أدركوا أنهم كانوا فى وقوفهم ضد هذه الدعوة مبطلين واهمين .. وحق لصاحب الهمزية أن يقول :

واستجابت له بنصر وفتح   بعد ذاك الخضراء والغبراء



دروس من فتح مكة

ولنا أن نتأمل فى هذه الغزوة التى أتم الله بها نعمته على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقرَّ بها عينه فى أهله وعشيرته ، فنجدها غاصة بالعبر والعظات والدروس . . ويمكن تلخيص ذلك فى نقاط نذكرها فيما يأتى :

١ ـ اعتمد نجاح الغزوة فى المقام الأول على عنصر المباغتة ، فقد حرص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كتمان خبرها وعدم تسرب أمرها إلى قريش ، وقد رأينا كيف أعانه الوحى على ذلك ، حين أطلعه على ما همَّ به حاطب بن أبى بلتعة ، وبذلك أصبح تحرك الجيش سراً لم يصل نبؤه إلى قريش حتى فوجئت برؤية النيران الكثيرة المشتعلة تحيط بها من جميع جوانبها . .

ولقد ظهرت براعة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واضحة فى إبقاء هذا السر مكتوماً عن قريش ، متخذاً الأسباب الكفيلة بذلك ، مع أنه من العسير أن تبقى تحركات عشرة آلاف جندى أو يزيد ـ سراً مطوياً لفترة طويلة من الوقت .

٢ ـ استطاع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جمع المعلومات الكافية الكاملة عن عدوه فحين جاءه وفد خزاعة يخبره أن قريشاً نقضت عهدها معهم استفسر النبى منهم عن كل ما يمكن عن قريش ، فى الوقت الذى كانت فيه أنباء المسلمين مطوية عن قريش . ولم ينجح أبو سفيان ـ فى مهمته حين ذهب إلى المدينة ـ فى تحقيق أى هدف أو التقاط أى خبر .

٣ ـ كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعيد النظر جداً يحسب لكل أمر حسابه ، ولا يترك الأمور تجرى دون تخطيط دقيق ـ هذا مع قوة إيمانه ويقينه وتوكله على الله حق التوكل ، ولكن مع العمل على اتخاذ الأسباب المادية التى يمكن اتخاذها لتحقيق الهدف المطلوب .

ومن الأمثلة على ذلك أنه حينما قبض على أبى سفيان وأعلن أبو سفيان إسلامه ، لم يتركه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينصرف ، بل أمر ببقائه فى مدخل الجبل إلى مكة ليرى جنود المسلمين تمر أمامه ، ويرى مدى قوتها وكفاءتها وعظمها ، ولتتمكن هذه القوات من تطويق مكة من جميع جهاتها ، قبل أن يذهب أبو سفيان إلى قومه .

وذلك حتى يعرف أبو سفيان قوة المسلمين ، وينقل الصورة كاملة إلى قومه فيثبط عزمهم ويوهن قوتهم .

لقد رأى أبو سفيان ما قضى على روحه المعنوية ، وكان هو نفسه المثبط لقريش عن أن تقاوم حتى همت به زوجته ، وقالت لقومها : اقتلوا هذا الرجل .

٤ ـ ولقد كان تنظيم الجيش رائعاً على الرغم من كثرته واجتماعه من قبائل متعددة ، وكان الفضل فى تنظيمه بهذه الصورة الفريدة يرجع إلى مهابة القائد الأعلى ومنزلته فى نفوس جنده ، وإلى قوة العقيدة التى تحتل مكانها فى قلوب هؤلاء الجنود .

٥ ـ أما معنويات الجنود فقد كانت عالية جداً ، وهم يدخلون هذا البلد المقدس الذى له فى نفوسهم أعظم مكانة ، وإليه يتوجهون فى صلواتهم إلى

الله . . . . . وعلى النقيض من معنويات المسلمين كانت معنويات أعدائهم . لقد أسقط فى أيديهم حين رأوا ذلك الجيش الزاحف تدوى حناجره بكلمة التكبير التى تزلزل من وقعها الجبال . . فماذا يصنعون هم : أمام كلمة ـ الله أكبر ؟

وإذا كان المسلمون يقاتلون من أجل هدف أسمى هو رفع كلمة الله فمن أجل أى هدف يقاتل هؤلاء المشركون ؟

أيقاتلون من أجل إعلاء صنم لا يضر ولا ينفع ولا يبصر ولا يسمع ؟ ما أحقر هذا الهدف . .

قال عز وجل مبيناً الفرق بين هدف القتال عند المسلمين وعند الكافرين :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (١٤٠)

وقد مرت بنا قصة حماس الذى كان يقول لامرأته : إنى أريد أن آخذ بعض المسلمين وأجعلهم خدماً لك ، فلما عاد منهزماً وأمر زوجته أن تغلق الباب دونه ، قالت له : أين ما كنت تقول ؟ فقال لها :

إنك لو رأيت يوم الخندمة　　إذ فر صفوان وفر عكرمة

لم تنطقى باللوم أدنى كلمة

---

(١٤٠) النساء ٧٦

لقد قالت له امرأته قبل المعركة : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، وصدقت فى قولها . .

ولقد كانت عمرة القضاء التى سبقت الفتح بعام ، هى المقدمة الكبرى لفتح مكة . .

لقد فتحت هذه العمرة مكة معنوياً ، ثم جاء الجنود بعد ذلك بعام فأكدوا هذا الفتح المعنوى بالفتح العسكرى . .

٦ ـ ولم يكن الهدف من فتح مكة المغانم ، فالإسلام لا يحارب فى سبيل هذا الهدف ، بدليل أنه لم تكن هناك مغانم فى هذا الفتح على الرغم من أن كثيراً من العلماء يقولون : إن مكة فتحت عنوة لا صلحاً ، وان هناك قتالاً جرى بالفعل فيها . . ولكن لم تكن هناك غنائم على الاطلاق . فقد نهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك ، وأقر الناس فى بيوتهم وأملاكهم .

كما أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حريصاً على عدم إراقة الدماء فى مكة وبذل فى سبيل ذلك جهوداً كثيرة . وحين علم أن خالداً يقاتل قال : ألم أنه عن القتال ؟ فقيل له : إن خالداً قوتل فقاتل . فقال : قضاء الله .

وحين استولى على مكة قال لأهلها : اذهبوا فأنتم الطلقاء . .

أما إهدار دم البعض فكان لأسباب تستوجب ذلك . وقد أشرنا إليها ، ومع ذلك فقد عفا عن أكثر من أهدر دمهم . .

٧ ـ كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قمة فى التواضع عندما دخل

مكة . وهذا التواضع زاده رفعة فى أعين الناس وإكباراً فى قلوب ألد أعدائه وصدق هو إذ يقول : من تواضع لله رفعه ..

أما وفاؤه فهو مضرب الأمثال ، فعندما تحدث الأنصار فى نفوسهم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربما آثر البقاء بمكة بعد فتحها . قال لهم مكاشفة : المحيا محياكم والممات مماتكم . وحين ظن عثمان بن أبى طلحة أن مفتاح الكعبة ربّما لا يعود إليه ، سلمه له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

٨ ـ أما عقيدة المسلمين فهى جديرة بالإعجاب والتقدير ، وهم يقاتلون بها وفى سبيلها . ولا خير فى جندى يقاتل بدون عقيدة ، ولكن عقائد المقاتلين تختلف . فكلما سمت العقيدة سما الهدف معها .. وشتان بين عقيدة تفرض على الانسان الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وعقيدة تملى على صاحبها الخضوع لصنم ، أو الانتماء لقبيلة أو التعطش للدم واقتناص المغانم ..

لقدّ هانت الدنيا فى نظر المسلمين ، لأن أمامهم جنة عرضها السموات والأرض يعملون من أجلها ويحرصون على الفوز بها .

وكان حبهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معنى قائماً فى نفوسهم تتشربه أرواحهم ..... ومن منطلق هذا الحب قال عمر للعباس ـ رضى الله عنه ـ : لإسلامك يوم أسلمت أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، لأن إسلامك أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب .

حقاً إن عقيدة المسلمين لا تخضع للمصلحة الشخصية ولكنها تخضع للمصلحة العامة وحدها[١٤١] .

٩ ـ فى مبايعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنساء دليل على اشتراك المرأة مع الرجل فى جميع المسئوليات التى ينبغى أن ينهض بها المسلم ، ومن هنا فإنه يجب أخذ العهد على النساء بالعمل فى إقامة المجتمع الاسلامى ونهوضه بكل الوسائل المشروعة الممكنة ، فعليها أن تتعلم شئون دينها وأن تسلك السبل المشروعة الممكنة إلى التسلح بسلاح العلم والوعى ، والتنبه الى مكان الكيد وأساليبه لدى أعداء الإسلام الذين يتربصون به .



---

(١٤١) رجعنا فى هذه الدروس إلى كتاب النبى القائد للواء الركن محمود شيت خطاب بتصرف

غزوة حنين

سبب الغزوة

استعداد المسلمين

سير المعركة

اضطراب جيش المسلمين وتراجعه

ثبات النبي - صلى الله عليه وسلم -

الهجوم المضاد للمسلمين

لماذا تغير سير المعركة لصالح المسلمين

جند الله

الذين ثبتوا مع الرسول

صور رائعة من البطولة

من قتل قتيلاً فله سلبه

أين حنين ؟ ومن يسكنها ؟

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية :

حُنَيْن : ـ لعلها الشرائع فى الوقت الحالى ـ يعنى منطقة الشرائع القريبة من مكة .

وهى وادٍ غير منتظم به أحراج من شجر النخيل ، وهو على مسيرة يوم من مكة ، على طريق من الطرق الممتدة إلى الطائف .

ويدخل الطريق بعد أن يغادر واحة حنين الضيقة فى ثنيات متعرجة صالحة لأن تكون مكامن ومخابىء[١٤٢] .

وهى بالتصغير وادٍ بين مكة والطائف . قرب « ذى المجاز » التى كانت سوقا مشهورة عند العرب على مسافة فرسخ من عرفة .

وقال بعضهم : بل هو ماء بينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف ، وفى تعليل تسميته بذلك .

يقول الزرقانى : سمى باسم حُنَين بن قاين بن مهلاييل . . وفى هذا المكان كانت تقيم « هَوازِن » ـ بفتح الهاء وكسر الزاى ، وهى قبيلة كبيرة من قبائل العرب فيها عدة بطون ، ينسبون الى هَوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عَيْلان بن إلياس بن مُضَر .

---

(١٤٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « حنين »

سبب الغــــزووة

روى الواقدى عن أبي الزناد أن هوازن أقامت سنة تجمع الجموع ، وينتقل رؤساؤهم فى العرب . يحاولون تجميعهم لحرب النبى صلى الله عليه وسلم ـ

ومعنى ذلك أن استعداد هوازن بدأ مبكرا جدا قبل فتح مكة ، وانه كان أمرا مسبقا سواء فتحت مكة أم لا . . إلا أن فتح مكة بالنسبة لهم كان فرصة زادت من خوفهم فأسرعوا فى جمع الجموع وحشد القبائل . ولكن أغلب المؤرخين يقولون : إن هوزان وثقيف تحركوا لغزو النبى صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح مكة لا قبلها .

قال القسطلانى : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فرغ من فتح مكة وتمهيدها وأسلم عامة أهلها ، مشت أشراف هوازن وثقيف بعضهم الى بعض ، وحشدوا جموعهم ، وقصدوا محاربة المسلمين . لأنهم أشفقوا أن يغزوهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : قد فرغ لنا ، فلا ناهية له دوننا ، والرأى أن نغزوه . وقالوا : والله إن محمدا لاقى قوما لايحسنون القتال ، فأجمعوا أمركم وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم .

واستنفروا القبائل فاستجاب لهم من أقربائهم عدد كبير منهم ـ بنو سعد بن بكر الذين تربي بينهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو رضيع .

وهكذا اجتمعت هوازن وثقيف وجشم وبكر وناس من بنى هلال . . .

وتولى قيادة الجميع مالك بن عوف ، وكان فتىً جريئا فى نحو الثلاثين من عمره يملؤه الغرور ويجمع الى غطرسة الإمارة وحمية الفروسية ـ حدة

الشباب ولدد الخصومة والعناد .

وأراد أن يثير فى قومه نخوة الدفاع عن العرض والمال ، فساق أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأمرهم إذا رأوا المسلمين أن يكسروا جفون سيوفهم ، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد ، فإما فوز وإما فناء .

كانت عدة هذا الجيش ثمانية آلاف ـ أربعة آلاف من هوازن وثقيف والباقى من غيرهم . وقيل : أكثر من ذلك .

ويقال : إن ثقيفا كان يقودها كنانة بن عبد . .

ونزل هذا الجمع الكثيف واديا اسمه « أوطاس » وفيه دارت المعركة ولذلك تسمى غزوة « أوطاس » أيضا .

ونما علم هذا التحرك إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأرسل عبدالله بن أبى حدرد الأسلمى عينا يستخبر له أمر القوم ـ فعاد وقد أخبره خبرهم وما شاهده منهم ـ وسنقص قصة استخباره بعد .

استعداد المسلمين

وعزم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على لقاء هؤلاء القوم المتحفزين ، إذ لابد من ذلك . وإلا أجهضت عملية فتح مكة .

إن هؤلاء الذين أسلموا يوم الفتح لم تطمئن قلوبهم بعد بالإسلام ، ولئن لم يروا مايثبتهم فى أمر دينهم لربما عادوا سراعا إلى الكفر . . .

ولذلك أذن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجهاد . . . . . وسرعان ماتهيأ الجيش الذى فتح مكة وعدده عشرة آلاف جندى ، وانضم إليهم ألفان ممن أسلموا من أهل مكة ممن يسمون الطلقاء . . .

وأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكمل عُدَّة جيشه فاستعار من صفوان بن أمية ـ وكان مازال على شركه ـ مائة درع .

قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياأبا أمية أعرنا سلاحك .

فقال صفوان : أغصباً يامحمد ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بل عارية مضمونة حتى نردها إليك .

كما استعار من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ له : كأنى أنظر الى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين .

واستسلف من ربيعة المخزومى ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا ، فلما قدم قضاها له . . ثم قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بارك الله لك فى أهلك ومالك إنما جزاء السلف الوفاء والحمد[١٤٣] .

واستخلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مكة عَتَّاب بن أسيد وكان فى نحو العشرين من عمره ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رأى فى نومه أنه ولَّى مكة أباه : أسيد بن أبى العيص بن أمية ، ولكنه كان قد مات كافرا . فتحققت الرؤيا فى ولده . . وترك معه معاذ بن جبل يعلم الناس الفقه والدين .

خـــروج الجيش الإسلامـــى

وخرج الجيش الإسلامى بقيادة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيه ثمانون

---

(١٤٣) قال القرطبى : أخرجه ابن ماجه فى السنن

من المشركين الذين لم يسلموا بعد ، كصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو . وفيه كثير من الأعراب من بنى سليم وبنى كلاب وعبس وذبيان . بالإضافة الى الطلقاء من أهل مكة .

اثنا عشر ألفا يزحفون ، لايدرى أولهم آخرهم ، واهتزت أعطاف بعض المسلمين إعجابا وزهوا بما رأوه من هذه الكثرة الزاحفة ، حتى قال بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة . ولم تعجب هذه الكلمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنها تدل على اعتمادهم على كثرتهم أكثر من اعتمادهم على الله .

كان بدء الخروج من مكة يوم السبت السادس من شوال سنة ثمان ، ووصل إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر خلون منه .

وفى الطريق وجد بعض جهال الأعراب المصاحبين للجيش الإسلامى شجرة خضراء . وكان للعرب فى الجاهلية شجرة معروفة يسمونها : « ذات أنواط » . يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوما . فلما رأى هؤلاء الأعراب تلك الشجرة الخضراء قالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الله أكبر » قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . . . . . لتركبن سنن من قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة حتى إنهم لو دخلوا جحرضب لدخلتموه »(١٤٤) .

---

(١٤٤) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٩٧

قال ذلك لهؤلاء الأعراب الذين لم يعرفوا قيمة الإسلام بعد ، ولم يذوقوا حلاوة الإيمان . أما الذين اطمأنت قلوبهم الى الدين وأدركوا لغة اليقين فلا ينحرفون ولا يبدلون .

سـير المعركـة

كان على رأس جيش المشركين كما قلنا مالك بن عوف . وفى جيشه ناس من زعماء القبائل ، وكان فيهم من بنى جشم - دُرَيْد بن الصمة ، وكان شيخا كبيرا قد فنى ، ولكنه كانت له فى شبابه مواقع مشهورة ، وأخبار مشكورة ، وله تجاربه الرائعة التى صاغها حكما وأمثالا ووصايا وأشعارا حفظها التاريخ ومازالت تروى .

ولم يكن أخذهم له إلا التيمن به والاسترشاد برأيه ومعرفته بالحرب . . ولكن مالك بن عوف المفتون بنفسه أبى أن يستمع الى نصح أحد أو يأخذ برأى كبير أو حكيم .

وحين نزل مالك بالناس فى أوطاس ومعهم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم - وجاء بنو جشم بشيخهم دريد بن الصمة فى شجار له يُقَادُبه(١٤٥) .

فلما نزلوا قال : بأى واد أنتم ؟

قالوا : بأوطاس .

قال : نعم مجال الخيل ، لاحَزْنٌ ضرِس ، ولاسهل دهِس(١٤٦) . مالى

---

(١٤٥) الشجار - بزنة كتاب - محمل يشبه الهودج إلا أنه مكشوف من أعلاه

(١٤٦) الحزن : المرتفع الغليظ من الأرض ، والضرس : الذى فيه حجارة محددة ، والدهس : اللين

أسمع رُغاء الإبل ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار الشاء ؟؟[١٤٧] .

قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ؟

قال : أين مالك ؟

قالوا : هذا مالك ، ودُعى له .

فقال : يامالك ، إنك أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له مابعده من الأيام ، مَالِي أسمع رغاء الإبل ونهيق الحمير ، وبكاء الصغير ؟

قال : سُقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

قال دُرَيْد : ولِمَ ؟

قال مالك : أرت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم . فصاح به دريد ، وزجره كما تزجر الدابة . ثم قال : راعى ضأن والله ، وهل يَرُدُّ المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ فى أهلك ومالك .

ثم قال : مافعلت كعب وكلاب ؟

قالوا : لم يشهدها منهم أحد .

قال : غاب الحدُّ[١٤٨] والجِد ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوددت أنكم فعلتم مافعلت كعب وكلاب . . . . فمن شهدها منكم ؟

---

(١٤٧) يعار الشاء : صوتها

(١٤٨) الحد : يعنى الشجاعة والحدة

قالوا : شهدها عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر .

قال : ذانك الجذعان من عامر لاينفعان ولايضران[149] .

ثم التفت إلى مالك يقول له : يامالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة ـ بيضة هوازن[150] الى نحور الخيل شيئا ، ارفعهم إلى متمنع بلادهم ، وعُلْيا قومهم ، ثم الق الصُّبأ[151] على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت مالك وأهلك .

قال مالك فى عنجهية واستعلاء : لا ـ والله لاأفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعُنّى يامعشر هوازن ، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

وكان هذا القول من مالك دليل حمقه ، لأنه استصغر رأى المجربين قبله ، ثم إنه هدد بالانتحار إن لم يطعه الناس ، وهل فى عقل مأفون يهدد بالانتحار غناء فى وقت الشدة ؟

لقد كره أن يكون لدريد بن الصمة فى هذه الموقعة ذكر أو رأى . وقال الناس ـ لما سبق عليهم من قضاء الله ولما قضى به عليهم حظهم العاثر ـ : قد أطعناك .

---

(١٤٩) الجذعان : مثنى جَذَع ـ بفتحتين ـ ماقبل الثنىّ وهو فى ولد الشاة ماق سن الثانية ، وفى ولد البقرة ماق سن الثالثة ، وفى الابل ماق سن الخامسة ، ويجمع على أجذاع ـ ويكنى دريد بذلك عن صغر سنهما وضعفهما

(١٥٠) البيضة : جماعة الناس وأصلهم (١٥١) الصُّبَّاء : جمع صابىء ويعنى بهم المسلمين

فقال دريد بن الصمة : هذا يوم لم أشهده ، ولم يفتنى . ثم أنشأ :

يالتنى فيها جَذَعْ　　　أخب فيها وأضَعْ[١٥٢]
أقود وطْفَاءَ الزمع　　　كأنها شاةٌ صَدَعْ[١٥٣]

مالك يستخبر عن جيش المسلمين

وأرسل مالك بن عوف ثلاثة نفر من هوازن يأتونه بخبر جيش المسلمين فعادوا إليه وقد ارتعدت أوصالهم من الخوف .

فقال لهم : مالكم ، ويلكم ؟

فقالوا : رأينا رجالا بيضا على خيل بلق ، فوالله ماتماسكنا أن أصابنا ماترى ، والله مانقاتل أهل الأرض ، إن نقاتل إلا أهل السماء ، وإن أطعت رجعت بقومك ، فإن الناس إن رأوا مثل الذى رأينا أصابهم ماأصابنا .

فقال مالك ـ وما زال سادرا فى غيّه ـ : أف لكم ، بل أنتم أجبن أهل العسكر . ثم أمر بحبسهم عنده خوفا من أن يشيع ذلك الرعب فى العسكر ، وقال : دلونى على رجل شجاع ، فأجمعوا له على رجل ، فبعثه أيضا ليستخبر ، فعاد وقد أصابه نحو ما أصاب مَنْ قبله . .

فلم يثن مالكا ذلك عن وجهه وعزمه

---

(١٥٢) الجذع : يقصد الشاب الفتى ـ وأخب من الخبب ـ وأضع من الوضع : نوعان من السير

(١٥٣) الوطفاء : الطويلة الشعر ، والزَّمع : الشعر الذى فوق مربط قيد الدابة ، والصَّدَع : الوسط بين العظيم والحقير .

النبي يبعث عبد الله بن أبي حدرد مستخبرا

ذكر : أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمى ، فتلطف حتى دخل عسكر هوازن ، وخالطهم ، وأقام فيهم يوما أو يومين حتى علم كل شىء عنهم ، وسمع ما أجمعوا عليه .

وقال الواقدى : إنه انتهى إلى خباء مالك ، فوجد عنده رؤساء هوازن ، فسمعه يقول لأصحابه : إن محمدا لم يقاتل قوما قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوما أغمارا لاعلم لهم بالحرب ، فيظهر عليهم . فإذا كان السَّحَر فَصفُّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم اصطفوا ، ثم تكون الحملة منكم ، واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون ، واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا .

فأقبل عبد الله حتى أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره الخبر .
فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر : ألا تسمع مايقول ؟
فقال عمر : كذب .

فقال ابن أبي حدرد : لئن كذبتني ياعمر فقد كذبت بالحق .
فقال عمر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا تسمع مايقول يارسول الله ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ياعمر قد كنت ضالا فهداك الله . . . لقد أدرك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدق عبد الله بن أبي حدرد . . . .

فأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوجه عمر إلى ذلك . ويذكره بأن الإسلام يفعل فعله فى النفوس

وليس معنى حداثة إسلام عبد الله بن أبى حدرد أنه غير مأمون فى روايته . .

ولقد تفاءل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما أخبر به ابن أبى حدرد ، وبشر المسلمين بغنائم كبيرة غدا إن شاء الله . .

اللقاء

وعَبَّأَ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جنوده ، وجعل خالد بن الوليد على طليعة الجيش فى مائة فارس من بنى سليم .

قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، فسرنا معه إلى حنين .

وكان فى الجيش كثير من أمثال الحارث ، وكان فى ساقه المسلمين جمع من الطلقاء بين رجال ونساء ينظرون مايكون ، وكان فيهم أبو سفيان وغيره ـ كما قدمنا ـ

وكان الغالب على جيش المسلمين عدم الاكتراث بعدوهم . فإنَّ فتح مكة قد جعلهم فى زهو من أنفسهم ، وكثرتهم التى هم عليها قد غرتهم

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر ، فجاء رجل فارس فقال : يارسول الله ، إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلا ، فإذا أنابهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ـ بنسائهم ـ ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين

فتبسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله[١٥٤]

وسأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا : من يحرسنا الليلة ؟

قال أنس بن أبي مرثد : أنا رسول الله .

فأمره ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يستقبل الشِّعب ، حتى يكون فى أعلاه . وقال له : لانُغرنَّ[١٥٥] الليلة من قبلك .

فلما أصبحوا قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل أحسستم فارسكم ؟

يعنى ذلك الفارس المستطلع .

قالوا : يارسول الله ما أحسسنا .

فثوَّب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصلاة ، فجعل يصلى وهو ملتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته ، قال : أبشروا فقد جاء فارسكم .

فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر فى الشعب فإذا هو قد جاء ، حتى وقف على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إنى انطلقت حتى إذا كنت فى أعلى الشعب حيث أمرنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما أصبحت نظرت إلى الشعبين كليهما فلم أر أحداً ،

---

(١٥٤) لعل ذلك مبالغة منه فى كثرة عدد من معه .

(١٥٥) الشعب : الطريق بين جبلين ، ونُغْرَنْ : نؤخذ على غرة

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هل نزلت الليلة ؟

قال : لا إلا مصليا أو قاضي حاجة .

فقال له : فقد أوجبت ، فلا عليك ألا تعمل بعدها[156]

لقد خرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليها ، فأعد جنوده وتهيأ فى مضايق الوادى وأحنائه .

وأقبل النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه حتى هبط بهم الوادى فى عماية الصبح ، فلما هبط بهم ثارت فى وجوههم الخيل ، فشدت عليهم واضطرب الناس وفروا منهزمين لايقبل أحد على أحد . .

لقد انكشف المسلمون من أول وهلة ، وعادوا لايلوون على شىء وقال بعض المشركين ساعتئذ : لاتنتهى هزيمتهم دون البحر .

وصرخ كلدة بن الحنبل شامتا متعجلا : ألا قد بطل السحر اليوم - يقصد بذلك ماكان يتوهمه بعضهم من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ساحر - وصرح آخرون من الطلقاء والأعراب والمشركين : اليوم ترجع العرب إلى دين آبائها .

لقد انكشف المسلمون فى أول اللقاء ، ولم يلووا على شىء ، وزلزلوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت . وكادت تدور الدائرة عليهم لولا رحمة الله التى أحاطت بهم وأمدتهم بجنود لم يروها ، فانتصروا بعد أن ذاقوا مرارة

---

(١٥٦) أسد الغابة جـ١ ص ١٥٤ ترجمه أنس

الهزيمة ، وفى ذلك يقول الله - تعالى -

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٥٧)

سبب الهزيمة

وقد أشارت الآية الكريمة إلى سبب الهزيمة وهو الغرور إذ قالت : « أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا »

والإعجاب بالكثرة يعمى العيون أحيانا عن اتخاذ أسباب الحيطة . . . والمحللون العسكريون يعلقون على سير المعركة قائلين :

كانت خطة مالك تتلخص باحتلال قمم وادى حنين ، ومضيق الوادى فاذا دخلت قوات المسلمين فى الوادى باغتهم المشركون بالرمى عليهم بالنبال من كل جانب لتحطيم صفوفهم ، ثم القيام بهجوم لإجبارهم على الانسحاب .

---

(١٥٧) التوبة ٢٥ : ٢٧

وأكمل المشركون احتلال هضاب الوادى قبل دخول المسلمين إليه ، وكمنوا فى أماكن مستورة انتظارا الجيش المسلمين .

ودخلت قوات المسلمين وادى حنين فجراً وكان واديا أجوف منحدرا ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسيرون إلى هاوية .

فلما استقرت أكثر قوات المسلمين فى الوادى رماهم المشركون بوابل من سهامهم فلم يعرف المسلمون مصدر ذلك الرمى ، لأن الظلام كان سائدا وقتذاك ولأن مواضع المشركين كانت مخفية تماما ، فتراجعت مقدمة المسلمين ، وجرفت أمامها قوات المسلمين الأخرى ، فانقلب الانسحاب إلى هزيمة . .

وحاول شيبة بن عثمان بن طلحة الذى قتل أبوه فى أحد ـ اغتيال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الموقف العصيب ليدرك ثأر أبيه . ولكن الله دافع عن نبيه .

وترك جيش العدو أماكنه للقيام بالمطاردة ، وكان يتقدم هوازن رجل على جمل أحمر ، بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، وكلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وجيوش هوازن وثقيف منحدرون وراءه يطعنون ، وانتشر الفزع بين المسلمين ، وازدحمت المسالك بالسابلة ، وارتبكت الصفوف واختلطت القبائل وركبت الإبل بعضها وهى مولية بأصحابها ، وتعقدت الأمور .

الهجوم المضاد للمسلمين

ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثبت فى مكانه ، وثبت معه عشرة

من أهل بيته ومن المهاجرين هم : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وابنه جعفر ، والفضل بن العباس ، وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد ، وأيمن بن أم أيمن .

وأخذ النبى - ﷺ - ينادى الناس ، إذ يمرون به منهزمين - أين أيها الناس ؟ أين ؟ هلموا إلىّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله . . وأخذ يردد : أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب .

ولكن أحدا لا يرد .

لقد انساق الناس بدون وعى وراء الهزيمة . .

إلا أن النبى - ﷺ - أمر العباس ، وكان جهير الصوت أن يُنادى : يامعشر الأنصار ، ياأصحاب البيعة يوم الحديبية . يامعشر المهاجرين . .

وكرر العباس النداء حتى تجاوبت أصداؤه فى جنبات الوادى .

وسمع النداء المهاجرون والانصار ، فأخذوا يجاهدون حتى بلغوا مصدر الصوت .

ورمى بعضهم درعه وترك بعيره واستصحب سيفه فقط ، ليبلغ مصدر الصوت بسرعة . .

واجتمع حول الرسول - ﷺ - نحو مائة وهو يصيحون : لبيك - لبيك . . وهؤلاء هم المائة الصابرة .

فاستقبل النبى - ﷺ - بهم المشركين ، وصمدوا فى مواطنهم حتى فتر هجوم المشركين .

وكان النهار قد طلع ، والمشركون قد تركوا مواقعهم ، فلا يحتاج المسلمون إلا إلى الصمود لايقاع بعض الخسائر بالمشركين لكى تتزعزع معنوياتهم ويوقفوا الهجوم .

ولولا صمود هذا العدد القليل من المسلمين ومشاغلتهم المشركين لكانت خسائر المسلمين فى تلك المعركة كبيرة جدا . وتمكن علىٌ ورجل من الأنصار من قتل الرجل صاحب الجمل الأحمر الذى كان يقود المشركين فبدأ وجه المعركة يتغير .

وأخذ عدد المسلمين الصامدين يتزايد ، وهنا بدأوا بالهجوم المضاد على المشركين ، وعندما رأت هوازن وثقيف أن المقاومة لا تجديهم نفعاً ، وأنهم لا يستطيعون صد هجوم المسلمين انسحبوا من ميدان المعركة تاركين وراءهم نساءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين ، ولم يكن للمشركين ساقة لحماية الانسحاب ، فانقلب الانسحاب إلى هزيمة ساحقة .

وأسرع المنسحبون من ثقيف إلى الطائف وكان معهم الزعيم المغرور مالك بن عوف ، وانسحبت هوازن وبقية القبائل إلى أوطاس ونخلة .

وقام المسلمون بعملية المطاردة ، وأعلن النبى - ﷺ - : من قتل مشركا فله سلبه ، ووصلت المطاردة إلى أوطاس ، فأوقعوا بهوازن خسائر فادحة بالأرواح ، كما وصلوا الى نخلة فأوقعوا بالمنسحبين خسائر فادحة أيضاً واستسلم كثير من المشركين أسرى .

وعاد حديثو العهد بالأسلام الذين كانوا قد فروا فى بداية المعركة فرأوا المشركين أسرى مصفدين بالأغلال[١٥٨]

ويفصل أحد الخبراء العسكريين رأيه فى تلك المعركة من وجهة النظر العسكرية فيقول :

كان خالد أول من تلقى صدمة الكمين الذى أعده مالك بن عوف قائد المشركين ، وتبدد هدوء الفجر بآلاف الصيحات التى أطلقها الاعداء ، وانهالت السهام ليس بالعشرات أو العشرينات ولكن بالمئات ، انهالت السهام كالمطر الهاطل من السماء وأصابت الخيل والرجال . . . . ولم يقف بنو سُليم للتصرف ضد العدو ، ولم يقفوا ليفكروا أو يلتجئوا ، بل اتجهوا للخلف ، فروا كرجل واحد ، وذهبت صيحات خالد لرجاله كى يصمدوا أدراج الرياح ، وضاعت فى الضجيج والفوضى نداءاته ، وجرح خالد جرحاً بليغا ، وأخذ بعيداً ، ولكن بعد مسافة قصيرة سقط عن فرسه وبقى ممدوداً على الأرض غير قادر على الحركة بسبب جرحه . .

ومضى هذا الخبير العسكرى يصف المعركة على النحو الذى وصفت به فيما قدمناه . . ثم قال : كانت هذه أول مرة يقع فيها المسلمون فى كمين على نطاق كبير من قِبَل عدوهم .

وكان هذا الكمين ثانى كمين فى التاريخ . . . . إذ يقوم جيش كامل بنصب كمين لجيش كامل .

---

(١٥٨) الرسول القائد ـ محمود شيت خطاب ص ٣٥٧

ـ أما الكمين الأول فكان الكمين الذى نُصِبَ للرومان من قبل « هانيبال » عند بحيرة « تراسمين » فى عام ٢١٧ قبل الميلاد .

كانت خطة مالك التى وضعها لإبادة جيش المسلمين جيدة وسليمة ، ولكن بسبب ضعف التنفيذ من قبل رجاله لم يستطع أن يحقق المهمة التى خطط لها ، وعلى كل الأحوال فإنه على الرغم من ضعف التنفيذ هذا ، كان بإمكانه أن يحقق نصراً مؤزراً لو لم يكن المسلمون هم الذين يواجهونه . فتصميم النبى ـ ﷺ ـ على عدم تقبل الهزيمة ، وإيمان المسلمين بقائدهم ، هما اللذان حولا الهزيمة الى نصر لهم .

كان النبى ـ ﷺ ـ بخلاف مالك ـ غير راض بنجاح محدود فبمجرد أن أصبح الزمام فى أيدى المسلمين استثمر النبى ـ ﷺ ـ هذا النجاح لتدمير العدو والاستيلاء على معسكره بما فيه من غنائم .

وبالنسبة لخالد فهذه هى المرة الأولى التى أُخِذَ فيها على غرة ، كان دائما يعرف قيمة المفاجأة ، لكنه هذه المرة فوجىء هو شخصيا ، ورأى بعينيه كيف ذعر رجاله عند الظهور المفاجىء للعدو فى وقت ومكان غير متوقعين وصمم على أن لا يؤخذ على حين غرة مرة أخرى(١٥٩)

العقاد يبرر الموقف

لقد زلزل المسلمون أولا بالفعل نتيجة لمفاجأة غير متوقعة ، ولطف الله بهم فاستعادوا الكرة ، وحققوا النصر .

---

(١٥٩) سيف الله خالد بن الوليد جنرال أ أكرم ص ١٢٠

ويمكن الاعتذار عن المسلمين فى ذلك ، فما حدث ليس بدعاً فى التاريخ ، ولنقرأ ماكتبه العقاد ـ رحمه الله ـ فى تبرير هذا الموقف ـ قال :

« فوجئت الخيل فى الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر فولت منهزمة فى جَفْلَة حيوانية معروفة فى أشباه هذه المواقف ، وقديما ذكر الرواة عن حرب الاسكندر وأمراء الهند أن جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت سبب الهزيمة التى أصيبت بها الهند ، فانقلبت الفيلة وبالا عليهم ، وقضت وهى مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطأ بعضهم وتوقع الآخرين ، وتدفع من حاول الثبات إلى الفرار . . . . ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقى الفرس من الفيلة مثل هذا المصرع ، ومثل هذه الجفلة الحيوانية ـ يوم تعمدها المسلمون بالضرب فى الأعين والخياشيم فى إحدى المعارك التى دارت مع الفرس .

وقد حدث مثل هذا مرة أخرى فى وقعة حنين هذه ، حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار ، فصار الرجل يلوى بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ويترك بعيره ويخلى سبيله ويسرع الصوت .

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم واختلاط الحابل بالنابل من الفريقين بعد ذلك .

وتواتر القول بأن الطلقاء الذين كانوا حديثى عهد بالاسلام أدبروا منهزمين بعد الهجمة الأولى ، فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار .

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضا من بعضهم لعدم ثبات الإيمان فى قلوبهم ، وعلى كره من بعضهم لأنفتهم من غلبة الأعراب على قريش ـ

ومما يؤثر فى ذلك قول صفوان بن أمية ، وكان لا يزال على شركه ـ : لأن يربنى رجل من قريش أحب إلىَّ من أن يربنى رجل من هوازن . قال ذلك حين سمع بعض الكفرة يقول : الآن بطل السحر . . وقال له : اسكت فض الله فاك .

سبب تغير المعركة

وتغيَّر مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفضل فى ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين ، وحركة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان مجيئها فى الموعد المقدور .

فأما الحركة التى جاءت من قبل المسلمين فهى بروز النبى ـ ﷺ ـ بشخصه الكريم الى مقدمة الصفوف . فقد ثبت فى ذلك الهول الجارف ثبوتا يجل عن الوصف ، وأخذ زمام المعركة كلها فى يديه ليمضي وحده فى القتال كيفما تصير الأمور .

وكان قد شهد المعركة على بغلته الشهباء ، فانحاز الى اليمين سريعا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدفقة من مدبرين ومقبلين ، والتفت الى اليمين ونادى : يامعشر الأنصار .

ثم التفت إلى اليسار ونادى كذلك : يامعشر الانصار والمهاجرين فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا ـ عطفة الإبل على أولادها ـ واجتمع حول رسول

الله - ﷺ - مئات المقاتلين فى لمحة عين .

وجعل الرسول يقول :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وأمر النبى عمه العباس أن ينادى فى الجيش : يامعشر الانصار ، ياأهل السَّمُرة[١٦٠] ، ياأصحاب سورة البقرة ، يابنى الخزرج ..... وكان العباس جهير الصوت يسمع صوته على مسافات بعيدة ، قيل : إنه كان يقف على سلع[١٦١] وينادى على غلمانه فيسمعونه ، وبينه وبينهم ثمانية أميال .

فلما جلجل الصوت بهذا النداء إذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون : يالبيك يالبيك ، ويسرعون إلى ناحية الصوت زرافات زرافات ، حتى تجمع منهم ثلثمائة أو يزيد فى لحظات ، ثم شاع بين الألوف المؤلفة خبر عودة الجنود بعد فرارهم ومواجهتهم للعدو ، فاذا بالجيش الاسلامى بقضه وقضيضه[١٦٢] يعدو إلى ساحة القتال ، ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه ، وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات ..

أما الحركة التى جاءت من قبل المشركين فأعانت على هزيمتهم - فذاك أنهم قد غرتهم طلائع النصر فأقبلوا على الغنائم والأسلاب ، وشغل الكثير

---

(١٦٠) السمرة : نوع من الشجر ، وهى الشجرة التى بويع تحتها بيعة الرضوان

(١٦١) جبل سلع من جبال المدينة

(١٦٢) بقضه وقضيضه : جميعه

منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين من جيش المسلمين . فاتفقت الحركتان فى وقت واحد لتحويل وجهة القتال .

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التى أجملناها أن الهزيمة التى حدثت للمسلمين فى بداية المعركة كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وأنها ضرورة لم يكن لأحد يد فيها ، لأن أسبابها كانت كثيرة .. ومنها :

● أن الروح التى غلبت على الجيش الاسلامى بداية المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث ، وأن الروح التى غلبت على المشركين يومئذ كانت روح استماتة وعناد مع تقارب عدد الجيش .

● وربما رجحت كفة المشركين فى الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبى - ﷺ - إلى استعارة بعض الدروع والرماح .

وجود كثير من الطلقاء فى جيش المسلمين ـ يبلغون الألفين وقد يزيدون وهؤلاء كانوا حديثى عهد بالإسلام وبعضهم كان يتمنى هزيمة المسلمين ولهذا فروا عن أول وهلة من المعركة .

سبق المشركون إلى الميدان فاختاروا المواقع المهمة وأحسنوا الاختيار ، وهجموا فى الوقت الذى ارتضوه .

كان المسلمون يواجهون الشمس عند الصباح واليوم قائظ لا تقوى فيه العيون على مواجهة أشعتها ، فحيل بينهم وبين التثبت والإحكام فى مطلع الصباح إلى أن استوت الشمس فى كبد السماء .

لم يكن استطلاع المسلمين بارعا . . . فلم يكن على عادته من البراعة والتيقن والاسراع ، فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبى - ﷺ - مرات ، ثم جاء ولم يخبر بشيء ، ثم ظهر الكمين من حيث لا يرونه ، فأوقع بالخيل وهى لا تحسب له أى حساب . . . هذا مع مهارة المشركين فى الرماية ، حتى قيل إنهم لا يسقط لهم سهم .(١٦٣)

هذه مبررات الهزيمة فى رأى العقاد . .

وقد استدركها النبى - ﷺ - بثباته والحمدلله ، واستطاع بما أتاه الله من شجاعه وحكمة وقدرة على الثبات أن يحول الهزيمة إلى نصر ساحق ، ويحقق الوعد الذى قاله للمسلمين : هذه غنيمتكم غداً إن شاءالله .

ولقد تحدث هؤلاء جميعا عن الأسباب المادية التى أدت إلى تحويل وجه المعركة من الهزيمة إلى النصر . وأهمها ثبات النبى - ﷺ - وعدم تزحزحه ، ومناداته للأنصار والمهاجرين وتذكيرهم بما عاهدوا الله عليه ، وثبات فئة معه من أهله وأقرب المقربين إليه ، وانعطاف المسلمين الصادقين إليه فور سماع النداء ، وكفاحهم بكل ما أوتوا من قوة ضد أعدائهم حتى أزالوهم عن مواقعهم ، وردوهم على أعقابهم ، وطاردوهم حتى أثخنوا فيهم الجراح ، وكبلوهم مأسورين . .

---

(١٦٣) انظر عبقرية خالد للعقاد ص ٩٠ ومابعدها .

ولكنهم لم يتحدثوا عن أسباب أخرى كانت وراء ذلك ، مع أن القرآن الكريم أشار إليها صريحة واضحة لا ريب فيها - تلك هى مدد الملائكة الذين بعثهم الله محاربين فى صفوف المسلمين ، والذين عناهم الله بقوله

ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها »

قال القرطبى فى تفسيره : أخذ رسول الله - ﷺ - حصيات فرمى بها فى وجوه الكفار ، ثم قال : انهزموا ورب محمد . قال راوى الحديث : فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فمازلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا .

وقال أبو عمر : روينا من وجوه عن بعض من أسلم من المشركين ممن شهد حنينا أنه قال - وقد سئل عن يوم حنين - : لقينا المسلمين فما لبثنا أن هزمناهم وأتبعناهم حتى انتهينا إلى رجل راكب بغلة بيضاء - فلما رآنا زجرنا زجرة شديدة وانتهرنا ، وأخذ بكفه حصى وترابا فرمى به وقال : شاهت الوجوه ، فلم تبق عين إلا دخلها من ذلك ، وما ملكنا أنفسنا أن رجعنا على أعقابنا .

فهذه قبضة من تراب أو حصىً ألقاها النبى - ﷺ - بيده الشريفة فكان لها فعل القذائف الموجهة التى لا تخطىء الطريق إلى وجهتها ، ووجهتها العيون خاصة - حتى تعمى عن الرؤية وتخطىء الطريق بسبب ما أصابها ، ثم هى تُلقِى مع ذلك الرعب فى قلوب من وجهت إليهم فيرتدون على أعقابهم خاسرين . وربما أصابت أفواههم أيضا فملأتها مرارة ، وجرعتهم غصة لايفيقون منها . . . . أى قوة بلغتها هذه القبضة التى وزعت على جيش كبير

يعد بالآلاف فما أخطأت واحداً منهم ، بل كل منهم ناله من هذه القبضة نصيب ؟

أليس ذلك هو الإعجاز الذى يمد الله به نبيه ، ويصدق به دعوته ويثبت به أقدامه ؟

ولقد روى هذا الحديث من طرق متعددة وبأساليب مختلفة ، قال سعيد بن جبير : حدثنا رجل من المشركين يوم حنين قال : لما التقينا مع أصحاب رسول الله - ﷺ - لم يقفوا لنا حَلْب شاة ، حتى إذا انتهينا الى صاحب البغلة الشهباء ، يعنى رسول الله - ﷺ - تلقانا رجال بيض الوجوه حسان ، فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا ، فرجعنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها - يعنى الملائكة .

ولا تعارض بين أن تكون عبارة « شاهت الوجوه » قد قالها النبى - ﷺ - أو قالتها الملائكة - فلا يبعد أن يكون كل منهم قالها ..

ما رواة أبوعبدالرحمن الفهرى

ولا شك فى أن الملائكة قد قاتلت يوم حنين كما قاتلت يوم بدر . ولقد تواترت الأخبار بذلك . فقد روى ذلك أصحاب السنن عن ثقات . وروى أحمد وأبو داود والدارمى من حديث أبى عبدالرحمن الفهرى فى قصة حنين قال :

كنت مع النبى - ﷺ - فى حنين فى يوم قائظ شديد الحر ، فنزلنا تحت ظلال الشجر ، فلما زالت الشمس لبست لأمتى وركبت فرسى ، فأتيت

رسول الله - ﷺ - وهو فى فسطاطه . فقلت : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله ، قد حان الرواح ؟

قال : أجل .

ثم قال : يابلال ، فأسرع من تحت شجرة كأن ظله ظل طائر ، فقال : لبيك وسعديك ، وأنا فداؤك - يارسول الله :

قال : أسرج لى فرس .

فأتى بسرج وأسرج به الفرس ، فركبه النبى - ﷺ - ثم سرنا يومنا ، فلقينا العدو ، وتشامت الخيلان(١٦٤) ، فقاتلناهم .
فولى المسلمون مدبرين . كما قال الله - تعالى -

فقال - ﷺ - : أنا عبدالله ورسوله ، أنا عبدالله ورسوله . ونادى - ﷺ - نداءين لم يخلط بينهما كلام . . . التفت عن يمينه فقال : يامعشر الأنصار أنا عبدالله ورسوله . فقالوا : لبيك يارسول الله ، نحن معك ، ثم التفت عن يساره فقال : يا معشر الأنصار ، أنا عبدالله ورسوله . فقالوا : لبيك يارسول الله نحن معك .

فهزم الله المشركين ثم نزل النبى عن فرسه فأخذ كفا من تراب .
قال : فأخبرنى الذى كان أدنى إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال : شاهت الوجوه . فهزمهم الله - تعالى .

وفى رواية ابن عطاء عن أبى همام الكوفى عن أبى عبدالرحمن الفهرى : فحدثنى أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا : لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه

---

(١٦٤) تشامت : تقاربت

وفمه ترابا ، وسمعنا صلصلة من السماء كإمرار الحديد على الطست الجديد .

لقد عاين المشركون الملائكة بأنفسهم . ولا يرى الملائكة فى الحرب إلا المشركون ، لأن القصد من ذلك إرهابهم ، ولا يراها المسلمون حتى لا يتكلوا عليها ويتركوا القتال .

أخرج ابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن شيبة بن عثمان قال : خرجت مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حنين ، والله ماخرجت إسلاما ولكن خرجت اتقاء أن تظهر هوازن على قريش ، فوالله إنى لواقف مع رسول الله ـ ﷺ ـ إذ قلت : يارسول الله ، إنى لأرى خيلا بلقا .

قال : ياشيبة ، إنه لا يراها إلا كافر . فضرب بيده فى صدرى ، وقال : اللهم اهد شيبة . فعل ذلك ثلاث مرات ، فوالله ما رفع ـ ﷺ ـ الثالثة حتى ما أجد من خلق الله أحب إلىّ منه .

وذكر القسطلانى أن الملائكة نزلت يوم حنين وسيماهم عمائم حمر أرخوها بين أكتفاهم .(١٦٥)

وروى جبير بن مطعم قال : نظرت والناس يقتتلون يوم حنين إلى مثل البجاد(١٦٦) الأسود يهوى من السماء . وفى رواية : رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم

---

(١٦٥) شرح المواهب اللدنية للزرقانى ج ٣ ص ١٥

(١٦٦) البجاد : الكساء ويجمع على بُجُد

فنظرت فإذا هو قد ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ولم يكن إلا هزيمة القوم[١٦٧]

وروى الواقدى عن شيوخ من الأنصار قالوا : رأينا يومئذ كالبجد السود هوت من السماء ركاما ، فكان نصر الله أيدنا به

ولعل الحكمة فى نزولهم بهذه الصورة أن يراهم المسلمون فيسألوا عنهم فيعلموا أنهم الملائكة وبذلك تقوى قلوبهم وتثبت أقدامهم .

الذين ثبتوا مع الرسول

لقد كان موقف النبى - ﷺ - رائعا فى ثباته فى ذلك الموقف الذى تتزلزل فيه أقدام الشجعان . .

ولم نقرأ فى تاريخ الحروب القديمة أو الحديثة أن قائدا من القواد تركه جنوده فارين منهزمين ثم بقى هو وحده ثابتا راسخا كالطود أمام الآلاف من جنود الأعداء الزاحفين لم يتزحزح .

إن ثباته وحده معجزة . . . . لأن وقوفه بهذه الصورة الخارقة أمر ليس فى طوق أحد من الناس .

إن أى إنسان مهما أوتى من الشجاعة والبأس والقوة لا يمكن أن يقف وحده فى الميدان أمام عشرة آلاف مقاتل تتلظى قلوبهم حقداً وكفراً وشراً وعدوانا ؟ . .

---

(١٦٧) المرجع السابق

لا تعليل لذلك إلا المعجزة . تلك التى أعمت العدو ، وأرهبته ، وزلزلت أركانه ، وردته على أعقابه خاسراً . .

وثباته هذا هو الذى بث الاطمئنان فى قلوب القلّة التى أحاطت به من ذويه وأصحابه . وكان الواحد منهم فى مقام ألف من الجنود أو يزيد ، ولم يكن الواحد منهم تهمه نفسه بقدر ما كان يهمه حياة النبى - ﷺ - الصامد أمامهم ، يود الواحد منهم أن يفديه بكل ما تمتلك روحه من أنفاس الحياة . . .

ولا تعليل لذلك إلا الإيمان العميق الذى تغلغل فى النفوس ، والحب الشديد لرسول الله - ﷺ - وهو جزء لا يتجزأ من العقيدة ، بل هو صلب العقيدة . . . . لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وفى الحديث الصحيح : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار[١٦٨] »

وقد اختلف الرواة فى أسماء الذين ثبتوا معه - صلى الله عليه وسلم - وقد أشار إليهم القرطبى فى تفسيره . . وقد سبق أن ذكرنا أسماءهم فى بعض الروايات .

ذكر القرطبى أن العباس عم النبى - صلى الله عليه وسلم - أشار إلى عشرة رجال ثبتوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى بيتين من الشعر هما :

---

(١٦٨) متفق عليه عن أبى أمامة وفى البخارى ومسلم كتاب الايمان ، وفى جمع الجوامع برقم ١٢٩٠٥/١

نصرنا رسول الله فى الحرب تسعة وقد فر من قد فر عنه وأقشعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه بماسه فى الله لا يتوجع

وهؤلاء العشرة هم : أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ـ على حداثة إسلامه ـ وابنه جعفر ، وأسامة ابن زيد ، وأيمن بن عبيد ـ وهو ابن أم أيمن ـ وهو الذى قتل فى الغزوة ـ وربيعة بن الحارث والفضل بن العباس .

وكان من النساء أم سليم ـ زوجة أبى طلحة ـ وفى يدها خنجر أعدته للمهاجين أو للمنهزمين .

وكان العباس وأبو سفيان بن الحارث آخذين ببغلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكفأنها عن التقدم على العدو ، لأنه ركضها فى نحورهم تحدياً لهم على الرغم من هزيمة أصحابه أمامهم .

إن فى ذلك لدلالة قوية على ثبات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعدم تصور هزيمته . . . وقد حكى القاضى عياض فى الشفا أن من يقول : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هزم يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل .

وهذا رد على من توهم نسبة ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد اعتبر القاضى عياض هذا القول ردة على رأى قوم . .

بل إن العلماء اعتبروا ركوب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغلة فى هذا الموطن دليلاً عملياً ملموساً على شجاعته ، فإن من دأب الحروب أن تركب

فيها الخيول لا البغال . وأن البغال لا تستعمل عادة إلا فى مواطن الأمن والاطمئنان .

وفى اعتبار مواطن الحرب كالسلم دلالة على قوة القلب وعدم الرهبة من العدو وزيادة الثقة بالله ـ تعالى ـ وقوة التوكل عليه . .

عبارات ألهبت المعركة

كان لنداء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأنصار وأصحاب البيعة بقوله : يا أهل السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة ـ أثر كبير فى إثارة روح التضحية والفداء .

وتعنى العبارة الأولى تذكيرهم بما بايعوا عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الحديبية . . . . وقد زكى الله هذه البيعة بقوله

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾(١٦٩)

وتعنى العبارة الثانية تذكيرهم بإيثار الآخرة على الأولى ، وأن ما أعطاهم الله من نعمة وخصهم به من فضل تهون بجواره الأرواح وتسترخص فى سبيل الفوز به النفوس .

وإن لسورة البقرة منزلة لا تسموها منزلة .

---

(١٦٩) الفتح ١٨

فضل سورة البقرة

قال العلماء : هذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم ، ويقال لها : فسطاط القرآن ، وذلك لعظم بهائها وكثرة أحكامها ومواعظها .

إنها تحتوى على ألف أمر ، وألف نهى ، وألف حكم ، وألف خبر .

ويروى الثقات أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل بعثاً وهم ذوو عدد .... وقدم عليهم أحدثهم سناً لأنه اتضح أنه يحفظ سورة البقرة دونهم وقال له : اذهب فأنت أميرهم[١٧٠] .

وروى مسلم عن أبى أمامة الباهلى قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة قال معاوية ـ وهو أحد رواة الحديث : بلغنى أن البطلة هم السحرَة .

ومعنى ذلك أن حافظها لا يؤثر فيه السحر ، وهو أقوى أنواع الأذى ، فما بالك بما هو دونه ؟

وفيها يرويه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة » .

ومما روى فى فضائلها أيضاً قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن لكل شىء سناماً وإن سنام القرآن سورة البقرة » .

---

(١٧٠) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة

وفى رواية : « ومن قرأها فى بيته ليلاً لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ومن قرأها نهاراً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام » .

وفى سورة البقرة عشر آيات تعد حصناً لمن داوم على تلاوتها وهى أربع آيات من أولها ، وآية الكرسى ، وآيتان بعدها ، وثلاث آيات هى خواتيمها » من قوله ـ تعالى ـ

« لله ما فى السموات والأرض . . إلى آخر السورة[171] »

أما آية الكرسى فقد ورد فى فضلها آثار كثيرة .

روى الإمام أحمد حديث أبىّ بن كعب أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأله : أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فرددها مراراً ، ثم قال أُبَى : آية الكرسى . قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليهنك العلم أبا المنذر[172] .

وفى خواتيم سورة البقرة قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش » وفى رواية « لم يعطهن نبى قبلى[173] »

فلا عجب أن يهتف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحاب سورة البقرة ، لما خصهم الله به من الكرامة التى تقهر أولياء الشيطان .

أما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

---

(١٧١) تفسير القرطبى ـ مقدمة سورة البقرة

(١٧٢) مسند الامام أحمد ١٤١/٥

(١٧٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٠٦

فقد كان له وقع كبير فى تثبيت أقدام من ثبت بجواره ، وسرعة عودة من أذهلته المفاجأة فزحزحته عن مكانه .

لقد نفى النبى - صلى الله عليه وسلم - الكذب عن نفسه ، فكل ما يخبر به فهو صدق ، وقد أخبرهم أنهم ينتصرون ويغنمون ، فلابد أن يتحقق ذلك .

وقد ذكرهم بنسبه العالى الذى كان العرب يعرفون شرفه ومنزلته . . . . . ولعبد المطلب بالذات عندهم مكانة وفضل ، ولو كان النبى شاعراً لقلنا إن الإيقاع الشعرى هو الذى جعله يعدل عن عبد الله إلى عبد المطلب ، ولكن الله يقول فى حقه

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾(١٧٤)

إنه كلام جاء عفو الخاطر وإن وافق وزناً شعرياً ، إلا أنه غير مقصود .

وكان العرب يعرفونه بابن عبد المطلب ، اتباعاً للقاعدة المشهورة عندهم من أنهم ينسبون الشخص لجده أو قبيلته ، وكان كثير منهم يخاطبه بابن عبد المطلب . فقد كان عبد المطلب مشهوراً شهرة ذائعة ، ورزقه الله طول العمر ونباهة الشأن ، حتى اعتز به سيف بن ذى يزن وقربه إليه حين ذهب إليه مهنئاً بجلاء الأحباش عن بلاده ، وبشره بنبوة حفيده - صلى الله عليه وسلم - حتى عاد عبد المطلب من عنده وقد عظمت بهجته واشتدت فرحته .

---

(١٧٤) يس ٦٩

ويروى أن ضمام بن ثعلبة حين قدم المدينة مسلماً ولم يكن رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل ذلك . وأناخ بعيره خارج المسجد ثم أقبل على القوم ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهم فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟

فكأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يذكِّر الناس ، ولاسيما هؤلاء الأعراب الجفاة بذلك كله ، ويثير فى أذهانهم قصة التبشير بنبوته قبل أن يولد . يضاف إلى ذلك ما ذكره ابن كثير فى تفسيره قال :

لقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الكلمة فى مثل هذا اليوم ، فى حومة الوغى ، وقد انكشف عنه جيشه ، وهو على بغلة ليست سريعة ولا تصلح للكر ـ وهو مع ذلك يركضها فى وجوه القوم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه . .

ـ فهل هناك شجاعة أكثر من هذه الشجاعة ؟ وهل هناك تحد أكبر من هذا التحدى ؟ ـ

مع أنه هو المستهدف الوحيد فى هذه المعركة ، وحِرْص الكفار على قتله كان شديداً . . وهو مثار فخر لمن يحققه . . فأى استهانة بالعدو أكثر من ذلك ؟ كأنه يقول لهم : هأنذا وحدى أمامكم ، فمن لم يعرفنى فليعرفنى ومن أرادنى فليأت إلىّ ـ

قال ابن كثير : وما ذلك كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً منه بأن الله سينصره ويتم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الأديان .

الآن حمى الوطيس

ومن الكلمات الجامعة التى قالها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تلك المعركة والتى لم تسمع قبل ذلك من غيره . قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الآن حمى الوطيس » .

وهى من وَطست الشىء إذا كدرته وأثرت فيه ، وأصل الوطيس فى اللغة التنور ، وأراد هنا الحرب نفسها ، فكأنه شبهها بالتنور المشتعل

وقال بعض أهل اللغة : الوطيس حجارة تُوقِد العرب تحتها النار ويشوون فيها اللحم .

وهذا مثل يضرب لشدة الحرب واشتعالها . وهذا من فصيح الكلام الذى لم يسمع من أحد قبل ذلك .

وإذا كنا نعجب ببعض الحكماء الذين يرد فى طى كلامهم بعض الأمثال وأغلبها مما أثرت عن غيرهم ، فكيف لا يستولى علينا الاعجاب حين نقرأ للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمثاله المبتكرة التى لم يُسْبق إليها ، بل هى من إملاء الموقف الذى هو فيه ، ومن نتاج اللحظة التى قيل فيها .

صور رائعة من البطولة

إن انكشاف المسلمين فى الجولة الأولى لا يعنى أنهم فقدوا روح البطولة . أو أن هذه الغزوة خلت من البطولات التى عرفت عن كثير منهم . . لقد حفلت هذه الغزوة كغيرها من الغزوات بآيات خارقة من البطولة والتضحية

والإيثار ، ونحن نقدم بعض ذلك على سبيل الاستشهاد لا الحصر . . ويأتى فى مقدمة ذلك . . موقف أولئك النفر العشرة الذين أحاطوا بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إحاطة السوار بالمعصم ولم يبارحوه فى هذه اللحظة الرهيبة التى تشبه يوم الحشر . .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١٧٥)

والشأن هنا هو النجاة بالنفس والتفكير فى شأنها لا شأن غيرها . . حقاً ، لقد كان موقفاً عصيباً . . وكان جديراً بوصف القرآن له

« وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين »

فثبات أولئك النفر مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعد عملاً بطولياً رائعاً لاشك فى ذلك .

كان العباس ـ رضى الله عنه ـ آخذاً بلجام بغلة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكفها مخافة أن تصل إلى العدو ، وكان أبو سفيان بن الحارث آخذاً بركابه . . وبقية النفر الثمانية يحيطون به ويدرءون دونه .

وقد رفع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يديه مستغيثاً بالله راجياً إياه وهو يقول : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان » .

---

(١٧٥) عبس ٣٤ ـ ٣٧

فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ : لقد لقنت الكلمات التى لقن الله ـ تعالى ـ موسى يوم فلق البحر ، وكان البحر أمامه وفرعون خلفه .

روى البيهقى عن الضحاك قال : دعا موسى حين توجه إلى فرعون ، ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم حنين :

« كنت وتكون ، وأنت حَيٌّ لا تموت ، تنام العيون ، وتنكدر النجوم وأنت حى قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، يا حيى يا قيوم »

قَتْلُ صاحب الجمل

روى ابن هشام قول ابن إسحاق عن جابر قال : بينما رجل من هوازن على جمل أحمر يحمل راية سوداء يقود الناس ويطعن فى المسلمين برمحه إذ أسرع إليه على بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ ورجل من الأنصار يريدانه ، فجاءه على بن أبى طالب من خلفه فضرب عرقوبى جمله فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطنَّ بها ـ قطع ـ قدمه بنصف ساقه ، فسقط عن رحله . قال : واجتلد الناس ، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مقيدين عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (١٧٦) .

الاسلام يغير أطوار النفوس

وفى قصة شيبة بن عثمان بن طلحة ـ مثل عجيب . . . . قال يحدث عن إسلامه ، وقد كان مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حنين وهو ما يزال على شركه :

---

(١٧٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٦٠

ما رأيت أعجب مما كنا فيه من اتباع ما مضى عليه آباؤنا من الضلالات ، ولما كان عام الفتح .. دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ، وسار إلى حرب هوزان

قلت : أسير مع قريش إلى هوازن بحنين ، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأقتله ، فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها .

وكنت أقول : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما اتبعته ، لا يزداد ذلك الأمر عندى إلا شدة .

فلما اختلط الناس ، ونزل ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن بغلته أَصْلَتُّ(177) السيف ودنوت منه أريد الذى أريد منه ، ورفعت السيف حتى كدت أُوقع به . . . . . . فبينما أنا فى ذلك إذ رُفِع إلىَّ شواظ من نار كالبرق كاد يهلكنى ، فوضعت يدى على بصرى خوفاً عليه .

وفى رواية : لما هممت به حال بينى وبينه خندق من نار وسور من حديد . فنادانى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يا شيبة ـ ادن منى ، فدنوت منه ، فالتفت إلىَّ وتبسم وعرف الذى أريد منه .

فمسح صدرى ، ثم قال : اللهم أعذه من الشيطان .

قال شيبة : فوالله لهو كان الساعة أحب إلىَّ من سمعى وبصرى ونفسى ، وأذهب الله ما كان فى قلبى ..

---

(١٧٧) أَصْلَتُّ : جردته وشهرته

ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ادن فقاتل .

قال : فتقدمت أمامه أضرب بسيفى يعلم الله أنى أحب أن أقيه بنفسى من كل شىء ، ولو كان أبى حياً ولقيته تلك الساعة يريد إيذاء الرسول لأوقعت به السيف . فكنت ممن لزمه فى ذلك اليوم(١٧٨) .

من قتل قتيلاً فله سلبه

ونادى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : من قتل قتيلاً فله سلبه . وكان لهذه الكلمة أثرها ، وبخاصة بين الأعراب الذين خرجوا مع جيش المسلمين ، فقد ألهبت الكلمة حماسهم ، وهى كلمة كانت مقررة من قبل ، فالمعروف أن سلب القتيل فى الحرب من حق قاتله ، إلا أن النداء هنا كانت له أهميته لتأكيد مشروعيته هذا الأمر من جهة ، ولإثارة الحماس من جهة أخرى .

حدث أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : سلب أبو طلحة ـ رضى الله عنه ـ وحده عشرين رجلاً ، والمقصود أنه قتلهم وأخذ أسلابهم .

ولا يعنى السلب القيمة المادية وحدها ، فقد لا يكون مع القتيل ما يغنى ، ولكن القيمة المعنوية هى التى تقصد .. إنها تعنى عدد الجولات التى ظهر فيها المقاتل على الأعداء ..

ومما يقصه الرواة فى ذلك ، ما قاله أبو قتادة : رأيت يوم حنين مسلماً ومشركاً يقتتلان ، وإذا رجل من المشركين يريد إعانة المشرك ، فأتيته

---

(١٧٨) السيرة الحلبية جـ٣ ص ٧٥

وضربت يده فقطعتها ، فاعتنقني بيده الأخرى ، فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الموت ، ولولا أن الدم نزفه لقتلني ، سقط وضربته فقتلته ، وأجهضني القتال عن استلابه .

فلما وضعت الحرب أوزارها قلت : يا رسول الله ، لقد قتلت قتيلاً ذا سلب ، وأجهضني القتال ، فما أدرى من استلبه .

فقال رجل من أهل مكة : صدق يا رسول الله ، فأرضه عني من سلبه .

فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ والله لا يرضيه ، تعمد إلى أسد من أُسْد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلب قتيله ؟

قال أبو قتادة : فأخذته منه ، فاشتريت بثمنه بستاناً .

مقتل دريد بن الصمة

وكان دريد بن الصمة ـ كما سبق القول ـ قد خرج مع رجال بني جشم . وكان قد بلغ من الكبر عتياً ، وقد ذهب بصره ، وكان يُحَمل . قيل : إنه قد بلغ مائة وعشرين عاماً ، وقال بعض الرواة : بل أكثر من ذلك .

وكان خروجه مع قومه لمجرد التيمن برأيه .

ويقال : إنه أشار بعدم قتال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد روى بعض الرواة أنه قال لمالك بن عوف : تريد أن تقاتل رجلاً كريماً قد أوطأ العرب وخافته العجم ومن بالشام وأجلى يهود الحجاز إما قتلاً وإما خروجاً عن ذل وصغار . . إن يومك هذا الذي تلقى فيه محمداً ما بعده يوم ؟

فقال مالك : إني لأطمع أن ترى ما يسرك .

قال دريد : منزلى حيث ترى فاذا جمعت الناس سرت إليك . .

وقد سبق أن ذكرنا أن دريدا لم يعجبه تصرف مالك ، وأشار عليه بغير ذلك ، ولكن مالكا أبى إلا تنفيذ أمره . .

وسارت المعركة على ماسارت اليه ، ثم انتهت بهزيمة هوازن ومن معها هزيمة منكرة . وفر الأعراب مدبرين .

وأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة ، فأخذ بخطام جمله وهو يظنه امرأة وذلك أنه كان فى شجار فأناخ به ، فإذا هو شيخ كبير لايعرفه الغلام .

فقال له دريد : ماذا تريد ؟

قال ربيعة : أقتلك .

قال دريد : ومن أنت ؟

قال : أنا ربيعة بن رفيع السلمى . ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئا .

فقال دريد : بئسما سلحتك أمك ، خذ سيفى من مؤخر الشجار ، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أقتل الرجال ، وإذا اتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم والله منعت فيه نساءك . . . فقتله ربيعة . . فلما رجع الى أمه أخبرها بقتله إياه ، فقالت : لقد أعتق أمهات لك ثلاثا[١٧٩] .

ولا تعليق على قتل دريد . الا أنه رجل كبير لم ينهه كبر سنه ووفور عقله عن الانتهاء عما كانت عليه الجاهلية من شرك . مع معرفته صدق النبى ـ

---

(١٧٩) أسد الغابة حـ٢ صـ٢١١

ﷺ ـ وظهور أمره كما أخبر هو بذلك مالك بن عوف فى صدر محاورتهما معا .

وربما كان قتل دريد لاغناء فيه فى رأى بعض الناس لأنه كما يقال : قد فنى وهو حىّ .

ولكن قتله كان ضرورة لابد منها لأنه زعيم قوم يأتمرون بأمره ، ويتيمنون برأيه . وان كانوا لم يعملوا به .

ولا يعدم إن نجا أن يثير الثائرة ، لأنه لم يتعود الهزيمة ولا يصبر على الضيم .

ففى قتله حسم للشر وقضاء على الفتنة . .

بطولة المرأة العربية

ولم تكن المرأة العربية بمنأى عن المعركة ، ولكن منهن من أبلت بلاء حسنا فى القتال ، فقد حدث البيهقى قال : لقى أبوطلحة أم سليم يوم حنين ومعها خنجر ، فقال : ياأم سليم ماهذا الذى معك ؟

قالت : أردت به . . . . . والله إن دنا منى بعضهم أبعج به بطنه .

فأخبر أبوطلحة النبى ـ ﷺ ـ بذلك . . فقالت أم سليم : يارسول الله أقتل من يعدونا من الطلقاء انهزموا عنك يارسول الله .

فقال : ياأم سليم ، إن الله ـ عز وجل ـ قد كفى وأحسن(١٨٠) .

لقد نظرت أم سليم الى الطلقاء الذين عفا عنهم رسول الله ـ يوم فتح مكة فلم تجدهم خيرا من المشركين ـ بل اعتبرت فرارهم عن رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١٨٠) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٥ صـ ١٥٠

شرا من هجوم المشركين . وربما فهمت أنهم كانوا سبب هذه الهزيمة التى منى بها المسلمون أولا . فعولت على الانتقام منهم . وهو موقف يحمد لها على أى حال ، لأنه يدل على قوة إيمانها وحرصها على رفع راية الاسلام وارتفاع كلمة الله .

المسلمون يتبعون القوم

ولما انهزم القوم عسكر بعضهم بأوطاس وهم قوم دريد فاتبعهم المسلمون ، وأرسل النبى - ﷺ - فى آثارهم جماعة على رأسهم ابوعامر الأشعرى وهو عم أبى موسى الأشعرى ، فلحقوا بالقوم ، وحدثت مبارزة بين أبى عامر وبينهم فقتل تسعة ممن بارزوه .

وكان كل من يبارزه يدعوه أولا الى الاسلام فيأبى ، فيقتله وهو يقول : اللهم فاشهد .

ويقال إن هؤلاء المقتولين كانوا إخوة .

وتقدم أخوهم العاشر بعد ذلك للمبارزة ، فتقدم اليه أبوعامر وعرض عليه الاسلام فأبى ، فقال أبوعامر : اللهم اشهد ، وهجم عليه يريد قتله ، فقال الرجل : اللهم لاتشهد ، وفرش يديه .

فظن أبوعامر أنه أسلم ، وكف عنه فهرب الرجل ، ولكنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

وكان النبى - ﷺ - إذا رآه يقول : هذا شريد أبى عامر[١٨١] .

ويقال : إن أباعامر هو الذى لقى دريد بن الصمة وقومه وهم مولون إلى

---

(١٨١) السيرة الحلبية جـ٣ صـ٢١٤

أوطاس ، فناوشهم القتال ، فهزمهم وقتل منهم ، وقتل دريدا . . . ورماه رجل منهم فى ركبته فأثبته ، ثم لحقه ابن أخيه أبوموسى ، فقال له : ياعم ، من قتلك ؟

فأشار الى رجل من بنى جشم ـ قال بعضهم : هو سلمة بن دريد ، فقصد اليه أبوموسى الأشعرى ، فولى الرجل منهزما .

فقال له أبوموسى : ألا تستحى ؟ ألست عربيا ؟

فوقف الرجل فتبارزا فاختلفا فى ضربتين ، وكانت ضربة أبى موسى لخصمه قاتلة ، ورجع الى عمه فنزع السهم من ركبته . فقال له : ياابن اخى انطلق الى رسول الله ـ فأبلغه منى السلام ، وقل له : يقول لك أبوعامر : استغفر لى . ومكث يسيرا ثم مات .

قال أبوموسى : فرجعت الى رسول الله ﷺ ـ فأخبرته فقال : اللهم اغفر لعبدك أبى عامر ، ثم قال : اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك(١٨٢) .

وأمر النبى ـ ﷺ ـ بجمع الغنائم ـ وما أكثرها ـ وذلك تمهيدا لتقسيمها بعد أن يفرغ نهائيا من أمر أولئك المنسحبين . . . والذين تحصنوا فى الطائف ومعهم مالك بن عوف سيد هوازن .

---

(١٨٢) أسد الغابة حـ ٦ صـ ١٨٧

حصار الطائف

أين تقع الطائف ؟

مسير المسلمين إليها

حصار الحصون

رميهم بالمنجنيق

تحريض العبيد على الفرار

رؤيا النبي ﷺ .

الذين أصيبوا من المسلمين فى الطائف

تقسيم غنائم هوازن

النبى يعطى البعض لتأليف قلوبهم

حكم المؤلفة قلوبهم بعد استقرار الإسلام

أثر العطاء فى تأليف القلوب

اعتراض أحد المنافقين على تقسيم الغنائم .

موقف الأنصار من تقسيم الغنائم



حصار الطائف

أسرع المنهزمون من ثقيف إلى الطائف يلوذون بها فرارا من متابعة المسلمين لهم ، ولاذت معهم فيها بقية القبائل الأخرى التى هربت من أوطاس بعد هزيمتهم فيها . وتحصن الجميع وراء أسوار الطائف وحصونها المنيعة .

لقد جمع هؤلاء الهاربون كل مايكفيهم من المؤن والطعام لمدة عام كامل ، وصمموا على الصمود أمام المسلمين إذا قدموا إليهم وحاصروهم .

وفر مع ثقيف مالك بن عوف زعيم ذلك الجمع والمحرض الأول عليه ورئيس هوازن . .

والطائف بلد كبير على ثلاث مراحل من مكة ومن جهة المشرق . ويتميز بجمال طبيعته وكثرة زروعه وجودة أعنابه ، وكانوا ومايزالون يقولون . . . هو متنزه الحجاز .

وتسميته بالطائف يعللها بعضهم ـ كما جاء فى القاموس ـ بأن نوحا عليه السلام طاف بها على الماء أثناء الطوفان . . أو لأن جبريل طاف بها على البيت . .

ولعل أقرب التعليلات فى ذلك أن رجلا من الصَّدف أصاب دما بحضر موت ـ ففر الى ذلك المكان وكان المكان يسمى « وج » باسم شخص من العماليق نزل به ، فقال ذلك الحضرمى الذى حالف مسعود بن معتب وكان ذا مال عظيم : هل لكم فى أن أبنى لكم طوفا عليكم يكون لكم ردءا من العرب ؟

قالوا : نعم

فبناه وهو الحائط المطيف به .

وأغرب هذه التعليلات ماذكره بعضهم : أن جبريل - عليه السلام - اقتلع الجنة التي كانت بصوران على فرسخ من صنعاء .... فوضعها فى ذلك المكان ، وسميت بالطائف لما فى قوله - تعالى :

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾

فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ (١٨٣)

أو لأنه طاف بها حول البيت قبل أن ينزلها فى هذا المكان .

وقد سبق أن تحدثنا عن قصة أصحاب الجنة . فيما مضى من هذه السلسلة(١٨٤) .



كيف عمرت الطائف ؟

والاستطراد يدعونا إلى ذكر بعض الأخبار الطريفة حول تعمير الطائف بالثمر والبشر . ذكر أبوعبيد البكرى قال : إن قيس بن منبه أصاب دما فى قومه « إياد » ففر الى الحجاز ، فمر بيهودية فآوته ، وأقام عندها زمانا ، ثم انتقل ، فأعطته قضبا وأمرته بغرسها .

---

(١٨٣) القلم ١٧ : ١٩

(١٨٤) المجلد الخامس صـ ١٨٩

فأتى بلاد عدوان ـ وكانوا يسكنون فى ذلك المكان الذى سمى الطائف بعد فمر فى طريقه بجارية لعامر بن الظرب العدوانى اسمها « سخيلة » وكانت ترعى غنما فأراد سباءها وأخذ الغنم التى ترعاها ، فقالت له : ألا أدلك على ماهو خير من ذلك ؟

قال : بلى .

قالت : أقصد سيدى ، وجاوره ، فإنه أكرم الناس .

فأتاه قيس فأكرمه عامر ، وزوجته ابنته زينب .

وكانت هناك حروب ثائرة بين قبائل عدوان ، اضطرتها للجلاء عن الطائف . . . .

فأقام قيس مكانه وكان قد زرع القضب التى أعطتها له اليهودية ، فتناسل أهل الطائف من قيس ، ونما العنب الذى زرعه وأثمر .

وقيس هذا هو الذى أطلق عليه « ثقيف » .

وكان قد سمى قيسا لقساوة قلبه لأنه قتل أخا له وابن عم له .

وسمى ثقيفا لقولهم فيه : ماأثقفه حين ثقف عامر بن الطرب حتى أمنه وزوجه ابنته والتثقيف هو التقويم .

أما تسمية هذا المكان « وج » قبل أن يسمى الطائف فذلك لأن رجلا من العماليق اسمه وج بن عبدالحى كان أول من نزل فى هذا المكان وأقام فيه ، قال الشاعر :

أتهدى لى الوعيد ببطن وج   كأنى لا أراك ولا ترانى(١٨٥) .

---

(١٨٥) شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ٣ صـ٢٩

مسير المسلمين الى الطائف

وكان النبى ﷺ عقب علمه بإصابة خالد فى حنين سأل عنه وتفقد جرحه الذى أصيب به ، ثم مسح عليه فقام خالد وكأن لم يصب بشيء ..... واستمر فى جهاده ، فلما عزم النبى ﷺ على المسير إلى الطائف استدعى خالدا وجعله على مقدمة الجيش ، وكان له فى ذلك موقف مشهود .

وسار النبى ﷺ بجيشه كله الذى كان معه فى حنين الى الطائف ..... وكان ذلك فى شوال من العام الثامن ، وقيل : وصل إلى الطائف فى أول ذى القعدة .

وتهيأت ثقيف للقاء النبى ﷺ من وراء حصونها وقد أعدت سهامها وجمعت قضبا من حديد وحجارة كبيرة ، وأغلقوا أبواب الحصون وكانت شديدة منيعة .

وفى الطريق إلى الطائف مر المسلمون بقبر يعرفه العرب بأنه قبر « أبى رغال » .

وكثير من الناس فى ذلك الوقت كانوا يعرفون عن ـ أبى رغال ـ أنه الرجل الذى أرسلته ثقيف مع أبرهة الحبشى حين أراد غزو مكة ، ليدله على الطريق إليها ، فمات ودفن فى هذا الموضع ، فكان الناس يرجمون قبره لذلك .... وفى ذلك يقول شاعرهم :

« كما يرمون قبر أبى رغال »

ولكن النبى ﷺ يصحح هذه المعلومة للناس فيقول فيما أخرجه ابن إسحاق وأبو داود والبيهقى ـ عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ ـ يقول ـ حين خرجنا معه الى الطائف فمررنا بقبر ، فقال :

هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، كان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه ، وآية ذلك أن دفن معه غصن من ذهب ، إن أنتم نبشتم أصبتموه .

قال : فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن(١٨٦) .

قال الزرقانى : ويخطىء من قال : إن أبا رغال هذا هو دليل أبرهة حين مر على الطائف إلى مكة ، فان بين مولده ﷺ - الذى كان عام الفيل - وبين هلاك ثمود ألوفا من السنين ، وإنما دليل أبرهة شاركه فى الاسم .

وسلك النبى - ﷺ - طريقاً كانوا يقولون لها : الضَّيْقَة ، فلما توجه فيها سأل عن اسمها فقال : ما اسم هذه الطريق ؟

فقيل له : الضيقة

فقال : بل هى اليُسْرَى - أى السهلة .

كان النبى - ﷺ - يتفاءل بالأسماء ، ويغير منها ما لايعجبه .

ثم خرج منها حتى نزل تحت سدرة يقال لها : الصادرة - . . . قريبا من مال رجل من ثقيف .

فأرسل النبى - ﷺ - يقول له : « اخرج إلينا من حائطك » .

فأبى الرجل أن يخرج فأمر النبى بالهجوم على حائطه . .

كان الهدف من ذلك إرهاب العدو وإنزال الرعب فى قلبه ، وقطع المعونة والمدد عنه .

---

(١٨٦) شرح المواهب اللدنية جـ٣ صـ٢٩

نزول النبى بالطائف

وعسكر النبى - ﷺ - حول حصون الطائف ، وكان معه من زوجاته أم سلمة وزينب - رضى الله عنهما - فضرب لكل منهما قبة ، وكان يصلى بين القبتين - وأصبح مكان مصلاه فيها بعد مسجداً عظيماً ، أنشأته ثقيف بعد أن أسلمت وهداها الله الى الإيمان .

والذى أنشأ هذا المسجد عمرو بن أمية بن وهب بن معتب . . . . وتلقى الثقفيون المسلمين بوابل من النبل ، وكانوا قد أعدوا زهاء مائة رام حول أبراج الحصن ، وانطلقت سهامهم دفعة واحدة كأنها الجراد المنتشر .

وكان عمرو بن أمية الذى أنشأ المسجد - فيها بعد - ما زال على شركه ، وقد نصح قومه قائلا : إياكم والخروج إلى محمد وأصحابه ، وإن دعاكم أحد الى المبارزة فلا تجيبوا .

خالد يدعو للمبارزة ويحذرهم :

ودعا خالد أهل ثقيف فعلا إلى المبارزة فرفضوا . ونادى مرة أخرى فلم يستجيبوا . .

وكان عبد يا ليل بن عمرو الثقفى قد رد على خالد قائلا : يا خالد ، لن ينزل إليك أحد ، ونحن مقيمون فى حصننا ، وقد أعددنا فيه ما يصلحنا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب ذلك الطعام الذى جمعناه خرجنا إليك بأسيافنا حتى نموت عن آخرنا . .

كان هذا الرد من عبد يا ليل - يعنى أن ثقيفا قد قررت المقاومة ، والقتال بطريقتها هى لا بالطريقة التى يريدها خالد .

كان الثقفيون أهل عناد ، وقد جربهم النبى - ﷺ - قبل ذلك فى محاولته - بعد موت أبى طالب - الاستنجاد بهم كى يناصروه فى تبليغ رسالة ربه ، ولكنهم قابلوه أسوأ مقابلة ، وأغروا به سفهاءهم وولدانهم يرجمونه بالأحجار ويسمعونه قوارص الكلام .

ولم تلفح الأيام فى تخفيف حدة هذا الكفر ، بل ازدادوا عتوا واستكبارا .

وكانوا إلى جانب ذلك فيهم غرور ، فقد قالوا فيما قالوا لخالد حين أراد محادثتهم قبل أن يقاتلهم ، وقال لهم : إما أن ينزل أحدكم أكلمه وهو آمن حتى يرجع ، أو أن تجعلوا لى مثل ذلك وأدخل عليكم أكلمكم . قالوا له : لا ينزل إليك رجل منا ولا تصل إلينا يا خالد . إن صاحبكم لم يلق قوما يحسنون قتاله غيرنا .

فقال لهم خالد : تذكروا أن رسول الله - ﷺ - نزل بأهل الحصون والقوة بيثرب وخيبر ، فهزمهم . . . وبعث رجلا واحدا الى فدك ، فنزلوا على حكمه ، وأنا أحذركم مثل يوم قريظة ويوم خيبر - حوصروا أياما ثم نزلوا على حكمه ، فقتل مقاتلهم فى صعيد واحد ، ثم فتح مكة ، وأوطأ هوازن فى جمعها ، وإنما أنتم فى حصن فى ناحية من الأرض لو ترككم لقتلكم من حولكم ممن أسلم .

قالوا - فى إصرار وعناد - لا نفارق ديننا .

كان هذا إصرارا منهم على المقاومة وتهديدا فى الوقت نفسه .

رميهم بالمنجنيق :

وكان لابد من استعمال طريقة غير تقليدية فى القتال - قال سلمان الفارسى : المنجنيق يا رسول الله . .

وكان سلمان هو صاحب فكرة الخندق يوم الأحزاب كما عرفنا ، وكان رأيه ميمونا .

وها هو ذا يخرج اليوم بفكرة جديدة أيضا - قال : يا رسول الله إنا كنا بأرضنا ننصب المنجنيق على الحصون ، وتنصب علينا ، فنصيب من عدونا ويصيب منا ، وإن لم يكن منجنيق طال الثواء - أى الإقامة -

قالوا : وعمل سلمان منجنيقا بيده . وكان أول منجنيق رمى به فى الاسلام . هكذا يقول البعض . . ولكننا إذا التفتنا الى الوراء قليلا تذكرنا أن الطفيل الدوسى حين أرسله النبى - ﷺ - لاحراق الصنم المعروف بذى الكفين عاد بقومه ومعهم دبابة ومنجنيق .

إلا أن هذا لا يمنع أن يكون سلمان قد صنع منجنيقا أيضا ، وأن الطفيل قد أتى بآخر .

ولعلنا نتذكر أيضاً أن النبى - ﷺ - حين حاصر خيبر ، عثر فى أحد حصونها على آلات حرب منها المنجنيق . . . ولكن هذه الآلات لم يصحبها المسلمون معهم الى مكة .

ونصب المسلمون المنجنيق حول حصون الطائف ، ولكنه لم يحقق الهدف المطلوب . فقد ضاعفت ثقيف من رميها بالنبال فوق المسلمين فأصابت منهم عددا .

وفكر المسلمون فى ثقب أحد الحصون عن طريق دبابة صنعوها ، ولكن ثقيفا أرسلت عليهم قضب الحديد المحماة فأحرقت الدبابة ، وأصابت من فيها .

الأمر بقطع النخيل .

وأراد بعض المسلمين أن يغيظ أهل ثقيف بقطع ثمارهم . . . وشرعوا فى ذلك ، ولكن ثقيفا ناشدوا النبى أن يترك ذلك للرحم .

وكانت الرحم التى ناشدوه بها تتمثل فى أن أمة آمنة بنت وهب كانت أمها وهى برة بنت عبد العزى لها قرابة تربطها بثقيف من جهة أمها .

وهو نسب بعيد ، ولكن النبى ـ ﷺ ـ راعاه ولم يقطعه ـ فى الوقت الذى لم يراع هؤلاء الثقفيون يوم لجأ اليهم ـ نسبا ولا مروءة ولا إنسانية .
ولكنه الأدب العالى الذى يتميز به النبى ـ ﷺ ـ والرحمة الشاملة التى طبع عليها .

تحريض العبيد على الفرار .

ونادي النبى ـ ﷺ ـ عبيد أهل ثقيف قائلا : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر .

وكانت هذه فرصة أغرت العبيد بالحرية والتخلص من حياة الذل والعبودية . فخرج بضعة عشر رجلا أو أكثر فارين بأنفسهم الى رسول الله ـ ﷺ ـ فأعتقهم . فأسلموا .

ودفع النبى - ﷺ - كل رجل من هؤلاء إلى رجل من أصحابه يمونه ، فغاظ ذلك ثقيفا .

محاولة لأبى سفيان والمغيرة

وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعْبة إلى الطائف ونادیا ثقيفا أن أمنونا حتى نكلمكم .

فأمنوهما ، فدعوا نساءً من نساء قريش وبنى كنانة ليخرجن إليهما . وكانا يخافان عليهن السباء لو تمكن المسلمون من فتح الحصن . وكان منهم آمنة بنت أبى سفيان ، وكانت عند عروة بن مسعود الثقفى وله منها ولد اسمه داود بن عروة . . . .

ولكن هؤلاء النسوة أبين على أبى سفيان والمغيرة الخروج من الحصن .

فلما أبيْن ذلك قال ابن الأسود بن مسعود لأبى سفيان والمغيرة : ألا أدلكما على خير مما جئتما لأجله ؟

قالا : بلى .

قال : إن مال بنى الأسود بن مسعود حيث قد علمتما ، وليس بالطائف مال أبعد رشاءً ولا أشد مئونة ولا أبعد عمارة من مال بنى الأسود . . . فكلما محمداً ، فليأخذه لنفسه ، أو ليدعه لله والرحم - فإن بيننا وبينه من القرابة مالا يجهل .

لقد خشى ابن الأسود على هذا المال أن يتلفه المسلمون إغاظة لبنى ثقيف . فأراد أن يبقى هذا المال بدون إتلاف ، وهو إما لـمحمد - ﷺ - أو لأصحاب المال إن أراد ذلك .

وكلم أبو سفيان والمغيرة النبى - ﷺ - فى ذلك فتركه ولم يتعرض له . .

رؤيا النبى

وطال الحصار ورأى - ﷺ - رؤيا قصها على أبى بكر رضى الله عنه - قال له : ياأبا بكر إنى رأيت أنى أُهْدِيَتْ إلىّ قعبة - قدح - مملوءة زبداً - فنقرها ديك فهراق - أراق - مافيها . .

فقال أبو بكر - رضى الله عنه - : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ماتريد .

فقال النبى - ﷺ - وأنا أيضا لا أرى ذلك - أى لا أرى أنى أدرك ماأريد .

النبى يستشير

وأراد النبى - ﷺ - أن يستشير أهل الخبرة عن ثقيف ، فاستدعى نوفل ابن معاوية الديلى . فقال له : يانوفل ، ماترى فى المقام عليهم ؟

فقال : يارسول الله ، هم ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته ، وان تركته لم يضرك .

وكانت الرؤيا التى رآها النبى - ﷺ - مع موافقة الاستشارة لها إيذانا بفض الحصار والعودة إلى المدينة .

لقد رجا النبى - ﷺ - أن تأتى ثقيف مذعنة بدون قتال ، وأن تسلم لله رب العالمين دون أن يتكلف المسلمون مئونة الحصار والانتظار . فلم يبق إلا التهيؤ للرحيل .

وقالت له خوله بنت حكيم السلمية ـ وهى زوجة عثمان بن مظعون : يارسول الله ـ أعطنى إن فتح الله عليك الطائف حُلِيّ بادية بنت غيلان الثقفى أو حلى الفارعة بنت عقيل ، وكانت من أحلى نساء ثقيف .

فقال النبى ـ ﷺ ـ وإن كان لم يؤذن لنا فى ثقيف ياخولة ؟

فذكرت خولة هذا الحديث لعمر ـ رضى الله عنه ـ

فجاء عمر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يقول له : ماحديث حدثتنيه خولة بنت حكيم زعمت أنك قلته ؟

قال النبى ـ ﷺ ـ : قلته .

قال عمر : أو ماأذنت فيهم ؟

فقال : لا

قال عمر : أفلا أؤذن بالرحيل ؟

قال : بلى .

فأذن عمر بالرحيل بين الناس . فضجوا وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟

فقال النبى ـ ﷺ ـ فاغدوا إلى القتال .

فغدوا ، فأصابتهم جراحات كثيرة ، وهرعوا إلى النبى ـ ﷺ ـ يقولون : يارسول الله ، أصابتنا نبال ثقيف ، فادع الله عليهم .

فرفع النبى ـ ﷺ ـ يديه وجعل يقول : اللهم اهد ثقيفا وائت بهم مسلمين .

ثم قال النبي - ﷺ - : إنا قافلون إلى المدينة غدا إن شاء الله - تعالى - .

فسروا بذلك ، وأذعنوا ، وجعلوا يجهزون رحالهم ، والنبى - ﷺ - يضحك تعجبا من سرعة تغير رأيهم .

ولما أصبحوا ارتحل النبى - ﷺ - ودعا حين ركب قائلا : اللهم اهدهم واكفنا مئونتهم . .

وقد حَدَث حين طلب المسلمون الاستمرار فى الحصار بعد أن أذن عمر بالرحيل - وتهيأوا للقتال ورمتهم ثقيف بالسهام - حديث أن أصيبت عين أبي سفيان بن حرب ، فذهب إلى النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله - هذه عينى أصيبت فى سبيل الله .

فقال له النبى - ﷺ - أيهما أحب إليك - عين فى الجنة ، أو أدعو الله أن يردها عليك ؟

فقال أبو سفيان : بل عين فى الجنة .

وصبر واحتسب ، وكأنه قد أراد أن يكفر بذلك عن سابق ماصنعه فى عداوته مع رسول الله - ﷺ -

وأصيبت عينه الأخرى يوم اليرموك ، وهو يجاهد فى سبيل الله تحت راية ابنه يزيد ، وتحت إمرة خالد بن الوليد ، وكان يدعو الله قائلا فى ضراعة :

الله الله عباد الله ، انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك .

ماأشد ماتغيرت أحوال أبي سفيان ، لقد هداه الله بعد طول عناد للنبى

ـ ﷺ ـ وعداء للاسلام ـ ويشاء الله أن يجعل أعتى الأعداء من أصدق الأولياء بمنه وكرمه .

وكثير من مسلمة الفتح صاروا بعد ذلك هداة مهدبين وجنودا مخلصين ومجاهدين ناجحين .

ومما يؤثر فى توقع بعض الناس إسلام أبى سفيان أيام أن كان يعادى الاسلام بكل ماأوتى من قوة ـ مايرويه القزوينى فى تاريخ قزوين عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال : لطم أبو جهل ـ فى مكة قبل الهجرة ـ فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فشكت ذلك لأبيها ـ ﷺ ـ

فقال لها : ائت أبا سفيان فأخبريه فأتته فأخبرته ، فأخذ بيدها حتى وقف على أبى جهل ، وقال لها : الطميه كما لطمك . ففعلت .

فجاءت إلى النبى ـ ﷺ ـ فأخبرته .

فرفع يديه ـ ﷺ ـ وقال : اللهم لا تنسها لأبى سفيان .

قال ابن عباس : ماشككت أن إسلامه إلا لدعوة النبى ـ ﷺ ـ .

خبر عيينة بن حصن

وذكر بعضهم أن عيينة بن حصن الفزارى استأذن النبى ـ ﷺ ـ أن يأتى ثقيفا ناصحا لهم ـ فأذن له . واستقبله الثقفيون استقبالا حسنا ، ولم يرفضوا لقاءه كما رفضوا لقاء غيره .

وربما أذن الثقفيون له دون غيره ، لما يعرفونه عنه من موقفه المعاند فترة طويلة للإسلام ، أو لما يعرفونه من طويته التى لم تصف بعد للمسلمين ،

وقد كان أحد المؤلبين على النبى - ﷺ - يوم الأحزاب ، ومازال موقفه متقلبا .

وانطلق عيينة إلى الطائف والتقى بأهلها ، ولكنه بدلا من أن يدعوهم إلى الاستسلام والدخول فى دعوة الاسلام قال لهم : تمسكوا بحصنكم فو الله لنحن أذل من العبيد ، وزاد بعضهم أنه قال : ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا بما قطع من شجركم وثماركم .

وعاد إلى النبى - ﷺ - فقال له : ماقلت ياعيينة ؟

قال : أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه ، وحذرتهم من النار ، ودللتهم على الجنة .

فقال له رسول الله - ﷺ - كذبت ياعيينة ، إنما قلت لهم كذا . . وقص عليه ماقال . فقال : صدقت يارسول الله ، أتوب إلى الله وإليك من ذلك(١٨٨)

ويحك ياعيينة ، اتظن أن الله يخفى عليه ختلك ونفاقك ؟ ألم تأخذ عظة من كل الأحداث التى مرت أمامك طول حياتك ؟ . . . وقد فضحه النبى - ﷺ - الآن فهل أقلع عن نفاقه ؟

أبدا . فقد ظهر نفاق عيينة واضحاً حين أذن عمر بالرحيل بين الناس . فلما استقل الناس - نادى سعيد بن عبيد بن أسيد بن أبى عمرو بن

---

(١٨٨) السيرة الحلبية جـ٣ صـ٨١

علاج : ألا إن الحى مقيم .

فقال عيينة بن حص : أجل والله مجدة كراما .

فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله ياعيينة ـ أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ـ ﷺ ـ وقد جئت تنصره ؟

فقال : إنى والله ماجئت لأقاتل ثقيفا معكم ، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف ، فأصيب جارية تلد لى رجلاً ، فإن ثقيفا قوم مناكير(١٨٩) .

لقد ظهر من هذا الحوار موقف عيينة ـ من الاسلام ، وهو يشير إلى أنه لم يكن صادقاً فى إسلامه ، ولكنه كان منافقا ـ يظهر الدين ويبطن غير ذلك ، وقد كان النبى ـ ﷺ ـ يتألفه لمكانه من قومه ، فقد كان أحد الحمقى المطاعين ، كان يطيعه على الرغم من حمقه ـ عشرة آلاف رجل . .

من طرائف ماحدث

ومن طرائف ماحدث فى تلك الغزوة أنه كان مع المسلمين أثناء حصار الطائف مولىً كانوا يظنون أنه معتوه أبله . . قيل : إن اسمه ماتع .

فسمعه النبى ـ ﷺ ـ وهو يقول لخالد بن الوليد ، أو لعبد الله بن أبى أمية ؛ إن فتح الله عليكم الطائف غدا ـ فعليك ببادية بنت غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، إذا قامت تثنت ، وإن جلست تبنت ، واذا تكلمت تغنت . .

---

(١٨٩) سيرة ابن هشام حـ ٤ صـ ١٠٠ وقوم مناكير ـ أى أصحاب أجسام وقوة

فقال له - ﷺ - ؟ قاتلك الله - ماكنت أظن هذا الخبيث يعرف شيئاً من أمر النساء .

وأمر ألا يدخل هذا المولى الخبيث وأمثاله بيوت المسلمين ، ونفاه إلى الحِمَى ، فقيل له : يارسول الله إنه يموت جوعا ، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يأخذ قوته .

وقد أشار القرطبي إلى قصة هذا المولى عند تفسيره لقوله - تعالى -

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (١٩٠)

وذكر أن اسمه « هيت » قال : وقد ذكر محاسن المرأة - التي ذكرناها سابقا - ثم قال : وهي كما قال قيس بن الخطيم : -

تغترق الطرف وهي لاهية كأنما شف وجهها نزف(١٩١)
بين شكول النساء خلقتها قصد فلا جبلة ولا قضف(١٩٢)
تنام عن كبر شأنها فإذا قامت رويدا تكاد تنقصف(١٩٣)

---

(١٩٠) النور ٣١

(١٩١) النزف - بضم فسكون - وحرك لضرورة الشعر : خروج الدم . أراد أن في لونها بياض مع صفرة

(١٩٢) الشكول : الضروب والأنواع ، قصد : متوسطة ، جَبْلَة : غليظة وقضف : دقيقة قليلة اللحم

(١٩٣) كبرشأنها : شئونها المهمة - كانوا يمتدحون المرأة بكثرة نومها لأن هناك من يقوم بأمرها ، ورويدا : متمهله

فقال له النبى - ﷺ - : لقد غلغلت النظر إليها ياعدو الله . وأجلاه عن المدينة .

وكان هيت أو مانع هذا مولى لعبدالله بن أمية المخزومى ، وكان له مولى آخر اسمه طويس - اشتهر بالغناء ، وأول من غنى بالمدينة .

وظل هيت منفيا فى عهد النبى وأبى بكر وعمر ، حتى جاء عثمان فقيل له : كبر وضعف ، فأذن له . وسيأتى الحديث عن طرائف أخرى بعد ذلك .

الذين أصيبوا من المسلمين فى الطائف

وأصيب من المسلمين فى الطائف اثنا عشر رجلا من قريش هم : سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وعرفطة بن جناب ، وعبدالله ابن أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - أصيب بسهم فمات منه بالمدينة بعد وفاة رسول الله - ﷺ .

وعبدالله بن أبى أمية بن المغيرة - شقيق أم سلمة - رضى الله عنه - وعبدالله بن عامر بن ربيعة من بنى عدى ، والسائب بن الحارث بن قيس بن عدى ، وأخوه عبدالله بن الحارث وهما من بنى سهم ، وجليحة بن عبدالله وهو من بنى سعد بن ليث .

واستشهد من الأنصار : ثابت بن الجذع ، والحارث بن سهل بن أبى صعصعة ، والمنذر بن عبدالله ، ووقيم بن ثابت بن ثعلبة . .

وعاد النبى - ﷺ - الى الجعرانة التى كان قد ترك فيها غنائم هوازن ، وقد

غاب فى حصار الطائف ثمانية عشر يوما فى بعض الأقوال ـ وهو المشهور ـ

وكان يردد والمسلمون يرددون فى أثناء الإقامة : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

فلما ارتحلوا واستقبلوا قال لهم قولوا: آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون .

تقسيم الغنائم

وقفل النبى ـ ﷺ ـ عائداً إلى الجعرانة حيث ترك غنائم هوازن بها .

والجعرانة : بكسر الجيم وسكون العين المهملة وتخفيف الراء ويكسر العين وتشديد الراء أيضاً .

وأصحاب الحديث يكسرون عينه ويشددون راءه .

وأهل الأدب يخطئونهم ويسكنون العين ويخففون الراء .

وهى ماء بين مكة والطائف ، وهى إلى مكة أقرب .

وفيها مسجد للنبى ـ ﷺ ـ أنشىء بعد ذلك ، تيمنا بإقامة النبى ـ ﷺ ـ فى المكان ـ وهى من مكة على بريد من طريق العراق ـ وبها بعض الآبار المتقاربة . . (١٩٤)

وكان النبى ـ ﷺ ـ قد جعل على الغنائم مسعود بن عمرو الغفارى . . وقيل جعل عليها أكثر من واحد .

---

(١٩٤) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٥ صـ ١٩٠ نقلا عن الزرقانى

وحرص النبى - ﷺ - على أن يعلم الناس الأمانة والقناعة معا . ويحذرهم من الغلول ، فأمر مناديه أن ينادى قائلا : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل .

لقد أراد أن يحذرهم مما حدث فى بدر ، حيث فقدت قطيفة حمراء فأنزل الله - تعالى -

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ (١٩٥)

ونزلت هذه الآية مشيرة إلى أن النبى - ﷺ - الذى من حقه أن يأخذ ما يشاء لا ينبغى له أن يأخذ شيئا من الغنيمة بغير حق - فما بالك بسواه ؟

وروى أحمد وابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - أخذ يوم حنين وبرة من سنام بعير من الغنائم ، فجعلها بين إصبعيه ثم قال :

« يأيها الناس إنه لا يحل لى مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط ، وإياكم والغلول فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله فى الدنيا والآخرة - فجاء أنصارى بكبة من خيوط شعر فقال : يارسول الله ، هذه الوبرة لأخيط بها بردعة بعير لى دبر (١٩٦)

---

(١٩٥) آل عمران ١٦١

(١٩٦) دبر : جرح ظهره

فقال - ﷺ - أما ما كان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لك .

فقال الرجل : أما إذا بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لى بها . فرمى بها من يده .

قالوا : وكان عقيل بن أبي طالب قد دخل على زوجته فاطمة بنت شيبة يوم حنين ، وسيفه ملطخ دما فقال : دونك هذه الإبرة وهذا الشعر تخيطين بها ثيابك . ودفعها إليها . فسمع المنادى يقول : من أخذ شيئا فليرده حتى الخياط والمخيط ، فرجع عقيل فأخذها فألقاها فى الغنائم(١٩٧)

ولعل هذا الخبر - إن صح - وإن كان العقل يستبعده - يرد على من يقول عن عقيل بن أبي طالب : إنه شهد غزوة ، مؤته ثم رجع فعرض له مرض فلم يسمع له بذكر فى غزوة الفتح ولا حنين ولا الطائف(١٩٨) .

كثرة الغنائم

وكانت الغنائم شيئاً كثيراً لا يكاد يحصر ويقال : إنه بلغ أربعة وعشرين ألفا من الإبل الغنم أكثر من أربعين ألفا ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة .

وأخذ النبى - ﷺ - يعطى المؤلفة قلوبهم من أهل مكة وغيرهم من الأعراب .

فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، وقال : ابنى يزيد فأعطاه النبى كذلك ، فقال : ابنى معاوية فأعطاه كذلك .

---

(١٩٧) المواهب اللدنية حـ٣ صـ٣٦ سيرة ابن هشام حـ٤ صـ١٠٧

(١٩٨) أسد الغابة حـ٤ صـ٦٤

وقد ولد فى الكعبة المشرفة ، دخلت أمه الكعبة فى نسوة من قريش وهى حامل به فأخذها الطلق فولدته بها .

فقال أبوسفيان : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لأنت كريم فى الحرب وفى السلم .

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله فأعطاه ، ثم سأله فأعطاه ثم قال له : « ياحكيم ـ إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى »

فقال حكيم : يارسول الله والذى بعثك بالحق لا آخذ من أحد بعدك شيئاً ، فكان أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ يدعو حكيما ليأخذ عطاءه فيأبى ، ثم إن عمر ـ رضى الله عنه ـ دعاه ليأخذ عطاءه فأبى ، فقال عمر : يامعشر المسلمين إنى أعرض على حكيم حقه فيأبى أن يأخذه .

لقد أراد عمر أن يشهد عليه حتى لا يخاصمه أمام الله يوم القيامة . . وكان النبى ـ ﷺ ـ حكيما فى هديه ، يعطى ويرشد ، وقد استجاب حكيم ابن حزام ـ رضى الله عنه للإرشاد .

ولم يكتف ـ فيما يقال ـ عن الامتناع عن الأخذ ، بل تصدق بما أخذ . وهذا هو الزهد والإيثار بعينه .

وحكيم بن حزام هو ابن أخى خديجة بنت خويلد زوج النبى ـ ﷺ ـ وابن عم الزبير بن العوام .

وكان مولده قبل الفيل بثلاث عشرة سنة ، وعاش مائة وعشرين عاما وتوفى سنة أربع وخمسين من الهجرة ـ

ويشاركه فى طول العمر هذا حسان بن ثابت الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ وحسن إسلام حكيم . . . وقد حج ومعه مائة بدنة قد جللها بالحبرة(١٩٩) أهداها ، ووقف بمائة ـ عبد ـ بعرفة فى عنق كل منهم طوق من فضة منقوش عليه ـ عتيق الله عن حكيم بن حزام ، وأهدى كذلك ألف شاة .(٢٠٠)

عطاؤه لصفوان بن أمية

وأعطى النبى ـ ﷺ ـ صفوان بن أمية قطيعا من الإبل والغنم جعل صفوان بنظر إليه فقال له النبى ـ ﷺ ـ : أيعجبك هذا يا أبا وهب ؟

قال : نعـــم .

قال : هو لك

فقال صفوان : ما طابت بذلك إلا نفس نبى ـ وقال : مازال يعطينى ـ ﷺ ـ من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلىّ ، حتى أصبح وما خَلَقَ الله ـ تعالى ـ شيئاً أحب إلىّ منه ـ

عطاءه للعباس بن مرداس

كان هناك رجال أخذ كل منهم مائة من الإبل

---

(١٩٩) الحبرة بزنة عتبة ـ ثوب يمان من قطن أو كتان مخطط

(٢٠٠) أسد الغابة جـ٢ صـ٤٥

وهناك رجال أخذوا دون ذلك .

ومن الذين أخذوا مائة من الإبل عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وأخذ العباس بن مرداس دون المائة فقال :

كانت نهاباً تلافيتها بكرى على المهر فى الإجرع[٢٠١]
وإيقاظى القوم أن يرقدوا إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبى ونهب العبيد بين عيينه والأقرع[٢٠٢]
وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ فلم أعط شيئا ولم أمنع[٢٠٣]
إلا أفائل أعطيتها عديد قوائمه الأربع[٢٠٣]
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرادس فى المجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال رسول الله - ﷺ - : اقطعوا لسانه ، فأعطوه حتى رضى - وقطع اللسان كناية عن إسكاته عن السخط بالعطاء .

---

(٢٠١) الأجرع : المكان الواسع
(٢٠٢) العبيد : تصغير عبد وهو اسم فرسه
(٢٠٣) ذو تدرأ : ذو هجوم عنيف

من هم المؤلفة قلوبهم

لم يرد للمؤلفة قلوبهم ذكر فى القرآن إلا فى آية الصدقة وهى قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠ ﴾ (٢٠٥)

فقد جعل الله ـ تعالى ـ المؤلفة قلوبهم أحد مصارف الزكاة ، فأصبحوا قسما بذاته من الأقسام الثمانية التى تصرف فيها أموال الزكاة .

وأصبح ذلك حقا مقرراً لفئة من الناس .

والمؤلفة قلوبهم كما يقول ابن كثير أقسام :

منهم من يعطى ليسلم ، كما أعطى النبى ـ ﷺ ـ صفوان بن أمية من غنائم حنين ـ وقد كان شهدها مشركا ـ قال : فلم يزل يعطينى النبى حتى صار أحب الناس إلىّ بعد أن كان أبغض الناس إلىّ (٢٠٦)

ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه ، كما أعطى النبى ـ ﷺ ـ يوم حنين جماعة من صناديد الطلقاء ورؤسائهم مائة من الإبل .

وقال :

---

(٢٠٤) أفائل : صغار الابل

(٢٠٥) التوبة ٦٠

(٢٠٦) رواه الامام أحمد

« إن لأعطى الرجل وغيره أحب إلىَّ منه مخافة أن يكبه الله على وجهه فى نار جهنم[٢٠٧] »

وفى الصحيحين عن أبى سعيد أن عليا بعث إلى النبى - ﷺ - بذهبية فى تربتها من اليمن ، فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع حابس وعيينه بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال : أتألفهم[٢٠٨] »

ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه .

ومنهم من يعطى ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد[٢٠٩] .

وقال القرطبى : المؤلفة قلوبهم - قوم كانوا فى صدر الإسلام ممن يظهر الاسلام - يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم .

وقال الزهرى : المؤلفة قلوبهم - من أسلم من يهودى أو نصرانى وإن كان غنيا .

وبعض المتأخرين يقولون : لقد اختلف فى صفة المؤلفة قلوبهم .. فبعضهم يرى أنهم صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الإسلام ، وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف ، ولكن يسلمون بالعطاء والاحسان .

وبعضهم يقول : هم قوم أسلموا فى الظاهر ولم تستيقن قلوبهم ، فيعطون ليتمكن الإسلام فى صدورهم .

---

(٢٠٧) أخرجه البخارى : أبواب الزكاة ، ومسلم : كتاب الزكاة

(٢٠٨) البخارى كتاب الأنبياء ٤ / ١٦٦ ، ومسلم كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج ٣ / ١٨

(٢٠٩) تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ١٠٨ - أية الصدقات

وبعضهم يرى أنهم قوم من المشركين لهم أتباع يعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام .

وهى أقوال متقاربة ، والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء ، فكأنه ضرب من الجهاد .

قال القرطبى : والمشركون ثلاثة أصناف : صنف يرجع بإقامة البرهان ، وصنف لا يفهم إلا لغة القتال ، وصنف يرجع بالإحسان .

والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سببا لنجاته وتخليصه من الكفر(٢١٠) .

أسماء المؤلفة قلوبهم

يرى بعض العلماء أن من المؤلفة قلوبهم حكيم بن حزام ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبدالعزى ، وصفوان بن أمية ، والعلاء بن جارية ، ومالك بن عوف ـ وهؤلاء أخذ الواحد منهم مائة من الإبل .

ومن الذين أعطوا دون المائة ـ مخرمة بن نوفل الزهرى ، وعمير بن وهب الجمحى ، وهشام بن عمرو العامرى ، وسعيد بن يربوع ـ أعطى خمسين بعيراً ، وعباس بن مرداس السلمى الذى غضب بسبب قلة ما أخذه .

وأنشد أبياتا فى ذلك سبق أن ذكرناها ـ

---

(٢١٠) تفسير القرطبى حـ ٨ صـ ١٧٩

ومن المؤلفة قلوبهم : النضير بن الحارث بن علقمة ـ وهو أخوا النضر بن الحارث الذى قتل ببدر ، لأنه طالما آذى المسلمين بشعره . وهو الذى رثته قتيلة ابنته وقالت مخاطبة النبى ـ ﷺ ـ :

يا راكبا إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق[11]
أبلغ بها ميتا بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تعنق[212]
منى إليه وعبرة مسفوحة ... جاءت لمانحها وأخرى تخنق[23]
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق[214]
أمحمد ولدتك خير كريمة ... من قومها والفحل فحل معرق[205]؟
ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قلت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق[216]

فلما بلغت الأبيات رسول الله ـ ﷺ ـ بكى حتى اخضلت لحيته ، وقال : لو بلغنى شعرها قبل قتله لمننت عليه . . . وقوله ـ ﷺ ـ لمننت عليه ـ يدل على أن قتل النضر كان حقا ، وأن عدم قتله لو حدث ـ يكون من قبيل المن عليه . .

---

(٢١١) الأثيل ـ مصغرة ـ ماء قرب بدر ،
(٢١٢) النجائب : جمع نجيبة وهى الناقة ، وتُعْنق : العناق نوع من السير
(٢١٣) مانحها : المانح المستسقى
(٢١٤) تنوشه : تتناوله
(٢١٥) تقول : إنك كريم الأبوين
(٢١٦) الأبيات من أسد الغابة حـ ٧ صـ ٢٤١

ويقال : إن النضير أخا النضر حين أمر النبى - ﷺ - باعطائه مائة من الإبل أسرع رجل من بنى الديل يبشره بذلك . وقال له : أحذنى منها .(٢١٧)

فقال له النضير : ما أريد أخذها ، لأنى أحسب أن رسول الله - ﷺ - لم يعطنى ذلك إلا تألفا على الإسلام ، وما أريد أن آخذ شيئا من عرض الدنيا من أجل الإسلام ، لأن الإسلام أعظم من كل شيء يؤخذ من عرض الدنيا . .

ثم قال : والله ما طلبتها ولا سألتها ، وهى عطية من رسول الله - ﷺ - فأخذها ، وأعطى الديلى منها عشرة -

ثم خرج إلى رسول الله - ﷺ - فجلس معه فى مجلسه ، وسأله عن فروض الصلاة ومواقيتها .

قال : فوالله لقد كان أحب إلىّ من نفسى . . . . . وقال له : يارسول الله ، أى الأعمال أحب إلى الله ؟

قال : الجهاد والنفقة فى سبيل الله .

وقال بعضهم : إن النضير بن الحارث لم يكن من مسلمة الفتح ، لأنه أسلم قبل فتح مكة .

بل يقول البعض إنه من السابقين الذين رسخ الإيمان فى قلوبهم .

ولكن الواقدى يؤكد لنا أن النضير بن الحارث لم يكن من السابقين إلى الإسلام كما أشار الخبر السابق ،

---

(٢١٧) أحذنى : أعطنى

ويذكر فيما رواه البيهقى عنه فى دلائل النبوة قوله : « كان النضير بن الحارث من أحلم الناس ، فكان يقول : الحمدلله الذى أكرمنا بالإسلام ، ومنَّ علينا بمحمد ـ ﷺ ـ ، ولم نمت على مامات عليه الآباء وقتل عليه الإخوة وبنو العم . . . ثم ذكر عداوته للنبى ـ ﷺ ـ وأنه خرج مع قومه من قريش إلى حنين . وهم على دينهم بعد .

قال : ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه ، فلم يمكننا ذلك ، فلما صار بالجعرانة فوالله إنى لعلى ما أنا عليه . . . فما شعرت إلا برسول الله ـ ﷺ ـ تلقانى ، فقال : النضير ؟

فقلت ؛ لبيك .

قال : هذا خير مما أردت يوم حنين ، مما حال الله بينك وبينه .

قال : فأقبلت إليه سريعا .

فقال : قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه ـ تجد وتعمل .

قلت : قد أرى أنه لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئا ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : اللهم زده ثباتا .

قال النضير : فوالذى بعثه بالحق لقد أصبحت من أشد الناس ثباتاً فى الدين وبصيرة بالحق .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : الحمد لله الذى هداك(٢١٨)

---

(٢١٨) دلائل النبوة للبيهقى حـ ٥ صـ ٢٠٥

هل العباس بن مرداس من المؤلفة قلوبهم

ومن المؤلفة قلوبهم ولكنهم أسلموا قبل الفتح ـ العباس بن مرداس السلمى . فإنه قد أسلم قبل الفتح بقليل . وهو ممن حسن إسلامه ، وكان قد قدم على النبى ـ ﷺ ـ فى ثلاثمائة راكب من قومه ، فأسلموا وأسلم قومه ، وله شعر جيد دافع فيه عن الإسلام وأذاع محامده ومن ذلك قوله يوم حنين : ـ

يا خاتم النَّبآء إنك مرسل بالحق ، كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة فى خلقه ومحمداً سماكا
ثم الذين وفوا بما عاهدتهم جند بعثت عليهم الضحاكا

وقولـه :

ولكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بعد الضلالة أمرنا وليس لأمر حمَّه الله دافع(٢١٩)

ويقصد العباس بن مرداس ، بالضحاك فى أبياته الأولى ـ الضحاك بن سفيان العامرى .

أسلم وصحب النبى ـ ﷺ ـ وكان ينزل فى بادية المدينة ، وولاه رسول الله ـ ﷺ ـ على من أسلم من قومه .

وكان يقوم على رأس رسول الله ـ ﷺ ـ متوشحا سيفه ، وهو من الشجعان الأبطال ـ يعد وحده بمائة فارس .

---

(٢١٩) سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ٨٤

ولما سار النبى - ﷺ - إلى فتح مكة أمَّره على بنى سليم ، لأنهم كانوا تسعمائة ، فقال لهم رسول الله - ﷺ - : هل لكم فى رجل يعدل مائة يوفيكم ألفا ؟ - أى فتصبحون به ألفا . .

قالوا : نعـم .

فوفاهم بالضحاك وكان رئيسهم . وإنما جعله عليهم ، لأنهم جميعهم من قيس عيلان ولذلك قال العباس بن مرداس :

إن الذيـن وفـوا بمـا عاهدتهـم جيش بعثت عليهم الضحاكـا .

ثم وصفه بقوله :

أمَّرتـــه ذرب الســـنان كأنــه لمـا تكنفـه العـدو يراكـا(220)

طـــورا يعانـق باليـــدين وتـارة يـفرى الجماجـم حازمـا فتاكـا(221)

وكان العباس شاعراً شجاعاً - قال عنه عن الملك بن مروان أشجع الناس فى شعره عباس بن مرداس حيث يقول :

أقاتل فى الكتيبة لا أبالى أفيها كان حتفى أم سواها

وفى الحقيقة انه لم يكن شجاع الشعر فقط ، بل كان شجاع القول والعمل ، وله بلاء فى الجهاد لا ينكر .

وهو من القليلين الذين حرَّموا الخمر فى الجاهلية .

قيل له : ألا تأخذ من الشراب ، فإنه يزيد فى قوتك وجراءتك ؟

---

(220) ذرب السنان : حاد السنان صارم - وتكنفه : أحاط به

(221) أسد الغابة حـ3 صـ48

فقال : لا أصبح سيد قومى وأمسى سفيهها ، لا والله لا يدخل جوفى شىء يحول بينى وبين عقلى أبداً .

وكان ممن حرم الخمر فى الجاهلية أيضا ـ أبوبكر الصديق ، وعثمان بن مظعون ، وعثمان بن عفان . وعبدالرحمن بن عوف ، وقيس بن عاصم ، وحرمها قبل هؤلاء عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول ـ ﷺ ـ وعبدالله بن جدعان .

وعباس بن مرداس هو راوى الحديث الآتى الذى يبشر المسلمين بالعفو والمغفرة من الله .

قال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة وأكثر الدعاء ، فأجابه الله ـ عز وجل ـ أنى قد فعلت وغفرت لأمتك إلا ظلم بعضها بعضا . فأعاد فقال : يارب ، إنك قادر أن تغفر للظالم . وتثيب المظلوم خيراً من مظلمته ، فلم يكن تلك العشية إلا ذا .

فلما كان من الغد دعا غداة المزدلفة ، فصار يدعو لأمته ، فلم يلبث النبى ـ ﷺ ـ أن تبسم ، فقال بعض أصحابه : بأبى أنت وأمى تبسمت فى ساعة لم تكن تضحك فيها ، فما أضحكك ؟

قال : تبسمت من عدو الله إبليس ، حين علم أن الله أجابنى فى أمتى وغفر للظالم ، أهوى يدعو بالثبور والويل ، ويحثوا التراب على رأسه . . . . وقال مرة : ضحكت من جزعه .(٢٢٢)

---

(٢٢٢) أسد الغابة حـ٣ صـ١٦٩ ، والحديث روداه أحمد فى مسنده ٤ / ١٤ من طريق ابراهيم بن الحجاج

الأقرع بن حابس

ذكر الرواة أن من المؤلفة قلوبهم الأقرع بن حابس بن عقال وهو من بني تميم ، وكان قد شهد مع النبى - ﷺ - فتح مكة ، وحنينا والطائف .... هو وعيينة بن حصن الفزارى .

ولما قدم وفد تميم على النبى - ﷺ - بعد ذلك وفد معهم ، وفى هذا الوفد نزل قوله - تعالى -

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾(٢٢٣)

قال الرواة : كان من عادة النبى - ﷺ - أن ينام القائلة ، فجاء من أعراب بنى تميم وفد - فيهم عطارد بن حاجب بن زرارة ، والزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس وغيرهم من أشراف بنى تميم ، يريدون فداء أسرى لهم ..... فجعلوا ينادونه من وراء الحجرات أن يخرج إليهم ، دون أن ينتظروه حتى يخرج من حجرته ، قائلين : اخرج إلينا يامحمد ، إن مدحنا لزين ، وإن ذمنا لشين(٢٢٤) وقيل : إن الأقرع هو الذى قال هذه العبارة

وقال النبى - ﷺ - يرد عليهم : بل الله سبحانه - الذى مدحه زين وذمه شين . وحين خرج عليهم قال لهم : ما تريدون ؟

---

(٢٢٣) الحجرات ٤ ، ٥

(٢٢٤) التفسير الوسيط المجلد الثالث الحزب الثانى والخمسون - مجمع البحوث الاسلامية - صـ ١٠٣١

قالوا : نحن ناس من تميم ، جئنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك .

فقال النبى - ﷺ - : ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا ، ولكن هاتوا .

فقال الأقرع بن حابس لشاب منهم : قم يافلان - كان هذا الشاب هو عطارد بن الحاجب -

فقام عطارد فقال : الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه ، وأتانا أموالا نفعل بها ما نشاء ، فنحن خير أهل الأرض ، أكثرها عدداً ، وأكثرها سلاحاً ، فمن أنكر علينا قولنا ، فليأت بقول هو أحسن من قولنا ويفعال هو أفضل من فعالنا .

فقال النبى - ﷺ - لثابت بن قيس الأنصارى - وكان خطيب النبى - ﷺ - قم فأجبه .

فقام ثابت فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دعا المهاجرين من بنى عمه أحسن الناس وجوها ، وأعظم الناس أحلاما ، فأجابوه والحمد لله الذى جعلنا أنصاره ووزراء رسوله ، وعزًا لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، فمن قالها منع منا نفسه وماله ، ومن أباها قاتلناه ، وكان رغمه فى الله - تعالى - علينا هيِّنا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات .

فقال الزبرقان بن بدر لرجل منهم : قم فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك ، ويقال : إنه هو الذى قام فقال :

نحـن الكـرام فـلا حَـيٌّ يعـادلنا نحن الرءوس وفينا يُقسَمُ الرُّبُع[225]
ونطعـم النـاس عنـد المحل كلهـم من السـديف إذا لم يؤنس القـزع[226]
إذا أبينـا فـلا يأبى لنا أحـد إنا كـذلك عند الفخـر نرتفـع

فقام حسان فأجابه بقوله :

إن الذوائـب من فهـر وإخـوتهم قد بينـوا سننا للنـاس تتبـع
يرضـى لها كـل من كـانت سريرته تقـوى الإله وبالأمـر الذى شـرعوا
قـوم إذا حاربـوا ضروا عـدوهم أو حـاولوا النفـع فى أشياعهم نفعوا
سـجية تلك فيهـم غيـر محدثـة إن الخلائق فاعلم شـرها البدع
إن كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سـبق لأدنى سـبقهم تبـع
لا يفخـرون إذا نالـوا عدوهـم وإن أصيبـوا فلا خـور ولا جـزع[228]
أكـرم بقـوم رسـول الله قائدهم اذا تفرقـت الأهـواء والشيـع[229]

وكان الأقرع قد أحس بأن حسان قد أفحمهم كما أفحمهم الخطيب . فقام وقال : إنى والله يامحمد ـ لقد جئت لأمر ماجاء له هؤلاء ، قد قلت شعراً فاسمعه .

فقال النبى ـ ﷺ ـ هات .

---

(٢٢٥) الربع : ربع الغنيمة
(٢٢٦) السديف : شحم السنام ، والقزع : السحاب
(٢٢٧) الذوائب : جمع ذؤابة وهى أعلى شىء ـ وفهر ـ يقصد به قريشا ـ واخوتهم : الأنصار
(٢٢٨) خور : جمع خوار وهو الضعيف الجبان ـ وجزع : جمع جزوع وهو شديد الفزع
(٢٢٩) الأهواء : جمع هوى وهو الميل مع العاطفة بدون تعقل

فقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا إذا خالفونا عند ذكر المكارم
وأنا رءوس الناس فى كل معشر وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

فقال النبى - ﷺ - لحسان : أجبه .

فقال حسان :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وَبَالاً عند ذكر المكارم
هبلتم علينا ؟ تفخرون وأنتم لنا خدم من بين ظئر وخادم(٢٣٠)

فقال رسول الله - ﷺ - : لقد كنت غنيا ياأخا بنى دارم أن يذكر ماكنت ترى أن الناس قد نسوه .

فكان قول النبى - ﷺ - أشد عليهم من قول حسان .

فقام الأقرع فقال : ياهؤلاء ، ماأدرى ما هذا الأمر ؟ تكلم خطيبنا ، فكان خطيبهم أرفع صوتا . وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أرفع صوتاً ، وأحسن قولا ثم دنا إلى النبى - ﷺ - فقال : أشهد ألا إله الله وأنك رسول الله . . . . . فقال رسول الله - ﷺ - : لا يضرك ماكان قبل هذا(٢٣١)

وقد أعطاه النبى - ﷺ - يوم حنين لتأليف قلبه على الاسلام . وشاركه فى الأخذ عيينة بن حصن . وكان عطاؤهما أكثر من عطاء العباس بن مرداس ،

---

(٢٣٠) هبلتم : فقدتم وثكلتم ، والظئر : المرضع

(٢٣١) أسد الغابة جـ ١ صـ ١٣٠ - ما عدا أبيات حسان الأولى فهى من الأدب العربى وتاريخة

ولذلك ذكرهما العباس فى احتجاجه حين قال :

أتجعل نهبى ونهب العُبَيْد دون عيينة والأقرع ؟

ويقول الرواة : إن كل المؤلفة قلوبهم حسن إسلامهم بعد ذلك ـ فيما عدا عيينة بن حصن الذى ظل مغموزا عليه . وسائر المؤلفة متفاضلون ، منهم الخير الفاضل المجمع على فضله كالحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، ومنهم دون هؤلاء . . . وقد فضل الله بعض المؤمنين على بعض ـ والله أعلم بالجميع[٢٣٢]

هل بقى حكم المؤلفة قلوبهم بعد استقرار الاسلام ؟

حين ولى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ألغى سهم المؤلفة قلوبهم ، وقال : كنا نعطيهم والاسلام فى حاجة إلى قوة تسانده ، أما الآن فالإسلام ليس فى حاجة الى هؤلاء .

وربما تم ذلك قبل عهد عمر . . . . . فقد جاء فى القرطبى : اختلف العلماء فى بقائهم ، فقال عمر والحسن والشعبى وغيرهم : انقطع هذا الصِنف بعز الاسلام وظهوره . وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى . . وقال بعض علماء الحنفية : لما أعز الله الاسلام وأهله وقطع دابر الكافرين ـ لعنهم الله ـ أجمع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فى خلافة أبى بكر على سقوط سهمهم .

---

(٢٣٢) تفسير القرطبى جـ ٨ صـ ١٨٠

إلا أن المحقق لكتاب القرطبي صوَّب ذلك بقوله : وصوابه خلافة عمر . . وهذا هو الأصح . . لأن سياسة أبي بكر كانت قائمة على الاتباع .

وفي الواقع : ليس هناك اختلاف لأن عمر أبطله في عهد أبي بكر . . . . وقصة ذلك أن عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، والعباس بن مرداس ـ وهم من المؤلفة قلوبهم ـ جاءوا إلى بكر الصديق وطلبوا منه نصيبهم من الصدقة .

فكتب أبو بكر لهم به وقال لهم : اذهبوا بالكتاب إلى عمر . . . فذهبوا إلى عمر وأعطوه الكتاب ، فأبى عليهم عمر ، ومزق الكتاب ، وقال : هذا شيء كان يفعله النبي ـ ﷺ ـ يعطيكموه تأليفاً لكم على الاسلام ، والآن قد أعز الله الاسلام وأغنى عنكم ، فإن ثبتم على الاسلام والا فالسيف بيننا وبينكم . . . . « الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٢٣٣)

فرجعوا إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالوا : الخليفة أنت أم عمر ؟
فقال : هو إن شاء الله .
ووافقه أبو بكر ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ، فصار إجماعا .
ولكن جماعة من العلماء مع ذلك قالوا :
المؤلفة قلوبهم باقون وبالطبع ليسوا بأشخاصهم بل هم باقون بنوعهم ـ لأن الامام ربما احتاج أن يتألف بعض الناس على الاسلام ، وإنما قطعهم عمر لِمَا رأى من إعزاز الدين .

---

(٢٣٣) الكهف ٥٩

قال يونس : سألت الزهرى عنهم ، فقال : لا أعرف نسخا فى ذلك .

وقال أبو جعفر النحاس فى كتابه الناسخ والمنسوخ : فعلى هذا يكون الحكم ثابتا فيهم . .

فإن كان أحد يحتاج إلى تألفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة ، أو يرجى حسن إسلامه بعد ـ دفع اليه .

وقال القاضى عبد الوهاب : إن احتيج إليهم فى بعض الأوقات أعطوا من الصدقة .

وقال القاضى ابن العربى : الذى عندى انه إن قوى الاسلام زالوا ، وان احتيج اليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعطيهم . . . . فإن فى الصحيح « بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ » .

والخلاصة : أن العطاء وإن أبطل فإن الحكم الشرعى مازال باقيا ومن الممكن توجيه نصيب هؤلاء الآن فى خدمة الذين يعلنون إسلامهم فى البلاد المختلفة وبخاصة آسيا وأفريقيا ، حيث يتعرضون لحملات ضارية من المبشرين ومن يقف وراءهم .

فهؤلاء فى حاجة إلى معونات متعددة الجوانب وفى حاجة إلى بعثات وكتب ورسائل ونشرات ومساعدات ومراكز تعليمية وتثقيفية .

وفى البلاد الغربية كثير من الذين يعلنون إسلامهم عن بحث ودراسة وعقيدة ، فلماذا لا تهدى اليهم الكتب والمؤلفات التى تزيد من استبصارهم

فى الدين وتعينهم على مواصلة البحث والدراسة ليقتدى بهم غيرهم ؟ ولماذا لا يكافأون على مايقدمون من جهود بمكافآت رمزية ترمز إلى التقدير وتحفز إلى المزيد من الجهد والنشاط ؟[٢٣٤]

واذا بطل سهمهم لأن الحاجة لا تدعو اليه بسبب عزة الاسلام ، فإن رصيد هذا السهم يعود الى بقية مصارف الزكاة أو مايراه الامام .

وقال الزهرى : يعطى نصف هذا السهم لعمار المساجد .

ومن الملاحظ أن سهم المؤلفة قلوبهم فى الغنائم لم يظهر إلا فى فتح مكة لا غير ، وأن أغلب المنتفعين به كانوا من قريش ، ولم تراع فى قسمته المساواة الأصلية بين المقاتلين ، وهذا العمل من النبى - ﷺ - من أهم الأدلة التى استند اليها الفقهاء فى أنه يجوز للإمام أن يزيد فى عطاء من يتألف قلوبهم على الاسلام بالقدر الذى تدعو اليه مصلحة من تؤلف قلوبهم .

بل يجب عليه ذلك عندما تدعو إليه الحاجة . . ولا مانع أن يكون هذا العطاء من أصل الغنائم[٢٣٥]

أثر العطاء فى تأليف القلوب :

لقد أحسن النبى - ﷺ - فى إعطاء المؤلفة قلوبهم . . . . فقد استأصل بالاحسان مافى نفوسهم من حقد وكراهية له وللدين الاسلامى ، والشاعر الحكيم يقول :

---

(٢٣٤) الزكاة وحاجة العصر صـ ١١٨ عبد الحفيظ فرغلى دار الصحوة

(٢٣٥) فقه السيرة للبوطى صـ ٣٠٦

أحســن إلى النــاس تســتعبد قلوبهــم   فطالما اســتعبد الانســان إحســانُ

والنبى - ﷺ - أبلغ من وَعَى ذلك جيدا قبل أن يصوغه هذا الشاعر حكمة تجرى عبر الأزمان على كل لسان .

ولقد كان - ﷺ - طبيبا بالقلوب ، نافذاً ببصيرته إلى أعماق النفوس ، عارفا بما يعتمل فى دواخلهم من أحاسيس ومشاعر ، فلقد رأى صفوان ينظر إلى إبل وشاء فى شِعب ، فأدرك أنه يتطلع إلى ذلك .

فقال له : أيعجبك هذا ؟ قال : أجل - فأعطاه إياه .

فى الوقت الذى ترك غيره دون أن يعطيه ، مع أن حالته فى ظاهرها تستحق الإعطاء والمنح .

فقد حدث الرواة . أن بعضهم قال للنبى - ﷺ - : يارسول الله ، أعطيت الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن مائة من الابل ، وتركت جعيلا ؟

فقال النبى - ﷺ - : والذى نفسى بيده لجعيل خير من طلاع[٢٣٦] الأرض مثل عيينة والأقرع ، ولكنى أعطيتهما تألفاً لهما ليسلما ، ووكلته إلى إسلامه[٢٣٧] .

---

(٢٣٦) طلاع : أى خير مايطلع منها ويسيل عنها

(٢٣٧) أسد الغابة حـ ١ صـ ٣٣٨ - سنن أبى داود . كتاب الجهاد ٣ / ٤٨ ، ومسند احمد ٤ / ٣٣٦

وفى هذا المعنى ورد قوله - ﷺ - : « إن من الناس ناسا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حَبَّان »[٢٣٨] .

وهو فرات بن حَبَّان بن ثعلبة بن عبد العزى البكرى .

وروى مثل هذا فى عمرو بن تغلب العبدى . فقد قال : لقد قال رسول الله - ﷺ - فى شأنى كلمة ماأحب أن لى بها حمر النعم ، أتى رسول الله - ﷺ - شىء فأعطى قوما ومنع قوماً ، فقال رسول الله - ﷺ - : إنا نعطى قوما نخشى هلعهم وجزعهم ، ونَكِلُ قوما إلى ماجعل الله فى قلوبهم من الإيمان ، منهم عمرو بن تغلب ، وإن من أشراط الساعة أن تكثر التجار ويظهر القلم » .

يعنى أن التجار يكثرون لكثرة المال ، ويكثر الذين يكتبون ويحصون فى جمع تلك الأموال .

وقد أسلم من المؤلفة قلوبهم قوم حسن إسلامهم فخرجوا بذلك عن حد المؤلفة ، وذكرهم فى المؤلفة باعتبار ما كانوا عليه أولاً ، كحكيم بن حزام مثلاً الذى أشرنا الى قصته آنفاً .

ولا يمكن أن يفرق بين من حسن إسلامه وبين من لم يحسن إسلامه لجواز أن يكون من ظننا به شراً على خلاف ذلك . إلا من أجمع العلماء على وصفه بناء على ما ينجم عنه من تصرفات .

---

(٢٣٨) أسد الغابة جـ ٤ صـ ٢٠١

وعلى كل فالإسلام يأمرنا بحسن الظن ، ويقول الله لنا فى محكم كتابه .

﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (٢٣٩)

ولا عبرة بقول من يقول « سوء الظن عصمة » إلا من باب الاحتياط لا أكثر ولا أقل .

ومن الناس من جاءوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُسلمون رغْبَةً فى العطاء ـ فما هى إلا عشية وضحاها حتى يصبح الواحد منهم أزهد أهل الأرض وأغناهم بالقناعة التى وهبها الله إياه بفضل الإسلام والتخلق بأخلاقه .

قال أنس ـ رضى الله عنه ـ : كان الرجل يأتى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيسلم لشىء يعطاه من الدنيا ، فلا يمسى حتى يكون الاسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها .

توزيع العطاء على المستحقين

هذا العطاء الذى أعطى بإغداق كان من الخمس . أما الأربعة أخماس فهى حق المقاتلين بنص القرآن الكريم

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢٤٠)

---

(٢٣٩) الحجرات ١٢

(٢٤٠) الأنفال ٤١

وقد أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم .

وكان الناس قد ألحوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القسمة بينهم ، حتى أنه لكثرة ما ألحوا عليه قال :

أيها الناس والله إن كان لى مثل شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كدوداً . ثم قام ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنب بعيره فأخذ وبرة من سنامه ثم رفعها ، ثم قال : أيها الناس ، والله ما لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط . .

وقد أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما سبق أن قلنا بعدم الغلول ، وكان قد كلف قوماً بالمحافظة على الغنائم . قيل : إن أبا جَهْم بن حذيفة كان واحداً منهم ، فجاء رجل اسمه خالد بن البرصاء ، وأخذ من الأنفال زمام شعر ، فمانعه أبو جهم . فلما تمانعا ضربه أبو جهم بالقوس فشجه .

فاستعدى خالد عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : اقتص لى منه فاسترضاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يقتص له ، قال له : لا أقيدك من وَالٍ عليك .

وقسم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفيء بين الناس فخص كل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فارساً أخذ اثنى عشر بعيراً ، ومائة وعشرين شاة . .

وجاء رجل من المنافقين قيل : هو معتب بن قشير ـ فقال : هذه القسمة ما عُدِل فيها ، ولا أريد بها وجه الله ، فأُخْبِر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتغير وجهه الشريف ، وغضب حتى أحمر وجهه وقال : من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحمة الله على أخي موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

وقال بعض الرواة : إن اسم الرجل هو ذو الخويصرة التميمى فقد روى ابن هشام عن مِقْسَم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : خرجت أنا وتليد بن كلاب الليثى حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص ،وهو يطوف بالبيت معلقاً نعله بيده ، فقلنا له : هل حضرت رسول الله حين كلمه التميمى يوم حنين ؟

قال : نعم ـ جاء رجل من بنى تميم يقال له ذو الخويصرة ، فوقف عليه وهو يعطى الناس فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجل فكيف رأيت ؟

قال : لم أرك عدلت .

قال : فغضب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : ويحك ، إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون ؟

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ألا أقتله ؟

فقال النبّى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ، دعه ، فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ، ينظر فى

النصل فلا يوجد شىء ، ثم فى القِدْح فلا يوجد شىء ، ثم فى الفُوق فلا يوجد شىء ، سبق الفرث الدم(٢٤١) .

وفى رواية أخرى : يخرجون على حين فرقة من الناس آيتهم رجل احدى ثدييه مثل ثدى المرأة . قال أبو سعيد : أشهد لقد سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأشهد أنى كنت مع على ـ رضى الله عنه ـ حين قاتلهم ، ثم التمس فى القتلى فأتى به على النعت الذى نَعتَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم(٢٤٢) .

قال السهيلى : وصدق الحديث فى الخوارج . وذكر الحديث برواية : يخرج من ضئضئه قوم تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . ـ والضئضىء : النسل ـ فكان بدؤهم من ذى الخويصرة ، وكان آيتهم ذو الثُّدَيَّة ، واسمه فيما يقول البعض : حرقوص السعدى(٢٤٣) .

ويعد هذا الحديث من آيات الإعجاز فى كلام المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد صدَّق الواقع ما قال . فجاء الخوارج فى عهد على ـ رضى الله

---

(٢٤١) سيرة ابن هشام حـ ٤ صـ ١١١ . والقِدْح ـ بكسر القاف وسكون الدال ـ السهم قبل أن يراش ، والفوق ـ بضم الفاء وسكون الواو ـ بزنة قفل ـ موضع الوتر من السهم وهو مثل يضرب لسرعة نفاذ السهم وخروجه ليس عليه شىء من الدم ، فهم ليس عندهم شىء من الدين وإن دخلوا فيه .

(٢٤٢) أسد الغابة حـ ٢ صـ ١٧٢

(٢٤٣) الروض الأنف للسهيلى حـ ٤ صـ ١٩٨

عنه ـ فكانت صفتهم كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يقرأون القرآن لا تفقهه قلوبهم ، ليس لهم حظ منه إلا تلاوة الفم ، وإنهم يقتلون أهل الاسلام ويَدَعُون أهل الأوثان ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود »

وقد سئل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم : أكفارٌ هُمْ ؟

فقال : من الكفر فروا

فقيل : أمنافقون ؟

فقال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً . .

فقيل : ما هم ؟

فقال : أصابتهم فتنة فعموا وصموا .

وهذا يدعونا إلى التدبر جيداً فى تعاليم الدين ، فلا نفارق جماعة المسلمين ، ولا نغالى كما غالى هؤلاء الخوارج فحكموا بتكفير مرتكب الكبيرة ، وحبوط عمله وتخليده فى النار ، وبذلك جحدوا رحمة الله التى وسعت كل شىء . ومن أحكامهم أن دار الاسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر ، ولا يصلون جماعة[٢٤٤] . يعنى لا يأتمون بجماعة المسلمين لرأيهم فيهم .

---

(٢٤٤) السيرة الحلبية حـ٣ صـ٨٩

موقف الأنصار من الغنائم والعطايا

وحين أعطى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه العطايا الكثيرة للمؤلفة قلوبهم ، وأغلبهم من قريش ـ كما أسلفنا ـ لم يعط الأنصار شيئاً ..

وقد وجد الأنصار فى أنفسهم شيئاً من ذلك ـ حتى قال قائلهم : لقد لقى محمد أهله ..

ويعنى بهذه العبارة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجد فى أهله غناء عن غيرهم فهو يعطيهم ويترك من سواهم من الذين آووه ونصروه ..

ولبى الشعر نداء ما حدَّث به الأنصار أنفسهم ، فأسرع حسان بن ثابت يقول :

زاد الهمومُ فماء العين منحدر ... سَحًّا إذا حفلته عبرة دِرَرُ[245]
وجدا بشماء إذ شماءُ بهنكةٌ ... هيفاء لا دنس فيها ولا خور[246]
دع عنك شماء إذ كانت مودتها ... نزرا وشر وصال الواصل النُزر[247]
وائت الرسول فقل : يا خير مؤتمن ... للمؤمنين إذا ما عُدِّد البشر
علام تدعى سُلَيْمٌ وهى نازحةٌ ... قُدَّامَ قوم هُم آووا وهم نصروا[248]
سماهم الله أنصاراً بنصرهم ... دين الهدى وعَوان الحرب تستعر[249]

(٢٤٥) سحًّا : غزيرا ، ودمعة دِرر : سائلة ـ
(٢٤٦) شماء : اسم فتاة ، بهنكة : كثيرة اللحم
(٢٤٧) نزر : قليل
(٢٤٨) نازحة : بعيدة ، وسليم : قبيلة سليم .
(٢٤٩) عوان الحرب : الحرب العوان المستمرة التى قوتل فيها مرة بعد مرة ، وتستعر : تشتعل

وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا   للنائبات وما خافوا وما ضجروا[٢٥٠]
والناس إلب علينا فيك ليس لنا   إلا السيوف وأطراف القنا وَزَر[٢٥١]
نجالد الناس لا نبقى على أحد   ولا نضيع ما توحى به السور[٢٥٢]

إلى آخر ما قال .

لقد بدأ حسان قصيدته كما كان الشعراء القدامى يبدأون قصائدهم بالغزل ، ثم تخلص من الغزل إلى موضوع قصيدته ، وهو الشكوى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من إغفاله الأنصار فى القسمة من هذه الغنائم لقد تركهم وقدم بنى سُليم عليهم ، مع أن بنى سليم قوم نازحون ويعيدون وتاركون المدينة . والأنصار مقيمون مدافعون . .

والأنصار هم الذين آووا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصروه ، وقد سماهم القرآن الكريم بذلك .

وقد تحمل الأنصار عبء الدفاع عن الدعوة ، ووضعوا أنفسهم فداء لها ، دون مَنٍّ أو تأخر ، وقد اجتمع الناس عليهم من كل فج ، ومع ذلك لم يضجروا ولم يجبنوا .

ويقول : ونحن ما زلنا ندافع عن ديننا ونحرص على ما يدعو إليه القرآن الكريم من مبادىء وتعاليم . .

---

(٢٥٠) حاموا : جبنوا
(٢٥١) إلب : متألبون علينا ، ووزر : ملجأ
(٢٥٢) نجالد : نجاهد ونقاتل

ومازلنا جندك يا رسول الله ، لن نتخلى عنك . . كما أننا لم نتخل عنك فى مختلف الوقائع التى حدثت من لدن بدر فأُحد فالأحزاب حتى الآن . . لقد أبرز حسان فى هذا الشعر شكاته للنبى - صلى الله عليه وسلم - وظاهَرَه فى هذه الشكاة غيره من زعماء الأنصار .

فعن أبي سعيد الخدرى قال : لما أعطى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شيء وَجِد هذا الحى فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحىّ من الأنصار قد وَجِدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء .

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فأين أنت من ذلك يا سعد ؟
قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومى .

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فاجمع لى قومك فى مكان كذا .
فخرج سعد فجمع الأنصار فى المكان الذى حدده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا . وجاء آخرون فردهم .

فلما اجتمعوا له أتاه سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار . فأتاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، مقالة بلغتنى عنكم وجِدَةٌ(٢٥٣) وجدتموها علىَّ فى أنفسكم .

ألم آتكم ضُلَّالاً فهداكم الله ، وعالة(٢٥٤) فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى . . . الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المَنُّ والفضل .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقْتم ولصُدِّقْتم : أتيتنا مُكَذَّباً فصدقْناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك(٢٥٥) .

أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لَعَاعة(٢٥٦) من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟

---

(٢٥٣) جدة : الموجدة والغضب

(٢٥٤) عالة : فقراء

(٢٥٥) آسيناك : أعطيناك ووقفنا معك

(٢٥٦) لعاعة : بقلة حمراء ناعمة ، شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها

ألّا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

قال : فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم .

وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظا .

ثم انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتفرق القوم .

أى روعة وأى بيان ؟ وأى قوة يحملها هذا المنطق العربى الفصيح ؟

إنه الصدق الرائع الذى تحمله هذه العاطفة الصادقة التى يفيض بها هذا البيان الذى يأخذ بمجامع القلوب . .

ولا يمكن أن يعاب على الأنصار موقفهم من توزيع الغنائم ، فإن النفس البشرية لها أن تتطلع . . . . ومن قبل ذلك تطلعت نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - وهن أقرب الناس إليه وأحقهن بالإقتداء به والتعلم من أدبه وسلوكه - تطلعن لنعيم الدنيا وزينتها حين فرق النبى - صلى الله عليه وسلم - أموال بنى قريظة . . حتى نزل قوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا

عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ (٢٥٧)

فقلن جميعاً: رضينا بالله ورسوله والدار الآخرة .

وتطلع النفس إلى متاع الدنيا ليس مما يعيب الانسان ، بل ربما لو لم تتطلع لكان ذلك عيباً فيها .. وإلا لما شرع للإنسان أن يجاهد نفسه ويقاوم تطلعاته التى تنأى به عن الطريق الأمثل والمثل الأعلى .

على أن للشيطان دوراً لابد أن يقوم به حتى مع أماثل الناس ، ولقد استطاع أن يقوم به مع نبى الله آدم وهو فى جنة الخلد ..

والنفس الأمارة قد تراود الصديقين ... وبعض المفسرين يرى أن قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ (٢٥٨)

من حكاية كلام يوسف ـ عليه السلام ـ وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يقول « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق » وقد أراد الشيطان أن يبث فى نفوس جماعة من الأنصار الشك والتردد فى شأن السياسة التى اتبعها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى توزيع الغنائم ، وربما أراد الشيطان لهم أن يتصوروا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أدركته محبة قومه وبنى وطنه فنسى فى خضم ذلك حق الأنصار .

---

(٢٥٧) الأحزاب ٢٨ ، ٢٩

(٢٥٨) يوسف ٥٣

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ استطاع بخطابه الذى ألقاه عليهم أن ينزع من نفوسهم هذه الخواطر ، وأن يوضح لهم أن مكانتهم فى نفسه لا يمكن أن تتغير أو تتزحزح .

وفى الوقت نفسه أوضح لهم أن هذه الدنيا مهما كبرت فى أعين بعض الناس فهى هينة حقيرة أمام رضوان الله ، والفوز بحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولقد لمس الأنصار مقدار حب رسول الله لهم ، وحرصه على رضاهم . وثقته فى إيمانهم ، حتى أصبحت كل غنائم هوزان فى نظرهم لا قيمة لها على الاطلاق أمام هذا العطف البالغ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم ورقته لهم .

حقاً .. فماذا يساوى المال والشياه والإبل وتلك العروض الزائلة إذا قيست بحب حبيبهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يعودون به ويعود بهم إلى ديارهم ليكون المحيا محياهم والمهات مماتهم ؟ ؟ . . . إنها لا تساوى شيئاً على الاطلاق .. ومع ذلك .. فما أكثر ما أعطى قريشاً ، ولكن ماذا أخذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنفسه من ذلك ؟ إنه لم يأخذ شيئاً . فهو القدوة التى ينبغى أن يقتدى بها هؤلاء الأنصار ، وهو الدرس الذى يجب أن يعيه المؤمن الصادق من سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدق الله العظيم إذ يقول

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٢٥٩)

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب الأنصار ، ويعرف لهم فضلهم ، ولذلك كانت وصاته بهم وهو فى مرض موته . . . .

فقد ذكر ابن سعد فى طبقاته قال : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نصب عليه من سبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ، فلما اغتسل وجد الراحة ، فصلى بالناس ثم خطبهم ، واستغفر للشهداء من أصحاب أحد ودعا لهم ، ثم أوصى بالأنصار فقال : يا معشر المهاجرين ، إنكم أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها اليوم ، هم عيبتى التى أويت إليها ، أكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم(٢٦٠) »

وإنهم لجديرون بهذا الحب . . . . ولم لا وقد أثنى الله عليهم ثناء جميلاً مستمراً إلى أن تقوم الساعة قال تعالى :

---

(٢٥٩) الأحزاب ٢١

(٢٦٠) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ٢ صـ ٤٢

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ
فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢٦١)

وقد ذكرهم النبى - صلى الله عليه وسلم - كثيراً ، وأثنى عليهم فى أكثر من موضع وموقف .



---

(٢٦١) الحشر ٩

النبى يرد سبى هوازن

- قصة الشيماء
- إسلام ثقيف
- عمرة الجعرانة
- ماذا كانت تعبد ثقيف
- هدم اللات
- هدم صنم طيىء
- موضع العبرة فى غزوتى حنين والطائف

النبى يرد سبى هوازن

وجاء وفد هوازن للنبى - ﷺ - مسلمين طائعين بعد أن قسم الغنائم والسبى .

وكان السبى كثيرا قدره الرواة بستة آلاف رأس .

وكان يرأس الوفد زهير بن صُرَر- ويكنى بأبى صرد

وقالوا : يارسول الله ، إنَّا أهل وعشيرة فامنن علينا . . وكان فى الوفد عم النبى - ﷺ - من الرضاعة واسمه أبوثروان . فقال : يارسول الله ، انما فى الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك فى حجورنا ، وأرضعناك بثُدينا ، ولقد رأيتك مرضعا فما رأيت مرضَعاً خيرا منك ، ورأيتك فطيماً فما رأيت فطيما خيرا منك ، ثم رأيتك شابا فما رأيت شابا خيرا منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أهلك وعشيرتك ، فامنن علينا منَّ الله عليك(٢٦١) .

وقام زهير بن صرد فقال : يارسول الله إنما سبيت منا عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كفلنك ، ولو أنا ملحنا(٢٦٢) للحارث بن أبى شمر ، والنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا أحدهما بمثل مانزلت به لرجونا عطفه وعادته وأنت خير المكفولين . .

تم أنشده أبياتا قالها :

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر

---

(٢٦١) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ صـ ٧٢

(٢٦٢) ملحنا ـ المقصود أرضعنا

امنن على بيضة إعتاقها قدر ممزق شملها فى دهرها غير
إن لم تداركها نعماء تنشرها يا أرجح الناس حلما حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت تَرْضَعُهَا إذ فوك يملؤه من محضها درر
إذ كنت طفلا صغيرا كنت تَرْضَعهاَ وإذ يزينك ما تأتى وما تذر
لاتجعلنا كمن شالت نعامته واستبق منا فإنا معشر زهر «٢٦٣»
يا خير من مرحت كمت الجياد به عند الهياج إذا ما استوقد الشرر
إنا لنشكر آلاء وان كفرت وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
إنا نؤمل عفوا منك تلبسه هذى البرية إذ تعفو وتنتصر «٢٦٤»

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لاتقدمون ، وقد قسمنا السبى وجرت فيه السهمان .

وفى رواية : إن أحسن الحديث أصدقه ، وعندى من ترون من المسلمين أفأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟

فقالوا : يارسول الله ، خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، وماكنا نعدل بالأحساب شيئا ، فرد علينا أبناءنا ونساءنا .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ، فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ، فإنى سأقول لكم : ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب لكم الناس .

---

(٢٦٣)شالت نعامته - يقصد ماتوا وتفرقوا

(٢٦٤) أسد الغابة جـ٢ ، ص ٢٦٢ والروض الألف جـ ٤ ، ص ١٦٦

فلما صلى النبى - صلى الله عليه وسلم - بالناس الظهر ، قاموا فتكلموا كما أمرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : ماكان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فقال الأقرع بن جابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عباس بن مرداس السلمى : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقال عيينة بن حصن أما أنا وبنو فزارة فلا - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من تنازل عن حقه منكم فله بكل إنسان ست فرائض (٢٦٥) من أول فىء نصيبه فرد الناس ما فى أيديهم (٢٦٦) .

وفى إحدى الروايات قال النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يريد ترقيق قلوب الناس وحثهم على مراعاة حق الأخوة فى الاسلام - : إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا ، فمن كان عنده لهم سبى فطابت نفسه أن يرده فليرده ، ومن أبى فليرد عليهم ذلك قرضا علينا بكل إنسان ست فرائض من أول مايفىء الله علينا .

---

(٢٦٥) الفريضة : البعير المأخوذ فى الزكاة

(٢٦٦) أسد الغابة جـ ٢ ، ص ٢٦٣ - والطبقات الكبرى

لقد راعى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق التربية ، وهو أكرم الناس وأحقهم بالبر والوفاء .

ولقد كان المسلمون عند حسن ظن نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أجابوه طائعين راضين ، فيما عدا أولئك النفر الذين عرفوا بكزازة الطبع وقسوة القلب ، فلم يحسنوا الاستجابة لأمر الرسول ، ولم يؤثروا رضاء الله ورسوله على رضاء أنفسهم وشهواتهم .

ومازال وفد هوازن يفتدى من وقع تحت هؤلاء النفر من قساة القلوب ، حتى افتدوهم جميعا ، فيما عدا عجوزا ظلت تحت يد عيينة بن حصن ، فجاء ابنها يحاول افتداءها منه ، وهى أم زهير بن صرد .

وكان ابنها قد عرض أن يدفع فيها مائة من الأبل فرفض عيينة وأراد أن يأخذ من ابنها زهير ضعف ذلك .

فتركه زهير ، ثم عاد إليه بعد مدة وعرض عليه خمسين فرفض عيينة .

فقال له زهير : والله إنها لعجوز لايرجى لك من ورائها نفع ولا كسب .

فرفض أيضا عيينة . فتركه زهير وغاب عنه ، ثم مر معرضا عنه ، فقال له عيينة : خذها بالخمسين .

فأخذ زهير ينقص من الإبل حتى افتداها من عيينة بأقل من ذلك بكثير ... قيل : بستة من الإبل (٢٦٧) .

---

(٢٦٧) انظر السير الحلبية جـ٣ ، ص٩٧

لقد تحققت دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عيينة ، لأنه كان قد دعا على من أبى من يرد السبى بالبخس والكساد .

ابن عمر بن الخطاب يرد أسيرته

أين تصرف عيينة من تصرف ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ؟ . . . . لقد رد عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضى اللع عنهما ـ ما كان عنده من سبى وكان ضمن ذلك فتاة أسيرة . . ردها قرير العين بذلك . دون ضن أو بخل أو تردد .

وكذلك فعل كل الصادقين من المؤمنين ، بمجرد أن طلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك .

أما عيينة فرفض أن يرد تلك العجوز وأراد أن يساوم بها ، وقال ـ حين رآها عجوزا ـ : إنى لأحسب لها فى الحى نسبا وعسى أن يعظم فداؤها . فلن فاته الشباب والجمال فلن يفوته ـ فيما ظن ـ المال . .

ولم يقبل مافرضه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فداء لمن أراد أن يمسك من فى يده ، بل طمع فى المزيد ، وحدث منه ما أشرنا إليه من مساومة بينه وبين ابن هذه العجوز ، وقد أبى الله إلا أن يصدق رسوله فيما قال . . فلم تكن إلا هذه الفرائض الست التى أداها زهير فداء لأمه من عيينة . .

إسلام مالك بن عوف

وسأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفد هوازن عن مالك بن عوف بن سعد قائد هوازن وسيدها ، وهو الذى جيش الجيوش وأعدَّ الجموع لقتال

المسلمين . فقالوا : إنه فى الطائف مع ثقيف .

لقد فوجىء مالك بالهزيمة التى لم يكن يتوقعها أبدا . . بل لقد كان يتوقع أن يحقق مافشلت فيه قريش والأحزاب معها من نصر على النبى - صلى الله عليه وسلم - ولقد قال : إن محمداً لقى أغمارا من الناس لاعهد لهم بالحروب فانتصر عليهم ، يعنى بذلك قريشا واليهود .

وفى الحق لقد وضع مالك خطة بارعة ولكن فاته أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، وفاته أنه يحارب الحق ونور الله . . وعجز عقله عن أن يستوعب المبادىء الجديدة التى جاء بها الإسلام لنشر العدل والمساواة والنصفة بين الناس .

لقد كان مالك يدين بعنجهية بدوية متسلطة ، تسيطر عليه روح القبيلة والاعتداء بالباطل ، والغلبة بدون وجه حق . . ومن أجل ذلك لم يصغ لرأى عاقل مجرب أراد أن ينصحه ويشير عليه بما هو أصوب ، وذاك هو دريد ابن الصمة .

وحين بدأ الهجوم من جانب هوازن على مقدمة المسلمين فى عماية الصبح وأدت هذه الهجمة المباغتة إلى جفلة الخيول وردتها التى أشاعت الفوضى والاضطراب فى صفوف المسلمين فانهزموا فى غير نظام ، وتبعهم الأعراب ، وأقبل مالك بن عوف على فرسه فى محاولة له يحمل فيها على النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يرتجز على فرسه وكان يسميه « مُجَاج » قائلا :

أقـــدم مجـــاجُ إنـــه يـوم نُكـــُر مثلى على مثلك يحمـى ويكـــر

إذا أُضِيعَ الصفُّ يوما والدَّبر ... ثم اجْزَألَّت زمرٌ بعد زُمَر[٢٦٨]

كتائب يكل فيهن البصر ... قد أطعن الطعنة تقذى بالسبر[٢٦٩]

حين يذم المستكين المنجحر ... وأطعن النجلاء تعوى وتهر[٢٧٠]

لها من الجوف رشاش منهمر ... تفهق تارات وحينا تنفجر[٢٧١]

وثعلب العامل فيها منكسر ... يازيد يابن همهم أين تفر[٢٧٢]

قد نفد الضرس وقد طال العمر ... قد علم البيض الطويلات الخُمر[٢٧٣]

أنى فى أمثالها غير غَمِر ... إذ تخرج الحاضن من تحت السّتُر[٢٧٤]

وقال ايضا :

أقدم مجاجُ إنها الأساوره ... ولا تغرنك رِجْل نادرة[٢٧٥]

ولكن إقدامه على الرسول - ﷺ - لم يغن عنه شيئا ، فقد كانت الدائرة قد دارت على هوازن ، وتحول هجومهم الى دفاع فارتداد فهزيمة ساحقة .

وولّى مالك مع من ولّى ووقف فى الطريق على ثَنِيَّة يحاول أن يحمى

---

(٢٦٨) اجزألت: ارتفعت ، والزمر : جمع زمرة وهى الجماعة .

(٢٦٩) يكل : يعيا ويتعب ، والسُّبر - بزنة كتب ، جمع سبار - بزنة كتاب وهو مايسبر به غور الجرح ليعرف أغائر هو أم لا .

(٢٧٠) المستكين : الذليل - والمنجحر : المتباعد المتخذ لنفسه موئلا بعيدا ، النجلاء : الطعنة الواسعة - تعوى - يسمع لها صوت كالعواء والهرير .

(٢٧١) تفهق : تنفتح .

(٢٧٢) الثعلب : مادخل فى السنان من عصا الرمح ، والعامل : أعلى الرمح

(٢٧٣) الخمر : جمع خمار ، ماتستر به المرأة وجهها

(٢٧٤) غَمْر : غير مجرب ، والحاضن : المرأة الحاضنة

(٢٧٥) الأساورة : جمع إسوار : الرامى بالقوس ، والرّجْل النادرة : المقطوعة .

انسحاب قومه ، قائلا لأصحابه : قفوا حتى تمضى ضعفاؤكم ويلحق بكم أخراكم ، وقد دخل فى نفسه من الروع مالم يكن قبل ذلك ، ولكنه مع ذلك ظنّ أنه فعل بوقفته هذه شيئا ، ولذلك قال :

ولولا كرتان على مُجَاجٍ لضاق على العضاريط الطريقُ(٢٧٦)
ولو كر دهان بن نصر لدى النخلات مُنْدَفَعَ الشديق(٢٧٧)
لآبت جعفر وبنو هلال خزايا مُحْقِبين على شُقُوق(٢٧٨)

وربما كانت هذه الأبيات قد قالها فى غير هذه المرة ، ولكن على أى حال فقد كان شاعرا ينفس بشعره عما فى نفسه .

ولقد قال أبياتا يعتذر فيها عن فراره فى ذلك اليوم أمام خليل الله . . . يقول فيها :

منع الرقاد فما أغَمّض ساعة نَعَمٌ بأجزاع الطريق مخضرم(٢٧٩)
سائل هوازن هل أضر عدوها وأعين غارمها إذا مايغرم
وكتيبة لبَّستها بكتيبة فئتين منها جاسر ومُلأم(٢٨٠)

---

(٢٧٦) العضاريط : الأتباع : ، ومجاج : اسم فرسه

(٢٧٧) دهمان بن نصر : ابن عم مالك ، والشديق : اسم موضع

(٢٧٨) محقبين : مردفين لمن انهزم منهم ، ورويت : محمقين من الحمق إذا أحمقت الخيل فلم تنجب ، وشقوق : أراد مشقة .

(٢٧٩) نَعَم : الإبل والماشية التى اكثرها الابل ، وأجزاع الطريق : ما انعطف منه ، ومخضرم : مقطع الآذان

(٢٨٠) جاسر : لا درع له ـ وملأم : يلبس اللأمة وهى الدرع

ومُقَدَّمٍ تعيا النفوس لضيقة قدمته وشهود قومى أعلم[٢٨١]
فوردته وتركت إخوانا له يردون غمرته وغمرتُه الدم[٢٨٢]
فإذا انجلت غمراته أورثتنى مجد الحياة ومجد غنم يقسم
كلفتمونى ذنب آل محمد والله أعلم من أعق وأظلم
وخذلتمونى إذ أقاتل واحداً وخذلتمونى إذ تقاتل خثعم
وإذا بنيت المجد يهدم بعضكم لايستوى بانٍ وآخر يهدم
وأقَبَّ مخِماصَ الشتاء مُسَارع فى المجد يُنْمى للعلا مُتَكَرِّمُ[٢٨٣]
أكْرَهْتُ فيه ألَّةً يزَنِيّةً سَمْحاءَ يقْدمُها سِنان سَلْجَمُ[٢٨٤]
وتركت حَنَّتهُ تردُّ وَلِيَّةُ وتقول : ليس على فلانة مُقْدَم[٢٨٥]
ونصبت نفسى للرماح مُدَجَّجاً مثلَ الدريَّةِ تُسْتَحل وتُشْرَمُ[٢٨٦]

إنه يعتب على قومه أنهم خذلوه وتركوه وحيدا فى المعركة ، مع انه كان يعمل على بناء مجدهم ، فكأنه يبنى وهم يهدمون .

وقد ركب فرساً قوية يصارع عليها الأعداء ، وكم وجه الى خصومه رماحه . . . إلى الفرسان الذين رأت زوجاتهم ماسوف يصيبهم فحاولن أن

---

(٢٨١) مقدم : الموضع لايتقدم فيه الا الشجعان .
(٢٨٢) غمرته : معظمه
(٢٨٣) أقب : ضامر الخصر ـ ومخماص : ضامر البطن ـ يصف فارساً
(٢٨٤) ألّة : بتشديد اللام المفتوحة بعد الهمزة المفتوحة ـ حربة ، ويزنية : منسوبة إلى ذى يزن ، ملك من ملوك حمير ، وسمحاء : سوداء العصا ـ سنان سلجم : طويل
(٢٨٥) حنّته : زوجته التى تحن إليه ـ فلانة : كناية عن الفرس
(٢٨٦) الدرية : الدريئة ـ وهى الحلقة تنصب ليتعلم فيها الطعن ، تُشْرَم : تقطع

يردوهم عن لقائى ، فى الوقت الذى نصبت فيه منفردا نفسى وجعلتها هدفا للرماح من كل جانب .

إنه تعليل لفراره فى ذلك اليوم الذى تخلى فيه عنه أنصاره وأصحابه ، فلا سبيل الى بقائه وحده فى ميدان المعركة التى ظهرت نتائجها واضحة أمامه . .

أين هو من الرسول - ﷺ - الذى ثبت وحده فى الوقت الذى انهزم عنه أنصاره ، ومع ذلك لم يتزحزح قيد شعرة إلى الوراء ، بل كان متقدما وهو فوق بغلة شهباء لامجال لها فى الحرب - لايأبه بمن أمامه من أبطال ، ولا بما حوله من فزع واضطراب ، وهو ينادى بأعلى صوته منبها الى مكانه . . انا النبى لاكذب أنا ابن عبدالمطلب . . ؟ . .

قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله - ﷺ - .

لقد سأل النبى - ﷺ - وفد هوازن عن هذا الرجل الذى كان سببا فى هذه المعركة كلها من أولها إلى آخرها . .

لم يسأل عنه ليقتص منه أو ليوقع به ، ولكن ليتيح له فرصة يحقق فيها وجوده ، ويثبت فيها ذاته ، ويصنع لنفسه المجد الحقيقى الباقى الذى لايفنى ، والذكر الخالد الذى لاينساه الناس . .

وكان النبى - ﷺ - قد أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمتهم أم عبدالله بن أبى أمية . وكلمه وفد هوزان فيهم قائلين : يارسول الله أولئك سادتنا .

فقال رسول الله : إنما أريد بهم الخير .

وتساءل : مافعل مالك بن عوف ؟

قالوا : هو لاجىء طريد بين ثقيف .. بعد أن كان سيدا مطاعا بين قومه .. قال النبى صاحب القلب الرحيم : « أخبروا مالكا أنه إن أتانى مسلما رددت اليه أهله وماله وأعطيته مائة من الابل »

وفى سرعة البرق نما هذا الخبر الى مالك ، حمله إليه سرا من يهتم بأمره .

ولم يتردد مالك فى اغتنام هذه الفرصة السانحة ، وهو لم ينجح فى اتخاذ قرار مثلما نجح فى اتخاذه قرار القدوم الى رسول الله ـ ﷺ ـ .

فجاء مسرعا الى رسول الله ـ ﷺ ـ

ولكنه حين قرر العودة خشى أن تحس به ثقيف فتحبسه لتحول بينه وبين تنفيذ مايريد ، فأمر براحلته فهيئت له بعيدا عن الطائف ، وأمر بفرس فأتى به الى الطائف ، فخرج ليلا ـ دون أن يراه أحد ـ فجلس على فرسه ، وركضه ، حتى أتى الدهناء ـ مكان راحلته التى هيئت له ـ فنزل عن الفرس وامتطاها . وسار الى النبى ـ ﷺ ـ وهو يقلب فى نفسه ماسيقوله له .

لقد تيقن أنه يقصد نبيا ـ لاشك فى ذلك ـ وهو مؤيد من الله بما لاقبل له به ـ وقد أخطأ حين حاول محاربته .. وهاهو الآن فى طريقه اليه ، وقد تفضل هو فدعاه . فكيف يجزى هذا العمل العظيم ؟

ولكنه شاعر ، والشعر خير وسيلة تذلل الصعاب ، وتزيل الحجاب .. ووقف مالك بين يدى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يجد أمامه إلا الرحمة الشاملة ، والرقة البالغة ، والقلب الواسع والوجه المشرق الذى يشع نوره فيملأ ماحوله بهجة وانطلاقا .

وأسعفه شعره فقال : بين يدى النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى تهزه الكلمة الطيبة الصادرة من وجدان صادق :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى متى تشأ يخبرك عما فى غد (٢٨٧)
وإذا الكتيبة عَرَّدت انيابها بالسمهرى وضرب كل مهند (٢٨٨)
فكأنه ليث على أشباله وسط الهباءة خادر فى مرصد (٢٨٩)

وأسلم مالك بن عوف ، ورد النبى - صلى الله عليه وسلم - عليه ماله وأهله ، وأعطاه مائة من الإبل ، واستعمله على من أسلم من قومه ومن قبائل قيس عيلان ، وأمره بمغاورة (٢٩٠) ثقيف ، ففعل ذلك وضيق عليهم ، وسبحان مقلب القلوب ومغير الأحوال .

فكان لايخرج سرح من ثقيف إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم المسالك ، فقال أبو محجن الثقفى يشكو ذلك :

هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة ؟
وأتانا مالك بهم ناقضا للعهد والحرمة
وأتونا فى منازلنا ولقد كنا أولى نقمة (٢٩١)

---

(٢٨٧) اجتُدِى : طلبت منه الجدوى وهى العطية
(٢٨٨) عردت : مالت ، والسمهرى : الرمح
(٢٨٩) الاشبال : جمع شبل ، ولد الاسد ، والهباءة : الغَبَرة ، وخادر : داخل خدره ، والمرصد : الذى يرصد منه ويرقب
(٢٩٠) مغاورة : الإغارة عليهم
(٢٩١) سيرة ابن هشام حـ ٤ ، ص ١٠٧ - أسد الغابة حـ ٥ ، ص ٤٢

قصة الشيماء

من الشيماء ؟

هى الشيماء بنت الحارث السعدية أخت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاعة أبوها هو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ناصرة ، من بنى سعد بن بكر .

وأمها هى حليمة بنت أبى ذؤيب ، وأبو ذؤيب هو عبد الله بن الحارث بن شِجنةَ بن جابر بن رزام بن ناصرة من بنى سعد بن بكر .

ويقال : إن الشيماء اسمها حذافة ولكن لقب الشيماء غلب عليها فعرفت به . . . . وللنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخوان من الرضاعة غيرها ، هما : عبد الله بن الحارث ، وأنيسه بنت الحارث .

وكانت الشيماء ضمن الوفد الذى جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هوزان . . . جاءت هى وأمها حليمة .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أصدر أمرا قال فيه : إن قدرتم على ـ بجاد ـ فاقتلوه .

وكان بجاد وهو رجل من بنى سعد قد أحدث حدثا عظيما استوجب ذلك الطلب الملح من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك أنه أتاه رجل من المسلمين فقتله . . . وقيل : إنه قطعه عضوا عضوا ثم أحرقه بالنار .

إنها الوحشية بعينها .

وشاء القدر أن يظفر به المسلمون ومعه أهله ، فساقوهم الى النبى - صلى الله عليه وسلم - وكانت معهم الشيماء ، وأتعبوها فى السير . نظرا لوجودها ضمن حاشية هذا الرجل الظالم الأثيم .

فقالت الشيماء فى محاولة لتخفيف ما ألم بها من تعب : تعلموا والله أنى أخت صاحبكم من الرضاعة . .

ولكن أحدا لم يصدقها . . فما أكثر الادعاء فى مثل هذه الظروف . وماترك عدوان هوزان وجمعها للأعاريب من كل مكان فرصة لتصديق أحد .

فلما انتهوا الى النبى - صلى الله عليه وسلم - انبرت تقول : يارسول الله ، انى أختك . أنا حذافة بنت الحارث بن عبد العزى ، ابنة حليمة . . ولاشك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - اهتدى الى معرفتها بنور الله ، ولكنه أمام موقف يستدعى التثبت والأناة . وهذه دعوى فى ميدان حرب ، تحتاج الى دليل وبرهان ، فقال لها : ماعلامة ذلك ؟

فقالت الشيماء : عضة عضضتنيها فى ظهرى . . وأنت طفل . . لقد علمنا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد استرضع فى بادية بنى سعد ، وحين جاءت حليمة السعدية لأخذه ، كانت ترغب عنه ، ولكنها لم تجد غيره ، فقد سبقتها صويحباتها الى بيوت أهل الغنى وأخذن منها الغلمان من ذوى الآباء الأحياء طمعا فيما يغدقه والد الصبى على المرضع من

نعمة . . . . ولم يبق سوى هذا اليتيم الذى مات أبوه قبل أن يولد ، فاضطرت إلى أخذه راغمة . . . حذرا من أن تعود بغير شيء .

وكان فى أخذه الخير والبركة لها ولأهلها .

وكان الطفل الذى ولدته حليمة هو عبد الله ، بن الحارث وهو الذى رضع مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما الشيماء فقد كانت مولودة قبل ذلك ، وقد تولت حضانة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أمها .

كانت حليمة تُجْلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجر الشيماء ، ريثما تفرغ من شئون البيت .

وشب وهو معها ومع أختها أنيسة وأخيها عبد الله ، وكانوا يلعبون معا كما يلعب الصبيان .

وفى يوم كانوا يلعبون فحدثت هذه العضة التى أشارت إليها الشيماء فى حديثها .

وتذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك .

فبسط لها رداءه فأجلسها عليه ، ورحب بها ودمعت عيناه رقة لها . ولما أصاب قومها بسبب مطاوعتهم لدعوة الجهل والشقاق .

وعرض النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليها أن تبقى معه ، فتسير معه إلى المدينة ، وخيرها فى ذلك فقال لها : إن أحببت فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أن ترجعى إلى قومك فارجعى .

فقالت : بل تردنى إلى قومى يارسول الله .
وأسلمت الشيماء وحسن إسلامها .

وقال ابن إسحاق : أعطى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشيماء جارية وغلاما اسمه مكحول ـ فزوجته من الجارية ، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية .

وأمر لها ببعير أو بعيرين ، وقال لها : ارجعى الى الجعرانة تكونين بها مع قومك فإنى أمضى إلى الطائف .

لقد حدث كل ذلك فى أوطاس قبل ذهاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى حصار الطائف وعاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك الى الجعرانة فوجدها ، كما قال لها .

وأعطاها نعما وشاءً لمن بقى من أهل بيتها .
وكلمته فى العفو عن بجاد ، فعفا عنه .

قال بعض الرواة : إنه سألها عن أبويها فقالت : إنهما ماتا : إلا أن هذه الرواية معارَضة برواية أخرى تناقضها .

فقد أورد أبو الطفيل أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بالجعرانة يقسم لحما ، فأقبلت امرأة بدوية ، فلما دنت منه بسط لها رداءه فجلست عليه .

فقلت : من هذه يارسول الله ؟

فقال : إنها أمه التى أرضعته .

وبعضهم قال : إنه هش لها وقال : أمه أمه . .

وروى ابن سعد فى طبقاته قال : جاءت ظئر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبسط لها رداءه وأكرمها وأعطاها ، وقضى حاجتها . . وبقيت بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى جاءت أبا بكر فأكرمها ، وبسط لها رداءه كما فعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقضى لها حاجتها .

وبقيت بعده حتى زمان عمر رضى الله عنه ـ فجاءت إليه فأكرمها وقضى لها حاجتها[٢٩٢] وكانت حليمة تفد الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أيام خديجة ـ رضى الله عنها ـ وهو فى مكة . فكانت خديجة تكرمها ، وقد جاءت مرة تشكو للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جدب البلاد وهلاك الماشية فكلم خديجة لها فأعطتها أربعين شاة وبعيرا للظعينة وانصرفت إلى أهلها .

وكما وردت هذه الأخبار مؤكدة لحياة حليمة إلى مابعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن هناك أخبارا تشير الى إسلام الحارث ـ أبيه من الرضاعة ذكر ابن الأثير قال : قدم الحارث بن عبد العزى أبو الرسول ـ

---

(٢٩٢) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ١ ، ص ٧١

صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاع على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة فقالت له قريش : ألا تسمع مايقول ابنك هذا ؟

قال : مايقول ؟

قالوا : يزعم أن الله يبعثنا بعد الموت ، وأن للناس حينئذ دارين يعذب فى الأولى من عصاه ، ويكرم فى الثانية من أطاعه ، وقد شتت أمرنا وفرق جماعتنا .

فأتاه فقال : أى بنى ، مالك وقومك يشكونك ويزعمون أنك تقول : إن الناس يبعثون بعد الموت ، ثم يصيرون الى جنة أونار ؟

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : نعم ، أنا أزعم ذلك ، وفى هذا اليوم يا أبه آخذ بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم .

وأسلم الحارث بعد ذلك فحسن إسلامه ، وكان يقول حين أسلم ؛ لو قد أخذ بيدى ابنى فعرفنى ماقال لم يرسلنى حتى يدخلنى الجنة[٢٩٣] .

وذكر مثل ذلك ابن سعد فى الطبقات الكبرى .

ولم يرد شيء بخصوص عبدالله بن الحارث ـ أخيه من الرضاعة ، ويبدو

---

(٢٩٣) أسد الغابة حـ ١ ، ص ٤٠٤

أنه هلك على كفره ، أو هلك قبل البعثة .

كما لم يرد شيء أيضا عن أنيسة أخته .

ولكنه ورد خبر عن مكحول ، ذلك الخادم الذى وهبه النبى - ﷺ - للشيماء هو وجارية معه .

فقد ذكره ابن الأثير فى كتابه - وأسند اليه الخبر الذى ذكرناه فى إكرام النبى - ﷺ - للشيماء وأنه أعطاها وردها الى قومها(٢٩٤) ولكنهم لم يذكروا اسم الجارية التى وهبت لها .

شيماء أخرى

ولا يفوتنا - والحديث ذو شجون - أن نشير الى شيماء أخرى .... والحديث عنها يدخل فى معجزات النبى - ﷺ - وإخباره عن بعض الغيبيات التى صدقها الواقع فيما بعد .

فقد حدث ابن كثير قال : فى أثناء رجوع النبى - ﷺ - من تبوك إذا به يقول : « رفعت لى الحيرة البيضاء وهذه الشيماء بنت نفيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود .

قال خريم بن أوس بن حارثة : فقلت يارسول الله ان نحن دخلنا الحيرة فوجدتها كما تصف فهى لى ؟

---

(٢٩٤) أسد الغابة حـ ٥ ، ص ٢٥٧

قال : هى لك .

قال : ثم كانت الردة ، فما ارتد أحد من طيىء ، وكنا نقاتل من يلينا من العرب على الاسلام ، فقاتلنا قيسا وفيها عينية بن حصن ، وقاتلنا بنى أسد وفيهم طليحة بن خويلد . وكان خالد بن الوليد يمدحنا بهذا الشعر :

جزى الله عنا طيئا فى ديارها بمعترك الأبطال خير جزاء
هموأهل رايات السماحة والندى إذا ماالصبا ألوت بكل خباء
هموضربوا قيسا على الدين بعدما أجابوا منادى ظلمة وعماء

قال : ثم سار خالد الى مسيلمة الكذاب فسرنا معه ، فلما فرغنا من مسيلمة أقبلنا ناحية البصرة فلقينا ـ هرمز ـ فى جيش هو أكبر من جمعنا ، ولم يكن أحد من العجم أعدى للعرب والإسلام من هرمز .

فخرج إليه خالد ، ودعاه إلى المبارزة ، فقتله خالد ، وباع قلنسوته فبلغت مائة ألف درهم . وكانت الفرس إذا شرف الرجل جعلت قلنسوته بمائة ألف درهم .

قال : ثم قفلنا على طريق الطف إلى الحيرة ، فأول من تلقانا حين دخلناها الشيماء بنت نفيلة ـ كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود .

قال خريم : فتعلقت بها وقلت : هذه وهبها لى رسول الله ـ ﷺ ـ فدعانى خالد وقال : البيِّنة .

فأتيت بمحمد بن مسلمة ، ومحمد بن بشير الأنصارى فشهدا لى ، فسلمها إلىَّ . . . فنزل إلىَّ أخوها عبدالمسيح يريد الصلح ، فقال : بعنيها ، فقلت : لاأنقصها والله عن عشر مائة ، فأعطانى ألف درهم وسلمتها إليه .

فقيل لى : لو قلت مائة ألف لدفعها اليك .

فقال : ماكنت أحسب أن عددا أكثر من عشر مائة .

طرائف حدثت فى غزوتى حنين والطائف

ولم تخل غزوة حنين على ضراوة ماحدث فيها من طرائف أشار اليها الرواة ، وقد تحدثنا قبل ذلك عن طرف منها . ونضيف اليها مايأتى :

يذكر الرواة أن راية الأحلاف ـ أحلاف هوازن ـ من ثقيف وغيرها ـ كانت مع قارب بن الأسود .

فلما انهزم الناس أسند الراية إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه وقومه من الأحلاف . فلم يقتل من الأحلاف غير رجلين ـ أحدهما يقال له وهب ، والآخر هو الجُلَاح .

فلما سمع النبى ـ ﷺ ـ بقتل الجلاح قال : قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ماكان من ابن هنيدة ، يعنى بابن هنيدة الحارث بن أويس .. وقال العباس بن مرداس يذكر قارب بن الأسود وفراره من المعركة . .

ألا من مبلغ غَيْلان عنى وسوف إخال يأتيه الخبير
وعروة انما أهدى جوابا وقولا غير قولكما يسير
بأن محمدا عبد رسول لرب لايضل ولا يجور
وجدناه نبيا مثل موسى فكل فتى يخايره مخير(٢٩٥)

ثم قال عن قارب وقومه :

فإن يُهْدَوْا إلى الاسلام يُلْقَوا أنوفَ الناس ماسمر السمير(٢٩٦)
وإن لم يسلموا فهم أذان بحرب الله ليس لهم نصير

أما غيلان وعروة فهما سيدان من سادات ثقيف أسلما وحسن إسلامهما كما أسلم قارب بن الأسود أيضا .

ونذكر قصة قارب بن الأسود الثقفى هنا ، لأنه أسلم قبل قدوم وفد ثقيف .

ذلك أن عروة بن مسعود الثقفى كان قد أسلم وقتله قومه حين أذَّن فوق بيته لصلاة الفجر . وكان ذلك بعد حصار الطائف .

---

(٢٩٥) يخايره : يغالبه فى الخير ـ مخير : مغلوب فى الخير
(٢٩٦) السمير : جماعة السمار يتحدثون ليلا .

وغضب لقتله ابنه أبومليح بن عروة بن مسعود ، وقارب بن الأسود وهو ابن أخيه وفارقا قومهما ، وأقسما على ألا يجتمعا معهم على شيء أبدا ، وقَدِمَا على رسول الله - ﷺ - وأعلنا إسلامهما .

وأسلمت ثقيف بعد إسلامهما . . وسنذكر قصة ذلك ان شاء الله . وأرسل النبى - ﷺ - أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم صنم ثقيف .

فسأل أبوالمليح بن عروة - النبى - ﷺ - أن يقضى دينا على عروة - أبيه .

فقال النبى - ﷺ - : نعم

فقال قارب : وأنا أبى - الأسود - عليه دين فاقضه - والأسود هو أخو عروة .

فقال النبى - ﷺ - إن الأسود مات كافرا . أما عروة فقد مات مسلما . ولكن قاربا كان لبقا فقال ؛ يارسول الله ، لكنك تصل مسلما ذا قرابة - يعنى بذلك نفسه - إنما الدين علىَّ وأنا الذى أطالب به .

فأمر النبى - ﷺ - أبا سفيان أن يقضى دين كل من عروة والأسود(٢٩٧) .

ومن الطرائف أيضا : أن رجلا جاء للنبى - ﷺ - فوقف على رأسه الشريف ، فقال : يارسول الله ، إن لى عندك موعدا .

---

(٢٩٧) أسد الغابة حـ ٤ ، ص ٣٧٥

فقال ـ ﷺ ـ : صدقت فاحتكم

فقال : أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها .

فقال ـ ﷺ ـ : هى لك وقد احتكمت يسيرا ، ولصاحبة موسى ـ عليه السلام ـ التى دلته على عظام يوسف ـ على السلام ـ كانت أحزم وأجزل حكما منك ـ حين حكمها موسى ـ عليه السلام ـ فقالت : ان أدخل معك الجنة .

وجاء للنبى ـ ﷺ ـ أعرابى وهو فى الجعرانة ، وعليه جبة ، وهو متخلق بخَلوق ـ أى متطيب بالطيب ـ وقد أحرم بعمرة فقال : يارسول الله ، كيف ترى فى رجل أحرم فى جبة بعدما تطيب بطيب ؟

فقال ـ ﷺ ـ بعد أن سكت فترة ونزل عليه الوحى :

أين السائل عن العمرة ؟

فجاء الرجل ، فقال له رسول الله : اخلع عنك الجبة واغسل عنك أثر الخلوق . . . وفى رواية ـ قال له النبى ـ ﷺ ـ ماكنت تصنع فى حجك ؟ قال : كنت أنزع هذه الجبة وأغسل هذا الخلوق . . .

فقال ـ ﷺ ـ : اصنع فى عمرتك ماكنت تصنع فى حجك(٢٩٨) .

---

(٢٩٨) السيرة الحلبية جـ ٣ ، ص ٩٨

إسلام ثقيف

رأينا أن نتحدث عن إسلام ثقيف ووفود هم على رسول الله - ﷺ - قبل موعده قليلا - لأننا نرى أن وصل الحديث بعضه ببعض أولى من اتباع السرد التقليدي الوارد في كتب السيرة . . وقد رأينا كيف ظاهرت ثقيف هوازن في عدوانها ووقفت معها صفا واحدا أمام النبي - ﷺ - وتجرد النبي - ﷺ - لحربها بعد فراغه من هوازن ، وحاصرها ولكنها تحصنت بحصونها ، ورمت المسلمين بسهامها ولم يجد رميها بالمنجنيق شيئا .

وقد أخبر الله نبيه - ﷺ - عن طريق الرؤيا التي قصصناها فيما سبق أنه لن ينال منها الآن . فانصرف عنها وهو يدعو قائلا : اللهم اهد ثقيفا وائت بهم مسلمين .

وفك النبي - ﷺ - الحصار ، وعاد إلى الجعرانة ، وقسم الغنائم ، وأنعم على هوازن ، واعتمر النبي - ﷺ - من الجعرانة - وعن هذه العمرة نقول :

عمرة الجعرانة

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فيما يرويه ابن سعد في طبقاته قال : اعتمر النبي - ﷺ - أربع عُمَر : عمرة الحديبية - وهي عمرة الحصر - وعمرة القضاء من قابل ، وعمرة الجعرانة ، والرابعة مع حجته .

وقد تحدثنا عن الحديبية وعمرة القضاء ، وسيأتى الحديث عن حجه إن شاء الله ـ تعالى .

ونتحدث هنا عن عمرته التى اعتمرها من الجعرانة

فبعد أن فرغ ـ ﷺ ـ من تقسيم الغنائم ، والمنَّ على أهل هوازن أحرم بالعمرة من الجعرانة وذلك لليلتين بقيتا من شوال فى العام الثامن الهجرى .

ذهب ليلا ثم رجع . . . . . وقد خفيت هذه العمرة على كثير من الناس فلم يذكروها لقصر مدتها .

وقد أورد الرواة فى هذه العمرة بعض آثار . . . فقد حدث ابن لهيعة عن عياض بن عبد الرحمن عن محمد بن جعفر أن النبى ـ ﷺ ـ اعتمر من الجعرانة وقال : اعتمر منها سبعون نبيا .

وقد أنكر بعض الرواة ان النبى ـ ﷺ ـ اعتمر من الجعرانة ـ فقد أخرج البخاري من طريق أيوب عن نافع قال : « لم يعتمر رسول الله ـ ﷺ ـ من الجعرانة ، ولو اعتمر لم يخف على على عبد الله .

وأخرج مسلم من هذا الوجه عن نافع قال : « ذكر عند ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ عمرة رسول الله ـ ﷺ ـ من الجعرانة فقال : لم يعتمر منها .

ولكن هذا الذى نفياه قد أثبته غيرهما ، والمثبت مقدم على النفى.

قال النووى : كلام عبد الله هذا محمول على نفى علمه ، أى أنه لم يعلم ذلك ، وقد ثبت أن النبى - ﷺ - اعتمر من الجعرانة ، والإثبات مقدم على النفى لما فيه من زيادة العلم . وقد ذكر مسلم فى كتاب الحج اعتمار النبى - ﷺ - من الجعرانة عام حنين - من رواية أنس - رضى الله عنه -

وحديث أنس هذا أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى ، وقد ورد من حديث ابن عباس - أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة - وحسنه الترمذى . (٢٩٩)

ومن حديث جابر رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح كما قاله الهيثمى .

قال الحافظ ابن كثير : قد أطبق النقلة على رواية ذلك من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد ، وذكر ذلك أصحاب المغازى والسير كلهم .

ووجه الخفاء ما ذكره الرواة من أن النبى - ﷺ - خرج ليلا معتمرا فدخل مكة ليلا ، فقضى عمرته ثم خرج من ليلته فأصبح فى الجعرانة كبائت .

ومن أجل ذلك خفيت عمرته على الناس .

---

(٢٩٩) الطبقات الكبرى جـ ١ قسم ٢ ص ٨٢٣

قال العينى : ليس فى قول نافع حجة ، لأن ابن عمر ليس كل ما علمه حدَّث به نافعا ، وليس كل ما حدث به حفظه نافع ، ولا كل ما علمه ابن عمر لا ينساه ، والعمرة من الجعرانة أشهر وأظهر من أن يشك فيها[٣٠٠] .

بل إن هناك من شاركوا النبى - ﷺ - فى هذه الرحلة من أصحابه ، فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - وأصحابه اعتمروا من الجعرانة فرملوا بالبيت ثلاثا ومشوا أربعا ، وجعلوا أرديتهم تحت آباطهم ، ثم قذفوها على عواتقهم اليسرى[٣٠١] .

عود الى بنى ثقيف .

وعاد النبى - ﷺ - بعد عمرته الى الجعرانة . وقد حلق ولم ينحر ، وكان الحالق لرأسه الشريف أبا هند الحجام ، وقيل : أبو خراش بن أمية . وأقام بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة ثم أذن بالرحيل الى المدينة من موضعه ذاك .

وفى طريقه إلى المدينة اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفى ، وكان زعيما فى قومه فأدركه قبل أن يصل إليها فأسلم ، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله - ﷺ - إنهم قاتلوك .

---

(٣٠٠) هامش دلائل النبوة حـ ٥ ، ص ٢٠١

(٣٠١) دلائل النبوة حـ ٥ ، ص ٢٠٤

لقد عرف النبى - ﷺ - فيهم طبيعة الامتناع ، ولذلك رفضوا الاستجابة له حين حاصرهم .

فقال له عروة : يا رسول الله ، أنا أحب إليهم من أبصارهم - وكان مُحبيا فيهم مطاعا عندهم .

فأذن له النبى - ﷺ - بعد أن حذَّره مرارا .

فخرج عروة إلى قومه يدعوهم إلى الاسلام ، وهو يرجو ألا يخالفوه لمنزلته فيهم وحين وصل الى أرضه لم يذهب إلى اللات ويطوف بها ويحلق عندها كما كان يفعل سابقا ، وكما يفعل كل قادم الى الطائف .

وحينما أنكروا عليه ذلك أخبرهم أنه أسلم ودعاهم الى الإسلام . . فانصرفوا عنه منكرين ولم يجيبوه .

وحين طلع الفجر صعد إلى مكان عال وجهر بالأذان فرموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله . فمات شهيدا .

وقال له أهله قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة : ما ترى فى دمك ؟ فقال : كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فىَّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله مع رسول الله - ﷺ - قبل أن يرحل عنكم فادفنونى معهم . فدفنوه معهم .

فيقولون : إن رسول الله - ﷺ - قال فيه : إن مثله فى قومه كمثل صاحب يسن فى قومه[٣٠٢] . وصاحب يسن هو الذى نزل فيه قوله - تعالى :

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ
(٢٠) ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى
فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ
لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤)
إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى
يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٧) ﴾[٣٠٣]

وقد سبق أن ذكرنا قصته مع قومه .

وقال قتادة فى قوله - تعالى « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم[٣٠٤] » قالها الوليد بن المغيرة . . قال : لو كان ما يقول محمد حقا

---

(٣٠٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٣٧
(٣٠٣) يس ٢٠ : ٢٧
(٣٠٤) الزخرف ٣١

لنزل القرآن عليّ أو على عروة بن مسعود الثقفى .... والقريتان هما مكة والطائف(٣٠٥) .

وقد سبق أن ذكرنا قصة إسلام عروة بالتفصيل فى دلائل النبوة .

وقد أشرنا منذ قليل إلى أن ولده أبا مليح وابن أخيه قارب بن الأسود قدما على رسول الله - ﷺ - عقب قتل عروة يريدان فراق قومهما فأسلما ، وقال لهما رسول الله - ﷺ - من وليكما ؟

قالا : ولينا الله ورسوله .

ثم قال لهما : وخالكما أبو سفيان بن حرب ؟

فقالا : وخالنا أبو سفيان .

لقد أراد النبى - ﷺ - أن يجعل لهما إمام الثقفيين ولياً مرهوبا من البشر لأن ثقيفا لم تعرف ولاية الله والرسول بعد - ولاتؤمن إلا بما تراه ماثلا أمامها . ولو كان صنما .

معبود ثقيف :

وكانت ثقيف تعبد اللات من دون الله . ويقولون فى سبب تسميتها بذلك أقوالا منها :

أن اللات هذا كان رجلا - قيل إنه يهودى - بالطائف يقوم على آلهتهم ويلت لهم السويق . فلما مات عبدوه .

---

(٣٠٥) أسد الغابة حـ ٤ ، ص ٣٢

ومنها أنه كان رجلا فى رأس جبل له غنم يسلى منها السمن ويأخذ منها الأقط ، ثم يتخذ منها حيسا فيطعم الحجيج ، وكان ببطن نخلة ، فلما مات عبدوه وهو اللات .

وقال الكلبى . كان اللات رجلا من ثقيف يقال له : صرمة بن غنم ، وقيل : إنه عامر بن ظرب العدوانى . قال الشاعر :

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصركم من ليس منتصر ؟

وعلى هذه الروايات فان اللات تقرأ بتشديد التاء على أنها اسم فاعل من لتَّ . ولكنها وردت بالتخفيف كثيراً ، وقراءتها فى القرآن بالتخفيف أشهر . وحين يقف القارىء عليها يقف بالتاء . جاء فى الصحاح : اللات اسم صنم كان لثقيف بالطائف . وبعض العرب يقف عليها بالتاء وبعضهم بالهاء ، وبعضهم يلزمها الكسر مثل أمسِ »(٣٠٦) .

وقيل إن سدنتها وحجابها كانوا ـ بنى معتب من ثقيف ، وقد أقاموا حولها بيتا يعظمونه كتعظيم الكعبة .

---

(٣٠٦) تفسير القرطبى حـ ١٧ ، ص ١٠٠ سورة النجم

وانتهى العام الثامن الهجرى ، وجاء العام التاسع الذى يسمى عام الوفود ـ وبعد رجوع النبى ـ ﷺ ـ من تبوك ـ أقبل بنو ثقيف على النبى ـ ﷺ ـ

ولم يأت بنو ثقيف طائعين ، ولكنهم جاءوا مكرهين ، ذلك أنه بعد أن أسلم مالك بن عوف قال للنبى ـ ﷺ ـ أنا أكفيك ثقيفا ، أُغِير على سرحهم حتى يأتوك مسلمين .

فلم يزل مالك يغير عليهم ، ويقاتلهم حتى ضجوا ، ووجدوا أنهم لا طاقة لهم بالبقاء على هذه الحالة .

فمشوا الى عبد يا ليل بن عمرو ، وفوضوه فى أمر الذهاب إلى النبى ـ ﷺ . والذى تقدم إلى عبد ياليل هو عمرو بن أمية ـ وكان من أدهى العرب . ذهب إليه حتى دخل داره . فرحب به عبد يا ليل .

وقال له عمرو : إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، وقد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ـ يعنى النبى ـ ﷺ ـ وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا فى أمركم . فتشاورت ثقيف عند ذلك ، وأجمعت على تفويض عبد يا ليل فى شأن القدوم على النبى ـ ﷺ ـ

فأقبل على المدينة ومعه خمسة رجال من وجوه ثقيف ، وكانت ثقيف تريد أن ترسله وحده ، ولكنه امتنع وخاف أن يحدث له ما حدث لعروة بن

مسعود - قبله .

وكان هؤلاء الخمسة هم : عثمان بن أبي العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشة ، والحكم بن عمرو ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة .

ولما جاءوا المدينة أحسن النبى - ﷺ - استقبالهم وضرب لهم قبة فى ناحية المسجد لكى يسمعوا القرآن ، ويروا الناس وهم يصلون .

وكان خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وهو من السابقين الى الاسلام ، يتنقل بينهم وبين رسول الله - ﷺ .

وكانوا لا يأكلون طعاما يأتيهم حتى يأكل منه خالد .
وربما كان ذلك إكراما منهم لخالد وحبا فيه .

وظلوا فى المدينة فترة حتى أقبلوا على الاسلام ودخلوا فيه وحسن إسلامهم فيما بعد ، وكتب النبى - ﷺ - كتابا لهم ، وأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص .

وكانوا قد طلبوا من النبى - ﷺ - أن يؤخر هدم صنمهم - اللات ثلاث سنين ، فأبى عليهم النبى - ﷺ : ذلك .

فطلبوا أن يوخرها سنة ، فأبى .

وما زالوا ينزلون حتى سألوه أن يتركها لهم شهرا واحدا فأبى كذلك .

لقد طلبوا ذلك حتى يَسْلَمُوا من سفائهم ونسائهم وذراريهم ، وخوفا من أن يبطشوا بهم كما بطشوا من قبل بسيدهم عروة بن مسعود .

ورجوا أن يؤخر النبى هدمها حتى يدخل الإسلام قلوب قومهم ولكن النبى - ﷺ - لا يقبل المراءاة فى الدين .

وسألوه أن يُعْفوا من الصلاة . فقال لهم : لا دين بدون صلاة ، ولا خير فى دين لا صلاة فيه .

إنهم لم يذوقوا لذة الصلاة بعد ، ولو عرفوا أنها الصلة بين العبد وربه ما سألوا النبى - ﷺ - ذلك ولو أدركوا أن لها لذة لا تعد لها لذة - ولكن لا يعرفها إلا الخاشع - ما طلبوا الإعفاء منها .

وطلبوا أيضا ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم . فأرسل النبى معهم أبا سفيان ابن حرب والمغيرة بن شعبة ليقوما بهذه المهمة التى رأوها ثقيلة ، على نفوسهم .

إن الاسلام لم يستبطن قلوبهم بعد .. ولم تخالطها بشاشته .

ولو أن الإسلام استبطن قلوبهم ما ترددوا لحظة فى أن يجعلوا هذه الأصنام رفاتا .

ورجع هذا الوفد الصغير إلى الطائف وبصحبته أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ـ وهو من بنى ثقيف أصلا .

أما سر اختيار هذين ، فلأن أبا سفيان له مكانته فى نفوس أهل ثقيف ـ فهو زعيم قريش ، وهو جد أولاد عروة بن مسعود الثقفى سيد ثقيف ، لأن عروة كان متزوجا من ابنته .

وأما المغيرة بن شعبة فهو منهم .. وخاله عروة بن مسعود .

هدم اللات

وحين قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان فى الدخول ، فأبى ، وقال له : ادخل أنت على قومك .

وأقام أبو سفيان بما معه من مال فى مكان بالطائف اسمه (ذو الهرم) وكانا قد قدّما الوفد أمامهما .

ولما لقى القوم وفدهم وكان قد نزل عند اللات ، سألوهم عن سفارتهم . وقالوا لهم : ماذا جئتم به ؟

فلم يشاءوا أن يخبروهم بما حدث فى أول وهلة ، ولكنهم قالوا : لقد أتينا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف ودوخ العرب ، وعرض علينا أمورا

شدادا . . . . قال لنا : اهدموا اللات .

فثارت ثقيف قائلة : والله لا نقبل ذلك أبدا .

فقال لهم الوفد : أصلحوا السلاح وتهيأوا للقتال . . .

لم يكن هدف أفراد الوفد من ذلك إلا إيقاع الرعب فى نفوس قومهم ، فان العرب كلها قد أسلمت فيما عداهم ، وجاءت الوفود تترى من كل مكان تعلن إسلامها وتبايع النبى - ﷺ - على الإيمان .

فما قيمة هؤلاء بين هذا البحر الطامى ؟ إن هم إلاّ ضب فى جحر - كما قال نوفل بن معاوية يوما للنبى - ﷺ : ما هم الا ضب فى حجر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك .

وأعدت ثقيف فعلا للحرب عدتها ولكنها لم تقم على ذلك إلا يومين حتى دب الرعب فى قلبها ، فقالت : والله ما لنا به من طاقة - أعطوه ما سألكم .

عند ذلك قال الوفد : لقد جئنا الرجل ، وإنا قاضيناه وشرطنا ما أردنا - وقد وجدناه أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم ، وقد بورك لنا ولكم فى مسيرنا إليه ، فاقبلوا عافية الله .

فقالت ثقيف لهم : فلم كتمتونا هذا الحديث ؟

قالوا : لقد أردنا أن ننزع نخوة الشيطان من قلوبكم .

فأسلم أهل ثقيف مكانهم . .

ولم يلبث بعد ذلك أن قدم أبو سفيان ، وتلقاه المغيرة وذهب الى اللات يهدمانها .

وقال المغيرة لأبي سفيان : ألا أضحكك من ثقيف ؟
قال : بلى .

فأخذ المعول وأقبل على اللات ، وضرب به اللات ضربة ـ ثم صاح وخر على وجهه .

فارتجت الطائف كلها فرحا وسرورا ، لأنهم ظنوا أن اللات قد صرعت المغيرة .

وأقبلوا إليه يقولون : كيف رأيتها يا مغيرة ؟ دونكها إن استطعت ألم تعلم أنها تهلك من عاداها ؟

والتفت سدتها للناس قائلين : انظروا . ألا ترون ما تصنع ؟
وسرعان ما قام المغيرة يضحك منهم ، ويهزأ بهم . ويقول لهم : يا خبثاء والله ما قصدت إلا اختباركم .

ثم أقبل بمعوله يهوى عليها حتى استأصلها .

وأقبلت عجائز ثقيف تبكى حولها وتنوح وتقول :

ـ لنبكين دفاع .. أسلمها الرضاع

... كرهوا المصاع ..

أى أسلمها هؤلاء القوم حين كرهوا القتال .

وطويت صفحة اللات الى الأبد كما طويت قبل ذلك صفحات هبل والعزى ومناة الثالثة الأخرى . وذهبت الى غير رجعة عبادة الأصنام فى هذه القرية المنيفة التى كانت تنافس مكة وتكاثرها .

جزع النساء على اللات

ويروى بعض الرواة أن المغيرة حين ضربها بالمعول خرجت نساء ثقيف حُسَّراً متكشفات يبكين عليها ، وفرحن حين أظهر المغيرة أنها صرعته ، ولكنه نهض يقول لهن ولغيرهم من الرجال : قبحكم الله ، إنما هى حجارة جامدة . فأقبلوا على الله واعبدوه . ثم ضرب بابها فكسره ، وعلا سورها ، وعلا رجال الوفد معه يهدمونها حجرا حجرا حتى سورها .

فقال البواب : ليغضبن الأساس فيخسف بهم .

فحفروا الأساس حتى أخرجوا التراب ..

وأخذ المغيرة ما لها وحليها وسلمه إلى أبى سفيان ـ فقضى منه الدين الذى كان على عروة والأسود . وعاد بالباقى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقسمه بين الناس .

الكتاب الذى كتبه النبى لثقيف

وكان الكتاب الذى كتبه النبى - ﷺ - لثقيف هو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى المؤمنين . إن عضاه[٣٠٧] - وج - وصيده حرام ، لا يعضد - من وُجد يفعل شيئا من ذلك ، فإنه يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ إلى النبى - ﷺ - ليرى فيه رأيه . وان هذا أمر النبى محمد رسول الله . .

وكتب خالد بن سعيد - بأمر محمد بن عبد الله - فلا يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله . . . . هذه العبارة الاخيرة فيها تأكيد لمضمون الكتاب السابق وهذا الكتاب يجعلنا نتساءل : هل الطائف حَرَم ؟

يرى جمهور الفقهاء : أنه ليس فى البقاع حَرَم إلا حرم مكة ، والمدينة للأحاديث الصحيحة فى ذلك .

وقال بعضهم : إنها حرم للكتاب السابق ، ولحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده : إن صيد « وج » وعضاهه حرم محرم لله »[٣٠٨] ويراد بوج - الطائف .

---

(٣٠٧) العضاه ؛ كل شجر ذى شوك جمعه عضهة .

(٣٠٨) ورواه أبو داود عن عروة عن أبيه

وضعف الجمهور الحديث الوارد فى تحريم الطائف وقالوا إنه وارد بدون اسناد . أما الحديث الذى رواه عروة فقالوا : لم يصح أن عروة روى عن أبيه وإن كان قد رآه . .

عدد وفد ثقيف

وقد ذكرنا أن هذا الوفد كان مكونا من ستة أفراد ـ خمسة خرجوا مع عبد ياليل بن عمرو ، وهو الذى اختارهم ، وقد ذكرنا أسماءهم .

ولكن ابن سعد فى طبقاته يذكر أن هؤلاء الستة كان معهم سبعون رجلا . وهؤلاء الستة كانوا رؤساءهم .

وقال بعضهم : كانوا جميعا بضعة عشر رجلا .

وكان الذى استقبلهم بالمدينة أول ماوصلوا هو المغيرة بن شعبة .

قال المغيرة : إنى لفى ركاب المسلمين بذى حُرض ، فاذا عثمان بن أبى العاص ـ أحد الوفد ـ تلقانى يستخبرنى .

فلما رأيتهم خرجت أشتد أبشر رسول الله ـ ﷺ ـ بقدومهم . فلقيت أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ فأخبرته بقدومهم .

فقال : أقسمت عليك لا تسبقنى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بخبرهم فدخل فأخبر النبى ـ ﷺ ـ فسر بمقدمهم .

ونزل من كان منهم من الأحلاف على المغيرة بن شعبة فأكرمهم ، وضرب النبي - ﷺ - لمن كان فيهم من بني مالك قبة فى المسجد .

فكان النبى - ﷺ - يأتيهم كل ليلة بعد العشاء فيقف عليهم ويحدثهم حتى يراوح بين قدميه ، ويشكو قريشاً ويذكر الحرب التى كانت بينه وبينهم .

قال المغيرة : فدخلوا الاسلام ، فلا أعلم قوما من العرب بنى أب ولا قبيلة كانوا أصح إسلاماً ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم .

لقد استجاب الله دعاء نبيه - ﷺ - فى ثقيف حين قال : اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين . فجاءوا مسلمين بدون حرب وكفى الله المؤمنين القتال .

من الذى ولاه النبى أمر ثقيف؟

وقد سبقت الاشارة إلى أن الذى تولى أمر ثقيف - هو عثمان بن أبى العاص بن بشير الثقفى ، كان واحداً من الوفد الذى ذهب للنبى - ﷺ - .

وكان أحدث القوم سنا ، ولكنه كان أحرصهم على التفقه فى الاسلام وتعلم القرآن .

وحين رآه أبو بكر بهذه الصفة قال للنبى - ﷺ - : يارسول الله ، إنى

رأيت هذا الشاب أحرصهم على التفقه فى الاسلام وتعلم القرآن . فولاه النبى - ﷺ - لذلك .

وصية النبى له :

وأقبل النبى - ﷺ - يوصيه . قال عثمان : كان من آخر ماأوصانى به رسول الله - ﷺ - حين بعثنى إلى ثقيف فقال : ياعثمان تَجَوَّز فى الصلاة ، واقدر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة والصغير .

ومعنى تجوز : خفف وأسرع .

وظل عثمان على الطائف حياة رسول الله - ﷺ - ، وخلافة أبى بكر ، وسنتين من خلافة عمر . ثم استعمله عمر على عمان والبحرين .

وكان له موقف مشكور فى الردة ، فقد منع أهل الطائف من الردة فأطاعوه(٣٠٩) .



هدم صنم طيىء

لقد تحطمت الأصنام فى الجزيرة العربية بانتشار الاسلام ، وفى ربيع الأول من العام التاسع الهجرى أرسل النبى - ﷺ - على بن أبى طالب إلى صنم لطيىء اسمه « الفُلْس » بضم الفاء وسكون اللام - ليهدمه ، وكان معه مائة وخمسون رجلا .

---

(٣٠٩) أسد الغابة حـ ٣ ، ص ٥٨٠

فقدم علي ومن معه إلى ديار طيىء ـ محلة حاتم الطائى ـ وهدم الصنم وحرقه ، ووجد فى خزائنه ثلاثة أسياف هى : رَسوب ، والمِخْذم ، واليمانى ، وثلاثة أدرع .

وغنم سبْياً ، فاستعمل على بن أبى طالب عليه ـ أبا قتادة كما غنم ـ نعما وشاءً وفضة فجعل عليها عبد الله بن عتيك .

وكان فى السبى سفانة بنت حاتم ...
وحين قدمت على النبى ـ ﷺ ـ عرفته بنفسها فأعتقها النبى ـ ﷺ ـ .

كانوا حين قدموا بها جعلوها فى خيمة بباب المسجد ، فمر بها رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت امرأة جزلة ـ فقامت وقالت : يارسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن عليَّ منَّ الله عليك .

قال النبى ـ ﷺ ـ من وافدك ؟
قالت : عدى بن حاتم
قال : الفارُّ من الله ورسوله ؟
ثم مضى رسول الله ـ ﷺ ـ عنها وتركها .

ثم كلمته بعد ثلاث مثل ماكلمته به أولا ، وقالت له : مُنَّ عليَّ منَّ الله عليك .

فقال لها : قد فعلت فلا تعجلى ، حتى تجدى ثقة يبلغك بلادك ثم آذنينى .

ثم قدم رهط من قومها ، فجاءت رسول الله - ﷺ - وقالت له : يارسول الله ، قدم رهط من قومى .

فكساها النبى - ﷺ - وأعطاها راحلة ، وأعطاها نفقة ..

ويذكر الرواة أنها قالت للنبى - ﷺ - :

يامحمد ، أرأيت أن تمنَّ علىَّ ، ولا تفضحنى فى قومى ، فإنى بنت سيدهم .. إن أبى كان يطعم الطعام ، ويحفظ الجوار ويرعى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العريان ، ولم يرد طالب حاجة قط . أنا بنت حاتم الطائى .

فقال لها - ﷺ - : هذه مكارم الأخلاق حقاً ، ولو كان أبوك مسلما لترحمت عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق(٣١٠) .

وانطلقت سفانة حتى قدمت الشام على أخيها عدى بن حاتم وكان قد فر إليها بأهله وماله .. ولذلك قال الرسول - ﷺ - لسفانة عنه : الفار من الله ورسوله ..

وأخبرته سفانة بما رأته من النبى - ﷺ - وما فعله معها ، وقال لها أخوها : ماترين ؟

قالت : إنى أرى أن تلحق به ..(٣١١)

---

(٣١٠) السيرة الحلبية جـ٣ ، ص ٢٢٤

(٣١١) أسد الغابة جـ٧ ، ص ١٤٣

فجاء عدى بعد ذلك للنبى - ﷺ - فى وفد وأكرم النبى - ﷺ - وفادته .
لقد أسلمت سفانة ، وحسن إسلامها .

وَطُهِّرت أرض الجزيرة العربية من عبادة الأصنام بعد أن تحطمت جميعها بانتشار الاسلام ، وإقرار الناس بديانة الحق . واقتناعهم بأن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر .

وتحقق وعد الله الذى وعده لعباده المؤمنين :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٣١٢)

وصدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، وأصبحت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .. والله عزيز حكيم .

موضع العبرة من حنين والطائف

لقد سرنا مع الرسول - ﷺ - مصاحبين له فى مسيرته نحو حنين ، ثم الطائف .. ورأينا أن إعجاب المسلمين بكثرتهم يوم حنين قد تسبب فى هزيمتهم فى بداية المعركة ..

---

(٣١٢) النور ٥٥

ذلك أن الغرور قد يُغفل صاحبه عن التفطن لمفاجآت العدو . و المسلمون قد أعجبتهم كثرتهم فلن تغن عنهم شيئاً . ولكن الله نبه فتداركوا أمرهم واستجابوا لدعوة الرسول إذ ناداهم ، فاستعادوا ز الموقف ونصرهم الله على عدوهم نصراً مؤزراً .

وقد عرفنا أن النبى - ﷺ - استعمل لأول مرة سلاحاً لم يكن يستعمله قبل - هو سلاح المنجنيق والدبابة ، والذى نبه الى ذلك هو سلمان الفارسى ومعنى ذلك أن على المسلمين أن يتنبهوا إلى استعمال كل سلاح متط

يمكن أن تتجه إليه الشعوب مصداقا لقوله - تعالى -

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾

وقد كانت ثقيف على أهبة الأستعداد لاستعمال بعض الأسلحة المتطورة وقد أرسلت بعض رجالها للتدريب على هذا النوع من السلاح فقد أورد ابن سعد فى طبقاته : لم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة حصار الطائف ، فقد كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات ، فقدما وقد انصرف رسول الله - ﷺ -(٣١٣)

وقد ألقى لنا اللواء الركن محمود شيت خطاب - الضوء - على كل من المنجنيق والدبابة القديمة فقال :

---

(٣١٣) الطبقات جـ ١ قسم ٢ ، ص ٥٢

يتألف المنجنيق بصورة عامة من عامود طويل قوى موضوع على عربة ذات عجلتين ، فى رأسها حلقة أو بكرة ، يمر بها حبل متين ، فى طرفه الأعلى شبكة فى هيئة كيس ، توضع فيه حجارة أو مواد محترقة فى الشبكة ، ثم تحرك بواسطة العامود والحبل ، فيندفع ما وضع فى الشبكة من القذائف ويسقط على الأسوار فيقتل أو يحرق ما يسقط عليه .

أما الدبابة القديمة فهى آلة من الخشب الثمين المغلف بالجلود تركب على عجلات مستديرة . فهى عبارة عن قلعة متحركة يستطيع المشاة الاحتماء بها من نبال الأعداء(٣١٤)

هذا السلاحان الجديدان باغت بهما الرسول - ﷺ - أعداءه فى الطائف . ولكن أهل الطائف استطاعوا إبطال هذين السلاحين وذلك بأنهم ألقوا سكك الحديد المحماة على الدبابة فأحرقتها .

●● براعة القيادة . . هى التى حمت جيش المسلمين من الهزيمة المحققة فى حنين . فأى كارثة كانت ستحل بالمسلمين بعد هزيمتهم فى أول المعركة لو لم يكن الرسول - ﷺ - هو القائد ؟؟

لقد ثبت النبى - ﷺ - ومعه عشرة فقط ، واستطاع أن يجمع حوله مائة بعد ذلك قام بهم بهجوم مضاد أدى إلى تراجع المشركين فعاد المسلمون بعد ذلك من ارتدادهم إلى الهجوم .

إن معركة حنين مثال واضح لأثر القائد الواثق من نفسه وقدرته على تغيير

---

(٣١٤) الرسول القائد

الموقف وصنع النصر واستثماره . .

وليس غريباً أن يقال : إن معركة حنين قد كسبها النبى - ﷺ - وحده ، لأن موقفه كان العامل الحاسم فى نصر المسلمين

●● ثبت من تاريخ حروب المسلمين أن هزيمتهم جاءتهم من قِبلَ غرورهم وانشغالهم بالدنيا . .

ففى أحد تركوا مواقفهم واشتغلوا بجمع الغنائم فارتد عليهمُ المشركون وحدث ما حدث .

وفى حنين أعجبتهم كثرتهم . فكان ما كان .

وقد حذر الإسلام من كلا الأمرين . حذر من فتنة الدنيا كما حذر من الغرور .

ولذلك لو اتبعت تعاليم الاسلام كاملة كما جاء بها دستوره الحكيم فى قرآنه الكريم وسنة رسوله - ﷺ - لاستعاد المسلمون مكانتهم العظيمة وحققوا النصر الذى وعد الله به من ينصره كما قال سبحانه « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز[٣١٥] »

●● ويعتمد نجاح أى جيش على الدقة فى جمع المعلومات ، وقد أرسل النبى - ﷺ - من يجمع له المعلومات عن العدو .

ولكن المقدمة لم تقم بواجبها كما يجب ، فإنها لم تستطع معرفة المواقع التى

(٣١٥) سورة الحج ٤٠

احتلها المشركون ، ولذلك خُدِعَت ثم فوجئت بالهجوم غير المتوقع فحدث ما حدث .

●● وبالمقارنة بين معنويات المسلمين ومعنويات المشركين نجد الفرق شاسعاً

فقد كانت معنويات المشركين ضعيفة ...... فقد تخلفت بعض القبائل عن المعركة . وبسبب انخفاض معنويات المشركين اضطر مالك بن عوف أن يستصحب النساء والأموال ليدافع كل رجل عن حريمه وماله .

وهدد مالك قومه بالانتحار إن لم يطيعوه فيما يقول .

فهل هناك قائد يهدد بالانتحار إلا إذا كان غير واثق من نجاح خطته ، أو كان يريد أن يحرك دوافع الاستجابة إليه بهذه الحركة الانفعالية ؟

أما المسلمون فقد كانت معنوياتهم رائعة كانت فى القمة . ليسوا فى حاجة إلى إثارة ، بل وصلت معنوياتهم إلى حد الغرور والاعجاب بالنفس . ونقصد بالمسلمين أولئك الصادقين ، لا من اختلط بهم من طلقاء ، أو أعراب أو منتهزين .

●● أما عقيدة المسلمين فهى قوية ، وهم متمسكون بها ، ظهرت فى انعطافهم الشديد نحو الرسول ﷺ - حين أمر من ينادى :
يا أصحاب السمرة ، يا أصحاب سورة البقرة

وكان هناك بعض الطلقاء الذين لم يثبت الإيمان فى قلوبهم .
كما كان هناك بعض المشركين الذين لم يسلموا .

وقد ظهر من هؤلاء بوادر الفرحة حين انكشف المسلمون أولا . . ولكن الصادقين من المسلمين كانوا يعرفون تماما موضع أقدامهم ، ويعرفون أنهم يقاتلون لتكون كلمة الله هى العليا ، هؤلاء هم صناع النصر دائما لأنهم يقاتلون للفوز بإحدى الحسنيين الجنة أو النصر

أما المشركون يقاتلون فى سبيل مجد زائل ، إما دنيا يصيبونها ، أو شهرة زائفة يصلون إليها ، أو غلبة على مكان أو نيل سلطان . .

ولقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين للمسلمين أن الغلبة لا تتم بالكثرة ، ولكنها تتم بحول الله وقوته ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين .

● وفى موقف مالك بن عوف عبرة وأى عبرة . لقد فر إلى الطائف مهزوما محصوراً . ولكنه ما إن علم أن النبى ـ ﷺ ـ قال : لو جاء مالك مسلما رد عليه ماله وأهله وأعطاه مائة من الإبل ـ حتى أسرع بالفرار تحت جنح الظلام متسللا من بين هؤلاء الذين نصروه وأووه ، ولجأ إلى النبى ـ ﷺ ـ

ولجوؤه للنبى محمد لا شك فيها . ولكنها تترجم مع ذلك عن دخيلة نفسه ، إنه ما حارب قبل ذلك إلا لغاية قريبة وهدف قصير ـ فما ان لاحت له الفرصة لاسترداد أهله وأمواله حتى تفتحت شهيته وألقى سلاح الحرب . فهل هذا هو قصارى جهد المحارب ؟

● مبادىء الإسلام تظهر دائماً فى حروبه . وللإسلام فى حروبه مبادىء عالية ، فقد بلغ النبى ـ ﷺ ـ أن خالداً قتل امرأة فى طريقه . فأرسل إليه

يقول له : إن رسول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليدا أو عسيفا - أجيراً - ومع ذلك فلم يكن قتل هذه المرأة عمداً من خالد ، ولكنها قتلت خطأ فى أثناء مطاردة المشركين .

ولكن هذا يذكرنا بسؤال : لماذا قطع نفر من المسلمين بعض الأشجار مع أن النبى كان ينهى عن ذلك ؟

والإجابة عن ذلك : أن هذا جائز إذا كان لتحقيق هدف حربى مثل الضغط على العدو أو حرمانه من إمداداته أو حمله على التسليم .

●● وقد رأينا أن النبى - ﷺ - قد استعار بعض الأسلحة من صفوان بن أميه - وكان مازال على كفره لم يسلم بعد .

وفى ذلك دليل على جواز الاستعانة بغير المسلمين عند الحرب إلا أن الاستعانة بهم تكون مقصورة على ما يؤخذ منهم من أدوات وأسلحة .

أما الاستعانة بهم فى القتال فقد مر فى غزوة أحد أن النبى - ﷺ - قال لا أستعين بالمشركين فى قتال المشركين .. وبعد فإن هذه الأحداث التى عرضنا لها حافلة بالعبر والعظات وقد ذكرنا بعض ذلك للذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين ..

وتنتقل الآن إلى صفحة جديدة من صفحات الجهاد الإسلامى ....

سرايا سبقت غزوة تبوك

مقدمة لابد منها

بغزوة الفتح وهزيمة هوازن ، استقر الأمر للإسلام فى الجزيرة العربية ، وأقبلت الوفود تترى إلى النبى - ﷺ - تعلن إسلامها وولاءها .

وكان هذا إيذانا بتحقيق قوله - تعالى -

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ (١)

وكان فتح مكة كما علمنا فى العام الثامن الهجرى فى شهر رمضان منه ، وتبعه التوجه إلى حنين فى شوال ، وفى منتصف شوال كان حصار الطائف ، واستمر الحصار أسبوعين أو يزيد ، حتى كانت عمرة الجعرانة فى ذى القعدة ، وبعدها عاد النبى - ﷺ - إلى المدينة المنورة . سالما غانما .. وبصحبته أصحابه وأنصاره ..

على أن استسلام قريش وهوازن للنبى - ﷺ - لا يعنى أن العرب جميعهم قد اطمأنوا إلى هذا الدين الحق ، فمازالت بقايا الجاهلية فى نفوس البعض لم تقتلع بعد ومازالت الصبابة بالأصنام متعلقة فى قلوب بعض الناس ، وبخاصة المنتفعون بذلك منهم ، ومازالت بعض القبائل البدوية تسيطر

---

(١) سورة النصر

عليها العنجهية الجاهلية وتأبى أن يسيطر عليها أحد أو تفرض عليها زكاة . .

لقد ظلت ثقيف على عنادها فترة ، ولديها اللات التى تسجد لها من دون الله ، وظلت تميم كذلك سادرة فى الكفر والضلال فترة . .

وظلت خثعم ، وبنو كلاب غير مقتنعين بالدين الجديد . .

ومن ثم فقد كان لابد من تسيير بعوث وسرايا تخضع هؤلاء المتمردين على الحق ، الواقفين فى طريق الإسلام ، الذين يحاولون أن يطفئوا نور الله والله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرين . .

سرية عيينة بن حصن

واختار النبى - ﷺ - أعرابيا جافا ليؤمره على خمسين فارساً من الأعراب لتأديب بنى تميم حتى يلتزموا بقيم الإسلام وتعاليمه . وكانوا يقيمون بالسقيا وهى منطقة قريبة من الجحفة بينهما تسعة عشر ميلا تقريباً .

كان بنو تميم قد حرضوا ناساً من خزاعة على منع الزكاة ، حين بعث النبى - ﷺ - إليهم بشر بن أبى سفيان العدوى يأخذ منهم صدقاتهم وقد نهاه الرسول عن أخذ كرائم أموالهم ، فجمعوا ما طلب ، فاستكثر بنو تميم ذلك ، وقالوا - يحرضون خزاعة على العصيان - : ما لهذا يأخذ أموالكم منكم بالباطل ؟ وشهر بنو تميم السيوف يحاولون رد بشر ومن معه عن أخذ الصدقة . فقال الخزاعيون محتجين على بنى تميم : نحن مسلمون ، وهذا أمر ديننا . . ولكن بنى تميم أبوا عليهم ذلك، وقالوا : لن نسمح له بأخذ بعير

منها أبداً . . ولما رأى بشر أن الأمر قد استحفل ، وأن بنى تميم قد ركبت رأسها ، وخشى على حياته منهم ، هرب إلى رسول الله - ﷺ - وأخبره الخبر . .

وحينئذ وثبت خزاعة على بنى تميم فأخرجوهم من بينهم ، قائلين لهم : أخرجوا من بيننا حتى لا يصيبنا الأذى بسببكم

فإن رسول الله - ﷺ - لن يسكت على ذلك حيث تعرضتم لرسوله تردونه عن صدقات أموالنا .

فخرجوا راجعين إلى بلادهم .

وعندما عاد بشر إلى رسول الله ، وأخبره بذلك قال - ﷺ - : من لهؤلاء القوم ؟

فكان أول مجيب لذلك هو عيينة بن حصن الفزارى .

كان أعرابيا فيه جفاء وغلظة ، وكان النبى - ﷺ - قد أعطاه عطاء المؤلفة قلوبهم من غنائم هوازن ، وقد تحدثنا عن ذلك .

وكان عيينة شديد الحب للمال ، يتتبعه فى كل مكان . . وقد استجاب لدعوة النبى - ﷺ - هذه لموافقتها لبوادر طبعه . .

وكان من الطبيعى ألا يرسل النبى - ﷺ - أحدا من المهاجرين والأنصار ، فقد خافه عليهم . .

وسار عيينة بن حصن إلى بنى تميم - يكمن بالنهار ويسير بالليل حتى هجم عليهم فى صحراء قد حلوا بها ، وسرحوا مواشيهم فيها .

وحين رأوا عيينة فزعوا وانطلقوا هاربين ، فأ'خذ عيينة منهم أحد عشر رجلا ، وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا ، واسا'ق الجميع إلى المدينة ، حيث وضعهم النبى - ﷺ - فى دار رملة بنت الحارث - وهى امرأة من الأنصار من بنى النجار ، كانت لها دار واسعة ، وكان وضع فيها بنو قريظة حين نزلوا على حكم سعد بن معاذ[2] » . .

وأقبل وفد من زعماء بنى تميم على النبى - ﷺ - لفداء هؤلاء الأسرى ، وقد سبقت الاشارة إلى هذا الوفد الذى نزل فى شأنه قوله - تعالى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[3]

وقد أسلم هؤلاء الزعماء ، ورد النبى - ﷺ - أسراهم . تفضلا منه عليهم ومنا وترغيبا لهم فى الاسلام[4]

كان هذا الوفد حين جاء - وكانوا عشرة رجال ، منهم ربيعة بن رفيع ، وسبرة بن عمرو ، والقعقاع بن معبد ، ووردان بن محرز ، والأقرع بن حابس ، وعطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر - قد مروا على الأسرى ، فرأتهم النساء والأطفال فجعلوا يبكون . . فعجل الوفد بالذهاب إلى النبى

---

(٢) أسد الغابة جـ ٧ ص ١١٥

(٣) الحجرات ٤ ، ٥

(٤) شرح المواهب اللدنية جـ ٤ ص ٤٥

- ﷺ - وأخذوا ينادونه من وراء الحجرات ..

وقد افتخر الفرزدق الشاعر الأموى بفعل عمه الأقرع بن حابس الذى كلم النبى - ﷺ - فى إطلاق الأسارى فأطلقهم له ، فقال الفرزدق فى ذلك :

وعند رسول الله قام ابن حابس بخطة سوَّار إلى المجد حازم
له أطلق الأسرى التي في قيودها مغللة أعناقها في الشكائم
كفى أمهات الخائفين عليهم غلاء المفادي أو سهام المقاسم

ولم يكتف النبى - ﷺ - بالمن على الأسرى وإطلاقهم ، بل أجاز الوفد وأكرمه وأعطاه .

قال ابن سعد فى طبقاته فى إسناد له : حدثنى ربيعة بن عثمان عن شيخ أخبره أن امرأة من بنى النجار قالت : أنا أنظر إلى الوفد يومئذ يأخذون العطايا عند بلال ثنتى عشرة أوقية . قالت : وقد رأيت غلاماً أعطاه يومئذ وهو أصغرهم ، خمس أواق - وهو عمرو بن الأهتم .(٥) »

وأراد النبى - ﷺ - أن يولى عليهم واحداً منهم ، واستشار أصحابه فى ذلك .

فقال أبوبكر : أمرّ عليهم القعقاع بن معبد

وقال عمر : بل أمر عليهم الأقرع بن حابس .

---

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ١ قسم ٢ ص ٤٠

فقال أبوبكر لعمر : لماذا خالفتنى

فقال عمر : ما أردت خلافك . . . وأخذ كل منهما يبرهن على حسن رأيه ، وتكلم الناس وكثر الجدل وارتفع الصوت . فنزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) ﴾ (٦)

لقد ذكر ذلك بعض الرواة ـ فقد روى الواحدى بسنده عن ابن جريج عن ابن أبى مليكه عن عبدالله بن الزبير فى سبب نزول الآية ما ذكرناه وروى بعض الرواة أسباباً أخرى لنزول هذه الآيات منها ما رواه الماوردى عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ ﷺ ـ أنفذ أربعة وعشرين رجلا من أصحابه إلى بنى عامر ، فقتلوهم إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا ، ورجعوا الى المدينة فلقوا رجلين من بنى سليم ، فسألوهما عن نسبهما فقالا : من بنى عامر ، لأنهم أعز من بنى سليم فقتلوهما ، فجاء نفر

---

(٦) الحجرات ١ ، ٢ ، ٣ .

من بني سليم إلى رسول الله - ﷺ - فقالوا : إن بيننا وبينك عهداً ، وقد قتل منا رجلان . . . فوداهما(٧) النبي - ﷺ - بمائة بعير ، وتحدث الناس وتماريا في ذلك فنزلت تلك الآيات .

ويقول بعض العلماء : لعلها نزلت في غير سبب لتكون دستوراً للمسلمين في أعمالهم وأقوالهم ، فلا يقدموا طاعة عن وقتها ولا يخالفوا عمل رسول الله - ﷺ - أو قوله فيها فهو إمام أمته وأسوتها - كما قال سبحانه

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾(٨)

ويدخل في عموم هذه الآية - كما قال ابن كثير - حديث معاذ قال : قال النبي - ﷺ - له حين بعثه إلى اليمن ؛ بم تحكم ؟

قال : بكتاب الله .

قال : فإن لم تجد ؟

قال : بسنة رسول الله - ﷺ -

قال : فإن لم تجد ؟

قال : أجتهد رأيي .

فضرب النبي - ﷺ - في صدره ، وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول

---

(٧) أدى ديتهما

(٨) الأحزاب ٢١

رسول الله لما يرضى رسول الله[٩] . »

ونحن نميل إلى هذا الرأى الأخير فى نزول الآيات ، ونكبر الصحابيين الجليلين أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ أن يكونا قد تجادلا أو ارتفع صوتهما أمام النبى ـ ﷺ ـ وهما اللذان يعرفان قدره تمام المعرفة . . وإن كان حدث شيء من ذلك فمن غير قصد . .

ولكن حين نزلت هذه الآيات قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السرار .

ومن التعليقات التى ذكرها المفسرون ، والتى تشير إلى إجلال الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لمقام الرسول ـ ﷺ ـ واستجابتهم السريعة لما يأمر به القرآن الكريم ، ما قالوه حول موقف ثابت بن قيس الأنصارى ـ رضى الله عنه ـ فقد قالوا :

كان ثابت بن قيس جهير الصوت ، فحين نزلت هذه الآيات قال : أنا الذى كنت أرفع صوتى عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقد أحبط عملى . فأنا من أهل النار .

وجلس ثابت فى بيته حزينا ، واعتزل الناس ، فتفقده النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانطلق بعض أصحابه إليه .

فقالوا له : تفقدك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسأل عنك ،

---

(٩) التفسير الوسيط مجمع البحوث الاسلامية سورة الحجرات

فمالك ؟

قال ثابت : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأجهر له بالقول ، حبط عملى . ـ أنا من أهل النار . .

فأتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروه بما قال .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا ، بل هو من أهل الجنة .

قال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس وقد لبس كفنه وقال : بئسما تقودون أقرانكم ، فقاتلهم حتى قتل .

لقد كان ثابت رجلا رقيق الشعور شديد الخوف من الله ، وحين نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾(١٠)

أغلق بابه وطفق يبكى فسأل عنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرسل اليه . .

وحين جاء قال : يارسول الله ، إنى أحب الجمال وأحب أن أسود قومى ،

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لست منهم ، بل تعيش حميدا وتقتل شهيداً وتدخل الجنة »

---

(١٠) لقمان ١٨

فلما كان يوم اليمامة ، خرج خالد بن الوليد لقتال مسيلمة الكذاب ، فلما التقوا انكشف المسلمون أولا ، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة : ماهكذا كنا نقاتل مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم حفر كل واحد منهما حفرة لنفسه ، فثبتا وقاتلا حتى قتلا .

وكان على ثابت حينذاك درع له نفيسة ، فمر به رجل من المسلمين بعدما قتل فأخذها . فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت فى المنام فقال له : أوصيك بوصية ، وإياك أن تقول : هذا حلم فتضيعه :

إنى لما قتلت أمس مر بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ، ومنزله فى أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يستن[11] فى طوله ، وقد كفأ على الدرع برمة وفوق البرمة رحل ، فائت خالد بن الوليد فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذها ،

وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعنى أبابكر الصديق فقل له : إن علىّ من الدين كذا وكذا . . . .

فأتى الرجل خالدا فأخبره ، فبعث الى الدرع فأتى بها ـ وكانت على الصفة التى وصف ثابت . . .

وحين عاد هذا الرجل الى المدينة أخبر أبابكر ـ رضى الله عنه ـ بما رأى فأجاز أبو بكر وصيته .

---

(١١) فرس مربوط بحبل طويل يمرح فيه فى المرعى ، الطِوَل : الحبل الطويل

ولايعلم أحد أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس ـ رضى الله عنه ـ[١٢]

سرية قطبة بن عامر الى خثعم

وكان حى من خثعم يقيم بناحية بيشة[١٣] قريبا من تربة[١٤] أقاموا على كفرهم ورفضوا الاستجابة لدين الاسلام .

فأرسل إليهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو الخزرجى على رأس عشرين رجلا ، وأمره أن يشن الغارة عليهم . . فتقدم قطبة اليهم وأنفذ وصيَّة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم . . كان القوم على عشرة أبعرة يعتقبونها . فوجدوا رجلا من خثعم فأخذوه ، وحاولوا أن يعرفوا منه خبر قومه ، ولكنه استعجم عليهم ، وأبى أن يصرح بشيء ، وأخذ يصيح فى محاولة لتحذير قومه ، فضربوا عنقه . .

ثم أقاموا حتى نام الخثعميون فشنوا عليهم الغارة . . ولكنهم تنبهوا فاقتتلوا قتالا شديداً .

وعلى الرغم من كثرة الجراحات فى الفريقين الا أن المسلمين انتصروا ، وساقوا النعم والشاء والأسرى إلى المدينة . .

(١٢) التفسير الوسيط ـ تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٠٥ ـ أسد الغابة لابن الأثير جـ ١ ص ٢٧٥

(١٣) بيشة : اسم قرية غناء فى واد كثير الأهل من بلاد اليمن ـ وبين بيشة وتبالة أربعة أميال من جهة اليمن ، وبيشة أيضا واد يصب سيله من الحجاز حجاز الطائف ثم ينصب فى نجد .

(١٤) تربة واد يأخذ من السراة ويفرغ فى نجران ، وتباله : موضع ببلاد اليمن . ويذكر الزرقانى أن تربة ـ بضم التاء وفتح الراء من أعمال مكة على يومين منها .

وحاول الخثعميون أن يستنقذوا المغانم والسبى من المسلمين ، فساروا خلفهم وقد جمعوا لذلك جموعا ، ولكن الله أرسل سيلا حال بينهم وبين المسلمين .

ووصل قطبة ومن معه إلى المدينة ، وسلم الغنائم للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقسمها بين المقاتلين . .

كانت هذه السرية فى صفر من العام التاسع الهجرى .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، وحديثنا يدور حول القصص القرآنى فإن قطبة بن عامر هذا نزلت فى شأنه آية ، هى قوله - تعالى : -

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ (١٥)

ويجمل بنا أن نذكر قصة ذلك :

قال القرطبى : كان الأنصار إذا حجوا وعادوا لايدخلون من أبواب بيوتهم ، فإنهم كانوا إذا أهلوا بالحج أو العمرة يلتزمون شرعا ألا يحول بينهم وبين السماء حائل ، فإذا خرج الرجل منهم بعد إحرامه من بيته ، فرجع لحاجة لايدخل من باب الحجرة وذلك لأن سقف البيت يحول بينه وبين السماء ، فكان يتسنم ظهر بيته على الجدران ، ثم يقوم فى حجرته فيأمر بحاجته فتخرج اليه من بيته . وكانوا يرون ذلك من النسك والبر . .

---

(١٥) البقرة ١٨٩

بل إن بعضهم كان ينقب فى ظهر بيته نقبا فمنه يدخل ومنه يخرج ، أو يضع سلما فيصعد منه وينحدر عليه .

فحين أهل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعمرة وقت الحديبية دخل حجرته ، فجاء قطبة بن عامر ودخل خلفه وخرق عادة قومه .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لم دخلت وأنت قد أحرمت ؟

فقال قطبة : دخلت أنت فدخلت بدخولك . لأن دينى هو دينك

فنزلت هذه الآية .

وفى رواية قال : يارسول الله ، رضيت بهديك ودينك وسنتك .

سرية الضحاك الى بنى كلاب

وفى ربيع الأول من العام التاسع بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الضحاك بن سفيان الكلابى إلى جماعة من قومه بنى كلاب ، يطلق عليهم : القرطاء[١٧] ، وكان شجاعا يعدل مائة فارس . فالتقى بهم فى موضع بنجد اسمه : « زج لاده » .

وكان مع الضحاك رجل اسمه الأصيد بن سلمة بن قرط ، ورجال من المسلمين .. فدعوا القرطاء الى الاسلام فأبوا فقاتلوهم ..

---

(١٦) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٣٢٣ أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٠٦

(١٧) القرطاء ـ بضم القاف وفتح الراء بطن من بنى بكر واسمه عبيد بن كلاب وهم ثلاثة أخوة : قرط ، وقُرَيْط ، وقَرِيط .

والتقى الأصيد بأبيه سلمة ، وكان أبوه على فرس له ، فحاول أن يدعوه إلى الاسلام ، ولكن الأب نفر منه ، وسبَّه وسبَّ دينه . فضرب الأصيد عرقوبي فرس أبيه ، فوقع الفرس على عرقوبيه وكان فى غدير ، فارتكز سلمة على رمحه فى الماء محاولا الاستمساك ، ولكنه لم ينج من القتل ، فقد جاءه أحد المسلمين وقتله .

اصيد بن سلمة آخر

ومن المفارقات الغريبة أن هناك رجلا آخر اسمه أصيد بن سلمة السلمى له قصة ذكرها ابن الأثير أسندها إلى على بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ قال :

بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرية ، فأسروا رجلا من بنى سُليم يقال له : الأصيد بن سلمة ، فلما رآه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رق له وعرض عليه الإسلام فأسلم .

فبلغ ذلك أباه ، وكان شيخاً فكتب إلى ابنه يقول :

من راكب نحو المدينة سالما	حتى يبلغ ما اقول الأصيدا
إن البنين شرارهم أمثالهم	من عقَّ والده وبر الأبعدا
اتركت دين ابيك والشم الألى	أودوا وتابعت الغداة محمدا[18]
فلأى أمر يابنى عققتنى	وتركتنى شيخاً كبيراً مفندا[19] ؟

---

(١٨) الشم : جمع أشم العالى ، أودوا : ذهبوا

(١٩) مفندا : عاجزا

أمـا النهـار فدمـع عيـنى سـاكب وأبيت ليـل كالسـليم مُسَـهَّدا[20]
فلعـل ربـاً قد هـداك لدينـه فاشكر أياديـه عسـى أن ترشـدا
واكـتب إلى بمـا أصـبت من الهـدى وبدينـه لاتتركـنى موحـدا
واعـلم بـأنك إن قطعـت قرابـتى وعققـتنى لم أُلْفَ إلا للعـدا

فلما قرأ كتاب أبيه جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستأذنه فى جوابه ، فأذن له ، فكتب إليه :

إن الـذى سـمك السماء بقـدرة حـتى عـلا فى ملكـه فتوحـدا[21]
بعـث الـذى لامثـله فيمـا مضـى يدعـو لرحمتـه النبـى محمـدا[22]
ضخـم الدسـيعة كالغـزالة وجهـه قرنـا تـأزر بالمكـارم وارتـدى
فدعـا العبـاد لدينـه فتتـابعوا طوعـا وكرهـا مقبلـين على الهـدى
وتخـوفوا النـار التى من اجلهـا كـان الشـقى الخاسـر المتلـددا
واعـلم بـأنك مـيت ومحاسـب فإلى مـتى هـذى الضـلالة والـردى ؟

فلما قرأ الرجل كتاب ابنه أقبل إلى النبى ﷺ فأسلم ..

أهمية هذه السرايا

كان لابد من هذه السرايا التى أعقبت الفتح الأكبر ، للقضاء على آخر

---

(٢٠) السليم : الملدوغ .
(٢١) سمك : بنى ورفع
(٢٢) الدسيعة : الجفنة ـ الغزالة : الشمس .

جيوب للمقاومة الضالة التى لم تستبصر بعد نور الهدى ، والتى كان الكفر مسيطراً على عقولها وأفئدتها . وقد آتت هذه السرايا والبعوث ثمارها لأنها أظهرت لهؤلاء العتاة أن كلمة الله هى العليا ، وأن نور الاسلام قد انتشر فى الآفاق . .

وحان الوقت لتنطلق هذه الكلمة عالية إلى خارج الجزيرة العربية بعد أن صَمَّتْ الدول التى أرسلت إليها الكتب آذانها عنها وأخذت تدبر المؤامرات ضد المسلمين فلم تكن ردود الملوك والأمراء مستجيبة لأمر الله ، بل على العكس أعلنت هذه الدول مقاومتها للدعوة ، ووقوفها بالقوة فى طريقها . .

فكان لابد للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتخذ إجراء حاسما أمام هؤلاء ويبين لهم أن أمة العرب الآن غيرما كانت عليه بالأمس . . . فقد ألبسها الله بالاسلام لباس العزة والأمن .

لقد بدأت الروم تتخذ موقفا حاسما من هذه الدعوة ، عن طريق تحركات نحو الحدود الشمالية ، وعن طريق مناوشات بواسطة تابعيها عبر البحر . . من ناحية الجنوب . .

فمن ناحية الجنوب ، بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ناسا من الحبشة جاءوا عبر البحر من ناحية جدة ، ورآهم أهل جدة فبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليهم علقمة بن مُجَزِّز فى ثلثمائة رجل ، وكان ذلك فى ربيع الآخر من سنة تسع ، وانتهى علقمة ومن معه الى جزيرة فى البحر ، فهرب الأعداء من أمامه . . وكفى الله المؤمنين القتال .

وأما من ناحية الشمال فكانت غزوة تبوك التى سنتحدث عنها فيما يأتى : ـ

فهرس المجلد الرابع عشر

حدث خطأ مطبعي غير مقصود فى تسلسل أرقام صفحات المجلد الرابع عشر فكانت الصفحات من ١٩٣ إلى ٢٥٦ وصحتها من ١٢٩ إلى ١٩٣

ولكى لا يحدث تكرار للأرقام جاءت الصفحات التالية على هذا النحو ١٩٣/٢ ... ١٩٤/٢ .. إلى ٢٥٦/٢ ثم بعد ذلك التسلسل سليم من ٢٥٧ إلى ٣٦٠ على أن هذا الخطأ لم يؤثر على تسلسل المادة العلمية ..

انتهى بحمد الله المجلد الرابع عشر يليه بمشيئة الله المجلد الخامس عشر وأوله غزوة العسرة ..

سلسلة
القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الخامس عشر

سلسلة القصص القرآنى

المجلد الخامس عشر

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي   د. عبد الحميد مصطفى


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

غـزوة تبوك

- أين تقع تبوك ؟
- أسباب الغزوة
- متى حدثت تلك الغزوة ؟
- النبى ﷺ يستنفر المسلمين
- تنافس المسلمين فى الانفاق
- قصة البكائين
- المخلفون
- تخلف عبدالله بن أبىّ وأصحابه
- استخلاف علىّ على المدينة
- المرور على الحجر
- دعاء النبى ﷺ لأصحابه
- عين تبوك تفيض بالماء
- نجاح عظيم فى تبوك


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

اين تقع تبوك ؟

تبوك بلدة فى الطريق الممتدة من دمشق إلى المدينة[1] .

وهى واقعة على مرتفع فى سهل رملى ، وبها بئر صالح - عليه السلام - وأهم مبانيها الآن حصن الحجاج الذى بنى عام ١٠٦٤ هـ : ١٦٥٤ م كما ورد فى الكتابات المنقوشة عليه ، وبجانبه مسجد جديد مشيد من أحجار جميلة منحوتة .

كانت تبوك أيام النبى - صلى الله عليه وسلم - تقع على الحدود الشمالية لبلاد العرب ، وتبدأ بعدها حدود الدولة البيزنطية - دولة الروم - وأخذت تبوك شهرتها من هذه الغزوة التى قام بها النبى - صلى الله عليه وسلم - إليها لإخضاع عرب الشمال . . وذلك فى السنة التاسعة من الهجرة .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية : لقد هرب سكان تبوك من الروم وقبائل عاملة ولخم وجذام عند وصول النبى - صلى الله عليه وسلم - إليها[2]

وتبوك - على وزن تقول - تمنع من الصرف للعلمية والتأنيث . وإن كان بعضهم صرفها على إرادة المكان ، وتمنع من الصرف أيضاً للعلمية والعجمة . وللعلمية ووزن الفعل .

ولكن بعضهم يقول : إن التسمية جاءت من قوله - صلى الله عليه وسلم - لرجلين سبقاه الى عين بها - وكان قد نهى أن يقرب أحد ماءها - : « مازلتما تبوكانها منذ اليوم[3]

---

(١) هى على مسيرة أربعة أيام من الحجر واثنى عشر يوما من المدينة - ياقوت -

(٢) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٩ ص ٢١٠

(٣) شرح الزرقانى للمواهب اللدنية جـ ٣ ص ٦٠

قال ابن قتيبة : فمن ذلك سميت العين تبوك ، وسمى المكان باسم العين

والبوك معناه النقش والحفر .

ولكن هذا الحديث رواه مالك ومسلم بغير هذا اللفظ عن معاذ ـ رضى الله عنه ـ قال : إنهم خرجوا مع رسول ـ صلى اله عليه وسلم ـ فقال : « إنكم تأتون غدا إن شاء الله تعالى عين تبوك ، فمن جاءها فلايمس من مائها شيئا » قال : فجئناها وقد سبق اليها رجلان ، والعين مثل الشراك تبضُّ بشيء من ماء ..

فدل ذلك على أن تبوك اسم لذلك الموضع الذى فيه العين المذكورة ، فالتسمية سابقة على كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ



اسباب الغزوة

ذكر العلماء لهذه الغزوة أسبابا عدة منها :

●● أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلغه عن طريق التجار الذين يقدمون إلى بلاد العرب من الشام بالزيت والتجارة إلى المدينة أن الروم جمعوا جموعهم مع هرقل لغزو العرب ، وأن هرقل جمع أصحابه وحلفاءه ، وأقبلت معهم قبائل لخم وجذام وعاملة وغسان وغيرهم من نصارى العرب ، ووصلت مقدمتهم إلى البلقاء .

وربما لم يكن هذا الخبر قد تحرى فيه أصحابه الصدق ، أولم يستوثقوا من حقيقته ، فقد رأوا جموعا فتوهموا أنها للزحف ، وحاكوا حولها مازعموه من إضافات .

ولكن هذا الخبر وحده كان كافيا للدعوة للتجهز تحسباً لأدنى الاحتمالات .

وهناك سبب آخر أشار إليه الطبرانى قال فيه :

كانت نصارى العرب قد كتبت إلى هرقل أن هذا الرجل الذى خرج يدَّعى النبوة قد هلك ، وأنهم ـ يقصدون العرب ـ أصابتهم سنون قحط ـ فهلكت أموالهم ، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن . .

فانتدب هرقل رجلا من قواده اسمه قُباذ ، وجهز معه أربعين ألفا لغزو بلاد العرب ، وبسط سلطان الروم فيها . بعد الإرجاف بهذا الخبر السابق . .

. . . ويعد هذا سبقاً إلى السياسة التى ظهرت أخيراً باسم « ملء الفراغ » . . فمادامت الجزيرة العربية خلت من قائدها فليحل الروم محله ـ هكذا توهم هرقل ـ

وقد بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبأ هذه التحركات ، فندب الناس للاستعداد لها ووأدها فى مكانها .

●● ومن الأسباب التى أشار إليها بعض العلماء أيضاً . . . ماورووه حول سبب نزول قوله ـ تعالى ـ

« وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها »

فقد قال هؤلاء الرواة فى سند إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :

حسدت بقايا اليهود مقام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة ، فقالوا له : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام فإن كنت نبيا فالحق بها ، فإنك إن خرجت

اليها صدقناك وآمنا بك ، فوقع ذلك فى قلبه لمايحب من إسلامهم ، فرحل من المدينة على مرحلة من الشام فأنزل الله هذه الآية

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (٤)

وعلى ذلك فكانت هذه الغزوة طريقا للحوق بالشام ..

ولكن أكثر العلماء يقولون : إن هذه الآية مكية وليست مدنية ، والمقصود بالأرض فيها أرض مكة ، لا أرض المدينة . وقد نزلت حين هم أهل مكة بإخراجه ، ولم يخرجوه ، ولكن الله أمره بالهجرة ، وما قبل هذه الآية خبر عن أهل مكة ولم يجر لليهود ذكر (٥) .

●● ومن الأسباب التى أشار إليها بعض العلماء ماذكروه من أن قريشا حين نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٦)

قالت : لقد قُطِعتْ عنا المتاجر وذهبت الأسواق ، وضاع ماكنا نصيبه من هؤلاء القادمين ، فعوضهم الله عن ذلك بما غنموه من أهل الكفر فى

---

(٤) الاسراء ٧٦

(٥) راجع تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ٣٠١ . سورة الاسراء

(٦) التوبة ٢٨

حربهم ، ونزل فى ذلك قوله - تعالى -

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (٧)

فكانت الجزية عوضاً عما منعوا منه من التجارة فى الحرم مع أهل الكفر » . (٨)

هذه هى الأسباب التى ذكرها الرواة ، وأقواها السبب الأول الذى أشرنا إليه ، لأنه وحده الكفيل بأن يحرك همة المسلمين للتصدى لهذا العدوان الخارجى ، وقد علمنا أنفة العرب من العدوان عليهم . . ، فإذا أضيف إلى ذلك ما أودعه الإسلام فى نفوسهم من غيرة على الحق ورغبة فى إشاعة العدل ، ونشر نور الإسلام كان ذلك داعيا الى التحرك نحو تبوك لوقف هذا العدوان .

وقد أيد ذلك الخبراء العسكريون حيث قالوا عن أسباب هذه الغزوة :
هناك أسباب مباشرة هى . . أن قوات الروم قد حشدت لغزو حدود العرب الشمالية والقضاء على سلطة الاسلام هناك . . . فقد بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وأن القيصر هرقل قد أعطى أصحابه العطايا لسنة كاملة ، وأجلبت معه لخم

---

(٧) التوبة ٢٩

(٨) راجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٠٩ - شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ ٣ ص ٦٤

وجذام وعاملة وغسان وقدمت جموعهم إلى البلقاء .

وهناك أسباب غير مباشرة هى :

●● التأكيد على حماية حرية نشر الاسلام خارج شبه الجزيرة العربية بعد انتشاره داخلها .

● تقوية معنويات القبائل العربية الخاضعة لسلطان الروم . . . تلك القبائل التى أخذت تقبل على اعتناق الاسلام على الرغم من معارضة الروم لهذا الاتجاه .

●● محو آثار انسحاب المسلمين من مؤتة من النفوس .

وإذا كانت هناك أهداف لكل من المسلمين والروم ، فإن هدف المسلمين هو حماية نشر الإسلام فى بلاد الشام ، لأنها المنفذ المهم لنشره خارج شبه الجزيرة العربية ، كما أنها المتنفس الحيوى للتجارة العربية .

أما هدف الروم فكان القضاء على منافسة المسلمين للامبراطورية الرومانية فى السيطرة على العرب الخاضعين للروم ، والوقوف ضد انتشار الدعوة الاسلامية فى بلاد الشام(٩) .

ويؤكد هذا خبير عسكرى آخر حيث يقول :

فى فصل الصيف الحار من عام ٦٣٠ م وصلت التقارير الى المدينة المنورة بخصوص حشد الروم لقوات كبيرة فى سورية ، وأنهم دفعوا بعناصر المقدمة الى الأردن ، وأن هرقل الامبراطور البيزنطى نفسه موجود فى حمص .

---

(٩) الرسول القائد ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب ص ٣٨٩

وفى منتصف تشرين الأول عام ٦٣٠ م أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتهيؤ لغزو الروم لم يكن هدف الحملة محاربة الروم ، لأن ذلك يمكن أن يحدث فيها بعد عندما يتحسن الطقس . لكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يمتحن قوة إيمان المسلمين بجعلهم يسيرون فى حر الصيف اللاهب ، ولا يستطيع أن يستجيب لنداء النبى فى مثل هذه الظروف سوى المؤمنين الصادقين (١٠)

اسماء الغزوة

ولغزوة تبوك أسماء أخرى غير هذا الاسم

فقد سميت بغزوة العسرة ـ وهذا الاسم جاء من قوله ـ تعالى :

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١١)

والعسرة صعوبة الأمر .

قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظُّهْر ، وعسرة الزاد ، وعسرة الماء ، يضاف الى ذلك عسرة الجو ، فقد خرجوا فى قيظ شديد .

قال الحسن : كانت العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يتناوبونه بينهم . . .

---

(١٠) خالد بن الوليد جنرال أ أكرم ص ١٣٩

(١١) آية رقم ١١٧ سورة التوبة

وكان زادهم التمر الردىء والشعير المتغير والإهالة القليلة(١٢)وكان النفر يخرجون مامعهم من التمرات يقسمونه بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء ، وهكذا حتى لايبقى من التمرة الا النواة .

لقد خرجوا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصدق والوفاء واليقين ، وسئل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن ساعة العسرة فقال : خرجنا فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد . حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش . فقال أبو بكر : يارسول الله ، إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا .

قال : أتحب ذلك ؟

قال : نعم :

فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ، ثم سكبت فملأوا مامعهم .

قال عمر : ثم ذهبنا ننظر فلم نجد السحابة جاوزت العسكر .

وقال ابن عرفة : سمى جيش تبوك جيش العسرة لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ندب الناس الى الغزو فى شدة القيظ ، فغلظ عليهم وعسر .

وإنما ضرب المثل بجيش العسرة ـ فى الآية الكريمة ـ لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يغز قبله فى عدد مثله ، وكان أصحابه يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر ، ويوم أحد سبعمائة ، ويوم خيبر ألفا وخمسمائة ، ويوم

---

(١٢) الإهالة : الشحم

الفتح عشرة آلاف ويوم حنين اثنى عشر ألفا ، وكان جيشه فى غزوة تبوك ثلاثين ألفا وزيادة ، وهى آخر غزواته ـ صلى الله عليه وسلم ـ[13]

الغزوة التى فضحت المنافقين :

ولغزوة تبوك اسم آخر ، فقد سميت بالغزوة التى كشفت المنافقين وفضحتهم . . وذلك أن المنافقين قد فضحوا فيها بما نزل فيهم من الآيات الدالة على كذبهم كقوله تعالى ـ حكاية عنهم ـ

« وقالوا لاتنفروا فى الحر »

وقوله :

« ومنهم من يقول ائذن لى ولاتفتنى »

وقوله :

« ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب »

وكقوله تعالى تبكيتا لهم :

« لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة »

وسيأتى حديث مفصل ـ ان شاء الله ـ عن موقف المنافقين فى هذه الغزوة .

متى كانت الغزوة :

كانت تلك الغزوة فى منتصف رجب من العام التاسع الهجرى . . .

(١٣) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٢٧٩

انطلق المسلمون بقيادة نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تبوك . .

وقد سبق الخروج إعدادلهذه الغزوة .

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عادته أنه لايعلن عن وجهته فى الغزو ، إلا فى هذه الغزوة فإنه أعلن عن وجهته ليكون المسلمون على بينة من أمرهم . وليعدوا أنفسهم لسفر طويل ومشقة كبيرة وعدو شديد . .

ولم يكن المسلمون على أهبة الاستعداد حين دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للجهاد ، فقد كانوا مجهدين ماليا . ينتظرون الثمرة ويرجون المحصول الذى لم ينضج بعد . .

النبى يستنفر المسلمين :

لقد أذن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجهاد . وأمر الناس بالتجهز ، وبعث إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم ، وحث أهل الغنى على البذل والانفاق وحمل المجهدين والمعسرين فى سبيل الله ، وكان المسلمون عند حسن ظن نبيهم فنفروا خفافا وثقالا ، وأقبلوا على الله بأرواحهم ، وجادوا بأموالهم وتنافسوا فى البذل والعطاء فكانوا جديرين بكل شكر وثناء .

لقد انفق عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها قيل ؛ إنه جهز عشرة آلاف مقاتل أنفق عليهم عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل ـ وهى تسعمائة بعير ومائة فرس ـ والزاد وماتعلق بذلك حتى ماتربط به الأسقية(١٤)

---

(١٤) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٠٠

وقال بعضهم : إنه أعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرسا ، وعند ذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض .

روى أبو سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أول الليل الى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان ويقول : اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه .

تنافس المسلمين فى الصدقة والبذل :

وفى الحق لقد ضرب المسلمون الصادقون أروع الأمثلة فى البذل والعطاء فهذا عثمان بن عفان ـ كما رأينا يقدم هذا البذل الذى تحدثنا عنه . . وأضاف الى ذلك أيضا مارواه الرواة من أنه جاء بعشرة آلاف دينار فصبها بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فجعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذها بيديه ويقلبها ظهرا لبطن ، ويقول : غفر الله لك ياعثمان ماأسررت وماأعلنت وماكان منك وماهو كائن منك وماهو كائن الى يوم القيامة مايبالى عثمان ماعمل بعدها .

وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ لقد جاء بجميع ماله فوضعه بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان مقداره أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماذا أبقيت لأهلك ياأبا بكر ؟

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بنصف ماله ، فقدمه للنبى ـ

صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : ماذا أبقيت لأهلك ياعمر ؟

قال عمر : أبقيت لهم النصف . .

وحين علم عمر أن أبا بكر جاء بكل ماله قال له : لا أنافسك بعد ذلك أبدا .

لقد علم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن هذا العمل من أبى بكر لايقدر عليه الا من كان فى مثل أبى بكر . . ومن كأبى بكر الذى يقول الحق فيه :

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١٥)

قال المفسرون :

فالذى جاء بالصدق هو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذى صدق به هو أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية . وعبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ كان أحد الصحابة الموسرين المنفقين فى سبيل الله .

روى معمر عن الزهرى قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشطر ماله تصدق بأربعة آلاف ، ثم تصدق بأربعين ألفا . ثم تصدق بأربعين ألف دينار أخرى ، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله ، ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله ، وكان عامة ماله من التجارة . .

وظل على عادته من الانفاق فى سبيل الله بعد وفاة الرسول ـ صلى الله

---

(١٥) الزمر ٣٣

عليه وسلم ـ فقد روى أنه قَدِمَتْ له سبعمائة راحلة تحمل القمح . . وتحمل الدقيق والطعام . . فلما دخلت المدينة سُمِعَ لأهل المدينة رجة فقالت عائشة : ما هذه الرجة ؟

فقيل لها : عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف . . سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام .

فقالت عائشة : سمعت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبوا .

فلما بلغ ذلك عبد الرحمن قال : ياأُمَّة ، إنى أشهدك أنها بأحمالها وأحلاسها وأقتابها(١٦) فى سبيل الله ـ عز وجل ـ(١٧)

وقال الزهرى : أوصى عبد الرحمن لمن بقى ممن شهد بدرا لكل رجل أربعمائة دينار وكانوا مائة فأخذوها ، وأخذها عثمان ـ وهو أمير المؤمنين ـ فيمن أخذ ، كما أوصى بألف فرس فى سبيل الله .

لقد كان عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنهما ـ مثلين رائعين فى الاستهانة بالمال وتقديمه طواعية . من غير مَنٍّ فى سبيل الله ، ولذلك ورد فيهما الأثر : هما خزانتان من خزائن الله فى الأرض ينفقان فى طاعة الله ـ تعالى ـ

وجاء العباس ـ رضى الله عنه ـ بمال كثير وقدمه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك فعل طلحة بن عبيد الله ـ رضى الله عنه ـ

---

(١٦) الأحلاس جمع حلس : الكساء الذى يلى ظهر البعير ، والأقتاب جمع قتب هو بمثابة البردعة للحمار

(١٧) أسد الغابة جـ ٣ ص ٤٨١ ـ وأخرج الامام أحمد مثل هذا الخبر فى مسنده ٦ / ١١٥

وقدمت النساء مايملكن من حلى وجواهر طواعية لله عز وجل ، فحين دعا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الجهاد بالمال . وكانت النساء يسمعن ذلك جعلت إحداهن تخلع ما فى يديها وأذنيها من أقراط وخواتم وأساور وتلقى بها إلى بلال ـ رضى الله عنه ـ فيجمعها بلال فى ثوبه حتى جمع من ذلك قدرا كبيرا .

وكان كل رجل يحاول أن يقدم شيئا لله ، فتصدق عاصم بن عدى ـ رضى الله عنه ـ بسبعين وسقا من تمر .

وبات الحبحاب أبو عقيل الأنصارى يجر الماء بالحبل من البئر للناس ، على صاعين من تمر . ثم جاء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصاع منها وهو يقول : يارسول الله ، بت أجر بالحبل على صاعين من تمر ، فأما صاع فأمسكته لأهلى ، وأما صاع فها هو ذا . فلمزه المنافقون وقالوا : هذا رياء ، وان الله ورسوله غنيان عن صاع أبى عقيل فأنزل الله ـ تعالى قوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١٨)

وقيل نزلت فيه وفى عبد الرحمن بن عوف حين أتى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنصف ماله . . وفى رجل آخر من الأنصار جاء بنصف صبرة من تمر فقال المنافقون : « ماأغنى الله عن هذا ! (١٩)

---

(١٨) التوبة ٧٩

(١٩) أسد الغابة جـ ١ ص ٤٣٨

وكان علبة بن زيد من فقراء المسلين لامال له ولاراحلة ، وكان على شوق لأن يخرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجاهدا ويتصدق بشيء فى سبيل الله . وتحير ماذا يصنع ؟

فخرج من الليل فصلى من ليلته ماشاء الله ، ثم بكى وقال : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ماأتقوى به مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تجعل فى يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مايحملنى عليه ، وإنى أتصدق على مسلم بكل مظلمة أصابنى فى مال أو جسد أو غير ذلك ..

وأصبح علبة فشهد الصبح مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ
فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أين المتصدق هذه الليلة ؟
فلم يقم أحد . ثم قال : أين المتصدق ؟ فليقم .
فقام علبة فأخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما قال .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبشر فو الذى نفس محمد بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة(٢٠).

قصة البكّائين

لقد كان عُلبة هذا أحد البكائين من المسلمين .. فما قصة هؤلاء البكائين ؟

البكاءون هم جماعة من المسلمين الصادقين الذين يحرصون على الجهاد مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصدق وإخلاص ..

(٢٠) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢١٨ ـ البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٥

وجاءت الدعوة إلى هذه الغزوة فى ساعة عسرة وجهد ، وليس لدى هؤلاء رواحل تعينهم على السفر الطويل فى الحر الشديد ، وليس معهم من المال ما يستطيعون أن يعدوا به أنفسهم للجهاد ..

لقد كان المجاهد وقتئذ هو الذى يعد العدة للجهاد من زاد وراحلة وسلاح ، وليست الدولة مسئولة عن ذلك كما حدث فيما بعد . وهذا يدل على صدق أولئك المجاهدين الذين باعوا أرواحهم وأموالهم لله .. ونظر هؤلاء القوم إلى أنفسهم فإذا بهم لا يستطيعون الخروج مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحاجتهم إلى العدة وإلى ما يحملهم .

كانوا سبعة من المؤمنين الصادقين هم : سالم بن عمير من بنى عمرو بن عوف ، وعُلبة بن زيد الذى أشرنا إليه آنفاً ، وأبو ليلى عبد الرحمن ابن كعب من بنى النجار ، وعمرو بن الحمام من بنى سلمة ، وعبد الله ابن المغفل المزنى ، وهرمى بن عبد الله من بنى واقف ، وعرباض بن سارية الفزارى .. وذكر بعض الرواة أسماء غير هذه ، أو أحلوا أسماء مكان أسماء .. وبعضهم قال : هم سبعة أخوة أشقاء ، وليس فى الصحابة سبعة أخوة غير هؤلاء وهم : النعمان ، ومعيقل ، وعُقيل ، وسويد ، وسنان ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ـ أولاد مقرن المزنى ـ وعلى أى الروايات فقد جاء هؤلاء النفر إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلين : يا نبى الله ، قد جئنا للخروج معك فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغز معك .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أجد ما أحملكم عليه .

وقال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب ، وكان الرجل يحتاج

إلى بعيرين بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده لبعد الطريق .

فتولى هؤلاء النفر وهم يبكون أسفاً على فوات فرصة الغزو منهم ، ونزل فى ذلك قوله ـ تعالى

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٢١)

كان بكاء هؤلاء صادقاً يشهد بما فى قلوبهم من رغبة قوية فى الجهاد فى سبيل الله . .

ورأى يامين بن عمير بن كعب النضرى ـ وهو من مسلمى أهل الكتاب من بنى النضير ـ عبد الله بن مفضل وأبا ليلى يبكيان ـ فقال لهما : ما يبكيكما ؟

قالا : جئنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه .

فأعطاهما ناضحاً له(٢٢) ، فارتحلاه ، وزودهما شيئاً من تمر فخرجا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم(٢٣) ـ

(٢١) التوبة ٩١ ، ٩٢

(٢٢) الناضح : الجمل الذى يستقى عليه الماء

(٢٣) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٣١

وفى يامين هذا نزل قوله ـ تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٢٤)

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هذه الآية نزلت فى عبد الله ابن سلام ، وأسد وأسيد ابنى كعب ، وثعلبة بن قيس ، وسلام بن أخت عبد الله بن سلام ، وسلمة ابن أخى عبد الله بن سلام ، ويامين ابن يامين . هؤلاء مؤمنو أهل الكتاب . . . هؤلاء مؤمنوا أهل الكتاب أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا رسول الله ، نؤمن بك وبموسى والتوراة وعزير ، ونكفر بما سوى ذلك .

فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آمنوا بالله ورسوله محمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب ورسول كان قبل .

فقالوا : نفعل ذلك ، فأسلموا (٢٥).

وكان هناك قوم غير هؤلاء البكائين قد تخلفوا أيضاً بسبب الجهد وقلة النفقة منهم أبو موسى الأشعرى .

وقد حدث أبو موسى عن نفسه قائلاً : أرسلنى أصحابى الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسأله لهم الحملان ، إذ هم معه فى جيش العسرة ، فقلت : يا نبى الله ، إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم .

---

(٢٤) النساء ١٣٦

(٢٥) أسد الغابة جـ ٥ ص ٤٦٨

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس عندى ما أحملكم عليه . . قالها رسول الله بشدة ، وكان الغضب يبدو عليه ـ قال أبو موسى : فرجعت حزيناً من منع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن مخافة أن يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد وَجِد فى نفسه عليّ .

فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم بالذى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادى فأجبته . فقال : أجب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوك . فلما أتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : خذ هذين القرنين ، وهذين القرنين ، وهذين القرنين . لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد فقال : انطلق بهن إلى أصحابك ، فقل : إن الله أو إن رسول الله يحملكم على هؤلاء .

ـ فأخذها أبو موسى إلى أصحابه ـ

قال : فقلت : ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحملكم على هؤلاء ، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سألته لكم ، ومنعه لى فى أول مرة ، ثم إعطائه إياى بعد ذلك ، حتى لا تظنوا أنى حدثتكم شيئاً لم يقله .

فقالوا : والله إنك عندنا لمصدق ولنفعلن ما أحببت .

قال فانطلق ابو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا مقالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من منعه إياهم ثم إعطائه بعد ، فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء(٢٦).

---

(٢٦) دلائل النبوة للبيهقى ، البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٦

وفى هذه القصة دلالة على إصرار أبي موسى - رضى الله عنه - أن يكون الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حقاً لا ريب فيه ، وقد خشى على قلوب أصحابه أن تتغير من جهته ، أو أن يظن واحداً منهم أنه حدثهم بغير الواقع . . نظراً لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : انه لن يحملهم ، ثم إنه بعد ذلك حملهم . . لقد خشى أبو موسى أن يظن أصحابه أنه لم يؤد الرسالة كما ينبغى . أو أنه قد أساء السماع أو أساء الأداء . . فصمم على أن يزيل هذا الظن عن نفوس أصحابه . . وجاء هؤلاء الأصحاب الى النبى - صلى الله عليه وسلم - فذكروا له ذلك ، فقال : أنا ما حملتكم ، الله حملكم . .

المخلفون

وجاء بعض الناس يعتذرون عن الخروج مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقعد قوم بدون عذر . . وفى هؤلاء نزل قوله - تعالى -

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ (٢٧)

ومن الأعراب رهط عامر بن الطفيل جاءوا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا رسول الله ، لو غزونا معك أغارت الأعراب من طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا . فعذرهم النبى - صلى الله عليه وسلم - لقد قرئت كلمة « المعذرون » بالتخفيف والتشديد فمن قرأها بالتخفيف

---

(٢٧) التوبة ٩٠

فهمها على أن هؤلاء الذين قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عذرهم لأن المعْذَرْ هو الذى يقبل عذره .

ومن قرأها بالتشديد « المعذِّرون » فقد حملها على عدم قبول العذر وهؤلاء هم أعراب بنى غفار الذين جاءوا إلى النبى ـ صلى الله عليه. وسلم ـ يعتذرون إليه بغير عذر مقبول فلم يقبل عذرهم . هو من الفعل « عذَّر » وعذَّره تعذيراً ، أى وبخه وعاقبه على تقصيره .

ولكن قوماً تخلفوا لأعذار قاهرة قبلها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن للمنافقين عذر فى تخلفهم . واعتذروا بأعذار واهية أشار إليها القرآن الكريم وسجلها عليهم ، وبقيت غل عار وشنار فى أعناقهم الى يوم القيامة .

وكان هناك ثلاثة من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم تابوا عن تخلفهم . . . ولهم قصة سنتعرض لها إن شاء الله ـ تعالى ـ بعد .

امثلة من اعتذارات المنافقين

كانت اعتذارات المنافقين يظهر فيها الادعاء والكذب ، فمن ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال للجد بن قيس : يا جد ، هل لك فى جلاد بنى الأصفر ـ يقصد الروم ـ فقال الجد : قد عرف قومى أنى مغرم بالنساء ، وانى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فلا تفتنى ، وأذَنْ لى فى القعود وأعينك بمالى فأعرض عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : قد أذنت لك .

ونزل قوله تعالى - :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (٢٨)

لم يكن للجد بن قيس عذر إلا نفاقه ، وكان نفاقه واضحاً ، وهو الذى امتنع عن البيعة تحت الشجرة فى الحديبية ، واختبأ خلف بعيره .

وكان الجد رئيساً فى قومه بنى سلمة ، فلما نزلت هذه الآية قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لبنى سلمة : من سيدكم يا بنى سلمة ؟

قالوا : جد بن قيس - غير أنه بخيل جبان .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - وأى داء أدوى من البخل ؟ بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن معرور . وفى ذلك قال حسان بن ثابت :

وسُوِّد بشر بن البراء لجوده ... وحق لبشر بن البرا ان يُسَوَّدا
إذا ما اتاه الوفد اذهب ما له ... وقل : خذوه اننى عائد غداً (٢٩)

أما تسمية الروم ببنى الأصفر فلأن الحبشة غلبت مرة على الروم ،

---

(٢٨) التوبة ٤٩ ، ٥٠

(٢٩) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٥٨

وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة فكنّ صُفْراً لُعْساً(٣٠)» .

واعتذر بعض المنافقين بشدة الحر ، وبعد الشقة وطول المسافة ، ووعثاء السفر ، فنزل قوله ـ تعالى ـ

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (٣١)

ونزل أيضاً قوله ـ تعالى ـ

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ (٣٢)

إلى غير ذلك من الأعذار الواهية التى تكشفت عن نيات خبيثة ونفوس مريضة .

ولقد كان المنافقون يجتمعون فى بيت واحد من اليهود اسمه سُوَيلم ـ وهدفهم من الاجتماع تثبيط الناس عن الجهاد ، وبث الفرقة فى صفوف

---

(٣٠) اللعس : سواد يعلو شفة المرأة البيضاء ، وقيل : سواد فى حمرة

(٣١) التوبة ٤٢ ، ٤٣

(٣٢) التوبة ٨١

المسلمين ، وتخويفهم من الخروج فى هذا الحر الشديد للقاء قوم لا يمكن التغلب عليهم . فبعث النبى - صلى الله عليه وسلم - إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه للقضاء على ما يدبرونه من مؤامرات فذهب طلحة مع أصحابه ، وهاجوهم فاقتحم الضحاك بن خليفة وقفز من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه فأفلتوا .

تخلف عبد الله بن أبى

وخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رضى الله عنهم - وكان عبد الله بن أبي بن سلول ، وهو زعيم المنافقين قد خرج أيضاً مصاحباً النبى - صلى الله عليه وسلم - ومعه المنافقون وهم كارهون .

كان هؤلاء المنافقون يرجفون فيما بينهم بهزيمة المسلمين شر هزيمة ، وكانوا يهمسون فى آذان بعضهم بأن جلاد بنى الأصفر مستحيل ، ولن يعود أحد من هؤلاء سالماً .

وفى اجتماعهم فى بيت سُويلم الذى أشرنا إليه كانوا يقولون ذلك ، بل كانوا يقولون : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنهم - يعنى أصحاب الرسول - غدا مقرنون فى الحبال ، يقولون ذلك إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . . فلما كثر منهم الكلام أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بمهاجمة البيت عليهم . . كما ذكرنا .

ويبدو أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد أرسل عمار بن ياسر إليهم أيضاً .

فقال له : أدرك القوم فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل لهم : بل قلتم كذا وكذا . .

فانطلق إليهم عمار - رضى الله عنه - فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتذرون إليه وقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب . . وقد فضحهم الله بقوله :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾(٣٣)

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى مناسبة أخرى فى غزوة تبوك أيضاً . روى قتادة قال : بينما النبى - صلى الله عليه وسلم - يسير فى غزوة تبوك وَرَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه ، فقالوا : انظروا ، هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بنى الأصفر ، فأطلعه الله - سبحانه على ما فى قلوبهم وما يتحدثون به .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : احبسوا على الركب ، ثم أتاهم فقال : قلتم كذا وكذا .

فحلفوا وقالوا : ما كنا إلا نخوض ونلعب ، يريدون كنا غير مجدين .

قال عبد الله بن عمر : رأيت قائل هذه المقالة - وديعة بن ثابت - معلقاً بحقب ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يماشيها ، والحجارة تنكبه وهو يقول ؛ إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : أبالله ورسوله كنتم تستهزئون ؟

ووقف النبى - صلى الله عليه وسلم - عند ثنية الوداع لعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم لأبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ودفع

---

(٣٣) التوبة ٦٥

الراية العظمى للزبير ـ رضى الله عنه ـ وأعطى راية الأوس لأسيد ابن حضير ، وراية الخزرج للحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من الأنصار ومن قبائل العرب لواء أو راية .

ومن هذا المكان انسل عبد الله بن أبىّ بمن معه عائداً . وهو يقول : يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر الشديد والبلد البعيد ؟

يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر اللعب ، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال .

وكانت هذه خيرة الله . . . فما بقاء أمثال هؤلاء مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذى فائدة ، بل هو عبء على النبى والمسلمين . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فقال :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٣٤)

وعلى الرغم من ذلك فمازالت بعض شراذم من المنافقين تصاحب

---

(٣٤) التوبة ٤٦ : ٤٨

المسلمين فى وجهتهم ، ولكنهم لا يريدون قتالاً ، ولا يبتغون تكثيراً للمسلمين ، وإنما يطلبون الغنيمة إن كانت ، وبث الفتنة لو أمكنهم ذلك .

الوالى على المدينة

واستخلف النبى - صلى الله عليه وسلم - على المدينة على بن أبى طالب - رضى الله عنه

قال الحافظ زين الدين العراقى فى ترجمة على بن أبى طالب : لم يتخلف على عن المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا تبوك ، فإن النبى - صلى الله عليه وسلم - خلفه على المدينة .

وكذلك روى عبد الرزاق فى مصنفه بسند صحيح عن سعد بن أبى وقاص ، قال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما خرج إلى تبوك استخلف على بن أبى طالب على المدينة(٣٥).

وأرجف المنافقون قائلين : ما خلّف علياً إلا استثقالاً له وتخففاً منه ، فأخذ علىّ - رضى الله عنه - سلاحه ، ولحق بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وهو نازل بالجرف . فقال : يا نبى الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى لأنك استثقلتنى وتخففت منى .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - كذبوا ولكن خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى » ؟

فرجع على - رضى الله عنه - إلى المدينة ، ومضى - صلى الله عليه وسلم - فى طريقه . لقد كان فى ذلك تكريماً لعلى - رضى الله عنه - وبياناً لمنزلته ،

(٣٥) شرح المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٦٩

وقمعاً للمنافقين ، وقطعاً لألسنة السوء .

ولا حجة للشيعة فى هذا الحديث بأنه نص فى الخلافة لعلى ، وأنه أوصى له بها .. فإنه كما استخلف علياً فى هذه الغزوة فقد استخلف غيره فى غزوات أخرى .

بل إن هناك روايات تقول إنه استخلف مع على ـ رضى الله عنه ـ محمد ابن مسلمة الأنصارى . وكان استخلاف على خاصاً بالأهل والذرية .. ولكنا نقول : بأنه لم تجر هذه العادة قبل ذلك . يعنى بأن يكون هناك خليفتان أحدهما على أهل النبى خاصة .. والمعهود أن يكون هناك خليفة واحد يقوم بشئون المدينة كلها ، وقد يكون معه آخر كعبد الله بن أم مكتوم ليؤم الناس فى الصلاة .

أما قوله : أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، فهو تشبيه يقتضى أن قوة الصلة بينهما كقوة الصلة بين الأخوين . وقد نفى التشبيه فى النبوة صراحة بقوله : غير أنه لا نبى بعدى .

وكان موسى ـ عليه السلام ـ حين مضى لميقات ربه قد استخلف أخاه هارون فى قومه . وقد أشار الحق إلى ذلك فى قوله

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (٣٦)

---

(٣٦) الأعراف ١٤٢

ويذكر بعض الرواة الحوار الذى دار بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى ـ كرم الله وجهه ـ بصيغة أخرى .

عن على ـ كرم الله وجهه ـ قال : خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة فخلفنى ـ أى فى غزوة تبوك ـ فقلت : يا رسول الله ، ماذا تقول قريش ؟ أليس يقولون : ما أسرع ما خذل ابن عمه وجلس عنه ؟ وأمر آخر أنى أبتغى الفضل من الله الذى يقول

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (٣٧)

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما قولك أن تقول قريش : ما أسرع ما خذل ابن عمه وجلس عنه فقد قالوا : إنى ساحر وإنى كاهن وإنى كاذب . وأما قولك تبتغى الفضل من الله فلك بى أسوة ـ أى حيث تخلفت عن بعض مواطن القتال . أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ـ عليهما السلام(٣٨) ؟

---

(٣٧) التوبة ١٢٠

(٣٨) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٠٤

بعض المتخلفين يلحق بالنبي

وكان ممن تخلف عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أبو خيثمة . واسمه : عبد الله بن خيثمة ، وقيل : بل اسمه مالك بن قيس بن ثعلبة بن العجلان من بنى الخزرج .

ودخل أبو خيثمة على أهله يوماً فى يوم حار ، فوجد امرأتيه ، كل واحدة فى عريشتها فى الحائط الذى يملكه أبو خيثمة ، قد رشت العريشة وأعدت الطعام وبردت الماء ، وأعدت من الطعام مالذ وطاب .

ونظر أبو خيثمة إلى امرأتيه وماصنعتا ثم قال - رضى الله عنه - ياسبحان الله . رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الحر الشديد ، وأبو خيثمة فى ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء؟ ماهذا بالنصف .

ثم قال : والله لأدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهيئا لى زادا ففعلتا ، ثم جهز ناضحة فارتحل ، وقد أخذ سيفه ورمحه .

وخرج لايلوى على شىء حتى لحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى تبوك - وكان أبو خيثمة قد أدرك فى الطريق صحابيا آخر يسير فى أثر القوم هو عمير بن وهب ، فترافقا حتى دنوا من تبوك ، فقال أبو خيثمة لعمير : ان لى ذنبا فلاعليك ان تتخلف عنى حتى آتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففعل .

ولما دنا أبو خيثمة ولمح المسلمون خياله من بعيد ، قالوا : هذا ركب مقبل . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - كن أبا خيثمة .

فقالوا : يارسول الله هو والله أبو خيثمة فلما أناخ راحلته . أقبل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلماً .

فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أولى لك ياأبا خيثمة »

وكلمة أولى لك تحمل معنى التهديد والوعيد ، وقد استعملها القرآن الكريم فى هذا المعرض حيث يقول : « أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى »(٣٩)

ولكن أباخيثمة دنا من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره الخبر واعتذر اليه ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيرا ودعا له بخير .

وقال أبو خيثمة فى ذلك شعرا يترجم به عن حاله :

لما رايت الناس فى الدين قد نافقوا … أتيت التى كانت أعف وأكرما

وبايعت باليمنى يدى لمحمد … فلم أكتسب إثما ولم أغش محرما

تركت خضيبا فى العريش وصرمة … صفايا كراما بسرها قد تحمما

وكنت اذا شك المنافق أسمحت … الى الدين نفسى شطره حيث يمما(٤٠)

وكان أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ على جمل مسن . . وأبو ذر هو جندب بن جنادة من بنى غفار ، وهو مشهور بكنيته ونسبته . أكثر من اسمه الذى اختلف فيه اختلافا كبيرا .

وحين أعيا به جمله ، وضعف عنه السير ، أخذ أبو ذر متاعه ووضعه على

(٣٩) القيامة ٣٤ ، ٣٥ وقيل : إن أولى اسم فعل ومعناها كما قال المفسرون : دنوت من الهلكة . هامش دلائل النبوة جـ ٥ ص ٢٢٣

(٤٠) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢٢٣ هامش ـ نقلا عن البداية والنهاية لابن كثير جـ ٥ ص ٨

ظهره ، وخرج يتبع أثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماشيا . وحده فى هذه الفلاة الموحشة التى لاظل فيها ولاثمر . ومازال يسير وعزيمته تستحثه وايمانه الصادق يقوده ويقينه القوى يحمله حتى دنا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو نازل فى بعض المنازل .

ونظر الصحابة سوادا مقبلا من بعيد . . فأخبروا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : هذا أبو ذر

وكان الصحابة قبل مجىء أبى ذر قد قالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يارسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : دعوه فسيلحقه الله بكم . .

وكان أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ مليئا بالخير ، يقول فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ماأقلت الغبراء ولاأظلت الخضراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر »

وفيه يقول أيضاً : أبو ذر فى أمتى على زهد عيسى بن مريم(٤١) وحين رآه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد جاء يمشى وحده وعلى ظهره متاعه وقد أعياه السفر قال « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة وحده .

وصدقت نبوءة الذى لاينطق عن الهوى . فقد مرت الأيام ، وتولى عثمان ـ رضى الله عنه الخلافة ـ وكان معاوية فى عهده واليا بالشام . فأغلظ أبو ذر على معاوية فى بعض الأمور ونصح للمسلمين بعدم الاكثار

---

(٤١) أسد الغابة جـ ٦ ص ١٠١

من متاع الدنيا . فشكاه معاوية لعثمان . فَنُفِيَ أبو ذر الى الربذة ، ولم يكن معه الا امرأته وغلامه .

وحضرته الوفاة فأوصى الزوجة والغلام قائلا : اذا مت فغسلانى وكفنانى ثم قفا على عرض الطريق ، فأول من يمر بكما قولا له هذا أبو ذر صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعينونا على دفنه . .

ومات أبو ذر ، وفعلت زوجته وغلامه به كما أوصى ـ فقد غسلاه وكفناه . وحملاه على قارعة الطريق . .

وتصادف أن كان عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فى رهط من أهل العراق فى طريقهم الى عمرة ، فوقف على المرأة والغلام وقد رأى الجنازة أمامه . .



فقال الغلام : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعينونا على دفنه .

فاستهل عبد الله بن مسعود يبكى وهو يقول : صدق رسول الله . . صدق رسول الله . . تمشى وحدك وتموت وحدك . وتبعث وحدك . . ونزل هو وأصحابه فواروه التراب ، وحدث أصحابه بخبره .

وروت أم ذر هذه القصة قائلة :
لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت ، فقال : مايبكيك ؟

قلت : ومالى لاأبكى وانت تموت بفلاة من الأرض ولابد لنا من معين على دفنك ، وليس معنا ثوب يسعك كفنا .

فقال لها : لاتبكى وأبشرى ، فإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لنفر أنا فيهم : ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده جماعة من المؤمنين ، وليس من أولئك النفر أحد الا وقد مات ـ ولم يبق إلا أنا ـ وإنى أنا الذى أموت بالفلاة ، والله ماكذب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاكذبت ، فانظرى الطريق .

فقالت : قد ذهب الحاج وتقطعت السبل .

فقال : انظرى .

قالت : فكنت أشتد الى الكثيب فأقوم عليه ، ثم أرجع إليه فأمرضه فبينما أنا كذلك إذ أنا برجال على رواحلهم فلوحت لهم بثوب . فأسرعوا إلىَّ

فقالوا : مالك ياأمة الله ؟

فقلت : رجل من المسلمين يموت تكفنونه .

قالوا : ومن هو؟

قلت : هو أبو ذر

قالوا : صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

قلت : نعم .

فأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه فسلموا . فرحب بهم . وقال : أبشروا فإنكم عصابة من المؤمنين وحدثهم الحديث .

وقال : والله لو كان لى أو ـ لها مايسعنى كفنا ماكفنت الا فيه ، وإن أنشدكم الله والاسلام لايكفننى منكم رجل كان أميرا أو عريفا ، ولابريدا أو نقيبا .

ولم يكن منهم أحد سلم من ذلك الا فتى من الأنصار ، فقال : والله لم أصب مما ذكرت شيئا . . وإنى أكفنك فى ردائى هذا وثوبين معى من غزل أمى .

فمات فكفنه الأنصارى ودفنه هو والنفر الذين معه .

وقد يكون عبد الله بن مسعود قدم حينذاك بعد أن كفنه الأنصارى حتى لايكون هناك تعارض بين الروايتين . . ونعود بعد هذا الاستطراد القصير عن وفاة أبى ذر الى ماكنا فيه من الحديث عن غزوة تبوك . .

شروط وضعها النبى للخروج معه :

لقد حرص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك أن يبين للناس الوجهة التى سوف يخرج اليها على خلاف عادته فى ذلك ، حتى يتهيأوا لذلك ويعدوا أنفسهم لهذه الرحلة الطويلة . ولذلك أمر مناديا ينادى فى الناس : لايخرج معنا إلا مقو(٤٢) . كما أمر ألا يخرج أحد إلا مأذونا له من ولى أمره أو سيده إن كان عبدا .

والدليل على ذلك أنه رأى برأس ثنية الوداع عبدا لامرأة وهو متسلح . فسأله ، فقال : أخرج لأقاتل معك .

فقال له : ارجع لسيدتك فاستأذنها . . لأنه علم أنه خرج بغير إذن سيدته وهى مالكته وولية أمره ، فلابد من الحصول على إذنها فى الخروج ، ولو عصاها وخرج بدون إذنها فهو آبق . .

---

(٤٢) ذكره ابن منظور فى اللسان ، وقال : رجل مقو : ذو دابة قوية .

وخرج رجل على بكر صعب ـ أى جمل شديد ـ فصرعه بالسويداء(٤٣) فقال الناس : الشهيد ، الشهيد .

فبعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مناديا ينادى : يجب على كل رجل أن يكون على أهبة كاملة ، وأن يحسن اختيار جمله ، وأن يكون قادرا على قيادته ، لأنه إذا لم يكن على دراية من أمره ، عرض نفسه للخطر ، فكان موته بسبب إهماله وليس جهادا فى سبيل الله ، والله جل وعلا يقول :

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ (٤٤)

وليس معنى الدعوة الى اتخاذ الدابة القوية أن تكون غير ذلول .. فغير الذلول ليست قوية بل هى شرسة وهى وبال على صاحبها وعبء عليه . والدابة القوية هى المرنة . التى تستجيب لرغبة صاحبها فى الإقدام والاحجام وفى الكر والفر .

وكان دليل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الغزوة علقمة الخزاعى ..

المرور على الحجر

ومر المسلمون فى طريقهم بديار ثمود التى يطلق عليها الحجر ـ وهو واد بين المدينة والشام . وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ألايشربوا من المياه التى يجدونها ولايستعملوا هذه المياه فى شىء من طعام أوعجن

---

(٤٣) السويداء : موضع على ليلتين من المدينة

(٤٤) البقرة ١٩٥

وطبخ . . حتى لايورثهم ذلك قسوة فى قلوبهم أو ضررا فى أبدانهم . وقال : لاتتوضأوا منه للصلاة ، وماكان من عجين عجنتموه فاعلفوه الابل ولاتأكلوا منه شيئا . .

وقال لهم أيضا : لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ماأصابهم إلا أن تكونوا باكين .
ثم قَنَّعَ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأسه ـ أى ليس القناع ـ وأسرع فى السير حتى جاز الوادى

وكان بعض المسلمين قد سبق الى هذا المكان ولم يسمع ماأخبر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : قد عجنا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين . ويريقوا ذلك الماء . وأمر الناس أن يستقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح ـ عليه السلام ـ

وروى الحاكم بإسناد جيد عن جابر ـ رضى الله عنه ـ لما مر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحجر قال : « لاتسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، فكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم ، وكانت تشرب يوما ويشربون لبنها يوما ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهلكهم الله بها إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله ، وهو أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ماأصاب قومه .(٤٥)

لقد علم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طريق الوحى مكان البئر ومكان ورود الناقة وصرورها ، وأعلم أصحابه بذلك . وهذا أيضا من

(٤٥) شرح المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٧٣

دلائل النبوة ومعجزات الرسالة .

وكان المسلمون حين علموا بأنهم قريبون من ديار ثمود تسارع بعضهم اليها فأصدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحذيره الذى أشرنا إليه . .

روى البيهقى

قال : لما كانت غزوة تبوك تسارع قوم الى الحجر يدخلون عليهم . فنودى فى الناس : الصلاة جامعة .

قال رواة الحديث : فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ممسك ببعيره ، وهو يقول : علام تدخلون على قوم غضب الله ـ تعالى ـ عليهم فناداه رجل فقال : نعجب منهم يارسول الله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك ؟

رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم ، وما هو كائن بعدكم ، استقيموا وسددوا ، فإن الله ـ عز وجل ـ لا يعبأ بكم شيئاً ، وسيأتى الله ـ عز وجل ـ بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا(٤٦)

تحذير نبوى

وكما حذر النبى ـ ﷺ ـ أصحابه عن مياه ثمود والمرور بديارهم غير مبالين . حذرهم من ريح شديدة ستهب ، وأمرهم أن يأخذوا حذرهم . قال ـ فيما يرويه ـ ابن إسحاق : لا يخرجن أحد منكم الليلة الا ومعه

---

(٤٦) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢٣٥ ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ / ١٩٤

صاحب له . وعلل ذلك بأنه « ستهب عليكم الليلة ريح شديدة ، فلا يقم فيها أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله » .

وفعلا هبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح فألقته فى جبلى طيىء ، وكان الرجل قد قام يطلب بعيرا له ندَّ .

وقام رجل آخر يقضى حاجته فأصيب فى المكان الذى يقضى فيه حاجته .

وأخبر النبى - ﷺ - بذلك ، فقال : ألم أنهكم .

ثم دعا للذى أصيب فشفى ، وأما الآخر فأعادته طيىء للنبى - ﷺ - حين عاد الى المدينة (٤٧).

النبى يدعو لأصحابه ويرشدهم

لقد مر بنا أن النبى - ﷺ - دعا الله لأصحابه حين اشتد عطشهم ولم يعد لديهم ماء يشربون منه فأمطرت السماء عليهم ، فشربوا واستقوا وملأوا أوعيتهم ، وماجاوزت السحابة معسكرهم .

وحين رأى المسلمون ذلك ازداد إيمانهم بالله وحبهم لرسول الله ، وقال أنصارى لرجل كان معه من قومه ، وكان يتهم بالنفاق : ويحك قد ترى مادعا - ﷺ - فأمطر الله علينا السماء .

فقال المنافق : إنما مطرنا بنوء كذا وكذا .

فأنزل الله - تعالى قوله -

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٤٨)

---

(٤٧) شرح المواهب اللدينة جـ ٣ ص ٧٣

(٤٨) الواقعة ٨٢

لقد كان المنافقون يَرَوْنَ الآية تلو الآية تؤكد صدق رسالة النبى - ﷺ - ولا يزدادون مع ذلك الا عتوا ونفورا . .

وبصدد نزول الآية المتقدمة أشار العلماء إلى أقوال حولها .

جاء فى صحيح مسلم عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال : مطر الناس على عهد النبى - ﷺ - فقال النبى - ﷺ - : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا - أى المؤمنون - هذه رحمة الله ، وقال غيرهم : لقد صدق نوء كذا وكذا .

فنزلت الآيات

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٤٩)

وروى أن النبى - ﷺ - خرج فى سفر ، فعطشوا ، فقال لأصحابه : « أرأيتم إن دعوت الله لكم فسقيتم لعلكم تقولون : هذا المطر بنوء كذا ؟

فقالوا : يارسول الله ماهذا بحين الأنواء

فصلى ركعتين ودعا ربه ، فهاجت ريح ، ثم هاجت سحابة فمطروا .

---

(٤٩) الواقعة ٧٥ : ٨٢

فمر النبى - ﷺ - ومعه جماعة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول : سقينا بنو كذا ، ولم يقل : هذا من رزق الله . فنزلت الآية :

﴿وتجعلون رزقكم انكم تكذبون﴾

وهذا يعنى أن شكرهم لله على رزقه إياهم أنهم يكذبون بالنعمة ، ويقولون : سقينا بنوء كذا ، كما يقال : جعلت إحسانى اليك إساءة منك إلىَّ وجعلت إنعامى عليك أن اتخذتنى عدوا .

وللامام الشافعى - رحمه الله - تعبير بديع يدل على ذوق رفيع قال : لا أحب أحدا أن يقول : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وإن كان النوء عندنا ، فالنوء لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ولا يحبس شيئاً من المطر ، والذى أحب أن يقول :

مطرنا وقت كذا ، كما تقول : مطرنا شهر كذا . ومن قال : مطرنا بنوء كذا وهو يريد أن النوء أنزل الماء - كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله - فهو كافر ، حلال دمه إن لم يتب .

وفى التعبيرات الجارية على اللسان مايوهم الخروج عن جادة الصواب كقولك : وهبت الطبيعة كذا ، وكست الطبيعة الأرض سندسا . . فمثل هذه التعبيرات لابد أن تحمل على التجوز لأنها لو حملت على الحقيقة لأدت إلى ضلال صاحبها ، وذهابه مذهب الملاحدة الذين لا يعترفون بوجود إله هو الذى خلق هذه الطبيعة ومنحها هذا الجمال الذى نرى مظهره فى كل شىء . . . ولعلماء البلاغة فى توجيه أمثال هذه العبارات مجال وأى مجال .

وقد علم النبى - ﷺ - أن اقتلاع مثل هذه التعبيرات من أفواه الناس وأذهانهم أمر عسير ، ولذلك نبه إلى خطئها وضرورة تصويبها وقال فى ذلك : ثلاث لن يزلن فى أمتى : التفاخر فى الأحساب والأنواء والنياحة » .

ورواه مسلم بقوله « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر فى الأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »

وسمع النبى - ﷺ - فى بعض أسفاره رجلا يقول : مطرنا ببعض عثانين الأسد »(٥٠) .

فقال النبى - ﷺ - : « كذبت ، بل سقيا الله عز وجل »(٥١)

ولئن كان استسقاء النبى - ﷺ - لأصحابه قد أثمر باستجابة الله له سريعا ، فأمطرت السماء مطرا لم يتجاوز معسكرهم .. فهناك آية أخرى حدثت ، سد الله بها جوعهم ، كما أروى ظمأهم .

روى أبو هريرة - رضى الله عنه - قال : لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، فقالوا : يارسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادَّهنا (٥٢).

فقال رسول الله - ﷺ - : افعلوا .

فجاء عمر - رضى الله عنه - فقال : يارسول الله ، إن فعلت قل الظهر - أى قلت الابل التى نحتاج اليها لتحملنا ..

ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، وادع الله لهم فيها بالبركة ، لعل الله

---

(٥٠) عثانين الأسد : الجبهة والذراع .

(٥١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٢٨ ومابعدها سورة الواقعة

(٥٢) أى اتخذنا الدهن من شحوم الابل التى تذبحها

ـ عز وجل ـ ان يجعل فى ذلك ـ يعنى أن يجعل فى ذلك بركة أو خيراً ـ .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ نعم ،

فدعا بنطع (٥٣) فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم ـ أى بما بقى منها ـ فجعل الرجل يأتى بكف ذرة ، ويجىء الآخر بكف تمر ، ويجىء الآخر بكسرة خبز حتى اجتمع على البساط من ذلك شىء يسير . فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ بالبركة ، ثم قال لهم :

خذوا فى أوعيتكم ، فأخذوا فى أوعيتهم حتى ماتركوا فى العسكر وعاء إلا ملأوه .

فأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضله ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك الا وجبت له الجنة . .

قال البيهقى : والأحاديث كلها متفقة فى دعائه فى بقية الأزواد وإجابة الله ـ تعالى ـ دعاءه بظهور البركة فيها حتى ملأوا أوعيتهم وبقيت بقية(٥٤) .

عين تبوك وافاضتها بالماء

وروى مسلم فى صحيحه ، ومالك فى موطئه من حيث معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ أنهم وردوا عين تبوك ، وهى تبضّ(٥٥) بشىء من ماء ، وأنهم غرفوا منها قليلا قليلا . .

---

(٥٣) نطع : بساط

(٥٤) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢٢٩

(٥٥) تبض : تقطر وتسيل أو تبرق

وكان النبى ـ ﷺ ـ قد أخبر المسلمين قائلا : « إنكم ستأتون غداً عين تبوك ، وانكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى .

قال : فجئناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبضُّ بشيء من ماء ، فسألهما ـ ﷺ ـ : هل مسستما من مائها شيئا ؟

قالا : نعم . فقال لهما ألم أنْهَ عن ذلك ثم قال لهما ماشاء الله أن يقول ، ثم غرفوا من العين قليلا قليلا حتى اجتمع فى شَنٍّ (٥٦)، ثم غسل رسول الله ـ ﷺ ـ به وجهه ويديه ومضمض ، ثم أعاده العين فجرت بماء كثير ، فاستقى الناس .

ثم قال ـ ﷺ ـ لمعاذ : يامعاذ ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ماههنا ملىء جنانا (٥٧) . .

وقد كان ، وها هى ذى تبوك الآن ، وهى قطعة من المملكة العربية السعودية تزدهر فيها حضارة وعمران ليس له مثيل .

ناقة رسول الله تضل

قال البيهقى : ثم إن رسول الله ـ ﷺ ـ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج بعض أصحابه فى طلبها ، وعند رسول الله ـ ﷺ ـ عمارة بن حزم الانصارى وهو ممن شهدوا العقبة من الأنصار . وكان مع

---

(٥٦) الشن ـ بفتح الشين وتشديد النون : القربة

(٥٧) شرح المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٧٥

عمارة فى رحله منافق اسمه زيد بن اللصيت ـ كان يهوديا من بنى قينقاع فأسلم ، ولكنه كان منافقا ، جمع الى ثقافة خبث اليهود وغشهم . فقال زيد هذا حين قال الناس ـ إن ناقة رسول الله ضلت : هذا محمد يخبركم أنه نبى ويخبركم بأمر السماء ـ وهو لا يدرى أين ناقته ؟

فقال النبى ـ ﷺ ـ : إن رجلا قال : هذا محمد يخبركم أنه نبى ويخبركم خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته . . . والله إنى ما أعلم الا ماعلمنى الله ، وقد دلنى الله عليها . هى فى الوادى قد حبستها الشجرة بزمامها فانطلقوا فجاءوا بها .

فأقبل عمارة على زيد يطعنه فى عنقه ، ويقول : ياعباد الله إن معى فى رحلى داهية وماأشعر ؟ اخرج ياعدو الله من رحلى ولا تصحبنى . .

وقال بعض الرواة : إن زيدا هذا تاب بعد ذلك ، وقال بعضهم : مازال على نفاقة حتى هلك به(٥٨) .

---

(٥٨) المواهب اللدنية جـ ٣ ص ٧٥ ، دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ ص ٢٣٢ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٩٨

نجاح عظيم فى تبوك

انسحاب الروم :

وصل النبى - ﷺ - إلى تبوك بعد رحلة شاقة عنيفة ، يقود جيشا جرارا ، قدره بعض الرواة بسبعين الفا ، وبعضهم بأقل من ذلك ، وهو على أقل الفروض ثلاثون ألف مقاتل ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس .. هى أكبر حملة جهزها المسلمون فى حروبهم ..

وعلى الرغم من وعثاء الطريق ومشقة السفر لم يَشْكُ المسلمون ولم تضعف عزيمتهم ، كانت بركة النبى - ﷺ - تصحبهم ، وكانوا ينظرون اليه - وهو المثل الأعلى - فتمتلىء نفوسهم يقينا وأملا ..

وقد ظهرت هذه البركة فى إمداد العناية الالهية لهم بالمعونات المادية التى ألجأنا اليها ، من نزول المطر وفيضان الماء من البئر الناضبة لسقيهم ، ومن تكثير الطعام الحاصل ببركة دعاء النبى - ﷺ - حتى ملأ الصحابة أوعيتهم ، بعد أن كادوا يذبحون إبلهم من شدة الجوع ..

وما ان وصلت طلائع هذا الجيش إلى تبوك ، حتى كان الروم ومن معهم من القبائل العربية الموالية لهم قد انسحبوا الى الشمال ..

لقد بلغتهم أنباء عن ضخامة الجيش الاسلامى وقوة معنوياته ، فآثروا السلامة ، وبذلك تحققت قدرة السلاح الموهوب للنبى - ﷺ - وهو سلاح الرعب . الذى أخبر عنه بقوله : نصرت بالرعب مسيرة شهر .

كان النبى - ﷺ - يسير ليلا ، ويستكن نهارا للتخلص من الحر الشديد فى الصحراء القاحلة . حتى وصل الى تبوك فلم يجد أحدا من الروم فى

لقائه . فقرر البقاء بقواته الرئيسية فى مكانه . . . وكان هذا أول علامات النصر . .

السيطرة على المنطقة

وكان لابد من استثمار هذا النصر لصالح المسلمين . فقرر إخضاع المنطقة للنفوذ الاسلامى . فوجه رسالة الى يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة(٥٩) يبلغه فيها أن المنطقة أصبحت خاضعة للمسلمين .

وفعلت هذه الرسالة فعلها فى نفس يوحنا ، فأقبل بنفسه إلى النبى ـ ﷺ ـ . وقدم له الهدايا والطاعة . .

وأقر يوحنا بالجزية وقدرها ثلاثمائة دينار كل عام . وكتب له النبى ـ ﷺ ـ وثيقة صلح هذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ، ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد رسول الله ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه لا يحل أن يمنعوا مايريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » .

وكان هذا ظفرا عظيما ـ نظرا لما كانت تمثله هذه المدينة من مكانة دينية وسياسية ، وماتحتله من موقع مهم .

---

(٥٩) آيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلى الشام ، وهى آخر الحجاز وأول الشام .

مكانة أيلة :

كانت أيلة فى الزمن القديم ذات شأن عظيم فى تجارة السفن وفى تجارة القوافل ، لأن موضعها فى أقصى خليج العقبة كان ملتقى القوافل التى كانت تذهب من مصر إلى أواسط بلاد العرب ، وكذلك القوافل التى كانت تتجه من الموانىء الفينيقية الفلسطينية الى جنوبى بلاد العرب . . ولهذا حاول بنو إسرائيل دخولها . . وقد دخلها داود عليه السلام ثم استولى عليها الروم سنة ١٠٥ م وضموها الى ولايتهم العربية . حتى اصبحت جزءاً من ولاية فلسطين فى القرن الرابع الميلادى . .

وخضعت أيلة بعد ذلك لنفوذ الأمراء الغسانيين بعد أن تضعضعت قوة بيزنطة على الثغور .

وبمصالحة النبى ـ ﷺ ـ ليوحنا صاحب أيلة انتشر فيها الرخاء . .

ومازالت أيلة تحتل مركزها المهم حتى الآن . .(٦٠)

وقد أراد صاحب أيلة أن يؤكد صلحه مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأهداه بغلة بيضاء ، ورد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التحية بأحسن منها فكسه بُرْداً .

وقال جابر ـ رضى الله عنه ـ رأيت يوحنا بن رؤبة يوم أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليه صليب من ذهب وهو معقود الناصية ، فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـخبأ الصليب وأومأ برأسه ، فأومأ

---

(٦٠) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٥ صـ ٣٥٤

إليه - صلى الله عليه وسلم - بيده أن ارفع رأسك ، وصالحه يومئذ وكساه بردا يمنية ، وأمر له بمنزل عند بلال ، وذكر الواقدى أن أبا العباس عبد الله ابن محمد السفاح اشترى ذلك البرد - بعد ذلك بثلثمائة دينار .

مصالحة أهل أذرح والجرباء

وسمع أهل أذرح وأهل الجرباء بمصالحة يوحنا صاحب أيلة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فسارع هذان الزعيمان الى طلب الصلح أيضا مقرين بأداء الجزية .

وأذرح اسم بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان ، والجرباء - بالجيم المفتوحة والراء الساكنة - موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام .

كان فى أذرح يوم خضعت للنبى - صلى الله عليه وسلم - مائة أسرة على أقل تقدير ، وهو عدد بالنسبة لتعداد القرى فى ذلك الوقت ليس بالقليل . وازدادت شهرة هذا المكان فيما بعد حين أرسل الإمام الحسن بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - موافقته على الصلح مع معاوية من هذا المكان وقد أصبح محلة مشهورة . .

واشتهرت أذرح أيضا بالتحكيم الذى عقد فيها عندما اتفق المسلمون فى صفين على اختيار مكان يتوسط الشام والعراق مثل أذرح أو دومة الجندل ، فاستقر الرأى على الاجتماع فى أذرح لكثرة مياهها وقربها من زعماء المدينة الذين دعاهم معاوية .

أما جرباء وقد تقصر فيقال : جربى - فهى بلد على الطريق الرومانى القديم من بصرى إلى بحر القلزم ، على مسيرة ساعة إلى الشمال من أذرح .

وكان أهل جربى يدينون بالمسيحية ، ولم يكونوا يهودا كما روى ياقوت فى معجمه .

وبين جرباء وأذرح مسيرة ثلاث ليال .

وكتب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكل من أذرح وجرباء كتابا بالصلح ، وهو لايخرج على النمط الذى كتب به عهد أهل أيلة .

بعث خالد إلى دومة الجندل

كانت غزوة تبوك فى الواقع فرصة ذهبية لاخضاع القبائل التى تعيش فى هذه المنطقة وضمها إلى حظيرة الإسلام ، وكانت الأماكن الهامة فى المنطقة هى أم رشرش ـ قرب العقبة الحالية ـ وجرباء ، وأذرح ، ومكنة ، وجميع هذه المناطق تقع على امتداد خليج العقبة .

وقد رأينا كيف أقبل زعماء أيلة وجرباء وأذرح لطلب الصلح وأداء الجزية .

ولكن كانت هناك منطقة استراتيجية أراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إخضاعها هى منطقة دومة الجندل(٦١) ويطلق عليها الآن اسم « منطقة الجوف » وكان يحكم هذه المنطقة وال اسمه « أكيدر بن عبد الملك » يدين بالنصرانية. وينتمى الى قبيلة كندة ، وكان مشهورا بحبه للصيد فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالد بن الوليد فى أربعمائة فارس ، وأمره أن يأسر حاكمها وقال له : إنك سوف تجده يصيد البقر .

---

(٦١) دومة الجندل : حصن وقرى من طرف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال ، يقال : سميت بذلك على اسم دومة بن إسماعيل ـ عليه السلام ـ

وصل خالد إلى مدينة « دومة الجندل » المسورة فى ليلة مقمرة صائفة من شهر تشرين عام ٦٣٠ م ، منتصف شعبان من العام التاسع الهجرى .

ولم يكد خالد ينشر قواته قرب المدينة حتى فتحت أبوابها ، وخرج أكيدر مع نفر من أصحابه على خيولهم ، وهم يحملون أسلحة الصيد السائدة فى تلك الأيام .

كان خروج أكيدر مصادفة تصدق خبر النبى - صلى الله عليه وسلم - حين قال لخالد : إنك ستجده يصيد البقر . .

أما كيف تم ذلك فإليك مايرويه ابن إسحاق وابن سعد . .

كان أكيدر على سطح له ، ومع امرأته الرباب ، وأمامها قينة تغنيها ، وقد أخذ الشراب منه .

ونزل أكيدر من حصنه ، فأسرج له فرسه ، وخرج هو وأخوه حسان ، فى نفر من أهل بيته ومملوكين . . فتلقتهم الخيل ، فشدوا عليهم ، فأسر أكيدر . . ولم يقتله خالد ، لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان قد أمره بعدم قتله .

ولكن أخاه حسانا قاتل فقتل ، وكان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فأخذه خالد ، عملا بقانون : من قتل قتيلا فله سلبه .

وبعث خالد بالقباء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : أتعجبون من هذا ؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا .

وهرب من كان مع أكيدر وأخيه إلى الحصن وأغلقوه وراءهم ..

ولكن خالدا أصر على فتح الحصن .. وحين رأى قوم أكيدر أنه أسير فى أيديهم قرروا فتح الحصن .. وصالحهم خالد على ماعرضه أكيدر عليه .

فقد قال أكيدر لخالد : إن شئت حكمتك وإن شئت حكمتنى .

فقال خالد : بل نقبل منك .

فصالحه على ألفى بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح . على أن ينطلق به وبأخيه الآخر الذى لم يقتل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفتح الحصن ، وأخذ خالد ماصالح عليه القوم . وانطلق بأكيدر وبأخيه مضاء بجير إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال فى ذلك الشاعر الطائى :

تبارك سائق البقرات إنى ... رأيت الله يهدى كل هاد

فمن يك حائدا عن ذى تبوك ... فإنا قد أمرنا بالجهاد

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبجير : لا يفضض الله فاك . فأتت عليه تسعون سنة ماتحركت له سن (٦٢)

وقد كان ذلك ببركة دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ له .

وبعض الرواة يعتبر أكيدر من الصحابة . ويقولون إنه أسلم ، ولكن ذلك فيه تجوز كبير . وقد ذكره ابن الاثير فى كتابه « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ولكنه علق على ذكره بما يفيد أنه ليس صحابيا .

---

(٦٢) المواهب اللدنية جـ٣ صـ٧٧ ، اسد الغابة جـ١ صـ١٩٦ ، دلائل النبوة جـ٥ صـ٢٤٨

ذلك أن جمهور الرواة قالوا : إنه لم يسلم ويبقى على نصرانيته يؤدى الجزية .

والذين يقولون إنه أسلم يقولون : إنه ارتد بعد إسلامه فى فتنة الردة . ومنع ماكان يؤديه من الجزية . فلما سار خالد من العراق الى الشام قتله .(٦٣) وعلى ذلك فلايعد صحابيا أيضا .

وذكر بعض الرواة أن أبا بكر كان مع خالد فى بعثه إلى أكيدر ، وأن أبا بكر كان أميرا على المهاجرين ، وأن خالدا كان أميرا على الأعراب . وقالوا : إنه قد حدث حوار بين أبى بكر ونصارى دومة الجندل بين لهم فيه أن ذكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وارد عندهم فى كتبهم ولكنهم ينكرون ذلك ، فبين لهم موضع ذلك فى كتبهم(٦٤)



رسالة إلى هرقل :

ويذكر بعض الرواة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل من موضعه فى تبوك رسالة إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبى أيضا الذى حمل رسالته الأولى التى أشرنا إليها سابقا .

وقال هؤلاء الرواة : إن هرقل حين بلغته الرسالة قارب الاجابة ولم يجب خوفا على ملكه . وقالوا إنه أمر مناديا ينادى ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه ، ولكن الأجناد دخلت فى سلاحها وأطافت بقصره وهمت به تريد

---

(٦٣) أسد الغابة ١ / ١٣٥

(٦٤) دلائل النبوة جـ ٥ صـ ٢٥٣

قتله ، فأرسل إليهم يقول لهم : أردت أن أختبر صلابتكم فى دينكم ، فقد رضيت عنكم ، فرضوا عنه .

وكتب كتابا وأرسله للرسول مع دحية يقول فيه : إنى مسلم ولكنى مغلوب على أمرى ، وأرسل الى النبى - صلى الله عليه وسلم - هدية .

فلما قرأ النبى - صلى الله عليه وسلم - كتابه قال : كذب عدو الله . ليس بمسلم ، هو على نصرانيته . وقبل هديته وقسمها بين المسلمين . وكان لايقبل هدية مشرك محارب ، فقبل هذه الهدية لأنها فىء ، ولذلك قسمها على المسلمين .(٦٥)

وقد سبق أن علمنا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أرسل رسالة إلى هرقل ، ورأينا الحوار الذى دار بين هرقل وأبى سفيان . .

تعليق على رسائل النبى - صلى الله عليه وسلم -

لقد استطاع النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يستثمر هذه الغزوة استثمارا ناجحا حقق الأهداف العليا للاسلام . وبرسائل النبى - صلى الله عليه وسلم - التى كتبها لهرقل وغيره من الملوك سابقا ولاحقا تحققت عالمية الإسلام .

هذا وإن كنا قد أشرنا آنفا إلى هذه الرسائل فى موضعها إلا أن المناسبة هنا تقتضى منا أن تذكر تعليقا قرأناه لبعض العلماء حول رسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل ، وجعل عنوان التعليق : عالمية الاسلام فى رسائل النبى .

---

(٦٥) روى هذا الخبر ابن حبان فى صحيحه عند أنس

وقد كان الحامل لرسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المرتين دحية ابن خليفة الكلبى . وهو الصحابى الجليل الذى كان جبريل عليه السلام - ينزل أحيانا فى صورته .

جاء فى التعليق المشار اليه : أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الملوك الذين كانوا يحكمون فى زمانه سفراء يحملون كتبا منه اليهم ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، موقعا عليها بخاتم نقشه : « محمد رسول الله » .

وكان قول الله - تعالى -

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ٣٣ (٦٦)

حافزاً للنبى ﷺ جعله يباشر هذه المهمة على أوسع نطاق ، وقد تحقق وعد الله - سبحانه - فظهر الإسلام على كل الأديان ، وتغلب على كل الممالك التى أرسل إليها النبى - ﷺ - السفراء ، وذلك من أعظم الدلائل على عالمية الدعوة الإسلامية ، وهيمنة كتابها - الذى نزل على رسول الله - ﷺ - من قبل الله - عز وجل - على سائر الكتب المنزلة . .

وعلى البشرية أن تتأمل كتب النبى - ﷺ - إلى الملوك والأمراء لتدرس وسيلة عظيمة من وسائل الدعوة إلى الله ، ومسئولية الداعى والمدعو . .

وقد ذكرنا قبل ذلك أنه قد حدث نقاش بين هرقل وبين أبى سفيان

---

(٦٦) سورة التوبة ٣٣

ـ وكان أبو سفيان فى رحلة تجارية إلى الشام ، ولم يكن قد أسلم بعد . . . ودار هذا النقاش حول النبى ـ ﷺ ـ واقتنع هرقل على إثر هذه المحاورة بصدق النبى ـ ﷺ ـ فاستدعى دحية وقال له : إنى لأعلم أن صاحبك نبى مرسل ، وهو الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا ، ولكننى أخاف الروم على نفسى ولولا ذلك لاتبعته فاذهب إلى الأسقف فاذكر له أمر صاحبكم فهو أعظم مكانا فى الروم منى ، وأفضل قولا منى عندهم ، وانظر ما يقول .

قال المعلق : وقد كان دحية بن خليفة الكلبى يحمل رسالة من النبى ـ ﷺ ـ إلى الأسقف أيضاً فذهب إليه وأعطاه الرسالة وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام على من آمن ، أما على أثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله ألقاها إلى مريم الزكية ، وإنى أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بن أحد منهم ونحن له مسلمون . . والسلام على من اتبع الهدى »

فلما قرأ الأسقف الكتاب أخذ بمجامع قلبه ، وقال لدحية : صاحبك والله نبى مرسل نعرفه فى صفته ، ونجده فى كتابنا باسمه ، ثم ألقى ثيابا كانت عليه سوداء ، ولبس ثيابا بيضاء ، ثم أخذ عصاه ثم خرج على الروم وهم مجتمعون فى الكنيسة فقال : يامعشر الروم ، إنه قد جاءنا كتاب أحمد يدعونا فيه إلى الله وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه فقتلوه .

فرجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر ، فقال : قد قلت لك إنا نخافهم على

انفسنا . . الأسقف والله كان أعظم منى[٦٧] . . ونستخلص من ذلك عدة حقائق منها :

● أن الرسائل النبوية كانت للموك والأمراء الذين يعدون المنافذ الأساسية المهمة لقارات آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ومنها هذه الرسائل التى أرسلت إلى ملك الروم وأسقفه .

● وهى رسائل موجهة إلى كبار القوم وعظمائهم بوصفهم ممثلين للشعوب التى يحكمونها ، وفيها تحميل المسئولية لهم بالنسبة لشعوبهم بدليل قوله مثلا فى رسالة هرقل : « فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين »

إن فى ذلك دليلا واضحاً على أن تبعة الحاكم ثقيلة ، فبكلمة منه يستطيع توجيه شعبه إلى ما يريد ، والناس على دين ملوكهم ، وإذا صلح الراعى صلحت الرعية وإذا فسد الواعى فسدت الرعية ، وصدق الله العظيم إذ يقول

« واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً[٦٨]

ومعنى أمرنا مترفيها ، أى أمرناهم بالصلاح والتقوى فلم يستجيبوا لذلك وآثروا الفسق والفجور ففسقوا فاتبعتهم رعاياهم فى ذلك .

---

(٦٧) د . محمد حسنين أحمد فى مقال له بعنوان « عالمية الاسلام فى رسائل النبى » بمجلة منبر الاسلام عدد « ذى الحجة ١٤١٠ هـ »
(٦٨) الاسراء ١٦

ولا يغرنك حيصة رعية هرقل عليه فلو أراد إسكاتهم لسكتوا ، والملوك عادة تحيط أنفسها بسياج من الحفظة يلبون إشاراتهم وينفذون أوامرهم بل ويموتون فى سبيل الدفاع عنهم . ولكن هرقل آثر السلامة ولم يرد أن يتعرض لتجربة قد توغر عليه الصدور . ولو كان مؤمنا حقا ـ كما زعم ـ لأمكنه أن يخلص من هذه الأصوات التى ارتفعت بالنكير عليه ومن السهل عليه إخمادها أو إقناعها ، ولكن الله لم يرد له الهداية . .

ولو كان يميل إلى الحق ـ كما زعم ـ فلماذا حارب الدعوة الإسلامية وجرد لها الجيوش فيما بعد ؟؟

لقد كان إخبار النبى ـ ﷺ ـ عنه بأنه كاذب فى ادعائه الإيمان هو الحق الذى لا ريب فيه .

ومن الحقائق المستخلصة أيضا أن إرسال النبى ـ ﷺ ـ كتبه إلى هؤلاء الملوك الذين يفوقون المسلمين فى العدد والعدة ، والذين يمثلون قوى العالم المعروف فى قاراته الثلاث ـ قد حدث فى وقت لم يطمئن فيه كل الاطمئنان على دعوته بين العرب .

حقا لقد فتح مكة ودانت الجزيرة العربية بالإسلام كلها تقريباً ، ولكن الإيمان لم يخالط بشاشة قلوب الجميع ، ومازال هناك منافقون وأعراب نهابون وأقوام انتهازيون . .

ولكنه مع ذلك يؤمن تماماً بأن دعوته عامة وشاملة وأنه مكلف حتما بإبلاغها للناس كافة .

وكانت الآية التى ذكرها النبى - ﷺ - فى رسائله وهى قوله - تعالى -

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٦٩)

دعوة لأهل الكتاب - اليهود والنصارى - إلى الإيمان بالدين الحق - دين الإسلام - فهو رسالة الماضى والحاضر والمستقبل ، رسالة الأنبياء والرسل من لدن آدم حتى نبينا محمد - ﷺ - قال - تعالى - :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (٧٠)

● وتشير هذه الرسائل أيضا إلى أن رسالة الاسلام هى رسالة التحرر من عبودية الناس بعضهم لبعض . لقد جاء الإسلام ليرفع رأس الإنسان من الخضوع لأحد إلا الله ، وليخلصه من قيود الذل للناس التى أثقلت خطاه ، ومن اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله . . . قال عدى بن حاتم للنبى - ﷺ - حين قرأ قوله تعالى -

---

(٦٩) آل عمران ٦٤

(٧٠) الشورى ١٣

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٧١)

قال عدى : إنهم لم يعبدوهم .

فقال النبى - ﷺ - : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فذلك عبادتهم إياهم .

وقال النبى - ﷺ - : يا عدى ، ما تقول ؟ أيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟

أيضرك أن يقال : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم إلها غير الله ؟

ثم دعاه إلى الإسلام . فأسلم وشهد شهادة الحق . . قال عدى : فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون . (٧٢)

عودة المسلمين

كانت مدة إقامة المسلمين فى تبوك عشرين يوما . .

انتظروا فى خلالها جيوش الروم التى لم تصل ، وأمنوا حدودهم الشمالية بعقد المعاهدات مع سكانها ، ودعموا هيبة الإسلام فى نفوس القبائل ،

---

(٧١) التوبة ٣١

(٧٢) من مقال الدكتور محمد حسنين أحمد ، وقد رجع فيه الى تفسير ابن كثير جـ ٢ صـ ٣٤٨ ، وإلى الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ صـ ١٨ وإلى مكاتيب الرسول - لعلى بن حسين على الأحمدى جـ ١٣ -

وعملوا على حماية حرية نشر العقيدة الإسلامية فى تلك الأرجاء . . . لمّا أنجزوا ذلك كله تحركوا عائدين الى المدينة المنورة بعد رحلة مظفرة . . .

فى الطريق إلى المدينة

وكان النبى - ﷺ - قد استشار أصحابه فى أن يتقدم وراء تبوك فقال له عمر - رضى الله عنه - يا رسول الله ، إن كنت أمرت بالمسير فسر .

فقال - ﷺ - : لو أمرت بالمسير لم أستشركم فيه - فقال عمر - : يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بها مسلم ، وقد دنونا ، وأفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً ؟

واستجاب النبى - ﷺ - لرأى عمر . . وقرر العودة . وذكر الرواة أيضا أن جبريل أمره بالرجوع بناء على أمر الله - تعالى - وقال له : عد الى المدينة فإن فيها محياك ومماتك ومنها تبعث . فرجع النبى - ﷺ - فقال جبريل : سل ربك فإن لكل نبى مسألة . - وكان جبريل ناصحاً والنبى له مطيعاً -

فقال النبى - ﷺ - : فما تأمرنى أن أسأل ؟

فقال جبريل : قل :

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ (٧٣)

قال بعض العلماء : وفى هذا دليل على أن هذه الآية وما قبلها من الآيات - نزلت فى هذه الغزوة .

---

(٧٣) الاسراء ٨٠

وفى طريقه - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة كان ينزل فى منازل للصلاة ، فكل مكان نزل فيه وصلى ، أصبح مكانه الآن مسجدا مشهورا وقد عد بعضهم هذه المساجد وذكر أنها سبعة عشر مسجداً

قال ابن هشام فى سيرته : هى مسجد بتبوك ، ومسجد بثنية مدران ، ومسجد بذات الزراب ، ومسجد بالأخضر ، ومسجد بذات الخطمى ، ومسجد بألاء ، ومسجد بطرف البتراء ، ومسجد بالشق - شق تارا - ، ومسجد بذى الجيفة ، ومسجد بصدر حَوْضَى ، ومسجد بالحجر ، ومسجد بالصعيد ، ومسجد بالوادى ، - وادى القرى - ومسجد بالرقعة من الشُّقة - شقة بنى عذرة ، ومسجد بذى المروة ، ومسجد بالفيفاء ، ومسجد بذى خشب . (٧٤)

وواضح أن هذه كلها منازل بين تبوك والمدينة المنورة .

مؤامرة ضد النبى

واجتمع رأى بعض المنافقين الذين صحبوا النبى - ﷺ - فى هذه الغزوة وكانوا اثنى عشر رجلاً فى تقدير بعضهم ، على أن يغدروا برسول الله - ﷺ - فى العقبة التى بين تبوك والمدينة - فقالوا : إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى . .

لقد غفلوا عن رعاية الله لنبيه وتعهده بحفظه ووعده له بالعصمة من الناس . . . ولكن المنافقين غرهم الباطل وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فأجمعوا أمرهم على ما تآمروا عليه . . وأخبر الله نبيه بأمر هؤلاء القوم .

---

(٧٤) سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ١٤٣

فلما وصل الجيش العقبة نادى منادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن رسول الله يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد ، واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع .

وبهذا تهيأت الفرصة التى يريدها هؤلاء القوم ـ ولكنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ـ وسلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العقبة ، واستعد هؤلاء النفر وتلثموا وسلكوا العقبة . خلف الرسول . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمر عماراً بأن يأخذ بزمام الناقة التى يرتحلها ، وأمر حذيفة بن اليمان أن يكون من خلفه . .

وأقبل هؤلاء القوم وهم ملثمون وزاحموا الناقة من كل وجه ، فنفرت حتى سقط بعض المتاع من فوقها .

وغضب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر حذيفة أن يرد هؤلاء المعتدين . وحمل حذيفة ومعه محجنه فى يده على القوم ، وقد رأى غضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعل يضرب بمحجنه فى وجوه رواحلهم ويقول : إليكم إليكم يا أعداء الله .

وزجرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فولوا مدبرين . .
لقد كان فى إمكانهم ـ لو أن الأمور مردها إلى القوة العادية ـ أن يحققوا هدفهم ، ولكن الله خذلهم . لقد كانوا اثنى عشر رجلاً مدججين بالسلاح يحيطون بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فوق راحلته وأمامه رجل وخلفه رجل .

وكان محجن حذيفة فى قوة السيوف والرماح ، وكانت صرخة النبى ـ

صلى الله عليه وسلم ـ فى قوة الصواعق المرجفة والزلازل المدمرة ، فانهزم الجمع وولوا الأدبار . . وانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادى واختلطوا بالناس .

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحذيفة : هل عرفت أحداً منهم ؟

فقال : لقد كان القوم ملثمين والليلة مظلمة . ولكنى عرفت راحلة فلان وراحلة فلان .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل علمت ما كان من شأنهم وما أرادوه ؟

قال ؛ لا

قال : إنهم مكروا ليسيروا معى فى العقبة وأرادوا أن يزاحمونى فيطرحونى منها ، إن الله أخبرنى بهم وبمكرهم ، وسأخبركما بهم واكتماهم .

فلما أصبح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء إليه أسيد ابن حضير ، فقال : يا رسول الله ، ما منعك البارحة من سلوك الوادى ، فقد كان أسهل من سلوك العقبة ؟

فقال : أتدرى ما أراد المنافقون ؟ . . . . وذكر له القصة .

فقال أسيد : يا رسول الله قد نزل الناس واجتمعوا ، فمر كل بطن أن يقتلوا الرجل الذى هم بهذا ، فإن أحببت فبين أسماءهم والذى بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنى أكره أن يقول الناس إن محمداً قاتل بهؤلاء النفر من أصحابه حتى إذا أظهره الله ـ تعالى ـ بهم أقبل عليهم يقتلهم .

فقال : يا رسول الله ، هؤلاء ليسوا بأصحاب .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أليس يظهرون الشهادة ؟ ثم جمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هؤلاء القوم الذين هموا به ، وقد عرفه الله بهم ، وأخبرهم بما قالوه ، وما أجمعوا عليه ، وما هموا به . فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذى ذكر . فأنزل الله - تعالى - يكذبهم ويفضحهم فى قوله تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾ (٧٥)

لقد ذكر العلماء هذه القصة فى أسباب نزول هذه الآية . . وذكر بعضهم قصة أخرى فى سبب نزولها .

قال القرطبى : روى أن هذه الآية نزلت فى الجُلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت - تحدثوا عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وقالوا : والله لئن كان محمد صادقاً فى قوله عن إخواننا الذين هم سادتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير .

---

(٧٥) التوبة ٧٤

فقال له عامر بن قيس : أجل ، والله إن محمداً لصادق مصَّدق ، وإنك لشر من حمار .

وأخبر عامر بذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاء الجلاس فحلف بالله عند منبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن عامراً لكاذب .

وحلف عامر انه صادق فيما قال .. وقال : اللهم أنزل على نبيك الصادق شيئاً . فنزلت الآية السابقة .

وقيل : إن الجلاس لما قال له صاحبه : سأخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما قلت هم بقتله ، ولكنه عجز عن ذلك . وهذا ما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ

« وهموا بما لم ينالوا(٧٦) » .

لقد أمسك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قتل هؤلاء ، ولكنه دعا عليهم قائلاً : « اللهم ارمهم بالدُّبَيْلة » .

والدبيلة شهاب من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من ظهورهم . وفسره القرطبى بأنه شهاب من جهنم يجعله الله على نياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه » وهى عبارة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قيل له : وما الدُّبَيْلة ؟ .

قال : إنه داءٌ من الله ابتلى به هؤلاء القوم الذين أرادوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شراً ، فأوردهم موارد التهلكة ..

---

(٧٦) تفسير القرطبى جـ ٨ صـ ٢٠٦

وأسرَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحذيفة بن اليمان بأسماء هؤلاء المنافقين . وأمره بكتمان ذلك . . . فكان عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا نُعِيَ إليه أحدٌ نظر . . . . هل يصلى عليه حذيفة فيمن يصلى ؟

فإن وجده صلَّى عليه ، وإن لم يجده قال للناس : صلوا على صاحبكم(٧٧) .

هدم مسجد الضرار

وقبل دخوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة نزل « بذى أروان » وهو مكان بينه وبين المدينة مسير ساعة ، وفى هذا المكان جاءه خبر مسجد الضرار من السماء .

وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المسجد ، وأنه قد أقامه المنافقون فى المدينة بهدف الإضرار بالمسلمين . .

وكان يتزعم المنافقين فى بنائه أبو عامر الراهب الذى سماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الفاسق .

وكان أبو عامر هذا يلبس المسوح فى الجاهلية ، وحين دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة جاءه ، فقال : يا محمد ، ما الذى جئت به ؟
قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جئت بالحنيفية دين إبراهيم .
قال أبو عامر : فإنى عليها .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لست عليها لأنك أدخلت فيها

---

(٧٧) السيرة الحلبية جـ٣ صـ ١٢٠

ما ليس منها .

فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً . وكأنه يعرض بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى هاجر من مكة ـ إلى المدينة ـ

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم ، أمات الله الكاذب وحيداً طريدا .

وخرج أبو عامر إلى قيصر بالشام يستنصره على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هناك كتب إلى أصحابه من المنافقين : استعدوا فإنى آتيكم من عند قيصر بجند نخرج بها محمداً من المدينة ولكنه مات بالشام وحيداً طريداً دون أن يحقق ما تمنى . .

وتلقف المنافقون رسالته ، فأسسوا هذا المسجد زاعمين أنهم بنوه لإقامة شعائر الاسلام ، وقالوا : نبنى مسجداً ونبعث إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتينا فيصلى لنا كما صلى فى مسجد قباء الذى أنشأه بنو عمرو ابن عوف . ويصلى فيه أبو عامر حين يقدم من الشام .

وكانوا قد أتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يتجهز لتبوك فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة ، ونحب أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة .

قالوا ذلك نفاقاً .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنى على سفر وحال شغل فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا معكم فيه .

فلما عاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونزل فى « ذى أروان » التى أشرنا

إليها جاءه هؤلاء القوم ، وكانوا قد فرغوا من إنشاء مسجدهم وصلوا فيه أيام الجمعة والسبت والأحد ، وطلبوا منه أن يصلى فى المسجد كما وعد .

فدعا بقميصه ليلبسه ويتوجه معهم ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٧٨)

فدعا النبى - صلى الله عليه وسلم - مالك بن الدُّخْشُم ، ومَعْن ابن عدى ، وعامر بن السكن ، ووحشياً - قاتل حمزة - رضى الله عنه (٧٩) - وقال : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم فاهدموه واحرقوه .

فخرجوا مسرعين ، وجاء مالك بن الدخشم بشعلة نار فأحرقه وأقبلوا عليه فهدموه وقوضوه .

وقد اشترك فى بناء هذا المسجد من المنافقين اثنا عشر رجلاً منهم : خذام ابن خالد ، ومعتِّب بن قُشَيْر ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وعبَّاد بن حنيف ، وجارية بن عامر ، وابناه : مجمع وزيد ، ونَبْتَل بن الحارث ، ووديعة بن ثابت ، وثعلبة بن حاطب .

---

(٧٨) التوبة ١٠٧ ، ١٠٨

(٧٩) وكان قد أسلم كما هو معروف

وقد سبق أن تحدثنا عن هذا المسجد مع بقية المساجد التى بنيت فى المدينة .

دخول المدينة

ودخل النبى - ﷺ - المدينة فى احتفال مهيب ، واستقبال رحيب ، أشرقت فيه النفوس والصدور ، وتزينت فيه الرحبات والدور ، وضحكت فيه القلوب والثغور ، وخرجت النساء والصبيان والولائد ، وصعدت النساء على أسطح المنازل يضربن بالدفوف ويتغنين جميعا قائلات :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ولا مانع إطلاقا أن يكون هذا النشيد قد استقبل به حين قدم - ﷺ - مهاجراً ، واستقبل به أيضا فى عودته من غزوة تبوك .

ولا مانع أيضاً أن يكون قد استقبل به فى كل أوبة يئوبها من رحلة رحل فيها أو غزوة أخرى غزاها قبل ذلك . فللنبى - ﷺ - مكانته العظمى فى قلوب المسلمين والمسلمات ، وحبه متمكن فى نفوسهم جميعاً ، حتى إنهم ليتشوقون الى لقائه لو غاب عنهم فترة قصيرة . ولقد ذكر الرواة أن أحدهم بكى يوماً فقال له النبى - ﷺ - : ما يبكيك ؟

فقال : يارسول الله ، إننى إذا لم أرك اشتقت إليك . وإنى أذكر يوم القيامة وأعلم أن منزلتك بين النبيين فى أعلى عليين وأخشى ألا أراك ، فهذا ما يبكينى . . فنزل قوله - تعالى - :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾.(٨٠)

أما الذين يقصرون هذه التحية على قدومه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبوك لأن ثنية الوداع من قبل الشام فقد يرد عليهم أن الثنيات متعددة منها ما هو قبل الشام ، ومنها ماهو قبل مكة . فلا ما نع من تعدد التحية بهذا الشعر فى استقبال النبى ـ ﷺ ـ

لقد كان النبى ـ ﷺ ـ يبادل أصحابه الحب ، بل إن حبه لهم يفوق حبهم له ، ومن شدة حبه لهم كان يوجههم إلى ما يكسبون به أعظم المنازل عند الله ، وكان يلتمس العذر لضعفائهم لما يعلمه من حرصهم الشديد على نيل رضا الله ورسوله ، وقد يقعدهم العجز عن القيام بمثل ما يقوم به القادرون من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ولذلك حرص مقدما على أن يرفع من منزلة هؤلاء الذين أقعدهم العجز عن المشاركة فى هذه الغزوة ، حتى لا يظن أحد ممن خرجوا فيها السوء بهؤلاء الذين لم يخرجوا لما أصابهم من عذر . فقال ـ ﷺ ـ عند قربه من المدينة : « إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم العذر »

لقد أراد النبى ـ ﷺ ـ أن يوضح لأصحابه أثر النية الصالحة فى تقبل الأعمال ، بل ربما كانت نية المرء خيرا من عمله فى بعض الأحيان ، فقد

(٨٠) النساء ٦٩ ، ٧٠

كانت نية هؤلاء العاجزين خيراً من أعمالهم ، فإنها بلغت بهم مبلغ أولئك العاملين بأبدانهم ، وهم على فرشهم فى بيوتهم ، فشاركوا المجاهدين فى الثواب وزادوا عليهم راحة الأبدان ..... والمعية الحقيقية والصحبة المرموقة إنما هى السير بالروح عند عجز البدن ..... والمسابقة إلى الله - تعالى - وإلى الدرجات العلا بالنيات والهمم عند العجز عن الأعمال .. وحقا ذلك ، فقد كان مع النبى - ﷺ - منافقون تحملوا من مشقة الرحلة وخطورة الطريق ، ولكن فساد نياتهم أحبط أعمالهم ، ولن يكن لهم من أجر إلا التعب والمشقة ..

تسمية المدينة طابة

وحين أشرف النبى - ﷺ - على المدينة قال : هذه طابة أسكننيها ربى تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد .

ولفظ طابة جميل فهو مشتق من الطيب والشىء الطيب ..... وعلق ابن حجر - رحمه الله - على هذا الحديث الشريف بقوله :

اشتقاق هذا الاسم من الشىء الطيب ، وقيل : لطهارة تربتها ، وقيل : لطيبها لسكانها ، وقيل : من طيب العيش بها ، وقال بعض أهل العلم : وفى طيب ترابها وهوائها دليل شاهد على صحة هذه التسمية ، لأن من أقام بها يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد فى غيرها .

قال : وقرأت بخط أبى على الصدفى : قال الحافظ : أمْر المدينة فى طيب ترابها وهوائها يجده من أقام بها ، ويجد لطيبها أقوى رائحة ، ويتضاعف طيبها فيها عن غيرها من البلاد ، وكذلك العود وسائر أنواع الطيب .

هذا وللمدينة أسماء أخرى غير ما ذكر :

منها ما رواه عمر بن شبه فى أخبار المدينة قال : قال النبى - ﷺ - : « للمدينة عشرة أسماء هى المدينة ، وطابة ، وطيبة ، والمطيبة ، والمسكينة ، والدار ، وجابرة ، ومجبورة ، ومنيرة ، ويثرب »

وفى رواية أخرى أن من أسمائها : المحبة والمحبوبة .

وقال كعب الأحبار : نجد فى كتاب الله الذى أنزل على موسى - ﷺ - أن الله قال للمدينة : يا طابة ويا مسكينة لا تقبلى الكنوز"[٨١] .

ونظر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى أحد فقال : « هذا أحد جبل يحبنا ونحبه »

ولا مانع أن يخلق الله - تعالى - المحبة فى بعض الجمادات كتسبيح الحصا وحنين الجذع . وايجاد المشاعر والإحساس فى الجماد ليس عجبا فى حق القادر المقتدر الذى يقول فى حق الجبال « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء »[٨٢]

وهذا الإنسان العاقل المميز الذى يموج بالحركة والانفعالات ما هو إلا طين لا زب نفخ الله فيه من روحه فأصبح إنساناً سوياً قادراً مفكراً حساساً . فليس بعجيب أن ينظر الله الى هذا الجبل الجامد نظرة رحمة

---

(٨١) فتح البارى لابن حجر جـ ٤ صـ ١٠٦

(٨٢) النمل ٨٨

فيتفجر الحب من جوانبه للنبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه معه .

والحق - تعالى - يقول فى حق قوم كفروا نعمة الله

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٨٣)

وقد يكون هذا البكاء حقيقة وقد يكون على سبيل التمثيل والتجوز كما قال الشاعر :

أيا شجر الخابور مالك مورقا

كأنك لم تجزع على ابن طريف ؟

والعرب كانوا يقولون عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض أى عمت مصيبه الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق ، وبكته الليالى الشاتيات ، وكل ذلك دليل على شدة الحزن عليه ..

والبكاء الحقيقى من العجماوات والجمادات على أهل التقوى غير مستبعد .. قال رسول الله - ﷺ - : « ما من مؤمن إلا وله فى السماء بابان ، باب ينزل منه رزقه وباب يدخل منه عمله ، فإذا مات فقداه فبكيا عليه » ثم تلا قوله - تعالى -

« فما بكت عليهم السماء والأرض »

يعنى أنهم لم يعملوا عملاً صالحاً تبكى عليهم الأرض والسماء لأجله ، وقال مجاهد - رضى الله عنه - : إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا .

---

(٨٣) الدخان ٢٩

قال أبويحيى : فعجبت من قوله . . . فقال : أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوى كدوى النحل ؟

فحب أُحُد للنبى ـ ﷺ ـ وأصحابه من هذا القبيل . . قد يكون الله عز وجل ـ خلق فيه الإحساس الذى أشعره ذلك الحب ، فجعله يرتجف حبا ويهتز طربا كما اهتز الجذع الذى تركه النبى ﷺ ليخطب من فوق المنبر الذى صنع له ، وقد اهتز حنينا للنبى ﷺ ، ولولا أن النبى ـ ﷺ ـ لمسه لظل يهتز إلى ما شاء الله . .

وقد خاطب النبى ـ ﷺ ـ جبل أحد خطاب من يعقل فقد قال له ـ وقد اضطرب تحته ـ : « اسكن أحد فإنما فوقك نبى وصديق وشهيدان »

لقد وضع الله فيه الحب ، كما وضع التسبيح فى الجبال مع داود فقال : « يا جبال أوبى معه »(٨٤) وكما وضع الخشية فى الحجارة فقال

﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (٨٥)

فلا ينكر إذن وصف الجهاد بحب الأنبياء ، وقد سلم على النبى ـ ﷺ ـ الحجر والشجر وسبح الحصا فى يده ، وكلمه الذراع وأمنت حوائط البيت على دعائه ، وفى ذلك إشارة إلى حب الله إياه ، حتى أسكن حبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الجماد وغرس محبته فى الجبال . .

---

(٨٤) سبأ ١٠

(٨٥) البقرة ٧٤

الثلاثة الذين خلفوا

النهى عن الصلاة على المنافقين

الثلاثة الذين خلفوا

معنى لقد تاب الله على النبى

من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ؟

القرآن يدعو إلى الجهاد وينهى عند التخلف

قصة أبي رهم

دروس من غزوة تبوك

هل حققت الغزوة أهدافها ؟

عند وصول النبى - ﷺ - الى المدينة بدأ بالمسجد . . وكان دخوله المدينة فى رمضان ، وقال بعضهم : بل فى شعبان .

وصلى فى المسجد ركعتين ثم جلس للناس . وأقبل المنافقون الذين تخلفوا وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فجعلوا يعتذرون بأعذارهم ، فقبل النبى - ﷺ - منهم علانيتهم ، بل واستغفر لهم (٨٦)

لقد كان - ﷺ - آية عظمى فى الرفق واللين والرحمة . . وانصرف هؤلاء ، وقد ظنوا أنهم نجوا من سخط الله .

ونجحوا فى تضليلهم . ولكن الله سبحانه وتعالى كان لهم بالمرصاد ، ففضحهم وكشف أمرهم . . فقال سبحانه :

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٨٧)

---

(٨٦) شرح المواهب اللدنية للزرقانى جـ٢ صـ١٩ ، جـ٣ صـ٨٣

(٨٧) التوبة ٦٦ : ٦٨

وتوعدهم قائلا :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٨٨)

ونهى القرآن النبى - ﷺ - عن الصلاة عليهم او الاستغفار لهم ، فقال

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٨٩)

إن الصلاة استغفار لهم ووقوف النبى - ﷺ - على قبورهم رحمة بهم . وهؤلاء لا يستحقون رحمة ولا استغفارا .

لقد أغلق الله فى وجوههم باب رحمته لأن ما قاموا به من أعمال خبيثة ، ومن محاربة للاسلام ، ومن تدبير للكيد به - وتكرر ذلك منهم - يحُول بينهم وبين استحقاق الرحمة ، حتى لقد قال الله لنبيه - ﷺ - إن هؤلاء ليسوا أهلا للمغفرة حتى لو استغفرت لهم

(٨٨) التوبة ٨١ : ٨٣

(٨٩) التوبة ٨٤ ، ٨٥

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٩٠)

شتان بين هؤلاء المنافقين الذى نكصوا عن الجهاد وهو ذروة العمل الاسلامى الصالح ، وبين الذين باعوا أنفسهم فى رضا الله سبحانه وتعالى . .

ولقد وازن القرآن الكريم بين هاتين الحالتين موازنة دقيقة ، بينت هذه الموازنة الفرق بين المجاهدين الحقيقيين وغيرهم من المنافقين ـ قال تعالى :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٩١)

ماورد فى شأن النهى عن الصلاة على المنافقين

وفى شأن النهى عن الصلاة على المنافقين أورد الرواة أخبارا ، فقالوا : إن

---

(٩٠) التوبة ٨٠

(٩١) التوبة ٨٦ : ٨٩

هذه الآية ـ أى قوله : ولاتصل على أحد منهم . . » نزلتِ حين توفى رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول . وجاء النبى ـ ﷺ ـ ليصلى عليه فلما تقدم ليصلى جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ فجذب ثوبه وتلا قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا . . »

وقال بعضهم : بل إن الآية نزلت بعد أن صلى الرسول عليه . . وقد حدثت محاورة بشأن هذه الصلاة بين النبى ـ ﷺ ـ وعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يجدر أن نذكرها . ولكنا نبدأ القصة من أولها :

روى البيهقى قال : مرض عبد الله بن أُبَىِّ بن سلول فى ليالٍ بقين من شوال سنة تسع ومات فى ذى القعدة ، وكان مرضه عشرين ليلة ، فكان الله ـ ﷺ ـ يعوده فيها .

فلما كان اليوم الذى مات فيه دخل عليه رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يجود بنفسه ، فقال له الرسول : « قد نهيتك عن حب يهود »

فقال ابن أُبَىّ ـ وكان ما زال فى عناده ـ : قد أَبْغَضَهُم أسعد بن زرارة فما نفعه ؟

ثم قال : يا رسول الله ، ليس هذا بحين عتاب ، هو الموت ، فان مت فاحضر غسلى ، وأعطنى قميصك أكفن فيه .

فأعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ قميصه الأعلى ، وكان عليه قميصان . فقال ابن ابىّ : أعطنى قميصك الذى يلى جلدك فغير النبى ـ ﷺ ـ القميص وأعطاه ـ قميصه الذى يلى جلده .

ثم قال ابن أبيّ للنبى : وصلّ علىّ واستغفرلى . .

فلما مات قام النبى - ﷺ - يصلى عليه . فقام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله ، أتصلى عليه وقد نهاك الله عن ذلك ؟

قال رسول الله - ﷺ - : إن ربى خيرنى فقال : استغفر لهم أولا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وسأزيد على السبعين .

فقال عمر : إنه منافق . .

فصلى عليه رسول الله - ﷺ - فأنزل الله عز وجل - « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله »(٩٢)

وجاء فى صحيح البخارى : أن عبد الله بن أُبيّ لما توفى جاء ابنه الى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله أعطنى قميصك أكفن أبى فيه ، وصل عليه واستغفر له .

فأعطاه النبى - ﷺ - قميصه ، وقام معه ، فلما أراد أن يصلى عليه جذبه عمر فقال : أليس الله قد نهاك ان تصلى على المنافقين ؟

فقال - ﷺ - : أنا بين خيرتين « استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » فصلى عليه فنزلت الآية . .

وفى رواية أخرى ذكرها البخارى أن النبى - ﷺ - أتى عبد الله بن أبيّ بعدما كفن ، فأخرجه فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه(٩٣) . وذلك بعد

---

(٩٢) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ صـ ٢٨٥ وما بعدها .

(٩٣) الحديثان فى فتح البارى جـ ٣ صـ ١٦٥ برقم ١٢٦٩ ، ١٢٧٠

إلحاح من ابنه الذى كان حسن الإيمان . .

ولنا أن نتتبع هذه الأخبار من أولها . . .

فقد دأب النبى - ﷺ - على زيارة ابن سلول على الرغم من نفاقه حرصا على قلب ابنه صادق الايمان ، وكان النبى - ﷺ - حريصا على هداية هذا الأب لعله ينصلح بهدايته حال غيره من المنافقين .

وقد اطلع النبى - ﷺ - على حال هذا المنافق فوجد مصيره سيئا حيث انه آثر حب اليهود المعاندين لله ورسوله على حب الله ورسوله ، فقال له : قد كنت نهيتك عن حب يهود . .

ولكن ابن سلول لم يفهم قصد النبى - ﷺ - فرد قائلا : لقد كرههم أسعد بن زرارة ، فما نفعه ؟

يعنى : أن كراهة اليهود لا تؤخر الموت ؟

وما قصد النبى - ﷺ - ذلك ، ولكن قصد سوء الحال الذى سيئول إليه بسبب إيثاره حبهم على حب الله - تعالى - وحب رسوله - ﷺ .

لقد كان النبى فى وادٍ وابن سلول فى وادٍ آخر . .

هل يكون ابن سلول قد استيقظ ضميره أخيرا وأدرك الوبال الذى سار إليه برجله وسعى إليه بعمله فأراد أن يفوز بنفحة رضا من الرسول - ﷺ - فطلب منه قميصه وطلب منه أن يصلى عليه ويستغفر له ؟ ربما . . . . .

خصوصا إذا علمنا أن هذه لم تكن ساعة غرغرة ، بل كان فى تمام وعيه حين طلب ذلك ، ولا يبعد أن يكون النبى - ﷺ - قد أدرك منه لحظة صدق - فأجابه إلى طلبه . .

أما قول عمر - رضى الله عنه - للنبى - ﷺ - فقد كان من منطق صدقه وموقفه من هؤلاء المعاندين ، فلم يخرج بهذا القول على معتاد طبعه وغيرته الشديدة على الاسلام والمسلمين . ولكن النبى - ﷺ - له شأن آخر يراعى فيه ظروف أمته ، ويرفق بهم ويداوى جروحهم ، ويتألف قلوبهم . وقد كان لابن سلول ابنٌ هوآية فى الصدق والإخلاص ، فليس عجيبا أن يترك النبى - ﷺ - سقطات هذا الأب تكريما للابن ..

وقد فهم عمر من صلاة النبى معنى الاستغفار فقال : قد نهاك الله أن تصلى على المنافقين ...... ولم تكن آية النهى عن الصلاة قد نزلت ، ولكن النهى عن الاستغفار كان هو الذى نزل .

والصلاة استغفار فعلا ، فهى من الله رحمة ، ومن النبى استغفار ومن المسلمين دعاء .

لقد كان النبى - ﷺ - طبيبا لأمته يعرف داءها ودواءها ويعالج جراحها ، وكان فى صلاته على ابن سلول واستغفاره له وتكفينه فى قميصه حكمة غاب فهمها حينئذ عن الكثيرين ، ولكنهم أدركوها فيما بعد .. وربما يظهر ذلك فى قوله - ﷺ - « إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئا وإنى لأرجو أن يسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومه » .

وجاء فى مغازى ابن إسحاق وفى بعض كتب التفسير : فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله - ﷺ - كثير من جماعة ابن أبى وكانوا من أهل النفاق»(٩٤) .

---

(٩٤) تفسير القرطبى جـ٨ صـ ٢٢٠

- ولا يخفى ما يشير إليه قوله - تعالى - « ولا تقم على قبره » من جواز القيام على قبر الميت والاستغفار له ، فقد كان رسول الله - ﷺ - إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبت . . أورد ذلك القرطبى فى تذكرته وأشار إليه فى تفسيره .

قصة الثلاثة الذين خلفوا

وكان ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - الصادقين قد تخلفوا عن رسول الله دون عذر . . . . . وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

وقبل أن نذكر قصة لقائهم بالنبى - ﷺ - عقب عودته من تبوك - ينبغى أن نعرف شيئاً عنهم . .

فأما كعب ، فهو ابن مالك بن أبى كعب ، واسم أبى كعب : عمرو بن القين ، الخزرجى ، وكنيته أبو عبدالله ، وقيل : أبو عبدالرحمن . وهو من السابقين إلى الاسلام ، شهد العقبة ، واختلف فى شهوده بدراً ، والصحيح أنه لم يشهدها .

وقد آخى النبى - صلى الله عليه وسلم - بينه وبين طلحة بن عبيد الله . وكان كعب من شعراء الإسلام الذين دافعوا عن رسول الله - ﷺ - ضد شعراء المشركين . . . .

قال ابن سيرين : كان شعراء النبى - ﷺ - حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة ، فكان كعب بن مالك يخوفهم الحرب ، وكان حسان يقبل على الأنساب ، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر . قال

ابن سيرين : فبلغنى أن دوسا إنما أسلمت خوفاً من قول كعب بن مالك :

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أغمدنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت لقالت قواطعهن : دوسا أو ثقيفا

فقالت دوس : انطلقوا فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف (٩٥)

فها نحن أولاء أمام رجل صادق الإيمان ، أبلى فى الإسلام بلاء حسنا وقد جرح فى ـ أحد ـ إحدى عشرة جراحة ، وكان قد لبس لأمة النبى ـ ﷺ ـ ولبس النبى لأمته . . ولكن تخلفه عن تبوك كان فلتة تاب الله عليها منها .

أما مرارة بن الربيع فهو من بنى عمرو بن عوف

قال ابن الكلبى فى نسبة : هو مرارة بن ربعى بن عدى بن زيد بن عمرو من الأوس . .

أما هلال . فهو هلال بن أمية بن عامر بن قيس من الأوس أيضا ، وكان قديم الاسلام ، شهد بدراً وأحدا ، وكان يكسر أصنام قومه بعد أن أسلم ، وهو ابن أخت كلثوم بن الهدم الذى نزل النبى ـ ﷺ ـ عليه حين قدم المدينة مهاجراً ، قبل أن ينزل فى دار أبى أيوب الأنصارى . .

هؤلاء الثلاثة الذين خُلِّفوا وأشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » ولم يقل : « تخلفوا » لأن فى التعبير الأول إشارة دقيقة إلى أن المقصود به « أرجئوا وأخروا » عن المنافقين فلم يقض فيهم بشىء . . . ذلك أن بعض المنافقين لم تقبل توبتهم ، واعتذر أقوام فقبل عذرهم ، وأخر النبى ـ ﷺ ـ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن .

قال كعب : « كنا خلفنا نحن الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم

---

(٩٥) أسد الغابة جـ ٤ صـ ٤٨٧

رسول الله - ﷺ - حين اعتذروا وحلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله - عز وجل - « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفنا تخلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليف الرسول إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه »(٩٦)

وقد ذكر الرواة لنا قصة لقاء كعب مع النبى - ﷺ - ولم يذكروا لنا قصة لقاء صاحبيه ، مع أن هذين الصاحبين كانا قد سبقا كعبا إلى لقاء النبى - ﷺ - ولعل السبب فى ذلك أن كعبا كان امرءاً شاعراً ، استطاع أن يسجل مشاعره فى قصة رواها لنا التاريخ ، ولم يترك من أحداث قصته من لدن تخلفه حتى نزلت قصة توبته فى القرآن الكريم شيئاً ، وعرضها لنا فى أسلوب طريف وعرض شيق ، حتى إن أجمل تقديم لها هو أن نعرضها كما رواها هو بنفسه ، وذكر هذه الرواية أكثر الرواة فى كتب السيرة والسنن .

قال كعب :

لم أتخلف عن رسول الله - ﷺ - فى غزوة غزاها قط ، إلا فى غزوتى بدر وتبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب الرسول أحداً تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله - ﷺ - والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

ولقد شهدت مع رسول الله - ﷺ - ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وان كانت بدر أذكر فى الناس منها .

---

(٩٦) صحيح مسلم - باب التوبة -

وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط وقد جمعتها فى تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ـ ﷺ ـ فى حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازا ، واستقبل عدواً كثيراً ، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذى يريد المسير إليه والمسلمون مع رسول الله ـ ﷺ ـ كثير ، ولا يجمعهم ديوان ، ولا يعرف أحد عددهم .

قال كعب : فكان أى رجل يريد أن يتغيب ، يظن أن ذلك سيخفى ولن يُتَنَبه له ما لم ينزل فيه وحى من الله ـ تعالى ـ

وغزا رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ـ أى أميل ـ

فتجهز إليها رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً ، وأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتباعد القوم ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتنى فعلت ، ولكن لم يقدر لى . .

فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ـ ﷺ ـ يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصا (٩٧) عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .

---

(٩٧) مغموصا عليه : مطعونا عليه فى الدين ومتهما بالنفاق .

ولم يذكرني رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » ؟

فقال رجل من بني سلمة : يارسول الله ، حبسه برداه والنظر في عطفيه . (٩٨)

فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت ، والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً .

فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ ، فبينما هو على ذلك رأى رجلا مُبَيِّضاً يزول به السراب(٩٩) ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « كن أبا خيثمة » فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري ، وهو الذي تصدق بصاع من تمر حتى لمزه المنافقون .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي ـ أي حزني وهمي ـ ، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غداً ؟

وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي : إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد أظل قادماً انزاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه .

وأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون

---

(٩٨) كناية عن إعجابه بنفسه وزهوه وتكبره

(٩٩) مبيضا : يلبس البياض ، والسراب مايظهر في الهواجر يظنه الظمآن ماء ، ويزول : يتحرك .

فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله - ﷺ - علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

حتى جئت ، فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه .

فقال لى : « ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك » ؟

قلت : يارسول الله ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً - أى فصاحة وقوة وحسن بيان أستطيع أن أخرج به من عهدة ما ينسب إلىَّ بما يقبل ولا يرد - ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علىَّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تَجِدُ - تغضب - علىَّ فيه إنى لأرجو فيه عقبى الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

قال رسول الله - ﷺ - : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك »

فقمت ، وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى ، فقالوا لى :

والله ما علمناك أذنبت قبل هذا ، لقد عجزت فى ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله - ﷺ - بما اعتذر به إليه المتخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله - ﷺ - لك .

قال : فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله - ﷺ - فأكذب نفسى .

قال : ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى من أحد ؟ - أى - هل فعل أحد من القوم مثل ما فعلت ؟ .

قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان ، قالا مثلما قلت ، فقيل لهما مثلما قيل لك .

قلت : من هما ؟

قالوا : مرارة بن ربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى .

قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً - فيهما أسوة . فمضيت إليهما حين ذكروهما لى . . ونهى رسول الله - ﷺ - المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه .

قال : فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فماهى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة ، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله - ﷺ - فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟

ثم أصلى قريبا منه ، وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال ذلك علىّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما رد علىّ السلام .

فقلت له : يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلمن أنى أحب الله ورسوله ؟

قال : فسكت ، فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلىَّ حتى جاءنى فدفع إلىَّ كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه :

أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نُواسِك .

فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيامت بها التنور فسجرته بها ـ أى ألقيتها فى النار فاحترقت ـ حتى إذا مضت أربعون من الخمسين يوما ، واستلبث الوحى إذا رسول(١٠٠) رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتينى فقال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمرك أن تعتزل امرأتك .

قال : فقلت له : أطلقها أم ماذا أفعل ؟

قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربها . .

وأرسل إلى صاحبىَّ بمثل ذلك .

---

(١٠٠) كان هذا الرسول هو خزيمة بن ثابت

فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟

قال : لا ، ولكن لا يقربنك .

فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

وقال بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟

فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما يدرينى ماذا يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟

فلبثت بذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهِىَ عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا .

فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله منا ، قد ضاقت علىَّ نفس وضاقت علىَّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوْفَى على سَلْع(١٠١) يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبْشر .

---

(١٠١) أشرف على جبل سلع ،

قال كعب : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج . . فأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهبوا قِبَلَ صاحبى مبشرين ، وركض رجل إلى فرسٍ ، وسعى ساعٍ من أسلم قِبَلى وأوفى الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتلقانى الناس فوجاً فوجاً ، يهنئوننى بالتوبة ويقولون : هنيئاً لك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس فى المسجد وحوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره . فكان كعب لا ينساها لطلحة ـ قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ ويقول : « أبشر بخير يومٍ مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك » .

فقلت : أمن عند الله يا رسول الله أم من عندك ؟

قال : « لا ، بل من عند الله » .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك . . . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبة الله علىّ أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » .

قال : فقلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر .

وقلت : يا رسول الله ، إن الله نجانى بالصدق ، وإن من توبتى ألا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيت . فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يومى هذا أحسن مما أبلانى الله به ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو الله أن يحفظنى فيما بقى ، وكان قد نزل قول الله ـ تعالى ـ

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (١٠٢)

قال كعب : والله ما أنعم الله علىَّ من نعمة قط بعد إذ هدانى للاسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا أكون

---

(١٠٢) التوبة ١١٧ : ١١٩ .

كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا .

إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد . . . . قال الله ـ تعالى ـ

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (١٠٣)

إن هذه القصة التى قصها كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ فيها غَنَاء لتصوير حال هؤلاء الثلاثة الذى ابتُلوا بهذه المحنة التى خلصوا منها وقد ازدادو نقاء وصفاء ، كالذهب الذى يمتحن بالنار فيصفو وينقى .

لقد كان تخلف هؤلاء الثلاثة ذنباً كبيراً يستحق هذا العقاب الذى فرض عليهم وهو أقسى عقاب ، فليس بعد عقوبة المقاطعة عقاب . وهل هناك أفظع من موقف رجل يكون بين الناس ثم لا يستطيع أن يحادثهم ولا يستطيع الاستمتاع بحديثهم معه ؟

والذنب الذى ارتكبوه هو النكوص عن الجهاد . . . وهم الذين بايعوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة العقبة ، ولسان حالهم ما قاله شاعرهم عبد الله ابن رواحة

---

(١٠٣) التوبة ٩٥ ، ٩٦

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد ما بقينا أبداً

فلئن كان الجهاد فرض كفاية على المسلمين عامة ، فهو فى حق الأنصار فرض عين .

معنى لقد تاب الله على النبى . .

ولعل سائلاً يسأل : ما معنى قوله ـ تعالى

« لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » ؟

أى ذنب ارتكبه النبى وهؤلاء حتى يتوب الله عليهم ؟

وقد أجاب العلماء على ذلك بقولهم : ليست التوبة هنا من ذنب ، ولكن معناها الاستنقاذ من الشدة ، فكأن الله يقول : لقد استنقذ الله النبى وصحبه من شدة العسرة ، وخلصهم من نكاية العدو ، وعُبِّر عن ذلك بالتوبة ـ وإن خرج من عُرفها ـ لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى .

وقال أهل المعانى : إنما ذُكر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم ، كقوله « فان لله خمسة وللرسول[١٠٤] » وهذا هو أفضل ما قيل فى تفسير هذه الآية الكريمة[١٠٥] .

الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً

وحين دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسجد وجد نفراً من

---

(١٠٤) الأنفال ٤٤

(١٠٥) راجع القرطبى جـ ٨ صـ ٢٧٨

المسلمين قد ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد . فما قصة هؤلاء النفر ؟

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « هم عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك فأوثق سبعة منهم أنفسهم فى سوارى المسجد » . لقد استيقظت ضمائرهم وأدركوا أنهم أخطأوا بتخلفهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما الثلاثة الباقون فهم الذين أشرنا إلى قصتهم آنفاً .

ومن الذين أوثقوا أنفسهم أبو لبابة ، وأوس بن خزام ، وثعلبة ابن وديعة ، والجد بن قيس ، ووداعة بن خِذَام (١٠٦) .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد مَرَّ عليهم حين رجع .
فقال : « من هؤلاء » ؟

قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله . لقد عاهدوا الله لا يطلقون أنفسهم حتى تطلقهم وتعذرهم .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذى يطلقهم . . إنهم رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو » فأنزل الله ـ تعالى ـ

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ (١٠٧)

---

(١٠٦) ذكرهم الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية جـ ٣ صـ ٨٧ وذكر معهم جذام بن أوس ، ومرداس

(١٠٧) التوبة ١٠٢ ، ١٠٣

وقبل أن نستعرض بقية القصة نلقى الضوء على هؤلاء الصحابة الأجلاء .

أما أبو لبابة فهو رفاعة بن عبد المنذر ، وقيل : اسمه بشير ، وهو من الأوس . . . . كان نقيباً من نقباء الأنصار ليلة العقبة ، وسار مع النبى - صلى الله عليه وسلم - الى بدر فرده الى المدينة مستخلفاً له عليها ، وضرب له بسهمه وأجره . .

وقيل : إن قصة ربطه نفسه بسارية المسجد لم تكن فى تبوك ، ولكن كانت فى أثناء غزوة بنى قريظة ، حين استشاره بنو قريظة فى أمرهم وفى أمر نزولهم على حكم النبى - صلى الله عليه وسلم - فأشار بيده الى حلقه ، كأنه كنى بذلك عن أن النبى سيقتلهم ، فاعتبرت هذه الاشارة خيانة للنبى - صلى الله عليه وسلم - فذهب من توه إلى المسجد وربط نفسه ، وأقسم ألا يحل نفسه حتى يحله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد سبق أن تحدثنا عن هذه القصة فى حينها .

وعاش أبو لبابة حتى توفى فى خلافة علي - رضى الله عنه[١٠٨].

وأما أوس بن خِذَام فقد ذكره الرواة ولم يضيفوا إلى اسمه شيئاً سوى أنه أحد الذين اعترفوا بذنوبهم ، ونزلت فى شأنهم الآيتان السابقتان[١٠٩].

وأما ثعلبة بن خذام فهو أنصارى ، وذكر ابن الأثير أنه أحد الذين ربطوا أنفسهم وجاءوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، خذها . . . . هذا الذى

---

(١٠٨) أسد الغابة جـ ٦

(١٠٩) أسد الغابة جـ ١ صـ ١٧٠

حبسنا عنك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا أحلهم حتى يكون قتال » فأنزل الله الآيتين السابقتين(١١٠) .

وأما جد بن قيس فهو جد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان ، وهو ابن عم البراء بن معرور ، والجد بن قيس هذا كان يتهم بالنفاق ، وهو المعنى بقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١١١)

ولئن كان قد ربط نفسه كما جاء فى خبر الزرقانى ـ رحمه الله ـ فقد أعلن عن توبته من النفاق .

قال ابن الأثير : لقد تاب وحسنت توبته ومات فى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه(١١٢) .

ووداعة بن خِذام لم يرد فى ترجمته سوى هذين الاسمين ، وأنه أحد الذين نزل فى شأنهم الآيتان السابقتان(١١٣) .

قال الرواة : فلما نزلت هاتان الآيتان أرسل إليهم النبى ـ ﷺ ـ فاطلقهم وعذرهم ، لقد فهم من قوله ـ تعالى ـ

---

(١١٠) أسد الغابة جـ ١ صـ ٢٩٢
(١١١) التوبة ٤٩
(١١٢) أسد الغابة جـ ١ صـ ٣١٧
(١١٣) أسد الغابة جـ ٥ صـ ٤٤١

« عسى الله أن يتوب عليهم . . »

وجوب العفو عنهم ، فعفا عنهم .

وجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا فقالوا : يارسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا . فقال : ماأمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فنزلت الآية . .

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .

فأخذ منهم الصدقةواستغفر لهم . . أما الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم فهم الذين خلفوا وقد تحدثنا عن قصتهم قبل ذلك .

وكان سبب عدم البت فى أمرهم أن الله أنزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (١١٤)

وهكذا خُلِّفوا عن الحكم فى أمرهم ، وجعل الناس يخوضون فى أمرهم ، فمن قائل : هلكوا إذا لم ينزل عذرهم ، ومن قائل : عسى الله أن يتوب عليهم . . . . ومازال أمرهم فى حيرة وضيق طوال خمسين يوما حتى نزلت آية التوبة عليهم فى قوله تعالى :

« وعلى الثلاثة الذين خلفوا . . . »

أما المال الذى أخذه النبى ـ ﷺ ـ من أولئك الذين نزلت توبتهم فهو الثلث ، وكان ماأخذه كفارة الذنوب التى أصابوها .

---

(١١٤) التوبة ١٠٦

وهذه الذنوب هى التخلف عن الغزو . أما الأعمال الصالحة التى خلط بها ذلك العمل السيىء فهى الاعتراف والتوبة والندم ، وكانوا قد أقسموا ألا يقربوا أهلا ولا ولدا حتى ينزل الله عذرهم ، ومن الأعمال الصالحة أيضاً ما سبق منهم من جهاد فى سبيل الله وقربات تقربوا بها إلى الله .

قال بعض العلماء وهذه الآية الكريمة « وآخرون اعترفوا بذنوبهم . . . » هى آية رجاء ، فهى وإن كانت نزلت فى مناسبة خاصة وفى شأن قوم مخصوصين إلا أنها تحمل حكما عاما ماضيا إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وأخرى سيئة .

فقد ذكر الطبرى قول أبى عثمان : مافى القرآن آية أرجى عندى لهذه الأمة من قوله ـ تعالى ـ :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » .

وجاء فى البخارى عن سمرة بن جندب ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ : « أتانى اللية ملكان فأخذانى ، فانتهينا إلى مدينة مبنية بِلَبِنٍ ذهب ولَبِن فضة ، فتلقانا رجال ـ شَطْر من خلقهم كأحسن ماأنت راءٍ ، وشطر كأقبح ماأنت راءٍ . . . . فقيل لهذا الشطر الأخير : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا فى أحسن صورة .

فقال لى الملكان :

هذه جنة عدن ، وهذا منزلك .

ثم قالا : أما القوم الذين رأيتهم منهم شطر حسن وشطر قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ـ تجاوز الله عنهم[115].

القرآن يدعو إلى الجهاد وينهى عن التخلف

لقد فصلت سورة التوبة الحديث عن الجهاد وَنَعَت على المتخلفين تخلفهم ، ووبختهم على ماحدث منهم ، ولم يكن ذلك الا رفعا لشأن الجهاد وأنه ذروة العمل الصالح فى الاسلام ، فقد أورد الثقات عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال لمعاذ بن جبل : « ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه » ؟

قال : بلى .

قال : « رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد » .

ولأن غزوة تبوك كانت آخر غزوة غزاها النبى ـ ﷺ ـ كان التخلف عنها أمرا سيئا بالنسبة للمسلمين.

لقد كانت فرصة ذهبية لهم ليشاركوا النبى ـ ﷺ ـ فيها فيغنموا نعمة مصاحبته وينتفعوا بهديه ، وينالوا بركته . . وقد نزل القرآن الكريم منبها لهم على مدى ما ارتكبوه فى حق أنفسهم من تقصير فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ

---

(١١٥) القرطبى جـ٨ صـ٢٤٣

ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ
صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (١١٦)

إنها آيات تحمل معنى العتاب والتوجيه معا ، وفيها تبشير للمجاهدين بأن الله يثيبهم على كل جهد يبذلونه ، وكل مشقة يلقونها أيا كانت هذه المشقة مادية أو معنوية .

وكان الأعراب الذين حول المدينة ـ هم قبائل مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم .

وكان عتاب القرآن لهؤلاء صدى لِعُتْب النبى ـ ﷺ ـ عليهم ، وتألمه بسبب تخلفهم .

قصة أبى رهم .

وهذا أبو رُهم كلثوم بن الحصين يقص علينا قصة تشير إلى عتب النبى ـ ﷺ ـ على هؤلاء الذين ذكرناهم ، وهو عُتْب يمضى مع الأجيال والأزمان فيصدق توجيهه إلى كل متخلف عن نفير الجهاد فى سبيل الله فى كل زمان ومكان . .

قال ابن إسحاق راويا قصة أبى رهم التى رواها بنفسه :

---

(١١٦) التوبة ١٢٠ ، ١٢١ .

قال : غزوت مع رسول الله ـ ﷺ ـ غزوة تبوك . فسرت ذات ليلة معه ونحن بالأخضر فكنت قريبا من رسول الله ـ ﷺ ـ

وألقى الله علينا النعاس ، فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة رسول الله ـ ﷺ ـ فيفزعني دنوها منه مخافة أن أصيب رجله فى الغرز (١١٧).

فطفقت أبعد راحلتي عنه حتى غلبتني عيني فى بعض الطريق ، ونحن فى بعض الليل ، فزاحمت راحلتي راحلة رسول الله ـ ﷺ ـ ورجله فى الغرز ، فما استيقظت الا على صوت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يتألم . .

فقلت : يارسول الله ، استغفرلى . .

فقال : « سر » .

فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يسألني عمن تخلف من بنى غفار فأخبره به .

فقال ـ وهو يسألني ـ : « ما فعل النفر الحمر الطوال الثطاط » ؟(١١٨).

فحدثته بتخلفهم .

قال : فما فعل النفر السود الجعاد القصار « ؟

قال : قلت : والله ماأعرف هؤلاء منا .

قال : « بلى ، الذين لهم نَعَمٌ بشبكة شدخ » . فتذكرتهم فى بنى غفار ، ولم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا .

فقلت : يارسول الله ـ أولئك رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا . . .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما منع أَحُدُ أولئك حين تخلف أن يحمل

---

(١١٧) الغرز للرحل مثل الركاب للسرج

(١١٨) الثطاط : جمع ثط ، وهو الرجل قليل شعر اللحية والحاجبين

على بعير من إبله امرءاً نشيطا فى سبيل الله ؟ . . . .

لقد عز عليَّ ان يتخلف عن بعض المهاجرين من قريش والأنصار وغفار وأسلم[119] وأبورهم هذا هو من قبيلة غفار . . . إنه عتب يوجهه النبى - ﷺ - إلى هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد بأنفسهم أو مالهم . وما عتب النبى - ﷺ - الا لما كان يرجوه لهم من حسن المثوبة وعظم الأجر - كما أشارت الى ذلك الأيتان السابقتان .

وقد عددت الأيات وجوه المشقة التى يتعرض لها المجاهدون عادة ، والتى تعرضوا لها فى هذه الغزوة خاصة ، وظهرت هذه المشقة فيها كابدوه من ظمأ شديد ، وتعب فى مسيرهم فى حر الصحراء ، ومخمصة الجوع الشديد الذى تعرضوا له ، وقد تحدثنا عن صور من ذلك فى اثناء عرض احداث هذه الغزوة .

حَدثٌ بعد العودة نزل فى شأنه قرآن

قال الرواة : ولما قدم النبى - ﷺ - من تبوك شكا عويمر بن الحارث بن زيد بن حارثة العجلانى من ريبة راودته فى نفسه من جهة أهله . فذهب إلى عاصم بن عدى الأنصارى فقال له : يا عاصم ، أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ سل لى يا عاصم رسول الله - ﷺ - عن ذلك .

فسأل عاصم عن ذلك رسول الله - ﷺ - فكره النبى - ﷺ - المسألة وعابها .

---

(١١٩) سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ١٤١

فكبر على عاصم ما سمع من رسول الله ـ ﷺ ـ ، فلما رجع سأله عويمر عما قاله رسول الله ـ ﷺ ـ له .

فقال له عاصم : لقد كره النبى ـ ﷺ ـ هذه المسألة وعابها .
فقال عويمر : والله لا أنثنى حتى أسأله عنها .

وأقبل عويمر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يقول له : يارسول الله ، أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا ، أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟
وكان الله قد أنزل فى هذا الشأن قرآنا . . فقال النبى ـ ﷺ ـ قد أنزل الله فى هذا الشأن قرآنا وتلا قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١٢٠)

وهذا مايعرف فى ابواب الفقه باللعان أو التلاعن الذى يجرى بين الزوجين ، وينتهى بالتفرقة بينهما بعد أن يشهد كل منهما بالشهادات التى أشارت إليها هذه الآيات الكريمة .

---

(١٢٠) النور ٦ : ١٠

دروس من غزوة تبوك

لقد كانت غزوة تبوك آخر غزوة خرج فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه ، ولكن كان بعدها سرايا وجهها إلى بعض جهات ، كان من بينها بعث أسامة المشهور الذى وجهه لغزو الروم ، ولكن هذا البعث لم يكتب له الخروج إلى وجهته إلا بعد أن لحق النبى - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى ، وقد استهل أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - خلافته بإنفاذه .

ومن غزوة تبوك والسرايا التى بثها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى أثنائها نستخلص دروساً وعبراً وعظات نرجع فيها إلى ما سطره أهل الخبرة من العسكريين .

فمن ذلك :

١ - الحرب الإجماعية ، أو الحرب المطلقة وهى التى تحشد لها كافة القوى والطاقات فى الأمة - المادية منها والمعنوية . .

وقد نشر أحد الخبراء العسكريين الأجانب آراءه عن الحرب الإجماعية فى كتابه : « الأمة فى الحرب » ومجمل آرائه : أن الحرب الحديثة لم تبق حرب جيوش وقوى عسكرية فقط ، وإنما هى حرب إجماعية تقوم على حرب الأمم ضد الأمم ، ولهذا يجب أن تضع الأمة كل قواها العقلية والأدبية والمادية فى خدمة الحرب .

ويرى كذلك بالاضافة إلى ماتقدم أن الحرب وسيلة لاغاية ، ولهذا يجب أن تعد الأمة كلها للحرب ، وأن تكون دائما على قدم الاستعداد ، وأن واجب النساء ينحصر فى إنتاج وتربية أبناء أقوياء للأمة يحملون أعباء الحروب الإجماعية ، وواجب الرجال ينحصر فى تحشيد كل قواهم لهذه

الغاية[١٢١]»

وإذا كانت الأمم الحديثة قد طبقت ذلك ـ فقد سبق إلى ذلك المسلمون منذ أربعة عشر قرنا بقيادة نبيهم صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك ، مع فارق مهم ، هو أن الحروب الحديثة حروب هجومية طامعة استعمارية ، ولكن حرب المسلمين قديما كانت حربا دفاعية ذات هدف سام ، تعمل على نشر السلام والحق والعدل ، لاتعتدى على أحد ولاتغتصب حق أحد وتحترم العهود والمواثيق . . وإنما حرب الفروسية الحقة بكل مافى هذه الكلمة من معان نبيلة .

لقد دعا القرآن الكريم الى هذا النظام الجماعى الذى يتم فيه تكتيل كافة القوى فى مواجهة الخصوم فقال ـ تعالى ـ

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[١٢٢]

ولئن كان بعض المفسرين يقولون : إن هذه الآية قد نسخت بما جاء فى آخر السورة من قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[١٢٣]

---

(١٢١) النبى القائد صـ ٣٩٩
(١٢٢) التوبة ٤١
(١٢٣) التوبة ١٢٢

إلا أن النفير العام كان ظاهرا فى تبوك . . ونقصد النفير العسكرى الذى وظف الجهود كلها ـ المادية والمعنوية فى خدمة المعركة . .

على أننا نقول : إن النفير العام لم يُنسخ ، ولكنه نُظِّم . فبدلاً من أن تتجه الجهود كلها إلى النواحى العسكرية والحربية فقط . . . رؤى أن تتجه بعض هذه الجهود إلى متطلبات الحياة الأخرى العلمية والمعيشية ، والاقتصادية والاجتماعية وغيرها مما تحتاج اليه الدولة فى مسيرتها ونهضتها ، والدولة لاتقوى بالحرب وحدها ، ولكنها تقوى بتضافر الجهود المختلفة التى تسعى لإنعاشها وتفوقها ولقد أشار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هذا المعنى حين بين منزلة العلماء وقال فى حقهم :

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء »

وحين كان يدعو الى التعمير والإنشاء وتقوية الأمة بالزراعة وإتقان العمل .

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »

وروى جابر قال : دخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أم مبشر الأنصارية فى نخل لها فقال لها : من غرس هذا النخل ؟ أمسلم أم كافر ؟

قالت : بل مسلم .

فقال : « لايغرس مسلم غرسا ولايزرع زرعا فأكل منه إنسان أو دابة أو شيء إلا كانت له صدقة(١٢٤) »

---

(١٢٤) الاصابة فى تميز الصحابة لابن حجر ٨ / ٣٠١ ـ أسد الغابة ٧ / ٣٩١

وقال : من قطع سدرة من غير زرع بنى الله له بيتا فى النار(١٢٥)» يعنى من غير أن يزرع مكانها . . ـ فليقرأ هذا الحديث أعداء الخضرة والمعتدون على الأشجار .

وكان عدد المسلمين فى تبوك ثلاثين ألفا منهم عشرة آلاف فارس . وتحركوا صيفا فى موسم قحط شديد ، لمسافة طويلة فى الصحراء ، فليس من السهل إمداد مثل هذا الجيش الكبير فى مثل تلك الظروف القاسية بمواد الإعاشة والماء ووسائل الانتقال والقتال ، لذلك سمى بجيش العسرة ، اشترك فيه المسلمون جميعا سوى القليل ممن تحدثنا عنهم ، واشتركوا جميعا فى تجهيزه ، وبعضهم أنفق كل مايملك فى ذلك . ومعنى ذلك أن المسلمين عرفوا الحرب الاجماعية قبل أن يعرفها غيرهم . مع سمو الهدف عندهم عن غيرهم .

٢ ـ عقاب المتخلفين . التخلف عن الحرب سمة ظاهرة فى مختلف الدول والجماعات عبر الأزمان ، ولكنه يصبح كبيرة من الكبائر وخيانة للوطن إذا كانت هذه الحرب إجماعية تستنفر فيها الدولة كافة الناس والجهود والإمكانات .

ولكل أمة قوانينها فى معاقبة هؤلاء المتخلفين ، وفى الحرب العالمية الثانية أبيدت عائلات بأجمعها تخلف أحد أفرادها عن المشاركة فى الحرب ، وكان هذا العقاب فى منتهى القسوة والعنف ، يدل على الوحشية والشراسة ، لأنه أخذ البرىء بإثم الجانى . .

---

(١٢٥) الاصابة فى تميز الصحابة لابن حجر ٤ / ١٢٧ ـ أسد الغابة ٣ / ٢٧٦

وربما أدى هذا العقاب القاسى إلى تقليل عدد المتخلفين عن الحرب الإجماعية فى أثناء قوة هذه الدولة التى تطبق هذا القانون ، ولكنها حين تتداعى قوتها تحت وطأة الحرب وغلبة العدو يكثر المتخلفون على الرغم من القانون الرادع .

ولكن الاسلام اتخذ نظاما فريدا فى بابه فى عقاب المتخلفين ، لايستطيع أى قانون آخر فى أى دولة أخرى تطبيقه . . ذلك القانون هو قانون العقاب النفسى الذى يأخذ المسيء وحده بذنبه دون أن يتجاوز العقاب غيره من أسرته وذويه .

وفى قصة كعب بن مالك التى ذكرناها مُثُل لايمكن للدول الأخرى إدراكها أو تحقيقها .

والعجيب حقا أن ينصاع المسلمون جميعا للأمر النبوى الصادر بمقاطعة هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا . . فلايستطيع أقرب المقربين إليهم محادثتهم أو الرد عليهم . .

والعجيب أيضاً أن ينصاع هؤلاء المعاقبون لهذا الأمر فلا يفكرون فى الاقتراب من زوجاتهم بعد أن صدر لهم الأمر باعتزالهن . .

والأشد عجبا أن يشعر هؤلاء بوطأة هذا العقاب الشديد ، ولا يفكر واحد منهم فى التمرد عليه ، حتى لو تهيأت الفرصة لذلك التمرد . . لقد اعتبروا التفكير فى رفض هذه العقوبة والاستجابة للإغراء بالتمرد عليها جريمة نكراء لايمكن التفكير فيها . . وقد رأينا كيف أحرق كعب بن مالك الرسالة التى وجهت اليه من أمير غسان وهى التى كان يَعِدُه فيها بمواساته وإكرامه إن لحق به . .

لاتعليل لذلك كله إلا الإيمان العميق الذى تغلغل فى أعماق المسلمين جميعا فسيطر على تصرفاتهم ، ووجه تحركاتهم ، فأصبح ولاؤهم أولا وأخيرا لله ورسوله . .

وانظر كيف ربط بعض المخلفين أنفسهم فى سوارى المسجد ، وأقسموا ألا يقربوا أهلا ولا يتناولوا طعاما حتى يرضى عنهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويفكهم بنفسه . .

« أى عقاب نفسى هذا الذى جعل المتخلف يقدم بين يدى توبته شرطين ما أقساهما وما أشدهما ، وهما التنازل عن المال ، والصدق فى القول . . . . وليس من السهل أن يتنازل المرء عن ماله طواعية ، وليس من السهل أيضاً أن يثبت على الصدق فى جميع أحواله وظروفه . .

ولكن هؤلاء تمكنوا من تطبيق الشرطين فحق لهم أن يكونوا مثلا عاليا لقوله - تعالى -

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١٢٦)

لقد ترك هذا العقاب النفسى الصارم أثراً عظيماً ، لم تستطع أى دولة فى القرون التالية على الرغم من قوتها وصولتها وقوانينها الرادعة ، أن تصل إلى

(١٢٦) الأحزاب ٢٣ ، ٢٤

معشار الأثر الذى تركه العقاب الذى فرضه الاسلام على المتخلفين فى القرن السابع الميلادى . .

وإنه لدرس ينبغى تطبيقه على كل من تسول له نفسه الاساءة الى وطنه أو عقيدته أو يتخلى عن واجب الجهاد المقدس دفاعا عن شرف أمته وسلامتها .

٣ ـ ومن الدروس التى يمكن تعلمها من هذه الغزوة ـ التدريب العنيف على تحمل الصعاب والمشقات ، ومقاساة الجوع والعطش والحر الشديد وقطع المسافات البعيدة الشاسعة على ظهور الدواب ، أو سيرا على الأقدام . .

ولقد كانت هذه الغزوة فرصة لتدريب المسلمين على تحمل هذه الظروف العنيفة القاسية فى سبيل تحقيق الهدف الأسمى والغاية الكريمة . .

ولأن هذه الغزوة كانت آخر غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أقرت عينه وطمأنته على أنه قام بواجبه ، وأدى رسالته ، واستطاع أن يربى الرجال القادرين على مواجهة الظروف القاسية بكفاءة عالية .

سار المسلمون تحت إمرة قائدهم الأعلى فى طواعية كاملة ، مستجيبين لتوجيهاته ملبين لاشارته ، وإن كانت هناك فلتات من المنافقين إلا أنها فلتات شاذة مكشوفة لايؤبه لها . .

وتجلت براعة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أنه جعل تحركات هذا الجيش الكثيف ليليّة ليتمكنوا من التغلب على حرارة الجو وقسوة الصحراء . وليتمكنوا كذلك من كتمان خطواتهم عن العدو ، والحركة الليلية هى ماتعد الجيوش الحديثة أنفسها لها الآن .

أما معنويات المسلمين فعلى الرغم من قسوة الظروف فقد كانت عالية جدا ، أكسبتها المعجزات المادية التى تحققت على يد الرسول - صلى الله عليه وسلم - علوا وارتفاعا . كما كان هروب الروم من مواجهة المسلمين من عوامل ارتفاع هذه القوة المعنوية فى نفوسهم ، وقد أدى ذلك الهروب الى إقبال القبائل العربية الخاضعة لنفوذ الروم على الاسلام والتحالف معه وموالاته . .

٤ - المعلومات التى كان يجمعها الروم عن المسلمين كانت دقيقة ، بدليل أنهم استطاعوا أن يعرفوا غضب النبى - صلى الله عليه وسلم - على كعب ابن مالك ، ومن قبل كانوا عارفين بتحركات الجيوش الاسلامية . .

وكذلك كان المسلمون لديهم المعلومات الكافية عن تحركات الروم ونواياهم ، فأعدوا جيشهم الكثيف الذى خاض الفيافى والقفار فى همة لاتعرف الكلل ، وفى انضباط كامل منقطع النظير . . . وهذا هو الذى كفل له تحقيق الهدف من مسيرته . .

هل حققت الغزوة اغراضها ؟

أجل ، لقد ارتفعت معنويات المسلمين تجاه الروم وحلفائهم ، حتى هان هؤلاء فى نظر المسلمين ، وازداد يقينهم فى قدرتهم على محاربتهم والتغلب عليهم . . بعد أن كان مجرد التفكير فى هذا الأمر يدخل فى حيز المستحيل .

وكان لهذا الانتصار المعنوى على الروم أثره فى القضاء التام على تردد المتخلفين عن الإسلام للاقبال عليه واعتناقه ، فجاءت ثقيف بقضها وقضيضها تعلن إسلامها ، وأقبلت بقية الوفود التى كانت مازالت تتربص

وتردد ـ أقبلت على المدينة تعلن الولاء والوفاء . . . وتحقق قوله ـ تعالى

إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا(١٢٧)

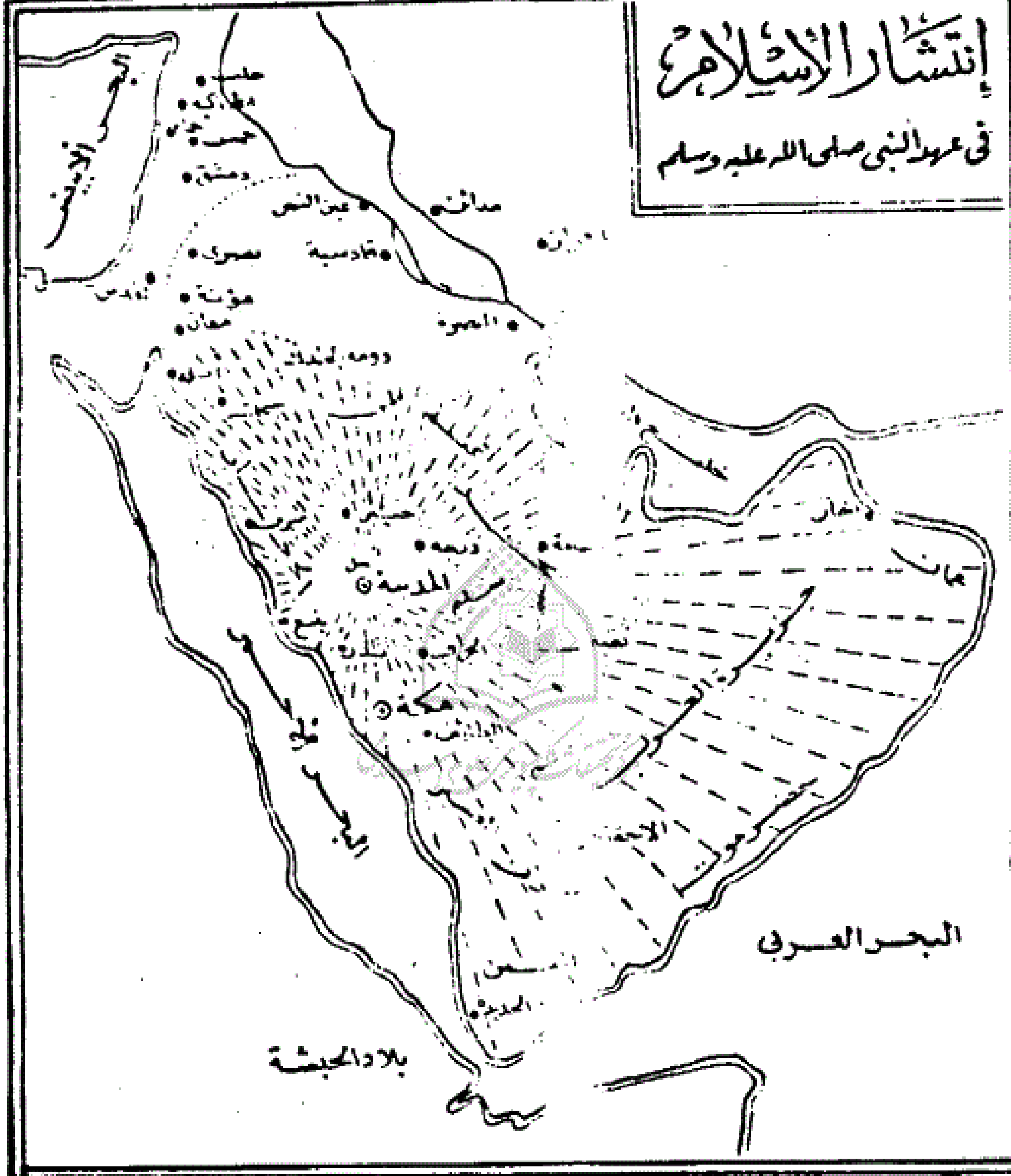
وقد تمكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقيم نقاط ارتكاز على الحدود الشمالية التى تربط شبه الجزيرة العربية ببلاد الشام الخاضعة للروم وذلك بعقد محالفات مع سكان تلك المناطق التى أشرنا اليها فى حديثنا السابق ، وقد سهلت هذه النقاط مهمة الفتح الاسلامى بعد ذلك(١٢٨)

وبعد أن استعرضنا غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، وجب علينا أن نتحدث فى ضوء ماعرفناه عن « قدرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ العسكرية والقيادية . . .

---

(١٢٧) النصر

(١٢٨) اعتمدنا فى كتابة هذه الدروس والنتائج على كتاب النبى القائد للواء الركن محمود شيت خطاب صـ ٣٩٩ وما بعدها .


إنتشار الإسلام
في عهد النبي صلى الله عليه وسلم
دمشق
عين التمر
بصرى
القادسية
مؤتة
معان
الحيرة
خيبر
المدينة
مكة
عمان
البحر العربي
بلاد الحبشة

محمد القائد الأعلى

القائد البصير

صفات القائد العظيم

استشارة النبى لأصحابه

القائد المثالى

الشعر يحيى جهاد الرسول ويذكر غزواته

مدح العباس للنبى

قصة ثعلبة بن حاطب

الحج الأكبر

كيف كان المشركون يحجون ؟

مفهوم الحج الأكبر

نكث المشركين للعهد

وجوب قتال الكفار

عمارة المسجد الحرام

علاقات جديدة فى الإسلام

منع المشركين من دخول المسجد الحرام

ذكر الواقدى قال : كان عدد مغازى رسول الله - ﷺ - التى غزا بنفسه سبعا وعشرين غزوة ، وكانت سراياه التى بعث بها سبعا وخمسين سرية . . أما الغزوات التى قاتل فيها فهى تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف .

وفى بعض الروايات أنه قاتل فى بنى النضير . . وقاتل فى غزوة وادى القرى منصرفه من خيبر واستشهد بعض أصحابه ، وقاتل فى الغابة .

وبدأت الحروب فى عهد النبى - ﷺ - بالسرايا ، وكانت أول سرية على ما قدمنا هى سرية حمزة بن عبدالمطلب فى رمضان على رأس سبعة أشهر من هجرة رسول الله - ﷺ -

وأول غزوة غزاها النبى - ﷺ - هى غزوة الأبواء وكانت فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من هجرته ، وكان يحمل لواءه فيها حمزة بن عبد المطلب أيضا . . وكان لواءً أبيض ، وكان الجنود فيها كلهم من المهاجرين ليس فيهم أنصارى واحد . .

وآخر غزاة غزاها - ﷺ - هى غزوة تبوك ، وآخر سرية هى سرية أسامة ابن زيد بن حارثة . التى لم تخرج إلا بعد وفاته ، ولكنه أشرف على تجهيزها . وكانت وجهة هذه السرية أهل « أبنى » وهم فى أرض السراة ناحية البلقاء ، وأبنى قرية بمؤتة .

وكان سر اختيار أسامة للقيادة على الرغم من صغر سنه - هو ما يظهر فى قول النبى - ﷺ - له « سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل »

لقد أراد النبى أن يحرك فيه دوافع الثأر لأبيه الذى استشهد فى مؤته وهو أول قائد فى معركتها .

كما أراد الرسول - ﷺ - أن يعلم المسلمين ضرورة الولاء للقائد ولو كان صغيراً ، ولقد كان فى الجيش من هو أسن منه ، ولكن القيادة ليست بالسن . .

ولم يقدر لهذه السرية الخروج لغايتها إلا بعد انتقال الرسول - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى ، فخرج أسامة إلى غايته ، فَقَتلَ وأسر وأجال الخيل فى عرصات الكافرين وأعداء الدين . . . .

وعاد أسامة إلى المدينة مظفراً . . . وكان هرقل قد بلغه ما حدث فأرسل بحامية تعسكر بالبلقاء ، ولم تزل هناك حتى أزالتها الفتوح الاسلامية .



عمل كبير فى مدة وجيزة

لقد كانت بعثة النبى - ﷺ - ثلاثا وعشرين سنة ، قضى منها فى مكة ثلاث عشرة سنة لم يكن فى خلالها حروب . .

وقد فرض الجهاد فى المدينة ، ولم يبدأ الجهاد إلا بعد سبعة أشهر من الهجرة . . وظل الجهاد موصولا على مدى تسع سنوات وخمسة أشهر تم فى خلال هذه الفترة الوجيزة هذا العدد الوفير من الغزوات والسرايا ، التى يقدر عددها بأربع وثمانين غزوة وسرية . .

ومعنى ذلك أن المسلمين لم يفرغوا من الجهاد أبدا ، فما كانوا يعودون من غزوة أو سرية إلا ليبدءوا فى غيرها . .

وكان النبى - ﷺ - يوجه أحيانا عدة سرايا إلى أماكن متعددة فى وقت واحد .

وقد يكون فى غزوة وله سرايا فى جهات أخرى .. وليس لذلك من تعليل سوى كثرة الأعداء المتربصين بالدعوة الإسلامية من كل جانب ، حتى لقد كان المسلمون أشبه بمن هم فى جزيرة تحيط بها بحار العدوان من جميع النواحى . فهم دائما على أهبة الاستعداد يدافعون عن أنفسهم ضد هذا العدوان المتربص بهم والذى لا يهدأ أبدا ولا يترك المسلمين يهدأون .

وقد عرفنا أن حروب الإسلام كلها دفاعية ، ولكن ذلك لا يمنع من توجيه الضربة للعدو الذى يخشى المسلمون من هجومه ، ومن أجل ذلك كانت السرايا التى أنهكت قوة العدو وشلت حركته وأضعفت اقتصاده .

وكل ذلك لا يستطيع أن يقوم به رجل عادى ... ولكن يقوم به من وهبه الله مقدرة عالية خارقة على إدارة المعارك وتوجيه الجيوش واختيار وجهتها ، وقوادها ، وأفرادها .

ولقد شهد بهذه البراعة الفائقة جميع الخبراء السياسيين والعسكريين عبر العصور والقرون ما بين أنصار وخصوم .

والمعروف أن إعداد الجنود وتجييش الجيوش له ميادين وثكنات معروفة يدرب فيها الجنود على القتال واستعمال السلاح ، ولكن النبى - ﷺ - كان مسجده هو الثكنة الأولى التى خرجت منها ألويته المتعددة ، وهو المدرسة العسكرية الكبرى التى قامت لتعالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية كما تضع خير المبادىء لكل ما يتصل بها من حيث الأهداف والقوانين والآداب .

ولم ينشأ النبى - ﷺ - نشأة عسكرية ، ولم يَتَربَّ فى أحضان قادة محاربين أو جنود مقاتلين . . ولكنه نشأ فى ظل أسرة تجارية دينية تحافظ على أركان البيت الحرام وسقاية الحجيج ورفادتهم . .

ولم يرقب فى نشأته الأولى معركة إلا حرب الفجار التى لم يشترك فيها اشتراكا فعليا وكانت مهمته فيها لا تتعدى إعداد النبال لأعمامه . .

فأين تعلم - ﷺ - فنون الحرب ؟ . من أين له هذه الموهبة الخارقة فى قيادة الجيوش وتعبئتها وتنظيمها ؟

لا إجابة على ذلك إلا أنه الإلهام الربانى ، والتأديب الإلهى الذى أشار إليه - صلى الله عليه وسلم - بقوله « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » « وإذا كان القادة يتعلمون فنون القيادة والحرب على يد غيرهم من القادة والمعلمين فى المعاهد العسكرية ، فإن الرسول - ﷺ - لم يأخذ عن غيره ، وإنما أخذ من الله - جل شأنه - فلا عجب - إذن - أن يظهر عليه الصلاة والسلام - فى أمور الحرب مالا يتسامى إليه قادة الحروب الذين تعلموا فنونها واتخذوها صناعة . . . قد أظهر - ﷺ - عبقرية فذة فى القيادة والتخطيط وإدارة المعارك الحربية .

. . فى هذه المدرسة العسكرية الاسلامية ، . وعلى يد قائدها ومعلمها - ﷺ - تعلم أجدادنا الأوائل من قادة جنود جيش الإسلام الأول ، وطبقوا تعاليمها ومبادئها ونظرياتها عملياً فى ميادين القتال ، إعلاء لكلمة الله ودفاعا عن الدين والأمة ، فكانوا مضرب الأمثال فى الكفاءة القتالية ، وفى الشجاعة والعبقرية الحربية ، وجاءت النتائج بما يثبت بالبرهان الساطع أن

مبادىء العسكرية الإسلامية قد أثبتت عمليا فى المعارك ـ وهى المحك الحقيقى للنظريات الحربية ـ صحتها وكمالها »[١٢٩]

القائد البصير

كان النبى ـ ﷺ ـ نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة ، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه ورسم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب ، وإصابة الاستشارة . . وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والانشاء ، لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام »[١٣٠]

وآيات إلهام القيادة تظهر فى كل خطوات العمليات الحربية سواء منها ما يتعلق بالجندى واختياره وتدريبه وإعداده للمهمة القتالية ، وتوجيهه الوجهة السليمة لتحقيق الهدف السليم . أو ما يتعلق بإعداد القوة الرادعة والقوة الشاملة والقدرة على الحركة السريعة ، أو ما يتعلق باقتصاديات الحرب ، أو ما يتعلق بتطوير القوة وملاحقة العصر ، أو غير ذلك مما يدخل تحت قاموس الحرب والفكر العسكرى . .

---

(١٢٩) اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ ـ من بحث « إمام المجاهدين » العدد التذكارى لمؤتمر السيرة النبوية العاشر بالقاهرة .

(١٣٠) عبقرية محمد للعقاد صـ ٤٧ ـ سلسلة إقرأ ـ

والحديث عن كل هذه الأمور أمره يطول ، ولكنا نشير إلى لقطات مما جاء فى كتابة الخبراء العسكريين الذين أدركوا بواقع خبرتهم ودراستهم وتحليلهم الدقيق مدى البراعة الفائقة التى تجلت فى قيادة النبى - ﷺ - فى مختلف معاركه العسكرية .

صفات القائد العظيم

أهم صفة فى القائد الناجح أن يعنى برجاله ، ويوفر لهم احتياجاتهم الأساسية من المؤن والعتاد والراحة .

وأن يكون قادراً على تحمل مسئولية الحرب ومصادماتها ونتائجها ومفاجآتها وأن يتحلى بروح المخاطرة والشجاعة ، وأن يمضى وقته مع جنوده يمارس معيشتهم ويتفقد أحوالهم ويشعرهم بأنه واحد منهم ، وأن يكون قدوة حسنة لهم . .

وأن يكون واسع العلم بالطبيعة البشرية ، وأن يكون واثقا بجنوده ويتمتع بثقتهم .

وأن يكون متفهما لأصول الحرب ، واقفا على عوامل النصر ، شجاعاً ، صلبا يقدر الموقف تقديراً سليما . . منتفعاً بمشورة ذوى الرأى ممن معه .

هذه هى الصفات المثلى التى أجمع الخبراء العسكريون على ضرورة وجودها فى القائد الناجح . . . وقد اكتملت هذه الصفات بصورة مثالية فى النبى - ﷺ - بطريق الفطرة والإلهام والتربية الإلهية المسددة .

والنبى - ﷺ - لم يخض الحرب لغرض الحرب ، وإنما خاضها لأهداف نبيلة عليا ، وكانت جميعها حروباً بغرض الدفاع عن العقيدة ونشر الدين

ونصرة الضعيف وإنصاف المظلوم . . وقد عبر عن ذلك أمير الشعراء بقوله في همزيته :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء
والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا فالمجد مما يدعون براء
والحرب يبعثها القوي تجبرا وينوء تحت بلائها الضعفاء
كم من غزاة للرسول كريمة فيها رضاً للحق أو إعلاء

ولنستعرض بعض المواقف في حروب الرسول - ﷺ - لنرى مدى عظمته في القيادة . .

استشارته لأصحابه

كان - ﷺ - يستشير أصحابه ويقبل مشورتهم ، وقد مر بنا في غزوة بدر حين نزل في مكان . فقال له الحباب بن المنذر

يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل أهو منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال الحباب : يارسول الله إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه فنشرب ولا يشربون . .

وقبل النبي - ﷺ - المشورة ، ونفذها .

هكذا كان مجلس الحرب في أعلى مستوياته ، وهكذا يكون الرأى والشورى في الجيوش التي تنشد إعلاء كلمة الله ، وتجاهد في سبيل الله .

ولم يكن مثل هذا الرأى الذى ارتآه الحباب ليغيب عن رسول الله - ﷺ - ولكنه أراد أن يعلم الأمة كيف تتشاور فى أمورها ، وكيف يكون القائد البصير مقدراً لرأى غيره من الجنود الأكفاء ، غير مستبد بما يراه هو دون أن يأبه بآراء الآخرين .

صفات القائد المثالى فى الرسول - ﷺ -

لقد كشفت المعارك التى خاضها النبى - ﷺ - سواء قادها بنفسه أو بعث غيره على قيادتها - عن شخصيته القيادية الكاملة التى تتسم بالمعرفة والشجاعة والمتانة والكتمان والقدوة الحسنة وقوة الخلق ، وغير ذلك مما أشرنا إليه فى صفات القائد الناجح .

والمعرفة الحقيقية تعنى ألا يهمل العارف رأى غيره من ذوى التجارب . .

وكما نفذ النبى مشورة الحباب بن المنذر فى بدر ، نفذ كذلك مشورة سلمان الفارسى فى معركة الأحزاب فحفر الخندق . .

وهكذا كان لا يغفل جانب المشورة تعليماً لأصحابه أن يأخذوا بها فإنه لا خاب من استشار ولا ندم من استخار

أما الشجاعة فقد كان فيها مضرب الأمثال . . فلم يكن يدير دفة العمليات من موقع بعيد آمن - وكان يبنى له عريشاً أحيانا ليكون مركز قيادته - ولكنه مع ذلك كان يشارك رجاله فى كل عمل ويتقدم إلى مواطن الشدة ويقاتل ببسالة ، وكان على - رضى الله عنه - يقول « كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله - ﷺ - فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه »

وفى غزوة حنين - كما ذكرنا - فر الجميع من حوله ، وثبت وحده على بغلته ،

وهو يقول : أنا النبى لاكذب   أنا ابن عبدالمطلب

وركض ببغلته فى اتجاه القوم المهاجمين وهم فى عنفوان زهوهم بالنصر المؤقت الذى أحرزوه فى الجولة الأولى ، ولكن النبى - ﷺ - لم يبال بهم ، بل تقدم إليهم وحده ومعه نفر قليل ممن ثبت معه ، وأعداؤه آلاف مؤلفة . . . . وكان من معه يكفكف بغلته عن التقدم خوفاً عليه من هؤلاء المهاجمين ، ولكنه يهتف قائلاً :

« أنا ابن العواتك من سليم »

يقول ذلك مفاخراً فى موطن يستحب فيه الفخر الذى يحث على الثبات والصبر .

أما الكتمان فقد كان من الصفات البارزة فى قيادته - ﷺ - وكان يحرص على ألا تصل معلومات جيشه إلى عدوه ، وكان يُوَرِّى دائماً فى غزواته ماخلا غزوة تبوك التى أفصح عن غايته فيها ، وذلك بهدف استعداد المسلمين لسفر طويل وعدو قوى .

وقد علمنا كيف أنه حاسب حاطب بن بلتعة على مغامرته التى أراد أن يصطنع بها يدا عند قريش ، فأرسل خطابا لهم مع امرأة ينبئهم فيها بعزم النبى - ﷺ - على فتح مكة ، وقد هم عمر بن الخطاب بقتله ، ولكن الذى منع عنه القتل هو النبى - ﷺ -

وكان النبى - ﷺ - يُعْنَى تماماً بحفظ الأسرار بصفة عامة ، وبصفة أخص الأسرار العسكرية ، وكان يختار الوقت المناسب والمكان المناسب لتجهيز البعوث والسرايا ، ويحسن اختيار من يلقى عليه المسئولية والقيادة

من أصحابه . بل إنه ربما كتم عن قائده المهمة التى ينتدبه لأجلها ،

بعض الوقت - فقد أرسل عبدالله بن جحش فى سرية للاستطلاع ، وسلمه رسالة وقال له : لا تقرأ هذه الرسالة قبل مرور يومين ، ثم نفذ بعد ذلك ما تجده فيها - وسار عبدالله بمن معه من الجنود يومين ، ثم فض الرسالة ، فإذا فيها تعليمات محددة قام عبدالله بتنفيذها . وقد سبقت الاشارة إلى ذلك .

والقدوة الحسنة متوفرة بكامل معانيها فى النبى - ﷺ - ولم لا - ؟ وهو المثل الأعلى فى الحياة ، وقد أمرنا الله بالتأسى به فى قوله - تعالى -

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (١٣١)

والمثل الأعلى من خصائصه أنه يحلق ولا يدركه أحد . .

وقد أنزل الله - تعالى - فى حق نبيه الآية المتقدمة فى غزوة الخندق . ليعلم المسلمين ضرورة التأسى بينهم فى الصبر والجهاد .

لقد توفرت فى النبى - ﷺ - صفات القائد الأمثل ، الذى يعد مثلاً أعلى فى قيادته ، ومن أهم هذه الصفات إلى جانب - ما ذكرنا - القدرة على حشد الرجال فى الظروف التى تحيط به بأقصى سرعة وأقصى قوة . . وقد تمثلت طبيعة الجندى بكمالها فيه ، بالإضافة إلى الشجاعة المنقطعة النظير .

---

(١٣١) الأحزاب ٢١

وإذا تتبعنا سير الغزوات المختلفة التى خاضها النبى - ﷺ - وجدنا هذه الصفات كاملة فيه - قال العقاد فى عبقريته :

لقد كان - ﷺ - نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعت إليها المصلحة اللازمة ، يعلم من فنونها بإلهام مالم يعلمه غيره بالدرس والمران ، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة .

لقد سبق النبى - ﷺ - كل من تقدمه ، وكل من جاء بعده من القواد الذين سطر التاريخ أسماءهم بأحرف لامعة بارزة ، أما اسمه هو فقد كان مضيئاً مشرقاً غطى على كل ما عداه من الأسماء .

أما صلابته فى الحق فحدث عن ذلك ولا حرج ، والصلابة الحقة تظهر فى الأزمات الشديدة ، وأقصاها حين تظهر الهزيمة على جنده . .

فانظروا إلى موقف النبى القائد فى غزوة أحد ، وقد انكسر من معه من الجنود وولوا الأدبار ، وتبعتهم قريش بخيلائها . . هل تزحزح الرسول قيد أنملة ، أو رجف قلبه ، أو فقد اتزانه ، أو اضطرب فى إصدار أوامره ؟ .

كلا ، لقد ثبت فى قلب المعركة والخطر يحوطه من كل جانب ، ولم يبق معه من أصحابه إلا اثنا عشر رجلا ، واستطاع العدو مع ذلك أن يخلص إليه ويلقى عليه وعلى من معه الحجارة ، حتى وقع وأصيبت رباعيته وشج وجهه الشريف . وسال منه الدم . .

ومع كل ذلك ظل ثابتاً دون انفعال ، ولم يزد على أن قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدماء ؟

لقد كان ساكن النفس ثابت القلب رابط الجأش ، وتقدم منه أُبيّ خلف يحاول أن يطعنه بحربته ، فتناول النبى - ﷺ - حربة ممن يليه من أصحابه الذين أحاطوا به بأجسامهم حتى لا يصل إليه أبى ، ويحاولون أن يفدوه بأنفسهم ، ولكنه قال لهم : أفسحوا له الطريق . . حتى إذا مادنا منه أبيّ ، طعنه النبى - ﷺ - بالحربة فولى أبيّ يصرخ وهو يقول :

قتلنى محمد ، قتلنى محمد ، ومازال يصرخ من هذه الطعنة حتى مات . . والصلابة من القائد تقتضي كذلك أن يقف موقفا حاسما من الخصوم ، وهكذا كان النبى - ﷺ - سواء فى ذلك الغزوات التى كان يقودها بنفسه ، أو السرايا والبعوث التى كان يولى فيها أحداً من أصحابه . . وكانت أوامره لهؤلاء القواد ثابتة حاسمة ،

قال لأسامة بن : « سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر صباحاً على أهل أبنى ، وأسرع السير تسبق الأخبار ، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقد العيون والطلائع أمامك[١٣٢]

فهاهو ذا يصدر إليه الأوامر التى تشير إلى الصلابة فى الموقف من العدو فعليه أن يهجم فى أول خيوط الفجر ، مراعياً السرعة والمفاجأة .

وهذه الخطط يراعيها القواد المحدثون فى معاركهم الآن . .

ويتصل بشجاعة القائد وصلابته ، وجوب ارتفاع روحه المعنوية ، وهى صفة لوفاتت الجندى خذل ، فما بالك بالقائد ؟

---

(١٣٢) الطبقات الكبرى جـ ٢ قسم ٢ صـ ١٣٦

وكان النبى - ﷺ - مثلا كاملا فى ارتفاع الروح المعنوية التى كان يستمد منها جنوده ما يشاءون . .

وكان لارتفاع الروح المعنوية بين جنود الإسلام أثر كبير فى هزيمة أعدائهم أمامهم ، ولو بدون قتال ، ذلك أن الرعب منهم كان يسبقهم إلى أعدائهم فيفرون أمامهم . وفى ذلك يقول النبى - ﷺ - : نصرت بالرعب مسيرة شهر . . والذى أدى إلى رفع الروح المعنوية بين المسلمين ، هو عقيدتهم التى يقاتلون بها . وجندى بلا عقيدة مهزوم .

كان المسلمون يقاتلون وهم مدركون تماماً أن موتهم شهادة ، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . فهم فائزون لا محالة ، إما بالنصر أو الشهادة وكانوا يرددون أمام أعدائهم قول الله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١٣٣)

هذه الروح المعنوية هى التى كانت تجعل المسلمين فى كفاحهم للأعداء يتسابقون الى ساحات القتال كما يتسابق الناس إلى نيل المغانم والأغراض . .

وكانوا جميعاً يحرصون على لقاء عدوهم فى الصفوف الأولى وشعارهم قوله - تعالى -

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١٣٤)

---

(١٣٣) التوبة ٥٢ (١٣٤) الصف ٤

وربما لقى المسلم خصمه حاسراً بدون درع يقيه أو لأمه تحميه . قيل لعلى :

مابال درعك لاظهر لها ؟

قال : إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يجب أن أبقى .

وحين أحاط به العدو فى إحدى المعارك أنذره أصحابه أن يتراجع فقال عَلَىٌّ : أبالموت تخوفوننى ؟ والله ما أبالى أَسَقَطْتُ على الموت أو سقط الموت علىَّ ؟

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يحض أصحابه على القتال ويشجعهم ، والقرآن الكريم يدعوه إلى ذلك ، فيقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (١٣٥)

وهذه الآية الكريمة تشير - إلى أن المسلمين لايقاتلون عدوهم بعدد ، ولكنهم يقاتلونه بتلك الروح المعنوية العالية التى تستهين بالجموع والأعداد ، ومامن غزوة أو سرية غزاها المسلمون إلا وكان الأعداء فيها أضعاف المسلمين ، ولكن الله كان يمنح النصر لهذه الفئة المؤمنة الواثقة بالله الموقنة بنيل رضاه

« وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله »

---

(١٣٥) الأنفال ٦٥

وإليك بعض الأمثلة من المعارك التى انتصر فيها المسلمون على الرغم من قلة عددهم ، وكان النصر فيها بسبب ارتفاع الروح المعنوية العالية التى بثها الاسلام فى أرواح المجاهدين ، وقد اعتمدنا فى إحصائها على بحث أعده اللواء أ . ح محمد جمال الدين محفوظ(١٣٦)

اسم الغزوة	التاريخ	المكان	الأعداء	قوة المسلمين	النتائج
١ بنى سليم	شوال عام ٢ هـ	قرقرة الكدر بين مكة والمدينة	بنو سليم وغطفان	٢٠٠	فرار بنى سليم وغطفان تاركين أموالهم للمسلمين
٢ ذى أمر	محرم ٣ هـ	ذو أمر موضع بنجد	بنو ثعلبة ومحارب	٤٥٠	فر بنو ثعلبة ومحارب ، وبقى المسلمون فى ديارهم حوالى شهر
٣ بحران	ربيع أول عام ٣ هـ	بحران على طريق المدينة ـ مكة	بنو سليم	٣٠٠	فر بنو سليم ، وبقى المسلمون فى ديارهم حوالى شهر
٤ ذات الرقاع	شعبان ٤ هـ	ذات الرقاع بنجد	بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان	٤٠٠	فرار بنى ثعلبة وبنى محارب
٥ دومة الجندل	ربيع أول عام ٥ هـ	دومة الجندل	قبائل دومة الجندل	١٠٠٠	فرت القبائل وولت الأدبار

(١٣٦) العدد التذكارى لمؤتمر السيرة النبوية ـ أعده مجمع البحوث الاسلامية ـ نوفمبر ١٩٨٥ / صفر ١٤٠٦

٦	بنى المصطلق	شعبان عام ٥ هـ	المريسيع	بنو المصطلق	١٠٠٠	فر بنو المصطلق بعد معركة قصيرة ضد المسلمين
٧	بنى لحيان	جمادى الأول عام ٦ هـ	غران	بنو لحيان	حوالى ٣٠٠٠	فرار بنى لحيان

إلا أن العقيدة والروح الإيمانية العالية لاتمنع من إعداد العدة للعدو ، وقد أمر الله بذلك فقال :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١٣٧)

فهذه الآية تشير إلى وجوب إعداد القوة المتطورة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ باعتباره القائد الأعلى لقواته كان حريصا على تنفيذ مضمونها . .

والقوة تشمل إعداد الجندى وما يستلزمه من تدريب وإعداد وامداد وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحرص على ذلك كله ، ويحث جنوده على موالاة التدريب على مختلف أنواع الأسلحة من رمى وتسديد وطعن ومصارعة وفروسية وحراسة وغير ذلك . .

---

(١٣٧) الأنفال ٦٠

ومن إرشاداته فى ذلك : « ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى »

وقال : « من ترك الرمى بعد ماعلمه فإنما هى نعمة جحدها »

وفى المرابطة يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له مثل أجر من خلفه من صام وصلى »

وفى التدريب على الاستطلاع قال فى غزوة الخندق : « ما من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم ثم يرجع أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة »

وفى التدريب على الحركة السريعة كان يشجع على اقتناء الخيل وتدريبها وإعدادها وكان يقول فى ذلك « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار إليها . .

والإعداد يستلزم النفقة ، والآيات الحاثة على الانفاق فى سبيل الله كثيرة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قدوة أمته فى ذلك . وهذا مايعرف فى العصر الحديث باسم اقتصاد الحرب .

أما التطور فى الأسلحة ، فلم يكن يغفله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد علمنا أنه واجه قريشا فى معركة الأحزاب بسلاح جديد أشار به سلمان الفارسى ، وهو حفر الخندق الذى شل حركة العدو تماما وأرجعهم مهزومين مدحورين .

وفى حصار الطائف استعمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الدبابة والمنجنيق . .

هذه اشارات موجزة إلى البراعة المثلى التى كان يدير بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعارك ، والتى تشهد بأنه قد تحلى بصفات القائد الأمثل الذى

ينظر إليه قادة العصور من بعده نظرة إكبار وإعجاب .[١٣٨]

وواجب المسلمين فى حاضرهم - الذى يرثى له - تدبر سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليأخذوا منها العبرة والمثل . .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[١٣٩]

الشعر يحيى جهاد الرسول ويذكر غزواته

وللشعر عند العرب منزلة رفيعة ، وكانوا يعدونه ديوانهم الذى يسجلون فيه أحداثهم ومآثرهم . وقد سجل الشاعر حسان بن ثابت - وهو شاعر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى إحدى قصائده جهاد الرسول وعدد الغزوات التى غزاها ، ولم ينس أن يفتخر بقومه الأنصار الذين شاركوا فى الجهاد بأرواحهم وأموالهم . وقال فى ذلك :

ألست خير معد كلها نفرا ومعشرا إن هم عُمُوا وان حصلوا[١٤٠]
قوم هم شهدوا بدراً بأجمعهم مع الرسول فما أَلُوا وما خذلوا[١٤١]
وبايعوه فلم ينكث به أحَد منهم ولم يك إيمانهم دخل[١٤٢]

---

(١٣٨) اعتمدنا فى كتابة هذه المادة على كتاب : محمد بن عبد الله توجيهاته وأوامره فى ساعات القتال للسيد فرج ، النبى القائد محمود شيت خطاب ، بحث اللواء أ ح محمد جمال الدين محفوظ .
(١٣٩) ق ٣٧
(١٤٠) حسان ليس من مَعَد ، ولكنه ذكر معدا وأقامها مقام الناس لكثرتها
(١٤١) ألَّ : صاح
(١٤٢) دَخَلٌ : غش

ويوم صبحهـم فى الشِّـعْب من أُحُـد ضـرب رصين كحر النار مشتعل
ويوم ذى قُـرَدٍ يـوم استثار بهم على الجياد فما خاموا وما نكلوا(١٤٣)
وذا العشيرة جاسـوها بخيلهـم مع الرسول عليها البيض والأسل(١٤٤)
ويـوم ودَّان أجْـلَوْا أهـله رقصـا بالخيل حتى نهانا الحَزْن والجبل(١٤٥)
وليلة طلبـوا فيهـا عـدوهم لله ، والله يجزيهـم بما عملوا
وغـزوة يـوم نجد ثم كـان لهـم مع الرسول بها الأسلاب والنَّفَل(١٤٦)
وليلـة بحنـين جـالدوا معـه فيها يعلهم بالحرب إذ نهلوا(١٤٧)
وغـزوة القـاع فرقنـا العـدو به كما تفرق دون المشرب الرسل(١٤٨)
ويوم بويـع كـانوا أهـل بيعتـه على الجلاد فآسوه وما عجلوا(١٤٩)
وغـزوة الفتـح كـانوا فى سـريته مرابطين فما طاشوا وما عجلوا(١٥٠)

---

(١٤٣) غزوة ذى قرد كانت ضد غطفان فى جمادى الأولى سنة ٦ هـ ـ خاموا : ضعفوا
(١٤٤) غزوة ذى العشيرة كانت ضد قريش وبنى مدلج فى جمادى الآخرة سنة ٢ هـ جاسوها : دخلوها ـ البيض : جمع بيضة وهى الخوذة ، الأسل : الرماح
(١٤٥) غزوة ودَّان كانت فى صفر سنة ٢ هـ وكانت ضد قريش وبنى ضمرة ـ الحزن : المكان الصعب .
(١٤٦) هى سرية زيد بن حارثة الكلبى كانت ضد قافلة لقريش فى موضع اسمه القردة ـ ماء بنجد ، وقد غنم المسلمون القافلة .
(١٤٧) العلل : الشرب الأول ، والنهل : الشرب الثانى ، وقد استعار ذلك لمداومة القتال .
(١٤٨) لعلها غزوة ذات الرقاع ضد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان وكانت بنجد فى شعبان من السنة الرابعة هـ ، وقد فر بنو ثعلبة وبنو محارب .
الرسل : بفتحتين القطيع من الإبل والجمع أرسال ، مثل سبب وأسباب ، وبه شبه الناس فقالوا : جاءوا أرسالاً أى متابعين .
(١٤٩) يقصد بيعة الرضوان فى الحديبية ، والجلاد : الجهاد
(١٥٠) طاشوا : خابوا ، تقول : طاش السهم عن الهدف انحرف عنه

ويوم خيبر كانوا فى كتيبته يمشون كلهم مستبسل بطل[151]
بالبيض ترعش فى الأيمان عارية تعوج فى الضرب أحيانا وتعتدل[152]
ويوم سار رسول الله محتسبا إلى تبوك وهُم راياتُه الأوَل
وساسة الحرب إن حرب بدت لهم حتى بدا لهم الإقبال والقفل[153]
أولئك القوم أنصار النبى وهم قومى أصير إليهم حين اتصل
ماتوا كراما ولم تنكث عهودهم وقتلهم فى سبيل الله إذ قتلوا

لقد عدد حسان فى هذه القصيدة كثيرا من غزوات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى خاضها الأنصار معه ، وكانوا أنصاره حقا ، ومن حق حسان أن يفخر بقبيلته التى أثنى الله عليها ثناء مستطابا يبقى أبد الدهر ، ووصفهم بالصدق والإيثار .

مدح العباس للنبى :

ونحب أن نختم هذا الحديث بالاشارة الى قصيدة استقبل بها العباس بن عبد المطلب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند دخوله المدينة قافلا من غزوة تبوك ـ وكان رسول الله قد دخل المسجد فقال : الحمد لله على مارزقنا فى سفرنا هذا من أجر وحسبة . وجاءه عمه العباس فقال له : يارسول اللله إنى أريد أن أمتدحك أتأذن لى ؟

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قل لايفضض الله فاك . فقال العباس :

---

(151) مستبسل : البسالة : الشجاعة .
(152) البيض : جمع أبيض وهو السيف ، والأيمان : جمع يمين وهى اليد ، وتعوج : تميل
(153) القفل : العودة

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يُخْصفَ الورق[١٥٤]
ثم هبطـــت البـلاد لابشـر أنـت ولامضـــغة ولاعلـق[١٥٥]
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نســرا وأهلـه الغرق[١٥٦]
تنقـل من صالب إلى رحـم إذا مضى عالم بـدا طبـق[١٥٧]
وردت نار الخليـل مكتتـما فى صلبه أنت .كيف يحترق[١٥٨]
حتى احتوى بيتك المهيـمن من خندق علياء تحتها النطق[١٥٩]
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضـاءت بنـورك الأفـق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النور وســبل الرشـاد نختـرق[١٦٠]

وقد ذكر الزرقانى أن هذا الخبر أورده الطبرانى فى معجمه . ٥

وهو يشير كما قلنا قبل ذلك الى إقبال النبى - صلى الله عليه وسلم - على سماع الشعر ، وتذوقه ، وإثابته عليه ولو بالدعاء . ودعاؤه - صلى الله عليه وسلم - مستجاب دون شك .

---

(١٥٤) يشير إلى ظلال الجنة ، يعنى أنك كنت فى صلب آدم حين كان يعيش فى الجنة قبل هبوطه إلى الأرض . .

(١٥٥) يعنى أنك تقلبت فى الأصلاب الطاهرة من بنى آدم بعد نزوله الأرض .

(١٥٦) وكنت فى صلب نوح حين ركب السفينة ، وقد غرقت البلاد بما فيها الأصنام التى يعبدها قومه

(١٥٧) أى إذا مضى عالم أنت فيه بواسطة من كنت فى صلبه ، والطبق : عالم آخر تكون فيه بانتقالك من أصل إلى فرع . والطبق هو القرن ، سمى القرن طبقا لأنهم طبق للأرض أى يغطونها ثم ينقرضون .

(١٥٨) أى كنت فى صلب الخليل حيث ألقى فى نار النمروذ . وكان وجودك فى صلبه هو الذى حماه من الاحتراق ، إذ كيف يحترق وأنت فى صلبه ؟ الاستفهام المقصود به النفى .

(١٥٩) النطق : جمع نطاق ، والمراد الأماكن ، وخندف : اسم امرأة ينتسب إليها المضريون وهو مثل يضرب فى النسب العالى

(١٦٠) المواهب اللدنية للقسطلانى جـ ٣ صـ ٨٣

قصة ثعلبة بن حاطب :

أورد القرآن الكريم قصة الرجل الذى طلب من النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يوسع له فى الرزق لينفق منه فى سبيل الله ، وعاهد الله على ذلك ، فلما أفاء الله عليه نعمته . جحد وأبى أن يؤدى صدقة ماله .

وقد نزل فى ذلك قوله تعالى -

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١٦١)

وأشار البيهقى إلى اسم هذا المنافق ، فقال : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ان قوله - تعالى :

« ومنهم من عاهد الله . . »

جاءت فى شأن رجل من الأنصار كان يقال له : ثعلبة . . أتى مجلسا فأشهدهم فقال : لئن أتانى الله من فضله أتيت كل ذى حق حقه . وتصدقت منه . ووصلت منه القرابة . فابتلاه الله فأتاه من فضله ، فأخلف ماوعد فأغضب الله بما أخلفه بما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن .

---

(١٦١) التوبة ٧٥ - ٧٨

كما روى البيهقى ماذكره أبو أمامة فى ذلك ، فقال :

جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا .

قال : ويحك ياثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لاتطيقه .

قال : يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا .

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - ويحك ياثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه . .

قال : يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا .

قال : ويحك ياثعلبة . أما تحب أن تكون مثلى ؟ فلو شئت أن يُصَيِّر ربى هذه الجبال لى ذهبا لصارت .

قال : يارسول الله . ادع الله أن يرزقنى مالا ، فوالذى بعثك بالحق إن أتانى الله - عز وجل - لأعطين كل ذى حق حقه .

قال : ويحك ياثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لاتطيقه .

قال : يارسول الله ، ادع الله .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : اللهم ارزقه مالا .

قال : فاتخذ أو اشترى غنما فبورك فيها ، ونمت كما ينمو الدود ، حتى ضاقت به المدينة ، فتنحى بها ، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولايشهدها بالليل .

ثم نمت كما ينمو الدود ، فتنحى بها ، فكان لايشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار الا من جمعة الى جمعة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم

نمت كما ينمو الدود ، فضاق به مكانه فتنحى بها فكان لايشهد جمعة ولاجنازة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار . وسأل عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروه أنه اشترى غنما ، وأن المدينة ضاقت به ، وأخبروه خبره .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ويح ثعلبة بن حاطب ، ويح ثعلبة بن حاطب !

ثم إن الله ـ تعالى ـ أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذ الصدقات ، وأنزل قوله ـ تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(١٦٢)

فبعث رسول اله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين ، رجلا من جهينة ورجلا من بني سلمة يأخذان الصدقة ، وكتب لهما أسنان الابل والغنم كيف يأخذانها على وجوهها التى أمر بها الشرع ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب ، ورجل من بنى سليم . فخرجا فمرا على ثعلبة فسألاه الصدقة .

فقال : أريانى كتابكما . فنظر فيه ، فقال : ماهذا إلا جزية ، انطلقا حتى تفرغا من جمع الصدقة من الآخرين ثم مُرَّا بى . .

قال : فانطلقا . وسمع بهما السلمى أى الرجل الذى كان ينتمى الى بنى سليم ـ فاستقبلهما بخيار إبله .

فقالا : إنما عليك دون هذا .

---

(١٦٢) التوبة ١٠٣

فقال : ماكنت أتقرب الى الله إلا بخير مالى ، فقبلا منه .

فلما فرغا مرا بثعلبة . فقال : أريانى كتابكما . فنظر فيه ، فقال : ما هذا إلا جزية ، انطلقا حتى أرى رأيى .

فانطلقا حتى قدما المدينة . .

فلما رآهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ـ قبل أن يكلمهما ـ ويح ثعلبة بن حاطب ، ودعا للسلمى بالبركة ، وأنزل الله ـ تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (١٦٣)

قال : فسمع بعض أقارب ثعلبة بنزول الآية وبما قاله الرسول ـ فذهب إلى ثعلبة وقال له : ويحك ياثعلبة أنزل الله فيك كذا كذا .

فقدم ثعلبة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، هذه صدقة مالى .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن الله قد منعنى أن أقبل منك . فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه .

---

(١٦٣) التوبة ٧٥ ـ ٧٧

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعنى . ولم يقبل منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى مضى عليه الصلاة والسلام أى لقى ربه . . ثم أتى ثعلبة أبا بكر . فقال : ياأبا بكر ، اقبل منى صدقتى ، فقد عرفت منزلتى من الأنصار .

فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبلها ؟ ـ وكان أبو بكر متبعا لنهج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يقبلها .

ثم ولى عمر بن الخطاب فأتاه ، فقال: ياأبا حفص ، ياأمير المؤمنين ، اقبل منى صدقتى ، وتثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال عمر : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاأبو بكر ـ أقبلها أنا ؟ وأبى عمر أن يقبلها .

ثم ولى عثمان ، فهلك فى خلافة عثمان .

قال : وفيه نزلت الآية . .

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾ (١٦٤)

قال البيهقى : هذا حديث مشهور فيما بين أهل التفسير ، وإنما يروى موصولا ، بأسانيد ضعاف ، فان كان امتناعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من

---

(١٦٤) التوبة ٧٩

قبول توبته وقبول صدقته محفوظا فكأنه عرف نفاقه قديما ثم زيادة نفاقه وأنه سيموت عليه ثم أنزل الله ـ تعالى ـ عليه من الآية حديثا ، فلم ير كونه من أهل الصدقة . فلم يأخذها منه والله أعلم .(١٦٥)

لقد صرح البيهقى فى خبره الذى سقناه باسم ذلك الرجل الذى نزلت فى شأنه الآيات ، وأنه هو ثعلبة بن حاطب .

ولكن بعض العلماء يقولون : إنها فى رجل آخر . . لأن ثعلبة بن حاطب بدرى أنصارى . . وممن شهد الله ورسوله له بالايمان . ولعل قول من قال فى ثعلبة انه مانع الزكاة الذى نزلت فيه هذه الأيات غير صحيح . .

وربما تكون الآية حكما عاما ينطبق على كل من تعهد بشىء فقصر فيه ، أو وعد بشىء فأخلف فيه ، أو حدث بشىء فكذب فيه ـ وهذه هى صفات المنافق الذى ورد فيه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان »

ولقد قال بعض العلماء : إن الآية نزلت فى رجال من المنافقين هم : نبتل ابن الحارث ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير .(١٦٦)

وقد ذكر القرطبى أيضا قصة ثعلبة على النحو الذى ذكره البيهقى وقدمناه . ولكنه لم يجزم جزما قاطعا بأن الآيات نزلت فى شأنه هو . وأشار إلى أن ثعلبة بدرى . ولكنه قال : وماجاء فى أنه شهد بدرا معارض بقوله ـ تعالى ـ « فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم » .

---

(١٦٥) دلائل النبوة للبيهقى جـ ٥ صـ ٢٨٩

(١٦٦) تفسير القرطبى جـ ٨ صـ ٢١٠

وسبحان مقلب القلوب والأحوال . . وقد حذر النبى - صلى الله عليه وسلم - من الفتن التى يمسى فيه الرجل مؤمنا ويصبح كافرا ، ويصبح مؤمنا ويمسى كافرا ، ولافتنة كفتنة المال التى تصنع على العين غشاوة فلاينظر الانسان الا نفسه .

وقد صور بعض الأدباء غفلة كثير من الأغنياء عن الفقراء .

فقال : إن الانسان الذى ليس عنده مال ينظر الى الناس من خلال زجاج أبيض شفاف فإذا أثرى وضع المال على الزجاج غشاء زئبقيا يحول الزجاج الى مرآة فلاينظر الا نفسه . .

ترجمة ثعلبة فى أسد الغابة

ذكر ابن الأثير ترجمة ثعلبة بن حاطب فى كتابه فقال : هو ثعلبة بن حاطب ابن عمرو بن عبيد بن أمية من بنى عوف بن مالك بن الأوس الأنصارى الأوسى ، شهد بدرا . .

قال : وهو الذى سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يرزقه مالا .

وذكر القصة التى ذكرها البيهقى عن أبى أمامة بتمامها .

قال ابن الأثير : وقال ابن الكلبى : ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد ابن أمية الى آخر النسب المذكور . شهد بدرا ثم قتل يوم أحد .

قال ابن الأثير : فإن كان هو الذى فى هذه الترجمة فإما أن يكون ابن الكلبى قد وهم فى قتله . أو تكون القصة غير صحيحة . أو يكون غيره .(١٦٧)

---

(١٦٧) أسد الغابة جـ١ صـ٢٨٣

وقد أحصى ابن هشام فى سيرته أسماء من استشهدوا فى أحد من المهاجرين والأنصار وذكرهم على بيوتهم وقبائلهم ، ولايوجد فيهم من يسمى ثعلبة بن حاطب . . ولكن يوجد رجل من بنى ظفر اسمه يزيد بن حاطب ولانعتقد ان ابن الكلبى وهم بين الاسمين . .

الحج الأكبر

بعد عودة النبى - صلى الله عليه وسلم - من تبوك فى رمضان سنة تسع أقام بقية رمضان ، وشوال ، ثم انه أراد أن يحج . . ولكن يبدو أن بعض المهام أو الظروف قد حالت دون ذلك . - وربما لأن بعض مظاهر الجاهلية كانت مازالت تؤتى فى الحج - فأرسل - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر - رضى الله عنه - أميراً على الحج . وبعث معه بأربعين آية من أول سورة « براءة » ليقرأها على الناس فى الموسم .

ويقال إنه لما خرج أبو بكر بالناس ، دعا النبى - صلى الله عليه وسلم - علياً ، وقال له : « أخرج بهذه الآيات من صدر براءة فأَذِّن بذلك فى الناس إذا اجتمعوا » فخرج علىٌّ - كرم الله وجهه - على ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التى تُسمى العضباء ، حتى أدرك أبا بكر - رضى الله عنه - بذى الحُلَيْفَة . فحين رآه أبو بكر قال له : أميرٌ أو مأمور ؟

فقال على : بل مأمور .

ثم نهضا ، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التى كانوا عليها وقرأ علىٌّ على الناس سورة « براءة » حتى ختمها قبل يوم التروية بيوم ، وقرأها كذلك يوم عرفة - بعد خطبة أبى بكر - كما قرأها فى يوم النحر ثلاثة أيام متواليات .

فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس فحثهم كيف ينفرون وكيف يرمون ، وأخذ يعلمهم مناسكهم . وحين فرغ قام عَلِيّ فقرأ على الناس « براءة » حتى ختمها . .

وكان أبو بكر يطلب منه ذلك ، قائلاً له : قم يا على فأدِّ رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقوم على ويفعل - أى يقرأ السورة . . وينبه الناس إلى أمور طلبها النبى - صلى الله عليه وسلم -

وسأل رجل علياً . . بأى شيء بعثت فى الحج ؟

قال : بعثت بأربع : ألا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبى - صلى الله عليه وسلم - عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون فى الحج بعد عامهم هذا . .

وفى الحقيقة لم يكن هذا أول حج رسمى للمسلمين ، بل سبقه حج آخر فى العام الثامن بعد انصراف الناس من حصار الطائف ، وعودتهم إلى المدينة فى شوال سنة ثمان ، بقيادة النبى - صلى الله عليه وسلم -

لقد نَصَّبَ النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك العام - عَتَّابَ بنَ أسيد أميراً على مكة ، وجعله أميراً للحج أقام للناس حجهم .

وعلى الرغم من أن عَتَّابَ بن أسيد أسلم يوم فتح مكة إلا أنه كان خيِّراً فاضلاً ورعاً .

وهو عَتَّاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى ، ويُكنى أبا عبد الرحمن ، وقيل : أبو محمد .

استعمله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مكة بعد فتحها حين سار إلى حنين ، وترك معه معاذ بن جبل يفقه أهل مكة فى الدين ، وقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يا عتَّاب ، تدرى على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله ـ عز وجل ـ ولو أعلم لهم خيراً منك استعملته عليهم » .

كان عمره حينذاك نَيِّفاً وعشرين سنة ، فأقام للناس الحج ، وحجَّ المشركون على ما كانوا يحجون عليه . .

ولم يزل عتَّاب على مكة إلى أن توفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقره أبو بكر عليها إلى أن مات أبو بكر ، وقيل : توفى عتَّاب فى العام الذى توفى فيه أبو بكر ـ رضى الله عنهما .

وقيل : جاء نعى أبى بكر إلى مكة يوم دُفن عتَّاب .

ومن دلائل صلاح عتَّاب وزهده ما روى عنه أنه قال : أَصَبْتُ فى عملى الذى استعملنى عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بُرْدَين معقَّدين[١٦٨] ، كسوتهما غلامى كيسان ، فلا يقولن أحدكم : أخذ منى عتَّاب كذا ، فقد رزقنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل يوم درهمين ، فلا أَشْبَعَ الله بطناً لا يشبعه كل يوم درهمان[١٦٩] .

رحم الله عتَّابا . . . . ففى قوله هذا نورٌ يهتدى به العمال والأمراء

---

(١٦٨) البرد المعقد : نوع من برود هجر

(١٦٩) أسد الغابة جـ٣ صـ٥٥٦

والحكام لو أرادوا أن يكون حسابهم خفيفاً وميزانهم ثقيلاً ، وولايتهم نوراً وعملهم قدوة .. وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ثانى أمير للحج يحج بالناس ، ويعلم الناس مناسكهم ..

كيف كان المشركون يحجون ؟

كان المشركون يطوفون بالبيت وحوله الأصنام ، ومع تعظيمهم الكعبة كانوا يعظمون هذه الأصنام وينحرون لها .

وابتدعت قريش بدعة جديدة أضافتها إلى مناسك الحج ، فقد قالوا : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت ، وقطان مكة وسكانها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا نعرف لأحد من العرب مثل ما نعرف لنا ، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم .... وقد ترك هؤلاء الوقوف بعرفة والافاضة منها ، مع أنهم يعرفون ويقرون أنها من مشاعر الحج ودين إبراهيم ـ عليه السلام ـ

ولكنهم لم يمنعوا سائر العرب أن يفيضوا منها ، لقد خصوا أنفسهم بذلك وسموا أنفسهم الحمس .... والحمس هم الذين تحمسوا فى دينهم واعتقدوا أنه يحل لهم من الأمور مالا يحل لغيرهم من الناس .... ودخلت كنانة وخزاعة مع قريش فيما دخلت فيه من الحمس .

ولم تزل قريش تزيد فيما ألزمت نفسها به حتى ابتدعت أموراً لم تكن . وحجرت على نفسها واسعاً ، فقالت : لا ينبغى للحمس وهم حُرُم أن

يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حُرُماً .

ثم زادوا فقالوا : لا ينبغى للحجاج أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حُجّاجاً أو عُمّاراً ، ولا ينبغى أن يطوفوا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس . . وإن طافوا بثيابهم التى جاءوا بها ألقوها بعد الطواف ولا ينتفعون بها بعد ذلك ، ولا ينتفع بها أحد ، وتسمى هذه الثياب اللّقى ، وألزموا بذلك العرب فالتزمت به .

وقال رجل من العرب ـ وقد نظر إلى ثيابه التى يحبها وقد ألقاها ولا يستطيع أن يقربها :

كفى حَزَناً كرّى عليها كأنها لقى بين أيدى الطائفين حريم

ومعنى حريم أى حرام لا تمس . . إنه يرثى هذه الثياب التى ذهبت ضحية ما ابتدعه هؤلاء من عادات لا أصل لها فى شريعة الحج . .

الاسلام يبطل ذلك

فلما جاء الاسلام أنار للناس طريقهم وحرر عقولهم ، وألغى هذه العادات الباطلة ، وأنزل الله فى كتابه الكريم قوله :

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) ﴾ (١٧٠)

---

(١٧٠) البقرة ١٩٩

قال القرطبى : الخطاب فى هذه الآية ـ لأهل مكة الذين كانوا يطلقون على أنفسهم ـ الحمس ـ فإنهم كانوا لا يقفون بعرفات ، بل ـ يقفون بالمزدلفة ولا يقفون بعرفة ـ وكانوا يقولون : نحن قطين الله ـ أى سكان حرمه ـ فينبغى أن نعظم الحرم ولا نعظم شيئاً من الحل ، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ لا يخرجون من الحرم . . ويقف غيرهم من الناس بعرفة(١٧١) .

لقد دعاهم الاسلام إلى أن يقفوا فى عرفات كما يقف الناس . ويندفعوا منها كما يندفع الناس .

ودعاهم إلى نبذ ما حرموا على أنفسهم من طيبات اللباس والطعام فقال لهم :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ ﴾(١٧٢)

---

(١٧١) تفسير القرطبى جـ ٢ صـ ٤٠٤
(١٧٢) الأعراف ٣١ : ٣٣

روى هشام بن عروة عن أبيه قال : كان الحمس ـ الذين تحمسوا فى دينهم ـ يقولون : لا ينبغى لأحد من العرب أن يطوف إلا فى ثيابنا ، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا ، فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً من ثياب الحمس ، وليس معه مال يستأجره به . كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف فى ثيابه فإذا فرغ من طوافه ألقاها فلا يمسها أحد ، وإما أن يطوف عرياناً فأبطل الاسلام ذلك ونادى مؤذن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا لا يطوفن بالبيت عريان[١٧٣] .

النبى يخالف الحمس قبل الهجرة

وقبل أن يشرع الحج فى الاسلام حج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على شرعته قبل الهجرة ، بل قبل أن ينزل عليه الوحى ، فقد روى ابن إسحاق فى سيرته ما ذكره جبير بن مطعم قال : لقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن ينزل عليه الوحى ، وإنه لواقف على بعير بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقاً من الله له ـ صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً[١٧٤] »

ولقد قال جبير بن مطعم حينذاك : هذا رجل أحمس فما باله لا يقف مع الحمس حيث يقفون[١٧٥] ؟

---

(١٧٣) تفسير القرطبى جـ ٧ صـ ١٨٩

(١٧٤) سيرة ابن هشام جـ ١ صـ ٢٣٣

(١٧٥) الروض الأنف للسهيلى جـ ١ صـ ٢٣٤

الحج الأكبر

ورد ذكر الحج الأكبر فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾ (١٧٦)

وقبل أن نتحدث عن مفهوم الحج الأكبر نشير الى مناسبة هذه الآية التى تنير لنا الطريق إلى ذلك .

وردت هذه الآية الكريمة فى صدر سورة براءة بعد قوله ـ تعالى ـ

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (١٧٧)

لقد نزلت هذه السورة بعد غزوة تبوك ، وفى أولها نبذ عهود الكفار إليهم كما أنها كشفت أسرار المنافقين وفضحت تدبيرهم وتآمرهم . .

ولأنها نزلت تحمل سخط الله على الكافرين ، ونبذ عهدهم إليهم لم يجىء فى أولها « بسم الله الرحمن الرحيم » التى هى قمة الأمان . .

---

(١٧٦) التوبة ٣

(١٧٧) التوبة ١ ، ٢

وقد ذكر بعض الرواة تعليلاً آخر لعدم ذكر البسملة فى أولها ذاك أنها مع الانفال تكونان سورة واحدة . . فتركت البسملة بينهما للاشارة الى ذلك .

وذكر بعضهم تعليلات أخرى فى ذلك . ولكن الذى يطمئن إليه القلب هو ما ذكر أولاً .

وهو أن ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ رحمة . وبراءة سخطة لذلك لم يجمع الله بينهما . . أو لأن التسمية أمان ، وهذه السورة نزلت فى المنافقين ولا أمان للمنافقين . .

وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ حين نزلت قد فصل عن المدينة هو ومن معه من المسلمين فى طريقهم إلى مكة لأداء فريضة الحج . فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلفه على بن أبى طالب ليقرأها على الناس . والحكمة فى إرسال على بها . أن هذه السورة تضمنت أمر الله لرسوله بنبذ العهد الذى كان عقده النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينه وبين بعض الناس ، وكانت سنة العرب ألا يُحِل العقد إلا الذى عقده أو رجل من أهل بيته ، فأراد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقطع ألسنة العرب بالحجة ، ويرسل ابن عمه الهاشمى من بيته بنبذ العهد حتى لا يبقى لهم متكلم .

مفهوم الحج الأكبر فى الآية

وقد اختلف العلماء فى مفهوم الحج الأكبر فى الآية ، فقال بعضهم : هو يوم عرفة استناداً إلى الأثر : الحج عرفة . . . . ولما روى من حديث : « يوم الحج الأكبر يوم عرفة » وقال بعضهم : هو يوم النحر ـ وسند هذا ما رواه ابن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقف يوم النحر فى الحجة

التى حج فيها فقال : « أى يوم هذا ؟ » .

فقالوا : يوم النحر .

فقال : « هذا يوم الحج الأكبر »

وإنما قيل لهذا اليوم الحج الأكبر من أجل قول الناس : الحج الأصغر - وقد نبذ أبو بكر فى هذا العام عهود الكافرين ، ونادى ألا يحج بعد هذا العام إلى البيت مشرك .

وقال ابن أبى أوفى - فيما يرويه القرطبى - يوم النحر يوم الحج الأكبر - يراق فيه الدم ، ويوضع فيه الشعر ، ويلقى فيه التفث ، ويتحلل فيه المحرم . ويوم النحر فيه الحج كله ، لان الوقوف كان فى ليلته ، والرمى والنحر والحلق والطواف فى صبيحته .

وقال بعضهم : الحج الأكبر أيام منى كلها ، وهذا كما يقال : يوم صفين ويوم الجمل ويوم بعاث ، فيراد به الحين والزمان لا نفس اليوم .

وقال بعضهم : الحج الأكبر هو القِران ، والأصغر هو الافراد والقِران - هو الجمع بين الحج والعمرة ، فى إحرام واحد ، والإفراد ..... هو الإحرام بالحج وحده . أما التمتع فهو الإحرام بالعمرة فى أشهر الحج ، ثم يتحلل ويحرم يوم التروية بالحج .

وقال بعضهم : الحج الأكبر هو الذى فيه الوقوف بعرفة ، والأصغر العمرة وقال بعضهم : الحج الأكبر هو أيام الحج كلها .

وقال بعضهم : إن الحج الأكبر هو الذى حج فيه المسلمون والمشركون وهو العام الذى حج فيه أبو بكر بالناس ، وصادف أن اتفقت فيه يومئذ

أعياد الملل : اليهود والنصارى والمجوس . ولكن كثيرين ضعفوا هذا الرأى .

وقال بعضهم : إن الحج الأكبر هو الذى حجه أبو بكر بالناس وقد نبذت فيه العهود .

وقال بعضهم : إن الحج الأكبر هو العام الذى حج فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالناس ، وهو العام التالى لحجة أبى بكر ، وهو حجة الوداع الذى حجت فيه مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأمم .

المعانى التى تناولتها سورة براءة

أول آيات نزلت فى هذه السورة تقضى بنبذ ما بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم . وكان العهد العام بينه وبينهم فى ذلك هو ألا يُصَدَّ عن البيت أحدٌ جاءه ، ولا يخُاف أحد فى الشهر الحرام .

وكانت هناك عهود خاصة بينه وبين قبائل من العرب إلى آجال . . وقد قضى الله أن يتم عهد الذين لم ينقضوا عهدهم إلى مدته ، ثم لا تجديد للعهد مرة أخرى . فقد آن للاسلام أن يفرض سلطانه على الجميع ، وآن للجزيرة العربية ألا يكون فيها مشرك أبداً ، وفى ذلك يقول الله ـ تعالى ـ

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾ (١٧٨)

وقد أشارت الأيات بعد ذلك الى أن الاسلام يجير من استجار به من المشركين حتى يبلغه مأمنه ، وهذا يعنى إنسانية هذا الدين ورحمته ، فليس معنى تضييق الأمور على المشركين أن يعاملوا تلك المعاملة الوحشية التى يعامل بها المستعمرون والغاصبون الناس ، وطالما سمعنا وقرأنا من صور الاعتداءات على الآمنين والعزل من النساء والأطفال والشيوخ مما تقشعر له الأبدان . . فأين ما يحدث من هذه الصور الآثمة من قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾ (١٧٩)

نكث المشركين لعهودهم

لقد رأينا ـ فيما سبق ـ كيف نقضت قريش عهدها مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أبرمته فى الحديبية ، وظاهرت بكرا على خزاعة ، واشتركت معها فى الاعتداء على حلفاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك أنه لا عاصم للمشرك من دين يمنعه من نقض العهد . ولئن أثر عن العرب

---

(١٧٨) التوبة ٤ ، ٥

(١٧٩) التوبة ٦

الوفاء بالعهود فإن ذلك كان يمحى أمام الخصومة الشديدة والحقد الدفين . وأصبح الوفاء بالعهد سمة خاصة لأفراد قلائل كان يضرب بهم المثل فى الوفاء بالعهود ، ولو كان سمة عامة لما أصبح هؤلاء الأفراد القلائل مضرب الأمثال ولأصبح العرب جميعاً هم مضرب المثل فكان يقال : أوفى من العرب ، ولا يقال : أوفى من السموأل ـ مثلاً . .

فلما جاء الاسلام جعل الوفاء سمة عامة للمؤمن ، وجعل الغدر سمة الكافر والمنافق . فقال الله فى حق الكافرين :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١٨٠)

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حق المنافقين : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد خلف وإذا أؤتمن خان » .

ووصف القرآن الكريم أخلاق المشركين لو قدر لهم الظهور على المسلمين ، فقال :

« كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون »

---

(١٨٠) التوبة ٧ ، ٨

وقد رأينا مصداق ذلك فى غزوة أحد ، حين قدر للمشركين أن يكسبوا جولة من جولات الحرب ففعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، ومثلوا بجثث القتلى شر تمثيل ، حتى أحفظ ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - وهم الحليم الذى فاق حلمه كل البشر - فأقسم لئن أظفره الله عليهم ليمثلن بهم - فأنزل الله - تعالى - قوله - معزياً لرسوله ومرشداً

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (128) ﴾ (181)

والإلُّ فى قوله - تعالى « إلاّ ولا ذمة » هو العهد والحلف والجوار ، والذمة كذلك العهد والحرمة التى تلزم الانسان فإذا ضيعها أذنب .

وجوب قتال الكفار

ودعت السورة إلى قتال الكفار الذين ينكثون عهودهم ويناصبون المسلمين العداء ، ويطعنون فى دينهم ، لأن اللين مع أمثال هؤلاء لا يجدى . وقد انتهى الوقت الذى يمكن أن يصبر فيه المسلمون على الأذى ، ويلاينوا أعداءهم ويضبطوا أعصابهم أمام استفزازاتهم . وقد قال الله - تعالى فى ذلك :

---

(١٨١) النحل ١٢٦ : ١٢٨

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ
ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا
نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾
قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾(١٨٢)

لقد تضمنت هذه الآيات عدة أحكام .

منها وجوب قتال الكفار الناكثين للعهود الطاعنين فى الدين المؤذين لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ومنها أن الطعن فى الدين يتناول كل استخفاف به أو نسبة ما لا يليق به إليه ، بعد أن ثبت بالدليل القطعى صحة أصوله واستقامة فروعه . كما يتناول الاستهانة برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو إيذائه

روى أن رجلاً قال فى مجلس على ـ كرم الله وجهه ـ ما قتل كعب بن الأشرف إلا غدراً ، فأمر عَلِيّ بضربه ، وقال هذا القول رجل آخر فى مجلس معاوية ، فلم يرد معاوية ، فقام محمد بن مسلمة وقال : أيقال هذا فى مجلسك وتسكت ؟ والله لا أجالسك أبداً ، ولئن خلوت بهذا الرجل لأقتلنه .

---

(١٨٢) التوبة ١٢ : ١٥

قال العلماء : إن جزاء الذى يستهين بحرمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقتل ولا يستتاب ـ ولعل سندهم فى ذلك ما جاء فى القرطبى من أن رجلاً أعمى كانت له أم ولد له منها ابنان ، شتمت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما صبر الرجل على ذلك فقتلها ، فأهدر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دمها ـ أى لم يعاقب الرجل على قتلها ـ ومنها أن الآيات ذكرت العلة فى قتال هؤلاء . . . . وهى نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالعدوان .

ومنها أن الخوف من الأعداء ضعف لا ينبغى لأهل العزة المسلمين أن يتلبسوا به .

ومنها : أن فى الآيات إشارة إلى أن الله يتوب على بعض أقوام كانوا من أئمة الكفر والشقاق ، مثل عكرمةبن أبى جهل وأبى سفيان ، وسليم بن أبى عمرو ، وقد كان هذا . . وحسن إسلامهم وأبلوا فى الاسلام بلاء حسنا .

عمارة المسجد الحرام

وأشارت السورة الكريمة الى مازعمه بعض الكفار من أن عملهم فى عمارة المسجد الحرام لا يقل شأنا عن الاسلام . فانزل الله قرآنا يوضح فيه أن أساس كل عمل صالح هو الاسلام ، وبدونه لا يقبل شيء . وقال فى ذلك قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ

إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ
وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ
﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾(١٨٣)

وقد ذكر العلماء فى أسباب نزول هذه الآيات أقوالا . .

منها : أنه ليس للمشركين أن يتولوا شئون البيت من سداته وسقاية ورفادة ، ولا ينبغى أن يتولى هذه الأمور الا مسلم .

ومنها : ماروواه النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال رجل : ما أبالى ألا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج .

وقال آخر : ماأبالى ألا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام .

وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم .

فزجرهم عمر ـ رضى الله عنه ـ وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر

---

(١٨٣) التوبة ١٧ : ٢٢

رسول الله - ﷺ - وكان اليوم يوم جمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله واستفتيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله - تعالى - اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله .. الآية ...

ولا مانع من تعدد النزول ..

ويتعلق بعمارة المساجد بعض الأحكام التى نذكرها فيمايلى :-

● عمارة المسجد تطلق على بنائه وإصلاحه ، وتطلق ايضا على لزومه . والاكثار من الصلاة فيه ..

فالعمارة حسية ومعنوية ، وكلاهما مراد فى الآية .

● هناك علاقة بين هذه الآيات الكريمة ، وآيات البراءة من المشركين . وهذه العلاقة تظهر فى ذكر عيوب المشركين التى تستوجب البراءة منهم .. ومايزعمونه من أنهم يقومون بأعمال صالحة كعمارة المساجد وسقاية الحجيج شيء لا قيمة له ماداموا غير مسلمين .

● أمر المؤمنين بعمارة المساجد يتناول وجوه العمارة الحسية والمعنوية ويستلزم ترميم ماتهدم من المساجد وتنظيفها وتنويرها وتطييبها واعتيادها للعبادة والذكر ، ومن الذكر دراسة العلم فيها ، وصونها عن الجدل والخوض فى أحوال الدنيا ، وفى الحديث الشريف : اذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » ، ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله - رجل معلق قلبه بالمساجد .

● ● المراد بالمساجد فى قوله - تعالى - « إنما يعمر مساجد الله » المسجد

الحرام ، ولكنه ينصرف الى كل مسجد لله فى الارض ، لأن الصيغة تفيد عموم الحكم . وعلى ذلك فلا يليق بالمشركين أن يعمروا أى مسجد من مساجد الله بأنواع العمارة لأن الكفر ينافى ذلك ، كما لا يصح لهم دخول هذه الاماكن الطاهرة . .

ولكن هل يمنع ذلك من استخدامهم فى إقامتها وتشييدها وإصلاحها وخصوصا إذا كانوا مهرة فى ذلك ؟

الظاهر أنه يجوز استخدامهم ، لأن النهى منصرف الى الولاية عليها والاستقلال بتصريف شئونها . . . . . . وذلك كأن يكون غير المسلم مشرفا على المسجد أو ناظرا لأوقافه(١٨٤) مثلا ـ فذلك لا يجوز . .

علاقات جديدة فى الاسلام

والعلاقات بين الناس تظهر فى القرابة والرحم والصهر والنسب ، كما تظهر فى المودة والصداقة ، وربما اتسعت فشملت مايعرف برابطة الإنسانية . . وحين جاء الاسلام أضاف علاقة جديدة هى علاقة الأخوة فى الدين ، وأكدها النبى ـ ﷺ ـ فآخى قبل الهجرة بين المهاجرين ، وآخى بعد الهجرة بين المهاجرين والانصار ، وزكى القرآن الكريم هذه العلاقة الجديدة فدعا المؤمنين الى الاعتصام بها وتقويتها وقال لهم :

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ

---

(١٨٤) روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام للصابونى جـ ١ صـ ٥٧٢

أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ
ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (١٨٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟
مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ
فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿٧٢﴾ (١٨٦)

ولقد قويت هذه الرابطة حتى حلت محل رابطة النسب وظل المسلمون زمنا يتوارثون بها . . بل لقد دعا الاسلام صراحة ألا يتولى مؤمن كافرا حتى ولو كان أباه أو أخاه ، وقال فى ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟
ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾
قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ
ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم

---

(١٨٥) آل عمران ١٠٣

(١٨٦) الأنفال ٧٢

مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ
لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾(١٨٧)

ولو تأملنا فى هاتين الآيتين رأينا ظاهرهما يخاطب المؤمنين كافة ، وأن الحكم فيهما باق الى يوم القيامة فى قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين ، وقد نزلت آيات أخرى تقوى هذا المعنى ، وتؤكد على قطع العلاقة بين المؤمن والكافر القائمة على التعاطف والمودة . . فقال ـ تعالى ـ فى اول سورة الممتحنة .

وقال فى سورة المجادلة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ
كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ
أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ
يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ
﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٞ ﴿٣﴾ ﴾(١٨٨)

---

(١٨٧) التوبة ٢٣ ، ٢٤

(١٨٨) الممتحنة ١ : ٣

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ (١٨٩)

وقد استجاب المسلمون سراعا لما تضمنته هذه الآيات من أحكام ، وأدركوا عن يقين أن أقوى رابطة حقا هى رابطة الدين التى لا يمكن فى ظلها أن يتخلى المؤمن عن أخيه المؤمن مهما كانت الظرووف والأحوال .

وضرب المؤمنون المثل الكامل فى الايثار والتضامن والحب فيما بينهم حتى ذكره الله فى كتابه الكريم قرآنا يتلى إلى آخر الدهر .

والاسلام مبنى على المصارحة ، ولا يعرف المواربة أو النفاق . حتى اذا ماخشى المؤمنون من قوم يعاهدونهم غشا أو نقضا للعهد وجب عليهم أن ينبذوا عهدهم علانية استجابة لقوله ـ تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) ﴾ (١٩٠)

---

(١٨٩) المجادلة ٢٢

(١٩٠) الأنفال ٥٨

فلا يصح أن تكون هناك علاقة قائمة بين المؤمنين وغيرهم على توجس وتربص وانتهاز الفرصة للانقضاض .

وقد فسر القرطبى الآية المذكورة بقوله :

إذا عاهدت قوما فعلمت منهم النقض بالعهد ، فلا توقع بهم ولا تسبق إلى نقض عهدهم حتى تلقى اليهم أنك قد نقضت العهد والموادعة ، فيكونوا فى علم النقض مستويين

قال النحاس : هذا من معجز ماجاء فى القرآن مما لا يوجد فى الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه ، والمعنى : وإما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد ـ خيانة ـ فانبذ اليهم العهد ، اى قل لهم : قد نبذت اليكم عهدكم . . ليعلموا ذلك فيكونوا معك فى العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدرا »(١٩١)

هذا إذا لم يقطع العدو العهد . . . أما اذا قطعه العدو فلا يشترط منابذته . روى الترمذى قال : كان بين معاوية والروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم ، فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ـ فنظروا فاذا عمرو بن عنبسة . فأرسل اليه معاوية فسأله . فقال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ اليهم على سواء » فرجع معاوية بالناس .

---

(١٩١) تفسير القرطبى جـ٨ صـ٣٢

فالقرآن فى دعوته المؤمنين الى عدم موالاة أقربائهم الكفار يجرى على سنن المصارحة التى يدعو اليها فى علاقاته . فلا ينبغى أن يكون هناك ودٌّ فى الظاهر وبغض فى الباطن . . وقد دعا الاسلام إلى حرب الكفار حربا شاملة فلو أن كل مسلم نظر الى قريبه بين الكفار وكف سلاحه عنه من أجل هذه القرابة ماحققت الحرب هدفها ، ولما نجح المسلمون فى نشر دين الله .

ولكن المسلمين كانوا عند حسن ظن دينهم ، فلم يراعوا فى الحق لومة لائم ، وكان حب الله ورسوله أولى فى نفوسهم بالايثار من حب الأهل والعشيرة والمال والولد .

أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين قال : حدثنى أبى عن أبيه عن جده أن قريشا جاءت الى الحصين ـ وكانت تعظمه . فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل ـ يعنون النبى ـ ﷺ ـ فانه يذكر آلهتنا ويسبها .

فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى ـ ﷺ ـ فقالوا : أوسعوا للشيخ . وعمران ـ بن حصين ـ وأصحابه من المسلمين متوافرون ـ عند النبى ـ ﷺ ـ ولم يأبهوا لهذا الداخل ـ أى لم يأبه عمران وأصحابه بذلك . . ولم يعط أهمية لأبيه . . . . فقال حصين للنبى : ماهذا الذى بلغنا عنك ، أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم وقد كان أبوك حصينةً وخيرا ؟

فقال النبى ـ ﷺ ـ : ياحصين كم تعبد من إله ؟
قال حصين : سبعا فى الأرض وواحدا فى السماء .
قال النبى ـ ﷺ ـ : فاذا أصابك الضر من تدعو؟

قال : الذى فى السماء .

قال : فاذا هلك المال من تدعو؟

قال : الذى فى السماء .

قال النبى - ﷺ - : أفيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟ أرضيته فى الشكر أم تخاف أن يُغلب عليك ؟

قال حصين : لا واحدة من هاتين . قال : وعلمت أنى لم أُكَلَّم مثله . . أى لم أسمع مثل هذا الكلام من قبل .

قال النبى - ﷺ - : ياحصين أسلم تسلم .

قال حصين : إن لى قوما وعشيرة فماذا أقول ؟

قال : قل : اللهم أستهديك لأرشد أمرى وزدنى علما ينفعنى . .

فقالها حصين ، فلم يقم حتى أسلم .

فقام إليه ابنه عمران ، فقبل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأى ذلك النبى - ﷺ - بكى ، وقال :

بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر ، فلم يقم اليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلنى من ذلك الرقة . . . .

فلما أراد حصين أن يخرج - قال النبى صلى الله عليه وسلم - قوموا فشيعوه الى منزله .

فلما خرج من سدة الباب رأته قريش ، فقالوا : صبأ ، وتفرقوا عنه[١٩٢]

وقد رأينا كيف أن عبيدة بن الجراح كان فى بدر يحاول اتقاء ضربات

---

(١٩٢) الرسول لسعيد حوًا جـ١ صـ١١٩ نقلا عن الإصابة فى تمييز الصحابة جـ١ صـ٣٣٧

والده ضده ، فلما ضيق عليه الخناق دافع عن نفسه وأدى ذلك الى قتل والده . .

ونادى عبد الرحمن بن أبي بكر : هل من مبارز ؟ فهم أبو بكر بالخروج إليه ولكن النبى - ﷺ - منعه من ذلك .

وفى دعوة المؤمنين الى قتال المشركين ذكّر القرآن المسلمين بأنهم لا يقاتلون بعدد ولكن يقاتلون بمدد الله لهم ونصره إياهم ، فليس لهم أن يخافوا من كثرة المشركين حولهم . ولذلك ذكرهم بما حدث فى حنين حين أغرتهم كثرتهم واعتمدوا عليها فهزموا ، لولا أن أمدهم الله بعونه ونصرهم بجنده فقال لهم :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[١٩٣]

وقد تحدثنا عن هذه الغزوة فيما سبق . أما ذكرها هنا فهو للمناسبة التى أشرنا اليها ، وهى دعوة المؤمنين الى جهاد عدوهم دون خوف من كثرتهم أو عدتهم فانما النصر بيد الله يؤتيه من يشاء .

---

(١٩٣) التوبة ٢٥ ، ٢٦

منع المشركين الاقتراب من المسجد الحرام

وحذرت سورة « براءة » المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام بعد هذا العام . فقد آن أن يتولى زمام هذا البيت أهله ، وألا يحج اليه الا من آمن بالله ورسوله .

ولقد خشيت قريش أن يكون فى منع المشركين دخول البيت الحرام إضرارا بهم فى أرزاقهم ، فطمأنهم من بيده الرزق ـ سبحانه ـ بأنه كفيل لهم بأرزاقهم . . قال ـ تعالى ـ فى ذلك :

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١٩٤)

ففى هاتين الآيتين يُذكّر الله المؤمنين بأن المشركين نجس لخبث بواطنهم .

---

(١٩٤) التوبة ٢٨ ، ٢٩

وفساد عقائدهم ، وهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فلا ينبغى لهم أن يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام ، وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً أو عيلة بسبب أنقطاع ما كان يصل إليكم من هؤلاء الحجاج المشركين فسوف يغنيكم الله من فضله ، ويوسع عليكم من رزقه .

وعليكم أن تقاتلوا المشركين والذين لا يؤمنون بالله ورسوله من أهل الكتاب ، ولا يصدقون باليوم الآخر على الوجه الذى جاء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يحرمون ما حرم الله ورسلوله حتى يؤدوا الجزية عن انقياد وطاعة وخضوع .

وفى الآيتين كثير من المعانى واللطائف منها . تعليق الغنى بمشيئة الله . وهذا حق لا يجادل فيه عاقل . . فإنه لا حيلة فى الرزق قال تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ (١٩٥)

وقال :

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ (١٩٦)

وقال أحد الشعراء فى ذلك :

كـم عـالم عـالم ضاقـت مسالكـه ... وجاهـل جاهـل تلقـاه مرزوقـاً
هـذا الذى تـرك الأحـلام حائـرة ... وصيـر العـالم النحريـر زنديقـاً

---

(١٩٥) سورة الاسراء ٣٠

(١٩٦) سورة البقرة ٢١٢

أجل ، فليست الأرزاق بمقتضى العقل والذكاء ، ولكنها بيد الله ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء ..

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا   هلكن إذن من جهلهن البهائم

إن الرزق يجرى بحكمة الله

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٩٧)

وفى الحديث القدسي « إن من عبادى من يصلحه الفقر ولو أغنيته لفسد حاله ، ومن عبادى من يصلحه الغنى ولو أفقرته لفسد حاله » .

فهى مقادير الله تجرى على عباده وفق حكمة أزلية سامية لا يدرى أحد كهنها ، وقد قال الامام الشافعى فى ذلك :

لو كان بالحيل الغنى لوجدتنى   بنجوم أقطار السماء تعلقى

لكن من رُزق الحجا حرم الغنى   ضدان مفترقان أى تفرق

ومن الدليل على القضاء وكونه   بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ولكن الذى يجب أن يطمئن إليه الانسان أن الرزق مكفول لكل مخلوق اجتهد أو قصر ، وقد قال الحق فى ذلك :

﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٩٨)

---

(١٩٧) سورة الشورى ٢٧

(١٩٨) الذاريات ٢٢ ، ٢٣

وقد ورد فى الأثر : « لو ركب الانسان الريح فراراً من رزق ، لركب الرزق البرق وسبقه »

و « لن تموت نفس حتى تستوفى أجلها ورزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

ولا بأس من الاستئناس بقصة طريفة تدور حول هذا المعنى :

ذكر أبو الفرج فى أغانيه أن عروة بن أذينة الكنانى الشاعر الأموى تنسك وزهد ، وقال شعراً فى الزهد منه :

لقد علمت وما الإشراف من خلقى ... أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى له فيعنينى تطلبه ... ولو جلست أتانى لا يعنينى
وإن حظ امرىء غيرى سيبلغه ... لابد لابد أن يجتازه دونى

وحدث أن تولى هشام بن عبد الملك الخلافة ، فقصده عروة وجماعة من الشعراء يهنئونه . فلما دخل عروة على هشام قال له هشام :

ألست القائل : لقد علمت وما الإشراف من خلقى .. وأنشد الأبيات السابقة ؟

قال عروة : نعم . أنا قائلها .

قال هشام : أفلا قعدت فى بيتك حتى يأتيك رزقك ؟

قال عروة : يا أمير المؤمنين ، لقد ذَكَّرت منى ناسياً .. وغفل عنه هشام ..

فخرج عروة من فوره وركب راحلته ، ومضى منصرفاً إلى المدينة .

وتذكره هشام آخر يومه حين أوى الى فراشه ـ فجعل يقول لنفسه : شاعر

جاءك مهنئاً من مكان بعيد تقول له ما قلت ، وهو شاعر لا يؤمن لسانه ؟
فقال : يا غلام ، عليَّ بعروة . .

ولكن عروة كان قد مضى . . وعرف هشام خبره ، فاستدعى رسولاً وحمَّله جائزة سنية وقال للرسول : الحق به وإياك أن يفوتك ، وأمره أن يقول له : أردت أن تكذبنا وتصدق نفسك ؟

وسار الرسول خلفه يجرى ، فلحقه وقد دخل بيته وأغلق بابه ، فطرق عليه الباب ، ودفع إليه الجائزة ، وقال له ما قاله هشام .
فقال عروة : قل له : قد صدقنى ربى(١٩٩) . .

والذى يجب أن يطمئن إليه المؤمن أيضاً أنه لا ظلم فى قسمة الأرزاق . . فما يفوت المرء فى شىء يجد له تعويضاً فى شىء آخر . ولكن الأبصار تعمى كثيراً عن هذه الحقيقة .

فقد يتسع لأحد الرزق فى المال ولكن لا يُمنح الصحة أو الولد أو هدوء البال أو نجابة الأولاد أو غير ذلك من نعم الحياة وما أكثرها . .
وقد يضيق رزقه من المال ، وينعم الى جانب ذلك بالصحة وهدوء البال وغير ذلك .

إن قصر النظر يخيل لصاحبه أن المال وحده هو سبب السعادة . ولكن السعادة لها أسباب كثيرة قد يمنحها المرء ولا يقدرها حق قدرها . . ولو وقفنا النظر جيداً وفكرنا تفكيراً سليماً لأدركنا أن السعادة الحقيقية فى الايمان

---

(١٩٩) مهذب الأغانى جـ ٦ ص ٤٠١ ـ مع تصرف فى حكاية القصة واتفاق فى مضمونها ـ

والرضا ، وقد فسر بعض العلماء الحياة الطيبة فى قوله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٢٠٠)

فسرها بالرضا والقناعة ، وما أجمل هذا التذوق الذى يفرغ الاطمئنان فى القلب والراحة فى النفس ، فلا يأسى الانسان على فائت ولا يفرح بآت .... مصداقاً لقوله ـ تعالى

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢٠١)

المراد بالمشركين فى الآية

وقد ذهب بعض العلماء الى أن المراد بالمشركين فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام . . »

هم عبدة الأوثان ، لأن لفظ المشرك يطلق على من اتخذ مع الله إلهاً آخر ، وأن أهل الكتاب وإن كانوا كفاراً إلا أن لفظ المشركين لا يتناولهم .

وقال بعضهم : إن لفظ المشركين يتناول جميع الكفار من عبدة الأوثان وغيرهم .

---

(٢٠٠) النحل ٩٧

(٢٠١) الحديد ٢٣

ونجاسة المشركين معنوية ، فقد ذهب الفقهاء الى أن أبدانهم طاهرة بدليل أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجالسهم ويصافحهم ويشرب من أوانيهم . إلا أن المشرك حين كان يعلن إسلامه يؤمر بالاغتسال ، كما فعل ثمامة بن أثال وقيس بن عاصم ، وقد أمرهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالاغتسال حين أسلما .

وأمْرُه بالاغتسال إشعار بأنه أصبح من المسلمين يتطهر كما يتطهرون .

النهى عن دخولهم المسجد الحرام

والمسجد الحرام نظر بعضهم الى ظاهر اللفظ فقال : انه المسجد الحرام بذاته ، ولا بأس من دخول المشرك مكة . .

ولكن بعض الفقهاء قال : إن المقصود بالنهى ينصرف إلى الحرم كله ، مكة وما حولها .

وزاد بعضهم فقال : بل إن النهى ينصرف الى كافة المساجد فى مختلف بلاد الاسلام .

وقال بعضهم : المقصود بالنهى هو عدم تمكينهم من الحج والعمرة .

إشراك أهل الكتاب

والذى يرى أن أهل الكتاب أشركوا ينظر إلى ما أحدثوا فى دينهم ما لم ينزل الله به من سلطان . وأشار إليه المولى ـ عز وجل ـ بقوله :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا

مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾(٢٠٢)

ولم يقل اليهود كلهم هذه المقالة ، ولا النصارى أيضاً ، بل طوائف منهم .

وقد مضى فى قصة « عزير » أن سبب قول اليهود فيه ما قالوا أن اليهود بعد موسى ـ عليه السلام ـ قتلوا الأنبياء فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من صدورهم ، فخرج عزير يسيح فى الأرض فأتاه جبريل فقال له : أين تذهب ؟ قال : أطلب العلم ، فعلمه التوراة كلها .

فجاء عزير بالتوراة الى بنى إسرائيل فعلمهم .. فضلوا فيه وقالوا عنه : إنه ابن الله ..

وحين نزل قوله ـ تعالى ـ

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

قال عدى بن حاتم ـ وكان نصرانياً جاء إلى الرسول ليسلم : ما عبدناهم ـ فقال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أما إنهم لم يكونوا

---

(٢٠٢) التوبة ٣٠ ، ٣١

يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وأذا حرموا عليهم شيئاً حرموه »

ومن جعل لله ولدا فقد كفر وأشرك ، وجل الذى يقول :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » .

وعد بظهور الاسلام

وأراد الله أن يبشر المؤمنين بنشر دينه وظهوره على كافة الأديان الأخرى ، فليس لهم أن يجزعوا من وجود الكفر والأمر بجهاده . فقال تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

وقد ظهر الدين والحمد لله ، وانتشر فى كافة الأرجاء ، وقامت الدولة الاسلامية قوية سامقة ، تخفق رايتها فى مختلف الجهات . وارتفعت كلمة الله فى أماكن ما كان يظن أن يهمس فيها أحد بكلمة الاسلام . .

فقد فتحت فارس ، ودانت بالاسلام ، وقهرت الروم فى أرض العرب وخرجت منها ذليلة منكسرة ، وعلت كلمة الله فى أرض الشام كلها وكانت تحت سيطرة الروم . . وانساح المسلمون فى أقطار الأرض يبشرون بدين الله حتى علت كلمة الله ، وحق وعد الله . .

وبكل أسف لم يستطع المسلمون بعد ذلك أن يحتفظوا بلوائهم مرفوعاً وقصروا فيما أمروا به ، وألهتهم زهرة الدنيا عن واجب الدين ، فخذلهم

الله ، الذى يقول

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٢٠٣)

ولكنا لا نيأس من رحمة الله . ونتذكر أن هذه الآية كونية ، فلابد ـ إن شاء الله ـ من تحققها فى الغد كما تحققت بالأمس . ولن يكون مع دين الله الذى ارتضاه دين آخر . . . . كما قال عز شأنه :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٢٠٤)

التذكير بوجوب الانفاق فى سبيل الله

لقد أوجب الله الجهاد على المؤمنين بالمال والنفس . وفى دعوته إلى الجهاد بالمال أتى لهم بمثل يتعظون به فقال لهم فى كتابه العزيز :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ

---

(٢٠٣) الحج ٤٠

(٢٠٤) البقرة ٢١٤

ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ (٢٠٥)

ونستخلص من هاتين الآيتين إشارات ودلائل كثيرة .. منها :

● التنبيه الى عدم استغلال الدين فى الإثراء ... فالأحبار والرهبان كانوا يأخذون الأموال من الناس بحسب مكانتهم الدينية لإنفاقها على المحتاجين والمعوزين ، ولكنهم كانوا يكنزونها ولا ينفقونها على المحتاجين - وقد مر بنا فى قصة سلمان الفارسى ، ما حدث به عن أحد الرهبان فى الشام ، وقد أقام معه يتعلم منه دينه قال : « فمكثت مع رجل سوء فى دينه ، كان يأمر الناس بالصدقة ، فإذا أعطوه شيئاً أمسكه لنفسه ، حتى جمع سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، فمات هذا الرجل فأخبرتهم بخبره فنهرونى - وكذبونى .. فدللتهم على ماله فصلبوه ، ولم يغيبوه - أى يدفنوه - إلا بعد أن رجموه(٢٠٦) »

وهذه الآية وإن كانت تصف أهل الكتاب إلا أن خطاب المؤمنين بها لتحذيرهم مما وقع فيه هؤلاء ، وكان معاوية بن أبى سفيان يذهب إلى أن

(٢٠٥) التوبة ٣٤ ، ٣٥

(٢٠٦) أسد الغابة جـ٢ ص ٤١٨

المراد بها أهل الكتاب وحدهم إلا أن أباذر وغيره قالوا إن المراد بها أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين ، وهو الصحيح ، لأنه لو أراد بها أهل الكتاب خاصة لقال : ويكنزون ـ بدون والذين ـ فلما قال الله ـ تعالى :

« والذين يكنزون . . »

فقد استأنف معنى آخر يبين أنه عطف جملة على جملة .

وما زال أبو ذر يرفع صوته برأيه هذا حتى أوغر صدر معاوية فشكاه إلى عثمان . .

ذكر القرطبي راوياً عن زيد بن وهب قال : مررت بالرَّبْذة ـ وهي موضع قريب من المدينة ـ فإذا أنا بأبي ذر ، فقلت له : ما أنزلك هذا المنزل ؟

قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » .

فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب .

فقلت : نزلت فينا وفيهم ، وكان بيني وبينه في ذلك ـ أي كان بيني وبينه كلام كثير في ذلك ـ

فكتب إلى عثمان يشكوني .

فكتب إليَّ عثمان أن أقدم إلى المدينة ، فقدمتها ، فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك .

فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحيت ، فكنت قريباً . فذلك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمَّروا على حبشيًّا لسمعت وأطعت[٢٠٧] »

---

(٢٠٧) القرطبي جـ ٨ ص ١٢٤ نقلا عن البخاري

وهذه الرواية تنفى عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - أنه حمل أباذر على الهجرة من المدينة - كما زعم البعض - كما تنفى عن أبى ذر تهمة الخلاف على عثمان حتى ضاق به ذرعاً . وهذا هو الأجمل بالصاحبين الجليلين - رضى الله عنهما -

لقد خرج أبو ذر من المدينة من تلقاء نفسه فراراً من كثرة الناس حوله ، وهو رجل لا يميل إلى الشهرة ، ويحب العزلة . . وقد صدَّق بذلك قول النبى - صلى الله عليه وسلم - « يرحم الله أباذر ، يمشى وحده ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة وحده » .

وقد ذكرنا قصة هذا الحديث وكيف صدقته الأيام .

فى هاتين الآيتين دليل على مشروعية زكاة المال ، وهى تجب - كما يقول القرطبى - بأربعة شروط : الحرية والاسلام ومرور الحول وملكية النصاب الخالى من الدَّين .

والنصاب مائتا درهم أو عشرون ديناراً أو مثقالاً ذهبياً . . جاء فى كتاب الدين الخالص[٢٠٨] : وزن العشرين مثقالاً يساوى ٤/٧ ٢٨ درهماً ، أو ١/٧ ٧٩ جراماً ، أو ١/٧ ٤٥٧ قيراطاً وتقوم بسعر اليوم الذى تخرج فيه الزكاة على حسب ما يصل إليه سعر الذهب الذى يرتفع أو ينخفض يوماً عن يوم ، ويحسب على أساس العيار ٢١ ، وهو الذى يغلب تداوله .

وقال بعضهم : تقدر بحوالى ٨٥ جراماً من الذهب عيار ٢١ .

---

(٢٠٨) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب جـ ٨ ص ١٧٥

ما المال الذى يعتبر كنزاً ؟

روى العلماء ما يفيد أن المال الذى تؤدى زكاته لا يعتبر كنزاً وذكروا فى ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بِلِهْزَمتيه ـ يعنى شدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ـ ثم تلا :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٠ ﴾ (٢٠٩)

فالكنز هو المال الذى لا تؤدى زكاته .

روى أبو داود عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « والذين يكنزون الذهب والفضة » . . كبر ذلك على المسلمين . فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا نبى الله ، إنه كبر على أصحابك هذه الآية . فقال : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم » فكبر عمر .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » .

---

(٢٠٩) آل عمران ١٨٠

وروى الترمذى عن ثوبان أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا : قد ذم الله ـ سبحانه ـ الذهب والفضة ، فلو علمنا أى المال خير حتى نكسبه ؟

فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله فقال : « لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة تعين المرء على دينه »

أجل ، وأى شىء أفضل من ذلك ؟ وما قيمة المال الكثير ، يحيط به الكفر من كل جانب ، وإلى جواره زوجة ناقمة جاهدة خائنة تبذر المال وتبدده ذات اليمين وذات الشمال ، ولا تدين لرب النعمة بالحمد ولا تعترف لصاحب المال بالشكر ؟

ومن جمال التذوق البلاغى فى تخصيص الوجه والجنب والظهر بالكى ما قاله بعض العلماء وذكره القرطبى : لما طلبوا المال والجاه شان الله وجوههم ، ولما طووا كشحا عن الفقير ـ أى أعرضوا عنه ـ إذا جالسهم كويت جنوبهم ، ولما أسندوا ظهورهم الى أموالهم ثقة بها واعتماداً عليها كويت ظهورهم .

وقال بعض العلماء : إنما خصت هذه الأعضاء بالكى ، لأن الغنى إذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه ـ أى قطّب وقبض جبهته ـ وإذا سأله طوى كشحه أى أعرض بجانبه .

وإذا زاد عليه فى السؤال ولاه ظهره .

فرتب الله العقوبة على حسب المعصية وأحوالها .

التحذير من الاعتداء فى الأشهر الحرم ، ومن النسيء

جرت عادة المشركين أن ينسئوا الأشهر الحرم ، أى يؤخروها عن مواضعها إذا أرادوا ذلك استحلالاً للقتال . ذلك أن هناك شهوراً محرمة يحرم فيها القتال وهى رجب ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ـ أربعة أشهر ـ فكانوا إذا احتاجوا الى القتال فى المحرم أنسأوه ـ أى أخروه ـ إلى صفر ، وجعلوه بدله فيحرمون القتال فى صفر ويحلون القتال فى المحرم . وكان هذا العمل يسمى النسيء .

وكانوا يعمدون الى ذلك لأنهم أصحاب حروب وغارات ، وكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متواليات لا يقاتلون فيها ، وكانوا يقولون : لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئاً لنهلكن .

فكانوا إذا صدروا عن منى فى ذى الحجة يقوم رجل من بنى كنانة يقال له « القلمَّس » فينادى فى الناس قائلاً : أنا الذى لا يُرَدُّ لى قضاء . فيقولون له : أنسئنا شهراً ـ أى أخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر . فيحل لهم المحرم ، ويحرم عليهم شهر صفر . . فظلوا يفعلون ذلك شهراً فشهراً حتى استدار التحريم على السنة كلها ، حتى جاءت حجة الوداع التى حج فيها النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد استدار الزمان كما كان ، وأصبحت الشهور فى مواضعها الصحيحة . .

لقد وافقت حجة أبى بكر التى حجها هذه شهر ذى القعدة . فلما كان العام القابل الذى حج فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وافق الحج موضعه الصحيح فى ذى الحجة . وهذا ما يشير إليه قول النبى ـ صلى الله عليه

وسلم ـ فى حجة الوداع : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ».

فكان من المناسب أن ينبه الله الأذهان إلى وجوب احترام الأشهر الحرم وعدم التلاعب بها فقال الله ـ تعالى ـ فى ذلك :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٧) ﴾(٢١٠)

وكان النسىء زيادة فى الكفر ، لأنه أضاف إلى كفرهم بالله وإشراكهم به كفراً جديداً ، هو نسبة التحريم والتحليل إلى أنفسهم ، وجحود أن ذلك من عند الله ـ جلت قدرته ـ.

النَّسَأَةُ فى العرب

وكان الذين ينسئون للعرب بنى كنانة ، وأول من نسأ منهم هو القَلَمَّس ،

---

(٢١٠) سورة التوبة ٣٦ ، ٣٧

واسمه حذيفة بن عبد بن فُقَيْم بن عدى ، وقام من بعده ابنه عَبَّاد بن حذيفة ، ثم ابنه قَلَعُ بن عبَّاد ، ثم ابنه أُمية بن قَلَع ، ثم ابنه عوف بن أمية ، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف ، وهو آخر من نسأ ، وعليه قام الإسلام الذى حرم النسيء . .

وقد بلغت كنانة بذلك مبلغا فى العرب حتى جعلت شاعرهم يقول مفتخراً :

لقد علمت مَعَد أن قومى كرام الناس أن لهم كراما[(211)]
فأى الناس فاتونا بوِتر وأى الناس لم نعلك لجاما[(212)]
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما[(213)]

دعوة إلى الجهاد

ثم دعا الله ـ تعالى ـ المؤمنين إلى الجهاد فى سبيل الله ، وحذرهم من التباطؤ والتأخر عن تلبية الداعى ، وحذرهم من التأخر عن نصرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو التخلى عن ذلك ، فالله قادر وحده على نصر دينه وإعزاز رسوله ، وقد ذكَّرهم فى ذلك بنصره فى أثناء هجرته ، ولم يكن معه سوى صديقه أبى بكر والكفار محيطون بهما ومتتبعون لهما ، لقد قهر الله جنود الشرك العاتية وردهم على أعقابهم خاسرين دون أن ينالوا من الرسول وصديقه ماتوهموا أن ينالوه . .

---

(211) « أن لهم كراما » تعليل لكون قومه كرام الناس ، فمحل المصدر المؤول مجرور بحرف جر محذوف والتقدير بأن لهم كراما . ـ محمد محيى الدين عبد الحميد ـ

(212) الوتر : طلب الثأر ، لم نعلك لجاما : لم نكفهم كما يكف اللجام الفرس .

(213) سيرة ابن هشام جـ1 ص46 تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد

وقد قال الله - تعالى - فى ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ
فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا
يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ
نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي
الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ (٢١٤)

لقد كانت هذه الآيات الكريمة غاية فى تبكيت المتثاقلين عن الجهاد وإنذارهم بالنكال والوبال ، كما أن فيها تبشيراً للملبين دعوة الجهاد بالنصر المؤزر الذى نصر به رسوله - صلى الله عليه وسلم - . .

---

(٢١٤) التوبة ٣٨ : ٤٠

كانت هذه الآيات الأربعون من صدر سورة براءة هى التى كلف عَلِيٌّ ـ رضى الله عنه ـ بابلاغها للناس فى أثناء حج أبى بكر بهم . .

أما بقية سورة براءة فقد نزلت فى شأن غزوة تبوك وموقف المنافقين فيها . وقد سبق أن عرضنا لذلك فى موضعه . .

عام الوفود

وفد نجران

محاورة بين النبي - صلى الله عليه وسلم - والوفد

وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب

مسيلمة يلتقي بسجاح

الأسود العنسي

وفد بني عامر

عام الوفود

يسمى هذا العام الذى حج فيه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بالناس عام الوفود .

وكان هذا العام عام الوفود لأنه جاء فى أعقاب فتح مكة ، حيث كان العرب يرقبون موقف قريش من الإسلام ، ويعتبرونها إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام ، لأنهم أبناء إسماعيل وهم قادة العرب ، فلما نصبت قريش العداء للإسلام سار العرب وراءها يعادون الإسلام ، فلما استسلمت قريش للإسلام سار العرب وراءها يعلنون ولاءهم للإسلام .

وإذا كانت قريش على كثرتها وجاهها وثرائها ومنزلتها بين العرب لم تستطع الصمود للمسلمين فى حرب ، ولم تستطع إغلاق مكة فى وجوههم ، فكيف بالعرب وهم شراذم متفرقون فقراء ، لاراية واحدة تجمعهم ، ولا زعيم واحد يأمرهم ؟

وكان الله قد بشر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنشر دينه وظهور نوره فقال

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢١٥)

وقال له :

---

(٢١٥) الفتح ٢٨

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى
دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا
۝٣ ﴾ (٢١٦)

ومن هنا اقتنع العرب جميعا بعظمة الإسلام وقوته ونفاذ أمره ، فجاءت الوفود تترى الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسنشير إلى بعض هذه الوفود التى لم يسبق الحديث عنها قبل ذلك .

وفد نجران

كان قد وفد من نجران قبل الهجرة وفد من النصارى وأسلموا ، وبعد الهجرة وَفَد ركب من نصارى نجران عدتهم ستون راكبا . فى رأى بعض الرواة ـ ودخلوا المسجد النبوى ، وعليهم ثياب الحبرة وأردية الحرير ، وفى أصابعهم خواتم الذهب .

وكانوا يحملون معهم هدية إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبارة عن بسط فيها تماثيل ومسوح .

قال ابن سعد : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد كتب إلى أهل نجران ـ فخرج إليه وفدهم ، ولكنه يذكر أنهم كانوا أربعة عشر رجلا من أشرافهم وكانوا نصارى . . وكان فيهم العاقب واسمه . . ـ عبد المسيح ـ وهو رجل من كندة ، وأبو الحارث بن علقمة ، رجل من بنى ربيعة ، وأخوه

---

(٢١٦) سورة النصر

كُرز . والسيد ، وأوس ابنا الحارث ، وزيد بن قيس ، وغيرهم .. وكان منهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم ، أما أميرهم فهو العاقب ، وهو صاحب مشورتهم الذى يصدرون عن رأيه ..

أما إمامهم وحبرهم وصاحب مدراسهم - كنيستهم - فهو أبو الحارث ، والقائم على أمر الرحلة هو السيد .

وهذا يشير إلى أنه ركب مُنظَّم . يوزع التبعات ، ويسند المسئوليات إلى أصحابها .

وتركوا كرزا أخا أبى الحارث يتقدمهم ، وهو ينشد :

إليـك تغـدوا قلصـا وضينُها معترضـاً فى بطـنها جنينهـا

مخـالفاً ديـنُ النصـارى دينها

وقدموا هديتهم التى أشرنا إليها .. فجعل المسلمون ينظرون للتماثيل التى فى البسط ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « أما هذه البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما هذه المسوح فإن تعطونيها آخذها »

فقالوا : نعم ، نعطيكها -

ولما رأى فقراء المسلمين ماعليه هؤلاء من الزينة واللباس الحسن والثياب الجميلة الحسنة ، تشوقت نفوسهم إلى الدنيا ، وتطلعوا إلى زهرتها فأنزل الله - تعالى - قوله

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ

مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ (٢١٧)

إن القرآن الكريم يريد أن يلفت نظر المسلمين الى ماهو أعظم قيمة وأولى بالاهتمام .. وهو النعيم الباقى عند الله . أما ذلك المتاع الزائل فلا ينبغى أن يلتفت إليه الذهن ، أو يتطلع اليه الخاطر ..

وأراد هؤلاء أن يُصلُّوا فى المسجد ، وأراد المسلمون منعهم ، ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : دعوهم يُصلُّوا . فاتجهوا إلى المشرق وصلوا صلاتهم . وكان ذلك بعد العصر .

وأرادوا أن يكلموا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعرض عنهم ـ من أجل ذلك الزى الذى يتزينون به ، ومن أجل ذلك الذهب الذى يتحلون به ، ولم يكلمهم فى يومه ذاك . وانصرفوا وعادوا بزى الرهبان ، فسلموا عليه فردَّ عليهم ثم دعاهم إلى الاسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، ولكنهم امتنعوا وقالوا : قد كنا قبلك مسلمين .

---

(٢١٧) آل عمران ١٤ ، ١٥

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كذبتم يمنعكم من الاسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدا . .

محاورة بين النبى وبينهم

وكان النصارى قد تجردوا لمجادلة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبل كل منهم بكلمة يقولها .

فقد قال أحدهم : المسيح ابن الله ، لأنه لاأب له .

وقال آخر : المسيح هو الله لأنه أحيا الموتى ، وأخبر عن الغيوب ، وأبرأ من الأدواء كلها ، وخلق من الطين طيراً .

وقال غيره للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لماذا تشتم المسيح فتزعم أنه عبد ؟

لقد اعتبروا أن قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المسيح أنه عبد شَتْم له .

مع أن صفة العبودية لله من أكمل الأوصاف للمقربين إلى الله ، وقد قال الحق فى حق نبيه ومصطفاه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[218]

وقال فى حق المؤمنين :

---

(218) الاسراء ١

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢١٩)

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن عيسى هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

فغضبوا وقالوا : إنما يرضينا أن تقول : إنه إله ، وقالوا أيضا : إن كنت صادقا فأرنا عبدا لله يحيى الموتى ويشفى الأكمه والأبرص ، ويخلق من الطين طيرا فينفخ فيه فيطير ..

فجادلهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا لهم :
ألستم تعلمون أن الله حى لايموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفضاء ؟
قالوا : بلى .
قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟
قالوا : بلى .
قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ماعلم ؟
قالوا : لا

قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لايأكل الطعام ولايشرب الشراب ولايحدث الحدث ؟

---

(٢١٩) الزمر ١٧ ، ١٨

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟(٢٢٠)

إنه حوار منطقى ، لايسع أى منصف سوى الإقرار بصدقه ، ولكن العناد يأبى أن يترك صاحبه يذعن للحق ويقر بالصواب .

ونزل القرآن الكريم يفحمهم ويرد عليهم ويخوفهم العذاب فقال عز وجل :

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ

---

(٢٢٠) الرسول لسعيد حوا جـ١ ، ص ١٢٥

صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[٢٢١]

ونزل كذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾[٢٢٢]

لقد كانت هذه آيات ناصعة الدليل واضحة البرهان ، أيدت مانطق به النبى - صلى الله عليه وسلم - من حجة ، وشيدت ماأدلى به من بيان .

ولكن ذلك كله لم يزد هؤلاء الا إصرارا على ماكانوا يعتقدون من ألوهية عيسى وأنه ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولقد نزلت آيات متعددة تناقش منطق هؤلاء الذين أشركوا بأسلوب آخر غير ذلك الأسلوب الذى كان يناقش به الوثنيون عباد الأصنام .

فهؤلاء وان كانوا يعتقدون بوجود الله ، ويؤمنون بالبعث والحساب ويعترفون برسالة رسل سبقوا عيسى عليه السلام إلا أنهم لم ينزهوا هذا الاله العظيم عن الشبيه فتمثلوه فى صورة عيسى ، أو جعلوه ولدا لله أو جعلوه ثالث ثلاثة .

---

(٢٢١) المائدة ٧٢ : ٧٥
(٢٢٢) آل عمران ٥٩

وقد صحح القرآن لهم مفاهيمهم فقال لهم :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ ﴾ (٢٢٣)

ولكنهم لم يصيخوا السمع لهذا التصحيح . ولم يعترفوا الا بما وقر فى أذهانهم من أوهام ..

وأحس النبى - صلى الله عليه وسلم - منهم إصرارا على معتقداتهم ، فقال لهم : إن الله أمرنى إن لم تنقادوا للاسلام أن أُبَاهِلكم (٢٢٤)

ومعنى ذلك أن يدعو كل فريق منا وهو مجتهد فى الدعاء أن تنزل اللعنة على الكاذب فينا . وهذا مايشير اليه قول الحق - سبحانه وتعالى - :

---

(٢٢٣) النساء ١٧١ ، ١٧٢

(٢٢٤) معنى أباهلكم : ألاعنكم ، والبُهلة - بالضم والفتح - اللعنة ، وأصلها الترك من قولهم : بهلت الناقة اذا تركتها بلا صرار

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) ﴾ (٢٢٥)

وأجفل القوم وخافوا حين سمعوا ذلك .. وقال بعضهم لبعض : لاتفعلوا فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لانفلح نحن ولاعقبنا من بعدنا أبدا .

وطلب القوم من الرسول التلبث إلى الغد .. فقبل ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك .

وأخذوا يتشاورون فيما بينهم . وقالوا : والله لقد علمتم أن الرجل نبى مرسل ، وما لاعن قوم نبيا قط الا استؤصلوا وأبيدوا عن آخرهم .. فإن كنتم تصرون على دينكم فوادعوه وصالحوه وارجعوا الى بلادكم .. فوافقوا على هذا الرأى واتفقوا عليه .

وحين أصبح الصباح أقبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه حسن وحسين وفاطمة وعلى ـ رضى الله عنهم ـ وقال : اللهم هؤلاء أهلى ..

فقال : أسقف الوفد : إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل لهم جبلا لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولايبقى على وجه الأرض نصرانى الى أن تقوم الساعة .

وهتف الأسقف بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلا : ياأبا القاسم

---

(٢٢٥) آل عمران ٦١

لانباهلك فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فأسلموا يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ماعليهم .

ولكنهم لم يقبلوا الاسلام .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فإنى أنذركم بالحرب .

قالوا : مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكنا نصالحك . فصالحهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الجزية .

وكانت هذه الجزية ألفى حلة نصفها فى رجب ونصفها فى صفر . ومع كل حلة أوقية من الفضة . وكتب لهم كتابا وأشهدوا عليه شهودا ، وأرسل معهم رسولا هو أبوعبيدة بن الجراح .

ولم يلبث السيد والعاقب أن عادا فأسلما وأنزلهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دار أبى أيوب الأنصارى .(٢٢٦)

مسيلمة مع وفد بنى حنيفة :

بنو حنيفة قبيلة كبيرة كانوا ينزلون اليمامة بين مكة واليمن ، وهم ينسبون إلى جدهم حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل . وكان مع وفد بنى حنيفة الذى قدم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسيلمة الكذاب ، وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب وكنيته أبو ثمامة .

وكان منزلهم حين وفدوا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دار امرأة

---

(٢٢٦) المواهب اللدنية جـ ٤ ص ٣٨ ـ السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٣٥ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد

من الأنصار من بنى النجار ـ وهى رملة بنت الحدث بن ثعلبة ـ وكانت دارها دار الوفود ، وهى صحابية جليلة . زوجها هو معاذ بن عفراء .

وكان مسيلمة متزوجا من امرأة من بنى عبد مناف اسمها كيسة بنت الحارث بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف .

وكان مسيلمة ذا تطلعات زعامية ولديه مواهب عقلية أغرته بأن يصنع لنفسه شيئا يرفع من شأنه بين العرب ، وكان لمصاهرته قريشا يد فى إذكاء هذه التطلعات فى نفسه .

وقدم بنو حنيفة بمسيلمة الذى استطاع أن يتزعم قومه وأدخل فى روعهم أن أمره لايقل شيئا عن أمر الرجل الذى هم ذاهبون اليه ، ودخل بنو حنيفة على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعهم مسيلمة يسترونه بالثياب إكراما وتعظيما له ، وكانوا يلقبونه برحمن اليمامة . ولذلك حين قال المسلمون فى مكة فى بدء الاسلام « بسم الله الرحمن الرحيم » قال القرشيون : انما تذكرون مسيلمة رحمن اليمامة .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند دخولهم جالسا مع أصحابه وفى يده عسيب من سعف النخيل فى رأسه خويصات . .

وانتهى الوفد الى النبى ـ صلى الله عليه و سلم ـ وبينهم زعيمهم مسيلمة مستورا بالثياب . فقال مسيلمة للنبى ـ ﷺ ـ أشركنى معك فى الرَسالة واجعل لى الأمر من بعدك .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لو سألتنى هذا العسيب الذى فى يدى ماأعطيتك . ويعنى ذلك رفضه المطلق لما يطلبه مسيلمة .

وقيل : إن الوفد حين جاء لم يكن معهم مسيلمة ، بل تركوه فى أمتعتهم وتقدموا بدونه ، فقالوا : يارسول الله إنا خلفنا صاحبنا فى رحالنا وركابنا يحفظها لنا . فأمر له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما أمر به للقوم ، وكان قد أمر لكل واحد منهم بخمس أواق من الفضة . وقال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه يعتبر معكم ، ويعنى بذلك حفظه حاجة أصحابه فكأنه معهم . . .

وعاد الوفد الى اليمامة بعد أن كان قد أعلن إسلامه . وأكرم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفادته .

وحين عادوا الى اليمامة ارتد مسيلمة ، وتنبأ ـ أى ادعى النبوة ـ وقال كذبا : لقد أشركت مع محمد فى الرسالة .

واعتمد على كلمة قالها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حقه : تأليفا له وترغيبا له فى الإسلام . . . فجعل يقول لأصحابه : ألم يقل لكم محمد : إنه ليس بشركم مكانا ؟ إنه لم يقل ذلك الا لما يعلم من أننى أشركت معه فى الأمر .

وظل يهذى بسجعات لاقيمة لها . ويقول : إنها قرآن يوحى اليه بها . وماهى إلا كلام لامعنى له من مثل قوله : لقد أنعم الله على الحبلى . أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى .

ـ والصفاق الجلد الأسفل الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر ، والحشى واحد الأحشاء ـ

وكان يحاكى القرآن الكريم بألفاظ لا معنى لها ، فحين سمع قوله

ـ تعالى ـ :

« إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر »

نسج على منوال ذلك قوله : إنا اعطيناك الجواهر ، فصل لربك وهاجر ، إن مبغضك رجل فاجر . . وهو كلام لا قيمة له فى موازين البيان . .

وقال أيضا : إنا اعطيناك الجماهر ، فخذ لنفسك وبادر ، واحذر أن تحرص أو تكاثر .

وقال أيضا : إنا اعطيناك الجماهر . فخذ لنفسك وبادر ، فى الليالى الغوادر .

وأشاع مسيلمة الكذاب أمره ، وظل يثرثر بمقولاته تلك التى لا تجد لها أذنا عاقلة تصغى إليها ، ولكنها قد تجد لها رواجا لدى ضعاف العقول الذين تصطنعهم الرشوة وتغريهم المادة .

لقد أركب نفسه مركبا صعبا بمحاولته محاكاة القرآن الكريم ، فان القرآن قد تحدى العرب وهم أولو الفصاحة وأساطين البلاغة وملوك البيان فلم يستطيعوا أن يقبلوا التحدى ، ولكنهم عجزوا واستكانوا وأقروا بأن مثل هذا الكلام لا يقدر على الاتيان بمثله بشر .

فلما قال مسيلمة ماقال فضح نفسه ، وسخر منه الناس ، الذين كان يتألفهم بالعطاء وأصبح شأنه شأن المغنى ذى الصوت القبيح الذى يجمع حوله شرذمة من المتملقين والمنتفعين الذين يصفقون له حين ينعق ويهتفون له حين ينهق .

وحاول أن تكون له معجزات تسحر عقول الناس ، فلجأ إلى بعض الحيل يروج بها لنفسه ويزعم أنها معجزات لا يقدر أحد على الإتيان بمثلها ، فقد وضع بيضة فى منقوع خل الخمر مع النوشادر فلان قشرها وامتط فأدخلها فى قارورة وصب عليها الماء البارد فجمدت . ثم قال : من يستطيع أن يدخل البيضة فى القارورة مثلما فعلت ؟

ولكن هذه العملية لم يعجب لها إلا العقول الذين لم يطلعوا على أسرار العلوم .

والمعجزة ليست كذلك ، وانما هى تحويل الأعيان بسرعة دون لجوء إلى عمليات كيماوية يحتاج تدبيرها الى وقت . المعجزة هى أن تتحول الأشياء فورا على يد نبى أو رسول من حال إلى حال . دون تَعَمُّلٍ وتدبير ، كما ألقى موسى العصا فتحولت إلى ثعبان مبين ، وكما وضع النبى - ﷺ - يده على مريض فشفى فى الحال ، وكما وضعها على طعام فأشبع المئات . .

حاول مسيلمة أن يفعل شيئا من ذلك فأهانه الله .

فقد سمع أن النبى - ﷺ - مسح رأس صبى كان به ألم فشفى فى الوقت . ووضع يده فى عين ماء فكثر ماؤها ، ولمس عين على - رضى الله عنه - يوم خيبر وكان أرمد فبرأ . . فأراد مسيلمة أن يفعل مثل ذلك فأهانه الله - ذلك أنه تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغار ماؤها بالجملة ، ومسح بيده على عين بصير فعمى ، ومسح بيده ضرع حلوب فارتفع لبنها ويبس ضرعها ، ومسح على رأس صبى فقرع(٢٢٧) .

---

(٢٢٧) المواهب اللدنية جـ ٤ ص ٢١

وقد ترجم بعض الشعراء عن هذه المعانى فقال مخاطبا النبى - ﷺ - :

اعجزت بالوحى أرباب البلاغة فى عصر البيان فضلت أوجه الحيل
سالتهم سورة فى مثل حكمته فتلهم[228] عنه خَيْن العجز حين تلى
فرام رجس كذوب أن يعارضه بعىً غَىٍّ فلم يحسن ولم يطل
مثبج بركيك الإفك ملتبس ملجلج[230] بزرى الزور والخطل
يمج أول حرف سمع سامعه ويعتريه كلال العجز والملل
كأنه منطق الورهاء[231] شذَّ به لبس من الخبل أو مس من الختل
أَمَرَّت البئر واغورَّت لمجته فيها وأعمى بصير العين بالتفل
وايبس الضَّرْعَ منه شؤمُ راحته من بعد إرسال رسل منه منهمل

فقد شبه الشاعر كلامه الذى عارض به القرآن الكريم بكلام امرأة حمقاء لا تحسن أن تتكلم لحمقها ، فهى تهذى بما لا يفيد من كلام مشذب مختلط لا يقترن بعضه ببعض ولا يشبه بعضه بعضا ، ككلام من مسه خبل . . وأهانه الله حين أراد أن يسامى النبى - ﷺ - فى معجزاته ، فجاء ما صنعه وبالا عليه وتحقيرا لشأنه .

وأراد الخبيث أن يكثر الأتباع حوله فأغراهم بوضع التكاليف الشرعية عنهم ، وأعفاهم من أداء الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنا ، وأباح لهم

---

(٢٢٨) تَلْهُم : القاهم وصرعهم
(٢٢٩) مثبج : مضطرب
(٢٣٠) ملجلج : متردد
(٢٣١) الورهاء : الحمقاء - شذُبه : خلطه - لُبْس : اختلاط - الخبل - بالسكون الفساد ، وبالفتح : الجنون

مايشتهون ، فكثرت الغوغاء حوله ، واجتمع الضلال لديه .

وما أعجب ذلك حقا . وأشد منه عجبا أن يظل معترفا بنبوة النبى - ﷺ - قائلا : إنه شريك له فى هذه النبوة .

وكتب للنبى - ﷺ - رسالة يشير فيها الى ذلك قال :

من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله . أما بعد ، فإنى أُشركت معك فى الأمر ، وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر .

وأرسل مسيلمة هذه الرسالة مع رسولين هما : ابن النواحة وابن أثال . فحين قرأ النبى - ﷺ - الرسالة قال للرسولين : فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقول كما قال .

فقال النبى - ﷺ - : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنق كل منكما .

وكتب النبى - ﷺ - لمسيلمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى - أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

رسالة قصيرة ، ولكن فيها غناء كثيراً ، وكانت العاقبة للمتقين حقا . لقد انتهز مسيلمة غفلة قومه وسذاجتهم ، واستغل العصبية العربية استغلالا جيدا لتنمية الحقد ضد القرشيين ، وإثارة الخواطر ضدهم ، وكان هذا من أسباب ظهور حمى التنبؤ التى استفلحت فيما بعد . لقد كانوا يعلمون صدق النبى - ﷺ - ويعرفون أنه مبعوث العناية الالهية لهم ،

ولكنهم كانوا ينفسون على قريش هذه المكانة العظيمة التى أتاحتها الأقدار لهم . كيف تجمع قريش بين الزعامة والنبوة ؟ . . . وكانوا يقولون : كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر ، ويقصدون بكذاب ربيعة مسيلمة ، وبصادق مضر النبى - ﷺ - وكان النبى - ﷺ - قد عرف ذلك فى حياته . . . فقد قال : « بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب ، فأهمنى شأنهما ، فأوحى إلىَّ فى المنام أن أنفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كَذَّابين يخرجان يدعيان النبوة . .

وكان الكذابان هما مسيلمة الكذاب فى اليمامة ، والأسود العنسى فى اليمن .

وقد شجع ذلك على ظهور التنبؤ والارتداد حتى أدى ذلك إلى حربهم فى عهد أبى بكر حربا لا هوادة فيها ، انتهت بهزيمتهم شر هزيمة ، وتفرق أتباعهم عنهم .

وكان مسيلمة قد استفحل أمره وجمع للمسلمين رجالا وعُدَّة ، فوجه اليه أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش حاصره فى حديقة سميت حديقة الموت لكثرة من استشهد فيها ، واستطاع خالد أن يقتله . ويقطع دابر الفتنة . .

بين مسيلمة وسجاح

واذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فلننشر إلى قصة لقاء مسيلمة بسجاح بنت الحارث وكانت قد تنبأت هى الأخرى - أى ادعت النبوة - فلم تقف حمى التنبؤ عند حدود الرجال ، بل تعدته إلى النساء .

وهى امرأة من بنى تميم ، وكانت بنو تميم قد تخاذلت فى أمر الردة بعد وفاة النبى - ﷺ - واختلفوا فى ذلك اختلافا شديدا ، فبينما هم على ذلك إذ فاجأتهم سجاح بنت الحارث مقبلة من الجزيرة تقود بنى ربيعة ، فأتاهم أمر كان أعظم مما هم فيه من الاختلاف .

وكانت قد ادعت النبوة فى الجزيرة ، فاجتمع عليهابنو تميم وعدد كبير من ثعلب ، وكما زعم مسيلمة أنه يوحى اليه ، زعمت هى كذلك انه يوحى اليها ، وادعت أنه نزل عليها : يأيها المؤمنون المتقون لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يبغون .

واجتمعت تميم كلها تنصرها وتؤيدها ، ومن بينهم وجوه من العرب واصحاب عقول بكل أسف . ولكن العصبية إذا اشتعلت انقادت لها العقول وخضعت أمامها الاحلام .

كان من بنى تميم الأحنف بن قيس وحارثة بن بدر .

وكان مؤدبها رجلا يقال له : شبيب بن ربعى الرياحى .

فقالت - وقد ركبها شيطان السجع - : أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم اغدوا على الرباب[٢٣٢] فليس من دونهم حجاب .

وهجمت بمن معها على من أمامها ونهبت مالقتيه فى طريقها من قبائل العرب . .

ثم قالت لأجنادها : اقصدوا اليمامة .

---

(٢٣٢) الرباب أحياء ضبة سموا بذلك لترابهم وتعاقدهم .

فقيل لها : إن شوكة أهل اليمامة قوية ، وقد غلظ أمر مسيلمة . .

فقالت : يامعاشر تميم ، اقصدوا اليمامة ، فاضربوا فيها كل هامة ، وأضرموا نارا ملهامة حتى تتركوها سوداء كالحمامة ، وان الله ـ تعالى لم يجعل هذا الأمر فى ربيعة ـ تعنى بذلك مسيلمة ـ وانما جعله فى مضر . .

وقالت لهم : اقصدوا هذا الجمع ـ أى جمع مسيلمة ـ فاذا قصدتموه عكرتم على قريش . صفوها .

وسارت سجاح فى قومها وكانوا عددا لا يكاد يحصى . واتجهت نحو اليمامة . .

وبلغ مسيلمة الخبر فضاق به ذرعا . .
وتحصن فى حصن اليمامة . .
وأحاطت سجاح به بجيوشها ـ وأرسل مسيلمة إلى وجوه قومه يقول لهم : ماترون ؟

فقالوا ـ بعد أن رأوا ما لا قبل لهم به ـ : نسلم هذا الأمر لها ، فان لم نفعل فهو البوار والهلاك .

ولكنه كان رجلا داهية ، يحسن استعمال الحيلة ، ويعرف ألوان الختل والمكر ، فقال لهم بدهائه : سننظر .

ثم بعث اليها ، وقال : إن الله قد أنزل عليك وحيا ، وكذلك أنزل عليَّ . فهلمى نجتمع فنتدارس ماأنزل الله ، فمن عرف الحق تبعه ، واجتمعنا فأكلنا العرب أكلا بقومى وقومك .

فوافقت على ذلك .. واستعدت للقاء به ..

فأمر بضرب قبة من أدم ، فَضُربت ، وأمر بالعود المندلى فَبخُرت به القبة ..

وقال لأتباعه : أكثروا من الطيب فإنه يلوى عنق المرأة . ويلين من عريكتها .

وجاءته منفردة إلى القبة . وما أن شمت رائحة الطيب والبخور المتصاعد حتى استدار رأسها ونسيت ما جاءت من أجله ، وما أسرع ما استطاع مسيلمة أن يطويها تحت جناحه ، وأن يجعلها تستكين له ، وتقبل أن تكون زوجة له ، وهكذا جاءت سجاح إليه شامخة ، فخرجت راضخة ، وأقبلت إليه محاربة فعادت مستسلمة ، وقدمت طامعة فرجعت خانعة ..

لقد قالت سجاح لمسيلمة وقد سُحِرت به : اخطبنى إلى أوليائى يزوجوك ثم أقود معك تميما ...

وقالت سجاح لقومها : لقد قرأ عليَّ ما نزل عليه فوجدته حقا .

واتفقت بنوحنيفة مع بنى تميم ، واتجها معا لحرب المسلمين ، ولكن الله كسر شوكة الجميع ، وشتت شمل هذا الجمع ..

أما مسيلمة فقد قتل شر قتلة ..

وأما سجاح فقد أراد الله بها خيرا ... فقد وفقها الله الى الاسلام ، فأسلمت وحسن إسلامها(٢٣٣) .

---

(٢٣٣) شرح مقامات الحريرى جـ ٢ ص ٢٢٢

خبر الاسود العنسى

أما الأسود العنسى فهو عبهلة بن كعب بن غوث . من بنى عنْس ولقب بالأسود ، وقال بعضهم : اسمه هو لقبه

وقيل : لقبه ذو الخمار لأنه كان يخمر وجهه . وقيل : بل كان يقوده شيطان يأخذ بلبه اسمه الخمار فلقب به .

خرج الأسود باليمن فى سبعمائة مقاتل وكان يركب من بلد إلى بلد ، وكتب إلى عمال النبى - ﷺ - يقول : أيها المتمردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ماأنتم عليه .

ثم ركب فتوجه إلى نجران وغلب عليها ، ثم قصد الى صنعاء ، فخرج إليه عاملها شهر بن باذان فتقابلا ، وغلب الأسود على صنعاء وتزوج من امرأة شهْر بعد قتله . وكانت امرأة حسناء جميلة . صالحة تقية مؤمنة بالله ورسوله ، وهى ابنة عم فيروز الديلمى ..

وكان خروج الأسود فى أيام النبى - ﷺ - واستفحل أمره حتى غلب على اليمن كلها . . .

فتجمع عليه قوم من المسلمين ، وأجمعوا أمرهم على التخلص منه ، وصادف أن زوجته كرهته لفساده وشره وسوء سيرته وقبح طويته وكثرة فجوره . فأسرت إلى ابن عمها فيروز بذلك ، وقيل : بل أسرت بذلك إلى ابن عمها قيس بن مكشوح . الذى كان قد قال لها : ياابنة عمى قد عرفت

بلاء هذا الرجل عند قومك ، قتل زوجك ، وطأطأ فى قومك القتل ، وفضح النساء ، فهل عندك ممالأة عليه ؟

قالت : على أى أمر ؟

قال : إخراجه .

قالت : أوقتله .

قال : أو قتله .

قالت : نعم ، والله ماخلق الله شخصا هو أبغض إلىَّ منه ، فما يقوم لله على حق ، ولاينتهى له عن حرمة ، فإذا عزمتم أخبرونى أعلمكم بماقى هذا الأمر . . .

وليس بغريب أن يتولى مثل هذا الشخص شيطانٌ يقوده ويوسوس إليه وربما أفضى له ببعض الأخبار ، حتى يتحقق وعيد إبليس باغواء بنى آدم وسوقهم إلى طرق الضلال لتكون نهايتهم جهنم وبئس القرار . يقول الرواة إن الأسود كان يقوده شيطان يلقى فى روعه بعض الأخبار التى تدخل الروع فى قلوب الناس حين يتحدث بها الأسود .

فيقال إن شيطانه ألقى فى روعه ماحدث من تآمر زوجته مع ابن عمها قيس - عليه . وربما استطاع هو أن يعرف هذا الأمر بوسيلة ما ، فاستدعى قيسا ومعه عشرة من قومه . ثم قال له : ياقيس ، إنى أعلمت أنى إن لم أقطع يدك قَطَعْت رقبتى .

وشدد الأسود القول على قيس حتى ظن أنه هالك . ولكنه وجد أن الحيلة هى التى تنجيه . فالتفت إلى الاسود وقال له : إنه ليس من الحق أن أهلك

وأنت رسول الله ، فقتلى أحب إلىَّ من موتات أموتها كل يوم .

فرق الأسود له ، وأمره بالانصراف .

وخرج قيس إلى أصحابه ، وما كان يظن أنه ناجٍ ، فقال لهم : اعملوا عملكم .

وبينما هم كذلك يتشاورون إذا بالأسود قائم على رءوسهم ، وقد جمعت له مائة بدنه ، وخط لها خطا ، وقام بنحرها بيده دون أن تكون مقيدة أو محبَّسة ، وما تجاوزت بدنة منها الخط الذى خطه . .

فلما انتهى من عقر البدن التفت إلى فيروز يقول له : أحق مابلغنى عنك يافيروز ؟ لقد هممت أن أنحرك فألحقك بهذه البهم . وأبدى له الحربة .

فقال له فيروز : اخترتنا لصهرك ، وفضلتنا على الأبناء ، فلو لم تكن نبيا مابعنا نصيبنا منك بشيء ، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الآخره والدنيا ؟ فلا تقبل علينا أمثال مايبلغك ، فإنا بحيث ماتحب .

فرضى الأسود ، وأمره بأن يقسم لحوم تلك الأنعام .

فقسمها فيروز فى أهل صنعاء ، ثم أسرع اللحاق به ، فإذا رجل يحرضه على فيروز ويسعى إليه فيه .

وتسلل فيروز فاستمع إلى ذلك الرجل الذى أوشى به . ثم سمع الأسود يقول : أنا قاتله غدا وأصحابه فاغد علىَّ به .

ثم انصرف الرجل فإذا فيروز وراءه .

فقال الرجل : مه .

فأخبره فيروز بأنه سمع ما قال :

ودخل الأسود داره . وعاد فيروز الى أصحابه فأعلمهم بماسمع ، فاجتمع رأيهم على ضرورة التخلص منه بأسرع مايمكن .

وعاودوا زوجته فى أمره . فدخل إليها أحدهم ، فقالت : إنه ليس من الدار بيت إلا والحرس محيط به غير هذا البيت ، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق . فإذا أمسيتم فانقبوا عليه ، وليس من دون قتله شيء وسأضع فى البيت سراجا وسلاحا .

وخرج الرجل من عندها فإذا الأسود أمامه ، فثار فى وجهه قائلا : ما أدخلك على أهلى ؟ ثم وجأ رأس الرجل(٢٣٤) . وصاحت المرأة فأدهشته فترك رأسه ، ولولا ذلك لقتله فقد كان الأسود شديدا .

قالت له : ابن عمى جاءنى زائرا . فما شأنك به ؟

فقال الأسود : اسكتى لا أبالك ، قد وهبته لك . أى تركته من أجلك .

وخرج الرجل مسرعا إلى أصحابه يخبرهم الخبر ، ويحذرهم وهو يقول لهم : النجاء النجاء . .

فتحيروا ماذا يصنعون . . . . ؟

لقد اجتمعت الشبهات فى نفس القوم وحركتها هذه الدلائل التى رأوها . . وأوشك القوم أن ينكصوا عما عزموا عليه ، ولكن زوجة الأسود

---

(٢٣٤) وجأ رأسه : ضغط عليه بعنف

بعثت إليهم تقول لهم : لاتنثنوا عما كنتم عازمين عليه .
فدخل عليها فيروز الديلمى فاستثبت منها الخبر . . .

ودخلوا الى ذلك البيت فنقبوا من داخله بطائن ليهون عليهم النقب من خارج .

وجلس فيروز مع المرأة جهرة كالزائر .
فدخل الأسود ، ورآه عندها . فقال : ما هذا ؟
فقالت : إنه أخى من الرضاعة ، وهو ابن عمى .
فنهره الأسود وأخرجه . .

فلما كان الليل نقبوا ذلك البيت ، فدخلوا فوجدوا سراجا تحت جفنة .
فأسرجوه . . وتقدموا على حذر .

وتقدم فيروز نحو الأسود فوجده نائما على فراش من حرير وقد غرق رأسه فى جسده وهو سكران يغط . .

كانت زوجته قد سقته الخمر صرفا حتى غلب عليه السكر ، وجلست بجواره .

وأسرع إليه فيروز فعاجله بضربة وأقبل رفاقه فاحتزوا رأسه وخار فى أثناء ذلك كأشد خوارثور . فأقبل الحرس يستطلعون الخبر ، فبادرتهم الزوجة تقول لهم : مالكم ؟ النبى يوحى إليه . فعادوا من حيث أتوا . .

وجلس القوم يتشاورون ماذا يصنعون ؟ وكيف يعلمون أشياعهم ؟ فاتفقوا على أنه إذا كان الصباح تنادوا بشعارهم الذى بينهم وبين إخوانهم المسلمين .

فلما كان الصباح نادى قيس بالأذان ، وقال : أشهد أن محمدا رسول الله ، وأن عبهلة كذاب ، وألقى إليهم رأسه .

فانهزم أصحابه ، وتبعهم الناس يأخذونهم ويرصدونهم من كل طريق يأسرونهم ، وظهر الاسلام وأهله .

وعاد عمال النبى - ﷺ - إلى أعمالهم التى كانوا قد غلبوا عليها وتركوها وكتبوا بالخبر الى النبى - ﷺ - الذى أعلمه الله به من ليلته .

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : أتى الخبر الى النبى - صلى الله عليه وسلم - من السماء الليلة التى قتل فيها الأسود العنسى ليبشرنا . فقال : « قتل العنسى البارحة ، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين » قيل : من ؟

قال : « فيروز »

كانت مدة ظهور الأسود الى أن قتل ثلاثة أشهر وقيل أربعة أشهر . .

لقد مات هذا المتنبىء المزعوم وهو سكران ، وكانت نهاية سوء لرجل سوء . « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »

وارتضى المسلمون فى اليمن معاذ بن جبل الذى كان قد أرسله النبى - صلى الله عليه وسلم - إليها معلما وقاضيا - ارتضوه للصلاة بهم . فأقام لهم الصلاة فى صنعاء فلم يمكث سوى ثلاث حتى جاء الخبر بوفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -(٢٣٥)

---

(٢٣٥) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٦ ص ٣٠٥

وفد بنى عامر

وقدم وفد بنى عامر بن صعصعة ، وكان فيهم عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى . وأربد بن قيس بن جزء . وحيان بن أسلم أو جبار بن سلمى . .

كان هؤلاء النفر رؤساء القوم وشياطينهم .

وتقدم عامر بن الطفيل القوم فى الدخول على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناويا الغدربه . كان يحسد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ماأعطاه ربه من نعمة النبوة والرسالة واتباع الناس له ، وإشادتهم بذكره ، واعترافهم بفضله .

وكان يقول بينه وبين نفسه ، وبينه وبين خاصته : قد كنت آليت لاأنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟

واتفق مع أربد قال له : إنا إذا قدمنا على الرجل فإنى شاغل عنك وجهه . فاعله بالسيف . .

لقد جاءوا إذاً غادرين ، ولم يجيئوا كما جاء غيرهم من العرب مسلمين مذعنين .

وقد ظن عامر أن الأمر بالنسبة له هين . فما هو الا أن ينفرد برسول الله حتى يتخلص منه ، وماظن أن هناك عينا تحرسه وجندا من الله يحفظه ، وماطرأ على ذهنه قول الله تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « والله يعصمك من الناس »

إن خلق الغدر مفطور فى نفس هؤلاء الأقوام الذين لم تهذبهم معرفة ، ولم يعصمهم دين ، ولم ينههم خلق قويم .. شأنهم فى ذلك شأن الأعراب المقيمين فى البوادى لاهم لهم الا الاغارة والنهب والسلب .

وسمع بنو عامر بخبر الاسلام الذى دانت به العرب فى كل مكان فقالوا لعامر بن الطفيل : ياعامر إن الناس قد أسلموا فأسلم . فكبر ذلك فى نفسه . وعزم على الغدر ، وبيت النية على ذلك ، وقال لأربد ماقال .

وحين وصل الوفد الى المدينة والتقوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - قال عامر للنبى : يامحمد خالنى - أى انفرد لى خاليا حتى أتحدث معك حديثا لايسمعه أحد .

فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : لا والله حتى تؤمن بالله وحده لاشريك له .

فأعاد عامر القول : يامحمد خالنى ، وجعل يتكلم وينتظر من أربد أن ينفذ ماانفقا عليه ..

ولكن أربد واقف لايصنع شيئا ، وقد يبست يده على السيف حتى إنه لم يستطع إخراجه من غمده .

وظل عامر يقرر قوله : يامحمد خالنى .
والنبى لايزيد على قوله له : حتى تؤمن بالله وحده لاشريك له .
ثم قال عامر : ماتجعل لى إن أسلمت ؟

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : لك ماللمسلمين وعليك ماعليهم .

قال عامر : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل .

قال عامر : أنا الآن فى أعنة الخيل فى نجد ، أتجعل لى الوبر ولك المدر ؟
قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا .

فقام عامر وهو مغضب ، وانصرف وهو يقول : لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرسا . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثقة كاملة لوعد الله : يمنعك الله . فلما ولى نظر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى السماء وهى قبلة الدعاء ، وقال : اللهم اكفنى عامر بن الطفيل بما شئت ، وابعث له من يكفنى شره ، واهد قومه .

وحين خرجوا قال عامر لأربد : أين ماكنت أمرتك به ؟ وأيم الله ماكان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسى منك ، وأيم الله لاأخافك بعد اليوم أبدا .

فقال له أربد : والله ماهممت بالذى أمرتنى به الا دَخَلْتَ بينى وبينه أفاضربك بالسيف ؟

لقد منع الله رسوله من أربد وحفظه من غدره . .
قال ابن إسحاق : لقد كان أربد يرى بينه وبين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورا من حديد . وأورد على لسان أربد قوله : لما أردت سل سيفى

نظرت فاذا فحل من الابل فاغر فاه يهوى إلىّ فوالله لو سللته لخفت ان يبلغ رأسى

ولامانع من حدوث ذلك كله فقد تكرر منه الهم عدة مرات ، فكان فى كل مرة يحدث له فيها غير مايحدث فى المرة التى قبلها وهذا من عظم رعاية الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحفظه إياه . .

وانطلق عامر وصاحبه حتى إذا كان ببعض الطريق فى مكان يقال له الرقم فى ضاحية من ضواحى المدينة بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه ، فقتله الله به شر قتله . استجابة لدعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه . .

وكان حين أصابه الطاعون جعل يقول وهو فى بيت امرأة من بنى سلول :
أغدة كغدة البكر وموتا فى بيت سلولية ؟

كانت هذه المرأة بنت ذهل بن شيبان وزوجها مرة بن صعصعة ـ أخو عامر . .

وجعل يقول : ائتونى بفرسى . فأتوه به ، فركبه فمات على ظهره . .
لقد أراد أن يسبق الموت ولكن الموت سبقه .

قال بعض الرواة : لقد أراد أن يحارب الموت ، فأخذ رمحه ، وأقبل يجول ويقول : ياملك الموت ابرز لى ، فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتا .

كانت هذه حماقة من حماقات عامر أراد الله أن يصغر اليه نفسه . ويظهر

له عجزه وأنه لاحول له ولاقوة . . ولم يُجْدِه وعيده للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يسعفه فرس واحد ولارجل واحد من تلك الخيول والرجال التى قال عنها أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا . .

أما أربد ، فكان قد خرج بأصحابه بعد أن واروا عامرا التراب ، حتى قدموا أرض بنى عامر .

فلما قدموا جاءه قومه يقولون : ماوراءك ياأربد ؟

قال : لا شيء ، والله لقد دعانا الى عبادة شيء لوددت أنه عندى الآن فارميه بالنبل حتى أقتله .

ثم خرج بعد مقالته تلك ومعه جمل له يتبعه ، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتها .

وكان أربد أخا لبيد بن ربيعة الشاعر ـ لأمه . .

وفى شأن عامر وأربد نزل قوله ـ تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ

وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ
وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢٣٦)

وقال لبيد بن ربيعة يرثى أخاه أربد :

ما إن تعدى المنون من أحد … لا والد مشفق ولا ولد
أخشى على أربد الحتوف ولا … أرهب نوء السماك والأسد
فعين هلا بكيت أربد إذ … قمنا وقام النساء فى كبد
وعين هلا بكيت أربد إذ … ألوت رياح الشتاء بالعضد(٢٣٧)

وقد هدى الله لبيد بن ربيعة بعد ذلك الى الاسلام ، وكف فى ظله عن قول الشعر مطلقا .

رد شبهة :

ذكر بعضهم أن عامر بن الطفيل أسلم ، وهو معدود فى الصحابة وذكروا فى ذلك حديثا مرويا عنه ـ أنه قال : يارسول الله زودنى كلمات أعيش بهن ، قال : « ياعامر أفش السلام ، وأطعم الطعام ، واستحى من الله كما

---

(٢٣٦) الرعد ٨ : ١٣.
(٢٣٧) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠٧

تستحى رجلا من أهلك ، واذا أسأت فأحسن فإن الحسنات يذهبن السيئات »

ولكنا نقول : إن عامرا الذى ورد فى شأنه ذلك غير عامر بن الطفيل العامرى .

فعامر الذى لقنه النبى - صلى الله عليه وسلم - هذه الكلمات أسلمى من بنى أسلم وافق اسمه واسم أبيه هذا الرجل العامرى . . ولايشك أحد فى أن عامر بن الطفيل العامرى مات كافراً مدعواعليه من النبى - صلى الله عليه وسلم - .

وقد أسلم من كان مع عامر بن الطفيل وأربد بن قيس من بقية الوفد استجابة لدعوة النبى - صلى الله عليه وسلم أيضاً . .



حجة الوداع

هل حج النبي - ﷺ - وهو بمكة

علي بن أبي طالب يلحق بالنبي من اليمن

أنواع الإحرام

كيف لبى النبي - ﷺ - ؟

كيف حج رسول الله ؟

خطبة الوداع

المعاني التي اشتملت عليها الخطبة

إبطال النسيء

طوف رسول الله

المأثور من دعاء النبي - ﷺ -

اليوم أكملت لكم دينكم

طواف الوداع

العودة إلى المدينة

حجة الوداع

فى ذى القعدة سنة عشر تجهز النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأداء فريضة الحج ، وأمر الناس أن يتجهزوا معه . .

وخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لخمس ليال بقين من ذى القعدة ، بعد أن استعمل على المدينة أبا دجانة الساعدى ، واسمه سباع بن عرفطة الغفارى .

وقد سبق أن علمنا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يحج من المدينة الا حجة واحدة ، ولكنه اعتمر ثلاث مرات قبلها .

فقد روى البخارى ومسلم عن هدبة عن همام عن قتادة عن أنس أن النبى ـ صلى لله عليه وسلم ـ اعتمر أربع عمر كلهن فى ذى القعدة ، إلا التى فى حجته .

أما بيان هذه العُمر فهى عمرة الحديبية ، وعمرة القضاء ، وعمرة الجعرانة ، ثم العمرة التى اعتمرها مع حجته فى السنة العاشرة من الهجرة .

هل حج النبى بمكة قبل الهجرة ؟

فى حديث رواه البخارى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حج وهو بمكة قبل الهجرة حجة واحدة .

وان كان ذلك يرد عليه أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتعرض للناس فى موسم الحج يعرض عليهم رسالة ربه ، ويستدعى ذلك حجه معهم ، ومن أقواله فى ذلك : « من رجل يؤوينى حتى أبلغ كلام ربى ـ عز وجل ؟ » .

حتى قيض الله جماعة من الأنصار قبل هجرته بثلاث سنوات فبايعوه وأووه ونصروه، وكان يلتقى بهم كل عام فى العقبة . .

استعداد الناس للحج معه

وحين أذن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحج فى السنة العاشرة أقبل المسلمون من كل حدب وصوب يلبون دعوته ، ويحرصون على أن يحضروا الموسم معه تبركابه وتعلما منه . حتى ضاقت جنبات المدينة بهم .

ثم خرج صلى الله عليه وسلم ، وخرج الناس معه ، فلما كان بذى الحليفة استوى على راحلته ، فلما أخذت به فى البيداء لبّى ، ولبى الناس معه ، وأهلَّ وأهلَّ الناس معه . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ترجل وأدهن ولبس إزاره ورداءه لم ينه عن شيء من الأردية ولا الأزر الا المزعفرة التى تردع الجلد ـ أى تغير لونه الى الصفرة ـ

وكان قد صلى الظهر فى المدينة أربعا ، وصلى العصر فى ذى الحليفة ركعتين .

ولم يعتن النبى - صلى الله عليه وسلم - بالمظهر الذى يحرص عليه الناس فقد ورد عن أنس أن النبى - صلى الله عليه وسلم - حج على رحل قديم وتحته قطيفة ، وقال : « حجة لارياء فيها ولا سمعة »

وفى رواية : حج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رحل قديم وقطيفة تساوى - أو لاتساوى - أربعة دراهم ، فقال : « اللهم حجة لارياء فيها »

وروى إسحاق بن سعيد عن أبيه قال : صدرت مع ابن عمر ، فمرت بنا رفقة يمانية ورحالهم الأدم ، وخطم إبلهم الخرز ، فقال عبد الله - أى ابن عمر - : من أحب أن ينظر الى أشبه رفقة - وردت العام - برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه إذ قدموا فى حجة الوداع فلينظر إلى هذه الرفقة . .

لقد أراد النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يعلم أمته الزهد والتواضع ، كما أراد أن يعلمهم تحمل المشاق فى سبيل الله ، فلم يشأ أن يجعل حجه مظهرا من مظاهر التباهى والتفاخر الذى يظهر فيه الناس الآن ويتنافسون فيه ، فيحملون أنفسهم مالايطيقون .

كما كان يعلمهم كيف يصبرون على أذى الطريق ، وعنف الرفيق . . . . روت أسماء بنت أبى بكر قالت : خرجنا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - حجاجا ، حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلست عائشة إلى جنب رسول الله - ﷺ - وجلست إلى جنب أبى ،

وكانت زاملة - أي ناقته . رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وزاملة أبي بكر واحدة . مع غلام أبي بكر . فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه فطلع عليه ، وليس معه بعيره .

فقال : أين بعيرك ؟

فقال : أضللته البارحة .

فقال أبو بكر : بعير واحد تضله ؟

فطفق يشتد عليه ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبتسم ويقول : « انظروا إلى هذا المحرم ماذا يصنع ؟

إن الحاج لاينبغى له أن يغضب أو يثور أو يشتم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله - تعالى :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾[٢٣٨]

وبات النبى - صلى الله عليه وسلم - بذى الحليفة ، وهى من المدينة على ثلاثة أميال وهى وادى العقيق ، وصلى بها المغرب والعشاء .

حتى إذا أصبح صلى بأصحابه وأخبرهم أنه جاءه الوحى من الليل بما

---

(٢٣٨) البقرة ١٩٧

يعتمده فى الإحرام .. وأمره أن يصلى فى هذا الوادى المبارك .

وقد أُمر فى هذه الرؤيا أن يقيم بوادى العقيق الى صلاة الظهر ، وأمر أن ينوى عمرة فى حجه ، وأقام بوادى العقيق حتى صلى الظهر ، ثم أشعر بدنته ، ثم ركب فأهل بعمرة وحج .

وأشعر بدنته أى حز[٢٣٩] سنامها حتى يسيل منه الدم وهذه علامة يعلم بها الحاج أن هذه البدنة هدى مقرب الى الله ـ تعالى ـ وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أشعر بدنته فى صفحة سنامها الأيمن .

وقلدها .. لقد فعل ذلك بيده الشريفة ليقتدى به غيره من

أمته ـ وكان النبى ـ ﷺ ـ قد ساق معه مائة بدنة تولى هو بيده إشعار واحدة منها وتقليدها ، وتولى غيزه من المسلمين إشعار الباقى وتقليده ـ حتى إذا جاء أوان ذبح هذا الهدى ذبح بيده الشريفة ثلاثا وستين بدنة بعدد سنى عمره المبارك ، وتولى على ـ كرم الله وجهه ـ ذبح الباقى ..

وكان النبى ـ ﷺ ـ قد اصطحب معه نساءه فى هذه الحجة . ولا عجب ، فقد انتدب المسلمين جميعا لمشاركته فجاءوا من كل مكان ليكون لهم شرف مصاحبته ... فمن باب أولى أن تكون نساؤه مصاحبات له فى هذه الرحلة المباركة .

---

(٢٣٩) قال الفقهاء : يسن تقليد الهدى ان كان معه ، ثم اشعاره بعد ذلك ، والتقليد هو تعليق قلادة فى عنقه ليعلم به المساكين فتطمئن نفوسهم ، والاشعار هو أن يشق من السنام قدر الانملة أو الانملتين ، وانما تقلد الابل والبقر ولا يشعر إلا الابل وماله سنام من البقر ، أما الغنم فلا تقلد ولا تشعر .

ماحدث لعائشة

وللنساء أعذار خاصة لا تكون للرجال ، فقد تفاجأ بالعادة الشهرية فيكون ذلك عائقا لها عن الطواف . وقد كان فى اصطحاب النبى - ﷺ - نساءه حكمة تتعلم منها النساء كيف يكون الحج اذا ما فاجأ إحداهن ذلك العذر .

ولنستمع إلى أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - تحدثنا عما وقع لها فى اثناء حجها مع رسول الله - ﷺ - .

قالت - فيما يرويه ابن هشام - : سرنا لا نذكر ولا يذكر الناس الا الحج ، حتى اذا كنا بسرف ، وقد ساق رسول الله - ﷺ - الهدى ومعه اشراف الناس . أمر الناس أن يُهِلُّوا بعمرة إلا من ساق معه الهدى .

قالت : وحضت ذلك اليوم .. ولا شك أن عائشة ارتاعت لذلك وفزعت فأخذت تبكى -

قالت : ودخل علىَّ رسول الله - ﷺ - وأنا أبكى .

فقال : مالك ياعائشة ؟ لعلك فوجئت بالحيض ؟

قالت : قلت : نعم ، والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى هذا فى هذا السفر .

- لقد قالت ذلك خوفا من أن يترتب على حيضتها عائق يعوقها من إتمام الحج .

ولكن النبى - ﷺ - طمأنها وقال لها : لا تقولى ذلك ، فانك تقضين كل مايقضى الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت .

قالت : ودخل رسول الله ـ ﷺ ـ مكة ، فحل كلُّ من كان لا هدى معه ، وحل نساؤه بعمرة .

قالت : فلما كان يوم النحر أتيت بلحم بقر كثير فطرح فى بيتى .

فقلت : ما هذا ؟

قالوا : ذبح رسول الله ـ ﷺ ـ عن نسائه البقر . حتى اذا كانت ليلة الحصبة(٢٤٠) بعث بى رسول الله ـ ﷺ ـ مع أخى عبد الرحمن بن أبى بكر فأعمرنى من التنعيم مكان عمرتى التى فاتتنى .

وقد استفاد الفقهاء من هذا حكم المرأة التى يعتريها الحيض فى أثناء الحج فانها تفعل كل شىء الا الطواف .

عَلِىّ يلحق بالنبى من اليمن

وكان الامام على ـ كرم الله وجهه ـ قد بعثه النبى ـ ﷺ ـ إلى اليمن بعد أن كان قد بعث خالد بن الوليد .

وقال النبى ـ ﷺ ـ لعلى : مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب ـ يبقى ـ معك فليعقب ومن شاء فَلْيُقْبِلْ . .

فبقى البراء بن عازب مع علىّ فغنم فى وجهه هذا أواقى ذات عدد . . وكان السبب فى بعث عَلِىّ بعد خالد هو ما يقصه أبو بريدة ـ رضى الله عنه ـ

قال : أبغضت عليا بغضا لم أبغضه أحدا قط ، وأحببت رجلا من قريش لم أحبه إلا عَلَى بغضه عليا .

---

(٢٤٠) أى ليلة المبيت بالمحصب ، وهو موضع رمى الجمار بمنى ، وقيل : هو الشعب الذى مخرجه إلى الابطح بين مكة ومنى ينام فيه ساعة من الليل ثم يخرج إلى مكة

قال : فبعُث ذلك الرجل على خيل ، فصحبته ، ما أصحبه إلا على بغضه علياً ، قال : فأصبنا سَبْياً - فكتب إلى رسول الله - ﷺ - : ابعث إلينا من يخمسه - أى يقسمه أخماسا - .

فبعث إلينا عليا . وفى السبى وصيفة من أفضل السبى .

قال : فخمس وقسم ، فخرج ورأسه يقطر فقلنا : يا أبا الحسن ، ما هذا ؟

فقال : ألم تروا إلِى الوصيفة التى كانت فى السبى ، فإنى قسمت وخمست فصارت فى الخمس ، ثم صارت فى أهل بيت النبى - ﷺ - ، ثم صارت فى آل على . .

قالْ : فكتب الرجل الذى كان على الخيل إلى نبى الله - ﷺ - . فقلت له : ابعثنى بالرسالة . فبعثنى مصدقاً . فجعلت أقرأ الكتاب وأقول : صدق .

قال : فأمسك النبى - ﷺ - يدىْ والكتاب ، فقال : أتبغض علياً ؟

قال : قلت : نعم .

قال - ﷺ - : « فلا تبغضه ، وان كنت تحبه فازدد له حبا ، فو الذى نفس محمد بيده لنصيب آل على فى الخمس أفضل من وصيفة » .

قال : فما كان من الناس أحد بعد قول النبى - ﷺ - أحب إلىَّ من علِىّ . لقد كان النبى - ﷺ - يحب عليا - رضى الله عنه - وهو جدير بهذا

الحب ، وكان يعرف أن بعض الناس ينفسون عليه ذلك الحب ولذلك كان يعمل على إزالة هذا الجفاء من نفوسهم كما رأينا فى هذه القصة ، وكما نرى فى القصة التالية :

حدث عمرو بن شاس ، وكان من أصحاب الحديبية قال :
كنت مع على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى خيله التى بعثه رسول الله - ﷺ - الى اليمن ، فظننت أنه جفانى بعض الجفاء ، فوَجِدت فى نفسى عليه ، فلما قدمت المدينة اشتكيته فى مجالس المدينة ، وعند من لقيته .

فاقبلت يوما ورسول الله - ﷺ - فى المسجد ، فلما رآنى أنظر الى عينيه نظر الىَّ حتى جلست إليه .

فلما جلست اليه قال : « إنه والله يا عمرو بن شاس لقد آذيتنى » .
فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أعوذ بالله والاسلام أن أوذى رسول الله .

فقال : « من آذى عليا فقد آذانى »(٢٤١) .
لقد أشارت الأخبار السابقة الى بعض الأسباب التى من أجلها أرسل النبى - ﷺ - عليا الى اليمن ، وهى تقسيم الغنائم بين المجاهدين . وهذه قصة تشير الى سبب آخر وهو الأهم ..

قال أبو اسحاق راويا عن البراء بن عازب قال :
بعث رسول الله - ﷺ - خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم الى

---

(٢٤١)البداية والنهاية حـ ٥ صـ ١٠٥

الاسلام . فكنت فيمن خرج معه ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوه . ثم إن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث على بن أبي طالب ، وأمره أن يقفل خالدا ـ ومن معه ـ إلا رجلا كان ممن مع خالد فأحب أن يُعقب مع على ـ أى يبقى ـ فليعقب معه .

قال البراء : فكنت فيمن عقب مع على .

فلما دنونا من القوم خرجوا الينا ـ ثم تقدم فصلى بنا عَلِيّ ، ثم صفنا صفا واحدا ، ثم تقدم بين أيدينا وقرأ كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلمت همدان جميعا .

فكتب عَلِيٌّ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بإسلامهم ، فلما قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ الكتاب خر ساجدا ، ثم رفع رأسه وقال : « السلام على همدان ، السلام على همدان »(٢٤٢)

لقد نجح على فيما لم ينجح فيه خالد .. ذلك أن خالداً رجل حرب ، والدعوة لها رجل من صنف آخر ..

وبعد نجاح مهمته قفل راجعا الى المدينة ، وكان رسول الله قد خرج إلى الحج ، فأمّرَ عَلِيٌّ رجلا على من معه ، وأسرع هو فى طريق مكة ليلحق الحج مع رسول الله ـ ﷺ ـ فلما قضى حجته أمره النبى ـ ﷺ ـ بالرجوع الى صحبه ليقدم بهم الى المدينة .

وكان على فى خروجه إلى مكة قد أهل بإهلال النبى ـ ﷺ ـ .

---

(٢٤٢) المرجع السابق

وروى ابن هشام قال : حين قدم عليٌّ من اليمن على النبى - ﷺ - وجد بعض القوم قد حلوا - فسأل عن ذلك فقالوا له : أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نحل بعمرة فحللنا فلما فرغ من إخبار النبى - ﷺ - عن سفره ، قال له النبى : انطلق فطف بالبيت وحلّ كما حَلَّ أصحابك .

قال : يارسول الله ، إنى قلت حين أحرمت : اللهم إنى أهلّ بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد - ﷺ - .

قال : فهل معك من هَدْى ؟

قال : لا .

فأشركه النبى - ﷺ - فى هديه ، وثبت على إحرامه مع رسول الله - ﷺ - حتى فرغ من الحج ، ونحر رسول الله الهدى عنهما .

أنواع الإحرام

وقد أخذ الفقهاء من ذلك أنواع الاحرام وهى :

إحرام المتمتع . ومعناه أن يحرم الحاج بالعمرة أولا فى أشهر الحج ، ويؤديها ثم يتحلل منها ، ثم يحرم بعد ذلك بالحج يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذى الحجة .

والحاج فى أثناء تحلله يفعل مايفعله المحل تماما ، ويباح له ما كان محظورا عليه فى أثناء الاحرام .

والمتمتع يجب عليه أن يقدم هديا يذبحه شكراً لله على نعمة التوفيق للجمع بين العمرة والحج على هذا الوجه فى سفر واحد ، وإلى هذا يشير قوله - تعالى -

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦ ﴾(٢٤٣)

وهذا الهدى يذبح بمنى فى يوم العيد أو أيام التشريق الثلاثة التى تليه . ويمكن ذبحه بمكة بعد العودة من منى .

وهذا الهدى واجب على من اعتمر وحج فى موسم واحد . مقدما العمرة على الحج ، سواء أكان لنفسه أو لغيره .

ومن أنواع الإحرام القران .

ويقصد به الاحرام بالحج والعمرة معا دون فصل بينهما ، ويكون الحاج قد جمع بين النُّسُكَيْن ، فيطوف بالبيت طواف القدوم ولا يتحلل من إحرامه حتى يذهب الى عرفات ويقف بها فى اليوم التاسع ، ومنها إلى المزدلفة ، ثم يرمى الجمار يوم النحر ، ثم يتوجه إلى مكة ليطوف طواف الافاضة ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يتحلل بعد ذلك ويلزم القارن هدى أيضا يذبحه شكراً لله ـ تعالى ـ

ومن أنواع الاحرام الإفراد .

---

(٢٤٣) البقرة ١٩٦

وهو أن يفرد النية بالحج وحده ـ ويظل الحاج بملابس الاحرام حتى تتم أعمال الحج .

وكان حج النبي ـ ﷺ ـ حج قارن ، فلم يتحلل حتى نحر وإن كان قد أباح لأصحابه أن يتمتعوا .

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : إن رسول الله ـ ﷺ ـ أمر الناس في حجة الوداع فقال : « من أحب أن يبدأ بعمرة قبل الحج فليفعل » . وأفرد رسول الله ـ ﷺ ـ الحج ولم يعتمر . أى لم يعتمر قبل الحج ـ كما يفعل المتمتع ـ

لقد كانت حال الناس في حجهم على تلك الأحوال من القران والتمتع والافراد .

فقد روى أحمد في مسنده أن عائشة قالت : أهل رسول الله ـ ﷺ ـ بالحج والعمرة في حجة الوداع وساق معه الهدى ، وأهل ناس معه بالعمرة وساقوا الهدى ، وأهل ناس بالعمرة ولم يسوقوا هديا . قالت : وكنت ممن أهل بالعمرة ولم أسق هديا ، فلما قدم ـ ﷺ ـ قال : من كان منكم أهل بالعمرة فساق معه الهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة ولا يحل منه شيء حرم منه حتى يقضي حجه وينحر هديه يوم النحر ، ومن كان منكم أهل بالعمرة ولم يسق معه هديا فليطف بالبيت وبالصفا والمروة ثم ليقصر وليتحلل ، ثم ليهل بالحج وليهد ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله .

قالت عائشة : فَقَدَّم رسول الله الحج الذى خاف فوته وأخر العمرة .

كيف لبى رسول الله ؟

ذكر الرواة أن تلبية رسول الله - ﷺ - كانت هى :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لك لا شريك لك » .

وكان عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - يزيد فيها فيقول : لبيك لك وسعديك ، والخير فى يديك لبيك ، والرغباء إليك والعمل .

وربما كان يقول مع تلبية رسول الله - ﷺ - المأثورة : لبيك لبيك لبيك وسعديك والخير بيديك لبيك ، والرغباء إليك والعمل .

وقد ذكر ابن عمر أن والده - رضى الله عنه - كان يقول ذلك بعد أن يلبى بتلبية النبى - ﷺ -

وهذه التلبية المأثورة هى مايلبى بها المسلمون اليوم ، ولها سحر عجيب وتأثير غريب ، فما أن يسمعها المؤمن تتصاعد من حناجر الملبين حتى يتجاوب قلبه معها ، وتنقاد مشاعره نحوها ، وتنساب دموعه حارة على وجناته فى ضراعة صامتة إلى الله ، ونشوة قوية وشوق شديد إلى بيت الله الذى جعله حرما آمنا ومثابة للناس أجمعين فى مشارق الأرض ومغاربها . إنه نشيد سماوى وضع الله فيه سرا عظيما يجمع القلوب والمشاعر . . وما أعظمه من شعار يهتف به أولئك الحجاج المتجردون من ملابسهم ، فى رحلة سماوية لا هدف من ورائها الا رضا الله ورسوله .

أما تكرار التلبية فى هذا الشعار فلتأكيد معنى الاستجابة لأمر الله - تعالى - الذى دعاهم اليه فى بيته الحرام ، وفى هذا الشعار توثيق لحب هذا

المحبوب الأعلى وإقرار تام بالوحدانية له ، والتبرؤ من كل شرك معه . فلا مالك معه ، ولا منعم فى هذا الوجود سواه . .

والتلبية بهذا الشعار أمر تعارف عليه المسلمون جميعا ، ومازال منذ هتف به النبى - ﷺ - تردده القلوب والحناجر عبر الأزمنة بلفظه العربى الرصين ولو كان الذى يهتف به من أعماق الهند أو الصين ، لقد جرت به الألسنة على اختلاف لغاتها ، وفى ذلك دلالة على وحدة المشاعر والقلوب . .

ولا مانع أن يضيف المسلمون الى هذا الشعار مايناسبه مما يتصل بهذه المعانى الرائعة ، كما رأينا فى إضافة ابن عمر التى أشرنا اليها آنفا .

لقد فتح النبى - ﷺ - الباب أمام أصحابه ولم يغلقه ، وكان على مداومته لهذه الصيغة من التلبية يضيف إليها أحيانا - فيما يرويه أبو هريرة - لبيك إله الحق .

وروى حميد الأعرج عن مجاهد أنه قال : كان النبى - ﷺ - يظهر من التلبية : لبيك اللهم لبيك . . فذكر التلبية ، ثم قال : حتى اذا كان يوم فزاد فيها : لبيك إن العيش عيش الآخرة . .

وكان النبى - ﷺ - يرفع صوته بالتلبية ، فهى أمر لا ينبغى أن يتحدث به الانسان بينه وبين نفسه . . وان كان الله يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور - ولكن الحج مبنى على الإعلان والإعلام ، وفيه مظهر من مظاهر قوة الاسلام التى لا تتم الا بالتجاهر الذى يتصاعد شاقا عنان السماء ليخزى الشيطان ويثير الوجدان .

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أمرني جبريل برفع الصوت فى الاهلال فانه من شعائر الحج » .

وروى زيد بن خالد قال : جاء جبريل الى النبى ـ ﷺ ـ فقال : مر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فانها شعار الحج .

وفى إضافة مايزيد على التلبية المأثورة مما يناسب معناها قال جابر بن عبد الله : . . . خرج ـ ﷺ ـ حتى إذا استوت به ناقته على البيداء أهلَّ بالتوحيد : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

ولبى الناس ، والناس يزيدون ـ يا ذا المعارج ونحوه من الكلام ، والنبى ـ ﷺ ـ يسمع فلم يقل لهم شيئاً .

قال جابر : فنظرت مد بصرى بين يدى رسول الله ـ ﷺ ـ من راكب وماش ومن خلفه كذلك ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن شماله مثل ذلك .

قال : ورسول الله ـ ﷺ ـ بين أظهرنا عليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شيء عملناه ، فخرجنا لا ننوى إلا الحج حتى أتينا الكعبة .

كيف حج رسول الله ؟

ونمضى مع حديث جابر هذا لنعرف كيف حج رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ وفى معرفة ذلك عظة وعبرة وتعلم وإفادة من تلك المسيرة الطيبة المباركة

التى اصطحب فيها النبى - ﷺ - أصحابه معه فى أقدس رحلة عرفها التاريخ . وهم معه يحبونه أشد الحب ويودون أن لو فدوه بأنفسهم وأرواحهم . ويتعلمون منه مناسكهم استجابة لقوله - ﷺ - : « خذوا عنى مناسككم » . .

قال جابر : خرجنا ورسول الله - ﷺ - بين أظهرنا ، عليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملناه ، فخرجنا لا ننوى إلا الحج حتى اذا أتينا الكعبة فاستلم نبى الله - ﷺ - الحجر الأسود ، ثم رمل - أى أسرع - ثلاثة ومشى أربعة .

حتى اذا فرغ عمد إلى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ (٢٤٤)

وقرأ فى هاتين الركعيتن بالتوحيد - أى بـ « قل هو الله أحد » - ، « وقل يا أيها الكافرون .

ثم استلم الحجر ، وخرج الى الصفا ، ثم قرأ

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (٢٤٥)

---

(٢٤٤) البقرة ١٢٥

(٢٤٥) البقرة ١٥٨

ثم قال : نبدأ بما بدأ الله به ، فرقى على الصفا ، حتى إذا نظر الى البيت كبر ، ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، وصدق وعده وهزم الأحزاب وحده .

ثم دعا . . ثم نزل حتى إذا انصبت قدماه فى الوادى رمل ، حتى إذا صعد مشى ، حتى إذا أتى المروة رقى عليها .

حتى إذا نظر الى البيت قال عليها كما قال على الصفا .

فلما كان الشوط السابع عند المروة قال : ياأيها الناس ، لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى ولجعلتها عمرة ، فمن لم يكن معه هدى فليحل وليجعلها عمرة .

فحل الناس كلهم . فقال سراقة بن مالك بن جعشم ـ وهو فى أسفل الوادى ـ يارسول الله ، ألعامنا هذا أم للأبد ؟

فشبك رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : للأبد ـ ثلاث مرات .

ثم قال : دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة .

قال جابر : وَقَدِمَ عَلِيٌّ من اليمن بهدى ، وساق رسول الله ـ ﷺ ـ معه من هدى المدينة هديا ، فاذا فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قد حلت ، ولبست ثوبا صبيغا ، فأنكر عَلِيٌّ عليها ذلك ، فقالت : أمرنى أبى ولم ينكر علىّ .

قال على : فذهبت أستفتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الذى ذكرت فاطمة . . . . قلت : إن فاطمة لبست ثوباً صبيغاً وقالت : أمرنى أبى .

قال النبى - صلى الله عليه وسلم -: صدقت . أنا أمرتها .
قال جابر : وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - لِعَلىّ : بم أهللت ؟
قال : قلت اللهم انى أهل بما أهل به رسولك . قال : ومعى الهدى .
قال النبى - صلى الله عليه وسلم -: فلا تحل .

وكان جميع الهدى الذى أتى به علىّ من اليمن ، والذى أتى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مائة .

وقد سبق أن مرت بنا رواية تقول : إن عليا لم يسق معه هدياً ، وإن النبى - صلى الله عليه وسلم - أشركه معه فى هديه ولعل ما سبق هو الأرجح لما سيأتى . .

قال جابر : فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبى - صلى الله عليه وسلم - ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية - وهو اليوم الثامن من ذى الحجة - توجهوا إلى منى ، فأهلوا بالحج ، وركب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر .

ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة له من شعر فضربت له بنمرة .

فسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت قريش تظن أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت تصنع فى الجاهلية .

سار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد

ضربت له بنمرة فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء ـ اسم ناقته ـ فهيئت له ، فأتى بطن الوادى فخطب الناس ، وقال : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . . إلى آخر الخطبة التى سنعرض لها تفصيلاً إن شاء الله ـ تعالى ـ

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يُصِلّ بينهما شيئاً .

ثم ركب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلاً ، ثم غاب القرص .

وأردف أسامة بن زيد خلفه ، ثم دفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد شد القصواء من الزمام ليبطىء من سيرها ويقول وهو يشير بيده اليمنى : أيها الناس ، السكينة السكينة . وكلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لناقته العنان قليلاً حتى تصعد .

حتى أتى المزدلفة . فصلى بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى طلع الفجر .

فصلى الفجر بأذان وإقامة حتى تبين له الصبح .

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، فدعا فحمد الله ، وكبره ، وهلله ، ووحده .

فلم يزل واقفاً حتى أسفر الصبح فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن العباس ثم سلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى . حتى أتى الجمرة عند الشجرة فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها ، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما بقى ، وأشركه فى هديه .

ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر فطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها .

ثم ركب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأفاض إلى البيت ، فصلى بمكة الظهر . فأتى بنى عبد المطلب وهم يستقون على زمزم . فقال : انزعوا بنى عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه(٢٤٦) . .

خطبة الوداع

ثم نمضى مع حديث ابن إسحاق لنذكر خطبة الوداع المشهورة التى أصبحت دستوراً للأمة الاسلامية لما تضمنته من أحكام وقواعد . .

يقول : ثم مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حجه ، فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التى بيَّن فيها ما بيَّن ، فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال :

« أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا

---

(٢٤٦) البداية والنهاية لابن كثير حـ ٥ صـ ١٤٦

بهذا الموقف أبداً .

« أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلَّغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظْلَمُون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عمى العباس ابن عبد المطلب موضوع كله . وإن كل دم فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ربيع بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد ، أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، إن النسيء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة وأن

لا يعصين فى معروف فإن عصين فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وانكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله . فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلّغت .

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه .

اسمعوا قولى واعقلوه . . إن كل مسلم أخ للمسلم ، وإن المسلمين جميعاً أخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلموا أنفسكم . اللهم هل بلغت ؟ »

قالوا : اللهم نعم .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم اشهد »

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول الجملة ، وكان ربيعة بن أمية ابن خلف يكرر القول بعده رافعاً به صوته ، حتى يصل إلى جميع الناس فلا يكون لأحد حجة فى أنه لم يسمع .

تعليق على تلك الخطبة

ويبدو أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يلق خطبة واحدة فى حجة الوداع تلك التى ذاع شأنها يوم عرفة ـ ولكن تكررت منه خطب فى مواقف أخرى أشار إليها بعض المؤرخين .

ويعلق الدكتور حسين مؤنس على حجة الوداع قائلاً :

حجة الوداع معلم أساسى من معالم السيرة النبوية الشريفة فهى الحجة الوحيدة التى قام بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الاسلام .

وقد شاءت إرادة الله أن تتم على النحو الذى أتمها به رسول الله وفى الوقت الذى تمت فيه قبل وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشهور حتى تكون إكمالاً وإتماماً لسنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العبادات ، ومن هنا ذهب الكثيرون من علماء القرآن إلى أن قوله ـ تعالى ـ

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (٢٤٧)

نزل فى أثناء هذه الحجة المباركة .

وأصحاب السير والتواريخ يجعلون حجة الوداع واحدة من مغازى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنها عندهم فتح من فتوح الله عليه .

وأما أصحاب الفقه فيجعلونها فى أبواب العبادات لأن الحج خامس أركان الاسلام بعد الشهادتين والصلاة والصيام والزكاة .

---

(٢٤٧) المائدة ٣

قال : وسأدير حديثى على المعانى التاريخية التى تضمنتها خطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء هذه الحجة . وهذه الخطب تُجْمَع فى العادة فى الكثير من كتب السيرة المعتمدة ، ومختصراتها تحت عنوان واحد هو : خطبة الوداع .

ولا حرج فى ذلك ما دامت هذه الخطبة الواحدة التى يوردونها تتضمن كل المعانى التى تضمنتها الخطب التى ألقاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء هذه الحجة ، ومن المؤكد أنها أكثر من خطبة واحدة ، والمقلل يجعلها خطبتين والمكثر يجعلها ثلاثاً . . وذلك سوى الأحاديث المفردة التى قالها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أثناء تلك الحجة ، وكلها تتضمن أحكاماً فقهية أحصاها الفقهاء .

فمن الخطب التى ألقاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبة قبل التروية بيوم . . ذكر ذلك عمارة بن حارثة الظفرى قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب قبل التروية بيوم بعد الظهر ، ويوم النحر بمنى بعد الظهر .

ومن ذلك ما أشار إليه الواقدى من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب فى أيام التشريق . . ومع ذلك فقد جمعت خطبة عرفة كثيراً من المعانى التى تهم المسلمين جميعاً .

المعانى التى اشتملت عليها خطبة عرفة

●● جذب الانتباه وشد الاهتمام إلى ما سيلقى على الناس .

وذلك واضح فى مقدمة الخطبة حيث قال للناس : « والله ما أدرى لعلِّ

لا ألقاكم بمكانى هذا بعد يومكم هذا . رحم الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه »

وهى عبارة دقيقة المعنى رائعة الحكمة . إلى جانب كونها أثارت أذهان المسلمين جميعاً إلى الإنصات والمتابعة .

●● احترام حقوق الغير من أموال ودماء .

وقد أكد ذلك فى قوله : « اعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

ففى ذلك تأكيد لحرمة الأموال والدماء حرمة شديدة ، وتشبيه حرمتها بحرمة يوم النحر وحرمة الشهر الحرام وحرمة مكة .

وفى هذا دليل على عظم الاعتداء على أموال الناس ودمائهم .

وقد أكد النبى - صلى الله عليه وسلم - على ذلك لما يدركه من أن كافة الاضطرابات والفتن مترتبة على مظالم الناس فى الأموال والدماء .

●● تحريم أمر الجاهلية

وقد أشار - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك بقوله « ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع . . »

ومن ذلك الربا ، والأخذ بالثأر .

وقد بدأ النبى - صلى الله عليه وسلم - بربا عمه العباس فوضعه - أى أسقطه - ودم ربيع بن الحارث ابن عمه - فوضعه ليكون قدوة فى ذلك . . وليدرك الناس أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لا يأمر بشىء أو ينهى عنه وهو بمنجاة منه . . وقد جاء فى الرواية التى ذكرناها أن الدم الذى وضعه هو

دم ربيع بن الحارث ، وفى رواية أخرى أنه دم إياس بن ربيعة ابن الحارث . .

وقصة ذلك أنه كان مسترضعاً فى بنى سعد ، فاعتدت عليه هذيل وقتلته .

وإياس من بنى عبد المطلب ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ولىُّ دمائهم ، فقد تنازل نيابة عنهم عن المطالبة بدمه ليبطل بذلك كل ما كان من أمر الجاهلية من عادات مذمومة لكى يبدأ الناس مع الاسلام حياة جديدة لا صلة لها بالماضى .

لقد جاء الاسلام ليقر نظماً جديدة يُسعِدُ بها المجتمع ، بدلاً من تلك النظم التى كانت تسود المجتمعات ويشقى بها الناس .

وما ظنك برجل لم يرتكب جريرة قط يفاجأ بمن يقتله أخذاً بثأر رجل لا يعرف المقتول عنه شيئاً ؟ وكثيراً ما كان يحدث ذلك بل كثيراً ما يحدث الآن . . وهو مشاهد فى عصرنا الحديث الذى نسى الناس فيه التشريع الاسلامى تماماً إن الاسلام جعل لولى الدم الحق فى المطالبة بدمه وقال فى تشريعه الأزلى

« وَمَن قُتِلَ مَظلُومًا فَقَد جَعَلنَا لِوَلِيِّهِ ، سُلطَانًا فَلَا يُسرِف فِّي ٱلقَتلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً(٢٤٨)

وأبطل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الربا . وأهدر ربا العباس ابن عبد المطلب فقال : إن أول ربا أضعه ربا عمى العباس . .

---

(٢٤٨) الاسراء ٣٣

وكان العباس قد أسلم قبل الفتح . ولكن أمواله الربوية ظلت فى ارتفاع . . . ولو كان العباس ترك الربا أو تنازل عن أموال الربا التى كانت له فى رقاب الناس لما أعلن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلغاءها ، ولما قال فى استهانة بالغة بأموال الربا إنها تحت قدمى ـ دلالة على بغضه لتلك العادات السيئة التى كانت رائجة فى الجاهلية ، والتى أذلت رقاب المعوزين المحتاجين الذين تضطرهم ظروفهم القاسية إلى الوقوع فى مخنقة الربويين .

●● الدعوة إلى إنصاف المرأة . .

وقد دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين الى معاملة النساء معاملة حسنة ، وقد وضعت خطبته تلك المعالم الصحيحة نحو إنصاف المرأة ، التى هى نصف المجتمع . . . وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحقيقاً لإنصافها : « اتقوا الله فى النساء فإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإن لكم عليهن ألا يدخلن بيوتكم أحداً ممن تكرهونه . فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح . . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

والمراد بذلك أن على الزوجة أن لا تأذن لمن يكرهه الزوج بالدخول فى بيته . . . . والضرب غير المبرِّح هو الذى لا يكسر عظماً ولا يشين جارحة .

قال عطاء : سألت ابن عباس : ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه

وقد أفاض الفقهاء فيما فى هذه العبارة من فقه يتصل بمعاملة النساء وحقوق الرجال وحقوق الزوجات ، وفصلوا معانى ما أراد النبى ـ صلى الله

عليه وسلم ـ فى شأن معاملة النساء ، وهذا كله يدخل فى أبواب الفقه .

.ولكن الذى يهمنا هنا هو أن نبين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حريصاً فى خطبته تلك على دعوة أمته إلى الرفق فى معاملة النساء وبيان دورهم العظيم فى خدمة المجتمع ، وبيان حرمة عقد الزواج ومسئولية الرجال فى حسن معاملة زوجاتهن .

●● الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة ..

وقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حريصاً على دعوة أمته إلى التمسك بالكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة ، وقال فى ذلك : « لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبداً »

وفى رواية قال : « تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ـ كتاب الله تبارك وتعالى ، وأنتم مسئولون فما أنتم قائلون ؟ »

فبين ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن التمسك بالكتاب والسنة هو النجاة لأن فيها العصمة والفلاح . وقد دعا القرآن الكريم الى ذلك صراحة فى كثير من آياته ، وأشار الى ما يتضمنه القرآن الكريم من منهج سليم وطريق قويم . قال تعالى

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ ﴾ (٢٤٩)

---

(٢٤٩) الإسراء ٩ ، ١٠

أما السنة النبوية فهى تفصيل وتوضيح لهذا القرآن قال تعالى

« وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون(٢٥٠) »

وما أضر بالمسلمين الآن إلا عدم تمسكهم بالكتاب والسنة ، ولو أنهم عادوا الى ماجاء به هذا الكتاب الكريم والسنة الشريفة لسعدوا فى دنياهم ونجوا فى أخراهم .

● ● إبطال النسىء

وقد سبق أن أشرنا إلى النسىء فيما سبق من حديث . وبينا أنه تحايل على المقدسات الدينية وتلاعب بالشعائر المقدسة ، وقد جاء إبطال النسىء واضحاً صريحاً فى قوله ـ تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٧ ﴾ (٢٥١)

وقد أشارت الخطبة الى الأخوة الاسلامية فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن كل مسلم أخو المسلم ، وإنما المسلمون إخوة ولا يحل لامرىء مسلم دم أخيه ولا ماله إلا بطيب نفس منه » .

---

(٢٥٠) النحل ٤٤

(٢٥١) التوبة ٣٨

وهذا من القواعد الأساسية فى تركيب أمة الاسلام ، فهى أمة قائمة على الأُخُوَّة فى الدين وهى أمة من الإخوة ، ورابطة الاسلام رابطة أخوة ، فقد آخى النبى - صلى الله عليه وسلم - بين أفرادها قبل الهجرة وبعدها . وهذه الأخوة تقتضى احترام المشاعر والعلاقات ، فدم المسلم حرام على المسلم انتهاكه ، وماله حرام عليه اغتصابه ، ورأيه حرام عليه الاستهزاء به أو السخرية منه .

ولا يحل لامرىء أن يأخذ من مال الآخر شيئاً إلا بطيب نفس منه » وقد كانت هذه المبادىء مناط احترام لدى المسلمين الأوائل فشعروا بالأمن والاطمئنان وساروا فى حياتهم فى سعادة وأمان . . ونحن نتذكر ذلك الآن فنأسى على واقع المسلمين الذى تحولت العلاقة فيه الى صراعات ومطامع وانتهازات . . وتحولت مع ذلك حياتهم إلى جحيم وخوف وقلق ، وضاعت هيبتهم وذهبت كرامتهم ، وطمع فيهم أعداؤهم حتى حولوهم الى قطعان مشردين هائمين يستعينون بالطامع على الطامع ويستغيثون من الرمضاء بالنار . .

لقد تناولت خطب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع كل المعانى والقيم التى يمكن أن تخطر على بال كل مؤمن غيور على دينه ، وكل مفكر يحاول إرساء المبادىء النبيلة فى مجتمعه ، فلم يترك بذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - بعده مجالاً لمفكر ، أو حديثاً لمغتاب ، أو مقالاً لمستدرك .

لقد تناول كل الأسس التى يضعها القائد الأعلى لجنوده ، والزعيم الملهم لأمته ، والمستشار الناصح لمستشاريه ، والرائد البصير لأتباعه . . . . إنه النبى الذى علمه ربه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيماً . .

إن كل هذه المبادىء جمعتها خطبة واحدة هى خطبة الوداع التى ذكرناها آنفاً . . كما تفرقت هذه المعانى فى خطب أخرى ألقيت فى خلال موسم الحج . إلا أن أجمع خطبة كانت هى خطبة عرفة التى ذكرناها .

قال ابن إسحاق ـ فيما يرويه ابن هشام : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقف بعرفة قال : هذا هو الموقف ـ للجبل الواقف عليه ـ وكل عرفة موقف

وقال ـ حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة ـ : هذا الموقف وكل المزدلفة موقف .

ثم لما نحر بمنى قال : هذا المنحر ، وكل منى منحر .

فقضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحج وقد أراهم مناسكهم ، وأعلمهم مافرض الله غليهم من حجهم ـ من الموقف ورمى الجمار وطواف البيت ، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم ، فكانت حجة البلاغ وحجة الوداع وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يحج بعدها .(٢٥٢)

● ● ● يأس الشيطان

ولعل مايثلج صدور المسلمين تلك البشرى التى ساقها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم حين أبان لهم أن الشيطان قد يئس من أن يعبد فى أرضهم بعد اليوم فقال :

« يا أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه ولكنه قد

---

(٢٥٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ صـ ٢٣٢

رضى أن يطاع فيا سوى ذلك مما تحقرونه ، فقد رضى به »
لقد أشار النبي إلى زوال دولة الشرك والوثنية وذهاب عبادة الأصنام .

والمراد هنا أن الاسلام حصّن الانسان المسلم من عبث الشيطان به ، والشيطان قد يئس من أن يعبد أو يطاع فى أرض الاسلام

وهو لهذا يحتال على ابن آدم فيدخل إلى نفسه ويضله من ناحية يستهين بها الانسان ويحتقرها ، ظنا منه أنه لايأتيه من جهتها ضرر ، وهنا يكون الضرر لأن الشيطان يتدرج من الشيء الحقير يضلل به الانسان فإذا أطاعه تسلل إلى ماهو أكبر وأخطر حتى يفسد الدين جملة .

وقد أنظر الله إبليس إلى يوم يبعثون ، وإبليس قال : إنه سَيَجِدُّ فى إضلال من يتيسر له إضلاله إلا من اعتصم بالله . وتحصن بفهم حقيقى لطبيعة إبليس وأساليبه وطرائقه فى إفساد حياة الناس . فليس المقصود هنا مجرد عبادة الشيطان بل اتباع الشيطان والإصغاء الى صوت الغواية وهى راقدة فى قلوب الناس »(٢٥٣)

ولعل ذلك ينبه المسلمين إلى مايجب عليهم نحو قهر مكايد الشيطان والاستعاذة من شره ، وعدم الاستجابة لما يوسوس به فى نفوسهم من شر ، قد يرونه صغيرا ولكن عواقبه خطيرة . .

---

(٢٥٣) راجع بحث د . حسين مؤنس « خطب الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع العدد التذكارى بمجمع البحوث الاسلامية لمؤتمر السيرة بالقاهرة ١٩٨٥

الأماكن التى صلى فيها النبى فى طريقه الى مكة

فى أثناء سفر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة كان ينزل فى أماكن يؤدى فيها الصلاة ، وقد تحولت هذه الأماكن إلى مساجد فيما بعد - تبركا بصلاة النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد كان الصحابة والتابعون من بعدهم يتحرون هذه الآثار ويتتبعونها ويحرصون على النزول والصلاة فيها .

قال موسى بن عقبة : رأيت سالم بن عبد الله يتحرى أماكن من الطريق فيصلى فيها ، ويحدث أن أباه كان يصلى فيها وأنه رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - يصلى فى تلك الأمكنة .

قال : وحدثنى نافع عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه كان يصلى فى تلك الأمكنة . وسألت سالما فلا أعلمه إلا وافق نافعا فى الأمكنة كلها إلا أنهما اختلفا فى مسجد بشرف الروحاء .

ويمكن تتبع هذه الأماكن عن طريق المساجد المنشأة بين مكة والمدينة . . والتى أخبر الرواة عنها أنها أنشئت فى المواقع التى صلى فيها النبى - صلى الله عليه وسلم -

●● مسجد ذى الحليفة . أقيم فى المكان الذى كان ينزل فيه الرسول حين يعتمر وحين حج حجة الوداع ، وكان ينزل تحت سمرة فى موضع المسجد الذى بهذا المكان .

● وكان عبد الله بن عمر يعلم المكان الذى كان يصلى فيه النبى - صلى الله عليه وسلم - ويقول : ثم عن يمينك حين تقوم فى المسجد تصلى ، وذلك المسجد على حافة الطريق اليمنى ، وأنت ذاهب إلى مكة بينه وبين المسجد الأكبر رمية بحجر .

● وعند العرق الذى عند منصرف الروحاء وقد أقيم هناك مسجد ، وكان عبد الله يترك المسجد الذى أقيم عن يساره ووراءه ويصلى أمامه لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - صلى فى ذلك المكان .

● وعند الرويثة كانت توجد سرحة طويلة صلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك المكان .

● ومن وراء العَرْج فى طرف تلعة يوجد مسجد وعنده قبران أو ثلاثة وعلى القبور رضم من الحجارة عن يمين الطريق كان عبد الله بن عمر يذهب إلى هذا المسجد ليصلى فيه الظهر .

● وعند سرحات فى مسيل هناك كان عبد الله يصلى لأن النبى صلى الله عليه وسلم - صلى فى هذا المكان .

● وفى ذى طوى - كان النبى - صلى الله عليه وسلم - ينزل فيصلى الصبح حين يقدم مكة ، ومصلاه عند أكمة ليس فى المسجد الذى بنى هناك

دخول النبى مكة

بات النبى - صلى الله عليه وسلم - بذى طوى - حتى أصبح ثم دخل مكة ، نهارا بعد أن اغتسل .

وكان ابن عمر إذا دخل أدنى الحرم يمسك عن التلبية اقتداء برسول الله - صلى الله عليه وسلم -

ودخل النبى مكة من الثنية العليا التى بالبطحاء .

ودخلها يوم الفتح كذلك .

وعند خروجه من مكة كان يخرج من الثنية السفلى .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين عاين البيت رفع يديه وقال : اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً . . .

وكان يقول : اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام . اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من حجه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً وتعظيماً وبراً .

قال الإمام الشافعى راويا ماروى من حديث ابن عباس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كان يرفع الأيدى فى الصلاة ، وإذا رأى البيت ، وعلى الصفا والمروة ، وعشية عرفة وبجمع وعند الجمرتين وعلى الميت »

ودخل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسجد من باب بنى شيبة ، وخرج من باب بنى مخزوم إلى الصفا .

وَلِبَابِ بنى شيبة حديث مأثور وشأن مشهور ، فحين انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش ، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه ، فاتفقوا أن يحكموا أول من يدخل من باب شيبة ، فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففرحوا به ، وقالوا : هذا الأمين وكلنا نرضاه .

فأمر بثوب فوضع الحجر فى وسطه ، وأمر كل قبيلة أن يأخذوا بطرف من الثوب ، فرفعوه ، وأخذه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوضعه مكانه . .

طواف رسول الله

وأول شىء بدأ به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم أنه توضأ ثم

طاف بعد أن استلم الركن ، فرمل ثلاثة ومشى أربعة .

وفى بعض الروايات قبّل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الركن وسجد عليه .

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايدع أن يستلم الركن اليمانى والحجر فى كل شوط .

والرمل ، هو الاسراع فى المشى ، وكانت له علة هى أن يرى المشركون قوة المسلمين بعد ماأرجفوا أنهم مرضى ضعفاء مهزولون .. فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة .. وأصبحت سنة بعد ذلك يلتزمها المسلمون ..

وقد أثر عن عمر قوله : فيم الرَّمْلان والكشف عن المناكب وقد وطد الله الاسلام ؟ ونفى الكفر ؟ ومع ذلك لانترك شيئاً كنا نفعله مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقال بعض الرواة : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طاف على راحلته فى حجة الوداع ، فإذا انتهى إلى الركن أشار إليه .

ويبدو أنه طاف على البعير فى أحد أنواع الطواف التى حدثت ... فقد كان هناك طواف قدوم ، ثم طواف إفاضة ، ثم طواف وداع ، فربما كان طوافه على الراحلة فى أحد الطوافين الأخيرين .

ومما يؤيد أن طواف القدوم كان على رجليه مارواه جابر بن عبد الله قال : دخلنا مكة عند ارتفاع الضحى فأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم باب المسجد فأناخ راحلته ، ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر فاستلمه ، وفاضت

عيناه بالبكاء ، ثم رمل ثلاثا ومشى أربعا . فلما فرغ قبَّل الحجر ووضع يده عليه ومسح بها وجهه . .

أين أقام النبى بعد الطواف والسعى

ثم سار - صلوات الله وسلامه عليه - بعد فراغه من طوافه وسعيه بين الصفا والمروة وأمره بالتحلل لمن لم يسق الهدى - والناس معه حتى نزل بالأبطح شرقى مكة . فأقام هناك بقية يوم الأحد ويوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، حتى صلى الصبح يوم الخميس .

كل ذلك يصلى بأصحابه هنالك ، ولم يعد إلى الكعبة فى تلك الأيام كلها .

وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - حين يصلى يركز - عصا - أمامه .

التوجه إلى منى :

وبعد صلاة الصبح فى يوم الخميس وهو اليوم الثامن وهو يوم التروية ويقال له : يوم منى ، لأنه يسار فيه إليها ، ويقال لليوم الذى قبله يوم الزينة لأنه يزين فيه البدن . ويقال : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - خطب الناس فى يوم التروية فأخبرهم بمناسكهم .

ثم ركب إلى منى قبل الزوال ، وقيل بعده . . . وقد أحرم الذين كانوا قد أحلوا من الأبطح . وهتف الناس بالتلبية . ولم يكن النبى - صلى الله عليه وسلم - يهل حتى تنبعث راحلته .

وصلى النبى - صلى الله عليه وسلم - الظهر والعصر بمنى ، وكذلك صلى المغرب والعشاء ، وصبح يوم التاسع .

ثم غدا إلى عرفات . وفيها صلى الظهر والعصر بعد أن خطب خطبته التى أوردناها آنفا

المأثور من دعاء النبى :

وقد نهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الصوم يوم عرفة للحاج ، ولم يصمه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجه . كما لم يصمه أحد من خلفائه الذين جاءوا بعده وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر من الدعاء فى هذا اليوم ويقول فى ذلك :

« أفضل الدعاء يوم عرفة » وخير ماقلت أنا والنبيون قبلى ـ لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير »

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : دعائى ودعاء الأنبياء قبلى عشية عرفة : لاإله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢٥٤)

ويعقبها بقوله : « وأنا على ذلك من الشاهدين يارب »

وكان يقول : « اللهم لك الحمد كالذى نقول وأفضل مما نقول ، اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، ولك يارب تراثى ، أعوذ بك من عذاب

---

(٢٥٤) آل عمران ١٨

القبر ووسوسة الصدر ، وشتات الأمر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ماتهب به الريح »

وكان يقول : « إن أكثر دعاء من كان قبلى ودعائى يوم عرفة أن أقول : لا اله الا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم اجعل فى بصرى نورا وفى سمعى نورا وفى قلبى نورا ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، اللهم إنى أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وشر فتنة القبر ، وشر مايلج فى الليل وشر مايلج فى النهار ، وشر ماتهب به الرياح وشر بوائق الدهر »

وكان يقول : « اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولايخفى عليك شيء من أمرى ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده . ورغم لك أنفه ، اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن ربى رءوفا رحيما ، ياخير المسئولين ، وياخير المعطين »

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - خير قدوة لأمته ، ولذلك كان يجتهد فى الدعاء فى ذلك اليوم ، ليتخذ منه المسلمون قدوة فيلجأون الى الله سبحانه داعين ضارعين .

وكان - كما رأينا - فى ألوان الدعاء السابق لايطلب شيئا ماديا ، ولكنه دعاء يتعوذ فيه من فتنة الدنيا وزينتها ويطلب فيه رضاء الله ، وثواب

الآخرة ، وكان يدعو لأمته بالرحمة والمغفرة .

عن عباس بن مرداس قال : دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشية يوم عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة فأكثر الدعاء ، فأوحى الله اليه : إنى قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضا ، وأما ذنوبهم فيما بينى وبينهم فقد غفرتها . فقال يارب إنك قادر على أن تثبيت هذا المظلوم خيرا من مظلمته وتغفر لهذا الظالم . فلم يجبه تلك العشية فلما كان غداة المزدلفة أعاد الدعاء فأجابه الله تعالى ـ إنى قد غفرت لهم . فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له بعض أصحابه : يارسول الله تبسمت فى ساعة لم تكن تبتسم فيها ؟

فقال : تبسمت من عدو الله إبليس ، إنه لما علم أن الله عز وجل قد استجاب لى فى أمتى ، أهوى يدعو بالويل والثبور ويحثو التراب على رأسه .
ولذلك قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عبادة بن الصامت : أيها الناس إن الله قد تطول عليكم فى هذا اليوم فغفر لكم إلا التبعات فيما بينكم ووهب مسيئكم لمحسنكم أعطى محسنكم ماسأل فادفعوا باسم الله .

فلما كان يوم جمع قال : إن الله قد غفر لصالحكم وشفع لصالحيكم فى طالحيكم . تنزل الرحمة فتعمهم ، ثم تفرق الرحمة فى الأرض فتقع على كل تائب ممن حفظ لسانه ويده . وإبليس وجنوده على جبال عرفات ينظرون مايصنع الله بهم ، فإذا نزلت الرحمة دعا هو وجنوده بالويل والثبور .
يقول : كنت أستفزهم حقبا من الدهر خوف المغفرة فغشيتهم(٢٥٥)

---

(٢٥٥) هذه الآثار ذكرها ابن كثير فى كتاب البداية والنهاية حـ ٥ صـ ١٧٤ وهى من كتب الصحاح

اليوم أكملت لكم دينكم

وفى يوم الجمعة ، يوم عرفة ، بعد العصر فى حجة الوداع سنة عشر ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقف بعرفة على ناقته العضباء ، فكاد عضد الناقة ينقد ـ أى ينفصل ـ من ثقل مانزل من الوحى فبركت ، لقد نزل جبريل عليه السلام بالوحى على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله ـ تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (٢٥٦)

قال القرطبى فى قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين كان بمكة لم تكن له إلا فريضة الصلاة وحدها ، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام إلى أن حج ، فلما حج وكمل الدين نزلت هذه الآية « اليوم أكملت لكم دينكم »

---

(٢٥٦) المائدة ٣

روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود الى عمر فقال : ياأمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرءونها لو أنها أنزلت علينا ـ معشر اليهود ـ لاتخذنا ذلك اليوم عيدا .

قال عمر : وأى آية ؟

قال : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »

فقال عمر : إنى لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه ، والمكان الذى أنزلت فيه . نزلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعرفة يوم جمعة . وهكذا اتخذ المسلمون هذا اليوم الذى نزلت فيه عيدا . . بل هو الله الذى جعله لهم عيدا .

وروى أنها لما نزلت فى يوم الحج الأكبر ـ وقرأها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكى عمر فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مايبكيك ؟

فقال : أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا ، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : صدقت .

المسلمون يتسابقون فى الاحتفاظ بِشَعْرِ النبى :

بعد النحر حلق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطائفة من أصحابه وقصر بعضهم . ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهؤلاء وهؤلاء فقد قال :

يرحم الله المحلقين مرة أو مرتين . قالوا : يارسول الله والمقصرين ؟
قال : والمقصرين .

وسابق المسلمون يأخذون شعر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحتفظون به تبركا . وفى رواية أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حلق شق رأسه الأيمن فقسمه بين الناس من شعرة أو شعرتين . وأعطى شعر شق رأسه الأيسر لأبى طلحة .

وعن ثابت عن أنس قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحلاق يحلق شعر ، وقد أحاط به أصحابه مايريدون أن يقع شعره إلا فى يد رجل منهم .

ثم لبس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثيابه وتطيب بعدما رمى جمرة العقبة ونحر هديه ، وذلك قبل أن يطوف بالبيت . .

وبعد أن طاف عاد الى منى فمكث بها ليالى أيام التشريق يرمى الجمرة إذا زالت الشمس كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة .

لقد صلى الظهر بمكة يوم النحر ، وشرب من زمزم . . . . . . أتى السقاية فقال : اسقونى ، فقالوا : إن هذا يخوضه الناس ولكنا نأتيك به من البيت ، فقال : لاحاجة لى فيه ، اسقونى مما يشرب منه الناس .

وفى رواية : جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى زمزم فنزعنا له دلوا فشرب منها ثم أفرغناها فى زمزم .

ولم يسع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين الصفاء والمروة لأنه كان قد سعى قبل ذلك وهو قارن بالإحرام .

وخطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقب عودته من الطواف خطبة ، ألح فيها على تعظيم حرمة المسلمين فقال فيما يرويه ابن كثير : يأيها الناس أى يوم هذا ؟

قالوا : يوم حرام

قال : فأى بلد هذا ؟

قالوا : بلد حرام .

قال : فأى شهر هذا ؟

قالوا : شهر حرام .

قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا .

أعاد ذلك مرارا . ثم رفع رأسه فقال : اللهم هل بلغت ، اللهم قد بلغت .

قال ابن عباس : فوالذى نفسى بيده إنها لوصيته إلى أمته ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

ولقد فرط المسلمون كثيرا فى تنفيذ هذه الوصية بكل أسف .

وهانحن الآن نكتب هذه العبارات والدماء تنزف من أشلاء المسلمين التى تمزقت على يد المسلين أنفسهم فى كثير من مناطق العالم الاسلامى

وهاهى البلاد الاسلامية تكيد لبعضها البعض ، وتتحالف ضد بعضها البعض وتعتدى على بعضها البعض ، وغير المسلمين شامتون يشجعون الفتنة وهدفهم القضاء على الاسلام .

إن هذا يثير فى النفس مشاعر الحزن والأسى على ماوصل اليه المسلمون من ضياع وتفرق وتخاذل .

فهل ياترى أصبح المسلمون كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

أما نحن فنشهد أن الرسول أبلغ وحذر ، وبشر وأنذر ، ولم يغادر الدنيا حتى ترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، ولكن الناس قصروا فى حفظ وصايا نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولامخرج لهم مماهم فيه الا بالرجوع اليها مرة أخرى والعودة الى أحكام كتابهم الكريم ففى اتباع ذلك الحل الناجع لكل مشكلاتهم . .

وكان منزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنى حيث المسجد الآن ، وأنزل المهاجرين يمنته والأنصار يسرته والناس حولهم .

وقد طلب بعض الناس أن يبنوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بناء يظله .

ولكنه قال : لا ، منى مناخ من سبق

طواف الوداع

ثم جاء يوم النفر وهو آخر أيام التشريق فصلى النبى ـ ﷺ ـ العصر بالأبطح وقيل : إنه صلى العصر والمغرب والعشاء ثم هجع هجعة ، ثم دخل مكة فطاف بالبيت . ثم قال : نحن نازلون غدا بخيف بنى كنانة ـ يعنى المحصب ـ حيث قاسمت كنانة قريشا على الكفر ، وذلك أن بنى كنانة حالفت قريشا على بنى هاشم أن لايناكحوهم ولا يبايعوهم ولايؤووهم حتى

يسلموا اليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ
شتان بين اليوم والأمس .

لقد أصبحت الجزيرة العربية اليوم كلها مؤمنة ، تدين بدين ذلك الرجل الذى تقاسموا بالأمس ضده وتحالفوا عليه . .

وأصبح أولئك الذين كانوا يعادونه ويطاردونه ـ من بقى منهم على قيد الحياة ـ مسلمين يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

وصدقت كلمة الله « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

وأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس أن يكون آخر عهدهم البيت . . وكانوا قبل ذلك ينصرفون من كل وجه . .

وأراد النبى أن يطوف هو ومن معه من المسلمين طواف الوداع ، وكان قد نفر من منى قرب الزوال ، فلم يكن يمكنه أن يجىء البيت فى بقية يومه ، ويطوف به ويرحل الى ظاهر مكة من جانب المدينة لأن ذلك قد يتعذر على الجم الغفير من الناس .

فاحتاج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبيت قبل مكة ، ولم يكن أنسب له من ذلك المكان الذى أشرنا اليه « وكان هذا توافقا عجيبا .

وبعد أن صلى العشاء وهجع هجعة ، وكان قد أمر عائشة أن تعتمر من التنعيم مع أخيها عبد الرحمن فاعتمرت وفرغت من طوافها . .

وأقبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى البيت فطاف طواف الوداع . .

ووقف فى الملتزم بين الركن الذى فيه الحجر الأسود وباب الكعبة ، فدعا الله ـ عز وجل ـ وألصق جسده بجدار الكعبة . .

إنها لحظة مناجاة وضراعة ، يطلب المؤمن فيها ألا يجعل الله هذه المرة آخر عهده بالبيت .

وماأروع الإحساس بالفراق ، وأى فراق هذا ؟ إنه فراق هذا الرحاب الواسع الذى يضم فى حنان تلك الآلاف المؤلفة التى أقبلت فى شوق جارف تلبى دعوة الله ، وتضع يدها فى يمين الله ، وتسعد بضيافة الرحمن . .

إن وداع البيت الرحيب له لذعة ألم وشوق فى القلب تفيض من أجلها الدموع غزيرة وتتصاعد لها الأنفاس شوقا ويهتف المؤمن من أعماقه راجيا ربه بما شاء من دعاء ، مجددا معه العهد ، شاكرا له على نعمة التوفيق لزيارة بيته آملا فى العودة الى هذا الرحاب الطاهر مرات ومرات . .

العودة إلى المدينة :

وخرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أسفل مكة . . من الثنية السفلى ، فقد دخل من طريق ، فليكن خروجه من طريق آخر ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد دخل مكة من الثنية العليا ، من طريق كداء ، وغادرها من طريق كدى .

وقد اصطحب معه من ماء زمزم شيئا ، وفى ذلك دعوة إلى استحباب فعل ذلك للحجاج والمعتمرين وقد روى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها كانت تحمل من ماء زمزم وتخبر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يحمله معه .

وفى الطريق الى المدينة ، وفى مكان يطلق عليه غدير خم ، نزل النبى - صلى الله عليه وسلم - وتحت شجرة هناك ألقى خطبة بين المسلمين بين فيها فضل على كرم - الله وجهه - وأزاح ماكان قد علق ببعض الأذهان بخصوص عَلِيّ - وذلك أن عليا كان قد خشن على بعض من كان معه فى اليمن ، ونزع منهم حللا أعطاها لهم الرجل الذى كان قد ولاه عليهم ، أثناء انصرافه لأداء الحج - وقد فعل الرجل ذلك دون إذن من عَلِيّ ، وكانت هذه الحلل ضمن غنيمة لاينبغى التصرف فيها الا بعد اقتسام الغنيمة . . والرجوع الى النبى - صلى الله عليه وسلم -

أراد النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يبين سلامة موقف عَلِيّ فقال : « أيها الناس لاتشكو عليا فوالله إنه لاخشن فى ذات الله - أو سبيل الله - من أن يشكى »

وقال أيضا : « من كنت مولاه فَعَلِىٌّ مولاه »

وقال أيضا : « كأنى قد دعيت فأجبت ، وإنى قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله وسنتى فانظروا كيف تخلفونى فيهما ، فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض وأوصيكم بأهل بيتى »

ثم قال : « الله مولاى وأنا ولى كل مؤمن »

ثم أخذ بيد علىّ وقال : « من كنت مولاه فهذا وليه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »(٢٥٧)

---

(٢٥٧) رواه النسائى عن زيد بن أرقم وقال الذهبى : حديث صحيح ، ورواه ابن كثير فى البداية والنهاية جـ ٥ صـ ٢٠٩

إن فى هذا الحديث بيانا لمنزلة أهل البيت وفضلهم ، وقد أثنى الله عليهم بقوله :

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(٢٥٨)

وقد حرص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوصى المسلمين كثيرا ـ وقد أحس قرب أجله ـ بأهل بيته . حتى لايتعرضوا للجفاء بعده . .

كما حرص أن ينزع من نفوس من وَجِدوا عَلَى عَلِيّ ـ رضى الله عنه ـ كل موجدة وغضب منه . . كما أوصى وأثنى على أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ وخصوصا السابقين منهم وذوى الفضل فيهم من أمثال أبي بكر والفاروق وذى النورين وبقية العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم . . ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ .

ولذلك حين قدم المدينة ـ صعد المنبر فى مسجده الشريف ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس ، إن أبا بكر لم يسؤنى قط ، فاعرفوا ذلك له ، أيها الناس ، إنى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين راض فاعرفوا ذلك لهم .

أيها الناس ، احفظونى فى أصحابى وأصهارى وأحبابى لايطلبكم الله بمظلمة أحد منهم .

أيها الناس ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين ، واذا مات أحد منهم فقولوا فيه خيرا : بسم الله الرحمن الرحيم »

---

(٢٥٨) الاحزاب ٣٣

ولقائل أن يقول ، فما باله - ﷺ - لم يخص الأنصار فى ذلك بحديث وان كانوا قد دخلوا فى عداد الأصحاب والأحباب ؟

ونرد على ذلك فنقول : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - خص الأنصار فى مرض موته فى آخر أحاديثه الشريفة التى تحدث بها . . . . فقد روى ابن سعد فى طبقاته قال : حين مرض النبى - صلى الله عليه وسلم - قالت عائشة : أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نصب عليه من سبع قرب من سبعة آبار ففعلنا .

فلما اغتسل وجد الراحة ، فصلى بالناس ثم خطبهم ، واستغفر للشهداء من أصحاب أحد ، ودعا لهم ، ثم أوصى بالأنصار فقال :

يامعشر المهاجرين ، إنكم أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لاتزيد . . . على هيئتها التى هى عليه اليوم ، هم عيبتى التى أويت اليها ، أكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم .

وفى رواية . قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مرضه الذى توفى فيه : إن لكل نبى تركة أو ضيعة ، وإن الأنصار تركتى أو ضيعتى ، وإن الناس يكثرون الأنصار يقلون - فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم .(٢٦٠)

واستجاب المسلمون حقا لوصاة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - . وسيأتى بمشيئة الله حديث مفصل عن الأحداث التى وقعت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى مناسبتها

---

(٢٥٩) عيبتى : أى موضع سرى والمطلعون على خفايا أمرى

(٢٦٠) الطبقات الكبرى جـ٢ قسم ٢ صـ٤٢

الأَعْلَام فى القرآن الكريم

الأَعْلَام جمع عَلَم ـ بفتح العين واللام ـ

وتطلق هذه الكلمة على معان عدة .. أهمها : الشَّقُّ فى الشفة العليا . أو فى أحد جانبيها ـ فيقال : رجل أَعْلَم ، أى مشقوق الشفة ، وتقول : عَلَمْت شفته أَعْلِمُها عَلْمًا ـ بفتح العين ـ ومنها : الراية التى يجتمع إليها الجند ، والمنار الذى يهتدى به الناس ، والعلامة التى يتميز بها الشىء ، ولذلك يقال لعلامات الطريق : معالم الطريق جمع مَعْلَم .

والعلم هو السيد فى قومه ، وأعلام القوم سادتهم .

وقد يطلق العلم على الجبل ، قال ـ تعالى ـ

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ (٢٦١)

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ (٢٦٢)

ومنه قوله الخنساء ترثى أخاها صخرا :

وإن صخرا لتأتم الهداة به　　　كأنه علم فى رأسه نار

هذا بعض ما يوحى به هذا اللفظ من معان ، وكلها تهدى إلى المعنى الاصطلاحى الذى يذكره النحاة ..

والعلم عند النحاة هو الاسم مطلقا ، أى الاسم الذى يعين المسمى .. ويشمل أعلام الأناسى وغيرها من حيوان وجماد ، ويشمل كذلك اللقب والكنية .

---

(٢٦١) الرحمن ٢٤

(٢٦٢) الشورى ٣٢

أسماء السور

والقرآن الكريم غنى بالأعلام ، وردت فيه أعلام كثيرة ، كان لذكرها دلالات وإشارات لا تخفى . وفى مقدمة ذلك أسماء السور نفسها ، فاسم السورة عَلَم عليها ، وما سميت بذلك الاسم الذى يدل عليها إلا لمعنى عميق وحكمة عالية . .

يقول الامام السيوطى : إن أسماء السور ثبتت بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ومما يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : كان المشركون يقولون : سورة البقرة وسورة العنكبوت ، ويستهزئون بها فنزل قوله - تعالى -

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝٩٥ ﴾ (٢٦٣)

قال : وقد كره بعضهم أن يقال : سورة كذا لما رواه الطبرانى والبيهقى عن أنس مرفوعا : « لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء ، وكذا القرآن كله ، ولكن قولوا : السورة التى تذكر فيها البقرة والتى يذكر فيها آل عمران ، وكذا القرآن كله » .

وقد عقب السيوطى على هذا الأثر بقوله : إسناده ضعيف ، بل ادعى ابن الجوزى أنه موضوع .

والذى لا شك فيه أن أسماء السور ثبتت ، ومضى بها العرف ، وأصبحت معروفة لدى الناس جميعا منذ جمع المصحف حتى وقتنا هذا وإلى أن يطوى

---

(٢٦٣) الحجر ٩٥

الله الأرض وما عليها ، فقد تعهد الله بحفظ كتابه فقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢٦٤)

وقد جاءت تسمية السور لأغراض ومعان دقيقة . وغالبا مايكون العلم الذى سميت به قد ورد حديث عنه أو إشارة إليه فى السورة ـ أراد المولى ـ عز وجل ـ أن يلفت الأذهان إليه ، وينبه العقول إلى الانتفاع به .

وهذا لا يمنع أن يكون للسورة تسميات أخرى وردت بها الآثار .

فسورة البقرة مثلا ، سميت بذلك لما ورد فى السورة من قصة البقرة التى أمر بنو إسرائيل بذبحها .

وإن كان لها أسماء أخرى هى صفات تدل على عظمتها .

فقد سميت بفسطاط القرآن ، وسنام القرآن .(٢٦٥)

وقال الزركشى مشيرا إلى سبب تسمية السور : ينبغى النظر فى اختصاص كل سورة بما سميت به ، ولاشك أن العرب تراعى فى كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون فى الشىء ـ من خلق أو صفة تخصه أو حكمة أو عبرة تنبه إليها تلك التسمية ـ ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها ، وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن ، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها ، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من شىء كثير من أحكام النساء ، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها ،

---

(٢٦٤) الحجر ٩

(٢٦٥) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى حـ ١ صـ ١٩٤

وإن كان قد ورد لفظ الأنعام فى غيرها ، إلا أن التفصيل الوارد فى قوله - تعالى -

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ (٢٦٦)

لم يرد فى غيرها . . . . كما ورد ذكر النساء فى سور غير سورة النساء إلا أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد فى غير سورة النساء ، وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة فى غيرها فسميت بما يخصها .

فإن قيل : قد ورد فى سورة هود ذكر نوح وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى ، فلم خصت باسم هود وحده ، مع أن قصة نوح فيها أكثر وأطول ؟

---

(٢٦٦) الأنعام ١٤٢ : ١٤٤

قيل : تكررت هذه القصص فى سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأكثر مما وردت فى غيرها ، ولم يتكرر فى واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود كتكرره فى سورته ، فانه تكرر فيها فى أربعة مواضع والتكرار من أقوى الأسباب التى ذكرنا .

فإن قيل : فقد تكرر اسم نوح فيها فى ستة مواضع قيل : لما أفردت لذكر نوح وقصته مع قومه سورة برأسها - فلم يقع فيها غير ذلك ، كانت أولى بأن تسمي باسمه من سورة تضمنت قصته وقصة غيره »(٢٦٧) . .

ويمكن القول بأن تسمية السورة بقصة أو شيء بارز فيها يشير إلى ما يكمن فى ذلك من معان يجب أن تتنبه الأذهان إليها .

قال الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره : « اعلم أن الله - عز وجل - سمى السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام ، وببعضها كالبقرة ، وبالحيوانات الصغيرة وهى الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو ألطف من ذلك كالنور . كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وببعض الأخلاق كالتوبة ، وببعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم ، وببعض الأوقات ، كالليل والفجر والضحى ، وببعض المعادن كالحديد ، وببعض الأماكن كالبلد والبروج ، وببعض النباتات كالتين . وبكل شيء مما نراه وما لا نراه ، فما لا نراه كالمرسلات والنازعات والجن وغير ذلك » .

---

(٢٦٧) البرهان فى علوم القرآن للزركشى حـ ١ صـ ٢٧٠

تسمية سورة البقرة :

والمتأمل فى أسماء هذه السور يراها ترمز إلى حقائق . . . . . من ذلك على سبيل المثال ما نراه من سبب تسمية سورة البقرة بهذا الاسم .

لقد وردت قصة بقرة بنى إسرائيل فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٢٦٨)

---

(٢٦٨) الآيات من ٦٨ : ٧٣ سورة البقرة

فى هذه القصة من العبر والعظات والمعانى ما هو كفيل أن يوجه الناس إليه أنظارهم ، ولذلك سميت السورة باسم البقرة وهى مدار هذه القصة .

ومن هذه العبر : ماتشير إليه القصة من عناد بنى إسرائيل وتشددهم فى أمور لا تستحق أى تشدد ، فكانت مغبة ذلك راجعة عليهم لا على غيرهم . فقد راجعوا موسى ـ عليه السلام ـ فى أمر البقرة أكثر من مرة ، ولو أنهم استجابوا إليه من أول مرة لما حملوا أنفسهم عناء كبيرا فى طلب بقرة تجمع كل هذه الصفات التى أوردتها الآيات ، حتى إنهم لم يتمكنوا من الحصول عليها إلا بملء جلدها ذهبا كما ذكر المفسرون ، ولذلك ضرب المثل بتعنت بنى إسرائيل فقيل :

لا تكونوا كبنى إسرائيل شددوا فشدد عليهم .

ومع أن السورة فيها آيات كثيرة توضح فساد الاسرائيليين وعنادهم وكفرهم بعد إيمانهم ، وترددهم الشديد الذى يوضح سوء نواياهم وقبح سرائرهم إلا أن أوضح مثل يفصل ذلك هو هذه القصة التى حكيت فى أروع بيان وأجمل نسق ، ويا ليتهم آمنوا بعد أن أنطق الله قتيلهم بضربه بجزء من البقرة ، فأخبر بمن قتله ، وعلى الرغم من ذلك قست قلوبهم كما ذكر ذلك القرآن الكريم عقب ذكر القصة فى قوله :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾(٢٦٩)

---

(٢٦٩) البقر ٧٤

إن هذه القصة تضع أمامنا صورة لهذا العناد حتى نحذره ونحذر أصحابه ونعلم أى لون من الناس أصبح المسلمون يختلطون بهم فى المدينة ، بعد أن أصبحت مهاجر الدين الجديد ومستقر المسلمين بعد الهجرة .

ولابد من الإشارة الى ما ألمع إليه بعض المفسرين حول هذه القصة بأن رفع قيمة ثمن هذه البقرة حتى بذل فيها - كما يقولون - ملء جلدها ذهبا - جاء نتيجة لبر الوالدين ، فقد كان صاحب هذه البقرة بارًا بأمه فأراد الله أن يكافئه على هذا البر فى الدنيا قبل أن يكافئه فى الآخرة .

ثم انظر الى قوله - تعالى - :

« كذلك يحيى الله الموتى »

أليس هنا موطن عبرة ينبغى للعاقل أن يتدبره ؟ فيعرف قدرة الله العظمى ، وأنه عز وجل قادر على إحياء الخلق وبعثهم وحسابهم وإثابتهم ومعاقبتهم .

ثم انظر الى مايبطن فى أخلاق الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر بعد أن أنقذهم موسى من التردى الذى كانوا فيه فما أن وطئت أقدامهم أرض سيناء حتى طلبوا من موسى أن يتخذ لهم إلها صنما فزجرهم ، ولكنهم اغتنموا فرصة ذهابه لمناجاة ربه فاتخذوا من حليهم عجلا جسدا له خوار وعبدوه من دون الله ، فأراد الله أن يبين لهم بطريق عملى أن الحيوان الذى لا يستطيع ان يدفع عن رقبته مدية الجزار وسلخه وتقطيع أجزائه لا يصلح أن يكون إلها يعبد ؟

وبذلك حطمت هذه البقرة بذبحها الشرك فى النفوس عند ذوى الفطنة والفِطَر السليمة والقلوب الواعية والعقول المستنيرة .

هذا بعض ما يمكن استفادته من سر تسمية سورة البقرة بهذا الاسم .

سورة آل عمران :

ونستطيع أن نستخلص من تسمية سورة آل عمران بهذا الاسم كثيرا من العبر والعظات .

لقد سميت بذلك لأنها تريد أن تفتح أذهاننا إلى أن الله يخص برحمته من يشاء من عباده ، ويصطفى للهداية من يريد .

لقد ذكرت سورة البقرة السابقة عليها طوائف من الضالين منهم المنافقون الذين أشارت اليهم السورة فى أولها ـ فى قوله تعالى ـ

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢٧٠)

ومنهم المشركون ومنهم أهل الكتاب المنحرفون . .

وجاءت سورة آل عمران لتنبه إلى أن هناك طائفة من المهتدين اصطفاهم الله وخصهم برحمته وهدايته

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢٧١)

لقد أشارت الآيات السابقة على هذه الآية فى سورة آل عمران والسورة التى قبلها الى طبيعة الشاكين والمشككين والضالين والمضللين ـ وبخاصة بنو

---

(٢٧٠) البقر ١٠

(٢٧١) آل عمران ٣٣ ، ٣٤

إسرائيل - وكيف أنهم يغيرون ويبدلون ويقلبون وجه الشيء ، ولا يرضون بشيء ولا يصبرون على اختبار ، ولا يثقون فى الله . . . . . امتلأت قلوبهم بالشك والحسد .

فانظر إلى من اصطفاهم الله واجتباهم كيف يكون حالهم ، وكيف يكون إيمانهم ويقينهم ، إنهم لله . . . حركاتهم وسكناتهم به ، ولا يملكون معه شيئاً . فقد فوضوا أمرهم إليه ، واعتمدوا - فى ثقة كاملة - عليه . .

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ (٢٧٢)

إنه إيمان عظيم ، ويقين راسخ ، وتوكل كامل ، ولجوء إلى الله ، واستعانة به وحده . هذه هى صفات المؤمن الحق .

ثم انظر إلى رعاية الله حين تحف بإنسان يصطفيه ويجتبيه ، إنه يمده بكل حيطة وعناية ، ويكفيه كل هم . وفى مقدمة ذلك هَمُّ الرزق الذى كفله الله للخلق جميعا ، ولكن كثيرا من الناس عموا عن ذلك فشقوا وأشقوا . وقد تنبه لهذا المعنى الدقيق بعض العلماء المتذوقين فقالوا : « انشغالك بما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك »(٢٧٣)

---

(٢٧٢) آل عمران ٣٥ ، ٣٦

(٢٧٣) ابن عطاء الله الكسندرى فى حكمه

لقد أقر الله عين مريم البتول المؤمنة الواثقة التى نذرتها أمها لله ، فكفل لها رزقها من حيث لا تحتسب . .

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ (٢٧٤)

ذلك تعليم للناس ألا تلهيهم الدنيا عن خالقهم . وعليهم أن يكون سعيهم فيها موصولا بمعرفة الله والثقة فيه ، وأن تكون الدنيا فى أيديهم لا فى قلوبهم ، لقد خلقهم الله لعبادته ومعرفته ، فما لهم يشغلون أنفسهم عن هذه الغاية الرفيعة بغايات أخرى تافهة ؟

أن من طبيعة المؤمن أن يكون مستسلما لله ومفوضاً أمره إليه ، كما فوض هؤلاء الذين اصطفاهم الله أمرهم إليه ، ولذلك نجد أن هذه السورة قد بدأت بهذه المعانى التى اتصف بها أولو العلم الحقيقيون الذين لا يُعَنُّون أنفسهم بما ليس من حقهم ، وهم يقولون : « آمنا به كل من عند ربنا » ويطلبون أن يثبت الله أقدامهم على طريق الحق

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ (٢٧٥)

---

(٢٧٤) آل عمران ٣٧
(٢٧٥) آل عمران ٨

ولا تلهيهم زهرة الدنيا الفانية وزينتها الزائلة كما ألهت آل فرعون والذين من قبلهم ، والذين أغرقهم الله من أجل بنى إسرائيل الذين أنقذهم الله بموسى ـ عليه السلام ـ

لقد كان بنو إسرائيل جديرين بأن يتعظوا بهذا المصير الذى حاق بمن آثروا الدنيا على الآخرة ، ولكنهم فاقوا هؤلاء فى التكالب على حطام الدنيا الفانى ومتاعها الزائل ، وأمعنوا فى الضلال فقتلوا الأنبياء والمرسلين والذين يأمرون بالقسط من الناس .

لقد فتحت السورة أعينهم على المثل الكامل فى آل عمران لعلهم يتعظون ويهتدون وفى هذا المثل عبرة لكل مؤمن . ولكل من يريد أن يتأسى بأفراد هذه الأسرة المصطفاة . .

إن فى كل فرد من أفراد هذه الأسرة مثلا يحتذى . .
فأم مريم زوجة عمران آثرت الله على نفسها فوهبته ما فى بطنها ليكون نذيرا فى بيته المقدس . .

ومريم البتول أحصنت فرجها ، وفضلها الله على نساء العالمين فى عصرها . وزكريا الذى كفلها كان نبيا اصطفاه الله واجتباه ، وكان مثلا كاملا فى اللجوء إلى الله . والاستسلام لقدره وقضائه .

وابنهُ يحيى الذى لم يجعل الله له من قبل سميا كان قدوة كاملة فى النزاهة والعفة والتذكير بالله والدعوة اليه والاستشهاد فى سبيل ذلك .
وعيسى روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم . .

هذه مثل عليا وضعها الله أمام الناس عامة وأمام بنى اسرائيل خاصة . فاذا كان المسلمون مطلوب منهم الاقتداء بهؤلاء فأهل الكتاب أولى بهذا ، لأنهم يدعون أنهم على ملة عيسى ، وهو منهم براء لما زيفوه على لسانه من أباطيل ، وشوهوا به رسالته من أضاليل .

وقد أعلنت السورة صراحة ـ أن هؤلاء الذين يزعمون نسبتهم إلى إبراهيم عليه السلام ـ أن إبراهيم برىء منهم ، وأن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه ، وهذا النبى ـ ﷺ ـ . .

وهكذا نستطيع أن نمضى مع بقية السور ، فنلتقط منها الحكمة التى تختفى وراء هذا الاسم الكريم الذى سميت به . ونتدبر فى معناه وما يهدى إليه من مثل ، ولا نمر مر الكرام على هذا الاسم دون أن نعرف حكمته ومغزاه .

فانظر إلى تسمية السور بالرعد وابراهيم والحجر والنحل والنمل والشعراء والعنكبوت ـ وغيرها من السور . . . وحاول ان تستنبط من وراء هذه التسميات الدلالات العميقة والحكم الرفيعة التى تشير اليها .

وهذه بعض نماذج نستشهد بها . .

سورة الرعد

إن لفظة الرعد تلفت أنظارنا إلى هذه الظاهرة الكونية التى تحيط بنا ، والتى تدل دلالة قوية على قدرة الله ـ تعالى ـ فنعرف سر هذه الظاهرة وندرسها دراسة علمية متخصصة متدبرة ، ونهتدى من ورائها إلى أسرار علمية تقودنا الى غيرها ، وترشدنا الى ما يفيدنا فى حياتنا ، ويعمق إيماننا بالله واليوم الآخر ، ونعرف أن الاسلام ليس دينا للآخرة فقط ، ولكنه دين

للآخرة والدنيا انظر الى قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ
ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ
ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ
شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢٧٦)

إن نسق التعبير يوحى بكثير من الدلائل ، فهذه ظواهر طبيعية يترتب بعضها على بعض ، برق فسحاب ثقال ، فرعد ، فصواعق تصيب المجادلين فى الله بغير علم ، وهو وحده القوى القادر العظيم المتعال الذى له دعوة الحق . .

إن القرآن يخاطبنا عن طريق هذه التسمية طالبا منا أن نتنبه لقدرة الله ـ تعالى ـ الخارقة وعظمته القاهرة ، ويطلب منا أن نحث النظر فى معرفة ظواهر الكون المختلفة للتعُّرف عليه والاهتداء إليه ، وفى الوقت نفسه نفتح لأنفسنا آفاقا من العلم تجعلنا نتفوق فى حياتنا ، وننتفع بما يمكن الانتفاع به .

سورة الحِجر

ربما كان اسم الحِجر الذى سميت به هذه السورة ـ على ما فيها من معانى رائعة عظيمة ـ فيه إرشاد لنا إلى أن الترف ومظاهره فى العمران ليس دليلا على تقدم الانسان ورقيه ، بل ربما كان سببا فى محقه وضاعه .

(٢٧٦) الرعد ١٣

إن التقدم الحق ليس فى هذه المظاهر المادية التى تغصُّ بها الحياة الآن ، ولكن التقدم الصحيح هو أن يكون الانسان فى تقدمه عارفا بربه ، معظما إياه ، مقرا بوحدانيته وقدرته ، معترفا بتفرد الله وقيوميته ، شاكرا لأنعمه ، متعاطفا مع غيره ممن هم فى حاجة إليه ، غير تيَّاهٍ بما مُنِحَه من نعمة وأعْطيه من فضل ، ليس معربدا بقوته وموجها لها فى الشر والأذى واغتصاب الحقوق والعدوان . . إنه اذا لم يتق الله فيما خوَّله إياه ولم يرع جانبه فيما وهبه من مواهب استحق الخسف والبوار . كما حدث لأصحاب الحِجر الذين أعمتهم المادة عن طريق الحق ، وأضلهم الترف عن اتباع رسولهم ـ عليه السلام ـ وصدق الله إذ يقول منبها الأذهان فى هذه السورة :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ (٢٧٧)



أى المتفكرين المتفرسين .

سورة العنكبوت :

وربما كان اسم العنكبوت يشير الى ما ألهم الله هذه الحشرة العجيبة من قدرات ، فهى فى إمكانها أن تعلم الانسان ما لم يعلم ، إن فى لعابها سحرا تصنع منه خيوطا محكمة النسج تبنى بها قلعة تحميها وتحرسها ، وتجعل منها شركا تصطاد بها فرائسها ، وعلى هذه الخيوط تتسلق وتعلو وتهبط ، دون أن تبذل فى ذلك جهدا أو مشقة .

وعلى ضعف بيت العنكبوت ـ الذى ضرب الله به المثل فى ضعف الشركاء الذين يتخذهم الكفار أولياء من دون الله ـ بيان لقدرة الله العظيم الخالق الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فهو الذى ألهم كل

---

(٢٧٧) الحجر ٧٥

مخلوق حكمة تعينه على حياته ومعيشته ورزقه وَعَدْوِه . . وفى السورة لفت لأنظارنا ، حتى نفكر ونتدبر فى هذا الكون الملىء بالعجائب والمتناقضات ، حيث يوجد القوى والضعيف ، والمفترس والفريسة ، والهازم والمنهزم والمهتدى والضال ، ومع ذلك فالكون يسير فى دقة متناهية ونظام عجيب متكامل . أليس ذلك دليلا على قدرة الله الواحد وعظمة الخالق الذى قدر فهدى ؟

هذه بعض مُدْرَكات متواضعة حول أسماء بعض السور ، وهناك معان دقيقة ـ قطعا ـ لم نفطن لها ، وفى ذلك دعوة إلى استمرار التعلم والنظر . . ، فقد ورد أن العالم يظل عالما ما طلب العلم ، فمتى ظن أنه علم فقد جهل .

أعلام أخرى فى القرآن

والقرآن غاص بالأعلام التى وردت فى آياته ، فهناك أسماء الله ـ جل جلاله ، وأسماء الملائكة وأسماء الرسل وأسماء الأماكن وغير ذلك مما سنشير إليه . .

وقد جرت عادة العلماء أن يقسموا العلم إلى اسم وكنية ولقب .

والاسم مثل : محمد وأحمد وزيد وعمر . .

والكنية ما صدر بأب أو أم ، كأبى بكر ، وأم المؤمنين .

واللقب ما أشعر بمدح أو ذم ، فالمدح كالصدِّيق والفاروق . والذم كالعتل والزنيم .

وقد جمع القرآن الكريم ألوانا من الأعلام على اختلاف أنواعها ـ دعا الى ذكرها الاعجاز المحكم . واقتضاها البيان الحكيم .

ونرى لزاما علينا أن نبدأ فى بيان ما ورد فى القرآن الحكيم من أعلام

بأسماء الله الحسنى ، لأنها هى الأحق بالبدء والأولى بالسبق ، والأجدر بالفضل ، والأحرى بالتقديم فى الذكر .

بعض ما وقع فى القرآن من الأسماء والكنى

وقبل أن نتحدث عن اسماء الله الحسنى التى سنفرد لها حديثا خاصا إن شاء الله ، تقدم بين يديها بعض ما وقع فى القرآن الكريم من أسماء وكنى وألقاب . . .

أسماء الأنبياء

فمن الأعلام التى وردت فى القرآن الكريم اسماء الأنبياء - عليهم السلام - وقد تحدثنا عنهم بالتفصيل قبل ذلك فى أعدادنا السابقة ، ولكننا نشير إلى بعض النكات الواردة حولها للإفادة أولا ، ولأن ما سنذكره لم يرد غالبا فيما سبق أن قدمناه .

قال الجواليقى - رحمه الله - : أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة وهم : آدم ، وصالح ، وشعيب ومحمد . . - عليهم الصلاة والسلام -

● وآدم سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وقال بعضهم : بل هو سريانى ، وقال بعضهم : بل هو أعجمى مُعَرَّب .

وقد ذكر اسم « آدم » فى القرآن خمسا وعشرين مرة ، منها ما هو مذكور وحده ، ومنها ما هو مضاف الى بنيه أو ذريته .

ومن ذلك قول - تعالى -

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين »(٢٧٨)

---

(٢٧٨) البقرة ٣١

ومن ذلك قوله - تعالى -

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين »[(٢٧٩)]

ومن ذلك قوله - تعالى -

« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ومن ذرية آدم . . . »[(٢٨٠)]

● أما نوح ، فقد قال بعضهم : إنه أعجمى معرب ، ومعناه بالسريانية : الساكن .

وقال الحاكم في المستدرك : إنما سمى نوحا لكثرة بكائه على نفسه ، وأما اسمه فعبد الغفار[(٢٨١)]

وقد ورد اسم نوح فى القرآن الكريم ثلاثا وأربعين مرة .

منها قوله - تعالى :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده . . . . »[(٢٨٢)]

والمعروف أن نوحا كان أطول الأنبياء عمرا

● أما إدريس فقد قالوا : إنه جدُّ نوح ، ويقال له « خُنوخُ »

وهو اسم سريانى ، وقيل : عربى مشتق من الدراسة ، لكثرة درسه الصحف .

وقد ورد اسم إدريس فى القرآن مرتين هما :

« واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا »[(٢٨٣)]

(٢٧٩) الأعراف ٣١

(٢٨٠) مريم ٥٨

(٢٨١) الاتقان فى علوم القرآن جـ٣ ص ٦٨

(٢٨٢) النساء ١٦٣

(٢٨٣) مريم ٥٦

« وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين »[٢٨٤]

● أما ابراهيم فقد قال العلماء إنه إسم قديم ليس بعربي ، وقد تكلمت به العرب على وجوه ، فقالوا : إبراهام ، وإبراهيم ، وإبْرَهَم ، وأشهرها إبراهيم . وهو اسم سرياني معناه أب رحيم .

وقال بعضهم : مشتق من البرهمة ، وهي شدة النظر .

وورد اسم ابراهيم في القرآن الكريم تسعا وستين مرة . منها على سبيل المثال قوله ـ تعالى ـ :

« وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين »[٢٨٥]

● وأما اسماعيل وهو ولد إبراهيم ـ فقد ورد بالنون في بعض القراءات بدل اللام ـ ذكر ذلك الجواليقي في كتابه المعرب .

وذكر إسماعيل في القرآن اثنتي عشرة مرة ، منها قوله ـ تعالى :

« وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود »[٢٨٦]

● واسحاق ، وهو الولد التالي لا إبراهيم بعد اسماعيل ـ عليهم السلام ـ وهو أحد الأنبياء والذين سماهم الله قبل أن يولدوا . ولد بعد اسماعيل بأربع عشرة سنة ، ومعنى إسحاق بالعبرانية : الضحاك ـ

---

(٢٨٤) الأنبياء ٨٥

(٢٨٥) البقرة ١٢٤

(٢٨٦) البقرة ١٢٥

وذكر إسحاق فى القرآن سبع عشرة مرة منها قوله ـ تعالى ـ :

« قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا . . »[287]

● وأما يعقوب فهو ولد إسحاق ، وهو الذى بشر به القرآن قبل أن يولد . .

« فبشرناهم بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب »[288]

وقد ذكر يعقوب فى القرآن الكريم ست عشرة مرة .

ويعقوب له اسم آخر هو إسرائيل الذى ذكر فى القرآن الكريم ثلاثا وأربعين مرة ، منها قوله ـ تعالى ـ

« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين »[289]

● وأما يوسف فقد ذكر فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة ، ونزلت سورة باسمه تقص قصته كاملة ، وورد اسمه فيها خمسا وعشرين مرة ، وفى غير هذه السورة ورد مرتين ، مرة فى سورة الأنعام فى قوله تعالى

« ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف . . . »

ومرة فى سورة غافر فى قوله ـ تعالى ـ :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به . . . »[291]

---

(287) البقرة ١٣٣

(288) هود ٧١

(289) البقرة ٤٠

(290) الأنعام ٨٤

(291) غافر ٣٤

وهو الذى أعطى شطر الحسن . وقال بعضهم : إن الذى ورد فى سورة غافر ليس هو يوسف بن يعقوب بل هو حفيده .

● وأما لوط فهو ابن هارون بن آزر ، وهو ابن أخو ابراهيم ـ عليه السلام ـ وقد ذكر فى القرآن الكريم سبع عشرة مرة ، منها قوله ـ تعالى ـ :

« قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط »(٢٩٢)

● وهود ، وكان أشبه الناس بآدم ـ عليهما السلام ـ ، وقيل : كان اسمه عابر بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

وقال بعضهم : الراجح فى نسبه أنه هود بن عبد الله بن رباح بن حارد بن عاد .... وهى سلسلة تغلب عليها الأسماء العربية .

وذكر هود فى القرآن الكريم عشر مرات منها قوله ـ تعالى :

« قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ... »(٢٩٣)

● وقد ذكر صالح فى القرآن الكريم تسع مرات ، منها قوله ـ تعالى ـ

« وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين »(٢٩٤)

وهو من الأسماء العربية التى لايشك فى عربيتها ، ووصفه بعضهم بأنه كان رجلا أحمر يميل الى البياض ، سبط الشعر ، ومكث فى قومه أربعين عاما يدعوهم الى الله .

كانت منازلهم بين الحجاز والشام ، ومات بمكة .

---

(٢٩٢) هود ٧٠

(٢٩٣) هود ٥٣

(٢٩٤) الأعراف ٧٧

● أما شعيب فقد ذكر فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة منها قوله ـ تعالى :
« قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا . . . »[٢٩٥]

وقالوا فى نسبه : هو ابن ميكاييل ، وقيل : ابن ميكيل بن يشجن ، وكان يلقب بخطيب الأنبياء .

وقد أرسل ـ كما يقول العلماء ـ إلى أمتين : مدين وأصحاب الأيكة . وكان كثير الصلاة وعمى فى آخر عمره .

● وأما موسى عليه السلام ـ فهو ابن عمران ولا خلاف فى نسبه .

وهو اسم سريانى . وقيل سمى به لأنه ألقى بين شجر وماء ، فالماء بالقبطية « مو » والشجر « سا » وقد وصفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه آدم طوال جعد كأنه من رجال شنودة .

وقد كثر ذكر موسى فى القرآن الكريم حتى وصل إلى مائة وست وثلاثين مرة .. أولها فى البقرة فى قوله ـ تعالى ـ
« واذ واعدنا موسى أربعين ليلة . . . . »[٢٩٦]

وآخرها فى سورة الأعلى فى قوله ـ تعالى
« إن هذا الفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى »[٢٩٧] .

● وهارون أخو موسى ، شقيقه ، وقيل : أخوه لأمه فقط ، وقيل : لأبيه فقط . وكان أطول من موسى وأفصح ، ومات قبل موسى .

---

(٢٩٥) هود ٨٧
(٢٩٦) البقرة ٥١
(٢٩٧) الأعلى ١٩

وورد ذكر هارون فى القرآن الكريم عشرين مرة منها قوله ـ تعالى :
« وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة »[٢٩٨] .

ومعنى هارون بالعبرانية : المحبب . وقد كان محبوبا فى بنى إسرائيل .
قال النبى ـ ﷺ ـ في حديث الإسراء : « صعدت إلى السماء الخامسة فإذا
أنا بهارون ، ونصف لحيته بيضاء ، تكاد لحيته تضرب إلى سرته من طولها ،
فقلت : ياجبريل ، من هذا ، قال : المحبب فى قومه هارون بن عمران .

● وأما دواد ـ عليه السلام ـ فهو ابن إيشي ـ بكر الهمزة . . ـ بن عَوْيَد ـ
بوزن جعفر . .
جاء فى الترمذى أنه كان أعبد البشر .

ووصفه كعب الأحبار بأنه كان أحمر الوجه ، سبط الرأس ، أبيض
الجسم ، طويل اللحية فيها جعودة ، حسن الصوت والخلق ، جمع الله له
بين النبوة والملك .

ذكره الله فى القرآن الكريم ست عشرة مرة منها قوله ـ تعالى :
« فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت . . »[٢٩٩] .

● وسليمان ولد داود ـ عليهما السلام ..
وذكر سليمان فى القرآن سبع عشرة مرة . منها قوله ـ تعالى ـ :

---

(٢٩٨) البقرة ٢٤٨
(٢٩٩) البقرة ٢٥

« واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا »[٣٠٠] .

ووصفه الرواة بأنه كان أبيض جسيما وسيما وضيئا جميلا خاشعا متواضعا ، وكان أبوه يشاوره فى كثير من أموره مع صغر سنة لوقور عقله وعلمه .. وقد شهد القرآن له بالفهم فى قوله ـ تعالى ـ

« ففهمناها سليمان وكلا اتينا حكماً وعلماً »[٣٠١] .

● وأما أيوب فقد ذكر فى القرآن الكريم أربع مرات منها قوله تعالى ـ

« وأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب . . . »[٣٠٢] .

وكان أيوب فيما يروى بعض الرواة بعد شعيب ، وقال بعضهم : كان بعد سليمان ، وهو الذى يضرب به المثل فى الصبر على البلاء :

● وذو الكفل ، قيل : هو ابن أيوب . جاء فى المستدرك عن وهب أن الله بعث بعد أيوب ابنه بشر بن أيوب نبياً . وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده ، وكان مقيما بالشام حتى مات ، وعمره خمس وسبعون سنة . وقال بعضهم : إنه إلياس .. وقال بعضهم : إنه يوشع بن نون »[٣٠٣] .

---

(٣٠٠) البقرة ١٠٢

(٣٠١) الأنبياء ٧٩

(٣٠٢) النساء ١٦٣

(٣٠٣) راجع الاتقان فى علوم القرآن جـ ٤ ص ٧٥

وقد ذكر ذو الكفل فى القرآن الكريم مرتين . فى قوله ـ تعالى :

« واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين »(٣٠٤) .

وفى قوله ـ تعالى :

« واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار »(٣٠٥)

● وأما يونس فهو ابن متى ، وهو ذو النون

وقد ذكر يونس فى القرآن اربع مرات ، منها قوله ـ تعالى :

« وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان . . . »(٣٠٦) .

● والياس هو ابن ياسين بن فنخاص ، وهو من سبط يوشع ، وكان من المعمرين . . وهو اسم عبرانى وهمزته همزة قطع وتزداد فى آخره ياء وسين كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ

« سلام على إلياسين »(٣٠٧) .

وذكر إلياس فى القرآن الكريم مرتين ، ومن ذلك قوله ـ تعالى :

« وإن إلياس لمن المرسلين »(٣٠٨) .

بالإضافة إلى إلياسين فى الآية التى ذكرناها .

---

(٣٠٤) الأنبياء ٨٥

(٣٠٥) ص ٤٨

(٣٠٦) النساء ١٦٣

(٣٠٧) الصافات ١٣٠

(٣٠٨) الصافات ١٢٣

● وأما اليسع فهو ابن أخطوب ، والعامة تقرؤه بلام واحدة وقرأ بعضهم : « اليسع بلامين وبالتشديد ـ وعلى هذا فهو أعجمى .

وقيل : إنه عربى منقول من الفعل وسع يسع . ولكنه غريب . وقد ذكر فى القرآن مرتين منها قوله ـ تعالى ـ
« واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين » .(٣٠٩) .

● وزكريا هو من ذرية سليمان بن داود ، وقتل بعد مقتل ابنه يحيى . وهو اسم أعجمى ، وفيه خمس لغات أشهرها المد ، والثانية القصر . وورد فى يائه التشديد والتخفيف ، وورد بحذفها فيصبح الاسم زكر ، على وزن قلم .

وجاء زكريا فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع منها قوله ـ تعالى ـ :
« فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . . . »(٣١٠) .

● ويحيى هو ابن زكريا الذى بشر باسمه قبل ولادته ، ولم يسم بهذا الأسم أحد قبله ، ولد قبل عيسى بستة أشهر ، ونبىء صغيراً ، وقتل ظلما . قيل سمى بذلك لأن الله أحياه بالإيمان ، وقيل : لأنه استشهد والشهداء أحياء . .

---

(٣٠٩) الأنعام ٨٦
(٣١٠) آل عمران ٣٧

وقد ذكر فى القرآن الكريم خمس مرات منها قوله ـ تعالى ـ

« إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين »(٣١١) .

● فأما عيسى ـ عليه السلام ـ فهو ابن مريم . ورد ذكره فى القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة ، منها قوله ـ تعالى ـ

« وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس »(٣١٢) .

وهو اسم عبرانى ، وقيل : سريانى ، ويلقب بالمسيح

● أما خاتم الأنبياء محمد ـ ﷺ ـ فقد ورد فى القرآن الكريم باسمه محمد ، أو باسمه أحمد وله أسماء كثيرة أخرى . جاء « محمد » أربع مرات منها قوله ـ تعالى ـ

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »(٣١٣) .

وجاء أحمد مرة واحدة فى قوله ـ تعالى ـ

« ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »(٣١٤) .

وله ألقاب كثيرة نودى بها فى القرآن الكريم ، فقد نودى بقوله ـ تعالى ـ يأيها الرسول ، يأيها النبى ، يأيها المزمل ، يأيها المدثر . .

---

(٣١١) آل عمران ٣٩

(٣١٢) البقرة ٨٧

(٣١٣) آل عمران ١٤٤

(٣١٤) الصف ٦

وجملة الأنبياء الذين وردت أسماؤهم فى القرآن الكريم خمسة وعشرون نبياً ، هم الذين ذكرناهم . .

وقد قدمنا ذكرهم بين يدى أسماء الله الحسنى لأن هؤلاء الأنبياء هم الذين حملوا أعباء الرسالة وجاءوا بها من عند الله ليهدوا الناس إلى الله ، ويعرفوهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلا . . « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . . . . »[٣١٥] .

وسنرجىء الحديث عن بقية ما ورد فى القرآن الكريم من أعلام بعد التحدث بتوفيق الله عن أسماء الله الحسنى . . »



(٣١٥) النساء ١٦٥

وبعد :

لقد عرضنا فى هذه السلسلة حتى الآن عبر خمسة عشر مجلداً استغرقت خمسة وسبعين عدداً قصص الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، ومادار حولهم وحول عصورهم من أحداث . . .

واستطردنا من خلال ذلك إلى التحدث عن بعض العلامات والوقائع المشهورة ، وألقينا عليها الضوء . . وأفردنا لذلك أعداداً خاصة . . كما رأينا ذلك فى أعداد الكعبة المشرفة ، وزمزم ، والمسجد الأقصى ، والجن ، والروح ، والملائكة ، والعالم الآخر ، وغيرها . .

وتحدثنا فى هذه السلسلة عن السيرة النبوية المشرفة ، حديثاً تفصيلياً ، تناول نشأة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيئته وأسرته ، وبعثته وهجرته وجهاده وغزواته وسراياه . . ولم يكن حديثنا عن ذلك تقليدياً ، ولكنه كان حديثاً تأملياً يربط الماضى بالحاضر ويقدم العبرة التى يجب أن يأخذها المسلمون لحاضرهم الذى يجب أن يكون مشرقاً كما كان ماضيهم كذلك .

وقد انتهى المجلد الخامس عشر بغزوة تبوك التى أعقبناها بتحليل

يناقش قدرة النبى ﷺ العسكرية والسياسية ويشير إلى أن النبى ﷺ كان هو القائد المثالى بحق الذى يجد فيه قواد العالم الحديث مثلهم الأعلى . .

ونحن فى تناول موضوعاتنا التى نتحدث عنها فى ضوء القرآن الكريم نريد أن نربط قراءنا الكرام بهذا الكتاب الخالد ، ونضع أيديهم على نقاط كثيرة يمر الناس عليها مرور الكرام مع أنها تحمل كثيراً من الدلائل والعظات ، ذلك لأن هذا الكتاب لاتوجد فيه كلمة واحدة لاتشير إلى حدث من الأحداث المهمة ، أو لاتقدم معنى رائعاً ، أو لا تلفت النظر إلى حكمة عظيمة قال تعالى فى شأنه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد »

وصدق النبى إذ يقول : « فيه خبر ماقبلكم ونبأ مابعدكم وحكم مابينكم »

ومن بين ماتناولناه الأعلام الواردة فى القرآن التى نرى أن لها أهمية خاصة ، ويمثلها أسماء السور التى تشحذ الأذهان إلى مقاصد السورة وأهدافها ، وتثير الاهتمام إلى مايجب أن يأخذه قارىء السورة من عبرة وتذكرة . . .

ونحن من أجل ذلك نقدم أسماء الله الحسنى ـ وهى قمة الأعلام ونور القرآن وقوى الأرواح ـ فى أعدادنا القادمة إن شاء الله لما نرى من حاجة الجماهير الإسلامية الى معرفة معانيها ، ولأن عرضها يتطلبه إكمال هذه السلسلة التى كان من حسن الطالع أنها وجدت الاستجابة الطيبة لدى المسلمين فاستقبلوها استقبالاً حسناً يشير إليه تكرر طبعاتها .

ونحن إذ نحمد الله على ذلك ونشكره على توفيقه لنا نرجوه ألا يحرمنا نعمة هذا التوفيق ، وأن يجعله مصاحباً لنا فى عرض ماتبقى من هذه السلسلة التى سوف تعرض إن شاء الله أسماء الله الحسنى ، ثم بقية الأعلام فى القرآن الكريم ، ثم الحديث عن أهل البيت الذين ورد فى حقهم « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ثم الحديث عن أصحاب رسول الله الذين نزل فى شأنهم قرآن يتلى .. ومايفتح الله به من فضله وكرمه ..

والحمد لله أولاً وأخيراً .. وهو نعم المولى ونعم النصير ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس القصص القرآنى

انتهى بحمد الله
المجلد الخامس عشر



سلسلة
القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى د.عبد الحميد مصطفى د.محمد شعلان

المجلد السادس عشر

سلسلة

القصص القرآنى

المجلد السادس عشر

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى   د. عبد الحميد مصطفى

أسماء الله الحسنى

الاسم الأعظم - الله جل جلاله

التخلق بأخلاق الله

ثواب من أحصى أسماء الله

معانى أسماء الله

فضل الذكر

كلمة اخلاص

اداب الذكر

الرحمن الرحيم

الرحمن والهداية

الرحمن والرحيم فى القران

أسماء الله الحسنى

قال الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾[1]

وورد عن النبى - ﷺ - قوله : « إن لله - عز وجل - تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة »[2]

وقد وردت الاشارة إلى أسماء الحسنى فى قوله - تعالى : -

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » .

وفى قوله - تعالى -

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾[3]

وفى قوله - تعالى -

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[4]

---

(١) الأعراف ١٨٠

(٢) رواه الترمذى وابن حيان والبيهقى عن أبى هريرة .

(٣) الاسراء : ١١٠

(٤) طه ٨

والآيات صريحة فى وجوب دعاء الله بأسمائه الحسنى . والدعاء هو الذكر ، يعنى ذكر الله بأسمائه الحسنى وصفاته المثلى . .

وقد دعا الله إلى ذكره صراحة حيث يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾(٥)

وحيث يقول :

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾(٦)

وحيث يقول :

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ ﴾ (٧)

وأسماءالله الحسنى كثيرة لا يكاد يحصرها أحد ، فهى أكثر كثيرا مما ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف . . . . . وهناك أسماء لا يعرفها الخلق وأسماء عرَّف بها خواصَّه والمقربين إليه ، وقد أشار إلى ذلك مارواه الإمام أحمد وابن أبى شيبة والطبرانى والحاكم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ماأصاب مسلما قط هَمٌّ أو حزن فقال : اللهم

---

(٥) الأحزاب ٤١ / ٤٢
(٦) الأعراف ٢٠٥
(٧) المزمل ٨

إنى عبدك وابن عبدك وابن أَمَتِك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىَّ حكمك ، عَدْلٌ فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ـ الا أذهب الله ـ تعالى ـ همه وأبدل مكان حزنه فرحا » قالوا : يا رسول الله ، أفلا نتعلم هذه الكلمات ؟

قال : « بلى ، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن » .

فهذا الحديث يشير إلى أن أسماء الله ـ تعالى ـ لا يحيط بها أحد من الخلق .

وسنحاول ـ بتوفيق الله ـ تعالى ـ أن نشير إلى ما وردت به الآيات والأحاديث الكريمة من تلك الأسماء ـ راجين من الله التوفيق والسداد والقبول وحسن الإمداد . .

جل جلاله

الله

نور السموات والأرض

الاسم الأعظم

الله - جل جلاله -

قال العلماء : الله - جل جلاله هو الأسم المفرد العلم لذاته القدسية . الجامع لجميع الصفات الإلهية ، والحياة الأزلية والقدرة والعلم والارادة والسمع والبصر والكلام . المنعوت بنعوت الربوبية . المتفرد بالوجود

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (٨)

الباقي بعد فناء خلقه . .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٩)

لقد سمى الحق - سبحانه - نفسه بهذا الاسم ، فقال - تعالى - :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٠)

وقال - تعالى - :

---

(٨) البقرة ٢٥٥

(٩) الرحمن ٢٦ ، ٢٧

(١٠) طه ١٤

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١١)

وقال ـ تعالى ـ :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (١٢)

وقد ورد هذا الاسم « الله » فى القرآن الكريم ما يقرب من ثلاثة آلاف مرة ، وان أردت الإحصاء الدقيق فهو ألفان وسبعمائة مرة .

وقد استفتحت به آيات كثيرة منها :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ (١٣)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ

---

(١١) القصص ٣٠

(١٢) النمل ٩

(١٣) البقرة ٢٥٥ آل عمران ٢

مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ (١٤)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١٥)

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١٦)

قال العلماء : الله هو الاسم الأعظم ، لأنه اسم واجب الوجود ، وقد أوردوا فى أصل ذلك اللفظ أقوالا متعددة .

ولنعد إلى كتب اللغة لنستهديها بيان ذلك :

قال ابن عطاء الله السكندرى : وقد اختلف العلماء فى هذا الاسم المفرد أمشتق هو أم لا ؟ والكلام فيه من ثلاثة أوجه :

أحدها من طريق اللغة .

الثانى من طريق الحكمة .

الثالث من طريق المعرفة .

فأما الوجه الأول طريق اللغة فعلى قولين : قائل باشتقاقه وإطلاقه وقائل بالتوقف عنه ومنعه . وحجة المتوقف قوله ـ تعالى ـ « هل تعلم له سميا »(١٧)

ويستطرد ابن عطاء الله السكندرى فى توضيح مدلول هذه الآية « هل تعلم له سميا » فيقول : إن فيها ثلاثة معان :

أحدها ، هل تعلم أحدا تسمى بهذا الاسم غير الله ؟

الثانى : هل تعلم أحدا يستحق من كمال الأسماء والصفات ما يستحقه

---

(١٤) النساء ٨٧ (١٥) النمل ٢٦

(١٦) الزمر ٦٢ (١٧) مريم ٦٥

الله ويتصف به حقيقة ؟

الثالث : هل تعلم اسما هو أعظم من هذا الاسم المفرد ؟ أو هل له اشتقاق من شيء كما يشتق لأسماء الخلق ؟ . . . . . إنه لا يشبهه شيء ، هو دال على ذات الإله الذى قامت به الصفات - بمثابة اسم العلم الدال على المسمى من غير اشتقاق له من شيء ، وهو اسم تفرد به الله - سبحانه وتعالى - واختصه لنفسه ، ووصف به ذاته ، وقدمه على جميع أسمائه ، وأضاف أسماءه كلها اليه ، وكل ما يأتى بعده من الأسماء نعت له ، وصفة لوصفه ومتعلقة به ، وتوصف سائر الأسماء بأنها أسماء الله - تعالى - ، وتعرف فى الأغلب بالاضافة إليه ، ويقال : إنها من أسماء الله - تعالى -

كما أن الاسلام لا يتم الا بذكر هذا الاسم ولا يقبل أن يحل غيره محله .
فلو قال : لا إله إلا الغفار أو الرحيم لايقبل منه .

بل يجب أن يقول : لا إله إلا الله . وبذلك نطق القرآن الكريم ، والحديث الشريف . ذاك لأن ذلك الاسم « الله » أدل على كنه المعانى الإلهية وهو بها أشهر وأتم وأظهر ، فاستغنى عن التعريف بغيره من الأسماء ، وعرِّف غيره بالاضافة إليه »[١٨] .

أما الذى يقول باشتقاقه فقد قال : إنه مشتق من الإلاهة والألوهة والألوهية ، وكلها بمعنى العبادة على أنه اسم بمعنى المعبود .

وقيل : إن لفظ الجلالة مشتق من أَلَه بفتح حروفه كلها ، بمعنى تحيرَّ ،

---

(١٨) الله ، القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد لابن عطاء الله السكندرى ص ١٣

لأنه سبحانه تتحير فى شأنه العقول والأفهام .

وقيل : مشتق من أَلِه ـ بكسر اللام ـ بمعنى سكن إليه ، لاطمئنان القلب بذكره ـ سبحانه ـ ، وسكون الأرواح إلى معرفته .

وقيل : مشتق من أَلُه ـ بضم اللام ـ

وقيل : مشتق من لاه بمعنى احتجب وارتفع .

وفى اللسان : الله أصله إلاه ـ قال ـ عز وجل ـ

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [19]

ولا يكون إلها حتى يكون معبوداً ، وحتى يكون لعابده خالقا ورازقا ومدبرا وقادرا عليه .... فمن لم يكن كذلك فليس بإله ـ وإن عبده بعضهم ظلما ـ بل هو مخلوق وعبد لله »[20] .

وأوضح ابن عطاء الله معانى الكلمات التى اشتق منها الاسم . فقال : هو مشتق من ألفاظ تحمل معنى ـ الوَلَه ، والحجب ، والعلو .

فاما اشتقاقه من الوله فلأن أصله إله ، والإله هو الذى يُوَلَّهُ له ـ أى يقصد فى طلب الحوائج ، ويفزع إليه فى النوائب ، ويرجى فضله ويخاف عدله .

---

(١٩) المؤمنون ٩١

(٢٠) اسماء الله الحسنى (أحمد الشرباصى جـ ١ ص ١٦)

واسم الله يوجب الوله ، إما لشدة طرب العبد وسروره ، وإما لفرط شدة حزن العبد وخوفه وذعره ، فيكون بين وقتينْ : وقت قبض ووقت بسط ،

ففى حالة القبض يوجب له هيبة تصاحبها دهشة ، وفى حالة البسط يوجب له قربة تصاحبها فرحة . فمن عرف ربه فزع اليه ودعاه ووله له وأعرض عمن سواه ، وآثر رضاه على هواه .

وأما اشتقاقه من معنى الحجب فأصله « لاه » ومعناه احتجب عن الخلق وحجب أبصارهم عن رؤيته فى الدنيا وفى ذلك يقول بعضهم :

لاهت فما عرفت يوما بجارحة   ياليتها ظهرت حتى رأيتاها

فمعنى لاهت : حجبت . .

ومن عرف ربه راقبه وحاسب نفسه ، وعلم أنه يراه من حيث لا يراه فهو يستحيى منه .

وأما اشتقاقه من معنى العلو والرفعة ، فأصله « لاه » أيضاً .

يقال : لاهت الشمس إذا علت وتوسطت قبة السماء فى علو مركزها ، واستوت حالة وقوفها .

هو اسم الله الأعظم

ذكر بعض السلف أن لفظ الجلالة « الله » هو اسم الله الأعظم ، ذلك أنه العلم المخصوص بالذات ، لا يشركه ـ سبحانه ـ أحد فيه ، ولأن كل الأسماء الأخرى مفتقرة إليه .

فقد اختار الله ـ تعالى ـ هذا الاسم لذاته وأفردها به بحيث لا يشاركه أحد غيره فيه ، لا بالمجاز ولا بالحقيقة ، وذلك لما يجتمع فيه من الأسرار والحكم والمعانى ، ومن الاختصاص والتعظيم .

وهو اسم جامع للمعانى اللطيفة والصفات السنية الشريفة ، بخلاف غيره من الأسماء الأخرى التى قد تختص بمعنى واحد أو معنيين ، وقد تشترك مع غيرها فى المعنى . كما يفهم ذلك من اسم : الخالق والفاطر والمبدىء ، ومن اسم : الرازق والمنعم والمحسن والمعطى والجواد والكريم .

أما اسم الله فمعناه لا يحصى ولا يعد ، ولا يحصر ولا يحد ، وكل الأسماء راجعة إليه ـ وتعرف به جميع الأسماء والصفات . .

وهذا الاسم يختص بأسرار ليست فى غيره من الأسماء ، وأسماؤه ـ تعالى ـ كلها عظيمة إلا أن هذا الاسم له تخصيص زائد تام كامل على سائرها .

ومن خواص هذا الاسم : أنه اسم كامل فى حروفه ، تام فى معناه ، خاص بأسراره ، مفرد بصفته .

وكما تحققت هذه الخصوصيات بالنسبة لِلَّفظ ، فقد تحققت له خصوصية أخرى من حيث المعنى . . فإنك إذا دعوت الله باسمه الرحمن أو الرحيم فقد وصفته بالرحمة ، وإذا دعوته باسمه القادر فقد وصفته بالقدرة وإذا دعوته باسمه الغفار فقد وصفته بالمغفرة ، وإذا دعوته باسمه القهار فقد

وصفته بالقهر . . أما إذا دعوته باسمه « الله » فقد وصفته بكل أوصافه العلية . .

وقد قال العلماء ـ فيما يحكيه ابن عطاء الله السكندرى ـ إن الأسماء الحسنى هى ألف اسم ، منها ثلاثمائة فى التوراة ، وثلاثمائة فى الإنجيل ، وثلاثمائة فى الزبور وواحد فى صحف إبراهيم ، وتسعة وتسعون اسماً فى الفرقان .

وقد جمعت معانى تلك الأسماء كلها وأدخلت فى التسعة والتسعين اسماً التى هى فى القرآن واحتوت عليها .

إن كل هذه الأسماء التى فى جميع الكتب أولها هذا الاسم « الله » . ولذلك كان هذا الاسم أكثر الأسماء جرياناً ونطقاً على الألسنة فى مختلف الأزمنة والأمكنة . مع اعتراف الجميع بقيوميته وقدرته ، حتى انك لو سألت الكفار نطقوا به قال ـ تعالى ـ

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٢١)

وتجد أن هذا الاسم الكريم يَرِدُ على كل لسان بقصد وبغير قصد ، فى أى

---

(٢١) الزمر ٣٨

أمر يحاول الانسان فعله .

وحين افتتح القرآن بالبسملة ، كان اسم « الله » فى مقدمة الأسماء التى جاءت . . قال ـ تعالى ـ « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وجاء فى الحديث الشريف « إن الله تعالى قال :

« أنا الله لا إله إلا أنا الرحمن الرحيم سبقت رحمتى غضبى » .

التخلق بأخلاق الله

وقد دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى التخلق بأخلاق الله . . وهى الأخلاق التى تشير إليها بعض معانى الأسماء ما عدا لفظ الجلالة . . فقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « تخلقوا بأخلاق الله » وقال : « إن لله مائة خلق فمن تخلق بواحد منها دخل الجنة » .

ويقصد بهذه الأخلاق ما يكون فى مقدرة البشر كالحلم والعفو والصبر والتخلق بالأسماء جائز ، ومن البديهى معرفة الفرق بين التخلُّق والخُلُق ، فالتخلق هو التشبه بصفة من صفات السيد ، وذلك عن طريق السلوك وتأديب النفس وترويضها على صفة الحلم أو الكرم أو الصفح عن الزلات أو العفو عند المقدرة أو غير ذلك ـ وهى أسماء لله تعالى ، فهو ـ سبحانه ـ كريم حليم عفو غفور صبار شكور . .

ومن المعروف أنها صفات كاملة فى حق الألوهية ، ولكنها ناقصة مستعارة

فى حق البشرية ، ولا يمكن القول بأن هناك مشابهة بين القديم والحادث إذا ما حاول العبد أن يتخلق بصفة من هذه الصفات . . . فإن صفات الحق أزلية منزهة وليست حادثه ـ وجل الذى يقول

﴿ فَاطِرُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾(٢٢)

ولكن يقال : إن العبد بتخلقه بذلك حصل له ما يناسب هذه الصفات ويشاركها من حيث الاسم فقط . . . وذلك فى عموم الصفه دون خواص المعانى .

فإذا استطاع العبد أن يتخلق بصفة اسم الصبور أو الشكور أو الحليم أو العفو أو الكريم ، فإنه لا يستطيع ولا يتسنى له أن يتخلق بصفة اسم « الله » لأنه من خصائصه سبحانه لا يمكن لمخلوق أن يشركه فيه أو يتسمى به أو يتخلق به .

أثر التخلق بأخلاق الله

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يدعو الناس إلى التخلق بأخلاق الله فى قوله « تخلقوا بأخلاق الله » إنما يدعو لتحقيق كمال النفس الانسانية

---

(٢٢) الشورى ١١

وتهذيبها وترقيتها لتكون جديرة بمقام الخلافة عن الله سبحانه وتعالى فى الأرض .

ويتم ذلك كما يقول المحققون بثلاثة أشياء : أولها زيادة المعرفة بالعلم والتقوى ، وثانيها الحرية من رق الشهوة والهوى ، وثالثها تزكية النفس بالتخلق بأخلاق المولى .

فإن أشرف المعرفة معرفة الله ـ تعالى ـ بأسمائه وصفاته ، وأشرف الحرية الخروج عن رؤية النفس ودعواها بالكلية ، وأشرف تزكية النفس الاتصاف بكل خلق وأدب حسن عقلاً وشرعاً ، فيكون المتصف بهذه الأوصاف مخصوصاً بالدرجة العليا والمقام الأسنى متصفاً بصفات الكمال الملكى ، متنزهاً عن صفة النقص البهيمى ، منسلخاً عن مذموم ظلمة الأوصاف البشرية ، مبتعداً عن غلبة الشهوة والهوى والشره الطبيعى ، فعند ذلك تحصل له نسبة القرب بينه وبين الملائكة بالوصف العقلى النورانى ، وتقع المناسبة بالشبه والمشاركة فى الصفات لفظاً ، لا كمالاً ، لأن النقص موجود فى المحدث ، والكمال حقيقة فيمن لا نظير له فى ذاته ولا فى صفاته[٢٣] »

من أحصى أسماء الله دخل الجنة

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » وفى رواية : « من حفظها دخل

---

(٢٣) الاسم المفرد لابن عطاء الله السكندرى ص ٢٦

الجنة » فما المقصود بالحفظ أو الإحصاء ؟

أجاب العلماء عن ذلك بقولهم :

الناس فى إحصاء الأسماء أصناف - فمنهم من أحصاها تصديقاً واعتقاداً ورواية ومقالاً .

ومنهم من أحصاها حفظاً وعداً وسلوكاً وحالاً .

ومنهم من أحصاها ذكراً وعِلْماً ومحافظة ومعرفة وتخلقاً وكشفاً وتعظيماً وإجلالاً .

وكل من هؤلاء موعود بالجنة ، والجنة درجات ، تصديقاً لقول النبى - صلى الله عليه وسلم - « إن فى الجنة لمائة درجة ، وإن ما بين الدرجتين لكما بين السماء والأرض ، أعدهن الله - تعالى - للمجاهدين فى سبيله »

فمن أقر بفضل أسماء الله - تعالى - وقرأها فهو المسلم وله الإفادة .

ومن عرفها ودراها فهو المؤمن وله الزيادة .

ومن علم معانيها وعمل بمقتضاها واتصف بها فهو العارف وله الأمن والطمأنينة .

معانى الأسماء

يقول العلماء : إن معانى أسماء الله الحسنى تدور حول أربعة أقسام فالقسم الأول منها : ما يدل على الذات الكريمة الجليلة المنزهة القديمة العظيمة . وذلك كل ما دلت به التسمية على وجود ذاته وهو راجع إلى

نفسه : كحى ، وموجود ، وباق ، ودائم ، وأزلى ، وقيوم . .

وما هو من هذه الأسماء فهو اسم للذات العلية ، ويقال : إنه هو الاسم وهو المسمى .

والقسم الثانى ما يرجع إلى صفة ذاته القديمة ، وهو ما لا يقال إنه هو ولا انه غيره ، وذلك هو كل ما دلت التسمية به على صفة ذات نفسه . ومن هذا القسم صفات تختص بنفس ذات البارى ـ سبحانه وتعالى ـ كالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام . . ومنه صفات تختص بالإرادة كالرحمن والرحيم والغفور والعفو والحليم والودود واللطيف .

ومنه صفات تختص بالقدرة كالقوى والغالب والقاهر والقادر .

والقسم الثالث ما هو راجع إلى صفة أفعاله كالبارىء ، والمصور ، والخالق ، والوهاب ، والمحيى ، والمميت ، والرازق ، والباسط ، والقابض ، والرافع ، والخافض ، والمعز ، والمذل ، والحكم ، والعدل ، والمحسن ، والفتاح ، والباعث ، والرقيب ، والوارث ، والمجيب ، والكافى ، والمعافى ، والشافى ، والمعطى ، والمانع ، والوكيل ، والواسع ، والمقسط ، والجامع ، والضار ، والنافع ، والمبدىء ، والمعيد ، والهادى ، والرشيد ، والمقدم ، والمؤخر ، والتواب ، والبار ، والمنتقم ، والمعين ، والولى ، والمبين . .

والقسم الرابع يرجع إلى صفة التنزيه ، ويقال عن الاسم : إنه هو هو ، والاسم والمسمى فيها واحد ، كأسماء الذات . وهى الأسماء التى تدل على نفى النقائص كلها عن الله ـ عز وجل ـ وذلك مثل أسماء : عزيز ، وجبار ،

ومتكبر ، وكبير ، ومولى ، ومتعال ، وذى الجلال والاكرام ، وجليل وعظيم ، وَعَلِيّ ، ومؤمن ، ومهيمن ، وغنى ، وقدوس ، وسلام . .

ولفظ الجلالة « الله » جامع لهذه الأشياء كلها ، وهى كلها شارحة له ومشيرة إليه . .

وإن تعددت الأسماء فالمقصود منها واحد ، وهو الله - جل جلاله ، وكل الأسماء هى صفته ونعته ، وهو أولها وأصلها .

خفة هذا الاسم - الله - على ألسنة الخلق

ومن لطف الله - تعالى - بخلقه ورحمته بهم ، أنه أظهر من علمه وقدرته بهذا الاسم ما احتملته عقول خلقه ، ليصلهم به ، ويعرفهم عليه ، ويهديهم إليه ، وقد خفف ذكره على ألسنتهم وسهله عليهم ليهتفوا به فى سرّائهم وضرّائهم ، ويسرهم وعسرهم ، وأظهره لهم إظهاراً بيناً فى « بسم الله الرحمن الرحيم » . . . . به تستقيم الأمور ، وبذكره يسهل كل عسير ، وتقضى كل حاجة ، ويتم كل مأرب ، وبه يبتدىء المبتدىء فى كل أسبابه . . . . . لا تسعه سماء ولا أرض ، ولا يحده طول ولا عرض ، ولا يحيط به تخمين أو فرض . وصدق الذى يقول : « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك »

هو الحى والقيوم جل جلاله　　فعظيم عُظْم الكبرياء رداه
أغنى وأقنى واستنار بنوره　　كل الكيان وجوّه وسماه

فالأرض مشرقــة بنــور جمــاله — والفضــل مُنْفَطِر بهــدى هــداه
الله الله العظيـــم محــدنا — بقــوى ، يُبَلِّغُنـا العــلوم اللهُ

سبحانه هو المنفرد بالأحدية ، المنعوت بالصمدية ، الذى لا يتمثل فى الخاطر ، ولا ينكيف بالعقل ، الموصوف فى ذاته وصفاته بصفة الاستغناء والكمال ، والقدرة والتعظيم والجلال .

« قل هو الله أحد الله الصمد . الذى لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » .

إن اسم الله العظيم يستولى على الألباب ، ويتمكن فى القلوب ، ويتربع على عرش العارفين من عباده حتى يقول بعضهم :

أحــرف أربــع بــها هــام قلبــى — وتلاشــت بهــا همــومى وفكــرى
ألــف قــد تألــف الخلق بالصُّـنْع — ولام على المــلاحة تـجــرى
ثــم لامٌ زيــادة فى المعانــى — ثــم هــاء بهــا أهيــم وأدرى

معانى هذه الحروف

إن حروف لفظ الجلالة « الله » تدل على معان رائعة ، ولعل هذا الشاعر قد أشار إلى بعضها ، وأشار غيره من العلماء إلى معان أخرى . فقد قالوا : إن لكل حرف من هذه الأحرف معنى يختص به ، كما أن لكل اسم من أسمائه تعالى معنى يختص به .

فالألف مشتق من الألفة والتأليف ، ألف به جميع خلقه على توحيده ومعرفته ، فإنه إلههم وموجدهم وخالقهم ورازقهم .

يعرفون ذلك لأول وهلة

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (٢٤)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٢٥)

وألف قلوب عباده على محبته وعبادته وطاعته فى الايمان والتوحيد .

وألف قلوب عباده بالفضل والإحسان والعطاء وجعله رزقاً مقسوماً لهم .

والألف أول الحروف الهجائية ومفتتحها ، وهو أشرف حروف المعجم خطراً وأجلها قدراً وبقية الحروف متولدة منه . .

والألف فى العدد واحد ، والواحد استفتاح لجميع الأعداد ، وأولها . . . . وفيه إشارة إلى عمود التوحيد الذى به قوام كل عالم فى الوجود ، ولا يسبق الواحد عدد كما أنه لا يسبق الله موجود . .

---

(٢٤) الزخرف ٨٧

(٢٥) الزمر ٣٨

أما اللام الأولى فهى إشارة إلى لام الملك ، فإذا حذفت الألف من لفظ الجلالة صار الاسم « لله » وأصبح المعنى لله كل شىء فى الوجود ، كما يبدو ذلك فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) ﴾ (٢٦)

وكما فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) ﴾ (٢٧)

ويفهم هذا المعنى أيضاً من اللام الثانية ، فهى لام الملك أيضاً ، ولا شك أن الله هو الملك وهو المالك ، لا شريك له فى ذلك .

أما الهاء فهى تشير إلى مطلق وجود الحق وإثبات وجدانيته ، واحاطته بجميع الأشياء كلها .

---

(٢٦) البقرة ٢٨٤

(٢٧) الأنعام ١٢

فضل هذا الاسم وشرفه

لقد دعا الله الناس إلى ذكره فقال :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[28]

وقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[29]

ودعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس إلى ذكر الله فقال : « سبق المفردون ، قالوا : يا رسول الله ، وما المفردون ؟ قال : هم الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

وفى حديث قدسى « أنا جليس من ذكرنى »

وذكر الله يكون بترديد اسمه ودعائه ، وذكر اسم الله من أسمى العبادات . لأن العبادات المفروضة موقوتة بأوقات ما عدا الذكر فليس له وقت موقوت أو حد محدود ، أو عد معدود .

بل لقد دعا الله إلى ذكره كثيراً ، وأثنى على الذاكرين الله كثيراً والذاكرات وأعد لهم مغفرة وأجراً عظيماً .

---

(٢٨) البقرة ١٥٢

(٢٩) الأحزاب ٤١ ، ٤٢

وفى مقدمة الأسماء الحسنى التى يذكر الله بها لفظ الجلالة ، وقد علَّمنا الله كيف نذكره عن طريق مخاطبته لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال له :

« قل هو الله أحد »

فقد أمره بأن يقول : هو الله أحد . . وهى أسماء توسطها لفظ الجلالة فكان واسطة العقد بينها .

وحيث قال له :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (٣٠)

فقد أمره أن يستعين بذكر الله للتغلب على ما يعترضه من عقبات وما ينتابه من مضايقات . ففى ذكر الله أنس وهداية ونور ، وفيه إمداد من الله بالقوة المعنوية المعينة على تذليل الصعاب والتغلب على المشقات . فإن الله هو القوى القادر ، ولا حول ولا قوة إلا به . وقد ورد عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : شكونا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حر الرمضاء فلم يُشْكِنا وقال : « استعينوا بلا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها تذهب

(٣٠) الأنعام ٩١

سبعين باباً من الضر أدناها الهم[٣١] .

وقد قال الله فى حق الذكر

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[٣٢]

وفيه دلالة على عظمة الذكر وأهميته . وفى الذكر بهذا التعبير « الله أكبر » أوجه من الفضل .

منها أن الله جعل هذا التعبير مفتتحاً للصلاة التى هى عماد الدين ، وهى الصلة بين العبد وربه .

ومنها أن ورودها فى القرآن الكريم فى سياقها من الآية يشير إلى أن ذكر الله لنفسه وتوحيده وتمجيده أكبر وأعظم من ذكر خلقه له وتوحيدهم إياه .

ومنها أن ذكر هذا الاسم أى « الله » أعظم من ذكر غيره من أسمائه .

ومنها أن ذكر الله فى الصلاة أفضل وأكبر من ذكره فى غير الصلاة .

فضل الذكر

وفضل الذكر أشهر من أن ينكر ، ويكفى فى ذلك قول الله فى الحديث القدسى

---

(٣١) أبو نعيم الأصفهانى ـ لعب الحفيظ فرغلى ـ سلسلة أعلام العرب ص ٥٠

(٣٢) العنكبوت ٤٥

« أنا جليس من ذكرنى »

فهل هناك أعظم منزلة من مجالسة الله ؟

ويقول فى حديث قدسى آخر « أنا عند ظن عبدى بى إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى وحده ذكرته وحدى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه »

ويصدق ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٣٣)

إن الذكر ينجى من الهم والغم ، ويرفع درجات العبد ، ويقر به الى الله ويصفى مرآة قلبه فيذهب ماران عليه من غشاوة المعصية وظلمة البعد ، ويملؤه نوراً فيرى بعين بصيرته مالاتدركه عين بصره ، وصدق الله حيث يقول :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣٤)

روى أبو الدرداء عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأرفعها فى درجاتكم وأزكاها عند مليككم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا

---

(٣٣) البقرة ١٥٢

(٣٤) الحج ٤٦

أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟

قالوا : بلى .

قال : ذكر الله »

ومن ذكر الله بإخلاص أجابه ، فإن ذكره داعيا حقق رجاءه :

قال تعالى . .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٣٥)

وان ذكره شاكرا زاده من نعمته :

قال سبحانه :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٣٦)

وإن ذكره العاصى تائبا قبل توبته ، وإن ذكره مستغفرا غفر له . وإن ذكره فى غمه أذهب غمه وفرج ضيقه وأذهب عسره .

لقد قال علماء القلوب : إن فى ذكر الله ـ تعالى ـ خمس خصال سنية تعود على الذاكر . .

أحدها أن الله يرضى عنه

---

(٣٥) غافر ٦٠

(٣٦) ابراهيم ٧

وثانيها أن يرفق قلبه
وثالثها أن يزيده من الخير
ورابعها أن يحفظه من الشيطان
وخامسها أن يعصمه من ركوب المعاصى ..

ونضيف إليها أن فى الذكر عصمة من المؤاخذة والنقمة ..... فقد ورد فى قول بعض الأكابر : إن الصواعق لاتصيب الذاكر . وإذا كان قد ورد فى حق الوضوء أنه سلاح المؤمن ، فبالأحرى أن يكون الذكر أمضى سلاح وأقواه .

وفى الذكر طمأنينة القلب وراحته ، وقد قال الله ـ تعالى ـ فى ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٣٧)

والذكر قد يكون باللسان ، بأن يردد اسم الله بلسانه ، وهذا ذكر عامة الخلق .

وذكر بالقلب ، وذلك بأن يستحضر الذاكر اسم الله فى قلبه دائما ، وهو ذكر خواص المؤمنين .

وذكر بالروح ، وهو لخاصة الخاصة من العارفين الذين لايغيب الله عنهم فى سرائرهم طرفة عين ..

---

(٣٧) الرعد ٢٨

كلمة الإخلاص

وتشتمل كلمة الاخلاص وهى « لاإله إلا الله » على لفظ الجلالة . . . فأولها نفى وآخرها إثبات ، وهى أفضل كلمة يقولها المسلم ، وهى طريق العبد للدخول إلى حظيرة القدس ونور الايمان ، قال عليه الصلاة والسلام :

« أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى : لاإله الا الله »

وقيل فى حقها : إنها لو وضعت فى كفة ووضعت السموات والأرضون فى كفة لرجحت كفة لاإله إلا الله .

ولا إله الا الله لعامة الناس طهارة لأفهامهم وتزكية لأعمالهم ، فيها إثبات للوحدانية ، ونفى للشرك .

وهى لخاصة الموحدين قوة فى إيمانهم وزيادة فى نور آمالهم . .

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله « كلمة التقوى لاإله إلا الله »

فهى كلمة التقوى كما هى كلمة الاخلاص .

ومعناها : لامعبود بحق الا الله . ويؤيدها من القرآن الكريم قوله تعالى ـ

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٣٨)

---

(٣٨) البقرة ١٦٣

وقوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾ (٣٩)

وقوله - تعالى -

﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٤٠)

وكما تسمى هذه الكلمة كلمة التقوى والإخلاص ، تسمى كذلك كلمة الاحسان وكلمة العدل ، والكلمة الطيبة ، والكلمة الثابتة ، والكلمة الباقية ، وفى حق الذكر بها قال - صلى الله عليه وسلم - : « أفضل الذكر

---

(٣٩) النساء ١٧١
(٤٠) المائدة ٧٣

لاإله إلا الله » . .

إن المتعلق قلبه بالذكر قريب من الله ، ويستشعر قرب الله منه فلا يخشى أحداً غيره ولايهتم بشيء سواه ، ولايرغب فى شيء الا رضا الله . .

ومعنى ذلك فيما ذكره ابن منظور فى لسان العرب : لم يجد أحدا يعجبه ، ولم يحب إلا الله . .

وفسره ذلك بعض العلماء قائلا : إذا وقع العبد فى عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية ، وصرف همه اليها أحب الله حتى لايميل قلبه الى أحد ، بعد أن امتلأ قلبه بحب الله . .

لقد عشنا فى رحاب هذا الاسم الكريم الذى ورد فى كلام بعض العلماء أنه اسم الله الأعظم .

وإن كان بعضهم لايرى ذلك محتجا بأنه لايجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ، فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل ، وحملوا ماورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم ، وعلى ذلك فكل اسم من أسمائه تعالى ـ يجوز وصفه بالأعظم ويرجع إلى معنى العظيم .

ويرى بعضهم أن اسم الله الأعظم مختف بين أسمائه ـ تعالى ـ مستدلين بحديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ : أنها سألت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلمها الاسم الأعظم ، فلم يفعل . . . . . فصلت ودعت : اللهم إنى أدعوك الله ، وأدعوك الرحمن ، وأدعوك الرحيم ، وأدعوك

بأسمائك الحسنى كلها ماعلمت منها ومالم أعلم . فقال لها ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنه لفى الأسماء التى دعوت بها .

أجل ، إنه لفى هذه الأسماء التى قال الله فى حقها

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها »

اللـــه ربـى سـبحانه سـجدت لنـوره الأرض والسـموات
مـدبر المـلك ، واحـد ، أحـد غـامـرة خلقـه العطـيات
نـور على نـور ، لاشـبيه له له بكـل الوجـود آيـات[٤١]

ـ فاهتف باسم الله ، قائلا فى تودد وخشوع : الله الله ـ فإنك إن كررته وثقت صلتك بالله ، وشددت قلبك بحبل منه لاينقطع باذن الله . .

ولايصرفنك عن ترداده قول من يقول : إن ترداد هذا الاسم وحده لايفيد الا إذا أضيف اليه مايكمل معنى الجملة كأن تقول : الله موجود ، الله قادر . . .

كلا إن ترداد هذا الاسم وحده يدل على أقوى المعانى وأجملها وأكملها ، فان الذاكر به لايذكره الا وهو متمثل قدرة الله وقيوميته ورحمته وعظمته وإحاطته وعفوه وغير ذلك مما يرد على الخاطر . .

إن مجرد ذكر هذا الاسم وحده كفيل بتحقيق كافة مايحتاج إليه العبد من إمدادات روحية وقوى معنوية . فاسم الله غنى عن الاضافات ، وغير مفتقر

---

(٤١) أسماء الله الحسنى لأحمد مخيمر ص ١٩

الى مايكمل معناه أو يوضح محتواه . .

آداب الذكر

وقد أفاض العلماء فى الحديث عن آداب الذكر الشرعى الذى دعا اليه الشرع الحنيف ، ونحن نجمل ماقالوه فى هذه السطور :

من شروط صحة الذكر أن تكون كلمة التوحيد ولفظ الجلالة خارجه من مخارجها الأصلية ، بالألفاظ الواضحة ، وباللغة الفصحى من غير تحريف أو ابتداع .

جاء فى الشرح الصغير(٤٢) : قال شيخنا الأمير : اعلم أن جميع كلمة التوحيد وهى « لاإله إلا الله » مُرَقَّقة ولا يُفَخَّم منها الا لفظ الجلالة فقط ، ولايجوز فى الأفصح نقص أداة النفى التى بعدها الهمزة عن حركتين ، وتجوز الزيادة الى ست حركات ، والحركة مقدار ضم الإصبع أو فتحه بحركة معتدلة . وأما مَدُّ كلمة الجلالة فلايجوز نقصه عن حركتين ، وهو المد الطبيعى ، وأما إذا سكنت هاء الجلالة للوقف فتجوز الزيادة والمد ست حركات ، ويجوز التوسط .

وقد نهى العلماء عن الوقوف على كلمة « لااله » لما فيه من إيهام التعطيل ، بل يجب وصلها بسرعة بقوله « إلا الله » ولانفخم أداة النفى ، ولانضم الشفتين عند النطق بها ، ولاتبدل الهمزة ، ولا يزيد مد « إله » عن المد الطبيعى .

---

(٤٢) الشرح الصغير للامام الدردير جـ ٢ ص ٥٠١

وليحذر من مد همزة « الله » لئلا تصير استفهاما ، وهذا واقع كثيراً ، بل كثيرا مانرى ونسمع أصواتا ساذجة وأفعالا خارجة وبدعا مكروهه

ومن ذلك ندرك عناية العلماء بتصحيح مادة الذكر تصحيحا تاما حتى لايقع الذاكر فى خطأ ما - يقطع عليه مدد انتفاعه ، لأن ألفاظ الذكر لها أنوار متصلة بين الذاكر والمذكور ، فينبغى أن تكون هذه الألفاظ على صحتها اللغوية الكاملة من حيث النطق والصحة فى الإعراب ، والأداء الكامل من حيث المد والقصر والترقيق والتفخيم .

وينبغى أن يراعى الذاكر الآداب الواردة فى مجالس الذكر من وجوب الطهارة ومراعاة الخشوع والمراقبة وحضور القلب واستحضار الهمة .

على أن حضور القلب وإن كان مطلوبا فى حال الذكر فإنه ليس بمتهيىء لكثير من الذاكرين ، ولكن ذلك يجب ألا ييئسهم من مداومة الذكر ، فان الذين مَنَّ عليهم بنعمة الذكر يوشك أن يَمُنَّ عليهم بنعمة حضور القلب فى الذكر ، حتى تصبح هذه الحالة - بالمران والتدريب - موهبة مصاحبة لهم .

ويعلق بعض العلماء على ذلك بقوله : اذكر ربك فى حال الحضور وفى حال الغفلة باذلا مجهودك فى الأمر حسبما أمر الله - تعالى - به إذ قال

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ

﴿ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[43]

ومن المعلوم أنه لايتقيد بحضور ولاغيبة . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ للذى استوصاه : « لايزال لسانك رطبا بذكر الله » فلم يدله إلا على ذكر اللسان لأنه هو الذى فى مقدور العبد ابتداء ودواما .

إن فى وجود الذكر تعرضا لنفحات رحمة الله ، ولعل هذا يؤدى إلى أن يرفع الله الذاكر مما هو أدنى إلى ماهو أعلى . قيل لبعضهم : مالنا تذكر الله باللسان والقلب غافل ؟ فقال : اشكر الله على ماوفق من ذكر اللسان ، ولو أجرى مكانه الغيبة ماذا كنت تصنع ؟ ثم قال : والله أكرم من أن يحضر العبد بلسانه ثم لايمن عليه بحضور قلبه .[44]

لقد قال العلماء : إن الذكر منشور الولاية ، فمن أعطيه فقد أعطى المنشور . ومن استدام ذكر الله على لسانه سرى ذلك ـ لاشك ـ فى وجدانه ـ أراد أم لم يرد . وهو فى نظرى أشبه بقطرة الماء التى تتساقط من الصنبور على الأرض لاتلبث أن تتخلل ماتتساقط عليه حتى تشمل ماحولها فيخصب وينتج .

ولذكر الله ـ تعالى ـ فضله وأثره فى جلاء القلوب وشفاء أمراضها وتمزيق حجب الغفلة عنها . والحث عليه وعلى ملازمة مجالسه لاينكره إلا جهول

---

(٤٣) البقرة ٢٠٠

(٤٤) شرح الحكم العطائية ص ١٠٠

غبى أو محروم شقى ، وقد قال الله - تعالى - :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ (٤٥)

وقال :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ (٤٦)

وروى مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد - رضى الله عنهما - قالا : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لايقعد قوم يذكرون الله إلا حفَّتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »

وغير خاف أن هذا الفضل كله إنما هو بالنسبة لمجالس الذكر الشرعى ، المضبوطة بضابط الشريعة الغراء ، المراعى فيها جانب الأدب مع الله - تعالى - الخالية مما أحدثه الجهال والأدعياء من الاستهتار والهزل ، ومن التحريف لأسماء الله تعالى - وغير ذلك مما لاتقره الشريعة(٤٧)

---

(٤٥) العنكبوت ٤٥

(٤٦) الكهف ٢٨

(٤٧) من نفحات الدومى - مجموعة محاضرات ومقالات الشيخ أحمد عبد الجواد الدومى ص ٣٣٨ دار غريب للطباعة



« الرحمن » « الرحيم »

ورد لفظ الرحمن فى القرآن الكريم سبعا وخمسين مرة .

وورد لفظ الرحيم خمسا وتسعين مرة . .

هذا فيما عدا البسملة التى وردت فى أول كل سورة ـ ماعدا سورة براءة .

وقد ذكِر الاسمان فى البسملة « بسم الله الرحمن الرحيم » واستفتح بها القرآن الكريم ، فهى أول آية فيه . .

قال القرطبى : اختلف العلماء فى اشتقاق اسم الرحمن ، فقال بعضهم : لااشتقاق له ، لأنه من الأسماء المختصة به ـ سبحانه ـ

ولو كان مشتقا من الرحمة لاتَّصَلَ بذكر المرحوم ، فجاز أن يقال : الله رحمن بعباده ، كما يقال : رحيم بعباده .

ولو كان مشتقا من الرحمة لم تنكره العرب حين سمعوه ، فقد كانوا لاينكرون رحمة ربهم .

ولكنهم استنكروا هذا الاسم حين سمعوه ، وأخبر القرآن الكريم بذلك حيث قال :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٤٨)

---

(٤٨) الفرقان ٦٠

ولما كتب على ـ رضى الله عنه ـ فى صلح الحديبية بأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « بسم الله الرحمن الرحيم » قال سهيل بن عمرو : أما بسم الله الرحمن الرحيم ـ فما ندرى مابسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب مانعرف : باسمك اللهم .

وقال ـ تعالى ـ :

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤٩)

وكان مسيلمة الكذاب قد سمى نفسه الرحمن ، فلما سمع الكفارُ المسلمين يقرءون : بسم الله الرحمن الرحيم ـ قالوا لانعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة . .

وعلى هذا فهذا الاسم غير مشتق مرتجل ، ولم ينقل من الرحمة . .

ولكن بعض العلماء يقولون : انه منقول ومشتق من الرحمة ، وقد بُنِىَ على هذه الصيغة لمقتضى المبالغة ، ومعناه : ذو الرحمة التى لانظير لها ، أو لانظير لله فيها . . . . وهو من أجل ذلك لايثنى ولايجمع ، كما يثنى الرحيم ويجمع .

---

(٤٩) الرعد ٣٠

وبما يدل ـ فيها يحكيه القرطبى ـ على اشتقاقه ماأخرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « قال الله ـ عز وجل ـ

« أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته »

ولكن هذا النص يقضى باشتقاق الرحم لاباشتقاق الرحمن . .

والقرطبى يرجح أن الاسم مشتق ويقول : لامعنى للمخالفة والشقاق .

أما إنكار الكفار لهذا الاسم فمرجعه الى جهلهم بالله وما يجب له .

أما المبرد فيقول : إن الرحمن اسم عبرانى ، ولذلك جاء معه بالرحيم العربى . وأنشد فى ذلك قول الشاعر :

لن تدركــوا المجــد أو تشروا عباءكم ... بالخــز أو تجعلوا الينبوت ضـمرانا

أو تتركــون إلى القَسَّيْن هجرتكـم ... ومسـحكم صُلْبَهـم رحمان قربـانا ؟

وقد أورد ابن منظور هذين البيتين فى لسان العرب مستشهدا بهما على قول من يقول : إن هذا الاسم عبرانى .

ولكنه يؤكد مع ذلك أن الرحمن اسم عربى ، وهو مبنى على وزن فعْلان الذى يفيد الكثرة ، ذلك أن رحمة الله وسعت كل شىء .

ومعنى ذلك أنه مشتق من الرحمة .

قال : وقد ذكر الرحيم بعده لأن الرحمن مقصور على الله ـ عز وجل ـ والرحيم يكون لله ولغيره .

وعلل الفارسى هذا الترتيب ـ أى ذكر الرحيم بعد الرحمن ـ بقوله : جىء بالرحيم بعد استغراق الرحمن معنى الرحمة لتخصيص المؤمنين به فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٥٠)

كما قال :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾

ثم قال :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾

فخص بعد أن عم ، لما فى الإنسان من وجوه الصناعة ووجوه الحكمة . .

وقد يكون اسم الرحمن موجوداً فى الكتب السابقة ، كما يقول الزجاج . ولكنهم لم يكونوا يعرفون أنه من أسماء الله حتى جاء القرآن الكريم ،

---

(٥٠) الأحزاب ٤٣ .

(٥١) العلق ١ ، ٢

فعرفهم ذلك .

والرحمن اسم يختص الله ـ عز وجل ـ به ، ولذلك قال ـ تعالى ـ :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾[٥٢]

أما الرحيم فلا خلاف فى اشتقاقه ، فهو فعيل بمعنى فاعل ، قال الحسن : الرحمن اسم ممتنع لايسمى غير الله به ـ أما الرحيم فليس كذلك فقد يقال : رجل رحيم .

وقيل هما مشتقان معا . . . يقول الجوهرى : هما كندمان ونديم ، وهما بمعنى واحد ، ويجوز تكرار الاسمين إذا اختلف اشتقاقهما على وجه التوكيد ، كما يقال : فلان جادٌّ مُجِدٌّ .

وكما يكون الرحيم فى حق العبد بمعنى الراحم يكون كذلك بمعنى المرحوم ومن ذلك قول الشاعر :

فأما إذا عَضّت بك الحرب عضة   فانك معطوف عليك رحيم

ولكنه فى حق الله لايكون إلا بمعنى راحم . . . . ومفهوم الرحمة عند الخلق : رقة القلب والعطف . .

---

(٥٢) الاسراء ١١٠

أما عند الله فهى العطف والإحسان والرزق .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : الرحمن والرحيم اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر . وقد ورد :

« إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق مالايعطى على العنف »

وقال بعض العلماء ـ فيما يذكره الأستاذ محمد إبراهيم فى مقال له بصحيفة الأهرام ـ الرحمن لأهل الافتقار والرحيم لأهل الافتخار ، إذا شهدوا جلاله طاشوا وافتقروا ، وإذا شهدوا جماله عاشوا وافتخروا . . .

ولهذين الاسمين معان عند أهل الذوق نذكر منها مايلى :

الرحمن بجميع خلقه فى نعم الحواس والنعم العامة . والرحيم بالمؤمنين فى الهداية لهم واللطف بهم .

وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل غضب . وقد ورد ذلك فى حديث شريف رواه ابن ماجه والترمذى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من لم يسأل الله غضب عليه »

أجل ، الله يغضب حين لايُسْأل وهو الذى يقول لعباده

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ﴾ (٥٣)

(٥٣) غافر ٦٠

ويقول لهم :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (٥٤)

وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فنظمه شعرا فقال :

لاتسألن بنى آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَىّ آدم حين يُسأل يغضب

وقال الحكيم الترمذى : الرحمن بالإنقاذ من النيران ، والرحيم بإدخال الجنان ، وبيان الأولى قوله ـ تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٥٥)

وبيان الثالثة قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٥٦)

---

(٥٤) النساء ٣٢
(٥٥) آل عمران ١٠٣
(٥٦) الحجر ٤٦

وقال الحارث المحاسبى : الرحمن بإزالة الكروب والعيوب ، والرحيم بإنارة القلوب بالغيوب .

تفسير الشيخ الشعراوى

وفى الخواطر التى يثيرها فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى حول آيات القرآن الكريم يقول بالنسبة لهذين الاسمين :

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ

الرحمن الرحيم .

وذلك يذكرنا بحقيقة مهمة هى أن باب الله مفتوح دائما ، فإنه إذا ارتكب العبد معصية ، أو إثما ، أو نسى الله فى لحظة ، فإن هذا ليس معناه أن الباب قد أوصد فى وجهه بل معناه : أن الله ـ تعالى ـ يقبل التوبة ويغفر الذنوب جميعا .

فإذا ارتكبت معصية فإياك أن تستحيى من أن تعود، الى الله ، وأن تبدأ باسم الله ، لماذا ؟ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لايعرف الحقد ، ولا يتغير على خلقه .

الانسان عندما تعصيه أو تخالف أوامره قد ينفض يده منك ، وقد ينهى علاقته بك إلى الأبد ، وفى كثير من الأحيان يسعى للإضرار بك .

ولكن الله ـ تعالى ـ إذا عصيته عن ضعف أو نسيان أو زلة ، دون استكبار أو إصرار ، فإنه يفتح بابه لك ، فاذا قلت : بسم الله الرحمن

الرحيم ، وعدت إليه وجدته رحمانا رحيما ، وجدته يغفر لك المعصية ويزيل عنك الذنب ، ويطهرك لتبدأ من جديد على طريق الله .

إذن فالرحمن الرحيم حيثيات إقبال للعاصى على أن يعود ويبدأ عمله باسم الله .

إن الله يريد أن يذكرنا فى كل لحظة أن باب الرحمة مفتوح . . والله سبحانه وتعالى ـ حين شرع عقوبة أى معصية معناه أنه أذن لها أن تقع ، فلو لم يكن فى علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن هذه المعصية ستقع ماشرع لها العقوبة ، وكما شرع العقاب شرع التوبة ، والرحمة مأخوذة من الرحم وهو مكان الجنين فى البطن ، ولايوجد من هو أكثر مغفرة فى الدنيا من الأم بالنسبة لولدها ، فالولد قد يخطىء ولكن قلب الأم هو دائما غفور لهذه الخطايا ، ولاتجد أُماً مهما بلغت من قسوة قلب أو جحد نعمة ، لاتغفر لابنها إساءته وعصيانه .

والله ـ سبحانه ـ كلما أعطانا شيئا غيبيا وأراد أن يقرب هذا الشىء الغيبى إلى مفهومنا البشرى أعطانا مثلا نراه فى حياتنا حتى تستطيع القلوب أن تستوعبه ولذلك حين أراد أن يرحمنا برحمته اتخذ الأم وابنها مثلا للمغفرة .

وقد وصف الله رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرحيم فى قوله ـ

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٥٧)

ويقول ـ على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فى قوله ـ تعالى ـ

« بسم الله » . . . . إنه شفاء من كل داء ، وعون على كل دواء ، وأما الرحمن فهو عون لكل من آمن وهو اسم لم يسم به غيره ، وأما الرحيم فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقال ابن كثير فى تفسيره : زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكد به ، والتأكيد يكون أقوى من المؤكد ، ولكنه رد عليهم بقوله : هذا ليس من باب التوكيد ، وإنما هو من باب النعت ، ولايلزم فيه ماذكروه .

ويؤكد أن الرحمن أشد مبالغة فى الرحمة ، لعمومها فى الدارين لجميع خلقه ، ولذلك قرن هذا بالعرش فقال ـ جل من قائل ـ :

﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (٥٨)

أما الرحيم فهو خاص بالمؤمنين لقوله تعالى ـ :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٥٩)

---

(٥٧) التوبة ١٢٨

(٥٨) طه ٥

(٥٩) الأحزاب ٤٣

واذا كان الرحمن أشد مبالغة من الرحيم فلماذا لم يكتف به ؟

وقد أجاب بعضهم عن ذلك بأنه حين تجرأ البعض من الكذابين فسمى نفسه الرحمن ـ وهو مسيلمة الكذاب ـ جيء بلفظ الرحيم ليقطع التوهم فى ذلك فانه لايوصف بالرحمن الرحيم إلا الله ـ تعالى ـ

ولكن هذه الإجابة يرد عليها أن القرآن قديم ، وتسمية الله ـ تعالى ـ بأسمائه قديمة ، وليست معللة بعلة إلا ماتوحى به معانيها العظيمة ومايبطن فى علم الله منها . واشتراك الأسماء فى اللفظ أو المعنى إنما هو لتأكيد عظمة الله وقيوميته وقد ورد من أسمائه المعطى والرزاق والوهاب والمنعم ، كما ورد الرءوف والرحيم والعفو ـ وكلها تشير الى معان متقاربة .

وقد فسر عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ البسملة تفسيراً تشير اليه حروفها ، فقال أما الباء فبقاء الله وأما السين فسناء الله ، وأما الميم فملك الله ، وأما الله فلا إله غيره ، وأما الرحمن فالعاطف على البر والفاجر من خلقه ، وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة .

وروى القرطبى عن كعب الأحبار قوله : الباء ـ بهاء الله ، والسين ـ سناؤه ، فلا شيء أعلى منه ، والميم ملكه وهو على كل شيء قدير. فلاشيء يعازُّه .

كما قال بعضهم : إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه ـ تعالى ـ

فالباء هو مفتاح اسمه : بصير

والسين هو مفتاح اسمه : سميع .

والميم مفتاح اسمه : ملك .

والألف مفتاح اسمه : الله .

واللام مفتاح اسمه : لطيف .

والهاء مفتاح اسمه : هادى .

والراء مفتاح اسمه : رزاق .

والحاء مفتاح اسمه : حليم .

والنون مفتاح اسمه : نور . وهكذا . .

ومعنى هذا كله دعاء الله ـ تعالى ـ عند افتتاح كل شيء .

الرحمن والهداية

ويذكر ابن القيم أن اسم الرحمن يتضمن معنى هداية الله ـ تعالى ـ لعباده بإرسال الرسل اليهم ، وإنزال الكتب عليهم . وهذا أعظم من إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب ، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح .

كما أن الرحمة هى السبب الذى بَيْنَ الله وبين عباده ، فهو إلههم وهو ربهم وبهذه الرحمة أرسل اليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه وبها هداهم ، وبها

أسكنهم دار ثوابه وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم . . . فبينهم وبينه سبب العبودية ، وبينه وبينهم سبب الرحمة .

رأى الشيخ محمد عبده :

يقول د . أحمد الشرباصى : يرى الإمام محمد عبده أن لفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، وهى إفاضه النعم والاحسان .

أما لفظ الرحيم فيدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة ، وبهذا لانستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ، ولايكون الثانى مؤكدا للأول ، والعربى إذا سمع وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصفة الرحمن ، وفهم منه أنه المفيض للنعم فعلا فقد لايفهم منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما . لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة ، وإن كان كثيرا .

ولكنه عندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده بوجه يليق بالله ـ تعالى ـ ويرضيه ـ سبحانه ـ وهو أن لله صفة ثابتة هى الرحمة ، التى عنها يكون أثرها وان كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين . . . . . بذلك يكون ذكرها بعد صفة الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم به البرهان .

ويؤكد ابن القيم اتساع رحمة الله التى يقول فيها

﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ﴾ (٦٠)

باقتران اسم الرحمن بالعرش الذى يحيط بالمخلوقات جميعا . . . .

قال تعالى

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ ﴾ (٦١)

وقال :

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦ ﴾ (٦٢)

فقد استوى الرحمن على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات . ولذلك غلبت رحمته غضبه كما يقول فى حديث قدسي : « لما قضى الله الخلق كتب

(٦٠) الأعراف ١٥٦

(٦١) الفرقان ٥٩

(٦٢) طه ٥ ، ٦

فى كتاب فهو موضوع عنده على العرش : إن رحمتى تغلب غضبى »
ويصدق ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٦٣)

إن مظاهر رحمة الله التى يهدى إليها اسمه ـ الرحمن الرحيم ـ كثيرة لاحصر لها ، فقد سخر لنا الماء والهواء والنجوم والكواكب ، ويسر لنا السبل ووهب لنا العقل وأنبت الزرع وأخرج المرعى ، وجمّلنا فى الخلقة ، ووهبنا الجوارح ، وتفضل علينا بنعمة الدواء لنعالج به الداء . ومكننا من المال الذى نقضى به الحاجات ، وقد يكون سببا فى السعادة إذا إستقمنا فى استعماله .

وإذا أراد العبد الفوز برضا الله والتنعم بالقرب منه ، تجلى بالرحمة على عباد الله فأطعم الجائع وكسا العارى ونصر المظلوم ، ومسح على رأس اليتيم ، وأشفق على العاصى ، لأنه يراه يهوى فى مهاوى الضلال ، فينصحه ويعظه ، وعطف على المتخاصمين بالاصلاح بينهم ، ورحم الجاهل بتعليمه والأخذ بيده ،

إن الله ـ سبحانه ـ يحب أن يتصف خلقه ببعض صفاته ، ويقول

---

(٦٣) الحجر ٤٩ ، ٥٠

النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الرحماء : « الرحماء يرحمهم الرحمن »

ذلك أنهم تخلقوا بخلق الرحمة التى هى من أسماء الله تعالى ـ

ولعظمة هذه الصفة وقرب المتصف بها من الله ـ مَنَّ الله بها على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعله رءوفا رحيما . وقال فى حقه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٦٤)

وأفصح هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نفسه قائلا :

« إنما أنا رحمة مهداة » وخلع الله عليه اسم الرحيم فقال :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٦٥)

لقد طالما لفت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنظار أصحابه والمسلمين من بعدهم ـ إلى خلق الرحمة وأهميته بالنسبة لحفظ ميزان الأمم وسعادة أفرادها وارتفاع شأنها .

وضرب لهم الأمثال ليتعلموا من أصناف الخلق صفة الرحمة التى نجدها

---

(٦٤) الأنبياء ١٠٧

(٦٥) التوبة ١٢٨

مفطورة فى قلوب الآباء والأمهات ـ من عقل ومالم يعقل ، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله عز وجل جعل الرحمة مائة جزء فمنها جزء يتراحم به الخلق ، فبه تعطف الوحوش على أولادها ، وأخَّرَ تسعا وتسعين الى يوم القيامة »

وفى بعض الروايات : « ان الله ـ تعالى ذكره ـ لما خلق السموات والأرض خلق مائة رحمة ، كل رحمة ملء مابين السماء والأرض فعنده تسع وتسعون رحمة ، وقسم رحمة بين الخلائق منها يتعاطفون وبها تشرب الوحش والطير الماء ، فاذا كان يوم القيامة قصرها الله على المتقين وزادهم تسعا وتسعين »

ومازال الناس يلهجون بجمال الرحمة حتى ليجعلونها فوق القانون فى بعض الأحيان ـ إذا لم يترتب على استعمالها استهانة بالقيم والمبادىء . . . إن إقامة العدل رحمة وتطبيق القانون بروحه زيادة فى الرحمة . . والله سبحانه وتعالى ـ رحيم ورحمته تقضى بمؤاخذة الظالم والبطش به والانتقام منه

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٦٦)

---

(٦٦) فصلت ٤٣

وقد أشرنا الى كيفية كون أن الانسان رحيم بغيره . وقال الإمام الغزالى حجة الاسلام ـ فى ذلك : إن حظ العبد من اسم الرحيم أن يرحم عباد الله الغافلين ، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف وأن ينظر الى العاصين بعين الرحمة لابعين الايذاء أو الازدراء ، وأن ينظر الى كل معصية تقع من غيره كأنها تقع من نفسه ، فلايألو جهدا فى إزالتها قدر طاقته . . اشفاقا على ذلك العاصى أن يتعرض لغضب الله وسخطه فيستحق البعد عن جوار ربه .

وقد ذكر الإمام عبد الوهاب الشعرانى فى معرض التحدث بنعمة الله عليه فى كتابه المنن الكبرى . قائلا : إنى لأشعر بشعور المعذبين والمظلومين حتى لكان كل عذاب أو ظلم واقع بأحد من الناس واقع بى ،

ـ وتلك أسمى آيات الرحمة والأخوة الصادقة .

ويحكى فى سياق ذلك قائلا أيضا : ومما مَنَّ الله به عَلىَّ ، سَتْرِى لعورات الناس وعيوبهم ، ورحمتى بالعصاة حال تلبسهم بالمعصية ، فإنهم أشقى الناس حينئذ ، ثم غيرتى على أذنى أن تسمع زورا ، وعينى أن تنظر محرما ولسانى أن يتكلم باطلا ، ثم كثرة شفقتى على دابتى وكراهيتى أن أحمل سوطا ثم أخذى كل كلام وعظت به الناس فى حق نفسى أولا وفى حق الناس ثانيا ، واستغفارى من الذنوب ثالثا ، ثم عفوى العام عن كل مسىء الىّ

ويستطرد قائلا : ومما أنعم الله به عَلَيَّ عدم خروجى من بيتى إلا اذا علمت من نفسى القدرة باذن الله على هذه الخصال الثلاث : تحمل الأذى عن الناس ، وتحمل الأذى منهم وجلب الراحة لهم .(٦٧)

وكان الشعرانى ـ كما قيل ـ ينظر الى العصاة على أنهم من أصحاب الجدود العواثر فهم فى حاجة الى الرثاء والاشفاق والعطف لا الى التشفى والانتقام والعسف . . هم فى حاجة الى النصح لهم والأخذ بأيديهم الى طريق الهداية والارشاد بدلا من القسوة التى تؤدى بهم إلى الإمعان فى سبيل الضلال والعناد . وهذه هى الرحمة التى يجب أن يتحلى بها العبد تخلقا بأخلاق الله .

لقد نعى بنو إسرائيل على عيسى ـ عليه السلام ـ أنه كان يجالس المذنبين والعصاة ، وقالوا له فى ذلك : فأجابهم بقوله : ماحاجة الأصحاء إلى طبيب ؟

ويقول الغزالى ـ رحمه الله ـ وحظ المؤمن من اسم ـ الرحيم ـ الا يترك حاجة لمحتاج إلا ويسدها على قدر استطاعته ، ولايدع فقيرا يشعر به ويستطيع الوصول اليه الا ويدفع فقره بماله أو جاهه أو الشفاعة ، له عند غيره . فإن عجز عن كل ذلك أعانه بالدعاء وإظهار الحزن من أجله .

لم يغفل الناس عن أثر الرحمة وجدواها وفضلها ومعناها ولكنهم غفلوا عن

---

(٦٧) عبد الوهاب الشعرانى إمام القرن العاشر لعبد الحفيظ فرغلى ص ١٢٥ ـ اعلام العرب

تطبيقها والتخلق بها ، لأن نفوسهم تضيق بذلك لما ركب فيها من شح ، ولما طبعوا عليه من أثره .

ومأأصدق المنفلوطى حين قال : لو تراحم الناس ماكان بينهم فقير ولامظلوم ولاجائع ولامهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع ، ولقرت الجنوب فى المضاجع .

وقد روى لنا قصة تدور حول زيارته لصديق غنى فوجده يتلوى من مغص أصابه بسبب الافراط فى الطعام . وكان ذلك بعد زيارته لصديق كان يتلوى من شدة الجوع فقال : ياسبحان الله ، لو أعطى هذا مازاد على حاجة بطنه الى ذاك الذى لم يجد مايمسك به رمقه لصح الاثنان . ولكن الله له فى خلقه شئون .

وهذا يسلمنا الى سؤال ربما يعترض به بعض المعترضين : إذا كان الله رحيما وهو قادر على رفع كل بلية فلماذا يترك بعض العباد يقاسون الأذى والضر والجوع والفقر ؟

وقد أجاب الغزالى ـ رحمه الله ـ على هذا الاعتراض قائلا : الطفل الصغير . قد ترق له أمه فتمنعه عن تعاطى الدواء المر ، ولكن الأب العاقل يحمله على ذلك قسرا ، والجاهل يظن أن الرحيم بذلك هى الأم دون الأب ، ولكن العاقل يعلم أن إيلام الأب ابنه بمر الدواء من كمال رحمته وعطفه وتمام شفقته وأن الأم عدو فى صورة صديق ، وأن الألم القليل اذا كان

سببا للذة الكثيرة لم يكن شرا بل هو خير . . والرحيم يريد الخير بالمرحوم لامحالة . وليس فى الوجود شر إلا وفى ضمنه خير ، لو رفع ذلك الشر لبطل الخير الذى فى ضمنه . وحصل ببطلانه شر أعظم من الشر الذى يتضمنه ، فاليد المتآكلة قطعها شر فى الظاهر ، ولكن فى ضمنها خير جزيل ، وهو سلامة البدن ـ ولو ترك قطع اليد لحصل هلاك البدن ، ولكان الشر الأعظم .(٦٨)

إن من رحمة الله الغامرة أن يصاحب قضاء الله لطفه حتى لايسع المبتلى الا الهتاف بحمد الله الذى لايحمد على مكروه سواه ـ وماأجمل قول ابن عطاء الله السكندرى فى احدى حكمه : « من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره »

ويعلق شارح الحكم على هذه الحكمة قائلا :

واللطف المصاحب للقدر يمكن إدراكه فى العقليات والعاديات والشرعيات . . . . . أما العقليات فما من بلاء الا والعقل قاض بإمكان مافوقه ـ أى بوجود ماهو أكبر منه ـ فالاقتصار على مادون المقدور عليه لطف ، وبهذا يتبين أنه مهما عظمت المصيبة فإن اللطف مصاحب دائما لمن أصابته

وأما العاديات فما وجدت قط بلية لشخص إلا وَجّدَ ماهو أعظم منها

---

(٦٨) أسماء الله الحسنى جـ ١ ص ٣٤ د . أحمد الشرباصى نقلا عن كتاب المقصد الأسنى للغزالى

بغيره . ولاتجتمع البلايا على شخص واحد أبدا ، فإن من أعظم المصائب الفقر فى الشيب ، والموت فى الشباب ولايمكن اجتماعهما .

وأما الشرعيات فما من بلية الا وهى مكفرة من ذنوب صاحبها ، أو موجبة له ثوابا . أو مخففة عنه عقابا ، أو مبشرة له بمنفعة دنيوية أو منفعة أخروية . فقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « مايصيب المؤمن من وصب ولانصب الا كفر به من خطاياه حتى الشوكة يشاكها »

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « حُمَّى يوم تكفر ذنوب سنة »

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الحمة حظ كل مؤمن من النار »(٦٩) ولعل ابن عطاء الله السكندرى ينظر الى قوله ـ تعالى ـ « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا »(٧٠)

والقدوة العليا فى التخلق بصفة الرحمة هو نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى فهم عن ربه وتخلق بأخلاقه فكان رحمة سابغة على أمته . . . وقد وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها ـ حين سئلت عن أخلاقه فقالت : كان خلقه القرآن .

والقرآن فيه الرحمة والعدل والعفو والكرم وكل الأخلاق الفاضلة .

---

(٦٩) شرح الحكم العطائية للتبيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى المعروف بزرُّق ص ١٨٥
(٧٠) المرجع السابق .

وهل هناك أعظم من رحمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يدفع عن قومه الأذى الذى أوشك أن ينزله بهم ملك العذاب بعد أن آذوه فى الطائف . . . . فقال له : دعهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله ؟

أو هل هناك أرحم منه فى الخلق وقد وقف يخاطب أهل مكة بعد أن فتحها الله على يديه قائلا لهم : ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ فيقولون : خيرا . فيقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . . ؟

هذه هى الرحمة العظيمة التى تجلى بها الله على قلب نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعصمه من البطش والانتقام والتشفى ممن آذوه وشردوه وحاربوه وطاردوه . .

لقد صدق أمير الشعراء حين مدحه قائلا :

فإذا رحمت فأنت أم أو أب   هذان فى الدنيا هم الرحماء

ولعمرى إن رحمة الأبوين دون رحمة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمته . وقد جعله الله شفيعا لهم من عذاب النار . .

الرحمن والرحيم فى القرآن :

لقد سبق أن قلنا إن اسم الرحمن ورد فى القرآن سبعا وخمسين مرة وورد اسم الرحيم خمسا وتسعين مرة . وفى غالب الأحوال كان الاسمان يردان معا . ولكن هناك مواضع انفرد فيها كل منهما بالذكر . .

فمما انفرد فيه اسم الرحمن قوله ـ تعالى ـ :

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٧١)

وقوله تعالى حكاية عن مريم :

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ (٧٢)

لقد ورد لفظ الرحمن وحده فى سورة مريم ست عشرة مرة . .
ومما ورد فيه اسم الرحيم وحده قوله ـ تعالى :

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٧٣)

وقوله تعالى :

---

(٧١) الرعد ٣٠
(٧٢) مريم ٢٦
(٧٣) البقرة ٣٧

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤ ﴾(٧٤)

وقال بعض العلماء الرحمن الرحيم : اسمان مشتقان من الرحمة . والرحمة صفة أزلية ، وهى إرادة النعمة . وهما اسمان موضوعان للمبالغة ولافضل بينهما عند أهل التحقيق . .

ومن كلام محيى الدين بن عربى :

إلى الرحمن حلى وارتحالى لأحظى بالجلال وبالجمال
فإن الحق كان بنا رحيما رءوفا يوم يدعونى : نزال

أى انزل بديار قربنا وجنة عدننا . .

وقد مر بنا كلام للغزالى ـ رضى الله عنه ـ حول هذين الاسمين ويمكن أن يضاف الى ذلك قوله : الرحمن الرحيم ـ اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة التامة إفاضة الخير على المحتاجين وإرادة العناية بهم . . . . والرحمة العامة هى التى تتناول المستحق وغير المستحق ، ورحمة الله تامة عامة تناولت الضرورات والمزايا الخارجة عنها فهو الرحيم مطلقا .

لولا تجلى الله باسميه العظيمين ـ الرحمن الرحيم ـ لما فاضت الكائنات بهذا الجود الذى تعيش فى ظله الموجودات ، وتحيا على بره المخلوقات ، ويسعد فى جنابه كل من فى الأرض والسموات . ولعل هذا هو مايعبر عنه

---

(٧٤) التوبة ١٠٤

الشاعر أحمد مخيمر فى احدى سَبَحَاته حول معنى الرحمن الرحيم :

ربى رحيم ورحمن ورحمته تطوى الوجود وتغنى كل محتاج
ورحمة الله لولاها لما سبحت أرض بجو ولاجاشت بأمواج
ولاتحركت الأقمار جارية لمستقر بأفلاك وأبراج
من نالها فهو ناج يوم محشره بها ومن لم ينلها ليس بالناجى(٧٥)

الذكر بالرحمن الرحيم :

لقد أوجب الله ـ سبحانه ـ خصائص كثيرة لاسمه « الرحمن » فمن تلك الخصائص أنه جعل اسم الرحمن ذكراً للذاكرين ونبه الى الاستعاذة بهذا الإسم . . . .

ففى الاستعاذة به ـ قال ـ تعالى ـ على لسان مريم :

﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ (٧٦)

وفى التوكل على الله قال ـ تعالى ـ

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

---

(٧٥) أسماء الله الحسنى أحمد مخيمر ص ٢١
(٧٦) مريم ١٨
(٧٧) الأنبياء ١١٢

﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٧٨)

وفى الصوم قال ـ تعالى ـ على لسان مريم ـ

﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾. (٧٩)

وفى الذكر به قال ـ تعالى ـ :

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾. (٨٠)

وفى حشر الناس يقول ـ تعالى ـ :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (٨١)

كما أسند تعليم القرآن الى هذا الاسم ـ قال تعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ (٨٢)

---

(٧٨) الملك ٥٩
(٧٩) مريم ٢٦
(٨٠) الإسراء ١١٠
(٨١) مريم ٨٥ (٨٢) أول الرحمن ١ : ٤

ونبه إلى أن الغفلة عن ذكر هذا الاسم تستوجب المقت من الله واستيلاء الشيطان على الغافل فقال سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

وقال سبحانه فى وصف الصالحين من عباده :

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ (٨٤)

ومن الدعاء باسم الرحمن قول بعض الصالحين :

« إلهى يارحمن الوجود يامن وسعت كل شىء رحمة وعلما ، ظهرت رحمتك فى كل ذرات الوجود والعالم . فلا نرى إلا شيئا ونقرأ من آيات رحمتك مايجذبنا إليك ويطمئن قلوبنا بواسع حنانك . أشهد عيون قلوبنا نور عدلك وعظيم فضلك يارحمن . .

قال بعض العلماء : من ذكر اسم الرحمن مائة مرة إثر كل فرض زال عنه النسيان والغفلة وقساوة القلب ، وأُعِين على أمور الدنيا ، ولايزال ذاكره يتقلب فى رضوان الله تعالى ، وتتوالى عليه النعم وتحفه الرحمة .

وقال بعضهم : من صلى عصر يوم الجمعة ثم استقبل القبلة وقال :

---

(٨٣) الزخرف ٣٦

(٨٤) الفرقان ٦٣

ياألله يارحمن ـ إلى أن تغيب الشمس وسأل الله تعالى شيئا أعطاه الله إياه[٨٥]

أما اسم الرحيم فالذكر به يرقق القلب ويسبغ الرحمة فى القلب . . والدعاء به وبالرحمن ينفع المضطرين ويؤمن الخائفين . ومما ورد فى الدعاء باسم الرحيم مايقوله الشيخ أحمد العقاد : « إلهى رحمتك بالخلق دلتنا على سعة الجنان ، فاطمأنت قلوبنا بأنك الرحيم بجميع الأكوان ، وأنت تحب الرحمة لأنها صفتك ، ونحن المستحقون لها لأن عيوبنا كثيرة فانشر علينا رحمتك لتكون عيوننا بها بك قريرة . .[٨٦]

---

(٨٥) أسماء الله الحسنى أحمد عبد الجواد ص ٢١
(٨٦) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى ص ٣٨

الملك القدوس

اسم الملك

الدعاء باسم الله - الملك

دعاء يوسف عليه السلام

اسم الله - القدوس

الدعاء باسم الله - القدوس

ٱلْمَلِك ٱلْقُدُّوس

ورد اسم الله « ٱلْمَلِك » فى القرآن الكريم خمس مرات . .

فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (٨٧)

وفى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (٨٨)

وفى قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٨٩)

وفى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ (٩٠)

---

(٨٧) طه ١١٤
(٨٨) المؤمنون ١٦٦
(٨٩) الحشر ٢٣
(٩٠) الجمعة ١

وفى قوله - تعالى - :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ ﴾ (٩١)

وورد المليك فى قوله - تعالى :

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥ ﴾ (٩٢)

قال ابن منظور : الملك هو الله - تعالى - ملك الملوك ، له الملك ، وهو مالك يوم الدين ، وهو مليك الخلق - أى ربهم ومالكهم ، وفى التنزيل : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ (٩٣) وقرىء : « ملك يوم الدين » بغير ألف .

والملك - بكسر اللام - وقد تسكن فيقال : مَلْك ، وتأتى بعد الميم ألف فيقال : مالك . ويأتى بعدها ياء ، فيقال : مليك ، وهى كلها بمعنى .

والمُلْك فى حق الله حقيقة ، وفى حق غيره عارية وتجوز . . فإنه يوم تطوى السموات والأرض ، ويفنى كل شىء لايبقى إلا وجه الله الباقى . . لايبقى فى الوجود إلا الله - قال تعالى -

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦ ﴾ (٩٤)

---

(٩١) الناس ١ ، ٢

(٩٢) القمر ٥٥

(٩٣) الفاتحة ٣

(٩٤) غافر ١٦

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يقبض الله ـ عز وجل ـ الأرض يوم القيامة ، ويطوى السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك فأين ملوك الأرض ؟ »

هذا هو المُلْك الحقيقى الذى لاشريك ينازع صاحبه فيه . ولاوارث يرثه ، ولا انقلاب يهدده ويؤرق صاحبه . هو ملك ثابت راسخ مهيمن قيوم على كل شيء تحت سلطانه .

ويقال : مُلْك الله وملكوته أى سلطانه وعظمته ، والملكوت من الملك كالرهبوت من الرهبة . زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . وقد يُطْلَق الملك على مايبدو ويظهر للعيان . ويطلق الملكوت على مايخفى مما لاتراه العيون ولاتدركه الحواس . .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٩٥)

وقد فسر بعض العلماء الملكوت هنا بالتنزيه ، أى تنزيه الله عن أن يوصف بغير القدرة .

ويكون معنى الآية : فسبحان الذى بيده القدرة على كل شيء ، وهوالذى يبعثكم بعد موتكم .

---

(٩٥) يس ٨٣

وجاء فى تفسير القرطبى لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٩٦)

قوله : ملكوت مثل الرغبوت والرهبوت والجبروت ، زيدت الواو والتاء للمبالغة فى الصفة .

وأراد بالملكوت مافى السموات من عبادة الملائكة لله ، ومن العجائب ، ومافى الأرض من عصيان بنى آدم ، فكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يدعو على من يراه يعصى فيهلكه الله ، فأوحى الله إليه : ياإبراهيم أمسك عن عبادى ، أما علمت أن من أسمائى الصبور ؟

رَوَى مَعْنى ذلك عَلِىٌّ عن النبى ـ ﷺ ـ

وقيل فى معنى الآية : كشف الله لإبراهيم عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين ، فَفُرِجت له السموات السبع فنظر إليهن حتى انتهى إلى العرش ، وفُرِجَت له الأرضون فنظر إليهن ورأى مكانه فى الجنة ، فذلك قوله ـ تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٩٧)

---

(٩٦) الأنعام ٧٥
(٩٧) العنكبوت ٢٧

وقال بعض العلماء : أراه الله من ملكوت السماء ماقصه من أمر الكواكب ومن ملكوت الأرض البحار والجبال والأشجار . . .

وهذا ممالم تقع عليه عين إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكن الله زَوَى الأرض له فرأى من عجائبها مارأى . ولعل هذا يشير إلى أن الملكوت ، ماخفى عن عين الرائين ودق على أفهام المتفكرين . .

ويفيد معنى « الملِك » أنه ـ سبحانه ـ القائم على تدبير خلقه ، والمنزه عن الظلم ، الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد . . فهو وحده المالك الحقيقى ، يعلم ماخفى وظهر ، ومابداواستتر ، « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين »[٩٨]

ومن لوازم الملك الغنى ، فالله هو الغَنِيُّ . والغِنى يستلزم الحمد على نعمة إغناء عباده ، فالله هو الحميد . .

والَملِك لايفتقر إلى غيره ، ولكن غيره مفتقر إليه . . فكل المخلوقات فى حاجة إلى سيدها الملك ، والملك فى غنى عنهم ، وإنما يرزقهم بفضله وجوده ، ويتعبدهم لمصلحتهم لالمصلحته ، فهو يرفع شأنهم ويعطيهم درجات بقدر مايؤدى كل منهم من جهد فى طاعته ، ثم يقول لهم : ادخلوا الجنة برحمتى واقتسموها بأعمالكم . . .

ومُلْك الله يشمل كل شىء فى الوجود ، بما فى ذلك العوالم العلوية

---

(٩٨) الأعراف ٥٤

والعوالم السفلية ـ ماتراه ، ومالاتراه ، ويدخل فى نطاق الملك الناس الذين جعلهم خلفاء فى الأرض لينظر كيف يعملون .

وهو يملك فى الإنسان كل شيء ـ يملك سمعه وبصره وفؤاده وعقله وناصيته وتصرفه . .

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (٩٩)

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ (١٠٠)

وليس ملك الله مقصوراعلى حد المحسوسات والمرئيات والمعقولات بل هو الذى يملك الخير والشر والنفع والضر والحياة والموت والدنيا والآخرة ويملك التصرف الكامل فى ملكه الواسع الذى وسع السموات والأرض ومافيها ، ويملك القدرة الكاملة على حفظهما دون حاجة إلى معين أو الاستعانة بنصير . .

---

(٩٩) الزخرف ٨٥
(١٠٠) يونس ٣١

قال ـ تعالى ـ :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (١٠١)

ونعى على الكفار عبادتهم مالايملك شيئا ، ولايقدر على النفع أو الضر ، ومالا يسمع ولايعقل ولايعلم . فقال لهم :

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦ ﴾ (١٠٢)

وقال :

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾ (١٠٣)

فالملك هو الظاهر بعز سلطانه ، الغنى بذاته عن غيره ، المتصرف فى أكوانه بصفاته

هو الملك المتصرف بالأمر والنهى ـ قائلا بلسان القدرة لعبده : افعل ولاتفعل .. فمن وقف عند حد الأمر فقد ائتمر ، ومن وقف عند حد النهى

---

(١٠١) الملك ١ ، ٢
(١٠٢) المائدة ٧٦
(١٠٣) الفرقان ٣

فقد انتهى .

ومصدر الفعل « مَلَك » : مُلْك - بضم الميم وسكون اللام . والمُلْك هو السلطان ، ولامُلْك فى الحقيقة إلا لله لأنه لاسلطان إلا هو ، ولاسلطان إلا له . « له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على شىء قدير »

وقد أهلك الله كل من حاول أن يدعى شيئا من ذلك . . . . . لقد غرت النمروذ قوته ، وسولت له نفسه أن يدعى الألوهية قائلا فى الرد على إبراهيم - عليه السلام - : أنا أحيى وأميت - ظاناً على - سبيل الجهل - أن الأمر بقتل امرىء إماتة ، والعفو عنه بعد الأمر بقتله إحياء له . . واعتقد بذلك أن الملك بيده ولكن إبراهيم - عليه السلام - تحداه قائلا . .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (١٠٤)

إن الله جلت قدرته يملك حياة المرء وموته حقيقة لا ادعاء ، لأنه هو الذى خلق الموت والحياة . وخلق الخلق جميعا . . فالذى يملك الموت والحياة هو خالقهما . . . .

---

(١٠٤) البقرة ٢٥٨

وقد قضى سبحانه أنه لاموت فى الحياة الآخرة بعد البعث . . . فأهل الجنة خالدون فيها أبدا ، وأهل النار خالدون فيها أبدا . . .

إعارة اسم الملك

وقد أعار الله سبحانه اسم الملك لأناس من خلقه ـ فَسُمِّى رئيس الدولة المتصرف فى شئونها ملكا ، لأنه يحكمهم ويملك التصرف فى أمورهم فى الظاهر . . قال الأصفهانى ـ : المِلْك ـ بكسر فسكون ـ ضربان ، فمن الأول قوله ـ تعالى ـ

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١٠٥)

ومن الثانى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١٠٦)

فجعل النبوة مخصوصة والملك عاماً ، فإن معنى الملك هنا هو القوة التى بها يترشح للملك والسياسة ، لا أنه جعلهم كلهم متولين للأمر ، فذلك مناف للحكمة . . . كما قيل : لاخير فى كثرة الرؤساء »(١٠٧)

---

(١٠٥) النمل ٣٤
(١٠٦) المائدة ٢٠
(١٠٧) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى ص ٤٠

وقد جاءت كلمة الملك التى أعارها الله لخلقه فى بعض آيات من القرآن الكريم مرادا بها القائم على شئون الدولة الذى يدبر لها سياستها ويتولى أمرها وهو أمر من تمام حكمة الله ـ تعالى ـ ونعمته على عباده . . . ومن تمام النعمة أن يكون هذا الملك عادلا بصيرا عاقلا يأخذ بيد الناس إلى الحق والنهضة والطريق المستقيم . وماأصدق قول الشاعر :

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم　　　ولاسراة إذا جهالهم سادوا

ومن الآيات التى ورد فيها لفظ الملك على سبيل العارية لبعض الناس :

قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ (١٠٨)

وقوله

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ

---

(١٠٨) البقرة ٢٤٦

يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ (١٠٩)

وقوله تعالى

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ (١١٠)

وملك الملوك. إذا أنعم على عبد مَلَّكه . ومقتضى هذه النعمة شكرها وذلك بأن يتخلق هذا الملك بالخلق الحسن ، وأن يحكم بحكم الله ، رعيته . . .

فالله الملك لايظلم كما قال ـ سبحانه :

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ (١١١)

---

(١٠٩) البقرة ٢٤٧
(١١٠) يوسف ٥٤
(١١١) الكهف ٤٩

والله الملك عادل فى حكمه رءوف بخلقه ، بصير بأمورهم ، سامع لدعواتهم متجاوز عن هفواتهم ، مقيل لعثراتهم .

وكذلك يجب أن يكون الملك الذى ولاه الله أمر الرعية . . . . عليه أن يفتح أبوابه ولايجعل بينه وبينهم حجابا ، ويأخذ بأيديهم إلى طريق النصح والرشاد والعدل .

والعقلاء من الناس ينظرون إلى الملك الذى ولاه الله عليهم على أنه أمين عليهم مسئول عنهم ، ولاينظرون إليه تلك النظرة التى تخرج به عن حدود أنه رجل منهم ـ ولاه الله أمرهم ـ وذلك حين يكثرون من مدحه والرفع من شأنه حتى يصاب بالغرور والكبر ويدعى أنه من جنس غير جنسهم فيطغى عليهم .

يجب عليهم أن يُذَكِّروه دائما أنه واحد منهم خوله الله سلطة هو مسئول عنها ومحاسب عليها . قال بعض الواعظين لهارون الرشيد فى يوم عرفة ـ وقد قال له هارون الرشيد : عظنى ، فقال له الرجل : اعلم يا أمير المؤمنين أن هذا الخلق الذى تراه أمامك ولا يكاد يحصره العد ، كل منهم مسئول عن نفسه فقط ، أما أنت فمسئول عنهم جميعا . . فبكى هارون .

وفى الطواف حول الكعبة لقى عبد الملك بن مروان رجلا يطوف ، فقال له عبد الملك : أنا عبد الملك بن مروان ـ أمير المؤمنين ـ ارفع حوائجك إلىَّ . . . فقال له الرجل : وأنا أيضا عبد الملك فهيا نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان .

ومقتضى الملك الاستغناء ، بمعنى أن يكون الملك غنيا عن رعيته فلايطمع فيها فى أيديهم . بل يكون طمعه فى الله وفى رضاه ، فإن فعل ذلك أمده الله بعونه وأغناه .

وحلية الملك التواضع والعفة والزهد ، وقد روى فى سيرة سليمان الملك - عليه السلام - الذى قال الله على لسانه

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾(١١٢)

أنه كان لايشبع من طعام أبدا . وكان يجيع نفسه ولما سئل فى ذلك قال : أخاف أن أشبع فأنسى جوع الفقر .

وحين سئل عمر بن الخطاب عن تمسكه بالزهد وإعراضه عن متع الحياة وقد دانت له الدنيا قال : إننى نظرت الى أقوام قال الله فى حقهم

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾(١١٣)

فأردت أن لا أذهب طيباتى فى الدنيا ، وأدخرها للآخرة .

واذا لم يؤدب الملك نفسه بالتواضع والافتقار نازعته إلى العزة والاستكبار ، وأوردته موارد التهلكة والبوار . فانظر الى فرعون الذى سولت

---

(١١٢) ص ٣٥

(١١٣) الأحقاف ٢٠

له نفسه أن يقول « أنا ربكم الأعلى » وانظر الى نمروذ الذى قال : أنا أحيى وأميت » ولقد تجرع كل منهما وبال ماقال ، وأذاقهما الله الخزى والنكال .

فعلى كل إنسان أن يعرف أنه فى المملكة الإلهية ضيف لاحكم له على صاحب الدار ولاتصريف له معه .

فعليك أيها المغرور أن تتأمل فى عظمة الله القادر الحكيم ، كيف نظم ملكه ، وأوقف كل كائن عند مرتبته ، وانظر الى البحار ومافيها من العوالم ، والهواء مافيه من الطيور والجراثيم ، والأرض ومافى طواياها من الخلائق ، كيف خضع الكل لعزته وسلطانه وتنعم الكل فى فضل حنانه .

ولايتصور أن يكون العبد مالكا ملكاً حقيقيا ، لأن الانسان دائما عاجز لآيقدر إلا على يسير الأمور وبالقدر الذى يهبه الله فهو مفتقر أبدا الى ربه ـ سبحانه ـ وإلى كثير من خلق الله .

أجل لايستغنى الانسان عن غيره ولو كان تحته ألف عرش وعرش فهو فى حاجة إلى طبيب يعالجه ، والى خادم يخدمه ، والى حارس يحرسه ، والى وزير يدبر له مملكته ، والى قائد يقود له جيوشه ، والى جنود يحمون له حدود مملكته . والى صُناَّع وفنيين وأجراء وحرفيين . . والى غير ذلك مما نراه فى نظام أى دولة من الدول التى تملأ الأرض .

وهناك فرق جوهرى ، بين الملك الحقيقى والملك المعار .

الملك الحقيقى ـ وهو الله تعالى ـ بيده كل شىء ، يقول للشىء كن

فيكون ، إنه يملك الأنفاس التي يتنفسها الناس من الهواء ، وفي مقدوره أن يطويها عن صاحبها فيموت .

أما الملك المعار فإن كثيرا من الخلق لايحتاجون إليه ـ وكم من آلاف مؤلفة من الرعية عاشوا وماتوا وهم لايعرفون عن سلطانهم الذى يحكمهم شيئا ، ولم يحتاجوا الى أن يطلبوا منه شيئا .

أما الله الملك ـ جلت قدرته ـ فما من كبير ولا صغير إلا يعرف قدرته ويحتاج اليه ويهتف باسمه فى ضراعة ، ويناجيه فى حب ، ويدعوه فى خشوع ، ويقول كما علمه الله :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١١٤)

وقد يصبح الانسان ملكا دون أن تكون له رعية يحكمها ، وهو مع ذلك أقوى من صاحب الرعية . . . ذلك أن الانسان إذا قهر شهوته وتغلب على دواعى نفسه ووساوس شيطانه ، واستغنى عن هواه ـ مكنه الله وقواه ، وأعطاه سلطة بها تخافه الملوك وتخشاه . . ألم تسمع الى قول الجنيد ـ رحمه

---

(١١٤) آل عمران ٢٦ ، ٢٧

الله ـ : نحن فى منزلة لو عرف لذتها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف . ودخل مالك بن دينار مدينة الرى ـ وكان فيها هارون الرشيد ـ فتوافد اليه الناس واجتمعوا حوله وضاقت الشوارع عليه بمن فيها ، وتطلعت أم ولد لهارون من نافذة وسألت قائلة : مابال الناس ؟

فقالوا لها : هذا مالك بن دينار قد دخل الرى فاجتمع الناس حوله ، فقالت : هذا هو المِلك ، لا الذى يجمع له الناس بالدينار والعصا .

قال الغزالى ـ رحمه الله ـ : اذا ملك الانسان نفسه ولم تملكه ، وأطاعته ولم يطعها ، فقد نال درجة الملك فى عالمه ، فإن انضم إليه استغناؤه عن الناس فهو الملك فى العالم الأرضى ، وتلك رتبة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فإنهم استغنوا فى الهداية الى الدار الآخرة عن كل أحد إلا عن الله ـ سبحانه ـ واحتاج اليهم كل أحد ، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وإنما ملكهم بقدر قدرتهم على إرشاد العباد ، واستغنائهم عن الاسترشاد ، وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة فى صفاته ويتقرب الى الله ـ تعالى بها ـ .

إن قطع الطمع عن الناس هو الملك وهو يرادف الحرية الحقيقية وقد ورد قول الشاعر :

الحر عبد ما طمع　　　والعبد حر ما قنع

سأل بعضهم أحد الحكماء أن يوصيه فقال له :

كن ملكا فى الدنيا تكن ملكا فى الآخرة .

فقال له : وكيف أكون ملكا فى الدنيا ؟

قال له : اقطع طمعك وشهوتك الى الدنيا تكن ملكا ، لأن المُلْك فى الحرية والاستغناء ، وبذلك تكون ملكا فى الآخرة .

وما قيمة ملك الدنيا ؟ وكيف يكون الملِك ملكا وهو لايستطيع أن يدفع عن نفسه لفحة برد تصيبه بزكام ، أو عضة بعوضة قد تورده الحِمام ؟ أُلم تهلك النمروذ بعوضة ؟

استوعظ هارون الرشيد رجلا من الصالحين ، وكان يحب الاستماع الى وعظهم ، وفى يد هارون كوب من ماء بارد يوشك أن يشربه . . . . فقال له الصالح : بالله ياأمير المؤمنين لو منعت شرب هذا الكوب فى شدة حاجتك إليه ، بكم كنت تشتريه ؟

فتفكر هارون قليلا ثم قال : أشتريه بنصف ملكى .

فقال له الصالح : اشرب يا أمير المؤمنين هنيئا مريئا .

فلما شرب قال له الصالح : بالله ياأمير المؤمنين لو منعت إخراج هذا الماء مع شدة حاجتك اليه ، فبكم كنت تشترى خروجه ؟

فقال : أشترى خروجه بنصف ملكى .

فقال له الرجل : أفرأيت ياأمير المؤمنين أن هذا الملك لايساوى شربة ماء وخروجها .

فبكى هارون الرشيد ـ رحمه الله ـ

هكذا يجب أن يتخلق الناس بخلق العرفان لله ، والحمد له ، والشكر على نعمائه ، والتواضع لسلطانه ، ومراعاة الأمانة التى ائتمنهم الله عليها فى رعيتهم ، كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

واذا كان الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يرعى الناس فى ملكه بمنتهى الرأفة والرحمة والعدل والفضل ، فحق على من هو مسئول أمام الله أن يرعى حق الله فى عباد الله .. قال عز وجل

﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١١٥)

الدعـــاء باســـم المـــلك

وما أجمل أن يدعو العبد سيده الملك بهذا الدعاء الذى ورد على لسان بعض الصاحين « الهى ياملك العالمين ياصاحب العز الدائم ، ذلت لعظمتك رقاب الجبابرة وارتعدت لهيبتك أرواح الكروبيين(١١٦) تجل لنا بسر اسمك الملك ، وأمدنا بلطائفه حتى نملك نفوسنا ونعدل فى جوارحنا ، ونتصرف بأمرك فى كل الشئون ، يامن أمره اذا أراد شيئا قال : كن فيكون ـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم .

---

(١١٥) الأنبياء ٢٣

(١١٦) الكروبيون : الملائكة المقربون

دعـــاء يوســف ـ عليــه الســـلام ـ

لم ينس يوسف ـ عليه السلام ـ وقد أتاه الله الملك وربعه على عرش مصر بعد أن بيع بيع العبيد بثمن بخس دراهم معدودة ـ لم ينس أن يتضرع داعيا الى الله الملك الذى يهب الملك لمن يشاء ـ قائلا بلسان الذلة والانكسار ، لابلسان العزة والاستكبار :

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ (١١٧)

لقد قدم بين يدى دعائه اعترافه بنعمة الله عليه ، وهذا هو مقتضى الشكر للنعمة والحمد للمنة ، مستعظما ما أفاءه الله عليه وما خوله إياه ، ثم ناجاه بقدرته القيومية وعنايته الأزلية ، ثم دعاه أن تكون خاتمته خاتمة حسن وإيمان وأن يتوفاه الله على الاسلام ، وأن يلحقه بالصالحين من آبائه . . . . . إن فى تذكر يوسف فى صدر دعائه نعمة الملك عليه ، ثم ختامه الدعاء بأن يحسن الله ختامه عند الموت ـ اعترافا بقهر الله وقيوميته وعظمة ملكه وديمومته . فهو الملك الى الذى لايموت ، كما يموت أولئك الملوك الذين لاحول لهم ولا قوة أمام جبروت الله .

قال بعض العلماء وحظ العبد من اسم ربه الملك ـ جل جلاله ـ أن

---

(١١٧) يوسف ١٠١

يصلح الله قلبه وشأنه ويورثه الشجاعة على ماسواه من جوارحه ومن تحت إمرته ، فإن القلب هو الملك والجسم مملكته ، وقد جاء فى الأثر القدسى « ما وسعنى أرضى ولاسمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن »

واسم الله ـ الملك ـ يجب أن تتذكره الملوك دائما ليعرفوا أن هذه الاسماء عارية لهم ، وان الملك الحقيقى هو الله وحده مالك الملك .

قال العلماء : من واظب على ذكر « الملك » وقت الزوال كل يوم مائة مرة صفا قلبه وزال همه .

ومن قرأه بعد الفجر مائة وإحدى وعشرين مرة أغناه الله من فضله بما يفتح الله له[118] »

(١١٨) أسماء الله الحسنى الشيخ أحمد عبد الجواد ص ٢٨

القـــــدوس

ورد اسم القدوس فى القرآن الكريم مرتين ، فى قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١١٩)

وفى قوله تعالى : ـ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ (١٢٠)

والاسم مشتق من التقديس ، ومعناه تنزيه الله ـ عز وجل ـ وهو على وزن « فُعُّول » ـ بضم الفاء وتشديد العين المضمومة . وكان سيبويه يفتح الفاء فيقول : قَدُّوس ـ ولكن المسوغ فيه وفى « سُبُّوح » ضم الفاء ، قال ثعلب : كل اسم على فَعُّول مفتوح الأول مثل « سَفُّود ، وتَنُّور ، وسَمُّور » الا السبوح والقدوس فإن الضم فيهما الأكثر وقد يفتحان .

وهذا الوزن من أبنية المبالغة ، ولم يجىء فى أسماء الله على هذا الوزن غيره ، ومعناه الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص ، فهو من التقديس بمعنى التطهير . . . . . وتقدس أى تطهر .

وجاء فى القرآن الكريم على لسان الملائكة .

---

(١١٩) الحشر ٢٣
(١٢٠) الجمعة ١

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١٢١)

قال الزجاج : معنى نقدس لك ـ أى نطهر أنفسنا لك ، وكذلك نفعل بمن أطاعك نقدسه ـ أى نطهره ـ

وفى سياق ذلك يقال : البيت المقدس ـ أى المطهر ، والذى يُتطهر فيه من الذنوب .

والقدس : البركة ، وبيت المقدس : المبارك ، وروح القدس هو جبريل ـ عليه السلام ـ لطهارته .... قال الله فى حق عيسى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١٢٢)

وفى الحديث : « أن روح القدس نفث فى روعى لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

---

(١٢١) البقرة ٣٠
(١٢٢) البقرة ٨٧ ، ٢٥٣

ولا قدس الله أمة أى لابارك فيها ولا طهرها ، ومن ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **لاقدست أمة لايؤخذ لضعيفها من قويها** » .

فهذه المعانى تشير الى اسم القدوس الذى يعنى الطهارة والكمال والرفعة والعلو والتنزه عن النقائص والعيوب ، بل هو المنزه عن كل ماتحيط به العقول ، ويخطر فى الأوهام ، ويصوره الخيال ، فكل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

هو يعنى أن الله منعوت بكل كمال ، موصوف بكل جمال وجلال بل إن الغزالى ـ رحمه الله ـ يرتفع بنا الى منزلة أعلى حين نتحدث عن صفات الله ويعلمنا كيف يكون الأدب فى هذا الحديث . فيقول : لايكفى فى تفسير القدوس بالنسبة الى الله تعالى ـ أن يقال : ـ إنه منزه عن العيوب والنقائص ، فإن ذكر ذلك يكاد يقرب من ترك الأدب مع الله ، فليس من الأدب أن يقال : السلطان ليس بحائك ، فإن نفى الوجود يكاد يوهم إمكان الوجود ، وفى ذلك إيهام نقص .

بل إن القدوس هو الأعظم بلا حدود فى كل أوصاف الكمال التى يتصورها الخلق ، لأن الخلق نظروا الى أنفسهم وعرفوا صفاتهم ، والكمال فى حقهم محدود مثل علمهم وقدرتهم وسمعهم وبصرهم وكلامهم . . ووضعوا هذه الالفاظ بإزاء هذه المعانى ، وقالوا : إن هذه أوصاف الكمال . .

ثم كان غايتهم فى الثناء على الله ـ تعالى ـ أن وصفوه بأوصاف الكمال التى يتصورونها من علم وقدرة وسمع وبصر وكلام ، وهو سبحانه أعلى وأعظم من أوصاف كمالهم المحدود كما أنه منزه عن أوصاف نقصهم . . . إن كل صفة نتصورها للخلق هو أعلى عنها وعما يشبهها أو يماثلها .

كيف يتخلق المسلم باسم القدس ؟

إن المسلم يستطيع أن ينزه نفسه عن مذموم الصفات ومرذول العادات ، ويبعد نفسه عن مواقف الشبهات . . ويقول الامام الغزالى فى ذلك : يمكن للانسان أن يتقدس فى علمه بأن ينزهه عن المتخيلات والمحسوسات والموهومات ، وكل مايشارك فيه البهائم من الادراكات ، بل يكون تردد نظره وطواف علمه حول الأمور الإلهية المنزهة ، وبذلك يرتفع الى المنازل العليا والمقامات الرفيعة .

ويمكنه أن يقتنى من العلوم مالو سلبت آلة حسه وتخيله ، لبقى ريان بالعلوم الشريفة .

ويمكن أن يقدس إرادته بتنزيهها عن الدوران حول الحظوظ البشرية التى ترجع الى لذة الشهوة والغضب ، ومتعة المطعم والمنكح والملبس والملمس والمنظر ، ومالايصل اليه من اللذات إلابوساطة الحس والقلب ، فيصبح لايريد إلا الله ـ تعالى ـ ولايبقى له حظ الا فى الله ـ تعالى ـ ولايكون له شوق إلا الى لقاء الله ـ تعالى ـ ولافرح الا بالقرب من الله ـ تعالى ـ

إنهم يصفون بعض الناس بالقديسين ، فيقولون : فلان قديس ، ذلك لأنهم لم يروا فيه إلا رفعة وعلوا ، وبعداً عن الخطايا وترفعا عن الدنايا ، وتعففا عن الشهوات ، واجتهادا فى الطاعات ، انهم يرون فيه صورة مثالية للأخلاق الفاضلة ، والصفات الحميدة ، فهو يعيش بين الناس وكأنه ليس منهم ، ذلك لأنه لايتصرف تصرفهم ، ولايهبط الى مستواهم . هو بشر إلا أنه ملك .. ولو استخبروا عنه لقالوا مثلما قالت نسوة امرة العزيز :

﴿ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾

بذلك يتخلق المسلم بصفة القداسة التى تعنى التطهر والرفعة ..... وذكر بعض العلماء فى بيانه لمعنى الاسمين : الملك القدوس - قال : الملك : ذو القدرة على الايجاد ، والقدوس : المنزه عن الآفة والنقص .

ويقول عن القدوس : المنزه عن الإدراك أو الوصول إليه أى لايستطيع أحد إدراك ذاته ، وقصارى جهد العارف أن يتعرف عليه عن طريق صفاته ، وهذا غاية الأدب مع الحضرة الالهية . وقد نهينا عن التفكر فى الذات ، ولكنا أمرنا بالتفكير فى مظاهر القدرة وعظمة الخلق .. والأثر يقول : تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى الله ، فان البحث عن الذات إشراك والعجز عن الادارك إدارك .

الدعـــاء بالقـــدوس

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يدعو فى سجوده قائلا : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » .

وقد ورد فى دعاء بعض الصالحين « سبحان الملك القدوس الخلاق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز » .

ويقال : ان هذا دعاء مجرب لمن تعتريه الوسوسة .

أما الذى يلوك الناس سيرته فيستطيع أن يردهم عنه بهذا الدعاء .

« ياقدوس الطاهر من كل سوء فلاشىء يعادله من جميع خلقه » .

يقولون : إن الله يعقد لسان من يذكره بالسوء .

قال أحد الفضلاء . . . . ومما شاهدته عند تلاوة هذا الاسم أن الجوارح والحواس لاتشتهى معصية وقت ذكره ، فالعين تكره النظر الى ماحرم الله ، والأذن تأبى سماع مايغضب الله ، لأن للاسم تأثيرا على سائر جوارح الجسد ، فعلى الذين يريدون أن يتحرروا من شهوة الجسد وربقة المعاصى أن يلازموا ذكر هذا الاسم الشريف ليذهب الله عنهم رجس الشيطان[١٢٣] » .

وفى حزب البر للإمام الشاذلى دعاء باسم الملك يتضمن الرجاء بالتقديس والتطهر فيقول : « ياالله ياملك ياوهاب ، هب لنا من نعماك ماعلمت لنا فيه رضاك ، واكسنا كسوة تقنا بها من الفتن فى جميع عطاياك ، وقدسنا عن كل وصف يوجب نقصا مما استأثرت به فى علمك عمن سواك » .

---

(١٢٣) فى ملكوت الله مع أسماء الله للشيخ عبد المقصود محمد سالم ص ٤٦ ـ مكتبة الشمرلى

السلام المؤمن

كيف يتصف المؤمن بصفة السلام

الدعاء بهذا الاسم

اسم الله - المؤمن

الذكر بهذا الاسم

المؤمن مرآة المؤمن

اسم الله - المهيمن

اسم الله - العزيز

الدعاء بهذا الاسم

الجبار

المتكبر

السـلام المؤمـن

لم يرد اسم السلام على أنه من اسماء الله - تعالى - سوى فى قوله تعالى : -

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١٢٤)

ولكن لفظ السلام بمعنى التحية وبمعنى الجنة وبمعنى الأمان ورد فى مواضع كثيرة فمن ذلك قوله تعالى : -

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ
نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ
وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١٢٥)

وقوله - تعالى : -

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (١٢٦)

وبمعنى الجنة فى قوله - :

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (١٢٧)

---

(١٢٤) الحشر ٢٣
(١٢٥) الأنعام ٥٤
(١٢٦) الأحزاب ٤٤
(١٢٧) الأنعام ١٢٧

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (١٢٨)

وبمعنى الأمان قوله تعالى : ـ

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١٢٩)

وقوله تعالى : ـ

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١٣٠)

وفسر ابن منظور السلام فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (١٣١)

بمعنى السلامة والبراءة يقولون : تسلم منه أى تبرأ منه ، فهم يقولون للجاهلين : تسلما وبراءة ، لاخير بيننا وبينكم ولاشر . . وليس هو السلام المستعمل فى التحية .

---

(١٢٨) يونس ٢٥
(١٢٩) هود ٤٨
(١٣٠) ق ٣٤
(١٣١) الفرقان ٦٣

وهو المعنى المستعمل فى السلام ضد الاعتداء والحرب .

وقد يكون السلام بمعنى السلامة من الداء ، ومنه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥ ﴾(١٣٢)

فهى سلام لأنه لاداء فيها ولايستطيع الشيطان أن يصنع فيها شيئا .

وقال ابن منظور : السلام اسم الله ـ تعالى ـ لسلامته من العيب والنقص والفناء.

وقيل : معناه السلامة مما يلحق بالغير من آفات الغِيَر والأحداث ، وأنه الباقى الدائم يُفْنِي الخلق ولا يَفْنَىَ وهو على كل شيء قدير .

وقال بعضهم فى دار السلام : إنها دار الله . فالسلام فى هذا التعبير هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ

وقيل : سميت بذلك لأنها دار السلامة الدائمة التى لاتنقطع ولاتفنى فلاموت فيها ولاهرم ولاأسقام . . وهى الجنة أضيفت لله تكريما وتعظيما وتفخيما .

والسلام لفظ عذب جميل ، يدل على الأمان والاطمئنان والسلامة ومادته اللغوية كلها تدل على الخلاص والنجاة ، واذا سلم القلب من الغش والحقد والشرك كان خالصا من العيوب ، واستحق الجنة ـ دار السلام ـ مصداقا لقوله ـ تعالى ـ :

---

(١٣٢) القدر ٥

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ ﴾[١٣٣]

ويقول بعض العلماء : سُمِّى الله بالسلام لعدة معان :

فالله هو السلام لأنه ناشر السلام بين الأنام وهو مانح السلامة فى الدنيا والآخرة .

وهو المنزه ذو السلامة من جميع العيوب والنقائص ، لكماله فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فهو الذى سلمت ذاته القدسية من العيب ، وسلمت صفاته من النقص ، وسلمت أفعاله من الشر ، فكل سلامة معزوة إليه .

قال ابن العربى : اتفق العلماء على أن معنى اسم السلام بالنسبة لله تعالى ـ ذو السلامة ـ ثم اختلفوا فى ذلك على ثلاثة أقوال :

الأول : الذى سلم من كل عيب وبرىء من كل نقص .

الثانى : الذى سلم الخلق من ظلمه .

الثالث : المسلِّمُ على عباده فى الجنة ، ولذلك قيل : إن السلام من أسماء الله ـ سبحانه ـ معناه المنزه عن الآفات ، الُمطهَّرُ من صفات المخلوقات . فهو فى رأى بعض العلماء بمعنى اسم القدوس .

ويقول القشيرى : السلام ـ ذو السلامة من النقائص ، الذى يسلم على أوليائه ، والذى سلم المؤمنون من عذابه .

ويؤكد القرطبى هذا المعنى فيقول : السلام ـ أى ذو السلامة من النقائص ،

---

(١٣٣) الشعراء ٨٧ ، ٨٨

ويستشهد بكلام ابن العربى السابق .

ومن اسم السلام اشتق الاسلام ، الذى ارتضاه الله دينا لعباده : قال تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) ﴾ (١٣٤)

وقال :

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾ (١٣٥)

وبذلك شهد الله وشهدت ملائكته وأولو العلم :

قال تعالى :

---

(١٣٤) المائدة ٣

(١٣٥) آل عمران ٨٥

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ (١٣٦)

ومن اسمه ـ تعالى ـ السلام ـ اشتق التحية فى الجنة لأهل الجنة ، يحييهم ربهم ويحيونه بالسلام :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (١٣٧)

وتحييهم الملائكة بالسلام .. قال تعالى :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ (١٣٨)

والسلام هو تحية المسلمين فى عبادتهم وصلواتهم . فهم فى التشهد يقولون : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

---

(١٣٦) آل عمران ١٨ ، ١٩
(١٣٧) الأحزاب ٤٤
(١٣٨) الرعد ٢٣ ، ٢٤

وحين ينفلتون من صلاتهم يسلمون ذات اليمين وذات اليسار قائلين : السلام عليكم ورحمة الله .

ويلجأون بعد الصلاة إلى الله ضارعين قائلين : اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا الجنة دارك دار السلام .

كيف يتخلق المؤمن بهذا الاسم ؟

ويستطيع المسلم أن يتخلق بهذا الاسم ، فيكون بالنسبة لمجتمعه أداة سلم وأمان ومصدر سلامة واطمئنان . . فيكون كما قال النبى - ﷺ - : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . ألا أدلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »(١٣٩)

وفى حديث رواه أبو أمامة قال - قال - ﷺ - : « ثلاثة كلهم ضامن على الله ، إن عاش رزق وكُفِى ، وإن مات أدخله الله الجنة : رجل خرج غازيا فى سبيل الله فهو ضامن على الله ، حتى يتوفاه فيدخله الجنة ، أو يرده بما نال من أجر أو غنيمة ، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر أو غنيمة ، ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله »(١٤٠) . .

يكون أهلا للعفو والصفح ، يقابل السيئة بالحسنة ، ولا يقابل الجاهلين

---

(١٣٩) رواه مسلم عن أبى هريرة

(١٤٠) جمع الجوامع ٢١٦ / ١٣١٢٠ جـ ٢ ص ١٣٧٥ - مجمع البحوث -

بجهلهم بل يكون كما قال الحق ـ سبحانه وتعالى ـ

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ (١٤١)

ويكون كما قال الله ـ تعالى ـ

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (١٤٢)

واذا كان من مفهوم السلام ـ كما رأينا ـ السلامة من النقص والعيب ، فعلى المسلم أن يطهر نفسه ، وأن يكملها ، وأن يعمل على ترقيتها وتهذيبها بأن يسلم جوارحه من الآثام ، وقلبه من الخواطر والأوهام ، فمن كان بربه ابتهاجه كان به ارتقاؤه واليه معراجه . وحظ المسلم من أخيه المسلم ثلاثة :
إن لم ينفعه فلا يضره .

وإن لم يسره فلا يغمه .
وإن لم يمدحه فلا يذمه .

قال الغزالى ـ رضى الله عنه ـ : العبد الذى يستحق أن يوصف بصفة السلام . عليه أن يسلم قلبه من الغش والحقد وارادة الشر ، وأن تسلم

---

(١٤١) الفرقان ٦٣
(١٤٢) فصلت ٣٤

جوارحه من الآثام والمعاصى ، وأن تسلم صفاته من الانتكاس والانعكاس ، فلا يكون عقله أسير شهوته وغضبه ، بل يكون الغضب والشهوة أسيرين لعقله وحكمته ، فذلك هو الذى يأتى ربه بقلب سليم ، ويكون جديراً بوصف السلام »[١٤٣]

الدعاء بهذا الأسم :

وقد ورد فى الدعاء باسم السلام ومشتقاته فى القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ :

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[١٤٤]

ولا تخفى العلاقة بين السلام والإسلام . . فالإسلام هو دين السلامة والأمن والتسليم لوجه الله ـ تعالى ـ وهو دين الله الذى اختاره منذ الأزل وبه بشر الأنبياء جميعا من لدن آدم حتى نبى الرحمة والسلام ـ محمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ

ومن دعاء النبى ـ ﷺ ـ : « اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام »

ومن دعائه أيضا : اللهم اجعلنا سلما لأوليائك . .

---

(١٤٣) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ ١ ص ٥٣

(١٤٤) البقرة ١٢٨

ومن أدعية الصالحين : إلهى . . إن كل سلام وتسليم ، وسلامة من كل خطر جسيم ، فهو من تجلى اسمك السلام ، فأشرق نور السلام فى قلبى حتى أسلم من الخصام ، وتجلّ علىّ بالسلامة لديني بالفضل والاكرام ، وواجهنى بأنوار هذا الاسم حتى أتحقق بالتسليم والسلام والمسالمة لجنابك فى أحكامك الشرعية والقدرية ، وسلمنى من الأمراض والآفات والعاهات والبليات حتى تسمع أذنى : سلام قولا من رب رحيم » . . ومن دعاء بعض الصالحين ـ بعد تكرار اسم السلام : اللهم خلصنا من ظلم الغفلة والبعاد ، وامنحنا دوام الذكر وحسن الاعتقاد ، وامنن علينا بما مننت به على أهل التقى والوداد .

ومن ذلك أيضا قولهم : قل فى دعائك : اللهم يا سلام سلمنى من كل شر فى حياتى ويوم أموت ويوم أبعث حيا .

ومن الفوائد التى ذكروها : من قال كل يوم : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ـ مائة مرة ، لا يذوق مرارة الموت ، وييسر الله أمره ، ولا يقع فى عسر بإذن الله السلام .

ومعنى لا يذوق مرارة الموت ـ أى يعينه الله على سكراته وييسر له فى النزع فلا يحس ألمه .

المؤمن :

هناك علاقة بين السلام والمؤمن كما أن هناك علاقة بين الاسلام والايمان .

وقد ورد لفظ المؤمن على أنه من أسماء الله ـ تعالى ـ فى آية واحدة هى قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(١٤٥)

وفسر ابن منظور هذا الاسم بقوله : المؤمن من أسماء الله ـ تعالى ـ فقد وحَّد نفسه بقوله :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾(١٤٦)

وكل من شهد بذلك مصدقا بقلبه من الناس فهو مؤمن .

وقيل : مؤمن لأنه آمَنَ الخلق من ظلمه .

وقيل : لأنه آمن أولياءه عذابه .

والمؤمن هو المصدِّق والله يصدق عباده المسلمين يوم القيامة ـ إذا سئلت الأمم عن تبليغ رسلهم . يقولون : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، ويكذبون أنبياءهم ، فيؤتى بأمة محمد ـ ﷺ ـ فَيُسْألون عن ذلك فيصدقون ويقرون فيصدقهم الله . ويصدقهم النبى ـ ﷺ ـ وهذا هو قوله ـ تعالى ـ :

---

(١٤٥) الحشر ٢٣

(١٤٦) آل عمران ١٨

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (١٤٧)

وقوله ـ تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (١٤٨)

أى يصدق المؤمنين .

وقيل فى معنى المؤمن : الذى يصدق عباده وما وعدهم . وكل هذه الصفات لله ـ عز وجل ـ لأنه صدق بقوله ما دعا إليه عباده من توحيد ، وكأنه آمن الخلق من ظلمه ، وما وعدنا من البعث والجنة لمن آمن به ، والنارِ لمن كفر به ، فانه مصدق وعده لا شريك له .

وبهذا التفسير قال ابن الأثير وصاحب المحكم . .

وقال ابن سيده فى المحكم : المؤمن هو المهيمن ، جعلهما بمعنى ـ وأضاف الفارسى : الهاء فى المهيمن بدل من الهمزة فى المؤمن ، والياء ملحقة بالبناء أى بناء مُفعلِل كمدحرج .

---

(١٤٧) النساء ٤١

(١٤٨) التوبة ٦١

ولكن ثعلبا فرق بينهما فقال : المؤمن المصدق لعباده ، والمهيمن الشاهد على الشيء القائم عليه .[149] فهما ليسا اسما واحدا ولكنهما اسمان . . . وفى مادة هذا الاسم الكريم معنى الايمان والأمان ، فيقال : آمنه من الأمان ، وهو ضد الخوف .

والمؤمن يطلق على من اتصف بالايمان ، والايمان فى لغة العرب هو التصديق ، والأَمَنَة هى الأمن ومنه قوله ـ ﷺ ـ : « أنا أَمَنَة لأصحابى ، وأصحابى أَمَنَةٌ لأمتى » وقد ورد هذا المعنى فى قوله ـ تعالى

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾[150]

والمؤمن المتفضل بالأمن والأمان ، وإنما يستحق الأمان أهل الايمان والاستقامة ، فالله يعطى الأمان لمن استجار به واستعان ، ولذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[151]

---

(١٤٩) لسان العرب لابن منظور مادة أمن

(١٥٠) الأنفال ١١

(١٥١) الأنعام ٨٢

فالله المؤمن هو خالق الأمن والاطمئنان ، ومنزله فى قلوب أهل الايمان . . . وفسر القرطبى معنى المؤمن فى آية الحشر فقال : المؤمن أى المصدق رسله بإظهار معجزاته على يدهم ، ومصدق المؤمنين ما وعدهم من الثواب ، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب .

وقيل : المؤمن الذى يُؤَمِّن أولياء من عذابه ، ويؤمن عباده من ظلمه ، ويقال : آمنه من الأمان الذى هو ضد الخوف كما قال ـ تعالى ـ :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾ (١٥٢)

وذكر القرطبى قول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إذا كان يوم القيامة أخرج الله أهل التوحيد من النار ، وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبى ، حتى إذا لم يبق فيها من يوافق اسمه اسم نبى قال الله ـ تعالى ـ لباقيهم : أنتم المسلمون وأنا السلام ، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن ، فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين .

ويقول الدكتور ـ أحمد الشرباصى : الله ـ تبارك وتعالى ـ المؤمن لأنه هو الذى يستحق وحده نسبة الأمن والأمان إليه فى الحقيقة والواقع ، فهو الذى يهيىء الأسباب المحققة للأمن ، وهو الذى يسد أبواب الخوف ، وهو الذى يوجد السكينة فى نفس الإنسان . ويستشهد على ذلك بقول حجة الإسلام الغزالى ـ رحمه الله ـ : إن المؤمن هو الذى يُعزى إليه الأمن والأمان لإفادته

---

(١٥٢) قريش ٤

أسباب الأمن وسده طرق المخاوف ، ولا يتصور أمنا إلا فى محل الخوف ، ولا خوف إلا عند إمكان العدم والنقص والهلاك ، والإنسان المؤمن هو الذى لا يتصور أمنا إلا إذا كان مستفاداً من جهته الأصلية والوحيدة وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ

والأمن شيء معنوى يهبه الله لمن يشاء ، ممن يخشى الله ويتقيه . فقد ورد فى الأثر : من خاف الله أخاف منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء . .

وكم من رجل مدجج بالسلاح ومحاط بالحراس ، ومع ذلك لا يقر قلبه من الخوف ، ولا يكف جسمه عن الارتعاد . .

وكم من أعزل يجوس الأماكن المخوفة وحيداً ، لا سلاح له إلا اعتصامه بالله وتوكله عليه ، وقلبه فى منتهى الثبات والقوة والاطمئنان .

وواقعنا الذى نعيش فيه يُصدِّق ذلك . فكم من محروس قتل بيد حراسه ، وكم من مرهوب اغتالته يد أقرب الناس إليه . .

وقد تعود الحكام وأولو الأمر أن يحيطوا أنفسهم بالجنود يحمونهم من عبث المغامرين أو سطوات المنتقمين . ولكن إذا حم القدر عمى البصر ، ومن مأمنه يؤتى الحذر .

ولكن الذى يلجأ الى الله فى حفظه ينام ملء عينيه لا يخشى شيئاً ، وقد علمنا أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان ينام على التراب فى ظل

شجرة ولا يحرسه أحد ، وحين رآه رسول كسرى نائماً بهذه الصورة ، لم يستطع أن يكتم دهشته وعجبه ، فقال : عدلت فأمنت فنمت يا عمر . .

وما أصدق الشاعر الحكيم الذى يقول :

إذا العناية لاحظتك عيونها . . نم فالمخاوف كلهن أمان

ومما يقصه الوعاظ فى هذا الصدد أن الله المؤمن يؤمن عبده فى أشد الأماكن هلكة وخطراً ، وربما حول مصدر الخوف حوله أمنا ، بل ويجعله وسيلة لنجاته من الخوف . .

وقد غضب أحد الأمراء على رجل حمال اسمه ـ بنان ـ فألقاه أمام أسد جائع ، على أمل أن يفترسه الأسد ويستريح منه ـ فأقبل الأسد على بنان يتمسح به ولا يمسه بأذى . .

وسئل ـ بعد أن أفرج عنه ـ عن شعوره حين كان الأسد يلعق جسمه بلعابه . فقال : كنت أفكر فى سؤر الأسد أطاهر هو أم نجس ؟ ـ

ويقال إن أبا حمزة الخراسانى وقع فى أثناء رحلته إلى الحج فى بئر لاماء بها ، قال : فنازعتنى نفسى أن أستغيث . فقلت : والله لا أستغيث . إلا بالله فما استتممت هذا الخاطر حتى هيأ الله لى من أنقذنى .

ويقول الغزالى ـ رحمه الله ـ : « لو قدرنا إنسانا وحده مطلوبا من جهة أعدائه ، وهو ملقى فى مضيق لا يقدر أن يحرك فيه أعضاءه لضعفه ، وإن تحركت أعضاؤه فلا سلاح معه ، وإن كان معه سلاح فلن يقاوم به أعداءه وحده ، وإن كانت له جنود لم يأمن أن تنكسر جنوده ، ولا يجد حصنا يأوى

إليه ، فجاء من عالج ضعفه فقواه ، وأمده بجنود وأسلحة ، وبنى حوله حصنا حصينا ، فقد أفاده أمنا وأمانا ، فبالحرى أن يسمى مؤمنا فى حقه . . »(١٥٣)

إن الأمن الحقيقى من الله يمد به من يشاء ، ويضعه فى قلب أحبابه فلا يمسهم خوف ولا حزن فى الدنيا قبل الآخرة . كما قال ـ سبحانه ـ فى حق المؤمنين

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (١٥٤)

والخوف الحقيقى من الله أيضا لأنه هو الذى يبعث أسبابه فى قلوب الأشقياء المبعدين . . ولا تناقض بين هذا وذاك ، فهو المحيى والمميت والضار والنافع والمعز والمذل .

كيف يتخلق العبد باسم المؤمن ؟

إن أجدر العابدين باسم المؤمن هو الإنسان الذى يحرص على أن يكون داعيا إلى الخير ، آمراً بالمعروف ناهيا عن المنكر ، حريصا جهده على أن يكون سبباً لأمن الخلق من عذاب الله وعقابه ، عن طريق هداية الناس إلى صراط الله المستقيم ، وإرشادهم إلى سبيل النجاة ، وهذا العمل من أشرف الأعمال ، وهو وظيفة الأنبياء والمرسلين .

---

(١٥٣) أسماء الله الحسنى د . الشرباص ص ٦٣ نقلا عن الغزالى فى المقصد الأسنى
(١٥٤) الأنعام ٨٢

ونضيف إلى ذلك أن الذى يتوكل على الله لا يخاف ، لأنه أصبح فى حفظ الله وكلاءته .

وقد أثنى الله على هؤلاء وطمأنهم قائلاً :

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

الذكر بهذا الاسم

وعلى الذاكر بهذا الاسم أن يراقب قلبه وأحواله ، ويحفظ جوارحه من الاشتغال بما يصرفه عن مولاه .

ومن أكثر من ذكر اسم المؤمن عصم الله لسانه عن الكذب والبهتان . .

ومن فوائد الذكر بهذا الاسم أن يُؤمِّن الله الذاكر به على نفسه وماله ، وأن يرزقه التخلق بصفته فيصبح أمينا صادقاً مجاب الدعوة . . لأن من صفات المؤمن الصدق والأمانة والوفاء واحترام العهود والمواثيق ، واتباع

---

(١٥٥) آل عمران : ١٧١ : ١٧٥

الأوامر ونبذ النواهى . « والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم.» أى يصبح مصدر أمن للناس أجمعين .

والدعاء بهذا الاسم يصلح لمن غلب عليه الرعب والخوف وبخاصة فى حال السفر ، ومن الأدعية الواردة فى ذلك ، ما ورد فى كتاب الأنوار القدسية :

« إلهى أذقنى حلاوة الإيمان ، حتى أشهد أنى نلت خير نعمة بالفضل والإحسان ، واحفظنى بفضلك من الشيطان ، فهو يحاربنى فى هذا الكنز المصون ، إلهى تجل لى بنور اسمك المؤمن ، حتى آنس بك فى سرى وعلنى ، وفى ظاهرى وباطنى ، فإن كل نعمة نوارنية هى قبس من تجلى اسمك المؤمن ، فكل أمن وأمان هو منك موهوب ، وإليك يرجع الأمر كله ياعلام الغيوب فنور إيمانى من تجليك ونور أذكارى من هدايتك وعنايتك ، وحالى غير خاف عليك ـ فاحفظ علينا الإيمان » .

المؤمن من مرآة المؤمن

إن المؤمن الحق يرى الله تجاهه ، فلا يحيد عن الحق ، ولا يبتعد عن الصواب .. وهذا يفسره الاثر الوارد عن ابن عباس .. رضى الله عنهما : ـ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ..

قال الشاعر أحمد مخيمر فى مناجاة الله باسمه المؤمن : ـ

للحق والتوحيد تهدينا إذا حاق الضلال بنا فأنت المؤمن
وعلى الصراط إذا تجمع أهله لن يستطيع الفوز إلا المحسن

أما ابن عربي فيقول :

معطى الأمان المؤمن الرب الذى مازال يدعوه الورى بالمؤمن
فهو العليم بحقه وبحقنا وبماله منا وما للممكن

المهيمن

وردت كلمة « مهيمن » فى القرآن الكريم مرتين : مرة فى حق القرآن الكريم ، ومرة على أنها اسم من أسماء الله - تعالى -

أما الأولى ففى قوله - تعالى - :

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (١٥٦)

والثانية فى قوله - تعالى -

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (١٥٧)

ومعنى اسم « المهيمن » الرقيب والشاهد على خلقه والمؤتمن والمستولى عليهم بالرعاية والقدرة ، والقائم بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم .

وإذا كان هذا بالنسبة لله - تعالى - معروفا . فهو بالنسبة لكتابه الكريم

---

(١٥٦) المائدة ٤٨

(١٥٧) الحشر ٢٣

معناه : أنه المؤتمن على الكتب السماوية السابقة ، والجامع لما فيها من تشريعات وأحكام .

قال ابن منظور : المهيمن اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ فى الكتب القديمة ،

قال بعضهم : معناه الشاهد ، وهو مَنْ آمن غيره من الخوف ، وأصله مُؤَامن ـ بهمزتين سهلت إحداهما ـ ثم قلبت الهمزة الثانية ياء فأصبحت : مؤيمن ، ثم قلبت الأولى هاء ، فأصبحت . مهيمن ، وإبدال الهاء من الهمزة وارد فى اللغة نظيره : هرقت الماء من أرقته ، وقولهم : إياك وهياك ، فهو على قياس العربية صحيح مع ما جاء فى التفسير من أن هذا الاسم بمعنى الأمين والمؤتمن .

وقد امتدح العباس بن عبدالمطلب النبى ـ ﷺ ـ بقصيدة عقب رجوعه من تبوك ، ورد فيها هذا البيت الذى يحتوى على كلمة « مهيمن » : ـ

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق

ومعنى البيت على ما فسره اللغويون : حتى احتوى شرفك الشاهد على فضلك علياء الشرف من نسب ذوى خندف ، أى ذروة الشرف من نسبهم التى تحتها النُّطق ، وهى أوساط الجبال العالية .

فهذا يؤيد أن من معانى المهيمن الشاهد . .

ومن أسماء الله ـ تعالى ـ الرقيب والشهيد وهما يلتقيان فى المعنى مع هذا الاسم الكريم « المهيمن »

ويقول الغزالى فى معنى هذا الاسم : إنه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، وإنما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه وإذا علم الإنسان أن الله مهيمن على الوجود بقدرته وحكمته أداه ذلك إلى مراقبة ربه واتقائه ، وحمله على حبس نفسه عن المعاصى وصرفها عن الهفوات ، والتأدب مع الله تعالى المطلع على أحواله كلها . .

والذى يستحضر فى نفسه عظمة هذا الاسم يعيش فى ظله آمنا لا يخشى احدا إلا الله ، كما ورد فى حديث وهيب : « إذا وقع العبد فى أُلْهَانية الرب ومهيمنية الصديقين لم يجد أحدا يأخذ بقلبه »

يعنى أنه إذا وصل العبد الى هذه الدرجة لم يعجبه أحد من الخلق لأن قلبه امتلأ بحب الله ، فلم يعد فيه مكان لغيره .

إن الذكر بهذا الاسم يملأ القلب نوراً ويذهب الوساوس والنسيان ويقوى حفظ الذاكرة .

ومن الدعاء بهذا الاسم : « إلهى أنت المهيمن الذى أحاط علمه بالعالمين ، ونفذت قدرته فى الوجود ، أشرق لى سر هذا الاسم الشريف ، حتى أحيط علماً بدقائق نفسى وخفايا ضميرى وطوايا سترى ، فأراقب النوايا وأُقَوِّم الجوارح ، وأقيمها على ما تحب ، وأنفذ همتى بقدرتك فى جوارحى فأُصَرِّفها فى شرعك . . . »(١٥٨)

---

(١٥٨) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ١ ص ٦٨

العزيز

ورد اسم العزيز فى مواضع تقرب من مائة مرة . .

اقترن فى كثير منها باسم الحكيم . مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ (١٥٩)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ (١٦٠)

كما اقترن فى بعضها باسم القوى . مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ (١٦١)

وقوله ـ تعالى ـ

---

(١٥٩) البقرة ١٢٩

(١٦٠) البقرة ٢٦٠

(١٦١) هود ٦٦

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

واقترن فى بعضها باسم الرحيم . مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (١٦٣)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ (١٦٤)

واقترن فى بعضها باسم الحميد . مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ

---

(١٦٢) الحج ٤٠
(١٦٣) الشعراء ٩ ، ١٠
(١٦٤) الروم ٤ ، ٥

﴿ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ ﴾ (١٦٥)

واقترن فى بعضها باسم الوهاب ، مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ ﴾ (١٦٦)

واقترن فى بعضها باسم الغفار مثل قوله ـ تعالى :

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦ ﴾ (١٦٧)

واقترن فى بعضها باسم الغفور مثل قوله ـ تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (١٦٩)

وجاء مقترنا بالقدرة على الانتقام مثل قوله تعالى ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ
مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ
أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ

---

(١٦٥) سبأ ٦
(١٦٦) ص ٩
(١٦٧) ص ٦٦
(١٦٩) الملك ٢

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٩٥﴾(١٧٠)

ولم يرد هذا الاسم منفردا إلا إذا كان مقصوداً به غير الله ـ تعالى ـ كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾(١٧١)

وكما جاء وصفا للنبى ـ ﷺ ـ فى قوله ـ تعالى :

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾(١٧٢)

مفهوم الاسم

قال العلماء العز فى الأصل : هو القوة والشدة والغلبة والرفعة والامتناع ، والتعزيز هو التقوية ومنه قوله ـ تعالى ـ :

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤﴾(١٧٣)

---

(١٧٠) المائدة ٩٥

(١٧١) يوسف ٧٨

(١٧٢) التوبة ١٢٨

(١٧٣) يس ١٤

فمعنى عززنا : شددنا وقوينا .

واللغة تقول : عز يعز ـ بضم العين فى المضارع ـ أى غلب يغلب ـ ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ (١٧٤)

فمعنى عزنى : غلبنى ـ ويقال عز يعز ـ يكسر العين فى المضارع ـ ومعناه يندر ويقل وجود مثله .

ويقال : عز يعز ـ بفتح العين فى المضارع ـ ومعناه لا يتوصل إليه وهذا التنويع فى المعنى بحسب التنويع فى ضبط العين فى المضارع هو من دقائق اللغة ـ العربية وبعد مراميها ولطائفها .

أما العزيز اسم الله فمعناه الغالب الذى لا يغلب والذى تفرد بالعزة ، فلا ترقى الأوهام إلى كماله وجلاله ، ليس له مثال ولا نظير ، ولا يذل ولا يضام ، ولا ترقى إليه الخواطر والأفهام ، ومن عرف أنه المنفرد بالعزة وحده اعتز به وتذلل إليه .

ويرى الإمام الغزالى أن من يوصف من الخلق بهذه الصفة هو الذى تجتمع فيه أوصاف ثلاثة : أنه لايكثر مثله ، وأنه الذى تشتد الحاجة إليه ، وأنه يصعب الوصول إليه . فإذا لم تجتمع هذه الأوصاف الثلاثة فلا يطلق

---

(١٧٤) ص ٢٣

عليه اسم العزيز . . فكم من شيء يقل وجوده ولكن لا يعظم خطره ولا يكثر نفعه . ولذلك لا يسمى عزيزا .

وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ويقل نظيره ولكن لا يصعب الوصول إليه ولذلك لا يسمى عزيزاً ، كالشمس فهى لا نظير لها ونفعها عظيم والحاجة إليها شديدة ، ولكن لا يصعب مشاهدتها ويمكن التوقى منها . فهى ليست بعزيزة .

والعزة لا تنال إلا بالله . لأنها خاصة بالله ، وهو يمنحها لمن يعتز به . . . . قال - تعالى -

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١٧٥)

لقد قصر الله العزة على نفسه ومنحها تفضلا منه لمن أراد عباده . . قال - تعالى -

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ (١٧٦)

---

(١٧٥) المنافقون ٨
(١٧٦) فاطر ١٠

ونسب العزة إلى نفسه فقال

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون »

كيف يتخلق المسلم بهذا الأسم ؟

قد رأينا أن الله يمنح العزة لعباده المؤمنين وأوليائه المقربين ، فمن أراد العزة فليصل حبله بحبل الله ، وليعتصم بالله ، وليترك الاعتزاز بالخلق فقد ورد فى الأثر : **« من استعز بقوم دون الله أذله الله على أيديهم »** وعزة الله أزلية أبدية لا تزول ولا تحول ، وإذا أعز عبداً من عباده أبقى أثره وخلد اسمه .

ويستطيع العبد أن يتعزز بالله ، فلا يذل نفسه ، ولا يوردها موارد التهم والشبهات ، وأن يرفع قدره عن مواطن الذلة والصغار ، وليتأدب بأدب هذه الكلمات : **واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف .**

والعزيز من الناس هو الذى ينفع غيره ويأخذ بيد الناس ويقضى حوائجهم ، ويتمسك بهذا الأثر الكريم : اعلموا أن حوائج الخلق إليكم من نعم الله عليكم فلا تملوها فتملوا نعم الله .

والشخص العزيز هو الذى يملأ القلوب إيمانا بارشاده ، ويدلها . على الله ـ تبارك وتعالى ـ فيكشف لنفوس المؤمنين نور العزيز ، ويضحى فى سبيله بكل غال ونفيس .

ومن آداب الشخص العزيز ألا يذل قامته لأحد غير الله ـ تعالى ـ قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « من تواضع لغنى لأجل غناه ذهب ثلثا دينه »

والعزة عند الإنسان تشرف إذا كانت فى ظل الله ، أما إذا كانت مظهر كبر وترفع وتعال على الناس فهى مقت من الله . . والتواضع لله ـ سبب من أسباب الرفعة كما يقول النبى ـ ﷺ : « من تواضع لله رفعه ومن تكبر عليه خفضه »

الدعاء بهذا الاسم

من داوم على ذكر العزيز أعزه الله وأغناه بعد فقر ، وآمنه بعد خوف .

ومن الدعاء به : إلهى أنت العزيز الذى تسند إليك حاجات العباد ، وأنت العظيم الذى يصعب الوصول إلى عزتك ، وأنت مراد القلوب ، وأنت الجليل الواحد الأحد الذى لا نظير لك تنزهت عن الأمثال والأنداد . يا إلهى صَفِّ قلبى من الأغيار ، حتى لا يرى عزيزا سواك وأشهدنى معنى العزة فى نفسى لتكون روحى فداك ، واجعلنى من العارفين الذين منحتهم العزة فكانت قلوبهم بعزتك عامرة ، وأفض عَلَىَّ من أسرار عزتك حتى تصير نفسى إليك طائرة . . .

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر فى ظل هذا الاسم :

أنت العزيز ولا عزيز سواكا كل الخلائق يطلبون رضاكا
يا من له الزلفى ، وليس بهن أن يعرفوك ، ومستحيل ذاكا

الجبار

جاء اسم الجبار لله ـ سبحنه وتعالى ـ فى القرآن مرة واحدة فى قوله ـ تعالى ـ

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (١٧٨).

ولكنه ورد وصفا لقساة القلوب من الخلق فى آيات متعددة . .

ومعنى « الجبار » الموصوف به الحق ـ سبحانه وتعالى ـ : القاهر خلقه على ماأراد من أمر ونهى . .

وقال ابن الأنبارى : الجبار فى صفة الله ـ عز وجل ـ الذى لاينال . . وهو مأخوذ من الفعل الرباعى أجبر . . ولم يرد فَعَّال من أفعل الا فى هذا الفعل وفعل آخر هو : أدرك فهو دراك .

وقيل : معنى الجبار : العالى فوق خلقه . ومنه نخلة جبارة أى عظيمة تفوت يد المتناول .

وقيل : معناه أنه يجبر الخلق وينفذ مشيئته فيهم على ماأراد من أمره ونهيه . . ولاينفذ أحد مشيئته عليه ، وهو المتفرد بعلو مرتبته ، ويخضع لعظمته كل شىء .

---

(١٧٨) الحشر ٢٣

ومما يدل على إجبار الله للخلق وقهرهم قوله تعالى ـ :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (١٧٩)

فهو وحده الذى تعنو له الجباه وتخضع له الرقاب قال تعالى :

﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ (١٨٠)

وقال القرطبى فى تفسير هذا الاسم : الجبار ـ العظيم ـ وجبروت الله عظمته ، وهو على هذا القول صفة ذات من قولهم « نخلة جبارة » . . . واستشهد بقول امرىء القيس :

سوامق جبار أثيث فروعه وعالين قنوانا من البسر أحمرا (١٨١)

يعنى النخلة التى فاتت اليد .

قال : فكان هذا الاسم يدل على عظم الله وتقديسه عن أن تناله النقائص وصفات الحدث .

وقيل : هو من الجبر وهو الاصلاح ، يقال : جبرت العظم فجبر ـ إذا أصلحته بعد الكسر ، فهو فعَّال من جبر إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير .

وقيل : الجبار الذى لاتطاق سطوته .

---

(١٧٩) فصلت ١١

(١٨٠) طه ١١١

(١٨١ سوامق : مرتفعات ـ الأثيث : الملتف ـ القنوان : العِذق

أما الغزالى فيقول : إن الجبار فى حق الله ـ تعالى ـ هو الذى تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل أحد ، والذى لايخرج عن قبضته أحد . وتقصر الأيدى عن حمى حضرته ، فالله ـ تعالى هو الجبار المطلق ، لأنه يجبر كل أحد ولايجبره أحد ، وهو وحده قاصم ظهور الجبابرة .

وقيل : الجبار هو المتكبر ، والتكبر فى حق الله تعالى ـ وصف محمود ، ولكنه فى حق العباد مذموم . .

وتضاف الواو والتاء إلى أصل كلمة جبار فيقال : جبروت ، على وزن فعلوت ـ لتدل على منتهى الكبرياء والعظمة . وهى فى نظير : ملكوت ورهبوت . وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . وقد جاء فى الحديث : « سبحان ذى الجبروت والملكوت »

واسم الجبار فى حق الله ـ تعالى ـ صفة كمال تدل على تمام قهره وعظمته . ولكنها فى حق العبد صفة نقص ، لأنها تؤدى الى منازعة الربوبية فى أوصافها ، وقد أعد الله للجبارين عذابا شديدا . . وتوعد كل من اتصف بهذه الصفة بأقصى العقاب .

وقد ورد هذا الاسم موصوفا به بعض الذين أوردهم الله موارد التهلكة قال ـ تعالى ـ :

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ (١٨٢)

---

(١٨٢) هود ٥٩

وقال تعالى :

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ ﴾ (١٨٣)

ونفى صفة التجبر عن أوليائه فقال ـ تعالى :

﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ ﴾ (١٨٥)

هذا فى حق يحيى بن زكريا . أما عيسى ـ عليه السلام ـ فقد قال :

﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ ﴾ (١٨٦)

وقال الله ـ تعالى فى حق صفيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥ ﴾ (١٨٧).

وربما أطلقت هذه الكلمة على فارهى الأجساد أقوياء البدن من المخلوقين . . فقد قال قوم موسى لموسى ـ عليه السلام ـ حين أراد أن يحملهم على دخول الأرض المقدسة :

---

(١٨٣) ابراهيم ١٥
(١٨٤) غافر ٣٥
(١٨٥) مريم ١٤
(١٨٦) مريم ٣٢
(١٨٧) ق ٤٥

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (١٨٨)

لقد وصف المفسرون هؤلاء القوم أوصافا تدل على عظم خلقتهم وضخامة أجسامهم . ومن كانت هذه صفته خيف بطشه وخشى بأسه .

هل يجوز الاتصاف بهذا الاسم للمخلوقين ؟

إن هذا الاسم الجليل من الأسماء التى تفرد الحق بها ، ولايصح الاتصاف بها بالنسبة للخلق . بل ينبغى التخلق بأضدادها . . مثل التحلى بصفة الافتقار والانكسار . .

والغزالى - رحمه الله - يقول : الذى يعيش فى ظل أدب الجبار من العباد هو الذى يرتفع عن الاتباع وينال درج الاستتباع . ويعمل على إعلاء رتبته بحيث يجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به ومتابعته فى سمته وسيرته . .

ومعنى مايقوله الغزالى - فيما نفهم - أنه لاينبغى للعبد أن يتعالى على الناس - بل عليه أن يكون قدوة لهم فى الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ، وأن يكون متواضعا ، وهذا التواضع الذى يرفعه فى نظر الخلق تعففا لاتكلفا ، فما يراه أحد إلا لاحظه واقتدى به ، وكلف به وأحبه . ولكن هذه الدرجة لاينالها إلا من اختاره الله واصطفاه واجتباه . وهى منزلة

---

(١٨٨) المائدة ٢٢

سيد البشر ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يقول : **« أنا سيد ولد ولافخر » « لو كان موسى حيا ماوسعه الا اتباعى »**

الدعاء بهذا الاسم :

وللذكر بهذا الاسم آداب أشار إليها القشيرى ـ رحمه الله ـ فقال ـ من أدب ذاكر هذا الاسم أن يقبل على تربية نفسه . فيجبر نقائصها ويحملها على ملازمة التقوى والطاعة حتى لاتزلزله الحوادث ولاتهزه النوائب ، وقد ناجى بعض الصالحين ربه فقال : ياجبار عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بأحد غيرك ، وعجبت لمن يعرفك كيف يلتفت إلى غيرك ؟

ومن دعاء أحد الصالحين ـ رضى الله عنه ـ قوله « ياشديد البطش ياجبار ، ياقهار ياحكيم ، نعوذ بك من شر ماخلقت ، ونعوذ بك من ظلمة القبر وضيقه ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قَدَّرْت وأردت . ونعوذ بك من شر الحساد على ماأنعمت . ونسألك عز الدنيا والآخرة . . كما سألك نبيك سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عز الدنيا بالايمان والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة إنك سميع قريب مجيب »

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر فى ظلال هذا الاسم قوله :

إنَّا عبيــــــدك أيـها الجبــــار عنـت الوجوه إليك والأبصـار
وإليك منك يلوذ خلقك ، مالهم فوق الحياة إذا غضبت قرار
رحماك أنت على الوجود مسيطر وإذا انتقمت فقاهر جبار[189]

(١٨٩) أسماء الله الحسنى أحمد مخيمر ص ٣٠

المتكـــبر

ورد اسم المتكبر لله عز وجل فى القرآن الكريم مرة واحدة ، فى قوله تعالى ـ

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (١٩٠)

وقال القرطبى فى تفسير اسم المتكبر إنه الذى تكبر بربوبيته فلا شىء مثله .

وقيل : المتكبر عن كل سوء ، المتعظم عما لايليق به من صفات الحدث والذم .

وأصل الكبر والكبرياء والامتناع وعدم الانقياد .

والكبرياء فى صفات الله مدح وفى صفات المخلوقين دم .

وفى الصحيح عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فيما يرويه عن ربه ـ تبارك وتعالى ـ أنه قال : « **الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى واحد منهما قصمته ثم قذفته فى النار** »

وقيل : المتكبر معناه العالى .

وقيل : معناه الكبير ، لأنه أجل من أن يتكلف كبرا . فقد يقال : تظلم

---

(١٩٠) الحشر ٢٣

بمعنى ظلم . وتحلم بمعنى حلم ، وتعلم بمعنى علم ، وكذلك المتكبر بمعنى الكبير .

وليس كما يوصف به المخلوق إذا وصف بتفعل - أى نسب إلى مالم يكن منه .

فقد يقال : تَحَلَّم إذا تكلف الحلم ولم يكن من طبيعته . ولكن الله - جل وعز - يستحيل عليه هذا المعنى ، لأنه ليس هناك تكلف فى حقه . لذلك نزه نفسه فقال : « سبحان الله عما يشركون » أى - تنزيها لجلالته وعظمته عما يشركون .

وقال ابن منظور : الكبير فى صفة الله - تعالى - العظيم الجليل ، والمتكبر الذى تكبر عن ظلم عباده ، والكبرياء عظمة الله ، جاءت على « فعلياء »

قال ابن الأثير : فى أسماء الله - تعالى - الكبير والمتكبر ، أى العظيم ذو الكبرياء - فهما بمعنى عنده .

وقيل : المتكبر معناه : المتكبر على عتاة خلقه ، والتاء فيه للتفرد والتخصص لا تاء التعاطى والتكلف .

ومعنى الكبرياء العظمة والملك ، وقيل : هى عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولايوصف بها إلا الله تعالى .

وقد توعد الله المتكبر من الخلق فقال فى حق الظالمين المتجبرين :

﴿ فَادْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١٩١)

قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (١٩٢)

والمتكبرون هم الذين يظلمون الناس ويسومونهم العذاب ويكلفونهم مالايطيقون ويحملونهم على مالايريدون ، ويغيرون عقائدهم بالاكراه والارهاب . . . وفرعون من هؤلاء ـ وعلى أثره يسير الظالمون من أمثاله ، وقد استعاذ موسى من فرعون لعتوه وتكبره فقال فيما يحكيه القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٩٣)

وَعَرَّضَ مؤمن آل فرعون بفرعون حين أراد النصح لهم فلم ينتصحوا وأبوا إلا العتو والضلال ، فقال لهم : لقد طبع الله على قلوبكم فلا أمل فيكم ، وقد حكى القرآن الكريم قوله فقال :

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ

---

(١٩١) النمل ٢٩

(١٩٢) الزمر ٦٠

(١٩٣) غافر ٢٧

﴿ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾(١٩٤)

والاستكبار هو تكلف الكبر ، وهو ممقوت أيضا ، وقد نعى الله على المستكبرين ووعدهم بشديد العقاب . قال تعالى :

﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾(١٩٥)

فلاينبغى لأحد من الخلق أن ينازع الله فيما خص به نفسه من صفات . الكبرياء والعظمة .

ولذلك يجب أن يؤدب الانسان نفسه إن وجد فيها منازعة إلى العلو والاستكبار . وقد جعل الله الجنة لأهل التواضع والتقوى وحرم منها أهل العلو والاستكبار . قال ـ تعالى ـ

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١٩٦)

وقد جاءت هذه الآية فى أعقاب قصة قارون الذى عثا واستكبر فخسف الله به وبداره الأرض .

على الانسان أن يتذكر أصله فيرتد إليه عقله ويثوب إليه رشده ، فيترك التعالى والتباهى ، ويدرك أنه لا يحق له أن يتباهى وهذا أصله يجبره على أن

---

(١٩٤) غافر ٣٥
(١٩٥) النمل ٢٣
(١٩٦) القصص ٨٣

يكون متواضعا منكسرا . .

مر أحد الملوك على رجل صالح يتحلق حوله بعض التلاميذ يرشدهم ويعلمهم . ولما لم يقم الرجل للملك تحية له ناداه قائلا : أيها الرجل ألا تعرفنى ؟

فقال له : بلى أنا أعرف بك من نفسك .

فقال الملك : فمن أنا إذن ؟

قال : أنت امرؤ ، أولك نطفة مَذِرَة ، وآخرك جيفةٌ قذرة ، وأنت بين ذلك محشوٌ بَوْلاً وعَذِرَة .

ففطن الملك لذلك . واعتذر عن سوء أدبه . .

ويقال : إن أحد الملوك فى تلمسان واسمه « يحيى بن يَغَانٌ » كان سائرا فى موكبه ، فمرٌ على عابد زاهد هو « أبوعبدالله التونسى » وكان عابد وقته . فأراد أن يسخر منه أمام حاشيته ، فوقف عليه ، وقال له : أيها الشيخ ، هل يجوز لى أن أصلى فى هذه الملابس التى أرتديها ؟ ـ وكان الملك يرتدى ثيابا فاخرة مُوَشّاة »

فضحك الشيخ من سؤاله ـ فقال له الملك : مم تضحك ؟

فأجاب الشيخ : أضحك من سخف عقلك وجهلك بنفسك . مالك تشبيه عندى إلا بالكلب ، يتمرغ فى دم الجيفة وقذارتها ، فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول ، وأنت وعاء ملىء حراما وتسأل عن الثياب ومظالم العباد فى عنقك . .

فبكى الملك ، وخرج من ملكه ، ولزم خدمة الشيخ .

وكان الناس إذا جاءوا يقصدون الشيخ ويطلبون منه الدعاء يقول لهم :

التمسوا الدعاء من يحيى بن يغان ، فانه ملَكَ وزهد ، ولو ابتليتُ بما ابتلى به من الملك ربما لا أزهد[١٩٧] .

وجاء فى كتاب الأنوار القدسية ما يلى : الذنوب ثلاثة : ذنوب جبروتية ، وذنوب إبليسية ، وذنوب حيوانية .

فالذنوب الجبروتية هى ادعاء العبد صفات الرب من عزة وعظمة وكبرياء .. وعلاج ذلك أن يشهد فى نفسه أن أصله نطفة مهينة وأنه جرى من مجرى البول مرتين ، وأنه يحمل الجيفة فى بطنه ، ونهايته يرقد فى التراب . .

ومن كلمات الامام عَلِيٍّ المشرقة : عجبا لابن آدم تقتله شَرْقَة ، وتؤلمه بقة ، وتنتنه عرقة . فكيف يتكبر؟

والذنوب الابليسية أساسها الحسد ، فابليس حسد آدم وقال : أنا خير منه . . . وعلاج ذلك التنبه لوساوس الشيطان والاستعاذة بالله منه .

والذنوب الحيوانية هى ما تكون بدافع الشهوة والطبع . . وعلاج ذلك التوبة والاستغفار والاقلاع عن الذنب .

لقد حذر النبى ـ ﷺ ـ من الكبر ، فقال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر »

آداب الذكر بهذا الاسم

ويتسنى للذاكر بهذا الاسم أن يتحلى بالزهد والتواضع ، ومعنى الزهد أن

---

(١٩٧) الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى صـ ٢٨ لعبد الحفيظ فرغلى ـ اعلام العرب ـ

ينزه قلبه عما يشغله مما سوى الله . . والاعراض عن متاع الدنيا طمعا فيما عند الله . .

روى أن أبا اليزيد البسطامى ناجى ربه قائلا : يارب بماذا أتقرب اليك ؟ فرأى فى نومه من يقول له : تقرب إلى الله بالتقوى والتواضع والخضوع له والافتقار إليه

ويقول العارفون : إن أبواب الجنة الثمانية مزدحمة بأصحاب الأعمال الصالحة . ماعدا باب الخضوع والافتقار فرواده قليلون . .

ومن دعاء الصالحين :

« يا الله يا عظيم يا على يا كبير ، نسألك الافتقار إليك والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك ، والطف بنا فيهما لطفا علمته يصلح لمن والاك ، واكسنا جلابيب العصمة فى الأنفاس واللحظات ، واجعلنا عبيدا لك فى جميع الحالات ، وعلمنا من لدنك علما نصير به كاملين فى المحيا والممات .

« اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، فكل عز يُمْنَع عنا فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك ، وكل غنى يحجب عنا فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار محبتك ، فانه قد ظهرت السعادة على من أحببته ، وظهرت الشقاوة على من وكل نفسه إلى غيرك .

فهب لنا مواهب السعداء ، واعصمنا من موارد الأشقياء »

هل يجوز لأحد التكبر ؟

يقولون : إن التكبر على أهل التكبر صدقة . والذين يرون ذلك يقولون

إن المقصود الاستهانة بالمتكبر ، وعدم الاغترار بما يدعيه لنفسه من صفات العلو والاستكبار . وعدم الوقوف أمامه موقف الذلة والصغار ، بل يجب ان تكون للانسان شخصية قوية أمام هؤلاء المتجبرين المتكبرين ، وأن يكون لديه شجاعة أدبية ترد المتكبر عن جوره وظلمه وتوقفه عند حده ، وقد ورد فى الأثر الشريف « إن من أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »

مناجاة صادقة

ومن ألوان المناجاة ما يقوله أحمد مخيمر فى ظلال هذا الاسم :

منفـــــرد بالكبـريـــــاء فليـس يشــبهه أحــــد
لـو شـــاء أغلـــق بابـــه عمـــن عصــاه ومــن جحـد
متوحـــــــد متكبـــــر ســبحانه الفـــرد الصمــد
وله الكمـــال بغيـــر حـــدٍّ والوجـــــود بلا عَـــدَد
طوبـــى لعبـد صالــــح لجــلال ســيده ســجد[198]

---

(١٩٨) أسماء الله الحسنى لأحمد مخيمر

الخالق البارئ المصور

المفهوم اللغوي لاسم الله « الخالق »
التأدب بأدب هذا الاسم
الذكر باسم الله « البارئ »
التخلق باداب اسم الله « المصور »
اسم الله « الغفار »
اسم الله « القهار »
الذكر باسم الله « القهار »
اسم الله « الوهاب »
اسم الله « الرزاق »
ورود هذا الاسم في القران الكريم
اسم الله « الفتاح »
كيف يتخلق العبد بهذا الاسم
اسم الله « العليم »
اسم الله « القابض »
اسم الله « الباسط »
الذكر بهذا الاسم

الخالق البارىء المصور

هناك علاقة بين هذه الاسماء الثلاثة الشريفة . .

قال القرطبى : الخالق : المقدر ، والبارىء : المنشىء والمخترع ، والمصور : مُصَوِّر الصور ومركبها على هيئات مختلفة . .

فالتصوير مرتب على الخلق والبرء وتابع لهما .

ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل ، وخلق الله الانسان فى أرحام الامهات ثلاث خِلَق : جعله علقة ، ثم مضغة ، ثم جعله صورة . . . . . وهو التشكيل الذى يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد جعل بعض الناس الخلق بمعنى التصوير ، وليس كذلك وإنما التصوير آخرا ، والتقدير أولا والبرء بينهما . .

وقد وردت الأسماء الثلاثة متصلة على هذا الترتيب فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾(١٩٩)

وقد ورد اسم الخالق فى غير هذه الآية فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾(٢٠٠)

---

(١٩٩) الحشر ٢٤

(٢٠٠) الرعد ١٦

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٢٠١)

وورد هذا الاسم بعد صيغة التفضيل فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢٠٢)

وقيل إن أفعل التفضيل هنا على غير بابه لأنه لا يشترك مع الله أحد فى الخلق وهو من قبيل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢٠٣)

وورد الاسم بصيغة المبالغة فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٢٠٤)

---

(٢٠١) الزمر ٦٢
(٢٠٢) المؤمنون ١٤
(٢٠٣) الروم ٢٧
(٢٠٤) الحجر ٨٦

وفى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ (٢٠٥)

أما اسم البارىء فقد جاء في غير الآية التى ذكرناها سابقا فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (٢٠٦)

ولم يرد اسم المصور في غير الآية التى ذكرناها ، ولكن ورد ما يفيده ويشير إليه . من ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (٢٠٧)

وفى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (٢٠٨)

(٢٠٥) يسن ٨١ (٢٠٧) غافر ٦٤

(٢٠٦) البقرة ٥٤ (٢٠٨) الأعراف ١١

وفى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾(٢٠٩)

المفهوم اللغوى لاسم الخالق

يقول العلماء فى تفسير اسم الخالق : معناه موجد الاشياء من العدم على غير مثال سابق غير مسبوقة بنظير لحكمة يعلمها ، قال ـ تعالى ـ

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١ ﴾(٢١٠)

ولكن الخلق فى كلام العرب على وجهين : الأول ـ الإنشاء على مثال أبدعه الخالق ، والآخر ـ هو التقدير .

وكل شىء مخلوق لله ـ تعالى ـ لأنه الذى ابتدأه على غير مثال سابق .

ولكنه يرد فى حق المخلوق على أنه شىء مبنى على مثال أبدعه الخالق كقوله ـ تعالى ـ فى حق عيسى :

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ۝١١٠ ﴾(٢١١)

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ

---

(٢٠٩) الانفطار ٧ ، ٨

(٢١٠) لقمان ١١

(٢١١) المائدة ١١٠

ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم
بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم
مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢١٢)

ويشيع فى لغة العامة هذا التعبير على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة .

يقول الامام الغزالى : لا مدخل للعبد فى اسمى الخالق والبارىء إلا بنوع من المجاز بعيد ، ووجهه أن الخلق والايجاد برجعان إلى استعمال القدرة بموجب العلم ، وقد خلق الله ـ تعالى ـ للعبد علماً وقدرة ، وله سبيل إلى تحصيل مقدوراته على وفق تقدير الله وعلمه .

ومادة الخلق فى القرآن الكريم كثيرة جداً تشير كلها إلى أن الله جلت قدرته خلق كل شىء فى الوجود . أما المعبودات التى يتخذها الجاهلون أنداداً من دون الله فإنهم لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب .

وقد قال ـ تعالى ـ

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٢١٣) »

وهناك آثار نبوية كثيرة تتحدث عن خلق الله وقدرته فى ذلك ، وتثبت أنه لا شريك له فى الوجود .

من ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه الترمذى عن عبادة ابن الصامت ـ « إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ـ القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد » .

(٢١٢) آل عمران ٤٩ (٢١٣) الصافات ٩٦

وقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه الحاكم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ « خلق الله ـ عز وجل ـ أول الأيام يوم الأحد ، وخلق الأرض فى يوم الأحد ويوم الاثنين ، وخلق الجبال وشق الأنهار وغرس فى الأرض الثمار وقدر فى كل أرض قوتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها فى يوم الخميس ويوم الجمعة ، وكان آخر الخلق فى الساعات يوم الجمعة فلما كان يوم السبت لم يكن فيه خلق » .

وروى الحاكم والترمذى عن أبى هريرة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم جعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك » .

فالله ـ جلا جلاله ـ هو الذى خلق الخلق على سبيل الحقيقة ، فكل شىء مخلوق لله ، ومن اعتقد أن أحداً يخلق غير الله فقد كفر .

التأدب بأدب هذا الاسم

من عرف أن الله هو الخالق فعليه أن يتفكر فى إتقان هذا الصنع « صنع الله الذى أتقن كل شىء » ليستدل من ذلك على قدرة الخالق المبدع ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾(٢١٤)

---

(٢١٤) الأعراف ١٨٥

به ويعبده حق عبادته .

وعليه إن وهبه الله نعمة الاختراع أو الابتكار ، أو منَّ عليه بموهبة من المواهب الفكرية أو الابداعية ، أن يرجع ذلك إلى قدرة الخالق الذى وهبه ذلك . فيزداد إيماناً به ، ويشكره على نعمته التى أنعم عليه بها ، ولا يتخذ ذلك وسيلة إلى التعالى أو التباهى أو الكفر أو الإشراك كما فعل قارون حين قال : إنما أوتيته على علم عندى .

قال القشيرى ـ رضى الله عنه ـ من آداب من عرف أن الله ـ سبحانه ـ هو الخالق . أن يمعن النظر فى اتقان خلقه ، فتلوح بقلبه دلائل حكمة الله صنعه ، فيعلم أن الله خلقه من نطفة بشراً ركب أعضاءه ، ورتب أجزاءه على أحسن تركيب وأفضل ترتيب فتبارك الله أحسن الخالقين ، ومن آداب من عرف أن الله ـ سبحانه ـ هو المتفرد بالخلق والايجاد ـ أن لا يمجد كسب العبد وأن لا يطوى بساط الشرع ، ولا يعتقد أن للعبد على الله حجة .

إن من خير العبادة التفكر حتى قال بعضهم : تفكر ساعة يعدل عبادة سنة . والتفكر إنما يكون فى بديع خلق الله قال تعالى

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (٢١٥)

---

(٢١٥) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١

ومن الدعاء فى ظل هذا الاسم :

إلهى أنت الخالق ، الذى قدرت الأمور ، ودبرت الأشياء وهى فى ظلام العدم ، لأنك النور ، خلقت العباد وخلقت فيهم الأسباب وهى العقل والجوارح . فما يبرز منهم فعل إلا بمشيئتك ، ولا يصدر عنهم أمر إلا بإرادتك وقدرتك .

فامنحنا عيون التوحيد حتى نشهد الخلاق متجليا ينفذ المراد فى النفس والآفاق ، وامنحنا قوة نسوس بها أنفسنا حتى نطهرها من رجس الأغيار ، وتتجلى من اسمك الخالق الأنوار ، إنك على كل شىء قدير . . . . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[٢١٦] »

وللشاعر أحمد مخيمر مناجاة بذلك الاسم الشريف :

خلق الأشياء بقدرته	وبنور الحكمة صورها
وبراها وفق مشيئته	وبغير مثال قدرها
فالماء لسر حركه	والريح لأمر سيرها
ونجوم الليل إذا طلعت	من أجل هداكم نورها[٢١٧]

وقال أيضاً :

يا خالق النطفة الأولى وبارئها	بلا مثال تعالى الخالق البارى
مصور كل شىء وفق حكمته	فالماء والطين غير النور والنار[٢١٨]

---

(٢١٦) أسماء الله الحسنى د احمد الشرباصى حـ١ صـ٩٢
(٢١٧) أسماء الله الحسنى - احمد مخمير صـ٣٢
(٢١٨) المرجع السابق

« البارىء »

قال ابن منظور فى معنى البارىء : هو الذى خلق الخلق لا عن مثال ، ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات . وقلما تستعمل فى غير الحيوان . فيقال : برأ الله النسمة وخلق السموات والأرض .

وإن كان ابن سيده عممها . . قال : برأ الله الخلق يبرؤهم برءاً وبروءاً : خلقهم ، ويكون ذلك فى الجواهر والأعراض ، وفى التنزيل :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢١٩)

والبرية الخلق ، هى من برأ الله الخلق ، وقد تركت العرب همزها ، ونظيره النبىُّ والذرية ، أصلهما النبىء والذريئة .

ويقول بعض العلماء : البارىء هو الموجد للأشياء المعطى كل مخلوق صفته التى علمها فى الأزل ، بارىء النسم من العدم إلى الوجود وخالقها بريئة من التنافر المخل بالنظام .

وينظر بعض العلماء إلى العلاقة اللفظية بين البَرْء وهو الخلق وبين الْبُرْء وهو الشفاء فيقول : البارىء - جل جلاله - ومعناه المبرىء والمطهر لأمشاج الخلق الأول لعبده المؤمن من الشرك ، قال - تعالى - (٢٢٠)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾

---

(٢١٩) الحديد ٢٢

(٢٢٠) التغابن ٢

وبَرْء الخلق أزَلى يشير إليه قوله - تعالى -

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (٢٢١)

والمؤمن ينجيه الله من ختم القلب والسمع والبصر ، قال - تعالى - فى حق الكافرين والمنافقين :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٢٢٢)

فقد كان هذا الختم يوم الخلق الأول .

والحديث الذى روى فى الصحاح عن ابن مسعود يشير إلى ذلك . قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً وَيُؤْمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى

---

(٢٢١) الأعراف ١٧٢

(٢٢٢) البقرة ٧

ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » .

وقد جاء اسم البارىء بين اسمى الخالق والمصور ، لأن الله ابتدأ بالخلق ، ثم برأ وطهر النشأة الأولى للمصطفين الأخيار ، ثم صورهم فى الأرحام كيف يشاء ، فسبحانه من إله خالق بارىء مصور .

وقال الشيخ أحمد العقاد فى كتابه « الأنوار القدسية » : إن البارىء هو الذى قدر الأشياء فى علمه الأزلى ، وأبرزها فى عالم الظهور باقتداره الأبدى ، وهو الذى أدهش العقول وحير الألباب ، حيث أبرز لنا عناصر مختلفة متباينة متضادة :

الذكر بهذا الاسم :

والذكر بهذا الاسم يبرىء القلوب ويطهر الأجساد ، ويكسب النفوس إشراقاً وبهاء . . . . يقول الذاكر به داعياً :

« ويا بارىءُ أبرىء من السُّقم جُملتى »

أى جملة أعضائى وأجزائى ، الظاهرة والباطنة .

قال بعض العلماء إن اسم البارىء يدعى به للسلامة من الآفات ، وَمَنْ أكثر من ذكره نال السلامة من كل مكروه .

ومن الآداب فى ذكره أن يتمثل الداعى بهذا الاسم الأشياء أمامه كائناً حياً يحاوره ، فيسألها متدبراً : من أَنْتِ ؟ وأين كنت ؟

فسترد بلسان الحال قائلة : أنا العدم ، ولم يكن لى وجود ، ولكن بنور البارى تم لى الصعود ، فوجودى حجاب عند أهل الغفلة ، وروح وريحان عند أهل اليقظة ، من رأى أثراً بارزاً هام فى جمال المؤثر ، وتبين الحق للعاقل المفكر .

وينبغى للذاكر بهذا الاسم أن يستحضر التوبة من ذنبه وأن يهتف بالضراعة الى ربه ، فقد قال موسى لقومه : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم . .

وعليه أن يصحب التوبة بالتضحية بالمال والنفس قرباناً لمولاه الذى يمن عليه بنعمة القبول والعطاء ، ويدخله فى ساحة الأنس والرجاء ، فقد قال موسى لقومه : فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم .

والتضحية بالنفس تعنى التغافل عن الشهوات ، ونسيان الذات ، وقهر الدواعى النفسية لاحياء المعانى الروحية ، والتوبة من الذنب لإجلاء مرآة القلب ، وذوق حلاوة القرب .

قال العلماء : من أكثر من ذكر « البارىء » نال السلامة من كل مكروه ، فلا عيش إلا مع ذكر الله ، ولا عز إلا فى جانب الله .

قال وفى الأذكار المشهورة : « يا بارىء النفوس بلا مثال ويا رازق الخلق فى كل حال .

ومن الدعاء بهذا الاسم ما ذكره الشيخ أحمد العقاد فى كتابه الأنوار القدسية :

« يا بارىء الأكوان وهى عدم ، ومُظهِرها بالرحمة والجود والكرم . . . . الأكوان ظل محدود ، وشمس الحقيقة دليل عليها فى الشاهد والمشهود ، ونورك أبرز الآثار فأنت الموجود قبل كل شىء ، وأنت المعروف قبل كل شىء[٢٢٣] » .

---

(٢٢٣) أسماء الله الحسنى - د . أحمد الشرباصى حـ ١ صـ ٩٦

اسم الله المصور

قال الامام الغزالى - رضى الله عنه - قد يظن ظان أن أسماء « الخالق البارىء المصور » مترادفة ، وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع .

وليس الأمر كذلك ، بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يفتقر إلى التقدير أولاً ، وإلى الايجاد على وفق التقدير ثانياً ، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً . . . . . والله - تعالى - خالق من حيث انه مقدر ، وبارىء من حيث انه مخترع موجد ، ومصور من حيث انه مرتب صور مخترعاته أحسن ترتيب » .

ومعنى المصور أنه هو الذى أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها ، وليتمايزوا فيما بينهم . قال - تعالى -

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢٢٤)

وقال - تعالى -

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ (٢٢٥)

وفى الحديث الشريف - فيما يرويه أبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى عن أبى موسى - رضى الله عنه - قال رسول الله - صلى الله عبليه وسلم - « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على

---

(٢٢٤) الروم ٢٢

(٢٢٥) آل عمران ٦

قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والخبيث والطيب وبين ذلك » .

ويقول بعض العلماء : المصور معناه مبدع صور المخلوقات ومزينها بحكمته ، فهو المعطى كل مخلوق صورته على ما اقتضته حكمته الأزلية قال ـ تعالى ـ

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٢٢٦)

ولنتدبر فى المعنى اللغوى لكلمة المصور .

المصور مأخوذ من التصوير ، والتصوير هو أن تجعل الشىء على صورة ما ، والصورة هى الشكل والهيئة والحقيقة . وهى التى يتميز بها الانسان عن غيره من مختلف المخلوقات ، وقد اختص الله الانسان بجمال الهيئة وحسن التقويم ، قال ـ تعالى ـ

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (٢٢٧)

كما اختصه الى جانب ذلك بملكات ومقومات ، ووهبه العقل الذى يعد أعظم هبة له .. منحته التفوق على سائر المخلوقات .

فمظهر تكريم الانسان يبدو فى حسن صورته

« وصوركم فأحسن صوركم »

وفى كمال عقله ، وفى تخصيصه من بين الخلق بالتكاليف الشرعية التى

---

(٢٢٦) التين ٤

(٢٢٧) الاسرار ٧٠

تقربه إلى حضرة الحق ، حتى يصير قريباً من الحق سبحانه وتعالى ـ يدعوه فيستجيب له .

التخلق بآداب اسم الله المصور

وربما طمحت همة العبد إلى أن يتخلق بآداب هذا الاسم « المصور » وفى هذه الحالة يجب عليه أن يتأمل فى جمال مخلوقات الله ، واختلاف الصور والأشكال ، وينظر إلى ألوان النبات والزهور والثمار وأشكالها وأصنافها وتباينها واختلاف ريحها ومذاقها . وينظر إلى الكواكب فى حسن نظامها وانسجامها وغير ذلك مما يدل على قدرة الخالق وحكمة البارىء وعظمة المصور .

ثم عليه أن يتدبر فى خلق نفسه ، وكيف خلقه الله فأحسن خلقه ، وصوره فأبدع تصويره ، ولا يقف عند حدود جمال الشكل . . . بل يجب أن ينفذ إلى جمال الروح وكمال العقل ويحمد الله على أن حباه نعمة التمييز بين الخير والشر ، والنفع والضر . . كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سجد يقول : « سجد وجهى للذى صوره وشق فيه سمعه وبصره »

ومن هذا الحديث يمكن أن ينطلق الانسان إلى تركيبات جسمه ، فيفكر فى جهازه العصبى ، والتنفسى ، والدموى ، والهضمى ، والدورى ، والعضلى ، وغيرها ويدرك كيف تعمل هذه الأجهزة فى دقة متناهية تلقائياً بقدرة الله ـ تعالى ـ الذى سخرها فى خدمة الانسان ومصلحته .

ومقتضى ذلك الشكر لله الذى أحسن كل شىء خلقه .

الدعاء باسم المصور

ومن الأدعية بهذا الاسم هذا الدعاء :

« إلهى - من ماء مهين صورتنى ، وفى ظلام الأحشاء توليتنى ، نفخت فىَّ روحاً من أعظم الأسرار ، وألبستنى حلل الجمال فشرفتنى أمام الأنظار ، إذا نظرت إلى ما صورته سجدت شكراً للمصور ، وإن أظلمت نفسى فأنت لها النور ، فاجعلنى من فضلك ذاكراً شاكراً ، واحفظنى من أن تحجبنى صورةً عن المصور ، يا قريب ، يا مصور ، إنك على كل شىء قدير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم(٢٢٨) »

وقال بعض العلماء : من المناجاة فى ظل هذا الاسم قولهم :

سبحان الله - تعالى - ليس كمثله شىء ، جلت قدرته فأنشأ خلقه وصورهم على صرر غير متشابهات .

قال : وحظ العبد الذاكر بهذا الاسم . أن الله يلقى الوضاءة والحسن على صورته ، ويعينه على تحسين أعماله(٢٢٩) » .

وهذا الاسم يجب أن يكثر من ترداده أرباب الصناعات والفنون الجميلة ، فيعينهم الله على إتقان العمل ، ويصل بهم الى طريق التوفيق - والأعمال بالنيات .

---

(٢٢٨) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى حـ١ صـ١٠١

(٢٢٩) أسماء الله الحسنى أحمد عبدالجواد صـ٥٣

الغَفَّار

جاء في لسان العرب : الغفور والغفار - الله جل ثناؤه - وهما من أبنية المبالغة ، ومعناهما الساتر لذنوب عباده ، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، يقال : اللهم اغفر لنا مغفرة وغَفْراً وغفراناً ، فإنك أنت الغفور الغفار يا أهل المغفرة .

وأصل الغَفْر التغطية والستر - تقول غفر الله ذنوبه أى سترها . . وقد ورد اسم « الغفار » فى القرآن الكريم فى مواضع منها :

قوله - تعالى -

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٢٣٠)

وقوله - تعالى -

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾ (٢٣١)

وقوله - تعالى - على لسان مؤمن آل فرعون :

﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي
بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢٣٢)

وقوله - تعالى -

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ

---

(٢٣٠) طه ٨٢

(٢٣١) ص ٦٦

(٢٣٢) غافر ٤٢

وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ ﴾ (٢٣٣)

ويلاحظ اقتران هذا الاسم بالعزة . . فالله سبحانه وتعالى ـ غالب متفرد بالعزة لا ترقى الأوهام إلى عظيم كماله ، وهو إلى جانب ذلك عطوف على عباده غفور لذنوبهم .

ولم يرد الغفار منفرداً عن العزة إلا مُنَكَّراً . . وذلك فى آيتين : إحداهما قوله تعالى :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ (٢٣٤)

والأخرى ـ قوله تعالى ـ

« وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى(٢٣٥) » .

ويلاحظ أن ذلك ورد فى صدد الدعوة إلى الاستغفار وطلب التوبة من العباد .

والله يغفر ذنوب عباده بفضله وكرمه بعد توبة العباد وطاعتهم ، وهو الذى يفتح لهم باب التوبة ليتوبوا فيغفر لهم ـ قال ـ تعالى ـ

﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ

---

(٢٣٣) الزمر ٥

(٢٣٤) نوح ١٠

(٢٣٥) طه ٨٢

﴿ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (٢٣٦)

إن اسم الغفار يوحى بأن الله يظهر الجميل ويستر القبيح فى الدنيا ، ويتجاوز عن المؤاخذة به فى الآخرة لمن أراد الله أن يغفر له .

قال بعض العلماء : الغفار هو الذى يغفر الذنوب مرة بعد مرة ، فكلما جدد العبد معصية جدد الله له توبة فمغفرة . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن عبداً أصاب ذنباً فقال : رب أذنبت ذنباً فاغفره لى . فقال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ـ غفرت لعبدى .

« ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً فقال : رب أذنبتُ آخر فاغفر لى . قال : عَلِم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ـ غفرت لعبدى .

« ثم أصاب ذنباً فقال : رب أذنبت آخر فاغفر لى . قال : عَلِم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ؟ قد غفرت لعبدى » . .(٢٣٧)

أما الآيات التى تشير إلى مغفرة الله فكثيرة ، وقد نسب الله المغفرة لنفسه فى أكثر من موضع .

قال ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢٣٨)

---

٢٣٦) التوبة ١١٧

(٢٣٧) رواه احمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة

(٢٣٨) النجم ٣٢

وقال تعالى :

« وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة »[٢٣٩]

وقال ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾[٢٤٠]

إن ورود اسم الغفار بصيغة المبالغة يدل على كثرة المغفرة من الله لذنوب عباده .

روى أحمد وأبو يعلى والحاكم عن أبي سعيد ـ رضى الله عنه ـ قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الشيطان قال : وعزتك يارب لاأبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الرب : وعزتى وجلالى لاأزال أغفر لهم مااستغفرونى »

كيف يتخلق العبد بهذا الاسم ؟

يتخلق العبد بهذا الاسم الشريف إذا كان صفوحا عفوا متجاوزا عن زلات إخوانه ، ساتراً لعوراتهم ، مقابلاً سيئاتهم بالإحسان ، حافظا غيبتهم ، مدافعاً عنهم ، غاضاً الطرف عن نقائصهم ، مشيداً بفضائلهم .

ولقد حث الله الناس على الصفح والعفو عن الزلات فقال لهم :

﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤ ﴾[٢٤١]

---

(٢٣٩) المدثر ٥٦

(٢٤٠) الزمر ٥٣

(٢٤١) التغابن ١٤

إن المغفرة الواسعة صفة اتصف بها الغفار ـ جل جلاله ـ ولكنه أودعها فى قلوب من يشاء من عباده ، بل أمرهم بالتأدب بها فقال مخاطباً نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ووعد أهل الصبر والمغفرة بالثواب الجليل فقال :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٢٤٣)

وجعل لهم خير المتاع الباقى عنده فقال :

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢٤٤)

إنها حوافز تدفع الى الصفح والمغفرة ، وتدعو إلى العفو عند المقدرة ، تخلقاً بأخلاق الله العفو الغفار .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من ستر على مؤمن ستر الله عورته يوم القيامة »

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو الله قائلا : « سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح »

---

(٢٤٢) الجاثية ١٤
(٢٤٣) الشورى ٤٣
(٢٤٤) الشورى ٣٦ ، ٣٧

وهكذا يجب أن نتخلق بهذا الأدب لنرتفع فى عين الحق ـ جل وعلا ـ الذكر بهذا الاسم .

قال العلماء : إن حظ العبد من اسم ربه الغفار ـ جل جلاله ـ أن الله يغفر لذاكره ويستر قبيح أعماله ، ويغطيها . بجميل ظاهره .

وقالوا : من ذكره إثر صلاة الجمعة مائة مرة ظهرت له آثار المغفرة ، وفى هذا الاسم سر لتغيير مافى النفوس ، وتسكين الغضب لمن غضب سلبك .

ومن أحب أن يكثر ماله وولده ويبارك له فى رزقه فليقل : « أستغفر الله إنه كان غفاراً . . فى اليوم والليلة سبعين مرة .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لايحتسب »

أليس الله هو القائل :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٢٤٥)

ومن الأدعية فى ظل هذا الاسم :

« إلهى ، إنك فتحت لنا بابا واسعا ، أطمعنا فى عفوك وكرمك وغفرانك فإنك قلت وقولك الحق :

« إن الله يغفر الذنوب جميعاً »

---

(٢٤٥) نوح ١٠ : ١٢

(٢٤٦) الزمر ٥٣

فأشرق على قلوبنا بأنوار اسمك الغفار ، فإنى أنا العبد الضعيف الخطاء ، الفقير الذليل ، وأنت القوى العزيز الغفار .

« أسألك أن تغسل قلبى من الأوزار ، وتملأه بالأنوار ، وأن تخلّقنا بأخلاق هذا الاسم ، حتى نستر عورة الإخوان ، ونقابل السيئة بالإحسان ، لننال الوجاهة فى الدنيا والآخرة ، ونُحْفَظَ من ظلام المعصية الباطنة والظاهرة ، إنك على كل شىء قدير ، و صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم »

القهار

ورد اسم القهار مقرونا بالواحد لما بينهما من تلازم .

قال ـ تعالى ـ على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ :

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢٤٧)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٢٤٨)

وقال ـ تعالى ـ على لسان رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢٤٩)

وقال تعالى ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ (٢٥٠)

وقال ـ تعالى :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢٥١)

---

(٢٤٧) الرعد ١٦

(٢٤٨) ابراهيم ٤٨

(٢٤٩) ص ٦٥

(٢٥٠) الزمر ٤

(٢٥١) غافر ١٦

وقد ورد هذا الاسم على وزن « فاعل » بدون صيغة المبالغة فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴿٦١﴾ ﴾ (٢٥٢)

والقهر ـ كما يقول ابن منظور فى لسان العرب ـ يعنى الغلبة والأخذ من فوق .

والله القهار ـ قهر خلقه بسلطانه وقدرته ، وصرفهم على ما أراد طوعاً وكرها . والقهار مبالغة فى القهر .

وقال ابن الأثير : القاهر هو الغالب جميع خلقه .

ومن معانى القهار أنه يقصم ظهور الجبابرة ويذل رقاب الفراعنة .

وهو الذى لايطاق انتقامه . .

إنه يُفْنى الخلق بقهره . . . ونُفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . . ونادى الحق قائلاً : لمن الملك اليوم ؟ فلا مجيب من الخلائق . . . فيجيب الحق نفسه بنفسه قائلا : لله الواحد القهار . فأين الجبابرة ؟ وأين الأكاسرة والأباطرة ؟ وأين الذين كانوا يسيمون الناس العذاب ويذيقونهم أشد العقاب ؟ أين الطغاة والبغاة ؟ أين هؤلاء وهؤلاء . . . بل أين إبليس وحزبه ؟ لقد تلاشى أمام قهر الله كل شيء . .

ولم يبق إلا الله القاهر القادر الحى القيوم . . . .

إن أدنى سبب من أسباب قهر الله ـ لمخلوقاته ـ الموت ، ولذلك جاء فى

---

(٢٥٢) الأنعام ٦١

الأثر : سبحان من قهر العباد بكأس الموت . . إذ بينما الإنسان يدب على الأرض ممتلئاً قوة وفتوة ، وأملا وشبابا ونشاطا ، إذ به فى طرفة عين قد طواه الموت ، وأسرع به الناس إلى القبر يوسدونه التراب ، ويسدون عليه الأبواب ، ويتركونه وحيداً فريداً يحيط به الظلام .

فأين قوته وشبابه ؟ وأين آماله وتطلعاته ؟ وأين وعده ووعيده ؟ وأين جنوده وعبيده ؟

لقد تخلى هؤلاء عنه سريعاً ، وتركوه فريداً وحيداً ، لاأنيس له فى قبره إلا عمله ، فلينظر إلى هذا العمل . أهو أنيس خير يفرحه ؟ أم طالع سوء يحزنه ويؤلمه ؟

قال بعض العلماء : القهار هو الذى قهر الكفار بظهور آياته ، وقهر المعاندين بظهور بيناته ، وقهر قلوب أحبابه بالعكوف على بابه ، فأنسوا بجنابه . . . . . قهر الروح وهى نور فسحرها للجسم وهو ظلام ، وقهر العناصر فَأَلَّف بين الحار والبارد والرطب واليابس ، وقهر العباد بالموت ، وقهر الملائكة بالسجود لآدم ، وقهر الإنسان بالجوع والمرض حتى يذل لرب العالمين هاتفا من أعماق أعماقه فى ضراعة : يارب يارب . .

وقهر الإنسان بالنوم وقهر النوم بالهم . . وقهر النار بالماء وقهر الماء بالهواء ، وقهر الهواء بالكِنِّ ، وقهر الصخر بالحديد ، وقهر الحديد بالنار . . . . سبحانه سبحانه هو الواحد القهار . .

كيف يتخلق المؤمن بخلق القهار ؟

يتأدب المؤمن بأدب هذا الاسم ، فيقهر دواعى نفسه ، ويقاوم وساوس

شيطانه ،ويحاول أن يسقط تدبيره لينطوى تحت تدبير الله الذى يفعل مايشاء ويختار .

كان من دعاء الشاذلى ـ رضى الله عنه ـ : اللهم دبرلى يامولاى فإنى لا أحسن التدبير . .

والمرء لايحسن الاختيار لنفسه ، لأنه لايعلم الخير من الشر ولايعرف النافع من الضار ، والقرآن الكريم يقول على لسان سيد الخلق ـ ﷺ ـ :

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ (٢٥٣)

فإذا استسلم الإنسان لله ، فقد خضع لقضاء الله ، وبذلك يكون قد قهر شهوته ونفسه ، وترك أمره لربه ، وترك اختياره لاختيار مولاه . ومن الأدعية المأثورة : اللهم لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك .

قال العلماء : وأما السبيل إلى استمداد الانسان من أنوار اسم الله ـ القهار ـ فهو أن يرى نفسه التى بين جنبيه أعدى أعدائه ، فيقهرها ويضيق عليها الخناق ويخالفها حتى تطيع الأوامر الإلهية ، ثم يقهر خصمه العنيد وهو الشيطان ، فيحترس من وساوسه ، ويضيق مجاريه بالصيام ، ثم يقهر شهوته البهيمية بالإعراض عن دواعيها وأسبابها .

يقول الإمام ـ البوصيرى ـ رحمه الله ـ فى بردته :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

---

(٢٥٣) الأعراف ١٨٨

الذكر بهذا الاسم

قال بعض العلماء : حظ العبد من اسم ربه القهار ـ جل جلاله ـ بحسب نيته فى قهر نفسه التى بين جنبيه حتى تخلص من حب الشهوات .

ويجب على العبد أن يذكر هذا الاسم عند طلوع الشمس ، وفى جوف الليل لقهر الأعداء وهلاكهم ـ قائلاً :

« يا جبار ياقهار ياذا البطش الشديد »

ثم يقول :

« خذ حقى ممن ظلمنى وعدا علىَّ »

ومن كانت له حاجة يقول : ياقهار مائة مرة ، ثم يرفع يديه كاشفا رأسه متضرعاً الى الله فإن الله لن يخيب رجاءه .

ومن سجد بعد صلاة الضحى ، وقال : يا قهار سبع مرات أغناه الله .

ومن الدعاء بذلك : ياقاهر ياذا البطش الشديد أنت القوى الذى لايطاق انتقامه .

ومن الأدعية به أيضا قولهم :

« إلهى ، قهرت العوالم كلها من دان وعال ، وتجليت بالعظمة فعرفت كل حبيب موال ، أمدنى بقليل من دقائق اسمك القهار ، حتى تنقاد لى نفسى ، وينهزم أمامى الفجار ، وامنحنى صولة على نفسى لأصول بها على إبليس وأنجو من الشهوات الحيوانية ، واجعلنى ملاحظا لأنوار اسمك القهار حتى لاأغتر بأى عظيم فى الوجود ، فالكل عدم إذا انكشفت الأنوار . . .

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر بهذا الاسم :

تمــرد أعــداء الحيــاة ضــلالة إلهــى فاضــربهم ، فإنــك قهــار

ومــالك نــد فى الوجــود علمتــه وليس لعــاص عنــد بطشــك أنصــار

الوهاب

جاء فى كتب اللغة : الهبة ـ العطية الخالية عن الأعواض والأغراض . . . . فاذا كثرت سُمِّىَ صاحبها وهّابا ، وهو من أبنية المبالغة .

والوهّاب من صفات الله ـ تعالى ـ المنعم على العباد ، والله هو الوهاب والواهب . لأنه يعطى كل أحد على قدر استحقاقه دون عوض ومن غير علة .

ولا هبة فى غير ملك ، فمن شروط الواهب أن يكون مالكا لما يهبه .

وإذا وهب شيئاً فقد أصبح مملوكاً للموهوب له .

والله الوهاب يعطى بغير حساب لأنه رب العباد كثير اللطف والإقبال عظيم المن والنوال ، المانح من غير سؤال ، ولا يقطع نواله فى أى حال .

وقيل : الوهاب هو الذى يعطيك من غير وسيلة ، وينعم عليك بدون سبب ولا حيلة .

وقال بعض العلماء : الوهاب هو الجواد المنعم المتفضل بالعطايا ، كثير النوال ، دائم المعروف على جميع خلقه ، وسع الخلق بجوده ورحمته . هو الوهاب ، عنده خزائن الأرض والسموات ، ويفيض على عباده الرحمة والنعمة ، يداه مبسوطتان كيف يشاء .

سبحانه يهب الولد للعقيم ، والهدى للضال ، والعافية لذوى البلاء ، والحكم والعلم لمن يشاء .

أليس هو القائل :

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا

﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠ ﴾ (٢٥٤)

وهو القائل

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ ﴾ (٢٥٥).

والوهاب كثير النعم ، دائم العطاء . . . المعطى كل محتاج مايحتاج إليه ، لالغرض ولا لعوض .

فاذكر مولاك ، فإنه يرعاك فى دنياك وأخراك ، واسأل الوهاب من فضله ، ولاترج غيره ، ولاتتوقع الخير الا منه ، فمن ذكر الوهاب فتح الله له كل باب .

سأل الشبلى أصحاب أبى على الثقفى ـ وهو من كبار أهل العلم : أى اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ يجرى على لسان أبى على ؟

فقالوا : الوهّاب . فقال الشبلى : فلهذا كثر ماله .

وقد ورد اسم الوهاب فى القرآن فى مواضع ثلاثة هى : قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ ﴾ (٢٥٦)

---

(٢٥٤) الشورى ٤٩ ، ٥٠

(٢٥٥) آل عمران ٢٦ (٢٥٦) آل عمران ٨

وقوله :

« أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب »(٢٥٧)

وقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾(٢٥٨)

أما مايشير إلى هذا الاسم من مادته فقد ورد فى مواضع كثيرة منها :

قوله تعالى :

« الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء »(٢٥٩)

وقوله :

« ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين »(٢٦٠)

وقوله :

« ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا »(٢٦١)

وقوله :

« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين »(٢٦٢)

(٢٥٧) سورة ص ٩

(٢٥٨) سورة ص ٣٥

(٢٥٩) ابراهيم ٣٩

(٢٦٠) الشعراء ٢١

(٢٦١) مريم ٥٠

(٢٦٢) الفرقان ٧٤

كيف يتخلق العبد بهذا الاسم ؟

والعبد مهما كان جوادا كريما سخيا فهو ليس بوهاب .

لأن من شروط الهبة الملكية كما قلنا ، والعبد لامِلْك له . . وكل ما تحت يد العبد فهو منحة مملوكة لله على سبيل الحقيقة . . . . قال ـ تعالى ـ :

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »(٢٦٣)

وقال :

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »(٢٦٤)

ومهما بذل العبد من عطاء ولو كان بغير علة ظاهرة ، فهناك علة باطنة يهدف إليها . وهذه العلة فى حق المؤمن الظفر بثواب الله .

ولكن الله ـ جلت قدرته ـ لايرجو من وراء عطائه ثواباً ولايخشى عقابا .

وذلك لايمنع أن يتخلق العبد بهذه الصفة الشريفة ، فيستجيب لأمر الله ـ تعالى ـ له بالإعطاء والإنفاق ، وأن يقابل نعمة الله عليه بما هو واجب عليه من حق الشكر . . . . والشكر يكون بإعطاء غيره من هذه النعمة التى وهبها الله له ، فيتفضل على الناس بالمنح والعطاء .

كان عبد الله بن جعفر ـ رضى الله عنه ـ كثير العطاء ، لايصل إلى يده شىء من المال إلا واسى به الفقراء وبرَّ به الأصدقاء ـ فلامه بعضهم على ذلك ، وقال له : إن هذا هو السَّرف بعينه .

فقال عبد الله : إن الله عَوَّدنى عادة ، وعَوَّدته عادة : عودنى أن ينعم

---

(٢٦٣) الحديد ٧

(٢٦٤) النور ٣٣

عليَّ ، وعوَّدته أن أنعم على عباده . فإن أنا قطعت عادتى معه أخاف أن يقطع عادته معى .

وإذا عرضنا لمن اتصف بتلك الصفة من الخلق فلا يجب أن ننسى أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ الذى أنفق ماله كله فى سبيل الله . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماذا أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

الذكر بهذا الاسم

وقد مرت بنا قصة الشبلى وسؤاله عن ذكر أبى عبد الله الثقفى وترداده لهذا الاسم . وعلم أن كثرة مال الثقفى كانت بسبب إكثاره من ذكر الوهاب .

وهذه إحدى ثمار الذكر بهذا الاسم .

قال بعض العلماء : من داوم على ذكر الوهاب فى سجوده بعد صلاة الضحى يسرّ الله له الغنى والقبول .

ومما يُقرأ لحفظ الإيمان قوله ـ تعالى ـ

« ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »(٢٦٥)

سبع مرات عقب كل صلاة .

ومن الأدعية فى ذلك : إلهى ، هب لنا نوراً نكتشف به محابَّك ومراضيك ، ونتجنب به معاصيك ، وهب لنا عافية فى أبداننا ، وسعة

---

(٢٦٥) آل عمران ٨

فى أرزاقنا ، وطولا فى أعمارنا ، وهب لنا لذة المعرفة فى قلوبنا ، والشهود لأرواحنا ، حتى نبذل النفس والمال بدون عوض ولا غرض إلى وجهك الكريم ، يا وهاب يارحيم »

وقال الشاعر أحمد مخيمر فى مناجاته ربه بهذا الاسم :

وهـاب ما ترجـو الخليقـة ، منعـم   ســبحانه من منعــم وهـــاب
والشـاكرون من العبـاد يزيـدهم   نعمـــا ويعطيهـم بغــير حســاب

الرزاق

قال ابن منظور فى لسان العرب : الرازق والرزاق ـ من أسماء الله تعالى وصفاته ـ لأنه يرزق الخلق أجمعين ، وهو الذى خلق الأرزاق ، وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم ، والرزاق من أبنية المبالغة والأرزاق نوعان : ظاهرة ـ كالأقوات للأبدان ، وباطنة ـ كالمعارف والعلوم للقلوب والنفوس

قال تعالى :

« وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة »

ولا رزق إلا من الله . . . . روى ابن مسعود عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أن الله ـ تعالى ـ يبعث الملك الى كل من اشتملت عليه رحم أمه فيقول له : اكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد . . . .

وقد ضمن الله الرزق لعباده جميعا وأقسم على ذلك فقال :

« وفى السماء رزقكم وماتوعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون »[٢٦٦]

سمع رجل قارئاً يقرأ هاتين الآيتين فقال : من الذى أغضب الجليل حتى جعله يقسم ؟

قال ذلك تعجباً ، فإنه من البداهة بمكان .

لقد تعارف الناس منذ الأزل على أن الرزق مضمون لهم ، ولكنهم على الرغم من ذلك يتنافسون ويتسابقون فى تحصيله . حتى قال لهم ابن عطاء

---

(٢٦٦) الذاريات ٢٢ ، ٢٣

الله السكندرى فى إحدى حكمه : « اشتغالك بما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك »

ومن ضلال الخلق أن يشركوا بالله الرزاق ويعبدوا من دونه مالا ينفع ولايضر ، قال ـ تعالى ـ ناعيا على هؤلاء :

« ويعبدون من دون الله مالايملك لهم رزقا من السموات والأرض »

وقال فى حديث قدسى :

« أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر غيرى » ـ

وقيل فى معنى الرزاق : الرزاق هو الذى غذى نفوس الأبدان بتوفيقه ، وجلا قلوب الأخيار بتصديقه . .

وقيل : الرزاق هو الذى خص الأغنياء بوجود الأرزاق ، وخص الفقراء بشهود الرزاق .

وقيل : الرزاق من رزق الأشباح فرائد لطفه ، والأرواح عوائد كشفه .

وقيل : الرزاق هو الذى يرزق من يشاء من عباده القناعة ، ويصرف دواعيهم عن ظلمة الصناعة .

وقيل : الرزاق هو الذى يمد بفضله كل كائن بما يحفظ مادته وصورته ، فيمد العقول بالعلوم ، والقلوب بالمفهوم ، والأرواح بالتجليات والأبدان بالأغذية .

وقيل : الرزاق هو الذى يرزق الأرواح والسرائر ، كما يرزق الأشباح والظواهر .

هذه تعريفات بعض العلماء لهذا الاسم الشريف .

ورود هذا الاسم فى القرآن

وقد ورد هذا الاسم فى القرآن فى آية واحدة فى قوله ـ تعالى ـ :

« إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[٢٦٧]

ولكن وردت مادة الاسم فى مواضع كثيرة منها :

قوله تعالى :

﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[٢٦٨]

وقوله :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[٢٦٩]

وقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[٢٧٠]

---

(٢٦٧) الذاريات ٥٨

(٢٦٨) المائدة ٨٨

(٢٦٩) الروم ٤٠

(٢٧٠) البقرة ١٧٢

كيف يتخلق العبد بهذا الاسم ؟

قال العلماء : يستطيع العبد أن يتخلق باسم الله الرزاق ـ إذا أدام ذكر الله ، وجعل يده خزانة لله ، ولسانه وصلة بينه وبين خلق الله ، وطلب من الله أن يرزقه علما هادياً ولسانا مرشداً ، ويداً منفقة متصدقة ، فإن الله ـ تعالى ـ إذا أحب عبدا أكثر حوائج الخلق إليه ، وحبب الى نفسه قضاءها .

جاء فى الأثر :

« اعلموا أن حوائج الخلق إليكم من نعم الله عليكم فلا تملوها فتملوا نعم الله »

وحظ العبد من اسم ربه الرزاق أن ذاكره يكون فى سعة من الرزق وأن الله يسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .

على العبد أن يعلم أن ربه لاشريك له فى رزقه ، كما لاشريك له فى خلقه .. قال تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ ﴾ (٢٧١)

وعليه أن يرضى بقسمة الرزاق الوهاب ، وأن يعرف حقيقة وصف الرزاق ، وأنه لايستحقه الا الله ـ تعالى ـ فلا ينتظر الرزق الا منه ولايتوكل الا عليه .

إن الذى يتخلق بأدب هذا الاسم لايحمل هم الرزق ، لأنه قرأ الحكمة المشرقة التى تقول : « من كان رزقه على الله فلايحزن »

---

(٢٧١) هود ٦

شكا بعض الأعراب إلى عمر بن الخطاب كثرة العيال فقال له : « اذهب إلى بيتك ومن كان منهم رزقه عليك فأخرجه منه »

روى أن جماعة دخلوا على الجنيد ـ رحمه الله ـ فقالوا : نطلب أرزاقنا ؟

فقال : إن علمتم أين هى فاطلبوها . . . . . فقالوا : نسأل الله ذلك ؟

فقال : إن علمتم أنه ينساكم فذكِّروه .

قالوا : ندخل بيوتنا ونتوكل على الله ؟

فقال : التجربة مع الله شك فى الله .

قالوا : ما الحيلة ؟

قال : ترك الحيلة .

والجنيد ـ كان يكلم قوما يريد أن يعلمهم حسن التوكل على الرزاق ، ويريد أن يقطع الشك والوساوس من نفوسهم .

وقال القشيرى : من عرف أن الله ـ تعالى ـ رزاق ، أفرده بالطلب . .

وجاء فى الأثر : لو ركب أحدكم الريح فرارا من رزقه ، لركب الرزق البرق وسبقه :

إلا أن الرزق وان كان مضمونا فإن الله جعل له أسبابا يجب على الانسان سلوكها لطلبه . . . قال ـ تعالى ـ :

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (٢٧٢)

---

(٢٧٢) الملك ١٥

فعلى المسلم أن يسعى لتحصيل رزقه ، ولايقعد عن طلبه ، لأن السماء لاتمطر ذهباً ولافضة .

الذكر بهذا الاسم

قال العلماء : من داوم على تلاوة هذا الاسم فى الصباح الباكر رزقه الله ذهنا يفهم به الغوامض .

ومن تلاه واقفا أمام من له حاجة عنده قضيت حاجته .

ومن دعاء بعض الصالحين قوله :

ياألله ياألله ، يالطيف يارزاق ياقوى ياعزيز ، لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر ، فابسط لنا من الرزق ماتوصلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ماتحول به بيننا وبين نقمتك ، ومن حلمك مايسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التى ختمت بها لأوليائك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحنا فى الدنيا عن نار الشهوة ، وأدخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة . . .

ومن مناجاة أحمد مخيمر :

ياخالق الرزق للعباد وللوحش وللطير ، أنت رزاق
فكل شىء إليك متجه وكل قلب إليك مشتاق
وأعظم الرزق نور معرفة له وراء الضلوع إشراق

الفتـــاح

لم يرد هذا الاسم فى القرآن الكريم سوى مرة واحدة ، فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾(٢٧٣)

وفى معنى هذا الاسم قال ابن منظور فى لسان العرب :

الفتح نقيض الإغلاق ، تقول : فتحه ويفتحه فتحا ، وافتتحه وفتحه فانفتح وتفتح . .

قال : والفتاح : الحاكم ، وأهل اليمن يقولون للقاضى : الفتاح . . . . ويقول أحدهم لصاحبه : تعال حتى أفاتحك إلى الفتاح ، أى أقاضيك إلى القاضى .

وفى معنى قوله ـ تعالى ـ

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين »(٢٧٤)

قيل : أى احكم بيننا واقض بيننا . وقال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ : ما كنت أدرى ما قوله ـ عز وجل ـ « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك ، أى أحاكمك .

أما اسم الله الفتاح ـ فقد قال ابن الأثير فى معناه : هو الذى يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده ، وقيل : معناه الحاكم بينهم ، يقال : فتح الحاكم بين الخصمين إذا فصل بينهما . .

---

(٢٧٣) سبأ ٢٦

(٢٧٤) الأعراف ٨٩

وقال بعضهم : الفتاح الذى يفتح أبواب الرزق والرحمة . كما يفتح عيون بصائر العباد ليبصروا الحق ، ويتبعوا سبل السلام ، وهذه الصفة مقترنة بالعلم والقدرة . .

فبقدرة الله ينفتح كل مغلق ، وبهدايته ينكشف كل مشكل . . إن الله تعالى فتح قلوب المؤمنين بمعرفته وفتح للعاصين باب مغفرته . .

قال الغزالى - رضى الله - : الفتاح هو الذى يفتح الممالك لأنبيائه ويخرجها من أيدى اعدائه ، يقول - تعالى - :

« **إنا فتحنا لك فتحا مبينا** »(٢٧٥) .

وارتباط هذه الصفة بالقدرة يشير اليه قوله - تعالى - :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ (٢٧٦)

والله - سبحانه - هو الفتاح العليم . وبيده مفاتيح كل شىء . . قال تعالى :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢٧٧)

---

(٢٧٥) الفتح ١

(٢٧٦) فاطر ٢

(٢٧٧) الأنعام ٥٩

وكما علمنا من مفهوم هذه الآيات وغيرها مما ورد فى القرآن الكريم من آيات تدور حول مادة الفتح ـ ندرك أن الفتاح ليس قاصرا على فتح أبواب الرزق ، ولكنه يتناول فتح كل شيء . ، فهو سبحانه الذى يفتح الطريق أمام المتعلم ليتعلم ، والعالم ليتفهم ، والمخترع ليخترع ، والمجاهد لينتصر . والمهموم ليفرح ، والمأزوم لتنفرج أزمته ، والمغموم لتذهب ضائقته ،

التخلق بهذا الاسم

يقول القشيرى : من علم أن الله هو الفتاح للأسباب وللأبواب لم يعلق فكره بغيره ، ولم يشتغل قلبه بسواه ، فيعيش معه بحسن الانتظار ، كلما ازداد بلاء ازداد بربه ثقة ورجاء . .

والأدب يقتضى أن يتدبر العبد معنى هذا الاسم الشريف ليحصل على بركته ، ويسعد بنور صحبته ، لايتعجل استجابة الله لدعائه ولايتبرم بما يصيبه من قضائه ، عليه أن يتحلى بالصبر والرجاء استجابة للحكمة الصائبة التى تقول : الصبر مفتاح الفرج . . .

الذكر بهذ الاسم

قال العلماء : من أكثر من ذكر اسم الفتاح ووضع يده على صدره طهر الله قلبه ، وأزال غمه وهمه .

ومن علم أن الله هو الفتاح لكل أبواب اليسر ، لايعلق قلبه إلا به ولايفكر إلا فيه .

ومن الأدعية بهذا الاسم دعاء بعض الصالحين بقولهم :

« ياألله يافتاح ياعليم ، ياغنى ياكريم ، افتح قلبى بنورك ، وارحمنى

بطاعتك ، واحجبنى عن معصيتك ، وامنن عَلَيَّ بمعرفتك ، واغننى بقدرتك عن قدرتى ، وبعلمك عن علمى ، وبإرادتك عن إرادتى وبصفاتك عن صفاتى . .

ومن الأدعية أيضا :

إلهى أنت الفتاح تفتح للعباد أبواب الرزق بكرمك وتمدهم بوافر نعمك ، تفتح القلوب فتطلعها على أسرار الغيوب ، تفتح أبوب السماء بقبول الدعاء . . افتح لنا أبواب رحمتك ، وعلمنا مالم نكن نعلم من سر الجسم والروح فأنت صاحب المدد والفتوح وأنت على كل شيء قدير . . . . . .
وصلى الله على سيدنا محمد.وعلى آله وصحبة وسلم

العليم

ورد اسم العليم فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة جدا تزيد على مائة وخمسين موضعا . منها قوله ـ تعالى ـ :

« قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم »(٢٧٨)

وقوله :

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ (٢٧٩)

وقوله :

« ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم »(٢٨٠)

وقوله :

« واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم »(٢٨١)

وقوله :

« إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم »(٢٨٢)

وقوله :

« ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير »(٢٨٣)

وورد بصيغة المبالغة فى قوله ـ تعالى ـ :

« قالوا لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب »(٢٨٤)

---

(٢٧٨) البقرة ٣٢
(٢٧٩) البقرة ١١٥
(٢٨٠) البقرة ١٢٧
(٢٨١) البقرة ٢٨٢
(٢٨٢) النمل ٧٨
(٢٨٣) الشورى ٥٠
(٢٨٤) المائدة ١٠٩

وفى قوله ـ تعالى ـ : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب »(٢٨٥)

وفى غير ذلك من الآيات .

وورد بصيغة اسم الفاعل فى مواضع عدة منها : قوله تعالى :

« وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة »(٢٨٦)

وقوله :

« ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بماكنتم تعملون »(٢٨٧)

وورد بصيغة أفعل التفضيل فى مواضع كثيرة منها : قوله تعالى :

« قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت . . . . »(٢٨٨)

وقوله :

« إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى »(١٨٩)

ومادة علم فى القرآن سخية جدا تشير كلها إلى سعة علم الله وكثرته . . . . . وتقلُّب الاسم بين صيغة اسم الفاعل وصيغة المبالغة واسم التفضيل ـ يدل على قصر العلم على الله ، وأنه بارادته وفضله يمنح بعض العلم لمن يشاء .

ومعنى العليم أنه ـ سبحانه ـ لاتخفى عليه خافية ـ قاصية كانت أو دانية ، « يعلم خائنة الأيمن وماتخفى الصدور »(١٩٠) ، وهو العالم بما كان ومايكون

---

(٢٨٥) التوبة ٧٨
(٢٨٦) الأنعام ٧٣
(٢٨٧) التوبة ٩٤
(٢٨٨) آل عمران ٣٦
(٢٨٩) النجم ٣٠
(٢٩٠) غافر ١٩

ومالايكون ، فإن علم الله بالأشياء سابق عليها وسبب لها . . . . لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . . لقد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا . . . . . قال تعالى : « **وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلايعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين** »(٢٩١)

وقد اقترن اسمه العليم ـ جل جلاله ـ باسمه الحكيم كثيرا ، كما اقترن باسمه السميع ، وباسمه الخلاق ، وباسمه العزيز ، وباسمه القدير وباسمه الفتاح ، وباسمه الخبير . . .

كما جاء منفردا دون أن يقترن باسم آخر .

وواضح أن العليم مشتق من العلم ، والعلم هو إدراك الشىء بحقيقته . وهو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع .

والعليم فى حق الله ـ تعالى ـ هو البالغ نهاية العلم وكذلك ـ العلاَّم . . وكل علم للخلق إنما هو مستمد من علم الله .

فعلم المخلوقات جميعا منحة إلهية منه . . سبحانه ـ فهو سبحانه ـ العالم الذى لاتخفى عليه خافيه ، ولايعزب عن علمه شىء جل أو صغر . وعنده علم الغيب وعلم الساعة ويعلم مافى الأرحام .

---

(٢٩١) الأنعام ٥٩

وقد اختص الله نفسه بعلم أشياء لايعلمها الا هو ، وقد يعطى علم بعض هذه الأشياء لمن شاء من رسله وأصفيائه ..... قال تعالى : -

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ۝٢٨ ﴾ (٢٩٢)

ومن الأشياء التى اختص بها علم الله - تلك التى تشير إليها هذه الآية ....

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ۝٣٤ ﴾ (٢٩٣)

ويوصف الله جل جلاله - بأنه عليم ، ولايوصف بأنه عارف ، لأن المعرفة يسبقها جهل . والله علمه قديم ، بل إن علمه سبب لوجود الموجودات . .

والفرق بين علم الله وعلم العباد واضح ، فعلم الله كثير واسع قديم . أما علم العباد فقليل قاصر حادث ... قال تعالى ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥ ﴾ (٢٩٤)

---

(٢٩٢) الجن ٢٦ : ٢٨

(٢٩٣) لقمان ٣٤

(٢٩٤) الاسراء ٨٥

هذا مع ملاحظة أن علوم العباد متفاوتة بعضهم يفضل بعضا ـ قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾(٢٩٥)

وقال تعالى : « وفوق كل ذى علم عليم »(٢٩٦)

وقد ذكر العلماء ـ أن الفرق بين علم الله وعلم العباد من ستة وجوه .

أحدها : أن الله يعلم كل شيء بخلاف العبد .

الثانى : أن علم الله لايتغير بتغير المعلومات بخلاف العبد .

الثالث : أن علم الله غير مستفاد من الحواس ولا من الفكر بخلاف العبد .

الرابع : أن علم الله ضرورى الثبوت ممتنع الزوال ، فالله لاتأخذه سنة ولانوم ، والله لاينسى . . قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾(٢٩٧) بخلاف العبد فعلمه يجرى عليه الزوال والنسيان .

الخامس : أن الله تعالى ـ لايشغله علم عن علم بخلاف العبد .

السادس : أن علم الله غير متناه بخلاف علم العبد »(٢٩٨)

التخلق بهذا الاسم

وإذا أنعم الله على عبد وهبه نعمة العلم ، فللعالم منزلة عظمى عند الله بشرط أن يكون عاملاً بعلمه .

ومن عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ـ والتقوى تنير القلب وتهب

---

(٢٩٥) الانعام ٨٣

(٢٩٦) يوسف ٧٦

(٢٩٧) مريم ٦٤

(٢٩٨) اسماء الله الحسنى د . احمد الشرباصى جـ ١ صـ ١٢٥

العلم قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ (٢٩٩)

وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ (٣٠٠)

والفرقان هو العلم .

وقد رفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات . قال . سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾ (٣٠١)

والعلم له آداب يجب أن يتخلق بها العالم . أهمها التواضع والتقوى ونفع الناس بعلمه ، وأن لايكون هدفه من العلم المباهاة أو المماراة أو استعمال العلم فى الإضرار بالناس . . . . . روى الطبرانى عن أم سلمة أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من تعلم العلم ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء فهو فى النار »

وروى أبو نعيم عن على بن أبى طالب ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من تعلم أربعين حديثا ابتغاء وجه الله ليعلم به أمتى حلالهم وحرامهم كتبه الله يوم القيامة عالما »

---

(٢٩٩) البقرة ٢٨٢

(٣٠٠) الانفال ٢٩

(٣٠١) الزمر ٩

ومن آداب العالم أن يستحيي من الله حق الحياء ، وأن يتذكر دائما أنه فى حاجة الى المزيد ، ففوق كل ذى علم عليم .

الذكر بهذا الاسم

وكثرة الذكر بهذا الاسم تثمر لصاحبها العلم ، ويرزقه الله الفهم ، ويفقهه فى الدين ، وتظهر على لسانه الحكم الالهية . .

وقد أمر الله نبيه - ﷺ - أن يقول : وقل رب زدنى علما . . فليدع العبد بهذا الدعاء ليفيض الله على قلبه من العلوم ماشاء . . .

ومن داوم على ذكر : ياعلام الغيوب - اشتاقت روحه إلى العالم العلوى . وأصبح من أصحاب الإلهامات والفراسة الصادقة .

ومن دعاء العلماء قولهم :

اللهم انا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك دينا قيما ، ونسألك العافية من كل بلية »

ومن الدعاء المأثور : اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع . ومن قلب لايخشع ، ومن نفس لاتشبع ، ومن عين لاتدمع ، ومن دعاء لايُسْمَع . . .

ومن الأدعية أيضا :

اللهم إنا نسألك التوبة الكاملة ، والمغفرة الشاملة ، والمحبة الجامعة والمعرفة الواسعة ، والأنوار الساطعة ، والحجة البالغة والدرجة العالية . . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القابض

جاء فى لسان العرب : القبض خلاف البسط . . ومن أسماء الله : القابض ـ أى الذى يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته ، ويقبض الأرواح عند الممات . وفى الحديث : « يقبض الله الأرض ويقبض السماء »

روى أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الله ـ تعالى ـ هو الخالق القابض الباسط الرزاق المعز ، وإنى لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبنى أحد بمظلمة ظلمتها إياه فى دم ولامال »

ولم يرد هذا الاسم « القابض » فى القرآن الكريم بهذا اللفظ ـ ولكن ورد ما يدل عليه ويشير إليه .

ومن ذلك قوله تعالى ـ :

﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ (٣٠٢)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (٣٠٣)

---

(٣٠٢) البقرة ٢٤٥

(٣٠٣) الفرقان ٤٥ ، ٤٦

وقوله - تعالى -

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ (٣٠٤)

وقد ورد بلفظه فى الحديث الذى سقناه سابقا .

ومما ورد من آيات وأحاديث تدور حول القبض نفهم هذه المعانى :

قبض الأرواح بالموت . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء »(٣٠٥)

وإلى هذا يشير قوله - تعلى -

« حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون »(٣٠٦)

قبض الرزق - وهو ضد البسط . والبسط يعنى السعة فى الرزق ، والقبض عكسه . ويكون قبض الرزق لحكمة يعلمها الله . . . تفهم من قوله - تعالى -

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ (٣٠٧)

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أحب الله عبدا حماه من الدنيا »(٣٠٨)

---

(٣٠٤) الزمر ٦٧

(٣٠٥) رواه احمد والبخارى وأبو داود والنسائى عن أبى قتاده رضى الله عنه

(٣٠٦) الأنعام ٦١

(٣٠٧) الشورى ٢٧

(٣٠٨) رواه الطبرانى والحاكم عن قتاده

ومن معانى القبض ماينتاب بعض النفوس من انقباض دون أن يكون لذلك سبب ظاهر ، وليس ذلك الا لأن الله يريد له ذلك ، وهذا يدل على قدرة الله الذى بيده وحده التصرف فى النفوس .

ومن ذلك أيضا قبض الرحمة عن الكفار يوم القيامة ، حتى ييئسوا من روح الله ولاييأس من روح الله الا القوم الكافرون . قال تعالى ـ :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣٠٩)

ومن تلك المعانى قبض اليد عن الإنفاق . وهذه صفة من صفات البخلاء الذين لايتحلون بصفة الاحسان والعطاء ـ قال تعالى ـ

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم »(٣١٠)

ومن المعانى اللغوية للقبض : الأخذ . أو هو تناول الشيء بجميع الكف نحو قبض السيف وغيره .

والله سبحانه ـ هو القابض الذى يقبض النفوس بقهره والأرواح بعدله ، والأرزاق بحكمته ، والقلوب بتخويفها من جلاله . .

والقابض هو الذى يقبض العباد بدلائل الخوف من الكبرياء . .

ومن معانى القبض التى أشار اليها الرازى : القبض فى السحاب ـ كما قال ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ

---

(٣٠٩) العنكبوت ٢٣

(٣١٠) التوبة ٦٧

كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٣١١)

ومنها : القبض فى الظلال والأنوار كما قال ـ تعالى ـ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (٣١٢)

التخلق بصفة القبض

والمؤمن الذى يتخلق بهذه الصفه ـ هو الذى يقبض يده عن الأذى ، ويقبض لسانه عن الباطل ، ويقبض قلبه عن الخواطر السيئة ، ويقبض سمعه عن الشر .

ويطلب الذاكر بهذا الاسم من الله القابض أن يقبض الشر عنه وأن يكشف السوء عن قلبه ـ قائلا : ويا قابض اقبض شر من رام كيدنا »

أما بالنسبة لما يعترى العبد من صفة القبض فقد قال البعض فى ذلك : القبض والبسط قلما يخلو العبد منهما . وهما يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار .

فمن كان وقته القبض فلايخلو من أن يكون له سبب أو ـ لا .

فان كان له سبب كالذنب الذى يحدثه ، أو الدنيا التى أدبرت ، أو الظالم الذى يؤذى ، فذهاب القبض يكون بالتوبة من الذنب والاستغفار ، وبالصبر والاحتمال والشكوى الى الله .

---

(٣١١) الروم ٤٨ ، ٤٩

(٣١٢) الفرقان ٤٥

وان لم يكن هناك سبب فعلى المقبوض أن يسكن حتى تذهب هذه الحالة بقدرة الله تعالى _[٣١٣]

ومن الدعاء فى ظل هذا الاسم ماأورده ـ د . أحمد الشرباصى ـ فى كتابه أسماء الله الحسنى ـ عن بعض الصالحين « إلهى أنت القابض على نواصى العباد ، المتصرف فى القلوب والأرواح بمشيئتك . . . . القبض فى الظاهر بلية ، ولكنه عين العطية . فلولا القبض ماتأدب معك العباد بالتوبة ، وتقبض القلوب فتتأدب معك النفوس من جلال الهيبة .

امنحنا اللهم قوة نقبض بها على زمام أنفسنا ، حتى لاتخرج من مرضاتك ، وامنحنا همة نقبض بها على كل من اتصل بنا فيكون قائما بطاعتك إنك على كل شيء قدير . . . . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم[٣١٤]

---

(٣١٣) عن شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى لابن عباد الرندى حـ ١ صـ ٦٨

(٣١٤) اسماء الله الحسنى د . احمد الشرباصى حـ ١ صـ ١٣١

الباسط

« الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » والمعنى أنه يوسع الرزق على من يشاء من عباده .

وقال ابن منظور فى لسان العرب : الباسط من أسماء الله - تعالى - هو الذى يبسط الرزق لعباده ويوسعه عليهم بجوده ونعمته ورحمته ، ويبسط الأرواح فى الأجساد عند الحياة .

والبسط نقيض القبض . .

ولم يرد « الباسط » بهذا اللفظ فى القرآن الكريم ولكنه ورد فى الحديث الشريف « إن الله - تعالى - هو الخالق القابض الباسط »(٣١٥)

وورد فى القرآن الكريم آيات تدل عليه . منها قوله - تعالى - :

﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥ ﴾ (٣١٦)

وقوله تعالى - : (٣١٧)

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠ ﴾

وقوله

﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧ ﴾ (٣١٨)

وجاء الفعل « بسط » فى القرآن الكريم بمعنى مدَّ . تقول بسط الطائر جناحه بمعنى مده ، وبسط فلان يده بالسيف بمعنى مدها . . . . . .

(٣١٥) رواه احمد وأبو داود والترمذى عن أنس - رضى الله عنه

(٣١٦) البقرة ٢٤٥

(٣١٧) الاسراء ٣٠

(٣١٨) الشورى ٢٧

قال ـ تعالى ـ على لسان ابن آدم : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾ (٣١٩)

والبسط يأتى بمعنى السرور . . تقول : بسط فلان فلانا بمعنى سره . قال عليه الصلاة والسلام فى حق فاطمة : « فاطمة بضعة منى ، يقبضنى مايقبضها ويبسطنى مايبسطها » أى يسرنى مايسرها . والبسط من لوازم السرور فى الحقيقة . لأن الانسان إذا سر انبسط وجهه واستبشر . قال أهل اللغة : وأصل البسط النشر . وقد أخذ منه البساط وهو ماينشر على الأرض . ومنه أيضا أُخِذَتْ البسيطة ـ وهى الأرض العريضة الواسعة . .

وأول مايتبادر الى الذهن من معنى الباسط . الموسع للأرزاق ، وقد جاء ذلك فى آيات كثيرة ذكرنا بعضها للاستدلال .

وهذا لايمنع من وجود معانى أخرى لهذا الاسم ، فالباسط الذى يبسط النفوس بالسرور والفرح .

ويجىء عكس قبض ـ الذى يفيد قبض الأرواح عند الموت . . فيكون معناه بسط الأرواح فى الأشباح عند البعث من الموت ، لعرض الأعمال بين يدى الله .

ومن المعانى الدقيقة عند بعض العلماء : الباسط هو الذى يؤمنك بعفوه وإطلاقه فيجتبيك .

وللغزالى تعبيرات رقيقة فى هذا المجال . قال : الباسط هو الذى يبسط قلوب العباد بدلائل الرجاء . .

---

(٣١٩) المائدة ٢٨

ولله حكمة فى بسط الرزق وتضييقه ، فهو يبسط الرزق للأغنياء مِنةً ومنحة ، ويقبضه عن الفقراء تجربة ومحنة .

أو هو يبسطه للأغنياء حتي لاتبقى فاقة ، ويقبضه عن الفقراء حتى لاتبقى طاقة . .

والبسط كما يكون فى الرزق يكون فى العلم ويكون فى الجسم . . فهو فى العلم بمعنى السعة والكثرة . . وفى الجسم بمعنى الطول والوفرة ، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾(٣٢٠)

التخلق بهذا الاسم :

ولمن يريد التخلق بهذا الاسم هناك آداب يجب أن يتحلى بها ـ منها :

أن يبسط يده بالاحسان ولايطويها عن أهل الفقر والامتحان .

والموصوف بهذا الاسم ـ كما يقول الإمام الغزالى ـ هو من ألهمه الله بدائع الحكم ، وأولاه جوامع الكلم . فهو تارة يبسط القلوب بتذكيره الناس بآلاء الله ونعمه ، وتارة يقبضها بما ينذرهم من جلال الله وكبريائه . . وهذه صفات الرسل الذين أرسلهم الله مبشرين ومنذرين . .

وهذان الاسمان ـ القابض الباسط ـ يثمران حالى الخوف والرجاء فى قلب المؤمن . وكما قلنا فى القبض من أن من معانيه ـ مايعترى قلب المؤمن من انقباض قد يكون له سبب وقد لايدرى له سببا فى الظاهر ـ فكذلك الأمر بالنسبة للبسط ، فمن معانيه مايعترى قلب المؤمن من فرح وسرور ، وقد

---

(٣٢٠) البقرة ٢٤٧

يكون له سبب ظاهرى كزيادة فى الطاعة . أو زيادة فى النعمة ، أو زيادة فى مدح الناس له والثناء عليه . .

والعبودية الحقة تقضى أن يقابل العبد هذه الأسباب بشكر الله المنعم ، وعدم رؤية النفس إزاءها ، وترك الغرور المترتب عليها . . . .

وقد لايكون للبسط سبب معلوم ـ فالأدب يقضى بالتزام الأوامر والنواهى وعدم مجاوزة الحد ، والفزع الى الله ، حتى لايخرج الإنسان عن دائرة العبودية مصداقا لقول من يقول :

وإن أجلسوك على بساط ودادهم إياك أن تنسى التقى إياكا .

الذكر بهذا الاسم :

يرى العلماء أنه ينبغى للذاكر أن يجمع بين الاسمين « القابض والباسط » فى الذكر قائلا ـ كما ذكر بعضهم :

وياقابض اقبض شر رام كيدنا ، ويا باسط ابسط رزق عبد بوسعة

ومن أدام ذكر الباسط بسط الله رزقه وأحيا قلبه ، وأزال همه وغمه ، وأحبه كل من يراه .

ومن الأدعية الواردة فى ذلك :

إلهى أنت الباسط للقلوب بشهودك ، والباسط للأجسام بجودك . فتجل لنا بنور اسمك الباسط ، حتى تظهر أنواره على جوارحنا ، فمن رآنا انبسط وانشرح صدره . .

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر فى ظل اسمى القابض الباسط :

ياقابض القلوب عن همومها ياباسط الأرواح فى جسومها

.لاتقبض النعمة عن محرومها وابسط له الحكمة عن حكيمها
ماأعظم الرحمة من رحيمها[٣٢١]

---

(٣٢١) اسماء الله الحسنى احمد مخيمر صـ ٤٠

اسم الله « الخافض »

الرافع

المعز المذل

السميع

البصير

الحَكم

العدل

اللطيف

الخبير

الحليم

العظيم

الغفور

الخافض

لم يرد اسم الخافض فى القرآن الكريم . ولكنه ورد فى الأسماء التى ذكرها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حديثه الشريف - قال - صلى الله عليه وسلم - « ان لله - عز وجل - تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » وهذا الاسم الثالث والعشرين بينها .

وقد وردت مادة خفض فى القرآن الكريم فى آيات منها : قوله تعالى -:

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٣٢٢)

وقوله - تعالى - :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣٢٣)

وقوله تعالى - :

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ (٣٢٤)

وكل هذه الآيات وصايا بالتواضع والمعاملة الحسنة .

وفى الاشارة الى الخفض والرفع ورد قوله تعالى - فى وصف يوم القيامة

---

(٣٢٢) الحجر ٨٨

(٣٢٣) الاسراء ٢٤

(٣٢٤) الشعراء ٢١٥

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ ﴾(٣٢٥)

وقال القرطبى فى معنى خافضة رافعة : يقول العلماء : خَفَضت الصوتَ فأسمعت من دنا ، ورفَعت الصوت فأسمعت من نأى ، أى أسمعت القريب والبعيد . وقال السُّدِّى : خَفَضت المتكبرين ورفعت المستضعَفين .

وقال قتادة : خَفَضَتْ أقواما فى عذاب الله ، ورفعتْ أقواما فى طاعة الله . وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه : خفضت أعداء الله فى النار ، ورفعت أولياء الله فى الجنة .

وقال محمد بن كعب : خفضت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين .

وقال ابن عطاء : خفضت أقواما بالعدل ، ورفعت آخرين بالفضل ، قال القرطبى : الخفض والرفع يستعملان عند العرب فى المكان والمكانة وفى العز والمهانة .

ونسب سبحانه الخفض والرفع ليوم القيامة توسعا على عادة العرب فى إضافتها الفعل إلى المحل والزمان والسبب وغير ذلك . والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده ، فرفع أولياءه فى أعلى الدرجات ، وخفض أعداءه فى أسفل الدرجات .

فهذه الآية من سورة الواقعة تشير الى اسمى الله - الخافض الرافع . وقد أشرنا إلى أقوال بعض العلماء فى معنى الخافض الرافع . . . . وهذه بعض أقوال أخرى للعلماء فى معنى الخافض .

---

(٣٢٥) الواقعة ١ : ٣

قيل : الخافض الذى يخفض بالإذلال من تَعظَّم وتكبر ، وشمخ بأنفه وتجبر ـ يخفض أقواما ، ويخفض الباطل ويذل أهله .

وقيل : الخافض هو الواضع لمن عصاه والمذل لمن غضب عليه ، يخفض الكفار بالإشقاء ويخفض أعداءه بالإبعاد .

وقيل : هو الخافض لاعدائه بالذل .

وقيل : هو الذى خفض أهل الكفر بعزه ، وخفض اهل الكبر بجلاله وخفض اهل الزور باظهار تكذيبهم ، وخفض كل خارج عن شريعته مهما كان غنيا بالمال ، أو عزيزا بالرجال .

سئل بعض العلماء عن قوله تعالى ـ « كل يوم فى شأن » فقيل له : ما شأن ربك اليوم ؟

فأجاب قائلا : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواما ويخفض آخرين .

التخلق بهذا الاسم

إذا أراد العبد أن ينال حظا من اسم الله ـ الخافض ، فعليه أن يطامن من كبريائه ، ويكفكف من غلوائه ، ويعد نفسه أضعف المخلوقين ، وعليه أن يخفض من شأن عدو الله إبليس فلايطيع هواه ، ولا يستمع الى وسوسته ، وأن يحتقر علوه وادعاءه .

وعليه أن يهون من شأن الكفار فى نفسه فلا يرفع لهم شأناً ولا يخاف لهم بأسا .

وعليه أن يبر والديه ويتواضع لهم ، ويتواضع لكل مؤمن كما أمر الله بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم .

الذكر بهذا الاسم

من الأدعية التى أوردها العلماء فى ظلال هذا الاسم قولهم : « إلهى أنت الخافض للجبارين بقهرك ، المذل للمتكبرين بجبروتك ، المتعالى العلى الكبير ، المتجلى بنصرك ، وأنت نعم المولى ونعم النصير . أسألك أن تمنحنى قوة جبروتيه أخفض بها كل جبار عنيد ، وأُصَغِّر بها نفسى وشيطانى المريد . . . . أتواضع بها لوالدى ، وأتذلل لكل مسلم . وأقدمه علىَّ فيكون لى حظ من نور هذا الاسم الشريف ، إنك على كل شىء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم »

الرافع

ورد فى القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾ (٣٢٧)

كما ورد قوله ـ تعالى ـ فى حق المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ورفعنا لك ذكرك »(٣٢٨)

وجاء فى حق إدريس عليه السلام ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾ (٣٢٩)

وفى حق المؤمنين وأولى العلم قال تعالى ـ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) ﴾ (٣٣٠)

---

(٣٢٧) البقرة ٢٥٣
(٣٢٨) الشرح ٤
(٣٢٩) مريم ٥٧
(٣٣٠) المجادلة ١١

وفى حق الناس كافة ـ قوله تعالى :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣٣١)

وكل هذا الرفع رفع معنوى . . أما الرفع الحسى الذى تشاهده الأعين فهو فى قوله تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (٣٣٢)

فمن المسلم به أننا إذا سئلنا عن السماء نظرنا إلى أعلى لنشاهد قبة زرقاء نشير إليها باليد ، وإن كان لايمكن لمسها ولا يمكن مشاهدتها على حقيقتها وإنما نشاهد ما يدل على سموها وارتفاعها .

ومثل ذلك قوله تعالى ـ

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٣٣٣) أى عالية ، وان كان ذلك فى الجنة .

وقد ينسب الرفع إلى العمل فى قوله تعالى ـ

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣٣٤)

(٣٣١) الزخرف ٣٢
(٣٣٢) الرعد ٢
(٣٣٣) الغاشية ١٣
(٣٣٤) فاطر ١٠

عند من يفسر أن صعود الكلم الطيب يتم بسبب العمل الصالح . وقد يُفَسَّر : أن الذى يرفعه هو الله تعالى ـ

هذه بعض الآيات الكريمة التى وردت فيها مادة رفع فى القرآن الكريم . . وهى المادة التى أخذ منها « الرافع » الذى هو اسم من اسماء الله الحسنى . .

والرافع هو الله ـ جلت قدرته ـ سواء كان الرفع للمنزلة أو للدرجات أو للكلم الطيب : أو للبناء أو لغير ذلك من أوجه الرفع الحسى ، أو المعنوى .

إن الله هو الذى رفع الغمام على متن الهواء ، ورفع الطير فى جو السماء ، ورفع الكواكب فى أجواز الفضاء ، ورفع اسم الصديقين والشهداء ، ورفع منازل الصالحين والأولياء ، ورفع ذكر المرسلين والأنبياء .

والذى يرفعه الله لا يمكن أن يخفضه مخلوق ، كما أن الذى يخفضه الله لا يمكن أن يرفعه مخلوق . .

ومن معانى الرافع : المدبر لشئون الخلق المتولى أمرهم المتصرف فى مصالحهم ـ قال تعالى ـ

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾(٣٣٥)

فكم من أمير تحيط به رعيته ، يعيش مرفوعا فى أعين الخلق فإذا به بين عشية وضحاها تطيش به سهام القدر فيصبح مغمورا لا يحس به أحد ،

(٣٣٥) آل عمران ٢٦

ولايأبه له مخلوق . .

وكم من مغمور ضائع فقير ترتفع أسهمه فجأه ، فيصبح وقد ائتمر الناس بأمره ، ورفعوا شأنه وقدره . .

إنها يد الله التى تخفض وترفع ، وتعز وتذل ، وكل ذلك لحكمة يعلمها الله تبارك اسمه ـ

التخلق بهذا الاسم

والذى يعيش فى ظل هذا الاسم عليه أن يتأدب بأدب القرآن الكريم ، فيزكى عمله ، ويصلح سريرته ، وينقى قلبه ، ويجتهد فى تقديم الصالح من الأعمال حتى يرفع الله اسمه فى عليين . . ويصدق عليه الحديث الشريف : « رب أشعث أغبر ذى طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره »

ومن أراد الرفعة حقا فليتحل بحلية التواضع ، فقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « من تواضع لله رفعه ومن تكبر عليه خفضه »

الذكر بهذا الاسم

وينبغى للذاكر أن يذكر الله باسميه معا : الخافض الرافع ، فيقول : وياخافض اخفض شأن من قصد ذُلَّنَا : ويارافع ارفعْنا بسر الخلافة ـ والخلافة : هى الخلافة عن الله فى الأرض ـ قال تعالى ـ

« وإذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة »

ولهذه الخلافة آداب وأخلاق . . من تخلق بها ارتفع إلى مقامها وأصبح جديرا بها .

ومن الأدعية فى ظل هذا الاسم : -

« إلهى ، تجليت باسمك الرافع فرفعت قدر أنبيائك وأوليائك ، فأظهرت لهم المعجزات ، وأبرزت لهم الكرامات ، ورفعت أرواحهم إليك ورققت هممهم فلم يطلبوا سواك ، لأن عيون أرواحهم تراك ، فاجعل لنا أوفر حظ من نور اسمك الرافع ، حتى يرفع شأننا ، فنرفع أحبابك وننفذ أحكامك ، فنكون رافعين مرفوعين ، بفضلك يارافع يامعين ، إنك على كل شىء قدير . . وصلى الله على سيدنا محمد ـ وعلى آله وصحبه وسلم .

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر فى ظل هذين الاسمين : -

الله ربى خافضٌ أعداءَهُ
ورافع إليه أولياءَهُ
وخافض بحارَه وماءَهُ
ورافع عن أرضه سماءَهُ
وواهب لخلقه نعماءَهُ(٣٣٦)

(٣٣٦) أسماء الله الحسنى لأحمد مخيمر ص ٤٢

المعزُّ المذلُّ

الله هو العزيز الذى لا عزة إلا به ، وهو المعز الذى يعز من يشاء . جاء فى لسان العرب : المعز الذى يهب العز لمن يشاء من عباده . . وهذا الاسم يفهم من قوله ـ تعالى : ـ

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ (٣٣٧)

ولا يهب العز لغيره إلا العزيز . . ولا عزة إلا الله ، ولا عزة إلا به ـ سبحانه ـ قال ـ تعالى ـ

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٣٨)

ومفهوم هذه الآية يفيد أن الله يمنح العزة الحقيقية لأوليائه وأحبائه وأساسها الايمان والتقوى والعمل الصالح الذى يقرب من رب العزة . . . . . إن الحق سبحانه وتعالى ـ هو المعز ـ من لجأ إليه احتمى به ، واكتسب به العزة التى لا تضام .

وإذا كان الواهمون يظنون أن الالتجاء لأصحاب الجاه والسلطان يمنحهم العزة والجاه والسلطان ، فقد استندوا فى ذلك إلى ركن واهٍ وحمىً منهار : وقد ورد فى الأثر : « من استعز بقوم دون الله أذله الله على أيديهم » .

وكم رأينا من أقوام تمسحوا بالسلاطين والأمراء ، وتقربوا منهم تعززاً بهم ، فإذا بالأيام تقلب لهم ظهر المجن ، ويذوقون على أيديهم الذل

---

(٣٣٧) آل عمران ٢٦

(٣٣٨) المنافقون ٨

والصغار والهوان والدمار ، بعد أن كانت لهم فى ظلهم دولةٌ ولهم على أيديهم منزلة . .

إن الذى يعزُّ الانسان حقاً هو طاعته لربه ، فالله هو الذى يعز أولياءه بطاعته ويحفظهم برعايته ، ويغمر لهم بفضله ورحمته . فمن داوم على ذكره جعله الله فى مركز العزة ، وأودع فى قلوب الخلق هيبته . قال على ابن الحسين ـ رضى الله عنهما ـ : من أراد عزاً بلا عشيرة ، وهيبة بلا سلطان ، وغنى بلا مال ، فليخرج من ذل المعصية الى عز الطاعة .
وما أصدق ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : « إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعزٍّ يفنى » .

وقال شارح الحكم : العز الذى لا يفنى هو الغنى عن الأسباب بالاعتماد على مسبب الأسباب ، لأنه باقٍ لا يفنى ، فالتعلق به عز لا يفنى ، والعز الذى يفنى هو الغنى بالأسباب مع الغيبة عن مسببها ، لأنها فانية ، فالتعلق بها عز فانٍ لا يبقى ، والتعلق بالله عز لا يفنى . حكى بعضهم قال : رأيت رجلاً فى الطواف وبين يديه جنود يطردون الناس ، فبعد ذلك بزمن رأيته يتكفف الناس على الجسر . .

فسألته عن ذلك فقال : لقد تكبرت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله فى موضع يترفع فيه الناس .

وما أصدق الذى يقول :

اجعل بربك شأن عزك يتسقرٌّ ويثبتُ .
فإن اعتززت بمن يموت فإن عزك ميتُ .

ولا يُذِلُّ الانسانَ شيء كالمعصية ، لأنها تقطع السبب بين الانسان الضعيف وبين ربه القوى العزيز . .

إلا إذا أعقب المعصية التوبة والندم والخوف من الله والإقبال عليه . . . مصداقاً لقول القائل : « رب معصية أورثت ذلًا وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً »

قال شارح الحكم : الذل والافتقار من صفات العبودية ، والعلو والاستكبار مناقضان لها ، لأنهما من صفات الربوبية . ولا خير فى الطاعة إذا أدت إلى شيء يناقض صفات العبودية ، لأنها تحبطها وتبطلها . . . .

وقد سبق أن تحدثنا عن اسم « العزيز » ـ جل جلاله ـ وهو من الأسماء التى ورد ذكرها بكثرة فى القرآن الكريم . جاء مقترناً بالحكيم ، وبالقوى ، وبالوهاب ، وبالغفور ، وبالحميد . . .

ولقد ضرب الله الذلة والمسكنة على الذين يعرضون عن الله ، وينأون بجانبهم عنه ، ويخرجون على تعاليمه .

ففى حق اليهود قال ـ تعالى ـ

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (٣٣٩)

---

(٣٣٩) آل عمران ١١٢

وقال فى حق الكفار بصفة عامة :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) ﴾ (٣٤٠) »

أما حالهم فى الآخرة فهو أشد ذلاً وصغاراً

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾ (٣٤١)

وقال - جل جلاله - :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) ﴾ (٣٤٢)

إن طريق العزة الحقيقية معروف ، وهو رفع حجاب الغفلة عن القلب ، والتمسك بأسباب الطاعة والقرب ، والإعراض عن دعاوى الهوى والضلال ، والسير على سنن أهل الهدى والكمال .

إن من أسباب العزة القناعة ، ومن أسباب الذل الحرص والطمع ، وقد ورد فى الحكم المستنيرة : عز من قنع ، وذل من طمع .

---

(٣٤٠) يونس ٢٧
(٣٤١) المعارج ٤٣ ، ٤٤
(٣٤٢) طه ١٣٤

كما ورد أيضاً : أذل الحرص أعناق الرجال » وذكروا فى ذلك . أن البازى أو العُقاب الذى يحلق فى الفضاء عزيزاً قوياً يرى قطعة لحم على شبكة فيدفعه الطمع إلى أن يهوى إليها فيعلق بالشبكة ذليلاً مهيناً . وكذلك الانسان مايزال به حرصه وشرهه حتى يوقعه فى شباك من يذله ويتلاعب به ، ثم يجفوه ويحتقره . .

وقال العلماء فى معنى المذل : هو الذى يذل الكافرين بصولة الحق ، ويقهر من يشاء من خلقه بإذلاله . .

وهو الذى أذل العصاة الذين اتخذوا من دونه آلهة يعبدونها . . قال تعالى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٣٤٣)

وأذل الذين يعادون الله ورسوله ـ قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٣٤٤)

ووسائل الاذلال كثيرة فالله يذل الغنى بالفقر ، والجبار بالمرض أو الشهوة فيجعله ذليلاً للمرأة ، أو بالسجن ، أو بالمال ، فيخضع له ويلهث وراء جمعه غير مبال بالحلال والحرام . أو يذله بالحاجة إلى من هو أقل منه . . أو بغير ذلك من الوسائل التى تحكيها لنا الوقائع والأحداث .

ومن الدعاء الصالح : اللهم لا تذلنا إلا إليك وأعزنا بك . .

---

(٣٤٣) الأعراف ١٥٢

(٣٤٤) المجادلة ٢٠

الدعاء بهذين الاسمين

ومما ورد من الدعاء بهذين الاسمين : « اللهم أنت المعز المذل من أردت إعزازه عز ، ومن اردت إذلاله ذل ، فالعزة بك والذل إليك ، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك ، وكل وجد يحجب عنا ، فنسألك موضعه فقدا تصحبه أنوار محبتك . . » .

« إلهى أنت المعز لأحبابك ، فأدخلهم فى رحابك . . . . . تكاشفهم بالجمال فيقبلون إليك ، وتلاطفهم بالجنان فيركنون إليك ، فى القلوب يعظمون شعائرك المصونة ، ويعزون كل من اعتز بعزك ، وأغنيته من كنزك .

إلهى تجل لنا باسمك المعز فأعزنا ، حتى لا يرانا مخلوق إلا ويرى تاج عزك على رءوسنا فيخضع لك يا معز . . . انك على كل شىء قدير . . » .

وفى الدعاء باسم المذل قال بعض الصالحين :

« إلهى أنت المذل لأعدائك ، المهين للعصاة بحلول بلائك ، أسألك أن تتجلى علىَّ بمدد اسمك المذل حتى أذل نفسى وشيطانى ، وأذل كل كافر وفاجر ، واحفظنى من ذل المعصية ، وذل الجهل ، وذلل لى كل صعب ، وهون لى كل عسير ، وتوجنى بتاج المهابة ، حتى يذل لى كل كافر وفاجر إنك على كل شىء قدير .

ومن الأدعية أيضاً :

«رب أَحْى روحى بزاد من عزتك ، وأرنى بدائع حكمتك فى صنعك ، حتى أحكم بصنعة كل مصنوع ، وأقابل كل شىء بما يجب له علىَّ ، حتى يحيا كل قلب ميت ، وتنقاد كل نفس أبية ، إن شأنك العدل والاصلاح ، وإليك تنقاد النفوس والأرواح . . . انك على كل شىء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

السميع

ورد اسم السميع فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، أغلبها مقترن باسمه العليم . .

ومن هذه المواضع قوله ـ تعالى :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (٣٤٥)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٣٤٦)

وقوله ـ تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ (٣٤٧)

وجاء مقترنا باسمه البصير فى مواضع ـ منها قوله ـ تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٣٤٨)

وقوله ـ تعالى :

« ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير »

---

(٣٤٥) البقرة ١٢٧

(٣٤٦) البقرة ١٣٧

(٣٤٧) البقرة ٢٢٤

(٣٤٨) الحج ٧٥

وقوله ـ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٣٤٩)

وجاء مقترنا باسمه القريب فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٣٥٠)

وجاء منفردا غير مقترن باسم آخر فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣٥١)

وفى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٣٥٢)

واقتصرت الآيتان الأخيرتان على اسم السميع فقط ، لأنهما لسان حال نبيين ضارعين ، دعوا الله فاستجاب دعاءهما ، وقد كان دعاؤهما رجاء

---

(٣٤٩) غافر ٥٦
(٣٥٠) سبأ ٥٠
(٣٥١) آل عمران ٣٨
(٣٥٢) إبراهيم ٣٩

يختلج فى ضمائرهما ، وأمر يراود قلبيهما . . وهما وإن تضرعا بذلك فقد تضرعا به فى نجوى خافتة لا يحس بها أحد ، ولكن الله سمعها فاستجاب لهما ووهبهما ما كانا يأملان . . أما الأول فهو زكريا ، وأما الثانى فهو إبراهيم ـ عليهما السلام ـ

والسميع ـ صيغة مبالغة ـ من السمع ، ومعناه : مدرك المسموع وإن خفى ، لا يفوت سمعه شيء ولا يشغله نداء على نداء ، ولا تخفى عليه أصوات خلقه فى سمائه وأرضه ، ولا تختلط عليه الألسنة واللهجات ، وهو سبحانه يسمع كل شيء . . . . كل جهر وكل همس وكل خاطر ، ويسمع دعاء المضطرين ويجيبهم :

قال تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٣٥٣)

وكما يسمع دعاء المضطرين والمحتاجين يسمع حمد الحامدين وشكر الشاكرين ويثيبهم عليه ، والله بقدرته يسمع مناجاة الضمائر وخلجات القلوب ، وما يستكن فى النفوس من خواطر قد لا تجد صداها فى نفثة حارة أو دمعة ساخنة أو أنين مؤلم . .

لقد وصف الله نفسه بأنه يسمع تحاور المتحاورين ، وجدال المتجادلين

(٣٥٣) النمل ٦٢

ونجوى المتناجين قال ـ جل ذكره ـ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ﴾ (٣٥٤)

وبعى على الكفار جهلهم بالله وعدم إيمانهم بأن الله يسمع سرهم ونجواهم . فقال : (٣٥٥)

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠ ﴾

والسمع يقتضى العلم ، ويقتضى الرؤية ، ويقتضى القرب ، ويقتضى القدرة ، ولذلك اقترن بهذه الأوصاف فى المواضع التى وردت فى الآيات المتقدمة . . . . . قال الله ـ تعالى ـ مخاطبا موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ بعد أن توجسا خوفا من لقاء فرعون الطاغية :

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ ﴾ (٣٥٦)

فسماعه ورؤيته يؤديان إلى حفظهما والقدرة على عدوهما والبطش به إن هم نحوهما بسوء .

والله سبحانه وتعالى ـ وصف الانسان بما وصف به نفسه ـ جلت قدرته ـ قال تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾ (٣٥٧)

---

(٣٥٤) المجادلة ١ — (٣٥٦) طه ٤٥ ، ٤٦

(٣٥٥) الزخرف ٨٠ — (٣٥٧) الانسان ٢

ومن الله على عباده بأن منحهم نعمتى البصر والسمع ـ قال ـ جل جلاله ـ

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(٣٥٨)

وقال ـ تعالى ـ :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣٥٩)

ونلاحظ أن نعمة السمع مقدمة على نعمة البصر فى الآيتين المتقدمتين ، ذلك لأن الإدراك بالسمع يسبق الإدراك بالبصر . . ولو تدبرت حال الطفل حين يولد ، لوجدته يستجيب للحس قبل أن ترى عيناه .

وقد مَنَّ الله علينا بالسمع لنستعمله فيما يفيد . قال ـ تعالى ـ

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴿١٨﴾ ﴾(٣٦٠)

فالواجب على الانسان أن يسمع القرآن ويتدبره ، ويعمل به ، ويكون من الذين قال الله فى حقهم :

(٣٥٨ النحل ٧٨
(٣٥٩) الملك ٢٣
(٣٦٠) الزمر ١٨

﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾[٣٦١]

ولا يكون من الذين قال الله فيهم « وقالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العمل بكفرهم »

التخلق بهذه الصفة

إن التخلق بهذه الصفة ينبغى أن يُعَلِّم الانسان المراقبة الدائمة لله ، لأن الله يسمع ما يتحرك به خاطره ، ومايتردد فى فؤاده . فما بالك بما يتفوه به ويتكلم به . .

لقوله ـ تعالى ـ

« ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا »[٣٦٣]

وأن يكون عند سماع القرآن مصغيا منصتا مستجيبا . . . . . لقوله ـ تعالى ـ

« وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »[٣٦٤]

إن الذى يسمع ولا يعقل أو يسمع ولا يستجيب شأنه شأن الميت أو شأن الحيوان ، والانسان منزه عن ذلك فقد كرمه الله وفضله على غيره من المخلوقات . فليكن جديرا بهذا التفصيل . أما تشبيه الذى لا يستجيب بالميت فقد ورد فى قوله تعالى تعالى :

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[٣٦٥]

---

(٣٦١) البقرة ٢٨٥

(٣٦٢) البقرة ٩٣

(٣٦٣) آل عمران ١٩٣

(٣٦٤) الأعراف ٢٠٤ (٣٦٥) فاطر ٢٢

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾ (٣٦٦)

وأما تشبيهه بالحيوان فقد ورد فى قوله ـ تعالى ـ

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾ (٣٦٧)

قال بعض الصالحين: إن العبد إذ تقرب إلى الله ـ تعالى ـ بالنوافل أحبه الله، فأفاض على سمعه نورا تنفذ به بصيرته إلى ما وراء المادة. استجابة لما ورد فى الآثر القدسى: « ما تقرب إلى عبدى بشيء أفضل مما افترضته عليه، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يسعى عليها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه.

الذكر بهذا الاسم

رأى رجل رجلا يدعو فى الحرم الشريف بهذا الدعاء: ـ

مولاى إنى بائس كما ترى وشملتى بالية كما ترى
وحالتى ضيقة كما ترى وطفلتى بالية كما ترى
فما ترى يا سامعى فيما ترى يا من يرى عبيده ولا يُرَى؟

فلم يغادر الرجل الحرم حتى هيأ الله له من أغدق عليه بالكثير ـ فقال أحد الحاضرين: ما رأيت دعوة استجيبت بمثل هذه السرعة!

---

(٣٦٦) النمل ٨٠
(٣٦٧) البقرة ١٧١

فقال الرجل : ألا ترى أنى دعوت سميعا قريبا مجيبا ؟

قال بعض العلماء : من أكثر من ذكر هذا الاسم كان مجاب الدعوة . . ومن ردده كثيراً حفظه الله من ثقل السمع .

ومن الدعاء المأثور فى ذلك « ياسميع يا قريب يا مجيب يا ودود احفظنا من فتنة الدنيا وفتنة النساء والغفلة والشهوة وظلم العباد وسوء الخلق ، واغفر لنا ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا ، واكشف عنا السوء ونجنا من الغم واجعل لنا منه مخرجا ـ إنك على كل شىء قدير »

ومن مناجاة بعض الشعراء : ـ

يا من يرى ما فى الضمير ويسمع   أنت الضمان لكل ما يتوقع

فأمن علينا بالنجاة وبالهدى   فلأنت أعظم من يجير وينفع

ومن مناجاة شاعر آخر : ـ

ياسامعا فى الليلة الظلماء   صوت دبيب النملة السوداء

تدب فوق الصخرة الصماء   أنت السميع هامس الدعاء

تدعو به القلوب فى الخفاء   من غير ما صوت ولا أصداء

البصيـــر

جاء فى لسان العرب عن ابن الأثير : البصير فى أسماء الله ـ تعالى ـ الحسنى ـ هو الذى يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها ودقيقها وجليلها . . والبصر فى حقه ـ تعالى ـ عبارة عن الصفة التى ينكشف بها كمال نعوت المبصرات .

وفى القرآن الكريم :

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »(٣٦٨)

قال بعض المفسرين : أعلم الله أنه يدرك الأبصار ، وفى هذا الإعلام دليل على أن خلقه لا يدركون الابصار ، أى لا يعرفون حقيقة البصر ، ولا الشىء الذى به صار الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه . فأعلم الله أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه ، فكيف به ـ تعالى ـ والأبصار لا تحيط به . .

وقد ورد اسم البصير فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم . . . منها قوله ـ تعالى ـ

« والله بصير بما يعملون »(٣٦٩) وقوله **« إن الله بما تعملون بصير »**(٣٧٠) وقوله

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن

---

(٣٦٨) الأنعام ١٠٣
(٣٦٩) البقرة ٩٦
(٣٧٠) البقرة ١١٠

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّـرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣٧١)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ (٣٧٢)

وقوله تعالى ـ

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (٣٧٣)

وقال العلماء فى تذوقهم لمعنى البصير : ان الله يشاهد ويرى ، لا يغيب عنه مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، فهو الحاضر الذى لا يغيب .

سبحانه الذى يرى ما فى ظلمات البر والبحر وما تحت الثرى . . . . . .
والبصير بمعنى المبصر لجميع الأشياء وهو المتصف بالبصر لجميع الموجودات ما ظهر منها وما خفى . . سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . .

قال الامام الغزالى : البصير هو الذى يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ماتحت الثرى ، وإبصاره منزه عن المماثلة أو المشابهة ، ومقدس عن أن يرجع

---

(٣٧١) آل عمران ١٥
(٣٧٢) الاسراء ١
(٣٧٣) فاطر ٣١

إلى انطباع الصور والألوان فى ذاته ، كما فى حدقة الإنسان ، فإن ذلك من التأثر والتغير المقتضى للحدثان .

وإذا نزه عن ذلك كان البصر فى حقه عبارة عن الصفة التى ينكشف بها كمال تفرق المبصرات . وذلك أوضح وأجلى مما يفهم من إدراك البصر القاصر عن ظواهر المرئيات .

التخلق بهذا الاسم

لقد اقترن اسم البصير بالسميع فى كثير من الأحيان ، لأن الصفتين مقرنتان ومتلازمتان ، وقد من الله بهاتين النعمتين على الإنسان ليدرك عطف الله عليه ولطف الله به .

ومقتضى النعمة الشكر ، وشكر نعمة البصر أن يقلبه صاحبه فى ملكوت السموات والأرض ليهتدى من خلالها إلى قدرة الله ، فيعبده حق عبادته . قال ـ تعالى ـ

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾[٣٧٤]

إن واجب من وهبه الله نعمة البصر أن يمعن فى النظر ، وألا يكون كمن عيناه مغمضتان لاتريان شيئا . وقد نبهنا الله إلى ذلك فقال :

« فاعتبروا يا أولى الأبصار »[٣٧٥]

---

(٣٧٤) الأعراف ١٨٥

(٣٧٥) الحشر ٢

وقال :

« ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »[٣٧٦]

ويقضى التخلق بهذه الصفة .. أن يستعمل الانسان بصره فى الخير ، فيقرأ به علما نافعا ، ويطلب به عملا صالحا ، يرى الضعيف فيأخذ بيده ، ويرى الفقير فيعطف عليه ، ويرى المظلوم فينصره ، ويرى اليتيم فيشفق عليه ويمسح بناصيته ، ويرى العالم فيكرمه ويعظمه ، ويرى الظالم فيزجره ، ويرى المنكر فيغيره ، ويرى الحرام فيغض بصره عنه ـ قال ـ تعالى ـ

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[٣٧٧]

---

(٣٧٦) آل عمران ١٣

(٣٧٧) النور ٣٠ ، ٣١

ووهب نعمة البصر للمبصر لايغض من شأن من ابتلاه الله بالعمى . .

فقد اقتضت حكمة الله أن يوزع المواهب على وفق مشيئته . وربما سلب إنسانا نعمة البصر ووهبه نعمة البصيرة ، وهى أعظم وأكمل . . قال ـ تعالى ـ

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٣٧٨)

والبصيرة نور القلب وفطنة العقل وفراسة المؤمن وإلهام الإيمان . . . . .

ففقد البصر يسيرهَيِّن إذا ماقورن بفقد البصيرة . .

إن من واجب المؤمن أن يفطن إلى أن الله مطلع على أسراره ، فيراقبه حق المراقبة ، ويتقيه حق التقوى . وهذا هو الإحسان الذى أشار إليه النبى ـ ﷺ ـ فى قوله فى حديث جبريل : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

الذكر بهذا الاسم

إن المداوم على الذكر بهذا الاسم يفتح الله بصيرته ويوفقه لصالح القول والعمل .

قال العلماء : من قرأه فى تدبر مائة مرة بين ركعتى الفجر وصلاة الصبح يوم الجمعة ، خصه الله بنظر العناية ، ومن أكثر منه ، شفى الله بصره من الضعف ـ ومن الدعاء به قولهم : « اللهم يا سميع يا بصير متعنى بسمعى وبصرى واجعلهما خيرا لى .

---

(٣٧٨) الحج ٤٦

ومن دعاء النبى - ﷺ - فى ذلك :

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنبك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعل ذلك خيرا لنا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يخافك ولايرحمنا يا أرحم الراحمين »

ومن دعاء بعض الصالحين :

« أقسمت عليك ببسط يديك ، وكرم وجهك ، وكمال أعينك أن تعطينا خير ما نفذت به مشيئتك ، وتعلقت به قدرتك ، وأحاط به علمك ، وجرى به قلمك ، واكفنا شر ما هو ضد لذلك ، وأكمل ديننا وأتمم علينا نعمتك ، وهب لنا الحكمة البالغة مع الحياة الطيبة والموتة الحسنة . . . ومن أدعية الصالحين قول القائل

سميع فأسمعنا لذيذ خطابكم   بصير فأشهدنا تجلى النهاية

يقصد هذا القائل أن يكرمه الله بمشاهدة ما يطمئنه عند نهاية عمره مصداقا لقوله - تعالى :

﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٣٧٩)

---

(٣٧٩) الزمر ٦١

الحكم

الله ـ سبحانه ـ أحكم الحاكمين ، وهو الحكيم ، له الحكم ، وهو الحكم والحكيم والحاكم ، قال ابن منظور ـ راو يا عن الليث ـ : ومعانى هذه الأسماء متقاربة ، وعلينا الايمان بأنها من أسماء الله .

وقال ابن الأثير : فى أسماء الله الحكم والحكيم وهما بمعنى الحاكم ، وهو القاضى ـ فهو فعيل بمعنى فاعل ، أو هو الذى يحكم الأشياء ويتقنها . . . .

وورد الحكم فى القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ

« أفغير الله أبتغى حكماً »(٣٨٠)

وقد ورد اسم « الحكم » فى الحديث الذى ذكرت فيه الاسماء الحسنى ، وهو الاسم التاسع والعشرون بينها .

أما فى القرآن الكريم فقد وردت تلك المادة فى آيات ـ منها ـ قوله ـ تعالى :

« وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »(٣٨١)

وقوله ـ تعالى ـ :

« وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين »(٣٨٢)

وقوله ـ تعالى ـ :

« فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين »(٣٨٣)

---

(٣٨٠) الأنعام ١١٤
(٣٨١) النحل ١٢٤
(٣٨٢) هود ٤٥
(٣٨٣) الأعراف ٨٧

فالذى يحكم بين العباد ويفصل بينهم يوم القيامة هو الحَكَم . ومقتضى الحكم العدالة : فالله حاكم عادل ـ جلا جلاله ـ

قال العلماء : الحكم ـ بفتحتين ـ هو صاحب الفصل بين الحق والباطل ، وبين البار والفاجر ، وهو الذى يجزى كل نفس بما كسبت . .

وقيل : هو الحاكم المُحكِم والمحَكَّم ، والقاضى المسلم بقضائه ، ولا راد لحكمه ولا معقب له .

وقيل : الحكم هو الذى لا شك فى وعده ، ولا عيب فى فعله . .

وقال بعض العلماء : هو الذى حكم على قلوب أوليائه بالرضا والقناعة ، وعلى نفوسهم بالانقياد والطاعة . .

هو النافذ حكمه الذى لا يرد له قضاء ، ولا ينقض له حكم ، ولا يعترض عليه معترض . .

هو الذى ينتصف من الظالم للمظلوم ، ويأخذ من المعتدى حق الضعيف . . . . . والحَكَم من صفات الذات ـ كما يقول الرازى ـ رحمه الله . .

التأدب بأدب هذا الاسم

قال ـ تعالى ـ :

« والله يحكم لا معقب لحكمه »(٣٨٤)

ومقتضى ذلك أن يتذكر العبد نفاذ حكم الله وعدله ، فيحرص على طاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه .

---

(٣٨٤) الرعد ٤١

وحكم الله كما هو نافذ فى الآخرة ، فهو نافذ فى الدنيا قبلها ، فقدره نافذ وقضاؤه لا يرد . ومن أصول العقيدة الايمانية أن يؤمن الانسان بالقدر خيره وشره حلوه ومره . . فإذا أصابه خير حمد وشكر ، وإن أصابه بلاء صبر . قال تعالى :

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »[٣٨٥]

والمقصود بالفرح فرح البطر الذى يجحد بمقتضاه الانسان النعمة ، ويبغى الفساد فى الأرض ـ كما حدث من قارون . . . « إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين »[٣٨٦] . .

لقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، رفعت الأقلام وجفت الصحف . فوجب التسليم بقضاء الله وقدره . . . « **واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك** »

ومن آداب هذا الاسم التى يجب أن يتحلى بها العبد ، أنه إذا ولاه الله أمرا أو حكما أو منصبا أو قضاء ، عليه أن يكون عادلا مراعيا حق الله وحق العباد . . كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . .

قال ـ تعالى ـ

« **واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به** »[٣٨٧]

---

(٣٨٥) الحديد ٢٣

(٣٨٦) القصص ٧٦

(٣٨٧) النساء ٥٨

وقد حذر الله من الظلم فى القضاء « إن الله لا يحب الظالمين » وأمر بالعدل بين الناس وأن يكون الحكم وفق منهج الله .. قال تعالى :

« **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**[٣٨٨] » .

ويجب تحرى العدل بين المتخاصمين حتى ولو كانت هناك عداوة بين القاضى وأحد الخصمين ، أو كانت هناك مودة بينهما قال ـ تعالى ـ

« **ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**[٣٨٩] » .

ذهب رجل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليُشْهِده على عطية خص بها بعض ولده ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أكل ولدك أعطيته هكذا » ؟

قال : لا . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا أشهد على جَوْر » .

الدعاء بهذا الاسم :

عَلَّمنا القرآن الكريم كيف ندعو الله فقال تعالى ـ حكاية عن دعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ « رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين[٣٩٠] » .

ومن أدعية الصالحين فى ظل هذا الاسم :

« اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فهنيئاً لمن عرفك فرضى بقضائك ، والويل ثم الويل لمن أقر بوحدانيتك ولم يرض بأحكامك » .

---

(٣٨٨) المائدة ٤٤

(٣٨٩) المائدة ٨

(٣٩٠) الشعراء ٨٣

ومما ورد من الدعاء بهذا الاسم أيضاً :

« إلهى أنت الذى حكمت على جميع المخلوقات وهى فى علمك ، وخصصتها بإرادتك ، وأبرزتها بقدرتك ، فكل شىء فى الوجود محكوم عليه ، فيما هو عليه من علم وعمل ، وقد نشرت أسباب السعادة لأهلها ، فأشهد قلوبنا أقدارك حتى نتنعم فى أنوارك ، ونرضى بأحكامك ، فنصبح بالرضا من خواص خدمك ـ إنك على كل شىء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

الْعَدْل

العَدْل مصدر الفعل عَدَل ، ويذكر المصدر محل اسم الفاعل من الفعل « عَدَل » ليدل على شدة المبالغة فى العدل .

ويفيد معنى العدْل - الاعتدال فى الحكم وعدم الجور فى القضاء ، فالله العادل هو الذى يؤتى كل ذى حق حقه ، ويضع الشىء فى موضعه ، ولا يصدر فى حكمه إلا عن العدل المطلق . .

ولذا فإن هناك علاقة وثيقة بين هذا الاسم والاسم السابق عليه وقد ورد هذا الاسم فى سلسلة الأسماء الحسنى التى ذكرها الحديث الشريف . ورقم هذا الاسم فى السلسلة هو الثلاثون .

ويفيد معنى اْلعَدْل - الاستقامة والكمال ، ففى حق الانسان يقول الله - تعالى -

« **الذى خلقك فسواك فعدلك**(٣٩١) » .

قال القرطبى : عَدَّلك - أى جعلك معتدلاً سَوِىَّ الخلق ، كما يقال : شى مُعَدَّل ، ويشير إلي قوله - تعالى -

« **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم**(٣٩٢) » .

وكل خلق الله مبنى على تمام الصنعة وكمالها واعتدالها واستقامتها . . . .
قال تعالى :

« **الذى أحسن كل شىء خلقه**(٣٩٣) » .

---

(٣٩١) الانفطار ٧
(٣٩٢) التين ٤
(٣٩٣) السجدة ٧

وتقتضى صفة العدل من العبد أن يكون عادلاً فى حكمه وفعله ، معتدلاً فى تصرفه مستقيماً فى أمره . .

ولو كان الانسان فطناً لبيباً أدرك قيمة هذا الفعل فى استقامة الحياة وانتظام أمرها فإنه ما دبت الفوضى فيها إلا بإهمال سنة العدل فى الأحكام . وقديماً قال الحكماء : العدل أساس الملك .

ولا يكون الانسان عادلاً بمعنى الكلمة إلا إذا طبق هذا الحكم على نفسه أولاً ـ قبل أن يطبقه على غيره .

والانسان مملكة ذات عرش ، والعرش هو القلب ، ولو مكن الانسان روحه من اعتلاء هذا العرش لاعتدل النظام فى داخله . . بمعنى : أنه لو ساس نفسه بالعدل ، وطبق عليها قانون السماء ـ انقادت له وخضعت وتخلصت من شهواتها وهواها ، وانقاد جسمه تبعاً لذلك ، فإذا سمع الذِّكْر لان وخشع واستجاب لأمر الله ، مصداقاً لقوله ـ تعالى :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣٩٤)

فأين هؤلاء من الذين أخبر الله عنهم بقوله :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ (٣٩٥)

---

(٣٩٤) الزمر ٢٣

(٣٩٥) النساء ١٤٢

ويكمل عدل الانسان بعد عدله فى نفسه ، إذا عدل بين أهله وذويه وأقرب المقربين إليه ، ثم إذا عدل بين مرءوسيه وزملائه والمتصلين به . بهذا تستقيم الحياة وتسير الأمور إلى غايتها المثلى من الكمال .

ومقتضى صفة العدل أن يدرك الانسان نقصه وعجزه عن القيام بالتكاليف والأوامر التى كُلِّفَها على الوجه المطلوب ، وأن ما جبل عليه من صفات دُنْياَ ـ كثيراً ما تحول بينه وبين الصعود فى مدارج الكمال والترقى إلى أعلى . .

ورحمة الله هى التى تحول دون أخذ المقصر بالعقاب عدلاً بسبب تقصيره ، كما تحول دون مؤاخذة المذنب بذنبه . . وكل ابن آدم خطاء . . فعلى المؤمن أن يعتقد أن العدل يقضى بالمؤاخذة ، لأنه لا يستطيع أن يحقق كل ما هو مطلوب منه ، وعليه أن يرجو رحمة ربه ، ويطلب عفوه ورضاه ـ قائلاً بلسان الخضوع والانكسار :

« اللهم إنى عبدك وابن عبدك ، وابن أَمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىَّ حكمك ، عدلٌ فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو عَلَّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، وأسألك بالاسم الأعظم الذى إذا سئلت به أجبت أن تجعل القرآن العظيم نور صدرى ، وربيع قلبى ، وجلاء حزنى وذهاب غمى وهمى » .

الذكر بهذا الاسم

من ذكر الله بهذا الاسم كثيراً ألان الله له القلوب ، وحفظه من ظلم الحكام ، وإن كان حاكماً وفقه الله للعدل فى رعيته ،

ومن الدعاء بذلك : يا كريم العفو يا ذا العدل ، أنت الذى ملأ كل شيء عدله .

ويقرن به فى الدعاء : يا عفو يا كريم . .

ومن المناجاة فى ظل هذا الاسم قول الشاعر :

مدبــر أنــت للأسبــاب جاعلهــا   كمـا تشـاء فأنـت العـدل والحكـم

وكــل شــيء بحسبــان تقــدره   والكــون متســق الغايــات منتظــم

فالشمــس تشــرق والأشجــار مثمــرة   والسحــب تمطــر والأمــواج تلتطــم

عدل من العدل قد وفت لطائفه   وقصـرت عن مـدى ادراكهـا الكـلم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اللطيف

جاء فى لسان العرب : اللطيف صفة من صفات الله ـ تعالى ـ واسم من أسمائه ، وفى التنزيل العزيز : « الله لطيف بعباده » وفيه : «وهو اللطيف الخبير » ومعناه ـ والله أعلم ـ الرفيق بعباده .

قال أبو عمرو : اللطيف الذى يوصل إليك أربك فى رفق ، واللطف من الله ـ تعالى ـ : التوفيق والعصمة .

وقال ابن الأثير : اللطيف هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها الى من قدرها له من خلقه .

يقال : لطَفَ به وله ـ بالفتح ـ يلطُف لطفاً إذا رفق به ، فأما لطُف ـ بالضم ـ يلطُف فمعناه رَقَّ ودق ، وقد يأتى المعنى الأول مع ضم العين فى الماضى أيضاً .

ومن معانى اللُّطف ـ بضم اللام وفتحها ـ البر والتكرمة والتَّحَفِّى ـ أى الحفاوة ـ ومن ذلك قول عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى الافك : ولا أرى منه اللطف الذى كنت أعرفه .

وقد ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع هى : قوله ـ تعالى :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٣٩٦)

---

(٣٩٦) الأنعام ١٠٣

وقوله - تعالى -

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٣٩٨)

وقوله - تعالى -

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣٩٩)

وقوله - تعالى -

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾ (٤٠٠)

وقوله - تعالى -

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (٤٠١)

وقوله - تعالى -

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (٤٠٢)

---

(٣٩٨) الحج ٦٣
(٣٩٩) لقمان ١٦
(٤٠٠) الشورى ١٩
(٤٠١) الملك ١٤
(٤٠٢) الأحزاب ٣٤

ومعنى اللطيف فى كل هذه الآيات ـ العلم بدقائق الأمور وغوامضها ومشكلاتها ، وإيصال المنافع الى أصحابها فى رفق وتلطف . . . . وإذا كان اللطيف بمعنى العلم بدقائق الأمور ، فهو من صفات الذات ، وإذا كان بمعنى إيصال المنافع إلى أصحابها فى رفق ، فهو من صفات الأفعال . ومن مقتضيات اللطف الإحسان . . . . فاللطيف هو المحسن والمنعم على عباده ومفرج ضوائقهم دون أن يفطنوا لذلك .

فاللطيف كما يقول العلماء هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل مع العلم بدقائق المصالح وإيصالها الى من قدرها له من خلقه .

ولاشك فى أن هذا اللطف يَسُرُّ الملطوف به ، لأنه كشف غمته وأزال همه . .

ومن معانى اللطيف : اللطف بالعباد فى المقدور مع العلم بخفايا الأمور ومن دقائق هذا اللطف . أنه يصاحب القدر فيخفف من وقعه ، حتى قال بعض العلماء ينزل القضاء محفوفاً باللطف .

ومن حكم ابن عطاء الله المشرقة « من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره » .

ومن تعريفات العلماء لمعنى اللطيف قولهم :

اللطيف الذى يريد بعباده الخير واليسر ، وييسر لهم أسباب الصلاح والبر وهو الميسر لكل عسير ، الجابر لكل كسير .

وهو الموفق للعمل فى الابتداء والخاتم بالقبول فى الانتهاء .

ومن مظاهر لطف الله بعباده أنه يلطف بالجنين فى بطن أمه وقد خلقه فى ظلمات ثلاث ، فيحفظه ويغذيه ويربيه حتى ينزل من بطن أمه ، فيكفل له

من يأخذ بيده ويرعاه حتى يصبح قويا ناضجا يستطيع الاعتماد على نفسه . ثم هو مع ذلك يرعاه ببره ويكفل له رزقه ، ويحفظه بعنايته ، وإذا عمل حسنة ضاعفها له ، وإذا عمل سيئة غفرها له ـ إن استغفر ـ فإن لم يستغفر كتبها عليه سيئة واحدة . .

ولم يترك الله الناس هملا ، بل أرسل إليهم الرسل يعلمونهم ويرشدونهم ، كما جعل لهم حفظة من الملائكة يكلئونهم ويحفظونهم قال تعالى :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ (٤٠٣)

لقد أسبغ الله نعمه ظاهرة وباطنة ، وسخر للإنسان كل شيء فى الوجود لخدمته ، فهل بعد ذلك لطف ؟

إن لطف الله مصاحب لجميع المخلوقات فى الحياة الدنيا ، ولم يتخل عن المؤمنين فى الحياة الآخرة .

كيف يتخلق العبد بهذا الاسم ؟

يتخلق به بأن يترك الجفاء فى المعاملة ، والخشونة فى الأخلاق ، وأن يكون رفيقا فى قوله وفعله ، لطيفا فى علاقته مع أهله وإخوانه ومواطنيه . وأن يكون رقيقا فى بره بالفقراء ، حتى لايخدش حياء الفقير أو يؤذى شعوره .

---

(٤٠٣) الرعد ١١

الذكر بهذا الاسم

يقول العلماء : إن الحق سبحانه وتعالى ـ سريع الإجابة لمن يذكره بهذا الاسم فيفرج عنه الكروب ويهون عنه الشدائد .

ومن داوم على ذكره وسع الله عليه ولطف به .

ومن قرأه وقرأ معه قوله وتعالى ـ « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . . أمن من الخوف .

وإن طلبت الشفاء فاقرأه واقرأ معه آيات الشفاء وهى قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ ﴾ (٤٠٤)

ومن الأدعية التى ذكرها العلماء فى ظل هذا الاسم :

« إلهى إن ألطافك أحاطت بالموجودات ، وعمت الكائنات ، وإن لك نفحات إذا سَرَتْ فى قلب عاقل أيقظته أو عبد مذنب قربته ، وإن لك لحظات جعلت أولياءك عندك فى أعلى الدرجات ، ولك ألطاف صيرت الواصلين لايلتفتون إلى الحياة .

إلهى : الطف بنا عند سؤال الملائكة الأطهار ، وأشهدنا تجلى لطفك فى النفس والآفاق فأنت الواحد الأحد الخلاق . . . . وأنت على كل شىء قدير . . فياخفى الألطاف نجنا مما نخاف

---

(٤٠٤) الشعراء ٧٨ - ٨٠

ومن شعر السيدة زينب بنت الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ :

فَكَم لِلّه مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْم الذَّكِيِّ
وَكَم يُسْرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْر ففرّجَ كُرْبَة القَلْبِ الشَّجِيِّ
وكم أمر تساء به صباحا وتأْتيكَ المَسَرَّةُ فِى الْعَشِيِّ
إِذَا ضَاقَتْ بِكَ ٱلأَحْوَالُ يَوْمًا فَثِقْ بِالْوَاحِد الْفَرْدِ الْعَلِيِّ
تَشَفَّعْ بِالنَّبِيِّ فَكُلُّ عَبْدٍ يُغَاثُ إِذَا تَشَفَّعَ بِالنَّبِيِّ
وَلاَتَجْزَعْ إِذَا مَانَاب خَطْبٌ فكَم لِلّه مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ

ومن دعاء بعض الصالحين :

« ياألله ، ياجميل ، ياجليل اللطف ، الطف بنا لطفك الذى لطفت به لأوليائك ، وانصرنا بالرعب الشديد على أعدائك ـ إنك على كل شيء قدير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الخبير

الخبير من الأسماء الحسنى التى وردت كثيرا فى القرآن الكريم وجاء فى لسان العرب ـ الخبير : العالم بما كان ومايكون .

وتقول : خَبَرْت الأمر ، وخَبُرت بالأمر إذا عرفته على حقيقته ، كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (٤٠٥)

والخبير هو المخبر بالأنباء والأخبار ، والعالم بدقائق الأمور وحقائق الأسرار ولاتخفى عليه خافية فى الأرض ولافى السماء . . .

ومن التفسيرات لهذا الاسم ـ ما أورده الإمام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ قال : الخبير الذى لاتعزب عنه الأخبار الباطنة ، ولايجرى فى الملك أو الملكوت شىء إلا إذا أراده وقدره وعرفه . . . سبحانه لايخفى عليه شىء فى الأرض ولافى السماء ـ قال تعالى :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٤٠٦)

---

(٤٠٥) الفرقان ٥٩

(٤٠٦) الأنعام ٥٩

وقال

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٤٠٧)

وقال

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٤٠٨)

واسم الخبير يؤكد معنى العليم ، لأنه يؤدى معناه ، ولكن العلم إذا كان للخفايا الباطنة سمى خبرة ويسمى صاحبه خبيرا « ٤٠٩ » .... ومن الأيات التى ورد فيها اسم الخبير فى القرآن قوله ـ تعالى : ـ

« لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولاما اصابكم والله خبير بما تعملون »(٤١٠)

وقوله ـ تعالى ـ : « ولله ميراث السموات والارض والله بما تعملون خبير »(٤٠١)

---

(٤٠٧) فاطر ١١
(٤٠٨) فصلت ٤٧
(٤٠٩) د . أحمد الشرباصى ـ أسماء الله الحسنى حـ ١ ص ١٧٥
(٤١٠) آل عمران ١٥٣
(٤١١) آل عمران ١٨٠

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾ (٤١٢)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ ﴾ (٤١٣)

وقوله ـ تعالى ـ « وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير »(٤١٤)

وقوله ـ تعالى ـ « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء إنه بعباده خبير بصير »(٤١٥)

فأنت ترى أن هذا الاسم جاء منفردا فى بعض الآيات ، وجاء مقترنا باسم الحكيم أو اللطيف أو العليم أو البصير فى آيات أخرى

التخلق بأدب هذا الاسم

متى عرف العبد أن الله مطلع على أسراره عالم بخفاياه ، خبير بأدق أموره أداه ذلك إلى مراقبة الله وهذا يدفعه إلى تهذيب سره ، وتنقية ضميره ، والإخلاص لله فى سره وجهره .

ويثمر ذلك التسليم لله فى قضائه وقدره ، لأن الله قد قضى ولا راد لقضائه ، فعلمه قديم وإرادته نافذة ، وأحكامه ماضية . .

---

(٤١٢) هود ١
(٤١٣) الحج ٦٣
(٤١٤) لقمان ٣٤
(٤١٥) الشورى ٢٧

والمؤمن الحق هو الذى لايرفع حوائجه إلا لله ، وإذا أيقن أن الله خبير بأمره مطلع على سره توجه بقلبه إلى الله فى حاجته ثم يحرك لسانه وشفتيه متضرعا إلى الله مخلصا له الدعاء منفذا أمر الله فى قوله تعالى : « ادعونى أستجب لكم »

الذكر بهذ الاسم

قال العلماء : من كانت له حاجة يريد معرفة أمرها وشأنها . فليقرأ عند النوم قوله ـ تعالى ـ « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »(٤١٦) فلايبعد أن يكشف الله له فى نومه عن وجه الصواب . إن شاء الله ـ تعالى . . وقال بعض الصالحين : من أكثر من ذكر الله بهذا الاسم ـ صفا قلبه ورقت روحه ، وهذبت نفسه . .

وجاء فى كتاب الأنوار القدسية : أنه لاينال الحظ الأوفر من هذا الاسم إلا من خبر دسائس نفسه وأدرك خدائعها ، وعرف الفرق بين خطرات الملك وخطرات الشيطان ، وكان بصيرا بإلهامات الرحمن . .

ومن الدعاء الذى يستظل الذاكر بهذا الاسم وباسم العليم أيضا قول العلماء :

« اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شيء من جهالتى بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفرلى إنك على كل شيء قدير

---

(٤١٦) الملك ١٤

اللهم أنت الحميد الرب المجيد الفعال لماتريد ، تعلم فرحنا بماذا ولماذا وعلى ماذا ، وتعلم حزننا كذلك ، وقد أوجبت ماأردته فينا ومنا ، ولانسألك دفع ماتريد ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد كما أيدت أنبياءك ورسلك وخاصة الصديقين إنك على كل شيء قدير »

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخمير قوله :

علم الخبير بواطن الأشياء	**علما يحيط بها بغير خفاء**
ماذرة سكنت بها وتحركت	**إلا بعلم سابق وقضاء**
سبحانه أوحى لها فبكت له	**شوقا لقرب يشتهى ولقاء**

« الحليم »

لأهل اللغة فى تعريف الحلم أقوال منها :

الحلم بالكسر ـ الأناة والعقل ، وجمعه أحلام وحلوم ، وفى التنزيل العزيز

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٤١٧)

وقيل : هو نقيض السفه .

وأحلام القوم ـ الحلماء منهم ، ورجل حليم من قوم أحلام وحلماء .

وفعله حلم ـ بضم اللام ـ

وتحلم الرجل . إذا تكلف الحلم . قال الشاعر :

تحلم عن الأدنين واستبق ودهم ... ولن تستطيع الحلم حتى تحلما .

هذا بالنسبة لبنى الإنسان .

أما الحليم فى صفة الله ـ عز وجل ـ فمعناه الصبور . وقيل : معناه الذى لا يستخفه عصيان العصاة ، ولا يستفزه الغضب على الطغاة ، ولكنه جعل لكل شيء مقدارا ينتهى إليه . .

ومعنى ذلك أنه الذى يغفر بعدما ستر ، ولا يسارع بالمؤاخذة ، ولا يعجل بالعقوبة ، يتجاوز عن الزلات ، ويعفو عن السيئات ، يمهل العاصى حتى يتوب ، ويترك الآبق حتى يئوب ، .

وقد ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم فى عدة آيات . . منها . قوله ـ تعالى ـ

---

(٤١٧) الطور ٣٢

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ (٤١٨)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (٤١٩)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ (٤٢٠)

وقوله ـ تعالى ـ

---

(٤١٨) البقرة ٢٢٥
(٤١٩) النساء ١٢
(٤٢٠) البقرة ٢٦٣

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (٤٢١)

ولم يأت هذا الاسم منفرداً ، وإنما جاء مقترنا باسم غيره .

فقد ورد مقترنا باسمه ـ تعالى ـ « الغفور » فى ستة مواضع

وورد مقرنا باسمه تعالى « الغنى » فى موضع واحد

وورد مقرنا باسمه تعالى « العليم » فى ثلاثة مواضع .

وورد مقترنا باسمه تعالى « الشكور » مرة واحدة

وَوَصَفَ الله تعالى بهذه الصفة بَعْضَ الأخيار من عباده ـ فقد وصف ابراهيم ـ عليه السلام ـ بها فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ (٤٢٢)

وقال فى حقه مرة أخرى

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٤٢٣)

ووصف بها إسماعيل ـ عليه السلام ـ فى قوله ـ تعالى

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ (٤٢٤)

---

(٤٢١) التغابن ١٧
(٤٢٢) التوبة ١١٤
(٤٢٣) هود ٧٥
(٤٢٤) الصافات ١٠١

وأعقب هذه الصفة بمقوماتها التى استحقت من أجلها ، فقد صبر على ابتلاء الله إياه بالذبح ، ولم يفزع ولم يغضب ، بل قال لأبيه : « ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين »

كما وردت هذه الصفة فى القرآن الكريم فى حق شعيب ـ على لسان قومه حين قالوا له :

﴿ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [٤٢٥]

وقد وصف القوم شعيبا بهذه الصفة على سبيل السخرية منه والاستهزاء به ، ويقصدون بها : أنه السفيه الجاهل ، وهذا من أشد ألوان الاستهزاء عند العرب ، وذلك أن يقول الرجل لصاحبه إذا استجهله : يا حليم ـ أى أنت عند نفسك حليم وعند الناس سفيه »[٤٢٦] . وعلى ذلك جاء قوله ـ تعالى ـ

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [٤٢٧]

وحلم الله ـ تعالى ـ لا يمكن أن يقاس به حلم مهما بلغ من الكثرة والقوة . .

إنه لا يعجل بالعقوبة على أحد مهما أمعن فى العصيان أو بالغ فى

---

(٤٢٥) هود ٨٧

(٤٢٦) لسان العرب لابن منظور مادة (حلم)

(٤٢٧) الدخان ٤٩

الاستهتار . بل يمهله ويحلم عليه ، وفى الوقت نفسه يرزقه على الرغم من عصيانه ، وربما وسع له فى رزقه أو زاد له فى جاهه ، أو مد له فى عمره لعله يتوب . . فإذا أخذه بعد ذلك أخذه أخذ عزيز مقتدر . جاء فى حديث قدسى رواه ابن عباس : « يابن آدم ، إن ذكرتنى ذكرتك ، وإن نسيتنى ذكرتك ، فإذا أطعتنى فاذهب حيث شئت ، تواليني وأواليك ، وتصافيني وأصافيك ، وتعرض عنى وأنا مقبل عليك . من أوصل إليك الغذاء وأنت جنين فى بطن أمك ؟ لم أزل أدبر فيك تدبيراً حتى أنفذت إرادتى فيك ، فلما أخرجتك إلى دار الدنيا أكثرت المعاصى . ما هكذا جزاء من أحسن إليك »

وجاء أيضا عن أبى هريرة : « يابن آدم ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يابن أدم لو أنك أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة »[٤٢٨]

وحلم النبى - ﷺ - لا يوجد له نظير بين الخلق . وموقفه من قومه الذين أذوه وطردوه وحاربوه وكذبوه ثم صفحه عنهم حين تمكن منهم - لا يمكن لبشر أن يفعل مثله .

ولقد كان أبو بكر - رضى الله عنه - حليما ، ولكن الغضب استفزه وأخرجه عن طوره حين آذاه قريب له كان أبو بكر يقوم بالإنفاق عليه فأقسم أن يقطع معونته عنه . . وقد نزل القرآن الكريم يوجه أبا بكر إلى ما هو أبر وأفضل - فقال عز وجل : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفو وليصفحوا ألا

(٤٢٨) الحديثان من كتاب الأحاديث القدسية ص ٢٢٢ جمع المحدث عبد الرءوف المناوى

تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم »

فقال أبو بكر : حين سمع ما نزل من القرآن : بلى يارب إنى لأحب أن تغفرلى . وعاد الى سابق عهده مع قريبه .

التخلق بهذه الصفة

لقد مدح القرآن الكريم الحلم ودعا المسلمين إلى التحلى بتلك الصفة . وأوصى النبى - ﷺ - المسلمين بالحلم ، ونهاهم عن الغضب وأمرهم بكظم الغيظ ، والعفو عن المسيء وعمن ظلم . .

والأنبياء هم المثل الأعلى بين البشر فى التخلق بهذه الصفة ، لأنهم صبروا على أذى قومهم ، ولم يقابلوا جهلهم بجهل مثله ، بل قابلوه بعفو وحلم . . . . . وسيد الأنبياء فى ذلك هو نبينا - ﷺ -

وعلى نهجه يسير من أراد أن يبلغ الدرجات العلا .

كان لأبى حنيفة - رضى الله عنه - جار إسكافى يقضى ليله فى السكر والعربدة والغناء بصوت منكر وهو يقول :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان غناؤه وضجيجه يؤذيان أبا حنيفة ، ويقطعان عليه ورده ومذاكرته ، ولكنه كان يحلم عليه ويصبر على أذاه .

وفى ليلة افتقد صوته فلم يسمعه ، فلما أصبح سأل عنه ، فعلم أنه اقتيد إلى السجن بتهمة السكر .

فذهب أبو حنيفة إلى السجن وزاره وأعطاه . . ثم قال له : هيه أيها

الرجل ، هل أضعناك .

فندم الرجل على ما كان يبدو منه ، وتاب إلى الله وأناب ، وحسنت توبته .

والحلم وإن كان منحة إلهية يضعها الله فى قلب من يشاء من عباده ، إلا أن الانسان يمكن أن يحصل على تلك الصفة بالتطبع والمجاهدة . . والحكماء لهم أقوال رائدة ترسم الطريق لمن أراد أن يسلكها . . ومن ذلك ما ينصحون به من عدم إجابة السفيه فيقولون :

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت
فإن النار بالإيقاد تحيا وإن أهملتها كمداً تموت

بل إنهم يبالغون فى ذلك فيقولون : كن كعمتك النخلة ترمى بالحجر فتلقى بالثمر .

وقال رجل للنبى - ﷺ - : أوصنى . قال : لا تغضب
قال : أوصنى . قال : لا تغضب . قال : أوصنى . قال : لا تغضب ثلاث مرات تكررت وصيته - ﷺ - بعدم الغضب . وفى ذلك دلالة على أهمية الحلم .

وروى عنه أنه قال : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »

الذكر بهذا الاسم

قال العلماء : من ذكر بهذا الاسم عند جبار وقت غضبه سكن غضبه .

واللائق بذاكر هذا الاسم أن يتجمل بالحلم ، ويتزين بالأناة والصبر ، . ويتحلى بالصفح والغفران وينظر إلى العصاة بعين الرحمة . .

قيل : إن الربيع الجيزى كان يمر فى طريقه فألقى عليه مكتل من تراب فهم تلاميذه بالبطش بمن فعل ذلك . فقال لهم : من استحق النار وصولح بالرماد أفلا يشكر الله على ذلك ؟

ومر عمر بن عبدالعزيز وهو خليفة فى المسجد فعثرت رجله برجل نائم ، فصاح به الرجل : أمجنون أنت ؟ فقال : لا .

فهم الحرس بمعاقبة الرجل . فقال لهم عمر : لم ؟ لقد سألنى سؤالا فأجبته . من أجل ذلك ساد هؤلاء ، ويسود من سار على دربهم .

ومن الأدعية الواردة بهذا الاسم : يا حليم ياذا الأناة فلا يعادله شيء من خلقه .

ويصلح الذكر بهذا الاسم لمن لديه متاعب نفسيه يفرجها الله عنه بهذا الذكر .

من دعاء النبى - ﷺ -

كان النبى - ﷺ - يدعو عند الكرب قائلا : -

لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم »[٤٢٩] ومن دعاء بعض الصالحين .

---

(٤٢٩) رواه أحمد والبخارى ومسلم عن ابن عباس - رضى الله عنهما -

« يا الله يا على يا عظيم يا حليم يا حكيم يا كريم يا سميع يا قريب يا مجيب يا ودود ، حُلْ بيننا وبين الدنيا والنساء والغفلة والشهوة وسوء الخلق ، واغفر لنا ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا ، واكشف عنا السوء ، ونجنا من الغم واجعل لنا منه مخرجاً إنك على كل شيء كل قدير . . . ومن شعر إسماعيل صبرى فى مناجاة الحليم قوله :

واسع الحلم لا يعجل بطشا خير أهل للعفو والغفران
يمهل الظالمين حتى إذا ما شاء ذاقوا عواقب الطغيان
لم يدع ذرة تمر هباءً فى طريق الأعمال للانسان

ومما جاء من ذلك أيضا

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللفجار ؟
لم يبق حلمك فى السموات العلا والأرض شبرا خاليا للنار
يارب أهلنى بفضلك كى أرى غضب الحليم ورحمة الجبار

العظيم

قال ابن منظور : من صفات الله ـ عز وجل ـ العظيم ، ويسبح العبد ربه فيقول : سبحان ربى العظيم .

والعظيم الذى عظم قدره وجل عن حدود العقول ، حتى لا تتصور الاحاطة بكنهه وحقيقته .

والعظم فى صفات الأجسام : كبر الطول والعرض والعمق ، والله ـ تعالى ـ منزه عن ذلك .

قال النبى ـ ﷺ ـ أما الركوع فعظموا فيه الرب ، أى اجعلوه فى أنفسكم ذا عظمة ، وعظمة الله ـ سبحانه ـ لا تكيف ولا تحد ، ولا تمثل بشىء ، ويجب على العباد أن يعلموا أنه عظيم كما وصف نفسه ـ وفوق ذلك ، بلا كيفية ولا حد .

والعظمة من صفات الله الخاصة به ، فاذا وُصِفَ الانسان بالعظمة فهو ذم فى حقه ، وفى الحديث : « من تعظم فى نفسه لقى الله ـ تبارك وتعالى ـ غضبان » أى والله عليه غضبان[٤٣٠]

فالله ـ سبحانه ـ لا شىء أعظم منه ، ليس لعظمته بداية ، ولا لِكُنْهِ جلاله نهاية ، لا يتصوره عقل ، ولا يحيط بكنهه بصر ولا بصيرة . . . . علا شأنه وتعالى مجده ، فمن غلب على عقله تعظيم الله خضع لهيبته ، ورضى بقسمته ، ولا يرضى بدونه عوضا ، ولا ينازع له اختيارا ، وبذل فى

---

(٤٣٠) لسان العرب مادة عظم

رضاه كل ميسور ، ومن أدرك عظمة الله صغرت الأشياء أمامه ، فإذا أهمك أمر فقل : يا عظيم نسألك باسمك العظيم أن تكفينى كل أمر عظيم .

وقد توصف بعض الأشياء بالعظمة ولكنها عظمة متفاوتة ، فيقال هذا الجسم عظيم ، ولكن هذا الجسم أعظم منه . . وهذا عظيم العقل ، ولكن عقل غيره أعظم . .

أما عظمة الله فغير متفاوتة ، بل لا تقارن أى عظمة بها لأنه فوقها . . ولا يوجد أعظم منه . .

وقد خلع الله - عز وجل - صفة العظمة على القرآن ، لأنه كلامه ، وكلامه عظيم مثله . . كما خلعه على عرشه ، وخلعه على سطانه وعلى يوم القيامة . .

كما خلع صفة العظمة على خُلق النبى - ﷺ - فقال له « وإنك لعلى خلق عظيم » لأنه - سبحانه - هو الذى تولى تأديبه وتهذيبه ، وقال النبى - ﷺ - فى ذلك : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

وقد جاء اسم الله « العظيم » فى القرآن الكريم فى مواضع - منها قوله - تعالى -

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾ (٤٣١)

---

(٤٣١) البقرة ٢٥٥

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ (٤٣٢)

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٤٣٣)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٤٣٤)

قال بعض العلماء فى تفسير هذا الاسم : الله عظيم لأن وجوده واجب أبدا وأزلا ، وهو سبحانه ـ أعظم من كل عظيم فى علمه وقدرته وقهره وسلطانه ونفاذ حكمه .

وقالوا : الله عظيم لأن العقول لا تصل الى كنه صمديته ، والأبصار لا تحيط بسرادقات عزه .

وقالوا : الله العظيم لأن عظمته فوق كل شيء ، وجل قدره عن الحد والمقدار .

وقالوا : الله عظيم لأن العقول تسجد على أعتاب عظمته ، والأرواح تصعق عند تجلى عزته ، والموجودات تتلاشى عند ظهور كبريائه ، والكائنات تتضاءل عند ظهور آلائه .

التخلق بآداب هذا الاسم :

تشير العبارات التى قدمناها إلى ما يجب على العبد المؤمن أمام عظمة الله العظيم . وقد امتدح الله مَنْ يعظم شعائره فقال :

---

(٤٣٢) الشورى ٤
(٤٣٣) الواقعة ٧٤ ، ٩٦
(٤٣٤) الحاقة ٣٣

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ (٤٣٥)

وتعظم شعائر الله يعنى تعظيم أمره ونهيه ، واحترام شريعته وأحكامه ، والسير على نهجه وهديه . .

وكما يخضع الناس للرؤساء والحكام وأصحاب المناصب ومن يسمونهم عظماء فيهم ، يجب أن يكون خضوعهم أتم وأحكم لمن هو أعظم من الجميع . .

إن أوامر الحكام مطاعة ، وإشاراتهم مستجابة . وهم لا يملكون لأحد ضرا ولا نفعا . فمن باب أولى أن تكون الطاعة للحاكم المطلق الذى بيده الضر والنفع واجبة نافذة .

والناس مقهورون فى لجوئهم إلى الله وقت الشدة ، فعليهم أن يلجئوا إليه وقت الرخاء . فإن هذا واجب الولاء لله ـ تعالى ـ وحق الانتماء لسلطانه القوى القاهر .

إن الله ـ يتجلى ـ بصفة العظمة على بعض أوليائه وأحبابه كما يتجلى بذلك على بعض مخلوقاته . . فتمتلىء نفوس الناس نحوهم هيبة وامتثالا . .

واذا ألبس الله عبدا لباس العز والهيبة والعظمة ، فعليه أن يشكر من وهبه ذلك ، ويعمل بمقتضى الحق الذى أوجبه الله عليه : . فلا يبغى ولا يظلم ولا يستبد ، لأن هذا الرداء الذى ارتداه عارية مستردة ، قد تسلب منه إذا لم يرع حق النعمة ، ولم يقم بواجب الانكسار نحو مُوهِبها .

---

(٤٣٥) الحج ٣٢

الذكر بهذا الاسم :

قال بعض الصالحين فى منظومة أسماء الله الحسنى :

حليم فهبنا الحلم فى كل لحظة عظيم فعظمنا بإرث النبوة

وإرث النبوة هو العلم .. والعلم أعظم تاج يُلبس وخير رداء يُرتدى ...... ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر فى كتابه أسماء الله الحسنى :

عظيـــم لا تحيـــط بـــه الظنـــون بقبضتـــه التحـــرك والســـكون
تعـــالى الله خالـــق كل شـــىء مقـــدره إلى وقـــت يكـــون
اذا ما فـــزت منه بالتجـــلى فكـل شـــدائد الدنيـــا تهـــون

ومن دعاء النبى - ﷺ - الذى كان يدعو به عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم »(٤٣٦) .

ومن استدام ذكر الله « العظيم » ألبسه الله لباس الهيبة والعظمة والعز ..

وإذا ردده الخائف من سلطان أو حاكم أمن ووجد منه لطفا .

ومن الدعاء الوارد فى ذلك . ياعظيم ياذا الثناء الفاخر والعز والمجد والكبرياء فلا يذل عزه .

قال بعض العلماء : إذا أهمك أمر فقل : يا عظيم أسألك باسمك العظيم : أن تكفينى كل أمر عظيم .

---

(٤٣٦) رواه أحمد والبخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما

الغفـــور

من معانى الغفور ـ جل جلاله ـ أنه كثير الصفح والغفران للمذنبين . . . كلما أذنب العبد واستغفر غفر الله له ذنبه ، وكفر خطيئته ، وعفا عنه وستره فى الدنيا ، وهو أكرم من أن يفضحه بعدما ستره . .

والله ـ سبحانه الغفور ذو الرحمة ، لم يُقَنِّط أحدا من المغفرة ، بل فتح أمامهم بابها واسعا ، فقال لهم :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٤٣٧)

جاء فى لسان العرب : الغفور والغفار ـ الله جل ثناؤه ـ وهما من أبنية المبالغة . . . . ومعناهما الساتر للذنوب المتجاوز عن خطايا العباد ـ يقال : اللهم اغفر لنا مغفرة وغَفْراً وغفراناً ، إنك أنت الغفور الغفار يا أهل المغفرة .

والغفر هو الستر . . فمغفرة الذنوب سترها .

ومن الدعاء الوارد فى القرآن الكريم :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (٤٣٨)

قال القرطبى : هو تأكيد ومبالغة فى الدعاء ، ومعنى اللفظين واحد ،

---

(٤٣٧) الزمر ٥٣

(٤٣٨) آل عمران ١٩٣

فان الغَفْر هو الستر والكَفْر هو الستر أيضا . ومنه قيل للزارع كافر لأنه يستر الحبة ويغطيها بالتراب قال تعالى :

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٤٣٩) ٱلْكُفَّارَ أى الزراع

وربما كان هناك فرق دقيق بينهما . فإن المغفرة تفيد الستر ، والتكفير يفيد المحو - أى محو الخطيئة حتى لا يبقى لها أثر - ولذلك كانت إجابة الله لهذا الدعاء بما هو أتم وأكمل - فقال لهم :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (٤٤٠)

لم يقل لهم : لأغفرن لهم ذنوبهم . بل قال لهم : لأكفرن عنهم سيئاتهم . . وقد سبق أن تحدثنا عن اسم الغفار . .

وورد اسم الغفور فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة تقرب من مائة

---

(٤٣٩) الحديد ٢٠

(٤٤٠) آل عمران ١٩٥

موضع . وأغلبها جاء مقترنا باسمه الرحيم .

من ذلك قوله تعالى ـ :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٤٤١)

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (٤٤٢)

وجاء مقترنا بصفة الحليم . فقال ـ تعالى ـ :

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ (٤٤٣)

وجاء مع « ذو الرحمة »

فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٤٤٤)

وجاء مع اسمه « العفو » فى قوله ـ تعالى :

---

(٤٤١) البقرة ١٧٣
(٤٤٢) البقرة ١٩٩
(٤٤٣) البقرة ٢٢٥
(٤٤٤) الكهف ٥٨

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٤٤٥)

وجاء مقترنا باسمه الشكور فى قوله - تعالى - :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٤٤٦)

وجاء مقترنا مع اسمه « الودود » فى قوله - تعالى - :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ (٤٤٧)

وورد غير مقترن باسم آخر فى قوله - تعالى - :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (٤٤٨)

وفى قوله - تعالى -

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (٤٤٩)

---

(٤٤٥) الحج ٦٠
(٤٤٦) الشورى ٢٣
(٤٤٧) البروج ١٣ ، ١٤
(٤٤٨) سبأ ١٥
(٤٤٩) الاسراء ٢٥

ومن أقوال بعض العلماء فى تفسير هذا الاسم قولهم :

الغفور : السيد التام القدرة ، وقد يغفر فضلا وإحسانا منه بدون قيد أو شرط . .

وقد جاء فى الحديث الشريف فى حق أهل بدر : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم »

والفرق بين الغفور والغفار والغافر . أن الغافر اسم فاعل يفيد حدوث الفعل دون مبالغة أو تكرار ، وقد ورد فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾[٤٥٠]

وأما الغفار فهو صيغة مبالغة يفيد المبالغة والكثرة ، ومثله الغفور ، إلا أن الغفور ينبىء عن نوع مبالغة ناشئة بالإضافة إلى مغفرة متكررة مرة بعد مرة ، فهو غفور بمعنى تام الغفران كامله حتى تبلغ المغفرة أقصاها .

والمبالغة المستفادة من الغفار هى باعتبار الكم ، والمبالغة المستفادة من الغفور هى باعتبار الكيف بالنسبة للذنوب المغفورة .

ولذلك قالوا : إن الغفور هو كثير المغفرة من جهة الكيفية ، فيغفر الذنوب العظام ، أما الغفار فهو كثير المغفرة من جهة الذنوب الكثيرة[٤٥١]

وقال الغزالى ـ رضى الله عنه ـ فى ذلك : الغفار مبالغة فى المغفرة

---

(٤٥٠) غافر ٣

(٤٥١) أسماء الله الحسنى د. أحمد الشرباصى جـ ١ صـ ١٩٠

بالإضافة إلى مغفرة متكررة لأن الفعّال ينبىء عن كثرة الفعل ، أما الفعول فهو ينبىء عن الكمال والشمول . فهو غفور بمعنى تام الغفران كاملة .

كيف يتخلق المؤمن بآداب هذا الاسم ؟

يتخلق المؤمن بذلك بأن يسامح من أساء إليه ويعفو عمن ظلمه مصداقا لقوله ـ تعالى

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾(٤٥٢)

ولكثرة وصف الله نفسه بالغافر والغفور والغفار ، وورود مادة « غفر » فى القرآن الكريم فى مواضع لا تكاد تحصر ـ يجب على المؤمن أن ينقاد إلى ساحة ربه الغفور ، فيكثر من الاستغفار ويعلم أن الله يفرح بعودة عبده التائب له ، ويفتح أمامه باب القبول والمغفرة . .

يقول ـ تعالى ـ

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾(٤٥٣)

ويقول :

---

(٤٥٢) النور ٢٢
(٤٥٣) آل عمران ١٣٣

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ (٤٥٤)

والله يحب عباده الذين يقبلون عليه ويستغفرونه ، ويثنى عليهم ويباهى بهم ملائكته ، قال ـ تعالى :

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٤٥٥)

الدعاء بهذا الاسم

ولا يوجد اسم يكثر دوران الدعاء حوله أكثر من هذا الاسم .. فإن أعظم ما يطمح إليه الداعى أن يظفر بغفران ذنوبه ـ فكل عبد يخطىء ويرجو رحمة الله .. « كل بنى آدم خطاء وخيرهم التوابون .. »

وقد علمنا الله كيف ندعوه فقال ـ تعالى ـ :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا

---

(٤٥٤) البقرة ٢٢١

(٤٥٥) الذاريات ١٧ ، ١٨

وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ (٤٥٦)

والاستغفار يمنع العذاب قال ـ تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٤٥٧)

وكان النبى ـ ﷺ ـ يعلم أصحابه الاستغفار . . فقد روى أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم أن أبابكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به ربى .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب الا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أن الغفور الرحيم »

وورد عنه قوله : الاستغفار هو : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »

وورد أن سيد الاستغفار هو : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب الا أنت »(٤٥٨)

(٤٥٦) البقرة ٢٨٥ ، ٢٨٦

(٤٥٧) الأنفال ٣٣

(٤٥٨) رواه البخارى والنسائى عند شداد بن أوس ـ رضى الله عنه

أما أقوال الصالحين فى الدعاء وطلب المغفرة فكثيرة لا تحصى من ذلك ما يرويه الأصمعى قال :

وقف أعرابى مقابل الروضة الشريفة فقال :

« اللهم هذا حبيبك وأنا عبدك والشيطان عدوك ، فإن غفرت لى سُرَّ حبيبك ، وفاز عبدك ، وغضب عدوك ، وإن لم تغفر لى حزن حبيبك ورضى عدوك ، وهلك عبدك ، وأنت أكرم من أن تحزن حبيبك وترضى عدوك وتهلك عبدك ،

« اللهم إن العرب الكرام إذا مات فيهم سيد أعتقوا على قبره ، وإن هذا سيد العالمين فاعتقنى على قبره »

قال الأصمعى : فقلت : يا أخا العرب غفر الله لك وأعتقك بحسن هذا السؤال .

ومن دعاء بعض الصالحين :

« اللهم إنا نسألك توبة سابقة منك إلينا لتكون توبتنا تابعة لتوبتك علينا وهب لنا التلقى منك كتلقى آدم منك الكلمات ليكون قدوة لولده فى التوبة والأعمال الصالحات ، وباعد بيننا وبين العناد والإصرار والشبه بإبليس رأس الغواة ، واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك والإساءة لا تضر مع الحب فيك . وقد أبهمت علينا الأمر لنرجو ونخاف . فآمن خوفنا ولا تخيب رجاءنا وأعطنا سؤلنا . .

ومداومة ترداد هذا الاسم تثمر المغفرة ، وتشفى من الأمراض والأسقام .

ومن دعاء أحد الصالحين في أرجوزة :

اغفـر لنـا يـارب كـل ذنـب   واسـتر لنا يـارب كـل عيـب
واكشـف إلهـى كـل كـرب عنـا   وللسـوى يـارب لا تكلنـا
ومـدنا بفضـلك الوسـيع   وحفنـا بحـرزك المنيـع
وهـب لنـا عنـاية سـنية   نسـمو بهـا المراتـب العليـة
مـع اتبـاع الحـق والكتـاب   والسـنة الغـراء والصـواب[459]

(٤٥٩) من مجموع الأوراد للميرغنى - رضى الله عنه -

الشكور

العليّ

الكبير

الحفيظ

المقيت

الحسيب

الجليل

الكريم

الرقيب

الشكور

ورد اسم الشكور - جل جلاله - فى القرآن الكريم فى أربعة مواضع فى قوله - تعالى - :

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٤٦٠)

وفى قوله - تعالى - :

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٤٦١)

وفى قوله - تعالى - :

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٤٦٢)

وفى قوله - تعالى - :

﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (٤٦٣)

والشكور صيغة مبالغة من شكر ، واسم الفاعل منه « شاكر » وقد ورد « شاكر فى القرآن الكريم مرتين فى قوله - تعالى - :

---

(٤٦٠) فاطر ٣٠

(٤٦١) فاطر ٣٤

(٤٦٢) الشورى ٣٣

(٤٦٣) التغابن ١٧

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٤٦٤)

وفى قوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ (٤٦٥)

وهذا الاسم كما يقول ابن منظور فى لسان العرب مأخوذ من الشكر . والشكر : معرفة الإحسان ونشره . . وهو الشكور أيضا ، والشكر لايكون إلا عن يد ، والحمد يكون عن يد وعن غير يد . فالحمد أعم من الشكر .

والشكر من الله المجازاة والثناء الجميل .

وفى حق الناس . تقول : رجل شكور أى كثير الشكر ، وفى التنزيل العزيز

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ (٤٦٦)

وفى الحديث الشريف حين رئى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أجهد نفسه بالعبادة فقيل له : يارسول الله ، أتفعل هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ؟ فقال : ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أفلا أكون عبدا شكورا » ؟

---

(٤٦٤) البقرة ١٥٨

(٤٦٥) النساء ١٤٧

(٤٦٦) الاسراء ٣

والشكر فيه معنى الزيادة . تقول : شكرت الأرض إذا كثر فيها النبات وتقول : هذه دابة شكور ـ إذا أظهرت من السمن فوق ماتعطى من العلف ، وأى نبات يكتفى بقليل من الماء فهو شكور . .

والشكور من صفات الله ـ جل اسمه ـ معناه : أنه يزكو عنده القليل من أعمال العباد ، فيضاعف لهم الجزاء ويجازى على يسير الطاعات كثير الدرجات ، وشكره لعباده مغفرته لهم .

ومن كلام بعض العلماء فى معنى الشكور : أنه هو الذى يدوم شكره ويعم فضله ، فيجازى على كل صغير أو كبير من الطاعة كثيرا من النعم ، ترغيبا لخلقه فى الطاعة وإن قلت . إنه يقبل القليل ويعطى الجزيل . . ألا ترى أنه يضاعف الحسنة الى عشرة أمثالها ، وقد يضاعف الى مائة ضعف أو أكثر . . قال ـ تعالى ـ :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ (٤٦٧)

ومن معانى الشكور أيضا فى جنب الله ـ تعالى ـ أنه يثيب عبده على الشكر ، فانظر الى جزيل فيض الله ـ تعالى ـ على العبد أولا ، ثم يثيبه على شكره إن شكر ، ويزيده نعمة على نعمة قال ـ تعالى ـ :

---

(٤٦٧) البقرة ٢٦١

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ (٤٦٨) .. فهو المتفضل أولا وأخيرا .

والشكور بهذا المعنى لايكون الا الله ـ تعالى ـ لأنه الذى يعطى ويزيد فى العطاء ويمنح على شكر العطاء مزيدا من العطاء ، أما العبد فشكره إنما هو فى مقابلة عطاء منح له ، ومهما بذل فى نظير ماقدم له فهو ضئيل بالنسبة لما أنعم به عليه .

والشكر من العبد هو مظهر فرحه بالنعمة التى أُنْعِمَت عليه . لكن تمام الشكر منه يكون بالعمل من أجل استدامة النعمة، ونفع النفس والعباد بالموهوب ، وقدحث الله على العمل من أجل الشكر فقال :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣ ﴾ (٤٦٩)

ولبعض الصالحين مقال جميل فى الشكر . يقول :

شكر الحق سبحانه ـ للعبد مضاعفة الثواب له ، والاحسان إليه ، ومباهاة الملائكة به ثم إن إحسان العبد طاعته لله ـ تعالى ـ وإحسان الحق إنعامه على العبد بالتوفيق للشكر له .

---

(٤٦٨) ابراهيم ٧
(٤٦٩) سبأ ١٣

وشكر العبد على الحقيقة إنما هو نطق اللسان وإقرار القلب بإنعام الرب . . .

فالشكر على هذا ينقسم إلى شكر باللسان ، وهو اعترافه بالنعمة وشكر الله عليها .

وشكر بالأركان وهو القيام بالخدمة للمولى - جل وعلا - وشكر بالقلب والوجدان وهو تنقيته من الشك وإبعاده عن وساوس الشيطان . . . . . فشكر العباد لله يكون باستقامتهم له فى عموم أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم

ومقتضى الشكر من العبد لله أن يخضع له ، وأن يحبه ، وأن يعترف بنعمته ، وأن يثنى عليه بها ، وألا يستعملها فيما يكره الله .ومن واجب المؤمن أن لايكتفى بالشكر عند الرخاء ، بل يجب الشكر عند البلاء أيضا . لأن البلاء قد يكون نعمة ومنة . . . استئناسا بقول القائل :

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

سأل رجل رجلاً فقال له :
كيف حال الشكر عندكم ؟

قال : إن وجدنا شكرنا وأن فقدنا صبرنا .
فقال له : ليس هذا شكرنا
قال الرجل : فما حال الشكر عندكم ؟
قال له : إن وجدنا آثرنا وان فقدنا شكرنا . .

التخلق بآداب اسم الشكور :

إن ماذكرناه من وجوب شكر المنعم هو بعض مايقتضيه حق التخلق

بآداب هذا الاسم الشريف .

وينبغى معرفة الفرق بين شكر الرب وشكر العبد . فشكر العبد هو أن يلهج اللسان بشكر الله على ماأولاه من نعم مع العمل بالطاعات شكرا لله واعترافا بفضله . .

ولكن شكر الله ليس على نعمة بذلها العبد لربه فيشكرها الله عليها ، لأن الله هو المانح دائما ، والعبد هو الممنوح دائما . وليس لأحد على الله منة . بل المنة كلها من قبل ومن بعد لله ، ولذلك جاء فى تفسير شكر الله : أنه القدرة على إثابة المحسن وأنه لايضيع أجر العاملين .

إن الله ـ سبحانه ـ يطلب منا أن نشكره على نعمه التى وهبها إيانا ، وقال فى ذلك :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٤٧٠)

واستعمال نعمه فى النفع وإيصال الخير للناس هو من أوفى آيات الشكر . أما استعمالها فى الشر والاضرار فهو الجحود بعينه ومايجحد بآيات الله الا كل ختار كفور .

لقد استفتح الله كتابه الكريم بالحمد للدلالة على وجوب حمد الله وشكره وأنه أفضل وسيلة للقرب من الله ـ تعالى ـ

قال القرطبى فى تفسيره راويا عن الحسن : مامِنْ نعمة الا والحمد أفضل منها : وروى ابن ماجة عن أنس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه

---

(٤٧٠) البقرة ١٥٢

وسلم ـ : « ماأنعم الله على عبد نعمة فقال ـ الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ »

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ، ثم قال : الحمدلله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك »

الدعاء بهذا الاسم

علمنا القرآن الكريم كيف ندعو الله الشكور . فجاء على لسان سليمان ـ عليه السلام ـ قوله تعالى ـ :

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ (٤٧١)

وجاء أيضا :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٤٧٢)

---

(٤٧١) النمل ١٩

(٤٧٢) الأحقاف ١٥

وورد أن داود عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك وشكرى لك نعمة ثانية ؟ فقال الله له : إذا عرفت ذلك فقد شكرتنى .

ودعاء أهل الجنة فى الجنة هو :

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ (٤٧٣)

ومن دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك ، سبحانك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . الحمدلله حمدا يوافى نعمه ويكافىء مزيده اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة »

وفى مدرسة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعلم الصحابة الاجلاء ومن جاء بعدهم من الصالحين كيفية الثناء على الله وحمده .

ومن الأدعية المأثورة

« اللهم لك الحمد فى بلائك ، وصنعيك إلى أنفسنا خاصة ، ولك الحمد بما هديتنا ولك الحمد بما أكرمتنا ، ولك الحمد بما سترتنا ، ولك الحمد بالقرآن ولك الحمد بالأهل والمال ، ولك الحمد بالمعافاة ، ولك الحمد بما مننت علينا بهذا النبى الكريم وجعلتنا من خاصته ، ولك الحمد حتى ترضى ولك الحمد اذا رضيت ياأهل التقوى وأهل المغفرة »

---

(٤٧٣) فاطر ٣٤

ومن شعر أحمد مخيمر فى ظلال هذا الاسم :

إنــك تثـنى على عبـادك يـا ربـاه إن أحســنوا وإن عمــلوا
والحســنات التى تضــاعفـها منــك ثنـاء على الـذى فعــلوا
إن يشــكروا فالمشــكور أنـت بمـا تعطـى ، وفيـض العطـاء متصـل
وجنـــة الخــلد أنـــت جاعلهـــا لمن بأعمـالهم لهـا وصــلوا[٤٧٤]

ومن منظومة أسماء الله الحسنى :

غفور عن الأسواء فاستر عيوبنا شكور فهبنا الشكر فى كل نعمة[٤٧٥]

---

(٤٧٤) أسماء الله الحسنى لأحمد مخيمر

(٤٧٥) منظومة أسماء الله الحسنى لمحمد عثمان الميرغنى

ٱلْعَلِيُّ

العلى : فعيل من علا يعلو بمعنى يرتفع ، فالعلى الرفيع القدر ، وتعالى : ترفع .

وجاء فى لسان العرب : الله ـ عز وجل ـ هو العلى المتعالى العالى الأعلى ، ذو العلا والعلاء والمعالى ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً . . وهو الأعلى ـ سبحانه ـ بمعنى العالى ، ومعنى « تعالى » جل ربنا وعظم عن كل ثناء ، فهو أعظم وأجل وأعلى من كل ثناء ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وتفسير هذه الصفات لله ـ سبحانه ـ يقرب بعضها من بعض :

فالعلى الشريف ، وهو بمعنى العالى ، وهو الذى ليس فوقه شيء ، ويقال : هو الذى علا الخلق فقهرهم بقدرته .

وأما المتعالى فهو الذى جل عن إفك المفترين ، وتنزه عن وساوس المتحيرين .

واسمه الأعلى ـ أى صفته أعلى الصفات .

والعلاء : الشرف ، وذو العلا ـ أى صاحب الصفات العلا . .

وصفة الله العليا ـ شهادة أن لا إله إلا الله ـ فهذه أعلى الصفات ، ولا يوصف بها غير الله وحده لا شريك له ، ولم يزل الله عليا عاليا متعاليا(٤٧٦)

وقد ورد اسم الله « العلى » فى عدة مواضع فى القرآن العظيم ، منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

---

(٤٧٦) لسان العرب لابن منظور مادة (« علا »

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (٤٧٧)

ومنها قوله ـ تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٤٧٨)

ومنها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٤٧٩)

ومنها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (٤٨٠)

وقال القرطبى فى معنى العلى : يراد به علو القدر والمنزلة لا علو المكان ، لأن الله منزه عن التحيز . وروى عبدالرحمن بن قرط أن رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة أسرى به سمع تسبيحاً فى السموات العلا : سبحان الله العلى الأعلى ـ سبحانه وتعالى ـ

---

(٤٧٧) البقرة ٢٥٥
(٤٧٨) الحج ٦٢
(٤٧٩) سبأ ٢٣
(٤٨٠) الشورى ٥١

والعلى والعالى : القاهر الغالب للأشياء

وقال العلماء : هذا الاسم من أسماء التنزيه ، ومعناه : الرفيع المنزلة ، المتعالى فوق خلقه بقدرته وجبروته ، هو الذى علا فلا تدرك ذاته ولا تتصور صفاته ، تاهت الألباب فى جلاله ، وعجزت العقول عن إدراك كماله .

وقال الشيخ أحمد عبدالجواد : العلى الأعلى فوق خلقه ، ولا يعلو الى مقامه الرفيع أحد ، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء ، قال الله سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٤٨١)

وقال بعض العلماء : العلى هو المتعالى عن الأضداد والأنداد ، لا رتبة فوق رتبته وجميع المراتب منحطة عنه .

وقالوا : هو الذى علا بذاته وصفاته عن مدارك الخلق بالكنه والحقيقة ، وقالوا : هو الذى علت عن الإدراك ذاته وكبرت عن التصور صفاته .

وقال الامام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ : إن الله هو العلى المطلق ، فإنه الحى المحيى العالم المطلق الخالق لعلوم العلماء ، المنزه المقدس عن جميع أنواع النقص .

التخلق بآداب هذا الاسم

إن من عرف علو الله وارتفاعه فعليه أن يضع نفسه أمام القدرة ، وأن يذل نفسه أمام عزة الله العزيز . .

---

(٤٨١) الروم ٢٧

وإذا تواضع العبد لله رفع الله قدره ، فمن تواضع لله رفعه ، ومن تكبر عليه خفضه ـ

ورد فى الأخبار أن الله أوحى إلى الجبال أنى مرس سفينة نوح على أحدكن فتطاولت كل الجبال وشمخت ، ماعدا الجودى فهو الذى تطامن وخضع فأكرمه الله بإرساء السفينة عليه . .

وحكى بعض العلماء أن الله أوحى إلى موسى ـ عليه السلام ـ أن يأتى الجبل ليكلمه ، فتطاول كل جبل وتشامخ طمعا فى أن يكون هو محل المناجاة ، ولكن طور سيناء تواضع وتصاغر ، فاختصه الله بذلك الشرف . .

إن الله مَنَّ على بعض أحبائه فمنحهم صفة العلو . . فعن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ يقول الله ـ تعالى

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾ (٤٨٢)

وفى حق إدريس يقول

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾ (٤٨٣)

الدعاء بهذا الاسم

لقد أُمِرْنا أن نقول فى سجودنا : سبحان ربى الأعلى . .

وما أجمل المناجاة بتلك الكلمات : سبحانك ربى وتعاليت . سبحان الذى يعلو

---

(٤٨٢) مريم ٤٩ ، ٥٠

(٤٨٣) مريم ٥٦ ، ٥٧

ولا يعلو سواه .

ومن الأدعية الواردة فى ذلك : يا عالى فوق كل شيء ويا أعظم من كل شيء .

وكان النبى - ﷺ - يستفتح دعاءه بقوله : « سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب »(٤٨٤)

إن مصاحبة هذا الاسم وملازمة ترداده تُعْلِي من مقام العبد وترفع من مكانته .

وهو يفيد فى إصلاح الحال ، فمن كان له زميل سيء أو جار سوء أكثر من ذكر هذا الاسم على نية إصلاح حالهم . .

ومن الدعاء المستحب أن نقول : « اللهم يا عالم الخفيات يا رفيع الدرجات ، ذا العرش ، يلقى الروح على من يشاء من عباده ، غافر الذنب ، قابل التوب ، شديد العقاب ، ذا الطول ، لا إله إلا أنت .

وآية الكرسى المختومة بقول - تعالى - وهو العلى العظيم - لها سر عجيب فى الحفظ وقضاء الحاجات . فقد ورد : من قرأ - حم « المؤمن » إلى قوله تعالى : « إليه المصير » ، وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح .

وروى القرطبى قال : من داوم على قراءة آية الكرسى دبر كل صلاة أعطى عطاء الشاكرين ، وأجر الصديقين وبسط الله عليه الرحمة

قالوا : وهى تعدل ثلث القرآن .

ومن الدعاء فى ظل هذا الاسم أيضا قول بعض العلماء :

---

(٤٨٤) رواه أحمد والحاكم عن سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه -

« إلهى أنت العلى المنزه من الحدود والجهات ، المقدس عن الأوهام والخطرات ، جعلت الشرف الأعلى لمن لجأ إليك ، وأعطيت المقام الرفيع لمن توكل عليك .

« إلهى إنك منحت سيدنا محمدا - ﷺ - أعلى الدرجات ، وصيرته مفتاحا لكل المقامات . فاجعل لنا حظا وافرا من ميراثه العالى ، وشرفه الغالى ، حتى نفوز من علو المكانة بحظ أوفر ، وننال بحسن اتباعه السعد الأكبر إنك على كل شئ قدير . . »

الكبيـــر

من أسماء الله الحسنى الكبير . وهو مشتق من الكبر ، وهو نقيض الصغر ، ومعنى الكبير أى العظيم ذو الكبرياء . .

وقيل : معناه المتعالى عن صفات الخلق .

والكبرياء هى العظمة والملك ، وقيل : عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا الله : جل جلاله ـ

ويفيد معنى الكبير الغنى المستغنى عن خلقه ، وقد كبر الله ـ عز وجل ـ فى ذاته وصفاته عن مشابهة خلقه ـ سبحانه ـ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . .

فهو ـ سبحانه ـ كبير فى جلاله وعظمته وقدره ، وقد ورد اسم الكبير فى القرآن الكريم فى عدة مواضع ـ منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ ﴾ (٤٨٥)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢ ﴾ (٤٨٦)

وقوله ـ تعالى ـ

---

(٤٨٥) الرعد ٩

(٤٨٦) الحج ٦٢

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٤٨٧)

لقد اقترن اسم الله الكبير فى هذه الآيات وغيرها باسمه العلى أو المتعال ، لما بين الاسمين من تلازم .

فهو ـ سبحانه ـ الكبير الموصوف بالعظمة وعلو الشأن ، وعِظَم ما خلق . ومن أدلة عظمة خلقه هذا الكون الواسع الكبير ، وما يموج به من أرض وسموات ، وبحار وأنهار ، ونجوم وكواكب ، وألوان من الخلق لا حصر لها ـ تشير إلى عظمة الخالق وقدرته ، وقد أشارت بعض الآيات الكريمة إلى كبر هذه المخلوقات التى هى مظهر اسم الله الكبير :

قال ـ تعالى ـ

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٤٨٨)

وحين أرى الله ـ جلت قدرته ـ إبراهيمَ ملكوت السموات والأرض أخذ إبراهيم يردد نظره فى أجرام الكون ليعطى لقومه دليلا على أن الله أكبر مما يعبده هؤلاء الناس من نجوم وكواكب وأقمار ، فحين رأى الشمس قال لقومه :

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٤٨٩)

---

(٤٨٧) سبأ ٢٣
(٤٨٨) غافر ٧٥
(٤٨٩) الأنعام ٧٨

وكان استفتاح الصلاة بتكبيرة الاحرام « الله أكبر » ومعنى ذلك أن الله أكبر من كل كبير ، وأعظم من كل عظيم . ومؤدى ذلك أن ينفض الإنسان يديه من كل ما يشغله وهو بين يدى ربه الكبير المتعال . .

لقد أمرنا الله بتكبيره على أى حال ، فقال لنا عن طريق سيدنا محمد ـ ﷺ ـ فى القرآن الكريم ؛

﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِىّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾ (٤٩٠)

ولا شك أن الغنى عن الولد والشريك والولى لابد أن يكون كبيرا . . ونحن حين يتملكنا العجب من أى شىء نهتف قائلين : « الله أكبر » وهذا يدل على أن الذى أثار عجبنا ودهشتنا إنما هو من صنع الله الكبير ومن كان كبيرا فلابد من أن يكون الحكم له ، ولا حكم لسواه . . قال ـ تعالى ـ

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ ۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ ۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِىِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ (٤٩١)

التخلق بأدب هذا الاسم

إن الكبرياء لله وحده ، ولا ينبغى أن يوصف أحد من الخلق بهذه الصفة . وقد يجرى على لساننا وصف بعض الناس بالكبير ، كما جاء على لسان إخوة يوسف :

---

(٤٩٠) الاسراء ١١١

(٤٩١) غافر ١٢

« ان له أباً شيخاً كبيراً » والمقصود بالكبر هنا كبر السن . . . وقد يقال : إن فلانا كبير قومه . ويقصدون بذلك أنه بلغ حدا من الكمال به ساد قومه ، وليس هناك صلة بين صفة الله وصفة العبد فى هذا الاسم ، إذ ان كمال الله لايتناهى ، أما كمال العبد فهو عارية ، وهو متفاوت ، وهو منتقل زائل ، وقد يكون العبد كاملا فى تصرف ، ناقصا فى تصرف آخر ، وقد يكمل اليوم ثم ينقص غدا . .

وإذا علم الانسان أن الله كبير تصاغرت نفسه وذلت لله وخضعت لجلاله . . ودعاه ذلك إلى أن يتحلى بصفات الكمال التى تقربه إلى الله .

الدعاء بهذا الاسم .

جاء فى منظومة أسماء الله الحسنى ؛

كبير فكبر شأننا باستقامة — على إلى أعلى المقامات عَلِّنا

ومن دعاء بعض الصالحين :

« ياألله يا عظيم يا على يا كبير نسألك الخير والعفو والغنى بك ، حتى لا نشهد إلا إياك ، والطف بنا فيهما لطفا عَلِمْتَه يصلح لمن والاك ، واكسنا جلابيب العصمة فى الأنفاس واللحظات ، واجعلنا عبيدا لك فى جميع الحالات ، وعلمنا من لدنك علما نصير به كاملين فى المحيا والممات »

الحفيظ

قال ابن منظور : الحفيظ من صفات الله ـ عز وجل ـ لايعزب عن حفظه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، وقد حفظ على عباده وخلقه مايعملون من خير أو شر ، وقد حفظ السموات والأرض بقدرته ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ، وفى التنزيل .

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٤٩٢)

ومن معانى الحفظ عدم النسيان ، فالله لاينسى . ومن معانيه عدم الغفلة والله لاينسى ولايغفل ولاينام . .

والله يحفظ عباده ويرسل عليهم حفظة يحفظونهم ويكلئونهم . . ويحصون أعمالهم ويكتبونها . . .

وقد ورد اسم الحفيظ فى قائمة الأسماء التى ذكرها النبى ـ ﷺ ـ فى حديثه الشريف ، وهو الاسم التاسع والثلاثون فى هذه الأسماء .

ويشير إلى هذا الاسم فى القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ

---

(٤٩٢) البروج ٢١ ، ٢٢

وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (٤٩٣)

كما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (٤٩٤)

ويشير إلى ذلك قوله ـ تعالى :

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٤٩٥)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ (٤٩٦)

وقد جاء الاسم صريحاً فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ

(٤٩٣) البقرة ٢٥٥
(٤٩٤) الحجر ١٦ ، ١٧
(٤٩٥) الأعراف ٦١
(٤٩٦) الرعد ١١

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ (٤٩٧)

وفى قوله - تعالى -

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ (٤٩٨)

ومن أقوال العلماء فى شرح هذا الاسم : الحفيظ هو الحافظ للسموات والأرض ، ولايؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ، وهو الحافظ لعباده فى جميع الأحوال .

وقيل : الحفيظ هو العالم بجميع المعلومات علماً لاتغير له ولا زوال ، والمحيط بما فى السموات والأرض ، يحفظ وجودهما ولايؤوده حفظهما .

وقيل : الحفيظ الحافظ لكل شيء .

وقيل : الحفيظ هو البالغ الغاية لما يريد حفظه

وقيل : الذى حفظ مراتب الموجودات ومنازل الكائنات ، فيمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ويثبت الأرض بالجبال فلا تميد بمن عليها ، ويحفظ الضعفاء من الأقوياء ، ويحفظ النبات من الحشرات ، ويحفظ الأجسام من الأمراض . .

وقيل : هو الذى حفظ القرآن من التغيير والتبديل . . وشاهد ذلك قوله - تعالى -

---

(٤٩٧) هود ٥٧
(٤٩٨) سبأ ٢١

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ (٤٩٩)

وهو الذى يحفظ الانسان من الشياطين ، ولولا حفظه لاغتالتهم الشياطين .

وقيل : هو الذى يحفظ الحياة من العدم ، ويحفظ الخلائق من الهلكة بيد أعدائها . . .

وقيل : هو الذى يحفظ قلوب الأولياء من التغير والاضطراب عند نزول المحن والشدائد .

التخلق بأدب هذا الاسم

حظ العبد من هذا الاسم أن يحفظ قلبه وجوارحه من نزغات الشيطان وشهوات النفس . وأن يحفظ قوته العملية من الانقياد لمقتضى الغضب والاسترسال مع الهوى .

ومقتضى علم الانسان بأنَّ الله يحفظه أن يحبه ويطيعه فإذا علم أن الله يحرسه ويرعاه ، وجب عليه أن يتقيه ويتولاه..

الدعاء بهذا الاسم

عَلَّمنُا النبى - ﷺ - كيف ندعو الله أن يحفظنا من الشر فقال - فيما يرويه البخارى - « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى فإنه لايزال عليك من الشر حافظ » .

---

(٤٩٩) الحجر ٩

وفى رواية أخرى عن البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه فإنه لا يدرى ماخلفه عليه ، ثم ليضطجع على شقه الأيمن ، ثم ليقل : باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وقد ذكر بعض العلماء أن الذى يقرأ آيات الحفظ ثم يقول بعدها : اللهم بحق هذه الآيات الشريفة ، والأسماء المعظمة الأحدية التى لانظير لها أسألك يارب أن تحفظنى من شر كل ذى شر ، ومن جميع المؤذيات الخارجة من الأرض والنازلة من السماء .

اللهم ياحفيظ احفظنى من المعاصى والذنوب والآثام والأمراض ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن . . . الذى يدعو بذلك يحفظه الله بقدرته وحفظه .

وآيات الحفظ هى : آية الكرسى - وقوله - تعالى -

« فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين »

وقوله :

« وحفظا من كل شيطان رجيم »

وقوله :

« وحفظناها من كل شيطان رجيم » .

وقوله :

« وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » .

وقوله :

« إن كل نفس لما عليها حافظ » .

وقوله :

« إن بطش ربك لشديد . انه هو يبدىء ويعيد . وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعال لما يريد . هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود . بل الذين كفرو فى تكذيب . والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ » . . . . .

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر بهذا الاسم :

ياحافظـــا لوجـــود العالميـــن ، فمـــا	يحيـــد عن غاية نقصـا وخســـرانا
وحافـظ الخـلق أن يلقـوا بأنفســهم	إلى الهــلاك زرافــات ووحـــدانا
خلقـــت فيهـم عيـونا يبصـرون بها	وقـد خلقــت بهـم للسـمع آذانـاً
لو لم تكـن أنــت يا رباه حافظهـــم	لم تشــهد الأرض فـوق الأرض إنسـاناً

المُقيت

المقيت من القوت ، والقُوت مايمسك الرّمَق من الرزق ، وما يقوم به بدن الانسان وغيره ـ من الطعام ـ يقولون : فلان عنده قوت ليلة ، والقوت مصدر الفعل قات ، يقال : قاته يقوته قَوْتاً . . .

والله ـ سبحانه ـ هو الذى يُقيت عباده أى يرزقهم . ويقتضى رزقهم حفظ حياتهم ، فيكون من معنى المقيت الحافظ . .

قال ابن منظور : وفى أسماء الله ـ تعالى ـ المُقيت . هو الحفيظ ، وقيل : المقتدر ، وقيل هو الذى يعطى أقوات الخلائق . . . . . وهو من أقاته يقيته إذا أعطاه قوته .

قال : وأقاته أيضاً إذا حفظه ، وفى التنزيل .

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ (٥٠٠)

ويقول الفراء : المقيت هو المقتدر وهو المقدر ، الذى يعطى كل شىء قوته . وقال الزجاج : المقيت القدير ، وقيل : الحفيظ . . . وقال بعض العلماء فى تعريف اسم الله المقيت : المقيت الرقيب والمهيمن والمقتدر والحافظ والشهيد ـ اتسع اللفظ لكل هذه المعانى جملة لأن بعضها يترتب على بعض .

---

(٥٠٠) النساء ٨٥

سبحانه يعطى كل شىء قوته ، فهو يمنح الأبدان الطعام ، والقلوب المعرفة والإلهام ، وهو خالق الأقوات وموصلها للأبدان ، وهو حافظ حياة الخلق بما يقوتهم به . . .

وإذا منح الأبدان الطعام ، فلابد أن يمنح النفس الشهية له ، والقدرة على استساغته وهضمه . . فكم من نفس يتوفر أمامها القوت ويفيض عن حاجتها ، ولكنها لاتقدر على أكله لغلبة المرض أو الهم والحزن . .

والذى يقوت الخلق لابد أن يكون رقيباً عليهم عالماً بهم وبأحوالهم فيعطى بحكمة ويحرم لحكمة . ويبسط لمن يشاء ويقدر لمن يشاء ، وهو الشهيد عليهم فيعرف كيف يتصرفون فيما أعطاهم وخَوَّلهم ، ويحاسبهم على ماقدموا من خير وعلى شحهم بما فى أيديهم من عطاء .

ولايقف معنى المقيت عند حدود الانسان والحيوان ، ولكنه يتناول النبات وغيره مما تقوم حياته واستدامته على الغذاء

قال القرطبى فى معنى قوله ـ تعالى ـ
« وكان الله على كل شىء مقيتاً » .

المقيت المقتدر ، ومنه قول الزبير بن عبد المطلب :

وذى ضَغَنٍ كففت النفس عنه   وكنت على مساءته مقيتاً

وأستشهد بالحديث الشريف : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يُقيت » أى من هو تحت قدرته وفى قبضته من عيال .

لقد اقتضت حكمة الله أن يقدر القوت لكل مخلوق قبل أن يخلقه .

قال - تعالى -

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٥٠١)

وهذه صفة العليم الحفيظ القادر المقتدر الذى لا يُضَيِّع أمر خلقه ولايكلهم إلى غيره . .

قال عكرمة والضحاك : قدَّر أرزاق أهل الأرض ومايصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع وجعل فى كل بلدة ما لم يجعله فى الأخرى ، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار(٥٠٢) . . .

وهناك أسباب للرزق لاتخطر على بال ، هدى الله الانسان والخلق إليها حتى قال بعضهم . دع الناس فى غفلتهم يرزق بعضهم من بعض . . . ومن فتحت بصيرته يسر الله له سبل الحلال ليكسب رزقه منها ، ومن عميت بصيرته لم يهتد إلا إلى طرق الحرام والضلال فيكون مطعمه منها . والكل وسيلةٌ للإقاتة والحفظ . . .

ولم يرد اسم المقيت فى القرآن إلا فى الآية التى ذكرناها وهى قوله تعالى :

« وكان الله على كل شيء مقيتا » .

ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء الحسنى التى ذكرها النبى - ﷺ - فى حديثه الشريف . . . والمقيت بينها هو الاسم الأربعون .

---

(٥٠١) فصلت ١٠

(٥٠٢) تفسير القرطبى جـ ١٥ صـ ٣٤٢

التخلق بأدب هذا الاسم :

من علم أن الله يقوته يتأدب معه ، ويشكر نعمته ، ويطيع أوامره ويبتعد عن نواهيه . . وفى مقدمة ذلك البعد عن الحرام فى المطعم والمشرب ، ولو اتبع الحلال ـ كما أمره الله بذلك ـ لاستجاب الله دعوته . . قال النبى ـ ﷺ ـ لسعد بن أبى وقاص ـ رضى الله ـ : ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » .

وقد التزم سعد بهذه الوصية فأكرمه الله بإجابة دعوته »

إن بعض الأصفياء ساروا على نهج سعد فى الالتزام بذلك ، وركبوا مركبا صعبا ارتضوه ، فتحلوا بالورع ، وآثروا أن يظلوا جياعا ولا يقبلوا أن يسيغوا لقمة من حرام أو مشبوهة . .

وكان الحارث المحاسبى ـ رضى الله عنه ـ يتحرك فى يده عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ، فيسرع بقبض يده عنه .

وبعضهم كان يجد فى الطعام المشبوه مرارة فيسرع بلفظه قبل أن ينزل إلى جوفه .

ومن الأدب أيضا أن يسرع المسلم بِمَدِّ يد المعونة إلى غيره ، و أن يوسع على غيره متى كان عنده فضل ، وألا يقطع عادته مع من جعلهم الله عالة عليه .

إن الذى يتأدب بأدب هذا الاسم لا يرى أحداً رازقا ـ على الحقيقة ـ إلا الله ، وأن اليد التى تقدم القوت هى سبب من أسباب الله سخرها الله لذلك .

وهذا يُعَوِّد الانسان أن يرفع مطالبه إلى الله وحده ، ولا يقصد غيره أو يعتمد على أحد سواه .

إن بعض الأصفياء يعتمدون على الله الرازق ، فلا يهمهم كثرة المال أو الطعام ، ولا يعملون للاستكثار من عرض الدنيا . بل يكتفون منها بما يقوتهم ويقيم أودهم ، لأن الآخرة عندهم خير وأبقى .

وأفضل القوت ما كان وسطا . لا كثيراً فيطغى ويلهى ، ولا قليلا فيشغل همه القلب والنفس .

الذكر بهذا الاسم :

كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يناجى ربه قائلا ـ كما حكى لنا ـ القرآن الكريم : ـ

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٥٠٣)

وهو يفتح الطريق لمن يريد مناجاة ربه عن طريق تعداد نعمه وشكر أفضاله .

روى الحاكم أن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ سألت رسول الله ـ ﷺ ـ قائلة : يارسول الله ، هذه الملائكة طعامها التهليل والتسبيح والتحميد فما طعامنا ؟

---

(٥٠٣) الشعراء ٧٨ : ٨٠

فعلّمها كلمات ، فقال : يا فاطمة قولى : « يا أول الأولين ويا آخر الآخرين ، ويا ذا القوة المتين ، يا راحم المساكين ، يا أرحم الراحمين » .

ويروى أن فاطمة شكت للنبى - ﷺ - كثرة التعب ، وطلبت خادما . فدلها النبى - ﷺ - على ماهو خير من الخادم ، وهو أن تسبح الله ثلاثا وثلاثين ، وتحمده ثلاثا وثلاثين ، وتكبره ثلاثا وثلاثين ، ثم تكمل المائة بلا إله إلا الله محمد رسول الله .

قالت : فداومت على ذلك فما شكوت تعبا ولا جوعا ..... إن الذكر قوت يغذى الروح ، وفى غذاء الروح غذاء الجسم ، والأعمال بالنيات . .

قال بعض العلماء : إن المداومة على ذكر هذا الاسم فيها أمان من الوحشة ، ولا سيما إن أضاف إلى ذلك سورة « لإيلاف قريش » صباحا ومساء .

ومن الدعاء المنسوب لبعض الصالحين :

« إلهى ، خلقت الأقوات كالستائر ، وأودعت فيها الآيات للقلوب والبصائر ، أنت المقيت والقوت سبب ، وأنت المغيث لمن لجنابك طلب ، اكشف عن بصيرتى حجب المظاهر ، حتى آخذ القوت على يديك يا قادر ، وسهل لروحى قوتها من الحب والايمان ، بمحض الفضل والجود . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم »(٥٠٤)

---

(٥٠٤) أسماء الله الحسنى جـ١ صـ٢١٩ د . أحمد الشرباصى

الحسـيب

الحسب .. الكرم ، والحسب الشرف الثابت فى الآباء ، والشرف فى الفعل ، وما يفتخر به الانسان من مآثر أجداده ، وهو الفَعال الصالح .. هذا ما تعارف عليه الناس بالنسبة لأنفسهم ..

أما بالنسبة لله ـ جل جلاله ـ فله معنى آخر ـ هو الكافى .

فالحسيب من أسماء الله تعالى معناه : الكافى ، وهو فعيل بمعنى مُفْعِل من أحسبنى الشىء إذا كفانى .

ومن معانيه : المحاسب عباده على أعمالهم ، يحاسب الطائعين فيجزيهم على طاعتهم والعاصين فيجازيهم على معصيتهم ..

إنه يحاسب المؤمنين حسابا يسيرا ، ويدخلهم الجنة عَرَّفها لهم . ويحاسب الكافرين حسابا شديدا ، ويعذبهم عذابا نكرا .

تقول : حسبى الله ـ أى يكفينى ، وحسبنا الله ـ أى كافينا ، وهو دعاء المتوكلين الذين يقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل .

والله ـ تعالى ـ هو الكافى عباده والمتولى أمورهم ، وهو الذى عليه الاعتماد ، وإليه يلجأ جميع العباد .

واذا فسرنا الحسيب بمعنى الكريم ، فلا كريم إلا هو . واذا اعتبرنا الحسيب مأخوذا من الشرف ، فإلى الله ينتهى كل شرف فى الوجود ، وما نال أحد شرفا على حقيقته الا بانتسابه إلى الله ، حتى قال هاشم بن عبد مناف مفتخرا : نحن آل الله .. أى أهله الذين أكرمهم بجوار بيته ، وقلَّدهم أمر هذا البيت .

فكل مجد دنيوى زائل ، وكل شرف مادى لا قيمة له . .

وقد أكد النبى - ﷺ - هذا المعنى بقوله : « كرم المرء دينه ، ومروءته عقله ، وحَسَبه خلقه » .

وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : « حَسَبُ المرء دينه ، ومروءته خلقه ، وأصله عقله » .

وقد ورد اسم الحسيب فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع :

فى قوله - تعالى - :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ (٥٠٥)

وفى قوله - تعالى - :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ (٥٠٦).

وفى قوله - تعالى - :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ

---

(٥٠٥) النساء ٨٦

(٥٠٦) النساء ٦

﴿ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ (٥٠٧)

ويفيد معنى ـ حسيب ـ فى الآيات أن الله حاسب للأعمال ومجاز عليها . كما يفيد معنى الحفظ والرعاية والكفاية وحسن الجزاء . .

روى النسائى عن عمران بن الحصين قال : كنا عند النبى ـ ﷺ ـ فجاء رجل فسلم ، فقال : السلام عليكم ، فرد عليه رسول الله ـ ﷺ ـ السلام وقال : « عشر » ثم جلس الرجل ، ثم جاء آخر فسلم فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : « عشرون » ثم جلس الرجل . وجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه رسول الله ـ ﷺ ـ وقال « ثلاثون » .

ولما سأل أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ عن ذلك ـ قال :

إن الله يجزى الذى قال « السلام عليكم » فقط بعشر حسنات ، ويجزى الذى قال « السلام عليكم ورحمة الله » بعشرين حسنة ، ويجزى الذى قال « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته بثلاثين درجة . . وكذلك الأمر بالنسبة لمن رد عليه . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . .

وقد وردت مادة « حسب » فى القرآن الكريم فى عدة مواضع ـ منها مرتين بلفظ « الحاسب » إحداهما فى قوله تعالى

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٥٠٨)

---

(٥٠٧) الأحزاب ٣٩

(٥٠٨) الأنعام ٦٢

والثانية فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٥٠٩)

ومايفيد حساب الله لعباده ـ ورد فى مواضع متعددة ـ منها قوله ـ تعالى : ـ

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ (٥١٠)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ (٥١١)

أما مايشير إلى الحسيب بمعنى الكافى والمدافع عن عباده ، فقد ورد فى آيات متعددة ـ منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ (٥١٢)

---

(٥٠٩) الأنبياء ٤٧
(٥١٠) البقرة ٢٠٢
(٥١١) آل عمران ١٩
(٥١٢) الطلاق ٣

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (٥١٣)

وقد دلت التجارب على أن التسلح بهذا السلاح يؤتى ثماره جيدا ، فما استنصر أحد بالله الا نصره ، وما استعز أحد بجناب الله إلا عزه ، وما توكل عليه أحد إلا كفاه ..

التخلق بأدب هذا الاسم :

من علم أن الله كافيه لايستوحش من إعراض الخلق عنه ، ثقة منه بأن الذى قُسِم له لا يفوته ، والذى لم يُقْسم له لايأتيه ، ومن أدرك أن الله هو الرازق والكافى والمعين والقوى والحافظ ـ وثُق صلته به ، وتأدب معه ، واطمأن اليه ، واعتمد عليه .. وسار على درب المؤمنين الذين قال الله فى شأنهم :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (٥١٤)

---

(٥١٣) التوبة ١٢٩ (٥١٤) آل عمران ١٧٢ : ١٧٤

لقد نصر الله هؤلاء المؤمنين الذين توكلوا عليه .

ولكن التوكل على الله لا ينافى الأخذ بالأسباب التى تؤدى إلى تحقيق المراد . ويستلزم التخلق بهذا الاسم أيضا ـ أن يحاسب الانسان نفسه أولا بأول استجابة لما جاء فى بعض الآثار : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيأوا للعرض الأكبر»

الدعاء بهذا الاسم :

قال بعض العلماء : من خاف من ظالم فقال : حسبى الله الحسيب ـ كفاه الله شر ذلك الظالم .

ومن أقوال الصالحين :

نحـــن بالله عِزُّنــــا	لا بجـــاه ومنصــب
بـه يعــز قدرنـــا	وبالحـــبيب المقـــرب
ومـــن أراد ذلنـــا	مـــن قـــريب وأجـــنبى
ســيفنا فيـــه قـــولنا	حســبنا اللـــه والنـــبى

وهو قول مستمد من قوله ـ تعالى ـ لنبيه ـ ﷺ ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤ ﴾ (٥١٥)

جاء أعرابى للنبى ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله : من يلى حساب الخلق يوم القيامة ؟

---

(٥١٥) الأنفال ٦٤

قال : الله تبارك وتعالى .

قال الاعرابى : هو بنفسه ؟

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نعم »

فضحك الأعرابى .

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما أضحكك يا أعرابى ؟

قال : إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح . . »

وإذا داوم العبد على ذكر هذا الاسم كفاه الله ما أهمه من أمر دينه ودنياه . أخبر بذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديث رواه ابن السنى عن أبى الدرداء . قال : « من قال حين يصبح وحين يمسى : حسبى الله لاإله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ـ سبع مرات ـ كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة .

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر :

الشمس لولا الحسيب ما طلعت   والأرض لولاه لم تدر أبداً
سبحانه رازق العباد وكافيهم   ومغنى الوجود مذ وُجِدا
تباركت ذاتك العلية ما   نعبد إلاّك واحداً أحداً
الطفل فى المهد أنت تطعمه   والطير تعطيه قادراً صمداً(٥١٦)

(٥١٦) أسماء الله الحسنى ـ أحمد مخيمر ٥٩

الجليل

ورد اسم الجليل فى سلسلة الأسماء الحسنى التى ذكرها النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حديثه الشريف ، ورقمه فى هذه السلسلة الثانى والأربعون

وورد مايشير اليه فى قوله - تعالى -

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٥١٧)

وفى قوله - تعالى -

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٥١٨)

فذو الجلال جليل ، كما أن ذا العظمة عظيم ، وذا الملك مَلِك ، وذا المهابة مهيب .

قال ابن منظور فى لسان العرب : جلال الله عظمته ، ولايقال : الجلال الا لله ، والجليل من صفات الله - تقدس وتعالى -

وقد يوصف به الأمر العظيم ، والرجل ذو القدر الخطير . وفى الحديث الشريف ما معناه : أكثروا من النداء

بـ « ياذا الجلال والإكرام »

والمقصود الإكثار من الدعاء بهذا الاسم .

وهو سبحانه وتعالى الجليل الموصوف بنعوت الجلال ، والحاوى لها جميعها ، فله الجلال المطلق . .

---

(٥١٧) الرحمن ٢٧

(٥١٨) الرحمن ٧٨

قال العلماء فى تفسير هذا الاسم : الجليل هو العظيم عما لا يليق به ، الكامل فى الذات والصفات ، كاشف القلوب بأوصاف جلاله ، وكاشف الأسرار بنعوت جماله ، وكل مافى العالم من جلال وكمال وحسن وبهاء من أنوار ذاته وآثار صفاته .

وقيل الجليل : هو الموصوف بنعوت الجلال والعظمة والصفات العليا ، وهى : الغِنى والمُلك والتقديس والعلم والقدرة ـ وغيرها من صفات الكمال .

وهو المستحق بأن يأمر وينهى ، وهو المتجلى على خلقه من غير أن يراه أحد فى الدنيا بعينيه ، لأنهما لاتقدران على مشاهدة جماله وكماله ونوره ، قال ـ تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (٥١٩)

أما فى الآخرة فيرونه كما يقول سبحانه وتعالى ـ :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٥٢٠)

ومن معانى الجليل أيضاً قولهم :

---

(٥١٩) الأعراف ١٤٣

(٥٢٠) القيامة ٢٢ ، ٢٣

الجليل هو المستحق لأن يأمر وينهى ، والذى يصغر دونه كل جليل ، ويتضع معه كل رفيع .

وقيل : الجليل هو الذى يُجِلُّ من قصده ، ويُذِلُّ من طرده .

وقيل : الجليل هو الذى يجل قدره فى قلوب العارفين ، ويعظم خطره فى نفوس المحبين .

وقيل : الجليل هو الذى يجل فى علوه عن أن يشرف عليه أحد ، ويعلو بكبريائه أن يعرف كمال جلاله فرد .

وقيل : الجليل الذى أجلَّ الأولياء بفضله ، وأذل الأعداء بعدله . سبحانه لاجليل الا هو ، ولا كبير إلا هو ، ولا عظيم إلا هو . .

ولكن هل هناك فرق بين هذه الأسماء ؟

لقد تكفل الغزالى ـ رحمه الله ـ بالاجابة عن هذا السؤال فقال : الجليل هو الموصوف بنعوت الجلال ، ونعوت الجلال هى ماسبق أن أشرنا إليها . . . وهى الغنى والملك والتقديس والعلم والقدرة وما إليها . . والموصوف بها على الحقيقة هو الجليل جل جلاله .

فهذا الاسم يرجع إلى كمال الصفات ـ كما قال ابن منظور .
أما الكبير فهو اسم يرجع إلى كمال الذات . .

والعظيم اسم يرجع الى كمال الذات والصفات معا . .
وقد أكد ذلك الرازى ـ رحمه الله ـ فى شرحه لهذه الأسماء .

التخلق بآداب هذا الاسم

قال العلماء : الجليل من العباد هو الذى تحسن صفاته الباطنة وتجمل أخلاقه ، ويتنزه عن العقائد الباطلة والنحل الفاسدة ، والأخلاق المذمومة ، ويتصل بالمعارف القيمة والمبادىء الشريفة . .

إنه بذلك يرتفع قدره ويعلو شأنه ، ويكون له فى قلوب الناس محبة وكرامة .

والذى يعرف هذا الاسم الشريف لابد أن يتواضع ويتذكر أن الله هو الذى أفاض عليه النعم ، فيخضع لله ويعظمه ويجله . .

الذكر بهذا الاسم

إن استدامة الذكر بهذا الاسم تنصر الذاكر به على الشيطان ووساوسه ، ومن أجل ذلك دعانا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الاكثار من ذكره وملازمة الدعاء به . . .

عن سعيد المقبرى أن رجلا كان يكثر من قول : اللهم ياذا الجلال والإكرام . . فكنا نرى حوائجه وقد قضاها له الله . .

ومن أدعية الصالحين بهذا الاسم ماذكره د . أحمد الشرباصى ـ عن بعض الصالحين :

« إلهى أنت الجليل الذى يرتعد الجميع من جلالك ، وتذوب الأكباد من خشية سلطانك ، وأنت الكريم الذى تحن إليك القلوب ، والرحيم المتجلى

بالحنان المنفس من الكروب .

لك الكمال المطلق ، والعز المحقق ، امنحنا عيون البصيرة لنرى أثر قدرتك وعظمتك ، واحفظنا من الغرور بظاهر الأقوال ، والوقوف عند صور الأعمال .

« إلهى تجل لى باسمك الجليل ، فلا أرى مخلوقاً الا وقد سجد لعظمتك ، وأرى الكل ذليلا لتجلى باهر قدرتك ، فلا أقدم على معصيتك إنك على كل شيء قدير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم »(٥٢١)

قال العلماء : الكريم ـ جل جلاله ـ دائم المعروف ، كثير النوال ، ذو الطول والإنعام ، يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ولله خزائن السموات والأرض .

ابتدأ خلقه بجوده وكرمه منذ أن كانوا فى عالم غيبه ، ثم نقلهم الى عالم الحياة محفوفين بلطفه ، مغذين بكرمه ، . . وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة »

---

(٥٢١) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ ١ صـ ٢٣٠

(الكريم)

والكريم هو كثير العطاء ، دائم الإحسان ، واسع الكرم ، سبحانه إذا قدر عفا وإذا وعد وفى ، وإذا سئل أعطى وكفى ، لايضيع من أقبل عليه ولا يترك من التجأ إليه .

وقال ابن عطاء : الكريم هو الذى لاتتخطاه الآمال .

وقال ابن منظور : الكريم من صفات الله تعالى وأسمائه .... وهو الكثير الخير ، الجواد ، المعطى الذى لاينفذ عطاؤه ، وهو الكريم المطلق ، والكريم الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل ... والكريم اسم جامع لكل مايحمد ، فالله ـ عز وجل ـ كريم حميد الفعال ورب العرش الكريم العظيم .

وقد ورد هذا الاسم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (٥٢٢)

وفى قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ (٥٢٣)

وفى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا

---

(٥٢٢) المؤمنون ١١٦

(٥٢٣) الانفطار ٦

يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٥٢٤)

وقد ورد هذا الاسم وصفا للرزق فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ ﴾ (٥٢٥)

وورد وصفاً للمقام فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٥٢٦)

وورد وصفاً للكتاب فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ (٥٢٨)

وجاء وصفاً للرسول فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٥٢٩)

وجاء وصفا للملائكة الكرام فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (٥٣٠)

---

(٥٢٤) النمل ٤٠
(٥٢٥) الأنفال ٤
(٥٢٦) الشعراء ٥٨
(٥٢٧) النمل ٢٩
(٥٢٨) يس ١١
(٥٢٩) الحاقة ٤٠
(٥٣٠) الانفطار ١٠ ، ١١

وقوله :

﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦ ﴾ (٥٣١)

وجاء وصف الأكرم لله ـ تعالى ـ فى قوله :

﴿اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم﴾

وهو اسم تفضيل ، كما أن كريم صيغة مبالغة وكلاهما يدل على أن الله ـ جلت قدرته بلغ الغاية فى الكرم . فلا كريم على الحقيقة سواه ، ولا يوجد كرم إلا كان هو أصله . .

وكرم غيره مستمد منه . وقد وصف كلامه بتلك الصفة ـ فقال :

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ ﴾ (٥٣٢)

ومن أقوال العلماء والصالحين فى معنى هذا الاسم :

يقول الجنيد : الكريم الذى لايُحْوِجُك إلى وسيلة .

وقال الحارث المحاسبى : الكريم هو الذى يعطى بغير حساب .

وقال الدقاق : هو الذى إذا عفا عن عبد عفا عمن له مثل معصيته ، فهو واسع العفو والعطاء .

وقال غيرهم : هو الذى لا يخيِّب رجاء الآمنين . وهو الذى لا يضيع من توسل به ولا يترك من التجأ إليه . ويحفظ الكرماء إذا ماتوا .

ومعنى ذلك أنه يحفظ ذكرهم ، ويحفظ ذريتهم .

---

(٥٣١) عبس ١٦

(٥٣٢) الواقعة ٧٧ ، ٧٨

والكريم هو الذى لا ييئس العصاة من التوبة ، ويتوب عليهم من غير مسألتهم .

والكريم من الناس هو الذى لا يرضى أن ترفع إلى غير ربه حاجته . وإذا أذنبت أمامه اعتذر عنك ، وإذا هجرت وصلك ، وإذا مرضت عادك ، وإذا قدمت من سفر زارك ، وإذا افتقرت أحسن إليك بنفسه وماله . . والكريم هو الذى يعطى من غير منة . .

واستقصاء صفات الكرم على حقيقتها لا تكون إلا لله ـ جل وعلا ـ فهو الكريم حقيقة ، وكرم غيره عارية منه ، وتفضل عليهم من كرمه . .

التخلق بأدب هذا الاسم

الذى يعيش فى ظل هذا الاسم عليه أن يتخلق بالمثل العليا التى تليق بتلك الصفة ـ وقد وصف بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبى الله يوسف وآباءه ـ عليهم السلام ـ حيث قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » . . . . وكرم يوسف كان عظيما جليلا . .

فقد قابل ـ عليه السلام ـ الإساءة بالإحسان ، وعفا عن إخوته الذين هموا بقتله ، وألقوه فى غيابة الجب ، حتى بيع بثمن بخس دراهم معدودة ، ولم يقل لهم حين عرفوه إلا كلمات تليق بشرفه وكرمه ، قال لهم :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٥٣٣)

---

(٥٣٣) يوسف ٩٢

إن المؤمن عليه أن يتوجه بجوارحه إلى ربه ، ويتعود إطعام الفقير ، وكسوة العارى ، وصلة الأرحام ، ومواساة الأيتام ، وعليه أن يتسع قلبه للتجاوز عن الهفوات ، والعفو عن الأخطاء وستر العورات ، ومغفرة الزلات . .

قال - صلى الله عليه وسلم - « من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم الفزع الأكبر » .

الذكر فى ظل هذا الاسم

روى البيهقى والديلمى عن أُبَىّ - رضى الله عنه - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : جاء جبريل - عليه السلام - إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضاحكاً مستبشراً فى أحسن صورة .

فقال : السلام عليك يامحمد

قال : وعليك السلام يا جبريل .

قال جبريل : إن الله - تعالى - أرسلنى إليك بهدية لم يعطها أحداً قبلك ، وإن الله - تعالى - أكرمك بها

قال - صلى الله عليه وسلم - ما هى يا جبريل ؟

قال : كلمات من كنوز عرشه . . قل : « يا من أظهر الجميل وستر القبيح ، ويا من لم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر ، يا عظيم العفو ، يا حسن التجاوز ، يا واسع المغفرة ، يا باسط اليدين بالعطية ، يا منتهى كل شكوى ، يا صاحب كل نجوى ، يا كريم الصفح ، يا عظيم المنِّ ، يا مبدى النعم قبل استحقاقها ، يا رباه ، يا سيداه ، يا أملاه ، أسألك النجاة من النار » .

وقد خص الله نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته بالكثير من المنح والعطايا . . وقد ذكر العلماء أن مَنْ أكثر من ذكر اسم الله « الكريم » أوقع الله فى قلوب الخلق إكرامه .

وقالوا : من ذكر هذا الاسم مع اسمه تعالى « ذى الطَّوْل الوهاب » ظهرت البركة فى أسبابه وأحواله .

ومن الدعاء الوارد بهذا الاسم : يا كريم العفو ياذا العدل أنت الذى ملأ كل شىء عدله .

وقيل : إن من واظب على ذكره مع الاستغفار غفر الله ذنوبه وستر عيوبه كائنة ما كانت . .

ومن منظومة أسماء الله الحسنى :

تفضــل علينــا يا كريــم بسؤلنــا   واكلأنــا أنت الرقيــب برأفــة

الرقيب

جاء فى لسان العرب : من أسماء الله ـ تعالى ـ الرقيب ، وهو الحافظ الذى لا يغيب عنه شىء ، وهو فعيل بمعنى فاعل ـ جاء فى الحديث : « ارقبوا محمداً فى أهل بيته » أى احفظوه فيهم .

وفى الحديث : « ما من نبىٍّ إلا أعطى سبعة نجباء رقباء »
أى حفظة يكونون معه ، والرقيب : الحفيظ .

ويقتضى الحفظ الحراسة ، وتقتضى الرقابة الاشراف والعلو . . وقد جاء اسم الرقيب فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) ﴾ (٥٣٤)

وفى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) ﴾ (٥٣٥)

وفى قوله ـ تعالى ـ

---

(٥٣٤) المائدة ١١٧

(٥٣٥) هود ٩٣

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾ (٥٣٦)

وفى قوله ـ تعالى :

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ (٥٣٧)

ويقول العلماء : الرقيب معناه أن الله ـ جل وعلا ـ يراقب عباده ويحصى أعمالهم ويحيط بمكنونات سرائرهم ولا يغيب عنه شىء من أمرهم .

وقالوا : إنه ـ جلت قدرته ـ لا يغفل عن خلقه طرفة عين ، ولا يغيب عليه من أمرهم شىء صغر أو كبر ، يشهدهم ويحفظهم . فسبحانه « لا تأخذه سنة ولا نوم » .

ولقد وكل الله بالانسان ملكين يحفظانه ويسجلان عليه حسناته وسيئاته وهما رقيب وعتيد اللذان وزد ذكرهما فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٥٣٨)

قال القرطبى فى تفسير هذه الآية : فى الرقيب ثلاثة أوحه : أحدها أنه المتتبع للأمور ، الثانى أنه الحافظ ، الثالث أنه الشاهد .

---

(٥٣٦) النساء ٣
(٥٣٧) الأحزاب ٥٢
(٥٣٨) ق ١٨

وفى العتيد وجهان أحدهما : أنه الحاضر الذى لا يغيب ، والثانى أنه الحافظ المعد إما للحفظ أو الشهادة .

ومن رحمة الله بعباده أن هذين الملكين اللذين أعدهما الله لحفظ عبده إذا مات العبد المؤمن يلزمان قبره يستغفران له إلى يوم القيامة .... فقد روى أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله وكل بعبده ملكين يكتبان عمله ، فإذا مات قالا : ربنا قد مات فلان فائذن لنا أن نصعد إلى السماء ، فيقول الله - تعالى - إن سماواتى مملوءة بملائكتى يسبحوننى فيقولان : ربنا نقيم فى الأرض . فيقول الله - تعالى - إن أرضى مملوءة من خلقى يسبحوننى . فيقولان : يارب فأين نكون ؟

فيقول الله - تعالى - : كونا على قبر عبدى ، فكبرانى وهللانى وسبحانى واكتبا ذلك لعبدى إلى يوم القيامة[٥٣٩] » .

التأدب بهذا الاسم :

والتأدب بهذا الاسم يرفع صاحبه إلى مقام الإحسان الذى ورد معناه فيه الحديث الشريف .... وهو « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والمراقبة تضبط عمل العبد ، وترفع درجاته عند ربه ، لأنه إذا راقب ربه انتهى عن كل عمل سىء ، وتأدب بكل عمل حسن .

قال بعضهم : من راقب الله فى خواطره عصمه الله فى جوارحه .

---

(٥٣٩) تفسير القرطبى جـ ١٧ صـ ١٢ - سورة ق -

وحدثوا أن بعض الشيوخ كان يقرب تلميذاً له أكثر من غيره من التلاميذ ، فحدثوه فى ذلك . فقال لهم : سأريكم سبب تفضيلى له . . . ثم دفع إلى كل منهم طائراً وأمره أن يذبحه فى مكان لا يراه فيه أحد .

وعاد كل منهم بطائره مذبوحاً ، وقال : لقد ذبحته فى مكان لا يرانى فيه أحد .

ما عدا هذا التلميذ الأثير عند شيخه فقد عاد بطائره غير مذبوح ، فقال له الشيخ أمام التلاميذ : لماذا لم تذبح طائرك كما ذبحوا ؟

فقال التلميذ : يا سيدى لقد أمرتنى أن أذبحه بحيث لا يرانى أحد ، ولم أجد موضعاً لا يرانى الله فيه . .

إن المراقبة لها سر عظيم وأثر كبير ، وللعلماء فى الحديث عنها دقائق ورقائق . . ومن ذلك ما يقوله بعضهم : إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ولنفسك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله ـ تعالى ـ يراقب باطنك .

ومن أقوالهم : علامة المراقبة إيثار ما آثر الله ـ تعالى ـ وتعظيم ما عظم الله ـ تعالى ، وتصغير ما صغر الله . .

إن حظ العبد من اسم الله الرقيب أن يداوم على مراقبة الله فى انفراده واجتماعه مع الناس . وأن يضبط قلبه وحواسه فى صلاته ، مستحضراً حقيقة قوله ـ تعالى ـ إياك نعبد وإياك نستعين »

إن الشيطان يلعب بالانسان فى الصلاة محاولاً صرفه عن مناجاة مولاه ، فيشرد ذهنه فى الصلاة ، فلا يدرى كم صلى وكم سبح ؟

وذلك بلاء يقع فيه كثير من الناس ، ولا ينجو منه إلا من راقب الله واستحضر عظمته . نرجو الله أن يؤدبنا بأدبه ، ويمن علينا بعفوه ، وأن ينعم علينا بنعمة مراقبته وخشيته ، حتى نتمكن من ضبط الحواس وتنقية القلب واستقامة العقل .

الذكر فى ظل هذا الاسم

قال أحد الشعراء :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل علىَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب ... وأن غداً للناظرين قريب ؟

وهذا الاسم يصلح أن يذكره العبد بقلبه ، بمعنى أن يعيش فى ظله بروحه وعقله ، حتى يصبح بذلك فى ذكر دائم لا يفتر ، ويرتفع بذلك إلى ما يسمى بمقام المراقبة أو مقام الاحسان الذى يعبد الانسان ربه فى ظله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه . .

إن هذه المراقبة تثمر الحياء من الله ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : « استحيوا من الله حق الحياء » .

قالوا : إنا نستحى يا نبى الله ، والحمد لله .

قال : « ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وأن تذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وقال بعض العلماء : من ذكر هذا الاسم فى سفر ، حفظه الله وحفظ أهله وولده فى غيبته . فليقرأ العبد قوله ـ تعالى ـ

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (٥٤٠)

ومن قرأ هذا الاسم على جنين سلّمه الله . .

قال الشاعر أحمد مخيمر :

لك الحمد ربى ، خلقت الوجود ... وأنت عليه حفيظ رقيب
فلا الأرض تغفل عن سيرها ... ولا الشمس فى كل صبح تغيب (٥٤١)

(٥٤٠) الحديد ٤
(٥٤١) أسماء الله الحسنى لأحمد مخيمر صـ ٦٤


المجيب
الواسع * الودود
المجيد * الباعث
الشهيد * الحق
الوكيل

المجيب

جاء اسم المجيب فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (٥٤٢)

وفى قوله ـ تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٥٤٣)

ويفهم أيضا من قوله ـ تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٥٤٤)

ومن قوله ـ تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (٥٤٥)

---

(٥٤٢) هود ٦١

(٥٤٣) الصافات ٧٥

(٥٤٤) النمل ٦٢

(٥٠٥) البقرة ١٨٦

ومن قوله ـ تعالى :

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ (٥٤٦)

قال صاحب لسان العرب : المجيب هو الذى يقابل الدعاء والسؤال بالعطاء والقبول ـ وهو الحق سبحانه وتعالى ـ

وهو اسم فاعل من أجاب يجيب . . . . والجواب معروف وهو : رد الكلام .

والفعل : أجاب يجيب . . قال ـ تعالى ـ

« فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى » أى فليجيبونى .

والمصدر الإجابة ، والاسم الجابة مثل الطاعة والطاقة ، من أطاع وأطاق .

والاجابة والاستجابة بمعنى . يقال : استجاب الله دعاءه وأجاب .

والمجيب فى حق الله ـ تعالى ـ هو الذى يقابل مسألة السائلين بالاسعاف ، ودعاء الداعين بالاجابة ، وضرورة المضطرين بالكفاية ، بل

(٥٤٦) آل عمران ١٩٥

ينعم قبل النداء ، ويتفضل قبل الدعاء ، يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم ، وقد علم ذلك أزلا فدبر أسباب كفاية الحاجات .

والله ـ سبحانه ـ ندب عباده لدعائه ، ووعدهم الإجابة فقال :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٥٤٧)

والدعاء هو مخ العبادة كما يقول العلماء ، وهو مفتاح الحاجة ومستروح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطرين ومتنفس ذوى المآرب .

وقد ذم الله قوما تركوا الدعاء فقال :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٥٤٨)

فقبض الأيدى كناية عن ترك الدعاء .

وعاب على قوم تركوا الدعاء عند البأساء فقال فى حقهم « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون » .

والله ـ سبحانه ـ يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم ، ومن حكمته أنه

---

(٥٤٧) غافر ٦٠

(٥٤٨) التوبة ٦٧

قضى منذ الأزل أن قضاء الحاجات متوقف فى بعض الأحيان على خالص الدعوات .

والله ـ سبحانه ـ ضمن الإجابة للإنسان فى الوقت الذى يريده الله ـ جلت قدرته ـ لا الوقت الذى يريده العبد ، فعلى الانسان ألا يجزع لتأخر الاجابة فقد يكون فى ذلك الخير له .

ولاجابة الدعاء شروط ـ أهمها طيب المطعم ، وقد مرت بنا وصية النبى ـ ﷺ ـ لسعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ حين قال له : ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة .

والله يحب أن يسمع صوت دعاء عباده إياه ، خصوصا إذا كانوا من المقربين إليه . يقول ـ عز وجل ـ لجبريل : ياجبريل أَخِّر حاجة عبدى فإنى أحب أن أسمع صوته ، وهذا كله حسب مشيئته تعالى . . .

وقد يكون الداعى من المبغضين ، فيقول الله لجبريل : ياجبريل اقض لعبدى حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته .

التخلق بهذا الاسم

إن التخلق بأدب هذا الاسم يعنى الافتقار إلى الله والخضوع له ، ولزوم الوقوف ببابه واللجوء إليه فى كل صغيرة وكبيرة ، ولقد ورد أن الله أوحى إلى موسى قائلا : ياموسى سلنى كل شىء حتى الملح .

وهو أمر يدل على مدى فاقة العبد لربه وشدة حاجته اليه . . . وعلمه بأن كل شىء بيده سبحانه ، وأن اللجوء إليه فى المهام الكبيرة كاللجوء إليه فى المهام الصغيرة .

ومقتضى التأدب بهذا الخُلُق أن يعين الانسان غيره ويجيب طلبه ، ويقضى حاجته ، ولا يرد السائل ولا ينهر المحتاج .

وعليه أن يستجيب لأمر الله بإطاعة أوامره وترك نواهيه قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٥٤٩)

التذكر بهذا الاسم :

الدعاء بهذا الاسم يثمر سرعة الإجابة إن شاء الله ، ومن أدام الذكر به أجاب الله دعوته بشرط الصلاح والتقوى والورع ، مع وجوب الرضا بالقضاء والقدر . .

حكى عن الليث أنه قال : رأيت ابن نافع ضريراً ثم رأيته بصيراً فقلت له : بم رد عليك بصرك ؟ فقال : جاءنى فى المنام من قال لى : قل ياقريب ، يامجيب ، ياسميع الدعاء ، يالطيفا لما يشاء ، رد على بصرى فقلتها فرد الله علىَّ بصرى . .

ومن دعاء الصالحين :

« يا ألله يا سميع يا قريب يا مجيب يا ودود حُلْ بيننا وبين فتنة الدنيا

---

(٥٤٩) الأنفال ٢٤

والنساء والغفلة والشهوة وظلم العباد وسوء الخلق ، واغفر لنا ذنوبنا واقض عنا تبعاتنا واكشف عنا السوء ونجنا من الغم واجعل لنا منه مخرجا . إنك على كل شيء قدير » .

ومن أدعية الصالحين أيضا :

« يارب يا ألله ، يا عظيم يا كريم يا سميع يا بصير يا قريب يا مجيب يا ألله ، أعوذ بك من الفتن ماظهر منها وما بطن ، وأعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، وأعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زوراً أو أغشى فجوراً أو أصبح مغروراً »

الواســـع

ورد اسم الواسع فى قوله - تعالى - :

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٥٥٠)

وقوله - تعالى :

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٥٥١)

وقوله - تعالى :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ (٥٥٢)

ورحمة الله واسعة .. قال سبحانه :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ

---

(٥٥٠) النجم ٣٢
(٥٥١) آل عمران ٧٣
(٥٥٢) النساء ١٣٠

﴿أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ (٥٥٣)

وقال :

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ (٥٥٤)

ويشير هذا الاسم إلى اتساع ملك الله ـ قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ (٥٥٥)

وقال سبحانه :

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ (٥٥٦)

---

(٥٥٣) الاعراف ١٥٦
(٥٥٤) الأنعام ١٤٧
(٥٥٥) البقرة ١١٥
(٥٥٦) البقرة ٢٥٥

يقول بعض العلماء : الواسع هو الذى لا حدود لمدلول أسمائه وصفاته ، فهو تعالى واسع العلم ، واسع الرحمة ، واسع المغفرة ، واسع الملك » . . . . . . لا نهاية لسلطانه ، ولا حد لإحسانه ، فلا يُحَدُّ غناه ، ولا تنفد عطاياه ، ولا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأن عن شأن . . سبحانه . وسع بعلمه جميع المعلومات ، وبقدرته جميع المقدورات فهو واسع العلم والسلطان والغنى والقدرة والإحسان .

وقال ابن منظور فى لسان العرب : فى أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ الواسع وهو الذى وسع رزقه جميع خلقه ، ووسعت رحمته كل شىء ، ووسع غناه كل فقر .

قال ابن الأنبارى : الواسع من أسماء الله ، الكثير العطاء الذى وسع كل شىء بعلمه .

وقيل : الواسع المحيط بكل شىء من قوله ـ تعالى : « وسع ربى كل شىء علما » قال أحد الشعراء يمدح نفسه بكثرة العطاء :

« أعطيهم الجهد منى بَلْهَ ما أسع » .

معناه أعطيهم مالا أجده إلا بالجهد ، فدع ما أحيط به .

قال : وقال أبو إسحاق فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ (٥٥٧)

أينما تولوا فاقصدوا وجه الله بتيممكم القبلة ، إن الله واسع عليم . .

---

(٥٥٧) البقرة ١١٥

والسعة نقيض الضيق . والفعل وسع بكسر العين ، والمضارع يسَع ويسِعُ بفتح العين وكسرها ـ والمصدر سَعَةً .

وقد يأتى مضموم العين فى الماضى تقول : وَسُع ومصدره وَسَاعةً .

أما قوله :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾ (٥٥٨)

فقال بعضهم : الأيد معناه . القدرة والقوة . وموسعون أى قادرون .

وقال بعضهم : أى جعلنا بينها وبين الأرض سعة .

وقال بعضهم : إنا لموسعون الرزق على عبادنا . .

هذا بعض ما تحدث به اللغويون حول مدلول هذا الاسم الكريم

أما غير أهل اللغة من العلماء فيقولون :

الواسع الذى لا نهاية لبرهانه ولا غاية لسلطانه .

وقالوا : هو الواسع فى علمه فلا يجهل ، والواسع فى قدرته فلا يعجل .

وقالوا : هو الواسع الذى لا يعزب عنه أثر الخواطر فى الضمائر .

وقالوا : الواسع الذى فضله شامل ونواله كامل .

أما سعة علمه فيشهد له قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ

(٥٥٨) الذاريات ٤٧

﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (٥٥٩)

وقوله ـ :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٥٦٠)

وقوله تعالى ـ :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٥٦١)

أما سعة عطائه فيشهد لها قوله ـ تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ (٥٦٢)

وأما سعة رحمته وفضله وعفوه فيشهد لها قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا

---

(٥٥٩) البقرة ٢٥٥
(٥٦٠) الأنعام ٨٠
(٥٦١) الكهف ١٠٩
(٥٦٢) البقرة ٢٦١

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ (٥٦٣)

وأما سعة ملكه فيشهد له قوله تعالى -

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ (٥٦٤)

التخلق بأدب هذا الاسم :

قال العلماء : إن حظ العبد من اسم ربه الواسع - جل جلاله - أن يتخلق بالعلم والحكمة والرحمة . .

ومن الواجب على ذاكر هذا الاسم أن يسع الناس بالجود بقدر ماأعطاه الله ، فيقضى لهم مصالحهم ، وأن يسعهم بالخلق الطيب فيحسن معامتهم ، جاء فى الأثر : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم »

وسعة الصدر من الصفات التى يصفون بها المؤمن لحلمه وعفوه ، وهى تعنى عدم التسرع ، وضبط النفس ، وعدم الغضب ، وهذه منحة من الله يمن بها على من يشاء من عباده .

---

(٥٦٣) غافر ٧

(٥٦٤) البقرة ٢٥٥

ومن دلائل التخلق بهذا الاسم أن يدعو الإنسان لنفسه ولغيره من المؤمنين ، ولايخص بالدعاء نفسه أو أقاربه . . وقد أرشدنا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كيفية الصلاة عليه أن نعم ولانخصص ، فقد ورد فى الجامع الصغير عن أبى هريرة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «صلوا علىَّ وعلى أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثنى»

وجاءه رجل أعرابى فقال : اللهم ارحمنى ومحمدا ولاترحم أحدا معنا ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لقد حجرت واسعا .

وقد دعانا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نوسع على غيرنا مادام الله قد وسع علينا . .

ومن آداب التخلق بهذا الاسم أن يسعى الإنسان فى تنمية علمه ، وتوسيع مداركه ، وزيادة معلوماته ـ وقد طلب الله من نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو ربه بذلك فقال :

﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (٥٦٥)

الدعاء بهذا الاسم :

ومن أثر هذا الاسم فى الدعاء أن ذاكره يرزقه الله الغنى والجاه وسعة الصدر والسلامة من الغل والحرص ، ويجعل له من ضيقه فرجا ، ومن

---

(٥٦٥) طه ١١٤

عسره يسرا . .

ومن الدعوات بهذا الاسم :

« اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شيء من جهالتى بعلمك ، فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفر لى إنك على كل شيء قدير »

« ياألله ياملك ياوهاب ، هب لنا من نعماك ماعلمت لنا فيه رضاك ، واكسنا من لدنك كسوة تقينا بها من الفتن فى جميع عطاياك ، ونزهنا عن كل وصف يوجب نقصا مما استأثرت به فى عملك عمن سواك » .

« إلهى أنت الواسع الذى وسعت كل شيء ، وحيرت عظمتك كل حكيم عالم ، حيرتنا فى الوسعة المحدودة ، فكيف تكون سعة أنوارك وصفاتك ؟ غمرت العاصين بنعمتك ، ووسعت الموجودات بقدرتك ، ووسعت الجانى بعفوك الشامل ، ووسعت الضعفاء برزقك الواصل . .

أما الشاعر أحمد مخيمر فيقول فى مناجاته فى ظل هذا الاسم :

جل ربى وسعت رحمته كل شيء سعة ليست تحد
واسع النعمة لاتحصى ولا هى من كثرتها مما يعد
واسع الغفران إن جاء إلى بابه المقصود عاص لايرد
واسع الحلم على قدرته واسع العلم ، وما للعلم حد .

أما صاحب منظومة أسماء الله الحسنى فيدعو ربه قائلا :

أجب لدعانا ياجيب بسرعة ويا واسع وَسِّع لنا فيض رحمة

[الحكيم]

جاء فى لسان العرب : الله ـ سبحانه وتعالى : أحكم الحاكمين ، وهو الحكيم الذى له الحكم .

ومن صفات الله ـ تعالى : الحَكَم والحكِيم والحاكم . ومعانى هذه الأسماء متقاربة والله أعلم بما أراد بها ، وعلينا الإيمان بأنها من أسمائه .

أما ابن الأثير فيقول : من أسماء الله الحكم والحكيم وهما بمعنى الحاكم ، وهو القاضى ، فهو فعيل بمعنى فاعل ، أو هو الذى يحكم الأشياء ويتقنها ، فهو فعيل بمعنى مُفْعِل .

فالحكيم ذو الحكمة . والحكمة معناها معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها : حكيم .

والحكم : العلم والفقه ، وقد تفضل الله بهما على بعض خلقه ، فقد جاء فى حق يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾(٥٦٦)

أى آتيناه علما وفقها .

وجاء فى الأثر : « الصمت حكم وقليل فاعله » كما جاء قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ان من الشعر لحكما » أو حكمة .

وجاءت الحكمة من حَكَم الشيء وأحكمه إذا منعه من الفساد .

---

(٥٦٦) مريم ١٢

جاء فى أقوال العرب ، حَكّم اليتيم كما تُحكّم ولدك . أى امنعه من الفساد كما تمنع ولدك . ومنه حكمة الدابة : وهى الآلة التى تمنع الدابة من الجموح .

ولفظة الحكيم مبالغة من الحكمة تفيد تعظيم الحق - جل وعلا - فى حكمته التى تدق عن الأفهام ، وتجل عن التصور فى الأذهان .

الحكيم فى القرآن :

وقد جاء اسم الله الحكيم فى القرآن فى مواضع كثيرة تفوق المائة موضع .

جاء فى كثير منها مقترنا باسمه العزيز . . وذلك فى نحو قوله - تعالى -

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ (٥٦٧)

وفى قوله - تعالى -

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) ﴾ (٥٦٨)

وقوله تعالى -

---

(٥٦٧) البقرة ١٢٩

(٥٦٨) البقرة ٢٠٩

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (٥٦٩)

وغير ذلك من الآيات .

وجاء فى بعضها مقترنا باسمه العليم مثل قوله ـ تعالى ـ

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٥٧٠)

وقوله تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٥٧١)

وغير ذلك من الآيات .

وجاء فى بعضها مقترنا باسمه الخبير مثل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٥٧٢)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن

---

(٥٦٩) النساء ١٦٥
(٥٧٠) البقرة ٣٢
(٥٧١) التوبة ٢٨
(٥٧٢) الأنعام ١٨

فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٥٧٣)

وجاء فى بعضها مقترنا باسمه التواب قال - تعالى -

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (٥٧٤)

وجاء فى بعضهها مقترنا باسمه الحميد - قال تعالى - :

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٥٧٥)

وجاء فى بعضها مقترنا باسمه العلى - قال - تعالى -

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (٥٧٦)

وجاء مقترنا باسمه الواسع - قال تعالى - :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ (٥٧٧)

وجاء فى صيغة التفضيل فى قوله تعالى :

---

(٥٧٣) الأنعام ٧٣

(٥٧٤) النور ١٠

(٥٧٥) فصلت ٤٢

(٥٧٦) الشورى ٥١

(٥٧٠) النساء ١٣٠

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٥٧٨)

وفى قوله تعالى -

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (٥٧٩)

ولأن القرآن كلام الله فقد وصفه الله بما وصف به ذاته فقال

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ (٥٨٠)

وقال :

﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (٥٨١)

وقال :

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٥٨٢)

ووصف الله أمره بأنه حكيم . فقال :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٥٨٣)

---

(٥٧٨) هود ٤٥
(٥٧٩) التين ٧ ، ٨
(٥٨٠) يس ١
(٥٨١) الزخرف ٤
(٥٨٢) آل عمران ٥٨
(٥٨٣) الدخان ٣ ، ٤

وإذا كنا قد تعرضنا لأقوال اللغويين فى معنى الاسم الشريف ، فله عند غيرهم من العلماء معان ودلائل .

قال الإمام الغزالى ـ رحمة الله ـ : لايعرف حقيقة الله إلا الله فيلزم أن يكون الحكيم الحق هو الله ، لأنه هو الذى يعلم أصل الأشياء بعلمه الأزلى الدائم الذى لايتصور أحد زواله . ولاتتطرق إليه شبهة أو خفاء .

ذلك لأن الحكمة هى معرفة أفضل المعلومات بأفضل العلوم ، وعلى ذلك فالحكيم هو العليم . .

وقد تفضل الله بالحكمة على من يشاء من عباده فقال :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾ (٥٨٤)

واختلف العلماء حول مفهوم الحكمة فى تلك الآية اختلافا يشير الى دقة مرماها وعمق معناها .

فقال بعضهم : هى هنا فى الآية : النبوة ، وقال بعضهم : هى المعرفة بالقرآن ، وقال بعضهم : هى العقل فى الدين ، وقال بعضهم : هى الطاعة . .

وقالوا غير ذلك . وإذا كان هذا التنوع والاختلاف حول حكمة البشر التى يفيضها الله على بعض عباده فما بالكم بحكمة الله ؟ إنها فوق التصور والاعتبار . .

---

(٥٨٤) البقرة ٢٦٩

لقد قال بعض العلماء : الحكيم وهو المقدس المنزه عن فعل مالاينبغى . وحقا ذلك فما من شيء خلقه الله إلا وفق حكمة عليا وغاية مثلى . . قال تعالى :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٥٨٥)

وقال

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (٥٨٦)

وقال

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ (٧٨٧)

سبحانه هو ذو الحكمة البالغة الذى يضع كل شيء موضعه . . . . ومن معانى الحكيم المحسن فى التدبير ، اللطيف فى التقدير ، الخبير بحقائق الأمور العليم بحكمة المقدور ، الذى لا علة له فى تدبيره ولا أغراض ، وليس على فعله اعتراض . .

وإذا كان الحكيم بمعنى المتقن ـ فقد ظهر أثر ذلك فى خلقه الذى أبدعه وأتقنه . . قال تعالى :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٥٨٨)

---

(٥٨٥) القمر ٤٩
(٥٨٦) الحجر ٢١
(٥٨٧) المؤمنون ١١٥
(٥٨٨) النمل ٨٨

وتجلى ذلك واضحا فى الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، كما ظهر فى كل شيء مما يقع تحت الحس والمشاهدة من نجوم وأقمار ، وشموس وبحار ، وأنهار وأشجار ، ووحوش وطيور ، وغير ذلك مما لا يحصيه العد ولا يحيط به الحصر

ومظهر الحكمة البالغة سيدنا محمد - ﷺ - الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . وهو الذى يقول الله فى حقه :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾(٥٨٩)

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا كان الله قد مَنَّ علينا برسولنا الذى يعلمنا الحكمة فعلينا أن نتأدب بأدب هذا النبى الكريم ، ونتخلق بأخلاقه ونتبع نهجه .

وقد أرشدنا النبى - ﷺ - إلى ضروب من الحكمة نتبعها . . . . . ومن ذلك الحكم - الصمت - فالصمت حكم وقليل فاعله » فقلة الكلام حكمة . . كما علمنا - ﷺ - أن نتقن أعمالنا والإتقان حكمة ، وقال فى ذلك « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » وذكر لنا أن أساس الحكمة خشية الله ، وقال فى ذلك « رأس الحكمة مخافة الله »

واذا كان الحكيم هو الذى ينظر فى مستقبل أيامه ، ويدبر لأخراه كما يدبر

---

(٥٨٩) الجمعة ٢

لدنياه ، فقد وجب على المؤمن أن يأخذ من دنياه لآخرته ومن صحته لمرضه ، ومن شبيبته لشيبه ، ومن قوته لضعفه .. ومن فعل ذلك فقد أصبح حكيما حقا ، وكان ممن عناهم الله بقوله

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ (٥٩٠)

ومن الحكمة شكر الله مصداقا لقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ (٥٩١)

الدعاء فى ظل هذا الاسم

من ذكر الله بالدعاء ذكره الله بالعطاء .

قال العلماء : من أكثر من ذكر الحكيم تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ، وفهم أسرار المعانى ولطائف الأمور .

ومن الأدعية فى ذلك ما استشهد به د . أحمد الشرباصى ـ من كتاب الأنوار القدسية :

« إلهى إنك تجليت بنور اسمك الحكيم ، فأبرزت فى كل مخلوق حكما جليلة ، وأظهرت فى كل كائن فضيلة ، فكل شىء لحكمة ، وكل بلية فى

---

(٥٩٠) البقرة ٢٦٩

(٥٩١) لقمان ١٧

طيها نعمة . . أرسلت الرسل بالأحكام وكلها حكم ، وقدرت الأرزاق من خزائن الكرم ، فأنت الباسط لحكمة خفية ، وأنت القابض برحمة إلهية .

« أشرق على قلبى بأنوار الحكيم ، وعلمنى من أسرار الخبير العليم ، حتى تنفجر الحكمة من قلبى على لسانى ، فتداوى نفسى من المرض النفسانى ، وَأَظْهَرُ بين العباد بالحكمة ، وأتحلى بينهم بالرحمة إنك على كل شيء قدير . . »

ومن دعاء بعض الصالحين :

« يا شديد البطش يا جبار يا قهار يا حكيم ، نعوذ بك من شر ما خلقت ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدرت وأردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمت ، ونسألك عز الدنيا والآخرة كما سألك نبيك سيدنا محمد - ﷺ - عز الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة ، إنك سميع قريب مجيب »

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر فى ظل هذا الاسم الشريف :

حكيـم ، عليـم بالوجـود ، محـرك لأفلاكـه ، مُعْـلٍ سـمواته السـبعا
دعـا كل مافيـه فأحسـن خلقـه بحكمتـه العليـا وأبـدع صـنعا
ومهـد فيـه الأرض وهـداً وربـوة ونضرهـا روضـا وفجرهـا نبعا
فسـبح حتـى الوحـش فى ظـل غابـة وظبى الفلا فى البيد ، والذئب فى المرعى[٥٩٢]

وقال آخر :

إن الحكيـم الذى ميـزانه أبـدا بالرفـع والخفـض منعوت وموصوف

---

(٥٩٢) أسماء الله لأحمد مخيمر صـ ٦٨

يرتــب الأمــر ترتيبــا يريــك بــه علمــا ، وفيــه إذا فكــرت تعريــف
بأنــه اللــــه فــرد ، لا شـــريك لــه فــى ملكه ، ولــه فــى الخلــق تصريــف
ميزانــــه الحــق لا خســـران يلحقــه ولا يقوم بــه فــى الــوزن تطفيــف[٥٩٣]

(٥٩٣) هامش أسماء الله لأحمد مخمير صـ٦٨

الـودود

ورد اسم الودود فى القرآن الكريم مرتين فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾(٥٩٤)

وفى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾(٥٩٥)

قال العلماء : فى معنى اسم الله « الودود » . . هو الودود لأهل طاعته والراضى عنهم والمحسن إليهم ، والمادح لهم ، والجاعل بينهم مودة ومحبة .

وقالوا أيضا : هو المستحق للثناء والحمد لكثرة آلائه ورحمته الواسعة ، ولكن الإعراض يكون منهم لما ركب فى طبائعهم من غرور ، ولاستجابتهم لما يدعوهم إليه الشيطان الرجيم من نفور . .

ولنتدبر ما قاله اللغويون حول مادة هذا الاسم ومعناه .

جاء فى لسان العرب : الود مصدر ود ، وهو المودة ، والود ـ هو الحب ، ويكون فى جميع مداخل الخير .

ويدخل الود فى معنى الأمنية ، فإنك تقول : وددت الشيء أوده بمعنى أتمناه . ومن ذلك قوله ـ تعالى

﴿ « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة »(٥٩٦) أى يتمنى .

---

(٥٩٤) هود ٩٠

(٥٩٥) البروج ١٣ ، ١٤

(٥٩٦) البقرة ٩٩

ووادّه ـ أى أحبه ، وبينهما مودة وود أى حب . ومن ذلك قوله ـ تعالى
« قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » .

أى لا أسألكم أجرا على تبليغ الرسالة ولكنى أذكركم المودة فى القربى ، يعنى بسبب القرابة . وقال ابن الأنبارى ـ فيما يحكيه ابن منظور عنه ـ : الودود فى أسماء الله ـ تعالى ـ

المحب لعباده ، من قولك : وددت الرجل أوده ودا ووداداً ووداداً ـ بفتح الواو وكسرها ـ .

وهو عند ابن الأثير فعول بمعنى مفعول ، فالودود يعنى المحبوب لأنه مودود فى قلوب أوليائه .

وقد يكون بمعنى فاعل ـ أى أنه ـ تعالى ـ يحب عباده الصالحين ويرضى عنهم . .

وقد وردت هذه المادة فى القرآن الكريم دالة على ما يفيد الحب والتمنى ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ (٥٩٧)

أى تمنوا وأحبوا ذلك ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

---

(٥٩٧) البقرة ١٠٩

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ (٥٩٨)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٥٩٩)

أى تتمنى .. والمودة هى الحب والصداقة ، ومن ذلك قوله ـ تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ (٦٠٠)

وإن كان ابن الأعرابى ـ فيما يحكيه لسان العرب ـ قد فسر المودة هنا بالكتاب ـ ولعله فهم ذلك من مناسبة النزول حيث أرسل حاطب بن أبى بلتعة كتابا لزعماء قريش يحذرهم فيه من فتح النبى ـ ﷺ ـ مكة .. فنزلت هذه الآية ..

---

(٥٩٨) النساء ٨٩

(٥٩٩) آل عمران ٣٠

(٦٠٠) الممتحنة ١

وتفسير ذلك بالحب أولى لأنها جاءت فى نفس السورة فى مقابلة العداوة - فى قوله - تعالى -

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾(٦٠١)

ومن كلام بعض العلماء فى معنى هذا الاسم الشريف أنه يشير إلى حب الله لعباده وتقريبهم إليه بشتى النعم والفوائد . فإذا كانوا طائعين ازدادت محبته لهم وتعطفه عليهم وبره بهم .

وَوُدّ الله - بمعنى عطفه على عباده ليس مقصورا على أهل طاعته ، بل يمتد إلى الخلق جميعا - مسلمين وكافرين - بدليل رزقه للخلق أجمعين .

ألم يقل الله - عز وجل - فى حديث قدسى : « يا بن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منهم ، وإن دنوت منى شبـ دنوت منك ذراعا ، وإن دنوت منى ذراعاً دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة »(٦٠٢) ؟

ويرى الفخر الرازى أن الودود بثلاثة معان : أحدها بمعنى الواد ، والود بهذا التفسير قريب من الرحمة ، فالْوادّ أى الراحم . والإنعام على سبيل الابتداء من نتائج الود .

والثانى أن يُودِّد أولياءه إلى خلقه كما قال سبحانه

---

(٦٠١) المتحنة ٧

(٦٠٢) رواه احمد ، وعبد بن حميد عن أنس-الاتحافات السنية للمناوى ص ٢٣٤

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ (٦٠٣)

والثالث : أن يكون بمعنى مفعول ـ فالله تعالى هو مودود أحبابه ومحبوب أوليائه لكثرة وصول إحسانه إليهم .

وقال بعض العلماء : الودود الذى إذا أحبك قطعك عن الشرور ، وأزال عن قلبك ملاحظة الرسوم والآثار . .

وما أحس أحد حلاوة المحبة إلا قُطِع عن قلبه علائق الالتفات إلى غير المحبوب . والمولى ـ جل وعلا ـ مايزال يتألف قلوب عباده بالإحسان إليهم حتى يزدادوا قربا منه ومحبة له . لالحاجته إليهم . بل تفضلا منه وتكرما .

وصدق ابن عطاء الله فى حكمته حيث يقول : « إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه ، فأحسن ظنك به لحسن معاملته معك ، فهل عودك إلا حسنا ، وهل أسدى إليك إلا نعما ؟ »

وعلق شارح الحكم على هذه الحكمة بقوله :

« قال الشيخ . أبو الحسن الشاذلى : إنا لانحب إلا الله .

فقال رجل : إن رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها »

فقال أبو الحسن : إنا لانرى محسنا إلا الله ـ تعالى ـ ولانحب سواه . . . .

وحديث المصطفى ـ ﷺ ـ يقول : « أحبوا الله لما يغدوا بكم من نعمة ،

---

(٦٠٣) مريم ٩٦

وأحبونى بحب الله ، وأحبوا أهل بيتى بحبى »

ومازال الصالحون يحبون الله ويؤثرون حبه على ماعداه لإحسانه إليهم وافتقارهم إليه وغناهم به .. تقول رابعة العدوية فى أغاريدها :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأماالذى هو حب الهوى فشغلى بحبك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولاذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

إنها المناجاة التى يثمرها الحب العظيم الذى استولى على قلوب العارفين الذين أحسوا نعمة هذا الحب ، لقد رباهم الودود على عينه وأذاقهم حلاوة مناجاته . ولذلك ورد فى بعض الآثار أن الله يقول : إن أقل ما أفعله بعبدى إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه لذة مناجاتى .

قال ابن القيم - فيما يحكيه عنه . د أحمد الشرباصى - : إن العبد المناجى لربه إذا صفا حاله من الشوائب خلصت له حلاوة المناجاة من الأكدار ، ويشير إلى أن هذا التذوق له ارتباط ما بأسماء الله الحسنى ، ومايصادف القلب من دلالاتها وكشف معانيها . ... فمن تأمل فى اسم الودود مثلا ، وكُشِف له عن معانى هذا الاسم ولطفه ، وتعلقه بظاهر العبد وباطنه ، كان الحاصل له من أدب هذا الاسم أمرا عظيما ، إذ يجد نفسه منساقة إلى حب الله ورسوله ، وإلى حب من يحب الله ورسوله ، وإلى حب المرء لايحبه إلا لله . . .

كيف يتخلق المؤمن بهذا الاسم ؟

قال بعض العلماء: اللائق بذاكر هذا الاسم أن يحب الخير لجميع الخلق ، فيحب للعاصى التوبة ، وللصالح الثبات فى تقواه ، وأن يكون ودوداً لعباد الله ، فيعفو عمن أساء إليه ، وأن يكون لين الجانب لجميع الناس لاسيما أهله وعشيرته ، قال - ﷺ - « إن أردت أن تسبق المقربين فَصِلْ من حرمك واعف عمن ظلمك »

وقال : « نظر الرجل لأخيه على شوق خير من اعتكاف سنة فى مسجدى هذا »

وقد أخذ الشيخ حسن رضوان معنى الحديث الشريف فنظمه شعرا فقال :

وَمَنَ على صدق اشتياقه نظر   إلى أخيه نظرة فاق البشر
وكان مثل من بصدقه اعتكف   عاماً بمسجد النبى ذى الشرف
فكل مؤمن له شفاعة   مقبولة فى أمر هول الساعة[٦٠٤]

الذكر فى ظل هذا الاسم

من استدام ذكر هذا الاسم وعمل بمعناه أحبه الناس وأقبلوا عليه ، وكثر ود الناس لهم فى القلوب نظراً لكثرة دوران اسم الودود على ألسنتهم . واتصافهم بمايعنيه هذا الاسم .

---

(٦٠٤) روض القلوب المستطاب للشيخ حسن رضوان

وذكر بعض العلماء أن من وقع فى مأزق فصلى ركعتين وقال فى دعائه : « اللهم ياودود ، ياذا العرش المجيد ، يامبدى ، يامعيد ، يافعالا لمايريد ، أسألك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك ، وبقدرتك التى قدرت بها على جميع خلقك ، وبرحمتك التى وسعت كل شيء ، لا إله الا أنت ، ياغياث المستغيثين ، أغثنى - كتب الله له الخير ، وهيأ له مخرجا مما وقع فيه . .

وذكر الدميرى فى كتاب حياة الحيوان دعاء ورد فى بعضه هذا الاسم قال فيه : « اللهم ياغنى ياحميد ، يامبدىء يامعيد ، ياودود ، ياذا العرش المجيد يافعالا لمايريد ، اكفنى بحلالك عن حرامك ، واغننى بفضلك عمن سواك ، واحفظنى بما حفظت به عبادك الصالحين ، وانصرنى بما نصرت به الرسل إنك على كل شيء قدير »

وقال : من داوم على قراءته بعد كل صلاة ، خصوصا صلاة الجمعة - حفظه الله من كل مخوف ، ونصره على أعدائه وأعفاه ورزقه من حيث لايحتسب ، ويسر عليه معيشته ، وقضى عنه دينه[٦٠٥] . . . ومن منظومة أسماء الله الحسنى :

حكيم فهبنا منك أسرار حكمة ودود تولنـــا بعـــين المحبـــة

وللشيخ الميرغنى صاحب هذه المنظومة دعاء أيضا باسم الودود . جاء فيه : -

« اللهم ياودود ، أنت الذى أعلنت سر المودة والمحبة فى قلوب عبادك الصالحين ، وأنت الذى أكملت ذوات الطالبين بنور الأنوار ، وتجليت بالعز

---

(٦٠٥) اقرأ الدعاء بتمامه فى حياة الحيوان جـ ٢ صـ ٨٠ باب الشاة

الدائم والنور القائم ، فأجليت الأكوان وأظهرت الإنسان ، وتجليت باسمك الودود الملقى على الأرواح المؤمنة المتوادة . . . . اللهم إنى أسألك بنور ودك الذى ألقيته على أنبيائك وأصفيائك وأوليائك أن تلقى ودى ومحبتى فى قلوب عبادك أجمعين ، كما ألقيت الوحى على عبدك ونبيك محمد - ﷺ - . . . . . . »

المجيد

قد يصف الناس الرجل الكريم بأنه ماجد ، وعلماء اللغة يقولون : المجد . المروءة والسخاء ، والمجد : الكرم والشرف ، أو هونيل الشرف ، وقالوا : لايكون المجد إلا بالآباء ، بل قالوا : المجد كرم الآباء خاصة ، وهو الأخذ بقدر عظيم من الشرف والسؤدد . . .

هذا بالنسبة للناس . . . .

ولكن المجيد الذى هو من أسماء الله ـ تعالى ـ له معنى آخر أشار إليه اللغويون أيضا . فقالوا : هو الكريم المفضال الذى تَمَجَّدَ بفعاله ومَجَّدَه خلقه لعظمته . . .

والمجيد هو الرفيع ، وهو الكريم . . . .

والمجيد فى حق الله أيضا ـ هو الذى انفرد بالشرف الكامل والملك الواسع منذ الأزل . . . . . وقد جاء لفظ المجيد فى القرآن الكريم وصفا لله فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٦٠٦)

وجاء وصفا له أو لعرشه فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ (٦٠٧)

---

(٦٠٦) هود ٧٣

(٦٠٧) البروج ١٤ ، ١٥

فمن جعله وصفالله رفع « المجيد » ومن جعله وصفا للعرش جر المجيد .

وجاء وصفا للفرآن الكريم مرتين فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ (٦٠٨)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢ ﴾ (٦٠٩)

بل إن بعضهم فى الأية الأخيرة أضاف القرآن الى ـ مجيد ـ فقرأ : « بل هو قرآنُ مَجيدٍ » فجعل « مجيد » اسماللّه ـ تعالى ـ . كأنه قال : بل هو قرآن رب مجيد . . .

واللّه ـ تعالى ـ مجيد ـ أى عظيم القدر جليل ـ وفى بعض الكتب السماوية « المجد للّه فى الأعالى وفى الأرض المسرة وعلى الناس السلام »

وفى حديث الفاتحة « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ماسأل ، فإذا قال العبد : الحمد للّه رب العالمين ـ قال اللّه : حمدنى عبدى ، فإذا قال : الرحمن الرحيم ـ قال اللّه : أثنى علىَّ عبدى ، فإذا قال العبد : مالك يوم الدين ـ قال اللّه : مجدنى عبدى ، وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ـ قال اللّه : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم . . . . قال : هذا لعبدى ولعبدى ماسأل(٦١٠) »

---

(٦٠٨) ق ١

(٦٠٩) البروج ٢١ ، ٢٢

(٦١٠) رواه أحمد ومسلم والترمذى وغيرهم ـ الاتحافات السنية صـ١٢٨

ومعنى مجدنى عبدى - أى شرفنى وعظمنى . . .

ولم ترد مادة المجد فى القرآن الكريم إلا فى الآيات الأربع التى ذكرناها . وربما أشار ذلك إلى عزة المجد وندرته .

ويقول بعض العلماء : صفه المجد لله - تعالى - : فهو المجيد - جل جلاله - ومعناه شريف الذات ، جميل الفعال ، حسن الخصال ، واسع الكرم ، منيع لايرام ، هو المستحق لكل صفات المجد .

وهذه الصفات لاتجتمع فى مخلوق قط ، وإنما للعبد من كل صفة حظ .

يقول الامام الغزالى فى صفة المجيد : المجيد هو الشريف ذاته الجميل أفعاله ، الجزيل عطاؤه ونواله ، وشرف الذات إذا قارنه حسن الفعال سمى مجدا . . . والمجيد هو الماجد أيضا إلا أن أحدهما أدل على المبالغة . ولهذا الاسم نصيب كبير من معانى أسماء الله - الجليل والوهاب والكريم -

و يرى الامام الرازى أن اسم المجيد يفيد أمرين : أحدهما أنه ذو الشرف التام الكامل . قال تعالى « ق والقرآن المجيد » أى الشريف ، فلله الشرف والمجد والعلو والعظمة .

والثانى : أن المجد يفيد السعة ، فلا يقال : رجل ماجد إلا إذا كان سخيا فاضلا كثير الخير ، وقد وصف الله قرآنه بالمجيد لكثرة فوائده وغزارتها واتساعها .

أما وصفه نفسه بذلك فيفيد كثرة إحسانه وأفضاله .

ويقول بعض الأئمة فى معنى المجيد : هو العظيم ، الرفيع القدر الكثير الإحسان .

وقيل : المجيد الذى لا يقطع العطاء وله النفوذ فيما يشاء .

التخلق بأدب هذا الاسم

وإذا عرفنا أن المجد يعنى الشرف والجود والعطاء والسخاء فعلى المؤمن أن يتحلى بهذه الصفات ليستحق الانتساب إلى المجد .

كان سعدبن عبادة ـ رضى الله عنه ـ يقول : اللهم هب لى حمدا ومجدا ، ولامجد الا بفعال ولافعال إلا بمال . كأنه أراد أن يطلب من الله الغنى ليحقق المجد بما أنعم الله عليه من المال .

وكان النصر بن شميل يقول : الماجد هو الحسن الخلق السمح ، ورجل ماجد ومجيد إذا كان كريما معطاء . . . وكان الامام على ـ كرم الله وجهه ـ يقول : أما نحن بنو هاشم فأنجاد أمجاد . . . أى أشراف كرام .

وقد ضُرِبَ بالهاشميين المثل فى السخاء والبذل ، وكم عوتبوا على كثرة عطائهم الذى يتركهم صفر اليدين ، ولكنهم كانوا لا يبالون بذلك ولسان حالهم يقول :

أماوى إن المـال غـاد ورائـح
ويبقـى من المـال الأحـاديث والذكـر

الذكر بهذا الاسم :

قال العلماء : من ولاه الله شئون خلقه فعليه بأن يكثر من قول الله ـ تعالى ـ

« **ذو العرش المجيد فعال لما يريد** »

فاذا أدام ذلك ، وأخلص الأقوال ، وأحسن الأفعال أراه الله من عجائب صنعه ما به يتسع نفوذه ويقوى سلطانه ، ويوفقه الله لصالح العباد

والبلاد .

وقد عَلَّمنا النبى - ﷺ - الصلاة الابراهيمية حين سأله ابن عمر - رضى الله عنهما - قائلا : يارسول الله - هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف نصلى عليك ؟

فقال : قولوا : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد »

فهذه الصلاة التى أمرنا أن نقولها بعد التشهد فى كل صلاة نصليها - حتى قال بعض الأئمة : لا تقبل الصلاة إلا بها - قد احتوت على اسم الله المجيد ، وماذلك الا لخاصية فيه . .

إن المداومة على ذكر هذا الاسم تطهر العبد ظاهرا وباطنا من أرجاس الشهوات وعلل النفس .

وقال بعض العلماء : إن المداومة عليه تشفى باذن الله من أمراض القلب ومن أمراض الجذام والأمراض المتقيحة ومن داء البرص .

« ومن داوم عليه أيضا أكسبه الله عزة وهيبة ومودة بين أقاربه وسائر الناس »

ويقول الشاعر أحمد مخيمر فى المناجاة بهذا الاسم :

جليل ، ووهاب كريم ، ومنعم رحيم ، ومعبود الجلال ، مجيد
تسبح كل الكائنات بحمده وتطوى جناح الذل وهو شهيد
فليس لشىء فى الوجود إرادة إذا كان رب العالمين يريد

ومن كلام بعض الصالحين فى تمجيد البارى :

« اللهم لك الحمد ، ولك المجد ، حمدا لا نهاية له ولا حد ، ولا يدرك له قبل ولا بعد ، لا أستطيع أن أحمدك كما أنت أهله ، ولا يستطيع لسانى ولا جنانى أن يحمدك حق حمدك .

ومن الذكر بهذا الاسم :

« يا ألله يا حميد ، يا مجيد ، يا بر ، يا رحيم ، يا ألله يا قوى ، يا متين ، هب لى من رحمتك ما أحمدك به وأكون من المؤمنين ، وارزقنى من لطائف العز ما أكون به قويا متينا حاملا محمولا فى العالمين . . .

ومن ذلك أيضا . .

« اللهم أنت الحميد ، الرب المجيد ، الفعال لما تريد ، تعلم فرحنا بماذا ولماذا وعلى ماذا ، وتعلم حزننا كذلك ، وقد أوجبت ما أردته فينا ومنا ، ولا نسألك دفع ما تريد ، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد ، كما أيدت أنبياءك ورسلك والصديقين من خلقك إنك على كل شيء قدير » .

الباعـــث

جاء اسم الله الباعث فى سلسلة الأسماء التى وردت فى حديث النبى - ﷺ - « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة . . » ورقم هذا الاسم الشريف فى تلك السلسلة هو الخمسون .

وقد ورد فى القرآن الكريم ما يشير إلى هذا الاسم . . مثل قوله - تعالى -

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٦١١)

وقوله - تعالى - :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٦١٢)

وقوله - تعالى -

﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ (٦١٣)

وقوله - تعالى -

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ

---

(٦١١) النحل ٨٩

(٦١٢) الأنعام ٦٥

(٦١٣) الحج ٧

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ (٦١٤)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (٦١٥)

فاسم الفاعل من هذه الافعال هو الباعث ، والمقصود به الحق ـ سبحانه وتعالى ـ

ومفهوم البعث فى اللغة الإرسال والانهاض والإثارة والاندفاع . .

فالله ـ سبحانه ـ باعث الرسل أى مرسلهم لهداية الناس وإرشادهم الى طريق الخير .

وهو باعث الخير فى نفوس الناس .

وهو باعث الخلق يوم البعث والنشور ـ أى محييهم من قبورهم وناشرهم بعد موتهم .

يقول الإمام الرازى : الباعث فى حق الله ـ تعالى ـ له معانٍ منها : أنه ـ تعالى ـ يبعث الخلق يوم القيامة ، ومصداق ذلك قوله ـ تعالى ـ

---

(٦١٤) البقرة ٢١٣

(٦١٥) الاسراء ٧٩

«وأن الله يبعث من فى القبور»[٦١٦]

ومنها أنه ـ جل وعلا ـ باعث الرسل ، ودليله قوله ـ تعالى ـ

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾[٦١٧]

ومنها أنه ـ سبحانه ـ يبعث عباده على الأفعال المخصوصة بأنه يخلق الإرادات والدواعى والدوافع فى القلوب .

ومنها أنه ـ تعالى ـ يبعث عباده بالمعونة والإغاثة ، وعند الذنب بقبول التوبة .

ويضيف بعض العلماء الى هذه المعانى معنى آخر . وهو أنه ـ تعالى ـ يبعث النيام بيقظة الأجسام قال ـ تعالى ـ

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾[٦١٨]

ولعل البعث بعد الموت هو أول معنى لهذا الاسم الجليل ، لأنه لا يقدر على إعادة الحياة الى الأجسام بعد فنائها إلا الله ـ جلت قدرته ـ ولذلك أنكر

---

(٦١٦) الحج ٧٠

(٦١٧) النحل ٣٦

(٦١٨) الأنعام ٦٠

كثير من الناس البعث والنشور . .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٦١٩)

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٦٢٠)

وتحداهم المولى جل وعلا ـ فقال :

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٦٢١)

وأعلمهم أن هذا أمر سهل ليست فيه مشقة فقال سبحانه :

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٦٢٢)

وكانت مهمة الرسل جميعا تذكير الناس بيوم البعث ، وأنه حقيقة واقعة لاشك فيها ، وقد ضرب القرآن أمثله كثيرة لإمكانية البعث وعدم استحالته ، وأقرب مثل على ذلك ـ اليقظة بعد النوم وهو أمر مشاهد محسوس فى كل لحظة من لحظات الحياة .

---

(٦١٩) الجاثية ٢٤
(٦٢٠) النحل ٣٨
(٦٢١) التغابن ٧
(٦٢٢) لقمان ٢٨

جاء أبى بن خلف بعظم قدرَث إلى النبى - ﷺ - وقال له :

أتزعم أن هذا العظم البالى يحيا مرة أخرى بعد ما رمَّ ؟ ثم فتته بيده ونفخه جهة النبى - ﷺ -

فقال له النبى - ﷺ - : « نعم ، ويبعثك الله ويدخلك النار » .

وفى ذلك نزل قوله - تعالى -

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ (٦٢٣)

التخلق بأدب هذا الأسم :

قال الغزالى - رحمه الله عنه - : وحقيقة البعث ترجع إلى إحياء الموتى وإنشائهم نشأة أخرى ، والجهل هو الموت الأكبر ، والعلم هو الحياة الأشرف ، وقد ذكر الله - تعالى - العلم والجهل فى القرآن الكريم وسماهما حياة وموتا ، فمن رقى من الجهل الى العلم فقد انتقل من موت إلى حياة ، وأحياه الله حياة طيبة ، فإن كان للعبد مدخل فى إفادة الخلق العلم ودعائهم إلى الله - تعالى - فذلك نوع من الإحياء وهى رتبة الأنبياء ومن يرثهم من العلماء . .

ولعل هذا مايشير اليه شوقى فى قوله عن معجزات الرسول - ﷺ - :

أخوك عيسى دعا ميتا فأيقظه وأنت أحييت أجيالا من العدم

فعلى المؤمن أن يكون قوة هادية تأخذ بأيدى الناس من الظلمات الى

---

(٦٢٣) يس : ٧٧ : ٧٩

النور ، ومن الضلالة الى الهدى ، ومن التأخر إلى التقدم .

قال العلماء : حظ العبد من اسم ربه الباعث ـ جل جلاله ـ أن يجعل الله على يديه الهداية ، فكأنه بذلك يحيى النفوس بإخراجها من الظلمات الى النور بإذن الله .

وعلى العبد أن يبعث فى نفسه دواعى العمل على مرضاة الله وطاعته ، وأن يكون متذكراً يوم البعث والنشور ، ليعد نفسه له بالعمل الطيب الصالح الذى يلقى به ربه يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

الذكر بهذا الاسم :

يقول بعض الصالحين : من قرأ هذا الاسم عند النوم بطريق المناجاة بأن يقول : يا ألله ياباعث ، وهو يضع يده على صدره ـ ملأ الله بنور المعرفة قلبه ، وغمر بفيض اليقين نفسه .

وقال الأستاذ أحمد مخيمر مناجيا ربه فى ظل هذا الاسم :

يحيى العظام الرميم بالية باعثها للحساب سبحانه
من آمنوا يدخلون جنته ومن عصوا يدخلون نيرانه
جاء الشفيع الذى نؤمله يطلب للصابرين غفرانه
طوبى لعبد أعماله صلحت فأثقلت فى الحساب ميزانه

ويقول بعض الشعراء فى هذا الاسم :

يا باعث الخلق فى زحام رهيب والسموات وردة كالدهان
ستقوم الأجساد من عالم الذر سراعا لم تختلط ذرتان
قدرة أودع المهيمن فيها ماتناءى علما عن الأذهان
علمه قد أحاط بالكون قدما قبل خلق الأرواح والجسمان

روى ابن ماجة أن الرسول - ﷺ - كان يضع عند النوم يده اليمنى تحت خده الأيمن ، ثم يقول : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث - أو تجمع - عبادك » .

وعند الاستيقاظ كان يقول : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ماأماتنا واليه النشور »

واستشهد د . أحمد الشرباصى - بهذا الدعاء - من كتاب الأنوار القدسية : -

« إلهى أنت الباعث للأرزاق من غيب علمك ، الباعث للرسل . بمحض كرمك وحلمك - الباعث من فى القبور بنفخ الصور . . انفخ يارب فى هيكلى روح العمل بالقرآن حتى تنبعث قوای قائمة بالخدمة منفذة لكل ماأمرت به .

ومن منظومة أسماء الله الحسنى جاء :

مجيد فمجد سرنا بفنائه   ويا باعث ابعثنا على خير حالة

ومن الأدعية بهذا الاسم :

« ياباعث ، ياوارث ، ياجامع ، يامقسط ، أنت الذى تجمع الخير لمن شئت كيف شئت ، وأنت الجامع المقسط ، فكل محبوب يكون لى ولايكون لك فاصرفه عنى حتى لايكون لى إلا مايكون لك ، وغذنى بلطائف من عندك كما غذيت محمدا نبيك - صلى الله عليه وسلم - إنك على كل شىء قدير »

الشهيد

المعنى المتبادر إلى الذهن من هذا الاسم الجليل هو أن الله حاضر لايغيب عن شيء ، ولايغيب عنه شيء فى ملكه ، وقد جاء ذلك فى أسلوب الاستفهام التقرير فى قوله ـ تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٦٢٤)

وقد جاء اسم الشهيد فى القرآن الكريم فى مواضع عدة . . منها هذه الآية المتقدمة ، ومنها قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٦٢٥)

وقوله تعالى ـ :

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾ (٦٢٧)

لقد جاء هذا الاسم فى القرآن الكريم على أنه اسم الله تعالى ـ وجاء فى مواضع أخرى لايقصد به اسم الله تعالى :

مثل قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ (٦٢٨)

---

(٦٢٤) فصلت ٥٣

(٦٢٥) آل عمران ٩٨

(٦٢٦) المائدة ١١٧

(٦٢٧) البروج ٩

(٦٢٨) النساء ٤١

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) ﴾ (629)

وقوله تعالى ـ

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (89) ﴾

وقوله تعالى

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75) ﴾ (631)

ومادة « شهد » تتقلب بين عدة معان منها العلم فتكون ـ شهد بمعنى علم ، أو بمعنى رأى ـ والشاهد العالم الذى يبين ماعلمه . وتأتى شهد بمعنى حلف ، وتقول : أشهد بكذا أى أحلف .

وتأتى شهد بمعنى قضى ، ومنه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ

---

(٦٢٩) المائدة ١١٧

(٦٣٠) النحل ٨٩

(٦٣١) القصص ٧٥

﴿ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾ (٦٣٢)

وشهد الشاهد عند الحاكم أى بين مايعلمه وأظهره .

وقال ابن منظور فى لسان العرب فى مفهوم اسم الله « الشهيد » . . . . الشهيد من أسماء الله ـ تعالى ـ الأمين فى شهادته .

وقيل : الشهيد الذى لايغيب عن علمه شىء

وقيل : الشهيد أى الحاضر ، وهو فعيل بمعنى فاعل ، من أبنية المبالغة . فاذا اعتبر العلم مطلقا فهو العليم ، وإذا أضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير ، وإذا أضيف الى الأمور الظاهرة فهو الشهيد . ويضاف إلى هذا أنه يشهد على الخلق يوم القيامة .

وقال ابن القيم فى معنى هذا الاسم : الشهيد الذى لايغيب عنه شىء ولايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولافى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . . . بل هو مطلع على كل شىء شاهد له عالم بتفاصيله .

إطلاق كلمة الشهيد على من قتل فى سبيل الله :

وقد تطلق هذه الكلمة على المستشهد فى سبيل الله ـ تعالى ـ ومعناها فى هذه الحالة الاشارة إلى أنه حى عند ربه يرزق ، فهو يشاهد ويرى ، كما تشير إلى أن الملائكة يشهدون له بالجنة كما شهد الله له بذلك ، أو إلى أنه يشهد عند خروج روحه ماأعده الله من نعيم مقيم وعز دائم ، أو إلى أن الملائكة تشهده وتصعد بروحه الى الملأ الأعلى ، أو إلى أن الله شهد له

---

(٦٣٢) آل عمران ١٨

بالايمان ، أو إلى أنه أحد الشهداء الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة .

ويفيد معنى الشهيد بالنسبة لله تعالى : أنه ـ سبحانه ـ رقيب على عباده مطلع على أفعالهم يسمع لأقوالهم ، ولا تخفى عليه خافية مما يقومون به . فهو عالم الغيب والشهادة وهو معكم أينما كنتم والله على كل شيء شهيد »

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٦٣٣)

واذا كان الله معنا دائما فهو خير شاهد على مانقول ونفعل . . ثم يوم القيامة يحاسب كلا على ماقدمت يداه . . قال تعالى ـ

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ (٦٣٤)

والله ـ جلت قدرته ـ شهيد على جميع الخلق بنفسه وشهيد بملائكته الذين وكل إليهم مراقبة عباده وتسجيل أعمالهم وشهيد بأنبيائه ورسله الذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين ، كما يأمر جوارح الانسان بأن تشهد عليه . . وقد مرت الآيات الدالة على أن الله على كل شيء شهيد . .

---

(٦٣٣) المجادلة ٧

(٦٣٤) المجادلة ٦

وشهادة الملائكة يشير إليها قوله تعالى ـ :

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٦٣٥)

وشهادة الرسل يشير إليها قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (٦٣٦)

وشهادة الجوارح يشير إليها قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٧٣٧)

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم :

إذا كان العبد يعلم أن الله يشهده فى كل حركة وسكون فقد وجب عليه أن يخشاه ويتقيه ويعمل لهذا اليوم الذى يناقش فيه الحساب ويجد أعماله

---

(٦٣٥) ق ١٧ ، ١٨

(٦٣٦) الأحزاب ٤٥ ، ٤٦

(٦٣٧) فصلت ٢٠ : ٢٢

وقد أحصيت عليه ودونت فى كتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها . فاذا حجد شيئا وجد من جوارحه شاهدا يشهد عليه .

والتأدب بأدب هذا الاسم يتطلب الأمانة فى أداء الشهادة وعدم كتمانها . وقد توعد الله كاتم الشهادة بقوله :

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ (٦٣٨)

كما يتطلب أيضا أن يشهدوا الناس على معاملتهم وعقودهم ـ استجابة لقوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا أَن

---

(٦٣٨) البقرة ٢٨٣

تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ (٦٣٩)

إن استحضار هذا الاسم يعلمنا دوام المراقبة والمحاسبة للنفس ، وفى ذلك نجاة للمؤمن من المؤاخذة وعصمة من التردى فى مهاوى الضلال والفساد ، أو الاستجابة لوساوس النفس ونزغات الشيطان

الذكر فى ظل هذا الاسم :

قال العلماء : من وقع فى تهمة باطلة وأراد الخلاص منها فليناج ربه قائلا : ياألله ياشهيد فى جوف الليل نجنى مما ألصق بى . فاذا فعل ذلك مخلصا صادقا نجاه الله تعالى :

وقال بعض العلماء : « إذا قرىء هذا الاسم فى السحر ، أو فى الصباح بنية إصلاح الولد العاق أو الزوجة المشاكسة أصلح الله حالهما .

وإذا استدام الانسان ذكره أثمر حال المراقبة فى قلبه .

ومن الدعاء فى ظل هذا الاسم مايحكيه د . أحمد الشرباصى ـ عن بعض الصالحين يقول :

---

(٦٣٩) البقرة ٢٨٢

« إلهى أنت المطلع على أعمال العباد ، الظاهر الحاضر الناظر للوجود بعين الوداد ، وأنت الشاهد علينا فى كل الحركات - اجعلنا شهداء لأنوارك فى سائر اللحظات وأقمنا مقام المجاهدين حتى نشهد على أنفسنا بالتقصير والظلم فى كل حين ، وامنحنا الشهادة فى سبيل جهاد النفس والهوى فهو الجهاد الأكبر ، واقتل شهوة أنفسنا حتى نرضى بالمقدر إنك على كل شىء قدير »

« الحق »

جاء اسم الله « الحق » فى القرآن الكريم فى مواضع منها - قوله - تعالى -

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (٦٤٠)

وقوله - تعالى -

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ (٦٤١)

وقوله - تعالى -

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٦٤٢)

وقوله - تعالى -

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (٦٤٣)

وقوله - تعالى -

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٦٤٤)

---

(٦٤٠) طه ١١٤
(٦٤١) الحج ٦
(٦٤٢) الحج ٦٢
(٦٤٣) المؤمنون ١١٦
(٦٤٤) النور ٢٥

وفى غير ذلك من الآيات

وقد وردت مادة الحق فى أكثر من مائتى موضع ، منها ما يقصد به اسم الله عز وجل - ومنها ما يقصد به القرآن ، ومنها ما يقصد الدين ، ومنها ما يقصد به البعث ، وغير ذلك من المعانى .

والمعنى اللغوى لكلمة الحق أنه نقيض الباطل . وقال ابن منظور : إن الحق من أسماء الله - عز وجل - ، وقيل : من صفاته .

وقال ابن الأثير : الحق هو الموجود حقيقة المتحقق وجوده وإلهيته . . جاء فى التنزيل :

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ (٦٤٥)

وقال ثعلب فى قوله - تعالى -

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١﴾ (٦٤٦)

- الحق هنا هو الله - عز وجل - ويجوز أن يكون هو القرآن - كما يقول غيره - أى لو كان القرآن بما يحبونه لفسدت السموات والأرض . .

يقول العلماء : الحق هو اليقين ، وهو العدل ، وهو الاسلام ، وهو الصدق ، وهو البعث والجزاء ، وهو الموت . . وهو فوق ذلك - الله - جل

---

(٦٤٥) الأنعام ٦٢

(٦٤٦) المؤمنون ٧١

جلاله ـ الذى لا شك فى وجوده ، ولا معقب لحكمه ، ولا ناقض لقوله ، هو الذى يحق الحق بكلماته ، ويؤيد الأحباب بآياته ، ويمحق الباطل بصولته ، ويقضى على الشر بقدرته .

هو الله الحقيق بالعبادة ، ولا معبود بحق سواه ، وهو الثابت الذى لا يزول ، ويفنى كل شيء سواه ، هو المتحقق وجوده أزلا وأبدا ، وهو الباقى عزه دائما .

هو الواجب الوجود لذاته ، ولا وجود لموجود إلا به ، هو الثابت الذى لا يزول ولا يحول ، المظهر للحق ، الموجد للأشياء كما تقتضيه حكمة الحق ـ هو الذى له الحكم وإليه ترجعون .

هو الله الحق المستحق وحده للعبادة ، ولا معبود بحق سواه ، وهو الذى يقول :

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (٦٤٧)

إنه الحق الذى يأخذ منه كل حق حقيقته ، وبدون الحق لا يصبح لأى شيء قيمة . . فالباطل مهما زيفت له من حجج وركبت له من براهين لا يثبت أمام مجهر اليقين وصولة الحق . . قال ـ تعالى لحبيبه ـ ﷺ ـ

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ (٦٤٨)

وقال :

---

(٦٤٧) يونس ٣٢

(٦٤٨) الاسراء ٨١

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (١٨) (٦٤٩)

والحق له صولة تزلزل أقدام المبطلين . . . . روى أن امرأة ارتفع صوتها فى ظلامة لها فى مجلس بعض الخلفاء ، وكان الخصم فيها ابن الخليفة ، فأراد بعض الجالسين أن يزجرها حتى لا ترفع صوتها فى حضرة الخليفة . فقال الخليفة له . دعها فإن الحق أنطقها وأخرس خصمها .

وإذا كان الحق بهذه الصورة فهو أحق أن يتبع . .

التخلق بأدب هذا الاسم

إن حق الله على عبده المؤمن باسم الحق ، أن يكون الحق على لسانه ويده وقلبه . فإذا نطق نطق بالحق ، وإذا جاهد جاهد بالحق ، وإذا اعتقد اعتقد الحق . . واذا دعا دعا الى الحق . . . لقد لعن النبى - ﷺ - قوما ضاع الحق بينهم . وجاء فى الحديث : « الساكت عن الحق شيطان أخرس » وعلى المؤمن ألا يرى غير الله حقا ، لأن كل شىء قائم بالله ، ووجوده مستمد من الله . . . . وقد قال الشاعر لبيد كلمة حق زكاها النبى - ﷺ - حين قال : أصدق كلمة قالها لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ۞ وكل نعيم لا محالة زائل . .

وإذا تخلق المؤمن بصفة الحق وضح طريقه واستبان قصده ، ونطق بالحكمة واستنار قلبه ، وتفجرت العلوم من ينابيع عقله . إن الحق منهج ينبغى للمؤمن أن يتبعه ولا يحيد عنه ، وهو واضح وضوح الشمس لمن

.(٦٤٩) الأنبياء ١٨

يطلبه ، ومن تسلح به سلك طريق النجاة وفاز فوزاً عظيما . حكى بعضهم أن أحد الخلفاء اشتكى قلة المخلصين حوله ، وطلب نصيحة بعض الوعاظ فى ذلك ، فقال له : اعرف الحق يتبعك أهله . . .

قال بعض الصالحين من وقف بهمته على شيء سوى الحق فاته الحق ، لأنه أعز من أن يرضى معه بشريك .

وقال ذو النون المصرى : إن الحق شاهد لأهل الحق والله هو الحق وقوله الحق .

الذكر بهذا الاسم

من دعاء النبى - ﷺ - « اللهم لك الحمد ، أنت رب السموات والأرض وما فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك حق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق . والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فاغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت »

ومن الذكر المستطاب : لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، ومحمد رسول الله الصادق الوعد الأمين .

يقول العلماء : من لازم ذكر هذا الاسم كل يوم مائة مرة استغنى من فقره وتيسر أمره .

ومن أدامه حسنت أخلاقه وصلحت أحواله . . . . . ومن الدعاء الكثير الدوران على ألسنة الصالحين : اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا

الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

ومن الأدعية الصالحة : اللهم أدرنا مع الحق ، وأدر الحق معنا ، واجعل الحق فى قلوبنا وعلى ألسنتنا فأنت الحق المبين . .

قال الشاعر أحمد مخيمر مناجيا الحق تعالى : ـ

هـو الحـق والأشـياء وهـم وباطـل   وكـل وجـود غيـره فهـو زائـل
تبـارك ربـى مـا تـزال بحمـده   تسـبح أفـلاك وتدعـو محـافل
سـهرنا لـه فـى حبـه ونجـومه   أمام دعـاء السـاهرين مشـاعل
لقـد طـال بالركـب المسـير ، وليـله   متـى يـا فجاج الشوق تـدنو المنازل ؟

ومن أدعية منظومة أسماء الله الحسنى :

شـهيد قنـا شـر نفـس وغيـرها   ويـاحق حققنـا بعلـم اللدنـة

الـــوكيل

جاء اسم الوكيل - جل جلاله - فى القرآن الكريم فى مواطن متعددة .

جاء فى قوله - تعالى -

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٦٥٠)

وفى قوله - تعالى -

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٦٥١)

وفى قوله - تعالى - :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (٦٥٢)

وفى قوله - تعالى - :

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ (٦٥٣)

---

(٦٥٠) آل عمران ١٧٣

(٦٥١) الأنعام ١٠٢

(٦٥٢) هود ١٢

(٦٥٣) يوسف ٦٦

وفى قوله - تعالى :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ٦٢ ﴾ (٦٥٤)

وفى قوله - تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١ ﴾ (٦٥٥)

وفى قوله - تعالى :

﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ ﴾ (٦٥٦)

وفى غير ذلك من الآيات .

وتعنى كلمة الوكيل فى حق الله - كما يقول أهل اللغة » - المقيم الكفيل بأرزاق العباد ، وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكول إليه . . حتى لقد قال الله لعباده محذرا إياهم أن يتخذوا وكيلا من دونه قال تعالى :

﴿ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢ ﴾ (٦٥٧)

ومعنى ذلك كما يقول الفراء : ألا تتخذوا من دونى ربا ، أو كافيا . وقال ابن الأنبارى فى معنى الوكيل : هو الحافظ

وقال أبو إسحاق : الوكيل فى صفة الله - تعالى - : الذى توكل بالقيام بجميع ما خلق .

---

(٦٥٤) الزمر ٦٢

(٦٥٥) النساء ٨١

(٦٥٦) المزمل ٩

(٦٥٧) الاسراء ٢

وقال بعضهم : الوكيل هو الكفيل بالأرزاق . . . . . أما معنى قوله ـ تعالى

« حسبنا الله ونعم الوكيل »

فمعناه نعم الكافى كما تقول : رازقنا الله وهو نعم الرزاق .

وقد استعملت العرب الوكيل ـ بمعنى صاحب الشيء ـ قال الشاعر :

وداخلة غوراً وبالغور أخرجت وبالماء سيقت حين حان دخولها
ثوت فيه حولا مظلما جاريا لها فسرت به حقا وسر وكيلها

وقد فسر ابن منظور البيتين بقوله : إن جنين الناقة غار فى رحمها ، وقد دخل الجنين الرحم بالماء فحملته الناقة ، وحين وضعته بعد الحول سُرَّت الناقة بخروجه كما سُرَّ وكيلها ـ أى صاحبها »(٦٥٨) والإنسان يقول : وكلت أمرى إلى الله أى ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه . . . . .

وعلى ذلك فالمتوكل على الله هو الذى يعلم أن الله كافل رزقه وأمره ، فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره .

ويقال : وكل فلان فلانا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته ، أو عجزا منه عن القيام بأمر نفسه .

والوكيل فى مفهوم الناس . هو الذى يوكله المرء عنه ليقوم له ببعض الأشياء . وقد يفى الوكيل بأدائها كلها ، أو يفى ببعضها ويقصر فى بعضها ، وقد يكون توكيله بالتفويض فى كل الأمور ، وهو ما يسمى بالتوكيل الرسمى العام . . وأداء الوكيل لمهامه القائم بها مقصور على حدود

---

(٦٥٨) لسان العرب لابن منظور مادة (وكل)

إمكانياته التى لا تتجاوز مقدرته البشرية المتاحة له بحسب عقله وخبرته وحسن تصرفه . .

ولكن الوكيل القادر الذى لا يعجزه شىء ، والذى ينوب عن الموكل فى كافة أموره بحسب ما تقتضيه الحكمة العليا ـ هو الحق ـ جل جلاله ـ إنه الوكيل الأعلى على كل شىء ـ كما قال سبحانه « وهو على كل شىء وكيل »

إن الوكيل البشرىّ مهما تعددت مواهبه ينتابه العجز أو الفتور أو الملل أو غير ذلك مما يعرض للبشر من نقص تختلف أنواعه وأهدافه وبواعثه .

أما الله ـ جلت قدرته ـ فهو حسب موكله يكفيه بقدرته كل شىء ويقيه من كل سوء . ويدافع عنه أمام كل عدو ، ويدفع عنه كل مكروه قال ـ تعالى ـ : « وكفى بالله وكيلا » وقال « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »

روى البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ فى قوله تعالى ـ : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال هذه الآية حين ألقى فى النار ، وان محمدا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قالها حين قال الناس إن الناس قد جمعوا لكم .

لقد روت الأخبار عن سيدنا إبراهيم أنه حين ألقى فى النار جاءه جبريل يسأله : ألك حاجة ؟ قال له إبراهيم : أما إليك فلا . قال له : أرفعها الى ربى . قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ : علمه بحالى يغنى عن سؤالى .

لقد وثق إبراهيم عليه السلام ـ فى ملاحظة الله إياه وعنايته به وكلئه له . وكان الله عند حسن ظنه فقال : يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم .

ولو قال : كونى بردا فقط لأوذى إبراهيم من شدة البرد ، ولكنه قرن السلامة بالبرد ، فكان اللطف الإلهى الدقيق الذى لايدرك مداه أحد .

التأدب بأدب هذا الاسم :

إن من يدرك جلال هذا الاسم ولطف معناه . عليه أن يحسن توكله على الله ، وينزل حاجته بساحته لايتعداه الى غيره . فهو وحده خير مسئول ، وهو القادر على تفريج كرب المكروبين وإجابة حاجة السائلين .

والتوكل من شروط المؤمنين . قال الله تعالى ـ

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (٦٥٩)

والله يحب المتوكلين عليه قال تعالى ـ :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (٦٦٠)

وقد أراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يختبر إيمان قومه فاختبرهم بالتوكل على الله ، فقال لهم حين طلب منهم دخول الأرض المقدسة . .

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ

---

(٦٥٩) آل عمران ١٦٠

(٦٦٠) آل عمران ١٥٩

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٦٦١)

والتوكل على الله لاينافى الأخذ بالأسباب التى أمرنا الله باتخاذها لتحقيق الغايات ، وقد قال لنا:

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (٦٦٢)

وقال لنا:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (٦٦٣)

وقد قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجل أراد أن يترك ناقته بلا قيد ظنا منه أن هذا ينافى التوكل ـ قال له : « اعقلها وتوكل »

وكما يدعونا هذا الاسم إلى حسن التوكل على الله والاعتماد عليه والتفويض إليه . يدعونا كذلك الى أن نكون فى حاجة المؤمن ، وأن نكون أهلا لثقة من وثق بنا فى قضاء حاجة من الحاجات ، أو ندبنا للسعى فى مهمة من المهمات ، أو وكل الينا التصرف فى وجه من وجوه التصرفات .

---

(٦٦١) المائدة ٢٣
(٦٦٢) الأنفال ٦٠
(٦٦٣) الملك ١٥

الدعاء فى ظل هذا الاسم :

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من قال حين يصبح وحين يمسى : حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم كفاه الله ماأهمه من أمر الدنيا وأمر الآخرة صادقا كان أو كاذبا »(٦٦٤)

وقد علمنا القرآن الكريم الدعاء بهذا الاسم حيث وضع أمامنا المثل فى ذلك بقوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾(٦٦٥)

وحين ذكر لنا وجوب التأسى بإبراهيم ـ عليه السلام ـ فى قوله :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾(٦٦٦)

وقد روى أبو نعيم عن شداد بن أوس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(٦٦٤) رواه البيهقى وابن عساكر عن أبى الدرداء ـ أسماء الله الحسنى لأحمد عبد الجواد ص ١٤٤

(٦٦٥) آل عمران ١٧٣ ، ١٧٤

(٦٦٦) الممتحنة ٤

قال : « قال الله عز وجل « حسبى الله ونعم الوكيل أمان كل خائف »[٦٦٧]

وقد ذكر العلماء أن الله سمى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الكتب المقدسة السابقة « المتوكل » وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى توكله مثلا أعلى لأمته استجابة لقوله تعالى ـ

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾[٦٦٨]

والتوكل على الله ييسر السبل ، ويحقق الأمل ، ويعصم من المكروه ، وينجى من المخاوف .

ومن أدعية الصالحين : « يامن بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولايجار عليه ، انصرنى بالخوف منك والتوكل عليك حتى لاأخاف غيرك . ولاأخشى شيئا سواك ، ياخالق السموات السبع ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ، أشهد أنك على كل شىء قدير وأنك قد أحطت بكل شىء علما »

---

(٦٦٧) أسناء الله الحسنى لأحمد عبد الجواد ص ١٤٤
(٦٦٨) النمل ٧٩

القـــــوى

المتيـــــــن

الولــــــى

الحميـــــد

المحصـــــى

المبدىء المعيد

الحـــى المميـــت

الحـــى القيـــوم

الواجــــــد

القـــوى

ورد اسم الله « القوى » فى القرآن الكريم فى عدة مواضع منها قوله تعالى ـ

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ (٦٦٩)

وقوله تعالى ـ :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٦٧٠)

وقوله تعالى

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٦٧١)

وقوله تعالى

﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٦٧٢)

---

(٦٦٩) هود ٦٦

(٦٧٠) الأنفال ٥٢

(٦٧١) الحج ٤٠

(٦٧٢) الحج ٧٤

وقوله تعالى ـ

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (٦٧٣)

لقد اقترن هذا الاسم فى أغلب المواضع باسم الله العزيز ، لما بين القوة والعزة من تلازم . واقترن بقوله : « شديد العقاب » فى موضعين وجملة المواضع التى ورد فيها هذا الاسم تسعة مواضع .

ومفهوم القوى يأتى فى مقابل الضعيف . والضعف من شأن المخلوق العاجز ، أما الخالق فهو القوى القادر .

والقوة تدل على القدرة وفى قوله تعالى ـ

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (٦٧٤)

اختلف العلماء فقال بعضهم : هو الله ـ عز وجل ـ ولكن سائر المفسرين على أنه جبريل عليه السلام ـ

ويفيد معنى القوى بالنسبة لله تعالى ـ أنه صاحب القدرة التامة البالغة الكمال ، كما يفيد أنه المتناهى فى القوة . تتصاغر كل قوة أمام حضرته ، ويتضاءل كل عظيم أمام عظمته . .

إنه مانح القوة لمن يشاء ، وقد أعطى الذى عنده علم من الكتاب القدرة على نقل عرش بلقيس من مكانه الى حيث يوجد سليمان عليه السلام . .

---

(٦٧٣) الأحزاب ٢٥

(٦٧٤) النجم ٥

وقد قص القرآن الكريم علينا ذلك ـ فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ (٦٧٥)

وإنا لنشاهد من مظاهر القوة التى يفيضها الله ـ عز وجل ـ على بعض خلقه عجائب مدهشة . لايسع المشاهد أمامها إلا أن يقول سبحان الله ـ تعجبا ـ مما يرى .

فإذا كان ممنوح القوة يستطيع بقوته أن يفتت المعادن ، وأن يلوى الحديد ، وأن يحمل الأثقال الشداد وأن يجر أو يزحزح بيديه مالايستطيع الجم الغفير جره أو زحزحته ـ كما قرأنا فى الأنباء منذ أيام ان شخصا استطاع أن يجر طائرة تزن كذا طنا ـ نقول إذا كان ذو القوة المستعارة يستطيع أن يفعل ذلك ، فما بالكم بواهب القوة ذاتها ومانحها ومفيضها على من يشاء من خلقه ؟

إن القوة ملك لله ـ تعالى ـ وحده وهو الذى يعطى منها بحكمته من يشاء ويسلبها ممن يشاء ، فبينما الرجل فى أوج قوته ونضرته إذا بالمرض يدهمه فلا يقوى أن يصلب عوده ، أو يرفع رأسه ، ويضعف عن حمل أقل الأشياء ،

---

(٦٧٥) النمل ٣٩ ، ٤٠

حتى يمن الله عليه بنعمة الصحة فتعود إليه القوة وترتد إليه العافية ، فسبحان واهب القوة ومانح القدرة .

وكما يبث الله القوة فى الانسان والحيوان يبثها كذلك فى بعض المعادن والمخلوقات التى سخرها الله لخدمة الانسان .

فقد خلق الله الطاقات التى يستغلها الانسان بقدرته التى أودعها الله فيه .

ومن ذلك استخدام الانسان لطاقة الحديد التى قال الله فيها:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٦٧٦)

وطاقة البترول التى أصبحت عماد التقدم العمرانى والحضارى فى القرن العشرين .

ومن قبلها كانت طاقة الفحم التى استغلها الانسان فى تقدمه فترة طويلة من الزمن حتى أزاحها البترول عن عرشها وتربع مكانها .

وجاءت الذرة التى تمكن الانسان من تفجيرها وتحويلها الى طاقة جبارة تخدم الحرب والسلم .

ثم هذه الطاقة الشمسية التى نلمسها فى حياتنا اليومية وندرك أثرها العظيم القوى الذى يشهد بقدرة الله وعظمته وإسباغ نعمته إلى خلقه . .

---

(٦٧٦) الحديد ٢٥

والتى تمكن الانسان من استغلالها وتسخيرها فى مجالات متعددة .

هذه قُوىً وهبها الله ، وسخرها فى خدمة الانسان الذى سخره لعبادته فكيف يغفل الانسان عن شكر هذه النعم ؟

إن مظاهر القوة فى الحياة تشهد أن القوة لله جميعا ـ كما قال ـ سبحانه ـ

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (٦٧٧)

التخلق بهذا الاسم :

إن هذا الاسم يدعونا إلى الالتجاء إلى حمى واهب القوة،نستمد منه العون على مانقوم به من أعباء .

وعلى ذاكر هذا الاسم أن يكون قوى الإيمان والثقة بالله ، مستشعرا أن قوة الخالق فوق كل قوة ، باذلا كل ما منحه الله من قوة لخدمة الناس ونفعهم ، فإنه بذلك يخدم نفسه ومجتمعه ، ويرضى ضميره وربه .

وعلى المؤمن أن يكون قويا فى نصرة الحق ، والدفاع عن المظلوم والجهاد فى الدين ، فقد ورد فى الأثر الشريف « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » .

وقد أمرنا الله بإعداد القوة للعدو . . . . قال سبحانه:

---

(٦٧٧) البقرة ١٦٥

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾(٦٧٨)

وبين لنا وسائل إعدادالقوة على لسان النبى - ﷺ - بما يشير إليه قوله « ألا إن القوة الرمى » . .

وإذا وُهِبَ المؤمن القوة فليس له أن يغتربها ، بل يتذكر دائما أن الحول والقوة لله وحده - جل جلاله - فعلى العبد ألا يتجاوز قدره وعليه أن يبذل قوته فى الخير والدفاع عن الحق ونصرة الضعيف وإنصاف المظلوم وعليه ان ينتهز فرصة قوته وشبابه ويجعلها فى الطاعة - فالنبي - ﷺ - يقول « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت » .

الذكر فى ظلال هذا الاسم :

قال العلماء : ماتلا هذا الاسم ذو همة ضعيفة أو جسم ضعيف إلا وجد القوة ، ولا ذكره مظلوم إلا كفى أمره ، وَذِكْرُه يَصْلُح أيضا لتوسيع الرزق فالله - يقول - :

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) ﴾(٦٧٩)

وفى الأثر النبوى الشريف :

---

(٦٧٨) الأنفال ٦٠

(٦٧٩) الشورى ١٩

« إذا وقعت فى ورطة فقل : بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فإن الله يصرف بها ما شاء من أنواع البلاء »(٦٨٠)

وروى محمد بن المنكدر عن جابر - رضى الله عنه - فيما يرويه أبو نعيم الأصفهانى - قال جابر : شكونا إلى رسول الله - ﷺ - حر الرمضاء فلم يُشْكِنا .

وقال : « استعينوا بلا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها تذهب سبعين بابا من الضر أدناها الهم » .

قال بعض الصالحين مناجيا ربه فى ظل هذا الاسم :

إذا كان القوى يشد ركنى فلست أخاف من ضعف يكون
إذا عسرت على أمور كونى فمن تيسيره أبدا تهون

وفى منظومة أسماء الله الحسنى فى الاسمين - الوكيل والقوى :

وكيل فثبتنا بتوكيلك الأعلى قوىٌ فقونا على فعل طاعة

---

(٦٨٠) رواه ابن السنى عن على - رضى الله عنه - أسماء الله الحسنى لأحمد عبد الجواد ص ١٤٦

المتيـــن

يرتبط اسم المتين ـ جل جلاله ـ باسمه القوى . ويقولون فى معنى المتين : إنه شديد القوى ، أى بالغ القدرة ، لا يستولى عليه عجز ولا يوهنه ضعف .

وقال بعض العلماء : المتين هو الكامل القوة ، الذى بلغت قدرته أقصى الغايات ـ سبحانه ـ لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السموات ، ولا مؤثر فى الموجودات غيره .

وقد ورد اسم الله المتين فى القرآن الكريم مرة واحدة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾ (٦٨١)

وجاء لفظ « المتين » وصفا لكيد الله الذى يرد به على كيد الكفار من قبيل المشاكلة اللفظية ـ فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝١٨٣ ﴾ (٦٨٢)

ومعناه ـ إن كيدى قوى . .

وقال ابن منظور فى لسان العرب : قوله ـ عز وجل ـ :

إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

معناه ذو الاقتدار والشدة . والمتين صفة الله القوى ، قال ابن الأثير : هو القوى الشديد الذى لا يلحقه فى أفعاله مشقة ولا كلفة ولا تعب ،

---

(٦٨١) الذاريات ٥٨

(٦٨٢) الأعراف ١٨٣ ـ والقلم ٤٥

والمتانة الشدة والقوة ، فهو قوى من حيث انه بالغ القدرة تامها ، ومن حيث انه شديد القوة متين .

وقد قرىء المتين بالرفع على أنه وصف « ذو القوة » وقرىء بالخفض على أنه نعت للقوة ، وتأنيث القوة كتأنيث الموعظة فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) ﴾ (٦٨٣)

قال : والقوة ـ اقتدار . . والمتين من كل شىء القوىُّ .

ومظهر قوة الله أجل من أن تنكر ، فهو الذى يحفظ السموات والأرض بقدرته ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

ومعنى لا يؤوده ـ لا يعجزه ـ والقوى لا يعجزه شىء مهما عظم .

قال القرطبى فى تفسير قوله ـ تعالى ـ

« إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »

أى الشديد القوى ، والمتين وصف للرزاق بعد وصفه بذى القوة .

وقد جاءت هذه الآية كالدليل على ما تقدمها من قوله ـ تعالى ـ

« ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون »

لأن المستقل برزق العباد لابد أن يكون قويا قادرا مقتدرا .

---

(٦٨٣) البقرة ٢٧٥

وقد جاء فى هذه السورة ذاتها ما يشير إلى قوة الله وقدرته فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٦٨٤)

فالأيد معناه ـ القوة والقدرة ، وموسعون ـ أى قادرون على ذلك .

واضاف علماء اللغة إلى ما سبق من معانى « المتين » قولهم : أصل المادة فى اللغة يدل على صلابة فى الشيء مع امتداد وطول ، والمتن ما صلب من الأرض وارتفع ، والمماتنة المباعدة فى الغاية ، وسار سيرا مماتنا ـ أى شديداً بعيداً .

والمتين مشتق من المتانة التى تعنى شدة الشيء واستحكامه وصلابته . ولا يمكن أن تقارن تلك الأوصاف الحسية التى نراها لبعض الأشياء فى الكون بقوة الله ، لأن قوة الله ومتانته تعنى شدته وعظمته وقدرته الفائقة الغالبة التى لا يحيط بها وصف .

وقوته مستمدة من ذاته ـ سبحانه ـ وهى ليست فى حاجة إلى معونة من أحد ، أو مساندة من جند ، أو مكاثرة من عدد .

ويقضى التخلق بهذا الاسم ما يقضى به التخلق بأدب اسمه ـ تعالى ـ القوى . من وجوب تمثل قدرة الله الغالبة وقوته القاهرة التى يقهر بها الاعداء والمكابرين .

انظر إلى قوله ـ تعالى ـ فى قصة قارون :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ

---

(٦٨٤) الذاريات ٤٧

ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ (٦٨٥)

ولا يقهر الأقوياء إلا من هو أقوى منهم .

ويقول ـ تعالى ـ :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ (٦٨٦)

فمن تدبر معنى هذه الآيات وأمثالها يطمئن إلى قوة الله التى تساند المؤمن وتحفظه وترعاه ، وأنه إذا استعان بها استعان بجاه عريض وركن شديد . .

إن من أدب المؤمن أن يستعين بالله القوى فى كافة أموره ولا يلتجىء إلى أحد سواه .

يقول العلماء ـ فيما يحكيه د . أحمد الشرباصى : إن من علم أن مولاه على كل شىء قدير ـ قطع بقطع الرجاء عمن سواه ، وأفرد له سره ، كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام ـ :

« ربنا إنى أسكنت من ذرينى بواد ذى زرع عند بيتك المحرم »

والمراد أنى سهلت طريقهم إليك وقطعت رجاءهم عمن سواك ، ثم قال : « ليقيموا الصلاة » أى شغلتهم بخدمتك خاصة ، وأنت أولى بهم منى

---

(٦٨٥) القصص ٧٨

(٦٨٦) فاطر ٤٤

ومنهم ، ثم قال : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » أى إذا احتاجوا إلى شىء ذللت عبادك لهم فإنك على كل شىء قدير »(٦٨٧)

وليتأمل كل إنسان نشأته ، كيف كان نطفة فعلقة فمضغة ثم نزل من بطن أمه ضعيفا فأمد الله له فى القوة شيئا فشيئا حتى أصبح قادرا باطشا ، ثم رده إلى الضعف مرة أخرى ، إن ذلك من شأنه أن يقوى إيمان الإنسان بربه ، وإفراده بالطاعة والاقبال عليه . . قال ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾(٦٨٨)

الدعاء فى ظل هذا الاسم

من ابتهالات الشاعر أحمد مخيمر قوله :

هـذه الشـمس ترسـل النـور والدفء فحيوا إلهنا شـاكرينا .

لم تزل با قتداره تصنع الصبح ، وتلقى على الفضاء السنينا .

والنجوم الزهر التى تملأ الليل وتهدى مسالك الحائرينا .

هو سبحانه محركها ، وماسكها أن تحطـم العـالمينـا »(٦٨٩)

أما الشيخ محيى الدين بن عربى فيقول :

إن المتانـة حـال ليـس يدريهـا إلا الـذى هـام وجـداً فى معانيهـا

وقـوة اللـه أبدتهـا لناظرنـا وحكمهـا أبـدا فيمـن يعانيهـا

---

(٦٨٧) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ ١ ص ٢٩٤

(٦٨٨) الروم ٥٤

(٦٨٩) أسماء الله الحسنى . لأحمد مخيمر ص ٧٧

إن الذكر بهذا الاسم ، وباسمه تعالى « القوى » يفيد ذاكره ظهور القوة ، وقوة اليقين . `` ستقامة . . ومن ابتهالات ابن عطاء الله السكندرى فى نهاية حِكَمِه قوله :

« إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى ؟

« إلهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟

« إلهى وصفت نفسك باللطف والرأفة بى ولى بعض قوة ، أفتمنعنى منهما بعد ضعفى ؟

« إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة علىّ ، وإن ظهرت المساوىء منى فبعدلك ولك الحجة علىّ .

« إلهى كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت بى ؟ وكيف أضام وأنت النصير لى ؟ أم كيف أخيب وأنت الحفى بى ؟

« إلهى أغنى بتدبيرك عن تدبيرى ، واختيارك عن اختيارى ، وأقفنى على مراكز اضطرارى . . . . » .

الوَلِيُّ

جاء فى معنى اسم الولى ـ فى كتب اللغة ـ أنه الناصر ، وقيل : هو المتولى لأمور العالم والخلائق القائم بها .

ومن أسمائه أيضاً الوالى وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها . وقد يكون بمعنى الولىّ .

وجاءت مادة هذا الاسم لتدل على معان متعددة تشير الى التصرف والحكم : تقول : وَلِيَ الشىء ووليَ عليه وِلاية وولاية ـ بفتح الواو وكسرها ـ فى المصدر ، وهى تفيد معنى السلطان ، وتفيد أيضاً معنى النصرة ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ:

« مالكم من وِلَايتهم من شىء »

بالفتح والكسر .

والولاية ـ بكسر الواو ـ بمعنى الإمارة

وولىُّ اليتيم هو الذى يلى أمره ويقوم بكفايته ، وولى المرأة هو الذى يلى عقد النكاح عليها ، وفى الحديث : « أيما امرأة نكحت بدون إذن وليها فنكاحها باطل »

ويقال : فلان أولى بهذا الأمر ـ أى أحق به ، وهما الأوليان ـ أى الأحقان .

ومن معانى المولى ـ الولى الذى يلى أمرك ، والحليف ، والسيد ومن تقلبات هذه المادة ندرك أن الولى يأتى لمعان عدة منها :

● أنه بمعنى الوالى كالجليس بمعنى الجالس . وإذا كان الوالى يعنى الحاكم ،

فالولى الذى هو الله ـ هو الحاكم المطلق فى أمور عباده .

● ويأتى بمعنى المحب ، فالله ولى الذين آمنوا ، يعنى يحبهم ، وموالاة الله للعبد تعنى محبته إياه .

● ويأتى بمعنى المتكفل بأمور العباد الناصر لمن أطاعه منهم ، ولاشك أن الله ينصر أولياءه ويقهر أعداءه

« ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »

● الولى بمعنى المتولى للأمر القائم به على خير وجه ، كولى اليتيم الذى يعنى بشئونه ، وهو أقرب الناس إليه .

وقد ورد اسم الولى « فى القرآن الكريم فى عدة مواضع منها : قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾(٦٩٠)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾(٦٩١)

---

(٦٩٠) البقرة ٢٥٧

(٦٩١) آل عمران ٦٨

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٩) ﴾ (٦٩٢)

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٨) ﴾ (٦٩٣)

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) ﴾ (٦٩٤)

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) ﴾ (٦٩٥)

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ (٥٥) ﴾ (٦٩٦)

---

(٦٩٢) الشورى ٩
(٦٩٣) الشورى ٢٨
(٦٩٤) الشورى ٤٤
(٦٩٥) النساء ٤٥
(٦٩٦) المائدة ٥٥

وقوله - تعالى -

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (١٥٥) (٦٩٧)

قال القرطبى فى تفسير معنى الولى فى قوله - تعالى -

« الله ولى الذين آمنوا » :

الولى فعيل بمعنى فاعل ، وهو الذى ينصر عباده المؤمنين .

وقد مر بنا فى تفسير معنى الولى أنه بمعنى المحب ، فلعل المراد هنا - والله أعلم - أن الله يحب الذين آمنوا ، والدليل على حبه إياهم أنه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، فمن أحبه الله أراد له الخير وأرشده الى طريق السلامة والبر .

ولبعض العلماء أقوال فى معنى الولى . فهم يقولون : هو الولى الحميد الذى يتولى أمر عباده بالحفظ والتدبير ، وينصر أولياءه ويقهر أعداءه ، يتخذه المؤمن وليا فيتولاه - سبحانه - ويحفظه برعايته ويختصه برحمته .

ويقولون : هو مالك التدبير . فلا مدبر غيره ولاقائم بالأعمال سواه .

وقال الامام الغزالى - الولى هو المحب الناصر ، يقمع أعداء الدين وينصر أولياءه لأنه ولى المؤمنين ، ألا ترى قوله:

---

(٦٩٧) الأعراف ١٥٥

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾[698]

ويقول الامام الرازى : إن قرب الله ـ تعالى ـ من العبد أعظم مما يستطيع العبد أن يفهمه من الآيات الكريمة التى وردت فيها كلمة الولى والمولى .

وإنما وردت هذه الأمثلة على وفق أفهام الخلق ، وإلا فلطف الله وقربه أدق من أن يصل العقل الى فهمه ، ويكفى فى الدلالة على ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾[699]

التخلق بأدب هذا الاسم

ينبغى لذاكر هذا الاسم أن يكون وليا لله قريباً منه خاضعا له ، وأن يكون وليا للناس أيضاً ، يرعى مصالحهم ، ويتفقد شئونهم ، على قدر طاقته ، فقد ورد فى الأثر « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم »

والمؤمن إذا اتخذ الله وليا عادى الشيطان وحزبه ، وعداوة الشيطان أمر مطلوب شرعا .

وموالاة الله تفرض على المرء أن يكون خادما لمولاه حقا ، حتى يستحق أن يكون ولياً لله . وقد تطلق كلمة الولى على بعض الناس . . . . . وقد

---

(٦٩٨) محمد ١١

(٦٩٩) ق ١٦

وصف الله أولياءه المؤمنين فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤ ﴾ (٧٠٠)

والولى من العباد ـ كما يقول الامام الغزالى ـ هو الذى يحب الله ويحب أولياء الله

ومن خصائص الولى أن يمده الله بعونه ويؤيده بنصره ، وفى الأثر الكريم « **من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء الفرائض ، ومايزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها ، وأذنه التى يسمع بها ، ورجله التى يمشى بها ، وفؤاده الذى يعقل به ، ولسانه الذى يتكلم به ، إن سألنى اعطيته ، وإن دعانى أجبته** »(٧٠١)

ولقد نهانا الله عن موالاة أعدائه فقال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ

---

(٧٠٠) يونس ٦٣ : ٦٤

(٧٠١) رواه أحمد ، والحكيم . وأبو يعلى ، والطبرانى ، وأبو النعيم ، وابن عساكر عن عائشة ـ الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية للمناوى ص ١٦٦

﴿ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ ﴾[702]

الذكر فى ظل هذا الاسم

جاء فى منظومة أسماء الله الحسنى :

متين فشدد حبل وَصْلِي دائما ولىٌّ فَرَقِّنــــا لأعلــى الـولايـــة

وقال العلماء : من لازم الذكر بهذا الاسم أحبه الله وأكرمه وأنار له طريقه وهداه إلى وسائل الخير .

قالوا : ومن أكثر من ذكره خصوصا ليلة الجمعة وجد تيسيراً فى أموره وصار وليا من أولياء الله ـ تعالى ـ

قال ابن عطاء الله فى مناجاته :

« أنت الذى أَشْرقت الأنوار فى قلوب أوليائك . وأنت الذى أزلت الأغيار عن قلوب أحبابك .

« أنت المؤنس لهم من كل موحش من العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم .

« ماذا وجد من فقدك ؟ وما الذى فقد من وجدك ؟

« لقد خاب من رضى دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا . .

« الهى كيف يُرْجى سواك وأنت ماقطعت الإحسان ؟

وكيف يطلب من غيرك وأنت مابدلت عادة الامتنان . . . ؟

« يامن أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين .

ويامن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بين يديه بعزته مستعزين »

---

(٧٠٢) الممتحنة ١

الحميد

يقول العلماء في معنى الحميد ، إنه المحمود على كل حال ، المستحق الحمد . . . الحميد بحمده لنفسه أزلا ، وبحمد عباده له أبداً .
إنه الحميد المطلق الذى لاحميد سواه .

ويقصد بالحمد ـ ذكر أوصاف الجلال والكمال . . . والله ـ سبحانه ـ قد حمد نفسه بنفسه من قبل أن يحمده أحد من خلقه ـ تنبيها لهم لكى يسبحوا بحمده على ماأسبغ عليهم من نعم ظاهرة وباطنة ـ قال تعالى ـ
« وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها »

والحمد نقيض الذم ، والفرق بينه وبين الشكر ـ فيما يقول ثعلب ـ : أن الحمد يكون عن يد وغير يد ، والشكر لايكون إلا عن يد . وبعض اللغويين لايفرق بينهما .

والحمد معناه الثناء أيضاً ، فالحمد لله يعنى الثناء عليه بما هو أهله .
وجاء فى لسان العرب فى معنى اسم الحميد : الحميد من صفات الله ـ تعالى وتقدس ـ بمعنى المحمود على كل حال ، وهو من الأسماء الحسنى ، وحميد بمعنى محمود . . . . والحمد والشكر متقاربان ، وإن كان الحمد أعم ، فإنك تحمد الانسان وتثنى على صفاته الذاتية وعلى عطائه ، ولاتشكره على صفاته الذاتية ـ جاء فى الحديث : « الحمد رأس الشكر ماشكر الله عبد لايحمده »

والإمام الغزالى ـ رحمه الله ـ يقول : الحميد هو المحمود المثنى عليه ، والله هو الحميد بحمد نفسه أزلا ، وبحمد عباده له أبداً . وهو اسم يرجع

إلى صفات الجلال والعلو والكمال منسوباً الى ذكر الذاكرين له . فان الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو كمال .

ولبعض العلماءعبارات أخرى تشير الى دقة فهمهم وعمق مراميهم . .

فقد قالوا : إن الله ـ تعالى ـ هو مستوجب الحمد ومستحقه ، ـ المحمود على أى حال ـ

وهو الذى لايحمد على مكروه سواه ، وهو الذى يوفق العبد للخيرات ويجزيه عليها ويمحو بها عنه السيئات

وقد ورد ذكر الحميد فى القرآن فى عدة مواضع منها ـ قوله تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ (٧٠٣)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٧٠٤)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ (٧٠٥)

---

(٧٠٣) البقرة ٢٦٧

(٧٠٤) هود ٧٣

(٧٠٥) ابراهيم ١

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٧٠٦)

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٧٠٧)

التخلق بأدب هذا الاسم

لقد استفتح الله بالحمد كتابه الكريم ، ودل ذلك على أهمية الحمد ووجوبه . وقد أفاض العلماء فى شرح صفة الحمد الذى ورد فى أول الكتاب العزيز ـ فمن ذلك ما ذكره القرطبى قال : الحمد فى كلام العربِ معناه الثناء الكامل ، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد ، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه ، لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا ،

وقد ورد فى الحديث الشريف عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ »

وجاء فى نوادر الأصول عن أنس أيضا قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال : الحمد لله ـ لكانت الحمد لله : أفضل من ذلك »

وقيل هى من الباقيات الصالحات التى ذكرها الله فى قوله :

(٧٠٦) فصلت ٤٢

(٧٠٧) الحديد ٢٤

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ (٧٠٨)

فهذا كله يشير إلى فضل الحمد ووجوبه على العبد فى كل وقت ، لأن نعم الله لا تنفد وإحسانه دائم .

وقد يوصف العبد، بالحميد إذا حسنت عقيدته وأخلاقه وأعماله وأقواله . . ولم تظهر هذه الصفة كاملة فى مخلوق إلا فى سيد الخلق - ﷺ - وحمد الله سار فى الكائنات كلها . . . . . قال تعالى :

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ (٧٠٩)

وقال:

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ (٧١٠)

وقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ (٧١١)

(٧٠٨ الكهف ٤٦

(٧٠٩) الإسراء ٤٤

(٧١٠) الرعد ١٣

(٧١١) غافر ٧

وتسبيح الكائنات جميعا بحمد الله تلقائى ، والانسان هو الكائن المطالب بتذكر نعمة الله وحمده عليها ، قال - تعالى -

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (٧١٢)

وإذا كان الخطاب هنا للنبى - ﷺ - فهو لأمته أيضا . .

وحمد الله يقتضى الاقرار بفضله ومعرفة حق المنعم قبل النعمة ، وحفظ النعمة عن استعمالها فيما لا يليق بها .

الذكر فى ظل هذا الاسم

لقد علمنا النبى - ﷺ - أدعية فى ظلال هذا الاسم . . . . . من ذلك ما رواه ابن ماجة عن ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - حدثهم « أن عبدا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك . . فلم يعرف الملكان كيف يكتبان ثوابها ، فصعدا إلى السماء وقالا : ياربنا ، إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها . قال الله - عز وجل - وهو أعلم بما قال عبده : ماذا قال عبدى ؟ قالا : يارب إنه قد قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى ، حتى يلقانى فأجزيه بها »

وفى الحديث : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض »

وقال الرسول - ﷺ - فيما يرويه أبو هريرة - : « ألا أعلمك كلمات تذهب

---

(٧١٢) طه ١٣٠

عنك الضر والسقم ، قل : توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا »

وآيات القرآن الكريم التى تحمل صيغ الحمد كثيرة وهى أولى بالاستعمال والذكر . ويليها ما جاء فى الحديث الشريف ، ويليها ما جاء على ألسنة الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

قال العلماء ؛ من داوم على ذكر « الحميد » أغناه الله غنى لا حصر له ونصره الله وأعزه ، وأكسبه المحامد فى صفاته وأقواله ، وكان ذلك سببا فى الشفاء من الأمراض والأسقام . كما رأينا فى الحديث السابق .

المحصى

جاء فى لسان العرب : فى أسماء الله ـ تعالى ـ المحصى ، وهو الذى أحصى كل شىء بعلمه ، فلا يفوته دقيق منها ولا جليل .

والإحصاء العد والحفظ ، وأحصى الشىء : أحاط به ، وفى التنزيل « وأحصى كل شىء عددا » معناه : أحاط علمه ـ سبحانه ـ باستيفاء عدد كل شىء . . . . . . وأحصيت الشىء : عددته .

ولم يرد اسم المحصى بلفظه فى القرآن الكريم ، ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء التى جاء بها الحديث الشريف « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » ورقم هذا الاسم بينها الثامن والخمسون .

ولكن ورد فى القرآن ما يشير إليه ، وذلك فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (٧١٣)

وفى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (٧١٤)

وفى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا

---

(٧١٣) مريم ٩٣ : ٩٥

(٧١٤) يس ١٢

ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (٧١٥)

وقال بعض العلماء فى معنى اسم المحصى : إنه العالم بمقادير الحوادث ، وما يحيط به الخلق من علم ومالا يحيطون به كالأنفاس والأرزاق وعامة الموجودات ، فهو الشاهد على ما كان وما يكون ، وهذا يرجع إلى القدرة التامة ونفى العجز الذى هو صفة المخلوق لا الخالق . .

ومن معانى المحصى عند أهل المعرفة : أنه الذى يحصى الأعمال ويعدها ليوم اللقاء والجزاء .

وهو العالم بدقائق الأمور وأسرار المقدور ، البصير بالظاهر الخبير بالباطن .

هو المحصى للطاعات ، المحيط بجميع الحالات .

هو المحصى لجميع الأنفاس ، الخبير بخفى الوسواس . .

وقال بعضهم : هو المحيط بكل شىء علما . وعلى هذا فسروا الحديث الشريف « إن لله تعالى ـ تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » بمعنى علمها ـ وقال بعضهم : هو المحيط بكل موجود جملة وتفصيلا ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . قال ـ تعالى

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٧١٦)

---

(٧١٥) الكهف ٤٩

(٧١٦) الحاقة ١٨

وكيف تخفى عليه خافية وهو العليم الخبير بكل ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . . . . وقد يتضمن معنى المحصى ـ الحفظ . . . قال بعض العلماء : هو الحافظ لأعداد طاعتك ،. العالم بجميع حالتك .

لقد عَرَّف الامام الغزالى ـ رحمه الله ـ المحصى بالعالم ، فإذا أضيف العلم إلى المعلومات من حيث إحصائها وعدها والإحاطة بها سمى ذلك العلم إحصاء .

والله هو المحصى المطلق ، الذى ينكشف فى علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه . إن العبد وإن كان فى مقدوره أن يحصى بعلمه بعض المعلومات إلا أنه يعجز عن حصر الكثير منها . فإحصاؤه ناقص وعلمه قليل .

ومازال علم الإحصاء الحديث على الرغم من تطوره وتدخل الأجهزة الحديثة فيه ، واختراع الحاسبات « الألكترونية » التى سجلت بعض المعلومات ـ مازال يتعرض للخطأ والتشويش والنسيان .

وبالاضافة إلى ذلك فإن عمل هذه الحاسبات يتوقف على علم الانسان القاصر ، وهو لا يتعدى ما يلقن له من خبرات وبرامج .

أما إحصاء الله فقديم ، وهو يتناول كل صغير وكبير من ذرات هذا الكون الواسع المترامى الأطراف ، ما يدرك بالحس ومالا يدرك به ، وما يقع فى دائرة العلم الإنسانى ومالا يقع .

يقول الرازى ـ رحمه الله ـ : إن إحصاء الله راجع إلى علمه ـ سبحانه ـ بعدد أجزاء الموجودات وعدد حركاتهم وسكناتهم ، قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (٧١٧)

كما أن إحصاء الله لا يجرى عليه النسيان ـ قال ـ جل وعلا ـ :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾ (٧١٨)

كيف يتخلق العبد بآداب هذا الاسم ؟

إن المؤمن إذا علم أن الله يحصى عليه كل شىء ، ويقدم له يوم القيامة كتابا قد سجلت فيه أعماله كلها ـ حتى إن العبد ليقول « يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » إذا علم المؤمن ذلك ـ دعاه هذا إلى وجوب مراقبة ربه وحساب نفسه . .

وإذا فعل العبد ذلك عن طريق المران والتدريب لم يلبث أن يتحول ذلك عنده إلى فطرة وطبيعة ، فيصبح عبدا ربانيا يكون محل نظر الله فى الأرض .

قال العلماء فى معنى المراقبة : هى دوام النظر بالقلب إلى الله تعالى ، ومراقبة ما يبدو من أفعاله وأحكامه . وثمرة ذلك حسن الآداب والسلامة من شدائد الحساب ، والتحلى بحلية الأولياء ذوى الألباب

كان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ فى سفر ، فرأى غلاماً يرعى غنماً ، فقال له : أتبيع من هذه الغنم واحدة ؟

فقال الغلام : إنها ليست لى .

---

(٧١٧) النبأ ٢٩

(٧١٨) المجادلة ٦

فقال ابن ـ عمر ـ وهو يختبر الغلام ـ : قل لصاحبها إن الذئب عدا عليها وأخذ واحدة منها .

فقال الغلام : فأين الله ؟

فظل ابن عمر يردد هذه الكلمة دائماً : قال العبد : فأين الله .

قال العبد فأين الله . وكان يرفع بها صوته . إعجاباً بما قال ذلك الغلام ، وحثاً للناس على الاقتداء به فى تعلم المراقبة .

ويقتضي التأدب بهذا الاسم وجوب شكر المنعم على نعمه الكثيرة ، فمتى علم العبد أن هذه النعم تفوق العد والاحصاء استوجب منه ذلك دوام الشكر ، والخروج من دائرة الجحود التى يحاول الشيطان حصر الناس فيها قال ـ تعالى ـ:

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (٧١٩) .

• وشكر المنعم على نعمه يستوجب زيادتها ، فقد جاء فى القرآن الكريم قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (٧٢٠)

وقال ابن عطاء الله السكندرى فى ذلك « من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، وَمَن شكرها فقد قيدها بعقالها » .

ومقتضى شكر النعمة عدم عصيان الله بها ، مصداقاً لقول الشاعر :

---

(٧١٩) النحل ١٨

(٧٢٠) ابراهيم ٧

إذا كنت فى نعمة فارعها　　فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله　　فإن الإله سريع النقم
إذا تم شىء بدا نقصه　　توقع زوالاً إذا قيل تم

الذكر فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : من أكثر من ذكر هذا الاسم أورثه الله مقام المراقبة ، وإذا أضاف إليه اسم ـ المحيط ـ أحاط من العلم بما لم يحط به غيره من الناس .

وقالوا : إن من استدام الذكر به سخر الله له الخلق ، ونجاه الله من مشقة الحساب والعقاب يوم القيامة .

ومن الأدعية الواردة فى ظل هذا الاسم :

« إلهى أنت المحصى لحركات العباد ، المحيط بعمل أهل الجفاء وأهل الوداد ، أحصيت جميع الأسرار فى الانسان ، وجمعت فيه سائر الأكوان ـ اكشف عن قلوبنا الحجاب ، حتى نشهد فى أنفسنا أنوار المعطى الوهاب ، وامنحنا نور المراقبة حتى نراقب جميع أعمالنا ، ونحصى سائر أحوالنا إنك على كل شىء قدير[٧٢١] . . » .

ومن دعاء بعض الصالحين :

« يا محصى الأشياء وزناً وعداً ، طولاً وعرضاً ، قرباً وبعداً ، نوراً وظلاماً ، مكاناً وزماناً ، يا خالق ما نرى وما لا نرى من فوق السموات العلا وما وراءها إلى ما تحت أطباق تخوم الثرى وما بعدها ، يا مسكن المتحركات الحارة الملتهبة النارية فى سريع دورانها ، ومحرك الساكنات الباردة

---

(٧٢١) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ ١ ص ٣١١

المائية والترابية فى عميق سكونها ، يا خالق الكون والمكان والزمان بنظام عجيب وصنع بديع من غير سابق مثال ، لا إله إلا أنت عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال[٧٢٢] . . » .

(٧٢٢) فى ملكوت الله مع أسماء الله للشيخ عبد المقصود محمد سالم ص ١٧٧

المبدىء المعيد

يرتبط هذان الاسمان الشريفان ويتلازمان غالباً ، وقد وردت مادتهما معاً في القرآن الكريم في عدة مواضع ـ منها قوله ـ تعالى ـ:

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾ (٧٢٣)

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾ (٧٢٤)

وفي قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) ﴾ (٧٢٥)

ويفيد معنى المبدىء ـ كما جاء في لسان العرب ـ أنه هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداء من غير سابق مثال . والبدء ـ هو فعل الشيء بداية ، تقول : بدأ به وبدأه يبدؤه بدءاً ، وأبدأه وابتدأه ـ بمعنى أوجده من عدم .

ويفيد معنى المبدىء أن الله كان ولا شيء معه ولا قبله ، ثم بدأ الخلق من العدم إلى الوجود ، فأحسن كل شيء خلقه بتقدير كامل وتدبير محكم وعلم سابق وحكمة بالغة ـ قال ـ تعالى ـ:

---

(٧٢٣) الأعراف ٢٩

(٧٢٤) الأنبياء ١٠٤

(٧٢٥) البروج ١٣

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾ (٧٢٦)

وتكلم العلماء فى بدء الخلق استناداً إلى الحديث الذى أورده البخارى « كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء وخلق السموات والأرض(٧٢٧) . . » .

فقالوا : أول ما خلق الله الماء ثم خلق العرش ثم خلق القلم فقال له : اكتب ما هو كائن ، ثم خلق السموات والأرض وما فيهن .

وحين خلق الله القلم وقال له اكتب ـ قال ، القلم : ما اكتب ؟ قال : اكتب القدر ـ فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة .

وجاء فى تفسير القرطبى ـ سورة العلق ـ أن الله خلق أربعة أشياء بيده ، ثم قال لسائر الحيوان : كن فكان : القلم ، والعرش ، وجنة عدن ، وآدم عليه السلام ـ

ولما خلق الله الخلق كتب فى كتاب ـ فهو عنده فوق العرش : « إن رحمتى تغلب غضبى » .

وقال العلماء : إن الله ـ تعالى ـ بعد أن خلق الماء أيبس أجزاء منه فهى الأرض ، وثار من الماء دخان فارتفع فصار سماء ، وهذا هو قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ ﴾ (٧٢٨)

---

(٧٢٦) السجدة ٧

(٧٢٧) فتح البارى جـ ٦ ص ٣٣١ كتاب بدء الخلق

(٧٢٨) فصلت ١١

ويلتقى معنى المبدىء مع المبدع والفاطر . فالله هو الذى بدأ الخلق وأبدعه وفطره على غير مثال سابق . سبحانه هو الخلاق العليم .

والله هو الذى أظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود . . وأفاض عليهم من نور اسمه الموجود . وأتحفهم باتحافات البر والجود .

واسم المبدىء له نور يشرق على قلوب المحبين ، فيطيّرون شوقاً إلى رب العالمين ، لأنهم تذكروا البداية فحنوا ، وتفكروا فى الأصل فتأدبوا . . . . وقال شاعرهم فى ذلك :

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا

ولعل هذا المعنى هو ما يشير إليه ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه حيث يقول موجها القول إلى الأنسان : « جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ، ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ـ قال تعالى ـ :

« ولقد كرمنا بنى آدم »

أما ما يتعلق باسم المعيد . فقد قال العلماء : إنه من أعاد إعادة ، والله ـ تعالى ـ يعيد الحياة إلى الأجسام بعد موتها ، ويبعثها يوم نشورها ، قال تعالى:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٧٢٩)

قال ابن منظور : بدأ الله الخلق فأحياهم ، ثم يميتهم ، ثم يعيدهم

---

(٧٢٩) البقرة ٢٨

أحياء كما كانوا . قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧ ﴾ (٧٣٠)

وقال تعالى ـ :

﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢ ﴾ (٧٣١)

فهو سبحانه الذى يبدأ الخلق ، ثم يميتهم بعد الحياة فى الدنيا ، ثم يعيدهم بعد الممات إلى الحياة يوم القيامة .

ويطلق على الآخرة ـ المعاد ، كما يطلق على الصلة ـ العائدة ، لأنها تعود بالشكر على صاحبها وبالإحسان على الموصول .

ويطلق على الأمر لا يقلع عنه صاحبه عادةً ، لأنه يعود إليه المرة بعد المرة .

ويطلق على زائر المريض عائد ، لأنه يعود عليه بالسؤال .

هذه بعض المعانى التى تتقلب فيها مادة يعيد .

أما المعيد فى صفة الله ـ تعالى ـ فهو الذى يعيد الخلق للحساب ، ويحشرهم إليه بعد أن فنوا فى التراب ، فيناقشهم فيما قدمت أيديهم ، فإما

---

(٧٣٠) الروم ٢٧

(٧٣١) الاسراء ٥٠ : ٥٢

مسوق إلى الجنة وإما مسوق إلى العذاب .

ولا يقدر على ذلك إلا الله القادر الذى يقول للشيء كن فيكون .

كيف يتأدب المؤمن بأدب هذين الاسمين ؟

إن من واجب المؤمن أن يتذكر أصله الترابى ، الذى بدأ منه ، فيخشع قلبه ويتواضع لله ـ تعالى ـ

كما يتذكر كيف جعل الله منه إنساناً قوياً مكرماً مفضلاً على كثير من الخلق تفضيلاً ، فيشكر الله على نعمته ويداوم على طاعته .

وواجبه أن يتذكر نهايته ، وأن مصيره إلى الفناء ثم الاعادة للجزاء ، فيعمل لهذا اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

إذا تذكر الانسان أن ما مضى من أيامه لا يعود ، وما ذهب لا يرجع ، حسب حساب وقته وأنفقه فيما يفيد ، وتذكر الحكمة القائلة ، الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك . .

إن طلب الفراغ للطاعة جفاء من العبد لمولاه ، فمن حق المولى على عبيده أن يقدموا طاعته على كل ما عداها من أعمالهم . وألا يؤثروا أنفسهم أو مشاغلهم عليه . . علينا أن نتدبر جيدا قوله ـ ﷺ ـ « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى »

الذكر فى ظل هذا الاسم

إذا ردد الذاكر اسم « المبدىء » مع اليقظة وحضور القلب ، وفقه الله للخيرات

ومن كان ناسيا فقال : يامبدىء يا معيد مرارا ـ مع طلبه من الله أن يذكره ما ينسى ـ يذكره إن شاء الله ـ تعالى .

ومن أكثر من ذكر اسم المعيد ذهبت حيرته ، واهتدى لما فيه صلاحه . ومن الذكر بذلك : « يامبدىء البرايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته » و« يا معيد ما أفناه إذا برز الخلائق لدعوته . . . . » وذكر المعيد مفيد لمن تعتريهم الهموم والكروب والأحزان ، فما يلبثون حتى تسبقهم الإجابة بالفرح وشرح الصدر بإذن الله .

قال بعض الصالحين فى الدعاء باسم المبدىء : ـ « إلهى أنت المبدىء للخلق من العدم ، والمظهر للجميع بمحض الكرم ، خلقت الروح من النور لتشهد الجمال ، وخلقت الجسم من الأرض فلبس حلل الديباج ، أشهد أرواحنا نور الهداية والبداية ، وأشرق علينا أنوار الأسماء وجملنا بأنوار البهاء ، فأنت المبدىء وأنت المعيد ، وأنت على كل شىء قدير .

وقالوا فى الدعاء باسم المعيد :

« إلهى أنت المعيد للعباد يوم الحشر ، المعيد لأوليائك إلى فسيح قدسك ونعيم جنتك . .

إلهى تجل لنا باسمك المعيد فأعد قوانا إليك ، حتى يكون ذلك هو البعث والنشور ، . وقيامنا من سجن الأجسام التى هى لنا قبور ، فندخل جنة الرضا بغير حساب ، ونصل الى حضرة الوهاب ـ إنك على كل شىء قدير وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم »(٧٣٢)

---

(٧٣٢) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ ١ ص ٢١٧

المحيى المميت

ورد هذان الاسمان فى سلسلة الأسماء التى ورد بها الحديث الشريف ، ورقماهما الحادى والستون والثانى والستون .

ومعنى المحيى . أنه باعث الحياة فى مخلوقاته بعد موتها ، فهو الذى ينفخ فى الانسان الروح فيحيا من الموت ، وهو الذى يحيى الأرض بالماء فتنبت بالرزق - قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(733)

وقال تعالى :

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾(734)

وقال - تعالى - :

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾(735)

إنه الذى يحيى القلوب بنور المعرفة والإيمان .

وقد خلق الله الموت والحياة لحكمة - أشار اليها الحق فى قوله - تعالى - :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾(736)

---

(٧٣٣) الأنبياء ٣٠

(٧٣٤) الروم ٥٠

(٧٣٥) الدخان ٨

(٧٣٦) الملك ٢

وقدم الموت لأنه للقهر أقرب ، وقيل : قدمه لأنه أقدم ، فالأشياء فى الابتداء كانت فى حكم الموت كالنطفة والتراب .

وقال قتادة : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ان الله أذل بنى آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء »

وقال بعضهم : قدم الموت على الحياة لأن أكثر الناس عملا وطاعة لله من نصب الموت بين عينيه . .

ومن العلماء من يرى أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته ، والحيلولة بينهما ، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار . . . . . والحياة عكس ذلك .

بل إن بعض العلماء يتحدثون بأن الحياة تسرى فى الجمادات ، التى يظنها الإنسان لا تحس ولا تعقل . . . . . قال تعالى

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٧٣٧)

وقال :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (٧٣٨)

ومن المعجزات المشهورة للنبى ـ ﷺ ـ أن الحصى سبح بين يديه ، ووضعه فى يد أبى بكر فسبح . ووضعه فى يد عمر فسبح .

---

(٧٣٧) النمل ٦٨

(٧٣٨) الاسراء ٤٤

فكيف يسبح من لا حياة فيه ؟

وقد وردت مادة الحياة والموت فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، تشهد بقدرة الله ـ تعالى ـ وقيوميته .... من ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٧٣٩)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ (٧٤٠)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٧٤١)

ومظاهر الإحياء كثيرة سبقت الإشارة إليها ، فهى ليست قاصرة على إحياء الأجسام ، بل تتناول أيضا الإحياء المعنوى بالإيمان والعلم والمعرفة

---

(٧٣٩) فصلت ٣٩

(٧٤٠) البقرة ٢٥٨

(٧٤١) الأعراف ١٥٨

والمشاهدة ، وغير ذلك من القوى المعنوية التى تؤثر فى الأشباح كما تؤثر فى الأرواح . .

ولذلك قال بعض العلماء فى تفسير اسم الله ـ المحيى : هو الذى أحيا العوالم بسره ، وغمر الموجودات بوافر بره ،

وهو الذى أحيا قلوب الصالحين بنور المشاهدة ، وجمل نفوس المخلصين بجمال المجاهدة .

وهو الذى أمد المحبين بنور المحبة ، ووصلهم بحبال المودة ، وشملهم بلطائف الرحمة ، وأنعم عليهم بنعمة الصحبة .

أما معنى المميت ، فهو مقدر الموت على كل من أماته ، والموت هو نقيض الحياة ، وهو من خلق الله ـ تعالى ـ ليقهر به الخلق ، فقد جاء فى التسابيح : سبحان من قهر العباد بكأس الموت .

وللموت حكمة عليا ـ منها حفظ الحياة نفسها . فلا يدرى أحد كيف يكون طعم الحياة لو استمرت هكذا دون فناء ، مع ما يتراكم فيها على الخلق ، من ضروب المعاناة والشقاء . ؟

وفى إشارة إلى هذا المعنى قال أحد الشعراء فى رثاء صديق له :

ولولا وجود الموت فينا لأصبحت ... أزاهرنا شوكا يُصَدُّ ويُبْعَدُ
ولاجتمعت فينا من الأمس حيرة ... وضاق بها فى عالم الغد مورد
سبيل جميع الخلق هذا وقد مشى ... على دربه موسى النبى وأحمد
ولم ينج نوح رغم طول حياته ... من الموت ، بل ناداه للقبر موعد
فعمر كما عمرت إنك ميت ... وسوف على رغم السلامة تُلْحَدُ

ولذوى النظر فكر فى الموت يهون مصيبته .. قال المعرى :

خلــق النــاس للبقــاء فضــلت أمــة يحســبونهم للنفــاد
إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد

وقال أحد العلماء وهو على فراش الموت ، وقد رأى تلاميذه يجزعون عليه :

لا ترعــكم ســكرة المــوت فمــا هــى إلا نقــلة مــن هــاهنــا
أنــا عصـــفــور وهــذا قفصـــى طــار عنــه فتخــلى رهَنــا

وأيا ما كان الأمر فإن للموت لذعة ولوعة ، وكان النبى - ﷺ - يقول فى دعائه : اللهم أعنى على سكرات الموت .

وهذا هو ما يظهر عجز الإنسان وضعفه ، فإنه لا يقدر على دفع ما هو واقع به من كربة الموت الذى يسلمه الى هذا المصير المحتوم الذى ينتظره .

ولأن الموت له رهبة يحذرها الناس جميعا حتى المقربون منهم ، فإن الله قد محاه من ديوان الآخرة ، وكتب الخلود فيها للسعداء والأشقياء على السواء كل يخلد حسب عمله .. فقد ورد أن الله يأتى بالموت فى صورة كبش فيذبح بين الجنة والنار ، وينادى منادٍ فى أهل الجنة : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، وينادى منادٍ فى أهل النار : يا أهل النار خلود بلا موت ..

وفى ذلك مضاعفة السعادة للسعداء ، ومضاعفة الشقاء للأشقياء . والله - تعالى يميت الخلق بذاته أو بواسطة رسله ..

فهو الذى يتوفــى الأنفــس حين موتها - وهو الذى يرسل ملائكته « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا »

والموت من خلق الله لا شك فى ذلك ، وحدوثه بأمر الله ، وقد يكون بيد الله أو بيد رسل الله من الملائكة .

ولبعض الصالحين كلمات رقيقة لمعنى المميت . فهم يقولون : المميت الذى أمات المذنبين بالمخالفات . وهو الذى أمات الجبابرة رحمة بأحبابه ، وأمات الظَّلَمَة لعدم احترامهم لجنابه .

وهو الذى أمات الأرض إذا خلت من النبات ، وأحياها إذا جاءت بالثمرات .

وهو الذى أحيا السنن وأمات البدع بالعارفين من العلماء ، وهو الذى أمات شهوة النفس عند الصالحين ، وخذل بقدرته مكائد الشيطان .

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذين الاسمين ؟

إذا كان ذكر الله يحيى القلوب فعلى المؤمن أن يكثر من ذكر الله حتى يحيا قلبه .

وعليه أن ينير عقله بالعلم والمعرفة ، ويحيى نفسه بنور الإيمان . فكم من حى ميت ، وكم من ميت حى ، وصدق الشاعر الذى يقول :

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء

وإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، فعلى المؤمن أن يسابق لنيل هذه الدرجة ـ درجة الاستشهاد فى سبيل الله ـ

وعلى المؤمن أن يكون وسيلة للإحياء ببث العلم النافع ، والإرشاد المفيد والأخذ بيد الحيارى إلى طريق الخير والصلاح

وعليه أن يتأدب بأدب المميت فيميت البدعة ويحيى السنة ، وينشر

العدل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقضى على الباطل وأهله ، والشرك وحزبه .

الدعاء فى ظل هذا الاسم

قال أهل المعرفة : من أكثر من ذكر اسم المحيى أحيا الله قلبه بنور المعرفة ، وأضاء نفسه بأسرار المكاشفة .

ومن استعصت عليه قيادة نفسه فليقرأ فى جوف الليل قدر طاقته اسم المحيى ـ فإن الله يمن عليه ـ إن شاء الله ـ بانقياد نفسه له . . وترداد اسم المميت مفيد فى القضاء على الظلم وأهله .

ومن الأدعية فى ظلال هذين الاسمين .

« إلهى أنت المحيى لكل مراتب الأكوان ، والمتجلى على البرايا بالفضل والإحسان ، أحييت الأشباح بالماء ، وأحييت الأرواح بظهور الضياء ، وجعلت نبيك مظهر اسمك ـ المحيى القادر ـ فأحييت به من شئت فى الأوائل والأواخر نسألك أن توصل أرواحنا بحضرته ، وتجعلنا بفضلك فى معيته . . »

وكان من دعاء النبى ـ ﷺ ـ إذا أوى إلى فراشه ـ يقول :
« الله باسمك أحيا ، وباسمك أموت »

وإذا أصبح كان يقول : « الحمد لله الذى أحيانا بعد موتنا وإليه النشور »
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الحـى القـيوم

يرى بعض العلماء « أن الحى القيوم » اسم الله الأعظم

فقد جاء فى تفسير القرطبى ـ عند تفسير آية الكرسى ـ : يقال : إنه اسم الله الأعظم ،

ويقال : إن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ كان إذا أراد أن يحيى الموتى يدعو بهذا الدعاء : ياحى ياقيوم . ويقال : إن آصف بن برخيا ـ لما أراد أن يأتى بعرش بلقيس إلى سليمان دعا بقوله : ياحى ياقيوم . ويقال : إن بنى إسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم فقال لهم : « أياهيا شراهيا » يعنى : ياحَىّ ياقيوم .

ويقال : هو دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق يدعون به .(٧٤٢)

واسم « الحى » مشتق من الحياة التى هى نقيض الموت .

وهذه الصفة تفيد أن الله هو الباقى حيا بذاته أزلا وأبداً ، له الاطلاق الكلى والنفوذ الفعلى ، وكل حى سواه ليس حيا بذاته ، وإنما يستمد حياته منه .

قال بعض العلماء : الحى هو دائم الحياة الذى له البقاء المطلق ، وكما لم يسبق وجوده عدم لايلحق بقاءه فناء ، ولاتأخذه سنة ولا نوم ، ـ سبحانه ـ له وحده الدوام والبقاء . كل شىء هالك إلا وجهه »

وقد ورد اسم الحى فى القرآن الكريم فى عدة مواضع ، جاء فى بعضها مقترنا بالقيوم .

---

(٧٤٢) تفسير القرطبى ـ جـ ٣ ص ٢٧١ آية الكرسى

وجاء فى بعضها غير مقترن به .

وهذه هى المواضع التى جاء فيها هذا الاسم :

قال تعالى

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (٧٤٣)

وقال

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ (٧٤٤)

وقال

﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ (٧٤٥)

وقال

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٧٤٦)

---

(٧٤٣) البقرة ٢٥٥

(٧٤٤) آل عمران ٢

(٧٤٥) طه ١١١

(٧٤٦) الفرقان ٥٨

وقال :

﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٧٤٧)

ويقول الامام الغزالى - رحمه الله - فى تفسير معنى الحى . . انه هو الفعّال الدرّاك - فالحى الكامل المطلق هو الذى تندرج جميع المدركات تحت إدراكه ، وجميع الموجودات تحت فعله ، حتى لايشذ عن علمه مُدْرك ، ولاعن فعله مفعول ، فالله هو الحى المطلق ، وكل حى سواه فحياته بقدر إدراكه وفعله .

فالله - سبحانه وتعالى - حى ، وحياته صفة من صفاته وهو وحده الدائم البقاء الذى لاسبيل إلى فنائه

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٧٤٨)

إن الذى يطلق عليه اسم الحى من الكائنات هو كل متكلم ناطق متحرك ، والحى من النبات ماكان طرياً غضاً يهتز . وفى الحياة المعنوية الحقيقية يوصف المسلم بأنه حى

ويوصف الكافر بأنه ميت ، وهذا مايدل عليه قوله - تعالى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٧٤٩)

---

(٧٤٧) غافر ٦٥

(٧٤٨) الرحمن ٢٦ ، ٢٧

(٧٤٩) فاطر ٢٢

لقد شبه الله الكفار بالأموات الذين لايجيبون من يدعوهم . . . . . . هم يسمعون ولكنهم لايجيبون فكأنهم أموات ، لأن الحى الذى هو على ظهر الدنيا يجيب من يدعوه . .

وقد صم الكفار آذانهم عن دعوة الحق فلم يجيبوا من دعاهم إليها فأشبهوا الأموات الذين لايجيبون .

أما المسلمون فقد حيوا بالايمان وطاعة الله ، واستجابتهم لما جاء به رسول الله . . وحياة كل شيء مستمدة من الله الذى يحيى ويميت وهو الحى الذى لايموت

وقد دعانا الله الى التوكل عليه والالتجاء إليه والاعتصام به .

وهذا هو مانتعلمه من أدب هذا الاسم الكريم .

مات لرجل ابن فبكى عليه حتى عمى ، فقال له رجل معاتباً : الذنب فى عماك ذنبك ، لأنك أحببت ميتا ، ولو أحببت حيا لما حاق بك ماحاق .

وذلك يشبه ما وعظ به عيسى ـ عليه السلام ـ قوماً خزنوا أموالاً فسرقت ، وخزنوا غلات فأكلها السوس . فقال لهم : اخزنوا الأموال والغلال فى السماء ، حيث لاصدأ ولاسوس ، ولا حرق ولاغرق ولاضياع . .

وقصد بذلك أن يتصدقوا وينفقوا فى سبيل الله فتكون مدخراً لهم عند الله الذى لاتضيع عنده الودائع .

أما القيوم فمعناه القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بحاجاتهم ومعايشهم وأماكنهم .

قال القرطبى : القيوم مِنْ قام ـ أى القائم بتدبير ماخلق . وقال الحسن : القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجاز يها بعملها من حيث هو عالم بها لايخفى عليه شىء منها .

وقال ابن عباس معناه لايزول ولايحول .

وقد تنبه لمعنى هذا الاسم شاعر جاهلى ـ كان يتوقع أن يُوحى إليه ـ وهو أمية بن أبى الصلت ، وكان قد قرأ الكتب القديمة واهتدى بها إلى أن هناك دينا جديداً سيظهر ، وأن نبياً سيبعث فى العرب ـ فقال :

لـم تخـلق السـماء والنجـوم والشـمس معهـا قمـر يقـوم
قـدره مهيمـن قيـوم والحشـر والجنـة والنعـيم
إلا لأمر شأنه عظيم

وهذا الشاعر هو الذى قال عنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : آمن شعره وكفر قلبه »

ومن معانى القيوم : الذى لاينام ، وقد جاء قوله ـ تعالى ـ

« لا تأخذه سنة ولا نوم » كالتفسير له .

ومن معانى القيوم أيضاً : القائم الحفيظ لكل شىء المعطى لكل شىء مابه قوامه ، المقيم لكل شىء مايحفظه وكل شىء قائم بأمره .

وقال ابن مَنظور فى لسان العرب : القيوم والقيَّام والمدبِّرواحد ، واستشهد بكلام الزجاج : القيوم والقيَّام فى صفة الله ـ تعالى ـ وأسمائه الحسنى : ـ هو القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه

بأمكنتهم ، قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ (٧٥٠)

وإذا كان الكلام مع أهل اللغة فإنهم يتحدثون عن اشتقاق هذا الاسم فيقولون : إنه على وزن فيعول .

وهى صيغة مشتقة من قام ، زادوا فى مبناها ليزيدوا فى معناها ، ومن هذا الفعل جاء قَيِّم بمعنى قائم .... وقيِّم المسجد إمامه ، وقيم المكان رئيسه ، والدين القيم هو المعتدل والأمة القيمة كذلك ،

« وذلك دين القيمة » أى دين الأمة القيمة المعتدلة ، ومرد ذلك إلى الاستقامة ... كما تقول : رمح قويم أى معتدل ، وخلق قويم ـ أى مستقيم وأهل التفسير يقولون : القيوم ـ القائم على كل شىء . هذا قول مجاهد .

وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم ..

وقد ورد فى الاسم كما قلنا : القيَّام ـ بالألف ـ وفى حديث الدعاء « ولك الحمد أنت قيَّام السموات والأرض »

قال العلماء : والقيوم من أسماء الله المعدودة ، وهو القائم بنفسه مطلقا لابغيره ، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود ، فلايُتَصوَّر وجود شىء ولا دوام وجود شىء إلا به ـ سبحانه ـ

وقد ورد اسم القيوم فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع هى التى ذكرناها

---

(٧٥٠) هود ٦

فى صدر هذا الحديث ـ عند الكلام على اسمه ـ تعالى ـ « الحىّ »

كيف يتأدب المؤمن باسم الله « القيوم » ؟

أدب المؤمن فى ظل هذا الاسم أن يقطع قلبه عن التعلق بالخلق ليصله بالخالق . لأن الله هو القائم بأمره . ومتى علم ذلك استغنى به عمن سواه .

فيجب على المؤمن أن يكون توكله على الله الغنى ، وأن يكون الله حسبه وعليه معتمده .

قال بعض أهل المعرفة : حسبك من التوكل ألا ترى لنفسك ناصراً غير الله ، ولا لرزقك خازنا غيره ، ولالعلمك شاهدا غيره .

ومتى علم المؤمن أن الله قائم بأمره استراح قلبه من الهموم وذهبت عنه الأحزان والغموم . . فمن كان رزقه على الله فلايحزن ، ومن كان حسبه الله فلايخاف .»

الذكر فى ظل هذا الاسم

رُوِىَ عن أبى على الكنانى ـ رضى الله عنه ـ قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المنام ، فقلت : يارسول الله ادع الله ألا يميت قلبى ، فقال : إذا أردت أن يحيا قلبك فلايموت أبداً فأكثر من ترديد هذا القول وتكراره ـ

« يا حى ياقيوم لاإله إلا أنت » .

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : لما كان يوم بدر قاتلت ، ثم جئت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : انظر ماذا يصنع ، فاذا هو ساجد يقول :

« ياحى ياقيوم » لايزيد على ذلك شيئاً ، ثم رجعت الى القتال ، ثم جئت إليه فوجدته يقول ذلك ، فلا أزال أذهب وأرجع وأنظره فأجده لايزيد على ذلك إلى أن فتح الله علينا بالنصر المبين .

قال بعض العلماء : من قال : ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث وبقوتك أستعين بعث الله فى نفسه النشاط ،

وجنبه الخمول والكسل ، وفتح له باب الحفظ والفهم والعلم والعمل

وقيومية الله هى التى يستمد منها المؤمن يقينه بأن الله معه يحفظه ويعينه .

وقد ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوصى ابنته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ أن تقول صباحا ومساء : « ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ، ولاتكلنى إلى نفسى طرفة عين »

وجاء فى صحيح البخارى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قام يتهجد بالليل دعا ربه فقال : « اللهم لك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، ولك ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لاإله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله »

الواجـد

لم يرد هذا الاسم الكريم فى القرآن الكريم ، ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء الشريفة التى جاء بها الحديث الشريف ، ورقم هذا الاسم فى هذه السلسلة الخامس والستون .

والواجد عكس الفاقد . والفاقد فقير عاجز ، أما الواجد فهو غنى قادر .

وهذا الاسم مأخوذ من وَجد . تقول : وجد الشيء يجده وُجوداً وَوَجْداً وَوُجْداً وجدةً ـ قال تعالى :

« أسكنوهن من حيث سكنتم من وُجْدكم »

قال العلماء : أى من سعتكم والوُجد فى المال معناه الاتساع والغنى والكثرة .

والواجد معناه الغنى قال الشاعر :

الحمد لله الغنى الواجد

وأوجَدَه الله أى أغناه . تقول : الحمد لله الذى أوجدنى بعد فقر ووسع علىَّ بعد ضيق .

وفى الوجد معنى القدرة والقوة تقول : هذا من وجدى أى من قدرتى ، قال الشيخ عبد المقصود محمد سالم : هذا الاسم غير وارد فى القرآن ولكنه مجمع عليه . . . .

ومعناه : الغنى الواجد كل مايشاء ويطلب ، المدرك كل مايريد ، القادر على تنفيذ مراده ، سبحانه يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء ، ولا يفوته مراد ، ولايستعصى عليه مطلوب ، رفيع القدر ، عظيم الشرف ، كامل

القدرة ، واسع الجود والعطاء .

وذكر بعض العلماء :

أن معناه المالك لكل مافى الوجود القادر على كل موجود ، ولاتخفى عليه خافية ، وكل شيء تحت سمعه وبصره ، وهو الغنى له مافى السموات ومافى الأرض ومابينهما وما تحت الثرى .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تشير الى معنى هذا الاسم الذى يشير إلى الغنى والقدرة ، وإلى أن الله لايغيب عنه شيء ولايفوته شيء وهو قريب من كل شيء .

قال ـ تعالى ـ

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ (٧٥١)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٧٥٢)

---

(٧٥١) الضحى ٧ ، ٨

(٧٥٢) سورة المزمل ٢٠

وقال ـ تعالى ـ

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾(٧٥٣)

فالله الذى لايغيب عنه شىء ، ويحفظ كل شىء مهما دق وصغر ـ لابد أن يكون قويا محيطا عظيما .

وإذا كان علماء اللغة قد تكلموا عن معنى الوجد ، فإن لغيرهم من العلماء قول فى فهم معناه . . .

قال الامام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ الواجد الذى لا يعوزه شىء ، وهو فى مقابلة الفاقد .

والله هو الواجد المطلق ، ومن عداه إن كان واجداً لشىء ما من صفات الكمال وأسبابه فهو فاقد لأشياء ، فلا يكون واجداً الا بالاضافة .

والواجد الذى لا يضل عنه شىء ، ولا يفوته شىء .

وهو الذى يجد كل ما يطلبه ويريده ، ولا يعوزه شىء من ذلك ، ولا يعجزه شىء .

وجاء فى لسان العرب : الواجد بمعنى الغنى ، وهذا المعنى يدل عليه الحديث الشريف « لَيُّ الواجد ظلم » ومعنى « ليُّه » مماطلته فى سداد ماعليه ، ويدل عليه قولهم : مطلُ الغنى ظلم .

كيف يتخلق المؤمن بآداب هذا الاسم ؟

وحظ المؤمن من هذا الاسم أن يكون يقظاً لنفسه ، معتمداً على ربه ، واثقا فى كلئه وحفظه ، ملقيا كل أحماله ببابه ، فهو وحده الغنى القادر الذى

---

(٧٥٣) سبأ ٣٠

يأخذ بيد عبده وينهضه ، ويغنيه ويسعده . وعليه أن يتمثل مفهوم هذا الاسم ويدرك منه أسرار الوجود الذى يتقلب الانسان فى جنباته ، وأنه نعمة من الموجود الغنى القادر الذى وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

وعليه أن يتذكر نعمة الوجود التى تعنى الاهتداء إلى الله والتعرف عليه ، وسلوك الطريق الموصلة اليه ، وهذه لذة روحية لا يمكن لكل تعبيرات اللغة أن تتحدث عنها أو توفيها حقها . . وان كان ابن عطاء السكندرى قد أشار إليها إشارة قصيرة فى قوله « ماذا وجد من فقدك ؟ وما الذى فقد من وجدك ؟ » .

وقد عبر شارح الحكم عن مضمون هذه الحكمة بقوله : ماذا وجد من فقدك ؟ فقال

إن وَجَد كل كنوز الدنيا وفقد رضا الله فهو فاقد ، لتلاشى ماأوتيه فى جنب مافاته » .

وما الذى فقد من وَجَدَك ؟ فإن فقد كل شيء فى الوجود فليس بفاقد إذا كان الله بجانبه .

أجل لقد خاب من رضى دون الله بدلا ، وخسر من بغى عن الله متحولا . . إن أثمن ما فى الوجود أن يجد الانسان نفسه ، ومعنى وجودها أن تعرف طريق ربها ـ فمن أجل ذلك خلقها . . إنها كلمة وردت على لسان المسيح عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وهى كلمة حق : ماذا يفيد الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ ؟

الذكر والدعاء فى ظل هذا الاسم

ومن شعر الشاعر أحمد مخيمر فى ظل هذا الاسم :

واجـد سـبحانه وتعـالى كل أسـباب الكمـال القـديم
واجـد دون احتيـاح لشـىء واجـد علـم العليـم الحكيـم
لو سـمعت الطـير غـنت وقـالت جـل ربـى مـن عـلى عظيـم
فاعبـدوه واسـألوه وتوبـوا واطلبـوا عفـو العفـو الرحيـم
لا ينـال الخـير فى النـاس إلا « من أتـى الله بقلـب سـليم »

قال العلماء : من أكثر من ذكر هذا الاسم نور الله قلبه وبصيرته . ومن كثر ذكره به عند تناول طعامه قوى الله قلبه .

ومن دعاء الصالحين : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا . وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك ، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدا تصحبه أنوار محبتك ، فانه قد ظهرت السعادة على من أحببته . وظهرت الشقاوة على من غيرك ملكه ، فهب لنا من مواهب السعداء . واعصمنا من موارد الأشقياء » .

الماجد
الواحد
الصمد
القادر
المقتدر
المقدم والمؤخر
الأول والآخر
الظاهر والباطن

الماجـــد

لم يرد اسم الماجد فى القرآن الكريم ، ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء التى ذكرها الحديث الشريف ، ورقم هذا الاسم فى السلسلة ـ السادس والستون .

ولكن ورد اسم المجيد فى القرآن الكريم ، وقد سبق أن تحدثنا عنه .

ومعنى الماجد أنه عظيم الجاه ، جميل الصفات ، حسن الفَعال ، شريف الذات ، عَلىّ الهمة ، جواد سخى . وهذه الصفات لا توجد مجتمعة فى مخلوق ، وللأنبياء منها نصيب . .

والماجد والمجيد مشتقان من المجد ، أولهما اسم فاعل ، والثانى صيغة مبالغة .

وقد فرق ابن منظور بين اشتقاق الاسمين فقال مسندا القول إلى ابن سيده : مَجدَ ـ بفتح الجيم ـ يمجُد ـ بضم الجيم ـ مَجْداً فهو ماجد . ومجد ـ بضم الجيم ـ مَجَادةً فهو مجيد . والمعنى فيهما هو كرم الفعال . . وجاء فى معنى المجيد أنه الكريم المفضال ، وإذا قارن شرف الذات حُسن الفعال سمى مجدا ، وفعيل أبلغ من فاعل ، فكأنه يجمع معنى الجليل والوهاب والكريم .

والله ـ تعالى ـ تمجد بفعاله ، ومجَّده خَلْقُه لعظمته واتساع سلطانه .

واذا كان الذى يتصف بالمجد من البشر يأنف أن يعامل الناس بالسوء ، أو يحاسبهم على التقصير فما بالكم بمن له الكمال المتناهى ، والمجد العظيم ، والعز الذى لا يرام ؟

قال العلماء : الماجد فى حق الله ـ تعالى ـ هو الذى له الكمال فى الأوصاف والفعال ، وهو الذى يعامل عباده بمنتهى الجود والاحسان ، هو الذى يتجلى عليهم بمدد الاقبال ، وينادى عليهم بنداء العطاء والأفضال . يقول الله ـ تعالى ـ فى حديث قدسى : « يابن آدم إن ذكرتنى ذكرتك ، وإن نسيتنى ذكرتك ، فاذا أطعتنى فاذهب حيث شئت محلٌ توالينى وأواليك ، وتصافينى وأصافيك . وتعرض عنى وأنا مقبل عليك ـ من أوصل اليك الغذاء وأنت جنين فى بطن أمك ؟ لم أزل أدبر فيك تدبيرا حتى أنفذت إرادتى فيك . فلما أخرجتك إلى دار الدنيا أكثرت المعاصى . ما هكذا جزاء من أحسن اليك »(٧٥٤) سبحانك ربى ما أوسع رحمتك وأكرم عفوك !

إن الله يجزى على القليل من الطاعات بالجزيل من الحسنات ، ويغض الطرف عن كثير من الهفوات ، ويفتح الطريق أمام المذنبين للتوبة ، ويأخذ بأيديهم إلى الانابة ، ويبدل سيئاتهم ـ إن تابوا ـ حسنات .

قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ ﴾ (٧٥٥)

ويقول بلسان العفو والاقتدار : « إن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم وإن أعرضوا عنى فأنا طبيبهم » فهل هناك أرحم أو أبر من هذا الرب الكريم ؟

---

(٧٥٤) رواه أبو نصر ربيعة بن على العجلى عن ابن عباس ، والرافعى عن ابن عباس ـ الاتحافات السنية لعبد الرءوف المناوى ص ٢٣٢

(٧٥٥) الفرقان ٧٠

إن المخلوق مهما بلغ من المجد ، وعفا عن الجانى ، فإن طلالا من الجفاء تبقى فى القلب ، وتطفو على السطح بين الحين والحين ، وقد تكدر العلاقة وتطبعها بطابع الحذر ، فلا يكون الجانى فى مأمن أبداً . . ويعبر بعض الشعراء عن ذلك بقوله :

إن القلوب اذا تنافر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يشعب
فاحرص على ود القلوب من الأذى فرجوعها بعد التنافر يصعب

ولكن عفو الله شامل ، وصفحه كامل ، لأنه عَفْو الماجد القديم ، وَصَفْح المجيد الرحيم ، الذى خلق عبده بيديه ، وسواه بقدرته وغناه بنعمته ، وأكرمه برحمته ، وقال له فى تألف وعفو : عبدى أطعنى أجعلك ربانيا مستجاب الدعوة .

فانظروا الى هذه النعمة السابغة ، وهذه الرحمة الواسعة ، وهذه المكرمة التى لا تدانيها مكرمة ، وذلك الفضل الذى لا يقاربه أى فضل .

ومن أقوال بعض الصالحين فى تعريف معنى الماجد : الماجد تأكيد لاسم الواجد ، ومعناها : الغنى المغنى . ومن لوازم الغَنِيِّ الكريم - إغناء غيره ، ومن كمال صاحب النعمة الوهاب المنح والاعطاء . . . فتعالى الله الملك الحق ، الذى يهب الفضل ابتداء ، ويرزق عباده من غير سؤال منهم بل يمنحهم جوداً منه وفضلا .

كيف يتأدب المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا عرف المؤمن أن ربه هو الماجد ، وأنه المجيد ، وأنه الوهاب ، وأنه

المعطى بغير حساب ـ سمت همته اليه ، واعتمد فى كل أموره عليه .

ومن قطع أمله من عطاء الخلق ووصله بالله ، أغناه الله فى الدارين ، ومنحه القربى وقرة العين ، وأسعده سعادة أبدية لا يخفى أثرها ولا ينقطع مددها .

وإذا كان المؤمن يدرك أن المجد لا يحققه الانسان إلا بفعال ، فعليه أن يجتهد فى أن يُحلِّ نفسه بكريم الصفات وحسن الخصال حتى يستحق أن يكون ماجدا بين قومه . محبوبا بين الناس . . إن المجد ثمنه غال . . قال فيه الشاعر :

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله   لن تكسب المجد حتى تلعق الصَّبرا

أى لن تحققه إلا بتعب ومشقة .

ومن الصفات الحسنة التى يجب أن يتحلى بها المؤمن ـ أن يعفو عمن أخطأ فى حقه ، ويصفح عن المسىء إليه بل ويحسن إليه . . وكان النبى ـ ﷺ ـ سيد الماجدين فى الخلق ، وقال له الله ـ جل وعلا ـ « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »

وهذا هو الطريق إلى تحصيل المجد والمكارم .

الدُّعاء فى ظل هذا الاسم :

قال العلماء : من أكثر من ذكر هذا الاسم نوّر الله قلبه .

قال : وربما كشف الله عن بصيرته فأدرك مالايدركه غيره من الخلائق . . وليس هذا غريبا ، فالعلماء ورثة الأنبياء . .

ومن مأثور الدعاء بهذا الاسم :

« اللهم أنت الماجد المجيد ، الفعال لما يريد ، نسألك الأمن يوم

الوعيد » .

وقال الشاعر أحمد مخيمر مناجيا ربه الماجد :

الماجد المعبود قُدِّسَ كاملا يعلو على كل الوجود كما لَه
رَبٌّ غنى عالم ذو قدرة متفرد بالذات جل جلاله
التائبون العابدون دعاهم للصالحات عطاؤه ونواله
وتضرعت زلفى إليه نجومه وشموسه وبحاره وجباله
وإذا الصباح أطل فهو بهاؤه وإذا الوجود أضاء فهو جماله[756]

(756) اسماء الله الحسنى ـ لأحمد مخيمر ص ٩٠

الواحد

ورد اسم الواحد فى القرآن الكريم فى مواضع عدة ، منها قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٧٥٧)

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ (٧٥٨)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٧٥٩)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٧٦٠)

---

(٧٥٧) البقرة ١٦٣

(٧٥٨) النساء ١٧١

(٧٥٩) المائدة ٧٣

(٧٦٠) يوسف ٣٩

وقوله - تعالى -

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٧٦١)

وقوله - تعالى -

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٧٦٢)

وغير ذلك من الآيات .

وقد ورد هذا الاسم كما رأينا فى بعض الآيات مقرونا باسمه القهار لما بينهما من ترابط ، فمن كان واحداً لا شريك له قهر المعاندين وأخزى المشركين الذين يجعلون لله شريكا - تعالى - الله عن ذلك علوا كبيراً .

قال القرطبى فى تفسير قوله - تعالى - « وإلهكم إله واحد » : لقد جاءت هذه الآية بعد تحذير الله الكاتمين الحق . . . فبعد أن بين أن أول مايجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمر التوحيد ، وصل ذلك بذكر البرهان ، وعلَّم طريق النظر ، وهو الفكر فى عجائب الصنع ، ليعلم الإنسان أنه لابد لهذا الصنع من فاعل لا يشبهه شيء » . .

(٧٦١) الرعد ١٦
(٧٦٢) الأنبياء ١٠٨

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »

وكان للمشركين ثلثمائة وستون صنما فبين لهم أن الله واحد .

ومعنى الواحد ـ كما يقول العلماء ـ أنه الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ـ أى أنه لم يتفرع من شىء ، ولم يتفرع منه شىء ، بل هو الفرد الصمد الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وقال العلماء : الله الواحد ـ أى المنفرد فى ذاته وصفاته وأفعاله . والواحد أول الأعداد ولا يسبقه شىء . . والله ـ سبحانه لا أول لوجوده ولا آخر لبقائه .

وأهل اللغة يقولون : الوحدة الانفراد ، يقال : رأيته وحده ، وجلس وحده ـ أى منفرداً ، والله ـ سبحانه ـ لا شريك له . فهو متفرد بذاته وصفاته وأفعاله وجلاله وجماله وكماله .

وديانة التوحيد هى التى تقضى بتوحيد الله وعدم الاشراك به . . . . جاء فى لسان العرب : الله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتوحد .

وقال ابن سيده : الله الأوحد والمتوحد وذو الوحدانية ، ومن صفاته الواحد الأحد .

والفرق بين الواحد والأحد أن الأحد بُنِي لنفى ما يُذكر معه من العدد ، تقول : ما جاءنى من أحد .

والواحد اسم بنى لمفتتح العدد تقول : جاء واحد من الناس ، ولا تقول : جاءنى أحد .

فالواحد منفرد بالذات فى عدم المثل والنظير ، والأحد منفرد بالمعنى .

وقيل : الواحد هو الذى لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل . ولا يَجْمَعُ هذين الوصفين (الواحد الأحد) إلا الله - عز وجل -

قال ابن الأثير فى معنى اسم الواحد - جل جلاله - : هو الفرد الذى لم يزل وحده ولم يكن معه آخر .

وقال الأزهرى : وأما اسم الله - عز وجل - « الأحد » فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره ، لا يقال : رجل أحد ، أو درهم أحد ، كما يقال رجل وَحَد - أى فرد ، لأن أحداً من صفات الله - عز وجل - استخلصها لنفسه ولا يشركه فيها شيء . .

ومعنى اسم الواحد أنه لا ثانى له . تعالى الله عن الشريك والصاحبة والولد . .

وقال الأزهرى أيضا : يقول بعض الناس : توحد الله بالأمر وتفرد .

وهو صحيح من جهة المعنى ، ولكنى لا أحب أن يلفظ فى صفة الله - تعالى - إلا بما وصف به نفسه فى التنزيل أو السنة ، ولا يوجد فيهما المتوحد ولا المتفرد »(٧٦٣)

والله - سبحانه وتعالى - لم يرض بالوحدانية لأحد غيره .

وكل ذرات الوجود تشهد بأن الله واحد لا شريك له ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وللـــه فى كـل تحريكـــة وفى كـل تســكينة شـــاهد
وفى كـل شـــىء لـه آيـــة تــدل على أنـــه الواحـــد

---

(٧٦٣) لسان العرب مادة وحد

والتوحيد هو أساس العقيدة ، وعليه تقوم كلمة الاخلاص : لا إله إلا الله ـ وبدون الأساس لا يصلح أى بناء .

وكلام العلماء فى معنى التوحيد يدق عن كلام اللغويين فهم يقولون :

التوحيد هو شهود قيومية الرب . . فلا مدبر لأمر عباده سواه ، ولا مطلع على خفاياهم غيره ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

ومؤدى ذلك أن يجمع العبد همه على الله ، فلا يعبد سواه ، ولا يعرف إلاه . .

ومن اعتقد أن هناك نافعا أو ضارا مع الله نقص ذلك من إيمانه ومن توحيده لله .

قال بعض الصالحين : معنى الواحد أنه الذى تناهى فى سؤدده فلا شبيه يساميه ، ولا شريك يساويه .

وقال الامام الشبلى الذى كان شيخ وقته وتوفى عام أربع وثلاثين وثلثمائة ببغداد : الواحد هو الذى يكفيك عن الكل ، والكل لا يكفيك عنه .

وهى عبارة رائعة لها معنى عميق .

أما الحسين بن منصور فيقول : الواحد الذى لا يُعد ، وقيل : الأحد الذى ليس لوجوده أمد ، ولا يجرى عليه حكم أحد . .

إن واحدية الله يقتضيها نظام هذا الكون واعتداله ، فلو كان هناك شريك مع الله لاختل النظام ، ولما جاء الكون على هذه الصورة من الكمال

المتناهى ، الذى يقول عنه العلماء ليس فى الامكان أبدع مما كان .

والقرآن الكريم يخاطب العقل السليم قائلا :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٧٦٤)

ويقول :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (٧٦٥)

أدب المؤمن مع هذا الاسم :

إن مقتضى الايمان بهذا الاسم أن يبرأ الانسان من الشرك ، وأن ينزه قلبه عن اعتقاد القدرة لأحد مع الله ـ تعالى ـ

إن كثيرا من الناس يظنون أنه بمقدور بعض الناس أن يصنع شيئا مع الله ، فيقبلون عليهم راغبين أو خائفين ، وهذا لون من الشرك ، وقد علّمنا النبى ـ ﷺ ـ أن نفرد الله وحده بالطلب ، وقال لابن عباس « ياغلام ، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فأسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن ، ولو اجتمع الخلق على أن يعطوك شيئا لم يكتبه الله ـ عز وجل ـ لك لم يقدروا على ذلك وإن اجتمعوا على أن يمنعوك شيئا كتبه الله ـ عز وجل ـ لك لم

---

(٧٦٤) الأنبياء ٢٢

(٧٦٥) المؤمنون ٩١ ، ٩٢

يقدروا على ذلك ، فاعمل لله ـ تعالى ـ بالرضا فى ا ليقين ، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا »[٧٦٦]

إن اعتقاد وجود شيء مع الله يقدح فى حقيقة التوحيد ، فقد كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان . .

الله قل وَذَر الوجودَ وماحوى إن كنت مرتاداً لنيل كمالِ
فالكل دون الله إن حققته عدم على التفصيل والاجمال

وهو قريب من عباده لايحجبه عنهم شيء . . . . وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو يقرب إليك من كل شيء ؟

وكيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ماكان وجود شيء ؟

يحكى أن رجلاً قال أمام رجل من الصالحين : الحمد لله ـ ولم يقل رب العالمين .

فقال له الرجل الصالح : قلها ياأخى وقل : رب العالمين .

فقال الرجل : وأى قدر للعالمين حتى يذكروا معه ؟

فقال الصالح : قلها ياأخى ، فإن الحادث إذا قرن بالقديم تلاشى الحادث وبقى القديم .

ما أجمل مانتعلمه من هذا الاسم الجليل « الواحد » فإننا لو حررنا قلوبنا من الشرك الخفى الذى يدب فيها لذقنا حلاوة التوحيد التى لاحلاوة تفوقها ولا لذة تدركها . .

---

(٧٦٦) أبو نعيم الاصفهانى فى حلية الأولياء جـ١ ص ٣١٤

الدعاء فى ظل هذا الاسم

روى الرواة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - سمع رجلا يقول فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بأنك أنت الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »(٧٦٧)

وقال بعض العلماء : من ذكر هذا الاسم ألف مرة أخرج الله من قلبه خوف الخلق ، وكفاه شرهم وقت الشدة .

وسورة الاخلاص - التى تشتمل على اسم الله الأحد - فيها سر عجيب - وقد ورد فيها أنها ثلث القرآن . . . فقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يارسول الله ؟ فقال :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾(٧٦٨) تعادل ثلث القرآن

وورد فى فضلها أيضاً « من قرأ « قل هو الله أحد » فى مرضه الذى يموت فيه لم يفتن فى قبره ، وأمن من ضغطة القبر ، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه من الصراط »(٧٦٩)

---

(٧٦٧) رواه أبو دواد والترمذى وابن ماجة عن عبد الله بن بُريدة عن أبيه .
(٧٦٨) أخرجه مسلم ، وذكره القرطبى فى تفسير سورة الاخلاص .
(٧٦٩) تفسير القرطبى - سورة الاخلاص .

ومن الدعاء الوارد فى ظل هذا الاسم :

« يا ألله ياأحد يا واحد ، ياموجود ، ياجواد ، ياباسط ، ياكريم ، ياوهاب ، ياذا الطول، ياغنى يامغنى ، يافتاح يارزاق ، ياعليم ياحكيم ، ياحى ياقيوم ، يارحمن يارحيم ، يابديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والاكرام ، ياحنان يامنان ، انفحنى منك بنفحة خير تغننى بها عمن سواك »

الصَّـــمَد

أصل الصَّمد فى اللغة ـ القصد ، تقول : صَمَدَه يصمِده صمداً ، وصَمَد إليه : قصده ، يأتى متعديا ولازما ، وتقول : صَمَد صَمْدَ الأمر ـ أى قصد قصده واعتمده ، وتصمَّد له بالعصا أى قصد . قال معاذ بن عمرو بن الجموح حين قتل أباجهل : فصمدت له حتى أمكنتنى منه غرة . أى قصدت إليه له وتهيأت له وانتظرت غفلته ، وتقول : هذا بيت مُصَمَّد ـ بالتشديد ـ أى مقصود ، ويتعدى هذا الفعل بالهمزة فتقول : أصمدت إليه الأمر أى أسندته اليه .

والصَّمد ـ بالتحريك ـ معناه السيد المطاع الذى لايقضى أمر دونه ، والذى يقصد فى الحوائج . . وقد وصف أحد الشعراء رجلا بتلك الصفة ـ فقال :

علـوته بحســام ثـم قـلـت لـــه خـذها حُـذَيْفُ فـأنت السيد الصَّـمَدُ

وإنما ذلك على سبيل العارية ، لأن السيد الحقيقى الذى لاتكون الطاعة إلاَّله ، والذى يقضى ولايُقضى عليه هو الله ـ جل جلاله ـ

ومن معانى الصمد أيضاً الذى لايطعم . . ومن معانيه : الدائم . والذى يناسب الحضرة الالهية من هذه المعانى ـ أنه المقصود من جميع خلقه ، وأنه السيد المطاع ، وأنه الذى لايشبه خلقه . وأنه الدائم الباقى بعد جميع خلقه .

وقد جاء اسم الصمد فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (٧٧٠)

قال علماء التفسير فى معنى « الله الصمد » : إنه الذى يُصمد إليه فى الحاجات كما قال ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ﴾ (٧٧١)

وقال قوم : هو الدائم الباقى الذى لم يزل ولايزال .

وقال قوم : تفسيره هو ماجاء بعده « لم يلد ولم يولد » فقد قال أبى بن كعب : الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، لأنه مامن شىء يلد أو يولد إلا سيموت ، ولاشىء يموت إلايورث .

وقال علىّ وابن عباس وغيرهما : الصمد السيد الذى انتهى إليه كل أنواع الشرف والسؤدد .

وقال أبو هريرة : إنه المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد

وقال السُّدِّى إنه المقصود فى الرغائب والمستعان به فى المصائب .

وقال الحسين بن الفضل : إنه الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد .

وقال مقاتل : إنه الكامل الذى لاعيب فيه .

وعلق القرطبى على هذه الأقوال بقوله : والصحيح من هذه المعانى ماشهد به الاشتقاق ـ وهو الذى يصمد اليه فى الحاجات .

---

(٧٧٠) سورة الاخلاص

(٧٧١) سورة النحل ٥٣

وتعليق القرطبى من منطلق مراعاته ظواهر الألفاظ ، ولكن بعض العلماء لهم أفهام يستنبطونها من وحى الإلهام الصادق والفطرة الصافية ـ وهى مع ذلك معان لاتنبو عنها اللغة ولاتبعد عن معنى الاشتقاق . .

فقول القائل : إنه الذى تقدست ذاته عن إدراك الأبصار والعيان ، وتنزه جلاله عن أن يدخل تحت الشرح والبيان ـ هو الباقى والدائم والمقصود من جميع خلقه . فإن العاقل لايقصد إلا من اتسم بالقدرة واتصف بالكمال وتنزه عن مشابهة الحودات .

ولم يرد هذا الاسم إلا فى سورة الإخلاص التى قال العلماء إنها نزلت فى مناسبة . . . . . . ذكر ابن كثير فى تفسيره قال : لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير ابن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقال المشركون : نحن نعبد الأوثان ـ أنزل الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم

« قل هو الله أحد الله الصمد »

وكان لاسم الصمد فيها أهمية خاصة ـ لأنه يشير الى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى يقصده الخلق جميعا على وجه الحقيقة .

فما من عبد إلا وهو يقصد الله فى عبادته ، وقد يهتدى فيها إلى وجه الحق . وقد يضل ، ولكنك إذا سألت أى إنسان مهما كانت ديانته من تعبد ؟ يقول : الله . . .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم

﴿ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٣٨) (٧٧٢)

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا أنعم الله على عبد بأن جعله مقصد الناس فى الحوائج فعليه أن يحمد الله على هذه النعمة ـ امتثالاً للأثر الشريف « اعلموا أن حوائج الخلق اليكم من نعم الله عليكم فلاتملوها فتملوا نعم الله »

إن نعمة قضاء مصالح الخلق نعمة عظمى قلَّ من يعرف لها حقها ، ويحفظ قدرها ـ ومن تمام معرفة حقها ، أن يؤدى هذه الخدمات لوجه الله ـ لايمنُّ ، ولايضِنُّ ، ولا يكَلُّ . وعليه أن يتذكر قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته »

والله فى عون المرء ماكان المرء فى عون أخيه . .

كما أن عليه أن يتذكر دائماً أنه لايقضى حاجة أحد إلا بإذن الله وتوفيقه له . .

لقد أخذ الذى يقصده الناس فى حوائجهم بحظ من هذا الاسم الشريف الذى سمى الله به نفسه ، وضمنه سورة الاخلاص التى تعدل ثلث القرآن كما وردت بذلك الآثار .

ومن أحب أن يزداد تحليا بوصف الصمد ، فعليه بالاقلال من الطعام

---

(٧٧٢) الزمر ٣٨

والشراب ، ومداومة الصيام ، وقلة الكلام ، فإن الله ـ تعالى ـ يكسبه صفات مثلى تقربه من حضرة الحق ، وترفعه إلى معية الصديقين ، ويشرف بصحبة الملائكة الذين لايأكلون ولايشربون ولا ينامون .

ومن مظاهر التأدب بأدب هذا الاسم أن يفرد المؤمن ربه بالطلب ، وأن يقصده وحده بالسؤال ، وأن يرجوه وحده لطلب النوال .

الدعاء فى ظل هذا الاسم

قال بعض الصالحين :

ألجأت ظهرى إلى ركنى ومسندى   إلى المهيمن رب الناس والصمد
وقلت يامنتهى الآمال أجمعها   لك التحكم فى الأدنى وفى البعد

وأفضل الذكر فى رحاب هذا الاسم ـ الإكثار من تلاوة سورة الإخلاص التى تحتوى على هذا الاسم .

أورد ابن كثير فى تفسيره عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فابتدأته ، فأخذت بيده ، فقلت : يارسول الله ، بم نجاة المؤمن ؟ قال : ياعقبة أخرس لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك .

قال : ثم لقينى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فابتدأنى فأخذ بيدى . . فقال : « ياعقبة بن عامر ، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت فى التوارة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم ؟ »

قلت : بلى ـ جعلنى الله فداك .

قال :

« اقرأ . قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس »

ثم قال : « ياعقبة ، لاتنسهن ، ولاتبت ليلة قط حتى تقرأهن »

قال عقبة : فما نسيتهم منذ قال « لاتنسهن » ومابتِ ليلة قط حتى أقرأهن .

قال عقبة : ثم لقيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فابتدأته ، فأخذت بيده فقلت : يارسول الله ، أخبرنى بفواضل الأعمال ،

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ياعقبة ، صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، وأعرض عمن ظلمك »(٧٧٣)

ومن الأدعية الواردة فى ذلك : « ياصمد من غير شبه ، فلاشىء كمثله »

ومن منظومة أسماء الله الحسنى فى الواحد الصمد :

وياواحـــد وحـــد فـــؤادى لحبكـــم وياصـــمد قو التجـــائى لركـــزتى

وركزته هى وجهته إلى الله ونيته فى قصده إياه .

قال بعض العلماء : من قرأ هذا الاسم كثيراً فى السحر ظهرت عليه آيات الصدق ، ولايحس ذاكره بألم الجوع . . .

---

(٧٧٣) تفسير ابن كثير . سورة الاخلاص ـ تحفة الأحوذى أبواب الزهد . حديث رقم ٢٥١٧

القـــادر

ورد اسم القادر فى عدة مواضع من القرآن الكريم منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٧٧٤)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٧٧٥)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ (٧٧٦)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ (٧٧٧)

وغير ذلك من الآيات . . . . وورد بصيغة الجمع فى قوله ـ تعالى :

---

(٧٧٤) الأنعام ٢٧
(٧٧٥) الأنعام ٦٥
(٧٧٦) الأسراء ٩٩
(٧٧٧) يسن ٨١

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٧٧٨)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ (٧٧٩)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ (٧٨٠)

وغير ذلك من الآيات .

والقادر اسم الفاعل من الفعل قدر ، وصيغة المبالغة منه قدير .

وقد ورد قدير فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة .

منها قوله ـ تعالى

﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٧٨١)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ (٧٨٢)

---

(٧٧٨) المؤمنون ١٨

(٧٧٩) المؤمنون ٩٥

(٧٨٠) القيامة ٤

(٧٨١) البقرة ٢٠

(٧٨٢) النحل ٧٠

قال ابن منظور فى لسان العرب : القدير والقادر من صفات الله ـ عز وجل ـ يكونان من القدرة ، ويكونان من التقدير ، فقوله ـ تعالى ـ

« إن الله على كل شىء قدير »

من القدرة ، لأن الله على كل شىء قدير فعلا وحقا ، والله ـ سبحانه مقدر كل شىء وقاضيه .

ومن أسمائه ـ تعالى ـ أيضا المقتدر ، وسيأتى الكلام عليه .

قال ابن الأثير : فى أسماء الله ـ تعالى ـ القادر والمقتدر والقدير ، فالقادر اسم فاعل من قدر يَقْدِر ، والقدير فعيل منه ، وهو للمبالغة ، والمقتدر مفتعل من اقتدر وهو أشد مبالغة .

قال العلماء : القادر يفيد ـ ذو القدرة التامة الذى لا يعجزه شىء ، ولا يتقيد بأسباب ـ قال ـ تعالى ـ

﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٧٨٣)

وقال :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٧٨٤)

فمعنى ذلك أنه المقدر لقضائه ، المدبر لشئون كونه بقدر وحكمة .

والقدير لم يأت فى سلسلة الأسماء الحسنى ، لأن كلا من القادر والمقتدر يشيران إليه .

---

(٧٨٣) المرسلات ٢٣

(٧٨٤) القمر ٤٩

ومعنى القدير أنه الفاعل لما يشاء على مقتضى الحكمة ، لا زائدا عليها ولا ناقصا عنها .

والقادر من مادة القدرة ، والله ـ جل وعلا ـ هو ذو القدرة والمقدرة ، وهو الذى أنعم علينا بليلة القدر المتسمة بالشرف والعظمة . وأنزل فيها القرآن العظيم .

والله ـ جل وعلا ـ لا يعرف قدره إلا هو ـ سبحانه ـ أما الخلق فما قدروه حق قدره

قال ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٧٨٥)

قال العلماء فى تفسير هذه الآية : ـ ما عظموا الله حق عظمته .

ـ لأنهم عبدوا معه غيره ، مع أنه خالق الأشياء ومالكها . . . . ومن مظاهر قدرته أن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ـ تعالى عما يشركون .

جاء فى الترمذى عن عبدالله بن عمر ـ قال : جاء يهودى إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول : أنا الملك .

---

(٧٨٥) الزمر ٦٧

فضحك النبى - ﷺ - حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « وما قدروا الله حق قدره »[786]

والقادر فى صفة الله - تعالى - المتمكن من الفعل بلا معالجة ولا واسطة فلا يلحقه عجز فيما يريد إنفاذه .

وهو القادر المتصرف فى سائر الأكوان ، وهو وحده الذى يملك أن يقول للشىء كن فيكون .

أدب المؤمن فى ظل هذا الاسم

قد ينعم الله على عبده بشىء من القدرة ، فيمكنه من التصرف فى بعض الأمور ، وقد يمنح الله العبد كلمة نافذة ، وقد يمنحه السلطان والتحكم فى شىء من الأمور . فعليه فى هذه الحال أن يتأدب بأدب القدرة فلا يبطش ولا يظلم ولا يَغُل ولا يأخذ البرىء بإثم العاصى ،

وليعلم أن الله إذا كان قد منحه شيئاً فقد منح غيره أشياء ، وإذا كان قد فتح عليه بعلم فقد فتح على غيره بما هو أكثر « وفوق كل ذى علم عليم » وصدق الشاعر الذى يقول :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

وفى الأثر الكريم : إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك .

ومن حكمة الله أن يمنح ظالما قدرة ينتقم بها من ظالم مثله ، ولكن ذلك

---

(٧٨٦) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٢٧٧ سورة الزمر

لن ينجى الظالم من العقاب . وفى الأثر : الظالم سيف الله فى أرضه ينتقم به ثم ينتقم منه .

إن جمال القدرة يتم بالعدل والتواضع ، فإذا منح الله عبدا قدرة فزينها بالخلق الفاضل ، وتواضع معها لله ، وعدل بها بين خلق الله فقد منحه الله نعمة عظمى وحباه فضلا كبيرا .

ومن تمام الأدب فى ظل هذا الاسم ـ أن يظل الانسان على حذر من قدرة الله عليه فلا يسترسل فى المعاصى ، ولا ينساق وراء الشهوات ، لأن عين القادر لا تنام ، وأعمال الانسان محصاة عليه ، وسيأتى اليوم الذى يحاسب فيه على ما قدم . . فليبادر بالتوبة ، وليقدم لغده ما ينفعه . .

الدعاء فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : من ذكر اسم القادر كثيرا بعد صلاة ركعتين قواه الله ظاهرا وباطنا على العبادة .

ومن الدعاء الوارد فى ظل هذا الاسم :

إلهى أنت القادر الظاهر ، وأنت الشاهد الناظر ، أبرزت الوجود بالقدرة العلية ، وأوصلت الأرزاق بالحكمة الرحمانية .

امنحنا قدرة على أنفسنا فلا نخالف ، وأشهدنا الكرامة على موائد اللطائف ، واسقنا رحيقا صافيا من لا حول ولا قوة الا بالله ، فأنت ولى المؤمنين وأنت على كل شىء قدير . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

المقتدر

ورد اسم الله « المقتدر » فى القرآن الكريم فى أربعة مواضع هى ـ قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٧٨٧)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٧٨٨)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (٧٨٩)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٧٩٠)

ومقتدر اسم فاعل من الفعل اقتدر . والاقتدار على الشيء القدرة عليه .

وذكر بعض العلماء أن الفرق بين القادر والمقتدر ـ أن القادر هو الذى يقدر على إيجاد المعدوم وإعدام الموجود .

---

(٧٨٧) القمر ٤١ ، ٤٢
(٧٨٨) القمر ٥٤ ، ٥٥
(٧٨٩) الكهف ٤٥
(٧٩٠) الزخرف ٤٢

والمقتدر هو الذى يقدر على إصلاح الخلائق على وجه لا يقدر عليه غيره فضلا منه وإحسانا .

والاقتدار مبالغة فى القدرة ، فمن المعروف أن زيادة المبنى تدل على زيادة فى المعنى .

ففى المقتدر معنى القادر وأكثر ، فهو المتناهى فى القدرة ، أو هو المستولى على كل شىء ، أو هو المقتدر على جميع الخلائق . والمراد أنه المتحكم فى جميع الآثار .

وانظر الى اقتران المقتدر بالمليك فى قوله ـ تعالى ـ « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » تجد عظمة هذا الملك الذى لا يقدر على صنعه إلا الله ، ولا تليق عظمته إلا بالله .

قال العلماء فى تفسير هذه الآية : إن المتقين فى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم عند مليك يقدر على ما يشاء . وعند ـ هنا ـ تعنى عندية القرب والزلفى ، والمكانة والرتبة ، والكرامة والمنزلة . قال عبدالله بن أبى بريدة :

إن أهل الجنة يدخلون على الجبار ـ تبارك وتعالى ـ فيقرءون القرآن عند ربهم . وقد جلس كل إنسان مجلسه على منابر من الدر والياقوت والزبرجد والذهب والفضة بقدر أعمالهم ، فلا تقر أعينهم بشىء قط كما تقر بذلك ولا ينعمون بشىء قط أعظم من ذلك . .

وقال خالد بن معدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فتقول الملائكة : يا أولياء الله انطلقوا . فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة .

فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا .

فيقولون : فما بغيتكم ؟

فيقولون : مقعد صدق عند مليك مقتدر(٧٩١)

قال الغزالى ـ رحمه الله ـ فى معنى القادر والمقتدر : إن معناهما ذو القدرة . لكن المقتدر أكثر مبالغة . والقدرة هى المعنى الذى به يوجد الشىء مقدرا بتقدير الإرادة والعلم واقعا على وفقها .

إنه مما لا شك فيه أن معنى المقتدر يفيد عظم القدرة ، فإن الهمزة والتاء لم تزد فى بناء الكلمة عبثا . ولك أن تتأمل كل الأبنية التى وردت على مثال ذلك ، فإنك ستجد مزيد معنى فى البناء الذى ورد مزيدا .

وانظر الفرق بين قرب واقترب تجد أن « اقترب » تفيد زيادة القرب أكثر من قرب .

وهناك فرق أيضا بين قولك : ارقب وارتقب .

وبين قولك : بنى وابتنى ، ورقى وارتقى ، وهكذا . . إن زيادة التاء تفيد زيادة المعنى فى الفعل .

وعظم القدرة فى مقتدر يعنى التأكيد على إحاطة قدرة الله بكل صغيرة وكبيرة فى ملكه ، كما يقتضى السيطرة التامة على الكون الذى هو مظهر من مظاهر اقتداره .

أدب المؤمن مع هذا الاسم :

ينبغى للمؤمن أن يرعى مقام الله وجلاله ، ويدرك عظمة قدرته

---

(٧٩١) تفسير القرطبى جـ١٧ ص ١٥٠ ـ سورة القمر

واقتداره ، ويعرف أن الله لاتخفى عليه خافية . . فيبذل جهده فى مرضاة ربه ، ويخشاه حق خشيته ، ويلجأ إليه فى كل أمر من أموره .

ويتعلم المؤمن من أدب هذا الاسم أن يكون مراقبا لله فيما خوله إياه من سلطة وماملَّكه من أمر . فإن الله على الرغم من اقتداره حليم لايعجل بالعقوبة على أحد ، عادل لايظلم أحدا . .

وإذا أدرك العبد قدرة الله وإحاطته دعاه ذلك إلى الاستعانة به دائما ، والتفويض اليه والتوكل عليه فى كل حال .

الدعاء فى ظل هذا الاسم :

قال الشاعر أحمد مخيمر مناجيا ربه فى ظل القادر المقتدر :

جل ربى القادر المقتدر   من على الخلق سواه يقدر ؟
خالق الأفلاك والنجم وما   تحمل الأرض وتطوى الأعصر
باعث الموتى ومحييها إلى   موعد فيه البرايا تحشر
مبدع آياته شاهدة   أنه من كل شىء أكبر
فاعبدوه واشكروا آلاءه   فاز بالجنة عبد يشكر[٧٩٢]

ومن مظاهر قدرة الله ماعبر عنه أحد الصالحين فى قوله مناجيا ربه القادر المقتدر الذى يقدر على كشف الضر وتفريج الكروب ـ فقال :

● لاإله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . .

● ولقد شكا إليك يعقوب فخلصته من حزنه ، ورددت عليه ماذهب من بصره ، وجمعت بينه وبين ولده .

---

(٧٩٢) أسماء الله الحسنى لأحمد مخيمر ص ٩٤

- ولقد ناداك نوح من قبل فنجيته من كربه
- ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفت مابه من ضره .
- ولقد ناداك يونس فنجيته من غمه .
- ولقد ناداك زكريا فوهبت له ولدا من بعد يأس أهله وكبر سنه .
- ولقد علمت مانزل بإبراهيم فأنقذته من نار عدوه .
- وأنجيت لوطا وأهله من العذاب النازل بقومه .

فهاأنذا عبدك إن تعذبنى بجميع ماعلمت من عذابك فأنا حقيق به ، وإن ترحمنى كما رحمتهم مع عظيم إساءتى فأنت أولى بذلك وأحق مَنْ أُكْرم به ، فليس كرمك مقصورا على من أطاعك وأقبل عليك ، بل هو مبذول لمن شئت من خلقك وإن ظلم نفسه بمعصيتك .

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

وفى منظومة أسماء الله الحسنى . . . . . .

وياقادر ارفع لى عجزى بقوة ويامقتدر توج لى وجهى بهيبة

قال العلماء : من أكثر من ذكر اسم المقتدر دبره الله فيما يريد ، واذا أضاف الى القادر والمقتدر أسماء الشديد والقوى والقاهر ، وذكر الله بها واستنجد به على ظالم قهره الله وأنصف المظلومين منه .

المقـــدم والمؤخـــر

والمقدم من الأسماء التى وردت فى سلسلة الأسماء التى جاءت فى الحديث الشريف ـ ورقم هذا الاسم الحادى والسبعون .

والمؤخر كذلك ورقمه الثانى والسبعون .

ويفيد معنى المقدم والمؤخر أن الله ـ سبحانه وتعالى ينزل الأمور منازلها ـ فيقدم مايشاء ويؤخر مايشاء ، فكل شىء عنده بمقدار .

وقد قدم الله ـ سبحانه ـ خلق بعض المخلوقات على بعض ، فخلق الماء فالأرض فالسموات ، وقدر فى الأرض أقواتها ، وجعل فيها كل مايحتاج إليه الخلق من منافع ، ثم خلق الانسان فى آخر ساعة من يوم الجمعة بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، ثم قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

إن تقديم خلق بعض الأشياء يعنى تقديم الأسباب على المسببات ، وهذه حكمة عالية .

والله سبحانه ـ قدم بعض الخلق على بعض ، وقدم بعض الأزمان على بعض ، كما فضل بعض الخلق على بعض ، وبعض الناس على بعض ، وبعض الأماكن على بعض ، وبعض الأزمنة على بعض .

وفضل جنس بنى آدم على غيرهم من المخلوقات ـ فقال ـ تعالى ـ

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠ ﴾ (٧٩٣)

---

(٧٩٣) الاسراء ٧٠

كما فضل بعض الأنبياء على بعض فقال ـ تعالى ـ

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ (٧٩٤)

وفضل ليلة القدر على غيرها من الليالى ـ قال ـ تعالى ـ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ (٧٩٥)

وفضل الكعبة والمسجد النبوى والمسجد الأقصى على غيرها من المساجد . فكانت الصلاة فى تلك المساجد أفضل وأكثر ثوابا من الصلاة فى غيرها . . . . . وكان شد الرحال مقصورا عليها .

ويقاس على ذلك أن دور العبادة عموما أفضل من غيرها من الأماكن الأخرى . فقد سئل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن خير الأماكن فقال : المساجد ، وسئل عن شرها فقال : الأسواق .

والحكمة فى ذلك لاتخفى على أى لبيب ، فان المساجد يرفع فيها ذكر الله

---

(٧٩٤) البقرة ٢٥٣

(٧٩٥) سورة القدر

ويذكر فيها اسمه ويسبح بحمده وتؤدى فيها العبادات ، ويتعلم فيها العلم . . أما الاسواق فمكان رائج للغش والأيمان الكاذبة وظلم الناس . .

ولاشك أن الذى يسير على نهج الأنبياء مفضل ومقدم على غيره من الناس ، فقد ورد فى الأثر الشريف« العلماء ورثة الأنبياء » والأنبياء لم يورثوا دينارا ولادرهما ولكنهم ورثوا الناس العلم والحكمة وإن الملائكة والطيور حتى الحيتان فى البحر لتصلى على من يعلمون الناس الخير .

وبعض العلماء مقدم على بعضهم ـ كما أن بعض الأنبياء مقدم على بعض ، وأولى العلماء بالتقديم الذين يعملون بعلمهم . أما الذين لايعملون بعلمهم فمؤخرون عن جميع الناس ، حتى لقد ورد فى حقهم قول القائل :

عالم بعلمه لم يعملن معذب قبل عباد الوثن

وفى القرآن الكريم جاءت آية يمكن اشتقاق اسم المقدم من فعلها ، هى قوله ـ تعالى ـ

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝٢٨﴾ (٧٩٦)

فاسم الفاعل من الفعل ـ قدم ـ الوارد فى الآية هو مقدم ـ وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو يعنى أن الله ـ تعالى ـ قدم إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ومحذرين الذين لايستجيبون لدعوة الحق من هول ذلك اليوم الذى يناقشون فيه الحساب ، ثم يذوق الكفار بعده أليم العذاب .

واذا كان المؤمن يعرف أن الله هو المقدم ، وأنه خلق الأشياء بترتيب

---

(٧٩٦) ق ٢٨

ونظام ، فأحرى به أن يتعلم من ذلك أن ينظم أوقاته ، وأن يقدم الأهم على المهم .

والأهم بالنسبة للإنسان هو التزود للآخرة . وتفضيل ذلك على متاع الحياة الدنيا . . . . قال ـ تعالى ـ

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (٧٩٧)

إن المعتاد بالنسبة للكثرة الغالبة من الناس أنهم قد انهمكوا فى طلب الدنيا انهماكا أعماهم عن السعى فى طلب نعيم الآخرة . وشغلهم زخرف الدنيا عن الجنة ومتاعها الباقى الخالد . وصدق الله العظيم الذى يقول

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ (٧٩٨)

ولقد لفت الله ـ تعالى ـ نظر الناس الى وجوب تقديم مايبقى على مايفنى فقال

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (٧٩٩)

---

(٧٩٧) البقرة ١٩٧

(٧٩٨) الأعلى ١٦ ، ١٧

(٧٩٩) الاسراء ١٨ ، ١٩

ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه مبينا غفلة من يؤثر الأولى على الآخرة « اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك ـ دليل على انطماس البصيرة منك »

وتفسير هذه الحكمة يوضح خطأ من يقدم ماحقه التأخير على ماحقه التقديم . . . يقول شارحها . . انطماس البصيرة منك لأنك أتيت بالشىء على غير وجهه . ووضعته فى غير محله ، إذ عكست ماحقك أن لاتعكسه ، فتركت ماأمرت بالقيام به ، وقمت بما كفيت أمره . . . . . .

كيف يثبت لك عقل أو بصيرة ، واهتمامك فيما ضمن لك اقتطعك عن اهتمامك فيما طلب منك . حتى قال بعضهم : إن الله ضمن لنا الدنيا وطلب منا الآخرة ، فليته ضمن لنا الآخرة وطلب منا الدنيا .

وهناك أدب آخر نتعلمه من هذا الاسم الشريف « المقدم » هو أننا إذا علمنا أن الله هو المقدم والمؤخر ألجأنا ذلك إلى وجوب التضرع إلى الله واللياذ بجنابه وملازمة خشيته ، وعدم الركون إلى الأعمال فقط . . . فقد أثر عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » قالوا : حتى أنت يارسول الله ؟ قال : حتى أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »

وليس معنى هذا أن يترك الانسان العمل ، ولكن معناه أن يضاعفه مع الوثوق فى رحمة الله ، والتضرع إلى الله أن يقبل هذا العمل ولا يرده . . إن على العبد أن يقدم العمل الصالح الذى يكون له ذخرا عند ربه ولا ييأس من عفو الله ، إنه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون .

الذكر فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : الاكثار من ذكر اسم الله « المقدم » فى ساحة الحرب يقوى القلب ويمنح النصر إن شاء الله ـ تعالى ـ

ومن الأدعية التى ذكرها العلماء فى ظل هذا الاسم :

« إلهى أنت المقدم للأرواح الطاهرة ، وللنفوس الذاكرة ، أنت المقدم للأنبياء على سائر البرية ، والرافع لشان الصالحين أهل العطية ، اكشف عن عين بصيرتى حجب الأغيار ، حتى يصير الليل عندى كالنهار ، فأقدم كل ما قدمته ، وأعظم كل من عظمته ، واجعل حبك فى قلبى هو المقدم على كل الأشياء ، وتعظيم نبيك ـ ﷺ ـ هو الشرف لى بين الناس ، وحب أوليائك هو عين الدواء ، وحب الفقراء هو باب الشفاء إنك على كل شىء قدير »

أما المؤخر فهو اسم فاعل من الفعل « أخَّر »

ومعناه ـ أنه الذى يؤخر الأشياء فيضعها فى مواضعها .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات يشتق من أفعالها اسم « المؤخر » . . من ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٨٠٠)

---

(٨٠٠) هود ٨

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (٨٠١)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (٨٠٢)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (٨٠٣)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٨٠٤)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٨٠٥)

---

(٨٠١) هود ١٠٣ ، ١٠٤

(٨٠٢) المنافقون ١١

(٨٠٣) نوح ٤

(٨٠٤) ابراهيم ٤٢

(٨٠٥) النحل ٦١

فاسم الفاعل من أخر ويؤخر « مؤخر » وهو من أسماء الله سبحانه وتعالى . . قال بعض الصالحين فى معنى المؤخر - هو الذى يؤخر إيجاد بعض الأشياء عن بعض بمشيئته ، ويؤخر من شاء من عباده فى الشرف والرتبة ، والقرب والحب ، والتقوى والطاعة ، والعلم والهداية - سبحانه - يقدم ويؤخر ما شاء ومن شاء على مقتضى حكمته ، ولا يقع شىء فى ملكه إلا وفق إرادته .

وقد يكون تأخير ظهور بعض الأشياء عن بعض لفضل ومزية ، وحكمة بالغة أزلية . .

فقد أخر الله - كما يقول العلماء - خلق آدم إلى آخر ساعة من ساعات الدنيا ، ليظهر فضل الإنسان الخليفة ، ويشوق الملائكة والجن إليه . . وحين خلقه بيديه وسواه بحكمته ، ونفخ فيه من روحه ، وأظهره فى أحسن تقويم علمه الأسماء كلها ، ثم أمر الملائكة بالسجود له .

وأخر إرسال النبى - ﷺ - وهو أفضل الرسل ، وجعله خاتم النبيين ، مع أنه - تعالى - قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا أممهم ببعثه ، فقال - جل وعلا -

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٨٠٦)

---

(٨٠٦) آل عمران ٨١

وما تأخيره ـ ﷺ ـ إلا لمزيد فضله ، وكمال رسالته ، وعموم رحمته ، وشمول بركته . وأفضلية دعوته التى جعلها الله دينا عاما للبشرية جمعاء ـ قال تعالى

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٨٠٧)

وقال

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (٨٠٨)

وآخر يوم القيامة ليكون فى الموعد الذى حدده فى سابق علمه وادخره فى أزل حكمته ، لأنه اليوم الذى يجمع فيه الخلائق جميعا ، فيحاسبهم على ما قدموا من أعمال ، ويجزى المسىء إساءة والمحسن إحسانا ويتجاوز عمن يشاء ـ قال تعالى

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ

---

(٨٠٧) آل عمران ٨٥
(٨٠٨) المائدة ٣

﴿ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ
نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (٨٠٩)

وقال بعض العلماء فى معنى « المؤخر » : هو الذى يؤخر المشركين ويرفع المؤمنين ، وهو الذى يؤخر العصاة ويهب للطائعين هداه ، وهو الذى يؤخر العقوبة للظالم ، لأنه ـ تعالى ـ هو الرءوف الرحيم .

إن تأخير العقوبة عن الظالم فيها رحمة له ، فلعله يقلع عن ظلمه ، ويتوب من جرمه ، ويعرف الطريق إلى التوبة ، ويحسن إلى الله الأوبة . فيبدل الله له سيئاته حسنات .

إن الله حليم لا يعجل ، وهو يمهل ولا يهمل . وهو ـ كما جاء فى الأثر ـ يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

إن الأدب فى ظلال هذا الاسم يقتضى أن يتدبر المؤمن فى أخراه ، ويدخر لنفسه أعمالا صالحة تنفعه يوم يناقشه الله الحساب ، ويقف أمامه فى موقف العرض فإما موفق أو مخذول ، وإما سعيد أو شقى .

ويعلمنا مفهوم هذا الاسم الشريف أن نقدم من الأعمال ما هو أولى بالتقديم ، ونؤخر ماهو أحق بالتأخير . كما نقدم ما هو أهم ونؤخر غيره مما ليس مهما . ولا يكون شأننا إيثار العاجلة على الآخرة والرضا بزهرة الدنيا الفانية على متاع العاقبة الباقية .

ويعلمنا ذلك أيضا الاجتهاد فى الطاعات ، والحذر من الكسل والتمنى ،

---

(٨٠٩) هود ١٠٣ ، ١٠٥

وإحالة الأعمال الصالحة إلى أوقات الفراغ . وقد جاء فى الحكم الجليلة « لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد »

وقد أحسن ابن عطاء الله السكندرى فى قوله « إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس »

ويقصد بالأعمال الأعمال الصالحة .

وإذا كان تأخير العمل ـ أى عمل ـ عن وقته يوقع فى الارتباك ويؤدى إلى الفوضى وسوء النظام ويترتب عليه أوخم العواقب ـ فهذا فى حق الأعمال الصالحة أولى ، وفى أداء الطاعات أحق . .

قال ابن عباد الرندى فى شرح هذه الحكمة : إذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال الدنيا ، وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة ، وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال ، وقال : إذا فرغت عملت ، فذلك من رعونة نفسه ، والرعونة حماقة . . لأن الإنسان فى تلك الحالة يكون مؤثراً للدنيا على الآخرة ، ومسوفا بالعمل إلى وقت لا يضمنه ، فقد يوافيه الأجل ، أو قد يأتيه شغل آخر . . . وحاجات من عاش لا تنقضى . والشاعر يقول :

فما قضى أحد منها لبانته ولا انتهى أرِب منها إلا إلى أرَب

أو قد يتبدد عزمه وتذهب نيته . .

قال عمر بن الفارض محذرا من تأخير العمل وطول الرجاء :

وعد من قريب فاستجب واجتنب غداً وشمر عن الساق اجتهاداً بنهضة

وكن صارماً كالوقت فالمقت فى عسى وإياك مهلا فهى أخطر علة

وعلى الإنسان العاقل أن يقضى على التسويف بقوة عزمه وحزم إرادته . . .

الدعاء فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : إن الإكثار من ذكر اسم الله « المقدم » يفتح باب التوبة والتقوى .

كان النبى - ﷺ - يدعو قائلا : « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىء قدير »(٨١٠)

قال الشاعر أحمد مخيمر يناجى ربه فى ظلال هذا الاسم :

أنت المقدم أولياءك والمؤخر جاحديكا
وأجل ما تعطى عبادك أن تقرب عابديكا
والبعد أقسى ما تنيل من العذاب لمبعديكا
الجاعلين لربهم فى ملكه الباقى شريكا

وفى منظومة أسماء الله الحسنى :

مقـدم قدمنـا لأعلـى مكانـة مؤخـر أخـر لـى عـن الخبـث نيتـى

(٨١٠) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه

الأول والآخر

جاء فى المصباح المنير : الأول الذى لا ثانى له ـ والآخر الذى لا نهاية له . وجاء فى كتب اللغة : أن لفظة الأول تستخدم فى عدة أحوال . منها المتقدم بالزمان ، والمتقدم بالرياسة فى الشىء ، والذى يحتذى به غيره .

وتستعمل أيضا فى بيان التقدم فى المواضع كأن تقول : القاهرة أولا ثم الإسكندرية ـ أو فى بيان التقدم فى الأعمال كأن تقول : البسملة أولا ثم المقدمة فالموضوع ، أو تقول : الأساس أولا ثم البناء بعد ذلك . وهكذا . .

أما إذا كان المراد بـ « الأول » اسم الله جل جلاله فيكون المعنى أنه الذى لم يسبقه وجود . . وعلى ذلك الحديث الشريف . . كان الله ولا شىء معه »

فهو الذى يحتاج إليه غيره ولا يحتاج هو إلى شىء . أو نقول هو المستغنى بنفسه ، ولا يستغنى غيره عنه .

وقد جاء اسم الأول فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

واذا كان الأول بمعنى المتقدم ، فإن التقدم فى حق الله ـ تعالى ـ ليس تقدما زمانيا أو مكانيا . ولكنها أولية لا يحيط بها العقل ولا يدركها الذهن .

---

(٨١١) الحديد ٣

وفى حديث رسول الله ـ ﷺ ـ غناء كثير عن شرح المكثرين والمقلين ، فقد قال ـ ﷺ ـ « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ـ اقض عنا الدين وأغننا من الفقر »(٨١٢)

ولكن بعض العلماء لهم مع ذلك ـ أقوال تشير إلى تذوقهم وتعمقهم فى المعانى ، وإدراكهم مالا يدركه غيرهم .

فقد قال بعضهم : إن أولية الله تعنى أنه قديم أزلى وآخريته تعنى بقاءه الدائم المستمر . . فهو الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا إنتهاء .

وأولية الله يقتضيها وجود الخلق ، فما من موجود إلا وله موجد يوجده وكل ما فى الكون موجود وموجده الله ـ جل وعلا ـ ولابد أن يكون هذا الموجد الأعلى أقدم الموجودات وأولها على الإطلاق . .

ولابد أن تكون هذه الأولية قديمة أزلية ، فالله هو الأول ، وهو القديم الأزلى الذى لا سابق على وجوده .

وإذا كان الله أظهر من كل ظاهر فهو كذلك أبطن من كل باطن . فاذا ما حاولت بعقلك إدراك حقيقة أوليته عجزت ، وإذا حاولت أن تحيط بكنهه تحيرت . . فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . .

وكيف يدرك كنه الخالق مخلوق ؟ أم كيف يفهم حقيقة المحيط محدود ؟

ذلك أن الله كان ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان .

ومعنى ذلك أنه لا شيء مع الله فى أبده كما لم يكن شيء معه فى أزله ،

---

(٨١٢) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ـ تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٣٦ سورة الحديد

لأنه الواحد أزلا وأبدا .

قيل لبعضهم : أين الله ؟

قال : حيث كان قبل أن يخلق المكان

قال : فأين كان ؟

قال : حيث هو الآن .

وصدق الذى يقول فى عجز العقول عن إدراك حقائق أسماء الله وصفاته :

أسماؤه وسائر الصفات مجهولة لغيره كالذات
فحدها بالعقل غير منضبط لعجزه ، فبالقديم لم يحط
وإنما بها لخلقه ظهر تعزُّ بمالها من الأثر
ليعرفوا بأنه الموجود بنفسه ، والواحد المعبود
وأنه الاله قيوم السما وسره فى كل موجود سما
والكل محتاج إليه فى الظهور وما عليه شأن خلقه يدور
وكل ما سواه نجم آفل بل فى شهود العارفين باطل[813]

ويفيد معنى الآخر أنه الباقى بعد كل شىء ، قال ـ تعالى ـ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [814]

سوف تفنى الخلائق جميعا ، ويبقى الله وحده يخاطب بلسان القدرة من لا يملك الرد على تساؤله .. « لمن الملك اليوم » ؟ فيرد ـ سبحانه ـ على

---

(٨١٣) مطهرة النفوس وروض القلوب المستطاب للشيخ حسن رضوان ص ٢ مطبعة عموم الأوقاف المصرية .

(٨١٤) الرحمن ٢٦ ، ٢٧

نفسه بنفسه قائلا « لله الواحد القهار » هذا تفسير بعضهم .

وبعضهم يقول : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله ـ جلّ وعلا ـ عليها ، فيؤمر مناد فينادى : « لمن الملك اليوم » فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : « لله الواحد القهار » ، فالمؤمنون يقولون ذلك سرورا وتلذذا ، والكافرون يقولونه غما وانقيادا وخضوعا . »[815]

والقرطبى يرجح التفسير الأول ، لأن المقصود إظهار انفراده ـ تعالى ـ بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين وانتساب المتنسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل متجبر وتجبره ،

ويقول الله ـ جل وعلا ـ : أنا الملك فأين ملوك الأرض ؟ ولا مجيب . وقد تحدث الغزالى عن معنى هذين الاسمين . . الأول والآخر . . فقال : الأول إنما يكون أولا بإضافته إلى شيء ، والآخر يكون آخرا باضافته إلى شيء ، وهما متناقضان ، فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالاضافة إلى شيء واحد أولا وآخراً جميعا .

ولكنك إذا نظرت إلى ترتيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات عرفت أن الله ـ تعالى هو الأول ، فالموجودات كلها استفادت الوجود منه ، أما هو فموجود بذاته ، ولم يستفد الوجود من غيره .

واذا نظرت إلى ترتيب السلوك ، ولاحظت السائرين إليه عرفت أن الله ـ تعالى ـ آخر ما يرتقى إليه . . . . فكل معرفة تحصل قبل معرفته هى مرقاة إلى معرفته ، وأقصى منزلة هى معرفة الله ـ تعالى ـ فهو ـ سبحانه ـ

---

(٨١٥) تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣٠٠ ـ سورة غافر

آخر بالإضافة إلى السلوك ، وأول بالاضافة إلى الوجود فمنه المبدأ أولا ، وإليه المصير والمرجع آخرا .

ومن أقوال بعض الصالحين فى معنى الاسمين الجليلين : -

هو الأول قبل كل شىء بالقدم والأزلية والآخر بعد كل شىء بالأبدية والسرمدية . . سبحانه هو الأول الذى أوجد الخلق ، وهو الآخر الذى يعيد الخلق بعد فنائه ويبعثه بعد صعقه وانمحائه .

هو الأول الذى يقدم كل مقدم ، وهو الآخر الذى يؤخر كل مؤخر ، إنه الأول الذى سبقت رحمته غضبه ، والآخر الذى قهر الظالمين بقهره وأذلهم بكبريائه وأدبهم بعدله ، ووسعهم بفضله .

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذين الاسمين ؟

حظ المؤمن من هذين الاسمين أن يشغل نفسه بما يبقى على ما يفنى .

وأن يكون من السباقين إلى فعل الخيرات وترك المنكرات . وأن يكون أول من يطيع وآخر من يعصى - كما جاء فى المثل المشهور - وليس معنى آخر من يعصى أن يشترك فى العصيان ، ولكن معناه ألا يكون مجيبا لدعوات العصاة ، مسرعاً إلى تلبية همزات الشيطان .

لقد جاء فى القرآن الكريم أمر الله للنبى - ﷺ - أن يكون أول المؤمنين ، وأول المسلمين . . وجاء ذلك فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾(٨١٦)

---

(٨١٦) الأنعام ١٤

وقوله

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٨١٧)

وهو أول العابدين كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٨١٨)

ومعناه كما يقول بعض العلماء : أن الله لا ولد له ولا شريك ، وكيف يكون له ولد ولا يعلم رسوله ذلك ، وهو أول العابدين

والعابدين بمعنى الموحدين المصدقين . .

والاقتداء بالأنبياء شرط فى قوة الإيمان ، والقرآن الكريم يدعونا إلى التأسى بالنبى ـ ﷺ ـ قال ـ تعالى ـ

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٨١٩)

إن التسابق إلى العمل الصالح من دلائل الإيمان ، وكان أبوبكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ له القدح المعلى فى ذلك ، وقد بذل نفسه وماله فى سبيل الله ، وكان أول من صدق برسول الله ـ ﷺ ـ وآمن به من الرجال ، ولذلك سمى بالصديق .

---

(٨١٧) الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣

(٨١٨) الزخرف ٨١

(٨١٩) الأحزاب ٢١

وكان غيره من أصحاب رسول الله - ﷺ - يتنافسون فى الجهاد ويقدمون أرواحهم رخيصة فى سبيل الله . . ولعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أوليات مشهورة ، فهو أول من سمى بأمير المؤمنين ، وهو أول من أرخ بالتاريخ الهجرى ، وأول من دون الدواوين ، وأول من عسَّ بالليل وأول من اتخذ الدرَّة ، وأول من فرض لكل مولود عطاء ، وأول من وضع حد الخمر وأقامه على أقرب الناس إليه وهو ابنه . . . . إلى غير ذلك مما هو مدون فى التاريخ . ولاشك فى أن الفاروق قدوة يقتدى بها المسلمون فى أعماله الصالحة .

وكان مصعب بن عمير أول سفير فى الاسلام ، وأول معلم فى الاسلام ، وأول من أقام الجمعة فى المدينة فى الاسلام ، قالوا : إنه جمع المسلمين وكانوا اثنى عشر رجلا يوم الجمعة وذبح لهم شاة .

والتسابق فى الخير دعا إليه الله - تعالى - فى قوله

﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٨٢٠)

كما وعد السابقين بالثواب الجزيل فى قوله -

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (٨٢١)

وفضل السابقين فى الجهاد على القاعدين درجة فى قوله تعالى

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ

---

(٨٢٠) المطففين ٢٦

(٨٢١) الواقعة ١٠ ، ١١ ، ١٢

وَقَـٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ (٨٢٢)

كل ذلك نتعلمه مما يدعو إليه اسم الله « الأول »

اما اسم الله « الآخر » فهو يدعونا إلى التأمل فى بقاء الله وقهره لخلقه وأنه الباقى بعد فناء كل شيء ، القاهر لكل شيء ، الحى الدائم الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون . وهذا يدعونا إلى خشيته وطاعته ، والاستعداد لذلك اليوم الذى يجمعنا فيه حين يقول : لمن الملك اليوم ؟ فعسى أن نكون من المؤمنين الذين يلبون ربهم قائلين : لله الواحد القهار . نقولها اطمئنانا وإيمانا وابتهاجا ، حتى نكون من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

الدعاء فى ظل هذين الاسمين :

جاء فى منظومة أسماء الله الحسنى :

ويا أول قَوِّ ابتدائى لحبكم   ويا آخر حسن رجوعى لآخرتى

وقال الشاعر مناجيا ربه فى ظل هذين الاسمين : -

أنت ياخالقى بذاتك موجود بلا حاجة إلى موجود

ليس من سابق فأنت هو الأول جلَّ العلىُّ من معبود

ووراء الوجود أنت هو الآخِر سر الوجود بعد الوجود

وقال بعض العلماء : اذا واظب المسافر على ذكر اسم الله « الأول » جمع الله شمله على من يحب .

---

(٨٢٢) الحديد ١٠

ومن ذكر اسم الله « الآخر » فى كل يوم مائة مرة صفا قلبه وخرج منه ما سوى الله ـ جل جلاله ـ

ومن الأدعية المأثورة عن النبى ـ ﷺ ـ

«اللهم رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من كل شيء وأنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر »(٨٢٣)

ومن أدعيته ـ ﷺ ـ : « يا كائن قبل أن يكون شيء ، والمكون لكل شيء ، والكائن بعد ما لا يكون شيء ، أسألك لحظة من لحظاتك الحافظات الغافرات المنجيات »(٨٢٤) .

---

(٨٢٣) رواه الترمذى وابن ماجه ـ وابن حبان عن أبى هريرة ـ أسماء الله الحسنى للشيخ أحمد عبد الجواد ص ١٨٠

(٨٢٤) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ ١ ص ٣٦٧

الظاهر والباطن

يفيد الفعل ظهر معانى عدة ـ فهو يؤدى معنى الوضوح ، تقول : ظهر الشيء بمعنى وضح وبدا . . ويأتى فى مقابل : بطن ـ بمعنى خفى ، وللانسان ظهر وبطن وهما متقابلان . . ويأتى ظهر بمعنى علا وارتفع ، تقول : ظهرت البيتَ أى علوته ، وتقول : أظهرت بفلان أى أعليت به .

وظهر به ـ بمعنى قوى به ، وظهر عليه ـ بمعنى قوى عليه وانتصر . . . . وقال العلماء فى معنى قوله ـ تعالى ـ

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ (٨٢٥)

واستظهر به إذا استعان ، والمظاهرة ، المعاونة ، والتظاهر التساند والتعاون . وظاهر عليه ـ أى أعان عليه .

والظهير العون ، الواحد والجمع فى ذلك سواء قال ـ تعالى ـ

---

(٨٢٥) النور ٣١

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾(٨٢٦)

والظهور العلو والارتفاع قال ـ تعالى ـ

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾(٨٢٧)

أى ما قدروا أن يعلوه . والظهور النصر والفوز والظفر .

والظاهر من أسماء الله ـ تعالى ـ معناه الذى ظهر فوق كل شىء وعلا على كل شىء . . . وقيل : عُرِف بطريق الاستدلال العقلى بما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه .

هذا بعض ما جاء فى كتب اللغة عن مادة ظهر التى اشتق منها اسم الله ـ تعالى ـ الظاهر ـ جل جلاله ـ

وللعلماء فى معنى هذا الاسم أقوال .

فهم يقولون : هو الظاهر بالقدرة على كل شىء ، والظاهر لكل شىء بالأدلة العقلية والكونية ، فقد خلق الله كل الكائنات والموجودات لتظهر آثار قدرته فيها ، وهو ـ سبحانه ـ ظاهر عليها من جميع الجهات .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾(٨٢٨)

---

(٨٢٦) التحريم ٤
(٨٢٧) الكهف ٩٧
(٨٢٨) البقرة ١١٥

فالكون كله بما فيه ومن فيه مظهر من مظاهر قدرة الله وصفاته ، فإن وراء ظواهر الأشياء بواطن تحمل أسرارا دقيقة ، وحكما خفية عميقة ، لا يدرك كنهها العقل البشرى ، ولا يصل اليها الفكر الانسانى .

وقال بعض العلماء : معنى الظاهر البادى بأفعاله العظيمة لذوى البصائر والأبصار ، وما من ذرة فى الوجود إلا وتدل على الواحد الموجود ، الذى لا يخفى ولا يغيب ، فهو معكم أينما كنتم يسمع ويرى ، وهو الظاهر فوق كل شيء بقدرته .

وقد ورد اسم « الظاهر » فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾(٨٢٩)

وللامام فخر الدين الرازى تعاريف لهذا الاسم . منها : ـ أنه بمعنى الغالب لخلقه ، فمن معنى الظهور الغلبة والقهر . ومنها أنه العالم المطلع . . . . . ومنه يقال : ظهرت على سر فلان ـ اذا اطلعت عليه .

ومنها أنه ـ سبحانه ـ ظاهر لكثرة البراهين الظاهرة والدلائل النيرة على وجوده .

أما ابن عطاء الله السكندرى فيتحدث حديثا روحيا عن معنى ظهور الله . . . يقول فيه :

« كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى أظهر كل شيء ؟

« كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر بكل شيء ؟

« كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر فى كل شيء ؟

---

(٨٢٩) الحديد ٣

« كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر لكل شيء ؟
« كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟
« كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء ؟
« كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذى ليس معه شيء ؟
« كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟
« كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء ؟

وهى عبارات تدل على روح خيرة ، ومشاهدة صادقة ، فالله سبحانه ظاهر فى آثار صنعه ، بادٍ فى مظاهر خلقه ، وصدق الشاعر الذى يقول :

لقد ظهرت فما تخفى على أحد   إلا على أكمه لا يعرف البصرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا   وكيف يُعْرف من بالعزة استترا ؟

وقديما قال الحكماء : الحق من شدة ظهوره اختفى . أجل ، وهذه هى الشمس طالعة فى رابعة النهار ، ولكن من الذى يستطيع أن يفتح عينيه فيها ؟ فهل عدم رؤيتها يقدح فى وجودها ؟

والبوصيرى يقول :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

ومن معانى « الظاهر » عند بعض الصالحين . .

أنه الظاهر وجوده لكثرة دلائله ، فهو البادى بالأدلة عليه ، فلا يمكن أن يجحد وجوده .

قيل أمام شخص من مستورى الحال : لقد ألف أحد العلماء كتابا فيه ألف دليل على وجود الله .

فقال الرجل : ياسبحان الله ، وهل خفى حتى يحتاج إلى دليل ؟ ثم استشهد بقول الشاعر :

وليس يصح فى الأذهان شىء اذا احتاج النهار إلى دليل

أينما وجهت نظرك وقلبت بصرك وأرعيت سمعك ، وأجلت فكرك وجدت آثار قدرة الله الدالة عليه ، ومظاهر أياديه المشيرة إليه ، والله ـ جل وعلا ـ يقول :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ (٨٣٠)

ونفسك أقرب شىء إليك .. فهلا استشهدتها لتشهد بلسان صدق أن قدرة الله بادية فيها ، وحكمة الله ناطقة فى جوارحها وأجهزتها الظاهرة والخافية ؟ وقدرتها الباطنة والبادية ، وحركتها وسكونها ، وابداعها وخمولها ، وقوتها وضعفها ، وإعطائها ومنعها ؟

إنه ـ سبحانه الظاهر بحججه الناطقة وأياديه الظاهرة والباطنة ، ونعمه التى لا تعد ولا تحصى .

هو المتجلى بأنوار هدايته وآياته ، وهو المتنزه بمعانى أسمائه وصفاته .
أينما وليت لم تر غيره محيطا .... وصدق أمير الشعراء شوقى حين يقول :

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك .

---

(٨٣٠) الذاريات ٢١

التخلق بأدب هذا الاسم

إن اسم الله الظاهر يدفعنا إلى التسبيح بحمده ، والتفكر فى خلق السموات والأرض استجابة لقوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (٨٣١)

إن التأمل فى خلق الله يهدى إلى الله ، ويُعرِّف الإنسان طريقه إليه ، فلا يلجأ إلا إليه ، ولا يدعو غيره ، ولا يؤمن إلا به ، ولا يشرك به أحدا . فلا خالق غيره ، ولا شريك معه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٨٣٢)

الدعاء فى ظل هذا الاسم

إذا ردد العبد اسم الظاهر أظهر الله عليه نوره وأرشده إلى الطريق الواضح ، وأمده بالإلهامات والفيوضات .

ومن أدعية الصالحين :

« إلهى أنت الظاهر لعيون الأرواح بنورك وصفاتك ، المتجلى للعقول

(٨٣١) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١

(٨٣٢) المجادلة ٧

بأنوار آلائك وآياتك . .

« احفظنا من حجاب الغفلة ، واكشف لنا أنوار الهداية إنك على كل شيء قدير . »

ومن مناجاة الصالحين :

« إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك

ياقريب أنت القريب وأنا البعيد ، قربك منى آيسنى من غيرك ، وبعدى عنك ردنى للطلب من غيرك ، فكن لى ، وقربنى منك بفضلك حتى استغنى بطلبك عن طلب غيرك .

« إلهى كيف يُستَدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر اليك ؟ وهل يكون لغيرك من الظهور ماليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ؟

« متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك .

« إلهى عميت عين لاتراك عليها رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم يجعل لك من حبه نصيبا .

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الذى أشهدته كل شاهد . »

وأما اسم الله « الباطن » فهو من الفعل بَطَنَ

قال ابن منظور : الباطن من أسماء الله - تعالى - وفى التنزيل العزيز :

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾ (٨٣٣)

---

(٨٣٣) الحديد ٣

وتأويله ما روى عن النبى - ﷺ - فى تمجيد الرب : اللهم أنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء »

ومعناه أنه علم السرائر والخفيات كما علم ما هو ظاهر الخلق .

وقيل : الباطن هو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم ، فلا يدركه بصر ، ولا يحيط به عقل .

وقيل : هو العالم بكل ما بطن - يقال : بطنت الأمر إذا عرفت باطنه(٨٣٤) ،

قال علماء التفسير فى معنى الظاهر والباطن فى الآية المشار اليها : الظاهر : الغالب ، والباطن : العالم .

وقال بعض العلماء : الباطن المحتجب عن عيون خلقه لشدة ظهوره ، والباطن بكنه ذاته عن إدراك العقول والأفهام ، فهو - جل شأنه - قوة قدسية باطنة من وراء هذا الكون الرحيب العجيب - سبحانه - الظاهر بالقدرة على كل شىء ، الباطن العالم بحقيقة كل شىء . . الظاهر لكل شىء بالدلائل اليقينية ، الباطن عن المظاهر الحسية والمعنوية ، سبحان من احتجب عن الخلق بنوره ، وخفى عليهم بشدة ظهوره(٨٣٥) .

ومعنى الباطن عند الإمام الرازى يدور حول بعض التعريفات .

● فهو باطن من حيث إن كنه حقيقته غير معلوم للخلق .

● أو هو باطن من حيث ان الأبصار لا تحيط به ولا تدركه ، كما تشير بذلك

---

(٨٣٤) لسان العرب مادة - بطن -

(٨٣٥) فى ملكوت الله للشيخ عبد المقصود محمد سالم ١٠١

الآية السابقة .

● أو هو باطن من حيث انه يعلم ما خفى ودق وبطن .

● أو هو باطن من حيث إنه حجب الخلق عن رؤيته فى الدنيا .

تفسير قوله ـ تعالى ـ « لا تدركه الأبصار »(٨٣٦)

وقد تحدث العلماء عند تفسير قوله ـ تعالى ـ

« لا تدركه الأبصار » عن إمكان رؤية الله ـ تعالى ـ وهذا موضوع له صلة بهذين الاسمين الشريفين « الظاهر والباطن » .

ولا يمكن استقصاء كل ما كتبه العلماء فى ذلك ، ولكننا نكتفى بما قرره الإمام القرطبى فى تفسيره وهو من أئمة التفسير المحققين . .

قال : قوله تعالى

« لا تدركه الأبصار » يبين أنه ـ سبحانه ـ منزه عن سمات الحدوث ، ومنها الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد كما تدرك سائر المخلوقات . .

قال الزجاج : معنى « لا تدركه الأبصار » أى لا يبلغ أحد كنه حقيقته ، كما تقول : أدركت كذا وكذا . . وقد صح عن النبى ـ ﷺ ـ الأحاديث فى الرؤية يوم القيامة .

وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « لا تدركه الأبصار » فى الدنيا ، ويراه المؤمنون فى الآخرة ، لإخبار الله ـ تعالى ـ بها فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾(٨٣٧)

قال السدى : وهذا أحسن ما قيل لدلالة التنزيل ، والأخبار الواردة

---

(٨٣٦) الأنعام ١٠٣

(٨٣٧) القيامة ٢٢ ، ٢٣

برؤية الله فى الجنة .

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾ (٨٣٨)

فقد قال النبى - ﷺ - وقد سئل عن هذه الأية - : « للذين أحسنوا العمل فى الدنيا الحسنى وهى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم » وهو قول أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وعلى بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وغيرهما من بعض الصحابة والتابعين ، وهو الصحيح فى هذا الباب . روى مسلم عن صهيب عن النبى - ﷺ - قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة - قال الله - تبارك وتعالى - : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم - عز وجل - ثم تلا « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »

وقيل : لا تدركه الأبصار ، أى لا تحيط به وهو يحيط بها .

وعن ابن عباس أيضا : لا تدركه أبصار العقول ، أى لا تدركه العقول فتتوهمه ، إذ ليس كمثله شىء

وقال بعض العلماء : لا تدركه الأبصار المخلوقة فى الدنيا ، لكنه يخلق لمن يريد كرامته بصرا وإدراكا يراه به كالرسول - عليه السلام - إذ رؤية الله فى الدنيا جائزة عقلا ؛ إذ لو لم تكن جائزة لكان سؤال موسى - عليه السلام -

---

(٨٣٨) يونس ٢٦

مستحيلا ، ومحال أن يجهل نبى ما يجوز على الله ـ تعالى ـ ومالا يجوز ، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل[٨٣٩] .

اقتران الظاهر والباطن

وكثير من العلماء يتحدثون عن الاسمين مقترنين . . . وقال الامام الغزالى ـ رحمه الله ـ فى ذلك : هذان الوصفان من المضافات ، فإن الظاهر يكون ظاهراً ، لشيء وباطنا لشيء ، ولا يكون من وجه واحد ظاهرا وباطنا ، فإن الظهور والبطون إنما يكون بالاضافة إلى الإدراكات ، والله ـ تعالى باطن إن طلب من إدراك الحواس وخزانة الخيال ، ظاهر إن طلب من خزانة العقل بطريق الاستدلال .

ـ سبحانه هو ظاهر بنعمته ، باطن برحمته .

هو ظاهر بالكفاية باطن بالغاية

ظاهر بالقدرة على كل شيء ، باطن عالم بحقيقة كل شيء . .

ـ سبحانه أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وأمرنا أن نترك ظاهر الإثم وباطنه .

فظاهر النعمة ما يدرك ويحس ، وباطن النعمة ما يخفى ويدق .

وظاهر الإثم ما يؤدى بالجوارح وباطنه ما يخفى بين الجوانح .

التخلق بآداب اسم الباطن

وحظ العبد من اسم الله الباطن ، أن يزين باطنه بالتقوى ، كما يزين

---

(٨٣٩) راجع تفسير القرطبى جـ ٧ صـ ٥٦ تفسير سورة الأنعام ، جـ ٨ صـ ٣٣٠ تفسير سورة يونس

ظاهره بالأدب . فالمؤمن الحق هو الذى يراقب سره ، وينقى قلبه ، ويحرر نيته فلا يكون إلا لله .

وعليه أن يشهد وجود الله محيطا به فى كل لحظة من لحظات حياته ، وإذا صح ذلك منه عاش فى مقام الإحسان ، الذى يعبد الإنسان فيه ربه كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه

الدعاء فى ظل هذا الاسم

يرى كثير من العلماء أن يكون ذكر الله بهذه الأسماء مجتمعه « الأول الآخر الظاهر الباطن » كما جاء فى الحديث الشريف الذى سبق أن ذكرناه :

« اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . اقض عنا الدين وأغننا من الفقر »

والدعاء كما يقول بعض العلماء ، لابد أن يكون توجها بالروح والقلب ، وأن يكون الداعى كالعطشان عندما يسمع صوت الماء . . .

وهذا هو دعاء المضطر .

قال تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٨٤٠)

وعلى الإنسان أن يتجه دائما إلى الله ، ولا يتوجه لغير الله فى الدعاء ،

---

(٨٤٠) النمل ٦٢

وليتذكر دائما هذه الآية القرآنية :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٨٤١)

وقراءة الأسماء الأربعة مجتمعة فى الآية « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » بعد صلاة ركعتين ، وتكرار ذلك . مفيد لقضاء المطالب إن شاء الله ـ

وفى منظومة أسماء الله الحسنى :

ويا ظاهر أظهر على سناءكم ويا باطن أبطن فى الفؤاد هدايتى

وروى أن النبى ـ ﷺ ـ كان يكثر من قول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير »

وقد ناجى الشاعر أحمد مخيمر ربه فى ظل هذين الاسمين قائلا : ـ

لأنك ظاهر فى كل شىء خفيت عن الخلائق فى ظهورك
وأنت الباطن الأزلى ، تاهت سفائن للحقيقة فى بحورك
وما شهدت سوى لألاء نور يمد الباقيات على دهورك
ونورك أيها المولى حجاب يوارى بالصفاء صفاء نورك
تحير عاشقوه ، وقد تجلى فما عرفوا شموسك من بدورك(٨٤٢)

---

(٨٤١) الأنعام ٧٩
(٨٤٢) أسماء الله الحسنى لأحمد مخيمر صـ٩٨

ومن مناجاة ابن عطاء الله السكندرى :

إلهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك ، فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك . .

إلهى . أنت الذى لا إله إلا أنت ، علمت كل شىء ، وعرفك كل شىء ، فرأيتك ظاهرا فى كل شىء ، فأنت الظاهر لكل شىء .

« يامن احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار ،

«يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته بالأسرار .

«كيف تخفى وأنت الظاهر ؟

« أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر ؟

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الوالي

المتعالي

البرّ

التواب

المنتقم

العفو

الرؤوف

الوالى

ورد اسم الولى ـ جل جلاله ـ وتحدثنا عنه قبل ذلك .

وهذا الاسم « الوالى » لم يرد فى القرآن الكريم ، ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء التى جاء بها الحديث الشريف ، ورقم هذا الاسم فى تلك السلسلة السابع والسبعون .

ولكن كلمة الوالى ، وردت فى القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (٨٤٣)

وهى تنفى ولاية غير الله وتثبت الولاية لله حقا .

ووالٍ فى الآية بمعنى ملجأ ، أى ما لهم ملجأ ولا نصير دون الله يمنعهم من عذابه . واذا انتفت ولاية البشر لعجزهم عن النصرة ، فقد ثبتت الولاية لله القادر القوى القاهر . قال الشاعر :

* ما فى السماء سوى الرحمن من والٍ *

ولا فى الأرض كذلك .

والوالى والولى كالقادر والقدير . قال ابن منظور : من أسمائه ـ تعالى ـ الوالى ، وهو مالك الأشياء جميعها ، المتصرف فيها . قال ابن الأثير : وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل ، والذى لايجمع ذلك لا يطلق عليه اسم الوالى .

---

(٨٤٣) الرعد ١١

وقال ابن سيده : وَلِيَ الشيءَ وَوَلِيَ عليه ولاية ـ بكسر الواو وفتحها ـ وقيل : الوِلاية بالكسر الخِطة كالامارة ، كأن تقول : وِلاية مصر مثلا . والوَلاية ـ بالفتح ـ المصدر من وَلِيَ .

وقال ابن السكيت : الوِلاية ـ بالكسر فقط ـ السلطان ، وبالفتح وبالكسر النصرة .

قال العلماء : الوالى هو الذى يتولى أمور خلقه ويتصرف فيها كيفما شاء ، وينفذ فيها أمره ، ويجرى فيها حكمه بقدرته وأنعمه .

وقالوا بأسلوب آخر : هو المتولى أمور خلقه بالتدبير والقدرة والفعل ، فهو ـ سبحانه ـ المالك للأشياء المتكفل بها ، القائم عليها بالإدامة والابقاء ، المنفرد بتدبيرها ، المتصرف بمشيئته فيها ، ينفذ فيها أمره ، ويجرى عليها حكمه ، فلا والى للأمور سواه ـ قال تعالى ـ :

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ ﴾ (٨٤٤)

ومعنى الآية : أن الذى يتولى نصرى وحفظى هو الله . . وولى الشىء : الذى يحفظه ويمنع عنه الضرر .

وهذا هو الذى أشار إليه الحق ـ سبحانه ـ فى قوله :

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ ﴾ (٨٤٥)

---

(٨٤٤) الأعراف ١٩٦

(٨٤٥) التحريم ٤

والفرق بين الولى والوالى أشار اليه الغزالى ـ رحمه الله ـ بقوله : الوالى هو الذى دبَّر أمور الخلق ، وَوَليها أى تولاها وكان عليها بولايتها .

أما الولىُّ فهو المحب الناصر ، وحبه يظهر فى هدايته للمؤمنين وإحسانه لهم ، ونصرته تظهر فى أنه يقمع أعداء الدين ، وينصر أولياءه المؤمنين « الله ولى الذين آمنوا » .

ففى الولاية إشعار بالتدبير والقدرة والفعل . وقد أشار ابن الاثير الى ذلك فيما سبق أن قدمناه .

ومن معانى الوالى عند بعض العلماء : أنه المالك للأشياء المتصرف فيها . ويمكن إدراك هذا المعنى ـ على وجه التقريب . حين نقول : والى البلدة فعل كذا وكذا ـ من وجوه الاصلاح وأصدر من المرسومات كذا وكذا . . وهو فى هذه الحالة مستمد ولايته من الله الوالى الأكبر . . وقد تطلق على الأب أو العم أو من يكبرك من أفراد أسرتك اسم ولى الأمر ، ولا تطلق عليه اسم الوالى . ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض .

فالوالى الأعظم هو الله ـ جل جلاله ـ لأنه الذى يتولى أمور الخلق جميعا ولا معقب لحكمه . وهو الناظر بعين الحكمة فى إصلاح أمورهم ، وهو المتفرد بتدبير شئونهم ، القائم بنفسه على كل شىء ، ولا بقاء ولا دوام إلا بإذنه ، ولا شىء يجرى فى ملكه وسلطانه إلا بأمره ووفق حكمته ، هو الذى يقبل الدعاء ، ويدفع البلاء برحمته ، ويفيض العطاء بحكمته ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء . ولا ناقض لحكمه فى الأرض ولا فى السماء .

وقد ورد اسم المولى فى القرآن الكريم ، ويقصد به السيد المطاع والناصر

المعين لأوليائه قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ (٨٤٦)

والله الوالى هو المتصرف بمشيئته فى العوالم ، وهو الذى يوالى عباده بالاحسان ، ويمدهم بفيوض الامتنان ، ويثبتهم عند نوازل الامتحان ، ويبسط عليهم جناح الرحمة والحنان .

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا علم العبد أن الله هو الحاكم المطلق ، وأنه يحكم لا معقب لحكمه ـ اتخذه وليًّا ونبذ كل الأولياء دونه .

وجدير بمن تولى الله أمره أن يأخذ بيده من غواشى الظلام الى سرادقات النور والاكرام . اقرأ قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ (٨٤٧)

والذى يعيش فى رحاب هذا الاسم الجليل لا يوالى من الناس إلا من صفت سريرته ، وحسنت أحواله ، وسمت خصاله ، وكان ممن تولاهم الله من عباده المؤمنين . . . اقرأ قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(٨٤٦) محمد ١١

(٨٤٧) البقرة ٢٥٧

وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ ﴾(٨٤٨)

وقوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾(٨٤٩)

وفى ظل هذا المعنى قال ابن عطاء الله فى حِكَمِه : « لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله »

وإذا امتحن الله عبدا بولاية ، وخوله سلطانا ، فعليه أن يراعى حقوق العباد ، ويحكم بالحق ، ويحسن اختيار البطانة التى تحيط به - ممن يعينه على العدل ويجنبه الظلم ، امتثالا لقول الله - تعالى - لداود عليه السلام - :

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ

---

(٨٤٨) الأنفال ٧٢

(٨٤٩) الممتحنة ١

﴿ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (٢٦)[٨٥٠]

ومن واجب المؤمن أن يكون والياً على نفسه ، يسوسها بالحكمة ، ويعمل على ترويضها وتهذيبها ، حتى يجتاز بها مراتب سلوكها ، من أمّارة بالسوء إلى لوامة إلى راضية ، فمرضية ، فمطمئنة . .

وإذا أحسن الانسان سياسة نفسه صلح لسياسة غيره من الناس . .

الدعاء فى ظل هذا الاسم

الدعاء باسم الله « الوالى » يصلح لمن ولّاهم الله أمرا من أمور الرياسة . فإذا أكثر من ذكره سدده الله ، ووفقه للعدل فى رعيته ، وإنصاف المظلوم منهم .

ومن أكْثَرَ من ذكره وهو على وضوء وطهارة كان عند الله مقّربا محبوبا وعند الناس محترما مهيبا .

وقالوا : إن الاكثار من ذكره يرد الصواعق والآفات . . ومن دعاء بعض الصالحين :

« إلهى ، أنت الوالى المتصرف النافذ الأحكام ، وأنت المالك المتصرف فى ناصية العباد وفى قلوبهم وأرواحهم ياذا الجلال والاكرام ، أشرق على روحى نور اسمك الوالى ، فأكون مَظْهَراً للسر المتعالى ، وأشهد فى الخلق قدرتك ، وأفوز برضاك ، إنك على كل شىء قدير »[٨٥١]

---

(٨٥٠) ص ٢٦

(٨٥١) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ١ صـ٢٧٦

ومن الأدعية المشهورة التى يمكن استمدادها من اسم الوالى أيضا قولهم :

« اللهم إن حسناتى من عطائك ، وسيئاتى من قضائك ، فجد اللهم بما أعطيت على مابه قضيت ، حتى تمحو ذلك بذلك ، اللهم اجعلنا مع من أطاعك ، ولا تجعلنا مع من عصاك ، وأكرمنا بعطاياك ، لأنك قلت وقولك الحق « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »

« اللهم لولا عطاؤك لكنت من الهالكين ، ولولا رحمتك لكنت من الخاسرين وأنت أجل وأعظم ، وأعز وأكرم من أن تطاع إلا بإذنك ورضاك ، أو أنك تعصى إلا بحكمك وقضاك . . »[٨٥٢]

---

(٨٥٢) درة الأسرار لابن الصباغ صـ٩٦

المتعالى

المتعالى اسم فاعل من الفعل - تعالى - وأصل الفعل بعد حذف زوائده علا يعلو، بمعنى ارتفع وعظم .

والله - تعالى - هو العلى ، المتعالى ، العالى ، الأعلى ، ذو العُلا والعَلاء والمعالى .

ومعنى تعالى : جلَّ وعظم عن كل ثناء ، فهو أعظم وأجل وأعلى مما يثنى به عليه . ولذلك كان النبى - ﷺ - يقول فى ثنائه :

« اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »(٨٥٣)

والعلوُّ الرفعة والعظمة ، وقد يَدَّعِى بعض المخلوقين الاتصاف بذلك ، فيدفعهم ذلك الى التجبر والافساد فى الأرض . . ولذلك قيل فى معنى قوله تعالى :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا »(٨٥٤)

العلو : التكبر . وقد يكون بمعنى الطغيان . . . . كما فسروا بذلك أيضاً قوله - تعالى

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ

(٨٥٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة - رضى الله عنها -
(٨٥٤) القصص ٩٣

﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾(٨٥٥)

والعلو فى جانب الله هو العظمة والرفعة والقدرة على كل شيء .

قال ابن منظور : والله ـ عز وجل ـ هو العلى المتعالى . تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وتفسير أسماء الله ـ تعالى ـ المشتقة من مادة عَلاَ يقرب بعضها من بعض . فالعلى الشريف ، وهو بمعنى العالى . إلا أن العلى صيغة مبالغة ـ على وزن فعيل ـ والعالى اسم فاعل ، وهو الذى ليس فوقه شيء . وهو الذى علا الخلق فقهرهم بقدرته .

وأما المتعالى فهو الذى جل عن إفك المفترين ، وتنزه عن وساوس المتجبرين . وقد يكون بمعنى العالى ، إلا أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى .

وأما الأعلى ، فهو اسم التفضيل من الفعل علا ، ومعناه ـ أنه هو الأعلى عن كل ماعداه صفة وذاتا واسما . إلا أن أفعل التفضيل على غير بابه ، لأن الله لا يشترك أحد معه فى صفة فيكون هو جل جلاله أفضل منه فيها ـ كما يقضى بذلك معنى المفاضلة . . ويقاس على ذلك قولنا : الله أكبر ، كما يقاس قوله : وهو أهون عليه . وصفة الله العليا ـ كما يقول ابن منظور ـ شهادة أن لا اله إلا الله ، فهذه أعلى الصفات ، ولا يوصف بها غيره . . وكان الله .

---

(٨٥٥) القصص ٤

ولم يزل عليا عاليا متعاليا ، وهو العلى العظيم »[٨٥٦]

وقال بعض العلماء : المتعالى ـ جل جلاله ـ البالغ الرفعة والعلو إلى مقام لا تدركه الأبصار ، فهو ـ جل جلاله ـ على عرشه فوق السموات العلا ، وهو العظيم فى ذاته ، المتعالى فى صفاته عن الحوادث التى تجوز على المخلوقين ، قال ـ جل ـ جلاله ـ :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ ﴾ [٨٥٧]

ولم يرد هذا الاسم فى غير هذه الآية ـ ولكن ورد فى القرآن الكريم الكثير من الآيات التى تشير إلى علو الله وعظمته وارتفاعه .

وقد سبق أن ذكرنا بعض الآيات التى ذكر فيها اسم الله « العلى » .

وهذه آيات ورد فيها اسم الله الأعلى . . قال ـ تعالى ـ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ﴾ [٨٥٨]

وقال ـ تعالى ـ :

﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ ﴾ [٨٥٩]

وكل صفات الله تشير الى علوه وارتفاعه وعظمته . فخالق الكون ومبدعه ، ورازق الخلق ، والعليم بهم ، والمجيب لدعائهم ، والرءوف بهم والسميع لهم ، والبصير بهم ، لابد أن يكون عليا متعاليا . .

---

(٨٥٦) لسان العرب لابن منظور مادة علا
(٨٥٧) الرعد ٩
(٨٥٨) الأعلى ١
(٨٥٩) الليل ٢٠

ويقول بعض العلماء فى معنى اسم الله « المتعالى » : إنه المستعلى على كل شيء بقدرته ، العلى الكامل فى العلو والعظمة ، البالغ الغاية فى الرفعة والكبرياء فى ذاته وصفاته وأفعاله .

والله المتعالى هو المستعلى على كل شيء بكمالاته ، فقد تعالى عن كل شريك ، وتنزه عن كل نقص ، وهو المنعوت بكل كمال ، الموصوف بكل جلال المنزه عن الشريك والمثل .

والله المتعالى هو الذى يجل عن الشبيه ، ويرتفع عن المماثله ، فهو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وعلو الله علو مكانة وارتفاع قدر وإحاطة ، واستواؤه على عرشه لا يعنى الجلوس المعروف فى مفهومنا ، ولكن العلماء الأجلاء والسلف الصالح أوضحوا لنا هذه الحقيقة بما يرفع اللبس عن الأذهان ، ويدفع الوهم عن الأفهام ، وينفى الشبه بالحوادث عن الواحد العلام .

إن استواء الله على العرش حقيقة كما أخبر بذلك فى كتابه الكريم ، ولكن كيفية هذا الاستواء يعلمها هو - جل جلاله - قال مالك - رحمه الله - وقد سئل عن ذلك : الاستواء معلوم - أى فى اللغة - والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

وقد تأول بعض العلماء معنى استوى بأنه الاستيلاء والظهور . . . كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

أو يقصد به العلو والرفعة كما قال الشاعر :

فأوردتهم ماءً بفيفاء قفرةٍ   وقد حلَّق النجم اليمانى فاستوى[860]
أى علا وارتفع .

وقد تنزه الحق ـ جل وعلا عن اتخاذ الصاحبة والولد قال ـ تعالى ـ :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [861]

وقال سبحانه

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [862]

كيف يتأدب المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا أدرك المؤمن سمو الله ورفعته وتعاليه فى ملكه ـ ارتفعت همته اليه ، وسلك الطرق المؤدية الى حضرته ، ليتعرف على مالك الملك وبديع السموات والأرض .

ولا يصلح لحضرة الملوك إلا من أدب نفسه بأدبهم ، وسما بهمته إلى حضرتهم ، ولا يكون ذلك إلا بسياسة النفس . وتربيتها وتأديبها وتهذيبها .

حكى العلماء فى ترجمة الفضيل بن عياض المتوفى بمكة المكرمة سنة سبع وثمانين ومائة ـ وكان من كبار تابعى التابعين ومن أجلة العلماء العارفين .

---

(٨٦٠) راجع تفسير القرطبى جـ٧ صـ٢١٩ ـ سورة الأعراف ـ آية رقم ٥٤
(٨٦١) المؤمنون ٩١
(٨٦٢) الأنعام ١٠١

قالوا : إنه كان فى أول أمره قاطع طريق . ثم سمع مرة قارئا يقرأ قوله ـ تعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٨٦٣)

فقال : يارب قد آن . وتاب وعزم على المجاورة فى بيت الله الحرام . . ثم قال : إنه لا يصلح لجوار الملوك إلا من تأدب بأدبهم . فأقبل على مجالس العلم يتعلمه فى كل مكان ، حتى أنس من نفسه أنه يصلح لمجاورة بيت الله الحرام ، فقصد مكة ، وأقام بها ، وأصبح عالمها وأحد كبار رواة الأحاديث فيها ، ومات وقد ترك من الاقوال والآثار مايشهد بعلمه وفضله . .

الذكر فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : إذا أردت الدخول على الحكام فأكثر من ذكر اسم الله المتعالى فان الله يخضعهم لك .

والذكر به يصلح للتخلص من الأعداء وقهرهم .

ومن الذكر الوارد فى ذلك . ياقريب أنت المجيب المتعالى فوق كل شىء . . . .

---

(٨٦٣) الحديد ١٦

ومن مناجاة الشاعرة أحمد مخيمر ربه فى ظل اسمه المتعالى قوله :

تعاليت أنت الواحد المتعالى تباركت موصوفا بكل كمال
وكل علِيٍّ فى الوجود علمته فدونك فى قدسية وجلال
تعاليك يارب الخليقة مطلق بغير حدود أو بغير مثال
لأنك سر البدء مالك أمره وحافظه من ضيعة وزوال(٨٦٤)

وفى منظومة أسماء الله الحسنى فى الاسمين : الوالى والمتعالى :

وياولياً أمرى برفق تولّه ويامتعالِ أعْلِ قدرى وحُرْمتى

ومن أقوال بعض الصالحين

« اللهم إنك لم تُشْهِدنا على خلقنا ولا على خلق غيرنا ، ولم تتخذ أحدا من المضلين عضدا ، ولم يكن لك شريك فى الملك ، ولم يكن لك ولى من الذل ، كبرّت نفسك قبل أن يكبرك المكبرون ، وعظمت وجودك قبل أن يعظمك المعظمون .

« فنسألك بذلك التعظيم عزًّا لاذل به ، وغنًى لا فقر معه ، وأنسا لا كدر فيه ، وأمنا لا خوف بعده .

وأسعدنا فى إجابة التوحيد فى طاعتك ، حسبما كنا يوم الميقات الأول فى قبضتك ، إنك على كل شىء قدير »(٨٦٥)

---

(٨٦٤) أسماء الله لأحمد مخيمر صـ١٠٩

(٨٦٥) درة الاسرار صـ١٠١

البَــــرُّ

ورد اسم « البر » فى قوله تعالى

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٨٦٦)

وقد وردت على لسان المؤمنين فى الجنة .

جاء فى لسان العرب : البرُّ من صفات الله تعالى وتقدس ـ ومعناه : العطوف الرحيم اللطيف الكريم .

وقال ابن الأثير : فى أسماء الله ـ تعالى ـ البرُّ دون البار ـ وهو العطوف على عباده ببره ولطفه .

والبَرّ والبار بمعنى ، وإنما جاء فى أسماء الله ـ تعالى ـ البَرّ دون البارّ . . . .

والبر مشتق من الفعل « برَّ » بمعنى صدق ، ومنه كلمة « البر » بكسر الباء بمعنى الصدق والطاعة ، ومنه قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (٨٦٧)

---

(٨٦٦) الطور ٢٨

(٨٦٧) البقرة ١٧٧

ويأتى بَرَّ بمعنى صلح ، وتقول : فلان بر فى يمينه إذا صدق ، ولم يحنث ، وبر والديه إذا أطاعهما ولم يعقهما ، وهو برٌّ وبار - من قوم أبرار وبررة ، والحج المبرور - هو المقبول المقابل بالبر وهو الثواب .

وقال بعض أهل اللغة : يجمع بر على أبرار ، ويجمع بار على بررة . قال أهل التفسير فى قوله تعالى - « إنه هو البر الرحيم » : أى اللطيف - قاله ابن عباس - فيما نقله القرطبى - ونقل عنه أيضا : أنه الصادق فيما وعد . وجاء فى روح المعانى وغيره : إنه المحسن .

ومن أكثر إحسانا من الله ؟

وجاء فى كتاب : « فى ملكوت الله مع أسماء الله » البرٌّ واسع الإحسان ، صادق الوعد ، عظيم الجود لعباده ، سبحانه واسع البر ، يمن بعطائه على عباده فى الدنيا والآخرة ، ولايقطع الإحسان بسبب العصيان .

وقال بعض العلماء : البر هو العطوف على عباده ، المحسن اليهم - عم بره جميع خلقه ، فلم يبخل عليهم بالرزق ، وهو البر بأوليائه إذ خصهم بولايته ، وأذاقهم حلاوة مناجاته ، وهو البر بمن يحسن من عباده بمضاعفة الثواب له ، والبر بمن يسىء من عباده فى الصفح والتجاوز عنه .

ولقد جاء فى القرآن الكريم هذا الاسم مقترنا باسم الله « الرحيم » وكلاهما من معين رحمة الله وعطفه وبره وإحسانه ، وقد علمنا فى تفسير معنى الرحيم أن رحمة الله وسعت كل شىء حتى طمع فيها البر والفاجر ، والمؤمن والعاصى .

وقيل إن البر - بفتح الباء - فاعل البر ، وبالكسر هو الإحسان والاتساع ، وهو الصلة والخير والتوسع فى الاحسان والصدقة .

وجاء فى تاج العروس للزبيدى : البر خير الدنيا والآخرة ، فخير الدنيا مايبسره الله - تعالى - للعبد من الهدى والنفحة والخيرات ، وخير الآخرة الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة .

أما البر فى حقه - تعالى - فهو فاعل البر والاحسان ، الذى يحسن على عباده بالخير .

ويقول الامام الغزالى - رضى الله عنه - : البر هو المحسن - والله هو البر المطلق الذى منه كل مبرة وإحسان - والعبد يكون برا بقدر مايتعطاه من البر ، لاسيما بوالديه وأساتذته وشيوخه .

روى أن موسى - عليه السلام - لما كلمه ربه ، رأى رجلا قائما عند ساق العرش ، فتعجب من علو مكانه . فقال : يارب ، بم بلغ هذا العبد هذا المحل ؟ فقال : إنه كان لايحسد عبدا من عبادى على ماأتيته ، وكان بارا بوالديه .

ويتحدث الرازى عن هذا الاسم : فيذكر أن معناه كثرة الاحسان إلى العباد ، وأشار إلى مظاهر سعة بر الله بعباده الذى يشمل الدنيا والدين .

فبره بعباده فى الدنيا أنه منحهم الصحة والقوة وكفل لهم الرزق ، وأجزل لهم العطاء من المال والجاه والولد والسلطان ، وسخر لهم مافى السموات والأرض جميعا منه ،

وأما فى الدين فقد منَّ عليهم بالايمان والطاعة وهداهم إليه

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟

أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٨٦٨)

ونعم الله لاتعد ولاتحصى قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٨٦٩)

وقال

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٨٧٠)

كيف يتخلق المؤمن بهذا الاسم ؟

إذا أدرك المؤمن معنى هذا الاسم عاش فى ظله فى نعمة سابغة ، قريرة عينه بما وهبه الله من عطاء ، وما منحه من هدى ، وماأفاض عليه من كرم . ويتعلم من ذلك كيف يكون شكورا على النعماء ، مشاركا غيره فى السراء والضراء .

إن الله ـ جل وعلا ـ يعطى بغير منٍّ . ويمنح بدون مقابل ـ فليتعلم المؤمن من ذلك أن يكون إحسانه لغيره كذلك ، ويقتدى بما يهدى إليه مضمون قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ

---

(٨٦٨) الأعراف ٤٣

(٨٦٩) لقمان ٢٠

(٨٧٠) ابراهيم ٣٤

﴿ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾ (٨٧١)

ذكر أن ضيفا طرق باب إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان إبراهيم عليه السلام مضيافا ، ولكنه حين وجد هذا الرجل الضيف لايدين بدين الله ـ رفض إكرامه وانصرف الرجل حزينا .

فأوحى الله إلى إبراهيم : إنى أرزق هذا سبعين عاما ولايؤمن بى . أفتضيق به ساعة من نهار ؟

فأسرع إبراهيم ـ عليه السلام ـ خلف الرجل ، واعتذر اليه ، وقال له : لقد عاتبنى الله بسببك .

وكان ذلك سببا فى هداية الرجل وإقباله على دين إبراهيم وإيمانه بربه .

وقد دعانا الله إلى أن نتخلق بالأخلاق الحسنة ، وفى مقدمتها مقابلة الإساءة بالاحسان ـ قال تعالى ـ

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ ﴾ (٨٧٢)

ودعانا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإكثار من الحسنات ، وحثنا على فعل الصالحات وغض النظر عن السيئات ، وأخبرنا بما وعد الله به المحسنين من جزيل الثواب .

ومن ذلك مارواه أحمد ومسلم عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال رسول

---

(٨٧١) الانسان ٨ ، ٩

(٨٧٢) فصلت ٣٤ ، ٣٥

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يقول الله تعالى من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر ، ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لايشرك بى شيئا جعلت له مثلها مغفرة »

ومن مدلول لفظ البر نتأدب بما يدعونا الله إليه فى قوله تعالى ـ

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (٨٧٣)

وقد ورد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن من أكبر الكبائر بعد الإشراك بالله ـ عقوق الوالدين وعدم برهما .

والبر بالوالدين يرفع صاحبه إلى أعلى عليين ، ويكفر كبائر الذنوب ويفرج الكروب . . . . وفى قصة الصخرة التى انطبقت على فم غار فيه ثلاثة رجال وتوسلوا الى الله بصالح أعمالهم ليفرج عنهم ماهم فيه ـ أن أحدهم توسل الى الله ببره بوالديه . وقد فرج الله عنهم ضيقهم وأزاح الصخرة عن طريقهم .

ومن محاسن يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ البر بالوالدين . ففى حق يحيى قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ (٨٧٤)

---

(٨٧٣) الاسراء ٢٣ ، ٢٤ (٨٧٤) مريم ١٣ ، ١٤

وفى حق عيسى قال - تعالى -

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ ﴾ (٨٧٥)

والبَرُّ من المؤمنين هو الذى يجتهد فى الطاعات ، وينأى بجانبه عن السيئات ويسرع فى إجابة دعوة الحق ، ويؤثر الخير والبر والصدق ، ويتضرع إلى الله قائلا

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣ ﴾ (٨٧٦)

وعلى المؤمن أن يبر نفسه وذلك بالاقبال على تأديبها وتهذيبها وتغيير صفاتها السيئة بأخرى حسنة ، وإن لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه .... وأظلم الظالمين من ظلم نفسه .

وليثق المؤمن أن البر مدخر لصاحبه مجزى عنه خير الجزاء . كما جاء فى الحديث الشريف الذى رواه ابن عمر « البر لايبلى ، والذنب لاينسى ، والديان لاينام ، وكما تدين تدان »

الذكر فى ظل هذا الاسم :

قال العلماء : إذا قرىء هذا الاسم على الصبى فإن الله يصلحه وينشئه نشأة بارة ويحفظه .

ومن خصائص قراءة هذا الاسم أن الله يرزق قارئه القبول والعزة وعلو

---

(٨٧٥) مريم ٣٢

(٨٧٦) آل عمران ١٩٣

المرتبة والمنزلة .

ويصلح ذكره لمن عاداه الناس ولم يجد خلاصا من عداوتهم .

وقال الشاعر أحمد مخيمر مناجيا ربه فى ظلال هذا الاسم :

وهبت لكل الخلق برا ورحمة ... وقد زدت فى النعمى لمن زاد فى الشكر
ولم تنس حتى الدود فى الصخر ساريا ... ولاالطير فى جو ، ولا الوحش فى قفر
لأنك أنت البر بالخلق كلهم ... ومرشدهم للنور فى ظلمة الكفر
ومن أجلهم أرسلت رسلك بالهدى ... لكى يطرقوا باب العناية بالعذر
وزينت وجه الأرض فى الصبح بالسنا ... ليسعوا وفى الظلماء بالأنجم الزهر(٨٧٧)

ومن الدعاء الذى يستوجبه شكر الله المنعم البر الرحيم قول الامام الشاذلى : « أشكرك على أنعمك التى لاأحصيها ، شكرا يقتضى زيادتها ويستدعيها ، مع أنى عاجز عن شكرك ، والقيام بواجب ذكرك ، لأنى إن عرفت الشكر فبالعقل الذى أعطيت ، وإن تكلمت فبالنطق الذى آتيت ،وإن تحدثت فبالقوة التى أوليت ، فأين الشكر الذى أضيفه لنفسى ؟ وكل ذلك بك ومنك »

---

(٨٧٧) أسماء الله الحسنى لأحمد مخيمر صـ١٠١

التـــــوَّاب

ورد اسم الله التواب فى القرآن الكريم فى أحد عشر موضعا . جاء فى تسعة منها مقترنا باسمه « الرحيم » وفى واحد غير مقترن باسم آخر ، وفى واحد مقترنا باسمه ـ تعالى ـ الحكيم .

فالموضع الذى اقترن فيه باسمه الحكيم هو قوله تعالى ـ

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾(٨٧٨)

والموضع الذى جاء فيه غير مقترن بغيره ، هو قوله ـ تعالى ـ :

« فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا »(٨٧٩)

ومن المواضع التى جاء فيها مقترنا باسم الله الرحيم قوله تعالى :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾(٨٨٠)

وقوله تعالى ـ :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾(٨٨١)

---

(٨٧٨) النور ١٠
(٨٧٩) النصر ٣
(٨٨٠) البقرة ٣٧
(٨٨١) البقرة ١٦٠

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾ (٨٨٢)

والمادة التى اشتق منها هذا الاسم وهى « تاب » وردت فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة جدا . وهى تدل على أن الله سبحانه يحب من عباده أن يقبلوا عليه بالتوبة ، ويتفضل هو عليهم بقبولها ، بل هو سبحانه ـ الذى يفتح لهم بابها ليدخلوا منه إلى ساحة العفو والمغفرة . قال تعالى ـ

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (٨٨٣)

وهو ـ سبحانه ـ « يحب التوابين ويحب المتطهرين »

بل لقد نزلت سورة بأكملها سميت بسورة التوبة ـ تشير الى سعة رحمة الله وفضله على المؤمنين وقبوله توبة التائبين .

وقد بدأت هذه السورة بالتبرى من المشركين ، وختمت بالرأفة بالمؤمنين حيث أرسل الله إليهم رسولا منهم رءوفا بهم ـ قال تعالى :

---

(٨٨٢) النساء ٦٤

(٨٨٣) التوبة ١١٨

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (٨٨٤)

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو مظهر رحمة الله الواسعة ، وهو الذى عرف المؤمنين باب التوبة ودلهم عليها فكان يقول لهم حاثا على التوبة والاستغفار :

« والله إنى لاستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »(٨٨٥)

ومعنى التوبة عند أهل اللغة : الرجوع عن الذنب ، والعودة إلى الله . جاء فى الحديث : « الندم توبة » وقد تأتى التوبة بدون تاء : فتقول التوب . وفى القرآن الكريم

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ (٨٨٦)

وتقول : تاب إلى الله يتوب توبة وتوبا ومتابا . . . وتاب الله عليه : وفقه للتوبة ، وقبل توبته .

وتواب : صيغة مبالغة من الفعل تاب ، ومعناه فى جانب الله : أنه كثير

---

(٨٨٤) التوبة ١٢٨ ، ١٢٩

(٨٨٥) رواه البخارى عن أبى هريرة ـ رى الله عنه ـ

(٨٨٦) غافر ٣

التوبة على عباده سريع العفو عنهم ، ومعناه فى حق العبد : أنه كثير التوبة عن الذنوب .

قال أهل التفسير : تكرر قوله - تعالى - فى القرآن الكريم « التواب الرحيم » وجاء معرفا ومنكرا واسما وفعلا . . وقد يتصف بعض العباد بذلك كما جاء فى قوله - تعالى - :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ (٨٨٧)

وقال العلماء توبة العبد رجوعه من حال المعصية الى حال الطاعة . وتوبة الله على العبد قبوله توبته .

قال العلماء ، ولايصح استعمال اسم الفاعل من الفعل تاب فى حق الله - تعالى - ذلك أنه ليس لنا أن نطلق على الله تعالى - من الأسماء والصفات إلا ماأطلقه هو على نفسه . أو أطلقه نبيه - صلى الله عليه وسلم - عليه ، أو جماعة المسلمين وإنما قيل تواب للمبالغة فى الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب عليهم (٨٨٨)

وقال بعض العلماء فى معنى التواب : إنه المهيىء أسباب التوبة لعباده ، فهو الذى يحذرهم من المعصية ، ويمهلهم مرة ومرة حتى يرجعوا ويتوبوا

---

(٨٨٧) البقرة ٢٢٢

(٨٨٨) تفسير القرطبى - جـ ١ آية فتلقى آدم من ربه كلمات - رقم ٣٧ -

وهو الذى يعود بصنوف الاحسان عليهم ـ فيوفقهم بعد خذلان ، ويعطيهم بعد حرمان ، ويخفف عنهم بعد تشديد ، ويعفو عنهم بعد وعيد .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٨٨٩)

فهو ـ جل شأنه ـ تواب يوفق عباده للتوبة المقبولة تفضلا منه وتعطفا وإحسانا ، فإذا صدقت نية العبد فى الرّجوع الى الله وفقه للتوبة النصوح ، ومعناها العزم الصادق على ترك المعاصى والندم عليها .

وقد ذكر القشيرى فى رسالته للتوبة معانى منها ـ الانابة ، والأوبة ، فالتوبة هى بداية . والأوبة نهاية . والإنابة بينهما .

فمن خاف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعا فى الثواب فهو إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر ، لاخوفا من عقاب ولاطمعا فى ثواب فهو صاحب أوبة .

وقال أيضا : التوبة صفة المؤمنين ـ قال تعالى ـ

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ

---

(٨٨٩) الشورى ٢٥

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ
ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ
مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ (٨٩٠)

والانابة صفة الأولياء والمقربين .. قال تعالى

﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٨٩١)

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين .. قال تعالى -

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٨٩٢)

وذكر أن التوبة درجات ، فهناك توبة من الزلات ، وهناك توبة من الغفلات ، وهناك توبة من السيئات .

وقال بعض العلماء فى معنى « التواب » : إنه المعيد الى عبده فضل رحمته إذا هو رجع إلى طاعته وندم على معصيته - فلا يحبط له ماقدم من خير ، ولايمنعه ماوعد به المطيعين من الاحسان ، وكلما تكررت توبة العبد تكرر القبول من الرب التواب .

وتفسير الغزالى - رضى الله عنه - لاسم الله « التواب » أنه الذى ييسر أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى ، بما يظهر لهم من آياته ، ويسوق لهم

---

(٨٩٠) النور ٣١
(٨٩١) ق ٣٢
(٨٩٢) ص ٤٤

من تنبيهاته ، ويطلعهم على تخويفاته وتحذيراته ، حتى إذا اطلعوا على غوائل الآثام ، واستشعروا الخوف من عواقب الإجرام رجعوا إلى التوبة فيرجع إليهم فضل الله ـ تعالى بالقبول .

ومن تعريفات العلماء للتواب أيضا .

أنه هو قابل الدعاء بالعطاء ، والاعتذارِ بالاغتفار ، والانابة بالاجابة ، والتوبة بغفران الحوبة »[٨٩٣]

والتواب هو الذى يفتح أمام العصاة الأبواب ولاييئسهم من رحمته بأليم العقاب ، بل يؤلفهم بعفوه وفضله لاستحقاق الثواب بعد المآب .

وبين التواب والغفور والغافر ألفة فى المعنى ، فتوبة الله على عباده تستوجب غفرانه ذنوبهم والاعراض عن مؤاخذتهم ثم دخولهم الى حظيرة أمنه ورضوانه .

قال الرازى : التواب هو الذى يوفق عباده بعد الخذلان ويعطيهم بعد الحرمان ، ويخفف عنهم بعد التشديد ويعفو عنهم بعد الوعيد ، ويكشف عنهم أنواع البلاء ، ويفيض عليهم أقسام الآلاء ، فهو تعالى ـ ناسخ المكروه بالمحبوب . وقابل التوبة من الذنوب ، وكاشف الضر عن المكروب .

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا تأمل المؤمن فى مضمون هذا الاسم الكريم ، عاش فى رحابه ، وأسرع إلى الإنابة وأقبل على واسع رحابه ، ودق بالتضرع والدعاء على مصراع بابه ، فالحق ـ يقبل عليه . ويستجيب له . . أليس هو القائل فى

---

(٨٩٣) الحوبة الاثم

حديث قدسي . . « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت باعا ، ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة » ؟

والله يفرح بتوبة عبده إليه ، فليحرص المؤمن على أن يظفر بفرح الله ويفرح بذلك . قال تعالى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٨٩٤)

وليقتد العبد بأبيه آدم الذى تلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وماكانت هذه الكلمات سوى حسن الثناء على الله ، والاقبال عليه بصدق الإنابة . والتوسل اليه بخالص الأعمال وصدق الدعاء والاستغفار .

واذا كان الله توابا على عباده التائبين ، غير ميئس لهم من رحمته ـ فليتعلم المؤمن من ذلك الصفح والعفو عمن أساء إليه . وليقبل عذر من اعتذر إليه ، فإن الله يحب من عباده أن يتخلقوا بأخلاقه .

الدعاء فى ظل هذا الاسم :

ورد فى الأثر الشريف : « كل ابن آدم خطاء وخيرهم التوابون »
وأدعية التوبة المأثورة كثيرة . .
منها ماجاء فى ختام سورة البقرة :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا

---

(٨٩٤) يونس ٥٨

﴿وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾(٨٩٥)

وماجاء على لسان آدم عليه السلام

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾(٨٩٦)

وماجاء على لسان إبراهيم

﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾(٨٩٧)

ومن دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وماأنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى خطيئتى وعمدى وهزلى وجدى ، وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ماقدمت وماأخرت وماأسررت وماأعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شىء قدير »(٨٩٨)

وعلى نمط ذلك ماجاء فى أدعية الصالحين المخلصين . فى قولهم :

---

(٨٩٥) البقرة ٢٨٦
(٨٩٦) الأعراف ٢٣
(٨٩٧) الممتحنة ٤ ، ٥
(٨٩٨) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ

« اللهم إنا نسألك التوبة الكاملة والمغفرة الشاملة ، والمحبة الجامعة والخلة الصافية ، والمعرفة الواسعة والأنوار الساطعة والشفاعة القائمة والحجة البالغة والدرجة العالية ، وفك وثاقنا من المعصية ، ورهاننا من النقمة بمواهب المنة ، إنك على كل شيء قدير »

« اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها . ونعوذ بك من المعصية وأسبابها اللهم ذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتنا ، واحملنا على النجاة منها ومن التفكر فى طرائقها ، وامح من قلوبنا حلاوة المعصية واستبدل بها الكراهة لها والحب لما هو بضدها ، وأفض علينا من بحر كرمك وجودك حتى نخرج من الدنيا على السلامة من وبالها ، واجعلنا عند الموت ناطقين بالشهادة عالمين بها ، وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها . . »(٨٩٩)

(٨٩٩) درة الأسرار صـ ٨٩

المنتقم

المنتقم اسم فاعل من الفعل « انتقم » وانتقم مزيد الفعل نقم . ومصدره نِقمة ونَقْمة . ومعناها المجازاة بالعقوبة ـ وتجمع نقمة على نِقم ، كما تجمع نعمة على نعم .

وعلى القياس فى أن الزيادة فى المبنى تدل على الزيادة فى المعنى ـ يكون معنى انتقم : المبالغة فى العقوبة لمن يشاء .

وهذا الاسم فى حق الله ـ تعالى ـ معناه : الذى يقصم ظهور الطغاة ويشدد العقوبة على العصاة .

والانتقام غاية النكال . . ولا يكون إلا للمستحلين محارم الله ، المتمادين فى الظلم المتجاوزين الحد فى البغى والفساد . . . .

وقال بعضهم : إن المنتقم معناه ـ أن الذى يعرف عظمته يخشى نقمته ، ومن عرف رحمته رجا نعمته .

وهذا الاسم من كمال الربوبية ، التى تقتضى إكرام المحسنين وتأديب المسيئين . قال تعالى :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾(٩٠٠)

وجاء فى الأثر القدسى : « أنا الله الذى لااله إلا هو سبقت رحمتى غضبى »

---

(٩٠٠) الحجر ٤٩ ، ٥٠

ومن مظاهر رحمته أنه لايعجل فى العقوبة ، ولايبادر بالنقمة ، ولكنه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

جاء فى لسان العرب : من أسماء الله ـ عز وجل « المنتقم » وهو المبالغ فى العقوبة لمن شاء ، وهو مفتعل من نقم ينقم ـ إذا بلغت به الكراهة حد السخط .

وقد جاء هذا الاسم فى القرآن الكريم بصورة الجمع فى قوله ـ تعالى ـ
﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾ (٩٠١)

وفى قوله ـ تعالى ـ
﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) ﴾ (٩٠٢)
﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ﴾ (٩٠٣)

وقد ورد الفعل ـ انتقم ـ فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة . . . . . . منها قوله ـ تعالى ـ
﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ (٩٠٤)

---

(٩٠١) السجدة ٢٢
(٩٠٢) الزخرف ٤١
(٩٠٣) الدخان ١٦
(٩٠٤) الأعراف ١٣٦

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٩٠٥)

كما ورد مصدر هذا الفعل مسنداً إلى الله ـ تعالى ـ في قوله :

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ (٩٠٦)

وقد تأتى النقمة بمعنى الإنكار ، وذلك فى مثل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٩٠٧)

أى تنكرون منا . . . . . وتأتى بمعنى العتاب تقول : نقمت عليه أى عاتبته وتأتى بمعنى الكراهية مثل قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ (٩٠٨)

وقال بعض العلماء المنتقم ـ الذى يقصم ظهور العصاة بعدله ، ويشدد العقوبة على الطغاة بقدرته ـ قال ـ تعالى ـ :

« إنا من المجرمين منتقمون »

---

(٩٠٥) الروم ٤٧
(٩٠٦) آل عمران ٤
(٩٠٧) المائدة ٥٩
(٩٠٨) البروج ٨

والانتقام أشد من العقوبة العاجلة ، لأنه غاية النكال . . . . . والانتقام يحول بين العاصى والإمعان فى المعصية .

ولا يأتى الانتقام إلا بعد تحذير وإنذار ـ قال ـ تعالى ـ

« ومن عاد فينتقم الله منه »

قال الغزالى مؤكداً هذا المعنى : المنتقم هو الذى يقصم ظهور العتاة ، وينكل بالجناة ، ويشدد العقوبة على الطغاة ، وذلك بعد الإعذار والإنذار ، وبعد التمكين والإمهال . . . والانتقام أشد من المعاجلة ولهذا كانت المعاجلة بالعقوبة أفضل للعبد ،

فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن فى المعصية ، فلايستحق غاية النكال .

وهذا الاسم من أسماء الجلال والقهر . .

والخوف من عقوبة الله لها أثر طيب فى الإقلاع عن المعاصى والاحتراز من السيئات ، وفى الأمثال الشائعة « من خاف سلم » أما القرآن الكريم فيعبر عن هذا المعنى بأسلوبه الرائع فى قوله تعالى :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ ﴾(٩١٠)

﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ

---

(٩٠٩) فاطر ٢٤

(٩١٠) يوسف ٩٠

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ (٩١١)

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ (٩١٢)

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٩١٣)

والتقوى هى الخوف من الله ، والحذر من بطشه ونقمته ..

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم

إن حظ المؤمن من هذا الاسم أن يتدبر معنى سطوة الله ونقمته

« إن بطش ربك لشديد »

وأن يتدبر معنى اجتماع العزة والانتقام فى قوله تعالى :

« والله عزيز ذو انتقام »

فيدعوه ذلك إلى محاسبة نفسه ، وتحرى طاعة ربه ، والالتزام بالأوامر ،

---

(٩١١) الطلاق ٢ ، ٣

(٩١٢) الطلاق ٤

(٩١٣) النور ٥٢

والانتهاء عن النواهى .

كما يدعوه ذلك إلى اللجوء إلى الله فى أخذ حقه المهضوم ، ولا يعجل فى أخذ حقه بنفسه ، فإن عين الله ساهرة لاتغفل ، قال الشاعر :

تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

جاء فى الأثر « اشتد غضبى على من ظلم من لايجد له ناصراً غيرى »

وجاء أيضاً : « إذا دعا العبد على ظالمه قال الله ـ تعالى ـ عبدى أنت تدعو على من ظلمك ، ومن ظلمته يدعو عليك ، فإن أردت أن أستجيب لك أستجيب عليك »

وفى هذا المعنى جاءت الحكمة المأثورة : « إذا أمكنتك قدرتك على المخلوق فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أن مالك عند الله أكثر ممالك عند الناس »(٩١٤)

الدعاء فى ظل هذا الاسم

هذا الاسم من الأسماء القهرية التى يجب على الذاكر بها أن يحذر سطوة الله ـ ولا يعجل بالانتقام من ظالمه .

ويكفيه أن يقول : « حسبنا الله ونعم الوكيل »

ويمكن الإكثار من ذكر هذا الاسم ـ عند اعتداء أهل الكفر والشرك على المسلمين . ومن الدعاء على أعداء الاسلام قوله :

إلهى إن بغى الأعدا وجاروا كفى بك ربنا ملكا مجيراً
كفى بك ربنا عونا ونصراً فكن ربى على الأعدا نصيراً

---

(٩١٤) فى ملكوت الله مع أسماء الله للشيخ عبد المقصود محمد سالم صـ١٠٥

وأهلكهم ودمرهم ، أهنهم ... وكن ربى على الأعدا ظهيراً
وزلزلهم وزد غضباً عليهم ... وعذبهم عذابا مستطيراً
ولا تترك من الأعدا عدوا ... يعادينا صغيرا أو كبيراً
وخذهم أخذ جبار عزيز ... بمن أرسلته فينا نذيراً
وصل عليه يارب وسلم ... صلاة ثم تسليما كثيراً

ومن الدعاء الوارد فى ظل هذا الاسم ـ قولهم :

« إلهى ، أنت المنتقم من أعدائك الظالمين ، القاهر بسطوتك للمجرمين ، قد انتقمت من النمروذ وفرعون وهامان ، ومحقت أهل الظلم والطغيان . . .

« امنحنى نوراً فى بصيرتى ، وقوة فى روحانيتى ، حتى أنتقم من نفسى إذا خالفت الحدود ، وانتقم من الظالمين أهل الجحود ، وأشاهد سطوة انتقامك فأخشع ، وصولة عزك فأخضع . . . . إنك على كل شىء قدير »[٩١٥]

---

(٩١٥) أسماء الله الحسنى جـ١ صـ٣٩٢

العَفُـــــوُّ

جاء فى لسان العرب : فى أسماء الله « العفو » وهو فعول من العفو ، وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه ، وأصله المحو والطمس ، وهو من أبنية المبالغة ، يقال : عفا يعفو عَفْواً ، فهو عافٍ وعَفُوٌّ .

وقال الليث : العَفْو ـ هو عفو الله ـ عز وجل ـ عن خلقه ، والله ـ تعالى ـ العَفُوُّ الغفور .

وكل من استحق عقوبة فتركتها فقد عفوت عنه .

والعفو محو السيئة ، قال ابن الأنبارى فى قوله ـ تعالى ـ « عفا الله عنك لم أذنت لهم » معناه محا الله عنك ـ مأخوذ من عفت الرياح الآثار إذا محتها .

وجاء فى حديث أبى بكر ـ رضى الله عنه : سلو الله العفو والعافية والمعافاة . فأما العفو فهو محو الذنوب ، وأما العافية فهى أن يعافيه الله من سقم أو بلية ، والعافية هى الصحة ضد المرض ، وأما المعافاة فهى أن يعافيك الله من الناس ويعافيهم منك ـ أى يغنيك عنهم ويغنيهم عنك ، ويصرف أذاهم عنك وأذاك عنهم .

وقد جاء اسم العفو فى القرآن الكريم خمس مرات . فى قوله ـ تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (٩١٦)

---

(٩١٦) النساء ٤٣

وفى قوله - تعالى - فى حق المستضعفين :

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾(٩١٧)

وفى قوله - تعالى - :

﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾(٩١٨)

وفى قوله - تعالى - :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾(٩١٩)

وفى قوله - تعالى - :

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾(٩٢٠)

لقد اقترن اسم العفو بالغفور فى أربعة مواضع من خمسة .

وجاء مع اسم القدير فى موضع واحد يقتضيه المقام - فقد أراد الله - تعالى - أن ينبه على قدرته على المؤاخذة ولكنه عفا عنهم . فليقتد المؤمن بذلك .

---

(٩١٧) النساء ٩٩

(٩١٨) النساء ١٤٩

(٩١٩) الحج ٦٠

(٩٢٠) المجادلة ٢

وقال بعض العلماء فى معنى اسم « العفو » : إنه الذى يمحو الذنوب والسيئات ، ويبدلها إذا شاء حسنات . والعفو أبلغ من الغفران ، لأن المغفرة ستر الذنوب والعفو محو وإحسان ، وذلك من فضل الله ورحمته .

وقال آخرون : العَفُوُّ هو الذى يمحو السيئات ، ويتجاوز عن المعاصى ، ويصفح عمن تاب وأناب .

وقال الغزالى : العفو : قريب من الغفور ولكنه أبلغ منه ، فإن الغفران ينبىء عن الستر ، والعفو ينبىء عن المحو ، والمحو أبلغ من الستر .

قال د . أحمد الشرباصى : وللعفو عند الامام الرازى معنيان :

الأول هو المحو والإزالة ـ كما جاء فى كلام ابن منظور فى اللسان والثانى هو الفضل . . قال ـ تعالى ـ :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ (٩٢١)

أى ما فضل من أموالهم مما لا يشبه أن يكون فاضلا ، فالعَفُوُّ على هذا الوجه هو الذى يعطى الكثير ، ويهب الفضل . .

كيف يتخلق المؤمن بهذا الاسم ؟

كان من صفات النبى ـ ﷺ ـ الصفح والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة ، وهذه الصفات من مكارم الاخلاق . . قال الله ـ تعالى ـ

---

(٩٢١) البقرة ٢١٩

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾

لقد تضمنت هذه الآية قواعد الشريعة من المأمورات والمنهيات . .

ففى قوله « خذ العفو » صلة القاطعين ، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين . . وغير ذلك من أخلاق المؤمنين المطيعين .

وفى قوله « وأمر بالعرف » صلة الأرحام ، وتقوى الله فى الحلال والحرام . . وغض الأبصار ، والاستعداد لدار القرار . .

وفى قوله « وأعرض عن الجاهلين » الحض على التعلق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزه عن منازعة السفهاء ، وعن مساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الاخلاق الحميدة والافعال الرشيدة .

فانظر إلى مدى ما تضمنته هذه الآية الكريمة على إيجازها من مبادىء وأخلاق ، ومادعت إليه من فضائل ومحاسن .

وقد كان النبى - ﷺ - يطبق مضمونها ويتخلق بآدابها حتى بلغ القمة العليا فى مكارم الأخلاق .

وكان يحض أصحابه على التمسك بذلك . . . قال جابر بن سليم : ركبت قعودى ثم أتيت إلى مكة أطلب رسول الله - ﷺ - ، فأنخت قعودى بباب المسجد .

فدلونى على رسول الله - ﷺ - فاذا هو جالس عليه بُرْد من صوف .

فقلت : السلام عليك يارسول الله .

---

(٩٢٢) الأعراف ١٩٩

فقال : وعليك السلام . .

فقلت : إنا معشر أهل البادية قوم فينا الجفاء ، فعلمنى كلمات ينفعنى الله بها . .

قال : « ادن » أى اقترب .

فدنوت . . فقال : « أعد علىَّ »

فأعدت عليه ، فقال : « اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا ـ وأن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى ، وإن امرؤ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه ، فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وزرا ، ولا تسبن شيئا مما خوّلك الله ـ تعالى ـ »

قال جابر بن سليم وكنيته أبو جُرَىّ : فو الذى نفسى بيده ، ما سببت بعده شاة ولا بعيرا »(٩٢٣) .

وقد جاء جبريل إلى النبى ـ ﷺ ـ يفسر له هذه الآية السابقة ، ويقول له : « إن الله ـ تعالى ـ يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك » .

والنبى ـ ﷺ ـ قدوة لأمته ، وقد بعثه الله ليتم مكارم الأخلاق . فعلى المؤمن أن يتصف بالعفو والصفح ، ويتخلق بأخلاق رسول الله ـ ﷺ ـ .

وقد قال النبى ـ ﷺ ـ : أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى

---

(٩٢٣) أخرجه البزار فى مسنده . القرطبى جـ ٧ صـ ٣٤٤ ـ سورة الأعراف تفسير الآية ١٩٩ . .

الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأن يكون نطقى ذكراً ، وصمتى فكرا ، ونظرى عبرة » .

وقال بعض العلماء : جدير بذاكر هذا الاسم أن يمحو من قلبه إساءة المسيء ، وأن يحسن إلى من أساء إليه ، فإن إدخال السرور على قلب المؤمن من أفضل العبادات .

روى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : بينما النبى ـ ﷺ ـ جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه . فقال عمر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما الذى أضحكك ؟

قال : رجلان من أمتى جثوا بين يدى رب العزة ، فقال أحدهما : يارب خذ لى مظلمتى من هذا .

فقال الله ـ عز وجل ـ للظالم : رد على أخيك مظلمته .

فقال : يارب ، لم يبق من حسناتى شيء .

فقال الله ، عز وجل ـ للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء ؟

فقال : يارب ، فليحمل من أوزارى » .

وهنا فاضت عينا رسول الله ـ ﷺ ـ بالبكاء ، وقال : « إن هذا ليوم عظيم يحتاج الناس فيه أن يحمل من أوزارهم » .

ثم قال الله للطالب : « ارفع بصرك فانظر ، فرفع ، فقال : يارب أرى مدائن من ذهب ، وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ . . لأى نبى هذا ؟

أو لأى صديق هذا ؟ أو لأى شهيد هذا ؟

قال الله : لمن أعطى الثمن .
قال : يارب ، ومن يملك ثمن ذلك ؟
قال : أنت تملكه .
قال : بماذا ؟
قال : بعفوك عن أخيك .
قال : يارب ، إنى قد عفوت عنه .
قال الله ـ تعالى ـ : خذ بيد أخيك وأدخله الجنة » .

الذكر فى ظل هذا الاسم :

قال العلماء : من أكثر من ذكر اسم ربه « العَفُوُّ » فُتح له باب الرضا وحبب إليه مكارم الاخلاق ، وأمنه الله مما يخاف لاسيما إذا أضاف إلى اسم العفو اسم الغفور .

وفى منظومة أسماء الله الحسنى الدعاء بالاسمين : المنتقم والعفو :

ومنتقم خذ لى بثأرى من العدا عفو عن الزلات فاعف برأفة

ومن دعاء النبى ـ ﷺ ـ :

« اللهم عافنى فى بدنى ، اللهم عافنى فى سمعى ، اللهم عافنى فى بصرى ، اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر ، اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، لا إله إلا أنت .(٩٢٤) .

« اللهم عافنى بقدرتك ، وأدخلنى فى رحمتك ، واقض أجلى فى طاعتك ، واختم لى بخير عمل ، واجعل ثوابه الجنة »(٩٢٥) .

---

(٩٢٤) رواه أبو داود والحاكم عن أبى بكرة ـ رضى الله عنه
(٩٢٥) رواه ابن عساكر عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ

وللشاعر أحمد مخيمر مناجاة فى ظل هذا الاسم :

أراك عفـوا يا إلهـى عن الـذى يتـوب ، وتمحـو ماجنـاه من الذنـب
يكـاد من الاحساس بالـذنب خائفـا تقلبـه الآثـام جنبـا الى جنب
وتسـمعه فى الليـل يدعـوك باكيـا فتدنيـه من عفـو وترضـيه من قـرب
وتجمـع أفـواج المـلائك حـوله لكـى يشـهدوا عبـدا قريبا من الـرب

الــرؤوف

الرءوف من الرأفة ، والرأفة هى الرحمة ، وقيل : أشد من الرحمة ، قال ابن منظور : ومن صفات الله ـ عز وجل ـ الرءوف ـ وهو الرحيم لعباده ، العطوف عليهم بألطافه ، والرأفة أخص من الرحمة وأرق . وفيه لغتان : رءوف على وزن فعول . . قال كعب بن مالك الأنصارى :

نطــيع نبينــا ونطــيع ربـا ... هو الرحمن كان بنا رءوفا

ورؤف على وزن فعل ـ بفتح الفاء وضم العين ـ وفى ذلك قال جرير :

يـرى للمســلمين عـليه حــقا ... كفعــل الوالد الرؤف الرحيــم

والرأفة أرق من الرحمة فلا تكاد تقع فى الكراهة ، ولكن الرحمة قد تقع فى الكراهة للمصلحة .

وفعل الرأفة : رؤف ـ بضم العين ـ يرؤف ـ بضم العين . أو رأف يرأف ـ بفتح العين فيهما ـ والمصدر رأفة ورآفة .

وقد تأتى الصفة منه على وزن فعل ـ بكسر العين ـ فتقول : رئف ـ وعلى وزن فعل ـ بسكون العين ـ فتقول : رأف ـ ومنه قول الشاعر :

فآمنــوا بنبـى لاأبـا لكـم ... ذى خاتـم صاغـه الرحمـن مختـوم

رأف رحيـم بأهـل البـر يرحمهـم ... مقـرب عنـد ذى العـرش مرحـوم

وقد ورد اسم « الرءوف » فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة ، منها قوله ـ تعالى ـ

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (٩٢٦)

وقوله - تعالى -

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ (٩٢٧)

وقوله - تعالى -

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٩٢٨)

وقوله - تعالى

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (٩٢٩)

---

(٩٢٦) البقرة ١٤٣
(٩٢٧) البقرة ٢٠٧
(٩٢٨) آل عمران ٣٠
(٩٢٩) التوبة ١١٧

وقوله تعالى :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (٩٣٠)

وقوله - تعالى -

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (٩٣١)

قال العلماء : معنى هذا الاسم - ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع خلقه ، والمتعطف عليهم بجنته ، والمحسن إليهم بنعمه .

ورحمة الله واسعة ورأفته بعباده لا حدود لها . . . ذكر ابن كثير فى تفسيره قال : جاء فى الصحيح أن رسول الله - ﷺ رأى امرأة من السبى قد فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيا من السبى أخذته فألصقته بصدرها ، وهى تبحث عن ولدها ، فلما وجدت طفلها ضمته إليها وألقمته ثديها . فقال رسول الله - ﷺ - : أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على أن لا تطرحه ؟

قالوا : لا ، يا رسول الله .

---

(٩٣٠) النحل ٧

(٩٣١) الحشر ١٠

قال : فالله أرحم بعباده من هذه بولدها .[932]

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تنبىء عن رحمة الله ورأفتة بعباده ذكرنا بعضها .

والرأفة من الله دفع السوء عن عباده ، وتعطفه عليهم بقبول توبتهم ، وتفضله على أوليائه بالحفظ وعلى أنبيائه بالعصمة .

وقد ذكر العلماء ألوانا من رحمة الله ـ تعالى ـ ، فقالوا ـ من رحمته ـ تعالى ـ بعباده أنه يصونهم من موجبات عقوبته .

وإن عصمة الله للعبد عن الزلة أبلغ فى باب الرحمة من غفران المعصية .

وربما رحم الله عبداً بما يكون فى الظاهر مشقة وشدة ، ولكنه فى الباطن نعمة ورحمة والعبد لا يعلم فكم من عبد يرثى له الخلق لما به من الضر والفاقة وسوء الحال ، وهو فى الحقيقة فى نعمة تغبطه عليها الملائكة . . . وقيل : إن نبيا شكا إلى الله ـ تعالى ـ الجوع والعرى والقمل ، فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه : أما تعرف ما فعلت بك ؟ سددت عنك أبواب الشرك .

ومن رحمته تعالى بعبده أن يصونه عن ملاحظة الأغيار ، فلا يرجع حوائجه إلا إليه .

قيل لبعضهم : سل حاجتك .

فقال : من وضع قدمه على بساط معرفة الله لا يحسن به أن يكون لغير الله عليه مِنَّةً ، وقال رجل لبعض الصالحين : ألك حاجة ؟ فقال : لا حاجة بى إلى من لا يعلم حاجتى .

---

(٩٣٢) تفسير ابن كثير جـ١ صـ٢٧٨ آية رقم ١٤٥ من سورة البقرة

ومما يصلح فى هذا المقام ما حدث من أن عبد الملك بن مروان لقى بعض الصالحين وهو يطوف بالبيت الحرام ـ فقال له عبدِ الملك : أنا عبدالملك ـ أمير المؤمنن ـ أرفع إلىَّ حوائجك .

فقال له الرجل • وأنا أيضا عبدالملك ـ فهيا نرفع حواجئنا إلى من أنا وأنت له عبدان .

إن رحمة الله الكامنة التى لا يتنبه لها أحد ـ وربما نَمَّ سوء الحال الذى يُرَى فيه بعض الناس عن مظنة عدم وجودها ـ يؤكد وجودها ما جاء فى الآثر الكريم « لو اطلعتم على الغيب لا خترتم الواقع »
وكم من ضوائق تعترينا ونشكو منها ثم نكتشف بعد انفراجها أنها كانت من الصالح العام .

ما الفرق بين الرءوف والرحيم ؟

لقد قلنا فيما سبق إن الرأفة مبالغة فى الرحمة ، وقد جاء هذان الاسمان متعاقبين فى الآيات التى أوردناها ، وجاءت صفة الرحيم بعد صفة الرءوف فإذا كانت الرأفة أبلغ فلماذا قدمت على الرحمة ؟

وقد أجاب الرازى على هذا السؤال فقال : منشأ الرأفة كمال حال الفاعل فى إيصال الإحسان ، ومنشأ الرحمة كمال حال المرحوم فى الاحتياج للإحسان ، وتأثير حال الفاعل فى إيجاد الفعل أقوى من احتياج المفعول إليه ، فلهذا المعنى قدم ذكر الرأفة على ذكر الرحمة .(٩٣٣)

---

(٩٣٣) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ ١ صـ ٣٩٨

التخلق بأدب هذا الاسم

لقد وصف الله نبيه - ﷺ - بما وصف به نفسه من هاتين الصفتين . فقال - جل ذكره - :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٩٣٤)

لأن الله جعل نبيه - ﷺ - باب رحمته ، فقال فى حقه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (٩٣٥)

وقال النبى - ﷺ - عن نفسه « إنما أنا رحمة مهداة »

ودلائل - رحمة النبى - ﷺ - بأمته كثيرة لا حصر لها . . وقد قال الله فى ذلك

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٩٣٦)

وهؤلاء هم الذين تحدوه بطلب العذاب قائلين :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٩٣٧)

---

(٩٣٤) التوبة ١٢٨
(٩٣٥) الأنبياء ١٠٧
(٩٣٦) الأنفال ٣٣
(٩٣٧) الأنفال ٣٢

وعلى الرغم من إيذاء المشركين للنبى - ﷺ - بكل صنوف الأذى من قول وفعل .

إلا أنه كان يقابل كل ذلك بالصفح والعفو والرحمة والإحسان . . وكان دعاؤه الدائم : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »

فهذا يعلمنا أدب الاقتداء بالنبى - ﷺ - الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وخلع عليه من صفاته العلا . .

فعلى المؤمن أن يكون رءوفا رحيما محققا - ما استطاع - لرجاء الراجين . . حكى أن الامام أحمد - رضى الله عنه - بلغه أن رجلا وراء النهر يروى الأحاديث - فرحل الإمام أحمد إليه ، فلما ورد عليه وجده يطعم كلبا ، فسلم عليه الإمام أحمد ، فرد عليه السلام ، ثم اشتغل بإطعام الكلب ولم يلتفت إليه ، فلما انتهى من إطعام الكلب التفت إلى الامام ، وقال له : لعلك وَجِدت فى نفسك - أى غضبت - إذ أقبلت على الكلب ولم أقبل عليك ؟

قال الإمام أحمد : نعم .

فقال الرجل : حدثنى أبوالزناد عن الأعرج ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلن يلج الجنة »

ثم قال الرجل : وأرضنا هذه ليست بها كلاب . وقد قصدنى هذا الكلب فخففت أن أقطع رجاءه .

فقال الإمام أحمد : يكفينى هذا الحديث . ثم رجع[٩٣٨]

---

(٩٣٨) فى ملكوت الله مع أسماء الله - عبد المقصود محمد سالم صـ١٠٧

الذكر فى ظل هذا الاسم

هذا الاسم يصلح ذكره لمن هو سريع الغضب . فان داوم على ذكره رزقه الله الحلم .

ومن الأدعية المأثورة :

« اللهم افعل بنا عاجلا وآجلا فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل ، إنك غفور حليم ، جواد كريم رءوف رحيم »(٩٣٩)

ومن أدعية بعض الصالحين التى يمكن اندراجها تحت صفة الرأفة ، والرحمة :

« اللهم اهدنى لنورك ، وأعطنى من فضلك ، وامنعنى من كل عدو هو لك ، ومن كل شىء يشغلنى عنك ، وهب لى لسانا لا يفتر عن ذكرك ، وقلبا يسمع بالحق منك ، وروحا يُكْرَم بالنظر إليك ، وسرا ممتعا بحقائق قربك ، وعقلا حامدا لجلال عظمتك ، وزين ما ظهر وما بطن منى بأنواع طاعتك ـ يا سميع يا عليم ، يا عزيز يا حكيم »(٩٤٠) يا رءوف يا رحيم .

قال الشاعر الاسلامى أحمد مخيمر :

رءوف رحيم بالعباد كأنهم بنوه ولم يولد إلهى ولم يلد
ورأفته بالعبد من أجل أنه ضعيف ومحتاج إلى بابه قصد
فليس بمحروم وإن كان عاصيا وليس بمطرود ، وان شك أو جحد
إذا تاب خصته الملائك بالرضا وإن طرق الأبواب للعفو لم يرد(٩٤١)

---

(٩٣٩) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ ١ صـ ٤٠٠
(٩٤٠) درة الأسرار صـ ٩٢
(٩٤١) أسماء الله لأحمد مخيمر صـ ١٠٤

أسماءُ اللهِ الحُسنى

مالك الملك
ذو الجلال والاكرام
المقسط
الجامع
الغنى
المغنى
المانع
الضار
النافع

مالك الملك

ورد اسم مالك الملك فى قوله ـ تعالى

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٩٤٢)

وقد ذكر أنه لما نزلت فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، وشهد الله ، وقل اللهم مالك الملك ـ الى قوله بغير حساب ـ

قال الله ـ تعالى ـ

« وعزتى وجلالى لايقرأكن عبد عقب كل صلاة مكتوبة إلا أسكنته حظيرة القدس على ماكان منه ، وإلا نظرت إليه بعين الرحمة فى كل يوم سبعين نظرة ، والا قضيت له فى كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وإلا أعذته من كل عدو ، ونصرته عليه ، ولا يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت(٩٤٣)

وفى القرآن الكريم آيات تشير إلى أن الله مالك الملك ، ولا مالك سواه .

والملك يشمل ملك الدنيا والآخرة .

---

(٩٤٢) آل عمران ٢٦ ، ٢٧

(٩٤٣) تفسير القرطبى جـ ٤ صـ ٥٢ تفسير الآيتين السابقتين .

وجل الذى يقول :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ (٩٤٤)

ويوم القيامة يوم تفنى الخلائق ولايبقى حياً غير الله ـ يقول الحق ـ تعالى ـ

« لمن الملك اليوم »

فلا يوجد من يجيب ، فيقول الحق مجيباً

« لله الواحد القهار »

وهذا ماتذكره الآية الكريمة

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦ ﴾ (٩٤٥)

ومن أسماء الله ـ تعالى ـ الملك ، والمالك ، والمليك ، ومالك الملك ـ ولكن الذى ورد فى سلسلة الأسماء القدسية هو اسم الملك ومالك الملك ، وقد سبق أن تحدثنا عن اسم الملك الذى ورد فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ ﴾ (٩٤٦)

والمُلك يشمل مايرى ويحس من مظاهر الكون ، والمَلكوت يشمل ماخفى ودق عن المشاهدة والحس .

---

(٩٤٤) الملك ١

(٩٤٥) غافر ١٦

(٩٤٦) الحشر ٢٣

ويعنى مالك الملك ـ القدرة على التصرف والسيطرة على كل شيء هذا الملك الواسع ـ ماظهر وخفى ، وما كبر وصغر

قال العلماء : مالك الملك ، معناه ذو الملك والملكوت . . . .

تام القدرة على ملكه ، يفعل فى ملكه مايشاء من الايجاد والإعدام والابقاء والإفناء ، يعطى ويمنع ، ويعز ويذل ، مالك الدنيا ، ومالك يوم الدين ، فسبحانه بيده ملكوت كل شيء والخلق اليه راجعون .

وقارىء الآيتين اللتين سبقتا فى بداية هذا الاسم ـ يشعر بأن ماجاء بعد الاسم الشريف « مالك الملك » يعد تفسيراً له ، فمالك الملك يتصرف فى ملكه حسبما يشاء ، يؤتى الملك من يشاء ، ويسلبه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، والخير بيده وحده وهو الذى يقلب الليل والنهار ، ويحيى ويميت ، ويهب الرزق لمن يشاء بغير حساب .

ويقول الامام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ فى معنى ـ مالك الملك ـ إنه الذى تنفذ مشيئته فى مملكته كيف يشاء وكما شاء إيجاداً وإعداما وإبقاء وإفناء ،

والملك فى الآية معناه كل الموجودات والمالك بمعنى القادر التام القدرة ، والموجودات كلها مملكة واحدة لارتباط بعضها ببعض ، فإنها وان كانت متفرقة فى الظاهر ، ولكنها متحدة فى الحقيقة .

وقال ابن كثير : تفيد كلمة . قل اللهم مالك الملك ـ أنه ـ سبحانه ـ المتصرف فى خلقه الفعال لمايريد . أى له الملك كله لاشريك له .

كيف يتأدب المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إن أدب المؤمن مع هذا الاسم يلزمه أن يخشع قلبه لله ، ويخضع لقدرة الله .

قال ابن كثير فى آية

« قل اللهم مالك الملك »

تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله ـ تعالى ـ على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى هذه الأمة ، لأن الله حول النبوة من بنى إسرائيل إلى النبى العربى القرشى المكى الأمى ، خاتم الأنبياء على الاطلاق ، ورسول الله الى جميع الثقلين الإنس والجن . . . وقد جمع الله فيه محاسن من جاء قبله من الرسل وخصه بخصائص لم يُعْطَها نبى من الأنبياء ولا رسول من الرسول السابقين . . فقد خصه بمزيد من العلم بالشرائع وأطلعه على بعض الغيوب الماضية والآتية ، وكشف له عن حقائق الآخرة ، ونشر أمته فى الآفاق فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأظهر دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع . .

فمن حق المؤمن أن يحمد الله على هذه النعمة ، وأن يحفظها من الكفران ، وعليه أن يعمل على إنهاض هذه الأمة واستعادة مجدها بما أوصى به الله فى كتابه الكريم ، وأوصى به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سنته الشريفة .

وإذا أمعنا فى النظر جيداً وجدنا أن لكل إنسان مملكته الخاصة التى هى جسمه وروحه ، وهذه المملكة لها عرش وهو القلب ، فليحرص العبد على

أن لايكون فى هذا العرش إلا الله تعالى ـ الذى يقول فى حديث قدسى :

« ما وسعتنى أرضى ولا سمائى بل وسعنى قلب عبدى المؤمن » ومعنى ذلك أن يخلص المؤمن نيته لله ، وأن تكون طاعته لله ، وأن يكون عمله كله خالصاً لوجه الله ، وأن تكون حركاته وسكناته كلها فى مرضاة الله .

وواجب المؤمن أن يعتبر بما يحدث فى الكون من رفع وخفض ، وإعطاء ومنع ، ومن تملك قوم وأخذ الملك من آخرين ، ليدرك أن كل شىء بيد الله الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . وبذلك لايركن العبد الى مخلوق ، ولايستكين لأحد إلا الله الواحد القهار .

الذكر فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : إن ذكر هذا الاسم وتكراره مفيد لمن فى يده شىء من الملك ويريد أن يحفظه الله عليه .

ومن داوم على تكرار : يا ألله يامالك الملك ـ مع قوله ـ تعالى ـ

« قل اللهم مالك الملك . . . . . إلى نهاية الآيتين . . »
أغناه الله عن سؤال الناس ورزقه من حيث لايحتسب .

قال معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ : احتبست عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً فلم أصل معه الجمعة ، فقال : « يامعاذ ، ما منعك من صلاة الجمعة ؟ »

قلت : يارسول الله ، كان ليوحنّا بن باريا اليهودى علىّ أوقية من ذهب ، وكان على بابى يرصدنى ، فأشفقت أن يحبسنى دونك .

قال : أتحب يامعاذ أن يقضى الله دينك ؟ »

قلت : نعم .

قال : « قل كل يوم : قل اللهم مالك الملك - إلى قوله - « بغير حساب » . . ثم قل : يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطى منهما من تشاء ، وتمنع منهما من تشاء اقض عنى دينى ، فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً لأداه الله عنك »(٩٤٧)

وفى منظومة أسماء الله الحسنى :

رءوف تـرأف فى الأمـور جمـيعها ويامـالك المـلك امنـح فيـض نفحـة

---

(٩٤٧) أخرجه أبو نعيم الأصفهانى عن عطاء الخراسانى عن معاذ - تفسير القرطبى جـ ٤ صـ ٥٢

ذو الجلال والإكرام

ورد هذا الاسم الشريف فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ (٩٤٨)

وفى قوله ـ تعالى ـ

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ (٩٤٩)

ورفع « ذو » فى الآية الأولى يفيد أنه وصف للوجه ، وجرها فى الآية الثانية يفيد أنها جاءت وصفاً للرب ـ تبارك وتعالى ـ

ومعنى هذا الاسم أن الله ـ تعالى ـ منفرد بصفات الجلال والكمال والعظمة ، مختص بالإكرام والكرامة ، فكل جلال له ، وكل كرامة منه ، سبحانه له الجلال فى ذاته ، والإكرام فيض منه على خلقه ، وإكرامه لخلقه بالعطايا والمنح ، والآلاء والنعم لايحصر ولايعد ـ فهو الجدير بالإكرام من خلقه تعظيماً لجلاله ، وعرفانا بفضله وإكرامه ، وتقديراً لآلائه وإحسانه(٩٥٠)

وقال بعض العلماء : معنى « ذو الجلال والاكرام » أنه ذو العظمة والكبرياء ، جليل القدر ، عظيم الشأن ، مهاب سلطانه ، نافذ أمره ، وهو ذو الفضل العظيم عَمَّت آلاؤه جميع خلقه . وشملت أفضاله كل كونه .

ومجىء هذا الاسم مرتين فى سورة الرحمن التى تعدد نعم الله على

---

(٩٤٨) الرحمن ٢٦ ، ٢٧

(٩٤٩) الرحمن ٧٨

(٩٥٠) فى ملكوت الله مع أسماء الله صـ ١٠٩

الثقلين ، وتذكِّرهما بوجوب شكر الله على آلائه قائلة لهما عقب كل آية أو أكثر

« فبأى آلاء ربكما تكذبان »

يدل على مايتضمنه هذا الاسم الجليل من عظيم الهيبة ، وجزيل المنة ، وسعة الملك ، وإحاطة القدرة ، وعظم العلم ، وكثرة الفضل .

قال القرطبى فى تفسير هذا الاسم : الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح ، يقال : جل الشىء أى عظم ، وأجللته ـ أعظمته . . . . . .

ومعنى الإكرام . أنه أهل لأن يكرم عما لايليق به من الشرك ، كما تقول :

أنا أكرمك عن هذا . ومنه إكرام الأنبياء والأولياء . فالله ـ سبحانه وتعالى جليل فى ذاته ، كريم فى أفعاله ، منزه عن كل مالايليق به .

وهذا الاسم يشير إلى أنه لاجليل ولاكريم إلا هو ـ سبحانه ـ فإضافة « ذو » إلى هذين الوصفين يفيد اختصاصه ـ جل جلاله ـ بهما . . وأى جلال أو كرم يوصف به أحد من الخلق فإنما هو مستمد من الله على سبيل المنح أو العارية .

وهو موقوت بمدة ، ثم ينتقل من هذا الانسان إلى غيره عن طريق السلب أو الفناء ،

ولكن جلال الله وإكرامه سرمدى أبدى أزلى باقٍ لاتحول ولا فناء له .

ووجوه إكرام الله لخلقه لاحصر لها . . وقد خص جنس بنى آدم بضروب من التكريم ، وقال فى ذلك

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (٩٥١)

أما الفرق بين الجلال والإكرام ، فيظهر فى أن الجلال من الصفات الذاتية . التى يختص بها المولى ، ولا ينازعه فيها أحد من خلقه ، أما الإكرام فهو إفاضة من الله على عباده بما يخلعه عليهم من مظاهر الكرم وضروب المنن .

وجلال الله لايكون بجند وأعوان ، ولكنه جلال ذاتى ، هو جلال ـ كما يقول الإمام الرازى ـ بالوصف الذى تلحق به الرفعة والعزة والعلو .

ولايقتصر إكرام الله لعباده على الدنيا ، بل يتعداه إلى الآخرة .

فإكرامهم فى الدنيا بما وهبهم من منح ، وبما سخر لهم من أنواع المسخَّرات التى تعينهم فى حياتهم ، وتيسر لهم السعى فى وجوه المنافع ـ

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (٩٥٢)

كل ذلك للبر والفاجر منهم .

---

(٩٥١) الاسراء ٧٠

(٩٥٢) الجاثية ١٣

أما إكرامهم فى الآخرة فهو خاص بالمؤمنين الذين يأخذ بأيديهم الىٰ جنات النعيم وما فوق ذلك مما يشير اليه قوله ـ تعالى

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٩٥٣)

ومن أقوال العلماء فى معنى « ذو الجلال والاكرام » قولهم : هو صاحب الجلالة ، لأنه لاشرف ولامجد ولا عزة ولا قوة إلا وهى له وبه ومنه ، وصاحب الكرم ، لأنه لا كرامة ولافضل ولا نعمة ولا إحسان إلا وهى من مدده ـ جل جلاله ـ

قالوا : وهو اسم جامع للجلال والجمال ، فإنه ـ تعالى ـ له جلال رهيب وجمال عجيب ، ولا ينال العبد المعرفة إلا إذا عرف ذا الجلال والإكرام ، لأنه جمع بين الرغبة والرهبة والرجاء والخوف .

التخلق بأدب هذا الاسم

متى أدرك المؤمن أن الله ذو الجلال والاكرام عاش فى رحاب هذا الاسم الذى يملى عليه الخوف من العقاب والرجاء فى الثواب . . ولا نجاة للإنسان حقا إلا إذا خاف ورجا ـ لأن الخوف المطلق يسلم إلى اليأس ، والرجاء المطلق يسلم الى التفريط .

وقد حثنا الله على أن نخاف ونرجو فقال ـ تعالى ـ

---

(٩٥٣) يونس ٢٦

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٩٥٤)

وقال - تعالى -

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٩٥٥)

وقد فسر بعضهم التقوى بأنها الوقوف بين منزلة الخوف والرجاء . فالمؤمن إذا تذكر جلال الله رهب ، وإذا تذكر كرمه طمع ورجا ، وهكذا يعيش فى مقام الرهبة فيعمل ويجتهد فى الطاعة ويحترز من المعاصى ، ويعيش فى مقام الرجاء فيأنس ويطمئن قلبه ويأمن .

وإذا خاف المؤمن مقام ربه كفل الله له جنتين كما قال - سبحانه -

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٩٥٦)

وأمنه الله من الفزع يوم يخاف الناس .

وخوف المؤمن من مقام الله يؤدى به إلى التواضع وكسر دواعى الغرور التى تتسلط على بعض الناس الذين يغمرهم الله بنعمه فينسون مقام الله ، ولا ينظرون إلا إلى أنفسهم ، ويصنعون لأنفسهم هالات من العظمة ربما تسلمهم إلى الهلاك . ومن ذلك ما يخترعونه أو يخترع لهم من ألقاب مثل

---

(٩٥٤) السجدة ١٦

(٩٥٥) الأعراف ٥٦

(٩٥٦) الرحمن ٤٦

لقب « صاحب الجلالة أو صاحب المقام الرفيع ، وغير ذلك من الألقاب التى يطلقها بعض الناس على من لايستحق ذلك .

كما قال الشاعر :

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

ولايدرك الناس أن مثل هذه الألقاب قد تُطْغِى من تطلق عليهم ، وتزين لهم الشر . كما حدث لفرعون حين تمادى قومه فى خلع الألقاب عليه ، ففسد وأفسد وطغى وتكبر ، حتى قال : أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .

فأى جواب يجيب به أصحاب الجلالة والعظمة والعزة ، إذا قال لهم الملكان الموكلان بسؤالهم فى قبورهم : أأنت صاحب الجلالة والعظمة والعزة ؟ إنهم فى هذا الوقت لن يجدوا جوابا .

فليتقوا الله ، وليتركوا هذه الأسماء التى هى لله وحده ، وحسبهم اتخاذ اسم الملك أو الرئيس وهو اسم كبير لا يطيق حمله إلا من رحم الله .(٩٥٧)

وقد أحسن الملك فهد بن عبدالعزيز ملك المملكة العربية السعودية - صنعا حين ألغى هذا اللقب واستبدله بلقب . خادم الحرمين الشريفين .

الذكر فى ظلال هذا الاسم

لقد دعا النبى - ﷺ - صراحة إلى الإكثار من الذكر بهذا الاسم - فقال فى حديث شريف « أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام » ومعناه الزموه وأكثروا منه

---

(٩٥٧) أسماء الله الحسنى - لأحمد عبد الجواد صـ ٢٠٣

واستديموا دعاء الله به .

وجاء فى حديث آخر أن النبى - ﷺ - سمع أعرابيا يدعو قائلا « **اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم العظيم ، الحنان المنان ، مالك الملك ذى الجلال والإكرام** » فقال : « **إنه دعا باسم الله الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى** »

ومن الأدعية المأثورة فى ذلك

« اللهم ياذا الجلال والاكرام - صل وسلم وبارك على إمام أنبيائك وسيد رسلك سيدنا محمد - ﷺ - وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين وجميع عبادك الصالحين ، من أهل السموات والأرضين ، وأكرمنا برحمتك يا أرحم الراحمين ، ياذا الجلال والاكرام . . « رب يا ذا الجلال والاكرام ، لك وجهت وجهى فأقبل إلىّ بوجهك الكريم ، واستقبلنى بمحض عفوك وكرمك ، وأنت راض عنى برحمتك يا أرحم الراحمين ، يا ألله ياذا الجلال والإكرام »(٩٥٨)

---

(٩٥٨) الدعاء المستجاب من السنة والكتاب للشيخ أحمد عبد الجواد صـ ١٧٤

المقسـط

جاء في لسان العرب : في أسماء الله الحسنى « المقسط » وهو العادل ، يقال : أقسط يقسط ، فهو مقسط إذا عدل .

ويقال ـ في حق الناس ـ : قسط يَقْسِط فهو قاسط إذا جار وظلم . فمعنى الهمزة في أقسط للسلب ، كما يقال : شكا فأشكاه ـ أي أزال شكايته .

جاء في حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ شكونا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حر الرمضاء فلم يشكنا ـ يعني لم يزل شكايتنا أو لم يقبلها ـ وقال : « **استعينوا بلا حول ولا قوة إلا بالله فإنها تذهب سبعين بابا من الضر أدناها الهم** »

ومن معاني القسط الميزان ـ وفي الحديث : « أن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ـ يخفض القسط ويرفعه » وسمى الميزان بالقسط تحريا للعدل . . . . وأراد برفع القسط وخفضه رفع ميزان أعمال العباد المرفوعة إليه وأرزاقهم النازلة من عنده ، كما يرفع الوزان يده ويخفضها عند الوزن ـ وهو تمثيل لما يقدره الله وينزله ولله المثل الأعلى .

وقد يراد بالقسط النصيب من الرزق ، ورفعه تكثيره ، وخفضه تقليله . والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر .

وفي قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ (٩٥٩)

دعوة إلى إقامة العدل ومنع الظلم ـ أي أقيموا لسان الميزان بالقسط ـ الذي هو العدل ـ ، واحذروا التطفيف في الكيل والوزن .

---

(٩٥٩) الرحمن ٩

وقد سمى الميزان قسطاسا كما فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ (٩٦٠)

ويقال : القسطاس هو أقوم الموازين . .

وقد جاء المقسط فى القرآن الكريم وصفا للإنسان العادل فى حكمه قال ـ تعالى ـ

﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٩٦١)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (٩٦٢)

وجاء « أقسط » بمعنى أعدل فى قوله ـ تعالى

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ

---

(٩٦٠) الشعراء ١٨٢

(٩٦١) المائدة ٤٢

(٩٦٢) الحجرات ٩

﴿ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ (٩٦٣)

وجاءت « قاسط » بمعنى ظالم ومائل عن الحق . فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ (٩٦٤)

وعلى ذلك فإن المقسط فى أسماء الله تعالى معناه العادل فى حكمه الذى ينتصف للمظلوم من ظالمه ، وينصر المستضعفين على من استضعفهم . . . . . ولم يرد هذا الاسم وصفا لله ـ تعالى ـ فى القرآن الكريم ، ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء التى انتظمها حديث رسول الله ـ ﷺ ـ ورقمه فى هذه السلسلة السادس والثمانون .

ولكن ورد فى القرآن الكريم ما يشير إلى أن الله مقسط فى حكمه عادل فى قضائه لا يظلم أحداً . . وجاء فى القرآن الكريم مايفيد أن الله تعالى قائم بالقسط ، وقاض بين عبادة بالقسط . . . قال تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ (٩٦٥)

---

(٩٦٣) الأحزاب ٥
(٩٦٤) الجن ١٤ ، ١٥
(٩٦٥) آل عمران ١٨

وقال تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٩٦٦)

ويقول الراغب الأصفهانى فى مفرداته شارحا الفرق بين قسط وأقسط : قسط إذا أخذ نصيب غيره ، وهذا جور وظلم ، أما أقسط فهو الذى يعطى قسط غيره وهذا منتهى الإنصاف .

وقال : المقسط فى حق الله ـ تعالى ـ هو العادل فى الأحكام الذى يتصرف فى العالمين بكل نظام .

وقال الامام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ : المقسط هو الذى ينتصف للمظلوم من الظالم . وكما له فى أن يضيف إلى إرضاء المظلوم إرضاء الظالم ، وذلك غاية العدل والإنصاف ، ولا يقدر على ذلك إلا الله ـ تعالى ـ

ومثال ذلك القصة التى رويت فى الحديث الشريف وسبق أن ذكرناها فى اسم الله « العفو » عن الرجلين اللذين جثوا بين يدى الرب ـ تعالى ـ ولأحدهما مظلمة عند الآخر فأرضاهما الله ـ تعالى ـ وأدخلهما الجنة معا . .

ولقد أمرنا الله ـ تعالى ـ أن نتحرى العدل فى الأحكام حتى بالنسبة لأعدائنا . قال ـ تعالى ـ

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

---

(٩٦٦) يونس ٤٧

﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٩٦٧)

وقال ـ تعالى ـ حاثا على إقامة العدل بين الأعداء كإقامته بين الأصدقاء تماما :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٦٨)

إن أسعد الناس من يلقى الله غدا وليس لأحد من الناس مظلمة فى عنقه . وذلك لأنه استطاع أن يرضى خصومه ويرضى أنصاره .

كيف نتأدب بأدب هذا الاسم ؟

إن الله ـ تعالى ـ يحب العدل ، ويدعو إليه ، فمن واجب المؤمن أن يتحرى ذلك ما أمكنه . وذلك بأن يطبق العدل فى نفسه أولا ، بأن يحمل نفسه على الاستقامة على العدل والنفور من الظلم ، ويحبب إليها إعطاء الحق والرضا به .

وإن المسلم الحق ليسمح بأن يتنازل عن حقه فى سبيل إرضاء خصمه طمعا فيما عند الله من ثواب أعده لأهل السماحة والعفو .

روى أن رجلا تقدم إلى أحد الخلفاء مخاصما آخر فى ضيعة ، فقال له

---

(٩٦٧) الممتحنة ٨

(٩٦٨) المائدة ٨

الخليفة :

ومن خصمك الذى اغتصب ضيعتك ؟

فقال الرجل : هو ذا الذى يجلس بجوارك .

فقال الخليفة لذلك الرجل الذى يجلس بجواره : قم فقف بجانب خصمك .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، ليست بينى وبينه خصومة ، إن كانت الضيعة لى ، فقد وهبتها له ، وان كانت له فلا أنازعه فيها .

وشكا بعض الناس على بن أبى طالب إلى القاضى ، فلما تقدم إلى القضاء ، قال له القاضى : هاه ! يأأبا الحسن .

فغضب على - رضى الله عنه - وقال له : هذا أول الجور كنيتنى وناديت خصمى باسمه .

فعلى المؤمن أن يتدبر فى عواقب الظلم ويعرف أنه ظلمات يوم القيامة فيتحاشاه ويبتعد عنه .

ولأن يكون الإنسان مظلوما فى الدنيا أفضل من أن يكون ظالما .

روى أن أحد الصالحين مر برجل صلبه أحد الحكام . . فقال : يارب إن حلمك على الظالمين أضر بالمظلومين ، فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت . ودخل الجنة ورأى المظلوم فى أعلى عليين . . وسمع هاتفا يقول : « حلمى على الظالمين جعل المظلومين فى أعلى عليين »

الذكر فى ظل هذا الاسم :

قال العلماء : من أكثر من ذكر هذا الاسم وقاه الله الوسواس فى عبادته .

وأفضل الذكر فى ظل هذا الاسم قراءة قوله ـ تعالى ـ

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ (٩٦٩)

وقد ورد فى فضل هذه الآية آثار متعددة .

منها : روى من حديث أنس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال « من قرأ ـ شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لاإله إلا هو العزيز الحكيم ـ عند منامه ، خلق الله له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة »

وروى غالب القطان قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش فكنت أختلف إليه ، فلما كان ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية . . شهد الله . . إلى . . . قوله ـ تعالى : إن الدين عند الله الاسلام » . . . ثم قال : وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة ، وهى لى عند الله وديعة ، وإن الدين عند الله الاسلام . قالها مرارا .

قال : فغدوت إليه وودعته ، ثم قلت له : إنى سمعتك تقرأ هذه الآية ، فما بلغك فيها ؟ فقال : لاأخبرك بذلك إلا بعد سنة . وبعد تمام السنة قال له : حدثنى أبو وائل عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى

---

(٩٦٩) آل عمران ١٨

الله عليه وسلم ـ « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله ـ تعالى ـ : عبدى عهد إلىّ وأنا أحق من وفّى ، أدخلوا عبدى الجنة »[٩٧٠]

وفى منظومة أسماء الله الحسنى فى الاسمين : « ذو الجلال والإكرام والمسقط »

وياذا الجلال ثم الاكرام عزنا ومقسط وفقنا لعدل الرعية

---

(٩٧٠) تفسير القرطبى جـ ٤ صـ ٤١ تفسير هذه الآية من سورة آل عمران .

الجامع

ورد اسم الله الجامع - فى قوله تعالى :-

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ ﴾ (٩٧١)

وفى قوله تعالى -

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠ ﴾ (٩٧٢)

ووردت فى القرآن آيات كثيرة تشير إلى جمع الله الخلائق يوم القيامة للمحاسبة والجزاء . قال تعالى -

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ ﴾ (٩٧٣)

وقال تعالى -

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ ﴾ (٩٧٤)

وقال تعالى - :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾ (٩٧٥)

---

(٩٧١) آل عمران ٩

(٩٧٢) النساء ١٤٠

(٩٧٣) المرسلات ٣٨

(٩٧٤) الكهف ٩٩

(٩٧٥) القيامة ٣ ، ٤

وقال تعالى - :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٩٧٦)

وقال تعالى -

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٩٧٧)

وقال تعالى -

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ (٩٧٨)

وسمى يوم القيامة بيوم الجمع لذلك لأنه اليوم الذى يجمع فيه الخلائق قال تعالى -

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (٩٧٩) وغير ذلك من الآيات .

وقال ابن الأثير فى معنى اسم الله الجامع : هو الذى يجمع الخلائق ليوم

---

(٩٧٦) المائدة ١٠٩
(٩٧٧) سبأ ٢٦
(٩٧٨) النساء ٨٧
(٩٧٩) التغابن ٩

الحساب .وقيل : هو المؤلف بين المتماثلات والمتضادات فى الوجود . .

وهو اسم فاعل من الفعل جمع ، تقول : جمع الشيء يجمعه جمعا ـ بعد تفرقة . والجمع اسم لجماعة الناس . والأمر الجامع هو الذى يجتمع الناس من أجله . والسورة الجامعة التى جمعت كل مايهم الانسان فى دنياه وأخراه . . جاء فى الحديث : قال رجل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أقرئنى سورة جامعة . فأقرأه « إذا زلزلت الأرض زلزالها »

وفى حديث آخر قيل له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : حدثنى بكلمة تكون جماعا فقال : « اتق الله فيما تعلم »(٩٨٠)

وقال بعض العلماء : الجامع معناه المؤلف بين الكائنات الجامع بين المتماثلات ـ كالإنس على ظهر الأرض وفى صعيد القيامة عند الحشر ـ وبين المتباينات كالسموات والكواكب والبحار والنباتات والمعادن وغيرها فى الأرض ـ وبين المتضادات كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . . . . وصدق الله العظيم

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٩٨١)

ويجمع بين الظالم والمظلوم وبين الجسد والروح، ويجمع أجزاء الخلق يوم النشور ويجمع قلوب أوليائه لشهود عظمته »(٩٨٢)

ولو أنعم الانسان النظر فى جسمه لوجده يجمع بين أجهزة متعددة ،

---

(٩٨٠) لسان العرب مادة جمع جـ١ صـ ٦٧٩

(٩٨١) المرسلات ٣٨

(٩٨٢) فى ملكوت الله مع أسماء الله صـ ١١٠

وبين معادن مختلفة ، وبين ماء ودم ولحم وعصب وعظم ، وفيه رطوبة ويبوسة وحرارة وبرودة ، وفيه أحاسيس ومشاعر ، ورغبات واضطرابات ، وحركات وسكنات ، وهو بين إقبال وإدبار ، وطموح ونجاح وإخفاق ، وغير ذلك مما تزخر به هذه البنية التي هي في ظاهرها كائن صغير ولكنها في حقيقة أمرها عالم يموج بالخبرات والانفعالات والتطلعات ويشهد بما قال القائل :

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر ؟

إن الذى جمع ذلك فى هذا الجسد هو الاله القادر العظيم ـ جل جلاله . والله الجامع هو الذى يجمع الكمالات كلها ذاتا ووصفا وفعلا.

ويرى الرازى أن معنى الجامع يشير إلى معان .

● منها أنه جمع الأجزاء وألف بينها تأليفا مخصوصا يمكنها من أداء المهام الموكولة اليها .

ـ ومنها أنه جمع بين قلوب المختلفين ـ وهذا مستمد من قوله تعالى ـ ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٩٨٣)

ومن الحديث الشريف « الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف »

---

(٩٨٣) الأنفال ٦٣

● ومنها جمع أجزاء الخلق يوم الحشر والنشر بعد تفرقها ، والجمع بين الجسد والروح بعد انفصال كل منهما عن الآخر ، وهذا يشير إليه قوله تعالى -

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ (٩٨٤)

أى التحقت الأرواح بأجسادها .

● ومنها جمع الخلائق فى موقف القيامة .

● ومنها الجمع بين الظالم والمظلوم ليرد الى المظلوم ظلامته وينصفه من الظالم .

● ومنها أنه الذى يجمع قلوب أوليائه على محبته وشهود عظمته.

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

والمؤمن الذى يتدبر فى معنى هذا الاسم يتذكر يوم الجمع الذى يجمع الله فيه الخلائق ، فيستعد له بالعمل الصالح .

ويتذكر قدرة الله التى ألفت بين الأشياء فيزيده ذلك إيمانا بقدرة الله الخارقة التى لايعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء وإن ذلك ليدعوه الى إمعان النظر فى خلق السموات والأرض والتفكر فى مظاهر هذا الكون الذى يجمع بين المتناقضات . . ثم إنها على الرغم من تناقضها لتسير فى دقة بارعة ونظام تام .

انظر الى الليل والنهار وتعاقبهما ، والنور والظلمة والرطوبة واليبوسة والحار والبارد ، والماء والثلج ، والكواكب على اختلاف مداراتها والحيونات

---

(٩٨٤) التكوير

والطيور والوحوش على اختلاف أنواعها المفترس والفريسة ، والنافرة والأليفة .

ثم انظر الى القلوب وتقلباتها وتنافرها وائتلافها ، والشعوب وأجناسها ، ولغاتها واعتقاداتها ، وتقاليدها وعاداتها ، وأشكالها وألوانها ، وحربها وسلمها .

وانظر الى الطبيعة كيف تكون ساكنة هادئة ثم إذابها ثائرة عاصفة .

وانظر الى نفسك كيف تكون طيعة منقادة ثم إذا بها نافرة عاصية وكيف تكون ثائرة غاضبة ثم تتحول الى هادئة مستسلمة .

إن كل ذلك وغيره مما يموج به الكون فى قبضة القادر الذى يجمع بين هذه الأشتات فى يسر وسهولة وطواعية وقدرة تقول للشيء : كن فيكون .

وقد دعانا الله إلى التفكر لنزداد إيمانا ، ويقوى اليقين فى نفوسنا وتطمئن قلوبنا فى ظل الايمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

الدعاء فى ظل هذا الاسم :

قال العلماء : من أكثر من ذكر هذا الاسم قائلا : « اللهم ياجامع الناس ليوم لاريب فيه اجمع عليَّ ضالتى - جمعه الله على ضالته بإذن الله .

ومن الدعاء باسم الجامع - قال الامام أبو الحسن الشاذلى - رضى الله عنه : « اللهم ياجامع الناس ليوم لاريب فيه ، اجمع بيننا وبين الصدق والنية والاخلاص والخشوع ، والهيبة والحياء ، والمراقبة والنور ، واليقين والعلم ، والمعرفة والحفظ ، والنشاط والقوة ، والستر والمغفرة ، والفصاحة

والبيان ، والفهم فى القرآن ، وخصنا بالمحبة والاصطفاء والتخصيص والتولية وكن لنا سمعا وبصرا ، ولسانا وقلبا وعقلا ويدا ومؤيدا وآتنا العلم النافع والعمل الصالح ، والرزق الهنىء الذى لاحجاب به فى الدنيا ، ولاحساب ولاسؤال ولاعقاب عليه فى الآخرة ، على بساط علم التوحيد والشرع سالمين من الهوى والطمع ، وأدخلنا مدخل صدق وأخرجنا مخرج صدق واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا »(٩٨٥)

وللشاعر أحمد مخيمر أبيات يناجى فيها ربه باسمه الجامع - يقول :

ياجامعا بين السماء وأرضها وبحارها من فوقها وهوائها
ياجامعا بين القلوب على الذى خبأته فى الظلمات من أهوائها
ياجامعا بين الحياة وبين ما قدرته من موتها وفنائها
الحكمة العليا بذاتك آلفت ذا كله بجلالها وبهائها
وبقدرة تسع الوجود جميعه بالرغم منه مسلم بقضائها(٩٨٦)

ويتساءل الشاعر إسماعيل صبرى عن المصير المهول الذى يتعرض له الإنسان يوم يجمع الله الناس للميزان الذى قد تخف فيه الأعمال : فيقول :

جامع الناس والموازين قسط يوم لم تجد زفرة الندمان
أى ويل إذ الموازين خفت وزفير الجحيم فى ثوران ؟

اللهم نجنا وثقل موازيننا ، واجمعنا فى الدنيا على الصالحين ، وفى الآخرة على سيد المرسلين ، الذى خصصته بالشفاعة العظمى والوسيلة الكبرى -- صلى الله عليه وسلم - .

---

(٩٨٥) درة الاسرار صـ٩١
(٩٨٦) أسماء الله الحسنى لأحمد مخيمر صـ١١٢

الغنى

ورد اسم « الغنى » فى مواضع عدة من القرآن الكريم . منها قوله ـ تعالى ـ :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ (٩٨٧)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٩٨٨)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (٩٨٩)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٩٩٠)

---

(٩٨٧) البقرة ٢٦٣

(٩٨٨) آل عمران ٩٧

(٩٨٩) الأنعام ١٣٣

(٩٩٠) يونس ٦٨

وقوله - تعالى -

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ (٩٩١)

وقوله - تعالى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ (٩٩٢)

وغير ذلك من الآيات ..

فالله - سبحانه - هو الغنى

.. وخزائن رحمته المادية والمعنوية لاتنفد ..

ولاشك فى أن من يرزق الخلائق جميعا إنسها وجنها ، وحشها وأليفها ، حشراتها وهوامها . مايدرك وما لايدرك ، مايُرى ومالايُرى - هو الغنى الكريم .

وقال العلماء فى معنى الغنى : إنه المستغنى عن كل ماسواه ، المفتقر إليه كل ماعداه .

سبحانه لايحتاج الى شيء ، لافى ذاته ، ولافى صفاته ، ولافى أفعاله . ويحتاج اليه كل شيء ..

سبحانه لاصاحبة له ولا ولد ، ولا معين له ولاسند ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا نصير له فى تنفيذ مشيئته وأمره ، خلق الخلق لعبادته وهو غنى عنها ، بل استعبدهم ليثيبهم على عبادتهم إياه بأفضل الحسنات ، ويرفعهم

---

(٩٩١) ابراهيم ٨

(٩٩٢) فاطر ١٥

بها أعلى الدرجات .

لقد جاء فى حديث قدسى - يقول الله - تعالى -

« إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم

ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ، ياعبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم .

ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً غير الشرك فاستغفرونى أغفر لكم

ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ،

ياعبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد مانقص ذلك فى ملكى شيئاً .

ياعبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك مما عندى شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلايلومَنَّ إلا نفسه »(٩٩٣)

(٩٩٣) رواه مسلم وأبو عوانة وابن حبان والحاكم عن أبى ذر - الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية . للمناوى صـ ٢٨

ومظهر غنى الله يدل عليه قوله ـ تعالى ـ

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩
وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ
وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣﴾ (٩٩٤)

وقد اقترنت الآيات التى ورد فيها اسم الله « الغنى » فى القرآن الكريم بأسماء أخرى كالحليم والحميد والكريم ، وفى ذلك دلالة على أن الله فى غناه ليس متجبراً على عباده ، أو بخيلاً عليهم ، أو ظالما لهم ، شأن مانراه من الأغنياء المترفين الذين يظنون أنهم بغناهم يحق لهم أن يظلموا ويستعبدوا الناس ويستذلوهم .

ولكن الله فى غناه يرزق البر والفاجر ، ويعفو عن المسىء ، ويقبل توبة التائب ، ويجير من استجار به ـ فله الحمد على آلائه ، وله الشكر على نعمائه . . ولكن ماذا تفيد كلمة الغنى من جهة اللغة ؟

إنها تفيد ـ كما يقول ابن منظور فى لسان العرب ـ أنه لايحتاج الى أحد فى شىء وكل أحد محتاج اليه ، وهذا هو الغنى المطلق ، ولايشارك الله فيه أحد .

والغنى ضد الفقر ، وله معان . منها عدم الحاجة ، ومنها وجود مايغنى

---

(٩٩٤) الحجر ١٩ : ٢٣

عن سؤال الناس . وهذا يشير إليه قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ (٩٩٥)

ويشير اليه أيضاً قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الغنى غنى النفس » ومنها كثرة مايقتنى عند الناس عادة من مال ورياش ، وهذا هو الذى دعا اليهود ـ أخرس الله ألسنتهم ـ أن يقولوا ـ كما حكى عنهم القرآن الكريم ـ

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ (٩٩٦)

أما غنى الله فهو الغنى الأول ، فهو ـ سبحانه ـ ليس محتاجاً لشىء وليس محتاجاً إلى أحد بل الكل محتاج إليه ـ سبحانه ـ

وقد ألقى الإمام الغزالى الضوء على معنى « الغنى » فقال : الغنى هو الذى لاتعلق له بغيره فى ذاته ، ولا فى صفات ذاته ، فمن تعلق بغيره فهو محتاج إليه .

ومن أقوال بعض العلماء فى معنى الغنى : الغنى بذاته عن العالمين ، المتعالى عن جميع الخلائق أجمعين فى كل زمن وحين .

هو الغنى عن العباد ، المتفضل عليهم بمحض الفضل والوداد .

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا علم المؤمن أن الله هو الغنى ، فإنه لايلجأ فى حاجته إلا إليه ،

---

(٩٩٥) الضحى ٨

(٩٩٦) آل عمران ١٨١

ولا يبسط كفه بالتضرع إلا له . وعليه أن يتذكر دائما قوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (٩٩٧)

والله سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يسألوه ، وهو الذى يقول :

« واسألوا الله من فضله »

وقد ورد فى بعض الآثار أن المصلى إذا انفتل من صلاته ، ولم يدع الله شيئاً ، قال الله - تعالى -

استغنى عنى عبدى .

وورد فى الأثر الشريف : اسألوا الله فإن الله يحب أن يسأل . ومن الآداب التى يتعلمها المؤمن إذا أفاض الله عليه نعمة ورزقه يسراً - شارك غيره فيه ، وجاد بما عنده ، وواسى الفقراء والمساكين ، وليتذكر أن هذا فضل الله يعطيه من يشاء ، فعليه أن يشكر الله عمليا بأن يعطى الفقراء والمساكين مما أعطاه الله .

وعلى المؤمن أن يحذر من فتنة الدنيا فإن للمال سحراً فى القلوب وغشاء على العيون . . يقال : إن إبليس أخذ أول دينار ضُرب فوضعه على عينيه ، وقال : من أحبك فهو عبدى .

وقيل أيضاً : إن إبليس حين اخْتُرعت النقود صرخ صرخة عظيمة جمع بها أعوانه ، ثم قال لهم : لقد وجدت اليوم ماأستغنى به عنكم فى إضلال

---

(٩٩٧) فاطر ١٥ ، ١٦

الناس . نعوذ بالله من فتنة الدنيا والآخرة .

الذكر فى ظل هذا الاسم

قيل : إن الاكثار من ذكر اسم الله ـ الغنى ـ يغنى صاحبه .

ومن أكثر من ذكره دفع الله عنه البلاء .

ومن أدعية الصالحين : اللهم ياغنى وسع رزقى وبارك لى فيه واقض دينى .

ومن دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اللهم إنى أسألك إيمانا لايرتد ونعيما لاينفد ومرافقة نبيك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أعلى جنان الخلد »(998)

ومن دعاء الحسن ـ رضى الله عنه ـ الذى يقال إنه تعلمه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « اللهم اقذف فى قلبى رجاءك ، واقطع رجائى عمن سواك حتى لاأرجو أحداً غيرك ، اللهم ـ وما ضعفت عنه قوتى ، وقلت فيه حيلتى ، ولم تبلغه مسألتى ، ولم يجر على لسانى مما أعطيت أحداً فى الأولين والآخرين من اليقين ، فخصنى به يا أرحم الراحمين .

---

(998) الدعاء المستجاب لأحمد عبد الجواد صـ ١٢٠

المغنى

ومن أسماء الله ـ تعالى ـ « المغنى » وهو الذى يغنى من يشاء من عباده .

وهو اسم الفاعل من الفعل « أغنى » وأغنى مأخوذ من الغنى ولم يرد هذا الاسم بلفظه فى القرآن الكريم ، وإنما ورد فى سلسلة الأسماء التى جاء بها الحديث الشريف ، ورقمه فى هذه السلسلة التاسع والثمانون .

وقد ورد فى القرآن الكريم مايشير إلى أن الله هو الذى يغنى عباده . قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ (999)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ (1000)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ﴾ (1001)

---

(٩٩٩) النجم ٤٨

(١٠٠٠) الضحى ٨

(١٠٠١) التوبة ٧٤

وقال - تعالى -

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١٠٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١٠٠٣)

وقال - تعالى -

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١٠٠٤)

وقال العلماء فى معنى هذا الاسم : إنه - سبحانه - السخى الجواد ذو الفضل والاحسان ، والطَّول والإنعام ، يغنى العبد حتى لايخشى الفقر ، ويغنى النفس حتى ترضى .

(١٠٠٢) النور ٣٢
(١٠٠٣) التوبة ٢٨
(١٠٠٤) النور ٣٣

وليس شرطا أن يُغْنى الله الانسان بالعرض والمتاع ، بل يكفى أن يدخل فى نفسه القناعة والرضا فيصبح أغنى الأغنياء . وقد جاء فى ذلك الأثر «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس»

إن الله المغنى ، يغنى من يشاء من عباده بما يشاء من أنواع الغنى . . . . «وما كان عطاء ربك محظوراً»

قال العلماء : وأفضل أنواع الغنى غنى النفس ، فان الحوائج تطلب من الله ، فمن ترك الله ورجع الى الخلق فى حوائجه ابتلاه الله بالخلق ، وانتزع الرحمة من قلوبهم ، حتى إذا رجع العبد إلى الله أعطاه مايتمناه ، ورزقه من حيث لايحتسب ، وتيسرت له كل المطالب فى قضاء المصالح والحوائج ، فإن الأشياء ليست على مقتضى طبائعها بل بتأثير من خالقها[١٠٠٥]

وقد تعرض الإمام الغزالى لهذا الاسم قارنا بينه وبين الغنى وكان مما قاله فى ذلك : الغنى المغنى هو الذى لاتعلق له بغيره لافى ذاته ولا فى صفات ذاته .

فالذى له تعلق بغيره فقير محتاج الى الكسب .

ولا يتصور وجود مخلوق لاتعلق له بغيره ـ فالخالق وحده ـ هو الذى لايحتاج إلى غيره .

والله ـ تعالى ـ هو المغنى ، ولايتصور أن يصير من أغناه الله غنياً مطلقاً لأنه على الأقل محتاج الى المغنى ، فلايكون غنياً .

والغَنِيُّ الحقيقى هو الذى لاحاجة له إلى أحد أصلاً .

(١٠٠٥) فى ملكوت الله مع أسماء الله صـ١١٢

ويقول بعض العلماء فى معنى المغنى : إنه الذى يعطى الغنى لعباده ويكون بمعنى معطى الكفاية أيضاً . والله ـ تعالى ـ مغنٍ عباده بعضهم عن بعض ، لأن الحوائج على الحقيقة لاتكون إلا إليه . فالمخلوق لايملك لنفسه نفعاً ولاضراً فكيف يملك ذلك لغيره ؟

وقيل : إن المغنى هو الذى يعطى الغنى والكفاية لمن شاء من عباده على وفق مااقتضت حكمته وسبقت مشيئته . .

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ (١٠٠٦)

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى أفاض الغنى على العباد وسهل لهم المراد ، وما من غنى فى الوجود الا وهو من جناب الحق ممدود ، وهو المغنى لأوليائه بإرشادهم إلى الهدى ، والمغنى لأهل الكون بتسهيل أرزاقهم باقتداره ، وهو المغنى لكل حقيقة بمدد على قدرها ، لأنه هو الخبير بسرها وجهرها . (١٠٠٧)

كيف يتأدب المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا عرف المؤمن أن الله هو المغنى ، ولامغنى سواه ، استغنى بالاعتماد عليه ، وسار مقتدياً بنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى قال له ربه

« ووجدك عائلا فأغنى »

والمؤمن الحق لاينبغى أن يكون قصارى جهده طلب المال أو الثروة حين يطلب من الله الغنى ـ فليس المال هو كل شىء ، ولكن الغنى يتم من الله

(١٠٠٦) طه ٥٠

(١٠٠٧) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ١ صـ٤١٩

بوسائل كثيرة ـ أهمها القناعة ، ومن رزق القناعة فقد رزق الغنى كله .
والأثر الشريف يقول « خير الغنى القناعة »
وكم من غنى فقير ، وكم من فقير غنى .

وفقر الغَنِيِّ يظهر فى شرهه وطمعه وتطلعه الدائم للدنيا .

وقد نبه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض حديثه الى هذا الداء فقال : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى ثالثا ولايملأ عين ابن آدم الا التراب »

المؤمن الحق يطلب الرضا من الله ـ تعالى ـ وإذا رزقه الله الرضا فقد رزقه الحياة الطيبة . . قال تعالى

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (١٠٠٨)

الدعاء فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : إن المداومة على ذكر هذا الاسم تحول دون افتقار العبد إلا الى الله .

وهناك أدعية مأثورة فى ظل هذا الاسم منها :

« اللهم ياغنى ياحميد ، يا مبدىء يامعيد . يا رحيم ياودود ، يافعا لا لما يريد اكفنى بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك وأغننى بفضلك عمن سواك »

ومن الابتهالات فى ظل اسم الله ـ الغنى :

(١٠٠٨) النحل ٩٧

وما سـيد حقـا سوى اللـه إنـه له الحكم فى الدنيا ، له الحكم فى الأخرى
غنـى على الاطـلاق عن كـل كـائن وكل لـه بالفقـر قد أحرز الفخـرا
هم الكـل مقهورون من تحت حكمه ولن يقـدروا أن يدفعوا عنهم القهـرا

ومن الدعاء الوارد فى ذلك أيضاً :

« يا ألله ياعظيم ياعلى ياكبير ، نسألك الغنى بك ، حتى لانشهد إلا إياك ، والطف بنا لطفاً علمته يصلح لمن والاك ، واكسنا جلابيب العصمة من الأخطاء والزلات ، واجعلنا عبيدا لك فى جميع الحالات ، وعلمنا من لدنك علما نصير به كاملين فى المحيا والمات »

« إلهى كيف يُرْجى سواك وأنت ماقطعت عادة الإحسان ؟

وكيف يُطلب من غيرك وأنت مابدلت عادة الامتنان ؟

أنت البادىء بالإحسان من قبل توجه العابدين ، وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين »

قال الشاعر أحمد مخيمر فى الاسمين : الغنى المغنى :

أنت الغـنى الـذى مـدت خزائنـه لطـالبى الـرزق لم تنقـص ولم تـزد
وكل من هو محتاج يُمَدُّ بمفتاح الدعاء لباب الواحد الصمد
تعطـى بغير حسـاب كل مغـترف بالجـود ، متكـل بالحـق معتمـد
وحـين عن غـيره تغنيـه ، تجعـله لجـود ذاتـك محتاجـا الى الأبـد[١٠٠٩]

وفى منظومة أسماء الله الحسنى فى أسماء الجامع والغنى والمغنى :

وياجـامع اجمعنـا دوامـاً لحضـرتك غـنى فجـد لى بالغـنى والمـبرة
ويامغنـى امـلأ القـلوب قناعـة ويا معطـى أعـط من الوهـب حاجـتى

(١٠٠٩) أسماء الله الحسنى ـ لأحمد مخيمر ١١٣

المـانع

من أسماء الله ـ تعالى ـ «المانع» وهو من الأسماء التى لم ترد بلفظها فى القرآن الكريم ، ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء التى جاءت فى الحديث الشريف ، ورقم هذا الاسم فى هذه السلسلة ـ التسعون .

وجاء فى لسان العرب فى تفسير هذا الاسم مايلى :

المانع من صفات الله ـ تعالى له معنيان :

أحدهما ماروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « اللهم لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت » فكأنه ـ عز وجل ـ يعطى من استحق العطاء ويمنع من يستحق المنع ، ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، وهو العادل فى جميع ذلك .

والمعنى الثانى أنه تبارك وتعالى يمنع أهل دينه من أعدائهم ـ أى يحوطهم وينصرهم .

ومن هذا يقال : فلان فى مَنَعةٍ ، أى فى قوم يحمونه ويمنعونه ، وهذا المعنى فى صفة الله ـ جل جلاله ـ بالغ ، إذ لامنعة لمن لم يمنعه الله ، ولا يمتنع من لم يكن الله له مانعا .

وفى الحديث الشريف : « اللهم من منعت ممنوع » أى من حرمته محروم لايعطيه أحد غيرك »(١٠١٠)

وقال بعض العلماء : المانع هو الذى يدفع أسباب الهلاك والنقص فى الدين والبدن فيخلق الأسباب التى تحفظ من الهلاك والنقصان . وهو الذى

(١٠١٠) لسان العرب مادة منع

يوجد بعض الممكنات ، ويمنع وجود البعض ، ويعطى كل شيء ماهو فى مصلحته ويمنع ماهو سبب فساده ، سبحانه يغنى ويفقر ، ويسعد ويشقى ، ويعطى ويحرم ، ويمنح ويمنع ، فهو المعطى والمانع .(1011)

والمانع هو الحامى والمنجى والناصر . . . . وإذا وصف به العبد فيمكن أن يكون مدحاً أو ذما أو تحقيراً .(1012)

وهذا الاسم الشريف وان لم يرد بلفظه فى القرآن الكريم ، فقد ورد مايفيده ويؤدى معناه . . . فكثير من آيات القرآن تدل على حماية الله ونصرته لأوليائه وخذلانه لأعدائه . . . فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾(1013)

وقوله ـ تعالى

﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ (٢) ﴾(1014)

(١٠١١) فى ملكوت الله مع أسماء الله صـ١١٢

(١٠١٢) أسماء الله لأحمد عبد الجواد صـ٢١٣

(١٠١٣) الأنبياء ٤٣

(١٠١٤) الحشر ٢

وإذا كانت اللغة تقول : إن المنع ضد الإعطاء ، فإنه يأتى أيضاً بمعنى الحماية ، ولذلك يقولون : هذا حصن منيع » . . فالله تعالى ـ هو المانع ـ أى الحامى والحافظ . وان كان ـ المانع ـ مأخوذاً من المعنى الذى هو ضد الإعطاء ، فإن الله مانع الإعطاء عمن يشاء ومعطيه لمن يشاء ـ على حسب ماتقتضيه الحكم العالية التى تحسن وضع الأمور فى نصابها .

وقد حضنا الله ـ سبحانه ـ على منع السفهاء من التصرف والولاية فقال لنا :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝٥ ﴾ (١٠١٥)

وقال العلماء : الله المانع الذى يمنع البلاء حفظاً وعناية ، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاء أو حماية .

قال ابن الأثير فى النهاية : معنى المانع أنه يدفع عن أهل طاعته ويحوطهم وينصرهم ، وهو الذى يمنع من يريد من خلقه مايريد ويعطيه مايريد .

ويرى الامام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ أن المنع يرد بمعنى الحفظ ، وقد سبق معنى الحفيظ ، وكل حفظ فمن ضرورة منع ودفع ، فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المانع ، فالمنع إضافة إلى السبب المهلك ، والحفظ إضافة الى المحروس من الهلاك ، وهو مقصود المنع وغايته إذا كان المنع يراد للحفظ . . . فكل حافظ دافع مانع ، وليس كل مانع حافظاً إلا إذا كان

(١٠١٥) النساء ٥

مانعا مطلقا لجميع أسباب الهلاك والنقص ، حتى يحصل الحفظ من ضرورته[١٠١٦]

كيف يتأدب المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

حظ المؤمن من هذا الاسم أن يمنع نفسه ـ بتكرار الدعاء به ـ من أسباب الهلاك ، وفى مقدمة ذلك الشهوة التى تورده موارد التهلكة .

والنفس من طبيعتها الميل مع الهوى ، والاسترسال مع اللذات حتى لتنسى بسبب ذلك ماهو مفروض عليها من واجبات . وقد قال البوصيرى فى ذلك :

والنفس كالطفل أن تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

وقد أخذ شوقى هذا المعنى وصاغه فى أسلوب جديد فقال :

والنفس من خيرها فى خير عاقبة والنفس من شرها فى مرتع وخم

ومنع النفس عن شهواتها يعنى تهذيبها بالمجاهدة التى وضع قواعدها الدين الحنيف ، وأشار اليها العلماء المعنيون بتربية النفوس وتهذيب السلوك .

إن أصل كل معصية ـ كما يقول بعض العلماء . هو الرضا عن النفس وإطاعتها فى ماكل تأمر به، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها ، والوقوف ضد أهوائها . . . ذلك أن الرضا هو الذى يعمى العين عن رؤية المساوىء ، وقد قال الشاعر الحكيم :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

(١٠١٦) انظر هامش أسماء الله لأحمد مخيمر صـ ١١٥

وقد قاوم كل الصالحين نفوسهم فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من مقامات عليا ، وأمدهم الله بنوره وأطلعهم على كثير من أسراره .

وإذا كان يوسف ـ عليه السلام ـ قال ـ فى رأى بعض أهل التفسير ـ : ماذكره لنا القرآن الكريم فى قوله :

« وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى » وهو نبى فما بالكم بغيره من البشر العاديين ؟

ويقول بعض العلماء : إن من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجبرها إلى مكروهها ـ ولم يمنعها لذاتها ـ فى سائر أيامه كان مغروراً ، ومن نظر إليها باستحسان شىء منها فقد أهلكها .

وقال أبو سليمان الدارانى : مارضيت عن نفسى طرفة عين .

وكان الجنيد ـ رحمه الله ـ يقول ـ لا تسكن إلى نفسك وإن دامت طاعتها لك فى طاعة ربك . .

ومما يتعلمه المؤمن من هذا الاسم أن الله إذا منع إنما يمنع لحكمة ، ومنعه فى حقيقة الأمر هو عين العطاء . فإن الله يحمى المؤمن من الدنيا بمنعها عنه حتى لا يقع فى حبائلها . وفى الحديث الشريف « إذا أحب الله عبدا حماه من الدنيا كما يحمى أحدكم سقيمه مما يضره »[١٠١٧]

فلا يجزع المؤمن إذا زويت عنه الدنيا أو منعت عنه ، فإنما ذلك رحمة من الله به .

وليعلم أن العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله ـ إذا رضى به المؤمن

(١٠١٧) رواه الترمذى والحاكم والبيهقى عن قتادة بن النعمان ـ رضى الله عنه ـ

وصبر عليه ـ فضل وإحسان .

وليس أجمل من الزهد فى الدنيا مع القدرة على التمتع بلذاتها ، كما كان يفعل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وعلى المؤمن ألا يمنع الخير عن مستحق مادام قادرا على ذلك .

الدعاء فى ظل هذا الاسم

يقال إن قراءة هذا الاسم وتكراره يذهب الجفوة بين الناس . ومن الأدعية الواردة فى ذلك .

« إلهى أنت المانع ، ومنعك عند الصالحين عطاء ، وأنت المعطى وعطاؤك للذاكرين نعم العطاء .

اكشف عن قلوبنا حجاب الغفلة حتى نعرف الحق ونتبعه ونداوم عليه . . وأعنا على أنفسنا حتى نمنعها من الحظوظ والشهوات ، وأعنا على المخالفين حتى نمنعهم من المنكرات ، إنك على كل شىء قدير . . »

ومن حكم ابن عطاء الله فى معنى المنع والعطاء :

« متى أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره ، وهو فى كل ذلك رحيم عليك لطيف بك .

« إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه . .

وما أجمل قول الشاعر الحكيم :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

وقال بعض الصالحين : لا يكمل حال المؤمن حتى يكون نظره إلى الله فى المنع أفضل من نظره إليه فى العطاء ، وعلامة صدقه فى ذلك أن يرضى بالمنع كما يرضى بالعطاء .

الضـارُّ

معنى هذا الاسم ـ فيما يذكر العلماء ـ أنه المقدر الضر والشر لمن أراد ـ كيفما أراد ـ يفقر ويمرض ، ويشقى ويحرم ، على مقتضى حكمته ومشيئته ، فهو المقدر كل شيء ، وهو وحده المسخر لأسباب الشر والضر ، إما بلاء لتكفير الذنوب ، أو ابتلاء لرفع الدرجات .

ويأتى هذا الاسم مقرونا بالنافع فى كثير من الأحوال . والضر ضد النفع ، وهو بفتح الضاد وضمها ، وقيل : إن الضر ـ بفتح الضاد هو مصدر الفعل ، أما الاسم فهو بضم الضاد ، والمضرة ضد المنفعة .

وتقدير الضر من الله لعبد من عباده إنما يكون وفق حكمة عليا ، فهو الحكيم العليم .

ولابد لنظام الكون من أن يكون هناك الضر والنفع . . وكمال الابداع يقتضى وجود التضاد ، وبضدها تتميز الأشياء .

ولم يرد اسم الضار فى القرآن الكريم بلفظه ، ولكنه ورد فى سلسلة الاسماء التى جاء بها الحديث الشريف ورقمه الحادى والتسعون .

وقد ورد فى القرآن ما يؤدى معناه . من ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ (١٠١٨)

(١٠١٨) الحديد ٢٢ ، ٢٣

وقال ابن الأثير : الضار هو الذى يضر من يشاء من خلقه ، حيث هو خالق الأشياء كلها خيرها وشرها ونافعها وضارها . .

ولكن الأدب يقتضينا ألا ننسب الضر إلى الله . وإن كان بتقديره . . وذلك اقتداء بأبينا إبراهيم عليه السلام ـ الذى يقول :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ (١٠١٩)

أسند المرض الى نفسه ، وأسند الشفاء إلى الله ـ تعالى ـ

والله ـ تعالى ـ يقول :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (١٠٢٠)

ومعنى ذلك فيما يقوله القرطبى : ما أصابك من خصب ورخاء وصحة وسلامة فبفضل الله عليك وإحسانه إليك ، وما أصابك من جدب وشدة فبذنب أتيته وعوقبت عليه . وإن كان الخطاب للنبى ـ ﷺ ـ إلا أن المراد منه أمته ، أى ما أصابكم يا معشر الناس من خصب واتساع رزق فمن تفضل الله عليكم ، وما أصابكم من جدب وضيق رزق فمن أنفسكم ، أى من أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم . (١٠٢١)

والله جل وعلا هو الذى يقول

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١٠٢٢)

(١٠١٩) الشعراء ٨٠

(١٠٢٠) النساء ٧٩

(١٠٢١ : تفسير القرطبى جـ ٥ صـ ٢٨٥ ـ سورة النساء الآية رقم ٧٩

(١٠٢٢) الأنبياء ٣٥

أى من أجل اختباركم . فمن أوتى الخير وشكر فقد نجح ، ومن ابتلى بالشر وصبر فقد نجح أيضا .

وقال الإمام الغزالى - رضى الله عنه - : إن الضار والنافع هو الذى يصدر منه الخير والشر والنفع والضر ، وكل ذلك منسوب الى الله - تعالى - إما بواسطة أو بغير واسطة ، فلا تظن أن السم يقتل ويضر بنفسه ، وأن الطعام يشبع وينفع بنفسة ، وأن الملك والإنسان والشيطان أو أى شيء من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرهما - يقدر على خير أو شر أو نفع أو ضر بنفسه ، بل كل ذلك أسباب مسخرة لا يصدر عنها إلا ما سخر له .

ومن الآيات التى ورد فيها ما يفيد أن الضر بيد الله - تعالى - قوله - جل شأنه -

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (١٠٢٣)

وقوله - تعالى -

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١٠٢٤)

(١٠٢٣) الأعراف ١٨٨
(١٠٢٤) يونس ٤٩

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١٠٢٥)

ولكن الله ـ جلت قدرته ـ حين يبتلى بالضر يريد أن يدرب عبده على الصبر ، أو يريد أن يكفر عنه ذنبا من الذنوب ، أو يكون ذلك مؤاخذة له بسبب تقصير منه ـ مصداقا لقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١٠٢٦)

والمؤاخذة فى الدنيا رحمة ، وهى لطف من الله ـ تعالى ـ بعبده . . . . وقد عبر عن ذلك ابن عطاء الله السكندرى حيث قال : « ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبلى لك » فالذى واجهتك منه الأقدار هو الذى عودك حسن الاختبار .

« ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره »

فالله ـ سبحانه ـ لا يقصد ألم عبده إلا لمصلحة له ـ فضلا منه ومنّة ، لا أنه يجب عليه ذلك . ألم يقل لحبيبه ـ ﷺ ـ

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١٠٢٧)

وقد عودك الله ما تحب فاصبر على ما يحب .

(١٠٢٥) النحل ٥٣

(١٠٢٦) الشورى ٣٠

(١٠٢٧) الطور ٤٨

كيف يتأدب المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

هذا الاسم يعلمنا مايجب علينا نحو مانلقاه من بلاء وضر فى حياتنا ، فالمؤمن الحق هو الذى يصبر عند البلاء ، وقد بشر الله الصابرين بحسن الثواب قال ـ تعالى ـ

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ (١٠٢٨)

وقد أثنى الله على عبده أيوب ـ عليه السلام ـ لشدة صبره ـ فقال فى حقه :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١٠٢٩)

فعلى الانسان أن يصبر على مايصيبه من سوء فقد يكون ذلك تكفيراً لسيئة اقترفها أو ابتلاء يرفع الله به درجته .

ورد أن الصديق ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزل قوله ـ تعالى ـ « من يعمل سوءاً يجز به »

جئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يارسول الله ، كيف الحال بعد هذه الآية ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يغفر الله لك ياأبا بكر ، ألست

(١٠٢٨) الزمر ١٠

(١٠٢٩) ص ٤٤

تمرض ؟ أليس يصيبك الهم ؟ ألست ينالك الأذى ؟ ألست تصيبك المصائب ؟ »

قلت : بلى

قال : « ذلك مما يجزى به العبد »(١٠٣٠)

كما يجب على المؤمن إذا أتاه الله قوة ومنعة أن يستعمل ذلك فى زجر أعداء الله وقمعهم ، فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

وقد جرت عادة العدو أن يستهين بحرمات الله ، ويستحل الإغارة على عباد الله المسالمين ، ومثل هؤلاء لاينبغى مقابلتهم بالعفو والتسامح ، بل بالمجاهدة والقوة ـ مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾(١٠٣١)

الدعاء فى ظل هذا الاسم

علمنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن نلجأ إليه ليكشف عنا الضر ، فقال ـ تعالى ـ

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾(١٠٣٢)

(١٠٣٠) فى ملكوت الله صـ١١٣

(١٠٣١) التوبة ١٢٣

(١٠٣٢) النحل ٥٣

فواجبنا أن ندعو الله ـ طالبين أن يكشف عنا السوء ، وينجينا من الغم .

ومن الدعاء الوارد فى ذلك . « اللهم رَضِّنا بقضائك ، وصبرنا على طاعتك وعن معصيتك ، وعن الشهوات الموجبات للنقص أو البعد عنك ، وهب لنا حقيقة الإيمان بك حتى لانخاف غيرك ، ولانرجو غيرك ، ولانعبد شيئاً سواك . . .

« ولقد شكا إليك يعقوب فخلصته من حزنه ورددت عليه ماذهب من بصره وجمعت بينه وبين ولده ، ولقد ناداك نوح من قبل فنجيته من كربه ، ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفت ما به من ضر ، ولقد ناداك يونس فنجيته من غمه ، ولقد ناداك زكريا فوهبت له ولداً من صلبه بعد يأس أهله وكبر سنه ، ولقد علمت مانزل بإبراهيم فأنقذته من نار عدوه ، وأنجيت لوطاً وأهله من العذاب النازل بقومه ، وهأنذا عبدك ـ إن تعذبنى بجميع ماعلمت من عذابك فأنا حقيق به ، وإن ترحمنى كما رحمتهم مع عظيم إجرامى فأنت أولى بذلك وأكرم . . . . وليس كرمك مخصوصا بمن أطاعك وأقبل عليك ، بل هو مبذول لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك . . .

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » وهذه أدعية دعا بها الأنبياء الكرام فى ضيقهم ففرج الله بها كربهم .

قال يونس ـ عليه السلام ـ وهو فى بطن الحوت

« لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين »

فقال ـ تعالى ـ جوابا له

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١٠٣٣)

وقال أيوب ـ عليه السلام ـ وقد مسه الضر : « رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » فقال الله تعالى ـ

﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (١٠٣٤)

وقال زكريا

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

فقال الله تعالى :

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (١٠٣٥)

(١٠٣٣) الأنبياء ٨٧ ، ٨٨
(١٠٣٤) الأنبياء ٨٣ ، ٨٤
(١٠٣٥) الأنبياء ٨٩ ، ٩٠

وقال مؤمن آل فرعون حين هدده فرعون وشيعته : « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » فقال الله - تعالى - :

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ (١٠٣٦)

وتضرع المؤمنون إلى الله بالدعاء حين جمع لهم الأعداء الجموع فقالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فقال الله لهم :

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ (١٠٣٧)

(١٠٣٦) غافر ٤٤ ، ٤٥

(١٠٣٧) آل عمران ١٧٣ ، ١٧٤

النـــــافع

قال ابن منظور : فى أسماء الله تعالى « النافع » : أى الذى يوصل النفع الى من يشاء من خلقه ، حيث هو خالق النفع والضر ، والخير والشر .

والنفع ضد الضر ، تقول : نفعه نفعاً ومنفعة .

وقال العلماء : النافع هو الذى يصدر منه الخير والنفع فى الدنيا والدين ، ـ سبحانه ـ هو وحده مانح الصحة والغنى ، والسعادة والجاه ، والهداية والتقوى .

ولم يرد هذا الاسم بلفظه فى القرآن الكريم ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء التى جاء بها الحديث الشريف ، ورقم هذا الاسم فى هذه السلسلة هو الثانى والتسعون .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى أن الله وحده هو الذى يضر وينفع ، وأن الضر والنفع بيد الله وحده لاشريك له .

من ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (١٠٣٨)

فمفهوم هذه الآية أن يدعو الانسان الذى ينفع ويضر وهو الله ـ تعالى ـ

وقد جاء بعد هذه الآية قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ

(١٠٣٨) يونس ١٠٦

١

لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ (١٠٣٩)

فاذا كان الله هو الذى يمس بالضر ، وهو وحده الذى يكشفه فهو إذاً الذى يحقق النفع ولايأتى به إلا هو ، وهذا مايفهم من بقية الآية فى قوله :

« وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم »

وعن طريق الاستفهام التوبيخى كان قول إبراهيم ـ عليه السلام لقومه ـ فيما حكاه القرآن الكريم ـ

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ (١٠٤٠)

وكأنه يقول لهم : اعبدوا من ينفع ويضر ، فهو الأحق بالعبادة ، وذلك هو الله العلى العظيم .

وهناك آيات كثيرة تشير إلى هذا المعنى .

ويقول بعض العلماء فى الاسمين الضار والنافع : إنهما اسمان من أسماء الله ـ تعالى ـ وفى معناهما إشارة إلى التوحيد ، لأن معناهما أنه لايصيب عبداً ضر ولانفع ولا خير ولاشر إلا بمشيئته ـ تعالى ـ وإرادته وقضائه وقدره ، فمن رضى بحكم الله وقضائه عاش فى راحة ، ومن أباه وقع فى كل آفة .

(١٠٣٩) يونس ١٠٧

(١٠٤٠) الأنبياء ٦٦ ، ٦٧

قيل : إن أول ماكتب الله ـ عز وجل ـ في اللوح المحفوظ : أنا الله لاإله أنا ، فمن لم يرض بقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر على نعمائى فليطلب ربا سواى .

وقال الامام الرازى فيما يرويه من كلام الشيوخ حول معنى الضار والنافع :

● الضار الذى يضر الكافرين بما أعده لهم من شديد عقابه ، والنافع الذى ينفع الطائعين بما أعده لهم من النعيم .

ومظاهر النفع فى الحياة كثيرة أشار إليها الحق ـ سبحانه ـ فى قوله ـ تعالى ـ

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ (١٠٤١)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ (١٠٤٢)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ (١٠٤٣)

(١٠٤١) النحل ٥

(١٠٤٢) الحديد ٢٥

(١٠٤٣) الحج ٢٨

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (١٠٤٤)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (١٠٤٥)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١٠٤٦)

فهذه الآيات وغيرها تشير إلى وجوه النعم التى أفاءها الله على عباده ـ والتى ينتفعون بها فى حياتهم . وقد سخر الله الكون كله لنفع الانسان ـ من سماء وأرض ، وبر وبحر ، ورياح وهواء ، وكواكب مختلفة ، وجبال شاهقة ، وسحب وأمطار وأنهار ، وفلك وأنعام ، حتى الملائكة التى تسبح بحمد الله ، جعلها الله لنفع الإنسان . . . . فقد ذكر الله فى كتابه أنه جعل الملائكة حفظة على الانسان ـ قال تعالى :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ (١٠٤٧)

(١٠٤٤) يس ٧٣

(١٠٤٥) غافر ٨٠

(١٠٤٦) الحج ٣٣

(١٠٤٧) الرعد ١١

وقال

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١٠٤٨)

بل إن من أجلّ وجوه النفع أن تستغفر الملائكة للانسان ، قال ـ تعالى ـ

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (١٠٤٩)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ (١٠٥٠)

فهل هناك نفع أجل أو أعم أو أعظم من هذا ؟

(١٠٤٧) الأنعام ٦١

(١٠٤٩) سورة غافر ٧ : ٩

(١٠٥٠) الشورى ٤ ، ٥

ثم إنك إذا تركت الكون الواسع الذى سخره الله كله لمنافعك ، ونظرت إلى نفسك ممعنا النظر فى كل جارحة من جوارحك التى خلقها الله لك . . فهل تستطيع أن تدرك نفع كل جارحة منها ؟

هل تستطيع أن تدرك نفع العين والأذن ؟ . . . . . .
هل تستطيع أن تعرف قيمة الأنف واللسان ؟ . . . .
هل تستطيع أن تتبين قيمة اليد والقدم ؟ . . . .
هل يمكنك أن تحيط بفائدة العقل والقلب ؟

وهل استطعت أن تمعن الفكر فيما وهبه الله لك من أجهزة الدم والأعصاب ، أو أجهزة التنفس والإدراك ، أو أجهزة الهضم والتناسل ، أو غير ذلك مما جعله الله فى خدمة الجسم ليقوم بمختلف الوظائف الحسية والمعنوية ؟ أليس فى كل ذلك منافع أعطاها الله لك لتقول له : شكراً لك يارب ، وحمداً على آلائك ونعمائك ؟

لقد لفت الله أنظارنا لهذا الواجب فقال لنا حاثاً على التفكر والتدبر :

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(١٠٥١)

وبين لنا مافى هذه الجوارح من منافع تستوجب الإقرار لله بالوحدانية ، فنعى على الكفار الذين يشركون بالله آلهة صنعوها بأيديهم . . قال :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾(١٠٥٢)

(١٠٥١) الذاريات ٢٠ ، ٢١
(١٠٥٢) الأعراف ١٩٥

كيف يتأدب المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا عرف المؤمن أن الله هو النافع الذى لاشريك له ، كان اعتماده كله عليه ، وكان شكره الدائم له على أن أتاح له كل هذه المنافع الجزيلة التى يموج بها هذا الكون من حوله ، والتى هى فى متناول يده .

انظر كيف نعى الله على هؤلاء القوم الذين يعبدون من دون الله مالايضر ولاينفع ، لأن الذى فقد القدرة على النفع والضر عاجز - لاينبغى أن يلجأ إليه العبد فى استجلاب نفع أو دفع ضر . . .

أما الذى يجب أن يتفرد بالألوهية فهو الإله القادر الواحد الأحد النافع الضار .

وليجتهد الإنسان فى أن يكون إنسانا نافعا فى محيطه ، لايبخل بمجهوده الذى منحه الله إياه فى سبيل تقديم النفع لغيره ماوسعه لذلك جهد ، وتقديم النفع للغير نعمة أخرى يمن الله بها على من يشاء ، فقد ورد فى الأثر الكريم « خطوة فى قضاء مصلحة أخيك قضيت أم لم تقض أفضل عند الله من اعتكاف فى مسجدى هذا »(١٠٥٣)

حكى أن موسى - عليه السلام - شكا إلى الله - تعالى - من ألم فى ضرسه ، فأوحى الله - تعالى - إليه : خذ من العشب الفلانى وضعه على ضرسك ، فأخذه ووضعه على ضرسه ، فسكن الألم فى الحال .

ثم عاوده الألم بعد مدة ، فأخذ العشب ووضعه على ضرسه ، فازداد الألم . فقال : إلهى ، ألست أمرتنى بهذا ودللتنى عليه ؟

(١٠٥٣) ملكوت الله مع أسماء الله صـ١١٤

فأوحى الله اليه : ياموسى ، أنا الشافى ، وأنا المعافى ، وأنا الضار ، وأنا النافع ، قصدتنى فى المرة الأولى فأزلت مرضك ، والآن قصدت العشب وما قصدتنى .

تأمل ذلك ليكون مقصدك فى طلبك ربك القادر الذى بيده الضر والنفع فهو وحده خير مسئول وبيده وحده مفاتيح القبول .

الذكر والدعاء فى ظل هذا الاسم

إن تكرار اسم الله النافع يترك أثره فى عافية البدن وتيسير المطالب . . . . . ومن الأدعية التى وردت فى ذلك .

« الهى أنت النافع لجميع العوالم ، وأنت بالجميع راحم . أسألك أن تشهدنى نور اسمك النافع ، فلا أركن إلى غيرك ياولىُّ ياواسع ، واجعلنى نافعاً لجميع عبادك ، راضياً عن جميع مرادك إنك على كل شىء قدير . . »(١٠٥٤)

وقال الشاعر أحمد مخيمر مناجيا ربه فى ظل الاسمين : الضار النافع ـ

النفع والضر منك أنت فما يضر شىء سواك أو ينفع
والضر نفع ، وكيف يفهم ذا من ليس يدرى الطريق أو يتبع
ومطلق الخير أنت ، لست أرى فى الكون شراً يرى ، ولا أسمع(١٠٥٥)

وقال بعض الصالحين :

(١٠٥٤) أسماء الله الحسنى د . أحمد الشرباصى جـ ١ صـ ٤٢٧
(١٠٥٥) أسماء الله لأحمد مخيمر صـ ١١٧ ـ وما بين القوسين وضعناه بدل عبارة غير واضحة المعنى

إذا كان إضراري وضري بمؤنسي فلا زال ضري مؤنسي ومصاحبي
لقد أنست نفسي به حين جاءني فلله من خل وفيٍّ وصاحب

إنه يأنس بالضر لأنه جاءه من الله ، وهذا أقصى درجات الحب .

ويقول أيضاً :

إني انتفعت بمن تأتي مناثحه فقراً إليَّ به ، والنافع الله
لولا وجودي ولولا سر حكمته ما قلت في كل شيء جاءني : ماهو؟

وقال آخر :

وَهَوِّن وقع الضرِّ علمي محققاً بأنك أنت المبتلي والمقدر

(١٠٥٦) المرجع السابق (هامش)

اسماء الله الحسنى

النور
الهادى
الباقى
الوارث
الرشيد
الصبور

النـــور

ورد اسم النور فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١٠٥٧)

قال ابن الأثير فى معنى « النور » هو الذى يبصر بنوره ذو العماية ، ويرشد بهداه ذو الغواية .

وقيل : هو الظاهر الذى به كل الظهور ، والظاهر فى نفسه المظهر لغيره يسمى نورا .

وقال أبو منصور : والنور من صفات الله ـ عز وجل ـ فى قوله ـ تعالى ـ

« الله نور السموات والأرض »

أى الهادى أهل السموات والأرض .

وقد مثل نور هداه فى قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح .

والنور هو الضياء ، وهو ضد الظلمة .

هذا ما جاء فى كتب اللغة ، وعلى ضوئه سار أهل التفسير وغيرهم من العلماء .

فالإمام القرطبى يقول : النور فى كلام العرب : الأضواء المدركة

(١٠٥٧) النور ٣٥

بالبصر ، واستعمل مجازا فيما صح من المعاني ولاح ، فيقال منه : كلام له نور ، ومنه الكتاب المنير . . . . . فيجوز أن يقال : الله ـ تعالى ـ نور من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ، ونور جميع الأشياء منه ابتداؤها ، وعنه صدورها ، وهو ـ سبحانه ـ ليس من الأضواء المدركة ـ جل وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ـ .

كان النبى ـ ﷺ ـ إذا قام من الليل يتهجد يقول : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض »

وقال ـ حين سئل هل رأيت ربك ؟ ـ : « رأيت نوراً »

وأضاف القرطبى قائلا : اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية .

فقال بعضهم : المعنى أن به وبقدرته ظهرت أضواؤها واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاتها ، فالكلام على التقريب للذهن ، كما يقال : الملك نور أهل البلد ، أى به قوام أمرها ، وصلاح جملتها ، لجريان أموره على سنن السداد . . . . . فهو فى الملك من البشر تجوز وهو فى صفة الله حقيقة ؛ إذ هو الذى أبدع الموجودات وخلق العقل نوراً هادياً ، لأن ظهور الموجود به حصل ، كما حصل بالضوء ظهور المبصرات . تبارك الله ـ تعالى ـ لا رب غيره .

وقال ابن عرفة : معناه أنه منور السموات والأرض . كما يقال : فلان غياثنا أى مغيثنا . وفلان زادى أى مزوِّدى ، على نحو ما قال القائل : وأنت لنا نور وغيث وعصمة . .

وقال مجاهد : معناه مدبر الأمور فى السموات والأرض وقال أبو العالية : مزيِّن السموات بالشمس والقمر والنجوم ، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين .

وقال ابن عباس وأنس ـ : معناه أن الله هادى السموات والأرض .
ولكن القرطبى علق على هذه المعانى قائلا : والأول أعم وأجمع للمعانى . . أما كلمة نوره في قوله ـ تعالى ـ « مثل نوره » فهى تعنى صفة دلائله التى يقذفها فى قلب المؤمن .(١٠٥٨)

وقال بعض العلماء : النور هو الظاهر فى نفسه بوجوده الذى لا يقبل العدم ، المظهر لغيره بإخراجه من ظلمة العدم إلى نور الموجود ، فوجوده ـ سبحانه ـ نور فائض على الأشياء كلها ، وهو الذى مد جميع المخلوقات بالأنوار الحسية والمعنوية ، فهو نور كل ظلمة ومظهر كل خفاء ، وهو نور السموات والأرض ، ومضىء الأكوان بالشموس والنجوم والأقمار ، وهو الذى أنار قلوب الذاكرين بضياء ذكره ، وأحيا نفوس الصادقين بنور معرفته »(١٠٥٩)

سبحانه ، لا تدركه الأبصار حتى يوصف . وإنما عرفه الخلق بالنور المنبث فى الوجود ، وعرفه الصالحون بنوره الذى يقذفه فى قلوبهم ـ وإذا الأرواح عرجت إليه بإذنه زجت فى بحار من الأنوار ، فإذا كشف الحجاب لخواص عباده الذين أحبهم ودعاهم إليه رأوه بنوره نور ذاته بلا كيف ولا أين ، وإنماهم يناجون ربهم من وراء الحجب النورانية .(١٠٦٠)

ويقول الإمام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ : النور هو الظاهر الذى به كل ظهور ، فإن الظاهر فى نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً ، ومهما قوبل الوجود بالعدم ، كان الظهور لا محالة للموجود ، ولا ظلام أظلم من العدم ،

(١٠٥٨) تفسير القرطبى حـ١٢ صـ٢٥٦ سورة النور
(١٠٥٩) فى ملكوت الله صـ١١٥
(١٠٦٠) اسماء الله لأحمد عبد الجواد صـ٢١٧

فالبرىء من ظلمة العدم ، بل عن إمكان العدم ، والمخرج كل الأشياء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورا . . . . فهو نور السموات والأرض .

وكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهى دالة على وجود الشمس المنورة ، فكذلك لا ذرة من موجودات السموات والأرض وما بينهما إلا وهى دالة على وجود موجدها .

ويقول البعض : النور هو الذى نور العوالم فأوجدها من العدم . . . وهو الذى نوَّر الوجود الظاهر بالشمس والكواكب ، ونور عالم الأرواح برسول الله - ﷺ - سيد الأوائل والأواخر ، ونوَّر القلوب بأنوار الكتب السماوية ، ونور الأولياء بأنوار التجليات الإلهية .

إنهم ينظرون فى هذا إلى وصف النبى - ﷺ - بالنور فى قوله - تعالى -

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (١٠٦١)

فكثير من العلماء يقولون : النور هو النبى ، والكتاب هو القرآن . . . . ووصف ما فى الكتب السماوية بالنور نجده فى قوله - تعالى - فى وصف التوراة :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟

(١٠٦١) المائدة ١٥

لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا
عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا
قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (١٠٦٢)

وفى وصف الانجيل : بقوله تعالى :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١٠٦٣)

وفى وصف القرآن بقوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (١٠٦٤)

(١٠٦٢) المائدة ٤٤
(١٠٦٣) المائدة ٤٦
(١٠٦٤) الأعراف ١٥٧

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو النور لأنه منور الآفاق بالنجوم والأنوار ، ومنور الأبدان بآثار العبادات ، ومنور القلوب بالدلائل والحجج ، فالطاعة زينة النفوس والأشباح ، والمعارف زينة القلوب والأرواح ، والله ـ عز وجل ـ يزيد قلب المؤمن نورا على نور ـ يؤيده بنور البرهان ، ثم يؤيده بنور العرفان ، قال ـ تعالى ـ

« نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء »

والله جل جلاله يهدى القلوب بنوره إلى محاسن الأخلاق ، حتى يؤثر العبد الحق ويدع الباطل .

لقد وردت كلمة النور فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة ـ جاءت مرادا بها الحق ـ سبحانه وتعالى ، ومرادا بها الرسول ـ ﷺ ـ ومرادا بها القرآن .

كما جاءت فى بعضها بمعنى الدين .... وذلك فى قوله تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١٠٦٥)

وفى قوله ـ تعالى ـ

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ (١٠٦٦)

(١٠٦٥) التوبة ٣٢

(١٠٦٦) البقرة ٢٥٧

كما جاءت مرادا بها النور الذى نراه فى الكون فى قوله ـ تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ (١٠٦٧)

وجاءت بمعنى نور البصيرة فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١٠٦٨)

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

المؤمن الحق هو الذى يسعى لأن ينور قلبه بنور العلم والمعرفة ، ويفر من ظلمات الجهل والضلالة . وهو الذى يلجأ الى الله ليسعد بولايته ، فالله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وعلى المؤمن إذا أنار الله بصيرته أن يسعى فى إنقاذ غيره من التردى فى عماية الضلال والشقاء . فكما سعد هو بنور العرفان فعليه أن يسعد غيره كذلك . ومن أجل ذلك كان الصحابة الأجلاء يعملون على نشر نور الله فى الآفاق ليسعدوا الناس بالدين كما سعدوا هم به ، واعتبروا أداء ذلك مسئولية دينية وأدبية يجب عليهم أداؤها .

وقد رفع الله شأن المؤمنين الذى أحياهم بالهداية والنور . قال تعالى :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ

(١٠٦٧)الانعام ١

(١٠٦٨) الحديد ٢٨

فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ (١٠٦٩)

الدعاء فى ظل هذا الاسم

كان النبى - ﷺ - يدعو ربه قائلا « اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى لسانى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، ومن فوقى نورا ، ومن تحتى نورا ، ومن أمامى نورا ، ومن خلفى نورا ، واجعل لى فى نفسى نورا وأعظم لى نورا »(١٠٧٠)

ومن منظومة أسماء الله الحسنى :

ويا نافع انفعنى بأهلى وحالتى ويا نور نور لى طريقى بوضحة

ومن الدعاء فى ظل اسم الله النور :

« اللهم إنى أسألك بنورك الأقدس ، وجمالك المقدس ، وباسمك الأسنى ، وأسمائك الحسنى ، نسألك أن تمدنا بفيض من اسم الذات ، الذى هو عماد الأسماء والآيات ، وأن تعرفنا أنفسنا ، وأن تهدينا هداية توصلنا بها إليك ، وتدلنا بها عليك ، يا ألله يا ألله يا ألله ، وأن تصرف وجوهنا عن كل مطلوب سواك ، وتمتعنا بالنظر الى وجهك الكريم ، وأن تستعملنا فيما تحبه وترضاه ، وأن تحفظنا من كل شيء نخافه ونخشاه بحق من أرسلته هاديا للبشر ، وشافعا فى المحشر ومن سار على منواله - ﷺ - . . . .

(١٠٦٩) الانعام ١٢٢

(١٠٧٠) رواه أحمد والبخاوى ومسلم عن ابن عباس - رضى الله عنهما -

الهادى

الهادى اسم فاعل من الفعل « هدى » والمصدر من هذا الفعل هو الهداية والهُدى والهَدْى ـ ومعناه الرشاد والدلالة بلطف إلى مايوصل إلى المطلوب ، والإبانة . . . . والهُدَى ضد الضلال

جاء فى لسان العرب : من أسماء الله ـ تعالى ـ الهادى ، وهو الذى بَصَّر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته . . . . وهدى كل مخلوق إلى مالابد له منه فى بقائه ودوام وجوده .

وقد ورد اسم « الهادى » فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾(١٠٧١)

وفى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾(١٠٧٢)

والأفعال والمصادر التى تشير الى أن الله هادٍ ـ وردت كثيراً فى القرآن الكريم ـ منها قوله ـ تعالى ـ

« اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم »(١٠٧٣)

(١٠٧١) الحج ٥٤
(١٠٧٢) القرفان ٢١
(١٠٧٣) الفاتحة ٦ ، ٧

وقوله ـ تعالى ـ

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ (١٠٧٤)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ (★)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (١٠٧٥)

(١٠٧٤) البقرة ١٤٣

(★) البقرة ٢١٣

(١٠٧٥) النحل ٣٦

وقوله - تعالى -

﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ (١٠٧٦)

وقوله - تعالى -

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩ ﴾ (١٠٧٧)

وقوله تعالى -

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١ ﴾ (١٠٧٨)

وقوله - تعالى -

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧ ﴾ (١٠٧٩)

وغير ذلك من الآيات الواردة فى مختلف سور القرآن الكريم .

(١٠٧٦) الأعلى ٣
(١٠٧٧) الأنعام ١٤٩
(١٠٧٨) الانعام ٧١
(١٠٧٩) الكهف ١٧

ومعنى اسم « الهادى » فيما يقول العلماء : أنه هو الذى يهدى عباده لمعرفة وجوده بما أشهدهم من مخلوقاته ، ويهدى مخلوقاته الى مافيه حياتهم من قول وعمل ، سبحانه أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وكما هدى الله سبحانه الناس الى الحق ، هداهم إلى معرفة طرقهم فى الحياة ، وأعطاهم العقل الذى يميزون به بين الخير والشر والهدى والضلال ، ومنحهم من الإلهام والغرائز والطبائع والتفكير والقدرة مايسعون به فى الحياة كدحاً وجهاداً ودفاعاً وطموحاً . . قال ـ تعالى مبيناً نعمه على الانسان :

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ (١٠٨٠)

وقال ـ تعالى ـ

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾
ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (١٠٨١)

فالايحاء إلى النحل هو هدايتها إلى ماتفعل لتعيش وتقدم الخير لنفسها ولغيرها .

إن الله ـ جلت قدرته ـ يهدى الطفل بالغريزة الى البحث عن ثدى أمه ليلتقمه ، ويهديه إلى رفع يده دفعاً عن نفسه ، ويهدى الطير ليحضن بيضه حتى يفقس ، ويهدى الحيوان الى أن يبحث عن طعامه وإلفه والمكان الذى

(١٠٨٠) البلد ٨ : ١٠

(١٠٨١) النحل ٦٨ ، ٦٩

يأمن فيه ، ويهدى الحشرة الى الحفرة التى تختبىء فيها فرارا من الأذى وطلباً للمأوى ، ويهدى المفترس إلى فريسته ، ويهدى الفريسة إلى اتقاء المفترس ، وهدى الذكر إلى الأنثى والأنثى إلى الذكر للمحافظة على بقاء الجنس .

قال العلماء- فى تفسير قوله ـ تعالى ـ

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾(١٠٨٢).

أعطى كل شىء صفاته التى يُعْرَف بها ، فقد خص سبحانه كل مخلوق بهيئة وصورة وشكل ، وأعطاه زوجه من جنسه ، وهداه الى مطعمه ومشربه ومسكنه .

قال ابن عباس : هداه إلى الألفة والاجتماع .

وقال غيره : أعطى كل شىء صورة خاصة به ، وخلق كل شىء فقدره تقديراً . . . . .

وله فى كل شىء خلقة وكذاك الله ماشاء فعل

ثم هدى المخلوق إلى استعمال ما أعطاه فيما خلق له ، فاليد للبطش ، والرجل للمشى ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع . وهكذا . .

ثم هداه أيضاً إلى معرفة العلوم والفنون والصناعات ـ فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقال بعض العلماء : الهادى هو الذى يهدى خواص عباده إلى الحكمة والمعرفة ، سبحانه يهدى الناس إلى مافيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم ، كما يهدى المذنب إلى التوبة ، ويهدى جميع الحيوانات إلى جلب مصالحها

(١٠٨٢) طه ٥٠

ودفع مضارها بما أودع فيها من غرائز وإلهامات تستهدى بها فى حياتها ، وهو الذى يهدى الطفل إلى ثدى أمه والفرخ لالتقاط حبة ، والنحل لبناء بيتها على شكل هندسى ملائم لبدنها وأحوالها . والنمل للسعى فى جمع قوته ، والعنكبوت إلى نسج شباكه . . . وهكذا .

ويرى بعض العلماء أن اسم « الهادى » يمكن حمله على أنه المعبد للخلق طريق الحق بشريعته . . . .

ويمكن أن يكون مفسراً بنصب الدلائل . . . .

ويمكن أن يفسر بِخَلْق الهداية فى القلوب ، والهداية هى المعرفة كما قال ـ تعالى ـ

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٥﴾ (١٠٨٣)

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إن اسم الهادى يدعونا الى التأمل فى مظاهر الخلق التى تدلنا على قدرة الله ـ تعالى ـ الخارقة ، فيزيدنا ذلك إيمانا به ، وتوكلاً عليه ، والتجاء إليه وتوحيداً له . .

وقد دعانا الله الى أن نهتدى اليه عن طريق العلم . . . والعلم يدعو إلى الإيمان ، ولا قيمة لعلم لايهدى إلى قوة الايمان بالله .

وإذا كان كثير من العلماء الغربيين والشرقيين الذين لايدينون بالاسلام استطاعوا عن طريق عقولهم وعلمهم أن يهتدوا إلى الله ـ فمن باب أولى أن يكون ذلك للمسلمين الذين يقرءون كتاب ربهم فيجدون فيه قوله ـ تعالى ـ

(١٠٨٣) يونس ٢٥

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ (١٠٨٤)

ويجدون فيه أيضاً قوله تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾ (١٠٨٥)

وقوله ـ تعالى :

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾ (١٠٨٦)

وغير ذلك من الآيات التى تحض على التفكير وتدعو الى التأمل .

لقد ألف بعض العلماء الغربيين كتابا بعنوان « العلم يدعو الى الايمان » تحدث فيه عن كثير من المخلوقات العجماوات التى ألهمها الله عن طريق الغريزة الى الاهتداء إلى مايجب أن تسلكه طلبا للمأوى أو الطعام أو الأمان أو العودة إلى الأوطان ، ضاربا فى ذلك المثل بعصفور « الهزار » الذى يعشش فى بيوتنا ، ثم يهاجر فى الخريف جنوباً ، ويعود إلى عشه فى الربيع .

(١٠٨٤) البقرة ١٦٤

(١٠٨٥) الأعراف ١٨٥

(١٠٨٦) فصلت ٥٣

وهناك طيور تقطع آلاف الأميال فوق البحار دون أن تضل طريقها . وحمام الزاجل تطلقه فيعود الى موطنه الذى يبعد عنه مسافات شاسعة ، وهو بذلك يقوم بأجل الخدمات لنقل الرسائل من مكان إلى مكان . .

وقد وضع الله فى الإنسان الى جانب الغريزة عقلا يعينه على معرفة طريقه فى الحياة ، وبذلك ميزه على غيره ، فكان لزاما على الانسان أن يهتدى بذلك إلى خالقه ويشكره على نعمته ، ليكون جديراً بذلك التفضيل الذى أشار إليه الحق بقوله

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾(١٠٨٧)

وإذا مَنَّ الله على العبد ، بنعمة الهداية فعليه أن يعمل على هداية غيره - فذلك هو واجبه ومسئوليته ، وإن كانت الهداية بيد الله وحده ، إلا أن الله قد أمرنا أن نسلك الأسباب المؤدية إليها والله هو الهادى الى سواء السبيل . . . وهذه الأسباب هى التى دعا إليها الله بقوله :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾(١٠٨٨)

الدعاء فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : من أكثر من ذكر هذا الاسم بعد أداء الفرائض أمده الله بمدد عظيم ، ورزقه الهداية والتمييز .

(١٠٨٧) الإسراء ٧٠

(١٠٨٨) النحل ١٢٥

ومن كان فى حيرة من أمره وذكر هذا الاسم بكثرة ـ هداه الله الى أرشد أمره . . . ومن دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى لقنه لبعض أصحابه :

« اللهم أستهديك لأرشد أمرى ، وزدنى علما ينفعنى »

ومن مناجاة ابن عطاء الله :

« أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك ، وأنت الذى أزلت الظلمة عن قلوب أحبائك ، أنت المؤنس لهم حيث تصيبهم الوحشة وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم »

ومن الدعاء الوارد فى ذلك أيضاً :

« اللهم اهدنى لنورك ، وأعطنى من فضلك ، وامنعنى من كل عدو لك ، ومن كل شيء يشغلنى عنك ، وهب لى لسانا لايفتر عن ذكرك ، وقلبا يسمع بالحق منك ، وروحا يكرم بالنظر إليك ، وسرا ممتعا بحقائق قربك . .

« اللهم كما خلقتنى فاهدنى ، وكما أمتنى فأحينى ، وهب لى علما يوافق رضاك ، وحكما يوافق حكمك ، واجعل لى لسان صدق بين عبادك ، واجعلنى من روثة جنتك . . . . »

وقال الشاعر أحمد مخيمر مناجيا ربه الهادى:

ياهـــادى النمـــل إلـــى بيتـــــه	وهـــادى الطـفـل الى ثـــديه
وهادى العقل إلى ذاته	فهـــام بالمنشـــود من هديـــــه
وراح يدعــــوك بتســــبيحه	فى قربـــه منــك وفــى نأيـــــه
يسـعى إلى الأســرار فى حُجْبهـــا	ليجـــنى الفرحـــة مـــن ســـعيه
لبيـــك لبيـك فـــأنت الـــذى	تهـــديه بالحكمـــة مـــن غيـــه

(١٠٨٩) أسماء الله لأحمد مخيمر ص ١٢٠

البديع

البديع من بدع ، ومعناه أنشأ شيئاً جديداً

ومعناه فى حق الله ـ تعالى ـ أنه الذى ابتدع الأشياء وأحدثها على غير مثال سابق ، فهو البديع الأول قبل كل شىء ، وقد يكون بمعنى مبدع . .

وقد ورد هذا الاسم فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ (١٠٩٠)

وفى قوله ـ تعالى ـ

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ (١٠٩١)

وقال العلماء فى تفسير هذا الاسم : هو ـ سبحانه ـ موجد الأشياء على غير مثال سابق . . . . . ويطلق على العبد أنه مبدع إذا ابتكر شيئا لم يكن مألوفا من قبل ، أو إذا أبدع فى صناعته بأن أتقن زخرفتها وتزيينها . .

ويطلق على الشىء بدعة إذا كان جديدا لم يعرف من قبل ، كما ورد فى قوله ـ تعالى ـ فى حق النصارى

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١٠٩٢)

(١٠٩٠) البقرة ١١٧

(١٠٩١) الأنعام ١٠١

(١٠٩٢) الحديد ٢٧

وجاء فى لسان العرب فى معنى البدعة : هى الحدث وما يبتدع فى الدين بعد الإكمال .

ولكن البدعة قد تكون حسنة وقد تكون سيئة ـ فأما الحسنة فهى ما كانت فى ظلال ما أمر به الله ، وأما السيئة فهى ما كانت فى خلاف ما أمر الله به .

والبدعة الحسنة مثل ما قام به عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حين دعا الناس الى الاجتماع على إمام واحد فى صلاة التراويح فى رمضان . وقال فى ذلك : نعمت البدعة هذه .

ومثل ذلك داخل فى نطاق قوله ـ ﷺ ـ : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وآجر من عمل بها إلى يوم القيامة . . . » وفى ضدها قال « ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »

والله البديع هو المنشىء للخلق على غير مثال ، وهو الذى أبدع صور المخلوقات وفطرها أولا ، وهو البديع الذى ليس كمثله شىء فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فهو البديع المطلق أزلا وأبدا ، وهو المبدع لخلقه المظهر لعجائب صنعه .

قال الإمام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ : البديع هو الذى لا عهد بمثله ـ فإن لم يكن بمثله عهد لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فى كل أمر راجع إليه ، فهو البديع المطلق وهو الحق ـ سبحانه وتعالى . .

قال : ولا يليق هذا الاسم إلا بالله ـ جل جلاله ـ فإنه ليس له قبل فيكون له مثل معهود قبله ، بل كل موجود بعده ، وكل موجود حاصل بإيجاده له

أما الامام الرازى - رضى الله عنه - فيقول : إن للبديع معنيين أحدهما : الذى لا مثيل له ولا شبيه .

والثانى : بمعنى المبدع - فعيل بمعنى مفعل - فكان أصله من - بدع - إلا أن العرب قد أبطلوا الفعل المجرد واستعملوا المزيد .

ومعناه أنه الذى فطر الخلق ابتداء على غير مثال سابق ، أو هو الذى أظهر عجائب صنعته وغرائب حكمته .

كيف يتأدب المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

متى تأمل المؤمن فى بديع خلق الله ازداد إيمانا بقدرته وعظمته ، فدله ذلك على أنه الواحد الذى لا يشركه أحد فى صنعته أو ملكه ، وعلى المؤمن إذا آتاه الله حظا زائدا من الملكات والمواهب تمكنه من الإبداع والاقتدار ، فعليه أن يستعمل ذلك فى الخير وهداية الخلق إلى الله . . .

فقد يستطيع الفنان بما أوتى من موهبة فنية أن يضع هذه الموهبة فى خدمة دينه ، كما فعل شعراء الإسلام من أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وغيرهم - فقد دافعوا عن الإسلام والمسلمين ، وعن رسول الله - ﷺ - بشعرهم حتى نزل فى ذلك قوله - تعالى -

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧ ﴾ (١٠٩٣)

(١٠٩٣) الشعراء ٢٢٤ : ٢٢٧

لقد كان النبى - ﷺ - يقول لحسان : قل وروح القدس يؤيدك .

وكان النبى - ﷺ - يهتز للكلمة الطيبة يقولها شاعر حكيم ، حتى لقد قال « إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا » وكان يستشهد بما يعجبه من شعر جيد . . . . مثل قوله : « أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد بن ربيعة ،

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم زائل لا محالة »

وقد غير الرسول وزن الشطر الثانى وأصله . . وكل نعيم لا محالة زائل .

وربما عقب على ذلك بعضهم بقوله : إلا نعيم الجنة . .

والمؤمن الحق ، لا يبتدع ما هو خارج على الدين - امتثالا لقول النبى - ﷺ - « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »

وقد مربنا أن المقصود بالبدعة هنا ما خالفت الدين ولم تتفق مع أصوله - أما ما وافق الدين فليس بخارج عنه كما قال عمر فى جمع الناس فى قيام رمضان : نعمت البدعة هذه .

ولكن لفظ المبتدع يستعمل أكثر ما يستعمل فى الذم - وقانا الله شر البدع والابتداع - والمؤمن الحق هو الذى ينهج نهج نبيه - ﷺ - ونهج خلفائه الراشدين من بعده - ولا يخرج على جماعة المسلمين ، ولا يبتدع فى الدين ما ليس منه .

الدعاء فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : من أكثر من ذكر هذا الاسم ألهمه الله الحكمة على لسانه ، ورزقه الله فنونا من العلم وقدرة على التصرف والإبداع .

ومن دعاء بعض الصالحين :

« يا شديد البطش باجبار يا قهار يا حكيم ـ نعوذ بك من شر ما خلقت ونعوذ بك من ظلمة البدع ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قَدَّرت وأردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمت ، ونسألك عز الدنيا والآخرة ، كما سألك نبيك سيدنا محمد ـ ﷺ ـ عز الدنيا بالايمان والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة ، إنك سميع قريب مجيب »

ومن الأدعية بهذا الاسم أيضا :

« اللهم يا بديع السموات والأرض ، يا قيوم الدارين ، يا قيوما بكل شيء . . يا حي يا قيوم يا إلهنا لا إله إلا أنت اجعلنا فى جوارك واحفظنا من المعاصى فإنك ترى ولا يراك أحد من خلقك ، واصبب علينا من الخير أكمله وأجمله ، واصرف عنا من الشر أصغره وأكبره »(١٠٩٤)

ومن منظومة أسماء الله الحسنى . .

ويا هاد اهد إلى الحق قلبنا بديع بكل اللمح أبدع لى توبتى

(١٠٩٤) درة الاسرار صـ ٩٠

البـــاقى

جاء فى لسان العرب : فى أسماء الله الحسنى « الباقى » ومعناه : الذى لا ينتهى وجوده أبدا ـ فهو الباقى الدائم . أبدى الوجود والبقاء .

والبقاء ضد الفناء .

وهذا الاسم لم يرد بلفظه فى القرآن الكريم ، ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء التى وردت فى حديث رسول الله ـ ﷺ ـ ورقمه فى هذه السلسلة السادس والتسعون .

وقد وردت آيات كثيرة تتضمن هذا الاسم مثل قوله ـ تعالى ـ

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ (١٠٩٥)

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) ﴾ (١٠٩٦)

كما ورد ما يفيد أن نعيم الله الذى أعده للمؤمنين خير وأبقى مما فى الدنيا ، ومما عند الخلق ـ من ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ (١٠٩٧)

وقوله ـ تعالى

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ

(١٠٩٥) الرحمن ٢٧ ، ٢٨

(١٠٩٦) طه ٧٣

(١٠٩٧) النحل ٩٦

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾(١٠٩٨)

وقوله ـ تعالى

﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾(١٠٩٩)

قال العلماء فى معنى الباقى : هو الباقى بعد فناء خلقه ، واجب الوجود لذاته ، لا يقبل العدم ، ونحن إذا نظرنا حولنا رأينا الشمس تأفل ، والورد يذبل ، والدول تزول وتفنى ، وكم من أمم بكاملها أطلت عليها الحياة ثم توارت كأن لم تك شيئا ، وكم من مدن عديدة وقصور مشيدة ، شمخت بعلوها وقبابها إلى السماء ، ورآها بعض الناس فتحسروا لحرمانهم من أمثالها فلم يلبثوا أن رأوها قفراء تتوارى تحت التراب .

وكل الخلائق يمشون على الأرض فترة من الزمن ، ثم تعود فتحتضنهم فى جوفها ، بعد أن كانوا يتيهون فخرا وخيلاء فوقها ، فسبحان الله القديم أزلا والباقى أبدا والحى سرمدا .

حين أراد إبراهيم عليه السلام ـ أن يهدى قومه الذين كانوا يعبدون الكواكب ، ويعتقدون أن بيدها الخير والشر والنفع والضر ـ وجه أبصارهم إلى خطأ فكرهم عن طريق التأمل والاستدلال . نظر إلى أحد الكواكب على مرأى ومسمع منهم فقال مشيراً الى الكوكب : هذا ربى .

ولم يلبث هذا الكوكب أن أفل وغاب . فقال إبراهيم فى تأفف وضيق : لا أحب الأفلين .

(١٠٩٨) القصص ٦٠

(١٠٩٩) الأعلى ١٧

فى الليلة التالية نظر الى القمر ، وقد رآه بازغا يملأ الأرض بنوره ، فقال له مخاطبا على مرأى ومسمع من قومه : هذا ربى ـ ولم يلبث القمر أن طواه الصبح ، وغاب عن الأنظار ، فقال إبراهيم مرشداً قومه الى التطلع الى الهداية : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من الضالين . .

ثم نظر الى الشمس التى طوت القمر وأذهبت ضوءه ، وقال مخاطبا لها ، وقومه حوله يسمعون ويرون : هذا ربى ـ هذا أكبر . . ولكن لم يلبث أن جاء الليل فأذهب ضوء الشمس ولف الكون كله بظلام دامس .

فنظر إلى قومه وقال لهم فى يقين وصدق :

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (١١٠٠)

لقد بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهم بطريق عملى أن الإله الحق لا ينبغى أن يطويه التغير أو الأفول أو الفناء . . . . لابد أن يكون الله باقيا دائما قادرا قويا محيطا مجيبا لعباده فى كل وقت ، لا يغفل عنهم ولا يغيب عن خواطرهم ليلا أو نهارا . .

وعلى الرغم من محاجة قومه له وتكذيبهم إياه إلا أنه كان ثابتا فى موقفه . لأن الحق معه ، والحجة تؤيده ، والله يسدد خطاه ويحفظه .

قال بعض العلماء : معنى ـ الباقى ـ أن الله ـ عز وجل ـ حى لا يموت ، موجود بذاته ، موصوف بالبقاء الأزلى .

(١١٠٠) الأنعام ٧٨ ، ٧٩

سبحانه هو الباقى ، وما سواه هالك آفل .. قال - تعالى -

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (١١٠١)

وما أصدق قول القائل :

فكل ما سواه نجم آفل   بل فى شهود الصالحين باطل(١١٠٢)

فلا دوام لغير الله - سبحانه وتعالى - ولا بقاء لشىء سواه .

ويقول الامام الغزالى - فى معنى اسم الله - الباقى - : الباقى هو الموجود الواجب وجوده بذاته ، ولكنه إذا أضيف الى الاستقبال كان باقيا ، واذا أضيف الى الماضى سمى قديما ، والباقى المطلق هو الذى لا ينتهى وجوده فى الاستقبال إلى نهاية . فهو أبدى الوجود - والقديم المطلق هو الذى لا ينتهى وجوده فى الماضى إلى أول فهو أزلى القدم - وقولنا واجب الوجود بذاته يتضمن جميع ذلك .

سبحانه هو الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء .

هو الحق الباقى ببقائه   والخلق باق بإبقائه

والعلماء يقولون : الأزل هو الذى لا أول له ، والأبد هو الذى لا آخر له ، والسرمد هو الذى لا أول ولا آخر له .. والله - جل جلاله أزلى أبدى سرمدى .. فلا أول لقدمه ولا آخر لبقائه .. هو سرمدى .

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

إذا عرف المؤمن أن الله باق وأن ما سواه فان ، ترك الاعتماد على الفانى

(١١٠١) القصص ٨٨

(١١٠٢) روض القلوب المستطاب للشيخ حسن رضوان صـ٢

وعلقه على الباقى ∴ فالفانى لا يضر ولا ينفع ، ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولا يملك أن يدفع عن نفسه الشر أو يجلب لنفسه الخير . .

يروى الرواة أن بنى ثعلب وهم قوم من العرب كان لهم صنم يعبدونه ، فبينما هم ذات يوم إذ أقبل ثُعْلبانٌ يشتد ـ والثعلبان ذكر الثعالب ـ فأكل ما حول الصنم من خبز وزبد ، ثم رفعْ رجله وبال على رأس الصنم .

ورأى سادن الصنم واسمه غاوى بن ظالم ما حدث لصنمه على مرأى ومسمع منه ، فأقبل على هذا الصنم وكسره ، وجعله رفاتا وأنشد يقول :

لقد خاب قوم أمَّلُوك لشدةٍ أرادوا نزالا أو تكون تحارب

فلا أنت تغنى عن أمور تواترت ولا أنت دفاع إذا حل نائب

أرب يبول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم ذهب هذا الرجل إلى النبى ـ ﷺ ـ فقص عليه ما رأى ، وأنشده ما قال ، وأسلم على يديه ، فسأله ـ ﷺ ـ عن اسمه فقال : غاوى بن ظالم ، فقال له : « بل أنت راشد بن عبد ربه »(١١٠٣) .

واذا وثّق المؤمن اعتماده على ربه الباقى عاش فى أمن وأمان ـ مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾(١١٠٤)

الدعاء فى ظل هذا الاسم

قال العلماء : إن تكرار هذا الاسم فيه نجاة من الضر ، وقبول للأعمال ،

(١١٠٣) حياة الحيوان للدميرى جـ١ صـ٢٩١ مادة تعلب

(١١٠٤) الانعام ٨٢

وحفظ لما يتقلده العبد من أمر .

ومن الأدعية الواردة : سبحان الواحد الأحد ، سبحان الفرد الصمد ، سبحان الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

سبحان رب الملك والملكوت ، سبحان رب العزة والجبروت ، سبحان الحى الباقى الذى لا يموت .

ومن دعاء بعض الصالحين : ياسميع ياعليم ياقريب يامجيب يامحيط يادائم .

أنت الله الذى أسمعتنى طيب الكلام ، وكشفت لنا عن دلائل وجودك وعظيم قدرتك . . فأنت المحيط بكل شيء الباقى بعد فناء كل شيء .

إلهى . . أنت أقرب إلىَّ من تمييز عقلى ، ومن تصديق قلبى ، ومن خدمة نفسى ، ومن محبة روحى ، ومن شهادة سرى ، فأعوذ بك منك .

إلهى أنت الموفق لكل أمر ، والمهيىء لأسباب كل عمل ، لا إله إلا أنت ، تُقَوِّى من شئت لما شئت بما شئت ـ إنك على كل شيء قدير »(١١٠٥)

قال الشاعر أحمد مخيمر مناجيا ـ الباقى ـ جل جلاله ـ :

أزلــى لــذاك أنــت قديــــم أبــدىٌّ لــذاك أنت البـــاقى
إن هــذا الزمــان ـ كــلاًّ وجــزءاً بعــض خلــق المهيمــن الخــلاَّق
والــذى لا يُحَــدُّ ، كيــف نــراه فى حــدودٍ ، وذاك محــض اختــلاق(١١٠٦)

(١١٠٥) درة الاسرار صـ ٩٩
(١١٠٦) أسماء الله لأحمد مخيمر ص ١٢٢

الوارث

قال ابن منظور : الوارث صفة من صفات الله - تعالى - فهو الباقى الدائم الذى يرث الخلائق ، ويبقى بعد فنائهم ، والله - عز وجل - يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، أي يبقى بعد فناء الكل ويفنى من سواه ، فيرجع ما كان قد مَلَّكه للعباد إليه وحده لا شريك له .

وقد ورد اسم الوارث فى قوله - تعالى -

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١١٠٧)

وفى قوله - تعالى -

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١١٠٨)

وفى قوله - تعالى -

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١١٠٩)

وورد مايفيد ذلك أيضا فى قوله - تعالى -

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١١١٠)

(١١٠٧) الحجر ٢٣
(١١٠٨) الأنبياء ٨٩
(١١٠٩) القصص ٥٨
(١١١٠) مريم ٤٠

وفى قوله - تعالى -

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (١١١١)

ويقول العلماء فى معنى الوارث : إنه الذى يرجع اليه ملك كل من ادعى أن له ملكا من الخلق - وذلك بعد فناء خلقه ، لأن كل مولود سيموت ، وكل من يموت يورث ، وهو جل جلاله حىّ لا يموت يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . .

ولقد قال خير الوارثين لأن العباد جرت عادتهم أن يتوارثوا ، وقد يؤدى هذا التوارث إلى التخاصم أو التقاتل فيما بينهم ، فنبه الله بأنه هو الوارث الذى يرث الخلائق جميعا . . سبحانه هو الباقى بعد جميع خلقه ، وهذا البقاء يقتضى الميراث ، وهو فى الحقيقة ليس ميراثاً بالمعنى المعروف لنا - لأن الله سبحانه - هو مالك الأشياء أولا وآخرا . لقد وهب الله الخلائق ما وهب على سبيل المنح والعارية ، وبعد فنائهم عاد الملك إلى المالك الحقيقى ورجع كل شىء إلى أصله . .

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ (١١١٢)

لا ينازعه أحد فى ملكه ، ولا يشاركه أحد فى خلقه . وكيف ينازع

(١١١١) آل عمران ١٨٠

(١١١٢) غافر ١٦

المخلوق الخالق ؟ أم كيف يخاصم الفانى الباقى ؟

والوارث من الخلق يُوَرِّثُه غيره ، وتختلف مقادير الميراث بين الورثة على حسب مراتبهم وعصبتهم وقرابتهم ، وقد يحجب أحدهم على حسب ما تقتضيه أصول الشريعة . أما الله ـ جلت قدرته . فلا أحد يُوَرِّثُه ، ولا حاجب يحجبه ، ولا وارث آخر يشاركه . .

بل إن قدرته اقتضت أن يُوَرِّث من يشاء لمن يشاء ولما يشاء .

فالأرض ملكه يعطيها من اقتضت إرادته ذلك .

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (١١١٣)

فهذه أمم ترث أمما أخرى ، وهؤلاء ملوك يبيدون وآخرون يتملكون ، وخلائق يتلو بعضها بعضا .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ (١١١٤)

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١١١٥)

وليس الميراث قاصرا على أعراض الدنيا ، فميراث الحكمة والعلم أبقى وأعظم وأرفع شأنا . وقد ورث سليمان داود ـ عليهما السلام . . . قال

(١١١٣) الأعراف ١٢٨

(١١١٤) الاسراء ١٧

(١١١٥) آل عمران ٢٦

ـ تعالى ـ

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١١١٦)

وأورث الله الكتاب والحكمة لأوليائه . . . قال :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (١١١٧)

والجنة يورثها الله لعباده الصالحين قال ـ تعالى

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (١١١٨)

فقد قال علماء التفسير : إن الأرض هنا هى أرض الجنة ، وهى الجديرة بأن يرثها الصالحون .

أما أرض الدنيا فيرثها البر والفاجر .

وهذا التفسير يتناسب مع قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (١١١٩)

(١١١٦) النمل ١٦
(١١١٧) فاطر ٣٢
(١١١٨) الأنبياء ١٠٤
(١١١٩) الزمر ٧٤

ويقول بعض العلماء فى معنى الوارث :

الوارث هو الذى ترجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك ، وذلك هو الله ـ تعالى ـ لأنه الباقى بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شىء ومصيره .

وقال الرازى : اعلم أن مالك جميع الأشياء هو الله ـ تعالى ـ ولكن بفضله جعل بعض الأشياء ملكا لبعض عباده . .

كيف يتخلق المؤمن بأدب هذا الاسم ؟

المؤمن إذا أدرك ضرورة الفناء ، وأنه لابد وأن ينتهى أجله إن عاجلا وإن آجلا ، وأنه سوف يترك ما فى ملكه إلى يد غيره ـ دعاه ذلك إلى عدم الإمساك والتقتير ، وأسلمه إلى الإحسان ما وسعه إلى ذلك سبيل . وجعله يتقى الله فيما خوله ، فلا يميز أحدا من ورثته على أحد قبل أن يحين أجله . كما يفعل بعض الناس الذين يفضلون بعض أولادهم على بعض فيخصونهم بجزء من التركة ، وهذا ظلم بين .

والمؤمن الحق يعرف أن متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير وأبقى ، فلنطلب من الميراث ما هو أحسن وأخلد وأعظم بقاء .

وخير ميراث فى الدنيا هو ميراث العلم ـ مصداقا لقول النبى ـ ﷺ ـ « العلماء ورثة الأنبياء » والأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، ولكنهم ورثوا العلم والحكمة . والحكمة فيها الخير الكثير ـ قال تعالى :

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ (١١٢٠)

(١١٢٠) البقرة ٢٦٩

الدعاء فى ظل هذا الاسم

خير دعاء فى هذا هو دعاء زكريا عليه السلام - فى قوله الذى حكاه لنا القرآن الكريم .

« رب لا تذرنى فردفا وأنت خير الوارثين »

ويمكن أن يدعو به من له ذرية ، وهو صاحب علم يريد أن يبقى هذا العلم فى عقبه . .

ويفيد هذا الاسم فى الدعاء بدفع الشر وجلب الخير .

ومما ذكره بعض الصالحين فى دعائه بهذا الاسم .

« إلهى أنت الوارث للعباد - أشرق على قلبى نور اسمك الوارث الدائم ، حتى أرى الكل لك وأقبل عليك . . « ورثنى علوم أنبيائك ، وأسرار أصفيائك ، ومواهب أهل سمائك وورثنى أرض العبودية فى نفسى . إنك على كل شيء قدير »

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر : -

الملك للمالك سبحانه فمنه يعطى وإليه يعود
وإرثه من بعد . . ما للورى شىء به ، حتى ولا ظل عود
لم يعطه إلا لشكرانه والله بالشكر علينا يجود
لنفعنا يخلقه لا له لكى نرى قدرته فى الوجود
الواحد القهار سبحانه ليس لآباء لنا أو جدود(١١٢١)

(١١٢١) أسماء الله لأحمد مخيمر صـ ١٢٤

الرشـــيد

لم يرد هذا الاسم بلفظه فى القرآن الكريم ، ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء التى جاءت فى الحديث الشريف ، ورقمه بينها هو الثامن والتسعون ـ والرشيد ـ فعيل ـ من رشد

والرشد هو الصلاح والاستقامة ، وهو فى مقابلة الغى والضلال .

ومعناه أن الله حكيم فى أفعاله وأقواله ، مدبر للأمور أحسن تدبير مقدر لها أحسن تقدير ، لا مشير له يستشيره ، ولا نظير له يهديه ـ سبحانه هو الفاعل المختار ـ

وهو سبحانه واهب الرشد لمن يشاء ـ يدل على ذلك ما ورد فى القرآن الكريم ـ حيث يقول طالبوا الهداية والرشد

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ (١١٢٢)

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، فمن هداه فقد أصاب التوفيق والرشد ، ومن أضله فلا مرشد له . . . . . قال ـ تعالى ـ

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧﴾ (١١٢٣)

والله ـ سبحانه وتعالى ـ بين للناس طريق الحق والرشد على ألسنة أنبيائه ورسله ، فما من أحد إلا ويعلم الهدى والضلال . . .

(١١٢٢) الكهف ١٠

(١١٢٣) الكهف ١٧

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ (١١٢٤)

وهو يهب الرشد لمن يشاء . . . قال ـ تعالى ـ فى حق ابراهيم ـ عليه السلام

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (١١٢٥)

والإيمان هو طريق الرشاد لمن أراد أن يسلك السبيل إليه .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (١١٢٦)

وقال بعض العلماء فى معنى الرشيد : إنه المتصف بكل كمال ، عظيم الحكمة بالغ الرشاد ، الذى تتجه تدبيراته إلى غاية الصواب والسداد .

سبحانه هو الذى يرشد الخلق ويهديهم الى ما فيه صلاحهم ، ويوجههم بحكمته الى ما فيه خيرهم ورشادهم فى دنياهم وأخراهم .

ويرى الإمام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ أن الرشيد هو الذى تنساق تدبيراته إلى غاياتها من سنن السداد ـ وذلك هو الله ـ تعالى ـ

أما رشد العبد فإنه يتم عن طريق غيره الذى يرشده ويسدده ويوجهه إلى طريق الرشاد

كيف يتخلق العبد بأدب هذا الاسم ؟

يكون المؤمن رشيدا إذا تدبر عاقبة أمره ، وأخذ من دنياه لآخرته ، ومن

(١١٢٤) البقرة ٢٥٦

(١١٢٥) الأنبياء ٥١

(١١٢٦) البقرة ١٨٦

صحته لمرضه ، ومن شبابه لكبره ، ومن قوته لضعفه ، ومن فراغه لشغله .

وأن يحسن الاستماع لأقوال الناصحين ، ودعوات الداعين ليعمل بما فيها من أوجه الصواب والسداد ، فما ندب الله الناصحين من الرسل وأتباعهم إلا للهداية إلى سبل الصلاح والرشاد ، جاء فى القرآن الكريم حكاية عن مؤمن آل فرعون :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١١٢٧)

وقد زعم فرعون أنه يهدى قومه إلى سبيل الرشاد ، وهو فى الحقيقة يجرهم إلى الغواية والضلال ـ وشتان بين دعوة الحق ودعوة الضلال . . فدعوة الحق منجية ، ودعوة الضلال مهلكة . . . وكم من دعوة باطلة زينت لها الحجج ، وزخرفت لها البراهين ، وركبت لها الأسانيد ، ولذلك كانت مهمة العقل كبيرة ، فهو الذى يوازن بين الأقوال والأفعال ، مستلهما من الله الصواب ليهديه إلى طريق الحق والرشاد .

ومتى استبان له ذلك الطريق سار آمنا مطمئنا تشمله عناية الله ورحمته :

وإذا العناية لا حظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

الدعاء فى ظل هذا الاسم

لقد علمنا الله أن ندعوه ، ووضع أمامنا أمثلة من الدعاء الصالح الذى ينير أمامنا الطريق . فقد جاء على لسان الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم الله هدى ـ قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ (١١٢٨)

(١١٢٧) غافر ٣٨ ، ٣٩ (١١٢٨) الكهف ١٠

فكرِّرْ هذا الدعاء، واتخذه سلاحاً يقيك العثرات وينجيك من الهفوات ويأخذ بيدك إلى أفضل الطرقات . .

وادع الله أن يلهمك الرشد فى أمرك والتوفيق فى حياتك ويرزقك الأمن والسلامة والعافية فى حياتك . .

وأكثر من ذكر الله فهو خير سلاح يحفظك من الأهواء ونزغات الشيطان ، قال ـ تعالى ـ

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١١٢٩)

وقال ـ تعالى ـ

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (١١٣٠)

ومن الدعاء الذى يستمد من هذا الاسم الذى يستشعر المؤمن فى ظله الأمن والعافية قول الشاذلى ـ رحمه الله ـ

« اللهم إنا نسألك لسانا رطبا بذكرك ، وقلبا منعما بشكرك ، وبدنا هينا لينا بطاعتك ، وأعطنا مع ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما أخبر به رسولك ـ ﷺ ـ حسبما عَلَّمته بعلمك ، وأغننا بلا سبب . . . فأنت الغنى ونحن الفقراء إليك

ومن دعاء النبى ـ ﷺ ـ الذى علمه لبعض أصحابه :

« اللهم أستهديك لأرشد أمرى وزدنى علما ينفعنى .

ومن مناجاة الشاعر أحمد مخيمر : ـ

كل الذى فى الكون دبرته   يمضى إلى غاياته لا يحيد
تخلق ما شئت نواميسه   حرية ، ليس عليها مزيد
وتجعل الأسباب أسراره   بحكمة عليا ، وعلم سديد
سبحانك اللهم من خالق   نسعى إليه ، وحكيم رشيد
إن قلت كن يكون ـ من ذا الذى   يريد إن كنت إلهى تريد »(١١٣١)

(١١٢٩) الرعد ٢٨ (١١٣٠) الكهف ٢٤ (١١٣١) أسماء الله لأحمد مخيمر صـ ١٢٥

الصَّبـــــور

جاء فى لسان العرب : فى أسماء الله تعالى ـ الصبور ـ وهو الذى لايعاجل العصاة بالانتقام . وهو من أبنية المبالغة ، ومعناه قريب من الحليم .

والفرق بين الصبور والحليم أن المذنب لايأمن العقوبة فى صفة الصبور كما يأمنها فى صفة الحليم .

ولم يرد هذا الاسم بلفظه فى القرآن الكريم ، ولكنه ورد فى سلسلة الأسماء التى جاء بها الحديث الشريف ، وهو الاسم التاسع والتسعون وهو خاتمة هذه السلسلة الطيبة المباركة .

ومعنى هذا الاسم ـ كما يقول العلماء ـ أنه الذى لايعجل بالعقوبة على من عصاه ، فهو ـ سبحانه ـ يمهل ولكنه لايهمل ـ ويملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

وهذه حكمة عظيمة ، فحلمه الواسع يحول دون التعجيل بالعقوبة ، لعل العبد المذنب يتوب فيتوب الله عليه ، ولعله يقلع عن الذنب فيبدل الله سيئاته حسنات . . ولاحرج على فضل الله . . وهناك من يعمل بعمل أهل النار حتى لايبقى بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فينجو من العذاب .

وقال العلماء أيضا فى معنى الصبور : إنه الذى يلهم الصبر لجميع خلقه ، وهو ـ سبحانه ـ الصابر على مالا يرضاه من عباده ، لاتستفزه المعاصى ، ولا يعجل بالعقوبة على من عصاه ـ سبحانه ـ إذا أعرضت عنه بالعصيان أقبل عليه بالعفو والغفران .

ويقول الإمام الغزالى فى معنى الصبور : هو الذى لاتحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه ، بل ينزل الأمور بقدر معلوم . ويجريها على سنن محدود ، لايؤخرها عن آجالها المقدرة لها ولايقدمها على أوقاتها بل يودع .

كل شيء فى أوانه على الوجه الذى يجب أن يكون ، وكما ينبغى أن يكون دون مقاساة أو مغالبة .

ومن هنا يظهر الفرق بين صبر الرب وصبر العبد ، فان صبرالعبد لايخلو من مقاساة ومغالبة ، لأن معنى صبر العبد هو ثبات داعى العقل أو الدين فى مقابلة داعى الشهوة والغضب ، فإذا جاذبه داعيان متضادان فترك الداعى الى الاندفاع والتسرع غير المحمود ، ومال الى باعث التأخير - سمى صبورا - إذ جعل باعث الاندفاع مقهورا .

ومعنى الصبر عند اللغويين حبس النفس عن الجزع .

ويتعدى هذا الفعل بعن ، كما يتعدى بعلى ، فتقول : صبر عن الشهوة وصبر على الطاعة ، وقد يتعدى بنفسه فتقول : صَبَرَه عن الشيء صَبْرا إذا حبسه .

وقد وردت مادة الصبر فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، وهى فى جملتها تثنى على خُلِق الصبر ، وتمدح المتصف به .

وهذا يفتح الطريق أمامنا الى التأدب بهذا الخلق العظيم والتحلى به .

فمن الأيات الواردة فى فضل الصبر قوله - تعالى -

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١١٣٢)

(١١٣٢) الشورى ٤٣ وأنظر الآيات التى وردت فى فضل الصبر . .
الاحقاف ٣٥ - الرعد ٢٢ ، ٢٤ - المؤمنون ١١١ - الفرقان ٧٥ - القصص ٥٤ - الإنسان ١٢ - محمد ٣١ - العنكبوت ٢ ، ٣ - البقرة ١٥٥ : ١٥٧ - آل عمران ٢٠٠ - الفرقان ٢٠

ولقد جمع المؤمن الصابر كثيرا من الفضائل ، ويكفى أن يقول النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الصبر- إنه نصف الإيمان .

أن كلٍ فضيلة من الفضائل لها ثواب معلوم وأجر معروف ماعدا الصبر- فقد قال الله فيه .

﴿ انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ﴾ .

لقد قال الله عن الصبر : انه من صفات أولى العز من الرسل وهذه فضيلة من فضائله .

وكما أثنى الله على الصابرين أثنى عليهم - أيضا - النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال فى حق الصبر :

﴿ ثلاث يدرك بهن العبد رغائبه فى الدنيا والآخرة : الصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والدعاء فى الرخاء ﴾

وكذلك ذكره الصالحون بما ينبغى له من فضيلة عند الله ، ومنزلة يرتفع بها الصابر إلى أعلى الدرجات .

قدم حاتم الأصم على الإمام أحمد بن حنبل ، فقال له الإمام أحمد : أخبرنى كيف التوصل إلى السلامة من الناس ؟

قال حاتم : بثلاثة أشياء : تعطيهم من مالك ، ولاتأخذ من مالهم ، وتقضى حقوقهم ولا تطالبهم بقضاء حقوقك عليهم .

وتصبر على أذاهم ولاتؤذيهم .

قال الإمام أحمد : إنها لصعبة .

فقال حاتم : وليتك تسلم .

الدعـاء فى ظل هذا الاســم :

لقد علمنا الله الدعاء فى ظل هذا الاسم . . . . فقال فيما أورده القرآن

الكريم :

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (١١٤٦)

وعلمنا أن نقول عند الشدائد والبلايا ﴿ إنا لله وإنا اليه راجعون ﴾ ووعد بحسن المثوبة على ذلك فقال ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾

ومن الأدعية المأثورة

(اللهم رضنا بقضائك ، وصبرنا على بلائك وأوزعنا شكر نعمائك)

ومنها : اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام ، واكنفنى بكنفك الذى لايرام واغفرلى بقدرتك فلا أهلك وأنت رجائى .

رب كم من نعمة أنعمتها علىَّ قلَّ لك بها شكرى ، وكم من بلية ابتليتنى بها قل لك عندها صبرى ، فيامن قل عند نعمته شكرى فلم يحرمنى ، ويامن قل عند ابتلائه لى صبرى فلم يخذلنى ، ويامن رآنى على الخطايا فلم يفضحنى ، ياذا المعروف الذى لاينقضى أبدا ، وياذا النعماء التى لاتحصى عددا ، أسألك أن ترزقنى الصبر عند البلاء، والشكر عند النعماء ، إنك على كل شىء قدير . .

ومن ذلك أيضا :

اللهم فارج الهم ، وكاشف الغم ، ومجيب دعوة المضطرين ، رحمن الدنيا والأخرة ورحيمهما ، أنت الرحيم فارحمنى برحمة تغننيى بها عن رحمة من سواك(١١٤٧) .

ـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آهله وصحبه وسلم ـ

(١١٤٦) الأعراف ١٢٦

(١١٤٧) رواه البزار والحاكم عن عائشة رضى الله عنها

فهرس القصص القرآنى

انتهى المجلد السادس عشر
أسماء الله الحسنى

ويليه بتوفيق من الله
المجلد السابع عشر
وأوله :
« مصر فى القرآن الكريم »